العلامة الفقيه المفسر آية الله العظمى
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مختصر الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

١-٥

المختصر: أحمد علي بابائي

الحمد - البقرة

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

اشارة

عنوان و نام پديدآور : مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازى
مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ۱۴۲۸
مشخصات ظاهرى : ج
وضعيت فهرست نويسى : در انتظار فهرستنويسى
شماره كتابشناسى ملى : ۱۱۴۸۳۹۳

الجزء الاول

اشارة

مقدمّة:

إنّ القرآن الكريم يمثّل أعظم رأسمال فى حياتنا نحن المسلمين ففى هذا الكتاب السماوى كل شىء يتصل بحياة الإنسان الدنيوية والأخروية من معارف، وأحكام، ومنهج حياة، وسياسة إسلامية، وطريقة معنوية فى حركة الفرد نحو مقام القرب الإلهى وغير ذلك.

على هذا الأساس فإنّ وظيفة كل مسلم تكمن فى التعرف أكثر فأكثر على مضامين هذا الكتاب الإلهى، هذا من جهة ...

ومن جهة أخرى فإنّ صوت الإسلام- بعد الصحوة الإسلامية التى يشهدها المسلمون وخاصة بعد الثورة الإسلامية فى ايران- قد ملأ آفاق العالم، وأثار فضول غير المسلمين ورغبتهم فى الإطلاع أكثر على أسرار ومعارف هذا السفر السماوى. ولهذا السبب ترتفع من كل مكان أصوات تطالب بترجمة وتفسير القرآن الكريم بمختلف اللغات الحيّة فى العالم، وبالرغم من قصور حركة الاستجابة لهذه المطالبات على مستوى الواقع، إلّاأننا يجب علينا السعى بجدّية لنكون على مستوى الأمل والطموح فى عملية الاستجابة وتحقيق هذه المطالبات.

ولحسن الحظ فإنّ حضور القرآن الكريم فى حركة حياة المسلمين الفردية والاجتماعية فى العالم، وخاصة فى أجواء بلدنا ايران، يزداد ويشتد يوماً بعد آخر، وعدد القرّاء الكبار والحافظين الأجلاء والمفسّرين العارفين فى مجتمعنا والحمد اللّه، ليس بالقليل، وقد صار فرع التفسير فى الحوزة العلمية فى قم أحد الفروع التخصصية المهمّة فى الدراسات العلمية فى الحوزة التى تحظى باستقبال واسع من قبل الطلّاب وصار درس التفسير من الدروس الرسمية فى الحوزة وأحد موارد الامتحان فيها، ومن هنا جاء «التفسير الأمثل» لعبّر عن استجابة طبيعية لهذه المرحلة، وهى تفسير يتميّز بالوضوح والمرونة والسهولة وفى ذات الوقت عميق المضامين دقيق المحتويات وناظر فى معارفه لما يعيشه المسلمون من مسائل وتحديات يفرضها الواقع الاجتماعى والحضارى فى حركة الحياة. ولعل من عوامل استقبال الناس الواسع لهذا التفسير هو ما تقدم من توجّه الناس فى العصر الحاضر للقرآن الكريم.

وبالرغم من أنّ جهوداً كبيرة بذلت ولمدّة خمسة عشر سنة، لإخراج هذا التفسير إلى حيز الوجود وبمشاركة مجموعة من الفضلاء الأعزاء فى الحوزة العلمية فى قم وهم حجج الإسلام السادة: محمد رضا الآشتيانى، محمد جعفر الإمامى، داود الالهامى، أسد اللّه الإيمانى، عبدالرسول الحسنى، السيد حسن الشجاعى، السيد نور اللّه الطباطبائى، محمود عبداللهى، محسن قراءتى،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶

محمد محمدى الاشتهاردى، ومساهمة الاخوة الأفاضل الاستاذ محمد على آذرشب، الشيخ محمد رضا آل صادق، الاستاذ خالد توفيق

عیسی السید محمّد الهاشمی، الاستاد قصی هاشم فاخر، الاستاذ أسد مولوی، الشیخ مهدی الأنصاری، والسید أحمد القبانچی، والشیخ هاشم الصالحی فی تنقیح هذا السفر الجلیل.

ولکن الاستقبال الواسع، الذی حظی به هذا التفسیر من قبل مختلف شرائح المجتمع الإسلامی بما فیهم خواننا أهل السنّة، قد أزال جمیع الاتعاب المذکورة وغرس فی قلوب الأعزاء الأمل بأن یقع هذا العمل مورد قبول ورضا اللَّه تبارک وتعالی.

*** وبعد طبع ونشر «التفسیر الأمثل» طلب الکثیر من الناس العمل علی نشر خلاصة لهذا التفسیر القیّم، ولرغبتهم فی التعرف علی مضمون إجمالی للآیات الکریمة وبنفقات أقل وفی ذات الوقت یستفاد من هذه الخلاصة بعنوان متن دراسی فی عملیة التفسیر.

هذا الطلب المتکرر دعانا للتفکیر فی القیام بتخلیص جمیع هذه الدورة التفسیریة المکوّنة من ۱۵ جزءاً فی خمسة أجزاء، ولکن هذا العمل لم یکن بالیسیر وقد استغرق التحضیر ودراسة جمیع تفاصیله مدّة من الزمان حتی أخذ حجّة الإسلام الشیخ الفاضل أحمد علی بابائی- دامت تأییداته- علی عهدته إنجاز هذا المشروع المهم.

وبدوری فقد کنت أقوم بعملیة الاشراف ومطالعة ما کتب فضیلته باستمرار وأبدی ملاحظاتی بالمقدار اللازم فی الموارد التی تحتاج إلی إلفات نظر وتذکیر، وبالجملة فأنا اعتقد أنّ هذا العمل- وبحمد اللَّه- هو عمل قیّم ومثمر ویتضمّن شرحاً وافیاً للآیات الشریفة من جهة، وتفسیراً مختصراً لمن یروم قراءة تفسیریة سریعة للقرآن الکریم، وقد سمّی «مختصر الأمثل».

وإذا أتقدم بالشکر والتقدیر للجهود التی بذلها فضیلة الشیخ فی هذ السبیل، فکلّی أمل فی أن یقع هذه الخلاصة، التی تتضمّن مقتطفات مهمّة وحسّاسة من التفسیر الکبیر، مورد قبول أصحاب الخبرة وعامّة الناس من أهل القرآن ویکون هذا الجهد ذخیرتنا جمیعاً یوم القیامة.

ونسأل اللَّه سبحانه أنّ یوفّق کل العاملین علی إعلاء رایة القرآن فی العالم ویسدّد خطاهم وینصرهم علی أعدائهم.

ونسأله جلّ وعلاـ أن یوفّق العلماء والمفکّرین الواعین الملتزمین إلی قیادة هذا التحرک الإسلامی المتصاعد فی کل أرجاء العالم الإسلامی، قیادة أصلیة قائمة علی هدی القرآن الکریم والسنّة الشریفة، إنّه تعالی سمیع مجیب.

قم- الحوزة العلمیة

ناصر مکارم الشیرازی

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۷

۱. سورة الفاتحة

خصائص السورة: لهذه السورة مکانة متمیزة بین سائر سور القرآن الکریم، وتتمیز بالخصائص التالیة:

۱- سیاق السورة: تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فی لحنها وسیاقها، شاء اللَّه فی هذه السورة أن یعلّم عباده طریقة خطابهم له ومناجاتهم إیّاه.

تبدأ هذه السورة بحمد اللَّه والثناء علیه، وتستمر فی إقرار الإیمان بالمبدأ والمعاد «باللَّه ویوم القیامة»، وتنتهی بالتّضرع والطلب.

۲- سورة الحمد أساس القرآن: فی تفسیر العیاشی أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال لجابر بن عبد اللَّه الأنصاری: «یا جابر! ألا اعلّمک أفضل سورة أنزلها اللَّه فی کتابه»؟ فقال له جابر: بلی بأبی أنت وامّی یا رسول اللَّه، علّمنیها. فعلّمه الحمد ام الکتاب. ثم قال: «یا جابر ألا اخبرک عنها»؟ قال:

بلی بأبی أنت وامی، فأخبرنی فقال: «هی شفاء من کل داء، إلّاالسّام، والسّام الموت».

وفی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «والذی نفسی بیده ما أنزل اللَّه فی التوراة ولا فی الإنجیل ولا فی الزبور ولا فی القرآن مثلها، هی ام الکتاب وهی السبع المثانی، وهی مقسومة بین اللَّه وبین عبده ولعبده ما سأل».

«الام»: يعنى هنا الأساس والجذر، ولعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸

«إنّ لكل شيء أساساً ... وأساس القرآن الفاتحة» «۱».

وفى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب اعطى من الأجر كأنّما قرأ ثلثى القرآن واعطى من الأجر كأنّما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة».

۳- سورة الحمد شرف النبى صلى الله عليه و آله: يتحدّث القرآن الكريم عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ» «۲».

۴- التأكيد على تلاوة هذه السورة: تلاوة هذه السورة تبعث الروح والإيمان والصفاء فى النفوس، وتقرّب العبد من اللَّه، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات، ولذلك كانت ام الكتاب صاعقة على رأس (إبليس) كما ورد فى تفسير نور الثقلين عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «رنّ إبليس أربع رنّات، أوّلهن يوم لعن، وحين اهبط إلى الأرض، وحين بعث محمّد- صلّى اللَّه عليه وآله- على حين فترة من الرسل، وحين انزلت ام الكتاب».

محتوى السورة: يمكن تقسيم هذه السورة، من جهة أخرى إلى قسمين: قسم يختص بحمد اللَّه والثناء عليه، وقسم يتضمن حاجات العبد. وإلى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف فى عيون الأخبار عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«قال اللَّه عزّ وجلّ: قسّمت فاتحة الكتاب بينى وبين عبدى، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل.

إذا قال العبد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». قال اللَّه جلّ جلاله: بَدأ عبدى باسمى وحق علىّ أن اتمّم له اموره وابارك له فى أحواله.

فإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ». قال اللَّه جلّ جلاله: حمدنى عبدى وعلم أنّ النعم التى له من عندى، وأنّ البلايا التى دفعت عنه فبتطوّلى، اشهدكم أنّى اضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

وإذا قال: «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». قال اللَّه جلّ جلاله: شهد لى عبدى أنّى الرّحمن الرّحيم، اشهدكم لِاوفّرنّ من رحمتى حظّه ولُاجزلنّ من عطائى نصيبه.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

(۲) سيأتى تفسير «سبعاً من المثانى» فى ذيل الآية (۸۷) من سورة الحجر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹

فإذا قال: «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ». قال اللَّه تعالى: اشهدكم كما اعترف بأنّى أنا مالك يوم الدّين لُاسهّلنّ يوم الحساب حسابه، ولأتقبّلنّ حسناته، ولأتجاوزنّ عن سيّئاته.

فإذا قال العبد: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ». قال اللَّه عزّ وجلّ: صدق عبدى، إيّاى يعبد اشهدكم لُاثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى.

فإذا قال: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». قال اللّه تعالى: بى استعان عبدى، وإلىّ إلتجأ، اشهدكم لُاعيننّه على أمره، ولُاغيثنّه فى شدائده ولآخذنّ بيده يوم نوائبه.

فإذا قال: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». إلى آخر السورة، قال اللَّه عزّ وجلّ: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقد استجبت لعبدى وأعطيته ما أمّل وآمنته ممّا منه وجل».

لماذا سمّيت فاتحة الكتاب؟ «فاتحة الكتاب» اسم اتّخذته هذه السورة فى عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كما يبدو من الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبى الأعظم صلى الله عليه و آله.

وهـذه المسألـة تفتـح نافـذة على مسألـة مهمـة من المسائل الإسـلامية، وتلقى الضوء على قضـية جمع القرآن، وتوضّح أنّ القرآن جُمع بالشـكل الذى عليه الآن فى زمن الرسول صـلى الله عليه و آله، خلافاً لما قيل بشأن جمع القرآن فى عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أوّل سورة فى ترتيب النّزول حتى تسـمى بهذا الإسم، ولا يوجد دليل آخر لذلك، وتسـميتها بفاتحة الكتاب يرشدنا إلى أنّ القرآن قد جمع فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله بهذا الترتيب الذى هو عليه الآن.

وثمّة أدلة اخرى تؤيّد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذى بأيدينا اليوم فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله وبأمره.

روى على بن إبراهيم القمى فى تفسيره عن الإمـام الصـادق عليه السـلام قـال: «إنّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قـال لعلىّ: يـا على! القرآن خلف فراشـى فى الصـحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة فانطلق علىّ فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه».

وهنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبى صلى الله عليه و آله، وفى الجواب نقول: إنّ ما روى بشأن جمع القرآن على يـد الإمام على عليه السـلام بعـد عصـر الرسول، لم يكن جمعاً للقرآن وحـده، بل هو مجموعة تتضـمن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات وما شابه ذلك ممّا يحتاجه الفرد لفهم كلام اللَّه العزيز.

كما يؤكد (حديث الثقلين) المروى فى المصادر الشيعية والسنية، حيث أوصى رسول

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰

اللَّه صلى الله عليه و آله بوديعته: كتاب اللَّه وعترته، أنّ القرآن كان قد جمع فى مجموعة واحدة فى عصر الرسول الأعظم.

بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۱) الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (۷) دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل مهم ذى قيمة بإسم كبير من رجالها أى أنّ أصـحاب المؤسـسة يبدأون العمل باسم تلك الشخصـية، ولكن أليس من الأفضل أن يبدأ العمل فى اطروحة اريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟

فصـفة الخلود والأبدية يختص بها اللَّه تعالى من بين سائر الوجودات، ومن هنا ينبغى أن يبدأ كل شـىء باسمه وتحت ظله وبالإستمداد منه ولذلك كانت البسملة أوّل آية فى القرآن الكريم.

والبسـملة لا ينبغى أن تنحصـر فى اللفظ والصورة، بل لابـدّ أن تتعدّى ذلك إلى الإرتباط الواقعى بمعناها، وهذا الإرتباط يخلق الإتجاه الصـحيح ويصون من الإنحراف، ويؤدى حتماً إلى نتيجة مطلوبة مباركة، لذلك جاء فى الحديث النبوى الشريف: «كل أمر ذى بال لم يذكر فيه اسم اللَّه فهو أبتر» «۱».

وفى تفسير الميزان عن الإمام محمّـد بن على الباقر عليه السـلام قال: «... وينبغى الإتيان به عنـد افتتاح كل أمر عظيم أو صـغير ليبارك به».

وبعبارة موجزة: فإنّ بقاء العمل وخلوده يتوقف على إرتباطه باللَّه.

من هنـا كـانت الآيـة الاولى التى أنزلها اللَّه على نبيّه الكريم تحمل أمراً لصاحب الرسالـة أن يبـدأ مهمّته الكبرى باسم اللَّه: «اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ» «۲».

ولـذلك أيضـاً فـإنّ نوحاً عليه السـلام حينما أراد أن يركب السـفينة فى ذلك الطوفان العجيب، ويمخر عباب الأمواج الهادرة، ويواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه يطلب من أتباعه

---

(۱) بحار الأنوار ۷۳/ ۳۰۵.

(۲) سورة العلق/ ۱.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱

أن يردّدوا البسملة فى حركات السفينة وسكناتها: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَيهَا» «۱».

وسليمان عليه السلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم» «۲».

وانطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كل سور القرآن بالبسملة، كى يتحقق هدفها، وهوالأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة. وتنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكة وناكثى الإيمان، وإعلان الحرب لا ينسجم مع وصف اللَّه بالرّحمن الرّحيم.

وطبيعى أنّ البدء باسم اللَّه الذى تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والإندفاع، والصمود والأمل أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة فى الحركة.

والإمام الصّادق عليه السلام قال: «ولربّما ترك فى افتتاح أمر بعض شيعتنا بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم فيمتحنه اللَّه بمكروه وينبّهه على شكر اللَّه تعالى والثناء عليه ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم اللَّه» «۳».

بحوث

۱- هل البسملة جزء من السورة؟ أجمع علماء الشيعة على أنّ البسملة جزء من سورة الحمد وكل سور القرآن، وكتابتها فى مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآنى مصون عن أية إضافة، وذكر البسملة معمول به منذ زمن النبى صلى الله عليه و آله.

أضف إلى ذلك، أنّ سيرة المسلمين جرت دوماً على قراءة البسملة فى مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النبى لها، وكيف يمكن أن تكون أجنبية عن القرآن والنبى والمسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن.

والمسألة واضحة إلى درجة كبيرة حتى روى صاحب السنن الكبرى: صلّى معاوية بالمدينة صلاة فلم يقرأ البسملة، فلما سلم ناداه من شهد ذلك من المهاجرين من كل مكان، يا معاوية! أسرقتَ أم نَسيتَ؟

۲- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى: إنّ كلمة «اسم» هى أوّل ما تطالعنا فى البسملة من

---

(۱) سورة هود/ ۴۱.

(۲) سورة النمل/ ۳۰.

(۳) بحار الأنوار ۷۳/ ۳۰۵.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲

كلمات، وهو فى رأى علماء اللغة من «السموّ» على وزن «العُلوّ»، ومعناه الإرتفاع.

وبعد كلمة الإسم نلتقى بكلمة «اللَّه» وهى أشمل أسماء ربّ العالمين، فكل إسم ورد للَّهفى القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلامية يشير إلى جانب معين من صفات اللَّه، والإسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الإلهيّة أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو «اللَّه».

ولذلك اعتبرت بقية الإسماء صفات لكلمة «اللَّه» مثل: «الغفور» و «الرّحيم» و «السميع» و «العليم» و «البصير» و «الرزّاق» و «ذوالقوّة» و «المتين» و «الخالق» و «البارى» و «المصوّر».

فكلمة «اللَّه» هى وحدها الجامعة، ومن هنا اتخذت هذه الكلمة صفات عديدة فى آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» «۱».

وأحد شواهد جامعية هذا الاسم أنّ الإيمان والتوحيد لا يمكن إعلانه إلّابعبارة «لا إله إلّا اللَّه»، وعبارة (لا إله إلّاالقادر ... أو إلّاالخالق

... أو إلّاالرزّاق) لا تفی بالغرض.

۳- الرحمة الإلهية الخاصة والعامة: المشهور بين جماعة من المفسرين أنّ صفة «الرّحمن» تشير إلى الرحمة الإلهيّة العامة، وهی تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات.

وصفة «الرّحيم» إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها بإيمانهم وعملهم الصالح، وحُرم منها المنحرفون والمجرمون.

لذلک فإنّ صفة «الرّحمن» ذكرت بصورة مطلقة فی القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكن صفة «الرّحيم» ذكرت أحياناً مقيدة، لدلالتها الخاصّة، كقوله تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَّحِيمًا» «۲». وأحياناً اخرى مطلقة كما فی هذه السورة.

وفی الكافی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «واللّه إله كل شیء الرّحمن بجميع خلقه، والرّحيم بالمؤمنين خاصة».

لِم لَم تَرد بقية صفات اللّه فی البسملة؟ فی البسملة ذكرت صفتان للّهفقط هما:

الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟

---

(۱) سورة الحشر/ ۲۳.

(۲) سورة الأحزاب/ ۴۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳

الجواب يتضح لو عرفنا أنّ كل عمل ينبغی أن يبدأ بالإستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتنقذ المستغيثين فی اللحظات الحساسة.

هذه حقيقة يوضحها القرآن فی الآية (۱۵۶) من سورة الأعراف إذ يقول: «وَرَحْمَتِی وَسِعَتْ كُلَّ شَیْءٍ».

ومن جانب آخر نرى الأنبياء وأتباعهم يتوسلون برحمة اللّه فی المواقف الشديدة الحاسمة. فقوم موسى تضرعوا إلى اللّه أن ينقذهم من تجبّر فرعون وظلمه، وتوسلوا إليه برحمته فقالوا: «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ» «۱».

وبشأن هود وقومه، يقول القرآن: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا» «۲».

فإنّ أفعال اللّه تقوم أساساً على الرحمة، والعقاب له طابع استثنائی لا ينزل إلّافی ظروف خاصة، كما نقرأ فی دعاء الجوشن الكبير المروية عن آل بيت رسول اللّه: «يا من سبقت رحمتُه غضبَه».

فالمجموعة البشرية السائرة على طريق اللّه ينبغی أن تقيم نظام حياتها على هذا الأساس أيضاً، وأن تقرن مواقفها بالرحمة والمحبة، وأن تترک العنف إلى المواضع الضرورية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۲) العالم مغمور فی رحمته تعالى: بعد البسملة، يأتی أول واجبات العباد وهو أن يستحضر دوماً مبدأ عالم الوجود، ونعمه اللامتناهية، هذه النعم التی تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة اللّه من جهة، وتدفعنا على طريق العبودية من جهة اخرى.

وعندما نقول أنّ النعم تشكّل دافعاً ومحرّكاً على طريق العبودية، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإنّ علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون فی بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلى معرفة اللّه سبحانه.

وإنّما قلنا إنّ النعم تهدينا إلى معرفة اللّه، لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم فی حياة الإنسان.

(۱) سورة یونس/ ۸۶.

(۲) سورة الأعراف/ ۷۲.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴

وممّا تقدم نفهم لماذا ابتدأت سورة الحمد بعبارة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

«الحمد» فی اللغة: الثناء علی عمل أو صفة طیبة مکتسبة عن اختیار، أی حینما یؤدّی شخص عملًا طیّباً عن وعی، أو یکتسب عن اختیار صفـة تؤهله لأعمال الخیر فإنّنا نحمـده ونثنی علیه. ولو علمنا أنّ الألف واللام فی (الحمـد) هی لاسـتغراق الجنس، لعلمنا أنّ کل حمد وثناء یختص باللَّه سبحانه دون سواه.

فثناؤنا علی الآخرین ینطلق من ثنائنا علیه تعالی، لأنّ مواهب الواهبین کالأنبیاء فی هدایتهم للبشر، والمعلمین فی تعلیمهم، والکرماء فی بذلهم وعطائهم، والأطباء فی علاجهم للمرضی وتطبیبهم للمصابین، إنّما هی فی الأصل من ذاته المقدسة.

وهکذا الشمس حین تغدق علینا بأشعتها، والسحب بأمطارها، والأرض ببرکاتها، کل ذلک منه سبحانه، ولذلک فکل الحمد له.

جـدیر بالذکر أنّ الحمد لیس بدایة کل عمل فحسب، بل هو نهایة کل عمل أیضاً کما یعلمنا القرآن. یقول سـبحانه فی الآیة (۱۰) من سورة یونس عن أهل الجنة: «دَعْوَیهُمْ فِیهَا سُبْحَانَکَ اللَّهُمَّ وَتَحِیَّتُهُمْ فِیهَا سَلَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَیهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِینَ».

أمّا کلمـة «ربّ»: فهی فی الأصـل بمعنی مالک وصاحب الشـیء الـذی یهتم بتربیته واصـلاحه. وکلمـة «عالمین»: جمع «عالم» والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة وحین تجمع بصیغة «عالمین» فیقصد منها کل مجموعات هذا العالم.

وفی تفسیر نور الثقلین عن الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام فی تفسیر «ربّ العالمین» قال:

«ربّ العالمین وهم الجماعات من کل مخلوق من الجمادات والحیوانات».

الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (۳) إنّ صـفتی «الرّحمن» و «الرّحیم» تتکرران فی البسـملة والحمـد، «والملـتزمون» بـذکر البسـملة فی السورة یکررون هاتین الصـفتین فی صـلواتهم الیومیـة الواجبـة ثلاثین مرّة، وکـذلک فی الحمد وبذلک یصـفون اللَّه برحمته ستین مرّة یومیاً. وهذا فی الواقع درس لکـل جماعـة بشـریة سـائرة علی طریق اللَّه، وتواقـة للتخلق بأخلاـق اللَّه، أنّه درس یبعـد البشـریة عن تلـک الحالاـت التی شهدها تاریخ الرق فی ظل القیاصرة والأکاسرة والفراعنة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵

مَالِکِ یَوْمِ الدِّینِ (۴) الإیمان بیوم القیامة: فی هذه السورة تلفت الأنظار إلی أصل مهم آخر من اصول الإسلام، هو یوم القیامة: «مَالِکِ یَوْمِ الدّینِ» وبذلک یکتمل محور المبدأ والمعاد، الذی یعتبر أساس کل إصلاح أخلاقی واجتماعی فی وجود الإنسان.

إنّ تعبیر «مالک» یوحی بسـیطرة اللَّه التامة وهیمنته المسـتحکمة علی کل شیء وعلی کل فرد فی ذلک الیوم، حیث تحضر البشریة فی تلک المحکمة الکبری للحساب، وتقف أمام مالکها الحقیقی للحساب، وتری کل ما فعلته وقالته، بل وحتی ما فکرت به، حاضـراً، فلا یضـیع أی شـیء- مهما صـغر- ولا ینسـی، والإنسان- وحده- یحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج کل سنّة استنّها فی الأرض أو مشروع أقامه.

ومالکیـة اللَّه فی ذلـک الیوم دون شک لیست ملکیـة اعتباریـة، نظیر ملکیتنا للأشیاء فی هـذا العالم، فملکیتنا هـذه عقـد یبرم بموجب تعامل ووثائق، وینفسـخ بموجب تعامل آخر ووثائق اخری، لکن ملکیة اللَّه لعالم الکون ملکیة حقیقیة. وبعبارة اخری: مالکیة اللَّه نتیجة خالقیته وربوبیته، فالذی خلق الموجودات ورعاها وربّاها، وأفاض علیها الوجود لحظة بلحظة، هو المالک الحقیقی للموجودات.

وقـد یسـأل سائل فیقول: لماذا وصـفنا اللَّه بأنّه «مَالِکِ یَوْمِ الـدّینِ» بینما هو مالک الکون کله؟ والجواب هو أنّ اللَّه مالک لعالم الـدنیا والآـخرة، لکن مـالکیته لیوم القیامـة أبرز وأظهر، لأـنّ الإرتباطـات المادیـة والملکیات الاعتباریـة تتلاشـی کلها فی ذلک الیوم، وحتی

الشفاعة لا تتم يومئذ إلّابأمر اللَّه: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» «۱».

إنّ الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهيّة الكبرى التى يخضع فيها كل شىء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير فى ضبط الإنسان أمام الزلّات، ووقايته من السقوط فى المنحدرات، وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهى عن الفحشاء والمنكر هو أنّها تذكّر الإنسان بالمبدأ المطلع على حركاته وسكناته وتذكره أيضاً بمحكمة العدل الإلهى الكبرى.

وفى تفسير نور الثقلين عن علىّ بن إبراهيم: كان علىّ بن الحسين عليه السلام: «إذا قرأ «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ» يكرّرها حتى يكاد أن يموت».

---

(۱) سورة الانفطار/ ۱۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶

أمّا تعبير «يَوْمِ الدّينِ» فحيثما ورد فى القرآن فهو يعنى يوم القيامة، وتكرر ذلك فى أكثر من عشرة مواضع من كتاب اللَّه العزيز، وفى الآيات (۱۷ إلى ۱۹) من سورة الإنفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأمّا سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و «الدين» فى اللغة: «الجزاء»، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففى ذلك اليوم تُكشف السرائر ويُحاسب الناس عمّا فعلوه بدقة، ويرى كل فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفى تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «ملك يوم الدّين يعنى يوم الحساب». و «الدين» استناداً إلى هذه الرواية يعنى (الحساب).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) الإنسان بين يدى اللَّه: فى هذه الآية يستشعر الإنسان- بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة اللَّه فى نفسه- حضوره بين يدى اللَّه ... يخاطبه ويناجيه، يتحدث إليه أوّلًا عن تعبده، ثم يستمد العون منه وحده دون سواه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

فالآيات السابقة تحدثت عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

فتوحيد العبادة: يعنى الإعتراف بأنّ اللَّه سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة والخضوع، وبالتشريع دون سواه، كما يعنى تجنب أىّ نوع من العبودية والتسليم لغير ذاته المقدسة.

وتوحيد الأفعال: هو الإيمان بأنّ اللَّه هو المؤثّر الحقيقى فى العالم (لا مؤثّر فى الوجود إلّا اللَّه). وهذا لا يعنى إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسببات، بل يعنى الإيمان بأنّ تأثير الأسباب، إنّما كان بأمر اللَّه.

وثمرة هذا الاعتقاد أنّ الإنسان يصبح معتمداً على «اللَّه» دون سواه، ويرى أنّ اللَّه هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوّة، وهو وحده سبحانه اللائق بالإتكال والاعتماد عليه فى كل الامور. وهذا التفكير يحرر الإنسان من الإنشداد إلى أىّ موجود من الموجودات، ويربطه باللَّه وحده. إنّ كلمة «نعبد» و «نستعين» بصيغة الجمع تشير إلى أنّ العبادة- خاصة الصّلاة- تقوم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷

على أساس الجمع والجماعة، وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتّى حين يقف متضرّعاً بين يدى اللَّه، فما بالك فى المجالات الاخرى.

وهذا الاتجاه فى العبادة يعنى رفض الإسلام لكل ألوان الفردية والإنعزال.

الاستعانة به تعالى فى كل الامور: يواجه الإنسان فى مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (فى نفسه)، وخارجية (فى مجتمعه)، ويحتاج فى مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون والمساعدة، ومن هنا يلزم على الإنسان عندما ينهض صباحاً أن يكرر عبارة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ليعترف بعبوديته للَّهسبحانه، وليستمد العون منه فى مسيرته الطويلة الشاقة، وعندما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد

إلّابعد تكرار هذه العبارة أيضاً، والإنسان المستعين حقّاً، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كل القوى المتجبّرة المتغطرسة، وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلّاحينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول:

«إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» «۱».

السير على الصراط المستقيم: بعد أن يقّر الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبودية للّهوالإستعانة به تعالى، يتقدم هذا العبد بأوّل طلب من بارئه، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه اللّه نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الاخرى.

فالإنسان فى هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربّه، لكنه معرّض دوماً بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم.

ثمّة سؤال يتبادر إلى الإذهان عن سبب طلبنا من اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم، تُرى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهداية؟ وكيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟

وفى الجواب نقول: أوّلًا: إنّ الإنسان معرض فى كل لحظة إلى خطر التعثر والانحراف عن مسير الهداية ولهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى اللّه، والإستمداد منه فى تثبيت قدمه

(۱) سورة الأنعام/ ۱۶۲.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۸

على الصراط المستقيم. ثانياً: إنّ الهداية هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجياً مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا.

وممّا تقدم نفهم سبب تضرع حتى الأنبياء والأئمة عليهم السلام للّه‌تعالى ليهديهم «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» فالكمال المطلق للّه‌تعالى، وجميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة فى أن يطلب المعصومون من ربّهم درجات عليا.

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديث التالى:

فى معانى الأخبار عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال فى تفسير «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»: «يعنى أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبّتك، والمبلّغ إلى جنّتك، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك».

ما هو الصراط المستقيم؟ هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد والالتزام بأوامر اللّه، ولكنه ورد فى القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيّم ونهج إبراهيم عليه السلام ونفى كل أشكال الشرك كما جاء فى الآية (۱۶۱) من سورة الأنعام: «قُلْ إِنَّنِى هَدَينِى رَبّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من ناحية ايديولوجية.

إنّ «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنّه الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمن معنى الاستقامة ووصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

خطّان منحرفان: إنّ هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور فى الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهى بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادة الحق والهدى.

بحثان

۱- من هم «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؟ الذين أنعم اللَّه عليهم، تبيّنهم الآية (۶۹) من سورة النساء إذ يقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۹

نحن- إذن- فى سورة الحمد نطلب من اللَّه- صباحاً ومساءاً- أن يجعلنا فى خط هذه المجاميع الأربعة: خط الأنبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين، ومن الواضح أنّ علينا أن ننهض فى كل مرحلة زمنيّة بمسؤوليتنا ونؤدّى رسالتنا.

۲- من هم «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»، ومن هم «الضَّالِّينَ»؟ يستفاد من استعمال التعبيرين فى القرآن أنّ «المغضوب عليهم» أسوأ وأحطّ من «الضالين» أى إنّ الضالين هم التائهون عن الجادة، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقوا لعن اللَّه وغضبه.

فى الآية (۶) من سورة الفتح يقول تعالى: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ».

«الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ». إذن يسلكون- إضافة إلى كفرهم- طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهداً فى توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهيّة.

«نهاية تفسير سورة الحمد»

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۱

۲. سورة البقرة

محتوى السورة: هذه السورة تتميز بشمولها لمبادىء العقيدة ولكثير من الأحكام العملية (العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية). ففى هذه السورة:

۱- موضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استنطاق أسرار الكون.

۲- جولات فى عالم المعاد والبعث والنشور مقرونة بأمثلة حسيّة، مثل قصّة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير، وقصّة عُزير عليه السلام.

۳- آيات ترتبط بإعجاز القرآن وأهمية كتاب اللَّه العزيز.

۴- سرد مطوّل حول وضع اليهود والمنافقين ومواقفهم المعادية للقرآن والإسلام وشدّة ضررهم فى هذا المجال.

۵- استعراض لتاريخ الأنبياء وخاصة إبراهيم وموسى عليهما السلام.

۶- بيان لأحكام إسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدّين، والربا، والإنفاق، والقصاص، وتحريم بعض الأطعمة والأشربة، والقمار، وذكر نبذة من أحكام الوصية وأمثالها.

وأمّا تسميتها بالبقرة، فمأخوذة من قصّة بقرة بنى إسرائيل، التى سيأتى شرحها فى الآيات (۶۷- ۷۳) إن شاء اللَّه.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۲

فضيلة السورة: فى تفسير مجمع البيان: سئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أىّ سور القرآن أفضل؟ قال:

«البقرة». قيل: أىّ آية البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسى».

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أنّ ما ذكر من ثواب وفضيلة وجزاء لتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لا يعنى- إطلاقاً- قراءتها بشكل أوراد، ولا الإكتفاء بترديد ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل التفكير، والتفكير لغرض العمل.

صحيح أنّ قراءة القرآن عمل مثاب عليه فى أى حال من الأحوال، لكن الثواب الأساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

الم (۱) ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (۲) تحقيق فى الحروف المقطعة فى القرآن: تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ

بحروف مقطعة، وهذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة.

جدير بالذكر أنّ التاريخ لم يحدثنا أنّ عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وجود هذه الحروف المقطعة فى القرآن، ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والإستهزاء، وهذا يشير إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين تماماً بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا عدداً من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات فى هذا المجال، وسنذكر هذه التفاسير بالتدريج فى بداية هذه السّورة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف، إن شاء اللَّه. ونبدأ الآن بأهمّها:

هذه الحروف إشارة إلى أنّ هذا الكتاب السماوى، بعظمته وأهميته التى حيّرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدّت الجن والإنس فى عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة فى متناول الجميع.

ومع أنّ القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإنّ ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملأ النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه على الأفكار والعقول.

وكما أنّ اللَّه تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقّدة محيّرة، وكأنواع الطيور الجميلة الرائقة، والأحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما أنّنا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳

ننتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك اللَّه سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، فى قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، وأسلوب خاص، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب فى العصر الجاهلى: من المهم أن نذكر هنا أنّ العصر الجاهلى كان عصراً ذهبياً للأدب العربى. فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير إلى أنّ العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبى رفيع. وكان للأدب سوق رائجة تدلّ على اهتمام العرب بلغتهم وآدابهم، و (سوق عكاظ) وأمثالها من الأسواق الأدبية تعكس هذا الإهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد- إضافة إلى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية- حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشعر والنثر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، وكانت القصيدة الفائزة تعدّ فخراً كبيراً للشاعر ولقبيلته.

فى مثل هذا العصر من الإنتعاش الأدبى، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا.

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعة، حديث فى تفسير البرهان عن الإمام علىّ بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «كذّبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا هذا سحر مبين، تقوّله، فقال اللَّه: «الم* ذلِكَ الْكِتَابُ» أى يا محمّد، هذا الكتاب الّذى أنزلته عليك هو الحروف المقطّعة التى منها الف ولام وميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم».

بعد البسملة وذكر الآية الاولى من سورة البقرة يقول تعالى: «ذلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ».

وقوله: «لَارَيْبَ فِيهِ» ليس إدعاء، بل تقرير لحقيقة قرآنية مشهودة، وهى أنّ القرآن يشهد بذاته على حقانيته.

ومن المشهود أنّ مرّ العصور وكرّ الدهور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إنّ حقائق القرآن، ازدادت وضوحاً بتطور العلوم وبانكشاف أسرار الكائنات، وكلما إزداد العلم تكاملًا إزدادت آيات القرآن جلاء وسطوعاً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴

بحثان

۱- ما هى الهداية؟ كلمة «الهداية» لها عدّة معانى فى القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً إلى معنيين:

أ) الهدایة التکوینیة: وهی قیادة ربّ العالمین لموجودات الکون، وتتجلی هذه الهدایة فی نظام الخلیقة والقوانین الطبیعیة المتحکمة فی الوجود.

ب) الهدایة التشریعیة: وهی التی تتم عن طریق الأنبیاء والکتب السماویة، وعن طریقها یرتفع الإنسان فی مدارج الکمال.

۲- لماذا اختصت هدایة القرآن بالمتقین؟ واضح أنّ القرآن هدایة للبشریة جمعاء، فلماذا خصّت الآیة الکریمة المتقین بهذه الهدایة؟

السبب هو أنّ الإنسان لا یتقبل هدایة الکتب السماویة ودعوة الأنبیاء، ما لم یصل إلی مرحلة معینة من التقوی (مرحلة التسلیم أمام الحق وقبول ما ینطبق مع العقل والفطرة).

الأرض السبخة لا تثمر وإن هطل علیها المطر آلاف المرات، وساحة الوجود الإنسانی لا تتقبل بذر الهدایة ما لم یتم تطهیرها من اللجاج والتعصب والعناد، ولذلک قال سبحانه فی کتابه العزیز أنّه: «هُدًی لِلْمُتَّقِینَ».

الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ وَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ (۴) أُولئِکَ عَلَی هُدًی مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) آثار التقوی فی روح الإنسان وبدنه: فی بدایة هذه السورة قسم القرآن الناس حسب إرتباطهم بخط الإسلام علی ثلاثة أقسام:

۱- المتقون: وهم الذین تقبلوا الإسلام فی جمیع أبعاده.

۲- الکافرون: ویقعون فی النقطة المقابلة للمتقین، ویعترفون بکفرهم، ولا یأبون أن یظهروا عداءهم للإسلام فی القول والعمل.

۳- المنافقون: ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمین، وکفار أمام أعداء الدین، وشخصیتهم الأصلیة هی الکفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵

المجموعة الثالثة تضر بالإسلام- دون شک- أکثر من المجموعة الثانیة، ولذلک فإنّ القرآن یقابلهم بشدة أکثر کما سنری.

الآیات المذکورة تدور حول المجموعة الاولی، وتطرح خصائصهم فی خمسة عناوین هی:

۱- الإیمان بالغیب: «الغیب والشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم الغیب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغیب» فی الأصل یعنی ما بطن وخفی، وقیل عن عالم ماوراء المحسوسات «غیب» لخفائه عن حواسنا.

الإیمان بالغیب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولی بین المؤمنین بالأدیان السماویة، وبین منکری الخالق والوحی والقیامة، ومن هنا کان الإیمان بالغیب أوّل سمة ذکرت للمتقین.

«المؤمنین بالغیب» یعتقدون أنّ خالق عالمالوجود غیر متناه فی العلم والقدرة والإدراک، وأنّه أزلی وأبدی.

وأنّ الموت لیس بمعنی العدم والفناء، بل هو نافذة تطل علی عالم أوسع وأکبر.

بینما الإنسان المادی یعتقد أنّ عالم الوجود محدود بما نلمسه ونراه، وأنّ العالم ولید مجموعة من القوانین الطبیعیة العمیاء الخالیة من أی هدف أو تخطیط أو عقل أو شعور، والإنسان جزء من الطبیعة ینتهی وجوده بموته.

ما أکبر الهوّة التی تفصل بین هاتین الرؤیتین للکون والحیاة.

الرؤیة الاولی تربّی صاحبها علی أن ینشد الحق والعدل والخیر ومساعدة الآخرین، والثانیة، لا تقدم لصاحبها أی مبرر علی ممارسة الامور.

من هنا یسود فی حیاة المؤمنین الحقیقیین التفاهم والإخاء والطهر والتعاون، بینما تهیمن علی حیاة المادیین روح الاستعمار والاستغلال وسفک الدماء والنهب والسلب، وهذه الرؤیة المادیة تقمصت فی عصرنا الصفات العلمیة والتقدمیة والتطوریة. ولهذا السبب نری القرآن یتخذ من «الإیمان بالغیب» نقطة البدایة فی التقوی.

۲- الإرتباط باللّه: الصفة الاخری للمتقین هی أنّهم: «یُقِیمُونَ الصَّلَوةَ».

«الصلاة» باعتبارها رمز الإرتباط باللَّه، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ماوراء الطبيعة على إرتباط دائم بالخالق العظيم، فهم لا يحنون رؤوسهم إلّاأمام اللَّه، ولا يستسلمون إلّالربّ السماوات والأرض.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶

مثل هذا الإنسان يشعر أنّه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنّه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، وهذا الإحساس الوجدانى أكبر عامل فى تربية الموجود البشرى.

۳- الإرتباط بالناس: المتقون- إضافة إلى إرتباطهم الدائم بالخالق- لهم إرتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التى يبيّنها لهم القرآن أنّهم «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

يلاحظ أنّ القرآن لا- يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» وبذلك وسّع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسميّة ومكانتهم الاجتماعية، وبعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه.

۴- الإيمان بالأنبياء عليهم السلام: الخاصة الرابعة للمتقين الإيمان بجميع الأنبياء وبرسالاتهم الإلهيّة، «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ». وفى هذا التعبير القرآنى إشارة إلى أنّ المتقين يؤمنون بأنّ الأديان الإلهيّة ليست وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس وسيلة للإرتباط وعامل للشدّ بين أبناء البشر.

۵- الإيمان بيوم القيامة: آخر صفة فى هذه السلسلة من الصفات التى قررها القرآن للمتقين: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

إنّهم يوقنون بأنّ الإنسان لم يخلق هملًا وعبثاً. فالخليقة عيّنت للكائن البشرى مسيرة تكاملية لا تنتهى إطلاقاً بموته.

المتقون يقرّون بأنّ عدالة اللَّه المطلقة تنتظر الجميع، ولا شيء من أعمال البشر فى هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

الإيمان بيوم القيامة له أثر عميق فى تربية الإنسان، يهبه الشجاعة والشهامة، لأنّ أسمى وسام يتقلده الإنسان فى هذا العالم هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهى، والشهادة أحبّ شيء للإنسان المؤمن، وبداية لسعادته الأبدية.

الإيمان بيوم القيامة يصون الإنسان من ارتكاب الذنوب. فكلما قوى الإيمان قلت الذنوب.

آخر آية فى هذا البحث تشير إلى النتيجة التى يتلقاها المؤمنون المتصفون بالصفات

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷

الخمس المذكورة. تقول: «أُوْلئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وقد ضمن ربّ العالمين لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم.

واستعمال حرف (على) فى عبارة «عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» يوحى بأنّ الهداية الإلهيّة مثل سفينة يركبها هؤلاء المتّقون لتوصلهم إلى السعادة والفلاح.

واستعمال كلمة «هدًى» فى حالة نكرة يشير إلى عظمة الهداية التى شملهم اللَّه بها.

وجملة «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يفيد الإنحصار كما يذكر علماء البلاغة، أى إنّ الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين.

ما هى حقيقة التقوى؟ التقوى من الوقاية، أى الحفظ والصيانة، وهى بعبارة اخرى جهاز الكبح الداخلى الذى يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

إنّ حالة التقوى والضبط المعنوى من أوضح آثار الإيمان باللَّه واليوم الآخر، ومعيار فضيلة الإنسان وافتخاره، ومقياس شخصيته فى الإسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَيكُمْ» «۱» شعاراً إسلامياً خالداً.

جدير بالذكر أنّ التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والاقتصادية، والتقوى الاجتماعية والسياسية والتقوى الجنسية ....

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۷) المجموعة الثانية: الكفار المعاندون: هذه المجموعة تقف فى النقطة المقابلة تماماً للمتقين، والآيتان المذكورتان بيّنتا باختصار صفات هؤلاء. الآيـة الاولى تقول: إنّ الإنـذار لا يجدى نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنّتون فى كفرهم «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». بعكس الطائفة الاولى المستعدّة لقبول الحق لدى أوّل ومضة.

هذه المجموعة غارقة فى ضلالها وترفض الإنصياع للحق حتى لو اتضح لديها، لأنّهم يفتقدون الأرضية اللازمة لقبول الحق والاستسلام له.

الآية الثانية تشير إلى سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

---

(۱) سورة الحجرات/ ۱۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸

سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» ولذلك استحقوا أن يكون «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

الإنسان قابل للهدايـة طبعاً- إن لم يصل إلى هـذه المرحلـة- مهما بلغ به الضـلال، أمّا حينما يبلغ فى درجة يفقد معها حسّ التشـخيص «فلات حين نجاة» لأنّه افتقد أدوات الوعى والفهم، ومن الطبيعى أن يكون فى إنتظاره عذاب عظيم.

بحوث

۱- سلب قدرة التشخيص ومسألة الجبر: أوّل سؤال يطرح فى هذا المجال يدور حول مسألة الجبر، التى قد تتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». فهـذا الختم يفيـد بقاء هؤلاء فى الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار فى الخروج من حالتهم هذه، أليس هذا بجبر؟

القرآن الكريم يجيب على هـذه التساؤل ويقول: إنّ هـذا الختم وهـذا الحجاب هما نتيجـة إصـرار هؤلاء ولجاجهم وتعنّتهم أمام الحق، واستمرارهم فى الظلم والطغيان والكفر، يقول تعالى: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» «۱».

هذه الحالة التى تصيب الإنسان، هى ردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية فى الموجود البشرى، أنّ الإنسان لو تعوّد على انحراف واستأنس به، يتخذ فى المرحلة الاولى ماهية ال «حالة» ثم يتحول إلى «عادة» وبعدها يصبح «ملكة» وجزء من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحياناً درجة لا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عنها أبداً.

لكن الإنسـان إختـار طريق الانحراف هـذا عن علم ووعى، ومن هنـا كـان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون فى المسألة جبر، تماماً مثل شخص فقأ عينيه وسدّ أذنيه عمداً، كى لا يسمع ولا يرى.

ولو رأينا أنّ الآيات تنسب الختم وإسدال الغشاوة إلى اللَّه، فذلك لأنّ اللَّه هو الذى منح الانحراف مثل هذه الخاصية. (تأمّل بدقّة).

۲- الختم على القلوب: فى الآيـات المـذكورة وآيـات اخرى عبّر القرآن عن عمليـة سـلب حسّ التشـخيص والإدراك الواقعى للأفراد بالفعل «ختم» وأحياناً بالفعل «طبع» و «ران».

فى اللغة «خَتَمَ» الإناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، وأصلها من وضع الختم على الكتب

---

(۱) سورة النّساء/ ۱۵۵.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹

والأبواب كى لا تُفتح، والختم اليوم مستعمل فى الإستيثاق من الشّىء والمنع منه كختم سـندات الأملاك والرسائل السـرّية الهامـة. و «طبع» بمعنى ختم أيضاً.

أمّا «ران» فمن «الرين» وهو صدأ يعلو الشيء الجليّ، واستعمل القرآن هذه الكلمة فى حديثه عن قلوب الغارقين فى أوحال الفساد والرّذيلة: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۱».

المهم أنّ الإنسان ينبغى أن يكون حذراً لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كى لا يتحول إلى صفة ثابتة مختوم عليها فى القلب.

۳- المقصود من «القلب» فى القرآن: لماذا نسب إدراك الحقائق فى القرآن إلى القلب، بينما القلب ليس بمركز للإدراك بل مضخة لدفع الدم إلى البدن؟

أنّ القلب فى القرآن له معان متعددة منها:

۱- بمعنى العقل والإدراك كقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» «۲».

۲- بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» «۳».

۳- بمعنى مركز العواطف كقوله: «سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» «۴».

لمزيد من التوضيح نقول: فى وجود الإنسان مركزان قويان هما:

أ) مركز الإدراك، ويتكون من الدماغ وجهاز الأعصاب.

ب) مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبرى الواقع فى الجانب الأيسر من الصدر، والمسائل العاطفية تؤثر أوّل ما تؤثر على هذا المركز.

حينما نواجه مصيبة فإنّنا نحسّ بثقلها على هذا القلب الصنوبرى، وحينما يغمرنا الفرح فإنّنا نحسّ بالسرور والإنشراح فى هذا المركز (لاحظ بدقّة).

صحيح أنّ المركز الأصلى للإدراك والعواطف هو الروح والنفس الإنسانية، لكن المظاهر

---

(۱) سورة المطفّفين/ ۱۴.

(۲) سورة ق/ ۳۷.

(۳) سورة الأحزاب/ ۱۰.

(۴) سورة الأنفال/ ۱۲.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۰

وردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم و الإدراك تظهر أوّلًا فى جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة والفرح والهمّ تظهر فى القلب بشكل واضح، ويحسّها الإنسان فى هذا الموضوع من الجسم.

ممّا تقدم نفهم سبب إرتباط المسائل العاطفية فى القرآن بالقلب (العضو الصنوبرى المخصوص)، وإرتباط المسائل العقلية بالقلب (أى: العقل أو الدماغ).

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۹) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۲) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَ نُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (۱۴) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۱۶) المجموعة الثالثة: المنافقون: الإسلام واجه فى عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا

القدرة اللازمة للمعارضة. هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية كان تشخيصهم صعباً لأنّهم متظاهرون بالإسلام، غير أنّ القرآن بيّن بدقّة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين فى كل القرون والأعصار معايير حيّة لمعرفتهم. الآيات المذكورة قبلها بينت فى مطلعها الخط العام للنفاق والمنافقين «۱»: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».

---

(۱) «المنافق»: مشتقة من «النفق» و هو الطريق النافذ فى الأرض المحفور فيها للإستتار أو الفرار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعاً من الشطارة والدهاء «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا». بينما لا يشعر هؤلاء أنّهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، ويبدّدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلّاالخسران والعذاب الإلهى. «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّاأَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

فى الآية التالية يبيّن القرآن أنّ النفاق فى حقيقته نوع من المرض، فإنّ الإنسان السالم له وجه واحد فقط، وفى ذاته انسجام تام بين الروح والجسد، لأنّ الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلّى فى كل وجوده، وإذا كان منحرفاً فظاهره وباطنه يدلان على انحرافه.

وازدواجية الجسم والروح مرض آخر وعلّة إضافية. إنّه نوع من التضاد والانفصال فى الشخصية الإنسانية: «فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ».

وبما أنّ سنّة اللَّه فى الكون اقتضت أن يتيسّر الطريق لكل سالك، وأن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد فى وضع قدمه على الطريق. فقد أضاف القرآن قوله: «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا».

وبما أنّ الكذب رأس مال المنافقين، يبررون به ما فى حياتهم من متناقضات، ولهذا أشار القرآن فى ختام الآية إلى هذه الحقيقة: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، وتذكر أوّلًا أنّهم يتشدّقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّايَشْعُرُونَ».

ذكرنا سابقاً أنّ الإنسان، لو تمادى فى الغيّ والضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، ويصبح الذنب والإثم جزءً من طبيعته. والمنافقون أيضاً بإصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، وتتراءى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنّهم أعمال إصلاحية، وتغدو بصورة طبيعة ثانية لهم.

علامتهم الاخرى: إعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنّهم ذووا عقل وتدبير، وأنّ المؤمنين سفهاء وبسطاء: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ».

وهكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الإنصياع للحق وإتّباع الدعوة الإلهيّة سفاهة، بينما يرون شيطنتهم وتذبذبهم تعقلًا ودراية! غير أنّ الحقيقة عكس ما يرون: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّايَعْلَمُونَ». أليس من السفاهة أن يضيّع الإنسان

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲

وحدة شخصيته، ويتّجه نحو إزدواجية الشخصية وتعدد الشخصيات فى ذاته، ويهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟! العلامة الثالثة لهؤلاء، هى تلونهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِءُونَ».

وبلهجة قوية حاسمة يرد القرآن الكريم على هؤلاء ويقول: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۱».

الآية الأخيرة توضّح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم فى سيرتهم الحياتية الضّالة: «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَلَةَ

بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

إنّ إزدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلى والسلوك الخارجى فى وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة فى أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم الفردى والاجتماعى.

سعة معنى النفاق: النفاق فى مفهومه الخاص صفة اولئك الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، لكن النفاق له معنىً عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل، من هنا قد يوجد فى قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففى الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف» «۲».

الحديث لا- يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذى فى قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، وخاصة بشكل رياء، كما جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرّياء شجرة لا تُثمر إلّاالشّرك الخفىّ وأصلها النّفاق» «۳».

---

(۱) «يعمهون»: من «العَمَه» أى التردّد فى الأمر، وأيضاً بمعنى عمى القلب والبصيرة بسبب التحيّر.

(۲) بحار الأنوار ۶۹/ ۱۰۸/ ۸.

(۳) بحار الأنوار ۶۹/ ۳۰۰/ ۳۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳

خداع الضمير: الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وأنّ الإنسان المنحرف الملوّث كثيراً ما يعمد إلى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، ويصبح بالتدريج مقتنعاً بأنّ قبائحه ليست عملًا انحرافياً، بل هى أعمال إصلاحية «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ». وبذلك يخدعون أنفسهم ويستمرون فى غيّهم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (۱۹) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين: بعد أن بيّن القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدّم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

۱- «مَثَلُهُمْ» المنافقين «كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» فى ليلة مظلمة، كى يهتدى بها فى الطريق ويبلغ مقصده، «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

لقد ظن هؤلاء أنّهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة، ولكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلوا حائرين لا يهتدون سبيلًا.

ثم تضيف الآية الكريمة أنّ هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

هذا النور الضعيف المؤقّت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير والفطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأوّلى لهؤلاء المنافقين حيث اسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتعصب المقيت واللجاج والعداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴

«ظلمات» فى التعبير القرآنى.

هذا التشبيه يوضّح واحدة من حقائق النفاق، وهى أنّ عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلًا، قد يستطيع المنافقون لمدّة قصيرة أن

يتمتعوا بمصونيـة الإسـلام والإيمان، وبصداقـة الكفار سرّاً، لكن هـذه الحالـة مثل شـعلة ضـعيفة معرضـة لألوان العواصف، سـرعان ما تنطفی، ويظهر الوجه الحقيقی للمنـافقين. ٢- فی المثال الثانی صوّر القرآن حياة المنافقين بشـكل ليلـة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، وينطلق من كـل ناحيـة منها نور يكاد يخطف الأبصار، ويملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان، وفی هـذا المناخ القلق ضـلّ مسـافرٌ طريقه، وبقی فی بلقع فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا يسـتطيع أن يحتمی من المطر الغزير، ولا من الرعـد والبرق، ولا يهتدی إلی طريق لشدّة الظلام. هذه الصورة يرسـمها القرآن على النحو التالی: «أوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسّون كل لحظة بخطر، لأنّهم يطؤون صحراء لا جبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق.

نعم، هؤلاء حيارى مضـطربون، لا يجـدون طريقاً يسـلكونه، ولا دليلًا يهتـدون به، خطر صوت الرعد يهدّد أسـماعهم، ونور البرق يكاد يذهب بأبصارهم «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ».

هـذه الآيات- وإن كانت تتحـدث عن المنافقين فی عصـر نزول الوحی- تمتد لتشـمل كل المنافقين فی التاريخ، لأنّ خطّ النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثوری الصادق الصـحيح، ونحن نری بأعيننا اليوم مدی انطباق ما يقوله القرآن على منافقی عصرنا بدقّة. نری حيرتهم وخوفهم واضـطرابهم، ونری تعاسـتهم وبؤسـهم وانفضـاحهم تماماً مثل تلك المجموعـة المسافرة الهائمـة فی صـحراء مقفرة وفی ليلة ظلماء موحشة.

أمّا بشـأن الفرق بين المثـالين: إنّ قوله تعـالی: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِی ...» يصور حالـة المنافقين الـذين انخرطوا فی صـفوف المؤمنين عن اعتقـاد حقيقی، ثم تزعزعوا واتّجهوا نحو النفـاق. أمّا قوله: «كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...» فيمثل حالـة المنافقين الـذين كانوا منـذ البدايـة فی صف النفاق، ولم يؤمنوا باللَّه قط.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِی خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۲۱) الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۲) فيما سبق من آيات كتاب اللَّه سبحانه تبيّن ثلاث مجموعـات هی: مجموعـة المتّقين، ومجموعـة الكافرين، ومجموعـة المنافقين. أمّا الآيات المـذكورة فـدعت الناس إلی انتخاب طريق المجموعـة الاولی وإلی عبادة اللَّه الواحـد الأحـد. يقول اللَّه تعالی: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِی خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

١- قوله تعالی: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» تكرر فی القرآن عشـرين مرّة تقريباً، وهو نداء عام شامل يشـير إلی أنّ القرآن لا يختص بعنصـر أو قبيلة أو طائفة أو فئة خاصة، بل يوجّه دعوته إلی البشرية عامة لعبادة اللَّه، وللثورة على كل ألوان الشرك والانحراف عن طريق التوحيد.

٢- يركّز القرآن، فی دعوته إلی عبادة اللَّه وإلی شـكر اللَّه، على نعمة خلق البشـر، وهی نعمة تتجلی فيها قدرة اللَّه كما يتجلی فيها علم اللَّه و حكمته.

٣- نتيجـة هـذه العبادة هی التقوی: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فعباداتنا لا تزيـد اللَّه عظمة وجلالًا، كما أنّ إعراضـنا عن العبادة لا ينقص من عظمة اللَّه شيئاً، هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوی.

۴- عبارة «الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» لعلّها ردّ على اسـتدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم والآية الكريمة تشير بهذه العبارة إلی أنّ اللَّه الواحد الأحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعتری المسيرة البشرية فی حاضرها وسالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نِعَم الأرض والسـماء: الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الإلهيّة التی تستحق الشكر، ذكرت أوّلًا خلق الأرض: «الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ

الْأَرْضَ فِرَاشًا».

إنّ تعبير «فراش» يصوّر بشكل رائع مفهوم الاستقرار والاستراحة.

فى تفسير نور الثقلين هذه الحقيقة يعبّر عنها الإمام علىّ بن الحسين عليه السلام مفسراً هذه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶

الآيـة إذ يقول: «جعلها ملائمةً بطبائعكم، موافقةً لِأجسادكم ولـم يجعلها شديدة الحماء والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرودة فتجمدكم ولا شديد طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديد النّتن فتعطبكم ولا شديدة اللّين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصّلّابة فتمتنع عليكم فى دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم ... فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم». ثم تتعرض الآية إلى نعمة السماء فتقول: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً».

كلمـة «سـماء» وردت فى القرآن بمعـان مختلفـة، وكلهـا تشـير إلى العلو، وأحـد معـانى السـماء «جوّ الأرض» وهو المقصود فى الآـية الكريمة، وجوّ الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدّة مئات من الكيلومترات.

هذه الطبقة الهوائية مثل سـقف شـفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، ولو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوماً إلى رشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب.

بعد ذلك تطرقت الآية إلى نعمة المطر: «وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». ماءً يحى الأرض ويخرج منها الثمرات.

ثم تشير الآية إلى نعمة الثمرات التى تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقاً لبنى البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ».

وإخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة ربّ العالمين لعباده، ومدعاة للإذعان بقدرة ربّ العالمين فى إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتاً للإنسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».

«الأنـداد»: جمع «نِدّ» على وزن ضـدّ، وهو الشبيه والشـريك. وبعبارة أدق: نـدّ الشـىء ونديـده مشاركة فى جوهره، وذلك ضـرب من المماثلة، أى المماثلة فى جوهر الذات.

الشّرك فى أشكال مختلفة: إنّ الشّرك باللّه لا ينحصر باتّخاذ الأوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون اللّه كما يفعل الوثنيون، بل إنّ للشـرك معنى أوسع، وبشـكل عـام كـل اعتقـاد بوجود أشـياء لها نفس تأثير اللّه فى الحياة هو نوع من الشـرك. وهـذا ما يعبّر عنه ابن عبّاس إذ يقول: «الأنـداد هو الشـرك أخفى من دبيب النمـل على صـفاة سوداء فى ظلمـة الليل، وهو أن يقول: واللّه وحياتك يا فلان وحياتى. ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷

البط فى الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء اللّه وشئت! وقول الرجل: لولا اللّه وفلان ... هذا كله به شرك» «۱».

مثـل هـذه التعـابير التى يشمّ منهـا رائحـة الشـرك رائجـة- مع الأسف- بين سواد المسـلمين وغير لائقـة بالشـخص الموحّـِد، كقولهم: اعتمادى على اللّه وعليك!

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۳) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (۲۴) القرآن معجزة خالدة: ظاهرة الكفر والنفاق، تنشأ أحياناً عن عدم فهم محتوى النبوّة ومعجزة الرسول صـلى الله عليه و آله، والآيات التى نحن بصـددها تعالـج هذه المسألة، وتركز على المعجزة القرآنية الخالـدة كى تزيل كل شك وترديـد فى رسالـة نبىّ الخاتم صـلى الله عليه و آله. تقول الآيـة: «وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ».

وبهذا الشـكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كى يكون عجزهم دليلًا واضـحاً على أصالة هذا الوحى السـماوى وعلى الجانب الإلهى للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكد هذا التحدى دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

كلمة «شهداء» تشير إلى الفئة التى كانت تساعدهم فى رفض رسالة النبى صلى الله عليه و آله وعبارة «مِّن دُونِ اللَّهِ» إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة اللَّه وحده على ذلك.

وعبارة «إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدى، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائكم.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة ويقول: «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هى واقع قائم: «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن ۱/ ۵۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸

جمع من المفسرين قالوا: إنّ المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية (۹۸) من سورة الأنبياء: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

ويبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أنّ نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة، ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أنّ العلم الحديث أثبت أنّ كل أجسام العالم تنطوى فى أعماقها على نار عظيمة.

وفى الآيتى (۶ و ۷) من سورة الهمزة يقول تعالى: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفِئدَةِ». خلافاً لنيران هذا العالم التى تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحثان

۱- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟ «المعجزة»- كما هو واضح من لفظها- عمل خارق يأتى به النبى ويعجز عن الإتيان به الآخرون. على النبى صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، وأن يعلن لهم أنّ معجزته دليل على صدق دعواه.

۲- القرآن معجزة نبىّ الأكرم الخالدة: القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، هذا الكتاب الكريم يعتبر- بين معاجز النبى صلى الله عليه و آله- أقوى سند حى على نبوّة الرسول الخاتم، لأنّه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمية» و «معنوية».

أما أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أى أنّها كانت بحاجة إلى وجود النبى لكى يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النبى الخاتم- عدا القرآن- هى من هذا اللون، أمّا القرآن فمعجزة ناطقة، لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصراً من ساحة التحدى، وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم فى عصر الرسالة، أنّه دين ومعجزة، أنّه قانون، ووثيقة تثبت إلهيّة القانون.

أمّا الخلود والعالمية: فإنّ القرآن حطّم سدود «الزمان والمكان» فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنّه يحوى عناصر الدوام والخلود وسعة دائرته العالمية، وبديهى أنّ الدين العالمى الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، ونرى أنّها

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹

كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتحدث الطفل فى المهد ...

وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أمّا القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار، إنّه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ

قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۵) خصائص نِعَم الجنة: آخر آية فى بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كى تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية فى التوضيح. فى المقطع الأوّل تقول الآية: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

نعلم أنّ البساتين التى تفتقد الماء الدائم، وتسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة، فالنظارة تطفح على البساتين التى تمتلك ماء سقى دائم مستمر لا ينقطع أبداً، ومثل هذه البساتين لا يعتريها جفاف ولا تهددها شحة ماء. وهذه هى بساتين الجنة.

وبعد الإشارة إلى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

ثم تقول الآية: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا». أى متشابهاً فى الجودة والجمال، فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الاخرى.

وآخر نعمة تذكرها الآية هى: «أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ» من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منغّصات نعم الدنيا زوالها، ومن هنا فلاـ تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة والإطمئنان، أمّا نِعم الجنة ففيها السعادة والطمأنينة لأنّها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية فى خاتمتها وتقول: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

بحثان

۱- الأزواج المطهرة: مما يلفت النظر فى هذه الآية أنّ الوصف الوحيد الذى استعمله

القرآن لمدح الأزواج فى جنات النعيم هو أنّها «مطهرة»، وهى إشارة إلى أول شرط فى الزوجة هو «الطهر»، وكل ما سواه من الشروط والأوصاف ثانوى. فى حديث عن الإمام الصادق عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «قال للناس: إياكم وخضراء الدّمن.

قيل: يا رسول اللّه! وما خضراء الدّمن؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السوء» «۱».

۲- النعم المادية والمعنوية فى الجنة: ذكر القرآن الكريم أنواع النعم المادية فى الجنة، ولكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعماً أهم منها هى النعم المعنوية كقوله تعالى فى الآية (۷۲) من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (۲۶)

سبب النّزول

ذكر الطبرسى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ اللّه لما ضرب المثلين قبل هذه الآية للمنافقين، يعنى قوله «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» وقوله «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ» قال المنافقون: اللّه أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

قال آخرون: عند نزول الآيات التى تضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسخرون، فقال اللّه تعالى: يا محمّد إنّ اللّه لا يستحى أن يضرب مثلًا.

التّفسير

هل اللّه يضرب المثل؟ الفقرة الاولى من الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا».

المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعى وتحقيره فإنّ

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۴/ ۱۹.

بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كيما يتضح ضعف اولئك. فى الآية (۷۳) من سورة الحج، مثلًا يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

وما المقصود من «فَمَا فَوْقَهَا»؟ للمفسرين فى هذه رأيان:

الأوّل: «فوقها» فى الصغر، لأنّ المقام مقام بيان صغر المثال، وهذا مستعمل فى الحوار اليومى، نسمع مثلًا رجل يقول لآخر: ألا تستحى أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟ فيجيب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا فى الصغر.

الثّانى: «فوقها» فى الكبر. أى: إنّ اللَّه يضرب الأمثال بالصغير وبالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأى الأوّل يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ». فهؤلاء، بإيمانهم وتقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحقد للحقيقة. «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا».

فيجيبهم اللَّه بعبارة قصيرة تحسم الموقف وتقول: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ».

هداية اللَّه وإضلاله: الهداية والضلالة- فى المفهوم القرآنى- لا- يعنيان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطىء، بل إنّ الهداية- المفهومة من الآيات المتعدّدة- تعنى توفّر سبل السعادة، والإضلال: يعنى زوال الأرضيّة المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار فى المسألة.

توفّر السبل (الذى نسميه التوفيق)، وزوال هذه السبل (الذى نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح اللَّه فرداً توفيق الهداية، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنّما ذلك نتيجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك.

الفاسقون: هم المنحرفون عن طريق العبودية، لأنّ الفسق فى اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل إلى الخروج عن طريق اللَّه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲

الخاسرون الحقيقيون: هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفئة، وتذكر لهم ثلاث صفات:

۱- إنّهم «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ».

هؤلاء لهم مع اللَّه عهود ومواثيق، مثل عهد التوحيد، وعهد الرّبوبية، وعهد عدم اتّباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمرّدوا على أوامر اللَّه، واتّبعوا أهواءهم وما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: كل موهبة يمنحها اللَّه للإنسان يصحبها عهد طبيعى بين اللَّه والإنسان، موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، وموهبة الاذن تنطوى على عهد مدوّن فى ذات الخلقة يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... وبهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة فى نفسه، أو استخدم الطاقات الموهوبة له فى مسير منحرف.

الفاسقون: ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهيّة، أو جميعها.

۲- الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هى أنّهم: «يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ».

الآية تتحدث عن قطع الفاسقين لِكلّ إرتباط أمر اللَّه به أن يوصل، بما فى ذلك رابطة الرحم، رابطة الصداقة، والروابط الاجتماعية، والرابطة بهداة البشرية إلى اللَّه، والإرتباط باللَّه.

۳- علامة الفاسقين الثالثة هى الفساد: «وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ».

وتؤكد الآية فى الخاتمة أنّ «أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وأىّ خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية والمعنوية المودعة فى الإنسان الرّاميّة لإسعاده، وإهدارها على طريق الشقاوة والتعاسة والانحراف؟

أهمية صلة الرحم فى الإسلام: الآية المذكورة أعلاه، وإن تحدثت عن كل إرتباط أمر اللَّه به أن يوصل، إلّاأنّ الإرتباط الرحمى دون شك أحد مصاديقها البارزة.

لقد أعار الإسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتودد إلى الأهل والأقارب، ونهى بشدة عن قطع الإرتباط بالرحم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصور أهمية صلة الرحم بقوله: «صلة الرحم تعمر الديار وتزيد فى الأعمار وإن كان أهلها غير أخيار» «۱».

الإسلام مارس هذه العملية على النحو الأكمل فى بناء المجتمع الإسلامى القوى الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية، والكائن الإنسانى لا يأبى عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية إرتباط أفراد الاسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد فى الرحم والدم.

وواضح أنّ المجتمع يزداد قوّة وعظمة كلما ازداد التماسك والتعاون والتعاضد فى الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالاسرة، وإلى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (۲۹) نعمة الحياة: القرآن فى الآيتين يكمل الأدلة التى أوردها فى الآيتين (۲۱ و ۲۲) من هذه السورة حول معرفة اللَّه. القرآن يبدأ فى أدلته من نقطة لا تقبل الإنكار، ويركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد وغموض، ويقول: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ».

وفى هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتاً تماماً مثل الأحجار والأخشاب ولم يكن فيه أى أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، وبنعمة الشعور والإدراك.

إنّ لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدم هائل فى حقل العلم والمعرفة. لكن السؤال يبقى قائماً بحاله: كيف يكفر الإنسان باللَّه وينسب هذه الحياة بتعقيداتها وغموضها وأسرارها إلى صنع الطبيعة العمياء الصّماء الفاقدة لكل شعور وإدراك؟

من هنا نقول إنّ ظاهرة الحياة فى عالم الطبيعة أعظم سند لإثبات وجود اللَّه تعالى،

---

(۱) بحار الأنوار ۷۱/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴

والقرآن يركّز فى الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات. بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر وهو «الموت» «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ».

نعم ... إنّ خالق الحياة هو خالق الموت أيضاً، وإلى ذلك تشير الآية (۲) من سورة الملك:

«الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود اللَّه، تناولت المعاد والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم اللَّه تعالى يوم القيامة.

بعد ذكر نعمة الحياة والإشارة إلى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية إلى واحدة اخرى من النعمّ الإلهيّة السابقة وتقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وبهذا تعين الآية قيمة الإنسان في هذه الأرض، وسيادته على ما فيها من موجودات.

وفى القرآن آيات اخرى تؤكد على مكانة الإنسان السامية، وتوضح أنّ هذا الكائن هو الهدف النهائى من خلق كل موجودات الكون.

وتعود الآية إلى ذكر أدلة التوحيد وتقول: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيهُنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الفعل «استوى»: من «الإستواء» وهو التسلط والإحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير.

السماوات السبع: الأصح فى رأينا أنّ المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. ويستفاد من آيات اخرى أنّ كل الكرات والسيارات المشهودة هى جزء من السماء الاولى، وثمة ستة عوالم اخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم، وهذه العوالم السبعة هى التى عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

فى الآية (۱۲) من سورة فصّلت، يقول تعالى: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ».

وفى الآية (۶) من سورة الصّافات، يقول أيضاً: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ».

ويتضح من هاتين الآيتين أنّ ما نراه وما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الاولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات اخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۳۰) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۱) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۳۲) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۳۳) الإنسان خليفة اللّه فى الأرض: الآيات السابقة ذكرت أنّ اللّه سبحانه خلق ما فى الأرض جميعاً للإنسان، وفى الآيات (۳۰- ۳۹) تركيز على ثلاث مسائل أساسية هى:

۱- إخبار اللّه ملائكته بشأن خلافة الإنسان فى الأرض.

۲- أمر اللّه تعالى ملائكته بإكرام وتعظيم الإنسان الأول.

۳- شرح وضع آدم وحياته فى الجنة، والحوادث التى أدّت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، وحياته هو وذريته فى الأرض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء اللّه أن يخلق على ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، ويحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة.

وبهذه المناسبة تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

والخليفة: هو النائب عن الغير، أمّا هذا الغير الذى ينوب الإنسان عنه هو خليفة اللّه ونائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين. لأنّ سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذى قد يفسد فى الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأنّ نيابة اللّه فى الأرض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء.

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذى وجّهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين:

«قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ».

اللّه سبحانه أجاب الملائكة جواباً مغلقاً اتضح فى المراحل التالية: «قَالَ إِنّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶

الملائكة يعلمون أنّ الهدف من الخلقة هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون فى أنفسهم مصداقاً كاملًا لذلك، فهم فى العبادة غارقون. ولذلك فهم- أكثر من غيرهم- للخلافة لائقون، غير عالمين أنّ بين عبادة الإنسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوساوس الشيطانية، والمغريات الدنيوية وبين عبادتهم- وهم خالون من كل هذه المؤثرات- بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط

الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التى تعيش على ساحل آمن؟!

ماذا تعرف الملائكة من ابناء آدم أمثال محمّد صلى الله عليه و آله وابراهيم ونوح وموسى وعيسى والأئمة من أهل البيت عليهم السلام وعباد اللَّه الصالحين والشهداء والمضحون من الرجال والنساء الذين قدموا وجودهم على مذبح العشق الإلهى، والذين تساوى ساعة من تفكرهم سنوات متمادية من عبادة الملائكة؟

الملائكة فى بودقة الإختبار: كان آدم يملك- بفضل اللَّه- قابلية خارقة لفهم الحقائق.

وشاء اللَّه أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: «وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً.

فى تفسير العياشى عن أبى العباس عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: سألته عن قول اللَّه «وعلّم آدم الأسماء كلّها» ماذا علّمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه».

كما منح اللَّه آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها، وهذه نعمة كبرى.

«ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنّهم لم يملكوا هذه القدرة العلمية التى منحها اللَّه لآدم، «قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

وحان الدور لآدم كى يشرح أسماء الموجودات وأسرارها أمام الملائكة: «قَالَ يَا ءَادَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضح للملائكة أنّ هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷

جواب على سؤالين: ويبقى سؤالان فى هذا المجال، الأوّل يدور حول تعليم اللَّه لآدم، كيف تم ذلك؟ ولو قُدر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أمّا بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أنّ هذا التعليم تكوينى، أى إنّ اللَّه أودع هذا العلم فى وجود آدم بالقوة، ودفعه خلال مدة قصيرة إلى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» فى القرآن على «التعليم التكوينى» ورد فى موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» «۱». وواضح أنّ اللَّه سبحانه علّم الإنسان البيان فى مدرسة الخلقة، أى منحه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أنّ الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنّهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة وتقبلوها بعد أن مروا بتلك التجربة المذكورة فى الآية. ولعلهم اعتقدوا فى البداية أنّهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن اللَّه بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (۳۴) وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (۳۵) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (۳۶) آدم عليه السلام فى الجنة: ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمة الإنسان ويقول:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

لو أمعنّا النظر فى آيات القرآن الكريم لألفينا أنّ موضوع السجود لآدم جاء بعد اكتمال خلقة الإنسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

إنّ الآية المذكورة تقرير قرآنى واضح صريح لشرف الإنسان وعظمة مكانته، فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

---

(۱) سورة الرّحمن/ ۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸

حقاً، إنّ هذا الموجود، اللائق لخلافة اللَّه على الأرض، والمؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل وتربية أبناء عظام كالأنبياء وخاصة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله يستحق كل احترام.

نحن نشعر بالتعظيم والتكريم لمن حوى بعض العلوم وعلم شيئاً من القوانين والمعادلات العلمية، فكيف حال الانسان الأوّل مع كل تلك العلوم والمعارف الزاخرة عن عالم الوجود؟

بحثان

۱- لماذا أبى إبليس؟ «الشيطان» اسم جنس شامل للشيطان الأوّل ولجميع الشياطين. أما «إبليس» فاسم علم للشيطان الذى وسوس لآدم.

وإبليس- كما صرح القرآن- ما كان من جنس الملائكة وإن كان فى صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهى مخلوقات مادية.

باعثه على الإمتناع عن السجود كبر وغرور وتعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنّه أفضل من آدم، ولا ينبغى أن يصدر له أمر بالسجود لآدم.

كفر إبليس كان يعود إلى نفس السبب أيضاً، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهى، وبذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائدياً. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته وطاعاته نتيجة كبره وغروره. وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر والغرور.

وعبارة «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» تشير إلى أنّ إبليس كان قبل صدور الأمر الإلهى إليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة وطاعة اللَّه، وأسرّ فى نفسه الإستكبار والجحود.

۲- هل كان السّجود للَّهأم لآدم؟ لا شك أنّ السجود يعنى «العبادة» للَّه، إذ لا معبود غير اللَّه، وتوحيد العبادة يعنى أن لا نعبد إلّااللَّه. من هنا فإنّ الملائكة لم يؤدوا لآدم يعنى «سجدة عبادة» قطعاً، بل كان السجود للَّهمن أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء فى عيون الأخبار عن الإمام علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام حديث طويل وفيه: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً وكان سجودهم للَّهتعالى عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا فى صلبه».

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، امر آدم وزوجه أن يسكنا الجنة، كما جاء فى قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹

هذِهِ الشَّجَرَةَ» «۱».

يستفاد من آيات القرآن أنّ آدم خُلق للعيش على هذه الأرض، لكن اللَّه شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنة، وهى روضة خضراء موفورة النعمة فى هذا العالم.

لعل مرحلة مكوث آدم فى الجنة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسة آدم للحياة على الأرض وصعوبة تحمل المشاكل الدنيوية بدون مقدمة، ومن أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتكاليف الإلهيّة فى تحقيق سعادته، ولإعطائه صورة عن الشقاء الذى يستتبع اهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه بالمحظورات التى سيواجهها على ظهر الأرض.

ينبغى أن ينضج آدم عليه السلام فى هذا الجو إلى حد معين، وأن يعرف أصدقاءه وأعداءه، ويتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض، نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التى تؤهله للحياة على ظهر الأرض.

وهنا رأی «آدم» نفسه أمام أمر إلهی یقضی بعدم الاقتراب من الشجرة، لکن الشیطان أبی إلّاأن ینفذ بقسمه فی إغواء آدم وذریته. تقول الآیة بعد ذلک: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ».

نعم. اخرجا من الجنة حیث الراحة والهدوء وعدم الألم والتعب والعناء، علی أثر وسوسة الشیطان.

وصدر لهما الأمر الإلهی بالهبوط: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

وهنا، فهم آدم أنّه ظلم نفسه، وأخرج من الجوّ الهادی الملی بنعم الجنة بسبب استسلامه لوسوسة الشیطان، وهبط فی جوّ مفعم بالتعب والمشقة والعناء، مع أنّ آدم کان نبیاً ومعصوماً، فإنّ اللَّه یؤاخذ الأنبیاء بترک الأولی- کما سنری- کما یؤاخذ باقی الأفراد علی ذنوبهم، وهو عقاب شدید تلقاه آدم جرّاء عصیانه.

بحوث

۱- ما هی جنة آدم؟ یبدو أنّ الجنة التی مکث فیها آدم قبل هبوطه إلی الأرض، لم تکن

---

(۱) «الرغد»: علی وزن الصمد یعنی الکثیر والواسع والهنیء؛ وعبارة «حیث شئتما» تعنی: من أی مکان شئتما فی الجنة، أو من أی نوع شئتم من فاکهة الجنة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۱ ۹۹

الجنة التی وعد بها المتقون، بل کانت من جنان الدنیا، وصقعاً منعّماً خلّاباً من أصقاع الأرض. ودلیلنا علی ذلک: أوّلًا: الجنة الموعودة فی القیامة نعمة خالدة، والقرآن ذکر مراراً خلودها، فلا یمکن إذن الخروج منها.

ثانیاً: إبلیس الملعون لیس له طریق للجنة، ولیس لوسوسته مکان هناک.

ثالثاً: وردت عن أهل البیت علیهم السلام روایات تصرح بذلک.

فی الکافی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السلام أنّه سئل عن جنة آدم، فقال: «جنة من جنات الدنیا، یطلع فیها الشمس والقمر، ولو کانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً».

من هذا یتضح أنّ هبوط آدم ونزوله إلی الأرض لم یکن مکانیاً بل مقامیاً، أی أنّه هبط من مکانته السامیة ومن تلک الجنة المزدانة.

۲- المقصود من الشیطان فی القرآن: کلمة الشیطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هو الخبیث والوضیع، والشیطان تطلق علی الموجود المتمرد العاصی، إنساناً کان أو غیر إنسان، وتعنی أیضاً الروح الشریرة البعیدة عن الحق. وبین کل هذه المعانی قدر مشترک.

والشیطان اسم جنس عام، وإبلیس اسم علم خاص، وبعبارة اخری، الشیطان کل موجود مؤذٍ مغوٍ طاغ متمرد، إنساناً کان أم غیر إنسان، وإبلیس اسم الشیطان الذی أغوی آدم ویتربّص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الکلمة فی القرآن یفهم أنّ کلمة الشیطان تطلق علی الموجود المؤذی المضر المنحرف الذی یسعی إلی بثّ الفرقة والفساد والاختلاف، مثل قوله تعالی:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ» «۱».

والاستعمال القرآنی لکلمة شیطان یشمل حتی أفراد البشر المفسدین المعادین للدعوة الإلهیّة، کقوله تعالی: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ» «۲».

کلمة الشیطان اطلقت علی إبلیس أیضاً بسبب فساده وإنحرافه.

۳- لماذا خُلق الشیطان؟ یثار أحیاناً سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوی، وفی الجواب نقول:

---

(۱) سورة المائدة/ ۹۱.

(۲) سورة الأنعام/ ۱۱۲.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۱

أوّلًا: لم يخلق اللَّه الشيطان، شيطاناً، والدليل على ذلك وجوده بين ملائكة اللَّه وعلى الفطرة الطاهرة، لكنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم على الطغيان والتمرد، إنّه إذن خلق طاهراً، وسلك طريق الانحراف مختاراً.

ثانياً: وجود الشيطان لا يسبب ضرراً للأفراد المؤمنين، ولطلاب طريق الحق، فى منظار نظام الخليقة، بل إنّه وسيلة لتقدمهم وتكاملهم، إذ إنّ التطور والتقدم يتم من خلال صراع الأضداد.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۳۷) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۳۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۳۹) عودة آدم عليه السلام إلى اللَّه: بعد حادثة وسوسة إبليس، وصدور الأمر الإلهى لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنّه ظلم نفسه، وهنا أخذ آدم يفكر فى تلافى خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه وهو نادم أشد الندم، وأدركته رحمة اللَّه فى هذه اللحظات كما تقول الآية:

«فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«التوبة» فى اللغة بمعنى «العودة» وهى فى التعبير القرآنى، بمعنى العودة عن الذنب، إن نُسبت إلى المذنب، وإن نسبت كلمة التوبة إلى اللَّه فتعنى عودته سبحانه إلى الرحمة التى كانت مسلوبة عن العبد المذنب. ولذلك فهو تعالى «توّاب» فى التعبير القرآنى.

على أى حال، لقد حدث ما لا ينبغى أن يحدث- أو ما ينبغى أن يحدث- وقُبلت توبة آدم. لكن الأثر الوضعى للهبوط فى الأرض لم يتغير، كما يذكر القرآن: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الكلمات التى تلقاها آدم: تعددت الآراء فى تفسير «الكلمات» التى تلقاها آدم عليه السلام من ربّه. المعروف أنّها الكلمات المذكورة فى الآية (۲۳) من سورة الأعراف: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وقال آخرون أنّ المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۲

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فاغفر لى إنّك خير الغافرين».

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فارحمنى إنّك خير الراحمين».

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فَتُب علىّ إنّك أنت التّوّاب الرّحيم».

وفى روايات وردت عن طرق أهل البيت عليهم السلام أنّ المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات اللَّه وهم: محمّد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين- عليهم أفضل الصلاة والسّلام- وآدم توسّل بهذه الكلمات ليطلب العفو من ربّ العالمين فعفا عنه.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها.

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّاىَ فَارْهَبُونِ (۴۰) ذكر النِعم الإلهيّة: لما كانت قصّة بنى إسرائيل ابتداء من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم فى الأرض، ومروراً بنسيان العهد الإلهى، وانتهاء بسقوطهم فى حضيض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه إلى حدّ كبير قصّة آدم. يوجه القرآن خطابه إلى بنى إسرائيل ويقول: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيىَ فَارْهَبُونِ».

الأوامر الثلاثة التى تذكرها الآية الكريمة وهى: تذكّر النعم الإلهية، والوفاء بالعهد، والخوف من اللَّه، تشكل المنهج الإلهى الكامل للبشرية.

ميثاق بنى إسرائيل: ميثاق بنى إسرائيل الإلهى يتكون من اثنى عشر بنداً، عشر منها ذكرت فى آيتى (۸۳ و ۸۴) من هذه السورة، وبندان ذكرا فى الآية الكريمة: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَى عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» (۱).

وهما: الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم.

---

(۱) سورة المائدة/ ۱۲.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳

جملة «إِيىَ فَارْهَبُونِ» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة فى طريق الوفاء بالعهد الإلهى، وعلى الخوف من اللَّه وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إيّاى» على جملة «فارهبون».

وَ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَ لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّاىَ فَاتَّقُونِ (۴۱) وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۲) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود فى كل سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النّبى صلى الله عليه و آله فحرّفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره فذلك الثّمن الّذى اريد فى الآية».

التّفسير

جشع اليهود: الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذى أخذه اللَّه على بنى إسرائيل. يقول تعالى: «وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم». فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أى أنّ البشائر التى زفّتها التوراة والكتب السماوية الاخرى بشأن النبى الخاتم، والأوصاف التى ذكرتها لهذا النبى والكتاب السماوى تنطبق على محمّد صلى الله عليه و آله وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!

ثم يقول سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ». أى:- لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون فى مكّة- كفّاراً بالرسالة، بل العجب فى كفركم، لأنّكم أهل الكتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبى، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره.

المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بَايَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا».

فى المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِيىَ فَاتَّقُونِ». والخطاب موجّه إلى زعماء اليهود الّذين يخشون أن ينقطع رزقهم، وأن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم، وتطلب منهم أن يخشوا اللَّه وحده، أى أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

فى البند الخامس من هذه الأوامر ينهى اللَّه سبحانه عن خلط الحق بالباطل: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴

وفى البند السادس ينهى عن كتمان الحق: «وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبيّنه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

إنّ الآية لم تقل «أدّوا الصلاة» بل قالت: «أَقِيمُوا الصَّلَوةَ». وهذا الحث يحمّل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلى ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

إنّ تعبير «أقيموا» إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى اللَّه سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلى للإنسان.

هـذه الأوامر الأخيرة تتضـمن: أوّلًا بيان إرتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثم إرتباطه بالمخلوق (الزكاة)، وبعـد ذلك إرتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق اللَّه.

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أ فَلَا تَعْقِلُونَ (۴۴) وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (۴۶) الآيـة الاولى من الآيات التى يدور حولها بحثنا خطاب لعلماء اليهود، وبّخهم اللَّه تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بمحمّد صلى الله عليه و آله وترك أنفسهم فى ذلك. لـذلك كانت الآية تحمل توبيخاً لهذا العمل: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

منهـج الـدعاة إلى اللَّه يقوم على أساس العمل أوّلًا ثم القول، فالداعية إلى اللَّه يبلّغ بعمله قبل قوله، كما جاء عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم» (۱).

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم وتفرق عامة الناس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الأنبياء ولـذلك حرفوا ما ورد بشأن صفات نبى الخاتم فى التوراة.

والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصلاة للتغلب على الأهواء الشخصية والميول

---

(۱) بحار الأنوار ۵/ ۱۹۸.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵

النفسية، فيقول فى الآية التالية: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ». ثم يؤكد أنّ هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها إلّاالخاشعون: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

وفى الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَقُوا رَبّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

«يظنّون»: من مادة «ظنّ» وقد تأتى بمعنى اليقين. وفى هـذا الموضع تعنى الإيمان واليقين القطعى. لأنّ الإيمان بلقاء اللَّه والرجوع إليه، يحيى فى قلب الإنسان حالة الخشوع والخشية والإحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلًا دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه إلى النهوض بالمسؤولية وإلى الحق والعدل.

بحثان

۱- ما هو لقاء اللَّه؟ عبارة «لقاء اللَّه» وردت مراراً فى القرآن الكريم، وتعنى بأجمعها الحضور على مسرح القيامة، من البـديهى أنّ المقصود بلقاء اللَّه ليس هو اللقاء الحسى، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأنّ اللَّه ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يُرى بالعين، بل المقصود مشاهدة آثار قدرة اللَّه وجزائه وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة.

أو إنّ المقصود الشهود الباطنى والقلبى، لأنّ الإنسان يصل درجة كأنّه يرى اللَّه ببصيرته أمامه، بحيث لا يبقى فى نفسه أى شك وترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس فى هذه الدنيا.

هذا الشهود الباطنى ينجلى للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد إلّاوقد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة اللَّه وقدرته فى ذلك اليوم.

۲- سبيل التغلب على الصعاب: ثمة منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل، أحدهما داخلى، والآخر خارجى.

أشارت الآية إلى هـذين المنطلقين بعبارة «الصبر» و «الصلاة». فالصبر هو حالة الصمود والاستقامة والثبات فى مواجهة المشاكل، والصلاة هى وسيلة الإرتباط باللَّه حيث السند القوى المكين.

روى الطبرسى فى تفسير مجمع البيان فى تفسير هذه الآية: وكان النبى صلى الله عليه و آله إذا حزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶

وروى أيضاً عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللَّه فيها، أما سمعت اللَّه تعالى يقول: واستعينوا بالصّبر والصّلوة».

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۴۷) وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۸) أوهام اليهود: فى هذه الآيات خطاب آخر إلى بنى إسرائيل فيه تذكير بنعم اللَّه: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ». هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداءً من الهداية والإيمان، وانتهاءً بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهى نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: «وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التى كانوا يتصورون بموجبها أنّ الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنّهم قادرون على دفع فدية وبدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة فى هذه الحياة الدنيا. القرآن يخاطبهم ويقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِى نَّفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

الحاكم أو القاضى فى تلك المحكمة الإلهيّة، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما فى الآيتى (۸۸ و ۸۹) من سورة الشعراء يقول تعالى: «يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

إنّ الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير فى الواقع إلى ما يجرى من محاولات فى هذه الحياة الدنيا لإنقاذ المذنب من العقاب.

ففى الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أمّا فى الآخرة فإنّه: «لَّاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ».

وربّما يلجأ المذنب فى هذه الحياة إلى الشفعاء لينقذوه ممّا ينتظره من الجزاء ويوم القيامة «... لَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۷

وإذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان فى الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهوبدل الشىء من جنسه، أما فى الآخرة ف «لَايُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ».

وإذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفى الآخرة لا يقوم بإنقاذهم أحد «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

القرآن الكريم يؤكد أنّ الاصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كلياً عما هو السائد فى هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الإيمان والتقوى والاستعانة بلطف البارى تعالى.

تاريخ الشرك وتاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليء بأفكار خرافية تدور حول محور التوسل بمثل الأمور التى ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخروى.

ذكر صاحب تفسير المنار بعض العادات المصرية التى لا تزال يعمل بها باسم الدين وهى من إرث قدماء الوثنيين، كاعطائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه «اجرة المعدية» أى اجرة نقله إلى الجنة.

ثم ذكر المكفرات التى يعتقدها اليهود كقربان الإثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرقة والإكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه.

القرآن ومسألة الشفاعة: «۱» العقاب الإلهى فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الانتقام، بل إنّ العقوبات الإلهيّة تشكل عنصر الضمان فى تنفيذ القوانين، وتؤدى فى النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله، من هنا يجب الإحتراز عن أى شيء يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كى لاتنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصى والذنوب.

من جهة اخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل فى وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم وللعودة إلى اللَّه وإلى الطهر والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنّها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب.

اولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطىء لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه

(۱) «الشفاعة»: من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشىء إلى مثله» يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد» ثم اطلقتعلى انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۸

المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التى تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين. وثمة مجموعة كالوهابيين استندوا إلى الآية الكريمة: «لَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ». فأنكروا الشفاعة تماماً، دون الإلتفات إلى سائر الآيات فى هذا المجال.

الشّروط المختلفة للشفاعة: آيات الشفاعة تصرح أنّ مسألة الشفاعة فى مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التى يستشفع المذنب لها، وتحدّد تارة اخرى الشخص المشفوع له، كما تقيد من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقى للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمّة ذنوب كالظلم مثلًا خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» «۱».

كما أنّ الشفاعة- وطبقاً للآية (۲۸) من سورة الأنبياء- لا تشمل إلّاأولئك المرتقين إلى درجة «الإرتضاء» وإلى درجة الالتزام بالعهد الإلهى حيث يقول القرآن: «لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا» «۲».

الإرتضاء، واتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوى (وكذلك ما ورد من الروايات فى تفسير هذه الآيات): الإيمان باللّه والحساب والميزان والثواب والعقاب، والإعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل اللّه، إيماناً عميقاً فى الفكر، ظاهراً فى العمل ... إيماناً يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، ويدفعه إلى إعادة النظر فى منهج حياته.

وبشأن الشفعاء ذكر القرآن لهم شرطاً فى قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقّ» «۳». من هنا فالمشفوع له أيضاً ينبغى أن يسلك طريق الحق فى القول والعمل، كى يكون له إرتباط بالشفيع، وهذا الإرتباط الضرورى بين الشفيع والمشفوع له يعتبر بدوره عاملًا بنّاءاً فى تعبئة الطاقات على طريق الحق.

(۱) سورة غافر/ ۱۸.

(۲) سورة مريم/ ۸۷.

(۳) سورة الزخرف/ ۸۶.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۹

وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۴۹) نعمة الحرية: فى هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة اخرى، منّ بها اللّه سبحانه على بنى إسرائيل، وهى نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببنى إسرائيل من عذاب يتمثل فى قتل الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون.

و «البلاء»: يعنى الإمتحان، فالحوادث والمصائب التى نزلت ببنى إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم، كما قد يأتى البلاء بمعنى العقاب، لأنّ بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل فرعون عقاباً على كفرانهم.

من الملفت للنظر أنّ القرآن يسمى ذبح الأبناء واستحياء النساء عذاباً، ولو عرفنا أنّ استحياء النساء يعنى استبقائهن، وتركهن أحياء،

لاتضح لنا أنّ القرآن يشير إلى أنّ مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضاً مثل عذاب القتل، وهذا المعنى يشير إليه الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام إذ يقول: «فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين» «۱».

عملية الإماتة كانت شاملة للذكور والإناث مع اختلاف فى ممارسة هذه العملية، وفى عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضاً بأساليب اخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة فى الذكور، ودفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات. وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۰)

النجاة من آل فرعون: الآية السابقة أشارت إلى نجاة بنى إسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة: «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ».

قضية غرق آل فرعون فى البحر ونجاة بنى إسرائيل وردت فى سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (۱۲۶)، وسورة الأنفال الآية (۵۴)، وسورة الإسراء الآية (۱۰۳)، وسورة

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۱.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۰

الشعراء الآية (۶۳ و ۶۶)، وسورة الزخرف الآية (۵۵)، والدخان الآية (۱۷) وما بعدها.

فى هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أمّا هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية فى معرض دعوة بنى إسرائيل إلى قبول الرسالة الخاتمة.

الهدف من تذكير بنى إسرائيل بهذا الحدث الذى بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر وللسير على طريق الرسالة الإلهيّة المتمثلة فى دين النبى الخاتم.

كما أنّه تذكير للبشرية بالامداد الإلهى الّذى يشمل كل امّة سائرة بجدٍ وإخلاص على طريق اللّه.

وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۵۱) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۲) وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۵۳) وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۵۴) أكبر إنحرافات بنى إسرائيل: فى هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بنى إسرائيل، وعلى أكبر انحراف اصيبوا به فى تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والإتجاه إلى عبادة العجل، وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرر هذه التجربة فى مواجهة الدين الخاتم: «وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهى ليالى افتراق موسى عن قومه، «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ».

شرح هذا المقطع من تاريخ بنى إسرائيل سيأتى فى سورة الأعراف الآية (۱۴۲) وما بعدها، وفى سورة طه الآية (۳۶) وما بعدها.

فى الآية التالية يقول سبحانه: «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبعد إشارة إلى ما جاء بنى إسرائيل من هداية تشريعية: «وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بنى إسرائيل: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۱

قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«البارئ»: هو الخالق، وفى الكلمة إشارة إلى أنّ هذا الأمر الإلهى بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم، وعمّن هو أعرف بما يضرّكم

وينفعكم.

ذنب عظيم وتوبـة فريـدة: لاـ شـك أنّ عبادة عجل السامرى لم تكن مسألـة هينـة، لأنّ بنى إسـرائيل شاهـدوا ما شاهـدوا من آيات اللَّه ومعجزات نبيهم موسى عليه السلام ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النبى إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهى. ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة وتقضـى هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفى ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به- هو نفسه- من عذاب القتل.

وجاء فى الأخبار أنّ موسى أمر فى ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم فى البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب فى قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل اللَّه تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إنّ السبب فى شـدّة هـذا الحكم يعود إلى عظمـة الـذنب الذى إرتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أنّ هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومسـتقبلها لأنّ اصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإنّ ذلك يعنى انهيار جميع اللبنات الفوقيـة والمبانى الحضاريـة للـدين، فلو تساهل موسـى عليه السـلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سُنّة فى الأجيال القادمـة، خاصة وأنّ بنى إسـرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين. ولابدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط فى هاوية الشرك.

وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۲

طلب عجيب: هاتان الآيتان تذكّران بنى إسرائيل بنعمة إلهيّة اخرى، كما توضحان فى الوقت نفسه روح اللجاج والعناد فى هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهى، وما شملهم اللَّه به من رحمة بعد ذلك العقاب. تقول الآية الاولى «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً».

هذا الطلب قد ينم عن جهل بنى إسرائيل، لأنّ إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدّى حواسه، ولذلك يرمى إلى أن يرى اللَّه بعينه.

أو قد يحكى هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التى يتميزون بها دوماً.

عندئـذٍ شـاء اللَّه سبحانه أن يرى هؤلاـء ظـاهرة من خلقه لاـ يطيقون رؤيتهـا، ليفهموا أنّ عينهم الظـاهرة هـذه لاـ تطيق رؤيـة كـثير من مخلوقات اللَّه، فما بالك برؤيـة اللَّه سـبحانة نزلت الصاعقـة على الجبل وصـحبها برق شديـد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدّة الخوف: «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ».

اغتم موسـى لما حدث بشدة، لأنّ هلاك سـبعين نفراً من كبار بنى إسـرائيل، قد يوفّر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم، لـذلك تضـرع موسـى إلى اللَّه أن يعيـدهم إلى الحيـاة، فقبـل طلبه وعادوا إلى الحياة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذه الآية تشير ضمناً إلى إمكان «الرجعة»، أى الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت، لأنّ وقوعها فى مورد يدل على إمكان الوقوع فى موارد اخرى.

وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۵۷) النعم المتنوعـة: بعـد أن نجا بنو إسـرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات (۲۳- ۲۹) من سورة المائـدة، أنّ بنى إسـرائيل امروا لأـن يتجهوا إلى

أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، وأصروا على عدم الذهاب مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ» «۱».

---

(۱) سورة المائده/ ۲۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۳

تألّم موسى لهذا الموقف ودعا ربّه: «قَالَ رَبِّ إِنّي لَاأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» «۱». فكتب عليهم التيه أربعين عاماً فى صحراء سيناء.

مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى اللّه، فشمل اللّه سبحانه بنى إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التى تشير الآية إلى بعضها: «وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ».

والظّل له أهمّيّة كبرى لمن يطوى الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللّافحة، خاصة أنّ مثل هذا الظّل لا يضيّق الفضاء على الإنسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

وإضافة إلى الظّل فإنّ اللّه سبحانه وفّر لبنى إسرائيل بعد تيههم الطعام الذى كانوا فى أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاماً خلت من ضياعهم: «وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

بحوث

۱- المن والسلوى: «المنّ» شىء كالطلّ فيه حلاوة يسقط من الشجر و «السلوى» يعنى التسلّى، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنّه «طائر».

احتمل بعض المفسرين أن يكون «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعى حصل عليه بنو إسرائيل فى الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: «الأراضى المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإنّ مجاميع النحل تبنى خلاياها فى أخاديد الصخور وعلى أغصان الأشجار وثنايا بيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل» «۲».

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنّه العسل، وأجمع الباقون على أنّه نوع من الطير، كان يأتى على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

فى النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأى حيث ورد فى تفسير على العهدين ما يلى: «إعلم أنّ السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من أفريقيا، فتتجه إلى الشمال، وفى جزيرة كابرى

---

(۱) سورة المائدة/ ۲۵.

(۲) قاموس الكتاب المقدس/ ۶۱۲.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۴

وحدها يصطاد من هذا الطائر ۱۶ ألفاً فى الفصل الواحد ... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيناء. وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير فى إرتفاعات شاهقة لشدة ما لاقاه من تعب وعناء فى الطريق، فيطير على إرتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة» «۱». يستفاد من هذا النص أنّ المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف فى تلك الأرض.

۲- لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟ عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن والسلوى بالإنزال، وليس الإنزال دائماً إرسال الشيء من مكان عال، كقوله تعالى: «وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» «۲».

واضح أنّ الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال فى مثل هذه المواضع:

إمّا أن يكون «نزولًا مقامياً»، أى نزولًا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلاناً: أى أضفته، والنزل (على وزن رُسُل) ما يعدّ للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ» «۳». وقوله سبحانه:

«خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِن عِندِ اللَّهِ» «۴».

وتعبير «الإنزال» للمن والسلوى، قد يشير إلى أنّ بنى إسرائيل كانوا ضيوف اللّه فى الأرض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

۳- ما هو الغمام؟ قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الأبيض، وذكروا فى وصفه أنّه أبرد من السحاب وأرق، والغمام فى الأصل من الغم وهو تغطية الشيء، وسمى الغمام بهذا الاسم لأنّه يغطى صفحة السماء، وسمى الهمّ غماً بهذا الاسم لأنّه يحجب القلب «۵».

---

(۱) قاموس الكتاب المقدس/ ۴۸۳.

(۲) سورة الزمر/ ۶.

(۳) سورة الواقعة/ ۹۳.

(۴) سورة آل عمران/ ۱۹۸.

(۵) تفسير روح المعانى ۱/ ۲۶۳؛ والمفردات للراغب، مادة «غمّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۵

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۵۹) عناد بنى إسرائيل:

وهنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بنى إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ».

«القرية»: كل مكان يعيش فيه جمع من الناس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الرائج المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ». أى:

حطّ عنّا خطايانا، «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

«حطّة»: فى اللغة، تأتى بمعنى التناثر والمراد منها فى هذه الآية الشريفة، إلهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا وأوزارنا.

والآية تنتهى بعبارة: «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». أى: إنّ المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنى إسرائيل حتى فى ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ». وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب اللّه حيث يقول: «فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

«الرجز»: أصله الاضطراب ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

وفى مجمع البيان: إنّ الرجز يعنى العذاب عند أهل الحجاز ويروى عن الرّسول صلى الله عليه و آله قوله بشأن مرض الطاعون: «إنّه رجز عذّب به بعض الامم قبلكم».

ومن هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» في بعض الروايات أنّه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بنى إسرائيل وأهلك جمعاً منهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۶

يلفت النظر أنّ من عوارض الطاعون اضطراباً في المشى والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً. ومن الملفت للنظر أيضاً أنّ القرآن يؤكد أنّ هذا العذاب نزل «عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» فقط، ولم يشمل جميع بنى إسرائيل.

والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن اللّه تعالى، هى أنّ الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهى.

وَ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۶۰) انفجار العيون في الصحراء: تذكير آخر بنعمة اخرى من نعم اللّه على بنى إسرائيل: وهذا التذكير تشير إليه كلمة «إذ» المقصود منها (واذكروا إذ)، وهذه النعمة أغدقها اللّه عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمسّ الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السلام من اللّه عزّ وجلّ الماء: «وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ» فتقبل اللّه طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» بعدد قبائل بنى إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أنّ كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصّها «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون.

قال بعض المفسرين: إنّ هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء وتدل جملة «انبجست» الواردة في الآية (۱۶۰) من سورة الأعراف على أنّ المياه جرت قليلة أوّلًا، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بنى إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز.

لقد منّ اللّه على بنى إسرائيل بإنزال المن والسلوى، وفي هذه المرة يمنّ عليهم بالماء الذي يعز في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۷

وفي هذه العبارة حثّ لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم للّه على هذه النعم.

الفرق بين العثو والإفساد: نهى اللّه سبحانه بنى إسرائيل عن الفساد بفعل «لَاتَعْثَوْا» من العثى وهو شدة الفساد. وبهذا يكون معنى «لا تعثوا» هو معنى «المفسدين» ولكنه مع تأكيد أشد.

وقد تشير عبارة النهى بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أى تبدأ بالفساد وتنتهى بالعثى في الأرض وهو شدة الفساد واتساعه.

وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَ فُومِهَا وَ عَدَسِهَا وَ بَصَلِهَا قَالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (۶۱) المطالبة بالأطعمة المتنوعة: بعد أن شرحت الآيات السابقة نعم اللّه على بنى إسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى. تتحدث الآية أوّلًا عن مطالبة بنى إسرائيل نبيّهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (المن والسلوى): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا».

فخاطبهم موسى «قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ».

ويضيف القرآن: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقّ ذلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ».

إنّ المقصود من كلمة «مصر» فى الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة، وقوله سبحانه:

«اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ». أى: إنّكم الآن تعيشون فى هذه الصحراء ضمن إطار

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۸

منهج للاختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، إذهبوا إلى المدن حيث التنوع فى المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور. التنوع وطبيعة الإنسان: التنوع هو- دون شك- من متطلبات البشر، فلم إذن توجه اللوم والتقريع إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والفوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلّى عنها، هى الإيمان والطهر والتقوى والتحرّر، وقد تمر الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام والشراب واللذائذ الاخرى، وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إمّا أن تنغمس فى اللذات وتترك قيمها وشرفها، أو تضحى بلذاتها من أجل إنسانيتها وكرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابد من الإشارة إلى أنّ حقيقة حب التنويع استغلها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الأفراد فيها بين المعلف والمضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، وغافلين عن النير الذى يطوق أعناقهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) القانون العام للنجاة: بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً فى التقييم وفق المعايير الإلهية، وهذا المبدأ ينص على أنّ الإيمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، وليس للتظاهر والتصنّع قيمة فى ميزان اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «۱».

---

(۱) «الصابئين»: كانوا فى الأصل أتباع أحد الأنبياء وإن اختلف المحققون فى تعيين نبيّهم، وعدد هؤلاء قليل وهم فى حالة إنقراض.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۹

تساؤل هام: بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التى نحن بصددها وسيلة لبثّ شبهة مفادها أنّ العمل بأى دين من الأديان الإلهيّة له أجر عنداللّه، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودى أو النصرانى الإسلام، بل يكفى أن يؤمن باللّه واليوم الآخر ويعمل صالحاً.

الجواب: نعلم أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» «۱».

كما أنّ القرآن مليء بالآيات التى تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقى للآية الكريمة. ونذكر تفسيرين لها من أوضح وأنسب ما ذكره المفسرون:

۱- لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء فى كتبهم، لآمنوا حتماً بالنبى صلى الله عليه و آله لأنّ بشارات الظهور وعلائم النبى وصفاته مذكورة فى هذه الكتب السماوية.

۲- هذه الآية تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين فى بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم وأجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، تُرى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم وإيمانهم؟

الآية المذكورة نزلت لتقول إنّ كل امة عملت فى عصرها بما جاء به نبيّها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فإنّها ناجية، ولا خوف على أفراد تلك الامة ولا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبى الإسلام.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۶۳) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لَا فَضْلُ

اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۶۴) الإلتزام بالميثاق: هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بنى إسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثم نقضهم للميثاق: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». والطور جبل

---

(۱) سورة آل عمران/ ۸۵.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۰

وسيأتى ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». واجعلوا التوراة دوماً نصب أعينكم:

«وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». لكنكم نقضتم الميثاق وجعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

هذا الميثاق عبارة عن: توحيد اللَّه، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء، هذه المواد وردت فى التوراة كذلك. من الآية (۱۲) لسورة المائدة يتضح أيضاً أنّ اللَّه أخذ ميثاق بنى إسرائيل أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويساندوهم، وأن ينفقوا فى سبيل اللَّه. وفى هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذا الميثاق.

بحوث

۱- رفع جبل الطور: أمّا بشأن كيفية رفع جبل الطور فى قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». يقول الطبرسى عن أبى زيد: حدث هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا:

ومن يقبل قولك؟! فأرسل اللَّه عزّ وجلّ الملائكة حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلّا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا للَّه تعالى ملاحظين الجبل (أى وهم ينظرون إلى الجبل من طرف خفى)، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شِقّى وجوههم.

الطبرسى- كما ذكرنا- وجمع من المفسرين، يذهبون إلى أنّ جبل الطور رفع فوق رؤوس بنى إسرائيل بأمر اللَّه لايجاد الظل عليهم.

ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر اللَّه على أثر زلزال شديد أو صاعقة، ومرّت فوق رؤوسهم فى لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

۲- الإلتزام والإرهاب: مسألة رفع الجبل فوق بنى إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالًا بشأن إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف والإرهاب.

هناك من قال: إنّ رفع الجبل فوقهم لا ينطوى على إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له.

الأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۱

بالقوّة. وهذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كى يؤدّوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار.

على أى حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادى، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

۳- خذوا تعاليم السماء بقوة: خاطب اللَّه سبحانه بنى إسرائيل فقال: «خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». وعن هذه الآية سئل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن المقصود من القوة فى هذه الآية: أبقوة بالأبدان أم بقوة فى القلوب؟ قال: «بهما جميعاً».

وهذا الأمر الإلهى يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية فى كل زمان ومكان، ويطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معاً، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمية اللَّه فى الأرض.

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (۶۵) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۶۶) عصاة يوم السبت: هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان- كالآيات السابقة- عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة فى اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِينَ» «۱».

«فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا». أى: جعلناها عبرة لتلك الامة ولأمم تليها «وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

ملخص الحادثة التى تشير إليها الآية: «أنّ اللَّه سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا- أى أن يقطعوا أعمالهم- يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، وشاء اللَّه أن يختبر هؤلاء، فكثرت الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت فى بقية الأيّام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت.

فعاقبهم اللَّه على عصيانهم ومسخهم على هيئة حيوان» «۲».

---

(۱) «خسأ»: طرد وزجر، ويستعمل لطرد الكلب، وللطرد المقرون بالإستهانة يقال: إخْسأه.

(۲) راجع التفاصيل لدى توضيح الآيات (۱۶۳- ۱۶۶) من سورة الأعراف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۲

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَ تَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۶۷) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (۶۸) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (۶۹) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (۷۱) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۷۴) قصة بقرة بنى إسرائيل: هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة اخرى من حوادث تاريخ بنى إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه فى الآيات السابقة.

الحادثة (كما يبيّنها القرآن وكتب التّفسير) على النحو التالى: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل. حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الاخرى بالقتل، توجّهوا إلى موسى ليقضى بينهم، فما كانت الأساليب الاعتيادية ممكنة فى هذا القضاء، وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بنى إسرائيل. لجأ موسى- بإذن اللَّه- إلى طريقة إعجازية لحلّ هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة. يقول سبحانه فى هذه الآيات: «وَإِذْ قَالَ مُوسى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۳

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا».

«قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ». أى: إنّ الإستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء اللَّه مبرّؤون من ذلك.

بعد أن أيقنوا جديّة المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ». وعبارة «ربّك» تتكرر فى خطاب بنى إسرائيل لموسى، وتنطوى على نوع من إساءة الأدب والسخرية، وكأنّ ربّ موسى غير ربّهم!

موسى عليه السلام أجابهم: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَافَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلِكَ». أى: إنّها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: «فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

لكن بنى إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا».

أجابهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ». أى: إنّها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصروا على لجاجهم، وضيقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم. عادوا و «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِىَ». طالبين بذلك مزيداً من التوضيح، متذرعين بالقول: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ».

أجابهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَاذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ». أى:

ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.

«مُسَلَّمَةٌ» من العيوب كلها.

«لَّا شِيَةَ فِيهَا». أى: لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: «قَالُوا الئَن جِئْتَ بِالْحَقِّ». «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ». أى: أنّهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصّة، عاد فلخص الحادث بآيتين: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا». أى: فاختلفتم فى القتل وتدافعتم فيه. «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا». أى: اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كى يحيى ويخبركم بقاتله. «كَذلِكَ يُحْىِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

وبعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بنى إسرائيل، بل بقيت على قسوتها وغلظتها وجفافها. «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً».

إنّها أشد قسوة من الحجارة، لأنّ بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۴

تسقط من خوف اللّه: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». لكن قلوب بنى إسرائيل أشد قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حب، ولا تخفف من خوف اللّه.

واللّه عالم بما تنطوى عليه القلوب وما تفعله الأيدى: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

العِبر فى هذه القصة: هذه القصة لها دلالات على قدرة اللّه اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد.

إضافة إلى ما سبق، هذه القصة تعلمنا أنّنا ينبغى أن لا نتزمت ولا نتشدد فى الامور كى لا يتشدد اللّه معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل. أ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۷۶) أَ وَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (۷۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن الإمام أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطئين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما فى التوراة من صفة محمّد، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما فى التوراة من صفة محمّد فيحاجّوكم به عند ربّكم فنزلت هذه الآية».

التّفسير

لا أمل فى هؤلاء: كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، وفى هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصّرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقلوه «أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۵

كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحْرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه عظة للمسلمين، ودفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود وجذبهم إلى الدين الجديد.

الآية التالية تلقى الضوء على حقيقة مرّة اخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة وتقول: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ويتضح من الآية أنّ إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفاً إلى درجة أنّهم تصوروا اللّه مثل إنسان عادى، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فسيخفى عن اللّه أيضاً. لذلك تقول الآية التالية بصراحة: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (۷۸) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (۷۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبىّ الخاتم فى التوراة من أجل صيانة مصالحهم، واستمرار الأموال التى كانت تتدفق عليهم سنوياً من جَهَلَة اليهود. فعند ظهور النبى صلى الله عليه و آله غيّروا ما ذكر من صفاته فى التوراة وأبدلوها بصفات اخرى على العكس منها، كى يموّهوا الأمر على الاميين الّذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النبى فى التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النبى الجديد قرؤوا لهم الآيات المحرفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

التّفسير

خطّة اليهود فى استغلال الجهلة: بعد الحديث عن إنحرافات اليهود فى الآيات السابقة قسّمت هاتان الآيتان اليهود إلى مجموعتين: اميين وعلماء ماكرين. عن المجموعة الاولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۶

«الاميّون»: جمع امّىّ، والامّىّ غير الدارس، وسمّوا بذلك لأنّهم فى معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدّة تعلق امّهاتهم بهم، صعب عليهنّ فراقهم جهلًا، ومنعنهم من الذهاب إلى المدرسة. والأمانى جمع امنية، ولعل الآية تشير هنا إلى الإمتيازات الموهومة التى كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: «نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبؤُهُ» «۱».

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الأمانى، الآيات المحرفة التى كان علماء اليهود يشيعونها بين الاميين من الناس.

ثمة مجموعة اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، وإلى هؤلاء يشير القرآن: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

«فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ».

«وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ».

وقد أورد بعض المفسرين حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية وفيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّابما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا، يقلّدون علماءهم- إلى أن قال- فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنّ اللّه ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قدعرفوا علماءهم بالكذب الصّراح، وأكل الحرام، والرشاء وتغيير الأحكام، واضطرّوا بقلوبهم إلى أنّ من فعل ذلك فهو فاسق، لايجوز أن يصدّق على اللّه، ولا على الوسائط بين الخلق وبين اللّه، فلذلك ذمّهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، والعصبيّة الشديدة، والتكالب على الدنيا وحرامها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم اللّه بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّابعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإنّ من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامّة، فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولا كرامة، وإنّما

كثر التخليط فيما يتحمّل عنّا أهل البيت لذلك، لأنّ الفسقة يتحمّلون عنّا

(۱) سورة المائدة/ ۱۸.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۷

فيحرّفونه بأسره لجهلهم، ويضعون الأشياء على غير وجهها لقلّة معرفتهم وآخرون يتعمّدون الكذب علينا» «۱».

وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸۰) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۸۱) غرور وادعاء فارغ: يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة من إدعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذى يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً». ثم تجيبهم الآية بأسلوب مُفحِم: «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

اعتقاد اليهود بأنّهم شعب اللَّه المختار، وأنّ عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشرية، وأنّ مذنبيهم لن يدخلوا جهنم سوى أيّام قليلة.

إدّعاء اليهود المذكور فى الآية الكريمة لا ينسجم مع أى منطق.

الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقى، وتفهمهم أنّ مزاعمهم هذه إمّا أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذوه عند اللَّه، ولا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على اللَّه.

ثم تبيّن الآية التالية قانوناً عاماً يقوم على أساس المنطق وتقول: «بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وهذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئة وقوم.

وبشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبيّنه الآية التالية: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

بحوث

۱- كسب السيّئة: الكسب والإكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة واختيار، من هنا

(۱) وسائل الشيعة ۱۸/ ۹۴ (كتاب القضاء، باب عدم جواز تقليد غير المعصوم).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۸

عبارة «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» إشارة إلى اولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وانتخاب، وتعبير الآية بكلمة «كَسَبَ» قد يكون إشارة إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التى يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظاناً أنّه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، ويتحمل بتركه خسارة. ۲- إحاطة الخطيئة: الخطيئة تستعمل غالباً فى الذنوب التى لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت فى هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة أو بمعنى آثار الذنب فى قلب الإنسان وروحه.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعنى إنغماس الفرد فى الذنب إلى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

۳- عنصرية اليهود: نفهم من الآيات الكريمة أنّ روح التمييز العنصرى لدى اليهود، التى هى مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الأيام، وكانوا يعتقدون بوجود تفوق وامتياز لعنصر بنى إسرائيل على سائر الأجناس البشرية الاخرى، ولا زالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم، وهذا التعصب العنصرى هو الأساس الذى تقوم عليه الدولة الصهيونية الغاصبة اليوم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۹

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۸۲) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ ذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (۸۳) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۸۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۸۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۸۶) الناكثون: تقدم ذكر ميثاق بنى إسرائيل، والقرآن ينـدد فى هـذه الآيات بشدة باليهود لنقضـهم هذه العهود، ويتوعدهم نتيجة لهذا النقض بالخزى فى الحياة الدنيا والعذاب فى الآخرة. بنود هذا العهد الذى أقرّ به بنو إسرائيل:

۱- التوحيد وإخلاص العبودية للّه «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

۲- الإحسان إلى الوالدين: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

۳- الإحسان إلى الأقارب واليتامى والفقراء: «وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ».

۴- التعامل الصحيح مع الآخرين: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا».

۵- إقامة الصلاة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ».

۶- إيتاء الزكاة: «وَءَاتُوا الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸۰

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ».

۷- عدم سفك الدماء: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ».

۸- عدم إخراج بنى جلدتكم من ديارهم: «وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ».

۹- إفداء الأسرى، أى بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» وسيأتى ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: «ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ».

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بنى إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم وتشريد بعضهم الآخر:

«ثُمَّ أَنتُمْ هؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ». ويشير القرآن إلى تعاون بعضـهم ضـد البعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ».

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء فى مواقفهم، إذ يحاربون بنى جلدتهم ويخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا فى الأسر: «وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً إلى أوامر التوراة، بينما يشردونهم ويقتلونهم خلافاً لما أخذ اللّه عليهم من ميثاق: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ».

ومن الطبيعى أن يكون هذا الانحراف سبباً لانحطاط الإنسان فى الدنيا والآخرة: «فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدّ الْعَذَابِ».

وإنحرافات أية امة من الامم لابد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأنّ اللّه سبحانه وتعالى أحصاها عليهم بدقة: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية الأخيرة تشير إلى تخبط بنى إسرائيل وتناقضهم فى مواقفهم، والمصير الطبيعى الذى ينتظرهم نتيجة لذلك: «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الْحَيوةَ الدُّنْيا بِالْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

بحثان

۱- إشارة تاريخية: فى الآيات إشارة لتناقض بنى إسرائيل فى مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل فى ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد اخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، واخذ عليهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۱

الميثاق إن أسر بعضهم بعضاً أن يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم».

وفى تفسير مجمع البيان روى فى المعنىّ بهذه الآية عن ابن عباس: «أنّ قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا اسراها تصديقاً لما فى التوراة، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً، فأنبأ اللَّه تعالى اليهود بما فعلوه».

وهكذا سقط اليهود وغيرهم من أهل العناد فى مثل هذه التناقضات فى حياتهم لانحرافهم عن خط العبودية التامة للَّه‌تعالى.

۲- منهج البقاء وعوامل السقوط: الآيات الكريمة فى معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح سنناً كونية فى بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامّة ورفعتها وعزتها فى المنظار القرآنى، اعتماد الامة على قوة اللَّه وقدرته الأبدية وخضوعها له وحده دون سواه وخشيته وحده دون غيره: «لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعى بين أفراد الامة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامّة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس.

إزالة التمييز الطبقى ورفع الهوّة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، ومن عوامل بقاء المجتمع أيضاً ورفعته.

أمّا عوامل السقوط فهى عبارة عن تفكك البنية الاجتماعية، ونشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً. «لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ...».

ثم الإزدواجية فى الالتزام بأحكام اللَّه تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التى تحفظ لهم منافعهم الشخصية، ويتركوا القوانين النافعة للمجتمع «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۲

هذه هى الأسباب والعلل فى تكامل وانحطاط الامم والحضارات فى منظور القرآن.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (۸۷) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (۸۸) القلوب المغلفة: الحديث فى هاتين الآيتين عن بنى إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التى تطرحها الآيتان عامة وشاملة. تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ». ثم تذكر بعثة الأنبياء بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى ...

«وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ». وتشير إلى بعثة عيسى: «وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». لكن تعامل بنى إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائماً على أساس نزعات هوى النفس: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ».

وكان موقفهم إمّا اغتيال شخصية النبى أو شخص النبى: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ». لو كان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم

الدنيئة اكتفوا بذلك، وإن لم يكن كافياً سفكوا دمه!

الآيـة التاليـة تذكر ما كانوا يقولونه باسـتهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النبى الخاتم صـلى الله عليه و آله: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ». و «الغلف»: جمع «أغلف» أى مغلّف.

نعم، إنّها كـذلك مغلفة وبعيدة عن نفوذ النور الإلهى إليها، لأنّ أصـحابها لعنوا بعد التمادى فى الكفر: «بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

الآية تبين حقيقة هامة هى: إنّ الإنغماس فى الأهواء يبعد الفرد عن اللَّه، ويسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقاً إلى نفسه.

بحثان

۱- ما هو روح القدس؟ للمفسرين آراء مختلفة فى معنى روح القدس:

أ) قالوا إنّه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إنّ اللَّه أيد عيسى بجبرائيل.

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أنّ جبرائيل ملک، والجانب الروحى فى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۳

الملائکـة أمر واضـح، وإطلاـق کلمـة «الروح» عليهم متنـاسب مع طبيعتهم، وإضافـة الروح إلى «القـدس» إشـارة إلى طهر هـذا الملک وقداسته الفائقة.

ب) وقيل: إنّ «روح القدس» هو القوة الغيبية التى أيدت عيسى عليه السلام وبهذه القوة الخفية الإلهيّة كان عيسى يحيى الموتى.

هـذه القوة الغيبيـة موجودة طبعاً بشـكل أضـعف فى جميع المؤمنين على اختلاف درجـة إيمانهم، وهـذا الإمداد الإلهى هو الذى يعين الإنسان فى أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط فى الذنوب والزلات.

۲- قلوب غافلـة محجوبة: كان اليهود فى المدينة يقفون بوجه الدعوة، ويمتنعون عن قبولها، ويتذرعون لذلک بمختلف الحجج، والآية التى نحن بصددها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلفٌ» ولا ينفذ إليها قول!

كـانوا يقولون ذلـک عن اسـتهزاء، غير أنّ القرآن أيـد مقـالتهم، فبكفرهم ونفـاقهم اسـدل على قلوبهم حجب من الظلمات والـذنوب، وابتعدوا عن رحمة اللَّه، «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ».

وهذه مسألة تطرحها فى الآية (۱۵۵) من سورة النساء حيث يقول تعـالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (۸۹) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (۹۰)

سبب النّزول

روى العياشـى فى تفسـيره عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «كانت اليهود تجـد فى كتبها أنّ مهاجر (مكان هجرة) محمّد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله مـا بين (جبلى) عَيْر واحـد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبـل يقـال له حـداد، فقـالوا: حـداد واحـد سواء، فتفرّقوا عنده. فنزل بعضهم بتيماء وبعضهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۴

بفدک وبعضـهم بخيبر، فاشـتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابى من قيس فتكاروا منه (أى اسـتأجروا إبله) وقال لهم:

أمرّ بكم ما بين عَير واحد، (فعلموا أنّهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلمّا توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك عَير، وهذا احد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت. وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: إنّا قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا. فكتبوا إليهم إنّا قد استقرت بنا الدار واتّخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم، واتخذوا بأرض المدينة أموالًا. فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تُبعاً فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم ثم أمنهم، فنزلوا عليه. فقال لهم: إنّى قد استطبت بلادكم، ولا أرانى إلّامقيماً فيكم.

فقالوا له: ليس ذلك لك، إنّها مهاجر نبى، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك. فقال لهم: فإنّى مخلف فيكم من اسرتى من إذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حين تراهم الأوس والخزرج. فلمّا كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمّد لنخرجنّكم من ديارنا وأموالنا. فلما بعث اللّه محمّداً صلى الله عليه و آله آمنت الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» إلى آخر الآية».

التّفسير

كفروا بما دعوا الناس اليه: هذه الآيات تتحدث أيضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء هاجروا ليتخذوا من يثرب سكناً بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنّها أرض الرّسول المرتقب، وبقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبى الذى بشّرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبى، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقاً لهذه الحقيقة وتوّاقاً للوصول إليها فيتركها ويعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضاً أن تحول هذا الفرد إلى عدو لدود لهذه الحقيقة.

ما أشد خسارة هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم وهاموا فى الأرض بحثاً عن علامات أرض الرسالة، ثم ها هم خسروا كل شىء، وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أنفُسَهُمْ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸۵

لقد ضيعوا كل شيء وكأنّهم أرادوا أن يكون النبى الموعود من بنى إسرائيل، ولهذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاءه اللّه: «أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولذلك شملهم غضب اللّه المتوالى: «فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

«باءو»: بمعنى رجعوا- وأقاموا فى المكان- وهنا تعنى استحقاقهم لعذاب اللّه، فكأنّهم عادوا وهم محملون بهذا الغضب الإلهى، أو كأنّهم اتخذوا موقفاً يغضب اللّه.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون على أمل ظهور النبى المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحداً، هو النكول والإعراض، واستحقوا غضب اللّه وسخطه مرة بعد اخرى.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۱) وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (۹۲) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۳) العصبية القومية لدى اليهود: يشير القرآن مرة اخرى إلى عصبية اليهود القومية ويقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ».

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل ولا بالقرآن، بل إنّهم يدورون حول محور العنصرية والمصلحية، فيجرأون على رفض الدعوة التى جاءت تصديقاً لما معهم فى التوراة: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ». ويكشف القرآن زيف ادّعائهم مرة اخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». هؤلاء يدّعون أنّهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸۶

ويعرض القرآن وثيقة اخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف إدعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَى بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتكم البينات إن كنتم فى إيمانكم صادقين!

فى الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة اخرى، فيشير إلى مسألة ميثاق جبل الطور ويقول: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وما كان عصيانهم إلّاعن انغماس فى حب الدنيا الذى تمثل فى حب عجل السامرى الذهبى: «وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» ولذا نسوا اللَّه عزّ وجلّ؟ كيف يجتمع الإيمان باللَّه مع قتل انبيائه وعبادة العجل ونقض العهود والمواثيق الإلهيّة المؤكدة؟ أجل «قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۹۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۹۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۹۶) فئة مغرورة: يبدو من تاريخ اليهود- مضافاً لما أخبر القرآن عنه- أنّ هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة فى العنصر، ومتفوقة على سائر الأجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أنّ الجنة خلقت لهم لا لسواهم، وأنّ نار جهنم لن تمسّهم، وأنّهم أبناء اللَّه وخاصته، وأنّهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

والقرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جواباً دامغاً إذ يقول: «قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْأَخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ».

لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا وأنّ الجنة خالصة لنا دون سائر الناس: أو أنّ النار لا تمسّنا إلّاأيّاماً معدودات- إلى توهين إيمان المسلمين وتخدير عقائدهم.

فى الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: «وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸۷

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

هؤلاء يعلمون ما فى ملفّ أعمالهم من وثاق سوداء ومن صحائف إدانة، واللَّه عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنّه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع:

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ». وتذكر الآية أنّ حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا».

المشركون ينبغى أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الإدعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

وبلغ شغفهم بالدنيا أنّه «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذى يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغير من مصيره شيئاً «وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ». إذ كل شىء محصى لدى اللَّه، ولا يعزب عن عمله شىء «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

بحوث

۱- ما هو المراد من الأعوام الألف: المقصود من الأعوام الألف فى قوله تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ». ليس هذا العدد

المعروف، والعرب لم تكن تعرف أنـذاك عـدداً أكبر من الألـف، ولم يكن لما يزيـد على الألف اسم عنـدالعرب، ولـذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة.

۲- علـة ورود كلمـة «الحياة» نكرة فى الآيـة: تنكير الحياة فى تعبير الآية «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ» تفيد الإسـتهانة والتحقير. أى إنّ هؤلاء حريصون حتّى على أتفه حياة وأرخصها وأشقاها، ويفضلونها على الآخرة.

۳- إفرازات العنصرية: كان التعصب العنصـرى وراء كثير من الحروب والمآسـى التى حدثت على الساحة البشـرية خلال جميع عصور التاريخ، واليهود يحتلون دون شك مكان الصدارة بين العنصريين المتعصبين على مر التاريخ.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتى تعاليم موسى، ويزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كى لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم.

التعصب العنصـرى شـعبة من الشـرك، ولـذلك حاربه الإسـلام بشـدة، مؤكـداً أنّ كل أبناء البشـر من أب واحد وام واحدة، ولا تمايز إلّابالتقوى والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۸

۴- عوامل الخوف من الموت: أكثر الناس يخافون من الموت، وخوفهم هذا يعود إلى عاملين:

أ) الخوف من الفناء والعـدم، فالـذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرارًا لحياتهم، ومن الطبيعى أن يخاف الإنسان من الفناء، وهذا الخوف يلاحق هؤلاء حتى فى أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم فى أفواههم.

ب) الخوف من العقاب، ومثل هـذا الخوف يلاحق المـذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يحين حينهم وهم مثقلون بالآثام والأوزار، فينالوا جزاءهم، ولذلك يودّون أن تتأخر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الأنبيـاء العظـام أحيوا فى القلوب الإيمان باليوم الآخر، وبـذلك أبعـدوا شـبح الفناء والإنعـدام من الأذهان، وبيّنوا أنّ الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعّمة.

من جهـة اخرى دعـا الأنبيـاء إلى العمـل الصالـح، كى يبتعـد الإنسـان عن الخوف من العقـاب، ولكى يزول عن القلوب والأذهـان كل خوف من الموت.

قُـلْ مَنْ كَـانَ عَـدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهِ وَ هُـدًى وَ بُشْـرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۹۷) مَنْ كَانَ عَـدُوّاً لِلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (۹۸)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كان سـبب نزول هـذه الآيـة ما روى أنّ ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك، لمّا قدم النبى صـلى الله عليه و آله المدينـة، سألوه فقالوا: يا محمّـد! كيف نومك فقـد اخبرنا عن نوم النبى الـذى يأتى فى آخر الزمان؟ فقال: «تنـام عينـاى وقلبى يقظـان». قـالوا: صـدقت يا محمّـد ... قالوا: فأخبرنا عن ربّك ما هو؟ فأنزل اللَّه سـبحانه «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـدٌ» إلى آخر السورة. فقال له ابن صوريا: خصـلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أىّ ملك يأتيك بما يُنزل اللَّه عليك؟ قال: «جبريل». قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذى يأتيك لآمنّا بك.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۹

التّفسير

قوم جدلون: سـبب نزول الآية الكريمة يبين طبيعة العناد واللجاج والجدل فى اليهود، إبتداء من زمان موسـى عليه السـلام ومروراً بعصر خـاتم الأنبيـاء وحتى يومنـا هـذا. حجتهم فى هـذا الموضع المـذكور فى الآيـة ثقـل التكـاليف التى يـأتى بها جبرائيل، والقرآن الكريم يصرح- فى الآية (۶) من سورة التحريم- بأنّ الملائكة ينفّذون أوامر اللَّه ولا ينحرفون عن طاعته: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ».

القرآن يجيب عن ذريعـة هؤلاء: «قُـلْ مَن كَـانَ عَـدُوًّا لِجِبْرِيـلَ فَـإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِـكَ بِإِذْنِ اللَّهِ». وما جاء به جبرائيل يصـدّق ما نزل فى

الكتب السماوية السابقة: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ». وهو إضافة إلى كل هذا: «وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

الآيـة التاليـة تؤكـد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقروناً بالتهديد وتقول: «مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ».

مشيرة بـذلك إلى أنّ موقف الإنسـان من اللّه وملائكته ورسـله ومن جبرائيل وميكائيل، لا يقبل التفكيك، وأنّ الموقف المعادى من أحدهم هو معاداة للآخرين.

جبريل وميكال: ورد اسم جبريل ثلاث مرات، واسم ميكال مرة واحدة فى القرآن الكريم «۱» ويستفاد من الآيات أنّهما ملكان مقربان من ملائكة اللّه تعالى.

وهناك أحاديث تدور حول ظهور جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبى، وكان فى المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبى) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أنّ النبى صلى الله عليه و آله شاهد جبرائيل مرتين على هيئته الأصلية «۲».

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (۹۹) أَ وَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰۰) وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۰۱)

---

(۱). اسم «جبريل» ورد مرتين فى هذه آلايات و مرة فى سورة التحريم الآية (۴) و اسم «ميكال» لم يرد إلا فى هذا الموضع من القرآن.

(۲). أعلام القرآن/ ۲۷۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۰

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ ابن صوريا قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: يا محمّد! ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل اللّه عليك من آية بيّنة فنتبعك لها. فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

الناكثون من اليهود: الآيـة الاولى تشير إلى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التى توفرت لدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتؤكـد أنّ المعرضين عن هـذه الآيـات البينـات أدركـوا فى الواقـع حقانيـة الـدعوة، لكنهم هبّوا للمعارضـة مـدفوعين بأغراضـهم الشخصية:

«وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

ثم يتطرق القرآن إلى صـفة مجموعـة من اليهود، وهى صـفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنّها صـفة تاريخيـة تلازمهم على مر العصور: «أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

لقـد أخـذ اللّه ميثاقهم فى جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق، وأخـذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنّبى الخاتم المـذكور عندهم فى التوراة فلم يؤمنوا به.

الآيـة الأخيرة تؤكـد بصـراحة أكثر على هـذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنـدِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَـذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

كان أحبار اليهود يبشـرون الناس قبل البعثـة النبوية بالرسول الموعود ويذكرون لهم علاماته وصـفاته، فلما بعث نبى الإسـلام، أعرضوا عما جاء فى كتابهم، وكأنّهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة فى هذا المجال.

بحثان

۱- واضح أنّ تعبير «النزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الكريم لا يعنى الإنتقال المكانى من الأعلى إلى الاسفل وأنّ اللَّه مثلًا فى السماء وأنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانة رب العالمين.

۲- القرآن فى حديثه عن اليهود لا- يوبّخ الجميع بسبب ذنوب الأكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية، وطريقة القرآن هذه فى حديثه عن الامم درس لنا كى لا نحيد فى أحاديثنا ومواقفنا عن الحق والحقيقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۱

وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۲) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۳) سليمان وسحرة بابل: يفهم من الأحاديث أنّ مجموعة من الناس مارست السحر فى عصر النبى سليمان عليه السلام فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها فى مكان خاص. بعد وفاة سليمان عمدت جماعة إلى إخراج هذه الكتابات، وبدأوا بنشر السحر وتعليمه، واستغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أنّ سليمان لم يكن نبياً أصلًا.

مجموعة من بنى إسرائيل سارت مع هذه الموجة ولجأت إلى السحر، وتركت التوراة.

عندما ظهر النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوة سليمان، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمّد يقول: سليمان نبى وهو ساحر!

وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء وتنفى هذه التهمة الكبرى عن سليمان عليه السلام «۱».

الآية الاولى إذن تكشف فضيحة اخرى من فضائح اليهود وهى إتهامهم لنبى اللَّه بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمنَ».

المقصود بكلمة «الشياطين» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآية على نفى الكفر عن سليمان: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمنُ».

---

(۱) سيرة ابن هشام ۲/ ۱۹۲؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۲

فسليمان عليه السلام لم يلجأ إلى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: «وَلكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلّمُونَ النَّاسَ السّحْرَ» «۱».

هؤلاء اليهود لم يستغلّوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساؤوا الاستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هرُوتَ وَمرُوتَ».

هاروت وماروت ملكان إلهيّان جاءا إلى الناس فى وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهما تعليم الناس سبل إبطال السحر، وكما أنّ إحباط مفعول القنبلة يحتاج إلى فهم لطريقة فعل القنبلة، كذلك كانت عملية إحباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط فى الفتنة بعد تعلم السحر: «وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ».

وسقط اولئك اليهود فى الفتنة، وتوغلوا فى انحرافهم، فزعموا أنّ قدرة سليمان لم تكن من النبوّة، بل من السحر والسحرة، وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم بإتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا فى هذا الاختبار الإلهى، فأخذوا العلم من الملكين واستغلّوه على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدرة اللَّه فوق

قـدرتهم وفوق قـدرة مـا تعلموه: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَـا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

لقد تهافتوا على إقتناء هذا المتاع الدنيوى وهم عالمون بأنّه يصادر آخرتهم «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَيهُ مَا لَهُ فِى الْأَخِرَةِ مِنْ خَلقٍ» «۲». لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المتاع الرخيص «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

لقـد أضاعوا سـعادتهم وسـعادة مجتمعهم عن علم ووعى، وغرقوا فى مسـتنقع الكفر والإنحراف «وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

بحثان

۱

- قصّة هاروت وماروت: شاع السحر فى أرض بابل وأدّى إلى إحراج الناس

---

(۱) «السـحر»: نوع من الأعمال الخارقـة للعادة، تؤثر فى وجود الإنسان، و هو أحياناً نوع من المهارة والخفـة فى الحركة وإيهام للأنظار كما إنّه أحيانا ذو طابع نفسى خيالى.

(۲) «الخلاق»: يعنى الخُلق، وقد يعنى الحظّ والنصيب وهذا هو معنى الكلمة فى الآية.

وازعـاجهم، فبعث اللَّه ملكين بصورة البشـر، وأمرهمـا أن يعلمـا النـاس طريقـة إحبـاط مفعول السـحر، ليتخلصوا من شـر السـحرة. كان الملكان مضـطرين لتعليم الناس اصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم طريقة إحباط السحر، واستغلت مجموعة هذه الاصول، فانخرطت فى زمرة الساحرين، وأصبحت مصدر أذى للناس. الملكان حذرا الناس- حين التعليم- من الوقوع فى الفتنة، ومن السقوط فى حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر فى مجموعة منهم «۱».

۲- لا قـدرة لأحـد على عمل دون إذن اللَّه: نفهم من قول اللَّه فى هـذه الآيات أنّ السـحرة ما كانوا قادرين على إنزال الضّـر بأحد دون إذن اللَّه سـبحانه، وليس فى الأمر «جبر» ولا إرغام، بل إنّ هـذا المعنى يشـير إلى مبـدأ أساس فى التوحيـد، وهو أنّ كل القوى فى هذا الكون تنطلق من قـدرة اللَّه تعـالى، النـار إذ تحرق إنّمـا تحرق بـإذن اللَّه، والسـكين إذ تقطع إنمـا تقطع بـأمر اللَّه، لا يمكن للساحر أن يتدخل فى عالم الخليقة خلافاً لإرادة اللَّه.

كـل مـا نراه من آثـار وخواص إنّمـا هى آثـار وخواص جعلهـا اللَّه سـبحانه للموجودات المخلتفـة، ومن هـذه الموجودات من يحسـن الاستفادة من هذه الهبة الإلهيّة ومنهم من يسىء الاستفادة منها. و «الاختيار» الذى منحه اللَّه للإنسان إنّما هو وسيلة لإختباره وتكامله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انْظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۱۰۵)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: لمّا قدّم سـبحانه نهى اليهود عن السـحر، عقبه بالنهى عن إطلاق هذه اللفظة فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقُولُوا رَاعِنَا» كـان المسـلمون يقولون: يا رسول اللَّه! راعنا. أى استمع منّا. فحرّفت اليهود هـذه اللفظـة، فقالوا: يا محمّـد! راعنا. وهم يلحدون إلى الرعونة يريدون به النقيصة والوقيعة فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة ۱۲/ ۱۰۶.

المسلمون، فنهى اللَّه عن ذلك «لَاتَقُولُوا رَاعِنَا» «وَقُولُوا انْظُرْنَا».

التّفسير

لا- توفّروا للأعداء فرصة الطعن: الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ممّا سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة.

حين يشدد الإسلام إلى هذا الحد فى هذه المسألة البسيطة، فإنّ تكليف المسلمين فى المسائل الكبرى واضح، عليهم فى مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون من الداخل والخارج للإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكنّه مجموعة من أهل الكتاب والمشركين من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِنْ رَّبِّكُمْ»، وسواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة اللَّه لها سنّة إلهيّة ولا تخضع للميول والأهواء: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل اللَّه المسلمين من فضل ونعمة، وما منّ عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل اللَّه عظيم.

مغزى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»: أكثر من ثمانين موضعاً خاطب اللَّه المسلمين فى كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت فى المدينة، ولا وجود لهذه العبارة فى الآيات المكية، ولعلّ ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة فى المدينة، وإلى ظهور المجتمع الإسلامى بعد الهجرة. ولذلك خاطب اللَّه الجماعة المؤمنة بعبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»، وهذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسليم الذى عقدته الجماعة المسلمة مع ربّهابعد الإيمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والإنصياع لأوامر ربّ العالمين، والإستجابة لما يأتى بعد هذه العبارة من أحكام.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۹۵

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۶) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۱۰۷) الغرض من النسخ: الآية الاولى تشير أيضاً إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين. كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحياناً قائلين لهم إنّ الدين دين اليهود وأنّ القبلة قبلة اليهود، ولذلك فإنّ نبيّكم يصلى تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية (۱۴۴) من هذه السورة وتغيرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى مكة، غيّر اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة، فلم هذا التغيير؟

وإذا كانت القبلة الثانية هى الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة- إذن- باطلة.

القرآن الكريم فى هذه الآية يرد على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين، ويقول: «مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» «۱». وليس مثل هذا التغيير على اللَّه بعسير «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة اللَّه سبحانه وتعالى وحاكميته فى السماوات والأرض وفى الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». وفى هذه العبارة من الآية أيضاً تثبيت لقلوب المؤمنين، كى لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية فى تعميق هذا التثبيت، مؤكدة أنّ المجموعة المؤمنة ينبغى أن تعتمد على اللَّه وحده، وتستند إلى قوته وقدرته دون سواه، فليس فى هذا الكون سند حقيقى سوى اللَّه سبحانه: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ».

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (۱۰۸)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس أنّه قال: إنّ رافع بن حرملة، ووهب بن زيد قالا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

(۱) «النسخ»: فى اللغة الإزالة، وفى الاصطلاح تغيير حكم شرعى واحلال حكم آخر محله.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۶

إئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك. فأنزل اللَّه هذه الآية.

التّفسير

حجج واهية: هذا الآية الكريمة، وإن كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلّاأنّها ترتبط أيضاً بمواقف اليهود.

لعل هذا السؤال وجه إلى الرسول بعد تغيير القبلة، وبعد حملات التشكيك التى شنها اليهود بين المسلمين وغير المسلمين، واللَّه سبحانه فى هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفة: «أَمْ تُرِيدُونَ أن تَسَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ».

مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان واتجاه نحو الكفر، ولذلك قالت الآية: «وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

الإسلام طبعاً لا يمنع طرح الأسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل إثبات صحة الدعوة، لأنّ مثل هذه الأسئلة والطلبات هى طريق الإدراك والفهم والإيمان.

القرآن الكريم ينبه فى هذه الآية بأنّ المجموعة البشرية التى لا تسلك طريق العقل والمنطق فى اسئلتها ومطالبتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۹) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۰) حسد وعناد: كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك إلّاعن حسد يستعر فى أنفسهم، تقول الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۷

وأمام هذه المواقف الدنيئة والنظرات الضيّقة والآمال التافهة والنوايا الخبيثة التى تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الافق وبعد النظرة «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». إنّ «أمر اللَّه» فى هذه الآية يعنى «أمر الجهاد» ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز إرتباط الإنسان باللَّه، وإيتاء الزكاة وهى أيضاً رمز التكافل بين أبناء الامة المسلمة، وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ».

ثم تؤكد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: «وَمَا تُقَدّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ». واللَّه سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الأعمال، ولا يضيع عنده أجر العاملين «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

بحثان

۱- «اصفحوا»: من «صفح» وصفح الشىء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر، والأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكن عطفها على «فاعفوا» يفهم أنّه أمر بالإعراض لا عن جفاء بل عفو وسماح.

۲- عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قد تشير إلى أنّ اللَّه قادر أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبيه، ولكن طبيعة حياة البشر

والکون قائمهٔ علی أنّ الأعمال لا تتم إلّا بالتدریج وبعد توفّر المقدمات.

وَ قَالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّهَٔ إِلَّا مَنْ کَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَی تِلْکَ أَمَانِیُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ (۱۱۱) بَلَی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لَا هُمْ یَحْزَنُونَ (۱۱۲) احتکار الجنهٔ: القرآن فی هاتین الآیتین یشیر إلی ادعاء آخر من الادعاءات الفارغهٔ لمجموعهٔ من الیهود والنصاری: «وَقَالُوا لَن یَدْخُلَ الْجَنَّهَٔ إِلَّا مَن کَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَی . ثم یجیبهم جواباً رادعاً قائلًا: «تِلْکَ أَمَانِیُّهُمْ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۸

ثم تخاطب الآیهٔ رسول اللَّه وتقول: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَکُمْ إِن کُنتُمْ صَادِقِینَ».

بعد التأکید علی أنّ إدعاء هؤلاء فارغ لا قیمهٔ له، وأنّه مجرد امنیهٔ تخامر أذهانهم، یطرح القرآن المعیار الأساس لدخول الجنهٔ علی شکل قانون عام: «بَلَی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ». ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم فی ظلال رحمهٔ اللَّه «وَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَا هُمْ یَحْزَنُونَ».

ذکر عبارهٔ «وَهُوَ مُحْسِنٌ» بعد طرح مسألهٔ التسلیم، إشارهٔ إلی أنّ صفهٔ الإحسان لیست طارئهٔ فی نفوس المؤمنین، بل هی خصلهٔ نافذهٔ فی أعماق هؤلاء.

ونفی الخوف والحزن عن أتباع خط التوحید سببه واضح، لأنّ هؤلاء یخافون اللَّه دون سواه، بینما المشرکون یخشون من کل ما یهدد مصالحهم الدنیویهٔ التافههٔ، بل یخشون أموراً خرافیهٔ موهومهٔ تقلقهم وتقضّ مضاجعهم.

وَ قَالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصَارَی عَلَی شَیْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَی لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلَی شَیْءٍ وَ هُمْ یَتْلُونَ الْکِتَابَ کَذلِکَ قَالَ الَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیَامَهِٔ فِیمَا کَانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۱۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قال ابن عبّاس: إنّه لمّا قدم وفد نجران من النصاری علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أتتهم أحبار الیهود فتنازعوا عند رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال رافع بن حرملهٔ: ما أنتم علی شیء، وجحد نبوّهٔ عیسی وکفر بالإنجیل. فقال رجل من أهل نجران: لیست الیهود علی شیء، وجحد نبوّهٔ موسی وکفر بالتوراهٔ، فأنزل اللَّه هذه الآیهٔ.

التّفسیر

تعصّب وتناقض: فیما مرّ بنا من آیات رأینا جانباً من الادّعاءات الفارغهٔ التی أطلقها جمع من الیهود والنصاری، ورأینا أنّ هذه الادّعاءات الفارغهٔ تستتبعها روح احتکاریهٔ ضیّقهٔ، ثم وقوع فی التناقضات. تقول الآیهٔ: «وَقَالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصَارَی عَلَی شَیْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَی لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلَی شَیْءٍ».

ثم تضیف الآیهٔ: «وَهُمْ یَتْلُونَ الْکِتَابَ». أی: إنّ هؤلاء لدیهم الکتاب الذی یستطیع أن ینیر لهم الطریق فی هذه المسائل، ومع ذلک ینطلقون فی أحکامهم من التعصب واللجاج والعناد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۹

ثم تقول الآیهٔ: «کَذلِکَ قَالَ الَّذِینَ لَایَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ». ثم اختتمت الآیهٔ بالتأکید علی أنّ الحقائق إن خفیت فی هذه الدنیا، فهی لا تخفی فی الآخرهٔ حیث تنکشف کل الأوراق:

«فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیمَهِٔ فِیمَا کَانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ».

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ وَ سَعَی فِی خَرَابِهَا أُولئِکَ مَا کَانَ لَهُمْ أَنْ یَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِینَ لَهُمْ فِی الدُّنْیَا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِٔ عَذَابٌ عَظِیمٌ (۱۱۴)

سبب النّزول

روی فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام أنّ الآیة نزلت فی قریش حین منعوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله دخول مکة والمسجد الحرام.

التّفسیر

أظلم الناس: سبب النّزول توضّح أنّ الآیة تتحدث عن الیهود والنصاری والمشرکین.

القرآن یقول لهؤلاء جمیعاً ولکل من یسلک طریقاً مشابهاً لهؤلاء: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أن یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ وَسَعَی فِی خَرَابِهَا». ثم تقول الآیة: «أُولئِکَ مَا کَانَ لَهُمْ أَنْ یَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِینَ». أی: إنّ المسلمین والموحدین ینبغی أن یکونوا علی درجة من القوة والمقاومة بحیث لا یستطیع الظلمة أن یمدوا أیدیهم إلی هذه الأماکن المقدسة.

والآیة تبین بعد ذلک العقاب الذی ینتظر هؤلاء الظلمة ممن یرید أن یفصل بین اللَّه وعباده: «لَهُمْ فِی الدُّنْیَا خِزْیٌ وَلَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَیْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِیمٌ (۱۱۵)

سبب النّزول

روی فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: إنّ الیهود أنکروا تحویل القبلة إلی الکعبة عن بیت المقدس فنزلت الآیة ردّاً علیهم.

التّفسیر

الآیة السابقة تحدثت عن الظالمین الذین یمنعون مساجد اللَّه أن یذکر فیها اسمه ویسعون فی خرابها، وهذه الآیة تواصل موضوع الآیة السابقة، فتقول: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج۱ ۱۴۹

فَأَیْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ». تؤکد هذه الآیة أنّ منع الناس عن إحیاء المساجد لا یقطع الطریق أمام عبودیة اللَّه، فشرق هذا العالم وغربه للَّهسبحانه، فاللَّه سبحانه وتعالی لا یحده مکان، ولذلک تقول الآیة بعد ذلک: «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِیمٌ».

فلسفة القبلة: اللَّه موجود فی کل جهة ومکان، فلماذا وجب الإتجاه نحو القبلة فی الصلاة؟

واضح أنّ الإتجاه نحو القبلة لا یعنی تحدید ذات الباری تعالی فی مکان وفی جهة، بل إنّ الإنسان موجود مادی، ولابد أن یصلی باتجاه معین، ثم إنّ ضرورة الوحدة والتنسیق فی صفوف المسلمین تفرض اتجاههم فی الصلاة نحو قبلة واحدة، وإلّا ساد الهرج والفوضی، وتفرقت الصفوف وتشتتت.

أضف إلی ذلک أنّ الکعبة التی جعلت قبلة للمسلمین بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحید، والإتجاه نحوها یوقظ فی النفوس ذکریات المسیرة التوحیدیة.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (۱۱۶) بَدِیعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذَا قَضَی أَمْراً فَإِنَّمَا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱۱۷) خرافات الیهود والنصاری والمشرکین: المسیحیون وجمع من الیهود والمشرکون تبنّوا عقیدة تافهة بشأن اتخاذ اللَّه ابناً. الآیة الکریمة التی نحن بصددها ذکرت هذا المعتقد المنحرف تقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». ثم تجیب علیهم أوّلًا بتنزیه اللَّه عن هذه النسبة:

«سُبْحَانَهُ». فما حاجة اللَّه إلی الولد؟ هل هو محتاج إلی المساعدة أو إلی بقاء النسل؟ نعم، لا یمکن نسبة أی إحتیاج إلی اللَّه «بَل لَّهُ مَا فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ»، وجمیع الکون خاضع له «کُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ».

ولیس هو مالک جمیع موجودات الکون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أی موجدها دون إحتیاج إلی مادة أولیة فی هذا الإیجاد: «بَدِیعُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ما حاجة اللّه إلى الولد وهو النافذ الإرادة فى جميع الموجودات؟ «وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

والمراد من عبارة «كُنْ فَيَكُونُ» هى الإرادة التكوينية للّه‌تعالى وحاكميته فى الخليقة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۱

دلائل نفى الولد: نسبة الولد إلى اللّه سبحانه، هى دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شىء بالوجود البشرى المحدود. الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

ومن جهة اخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدريج، ويحتاج لذلك- وخاصة فى فترة الشيخوخة- إلى من يساعده فى أعماله.

وهو أيضاً ينطوى على عواطف وحبّ للأنيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس فى حياة الإنسان، والولد يلبى هذه الحاجة.

واضح أنّ كل هذه الامور لا يمكن أن تجد لها مفهوماً بشأن اللّه سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كل شىء، وهوالأزلى الأبدى.

أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً واللّه منزّه عن ذلك.

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۱۱۸) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (۱۱۹) حجج اخرى: بمناسبة ذكر حجج اليهود فى الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة اخرى من المعاندين ويبدو أنّهم المشركون العرب فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ».

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلًا: «كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

لو أنّ هؤلاء يستهدفون حقاً إدراك الحقيقة، ففى هذه الآيات النازلة على رسول اللّه صلى الله عليه و آله دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعى إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم اللّه مباشرة؟!

الآية التالية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا».

فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهيّة، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين وإنذار العاصين وهذه مسؤوليتك أيّها الرسول،

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۲

وأمّا الفئة التى لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فانت غير مسؤول عنها: «وَلَا تُسَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ».

وَ لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۱۲۰) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۲۱)

أسباب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يرجون أن يصلّى النبى صلى الله عليه و آله إلى قبلتهم، فلمّا صرف اللّه القبلة إلى الكعبة شقّ ذلك عليهم وآيسو أن يوافقهم على دينهم فأنزل اللّه «وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى الآية لتعلن للنبى أنّه لا يرضى كل فرقة منهم إلّاأن يتبع ملّتهم أى: قبلتهم.

وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، ففى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس:

نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة وكانوا أربعين رجلًا، إثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا. وقيل: هم من آمن من اليهود كعبد اللّه بن سلام، وشعبة بن عمرو، وتمام بن يهودا، وأسد واسيد إبنى كعب وابن يامين.

التّفسير

إرضاء هذه المجموعة محال: الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النبى صلى الله عليه و آله إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل الموضوع السابق وتخاطب الرسول بأن لا يحاول عبثاً فى كسب رضا اليهود والنصارى لأنّه: «وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ».

واجبك أن تقول لهم: «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . هدى اللّه هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الأفكار التافهة التى تفرزها عقول الجهّال.

ثم تقول الآية: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۳

وبعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد باولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ [أى: بالتفكر والتدبر ثم العمل به أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». أى: يؤمنون بالرسول الكريم صلى الله عليه و آله «وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

بحوث

۱- سؤال عن عصمة الأنبياء: العبارة القرآنية: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهوَاءَهُمْ» قد تثير سؤالًا بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبى صلى الله عليه و آله- وهو معصوم- أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

فى الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت فى القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء لأنّها- من جهة- جملة شرطية والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة اخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالًا، بل المعصوم له قدرة على إرتكاب الذنب، ولم يسلب منه الإختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإن اتّجه إلى النبى صلى الله عليه و آله ولكن قد يكون موجهاً إلى الناس جميعاً.

۲- للإسترضاء حدود: صحيح أنّ الإنسان الرّسالى يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين الذين يتحركون فى مخالفتهم من موقع الغفلة والمرونة، أمّا الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغى أن يكون غير ذلك، ولا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لابدّ من الإعراض عنهم وتركهم.

۳- حق التلاوة: عبّر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنّهم «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»، وهو تعبير عميق.

فى تفسير الميزان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية: «يرتّلون آياته، ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو واللّه حفظ آياته ودرس حروفه، وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه «۱»، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه، قال اللّه تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ»

(۱) المقصود من الأعشار والأخماس تقسيمات القرآن.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۴

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۲۲) وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۱۲۳) مرّة اخرى يتّجه الخطاب الإلهى إلى بنى إسرائيل ليذكرهم بالنعم التى احيطوا بها، فتقول الآية: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ». أى: على كل من كان يعيش

فی ذلک الزمان.

کل نعمة تقترن بمسؤولية، وتقترن بالتزام وتكليف إلهی جديد، ولذلک قال سبحانه فی الآية التالية: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيًا». «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ». أی: غرامة أو فدية، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفعَةٌ» إلّابإذن اللّه، ولا يستطيع أحد غير اللّه أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِی قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِينَ (۱۲۴) الإمامة قمة مفاخر إبراهيم عليه السلام: هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبیّ اللّه الكبير إبراهيم عليه السلام وعن بناء الكعبة وأهمّية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات- وعددها ثمانی عشرة آية- ثلاثة امور:

أوّلًا: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التی ستطرح بعد ذلک.

ثانياً: لفضح إدّعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم.

ثالثاً: لتفهيم مشركی العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبی الكبير محطم الأصنام، والرّد على ما كانوا يتصوّرونه من إرتباط بينهم وبين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أوّلًا: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ». وبعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه اللّه الوسام الكبير: «قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وهنا تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه «قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِی». لكنّ اللّه أجابه: «قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۵

وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام فی استمرار خط الإمامة فی ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلّاالطاهرون المعصومون من ذرّيّته لا غيرهم.

بحوث

۱- المقصود من «الكلمات»: من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام نفهم أنّ المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التی وضعها اللّه على عاتق إبراهيم عليه السلام وهی عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

إسكان الزوج والولد فی واد غير ذی زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة فی تلک المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه فی وسط النيران، وثباته ورباطة جأشه فی كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبتعاد عن الوطن، والإتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها «۱».

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلًا وصعباً حقّاً، لكنّه بقوّة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبت لياقته لمقام «الإمامة».

۲- من هو الإمام؟ يتبيّن من الآية الكريمة التی نحن بصددها، أنّ منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السلام بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النبوّة والرسالة.

روى فی الكافی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يقول: «إنّ اللّه تبارک وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، وإنّ اللّه اتّخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولًا، وإنّ اللّه اتّخذه رسولًا قبل أن يتخذه خليلًا، وإنّ اللّه اتّخذه خليلًا قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء، قال: «إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قال: فمن عظمها فی عين إبراهيم قال: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِی قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِينَ» قال: لا

يكون السفيه إمام التقى».

۳- الفرق بين النبوة والإمامة والرسالة: يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أنّ حملة المهمات من قبل اللَّه تعالى لهم منازل مختلفة:

---

(۱) روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً (تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث)، وخلاصتها ما ذكرناه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۶

أ) منزلة النبوة: أى إستلام الوحى من اللَّه، فالنبى هو الذى ينزل عليه الوحى، ومايستلمه من الوحى يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.

ب) منزلة الرسالة: وهى منزلة إبلاغ الوحى، ونشر أحكام اللَّه، وتربية الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرّسول إذن هو المكلف بالسعى فى دائرة مهمته لدعوة الناس إلى اللَّه وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكرى عقائدى فى مجتمعه.

ج) منزلة الإمامة: وهى منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام اللَّه عملياً عن طريق إقامة حكومة إلهية وإستلام مقاليد الأمور اللازمة.

بعبارة اخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرسول على تبليغ هذه الأوامر.

۴- مَن الظالم؟ المقصود من «الظلم» فى التعبير القرآنى: «لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع فى النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشىء فى محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشىء فى غير مكانه المناسب.

ولمّا كانت منزلة الإمامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإنّ لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص. لذلك نرى أئمّة آل البيت عليهم السلام يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النبى مباشرة لعلى عليه السلام وإنحصارها به، مشيرين إلى أنّ الآخرين عبدوا الأصنام فى الجاهلية، وعلى عليه السلام وحده لم يسجد لصنم. وأىّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟ ألم يقل لقمان لابنه: «يَا بُنَىَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» «۱».

۵- تعيين الإمام من قبل اللَّه: من الآية مورد البحث نفهم ضمنياً أنّ الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معيناً من قبل اللَّه سبحانه، لما يلى:

أوّلًا: الإمامة ميثاق إلهى، وطبيعى أن يكون التعيين من قبل اللَّه، لأنّه طرف هذا الميثاق.

ثانياً: الأفراد الذين تلبسوا بعنوان الظلم، ومارسوا فى حياتهم لحظة ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلًا، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوماً.

---

(۱) سورة لقمان/ ۱۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۷

وهل يعلم ذلك فى نفوس الأفراد إلّااللَّه؟

ولو أردنا بهذا المعيار أن نعيّن خليفة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلا يمكن أن يكون غير على عليه السلام.

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۱۲۵) عظمة بيت اللَّه: بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السلام فى الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التى وضع قواعدها إبراهيم عليه السلام فهى تبدأ بالتذكير بعبارة «وَإذ» أى:

اذكروا: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا».

«المثابة»: من الثوب، أى عودة الشىء إلى حالته الاولى، ولما كانت الكعبة مركزاً يتجه إليه الموحدون كل عام، فهى محل لعودة جسمية وروحية إلى التوحيد والفطرة الاولى، ومن هنا كانت مثابة.

الكعبة- طبقاً للآية أعلاه- ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة دماء، وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضاً فى هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمصها بسوء.

وهذه الصفة للبيت هى استجابة لأحد مطاليب إبراهيم عليه السلام من ربّه.

ثم تضيف الآية: «وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرٰهِيمَ مُصَلًّى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: «وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

والتطهير: تعنى تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

بيت اللّه: وصفت الكعبة بأنّها بيت اللّه، وعبّرت الآية عن الكعبة ب «بيتى»، وواضح أنّ اللّه ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هى «إضافة تشريفية» تبين قدسية الشىء الذى ينسب إلى اللّه، ولذلك كان شهر رمضان «شهر اللّه» وكانت الكعبة «بيت اللّه».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۸

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۲۶) إبراهيم يدعو ربّه: فى هذه الآية توجه إبراهيم إلى ربّه بطلبين هامين لسكنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحدهما فى الآية السابقة. القرآن يذكّر بما قاله إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا بَلَدًا ءَامِنًا».

والطلب الآخر هو: «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وهكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أوّلًا، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة إلى أنّ الاقتصاد السالم لا يتحقق إلّابعد الأمن الكامل.

واللّه سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثانى أيضاً، ولكنّه «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» فى الدّنيا، «ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فى الحياة الآخرة.

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۲۷) رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۲۸) رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۲۹) إبراهيم يبنى الكعبة: نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أنّ بيت الكعبة كان موجوداً قبل‌إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. وهذه الآية تدلّ على أنّ بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه وابنه الرضيع إلى مكّة. وتقول الآية ۹۶ من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا». ومن المؤكّد أنّ عبادة اللّه وإقامة أماكن العبادة لم تبدأ فى زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۹

عبارة الآية الاولى من الآيات محل البحث تؤكد هذا المعنى، إذ تقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت التى كانت موجودة.

فى الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم وإسماعيل إلى ربّ العالمين بخمسة طلبات هامة.

قالا أوّلًا: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَکَ».

ثم أضافا: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ».

وطلبا تفهم طريق العبادة: «وَأَرِنَا مَنَاسِکَنَا»، ليعبدا اللَّه حق عبادته.

ثم طلبا التوبة: «وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّکَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذريّة: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِکَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّکَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فی أنّ الكتاب يعنی الكتب السماوية، والحكمة تعنی العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة فی الأحكام، وهی التی يعلمها النبی أيضاً.

بحوث

١- هدف بعثة الأنبياء: فی الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم وإسماعيل من اللَّه ظهور نبی الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثة:

الأوّل: تلاوة آيات اللَّه على الناس، أی إيقاظ الأفكار والأرواح فی ظل الآيات الإلهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو» من تلا، أی اتبع الشيء بالشيء، وسميت «التلاوة» كذلک لأنّها قراءة وفق تتبع ونظم. هی مقدمة لليقظة والإعداد والتعليم والتربية.

الثانی: «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية إلّابالتعليم.

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فی أنّ الكتاب يعنی الكتب السماوية، والحكمة تعنی العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة فی الأحكام، وهی التی يعلمها النبی أيضاً.

الثالث: «التزكية» وهو الهدف الأخير.

«التزكية»: فی اللغة هی الإنماء، وهی التطهير أيضاً.

وبذلک يتلخص الهدف النهائی من بعثة الأنبياء فی دفع الإنسان على مسيرة التكامل «العلمی» و «العملی».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٠

٢- هل «التعليم» مقدم أم «التربية»؟ فی أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارهما هدف الأنبياء، وفی ثلاثة مواضع منها قُدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١- آل عمران، ١٦٤- الجمعة، ٢). وفی موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). ونعلم أنّ التربية لا تتم إلّابالتعليم. لذلک حين يتقدم التعليم على التربية فی الآية فإنّما ذلک بيان للتسلسل المنطقی الطبيعی لهما، وفی المواضع التی تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلک إشارة إلى أنّها الهدف، لأنّ الهدف الأصلی هو التربية، وما عداها مقدمة لها.

٣- النبی من الناس: تعبير «منهم» فی الآية «وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ» يشير إلى أنّ القادة البشرية ينبغی أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغريزية، كی يكونوا القدوة اللائقة فی الجوانب العملية، ومن الطبيعی أنّهم- لو كانوا من غير البشر- ما استطاعوا إدراک حاجات الناس والمشكلات العويصة الكامنة لهم فی حياتهم، ولا أمكنهم أن يكونوا قدوة واسوة لهم.

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

إبراهيم الإنسان النموذج: الآيات السابقة ألقت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليه السلام فتحدثت عن بعض خدماته وطلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية. من مجموع ما مر نفهم أنّ اللَّه سبحانه شاء أن يكون هذا النبی، شيخ الموحدين وقدوة الرساليين، على مر العصور. لذلک تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ». أليس من السفاهة أن يعرض الإنسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفطرة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه إلى طريق الشرک والكفر والفساد وضياع

العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدین والدنیا؟

ثم تضیف الآیة: «وَلَقَدِ اصْطَفَیْنَهُ فِی الدُّنْیَا وَإِنَّهُ فِی الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِینَ».

الآیة التالیة تؤکد علی صفة اخری من صفات إبراهیم التی هی فی الواقع أساس بقیة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۱

صفاته العظیمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ».

ووصیة إبراهیم بنیه فی أواخر أیام حیاته تجسید آخر لهذه الحیاة الشامخة: «وَوَصَّی بِهَا إِبْرَهِیمُ بَنِیهِ وَیَعْقُوبُ». فکل من إبراهیم ویعقوب وصّیا أبناءهما بالقول: «یَا بَنِیَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی لَکُمُ الدِّینَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ».

لعل القرآن الکریم، بنقله وصیة إبراهیم، یرید أن یقول للإنسان إنّه مسؤول عن مستقبل أبنائه، علیه أن یهتم بمستقبلهم المعنوی قبل أن یهتم بمستقبلهم المادی.

أَمْ کُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ یَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِیهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِی قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَکَ وَ إِلهَ آبَائِکَ إِبْرَاهِیمَ وَ إِسْمَاعِیلَ وَ إِسْحَاقَ إِلهاً وَاحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۳) تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا کَسَبَتْ وَ لَکُمْ مَا کَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۱۳۴)

سبب النّزول

فی تفسیر الصافی: إنّ الیهود قالوا لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله: ألست تعلم أنّ یعقوب أوصی بنیه بالیهودیة یوم مات؟ فنزلت.

التّفسیر

کما رأینا فی سبب النزول، وظاهر الآیة یدل علی ذلک أیضاً، کان جمع من منکری الإسلام ینسبون ما لا ینبغی نسبته إلی النبی یعقوب، والقرآن یردّ علیهم بالقول: «أَمْ کُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ یَعْقُوبَ الْمَوْتُ». هذا الذی نسبوه إلیه لیس بصحیح، بل الذی حدث آنذاک «إِذْ قَالَ لِبَنِیهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِی».

فی الجواب: «قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَکَ وَإِلهَ ءَابَائِکَ إِبْرهِیمَ وَإِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

آخر آیة فی بحثنا، تجیب علی توهّم آخر من توهمات الیهود، فکثیر من هؤلاء کانوا یستندون إلی مفاخر الآباء والأجداد وقرب منزلة أسلافهم من اللَّه تعالی، فلا یرون بأساً فی انحرافهم هم ظانین أنّهم ناجون بوسیلة اولئک الأسلاف. یقول القرآن: «تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا کَسَبَتْ وَلَکُم مَّا کَسَبْتُمْ وَلَا تُسَلُونَ عَمَّا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۲

وبذلک أرادت الآیة أن توجه أنظار هؤلاء إلی أعمالهم وسلوکهم وأفکارهم، وتصرفهم عن الإنغماس فی الإفتخار بالماضین.

وَ قَالُوا کُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَی تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِیمَ حَنِیفاً وَ مَا کَانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْنَا وَ مَا أُنْزِلَ إِلَی إِبْرَاهِیمَ وَ إِسْمَاعِیلَ وَ إِسْحَاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِیَ مُوسَی وَ عِیسَی وَ مَا أُوتِیَ النَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِی شِقَاقٍ فَسَیَکْفِیکَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۱۳۷)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: إنّ عبد اللَّه بن صوریا وکعب بن الأشرف ومالک بن الضیف وجماعة من الیهود ونصاری أهل نجران خاصموا أهل الإسلام. کل فرقة تزعم أحق بدین اللَّه من غیرها، فقالت الیهود: نبیّنا موسی أفضل الأنبیاء، وکتابنا التوراة أفضل الکتب. وقالت النصاری: نبیّنا عیسی أفضل الأنبیاء، وکتابنا أفضل الکتب، وکل فریق منهما قال للمؤمنین: کونوا علی دیننا، فأنزل اللَّه تعالی هذه الآیة.

التّفسیر

نحن على حق لا ـ غيرنـا: التمحور والإنغماس فى الذاتيـة يؤدى إلى أن يحتكر الإنسان الحق لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويسـعى إلى أن يجرهم إلى معتقداته. الآيةُ الاولى تتحدث عن مجموعةٍ من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول: «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا». فيرد عليهم القرآن مؤكـداً أنّ الأديان المحرفة لا تسـتطيع إطلاقاً أن تهدى الإنسان: «قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الآيةُ التالية تأمر المسلمين أن «قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

لا يجوز أن ننطلق من محور الذاتية فى الحكم على هذا النبى أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۳

الأنبياء بمنظار رسالى، ونعتبرهم جميعاً رسل ربّ العالمين ومعلمى البشـرية، قـد أدى كل منهم دوره فى مرحلـة تاريخيـة معينـة، وكان هدفهم واحداً، وهو هداية الناس فى ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة.

ثم يضيف القرآن قائلًا: «فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ».

ولو تخلى هؤلاء عن عنصرية وذاتياتهم، وآمنوا بجميع أنبياء اللَّه فقد اهتدوا أيضاً، وإلّا فقد ضلوا سواء السبيل.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين وتبعث فيهم الثقة والطمأنينة بالقول: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ» لأقوالهم «الْعَلِيمُ» بمؤامراتهم.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (۱۳۸) قُلْ أَ تُحَاجُّونَنَا فِى اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (۱۳۹) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۰) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۱) التخلى عن غير صـبغة اللَّه: بعـد الدعوة التى وجهتها الآيات السابقة لإتباع الأديان بشأن إنتهاج طريق جميع الأنبيـاء، أول آيـة فى بحثنـا تـأمرهم جميعاً بترك كل صـبغة، أى دين، غير «صِبْغَةَ اللَّهِ». ثم تضـيف الآيـة: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً». أى: لا أحسن من اللَّه صبغة، «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» فى إتباع ملة إبراهيم التى هى صبغة اللَّه.

ذكر المفسرون أنّ النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم فى ماء أصـفر اللون، ويسـمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للمولود من الذنب الذاتى الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذا المنطق الخاوى ويقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصـبغات الظاهرية الخرافية المفرقة وتصـطبغوا بصبغة اللَّه لتطهر روحكم.

كان اليهود وغيرهم يحاجّون المسلمين بصور شتى، كانوا يقولون: إنّ جميع الأنبياء

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۴

مبعوثون منا، وإنّ ديننا أقـدم الأديان، وكتابنا أعرق الكتب السـماوية. القرآن يردّ على كل هذه الأقاويل ويقول: «قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ».

واعلموا أيضاً أن لا امتياز لأحد على غيره إلّابالأعمال، وكل شخص رهن أعماله «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

مع فارق، هو إنّ كثيراً منكم يشركون فى توحيدهم: «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

الآيـة التاليـة تجيب على واحـد آخر من هـذه الإدعاءات الفارغة وتقول: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى .

ثم تجيب الآية عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: «قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ».

فاللَّه أعلم أنّهم ما كانوا يهوداً ولا نصارى.

وقد تعلمون أنتم وإن كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتثبيت تهمة وذنب، وكتمان للحقيقة «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ».

اعلموا أنّه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ».

فى آخر آية من الآيات التى نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين:

افترضوا أنّ إدعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنّه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تغيير القبلة: هذه الآية وآيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامى، كان له آثاره الكبيرة فى المجتمع آنذاك. رسول الإسلام صلى الله عليه و آله صلّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة فى مكة، وبضعة أشهر فى المدينة بعد الهجرة. ثم تغيّرت القبلة، وأمر اللّه المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبة).

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الإعتراضات: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا» «۱».

---

(۱) «السفهاء»: جمع «سفيه» أطلقت فى الأصل على من خفّت حركة جسمه، وقيل: زمام سفيه، أى كثير الإضطراب خفيف الوزن. ثم استعملت الكلمة فى خفة النفس لنقصان العقل فى الامور الدينية والدنيوية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۵

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة فلِمَ هذا التغيير؟

اللّه سبحانه يجيب على هذا الإعتراض، فأمر رسوله أن «قُلْ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

فليس للمكان قداسة ذاتية، إنّما يكتسب قداسته بإذن اللّه، وكل مكان ملك للّه، والمهم هو الطاعة والإستسلام لربّ العالمين. تغيير القبلة فى الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهى، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهداية الإلهيّة.

وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۴۳) الامة الوسط: هذه الآية تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أوّلًا: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا». أى كما جعلنا القبلة وسطا، كذلك جعلناكم امة فى حالة اعتدال.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلأنّ النصارى- الذين يعيش معظمهم فى غرب الكرة الأرضية- يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون إلى قبلتهم فى بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح، واليهود- الذين يتواجدون غالباً فى الشامات وبابل- يتجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أمّا «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين فى المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفى خط وسط.

والهدف من ذلك: «لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا».

و «شهادة» الامّة المسلمة على الناس، و «شهادة» النبى على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الاسوة والقُدوَة، لأنّ الشاهد ينتخب من بين أزكى الناس وأمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآنى أنّ الامة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، كما أنّ النبى صلى الله عليه و آله فرد نموذجى بين أبناء الامّة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۶

ثم تشير الآيـة إلى سرّ آخر من أسرار تغيير القبلـة فتقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ».

ثم تضيف الآية: «وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ».

لولا الهداية الإلهيّة، لما وجدت فى نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر اللَّه.

وأمام وسوسـة الأعـداء المضـللين والأصـدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشـككون فى صـحة ما سـبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

أسرار تغيير القبلة: لما كانت الكعبة فى بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد امر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت‌المقدس، ليتحقق الإنفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعـد الهجرة وإقامـة الدولة الإسـلامية والمجتمع الإسـلامى، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضـرورة لاسـتمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعى أن يسـتثقل الصـلاة نحو بيت المقدس اولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصـيد المعنوى لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسـلمون بهذا التحول وُضعوا فى بوتقة الاختبار، لتخليصهم مما علق فى نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو فى وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر اللَّه سبحانه.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۴۴) كل الوجوه شطر الكعبة: هذه الآية تشير إلى الأمر الإلهى بتغيير القبلة وتقول: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۷

ذكرت الروايـة أنّ هـذا الأمر الإلـهى نزل فى لحظـة حساسـة ملفتـة للأنظار، حين كان الرسول والمسـلمون يؤدون صـلاة الظهر. فأخذ جبرائيـل بـذراع الرسول صـلى الله عليه و آله وأدار وجهه نحو الكعبـة. وتـذكر الروايـة أنّ صـفوف المسـلمين تغيرت على أثر ذلـك، وترك النساء مكانهن للرجال وبالعكس.

إنّ تغيير القبلـة من علامات نبيّ الخاتم المـذكورة فى الكتب السابقـة، فقـد كان أهل الكتاب على علم بأنّ النبى المبعوث «يصـلّى إلى القبلتين». لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ».

ثم تقول الآية: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ». فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء فى كتبهم بشأن تغيير قبلة نبيّ الخاتم، ويستغلون هذه الحادثة لإثارة ضـجة بوجه المسـلمين، بـدل أن يتخذوها دليلًا على صدق دعوى النبى، سيلاقون جزاء أعمالهم، واللَّه ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

إنّ ضـرورة إتجاه المسـلمين شـطر المسجدالحرام كان باعثاً على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الاولى، لأنّ معرفة جهة القبلة فى مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسرة من دون معرفة بهذه العلوم.

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۴۵) لا- يرضون بـأى ثمن: مر بنا فى تفسـير الآيـة السابقـة أنّ تغيير القبلـة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شـبهة حول النبى، بل إنّه من دلائل صـحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق. لذلك تقول الآية: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ». أى: إنّ هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرة اخرى قبلة المسلمين، فهذه هى القبلة الثابتة النهائية.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ».

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، ولا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۸

ولمزيد من التأكيد والحسم ينذر القرآن النبى ويقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ».

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴۶) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۴۷) يعرفون حق المعرفة ولكن ...: استمراراً لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول الآية: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».

إنّهم يعرفون النبى صلى الله عليه و آله واسمه وعلاماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات فى نبىّ الأكرم، مثل عبداللّه بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منّى بابنى».

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: «الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ». أى المترددين.

وبهذه العبارة تثبت الآية فؤاد النبى، وتنهاه عن أى ترديد أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وإن جنّد هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب فى الآية وإن كان شخص النبى صلى الله عليه و آله ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أنّ النبى المتصل بالوحى الإلهى لا يعتريه تردد، لأنّ الوحى بالنسبة له ذو جانب حسى وعين اليقين.

لكل امة قبلة: هذه الآية الكريمة تردّ على الضجة التى أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا».

كان للأنبياء على مرّ التاريخ وجهات عديدة يولّونها، وليست القبلة كاصول الدين لا تقبل التغيير، فلا تطيلوا الحديث فى أمر القبلة، وبدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» لأنّ معيار القيمة الوجودية للإنسان هى أعمال البرّ والخير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۹

ثم تتغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير والتهديد لُاولئك المفترين، والتشجيع للمحسنين فتقول: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا» فى تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

وقد يخال بعض أنّ جمع الناس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدى ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۹) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۰) الخوف من اللّه فقط: هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة ونتائجها. الآية الاولى تأمر النبى عليه السلام وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» من أية مدينة، وأية ديار «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

ولمزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ».

وتنتهى الآية بتهديد المتآمرين: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ».

صحيح أنّ هذه العبارة القرآنية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله لكنّها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامة:

۱- إلجام المعارضين- تقول الآية: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ».

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۲۰

والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إنّ النبى الموعود يصلى إلى قبلتين، وهذه العلامة غير متوفرة فى محمّد صلى الله عليه و آله والمشركون يعترضون على النبى قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة وهو يدعى أنّه بعث لإحياء ملة إبراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الإعتراضات. لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، وأن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

۲- عندما وصفت الآية هؤلاء المعاندين أنّهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفاً فى نفوس البعض لذلك قالت الآية: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى».

وهذه الفقرة من الآية تطرح أصلًا عاماً أساسياً من اصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أى شىء سوى اللَّه.

۳- وآخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: «وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۱۵۱) فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِى وَ لَا تَكْفُرُونِ (۱۵۲) مهمة رسول اللَّه: ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أنّ أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على الناس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أنّ تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التى أنعمها اللَّه عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ».

وكلمة «منكم» قد تعنى أنّ الرسول بشر مثلكم، والإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربى البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون الرسول بشراً «منكم».

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نِعَم عادت على المسلمين ببركة هذا النبى صلى الله عليه و آله:

۱- «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا». «يتلو»: من «التلاوة» أى من إتيان الشىء متوالياً، والإتيان بالعبارات المتوالية (وبنظام صحيح) هى التلاوة. النبى صلى الله عليه و آله إذن يقرأ عليكم آيات

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۲۱

اللَّه متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، ولإعداد أنفسكم إلى التعليم والتربية.

۲- «وَيُزَكّيكُمْ». «التزكية»: هو الزيادة والإنماء، أى إنّ النبى بفضل آيات اللَّه يزيدكم كمالًا مادياً ومعنوياً، ويزيل ألوان الرذائل التى كانت تغمر مجتمعكم فى الجاهلية.

۳- «وَيُعَلّمُكُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ». التعليم طبعاً مقدم بشكل طبيعى على التربية، ولكنّ القرآن- كما ذكرنا- يقدم التربية فى مواضع تأكيداً على أنّها هى الهدف النهائى.

انّ الكتاب إشارة إلى آيات القرآن والوحى الإلهى النازل على النبى بشكل إعجازى والحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معاً، أمّا استعمالها القرآنى مقابل «الكتاب» (كما فى هذه الآية) فيشير إلى أنّها «السنّة» لا غير.

۴- «وَيُعَلّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة

لكن القرآن عاد فأكـد ذلك فى فقرة مستقلة تنبيهاً على أنّ الأنبياء لم يكونوا قادة أخلاقيين واجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهيّة فى الآية، تذكر الآية التالية أنّ هذه النعم تستدعى الشكر، وبالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدى الإنسان حق شكر البارى تعالى:

«فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ».

واضح أنّ عبارة «فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ» تشير إلى أصل تربوى وتكوينى، أى اذكرونى ...

اذكروا الذات المقدسة التى هى معدن الخيرات والحسنات والمبرات ولتطهر أرواحكم وأنفسكم.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» استثمار كل نعمة فى محلها وعلى طريق نفس الهدف الذى خلقت له، كى يؤدّى ذلك إلى زيادة الرحمة الإلهيّة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۱۵۳) وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَ لكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (۱۵۴)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية أنّها نزلت فى قتلى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۲

بدر، وقتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وكانوا يقولون: مات فلان. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

الشهداء أحياء: الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربية والذكر والشكر، وفى الآية الاولى من آيتى بحثنا دار الحديث حول الصبر الذى لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ».

واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين فالنصر حليفكم: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

خلافاً لما يتصور بعض الناس «الصبر» لا يعنى تحمل الشقاء وقبول الذلة والإستسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعنى المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

الموضوع الآخر الذى أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاة». فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان علىّ عليه السلام إذا هاله شىء فزع إلى الصّلاة ثم تلا هذه الآية «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ»».

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامين: الأول الاعتماد على اللّه، ومظهره الصلاة؛ والآخر الاعتماد على النفس، وهو الذى عبرت عنه الآية بالصبر.

وبعد ذكر الصبر والاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسدون أروع نماذج الصابرين على طريق اللّه. تقول الآية: «وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ». ثم تؤكّد هذا المفهوم ثانية بالإستدراك. «بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِن لَّاتَشْعُرُونَ».

فى كل حركة- أساساً- تنزوى مجموعة محبة للعافية، وتبتعد عن الامة الثائرة، ولا تكتفى هى بالتقاعس والتكاسل، بل تسعى إلى تثبيط عزائم الآخرين وبثّ الرخوة والتماهل فى المجتمع.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كراراً ويؤنبهم بشدة.

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبل البعث). سنفصل الحديث فى هذا الموضوع عند

تناولنا الآية (۱۶۹) من سورة آل عمران.

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (۱۵۵) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (۱۵۶) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۱۵۷)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۳

الدنيا دار اختبار إلهى: بعد ذكر مسألة الشهادة فى سبيل اللَّه، والحياة الخالدة للشهداء، تعرضت هذه الآية للاختبار الإلهى العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنّة كونية لا تقبل التغيير «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ».

ولما كان الإنتصار فى هذه الاختبارات، لا يتحقق إلّافى ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

الإقرار التام بالعبودية المطلقة للَّه، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنّه سبحانه مالكنا ومالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، وإن استوجبت المصلحة أخذها منّا، وفى المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والإلتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى اللَّه سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، وبأنّ نقص المواهب المادية ووفورها عرض زائل، ووسيلة لإرتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة فى عبارة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» له الأثر الكبير فى تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر فى النفس.

وآخر آية فى بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهيّة الكبرى، التى تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهيّة: «أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ».

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، فى مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

بحوث

۱- لماذا الإختبار الإلهى؟ أوّل ما يتبادر للذهن فى هذا المجال هو سبب هذا الاختبار، فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أنّ اللَّه سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟ وهل هناك شىء خفى عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟

والجواب أنّ مفهوم الاختبار الإلهى يختلف عن الاختبار البشرى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۴

اختباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والاختبار الإلهى قصده «التربية». فى أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الاختبار الإلهى، باعتباره سنّة كونية لا تنقص من أجل تفجير الطاقات الكامنة ونقلها من القوة إلى الفعل وبالتالى فالاختبار الإلهى من أجل تربية العباد. يقول سبحانه فى الآية (۱۵۴) من سورة آل عمران: «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى بيان سبب الاختبارات الإلهيّة: «... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الّتى بها يستحقّ الثواب والعقاب» «۱».

أى: أنّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلابد أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، واللَّه يختبر عباده ليتجلى ما يضمرونه فى أعمالهم، ولكى تنتقل قابلياتهم من القوة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

۲- الإختبار الإلهى عام: نظام الحياة فى الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحية تطوى مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبر

عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فإنّ كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهى كى تنجلى قدراتهم.

الإمتحانات تشمل الجميع ولا يجرى عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن اللّه عبده بالخير وبوفور النعمة.

٣- عوامل النجاح فى الإمتحان: هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، وهو أنّه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للامتحان الإلهى، فما هو السبيل لاحراز النجاح والتوفيق فى هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل فى القسم الأخير من آية بحثنا وفى آيات اخرى:

أ) أهمّ عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارة: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالآية تبشّر بالنجاح اولئك الصابرين المقاومين، ومؤكدة أنّ الصبر رمز الإنتصار.

ب) الإلتفات إلى أنّ نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهى مؤقّتة وعابرة وهذا الإدراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابة صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٩٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٥

إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان أنّ المشركين كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وقد وضعوا على الصفا صنماً يقال له «أساف» وعلى المروة صنماً يقال له «نائلة» وكان المشركون إذا طافوا بهما مسحوهما فتحرّج المسلمون عن الطواف بهما لأجل الصنمين. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر: هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق فى ذهن المسلمين ونفوسهم من رواسب بشأن الصفا والمروة كما مرّ فى سبب النزول، وتقول للمسلمين: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ».

ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هى: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا». لا ينبغى أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملًا على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل شأن وقدسية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيراً: «وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».

فاللّه يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم بسرائرهم، يعلم من تعلق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرأ منها.

بحثان

١- الصفا والمروة: الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين فى مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، فى الضلع الشرقى للمسجد، فى الجهة التى يقع فيها الحجر الأسود ومقام إبراهيم.

«الشعائر»: جمع شعيرة أى العلامة، وشعائر اللّه أى العلامات التى تذكر الإنسان باللّه، وتعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

«اعتمر»: أى أدى العمرة، والعمرة فى الأصل الملحقات الإضافية فى البناء، وفى الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التى يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها فى العمرة المفردة، وبينها وبين أعمال الحج أوجه اشتراك وافتراق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٦

٢- من أسرار السعى بين الصفا والمروة: إبراهيم عليه السلام بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربّه أن لا يتركه فرداً، فاستجاب له، ورزقه من جاريته هاجر ولداً سماه «إسماعيل».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالة الجديدة، وقد رزق إبراهيم ولداً من غيرها، فأمر اللَّه إبراهيم أن يهاجر بالطفل والأم إلى مكة حيث الأرض القاحلة المجدبة آنذاك، ويسكنهما هناك.

امتثل إبراهيم أمر ربّه، وذهب بهما إلى صحراء مكة وأسكنهما فى تلك الأرض، وهمّ بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع فى مثل هذه الأرض؟

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربّه قائلًا: «رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۱». ثم ودّع زوجه وطفله بحزن وألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الام وماؤها، وجفّ لبنها، بكاء الطفل أضرم فى نفس الأم ناراً، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء، اتجهت أولًا إلى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثراً، لَفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت إليه فوجدته سراباً، ثم رأت عند المروة بريقاً لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، وفى النهاية، وبعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وامه ونجيا من الموت المحقق.

فى الصفا والمروة درس فى التضحية بكل غال ونفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ والعقيدة.

السعى بينهما يعلمنا أن نعيش دائماً أمل النجاح والانتصار.

السعى بين الصفا والمروة يقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز التوحيدى، فثمة أفراد حفظوا الشريعة وشعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر فى النفوس، أمر اللَّه الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

---

(۱) سورة إبراهيم/ ۳۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۷

أضف إلى ما تقدم أنّ السعى يقضى على كبر الإنسان وغروره، فلا أثر للتبختر والتصنع فى السعى، بل لابد من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، وبنفس لباس الناس، وبهرولة أحياناً! ولذلك ورد فى الروايات أنّ السعى إيقاظ للمتكبرين.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (۱۵۹) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۶۰)

سبب النّزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس قال: سأل «معاذ بن جبل» و «سعد بن معاذ» و «خارجة بن زيد» نفراً من أحبار يهود عن بعض ما فى التوراة (قد ترتبط بظهور النبى الخاتم) فكتموهم إيّاه وأبوا أن يخبروهم فأنزل اللَّه فيهم «إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا» الآية.

التّفسير

حرمة كتمان الحق: الآية- وإن خاطبت كما فى سبب النزول، علماء اليهود- غير محدودة بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمى الحق. الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللعِنُونَ».

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك فى كتمان علامات النبوّة والبشائر بالنبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

ولما كان القرآن كتاب هداية، فإنّه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد، ولا يقطع أملهم فى العودة مهما ارتكسوا فى الذنوب،

لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ومن الملفت للنظر، أنّ اللّه لم يقل أنّه يقبل التوبة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، وهذه دالة على كثرة محبة اللّه وسبق عطفه على عباده التائبين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۸

كتمان الحق فى الأحاديث: حملت الأحاديث بشدة أيضاً على كاتمى الحق، فروى فى المجمع عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «من سُئل عن علم يعلمه فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار».

ونعيد هنا القول أنّ ابتلاء الناس بمسألة والحاجة إلى بيانها يحل محل السؤال، وبيان الحقائق فى هذه الحالة واجب.

وذكر الطبرسى فى الاحتجاج: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: من خير خلق اللّه بعد ائمة الهدى ومصابيح الدجى؟ قال: «العلماء إذا صلحوا». قيل: فمن شرّ خلق اللّه بعد إبليس وفرعون و ...؟ قال: «العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق، وفيهم قال اللّه عزّ وجلّ: «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللعِنُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۶۱) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۱۶۲) وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (۱۶۳) الذين ماتوا وهم كفار: تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد إلى آخر عمرهم.

تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء أيضاً مثل كاتمى الحق، مستحقون للعنة اللّه والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو أنّ هؤلاء المصرّين على الكفر حتى نهاية حياتهم لا رجعة لهم طبعاً ولا توبة.

ثم تقول الآية التالية إنّ هؤلاء الكفار المصرّين على كفرهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم: «خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

ولما كان التوحيد ينهى كل هذه المصائب، فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل وتقول:

«وَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».

ثم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَّاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآية اللّه بأنّه: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ». لتقول إنّاللّه الذى يسع كل الموجودات، برحمته العامة والمؤمنين برحمته الخاصة، هو اللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۹

إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۶۴) مظاهر عظمة اللّه فى الكون: آخر آية فى المبحث الماضى دارت حول توحيد اللّه، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود اللّه ووحدانيته.

قبل أن ندخل فى تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والإنسجام» فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة، من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والإنسجام فى الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة اخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود فى عالم الكون، وكل واحد منها آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

١- «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يقول العلم لنا اليوم: إنّ فى السماء آلافاً مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية جزء من واحدة من المجرات، وفى مجرتنا وحدها مئات الملايين من الشموس والنجوم الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحية.

حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدرة خالقه!

٢- «وَاخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

من الدلائل الاخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد فى الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء فى ظل هذا التكامل.

٣- «وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ».

الإنسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر ولنقل المتاع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٠

٤- «وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلّ دَابَّةٍ».

من مظاهر قدرة اللَّه وعظمته المطر الذى يحيى الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

٥- «وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ» لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال والهضاب والسهول أيضاً لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها اليانعة.

٦- «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ». والسحب المتراكمة فى أعالى الجو، المحمّلة بمليارات الأطنان من المياه خلافاً لقانون الجاذبية، والمتحركة من نقطة إلى اخرى دون ايجاد خطر، من مظاهر عظمة اللَّه سبحانه.

وكل تلك العلامات والمظاهر «لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» لا للغافلين الصم البكم العمى.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) أئمة الكفر يتبرأون من أتباعهم: تناولت الآيات السابقة دلائل وجود اللَّه سبحانه وإثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، وساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدد الآلهة ... عن اولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، ويتعشقونها ويشغفون بها حباً لا يليق إلّاباللَّه سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جميع النعم. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا» «١».

---

(١) «الأنداد»: جمع «ند» وهو (المثل)، وقال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه فى الجوهر، أى إنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهيّة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣١

ولم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ».

«وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ». لأنّهم أصحاب عقل وإدراك، فلا يستوى من يحب عن عقل وبصيرة، ومن يحب عن جهل وخرافة وتخيل.

حب المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، وحب المشركين سطحى تافه لا بقاء له ولا استمرار. لذلك تقول الآية: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ». لرأوا سوء فعلهم وسوء عاقبتهم.

فى هذه اللحظات تزول حجب الجهل والغرور والغفلة من أمام أعينهم، وحين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون إلى قادتهم ومعبوديهم، ولات حين ملاذ بغير اللَّه «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

واضح أنّ المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبابرة الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء والطاعة.

هؤلاء الغافلون المغفّلون حين يرون ما حلّ بهم يمنون أنفسهم: «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا» لكنها امنية لا تتحقق.

ثم تقول الآية: «كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

لكنها حسرة غير نافعة ... فاليوم يوم الجزاء وليس يوم تلافى الأخطاء.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّباً وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۶۸) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشَاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۱۶۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّها نزلت فى ثقيف وخزاعة وبنى عامر بن صعصعة وبنى مدلج لما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة، فنهاهم اللَّه عن ذلك.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۲

التّفسير

خطوات الشيطان: ذمّت الآيات السابقة الشرك والمشركين، وأحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين والتشريع وتقرير الحلال والحرام إلى غير اللَّه. الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانياً وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطِنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

تكرر فى القرآن طلب الإستفادة من الأطعمة، وورد الطلب عادة مقيداً بالحلال وبالطيب. و «الحلال»: ما أبيح تناوله والطيب ما طاب ووافق الطبع السليم، و يقابله «الخبيث» الذى يشمأز منه الإنسان.

و «الخطوات»: جمع «خطوة» وهى المرحلة التى يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه وللتعزير بالناس.

عبارة «لَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطِنِ» تكررت خمس مرات فى القرآن الكريم، وكانت فى موضعين بشأن الإستفادة من الأطعمة والرزق الإلهى، وهى تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية فى غير موضعها، وحثّ على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة لا الفساد والطغيان فى الأرض.

عبارة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» تكررت فى القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كى تحفّز الإنسان، وتجعله متأهباً لمجابهة هذا العدو اللدود الظاهر.

الآية التالية تؤكد على عداء الشيطان، وعلى هدفه المتمثل فى شقاء الإنسان، وتقول:

«إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

منهج الشيطان يتلخص فى ثلاثة أبعاد هى: السوء والفحشاء والتقول على اللَّه.

«الفحشاء»: من «الفحش» وهو كل عمل خارج عن حد الإعتدال ويشمل كل المنكرات والقبائح المبطنة والعلنية.

الإنحرافات التدريجية: عبارة «خُطُوَاتِ الشَّيْطِنِ» قد تشير إلى مسألة تربوية دقيقة، وهى أنّ الإنحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل

تدريجى. وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، وليست هذه طريقة الشيطان الأصلى فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات» لذلك يحذر القرآن كثيراً من اتخاذ الخطوة الاولى على طريق الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۳

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَ وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ (۱۷۰) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (۱۷۱) التقليد الأعمى: تشير الآية إلى منطق المشركين الواهى فى تحريم ما أحل اللَّه، أو عبادة الأوثان وتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

ويدين القرآن هذا المنطق الخرافى، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والأجداد، فيقول: «أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». أى: إنّ إتّباع الآباء صحيح لو أنّهم كانوا على طريق العقل والهداية.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم وهذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب فى تخلف البشرية لأنّه تقليد الجاهل للجاهل.

الآية التالية تبين سبب تعصب هؤلاء وإعراضهم عن الإنصياع لقول الحق تقول:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً». تقول الآية: إنّ مثلك فى دعوة هؤلاء المشركين إلى الإيمان ونبذ الخرافات والتقليد الأعمى كمن يصيح بقطيع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) ولكن الأغنام لاتدرك منه سوى أصوات غير مفهومة.

ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أنّ هؤلاء «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۷۲) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۷۳) الطيبات والخبائث: القرآن ينهج اسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة فى معالجته للإنحرافات المزمنة، وفى هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين فى الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل، مع فارق هو أنّ الخطاب يتجه فى هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس.

تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۴

رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». هذه النعم الطيبة المحلّلة المتناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟ الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، وتقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».

ولما كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظاً لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة وقالت: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ».

ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالإضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». و «الباغى»: هو الطالب، والمراد هنا طالب اللذة و «العادى»: هو المتجاوز للحد، أى المتجاوز حد الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة فى تناول هذه الأطعمة، ولا يتجاوز حد الضرورة اللازمة لنجاته من الموت.

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». فإنّ اللَّه الذى حرّم تلك الأطعمة أباح تناولها فى موارد الضرورة برحمته الخاصة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۷۴) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَ الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (۱۷۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۱۷۶)

سبب النّزول

المعنى فى هـذه الآيـة أهل الكتاب بإجماع المفسـرين؛ إلّاأنّها متوجهـة على قول كثير منهم إلى جماعـة قليلة من اليهود وهم علماؤهم ككعب بن الأشـرف وحيى بن أخطب وكعب بن أسـد. وكـانوا يصـيبون من سـفلتهم الهـدايا ويرجون كون النبى منهم. فلمـا بعث من غيرهم خافوا زوال مأكلتهم فغيّروا صفته فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

إدانة كتمان الحق مرة اخرى: هذه الآيات تأكيد على ما مرّ فى الآية (۱۵۹) بشأن كتمان

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۵

الحق. الآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ».

هذه الهدايا والعطايا التى ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم.

ثم تتعرض الآيـة إلى عقاب معنوى سـينال هؤلاء أشد من العقاب المادى، وتقول: «وَلَا يُكَلّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَلَا يُزَكّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يستفاد من هـذه الآيـة والآية التالية أنّ واحدة من أعظم المواهب الإلهيّة فى الآخرة أن يكلّم اللَّه المؤمنين تلطفاً بهم. أى: إنّ المؤمنين سينالون فى الآخرة نفس المنزلة التى نالها أنبياء اللَّه فى الدنيا وأية لذة أعظم من هذه اللذة!

بـديهى أنّ تكليم اللَّه عباده بمعنى إنّه بقـدرته الواسعة يخلق فى الفضاء أمواجاً صوتيـة خاصـة قابلـة للسـمع والإدراك، (كما كلّم اللَّه موسى عند جبل الطور)، أو أنّه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

وقد يسأل سائل عن تكليم اللَّه المجرمين يوم القيامة، استناداً إلى ما ورد فى الآيات كقوله تعالى: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلّمُونِ» «۱».

والجواب: أنّ المقصود من التكليم فى آيـات بحثنـا، هو تكليم عن لطف وحب واحترام، لا عن تحقير وطرد وعقوبـة فـذلك من أشـد الجزاء.

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة وتبين نتيجة صـفقتها الخاسـرة وتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ».

فهؤلاء خاسـرون من ناحيتين: من ناحيـة تركهم الهدايـة واختيار الضـلالة، ومن ناحيـة حرمانهم من رحمة اللَّه واسـتحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهى، وهذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل. لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب وتقول: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ».

آخر آيـة فى بحثنا تقول إنّ ذلك التهديـد والوعيـد بالعذاب لكاتمى الحق، يعود إلى أنّ اللَّه أنزل القرآن بالدلائل الواضـحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ».

مع ذلك فإنّ زمرة محرفة تعمد إلى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، وتثير الإختلاف فى الكتاب السماوى لتتصيد فى الماء العكر.

---

(۱) سورة المؤمنون/ ۱۰۸.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۶

مثل هؤلاء الذين يثيرون الإختلاف فى الكتاب السماوى بعيدون عن الحقيقة: «وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَـةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَـاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيـلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِى الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۱۷۷)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيـان: لمـا حولت القبلـة وكثر الخوض فى نسـخها وصـار كـأنّه لاـ يراعى بطاعـة اللَّه إلّاالتوجه للصـلاة وأكثر اليهود

والنصارى ذكرها، أنزل اللّه سبحانه هذه الآية.

التّفسير

أساس البرّ: مرّ بنا الحديث عن الضجة التى أثيرت بين اعداء الإسلام والمسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة. الآية أعلاه تخاطب هؤلاء وتقول: «لَّيْسَ الْبِرَّ أن تُوَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

ثم يبين القرآن أهم أصول البّر والإحسان وهى ستة، فيقول: «وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَالْمَلِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ».

ثم تذكر الآيةُ الإنفاق بعد الإيمان وتقول: «وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرّقَابِ».

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، لأنّ حب المال موجود بدرجات متفاوتة فى كل القلوب، وعبارة «عَلَى حُبّهِ» إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحب للمال من أجل رضا اللّه سبحانه.

والأصل الثالث من أصول البرّ إقامة الصلاة: «وَأَقَامَ الصَّلَوةَ». والصلاة إن أدّاها الفرد بشروطها وحدودها وباخلاص وخضوع تصده عن كل ذنب وتدفعه نحو كل سعادة وخير.

والأصل الرابع: أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَءَاتَى الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۷

فالآية سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، وهنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات فى الإنفاق ويتساهل فى الواجب، وبعضهم يلتزم بالواجب فقط ولا ينفق درهماً فى إيثار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون فى المجالين معاً.

الخامس من الاصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية، وترك الوفاء بالعهد من الذنوب التى تزلزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الاجتماعية.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاث لم يجعل اللّه عزّ وجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين».

الأساس السادس والأخير من اسس البرّ فى نظر الإسلام: الصبر «وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ حال الفقر والمسكنة وَالضَّرَّاءِ حال المرض وَحِينَ الْبَأْسِ حال القتال مع الأعداء» «۱».

ثم تؤكد الآية على أهمية الاسس الستة وعلى عظمة من يتحلّى بها، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلى فى انطباق أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم ومعتقداتهم، وتتجلى تقواهم فى إلتزامهم بواجبهم تجاه اللّه وتجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الإنسانى.

والملفت للنظر أنّ الصفات الست المذكورة تشمل الاصول الإعتقادية والأخلاقية والمناهج العملية.

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية فى حيّين من العرب لأحدهما طَوْل على الآخر وكانوا يتزوجون نساءهم بغير مهور وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا

---

(۱) «البأساء»: من البؤس وهو الفقر؛ و «الضّرّاء»: تعنى الألم والمرض؛ و «حين البأس»: أى حين الحرب.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۸

الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك حتى جاء الإسلام، فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

فى القصاص حياة: الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامى فى «البر»، وهنا يقدم القرآن الكريم- وهكذا فى الآيات التالية- مجموعة

من الأحكام الإسلامية، إكمالًا لبيان المنهج الإسلامى فى الحياة. تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهى مسألة هامة فى الحياة الاجتماعية، فتنفى العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى .

«القصاص»: من «قصّ» يقال قصّ أثره: أى تلاه شيئاً بعد شىء، ومنه القصاص لأنّه يتلو أصل الجناية ويتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثانى مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص كأنّه يتبع آثارهم شيئاً بعد شىء.

الآية كما ذكرنا تستهدف بيان الموقف الصحيح من المجرم، ولفظ القصاص يدل على إنزال عقوبة بالمجرم مماثلة لما إرتكبه هو، لكن الآية لا تكتفى بذلك، بل بينت التفاصيل فقالت:

«الْحُرُّ بِالْحُرّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى .

ثم تبين الآية أنّ القصاص، حق لأولياء المقتول، وليس حكماً إلزامياً، فإن شاؤوا أن يعفوا ويأخذوا الدية، وإن شاؤوا ترك الدية فلهم ذلك، وتقول: «فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ». فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول إلى دية «فَاتّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ».

أى: فعل العافى إتّباع بالمعروف، وهو أن لا يُشدد فى طلب الدية وينظر من عليه الدية «وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحسَانٍ». أى: على المعفو عنه أن يبادر إلى دفع الدية عند الإمكان وأن لا يماطل.

ثم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بحدود ما أقره اللّه، وعدم تجاوز هذه الحدود: «ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وهذا الأمر بالقصاص وبالعفو يشكل تركيباً انسانياً منطقياً، فهو من جهة يدين التقاليد السائدة فى الجاهلية الاولى والجاهليات التالية إلى يومنا هذا القاضية بالإنتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة اخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم وردع القاتلين.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۳۹

ومن جهة ثالثة، لا يحق للطرفين بعد العفو وأخذ الدية التعدى، خلافاً للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحياناً حتى بعد العفو وأخذ الدية.

الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الأسئلة المطروحة فى حقل القصاص، ويقول: «وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

هذه الآية تبين أنّ القصاص ليس انتقاماً، بل السبيل إلى ضمان حياة الناس.

هل انتقص قانون القصاص المرأة؟ قد يظن البعض أنّ قانون القصاص الإسلامى قد انتقص المرأة حين قرر أنّ «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أى إنّ الرجل- قاتل المرأة- لا يقتص منه.

وليس الأمر كذلك، ومفهوم الآية لا يعنى عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته.

ولمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الاسرة، ويؤمنون نفقاتها الاقتصادية، ولا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل وغياب المرأة على العائلة اقتصادياً، ولو لم يراع هذا الفرق لُاصيبت عائلة المقتص منه بأضرار مالية، ولوقعت فى حرج اقتصادى، ودفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸۲) الوصية بالمعروف: الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، وهذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزءاً من النظام المالى، وتذكر باسلوب الحكم الإلزامى فتقول:

«كُتِبَ عَلَيْكَمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ».

ثم تضيف الآية أنّ هذه الوصية كتبت «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ».

جاء فى الآيـة الكريمة بشأن كتابة الوصـية كونها «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» من هنا قيل إنّها مسـتحبة اسـتحباباً مؤكداً، ولو كانت واجبة لقالت الآية «حقّاً على المؤمنين».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۴۰

يلفت النظر أنّ الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خير» فقالت: «إِن تَرَكَ خَيْرًا».

وهذا يعنى أنّ الإسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيراً وبركة.

هذا التعبير يشير ضمنياً إلى مشروعية الثروة، لأنّ الأموال غير المشروعة ليست خيراً بل شرّاً وبالًا.

تقييـد الوصـية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة إلى أنّ الوصـية ينبغى أن تكون موافقـة للعقل من كل جهـة، لأنّ «المعروف» هو المعروف بالحُسْـنِ لـدى العقـل. يجـب أن تكـون الوصـية متعقلـة فى مقـدارها وفى نسـبة توزيعهـا، دون أن يكـون فيهـا تمييز، ودون أن تـؤدّى إلى نزاع وإنحراف عن اصول الحق والعدالة.

حين تكون الوصـية جامعـة للخصـائص المـذكورة فهى محترمـة ومقدسـة، وكل تبـديل وتغيير فيها محظور وحرام. لـذلك تقول الآية التالية: «فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ».

ولا يظنن المحرفون المتلاعبون أنّ اللَّه غافل عما يفعلون، كلّا «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولعل هذه الآية تشير إلى أن تلاعب «الوصـى» (وهو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصى. فالموصى ينال أجره، والإثم على الوصى المحرّف فى كمية الوصية أو كيفيتها أو فى أصلها.

بيّن القرآن فيما سـبق الأحكام العامـة للوصـية، وأكـد على حرمة كل تبديل فيها، ولكن فى كل قانون اسـتثناء، و الآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء وتقول: «فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الإسـتثناء يرتبط بالوصـية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصى أن ينبه الموصى على خطئه إن كان حياً، وأن يعدّل الوصية إن كان ميتاً.

عبرت الآية «بالجنف» عن الانحرافات التى تصيب الموصى فى وصيته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرفات العمدية.

عبارة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۴۱

عندما يعدّل الوصية المنحرفة وتقول: إنّ اللَّه يعفو عن مثل هذا الخطأ.

بحثان

۱- فلسفة الوصية: الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة إلى المال، ولكن لا سـهم له فى قانون الإرث، وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنـا وضع الإسـلام قانون الوصـية إلى جانب قانون الإرث، وأجاز للمسـلم أن يتصـرف فى ثلث أمواله (بعـد الوفاة) بالشـكل الـذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التى ما اتيح له أن يعملها فى حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

النصوص الإسلامية أكدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ما ينبغى لِامرى مسلم أن

يبيت ليلة إلّاووصيته تحت رأسه» «۱».

والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها وتهيئتها طبعاً.

وفى رواية اخرى: «من مات بغير وصية مات ميتة جاهليّة» «۲».

۲- العدالة فى الوصية: فى الروايات الإسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرار» فى الوصية، يستفاد منها جميعاً أنّ تعدى الحدود الشرعية المنطقية فى الوصية عمل مذموم ومن كبائر الذنوب.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «من عدل فى وصيته كان كمن تصدق بها فى حياته ومن جار فى وصيته لقى اللّه عزّ وجلّ يوم القيامة وهو عنه معرض» «۳».

والجور فى الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، وحرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية.

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۳/ ۳۵۲.

(۲) وسائل الشيعة ۱۳/ ۳۵۲.

(۳) وسائل الشيعة ۱۳/ ۳۵۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۲

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۸۳) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۴) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۸۵) الصوم مدرسة التقوى: فى سياق طرح مجموعة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، وهى عبادة الصوم، وبلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، فى عبارة قليلة الألفاظ، عميقة المحتوى، وتقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

الآية التالية تتجه أيضاً إلى التخفيف من تعب الصوم وتقول: «أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ» فالفريضة لا تحتل إلّامساحة صغيرة من أيّام السنة.

ثم تقول: «فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ». فالمريض والمسافر معفوان من الصوم، وعليهما أن يقضيا صومهما فى أيام اخرى.

ثم تصدر الآية عفواً عن الطاعنين فى السنّ، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، وترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» «۱».

---

(۱) «يطيقونه»: من «الطوق» وهو الحلقة التى تلقى على العنق، أو توجد عليه بشكل طبيعى (كطوق الحمام) ثم أطلقت الكلمة على نهاية الجهد والطاقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۳

ثم يقول الآية: «فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ». أى من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له.

وأخيراً تبين الآية حقيقة هى: «وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

والآيـة يـدل على تأكيـد آخر على فلسـفة الصوم، وعلى أنّ هـذه العبـادة- كسائر العبادات- لا تزيـد اللَّه عظمـة أو جلالًا، بل تعود كل فوائدها على الناس.

آخر آية فى بحثنا تتحدث عن زمان الصوم وبعض أحكامه ومعطياته تقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ» هو الشهر الذى فرض فيه الصيام.

وهو «الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ». أى: معيار معرفة الحق والباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ».

والقرآن بهـذا التكرار يفهم المسـلمين أنّ الصوم فى حالـة السـلام والحضـر حكم إلهى والإفطـار فى حال السـفر والمرض حكم إلهى أيضاً لا تجوز مخالفته.

وفى آخر الآية إشارة اخرى إلى فلسـفة تشريع الصوم، تقول: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». فالصوم- وإن كان على الظاهر نوعاً من التضييق والتحديد- مؤدّاه راحة الإنسان ونفعه على الصعيدين المادى والمعنوى.

ثم تقول الآيـة: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ». أى: يلزم على كل إنسان سـليم أن يصوم شـهراً، فذلك ضـرورى لتربية جسـمه ونفسه، لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض- التى اعفيت من قضاء الصلاة- غير معفوّة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

لتكبروه على ما وفّر لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم.

بحوث

۱- الآثار التربوية والإجتماعية والصحية للصوم: من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان و «تقوية» إرادته و «تعديل» غرائزه.

على الصـائم أن يكف عن الطعـام والشـراب على الرغم من جوعه وعطشه وهكـذا عليه أن يكف عن ممارسـة العمـل الجنسـى، ليثبت عملياً أنّه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۴۴

والمضـجع، وأنّه يسـتطيع أن يسـيطر على نفسه الجامحة وعلى أهوائه وشـهواته. الأثر الروحى والمعنوى للصوم يشكّل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

والصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمة إلى عالم الملائكة وعبارة «لَعَلَّكُم تَتَّقُون» تشير إلى هذه الحقايق.

وهكذا الحديث المعروف: «الصوم جنّة من النار» «۱» يشير إلى هذه الحقايق.

وروى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ للجنة باباً يدّعى الرّيّان لا يدخل فيها إلّاالصّائمون» «۲».

الأثر الإجتماعى للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع.

سأل الإمام الصادق عليه السـلام عن علة الصـيام، فقال: «إنّما فرض اللَّه الصّيام ليستوى به الغنىّ والفقير؛ وذلك أنّ الغنىّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير لأنّ الغنىّ كلّمـا أراد شـيئاً قـدر عليه فأراد اللَّه تعالى أن يسوّى بين خلقه وأن يـذيق الغنىّ مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضّعيف ويرحم الجائع» «۳».

الآثـار الصـحية للصوم: أهميـة «الإمسـاك» فى علاـج الأـمراض ثابتـة فى الطب القـديم والحـديث. لأنّ العامـل فى كثير من الأمراض الإسـراف فى تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائيه الزائدة تتراكم فى الجسم على شكل مواد دهنية وتدخل هى والمواد السكرية فى الـدم، وهـذه المواد الزائـدة وسط صالـح لتكاثر أنواع الميكروبات والأمراض، وفى هـذه الحالة يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الأمراض، وللقضاء على هذه المزابل المتراكمة فى الجسم.

الصوم يحرق الفضـلات والقمامـات المتراكمـة فى الجسم، وهو فى الواقع عمليـة تطهير شاملـة للبـدن، اضافـة إلى أنّه استراحـة مناسـبة

لجهاز الهضم وتنظيف له.

عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «صوموا تصحّوا» «۴».

وعنه صلى الله عليه و آله أيضاً «المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء» «۵».

۲- الصوم فى الامم السابقة: يظهر من النصوص الموجودة فى التوراة والإنجيل، أنّ

---

(۱) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۶.

(۲) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۲.

(۳) وسائل الشيعة ۷/ ۳ (أوّل كتاب الصوم).

(۴) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۵.

(۵) بحار الأنوار ۵۹/ ۲۹۰.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۴۵

الصوم كان موجوداً بين اليهود والنصارى، وكانت الامم الاخرى تصوم فى أحزانها ومآسيها.

ويظهر من التوراة أنّ موسى عليه السلام صام أربعين يوماً، و كان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرع إلى اللَّه. السيد المسيح عليه السلام صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «الإنجيل».

بهذا نستطيع أن نجد فى نصوص الكتب الدينية القديمة (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء فى القرآن الكريم: «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

۳- امتياز شهر رمضان: هذا الشهر- إنّما اختير شهراً للصوم- لأنّه يمتاز عن بقية الشهور. والقرآن الكريم بيّن مزية هذا الشهر فى الآية الكريمة بأنّه «الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ».

وفى الروايات الإسلامية أنّ كل الكتب السماوية: «التوراة» و «الإنجيل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت فى هذا الشهر، فهو إذن شهر تربية وتعليم.

۴- قاعدة «لا- حرج»: آيات بحثنا فيها إشارة إلى أنّ اللَّه يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم وفوائده وحكم المسافر والمريض، لكن اسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصيّر منها سنداً لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الإسلام على المشقة، وإن أدّى حكم إسلامى إلى حرج ومشقة، فإنّه يرفع عنه مؤقتاً، ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَ لْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ سائلًا سأل النبى صلى الله عليه و آله أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت الآية.

التّفسير

سلاح اسمه الدعاء: بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامة من الأحكام الإسلامية،

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۴۶

تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الإرتباط بين العباد والمعبود سبحانه. هذه الآية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنّى فَإِنّى قَرِيبٌ».

إنّه أقرب مما تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» «۱».

ثم تقول الآية: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». إذن «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ».

ويلفت النظر فى الآية، أنّ اللَّه سبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، وأشار إلى عباده سبعاً! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وإرتباطه بعباده.

الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان- عن طريق الدعاء- يزداد إرتباطاً باللَّه تعالى، وكما أنّ كل العبادات ذات أثر تربوى كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

والقائلون أنّ الدعاء تدخّل فى أمر اللَّه وأنّ اللَّه يفعل ما يشاء، لا يفهمون أنّ المواهب الإلهية تغدق على الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولياقته، وكلما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ عند اللَّه عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلّابمسألة».

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإنّنا نربط أنفسنا بقوّة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها» «۲».

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۸۷)

---

(۱) سورة ق/ ۱۶.

(۲) آئين زندگى (فارسى)/ ۱۵۶.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۷

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان أنّ الأكل كان محرّماً فى شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار فى شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقال له مطعم بن جبير ... شيخاً ضعيفاً، وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلمّا انتبه قال لأهله: قد حُرّم علىّ الأكل فى هذه الليلة. فلمّا أصبح حضر حفر الخندق فاغمى عليه، فرآه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فرقّ له.

وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرّاً فى شهر رمضان، فأنزل اللَّه هذه الآية فأحلّ النكاح بالليل فى شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر.

التّفسير

رخصة فى أحكام الصوم: مر بنا فى سبب نزول الآية أنّ النكاح كان محرماً فى ليالى شهر رمضان إضافة إلى نهاره، وأنّ الأكل والشرب كانا محرمين فى الليل أيضاً بعد النوم، ولعل ذلك كان اختباراً للجيل الإسلامى الأول وإعداداً له كى يتقبل أحكام الصوم الثابتة. الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلامية فى حقل الصوم والإعتكاف. تقول أوّلًا: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» «۱».

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ».

واللباس يحفظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الأخطار من جهة، ويستر عيوب الجسم من جهة اخرى، أضف إلى أنّه زينة للإنسان، وتشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هـذا القانون الإلهى ويقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكَمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَـكَمْ فَتَابَ عَلَيْكَمْ وَعَفَا عَنكَمْ». فاللَّه سبحانه وسّع عليكم الأمر وخففه، وجعل فيه رخصة بلطفه ورحمته، كى لا تتلوثوا بالذنوب.

«فَالنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ».

ثم تبين الآية الحكم الثانى وتقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ».

وتبين الآية الحكم الثالث: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيلِ».

---

(۱) «الرفث»: هو الحديث المكشوف عن المسائل الجنسية، واستعير لمعنى الجماع كما فى الآية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۸

هـذه الجملـة تأكيـد على حظر الأكـل والشـرب والنكـاح فى أيـام شـهر رمضان للصائمين، وتشـير إلى أنّ الحظر يبـدأ من طلوع الفجر وينتهى عند الليل.

تطرح الآيـة بعـد ذلـك الحكم الرابع وتقول: «وَلَـا تُبَاشِـرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِـدِ». هـذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، وهو شبيه بالاسـتثناء من الحكم السابق، ففى الاعتكاف الـذى لا تقلّ مدته عن ثلاثة أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشـر زوجته لا فى الليل ولا فى النهار.

فى ختـام الآيـة عبـارة تشير إلى كل ما ورد فيها من أحكام تقول: «تِلْكَ حُـدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا». لأنّ الإقتراب من الحـدود يبعث على الوسوسة، وقد يدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود والوقوع فى الذنب.

نعم، «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

التقوى هى الأوّل والآخر: فى أول آيـة ترتبـط بأحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنّها الهـدف النهائى للصوم، وفى آخر آيـة أيضـاً وردت عبارة «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» وهذا يؤكد أنّ كل مناهج الإسلام وسيلة لتربية الروح والتقوى والفضيلة والإرادة والإحساس بالمسؤولية.

وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تُـدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۸) المبادىء الأوّلية للإقتصـاد الإسـلامى: هـذه الآيـة الكريمـة تشير إلى أحـد الاصول المهمـة والكليـة للاقتصاد الإسـلامى الحاكمـة على مجمل المسائل الاقتصاديـة، بـل يمكن القول إنّ جميع أبواب الفقه الإسـلامى فى دائرة الاقتصاد تـدخل تحت هـذه القاعـدة وهو قوله تعالى: مختصر الامثل ج ۱ ۱۶۹

«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ».

إنّ مفهوم الآية عام يستوعب كل تصـرف فى أموال الآخرين من غير الطريق المشـروع مشمولًا لهذا النهى الإلهى، وكذلك فإنّ جميع المعاملات التى لا تتضمن هدفاً سليماً ولا ترتكز على أساس عقلائى فهى مشمولة لهذه الآية.

والملفت للنظر أنّ بعض المفسـرين قالوا: إنّ جعل هـذه الآية مورد البحث بعد آيات الصوم (آيات ۱۸۲- ۱۸۷) علامة على وجود نوع من الإرتبـاط بينهمـا، فهنـاك نهى عن الأكل والشـرب من أجل أداء عبادة إلهيّـة، وهنا نهى عن أكل أموال الناس بالباطل الـذى يعتبر أيضاً نوع من الصوم ورياضة للنفوس، فهما فى الواقع فرعان لأصل التقوى. تلك

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۹

التقوى التى وردت فى الآية بعنوان الهدف النهائى للصوم «۱».

إنّ التعبير ب (الأكـل) يعطى معنىً واسـعاً حيث يشـمل كـل أنواع التصـرفات، أى أنّه تعبير كنائى عن أنواع التصـرّفات، و (الأكل) هو أحد المصاديق البارزة له.

ثم يشـير فى ذيل الآيـة إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل والـذى يتصور بعض الناس أنّه حق وصـحيح لأنّهم أخذوه بحكم الحاكم

فيقول: «وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».

وباء الرشوة: من الأوبئة الاجتماعية التى ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الإرتشاء، وكانت هذه الظاهرة المرضيّة دوماً من موانع إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم.

ولهذا شدد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الاخرى كالهدية ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهية العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين على عليه السلام أملًا فى أن يستعطف الإمام تجاه قضيةٍ رفعها إليه، ويسمى ما قدّمه هدية، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال عليه السلام: «هبلتك الهبول، أعن دين اللَّه أتيتنى لتخدعنى؟ ... واللَّه لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى اللَّه فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته وإنّ دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها ما لعلىّ ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى «۲»».

ذم الإسلام الرشوة حتى أنّ أحد الولاة تسلم بعنوان هدية فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «هلا جلست فى دارك لتأتيك هديةٌ»؟ «۳»

أين المسلمين اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقى عملى فى الحياة؟!

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن ۱/ ۲۵۲.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

(۳) الإمام على عليه السلام صوت العدالة الإنسانية ۱/ ۱۸۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۰

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۸۹)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان أنّ معاذ بن جبل قال: يا رسول اللَّه! إنّ اليهود يكثرون مسألتنا عن الأهلّة. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، لتقول إنّ للأهلّة فوائد مادية ومعنوية فى نظام الحياة الإنسانية.

التّفسير

كما اتضح من سبب نزول هذه الآية الشريفة من أنّ جماعة سألوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن الهلال وما يحصل عليه من تغييرات متدرجة وعن أسبابها ونتائجها، فيجيب القرآن الكريم على سؤالهم بقوله: «يَسَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ». «أهلّة»: جمع «هلال» ويعنى القمر فى الليلة الاولى والثانية من الشهر.

ثم تقول الآية: «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجّ».

فما يحصل عليها من تغييرات منتظمة تدريجية، يجعل منها تقويماً طبيعياً يساعد الناس على تنظيم امورهم الحَيَويّة القائمة على التوقيت وتحديد الزمن، وكذلك على تنظيم امور عباداتهم المحددة بزمان معين كالحج والصوم، والهلال هو المرجع فى تعيين هذا الزمان، وبالاستهلال ينظّم الناس امور عبادتهم وشؤون دنياهم.

من امتيازات قوانين الإسلام أنّ أحكامه قائمة عادةً على المقاييس الطبيعية لأنّ هذه المقاييس متوفرة لدى جميع الناس، ولا يؤثر عليها

مرور الزمان شیئاً.

ثم إنّ القرآن أشار فی ذیل هذه الآیهٔ وبمناسبهٔ الحدیث عن الحج وتعیین موسمه بواسطهٔ الهلال الذی ورد فی أول الآیهٔ، إلی إحدی عادات الجاهلیین الخرافیهٔ فی مورد الحج ونهت الآیهٔ الناس عن ذلک، حیث تقول: «وَلَیْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَی وَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ».

وهذه الآیهٔ لها معنیً أوسع وأشمل، وذلک أنّ الإنسان عندما یقدم علی أی عمل من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۱

الأعمال سواء کان دینیاً أو دنیویاً لابـد له من أن یرده من طریق صـحیح لا من الطرق المنحرفـهٔ، فالعبادهٔ فی الحـج أیضاً لابـد أن یبتدأ الإنسان بها فی الوقت المقرر وتعیینه بواسطهٔ الهلال.

جملـهٔ «وَلَیْسَ الْبِرُّ» یمکنها أن تکون إشارهٔ إلی نکتـهٔ لطیفهٔ اخری أیضاً وهی أنّ سؤالکم عن الأهلّهٔ بدل سؤالکم عن المعارف الدینیهٔ بمثابهٔ مَن یترک الدخول إلی داره من الباب الأصلی ثم یرده من ظهر البیت فهو عمل مستقبح ومستهجن.

أسـئلهٔ مختلفـهٔ من رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: وردت فی (۱۵) مورد من الآیات القرآنیـهٔ جملـهٔ «یسـئلونک» وهذه علامهٔ علی أنّ الناس یسألون من رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله مسائل مختلفهٔ کراراً ومراراً، والملفت للنظر أنّ رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله مضافاً إلی أنّه لا ینزعج من هذه الأسئلهٔ، فإنّه یستقبلهم بصدر رحب، ویجیب علی أسئلتهم من خلال الآیات القرآنیهٔ.

إنّ السؤال هو أحـد حقوق النـاس فی مقابـل القادهٔ، وهـذا الحق مشـروع حتی للأعـداء أیضاً، فبإمکانهم طرح اسـئلتهم بشـکل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشکلات. والسؤال بوّابهٔ العلوم. والسؤال وسیلهٔ انتقال المعارف المختلفهٔ.

وأساساً فإنّ طرح الأسـئلهٔ المختلفـهٔ فی کل مجتمع علامـهٔ علی التحرک الفکری والحضاری والثقافی للناس، ووجود کل هذه الأسـئلهٔ فی عصـر النبی صـلی الله علیه و آله هو علامـهٔ علی تحرک أفکـار النـاس فی ذلـک المحیـط ضـمن تعلیمـات القرآن الکریم والـدین الإسلامی.

وَ قَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَکُمْ وَ لَا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا یُحِبُّ الْمُعْتَـدِینَ (۱۹۰) وَ اقْتُلُـوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَیْثُ أَخْرَجُوکُمْ وَ الْفِتْنَهُٔ أَشَـدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ حَتَّی یُقَاتِلُوکُمْ فِیهِ فَإِنْ قَاتَلُوکُمْ فَاقْتُلُوهُمْ کَذلِکَ جَزَاءُ الْکَافِرِینَ (۱۹۱) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۹۲) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّی لَا تَکُونَ فِتْنَهٌٔ وَ یَکُونَ الـدِّینُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُـدْوَانَ إِلَّا عَلَی الظَّالِمِینَ (۱۹۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: هذه أوّل آیهٔ نزلت فی القتال، فلمّا نزلت کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقاتل من قاتله ویکفّ عمّن کفّ عنه حتی نزلت «اقتلوا المشرکین حیث وجدتموهم» الذی أجاز جهاد وقتال جمیع المشرکین.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۲

التّفسیر

القرآن أمر فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ بمقاتلهٔ الذین یشهرون السلاح بوجه المسلمین. تقول الآیهٔ: «وَقَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَکُم».

عبارهٔ «فِی سَبِیلِ اللَّهِ» توضّح الهدف الأساسـی من الحرب فی المفهوم الإسلامی، فالحرب لیست للإنتقام ولا للعلو فی الأرض والتزعم، ولاـ للاستیلاء علی الأراضـی، ولاـ للحصول علی الغنائم، وهـذا الهـدف المقـدس یضع بصـماته علی جمیع أبعاد الحرب فی الإسـلام ویصبغ کیفیّهٔ الحرب وکمیّتها ونوع السلاح والتعامل مع الأسری وأمثال ذلک بصبغهٔ «فی سبیل اللَّه».

ثم توصی الآیهٔ الشریفهٔ بضرورهٔ رعایهٔ العدالهٔ حتی فی میدان القتال وفی مقابل الأعداء وتقول: «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ».

أجل، فالحرب فی الإسـلام للّهوفی سبیل اللّه، ولا یجوز أن یکون فی سبیل اللّه اعتداء ولا عدوان، لذلک یوصـی الإسـلام برعایهٔ کثیر

من الاصول الخلقية فى الحرب، وهو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشد الإفتقار.

الإمام علىّ عليه السلام يقول لأفراد جيشه وذلك قبل شروع القتال فى صفين: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنّكم بحمد اللَّه على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة اخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن اللَّه فلا تقتلوا مدبراً ولا تُصيبوا مُعوراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النّساء بأذًى وإن شتمن أعراضكم وسببن امراءكم» «۱».

فى الآية التالية التى تعتبر مكملة للأمر الصادر فى الآية السابقة تتحدث هذه الآية بصراحة أكثر وتقول: إنّ هؤلاء المشركين هم الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وصبّوا عليهم ألوان الأذى والعذاب، فيجب على المسلمين أن يقتلوهم أينما وجدوهم، وأنّ هذا الحكم هو بمثابة دفاع عادل ومقابلة بالمثل، لأنّهم قاتلوكم وأخرجوكم من مكة «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ».

ثم يضيف اللَّه تعالى: «وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».

«الفتنة»: من «فَتْن» تعنى وضع الذهب فى النار للكشف عن درجة جودته وإصالته،

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۱۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۳

فلهذا استعملت فى كل مورد يكون فيه نوع من الشدة، مثل الامتحان الذى يقترن عادةً بالشدة ويتزامن مع المشكلات، والعذاب أيضاً نوع آخر من الشدة، وكذلك المكر والخديعة التى تُتخذ عادةً بسبب أنواع الضغوط والشدائد، وكذلك الشرك وإيجاد المانع فى طريق إيمان الناس حيث يتضمن كل ذلك نوع من الشدة والضغط.

وأنّ عبادة الأوثان وما يتولد منها من أنواع الفساد الفردى والاجتماعى كانت سائدة فى أرض مكة المكرمة حيث لوّثت بذلك الحرم الإلهى الآمن، فكان فسادها أشد من القتل فلذلك تقول هذه الآية مورد البحث مخاطبةً المسلمين: لا ينبغى لكم ترك قتال المشركين خوفاً من سفك الدماء فإنّ عبادة الأوثان أشد من القتل.

ثم تشير الآية إلى مسألة اخرى فى هذا الصدد فتقول: إنّ على المسلمين أن يحترموا المسجد الحرام دائماً وأبداً، ولذلك لا ينبغى قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلّاأن يبدؤكم بالقتال «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ».

«فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». لأنّهم عندما كسروا حرمة هذا الحرم الإلهى الآمن فلا معنى للسكوت حينئذ ويجب مقابلتهم بشدة لكى لا يسيئوا الاستفادة من قداسة الحرم وإحترامه.

ولكن بما أنّ الإسلام فى منهجه التربوى للناس يقرن دائماً الإنذار بالبشارة معاً، والثواب والعقاب كذلك، لكى يؤثر فى المسلمين تأثيراً سليماً، فلذلك فسح المجال فى الآية التالية للعودة والتوبة فقال: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الآية التالية تشير إلى هدف الجهاد فى الإسلام وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ لِلَّهِ».

ثم تضيف: فإن ترك هؤلاء المشركون عقائدهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة فلا تتعرضوا لهم «فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ».

وحسب الظاهر ذُكر فى هذه الآية ثلاثة أهداف للجهاد وهى:

۱- إزالة الفتنة.

۲- محو الشرك وعبادة الأوثان.

۳- التصدّى للظلم والعدوان.

مسألة الجهاد فى الإسلام: إنّ الحكّام الطواغيت والفراعنة وأمثالهم من النمروديين

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۴

والقارونيين الذين يعترضون دائماً على دعوة الأنبياء الإصلاحية ويقفون بوجهها ولا يرضون إلّابإزالة الدين الإلهى من الوجود يتضح

أنّ علی المؤمنین والمتـدینین فی الوقت الّـذی یعتمـدون علی العقـل والمنطق والأخلاق فی تفاعلهم الإجتماعی مع الآخرین علیهم أن یتصـدّوا لهؤلاء الظـالمین والطّواغیت ویشـقّوا طریقهم بالجهـاد وتحطیم هـذه الموانع والعوائق التی یقیمهـا حکّام الجور فی طریقهم. وأساساً فإنّ الجهاد هو قانون عام فی عالم الأحیاء، فجمیع الکائنات الحیة تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها.

وإنّ من افتخاراتنا نحن المسـلمین أنّ دیننا یقرن المسائل الدینیـة بالحکومـة ویعتمـد علی الجهاد کأحد أرکان المنظومة العقائدیة لهذا الدین، غایة الأمر یجب ملاحظة أهداف هذا الجهاد الإسلامی، وهذا هو الذی یفصل بیننا وبین الآخرین.

وکما تقدم فی الآیات أعلاه أنّ الجهاد فی الإسلام یتعقب عدة أهداف مباحة:

۱- الجهـاد من أجـل إطفاء الفتن: وبعبارة اخری الجهاد الابتـدائی من أجل التحریر، فنحن نعلم أنّ اللَّه عزّ وجلّ قـد أنزل علی البشـریة شرائع وبرامـج لسـعادة البشـر وتحریرهم وتکـاملهم وإیصـالهم إلی السـعادة والرفاه، وأوجب علی الأنبیاء علیهم السـلام أن یبلّغوا هـذه الشـرائع والإرشـادات إلی النـاس، فلو تصور أحـد الأفراد أو طائفـة من الناس أنّ إبلاغ هـذه الشـرائع للناس سوف یعیقه عن نیل منافعه الشخصـیة وسـعی لإیجاد الموانع ووضع العصـی فی عجلات الـدعوة الإلهیـة، فللأنبیاء الحق فی إزالة هذه الموانع بطریقة المسالمة أوّلًا وإلّا فعلیهم استخدام القوة فی إزالة هذه الموانع عن طریق الدعوة لنیل الحریة فی التبلیغ ولیحرر الناس من قیود الأسر والعبودیة الفکریة والاجتماعیة.

۲- الجهاد الدفاعی: إنّ جمیع القوانین السـماویة والبشـریة تبیح للفرد أو الجماعة الدفاع عن النفس والاسـتفادة مما وسعهم من قوة فی هـذا السبیـل، ویسـمی مثـل هـذا الجهـاد ب (الجهـاد الـدفاعی) ومن ذلـک غزوة الأـحزاب واحـد ومؤتـة وتبوک وحنین ونظائرها من الحروب الإسلامیة التی لها جنبة دفاعیة.

۳- الجهاد لحمایـة المظلومین: إنّ حمایة المظلومین فی مقابل عدوان الظالمین هو أصل فی الإسـلام یجب مراعاته، حتی لو أدّی الأمر إلی الجهـاد واسـتخدام القوة، فالإسـلام لاـ یرضـی للمسـلمین الوقوف متفرجین علی مـا یرد علی المظلومین فی العالم، وهـذا الأمر من الأوامر المهمة فی الشریعة الإسلامیة المقدسة التی تحکی عن حقانیة هذا الدین.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۵۵

۴- الجهاد من أجل دحر الشـرک وعبادة الأوثان: الإسـلام یدعوا البشـریة إلی اعتناق الدین الخاتم الأکمل وهو یحترم مع ذلک حریة العقیـدة، وبـذلک یُعطی أهل الکتاب الفرصـة الکافیـة للتفکیر فی أمر إعتناق الرسالة الخاتمة، فإن لم یقبلوا بذلک فإنّه یعاملهم معاملة الأقلیة المعاهدة (أهل الذمة) ویتعایش معهم تعایشاً سـلمیّاً ضـمن شـروط خاصة بسـیطة ومیسورة، لکن الشرک والوثنیة لیسا بدین ولا عقیـدة ولاـ یسـتحقان الإـحترام، بـل همـا نـوع من الخرافـة والحمق والاـنحراف ونوع من المرض الفکری والأخلاـقی الـذی ینبغی أن یستأصل مهما کلّف الثمن.

ومما تقـدم من ذکر أهـداف الجهاد یتضح أنّ الإسـلام أقام الجهاد علی اسـس منطقیة وعقلیة، ولکننا نعلم أنّ أعداء الإسـلام وخاصـة القائمون علی الکنیسة والمستشـرقین المغرضـین سـعوا کثیراً لتحریف الحقائق ضد مسألة الجهاد الإسـلامی، واتّهموا الإسـلام باستعمال الشدة والقوة والسیف من أجل تحمیل الإیمان به وتهجمّوا کثیراً علی هذا القانون الإسلامی.

والظاهر أنّ خوفهم وهلعهم إنّما هو من تقدم الإسـلام المضـطرد فی العالم بسـبب معارفه السّامیة وبرنامجه السـلیم، ولهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغة موحشة کیما یتمکنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَـدَی عَلَیْکُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَی عَلَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۱۹۴) احترام الأشـهر الحُرم والمقابلـة بالمثـل: کـان المشـرکون علی علم بأنّ الإسـلام یحضـر الحرب فی الأشـهر الحرم (ذی القعدة وذی الحجة ومحرم ورجب) لذلک أرادوا أن یشنّوا هجوماً مباغتاً علی المسلمین فی هذه الأشهر الحُرم متجاهلین حرمتها ظانین أنّ المسـلمین ممنوعون من المواجهـة. الآیـة الکریمة تکشف مؤامرة المشـرکین وتحمّل المسـلمین مسؤولیة مواجهة العدوان حتی فی

الأشهر الحُرم فتقول الآية: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ». أى:

أنّ الأعداء لو كسروا حرمة واحترام هذه الأشهر الحُرم وقاتلوكم فيها فلكم الحق أيضاً فى المقابلة بالمثل، لأنّ «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۵۶

«حُرُمات»: جمع «حُرمة» وتعنى الشيء الذى يجب حفظه واحترامه، وقيل للحرم: حرم لأنّه مكان محترم ولا يجوز هتكه، ويقال الأعمال الممنوعة والقبيحة حرام لهذا السبب، كى لا تخامر أذهان المشركين فكرة انتهاك حرمة هذه الشهور.

ثم تشرّع الآية حكماً عاماً يشمل ما نحن فيه وتقول: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

فالإسلام- وخلافاً للمسيحية الحالية التى تقول (إذا لطمك شخص على خدّك الأيمن فأدِر له الأيسر) «۱»- لا يقول بمثل هذا الحكم المنحرف الذى يبعث على جرأة المعتدى وتطاول الظالم، وحتّى المسيحيين فى هذا الزمان لاـ يلتزمون مطلقاً بهذا الحكم أيضاً، ويردون على كل عدوان مهما كان قليلًا بعدوان أشد، وهذا أيضاً مخالف لدستور الإسلام فى الرّد، فالإسلام يقول: يجب التصدّى للظالم والمعتدى، ويُعطى الحق للمظلوم والمُعتدى عليه المقابلة بالمثل، فالاستسلام فى منطق الإسلام يعنى الموت، والمقاومة والتصدّى هى الحياة.

وقوله تعالى «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» إشارة إلى أنّ اللّه لا يهمل المتقى فى خِضمّ المشكلات، بل يعينه ويرعاه.

وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۹۵) هذه الآية تكمّل ما مرّ من آيات الجهاد فكما أنّ الجهاد بحاجة إلى الرجال المخلصين والمجرّبين كذلك بحاجة إلى المال والثروة أى بحاجة إلى الاستعداد البدنى والمعنوى والمعدّات الحربية، صحيح أنّ العامل الحاسم فى تقرير مصير الحرب هو الرجال بالدرجة الاولى، ولكن الجندى بحاجة إلى أدوات الحرب (أعم من السلاح والأدوات ووسائل النقل والغذاء والوسائل الصحية) فإنّه بدونها لا يمكنه أن يفعل شيئاً. من هنا أوجب الإسلام تأمين وسائل الجهاد مع الأعداء، ومن ذلك ما ورد فى الآية أعلاه حيث تأمر بصراحة: «وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ».

وهذا المعنى يتأكد خاصة فى عصر نزول هذه الآيات حيث كان المسلمون فى شوق شديد إلى الجهاد كما يحدّثنا القرآن عن اولئك الّذين أتوا النبى يطلبون منه السلاح ليشاركوا

---

(۱) انجيل متّى الباب ۵، الرقم ۳۹- ۴۲.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۵۷

فى ساحة الجهاد وإذ لم يجدوا ذلك عادوا مهمومين محزونين «تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ» «۱».

فعبارة «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» بالرغم من أنّها واردة فى ترك الإنفاق فى الجهاد الإسلامى، ولكن مفهومها واسع يشمل موارد اخرى كثيرة، منها أنّ الإنسان ليس له الحق فى اتخاذ الطرق الخطرة للسفر (سواء من الناحية الأمنية أو بسبب العوامل الجوية أو غير ذلك) دون أن يتخذ لنفسه الاحتياطات اللازمة لذلك، كما لا يجوز له تناول الغذاء الذى يحتمل قوياً أن يكون مسموماً وحتى أن يرد ميدان القتال والجهاد دون تخطيط مدروس، ففى جميع هذه الموارد الإنسان مسؤول عن نفسه فيما لو ألقى بها فى الخطر بدون عذر مقبول.

وتصور بعض الجهلاء من أنّ كل ألوان الجهاد الابتدائى هو إلقاء النفس فى التهلكة وحتى أنّهم أحياناً يعتبرون قيام سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء مصداق لهذه الآية، وهذا ناشيء من الجهل المطبق وعدم درك مفهوم الآية الشريفة، لأنّ إلقاء النفس بالتهلكة يتعلق بالموارد التى لا يكون فيها الهدف أثمن من النفس وإلّا فلابد من التضحية بالنفس حفاظاً على ذلك الهدف

المقدس کما صنع الإمام الحسین علیه السلام وجمیع الشهداء فی سبیل اللّه کذلک.

وفی آخر الآیة أمر بالإحسان ویقول: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ».

أمّا ما هو المراد بالإحسان هنا؟ فهناک عدة احتمالات فی کلمات المفسرین، منها: أنّ المراد هو حسن الظن باللّه (فلا تظنّوا أنّ إنفاقکم هذا یؤدی إلى الاختلال فی معاشکم)، والآخر هو الاقتصاد والاعتدال فی مسألة الإنفاق، واحتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتاجین بحیث یتزامن مع البشاشة وإظهار المحبة وتجنّب أی لون من ألوان المنة والأذى للشخص المحتاج، ولا مانع من أن یکون المراد فی مفهوم الآیة جمیع هذه المعانی الثلاث.

الإنفاق مانع عن انهیار المجتمع: إنّ هذه الآیة بالرغم من أنّها وردت فی ذیل آیات الجهاد، ولکنها تبین حقیقة کلیة واجتماعیة، وهی أنّ الإنفاق بشکل عام سبب لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمّرة، لأنّه حینما یترک أفراد المجتمع الإنفاق وتتراکم الثروة فی أحد أقطاب

---

(۱) سورة التوبة/ ۹۲.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۸

المجتمع تنشأ طبقة محرومة بائسة، ولا یلبث أن یحدث انفجار عظیم فیه یحرق الأثریاء وثروتهم ویتضح من ذلک إرتباط الإنفاق بابعاد التهلکة. ومن هنا فالإنفاق یعود بالخیر على الأثریاء قبل أن یصیب خیره المحرومین، لأنّ تعدیل الثروة یصون الثروة کما قال الإمام علی علیه السلام: «حصّنوا أموالکم بالزّکاة» «۱».

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ وَ لَا تَحْلِقُوا رُءُوسَکُمْ حَتَّی یَبْلُغَ الْهَدْیُ مَحِلَّهُ فَمَنْ کَانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ بِهِ أَذًی مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْیَةٌ مِنْ صِیَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُکٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَی الْحَجِّ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیَامُ ثَلَاثَةِ أَیَّامٍ فِی الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْکَ عَشَرَةٌ کَامِلَةٌ ذلِکَ لِمَنْ لَمْ یَکُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ (۱۹۶) بعض أحکام الحج المهمة: فی هذه الآیة ذُکرت أحکام کثیرة:

۱- فی مطلع الآیة تأکیداً على أنّ أعمال العمرة والحج ینبغی أن تکون للّهوطلب مرضاته فقط «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ». من هنا لا ینبغی أن یشوب أعمال الحج نیّة اخرى غیر الدافع الإلهی وکذلک الإتیان بالعمل العبادی هذا کاملًا وتاماً بمقتضى جملة «وَأَتِمُّوا».

۲- ثم إنّ الآیة تشیر إلى الأشخاص الذین لا یحالفهم التوفیق لأداء مناسک الحج والعمرة بعد لبس ثیاب الإحرام بسبب المرض الشدید أو خوف العدو وأمثال ذلک، فتقول:

«فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ». فمثل هذا الشخص علیه أن یذبح ما تیّسر له من الهدی ویخرج بذلک من إحرامه.

۳- ثم إنّ الآیة الشریفة تشیر إلى أمر آخر من مناسک الحج فتقول: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَکُم حَتَّى یَبْلُغَ الْهَدْیُ مَحِلَّهُ».

۴- ثم تقول الآیة: «فَمَن کَانَ مِنکُم مَّرِیضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْیَةٌ مِّن صِیَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُکٍ».

«نُسُک»: فی الأصل جمع «نسیکة» بمعنى حیوان مذبوح، وهذه المفردة جاءت بمعنى

---

(۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۱۴۶.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۹

العبادة أیضاً. هذا الاصطلاح یأتی فی أعمال الحج و «نسیکة» بمعنى «ذبیحة».

إنّ مثل هذا الشخص مخیّراً بین ثلاث امور (الصوم والصدقة أو ذبح شاة).

۵- ثم تضیف الآیة: «فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجّ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ».

وهـذه إشـارة إلى أنّه يجب الذبـح فى حـج التمتع ولاـ فرق فى هـذا الهـدى بين أن يكون من الإبـل أو من البقر أو من الضّأن دون أن يخرج من الإحرام.

۶- ثم إنّ الآيهٔ تبيّن حكم الأشخاص غير القادرين على ذبح الهدى فى حج التمتع فتقول:

«فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَثَةِ أَيَّام فِى الْحَجّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ». فعلى هذا فلو لم يجد الإنسان أضحيهً أو أنّ وضعه المالى لا يطيق ذلك فيجب عليه جبران ذلك بصيام عشرهٔ أيام.

إنّ التعبير بكلمـهٔ (كاملـهٔ) إشارهٔ إلى أنّ صوم الأيام العشرهٔ يحلّ محل الهـدى بشـكل كامل، ولهـذا ينبغى للحجاج أن يطمأنّوا لذلك وأنّ جميع ما يترتب على الأضحيهٔ من ثواب وبركهٔ سوف يكون من نصيبهم أيضاً.

۷- ثم إنّ الآيـهٔ الشـريفهٔ تتعرض إلى بيان حكم آخر وتقول: «ذلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَام». فعلى هـذا لا يكون لأهل مكهٔ أو الساكنين فى أطرافها حج التمتع، فوظيفته حج القِران أو الإفراد (وتفصيل هذا الموضوع مذكور فى الكتب الفقهيهٔ).

وبعد بيان هذه الأحكام السـبعهٔ تأمر الآيهٔ فى ختامها بالتقوى وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ولعل هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحج عبادهٔ إسـلاميهٔ هامهٔ ولا ينبغى للمسـلمين التساهل فى أداء مناسـكه وأنّ ذلك سـيؤدّى إلى اضـرار كثيرهٔ، وأحياناً يسـبّب فساد الحج وزوال بركاته المهمهٔ.

بحثان

۱- أهميـهٔ الحـج بين الواجبات الإسـلاميهٔ: يُعتبر الحـج من أهم العبادات التى شُـرّعت فى الإسـلام ولها آثار وبركات كثيرهٔ جـدّاً، فهو مصدر عظمهٔ الإسـلام وقوّهٔ الدين واتحاد المسـلمين، والحج هو الشـعيرهٔ العباديهٔ التى ترعب الأعداء وتضخ فى كل عام دماً جديداً فى شرايين المسلمين.

والحج هو تلك العبادهٔ التى أسـماها أمير المؤمنين عليه السلام ب (علم الإسلام وشعاره) وقال عنها فى وصيته فى الساعات الأخيرهٔ من حياته: «اللَّه اللَّه فى بيت ربّكم لا تُخَلّوه ما بقيتم فإنّه إن

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۶۰

تُرِك لـم تُنـاظَروا» «۱». أى أنّ البلاـء الإلـهى سيشـملكم دون إمهـال. ۲- أقسـام الحـج: لقـد قسّم الفقهـاء العظام وبإلهـام من الآيات والأحاديث الشريفهٔ عن النبى وآله: الحج إلى ثلاثهٔ أقسام: حج التمتع، حج القِران، وحج الإفراد.

أمّا حـج التمتع فيختص بمن كـان على مسافهٔ ۴۸ ميلًا فصاعـداً من مكـهٔ (۱۶ فرسـخ وما يعادل ۹۶ كيلومتر تقريبـاً)، وأمّا حـج القِران والإفراد فيتعلقـان بمن كـان أدنى من هـذه الفاصـلهٔ. ففى حـج التمتع يـأتى الحـاج بالعمرهٔ أوّلًا، ثم يحلّ من إحرامه وبعـد ذلك يأتى بمراسم الحـج فى أيامه المخصوصـهٔ، ولكن فى حـج القِران والإفراد يبدأ أوّلًا بأداء مراسم الحج، ثم بعد الانتهاء منها يشـرع بمناسـك العمرهٔ مع تفاوت أنّ الحاج فى حج القِران يأتى ومعه هديه، أمّا فى حج الإفراد فلا هدى فيه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَ لَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ (۱۹۷) لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱۹۸) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۹) تواصل هذه الآيات الشريفهٔ بيان أحكام الحج وزيارهٔ بيت اللَّه الحرام وتقرر طائفهٔ من التشريعات الجديدهٔ:

۱- تقول الآيهٔ: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ».

والمراد بهذه الأشهر: هى شوال، ذى القعدهٔ، ذى الحجهٔ.

۲- ثم تأمر الآيهٔ الكريمهٔ فيمن أحرم إلى الحج وشرع بأداء مناسك الحج وتقول: «فَمَن فَرَضَ فِيْهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجّ».

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷، (وصيّة الإمام لابنيه الحسن والحسين عليهما السلام).

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۶۱

«رفث»: بالأصل بمعنى الكلام والحديث المتضمن ذكر بعض الامور القبيحة أعم من الامور الجنسية أو مقدماتها، ثم بات كناية عن الجماع.

«فسوق»: بمعنى الذنب والخروج من طاعة اللَّه.

و «جدال»: تأتى بمعنى المكالمة المقرونة بالنزاع، وهى فى الأصل بمعنى شدّ الحبل ولفّه، ومن هنا استعملت فى الجدال بين اثنين، لأنّ كلّاً منهما يشدّ الكلام ويحاول إثبات صحة رأيه ونظره.

وهكذا ينبغى أن تكون أجواء الحج طاهرة من التمتعات الجنسية وكذلك من الذنوب والجدال العقيم وأمثال ذلك، لأنّها أجواء عبادية تتطلّب الإخلاص وترك اللذائذ المادية وتقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطاهر قوة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيداً عن عالم المادة، وفى نفس الوقت تقوى الالفة والإتحاد والإتفاق والاخوة بين المسلمين باجتناب كل ما ينافى هذه الامور.

۳- بعد ذلك تعقب الآية وتبين المسائل المعنوية للحج وما يتعلق بالإخلاص وتقول:

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ».

وهذا أوّل لطف إلهى يناله الصالحون، فالمرحلة الاولى من لذّة الإنسان المؤمن هى إحساسه بأنّ ما يعمله فى سبيل اللَّه إنّما هو بعين اللَّه، ويا لها لذة.

وتضيف الآية: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

والعبارة تنطوى على توعية المسلمين بالنسبة لعطاء الحج المعنوى وتفتّح أبصارهم على ما فى ساحة الحج من معان عميقة تشدّ الإنسان بتاريخ الرسل والأنبياء وبمشاهد تضحية إبراهيم بطل التوحيد، وبمظاهر عظمة اللَّه سبحانه ممّا لا يوجد فى مكان آخر، ولابد للحاج أن يستلهم من هذه الساحه زاداً يعينه على مواصلة مسيرته نحو اللَّه فيما بقى من عمره.

«وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ».

الآية التالية ترفع بعض الإشتباهات فى مسألة الحج وتقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ».

لقد كان التعامل الاقتصادى بكافة ألوانه محضوراً فى موسم الحج عند الجاهليين، وكانوا يعتقدون ببطلان الحج إذا اقترن بالنشاط الاقتصادى، فالآية مورد البحث تعلن بطلان هذا الحكم الجاهلى وتؤكد أنّه لا مانع من التعامل الاقتصادى والتجارى فى موسم الحج،

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۶۲

وتسمح بابتغاء فضل اللَّه فى هذا الموسم عن طريق العمل والكد. وهذا مضافاً إلى أنّ سفر المسلمين من كل فجّ عميق إلى بيت اللَّه الحرام لعقد مؤتمر الحج العظيم يستطيع أن يكون منطلقاً لتحرك اقتصادى عام فى المجتمعات الإسلامية.

ثم تعطف الآية الشريفة على ما تقدم من مناسك الحج وتقول: «فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيكُمْ وَإِن كُنتُم مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ».

ثم تقول الآية فى حديثها هذا: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ». فهذا المقطع يتضمّن أمراً بالإفاضة أى بالإندفاع والحركة من المشعر الحرام إلى أرض مِنى.

ففى نهاية الآية تُعطى أمراً بالاستغفار والتوبة وتقول: «وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

ففى هذا المقطع من الآيات إشارة إلى ثلاث مواقف من مواقف الحج (عرفات) وهى صحراء وتقع على بعد ۲۰ كيلومتراً تقريباً من مكّة، ثم الوقوف ب (المشعر الحرام أو المزدلفة) والثالث أرض (منى وهى محل ذبح الأضاحى ورمى الجمرات وحلّ الإحرام وأداء

مناسک العيد.

بحثان

۱- أوّل موقف للحجيج: تقدم أنّ حجاج بيت اللَّه الحرام يتجهون بعد أداء مناسك العمرة نحو أداء مناسک الحج، وأوّل موقف يقفون فيه هو فى «عرفات»، وفى سبب تسمية هذه الأرض بهذا الاسم هى أنّ هذه الأرض المشرفة التى تبدأ منها اولى مراحل الحج محيط مناسب جدّاً لمعرفة اللَّه تعالى. والحاج فى هذا الموقف يشعر حقّاً بانشداد روحى ومعنوى لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج فى هذه الأرض القاحلة متجمعون بشكل واحد وبزيّ واحد، قد هربوا من بريق الحياة وزخرفها وصخبها وضجيجها ولاذوا بهذه الأرض المشرفة المفعمة بذكريات الرسالات السماوية، حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل وصوت الخليل ودعوة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وصحبه المجاهدين، وتنطق أرضها بصور الجهاد والتضحية والإنقطاع إلى اللَّه على مرّ التاريخ، كأنّ هذه الأرض نافذة تشرف على عالم ما وراء الطبيعة، يرتوى فيها الإنسان من منهل العرفان، وينساق مع تسبيح الخليقة العام، بل يعود أيضاً إلى ذاته التى انفصل عنها زمناً طويلًا فيعرف نفسه، نعم إنّها «عرفات» وما أجمل هذا الاسم!

۲- درس الوحدة والاتحاد: جاء فى بعض الروايات الشريفة أنّ قبائل قريش كانت

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۳

ترى لنفسها مكانة دينية خاصة بين العرب، ومن هنا فإنّهم تركوا الوقوف فى عرفات لأنّها خارج الحرم المكى.

الآية الكريمة تبطل كل هذه الأوهام وتأمر بوقوف الحجاج جميعاً فى عرفات، ثم التحرک منها نحو المشعر الحرام.

والأمر بالاستغفار فى ختام الآية حثّ على ترک تلک الأوهام والأفكار الجاهلية، والإتجاه نحو تعلّم دروس الحج فى المساواة.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (۲۰۰) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (۲۰۱) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۲۰۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الجاهليين كانوا إذا فرغوا من الحج، يجتمعون هناك، ويعدّون مفاخر آبائهم ومآثرهم ويذكرون أيّامهم القديمة وأياديهم الجسمية، فأمرهم سبحانه أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم فى هذا الموضع.

التّفسير

هذه الآيات تواصل الأبحاث المتعلقة بالحج فى الآيات السابقة. الآية الاولى من الآيات محل البحث تقول: «فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا».

وليس المراد من هذه العبارة أنّكم اذكروا أسلافكم وأذكروا اللَّه كذلک، بل هو إشارة إلى هذه الحقيقة بأنّكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال والمواهب الحميدة، فلماذا لا تذكرون اللَّه تعالى ربّ السماوات والأرض والرازق والواهب لجميع هذه النعم فى العالم وهو منبع ومصدر جميع الكمالات وصفات الجلال والجمال.

«ذكر اللَّه» فى هذه الآية يشمل جميع الأذكار الإلهية بعد أداء مناسک الحج.

بعد ذلک يوضّح القرآن طبيعة مجموعتين من الناس وطريقة تفكيرهم ... مجموعة لا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۴

تفكر إلّابمصالحها المادية ولا تتجّه فى الدعاء إلى اللَّه إلّامن هذه المنطلقات المادية فتقول:

«فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْأَخِرَةِ مِنْ خَلقٍ». والمجموعة الثانية تتحدث عنهم الآية بقولها: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وهذه الفقرات من الآيات محل البحث تشير إلى هاتين الطائفتين وأنّ الناس فى هذه العبادة العظيمة على نوعين.

أمّا ما المراد من «الحسنة»؟ فقد ورد فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من اوتى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على أمر دنياه واخراه فقد اوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووُقى عذاب النار».

وواضح أنّ الحسنة هذا له مفهوم واسع بحيث يشمل جميع المواهب المادية والمعنوية، وما ورد فى الرواية أعلاه فهو بيان لأبرز المصاديق لا حصر الحسنة بهذه المصاديق.

وفى آخر آية إشارة إلى الطائفة الثانية (الذين طلبوا من اللَّه الحسنة فى الدنيا والآخرة) فتقول: «أُوَلئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وفى الحقيقة هذه الآية تقع فى النقطة المقابلة للجملة الأخيرة من الآية السابقة «وَمَا لَه فِى الْآخِرَةِ مِن خَلقٍ».

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۰۳) هذه الآية آخر آية وردت فى بيان مناسك الحج وإبطال السنن الجاهلية فى المفاخرات الموهومة بالنسبة للأسلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا اللَّه تعالى:

«وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ».

أمّا المراد من «أذكار» فقد ورد فى الأحاديث الإسلامية أنّها تعنى تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسة عشرة صلاة فى هذه الأيام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتى صلاة الصبح من اليوم الثالث العشر) وهى «اللَّه أكبر اللَّه أكبر لا إله إلّااللَّه واللَّه أكبر اللَّه أكبر وللَّه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۵

الحمد، اللَّه أكبر على ما هدانا، اللَّه أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

ثم تشير الآية إلى هذا الحكم الشرعى: «فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى . وهذا التعبير إشارة إلى نوع من التخيير فى أداء ذكر اللَّه بين يومين أو ثلاثة أيام.

وفى نهاية الآية نلاحظ أمراً كليّاً بالتقوى حيث تقول الآية: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إلى أنّ المناسك الروحانية فى الحج تطهّر الإنسان من الذنوب السابقة كيوم ولدته امّه، ولكن عليكم تقوى اللَّه والحذر من الوقوع فى الذنب مرة اخرى.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (۲۰۴) وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (۲۰۵) وَ إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ (۲۰۶)

سبب النّزول

فى تفسير روح المعانى: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى: أقبل إلى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة فأظهر له الإسلام وأعجب النبى صلى الله عليه و آله ذلك منه وقال: إنّما جئت أريد الإسلام واللَّه تعالى يعلم إنّى لصادق. ثم خرج من عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فمر بزرع من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر (وبهذا أظهر ما فى باطنه من النفاق).

التّفسير

الآية الاولى تشير إلى بعض المنافقين حيث تقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ».

«ألد»: تأتى بمعنى ذو العداوة الشديدة؛ و «خصام»: لها معنىً مصدرى وهو الخصومة والعداوة.

ثم تضيف الآية التالية بعض العلامات الباطنية لعداوة مثل هذا الإنسان وهى: «وَإِذَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۶

تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ». أجل لأنّ هؤلاء لو كانوا صادقين فى إيمانهم وإظهارهم المحبة لما أفسدوا فى الأرض مطلقاً، فبالرغم من أنّ ظاهرهم المحبة الخالصة إلّاأنّهم فى الباطن أشد الناس قساوة ووحشية.

«حرث»: بمعنى الزراعة؛ «نسل»: بمعنى الأولاد وتُطلق أيضاً على أولاد الإنسان وغير الإنسان.

إنّ التعبير «يُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» كلام مختصر وجامع لكل المصاديق حيث يشمل الإفساد والتخريب بالنسبة للأموال والنفوس فى المجتمع البشرى.

والآية الاخرى تضيف: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» «۱». فتشتعل فى قلبه نيران التعصب واللجاج وتجرّه إلى المعصية والإثم.

فمثل هذا الشخص لا يستمع إلى نصيحة الناصحين ولا يهتم للإنذارات الإلهية، بل يستمر على عناده وإرتكابه للآثام والمنكرات مغروراً، فلا يكون جزاؤه إلّاالنار، ولذلك يقول فى نهاية الآية: «فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (۲۰۷)

سبب النّزول

روى الثعلبىّ فى تفسيره: لمّا أراد النّبى صلى الله عليه و آله الهجرة إلى الغار خلّف عليّاً عليه السلام لقضاء ديونه وردّ الودائع التى كانت عنده، وأمره ليلة خروج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار وقال له: «يا علىّ! اتّشح ببردى الحضرمى ثم نم على فراشى فإنّه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء اللّه تعالى». ففعل ما أمره، فأوحى عزّ وجلّ إلى جبرئيل وميكائيل: أنّى قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كل منهما الحياة فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليهما: ألا كنتما مثل علىّ بن أبى طالب آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه. فنزلا فكان

---

(۱) «العزّة»: فى مقابل الذلّة فى الأصل، ولكن هنا ورد بمعنى الغرور والنخوة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۷

جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل يقول: بخّ بخّ مَن مثلك يا بن أبى طالب؟ يُباهى اللّه تبارك وتعالى بك ملائكته. فأنزل اللّه عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة فى شأن على بن أبى طالب عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ» الآية. (ولهذا سُمّيت هذه الليلة التاريخية بليلة المبيت).

ويقول (أبو جعفر الإسكافى) كما جاء فى شرح نهج البلاغة لإبن أبى‌الحديد المجلد ۳ الصفحة ۲۷۰: «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّامجنون أو غير مخالط لأهل الملّة».

التّفسير

بالرغم من أنّ الآية محل البحث تتعلق كما ورد فى سبب النزول بحادثة هجرة النبى صلى الله عليه و آله وتضحية الإمام على عليه السلام ومبيته على فراش النّبى، ولكنّ مفهومها ومحتواها الكلى- كما فى سائر الآيات القرآنية- عام وشامل، وأنّها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة التى تتحدّث عن المنافقين. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ».

إنّ جملة «وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» قد تكون إشارة إلى أنّ اللّه عزّ وجلّ فى الوقت الذى هو رحيم ورؤوف بالعباد هو الّذى يشرى الأنفس بأغلى الأثمان وهو رضوان اللّه تعالى عن الإنسان.

ومما يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، والمشترى هو اللّه تعالى، والبضاعة هى النفس، وثمنها هو رضوان اللّه تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالدة والنجاة من النار.

فهذه الآية ومع الإلتفات إلى سبب النزول المذكور آنفاً تُعد أعظم الفضائل للإمام على عليه السلام الواردة فى اكثر المصادر الإسلامية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۰۸) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۰۹) بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين والمنافقين المفسدين) فى الآيات السابقة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۸

تدعو هذه الآيات الكريمة كل المؤمنين إلى السّلم والصلح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السّلْمِ كَافَّةً». يستفاد من مفهوم هذه الآية أنّ السلام لا يتحقق إلّافى ظل الإيمان.

واضح أنّ الاطر المادية الأرضية (من اللغة والعنصر و ...) هى عوامل تفرقة بين أفراد البشر وبحاجة إلى حلقة إتصال محكمة تربط بين قلوب الناس.

ويسلّموا لجميع ثم تضيف الآية: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

«خطوات»: جمع «خطوة» وهنا تكررت هذه الحقيقة من أنّ الانحراف عن الصلح والعدالة، والتسليم لإرادة الأعداء ودوافع العداوة والحرب وسفك الدماء يبدأ من مراحل بسيطة وينتهى بمراتب حادة وخطرة.

وتتضمن جملة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» برهاناً ودليلًا حيّاً حيث تقول أنّ عداء الشيطان للإنسان ليس بأمر خفى مستتر، فهو منذ بداية خلق آدم أقسم أن يبذل جهده لإغواء جميع البشر إلّاالمخلصين الّذين لا ينالهم مكر الشيطان، فمع هذا الحال كيف يمكن التغافل عن وسوسة الشيطان.

الآية التالية إنذار لجميع المؤمنين حيث تقول: «فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فلو انحرفتم وسرتم مع وساوس الشيطان على خلاف مسار الصلح والسلام فإنّكم لا تستطيعون بذلك الفرار من العدالة الإلهية.

المنهج بيّن والطريق بيّن والهدف بيّن، ومعلوم من هنا لا عذر لمن يزل عن الطريق، فلو انحرفتم فأنتم المقصرون، فاعلموا أنّ اللَّه قادر حكيم لا يستطيع أحد أن يفرّ من عدالته.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِىَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۲۱۰) قد يبدو للوهلة الاولى أنّ فى هذه الآية الكريمة نوعاً من الإبهام والتعقيد، لكن ذلك يزول عند إمعان النظر بتعبيراتها. الآية تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله وتقول: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۹

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ» «۱».

والمراد من جملة «قضى الأمر» الوارد فى الآية هى نزول العذاب الإلهى على الكفار المعاندين لأنّ ظاهر الآية يتعلق بهذه الحياة الدنيا.

وفى نهاية الآية تقول: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» الامور المتعلقة بإرسال الأنبياء ونزول الكتب السماوية وتبيين حقائق يوم القيامة والحساب والجزاء والثواب والعقاب وكلها تعود إليه.

استحالة رؤية اللَّه: لا شك أنّ الرؤية الحسية لا تكون إلّاللأجسام التى لها لون ومكان وتأخذ حيّز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤية اللَّه تعالى الذى هو فوق الزمان والمكان.

إنّ الذات المقدسة يستحيل رؤيتها بهذه العين لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، والأدلة العقلية على هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّه لا حاجة لشرحها وبيانها.

وطبعاً لا شك فى إمكانية رؤية اللَّه تعالى بعين القلب، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم آخر، ومن المسلم أنّ ذاته المقدسة فى يوم القيامة لها ظهور أقوى وأشد من ظهورها فى هذا العالم مما يستدعى أن تكون المشاهدة أقوى.

سَلْ بَنِی إِسْرَائِیلَ کَمْ آتَیْنَاهُمْ مِنْ آیَةٍ بَیِّنَةٍ وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ (۲۱۱) تشیر هذه الآیة إلی أحد مصادیق الآیات السابقة، لأنّ الحدیث فی الآیات السابقة کان یدور حول المؤمنین والکافرین والمنافقین، وأنّ الکافرین کانوا یتجاهلون آیات اللَّه وبراهینه الواضحة ویتذرعون بمختلف الحجج والمعاذیر، وبنی إسرائیل مصداق واضح لهذا المعنی، وتقول الآیة: «سَلْ بَنِی إِسْرَاءِیلَ کَمْ ءَاتَیْنَاهُمْ مِّنْ ءَایَةٍ بَیِّنَةٍ».

ولکنهم تجاهلوا وتغافلوا عن هذه الآیات والعلائم الواضحة وأنفقوا المواهب الإلهیة والنعم الربانیة فی موارد مذمومة ومنحرفة، ثم تقول الآیة: «وَمَن یُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا

---

(۱) «ظُلل»: جمع «ظلة» یقال لکل شیء یصنع ظلًا، و «غمام»: بمعنی السحاب.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۰

مختصر الامثل ج ۱ ۲۰۰

جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ».

والمراد من «تبدیل النعمة» هو استخدام الإمکانات والطّاقات والمصادر المادیة والمعنویة الموهوبة علی طریق تخریبی انحرافی وممارسة الظلم والطغیان.

ولا تنحصر مسألة تبدیل النعمة والمصیر المؤلم لها ببنی إسرائیل.

فالعالم المتطور صناعیّاً یعانی الیوم من هذه المأساة الکبری، فمع وفور النعم والطاقات لدی الإنسان المعاصر وفوراً لم یسبق له مثیل فی التاریخ نجد صوراً شتّی من تبدیل النعم وتسخیرها بشکل فضیع فی طریق الإبادة والفناء بسبب ابتعادهم عن التعالیم الإلهیة للأنبیاء، حیث حوّروا هذه النعم إلی أسلحة مدمّرة من أجل بسط سیطرتهم الظالمة واستعمارهم للبلدان الاخری، وبذلک جعلوا من الدنیا مکاناً غیر آمن، وجعلوا الحیاة الدنیا غیر آمنة من کل ناحیة.

زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا الْحَیَاةُ الدُّنْیَا وَ یَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ وَ اللَّهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَابٍ (۲۱۲)

سبب النّزول

روی فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس قال: نزلت الآیة فی أبی جهل وغیره من رؤساء قریش، بسطت لهم الدنیا وکانوا یسخرون من قوم من المؤمنین، فقراء، مثل عبد اللَّه بن مسعود، وعمّار وبلال وخباب ویقولون: لو کان محمّد نبیّاً لاتبعه أشرافنا.

التّفسیر

الکافرون عبید الدنیا: نزول الآیة طبقاً للروایة المذکورة بشأن رؤساء قریش لا یمنع أن تکون مکملة لموضوع الآیة السابقة بشأن الیهود وأن نستنتج منها قاعدة کلیة. تقول الآیة:

«زُیّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا الْحَیَوةُ الدُّنْیَا». ولذلک أفقدهم الغرور والتکبر شعورهم.

«وَیَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِینَ ءَامَنُوا» فی حین أنّ المؤمنین والمتقین فی أعلی علّیین فی الجنة، وهؤلاء فی درکات الجحیم «وَالَّذِینَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ الْقِیمَةِ».

لأنّ المقامات المعنویة تتّخذ صور عینیة فی ذلک العالم، ویکتسب المؤمنون درجات أسمی من هؤلاء، وکأنّ هؤلاء یسیرون فی أعماق الأرض بینما یحلّق الصالحون فی أعالی السماء، ولیس ذلک بعجیب «وَاللَّهُ یَرْزُقُ مَن یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَابٍ».

وهذه بشارة للمؤمنین الفقراء وإنذار وتهدید للأغنیاء والأثریاء المغرورین.

وکون ذلک الرزق الإلهی بدون حساب للمؤمنین إشارة إلی أنّ الثواب والمواهب الإلهیة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۱

ليست بمقدار أعمالنا إطلاقاً، بل هى مطابقة لكرمه ولطفه، ونعلم أنّ كرمه ولطفه ليس لهما حدود ونهاية.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۱۳) بعد بيان حال المؤمنين والمنافقين والكفار فى الآيات السابقة شرع القرآن الكريم فى هذه الآية فى بحث اصولى جامع بالنسبة لظهور الدّين وأهدافه والمراحل المختلفة التى مر بها. فى البداية تقول الآية: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

فتبدأ هذه الآية ببيان مراحل الحياة البشرية وكيفية ظهور الدين لإصلاح المجتمع بواسطة الأنبياء وذلك على مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة حياة الإنسان الابتدائية حيث لم يكن للإنسان قد ألف الحياة الاجتماعية، ولم تبرز فى حياته التناقضات والاختلافات، وكان يعبد اللَّه تعالى استجابةً لنداء الفطرة ويؤدى له فرائظ البسيطة، وهذه المرحلة يحتمل أن تكون فى الفترة الفاصلة بين آدم ونوح عليهما السلام.

المرحلة الثانية: وفيها اتخذت حياة الإنسان شكلًا اجتماعياً، ولابد أن يحدث ذلك لأنّه مفطور على التكامل، وهذا لا يتحقق إلّافى الحياة الاجتماعية.

المرحلة الثالثة: هى مرحلة التناقضات والاصطدامات الحتمية بين أفراد المجتمع البشرى بعد استحكام وظهور الحياة الاجتماعية، وهذه الاختلافات سواء كانت من حيث الإيمان والعقيدة، أو من حيث العمل وتعيين حقوق الأفراد والجماعات تحتّم وجود قوانين لرعاية وحلّ هذه الاختلافات، ومن هنا نشأت الحاجة الماسّة إلى تعاليم الأنبياء وهدايتهم.

المرحلة الرابعة: وتتميز ببعث اللَّه تعالى الأنبياء لإنقاذ الناس، حيث تقول الآية:

«فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۷۲

فمع الإلتفات إلى تبشير الأنبياء وإنذارهم يتوجه الإنسان إلى المبدأ والمعاد ويشعر أنّ وراءه جزاءً على أعماله فيحسّ أنّ مصيره مرتبط مباشرةً بتعاليم الأنبياء وما ورد فى الكتب السماوية من الأحكام والقوانين الإلهيّة لحلّ التناقضات والنّزاعات المختلفة بين أفراد البشر، لذلك تقول الآية: «وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

المرحلة الخامسة: هى التمسك بتعاليم الأنبياء وما ورد فى كتبهم السماوية لإطفاء نار الخلافات والنزاعات المتنوعة (الاختلافات الفكرية والعقائدية والاجتماعية والأخلاقية).

المرحلة السادسة: واستمر الوضع على هذا الحال حتى نفذت فيهم الوساوس الشيطانية وتحرّكت فى أنفسهم الأهواء النفسانية، وبهذا تقول الآية بعد ذلك: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

المرحلة السابعة: الآية الكريمة بعد ذلك تُقسّم الناس إلى قسمين، القسم الأوّل المؤمنون الذين ينتهجون طريق الحق والهداية ويتغلبون على كل الاختلافات بالاستنارة بالكتب السماوية وتعليم الأنبياء، فتقول الآية: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ».

فى حين أنّ الفاسقين والمعاندين ماكثون فى الضلالة والاختلاف.

وختام الآية تقول: «وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». وهذه الفقرة إشارة إلى حقيقة إرتباط مشيئة اللَّه تعالى بأعمال الأفراد، فجميع الأفراد الراغبون فى الوصول إلى الحقيقة يهديهم اللَّه تعالى إلى صراط مستقيم ويزيد فى وعيهم وهدايتهم وتوفيقهم فى الخلاص من الاختلافات والمشاجرات الدنيوية مع الكفار وأهل الدنيا ويرزقهم السكينة والاطمئنان، ويبين لهم طريق النجاة والاستقامة.

يستفاد من الآية أعلاه أنّ بداية انبثاق الدين بمعناه الحقيقى كانت مقترنة مع ظهور المجتمع البشرى بمعناه الحقيقى، من هنا نفهم سبب كون نوح أوّل انبياء اولوا العزم وأوّل أصحاب الشريعة والرسالة لا آدم.

يَسْأَلُونَکَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

عَلِيمٌ (۲۱۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ الآیة نزلت یوم الخندق لما اشتدت المخافة وحوصِر المسلمون

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۳

فی المدینة فدعاهم اللَّه إلی الصبر ووعدهم بالنصر.

التّفسیر

یبدو من الآیة الكریمة أنّ جماعة من المسلمین كانت تری أنّ إظهار الإیمان باللَّه وحده كاف لدخولهم الجنة، ولذلك لم یوطّنوا أنفسهم علی تحمل الصعاب والمشاقّ ظانین أنّه سبحانه هو الكفیل بإصلاح امورهم ودفع شرّ الأعداء عنهم.

الآیة تردّ علی هذا الفهم الخاطیء فتقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا یَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ».

وبما أنّهم كانوا فی غایة الإستقامة والصبر مقابل تلك الحوادث والمصائب، وكانوا فی غایة التوكل وتفویض الأمر إلی اللطف الإلهی، فلذلك تعقب الآیة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ».

إنّ الآیة أعلاه تحكی إحدی السنن الالهیة فی الأقوام البشریة جمیعاً، وتنذر المؤمنین فی جمیع الأزمنة والأعصار أنّهم ینبغی علیهم لنیل النصر والتوفیق والمواهب الاخرویة أن یتقبّلوا الصعوبات والمشاكل ویبذلوا التضحیات فی هذا السبیل، وإنّ هذه المشاكل والصعوبات ما هی إلّاامتحان وتربیة للمؤمنین ولتمییز المؤمن الحقیقی عن المتظاهر بالإیمان.

كُتِبَ عَلَیْكُمُ الْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسَی أَنْ تَكْرَهُوا شَیْئاً وَ هُوَ خَیْرٌ لَكُمْ وَ عَسَی أَنْ تُحِبُّوا شَیْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۲۱۶)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس قال: أنّ الآیة نزلت فی عمرو بن الجموح وكان شیخاً كبیراً ذا مال كثیر، فقال یا رسول اللَّه! بماذا أتصدق؟ وعلی مَن أتصدق؟ فأنزل اللَّه سبحانه هذه الآیة.

التّفسیر

یتعرّض القرآن الكریم فی آیات عدیدة إلی الإنفاق والبذل فی سبیل اللَّه، وحثّ المسلمین بطرق عدیدة علی الإنفاق والأخذ بید الضعفاء، وهذه الآیة تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذی ینفقه، ولذلك جاء تعبیر الآیة بهذا الشكل: «یَسَلُونَكَ مَاذَا یُنفِقُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۴

وفی الجواب بیّنت الآیة نوع الإنفاق، ثم تطرّقت أیضاً إلی الأشخاص المستحقین للنفقة.

بشأن المسألة الاولی: ذكرت الآیة كلمة «خیر» لتبین بشكل جامع شامل ما ینبغی أن ینفقه الإنسان، وهو كل عمل ورأسمال وموضوع یشتمل علی الخیر والفائدة للناس، وبذلك یشمل كل رأسمال مادی ومعنوی مفید. وبالنسبة للمسألة الثانیة:- أی موارد الإنفاق- فتذكر الآیة أوّلًا الأقربین وتخصّ الوالدین بالذكر، ثم الیتامی ثم المساكین، ثم أبناء السبیل، ومن الواضح أنّ الإنفاق للأقربین- إضافة إلی ما یتركه من آثار تترتب علی كل إنفاق- یوطّد عری القرابة بین الأفراد.

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ». لعل فی هذه العبارة من الآیة إشارة إلی أنّه یحسن بالمنفقین أن لا یصرّوا علی اطلاع الناس علی أعمالهم، ومن الأفضل أن یسرّوا انفاقهم تأكیداً لإخلاصهم فی العمل، لأنّ الذی یجازی علی الاحسان علیم بكل شیء، ولا یضیع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

الآیة السابقة تناولت مسألة الإنفاق بالأموال، وهذه الآیة تدور حول التضحیة بالدم والنفس فی سبیل اللَّه، فالآیتان یقترن موضوعهما فی

ميدان التضحية والفداء، فتقول الآية:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ».

التعبير بكلمة «كُتِبَ» إشارة إلى حتمية هذا الأمر الإلهى ومقطوعيته.

«كُره» وإن كان مصدراً إلّاأنّه استعمل هنا باسم المفعول يعنى مكروه، فالمراد من هذه الجملة أنّ الحرب مع الأعداء فى سبيل اللَّه أمر مكروه وشديد على الناس العاديين، لأنّ الحرب تقترن بتلف الأموال والنفوس وأنواع المشقات والمصائب، وأما بالنسبة لعشاق الشهادة فى سبيل الحق ومن له قدم راسخ فى المعركة فالحرب مع أعداء الحق بمثابة الشراب العذب للعطشان، ولا شك فى أنّ حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس وخاصة فى بداية الإسلام.

ثم تشير هذه الآية الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم فى القوانين التكوينية والتشريعية الإلهية وتقول: «وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۵

وعلى العكس من تجنّب الحرب وطلب العافية وهو الأمر المحبوب لكم ظاهراً، إلّاأنّه «وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ».

ثم تضيف الآية وفى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». فهنا يؤكد الخالق جلّ وعلا- بشكل حاسم أنّه لا ينبغى لأفراد البشر أن يحكموا أذواقهم ومعارفهم فى الامور المتعلقة بمصيرهم، لأنّ علمهم محدود من كل جانب ومعلوماتهم بالنسبة إلى مجهولاتهم كقطرة فى مقابل البحر.

فهؤلاء الناس لا يحق لهم مع الإلتفات إلى علمهم المحدود أن يتعرضوا على علم اللَّه اللّامحدود ويعترضوا على أحكامه الإلهيّة، بل يجب أن يعلموا يقيناً أنّ اللَّه الرّحمن الرّحيم حينما يُشرّع لهم الجهاد والزكاة والصوم والحج فكل ذلك لما فيه خيرهم وصلاحهم.

ثم إنّ هذه الحقيقة تعمّق فى الإنسان روح الانضباط والتسليم أمام القوانين الإلهية وتؤدى إلى توسعة آفاق إدراكه إلى أبعد من دائرة محيطه المحدود وتربطه بالعالم اللّامحدود يعنى علم اللَّه تعالى.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۱۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: بعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سريّة من المسلمين وأمّر عليهم عبداللَّه بن جحش الأسدى- وهو ابن عمّة النّبى- وذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة- وهى أرض بين مكة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۶

والطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمى فى عير تجارة لقريش فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنّه من جمادى، وهو رجب- من الأشهر الحرم- فاختصم المسلمون فقال قائل منهم: هذه غرة من عدو وغُنْم رزقتموه ولا ندرى أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا. وقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام ولا نرى أن تستحلوه لطمع أشفيتم عليه. فغلب على الأمر الذى يريدون عرض الحياة الدنيا، فشدوا على ابن الحضرمى فقتلوه وغنموا عيره فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمى أوّل قتيل قتل بين المشركين والمسلمين وذلك أوّل فىء أصابه المسلمون فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبى صلى الله عليه و آله فقالوا: أيحلّ القتال فى الشهر الحرام؟ فأنزل اللَّه سبحانه هذه الآية.

نزلت الآیة الثانیة فی قصّة عبداللَّه بن جحش وأصحابه لما قاتلوا فی رجب، وقتل واقد السهمی ابن الحضرمی فظنّ قوم أنّهم إن أسلموا من الإثم فلیس لهم أجر، فأنزل اللَّه سبحانه الآیة فیهم بالوعد.

التّفسیر

الآیة الاولی تتصدّی للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد والاستثناءات فی هذا الحکم الإلهی فتقول الآیة: «یَسَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِیهِ». ثم تُعلن الآیة حرمة القتال وأنّه من الکبائر «قُلْ قِتَالٌ فِیهِ کَبِیرٌ». أی إثم کبیر.

وبهذا یُمضی القرآن الکریم بجدیّة السنّة الحسنة التی کانت موجودة منذ قدیم الأزمان بین العرب الجاهلیّین بالنسبة إلی تحریم القتال فی الأشهر الحرم (رجب، ذیالقعدة، ذیالحجة، محرم).

ثم تضیف الآیة أنّ هذا القانون لا یخلو من الاستثناءات، فلا ینبغی السّماح لبعض المجموعات الفاسدة لاستغلال هذا القانون فی إشاعة الظلم والفساد، فعلی الرغم من أنّ الجهاد حرام فی هذه الأشهر الحرم، ولکن الصد عن سبیل اللَّه والکفر به وهتک المسجد الحرام وإخراج الساکنین فیه وأمثال ذلک أعظم إثماً وجرماً عنداللَّه «وَصَدٌّ عَن سَبِیلِ اللَّهِ وَکُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَکْبَرُ عِندَ اللَّهِ».

ثم تضیف الآیة بأنّ إیجاد الفتنة والسعی فی إضلال الناس وحرفهم عن سبیل اللَّه ودینه أعظم من القتل «وَالْفِتْنَةُ أَکْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» لأنّ القتل ما هو إلّاجنایة علی جسم الإنسان،

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۷۷

والفتنة جنایة علی روح الإنسان وإیمانه «۱».

ثم إنّ الآیة تحذر المسلمین أن لا یقعوا تحت تأثیر الإعلان الجاهلی للمشرکین، لأنّهم لا یقنعون منکم إلّابترککم لدینکم إن استطاعوا «وَلَا یَزَالُونَ یُقَاتِلُونَکُمْ حَتَّی یَرُدُّوکُمْ عَن دِینِکُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا». فینبغی علی هذا الأساس أن تقفوا أمامهم بحزم وقوة ولا تعتنوا بوسوساتهم وأراجیفهم حول الأشهر الحرم.

ثم تنذر الآیة المسلمین وتحذرهم من الإرتداد عن دین اللَّه: «وَمَن یَرْتَدِدْ مِنکُمْ عَن دِینِهِ فَیَمُتْ وَهُوَ کَافِرٌ فَأُولئِکَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِی الدُّنْیَا وَالْأَخِرَةِ وَأُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ».

فما أشد عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلک یُبطل کلما قدّمه الفرد من عمل صالح ویستحق بذلک العذاب الإلهی الأبدی.

الآیة التالیة تشیر إلی النقطة المقابلة لهذه الطائفة، وهم المؤمنون المجاهدون وتقول: «إِنَّ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَالَّذِینَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أُولئِکَ یَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

أجل، فهذه الطائفة التی یتحلّی أفرادها بهذه الصفات الثلاث المهمة (الإیمان والهجرة والجهاد) قد یرتکبون خطأً بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم (کما صدر ذلک من عبداللَّه بن جحش الوارد فی سبب النزول) إلّاأنّ اللَّه تعالی یغفر لهم زلّتهم بلطفه ورحمته.

یَسْأَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِمَا إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَ یَسْأَلُونَکَ مَا ذَا یُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیَاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (۲۱۹) فِی الدُّنْیَا وَ الْآخِرَةِ وَ یَسْأَلُونَکَ عَنِ الْیَتَامَی قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَیْرٌ وَ إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُکُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَکُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۲۰)

سبب النّزول

نزلت فی جماعة من الصحابة أتوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقالوا: أفتنا فی الخمر والمیسر، فإنّها

(۱) قدمنا بحثاً مفصلًا عن معنی «الفتنة» فی ذیل الآیة (۱۹۱) من هذه السورة المبحوثة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۷۸

مذهبة للعقل مسلبة للمال. وعن سبب نزول الآية الثانية فقد ورد فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السلام وفى تفسير مجمع البيان قال ابن عباس: لمّا أنزل اللّه «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» «۱». و «إِنَّ الَّذِين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا» «۲». إنطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه واشتدّ ذلك عليهم فسألوا عنه، فنزلت هذه الآية.

التّفسير

الآية الاولى تُجيب عن سؤالين حول الخمر والقمار «يَسَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ».

«الخمر»: بمعنى كل مايع مسكر، سواء اخذ من العنب أو الزبيب أو التمر أو شىء آخر، بالرغم من أنّ الوارد فى اللغة أسماء مختلفة لكل واحد من أنواع المشروبات الكحولية.

«الميسر»: من مادة (اليُسر) وإنّما سمى بذلك لأنّ المُقامر يستهدف الحصول على ثروة بيسر ودون عناء.

ثم تقول الآية فى الجواب: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا».

وبناء على ذلک، فكل إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيراً من أجل نفع ضئيل.

السؤال الثالث المذكور فى الآية محل البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآية:

«وَيَسَلُونَکَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ».

«العفو» يُطلق على مصاديق مختلفة منها: المغفرة والصفح وإزالة الأثر، الحد الوسط بين شيئين، المقدار الإضافى لشىء، وأفضل جزء من الثروة.

ويمكن أن يكون العفو فى الآية هو المعنى الأوّل، أى الصفح عن أخطاء الآخرين، وبذلک يكون معنى الآية الكريمة: أنفقوا الصفح والمغفرة فهو أفضل الإنفاق.

ولا يبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه الجزيرة العربية عامة وخاصة مكة والمدينة محل نزول القرآن من حيث هيمنة روح التنافر والعداء والحقد بين الناس، والجواب بهذا المعنى لا يتنافى مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالى، لأنّهم قد يسألون عن

---

(۱) سورة الإسراء/ ۳۴.

(۲) سورة النّساء/ ۱۰.

موضوع كان ينبغى أن يسألوا عن أهم منه، والقرآن يستثمر فرصة سؤالهم المعبر عن استعدادهم للسّماع والقبول ليجيبهم بما هو أهم وألزم، وهذا من شؤون الفصاحة والبلاغة حيث يترک سؤالهم ليتناول موضوعاً أهم.

وأخيراً يقول تعالى فى ختام الآية: «كَذلِکَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

ويذكر بدون فصل فى الآية التالية المحور الأصلىللتفكر ويقول: «فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ».

إنّ الإنسان إضافة إلى وجوب التسليم أمام أوامر اللّه يجب أن يُطيع هذه الأوامر عن تفكر وتعقل لا عن اتّباع أعمى، وبعبارة اخرى أنّ الإنسان يجب عليه بموازاة الطاعة العملية أن يسعى إلى فهم أسرار وروح الأحكام الإلهية.

ثم تذكر الآية السؤال الرابع وجوابه وتقول: «وَيَسَلُونَکَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ». وعلى هذا الأساس فالقرآن يوصى المسلمين بعدم إهمال اليتامى، فإنّ الإعراض عن تحمل مسؤوليتهم وتركهم وشأنهم أمر مذموم.

ثم تضيف الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ». أجل، إنّ اللّه مطّلع على نياتكم ويعلم من يقصد السوء بالاستفادة من أموال اليتامى ليحيف عليهم ومن هو مخلص لهم.

والفقرة الأخيرة من الآية تؤكد بأنّ اللَّه تعالى قادر على أن يُضيّق ويشدّد عليكم برعاية اليتامى مع فصل أموالهم عن أموالكم، لكن اللَّه لا يفعل ذلك أبداً، لأنّه عزيز وحكيم، ولا داعى لأن يُضيّق على عباده «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۲۱)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: نزلت هذه الآية فى أبى مِرثَد الغَنَوىّ، بعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مكة سرّاً ليُخرج رجلًا من أصحابه؛ وكانت له بمكة امرأةٌ يحبّها فى الجاهلية يقال لها (عَناق) فجاءته؛ فقال لها: إنّ الإسلام حرّم ما كان فى الجاهلية؛ قالت: فتزوّجنى؛ قال: حتى أستأذن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأتى النبى صلى الله عليه و آله فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها؛ لأنّه كان مسلماً وهى مشركة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۸۰

التّفسير

هذه الآية وطبقاً لسبب النزول المذكور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر حول الزواج مع المشركين فتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ». ثم تضيف مقايسة وجدانيّة فتقول: «وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ».

لأنّ الهدف من الزواج ليس هو اللّذة الجنسية فقط، فالمرأة شريكة عمر الإنسان ومربية لأطفاله وتشكّل قسماً مهماً من شخصيته، فعلى هذا الأساس كيف يصحّ استقبال الشرك وعواقبه المشؤومة لاقترانه بجمال ظاهرى ومقدار من الأموال والثروة.

ثم إنّ الآية الشريفة تقرّر حكماً آخر وتقول: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ».

وبهذا الترتيب منع الإسلام من زواج المرأة المؤمنة مع الرجل المشرك كما منع نكاح الرجل المؤمن من المرأة المشركة حتى أنّ الآية رجّحت العبد المؤمن أيضاً على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ والثروة والجمال الظاهرى، لأنّ هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل وأكثر خطورة، فتأثير الزوج على الزوجة أكثر عادةً من تأثير الزوجة على زوجها.

وفى ختام الآية تذكر دليل هذا الحكم الإلهى لزيادة التفكر والتدبر فى الأحكام وتقول:

«أُوَلِئِكَ [أى المشركين يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ».

ثم تضيف الآية: «وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

أشار فى «تفسير فى ظلال القرآن» إلى نكتة ظريفة، وهى أنّ هذه الآية و (۲۱) آية اخرى تأتى بعدها تُبيّن الأحكام المتعلقة بتشكيل الاسرة فى أبعادها المختلفة، وفى هذه الآيات بيّن القرآن الكريم اثنى عشر حكماً شرعياً:

۱- يتضمن النهى عن زواج المسلم بمشركة، ۲- يتعلق بالنهى عن مباشرة النساء فى المحيض، ۳- حكم الأيمان بصفة عامة- تمهيداً للحديث عن الإيلاء والطلاق- ويربط حكم الأيمان باللَّه وتقواه، ۴- حكم الإيلاء ويتبعه حكم الطلاق، ۵- حكم عدّة المطلّقة، ۶- حكم عدد الطلقات، ۷- حكم الإمساك بمعروف أو تسريح باحسان بعد الطلاق، ۸- حكم الرضاعة والاسترضاع والأجر، ۹- الحكم بعدّة المتوفى عنها زوجها، ۱۰- حكم التعريض بخطبة النساء فى أثناء العدّة، ۱۱- حكم المطلّقة قبل الدخول فى حالة ما إذا فرض لها مهر وفى

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۸۱

حالة ما إذا لم يفرض، ۱۲- حكم المتعة للمتوفى عنها زوجها وللمطلّقة.

وهذه الأحكام مع مجمل الإرشادات الأخلاقية فى هذه الآيات تبين أنّ مسأله تشكيل الاسرة هو نوع من العبادة للَّه‌تعالى ويجب أن يكون مقروناً بالتفكر والتدبر.

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكَمْ فَأْتُوا حَرْثَكَمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكَمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكَمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳)

سبب النّزول

ذكر فى تفسير ابن كثير ذيل الآية مورد البحث: إنّ اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها فى البيوت فسأل أصحاب النبى صلى الله عليه و آله فأنزل اللّه عزّ وجل «وَيَسْلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ...».

وذكر قطب الدين الراوندى فى فقه القرآن: قيل: كانوا فى الجاهلية يجتنبون مؤاكلة الحائض ومشاربتها حتى كانوا لا يجالسونها فى بيت واحد فسألوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن ذلك واستعلموا ذلك أواجب هو أم لا؟ فنزلت الآية.

التّفسير

أحكام النساء فى العادة الشهرية: فى الآية الاولى نلاحظ سؤال آخر عن العادة الشهرية للنساء، فتقول الآية: «وَيَسَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى». وتضيف بلافاصلة:

«فَاعْتَزِلُوا النّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ».

لأنّ الجماع فى أيام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز، ينطوى على أذى وضرر ثبت لدى الطب الحديث، ومن ذلك احتمال تسبيب عقم الرجل والمرأة، وإيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس والتهابات الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، ودخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم فى عضو الرجل، وغير ذلك من الأضرار المذكورة فى كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناب الجماع فى هذه الحالة.

جملة «يَطْهُرْنَ» بمعنى طهارة النساء من دم الحيض وأمّا جملة «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» تعنى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۲

الغُسل من الحيض. فعلى هذا الأساس وطبقاً للجملة الاولى تكون المقاربة الجنسية بعد انتهاء دم الحيض جائزة حتى لو لم تغتسل وأمّا الجملة الثانية فتعنى أنّها ما لم تغتسل فلا يجوز مقاربتها. وعلى هذا فالآية لا تخلو من إبهام ولكن مع الإلتفات إلى أنّ الجملة الثانية تفسير للجملة الاولى ونتيجة لها (ولهذا اعطفت بفاء التفريع) فالظاهر أنّ (تَطَهَّرْنَ) أيضاً بمعنى الطهارة من دم الحيض وبذلك تجوز المقاربة الجنسية بمجرد الطهارة من العادة الشهرية وهذا هو ما ذهب إليه الفقهاء العظام فى الفقه وأفتوا بحلية المقاربة الجنسية بعد الطهارة من الحيض حتى قبل الغسل ولكن لا شك فى أنّ الأفضل أن تكون بعد الغسل.

الفقرة الثانية من الآية تقول: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ». أى: أن يكون الجماع من حيث أمر اللّه وقد تكون هذه الفقرة تأكيداً لما قبلها، أى آتوا نساءكم فى حالة النقاء والطّهر فقط لا فى غير هذه الحالة.

الآية الثانية إشارة لطيفة إلى الغاية النهائية من العملية الجنسية فتقول: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ».

فى هذه الآية الكريمة شبّهت النساء بالمزرعة وقد يثقل هذا التشبيه على بعض، ويتساءل لماذا شبّه اللّه نصف النوع البشرى بهذا الشكل؟

ولو أمعنا النظر فى قوله سبحانه لوجدنا فيه إشارة رائعة لبيان ضرورة وجود المرأة فى المجتمع الإنسانى، فالمرأة بموجب هذا التعبير ليست وسيلة لإطفاء الشهوة، بل وسيلة لحفظ حياة النوع البشرى.

«وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ». هذا الأمر القرآنى يشير إلى أنّ الهدف النهائى من الجماع ليس هو الاستمتاع باللذة الجنسية، فالمؤمنون يجب أن يستثمروه على طريق تربية أبناء صالحين، وأن يقدّموا هذه الخدمة التربوية المقدسة ذخيرة لُاخراهم، وبذلك يؤكد القرآن على رعاية الدقة فى انتخاب الزوجة كى تكون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحين وتقديم هذه الذخيرة الاجتماعية الإنسانية الكبرى.

وفى ختام هذه الآية تأمر بالتقوى وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۳

وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۴) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۲۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی عبد اللَّه بن رواحة حین حلف أن یدخل علی ختنه ولا یکلمه، ولا یصلح بینه وبین امرأته فکان یقول إنّی حلفت بهذا فلا یحل لی أن أفعله، فنزلت الآیة.

التّفسیر

لا ینبغی القسم قدر المستطاع: کما قرأنا فی سبب النزول أنّ الآیتین أعلاه ناظرتان إلی سوء الاستفادة من القسم، فکانت هذه مقدمة إلی الأبحاث التالیة فی الآیات الکریمة عن الإیلاء والقسم وترک المقاربة الجنسیة. فی الآیة الاولی یقول تعالی: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفی الآیة التالیة نلاحظ تکملة لهذا الموضوع وأنّ القسم لا ینبغی أن یکون مانعاً من أعمال الخیر فتقول: «لَّايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ». أی عن إرادة وإختیار.

فی هذه الآیة یشیر اللَّه تعالی إلی نوعین من القسم:

الأوّل: القسم اللغو الذی لا أثر له، ولا یُعبأ به، هذا النوع من القسم یتردد علی ألسن بعض الناس دون التفات، ویکررونه فی کلامهم عن عادة لهم، فإنّ العمل بهذا القسم غیر واجب ولا کفارة علیه، لأنّه لم یکن عن عزم وإرادة.

النوع الثانی: القَسم الصادر عن إرادة وعزم، أو بالتعبیر القرآنی هو القَسم الداخل فی إطار کسب القلب، ومثل هذا القَسم معتبر ویجب الالتزام به ومخالفته ذنب موجب للکفارة.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲۶) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۷)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۴

القَسَم علی ترک وطء الزوجة أو الإیلاء «۱» تقلید جاهلی کان شائعاً بین العرب، واستمرّ معمولًا به عند المسلمین الجدد قبل نزول حکم الطلاق.

کان الرجل فی الجاهلیة- حین یغضب علی زوجته- یقسِم علی عدم وطئها، فیشدّد علیها بهذه الطریقة الفضّة، لا هو یطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، ولا یعود إلیها بعد هذا القَسم لیصالحها ویعایشها وطبعاً لا یواجه الرجل غالباً صعوبة فی ذلک لأنّه یتمتع بعدة زوجات.

الآیة الکریمة وضعت لهذه القضیة حدّاً، فذکرت أنّ الرجل یستطیع خلال مدة أقصاها أربعة أشهر أن یتخذ قراراً بشأن زوجته: إمّا أن یعود عن قَسمه ویعیش معها، أو یطلّقها ویخلّی سبیلها. «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ».

والغایة من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصة للزوج لیفکر فی أمره مع زوجته وینقذها من هذا الحال. ثم تضیف: «فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». أی إن عادوا وجدوا اللَّه غفوراً رحیماً، والعبارة تدل أیضاً أنّ العودة عن هذا القَسم لیس ذنباً، بالرغم من ترتب الکفارة علیه.

«وَإِن عَزَمُوا الطَّلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أی فلا مانع من ذلک مع توفّر الشروط اللازمة.

وفیما لو أهمل الزوج کلا الطریقین ولم یختر أحدهما، فلم یرجع إلی الحیاة الزوجیة السلیمة، ولم یطلّق، ففی هذه الصورة یتدخّل حاکم الشرع ویأمر بالقاء الزوج فی السجن، ویشدد علیه حتی یختار أحدهما، وینقذ الزوجة من حالتها المعلّقة.

وَ الْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَ لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) كان الكلام فى الآيـة السابقـة عن الطلاق، وهنا تـذكر الآيـة بعض أحكام الطلاق وما يتعلق به حيث ذكرت خمسة أحكام له فى هذه الآية. فى البداية ذكرت الآية عدّة الطلاق:

---

(١) «ايلاء»: من مادة «الو» بمعنى القدرة والعزم، وبما أنّ القسم نموذج من هذا المعنى ولذا اطلق على الطلاق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٥

«وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَثَةَ قُرُوءٍ».

وبما أنّ الطلاق يشترط فيه أن تكون المرأة فى حالـة الطهر الذى لم يجامعها زوجها فيه فيُحسب ذلك الطّهر مرة واحدة، وبعد أن ترى المرأة دم الحيض مرة وتطهر منه حينئذ تتم عدّتها بمجرد أن ينتهى الطّهر الثالث وتشرع ولو للحظة فى العادة، فيجوز لها حينئذ الزواج.

الحكم الثـانى المسـتفاد من هـذه الآيـة هو قوله تعـالى: «وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هى المرجع فى معرفة بداية العدّة ونهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين.

الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أنّ للزوج حق الرجوع إلى زوجته فى عدّة الطلاق الرجعى، فتقول الآية: «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدّهِنَّ فِى ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلحًا». وبهـذا يسـتطيع الزوج استئنـاف علاقته الزوجيـة بـدون تشـريفات خاصـة إذا كـانت المرأة فى عـدّة الطلاق الرجعى، فإذا قصد الرجوع يتحصل بمجرد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد.

ثم تبين الآيـة حكمـاً رابعـاً وتقول: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ». وعلى هـذا كما أنّ للرجال حقوقاً على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرجال أيضاً، فيجب عليهم مراعاتها، لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصورة متعادلة ومتقابلة.

وكلمـة «بالمعروف» التى تأتى بمعنى الأعمال الحسـنة المعقولة والمنطقية تكررت فى هذه السلسـلة من الآيات اثنا عشـر مرّة (من الآية مـورد البحث إلى الآيـة ٢٤١) كيمـا تحـذّر النسـاء والرجـال من عاقبـة سوء الاسـتفادة من حقوق الطّرف المقابـل وعليهم إحترام هـذه الحقوق والاستفادة منها فى تحكيم العلاقة الزوجية وتحصيل رضا اللّه تعالى.

يوجـد الاختلافات الكبيرة بين الجنسـين على صـعيد القوى الجسـمية والروحية، ولهذا السـبب كانت إدارة الاسـرة بعهدة الرجل ومقام المعاونـة بعهـدة المرأة، وعلى أى حال فلا يكون هذا التفاوت مانعاً من تفوّق بعض النساء من الجهات المعنوية والعلمية والتقوائية على كثير من الرجال.

وأخيراً تقـول الآيـة: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وهـذا إشـارة إلى أنّ الحكمـة الإلهيـة والتـدبير الربـانى يسـتوجبان أن يكون لكـل شـخص فى المجتمع وظائف وحقوق معينة من قبل قانون الخلقة ويتناسب مع قدراته وقابلياته الجسمية والروحية، وبذلك فإنّ الحكمة الإلهية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٦

تسـتوجب أن تكون للمرأة فى مقابـل الوظـائف والمسؤوليّات الملقاة على عاتقها حقوقاً مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة والحق.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

سبب النّزول

فى تفسـير المجمع البيان: جاءت إمرأة إلى إحـدى زوجات النبى فشـكت أنّ زوجها يطلّقها ويسترجعها، يضارّها بـذلك. وكان الرجل

فى الجهالية إذا طلّق امرأته، ثم راجعها قبل أن تنقضى عدّتها كان له ذلك، وإن طلّقها ألف مرة؛ لم يكن للطلاق عندهم حدّ، فذكرت ذلك لرسول اللَّه، فنزلت الطلاق مرتان.

التّفسير

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة إنّ الإسلام قرّر قانون (العدّة) و (الرجوع) لإصلاح وضع الاسرة ومنع تشتتها وتمزّقها، لكن بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهلية، وعمدوا إلى التضييق على الزوجة بتطليقها المرة بعد الاخرى والرجوع إليها قبل انتهاء العدة، وبهذه الوسيلة ضيّقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السلوك المنحط وتقرّر أنّ الطلاق والرجوع مشروعان لمرتين، أمّا إذا تكرر الطلاق للمرة الثالثة فلا رجوع، والطلاق الأخير هو الثالث، والمراد من عبارة «الطَّلَقُ مَرَّتَانِ» هو أنّ الطلاق الذى يمكن معه الرجوع مرتان والطلاق الثالث لا رجوع بعده. وتضيف الآية: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ».

فعلى هذا يكون الطلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه. وبعبارة اخرى: أنّ المحبة والحنان المتقابل بين الزوجين يمكن إعادتهما فى المرتين السابقتين وتعود المياه إلى مجاريها، وفى غير هذه الصورة إذا تكرر منه الطلاق فى المرة الثالثة فلا يحق له الرجوع إلّابشرائط معينة تأتى فى الآية التالية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۷

إنّ المراد من التسريح بإحسان أن يؤدّى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، ولا يسعى الإضرار بها عملًا وقولًا بأن يعيبها فى غيابها أو يتّهمها بكلمات رخيصة ويُسقط شخصيتها وسمعتها أمام الناس، وبذلك يحرمها من إمكانية الزواج المجدد، فكما أنّ الصلح والرجوع إلى الزوجة يجب أن يكون بالمعروف والإحسان والمودّة، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعاً بالإحسان أيضاً، ولهذا تضيف الآية الشريفة: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيًا».

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاها من مهرها شيئاً، وهذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

وتستطرق الآية إلى ذكر مسألة «طلاق الخلع» وتقرّر أنّه فى حالة واحدة تجوز استعادة المهر وذلك عند رغبة المرأة نفسها بالطلاق حيث تقول الآية: «إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ». ثم تضيف: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ». أى الفدية أو التعويض الذى تدفعه المرأة للتّخلص من الرابطة الزوجية، هذه الحالة تختلف عن الاولى فى أنّ الطالب للفرقة هى المرأة نفسها ويجب عليها دفع الغرامة والتعويض للرجل الذى يريد ويطلب بقاء العُلقة الزوجية، وبذلك يتمكن الزوج بهذه الغرامة والفدية أن يتزوج مرة اخرى ويختار له زوجة ثانية.

وفى ختام الآية تشير إلى مُجمل الأحكام الواردة فيها وتقول: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۲۳۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعانى أيضاً: جاءت امرأة رفاعة بن وهب القُرظىّ إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: إنّى كنت عند رفاعة فطلّقنى فبتّ طلاقى فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير وما معه الأمثل هُدبة الثوب (وإنّه طلّقنى قبل أن يمسّنى) فتبسم النبى صلى الله عليه و آله فقال:

«أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عُسَيلَتَك، وتذوقى عُسَيلَتَه».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۸

التّفسير

جاء فى الآية السابقة إجمالًا أنّ للمرأة وللرجل بعد الطلاق الثانى أحد أمرين: إمّا أن يتصالحا ويرجعا إلى الحياة الزوجية، وإمّا أن ينفصلا إنفصالًا نهائياً. هذه الآية حكمها حكم الفقرة التابعة لمادة قانونية. فهذه الآية تقول إنّ حكم الإنفصال حكم دائمى، إلّاإذا اتخذت المرأة زوجاً آخر، وطلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلى زوجها الأوّل إذا رأيا أنّهما قادران على أن يعيشا معاً ضمن حدود اللَّه.

ويستفاد من الرّوايات عن أئمة الدين أنّ لهذا الزواج الثانى شرطين، أوّلًا: أن يكون هذا الزواج دائمياً، والثانى: أن يتبع عقد الزواج الإتصال الجنسى.

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۳۱) تستمر هذه الآية فى تبيان الأحكام التى أقرّها الإسلام للطلاق، لكى لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها. تقول الآية: ما دامت العدّة لم تنته وحتى فى آخر يوم من أيامها، فإنّ للرجل أن يصالح زوجته ويعيدها إليه فى حياة زوجية حميمة: «فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

وإذا لم تتحسّن الظروف بينهما فيطلق سراحها «أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

ولكن كل رجوع أو تسريح يجب أن يكون فى جوّ من الإحسان والمعروف وأن لا يخالطه شىء من روح الإنتقام.

ثم تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك وتقول: «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».

هذه الجملة تفسير لكلمة «معروف» أى أنّ الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفاء والوئام، وذلك لأنّ الجاهليين كانوا يتخذون من الطلاق والرجوع وسيلة للإنتقام، ولهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة فى الإيذاء والإعتداء، إذ أنّ ذلك- فضلًا عن كونه ظلماً للزوجة- ظلم للزوج أيضاً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۹

ثم يحذّر القرآن الجميع: «وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا».

هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى حال الأشخاص الذين يستغلّون الأحكام الشرعية لتبرير مخالفاتهم ويتمسكون بالظواهر من أجل بعض الحيل الشرعية، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوع من الاستهزاء بآيات اللَّه، ومن ذلك نفس مسألة الزواج والطلاق والرجوع فى زمان العدّة بنيّة الإنتقام وإلحاق الضرر بالمرأة والتظاهر بأنّه يستفيد من حقه القانونى.

فعلى هذا لا- ينبغى الإغماض عن روح الأحكام الإلهية والتمسك فقط بالظواهر الجامدة لها، فلا ينبغى إتخاذ آيات اللَّه ملعبة بيد هؤلاء، فإنّه يُعتبر ذنب عظيم ويترتب عليه عقوبة أليمة.

ثم تضيف الآية: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلًا: أنّ اللَّه تعالى عدّ تلك التصرفات من خرافات وتقاليد الجاهلية الشنيعة بالنسبة إلى الزواج والطلاق وغير ذلك، فأنقذكم منها وأرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتية، فينبغى أن تعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة وتؤدّوا حقها، و ثانياً: بالنسبة إلى حقوق المرأة ينبغى أن لا- تسيئوا إليها بالاستفاده من موقعيتكم، ويجب أن تعلموا أنّ اللَّه تعالى مطلع حتى على نياتكم.

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذلِکُمْ أَزْکی لَکُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۲۳۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی معقل بن یسار عضل اخته جملاء أن ترجع إلی الزواج الأوّل وهو عاصم بن عدی فإنّه کان طلّقها وخرجت من العدّهٔ ثم أراد أن یجتمعا بعقد آخر، فمنعها من ذلک، فنزلت الآیهٔ.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۹۰

التّفسیر

فصم قید آخر من قیود أسر النساء: ذکرنا فی البحوث السابقهٔ کیف کانت النسوهٔ یعشن فی أسر العادات الجاهلیهٔ، وکیف کنّ تحت سیطرهٔ الرجال دون أن یعنی أحد برغبتهن ورأیهن. واختیار الزوج کان واحداً من قیود ذلک الأسر، إذ أنّ رغبهٔ المرأهٔ وإرادتها لم یکن لها أی تأثیر فی الأمر، فحتّی من کانت تتزوج زواجاً رسمیاً ثم تطلّق لم یکن لها حق الرجوع ثانیهٔ بمحض إرادتها، بل کان ذلک منوطاً برغبهٔ ولیّها أو أولیائها، وکانت ثمهٔ حالات یرغب فیها الزوجان بالعودهٔ إلی الحیاهٔ الزوجیهٔ بینهما، ولکن أولیاء المرأهٔ کانوا یحولون دون ذلک تبعاً لمصالحهم أو لتخیلاتهم وأوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أدان هذه العادهٔ، ورفض أن یکون للأولیاء مثل هذا الحق، إذ إنّ الزوجین- وهما رکنا الزواج الأصلیان، إذا توصّلا إلی إتفاق بالعودهٔ بعد الانفصال- یستطیعان ذلک دون أن یکون لأحد حق الإعتراض علیهما. تقول الآیهٔ: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أن یَنکِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَیْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ».

ویتبین من هذه الآیهٔ أنّ الثیبات- أی اللّواتی سبق لهنّ الزواج ثم طلّقن أو مات أزواجهن- إذا شئن الزواج ثانیهٔ فلا یلزمهن موافقهٔ أولیائهن أبداً.

ثم تضیف الآیهٔ وتحذّر ثانیهٔ وتقول: «ذلِکَ یُوعَظُ بِهِ مَن کَانَ مِنکُمْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ». ثم من أجل التأکید أکثر تقول: «ذلِکُمْ أَزْکی لَکُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ یَعْلَمُ وَأَنتُم لَا تَعْلَمُونَ».

یشیر هذا المقطع من الآیهٔ إلی أنّ هذه الأحکام قد شُرّعت لمصلحتکم غایهٔ الأمر أنّ الأشخاص الذین ینتفعون بها هم الذین لهم أساس عقائدی من الإیمان باللّه والمعاد ولا یتبعون أهواءهم.

وَ الْوَالِدَاتُ یُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کَامِلَیْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ یُتِمَّ الرَّضَاعَهَٔ وَ عَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ کِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَهٌٔ بِوَلَدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَی الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِکَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَکُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَیْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۲۳۳)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۹۱

أحکام الرضاع السبعهٔ: هذه الآیهٔ فی الواقع استمرار للأبحاث المتعلقهٔ بمسائل الزواج والحیاهٔ الزوجیهٔ، وتبحث مسألهٔ مهمهٔ هی مسألهٔ (الرضاع)، وتذکر بعبارات مقتضبهٔ، وفی نفس الوقت ذات معنیً عمیق، الجزئیات المتعلقهٔ بالرضاع المختلفهٔ، فهناک علی العموم سبعهٔ أحکام فی هذا الباب:

۱- تقول الآیهٔ فی أوّلها: «وَالْوَالِدَاتُ یُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَیْنِ کَامِلَیْنِ».

«والدات»: جمع (والدهٔ) وهی فی اللغهٔ بمعنی الام، ولکن کلمهٔ الام لها معنیً أوسع وهی قد تُطلق علی الوالدهٔ وعلی الجدهٔ أی والدهٔ الوالدهٔ، وقد تعنی أصل الشیء وأساسه.

وفی هذا المقطع من الآیهٔ نلاحظ أنّ حق الإرضاع خلال سنتی الرضاعهٔ یعود للُام، فهی التی لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدهٔ وأن تعتنی به، وعلی الرغم من أنّ (الولایهٔ) علی الأطفال الصغار قد اعطیت للأب، فإنّ تخصیصها بحق الحضانهٔ والرعایهٔ والرضاعهٔ یعتبر حقاً ذا جانبین، فهو یرعی حال الطفل کما یرعی حال الام.

۲- ليس من الضرورى أن تكون مدة رضاعة الطفل سنتين حتماً، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضى دورة رضاعة كاملة «لِمَنْ أَرَادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ». ولكن للُام أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحة الطفل وسلامته.

۳- نفقة الام فى الطعام واللباس، حتى عند الطلاق أثناء فترة الرضاعة تكون على والد الطفل، لكى تتمكن الام من الإنصراف إلى العناية بطفلها وإرضاعه مرتاحة البال وبدون قلق. «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

هنا تعبير «المولود له» بدلًا من «الأب» يستلفت الإنتباه، ولعله جاء لاستثارة عواطف الابوة فيه فى سبيل حثّه على أداء واجبه. أى أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد وامّه خلال هذه الفترة فذلك لأنّ الطفل ابنه وثمرة فؤاده وليس غريباً عنه.

إنّ الإتيان بقيد «المعروف» يشير إلى أنّ طعام الام ولباسها ينبغى أن يكونا من اللائق بها والمتعارف عليه، فلا يجوز التقتير ولا الإسراف.

ولرفع كل غموض محتمل تشير الآية إلى أنّ على كل أب أن يؤدّى واجبه على قدر طاقته «لَاتُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا».

۴- لا يحق لأىّ من الوالدين أن يجعلا من مستقبل وليدهما ومصيره أمراً مرتبطاً بما قد يكون بينهما من اختلافات، حيث لا يؤمن معه أن تتعرض روحية الوليد بضربة لا يمكن تفادى آثارها. «لَاتُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ». على الأب أن يحذر انتزاع الوليد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۲

من أحضان امه خلال فترة الرضاعة فيعتدى بذلك على حق الام فى حضانة وليدها، كما أنّ على الام التى اعطيت هذا الحق أن لا تستغله وأن لا تتذرّع بمختلف الأعذار الموهومة للتنصّل من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤية طفله. ۵- ثم تبين الآية حكماً آخر يتعلق بما بعد وفاة الأب فتقول: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ».

يعنى أنّ الورثة يجب عليهم تأمين احتياجات الام فى‌مرحلة الرضاعة للطفل.

۶- وتتحدث الآية أيضاً عن مسألة فطام الطفل عن الرضاعة وتجعله بعهدة كل من الأبوين على الرغم مما جاء فى الآيات السابقة من تحديد فترة الرضاعة، إلّاأنّ للأبوين أن يفطما الطّفل وقت ما يشاءان حسب ما تقتضيه صحة الطفل وسلامته الجسمية، وتقول الآية: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا».

۷- أحياناً تمتنع الام من حضانة الطفل وممارسة حقها فى إرضاعه ورعايته أو أنّه يوجد هناك مانع حقيقى لذلك، ففى هذه الصورة يجب التفكير فى حلّ هذه المسألة ولهذا تقول الآية: «وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ».

وعلى هذا الأساس لا مانع من اختيار مرضعة بدل الام بعد توافق الطرفين بشرط أنّ هذا الأمر لا يسبّب إهدار حقوق الام بالنسبة إلى المدة الفائتة من الرضاعة.

وفى الختام تحذّر الآية الجميع وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فلا ينبغى للاختلافات التى تحصل بين الزوجين أن تؤدى إلى إيقاد روح الإنتقام فيهما حيث يعرّض مستقبلهما ومستقبل الطفل إلى الخطر، فلابد أن يعلم الجميع بأنّ اللَّه تعالى يراقب أعمالهم بدقة.

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۳۴) وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وَ لَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۳۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۳

خرافات تبعث على تعاسة المرأة: إنّ واحدة من المشاكل الرئيسية فى حياة المرأة هى الزواج بعد موت زوجها. إنّ احترام الحياة

الزوجيـة بعـد موت أحـد الزوجين أمر فطرى، بحيث نجـد فى مختلف القبائل تقاليـداً وطقوساً خاصة بهذا الموضوع على الرغم من أنّ بعض هـذه العادات كانت تبلغ حـدّ الإفراط الـذى يقيّـد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حدّ القضاء على حياتها احتراماً لذكرى زوجها الراحل، كقيـام بعض القبائـل بحرق المرأة بعـد مـوت زوجهـا، أو بـدفنها حيّـة معه فى قـبره، وبعض آخر كـانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، وفى بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمه سوداء قذرة وفى ملابس رثّة بعيـدة عن كل نظافـة أو زينـة أو اغتسال. إلّاأنّ الآية المذكورة تلغى كل هذه الخرافات، ولكنّها تحافظ على احترام الحياة الزوجية بإقرار العدة.

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

وبما أنّ أولياء وأقرباء المرأة يتـدخّلون أحياناً فى أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الاعتبار فى زواجها المجدد تقول الآية فى ختامها: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». وسيجازى كل شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

وحسب ما وصـلنا من أئمة المسلمين فإنّ على الأرامل فى هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أى ليس لهنّ أن يتزينّ مطلقاً، بل ينبغى التجرد من كل زينة، ولا شك أنّ فلسفة المحافظة على هذه العدة توجب ذلك أيضاً.

وإنّه مما يلفت النظر أنّ الأحكام الإسلامية بشأن العدة تأمر المرأة بالتزام العدة حتى وإن لم يكن هناك أى احتمال بأن تكون حاملًا.

الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمة للنساء فى العدة (بمناسبة البحث عن عدة الوفاة فى الآيات السابقة) فتقول: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِن لَّاتُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا».

فهـذه الآيـة تبيح للرجال أن يخطبوا النساء اللواتى فى عدة الوفاة بالكناية أو الإضـمار فى النفس «أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ» وهذا الحكم فى الواقع من أجل الحفاظ على حريم الزواج السابق من جهة، وكذلك لا يحرم الأرملة من حقها فى تعيين مصيرها من جهة اخرى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۴

ومن الطبيعى أن تفكر المرأة فى مصيرها بعد وفاة زوجها، وكذلك يفكّر بعض الرجال بالزواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة فى الزواج بالأرامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ». فمن المسلّم أنّ الشخص إذا عقد على المرأة فى عدتها يقع العقد باطلًا، بل إنّه إذا أقدم على هذا العمل عالماً بالحرمة فإنّ هذه المرأة ستحرم عليها أبداً.

وبعد ذلك تعقّب الآية: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (۲۳۶) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۷) فى هاتين الآيتين نلاحظ أحكاماً اخرى للطلاق استمراراً للأبحاث السابقة. تقول الآية فى البداية: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» «۱». وهذا يعنى جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسية وقبل تعيين المهر، وهذا فى صورة ما إذا علم الرجل أو كلا الزوجين بعد العقد وقبل المواقعة أنّهما لا يستطيعان استمرار الحياة الزوجية هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا فى هذا الوقت بالذات، لأنّ الطلاق فى المراحل اللّاحقة سيكون أصعب.

ثم تبين الآية حكماً آخراً فى هذا المجال وتقول: «وَمَتِّعُوهُنَّ». أى: يجب أن تمنح المرأة هديّة تناسب شؤونها فيما لو جرى الطلاق قبل المضاجعة وقبل تعيين المهر، ولكن يجب أن يؤخـذ بنظر الاعتبار قـدرة الزوج الماليـة فى هـذه الهديّة، ولـذلك تعقّب الآية الشـريفة بالقول:

«عَلَی الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَی الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَی الْمُحْسِنِینَ». أی: أنّ الهدیّة

(۱) «مس»: بمعنی الملامسة وهنا کنایة عن الجماع؛ و «فریضة»: بمعنی الواجب وهنا جاءت بمعنی المهر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۵

لابد أن تکون بشکل لائق وبعیدة عن الإسراف والبخل، ومناسبة لحال المُهدی والمُهدی إلیه.

ولما کان لهذه الهدیّة أثر کبیر للقضاء علی روح الإنتقام وفی الحیلولة دون إصابة المرأة بعُقد نفسیة بسبب فسخ عقد الزواج، فإنّ الآیة تعتبر هذا العمل من باب الإحسان «حَقًّا عَلَی الْمُحْسِنِینَ». أی أن یکون ممزوجاً بروح الإحسان واللطف.

الملاحظة الاخری فی هذه الآیة هی أنّ القرآن یعبّر عن الهدیة التی یجب أن یعطیها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع فی اللغة هو کل ما یستمتع به المرء وینتفع به، ویطلق غالباً علی غیر النقود، لأنّ الأموال لا یمکن التمتع بها مباشرةً، بل لابد أوّلًا من تبدیلها إلی متاع، ولهذا کان تعبیر القرآن عن الهدیّة بالمتاع.

ولهذا العمل أثر نفسی خاص، فکثیراً ما یحدث أن تکون الهدیة من المأکل أو الملبس ونظائرهما مهما کانت زهیدة الثمن أثر بالغ فی نفوس المُهدی إلیهم لا یبلغه أبداً أثر الهدیّة النقدیة، لذلک نجد أنّ الروایات الواصلة إلینا عن أئمة الأطهار: تذکر هذه الهدایا بصورة مأکل أو ملبس أو أرض زراعیة.

وتتحدث الآیة التالیة عن حالة الطلاق الذی لم یسبقه المضاجعة ولکن بعد تعیین المهر فتُبین أنّ الحکم فی هذا اللون من الطلاق الذی یکون قبل المضاجعة وبعد تعیین المهر یوجب علی الزوج دفع نصف المهر المعین «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِیضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ».

وهذا هو الحکم القانونی لهذه المسألة، فیجب دفع نصف المهر إلی المرأة بدون أیّة نقیصة ولکن الآیة تتناول الجوانب الأخلاقیة والعاطفیة وتقول: «إِلَّا أَن یَعْفُونَ أَوْ یَعْفُوَا الَّذِی بِیَدِهِ عُقْدَةُ النّکَاحِ».

أجل، فإنّ الآیة فی الجملة التالیة تقول: «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَی وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَیْنَکُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ».

جملة «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَی تبین جانباً آخر من واجبات الزوج الإنسانیة وهو أن یظهر الزوج التنازل والکرم فلا یسترجع شیئاً من المهر إن کان قد دفعه وإن لم یکن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه کاملًا متنازلًا عن النصف الذی هو من حقه، وذلک لأنّ المرأة التی تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسیة شدیدة ولا شک أنّ تنازل الرجل عن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۶

حقّه من المهر لها یکون بمثابة البلسم لجرحها.

ونلاحظ تأکیداً فی سیاق الآیة الشریفة علی أصل (المعروف) و (الإحسان) فحتی بالنسبة إلی الطلاق والانفصال لا ینبغی أن یکون مقترناً بروح الإنتقام والعداوة، بل ینبغی أن یتم علی أساس السماحة والإحسان بین الرجل والمرأة.

حَافِظُوا عَلَی الصَّلَوَاتِ وَ الصَّلَاةِ الْوُسْطَی وَ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِینَ (۲۳۸) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُکْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَمَا عَلَّمَکُمْ مَا لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ (۲۳۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان (وفی الدر المنثور أیضاً) عن زید بن ثابت: إنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یصلّی بالهاجرة «۱» وکانت أثقل الصلوات علی أصحابه، فلا یکون وراءه إلّاالصف أو الصفان، فقال: «لقد هممت أن أحرق علی قوم لا یشهدون الصلاة بیوتهم». فنزلت هذه الآیة.

التّفسیر

أهمية الصلاة وخاصة الوسطى: بما أنّ الصلاة أفضل وسيلة مؤثرة تربط بين الإنسان وخالقه، لذلك ورد التأكيد فى آيات القرآن الكريم عليها، ومن ذلك ما ورد فى الآية محل البحث حيث تقول: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ».

المراد من «الصَّلَوةِ الْوُسْطَى هى صلاة الظهر والتأكيد على هذه الصلاة كان بسبب حرارة الجو فى الصيف، أو بسبب انشغال الناس فى امور الدنيا والكسب فلذلك كانوا لا يعيرون لها أهمية.

وفى الآية الثانية تؤكد على أنّ المسلم لا ينبغى له ترك الصلاة حتى فى أصعب الظروف والشرائط كما فى ميدان القتال، غاية الأمر أنّ الكثير من شرائط الصلاة فى هذا الحال تكون غير لازمة كالإتجاه نحو القبلة وأداء الركوع والسجود بالشكل الطبيعى، ولذا تقول الآية:

«فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا».

سواءً كان الخوف فى حال الحرب أو من خطر آخر، فإنّ الصلاة يجب أداءها بالإيماء والإشارة للركوع والسجود، سواءً كنتم مشاة أو راكبين.

---

(۱) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحرّ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۷

«فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». ففى هذه الصورة، أى فى حالة الأمان يجب عليكم أداء الصلاة بالصورة الطبيعية مع جميع آدابها وشرائطها.

ومن الواضح أنّ أداء الشكر لهذا التعليم الإلهى للصلاة فى حالة الأمن والخوف هو العمل على وفق هذه التعليمات.

فالآية توضح أنّ إقامة الصلاة والإرتباط بين العبد وخالقه يجب أن يتحقق فى جميع الظروف والحالات، وبهذا تتحصل نقطة ارتكاز للإنسان واعتماده على اللَّه.

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُم وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۴۰) وَ لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (۲۴۱) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲۴۲) تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج والطلاق والامور المتعلقة بها وفى البداية تتحدث عن الأزواج الذين يتوسدون فراش الاحتضار ولهم زوجات فتقول: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ».

أى أنّ الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعة وفاتهم وبقيت زوجاتهم على قيد الحياة فينبغى أن يوصوا بأزواجهم فى النفقة والسكن فى ذلك البيت لمدّة سنة كاملة، وهذا طبعاً فى صورة ما إذا بقيت الزوجة فى بيت زوجها ولم تخرج خارج البيت، ولهذا تضيف الآية: «فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ». كأن يخترن زوجاً جديداً، فلا مانع من ذلك ولا إثم عليكم ولكن يسقط حقها فى النفقة والسكنى.

وفى ختام الآية تشير إلى أنّه لا ينبغى التخوّف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأنّ اللَّه قادر على فتح أبواب اخرى أمامهنّ بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشكلة فى البيت ولحقت بها مصيبة فإنّ ذلك سيكون لحكمة حتماً لأنّ اللَّه تعالى عزيز حكيم: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فلو أغلق باباً بحكمته فسوف يفتح اخرى بلطفه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۸

يعتقد الكثير من المفسرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية (۲۳۴) من هذه السورة التى سبق بيانها وفيها ورد أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام وعلى الرغم من أنّ تلك الآية تأتى قبل هذه الآية من حيث الترتيب ولكننا نعلم أنّ الآيات فى السورة لم ترتّب بحسب

نزولها بل قد نجد آيات متأخرة فى النزول وضعت متقدمة فى الترتيب.

فى الآيـة الثانيـة يبين القرآن الكريم حكمـاً آخر من أحكـام الطلاـق ويقول: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ». أى أنّ المتقين يجب عليهم تقديم هديّة لائقة للنساء المطلقات.

وبالرغم من أنّ ظاهر الآيـة يشـمل جميع النساء المطلقات، ولكن بقرينة الآية (٢٣۶) السابقـة نفهم أنّ هذا الحكم يختص بمورد النسوة التى لم يقرّر لهنّ مهر بعد وقوع الطلاق قبل الوطىء.

إنّ هذه الهدية- وطبق الروايات الواردة من الأئمة المعصومين عليهم السـلام- تُعطى إلى المرأة بعد تمام العدة والإفتراق الكامل لا فى عدة الطلاق الرجعى. وبعبارة اخرى: أنّ هذه الهدية ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائى.

وفى آخر آيـة من الآيـات مورد البحث والتى هى آخر آيـة من الآيـات المتعلقـة بالطلاـق تقول: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢۴٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى أهل داوردان قرية قُبُلَ واسط، وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم اللَّه. قيل: إنّ ملكاً من ملوك بنى اسـرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فخرجوا فعسـكروا. ثم جنبوا وكرهوا الموت، فاعتلوا وقالوا: إنّ الأرض التى نأتيها بها الوبـاء فلاـ نأتيهـا حتى ينقطع منهـا الوباء! فأرسل اللَّه عليهم الموت، فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت. فلمّا رأى الملك ذلك قال: اللّهمّ ربّ

مختصر الامثل، ج١، ص: ١٩٩

يعقوب وإله موسى، قـد ترى معصـية عبـادك فأرهم آيـة من أنفسـهم حتى يعلموا أنّهم لا يسـتطيعون الفرار منك! فأماتهم اللَّه جميعاً وأمات دوابهم وأتى عليهم ثمانية أيّام حتى انتفخت وأروحت أجسادهم.

قـالوا: وأتى على ذلك مـدّة حتى بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم فمرّ عليهم حزقيل «١» وجعل يتفكر فيهم متعجباً منهم. فأوحى اللَّه إليه: يا حزقيل تريد أن أريك آية وأريك كيف احيى الموتى؟ قال: نعم. فأحياهم اللَّه تعالى.

التّفسير

هـذه الآيـة تشـير إشـارة عـابرة ولكنهـا معبّرة عن قصـة أحـد الأقوام السالفـة التى انتشـر بين أفرادها مرض خطير وموحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ».

ثم إنّ الآية أشارت إلى عاقبتهم فقالت: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» لتكون قصّة موتهم وحياتهم مرّة اخرى عبرة للآخرين.

ومن الواضـح أنّ المراد من «مُوتُـوا» هـو أمر اللَّه التكـوينى الحـاكم على كـل حىّ فى عـالم الوجـود. أى إنّ اللَّه تعـالى أوجـد أسـباب هلاكهم فماتوا جميعاً فى وقت قصـير، وهـذه أشـبه بالأمر الذى ورد فى الآية (٨٢) من سورة يس: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

وجملـة «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعـد موتهم إسـتجابة لـدعاء (حزقيل النّبى عليه السـلام) كما ذكرنا فى سـبب نزول الآيـة، ولمّا كانت عودتهم إلى الحياة مرّة اخرى من النعم الإلهيـة البينـة (نعمـة لهم ونعمة لبقية الناس للعبرة) ففى ختام الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ». فليست نعمة اللَّه وألطافه وعنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

العالم الشيعى المعروف ب «الصـدوق» اسـتدلّ بهـذه الآيـة على القول بالرجعـة وقال: (إنّ من معتقـداتنا الرجعـة) أى رجوع طائفة من الناس الـذين ماتوا فى الأزمنـة الغابرة إلى هـذه الـدنيا مرّة اخرى، ويمكن كـذلك أن تكون هذه الآية دليلًا على المعاد وإحياء الموتى

یوم القیامهٔ.

---

(۱) قیل: إنّ حزقیل هو ثالث خلفاء بنی إسرائیل بعد موسی (تفسیر مجمع البیان).

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۰۰

وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۴۴) مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً کَثِیرَةً وَ اللَّهُ یَقْبِضُ وَ یَبْسُطُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۲۴۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان فی سبب نزول الآیهٔ الثانیهٔ: إنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «من تصدّق بصدقهٔ فله مثلها فی الجنهٔ». فقال أبو الدحداح الأنصاری: یا رسول اللَّه إنّ لی حدیقتین إن تصدقت بإحداهما فإنّ لی مثلیها فی الجنهٔ؟ قال: «نعم». قال: وامّ الدحداح معی؟ قال: «نعم». قال:

والصبیهٔ معی؟ قال: «نعم». فتصدّق بأفضل حدیقتیه فدفعها إلی رسول اللَّه. فنزلت الآیهٔ، فضاعف اللَّه له صدقته ألفی ألف وذلک قوله: «أَضْعَافًا کَثِیرَةً».

التّفسیر

هذه الآیات تشرع فی حدیثها عن الجهاد. فی البدایهٔ تقول الآیهٔ: «وَقَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ». یسمع أحادیثکم ویعلم نیّاتکم ودوافعکم النفسیهٔ فی الجهاد.

ثم یضیف القرآن فی الآیهٔ التالیهٔ: «مَّن ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَیُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا کَثِیرَةً». أی: ینفق من الأموال التی رزقه اللَّه تعالی إیّاها فی طریق الجهاد وحمایهٔ المستضعفین والمعوزین. فعلی هذا یکون إقراض اللَّه تعالی بمعنی المصارف التی ینفقها الإنسان فی طریق الجهاد.

وفی ختام الآیهٔ یقول: «وَاللَّهُ یَقْبِضُ وَیَبْصُطُ وَإِلَیْهِ تُرْجَعُونَ».

وتشیر الآیهٔ إلی أنّه لا تتصوروا إنّ الإنفاق والبذل سوف یؤدّی إلی قلهٔ أموالکم، لأنّ سعهٔ وضیق ارزاقکم بید اللَّه.

لماذا ورد التعبیر بالقرض؟ لقد ورد التعبیر بالقرض فی مورد الإنفاق فی عدّهٔ آیات قرآنیهٔ، وهذا من جههٔ یحکی عظیم لطف اللَّه بالنسبهٔ لعباده، وأهمیهٔ مسألهٔ الإنفاق من جههٔ اخری.

یقول الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغهٔ الخطبهٔ (۱۸۳): «واستقرضکم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغنیّ الحمید وإنّما أراد أن یبلوکم أیّکم أحسن عملًا».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۰۱

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی إِذْ قالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِکاً نُقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِیارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِیلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۲۴۶) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طالُوتَ مَلِکاً قالُوا أَنَّی یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَیْکُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِی الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۲۴۷) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ آیَةَ مُلْکِهِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ التَّابُوتُ فِیهِ سَکِینَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ بَقِیَّةٌ مِمَّا تَرَکَ آلُ مُوسی وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِکَةُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۴۸) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِیکُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِیَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِیلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْیَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ کَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ (۲۴۹) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۲۵۰) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَ لَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (۲۵۱) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۵۲)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۲

مختصر الامثل ج ۱ ۲۳۹

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوى بقيادة موسى عليه السلام الحكيمة حتى بلغوا القوّة والعظمة. لقد أنعم اللَّه على اليهود ببركة نبيّهم الكثير من النِعم بما فيها «صندوق العهد»، إلّاأنّ تلك النِعم والانتصارات أثارت فى اليهود الغرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً انحدروا على أيدى الفلسطينيين وخسروا قوّتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد.

استمرّت حالهم على هذا سنوات طوالًا، إلى أن أرسل إليهم اللَّه نبيّاً اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم وهدايتهم، فتجمّع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً لكى يتوحّدوا تحت لوائه، ويحاربوا العدوّ متّحدين يداً ورأياً، لإستعادة عزّتهم الضائعة.

فتوجّه اشموئيل إلى اللَّه يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكاً عليهم.

التّفسير

فى أوّل آية يخاطب اللَّه تعالى نبيّه الكريم ويقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِىّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

«الملأ»: هم الجماعة يجتمعون على رأى فيملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالًا ولذلك يقال لأشراف كل قوم (الملأ) لأنّهم بما لهم من مقام ومنزلة يملأون العين.

وعلى الرغم من أنّ الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدى الذى أخرجهم من أرضهم ويعيدوا ما اخذ منهم، فقد وُصفت تلك الحرب بأنّها فى سبيل اللَّه، وبهذا يتبين أنّ ما يساعد على تحرر الناس وخلاصهم من الأسر ورفع الظلم والعدوان يعتبر فى سبيل اللَّه.

ولما كان نبيهم يعرف فيهم الضعف والخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون «قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا».

ولكنهم قالوا: كيف يمكن أن نتملّص من محاربة العدو الذى أجلانا عن أوطاننا وفرّق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۳

بيننا وبين أبنائنا «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» وبذلك أعلنوا وفاءهم وتمسكهم بالعهد.

ومع ذلك فإنّ هذا الجمع من بنى إسرائيل لم يمنعهم اسم اللَّه ولا أمره ولا الحفاظ على استقلالهم والدفاع عن وجودهم ولا تحرير أبنائهم من نقض العهد، ولذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وذكر صاحب تفسير روح المعانى (والتفسير الكبير أيضاً) أنّ عدّة من بقى مع طالوت (۳۱۳ نفر) بعدد جيش الإسلام يوم بدر.

وعلى كل حال فإنّ نبيّهم أجابهم على طلبهم التزاماً منه بواجبه وجعل عليهم طالوت ملكاً بأمر من اللَّه تعالى: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا».

يظهر من كلمة «ملكاً» أنّ طالوت لم يكن قائداً للجيش فحسب، بل كان ملكاً على ذلك المجتمع.

ومن هنا بدأت المخالفات والاعتراضات وقال بعضهم: «قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ

الْمَالِ».

وهذا هو أوّل اعتراضاً ونقض فى العهد من قِبل بنى إسرائيل لنبيّهم مع أنّه قد صرح لهم أنّ اللّه هو اختار طالوت، وفى الواقع أنّهم اعترضوا على اللّه تعالى.

غير أنّ القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْم».

وهذا يعنى أوّلًا: أنّ هذا الاختيار هو اختيار اللّه تعالى؛ وثانياً: إنّكم على خطأ كبير فى تشخيص شرائط القيادة، لأنّ النسب الرفيع والثروة الكبيرة ليستا امتيازين للقائد إطلاقاً لأنّهما من الامتيازات الاعتبارية الخارجيّة، أمّا العلم والمعرفة وكذلك القوة الجسمية فهما امتيازان واقعيان ذاتيان حيث يلعبان دوراً مهماً فى شخصية القائد.

ثم تضيف الآية: «وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى شرط ثالث للقائد، وهو توفير اللّه تعالى الإمكانيات وآليات القيادة ووسائل الحكم.

الآية التالية تبين أنّ بنى إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كل الاطمئنان إلى أنّ طالوت مبعوث من اللّه تعالى لقيادتهم على الرغم من أنّ نبيهم صرح بذلك لهم ولهذا طلبوا منه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۴

الدليل، فكان جوابه أنّ الدليل سيكون مجىء التابوت أو صندوق العهد إليهم: «وَقَالَ لَهُمُ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ».

إنّ التابوت هو الصندوق الذى وضعت فيه ام موسى ابنها موسى وألقته فى اليم، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظل الصندوق فى بيت فرعون ثم وقع بأيدى بنى إسرائيل، فكانوا يحترمونه ويتبركون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدسة- التى تحمل على ظهرها أحكام اللّه- ودرعه وأشياء اخرى تخصّه وأودع كل ذلك فى أواخر عمره لدى وصيه يوشع ابن نون.

وبهذا ازدادت أهمية هذا الصندوق عند بنى إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعّد معنوياتهم.

ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق.

واشموئيل- كما تذكر الآية- وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلًا على صدق قوله.

«فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هرُونَ».

هذه الفقرة من الآية تبين أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوى على أشياء تضفى السكينة على بنى إسرائيل وترفع معنوياتهم فى الحوادث المختلفة.

«تَحْمِلُهُ الْمَلِكَةُ».

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ جاء فى التاريخ أنّه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام فى فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلّابسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم وديارهم، ولمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمة اضطّروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما فى الصحراء، واتفق هذا فى الوقت الذى تمّ فيه نصب طالوت ملكاً على بنى إسرائيل. وأمر اللّه الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من اللّه على اختيار طالوت ملكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

ويستفاد مما تقدم أنّه بالرغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهية لطالوت بالأدلة والمعاجز الإلهيّة، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلّموا إلى هذا الحق، وقد ظهرت هذه الحقيقة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۵

على أعمالهم العبادية، ومن ذلك تشير الجملة الأخيرة فى هذه الآية: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأيَةً لَّكَمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

ثم إنّ بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشاً كثيرة وساروا إلى القتال، وهنا تعرض بنى إسرائيل لاختبار عجيب ومن الأفضل أن نجمع تلك الأحداث ومجريات الامور من القرآن نفسه حيث يقول: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ» «۱».

ويتضح فى هذه الموارد الإمتحان الكبير الذى تعرض له بنو إسرائيل وهو المقاومة الشديدة للعطش وكان هذا الامتحان ضرورياً لجيش طالوت وخاصة مع سوابق هذا الجيش السيئة فى بعض الحروب السابقة لأنّ الانتصار يتوقف على مقدار الانضباط وقدرة الإيمان والاستقامة فى مقابل الأعداء والطاعة لأوامر القيادة.

وشرب الأكثرية كما قلنا فى سرد الحكاية وكما جاء بإيجاز فى الآية.

وهكذا جرت التصفية الثانية فى جيش طالوت، وكانت التصفية الاولى عندما نادى المنادى للاستعداد للحرب وطلب الجميع بالاشتراك فى الجهاد إلّاالذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

«فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَاطَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ».

تفيد هذه الآية أنّ تلك القلة التى نجحت فى الامتحان هى وحدها التى تحرّكت معه، ولكن عندما خطر لهؤلاء القلة أنّهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار وقوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكى على قلة عددهم، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة فى التصفية.

«قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ». إنّ «يظنّون» هنا تعنى يعلمون، أى أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة.

فى الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين ويقول: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

«برزوا»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور، فعندما يستعد المحارب للقتال ويتّجه إلى

---

(۱) «جنود»: جمع «جند» فى الأصل بمعنى الأرض الكثيره الأحجار والمتراكمة الصخور ثم اطلقت على كل شىء متراكم وعادةً تأتى بمعنى الجيش الكبير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۶

الميدان يقال أنّه برز للقتال، وإذا طلب القتال من الأعداء يقال أنه طلب مبارزاً. انّ طالوت وجنوده طلبوا من اللَّه العلى القدير ثلاثة امور، الأوّل: الصبر والاستقامة، الثانى: أن يثبّت أقدامهم حتى لا يُرجّح الفرار على القرار، الثالث: من الامور التى طلبها جيش طالوت هو «وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» وهو فى الواقع الهدف الأصلى من الجهاد ويُنفّذ النتيجة النهائية للصبر والإستقامة وثبات الأقدام.

ومن المسلّم أنّ اللَّه تعالى سوف لا يترك عبادة هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلة عددهم وكثرة جيش العدو، ولذلك تقول الآية التالية: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ».

وكان داود فى ذلك الوقت شابّاً صغير السن وشجاعاً فى جيش طالوت. أنّ داود كان ماهراً فى قذف الحجارة بالقلّاب حيث وضع فى قلّابه حجراً أو اثنين ورماه بقوة وبمهارة نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشدة فصرعه فى الوقت، فتسرب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسرعة أمام جيش طالوت، وكأنّ اللَّه تعالى أراد أن يظهر قدرته فى هذا المورد وأنّ الملك العظيم والجيش الجرّار لا يستطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلح بسلاح ابتدائى لا قيمة له.

تضيف الآية: «وَءَاتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». وعلى الرّغم من أنّ الآية لا تقول أنّ داود هذا هو داود النبى والد سليمان عليهما السلام ولكن جملة «وَءَاتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» تدلّ على أنّه وصل إلى مقام النبوة.

وفى ختام الآية إشارة إلى قانون كلى فتقول: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وهذه الآيات بشارة للمؤمنين الذين يقفون فى مواقع أمامية من مواجهة الطواغيت والجبابرة فينتظرون نصرة اللَّه لهم.

و آخر آية فى هذا البحث تقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

تشير هـذه الآية إلى القصـص الكثيرة التى وردت فى القرآن بشأن بنى إسـرائيل وأنّ كلّا منها دليل على قدرة اللَّه وعظمته ومنزهة عن كل خرافة واسطورة (بالحق) حيث نزلت على نبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكانت إحدى دلائل صدق نبوته وأقواله.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۷

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (۲۵۳) دور الأنبياء فى حياة البشر: هـذه الآيـة تشير إلى درجات الأنبياء ومراتبهم وجانباً من دورهم فى حياة المجتمعات البشرية، تقول الآية: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

«مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ». هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أنّ المقصود بالآية موسى عليه السلام المعروف باسم «كليم اللَّه».

ثم تضيف الآيـة: «وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ». ومع الإلتفات إلّاأنّ الآيـة أشارت إلى التفاضل بين الأنبياء بالدرجات والمراتب، فيمكن أن يكون المراد فى هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معينين وعلى رأسهم نبى الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان وأكملها.

أو أنّ المقصود من بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التالية:

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم». أى: لو شاء اللَّه ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

«وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». أى أنّنا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين وإحياء الموتى والمعارف الدينية السامية.

أمّا المراد من (روح القدس) هو جبرائيل حامل الوحى الإلهى.

وتشير الآيـة كذلك إلى وضع الامم والأقوام السالفة بعد الأنبياء والاختلافات التى جرت بينهم فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

فمقام الأنبياء وعظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات والإقتتال والحرب بين أتباعهم لأنّها سنّة إلهية أن جعل اللَّه الإنسان حرّاً ولكنه أساء الاستفادة من هذه الحرية: «وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ».

ثم تؤكـد الآيـة أنّ اللَّه تعالى قادر على منع الاختلافات بين الناس بالإرادة التكوينيـة وبالجبر، ولكنه يفعل ما يريـد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان ولذلك تركه مختاراً

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۸

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

ولا شك فى أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحرية، ولكن وجود الحرية فى المجموع يُعتبر ضرورياً لتكامل الإنسان لأنّ التكامل الإجبارى لا يُعدّ تكاملًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خُلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۵۴) الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الامم الماضية وجهاد حكوماتها الإلهيّة والاختلافات التى حدثت بعد الأنبياء عليهم السلام تخاطب هـذه الآية المسلمين وتشير إلى أحد الواجبات المهمة عليهم التى تسبّب فى تقوية بنيتهم الدّفاعيّة وتوحّد كلمتهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم».

جملة «مِمَّا رَزَقْنَاكُم» لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب والمستحب وكذلك الإنفاق المعنوى كالتعليم وأمثال ذلك، ولكن

مع الإلتفات إلى التهديد الوارد فى ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعنى الزكاة وأمثالها، مضافاً إلى أنّ الإنفاق الواجب هو الّذى يعزّز بيت المال ويقوّم كيان الحكومة.

ثم تضيف الآية: «مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» «۱».

«وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ». لأنّهم بتركهم الإنفاق والزكاة يظلمون أنفسهم ويظلمون الناس.

إنّ الكفر فى الآية يعنى التمرد والعصيان والتخلف عن إطاعة أمر اللّه.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۲۵۵)

---

(۱) «خُلّة»: مأخوذة من مادة «خلل» بمعنى الفاصلة بين شيئين وبما أنّ المحبّة والصداقة تحل فى وجود الإنسان وروحه وتملأ الفواصل لذا اطلقت هذه المفردة على الصداقة العميقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۹

آيةالكرسى من أهم آيات القرآن: يكفى لبيان أهمية وفضيلة هذه الآية ما جاء فى تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله «يا أبا المنذر! أىّ آية فى كتاب اللّه أعظم؟» قلت: اللّه لا- إله إلّا هو الحى القيوم. قال: فضرب فى صدرى، ثم قال: «لِيَهْنِئْكَ العلم. والذى نفس محمّد بيده! إنّ لهذه الآية للساناً وشفتين، تقدس الملك عند ساق العرش».

وفى حديث آخر فى المجمع عن علىّ عليه السلام قال سمعت رسول اللّه يقول: «... سيّد القرآن البقرة وسيّد البقرة آية الكرسى. يا على! إنّ فيها لخمسين كلمة فى كل كلمة خمسون بركة».

وروى فى المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ آية الكرسى مرّة، صرف اللّه عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا وألف مكروه من مكاره الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر».

وعن فى المجمع أبى عبد اللّه عليه السلام قال: «إنّ لكل شىء ذروة وذروة القرآن آية الكرسى».

تبدأ الآية بذكر الذات المقدسة ومسألة التوحيد فى الأسماء الحسنى والصفات العُليا للّه عزّ وجلّ فتقول: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

«اللّه»: يعنى الذات الواحدة الجامعة لصفات الكمال، إنّه خالق عالم الوجود.

«الحى»: من كانت فيه حياة، وهذه الصفة المشبّهة كمثيلاتها تدلّ على الدوام والاستمرار، وحياة اللّه حياة حقيقية لأنّ حياته عين ذاته وليس عارضة عليه مأخوذة من غيره، فى الآية (۵۸) من سورة الفرقان يقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىّ الَّذِى لَايَمُوتُ».

«القيوم»: صيغة مبالغة من القيام. لذلك فالكلمة تدلّ على الموجود الذى قيامه بذاته، وقيام كل الكائنات بوجوده.

ويتضح من هذا أنّ «قيّوم» هى فى الواقع أساس كل صفات الفعل، وعليه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادى والمحيى وأمثالها تتجمع كلها فى «القيّوم».

وفى الحقيقة أنّ (الحى) يشمل جميع الصّفات الإلهية كالعلم والقدرة والسميع والبصير وأمثال ذلك، و (القيوم) تتحدث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، ولذا قيل أنّ الاسم الأعظم الإلهى هو مجموع هاتين الصفتين.

ثم تضيف الآية: «لَاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». «سنة»: عبارة عن النوم العارض للعين ولكن عندما يتوغّل كثيراً فى الإنسان ويتعمّق ويعرض على العقل فيقال له (نوم).

وتشير هذه الآية إلى حقيقة استمرار فيض اللطف الإلهى وديمومته وعدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۰

«لَّهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات والأرض وما فيها، لذلك فهذه الآية- بعد ذكر قيومية اللَّه- تشير إلى حقيقة كون العالم كله ملك خاص للَّه، وأنّ كل تصرف يحدث فيه فبأمر منه.

من الواضح أنّ التقيد بهذا يعتبر فى الواقع عاملًا مهماً من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقى لما يملك وإنّما هو يتصرف به لفترة قصيرة من الزمن، فسيمتنع- دون شكّ- عن الإعتداء على حقوق الآخرين وعن الحرص والطمع والاحتكار والبخل وأمثالها مما يتولد فى الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاةً لتربيته تربية تجعله قانعاً بحقوقه المشروعة.

«مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وهذا ردّ على ادعاء المشركين الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند اللَّه كما ورد فى الآية (۳) من سورة الزمر: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .

وهذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكارى، أى ما من أحد يتقدم بشفاعة إليه إلّابإذنه.

هذه الآية تكمل معنى قيومية اللَّه ومالكيته المطلقة لجميع ما فى عالم الوجود.

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». بعد الإشارة إلى الشفاعة فى الآية السابقة، وإلى أنّ هذه الشفاعة لا تكون إلّابإذن اللَّه، تأتى هذه الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إنّ اللَّه عالم بماضى الشفعاء ومستقبلهم، وبما خفى عليهم أيضاً.

وعلى هذا فأنّ اللَّه محيط بكلّ أبعاد الزمان والمكان فكل عمل حتى الشفاعة يجب أن تكون بإذنه.

وفى ثامن صفة مقدسة تقول الآية: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ».

ومن هذه الفقرة من الآية يستفاد أمرين:

الأوّل: أنّه لا أحد يعلم شيئاً بذاته، فجميع العلوم والمعارف البشرية إنّما هى من اللَّه تعالى.

والآخر: هو أنّ اللَّه تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبية فى متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب.

وفى تاسع وعاشر صفة إلهية تقول الآية: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يُودُهُ حِفْظُهُمَا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۱

وفى الصفة الحادية عشر والثانية عشر تقول الآية: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

وعلى هذا أنّ العرش حكومة اللَّه وقدرته يهيمن على السموات والأرض جميعاً وأنّ كرسىّ علمه يحيط بكل هذه العوالم، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ونفوذ علمه. أى أنّ اللَّه الذى هو أرفع وأعلى من كل شبيه وشريك، ومنزه عن كل نقص وعيب، وهو العظيم اللّامحدود، لا يصعب عليه أى عمل ولا يتعبه حفظ عالم الوجود وتدبيره، ولا يغفل عنه أبداً، وعلمه محيط بكل شيء.

بل يستفاد من بعض الروايات أنّ الكرسى أوسع بكثير من السماوات والأرض. فقد جاء فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما السماوات والأرض عند الكرسى إلّا كحلقة خاتم فى فلاة، وما الكرسى عند العرش إلّاكحلقة فى فلاة».

لم يتوصّل العلم البشرى بَعد لمعرفته وكشف الستار عن هذا المعنى.

إنّ جميع الروايات التى اوردت فضيلة آية الكرسى وعبّرت عنها بآية الكرسى تدلّ على أنّها آية واحدة لا أكثر.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۵۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى رجل من الأنصار يدعى أبا الحصين. وكان له ابنان، فقدم تجّار الشام إلى المدينة، يحملون الزيت. فلمّا أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبى الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصّرا ومضيا إلى الشام. فأخبر أبو الحصين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فأنزل اللَّه تعالى «لَاإِكْرَاهَ فِي الدّينِ».

التّفسير

إنّ آيـة الكرسـى هى مجموعـة من توحيـد اللَّه تعالى وصـفاته الجمالية والجلالية التى تشـكّل أساس الدين، وبما أنّها قابلة للأسـتدلال العقلى فى جميع المراحل وليست هناك حاجة للإجبار والإكراه تقول هذه الآية: «لَاإِكْرَاهَ فِى الدّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىّ».

«الرشد»: لغوياً تعنى الهداية للوصول إلى الحقيقة، بعكس (الغىّ) التى تعنى الانحراف عن الحقيقة والإبتعاد عن الواقع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۲

وهذه الآية ردّ حاسم على الذين يتهمّون الإسلام بأنّه توسل أحياناً بالقوة وبحدّ السيف والقدرة العسكرية فى تقدمه وإنتشاره.

ثم إنّ الآية الشريفة تقول كنتيجة لما تقدم: «فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاانْفِصَامَ لَهَا».

«الطاغوت»: صـيغة مبالغـة من طغيان، بمعنى الإعتداء وتجاوز الحدود، ويطلق على كل ما يتجاوز الحد، لذلك فالطاغوت هو الشـيطان والصنم والمعتدى والحاكم الجبار والمتكبر، وكل معبود غير اللَّه، وكل طريق لا ينتهى إلى اللَّه.

والمقصود بالطاغوت هو كل متعدّ للحدود وكل مذهب منحرف ضال.

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». الإشارة فى نهايـة الآية إلى الحقيقة القائلة إنّ الكفر والإيمان ليسا من الامور الظاهرية، لأنّ اللَّه عالم بما يقوله الناس علانية- وفى الخفاء- وكذلك هو عالم بما يكنّه الناس فى ضمائرهم وقلوبهم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۵۷) بعـد أن أشـير فى الآيـات السابقـة إلى مسألـة الإيمان والكفر وإتضاح الحق من الباطل والطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة إستكمالًا للموضوع أنّ لكل من المؤمن والكافر قائداً وهادياً فتقول: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا». فهم يسيرون فى ظل هذه الولاية من الظلمات إلى النور: «يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

ثم تضيـف الآيـة إنّ أوليـاء الكفـار هم الطـاغوت (الأوثـان والشـيطان والحـاكم الجـائر وأمثـال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» ولهذا السبب «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَ أُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۲۵۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۳

تعقيباً على الآيـة السابقـة التى تناولت هداية المؤمنين بواسـطة نور الولاية والهداية الإلهيّة، وضـلال الكافرين لإتّباعهم الطاغوت، يذكر اللَّه تعالى فى هذه الآية: عدة شواهد لذلك، وأحدها ما ورد فى الآية أعلاه وهى تتحدث عن الحوار الذى دار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الجبارين فى زمانه ويدعى (نمرود) فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرهِيمَ فِى رَبّهِ».

وتعقّب الآية بجملة اخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها وتقول: إنّ ذلك الجبار تملّكه الغرور والكبر وأسكره الملك «أن ءَاتَيهُ اللَّهُ المُلْكَ».

وما أكثر الأشـخاص الـذين نجـدهم فى الحالات الطبيعيـة أفراد معتدلين ومؤمنين، ولكن عندما يصـلون إلى مقام أو ينالون ثروةً فإنّهم ينسون كل شيء ويسحقون كل المقدسات.

وتضيف الآية أنّ ذلك الجبار سأل إبراهيم عن ربّه: من هو الإله الذى تدعونى إليه؟ «إِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبّىَ الَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ».

الواقع أنّ أعظم قضية فى العالم هى قضية الخلقة، يعنى قانون الحياة والموت الذى هو أوضح آية على علم اللَّه وقدرته.

ولكن نمرود الجبـار إتّخـذ طريق المجادلـة والسفسـطة وتزييّف الحقـائق لإغفال الناس والملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة والموت بيدى «قَالَ أَنَا أُحْىِ وَأُمِيتُ».

ومن أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبة استخدم حيلة كما ورد فى الرواية المعروفة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثم قال لإبراهيم والحضّار:

أرأيتم كيف أحيي واميت.

ولكن إبراهيم قدّم دليلًا آخر لإحباط هذه الحيلة وكشف زيف المدعى بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال الناس فقال: «قَالَ إِبْرهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ» وهنا ألقم هذا المعاند حجراً «فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وبهذا اسقط فى يدى العدوّ المغرور، وعجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم عليه السلام الحى، وهذا أفضل طريق لاسكات كل عدوّ عنيد.

ويتضح ضمناً من جملة «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أنّ الهداية والضلالة بالرغم من أنهما من أفعال اللَّه تعالى، إلّاأنّ مقدماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم والجور والمعاصى المختلفة تشكّل على القلب والبصيرة حُجُباً مظلمة تمنع من ادراك الحقائق على حقيقتها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۴

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَام ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَام فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۲۵۹) هذه الآية تقصّ حكاية أحد الأنبياء القدامى، وهى من الشواهد الحيّة على مسألة البعث. الآية تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت وتحوّلت إلى أنقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة، وإذ رأى هذا المشهد المروع قال:

كيف يقدر اللَّه على إحياء هؤلاء الأموات؟

عند ذلك أماته اللَّه مدة مائة سنة، ثم أحياه مرّة اخرى وسأله: كم تظنّ أنّك بقيت فى هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنّه بقى سويعات: يوماً أو أقل، فخاطبه اللَّه بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أنّ طعامك وشرابك طوال هذه المدة لم يصبه أى تغيّر بإذن اللَّه. ولكن لكى تؤمن بأنّك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذى تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثم انظر كيف إننا نجمع أعضاءه ونحييه مرّة اخرى، فعندما رأى كل هذه الامور أمامه قال: «أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». أى: إنّنى الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسمة أمامى.

ومَن هذا النبى الذى تحدثت عنه هذه الآية؟ جاء فى تفسير مجمع البيان: إنّ أشهر الأقوال: إنّه «العزير» ويؤيده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

نعود إلى تفسير الآية: «أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا».

هذه الآية تكملة للآية السابقة التى دارت حول التوحيد، هذه الآية والآيات التالية تجسّد مسألة المعاد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۵

«عروش»: جمع عرش وهنا تعنى السقف؛ و «خاوية»: فى الأصل بمعنى خالية ولكنها هنا كناية عن الخراب والدمار وعليه فإنّ قوله «وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» تعنى أنّ دور تلك القرية كانت كلها خربة، فقد هوت سقوفها ثم انهارت الجدران عليها وهذا هو الخراب التام.

«فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَام ثُمَّ بَعَثَهُ». إنّ ظاهر الآية يدل على أنّ النبى قد فارق الحياة، وبعد مائة سنة استأنف الحياة مرة اخرى، ولا شك أنّ موتاً وحياة كهذين هما من خوارق العادات، وإن لم يكن مستحيلًا، وعلى كل حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة فى القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

«قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». يسأل اللَّه نبيه فى هذه الآية عن المدّة التى قضاها فى النوم، فيتردد فى الجواب بين قضائه يوماً كاملًا أو جزءاً من اليوم، ويستفاد من هذا التردّد أنّ الساعة التى أماته اللَّه فيها تختلف عن الساعة التى أحياه فيها من ساعات

النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلًا قبل الظهر، واعيد إلى الحياة بعد الظهر، لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوماً كاملًا بليله ونهاره، أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار، ولهذا بعد أن قال إنّه قضى يوماً، راوده الشك فقال: «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». ولكنّه ما لبث أن سمع اللّه يقول له: «بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ».

ثم أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه بأن ينظر إلى طعامه الذى كان معه من جهة، وينظر إلى مركوبه من جهة اخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأوّل بقى سالماً تماماً، أمّا الثانى فتلاشى وأصبح رميماً، ليعلم قدرة اللّه على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام ويدرك من جهة اخرى مرور الزمان على وفاته: «فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ». أى أنّ اللّه القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتى بيسر، فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسّخ وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى.

«وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ». إنّ الآيات التالية تشير إلى أنّ حماره قد تلاشى تماماً بمضىّ الزمان ولولا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة.

«وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ». أى أنّ حكايتك هذه ليست آية لك وحدك، بل هى كذلك للناس جميعاً.

«وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا». واضح أنّ العظام المقصودة هى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۶

عظام حماره المتلاشى، لا عظام أهل القرية لما فى ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

«فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». عندما اتّضحت كل هذه المسائل للنبىّ المذكور قال إنّه يعلم أنّ اللّه قادر على كل شىء.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۶۰) تجلّ آخر للمعاد فى هذه الدنيا: يذكر القرآن الكريم حول مسألة المعاد بعد قصّة عزير قصّة اخرى عن إبراهيم عليه السلام ليكتمل البحث، ويذكر معظم المفسرين والمؤرخين فى تفسير هذه الآية الرواية التالية:

روى فى الكافى (وفى تفسير العياشى أيضاً) عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال: لمّا رأى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض التفت ... فرأى جيفة على ساحل البحر بعضها فى الماء وبعضها فى البرّ تجىء سباع البحر فتأكل ما فى الماء ثم ترجع فيشتمل على بعض فيأكل بعضها بعضاً وتجىء سباع البرّ فتأكل منها فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً فعند ذلك تعجّب إبراهيم عليه السلام ممّا رأى وقال: يا ربّ أرنى كيف تحيى الموتى؟

هذه أمم يأكل بعضها بعضاً. قال: أوَلم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنّ قلبى. يعنى حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها. قال: خذ أربعة من الطير فقطّعنّ وأخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة فى هذه السباع التى أكل بعضها بعضاً فخلط ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعياً فلمّا دعاهنّ أجبنه وكانت الجبال عشرة، قال: وكانت الطيور: الديك، والحمامة، والطاووس والغراب.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى .

سبق أن قلنا إنّ هذه الآية تكملة للآية السابقة فى موضوع البعث، يفيد تعبير «أَرِنِى كَيْفَ ...» أنّه طلب الرؤية والشهود عياناً لكيفية حصول البعث لا البعث نفسه.

«قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى».

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أنّ طلب إبراهيم عليه السلام هذا إنّما يدل على تزلزل إيمان

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۷

إبراهيم عليه السلام ولإزالة هذا التوهم أوحى إليه السؤال: «أوَلم تؤمن؟» لكى يأتى جوابه موضحاً الأمر، ومزيلًا كل التباس قديقع فيه البعض فى تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه السلام: «بَلَى وَلكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلبِى».

«قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا».

«صرهنّ»: من «الصَوْر» أى التقطيع، أو الميل، أو النداء، ومعنى التقطيع أنسب. أربعة من الطير واذبحهنّ وقطّعهنّ واخلطهنّ.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها.

وبذلك قام إبراهيم بهذا العمل وعندما دعاهنّ تجمّعت أجزائهنّ المتناثرة وتركبت من جديد وعادت إلى الحياة، وهذا الأمر أوضح لإبراهيم عليه السلام أنّ المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكل واسع وبمقياس كبير جداً.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۱) تعتبر مسألة الإنفاق إحدى أهمّ المسائل التى أكدّ عليها الإسلام والقرآن الكريم، والآية أعلاه هى أوّل آية فى مجموعة الآيات الكريمة من سورة البقرة التى تتحدث عن الإنفاق، ولعل ذكرها بعد الآيات المتعلقة بالمعاد من جهة أنّ أحد الأسباب المهمة للنجاة فى الآخرة هو الإنفاق فى سبيل اللَّه. تقول الآية الشريفة: «مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ». فيكون المجموع المتحصّل من حبّة واحدة سبعمائة حبّة، وتضيف الآية بأنّ ثواب هؤلاء لاينحصر بذلك: «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ».

وذلك بإختلاف النيّات ومقدار الإخلاص فى العمل وفى كيفيته وكميته. ولا عجب فى هذا الثواب الجزيل لأنّ رحمة اللَّه تعالى واسعة وقدرته شاملة وهو مطلع على كل شيء «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

الإنفاق ومشكلة الفوارق الطبقية: بالتدقيق فى آيات القرآن الكريم يتضح أنّ واحداً من الأهداف التى يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱۸

الاجتماعى بين الطبقتين الغنية والفقيرة، ورفع مستوى معيشة الذين لا- يستطيعون رفع حاجاتهم الحَيَوية ولا- توفير حدّ أدنى من متطلباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين.

وللوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجاً واسعاً يتمثّل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة والخمس، والحثّ على الإنفاق، والقرض الحسن، والمساعدات المالية المختلفة، وأهمّ من هذا كله هو إحياء روح الأخوة الإنسانية فى الناس.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَ لَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۶۲) الإنفاق المقبول: الآية السابقة بيّنت أهمية الإنفاق فى سبيل اللَّه بشكل عام، ولكن هذه الآية بينت بعض شرائط هذا الإنفاق (ويستفاد ضمناً من عبارات هذه الآية أنّ الإنفاق هنا لا- يختص بالإنفاق فى الجهاد). تقول الآية: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «۱».

يستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ الإنفاق فى سبيل اللَّه لا يكون مقبولًا عند اللَّه تعالى إذا تبعته المنة وما يوجب الأذى والألم للمعوزين والمحتاجين، وعليه فإنّ من ينفق ماله فى سبيل اللَّه ولكنه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنّه يحبط ثوابه وأجره بعمله هذا.

بل لعل المنة التى يمنّ بها عليه ونظرة التحقير التى ينظر بها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

«لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ». تُطمئن هذه الآية المنفقين أنّ أجرهم محفوظ عند اللَّه لكى يواصلوا هذا الطريق بثقة ويقين، فما كان عند اللَّه باق ولا ينقص منه شيء، بل أنّ عبارة (ربّهم) قد تشير إلى أنّ اللَّه تعالى سيزيد فى أجرهم وثوابهم.

فى تفسير البرهان، ذيل الآية مورد البحث، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو

منّ عليه فقد أبطل صدقته».

---

(۱) «منّ»: بمعنى حجر الميزان المعروف ثم اطلقت على النعم المهمة التى يلاحظ فيها الجانب العملى «ومنن اللَّه تعالى من هذا القبيل» وإن كان الملحوظ فيها الجانب اللفظى كانت قبيحة جدّاً وفى الآية أعلاه وردت بهذا المعنى الثانى.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۱۹

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳) هذه الآية تكمّل ما بحثته الآية السابقة فى مجال ترك المنّة والأذى عند الإنفاق والتصدّق فتقول: إنّ الكلمة الطيبة للسائلين والمحتاجين والصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التى يتبعها الأذى: «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى».

ويجب أن يكون معلوماً أنّ ما تنفقوه فى سبيل اللَّه فهو فى الواقع ذخيرةٌ لكم لإنقاذكم ونجاتكم لأنّ اللَّه تعالى غير محتاج إليكم وإلى أموالكم وحليم فى مقابل جهالاتكم «وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ».

روى فى تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل، فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جانٍ ينظرونكم كيف صنيعكم فيما خوّلكم اللَّه تعالى».

فى هذا الحديث يبيّن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جانباً من آداب الإنفاق. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۲۶۴) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵) دوافع الإنفاق ونتائجه: فى هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ والأذى عند إنفاقهم فى سبيل اللَّه، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم، ثم يضرب القرآن مثلًا للإنفاق المقترن بالمنّ والأذى، ومثلًا آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الإنسانية.

يقول تعالى فى المثال الأوّل: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ...» «۱».

---

(۱) قيل: إنّ حزقيل هو ثالث خلفاء بنى إسرائيل بعد موسى (تفسير مجمع البيان).

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۲۰

تصوّر قطعة حجر صلد تغطّيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وضعت فى هذا التراب بذور سليمة، ثم عرّض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التى لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأنّ أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سىء، بل لأنّ البذر لم يزرع فى المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه، قشرة خارجية من التربة لا تعين على نموّ النبات الذى يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

ويشبّه القرآن الإنفاق الذى يصاحبه الرياء والمنة والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التى تغطّى الصخرة الصلدة والتى لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأتعابه أدراج الرياح، هذا هو المثل الذى ضربه القرآن فى الآية الاولى للإنفاق المرائىالذى يتبعه المنّ والأذى.

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». وهو إشارة إلى أنّ اللَّه تعالى سوف يسلبهم التوفيق والهداية، لأنّهم أقدموا على الرياء والمنّة والأذى بأقدامهم، واختاروا طريق الكفر باختيارهم ومثل هذا الشخص لا يليق بالهداية.

فى الآيـة التاليـة نقرأ مثالًا جميلًا آخر يقع فى النقطـة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه بدافع من الإيمان والإخلاص فتقول الآيةُ:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ».

تصوّر هذه الآيةُ مزرعةً خضـراء يانعةً تقع على أرض مرتفعةً خصـبةً تسـتقبل الهواء الطلق وأشـعةَ الشـمس الوافرةَ والمطر الكثير النافع، وإذا لم يهطـل المطر الوابـل ينزل الطـلّ وهو المطر الخفيف وذرات الهبـاب ليحافـظ على طراوةِ المزرعـةِ ولطافتهـا، فتكون النتيجـةُ أنّ مزرعةً كهذه تعطى ضعف ما تعطى المزارع الاخرى، فهذه الأرض فضلًا عن كونها خصبةً بحيث يكفيها الطلّ والمطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لإيناع حاصـلها، وفضـلًا عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وإشعةِ الشمس وتلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون فى مأمن من السيول.

فالآيـةُ الشـريفةُ تريـد أن تقول: إنّ الـذين ينفقون أموالهم فى سبيـل اللّه لتمكّن الإيمـان واليقين فى قلوبهم وأرواحهم هم أشـبه بتلك المزرعةِ ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۲۱

وفى ختام الآيـةِ تقول: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». فهو سـبحانه يعلم ما إذا كان الدافع على هذا الإنفاق إلهيّاً مقترناً بالمحبةِ والإحترام، أو للرياء المشفوع بالمنّة والأذى.

أ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ أَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۶۶) هنا يضـرب القرآن مثلًا آخر يبين حاجةَ الإنسان الشديدةَ إلى الأعمال الصالحات يوم القيامةِ، وكيف أنّ الرياء والمن والأذى تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسّـد هـذا التمثيل فى صاحب مزرعـةٍ مخضـرةٍ ذات أشـجار متنوعـةٍ كالنخيل والأعناب، وتجرى فيها المياه بحيث لا تتطلّب السـقى، لكن السـنون نالت من صاحبها وتحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، وليس ثمةَ ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعةِ، فإذا جفّت فلن يقدر هو ولا أبناؤه على إحيائها، وفجأةً تهبّ عاصفةٌ محرقةٌ فتحرقها وتبيدها، فى هذه الحالةِ ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذى لا يقوى على الإرتزاق وتأمين معيشته ومعيشةِ أبنائه الضعفاء؟ وما أعظم أحزانه وحسراته!

«أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» «۱».

إنّ حـال اولئـك الـذين يعملون عملًا صالحاً ثم يحبطونه بالريـاء والمن والأذى أشـبه بحال من تعب وعانى كثيراً حتى إذا حان وقت اقتطاف النتيجةِ ذهب كل شىء ولم يبق سوى الحسرات والآهات. وتضيف الآيةُ: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

لمـا كـان منشأ كل تعاسـةٍ وشـقاء- وعلى الأخص كل عمل أحمق كالمن على الناس- هو عـدم إعمال العقل والتفكير فى الامور، فإنّ اللّه فى ختام الآيةِ يحثّ الناس على التعمق فى التفكير فى آياته: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

---

(۱) «الإعصار»: ريح تثير الغبار و هى تهب من اتجاهين مختلفين بحيث إنها تتجه من الأرض عمودياً إلى السماء.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۲۲

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۲۶۷)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّها نزلت فى أقوام لهم أموال من ربا فى الجاهليـةِ، وكانوا يتصدّقون منها

فنهاهم اللَّه عن ذلك وأمر بالصدقة من الطيّب الحلال.

التّفسير

الأموال التی يمكن إنفاقها: هـذه الآيـة تبين نوعية الأموال التی يمكن أن تنفق فی سبيل اللَّه. فی بداية الآية يأمر اللَّه المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات) أموالهم. أی الأموال الجيدة النافعة والتی لا شبهة فيها من حيث حليتها. «وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ».

تقول هذه الآية: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرفكم، لذلک ينبغی أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم فی سبيل اللَّه.

«وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بَاخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ» «۱».

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التی لا قيمـة لها أو الساقطـة التی لم تعـد تنفعهم فی شـیء، إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّی روح المنفق، ولا هو يرتق فتقاً لمحتاج، بل لعلّه إهانة له وتحقير، فجاءت هذه الآية تنهی بصراحة عن هذا.

الآية تشير إلی فكرة عميقة وهی أنّ للإنفاق فی سبيل اللَّه طرفين، فالمحتاجون فی طرف، واللَّه فی طرف آخر، فإذا اختير المال المنفق من زهيـد الأشياء ففی ذلک إهانـة لمقام اللَّه العزيز الذی لم يجده المنفق جديراً بطيبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، وهم ربما يكونون من ذوی الدرجات الإيمانية السامية، وعندئذ يسبّب لهم هذا المال الردیء الألم والعذاب النفسی.

وفی ختام الآية يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ». أی لا تنسوا أنّ اللَّه لا حاجة به

---

(۱) «تيمّم»: فی الأصل بمعنی القصـد أی شـیء وجاءت هنا بهذا المعنی واطلقت هذه الكلمة علی التيمم لأنّ الإنسان يقصد الاسـتفادة من التراب الطاهر كما يقول القرآن: «فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» (سورة النساء/ ۴۳).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۳

لإنفاقكم فهو غنیّ من كل جهة، بل أنّ جميع المواهب والنعم تحت أمره وفی دائرة قدرته، ولذلک فهو حميد ومستحق للثناء والحمد، لأنّه وضع كل هذه النعم بين أيديكم.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۸) مكافحة موانع الإنفاق: تشير الآية هنا وتعقيباً علی آيات الإنفاق إلی أحـد الموانع المهمـة للإنفاق، وهو الوساوس الشـيطانية، فتقول الآيـة فی هـذا الصـدد: «الشَّيْطَنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ».

ويقول لكم: لا- تنسوا مستقبل أطفالكم وتـدبروا فی غـدكم، وأمثال هـذه الوسـاوس المضـلة، ومضافاً إلی ذلک يـدعوكم إلی الإثم وإرتكاب المعصية: «وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ».

«الفحشاء»: تعنی كل عمل قبيـح وشـنيع، ويكون المراد به فی سـياق معنی الآية البخل وترک الإنفاق فی كثير من الموارد حيث يكون نوع من المعصية والإثم، لأنّ الإنفاق وإن بدأ فی الظاهر أنّه أخذ، ولكنه فی الواقع عطاء لرؤوس أموالهم مادياً ومعنوياً.

جاء فی تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أنّ فی الإنفاق شيئين من اللَّه وشيئين من الشيطان، فاللذان من اللَّه هما غفران الذنوب والسعة فی المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء».

«وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا». وعليه فـإنّ المقصـود بـالمغفرة هـو غفران الـذنوب، والمقصـود بالفضـل هو إزديـاد رؤوس الأـموال بالإنفاق.

«وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». فی هـذا إشارة إلی أنّ للّهقدرة واسـعة وعلماً غير محدود، فهو قادر علی أن يفی بما يعد، ولا شک أنّ المرء يطمئن إلی هذا الوعد، لا كالوعد الذی يعده الشـيطان المخادع الضـعيف الذی يجرّ المرء إلی العصيان، فالشيطان ضعيف وجاهل بالمستقبل، ولذلک ليس وعده سوی الضلال والتحريض علی الإثم.

يُؤْتِی الْحِكْمَـةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِیَ خَيْراً كَثِيراً وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (۲۶۹) مع الإلتفات إلی ما تقـدم فی الآية

السابقـة التى تحدثت عن تخويف الشـيطان من الفقر ووعد الرحمن بالمغفرة والفضل الإلهى، ففى هذه الآية مورد البحث دار الحديث عن الحكمة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۴

والمعرفة والعلم لأنّ الحكمة فقط هى التى يمكنها التفريق والتمييز بين هذين الدافعين الرحمانى والشيطانى وتدعوا الإنسان إلى ساحل المغفرة والرحمة الإلهية وترك الوساوس الشـيطانية وعدم الإعتناء بالتخويف من الفقر. فتقول الآية: «يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ». وقد ذكر لكلمـة «الحكمـة» معان كثيرة منها (المعرفة والعلم بأسـرار العالم) ومنها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحق بالقول والعمل) و (معرفة اللّه تعالى) و (أنّها النور الإلهى الذى يميّز بين وساوس الشيطان وإلهامات الرحمان).

والظاهر هو أنّ الحكمة تأتى بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الامور بما فيها النبوّة التى هى نوع من العلم والإطلاع والإدراك.

«وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا».

رغم أنّ واهب الحكمة هو اللّه فإنّ اسمه لم يرد فى هذه الآية وإنّما بنى الفعل للمجهول «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ».

«وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ».

«التذكّر»: هو حفظ العلوم والمعارف فى داخل الروح، والألباب جمع لب وهو قلب كل شىء ومركزه، ولهذا قيل العقل اللّب.

تقول هـذه الفقرة من الآيـة إنّ أصـحاب العقول هم الـذين يحفظون هـذه الحقـائق ويتـذكرونها، رغم أنّ جميع النـاس ذو عقل- عـدا المجانين- فلا يوصفون جميعاً باولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (۲۷۰) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوهَا وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۷۱) تحدثت الآيات السابقة عن الإنفاق وبذل المال فى سبيل اللّه، وأن ينفق الشخص ذلك المال من الطيّب دون الخبيث، وأن يكون مشفوعاً بالمحبة والإخلاص وحسن الخلق، أمّا فى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۵

هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفية الإنفاق وعلم اللّه تعالى بذلك. فيقول اللّه تعالى فى الآية الاولى: «وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ».

تقول الآيـة: إنّ كـل مـا تنفقونه فى سبيـل اللّه سواءً كان قليلًا أو كثيراً، جيـداً أم رديئاً، من حلال إكتسب أم من حرام، مخلصاً كان فى نيّته أم مرائياً، إتّبعه المنّ والأذى أم لم يتبعه، أكان الإنفاق ممّا أوجب اللّه تعالى عليه أم ممّا أوجبه الإنسان على نفسه بنذر وشبهه، فإنّ اللّه تعالى يعلم تفاصيله ويثيب عليه أو يعاقب.

وفى الختام تقول الآية: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

«الظـالمين»: هنا إشارة إلى المحتكرين والبخلاء والمرائين والـذين ينفقون بالمن والأذى، فإنّ اللّه تعالى لا ينصـرهم، وسوف لا ينفعهم ما أنفقوا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

أجل فهؤلاء ليس لهم ناصر فى الدنيا ولا شفيع فى الآخرة، وهذه النتيجة من الخصائص المترتبة على الظلم والجور بأىّ صورة كان.

ويستفاد من هذه الآية ضمناً مشروعية النذر ووجوب العمل بمؤدّاه.

فى الآيـة الثانيـة إشارة إلى كيفية الإنفاق من حيث السـرّ والعلن فتقول: «إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ».

وسوف يعفو اللّه عنكم بذلك: «وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، والمستحب يفضّل فيه الإخفاء.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السـلام وفى كتب أهل السـنة. من ذلك ما روى فى

تفسير مجمع البيان: «صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار».

يستفاد من جملة «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» هو أنّ اللَّه عالم بما تنفقون سواء أكان علانية أم سرّاً كما أنّه عالم بنياتكم وأغراضكم من إعلان إنفاقكم ومن إخفائه.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (۲۷۲)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۶

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

تحدثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق فى سبيل اللَّه بشكل عام، ولكن فى هذه الآية الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنّه لا ينبغى ترك الإنفاق على المساكين والمحتاجين من غير المسلمين حتى تشتدّ بهم الأزمة والحاجة فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية: «لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَيهُمْ». فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان وترك الإنفاق عليهم نوع من الإجبار على دخولهم إلى الإسلام وهذا الاسلوب مرفوض ورغم أنّ المخاطب فى هذه الآية الشريفة هو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّه فى الواقع يستوعب كل المسلمين.

ثم تضيف الآية: «وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ» ومن تكون له اللياقة للهداية.

فبعد هذا التذكر تستمر الآية فى بحث فوائد الإنفاق فى سبيل اللَّه فتقول: «وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ».

وفى آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيداً أكثر على مقدار الإنفاق وكيفيته حيث تقول الآية: «وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ».

يعنى أنّكم لا ينبغى أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل إنّ جميع ما أنفقتم وتنفقون سيعود إليكم كاملًا، وذلك فى اليوم الذى تحتاجون إليه بشدة، فعلى هذا لا تترددوا فى الإنفاق أبداً.

ولكن لا ينبغى أن يتصور أنّ نتائج الإنفاق اخروية فحسب، بل إنّ له منافع فى هذه الدنيا أيضاً مادية ومعنوية.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۲۷۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «نزلت الآية فى أصحاب الصفّة وهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۷

نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم فى المسجد، وقالوا: نخرج فى كل سرية يبعثها رسول اللَّه فحثّ الناس عليهم، وكان الرجل إذا أكل وعنده فضل، أتاهم به إذا أمسى».

التّفسير

خير مواضع الإنفاق: يبيّن اللَّه فى هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق وهى التى تتّصف بالصفات التالية:

۱- «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ». أى الذين شغلتهم الأعمال الهامّة كالجهاد ومحاربة العدو، وتعليم فنون الحرب، وتحصيل العلوم الاخرى عن العمل فى سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفّة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف «۱».

ثم للتأكيد تضيف الآية: «لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ». أى الذين لا يقدرون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى والمدن الاخرى حيث تتوفر نِعم اللَّه تعالى، وعليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر فى سبيل ذلك وأن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّاإذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد فى سبيل اللَّه.

۲- الذين «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ». هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن امورهم ولكنهم- لما فيهم من عفة النفس والكرامة- يظنّون أنّهم من الأغنياء.

ولكن هذا لا يعنى أنّهم غير معروفين. لذا تضيف الآية: «تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ». فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون وجناتهم ينبىء عما خفى من أسرارهم.

۳- والثالث من صفات هؤلاء أنهم لايصرّون فى الطلب والسؤال: «لَايَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» «۲». أى أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحّاذين الذين يلحّون فى الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلًا عن الإلحاف، فالإلحاح فى السؤال شيمة ذوى الحاجات العاديين وهؤلاء ليسوا عاديين.

---

(۱) «حصر»: بمعنى الحبس والمنع والتضييق و جاءت هنا بمعنى جميع الامور التى تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

(۲) «الحاف»: من مادة «لحاف» بمعنى الغطاء المعروف، واطلق على الاصرار فى السؤال لانه يغطى قلب الشخص المقابل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۸

«وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ». فى هذه الآية حثّ على الإنفاق وعلى الأخص الإنفاق على ذوى النفوس العزيزة الأبية، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ اللَّه عالم بما ينفقون حتى وإن كان سرّاً وأنّه سوف يثيبهم على ذلك، فستزداد رغبتهم فى هذا العمل الكبير.

الاستجداء بدون حاجة حرام: إنّ أحد الذنوب الكبيرة هو السؤال والاستجداء والطلب من الناس من دون حاجة، لذلك وقد ورد فى روايات متعددة النهى عن هذا العمل بشدة، ففى الحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «إنّ الصّدقة لا تَحلّ لِغنيّ».

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۷۴)

سبب النّزول

جاء فى تفسير العياشى عن أبى اسحاق، قال: كان لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام أربعة دراهم لم يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلًا وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانيةً فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و آله فقال: «يا على ما حملك على ما صنعت؟» قال: «إنجاز موعود اللَّه». فأنزل اللَّه «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» الآية «۱».

التّفسير

فى هذه الآية يدور الحديث أيضاً عن مسألة اخرى مما يرتبط بالإنفاق فى سبيل اللَّه وهى الكيفيات المتنوعة والمختلفة للإنفاق، فتقول الآية: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ».

ومن الواضح أنّ إنتخاب أحد هذه الطرق المختلفة يتمّ مع رعاية الشرائط الأفضل للإنفاق، يعنى أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب الأخلاقية والاجتماعية فى إنفاقه الليلى أو النهارى العلنى أو السرّى.

ويمكن أن يكون تقديم الليل على النهار والسرّ على العلانية فى الآية مورد البحث إشارة

---

(۱) ورد مضمون هذا الحديث فى كتب تفسير أهل السنّة أيضاً، وينقله صاحب (الدرّ المنثور) عن ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن عساكر ومجاهد. ويرى البعض أنّ علماء الشيعة بالاتّفاق وأكثر علماء السنّة ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام وفى علماء السنّة: الواحدى، الثّعلبى، مجاهد، السّدى، الكلبى، أبى صالح، على بن حرب الطائى، القشيرى، الثّمالى،

الماوَردى، ابن أبى‌الحديد وغيرهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۹

إلى أنّ صدقة السرّ أفضل إلّاأن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغى نسيان الإنفاق على كل حال.

ومن المسلّم أنّ الشىء الذى يكون عند اللَّه (وخاصة بالنظر إلى صفة الربوبية الناظرة إلى التكامل والنمو) لا يكون شيئاً قليلًا وغير ذا قيمة، بل يكون متناسباً مع ألطاف اللَّه تعالى وعناياته التى تتضمن بركات الدنيا وكذلك حسنات الآخرة والقرب إلى اللَّه تعالى.

ثم تضيف الآية: «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». لأنّهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل اللَّه وبركات إنفاقهم الفردية والاجتماعية والأخلاقية فى الدنيا والآخرة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عَادَ فَأُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۷۵) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَ يُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (۲۷۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۷۷) فى الآيات التى مضت كان الكلام على الإنفاق وبذل المال لمساعدة المحتاجين وفى سبيل رفاه المجتمع، وفى هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذى يقف فى الجهة المضادّة للإنفاق.

يقول تعالى: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَايَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطنُ مِنَ الْمَسّ» «۱».

فالآية تشبّه المرابى بالمصروع أو المجنون الذى لا يستطيع الإحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط فى خطواته. أى أنّ الذين يقومون فى الدنيا قياماً غير متعقّل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنونى للثروة سيسحشرون يوم القيامة كالمجانين.

---

(۱) «يتخبّطه»: من مادة «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشى أو القيام.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۰

«ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا». هذه الآية تبين منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل بتراضى الطرفين واختيارهما.

يقول القرآن جواباً على ذلك: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوا» ولم يزد فى ذلك شرحاً وتفصيلًا، ربما لوضوح الإختلاف.

«فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مّن رَبّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ».

تقول الآية إنّ من بلغته نصيحة اللَّه بتحريم الربا واتّعظ فله الأرباح التى أخذها من قبل «أى أنّ القانون ليس رجعياً» لأنّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والاضطرابات فى حياة الناس، ولذلك فإنّ القوانين تنفّذ عادةً من تاريخ سنّها.

وهذا لا- يعنى بالطبع أنّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية، بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثم يقول: «وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ». أى أنّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى اللَّه، وإن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، ولكن بالتوجّه إلى الآية السابقة نفهم أنّ القصد هو العفو، ويظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

«وَمَنْ عَادَ فَأُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». أى أنّ من يواصل تعاطى الربا على الرغم من كل تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً فى النار دائماً.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن باللَّه، لكن الآية تعد المصرّين على الربا بالخلود فى النار، ذلك لأنّهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين اللَّه، ويلجّون فى ارتكاب الإثم، وهذا دليل على عدم صحّة إيمانهم، وبالتالى فهم يستحقون الخلود فى النار.

ثم إنّ الآية التالية تبين الفرق بين الربا والصدقة وتقول: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ».

ثم يضيف: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ». يعنى الذين تركوا ما فى الصدقات من منافع طيبة والتمسوا طريق الربا الذى يوصلهم إلى نار جهنم.

«المحق»: النقصان التدريجى؛ و «الربا»: هو النمو التدريجى.

فالقرآن يقول إنّ اللَّه يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۱

وبالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية وينفقون من رؤوس أموالهم وثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبة الناس وعواطفهم عموماً، وأموال هؤلاء فضلًا عن عدم تعرضها لأىخطر تنمو بالتعاون العام نموّاً طبيعياً، وهذا ما يعنيه القرآن بقوله: «وَيُرِبى الصَّدَقَاتِ».

«الكفار»: من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق فى نكران الجميل والكفر بالنعمة، و «الأثيم»: هو الموغل فى ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق والإقراض والبذل فى سبيل رفع الحاجات العامة يكفرون بما أغدق اللَّه عليهم من النِعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النِعم على طريق الإثم والظلم والفساد، ومن الطبيعى أنّ اللَّه لا يحب أمثال هؤلاء.

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ».

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم اللَّه، هناك اناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا باللَّه بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقى المؤدّى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند اللَّه ويرون نتائج أعمالهم فى الدنيا والآخرة.

ثم إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهدّدهم الخطر الذى يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم فى المجتمع.

وأخيراً فإنّهم يعيشون فى اطمئنان تام «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۲

سبب النّزول

فى تفسير القمى: كان سبب نزولها أنّه لما أنزل اللَّه تعالى (الذين يأكلون الربا) فقام خالد بن الوليد إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللَّه! ربا أبى فى ثقيف، وقد أوصانى عند موته بأخذه فأنزل اللَّه تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

التّفسير

فى الآية الاولى يخاطب اللَّه المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثم يأمرهم أن يتنازلوا عما بقى لهم فى ذمّة الناس من فوائد ربوية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان باللَّه واختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان باللَّه.

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

تتغيّر فى هذه الآية لهجة السياق القرآنى، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكل شدة، وتنذرهم بلهجة صارمة أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوى ولم يستسلموا لأوامر اللَّه فى الحق والعدل واستمرّوا فى امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا يسع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّاأن يتوسل بالقوة لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم، وهى الحرب التى تنطلق من قانون: «قَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» «۱».

يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الإسلامية أن تتوسل بالقوة لمكافحة الربا.

«وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَاتَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ».

أمّا إذا تبتم ورجعتم عن غيّكم وتركتم تعاطى الربا فلكم أن تتسلّموا من الناس المدينين لكم رؤوس أموالكم فقط «بغير ربح». وهذا قانون عادل تماماً لأنّه يحول دون أن تظلموا الناس ودون أن يصيبكم ظلم.

إنّ تعبير «لَاتَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» وإن كان قد جاء بشأن المرابين ولكنه شعار إسلامى

(۱) سورة الحجرات/ ۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۳

واسع وعميق. يعنى أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم ولو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضاً.

«وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ».

استكمالًا لبيان حق الدائن فى الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبين الآية هنا حقّاً من حقوق المدين إذا كان عاجزاً عن الدفع، ففضلًا عن عدم جواز الضغط عليه وفرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال فى الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدَين عند القدرة والإستطاعة.

«وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». وهذه فى الواقع خطوة أبعد من المسائل الحقوقية، أى أنّها مسألة أخلاقية وإنسانية تكمل البحث الحقوقى المتقدم، تقول الآية للدائنين أنّ الأفضل من كل ما سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع هو أن يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عما بقى له بذمّته، فهذا خير عمل إنسانى يقوم به، وكل من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة.

من المألوف فى القرآن أنّه بعد بيان تفاصيل الأحكام وجزئيات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيراً عاماً شاملًا يؤكد به ما سبق قوله، لكى تنفذ الأحكام السابقة نفوذاً جيداً فى العقل والنفس.

لذلك فإنّه فى هذه الآية يذكّر الناس بيوم القيامة ويوم الحساب والجزاء، ويحذّرهم من اليوم الذى ينتظرهم حيث يوضع أمام كل امرىء جميع أعماله دون زيادة ولا نقصان، وكل ما حفظ فى ملفّ عالم الوجود يسلّم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التى تنتظره، ولكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه وما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

ومما يلفت النظر أنّ تفسير «الدرّ المنثور» ينقل بطرق عديدة أنّ هذه الآية هى آخر آية نزلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولا يُستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

إنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جدّاً فى نفسيّة المدين ويثير فى قلبه الكره والضغينة، ويفصم عرى التعاون الاجتماعى بين الأفراد والملل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۴

فى الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت فى جملة قصيرة عن علة تحريم الربا عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّما حرّم اللّه عزّ وجلّ الربا لكى لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف» «۱».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَ لَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَ لَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَ أَدْنَى أَنْ تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَكْتُبُوهَا وَ أَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَ لَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَ لَا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۸۲) تدوين الأوراق التجارية:

بعد أن شنّ القرآن على الربا والاحتكار والبخل حرباً شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية والاقتصادية، لكى تنمو

رؤوس الأموال نموّاً طبيعياً دون أن تعتريها عوائق أو تنتابها خلافات ومنازعات.

تضع هذه الآية التى هى أطول آيات القرآن تسعة عشر بنداً من التعليمات التى تنظّم الشؤون المالية، نذكرها على التوالى:

۱- إذا أقرض شخص شخصاً أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مديناً، فلكى لا يقع أىّ

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۲/ ۴۲۳/ ۴ (الباب ۱ من أبواب الربا).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۵

سوء تفاهم واختلاف فى المستقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ». هذه الآية تشمل جميع المعاملات التى فيها دَين يبقى فى ذمّة المدين، بما فى ذلك القرض.

۲- لكى يطمئن الطرفان على صحة العقد ويأمنا احتمال تدخّل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصاً ثالثاً: «وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ».

۳- على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحق وأن يكتب الحقيقة الواقعة «بِالْعَدْلِ».

۴- يجب على كاتب العقد، الذى وهبه اللَّه علماً بأحكام كتابة العقود وشروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفى المعاملة فى هذا الأمر الاجتماعى: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ».

۵- على أحد الطرفين أن يملى تفاصيل العقد على الكاتب ولكن أىّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذى عليه الحق: «وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ».

۶- على المدين عند الإملاء أن يضع اللَّه نصب عينيه، فلا يترك شيئاً إلّاقاله ليكتبه الكاتب: «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيًا».

۷- إذا كان المدين واحداً ممّن تنطبق عليه صفة «السفيه» وهو الخفيف العقل الذى يعجز عن إدارة أمواله ولا يميّز بين ضرره ومنفعته، أو «الضعيف» القاصر فى فكره والضعيف فى عقله المجنون، أو «الأبكم والأصم» الذى لا يقدر على النطق، فإنّ لوليّه أن يملى العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه: «فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَايَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ».

۸- على «الولى» فى الإملاء والاعتراف بالدَين، أن يلتزم العدل وأن يحافظ على مصلحة موكّله وأن يتجنّب الإبتعاد عن الحق: «فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ».

۹- بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين: «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ» «۱».

۱۰ و ۱۱- يجب أن يكون الشاهدان بالغين ومسلمين وهذا يستفاد من عبارة «مِن رِّجَالِكُمْ». أى ممّن هم على دينكم.

---

(۱) قال بعض إنّ التفاوت بين «شاهد» و «شهيد»: هو أنّ الشاهد يقال لمن حضر الواقعة حتى يمكنه أن يشهد عليها، والشهيد هو الذى يؤدّى الشهادة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۶

۱۲- يجوز اختيار شاهدتين من النساء وشاهد من الرجال: «فإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ».

۱۳- لابدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة: «مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ». يتبين من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممّن يُطمأنّ إليهم من جميع الوجوه، وهذه هى «العدالة» التى وردت فى الأخبار أيضاً.

۱۴- وإذا كان الشاهدان من الرجال، فلكل منهما أن يشهد منفرداً، أمّا إذا كانوا رجلًا واحداً وامرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معاً لكى تذكّر إحداهما الاخرى إذا نسيت شيئاً أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفى وقد تقع تحت مؤثرات خارجية، لذلك فوجود

امرأة اخرى معها يحول بينها وبين التأثير العاطفى وغيره: «أَن تَضِلَّ إِحْدَيهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَيهُمَا الْأُخْرَى .

۱۵- ويجب على الشهود إذا دُعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا تهاون كما قال: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا».

وهذا من أهم الأحكام الإسلامية ولا يقوم القسط والعدل إلّابه.

۱۶- تجب كتابة الدين سواء أكان الدَين صغيراً أو كبيراً، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أىّ نزاع فى الشؤون التجارية، حتى فى العقود الصغيرة التى قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة: «وَلَا تَسَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ». والسأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

وتشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إنّ الدقة فى تنظيم العقود والمستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن الشهود من جهة اخرى عند أداء الشهادة، وتحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظن بين أفراد المجتمع: «ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا».

۱۷- إذا كان التعاقد نقداً فلا ضرورة للكتابة: «إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا».

۱۸- فى المعاملات النقدية وإن لم تحتج إلى كتابة عقد، لابدّ من شهود: «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ».

۱۹- وآخر حكم تذكره الآية هو أنّه ينبغى ألّا يصيب كاتب العقد ولا الشهود أىّ ضرر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۷

بسبب تأييدهم الحق والعدالة: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ».

ثم تقول الآية إنّه إذا آذى أحد شاهداً أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم وفسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة للّه: «وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ».

وفى الختام، وبعد كل تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى وإمتثال أمر اللّه:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ». ثم تقول إنّ اللّه يعلّمكم كل ما تحتاجونه فى حياتكم المادية والمعنوية:

«وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ». وهو يعلم كل مصالح الناس ومفاسدهم ويقرّر ما هو الصالح لهم: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

إنّ جملة «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وجملة «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» رغم أنّهما ذكرتا فى الآية بصورة مستقلّة وقد عطفت إحداهما على الاخرى، ولكن إقترانهما معاً إشارة إلى الإرتباط الوثيق بينهما، ومفهوم ذلك هو أنّ التقوى والورع وخشية اللّه لها أثر عميق فى معرفة الإنسان وزيادة علمه وإطلاعه.

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸۳) هذه الآية تكمل البحث فى الآية السابقة وتشتمل على أحكام اخرى:

۱- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك فى سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن بإسم الرهن لكى يطمئن الدائن: «وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

قد يبدو من ظاهر الآية لأوّل وهلة أنّ تشريع «قانون الرهن» يختص بالسفر، ولكن بالنظر إلى الجملة التالية وهى «وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا» يتبين أنّ القصد هو بيان نموذج لحالة لا يمكن الوصول فيها إلى كاتب وعليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتى فى موطنهما.

۲- يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن «فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

۳- جميع هذه الأحكام- من كتابة العقد واستشهاد الشهود وأخذ الرهن- تكون فى حالة عدم وجود ثقة تامة بين الجانبين وإلّا فلا حاجة إلى كتابة عقد وعلى المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دَينه فى الوقت المعين وأن لا ينسى تقوى اللّه: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۸

فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». ۴- على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق فى المعاملات أو فى غيرها، إذا دعوا للإدلاء

بشهادتهم أن لا يكتموها لأنّ كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ».

طبيعى أنّ الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحق بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحق فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرين، أى أنّ أداء الشهادة واجب كفائى.

وبما أنّ كتمان الشهادة والإمتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب، فقال: «فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ» ومرّة اخرى يؤكد فى ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة وحقوق الآخرين: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۸۴) هذه تكملة للجملة الأخيرة فى الآية السابقة وتقول: «لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ولهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهرية منها والباطنية «وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ».

يعنى لا ينبغى لكم أن تتصوروا أنّ أعمالكم الباطنية مثل كتمان الشهادة والذنوب القلبية الاخرى سوف تخفى على اللّه تعالى الحاكم على الكون بأجمعه والمالك للسموات والأرض، فإنّه لا يخفى عليه شىء، فلا عجب إذا قيل أنّ اللّه تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القلبية ويجازيكم عليها: «فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاءُ».

فى ختام الآية تقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فهو عالم بكل شىء يجرى فى هذا العالم، وقادر أيضاً على تشخيص اللّياقات والملكات، وقادر أيضاً على مجازات المتخلفين.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۲۸۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۹

علائم الإيمان وطريقه: لقد شرعت سورة البقرة ببيان بعض المعارف الإسلامية والاعتقادات الحقّة واختتمت بهذه المواضيع أيضاً كما فى الآية أعلاه والآية التى بعدها، وبهذا تكون بدايتها ونهايتها متوافقة ومنسجمة.

وقد ذكر بعض المفسرين فى تفسير بحر المحيط فى سبب نزول هذه الآية أنّه لما نزل «وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ» الآية، أشفقوا منها ما تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا فرجعوا إلى التضرع والاستكانة فمدحهم اللّه وأثنى عليهم وقدّم ذلك بين يدى رفقه بهم وكشفه لذلك الكرب الذى أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة فى أمر الخواطر وهذه ثمرة الطاعة والإنقطاع إلى اللّه تعالى كما جرى لبنى إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا وهذه ثمرة العصيان والتمرد على اللّه أعاذنا اللّه تعالى من نقمه.

فى البداية تقول: «ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ». فهذا المعنى وهذه الخصيصة تعتبر من إمتيازات الأنبياء الإلهيين جميعاً بأنّهم مؤمنون بما جاءوا به إيماناً قاطعاً، فلا شك ولا شبهة فى قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين واستقاموا وصبروا عليها قبل الآخرين.

ثم تضيف الآية الكريمة: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ». وهذه الجملة الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين وشرائعهم.

ثم تضيف الآية أنّ المؤمنين مضافاً إلى إيمانهم الراسخ والجامع فإنّهم فى مقام العمل أيضاً كذلك: «وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وبهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ والمعاد مع الالتزام العملى بجميع الأحكام الشرعية والدساتير الإلهية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۰

مختصر الامثل ج ۱ ۲۷۹

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۲۸۶) كما تقدم فی تفسیر الآیة السابقة أنّ هاتین الآیتین تتعلقان بالأشخاص الذین استوحشوا من تعبیر الآیة السابقة فی أنّ اللَّه تعالی مطلع علی نیاتهم وسیحاسبهم ویجازیهم علیها فقالوا: لا أحد منا یصفو قلبه عن الوسوسة والخاطرات القلبیة. فالآیة الحاضرة تقول: «لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

إنّ کل الأحکام یمکن تقییدها وتفسیرها بهذه الآیة حیث تتحدّد فی إطار قدرة الإنسان.

ثم تضیف الآیة: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ».

فالآیة تنبّه الناس إلی مسؤولیاتهم وعواقب أعمالهم، وتفنّد الأساطیر التی تبریء بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولین عن أعمال الآخرین دون دلیل.

«رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا».

لما کان المؤمنون یعرفون أنّ مصیرهم یتحدّد بما کسبت أیدیهم من أعمال صالحة أو سیئة بموجب قانون «لها ما کسبت وعلیها ما اکتسبت» لذلک یتضرعون ویخاطبون اللَّه بلفظ «الرب» الذی یوحی بمعانی اللطف فی النشأة والتربیة قائلین: إذا کنا قد أذنبنا بسبب النسیان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتک الواسعة وجنّبنا العقاب.

وعلیه فإنّ النسیان الناشیء عن التساهل یوجب العقاب.

فالخطأ یقال عادة فی الامور التی تقع لغفلة من الإنسان وعدم إنتباه منه، أمّا النسیان فهو أن یتّجه الإنسان للقیام بعمل ما ولکنه ینسی کیف یقوم بذلک.

«رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا». «الإصر»: عقد الشیء

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۱

وحبسه. وتطلق علی الحمل الثقیل الذی یمنع المرء من الحرکة.

وفی هذا المقطع من الآیة یطلب المؤمنون من اللَّه تعالی طلبین: الأوّل أن یرفع عنهم الفروض الثقیلة التی قد تمنع الإنسان من إطاعة اللَّه، وهذا هو ما ورد (فی الکافی) علی لسان النبی صلی الله علیه و آله بشأن التعالیم الإسلامیة، إذ قال: «بعثنی (اللَّه تعالی) بالحنیفیّة السّهلة السّمحة».

وفی الطلب الثانی یریدون منه أن یعفیهم من الإمتحانات الصعبة والعقوبات التی لا تطاق «وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَاطَاقَةَ لَنَا بِهِ».

إنّ المؤمنین طلبوا من اللَّه أن یزیل الآثار التکوینیة والطبیعیة لزللهم عن أرواحهم ونفوسهم. وفی المرحلة الثالثة یطلبون «رحمته الواسعة» التی تشمل کل شیء.

«أَنتَ مَوْلَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وفی آخر دعواهم یخاطبون اللَّه علی أنّه مولاهم الذی یتعهّدهم بالرعایة والتربیة ویطلبون منه أنّ یمنحهم الفوز والانتصار علی الأعداء.

«نهایة تفسیر سورة البقرة»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۳

۳. سورة آل عمران

محتوی السورة:

۱- إنّ قسماً مهمّاً من هذه السورة یرتبط بمسألة التوحید وصفات اللَّه والمعاد والمعارف الإسلامیة الاخری.

۲- وقسم آخر منها يتعلق بمسألة الجهاد وأحكامه المهمة والدقيقة، وكذلك الدروس المستفادة من غزوتي بدر واحد.

۳- وفي قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية في ضرورة وحدة صفوف المسلمين وفريضة الحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي والتبري ومسألة الأمانة والإنفاق في سبيل اللّه وترك الكذب وضرورة الاستقامة والصبر في مقابل الأعداء والمشكلات والامتحانات الإلهية المختلفة وذكر اللّه على كل حال.

۴- وتطرّقت هذه السورة إلى تكملة للأبحاث التي تتحدث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام وقصة مريم وكرامتها ومنزلتها عند اللّه وكذلك المؤامرات التي كان يحوكها أتباع الديانة اليهودية والمسيحية ضدّ الإسلام والمسلمين.

فضيلة تلاوة هذه السورة: روى في تفسير مجمع البيان عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة آل عمران اعطى بكلّ آية منها أماناً على جِسر جهنّم».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۴

وفي تفسير نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ البقرة وآل عمران جائا يوم القيامة يظلّانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين».

الم (۱) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۴)

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت أوائل السورة إلى نيف وثمانين آية في وفد نجران «۱»، وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم، وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلّاعن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم، وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه ومَوّلوه وبنو له الكنائس، لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة ودخلوا مسجده حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات، جُبَبٌ وأردية في جمال رجال بَلحَرِث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا فصلّوا في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالت الصحابة: يا رسول اللّه! هذا في مسجدك؟ فقال رسول اللّه: «دعوهم فصلوا إلى المشرق». فتكلم السيد والعاقب إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فقال لهما رسول اللّه صلى الله عليه و آله «أسلما». قالا: قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للّهولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». قالا: إن لم يكن ولد اللّه فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى. فقال لهما النبي صلى الله عليه و آله: «ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه»؟ قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتي عليه

---

(۱) «نجران»: منطقة في جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، وتسكنها قبائل همدان التي كان لها في الجاهلية صنم باسم «يعوق».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۵

الفناء»؟ قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كل شيء ويحفظه ويرزقه»؟ قالوا: بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً»؟ قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أنّ اللّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء»؟ قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلّاما علم»؟ قالوا:

لا. قال: «فإنّ ربّنا صَوّر عيسى فى الرحم كيف شاء وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث». قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امّه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِى كما يُغذى الصبى، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث»؟ قالوا: بلى. قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم»؟ فسكتوا، فأنزل اللّه فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

التّفسير

فيما يتعلق بالحروف المقطعة فى القرآن، سبق الحديث عنها فى بداية سورة البقرة فلا موجب لتكرار ذلك. فى الآية الثانية يقول تعالى: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

سبق أنّ شرحنا هذه الآية فى الآية (۲۵۵) من سورة البقرة.

الآية التى تليها تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وتقول: إنّ اللّه تعالى قد أنزل عليك القرآن الذى فيه دلائل الحق والحقيقة، وهو يتطابق تماماً مع ما جاء به الأنبياء والكتب السابقة (التوراة والإنجيل) التى بشّرت به وقد أنزلها اللّه تعالى أيضاً لهداية البشر: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ» «۱».

ثم تضيف الآية: «مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ».

وبعد إتمام الحجة بنزول الآيات الكريمة من اللّه تعالى وشهادة الفطرة والعقل على صدق دعوة الأنبياء، فلا سبيل للمخالفين سوى العقوبة، ولذلك تقول الآية محل البحث بعد ذكر حقانية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والقرآن المجيد: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

ومن أجل أن لا يتوهّم أحد أو يشك فى قدرة اللّه تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ».

«عزيز»: فى اللغة بمعنى كل شىء صعب وغير قابل للنفوذ، ولذلك يقال للأرض الصعبة العبور (عزاز) وكذلك يطلق على كل أمر يصعب الحصول عليه لقلّته وندرته (عزيز) وكذلك تطلق هذه الكلمة على الشخص القوى والمقتدر الذى يصعب التغلّب عليه أو

---

(۱) «الحق»: هو الموضوع الثابت المكين الذى لا باطل فيه.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۴۶

يستحيل التغلّب عليه، وكلما أطلقت كلمة (عزيز) على اللّه تعالى يراد بها هذا المعنى، أى أنّه لا أحد يقدر على التغلّب عليه، وأنّ كل المخلوقات خاضعة لمشيئته وإرادته.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ (۵) هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶)

علم اللّه وقدرته المطلقة: هاتان الآيتان تكمّلان الآيات السابقة. فى البداية تقول الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَايَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ».

فكيف يمكن أن يختفى عن أنظاره شىء من الأشياء فى حين أنّه حاضر وناظر فى كل مكان، فلا يخلو منه مكان؟! وبما أنّ وجوده غيرمحدود، فلا يخلو منه مكان معين، ولهذا فهو أقرب إلينا من كل شىء حتى من أنفسنا، وفى نفس الوقت الذى يتنزّه فيه اللّه تعالى عن المكان والمحل، فإنّه محيط بكلّ شىء.

ثم تبين الآية التالية واحدة من علم وقدرة اللّه تعالى الرائعة، بل هى إحدى روائع عالم الخلقة ومظهر بارز لعلم اللّه وقدرته المطلقة حيث تقول الآية: «هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ». ثم تضيف: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

إنّه لأمر عجيب ومحيّر حقّاً أن يصوّر اللّه الإنسان وهو فى رحم امّه صوراً جميلة ومتنوعة فى أشكالها ومواهبها وصفاتها وغرائزها.

وهذه الآية تؤكد أنّ المعبود الحقيقى ليس سوى اللّه القادر الحكيم الذى يستحق العبادة، فلماذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه

السلام ويعبدونها؟!

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ مِنْهُ آیَاتٌ مُحْکَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِیلِهِ وَ مَا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (۷)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر نور الثقلین نقلًا عن کتاب «معانی الأخبار» حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام ما مضمونه: أنّ نفراً من الیهود ومعهم «حیی بن أخطب» وأخوه، جاءوا إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۷

واحتجّوا بالحروف المقطعة «الم» وقالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدیة، فإنّ الألف فی الحساب الأبجدی تساوی الواحد، واللّام تساوی ۳۰، والمیم تساوی ۴۰، وبهذه فإنّ فترة بقاء امّتک لا تزید علی إحدی وسبعین سنة! ومن أجل أن یلجمهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله تساءل وقال ما معناه: لماذا حسبتم «ألم» وحدها؟ ألم تروا أنّ فی القرآن «المص» و «الر» ونظائرها من الحروف المقطعة، فإذا کانت هذه الحروف تدلّ علی مدة بقاء امتی، فلماذا لا تحسبونها کلها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) وعندئذ نزلت هذه الآیة.

التّفسیر

المحکم والمتشابه فی القرآن: تقدم فی الآیات السابقة الحدیث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة والمعجزات البیّنة لنبوة الرسول صلی الله علیه و آله ففی هذه الآیة تذکر أحد مختصّات القرآن وکیفیة بیان هذا الکتاب السماوی العظیم للمواضیع والمطالب فیقول فی البدایة: «هُوَ الَّذِی أَنزَلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ مِنْهُ ءَایَاتٌ مُّحْکَمَاتٌ». أی: آیات صریحة وواضحة والتی تعتبر الأساس والأصل لهذا الکتاب السماوی «هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ». ثم إنّ هناک آیات اخری غامضة بسبب علوّ مفاهیمها وعمق معارفها أو لجهات اخری «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ».

هذه الآیات المتشابهة إنّما ذکرت لاختبار العلماء الحقیقیین وتمیزهم عن الأشخاص المعاندین اللجوجین الذین یطلبون الفتنة، فلذلک تضیف الآیة: «فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِیلِهِ» (۱). فیفسّرون هذه الآیات المتشابهة وفقاً لأهواءهم کیما یضلّوا الناس ویشبّهوا علیهم.

«وَمَا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ».

ثم تضیف الآیة: أنّ هؤلاء أی الراسخون فی العلم بسبب درکهم الصحیح لمعنی المحکمات والمتشابهات «یَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا». أجل «وَمَا یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ».

من هذه الآیة نستنتج أنّ آیات القرآن قسمان: قسم معانیها واضحة جدّاً بحیث لا یمکن إنکارها ولا إساءة تأویلها وتفسیرها، وهذه هی الآیات «المحکمات» وقسم آخر مواضیعها رفیعة المستوی أو أنّها تدور حول عوالم بعیدة عن متناول أیدینا، کعلم الغیب، وعالم یوم القیامة، وصفات اللَّه، بحیث إنّ معرفة معانیها النهائیة وإدراک کنه أسرارها

(۱) «زیغ»: فی الأصل بمعنی الانحراف عن الخط المستقیم والتمایل إلی جهة، والزیغ فی القلب بمعنیالانحراف العقائدی عن صراط المستقیم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۸

یستلزم مستویً عالیاً من العلم، وهذه هی الآیات «المتشابهات».

المنحرفون والشواذ من الناس یسعون لاستخدام إبهام هذه الآیات لتفسیرها بحسب أهوائهم وبخلاف الحق، لکی یثیروا الفتنة بین

الناس ويضلّوهم عن الطريق المستقيم، بيدَ أنّ اللَّه والراسخين فى العلم يعرفون أسرار هذه الآيات ويشرحونها للناس.

رَبَّنا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) النجاة من الزيغ: بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات وأسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخين فى العلم المؤمنين يلجأون إلى ربّهم إضافة إلى استعمال رأسمالهم العلمى فى إدراك حقيقة الآيات. وهذا ما تبيّنه هاتان الآيتان على لسان الراسخين فى العلم، وتقولان إنّ الراسخين فى العلم والمفكّرين من ذوى البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم وقلوبهم لئلّا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من اللَّه، فالغرور العلمى يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنّهم لا يلتفتون إلى عظمة الخلق والخالق وتفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية اللَّه، أمّا العلماء المؤمنون فيقولون:

«رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ».

وليس أشدّ تأثيراً فى السيطرة على الميول والأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة والمعاد، إنّ الراسخين فى العلم يصحّحون أفكارهم عن طريق الإعتقاد بالمبدأ والمعاد، ويحولون دون التأثّر بالميول والأحاسيس المتطرّفة التى تؤدّى إلى الزلل، ونتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة ودون عائق، نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات اللَّه كل الاستفادة. «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّارَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

فى الحقيقة تشير الآية الاولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، وتشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۹

بعد بيان مواقف الكفار والمنافقين والمؤمنين من الآيات «المحكمات» و «المتشابهات» فى الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفار المعاندون يحسبون أنّهم بثرواتهم وأبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم فى الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت فى هذه الدنيا، ولكنها عند اللَّه لن يكون لها أى تأثير، لا فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة، لذلك ينبغى ألّا يغترّ الإنسان بهذه الامور فتحمله على إرتكاب الإثم، وإلّا فإنّه يصلى ناراً سيكون هو حطبها. «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها ولهيبها.

ثم تشير الآية إلى نموذج من الامم السالفة التى كانت قد اوتيت الثروة الإنسانية والمادية الكثيرة، ولم تستطع هذه الثروة أن تكون مانع من هلاكهم. «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هذا فى الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لكى يعتبروا بمصير الفراعنة والأقوام السالفة، ويصحّحوا أعمالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى اليهود لما قتل الكفار ببدر وهزموا، قالت اليهود: إنّه النبى الامى الذى بشرنا به موسى، ونجده فى كتابنا بنعته وصفته، وأنّه لا تُردّ له راية. ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة اخرى.

فلما كان يوم احد ونكّب أصحاب رسول اللَّه، شكوا وقالوا: لا واللَّه ما هو به. فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا. وقد كان بينهم وبين رسول اللَّه عهد إلى مدة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فى ستين راكباً، فوافقوهم وأجمعوا أمرهم على رسول اللَّه لتكونن كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة. فأنزل اللَّه فيهم هذه الآية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۵۰

التّفسير

مع ما تقدم فی سبب النزول يتضح أنّ الكفار المغرورين بأموالهم وأولادهم، وعددهم وعدّتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، ولكن القرآن الكريم يصرح فی هذه الآية بأنّهم سيُغلبون، ويخاطب النبی صلی الله عليه و آله بأن يخبرهم بذلك وأنّ عاقبتهم فی الدنيا والآخرة ليست سوى الهزيمة والذلّ والعذاب الأليم: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» «۱».

هناك أخبار غيبية كثيرة فی القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظمته وإعجازه والآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية.

وفی هذه الآية يبشّر اللَّه نبيه صلی الله عليه و آله بالانتصار على جميع الأعداء.

ولم تمض فترة طويلة حتى تحققت نبوءة الآية وهُزم يهود المدينة «بنو قريضة وبنو النضير» وفی خيبر- أهم معقل من معاقلهم- اندحروا وتلاشت قواهم كما هُزم المشركون فی فتح مكة هزيمة نكراء.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِی فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِی ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصَارِ (۱۳)

سبب النّزول

فی تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية فی قصّة بدر، وكان المسلمون ۳۱۳ رجلًا على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر؛ ۷۷ رجلًا من المهاجرين و ۲۳۶ رجلًا من الأنصار، وكان صاحب لواء رسول اللَّه والمهاجرين علیّ بن أبی طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة. وكانت الإبل فی جيش رسول اللَّه ۷۰ بعيراً، و الخيل فرسين: فرس للمقداد بن أسود وفرس لمرثد بن أبی مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، فی وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، وكانت خيلهم مائة فرس، وجميع من استشهد يومئذ ۱۴ رجلًا من المهاجرين و ۸ من الأنصار فی مقابل ۷۰ قتيلًا و ۷۰ أسيراً من الأعداء وعادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر.

---

(۱) «مهاد»: بمعنى المكان المهيأ، كما يقول الراغب، وهی فی الأصل من مادة (مَهْد) وهو محل استراحة الطفل.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۵۱

التّفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التی حذّر القرآن فيها الكافرين من الإغترار بالمال والأبناء والأتباع، جاءت هذه الآية شاهداً حيّاً على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى فی معركة بدر التاريخية. «قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِی فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا». كيف لا تكون لهم عبرة وهم يرون أنّ جيشاً صغيراً لا يملك شيئاً من العدّة سوى الإيمان الراسخ ينتصر على جيش يفوقه أضعافاً فی العدد والعدّة.

«يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ». تقول الآية: إنّ الكفار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم، أی أنّهم إذا كانوا ۳۱۳ شخصاً كان الكفار يرونهم أكثر من ۶۰۰ شخص، ليزيد من خوفهم، وكان هذا أحد أسباب هزيمة الكفار.

«وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ». تشير الآية إلى حقيقة أنّ اللَّه ينصر من يشاء.

«إِنَّ فِی ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِی الْأَبْصَارِ» «۱». فی ختام الآية يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هی، يعتبرون بهذا الانتصار الذی أحرزه اناس مؤمنون، ويدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان ... الإيمان وحده.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (۱۴) تعقيباً على الآيات السابقة التی اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقی للإنسان- لا المال والبنين والأنصار- تشير هذه الآية إلى حقيقة أنّ الزوجة والأبناء والأموال إنّما هی ثروات تنفع فی الحياة المادية هذه، ولكنها لا يمكن

أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل، صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير فى طريق السعادة والتكامل المعنوى، إلّاأنّ الاستفادة منها فى هذا السبيل شيء وحبّها وعبادتها- بغير أن تكون مجرد وسيلة يستفاد منها- شيء آخر.

---

(۱) «عبرة»: فى الأصل من مادة «عبور» بمعنى الإنتقال من مرحلة إلى اخرى أو من مكان إلى آخر، ويقال لدمع العين «عبرة» على وزن «حسرة» لانه يعبر من العين، ويقال للكلمات التى تمر من خلال اللسان و الاذن «عبارات» أيضاً، و كذلك يقال للحوادث «عبرة» لأجل أن الإنسان عند ما يراها يعلم بمخلفاتها من الحقائق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۲

«زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ...» «۱». إنّ التفسير الذى يبدو صحيحاً هو أنّ اللَّه هو الذى زيّن للناس ذلك عن طريق الخلق والفطرة والطبيعة الإنسانية.

إنّ اللَّه هو الذى جعل حبّ الأبناء والثروة فى جبلّة الإنسان لكى يختبره ويسير به فى طريق التربية والتكامل كما- فى الآية (۷) من سورة الكهف- يقول القرآن: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (۱۵) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (۱۶) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (۱۷) هذه الآية توضّح الخط البيانى الصاعد لتكامل الحياة الإنسانية الذى اشير إليه فى الآية السابقة، تقول الآية: هل اخبركم بحياة أرفع وأسمى من هذه الحياة المادية المحدودة فى الدنيا، تلك الحياة فيها كل ما فى هذه الحياة من النِعم لكنها صورتها الكاملة الخالية من أىّ نقص وعيب خاصة بالمتقين. «قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ».

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها: «تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

ونِعمها دائمة أبدية، لا كنِعم الدنيا السريعة الزوال: «خَالِدِينَ فِيهَا».

نساؤها خلافاً لكثير من غوانى هذه الدنيا، ليس فى أجسامهن ولا أرواحهن نقطة ظلام وخبث: «وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ».

كل هذا بإنتظار المتقين. وأسمى من ذلك كله، النِعم المعنوية التى تفوق كل تصور وهى:

«رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ».

وتخبر الآية المؤمنين أنّهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعة والأهواء الطاغية

---

(۱) «الشهوات»: جمع شهوة، أى حبّ شيء من الأشياء حبّاً شديداً، ولكنّها فى هذه الآية بمعنى المشتهيات.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۳

الممزوجة بالمعصية، فإنّهم سيفوزون فى الآخرة بلذائذ مشابهة ولكن بمستوى أرفع وخالية من كل نقص وعيب إلّاأنّ هذا لا يعنى حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التى لهم أن يتمتعوا بها بصورة مشروعة.

«الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا».

فى هذه الآية والآية التى بعدها نتعرّف على المتقين الذين كانوا فى الآية السابقة مشمولين بِنِعم اللَّه العظيمة فى العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة:

۱- إنّهم يتوجّهون إلى اللَّه بكل جوارحهم والإيمان يضيء قلوبهم ولذلك يحسّون بمسؤولية كبيرة فى كل أعمالهم ويخشون عقاب أعمالهم خشية شديدة فيطلبون مغفرته والنجاة من النار: «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

۲- مثابرون صابرون ذوو همّة، ومقاومون عند مواجهتهم الحوادث فى مسيرة إطاعتهم للَّه وتجنّبهم المعاصى، وعند ابتلائهم بالشدائد

الفردية والاجتماعية «الصَّابِرِينَ».

۳- صادقون ومستقيمون وما يعتقدون به فى الباطن يعملون به فى الظاهر ويتجنّبون النفاق والكذب والخيانة والتلوّث «وَالصَّادِقِينَ».

۴- فى طريق العبودية للّهخاضعون ومتواضعون ومواظبون على ذلك «وَالْقَانِتِينَ» «۱».

۵- لا ـ ينفقون من أموالهم فحسب، بـل ينفقون من جميع ما لـديهم من النِعم المادّيـة والمعنويـة فى سبيل اللّه، فيعالجون بـذلك أدواء المجتمع «وَالْمُنْفِقِينَ».

۶- فى أواخر الليـل وعنـد السـحر، أى عنـدما يسود الهـدوء والصـفاء وحين يغطّ الغافلون فى نوم عميق وتهـدأ ضوضاء العالم المادّى، يقـوم ذوو القلـوب الحيّـة اليقظـة، ويـذكرون اللّه ويطلبون المغفرة منه وهم ذائبون فى نور اللّه وجلالـه، وتلهـج كـل ذرّة من وجودهم بتوحيده سبحانه «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ».

روى فى تفسير البرهـان عن الإمـام الصادق عليه السـلام فى تفسـير هـذه الآيـة أنّه قال: «من قال فى آخر الوتر فى السـحر: اسـتغفر اللّه وأتوب إليه، سبعين مرّة، ودام على ذلك سنة كتبه اللّه من المستغفرين بالأسحار».

---

(۱) «قانتين»: من مادة «قنوت» بمعنى الخضوع أمام اللّه وأيضاً بمعنى المداومة على الطاعة والعبودية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۴

شَهِـدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَـا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَـهُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸) تعقيباً على البحث فى الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هـذه الآيـة إلى بعض أدلة التوحيد ومعرفة اللّه فتقول بأنّ اللّه تعالى يشـهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكونى العجيب)، كما تشـهد الملائكـة، ويشـهد بعد ذلك العلماء والذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم والمعرفة: «شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ».

هذه الآية من الآيات التى كانت موضع اهتمام رسول اللّه صلى الله عليه و آله دائماً وكان يردّدها فى مواضع مختلفة.

إِنَّ الـدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْـلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۱۹) «الـدين»: فى الأصل بمعنى الجزاء والثواب، ويطلق على «الطاعـة» والإنقياد للأوامر، و «الـدين» فى الاصـطلاح: مجموعة العقائد والقواعد والآداب التى يستطيع الإنسان بها بلوغ السـعادة فى الدنيا، وأن يخطو فى المسـير الصـحيح من حيث التربية والأخلاق الفردية والجماعية.

«الإسـلام»: يعنى التسـليم وهو هنا التسـليم للّهوعلى ذلك، فإنّ معنى «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَمُ»: إنّ الدين الحقيقى عند اللّه هو التسليم لأوامره وللحقيقة، فى الواقع لم تكن روح الدين فى كل الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة.

وإنّما أطلق اسم الإسلام على الدين الذى جاء به الرسول الأكرم لأنّه أرفع الأديان.

ثم إنّ الآيـة تـذكر علة الاختلاف الدينى على الرغم من الوحدة الحقيقية للدين الإلهى وتقول: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

فعلى هذا إنّ الاختلاف ظهر أوّلًا: بعد العلم والإطلاع على الحقائق، وثانياً: كانت الدوافع لذلك هى الظلم والطغيان والحسد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۵

فالنبى الأكرم صـلى الله عليه و آله مثلًا- بالإضافة إلى أنّ المعجزات والدلائل الواضـحة فى نصوص دينه تؤكد صدقه- وردت أوصافه وعلامـاته فى الكتب السـماوية السابقـة التى بقى قسم منهـا فى أيـدى اليهود والنصـارى، ولـذلك بشّـر علمـاؤهم بظهوره قبل ظهوره، ولكنهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم فى خطر، فأنكروا كل ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

«وَمَنْ يَكْفُرْ بَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات اللَّه، إنّهم سوف يتلقّون نتائج عملهم هذا، فاللَّه سريع فى تدقيق حساباتهم.

المراد من «آيات اللَّه» فى هذه الآية ما يشمل جميع آياته وبراهينه وكتبه السماوية، ولعلها تشمل أيضاً الآيات التكوينية فى عالم الوجود.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (۲۰) «المحاجّة»: أن يسعى كل واحد فى ردّ الآخر عن حجّته ومحجّته دفاعاً عن عقيدته.

من الطبيعى أن يقوم أتباع كل دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أنّ الحق بجانبهم، لذلك يخاطب القرآن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قائلًا: قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود والنصارى ...) فيقولون إنّهم قد أسلموا بمعنى أنّهم قد استسلموا للحق، وربّما هم يصرّون على ذلك، كما فعل مسيحيّو نجران مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

فالآية لا- تطلب من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يتجنّب محاورتهم ومحاجتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلًا آخر وذلك عندما يبلغ الحوار منتهاه فعليه لكى يهديهم ويقطع الجدل والخصام أن يقول لهم: إنّنى وأتباعى قد أسلمنا للَّهواتّبعنا الحق «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ».

ثم يسأل أهل الكتاب والمشركين إن كانوا هم أيضاً قد أسلموا للَّهواتّبعوا الحق فعليهم أن يخضعوا للمنطق: «وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا».

فإذا لم يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنّهم لا يكونون قد أسلموا للَّه. عندئذ لا تمضى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۶

فى مجادلتهم، لأنّ الكلام فى هذه الحالة لا تأثير له وما عليك إلّاأن تبلّغ الرسالة لا غير:

«وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلغُ». ومن الواضح أنّ المراد ليس هو التسليم اللّسانى والادعائى، بل التسليم الحقيقى والعملى فى مقابل الحق. وفى الختام يقول: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». فهو سبحانه يعلم المدعى من الصادق وكذلك اغراض ودوافع المتحاجّين، ويرى أعمالهم الحسنة والقبيحة ويجازى كل شخص بعمله.

يتّضح من هذه الآية بكل جلاء أنّ اسلوب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يكن اسلوب فرض الفكرة والعقيدة، بل كان اسلوبه السعى إلى توضيح الحقائق أمام الناس ثم يتركهم وشأنهم لكى يتخذوا قرارهم فى اتّباع الحق بأنفسهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۲۱) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۲۲) تعقيباً للآية السابقة التى تضمّنت أنّ اليهود والنصارى والمشركين كانوا يجادلون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا يستسلمون للحق، ففى الآية الاولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ».

وتشير هذه الآية فى البداية إلى ثلاث ذنوب كبيرة وهى الكفر بآيات اللَّه وقتل الأنبياء بغير الحق وقتل الذين يدعون إلى العدالة ويدافعون عن أهداف الأنبياء، وكل واحد من هذه الذنوب يكفى لوحده لجعل الإنسان معانداً ومتصلّباً بكفره وعدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كل صوت يدعو إلى الحق.

ثم إنّ الآية تشير إلى ثلاثة عقوبات مترتّبة على إرتكاب هذه الذنوب، ففى البداية تشير الآية: «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

ثم تقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ» فلو فرض أنّهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنّها ستمحى وتزول بسبب الذنوب الكبيرة التى يرتكبونها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۷

والثالث أنّ الآية تقول: «وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ» فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيّة التى تنتظرهم ولا أحد يشفع لهم فى ذلك اليوم.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۲۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ رجلًا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكانا ذوى شرف فيهم، وكان فى كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، ورجوا أن يكون عند رسول اللَّه رخصة فى أمرهما، فعرفوا أمرهما إلى رسول اللَّه، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى، وبحرّى بن عمرو: جُرْتَ عليهما يا محمّد، ليس عليهما الرجم فقال لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«بينى وبينكم التوراة». قالوا: أنصفتنا. قال: «فمن أعلمكم بالتوراة»؟ قالوا: رجل أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا. فأرسلوا إليه فقدم المدينة، وكان جبرائيل قد وصفه لرسول اللَّه، فقال له رسول اللَّه: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم. قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون. قال: فدعا رسول اللَّه بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب، فقال له:

«إقرأ». فلما أتى على آية الرجم، وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها. فقال ابن سلام: يا رسول اللَّه! قد جاوزها. وقام إلى ابن صوريا، ورفع كفه عنها، ثم قرأ على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلى اليهود، بأنّ المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البيّنة رجما، وإن كانت المرأة حبلى، انتظر بها حتى تضع ما فى بطنها. فأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باليهودين فرجما. فغضب اليهود لذلك. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية «۱».

---

(۱) فى التوراة الموجودة حاليّاً، فى سفر اللاويّين فى الفصل العشرين، الجملة العاشرة، نقرأ ما يلى: «إذا زنا أحد بامرأة غيره، أى بامرأة جاره (مثلًا) يجب قتل الزانى والزانية». على الرغم من أنّ الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، وربما يكون التصريح بالرجم قد ورد فى النسخة التى كانت موجودة على عهد رسول اللَّه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۸

التّفسير

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادى إجراء حدود اللَّه، مع أنّ كتابهم كان صريحاً فى بيان حكم اللَّه بغير إبهام، وقد دُعوا للخضوع للحكم الموجود فى كتابهم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ».

ولكن عصيانهم كان ظاهراً ومصحوباً بالإعراض والطغيان واتخاذ موقف المعارض لأحكام اللَّه: «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ».

يمكن الاستنتاج من «أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ» أنّ ما كان بين أيدى اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لم يكن كاملًا، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويين قد ضاع أو حُرّف.

وفى الآية الثانية شرح سبب عصيانهم وتمرّدهم، وهو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، وهم اليوم أيضاً يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة فى كتاباتهم الدالة على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنّون أنّ لهم علاقة خاصة باللَّه سبحانه، حتى أنّهم سمّوا أنفسهم «أبناء اللَّه» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود والنصارى فى الآية (۱۸) من سورة المائدة قولهم: «نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبؤُهُ». وبناءاً على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربانية، وكانوا ينسبون ذلك إلى اللَّه نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقَبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلّاالأيّام معدودات: «قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ».

هذه الإمتيازات الكاذبة المصطنعة، التى أسبغوها على أنفسهم ونسبوها إلى اللَّه، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنّهم

اغترّوا بها وراحوا يخالفون أحكام اللّه ويخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأةً لا مزيد عليها «وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۵۹

وتدحض الآيـة الثالثـة كل هـذه الخيالات الباطلـة وتقول: لا شك أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوماً يجتمع فيه البشـر أمام محكمـة العـدل الإلـهى فيتسلّم كـل فرد قائمـة أعماله، ويحصـدون ناتـج ما زرعوه، ومهما يكن عقابهم فهم لا يُظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّارَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۲۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۲۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان عن ابن عبـاس: لمّـا فتـح رسول اللّه صـلى الله عليه و آله مكـة ووعـد امّته ملـك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات من أين لمحمّد ملك فارس والروم؟ ألم يكفه المدينة ومكة حتى طمع فى الروم وفارس؟ ونزلت هذه الآية.

التّفسير

دار الكلام فى الآيات السابقـة حول المشـركين وأهل الكتاب الـذين كانوا يخصّون أنفسـهم بالعزة وبالملك، وكيف أنّهم كانوا يرون أنفسـهم فى غنى عن الإسـلام. فنزلت هاتـان الآيتـان تفنّـدان مزاعمهم الباطلـة. يقول تعـالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ».

إنّ المالك الحقيقى للأشياء هو خالقها، وهو الذى يعطى لمن يشاء الملك والسلطان، أو يسلبهما ممّن يشاء، فهو الذى يعز، وهو الذى يذل، وهو القادر على كل هذه الامور: «وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

ولا حاجـة للقول بأنّ مشـيئة اللّه فى هـذه الآيات لا تعنى أنّه يعطى بدون حساب ولا موجب، أو يأخذ بدون حساب ولا موجب، بل إنّ مشيئته مبنية على الحكمة والنظام ومصلحة عالم الخلق وعالم الإنسانية عموماً، وبناءاً على ذلك فإنّ أى عمل يقوم به إنّما هو خير عمل وأصحّه.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۶۰

إنّ مشـيئة اللّه هى نفسـها عالم الأسـباب، إنّما الاختلاف فى كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا. فى الآية التالية ولتأكيد حاكمية اللّه المطلقة على جميع الكائنات تضيف الآية:

۱- «تُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ».

وبهـذا تذكر الآية بعض المصاديق البارزة على قدرة اللّه تعالى، ومنها مسألة التغيير التدريجى لليل والنهار، بمعنى أنّ الليل يقصـر مدّته فى النصف من السـنة وهو ما عُبّر عنه بدخوله فى النهار بينما يطول الليل ويقصـر النهار فى النصف الثانى من السـنة وهو دخول وولوج النهار فى الليل وكذلك اخراج الموجودات الحية من الميتة وبالعكس وكذلك الرزق الكثير الذى يكون من نصـيب بعض الأشخاص دون بعض كلها من علائم قدرته المطلقة.

«الولوج»: بمعنى الـدخول والقصـد من الآيـة هو هـذا التغيير التـدريجى الذى نراه بين الليل والنهار طوال السـنة، هذا التغيير ناشـىء عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ۲۳ درجة واختلاف زاوية سقوط أشعة الشمس عليها.

إنّ للتـدرّج فى تغيير الليـل والنهـار آثاراً مفيـدة فى حياة الإنسان والكائنات الاخرى على الأرض لأنّ نموّ النباتات وكثير من الحيوانات يتمّ فى إطار نور الشمس وحرارتها التدريجية.

۲- «وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَىِّ».

إنّ معنى خروج «الحى» من «الميت» هو ظهور الحياة من كائنات عديمة الحياة، فنحن نعلم أنّه فى اليوم الذى استعدّت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حية من كائنات عديمة الحياة، أضف إلى ذلك أنّ مواد لا حياة فيها تصبح بإستمرار أجزاءً من خلايانا الحية وخلايا جميع الكائنات الحية فى العالم، وتتبدل إلى مواد حية.

أمّا خروج «الميت» من «الحى» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآية- فى الواقع- إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة والموت، وهو أعمّ القوانين التى تحكمنا وأعقدها، كما أنّه أروعها فى الوقت نفسه.

۳- «وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص» إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۶۱

من الرزق الإلهى، أمّا هنا فالآية تشير إلى جميع النِعم على وجه العموم، أى أنّ العزة والحكم والحياة والموت ليست هى وحدها بيد اللَّه بل بيده كل أنواع الرزق والنعم أيضاً.

وتعبير «بِغَيْرِ حِسَابٍ» يشير إلى أنّ بحر النعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنّه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شىء ولا حاجة به لضبط الحسابات.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۲۸) ذكرت الآيات السابقة أنّ العزة والذلة وجميع الخيرات بيد اللَّه تعالى. وبهذه المناسبة فإنّ هذه الآية تحذّر المؤمنين من مصادقة الكافرين وتنهاهم بشدة من موالاة الكفار، لأنّه إذا كانت هذه الصداقة والولاء من أجل العزة والقدرة والثروة، فإنّها جميعاً بيد اللَّه عزّ وجلّ ولذلك تقول الآية: «لَّايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». ولو إرتكب أحد المؤمنين ذلك فإنّه يقطع إرتباطه مع اللَّه تماماً: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ». وقد نزلت هذه الآية فى وقت كانت هناك روابط بين المسلمين والمشركين مع اليهود والنصارى.

وهذه الآية درس سياسى واجتماعى مهم للمسلمين فتحذّرهم من إتّخاذ الأجنبى صديقاً أو حامياً أو عوناً ورفيقاً فى أىّ عمل من أعمالهم ومن الإنخداع بكلامه المعسول وعروضه الجذّابة وتظاهره بالمحبة الحميمة، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضربات التى تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

قوله تعالى «مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ» إشارة إلى أنّ الناس فى حياتهم الاجتماعية لابد لهم من إتّخاذ الأولياء والأصدقاء فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين لا من بين الكافرين.

«فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ».

تقول الآية: إنّ الذين يعقدون أواصر صداقتهم وولاءهم مع أعداء اللَّه، ليسوا من اللَّه فى أىّ شىء من الأشياء، أى إنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر اللَّه وقطعوا علاقتهم

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۶۲

بالجماعة المؤمنة الموحدة، وانقطعت إرتباطاتهم من جميع الجهات. «إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيةً». هذا استثناء من الحكم المذكور وهو أنّه إذا اقتضت الظروف- التقية- فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم، ولكن الآية تعود فى الختام لتؤكّد الحكم الأوّل فتقول: «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ». فاللَّه ينذر الناس أوّلًا بغضب منه وبعقاب شديد، ثم إنّ مرجع الناس جميعاً إلى اللَّه وإن تولّوا أعداء اللَّه نالوا عاجلًا نتيجة أعمالهم.

إنّ التقية فى موضعها حكم عقلى قاطع ويتّفق مع الفطرة الإنسانية.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ یَعْلَمُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۹) نهت الآیة السابقة عن الصداقة والتعاون مع الکافرین والاعتماد علیهم نهیاً شدیداً، واستثنت من ذلک حالة «التقیة». إلّاأنّ بعضهم قد یتخذ من «التقیة» فی غیر محلها ذریعة لمدّ ید الصداقة إلی الکفار أو الخضوع لولایتهم وسیطرتهم. وبعبارة اخری أنّهم قد یستغلّون «التقیة» ویتخذونها مبرّراً لعقد أواصر العلاقات مع أعداء الإسلام، فهذه الآیة تحذّر أمثال هؤلاء وتأمرهم أن یضعوا نصب أعینهم علم اللَّه المحیط بأسرار القلوب والعالم بما ظهر وما خفی وتقول: «قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اللَّهُ». ولا یقتصر علم اللَّه الواسع علی ذلک، بل: «وَیَعْلَمُ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ».

فی الواقع أنّ هذه الآیة لکی تنبّه الناس إلی إحاطة اللَّه بأسرارهم الخفیة، تشیر إلی أنّ معرفة اللَّه بأسرارهم إنّما هی جانب صغیر من مدی علمه اللامحدود الذی یسع السماوات والأرض، وهو إضافة إلی علمه الواسع قادر علی معاقبة المذنبین: «وَاللَّهُ عَلَی کُلّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهَا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً وَ یُحَذِّرُکُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (۳۰) تشیر هذه الآیة إلی حضور الأعمال الصالحة والسیئة یوم القیامة، فیری کل امریء ما عمل من خیر وما عمل من شرّ حاضراً أمامه، فالذین یشاهدون أعمالهم الصالحة یفرحون

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۳

ویستبشرون، والذین یشاهدون أعمالهم السی ئة یستولی علیهم الرعب ویتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن یبتعدوا عنها: «تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهَا وَبَیْنَهُ أَمَدًا بَعِیدًا». فالآیة لم تقل أنّه یتمنّی فناء عمله وسیئاته، لأنّه یعلم أنّ کل شیء فی العالم لا یفنی فلذلک یتمنّی أن یبتعد عنه کثیراً.

«وَیُحَذّرُکُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ».

فی الجزء الأوّل من هذه العبارة یحذّر اللَّه الناس من عصیان أوامره وفی الجزء الثانی یذکّرهم برأفته، ویبدو أنّ هذین الجزءین هما- علی عادة القرآن- مزیج من الوعد والوعید.

قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۱) قُلْ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا یُحِبُّ الْکَافِرِینَ (۳۲)

سبب النّزول

فی تفسیر المنار: قیل: أنّ الآیة نزلت کالجواب لقوم ادّعوا أمام الرسول صلی الله علیه و آله إنّهم یحبّون ربّهم.

وفی تفسیر مجمع البیان: نزلت الآیتان فی وفد نجران من النصاری لمّا قالوا: إنّا نعظّم المسیح حبّاً للَّه.

التّفسیر

تقول الآیة الاولی إنّ الحبّ لیس بالعلاقة القلبیة فحسب، بل یجب أن تظهر آثاره فی عمل الإنسان، إنّ من یدّعی حبّ اللَّه، فعلیه أوّلًا اتّباع رسوله: «قُلْ إِن کُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی».

فی الواقع أنّ من آثار الحب الطبیعیة إنجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له.

هذه الآیة لا تقتصر فی ردّها علی مسیحیی نجران والذین ادّعوا حبّ اللَّه علی عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بل هذا الرد أصیل وعام فی منطق الإسلام موجّه إلی جمیع العصور والقرون، إنّ الذین لا- یفتأون- لیلَ نهار- یتحدّثون عن حبّهم للَّهولأئمة الإسلام وللمجاهدین فی سبیل اللَّه وللصالحین والأخیار، ولکنهم لا یشبهون اولئک فی العمل، هم کاذبون.

«یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ وَیَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». إذا کنتم تحبّون اللَّه، وبدت آثار ذلک فی أعمالکم وحیاتکم، فإنّ اللَّه سیحبّکم أیضاً، وسوف تظهر آثار حبّه أنّه سیغفر لکم ذنوبکم، ویشملکم برحمته.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۴

«قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ». هـذه الآيـة تتابع حـديث الآيـة السابقـة وتقول: ما دمتم تدّعون الحب للّه، إذاً اتّبعوا أمر اللّه ورسوله، وإن لم تفعلوا فلستم تحبون اللّه، واللّه لا يحب هؤلاء «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (۳۳) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۳۴) فى مبتدأ هذه الآيـة يشـرع القرآن بسـرد حكايـة مريم وأجـدادها ومقامهم، فهم النموذج الكامل لحبّ اللّه الحقيقى وظهور آثار هـذا الحب فى مقام العمل والذى أشارت إليه الآيات السابقة.

«اصطفى»: من الصفو وهو خلوص الشى من الشوائب ومنه «الصفا» للحجارة الصافية وعليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشيء.

تقول الآيـة: إنّ اللّه إختـار آدم ونوحـاً وآل إبراهيم وآل عمران من بين النـاس جميعـاً، هـذا الاختيـار قـد يكون «تكوينيـاً» وقـد يكون «تشـريعياً» أى أنّ اللّه قـد خلق هؤلاء منـذ البـدء خلقاً متميزاً، وإن لم يكن فى هـذا الإمتياز ما يجبرهم على اختيار طريق الحق، بل إنّهم بمـلء اختيـارهم وحرّيـة إرادتهم إختـاروه، غير أنّ ذلـك التميّز أعـدّهم للقيـام بهدايـة البشـر ثم على أثر إطاعتهم أوامر اللّه، والتقوى والسعى فى سبيل هداية الناس نالوا نوعاً من التميّز الإكتسابى، الذى إمتزج بتميزهم الذاتى، فكانوا من المصطفين.

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ» «۱».

تشير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء المصطفين كانوا- من حيث الإسـلام والطهارة والتقوى والجهاد فى سبيل هداية البشـر- متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدّة من كتاب واحد، يقتبس كل من الآخر: «بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ».

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». فى النهاية تشير الآية إلى حقيقة أنّ اللّه كان يراقب مساعيهم ونشاطهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم. وفى هذا إشارة أيضاً إلى مسؤوليات المصطفين الثقيلة نحو اللّه ومخلوقات اللّه.

---

(۱) «الذرّيّة»: أصـلها الصـغار من الأولاد، وقد يشـمل الأبناء الصغار والكبار أيضاً بلا واسطة أو مع الواسطة، والكلمة من «الذرء» بمعنى الخلق والإيجاد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۵

فى هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من اولى العزم، فبعد نوح الذى صرّح بإسمه، يأتى آل إبراهيم الذين يضمّون نوحاً نفسه وموسى وعيسى ونبى الأكرم.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۵) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَ إِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم (۳۶) تعقيبـاً على مـا جـاء فى الآيـة السابقـة من إشـارة إلى آل عمران، تشـرع هاتـان الآيتـان بالكلام على مريم بنت عمران وكيفيـة ولادتها وتربيتها وما جرى لهذه السيدة العظيمة.

ورد فى الأحاديث أنّ اللّه قـد أوحى إلى «عمران» أنّه سيهبه ولـداً مباركاً يشـفى المرضـى الميؤوس من شـفائهم، ويحيى الموتى بإذن اللّه، وسوف يرسله نبيّاً إلى بنى إسرائيل، فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك، لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله فى بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ مـا فى بطنهـا ام الابـن الموعود «مريم» فنـذرت ما فى بطنها للخدمـة فى بيت اللّه «بيت المقـدس» ولكنها إذ رأتها انثى إرتبكت ولم تدر ما تعمل إذ إنّ الخدمة فى بيت اللّه كانت مقصورة على الذكور ولم يسبق أن خدمت فيه انثى.

والآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرف على تتمة الأحداث:

«إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبّ إِنّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا». هذه إشارة إلى النذر الذى نذرته امرأة عمران وهى حامل بأنّها تهب ابنهـا خادمـاً فى بيت المقـدس، لأنّهـا كانت تظنّه ذكراً بموجب البشارة التى أتاها بها زوجها ولـذلك قالت «محرّراً» ولم تقل «محرّرة»

ودعت اللّه أن يتقبل نذرها: «فَتَقَبَّلْ مِنّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبّ إِنّى وَضَعْتُهَا أُنثَى .

هـذه الآيـة تشـرح حال ام مريم بعـد ولادتها، فقـد أزعجها أن تلد انثى، وراحت تخاطب اللّه قائلة: إنّها انثى وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالانثى فى تحقيق النذر، فالانثى لا تستطيع أن تؤدّى واجبها فى الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۶

دخول المسجد، مضافاً إلى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى .

«وَإِنّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ».

يتّضح من هذه الجملة أنّ ام مريم هى التى سمّتها بهذا الإسم عند ولادتها و «مريم» بلغتها تعنى «العابدة» وفى هذا يظهر منتهى إشتياق هـذه الام الطاهرة لوقف وليـدها على خدمـة اللّه لذلك طلبت من اللّه- بعد أن سمّتها- أن يحفظها ونسلها من وسوسة الشياطين وأن يرعاهم بحمايته ولطفه: «وَإِنّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطنِ الرَّجِيم».

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۳۷) تواصل هذه الآية سرد حكاية مريم. لقد أشرنا من قبل أنّ ام مريم لم تكن تصدّق إمكان قبول الانثى خادمة فى بيت اللّه، لذلك كانت تتمنّى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت انثى لهذا العمل. ولكن الآية تقول إنّ اللّه قد قبل قيام هذه الانثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأوّل مرّة.

وكلمة «أنبتها» إشارة إلى تكامل مريم أخلاقياً وروحياً، كما أنّه يتضـمن نكتة لطيفة هى أنّ عمل اللّه هو «الإنبات» والإنماء. أى كما أنّ بـذور النباتات تنطوى على اسـتعدادات كامنـة تظهر وتنمو عنـدما يتعهّدها المزارع، كذلك توجد فى الإنسان كل أنواع الاسـتعدادات الساميـة الإنسانيـة التى تنمو وتتكامـل بسـرعة إن خضـعت لمنهـج المربّين الإلهيين ولمزارعى بسـتان الإنسانيـة الكبير، ويتحقق الإنبات بمعناه الحقيقى.

«وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا». فى هـذه الآية يقول القرآن: إختار اللّه زكريا كى يتكفل مريم، إذ إنّ أباها عمران قد ودّع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها امها إلى بيت المقـدس وقـدّمتها لعلماء اليهود وقالت: هـذه البنت هديـة لبيت المقـدس، فليتعهّدها أحدكم، فكثر الكلام بين علماء اليهود، وكان كل منهم يريـد أن يحظى بهـذا الفخر، وفى احتفال خاص- سيأتى شـرحه فى تفسير الآية (۴۴) من هـذه السورة- اختير زكريا ليكفلها.

وكلّما شبّت وتقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمة والجلال عليها أكثر إلى حدّ يقول القرآن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۷

عنها: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا».

كَبُرت مريم تحت رعايـة زكريا، وكانت غارقـة فى العبادة والتعبـد. بحيث إنّها- كما يقول ابن عباس- عندما بلغت التاسـعة من عمرها كـانت تصوم النهـار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجـة كبيرة من التقوى ومعرفـة اللّه حتى أنّها فاقت الأحبار والعلماء فى زمانها، وعنـدما كـان زكريـا يزورهـا فى المحراب يجـد عنـدها طعاماً خاصـاً، فيأخـذه العجب من ذلك، سألها يوماً: «يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هـذَا». فقالت: «هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

الآية لا تذكر شيئاً عن ماهية هذا الطعام ومن أين جاء، لكن بعض الأحاديث تفيد أنّه كان فاكهة من الجنة فى غير فصـلها تحضـر بأمر اللّه إلى المحراب، وليس ما يدعو إلى العجب فى أن يستضيف اللّه عبداً تقيّاً.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (۳۸) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (۳۹) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَ

امْرَأَتِی عَاقِرٌ قَالَ كَذلِکَ اللَّهُ یَفْعَلُ مَا یَشَاءُ (۴۰) قلنا إنّ زوجة زكريا وام مريم كانتا اختين، وكانتا عاقرين، وعندما رزقت ام مريم بلطف من اللَّه هذه الذريّة الصالحة، ورأى زكريا خصائصها العجيبة، تمنّى أن يرزق هو أيضاً ذرّية صالحة وطاهرة وتقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة اللَّه وتوحيده، وعلى الرغم من كبر سن زكريا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعية عن أن يرزقا طفلًا، فإنّ حبّ اللَّه ومشاهدة الفواكه الطرية فى غير وقتها فى محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملًا بإمكان حصوله فى فصل شيخوخته على ثمرة الابوّة، لذلك راح يتضرع إلى اللَّه: «هُنَالِکَ دَعَا زَكَرِیَّا رَبَّهُ قَالَ رَبّ هَبْ لِی مِن لَّدُنکَ ذُرّیَّةً طَیّبَةً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعَاءِ».

لم يمض وقت طويل حتى أجاب اللَّه دعاء زكريا: «فَنَادَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ یُصَلّی فِی الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ یُبَشّرُکَ بِیَحْیَی .

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۸

وفيما كان يعبد اللَّه فى محرابه، نادته ملائكة اللَّه وقالت له: إنّ اللَّه يبشّرك بمولود اسمه يحيى بل إنّهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتى ذكروا للمولود خمس صفات: الأوّلًا: سوف يؤمن بالمسيح ويشدّ أزره بهذا الإيمان: «مُصَدّقًا بِكَلِمَةٍ مّنَ اللَّهِ».

ثانياً وثالثاً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس «وَسَیّدًا». كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوّث بحبّ الدنيا «وَحَصُورًا». «الحصور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصرة.

ورابعاً وخامساً: من مميّزاته أيضاً أنّه سيكون «نَبِیًّا» وأنّه «مّنَ الصَّالِحِینَ».

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحاً وسروراً، ولم يمتلك نفسه فى إخفاء تعجبه من ذلك فقال: «رَبّ أَنَّی یَكُونُ لِی غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِیَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِی عَاقِرٌ». فأجابه اللَّه تعالى:

«قَالَ كَذلِکَ اللَّهُ یَفْعَلُ مَا یَشَاءُ». فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى ومشيئته، قنع بذلك.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً قَالَ آیَتُکَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَیَّام إِلَّا رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّکَ كَثِیراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْكَارِ (۴۱) هنا يطلب زكريا من اللَّه إمارة على بشارته بمجيء يحيى، إنّ إظهار دهشته- كما قلنا- وكذلك طلب علامة من اللَّه، لا يعنيان أبداً أنّه لا يثق بوعد اللَّه، خاصة وأنّ ذلك الوعد قد توكّد بقوله: «كَذلِکَ اللَّهُ یَفْعَلُ مَا یَشَاءُ». إنّما كان يريد زكريا أن يتحوّل إيمانه بهذا إيماناً شهودياً، كان يريد أن يمتلىء قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب والهدوء الناشئين عن الشهود الحسى.

«قَالَ رَبّ اجْعَل لِّی ءَایَةً قَالَ ءَایَتُکَ أَلَّا تُكَلّمَ النَّاسَ ثَلَثَةَ أَیَّام إِلَّا رَمْزًا».

أجاب اللَّه طلب زكريا هذا أيضاً، وعيّن له علامة، وهى أنّ لسانه كفّ عن الكلام مدة ثلاثة أيام بغير أىّ نقص طبيعى، فلم يكن قادراً على المحادثة العادية، ولكن لسانه كان ينطلق إذا ما شرع يسبّح اللَّه ويذكره، هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة اللَّه على كل شىء، فاللَّه القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشرة بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر اللَّه، وهكذا تتّضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريده زكريا.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۹

«وَاذْكُرْ رَبَّکَ كَثِیرًا وَسَبّحْ بِالْعَشِیّ وَالْإِبْكَارِ». «العشى»: تطلق عادة على أوائل ساعات الليل كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. وقيل إنّ «العشى» هو من زوال الشمس حتى غروبها و «الإبكار» من طلوع الفجر حتى الظهر.

وفى الآية يأمر اللَّه زكريا بالتسبيح. إنّ هذا التسبيح والذكر على لسان لا ينطق موقتاً دليل على قدرة اللَّه على فتح المغلق، وكذلك هو أداء لفريضة الشكر للَّهالذى أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ یَا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفَاکِ عَلَی نِسَاءِ الْعَالَمِینَ (۴۲) یَا مَرْیَمُ اقْنُتِی لِرَبِّکِ وَ اسْجُدِی وَ ارْكَعِی مَعَ الرَّاكِعِینَ (۴۳) بعد الإشارات العابرة إلى مريم فى الآيات السابقة التى دارت حول عمران وزوجته، هذه الآية تتحدّث بالتفصيل عن مريم. تقول الآية إنّ الملائكة كانوا يكلّمون مريم: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ یَا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفكِ عَلَی نِسَاءِ الْعَالَمِینَ».

ما أعظم هذا الإفتخار بأن يتحدّث الإنسان مع الملائكة ويحدثونه، وخاصة إذا كانت المحادثة بالبشارة من اللَّه تعالى باختياره وتفضيله، كما فى مورد مريم بنت عمران، فقد بشرتها الملائكة بأنّ اللَّه تعالى قد إختارها من بين جميع نساء العالم وطهّرها وفضلها بسبب تقواها وإيمانها وعبادتها.

«يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ».

هذه الآية تكملة لكلام الملائكة مع مريم، فبعد أن بشّرها بأنّ اللَّه قد اصطفاها، قالوا لها:

الآن اشكرى اللَّه بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمى.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴) هذه الآية تشير إلى جانب آخر من قصة مريم عليها السلام وتقول بأنّ ما تقدّم من قصة مريم وزكريا إنّما هو من أخبار الغيب: «ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ». لأنّ هذه القصة بشكلها الصحيح والخالى من شوائب الخرافة لا توجد فى أىّ من الكتب السابقة، مضافاً إلى أنّ سند هذه القصة هو وحى السماء.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۰

ثم تضيف الآية: «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ». أى إنّك لم تكن حاضراً حينذاك، بل جاءك الخبر عن طريق الوحى.

يستفاد من هذه الآية والآيات الاخرى الخاصة بيونس فى سورة الصافات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع والخصام الذى يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أىّ حلّ مقبول من أطراف النزاع.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۷) هذه الآية تبين حادث ولادة المسيح الذى يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمريم عليها السلام بأمر من اللَّه قائلين لها إنّ اللَّه سوف يهب لك ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق فى الدنيا والآخرة، وهو مقرّب عند اللَّه. «إِذْ قَالَتِ الْمَلَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

تشير الآية التى بعدها إلى إحدى فضائل ومعاجز عيسى عليه السلام وهى تكلّمه فى المهد:

«وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ». فقد جاء فى سورة مريم أنّه لدفع التهمة عن امه تكلم فى المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديته للَّهوعن كونه نبياً.

ولما لم يكن من الممكن أن يولد نبى فى رحم غير طاهرة، فإنّه يؤكد بهذا الإعجاز طهارة امه.

والظاهر من آيات سورة مريم أنّه عليه السلام تكلم منذ بداية تولده مما يستحيل على كل طفل أن يقوم به فى هذا العمر عادة وبهذا كان كلامه فى المهد معجزة كبيرة ولكن الكلام فى مرحلة الكهولة «۱» أمر عادى ولعل ذكره فى الآية أعلاه مقارناً للحديث فى المهد إشارة إلى أنّ كلامه فى المهد مثل كلامه فى الكهولة والكمال لم يجانب الصواب والحق والحكم.

---

(۱) «الكهولة»: هى متوسط العمر، وقيل إنّها الفترة ما بين السنة الرابعة والثلاثين حتّى الحادية والخمسين، وماقبلها «شاب» وما بعدها «شيخ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۱

إنّنا نعلم أنّ هذه الدنيا هى دنيا العلل والأسباب، وأنّ اللَّه قد دبّر أمر الخلق بحيث إنّ خلق كل كائن يتمّ ضمن سلسلة من العوامل، فلكى يولد إنسان قرّر اللَّه أن يكون ذلك عن طريق الإتصال الجنسى، ونفوذ الحيمن فى البويضة، لذلك حق لمريم أن تصيبها الدهشة وأن تتقدّم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل وتلد ويكون لها ولد بغير أن يكون لها أىّ اتصال جنسى مع أىّ بشر؟ «قَالَتْ رَبِّ

أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ».

فجاءتها الملائكة بأمر ربّها تخبرها بأنّ اللَّه يخلق ما يشاء وكيفما يشاء، فنظام الطبيعة هذا من خلق اللَّه وهو يأتمر بأمره، واللَّه قادر على تغيير هذا النظام وقتمايشاء، فيخلق وفق أسباب وعوامل اخرى غير عادية ما يشاء: «كَذلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ».

ثم لتوكيد هذا الأمر وإنهائه يقول: «إِذَا قَضَى أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

إنّ تعبير «كن فيكون» إشارة إلى سرعة الخلق.

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۴۸) وَ رَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۴۹) بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السلام (وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد، ومن الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين اخريين من صفات هذا النبى العظيم، فالاولى تقول: «وَيُعَلّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ». ففى البداية تشير إلى تعليمه الحكمة والعلم بشكل عام ثم تبين مصداقين من مصاديق الكتاب والحكمة وهماالتوراة والإنجيل.

فى الآية الاولى كان الكلام عن علم المسيح وكتبه السماوية وفى الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة ثم تبين الهدف من كل ذلك وهو هداية بنى إسرائيل المنحرفين: «وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

ثم تضيف الآية: «أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بَايَةٍ مِّن رَّبّكُمْ». وليست آية واحدة، بل آيات عديدة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۷۲

ولما كانت دعوة الأنبياء فى الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ هذه الآية- عند بيان معجزات السيد المسيح عليه السلام- تبدأ بذكر بثّ الحياة فى الأموات بإذن اللَّه، وتقول على لسان المسيح: «أَنّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطّينِ كَهَيَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التى لا علاج لها وتقول على لسانه:

«وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْىِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» «۱». لا شكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال وخاصة لدى علماء الطب فى ذلك الزمان كان من المعجزات التى لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكل امرىء فى حياته بعض الأسرار التى لا يعرف الآخرون شيئاً عنها، فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعنى أنّه يستقى معلوماته من مصدر غيبى: «وَأُنَبّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ». وأخيراً يقول: إنّ هذه كلها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

تفيد هذه الآية وآيات اخرى أنّ رسل اللَّه وأولياءه يستطيعون بإذن منه وبأمره- إذا اقتضى الأمر- أن يتدخّلوا فى عالم الخلق والتكوين وأن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعية.

وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أى إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى اللَّه وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۵۰) إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۵۱) هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام ولبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت اؤكّد لكم التوراة واثبت اصولها ومبادئها «وَمُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَيةِ». كما جئت لأرفع الحظر الذى فرض عليكم بالنسبة لبعض الأشياء فى دين موسى عليه السلام بسبب

---

(۱) «اكمه»: قيل إنّه يعنى أعمى وذهب بعض إلى أنّه العشو الليلى، ولكن أغلب المفسّرين وأرباب اللغة ذهبواإلى أنّه يعنى الأعمى

منذ الولادة، وبعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأنّ المراد هو عدم وجود أصل العين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۳

عصيانكم- مثل منع لحم الأباعر وبعض شحوم الحيوانات وبعض الطيور والأسماك- «وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم مرّة اخرى تتكرّر الجملة التى قرأناها على لسان المسيح فى الآية السابقة: «وَجِئْتُكُم بَايَةٍ مِّن رَّبّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

وفى الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبودية المسيح لرفع كل إبهام وريب قد ينشأ من كيفية ولادته التى قد يتشبث بها البعض لإثبات الوهيته وتقول: «إِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ». يتضح من هذه الآية ومن آيات اخرى أنّ السيد المسيح لكى يزيل كل إبهام وخطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة ولكى لا يتخذونها ذريعة لتأليهه كثيراً ما يكرر القول: «إِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ» و «إِنّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتِنِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا» «۱». بخلاف ما نراه فى الأناجيل المحرّفة الموجودة التى تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» فى كلامه عن اللَّه، إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلًا من ذلك: «إِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ». وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح فى محاربة من يدّعى الوهيّته، بل لكى يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس: «فَاعْبُدُوهُ». أى اعبدوا اللَّه ولا تعبُدونى.

ولذلك نجد أنّه لم يكن أحد من الناس يتجرأ فى حياة السيّد المسيح أن يدعى الوهيته أو أنّه أحد الآلهة وحتى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته فى التوحيد شوائب الشرك، إلّاأنّ التثليث باعتراف أرباب الكنيسة ظهر فى القرن الثالث للميلاد (وسيأتى تفصيل ذلك فى ذيل الآية ۱۷۱ من سورة النساء).

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۵۳) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (۵۴) كان اليهود ينتظرون مجىء المسيح عليه السلام بموجب ما بشّرهم به موسى عليه السلام قبل أن يولد ولكنه عندما ظهر وتعرّضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بنى إسرائيل للخطر لم

---

(۱) سورة مريم/ ۳۰.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۴

يبق معه إلّانفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدّى قبولهم دعوة المسيح والتقيّد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم. بعد أن أعلن عيسى دعوته وأثبتها بالأدلة الكافية، أدرك أنّ جمعاً من بنى إسرائيل يصرّون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ». فنادى فى أصحابه و «قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ» «۱». فاستجاب لندائه نفر قليل، كانوا أطهاراً سمّاهم القرآن ب «الحواريين» لبّوا نداء المسيح ولم يبخلوا بشىء فى سبيل نشر أهدافه المقدسة.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كل عون للمسيح عليه السلام وقالوا: «نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لاحظ أنّ الحواريين قالوا: نحن أنصار اللَّه ننصر دينه. بل لكى يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد وليؤكّدوا إخلاصهم ولم يقولوا: نحن أنصارك.

وبعد أن قبل الحواريون دعوة المسيح إلى التعاون معه واتخاذه شاهداً عليهم فى إيمانهم، اتّجهوا إلى اللَّه يعرضون عليه إيمانهم قائلين: «رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ». ولكن لما كانت دعوى الإيمان لا تكفى وحدها، فقد اتّبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر اللَّه واتّباع رسوله المسيح وقالوا مؤكّدين: «وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ».

عندما يتغلغل الإيمان فى روح الإنسان لابدّ أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون إدّعاؤه الإيمان تقوّلًا، لا إيماناً حقيقياً.

بعد ذلك طلبوا من اللَّه قائلين «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ». والشاهدون هم اولئك الذين لهم صفة قيادة الامم، ويوم القيامة يشهدون على

أعمال الناس الحسنة والسيئة.

وبعد أن إنتهى الحواريون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، وقالوا:

إنّ هؤلاء- لكى يقضوا على المسيح عليه السلام وعلى دعوته ويصدّوا انتشار دينه- وضعوا الخطط الماكرة، إلّاأنّ ما رسمه اللّه من مكر فاق مكرهم وكان أشدّ تأثيراً: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

---

(۱) التعبير ب «أحسّ» مع أنّ الكفر أمر باطنى لا يدرك بالحواس قد يكون أنّ إصرارهم على الكفر بلغ مرتبة منالشدّة وكأنّه أصبح محسوساً (الميزان فى تفسير القرآن، ذيل الآية مورد البحث).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۵

أمّا سبب تسمية تلامذة المسيح بالحواريين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة ولكن الأقرب إلى الذهن وهو الوارد فى أحاديث أئمة الدين، هو لأنّهم فضلًا عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبى السعى فى تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵) قلنا إنّ اليهود- بالتعاون مع بعض المسيحيين الخونة- قرّروا قتل السيد المسيح، فأحبط اللّه مكرهم ونجى نبيّه منهم، فى هذه الآية يذكر اللّه نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلًا: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنّى مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ».

من المعروف عند المفسرين، بالإستناد إلى الآية (۱۵۷) من سورة النساء، أنّ المسيح لم يُقتل وأنّ اللّه رفعه إلى السماء.

ثم تضيف الآية: «وَمُطَهّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». هذا جانب آخر من خطاب اللّه إلى المسيح، والقصد من التطهير هنا هو إنقاذه من الكفار الخبثاء البعيدين عن الحق والحقيقة الذين كانوا يوجّهون إليه التهم الباطلة، ويحوكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلويث سمعته فنصر اللّه دينه وطهّره من تلك التهم.

«وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيمَةِ».

وهذه بشارة يبشّر بها اللّه المسيح وأتباعه لتشجيعهم على المضىّ فى الطريق الذى اختاروه، والواقع أنّ هذه واحدة من آيات الإعجاز ومن تنبؤات القرآن الغيبية التى تقول إنّ أتباع المسيح سوف يسيطرون دائماً على اليهود الذين عادوا المسيح.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

ويعنى أنّ ما تقدم من الانتصارات والبشائر يتعلق بالحياة الدنيا أمّا المحكمة النهائية ونيل الجزاء الكامل فسيكون فى الآخرة.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۵۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۵۷) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (۵۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۶

الآية الاولى والثانية تتابعان الخطاب للسيد المسيح وحال أتباعه وأعدائه بينما الآية الثالثة خاطب نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكر رجوع الناس إلى اللّه ومحاكمتهم- فى الآية السابقة- يأتى فى هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمة، فالكافرون والمعارضون للحق والعدالة سيُلاقون فى الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يُلاقون فى الدنيا ولن يكون لأىّ منهم حامٍ ولا نصير: «فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مّن نَّاصِرِينَ».

ومن الإشارة فى هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أنّ الكافرين- وهم هنا اليهود- لا ينجون من العذاب، وهذا ما يؤكده تاريخ اليهود، ومن ذلك تفوّق الآخرين عليهم كما جاء فى الآيات السابقة.

ثم أشار القرآن الكريم إلى الفئة الثانية وقال: «وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ». ثم يؤكد القول: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ».

ومن الواضح أنّ اللّه لا يحبّ الظالمين ولا يقدم على ظلم عباده بل يوفيهم اجورهم بالكامل.

وبعد ذكر تاريخ المسيح وبعض ما جرى له، يتّجه الخطاب إلى رسول الأعظم صلى الله عليه و آله فيقول: كل هذا الذى سردناه عليك دلائل صدق لدعوتك ورسالتك وكان تذكيراً حكيماً جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبين الحقائق فى بيان محكم وخالٍ من كل هزل وباطل وخرافة. «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ».

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۵۹) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۶۰) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (۶۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآيات فى وفد نجران: العاقب والسيد ومن معهما، قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فنزل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۷۷

الآيات. فقرأها عليهم، فلما دعاهم رسول اللّه إلى المباهلة «۱» استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك ...

فلمّا كان الغد جاء النبى صلى الله عليه و آله آخذاً بيد على بن أبى طالب والحسن والحسين عليهم السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشى خلفه وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم ...

روى أنّ الأسقف قال لهم: إنّى لأرى وجوهاً لو سألوا اللّه أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة.

التّفسير

الآية الاولى تورد استدلالًا قصيراً وواضحاً فى الرد على مسيحيى نجران بشأن ألوهية المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلًا على أنّه ابن اللّه أو أنّه اللّه بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا ام، وعليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعى التعجب، لأنّ اللّه قادر على كل شىء، ولأنّ «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسى من ام وبغير أب، ليست مستحيلة «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

«الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ». هذه الآية تؤكد الموضوع وتقول: إنّ ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقى من اللّه ولا يعتوره الشك، فلا تتردّد فى قبوله.

بعد الآيات التى استدلّ فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر اللّه نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم والمعرفة، وأمره أن يقول لهم: إنّى سأدعو أبنائى، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسائى، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسى، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعو اللّه أن ينزل لعنته على الكاذب منّا: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

إِنَّ هذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶۳)

---

(۱) بمعنى الملاعنة بين الشخصين، ولذا يجتمع أفراد للحوار حول مسألة دينية مهمّة فى مكان واحدويتضرعون اللّه أن يفضح الكاذب

ويعاقبه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۸

تقول الآيـة- بعد شرح حياة المسيح عليه السـلام- إنّ ما قصصـناه عليك من قصة عيسى حقيقة أنزلها اللَّه عليك وعليه، فإنّ المزاعم الباطلة القائلة بالوهية المسيح، أو اعتباره ابن اللَّه، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطاً، كلها خرافات باطلة «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ».

ثم تضيف للتوكيد: إنّ الذى يليق للعبادة هو اللَّه «وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ» وحده، وأنّ اتخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحق والحقيقة «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو قادر على أن يخلق ولداً بدون أب، وذلك على اللَّه يسير.

الآيـة الثانيـة تهـدد من لم يستسـلم من هؤلاء للحق بعـد الاسـتدلالات المنطقيـة فى القرآن بشأن المسيح عليه السلام وكذلك إذا لم يخضـعوا للمباهلـة واستمرّوا فى عنـادهم وتعصبهم، لأـنّ ذلـك دليـل على أنّهم ليسوا طلاـب حق، بـل هم مقيـدون بأغلال تعصبهم المجحـف، وأهـوائهم الجامحـة، وتقاليـدهم المتحجرة، وبـذلك يكونـون مـن المفسـدين فى المجتمع: «فَـإِن تَـوَلَّوْا فَـإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ».

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْـرِكَ بِهِ شَـيْئاً وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴) الدعوة إلى الإتحاد: فى الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسـلام (بكل تفاصيله) ولكن الدعوة هـذه المرّة تتّجه إلى النقـاط المشتركـة بين الإسـلام وأهـل الكتـاب، وبهـذا يعلّمنـا القرآن درسـاً، مفـاده: أنّكم إذا لم توفّقوا فى حمل الآخرين على التعاون معكم فى جميع أهـدافكم، فلاـ ينبغى أن يقعـد بكم اليـأس عن العمـل، بـل إسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم فى تحقيق الأهـداف المشتركة بينكم، كقاعدة للإنطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسة «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيًا».

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لو أنّهم- بعـد دعوتهم دعوة منطقيـة إلى نقطـة التوحيـد المشتركة- أصـرّوا على الإعراض، فلابد أن يقال لهم: اشـهدوا أنّنا قد أسـلمنا للحق، ولم تسـلموا، وبعبـارة اخرى: فـاعلموا أنّ من يطلب الحق، ومن يتعصّب ويعانـد. ثم قولوا لهم: «اشْـهَدُوا بِـأَنَّا مُسْـلِمُونَ». فلا تأثير لعنادكم وعصيانكم وابتعادكم عن الحق فى أنفسنا، وإنّا ما زلنا على طريقنا- طريق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلّااللَّه، ولا نلتزم إلّاشريعة الإسلام، ولا وجود لعبادة البشر بيننا.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۹

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْـدِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۶۵) هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَـاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۶۶) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لَا نَصْـرَانِيّاً وَ لكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (۶۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان: إنّ أحبـار اليهود ونصارى اجتمعوا عنـد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فتنازعوا فى إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلّايهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلّانصرانياً. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرهِيمَ». هـذه الآيـة تردّ على مزاعم اليهود والنصارى، وتقول: إنّ جدلكم بشأن إبراهيم النبى المجاهد فى سبيل اللَّه جـدل عقيم لأنّه كان قبل موسى والمسيح بسنوات كثيرة والتوراة والإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة «وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَيةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ». أيعقل أن يدين نبى سابق بدين لاحق؟ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

«هَا أَنتُمْ هؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ».

هنا يوبّخهم اللّه قائلًا إنّكم قد بحثتم فيما يتعلق بدينكم الذى تعرفونه (وشاهدتم كيف أنّكم حتى فى بحث ما تعرفونه قد وقعتم فى أخطاء كبيرة وكم بعدتم عن الحقيقة، فقد كان علمكم، فى الواقع، جهلًا مركباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا فى أمر لا علم لكم به، ثم تدّعون ما لا يتفق مع أىّ تاريخ؟

وفى نهاية الآية يقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». توكيداً للموضوع السابق وتمهيداً لبحث الآية التالية.

أجل، إنّه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل وتحكمون فى هذه المسألة بدون دليل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۰

مختصر الامثل ج ۱ ۳۱۹

«مَا كَانَ إِبْرَهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا». وهذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود ولا من المسيحيين، وإنّما كان موحّداً طاهراً مخلصاً أسلم للّهولم يشرك به أبداً.

«الحنيف»: من الحنف، وهو الميل من شىء إلى شىء، وهو فى لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الإستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفاً لأنّه شقّ حجب التعصب والتقليد الأعمى، وفى عصر كان غارقاً فى عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام ولم يطأطىء لها رأساً.

إنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان «حَنِيفًا» أضاف «مُّسْلِمًا» ثم أردف ذلك بقوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لإبعاد إحتمال آخر.

ومما تقدم يتّضح أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن تابعاً لهذه الأديان، ولكن كيف يمكننا إتّباع هذا النبى العظيم الذى يفتخر باتّباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب وتقول: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ...». وعليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادىء دعوة إبراهيم، فقد بقى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله والمسلمون- بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه وتعميمه على جميع اصول الإسلام وفروعه- من أوفى الأوفياء له، فلابدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا اولئك.

وفى ختام الآية يبشر اللّه تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة ويقول: «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ».

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۶۹)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى دينهم.

التّفسير

هذه الآية تكشف خطّة الأعداء، وتنذرهم بالكفّ عن محاولاتهم العقيمة استناداً إلى التربية التى نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين فى مدرسة رسول اللّه صلى الله عليه و آله بحيث لا يمكن أن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۱

يكون هناك أىّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد إعتنقوا الإسلام بكل وجودهم، ولذلك فإنّهم يعشقون هذه المدرسة الإنسانية بمجامع قلوبهم ويؤمنون بها، وبناء على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل إنّهم إنّما يضلّون أنفسهم.

«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» وذلك لأنّهم بإلقاء الشبهات حول الإسلام وعلى رسول الإسلام واتّهامهما بشتّى التهم، إنّما يربّون فى أنفسهم روح سوء الظن.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱) تعقيباً للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة فى الآية السابقة، توجّه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب وتلومهم على كتمانهم للحقائق وعدم التسليم لها، فتقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ».

السؤال هنا أيضاً موجه إلى أهل الكتاب عمّا يدعوهم إلى العناد واللجاجة والإصرار عليهما بعد أن قرأوا علامات نبى الخاتم فى التوراة والإنجيل ويعلمون ما فيهما، فلماذا ينكرونها؟

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». مرّة اخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحق والباطل، وإخفاءهم الحق مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة فى التوراة والإنجيل عن رسول الأكرم صلى الله عليه و آله يخفونها.

وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۷۳) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۷۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: تواطأ إثنا عشر رجلًا من أحبار اليهود خيبر وقرى عرينة، وقال

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۲

بعضهم لبعض: أدخلوا فى دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الإعتقاد واكفروا به آخر النهار. وقولوا: إنّا نظرنا فى كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدا محمّداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وبطلان دينه. فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينه، وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم به منّا. فيرجعون عن دينهم إلى دينكم.

التّفسير

تكشف هذه الآية عن خطّة هدّامة اخرى من خطط اليهود، وتقول إنّ هؤلاء لكى يزلزلوا بُنية الإيمان الإسلامى توسّلوا بكل وسيلة ممكنة، من ذلك أنّ «وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» اتفقوا أن يؤمنوا بما أنزل على المسلمين فى أول النهار ويرتدّوا عنه فى آخره «ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ».

لا شك أنّ مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثّر فى نفوس ضعفاء الإيمان، خاصة وأنّ اولئك اليهود كانوا من الأحبار العلماء، وكان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية وبعلائم خاتم الأنبياء، فإيمانهم ثم كفرهم كان قادراً على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد، لذلك كانوا يعتمدون كثيراً على خطّتهم الماهرة هذه، وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» دليل على أملهم هذا.

وكانت خطّتهم تقضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهرياً، وأن يبقى إرتباطهم القلبى بدينهم. «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ».

«قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ». هذه جملة معترضة جاءت ضمن كلام على لسان اليهود فى ما قبلها وما بعدها من الآيات.

«أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ».

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة (ولا تصدّقوا) قبلها.

وعلى ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا تصدّقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر وما نزل عليكم من الكتب السماوية وكذلك لا تصدّقوا أن يستطيع أحد أن يجادلكم يوم القيامة أمام اللَّه ويدينكم لأنّكم خير عنصر وقوم فى العالم، وأنتم أصحاب النبوة والعقل والعلم والمنطق والاستدلال».

بهذا المنطق الواهى كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميّزون بها من حيث علاقتهم باللَّه ومن حيث العلم والمنطق والاستدلال على الأقوام الاخرى، لذلك يردّهم اللَّه فى الآية

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۳

التالية بقوله: «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». أى: قل لهم إنّ المواهب والنعم، سواء أكانت النبوّة والإستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الاخرى، هى جميعاً من اللَّه، يسبغها على من يشاء من المؤهّلين اللّائقين الجديرين بها.

«يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

هـذا توكيـد لما سبق أيضاً: إنّ اللَّه يخصّ من عباده من يراه جـديراً برحمته- بما فى ذلك مقام النبوّة والقيادة- دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال والنِعم العظيمة.

ويستفاد ضـمناً من هـذه الآية الكريمة أن الفضل الإلهى إذا شـمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك لمحدودية الفضل الإلهى، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

خطـط قديمـة: تعتبر هـذه الآيـات، فى الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنّها تكشف أسرار اليهود وأعـداء الإسـلام وتفضـح خططهم لزعزعة مسلمى الصدر الأوّل، فتيقّظ المسـلمون ببركتها ووعوا وساوس الأعداء المغرية، ولكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجرى فى عصـرنا الحاضـر أيضاً بطرق مختلفـة، إنّ وسائل إعلام الأعـداء القويـة المتطورة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية فى عقول المسلمين، وبخاصة الجيل الشاب، وهم فى هذا السبيل لا يتورّعون عن كل فرية، ويلجأون إلى كل السبل ويتلبسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرخ وعالم الطبيعيات والصحفى، بل حتى الممثّل السينمائى.

إنّهم يصـرّحون أنّ هـدفهم ليس التبشـير بالمسـيحية وحمـل المسـلمين على اعتناقها، ولا إعتناق اليهوديـة، بل هـدفهم هو هـدم اسـس المعتقـدات الإسـلامية فى أفكار الشـباب، وجعلهم غير مهتمّين بدينهم وتراثهم، إنّ القرآن اليوم يحذّر المسـلمين من هذه الخطط كما حذّرهم فى القديم.

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۴

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: يعنى بقوله «مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدّهِ إِلَيْكَ» عبد اللَّه بن سلام، أودعه رجل ۱۲۰۰ أوقية «۱» من ذهب، فأدّاه إليه، فمدحه اللَّه سبحانه.

ويعنى بقوله «مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّايُؤَدّهِ إِلَيْكَ» فنحاص بن عازوراء وذلك أنّ رجلًا من قريش استودعه ديناراً، فخانه. واللَّه يـذمّه فى هذه الآية لخيانته الأمانة.

التّفسير

ترسم الآية ملامح اخرى لأهل الكتاب، كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسؤولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحق فى تملّك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، وأنّ النبى والكتاب السماوى نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عنـدنا. لقـد تغلغلت فيهم هـذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله «يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» قال اليهود: إنّ لنا حق التصرف بأموال العرب واغتصابها لأنّهم مشركون ولا يتّبعون دين موسى.

من الجـدير بالـذكر أنّ هـذه الآيـة تعلن أنّ أهـل الكتاب لم يكونوا جميعاً ينهجون هـذا الطراز من التفكير غير الإنسانى، بل كان فيهم جماعـة ترى أنّ من واجبهـا أن تؤدى حق الآخرين. ولـذلك فـإنّ القرآن لم يـدنهم جميعـاً ولم يلق تبعـة أخطاء بعضـهم على الجميع ولذلك يقول: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّايُؤَدّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا».

إنّ الحوادث التى جرت فى الشـرق الأوسـط خلال السـنوات الأخيرة أثبتت بما لا يـدع مجالًا للشك أنّ القرارات الدوليـة والرأى العام العالمى، وقضايا الحق والعدالة وأمثالها، لا قيمة لها فى نظر الصـهاينة ولا معنى، وما من شـىء يحملهم على الخضوع للحق سوى القوة،

وهذه من المسائل التى تتبأ بها القرآن.

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ». هـذه الآيـة تبين منطقهم فى أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضـلية على «الامـيين» أى على المشـركين والعرب الـذين كانوا اميين غالباً أو أنّ المقصود كل من ليس له نصـيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحق لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلك، حتى أنّهم ينسبون إلى اللّه تقرير التفوق الكاذب.

---

(۱) «الأوقية»: تساوى ۱/ ۱۲ من الرطل ويساوى ۷ مثاقيل، جمعها: أواق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۵

لا شك أنّ هـذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانـة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّاً من حقوقهم، فيشـير القرآن إلى هذا قائلًا: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

هؤلاء يعلمون أنّه ليس فى كتبهم السـماوية أىّ شىء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس فى أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى اللّه.

الآيـة التاليـة تنفى مقولـة اليهود: «لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ» التى قرّروا فيها لأنفسـهم حريـة العمل، فاسـتندوا إلى هذا الزعم المزيّف للإعتـداء على حقوق الآـخرين بـدون حق، حيث يتلاـعبون بمصائر شـعوب العالم، ولا يتورّعون عن إرتكاب كل إعتـداء على حقوق الإنسان، ويرون القوانين مجرد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

تقرر هـذه الآيـة أنّ مقياس الشخصـية والقيمـة الإنسانيـة ومحبـة اللّه يتمثّل فى الوفاء بالعهد وفى عدم خيانة الأمانة خاصة، وفى التقوى بشكل عام.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى جماعـة من أحبار اليهود أبى رافع، وكنانـة بن أبى الحقيق، وحيى بن الأخطب، وكعب بن الأشـرف، كتموا ما فى التوراة من أمر محمّد وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنّه من عند اللّه، لئلا تفوتهم الرياسة وما كان لهم على أتباعهم.

التّفسير

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود وأهل الكتاب، ولكونها وردت بصيغة عامة، فإنّها تشـمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات. تقول الآيـة: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا». أى الـذين يجعلون عهودهم مع اللّه والقسم باسـمه المقـدس موضع بيع وشراء لقاء مبالغ مادية، سيكون جزاءهم خمس عقوبات:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۶

۱- انّهم سوف يُحرمون من نِعم اللّه التى لا نهاية لها فى الآخرة «أُولئِكَ لَاخَلَقَ لَهُمْ» «۱».

۲- إنّ اللّه يوم القيامة يكلم المؤمنين ولكنه لا يكلم أمثال هؤلاء «وَلَا يُكَلّمُهُمُ اللَّهُ».

۳- إنّ اللّه سوف لا ينظر إليهم بنظر الرحمة واللطف يوم القيامة «وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

۴- ولا يطهّرهم من ذنوبهم «وَلَا يُزَكّيهِمْ».

۵- وأخيراً سيعذبهم عذاباً شديداً «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بـديهى أنّ كلاـم اللّه ليس نطق اللسـان لأـنّ اللّه منزه عن التجسّـد، إنّمـا الكلاـم عن طريق الإلهام القلبى، أو عن طريق إحـداث أمواج

صوتيۀ فی الفضاء کالکلام الذی سمعه موسی علیه السلام من شجرۀ الطور. وکذلک النظر إلیهم فهو إشارۀ إلی العنایۀ الخاصۀ بهم ولیس المقصود النظر الجسمانی.

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِیقاً یَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْکِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْکِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ الْکِتَابِ وَ یَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ یَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۷۸) هذه الآیۀ التی تؤکد ما بحثته الآیات السابقۀ بشأن خیانۀ بعض علماء أهل الکتاب وتقول: إنّ فریقاً من هؤلاء یلوون ألسنتهم عند تلاوتهم الکتاب، وهذا کنایۀ عن تحریفهم کلام اللَّه. وتضیف: إنّهم فی تحریفهم هذا من المهارۀ بحیث إنّکم تحسبون ما یقرأونه آیات أنزلها اللَّه، وهو لیس کذلک «لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْکِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْکِتَابِ».

ولکنهم لا یقنعون بذلک، بل یشهدون علانیۀ بأنّه من کتاب اللَّه، وهو لیس کذلک «وَیَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ».

مرّۀ اخری یقول القرآن: إنّهم فی عملهم هذا لیسوا ضحیۀ خطأ، بل هم یکذبون علی اللَّه بوعی وبتقصّد، وینسبون إلیه هذه التهم الکبیرۀ وهم عالمون بما یفعلون «وَیَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ وَهُمْ یَعْلَمُونَ».

---

(۱) «خلاق»: من مادۀ «خُلُق» بمعنی النصیب والفائدۀ. وذلک لأنّ الإنسان یحصل علیها بواسطۀ اخلاقه (وهو إشارۀ إلی أنّهم یفتقدون الأخلاق الحمیدۀ التی تؤهلهم للانتفاع فی ذلک الیوم).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۷

مَا کَانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللَّهُ الْکِتَابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ یَقُولَ لِلنَّاسِ کُونُوا عِبَاداً لِی مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لکِنْ کُونُوا رَبَّانِیِّینَ بِمَا کُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْکِتَابَ وَ بِمَا کُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لَا یَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِکَةَ وَ النَّبِیِّینَ أَرْبَاباً أَ یَأْمُرُکُمْ بِالْکُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: إنّ رجلًا قال: یا رسول اللَّه! یسلّم علیک کما یسلّم بعضنا علی بعض، أفلا نسجد لک؟ قال: «لا ینبغی أن یُسجد لأحد من دون اللَّه، ولکن اکرموا نبیّکم، واعرفوا الحق لأهله». فأنزل اللَّه تعالی الآیۀ.

التّفسیر

سبق أن قلنا إنّ واحدۀ من عادات أهل الکتاب القبیحۀ- الیهود والنصاری- کانت تزییف الحقائق، من ذلک قولهم بالوهیۀ عیسی، زاعمین أنّه هو الذی أمرهم بذلک، وکان هذا ما یرید بعضهم أن یحققه بشأن رسول الأکرم أیضاً، للأسباب التی ذکرناها فی نزول الآیۀ.

إنّ الآیۀ ردّ حاسم علی جمیع الذین کانوا یقترحون عبادۀ الأنبیاء. تقول الآیۀ: لیس لکم أن تعبدوا نبی الخاتم ولا أیّ نبی آخر ولا الملائکۀ، ویخطیء من یقول إنّ عیسی قد دعاهم إلی عبادته. «مَا کَانَ لِبَشَرٍ أَن یُؤْتِیَهُ اللَّهُ الْکِتَابَ وَالْحُکْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ یَقُولَ لِلنَّاسِ کُونُوا عِبَادًا لِّی مِن دُونِ اللَّهِ».

الآیۀ تنفی نفیاً مطلقاً هذا الأمر، أی أنّ الذین أرسلهم اللَّه وآتاهم العلم والحکمۀ لا یمکن- فی أیّۀ مرحلۀ من المراحل- أن یتعدّوا حدود العبودیۀ للَّه، بل إنّ رسل اللَّه هم أسرع خضوعاً له من سائر الناس، لذلک فهم لا یمکن أن یخرجوا عن طریق العبودیۀ والتوحید ویجرّوا الناس إلی هوۀ الشرک.

«وَلکِن کُونُوا رَبَّانِیِّینَ بِمَا کُنتُمْ تُعَلّمُونَ الْکِتَابَ وَبِمَا کُنتُمْ تَدْرُسُونَ».

«الربّانی»: هو الذی أحکم إرتباطه باللَّه، ولمّا کانت الکلمۀ مشتقۀ من «ربّ» فهی تطلق أیضاً علی من یقوم بتربیۀ الآخرین وتدبیر امورهم وإصلاحهم. وعلی هذا یکون المراد من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۸

هذه الآیۀ: إنّ هذا العمل (دعوۀ الأنبیاء الناس إلی عبادتهم) لا یلیق بهم، إنّ ما یلیق بهم هو أن یجعلوا الناس علماء إلهیین فی ضوء

تعليم آيات اللَّه وتدريس حقائق الدين، ويصيّروا منهم أفراداً لا يعبدون غير اللَّه ولا يدعون إلّاإلى العلم والمعرفة. «وَلَا يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُوا الْمَلِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا».

هذه تكملة لما بحث فى الآية السابقة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة وسائر الأنبياء. وفى هذا جواب لمشركى العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات اللَّه، وبذلك يسبغون عليهم نوعاً من الالوهية، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم، كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنّهم أتباع «يحيى» وكانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم، وهو أيضاً ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيراً» ابن اللَّه، أو النصارى الذين قالوا إنّ «المسيح» ابن اللَّه، وأضفوا عليه طابعاً من الربوبية، فالآية تردّ هؤلاء جميعاً وتقول إنّه لا يليق بالأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادة غير اللَّه.

وفى الختام تقول الآية: «أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ».

أيمكن أن يدعوكم النبى إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام ديناً؟ أى: كيف يمكن لنبى أن يدعوا الناس أوّلًا إلى الإيمان والتوحيد، ثم يدلّهم على طريق الشرك؟

تنوّه الآية ضمنياً بعصمة الأنبياء وعدم انحرافهم عن مسير إطاعة اللَّه.

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى وجود علائم لنبى الخاتم صلى الله عليه و آله فى كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عام، وهو أنّ الأنبياء السابقين وأتباعهم قد أبرموا مع اللَّه ميثاقاً بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، وبالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشىء فى مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۹

وفى القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء اللَّه، وهذه الآية نموذج حيّ على ذلك.

ثم لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية: «قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِى» «١».

هل اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتم عهدى وأخذتم من أتباعكم عهداً بهذا الموضوع؟

وجواباً على ذلك: «قَالُوا أَقْرَرْنَا».

ثم لتوكيد هذا الأمر المهمّ وتثبيته يقول اللَّه: كونوا شهداء على هذا الأمر وأنا شاهد عليكم وعلى أتباعكم «قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ».

وفى الآية الأخيرة يذم ويهدد القرآن الكريم ناقضى العهود ويقول: «فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فلو أنّ أحداً بعد كل هذا التأكيد على أخذ المواثيق والعهود المؤكّدة- أعرض عن الإيمان بنبيّ كنبى الخاتم الذى بشرت به الكتب القديمة وذكرت علائمه، فهو فاسق وخارج على أمر اللَّه تعالى، ونعلم أنّ اللَّه لايهدى الفاسقين المعاندين، كما مرّ فى الآية (٨٠) من سورة التوبة:

«وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». ومن لا يكون له نصيب من الهداية الإلهية فإنّ مصيره إلى النار.

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِىَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) مرّت بنا حتى الآن بحوث مسهبة فى الآيات السابقة عن الأديان الماضية، وابتداءاً من هذه الآية يدور البحث حول الإسلام وفيها إلفات لأنظار أهل الكتاب وأتباع الأديان السابقة

إلى الإسلام. تبدأ الآية بالتساؤل: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ».

---

(۱) «الإصر»: العهد المؤكّد الذى يستوجب نقضه العقاب الشديد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۰

أيريـد هؤلاء ديناً غير دين اللَّه؟ وما دين اللَّه سوى التسـليم للشـرائع الإلهيـة، هى كلها قـد جمعت بصورتها الكاملة الشاملة فى دين نبى الخاتم صلى الله عليه و آله. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقى فعليهم أن يسلموا. «وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يبدأ القرآن بتفسير الإسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كل من فى السماوات والأرض، أو جميع الكائنات فى السماوات والأرض، مسلمون خاضعون لأوامره «طَوْعًا وَكَرْهًا».

هـذا الإستسلام والخضوع يكون «طوعـاً» أو اختيارياً أحيانـاً، إزاء «القوانين التشـريعية» ويكون «كرهـاً» أو إجباريـاً أحيانـاً اخرى، إزاء «القوانين التكوينية».

«قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا». فى هذه الآية يأمر اللَّه النبى والمسـلمين بأنّهم، فضـلًا عن إيمانهم بما انزل على رسول الإسلام، عليهم أن يظهروا إيمـانهم بكـل الآيـات والتعليمات التى نزلت على الأنبياء السابقين، وأن يقولوا: إنّنا لا نفرّق بينهم من حيث صـدقهم وعلاقتهم باللَّه، إنّنا نعترف بالجميع، فهم جميعاً كانوا قادة إلهيين، وهم جميعاً بُعثوا لهدايـة الناس، إنّا نسـلم بأمر اللَّه من جميع النواحى، وبـذلك نقطع أيدى المفرّقين.

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ». «يبتغ»: من «الإبتغـاء» بمعنى الطلب والسـعى، ويكـون فى الامـور المحمـودة وفى الامـور المذمومة.

تقول الآيـة: أنّه لا يقبل من أحـد سوى الإسـلام مع الأخـذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشـرايع الإلهيـة المقدسة. وأمّا الذين يتخذون غير هذه الحقيقة ديناً، فلن يقبل منهم هذا أبداً، ولهم على ذلك عقاب شديد «وَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فى تفسـير القرطبى (وفى تفسـير روح الجنان أيضاً): نزلت هـذه الآيـة فى الحارث بن سويد أخو الجُلاس بن سويد وكان من الأنصار، إرتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية.

كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمـاً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۸۶) أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۸۷) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۸) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۸۹)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۱

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيـان: قيـل: نزلت الآيـات فى رجـل من الأنصـار يقال له: حارث بن سويـد بن الصامت. وكان قتل المحـذر بن زياد البلوى غـدراً، وهرب وارتـد عن الإسـلام، ولحق بمكة ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: هل لى من توبة؟ فسألوا.

فنزلت الآيـة إلى قوله «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فحملها إليه رجل من قومه، فقال: إنّى لأعلم أنّك لصـدوق، ورسول اللَّه أصـدق منك، وأنّ اللَّه أصدق الثلاثة. ورجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه.

التّفسير

كـان الكلام فى الآيات السابقـة عن أنّ الـدين الوحيـد المقبول عنـد اللَّه هو الإسـلام، وفى هـذه الآيات يـدور الحـديث حول من قبلوا الإسـلام ثم رفضوه وتركوه، ويسـمى مثل هـذا الشـخص «مرتـد». تقول الآيـة: «كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ

الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

فالآيـة تقول: إنّ اللّه لا ـ يعين أمثال هؤلاء الأشـخاص على الإهتـداء، لماذا؟ لأنّ هؤلاء قـد عرفوا النبى بـدلائل واضـحة وقبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسـلام أصـبحوا من الظالمين والشخص الذى يظلم عن علم واطلاع مسبق غير لائق للهداية الإلهية: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

المراد من «البينات» فى هذه الآية، القرآن الكريم وسائر معاجز النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والمراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبة الأولى ويرتد عن الإسلام وفى المرتبة الثانية يكون سبباً فى إضلال الآخرين.

ثم تضيف الآية: «أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحق بعد معرفتهم له، كما هو مبيّن فى الآية، أن تلعنهم الملائكة وأن يلعنهم الناس.

«خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

تضيف الآيـة هنا أنّهم فضـلًا عن كونهم موضع لعن عام، فإنّهم سيبقون فى هـذا اللعن إلى الأبد، فهم فى الواقع كالشيطان الخالد فى اللعن الأبدى.

ولا شكّ أنّ نتيجة ذلك هو أن يكونوا فى عذاب شديد ودائم بغير تخفيف ولا إمهال.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۲

وفى آخر آيـة تفتح طريق العودة أمام هؤلاء الأفراد، وتدعوهم للتوبة، لأنّ هدف القرآن هو الإصـلاح والتربية، ومن أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين والملوثين كيما تتاح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

يستفاد من هـذه الآيـة أنّ الـذنب عبارة عن نقص فى الإيمان، وأنّه بعـد التوبـة يقوم الشـخص التائب بتجديـد الإيمان ليتطهر من هـذا النقص.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (۹۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۹۱) كـان الكلام فى الآيات السابقة يـدور حول الـذين ينـدمون حقّاً على إنحرافهم عن طريق الحق فيتوبون توبـة صادقـة، فى هـذه الآيـة يدور الكلام على الذين لن تُقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أوّلًا، ثم إرتدّوا وكفروا، وأصرّوا على كفرهم. إنّ اللّه لن يقبل توبة هؤلاء، لأنّهم لن يتخذوا باختيارهم خطوة فى سبيل اللّه، بل هم مجبرون على إظهار الندم والتوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين، لذلك فتوبتهم ظاهرية ولن تُقبل.

وفى الآية الثانية يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ».

تخصّ الآيـة اولئك الـذين يقضون أعمارهم كافرين فى هـذه الـدنيا، ثم يموتون وهم على تلك الحال، يقول القرآن، بعـد أن اتّضـح لهؤلاء طريق الحقّ، يسيرون فى طريق الطغيان والعصيان، وهم ليسوا مسلمين، ولن يُقبل منهم كل ما ينفقونه، وليس أمامهم أىّ طريق للخلاص، حتى وإن أنفقوا ملء الأرض ذهباً فى سبيل اللّه.

من الواضـح أنّ القصـد من القول بإنفاق هـذا القـدر الكبير من الذهب إنّما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب والروح بالعـداء للّه، وإلّا فمن الواضـح أنّ ملء الأرض ذهباً يوم القيامـة لا يختلف عن ملئها تراباً، إنّما قصد الآية هو الكناية عن أهمية الموضوع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۳

أمّا بشأن مكان هـذا الإنفاق، أفى الـدنيا أم فى الآخرة؟ فقـد ذكر المفسرون لـذلك احتمالين إثنين، ولكن ظاهر الآية يدل على العالم الآخر، أى كانوا كافرين «وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ». فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهباً، وظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، كما هى الحال

فى الدنيا، يستطيعون أن يدرأوا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، وفى الواقع فإنّ مضمون هذه الآية يشبه قوله تعالى فى الآية (۱۵) من سورة الحديد: «فَالْيَوْمَ لَايُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

وفى الختام يشير إلى نكتة اخرى فى المقام ويقول: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ».

لا- شك فى أنّهم سينالون عقاباً شديداً مؤلماً، ولن يكون بإستطاعة أحد أن ينتصر أو يشفع لهم، لأنّ الشفاعة لها شرائط، وأهمها الإيمان باللَّه، ولهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم. وأساساً، بما أنّ الشفاعة بإذن اللَّه، فإنّ الشفعاء لا يشفعون أبداً لمثل هؤلاء الأفراد غير اللائقين للشفاعة، لأنّ الشفاعة تحتاج إلى قابلية المحل، والإذن الإلهى لا يشمل الأفراد غير اللائقين.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۹۲) من علائم الإيمان: بعد أن تحدثت الآية السابقة عن حال الكفار حينما يواجهون الواقع يوم القيامة، ويودون لو أنفقوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، جاءت هذه الآية لتعطى درساً مهماً فى «الإنفاق» بالمناسبة، فقد قال سبحانه وتعالى فى هذه الآية: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».

إنّ لكلمة «البر» معنى واسعاً يشمل كل أنواع الخير إيماناً كان أو أعمالًا صالحة، كما أنّ المستفاد من الآية (۱۷۷) من سورة البقرة هو إعتبار «الإيمان باللَّه واليوم الآخر، والأنبياء، وإعانة المحتاجين، والصّلاة، والصيام، والوفاء، والإستقامة فى البأساء والضراء» جميعها من شعب البر ومصاديقه. وعلى هذا فإنّ للوصول إلى مراتب الأبرار الحقيقيين شروطاً عديدة، منها: الإنفاق مما يحبه الإنسان من الأموال.

وحتى يطمئن المنفقون إلى أنّ أى شيء مما ينفقونه لن يعزب عن اللَّه سبحانه ولن يضيع، عقب اللَّه على حثه للناس على الإنفاق مما يحبون بقوله: «وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۴

عَلِيمٌ». إنّه يعلم بما تنفقونه صغيراً أم كبيراً، تحبونه أو لا تحبونه. تأثير القرآن فى قلوب المسلمين: لقد كان لآيات الكتاب العزيز تأثير بالغ ونفوذ سريع فى أفئدة المسلمين الأوائل، فما أن سمعوا آيات جديدة النزول، إلّاوظهر هذا التأثير على سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم، ونذكر من باب المثال ما نقرأه فى كتب التفسير والتاريخ الإسلامى مما ورد فى مجال هذه الآية بالذات.

۱- الشيخ ابو الفتوح الرازى فى تفسيره (روح الجنان): أنّ رجلًا من الصحابة كان اسمه أبو طلحة وكان له فى المدينة من النخيل ما لم يكن لأحد غيره وكان له نخيل فى تجاه مسجد الرسول صلى الله عليه و آله فى غاية النّضارة والعمارة، وكان كثير الغلّة، وكان فيها عين ماء، والرسول صلى الله عليه و آله كان يأتى إليها ويشرب من مائها ويتوضّأ منها، فلما نزل قوله تعالى: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» أتى أبو طلحة وقال: يا رسول اللَّه! إنّ اللَّه تعالى يعلم أنّ أحبّ المال إلىّ وأكرمه علىّ هذه النخيلات، تصدّقت بها رجاء البرّ غداً لتكون لى ذخيرة، يا رسول اللَّه فضعها فى موضع ترى فيه الصّلاح، فقال الرسول صلى الله عليه و آله: «بخّ بخّ ذلك مال رابح لك».

۲- فى تفسير (روح الجنان): كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّاً، قد طلت غلافه بالذهب ورصعته بأنواع المجوهرات النفيسة وبينما كانت تتلوا القرآن ذات يوم بلغت الآية الكريمة: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» فتأملت فيه فقالت فى نفسها: «إنّه ليس شيء ما هو أحبّ إلى من هذا المصحف» فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره ثم أنفقت ثمنه فى بركة ما زالت تنسب إليها حتى يومنا هذا.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۹۳) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۹۵)

سبب النّزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات وما ينقله المفسرون هو: أنّ اليهود طرحوا إشكالين آخرين على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ضمن جدالهم له، أحدهما: أنكر اليهود تحليل النبى لحوم الإبل فقال: كل ذلك كان حلًّا لإبراهيم. فقالت اليهود: كل شيء تحرمه فإنّه محرم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۵

على نوح وإبراهيم، وهلمّ جرّا حتى إنتهى إلينا. فنزلت الآية.

والآخر: صلاته باتّجاه الكعبة فكانوا يقولون: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنّه مهاجر الأنبياء والأرض المقدسة. وقال المسلمون بل الكعبة أفضل.

فجاءت الآيات الثلاثة تردّ على إنكارهم للأمر الأوّل وتفند زعمهم، بينما تكفلت الآيات القادمة الردّ على اعتراضهم الأخير.

التّفسير

صرحت الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث بتفنيد كل المزاعم اليهودية حول تحريم بعض أنواع الطعام الطيب (مثل لحوم الإبل وألبانها) وردت على هذه الكذبة بقولها: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَاءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَيةُ» «۱».

إنّ المستفاد من الروايات الإسلامية هو أنّ يعقوب أخذه وجع العرق الذى يقال له عرق النسا «۲» فنذر إن شفاه اللَّه أن يحرم العروق، ولحم الإبل، وهو أحبّ الطعام إليه. فاقتدى به أتباعه فى هذا، حتى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيما بعد فتصور بعض أنّه تحريم إلهى، فنزلت الآية وتصرّح بأنّ نسبة هذا التحريم إلى اللَّه سبحانه محض إختلاق.

وتأكيداً لهذه الحقيقة أمر اللَّه نبيّه فى هذه الآية أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراة الموجودة عندهم ويقرأوها ليتبين كذب ما ادعوه، وصدق ما أخبر به اللَّه حول حلية الطعام الطيب كله إذ قال: «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَيةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ولكنهم أعرضوا عن تلبية هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراة عن التحريم الذى إدعوه.

والآن بعد أن تبين كذبهم وافتراؤهم على اللَّه لعدم استجابتهم لطلب النبى بإحضار التوراة، فإنّ عليهم أن يعرفوا بأنّ كل من افترى على اللَّه الكذب إستحق وصف الظلم، لأنّه بهذا الإفتراء ظلم نفسه بتعريضها للعذاب الإلهى، وظلم غيره بتحريفه وإضلاله بما افترى، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه فى ختام هذه الآية: «فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

---

(۱) «إسرائيل»: هو الاسم الآخر ليعقوب.

(۲) «عرق النسا»: ألم عصبى يمتد على مسار العصب الوركى من الالية إلى معصم القدم ويشتد هذا الألم جدّاًإذا ما ثنيت الساق الممتدة عند مفصل الحوض (الموسوعة العربية الميسرة).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۶

إنّ اليهود كانوا يحرمون الإبل وكل ما شق ظلفاً من البهائم، ولكن ذلك لا يدل على أنّها كانت محرمة فى شريعة نوح وإبراهيم أيضاً، إذ يمكن أن يكون هذا التحريم مختصاً باليهود عقاباً لهم وتنكيلًا. فإذا لم يكن لليهود حجة على زعمهم، وإذا تبين لهم صدق الرسول الكريم صلى الله عليه و آله فى دعوته، واتضح لهم أنّه على ملة إبراهيم، ودينه الحنيف حقاً يوجب عليهم أن يتبعوه «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». اتبعوا ملة إبراهيم الذى كان حنيفاً مستقيماً لا يميل إلى شيء من الأديان الباطلة، والأهواء الفاسدة، بل يسير فى الطريق المستقيم، فلم يكن فى دينه أى حكم منحرف مائل عن الحق وحتى فى ال أطعمة الطيبة الطاهرة لم يكن يحرم شيئاً بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم ... إنّه لم يكن مشركاً.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ (۹۶) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعَالَمِینَ (۹۷) لقد أنکرت الیهود علی النبی صلی الله علیه و آله أمرین وقد ردّ القرآن علی الأمر الأوّل فی الآیات الثلاث المتقدمة، وها هو یرد علی الأمر الثانی، وهو: إنکارهم علی النبی اتخاذه الکعبة قبلة، وتفضیله لها علی بیت المقدس بینما کانوا یفضلونه علی الکعبة. یقول سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبَارَکًا». فلا عجب إذن أن تکون الکعبة قبلة للمسلمین، فهی أوّل مرکز للتوحید.

إنّ المصادر الإسلامیة والتاریخیة تحدثنا بأنّ الکعبة تأسست علی یدی «آدم علیه السلام» ثم تهدمت بسبب الطوفان الذی وقع فی عهد النبی «نوح علیه السلام» ثم جدد بناءها النبی العظیم «إبراهیم الخلیل علیه السلام» فهی إذن عریقة عراقة التاریخ البشری.

إنّ «الکعبة» والتی تسمی فی تسمیة واخری ب «بیت اللّه» وصفت فی هذه الآیة بأنّها «بیت للناس» وهذا التعبیر یکشف عن حقیقة هامّة وهی: أنّ کل ما یکون بإسم اللّه ویکون له، یجب أن یکون فی خدمة الناس من عباده، وأنّ کل ما یکون لخدمة الناس وخیر العباد فهو للّهسبحانه.

لقد ذکرت فی هاتین الآیتین أربع مزایا اخری هی:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۷

۱- مُبَارَکاً: «المبارک» یعنی کثیر الخیر والبرکة، وإنّما کانت الکعبة المعظمة مبارکة لأنّها تعتبر بحق واحدة من أکثر نقاط الأرض برکة وخیراً، سواء الخیر المادی، أو المعنوی.

۲- هُدًی لِلْعَالَمِینَ: أجل، إنّ الکعبة هدی للعالمین فهی تجتذب الملایین من الناس الذین یقطعون إلیها البحار والوهاد، ویقصدونها من کل فج عمیق لیجتمعوا فی هذا الملتقی العبادی العظیم وهم بذلک یقیمون هذه الفریضة فریضة الحج التی لم تزل تؤدّی بجلال عظیم منذ عهد إبراهیم الخلیل علیه السلام.

۳- فِیهِ ءَایَاتٌ بَیِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرٰهِیمَ: إنّ فی هذا البیت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة اللّه وتوحیده، وفی تلک النقطة المبارکة من الآثار المعنویة ما یبهر العیون ویأخذ بمجامع القلوب وإنّ بقاء هذه الآثار والمعالم رغم کید الکائدین وإفساد المفسدین الذین کانوا یسعون إلی إزالتها ومحوها لَمن تلک الآیات التی یتحدث عنها القرآن فی هذا الکلام العلوی.

۴- وَمَن دَخَلَهُ کَانَ ءَامِنًا: لقد طلب إبراهیم علیه السلام من ربّه بعد الانتهاء من بناء الکعبة، أن یجعل بلد مکة آمناً إذ قال: «رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا» «۱». فاستجاب اللّه له وجعل مکة بلداً آمناً.

وبعد أن استعرض القرآن الکریم فضائل هذا البیت وعدد مزایاه، أمر الناس بأن یحجّوا إلیه- دون استثناء- وعبر عن ذلک بلفظ مشعر بأنّ مثل هذا الحج هو دَین للّهعلی الناس، فیتوجب علیهم أن یؤدّوه ویفرغوا ذممهم منه إذ قال: «وَلِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ».

وتعنی لفظة «الحج» أصلًا القصد، أمّا وجه تسمیة هذه الزیارة وهذه المناسک الخاصة بالحج فلأن قاصد الحج إنّما یخرج وهو «یقصد زیارة بیت اللّه» ولهذا أضیفت لفظة الحج إلی البیت فقال تعالی: «حِجُّ الْبَیْتِ».

إنّ الحج یجب علی کل إنسان مستطیع، فی العمر مرّة واحدة، ولا یستفاد من الآیة المبحوثة هنا أکثر من ذلک، لأنّ الحکم فیها مطلق، وهو یحصل بالإمتثال مرّة واحدة.

إنّ الشرط الوحید الذی ذکرته الآیة الحاضرة لوجوب الحج واستقراره هو «الاستطاعة» المعبر عنها بقوله سبحانه: «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا».

ثم إنّه یستفاد من هذه الآیة أنّ هذا القانون- مثل بقیة القوانین الإسلامیة- لا یختص

---

(۱) سورة إبراهیم/ ۳۵.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۸

بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضة الحج مسلمين وغير مسلمين. وللتأكيد على أهمية الحج قال سبحانه فى ذيل الآية الحاضرة: «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». أى أنّ الذين يتجاهلون هذا النداء، ويتنكرون لهذه الفريضة، ويخالفونها لا يضرون بذلك إلّاأنفسهم لأنّ اللَّه غنى عن العالمين، فلا يصيبه شىء بسبب إعراضهم ونكرانهم وتركهم لهذه الفريضة.

ويستفاد من هذه الآية أمران:

الأول: الأهمية الفائقة لفريضة الحج، إلى درجة انّ القرآن عبر عن تركها بالكفر، ويؤيد ذلك ما رواه الصدوق فى كتاب «من لا يحضره الفقيه» من أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «يا على! تارك الحج وهو مستطيع كافر يقول اللَّه تبارك وتعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»؛ يا على! من سوف الحج حتى يموت بعثه اللَّه يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً».

الثانى: إنّ هذه الفريضة الإلهية المهمة- مثل بقية الفرائض والأحكام الدينية الاخرى- شرعت لصلاح الناس، وفرضت لفرض تربيتهم، وإصلاح أمرهم وبالهم أنفسهم فلا يعود شىء منها إلى اللَّه سبحانه أبداً فهو الغنى عنهم جميعاً.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

سبب النّزول

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية: مرّ شماس بن قيس وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۹

النبى صلى الله عليه و آله من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فعاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، واللَّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج.

ففعل، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، على الركب- أوس بن يقظى أحد بنى حارثة من الأوس. وهبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج- فتقاولا، ثم أحدهما لصاحبه: إن شئتم واللَّه رددناها الآن وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة- والظاهرة الحرة- فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية. فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين اللَّه اللَّه، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم اللَّه إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟» فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان وكيد لهم من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سامعين مطيعين قد أطفأ اللَّه عنهم كيد عدوّ اللَّه تعالى شماس، وأنزل اللَّه تعالى فى شأن شماس وما صنع «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ» إلى قوله سبحانه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» وأنزل فى أوس بن يقظى وهبار ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا» الآية «۱».

التّفسير

مفرقو الصفوف ومثيرو الخلاف: بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقدة فعلتها وكادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ». والمخاطب فى هذه الآية هم أهل الكتاب

---

(۱) تفسير روح المعانى ۴/ ۱۴، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۰

ويقصد منهم هنا اليهود، فاللَّه سبحانه يأمر نبيّه فى هذه الآية أن يسألهم معاتباً عن علة كفرهم بآيات اللَّه فى حين أنّ اللَّه يعلم بأعمالهم. والمراد من آيات اللَّه المذكورة فى هذا المقام إمّا الآيات الواردة فى التوراة حول النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وعلائم نبوّته، أو مجموعة الآيات والمعجزات التى نزلت على نبى الأكرم، وتحققت على يديه، وكشفت عن حقانيته، وصدق دعوته، وصحة نبوّته.

ثم جاءت الآية الثانية تلومهم قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ». أى قل يا رسول اللَّه لهم لائماً ومنددا: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحق، فلماذا تصرون على صرف الآخرين عنه، وصدهم عن سبيل اللَّه، وإظهار هذا الطريق المستقيم فى صورة السبيل الأعوج بما تدخلون من الشبه على الناس؟

فى حين ينبغى- بل يتعين- أن تكونوا أوّل جماعة تبادر إلى تلبية هذا النداء الإلهى، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبى فى كتبكم وتشهدون عليه.

هل تتصورون أنّ كل ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلّا ... «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

إنّه تهديد بعد تنديد وإنّه إنذار بعد لوم شديد.

وبعد أن ينتهى هذا التقريع والتنديد والإنذار والتهديد لمشعلى الفتن، الصادّين عن سبيل اللَّه القويم، المستفيدين من غفلة بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبة الإنخداع بوساوس الأعداء، والوقوع تحت تأثيرهم والسماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم وترتيب الأثر على تحريكاتهم وتسويلاتهم وأنّ نتيجة كل ذلك هو الإبتعاد عن الإيمان والوقوع فى أحضان الكفر، إذ يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ».

من هذا البيان اتضح أنّ المراد من الرجوع إلى الكفر- فى الآية- هو «الكفر الحقيقى والإنفصال الكامل عن الإسلام» كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هى تلك العداوات الجاهلية التى تعتبر- فى حد ذاتها- شعبة من شعب الكفر وعلامة من علائمه وأثراً من آثاره لأنّ الإيمان لا يصدر منه إلّاالمحبة والمودة والتآلف، وأمّا الكفر فلا يصدر منه إلّاالتقاتل والعداوة والتنافر.

ثم يتساءل- فى عجب واستغراب-: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۱

وَفِيكُمْ رَسُولُهُ». أى: كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، وترجعوا كفاراً والنبى صلى الله عليه و آله بين ظهرانيكم، وآيات اللَّه البينات تقرأ على أسماعكم، وتشع أنوار الوحى على قلوبكم وتهطل عليكم أمطاره المثيرة للحياة؟

إنّ هذه العبارة ما هى إلّاالإشارة إلى أنّه لا عجب إذا ضل الآخرون وانحرفوا، ولكن العجب ممّن يلازمون الرسول ويرونه فيما بينهم، ولهم مع عالم الوحى إتصال دائم ... ومع آياته صحبة دائمة، إنّ العجب إنّما هو من هؤلاء كيف يضلون وكيف ينحرفون؟

ثم فى ختام هذه الآيات يوصى القرآن الكريم المسلمين- إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء وأرادوا الإهتداء إلى الصراط المستقيم- أن يعتصموا باللَّه ويلوذوا بلطفه ويتمسكوا بهداياته وآياته، ويقول لهم بصراحة تامة: «وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: افتخر رجلان من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسى: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، ومنّا سعد بن معاذ الذى اهتزّ عرش الرحمن له، ورضى اللّه بحكمه فى بنى قريظة. وقال الخزرجى: منّا أربعة أحكموا القرآن:

ابى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنّا سعد بن عبادة، خطيب الأنصار ورئيسهم. فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا ونوديا. فجاء الأوس إلى الأوسى، والخزرج إلى الخزرجى ومعهم السلاح. فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و آله فركب حماراً وأتاهم. فأنزل اللّه سبحانه وتعالى هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

التّفسير

الدعوة إلى التقوى: فى الآية الاولى من هاتين الآيتين دعوة إلى التقوى لتكون التقوى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۲

مقدمة للإتحاد والتآخى. وفى الحقيقة أنّ الدعوة إلى الإتحاد دون أن تستعين هذه الدعوة وتنبع من الجذور الخلقية والاعتقادية، دعوة قليلة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر بالمرّة، ولهذا يركز الاهتمام فى هذه الآية على معالجة جذور الاختلاف، وإضعاف العوامل المسببة للتنازع فى ضوء الإيمان والتقوى ولهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ». إنّ «حق التقوى» يعد من أسمى درجات التقوى وأفضلها لأنّه يشمل اجتناب كل إثم ومعصية، وكل تجاوز وعدوان، وإنحراف عن الحقّ.

ثم إنّه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى إنتهت الآية بما يعتبر تحذيراً- فى حقيقته- للأوس والخزرج وغيرهم من المسلمين فى العالم، تحذيراً مفاده: أنّ مجرد إعتناق الإسلام والانضمام إلى هذا الدين لا يكفى، إنّما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه وإيمانه واعتقاده إلى اللحظة الأخيرة من عمره وحياته، ولهذا قال سبحانه: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ».

الدعوة إلى الإتحاد: بعد أن أوصت الآية السابقة كل المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى ومهدت بذلك النفوس وهيّأتها، جاءت الآية الثانية تدعوهم بصراحة إلى مسألة الإتحاد، والوقوف فى وجه كل ممارسات التجزئة وإيجاد الفرقة، فقال سبحانه فى هذه الآية: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا».

إنّ المقصود من «حبل اللّه» هو كل وسيلة للإرتباط باللّه تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبى وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ثم إنّ القرآن بعد كل هذا يعطى مثالًا حيّاً من واقع الامة الإسلامية لأثر الإرتباط باللّه وهو يذكر- فى نفس الوقت- بنعمة الإتحاد والاخوة- تلك النعمة الكبرى- ويدعو المسلمين إلى مراجعة الماضى المؤسف، ومقارنة ذلك الاختلاف والتمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة ويقول: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا».

والملفت للنظر هو أنّ اللّه نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». أى إنّ اللّه ألف بين قلوبكم، وبهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام، لأنّنا لو لاحظنا ما كان عليه العرب والمجتمع الجاهلى من عداوات

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۳

واختلافات وما كان يكمن فى القلوب من أحقاد طويلة عميقة وما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة، وكيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفى لتفجير الحروب، وإندلاع القتال فى ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد.

تلك المعجزة التى أثبتت أنّ تحقيق مثل هـذه الوحـدة وتأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضـة، وإيجاد امة واحدة متآخية من ذلك الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر فى سنوات قليلة بالطرق والوسائل العادية.

لقـد كان وضع العرب سيئاً إلى أبعـد الحـدود حتى أنّ القرآن يصف تلك الحالـة بأنّهم كانوا على حافـة الإنهيار والسـقوط إذ يقول: «وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا».

«شـفا»: فى اللغة حافة الهاوية وطرف الحفرة أو الخندق وما شابه ذلك، ومن ذلك «الشفة» كما وتستعمل لفظة «شفا» هذه فى البُرء من المرض لأنّ الإنسان بسببه يكون على حافة السلامة والعافية.

ويريـد سـبحانه من قـوله هـذا: أنّكم كنتم على حافـة السـقوط والإنهيـار فى الهاويـة، ولكن اللّه نجـاكم من ذلـك السـقوط المرتقب، وأبدلكم بعد الخوف أمناً.

و النار فى هـذه الآيـة كنايـة عن نيران الحروب والمنازعات التى كانت تتأجـج كل لحظـة بين العرب فى العهد الجاهلى بحجج واهية، ولأسباب طفيفة.

ولمزيد من التأكيد على ضـرورة الإعتصام بحبل اللّه مع الاعتبار بالماضـى والحاضـر، يختم سـبحانه الآية بقوله: «كَذلِكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ».

إذن فالهـدف الأساسـى هو خلاصـكم ونجـاتكم وهـدايتكم إلى سـبل الأمن والسـلام، وحيث إنّ فى ذلك مصـلحتكم فإنّ عليكم أن تعيروا ما بيّناه لكم مزيداً من الاهتمام، ومزيداً من العناية.

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵) الـدعوة إلى الحق ومكافحة الفساد: بعد الآيات السابقة التى حثّت على الاخوة والإتحاد

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۰۴

جـاءت الإشارة- فى الآيـة الاولى من الآيتين الحاضـرتين- إلى مسألـة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» اللـذين هما بمثابـة غطاء وقـائى اجتمـاعى لحمايـة الجماعـة وصـيانتها، إذ تقـول: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وهـذه الآيـة تتضـمن دسـتوراً أكيـداً للامـة الإسـلامية بـأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، وأن تكون امـة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر أبداً لأنّ فلاحها رهن بذلك: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فى مسـند عبد اللّه ابن المبارك عن نعمان بن بشـير قال: سـمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «إنّ قوماً ركبوا البحر فى سفينة فاقتسـموها فأصاب كل رجل مكاناً فأخذ رجل منهم الفاس فبقر مكانه فقالوا ما يصنع قال هو إنّى أصـنع فيه ما شئت فإن أخذوا على يديه نجوا ونجا وإن تركوه غرق وغرقوا فخذوا على أيدى سفهائكم قبل أن يهلكوا».

ولقـد جسـد النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله- بهـذا المثـال الرائع- موضوعيـة الأـمر بـالمعروف والنهى عن المنكر ومنطقيـة هـاتين الفريضـتين بغض النظر عن أمر الشـارع بهمـا، وبـذلك قرر حق الفرد فى النظـارة على المجتمع على أسـاس أنّه حق طبيعى ناشـىء من اتحاد المصائر فى المجتمع وارتباط بعضها ببعض.

تقتضى أهمية الوحدة أن يركز القرآن الكريم ويؤكد عليها مرة بعد اخرى ولذا يذّكر بأهمية الإتحاد، ويحذر من تبعات الفرقة والنفاق وآثارها المشؤومة، بقوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

إنّ هـذه الآيـة تحذر المسلمين من أن يتبعوا- كالأقوام السابقة مثل اليهود والنصارى- سبيل الفرقة والاختلاف بعد أن جاءتهم البينات وتوحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

«وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

إنّه ليس من شك فى أنّ نتيجة الاختلاف والفرقة لن تكون سوى الذلة والإنكسار، فذلك هو سر سقوط الامم وذلتها، إنّه الاختلاف والتشتت والنفاق والتدابر.

إنّ المجتمع الذى تحطمت وحدته بسبب الفرقة، وتفتّت تماسكه بسبب الاختلاف سيتعرض- لا محالة- لغزو الطامعين وستكون حياته عرضة لأطماع المستعمرين، بل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۵

ومسرحاً لتجاوزاتهم، وما أشد هذا العذاب، وما أقسى هذه العاقبة؟ أجل تلك هى عاقبة النفاق والاختلاف فى الدنيا.

وأمّا عذاب الآخرة فهو- كما وصفه اللّه تعالى فى القرآن الكريم- أشد وأخزى.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۰۷) الوجوه المبيضّة والوجوه المسودّة: فى تعقيب التحذيرات القوية التى تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة والنفاق والعودة إلى عادات الكفر ونعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الإرتداد المشؤوم إلى خُلق الجاهلية وعاداتها، وتصرّحان بأنّ الكفر والنفاق والتنازع والعودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان والإتحاد، والمحبة والتآلف، بياض الوجوه فتقول: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ». ففى يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء والبعض الآخر وجوههم نقية بيضاء ونورانية: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». فلماذا اخترتم طريق النفاق والفرقة والجاهلية على الإتحاد فى ظل الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، وأمّا المؤمنون فغارقون فى رحمة اللّه:

«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

إنّ هاتين الآيتين تصرّحان بأنّ المنافقين والمتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، وأمّا المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم فى رحمة اللّه ورضوانه مبيضة وجوههم.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ (۱۰۸) وَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹) هذه الآية إشارة إلى ما تعرضت الآيات السابقة له حول الإيمان والكفر والإتحاد والاختلاف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وآثارها وعواقبها، إذ تقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۶

اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ». فكل هذه الآيات تحذيرات عن تلك العواقب السيئة التى تترتب على أفعال الناس أنفسهم «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» وإنّما هى آثار سيئة يجنيها الناس بأيديهم. ويدلّ على ذلك أنّ اللّه لا يحتاج إلى ظلم أحد، كيف وهو القوى المالك لكل شىء وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

فالآية تشتمل على دليلين على عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأوّل: إنّ اللّه مالك الوجود كله فله ما فى السماوات وما فى الأرض، فلا معنى للظلم ولا موجب له عنده، وإنّما يظلم الآخرين ويعتدى عليهم من يفقد شيئاً، وإلى هذا يشير المقطع الأوّل من الآية وهو قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

الثانى: إنّ الظلم يمكن صدوره ممن تقع الامور دون إرادته ورضاه، أمّا من ترجع إليه الامور جميعاً، وليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلا يمكن صدور الظلم منه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (۱۱۰) مكافحة الفساد والدعوة إلى الحق أيضاً: فى هذه الآية تطرح مرّة اخرى مسألة «الأمر بالمعروف»

و «النهى عن المنكر». فالآيـة السابقـة تشـير إلى القسم الخاصّ، وهـذه الآية تشـير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين. «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

والجـدير بالـذكر أنّ القرآن الكريم يصف المسـلمين- فى هـذه الآيـة- بأنّهم خير امة هُيئت وعُبئت لخدمة المجتمع الإنسانى، والدليل على أنّ هـذه الامـة خير امـة رشـحت لهذه المهمة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإيمانها باللّه» وهذا يفيد أنّ إصلاح المجتمع البشرى لا يمكن بدون الإيمان باللّه والدعوة إلى الحق، ومكافحة الفساد.

أمّا هذه الامة خير الأمم، لأنّها تختص بآخر الأديان الإلهية والشرائع السماوية، ولا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۷

شك أنّ هذا يقتضى أن يكون أكمل الشرائع وأتمها فى سلّم الأديان.

ثم إنّ الآية تشـير إلى أنّ ديناً بمثل هذا الوضوح، وتشـريعاً بمثل هذه العظمة، وتعاليم تنطوى على مثل هذه الفوائد التى لا تنكر، ينبغى أن يؤمن به أهـل الكتـاب من اليهود والنصارى لأنّ فى ذلك صـلاحهم، وخيرهم إذ يقول سـبحانه: «وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم».

ولكن- وللأسف- لم يؤمن به إلّاقلـة ممن نبـذ التعصب الأعمى، واعتنق الإسـلام برغبة صادقة، واسـتقبل هذا الدين برحابة صدر، فيما أعرض الأـكثرون منهم، وفضـلوا البقـاء على مـا هم عليه من الكفر والعصبيـة على إتباع هـذا الأمر الإلهى، متجاهلين حتى تلك البشائر التى نطقت بها كتبهم حول هـذا الـدين وإلى هـذا يشـير سـبحانه بقوله: «مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ». الخارجون عن هذا الأمر الإلهى.

لَنْ يَضُـرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَ إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَـرُونَ (۱۱۱) ضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْـكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (۱۱۲)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: إنّ رؤوس اليهود مثل كعب وأبى رافع وأبى ياسر وكنانة وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم كعبد اللّه بن سلام وأصحابه فأنّبوهم لإسلامهم، فنزلت الآية.

التّفسير

تبشـر الآيـة الـولى المسـلمين الـذين يواجهون ضـغوطاً شديـدة وتهديـدات أحياناً من جانب قومهم الكافرين بسـبب اعتناق الإسـلام، تبشـرهم وتعـدهم بأنّهم منصورون، وأنّ أهل الكتاب لا يقـدرون عليهم ولا تنالهم من جهتهم مضـرة، وأنّ ما سـيلحقهم من الأذى من جانبهم لن يكون إلّاطفيفاً وعابراً: «لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ».

إنّ هاتين الآيتين تحتويان على عدّة أخبار غيبية، وبشائر مهمة للمسلمين قد تحقق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۸

جميعهـا فى زمن النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله وحياته الشـريفة وهى: ۱- إنّ أهـل الكتاب لا يقـدرون على إلحاق أى ضـرر مهم بالمسلمين، وأنّ ما يلحقونه بهم لن يكون إلّاأضراراً بسيطة، وعابرة «لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى».

۲- إنّهم لن يثبتوا- فى القتـال- أمـام المسـلمين، بـل ينهزمون ويكون الظفر للمسـلمين، ولاـ يجـدون ناصـراً ولاـ معينـاً: «وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنصَرُونَ».

۳- إنّهم لن يسـتطيعوا الوقوف على أقدامهم ولن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيبقون أذلاء دائماً، إلّاأن يعيدوا النظر فى سلوكهم، ويسلكوا طريق اللّه، أو أن يعتمدوا على الآخرين ويستعينوا بقوتهم إلى حين: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

مِّنَ النَّاسِ».

ولم يمض على هذه الوعود الإلهية والبشائر السماوية زمن حتى تحققت برمّتها فى حياة الرسول صلى الله عليه و آله.

وعلى هذا إنّ على اليهود أن يعيدوا النظر فى برنامج حياتهم، ويعودوا إلى اللَّه، أو أن يستمروا فى حياتهم النكدة المزيجة بالنفاق. فأمّا الإيمان باللَّه والدخول تحت مظلته وفى حصنه الحصين، وأمّا الاعتماد على معونة الناس الواهية والاستمرار فى الحياة التعسة.

لقد كان أمام اليهود طريقان: إمّا أن يعودوا إلى منهج اللَّه، وإمّا أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلّاء ما داموا، ولكنهم إختاروا الثانى ولهذا لزمتهم الذلة «وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ».

وعلى هذا أنّ اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى وتماديهم فى الذنوب اصيبوا بأمرين:

أوّلًا: طردوا من جانب المجتمع وحل عليهم غضب اللَّه سبحانه، و ثانياً: إنّ هذه الحالة «أى الذلة» أصبحت تدريجاً صفة ذاتية لازمة لهم حتى أنّهم رغم كل ما يملكون من إمكانيات وقدرات مالية وسياسية، يشعرون بحقارة ذاتية، وصغار باطنى.

وهذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ». وبذلك يشير سبحانه إلى علة هذا المصير الأسود الذى يلازم اليهود، ولا يفارقهم.

إنّهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذلة ومسكنة، وحقارة وصغار لأسباب قومية عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۹

أوّلًا: كانوا ينكرون آيات اللَّه ويكذبون بها.

ثانياً: يصرون على قتل الأنبياء الهداة الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل والخرافة، وتخليصهم من الشقاء والعناء.

ثالثاً: إنّهم كانوا يرتكبون كل فعل قبيح، ويقترفون كل جريمة نكراء، ويمارسون كل ظلم فظيع، وتجاوز على حقوق الآخرين، ولا شك أنّ أى قوم يرتكبون مثل هذه الامور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، ويستحقون ما استحقوه من العذاب الأليم والمصير الأسود.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (۱۱۳) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۴) وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۱۱۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: أنّه لمّا أسلم عبد اللَّه بن سلام وجماعة، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمّد إلّاشرارنا. فأنزل اللَّه «لَيْسُوا سَوَاءً» إلى قوله «مِنَ الصَّالِحِينَ».

التّفسير

الإسلام وخصيصة البحث عن الحق: بعد كل ذلك الذم لليهود، الذى تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة وأفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائماً- يراعى جانب العدل والإنصاف، فيحترم كل من تنزه عن ذلك السلوك الذميم الذى سار عليه اليهود، ويعلن بصراحة أنّه لا يعمم ذلك الحكم، وأنّه لا يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، وبين من غادرها وطلب الحق، ولهذا يقول:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ».

ثم إنّه سبحانه يقول: «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصر اليهودى كافة، بل يركز على أفعالهم وأعمالهم وممارساتهم، ويحترم ويمدح كل من انفصل عن أكثريتهم الفاسدة، وخضع للحق

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۱۰

والإيمان، وهذا هو اسلوب الإسلام الذى لا يعادى أحداً على أساس اللون والعنصر، بل يعاديه على أساس اعتقادى محض، ويكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحق والعدل والخير. ثم إنّه سبحانه قال: «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ». معقباً بذلك على العبارات السابقة ومكملًا للآية ويعنى بقوله أنّ هؤلاء الذين أسلموا واتخذوا مواقعهم فى صفوف المتقين لن يضيع اللّه لهم عملًا، وإن كانوا قد إرتكبوا فى سابق حالهم ما ارتكبوه من الآثام، وما إقترفوه من المعاصى، ذلك لأنّهم قد أعادوا النظر فى سلوكهم وأصلحوا مسارهم، وغيروا موقفهم.

كيف «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» وكأنّ هذه العبارة التى يختم بها سبحانه الآية الحاضرة تشير إلى حقيقة من الحقائق الهامة وهى: أنّ المتقين وإن كانوا قلة قليلة فى الأغلب، وخاصة فى جماعة اليهود الذين عاصروا النبى صلى الله عليه و آله حيث كان المسلمون المهتدون منهم قلة ضعيفة، ومن شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، ولكنهم مع ذلك يعلّمهم اللّه بعلمه الذى لا يعزب عنه شىء، فلا موجب للقلق، ولا داعى للاضطراب ما دام سبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، ويعلم بأعمالهم، فلا يضيعها أبداً قليلة كانت أو كثيرة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۷) فى مقابل العناصر التى تبحث عن الحقّ، وتؤمن به من الذين وصفتهم الآية السابقة، هناك عناصر كافرة ظالمة وصفهم اللّه سبحانه فى هاتين الآيتين بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيًا» لأنّه لا ينفع فى الآخرة سوى العمل الصالح والإيمان الخالص لا الإمتيازات المادية، فى هذه الحياة: «يَوْمَ لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» «۱».

إنّ القرآن ينادى بصراحة بأنّ الإمتيازات المالية والقدرة البشرية الجماعية لا تعد

(۱) سورة الشعراء/ ۸۸ و ۸۹.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۱۱

إمتيازاً فى ميزان اللّه، وأنّ الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلّاإذا قرنت بالإيمان والعمل الصالح، واستخدمت فى سبيلهما، وإلّا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم وعذابها الخالد. «أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

ولما كان الكلام عن الثروة والمال كان لابدّ من الإشارة إلى مسألة الإنفاق فيقول سبحانه: «مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ».

وهذا هو حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنّه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياءاً وسمعة وأهواء وأهداف شريرة، وبذلك يكون كالريح العاتية، اللّافحة أو الباردة، تأتى على كل ما أنفقه كما تأتى على الزرع، فتصيبه بالجفاف والفناء، والدمار والهلاك.

إنّ مثل هذا الإنفاق لا يعالج أية مشكلة اجتماعية (لأنّه صرف للمال فى غير محله فى الأغلب) كما لا ينطوى على أى أثر أخلاقى ونفسى للمنفق الباذل.

ثم إنّه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفّار الذى لا يعود عليهم إلّابالوبال والويل بقوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا

خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۱۲۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ هذه الآيات نزلت فى رجال من المسلمين، كانوا يواصلون رجالًا من اليهود لما كان بينهم من الصداقة والقرابة والجوار والحلف والرضاع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۲

التّفسير

لا تتخذوا الأعداء بطانة: هذه الآية التى جاءت بعد الآيات السابقة التى تعرضت لمسألة العلاقات بين المسلمين والكفّار، تشير إلى قضايا حساسة بالغة الأهمية، وتحذر المؤمنين- ضمن تمثيل لطيف- بأن لا يتخذوا من الذين يفارقونهم فى الدين والمسلك أصدقاء يسرون إليهم ويخبرونهم بأسرارهم، وأن لا يطلعوا الأجانب على ما تحتفظ به صدورهم وما خفى من نواياهم وأفكارهم الخاصة بهم، قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ». وهذا يعنى أنّ الكفار لا يصلحون لمواصلة المسلمين ومصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، وذلك لأنّهم لا يتورعون عن الكيد والإيقاع بهم ما استطاعوا: «لَايَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» «۱».

فليست الصداقات والعلاقات بقادرة على أن تمنع اولئك الكفار- بسبب ما يفارقون به المسلمين فى العقيدة والمسلك- من إضمار الشر للمسلمين، وتمنى الشقاء والعناء لهم «وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ». أى أحبوا فى ضمائرهم ودخائل نفوسهم لو أصابكم العنت والعناء.

إنّهم- لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم- يحاولون دائماً أن يراقبوا تصرفاتهم، وأحاديثهم كيلا يظهر ما يبطنونه من شر وبغض لكم، بيد أنّ آثار ذلك العداء والبغض تظهر أحياناً فى أحاديثهم وكلماتهم، عندما تقفز منهم كلمة أو اخرى تكشف عن الحقد الدفين والحنق المستكن فى صدورهم: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ».

وقد أوضح اللَّه سبحانه فى هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء ودخائل نفوسهم، ثم إنّه سبحانه يقول: «وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ». أى أنّ ما يبدو من أفواههم ما هى إلّاشرارة تحكى عن تلك النار القوية الكامنة فى صدورهم.

ثم إنّه تعالى يضيف قائلًا: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأَيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ». أى أنّ ما ذكرناه من الوسيلة للتعرف على العدو أمر فى غاية الأهمية لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيلة جداً فعالة لمعرفة ما يكنّه الآخرون ويضمرونه تجاهكم، وهو أمر فى غاية الخطورة بالنسبة لأمنكم وحياتكم وبرامجكم.

---

(۱) «الخبال»: فى الأصل بمعنى ذهاب شىء وهى تطلق فى الأغلب على الأضرار التى تؤثر على عقل الإنسان وتلحق به الضرر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۳

يحسب بعض المسلمين أنّ فى مقدورهم أن يكسبوا حبّ الأعداء والأجانب إذا أعطوهم حبهم وودهم، وهو خطأ فظيع، وتصور باطل، يقول سبحانه: «هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ».

إنّه سبحانه يخاطب هذا الفريق من المسلمين ويقول لهم: إنّكم تحبّون من يفارقكم فى الدين لما بينكم من الصداقة أو القرابة أو الجوار، وتظهرون لهم المودّة والمحبّة، والحال أنّهم لا يحبّونكم أبداً، وتؤمنون بكتبهم وكتابكم المنزل من السماء- على السواء- فى حين أنّهم لا يؤمنون بكتابكم ولا يعترفون بأنّه منزل من السماء.

إنّ هذا الفريق من أهل الكتاب ينافقون ويخادعون «وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ».

ولا شكّ أنّ هذا الغيظ لن يضر المسلمين فى الواقع، إذن فقل لهم يا رسول اللَّه: «قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ». واستمروا على هذا الحنق فإنّه لن يفارقكم حتى تموتوا.

هذه هى حقيقة الكفّار التى غفلتم عنها ولم يغفل عنها سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ثم إنّ اللّه يـذكر علامـة اخرى من علائم العـداوة الكامنة فى صدور الكفّار إذ يقول: «إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا».

ولكن هل تضر هذه العداوة وما يلحقها من ممارسات ومحاولات شريرة بالمسلمين؟

هذا ما يجيب عنه ذيل الآية الحاضرة حيث يقول سبحانه: «وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲) من هنا تبدأ الآيات التى نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسـلامية ألا وهى معركة احد. فى البدء تشير الآيـة الاولى إلى خروج النبى صـلى الله عليه و آله من المدينـة لاختيار المحل الـذى يعسـكر فيه عنـد «احـد» وتقول: «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ». أى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۴

واذكر عنـدما خرجت غـدوة من المدينـة تهيىء للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة احـد. ثم إنّ الآيـة الثانيـة تشـير إلى زاوية اخرى من هذا الحدث إذ تقول: «وَإِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

والطائفتان كما يذكر المؤرخون هما بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل فى أمر هذه المعركة والرجوع إلى المدينة، وهمتا بذلك.

وقـد كـان سـبب هـذا الموقف المتخاذل هو أنّهما كانتا ممن يؤيـد فكرة البقاء فى المدينـة ومقاتلـة الأعـداء داخلها بـدل الخروج منها والقتـال خارجها، وقـد خالف النّبى هـذا الرأى، مضافاً إلى أنّ عبـداللّه بن أبى سـلول الـذى التحق بالمسـلمين على رأس ثلاثمائـة من اليهود عاد هو وجماعته إلى المدينة، لأنّ النبى صـلى الله عليه و آله عارض بقاءهم فى عسكر المسلمين، وقد تسبب هذا فى أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النبى وتعزما على العودة إلى المدينة من منتصف الطريق.

ولكن يسـتفاد من ذيل الآية أنّ هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، واسـتمرتا فى التعاون مع بقية المسلمين، ولهذا قال سبحانه: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

يعنى أنّ اللّه ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على اللّه بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

غزوة احـد: يسـتفاد من الروايات والنصوص التاريخيـة الإسـلامية، أنّ قريشاً لما رجعت من بـدر إلى مكـة وقـد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسـر، لأنّه قُتل منهم سـبعون واسـر سبعون، قال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمّد. وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وفى السـنة الثالثـة للهجرة عزمت قريش على غزو النبى وخرجوا من مكة فى ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل، مجهزين بكل ما يحتاجه القتال الحاسم، وأخرجوا معهم النساء والأطفال والأصنام، ليثبتوا فى ساحات القتال.

العباس يرفع تقريراً إلى النبى: لم يكن العباس عمّ النبى قد أسلم إلى تلك الساعة، بل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۵

كـان باقيـاً على دين قريش، ولكنه كـان يحب ابن أخيه غايـة الحب، ولهـذا فـإنّه عنـدما عرف بتعبئـة قريش وعزمهم الأكيـد على غزو المدينة ومقاتلة النبى، بادر إلى إخبار النبى، محمّلًا غفارياً (من بنى غفار) رسالة عاجلة يذكر فيها الموقف فى مكة وعزم قريش، وكان الغفارى يسـرع نحو المدينة، حتى أبلغ النبى رسالة عمه العباس، ولما عرف صـلى الله عليه و آله بالخبر إلتقى سـعد بن أبى وأخبره بما ذكره له عمه، وطلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت.

النّبى يشاور المسـلمين: عمد النبى- بعد أن بلغته رسالة عمه العباس- إلى بعث رجلين من المسـلمين إلى طرق مكة والمدينة للتجسس

على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان وأخبرا النبى بما حصلا عليه حول قوات قريش وأنّ هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

وبعد أيّام استدعى النّبى صلى الله عليه و آله جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب إتخاذه للدفاع، وبحث معهم فى أمر البقاء فى المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة فى داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها، فاقترح جماعة قائلين: «لا نخرج من المدينة حتى نقاتل فى أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن فى حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّاكان الظفر لهم علينا». وكان هذا هو ما قاله عبد اللّه بن أبى.

وقد كان النبى صلى الله عليه و آله يميل إلى هذا الرأى نظراً لوضع المدينة يومذاك، فقد كان صلى الله عليه و آله يرغب فى البقاء فى المدينة ومقاتلة العدو فى داخلها، إلّاأنّ فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغبوا فى الشهادة وأحبّوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأى. فوافقهم النبى صلى الله عليه و آله- رغم أنّه كان يميل إلى البقاء فى المدينة- احتراماً لمشورتهم، ثم خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة وإختار الشعب من جبل احد لإستقرار الجيش الإسلامى باعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

لقد استشار النبى أصحابه فى هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنّه بعد انتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد اللّه والثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم اللّه فلكم النصر ما صبرتم».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۶

ثم تولى صلى الله عليه و آله بنفسه قيادة المقاتلين وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتب صفوفهم.

يقول المؤرخ المعروف الحلبى فى سيرته: وسار إلى أن وصل «رأس الثنية» وعندها وجد كتيبة كبيرة فقال صلى الله عليه و آله: «ما هذا؟» قالوا: هؤلاء خلفاء عبد اللّه بن أبى اليهودى فقال صلى الله عليه و آله:

«أسلموا؟» فقيل: لا. فقال صلى الله عليه و آله: «إنّا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك». فردهم، ورجع عبد اللّه بن ابى اليهودى ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل.

والنبى صلى الله عليه و آله بعد أن أجرى التصفية اللازمة فى صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشك والنفاق استقر عند الشعب من «احد» فى عدوة الوادى إلى الجبل وجعل «احداً» خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلّى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم وتعبأ للقتال.

فأمّر على الرماة «عبد اللّه بن جبير» والرماة خمسون رجلًا جعلهم صلى الله عليه و آله على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلًا:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم».

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان «خالد بن الوليد» فى مأتى فارس كميناً يتحينون الفرصة للتسلل من ذلك الشعب ومباغتة المسلمين من ورائهم وقالوا: «إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم».

ثم اصطف الجيشان للحرب، ها هى تكبيرات المسلمين ونداءات «اللّه أكبر، اللّه أكبر» تدوى فى جنبات ذلك المكان، وتملأ شعاب «احد» وسهولها، بينما تحرض هند والنسوة اللاتى معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار المثيرة.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شر هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقبونهم ويلاحقون فلولهم.

هذه الهزيمة النكراء التى لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدى العهد بالإسلام إلى التفكر فى جمع الغنائم والانصراف

عن الحرب، بظن أنّ المشـركين هزموا هزيمـة كاملـة، حتى أنّ بعض الرماة تركوا مواقعهم فى الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبداللّه بن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۷

جبير» إيّاهم بمـا أوصـاهم به النبى صـلى الله عليه و آله ولم يبق معه إلّاقليـل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطرة فى الجبل محافظة على المسلمين.

فتنبه «خالد بن الوليد» إلى قلة الرماة فى ذلك المكان، فحملوا على الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثم هجموا على المسلمين من خلفهم.

وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسيوفهم. فى هذه الكرة «حمزة» سيد الشهداء وطائفة من أصحاب النبى الشجعان، وفر بعضهم خوفاً، ولم يبق حول النبى سوى نفر قليل جداً يدافعون عنه ويردون عنه عادية الأعداء، وكان أكثرهم دفاعاً عن النبى صلى الله عليه و آله ورداً لهجمـات العـدو، وفـداء بنفسه هو الإمـام على بن أبى طالب عليه السـلام الـذى كان يـذب عن النبى الطاهر ببسالة منقطعـة النظير، حتى أنّه تكسـر سـيفه فأعطاه رسول اللّه صـلى الله عليه و آله سـيفه المسـمى بذى الفقار، ثم تترس النبى بمكان، وبقى على عليه السـلام يـدفع عنه فلم يزل علىّ عليه السـلام يقاتلهم حتى أصابه فى رأسه ووجهه، ويديه وبطنه ورجليه سـبعون جراحة. فقال جبرائيل: «إنّ هذه لهى المواساة يا محمّد». فقال محمّد: «إنّه منّى وأنا منه». فقال جبرائيل: «وأنا منكما».

قـال الإمـام الصـادق عليه السـلام: «نظر رسول اللّه صـلى الله عليه و آله إلى جبرائيـل بين السـماء والأرض على كرسـى من ذهب، وهو يقول: لا سيف إلّا ذوالفقار ولا فتى إلّاعلىّ».

وفى هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

يـذهب بعض المؤرخين إلى أنّ «ابن قمئـة» الـذى قتل الجندى الإسـلامى البطل «مصـعب بن عمير» وهو يظن أنّه النبى، هو الذى صاح «واللات والعزى: لقد قتل محمّد».

وهذه الشائعة كانت فى صالح الإسـلام والمسـلمين لأنّها جعلت العدو يترك ساحة القتال ويتجه إلى مكة بظنّه أنّ النبى قد قتل وانتهى الأمـر، ولولاـ ذلـك لكـان جيش قريش الفاتـح الغالب لا يترك المسـلمين حتى يقتلوا رسول اللّه لأنّهم لم يجيئوا إلى «احـد» إلّالهـذه الغاية.

إلّا أنّ شائعة مقتل النبى أوجدت زلزالًا كبيراً فى نفوس بعض المسلمين، ولذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

وأمّا من بقى من المسلمين فى الساحة فقد عمدوا- بهدف الحفاظ على البقية من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم- إلى أخذ النبى صلى الله عليه و آله إلى الشـعب من «احـد» ليطلع المسـلمون على وجوده الشـريف ويطمئنّوا إلى حيـاته، وهكـذا كان، فإنّهم لما عرفوا رسول اللّه صـلى الله عليه و آله عاد الفارون وآب المنهزمون واجتمعوا حول الرسول ولامهم النبى صلى الله عليه و آله على فرارهم فى تلك

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۸

الساعـة الخطيرة، فقالوا: يا رسول اللّه أتانا الخبر بأنّك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مـدبرين. وهكـذا لحقت بالمسـلمين- فى معركة أحد- خسـائر كبيرة فى الأموال والنفوس، فقـد قتل منهم فى هـذه الموقعـة اثنان وسـبعون من المسـلمين فى ميـدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة، ولكنهم أخذوا من هذه الهزيمة والنكسة درساً كبيراً ضمن انتصاراتهم فى المعارك القادمة.

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (۱۲۴) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (۱۲۵) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱۲۶) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (۱۲۷) فقـد بـدأت هـذه الآيات بتـذكير المسـلمين بما تحقق لهم من نصـر ساحق بتأييـد اللّه لهم فى «بدر» «۱» إذ قال

سبحانه: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ».

وقد كان الهدف من هذا التذكير هو شد عزائم المسلمين وزرع الثقة فى نفوسهم والإطمئنان إلى قدراتهم، والأمل بالمستقبل، فقد نصرهم اللَّه وهم على درجة كبيرة من الضعف، وقلة العدد وضآلة العدة (حيث كان عددهم ۳۱۳ مع إمكانيات بسيطة قليلة، وكان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع إمكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا اللَّه وليجتنبوا مخالفة أوامر النبى صلى الله عليه و آله ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم تتعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى فى بدر، إذ قالت: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلَثَةِ ءَالفٍ مِّنَ الْمَلِكَةِ مُنْزَلِينَ». أى: اذكروا واذكر أيّها النبى يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا وسيمدكم اللَّه بالملائكة ألا

---

(۱) «بدر»: سميت بدر لأنّ الماء كان لرجل من جهينة اسمه بدر (مجمع البحرين).

وبدر من حيث اللغة يعنى الممتلى الكامل. ولهذا سمى القمر إذا امتلأ: بدراً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۹

يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم، أيّها المسلمون لقد تحقق لكم ذلك فى بدر نتيجة صبركم واستقامتكم، واليوم يتحقق لكم ذلك أيضاً إذا أطعتم أوامر النبى، وسرتم وفق تعليماته وصبرتم: «بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالفٍ مِّنَ الْمَلِكَةِ مُسَوِّمِينَ» «۱».

على أنّ نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسى لتحقيق هذا الإنتصار لكم بل النصر من عند اللَّه، وليس نزول الملائكة إلّالتطمئن قلوبكم «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فهو العالم بسبل النصر ومفاتيح الظفر، وهو القادر على تحقيقه.

ثم إنّه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ».

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (۱۲۸) وقع بين المفسرين فى تفسير هذه الآية كلام كثير، إلّاأنّ ما هو مسلّم تقريباً هو أنّ الآية الحاضرة نزلت بعد معركة احد وهى ترتبط بأحداث تلك المعركة، والآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضاً.

يكون معنى الآية كالتالى: ليس لك حول مصيرهم شيء، فإنّهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى اللَّه، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم.

ولقد نقلت فى تفسير الدر المنثور: إنّ هذه الآية أنزلت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم أحد وقد جرح فى وجهه وأصيب بعض رباعيته وفوق حاجبه فقال- وسالم مولى أبى حذيفة يغسل الدم عن وجهه-: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم». فأنزل اللَّه الآية وأخبره تعالى فيها أنّه ليس إليه إلّاما امر به من تبليغ الرسالة ودعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسؤولًا عن هدايتهم إن لم يهتدوا ولم يستجيبوا لندائه.

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲۹)

---

(۱) «الفور»: السرعة التى تقلب المعادلات كما يفور القدر وتتقلب محتوياتها بسرعة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۰

مختصر الامثل ج ۱ ۳۴۹

هـذه الآية تأكيد لمفاد الآية السابقة، فيكون المعنى هو: أنّ العفو أو المجازاة ليس بيد النبى، بل هو للّهالذى بيده كل ما فى السماوات وكـل مـا فى الأرض، فهو الحـاكم المطلق لأنّه هو الخـالق، فله الملـك وله التـدبير، وعلى هـذا الأساس فإنّ له أن يغفر لمن يشاء من المذنبين، أو يعذّب، حسب ما تقتضيه الحكمة، لأنّ مشيئته تطابق الحكمة. ثم إنّه سبحانه يختم الآية بقوله: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». تنبيهاً إلى أنّه وإن كان شديد العذاب، إلّاأنّ رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحيم قبل أن يكون شديد العقاب والعذاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) هـذه الآيـات الثلاث، والآيات الست اللاحقـة بها تحتوى على سلسلة من البرامج الاقتصاديـة، والاجتماعية، والتربوية، ثم يستأنف القرآن بعد هذه الآيات التسع، حديثه حول معركة «احد» ووقائعها.

إنّنا نعلم أيضاً أنّ المجتمع العربى فى العهـد الجاهلى كان مصاباً- بشدة- بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (وخاصة مكة) مسرحاً للمرابين، وقد كان هذا الأمر مبعثاً للكثير من المآسى الاجتماعية، ولهذا استخدم القرآن فى تحريم هذه الفعلة النكراء اسلوب المراحل، فحرم الربا فى مراحل أربع:

١- يكتفى فى الآية (٣٩) من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقى حول الربا.

٢- يشير فى الآية (١٦١) من سورة النسـاء- ضـمن إنتقاد عادات اليهود وتقاليـدهم الخاطئة الفاسـدة- إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات.

٣- يذكر فى الآية الحاضرة حكم التحريم بصراحة، ولكنّه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، وهو النوع الشديد والفاحش منه فقط.

۴- وأخيراً أعلن فى الآيـات (٢٧۵- ٢٧٩) من سورة البقرة عن المنع الشامـل والشديـد عن جميع أنواع الربـا، واعتبـاره بمنزلـة إعلان الحرب على اللّه سبحانه.

قلنا إنّ الآية الحاضرة إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله: «أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً».

مختصر الامثل، ج١، ص: ٣٢١

والمراد من «الربـا الفـاحش» هو أن تكون الزيادة الربويـة تصاعديـة، بمعنى أن تُضم الزيادة المفروضـة أوّلًا على رأس المال ثم يصبح المجموع مورداً للربـا، بمعنى أنّ الزيـادة ثانيـاً تقـاس بمجموع المبلغ، ثم تضم الزيادة المفروضـة ثانياً إلى ذلك المبلغ، وتفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع. ولهذا قال القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً».

ولا- شكّ أنّ مثل هـذا الفعل يـدر على أصـحاب الأموال مبالغ ضـخمة دون عناء، فلا يمكن الإرتـداع عنه الإ بتقوى اللّه، ولهـذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ولكن هل يكفى الأمر بتقوى اللّه والترغيب فى الفلاح فى صورة ترك الربا؟ أم لابـدّ من التلويـح بالعـذاب الأخروى للمرابين؟ ولهـذا قال سبحانه فى الآية الثانية: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذى مرّ فى الآية السابقة.

ثم إنّه سبحانه يمزج ذلـك التهديـد بشـىء من التشجيع والترغيب للمطيعين والممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣۴) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣۵) أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣۶) السباق فى مضمار السعادة: بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة وتوعدتهم بالعذاب والجحيم، وبشّرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهيّة وشوقتهم إليها جاءت الآية الاولى من هذه الآيات تشبّه سعى المطيعين واجتهادهم بالسباق،

والمسابقة المعنوية التى تهدف الوصول إلى الرحمة الإلهية والنعم والعطايا الربانية الخالدة: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۲

رَّبِّكُمْ». فلأنّ الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بدون المغفرة والتطهر من أدران الذنوب، فلابد إذن من تطهير النفس من الذنوب أوّلًا، ثم الدخول فى رحاب القرب الإلهى، ونيل الزلفى لديه. هذا هو الهدف الأوّل.

وأمّا الهدف الثانى لهذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنة» التى يصرح القرآن الكريم أنّ سعتها سعة السماوات والأرض: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ».

ثم إنّه سبحانه يختم الآية الحاضرة بقوله: «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». فهذه الجنة العظيمة الموصوفة بتلك السعة قد أعدّت للذين يتقون اللَّه ويخشونه ويجتنبون معاصيه ويمتثلون أوامره.

وينبغى أن نعلم أنّ المراد بالعرض هنا ليس هو الطول والعرض الهندسى بل المراد- كما عليه أهل اللغة- هو السعة.

لما صرح فى الآية السابقة بأنّ الجنة اعدت للمتقين، تعرضت الآية التالية لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمساً من صفاتهم الإنسانية السامية هى:

۱- إنّهم ينفقون أموالهم فى جميع الأحوال، فى الشدة والرخاء، فى السراء والضراء «الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ».

إنّ أوّل صفة ذكرت للمتقين هنا هو «الإنفاق» لأنّ هذه الآيات تذكر ما يقابل الصفات التى ذكرت للمرابين والمستغلّين فى الآيات السابقة. هذا مضافاً إلى أنّ غض النظر عن المال والثروة فى السراء والضراء من أبرز علائم التقوى.

۲- إنّهم قادرون على السيطرة على غضبهم: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ».

«الكظم»: تعنى فى اللغة شدّ رأس القربة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسها، وقد استعملت كناية عمن يمتلىء غضباً ولكنّه لا ينتقم. و «الغيظ»: بمعنى شدة الغضب والتوتر والهيجان الروحى الشديد الحاصل للإنسان عندما يرى ما يكره.

فى الكافى عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يُمضيه أمضاه، أملأ اللَّه قلبه يوم القيامة رضاه».

۳- إنّهم يصفحون عمن ظلمهم «وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ».

إنّ كظم الغيظ أمر حسن جدّاً، إلّاأنّه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن لا يقلع ذلك جذور العداء من قلب المرء، فلابد للتخلص من هذه الجذور والرواسب أن يقرن «كظم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۳

الغيظ» بخطوة اخرى وهى «العفو والصفح» ولهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التى هى بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

۴- إنّهم محسنون: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

وهنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو والصفح» وبهذا يرتقى المتقون من درجة إلى أعلى فى سلّم التكامل المعنوى.

وهذه السلسلة التكاملية هى أن لا يكتفى الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ ولا يكتفى أيضاً بأن يعفو ويصفح عن المسىء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء فى فؤاد خصمه المسىء إليه أيضاً، وذلك بالإحسان إليه، وبذلك يكسب وده وحبّه، ويمنع من تكرار الإساءة إليه فى مستقبل الزمان.

۵- إنّهم لا يصرّون على ذنب: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ».

«الفاحشة»: مشتقة أصلًا من الفحش، وهو كل ما اشتد قبحه من الذنوب، ولا يختص بالزنا خاصة، لأنّ الفحش يعنى «تجاوز الحد» الذى يشمل كل ذنب.

يستفاد من هذه الآية أنّ الإنسان لا يذنب مادام يتذكر اللَّه، فهو إنّما يذنب إذا نسى اللَّه تماماً واعترته الغفلة، ولكن لا يلبث هذا النسيان وهذه الغفلة- لدى المتقين- حتى تزول عنهم سريعاً ويذكرون اللَّه، فيتداركون ما فات منهم، ويصلحون ما أفسدوه.

إنّ المتقين يحسّون إحساساً عميقاً بأنّه لا ملجأ لهم إلّااللّه، فلابد أن يطلبوا منه المغفرة لذنوبهم دون سواه «وَمَن يَغْفِرُ الذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ».

ثم إنّه سبحانه تأكيداً لهذه الصفة قال: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

والآن جاء الدور ليذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب والجزاء اللائق.

وكان ذلك إذ قال سبحانه: «أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا».

لقد ذكر فى هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم وأبرز صفاتهم، وهذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، وجنات خالدات تجرى من تحتها الأنهار بدون إنقطاع أبداً.

ثم إنّه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: «وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ». أى: ما أروع هذا الجزاء الذى يُعطى للعاملين لا للكسالى، الذين يتهرّبون من مسؤولياتهم، ويتملّصون من التزاماتهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۴

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۳۷) هذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۸)

النظر فى تاريخ الماضين وآثارهم: يعتبر القرآن الكريم ربط الماضى بالحاضر والحاضر بالماضى أمراً ضرورياً لفهم الحقائق، لأنّ الإرتباط بين هذين الزمانين (الماضى والحاضر) يكشف عن مسؤولية الأجيال القادمة، ويوقفها على واجبها، ولهذا قال سبحانه:

«قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ».

وهذا يعنى أنّ للّهفى الامم سنناً لا تختص بهم، بل هى قوانين وسنن عامة فى الحياة تجرى على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، وهى سنن للتقدم والبقاء وسنن للتدهور والإندحار، التقدم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، والتدهور والإندحار لُلامم المتفرقة المتشتتة الكافرة الغارقة فى الذنوب والآثام.

ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير فى الأرض والنظر بإمعان وتدبر فى آثار الامم والشعوب التى سادت ثم بادت إذ يقول: «فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

ولما كان التعليم الإلهى العظيم- رغم كونه موجهاً إلى عامة المخاطبين- لا ينتفع به ولا يستلهمه إلّاالمتقون قال سبحانه تعقيباً على الآية السابقة: «هذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ».

أجل، إنّ المتقين الهادفين هم الذين يتعظون بهذه الامور لأنّهم يبحثون عن كل ما يعمق روح التقوى فى نفوسهم، ويزيد بصيرتهم بالحق.

وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳۹) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۱۴۰) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (۱۴۱) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (۱۴۲) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۱۴۳)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۵

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية تسلية للمؤمنين، لما نالهم يوم احد من القتل والجراح.

وفى تفسير القرطبى عن ابن عباس قال: انهزم أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم احد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن وليد بخيل من المشركين، يريد أن يعلوا عليهم الجبل؛ فقال النبى صلى الله عليه و آله: «اللهم لا يَعلُنّ علينا اللهم لا قوّة لنا إلّابك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر». فأنزل اللّه هذه الآيات.

التّفسير

دراسة نتائج غزوة أحد: فى الآية الاولى من هذه الآيات حذر القرآن المسلمين من أن يعتريهم اليأس والفتور بسبب النكسة فى معركة واحدة، وأن يتملكهم الحزن وييأسوا من النصر النهائى، قال سبحانه: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

والوهن المذكور فى الآية هو كل ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة والإيمان. تعنى أنّ هزيمتكم إنّما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان وآثارها، فلو أنّكم لم تتجاهلوا أوامر اللّه سبحانه لم يصبكم ما أصابكم، ولم يلحقكم ما لحقكم، ولكن لا تحزنوا مع ذلك، فإنّكم إذا ثبتم على طريق الإيمان كان النصر النهائى حليفكم، والهزيمة فى معركة واحدة لا تعنى الهزيمة النهائية.

ثم إنّه سبحانه يقول: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ». وبذلك يعطى للمسلمين درساً آخر للوصول إلى النصر النهائى.

و «القرح» جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشيء خارجى.

«وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ» «۱».

ففى هذا القسم يشير سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية وهى أنّه قد تحدث فى حياة البشر حوادث حلوة أو مرّة ولكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقاً، فالانتصارات والهزائم، والغالبية والمغلوبية، والقوة والضعف كل ذلك يتغير ويتحول، وكل ذلك يزول ويتبدل، فلا ثبات ولا دوام لشيء منها.

---

(۱) «الأيام»: جمع يوم يعبر به عن وقت طلوع شمس إلى غروبها، وقد يطلق على فترات الإنتصارات الكبرى فى حياة الشعوب، و «نداولها»: من المداولة بمعنى إذا صار الشيء من بعض القوم إلى البعض الآخر.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۲۶

ثم إنّه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

أى أنّ ذلك إنّما هو لأجل أن يتميز المؤمنون حقاً عن أدعياء الإيمان.

ثم إنّه فى قوله: «وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ» يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة وهى تقديم المسلمين بعض الشهداء فى هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أنّ هذا الدين لم يصل إليكم بالهيّن، فلا يفلت منكم كذلك فى المستقبل.

ثم إنّه تعالى يختم هذا الإستعراض للسنن والدروس والنتائج بقوله: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ». فهو لا ينصرهم ولا يدافع عنهم، ولا يمكّنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن اللّه فى الكون والحياة.

أجل، إنّ لمعركة «احد» وما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج وآثاراً، ومن نتائجها وآثارها الطبيعية أنّها كشفت عن نقاط الضعف فى الجماعة والثغرات الموجودة فى كيانها، وهى وسيلة فعالة ومفيدة لغسل تلك العيوب والتخلّص من تلك النواقص والثغرات، ولهذا قال سبحانه: «وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» «۱». أى أنّ اللّه أراد- فى هذه الواقعة- أن يتخلص المؤمنون من العيوب ويريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف.

وأمّا نتيجة هذه التربية والصياغة التى يتلقاها المؤمنون فى خضم المحن والمصائب وآتون الحوادث المرّة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك والكفر دحراً ساحقاً وكاملًا، وإلى هذا أشار بقوله: «وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» «۲».

ثم إنّه يفيدنا القرآن درساً من واقعة «احد» فى تصحيح خطأ فكرى وقع فيه المسلمون فيقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ».

أى هل تظنون أنّكم تنالون أوج السعادة المعنوية بمجرد اختياركم لإسم المسلم، أو بمجرد أنّكم حملتم العقيدة الإسلامية فى الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟

لو كان الأمر كذلك لكان هيناً جدّاً، ولكن ليس كذلك حتماً، فإنّه ما لم تطبق التعاليم التى تتبع تلك المعتقدات، فى واقع الحياة العملية لم ينل أحد من تلك السعادة العظمى شيئاً.

وهنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، ويعرف المجاهدون الصابرون عن غيرهم.

ثم إنّه كان هناك جماعة من المسلمين- بعد معركة «بدر» واستشهاد فريق من أبطال

---

(۱) «المحيص» والمحص أصله: تخليص الشيء ممّا فيه من عيب.

(۲) «المحق»: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وقل ضياؤه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۷

الإسلام- يتمنون الموت فى أحاديثهم ومجالسهم ويقولون: ليتنا نلنا الشهادة فى «بدر»، ومن الطبيعى أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين فى تمنيهم والبعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنية، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، ولكن لم يلبث هذا الوضع طويلًا، فسرعان ما وقعت معركة احد الرهيبة المؤلمة، فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة وبسالة وصدق وكرعوا كؤوس الشهادة، وحققوا أمانيهم، ولكن الذين كانوا يتمنونها كذباً وتظاهراً ما إن رأوا علائم الهزيمة التى لحقت بالجيش الإسلامى فى تلك الواقعة حتى فروا خوفاً وجبناً، وضناً بنفوسهم وأرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبّخهم وتعاتبهم إذ تقول: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ». فلماذا فررتم وهربتم من الشيء الذى كنتم تتمنونه طويلًا وكيف يفر المرء من محبوبه، وهو يراه وينظر إليه؟

وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (۱۴۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية أنّه لما ارجف بأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد قتل يوم احد واشيع ذلك، قال اناس: لو كان نبياً لما قتل. وقال آخرون: نقاتل على ما قاتل عليه، حتى نلحق به وارتد بعضهم وانهزم بعضهم. وكان سبب انهزامهم وتضعضعهم، إخلال الرماة لمكانهم من الشعب. وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نهاهم عن الإخلال به وأمّر عبد اللَّه بن جبير وهو أخو خوّات بن جبير، على الرماة وهم خمسون رجلًا وقال: «لا تبرحوا مكانكم، فإنّا لا نزال غالبين ما ثبتم بمكانكم».

التّفسير

لا لعبادة الشخصية وتقديس الفرد: تعلّم الآية الاولى من هاتين الآيتين حقيقة اخرى للمسلمين استلهاماً من أحداث معركة «احد» إذ تقول: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۸

قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ». وهذه الحقيقة هى أنّ الإسلام ليس دين عبادة الشخصية حتى إذا قتل النبى صلى الله عليه و آله ونال الشهادة فى هذه المعركة. إنّ عبادة الشخصية وتقديس الفرد من أخطر ما يصيب أية حركة جهادية ويهددها بالسقوط والانتهاء، فإنّ إرتباط الحركة أو الدين بشخص معين حتى لو كان ذلك هو النبى الخاتم صلى الله عليه و آله معناه توقف كل الفعاليات وكل تقدم بفقدانه وغيابه عن الساحة، وهذا النوع من الإرتباط هو أحد علائم النقص فى الرشد الاجتماعى.

ثم إنّه سبحانه يقول: «وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرُّ اللَّهَ شَيًا». يعنى أنّ العودة إلى الكفر والوثنية تضرّكم أنتم دون اللَّه سبحانه، لأنّ أمثال هذا التراجع لا يعنى سوى توقفكم فى طريق الخير والسعى نحو السعادة الكاملة، بل فقدان كل ما حصلتموه من العزة والكرامة والمجد بسرعة.

ثم إنّه لما كان هناك- فى معركة احد- أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات، وإنتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول صلى الله

عليه و آله كان من الطبيعى أن ينال صمودهم هذا وثباتهم التقدير اللائق، ولهذا قال سبحانه: «وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ». وبذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم وصمودهم، ووصفهم بالشاكرين لأنّهم أحسنوا الاستفادة والإنتفاع بالنعم فى سبيل اللَّه، وهذا أفضل مصاديق الشكر.

ثم إنّ جماعة كثيرة من المسلمين ارعبوا وزلزلوا لشائعة مقتل النبى فى احد- كما أسلفنا- إلى درجة أنّهم تركوا ساحة المعركة، وفروا بأنفسهم من الموت وحتى أنّ بعضهم فكر فى الردة عن الإسلام، فكان قوله سبحانه: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذِنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا». وهو يكرر توبيخهم، وتنبيههم إلى أنّ الموت بيد اللَّه، والفرار لا ينفع فى الخلاص من الأجل الإلهى.

ومن ناحية اخرى أنّ الفرار من المعركة لا يدفع الأجل كما أنّ مواصلة القتال والبقاء فى المعركة لا يقرب هو الآخر أجلًا.

وبعد عرض هذه الحقائق يعقب سبحانه على ما قال بقوله: «وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْأَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا». أى إنّ ما عمله الإنسان لا يضيع أبداً، فإن كان هدفه دنيوياً مادياً كما كان عليه بعض المقاتلين فى «احد» فإنّه سيحصل على ما يسعى إليه ويناله. وأمّا إذا كان هدفه أسمى من ذلك، وصب جهوده فى سبيل الحصول على الحياة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۹

الخالدة والفضائل الإنسانية بلغ إلى هدفه حتماً وأوتى ثواب الآخرة الذى هو أعظم من كل ثواب وأسمى من كل نتيجة، فلماذا إذن لا يصرف الإنسان جهوده، ويوظف ما أوتى من طاقات معنوية ومادية فى الطريق الثانى وهو الطريق الخالد السامى؟

وتأكيداً لهذه الحقيقة قال سبحانه مرة اخرى: «وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ».

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (۱۴۶) وَ مَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۱۴۷) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۴۸) المجاهدون السابقون: بعد استعراض حوادث معركة احد فى الآيات السابقة، جاءت الآيات الحاضرة لتحث المسلمين على التضحية والثبات وتشجعهم وتثبّتهم بذكر تضحيات من سبقوهم من أصحاب الرسل الماضين وأتباعهم المؤمنين الصادقين الأبطال، وتوبّخ ضمناً اولئك الذين فرّوا فى «احد» وحدّثوا أنفسهم بما حدّثوا إذ يقول سبحانه فى الآية الاولى من هذه الآيات: «وَكَأَيّن مّن نَّبِىّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ» «۱». فأنصار الأنبياء إذا واجهوا المصاعب والجراحات والشدائد فى قتالهم الأعداء لم يشعروا بالضعف والهوان أبداً، ولم يخضعوا للعدو أو يستسلموا له، ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى يحب مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثبتون ويصبرون فى القتال: «وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ».

فهؤلاء عندما كانوا يواجهون المشاكل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات وعدم الإنضباط لم يفكروا فى الإستسلام للأمر الواقع، أو يحدثوا أنفسهم بالفرار أو الإرتداد عن الدين والعقيدة بل كانوا يتضرعون إلى اللَّه يطلبون منه الصبر والثبات، والعون والمدد ويقولون: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

(۱) «ربّيون»: جمع «ربى» وزان «على» يطلق على من اشتد إرتباطه باللَّه عزّ وجلّ، ويكون مؤمناً عالماً، صامداًمخلصاً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۰

إنّهم بمثل هذا التفكر الصحيح والعمل الصالح كانوا يحصلون على ثوابهم دون تأخير، وهو ثواب مزدوج، أمّا فى الدنيا فالنصر والفتح، وأمّا فى الآخرة فما أعد اللَّه للمؤمنين المجاهدين الصادقين: «فَاتَيهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْأَخِرَةِ».

ثم إنّه سبحانه يعد هؤلاء من المحسنين إذ يقول: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (۱۵۰) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (۱۵۱) إنّ أعداء

الإسلام أخذوا- بعد معركة احد- يسعون فى إلقاء الفرقة فى صفوف المسلمين ببث سلسلة من الدعايات المسمومة، والمغلفة أحياناً بلباس النصيحة، والتحرّق على ما آل إليه المسلمون، وكانوا بالاستفادة من الأوضاع النفسية المتردية التى كان يمر بها جماعة من المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

الآية الاولى من هذه الآيات تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ». فهى تحذر المسلمين من إطاعة الكفار وتقول: إنّ إطاعة الكفار تعنى العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة فى طريق التكامل المعنوى والمادى فى ظل التعاليم الإسلامية.

ثم إنّه سبحانه يؤكد بأنّ لهم خير ناصر وولى وهو اللّه: «بَلِ اللَّهُ مَوْلَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ».

إنّه الناصر الذى لا يغلب، بل لا تساوى قدرته أية قدرة، فى حين ينهزم غيره من الموالى، ويندحر غيره من الأسياد.

ثم إنّه سبحانه يشير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسلمين فى أحرج الظروف، وأحلك المراحل إذ يقول: «سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». أى إنّنا كما ألقينا الرعب فى قلوب الكفار فى أعقاب معركة «احد» ورأيتم نموذجاً منه بأم أعينكم، سنلقى مثله فى قلوب الذين كفروا فيما بعد، ولهذا ينبغى أن تطمئنوا إلى المستقبل، ولا تأخذكم فى اللّه لومة

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳۱

لائم، ولا تهزكم ولا تزعزعكم شماتة شامت ووسوسة موسوس.

والجدير بالذكر أنّ الآية تعلل نشأة هذا الرعب الواقع فى قلوب الكفار كالتالى: «بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا».

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم وظلموا مجتمعاتهم ف: «مَأْوَيهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» وما أسوأه من مثوى ومآل.

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (۱۵۲) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۵۳) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۱۵۴) الهزيمة بعد الانتصار: قاتل المسلمون فى المرحلة الاولى من معركة «احد» بشجاعة خاصة، إلّاأنّ تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل والمحافظة عليه سبّب فى أن تنقلب الآية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳۲

وعندما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا اللّه سبحانه بالفتح والنصر، فلماذا هزمنا فى هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضرة جواباً على هذا السؤال، وتوضيحاً للعلل الحقيقية التى سببت تلك الهزيمة، وإليك فيما يلى تفسير جزئيات هذه الآيات وتفاصيلها:

قال سبحانه: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ» «۱».

يعنى أنّ عليهم أن لا يتوهموا بأنّ الوعد بالتأييد والنصر مطلق لا قيد له ولا شرط، بل كل الوعود الإلهية بالنصر مقيدة باتباع تعاليم اللّه بحذافيرها، والتمسك بأهدافها.

ثم إنّه سبحانه يقول بعد بيان هذه الحقيقة حول النصر الإلهى: «وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَيكُم مَّا تُحِبُّونَ».

ومن هذه العبارة التى هى إشارة إلى ما طرأ على وضع الرماة فى جبل «عينين» يستفاد بوضوح بأنّ الرماة الذين كلفوا بحراسة الثغر قد

اختلفوا فيما بينهم فى ترك ذلك الثغر ومغادرة ذلك الموقع فى الجبل فعصى فريق كبير منهم، (وهذا قد يستفاد من لفظة عصيتم التى تفيد أنّ الأغلبية والأكثرية من الرماة قد عصت وتجاهلت تأكيدات النّبى بالبقاء هناك).

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم وتنازعتم فى تلك اللحظات الحساسة البالغة الأهمية:

«مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ».

وهنا تغير مجرى الامور وانعكست القضية فبدّل اللَّه الإنتصار إلى الهزيمة ليمتحنكم وينبهّكم ويربّيكم: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ».

ثم إنّ سبحانه غفر لكم كل ما صدر وبدر منكم من عصيان وتجاهل لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله وما ترتب على ذلك من التبعات فى حين كنتم تستحقون العقاب وما ذلك إلّالأنّ اللَّه لا يضنّ بنعمة على المؤمنين ولا يبخل عليهم بموهبة: «وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

ثم إنّه سبحانه يذكّر المسلمين بموقفهم فى نهاية معركة «احد» فيقول: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَيكُمْ» «۲». أى تذكروا إذ فررتم من المعركة، ورحتم

---

(۱) «الحس»: القتل على وجه الاستئصال، وسمى القتل حساً لأنّه يبطل الحس.

(۲) «أخريكم»: بمعنى «ورائكم».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۳

تلوذون بالجبل أو تنتشرون فى السهل، تاركين رسول اللَّه وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين وهو يدعوكم من ورائكم ويناديكم قائلًا: «إليّ عباد اللَّه- إليّ عباد اللَّه فإنّي رسول اللَّه». وأنتم لا تلتفتون إلى الوراء أبداً، ولا تلبّون نداء النبى صلى الله عليه و آله.

وفى ذلك الوقت أخذت الهموم والأحزان تترى عليكم «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمّ» لِما أصابكم من النكسة ولفقدان مجموعة كبيرة من خيار فرسانكم وجنودكم ولِما بلغكم من شائعة قتل النبى صلى الله عليه و آله.

ولقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، وما أصابكم من الجراحات فى ساحة المعركة فى سبيل تحقيق الإنتصار «لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ».

«وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهو يعرف جيداً من ثبت منكم وأطاع وكان مجاهداً واقعياً ومن هرب وعصى.

إتسمت الليلة التى تلت معركة «احد» بالقلق والاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينة مرّة اخرى لاجتياح البقية الباقية من القوة الإسلامية.

بيد أنّه كان هناك بين المسلمين ثلة من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان فى «احد» فتابوا إلى اللَّه، واطمأنوا إلى وعود النبى الكريم صلى الله عليه و آله حول المستقبل.

وإلى هذا كله يشير الكتاب العزيز فى الآية الحاضرة إذ يقول: «ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ» «۱».

ثم إنّ القرآن الكريم يعمد إلى بيان واستعراض طبيعة ما كان يدور بين اولئك المنافقين وضعاف الإيمان من أحاديث وحوار، وما كان يدور فى خلدهم من ظنون وأفكار، إذ يقول:

«يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ».

إنّهم كانوا يظنون باللَّه ما كانوا يظنونه به أيام كانوا يعيشون فى الجاهلية، وقبل أن تبزغ عليهم شمس الإسلام فقد كانوا يتصورون أنّ اللَّه سيكذبهم وعده ويظنون أنّ وعود

(۱) «الأمنة»: أى الأمن، والنعاس هو النوم الخفيف.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳۴

النبى صلى الله عليه و آله غير محققة ولا صادقة وكان يقول بعضهم للآخر: «هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ».

أى هل سيصيبنا النصر ونحن فى هذه الحالة من السقوط والهزيمة، والمحنة والبلية؟ إنّهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من اللّه بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالًا. ولكن القرآن يجيبهم قائلًا: «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ». أى كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالًا والأمر كله بيد اللّه، وهو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلًا لذلك.

على أنّهم لم يظهروا كل ما كان يدور فى خلدهم من ظنون وأوهام وهواجس خوفاً من أن يُعدوا فى صفوف الكفار: «يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لَايُبْدُونَ لَكَ».

وكأنّهم كانوا يتصورون أنّ الهزيمة فى «احد» من العلائم الدالة على بطلان الإسلام، ولذا كانوا يقولون: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا ههُنَا». أى لو كنّا على حق لكسبنا المعركة، ولم نخسر كل هذه الأرواح والنفوس.

ولكنّ اللّه تعالى أجابهم وهو يشير فى هذه الإجابة إلى مطلبين:

الأوّل: إنّ عليكم أن لا تتوهموا بأنّ الفرار من ساحة المعركة، وتجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذى هو قدر لكل إنسان ولهذا يقول سبحانه: «قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ». فإنّ الذين جاء أجلهم، وحان حين موتهم لابدّ أن يموتوا ولا محالة هم مقتولون حتى لو كانوا فى مضاجعهم.

والثانى: إنّ هذه الحوادث لابد أن تقع حتى يبدى كل واحد مكنون صدره، ومكتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، وتتميز جواهر الرجال، هذا مضافاً إلى أنّ هذه الحوادث سبب لتربية الأشخاص شيئاً فشيئاً، ولتخليص نياتهم، وتقوية إيمانهم، وتطهير قلوبهم «وَلِيَبْتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ».

ثم فى ختام هذه الآية يقول سبحانه: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». ولذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليطهرها من كل ما تعلق بالنفوس والأفئدة من شوائب الشرك والنفاق والشك والتردد.

الذنب ينتج ذنباً آخر: هذه الآية ناظرة أيضاً إلى وقائع معركة «احد» وتقرر حقيقة اخرى للمسلمين، وهى أنّ الذنوب والانحرافات التى تصدر من الإنسان بسبب من

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳۵

وساوس الشيطان، تفرز آثاماً وذنوباً اخرى بسبب وجود القابلية الحاصلة فى النفس الإنسانية نتيجة الذنوب السابقة، والتى تمهد لذنوب مماثلة وآثام اخرى، وإلّا فإنّ القلوب والنفوس التى خلت وطهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فيها الوساوس الشيطانية، ولا تتأثر بها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِى وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸) استغلال المنافقين: كانت حادثة «احد» فرصة مناسبة للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشية. فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أوّلًا إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين ومحاولاتهم التخريبية وتحذير المسلمين منهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا».

«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ». أنّكم أيّها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثير هذه الكلمات المضلّة الغاوية، وكررتم نظائرها

ستضعف روحيتكم أيضاً، وستمتنعون أيضاً وحينئذ سيتحقق للمنافقين ما يصبون إليه، ولكن لا تفعلوا ذلك، وتقدموا إلى سوح الجهاد ليجعل اللَّه ذلک حسرة فی قلوب المنافقين المخذلين، أبداً.

ثم إنّ القرآن الكريم يرّد على خبث المنافقين وتسويلاتهم وتشويشاتهم بثلاث أجوبة منطقية هی:

١- إنّ الموت والحياة بيد اللَّه على كل حال، وأنّ الخروج والحضور فی ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئاً، وأنّ اللَّه يعلم بأعمال عباده جميعها: «وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

٢- ثم إنّكم حتى إذا متم أو قتلتم، وبلغكم الموت المعجل- كما يحسب المنافقون- فإنّكم لم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣۶

تخسروا شيئاً، لأنّ رحمة اللَّه وغفرانه أعظم وأعلى من كل ما تجمعه أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الإستمرار فی الحياة من الأموال والثروات «وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ». ٣- وبغضّ النظر عن كل ذلك فإنّ الموت لا يعنی الفناء والعدم حتى يخشى منه هذه الخشية ويخاف منه هذا الخوف، ويستوحش منه هذا الإستيحاش، إنّه نقلة من حياة إلى حياة أوسع وأعلى وأجل وأفضل، حياة مزيجة بالخلود موصوفة بالبقاء «وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ الجدير بالملاحظة فی هذه الآيات هو جعل الموت فی اثناء السفر، فی مصاف الشهادة فی سبيل اللَّه، لأنّ المراد بالسفر هنا هی تلك الأسفار التی يقوم بها الإنسان فی سبيل اللَّه ولأجل اللَّه كالسفر وشد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغی.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِی يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) الأمر بالعفو العام: هذه الآية ترتبط بواقعة «احد» لأنّه بعد رجوع المسلمين من «احد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأظهروا له الندامة من فعلتهم وموقفهم، وطلبوا منه العفو. فأصدر اللَّه سبحانه إلى نبيّه صلى الله عليه و آله أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئتهم ويستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب. إذ قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

ولقد أشير فی هذه الآية إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ألا وهی اللين مع الناس والرحمة بهم، وخلوه من الفظاظة والخشونة.

«الفظّ»:- فی اللغة- هو الغليظ الجافی الخشن الكلام و «غليظ القلب» هو قاسی الفؤاد الذی لا تلمس منه رحمة ولا يحس منه لين.

وهاتان الكلمتان وان كانتا بمعنى واحد هو الخشونة، إلّاأنّ الغالب استعمال الاولى فی

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٧

الخشونة الكلامية، واستعمال الثانية فی الخشونة العملية والسلوكية، وبهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله من لين ولطف تجاه المذنبين والجاهلين.

ثم إنّه سبحانه يأمر نبيّه بأن يعفو عنهم إذ يقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ».

وهذا الكلام يعنی أنّه سبحانه يطلب من نبيّه أن يعفو عنهم فيما بينه وبينهم، وأمّا ما بين اللَّه وبينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. وقد فعل الرسول الكريم صلى الله عليه و آله ما أمره به ربّه وعفى عنهم جميعاً.

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر اللَّه نبيّه صلى الله عليه و آله بأن يشاور المسلمين فی الأمر ويقف على وجهات نظرهم، وذلك إحياءاً لشخصيتهم، ولبث الروح الجديدة فی كيانهم الفكری والروحی اللذين أصابهما الفتور بعد الذی حدث، إذ يقول: «وَشَاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ».

صحيح أنّ كلمة «الأمر» فی قوله تعالى «وَشَاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ» ذات مفهوم واسع يشمل جميع الامور، ولكن من المسلم أيضاً أنّ النبی

صلى الله عليه و آله لم يشاور الناس فى الأحكام الإلهيّة مطلقاً، بل كان فى هذا المجال يتبع الوحى فقط.

بقدر ما يجب على المستشير أن يتخذ جانب الرفق واللّين فى المشورة مع مستشاريه يجب إتخاذ القرار الأخير بصرامة وحسم، وهذا هو ما يعبر عنه بالعزم فى قوله سبحانه فى هذا السياق إذ يقول: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

ثم إنّه سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين فى ختام الآية أن يتوكلوا على اللَّه فحسب لأنّه تعالى يحبّ المتوكلين إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ».

هذا ويستفاد من هذه الآية أنّ التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، وبعد الأخذ والاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتماً.

بعد أن يحث البارى سبحانه وتعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين فى هذه الآية- التى هى مكملة للآية السابقة- نتيجة التوكل وثمرته وفائدته العظمى فيقول: «إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ». وهو بهذا يشير إلى أنّ قدرة اللَّه فوق كل القدرات، فإذا أراد بعبد خيراً وأراد نصره وتأييده والدفاع عنه لم يكن فى مقدور أية قوة فى الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب عليه.

والكلام فى الآية السابقة موجه إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأمر له ولكنه فى هذه الآية موجه إلى جميع المؤمنين وكأنّها تقول لهم: إنّ عليهم أن يتوكلوا على اللَّه كما يفعل النبى صلى الله عليه و آله

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۸

ولهذا يختم هذه الآية بقوله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۱۶۱) الخيانة ممنوعة مطلقاً: بالنظر إلى الآية السابقة التى نزلت بعد الآيات المتعلقة بوقعة «احد» تعتبر هذه الآية ردّاً على بعض التعللات الواهية التى تمسك بها بعض المقاتلين.

فجاء القرآن يرد على زعمهم وتصورهم هذا فقال: «وَمَا كَانَ لِنَبِىّ أَن يَغُلَّ» «۱». أى إنّكم تصورتم وظننتم أنّ النّبى يخونكم، والحال أنّه ليس لنبى أن يغل ويخون أحداً.

إنّ اللَّه سبحانه ينزه فى هذه الآية جميع الأنبياء والرسل من الخيانة، ويقول: إنّ هذا الأمر لا يصلح- أساساً- للأنبياء، ولا يتناسب مع مقامهم العظيم.

ثم تقول: «وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ». أى أنّ كل من يخون سيأتى يوم القيامة وهو يحمل على كتفه وثيقة خيانته، أو يصحبه معه إلى المحشر، وهكذا يفتضح أمام الجميع، وتنكشف أوراقه وتعرف خيانته.

«ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». يعنى أنّ الناس يجدون عين أعمالهم هناك، ولهذا فهم لا يظلمون لأنّه يصل إلى كل أحد نفس ما كسبه خيراً كان أو شراً.

أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۱۶۳) المتخلفون عن الجهاد: تضمنت الآيات السابقة الحديث عن شتى جوانب معركة «احد» وملابساتها ونتائجها، وقد جاء الآن دور المنافقين وضعاف الإيمان من المسلمين الذين تقاعسوا عن الحضور فى «احد» تبعاً للمنافقين، فنزل قوله تعالى: «أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ». ولبى نداء النبى واتبع أمره بالخروج «كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

---

(۱) «الغلول»: تعنى الخيانة، وأصله تدرع الشىء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجارى بين الشجر، وهو الماء الذىيتسلل ويتسرب فيما بين الشجر ويدخل فيه، ويطلق الغليل على ما يقاسيه الإنسان فى داخله من العطش ومن شدة الوجد والغيظ، لهذا السبب.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۹

الْمَصِيرُ».

ثم يقول تعالى: «هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ». أى أنّ لكل واحد منهم درجة بنفسه ومكانة عند اللَّه.

ثم يقول سبحانه فى ختام هذه الآية: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». أى: أنّه سبحانه عالم بأعمالهم جميعاً فهو يعلم جيداً من يستحق أية درجة من الدرجات، بحيث تليق بنيّته وإيمانه وعلمه.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۱۶۴) النعمة الإلهية الكبرى: فى هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا وهى نعمة بعثة الرسول الأكرم والنبى الخاتم صلى الله عليه و آله وهو إجابة قوية على التساؤل الذى خالج بعض الأذهان من حديثى العهد بالإسلام بعد معركة احد وهو: لماذا لحق بنا ما لحق، ولماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ». أى إذا كنتم قد تحملتم كل هذه الخسائر، وأصبتم بكل هذه المصائب، فإنّ عليكم أن لا تنسوا أنّ اللَّه قد أنعم عليكم بأكبر نعمة، ألا وهى بعثه نبيّاً يقوم بهدايتكم وتربيتكم، فمهما تحملتم فى سبيل الحفاظ على هذه النعمة العظمى والموهبة الكبرى، ومهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، وحقير بالنسبة إليها.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول: «مِّنْ أَنفُسِهِمْ». إنّ إحدى مميزات هذا النبى هو أنّه من نفس الجنس والنوع البشرى، وذلك لكى يدرك كل احتياجات البشر وحتى يلمس آلام الإنسان وآماله، ثم يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية والتوجيه على ضوء هذه المعرفة.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول واصفاً مهمات هذا النبى العظيم: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». أى أنّه يقوم بثلاثة امور فى حقّهم:

۱- تلاوة آيات اللَّه على مسامعهم، وإيقافهم على هذه الآيات والكلمات الإلهية.

۲- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم وقلوبهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۰

۳- تزكية نفوسهم، وتنمية قابلياتهم الخلقية، ومواهبهم الإنسانية. ولكن حيث إنّ الهدف الأصلى هو «التربية» لذلك قدمت على «التعليم» مع أنّ الحال- من حيث الترتيب الطبيعى- تقتضى تقديم التعليم على التربية.

إنّ أهمية هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنّما تتضح تمام الوضوح وتتجلى تمام الجلاء عندما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، وملاحظة مدى التفاوت بينهما وهذا هو ما يعنيه قوله: «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

أ وَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۶۵) دراسة اخرى لمعركة احد: إنّ بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق وقلق بالغ لنتائج احد، فذكرهم اللَّه- فى هذه الآية- بثلاث نقاط هى:

۱- يجب أن لا تقلقوا لنتائج معركة معينة، بل عليكم أن تحاسبوا كل قضايا المجابهة مع العدو، وتزنوا المسألة من جميع أطرافها فلو أنّه أصابتكم على أيدى أعدائكم فى هذه المعركة مصيبة فإنّكم قد أصبتم أعداءكم ضعفها فى معركة اخرى (معركة بدر) لأنّهم قتلوا من المسلمين فى معركة «احد» سبعين ولم يأسروا أحداً بينما قتل المسلمون من المشركين فى معركة «بدر» سبعين وأسروا سبعين: «أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مّثْلَيْهَا».

۲- أنتم تقولون هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ «قُلْتُمْ أَنَّى هذَا». ولكن «قل» أيّها النّبى:

«هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ». أى: هو نابع من مواقفكم فى تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة فى أنفسكم.

۳- يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأنّ اللَّه قادر على كل شىء، فإذا أصلحتم أنفسكم، وأزلتم النواقص، وتخلصتم مما تعانون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، وأنزل عليكم نصره «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۶۶) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (۱۶۷)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۴۱

لابد أن تتميز الصفوف: تنوه الآيتان الحاضرتان بحقيقة هامة هى أنّ أيّة مصيبة (كتلك التى وقعت فى احد) مضافاً إلى أنّها لم تكن دون سبب وعلة، فإنّها خير وسيلة لتمييز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، ولذلك جاء فى القسم الأوّل من الآية الاولى: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذنِ اللَّهِ». أى: أنّ ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون والمشركون فهو بإذن اللَّه ومشيئته وإرادته لأنّ لكل ظاهرة فى عالم الكون المخلوق للَّه سبحانه سبباً خاصاً وعلة معينة.

ثم يقول سبحانه فى المقطع التالى من الآية: «وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا».

ثم إنّ القرآن الكريم يستعرض حواراً قد وقع بين بعض المسلمين، والمنافقين قبل المعركة بالشكل التالى: «وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا». فإنّ بعض المسلمين (وهو عبد اللَّه بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس) عندما رأى إنسحاب عبد اللَّه بن أبى سلول وانفصالهم عن الجيش الإسلامى، وإعتزامهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللَّه أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم إن لم تقاتلوا فى سبيل اللَّه.

ولكنهم تعللوا، واعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: «لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ». أى إنّنا نظن أنّ الأمر ينتهى بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم. فإنّ هذه كانت مجرد إعتذارات وتعللات، لأنّ الحرب كانت حتمية الوقوع، ولأنّ المسلمين إنتصروا فى بداية المعركة، وأمّا ما لحق بهم من الهزيمة والإنكسار فلم يكن إلّا بسبب أخطاء ومخالفات إرتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، ولذا يقول اللَّه سبحانه: «هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ». أى إنّهم يكذبون.

ثم علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ». أى إنّهم يظهرون خلاف ما يضمرون، ويبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد والنية، فإنّهم لإصرارهم على إقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبّهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركة، وامتنعوا عن المضى إلى احد فى صحبة المسلمين، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ». فإنّ اللَّه يعلم جيداً ما يخفونه ويضمرونه من النوايا.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۶۸)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۴۲

مزاعم المنافقين الباطلة: لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين فى القتال، والسعى فى إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة وبعد ما لحق بهم ما لحق قائلين: «لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا».

فيرد عليهم القرآن الكريم فى الآية الحاضرة قائلًا: «الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

لقد عبّر القرآن عن المؤمنين فى هذه الآية بأنّهم إخوان للمنافقين فى حين لم يكن المؤمنون إخواناً للمنافقين إطلاقاً، فما هذه الأنواع من الملامة والتوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنّكم أيّها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخواناً لكم فكيف تركتم نصرتهم فى هذه اللحظات الخطيرة؟ ولهذا أردف سبحانه هذه الكلمة «لِإِخْوَانِهِمْ» بكلمة «قَعَدُوا» أى تقاعسوا عن المشاركة فى المعركة.

وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۷۰) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۷۱)

الحياة الخالدة: إنّ الآيات الحاضرة نزلت فى شهداء «احد» وإن كان محتواها ومضمونها يعم حتى شهداء «بدر». فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كل هذه التصورات، وتذكر بمكانة الشهداء السامية ومقامهم الرفيع وتقول: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا».

والخطاب- هنا- متوجه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خاصة حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثم يقول سبحانه معقباً على العبارة السابقة: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

والمقصود من الحياة فى الآية هى «الحياة البرزخية» فى عالم ما بعد الموت، وإن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فللكثير من الناس حياة برزخية أيضاً ولكن إنّ حياة الشهداء محفوفة بالنعم والمواهب المعنوية العظيمة وكأنّ حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئاً يذكر بالنسبة إليها.

ثم إنّ الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، وما يكتنفها ويلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم إبتهاجهم بما أوتوا هناك فتقول: «فَرِحِينَ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۳

بِمَا ءَاتَيهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم إنّ السبب الآخر لإبتهاجهم ومسرتهم هو ما يجدونه ويلقونه من عظيم الثواب ورفيع الدرجات الذى ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة فى المعركة إذ يقول القرآن: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ».

ثم يردف هذا بقوله: «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». يعنى أنّ الشهداء يحسّون هناك وفى ضوء ما يرونه أنّ إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى حزن على ما تركوه فى الدنيا ولا أى خوف من الآخرة ووقائعها الرهيبة.

ثم إنّه سبحانه يقول: «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» «۱».

وهذه الآية مزيد تأكيد وتوضيح حول البشائر التى يتلقاها الشهداء بعد قتلهم واستشهادهم، فهم فرحون ومسرورون من ناحيتين:

الاولى: من جهة النعم والمواهب الإلهية التى يتلقونها.

والثانية: من جهة أنّهم يرون أنّ اللَّه سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين ... لا أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، ولا أجر المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم فى المعركة: «وَأَنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۲) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴) غزوة حمراء الأسد: قلنا إنّ جيش أبى سفيان المنتصر أسرع بعد إنتصاره فى معركة «احد» على الجيش الإسلامى يحثّ السير فى طريق العودة إلى مكة حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، وعزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له ولهم باقية.

ولما بلغ هذا الخبر إلى النبى صلى الله عليه و آله أمر مقاتلى احد أن يستعدوا للخروج إلى معركة اخرى مع المشركين.

---

(۱) «الاستبشار» يعنى الإبتهاج والسرور الحاصل بسبب تلقى بشارة أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغير من الأحبّة؛ وليست بمعنى التبشير والإبشار.

إِنَّمَا ذلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۴

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان وأدرك صمود المسلمين، خاف وارعب. هذا وقد حدثت فى هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وهى أنّه: مرّ برسول اللَّه «معبد الخزاعى» وهو يومئذ مشرك، فلما شاهد النبى وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنبى صلى الله عليه و آله: يا محمّد واللَّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى قومك وأصحابك، ثم خرج من عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وأجمعوا الرجعة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلما

رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قطّ يتحرقون عليكم تحرقاً. وقد اجتمع عليه من كان تخلّف عنه فى يومكم، وندموا على صنيعهم، وفيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط. فاهتزّ لذلك أبو سفيان ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكّة بسرعة، وحتى يتوقف المسلمون عن طلبه وملاحقته ويجد فرصة كافية للإنسحاب قال لجماعة من بنى عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: «اخبروا محمّداً إنّا قد أجمعنا الكرّة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثم انصرف إلى مكة.

ولما مرّت هذه الجماعة برسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو بحمراء الأسد أخبروه بقول أبى سفيان، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل». وبقى هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة، والآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة وملابساتها «۱».

يقول سبحانه: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ».

ثم إنّ القرآن الكريم يبين إحدى العلائم الحيّة لِاستقامتهم وثباتهم إذ يقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

ثم بعد ذكر هذه الإستقامة الواضحة وهذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ». وتأكيداً لهذا الأمر يقول القرآن: «لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ». مضافاً إلى أنّهم «اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ». إنّه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، والمجاهدين الصادقين.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۵

هذه الآية تعقيب على الآيات التى نزلت حول غزوة «حمراء الأسد». ويكون معنى هذه الآية هو: إنّ عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكى يخوفوا به أولياء الشيطان. يعنى أنّ هذه الوساوس إنّما تؤثر فى أتباع الشيطان وأوليائه خاصة.

إنّ التعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس ووصفهم ب «الشيطان» إمّا لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان، وإمّا أنّ المقصود من الشيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التى يطلق فيها اسم الشيطان على المصداق الإنسانى له.

ثم إنّه سبحانه يقول فى ختام الآية: «وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». يعنى أنّ الإيمان باللَّه والخوف من غيره لا يجتمعان.

وعلى هذا الإساس فإن وجد فى أحد الخوف من غير اللَّه كان ذلك دليلًا على نقصان إيمانه وتأثيره بالوساوس الشيطانية لأننا نعلم أنّه لا ملجأ ولا مؤثر بالذات فى هذا الكون العريض سوى اللَّه الذى ليس لأحد قدرة فى مقابل قدرته.

وَ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِى الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۷۶) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۷۷) مواساة القرآن للنبى صلى الله عليه و آله: الآية الأولى موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله فاللَّه تعالى يعزّى نبيه فى أعقاب أحداث «احد» المؤلمة قائلًا له: أيّها الرسول: «وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ». وكأنّهم يتسابقون إليه «إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا» بل يضرّون بذلك أنفسهم.

هذا مضافاً إلى أنّ اللَّه سوف لن ينسى مواقفهم المشينة ولن تفوته مخالفاتهم، وسيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: «يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فإنّ الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون فى الكفر فليس ذلك لأنّ اللَّه لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأنّ اللَّه أراد أن يكونوا أحراراً فى اتخاذ المواقف وسلوك الطريق الذى يريدون، ولا شك أنّ نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الربانية فى العالم الآخر. ثم يقرر القرآن هذه الحقائق فى الآية الثانية بشكل أكثر تفصيلًا إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا». يعنى

ليس الذين يتسابقون فى طريق الكفر ويسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال، بل كل الذين يسلكون طريق الكفر بشكل من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۶

الأشكال ويشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا اللَّه شيئاً، وإنّما يضرّون أنفسهم.

ويختم سبحانه الآية بقوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (۱۷۸) بعد تسلية خاطر النبى صلى الله عليه و آله فى الآيات السابقة توجّه سبحانه إلى الأعداء فى هذه الآية بالخطاب، وأخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم. يقول فيها سبحانه: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» «۱». تحذّر المشركين بأنّ عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العدة والعدد، وما يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، وما يمتلكونه من حرية التصرف، دليلًا على صلاحهم، أو علامة على رضا اللَّه عنهم.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۹) المسلمون فى بوتقة الاختبار والفرز: لم تكن قضية «المنافقين» مطروحة بقوة قبل حادثة معركة «احد» ولهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدواً لهم غير الكفار، ولكن الهزيمة التى أفرزتها «احد» وما دبّ فى المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضية لنشاط المنافقين المندسين فى صفوف المسلمين، وعلى أثر ذلك عرف المسلمون وأدركوا بأنّ لهم عدواً آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته ونشاطاته وهو «المنافقون» وكان هذا إحدى أهم معطيات حادثة «احد» ونتائجها الإيجابية. والآية الحاضرة التى هى آخر الآيات التى تتحدث- هنا- عن معركة «احد» وأحداثها، تبين وتستعرض هذه الحقيقة فى صورة قانون عام إذ تقول: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

---

(۱) «نملى»: مشتقة من الإملاء، وتعنى المساعدة والإعانة وتستعمل فى أكثر الموارد فى إطالة المدّة والإمهال الذى هو نوع من المساعدة، وقد جاءت فى الآية الحاضرة بالمعنى الثانى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۷

فلابد أن تتميز الصفوف، وتتم عملية الفرز بين الطيب الطاهر، والخبيث الرجس، وهذا قانون عام وسنّة إلهيّة، فليس كل من يدعى الإيمان، ويجد مكاناً فى صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره وتنكشف حقيقته فى الآخرة بعد الاختبارات الإلهية المتتابعة له.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال وهو: إذا كان اللَّه عالماً بسريرة كل إنسان وأسراره فلماذا لا يخبر بها الناس- عن طريق العلم بالغيب- ويعرفهم بالمؤمن والمنافق؟

إنّ المقطع الثانى من الآية وهو قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ». يجيب على هذا السؤال، أى إنّ اللَّه سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأنّ الوقوف على الأسرار لا يحلّ مشكلة، بل سيؤدى إلى الهرج والمرج وإلى تمزق العلاقات الاجتماعية.

والأهم من كل ذلك هو أنّه لابد أن تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية والسلوكية، ومسألة الاختبار الإلهى لاتعنى سوى هذا الأمر.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ». أى إنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على شىء من تلك الغيوب ويوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرسالية إلى ذلك.

إنّ المراد من المشيئة الإلهيّة هو «الإرادة المقرونة بالحكمة» أى إنّ اللَّه سبحانه يطلع على الغيب كل من يراه صالحاً لذلك، وتقتضى حكمته سبحانه ذلك.

ثم أنّه تعالى يـذكرهم- فى ختام الآيـة- أن يجتهـدوا لينجحوا فى هذا الامتحان ويخرجوا مرفوعى الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۸۰) طوق الأسر الثقيل: تبين الآيةُ الحاضرة مصير البخلاء فى يوم القيامة، اولئك الذين يبذلون غاية الجهـد فى جمع الثروة ثم يمتنعون عن الإنفاق فى سبيل اللّه، ولصالـح عباده. والآيـة هـذه وإن لم تتعرض صـراحة لذكر الزكاة وغيرها من الحقوق والفرائض المالية، إلّاأنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام خصصت هذه الآية وما وعد به فيها من الوعيد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۸

بمانعى الزكاة. تقول الآية أوّلًا: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَيهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ». ثم تصف مصير هؤلاء فى يوم القيامـة هكـذا: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيمَةِ». أى سـتكون تلـك الأموال التى بخلوا بها طوقاً فى أعناقهم فى ذلك اليوم الرهيب. ومن هـذه الجملـة يسـتفاد أنّ الأموال التى لم يـدفع صاحبها الحقوق الواجبة فيها، ولم ينتفع بها المجتمع، بل صـرفت فقط فى سبيل الأهواء الشخصـية، وربما صرفت فى ذلك السبيل بشكل جنونى، أو كدّست دون أى مبرر ولم يستفد منها أحد سيكون مصيرها مصـير أعمال الإنسان، أى أنّها- طبقاً لقانون تجسّم الأعمال البشرية- ستتجسم يوم القيامة وتتمثل فى شكل عذاب مؤلم يؤذى صاحبها ويخزيه.

ففى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الذى يمنع الزكاة يُحوّل اللّه ماله يوم القيامة شجاعاً من نار ... فيطوّقه إيّاه، ثم يقال له: الزمه كما لزمك فى الدنيا. وهو قول اللّه: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ» الآية».

ثم إنّ الآية تشير إلى نقطة اخرى إذ تقول: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يعنى أنّ الأموال سواء أنفقت فى سبيل اللّه أو لم تنفق فإنّها سـتنفصل فى النهايـة عن أصـحابها، ويرث اللّه الأرض والسـماء وما فيهما، فالأجدر بهم- والحال هذه- أن ينتفعوا من آثارها المعنوية، لا أن يتحملوا وزرها وعناءها، وحسرتها وتبعتها.

ثم تختم الآيـة بقوله تعـالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». أى إنّه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا انفقتم ما اوتيتموه من المال فى سبيل الصالح العام وخدمة المجتمع الإنسانى، ويجازى كلًا على عمله بما يليق.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (۱۸۱) ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۱۸۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: كتب النبى صلى الله عليه و آله إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۹

إلى إقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا للّهقرضاً حسناً (والمراد منه الإنفاق فى سبيل اللّه وإنّما عبّر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر وإثارتها لـدى الناس قـدراً أكبر) فدخل رسول النبى إلى بيت مدارسـتهم (حيث يتلقى اليهود دروساً فى دينهم) فوجد ناساً كثيراً منهم اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازورا فدعاهم إلى الإسـلام والصلاة والزكاة، فقال فنحاص: إن كان ما تقول حقّاً فإنّ اللّه إذن لفقير ونحن أغنيـاء، ولو كان غنياً لما استقرضـنا أموالنا! وهو يشـير إلى قوله تعالى: «مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» «۱». هذا مضافاً إلى أنّ «محمّـداً» يعتقـد أنّ اللّه نهاكم عن أكل الربا، وهو يعـدكم أن يضاعف لكم إذا انفقتم أضـعافاً مضاعفة، وهو يشـير إلى قوله تعالى: «يُرْبِى الصَّدَقَاتِ» «۲». ولكن فنحاص أنكر أنّه قال شيئاً من هذه فى ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه.

التّفسير

تقول الآيـة الاولى: «لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ». أى لو أنّ هؤلاء اسـتطاعوا أن يخفوا عن الناس مقالتهم

هذه فإنّ اللّه قد سمعها ويسمعها حرفاً بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع ويدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفية جدّاً أو الأصوات العالية جداً.

ثم يقول سبحانه: «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا». أي إنّ ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

إنّ المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة والتدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التى تبقى خالدة فى العالم حسب قانون بقاء «الطاقة- المادة».

ثم يقول: «وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ». أي إنّنا لا- نكتفى بكتابة مقالاتهم الكافرة الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جداً وهو قتلهم للأنبياء.

وأمّا تسجيل وكتابة أعمالهم فلم يكن أمراً اعتباطياً غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، ونقول لهم: ها هى نتيجة أعمالكم قد تجسدت فى صورة عذاب محرق ونقول: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

---

(۱) سورة الحديد/ ۱۱.

(۲) سورة البقرة/ ۲۷۶.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۰

مختصر الامثل ج ۱ ۳۷۹

إنّ هذا العذاب الأليم الذى تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم- أنفسكم- قد ظلمتم أنفسكم «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

ولقد نقل عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة أنّه قال: «وأيم اللّه ما كان قوم قط فى غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّابذنوب اجترحوها لأنّ اللّه ليس بظلّام للعبيد». الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۸۳) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (۱۸۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية فى جماعة من اليهود قالوا: يا محمّد إنّ اللّه عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أنّ اللّه بعثك إلينا فجئنا به نصدقك. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

مغالطات اليهود وتعللاتهم: كانت اليهود تتحجج وتجادل كثيراً بهدف التملّص من الإنضواء تحت راية الإسلام. ومن مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآية الحاضرة التى تقول:

«الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ».

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». وفى ذلك إشارة إلى زكريا ويحيى وطائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدى بنى‌اسرائيل.

ثم يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ».

وفى هذه الآية يسلى اللّه سبحانه النبى صلى الله عليه و آله ويقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك ولا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، وعارضوا دعوتهم بصلابة وعناد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۱

ولم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزوّدين بما يبرهن على صدقهم، بل «جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (۱۸۵) الموت وقانونه العام: تعقيباً على البحث حول عناد المعارضين وغير المؤمنين تشير هذه الآية- أوّلًا- إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء فى هذا الكون وتقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، ولابد أن يأتى ذلك اليوم الذى يزور فيه الموت كل أحد، ولا يكون أمامه- حينئذ- إلّاأن يفارق هذه الحياة.

إنّ المراد من «النفس» فى هذه الآية هو مجموعة الجسم والروح، وإن كانت النفس فى القرآن تطلق أحياناً على خصوص «الروح» أيضاً.

والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل.

ثم تقول الآية بعد ذلك: «وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ». أى إنّه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة اخرى هى مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالى الجزاء على الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناك حساب ولا عمل.

وعبارة «تُوفَّون» التى تعنى إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- يوم القيامة- وافياً وبدون نقيصة.

ثم قال سبحانه: «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ».

«زحزح»: تعنى محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شىء، وتخليصها من جاذبيته تدريجاً؛ و «فاز»: تعنى فى أصل اللغة النجاة من الهلكة ونيل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعها تعنى أنّ الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النار ودخلوا الجنة فقد نجوا من الهلكة ولقوا ما يحبونه وكأنّ النار تحاول بكل طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها ... حقّاً أنّ هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، وهى على درجة كبيرة من الجاذبية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۵۲

أليس للشهوات العابرة، واللذات الجنسية الغير المشروعة، والمناصب، والثروات الغير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟ ثم يقول سبحانه فى نهاية هذه الآية: «وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ».

وهذه الجملة تكمل البحث السابق وكأنّها تقول: إنّ هذه الحياة مجرد لهو ومتاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثب وجدها- على الأغلب- فراغاً فى فراغ وخواء فى خواء، وما متاع الغرور إلّاهذا.

إنّ هذه التعابير قد تكررت فى القرآن والأحاديث كثيراً، والهدف منها جميعاً شىء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية ولذاتها العابرة الفانية الزائلة هدفه الأخير، وأمّا الإنتفاع بالحياة المادية ومواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل الإنسانى والمعنوى فليس غير مذموم فقط، بل هو ضرورى وواجب.

لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۸۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة وابتعدوا عن دورهم وديارهم، راحت أيدى المشركين تطال أموالهم وتمتدّ إلى ممتلكاتهم، وتنالها بالتصرف والسيطرة عليها، وإيذاء كل من وقعت عليه أيديهم والإيقاع فيه بالهجاء والاستهزاء.

وعندما جاءوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين فى المدينة، خاصة كعب بن الأشرف الذى كان شاعراً سليط اللسان، وكان يهجو النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين ويحرّض المشركين عليهم ويشبب بنساء المسلمين.

فقال صلى الله عليه و آله: «من لى بابن الأشرف»؟ فقال محمد بن سلمة: أنا يا رسول اللّه. فخرج هو وأبو نائلة مع جماعة فقتلوه غيلة، وأتوا برأسه إلى النبى صلى الله عليه و آله آخر الليل، وهو قائم يصلى.

التّفسير

لا تتعبكم المقاومة: «لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ». أجل إنّ هذه الحياة ساحة اختبار

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۳

ودار امتحان، فلابد أن يتهيأ الإنسان لمواجهة كل الحوادث والمفاجئات الصعبة العسيرة، وهذا تحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأنّ الحوادث العسيرة فى حياتهم قد انتهت، أو أنّهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، وسلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه وشعره. ولهذا قال سبحانه: «وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا».

ثم إنّه سبحانه عقب على هذا الإنذار والتنبيه بقوله: «وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

وبهذا يبين القرآن وظيفة المسلمين وواجبهم فى أمثال هذه الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، ويدعوهم إلىالصبر والاستقامة والصمود و التزام التقوى فى مثل هذه الحوادث معلناً بأنّ هذه الامور من الامور الواضحة النتائج، ولذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (۱۸۷)

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة ومخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة اخرى من تلك الأعمال والمخالفات، ألا وهو كتمان الحقائق فتقول: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ». أى اذكروا إذ أخذاللّه مثل هذا الميثاق منكم.

من هذه التعابير يستفاد أنّ اللّه سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين آكد المواثيق والعهود من أهل الكتاب ولكن خانوا تلك العهود وتجاهلوا تلك المواثيق وأخفوا ما أرادوا إخفاءه من حقائق الكتب السماوية، ولهذا قال سبحانه عنهم: «فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ».

ثم إنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود وجشعهم وحبّهم المفرط للدنيا إذ يقول:

«وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ».

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) إلّاأنّها فى الحقيقة تحذير وإنذار لكل علماء الدين ورجاله بأنّ عليهم أن يجتهدوا فى تبليغ الحقائق وبيان الأحكام الإلهية، وتوضيحها وإظهارها بجلاء، وإنّ ذلك مما كتبه اللّه عليهم، وأخذ منهم ميثاقاً مؤكداً وغليظاً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۴

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۸۸) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۸۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: نزلت فى اليهود حيث كانوا يفرحون بإجلال الناس لهم ونسبتهم إيّاهم إلى العلم.

وقيل: نزلت فى أهل النفاق لأنّهم كانوا يجمعون على التخلف عن الجهاد مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله فإذا رجعوا اعتذروا وأحبّوا أن يقبل منهم العذر ويحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان.

التّفسير

إنّ الآية الحاضرة فى شأن علماء اليهود الذين يحرفون آيات الكتب السماوية تقول: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أن

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ». أى لا تحسبن أنّ هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا وينجون من العذاب، إنّما النجاة لمن يستحون- على الأقل- من أعمالهم القبيحة، ويندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئاً من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاة وحُرموا من الخلاص، بل «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ينتظرهم.

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول فى آية لاحقة: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». وهذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين وتهديداً للكافرين.

إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (۱۹۰) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (۱۹۲) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (۱۹۳) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (۱۹۴)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۵

أوضح السبل لمعرفة اللّه: آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكى يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التلاوة والقراءة إلّامقدمة لتحقيق هذا الهدف، أى التفكر والتدبر والفهم، ولهذا جاء القرآن فى الآية الاولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمة خلق السماوات والأرض، ويقول: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلفِ الَّيلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَاتٍ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ».

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبثوث فى كل ناحية من نواحى هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كل لبيب وعقله شدّاً- يجعله يتذكر خالقه، فى جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون فى فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ». أى إنّهم مستغرقون كامل الإستغراق فى التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه، ومبديه.

ولقد اشير- فى هذه الآية- إلى الذكر أوّلًا، ثم إلى الفكر ثانياً، ويعنى ذلك أنّ ذكر اللّه وحده لا يكفى، إنّ الذكر إنّما يعطى ثماره القيّمة إذا كان مقترناً بالفكر، كما أنّ التفكر فى خلق السماء والأرض هو الآخر لا يُجدى ولا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكر بعملية التذكر.

إنّ العقلاء يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلّاأن يقولوا بخشوع هذه الجملة: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ».

إنّ أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدفية فى الخليقة يتذكرون أنفسهم فوراً ويسألون اللّه التوفيق للقيام بها حتى يتجنّبوا عقابه ولهذا يقول: «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». ثم يقول: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء يخافون من الخزى قبل أن يخافوا من نار جهنم، وهذا هو حال كل من يمتلك شخصية، فإنّ أشدّ عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزى فى محضر اللّه وعند عباده.

على أنّ النقطة الجديرة بالاهتمام التى تنطوى عليها جملة «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» هى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۶

أنّ العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة وهى أنّ الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان ونجاته هى أعماله وممارساته، ولهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار. ثم إنّ أصحاب العقول وذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون والغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، وهى أنّ هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، ولهذا فهم يترصدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق وإخلاص ويستجيبون لأوّل دعوة يسمعونها منه ويسرعون إليه، ولهذا يقولون فى محضر ربهم:

«رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ». أى ربنا الآن وقد آمنّا

بكلّ وجودنا وإرادتنا، ولكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفة من كل جانب، فربّما نتزلق وربّما نزلّ ونرتكب معصية، ربنا فاغفر لنا زلتنا، واستر عثرتنا، وتوفّنا مع الأبرار الصالحين.

ثم إنّ هؤلاء العقلاء يطلبون من ربهم فى نهاية المطاف، وبعد أن يسلكوا طريق الإيمان والتوحيد وإجابة دعوة الأنبياء والقيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ». أى ربنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك ورسلك ولا تفضحنا ولا تلحق بنا الخزى يوم القيامة:

«وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنّكَ لَاتُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

هذه الآيات الخمسة التى تعد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، والتى امتزجت فيها مجموعة من معارف الدين بلحن لطيف وساحر من المناجاة والدعاء، فإذا هى نعمة سماوية تدغدغ المشاعر، وتثير الشعور، وتحرك ما غفا من العقل والضمير.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُوذُوا فِى سَبِيلِى وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (۱۹۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول اولى الألباب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۷

والعقول النّيرة ونتيجة أعمالهم. روى أنّ ام سلمة (وهى إحدى زوجات النبى صلى الله عليه و آله) قالت: يا رسول اللَّه! ما بال الرجال يذكرون فى الهجرة دون النساء؟ فأنزل اللَّه هذه الآية.

ولكن السبب المذكور لنزول الآية لا ينافى الإرتباط الذى أشرنا إليه بين هذه الآية والآيات السابقة.

التّفسير

النتيجة الطيّبة لموقف أولى الألباب: فى الآيات الخمس الآنفة استعرض القرآن الكريم موجزاً من إيمان اولى الألباب والعقول النّيرة، وفى هذه الآية يقول سبحانه:

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ».

ثم يضيف قائلًا: «أَنّى لَاأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم». دفعاً للإشتباه والتوهّم الذى قد يسبق إلى الذهن بأنّه لا إرتباط بين الفوز والنجاة، وبين أعمال الإنسان ومواقفه.

ثم إنّه سبحانه يقول: «مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ». وهذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهى يختص بطائفة معينة، لأنّ الجميع يعودون فى أصل الخلقة إلى مصدر واحد «بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ» أى تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، والرجال من النساء، فلا تفاوت فى هذه المسألة إذن بين الذكر أو الانثى، فلماذا يكون تفاوت فى الجزاء والثواب؟

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتّهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

ثم إنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيَاتِهِمْ». أى: إنّ اللَّه سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلًا من هذه المشاق والمتاعب التى نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيراً.

ثم يقول تعالى: «وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». مضافاً إلى غفران ذنوبهم والتكفير عنهم.

وهذا هو الثواب الإلهى لهم على ما قاموا به من تضحية وفداء «ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ». يعنى أنّ الأجر الإلهى والمثوبات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياة، بل يكفى أن يعلموا بأنّه أفضل وأعلى من أى ثواب.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۸

لَـا یَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِیـنَ کَفَرُوا فِی الْبِلَـادِ (۱۹۶) مَتـاعٌ قَلِیـلٌ ثُمَّ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (۱۹۷) لکِنِ الَّذِینَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ لِلْأَبْرَارِ (۱۹۸)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی مشرکی العرب، وکانوا یتجرون ویتنعمون بها، فقال بعض المسلمین: إنّ أعداء اللَّه فی العیش الرخیّ، وقد هلکنا من الجوع! فنزلت الآیة.

التّفسیر

سؤال مزعـج: السؤال الـذی مرّ ذکره فی سـبب نزول هـذه الآیات والذی کان یطرحه بعض المسـلمین فی عصـر النبی یعتبر سؤالًا عاماً یطرح نفسه علی الناس فی کل زمان ومکان. فإنّهم یرون کیف یتنعم العصاة والطغاة، والفراعنة والفساق، ویرفلون فی النعیم، ویعیشون الحیاة الرفاهیة ویقیسونه- غالباً- بحیاة الشدة والعسـرة التی یعیشها جماعة من المؤمنین، ویقولون متسائلین: کیف ینعم اولئک العصاة- مـع مـا هم علیه من الإـثم والفسـاد والجریمـة- بمثـل تلـک الحیـاة الرغیـدة، بینمـا یعیش هؤلاـء- مع مـا هم علیه من الإیمـان والتقوی والصلاح- فی مثل هذه الشدة والعسرة، وربّما أدی هذا الأمر ببعض ضعفاء الإیمان إلی الشک والتردد؟!

ولو أنّنـا درسـنا هـذا السؤال وحلّلنا عوامل الأمر وأسـبابه فی کلا الجانبین، لظهرت أجوبـة کثیرة علی هـذا التساؤل، وقـد أشارت هـذه الآیات إلی بعضـها، ویمکننا الوقوف علی بعضها الآخر بشیء من التأمل والفحص. تقول الآیة الاولی من هذه الآیات: «لَایَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی الْبِلدِ». والمخاطب فی هذه الآیة وإن کان شخص النبی الکریم صلی الله علیه و آله إلّاأنّ المراد هو عموم المسلمین.

ثم تقول: «مَتَاعٌ قَلِیلٌ». أی إنّ هذه النجاحات المادیة التی یحرزها المشـرکون، وهذه الثروات الهائلة التی یحصـلون علیها من کل سبیل لیست سوی متاع قلیل ولذة عابرة.

«ثُمَّ مَأْوَیهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ». فالملـذات المادیـة تسـتعقب عواقب سیئة، فإنّ مسؤولیـة هذه الأموال والثروات سـتجرّهم إلی مصـیر مشؤوم، ذلک هو الجحیم الذی

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۹

ستکون محطتهم الأخیرة ومآلهم وبئس المآل.

إنّ أکثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاة الطّغاة الظالمین محـدودة الأبعاد، کما أنّ متاعب أکثر المؤمنین ومشاکلهم ومحنهم کـذلک مؤقتة، ومحـدودة أیضاً. ولهـذا لا یمکن (أو لا تصـح) المقارنة والمقایسة بین هؤلاء وهؤلاء لأنّ النجاحات المادیة التی یحرزها بعض العصاة والفاسـقین إنّما هی لکونهم لا یتقیّدون فی جمع الثّروة بأی قید أو شـرط، فهم یجمعون المال من کل سبیل، سواء کان مشروعاً أم غیر مشـروع، حرامـاً کـان أم حلالًـا، بـل إنّهم یجوّزون لأنفسـهم اکتنـاز الثروة، فی حین یتقیّـد المؤمنون بمبـادیء الحق والعدالـة فی هـذا المجال، فلا یسوّغون لِأنفسهم بأن یکتسبوا المال من أی طریق کان، وأی سبیل اتفق.

ثم إنّ اللَّه سـبحانه بعـد أن بیّن مصـیر الکفار فی الآیـة السابقة، بیّن هنا- فی الآیة التی تلت تلک الآیة- مصـیر المؤمنین، إذ قال: «لکِنَّ الَّذِیـنَ اتَّقَـوْا رَبَّهُـمْ لَهُـمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِن تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِینَ فِیهَـا». أی إنّ الـذین اتبعـوا مـوازین الحـق والعـدل فی الوصـول إلی المکاسب المادیـة، أو أنّهم بسـبب إیمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادی والاجتماعی ولکنهم مع ذلک بقوا ملتزمین بالتقوی، فإنّه تعالی سیعوّضهم عن کل ذلک بجنّات تجری من تحتها الأنهار خالدین فیها «نُزُلًا مّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَیْرٌ لِّلْأَبْرَارِ».

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَمَنْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ خَاشِعِینَ لِلَّهِ لَا یَشْتَرُونَ بِآیَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِیلًا أُولئِکَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۱۹۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: اختلفوا فى نزولها فقيل: نزلت فى النجاشى ملك الحبشة وذلك أنّه لمّا مات نعاه جبرائيل لرسول اللّه فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول اللّه: «اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». قالوا: ومن؟ قال: «النجاشى». فخرج رسول اللّه إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشى، وصلّى عليه. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلّى على عِلْج نصرانى حبشى لم يره قطّ وليس على دينه! فأنزل اللّه هذه الآية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۶۰

التّفسير

الآية الحاضرة بعد أن وبّخت كثيراً من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات اللّه وطغيانهم وتمردهم فى الآيات السابقة ذكرت هذه القلة المؤمنة، وبيّنت خمساً من صفاتها الممتازة هى: ۱- «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ». أى: إنّهم يؤمنون باللّه عن طواعية وصدق.

۲- «وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ». أى: يؤمنون بالقرآن.

۳- «وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ». أى: إيمانهم بنبى الخاتم نابع من إيمانهم بكتبهم السماوية الواقعية التى بشّرت بهذا النبى ودعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم يؤمنون بكتبهم.

۴- «خَاشِعِينَ لِلَّهِ». أى: إنّهم مسلمون لأمر اللّه وخاضعون لإرادته، وهذا التسليم والخضوع هو السبب الحقيقى لإيمانهم، وهو الذى فرّق بينهم وبين العصبيات الحمقاء، وحرّرهم من التعنت والاستكبار تجاه منطق الحق.

۵- «لَايَشْتَرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا». أى: إنّهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الذين يحرّفون آيات اللّه حفاظاً على مراكزهم وإبقاءاً على حاكميتهم على أقوامهم وجماعاتهم، وصولًا إلى بعض المكاسب المادية.

وسيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية و هذا الموقف الواضح الحى، أجرهم عند ربّهم «أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ».

«إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» فلا يتأخّر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطىء عن مجازاة المنحرفين والظالمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰) هذه الآية هى آخر الآيات من سورة آل عمران وتحتوى على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامة المسلمين وهى لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا».

۱- «اصْبِرُوا»: إنّ أوّل مادة فى هذا البرنامج الذى يكفل عزّة المسلمين وإنتصارهم هو الاستقامة والثبات، والصبر فى وجه الحوادث.

۲- «وَصَابِرُوا»: وهى من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر والاستقامة

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۶۱

والثبات فى مقابل صبر الآخرين وثباتهم واستقامتهم.

فإنّ القرآن يوصى المؤمنين أوّلًا بالصبر والاستقامة (التى تشمل كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، والاستقامة فى مواجهة مشاكل الحياة)، ثم يوصى ثانياً بالصبر والثبات والاستقامة أمام الأعداء، وهذا بنفسه يفيد أنّ الامة ما لم تتغلب وتنتصر فى جهادها مع النفس، وفى إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل إنتصارها على الأعداء، وهذا يعنى أنّ أكثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هى بسبب ما لحق بها من هزائم فى جبهة الجهاد مع النفس وما أصابها من إخفاقات فى إصلاح نقاط الضعف التى تعانى منها.

۳- «وَرَابِطُوا»: وهذه العبارة مشتقة من مادة «الرباط» وتعنى ربط شىء فى مكان (كربط الخيل فى مكان) و «المرابطة» بمعنى مراقبة الثغور وحراستها لأنّ فيها يربط الجنود أفراسهم.

وهذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، وأن يكونوا فى حالة تحفّز وتيقظ ومراقبة مستمرة لثغور البلاد الإسلامية وحدودها حتى لا يفاجؤا بهجمات العدو المباغتة.

۴- «وَاتَّقُوا اللَّهَ»: وهذا بمثابة المظلة الواقية لما سبقها من التعاليم أنّه حثّ على التقوى.

«لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وهكذا تختم الآية هذا البرنامح بذكر النتيجة التى تنتظر كل من يطبق هذا البرنامج.

«نهاية تفسير سورة آل عمران»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۳

۴. سورة النساء

هـذه السورة تقع من حيث ترتيب النزول بعـد سورة الممتحنة، لأنّ الترتيب الفعلى للسور القرآنية لا يطابق ترتيبها فى النزول، بمعنى أنّ كـثيراً من السور الـتى نزلت فى مكـة تقع فى الترتيب الحاضـر فى آخر القرآن الكريم وكثيراً من السور التى نزلت فى المدينـة تقع فى أوائل القرآن.

إنّ هذه السورة تعتبر- من حيث عدد الكلمات والأحرف- أطول السور بعد سورة البقرة وتحتوى على (۱۷۶) آية وتسمّى بسورة النساء نظراً لتضمنها أبحاثاً كثيرة وحديثاً مفصلًا حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

محتوى السورة: هـذه السورة نزلت فى المدينـة، بمعنى أنّ النـبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله عنـدما كـان مقبلًا على تأسـيس حكومة إسـلامية وتكوين مجتمع إنسانى قويم، نزلت هذه السورة وهى تحمل جملة من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية. إنّ المواضيع المختلفة التى تحدثت عنها هذه السّورة هى عبارة عن:

۱- الدعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، والخصوم المعاندين.

۲- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۴

۳- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

۴- قانون الإرث والتوارث بنحو طبيعى وعادل.

۵- القوانين المتعلقة بالزواج والبرامج التى تصون العفاف العام.

۶- القوانين العامة لحفظ الأموال العامة.

۷- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامى وتحذير المسلمين منهم.

۸- الحكومة الإسلامية ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

۹- أهمية الهجرة ووجوبها.

فضـيلة تلاوة هذه السورة: روى فى تفسـير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأها فكأنّما تصدّق على كل مؤمن ورث ميراثاً، واعطى من الأجر كمن اشترى محرّراً».

ومن البيّن أنّ المقصود فى هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التى تكون مقدمة للفهم والإدراك الذى هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السورة فى الحياة الفردية والاجتماعية.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَ نِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱) مكافحة التمييزات والإستثناءات: الخطاب فى الآية الاولى من هذه السورة موجّه إلى كافة أفراد البشر، لأنّ محتويات هذه السورة نفس الامور التى يحتاج إليها كل أفراد البشر فى حياتهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ».

ثم إنّ الآيـة تـدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأىّ برنامـج إصـلاحى للمجتمع، فاداء الحقوق والتقسـيم العادل للثروة، وحماية الأيتام، ورعاية الحقوق العائلية، وما شابه ذلك كلها من الامور التى لا تتحقق بدون التقوى، ولهذا تفتتح هذه السورة- التى تحتوى على جميع

هذه الامور- بالدعوة إلى التزام التقوى: «اتَّقُوا رَبَّكُمُ».

وللتعريف باللَّه الذى يراقب كل أعمال الإنسان وتصرفاته اشير فى الآية إلى واحدة من صفاته التى تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية فى عالم البشر: «الَّذِى خَلَقَكُم مّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ». والمراد من «نفس واحدة» هو أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب «آدم» ويعتبره أبا البشر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۵

ثم إنّ قوله تعالى: «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا». والمراد منها هو أنّ اللَّه سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أى جنس البشر).

ووفقاً لرواية منقولة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه كذّب بشدة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح بأنّه خلقت من فضل الطينة التى خلق منها آدم.

قال سبحانه: «وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً». هذه العبارة يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تمّ عن طريق آدم وحواء فقط، أى بدون أن يكون للموجود الثالث أى دخالة فى ذلك.

إنّ أهمية التقوى، ودورها فى بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت فى أن تذكر مجدداً فى نهاية الآية الحاضرة، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنّه تعالى أضاف إليها جملة اخرى إذ قال: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ». أى اتقوا اللَّه الذى هو عندكم عظيم، وتذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوائجكم فيما بينكم.

ثم إنّه يقول: «وَالْأَرْحَامَ». ومعناها: واتقوا الأرحام ولا تقطعوا صلاتكم بهم.

إنّ ذكر هذا الموضوع هنا يدلّ على الأهمية الفائقة التى يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم.

ثم يختم الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا». أى إنّه يحصى عليكم نيّاتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنّه هو الذى يحفظكم أمام الحوادث.

والرقيب أصله من الترقب وهو الإنتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس لأنّ الحراسة من لوازم الترقب والنظارة.

وَ آتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (۲)

سبب النّزول

فى الدر المنثور: إنّ رجلًا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه فخاصمه إلى النبى صلى الله عليه و آله فنزلت الآية: «وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ».

التّفسير

لا ... للخيانة فى أموال اليتامى: كثيراً ما يحدث فى المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۶

صغار أباءهم بسبب الحوادث والنكبات والكوارث. وفى هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى: ۱- «وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ». أى يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندكم، ويكون تصرفكم فى هذه الأموال على نحو تصرف الأمين والناظر والوكيل لا على نحو تصرف المالك.

۲- «وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ». أى لا تأخذوا أموالهم الطيبة وثرواتهم الجيدة وتضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة والمغشوشة، وهذا التعليم يهدف إلى المنع مما قد يرتكبه بعض القيّمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم والرفيع منه وجعل الخسيس والردىء مكانه، بحجة أنّ هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنّه لا تفاوت بين ماله والبديل، أو لأنّ بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياع وغير ذلك من الحجج والمعاذير.

۳- «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ». يعنى لا تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملّك الجميع، أو أنّ المراد لا

تخلطوا الجيد من أموالهم بالردىء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى وضياع حقوقهم.

ثم إنّه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: «إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا». «الحوبة»: حقيقتها هى الحاجة التى تحمل صاحبها على إرتكاب الإثم وحيث إنّ العدوان على أموال اليتامى ينشأ- فى الأغلب- من الحاجة، أو بحجة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم فى هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ تَعُولُوا (۳)

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآية- فى تفسير القرطبى- سبب نزول خاص. قيل: هى اليتيمة تكون فى حجر وليّها تشاركه فى ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوّجها من غير أن يُسقِط فى صداقها فيُعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهنّ إلّاأن يُسقطوا لهنّ ويبلُغوا أعلى سنّتهنّ من الصّداق وامروا أن ينكحوا ما طاب من النساء سِواهنّ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۷

التّفسير

يقول سبحانه فى هذه الآية: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَثَ وَرُبَعَ». وقد جاء هذه الآية بعد ما جاء فى الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف وعدم التفريط فيها، فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المرّة يتعلق باليتيمات خاصة.

يعنى إنّ عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنباً من الجور عليهن، وأن تتزوجوا بالنساء اللاتى لا تسمح مكانتهنّ الاجتماعية والعائلية بأن تجوروا عليهن، وتظلموهن، ويجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ بإثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما فى الأمر حيث إنّ الخطاب هنا موجّه إلى عامة المسلمين، عبر بالمثنى، والثلاث، والرباع فلا شك فى أنّ تعدد الزوجات- بالشروط الخاصة- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

ثم إنّه سبحانه عقّب على ذلك بقوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً». أى التزوج بأكثر من زوجة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهن، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكى لا تجوروا على أحد.

ثم يقول: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». أى: يجوز أن تقتصروا على الإماء اللّاتى تملكونهن بدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخفّ شروطاً.

ويقول: «ذلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا». أى: أنّ هذا العمل أحرى بأن يمنع من الظلم والجور، ويحفظكم من العدوان على الآخرين.

وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴) «النّحلة»: فى اللغة تعنى العطية؛ و «صدقاتهن»: جمع الصداق وهى بمعنى المهر. والآية الحاضرة التى جاءت بعد البحث المطروح فى الآية السابقة حول انتخاب الزوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلّمة وتؤكد قائلة: «وَءَاتُوا النّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً». أى:

أعطوا النساء كامل مهرهن الذى هو عطية من اللَّه لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر فى المجتمع وينجبر بهذا الأمر ما فيهن من ضعف جسمى نِسبى.

ثم بعد أن يأمر اللَّه سبحانه فى مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة ودون نقصان حفظاً لحقوقهن، يعمد فى ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه إحترام مشاعر كلا الطرفين،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۸

ومن شأنه تقوية أواصر الودّ والمحبة والعلاقة القلبية وكسب العواطف إذ يقول: «فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيًا مَّرِيًا». أى: لو تنازلت الزوجة عن شيء من المهر ووهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، وإنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا

تكون البيئة العائلية والحياة الزوجية ميداناً لسلسلة من القوانين والمقررات الجافة، بل يكون مسرحاً للتلاقى العاطفى الإنسانى، وتسود فى هذه الحياة المحبة جنباً إلى جنب مع المقررات والأحكام الحقوقية المذكورة. الصّداق دعامة إجتماعية للمرأة: لما كانت المرأة- فى العصر الجاهلى- لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها- الذى هو حقها المسلم- إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقّاً مسلماً لهم لا لها، وربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لإمرأة اخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، وكان هذا هو صداق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصداق حقّاً مسلماً خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مرّات عديدة وفى آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

وأمّا تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطىء، واعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأنّ الإسلام لا يعطى للصداق الذى يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطى المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع والشراء، وأفضل دليل على ذلك هو صيغة عقد الزواج الذى يعتبر فيه الرجل والمرأة كركنين أساسيين فى الرابطة الزوجية، فى حين يقع الصداق والمهر على هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد اسم المهر فيه، و ليس كذلك فى صيغة البيع والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدون ذكر الثمن تبطل هذه المعاملات.

من كل ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التى تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالنّحلة التى هى بمعنى العطية فى الآية إشارة إلى هذه النقطة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۶۹

وَ لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۵) وَ ابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَ بِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (۶) الآيات الحاضرة تكملة للأبحاث المرتبطة باليتامى، التى مرّت فى الآيات السابقة. يقول اللَّه سبحانه: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ». بل انتظروا رشدهم ونضجهم فى المسائل الاقتصادية لكى لا تتعرض أموالكم للتلف والفناء.

والمراد من السّفه فى الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم فى الامور الإقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الاقتصادية وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا يتمكن من ضمان منافعه فى المبادلات والمعاملات المالية، ويدل على هذا المعنى ما جاء فى الآية الثانية إذ يقول سبحانه: «فَإِن ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ».

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت تبحث حول اليتامى، لكنها تتضمن حكماً كلياً وقانوناً عاماً لجميع الموارد، وهو أنّه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطى أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الإرتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد.

ثم إنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة فى مطلع الآية الحاضرة بقوله: «الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». هو تعبير جميل ورائع جدّاً عن الأموال والثروات، فهى قوام حياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء والمسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها.

ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالامور والشؤون الاقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم أنّه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات» «۱».

---

(۱) إنجيل متى الإصحاح/ ۱۹- ۲۳.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۷۰

فی حین یری الإسلام أنّ الامة الفقیرة لا تستطیع أبداً الوقوف علی قدمیها. وأنّه لعجیب أن نری تلک الطائفة بلغت إلی ما بلغت من المراتب فی عالمنا الراهن فی حقول التقدم الاقتصادی مع ما هم علیه من التعالیم الخاطئة، فی حین نعانی من هذا الوضع المأسوی مع ما نملک من التعالیم الحیویة العظیمة. غیر أنّه لا داعی للعجب، فهم ترکوا تلک الخرافات والأضالیل فوصلوا إلی ما وصلوا، بینما ترکنا نحن هذه التعالیم الراقیة فوقعنا فی هذه الحیرة، والتخلف.

ثم إنّ اللَّه سبحانه یأمر- فی شأن الیتامی- بأمرین مهمین هما:

أوّلًا: رزق الیتامی وإکسائهم من أموالهم حتی یبلغوا سنّ الرشد إذ یقول: «وَارْزُقُوهُمْ فِیهَا وَاكْسُوهُمْ».

ثانیاً: مخاطبة الیتامی والتکلم معهم بقول طیب ورقیق إذ قال سبحانه: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا». وذلک لإزالة ما یشعر به الیتامی من نقصان روحی وعُقد نفسیة، ویساعدوا بذلک علی ترشیدهم وبلوغهم حد الرشد العقلی، وبهذا یکون بناء شخصیة الیتیم وترشیده عقلیاً من وظائف الأولیاء ومسؤولیاتهم أیضاً.

ها هنا تعلیم آخر فی شأن الیتامی وأموالهم، إذ یقول سبحانه: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ». فإذا بلغوا سنّ الرشد الذی آنستم فیه قدرتهم علی إدارة أموالهم والتصرف فیها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: «فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» «۱».

ثم إنّه سبحانه قال: «وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا». وهو تأکید آخر للأولیاء بأن لا یسلموا الأموال إلی الیتامی قبل أن یکبروا بأن یحافظوا علی أموال الیتامی ولا یتلفوها أبداً.

ثم إنّه تعالی یردف هذا التأکید بقوله: «وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ». وبهذا أذن اللَّه تعالی للأولیاء بأن یأخذوا لأنفسهم من أموال الیتامی لقاء ما یتحملون من أتعاب فی حفظها، وحراستها، علی أن یراعوا جانب العدل والإنصاف فیما یأخذونه بعنوان الاجرة، هذا إذا کان الولی فقیراً، أما إذا کان غنیاً فلا یأخذ من مال الیتیم

---

(۱) «الإیناس»: بمعنی المشاهدة والرؤیة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۷۱

شیئاً أبداً.

ثم یقول سبحانه: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ». لکی لا یبقی أی مجال للإتهام والتنازع، وهذا هو آخر حکم فی شأن الأولیاء والیتامی جاء ذکره فی هذه الآیة.

واعلموا أنّ الحسیب الواقعی هو اللَّه تعالی، والأهم من ذلک هو أنّ حسابکم جمیعاً عنده ولا یخفی علیه شیء أبداً ولا یفوته صغیر ولا کبیر فإذا بدرت منکم خیانة خفیت علی الشهود فإنّه سبحانه سیحصیها علیکم، وسوف یحاسبکم علیها ویؤاخذکم بها: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۷)

سبب النّزول

فی الدر المنثور عن ابن عباس قال: کان أهل الجاهلیة لا یورثون البنات ولا الصغار الذکور حتی یدرکوا فمات رجل من الأنصار یقال له أوس بن ثابت وترک ابنتین وابنا صغیراً فجاء ابنا عمّه وهما عصبته فأخذا میراثه کله فقالت امرأته لهما تزوجا بهما وکان بهما دمامة فأبیا فأتت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقالت یا رسول اللَّه توفی أوس وترک ابنا صغیراً وابنتین فجاء ابنا عمه خالد وعرفطة فأخذا میراثه فقلت لهما تزوجا ابنتیه فأبیا فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ما أدری ما أقول، فنزلت الآیة.

التّفسیر

خطوة اخری لحفظ حقوق المرأة: هذه الآیة مکملة للأبحاث التی مرّت فی الآیات السابقة، لأنّ العرب الجاهلیین کانوا- حسب

تقاليدهم وأعرافهم الظالمة- يمنعون النساء والصغار من حق الإرث، ولا يسهمون لهم من المواريث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطىء الظالم إذ قال سبحانه: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ».

ثم قال سبحانه فى ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع: «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا». حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد فى هذا المجال.

وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (٨)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۲

حكم أخلاقى: نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث ويتضمن محتوى هذه الآية حكماً أخلاقياً إستحبابياً فى شأن طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث.

إنّ كلمتى «اليتامى» و «المساكين» وإن ذكرتا بنحو مطلق فى هذه الآية، غير أنّ الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى والمساكين من قربى الميت.

ثم إنّه سبحانه يختم هذه الآية بدستور أخلاقى إذ يقول: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا». يعنى أنّه مضافاً إلى تقديم مساعدة مادية إلى هؤلاء اشفعوا ذلك بموقف أخلاقى واستفيدوا من المعين الإنسانى لكسب مودتهم، وحتى لا يبقى فى قلوبهم أى شعور عدائى تجاهكم، وهذا الدستور علامة اخرى ودليل آخر على أنّ الأمر بإعطاء شىء من الميراث إلى اليتامى والمساكين إنّما هو على نحو الندب لا الوجوب.

وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٩) دعوة إلى العطف على اليتامى: يشير القرآن الكريم- بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامى- إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هى: إنّ على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

وعلى هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ». هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة فى شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إيذائهم.

وأساساً: إنّ القضايا الإجتماعية تنتقل فى شكل سنّة من السنن- من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يُروّجون فى المجامع سنّة ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإنّ ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنّة على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد آذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ويتاماه أيضاً. لهذا وجب أن يتجنّب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهية، ويتقوا اللّه فى اليتامى ويقولوا لهم قولًا عدلًا موافقاً للشرع والحق، قولًا ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۳

الأخوية، لكى يندمل بذلك ما فى قلوب اولئك من الجراح، وينجبر ما فى أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

إنّ هذا التعليم الإسلامى إشارة إلى ناحية نفسية فى مجال تربية اليتامى وهى: إنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر فى الطعام والكساء، بل- مضافاً إلى الرعاية الجسدية- أن يحظى بالرعاية الروحية والعناية العاطفية، وإلّا نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقداً خطيراً.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠) الوجه الحقيقى لأفعال البشر: ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف فى أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع وغير صحيح، والآية الحاضرة هى أوضح هذه العبارات. تقول هذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا».

ثم إنّه سبحانه يقول فى بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: «وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا».

ويستفاد من هـذه الآيـة أنّ لأعمالنا مضافاً إلى وجهها الظاهرى وجهاً واقعياً أيضاً، وجهاً مستوراً عنّا فى هـذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، ولكنه يظهر فى العالم الآخر، وهذا الأمر هو ما يشكل مسألة تجسم الأعمال المطروحة فى المعتقدات الإسلامية.

إنّ القرآن يصرح فى هـذه الآيـة بـأنّ الـذين يـأكلون أموال اليتـامى ظلمـاً وجوراً، وإن كان الوجه الظاهرى لفعلهم هـذا هو الأكل من الأطعمـة اللذيـذة الملونة، ولكن الوجه الواقعى لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، وهذا الوجه هو الذى يظهر ويتجلّى على حقيقته فى عالم الآخرة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۴

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (۱۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن جابر بن عبـداللَّه الأنصارى أنّه قال: مرضت فعادنى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فاغمى علىّ، فـدعا بماء فتوضأ ثم صبّه علىّ فأفقت، فقلت: يا رسول اللَّه! كيف أصنع فى مالى؟ فسكت رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فنزلت آيـة المواريث فىّ.

التّفسير

قال اللَّه تعالى فى الآيةِ الاولى من هذه الآيات: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظّ الْأُنْثَيَيْنِ». وهو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الاولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والامهات).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۵

وهذا نوع التأكيد على توريث النساء ومكافحة للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث والميراث، حرماناً كاملًا.

ثم يقول سبحانه وتعـالى: «فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ». أى لو زادت بنـات الميت على اثنتين فلهنّ الثلثان أى قسّـم الثلثان بينهن.

ثم قال: «وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النّصْفُ». أى لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

لمـاذا يرث الرجل ضـعف المرأة؟ إذا راجعنا التراث الإسـلامى حيث إنّ هـذا السؤال نفسه قـد طرح منـذ بدايـة الإسـلام وخالـج بعض الأذهان.

فى الكافى: على بن إبراهيم عن أبى الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك كيف صار الرجل إذا مات وولده من القرابة سواء ترث النساء نصف ميراث الرجال وهنّ أضـعف من الرجال وأقلّ حيلـة؟ فقال: «لأنّ اللَّه عز وجل فضّل الرجال على النساء بـدرجة ولأنّ النساء يرجعن عيالًا على الرجال».

وأمّا ميراث الآباء والامهات الذين هم من الطبقة الاولى، وفى مصاف الأبناء أيضاً، فإنّ له كما ذكرت الآيةُ الحاضرة ثلاث حالات هى:

الحالة الاولى: إنّ الشـخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب والام السدس: «وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ».

الحالـة الثانیـة: إن لم یکن للمتوفی ولـد، وانحصـر ورثته فی الأب والام، ورثت الام ثلث ما ترک، یقول سـبحانه: «فَإِن لَّمْ یَکُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ».

الحالـة الثالثـة: إذا ترک المیت أبـاً وامّاً واخوة من أبویه أو من أبیه فقط، ولم یترک أولاداً، ففی مثل هـذه الحالـة ینزل سـهم الام إلی السـدس، وذلـک لأـنّ الأـخوة یحجبـون الامـ عن إرث المقـدار الزائـد عن السـدس وإن کـانوا لاـ یرثون، ولهـذا یسـمی أخوة المیت بالحاجب، وهذا ما یعنیه قول اللّه سبحانه: «فَإِن کَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ».

ثم إنّ اللّه سـبحانه یقول: «مِن بَعْـدِ وَصِـیَّةٍ یُوصِـی بِهَا أَوْ دَیْنٍ». فلابـد من تنفیذ ما أوصـی به المیت من ترکته، أو أداء ما علیه من دین أوّلًا، ثم تقسیم البقیة بین الورثة.

(وقـد ذکرنـا فی باب الوصـیة أنّ لکل أحـد أن یوصـی بامور فی مجال الثلث الخاص به فقط، فلا یصـح أن یوصـی بما زاد عن ذلک إلّاأن یأذن الورثة بذلک).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۶

ثم قال سـبحانه: «ءَابَاؤُکُمْ وَأَبْنَاؤُکُمْ لَاتَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لَکُمْ نَفْعًا». وهذه العبارة تفید أنّ قانون الإرث المذکور قد ارسـی علی أساس متین من المصالح الواقعیة، وأنّ تشخیص هذه المصالح بید اللّه.

ولأجـل أن یتأکـد کـل مـا ذکر من الامور ویتخـذ صـفة القانون الـذی لا یحتمل التردیـد، ولا یکون فیه للناس أی مجال نقاش، یقول سبحـانه: «فَرِیضَـةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلِیمًـا حَکِیمًـا». وبـذلک یقطع الطریق علی أی نقـاش فی مجـال القوانین المتعلقـة بالأسـهم فی الإرث.

سهم الأزواج بعضـهم من بعض: فی الآیة السابقة أشیر إلی سهم الأولاد والآباء والامهات وفی الآیة التی تلیها یقول اللّه سبحانه: «وَلَکُمْ نِصْفُ مَا تَرَکَ أَزْوَاجُکُمْ إِن لَّمْ یَکُن لَّهُنَّ وَلَدٌ». ویشـیر سـبحانه إلی کیفیة إرث الزوجین بعضهما من بعض، فإنّ الزوج یرث نصف ما تترکه الزوجـة هـذا إذا لم یکن للزوجـة ولـد، فإن کان لها ولد أو أولاد (ولو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تترکه فقط، وإلی هذا یشیر تعالی فی نفس الآیة: «فَإِن کَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَکُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَکْنَ».

علی أنّ هذا التقسیم یجب أن یتمّ بعد تنفیذ وصایا المتوفاة، أو تسدید ما علیها من دیون کما یقول سبحانه: «مِن بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِینَ بِهَا أَوْ دَیْنٍ».

ویکون لها الربع إن لم یکن للزوج المیت ولد لقوله سبحانه: «وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَکْتُمْ إِن لَّمْ یَکُن لَّکُمْ وَلَدٌ».

وأمّا إرث الزوجـة مما یترکه الزوج، فإذا کان للزوج أولاد (وإن کانوا من زوجـة اخری) ورثت الزوجة الثمن لقوله سـبحانه: «فَإِن کَانَ لَکُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَکْتُم».

علی أنّ هـذا التقسیم یجب أن یتمّ أیضاً من بعـد تنفیـذ وصایا المیت أو تسدید دیونه من أصل الترکة: «مِّن بَعْدِ وَصِیَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَیْنٍ».

ثم إنّه سـبحانه بعد أن یذکر سهم الأزواج بعضهم من بعض، یعمد إلی ذکر أسهم اخوة المیت وأخواته فیقول: «وَإِن کَانَ رَجُلٌ یُورَثُ کَلَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِکُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ». أی إن مـات رجـل ولم یترک إلّاأخـاً أو اختـاً، أو ماتت امرأة ولم تترک سوی أخ أو اخت، یورث کل منهما السدس من الترکة، هذا إذا کان الوارث أخاً واحداً واختاً واحدة.

أمّا إذا کانوا أکثر من واحد ورث الجمیع ثلثاً واحداً، أی قسم مجموع الثلث بینهم: «فَإِن کَانُوا أَکْثَرَ مِن ذلِکَ فَهُمْ شُرَکَاءُ فِی الثُّلُثِ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۷

ثم أضاف القرآن: «مِن بَعْـدِ وَصِیَّةٍ یُوصَـی بِهَا أَوْ دَیْنٍ». أی: تکون قسـمة المیراث هکـذا بعـد أن ینفـذ الورثة من الترکة ما أوصـی به المتوفی، أو یسددوا ما علیه من دیون، ثم قال:

«غَيْرَ مُضَارٍّ». أي: فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث وكذا الدين مضرّاً بالورثة.

ثم إنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: «وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ». أى إنّ هذا المطلب وصية من اللّه يجب أن تحترموها، لأنّه العالم بمصلحتكم وخيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنّه تعالى حليم لا يعاقب العصاة فوراً، ولا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١۴) قد بدأت الآية الاولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التى مرّت فى الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ». أى تلك حدود اللّه التى لا يجوز تجاوزها وتجاهلها لأحد، فإنّ من تعدى هذه الحدود كان عاصياً مذنباً.

ثم بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود اللّه يقول سبحانه: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». وهو بذلك يشير إلى النتيجة الاخروية للالتزام بحدود اللّه واحترامها. ثم يصف هذه النتيجة الاخروية بقوله: «وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». ثم يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير فى صورة المعصية، وتجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا».

وَ اللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١۵) وَ اللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً (١۶)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٨

الآية الاولى- من هاتين الآيتين- تشير إلى جزاء المرأة المحصنة التى تزنى. فتقول:

«وَالتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ». وعلى هذا يكون جزاء المحصنة التى ترتكب الزنا فى هذه الآية هو الحبس الأبدى.

ولكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: «أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». فإذن لابدّ أن يستمر هذا الحبس فى حقهن إلى الأبد حتى يأتى أجلهن، أو يعين لهن قانون جديد من جانب اللّه سبحانه.

ويستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أى: الحبس الأبدى للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، وحكم آخر فى المستقبل (وبعد أن تتهيأ الظروف والأفكار لمثل ذلك).

ثم إنّ اللّه سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن غير إحصان إذ يقول: «وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا». ويقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا.

إنّ الحكم المذكور فى هذه الآية (أى الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التى تذكر أنّ حد الزنا هو (١٠٠) جلدة لكل واحد من الزانى والزانية تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية وتعييناً للحكم الوارد فيها.

ثم إنّ اللّه سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة والعفو عن مثل هؤلاء العصاة، فيقول: «فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا».

هذا ويستفاد من هذا الحكم- أيضاً- أنّه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب وتابوا وأصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، وأن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۹

فی الآیة السابقة بیّن اللَّه تعالی بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتکبی الفاحشة ومعصیة الزنا إذا تابوا وأصلحوا، وفی هذه الآیة یشیر سبحانه إلی شرائط قبول التوبة إذ یقول: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ».

والمراد من «الجهالة» فی الآیة المبحوثة هنا هو طغیان الغرائز، وسیطرة الأهواء الجامحة وغلبتها علی صوت العقل والإیمان، وفی هذه الصورة وإن لم یفقد المرء العلم بالمعصیة، إلّاأنّه حینما یقع تحت تأثیر الغرائز الجامحة، ینتفی دور العلم ویفقد مفعوله وأثره، وفقدان العلم لأثره مساو للجهل عملًا.

ثم إنّ اللَّه سبحانه یشیر إلی شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ یقول: «ثُمَّ یَتُوبُونَ مِن قَرِیبٍ».

ثم إنّه سبحانه- بعد ذکر شرائط التوبة- یقول: «فَأُولئِکَ یَتُوبُ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَکَانَ اللَّهُ عَلِیمًا حَکِیمًا». مشیراً بذلک إلی نتیجة التوبة التی توفرت فیها الشروط المذکورة.

ثم یقول تعالی: «وَلَیْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّاتِ حَتَّی إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّی تُبْتُ الئَنَ». وهو إشارة إلی من لا تقبل توبته.

وأمّا الطائفة الثانیة الذین لا تقبل توبتهم فهم الذین یموتون کفاراً، إذ یقول سبحانه:

«وَلَا الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَهُمْ کُفَّارٌ». یعنی إنّ الذین یتوبون من ذنوبهم حال العافیة والإیمان ولکنهم یموتون وهم کفار لا تقبل توبتهم ولا یکون لها أی أثر.

ثم یقول سبحانه فی ختام الآیة: «أُولئِکَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِیمًا».

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ کَرْهاً وَ لَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَیْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ یَأْتِینَ بِفَاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَی أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ یَجْعَلَ اللَّهُ فِیهِ خَیْراً کَثِیراً (۱۹)

سبب النّزول

روی فی مجمع البیان عن الإمام محمّد الباقر علیه السلام: «نزلت فی الرجل یحبس المرأة عنده، لا حاجة له إلیها وینتظر موتها حتی یرثها». أی فیأخذ أموالها من بعد وفاتها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۰

مختصر الامثل ج ۱ ۴۱۹

وعن ابن عباس: نزلت فی الرجل تکون تحته امرأة، یکره صحبتها، ولها علیه مهر، فیطول علیها، ویضارّها لتفتدی بالمهر، فنهوا عن ذلک.

التّفسیر

الدفاع عن حقوق المرأة: فی هذه الآیة بالذات تشیر إلی بعض العادات الجاهلیة المقیتة وحذّر اللَّه سبحانه فیها المسلمین من التورّط بها، وتلک هی:

۱- لقد کانت إحدی العادات الظالمة فی الجاهلیة أنّ الرجل کان یتزوج بالنساء الغنیات ذوات الشرف والمقام اللّاتی لم یکن یحظین بالجمال، ثم کانوا یذرونهن هکذا فلا یطلقونهن، ولا یعاملونهن کالزوجات، بانتظار أن یمتن فیرثوا أموالهن. تقول الآیة الحاضرة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَایَحِلُّ لَکُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ کَرْهًا». وبهذا استنکر الإسلام هذه العادة السیئة.

۲- فقد کان من عادات الجاهلیین المقیتة أیضاً أنّهم کانوا یضغطون علی الزوجات بشتی الوسائل والطرق لیتخلین عن مهورهن، ویقبلن بالطلاق، وکانت هذه العادة تتبع إذا کان المهر ثقیلًا باهظاً، فمنعت الآیة الحاضرة من هذا العمل بقولها: «وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَیْتُمُوهُنَّ». أی: من المهر.

ولكن ثمّـة استثناء لهـذا الحكم قـد اشير إليه فى قوله تعالى فى نفس الآيـة: «إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ». و «الفاحشة»: هى أن ترتكب الزوجـة الزنـا وتخون بـذلك زوجهـا، ففى هـذه الحالـة يجوز للرجـل أن يضـغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، وتهبه له ويطلقها عند ذلك.

والمقصود من الفاحشة المبينة كل سلوك ناشز مع الزوج.

۳- عاشـروهن بالمعاشـرة الحسـنة، وهذا هو الشـىء الذى يوصـى به سبحانه الأزواج فى هذه الآية بقوله: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». أى: عاشـروهن بالعشـرة الإنسانية التى تليق بالزوجة والمرأة، ثم عقب على ذلك بقوله: «فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا». إنّ للخير الكثير فى الآية الذى يبشّـر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهم مفهوماً واسـعاً، ومن مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون والأبناء الكرام.

وَ إِنْ أَرَدْتُم اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۲۰) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (۲۱)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۸۱

سبب النّزول

فى تفسير الصـافى: كـان الرجـل إذا أراد جديـدة بهت التى تحته بفاحشـة حتى يلجأها إلى الإفتـداء منه بما أعطاها ليصـرفه إلى تزوّج الجديدة فنهوا عن ذلك.

التّفسير

نزلت الآيتـان الحاضـرتان لتحميـا قسـماً آخر من حقوق المرأة، فقـد جـاءت الآيـة الاولى تقول: «وَإِن أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَيهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيًا».

فهى تخبر المسـلمين- إذا عزموا على تطليق الزوجـة واختيار زوجـة اخرى- أنّه لا يحق لهم أبـداً أن يبخسوا من صـداق الزوجة الاولى شيئاً أو يستردوا شيئاً من الصداق إذا كانوا قد سلّموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيراً وثقيلًا.

ثم إنّ الآيـة تشير فى مقطعها الأخير إلى الاسـلوب السائـد فى العهـد الجاهلى حيث كان الرجل يتّهم زوجته بالخيانـة الزوجيـة لحبس الصداق عنها، إذ تقول فى استفهام إنكارى:

«أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا». أى: هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتهنّ، واتهامهنّ بالفاحشة، وهو إثم واضح ومعصية بيّنة، وهذا يعنى أنّ أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم ومعصيـة، والتوسل لذلك بمثل هذه الوسـيلة الأثيمة معصـية اخرى واضـحة، وظلم آخر بيّن.

ثم أضاف سبحانه بهدف تحريك العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنّه كيف يحق لكم ذلك، وقد عشتم مع الزوجة الاولى زمناً طويلًا، وكـانت لكم معهن حيـاة مشتركـة، واختليتم بهن واسـتمتع كل واحـد منكما بالآخر كما لو كنتما روحاً واحـدة فى جسـمين، أفبعـد ما كانت بينكما هـذه العلاقـة الزوجيـة الحميمـة يحق لكـم- أيّها الأزواج- أن تبخسوا حق الزوجـة الاولى؟ وقـد لخصّ سـبحانه كل هـذه بقوله: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» (۱). أفيصح أن تفعلوا ذلك وكأنّكما غريبان لا رباط بينكما ولا علاقة؟

ثم إنّه سـبحانه تعالى: «وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا». أى: كيف تبخسون الزوجة حقها فى الصداق وقد أخذت منكم- لدى عقد الزواج بينكما- ميثاقاً غليظاً وعهداً موثقاً بأن

---

(۱) «الإفضـاء»: أصـله من الفضـاء، وهو السـعة، وبـذلك يكون معنى الإفضـاء إيجاد السـعة، لأنّ الإنسان بسـبب الإتصال والتعايش مع شخص آخر يكون وكأنّه وسع دائرة وجوده، ولهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسة والإتّصال.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۲

تؤدوا إليهن حقوقهن كاملة، فكيف تتنكرون لهذا الميثاق المقدس وهذا العهد المأخوذ منكم حالة العقد؟

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: توفى أبو قيس وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت: إنّى أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأستأمره فأتته فأخبرته، فقال لها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ارجعى إلى بيتك». فأنزل اللَّه هذه الآية.

التّفسير

هذه الآية تبطل عادة سيئة من العادات الجاهلية المقيتة فتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ». أى لا تنكحوا زوجة أبيكم.

ولكن بما أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النهى بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ».

ثم إنّه سبحانه لتأكيد هذا النهى يستخدم ثلاث عبارات شديدة حول هذا النوع من الزواج والنكاح إذ يقول أوّلًا: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً». ثم يضيف قائلًا: «وَمَقْتًا». أى عملًا منفراً لا- تقبله العقول، ولا تستسيغه الطباع البشرية السليمة، بل تمقته وتكرهه، ثم يختم ذلك بقوله: «وَسَاءَ سَبِيلًا». أى أنّها عادة خبيثة وسلوك شائن.

حتى أننا لنقرأ فى التاريخ أنّ الناس فى الجاهلية كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح ويصفونه بالمقت، ويسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أى الأولاد المبغوضين.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالاتُكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۳

تحريم الزواج بالمحارم: فى هذه الآية أشار سبحانه إلى النساء اللاتى يحرم نكاحهن والزواج بهن، ويمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهى:

۱- الولادة التى يعبّر عنها بالإرتباط النسبى.

۲- الزواج الذى يعبّر عنه بالإرتباط السببى.

۳- الرضاع الذى يعبّر عنه بالإرتباط الرضاعى.

وقد أشار فى‌البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النسب وهنّ سبع طوائف إذ يقول:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ». والمراد من «الام» ليس هى التى يتولد منها الإنسان دونما واسطة فقط، بل يشمل الجدّة من ناحية الأب ومن ناحية الام وإن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنت الابن وأولادهما وإن نزلن، وهكذا الحال فى الطوائف الخمس الاخرى.

ثم يشير اللَّه سبحانه إلى المحارم الرضاعية وتقول: «وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه يشير- فى المرحلة الأخيرة- إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتى يحرم الزواج بهن ويذكرهن ضمن عدة عناوين:

۱- «وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ». يعنى أنّ المرأة بمجرد أن تتزوج برجل ويجرى عقد النكاح بينهما تحرم امها وام امها وإن علون على ذلك الرجل.

۲- «وَرَبَائِبُكُمُ الَّتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ الَّتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ». يعنى أنّ مجرّد العقد على إمرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثانى، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

ثم يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلًا: «فَإِن لَّمْ تَكونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَمْ». أى: إذا لم تدخلوا بام الرّبيبة جاز لكم نكاح بناتهن.

۳- «وَحَلِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلبِكُمْ» «۱». والمراد من حلائل، الأبناء زوجاتهم؛ وأمّا

(۱) «الحلائل»: جمع الحليلة، وهى من مادة حل، وهى بمعنى المحللة، أى المرأة التى تحل للإنسان، أو من مادة حلول بمعنى المرأة التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأنّ كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۴

التعبير ب «من أصلابكم» فهو لأجل أنّ هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة فى الجاهلية، حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصاً ثم يعطى للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقى، ولهذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا- يتزوجون بزوجة الولد الحقيقى تماماً، والتبنى والأحكام المرتبة عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام. ۴- «وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ». يعنى أنّه يحرم الجمع بين الاختين فى العقد.

وبما إنّ الزواج باختين فى وقت واحد كان عادة جارية فى الجاهلية، وكان ثمّة من إرتكبوا هذا العمل فإنّ القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». يعنى أنّ هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم اللَّه على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الاختين، ويفارقوا الاخرى، بعد نزول هذا الحكم.

ثم إنّ بعض المفسرين احتمل أن تعود جملة «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» إلى كل المحارم من النسوة اللّاتى مرّ ذكرهن فى مطلع الآية فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهن لم يشمله حكم تحريم الزواج بهن هذا، وإن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلكم النساء، ويفارقوهن.

وتناسب خاتمة هذه الآية أعنى قوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا» هذا المعنى الأخير.

وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (۲۴) هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتى يحرم نكاحهن والزواج بهن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۵

وتضيف قائلة: «وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النّسَاءِ». أى: ويحرم الزواج بالنساء، اللاتى لهن أزواج.

«المحصنات»: جمع المحصنة وهى مشتقة من «الحصن» وقد اطلقت على المرأة ذات الزوج لأنّها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، وكذا اطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتى يعشن فى كنف رجل وتحت كفالته وبذلك يحفظن أنفسهن ويحصنها من الفجور والزنا.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتابيات اللّاتى أسّرهن المسلمون فى الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابة الطلاق من أزواجهن، وأذن أن يتزوج بهن المسلمون بعد انقضاء عدتهن «۱» أو يتعامل معهن كالإماء كما قال سبحانه: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه أكّد هذه الأحكام الواردة فى شأن المحارم من النساء ومن شابههن حيث قال: «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». وعلى هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثم إنّه يشير سبحانه إلى حلية الزواج بغير هذه الطوائف إذ يقول: «وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذلِكُمْ أن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ». أى إنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتمّ ذلك وفق القوانين الإسلامية وأن يرافق مبادىء

الفقه والطهر ویبتعد عن جادة الفجور والفسق.

وجملة «أن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم» إشارة إلی أنّ العلاقة الزوجیة إمّا یجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق ومهر، أو من خلال تملک أمة فی لقاء دفع قیمتها.

یقول سبحانه: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً». أی إنّه یجب علیهم دفع أجور النساء اللاتی تستمتعون بهن، وهذا القسم من الآیة إشارة إلی مسألة الزواج المؤقت أو ما یسمّی بالمتعة، ویستفاد منها أنّ أصل تشریع الزواج المؤقت کان قطعیاً ومسلماً عند المسلمین قبل نزول هذه الآیة، ولهذا یوصی المسلمون فی هذه الآیة بدفع أجورهن.

ثم إنّ اللّه سبحانه قال:- بعد ذکر وجوب دفع المهر- «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ

---

(۱) مقدار عدتهن حیضة واحدة أو وضع حملهن إذا کن حبالی.

مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ». وهو بذلک یشیر إلی أنّه لا مانع من التغییر فی مقدار الصداق إذا تراضی طرفا العقد، ولا فرق فی هذا الأمر بین العقد المؤقت والعقد الدائم. ثم إنّ هناک احتمالًا آخر فی تفسیر الآیة أیضاً وهو أنّه لا مانع من أن یقدم الطرفان- بعد انعقاد الزواج المؤقت علی تمدید مدة هذا الزواج وکذا التغییر فی مقدار المهر برضا الطرفین، وهذا یعنی أنّ مدة الزواج المؤقت قابلة للتمدید حتی عند إشرافها علی الانتهاء (أی: قبیل انتهائها) بأن یتفق الزوجان أن یضیفا علی المدة المتفق علیها فی مطلع هذا الزواج، مدة اخری معینة لقاء إضافة مقدار معین من المال إلی الصداق المتفق علیه أوّلًا (وقد اشیر فی روایات أهل البیت علیهم السلام إلی هذا التفسیر أیضاً).

ثم إنّه سبحانه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». یرید بذلک أنّ الأحکام المذکورة فی هذه الآیة تتضمن خیر البشریة وصلاحها وسعادتها لأنّ اللّه علیم بمصالحهم، حکیم فی ما یقرره لهم من القوانین.

الزواج المؤقت ضرورة إجتماعیة: هناک قانون عام وهو أنّ الغریزة الجنسیة هی إحدی أقوی الغرائز الإنسانیة إلی درجة أنّ بعض المحللین النفسانیین اعتبرها الغریزة الإنسانیة الأصیلة التی إلیها ترجع بقیة الغرائز الاخری.

فإذا کان الأمر کذلک یُثار سؤال فی المقام وهو أنّه قد یکون هناک من لا- یمکنه- وفی کثیر من الظروف والأحوال- أن یتزوج بالزواج الدائم فی سنّ خاص، أو یکون هناک من المتزوجین من سافر فی رحلة طویلة ومهمة بعیدة عن الأهل فیواجه مشکلة الحاجة الجنسیة الشدیدة التی تتطلب منه التلبیة والإرضاء. خاصة وأنّ هذه المسألة قد اتخذت فی عصرنا الحاضر الذی أصبح فیه الزواج- بسبب طول مدة الدراسة وبعد زمن التخرج وبعض المسائل الاجتماعیة المعقدة التی قلّما یستطیع معها الشباب أن یتزوجوا فی سنّ مبکرة، أی فی السنّ التی تعتبر فترة الفوران الجنسی لدی کل شاب- اتّخذت صفة أکثر عنفاً وضراوة.

وأنّنا نری إنّ الزواج الدائم لم یکن لا- فی السابق ولا فی الحاضر بقادر علی أن یلبّی کل الاحتیاجات الجنسیة، ولا أن یحقق رغبات جمیع الفئات والطبقات فی الناس، فنحن لذلک أمام خیارین لاثالث لهما وهما: إمّا أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (کما هو الحال فی المجتمعات المادیة الیوم حیث سمحوا بالبغاء بصورة قانونیة) أو أن نعالج المسألة عن طریق

الزواج المؤقت (المتعة) فما هو یا تری جواب الذین یعارضون فکرة البغاء، وفکرة المتعة، علی هذا السؤال الملح؟

إنّ اطروحة الزواج المؤقت (المتعة) لیست مقیدة بشرائط النکاح الدائم لکی یقال بأنّها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالیة، أو لا تتلاءم مع ظروف الدراسة، کما لا تنطوی علی اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وویلاته.

وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ

مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَ لَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۵)

التزوج بالإماء: تعقيباً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبيّن شروط التزويج بالإماء، فتقول أوّلًا: «وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» «۱». أى من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على مهرهنّ ونفقتهن، فإنّ له أن يتزوج مما ملكت أيمانكم من الإماء، فإنّ مهورهن أقل، ومؤنتهن أخفّ عادة.

على أنّ المراد من الأمة هنا هى أمة الغير.

كما أنّ التعبير ب «المؤمنات» فى الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التى يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، وعلى هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثم إنّ اللَّه سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم». ويريد بذلك

(۱) «الطول»: على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدرة والإمكانية المالية وما شابهذلك.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۸

أنّكم لستم مكلفين- فى تشخيص إيمان الإماء- إلّابالظاهر، وأمّا الباطن فاللَّه هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، والمطلع على الضمائر.

وحيث إنّ البعض كان يكره التزوج بالإماء ويستنكف من نكاحهن قال تعالى:

«بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ». أى إنّكم جميعاً من أب واحد، وام واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم.

نعم لابد أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهن وإلّا كان باطلًا، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: «فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ». والتعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنّهن متاع أو بضاعة، بل يجب أن يكون التعامل معهن على أنّهن من أعضاء العائلة، فلابد أن يكون تعاملًا إنسانياً كاملًا.

ثم إنّه سبحانه قال: «وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» ومن هذه الجملة يستفاد أنّ الصداق الذى يعطى لهن يجب أن يكون متناسباً مع شأنهن ومكانتهن، وأن يعطى المهر لهن، يعنى أنّ الأمة تكون هى المالكة للصداق.

كما يستفاد من التعبير ب «المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهن الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهن بالقدر المتعارف.

ثم إنّ اللَّه سبحانه ذكر شرطاً آخر من شروط هذا الزواج، وهو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائى لم يرتكبن البغاء إذ قال: «مُحْصَنَاتٍ» سواء بصورة علنية «غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ» أو بصورة خفية «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ». أى أصدقاء وأخلاء فى السرّ.

ثم إنّ اللَّه سبحانه قال: «فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ».

وتتضمن الآية بحثاً حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة والطهر، وذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، وبعض الأحكام حول حقوقهن.

والحكم المذكور فى هذا المجال هو أنّ الإماء إذا زنين فجزاؤهن نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أى خمسون جلدة. ثم قال سبحانه معقباً على الحكم السابق: «ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ».

«العنت»: على وزن (سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور- بعد الكسر- إذا أصابه ألم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۹

وكسر آخر فهضّه قد أعنته، لأنّ هذا النوع من الكسر مؤلم جدّاً، ولهذا يستعمل فى المشاكل الباهظة والأعمال المؤلمة.

ويقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة إنّ الزواج بالإماء إنّما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدة غلبة الغريزة الجنسية عليه ولم يكن قادراً على التزوج بالحرائر من النساء، وعلى هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

ثم عقّب سبحانه على ذلك بقوله: «وَإِن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ». أى إنّ صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم وما لم تقعوا فى الزنا خير لكم ومن مصلحتكم: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

أى: يغفر اللَّه لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (۲۸) بعد أن بيّن اللَّه سبحانه فى الآيات السابقة أحكام مختلفة فى مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال فى ذهن البعض وهو: ما المقصود من كل هذه القيود ولماذا الحدود القانونية؟ إنّ الآيات الحاضرة هى إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ». أى إنّ اللَّه يبين لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين ويهديكم إلى ما فيه مصالحكم، مع العلم بأنّ هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أنّ اللَّه تعالى يريد أن يغفر لكم ويعيد عليكم نعمه التى قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جادة الحق، وكل هذا إنّما يكون إذا عُدتم عن طريق الإنحراف الذى سلكتموه فى عهد الجاهلية وقبل الإسلام.

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». يعلم بأسرار الأحكام ويشرعها لكم عن حكمة.

ثم إنّ اللَّه سبحانه أكّد ما مرّ بقوله: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا». أى إنّ اللَّه يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التى قطعت ومنعت عنكم بسبب ذنوبكم، وارتكابكم للشهوات، ولكن الذين

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۰

يريدون الإنسياق وراء الشهوات الغارقين فى الآثام والذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنّهم يريدون أن تسايروهم فى اتّباع الشهوات وأن تنغمسوا فى الآثار انغماساً كاملًا، فهل ترون- والحال هذه- إنّ هذه القيود والحدود الكفيلة بضمان سعادتكم وخيركم ومصلحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالانحطاط الخلقى، والفساد والسقوط؟ إنّ هذه الآيات تجيب على تساؤل اولئك الأفراد الذين يعيشون فى عصرنا الحاضر أيضاً والذين يعترضون على القيود والحدود المفروضة فى مجال القضايا الجنسية، وتقول لهم: إنّ الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، وهى لا تنتج سوى الإنحراف الكبير عن مسير السعادة والتكامل الإنسانى، وكما توجب التورط فى المتاهات والمجاهل، وتستلزم العواقب الشريرة التى يتجسد بعضها فى ما نراه بام أعيننا من تبعثر العوائل، ووقوع أنواع الجرائم الجنسية البشعة، وظهور الأمراض التناسلية والآلام الروحية والنفسية المقيتة، ونشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساة الجناة.

ثم إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: «يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْانسَانُ ضَعِيفًا».

وهذه الآية إشارة إلى أنّ النقطة التالية وهى أنّ الحكم السابق فى مجال حرية التزوج بالإماء بشروط معينة ما هو إلّاتخفيف وتوسعة، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً، فلابد وهو يواجه طوفان الغرائز المتنوعة الجامحة التى تحاصره وتهجم عليه من كل صوب وحدب أن تطرح عليه طرق ووسائل مشروعة لإرضاء غرائزه ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف والسقوط.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (۲۹) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَ كَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:

الآية الاولى من هاتين الآيتين تشكل القاعدة الأساسية للقوانين الإسلامية فى مجال المسائل المتعلقة «بالمعاملات والمبادلات المالية»

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (٣١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩١

ولهذا يستدل بها فقهاء الإسلام فى جميع أبواب المعاملات والمبادلات المالية. إنّ هذه الآية تخاطب المؤمنين بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ». وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلى كل لون من ألوان العدوان، والغش، وجميع المعاملات الربوية، والمعاملات المجهولة الخصوصيات تماماً، وتعاطى البضائع التى لا فائدة فيها بحكم العقلاء، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شاكل ذلك.

إنّ التعبير ب «الأكل» كناية عن كل تصرف، سواء تمّ بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج فى اللغة العربية وغير العربية.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول معقباً على العبارات السابقة: «إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ».

ثم إنّه تعالى ينهى فى ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ». وظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا». النهى عن الانتحار، يعنى أنّ اللَّه الرحيم كما لا- يرضى بأن تقتلوا أحداً، كذلك لا يسمح لكم ولا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم.

ويشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصورة متتالية إلى نكتة اجتماعية مهمة، وهى أنّ العلاقات الاقتصادية فى المجتمع إذا لم تكن قائمة على أساس صحيح، ولم يتقدم الاقتصاد الاجتماعى فى الطريق السليم، ووقع الظلم والتصرف العدوانى فى أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الإنتحار، وآل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردى مضافاً إلى الانتحار الجماعى الذى هو من آثار الانتحار الفردى ضمناً.

كما حذّر قائلًا: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا» (١). أى إنّ من يعصى هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير، ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الأليم فى الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهى، وهذا أمر هيّن على اللَّه: «وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

---

(١) «الصلى»: يعنى فى الأصل الإقتراب إلى النار، ويطلق على التدفؤ والإحتراق والإكتواء بالنار أيضاً، وقداستعملت فى الآية الحاضرة فى معنى الإحتراق بالنار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٢

هذه الآية تقول بصراحة: «إِن تَجْتَنِبُوا كبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفّرْ عَنكُمْ سَيَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا».

ومن هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصى والذنوب على قسمين:

القسم الأول: هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثانى: وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسيئة.

وقد عبّر فى الآية (٣٢) من سورة النجم ب «اللمم» بدلًا عن السيئة، وفى الآية (٤٩) من سورة الكهف ذلك لفظة «الصغيرة» فى مقابل الكبيرة.

إنّ الكبيرة هى كل معصية بالغة الأهمية من وجهة نظر الإسلام، ويمكن أن تكون علامة تلك الأهمية أنّ القرآن لم يكتف بالنهى عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك.

والصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان.

وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ اسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۳۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ ام سلمة (وهى من أزواج النبى صلى الله عليه و آله) قالت: يا رسول اللّه! يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنّما لنا نصف الميراث، فليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت الآية.

التّفسير

لقد أوجب التفاوت فى سهم الرجال والنساء من الإرث تساؤلًا لدى البعض، ويبدو أنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أنّ النفقة بكاملها على الرجل، وليس على النساء شيء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة هى الاخرى مفروضة على الرجل، ولهذا يكون ما تصيبه المرأة ضعف ما يصيبه الرجل من الثروة، ولهذا قال اللّه تعالى فى هذه الآية:

«وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ». لأنّ لكل نوع من أنواع هذا التفضيل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۳

والتفاوت أسرار خفية عنكم غير ظاهرة لكم. على أنّه يجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآية الحاضرة تشير إلى التفاوت المصطنع الذى برز نتيجة الاستعمار والاستغلال الطبقى.

ولذا عقّب اللّه سبحانه على الجملة السابقة بقوله: «لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ». أى: لكل من الرجال والنساء نصيب من سعيه وجهده ومكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت والفرق بين جنسى الرجل والمرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الإختيارية.

ثم يقول: «وَاسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ». أى: بدل أن تتمنّوا هذا التفضيل والتفاوت اطلبوا من فضل اللّه واسألوا من لطفه وكرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعة وتوفيقاته ومثوباته الطيبة لتكونوا- بنتيجة ذلك- سعداء رجالًا ونساء، ومن أى عنصر كنتم، وعلى كل حال اطلبوا واسألوا ما هو خيركم وسعادتكم واقعاً.

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». أى: يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع وما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، ولهذا لا وجود للظلم والحيف ولا لأىشىء من التفاوت الظالم والتمييز غير العادل فى أفعاله، كما أنّه تعالى خبير بما فى بواطن الناس من الأسرار والخفايا والنوايا ويعلم من الذى يتمنّى الأمانى الخاطئة فى قلبه، ومن يتمنّى الأمانى الإيجابية الصحيحة البنّاءة.

وَ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۳۳)

يعود القرآن مرّة اخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: «وَلِكُلّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» (۱). أى: لكل رجل أو امرأة جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون الذى يجب أن يقسّم بينهم طبق برنامج خاص.

ثم إنّ اللّه تعالى يضيف قائلًا: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ». أى ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقداً نصيبهم من الإرث.

---

(۱) «الموالى»: جمع مولى، وهى فى الأصل من مادة الولاية بمعنى الإتّصال والإرتباط، وتطلق على جميع الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بنوع من الإرتباط، غاية ما هناك أنّها تكون فى بعض الموارد بمعنى إرتباط الولى مع أتباعه، وأمّا فى الآية الحاضرة فتكون بمعنى الورثة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۴

من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لابد أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآية هو عقد «ضمان الجريرة» الذى كان رائجاً قبل الإسلام، وهو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن

يتعاونا فيما بينهما بشكل أخوى أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، وإذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقى» ولقد أقرّ الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوى الودّى، ولكنه أكّد على أنّ التوارث بسبب هذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثة من طبقات الأقرباء.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا». أى إذا قصّرتم فى إعطاء نصيب الورثة ولم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم اللّه بذلك ولم يخف عليه ما فعلتم، لأنّه على كل شيء شهيد وبكل شيء عليم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤)

قال اللّه تعالى فى مطلع هذه الآية إلى أنّ العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، وهى كالاجتماع الكبير لابد لها من قائد وقائم بأمورها، لأنّ القيادة والقوامة الجماعية التى يشترك فيها الرجل والمرأة معاً، لا معنى لها ولا مفهوم، فلابد أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون «رئيساً» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذى يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح- هنا- بأنّ مقام القوامة والقيادة للعائلة لابدّ أن يعطى للرجل إذ تقول: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ». والمقصود من هذا التعبير هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الإعتبار.

إنّ جملة «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أمْوَالِهِمْ» إشارة أيضاً إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأول من هذه الفقرة يقول: إنّ هذه القوامة إنّما هو لأجل التفاوت الذى أوجده اللّه بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشرى، بينما يقول فى القسم الثانى منها: وأيضاً لأجل أنّ الرجال كلّفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات والأولاد فى مجال الإنفاق والبذل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٥

ثم إنّه سبحانه يضيف قائلًا: «فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ». وهذا يعنى أنّ النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهن فى مجال العائلة على صنفين:

الطائفة الأولى: وهنّ «الصالحات» أى غير المنحرفات «القانتات» أى الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتى يحفظن حقوق الأزواج وشؤونهم لا- فى حضورهم فحسب، بل يحفظنهم فى غيبتهم، يعنى أنّهن لا يرتكبن أيّة خيانة سواء فى مجال المال، أو فى المجال الجنسى، أو فى مجال حفظ مكانة الزوج وشأنه الاجتماعى، وأسرار العائلة فى غيبته، ويقمن بمسؤولياتهن تجاه الحقوق التى فرضها اللّه عليهن والتى عبّر عنها فى الآية بقوله: «بِمَا حَفَظَ اللَّهُ» خير قيام.

ومن الطبيعى أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوة، وحفظ حقوقهن، وعدم إضاعتها.

الطائفة الثانية: النسوة اللاتى يتخلفن عن القيام بوظائفهن وواجباتهن، وتبدو عليهن علائم النشوز واماراته فإنّ على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لابد من القيام بها مرحلة فمرحلة، وهذه الوظائف هى بالترتيب:

١- الموعظة: إنّ المرحلة الاولى التى على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتى تبدو عليهنّ علائم التمرد والنشوز والعداوة، تتمثل فى وعظهن كما قال سبحانه فى الآية الحاضرة:

«وَالتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ» «١».

٢- الهجر فى المضاجع: وتأتى هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ ولم تنجع النصيحة «وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ». وبهذا الموقف والهجر وعدم المبالاة بالزوجة أظهروا عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر فى أنفسهن.

٣- الضرب: وأمّا إذا تجاوزن فى عصيانهن، والتمرد على واجباتهن ومسؤولياتهن الحد، ومضين فى طريق العناد واللجاج دون أن يرتدعن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، ولا العظة تنفع، ولا الهجر ينجح، ولم يبق من سبيل إلّاااستخدام العنف، فحينئذ يأتى دور الضرب «وَاضْرِبُوهُنَّ». لدفعهن إلى القيام بواجباتهن الزوجية لانحصار الوسيلة فى هذه الحالة فى استخدام شيء من العنف، ولهذا سمح

الإسلام فی مثل هذه الصورة بالضغط علیهن ودفعهن إلی القیام بواجباتهن من خلال العقوبة الجسدیة.

---

(۱) «النشوز»: من نشز (علی وزن نذر) یعنی الأرض المرتفعة، ویکنی به هنا عن الطغیان والترفع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۶

ومن المسلم أنّ أحد هذه الأسالیب لو أثر فی المرأة الناشزة ودفعها إلی الطاعة، وعادت المرأة إلی القیام بوظائفها الزوجیة لم یحق للرجل أن یتعلل علی المرأة، ویعمد إلی إیذائها، ومضایقتها حتی تعود إلی جادة الصواب واستقامت فی سلوکها ولهذا عقب سبحانه علی ذکر المراحل السابقة بقوله: «فَإِنْ أَطَعْنَکُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَیْهِنَّ سَبِیلًا».

ثم إنّ اللّه سبحانه ذکّر الرجال مرّة اخری فی ختام الآیة بأن لا یسیئوا استخدام مکانتهم کقیمین علی العائلة فیجحفوا فی حق أزواجهم، وأن یفکروا فی قدرة اللّه التی هی فوق کل قدرة «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلِیًّا کَبِیرًا».

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَیْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَکَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَکَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ یُرِیدَا إِصْلَاحاً یُوَفِّقِ اللَّهُ بَیْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلِیماً خَبِیراً (۳۵)

محکمة الصلح العائلیة: فی هذه الآیة إشارة إلی مسألة ظهور الخلاف والنزاع بین الزوجین، فهی تقول: «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَیْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَکَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَکَمًا مِّنْ أَهْلِهَا» لیتفاوضا ویقربا من أوجه النظر لدی الزوجین. ثم یقول تعالی: «إِن یُرِیدَا إِصْلَحًا یُوَفِّقِ اللَّهُ بَیْنَهُمَا».

أی: ینبغی أن یدخل الحکمان المندوبان عن الزوجین فی التفاوض بنیّة صالحة ورغبة صادقة فی الإصلاح، فإنّهما إن کانا کذلک أعانهما اللّه ووفق بین الزوجین بسببهما.

ومن أجل تحذیر (الحکمین) وحثّهما علی استخدام حسن النّیة، یقول سبحانه فی ختام هذه الآیة: «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلِیمًا خَبِیرًا».

إنّ محکمة الصلح العائلیة التی أشارت إلیها الآیة الحاضرة، هی إحدی مبتکرات الإسلام العظیمة، فإنّ هذه المحکمة تمتاز بمیزات تفتقر إلیها المحاکم الاخری، من جملتها:

۱- إنّه لا- یمکن- فی البیئة العائلیة- العمل بمقیاس القوانین الجافة، فهنا یجب حل الخلافات العائلیة بالطرق العاطفیة حدّ الإمکان، ولهذا یأمر القرآن الکریم أن یکون الحکمان فی هذه المحکمة ممن تربطهم بالزوجین رابطة النسب والقرابة لیمکنهما تحریک المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بین الزوجین، ومن الطبیعی أن تکون هذه المیزة هی میزة هذا النوع من المحاکم خاصة دون بقیة المحاکم الاخری.

۲- إنّ المدعی والمدعی علیه فی المحاکم العادیة القضائیة مضطرین- تحت طائلة الدفاع عن النفس- أن یکشفا عن کل ما لدیهما من الأسرار، ومن المسلم أنّ الزوجین لو کشفا عن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۷

الأسرار الزوجیة أمام الأجانب والغرباء لجرح کل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحیث لو اضطر الزوجان أن یعودا- بحکم المحکمة- إلی البیت لما عادا إلی ما کانا علیه من الصفاء والمحبة السالفة.

۳- إنّ الحکمین فی المحاکم العادیة المتعارفة لا یشعران عادة بالمسؤولیة الکاملة فی قضایا الخلاف والمنازعات، ولا تهمهما کیفیة انتهاء القضیة المرفوعة إلی المحکمة، هل یعود الزوجان إلی البیت علی وفاق، أو ینفصلا مع طلاق؟

فی حین أنّ الأمر فی محکمة الصلح العائلیة علی العکس من ذلک تماماً، فإنّ الحکمین فی هذه المحکمة حیث یرتبطان بالزوجین برابطة القرابة، فإنّ لافتراق أو صلح الزوجین أثراً کبیراً فی حیاة الحکمین من الناحیة العاطفیة، ومن ناحیة المسؤولیات الناشئة عن ذلک، ولهذا فإنّهما یسعیان- جهد إمکانهما- أن یتحقق الصلح والسلام والوفاق والوئام بین الزوجین اللذین یمثلانهما.

۴- مضافاً إلی کل ذلک فإنّ مثل هذا المحکمة لا تعانی من أیة مشکلات، ولا تحتاج إلی أیة میزانیات باهظة، ولا تعانی من تلک الخسارة والضیاع.

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ بِذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً (۳۶) الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق الإسلامية بما فيها الحقوق الإلهية وحقوق العباد وآداب العشرة مع الناس ويستفاد منها عشرة تعاليم:

۱- «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيًا». إنّ الآية تدعو الناس قبل أى شىء إلى عبادة اللّه والخضوع له وحده، وترك الشرك والوثنية الذى هو أساس كل البرامج والمناهج الإسلامية. إنّ الدعوة إلى التوحيد وعبادة اللّه وحده تطهر الروح، وتخلص النّية، وتقوى الإرادة، وتشدد من عزيمة الإنسان على الإتيان بأى برنامج مفيد. وحيث إنّ الآية الحاضرة تبيّن سلسلة من الحقوق الإسلامية لذلك فقد أشارت إلى حق اللّه على الناس قبل أى شىء وقبل أى حق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۸

۲- «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». ثم إنّها تشير إلى حق الوالدين وتوصى بالإحسان إليهما ولا شك أنّ حق الوالدين من القضايا التى يهتمّ بها القرآن الكريم كثيراً، وقلّما حظى موضوع بمثل هذا الإهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوة إلى التوحيد فى العبادة فى أربعة مواضع فى القرآن الكريم.

۳- «وَبِذِى الْقُرْبَى . ثم إنّها توصى بالإحسان إلى كل الأقرباء، وهذا الموضوع من المسائل التى يهتم بها القرآن الكريم إهتماماً بالغاً تارة تحت عنوان «صلة الرحم» واخرى بعنوان «الإحسان إلى القُربى».

۴- «وَالْيَتَامَى . ثم أشارت إلى حقوق «اليتامى» وأوصت المؤمنين ببرهم والإحسان إليهم، لأنّه يوجد فى كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفة، لا يهدد تناسيهم وإهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعى بصورة عامة، لأنّ الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولاية أو حماية ولم ينالوا حاجتهم من المحبة واللطف يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جُناة.

وعلى هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحساناً إلى الفرد وإلى المجتمع معاً.

۵- «وَالْمَسَاكِينِ». ثم يذكّر سبحانه- فى هذه الآية- بحقوق الفقراء والمساكين، لأنّه قد يوجد حتى فى المجتمع السليم الذى يسوده العدل من يعانى من نواقص وعاهات تعوقه عن الحركة والنشاط والفعالية، ولا شك أنّ تناسى هؤلاء أمر يخالف كل الاسس والقيم الإنسانية، فلابد من تقديم العون إليهم، ومعالجة حرمانهم.

۶- «وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى . ثم يوصى بالجيران من ذوى القربى، والمراد هو القرب المكانى لا القرب النسبى، لأنّ الجيران الأقربين مكاناً يستحقون احتراماً وحقوقاً أكثر من غيرهم، أو أن يكون المراد الجيران الأقربين إلى الإنسان من الناحية الدينية والاعتقادية.

۷- «وَالْجَارِ الْجُنُبِ». ثم إنّها توصى بالجيران البعيدين، والمراد هو البعد المكانى. إنّ لحق الجوار فى الإسلام أهمية بالغة إلى درجة أنّنا نقرأ فى وصايا الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام المعروفة: «ما زال (رسول اللّه) يوصى بهم حتى ظننّا أنّه سيورّثهم» «۱». (وقد ورد هذا الحديث- فى تفسير المنار؛ وتفسير القرطبى- مثل هذا المضمون عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً).

وفى تفسير القرطبى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «واللّه لا يؤمن واللّه لا يؤمن واللّه لا يؤمن». قيل: يا رسول اللّه ومَن؟ قال: «الذى لا يأمن جارُه بوائقَه».

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۹

۸- «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ». ثم أوصت بالرفيق والصاحب، غير أنّه لابد من الإنتباه إلى أنّ ل «الصاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق والصديق المتعارف، وبهذا الطريق تكون هذه الآية أمراً كلياً وجامعاً بحسن معاشرة كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقاً واقعياً، أو زميلًا، أو رفيق سفر، أو مراجعاً، أو تلميذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

وقد فسرت لفظة الصاحب بالجنب فى بعض الروايات بالزّوجة، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضاً.

۹- «وَابْنِ السَّبِيلِ». وأمّا الصنف الآخر الذى أوصت بهم الآية هنا فهم الذين تحدث لهم حاجة السفر وبلاد الغربة، فابن السبيل هو الذى ينقطع فى السفر وإن كان يمكن أن يكون متمكّناً ذا مال فى بلده.

۱۰- «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». وفى نهاية المطاف توصى هذه الآية بالإحسان إلى العبيد والأرقاء، وبهذا تكون الآية قد بدأت بحق اللَّه، وختمت بحقوق العبيد، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

ثم إنّه سبحانه يقول فى ختام هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا». وهو بذلك يحذر كل من يتمرّد ويعصى أوامر اللَّه، ويتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه ووالديه واليتامى والمساكين وابن السبيل والأصدقاء والأصحاب بدافع التكبر بأنّه سيكون معرضاً لسخط اللَّه، وسيحرم من عنايته سبحانه، ولا ريب أنّ من حرم من اللطف الإلهى والعناية الربانية حرم من كل خير وسعادة «۱».

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (۳۷) وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً (۳۸) وَ مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (۳۹)

---

(۱) «مختال»: من مادة «خيال» حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيماً و كبيراً، وسمى الخيل خيلًا لأن مشيتة تشبة مشية المتكبر؛ «فخور»: من مادة «فخر» والفرق بينها و بين الاولى أن المختال إشارة إلى تخيلات الكبر فى مجالها الذهنى و الاخرى يراد بها الأعمال الصادرة عن كبر فى المجال الخارجى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۰

الإنفاق رياءً والإنفاق قربةً: الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث تعقيب على الآيات السابقة وإشارة إلى المتكبرين إذ تقول: «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ». هذا مضافاً إلى أنّهم يسعون دائماً أن يخفوا عن الآخرين ما تفضل اللَّه عليهم به من الخير كيلا يتوقع المجتمع منهم شيئاً «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم يقول عن نهاية هذا الفرق من الناس وعاقبة أمرهم: «وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا». ولعل السرّ فى استخدام هذا التعبير فى حق هذه الطائفة هو أنّ «البخل» ينبع فى الغالب من الكفر، لأنّ البخلاء لا يمتلكون الإيمان الكامل بالمواهب الربانية المطلقة والوعود الإلهية العظيمة للمحسنين. إنّهم يتصورون أنّ مساعدة الآخرين وتقديم العون إليهم يجرّ إليهم التعاسة والشقاء.

وأمّا الحديث عن الخزى فى عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتكبر والإستكبار هو العذاب المهين.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يذكر صفة اخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: «وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْأَخِرِ» إنّهم ينفقون أموالهم لا فى سبيل اللَّه وكسب رضاه، بل مراءاة الناس لكسب السمعة وجلب الشهرة والجاه، وبالتالى ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمة الناس وكسب رضا اللَّه سبحانه.

إنّ هؤلاء اختاروا الشيطان رفيقاً وقريناً لهم: «وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا». إنّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشيطان، لأنّ منطقهم هو منطق الشيطان، وسلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنّه هو الذى يقول لهم: إنّ الإنفاق بإخلاص يوجب الفقر «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» «۱».

من هذه الآية يستفاد أنّ علاقة «المتكبرين» ب «الشيطان والأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة ودائمة لا مؤقتة ولا مرحلية.

وهنا يقول سبحانه وكأنّه يتأسّف على أحوال هذه الطائفة من الناس: «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ». أى شيء عليهم لو تركوا هذا السلوك وعادوا إلى جادة الصواب وأنفقوا مما رزقهم اللَّه من الخير والنعمة فى سبيل اللَّه، بإخلاص لا

---

(۱) سورة البقرة/ ۲۶۸.

رياء، وكسبوا بذلك رضا اللّه، وتعرضوا للطفه وعنايته، وأحرزوا سعادة الدنيا والآخرة؟

وعلى كل حال فإنّ اللّه يعلم بأعمالهم ونواياهم ويجزيهم بما عملوا: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (۴۰) إنّ الآية الحاضرة تقول: إنّ اللّه لا يظلم قط زنة ذرّة، بل يضاعف الحسنة إذا قام بها أحد، ويعطى من لدنه على ذلك أجراً عظيماً: «إِنَّ اللَّهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا».

«الذّرة»: فى الأصل هى النملة الصغيرة التى لا ترى، ولكنّها اطلقت تدريجاً على كل شيء صغير جدّاً، وتطلق الآن ويراد منها ما يتكون من الإلكترون والبروتون أيضاً. وبما أنّ «مثقال» يعنى الثقل، فإنّ التعبير ب «مثقال ذرّة» يعنى جسماً فى غاية الدقة والصغر.

إنّ هذه الآية تقول للكافرين الذين يبخلون والذين مرّ الحديث عن أحوالهم فى الآيات السابقة: إنّ العقوبات التى تصيبكم ما هى إلّاجزاء ما قمتم به من الأعمال، وأنّه لا يصيبكم أى ظلم من جانب اللّه، بل لو أنّكم تركتم الكفر والبخل وسلكتم طريق اللّه لنلتم المثوبات العظيمة المضاعفة.

يبقى أن نعرف لماذا لا يظلم اللّه سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأنّ الظلم عادة- إمّا ناشيء عن الجهل، وإمّا ناشيء عن الحاجة، وإمّا ناشيء عن نقص نفسى.

ومن كان عالماً بكل شيء، وكان غنيّاً عن كل شيء، ولم يكن يعانى من أى نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساساً، لا أنّه تعالى لا يقدر على الظلم، بل مع قدرته تعالى على الظلم- لا يظلم أبداً لحكمته وعلمه، فهو يضع كل شيء فى عالم الوجود موضعه، ويعامل كل أحد حسب عمله، وطبقاً لسلوكه وسيرته.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيداً (۴۱) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (۴۲)

شهود يوم القيامة: تعقيباً على الآيات السابقة التى كانت تدور حول العقوبات والمثوبات المعدّة للعصاة والمطيعين، جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود فى يوم القيامة فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيدًا». وهكذا يكون نبى كل امّة شهيداً عليها، مضافاً إلى شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، وشهادة الأرض التى عليها عاش، وشهادة ملائكة اللّه على أعماله وتصرفاته، ويكون نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله وهو آخر أنبياء اللّه ورسله وأعظمهم، شاهداً على امته أيضاً، فكيف يستطيع العصاة مع هؤلاء الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، وتخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرسول وعصوه، أى عندما رأوا بام أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، وواجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنّهم يندمون ندماً بالغاً لدرجة أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا تراباً أو سوّوا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فى الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ».

وقد ورد مثل هذا التعبير فى آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا».

إنّهم فى هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة ولا أن يكتموا شيئاً: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَ لَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفُوّاً غَفُوراً (۴۳) بعض الأحكام الفقهية: تستفاد من الآية الحاضرة عدة أحكام إسلامية هى:

۱- بطلان الصلاة فى حال السكر: وفلسفة ذلک واضحة، فإنّ الصلاة حديث العبد إلى ربّه ومناجاته ودعاؤه، ولابد أن يتمّ كل هذا فى حالة الوعى الكامل، والسكارى أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَوةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۳

۲- بطلان الصلاة فى حال الجنابة: الذى أشير إليه بعبارة «وَلَا جُنُبًا». ثم استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: «إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ». أى إذا فقدتم الماء فى السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجىء فى ذيل الآية).

۳- جواز الصلاة أو عبور المسجد بعد الإغتسال: هو المبين بقوله: «حَتَّى تَغْتَسِلُوا».

۴- التيمم لذوى الأعذار: ثم تشير الآية إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول: «وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ». وفى هذه العبارة من الآية قد اجتمعت كل موارد التيمم، فالمورد الأوّل هو ما إذا كان فى استعمال الماء ضرر على البدن، والمورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) وبقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ». إشارة إلى علل الإحتياج إلى التيمم وأسبابه، ومعناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً». أى لم تقدروا على تحصيل الماء أو استعماله «فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا».

ثم إنّه سبحانه يبين طريقة التيمم بقوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

وفى ختام الآية يشير إلى حقيقة أنّ الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأنّ اللّه كثير الصفح كثير الستر لذنوب عبادة «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (۴۴) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً (۴۵) فى هذه الآيات يخاطب اللّه سبحانه نبيه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب والإستغراب قائلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ». أى عجيب أمر هؤلاء الذين اتوا نصيباً من الكتاب السماوى، ولكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين وإرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنّهم يشترون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلّوا أنتم أيضاً.

وبهذا الطريق فإنّ ما نزل لهدايتهم وهداية الآخرين تحوّل إلى وسيلة لضلالهم وإضلال الآخرين بسوء نيّتهم، لأنّهم لم يكونوا أبداً بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق والحسد والمادية السوداء.

ثم يقول سبحانه: إنّ هؤلاء وإن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلّاأنّهم أعداؤكم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۴

الحقيقيون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ». وأيّة عداوة أشدّ وأكثر من أن يكرهوا هدايتكم ويخالفوا سعادتكم، تارة باللسان وتارة عن طريق إظهار النصح، وثالثة عن طريق الذم، ويجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومة فى كل ظرف وزمان بنحو خاص، وشكل معين.

ولكن لا تخافوا عداوتهم أبداً ولا تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم فى الميدان، فكفاكم أنّ اللّه قائدكم ووليكم وناصركم: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا».

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِى الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۴۶) جانب آخر من أعمال اليهود: تعقيباً على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، وتشير إلى جانب من أعمالهم ومواقفهم، فتقول أوّلًا: إنّ أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، وتغيير حقيقة الأوامر الإلهية: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ». أى

أنّ جماعة من اليهود يحرّفون الكلمات عن مواضعها.

وهذا التحريف قد يكون له جانب لفظى، وقد يكون له جانب معنوى وعملى.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أنّ المراد من التحريف فى المقام هو التحريف اللفظى وتغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا». يعنى بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» يقولون «سمعنا وعصينا».

ثم يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجة بروح التحدى والصلافة حيث يقول: إنّهم يقولون: «وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ». وبهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين.

جملة «رَاعِنَا» التى معناها «تفقدنا وأمهلنا» وكان المسلمون الصادقون فى صدر الإسلام ومطلع الدّعوة المحمّدية يرددونها أمام النّبى صلى الله عليه و آله ليتمكنوا من سماع صوت النبى وكلامه بنحو أفضل، ولكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النبى ويسيئون استخدامها ويكررونها أمام النبى صلى الله عليه و آله وهم يقصدون منها معناها العبرى الذى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۵

هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربى الآخر، وهو ما يرجع إلى الرعونة الذى يعنى الحمق «۱».

وقد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلى بألسنتهم والطعن فى الدين الحق، والشريعة الحقة: «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدّين».

«وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ». أى: إنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم وتركوا كل ذلك اللجاج والعناد، ومعاداة الحق، وسوء الأدب، والجرأة والوقاحة وقالوا: سمعنا كلام اللّه وأطعنا، فاستمع إلى كلامنا وأمهلنا لكى ندرك الحقائق إدراكاً كاملًا، لكان ذلك من مصلحتهم، وكان فى ذلك منفعتهم، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع العدل والمنطق والعدل والأدب.

«وَلكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا». أى: إنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ وقد ابتعدوا عن رحمة اللّه بسبب ما هم عليه من كفر وتمرد وطغيان، وماتت أفئدتهم وتحجّرت بحيث صار من المتعذّر أن تخضع للحق، وأن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللّهم إلّابعضهم ممن يمتلك فؤاداً طاهراً وعقلًا يقظاً، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، والاستماع إلى نداء الحق والإيمان به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (۴۷) مصير المعاندين: تعقيباً على البحث السابق فى الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب فى هذه الإية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدّقًا لِّمَا مَعَكُم». أى: آمنوا بالقرآن الكريم الذى تجدونه موافقاً لما جاء فى كتبكم من العلامات والبشائر.

---

(۱) «راعنا»: إذا اخذت مشتقة من مادة الرعى تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة و المراقبة، و بمعنى أمهلنا، و إذا اخذت مشتقة من الرعونة تكون بمعنى «أخذناو اجعلنا حمقى عندك» يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء و السب، و لابد من الالتفات إلى أن راعنا على الوجه الأول تكون بدون تشديد النون، و على الوجه الثانى بتشديد النون، و يستفاد من جملة من الراوايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون فى راعنا و مد آخرها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۶

ثم إنّ اللّه سبحانه يهددهم بأنّ عليهم أن يخضعوا للحق ويذعنوا له قبل أن يُصابوا بإحدى عقوبتين: الاولى: أن تنمحى صورهم كاملة، وأن تذهب عنهم جوارحهم وأعضاؤهم التى يرون ويسمعون ويدركون بها الحق، كلها ثم تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: «مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا» «۱».

والمراد من «الطمس وإعفاء الأثر والرّد على العقب» فى الآية الحاضرة هو المحو الفكرى والروحى، والتأخر المعنوى.

وأمّا العقوبة الثانية التى هددهم اللّه بها فهى اللعن والطرد من رحمته تعالى إذ قال: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» «۲».

إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون ويتقهقرون أو يهلكون.

ثم إنّ اللّه يختم هذه الآية بقوله: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» ليؤكّد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوة فى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه إرادة اللّه ومشيئته.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً (۴۸) أرجى آيات القرآن: الآية الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جميع الذنوب والمعاصى قابلة للمغفرة والعفو، إلا «الشرك» فإنّه لا يغفر أبداً، إلّاأن يكف المشرك عن شركه ويتوب ويصير موحداً. «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَاءُ». إنّ إرتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنّما هو من جهة أنّ اليهود والنصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، والقرآن ينذرهم- بهذه الآية- بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التى لا يشملها العفو والغفران، ثم يبين فى خاتمة الآية دليل هذا الأمر إذ يقول:

«وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» «۳».

---

(۱) «الطمس»: هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بيتاً ثم نزيل أثره بالمرة، ولكنّه يطلق- كناية- على ما فقد أثره وخاصيّته.

(۲) أصحاب السبت هم الذين ستأتى قصّتهم فى سورة الأعراف عند تفسير الآيات (۱۶۳- ۱۶۶).

(۳) «الإفتراء»: مشتقة من مادة «فرى» على وزن (فرد) بمعنى القطع، وحيث إنّ قطع بعض أجزاء الشىء السالم يفسد ذلك الشىء ويخربه إستعمل فى كل مخالفة، ومن جملة ذلك الشرك والكذب والتهمة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۰۷

وهذه الآية من الآيات التى تطمئن الموحدين إلى رحمة اللّه ولطفه، لأنّ فى هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصى والذنوب غير الشرك، فهى كما جاء فى حديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما فى القرآن آية أرجى عندى من هذه الآية».

أسباب مغفرة الذنوب: إنّه يستفاد من آيات عديدة فى القرآن الكريم أنّ وسائل التوصل إلى العفو والمغفرة الإلهية متعددة، ويمكن تلخيصها فى خمسة امور:

۱- التوبة والعودة إلى اللّه تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، والعزم على الإجتناب عن الذنب والمعصية فى المستقبل، وجبران وتلافى الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة.

۲- الأعمال الصالحة المهمة جدّاً والتى تسبب العفو عن الأعمال القبيحة.

۳- الشفاعة التى مرّ شرحها عند تفسير الآية (۴۸) من سورة البقرة.

۴- الإجتناب عن المعاصى الكبيرة الذى يوجب العفو عن المعاصى الصغيرة كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (۳۱ و ۳۲) من هذه السورة.

۵- العفو الإلهى الذى يشمل الأشخاص اللائقين له.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۴۹) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (۵۰)

سبب النّزول

روى أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم اموراً وامتيازات، فهم- كما نرى ذلك فى آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم-

كانوا يقولون: «نَحْنُ أَبْنٰؤُا اللّٰهِ».- الآية (١٨) من سورة المائدة- وربّما قالوا: «لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .- الآية (١١١) من سورة البقرة- فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات والمزاعم.

التّفسير

تزكية النفس: قال تعالى فى الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۸

يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم» «١». وفى هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التى قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنّها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وإدعاء الفضيلة لها. ثم يقول سبحانه: «بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ». فهو وحده الذى يمدح الأشخاص ويزكيهم طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشيئة البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» «٢».

وفى الحقيقة أنّ الفضيلة هى ما يعتبرها اللّه سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الإشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

فى الآية اللاحقة التفوق العنصرى، ويعتبره نوعاً من الكذب على اللّه والإفتراء عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيّناً إذ يقول سبحانه: «انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا». أى أنظر كيف أنّ هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وإدعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى اللّه من ناحية اخرى، تكذب على اللّه، ولو لم يكن لهذه الجماعة أى ذنب إلّاهذا لكفى فى عقوبتهم.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (۵۱) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (۵۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل، وهو قول أكثر المفسرين: إنّ كعب بن الأشرف خرج مع سبعين راكباً من اليهود إلى مكة، بعد وقعة احد، ليخالفوا قريشاً على رسول اللّه صلى الله عليه و آله

---

(١) «يزكّون»: من مادة «تزكية» بمعنى تطهير، وتأتى أحياناً بمعنى التربية والتنمية، ففى الحقيقة إذا كانتالتزكية مقترنة بالعمل فإنّها تعتبر امراً محموداً، وإلّا لو كانت مجرّد إدّعاء وكلام فارغ فهى مذمومة.

(٢) «الفتيل»: فى اللغة بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقى نواة التمر، ويأتى كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «فتل» بمعنى البرم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۹

وينقضوا العهد الذى كان بينهم، وبين رسول اللّه، فنزل كعب على أبى سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش، فقال أهل مكة: إنّكم أهل كتاب ومحمّد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل. فذلك قوله «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، ثم قال كعب: يا أهل مكة! ليجىء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ البيت لنجهدنّ على قتال محمّد! ففعلوا ذلك. فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن اميّون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمّد؟

قال كعب: اعرضوا علىّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء «١» ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفكّ العانى «٢»، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمّد الحديث. فقال كعب: أنتم واللّه أهدى سبيلًا مما عليه محمّد. فأنزل اللّه تعالى الآيات.

التّفسير

إنّ الآيـة الاولى من الآيتين الحاضـرتين تعكس صـفة اخرى من صـفات اليهود الذميمـة، وهى أنّهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا يداهنون كل جماعة من الجماعات، حتى أنّهم لكى يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، ولهذا يقول سبحانه فى هذه الآية مستغرباً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» وهى الأصنام؟

ولكنهم لا يقتنعون بهذا، ولا يقفون عند هذا الحدّ، بل: «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا».

ثم إنّه سبحانه بيّن- فى الآية الثانية- مصير أمثال هؤلاء المداهنين قائلًا: «أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا».

إنّ اليهود- كما تقول هذه الآية- لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا فى النهاية، وتحققت نبوءة القرآن الكريم فى شأنهم.

إنّ الآيـات الحاضرة وإن كانت قد نزلت فى شأن جماعـة خاصـة، ولكنها لا تختص بهم حتماً، بل تشـمل كل الأشـخاص المـداهنين المصلحيين (الانتهازيين) الذين يضحّون

---

(۱) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

(۲) العانى: الأسير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۰

بشخصـيتهم ومكانتهم، بل وإيمانهم ومعتقـداتهم فى سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة وأغراضـهم الدنيئة. فإنّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة اللّه فى الدنيا والآخرة، وغالباً مايؤول أمرهم إلى الهزيمة والفشل.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (۵۳) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (۵۵) فى تفسير الآيتين السابقتين قلنا أنّ اليهود عمدوا- لإرضاء الوثنيين فى مكة واسـتقطابهم- إلى الشـهادة بأنّ وثنية قريش أفضل من توحيد المسـلمين، بل وعمدوا عملياً إلى السجود أمام الأصنام، وفى هذه الآيات يبين سبحانه أنّ حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين:

۱- إنّ اليهود ليس لهم- من جهـة المكانـة الاجتماعيـة- تلك القيمـة التى تؤهلهم للقضاء بين الناس والحكم فى امورهم، ولم يفوّض الناس إليهم حق الحكم والقضاء بينهم أبداً ليكون لهم مثل هذا العمل: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ».

هـذا مضافاً إلى أنّهم لا يمتلكون أيّـة قابليـة وأهليـة للحكومة المادية والمعنوية على الناس، لأنّ روح الاستئثار قد اسـتحكم فى كيانهم بقوة إلى درجـة أنّهم إذا حصـلوا على مثل هـذه المكانة لم يعطوا لأحد حقه، بل خصّوا كل شـىء بأنفسـهم دون غيرهم «فَإِذًا لَّايُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» «۱».

۲- إنّ هـذه الأحكام الباطلـة ناشـئة من حسدهم البغيض للنبى صـلى الله عليه و آله وأهل بيته المكرمين، ولهذا تفقد أيّة قيمة، إنّهم إذ خسـروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد فى كيانهم: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول معقباً على هذا: ولماذا تتعجبون من إعطائنا النبى صلى الله عليه و آله وبنى هاشم

---

(۱) «النقير»: مشـتقة من مادة النقر (وزن فقر) الدق فى شىء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقال بعض: النقير وقبة صغيرة جدّاً فى ظهر النّواة ويضرب به المثل فى الشىء الطفيف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۱

ذلك المنصب الجليل وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم اللّه سبحانه وأعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى وسليمان وداود) ولكنكم- مع الأسف- أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب قسوتكم وشروركم: «فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا».

فى تفسير البرهان عن أبى الصباح قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ...» فقال: «يا أبا الصباح نحن [واللّه الناس المحسودون».

ثم قال القرآن الكريم فى الآية اللاحقة: «فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا». أى إنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذى نزل على آل إبراهيم، ومنهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان وحال دون انتشاره، اولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذاباً وعقوبة. وسينتهى إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذى نزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (۵۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (۵۷) تعقيباً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين والكافرين. فالآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا» «۱».

وعلة تبديل الجلود- على الظاهر- هى أنّه عندما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، ولكى لا تتخفف عقوبتها وعذابها وليحس الإنسان بالألم إحساساً كاملًا، تبدل الجلود، وتأتى مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلّانتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة اللّه.

---

(۱) «نصليهم»: من مادة «الصلى» بمعنى الإلقاء فى النار، والإشتواء بالنار، أو التدفؤ بالنار و «نضجت»: من مادة «نضج» بمعنى أدركت شيها و صارت مشوية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۲

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا». أى إنّه قادر بعزته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاة، وأنّه لا يفعل ذلك اعتباطاً، بل عن حكمة وعلى أساس الجزاء على المعصية.

ثم يقول سبحانه فى الآية الثانية: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» «۱».

أى: إنّنا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنّ ندخلهم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار والسواقى يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهرات يستريحون إليهن، ويجدون فى كنفهن لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (۵۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ هذه الآية خطاب للنبى صلى الله عليه و آله بردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم فتح كعبة وأراد أن يدفعه إلى العباس، لتكون له الحجابة والسقاية. (والظاهر أنّ العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الاجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية) ولكن النبى صلى الله عليه و آله فعل خلاف ذلك، فإنّه بعد ما طهّر الكعبة من الأصنام

والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ففعل ذلك وهو يتلو الآية المبحوثة.

التّفسير

الآية الحاضرة تتضمّن حكماً عامّاً وشاملًا للجميع، فهى تقول بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا».

إنّ للأمانة معنى وسيعاً يشمل كل شىء مادى ومعنوى، ويجب على كل مسلم- بصريح

---

(۱) «الظليـل»: من مادة «الظل» بمعنى الفىء، واستعمل هنا للتأكيـد، لأنّ معناه الظل المظلل أو الظل الظليل وهو كنايـة عن غايـة الراحة والدعة والرفاه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۳

هـذه الآيـة- أن لا يخون أحـداً فى أيّة أمانـة دون اسـتثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسـلماً أو غير مسـلم، وهذا هو إحدى المواد فى «الميثاق الاسلامى لحقوق الإنسان» التى يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

ثم إنّه سبحانه يشير- فى القسم الثانى من الآية- إلى قانون مهم آخر، وهو مسألة «العدالة فى الحكومة» فيقول: «وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». أى إنّ اللَّه يوصيكم أيضاً أن تلتزموا جانب العدالة فى القضاء والحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثم قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ».

ثم يقول مؤكّداً ذلك أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» فهو يراقب أعمالكم وهو يسمع أحاديثكم ويرى أفعالكم.

إنّ الأمانة لا تنحصر فى الأموال التى يودعها الناس- بعضهم عند بعض- بل العلماء فى المجتمع هم أيضاً مستأمنون يجب عليهم أن لا يكتموا الحقـائق، بـل حتى أبنـاء الإنسـان وأولاـده أمانات إلهيـة لـدى الآباء والامهات فلا يفرطوا فى تربيتهم، ولا يقصـروا فى تأديبهم وتعليمهم، وإلّا كـان ذلـك خيانـة فى الأمانـة الإلهيـة التى أمر اللَّه بأدائهـا، بـل وفوق ذلك كله الوجود الإنسانى، فهو وجميع الطاقات المودوعـة فيه «أمانـات اللَّه» التى يجب على الإنسـان أن يجتهـد فى المحافظـة عليهـا، كما عليه أن يحافظ على صـحّة جسـمه وسـلامة روحه.

فى الكـافى عـن الإمـام الصـادق عليه السـلام أنّه قـال لأحـد أصـحابه: «اعلم أنّ ضـارب على بالسـيف وقـاتله لـو ائتمننى واستنصـحنى واستشارنى ثم قبلت ذلك منه لأدّيت إليه الأمانة».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (۵۹) هذه الآية وبعض الآيات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسـلامية، ألا وهى مسألـة القيـادة، وتعيين القـادة والمراجع الحقيقيين للمسـلمين فى مختلف المسائـل الدينيـة والاجتماعيـة. فهى تأمر المؤمنين- أوّلًا- بأن يطيعوا اللَّه، ومن البـديهى أنّه يجب أن تنتهى جميع الطاعات- عنـد الفرد المؤمن- إلى طاعـة اللَّه سـبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تنبع من ولاية اللَّه سبحانه وذاته المقدّسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيئته، لأنّه الحاكم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۴

والمالـك التكوينى لهـذا العـالم، وكـل حاكميـة ومالكيـة يجب أن تكون بإذنه وبأمره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ». وفى المرحلة الثانيـة تأمر باتّباع النبى صـلى الله عليه و آله وإطاعته، وهو النبى المعصوم الـذى لا ينطق عن الهوى ولا ينطلق من الأنا، والنبى الذى هو خليفة اللَّه بين الناس، وكلامه كلام اللَّه، وقد أعطى هذا المقام من جانب اللَّه سبحانه.

وفى المرحلة الثالثة يأمر سبحانه بإطاعة أولى الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامى، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم.

من هم أولوا الأـمر؟ ذهب جميع مفسّرى الشـيعة بالإتفاق إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأئمّـة المعصومون عليهم السـلام الـذين انيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية والمعنوية فى جميع حقول الحياة من جانب اللَّه سبحانه والنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ولا

تشمل غيرهم، اللّهم إلّا الذى يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً فى إدارة المجتمع الإسلامى من جانبهم- فإنّه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معينة، ولا تجب طاعته لكونه من اولى الأمر، بل لكونه نائباً لُاولى الأمر ووكيلًا من قبلهم.

يقول سبحانه فى ذيل الآية إلى مسألة التنازع والاختلاف بين المسلمين إذ قال: «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا». والمراد من الاختلاف والتنازع فى العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع فى الأحكام، لا فى المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه فى هذه المسائل يجب إطاعة اولى الأمر (كما صرح بذلك فى الجملة الاولى من الآية المبحوثة هنا).

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً (۶۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة. فقال اليهودى أحاكم إلى محمّد؛ لأنّه علم أنّه لا يقبل الرشوة ولا يجور فى الحكم. فقال المنافق: لا بل بينى وبينک كعب بن الأشرف؛ لأنه علم أنّه يأخذ الرشوة، فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۵

التّفسير

الآية الحاضرة مكملة للآية السابقة، لأنّ الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة اللّه والرسول واولى الأمر والتحاكم إلى الكتاب والسنّة، وهذه الآية تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت واتّباع أمره وحكمه وتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْکَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِکَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ».

ثم يضيف القرآن قائلًا: «وَيُرِيدُ الشَّيْطنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَللًا بَعِيدًا». أى إنّ التحاكم إلى الطاغوت فخّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً (۶۱) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوکَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَ تَوْفِيقاً (۶۲) أُولَئِکَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً (۶۳) نتائج حكم الطاغوت: فى أعقاب النهى الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت وحكام الجور الذى مرّ فى الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام والأقضية، وما يتمسک به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور والباطل.

ففى الآية الاولى يقول سبحانه: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنکَ صُدُودًا».

إنّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم وروح النفاق فيهم، وإلّا لوجب أن ينتبهوا ويثوبوا إلى رشدهم على دعوة رسول الكريم صلى الله عليه و آله لهم ويعترفوا بخطأهم.

ثم فى الآية الثانية يبين هذه الحقيقة، وهى أنّ هولاء المنافقين عندما يتورطون فى مصيبة كنتيجة لمواقفهم وأعمالهم، ويواجهون طريقاً مسدودة يعودون إليک عن اضطرار ويأس:

«فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوکَ».

ويحلفون فى هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلّاالإحسان والتوصل إلى الوفاق بين طرفى الدعوى: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۶

ولكن كشف سبحانه فى الآية الثالثة النقاب عن وجههم، وأبطل هذه التبريرات الكاذبة وقال: «أُولئِکَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ».

ولكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم وعقوبتهم فيقول: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأموراً بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلّافى بعض الموارد الاستثنائية.

ثم إنّه سبحانه يأمر النبى أن يعظهم، وأن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، والعظة المؤثرة، يذكرهم بنتائج أعمالهم: «وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (۶۴) فى الآيات السابقة شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكّام الجور، وفى هذه الآية يقول سبحانه مؤكداً: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». أى أنّنا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن اللَّه وأمره ولا يخالفهم أحد، لأنّهم كانوا رسل اللَّه وسفراءه كما كانوا رؤساء الحكومة الإلهيّة أيضاً، وعلى هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهة بيان أحكام اللَّه ومن جهة طريقة تطبيقها، ولا يكتفوا بمجرد ادعاء الإيمان.

يستفاد من عبارة «بِإِذْنِ اللَّهِ» أنّ كل ما عند الأنبياء من اللَّه.

ثم إنّه سبحانه يترك باب التوبة والإنابة- عقيب تلك الآية- مفتوحاً على العصاة والمذنبين، وعلى الذين يراجعون الطواغيت ويتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، ويقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا».

إشارة إلى أنّ فائدة الطاعة لأمر اللَّه وأمر الرسول تعود إليكم أنفسكم، وإن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنّها تحطّم حياتكم المادية، وتوجب تخلفكم

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۱۷

وانحطاطكم من الناحية المعنوية.

إنّ هذه الآية تجيب ضمناً على كل الذين يعتبرون التوسل برسول اللَّه أو بالإمام نوعاً من الشرك، لأنّ الآية تصرح بأنّ التوسل بالنبى والاستشفاع به إلى اللَّه، وطلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصى، مؤثر وموجب لقبول التوبة وشمول الرحمة الإلهية.

فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (۶۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى الزبير ورجل من الأنصار، خاصمه إلى النبى صلى الله عليه و آله فى شراج من الحرة «۱»، كانا يسقيان بها النخل كلاهما فقال النبى للزبير: أسق ثم أرسل إلى جارك فغضب الإنصارى وقال: يا رسول اللَّه لئن كان ابن عمّتك! فتلون وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم قال للزبير: أسق يا زبير، ثم إحبس الماء، حتى يرجع إلى الجُدُر واستوف حقّك ثم أرسل إلى جارك. وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أشار إلى الزبير برأى فيه السعة له ولخصمه. فلما أحفظ رسول اللَّه، استوعب للزبير حقّه من صريح الحكم.

التّفسير

هذه الآية تكميلًا لما جاء من البحث فى الآيات السابقة، ولقد أقسم اللَّه- فى هذه الآية- بأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيماناً واقعياً إلّاإذا تحاكموا إلى النبى وقضائه، ولم يتحاكموا إلى غيره «فَلَا وَرَبّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ».

ثم يقول سبحانه: يجب عليهم، أن يتحاكموا إليك فقط، ومضافاً إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه، سواءاً كان فى صالحهم أو فى ضررهم ولا يشعروا بأى حرج فى نفوسهم فضلًا عن أن لا يعترضوا، وبالتالى ليسلموا تسليماً.

«ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُوا تَسْلِيمًا».

يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمان- ضمناً:

(۱) الشراج جمع الشرجة: وهى مسيل الماء من الحرة إلى السهل. الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود، كأنّهااحرقت بالنار.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۱۸

۱- إنّ الآية إحدى الأدلة على عصمة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لأنّ الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه وأوامره قولًا وعملًا، دليل واضح على أنّه صلى الله عليه و آله لا يخطىء فى أحكامه وأقضيته وتعليماته، ولا يتعمّد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضاً.

۲- إنّ الآية الحاضرة تبطل كل اجتهاد فى مقابل النص الوارد عن النبى صلى الله عليه و آله وتنفى شرعية كل رأى شخصى فى الموارد التى وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب اللّه تعالى ونبيه صلى الله عليه و آله.

وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۶۸) تكميلًا للبحث السابق حول اولئك الذين يشعرون بضيق وحرج تجاه أحكام النبى صلى الله عليه و آله وأقضيته العادلة بعض الأحيان- يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف والفرائض الثقيلة فى الامم السالفة فيقول: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ». أى إنّنا لم نكلّفهم بأية فريضة شاقة لا تتحمل، ولو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الامم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفارة لما إرتكبوه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟

إنّهم لم يتحملوا حكماً بسيطاً أصدره النبى فى أمر سقى نخلات، ولم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة والمسؤوليات الجسيمة ويمرّوا بالاختبارات الصعبة بنجاح، فلو أنّنا أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أى يقتل بعضهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلّاقليل منهم.

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا». أى لو أنّهم قبلوا نصائح النبى ومواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، ولكان سبباً لتقوية اسس الإيمان عندهم.

إنّ اللّه سبحانه يقول فى ختام هذه الآية: «وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا». أى كلّما اجتهد الإنسان فى السير فى سبيل طاعة اللّه وتنفيذ أوامره ازدادت استقامته وإزداد ثباته، وهذا يعنى أنّ

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۱۹

إطاعة الأوامر الإلهية نوع من الرياضة الروحية التى تحصل للإنسان إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعزعه.

ثم إنّه سبحانه يبين- فى الآية الثانية- الفائدة الثالثة من فوائد التسليم لأوامر اللّه وطاعته إذ يقول: «وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا». أى إذاً لأعطيناهم- مضافاً إلى ما ذكرناه- أجراً من عندنا عظيماً، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه.

ثم فى آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول: «وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا». والمراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يمن بها اللّه سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب والهداية الثانوية.

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (۷۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى ثوبان وكان شديد الحب لرسول اللّه صلى الله عليه و آله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه

ونحل جسمه فقال صلی الله علیه و آله: «یا ثوبان! ما غیّر لونک»؟ فقال:

یـا رسول اللَّه! مـا بی من مرض ولاـوجع غیر أنّی إذا لم أرک اشـتقت إلیـک حتی ألقـاک، ثم ذکرت الآـخرة فأخـاف أنّی لا أراک هناک، لأنّی عرفت أنّک ترفع مع النبیین وإنّی إن أدخلت الجنـة کنت فی منزلـة أدنی من منزلتک وإن لم أدخل الجنة فذاک حتی لا أراک أبداً. فنزلت الآیة.

ثم قال صـلی الله علیه و آله: «والـذی نفسـی بیـده لا یؤمننّ عبـد حتی أکون أحب إلیه من نفسه وأبویه وأهله وولده والناس أجمعین».

أی: یکون مسلماً لتعالیمی وأوامری، تسلیماً کاملًا.

التّفسیر

رفقـاء الجنـة: فی هـذه الآیـة یبین القرآن میزة اخری من میزات من یطیع أوامر اللَّه تعالی والنبی صـلی الله علیه و آله ومکملـة للمیزات التی جاء ذکرها فی الآیات السابقة، وهی صـحبة الذین أتمّ اللَّه نعمه علیهم ومرافقتهم: «وَمَن یُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِم».

وکما أسلفنا فی سورة الحمد فإنّ الذین أنعم اللَّه علیهم هم الذین ساروا فی الطریق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج ۱ ۴۴۹

المستقیم ولم یرتکبوا أی خطأ، ولم یکن فیهم أی انحراف. ثم یشیر- لدی توضیح هذه الجملة وتحدید من أنعم اللَّه علیهم- إلی أربع طوائف یشکلون الأرکان الأربعة لهذا الموضوع وهم:

۱- الأنبیاء: أی رسل اللَّه تعالی الذین کانوا طلیعة السائرین فی سبیل هدایة الناس ودعوتهم إلی الصراط المستقیم «مِّنَ النَّبِیِّینَ».

۲- الصادقون: وهم الـذین یصدقون فی القول ویصدقون إیمانهم بالعمل الصالح، ویثبتون أنّهم لیسوا مجرد أدعیاء الإیمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر اللَّه وتعالیمه «وَالصِّدّیقِینَ».

ومن هـذا التعبیر یتّضـح أنّه لیس بعـد مقام النبوة أعلی من مقام الصـدق، والصـدق هـذا لا ینحصـر فی الصـدق فی القول فقط، بل هو الصـدق فی الفعل والعمل ... الصـدق فی الممارسات والمواقف، وهو لـذلک یشـمل الأمانة والإخلاص أیضاً، لأنّ الأمانة هی الصدق فی العمل کما أنّ الصدق أمانة فی القول.

۳- الشـهداء: الـذین قتلـوا فی سبیـل اللَّه وفی سبیـل العقیـدة الإلهیـة الطـاهرة، أو الـذین یشـهدون علی النـاس وأعمـالهم فی الأـخرة «وَالشُّهَدَاءِ».

۴- الصالحون: وهم الذین بلغوا بأعمالهم الصالحة والمفیدة وبإتّباع الأنبیاء وأوامرهم إلی مراتب عالیة ومقامات رفیعة «وَالصَّالِحِینَ».

ومن الواضح البیّن أنّ مسألة مرافقة الصالحین وصحبة الرفقاء الطیبین لها من الأهمیة بحیث تعتبر فی الآخرة الجزء المکمل للنعم الإلهیة الکبری التی یمنّ اللَّه بهـا علی المطیعین فی الجنـة، فهم علاوة علی کـل مـا یحصـلون علیه من نعم ومیزات سـیحظون بمرافقـة رفقـاء کالأنبیاء والصدیقین والشهداء والصالحین.

ثم یبین سـبحانه فی الآیـة اللاحقة أهمیة هذا الإمتیاز الکبیر (أی مرافقة تلک الصـفوة المختارة) إنّ هذه الهبة من جانب اللَّه، وهو علیم بأحوال عباده ونوایاهم ومؤهلاتهم: «ذلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَکَفَی بِاللَّهِ عَلِیمًا». فلا یخطیء فی الإثابة والجزاء.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَکُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً (۷۱) الحـذر الـدائم: «الحـذر»: یعنی الیقظة والتأهب والترقب لخطر محتمل، کما یعنی أحیاناً

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۱

الوسیلة التی یستعان بها لدفع الخطر. أمّا کلمة «ثبات»: فتفید معنی المجموعات المتفرقة.

والقرآن يخاطب عامة المسلمين فى الآية المذكورة أعلاه، ويقدم لهم اثنتين من التعاليم اللازمة لصيانة وجود المسلمين والمجتمع الإسلامى تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود. ففى البداية تأمر الآية المؤمنين بالتمسك باليقظة والبقاء فى حالة التأهب من أجل مواجهة العدو وتحذرهم من الغفلة عن هذا الامر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ».

ثم تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب والتكتيكات المختلفة فى مواجهة العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحّد مترابط إن استدعت المواجهة هجوماً شاملًا منسجماً وفى كلتا الحالتين لابد من المواجهة الجماعية «فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا».

الآية الكريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين فى كل العصور والأزمنة، ويدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظة والاستعداد الدائم لمواجهة أى طارىء من جانب الأعداء ولحماية أمن الامة، وذلك عن طريق التحلّى بالاستعداد المادى والمعنوى الدائمين.

وَ إِنَّ مِنْكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَ لَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقابلة العدوّ فى الآية السابقة تبين هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، وتفضح تذبذبهم، فهم يصرّون على الإمتناع عن المشاركة فى صفوف المجاهدين فى سبيل اللَّه ... «وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ» (١).

وحين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن كان قد أصابهم مكروه فى قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأنّ اللَّه قد أنعم عليهم نعمة كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين فى ذلك القتال، ويفرحون لعدم حضورهم فى مشاهد الحرب الرهيبة

---

(١) «ليبطّئنّ»: من «البطء» فى الحركة، وهو فعل لازم ومتعد. أى أنّهم يبطّؤون فى حركتهم ويدعون الآخرين إلى البطء، ولعلّ استعمال الفعل فى باب التفعيل هنا يعنى أنّه متعد فقط، أى إنّهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تارةً ويدفعون الآخرين إلى ذلك تارةً اخرى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۲۲

«فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا». وحين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين ونيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم ويظهر الندم على وجوههم، ويشرعون- وكأنّهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أيّة رابطة- بترديد عبارات التأسف: «وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا».

فالذى يرى الشهادة والقتل فى سبيل اللَّه مصيبةً وبلاءً، ويخال النجاة من القتل أو الشهادة فى هذه السبيل نعمة إلهية، لا ينظر إلى النصر والفوز إلّامن خلال منظار كسب الغنائم والمتاع المادى لا غير.

فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧۴) إعداد المؤمنين للجهاد: بعد أن أوضحت الآية السابقة إحجام المنافقين عن مشاركة المجاهدين فى القتال تتوجه الآية (٧۴) والتى تليها- بلغة مشجعة مشوقة- إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللَّه. وتوضح الآية فى بدايتها أنّ أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق اولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الاخروية الخالدة: «فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا بِالْأَخِرَةِ». أى أنّ المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول فى هذه الصفقة.

وتستمر الآية مبيّنة أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إمّا النصر على الاعداء، أو الشهادة فى سبيل اللَّه، وهم فى كلتا الحالتين ينالون الأجر والثواب العظيم من اللَّه تعالى: «وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». وبديهى أنّ جنوداً كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم فى الحالتين.

وَ مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (۷۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۳

الإستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية: كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم باللّه واليوم الآخر، وقد اعتمدت أيضاً قضية الربح والخسارة فى سياق دعوتها إلى الجهاد، أمّا هذه الآية فتستند فى دعوتها الجهادية إلى العواطف والمشاعر الإنسانية وتستثيرها فى هذا الإتجاه- فهى تخاطب مشاعر المؤمنين وعواطفهم بعرض ما يتحمله الرجال والنساء والأطفال المضطهدون من عذاب وظلم بين مخالب الطغاة الجبارين، وتطالب المؤمنين- مستثيرة عواطفهم فى هذا الإتجاه- عن طريق عرض المشاهد المأساوية التى يعانى منها المستضعفون وتدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: «وَمَا لَكُمْ لَاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» «۱».

ولأجل إثارة المشاعر أكثر، تنبّه الآية المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش والارهاب والاضطهاد قد انقطع أملهم فى النجاة ويئسوا من كل عون خارجى، فأخذوا يدعون اللّه لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش والرعب والظلم الفاحش: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا».

ويطلب المستضعفون من اللّه- أيضاً- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم وينجيهم من الظالمين بقولهم: «وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا».

الآية تشير إلى أنّ اللّه قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (۷۶)

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره والمخاطبين به ودوافعه، وفى هذه الآية نلاحظ أنّها تحث المجاهدين على القتال، وتبيّن أهدافهم، مؤكّدة أنّهم يقاتلون فى سبيل اللّه ولمصلحة عباد اللّه، وأنّ الكافرين يقاتلون فى سبيل الطاغوت المتجبر: «الَّذِينَ

---

(۱) إنّ الفرق بين المستضعف والضعيف واضح وجلى، فالضعيف هو من كان معدوم القدرة والقوّة، والمستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم وجور الآخرين، سواء كان الاستضعاف فكرياً أم ثقافياً أم كان أخلاقياً أو اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۴

ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ». أى إنّ الحياة فى كل الأحوال لا تخلو من الكفاح والصراع، غير أنّ جمعاً يقاتلون فى طريق الحق، وجمعاً يقاتلون فى طريق الشيطان والباطل. لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة وخوف:

«فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطنِ».

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمة، هى أنّ الطاغوت والقوى المتجبرة- مهما إمتلكت من قوة ظاهرية- ضعيفة فى نفسها وجبانة فى باطنها، وبهذا تطمئن الآية المؤمنين كى لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت، ولأنّهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذى هو اللّه العزيز القدير، بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطنِ كَانَ ضَعِيفًا».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ

أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَ لَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۷)

سبب النّزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس: أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبى صلى الله عليه و آله فقالوا: يا نبى اللَّه كنا فى عز ونحن مشركون فلمّا آمنا صرنا أذلة فقال: إنّى امرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوّله اللَّه إلى المدينة أمره اللَّه بالقتال فكفوا فأنزل اللَّه الآية.

التّفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل: تتحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة فى الجهاد خلال ظرف غير مناسب، وأصرّوا على السماح لهم بذلك، وقد صدرت الأوامر لهم- حينئذ- بالصبر والاحتمال، ودعوا إلى إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وبعد أن سنحت الفرصة وآتت الظروف للجهاد بصورة كاملة وأمروا به، استولى على هؤلاء النفر الخوف والرعب، وانبروا يعترضون على الأمر الإلهى ويتهاونون فى أدائه. تقول الآية: «أَلَمْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۵

تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً». فكان هؤلاء فى اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لماذا أسرع اللَّه فى إنزال أمر الجهاد؟ ويتمنون لو أخر اللَّه هذا الأمر ولو قليلًا! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمة «۱» «وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ».

والقرآن الكريم يردّ على هؤلاء أوّلًا من خلال عبارة: «يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً». أى أنّ هؤلاء بدل أن يخافوا اللَّه القادر القهار، أخذتهم الرّجفة واستولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا الإنسان أكبر من خشيتهم اللَّه العلى القدير.

ثم يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفّروا لأنفسهم- فرضاً- حياة قصيرة رغيدة هانئة، فإنّهم سيخسرون هذه الحياة لأنّها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التى وعد اللَّه بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه ولا يخشون سواه، هى خير من تلك الحياة الزائلة، وإن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملًا غير منقوص دون أن يصيبهم أى ظلم، «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (۷۸) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (۷۹) إنّ هاتين الآيتين تقصدان مجموعة من المنافقين تسللوا إلى صفوف المسلمين، أنّ هؤلاء قد أبدوا الخوف والقلق من المشاركة فى مسؤولية الجهاد، وقد ظهر عليهم الضجر والإستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم- فى الآية (۷۷) من نفس السورة-

---

(۱) تدلّ بعض الأحاديث أنّ هذا النفر من المسلمين كان قد سمع بحديث نهضة المهدى المنتظر، فكان البعض منهم يترقب أن يؤخر الجهاد إلى زمن المهدى عليه السلام. (تفسير نور الثقلين ۱/ ۵۱۸).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۶

وأنّبهم لموقفهم هذا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى . وفى هذا المقطع القرآنى ردّ آخر على اولئك المنافقين، حيث بيّن أنّ الموت آتيهم يوماً لا محالة، حتى إذا تحصنوا فى قلاع عالية ومنيعة بحسب ظنّهم، ومادام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر وصحيح كالجهاد؟!

يشير القرآن فى هاتين الآيتين إلى وهم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أنّ هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خيراً قالوا: إنّ اللَّه هو الذى أنعم عليهم بذلك، وزعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: «وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ».

أمّا إذا منى هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فى ميدان القتال، ألقوا اللوم على النبى صلى الله عليه و آله وافتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث فى غزوة احد. تقول الآية: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِكَ».

إنّ القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكداً إنّ الإنسان المسلم الموحد الذى يؤمن صادقاً باللَّه ويعبده ولا يعبد سواه، إنّما يعتقد بأنّ كل الوقائع والأحداث والإنتصارات والهزائم هى بيد اللَّه العليم الحكيم، فاللَّه هو الذى يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفى هذا المجال تقول الآية: «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ».

والآية- هذه- تحمل فى آخرها تقريعاً وتأنيباً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون فى حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: «فَمَالِ هؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا».

وبعد هذا- فى الآية التالية- يصرح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشرى من سرور وإنتصار هو من عند اللَّه، وإنّ ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه. تقول الآية: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ».

وتردّ الآية فى آخرها على اولئك الذين كانوا يرون وجود النبى صلى الله عليه و آله سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وحين تنسب الآية الاولى الخير والشر كله للَّه، فإنّ ذلك معناه أنّ مصادر القوة جميعها بيد اللَّه العليم القدير حتى تلك القوّة التى يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشر للَّه، لأنّه هو واهب القوى. والآية الثانية: تنسب «السيئات» إلى الناس إنطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة فى استخدام المواهب الإلهية.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۲۷

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ مَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰) وَ يَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَ اللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۸۱) سنّة النبى صلى الله عليه و آله بمنزلة الوحى: توضح الآية الاولى موضع النبى صلى الله عليه و آله من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكد أوّلًا بأنّ إطاعة النبى صلى الله عليه و آله هى طاعة للَّه: «مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ». أى لا انفصال بين طاعة اللَّه وطاعة الرسول.

ثم تبين أنّ النبى صلى الله عليه و آله ليس مسؤولًا عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنّه ليس مكلفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إنّ مسؤولية النبى صلى الله عليه و آله هى الدعوة للرسالة الإلهية التى بعث بها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين. تقول الآية: «وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا».

فعبارة «حفيظ» تعنى الذى يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية على أنّ واجب النبى صلى الله عليه و آله هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم.

والأمر المهم الآخر فى هذه الآية هو أنّها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجّية السنّة النبوية الشريفة.

أمّا الآية الثانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين بأنّهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول صلى الله عليه و آله ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنبى صلى الله عليه و آله: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ».

وبعد أن ينصرف الناس من عند النبى صلى الله عليه و آله ويختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم فى إطاعة النبى ويتآمرون فى

ندواتهم الخاصة- السرّية الليلية- على أقوال النبى: «فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ».

ولكن اللَّه يأمر نبيه بأن لا- يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى خططهم وأن يتجنب الاعتماد عليهم فى مشاريعه، بل يتوكل على اللَّه الذى هو خير ناصر ومعين:

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۸

أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً (۸۲) خلوّ القرآن من الإختلاف دليل حى على إعجازه: هذه الآية تخاطب المنافقين وسائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، وتطلب منهم- بصيغة السؤال- أن يحققوا فى خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحى منزل، ولو لم يكن كذلك لكثر فيه التناقص والاختلاف، وإذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يذعنوا أنّه وحى من اللَّه تعالى.

ونستدل من هذه الآية إنّ الناس مكلفون بالبحث والتحقيق فى اصول الدين والمسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النبى صلى الله عليه و آله وحقانية القرآن، وأن يتجنّبوا التقليد والمحاكاة فى مثل هذه الحالات.

والقرآن قابل للفهم والإدراك للجميع ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر اللَّه بالتدبر فيه.

وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (۸۳) نشر الإشاعات: تشير هذه الآية إلى حركة منحرفة اخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل فى سعيهم إلى تلقف أى نبأ عن إنتصار المسلمين أو هزيمتهم، وبثّه بين الناس فى كل مكان، دون التحقيق والتدقيق فى أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره، وكان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعة عمد أعداء المسلمين إلى بثّها لتحقيق أهدافهم الدنيئة وليسيؤوا إلى معنويات المسلمين ويضروا بهم، «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمِنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ».

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كى يستفيدوا من معلومات هؤلاء القادة وفكرهم ولكى يتجنّبوا دفع المسلمين إلى حالة من الغرور حيال انتصارات خيالية وهمية، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعة أنباء عن هزيمة لا حقيقة لها

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۹

«وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».

«يستنبطونه»: من مادة «نبط» التى تعنى أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع، والاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد والوثائق، سواء كانت العملية فى الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

وتؤكد الآية فى ختامها على أنّ اللَّه قد صان المسلمين بفضله ولطفه وكرمه من آثار إشاعات المنافقين والمغرضين وضعاف الإيمان، وأنقذهم من نتائجها وعواقبها الوخيمة، ولولا- الإنقاذ الإلهى ما نجى من الإنزلاق فى خط الشيطان إلّاقليلًا: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا». أى إنّ النبى وأصحاب الرأى والعلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات ومشيعيها، أمّا أكثرية المجتمع فلابد لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات ونشرها.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (۸۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ أبا سفيان لما رجع إلى مكة يوم احد، واعد رسول اللَّه موسم بدر الصغرى وهو سوق تقوم فى ذى القعدة فلما بلغ النبى الميعاد قال للناس: «اخرجوا إلى الميعاد». فتثاقلوا وكرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم. فأنزل اللَّه هذه الآية، فحرّض النبى المؤمنين، فتثاقلوا عنه ولم يخرجوا. فخرج رسول اللَّه فى سبعين راكباً حتى أتى موسم بدر، فكفاهم اللَّه بأس العدو، ولم يوافهم أبو سفيان ولم يكن قتال يومئذ، وانصرف رسول اللَّه بمن معه سالمين.

التّفسير

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتى هذه الآية لتعطى أمراً جديداً وخطيراً إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّه مكلف بمواجهة الاعداء وجهادهم حتى لو بقى وحيداً ولم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنّه صلى الله عليه و آله مسؤول عن أداء واجبه هو، وليس عليه مسؤولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق والتحريض والدعوة إلى الجهاد: «فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَاتُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية تشتمل على حكم اجتماعى مهم يخصّ القادة، ويدعوهم إلى التزام الرأى الحازم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۳۰

والعمل الجاد فى طريقهم ومسيرتهم نحو الهدف المقدس الذى يعملون ويدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأنّ استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، وأى قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على اللّه ... مصدر كل قدرة وقوة فى عالم الوجود، وهو سبحانه أقوى من كل ما يدبّره الأعداء من دسائس ومكائد بوجه الدعوة، لذلك تقول الآية: «عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا» «١».

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥) عواقب التحريض على الخير أو الشر: لقد أشير فى الآية السابقة إلى أنّ كل إنسان مسؤول عن عمله وعما هو مكلف بأدائه، ولا يُسأل أى إنسان عن أفعال الآخرين. أمّا هذه الآية فقد جاءت لكى تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطىء للآية السابقة، فبينت أنّ الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيباً من ذلك الخير أو الشر: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا» «٢».

وهذا بحد ذاته- حثّ على دعوة الآخرين إلى فعل الخير والتزام جانب الحق، ونهى الغير عن فعل الشر، كما تبين هذه الآية اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعية لدى المسلمين، ودعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الإنطوائية، وإلى عدم تجاهل الآخرين، وذلك من خلال التواصى بالخير والحق والتحذير من الشر والباطل.

وبناء على هذه النظرة الإسلامية، فإنّ مرتكبى الذنب ليسوا هم وحدهم مذنبين، بل يشترك فى الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام

---

(١) «البأس» و «البأساء»: بمعنى الشدّة والقهر والغلبة. «التنكيل»: من نكل فى الشيء، أى ضعف وعجز، و «النكل» قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين؛ و «التنكيل» أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذى ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعض بمصيرهم.

(٢) «الكفل»: هو عجز الحيوان ومؤخرته التى يصعب ركوبها ويشق، من هنا فكلّ ذنب وحصة رديئة كفل، والكفالة كل عمل ينطوى على تعب وعناء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۳۱

المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتّى عن طريق إطلاق كلمة صغيرة مشجعة وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها. والآية- هذه- تؤكد أيضاً حقيقة ثابتة اخرى، وهى أنّ اللّه قادر على مراقبة الإنسان وتدوين ما يقوم به من أعمال، ثم محاسبته عليها، واثابته على خيرها، ومعاقبته على شرها «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا».

وَ إِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦) دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ: هذه الآية تأمر

المسلمين بمقابلة مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: «وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا».

«التحية»: مشتقة من «الحياة» وتعنى الدعاء لدوام حياة الآخرين، ومهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقوام تكون صيغة «السلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، ولكن بعض الروايات والتفاسير تفيد أنّ مفهوم التحية يشمل- أيضاً- التعامل الودى العملى بين الناس.

وهكذا يتضح لنا أنّ الآية هى حكم عام يشمل الرد على كل أنواع مشاعر الودّ والمحبة سواء كانت بالقول أو بالعمل- وتبين الآية فى آخرها أنّ اللَّه يعلم كل شىء، حتى أنواع التحية والسلام والردّ المناسب لها، وأنّه لا يخفى عليه شىء أبداً، حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا».

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (۸۷) جاءت هذه الآية مكملة لما سبقتها ومقدمة لما تليها من آيات، فالآية السابقة بعد أن أمرت بردّ التحية قالت: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا». والآية موضوع البحث تشير إلى قضية غيبية مهمة هى قضية يوم البعث والحساب، حيث محكمة العدل الإلهية العامة للبشر أجمعين وتقرنها بمسألة التوحيد الذى هو ركن آخر من أركان الإيمان «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۲

هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمَ الْقِيمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ». وعبارة «لَيَجْمَعَنَّكُمْ» تدل على الشمولية لكل البشر من أوّلهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلهم» فى يوم واحد هو يوم الحشر والقيامة.

وعبارة «لَارَيْبَ فِيهِ» الواردة فى الآية وفى آيات اخرى، إنّما هى إشارة إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و «حكمة الخلق» و «قانون العدل الإلهى» المذكورة بالتفصيل فى مبحث المعاد.

وتؤكد الآية فى نهايتها على حقيقة أنّ اللَّه هو أصدق الصادقين: «وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا». من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به اللَّه من بعث ونشور وغيره من الوعود.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۸۸)

سبب النّزول

صاحب تفسير مجمع البيان قال: إختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه. فقيل: نزلت فى قوم قدموا المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكة لأنّهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم: لا نفعل فإنّهم مؤمنون. وقال آخرون: إنّهم مشركون. فأنزل اللَّه فيهم الآية. قال: وهو المروى عن أبى جعفر عليه السلام.

التّفسير

هذه الآية تخاطب فى البداية المسلمين وتلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ». وتنهى المسلمين عن الإختلاف فى أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، وتعاونوا مع المشركين.

وتبين الآية بعد ذلك: إنّ اللَّه قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، وحرمهم من لطفه وعنايته بسبب ما اقترفوه وإنّ اللَّه قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامة فأصبحوا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۳

كمن يقف على رأسه بدل رجليه: «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا» «۱».

وفى الختام تخاطب الآية اولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم وأصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد

لهم أنّ هداية من حرمه اللَّه من لطفه ورحمته بسبب أفعاله الخبيثة الشنيعة أمر لا يمكن تحقيقه، لأنّ اللَّه قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب وضلال وحرمان من الهداية والنجاة «أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».

إذ أنّ عمل كل شخص لا ينفصل عنه ... وهذه سنة إلهية ... فكيف يؤمل فى هداية أفراد امتلأت أفكارهم وقلوبهم بالنفاق، واتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء اللَّه؟! إنّه أمل لا يقوم على دليل.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۸۹) لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء وشفاعتهم، وأوضحت أنّ هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، وهذه الآية تبين أنّ المنافقين لفرط انحرافهم وضلالتهم يعجبهم أن يجرّوا المسلمين إلى الكفر كى لا يظلّوا وحدهم كافرين: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً».

ولهذا السبب فإنّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، والمنافقون يفعلون هذا الشيء ويسعون دائماً لإفساد المعتقدات، وهم بطبعهم هذا لا يليقون بصحبة المسلمين أبداً، تقول الآية الكريمة: «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ». إلّاإذا غيروا ما فى أنفسهم من شرّ، وتخلوا عن كفرهم ونفاقهم وأعمالهم التخريبية.

ولكى يثبتوا حصول هذا التغيير، ويثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من

---

(۱) «أركسهم»: مَن ركس وهو قلب الشيء على رأسه، وتأتى أيضاً بمعنى ردّ أوّل الشيء إلى آخره.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۳۴

مركز الكفر والنفاق إلى دار الإسلام (أى يهاجروا من مكّة إلى المدينة) فتقول الآية: «حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ». أمّا إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأنّ هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر والنفاق، وإن تظاهرهم بالإسلام ليس إلّامن أجل تمرير مصالحهم وأهدافهم الدنيئة ومن أجل أن يسهل عليهم التآمر والتجسس على المسلمين. وفى هذه الحالة يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، وأن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: «فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ».

وتكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنّبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين وأمثالهم فتقول: «لَاتَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (۹۰)

سبب النّزول

فى تفسير القمى فى قوله «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا» الآية أنّها نزلت فى أشجع وبنى ضمرة وهما قبيلتان وكان من خبرهم أنّه لما خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى غزاة الحديبية مرّ قريباً من بلادهم وقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هادن بنى ضمرة، وواعدهم قبل ذلك فقال أصحاب رسول اللَّه: يا رسول اللَّه! هذه بنو ضمرة قريباً منّا ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة أو يعينوا علينا قريشاً فلو بدأنا بهم، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كلّا، إنّهم أبر العرب بالوالدين وأوصلهم للرحم وأوفاهم بالعهد».

وكان أشجع بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة وكانت أشجع بينهم وبين بنى ضمرة حلف بالمراعاة والأمان فأجدبت بلاد أشجع وأخضبت بلاد بنى ضمرة فسارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فلمّا بلغ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مسيرهم إلى بنى ضمرة تهيأ للمسير إلى أشجع ليغزوهم للموادعة التى كانت بينه وبين بنى ضمرة فأنزل اللَّه: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ...» الآية. ثم استثنى بأشجع فقال: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ...» وكانت أشجع محالها البيضاء والحل والمستباح وقد كانوا قربوا من رسول اللَّه فهابوا لقربهم من رسول اللَّه أن يبعث إليهم من يغزوهم وكان رسول اللَّه قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً فهم بالمسير إليهم فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رجيلة وهم سبعمأة فنزلوا شعب سلع وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ستّ من الهجرة

فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اسيد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۵

بن حصين وقال له: «اذهب فى نفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع».

فخرج اسيد ومعه ثلاثة نفر من أصحابه فوقف عليهم فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مسعود بن رجيلة وهو رئيس أشجع فسلم على اسيد وعلى أصحابه فقالوا: جئنا لنوادع محمّداً فرجع اسيد إلى رسول اللَّه فأخبره فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى وبينهم». ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدمها أمامه ثم قال: «نعم الشيء الهدية أمام الحاجة». ثم أتاهم فقال: «يا معشر أشجع ما أقدمكم»؟ قالوا: قربت دارنا منك وليس فى قومنا أقل عدداً منّا فضقنا لحربك لقرب دارنا منك وضقنا لحرب قومنا لقلتنا فيهم فجئنا لنوادعكم فقبل النبى صلى الله عليه و آله منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم وفيهم نزلت هذه الآية «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ» إلى قوله «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

التّفسير

التّرحيب باقتراح السّلم: بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين فى الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنى هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

۱- من كانت لهم عهود ومواثيق مع حلفائكم «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مّيثَاقٌ».

۲- من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أنّ قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ».

ولكى لا يستولى الغرور على المسلمين ازاء كل هذه الإنتصارات الباهرة، وكى لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية وابتكارهم، ولا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة، تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ».

وتكرر الآية فى ختامها التأكيد بأنّ اللَّه لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح وتجنبوا قتالهم، وأنّ المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، ويصافحوا اليد التى امتدت إليهم وهى تريد الصلح والسلام «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۶

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (۹۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت فى اناس كانوا يأتون النبى، فيسلّمون رئاء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا قومهم، ويأمنوا نبى اللَّه، فأبى اللَّه ذلك عليهم.

التّفسير

عقاب ذى الوجهين: إنّ هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التى تحدثت عنها الآية السابقة وأمرت بقبول الصلح منها، والطائفة تتشكل من أفراد نفعيين إنتهازيين، همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم والتحرك بحرية تامة لدى المسلمين، وقريش عن طريق الرياء والخيانة والخداع، والتظاهر بتأييد واتباع الجانبين والتعاون معهما، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ».

وهؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم وينغمسون فى الفتنة والشرك نكساً على رؤوسهم «كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا».

وقد اشترط القرآن الکریم علی هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقی فی مأمن من إنتقام المسلمین، وهذه الشروط هی: إعتزال المسلمین، أو مصالحتهم، أو الکف عن إیذائهم حیث تقول الآیة الکریمة: «فَإِن لَّمْ یَعْتَزِلُوکُمْ وَیُلْقُوا إِلَیْکُمُ السَّلَمَ وَیَکُفُّوا أَیْدِیَهُمْ».

وإذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذکورة وأصرت علی العصیان والتمرد، فالمسلمون مکلفون عند ذلک بإلقاء القبض علی أفرادها وقتلهم أینما وجدوا، کما تقول الآیة: «فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ».

ولما کانت الحجة قد تمّت علی هؤلاء، تقول الآیة فی الخاتمة: «وَأُولئِکُمْ جَعَلْنَا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِینًا». وقد یکون هذا التسلط فی مجال الکلام والمنطق إذا تغلب منطق المسلمین علی منطق المشرکین والکافرین، وقد یکون سلطاناً مادیاً ظاهریاً علیهم لأنّ الآیة نزلت فی وقت کان المسلمون یتمتعون فیه بقدر کاف من القوة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۷

وَ مَا کَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ یَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِیَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَی أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ یَصَّدَّقُوا فَإِنْ کَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَکُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ کَانَ مِنْ قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثَاقٌ فَدِیَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَی أَهْلِهِ وَ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیَامُ شَهْرَیْنِ مُتَتَابِعَیْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ کَانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۹۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی عیاش بن أبی ربیعة المخزومی، أخی أبی جهل لُامه، لأنّه کان أسلم، وقتل بعد إسلامه رجلًا مسلماً وهو لا یعلم إسلامه. والمقتول: الحارث بن یزید.

التّفسیر

أحکام القتل الناتج عن الخطأ: لقد أطلقت الآیة السابقة أیدی المسلمین فی المنافقین الذین کانوا یشکّلون خطراً کبیراً علی الإسلام، وسمحت لهم حتی بقتل أمثال هؤلاء المنافقین، ولکن تفادیاً لاستغلال هذا الحکم استغلالًا سیّئاً، ولسد الطریق أمام الأغراض الشخصیة التی قد تدفع صاحبها إلی قتل إنسان بتهمة أنّه منافق، وأمام أی تساهل فی سفک دماء الأبریاء، بیّنت هذه الآیة والتی تلیها أحکام قتل الخطأ وقتل العمد، لکی یکون المسلمون علی غایة الدقّة والحذر فی مسألة الدماء التی تحظی باهتمام بالغ فی الإسلام. تقول الآیة الکریمة: «وَمَا کَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن یَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً».

ثم تبین الآیة الکریمة غرامة قتل الخطأ، وتقسمها إلی ثلاثة أنواع:

فالنوع الأوّل: هو أن یحرر القاتل عبداً مسلماً، ویدفع الدیّة عن دم القتیل إلی أهله إذا کان القتیل ینتمی إلی عائلة مسلمة «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِیَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَی أَهْلِهِ». فإذا وهب أهل القتیل الدیّة وتصدقوا بها له فلیس علی القاتل أن یدفع شیئاً: «إِلَّا أَن یَصَّدَّقُوا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۸

والنوع الثانی: من غرامة قتل الخطأ یکون فی حالة ما إذا کان القتیل مسلماً ولکن من عائلة معادیة للإسلام ویجب فی هذه الحالة عتق عبد مسلم ولا تدفع الدیة إلی أهل القتیل، لأنّ الإسلام یرفض تعزیز الحالة المالیة لأعدائه، بالإضافة إلی ذلک فإنّ الإسلام قد قطع الصلة بین هذا الفرد وعائلته المعادیة للإسلام فلا معنی إذن لجبران الخسارة.

أما النوع الثالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ فیکون فی حالة کون القتیل من عائلة غیرمسلمة لکن بینها وبین المسلمین عهداً ومیثاقاً، فی مثل هذه الحالة أمر بدفع دیة القتیل إلی أهله، کما أمر- أیضاً- بتحریر عبد من العبید المسلمین احتراماً للعهود والمواثیق تقول الآیة: «وَإِن کَانَ مِن قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَبَیْنَهُمْ مِّیثَاقٌ فَدِیَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَی أَهْلِهِ وَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ».

وظاهر الآیة والروایات التی وردت فی تفسیرها تدل علی أنّ المقصود فیها هو القتیل «المسلم».

وتستطرد الآیة فی بیان الحکم فتتطرق إلی اولئک النفر من المسلمین الذین یرتکبون القتل عن خطأ، ولا یسعهم- لفقرهم- دفع المال

دیـة عن القتیـل، کمـا لاـ یسـعهم شـراء عبـد لتحریر رقبته غرامـة عن إرتکـابهم للقتل الخطأ، وتبین حکم هؤلاء، وتعلن أنّهم یجب أن یصوموا شهرین متتابعین غرامة عن القتل الخطأ الذی إرتکبوه، بدلًا من الدیة وتحریر الرقبة، وقد اعتبرت ذلک نوعاً من تخفیف الجزاء علی الذین لا یطیقون الغرامة المالیة وتوبة منهم إلی اللَّه، علماً أنّ جمیع أنواع الغرامات التی ذکرت فی الآیة عن القتل الخطأ، إنّما هی توبـة وکفارة للـذنب المرتکب فی هـذا المجال، واللَّه یعلم بخفایا الامور وقـد أحاط علمه بکل شـیء حیث تقول الآیـة: «تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (۹۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن جماعة من المفسرین: نزلت فی مقیس بن صبابة الکنانی، وجد أخاه هشاماً قتیلًا، فی بنی النجار فذکر ذلک لرسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فأرسـل معه قیس بن هلاـل الفهری وقـال له: «قـل لبنی النجـار إن علمتم قاتـل هشام فادفعوه إلی أخیه لیقتصّ منه وإن لم تعلموا فدفعوا إلیه دیته».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۹

فبلغ الفهری الرسالة فأعطوه الدیة فلما انصرف ومعه الفهری وسوس إلیه الشیطان فقال: ما صنعت شیئاً، أخذت دیة أخیک فیکون سُبَّةً «۱» علیک! اقتل الذی معک لتکون نفس بنفس والدّیة فضل. فرماه بصخرة فقتله، ورکب بعیراً ورجع إلی مکة کافراً. فقال النبی صلی الله علیه و آله: «لا أؤمنه فی حلّ ولا حرم»! فقتل یوم الفتح.

التّفسیر

عقوبة القتل العمد: لقد بیّنت الآیة السابقة عقوبة- أو غرامة- القتل الناتج عن الخطأ، وجاءت الآیة الأخیرة عقوبة القتل عن عمد وسبق إصـرار، فی حالـة إذا کان القتیل من المؤمنین، وبما أنّ جریمـة قتل الإنسان من أعظم وأکبر الجرائم وأخطر الـذنوب، وأنّ التهاون فی مکافحـة مثل هذه الجریمة یهدد أمن المجتمع وسـلامة أفراده، الأمن الذی یعتبر من أهم متطلبات المجتمع السـلیم، لذلک فإنّ القرآن الکریم قـد تناول هـذه القضـیة فی آیات مختلفـة بأهمیـة بالغـة، حتی أنّه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلًا للناس جمیعاً، إلّاأن یکون القتل عقاباً لقتل مثله أو عقاباً لجریمـة الإفساد فی الأرض حیث یقول القرآن فی الآیـة (۳۲) من سورة المائـدة: «مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

وقـد قررت الآیـة- موضـوع البحث- أربع عقوبـات اخرویـة لمرتکب القتـل العمـد، وعقوبـة اخری دنیویـة هی القصـاص، والعقوبـات الأخرویة هی:

۱- الخلود والبقاء الأبدی فی نار جهنم، حیث تقول الآیة: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا».

۲- احاطة غضب اللَّه وسخطه بالقاتل: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

۳- الحرمان من رحمة اللَّه: «وَلَعَنَهُ».

۴- العذاب العظیم الذی ینتظره یوم القیامة: «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

---

(۱) سبة (بالضم): العار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۰

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى أسامة بن زيد وأصحابه بعثهم النبى صلى الله عليه و آله فى سرية فلقوا رجلًا قد انحاز بغنم له إلى جبل، وكان قد أسلم، فقال لهم: السلام عليكم. لا إله إلّااللّه محمّد رسول اللّه فبدر إليه اسامة فقتله، واستاقوا غنمه.

التّفسير

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة- فى الآيات السابقة- فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد فى هذه الآية أمر احترازى يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الإتهام من قِبل الآخرين، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا».

وتؤكّد الآية بعد ذلك محذرة وناهية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سبباً فى إتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنّهم من الأعداء والإستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية:

«تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» «۱». وتؤكّد على أنّ النعم الخالدة القيمة هى عند اللّه بقوله:

«فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ».

وتشير الآية أيضاً إلى حروب الجاهلية التى كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب والنهب فتقول: «كَذلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ».

وتضيف- مخاطبة المسلمين- أنّهم فى ظل الإسلام ولطف اللّه وكرمه وفضله قد نجوا من ذلك الوضع السيىء مؤكدة أنّ شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق والتثبيت من الامور، إذ تقول الآية: «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۹۵) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۹۶)

---

(۱) «العرض»: كلمة على وزن «مرض» وتعنى كل شىء زائل لا دوام له وعلى هذا الأساس فإنّ «عرض الحيوة الدّنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التى يكون مصير جميعها إلى الزوال والفناء لا محالة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۱

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال والنفس رخيصين فى سبيل الهدف الإلهى السامى، وبين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذى يحول دونه ودون المشاركة فى الجهاد، «لَّايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ».

وتكرر الآية من جديد مسألة التفاضل بشكل أوضح وأكثر صراحة، وتؤكّد فى نهاية المقارنة، أنّ اللّه وهب المجاهدين أجراً عظيماً: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً».

ولكن- كما أسلفنا- لما كان فى الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف اولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبة لهم واجباً عينياً أو لم يشاركوا فى الجهاد بسبب مرض أو عجز أو علة اخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فلذلك ولأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نيّة صالحة وإيمان وأعمال صالحة اخرى فقد وعدوا خيراً حيث تقول الآية الكريمة: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى .

وبما أنّ أهمية الجهاد فى الإسلام بالغة جداً، لذلك تتطرق الآية مرّة اخرى للمجاهدين وتؤكّد بأنّ لهم أجراً عظيماً يفوق كثيراً أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز، «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

وتشرح الآية التالية- وهى الآية (۹۶) من سورة النساء- نوع هذا الأجر العظيم فقول أنّه: «دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً».

فلو أنّ أفراداً من بين المجاهدين تورطوا فى زلة أثناء أدائهم لواجبهم فندموا على تلك الزّلة، فقد وعدهم اللّه بالمغفرة والعفو، حيث

يقول فى نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۴۲

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أنّ المشركين يوم بدر، لم يخلفوا إذ خرجوا احداً، إلّاصبياً أو شيخاً كبيراً أو مريضاً. فخرج معهم ناس ممن تكلم بالإسلام فلما التقى المشركون ورسول اللَّه نظر الذين كانوا قد تكلّموا بالإسلام إلى قلّة المسلمين فارتابوا واصيبوا فيمن اصيب من المشركين، فنزلت فيهم الآية.

التّفسير

تعقيباً للبحوث الخاصة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب اولئك الذين ادعوا الإسلام ولكنهم رفضوا أن يطبقوا خطة الإسلام فى الهجرة. فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم فى الدنيا وأنّهم لو كانوا حقاً من المسلمين، فلماذا اشتركوا فى صفوف المشركين لقتال المسلمين: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفهُمُ الْمَلَكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ». فيجيب هؤلاء بأنّهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط وأنّ ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهى «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ».

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لماذا لم تتركوا موطن الشرك وتنجوا بأنفسكم من الظلم، والكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض اللَّه الواسعة، «قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا».

وفى النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء، فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، وقرروا البقاء فى محيط ملوث وفضلوا الكبت والقمع على الهجرة فإنّ مكان هؤلاء سيكون فى جهنم، وإنّ نهايتهم وعاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: «فَأُولَئِكَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

أمّا الآية الاخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهى تستثنى المستضعفين والعاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إنّ اولئك الرجال والنساء والأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجاً للهجرة، ولم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من محيطهم الملوث، فهم مستثنون من حكم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون فى الحقيقة، وإنّ اللَّه لا يكلف نفساً ما لا تطيق، «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَايَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا».

و الآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبيّن احتمال أن يشمل اللَّه بعفوه هؤلاء، إذ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۴۳

تقول: «فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ لَلَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا».

إنّ الإتيان بكلمة «توفّى» فى الآية الشريفة المارة الذكر بدلًا من ذكر كلمة «الموت» إنّما هو إشارة إلى أنّ الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حالة تتلقى فيها الملائكة روح الإنسان، أى أنّ الملائكة يقبضون من الإنسان روحه التى هى جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلى العالم الآخر.

وَ مَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠) الهجرة حكم اسلامى بنّاء: بعد أن بحثت الآيات السابقة حول الأفراد الذين يقعون فريسة الذل والمسكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح وحاسم أهمّية الهجرة فى قسمين:

فی القسم الأوّل: تشیر هـذه الآیة إلی نعم وبرکات الهجرة فی الحیاة الدنیا، فتقول إنّ الذی یهاجر فی سبیل اللَّه إلی أی نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة، سیجد الکثیر من النقاط الآمنة الواسعة لیستقر فیها، ویعمل هناک بالحقّ ویرغم أنف المعارضین «وَمَن یُهَاجِرْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرَاغَمًا کَثِیرًا وَسَعَةً».

بعـد ذلـک تشیر الآیـة فی القسم الثانی منهـا إلی الجـانب المعنوی الاخروی للهجرة: «وَمَن یَخْرُجْ مِن بَیْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ یُدْرِکْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَی اللَّهِ وَکَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِیمًا». وعلی هذا الأساس فإنّ المهاجرین فی کل الأحوال سینالهم نصر کبیر، سواء وصلوا إلی المکان الذی یستهدفونه لیتمتعوا فیه بحریة العمل بواجباتهم، أو لم یصلوا إلیه فیفقدوا حیاتهم فی هذا الطریق.

وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَلَیسَ عَلَیْکُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ یَفْتِنَکُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنَّ الْکَافِرِینَ کَانُوا لَکُمْ عَدُوّاً مُبِیناً (۱۰۱) صلاة المسافر: بعد الآیات التی تحدثت سابقاً عن الجهاد والهجرة، تتطرق الآیة (۱۰۱) من سورة النساء- التی هی موضوع بحثنا الآن- إلی صـلاة المسافر، فتبین أن لا مانع للمسـلم من أن یقصـر صـلاته لـدی السـفر إذا خاف من خطر الکافرین الـذین هم الأعـداء البارزون

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۴۴

للمسـلمین، وقد عبّرت هذه الآیة عن السفر بالضرب فی الأرض، لأنّ المسافر یضرب الأرض برجلیه لدی السفر. وعلی أی حال، فلیس هناک من شک أنّ صـلاة القصـر للمسافر- مع الأخـذ بنظر الاعتبار الروایات المفسـرة لهذه الآیة- لا تقتصـر علی حالة الخوف، ولهذا السبب فإنّ النبی صلی الله علیه و آله کان فی أسفاره حتی فی موسم الحج (فی أرض منی) یقصر صلاته.

وَ إِذَا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْیَکُونُوا مِنْ وَرَائِکُمْ وَ لْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَی لَمْ یُصَلُّوا فَلْیُصَلُّوا مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِکُمْ وَ أَمْتِعَتِکُمْ فَیَمِیلُونَ عَلَیْکُمْ مَیْلَةً وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کَانَ بِکُمْ أَذًی مِنْ مَطَرٍ أَوْ کُنْتُمْ مَرْضَی أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْکَافِرِینَ عَذَاباً مُهِیناً (۱۰۲)

سبب النّزول

فی تفسیر القمی: نزلت- یعنی آیة صلاة الخوف- لما خرج رسول اللَّه إلی الحدیبیة یرید مکة فلما وقع الخبر إلی قریش بعثوا خالد بن الولیـد فی مـائتی فارس کمیناً لیسـتقبل رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله علی الجبال، فلما کان فی بعض الطریق وحضـرت صـلاة الظهر فأذن بلال فصـلی رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله بالناس، فقال خالد بن الولید: لو کنا حملنا علیهم وهم فی الصـلاة لأصبناهم فإنّهم لا یقطعـون صـلاتهم ولکن یجیء لهم الآـن صـلاة أخری هی أحبّ إلیهم من ضـیاء أبصـارهم فـإذا دخلوا فی الصـلاة أغرنـا علیهم فنزل جبرئیل علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بصلاة الخوف بهذه الآیة.

التّفسیر

بعـد آیات الجهاد السابقـة تبیّن هـذه الآیة للمسـلمین طریقة صـلاة الخوف التی تؤدّی فی ساحة الحرب، فتخاطب الآیة النبی صـلی الله علیه و آله قائلة: «وَإِذَا کُنتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَکَ وَلْیَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ». فإذا سجدت جماعة وانقضت الرکعة الاولی من

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۴۵

الصـلاة، علی النّبی أن یقف فی مکانه فتؤدّی الجماعة- سریعاً- الرکعة الثانیة وتعود إلی ساحة القتال لمواجهة العدو. وتأتی بعد ذلک الجماعة الثانیة التی لم تصل بعد، وتأخذ مکان الجماعة الاولی فتصـلّی مع النبی: «فَإِذَا سَجَدُوا فَلْیَکُونُوا مِن وَرَائِکُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَی لَمْ یُصَلُّوا فَلْیُصَلُّوا مَعَکَ». وعلی الجماعة الثانیة أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: «وَلْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ».

وتشیر الآیـة إلی أنّ أداء الصـلاة بهذا الاسـلوب من أجل أن یبقی المسـلمون فی مأمن من أی هجوم مباغت قد یقوم به العدو علیهم،

لأنّه يتحين الفرص دائماً لتنفيذ هذا الهجوم، ويتمنى لو تخلى المسلمون وغفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادرة: «وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً».

ولمّا كان حمل السلاح والوسائل الدفاعية الاخرى صعباً أثناء أداء الصلاة فى بعض الأحيان، تأمر الآية فى الختام قائلة: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ».

وهذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدروع، وأمثالها حتى فى حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، وذلك لحماية أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: «وَخُذُوا حِذْرَكُمْ».

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً

(۱۰۳) أهمية فريضة الصلاة: بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، وأكدت ضرورة إقامتها حتى فى جبهات الحرب، تحث الآية

(۱۰۳) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر اللّه بعد أداء الصلاة، وليذكروا اللّه حين قيامهم وقعودهم وأثناء نومهم على جنوبهم وليسألوه العون والنصر، والقصد من ذكر اللّه فى حالة القيام والقعود والنوم على الجنبين، يحتمل أن تكون فى الحالات المختلفة للقتال، أى أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه وهو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس والسهم مثلًا.

إنّ هذه الآية تشير إلى أمر إسلامى مهم، يدل على أنّ أداء الصلاة فى أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر اللّه فى الحالات الاخرى. وتؤكد هذه الآية أنّ حكم صلاة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۶

الخوف هم حكم استثنائى طارىء، وعلى المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدّوا صلاتهم بالطريقة المعتادة «فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». وتوضح الآية فى النهاية سرّ التأكيد على الصلاة بقولها إنّ الصلاة فريضة ثابتة للمؤمنين وأنّها غير قابلة للتغيير: «إِنَّ الصَّلَوةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».

إنّ عبارة «موقوت» من المصدر «وقت» وعلى هذا الأساس فإنّ الآية تبيّن أنّه حتى فى ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأنّ للصلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها.

وَ لَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

سبب النّزول

قرع السلاح بسلاح يشابهه: فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: لمّا أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد وصعد النبى الجبل، قال أبو سفيان: يا محمّد لنا يوم ولكم يوم، فقال:

«أجيبوه». فقال المسلمون لا- سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار! فقال أبو سفيان: لنا عُزّى ولا عزّى لكم. فقال النبى، قولوا: «اللَّه مولانا ولا مولى لكم!» فقال أبو سفيان: اعل هُبل.

فقال النبى صلى الله عليه و آله قولوا: «اللَّه أعلى وأجل».

فقال أبو سفيان: موعدنا وموعدكم يوم بدر الصغرى. ونام المسلمون وبهم الكلوم «۱» وفيهم نزلت «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ» وفيهم نزلت «إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ» الآية لأنّ اللّه أمرهم على ما بهم من الجراح أن يتبعوهم، وأراد بذلك إرهاب المشركين وخرجوا إلى حمراء الأسد وبلغ المشركين ذلك، فأسرعوا حتى دخلوا مكة.

إنّ سبب النزول هذا يعلّمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذى يستخدمه العدو، وأن يواجهوا كل أسلوب حربى يتبعه العدو، ويقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، وحتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، وبغير ذلك فإنّ الرياح ستجرى بما يشتهيه الأعداء.

(۱) الكلوم: الجروح.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۷

التّفسير

أعقبت الآيـة- موضوع البحث هـذه- الآيات السابقـة التى تحـدثت عن الجهاد والهجرة واسـتهدفت إحياء روح التضـحية والفداء لدى المسـلمين بقولها: «وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ». وهذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود باسلوب دفاعى، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائماً.

بعد ذلك تأتى الآية باسـتدلال حى وواضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسـلمين لماذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصـيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم اللّه ويشملهم برحمته الواسعة، بينمـا الكـافرون لاـ يرجون ولاـ يتوقعون ذلـك، حيث تقول الآيـة: «إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَايَرْجُونَ».

وفى الختـام- ومن أجـل إعـادة التأكيـد- تطلب الآيـة من المسـلمين أن لاـ ينسـوا علم اللّه بجميـع الامـور، فهـو يعلم معانـاة المسـلمين ومشـاكلهم وآلامهم ومساعيهم وجهودهم، ويعلم أنّهم أحياناً يصابون بالتهاون والفتور، فتقول الآيـة: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» وسـيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى بنى الابيرق وكانوا ثلاثة اخوه: بشر، وبشير، ومبشّر.

وكـان بشير يكنى أبـا طعمـة، وكـان يقول الشعـر، يهجو به أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، ثم يقول: قاله فلان. وكانوا أهل حاجـة فى الجاهلية والإسـلام، فنقب أبو طعمـة على عِليّة رفاعة بن زيد. وأخذ له طعاماً وسـيفاً ودرعاً فشـكا ذلك إلى أخيه قتادة بن النعمان، وكان قتادة بدرياً فتجسـسا فى الدار، وسألا أهل الدار فى ذلك، فقال بنو أبيرق: واللّه ما صاحبكم إلّا لبيد بن سـهل، رجل ذو حسب ونسب. فأصلَتَ عليهم لبيد بن سهل سيفه، وخرج إليهم وقال: يا بنى أبيرق أترموننى بالسّرَق، وأنتم أولى به منى، وأنتم منافقون تهجون رسول اللّه، وتنسبون ذلك إلى قريش! لتبيننّ ذلك، أو لأضعنّ سيفى فيكم! فداروه وأتى قتادة رسول

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۸

اللّه، فقال: يا رسول اللّه! إنّ أهل بيت منا، أهل بيت سوء عـدوا على عمى، فخرقوا عِليّة له من ظهرها، وأصابوا له طعاماً وسـلاحاً. فقال رسول اللّه: «انظروا فى شأنكم». فلمّا سـمع بذلك رجل من بطنهم الذى هم منه، يقال له أسـير بن عروة، جمع رجالًا من أهل الدار، ثم انطلق إلى رسول اللّه، فقال: إنّ قتادة بن النعمان، وعمّه، عمدا إلى أهل بيت منا، لهم حسب، ونسب، وصـلاح، وأبنوهم بالقبيح، وقالوا لهم مـا لا ينبغى، وانصـرف، فلما أتى قتادة رسول اللّه بعـد ذلك، ليكمله، جبهه رسول اللّه جبهاً شديـداً، وقال: عمـدت إلى أهل بيت حسب ونسب، تـأتيهم بالقبيـح، وتقول لهم مـا لاـ ينبغى؟! قال: فقام قتادة من عنـد رسول اللّه، ورجع إلى عمه، وقال: يا ليتنى متّ، ولم أكن كلمت رسول اللّه، فقـد قـال لى ما كرهت! فقال عمّه رفاعـة: اللّه المستعان، فنزلت الآيات «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ» إلى قوله «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ» فبلغ بشيراً ما نزل فيه من القرآن، فهرب إلى مكة، وارتدّ كافراً.

التّفسير

منع الـدفاع عن الخـائنين: يعرف اللّه سـبحانه وتعالى- فى بدايـة الآيـة (۱۰۵) من سورة النسـاء- نـبيّه محمّـداً صـلى الله عليه و آله بـأنّ الهـدف من إنزال الكتاب السـماوى هو تحقيق مبادىء الحق والعدالـة بين الناس، إذ تقول الآية: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَيكَ اللَّهُ».

ثم يحذّر النبى صلى الله عليه و آله من حماية الخائنين أبداً بقوله: «وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا».

ومع أنّ الآية خطاب للنبى صلى الله عليه و آله ولكن ممّا لا شك فيه هو أنّ هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة والمحكمين.

أمّا الآية الاخرى فهى تأمر النبى صلى الله عليه و آله بطلب المغفرة من اللّه سبحانه وتعالى، إذ تقول:

«وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا».

وَ لَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۴۹

بعد الآيات التى جاءت بتحريم الدفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة فى التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص اولئك الذين يخونون أنفسهم «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا».

لقد تعرض الخائنون فى الآية الاخرى إلى التوبيخ، حيث قالت إنّ هؤلاء يخجلون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتنكشف إلى الناس، لكنهم لا يخجلون لذلك من اللّه سبحانه وتعالى، إذ تقول الآية: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ». فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانية فى ظلام الليل، والتحدث بما لا يرضى اللّه الذى يراهم ويراقب أعمالهم، أينما كانوا: «وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَايَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا».

بعد ذلك تتوجه الآية (١٠٩) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذى تمّ الدفاع عنه، وتقول بأنّه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء فى الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أنّ من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلًا ليرتب أعمالهم ويحل مشاكلهم؟! حيث تقول الآية: «هَا أَنتُمْ هؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا». ولذلك فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونة فى الدنيا ليس له أثر إلّاالقليل، لأنّهم سوف لا يجدون أبداً من يدافع عنهم أمام اللّه فى الحياة الآخرة الخالدة.

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (١١٢) لقد بيّنت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أحكام كلّية بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصة بالخيانة والتهمة. الآية الاولى تشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ باب التوبة مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلماً بحق نفسه أو غيره، وندم حقيقة على فعلته، أو استغفر اللّه لذنبه، وكفّر عن خطيئته فيجد اللّه غفوراً رحيماً، حيث تقول الآية: «وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إنّ الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكى نفس الحقيقة التى وردت بصورة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج ١ ۴۷۹

إجمالية فى الآيات السابقة، حيث تؤكد أنّ أى ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته فى النهاية على المذنب نفسه، ويكون قد أضرّ بنفسه بذنبه، إذ تقول الآية: «وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ». وفى آخر الآية تأكيد على أنّ اللّه عالم بأعمال العباد، وهو حكيم يجازى كل إنسان بما يستحقه: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وبالصورة المارة الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فى الظاهر، فإنّ اضرارها ستلحق أحياناً بالغير وتلحق أحياناً اخرى بمرتكبها، ولكن بالتحليل النهائى، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، وإنّ الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شىء فى روح ونفس الشخص المذنب.

أمّا الآيـة الثالثـة من الآيات الأخيرة، فهى تشـير إلى خطورة خطيئـة إتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: «وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا».

جريمة البهتان: إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أدانها الإسلام بعنف.

فى عيون الأخبار قال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنـة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللّه تعالى يوم القيامـة على تلّ من نار حتى يخرج ممّا قاله فيه».

وحقيقـة الأـمر أنّ إشاعـة مثـل هـذا العمـل الجبان- فى أى محيط إنسانى كان- يؤدى فى النهايـة إلى إنهيار نظام العدالـة الاجتماعيـة، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البرىء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.

وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْك وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِـلُّوك وَ مَا يُضِـلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ وَ مَا يَضُـرُّونَك مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْك الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَك مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْك عَظِيماً (١١٣) فى هذه الآية الكريمة إشارة اخرى إلى حادثة «بنى الابَيرق» التى تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النزول فى آيات سابقة، وهذه تؤكد أنّ اللّه قد صان النبى صـلى الله عليه و آله بفضله ورحمته- سبحانه وتعالى- من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأتمرون به صلى الله عليه و آله ليحرفوه عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۱

طريق الحق والعـدل، فكـانت رحمـة اللّه أقرب إلى نبيّه فصـانته من كيـد المنـافقين، حيث تقول الآيـة: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْك وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوك».

لقد سـعى اولئك المنافقون- من خلال اتهامهم لشـخص برىء وجرّ النبى وتوريطه فى هذه الحادثة- إلى إلحاق ضـربة بشخصية النبى صلى الله عليه و آله الاجتماعيـة والمعنويـة أوّلًا، وتحقيق مآربهم الدنيئة بحق إنسان مسـلم برىء ثانياً، ولكن اللّه العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيّه صلى الله عليه و آله من تلك المؤامرة وأحبط عمل المنافقين.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ هؤلاء القوم إنّما يرمون بأنفسهم فى الضلالة ولا يضرّون بعملهم النّبى صلى الله عليه و آله شيئاً، إذ تقول: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَك مِن شَيْءٍ».

وأخيراً توضح الآية سبب عصمة النبى عن الخطأ والزلل والذنب، فتذكر أنّ اللّه أنزل على نبيّه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم من قبل: «وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْك الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَك مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ». ثم تردف الآية ذلك بجملة: «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْك عَظِيمًا».

وقـد ورد فى آخر الآيـة دليل من الأدلـة الأساسـية لقضـية العصـمة بشـكل مجمل، وهـذا الـدليل هو قوله تعالى أنّه علم نبيّه من العلوم والمعـارف التى يكون النبى فى ظلهـا مصوناً من الوقوع فى أى خطأ أو زلل، ولأنّ العلم والمعرفـة تكون نتيجتهما فى المرحلـة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

لَـا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَـةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْـلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَـلْ ذلِك ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١۴) النجوى أو الهمس: لقـد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سـرية شـيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشـباههم، وقـد تطرقت الآيـة الأخيرة إلى هذا الأمر بشـىء من التفصـيل، وكلمة «النجوى» لا تعنى الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سـرى أيضاً.

والآيـة هنا تـذكر أنّ أغلب الاجتماعات السـرّية التى يعقدها اولئك تهدف إلى غايات شـيطانية شـريرة لا خير فيها ولا فائدة، إذ تقول: «لَّاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَيهُمْ».

ولكى لا يحصل وهم من أنّ كل نجوى أو همس أو اجتماع سرّى يعتبر عملًا مذموماً أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۲

حراماً جـاءت الآيـة بأمثـال كمقدمـة لبيان قانون كلى، وأوضـحت الموارد التى تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصـى الإنسان بصدقـة أو

بمعونـة للآخرين أو بالقيام بعمل صالـح أو أن يصـلح بين الناس، فتقول الآية فى هذا المجال: «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَحٍ بَيْنَ النَّاسِ». فـإذا كان هـذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السـرّية لا يشوبه الرياء والتظاهر، بل كان مخصـصاً لنيل مرضاة اللَّه، فإنّ اللَّه سيخصص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجراً عظيماً، حيث تقول الآية: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».

وقد عرف القرآن النجوى والهمس والاجتماعات السـرّية- من حيث المبدأ- بأنّها من الأعمال الشّـيطانية، فى قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطنِ».

والنجوى إذا حصلت إبتـداءً فى جمع من النـاس، أثـارت لـديهم سوء الظّن حيالهـا، حتى أنّ سوء الظن قـد يبـدر من الأصـدقاء حيـال النجوى التى تحصـل بينهم، وعلى هـذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلّاإذا اقتضت الضـرورة ذلك، وهـذه هى فلسفة هذا الحكم الوارد فى القرآن.

وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۱۱۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان: قيـل: نزلت فى شـأن ابن أبى ابَيْرِق، سـارق الـدرع ولما أنزل اللَّه فى تقريعه وتقريع قومه الآيات، كفر وارتـدّ، ولحق بالمشركين من أهل مكة، ثم نقب حائطاً للسرقة، فوقع عليه الحائط فقتله.

التّفسير

حين يرتكب الإنسان خطأ ويدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما: طريق العودة والتوبة التى أشارت الآيات السابقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۳

والطريق الثانى: هو أن يسـلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار والعواقب السـيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أنّ من يـواجه النبى صـلى الله عليه و آله بالعنـاد والمخالفـة بعـد وضوح الحق له، ويسـير فى طريق غير طريق المؤمنين فـإنّ اللَّه سوف لن يهـديه إلى غير هـذا الطريق، وسيرسـله اللَّه فى يوم القيامـة إلى جهنم، ومـا أسوأ هـذا المكـان الـذى ينتظره! فتقول الآيـة: «وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

إنّ عبارة «يُشَاقِقِ» مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد والضغينة.

وجملة «نُوَلِّهِ مَا تَوَلّى فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوى، لتمييز الحقّ، ومواصلتهم السير فى طريق الضلالة.

وجملة «نُصْلِهِ جَهَنَّمَ» فهى تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً (۱۱۶) الشرك ذنب لا يغتفر: تشير هـذه الآيـة مرة اخرى إلى خطورة جريمة الشـرك الذى يعتبر ذنباً لا يغتفر ولا يتصور وجود ذنب أعظم منه، ويأتى هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين والمرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر. ولقد مرّ ما يشابه مضمون هذه الآية فى نفس سورة النساء فى الآية (۴۸) ولكن تتمة الآيتين تختلف فى إحداهما عن الأخرى اختلافاً طفيفاً، حيث تقول الآية الأخيرة: «وَمَن يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَللًا بَعِيدًا» بينما يقول فى مورد سابق «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا».

إنّ الآيـة السابقـة تشـير إلى الفساد العظيم الذى ينطوى عليه الشـرك فيما يخص الجانب الإلهى ومعرفة اللَّه، أمّا الآية الأخيرة فقد بيّنت الأضرار التى يلحقها الشرك بنفس الإنسان والتى لا يمكن تلافيها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۴

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِکَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ

لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱) مكائد الشيطان: إنّ الآية الاولى تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة وهذه الآية إنّما تبيّن سبب ضلال المشركين، فتذكر أنّهم يعانون من ضيق شديد فى أفق تفكيرهم، إذ يتركون عبادة اللّه خالق ومنشىء عالم الوجود الوسيع، ويخضعون أمام المخلوقات التى لا- تملك أقل أثر إيجابى فى الوجود، بل هى- أحياناً- مضللة كالشيطان: «إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا».

إنّ هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و «شيطان مريد».

«إناث»: تعنى المخلوق الرقيق اللطيف والمرن. أى أنّ المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة ومطاوعة بين يدى الإنسان، وأنّ وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر والانحناء أمام الأحداث، وبعبارة أوضح: أنّها موجودات لا تملك الإرادة والاختيار ولا تنفع ولا تضرّ شيئاً أبداً.

و «مريد»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق وأغصان الشجر ولهذا سمّى الشاب اليافع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد، وعلى هذا فإنّ الشيطان المريد يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيلة ولم يبق فى وجوده شيء من مصادر القوّة.

إنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف الإرادة مطلقاً والبعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكى يبيّن أنّ الذى يسلم قياده ويخضع لمثل هذه الأصنام إنّما يعيش فى ضلال واضح مبين.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۵۵

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان وأهدافه وعدائه الخاص لأبناء آدم وتتناول بالشرح بعضاً من خططه الدنيئة، وقبل كل شيء تؤكد أنّ اللّه قد أبعد الشيطان عن رحمته «لَعَنَهُ اللَّهُ».

وفى الحقيقة فإنّ أساس شقاء وتعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة اللّه، التى أصابته بسبب غروره وتكبره المفرطين.

ثم تذكر الآية التالية أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خططه:

أوّلها: أن يأخذ من عباد اللّه نصيباً معيناً، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان: «وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا». فالشيطان يعلم بعجزه عن اغواء جميع عباد اللّه، لأنّ من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط اولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

والثانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ».

والثالثة: اشغلهم بالامنيات العريضة وطول الأمل: «وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ» «۱».

أمّا الخطة الرابعة: ففيها يدعو الشيطان أتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء فى الآية: «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ».

وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التى كان يرتكبها الجاهليون المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى، وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الإنتفاع بهذه الحيوانات.

وخامس: الخطط التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هى ما ورد على لسانه فى الآية إذ تقول: «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ».

وهذه الجملة تشير إلى أنّ اللّه قد أوجد فى فطرة الإنسان منذ خلقة إياه- النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأخرى.

وهذا الضرر الذى لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التى

(۱) إنّ عبارة «ولُأمنينّهم»: تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» وتعنى قياس الشىء أو تقييمه، ولكنّها ترد فى أغلب الأحيان لتعنى القياس والتقييم والآمال الوهمية والخيالية أمّا النطفة التى تسمّى ب «منى» فمعناها أنّ قياس تركيب أولى الموجودات الحسية قد تمّ فيها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۶

تؤدّى إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس، وقد أكّدت الآية فى آخرها مبدأ كلياً، وهو أنّ أى إنسان يعبد الشيطان ويجعله لنفسه ولياً من دون اللَّه، فقد ارتكب إثماً وذنباً واضحاً إذ تقول الآية: «وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا». والآية التى تلت هذه الآية جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآية السابقة حيث ذكرت أنّ الشيطان يستمر فى إعطائه الوعود الكاذبة لأولئك ويمنيهم الأمنيات الطوال العراض، ولكنّه لا يفعل شيئاً بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء والخداع:

«يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا غُرُورًا» «۱».

وبيّنت آخر آية من الآيات الخمس الأخيرة مصير أتباع الشيطان، بأنّهم ستكون نتيجتهم السكنى فى جهنم التى لا يجدون منها مفراً أبداً، فتقول الآية: «أُولَئِكَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا» «۲».

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (۱۲۲) لقد بيّنت الآيات السابقة أنّ الذين يتخذون الشيطان ولياً لهم، إنّما ينالهم ضرر واضح ومبين، وأنّ الشيطان يعدهم زيفاً وخداعاً ويلهيهم بالامنيات الواهية الخيالية الطويلة العريضة، وإن وعد الشيطان مكر وخداع لا غير. أمّا فى هذه الآية الأخيرة- التى هى موضوع بحثنا الآن- فقد بيّنت مقابل اولئك فى النهاية أعمال المؤمنين والثواب الذى سينالونه يوم القيامة، من جنّات وبساتين وأنهار تجرى فيها، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

وإنّ هذه النعمة العظيمة دائمة أبداً، وليست كنعم الدنيا الزائلة، فالمؤمنون فى الجنة يتمتعون بما اوتوه من خير دائماً أبداً، تؤكد هذه بعبارة «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

(۱) «الغرور»: يعنى فى الأصل الأثر الواضح للشىء، ولكنّه يطلق فى الغالب على الآثار التى لها ظاهر خادع وباطن كريه، ويطلق على كل شىء يخدع الإنسان مثل المال والجاه والسلطان التى تبعد الإنسان عن الحق وعن جادة الصواب على أنّه مادة للغرور.

(۲) «المحيص»: من «المحص» ويعنى العدول والانصراف عن الشىء، وعلى هذا الأساس فإنّ المحيص هو وسيلة الانصراف والفرار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۷

وإنّ هذا الوعد وعد صادق وليس كوعود الشيطان الزّائفة، حيت تقول الآية: «وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا».

وبديهى أنّ أى فرد لا يستطيع- أبداً- أن يكون أصدق قولًا من اللَّه العزيز القدير فى وعوده وفى كلامه، كما تقول الآية: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا». وطبيعى أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز وإمّا الجهل والحاجة، واللَّه سبحانه منزّه عن هذه الصفات.

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَ لَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: تفاخر المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى باللَّه منكم! فقال المسلمون: نبيّنا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب وديننا الإسلام. فنزلت الآية، فقال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء. فأنزل اللَّه الآية التى بعدها «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الآية.

التّفسير

امتيازات حقيقية واخرى زائفة: لقد بيّنت هذه الآية واحداً من أهم أعمدة أو أركان الإسلام، هو أنّ القيمة الوجودية لأي إنسان وما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصلة إلى دعاوى وامنيات هذا الإنسان مطلقاً، بل إنّ تلك القيمة ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان وإيمانه وإنّ هذا مبدأ ثابت، وسنّة غير قابلة للتغيير، وقانون تتساوى الامم جميعها أمامه، ولذلك تقول الآية فى بدايتها: «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ». وتستطرد فتقول:

«مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وكذلك الذين يعملون الخير ويتمتعون بالإيمان- سواء أكانوا من الرجال أو النساء- فإنّهم يدخلون الجنة ولا يصيبهم أقل ظلم أبداً، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۸

وبهذه الصورة يعمد القرآن إلى نبذ كل العصبيات بكل بساطة، معتبراً الاعتبارات والإرتباطات المصطنعة الخيالية والاجتماعية والعرقية وأمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، ويعتبر الإيمان بمبادىء الرسالة والعمل بأحكامها هو الأساس.

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (۱۲۵) وَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶) لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بيّنت أنّ إتّباع أى مذهب أو شريعة غير شرع اللَّه لا- يغنى عن الإنسان شيئاً، والآية الحاضرة تداركت كل وهم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضلية شريعة الإسلام وتفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا».

لقد بيّنت الآية- موضوع البحث- اموراً ثلاثة تكون مقياساً للتفاضل بين الشرائع وبياناً لخيرها:

۱- الإستسلام والخضوع المطلق للَّهالعزيز القدير، حيث تقول الآية: «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ».

۲- فعل الخير، كما تقول الآية: «وَهُوَ مُحْسِنٌ». والمقصود بفعل الخير- هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله.

۳- إتّباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما فى الآية: «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا» «۱».

ودليل الإعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها فى آخرها، إذ تقول: «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرهِيمَ خَلِيلًا».

بعد ذلك تتحدث الآية التالية بملكية اللَّه والمطلقة وإحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول:

---

(۱) «ملّة»: تعنى «الشريعة أو الدين» والفرق بين الملّة والدين أنّ الاولى لا تنسب إلى اللَّه، أى لا يقال «ملّة اللَّه» ويمكن أن تضاف إلى النّبى بينما كلمة الدين أو الشريعة يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال: «دين اللَّه» أو «شريعة اللَّه» كما يمكن إضافتهما إلى النّبى أيضاً. و «حنيف»: تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطلة ويتبع دين الحق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۹

«وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ مُّحِيطًا». وهذه إشارة إلى أنّ اللَّه حين انتخب إبراهيم عليه السلام خليلًا له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فاللَّه منزّه عن الاحتياج لأحد، بل إنّ هذا الاختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات وخصال وسجايا طيّبة بارزة لم توجد فى غيره.

وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (۱۲۷) عود على حقوق المرأة: تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (وبالأخص حول اليتامى منهنّ) فتخاطب النبى صلى

الله عليه و آله وتبين له أنّ اللَّه هو الذى يفتى فى الأسئلة التى وجهت إليك يا محمّد حول الأحكام الخاصة بحقوق النساء، فتقول: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ».

وتضيف الآية إنّ ما ورد فى القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتى كنتم تتصرفون فى أموالهن، ولم تكونوا لتتزوّجوا بهن، ولم تدفعوا أموالهن إليهن لكى يتزوجن من آخرين، فإنّه يجيب على قسم آخر من اسئلتكم ويبيّن لكم قبح ما كنتم تعملون من ظلم بحق هؤلاء النسوة: «وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النّسَاءِ الّتِي لَاتُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ».

ثم توصى الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعاية حقوقهم، حيث تقول: «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ».

كما تعود الآية فتكرّر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكّر أنّ اللَّه يوصيكم فى أن تراعوا العدالة فى تعاملكم مع اليتامى: «وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ».

وفى الختام تجلب الآية الإنتباه إلى أنّ أى عمل خير يصدر منكم وبالأخص إذا كان فى حق اليتامى والمستضعفين- فإنّه لا يخفى على اللَّه- وإنّكم ستنالون أجر ذلك فى النهاية، حيث تقول الآية: «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۰

إنّ عبارة «يَسْتَفْتُونَكَ» مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتيا» ومعناها الإجابة على كل سؤال معضل.

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۲۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: كانت بنت محمد بن سلمة، عند رافع بن خديج، وكانت قد دخلت فى السن وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلّقها تطليقة حتى إذا بقى من أجلها يسير.

قال: إن شئتِ راجعتكِ وصبرتِ على الأَثَرة «۱» وإن شئتِ تركتكِ! قالت: بل راجعنى وأصبر على الأثرة. فراجعها، فذلك الصلح الذى بلغنا أنّ اللَّه تعالى أنزل فيه هذه الآية.

التّفسير

الصلح خير: وقد بيّنت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، وفى هذه الآية إشارة لنشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر والإعراض عنها، وتبيّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، وتتصالح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: «وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا».

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ الصلح خير وأحسن، حيث تقول: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». وهذه الجملة الصغيرة مع أنّها جاءت فى مجال الخلافات العائلية، لكنها تبين قانوناً كلياً، وتؤكّد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل فى كل المجالات، وأنّ الخلاف والنزاع والصراع والفراق ليس له وجود فى الطبع والفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك فلا تسوّغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع وما يجرى مجراه إلّافى الحالات الاستثنائية الطارئة.

وتشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزة حبّ الذات التى يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث إنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شيء منها، وهذا هو سبب ومنبع النزاع والصراع، تقول الآية: «وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ».

---

(۱) الأثرة: الإختيار: أى اختيارى للمرأة الشابة وتقديمى إيّاها عليك.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۱

ولكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد فى الآيهٔ، وجه الخطاب إليهم فى نهايتها ودعوا إلى فعل الخير والتزام التقوى، ونبهوا إلى أنّ اللّه يراقب أعمالهم دائماً فليحـذروا الإنحراف عن جادهٔ الحق والصواب، تقول الآيـهٔ فى هـذا المجال: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۲۹) وَ إِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (۱۳۰) العدالهٔ شـرط فى تعدد الزوجات: نستنتج من الجملهٔ التى وردت فى نهايـهٔ الآيـهٔ السابقهٔ- التى تمّ البحث عنها والتى دعت الرجال إلى فعل الخير والتزام التقوى- إنّها تعتبر نوعاً من التهديد للأزواج من الرجال، بأن يراقبوا حالهم ولا ينحرفوا قيد شعرهٔ عن جادهٔ الحق والعدالهٔ لدى التعامل مع زوجاتهم. وقد يرد إعتراض وهو: إنّ تحقيق العدالهٔ فى مجال الحب والعلاقات القلبيهٔ أمر بعيد المنال، فكيف يمكن إذن والحالهٔ هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

ورداً على الإعتراض المـذكور توضح الآيهٔ (۱۲۹) من سورهٔ النسـاء، بأنّ تحقيق العدالـهٔ فى مجال الحب بين الزوجات أمر غير ممكن، مهما بذل الإنسان من سعى فى هذا المجال، فتقول الآيهٔ: «وَلَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ النّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ».

ولكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم، طالبت الآيهٔ الرجال بأن لا يظهروا الميل الكامل لإحدى الزوجات إذا تعسر عليهم تحقيق المساواهٔ فى حبهم لهن جميعـاً، كى لاـ يضيع حق الاخريات ولا يحرن فى أمرهن ماذا يفعلن! حيث تقول الآيـهٔ: «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ».

وتحذر الآيهٔ فى آخرها اولئك الذين يجحفون فى حق زوجاتهم، وتطالبهم بأن يتبعوا طريق الإصلاح والتقوى، ويعرضوا عمّا فات فى الماضى، كى يشملهم اللّه برحمته وعفوه، فتقول الآيهٔ: «وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا».

أمّا الآيـهٔ الثانيـهٔ من الآـيتين الأـخيرتين، فهى تشير إلى هـذه الحقيقـهٔ، وهى أنّه لـو اسـتحال مواصـلهٔ الحيـاهٔ الزوجيـهٔ للطرفين- الزوج والزوجهٔ- واستحال الإصلاح بينهما، فإنّهما-

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۶۲

والحالـهٔ هـذه- غير مرغمين على الإسـتمرار فى مثـل هـذه الحياهٔ المُرّهٔ الكريهـهٔ، بل يسـتطيعان أن ينفصـلا عن بعضـهما وعليهما اتخاذ موقف شـجاع وحاسم فى هذا المجال دون خوف أو رهبهٔ من المسـتقبل، لأنّهما لو انفصلا فى مثل تلك الحالهٔ فإنّ اللّه العليم الحكيم سيغنيهما من فضلـه ورحمته، فلا يعدمان الأمل فى حياهٔ مستقبليهٔ أفضل، فتقول الآيهٔ الكريمهٔ فى هذا المجال: «وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا».

وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۳۲) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى ذلِكَ قَدِيراً (۱۳۳) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۱۳۴) لقد أوضحت الآيهٔ السابقهٔ أن إذا اقتضت الضرورهٔ لزوجين أن ينفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلًا بديلًا عن الانفصـال فلاـ مانع من ذلک، وليس عليهما أن يخافا من حياهٔ المسـتقبل، لأنّ اللّه سيشـملهما بكرمه وفضـله، ويزيل احتياجهما برحمته وبركته. أمّا فى الآيـهٔ- موضوع البحث- فإنّ اللّه يؤكّد قـدرته على إزالـهٔ ورفع تلك الاحتياجات، لأنّه مالك ما فى السـماوات وما فى الأرض «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». وإنّ من يملك ملكاً لا نهايـهٔ له كهـذا الملك، ويملك قدرهٔ لا نفاد لها أبداً، لن يكون عاجزاً- مطلقاً- عن رفع احتياجات خلقه وعباده.

ولكى تؤكـد الآيـهٔ ضـرورهٔ التقوى فى هـذا المجـال وفى أى مجال آخر، تشـير الآيـهٔ إلى أنّ اليهود والنصارى وكل من كان له كتاب سمـاوى قبـل المسـلمين قـد طلب منهم جميعـاً كما طلب منكم مراعاهٔ التقوى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

بعد ذلك تتوجه الآية إلى مخاطبة المسلمين، فتؤكّد لهم أنّ الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم، وأن ليس للّهبتقواهم حاجة، كما تؤكد أنّهم إذا عصوا وبغوا، فإنّ ذلك لا يضرّ اللّه أبداً، لأنّ اللّه هو مالك ما فى السماوات وما فى الارض، فهو غير محتاج إلى أحد أبداً، ومن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۳

حقّه أن يشكره عباده دائماً وأبداً: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا».

وفى الآية التالية جرى التأكيد- وللمرة الثالثة- على أنّ كل ما فى السماوات وما فى الأرض هو ملك للّه، وأنّ اللّه هو الحافظ والمدبر والمدير لكل الموجودات «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

ثم يبيّن- عزّ من قائل- أنّه لا يأبه فى أن يزيل قوماً عن الوجود، ليأتى مكانهم بقوم آخرين أكثر استعداداً وعزماً وأكثر دأباً فى طاعة اللّه وعبادته، واللّه قادر على هذا الأمر «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذلِكَ قَدِيرًا».

و الآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضية، ورد الحديث فيها عن اناس يزعمون أنّهم مسلمون، ويشاركون فى ميادين الجهاد، ويطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلهى، بل يهدفون لنيل مكاسب مادية مثل غنائم الحرب فتنبه الآية إلى أنّ الذين يطلبون الأجر الدنيوى يتوهمون فى طلبهم هذا، لأنّ اللّه عنده ثواب الدنيا والآخرة معاً «مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ».

فلماذا لا يطلب- ولا يرجو- هؤلاء، التوّابون معاً؟ واللّه يعلم بنوايا الجميع ويسمع كل صوت ويرى كل مشهد ويعرف أعمال المنافقين وأشباههم: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵) العدالة الإجتماعية: على غرار الأحكام التى وردت فى الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام والزوجات تذكر الآية الأخيرة- موضوع البحث- مبدأ أساسياً وقانوناً كلياً فى مجال تطبيق العدالة فى جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ».

والمراد من التعبير بالقيام فى الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أى جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التخلى عن كل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۴

الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاة اللّه فقط، حتى لو أصبحت النتيجة فى ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه: «شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ». وتشير الآية بعد ذلك إلى عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أنّ العواطف والمشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سبباً فى الإمتناع عن الادلاء بالشهادة العادلة حتّى ولو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ اللّه أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العادلة ضدهم، فلا يستطيع صاحب الجاه والسلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية اللّه، ولا الفقير سيبيت جوعاناً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية فى هذا المجال:

«إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا».

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنّب إتّباع الهوى، لكى لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا» «۱».

ويتّضح من هذه الجملة أنّ مصدر الظلم والجور كلّه، هو إتّباع الهوى، فالمجتمع الذى لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم والجور.

ولأهمية موضوع تحقيق العدالة، يؤكد القرآن هذا الحكم مرّة اخرى، فيبين أنّ اللّه ناظر وعالم بأعمال العباد- فهو يشهد ويرى كل من يحاول منع صاحب الحق عن حقه، أو تحريف الحق، أو الإعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: «وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (۲).

وتثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الاجتماعية، وإنّ مواطن التأكيد المتكررة فى هذه الآية تبيّن مدى هذا الإهتمام الذى يوليه الإسلام لمثل هذه القضية

---

(۱) يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إمّا من مادة «العدالة» أو من مادة «العدول» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكى تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتّبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتّبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

(۲) «تلووا»: مشتقة من المصدر «لى» وتعنى المنع والإعاقة وقد وردت فى الأصل بمعنى اللّى والبرم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۵

الانسانية الاجتماعية الحساسة، وممّا يُؤسف له كثيراً أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين وهذا الحكم الإسلامى السامى، وإنّ هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً (۱۳۶)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّه قال: إنّ الآية نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب، عبد اللّه بن سلام، وأسد وأسيد، إبنى كعب، وثعلبة بن قيس وابن اخت عبد اللّه بن سلام ويامين بن يامين وهؤلاء من كبار أهل الكتاب، قالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب وبمن سواهم من الرسل. فقيل لهم: بل آمنوا باللّه ورسوله الآية.

التّفسير

يتبيّن من سبب النزول أنّ الكلام فى الآية موجه إلى جمع من مؤمنى أهل الكتاب الذين قبلوا الإسلام، ولكنهم لعصبيات خاصة أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء وكتب سماوية غير الدين الذى كانوا عليه، فجاءت الآية توصيهم بضرورة الإيمان والإقرار والإعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، لأنّ هؤلاء جميعاً يسيرون نحو هدف واحد، وهم مبعوثون من مبدأ واحد. ولذلك فلا معنى لقبول البعض وإنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء والرسل، فالحقيقة الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، وأنّ العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ».

وقد بيّنت الآية- فى آخرها- مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: «وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَللًا بَعِيدًا».

وفى هذه الآية اعتبر الإيمان واجباً وضرورياً بخمسة مبادىء، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ والمعاد، فإنّ الإيمان لازم وضرورى بالنسبة إلى الكتب السماوية والأنبياء والملائكة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۶

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (۱۳۷) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۳۸) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (۱۳۹) مصير المنافقين

المعاندين: تماشياً مع البحث الذى ورد فى الآية السابقة والذى تناول وضع الكفار وضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة من الكفار الذين يتلوّنون فى كل يوم تلون الحرباء، فالآية الاولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكّد بأنّ اللَّه لن يغفر لهم أبداً، ولن يرشدهم إلى طريق الصواب:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا».

ثم تؤكد الآية التالية نوع العذاب الذى يستحقه هؤلاء فتقول: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفّار أصدقاءاً وأحباءاً لهم بدلًا من المؤمنين، بقولها: «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ».

ثم يأتى التساؤل فى الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، وهل أنّهم يريدون حقّاً أن يكتسبوا الشرف والفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية: «أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ». بينما العزة والشرف كلها للَّه «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». لأنّها تنبع من العلم والقدرة، وأنّ الكفار لا يمتلكون من القوة والعلم شيئاً، ولذلك فإنّ علمهم لا شىء أيضاً، ولا يستطيعون إنجاز شىء لكى يصبحوا مصدراً للعزة والشرف.

إنّ هذه الآية تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر والعزة فى شؤونهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود والصداقة مع أعداء الإسلام لأنّهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصية تخلّوا عن أقرب حلفائهم وركضوا وراء مصالحهم، وكأنّهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، والتاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعى الإنتهازى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۷

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَ يُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (۱۴۰)

سبب النّزول

نقل فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، فنهاهم اللَّه تعالى عن ذلك.

التّفسير

النهى عن المشاركة فى مجالس يعصى اللَّه فيها: لقد ورد فى الآية (۶۸) من سورة الأنعام أمر صريح إلى النبى صلى الله عليه و آله فى أن يعرض عن اناس يستهزئون بآيات القرآن ويتكلمون بما لا يليق، والآية هذه تكرر الحكم المذكور مرة اخرى، وتحذّر المسلمين مذكرة إيّاهم بحكم سابق فى القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة فى مجالس يستهزأ فيها ويكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الاستهزاء ويدخلوا فى حديث آخر، تقول الآية: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ».

بعد ذلك تبين الآية لنا نتيجة هذا العمل، وتؤكّد أنّ من يشارك فى مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين وسيكون مصيره نفس مصير اولئك المستهزئين. تقول الآية: «إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ».

ثم تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة فى المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التى يحملها المشاركون، وإنّ اللَّه يجمع المنافقين والكافرين فى جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا».

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (۱۴۱)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۸

صفات المنافقين: تبيّن هذه الآية- وآيات اخرى تالية- قسماً آخر من صفات المنافقين وأفكارهم المضطربة، فتؤكّد أنّ المنافقين يسعون دائماً لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنّهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر وأدعوا بأنّهم قدموا دعماً مؤثراً للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين فى الثمار المعنوية والمادية للنصر حيث تقول الآية فى حقهم: «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ».

وهؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، ويعلنون لهم الرضى والموافقة بقولهم أنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين وعدم الإستسلام لهم، ويدعون بأنّهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: «وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وعلى هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تكون تارة رفاق الطريق مع الكفار وتارة شركاءهم فى الجريمة وهكذا يمضون حياتهم بالتلون والنفاق واللعب على الحبال المختلفة.

ولكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء ونهايتهم السوداء، ويبين أنّهم- لا محالة- سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم ويرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، وعند ذلك- أى فى ذلك اليوم، وهو يوم القيامة- سيحكم اللّه بينهم وهو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

ولكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية- فى آخرها- بأنّ اللّه لن يجعل للكافرين مجالًا للانتصار أو التسلط على المسلمين، وذلك حيث تقول الآية: «وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا».

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۴۲) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لَا إِلَى هؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هؤُلَاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۱۴۳)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۹

لقد وردت فى هذه الآية خمس صفات للمنافقين، وهى:

۱- إنّ هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة- يتوسلون بالخدعة والحيلة، حتى أنّهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا اللّه تعالى أيضاً، ولكنّهم يقعون فى نفس الوقت ومن حيث لا يشعرون فى حبال خدعتهم ومكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة- يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة فى وجودهم، تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ».

۲- إنّ المنافقين بعيدون عن رحمة اللّه، ولذلك فهم لا يتلذذون بعبادة اللّه والتقرب إليه، ويدل على ذلك أنّهم حين يريدون أداء الصّلاة يقومون إليها وهم كسالى خائرو القوى، تقول الآية فى هذا الأمر: «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوةِ قَامُوا كُسَالَى .

۳- ولما كان المنافقون لا يؤمنون باللّه وبوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنّما يفعلون ذلك رياءاً ونفاقاً وليس من أجل مرضاة اللّه، تقول الآية: «يُرَاءُنَ النَّاسَ».

۴- ولو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشىء من ذكر اللّه، فإنّ هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنّه ليس من قلوبهم، ولا هو نابع من وعيهم ويقظتهم، وحتى لو حصل هذا الأمر فهو نادر وقليل. تقول الآية: «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا».

۵- إنّ المنافقين يعيشون فى حيرة دائمة ودون أى هدف أو خطّة معيّنة لطريقة الحياة ولهذا فهم يعيشون حالة من التردد والتذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقّاً ولا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهراً، وفى هذا تقول الآية الكريمة: «مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لَاإِلَى هؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هؤُلَاءِ».

وتبيّن الآية فى الختام مصير هؤلاء المنافقين، وتوضح أنّهم اناس قد سلب اللّه عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم وتركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبداً إلى طريق النجاة، لأنّ اللّه كتب عليهم التيه والضلالة عقاباً لهم على أعمالهم.

تقول الآیة الکریمة فی ذلک: «وَمَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا».

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْکَافِرِینَ أَوْلِیَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَاناً مُبِیناً (۱۴۴) إِنَّ الْمُنَافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِیراً (۱۴۵) إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِکَ مَعَ الْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً (۱۴۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۰

لقد أشارت الآیات السابقة إلی قسم من صفات المنافقین، والآیات التالیة- هذه- تحذر المؤمنین وتأمرهم أن لا یعتمدوا علی المنافقین والکفار بدل الإعتماد علی المؤمنین، وأن لا یطلبوا النصرة منهم «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْکَافِرِینَ أَوْلِیَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِینَ».

وتبیّن أنّ الاعتماد علی الکفار یعتبر جریمة وخرقاً صارخاً للقانون الإلهی وشرکاً باللَّه، ونظراً لقانون العدل الإلهی فإنّ هذه الجریمة تستحق عقاباً شدیداً، حیث تؤکد الآیة:

«أَتُرِیدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَانًا مُّبِینًا».

وفی الآیة الثانیة من الآیات الأخیرة بیان لأحوال المنافقین، الذین اتخذهم بعض الغافلین من المؤمنین اصدقاء لأنفسهم، حیث توضح الآیة أنّ المنافقین یستقرون فی القیامة فی أحط وأسفل درکة من درکات جهنم، ولن یستطیع أحد أن ینصرهم أو ینقذهم من هذا المصیر أبداً، تقول الآیة: «إِنَّ الْمُنَافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِیرًا».

ویتبیّن من هذه الآیة أنّ النفاق فی نظر الإسلام أشد أنواع الکفر، وأنّ المنافقین أبعد الخلق من اللَّه.

وقد أوضحت الآیة الثالثة من الآیات الأخیرة، أنّ المجال مفتوح حتی لأکثر الناس تلوثاً للتوبة من أعمالهم وإصلاح شأنهم، والسعی للتعویض بالخیر عن ماضیهم المشین، والعودة إلی رحمة اللَّه والتمسک بحبله والإخلاص للَّهبالإیمان به تقول الآیة: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلَّهِ».

فالتائبون هؤلاء سیکونون أهلًا للنجاة فی النهایة ویستحقون صحبة المؤمنین، تقول الآیة: «فَأُولئِکَ مَعَ الْمُؤْمِنِینَ».

وإنّ اللَّه سیهب ثواباً وأجراً عظیماً لکل المؤمنین «وَسَوْفَ یُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِینَ أَجْرًا عَظِیمًا».

مَا یَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ کَانَ اللَّهُ شَاکِراً عَلِیماً (۱۴۷) العقاب الإلهی لیس دافعه الإنتقام: هذه الآیة تشیر إلی حقیقة ثابتة وهی أنّ العقاب الإلهی الموجه للبشر العاصین لیس بدافع الإنتقام ولا هو بدافع التظاهر بالقوة، کما أنّه لیس تعویضاً عن الخسائر الناجمة عن تلک المعاصی، فهذه الامور إنّما تحصل ممن فی طبیعته النقص والحاجة، واللَّه سبحانه وتعالی منزّه من کل نقص ولا یحتاج أبداً إلی شیء. إذن فالعقاب الذی یلحق الإنسان لما یرتکبه من معاص، إنّما هو انعکاس للنتائج السیئة التی

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۱

ترتبت علی تلک المعاصی.

ولتأکید هذا الأمر تضیف الآیة مبیّنة أنّ اللَّه عالم بأعمال ونوایا عباده، وهو یشکر ویثیب کل من یفعل الخیر من العباد لوجه اللَّه. فتقول الآیة: «وَکَانَ اللَّهُ شَاکِرًا عَلِیمًا».

وقد قدمت هذه الآیة مسألة الشکر علی الإیمان لأجل بیان هذه الحقیقة، وهی أنّ الإنسان ما لم یدرک نعم اللَّه وهباته العظیمة ویشکره علی هذه النعم فلن یستطیع التوصل إلی معرفة اللَّه والإیمان به، لأن أنعمه سبحانه وتعالی إنّما هی وسائل لمعرفته.

لَا یُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَ کَانَ اللَّهُ سَمِیعاً عَلِیماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَیْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ کَانَ عَفُوّاً قَدِیراً (۱۴۹) فی هذه الآیة إشارتان إلی التکالیف الأخلاقیة الإسلامیة:

الاولی تبیّن أنّ اللَّه لا یحبّ التجاهر بالکلام البذیء، ولا یرضی بما یصدر من کلام عن عیوب الناس وفضائح أعمالهم، فتقول الآیة: «لَایُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ».

إنّ عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ اللَّه هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، إلّاأنّ الآية الكريمة لم تحرّم (القول بالسّوء) تحريماً مطلقاً، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف والفضح، وهذه الحالة هى إذا وقع الإنسان مظلوماً حين قالت الآية: «إِلَّا مَن ظُلِمَ». وبهذا الدليل يستطيع المظلوم- فى مقام الدفاع عن نفسه- أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوىء الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

ولكى تسد الآية الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكدّت على أنّ اللَّه يراقب أعمال البشر ويعلم ويسمع بكلّ ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا».

وفى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوىء التى يجب أن تكتم إلّافى حالة استثنائية) كما تبيح- أو بالأحرى تحثّ- الفرد على إصدار العفو على من إرتكب السوء بحقه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات اللَّه العزيز القدير الذى يعفو عن عباده مع إمتلاكه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۲

القدرة على الإنتقام بأى صورة شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: «إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (۱۵۰) أُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲) لا تمييز بين الأنبياء: تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، ومواقف اخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، وهى بهذا تأتى مكملة للآيات السابقة التى تحدثت بشأن المنافقين.

وتشير الآية الاولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق والبعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

والواقع أنّ هذه الآية توضح موقف اليهود والنصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنبى عيسى نبى النصارى، واليهود والنصارى معاً كانوا يرفضون الإذعان لنبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله فى حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوة هؤلاء الأنبياء.

وعلى هذا الأساس فإنّ ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة ولا قيمة له مطلقاً، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة. والقرآن الكريم يهدد هؤلاء- وأمثالهم- بأنّهم يلقون الذل والهوان، حيث تقول الآية: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا».

وقد يكون وصف العذاب فى هذه الآية ب «المهين» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء ورفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذاباً مهيناً يتناسب واهانتهم تلك.

وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا باللَّه وبجميع أنبيائه ورسله ولم يفرقوا بين أى من الأنبياء والرسل واخلصوا للحق، وكافحوا كل أنواع العصبيات الباطلة، وبيّنت أنّ اللَّه سيوفّى هؤلاء المؤمنين أجرهم وثوابهم فى القريب العاجل، فتقول الآية:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۳

«وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ».

وقد أكّدت الآية فى الختام أنّ اللَّه سيغفر للمؤمنين الذين إرتكبوا اخطاء بالإنجرار وراء العصبيات وممارسة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم وعادوا إلى اللَّه، أى تابوا إليه من أخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَ قُلْنَا لَهُمُ

ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (۱۵۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى أنّ كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود، قالوا: يا محمّد! إن كنت نبيّاً فأتنا بكتاب من السماء جملة: أى كما موسى بالتوراة جملة، فنزلت الآية.

التّفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعذار: تشير الآية الاولى إلى طلب أهل الكتاب (اليهود) من النبى محمّد صلى الله عليه و آله بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء كاملًا وفى دفعة واحدة، فتقول: «يَسَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ».

ولا شك أنّ هؤلاء لم يكونوا صادقين فى نواياهم مع النبى صلى الله عليه و آله لأنّ الهدف من نزول الكتاب السماوى هو الإرشاد والهداية والتربية، وقد يتحقق هذا الهدف أحياناً عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعة واحدة، وأحياناً اخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوى على دفعات وبصورة تدريجية.

ولهذا السبب فضح اللَّه نواياهم السيئة بعد طلبهم هذا وأوضح للنبى صلى الله عليه و آله بأنّ هذا العمل هو ديدن اليهود، وأنّهم معروفون بصلفهم وعنادهم واختلاقهم الأعذار مع نبيّهم الكبير موسى بن عمران عليه السلام فقد طلب هؤلاء من نبيّهم ما هو أكبر وأعجب إذ سألوه أن يريهم اللَّه جهاراً وعلناً. تقول الآية: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۴

وما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف والعناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقيدة المشركين الوثنيين فى تجسيد اللَّه وتحديده، وقد أدّى عنادهم هذا إلى نزول عذاب اللَّه عليهم، صاعقة من السماء أحاطت بهم لما إرتكبوه من ظلم كبير. تقول الآية: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ». ثم تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، وذلك حين لجؤوا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة، فتقول: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

ومع كل هذا الصلف والعناد والشرك، يريهم اللَّه لطفه ورحمته ويغفر لهم لعلهم يرتدعوا عن غيّهم، ويهب لنبيهم موسى عليه السلام ملكاً بارزاً وسلطاناً مبيناً، ويفضح السامرى صاحب العجل ويخمد فتنته وفى هذا تقول الآية: «فَعَفَوْنَا عَن ذلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا».

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شرّ- لم يستيقظوا من غفلتهم، ولم يخرجوا من ضلالتهم، ولم يتخلوا عن صلفهم وغرورهم، فرفع اللَّه جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد والميثاق وأمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين- من باب بيت المقدس- دليلًا على توبتهم وندمهم، وأكّد عليهم أن يكفوا عن أى عمل فى أيام السبت، وأن لا يسلكوا سبيل العدوان، وأن لا يأكلوا السمك الذى حرم صيده عليهم فى ذلك اليوم، وفوق كل ذلك أخذ اللَّه منهم ميثاقاً غليظاً مؤكداً، ولكنهم لم يثبتوا- مطلقاً- وفاءهم لأىمن هذه المواثيق والعهود يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَاتَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا».

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۵

نماذج اخرى من ممارسات اليهود العدوانية: تشير هذه الآيات إلى نماذج اخرى من انتهاكات بنى إسرائيل وممارساتهم العدوانية التى

واجهوا بها أنبياء اللّه. فالآية الاولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، وإلى إرتداد بعضهم وكفرهم بآيات اللّه وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب اللّه والحرمان من رحمته وحرمانهم من قسم من نعم اللّه الطاهرة.

فقد أنكر هؤلاء آيات اللّه وكفروا بها بعد نقضهم للعهد واتّبعوا بذلك سبيل الضلال ولم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تمادوا فى غيّهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداة والقادة إلى طريق الحق من أنبياء اللّه، إيغالًا منهم فى إتّباع طريق الباطل والإبتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد والصلف والوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء! تقول الآية الاولى من الآيات الأربع الأخيرة:

«فَبِمَا نَقْضِهِم مّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَايَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ».

وهنا يؤكد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومة حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أى حق، وسبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلّاالقليل منهم.

وقد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فألصقوا بمريم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة وبهتاناً عظيماً، هى امّ لأحد أنبياء اللّه الكبار، وذلك لأنّها حملت به بإذن اللّه دون أن يمسّها رجل.

تقول الآية فى هذا المجال: «وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا».

وقد تباهى هؤلاء الجناة وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنّهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول اللّه، تقول الآية: «وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ». وقد كذبوا بدعواهم هذه فى قتل المسيح، فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل صلبوا شخصاً شبيهاً بعيسى المسيح عليه السلام وإلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلكِن شُبّهَ لَهُمْ».

وأكّدت الآية أنّ الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السلام كانوا- هم أنفسهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن ويعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام والظن. تقول الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكّ مّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتّبَاعَ الظَّنّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۶

ويأتى القرآن ليؤكّد هنا بأنّ هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه اللّه إليه، واللّه هو القادر على كل شىء، وهو الحكيم لدى فعل أىّ شىء، تقول الآية: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا». وحين تلاحظ أنّ القرآن يؤكد على قضية عدم صلب المسيح عليه السلام مع أنّ هذه القضية تظهر للعيان وكأنّها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدة، لمنع المسيحيين من الإيغال فى هذا الاعتقاد الفاسد، ولكى يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص والنجاة إنّما هو فى أعمالهم هم أنفسهم وليس فى ظل الصليب.

وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹) هنالك احتمالان فى تفسير هذه الآية وكل واحد منهما جدير بالملاحظة من جوانب متعددة:

۱- إنّ الآية تؤكد أنّ أى إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السلام حيث تقول: «وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ». وأنّ هذا الأمر يتمّ حين يشرف الإنسان على الموت وتضعف صلته بهذه الدنيا، وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، وفى هذه اللحظة يرى المسيح بعين بصيرته ويؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، والذين وصفوه بالالوهية يدركون فى تلك اللحظة خطأهم وإنحرافهم.

وبديهى أنّ مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه.

۲- قد يكون المقصود فى الآية هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته والمسيحيون يتخلون عن الاعتقاد بربوبية المسيح عليه السلام ويحدث هذا- طبقاً للروايات الإسلامية- حين ينزل المسيح عليه السلام من السماء لدى ظهور

المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه، وواضح أنّ عيسى المسيح سيعلن فى مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسلام لأنّ الشريعة السماوية التى جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام ولذلك فهى منسوخة به.

وتقول الآية فى الختام: «وَيَوْمَ الْقِيمَـةِ يكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا». أى: شهادة المسيح عليه السلام على قومه بأنّه قد بلّغهم رسالة اللّه ولم يدعهم لإتّخاذه إلهاً من دون اللّه، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبية اللّه الواحد القهار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۷

فَبِظُلْم مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۶۱) لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲) مصير الصالحين والطالحين من اليهود: لقد أشارت الآيات السابقة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أمّا الآيات الأخيرة فإنّما ذكرت نماذج اخرى من تلك الإنتهاكات، وبيّنت العقوبات التى استحقها اليهود بسبب تمردهم وعصيانهم، والعذاب الذى لا قوه وسيلاقوه نتيجة لذلك فى الدنيا والآخرة. فالآية الاولى من الآيات الأخيرة تبيّن أنّ اللّه قد حرّم بعضاً من الأشياء الطاهرة على اليهود بسبب ممارستهم الظلم والجور، وتصديهم للسائرين فى طريق اللّه، حيث تقول الآية: «فَبِظُلْم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا». كما عاقبهم اللّه بالحرمان من تلك الطيّبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منعهم من ممارسة المعاملات الربوية ولإستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة، فتقول الآية فى هذا المجال: «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ».

وتؤكد الآية أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوى، بل سيذيقهم اللّه- أيضاً- عقاب وعذاب الآخرة الأليم الذى يشمل الكافرين من اليهود. تقول الآية الكريمة: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد أشارت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة إلى حقيقة مهمة اعتمدها القرآن الكريم مراراً فى آيات متعددة، وهى أنّ ذمّ اليهود وانتقادهم فى القرآن لا يقومان على أساس عنصرى أو طائفى على الإطلاق، لأنّ الإسلام لم يذم ابناء أى طائفة أو عنصر لإنتمائهم الطائفى أو العرقى، بل وجه الذم والإنتقاد للمنحرفين والضالين منهم فقط، لذلك استثنت هذه الآية المؤمنين الأتقياء من اليهود ومدحتهم وبشّرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآية الكريمة: «لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۸

مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا». وقد آمن جمع من كبار الطائفة اليهودية بالإسلام حين بعث النبى محمد صلى الله عليه و آله وحين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقّية الإسلام، ودافع هؤلاء بأرواحهم وأموالهم عن الإسلام، وكانوا موضع احترام وتقدير النبى وسائر المسلمين.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (۱۶۴) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۶۵) لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (۱۶۶) لقد تناولت الآيات السابقة مسألة التمييز الذى مارسه اليهود بشأن الأنبياء، حيث كانوا يؤمنون ويصدقون ببعض أنبياء اللّه تعالى ويكفرون بالبعض الآخر منهم. أمّا الآيات أعلاه فهى ترد على اليهود، وتؤكد أنّ اللّه أوحى إلى نبيه محمّداً صلى الله عليه و آله كما أنزل الوحى على أنبيائه نوح والنبيين الذين جاؤوا من بعد نوح، وكما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأنزل الوحى على الأنبياء من أبناء يعقوب، وعلى عيسى وأيّوب ويونس

وهارون وسليمان عليهم السلام وكما أنزل اللَّه على داود كتاب الزبور حيث تقول الآية: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهٰرُونَ وَسُلَيْمٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا».

ثم تبيّن الآية أنّ الوحى لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى اللَّه قصصهم للنبى محمّد صلى الله عليه و آله من قبل، وأنبياء لم يذكر اللَّه قصصهم، وكل هؤلاء الأنبياء أرسلهم اللَّه إلى خلقه وأنزل عليهم الوحى من عنده، تقول الآية: «وَرُسُلًا قَدْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۹

قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ».

وتبيّن هذه الآية فى آخرها قضية مهمّة جدّاً، وهى أنّ اللَّه قد كلّم موسى بدل أن ينزل عليه الوحى، فتقول: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا».

وعلى هذا الأساس فإنّ صلة الوحى ظلت باقية بين البشر، ولم يكن من عدل اللَّه أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم وتكاليفهم، وهو الذى بعث الأنبياء والرسل للبشر مبشرين ومنذرين، لكى يبشروا الناس برحمته وثوابه، ويُنذرونهم من عذابه وعقابه لكى يتمّ الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجة. تقول الآية:

«رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

فقد أحكم اللَّه العزيز القدير خطّة إرسال الأنبياء ونفّذها بكل دقة، وبهذا تؤكد الآية:

«وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا». فحكمته توجب تحقيق هذا العمل، وقدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه.

أمّا الآية الاخرى فهى تطمئن النبى صلى الله عليه و آله وتوضح له أنّ المهم هو أنّ اللَّه قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، وليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به- فتؤكّد الآية فى هذا المجال-: «لٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ».

ولم يكن اختيار اللَّه لمحمّد صلى الله عليه و آله لمنصب النبوة أمراً عبثاً- والعياذ باللَّه- بل كان هذا الاختيار نابعاً من علم اللَّه بما كان يتمتع به النبى من لياقة وكفاءة لهذا المنصب العظيم، ولنزول آيات اللَّه عليه- حيث تقول الآية: «أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ».

والقرآن الكريم يؤكد أن ليس اللَّه وحده الذى يشهد بأنّ دعوة محمّد صلى الله عليه و آله هى الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقّية هذه الدعوة، مع أنّ شهادة اللَّه كافية وحدها فى هذا المجال. تقول الآية الكريمة: «وَالْمَلٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَ كَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۶۹) جرى البحث فى الآيات السابقة حول المؤمنين وغير المؤمنين، أمّا الآيات الثلاثة الأخيرة فهى تشير إلى مجموعة اختارت أقبح أنواع الكفر، فهؤلاء- بالإضافة- إلى انحرافهم وضلالهم سعوا إلى تحريف وإضلال الأخرين، وقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۰

مختصر الامثل ج ۱ ۴۹۹

وظلموا الآخرين معهم لأنّهم لم يسيروا فى طريق الحق ولم يسمحوا للآخرين- أيضاً- باتّباع هذا السبيل، والآية الكريمة تصف هؤلاء بأنّهم فى ضلال بعيد وذلك بقولها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلٰلًا بَعِيدًا». أمّا الآية الاخرى فتشير إلى الذين كفروا وظلموا، إذ ظلموا الحق أوّلًا لعدم التزامهم بالصواب، كما ظلموا أنفسهم بذلك- أيضاً- إذ حرموها من السعادة وسقطوا فى هوّة الضلالة، وظلموا الآخرين حين منعوهم من التوجه إلى طريق الحق والصواب، فهؤلاء لن يشملهم أبداً عفو اللَّه، وإنّ اللَّه لا يهديهم أبداً إلّاإلى طريق جهنم، تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ».

فهؤلاء باقون وخالدون فى جهنم دائماً وأبداً، كما تقول الآية: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

وعلى هؤلاء أن يعلموا أنّ وعد اللَّه حق، وأنّ تهديده يتحقق لا محالة، فليس ذلك على اللَّه بالأمر الصعب تقول الآية: «وَكَانَ ذٰلِكَ

عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰) لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية وعاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أمّا الآية الأخيرة فهى تدعو إلى الإيمان وتبيّن نتيجة هذا الإيمان، وتستخدم فى ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات واصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة والإندفاع نحو الإيمان. وهذه الآية تشير فى البداية إلى أنّ النبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، والذى أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، وهو يحمل إليهم شريعة الحق والعدالة فتقول الآية فى هذا المجال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ».

ثم تردف الآية بأنّ هذا النبى قد جاء إلى الناس من اللّه الذى تعهد تربية الخلق أجمعين، وذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة فى هذه الآية، وهى عبارة: «مِن رَّبِّكُمْ».

وبعد ذلك تؤكد الآية- على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته ويعود نفعه عليهم أنفسهم، أى أنّ الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره. تقول الآية:

«فَامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ».

كما تؤكّد الآية فى النهاية على أنّ من يتخذ الكفر سبيلًا لنفسه فلن يضرّ اللّه بعمله هذا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۱

أبداً، لأنّ اللّه يملك كل ما فى السماوات وما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شيء من الآخرين، تقول الآية فى هذا الصدد:

«وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وتبيّن الآية فى النهاية أنّ أحكام اللّه وأوامره كلها لمصلحة البشر، لأنّها نابعة من حكمة اللّه وعلمه وهى قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم الخيّرة، فتقول الآية:

«وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۷۱) اسطورة التثليث الوهمية: تتطرق هذه الآية والآية التى تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أى وجود آلهة ثلاثة ويأتى التطرق إلى هذا البحث فى سياق البحوث القرآنية التى وردت فى الآيات السابقة عن أهل الكتاب والكفار. فهذه الآية تحذر فى البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف فى دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا على اللّه غير الحق، حيث تقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

لقد كانت قضية الغلوّ فى حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف فى الأديان السماوية، ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف وشدّة، إذ عرفت كتب الفقه والعقائد هذه الفئة من الناس بأنّهم أشد كفراً من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآية الكريمة إلى عدة نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حدّ ذاته دليلًا على بطلان قضية التثليث وعدم صحة الوهية المسيح عليه السلام وهذه النقاط هى:

۱- لقد حصرت الآية بنوة السيد المسيح عليه السلام بمريم عليها السلام: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». وإشارة البنوة- هذه الواردة فى ستة عشر مكاناً من القرآن الكريم- إنّما تؤكد أنّ المسيح عليه السلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امّه، ومرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۲

وفتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السلام كما يولد أفراد البشر من بطون امهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربى فى حجر

امّه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن- وحالة المسيح عليه السلام هذه- أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو فى وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحولات الجارية فى عالم الوجود؟! ۲- تؤكد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السلام هو رسول اللّه ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى وإنّ هذه المنزلة- أى منزلة النبوة- لا تتناسب ومقام الألوهية.

۳- تبيّن الآية أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو كلمة اللّه التى ألقاها إلى مريم عليها السلام حيث تقول:

«وَكَلِمَتُهُ أَلْقَهَا إِلَى مَرْيَمَ».

۴- تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو روح مخلوقة من قبل اللّه، حيث تقول:

«وَرُوحٌ مِّنْهُ». وهذه العبارة التى وردت فى شأن خلق آدم- أو بعبارة اخرى خلق البشر أجمعين- فى القرآن الكريم، إنّما تدل على عظمة تلك الروح التى خلقها اللّه تعالى وأودعها فى أفراد البشر بصورة عامة، وفى المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء بصورة خاصة.

بعد ذلك تؤكد الآية على ضرورة الإيمان باللّه الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآية: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ».

وتعيد الآية التأكيد على وحدانية اللّه قائلة: «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ». وهى تخاطب المسيحيين لأنّهم حين يدعون التثليث يقبلون- أيضاً- بوحدانية اللّه، فلو كان للّهولد لوجب أن يكون شبيهه، وهذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف- إذن- يمكن أن يكون للّهولد، وهو منزه من نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزه من نقائص التجسيم وأعراضه. تقول الآية: «سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ». واللّه هو مالك كل ما فى السماوات وما فى الأرض والموجودات كلها مخلوقاته وهو خالقها جميعاً، والمسيح عليه السلام- أيضاً- واحد من خلق اللّه، فكيف يمكن الإدعاء بهذا الاستثناء فيه. وهل يمكن المملوك والمخلوق أن يكون ابناً للمالك والخالق، حيث تؤكد الآية: «لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». واللّه هو المدبر والحافظ والرازق والراعى لمخلوقاته، تقول الآية: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

والحقيقة هى أنّ اللّه الأزلى الأبدى الذى يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۳

يحتاج مطلقاً إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكى يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (۱۷۲) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۱۷۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى أنّ وفد نجران، قالوا لنبينا: يا محمّد لِمَ تعيب صاحبنا؟ قال:

«ومن صاحبكم»؟ قالوا: عيسى عليه السلام. قال: «وأىّ شىء أقول فيه»؟ قالوا: تقول: إنّه عبد اللّه ورسوله. فنزلت الآية.

التّفسير

المسيح هو عبد اللّه: على الرغم من أنّ هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلّا أنّهما جاءتا فى سياق الآيات السابقة التى تحدثت فى نفى الالوهية عن المسيح عليه السلام وعلاقتهما بالآيات السابقة فى دحض قضية التثليث واضحة وجلية.

فى البداية تشير الآية الاولى إلى دليل آخر لدحض دعوى الوهية المسيح، فتقول مخاطبة المسيحيين: كيف تعتقدون بالوهية عيسى عليه السلام فى حين أنّ المسيح لم يستنكف عن عبادة اللّه والخضوع بالعبودية له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكة المقربون من هذه العبادة.

حيث قالت الآية: «لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ».

وبديهى أنّ من يكون عبداً لا يمكن أن يصبح معبوداً فى آن واحد.

بعد ذلك تشير الآية إلى أنّ الذين يمتنعون عن عبادة اللّه والخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئاً عن التكبر والأنانية وإنّ اللّه سيحضر هؤلاء الناس فى يوم القيامة ويجازى كل واحد منهم بالعقاب الذى يناسبه، فتقول الآية: «وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا».

وإنّ اللّه العزيز القدير سيكافىء فى يوم القيامة اولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۴

وقاموا بالأعمال الخيرة، ويعطيهم ثوابهم كاملًا غير منقوص ويجزل لهم الثواب والنعم، أمّا الذين تكبروا وامتنعوا عن عبادة اللّه، فإنهم سينالون منه عذاباً أليماً شديداً، ولن يجدوا فى يوم القيامة لأنفسهم وليّاً أو حامياً من دون اللّه، حيث تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵) النور المبين: بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضاً من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد ومبادىء وتعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول فى بيان سبيل النجاة والخلاص من تلك الانحرافات. لقد توجّه الخطاب أوّلًا إلى عامة الناس، مبيناً أنّ اللّه قد بعث من جانبه نبياً يحمل معه الدلائل والبراهين الواضحة، وبعث معه النور المبين المتجسد فى القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الاولى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا».

والمقصود بالبرهان هو شخص نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وأنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبّرت عنه آيات اخرى بالنور أيضاً.

وتوضح الآية الثانية عاقبة اتّباع هذا البرهان وهذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا باللّه وتمسكوا بهذا الكتاب السماوى، سيدخلهم اللّه عاجلًا فى رحمته الواسعة، ويجزل لهم الثواب من فضله ورحمته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۵

سبب النّزول

روى- فى تفسير مجمع البيان- عن جابر بن عبد اللّه، أنّه قال: اشتكيت وعندى تسع أخوات لى- أو سبع- فدخل علىّ النبى فنفخ فى وجهى، فأفقت، فقلت: يا رسول اللّه! ألا أوصى لأخواتى بثلثين؟ قال: «أحسن». قلت الشطر. قال: «أحسن». ثم خرج وتركنى، ورجع إلىّ، فقال: «يا جابر! إنّى لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإنّ اللّه تعالى قد أنزل فى الذى لأخواتك فجعل لهن الثلثين». قالوا: وكان جابر يقول انزلت هذه الآية فى.

التّفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه والتى تسمّى- أيضاً- ب «آية الفرائض»، كمية الإرث للُاخوة والأخوات، وقد بيّنا عند تفسير الآية (۱۲) من سورة النساء إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للُاخوة والأخوات وإنّ إحدى هاتين الآيتين هى الآية (۱۲) من سورة

النساء والثانية هى الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا وهى آخر آية من سورة النساء.

فالآية الاولى تخصّ الاخوة والأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وآباء متعددين. أمّا الآية الثانية أى الأخيرة، فهى تتناول الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وأب واحد، أو من امهات متعددات وأب واحد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآية جاءت لتفصل إرث الكلالة أى إرث الأخوة والأخوات فتقول الآية: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَلَةِ». أى يسألونك فخبرهم بأنّ اللَّه هو الذى يعين حكم «الكلالة» (أى الأخوة والأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، وهى:

۱- إذا مات رجل ولم يكن له ولد وكانت له أخت واحدة، فإنّ هذه الاخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: «إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ».

۲- وإذا ماتت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ واحد- شقيق من أبيها وحده أو من أبيها وامّها معاً- فإنّ أخاها الوحيد يرثها، تقول الآية: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ».

۳- وإذا مات شخص وكانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: «فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ».

۴- وإذا كان ورثة الشخص المتوفى عدداً من الاخوة والأخوات أكثر من اثنين، فإنّ ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف حصّة الاخت

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۶

الواحدة منه. تقول الآية الكريمة: «وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ».

وفى الختام تؤكد الآية أنّ اللَّه يبين للناس هذه الحقائق لكى يصونهم من الانحراف والضلالة، ويدلهم على طريق الصواب والسعادة (وحقيق أن يكون الطريق الذى يرسمه اللَّه للناس ويهديهم إليه هو الطريق الصحيح) واللَّه هو العالم العارف بكلّ شىء، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

إنّ الآية إنّما تبين إرث الأخوة والأخوات فى حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، ولكن بناء على الآيات الواردة فى بداية سورة النساء- فإنّ الأب والام يأتون فى مصاف الأبناء فى الطبقة الاولى من الوارثين ولذلك يتوضح أنّ المقصود من الآية الأخيرة هى حالة عدم وجود أبناء وعدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

«نهاية تفسير سورة النساء»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۷

۵. سورة المائدة

محتوى السورة: تشتمل هذه السورة على مجموعة من المعارف والعقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام والواجبات الدينية.

وقد وردت فى القسم الأول منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النبى صلى الله عليه و آله وقضايا اخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية ومواضيع خاصة بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول اممهم.

أمّا القسم الثانى فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العدالة الاجتماعية، والشهادة العادلة، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية إبنى آدم، وقتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة والمحللة وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أمّا وجه تسمية السورة ب «سورة المائدة» فهو لورود قصة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح عليه السلام فى الآية (۱۱۴) منها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكَمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكَمُ مَا يُرِيدُ (۱)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۸

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق: تدل الروايات الإسلامية وأقوال المفسرين على أنّ هذه السورة هى آخر سورة أو من السور الأخيرة التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله. لقد تمّ التأكيد فى هذه السورة- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، وعلى آخر البرامج والمشاريع الدينية، وقضية قيادة الامّة وخلافة النبى صلى الله عليه و آله وقد يكون هذا هو السبب فى استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق، حيث تقول الآية فى أوّل جملة لها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». وذلك لكى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التى عقدوها فى الماضى مع اللَّه أو تلك التى أشارت إليها هذه السورة. فإنّ الآية تعتبر دليلًا على وجوب الوفاء بجميع العهود التى تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التى تعقد مع اللَّه سبحانه وتعالى عقداً محكماً.

إنّ مفهوم هذه الآية- لسعته- يشمل حتى تلك العقود والعهود التى يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

وبعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد والميثاق- سواء كان إلهياً أو إنسانياً محضاً- أردفت ببيان مجموعة اخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حلية لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أنّ المواشى واجنّتها تحل لحومهما على المسلمين، حيث تقول الآية: «أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ».

«الأنعام»: صيغة جمع من «نعم» وتعنى الإبل والبقر والأغنام.

«بهيمة»: مشتقة من المصدر «بهمة» وتعنى فى الأصل الحجر الصلب، ويقال لكل ما يعسر دركه «مبهماً» وجميع الحيوانات التى لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمة» لأنّ أصواتها تكون مبهمة للبشر، وقد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمة» على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية والطيور.

والظاهر من الآية أنّها تشمل معنىً واسعاً، أى تبين حلية هذه الحيوانات بالإضافة إلى حلية لحوم أجنتها أيضاً.

ويتبيّن لنا ممّا تقدم أنّ علاقة الجملة الأخيرة وحكمها بالأصل الكلى- الذى هو لزوم الوفاء بالعهد- هى التأكيد على كون الأحكام الإلهية نوعاً من العهد بين اللَّه وعباده- حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات وحرمة لحوم البعض الآخر منها قسماً من تلك الأحكام.

وفى الختام تبين الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشى، وأحد هذين

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۹

الموردين هو اللحوم التى سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ». والمورد الثانى هو أن يكون الإنسان فى حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحالة، فتقول الآية: «غَيْرَ مُحِلّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ».

وفى آخر الآية يأتى التأكيد على أنّ اللَّه إذا أراد شيئاً أو حكماً انجزه أو أصدره، لأنّه عالم بكل شىء، وهو مالك الأشياء كلها، وإذا رأى أنّ صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده وتقتضى الحكمة صدوره، أصدر هذا الحكم وشرعه، حيث تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْىَ وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲) ثمانية احكام فى آية واحدة: لقد بيّنت هذه الآية عدداً من الأحكام الإلهية الإسلامية المهمة، وهى من الأحكام الأواخر التى نزلت على النّبى صلى الله عليه و آله وكلّها أو أغلبها تتعلق بحج بيت اللَّه، وهى على الوجه التالى:

۱- الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر اللَّه، ونهيهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ». والمراد بكلمة «الشعائر»: هى مناسك الحج التى كلّف المسلمون باحترامها كلها.

۲- دعت الآية إلى احترام الأشهر الحرم وهى شهور من السنة القمرية، كما نهت عن الدخول فى حرب فى هذه الشهور، حيث قالت: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ».

۳- حرمت الآية المساس بالقرابين المخصصة للذبح فى شعائر الحج سواء ما كان منها ذا علامة وهو المسمّى ب «الهدى» أو تلك الخالية من العاملات والتى تسمّى ب «القلائد» أى نهت عن ذبحها وأكل لحومها حتى تصل إلى محل القربان للحج وتذبح فيه، فقالت الآية:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۰

«وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ» «۱». ۴- أوجبت الآية توفير الحرية التامة لحجاج بيت اللّه الحرام أثناء موسم الحج، الذى تزول خلاله كل الفوارق القبلية والعرقية واللغوية والطبقية، ونهت عن مضايقة المتوجهين إلى زيارة بيت اللّه الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتى الذين توجهوا إلى هذه الزيارة وهم يحملون معهم أهدافاً اخرى كالتجارة والكسب الحلال لا فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسلمين وقصدهم زيارة بيت اللّه، فهم يتمتعون بالحصانة كما تقول الآية الكريمة: «وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا».

۵- لقد خصصت هذه الآية حكم حرمة الصيد بوقت الإحرام فقط، وأعلنت أنّ الخروج من حالة الإحرام إيذان بجواز الصيد للمسلمين- حيث تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا».

۶- منعت هذه الآية الكريمة المسلمين من مضايقة اولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل فى زيارة بيت اللّه الحرام ويمنعونهم من أداء مناسك الحج، وكان هذا فى واقعة الحديبية، فمنع المسلمون من تجديد الأحقاد ومضايقة اولئك النفر فى زمن الحج بعد أن أسلموا وقبلوا الإسلام لهم ديناً، تقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا».

۷- تؤكد الآية- جرياً على سياق البحث الذى تناولته وبهدف إكماله- على أنّ المسلمين بدلًا من أن يتحدوا للإنتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا- وأصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء- عليهم جميعاً أن يتحدوا فى سبيل فعل الخيرات والتزام التقوى، وأن لا يتعاونوا- فى سبيل الشر والعدوان تقول الآية: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ».

۸- ولكى تعزز الآية الأحكام السابقة وتؤكدها تدعو المسلمين فى الختام إلى اتّباع التقوى وتجنّب معصية اللّه، محذرة من عذاب اللّه الشديد، فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

---

(۱) «الهدى»: جمع «هدية» وهو يعنى هنا المواشى التى تهدى لتكون قرابين إلى بيت اللّه الحرام. و «القلائد»: جمع «قلادة» وهى الشيء الذى يوضع حول رقبة الإنسان أو الحيوان، وتعنى هنا المواشى التى تعلم بالقلائد لذبحها فى مراسم الحج.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۱

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(۳) لقد تمّت الإشارة فى بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشى، وورد- أيضاً- أنّ هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشى، حيث ذكرتها الآية الأخيرة- موضوع البحث- فى أحد عشر مورداً تكرر ذكر بعضها فى آيات قرآنية اخرى على سبيل التأكيد. والمحرمات التى وردت فى هذه الآية، بحسب الترتيب الذى جاءت عليه كما يلى:

أوّلًا: «الْمَيْتَةُ».

ثانياً: «وَالدَّمُ».

ثالثاً: «وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ».

رابعاً: الحيوانات التى تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم اللّه، كما كان يفعل الجاهليّون: «وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ».

خامساً: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، وكان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحياناً للإنتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «الْمُنْخَنِقَةُ».

سادساً: الحيوانات التى تموت نتيجة تعرضها للضرب والتعذيب، أو التى تموت عن مرض وسمّيت فى الآية ب «الْمَوْقُوذَةُ» «۱».

سابعاً: الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، وقد سمى هذا النوع فى الآية ب «الْمُتَرَدِّيَةُ».

---

(۱) «الموقوذة»: من مادة «وقذ» يعنى المضروبة بعنف حتّى الموت.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۲

ثامناً: الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، وقد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات ب «النَّطِيحَةُ».

تاسعاً: الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، وسمى هذا النوع فى الآية ب «مَا أَكَلَ السَّبُعُ».

لقد ذكرت الآية شرطاً واحداً لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالًا، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب والتقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافى فيحل بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارة «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» بعد موارد التحريم مباشرة.

عاشراً: كان الوثنيون فى العصر الجاهلى ينصبون صخوراً حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، وكانوا يسمون هذه الصخور ب «النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها ويمسحون الصخور تلك بدم القربان.

والفرق بين النصب والأصنام هو أنّ النصب ليست لها أشكال وصور بخلاف الأصنام، وقد حرّم الإسلام لحوم القرابين التى كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم فى الآية بقوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

وواضح أنّ تحريم هذا النوع من اللحوم إنّما يحمل طابعاً معنوياً وليس مادياً.

أحد عشر: وهناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، وهو اللحوم التى تذبح وتوزع بطريقة القمار، وتوضيح ذلك هو أنّ عشرة من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيواناً ويذبحونه، ثم يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز» وعلى الثلاثة الاخرى كتبت عبارة «خاسر» فتوضع فى كيس وتسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الإقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم يأخذون قسماً من اللحم دون أن يدفعوا ثمناً لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثة الآخرون الذين تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوى، فيدفع كل واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شىء من لحمه.

وقد سمى الجاهليون هذه النبال ب «الأزلام» وهى صيغة جمع من «زلم» وقد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة فى اللحم، بل لأنّ الحيوان كان يذبح فى عمل هو أشبه بالقمار، ويجب القول هنا أنّ تحريم القمار وأمثاله لا ينحصر فى اللحوم فقط، بل إنّ القمار محرم فى كل شىء وبأىّ صورة كان.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۳

ولكى تؤكد الآية موضوع التحريم وتشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول فى الختام: «ذلِكُمْ فِسْقٌ».

الإعتدال فى تناول اللحوم: إنّ الذى نستنتجه من البحث المار الذكر ومن المصادر الإسلامية الاخرى، هو أنّ الإسلام اتّبع فى قضية

تناول اللحوم اسلوباً معتدلًا تمام الإعتدال جرياً على طريقته الخاصّة فى أحكامه الاخرى.

ويختلف اسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون فى أكل لحم النصب والميتة والدم وأشباه ذلك، وما يسير عليه الكثير من الغربيين فى الوقت الحاضر فى أكل حتى الديدان والسلاحف والضفادع وغيرها.

ويختلف مع الطريقة التى سار عليها الهنود فى تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التى تتغذى على الأشياء الطاهرة التى لا- تعافها النفس البشرية، وألغى الأساليب التى فيها طابع الإفراط أو التفريط.

وقد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التى يحلّ للإنسان الإستفادة منها.

بعد أنّ بيّنت الآية الأحكام التى مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقاً، الاولى منهما تقول: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ».

والثانية هى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلمَ دِينًا».

متى أكمل اللّه الدين للمسلمين؟ إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز فى كنهه وحقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

إنّ ما ذكره جميع مفسّرى الشيعة فى تفاسيرهم وأيدوه كما دعمته روايات كثيرة، وهذا الاحتمال يتناسب تماماً مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم غدير خم» أى اليوم الذى نصب النبى صلى الله عليه و آله عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام بصورة رسمية وعلنية خليفة له، حيث غشى الكفار فى هذا اليوم سيل من اليأس، وقد كانوا يتوهمون أنّ دين الإسلام سينتهى بوفاة النبى صلى الله عليه و آله وأنّ الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنهم حين شاهدوا أنّ النبى أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريداً بين المسلمين فى علمه وتقواه وقوته وعدالته، وهو على بن أبى طالب عليه السلام ورأوا النبى وهو يأخذ البيعة لعليّ عليه السلام أحاط بهم اليأس من كل جانب وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شرّ لمستقبل الإسلام وأدركوا أنّ هذا الدين باق راسخ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۴

ففى يوم غدير خم أصبح الدين كاملًا، إذ لو لم يتمّ تعيين خليفة للنبى صلى الله عليه و آله ولو لم يتمّ تعيين وضع مستقبل الامة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك ولم يكن ليكتمل الدين.

وقد وردت فى الآية (۵۵) من سورة النور نقطة مهمة جديرة بالإنتباه- فالآية تقول:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا».

واللّه سبحانه وتعالى يقطع فى هذه الآية وعداً على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين، الذى ارتضاه للمؤمنين فى الأرض.

ولمّا كان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، ونظراً إلى جملة «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلمَ دِينًا» الواردة فى الآية الأخيرة- موضوع البحث- والتى نزلت فى حق على بن أبى طالب عليه السلام لذلك كلّه نستنتج أنّ حكم الإسلام يتعزز ويترسخ فى الأرض إذا اقترن بالولاية، لأنّ الإسلام هو الدين الذى ارتضاه اللّه ووعد بترسيخ دعائمه وتعزيزه، وبعبارة أوضح أنّ الإسلام إذا اريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الأمر الثانى الذى نستنتجه من ضمن الآية الواردة فى سورة النور إلى الآية التى هى موضوع بحثنا الآن، فهو أنّ الآية الاولى قد أعطت للمؤمنين وعودا ثلاثة:

أوّلها: الخلافة على الأرض.

والثانى: تحقق الأمن والإستقرار لكى تكون العبادة للّهوحده.

والثالث: استقرار الدين الذى يرضاه اللّه فى الأرض.

ولقـد تحققت هـذه الوعود الثلاثـة فی «یوم غـدیر خم» بنزول آیـة: «الْیوْمَ أَکمَلْتُ لَکمْ دِینَکمْ» فمثال الإنسان المؤمن الصالـح هو علی علیه السـلام الـذی نصب وصـیّاً للنّبی صـلی الله علیه و آله ودلّت عبـارة «الْیوْمَ یئِسَ الَّذِینَ کفَرُوا مِن دِینِکمْ» علی أنّ الأـمن قـد تحقق بصورة نسبیـة لـدی المؤمنین، کمـا بیّنت عبـارة: «وَرَضِیتُ لَکمُ الْإِسْلمَ دِینًا» إنّ اللّه قـد اختار الـدین الـذی یرتضـیه، وأقرّه بین عباده المسلمین.

لقـد أعادت الآیـة- فی نهایتها- الکرة فی التحـدث عن اللحوم المحرمـة فبیّنت حکم الاضـطرار فی حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا یکون هدف الشخص ارتکاب المعصیة من تناول ذلک، مشیرة إلی غفران اللّه ورحمته فی عدم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۵

إلجاء عباده عند الاضطرار إلی تحمل المعاناة والمشقة، وعدم معاقبتهم فی مثل هذه الحالات.

قالت الآیة الکریمة: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَةٍ غَیرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

والمراد بالمخمصـة هنـا الجوع الشدیـد الـذی یؤدّی إلی انخمـاص البطن، سواء کـان بسـبب حالـة المجاعـة العامّـة، أو کان ناتجاً عن الحرمان الخاص.

یسْأَلُونَک مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکمُ الطَّیبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُکلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکمُ اللَّهُ فَکلُوا مِمَّا أَمْسَکنَ عَلَیکمْ وَ اذْکرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَیهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۴)

سبب النّزول

فی تفسـیر القرطبی: نزلت بسـبب عـدیّ بن حاتم وزید بن مهلهل وهو زید الخیل الذی سـمّاه رسول اللّه زید الخیر؛ قالا: یا رسول اللّه! إنّا قوم نصـید بالکلاب والبُزاة وإنّ الکلاب تأخـذ البقر والحُمُر والظّباء فمنه ما ندرک ذکاته ومنه ما تقتله فلا نُدرک ذکاته، وقد حرّم اللّه المیتة فماذا یَحلّ لنا؟ فنزلت الآیة.

التّفسیر

الحلال من الصـید: أعقبت الآیـة الأخیرة آیتین سـبق وأن تناولتا أحکاماً عن الحلال والحرام عن اللحوم وقـد بیّنت هذه الآیة نوعاً آخر من اللحوم أو الحیوانـات التی یحل للإنسان تناولها وجاءت علی صـیغة جواب لسؤال ذکرته الآیـة نفسـها بقولها: «یَسَلُونَک مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ».

فتـأمر الآیـة النبی صـلی الله علیه و آله- أوّلًا- بـأن یخبرهم إنّ کـل مـا کـان طیبـاً وطـاهراً فهو حلاـل لهم، حیث تقول: «قُلْ أُحِلَّ لَکمُ الطَّیبَاتُ» دالـة علی أنّ کل ما حرمه الإسـلام یعتبر من الخبائث غیر الطاهرة، وإنّ القوانین الإلهیة لا تحرم- مطلقاً- الموجودات الطاهرة التی خلقها اللّه لینتفع بها البشر.

ثم تبیّن الآیة أنواع الصـید الحلال، فتشـیر إلی الصـید الذی تجلبه أو تصـیده الحیوانات المدربة علی الصـید، فتؤکد بأنّه حلال، بقولها: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُکلّبِینَ تُعَلّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکمُ اللَّهُ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۶

«جـوارح»: مشـتقة من المصـدر «جرح» الـذی یعنی أحیانـاً «الکسب» وتـارة یعنی «الجرح» الـذی یصـاب به البـدن ولـذلک یطلق علی الحیوانات المدرّبة علی الصـید، سواء کانت من الطیور أو من غیرها، اسم «جارحة» وجمعها «جوارح» أی الحیوان الذی یجرح صـیده، أو بالمعنی الآخر الحیوان الذی یکسب لصاحبه.

وبدیهی أنّ الصید الذی تجلبه حیوانات مدرّبة اخری، یعتبر حلالًا فی حالة جلبه حیّاً وذبحه وفق الطریقة الشرعیة.

وبدیهی أنّ الحیوان الذی تصیده کلاب الصید، یجب أن یذبح وفق الطریقة الشرعیة إن جلب حیّاً، وإن مات الحیوان قبل درکه فلحمه حلال وإن لم یذبح.

وأخيراً أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد:

أوّلهما: أن لا ـ يأكل كلب الصيد من صيده شيئاً، حيث قالت الآية: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ». وعلى هذا الأساس فإنّ الكلاب لو أكلت من الصيد شيئاً قبل إيصاله إلى صاحبها، وتركت قسماً آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد ومثل هذا الكلب الذى يأكل الصيد لا يعتبر كلباً مدرباً، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقاً لعبارة «مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» لأنّه فى هذه الحالة يكون (أى الكلب) قد صاد لنفسه.

والأمر الثاني: هو ضرورة ذكر اسم اللّه على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ».

ولكى تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية- هذه- كلها، أكّدت فى الختام قائلة:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». داعية إلى الخوف من اللّه العزيز القدير ومن حسابه السريع.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۷

حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزواج معهم: تناولت هذه الآية، التى جاءت مكملة للآيات السابقة، نوعاً آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، وإنّ غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، وغذاء المسلمين حلال لأهل الكتاب، وحيث قالت الآية: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ».

والمقصود ب «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحة بأيدى أهل الكتاب. فقد جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال فى هذه الآية: «عنى بطعامهم الحبوب والفاكهة غير الذبائح التى يذبحونها، فإنّهم لا يذكرون اسم اللّه على ذبائحهم».

حكم الزواج بغير المسلمات: بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، فقالت بأنّ المسلمين يستطيعون الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ». على أن يكون التواصل بوسيلة الزّواج المشروع وليس عن طريق الزنا الصريح، ولا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية:

«مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ».

وهذا الجزء من الآية الكريمة يقلل الحدود التى كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين وغيرهم، ويبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصة.

ولا يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، ومن ذلك إنتخاب الرجل أو المرأة خليلًا من الجنس الآخر وبصورة علنية، وقد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل والخلاعة والمجون الجنسى، ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّاً وفى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر والتباهى به بكل صلف ووقاحة، ويعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً ومفضوحاً من الفحشاء وهدية مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق وأصبحت مصدراً للكثير من النكبات والكوارث.

ولكى تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب والمعاشرة مع أهل الكتاب والزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، وتحول دون الانحراف إلى هذا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۸

الأمر بعلم أو بدون علم، حذّرت المسلمين فى جزئها الأخير فقالت: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».
وهذه إشارة إلى أنّ التسهيلات الواردة فى الآية بالإضافة إلى كونها تؤدّى إلى السعة ورفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن تكون- أيضاً- سبباً لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ وتأثير الغير فيتركوا دينهم، وحيث سيؤدّى بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهى الصارم الشديد.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶)
تطهير الجسم والروح: لقد تناولت الآيات السابقة بحوثاً متعددة عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أمّا الآية الأخيرة فهى تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الروح و النفس الإنسانية، فقد بيّنت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التى تكون سبباً فى صفاء وطهارة الروح الإنسانية- فخاطبت المؤمنين فى البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ».
وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام اسلوب الغسل وفق سنّة النبى صلى الله عليه و آله وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.
بعد ذلك كله بيّنت الآية حكم الغسل عن جنابة حيث قالت: «وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا». والواضح أنّ المراد من جملة «فاطّهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءاً خاصاً منه لأقتضى ذكر ذلك الجزء.
مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۹
إنّ كلمة «جُنُباً»- وكما أوضحنا لدى تفسير الآية (۴۳) من سورة النساء- تعنى فى الأصل «المتباعد» أو «البعيد» وسبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأنّ هذا الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن الصلاة والتوقف فى المساجد وأمثالها.
ويمكن أن يستدل من الآية التى تدعو المجنب إلى الإغتسال قبل الصلاة على أنّ غسل الجنابة يجزىء، وينوب عن الوضوء أيضاً.
ومن ثم بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: «وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا».
لقد بيّنت الآية- بعد ذلك- اسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ».
وقد أوضحت الآية- فى آخرها- أنّ الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنّها أوامر شرعت لتحقق فوائد ومنافع معينة للناس، فقالت الآية «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».
وتؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أنّ جميع الأحكام والأوامر الشرعية الإلهية والضوابط الإسلامية هى لمصلحة الناس ولحماية منافعهم، وليس فيها أىّ هدف آخر، وإنّ اللَّه يريد بالأحكام الأخيرة الواردة فى الآية- موضوع البحث- أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية والروحية معاً.
إنّ جملة «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ» تبيّن قانوناً عامّاً معناه أنّ أحكام اللَّه ليست تكاليف شاقّة أبداً، ولو كان فى أىّ حكم شرعى العسر والحرج لأىفرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد فى الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، ولهذا لو كان الصوم يشكل مشقة وعناء على أىّ فرد بسبب مرض أو شيخوخة أمّا ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد وارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.
وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۷)
مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج ۱ ۵۳۹

العهود الربانية: تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وجاءت الآيـة الأخيرة لتكمل السـياق الموضوعى لما سبق من آيات، فاسـتقطبت انتباه المسـلمين إلى أهميـة وعظمـة النعم الإلهية التى أعظمها وأهمّها نعمة الإيمان والهداية والإسلام، تقول الآية: «وَاذْكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». فأىّ نعمة أعظم من أن ينال الإنسان– فى ظل الإسلام– كل الهبات الإلهيـة والمفاخر والإمكانيات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون فى الجاهلية من التشـتت والجهل والضـلال ويسود بينهم قـانون الغـاب، وكان الفساد والظلم يعم مجتمعهم آنـذاك، وقـد تحولوا بفضل الإسـلام إلى مجتمع يسوده الإتحاد والتماسك والعلم، ويرفل بالنعم والإمكانيات المادية والمعنوية الزّاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذى بين البشر وبين اللّه، فتقول: «وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

والمراد بلفظة «العهد» فى هذه الآية إشارة إلى جميع العهود والمواثيق التكوينية والتشريعية التى أخذها اللّه أو النبى صلى الله عليه و آله من المسلمين بمقتضى فطرتهم فى مراحل مختلفة.

وفى النهاية تؤكد الآية على ضـرورة التزام التقوى، محذّرة أنّ اللّه محيط بأسـرار البشـر، وعالم بما يختلج فى صدورهم، بقولها: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ (۸) وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَ عَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَـا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۰) دعوة مؤكّدة إلى العدالة: إنّ الآية الاولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، وهى شبيهة بتلك الدعوة الواردة فى الآية (۱۳۵) من سورة النساء، التى مضـى ذكرها مع اختلاف طفيف، فتخاطب هذه الآية أوّلًا المؤمنين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ».

ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة وتحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّدة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۱

أنّ الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصـية، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، ويجب أن لا تكون سبباً للإعتداء على حقوق الآخرين، لأنّ العدالـة أرفع وأسـمى من كل شـىء، فتقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا». وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعـدل من أهميـة قصوى فتقول: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وبما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى تؤكد الآية مرّة ثالثة قائلة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

بعـد التأكيـد الشديد الذى حملته الآية الكريمة حول قضـية العدالة وضـرورة تطبيقها بادرت الآية التالية وتمشـياً مع الاسـلوب القرآنى، فأعادت إلى الأذهان ما أعـده اللّه للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه ونعمه العظيمـة، حيث تقول الآيـة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

كمـا ذكرت الآيـة فى المقابـل جزاء الكـافرين الـذين يكـذبون بآيـات اللّه، فقـالت: «وَالَّذِيـنَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وممّـا يلفت النظر أنّ الآيـة جعلت المغفرة والأجر العظيم فى إطار «وعـد اللّه» بينمـا ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجـة للكفر وللتكـذيب بآيـات اللّه، ومـا هـذا إلّاإشـارة إلى فضـل اللّه ورحمته لعباده فيما يخص نعم وهبات الآخرة التى لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت وعظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقاً، كما أنّها إشارة– أيضاً– إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامى أبـداً، بل هو نتيجـة عادلة لما إرتكبه الإنسان من أعمال سيئة فى حياته.

يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) لقـد ذكرت الآيات السابقة بعضاً من النعم الإلهية، وجاءت الآية الأخيرة تخاطب المسلمين وتذكر لهم أنواعاً من النعم التى أنعم اللّه بها عليهم، لكى يؤدّوا شكرها عن طريق طاعة اللّه والسعى لتحقيق مبادىء العدالة، فتقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ».

والآية تلفت إنتباه المسلمين إلى الأخطار التى تعرضوا لها، وكان يحتمل أن تدفع

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۲

بالوجود الإسلامى إلى الفناء والزوال وإلى الأبد، ولكن فضل اللّه ونعمته شملتهم وأنقذت الإسلام والمسلمين من تلك الأخطار. كما تحذر الآية المسلمين وتنبههم إلى ضرورة التزام التقوى والإعتماد على اللّه كدليل على شكر ذلك الفضل وتلك النعمة، وليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم والسند والحماية من اللّه فى حياتهم الدنيوية هذه، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (۱۲) لقد أشارت هذه الآية أوّلًا إلى قضية الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارة فى مناسبات مختلفة فى آيات قرآنية عديدة، وربّما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهمية الوفاء بالعهد وذم نقضه، هى إعطاء أهميّة قصوى لقضية ميثاق الغدير الذى سيرد فى الآية (۶۷) من هذه السورة. والآية فى بدايتها تشير إلى العهد الذى أخذه اللّه من بنى إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه وإرساله إليهم بعد هذا العهد اثنى عشر زعيماً وقائداً ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفة واحدة من طوائف بنى إسرائيل الإثنتى عشر- حيث تقول الآية الكريمة: «وَلَقَد أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا».

والأصل فى كلمة «نقيب» إنّها تعنى الثقب الكبير الواسع، وتطلق بالأخص على الطرق المحفورة تحت الأرض، وسبب استخدام كلمة نقيب للدلالة على الزعامة، لأنّ زعيم كل جماعة يكون عليماً بأسرار قومه، وكأنّه قد صنع ثقباً كبيراً يطلع من خلاله على أسرارهم.

وتشير الآية بعد ذلك إلى وعد اللّه لبنى إسرائيل حيث تقول: «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ».

وإنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التالية:

۱- أن يلتزموا بإقامة الصلاة كما تقول الآية: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوةَ».

۲- وأن يدفعوا زكاة أموالهم: «وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۳

۳- أن يؤمنوا بالرسل الذين بعثهم اللّه ويحترموا وينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآية: «وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» «۱».

۴- وبالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التى تعتبر نوعاً من معاملات القرض الحسن مع اللّه سبحانه وتعالى حيث تقول الآية: «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا».

ثم أردفت الآية الكريمة ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى: «لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

كما بيّنت الآية مصير الذين يكفرون ولا يلتزمون بما أمر اللّه حيث تقول: «فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳) إنّ هذه الآية الكريمة جاءت تشير إلى نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه عليهم والذى ذكرته الآية السابقة. كما ذكرت هذه الآية نتائج وعواقب هذا النقض حيث تقول:

«فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» «۲».

والحقيقة هى أنّ هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمة اللّه، وتحجرت أفكارهم وقلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونة أمام الحقائق.

وتشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: «يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ» و «وَنَسُوا حَظًّا مّمَّا ذُكّرُوا بِهِ».

---

(۱) «عزّرتموهم»: مشتقة من مادة «تعزير» أى المنع أو العون، أمّا حين تسمّى بعض العقوبات الإسلامية بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون عوناً للمذنب لكى يرتدع عن مواصلة الذنب وهذا دليل على أنّ العقوبات الإسلامية لا تتسم بطابع الإنتقام بل تحمل طابعاً تربوياً لذلك سمّيت بالتعزير.

(۲) «لعن»: تعنى فى اللغة «الطرد والإبعاد» وحين ينسب اللعن إلى اللّه فإنّه يعنى الحرمان من رحمته، أمّا كلمة «قاسية»: فهى فى الأصل مشتقة من المصدر «قساوة» وتطلق على الأخص على الحجر الصلد، ولذلك أطلقت على الذين لا يبدون أى مرونة من جانبهم أمام الحقائق التى تتكشف لهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۴

ولا يستبعد أن تكون علامات وآثار نبى الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله والتى اشير إليها فى آيات قرآنية اخرى، جزءاً من الامور التى نسيها بنو إسرائيل- كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفه أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، وإنّ ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقى كان جزءاً من ذلك الكتاب وقد اختلط بالكثير من الخرافات، وقد نسى هؤلاء حتى هذا الجزء الباقى من كتاب موسى عليه السلام.

ثم تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود- بصورة عامّة- إلّاما ندر منهم، وهى الخيانة التى كانت تتكشف للمسلمين بين فترة واخرى. تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ».

وفى الختام تطلب الآية من النّبى صلى الله عليه و آله أن يعفو عن هؤلاء ويصفح عنهم، مؤكّدة أنّ اللّه يحب المحسنين، وذلك فى قوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ العفو والصفح المطلوبان فى الآية يشملان- فقط- تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم إلى النبى صلى الله عليه و آله ولا يشملان أخطاء اليهود وجرائمهم بحق الأهداف والمبادىء الإسلامية، حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴) العداء الأبدى: لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه منهم، أمّا الآية الأخيرة- هذه- فهى تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسماً من أوامر اللّه التى كلّفوا بها- فتقول الآية فى هذا المجال: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مّمَّا ذُكّرُوا بِهِ». فهذه الآية تدل بوضوح على أنّ النصارى- أيضاً- كانوا قد عقدوا مع اللّه عهداً على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، وأن لا ينسوا أوامر وأحكام اللّه، وأن لا يكتموا علائم خاتم النبيين لكنهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود.

أمّا كلمة «نصارى» التى وردت فى الآية فهى صيغة جمع نصرانى، ويحتمل أن يكون وجه التسمية ناشئاً عن قول المسيح عليه السلام كما تحكيه الآية (۱۴) من سورة الصّف عنه إذ تقول:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۵

«كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».

فسمّى المسيحيون لذلك بالنصارى.

ولما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنّهم من أنصار المسيح عليه السلام يقول القرآن فى هذه الآية: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . وهم لم يكونوا صادقين فى دعواهم هذه، لذلك تستطرد الآية الكريمة فتبيّن نتيجة هذا الإدعاء الكاذب، وهو انتشار عداء أبدى فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: «فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ».

كما ذكرت الآية نوعاً آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنّهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: «وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶) بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود والنصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامة وتدعوهم إلى الإسلام. وتبين الآية- فى البداية- أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصة بالكتب السماوية التى أخفوها هم (أهل الكتاب) وكتموها عن الناس، وأنّ هذا الرسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التى انتفت الحاجة إليها وزال تأثيرها بزوال العصور التى نزلت لها، فتقول الآية فى هذا المجال: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ».

وتشير الآية الكريمة- أيضاً- إلى أهمّية وعظمة القرآن المجيد وآثاره العميقة فى هداية وإرشاد وتربية البشرية، فتقول: «قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ». النور الذى يهدى به اللّه كل من يبتغى كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآية الاخرى: «يَهْدِى بِهِ

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۶

اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَمِ» وينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك وظلمة الجهل وظلمة التفرقة والنفاق وغيرها ...) ويهديهم إلى نور التوحيد والعلم والإتحاد، حيث تقول الآية: «وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ». وإضافة إلى ذلك كله يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج ولا انحراف فى جانبيه العقائدى والعملى أبداً، كما تقول الآية: «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟ جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثاً تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السلام وبيّنت أنّ هذه الدعوى ما هى إلّاالكفر الصريح، حيث قالت: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ».

ولكى يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة دعاوى باطلة بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى:

فهم أوّلًا: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أى الثالوث) وقد أشارت الآية (۱۷۱) من سورة النساء إلى هذا الأمر.

وثانياً: إنّهم يقولون: إنّ خالق الكون والوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث ويسمونه بالإله الأب والقرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد- أيضاً- فى الآية (۷۳) من سورة المائدة حيث يقول: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ».

وثالثاً: إنّ المسيحيين يقولون: إنّ الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقى هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحياناً ب «الوحدة فى التثليث» وهذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وقالوا: إنّ المسيح ابن مريم هو اللّه! وإنّ هذين الإثنين يشكّلان مع روح القدس حقيقة واحدة فى ثلاثة متعددة!

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۷

بعد ذلك ولكى تبطل الآية الكريمة عقيدة الوهية المسيح عليه السلام تقول: «قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وهـذه إشارة إلى أنّه لو كان المسيح عليه السلام إلهاً لإستحال على خالق الكون أن يهلكه وتكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق ومن كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلهاً، لأنّ قدرة اللّه كذاته لا تحدّها حدود مطلقاً (تدبّر جيداً).
وفى الختام ترد الآية الكريمة على أقوال اولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح من غير أب دليلًا على الوهيته فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». فاللّه قادر على أن يخلق إنساناً من غير أب ومن غير ام كما خلق آدم عليه السلام وهو قادر أيضاً على أن يخلق إنساناً من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السلام وقدرة اللّه هذه كقدرته فى خلق البشر من آبائهم وامهاتهم، وهذا التنوع فى الخلق دليل على قدرته، وليس دليلًا على أىّ شىء آخر سوى هذه القدرة.
وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۸) استكمالًا للبحوث السابقة التى تناولت بعض إنحرافات اليهود والنصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التى تمسك بها هؤلاء، فتقول: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنؤُا اللَّهِ وَأَحِبؤُهُ».
إنّ القرآن الكريم حارب كل هـذه الإمتيازات والدعاوى الوهمية، فهو لا ـ يرى للإنسان امتيازاً إلّابالإيمان والعمل الصالح والتقوى، ولـذلك تقول الآيـة الأخيرة فى تفنيد وإبطال الإدّعاء الأخير: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم». فهؤلاء- بحسب اعترافهم أنفسهم- يشملهم العذاب الإلهى حيث قالوا بأنّ العذاب يمسّهم لأيّام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الإدعاء وهذا الإعتراف؟ وكيف يمكن أن يشمل عذاب اللّه أبناءه وأحباءه؟! ومن هنا يثبت أن لا أساس ولا صحة لهذا الإدعاء، وقد شهد تاريخ هؤلاء على أنّهم حتى فى هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، ويعتبر هذا دليلًا آخر على زيف وبطلان دعواهم تلك.
مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۸
ولكى تؤكد الآية الكريمة زيف وبطلان الدعوى المذكورة استطردت تقول: «بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ». والقانون الإلهى عام، فإن اللّه «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ». وبالإضافة إلى ذلك فإنّ كل البشر هم من خلق اللّه، وهم عباده وأرقاؤه، وعلى هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن اللّه» على أى منهم، حيث تقول الآية: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا».
وفى النهاية تعود المخلوقات كلها إلى اللّه، حيث تؤكد الآية هنا بقولها: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۹) تكرر هذه الآية الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتبيّن لهم أنّ النبى المرسل إليهم مرسل من عند اللّه، أرسله فى عصر ظلت البشرية قبله فترة دون أن يكون لها نبىّ، فبيّن لهم هذا النّبى الحقائق، لكى لا يقولوا بعد هذا إنّ اللّه لم يرسل إليهم من يهديهم إلى الصراط السوى ويبشرهم بلطف اللّه ورحمته ويحذّرهم من الانحراف والإعوجاج، وينذرهم بعذاب اللّه، حيث تقول الآية: «يَا أَهلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ».
«فترة»: تعنى فى الأصل الهدوء والسكينة كما تطلق على الفاصلة الزمنية بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.
وقد شهدت الفاصلة الزمنية بين موسى وعيسى عليهما السلام عدداً من الأنبياء والرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك فى الفاصلة الزمنية بين عيسى عليه السلام والنّبى محمّد صلى الله عليه و آله ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصلة الأخيرة اصطلاح «فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ». والمعروف أنّ هذه الفترة دامت ستمائة عام تقريباً.
وفى الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة اللّه عزّ وجلّ فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». وهذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء والرسل وتعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة اللّه العزيز المطلقة.
مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۹
وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (۲۰) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (۲۱) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ

وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (۲۲) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (۲۴) قَالَ رَبِّ إِنِّی لَا أَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (۲۵) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِی الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (۲۶) بنو إسرائيل والأرض المقدسة: جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق والسعى لمعرفته أوّلًا، وإيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء والآثام التى إرتكبوها ثانياً، ولكى تحفزهم إلى السعى لتلافى اخطائهم والتعويض عنها، ويذكرهم القرآن فى الآيهْ الاولى بما قاله النبى موسى عليه السلام لأصحابه حيث تقول: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

وفى ظل هذه النعمهْ (نعمهْ وجود الأنبياء) نجا اليهود من هاويهْ الشرك والوثنيهْ وعبادهْ العجل وتخلصوا من مختلف أنواع الخرافات والأوهام والقبائح والخبائث.

بعد هذا تشير الآيهْ إلى أكبر نعمهْ ماديهْ وهبها اللَّه لليهود فتقول: «وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا» وتعتبر هذه النعمهْ- أيضاً- مقدمهْ للنعم المعنويهْ، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلهْ من ذل العبوديهْ فى ظل الحكم الفرعونى، فلم يكونوا ليمتلكوا فى تلك الفترهْ أى نوع من حريهْ الإرادهْ.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۱۰

وتشير هذه الآيهْ فى آخرها إلى أنّ اللَّه قد وهب بنى إسرائيل فى ذلک الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلک الحين فتقول: «وَءَاتَكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ».

وكانت هذه النعم الوافرهْ كثيرهْ الأنواع، فمنها نجاهْ بنى إسرائيل من مخالب الفراعنهْ الطغاهْ وإنفلاق البحر لهم ونزول غذاء خاص عليهم مثل «المنّ والسلوى».

و الآيهْ التاليهْ تبيّن واقعهْ دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدّسهْ نقلًا عن لسان نبيّهم موسى عليه السلام فتقول: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِی كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ».

والمراد بعبارهْ «الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ» الواردهْ فى الآيهْ، كل أرض الشام التى تشمل جميع الاحتمالات الواردهْ، لأنّ هذه الأرض- كما يشهد التاريخ- تعتبر مهداً للأنبياء، ومهبطاً للوحى، ومحلًا لظهور الأديان السماويهْ الكبرى، كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادهْ اللَّه الواحد الأحد ونشر تعاليم الأنبياء.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوهْ موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدسهْ مواجههْ الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فى ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد فى هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السلام بقولهم كما تنقله الآيهْ: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ» «۱».

ويدل جواب بنى إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذى خلّفه الحكم الفرعونى على نفوس هؤلاء.

والمراد من عبارهْ «قَوْمًا جَبَّارِينَ» فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقهْ» «۲» الذين

---

(۱) «جبّار»: مأخوذهً أو مشتقهْ من الأصل «جبر» أى إصلاح الشىء بالقسر والإرغام، ولذلک سمّى إصلاح العظم المكسور «تجبيراً» فهذه الكلمهْ تطلق من جههْ على كل نوع من التجبير والإصلاح، ومن جههْ اخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسرى، وحين تطلق كلمهْ «جبّار» على اللَّه سبحانه وتعالى فذلک إمّا لتسلطه على كل شىء، أو لأنّه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

(۲) «العمالقهْ»: قوم من العنصر السامى يعيشون فى شمال شبه جزيرهْ العرب بالقرب من صحراء سيناء، وقدهاجموا مصر واستولوا عليها

لفترات طویلة ودامت حکومتهم حوالی ۵۰۰ عام منذ عام ۲۲۱۳ قبل المیلاد حتی عام ۱۷۰۳ قبل المیلاد (دائرة المعارف لفرید وجدی ۶۰/ ۲۳۲).

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۱۱

کانوا یمتلکون أجساماً ضخمة، وکانت لهم أطوال خارقة.

بعد هذا الحدیث یشیر القرآن الکریم إلی رجلین أنعم اللَّه علیهما بالإیمان والتقوی والورع وشملهما بنعمه الکبیرة، فجمعا صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرک الاجتماعی والعسکری ممّا دفعهما إلی الدفاع عن اقتراح النبی موسی علیه السلام فواجها بنی إسرائیل بقولهما: ادخلوا علیهم من باب المدینة، وحین تدخلون علیهم سیواجهون الأمر الواقع فتکونون أنتم المنتصرون، تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِینَ یَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیهِمَا ادْخُلُوا عَلَیْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّکُمْ غَالِبُونَ».

وتؤکد الآیة- بعد ذلک علی ضرورة الإعتماد علی اللَّه فی کل خطوة من الخطوات والاستمداد من روح الإیمان بقوله تعالی: «وَعَلَی اللَّهِ فَتَوَکَّلُوا إِن کُنتُم مُّؤْمِنِینَ».

وما ذکره أغلب المفسّرین حول هویة هذین الرجلین هو أنّهما «یوشع بن نون» و «کالب بن یوحنا» وهما من النقباء الإثنی عشر فی بنی إسرائیل.

والذی حصل حقیقة هو أنّ بنی إسرائیل لم یقتنعوا بأی من الإقتراحات المذکورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلین فی نفوسهم خاطبوا موسی علیه السلام وأخبروه صراحة بأنّهم لن یدخلوا تلک الأرض مادام العمالقة موجودین فیها، وطالبوا موسی أن یذهب هو وربه لمحاربة العمالقة وسألوه أن یخبرهم عن إنتصاره حیث هم قاعدون، وفی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: «قَالُوا یَا مُوسَی إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِیهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّکَ فَقَاتِلَا إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ».

ثم نقرأ فی الآیة التالیة أنّ موسی أصابه الیأس والقنوط من القوم، ورفع یدیه للدعاء مناجیاً ربّه قائلًا: إنّه لا یملک حریة التصرف إلّاعلی نفسه وأخیه، وطلب من اللَّه أن یفصل بینهما وبین القوم الفاسقین العصاة، لکی یلقی هؤلاء جزاء أعمالهم ویبادروا إلی إصلاح أنفسهم، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «قَالَ رَبِّ إِنّی لَاأَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِی وَأَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنَا وَبَیْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِینَ».

وبدیهی إنّ رفض بنی إسرائیل القاطع لأمر نبیهم کان بمثابة الکفر.

وکانت نتیجة صلف وعناد بنی إسرائیل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب اللَّه دعاء نبیه موسی علیه السلام فحرم علیهم دخول الأرض المقدسة، الملیئة بالخیرات مدّة أربعین عاماً، وفی هذا المجال تقول الآیة القرآنیة الکریمة: «قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَةً».

وزادهم عذاباً إذ کتب علیهم التیه والضیاع فی البراری والقفار طیلة تلک الفترة، حیث تقول الآیة فی ذلک: «یَتِیهُونَ فِی الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۱۲

بعد ذلک تذکر الآیة أنّ ما نال بنی إسرائیل من عذاب فی تلک المدّة، کان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسی علیه السلام أن لا یحزن علی المصیر الذی لا قوه حیث تقول الآیة الکریمة:

«فَلَا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفَاسِقِینَ».

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قَالَ إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مَا أَنَا بِبَاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذلِکَ جَزَاءُ الظَّالِمِینَ (۲۹) أوّل حادثة قتل علی الأرض: لقد تناولت هذه الآیات الثلاث الأخیرة قصة ولدی آدم علیه السلام وکیف قتل أحدهما أخاه، ولعل وجه الصلة بین هذه الآیات والآیات التی سبقتها فی شأن بنی إسرائیل، هو غریزة «الحسد» التی کانت دائماً أساساً للکثیر من مخالفات وانتهاکات بنی إسرائیل حیث یحذرهم اللَّه فی هذه الآیات من مغبة وعاقبة الحسد الوخیمة القاتلة، التی تؤدّی أحیاناً إلی أن یعمد أخ إلی قتل أخیه! والآیة تقول فی هذا المجال لنبیّ اللَّه أن یتلو علی قومه قصّة

ولدى آدم: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ بِالْحَقّ».

ولعلّ استخدام كلمة «بالحقّ» فى هذه الآية جاء للإشارة إلى أنّ القصّة المذكورة قد أضيفت لها خرافات مختلفة، ولبيان أنّ القرآن الكريم جاء بالقصة الحقيقية التى حصلت بين ولدى آدم عليه السلام.

وتواصل الآية سرد القصّة فتقول: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخِرِ». وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ- الذى لم يتقبل اللّه القربان منه- أخاه بالقتل ويقسم أنّه قاتله لا محالة، كما جاء فى قوله تعالى فى الآية: «قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ».

أمّا الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أنّ عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة فى عمله، وأنّه ليس لأخيه أى ذنب فى رفض القربان، مؤكّداً أنّ اللّه يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: «قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

وأكد له أنّه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنّه- أى الأخ الذى تقبل اللّه منه القربان- لن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۳

يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف اللّه ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم، حيث تقول الآية: «لَئِنْ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَىَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

وأضاف هذا الأخ الصالح- مخاطباً أخاه الذى أراد أن يقتله- أنّه لا يريد أن يتحمل آثام الآخرين، قائلًا له: «إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ» «۱». (أى لأنّك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبى السابقة أيضاً، لأنّك سلبت منى حق الحياة وعليك التعويض عن ذلك، ولما كنت لا تمتلك عملًا صالحاً لتعوض به، فما عليك إلّاأن تتحمل إثمى أيضاً، وبديهى أنّك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتماً من أهل النار، لأنّ النار هى جزاء الظالمين) كما تقول الآية: «فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ».

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (۳۱) التّستر على الجريمة: تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التى حصلت بين إبنى آدم عليه السلام فتبيّن الآية الاولى منهما أنّ نفس قابيل هى التى دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول:

«فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ».

«طوع»: تأتى فى الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أنّ قلب «قابيل» بعد أن تقبل اللّه قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الإنتقام من أخيه «هابيل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطرى بقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره الرادعة فطوّعت ضميره الحى وكبلته بقيودها واعدته لقتل أخيه.

وتشير الآية- فى آخرها- إلى نتيجة عمل «قابيل» فتقول: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فأىّ ضرر أكبر من أن يشترى الإنسان لنفسه عذاباً سيلازمه إلى يوم القيامة ويشمل

(۱) «تبوء»: مشتقة من المصدر «بواء» أى «العودة».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۴

عذاب الضمير وعقاب اللّه والعار الأبدى! وتفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ قابيل حين قتل أخاه ترك جثته فى العراء حائراً لا يدرى ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتّى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما نتيجة لضغط وجدانى شديد) إلى حمل جثة أخيه مدّة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهى تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفى تلك الأثناء بعث اللّه غراباً (كما تصرّح الآية) فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفى جزءاً من طعامه- كما هى عادة الغربان- وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث

تقول الآية الكريمة: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوءَةَ أَخِيهِ» «۱».

ثم تشير الآية الكريمة إلى أنّ قابيل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنّب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية: «قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي».

وكانت العاقبة أن ندم قابيل على فعلته الشنيعة كما تقول الآية: «فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ».

فى تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآية مورد البحث، عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «لا تقتل نفس ظلماً إلّاكان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنّه كان أوّل من سن القتل».

مِنْ أَجْلِ ذلِکَ کَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِکَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲) وحدة الإنسانية وكرامتها: إنّ هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلّية بعد الآيات التى تطرقت إلى قصّة ولدى آدم عليه السلام. ففى البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية

---

(۱) جاء فى تفسير مجمع البيان أنّ كلمة «يبحث»: معناها فى الأصل هو البحث عن شىء فى التراب ثم استعملت فى مختلف أنواع البحوث. أمّا كلمة «سوءة»: فهى تعنى كل شىء يستاء الإنسان من رؤيته ولذلک تطلق أحياناً على جسد الميت وعلى عورة الإنسان.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۵

تربوية مهمّة، وهى أنّ قتل أىّ إنسان، إن لم يكن قصاصاً لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد فى الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشرى بأجمعه، كما أنّ إنقاذ أىّ إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلّها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: «مِنْ أَجْلِ ذلِکَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» «۱».

ويرد هنا سؤال وهو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساوياً لقتل الناس جميعاً، وكيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسّرين على هذا السّؤال ....

وكما قلنا فى بداية تفسير هذه الآية، فإنّها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لانّه:

أوّلًا: إنّ من يقتل إنساناً بريئاً ويلطخ يده بدم برىء يكون مستعداً لقتل أناس آخرين يساوونه فى الإنسانيه والبراءة، فهو إنسان قاتل، وضحيته إنسان آخر برىء، ومعلوم أنّه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أنّ أى إنسان يقوم- بدافع حب النوع الإنسانى- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعداً للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أىّ إنسان آخر.

ونظراً لكلمة «فكأنّما» التى يستخدمها القرآن فى هذا المجال، فإنّنا نستدل بأنّ موت وحياة إنسان واحد مع أنّه لا يساوى موت وحياة المجتمع إلّاأنّه يكون شبيهاً بذلک.

وثانياً: إنّ المجتمع يشكل كياناً واحداً، واعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد وأنّ أى ضرر يصيب أحد اعضائه يكون أثره واضحاً- بصورة أو بأُخرى فى سائر الأعضاء.

ومن جانب آخر فإنّ إحياء فرد من أفراد المجتمع يكون- لنفس السبب الذى ذكرناه- بمثابة إحياء وإنقاذ جميع أفراد المجتمع.

وتبيّن هذه الآية بجلاء أهمّية حياة وموت الإنسان فى نظر القرآن الكريم، وتتجلى عظمة هذه الآية أكثر حين نعلم أنّها نزلت فى محيط لم يكن يعير أى أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

جاء فى تفسير نور الثقلين: سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الآية فأجابه قائلًا:

---

(۱) «أجل»: على وزن «نخل» تعنى فى الأصل الجريمة، وقد شاع استعمالها فيما بعد فى كل عمل له عاقبة سيئة، ثم استعملت لكل عمل ذى عاقبة، وهى الآية تستخدم للتعليل أو بيان علّة الشيء.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۶

«من حرق أو غرق»- ثم سكت- ثم قال: «تأويلها الأعظم أن دعاها فاستجاب له». وفحوى قول الإمام الصادق عليه السلام فى هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثم يستطرد الإمام- بعد سكوت- فيبين أنّ التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق والخير أو الباطل والشر، وتحقق القبول من الجانب الآخر المخاطب بهذه الدعوة.

وتشيرالآية- فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكّد أنّ هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلّاأنّ الكثير منهم قد نقضوا وانتهكوا القوانين الإلهيّة واتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: «وَلَقَد جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ».

إنّ كلمة «إسراف» لها معان واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعدّ عن الحدود ولو أنّها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات والنفقات.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى عن أنس بن مالك: أنّ قوماً من عُكْل «۱»- أو قال من عُرَينَة- قدموا على رسول اللَّه فاجتَوَوا «۲» المدينة؛ فأمر لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بِلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحّوا قتلوا راعى النبى صلى الله عليه و آله واستاقوا النَّعَم؛ فبلغ النبى صلى الله عليه و آله خبرهم من أوّل النهار فأرسل فى آثارهم؛ فما ارتفع النهار حتى جيء بهم؛ فأمر بهم فقطعت

---

(۱) عكل (بضم العين المهملة وسكون الكاف): قبيلة مشهورة.

(۲) أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، ذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموا.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۷

أيديهم وأرجلهم وسَمَر «۱» أعينهم وألقوا فى الحرة «۲» يستسقون فلا يُسقَون.

قيل: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا اللَّه ورسوله. وفى رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم؛ وفى رواية فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى طلبهم قافة فاتى بهم؛ قال: فأنزل اللَّه تبارك وتعالى فى ذلك الآية.

التّفسير

جزاء مرتكب العدوان: تكمّل الآية الاولى- من الآيتين الأخيرتين- البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، وتبيّن جزاء وعقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، وينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بإرتكاب القتل، فتقول: «إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ لْأَرْضِ».

ومعنى قطع الأيدى والأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

والـذی یلفت الإنتباه فی هـذه الآیـة هو أنّها اعتبرت العـدوان الممارس ضـد البشـر بمثابـة إعلان الحرب وممارسـة العـدوان ضـد اللّه ورسوله، وهذه النقطة تبیّن بل تثبت مدی اهتمام الإسلام العظیم بحقوق البشر ورعایة أمنهم وسلامتهم.

وفی الختام تشیر الآیـة إلی أنّ هذه العقوبات هی لفضح المجرمین فی الدنیا، وسوف لا یتوقف الأمر علی هذه العقوبات، بل سـینالون یوم القیامة عقاباً أشد وأقسی حیث تقول الآیة: «ذلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْیا وَلَهُمْ فِی الْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

ویستدل من هـذه الجملـة القرآنیـة علی أنّ العقوبـات الإسـلامیة الدنیویـة التی تنفـذ فی المجرمین لن تکون حائلًا دون نیلهم لعقـاب الآخرة، ولکن طریق العودة والتوبـة لا یغلق حتی بوجه مجرمین خطیرین کالـذین ذکرتهم الآیـة إن هم عادوا إلی رشدهم وبادروا إلی إصـلاح أنفسـهم، ولکی یبقی مجال التعویض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآیـة الثانیة: «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِن قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

وبدیهی أنّ توبة هؤلاء فی مثل هذه الجرائم لها تأثیر فی ما یخص اللّه فقط، أمّا حق الناس فلا یسقط بالتوبة ما لم یرض صاحب الحق.

---

(۱) سمر عین فلان: سملها (فقأها).

(۲) الحرة (بفتح الحاء و تشدید الراء): أرض خارج المدینة ذات حجارة سود.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۸

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ وَ جَاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) حقیقـة التوسل إلی اللّه: توجه هـذه الآیة الخطاب إلی الأفراد المؤمنین، تتضمّن تکالیف ثلاثة یؤدّی الالتزام بها وتطبیقها إلی نیل الفلاح، وهذه التکالیف هی:

۱- إتّباع الحیطة والتقوی، کما تقول الآیة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

۲- إختیار وسیلة للتقرب إلی اللّه سبحانه وتعالی، حیث تقول الآیة: «وَابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ».

۳- الجهاد فی سبیل اللّه، إذ تقول الآیة: «وَجَاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ».

وستکون نتیجة الإلتزام بهذه التکالیف الإلهیة وتطبیقها نیل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإیمان فتقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ».

«الوسیلة»: فی الأصل بمعنی نشـدان التقرب وعلی هـذا الأساس فإنّ کلمة «الوسیلة» الواردة فی هذه الآیة لها معان کثیرة واسعة، فهی تشمل کل عمل أو شیء یؤدّی إلی التقرب إلی اللّه سبحانه وتعالی، وأهم الوسائل فی هذا المجال، کما یقول الإمام أمیرالمؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام فی خطبة (۱۱۰) فی نهج البلاغة منها: «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلی اللّه سبحانه وتعالی، الإیمان به وبرسوله والجهـاد فی سبیله فإنّه ذروة الإسـلام وکلمـة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقام الصـلاة فإنّها الملّـة «۱» وإیتاء الزکاة فإنّها فریضـة واجبـة وصوم شـهر رمضان فإنّه جنّة من العقاب وحجّ البیت واعتماره فإنّهما ینفیان الفقر ویرحضان «۲» الذنب وصلة الرحم فإنّها مثراة «۳» فی المال ومنسأة «۴» فی الأجل وصدقة السّرّ فإنّها تُکفّر الخطیئة وصدقة العلانیة فإنّها تدفع میتة السّوء وصنائع المعروف فإنّها تقی مصارع الهوان».

کمـا أنّ شـفاعة الأنبیـاء والأئمـة والأولیـاء الصالحین تقرّب- أیضاً- إلی اللّه وفق ما نص علیه القرآن الکریم، وهی داخلـة فی المفهوم الواسع لکلمة «الوسیلة».

---

(۱) الملّة: شریعة الإسلام.

(۲) یرحضان: یطهران أو یغسلان.

(۳) مثراة: مکثرة.

(۴) منساة: مطيلة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۹

والجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعنى- أبداً- طلب شيء من شخص النبى أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن- عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النّبى والإمام- بطلب الشفاعة منهم إلى اللّه، أو أن يقسم بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الإحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من اللّه بذلك حاجته، وليس فى هذا المعنى أىّ أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الاخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبر».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۳۷) تعقيباً على الآية السابقة التى كلّفت المؤمنين بالتقوى والجهاد وإعداد الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان وهما تشيران إلى مصير الكافرين وتؤكدان أنّهم مهما بذلوا- حتى لو كان كل ما فى الأرض أو ضعفه- فى سبيل إنقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك- وأنّهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بعد ذلك تشير الآية التالية إلى استمرار عذاب اللّه، وتوضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، وأنّ عذابهم ثابت وباق لا يتغير، كما تقول الآية: «يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۰

عقوبة السرقة: لقد بيّنت آيات سابقة عقاب وحكم المحارب الذى يتعرض لأرواح وأموال ونواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهى تبيّن حكم السارق والسارقة أى الفرد الذى يسرق خلسة أموال وممتلكات الناس، فتقول الآية أوّلًا: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا».

وقد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التى ذكرت حد وعقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزانى، ولعلّ هذا التفاوت ناشيء عن حقيقة أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكّلن فى الغالب العامل والعنصر المحفّز للزنا!

بعد ذلك تبيّن الآية أنّ العقوبة المذكورة هى جزاء من اللّه لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: «جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ».

ولكى لا يتوهم الناس وجود الإجحاف فى هذه العقوبة، تؤكد الآية- فى آخرها- على أنّ اللّه عزيز، أى قادر على كل شيء، فلا حاجة له للإنتقام من الأفراد، وهو حكيم- أيضاً- ولا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

أمّا الآية الثانية فهى تفتح لمن إرتكب هذه المعصية باب العودة والتوبة، فتقول: «فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

والسؤال الوارد هنا هو: هل أنّ التوبة وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضاً؟

إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقته فى محكمة إسلامية يسقط عنه حدّ السرقة أيضاً، أمّا إذا

شهد عادلان على سرقته فإنّ التوبه لا تسقط عنه الحد.

ثم توجّه الآيـهٔ الاـخرى الخطـاب إلى النبى صـلى الله عليه و آله فتقول: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْـكُ السَّموَاتِ وَالْـأَرْضِ يُعَـذّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۱

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَـا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِـأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلْكَـذِبِ سَـمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِـعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِـكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الـدُّنْيَا خِزْىٌ وَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَـذَابٌ عَظِيمٌ (۴۱) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۴۲)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمـع البيـان عن الإمـام البـاقر عليه السـلام قـال: إنّ إمراهٔ من خيبـر ذات شـرف بينهم، زنت مـع رجـل من أشـرافهم، وهما محصـنان، فكرهوا رجمهما فأرسـلوا إلى يهود المدينهٔ، وكتبوا إليهم، أن يسألوا النبى عن ذلك، طمعاً فى أن يأتى لهم برخصهٔ، فانطلق قوم منهم: كعب بن الأشـرف، وكعب بن أسـيد، وشعبهٔ بن عمرو، ومالك بن الصيف، وكنانهٔ بن أبى الحقيق، وغيرهم فقالوا: يا محمّد أخبرنـا عن الزانى والزانيـهٔ إذا أحصـنا مـا حـدّهما؟ فقال: «وهل ترضون بقضائى فى ذلك؟» قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصـفه له. فقال النبى صلى الله عليه و آله: «هل تعرفون شاباً أمرد، أبيض، أعور، يسـكن فدكاً يقال له ابن صوريا؟» قالوا: نعم. قال: «فأىّ رجل هو فيكم؟» قالوا: أعلم يهودىّ بقى على ظهر الأرض بما أنزل اللَّه على موسـى. قال: «فأرسـلوا إليه». ففعلوا فأتاهم عبـد اللَّه بن صوريا، فقال له النبى صـلى الله عليه و آله: «إنّى أنشـدك اللَّه الـذى لاـ إله إلّاهو، الـذى أنزل التوراهٔ على موسـى، وفلق لكم البحر، وأنجاكم، وأغرق آل فرعون، وظلّل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنّ والسلوى، هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن؟» قال ابن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۲

صوريا: نعم. والـذى ذكرتنى به، لولا خشـيهٔ أن يحرقنى ربّ التوراهٔ إن كـذبت أو غيّرت، ما اعترفت لك ولكن أخبرنى كيف هى فى كتابك يا محمّـد؟ قال: «إذا شـهد أربعـهٔ رهط عـدول، أنّه قـد أدخله فيها كما يـدخل الميل فى المكحلهٔ، وجب عليه الرجم.» قال ابن صوريـا: هكـذا أنزل اللَّه فى التوراهٔ على موسـى. فقـال له النبى: «فمـاذا كـان أوّل مـا ترخصـتم به أمر اللَّه؟» قال: كنا إذا زنى الشـريف تركنـاه، وإذا زنى الضـعيف أقمنـا عليه الحـد، فكثر الزنـا فى أشـرافنا حتى زنى ابن عم ملـك لنـا فلم نرجمه، ثم زنى رجـل آخر فأراد الملـك رجمه، فقـال له قومه: لاـ حتى ترجم فلانـاً، يعنون ابن عمه. فقلنـا: تعـالوا نجتمع فلنضع شـيئاً دون الرجم، يكون على الشـريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدهٔ، ثم يسوّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمـار، ويطـاف بهما. فجعلوا هـذا مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسـرع ما أخبرته به، وما كنت لما أتينا عليك بأهل ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك! فقال: إنّه أنشدنى بالتوراهٔ، ولولا ذلك لما أخبرته به. فأمر بهما النبى فرجما عند باب مسـجده. وقـال: «أنـا أوّل من أحيـا أمرك إذ أمـاتوه». فـأنزل اللَّه فيه: «يـا أهـل الكتـاب قـد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير» فقام ابن صوريا، فوضع يـديه على ركبتى رسول اللَّه، ثم قال: هـذا مقام العائـذ باللَّه وبك، أن تذكر لنا الكثير الذى أمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبى صلى الله عليه و آله عن ذلك.

ثم سأله ابن صوريا عن نومه؟ فقال: «تنام عيناى ولا ينام قلبى». فقال: صدقت، وأخبرنى عن شبه الولد بأبيه، ليس فيه من شبه أمه شىء، أو بأمه ليس فيه من شـبه أبيه شـىء؟ فقال: «أيّهما علا وسـبق ماء صاحبه، كان الشـبه له». قال: قد صدقت، فأخبرنى ما للرجل من الولد

وما للمرأة منه؟ قال: فأغمی علی رسول اللّه طویلًا ثم خلی عنه محمراً وجهه یفیض عرقاً، فقال: «اللحم، والدم، والظفر، والشحم للمرأة والعظم والعصب والعروق للرجل». قال له: صدقت أمرک أمر نبی. فأسلم ابن صوریا عند ذلک، وقال: یا محمّد من یأتیک من الملائکة؟ قال: «جبرائیل». قال: صفه لی. فوصفه النبی صلی الله علیه و آله فقال: أشهد أنّه فی التوراة کما قلت، وأنّک رسول اللّه حقاً. فلما أسلم ابن صوریا، وقعت فیه الیهود وشتموه فلما أرادوا أن ینهضوا تعلقت بنو قریضة ببنی النضیر فقالوا: یا محمد إخواننا بنو النضیر: أبونا واحد، ودیننا واحد، ونبیّنا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۳

واحد، إذا قتلوا منّا قتیلًا لم یُقد وأعطونا دیته سبعین وسقاً من تمر وإذا قتلنا منهم قتیلًا، قتلوا القاتل، وأخذوا منا الضعف مائة وأربعین وسقاً من تمر، وإن کان القتیل امرأة قتلوا بها الرجا منّا وبالرجل منهم رجلین منّا، وبالعبد الحر منا وجراحاتنا علی النصف من جراحاتهم، فاقض بیننا وبینهم فأنزل اللّه فی الرجم والقصاص الآیات.

التّفسیر

التحکیم بین الأنصار والأعداء: تدلّ هاتان الآیتان والآیات التی تلیهما، علی أنّ للقاضی المسلم الحق- فی ظل شروط خاصة- فی الحکم فی جرائم الطوائف الاخری من غیر المسلمین. لقد بدأت الآیة الاولی الخطاب بعبارة: «یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ». وربّما جاء استخدام هذا التعبیر من أجل إثارة أکثر لدافع الشعور بالمسؤولیة لدی النّبی صلی الله علیه و آله.

بعد ذلک تُطمئن الآیة النبی صلی الله علیه و آله- کتمهید لبیان الحکم التالی- فتقول: «لَایَحْزُنکَ الَّذِینَ یُسَارِعُونَ فِی الْکُفْرِ مِنَ الَّذِینَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ».

وبعد أن تذکر الآیة تجاوزات المنافقین والأعداء الداخلیین، تتناول وضع الأعداء الخارجیین والیهود الذین کانوا سبباً لحزن النبی صلی الله علیه و آله فتقول الآیة: «وَمِنَ الَّذِینَ هَادُوا».

ثم تشیر الآیة إلی قسم من تصرفات هؤلاء المشوبة بالنفاق والریاء، فتؤکّد أنّهم إنّما یستمعون کلام النبی لا لأجل اطاعته، بل لکی یجعلوا من ذلک وسیلة لتکذیب النبی والإفتراء علیه حیث تقول الآیة: «سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ».

ثم تفضح الآیة الصفة الثالثة للیهود، فتبیّن أنّهم یتجسّسون علی المسلمین لمصلحة قوم آخرین ممّن لا یحضرون الاجتماعات الإسلامیة التی تعقد فی مجلس النبی صلی الله علیه و آله فتقول الآیة:

«سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ».

ثم تذکر الآیة انحرافاً آخر لهؤلاء الیهود، فتشیر إلی تحریفهم لکلام اللّه سبحانه وتعالی من خلال تحریف الألفاظ أو تحریف المعانی الواردة فی هذا الکلام، فهم إن وجدوا فی کلام اللّه حکماً یخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جملة وتفصیلًا، کما تقول الآیة: «یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ».

والأعجب من ذلک أنّ هؤلاء قبل أن یحضروا مجلس النّبی کانوا یقرّرون کما یأمرهم کبارهم أنّهم إن تلقّوا من محمّد صلی الله علیه و آله حکماً موافقاً لمیولهم وأهوائهم قبلوا به، وإن کان مخالفاً لهوی أنفسهم ردّوه وابتعدوا عنه، تقول الآیة الکریمة: «یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۴

تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا». فهؤلاء قد غرقوا فی الضلال بحیث لم یبق أمل فی هدایتهم، فاستحقوا بذلک عذاب اللّه ولم تعد تنفع فیهم شفاعة الشافعین، وفی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: «وَمَن یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیًا». وقد تدنّست قلوب هؤلاء إلی درجة لم تعد قابلة للتطهیر، وحرمهم اللّه لذلک طهارة القلوب، فتقول الآیة: «أُولئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللَّهُ أَن یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». وعمل اللّه مقرون بالحکمة دائماً، لأنّ من یقضی عمراً فی الانحراف ویمارس النفاق والکذب ویخالف الحق ویرفض الحقیقة، ویحرف قوانین اللّه لن

يبقى له مجال للتوبة والعودة إلى الحق، حيث تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

أمّا الآيـة الثانيـة فتؤكـد- مرّة اخرى- على أنّ هؤلاء لـديهم آذان صاغيـة لإستماع حـديث النّبى صـلى الله عليه و آله لا ـ لإطاعته بل لتكذيبه، أو كما يقول تفسير آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغية لإستماع أكاذيب كبارهم، فتقول الآية: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ».

كمـا أضافت الآيـة صـفة شـنيعة اخرى اتّصف بها اليهود وهى تعوّدهم وادمانهم على أكل الأموال المحرّمـة والباطلـة من الربا والرشوة وغير ذلك، حيث تقول الآية: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» «۱».

ثم تخيّر الآية النبى صلى الله عليه و آله بين أن يحكم بينهم أو أن يتجنبهم ويتركهم، حيث تقول الآية:

«فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولكى تعزز الآية الإطمئنان فى نفس النبى صلى الله عليه و آله- إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحة- أكّدت قائلة: «وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيًا».

كما أكّدت ضرورة إتّباع العدل وتطبيقه إذا كانت الحالة تقتضـى أن يحكم النبى بين هؤلاء فقالت الآية: «وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ مَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳)

---

(۱) «سحت»: فى الأصل نزع القشرة، أو شدّة الجوع، ثم اطلقت على كل مال غير مشروع، أى محرّم، وبالأخص الرشوة، لأنّ مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودّة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدّى نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۵

تتابع هـذه الآية موضوع الحكم بين اليهود الذى تطرّقت إليه الآيتان السابقتان اللتان بيّنتا أنّ اليهود كانوا يأتون إلى النبى صـلى الله عليه و آله ويطلبون منه الحكم فيهم وقد أظهرت هذه الآية الأخيرة الإستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التّوراة بينهم واحتوائها على حكم اللّه، يأتون إلى النبى محمّـد صـلى الله عليه و آله ويطلبون منه الحكم فيهم بالرغم من وجود التوراة عندهم، فتقول: «وَكَيْفَ يُحَكّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَيةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ».

والعجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم حين كـانوا يطلبون التحكيم من نبى الإسـلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقاً لحكم التوراة لكنّه لم يوافق ميولهم ورغبـاتهم حيث تقول الآيـة: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذلِكَ». وما ذلك إلّالأنّ هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين، ولو كانوا مؤمنين لما استهزؤوا هكذا بأحكام اللّه، حيث تؤكد الآية قائلة: «وَمَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (۴۴) إنّ هذه الآيـة والآيـة التى تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد فى الآيات السابقـة، وتبين هذه الآية أهمية الكتاب السـماوى الذى نزل على النبى موسـى عليه السـلام أى التوراة، حيث تشـير إلى أنّ اللّه أنزل هذا الكتاب وفيه الهداية والنور اللذان يرشدان إلى الحق، وأنّ النور والضياء الذى فيه هو لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَيةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

ولذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر اللّه، والذين تولّوا مهامّهم بعد نزول التوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا».

كمـا أنّ علمـاء اليهود ووجـاءهم ومفكّريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هـذا الكتاب السـماوى الـذى وصل أمانـة بأيـديهم وكانوا شهوداً عليه، حيث تقول الآية:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۶

«وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» «۱». ثم توجّه الآيـة الخطـاب إلى اولئك العلماء والمفكّرين من اليهود الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام اللَّه، بل عليهم أن يخافوا اللَّه، فلا تسوّل لهم أنفسهم مخالفة أوامره أو كتمان الحق، وإن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء والعقاب، فتقول الآية هنا: «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ».

ثم تحذّر الآية من الاستهانة والاستخفاف بآيات اللَّه، فتقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بَايِتِى ثَمَنًا قَلِيلًا».

وحقيقـة كتمـان الحق وأحكـام اللَّه نابعـة إمّا عن الخوف من الناس، وإمّا بـدافع المصـلحة الشخصـية، وأيّاً كان السـبب فهو دليل على ضعف الإيمان وانحطاط الشخصية، وقد أشير فى الجمل القرآنية أعلاه إلى هذين السببين.

وتصـدر الآيـة حكمـاً صارمـاً وحازمـاً على مثـل هؤلاء الأفراد الـذين يحكمون خلافاً لما أنزل اللَّه فتقول: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

وواضـح أنّ عـدم الحكم بما أنزل اللَّه يشـمل السـكوت والإبتعاد عن حكم اللَّه الذى يؤدّى بالناس إلى الضـلال، كما يشـمل التحدّث بخلاف حكم اللَّه.

وتبين هـذه الآيـة- أيضاً- المسؤوليـة الكبرى التى يتحمّلها علماء ومفكّروا كل امّة حيال العواصف الاجتماعية، والأحداث التى تقع فى بيئاتهم، وتدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات وعدم الخوف من أىّ بشر- كائناً من كان- لدى تطبيق أحكام اللَّه.

وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵) القصاص أو العفو: تشرح هذه الآية الكريمة قسماً آخر من الأحكام الجنائية والحدود الإلهية التى وردت فى التوراة، فتشير إلى ما ورد فى هذا الكتاب السماوى من أحكام وقوانين تخصّ القصاص، وتبين أنّ من يقتل انساناً بريئاً فإنّ لأولياء القتيل حق القصاص من

---

(۱) «أحبـار»: صـيغة جمـع مـن «حبر» (على وزن فكر) فهى تعنى كـل أثر خير، اطلقت على المفكّرين الـذين يخلفـون آثـاراً خيّرة فى مجتمعهم، ويطلق أيضاً على حبر الدواة الذى يستعمل للكتابة لما فيه من أثر خير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۷

القاتل بقتله، نفساً بنفس. حيث تقول الآية فى هذا المجال: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ».

كمـا بيّنت أنّ من يصـيب عين انسان آخر ويتلفها، يسـتطيع هـذا الإنسان المتضـرر فى عينه أن يقتصّ من الفاعل ويتلف عينه، إذ تقول الآية فى هذا المجال: «وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ».

وكذلك الحال بالنسبة للأنف والأذن والسن والجروح الاخرى، «وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ».

وعلى هذا الأساس فإنّ حكم القصاص يطبّق بشكل عادل على المجرم الذى يرتكب أحد الجرائم المذكورة.

وقد أنهت هذه الآية التمايز غير العادل الذى كان يمارس فى ذلك الوقت.

ولكى لا يحصل وَهمٌ أنّ القصاص أو المقابلة بالمثل أمر إلزامى لا يمكن الحيدة عنه، اسـتدركت الآية بعد ذكر حكم القصاص فبيّنت أنّ الـذى يتنـازل عن حقه فى هـذا الأـمر ويعفو ويصـفح عن الجـانى، يعتبر عفوه كفارة له عن ذنوبه بمقـدار ما يكون للعفو من أهمية «فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ».

وفى الختام تؤكـد الآيـة قائلـة: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». وأىّ ظلم أكبر من الإنجرار وراء العاطفـة الكاذبـة، وترك القاتـل دون أن ينال قصاصه العادل بحجـة أنّ الـدم لا يُغسل بالـدم، وفسـح المجال للقتلـة للتمادى بارتكاب جرائم قتل اخرى، وبالنهاية الإساءة عبر هذا التغاضى إلى أفراد أبرياء، وممارسة الظلم بحقهم نتيجة لذلك.

وَ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ

وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶) بعد الآيات التى تحدّثت عن التوراة جاءت هذه الآية، وهى تشير إلى حال الإنجيل وتؤكد بعثة ونبوّة المسيح عليه السلام بعد الأنبياء الذين سبقوه، وتطابق الدلائل التى جاء بها مع تلك التى وردت فى التوراة، حيث تقول الآية: «وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ».

ثم تشير الآية الكريمة إلى انزال الإنجيل على المسيح عليه السلام وفيه الهداية والنور فتقول:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۸

«وَءَاتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ». إنّ كلمة النّور التى اطلقت فى القرآن الكريم على التّوراة والإنجيل، إنّما عنت التوراة والإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أنّ عيسى عليه السلام لم يكن وحده الذى أيّد وصدّق التوراة، بل إنّ الإنجيل- الكتاب السماوى الذى نزل عليه- هو الآخر شهد بصدق التوراة حيث تقول الآية: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ».

وفى الختام تؤكد الآية أنّ هذا الكتاب السماوى قد حوى سبل الرشاد والهداية والمواعظ للناس المتقين، حيث تقول: «وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۴۷) الإمتناع عن الحكم بالقانون الإلهى: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكّدت هذه الآية محل البحث أنّ حكم اللَّه يقضى أن يطبّق أهل الإنجيل ما أنزله اللَّه فى هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآية: «وَلْيَحْكُمْ أَهَلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ».

فالمراد هو أنّ المسيحيين تلقّوا الأوامر من اللَّه بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب وأن يحكّموها فى جميع قضاياهم.

وتؤكد هذه الآية- فى النهاية- فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل اللَّه من أحكام وقوانين فتقول: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

ويلفت النظر اطلاق كلمة «الكافر» مرّة و «الظالم» اخرى و «الفاسق» ثالثة، فى الآيات الأخيرة على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام اللَّه، ولعلّ هذا التنوّع فى اطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبيان أنّ لكل حكم جوانب ثلاثة:

أحدها: ينتهى بالمشرّع الذى هو اللَّه.

والثّانى: يمسّ المنفّذين للحكم (الحاكم أو القاضى).

الثّالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبّق عليهم الحكم.

أى إنّ كل صفة من الصفات الثلاث المذكورة قد تكون إشارة إلى واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذى لا يحكم بما أنزل اللَّه يكون قد تجاوز القانون الإلهى وتجاهله، فيكون قد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۹

كفر بغفلته هذه، ومن جانب آخر إرتكب الظلم والجور- بابتعاده عن حكم اللَّه- على إنسان برىء مظلوم، وثالثاً: يكون قد خرج عن حدود واجباته ومسؤوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين.

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) تشير هذه الآية إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقة الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين.

«مهيمن»: تطلق فى الأصل على كل شىء يحفظ ويراقب أو يؤتمن على شىء آخر ويصونه، ولمّا كان القرآن الكريم يشرف فى الحفاظ على الكتب السماوية السابقة وصيانتها من التحريف إشرافاً كاملًا ويكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث

تقول الآية: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْکَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقًا لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ».

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل- أيضاً- على دلائل تتطابق مع ما ورد فى تلك الكتب، فكان بذلک حافظاً وصائناً لها.

ثم تؤكد على النبى صلى الله عليه و آله- انطلاقاً من الحقيقة المذكورة- ضرورة الحكم بتعاليم وقوانين القرآن بين الناس، حيث تقول: «فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ».

ثم تؤكد عليه أن يبتعد عن أهواء وميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوّعوا الأحكام الإلهية لميولهم ورغباتهم، وأن ينفّذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَکَ مِنَ الْحَقّ».

ولأجل اكمال البحث تشير الآية إلى أنّ كل ملّة قد أفردت لها شرعة ونظام للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: «لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا».

وكلمة «شرع» أو «الشريعة»: تعنى الطريق الذى يؤدّى إلى الماء وينتهى به، واطلاق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۰

كلمة «الشريعة» على الدين لأنّ الدين ينتهى بحقائق وتعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية وضمان الحياة السليمة للبشرية؛ أمّا كلمة «النهج» أو «المنهاج»: فتطلقان على الطريق الواضح. ثم تبيّن الآية أنّ اللَّه لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر امة واحدة، تتبع ديناً وشرعة واحدة لقدر على ذلک، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، وحركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَيكُمْ».

بعد ذلک تخاطب الآية- فى الختام- جميع الأقوام والملل، وتدعوهم إلى التسابق فى فعل الخيرات بدل تبذير الطاقات فى الاختلاف والتناحر، حيث تقول: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ».

مؤكّدة أنّ الجميع يكون مرجعهم جميعاً وعودتهم إلى اللَّه الذى يخبرهم فى يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النّزول

فى تفسير المنار عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وعبد اللَّه بن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمّد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمّد إنّک عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم وإنّا إن اتبعناک اتبعنا يهود ولم يخالفونا وأنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليک فنقضى لنا عليهم ونؤمن لک ونصدقک. فأبى ذلک. وأنزل اللَّه عزّ وجلّ فيهم «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم» إلى قوله «لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

التّفسير

تكرر هذه الآية تأكيد البارى عزّ وجلّ على نبيّه محمّد صلى الله عليه و آله فى أن يحكم بين أهل الكتاب طبقاً لأحكام اللَّه وأن لا يستسلم لأهوائهم ونزواتهم، فتقول: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۱

ثم تحذّر الآية النبى صلى الله عليه و آله من مؤامرة هؤلاء الذين أرادوا عدول النبى صلى الله عليه و آله عن شرعة الحق والعدل وطالبته بأن يراقب تحرّكاتهم، حيث تقول: «وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوکَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْکَ».

وأكّدت هذه الآية استمراراً لخطابها لنبى الخاتم محمّد صلى الله عليه و آله أنّ أهل الكتاب هؤلاء إن لم يذعنوا لحكمه العادل فإنّ

ذلک یکون دلالـهٔ علی أنّ ذنوبهم وآثامهم قـد طوّقتهم فحرمتهم من التوفیق، وأنّ اللَّه یرید أن یعاقبهم ویعذّبهم بسـبب بعض ذنوبهم، حیث تقول الآیۀ:

«فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ أَن یُصِیبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم».

وتشـیر الآیـهٔ فی النهایهٔ إلی أنّ إصـرار هؤلاء القوم من أهل الکتاب علی باطلهم یجب أن لا یکون باعثاً للقلق عند النبی لأنّ الکثیر من الناس منحرفون عن طریق الحق، أی أنّهم فاسقون، حیث تقول الآیۀ: «وَإِنَّ کَثِیرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ».

أمّا الآیۀ الاخری فتساءلت بصـیغهٔ اسـتفهام استنکاری: هل أنّ هؤلاء الذین یدّعون أنّهم أتباع الکتب السماویۀ یتوقّعون أن تحکم بینهم (الخطاب للنبی صلی الله علیه و آله) بأحکام الجاهلیۀ التی فیها أنواع التمایز المقیت؟ حیث تقول الآیۀ: «أَفَحُکْمَ الْجَاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ».

لکنّ أهل الإیمان لا یرون أیّ حکم أرفع وأفضل من حکم اللَّه، حیث تتابع الآیۀ قولها:

«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْمًا لِّقَوْمٍ یُوقِنُونَ».

وفی الکـافی عـن علی بن أبی طـالب علیه السـلام أنّه قـال: «الحکم حکمـان: حکم اللَّه، وحکم الجاهلیـۀ، فمن أخطأ حکم اللَّه حکم بحکم الجاهلیۀ».

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصَارَی أَوْلِیَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیَاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۵۱) فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسَارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشَی أَنْ تُصِیبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَی اللَّهُ أَنْ یَأْتِیَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَیُصْبِحُوا عَلَی مَا أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نَادِمِینَ (۵۲) وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا أَ هؤُلَاءِ الَّذِینَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَکُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِینَ (۵۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إختلف فی سبب نزوله، وإن کان حکمه عاماً لجمیع المؤمنین. قیل:

لما انهزم أهل بدر، قال المسلمون لأولیائهم من الیهود: آمنوا قبل أن یصیبکم اللَّه بیوم مثل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۲

یوم بـدر. فقال مالک بن ضـیف: أغرّکم أن أصـبتم رهطاً من قریش، لا علم لهم بالقتال، أما لو أمرونا العزیمهٔ أن نسـتجمع علیکم، لم یکن لکم یـدان بقتالنـا! فجاء عبادهٔ بن الصـامت الخزرجی إلی رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فقـال: یـا رسول اللَّه! إنّ لی أولیاء من الیهود کثیراً عددهم، قویهٔ أنفسهم، شدیدهٔ شوکتهم وإنّی أبرأ إلی اللَّه ورسوله من ولایتهم، ولا مولی لی إلّااللَّه ورسوله. فقال عبد اللَّه بن ابی: لکنی لا أبرأ من ولایهٔ الیهود لأنّی أخاف الدوائر ولابدّ لی منهم. فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «یا أبا الحباب! ما نفست به من ولایهٔ الیهود علی عبادهٔ بن الصامت، فهو لک دونه». قال: إذاً أقبل. وأنزل اللَّه الآیۀ.

التّفسیر

لقـد حـذّرت الآیـات الثلاث مورد البحث المسـلمین- بشـدّهٔ- من الـدخول فی أحلاف مع الیهود والنصاری، فالآیـهٔ الاولی منها تمنع المسـلمین من التحـالف مع الیهود والنصـاری أو الإعتمـاد علیهم (أی إنّ الإیمـان بـاللَّه یوجب عـدم التحالف مع هؤلاء إن کان ذلک لأغراض ومصالح مادیۀ) حیث تقول الآیۀ: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَالنَّصَارَی أَوْلِیَاءَ».

«أولیاء»: صـیغهٔ جمع من «ولی» وهی مشـتقهٔ من مصدر «الولایۀ» وهی بمعنی التقارب الوثیق بین شـیئین؛ لکن المراد هو منع المسـلمین من التحالف مع الیهود والنصاری أو الإعتماد علیهم فی مواجههٔ الأعداء.

بعـد ذلـک تبین الآیـهٔ سـبب هـذا النهی فی جملـهٔ قصـیرۀ، وتقول بـأنّ هـاتین الطائفتین إنّما هما أصـدقاء وحلفاء أشـباههما من الیهود والنصـاری حیث تقول: «بَعْضُهُمْ أَوْلِیَاءُ بَعْضٍ». أی إنّهمـا یهتّمـان بمصالحهمـا ومصالـح أصـدقائهما فقط، ولا یعیران اهتماماً لمصالح المسـلمین، ولذلک فإنّ أیّ مسـلم یقیم صداقهٔ أو حلفاً مع هؤلاء فإنّه سیصـبح من حیث التقسیم الاجتماعی والدینی جزءاً منهم، حیث

تؤكد الآية هذا المعنى بقولها: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

وبديهى أنّ اللّه لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانة بحق أنفسهم واخوانهم وأخواتهم المسلمين والمسلمات، ويعتمدون على أعداء الإسلام، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وتشير الآية التالية إلى الأعذار التى كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشرعية مع الغرباء، واعتمادهم عليهم وتحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۳

الوقوع فى مشاكل إن أصبحت القدرة يوماً فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» (۱).

ويذكّر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء، ذوى النفوس المريضة ردّاً على تعللهم فى التخلّى عن حلفهم مع الغرباء، فيبيّن لهم أنّهم حين يحتملون أن يمسك اليهود والنصارى يوماً بزمام القدرة والسلطة يجب أن يحتملوا- أيضاً- أن ينصر اللّه المسلمين فتقع القدرة بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمروه فى أنفسهم، كما تقول الآية: «فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

وتشير الآية فى الختام إلى مصير عمل المنافقين وتبيّن أنّه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين وتنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون- بدهشة-: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم اولئك الذين كانوا يتشدّقون بتلك الدعاوى ويحلفون بالأيمان المغلّظة بأنّهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحد؟ حيث تقول الآية: «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ».

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنّها لم تكن نابعة من نيّة خالصة صادقة، ولهذا فقد أصبحوا من الخاسرين- سواء فى هذه الدنيا أم الآخرة معاً- حيث تؤكد الآية هذا الأمر بقولها: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِم ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴) بعد الانتهاء من موضوع المنافقين، يأتى الكلام- فى هذه الآية الكريمة- عن المرتدين الذين تنبأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسلامى الحنيف، وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل انذاراً لجميع المسلمين، فأكّدت أنّ من يرتد عن دينه فهو لن يضر اللّه بارتداده هذا

---

(۱) «دائرة»: مشتقة من المصدر (دور) أى الشىء الذى يكون فى حالة دوران، وبما أنّ القدرات المادية والحكومات هى فى حالة دوران دائم على طول التّاريخ، لذلك يقال لها (دائرة) كما تطلق هذه الكلمة- أيضاً- على أحداث الحياة المختلفة التى تدور حول الأشخاص.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۴

أبداً، ولن يضر الدين ولا المجتمع الإسلامى أو تقدّمه السريع، لأنّ اللّه كفيل بإرسال من لديهم الإستعداد فى حماية هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَومٍ». ثم تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحمّلون مسؤولية الدفاع العظيمة، وتبيّنها على الوجه التالى:

۱- إنّهم يحبون اللّه ولا يفكّرون بغير رضاه، فاللّه يحبهم وهم يحبونه، كما تقول الآية:

«يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ».

۲ و ۳- يبدون التواضع والخضوع والرأفة أمام المؤمنين، بينما هم أشدّاء أقوياء أمام الأعداء الظالمين، حيث تقول الآية: «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ».

۴- إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد فى سبيل اللّه، إذ تقول الآية: «يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

۵- وآخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هى أنّهم لا يخافون لوم اللائمين فى طريقهم لتنفيذ أوامر اللّه والدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وتؤكد الآية- فى الختام- على أنّ إكتساب أو نيل مثل هذه الإمتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعى الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللّه الذى يهبه لمن يشاء ولمن يراه كفؤاً له من عباده، حيث تقول الآية فى هذا المجال: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ».

وفى النهاية تبيّن الآية أنّ مجال فضل اللّه وكرمه واسع، وهو يعرف الأكفّاء والمؤهلين من عباده، وكما تقول الآية: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (۵۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: بينا عبد اللّه بن عباس جالس على شفير زمزم، يقول قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا- يقول قال رسول اللّه، إلّاقال الرجل قال رسول اللّه، فقال ابن عباس: سألتك باللّه، من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيّها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا اعرفه بنفسى، أنا جندب بن جنادة البدرى، أبو ذر الغفارى، سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله بهاتين وإلّا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلّا

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۳۵

فعميتا، يقول: «علىّ قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

أمّا إنّى صلّيت مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهم اشهد أنّى سألت فى مسجد رسول اللّه فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان علىّ راكعاً فأوما بخنصره اليمنى إليه، وكان يختتم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول اللّه صلى الله عليه و آله. فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللّهمّ إنّ أخى موسى سألك فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى وَاجْعَلْ لِى وَزِيرًا مِن أَهْلِى هرُونَ أَخِى اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى». فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا». اللّهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك أللّهمّ فاشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واجعل لى وزيراً عليّاً أشدد به ظهرى».

قال أبو ذر: فو اللّه ما استتم رسول اللّه الكلمة، حتى نزل جبرائيل من عند اللّه فقال: يا محمّد إقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: إقرأ «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا» الآية.

التّفسير

ابتدأت هذه الآية بكلمة «إنّما» التى تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين فى ثلاث هم: اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله والذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأدّوا الزكاة وهم فى حالة الركوع فى الصّلاة كما تقول الآية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ».

إنّ المراد من كلمة «ولى» فى هذه الآية هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصة وقد جاءت مقترنةً مع ولاية النبى صلى الله عليه و آله وولاية اللّه حيث جاءت الولايات الثلاث فى جملة واحدة. وبهذه الصورة فإنّ الآية تعتبر نصّاً قرآنياً يدل على ولاية وإمامة على بن أبى طالب عليه السلام للمسلمين.

إنّ الكثير من الكتب الإسلامية ومصادر أهل السنة تشتمل على العديد من الروايات القائلة بنزول هذه الآية فى شأن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وقد ذكرت بعض هذه الروايات قضية تصدّق الإمام على عليه السلام بخاتمه على السائل وهو فى حالة الركوع، كما لم تذكر روايات اخرى مسألة التصدّق هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية فى حق على عليه السلام.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۶

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (۵۶) جاءت هذه الآية مكمّلة لمضمون الآية السابقة وهى تؤكد وتتابع الهدف المقصود فى تلك الآية وتعلن للمسلمين أنّ النصر سيكون حليف اولئك الذين يقبلون القيادة المتمثلة فى اللّه ورسوله والذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآية السابقة. وتصف الآية الذين قبلوا بهذه القيادة بأنّهم من حزب اللّه المنصورين دائماً، حيث تقول: «وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ».

وتشتمل هذه الآية- أيضاً- على قرينة اخرى تؤكد المعنى المذكور فى تفسير الآية السابقة لكلمة «الولاية» وهو الإشراف والتصرف والزعامة لأنّ عبارة «حزب اللّه» والتأكيد على أنّ الغلبة تكون لهذا الحزب- فى الآية- لهما صلة بالحكومة الإسلامية، ولا علاقة لهما بقضية الصدقة التى هى أمر بسيط وعادى وهذا يؤكد بنفسه أنّ الولاية- الواردة فى الآية- تعنى الإشراف والحكم والقيادة للمجتمع الاسلامى، لأنّ معنى الحزب يتضمن التنظيم والتضامن والإجتماع لتحقيق أهداف مشتركة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت الآية.

أمّا بخصوص سبب نزول الآية الثانية من هاتين الآيتين فقيل: إنّهم كانوا إذا أذّن المؤذن للصلاة، تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السُخْف والمجون «۱» تجهيلًا لأهلها، وتنفيراً للناس عنها، وعن الداعى إليها.

التّفسير

يحذّر القرآن فى الآية المؤمنين من اتّخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين والأعداء، إلّاأنّه

---

(۱) «السخف»: قلة العقل؛ «المجون»: الصلابة والغلظة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۷

لأجل استثارة عواطف المؤمنين واستقطاب انتباهم إلى فلسفة هذا الحكم خاطبهم بهذا الاسلوب، كما تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ».

ولتأكيد التحذير تقول الآية فى الختام: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». بمعنى أنّ التودد مع الأعداء والمنافقين لا- يتناسب والتقوى والإيمان أبداً.

و الآية الثانية تتابع البحث فى النهى عن التودد إلى المنافقين وجماعة من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزؤون بأحكام الإسلام، وتشير إلى إحدى ممارساتهم الإستهزائية دليلًا وشاهداً على هذا الأمر، فتقول: «وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا».

بعد ذلك تبين الآية الكريمة دوافع هذا الإستهزاء، فتذكر أنّ هذه الجماعة إنّما تفعل ذلك لجهلها وابتعادها عن الحقائق، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْقِلُونَ».

ورد فى روايات أهل البيت عليهم السلام من أنّ الأذان نزل وحياً على النبى صلى الله عليه و آله.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (۶۰)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى (وفى المجمع أيضاً) قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود- فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع- إلى النبى صلى الله عليه و آله فسألوه عمن يؤمن به الرسل عليهم السلام؛ فقال: نؤمن باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل إلى قوله «و نحن له مسلمون». فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته وقالوا: واللّه ما نعلم أهل دين أقل حظّاً فى الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم؛ فنزلت هذه الآية وما بعدها.

التّفسير

فى هذه الآية يأمر اللّه نبيّه صلى الله عليه و آله أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم وانتقادهم للمسلمين، وهل أنّ الإيمان باللّه الواحد الأحد والإعتقاد بما أنزل على نبى الخاتم والأنبياء الذين سبقوه يجابه بالإعتراض والإنتقاد، حيث تقول الآية: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٨

تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ» «١». وتأتى فى آخر الآية عبارة تبين علة الجملة السابقة، حيث تبين أنّ اعتراض اليهود وانتقادهم للمسلمين الذين آمنوا باللّه وبكتبه، ما هو إلّالأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب، ولذلك فهم- لإنحرافهم وتلوّثهم بالآثام- يعيبون على كل انسان شريف اتباعه للصواب وسيره فى طريق الحق حيث تؤكد الآية: «وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ».

فتخاطب الآية النّبى بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرّف على أناس لهم عند اللّه أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ» «٢».

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ اولئك الذين شملتهم لعنة اللّه فمسخهم قروداً وخنازير، والذين يعبدون الطاغوت والأصنام، إنّما يعيشون فى هذه الدنيا وفى الآخرة وضعاً أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيراً عن طريق الحق وعن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة: «مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءَ السَّبِيلِ» «٣».

وَ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)

---

(١) «تنقمون»: مشتقة من المصدر «نقمة» وتعنى فى الأصل إنكار شىء معيّن نطقاً أو فعلًا كما تأتى بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

(٢) إنّ كلمة «مثوبة» وكذلك كلمة «ثواب»: تعنيان- فى الأصل- الرجوع أو العودة إلى الحالة الاولى كما تطلقان- أيضاً- لتعنيا المصير والجزاء (الأجر أو العقاب) لكنّهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن، وأحياناً تستخدم كلمة «الثواب» بمعنى العقاب وفى الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

(٣) «سواء»: تعنى فى اللغة (المساواة والإعتدال والتساوى) وأنّ وجه تسمية الصراط المستقيم فى الآية ب «سواء السبيل» لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية ولأنّ طرفيه متساويان وممهّدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقة تتسم بالإعتدال وتخلو من الانحراف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٩

الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث- واستكمالًا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة حول المنافقين- تكشف عن ظاهرة الإزدواجية

النفاقية عند هؤلاء، وتنبّه المسلمين إلى أنّ المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان وقلبهم يغمره الكفر، ويخرجون من عندهم المسلمين ولا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين واستدلالهم وكلامهم فى نفوس هؤلاء المنافقين أىّ أثر يذكر، تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ».

ثم تبيّن الآية الاخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشير إلى أنّ كثيراً من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصيان والظلم وأكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: «وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ». أى إنّ هؤلاء يسرعون الخطى فى طريق المعاصى والظلم، وكأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر والمجد، ويتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

فى الختام لكى يؤكد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

بعد ذلك تحمل الآية الثالثة على علمائهم الذين أيّدوا قومهم على إرتكاب المعاصى بسكوتهم، فتقول: «لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ».

وفى الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذى إتّبعه مع أهل المعاصى الحقيقيين، فيذمّ العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويقبّح صمتهم هذا، كما تقول الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وهكذا تبيّن أنّ مصير الذين يتخلّون عن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر العظيمة- وخاصة إن كانوا من العلماء- يكون كمصير أصحاب المعاصى، وهؤلاء شركاء فى الذنب مع العاصين.

فى تفسير المنار روى عن ابن عباس أنّه قال: ما فى القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية أى فهى حجة على العلماء إذا قصروا فى الهداية والارشاد وتركوا النهى عن البغى والفساد.

وبديهى أنّ هذا الحكم لا ينحصر فى علماء اليهود والنصارى، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا وصمتوا أمام تلوّث مجتمعاتهم بالذنوب وتسابق الناس فى الظلم والفساد، ذلك لأنّ حكم اللّه واحد بالنسبة لجميع البشر.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۴۰

مختصر الامثل ج۱ ۵۷۴

فى الكافى: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: «أمّا بعد فإنّه إنّما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصى ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك وإنّهم لمّا تمادوا فى المعاصى ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر».

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۶۴) تبرز هذه الآية واحداً من المصاديق الواضحة للأقوال الباطلة التى كان اليهود يتفوّهون بها، وقد تطرّقت الآية السابقة إليها- أيضاً- ولكن على نحو كلى.

ويتحدّث لنا التّأريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروة السلطة والقدرة، وكانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، ويمكن الإستشهاد بحكم سليمان وداود كمثال على حكم الدولة اليهودية، وقد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقىّ وانحطاط حتى ظهر الإسلام، فكان ايذاناً بأفول الدولة اليهودية، وبالأخص فى الحجاز، إذ أدّى قتال النبى صلى الله عليه و آله ليهود بنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية.

وفى ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكّرون سلطتهم القوية السابقة، كانوا يقولون- استهزاء وسخرية- إنّ يد اللّه أصبحت مقيدة بالسلاسل (والعياذ باللّه) وأنّه لم يعد يعطف على اليهود!

وبما أنّ سائر أبناء الطائفة اليهودية أظهروا الرضى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ».

واللَّه تعالى يرد على هؤلاء توبيخاً وذمّاً لهم ولمعتقدهم هذا بقوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا». ثم لكى يبطل هذه العقيدة الفاسدة يقول سبحانه وتعالى «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۱

يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ». فلا إجبار فى عمل اللَّه كما أنّه ليس محكوماً بالجبر الطبيعى ولا الجبر التأريخى، بل إنّ إرادته فوق كل شىء وتعمل فى كل شىء.

ثم تشير الآية إلى أنّ آيات اللَّه التى تفضح أقوال ومعتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم وعنادهم ويتمادون فى طغيانهم وكفرهم بدلًا من تأثيرها الإيجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطىء حيث تقول الآية الكريمة: «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ صلف هؤلاء وطغيانهم وكفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من اللَّه عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشّى العداء والحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ».

وتشير الآية- فى الختام- إلى المساعى والجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، وعناية اللَّه ولطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول:

«كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ».

وتعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النبى الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز والأعرف بمسائل الحرب.

ثم تبيّن الآية- أيضاً- أنّ هؤلاء لا يكفّون عن نثر بذور الفتنة والفساد فى الأرض فتقول: «وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» وتؤكد أيضاً قائلة: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (۶۶) بعد أن وجّهت الآيات السابقة النقد لنهج واسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقاً لما تقتضيه مبادىء التربية الإنسانية لتفتحا باب العودة والتوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكى يعودوا إلى الطريق القويم، ولتريهم الدرب الحقيقى الذى يجب أن يسيروا فيه، ولتثمّن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التى عاشت فى ذلك العصر لكنها لم تواكب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۲

الأكثرية فى أخطائها، فتقول الآية الاولى فى البدء: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّاتِهِمْ». بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنة ونعيمها، إذ قالت: «وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» وهذه إشارة إلى النعم المعنوية الأخروية.

ثم تشير الآية الثانية إلى الأثر العميق الذى يتركه الإيمان والتقوى، فى الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبّقوا التوراة والإنجيل وجعلوهما منهاجاً لحياتهم وعملوا بكل ما نزل عليهم من ربّهم، سواء فى الكتب السماوية السابقة أم فى القرآن، دون تمييز أو تطرّف لغمرتهم النعم الإلهية من السماء والأرض، فتقول الآية: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم».

وبديهى أنّ المراد من إقامة التوراة والإنجيل هو إتّباعهم لما بقى من التوراة والإنجيل الحقيقيين فى أيديهم فى ذلك العصر.

إنّ الآية الأخيرة تؤكد مرّة اخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأنّ اتّباع التعاليم السماوية التى جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة

التی تأتی بعد الموت فحسب، بل إنّ لها- أیضاً- انعکاسات واسعة علی الحیاة الدنیویة المادیة للإنسان، فهی تقوّی الجماعات وتعزز صفوفها وتکثّف طاقاتها، وتغدق علیها النعیم وتضاعف امکانیاتها وتضمن لها الحیاة السعیدة المقترنة بالأمن والإستقرار.

ولو ألقینا نظرة علی الثروات الطائلة والطاقات البشریة الهائلة التی تهدر الیوم فی عالم الإنسان نتیجة للانحراف عن هذه التعالیم، فی صنع وتکدیس أسلحة فتّاکة، وفی صراعات لا مبرر لها ومساع هدّامة، لرأینا أنّ ذلک کله دلیل حیّ علی هذه الحقیقة، حیث إنّ الثروات التی تستخدم لإشاعة الدمار فی هذا العالم- إذا أمعنا النظر جیداً- إن لم تکن أکثر حجماً من الثروات التی تنفق فی سبیل البناء، فهی لیست بأقل منها.

إنّ العقول المفکّرة التی تسعی وتعمل جاهدة- الیوم- لإکمال وتوسیع انتاج الأسلحة الحربیة، ولتوسیع بقعة النزاعات الاستعماریة، إنّما تشکّل جزءاً مهمّاً من الطاقات البشریة الخلّاقة التی طالما احتاجها المجتمع البشری لرفع احتیاجاته، وکم سیصبح وجه الدنیا جمیلًا وجذّاباً لو کانت کل هذه الطاقات تستغل فی سبیل الإعمار؟

وفی الختام تشیر الآیة الکریمة إلی الأقلیة الصالحة من أهل الکتاب الذین اختاروا طریق الإعتدال فی حیاتهم خلافاً لنهج الأغلبیة المنحرفة، فعزل اللَّه حسابهم عن حساب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۳

هذه الأکثریة الضالة، حیث تقول الآیة: «مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَکَثِیرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا یَعْمَلُونَ».

یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ

(۶۷) اختیار الخلیفة مرحلة إنتهاء الرسالة: هذه الآیة تتوجّه بالخطاب إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وحده وتبیّن له واجبه، فهی تبدأ بمخاطبة الرّسول: «یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ» وتأمره بکل جلاء ووضوح أن «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَیْکَ مِن رَّبِّکَ».

ثم لکی یکون التوکید أشد وأقوی، تحذّره وتقول: «وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ».

ثم تُطمئن الآیة الرسول صلی الله علیه و آله- وکأنّ أمراً یقلقه- وتطلب منه أن یهدیء من روعه وأن لا یخشی الناس، فیقول له: «وَاللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ».

وفی ختام الآیة إنذار وتهدید بمعاقبة الذین ینکرون هذه الرسالة الخاصة ویکفرون بها عناداً، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ».

أسلوب هذه الآیة، ولحنها الخاص، یدل علی أنّ الکلام یدور حول أمر مهم جدّاً بحیث إنّ عدم تبلیغه یعتبر عدم تبلیغ للرسالة کلها.

فما هذه المسألة المهمة التی برزت فی الشهور الأخیرة من حیاة الرسول صلی الله علیه و آله بحیث تنزل هذه الآیة وفیها کل ذلک التوکید؟

لیس ثمّة شک أنّ قلق الرسول صلی الله علیه و آله لم یکن لخوف علی شخصه وحیاته، وإنّما کان لما یحتمله من مخالفات المنافقین وقیامهم بوضع العراقیل فی طریق المسلمین.

هل هناک مسألة تستطیع أن تحمل کل هذه الصفات غیر مسألة استخلاف النبی صلی الله علیه و آله وتعیین مصیر مستقبل الإسلام؟!

فی مختلف الکتب التی کتبها علماء من أهل السنة فی التفسیر والحدیث والتأریخ، أوردوا فیها روایات کثیرة تقول جمیعها بصراحة: إنّ الآیة المذکورة قد نزلت فی علی علیه السلام.

حادثة الغدیر بایجاز: إنّه فی السنة الأخیرة من حیاة النبی صلی الله علیه و آله أدّی المسلمون مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حجّة الوداع فی عظمة وجلال.

لم یکن أهل المدینة وحدهم قد رافقوا النبی صلی الله علیه و آله فی هذه الحجة، بل إلتحق برکبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزیرة العربیة لینالوا شرف الصحبة فی هذه الحجة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۴

كـانت الشـمس ترسل أشـعّتها اللافحـة المحرقـة على الوديان والسـهول لكن لـذّة هـذا السـفر الروحى يسّـرت كل شـىء. اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفـة، وظهرت من بعيـد أرض «غـدير خم» القاحلة الجافة المحرقة. كان يوم الخميس من السـنة العاشـرة للهجرة، وقـد مضت ثمانية أيّام على عيد الأضـحى، وإذا برسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يصدّر أمره للحجيج بالتوقف، وصـعد مؤذن النبى صـلى الله عليه و آله ينادى فى الناس لصـلاة الظهر، وأخذ الناس يسـتعدّون- مسرعين- لأداء الصلاة، كانت الرياح لافحة محرقة، حتى اضـطر بعضـهم إلى أن يضع قسـماً من عباءته تحت قدميه وقسـماً منها فوق رأسه كى يتّقى حرارة الحصـى وأشـعة الشمس.

إنتهت صـلاة الظهر وهرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصـغيرة التى كانوا يحملونها معهم ليلوذون بها من حر الهاجرة، إلّاأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدّوا لسماع رسالة إلهيّة جديدة فى خطبته، وكان الذين يقفون على مسافة من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا يستطيعون رؤيته، لذلك صنعوا له منبراً من أهداج الإبل ارتقاه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال:

«الحمد للَّهونسـتعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا الذى لا هادى لمن ضلّ ولا مضلّ لمن هدى وأشـهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أمّا بعد: أيّها الناس قد نبّأنى اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبىّ إلّامثل نصف عمر الذى قبله، وإنّى أوشك أن ادعى فأجيب، وإنّى مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك اللَّه خيراً.

قال: «ألسـتم تشـهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأنّ جنّته حق وناره حق وأنّ الموت حق وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ اللَّه يبعث من فى القبور؟»

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: «اللّهم اشهد». ثم قال: «أيّها الناس ألا تسمعون؟» قالوا: نعم.

ثم ساد الجوّ صمت عميق ولم يُسمع فيه سوى أزيز الرياح ... قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«... فانظروا كيف تخلفونى فى الثقلين».

قالوا: وما هذان الثقلان يا رسول اللَّه؟

قال: «أمّا الثقل الأكبر فكتاب اللَّه عزّ وجلّ سبب ممـدود من اللَّه ومنى فى أيـديكم، طرفه بيـد اللَّه والطرف الآخر بأيـديكم فيه علم ما مضى وما بقى إلى أن تقوم الساعة، وأمّا الثقل الأصغر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۴۵

فهو حليف القرآن وهو على بن أبى طالب وعترته عليهم السلام وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم أخذ بيد أمير المؤمنين- صـلوات اللَّه عليه- فرفعها حتى بدا للناس بياض إبطيهما ثم قال: «أيّها الناس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: اللَّه ورسوله أعلم.

قـال: «إنّ اللَّه عزّ وجـلّ مولاى وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسـهم فمن كنت مولاه فعلىّ مولاه». (يقولها ثلاث مرات) وفى لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: (أربع مرات). ثم قال:

«اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبّه وأبغض من أبغضه وانصـر من نصـره واخـذل من خـذله وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم لم يتفرّقوا حتى نزل أمين وحى اللَّه بقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» الآية. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اللَّه أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتى والولاية لعلىّ من بعدى».

ثم طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين عليه السلام وممّن هنّأه أبوبكر وعمر كل يقول: بخّ بخّ لك يابن أبى طالب، أصبحت وأمسيت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَ كُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۶۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبى عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: ألست تقرّ بأنّ التّوراة من عند اللّه؟ قال: «بلى». قالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها (وفى الحقيقة فإنّ التوراة تعتبر القدر المشترك بيننا وبينكم، ولكن القرآن كتاب مختص بكم). فنزلت الآية الاولى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۶

التّفسير

هذه الآية تشير إلى جانب آخر من ذلك العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تردّ فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التوراة كتاباً متفقاً عليه بين المسلمين واليهود، وترك القرآن باعتباره موضع خلاف. لذلك فالآية تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ». وذلك لأنّ هذه الكتب صادرة عن مبدأ واحد وأصولها واحدة.

ويعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة والعظة من هذه الآيات ولا يهتدون بها، بل إنّهم- لما فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم وكفرهم «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

وفى ختام الآية يخفف اللّه من حزن رسوله صلى الله عليه و آله إزاء تصلّب هذه الأكثرية من المنحرفين وعنادهم فيقول له: «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود- طبعاً- فالمسلمون أيضاً إذا اكتفوا بادّعاء الإسلام ولم يقيموا تعاليم الأنبياء، وخاصة ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزلة ومكانة لا عند اللّه، ولا فى حياتهم الفردية والاجتماعية.

الآية التالية تعود لتقرّر مرّة اخرى هذه الحقيقة، وتؤكد أنّ جميع الأقوام وأتباع كل المذاهب دون إستثناء، مسلمين كانوا أم يهوداً أم صابئين أم مسيحيين، لا منقذ لهم من الخوف من المستقبل والحزن على ما فاتهم إلّاإذا آمنوا باللّه وبيوم الحساب وعملوا صالحاً: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». «۱»

هذه الآية ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة فى ظل قومية معينة، ويفضّلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، ويتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومى، فتقول الآية إنّ طريق الخلاص ينحصر فى نبذ هذه الأقوال.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۷۱)

---

(۱) «الصابئون»: هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۷

فى آيات سابقة من سورة البقرة، وفى أوائل هذه السورة أيضاً إشارة إلى عهد وميثاق أخذه اللّه تعالى على بنى إسرائيل وفى هذه الآية تذكير بهذا الميثاق: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا».

ثم يضـاف إلى ذلـك القول بـأنّهم، فضـلًا عن كونهم لم يعملوا بـذاك الميثاق: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُـهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ».

هذه هى طرائق المنحرفين الأنانيين وسبلهم، فهم بدلًا من إتّباع قادتهم، يصرّون على أن يكون القادة هم التابعين لأهوائهم.

فى الآية التالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان وجرائم: «وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ». أى ظنّوا مع ذلك أنّ البلاء والجزاء لن ينزل بهم، واعتقدوا- كما صرحت الآيات الاخرى- أنّهم من جنس أرقى، وأنّهم أبناء اللّه!

وأخيراً إستحال هذا الغرور الخطير والتكبر إلى ما يشبه حجاباً غطّى أعينهم وآذانهم:

«فَعَمُوا وَصَمُّوا» عن رؤية آيات اللّه وعن سماع كلمات الحقّ.

ولكنهم عنـدما أصابتهم مظاهر من عقاب اللّه وشاهـدوا نتائـج أعمالهم المشؤومة، ندموا وتابوا بعد أن أدركوا أنّ وعد اللّه حق، وأنّهم ليسوا عنصراً متميزاً فائقاً.

وتقبل اللّه توبتهم: «ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

إلّا أنّ حالـة النـدم والتوبـة لم تلبث طويلًا، فسرعان ما عاد الطغيان والتجبّر وسـحق الحق والعدالـة، وعادت أغشـية الغفلـة الناتجـة عن الإنغمـاس فى الإـثم تحجب أعينهم وآذانهم مرّة اخرى «ثُمَّ عَمُوا وَصَـمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ» فلم يعودوا يرون الآيات أو يسـمعوا كلمـة الحق، وعمّت الحالة الكثير منهم.

فى نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إنّ اللّه لا يغفل أبداً عن أعمالهم، إذ أنّه يرى كل ما يعملون: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

لَقَدْ كَفرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۸

تعقيبـاً على البحوث الماضيـة بشـأن انحرافـات اليهود التى مرّت فى الآيـات السابقـة، تتحدّث هـذه الآيـات والتى تليهـا عن انحرافـات المسيحيين، فتبدأ أوّلًا بأهم تلك الانحرافات، أى «تأليه المسيح» و «تثليث المعبود»: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ».

وأىّ كفر أشـدّ من أن يجعلـوا اللّه اللامحـدود من جميع الجهـات متحـداً مع مخلوق محـدود من جميع الجهـات، وأن يصـفوا الخـالق بصـفات المخلوق، مع أنّ المسيـح عليه السلام نفسه يعلن صراحة لبنى إسرائيل: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ» وبهذا يستنكر كل لون من ألوان الشرك، ويرفض الغلوّ فى شخصه ويعتبر نفسه مخلوقاً كسائر مخلوقات اللّه.

ولكى يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، وليزيل كل إبهام وخطأ، يضيف قائلًا:

«إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَيهُ النَّارُ».

ويمضى فى التوكيد وإثبات أنّ الشرك والغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضاً:

«وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ».

فإنّ ما ورد فى الآية المذكورة عن إصـرار المسـيح عليه السلام على مسألة التوحيد إنّما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجودة ويعتبر من دلائل عظمة القرآن.

وينبغى الإلتفـات إلى أنّ الموضوع الـذى تتناوله الآيـة هو الغلو ووحـدة المسـيح باللّه، أو بعبارة اخرى هو «التوحيـد فى التثليث» ولكن الآية التالية تشـير إلى مسألة «تعدد الآلهة» فى نظر المسـيحيين، أى «التثليث فى التوحيد» وتقول: إنّ الذين قالوا إنّ اللّه ثالث الأقانيم «۱» الثلاثة لا ريب أنّهم كافرون: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَثَةٍ».

ويردّ القرآن عليهم ردّاً قاطعاً فيقول: «وَمَا مِن إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ».

وفی ذکر «من» قبل «إله» نفی أقوی لأیّ‌معبود آخر.

ثم ینذرهم بلهجة قاطعة: «وَإِنْ لَّمْ یَنتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

فی الآیـة الثالثـة یـدعوهم القرآن إلی أن یتوبـوا عـن هـذه العقیـدة الکـافرة لکی یغفر لهـم اللَّه تعـالی، فیقـول: «أَفَلَا یَتُوبُونَ إِلَی اللَّهِ وَیَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

---

(۱) «الأقنوم»: بمعنی الأصل والذات، جمعها «أقانیم».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۹

مَا الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّیقَةٌ کَانَا یَأْکُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ کَیْفَ نُبَیِّنُ لَهُمُ الْآیَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّی یُؤْفَکُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا یَمْلِکُ لَکُمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۷۶) قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لَا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِیلِ (۷۷) تواصل هذه الآیات البحث الذی جاء فی الآیات السابقـة حول غلو المسیحیین فی المسیح علیه السلام واعتقادهم بألوهیته، فتفنّد فی بضع آیات قصار اعتقادهم هـذا، وتبدأ متسائلة عمّا وجدوه فی المسیح من اختلاف عن باقی الأنبیاء حتی راحوا یؤلّهونه، فالمسیح ابن مریم قد بعثه اللَّه کما بعث سائر الأنبیاء من قبله: «مَّا الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ».

إذا کان بعثه من قبل اللَّه سبباً للتألیه والشرک، فلماذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبیاء؟

ولمزیـد من التوکیـد یقول: «وَأُمُّهُ صِدّیقَةٌ». أی إنّ من تکون له ام حملته فی رحمهـا، ومن یکون محتاجاً إلی کثیر من الامور، کیف یمکن أن یکون إلهاً؟! ثم إذا کانت امه صدیقـة فذلک لأنّها هی أیضاً علی خط رسالة المسیح علیه السلام منسجمة معه وتدافع عن رسالته، لهـذا فقـد کان عبداً من عباد اللَّه المقربین، فینبغی ألّا یتخذ معبوداً کما هو السائد بین المسیحیین الذین یخضعون أمام تمثاله إلی حد العبادة.

ومرّة اخری یشیر القرآن إلی دلیل آخر ینفی الربوبیة عن المسیح علیه السلام فیقول: «کَانَا یَأْکُلَانِ الطَّعَامَ».

وفی ختام الآیة إشارة: إلی وضوح هذه الدلائل من جهة، وإلی عناد اولئک وجهلهم من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۰

جهة اخری، فیقول: «انظُرْ کَیْفَ نُبَیِّنُ لَهُمُ الْأَیَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّی یُؤْفَکُونَ» «۱». ولکی یکمل الاستدلال السابق تستنکر الآیة التالیة عبادتهم المسیح مع أنّهم یعلمون أنّ له احتیاجات بشریة، وإنّه لا قدرة له علی دفع الضـرر عن نفسه أو نفعها، فکیف یتسنی له دفع الضرر عن الغیر أو نفعهم؟ «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَایَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا».

وفی النهایة یحذّرهم من أن یظنّوا أنّ اللَّه لا یسمع ما یتقوّلونه أو لا یعلم ما یکنونه:

«وَاللَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ».

الآیـة التالیـة تأمر رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله- بعـد اتضاح خطأ أهل الکتاب فی الغلو- أن یـدعوهم بالأدلة الجلیة إلی الرجوع عن السیر فی هذا الطریق: «قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لَاتَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقّ» «۲».

إنّ غلو النصـاری معروف، إلّاأنّ غلو الیهود، الـذی یشـملهم تعبیر «یَا أَهْلَ الْکِتَابِ» قـد یکون إشارة إلی ما کانوا یقولونه عن عُزیر وقد اعتبروه ابن اللَّه، ولمّـا کـان الغلو ینشأ- أکثر مـا ینشأ- عن إتّباع الضالین أهواءهم، لـذلک یقول اللَّه سـبحانه «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا کَثِیرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِیلِ».

وفی هذا إشارة أیضاً إلی ما انعکس فی التأریخ المسیحی، إذ أنّ موضوع التثلیث والغلو فی أمر المسیح علیه السلام لم یکن له وجود خلال القرون الاولی من المسیحیة، ولکن عنـدما اعتنق بعض الهنود وأمثالهم من عبدة الأصـنام المسیحیة أدخلوا فیها شـیئاً من دینهم

السابق كالتثليث والشرك.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرَائِيلَ عَلَی لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَی ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (۷۸) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۷۹) تَرَی كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِی الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (۸۰)

---

(۱) «الإفک»: کل مصروف عن وجهه الذی یحق أن یکون علیه، و «المأفوک»: المصروف عن الحقّ، وإن کان عن تقصیره، ومن هنا یسمّی إفکاً، لأنه یصد الإنسان عن الحقّ.

(۲) «تغلو»: من مادة «الغلو» وهی بمعنی تجاوز الحدّ، إلّاأنّها تستعمل للإشارة إلی تجاوز الحدّ بالنسبة لمقام شخص من الأشخاص ومنزلته.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۱

تشیر هذه الآیات إلی المصیر المشؤوم الذی انتهی إلیه الکافرون السابقون، لکی یعتبر به أهل الکتاب فلا یتّبعونهم إتّباعاً أعمی، فیقول: «لُعِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِن بَنِی إِسْرَاءِیلَ عَلَی لِسَانِ دَاوُودَ وَعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ».

فالآیة تشیر إلی أنّ مجرد کون الإنسان من بنی إسرائیل، أو من أتباع المسیح دون أن ینسجم مع خط سیرهما، لا یکون مدعاة لنجاته، بل إنّ هذین النبیین قد لعنا من کان علی هذه الشاکلة من الناس.

وفی آخر الآیة توکید لهذا الأمر وبیان للسبب: «ذلِکَ بِمَا عَصَوا وَّکَانُوا یَعْتَدُونَ».

و تتحرک الآیة التالیة من موقع الذم ولتقریع لتؤکّد أنّ هؤلاء لم یعترفوا أبداً بأنّ علیهم مسؤولیة اجتماعیة، ولم یکونوا یتناهون عن المنکر، بل إنّ بعضاً من صلحائهم کانوا بسکوتهم وممالاتهم یشجّعون العصاة عملیاً «کَانُوا لَایَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنکَرٍ فَعَلُوهُ» لذلک فقد کانت أعمالهم سیئة وقبیحة: «لَبِئْسَ مَا کَانُوا یَفْعَلُونَ».

فی تفسیر العیاشی عن الإمام الصّادق علیه السلام فی قوله: «کَانُوا لَایَتَنَاهَوْنَ عَن مُنکَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا کَانُوا یَفْعَلُونَ» قال: «أمّا أنّهم لم یکونوا یدخلون مداخلهم ولا یجلسون مجالسهم ولکن کانوا إذا لقوهم ضحکوا فی وجوههم وآنسوا بهم».

الآیة الثالثة تشیر إلی معصیة اخری من معاصیهم: «تَرَی کَثِیرًا مِّنْهُمْ یَتَوَلَّوْنَ الَّذِینَ کَفَرُوا».

من البدیهی أنّ صداقتهم لأولئک لم تکن صداقة عادیة، بل کانت ممتزجة بأنواع المعاصی، وکانوا یشجّعون الأعمال والأفکار الخاطئة، لذلک أدانت الآیة فی عباراتها الأخیرة الأعمال التی قدّموها لیوم المعاد، تلک الأعمال التی استوجبت غضب اللَّه وعذابه الدائم: «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَفِی الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ». وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (۸۱) هذه الآیة تبیّن لهم طریق النجاة من نهجهم الخاطیء، وهو أنّهم لو کانوا حقاً یؤمنون

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۲

باللَّه وبرسوله وبما أنزل علیه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء اللَّه ولا اعتمدوا علیهم أبداً: «وَلَوْ کَانُوا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِیّ وَمَا أُنزِلَ إِلَیْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِیَاءَ».

ولکن الذی یؤسف له هو أنّ الذین یطیعون أوامر اللَّه قلّة، ومعظمهم خارجون عن نطاق إطاعته وسائرون علی طریق الفسق «وَلکِنَّ کَثِیرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ».

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَی ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَی الرَّسُولِ تَرَی أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۸۳) وَ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (۸۴) فَأَثَابَهُمُ

اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا وَ ذلِکَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِینَ (۸۵) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا أُولئِکَ أَصْحَابُ الْجَحِیم (۸۶)

سبب النّزول

المهاجرون الاوَل فی الإسلام: نزلت فی النجاشی، وأصحابه. قال المفسرون: ائتمرت قریش أن یفتنوا المؤمنین عن دینهم، فوثبت کل قبیلهٔ علی من فیها من المسلمین، یؤذونهم ویعذّبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم اللَّه منهم من شاء ومنع اللَّه رسوله بعمه أبی طالب. فلما رأی رسول اللَّه ما بأصحابه، ولم یقدر علی منعهم، ولم یؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلی أرض الحبشهٔ، وقال: «إنّ بها ملکاً صالحاً، لا یظلم ولا یُظلم عنده أحد، فاخرجوا إلیه حتی یجعل اللَّه عزّ وجلّ للمسلمین فرجاً». وأراد به النجاشی، واسمه أصحمهٔ وهو بالحبشیهٔ عطیهٔ.

فخرج إلیها سرّاً أحد عشر رجلًا، وأربع نسوهٔ ... وذلک فی رجب، فی السنهٔ الخامس من مبعث رسول اللَّه وهذه هی الهجرهٔ الاولی.

ثم خرج جعفر بن أبی طالب، وتتابع المسلمون إلیها، وکان جمیع من هاجر إلی الحبشهٔ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۳

من المسلمین ۸۲ رجلًا سوی النساء والصبیان، فلما علمت قریش بذلک، وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه عمارهٔ بن الولید بالهدایا، إلی النجاشی وإلی بطارقته لیردّوهم إلیهم.

فلما رکبوا السفینهٔ شربوا الخمر ... وألقی اللَّه بینهما العداوهٔ فی مسیرهما، قبل أن یقدما إلی النجاشی.

ثم وردا علی النجاشی فقال عمرو بن العاص: أیّها الملک! إنّ قوماً خالفونا فی دیننا وسبّوا آلهتنا، وصاروا إلیک فردّهم إلینا. ثم قدّما ما حملاه من هدایا إلی النجاشی.

فبعث النجاشی إلی جعفر، فجاءه، فقال: یا أیّها الملک سلهم، أنحن عبید لهم؟

فقال: لا بل أحرار.

قال: فسلهم ألهم علینا دیون یطالبوننا بها؟

قال: لا، ما لنا علیکم دیون.

قال: فلکم فی أعناقنا دماء تطالبونا بها؟

قال عمرو: لا.

قال: فما تریدون منّا؟ آذیتمونا فخرجنا من دیارکم. ثم قال: أیّها الملک! بعث اللَّه فینا نبیّاً أمرنا بخلع الأنداد وترک الإستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاهٔ والزکاهٔ والعدل والإحسان وإیتاء ذیالقربی، ونهانا عن الفحشاء والمنکر والبغی.

فقال النجاشی: بهذا بعث اللَّه عیسی، ثم قال النجاشی لجعفر: هل تحفظ مما أنزل اللَّه علی نبیّک شیئاً؟ قال: نعم، فقرأ سورهٔ مریم، فلمّا بلغ قوله: «وَهُزِّی إِلَیْکَ بِجِذْعِ النَّخْلَهِٔ تُسَاقِطْ عَلَیْکِ رُطَبًا جَنِیًّا». قال: هذا واللَّه هو الحق! فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلینا.

فرفع النجاشی یده وضرب بها وجه عمرو وقال: اسکت، واللَّه لئن ذکرته بعد بسوء لأفعلنّ بک. وقال: أرجعوا إلی هذا هدیته، وقال لجعفر وأصحابه: امکثوا فإنّکم سیوم، والسیوم: آمنون، وأمر لهم بما یصلحهم من الرزق، فانصرف عمرو وأقام المسلمون هناک بخیر دار، وأحسن جوار إلی أن هاجر رسول اللَّه وعلاـ أمره وهادن قریشاً، وفتح خیبر، فوافی جعفر إلی رسول اللَّه بجمیع من کانوا معه، فقال رسول اللَّه: «لا أدری أنا بفتح خیبر أسرّ أم بقدوم جعفر».

ووافی جعفر وأصحابه رسول اللَّه فی سبعین رجلًا، منهم إثنان وستون من الحبشهٔ وثمانیهٔ من أهل الشام، فیهم بحیراء الراهب، فقرأ علیهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سورهٔ «یس» إلی آخرها

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۴

فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات.

التّفسير

حقد اليهود ومودّة النصارى: تقارن هذه الآيات بين اليهود والنصارى الذين عاصروا رسول اللّه صلى الله عليه و آله. وضعت الآية الاولى اليهود والمشركين فى طرف واحد، والمسيحيين فى طرف آخر: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

يشهد تاريخ الإسلام بجلاء على هذه الحقيقة، ففى كثير من الحروب التى أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكنّنا قلّما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين فى غزواتهم.

ثم يعزوا القرآن هذا الاختلاف فى السلوك الفردى والاجتماعى إلى وجود خصائص فى المسيحيين المعاصرين لرسول اللّه صلى الله عليه و آله لم تكن موجودة فى اليهود:

فأوّلًا كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا- كما فعل علماء اليهود- إلى إخفاء الحقائق «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ» «۱».

ثم كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، وهى النقطة المناقضة لما كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

وعلى الرغم من كل انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود:

«وَرُهْبَانًا».

وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبروا، فى حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذى لم يأت على يد عنصر يهودى: «وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ».

ثم إنّ نفراً منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحق إذا سمعوه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقّ».

---

(۱) «القسيس»: تعريب لكلمة سريانية تعنى الزعيم والموجّه الدينى عند المسيحيين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۵

فكانوا ينادون بكل صراحة وشجاعة، و «يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ».

لقد كان تأثّرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث إنّهم كانوا يقولون: «وَمَا لَنَا لَانُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ».

الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين وإلى عقابهما وثوابهما، اولئك الذين أظهروا المودة للمؤمنين وخضعوا لآيات اللّه وأظهروا إيمانهم بكل شجاعة وصراحة:

«فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» «۱».

وأمّا اولئك الذين ساروا فى طريق العداء والعناد فتقول الآية عنهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

سبب النّزول

لا تتجاوزوا الحدود: فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نزلت هذه الآية فى أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان

بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً وأمّا بلال فإنّه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً وأمّا عثمان بن مظعون فإنّه حلف أن لا ينكح أبداً فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة ما لى أراك معطلة فقالت ولمن أتزين فواللّه ما قاربنى زوجى منذ كذا وكذا فإنّه قد ترهب ولبس

(۱) «أثابهم»: من الثواب وهى فى الأصل بمعنى العودة وما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

المسوح وزهد فى الدنيا، فلما دخل رسول اللّه أخبرته عائشة بذلك فخرج فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يحرمون أنفسهم الطيبات ألا إنّى أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتى فليس منى».

فقاموا هؤلاء فقالوا: يا رسول اللّه فقد حلفنا على ذلك فأنزل اللّه تعالى عليه «لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ...» الآية.

التّفسير

القسم وكفارته: فى هذه الآية والآيات التالية لها مجموعة من الأحكام الإسلامية المهمة.

فى الآية الاولى إشارة إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهية، فنهاهم اللّه عن ذلك قائلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ».

فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحة إستنكار الرهبنة وهجر الدنيا كما يفعل المسيحيون والمرتاضون.

ثم لتوكيد هذا الأمر تنهى الآية عن تجاوز الحدود، لأنّ اللّه لا يحبّ الذين يفعلون ذلك:

«وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

وفى الآية التى تليها نهى آخر للأمر، إلّاأنّ الآية السابقة كان فيها نهى عن التحريم، وفى هذه الآية أمر بالإنتفاع المشروع من الهبات الإلهية، فيقول: «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا».

والشرط الوحيد لذلك هو الإعتدال والتقوى عند التمتع بتلك النعم: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ». أى إنّ إيمانكم باللّه يوجب عليكم إحترام أوامره فى التمتع وفى الإعتدال والتقوى.

و الآية التى بعدها تتناول القسم الذى يقسم به الإنسان فى حالة تحريم الحلال وفى غيره من الحالات بشكل عام، ويمكن القول أنّ القسم نوعان:

فالاولى: هو القسم اللغو، فيقول: «لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ».

والقسم الثانى: هو القَسَم الجاد الإرادى الذى قرره المرء بوعى منه، هذا النوع من القسم هو الذى يعاقب عليه اللّه إذا لم يف به الإنسان: «وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ».

بديهى أنّ الجد وحده فى القَسَم لا يكفى لصحته، بل لابدّ أيضاً من صحة محتواه وأن

يكون أمراً مباحاً فى الأقل، كما لابدّ من القول بأنّ القسم بغير اسم اللّه لا قيمة له.

وعليه إذا أقسم إمرؤ باللّه، فيجب عليه أن يعمل بقَسَمه، فإن لم يفعل، فعليه كفارة التخلف.

وكفارة القسم هى ما ورد فى ذيل الآية المذكورة، وهى واحدة من ثلاثة:

الاولى: «فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ». ولكيلا يؤخذ هذا الحكم على إطلاقه بحيث يصار إلى أىّ نوع من الطعام الدنىء والقليل، فقد جاء بيان نوع الطعام بما لا يقل عن أوسط الطعام الذى يعطى لأفراد العائلة عادة: «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ».

الثانية: «أَوْ كِسْوَتُهُمْ».

من الطبيعى أنّ ذلك يعنى الملابس التى تغطّى الجسم حسب العادة، لذلك لا يستبعد أن تكون الكسوة التى تعطى كفارة تختلف أيضاً باختلاف الفصول والأمكنة والأزمنة.

الثالثة: «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ».

ولكن قد يوجد من لا قدرة له على أيّ منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه وتعالى: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَثَةِ أَيَّامٍ».

ثم يؤكد القول ثانية: «ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ».

ومع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قَسَم صحيح أقسمه، يقول تعالى: «وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ».

فى ختام الآيات يبين القرآن أنّ هذه الآيات توضّح لكم الأحكام التى تضمن سعادة الفرد والمجتمع وسلامتها لتشكروه على ذلك: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۹۲)

سبب النّزول

فى تفسير المنار: فى مسند أحمد وسنن أبى داود والنسائى والترمذى أنّ عمر (وكان يكثر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۸

من الخمر، كما جاء فى تفسير فى ظلال القرآن ج ۳، ص ۳۳) كان يدعو اللَّه تعالى: اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً. فلمّا نزلت الآية (۲۱۹) من سورة البقرة: «يَسَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...» قرأها عليه النبى صلى الله عليه و آله فظل على دعائه وكذلك فلمّا نزلت الآية (۴۳) من سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَوةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى . فلمّا نزلت آية المائدة دعى فقرأت عليه فلما بلغ قول اللَّه تعالى «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ» قال: انتهينا انتهينا!

التّفسير

مراحل تحريم الخمر وحكمها النهائى: سبق أنّ ذكرنا فى ذيل الآية (۴۳) من سورة النساء، إنّ معاقرة الخمر فى الجاهلية وقبيل الإسلام كانت منتشرة إنتشاراً أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصوراً على ثلاثة: الشعر والخمر والغزو.

من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية والاجتماعية بنظر الاعتبار لتعذّر الأمر وشقّ تطبيق التحريم، لذلك إتخذ أسلوب التحريم التدريجى وإعداد الأفكار والأذهان لإقتلاع هذه الآفة من جذورها، وهى العادة التى كانت قد تأصّلت فى نفوسهم وعروقهم، ففى أوّل الأمر وردت إشارات فى الآيات المكية تستقبح شرب الخمر، إلّاأنّ تلك العادة الخبيثة- عادة معاقرة الخمرة- كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية- هى الآية (۲۱۹) من سورة البقرة- أشدّ فى تحريم الخمر من الاولى.

إنّ تقدّم المسلمين فى التعرّف على أحكام الإسلام، أصبحا سبباً فى نزول آية صريحة تماماً فى تحريم الخمر حتى سدّت الطريق أمام الذين كانوا يتصيّدون الأعذار والمسوّغات، وهذه الآية هى موضوع البحث.

وإنّه مما يستلفت النظر أنّ تحريم الخمرة يعبّر عنه فى هذه الآية بصوره متنوعة:

۱- فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا». أى إنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

۲- استعمال «إنّما» التى تعنى الحصر والتوكيد.

۳- وضعت الخمر والقمار إلى جانب الأنصاب (وهى قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أنّ الخمر والقمار لا يقلّان ضرراً عن عبادة الأصنام، ولهذا جاء (فى تفسير جامع البيان) عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «شارب الخمر كعابد الوثن».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۵۹

۴- الخمر والقمار وعبادة الأصنام، والإستقسام وبالأزلام (ضرب من اليانصيب) كلها قد اعتبرها القرآن رجساً وخبثاً: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ».

۵- وهذه الأعمال القبيحة كلها من أعمال الشيطان: «مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطنِ».

۶- وأخيراً يصدر الأمر القاطع الواجب الإتباع: «فَاجْتَنِبُوهُ».

۷- وفى الختام يقول تعالى أنّ ذلك: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». أى لا فلاح لكم بغير ذلك.

۸- وفى الآية التالية لها يعدد بعضاً من أضرار الخمر والقمار، التى يريد الشيطان أن يوقعها بهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطنُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوةِ».

۹- وفى ختام هذه الآية يتقدّم بإستفهام تقريرى: «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ».

أى بعد كل هذا التوكيد والتوضيح، ثمّة مكان لخلق المبررات أو للشك والتردد فى تجنّب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أنّ عمر الذى كان شديد الولع بالخمر والذى كان- لهذا السبب- لا يرى فى الآيات السابقة ما يكفى لمنعه، قال عندما سمع هذه الآية: إنتهينا، إنتهينا! لأنّه رأى فيها الكفاية.

۱۰- فى الآية الثالثة التى تؤكد هذا الحكم، يأمر المسلمين: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا».

ثم يتوعّد المخالفين بالعقاب، وأنّ مهمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هى الإبلاغ: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل تحريم الخمر والميسر، قالت الصحابة: يا رسول اللَّه! ما تقول فى إخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر؟ فأنزل اللَّه هذه الآية.

التّفسير

تجيب هذه الآية الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آية تحريم الخمر والميسر، أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۰

الذين لم يسمعوا بعد تلك الآية لبعد مناطقهم التى يعيشون فيها، فتقول: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا».

ولكنها تشترط لتلك التقوى والإيمان والعمل الصالح: «إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». ثم تكرر ذلك: «ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا».

وللمرّة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف: «ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا». وتنتهى بالتوكيد:

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». إنّ المقصود بالتقوى فى المرّة الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية والذى يسوق الإنسان نحو البحث والتدقيق فى الدين ومطالعة معجزة الرسول صلى الله عليه و آله والبحث عن اللَّه، فتكون نتيجة ذلك الإيمان والعمل الصالح.

وتكرار التقوى للمرّة الثانية إشارة إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان فيزداد تأثيرها، وتكون نتيجتها الإيمان الثابت الوطيد الذى يؤدّى إلى العمل الصالح.

وفى المرحلة الثالثة يدور الكلام على التقوى التى بلغت حدّها الأعلى بحيث إنّها فضلًا عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضاً، أى إلى الأعمال الصالحة التى ليست من الواجبات.

وعليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية وكأنّها تمثّل المرحلة (الابتدائية) والمرحلة (المتوسطة) والمرحلة (النهائية)، ولكل مرحلة قرينة تدل عليها الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكَمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكَمْ وَ رِمَاحُكَمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۹۴) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۱

سبب النّزول

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حشرت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله فى عمرة الحديبية الوحوش حتى نالت أيديهم ورماحهم».

وفى الدرّ المنثور: انزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية فكانت الوحوش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا؛ فنهاهم اللّه عن قتله وهم محرمون ليعلم اللّه من يخافه بالغيب.

التّفسير

أحكام الصيد عند الإحرام: تبين هذه الآيات أحكام صيد البر والبحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة. فى البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين فى عمرة الحديبية، فيقول سبحانه وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ».

ثم يقول من باب التوكيد: «لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ».

والآية فى الخاتمة تتوعّد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهى بعذاب شديد: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

على الرغم من أنّ الجملة الأخيرة فى الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، ولكن الآية التالية لها تصدر حكماً قاطعاً وصريحاً وعاماً بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ».

ثم بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد فى حال الإحرام، فيقول: «وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ».

والمقصود من «مثل» هو التماثل فى الشكل والحجم. أى إذا قتل أحد حيواناً وحشياً كبيراً مثل النعامة- مثلًا- يجب عليه أن يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلًا أو إذا صاد غزالًا، كفارته تكون شاة تقاربه فى الحجم والشكل.

ولما كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأنّ ذلك ينبغى أن يكون بتحكيم شخصين مطّلعين وعادلين: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ».

أمّا عن مكان ذبح الكفارة، فيبين القرآن أنّه يكون بصورة «هدى» يبلغ أرض الكعبة:

«هَدْيًا بلِغَ الْكَعْبَةِ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۲

ثم يضيف أنّه ليس ضرورياً أن تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الإستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: «أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ» و «أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِيَامًا».

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» «۱». ثم لمّا لم يكن لأىّ حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى، فيقول: «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ».

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكررة ولم يلتفت إلى أحكام الكفارة وكرر مخالفاته لحكم الصيد وهو محرم فإنّ اللّه سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: «وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ».

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ».

والمقصود من الطعام فى الآية هو ما يهيّأ للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآية تريد أن تحلل أمرين: الأوّل هو الصيد، والثانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

ثم تشير الآية إلى الحكمة فى هذا الحكم وتقول: «مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ». أى لكيلا تعانوا المشقة فى طعامكم وأنتم محرمون، فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلكم هو صيد البحر.

وللتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مرّة اخرى وتقول: «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا».

ولتوكيد جميع الأحكام التى ذكرت، تقول الآية فى الخاتمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

حكمة تحريم الصيد حال الإحرام: معلوم أنّ الحج والعمرة من العبادات التى تفصل الإنسان عن عالم المادة وتنقله إلى محيط مليء بالمعنويات، فخصوصيات الحياة المادية، والجدال والخصام، والرغبات الجنسية، واللذائذ المادية كلها تنفصل عن الإنسان فى مناسك الحج والعمرة، ويبدأ الإنسان ضرباً من الرياضة الإلهية المشروعة، ويبدو أنّ تحريم صيد البرّ فى حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه.

ثم لو أحلّ الصيد لزائرى بيت اللّه الحرام، مع الأخذ بنظر الاعتبار كثرة الزوار وكثرة ترددهم فى كل سنة على هذه الأرض المقدسة، لقضى على وجود الكثير من الحيوانات

---

(۱) «وبال»: من «الوبل والوابل» وهو المطر الغزير، ثم اطلق على العمل الشاق الجسيم، ولمّا كان العقاب شديداً وثقيلًا عادة، فقد وصف بأنّه «وبال».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۳

القليلة أصلًا فى تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء والزرع، فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقة والحفاظ عليها من الإنقراض.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّه حتى فى غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، وكذلك قطع أشجاره وحشائشه، تبين لنا أنّ لهذا التشريع إرتباطاً وثيقاً بقضية الحفاظ على البيئة وعلى النبات والحيوان فى تلك المنطقة، وصيانتها من الإبادة.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْىَ وَ الْقَلَائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (۹۹) بعد الكلام فى الآيات السابقة عن تحريم الصيد فى حال الإحرام، يشير القرآن الكريم فى هذه الآية إلى أهمّية «مكّة» وأثرها فى بناء حياة المسلمين الاجتماعية، فيقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ».

فهذا البيت المقدس رمز وحدة الناس فهم فى ظل هذا البيت المقدس يستطيعون إصلاح الكثير ممّا يستوجب الإصلاح والترميم فى حياتهم، وإقامة سعادتهم على قواعده المتينة، لذلك فقد وصف هذا البيت فى الآية (۹۶) من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ».

ولما كانت هذه المناسك يجب أن تجرى فى جوّ آمن وخال من الحروب والمنازعات والمخاصمات، فقد أشارت الآية إلى أثر الأشهر الحرم (وهى الأشهر التى تمنع فيها الحرب مطلقاً) وقالت: «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ» كما أشارت إلى الأضاحى الفاقدة للعلامة (الهدى) والأضاحى ذات العلامة (القلائد) التى منها يطعم الناس فى موسم الحج، وتؤمّن جانباً من احتياجات الحاج للقيام بمناسكه، فقالت: «وَالْهَدْىَ وَالْقَلِدَ».

ولمّا كان مجموع هذه الأحكام والقوانين والتشريعات بشأن الصيد، وكذلك بشأن حرم مكة والشهر الحرام وغير ذلك، يحكى عمق تدبير الشارع وسعة علمه تقول الآية: «ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۴

الآية التالية تؤكد تلك التشريعات وتحثّ الناس على إتّباعها وتهدد المخالفين والعاصين فتقول: «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

ومرّة اخرى تؤكد الآية على أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم وأنّ النبى مسؤول عن تبليغ الرسالة لا غير «مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَغُ».

وفى الوقت نفسه: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ».

قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) الأكثرية ليست دليلًا على الحق: دار الحديث فى الآيات السابقة حول تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام وصيد البر فى حال الإحرام، ولكن قد نجد أناساً يتذرّعون لإرتكاب هذه المعاصى بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها فى بعض الأمصار، يضع اللَّه سبحانه قاعدة كلية ورئيسية فى عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: «قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

وعليه فإنّ الخبيث والطيب- فى الآية- يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاماً كان ذلك أم فكراً.

وفى الختام يخاطب العلماء وأصحاب العقول والأذكياء فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: خطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: «إنّ اللَّه كتب عليكم الحج». فقام عكاشة بن محصن- وقيل: سراقة بن مالك- فقال: أفى كل عام يا رسول اللَّه؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال رسول اللَّه: «ويحك ما يؤمّنك أن أقول نعم، واللَّه لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركونى كما

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۵

تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه».

التّفسير

الأسئلة الفضولية: لا شك أنّ السؤال مفتاح المعرفة، وفى القرآن وفى الروايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عما لا يعرفون، ولكن لكل قاعدة استثناء، ولهذا المبدأ التربوى الأساس استثناءاته أيضاً، منها أنّ هناك- أحياناً- بعض المسائل التى يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعى ولمصلحة أفراد المجتمع، ففى أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح فى السؤال عنها والسعى لكشف النقاب عن حقيقتها بعيداً عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموماً أيضاً. والقرآن فى هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه ويقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَسْلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».

ولكن الحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، وعدم الإجابة على أسئلتهم من جهة اخرى، قد يثير الشكوك والريب عند الآخرين بحيث يؤدّى الأمر إلى مفاسد أكثر، لذلك تقول الآية: «وَإِن تَسْلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ» فيشق عليكم الأمر.

ثم لا تحسبوا اللَّه غافلًا عن ذكر بعض الامور إن سكت عنها فقد «عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

فى تفسير مجمع البيان عن على عليه السلام قال: «إنّ اللَّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء، ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها».

الآية التى بعدها تؤكد هذه الحقيقة، وتبين أنّ أقواماً سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، وبعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها وعصوا: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ».

ينبغى ألا يظن أحد بأنّ هذه الآيات لا تمنع أبداً القاء الأسئلة المنطقية التربوية والبنّاءة، بل تتحدد بالأسئلة التى لا لزوم لها، وبالتعمّق

فى امور لا ضرورة للتعمّق فيها والتى من الأفضل بل من اللازم- أحياناً- بقاؤها فى طىّ الكتمان.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَام وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَ وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۶

فى الآيـة الاولى إشارة إلى أربعـة «بدع» كانت سائدة فى الجاهلية، فقد كانوا يضـعون على بعض الحيوانات علامات وأسـماء لأسـباب معينـة ويحرّمون أكل لحومها ولا يجيزون شـرب لبنها أو جزّ صوفها أو حتى امتطاءها، أى أنّهم كانوا يطلقونها سائبة دون أن يسـتفيدوا منها شيئاً، لذلك يقول اللَّه تعالى: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَام».

۱- «البحيرة»: هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن خامسها أنثى- وقيل ذكر- فيشقّون أُذُنها وتترك طليقة ولا تذبح.

۲- «السائبة»: هى الناقة التى تكون قد ولدت اثنى عشـر بطناً- وقيل عشرة أبطن- فيطلقونها سائبة ولا يمتطيها أحد، وقد يحلبونها أحياناً لإطعام الضيف.

۳- «الوصيلة»: هى الشاة التى ولدت سبعة أبطن- وقيل أنّها التى تلد التوائم- وكانوا يحرّمون ذبحها.

۴- «الحام»: واللفظة يطلق على الفحل الذى يتخذ للتلقيح.

هـذه المعـانى تـدل جميعـاً على حيوانـات قَدّمت خـدمات كبيرة لأصـحابها فى «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها ويطلقون سـراحها لقاء ذلك.

صحيح أنّ عملهم هذا ضـرب من العرفان بالجميل ومظهر من مظاهر الشكر، حتى نحو الحيوانات، ولكنه مضيعة للمال وإتلافاً لنعم اللَّه وتعطيلها عن الإسـتثمار النافع، ثم إنّ هذه الحيوانات، بسبب هذا الإحترام والتكريم، كانت تعانى من العذاب والجوع والعطش لأنّه قلّما يقدم أحد على تغذيتها والعناية بها، ولهذا كله وقف الإسلام بوجه هذه العادة!

إضافـة إلى ذلك، يسـتفاد من بعض الروايات والتفاسـير أنّهم كانوا يتقرّبون بـذلك كله، أو بقسم منه إلى أصـنامهم، فكانوا فى الواقع ينذرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، ولذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيداً لمحاربة كل مخلّفات الشرك.

والعجيب فى الأمر، أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً (وكأنّهم يتبرّكون بها) وكان هذا عملًا قبيحاً آخر. ثم تقول الآيـة: «وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» قائلين أنّ هـذه قوانين إلهيّـة دون أن يفكّروا فى الأمر ويعقلوه، بل كانوا يقلّدون الآخرين فى ذلك تقليداً أعمى:

«وأَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

الآية الثانية تشير إلى منطقهم ودليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۷

إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

فى الواقع، كان كفرهم وعبادتهم الأصـنام ينبع من نوع آخر من الوثنية، هو التسـليم الأعمى للعادات الخرافية التى كان عليها أسلافهم، معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلًا قاطعاً على صـحتها، ويردّ القرآن بصـراحة على ذلك بقوله: «أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) كل امرىء مسؤول عن عمله: دار الحـديث فى الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأنذرهم القرآن بأنّ تقليداً كهذا لا ينسـجم مع العقـل والمنطق، فمن الطبيعى أن يتبـادر إلى أذهانهم السؤال: إنّنا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسـلافنا فى هـذه الامور، فماذا سـيكون مصـيرهم؟ ثم إذا نحن أقلعنا عن هـذه التقاليـد فما مصـير الكثير من الناس الـذين ما يزالون متمسـكين بها وواقعين تحت تأثيرها فكان

جواب القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ».

ثم يشير إلى موضوع البعث والحساب ومراجعة حساب كل فرد: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَ مَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۸

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: أنّ ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجاراً إلى الشام: تميم بن اوس الدارى وأخوه عدى، وهما نصرانيان، وابن أبى مارية، مولى عمرو بن العاص السهمى، وكان مسلماً، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، مرض ابن أبى مارية، فكتب وصيّة بيده، ودسّها فى متاعه وأوصى إليهما، ودفع المال إليهما وقال: أبلغا هذا أهلى. فلما مات فتحا المتاع وأخذا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة. فلما فتش القوم المال، فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم، فنظروا إلى الوصية، فوجدوا المال فيها تامّاً، فكلموا تميماً وصاحبه، فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلينا أبلغناه، كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبى صلى الله عليه و آله فنزلت الآية.

التّفسير

من أهم المسائل التى يؤكدها الإسلام هى مسألة حفظ حقوق الناس وأموالهم وتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذه الآيات تبيّن جانباً من التشريعات الخاصة بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثة الميت وأيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ».

لابدّ من القول بأنّ القضية هنا لا تتعلق بالشهادة العادية المألوفة، بل هى شهادة مقرونة بالوصاية، أى إنّ هذين وصيّان وشاهدان فى الوقت نفسه.

ثم تأمر الآية: إذا كنتم فى سفر ووافاكم الأجل ولم تجدوا وصيّاً وشاهداً من المسلمين فاختاروا اثنين من غير المسلمين: «أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ».

والمقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى طبعاً، لأنّ الإسلام لم يقم وزناً فى أيّة مناسبة للمشركين وعبدة الأصنام مطلقاً.

ثم تقرّر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم باللّه بعد الصلاة، فى حالة الشك والتردد: «تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدَ الصَّلَوةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ».

ويجب أن تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحق بمنافع مادية فنشهد بغير الحق حتى وإن كانت الشهادة ضدّ أقربائنا: «لَانَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۹

قُرْبَى وإنّنا لن نخفى أبداً الشهادة الإلهية، وإلّا فسنكون من المذنبين: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْأَثِمِينَ».

وفى الآية التالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير الحق، كما جاء فى سبب نزول الآية، فالحكم فى مثل هذه الحالة- أى عند الإطلاع على أنّ الشاهدين قد إرتكبا إثم العدوان على الحق واضاعته- هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أى ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: «فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ

الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ».

و الآيـة الأخيرة بيان لحكمـة الأحكام التى جاءت فى الآيات السابقة بشأن الشـهادة وهى أنّه إذا أجريت الامور بحسب التعاليم، أى إذا طلب الشاهدان للشهادة بعد الصلاة بحضور جمع، ثم ظهرت خيانتهما، وقام اثنان آخران من الورثة مقامهما للكشف عن الحق، فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق فى شهادتهم، خوفاً من اللّه أو خوفاً من الناس: «ذلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ».

فى الواقع سيكون هذا سبباً فى الخشية من المسؤولية أمام اللّه وأمام الناس، فلا ينحرفان عن محجّة الصواب.

ولتوكيد الأحكام المذكورة يأمر الناس قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُـلَ فَيَقُولُ مَا ذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّکَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۰۹) هذه الآية تكملة للآيات السابقة، ففى ذيل تلك الآيات الخاصـة بالشـهادة الحقـة والشـهادة الباطلة، كان الأمر بالتقوى والخشـية من عصـيان أمراللّه، وفى هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذى يجمع اللّه الرسل فيه ويسألهم عن رسالتهم ومهمتهم وعما قاله الناس ردّاً على دعواتهم «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ». لقـد نفوا عن أنفسـهم العلم، وأوكلوا جميع الحقـائق إلى علم اللّه و «قَـالُوا لَـاعِلْمَ لَنَـا إِنَّکَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ». وعليه فـإنّكم أمـام علّـام الغيوب وأمام محكمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحق والعدل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۷۰

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْکَ وَ عَلَى وَالِدَتِکَ إِذْ أَيَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْكِتَـابَ وَ الْحِكْمَـةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَـةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُـخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِـإِذْنِى وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِـإِذْنِى وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْـرَائِيلَ عَنْـکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَقَـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُـبِينٌ (۱۱۰) نعم اللّه على المسـيح: هذه الآية والآيات التالية لها حتى آخر سورة المائدة تختص بسيرة حياة السيد المسيح عليه السلام والنعم التى أسبغها اللّه عليه وعلى امّه، يبيّنها اللّه هنا لتوعية المسلمين وايقاظهم فتقول الآية: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْکَ وَعَلَى وَالِدَتِکَ».

ثم تشرع الآية بذكر النعم: «إِذْ أَيَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

من نعم اللّه الاخرى: «تُكَلّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْـدِ وَكَهْلًا». أى إنّ كلامک فى المهـد، مثل كلامک وأنت كهل، كلام ناضج ومحسوب، لا كلام طفل غر.

ثم أيضاً: «وَإِذْ عَلَّمْتُکَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ».

ومن النعم الاخرى: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى».

ومع ذلك فإنّك تشفى بإذن اللّه الأعمى بالولادة والمصاب بالمرض الجلدى (البرص):

«وَتُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِى».

ثم: «وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى».

وأخيراً كان من نعمى عليك بأن منعت عنك أذى بنى إسـرائيل يوم قام الكافرون منهم بوجهك ووسـموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذى اولئـك المعانـدين اللجوجين عنـك وحفظتـك حتّى تسير بـدعوتك: «وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْـرَاءِيلَ عَنـكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

و ممّا يلفت النظر فى هذه الآية أنّها تكرر «باذنى» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو فى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۷۱

المسـيح عليه السلام وادعاء الألوهية له، أى أنّ ما كان يحققه المسيح عليه السلام بالرغم من إعجازه وإثارته الدهشة ومشابهته للأفعال

الإلهيّة، لم يكن ناشئاً منه، بل كان من اللَّه وباذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد اللَّه، مطيع لأوامره وما كان له إلّاما يستمدّه من قوّة اللَّه الخالدة.

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١۴) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (١١۵) قصة نزول المائدة على الحواريين: تعقيباً على ما جاء فى الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم اللَّه به على المسيح عليه السلام وامّه يدور الحديث هنا حول النعم التى أنعم اللَّه بها على الحواريين، أى أصحاب المسيح عليه السلام. ففى البداية تشير الآية إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا باللَّه وبرسوله المسيح عليه السلام فاستجابوا «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَن ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ».

إنّ للوحى فى القرآن معنى واسعاً لا- ينحصر فى الوحى الذى ينزل على الأنبياء، بل أنّ الإلهام الذى ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً.

ثم تذكر الآية نزول المائدة من السماء: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ».

«المائدة»: تعنى فى اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعنى الطعام الذى يوضع عليها.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذى يدل على الشك والتردد، على الرغم من كل تلك الأدلة والآيات، فخاطبهم و «قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵٧٢

ولكنهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السلام أنّ هدفهم برىء، وأنّهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة النورانية فى قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوى لأنّ للغذاء ونوعيته أثر مسلّم فى روح الإنسان) «قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ».

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهى من أثر فى الروح ومن زيادة فى الثقة واليقين. ولمّا أدرك عيسى عليه السلام حسن نيّتهم فى طلبهم ذاك، عرض الأمر على اللَّه: «قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فاستجاب اللَّه لهذا الطلب الصادر عن حسن نيّة وإخلاص: «قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّاأُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

فبعد نزول المائدة تزداد مسؤوليات هؤلاء وتقوى الحجة عليهم، ولذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضاً فى حالة الكفر والانحراف.

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) براءة المسيح من شرك أتباعه: هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين اللَّه والمسيح يوم القيامة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ».

فيجيب المسيح عليه السلام بكلّ احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

۱- أوّلًا ينزّه اللَّه عن كل شرك وشبهه: «قَالَ سُبْحَانَکَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۷۳

۲- ثم يقول: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ». أى ما لا يحق لى قوله ولا يليق بى أن أقوله.

فهو لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه ومركزه.

۳- ثم يستند إلى علم اللَّه الذى لا تحدّه حدود، تأكيداً لبراءته فيقول: «إِنْ كُنتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ» «۱».

۴- «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ». لا أكثر من ذلك.

۵- «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ». أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاوية الشرك مدّة بقائى بينهم، فكنت الرقيب والشاهد عليهم، ولكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب والشاهد عليهم.

۶- «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». أى على كل حال فالأمر أمرك والإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك وليس بامكانهم أن يفرّوا من عذابك، فهذا حقك بإزاء العصاة من عبيدك وإن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوى الحكيم فلا عفوك دليل ضعف ولا عقابك خال من الحكمة والحساب.

قَالَ اللَّهُ هذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰) الفوز العظيم: بعد الحوار الذى جرى بين اللَّه والمسيح عليه السلام يوم القيامة- كما شرحناه فى تفسير الآيات السابقة- تقول الآية: «قَالَ اللَّهُ هذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ».

وهؤلاء الصادقون: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وخير من هذه النعمة المادية أنّهم: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ». ولا شك أنّ هذه النعمة الكبرى التى تجمع بين النعم المادية والنعم المعنوية شيء عظيم: «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

---

(۱) إطلاق كلمة «نفس» على اللَّه لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۷۴

وفى آخر الآية إشارة إلى امتلاك اللَّه كل شيء وسيطرته على السماوات والأرض وما فيها وأنّ قدرته عامّة تشمل كل شيء: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذه الآية تعتبر سبب رضى عباد اللَّه عن اللَّه، وذلك لأنّ الذى يملك كل شيء فى عالم الوجود له القدرة أن يعطى عباده ما يريدون وأن يغفر لهم وأن يفرحهم ويرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقة مثلهم.

«نهاية تفسير سورة المائدة»

الجزء الثانى

۶. سورة الأنعام

حرب على الشرك والوثنية: قيل أنّ سورة الأنعام مكية، وهى السورة التاسعة والستون فى تسلسل نزول السور القرآنية. هدف هذه السورة الرئيسى- مثل أهداف السور المكية- توكيد الاصول الثلاثة: «التوحيد» و «النبوة» و «المعاد» ولكنها تؤكد أكثر ما تؤكد قضية

عبادة اللّه الواحد ومحاربة الشرك والوثنية، بحيث إنّ معظم آيات هذه السورة يخاطب المشركين وعبدة الأصنام، وبهذا يتناول البحث فى أكثر المواضع، أعمال المشركين وبدعهم.

ولعلّ هذا أيضاً هو السبب لما نقرؤه من روايات عن فضل هذه السورة، وإنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، وأنّ من يقرأها وترتوى روحه من ينبوع التوحيد يستغفر له كل اولئك الملائكة.

إنّ التمعّن فى آيات هذه السورة يقضى على روح النفاق والتشتت بين المسلمين، ويجعل الآذان سميعة، والأعين بصيرة، والقلوب عارفة.

ولكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفى من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ويعقد الجلسات لتلاوة آياتها من أجل حلّ المشاكل الشخصية، فلو اهتمّت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاكل الخاصّة وحدها، بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامة أيضاً، ومن المؤسف جداً أنّ جمعاً من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد)

التى لها خواص غامضة ومجهولة فيقرأونها بغير تمعّن فى مضامينها، مع أنّ القرآن كله مدرسة ودروس ومنهج ويقظة، ورسالة ووعى.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) تبدأ السورة بالحمد للّهوالثناء عليه، ثم تشرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السماوات والأرض) أوّلًا؛ ثم عن طريق خلق العالم الصغير (الإنسان) ثانياً: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ». اللّه الذى هو مبدأ الظلمة والنور، بخلاف ما يعتقده الثنويون، وهو وحده خالق كل شىء: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ».

غير أنّ الكافرين والمشركين، بدلًا من أن يتعلّموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون للّهالشريك والشبيه: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ».

نلاحظ أنّ القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف «ثم» الذى يدل فى اللغة العربية على الترتيب والتراخى، وهذا يدل على أنّ التوحيد كان فى أوّل الأمر مبدأً فطرياً وعقيدة عامة للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانحراف عن الأصل الفطرى.

وروى فى تفسير نور الثقلين عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى تفسير هذه الآية قوله: «وكان فى هذه الآية ردّ على ثلاثة أصناف منهم لمّا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ». فكان ردّاً على الدهرية الذين قالوا: إنّ الأشياء لا بدء لها وهى دائمة، ثم قال: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فكان ردّاً على مشركى العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة».

والآية التالية تلفت نظر الإنسان إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر وهو خلقه من الطين فتقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ».

صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا من الطين، ولكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من

الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضاً على أنّنا مخلوقين من الطين.

وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ اللّه بعد ذلك عيّن مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: «ثُمَّ قَضَى أَجَلًا».

ثم لإستكمال البحث تقول: «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ».

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين وتقول لهم: «ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ». أى تشكّون فى قدرة الخالق الذى خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

إنّ كلمة «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر والوقت والمدّة و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها وبعبارة اخرى «الأجل المسمى» هو الموت الطبيعى؛ و «الأجل» هو الموت غير الطبيعى، ولكن أنّ الأجلين يعيّنهما اللَّه.

وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (۳) هذه الآية تكمل البحث السابق فى التوحيد ووحدانية اللَّه، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّموَاتِ وَفِي الْأَرْضِ».

من الطبيعى أن يكون الحاكم على كل شىء والمدبّر لكل الامور والحاضر فى كل مكان عارفاً بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إنّ ربّاً كهذا «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۵) قلنا: إنّ معظم الخطاب فى سورة الأنعام موجّه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتّى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التى تليها تواصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبر عند المشركين تجاه الحق وتجاه آيات اللَّه، فتقول: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركى العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق فى اللَّه والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه وإن تحدّث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحياناً أمام الناس بمظهر العالم المتجبّر! ثم تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهى: أنّهم عندما رأوا الحقيقة كذّبوها، ولو أنّهم دققوا فى آيات اللَّه جيّداً لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ».

ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشدّة على التوالى، المرحلة الاولى هى مرحلة الإعراض، ثم مرحلة التكذيب، وأخيراً مرحلة الإستهزاء بآيات اللَّه.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶) مصير الطغاة: ابتداء من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلًا بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمة، فيذكّرهم بالأمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ» «۱».

ولكنهم لما استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ».

---

(۱) «المدرار»: فى الأصل من «درّ» اللبن، ثم إنتقل إلى ما يشبهه فى النّزول كالمطر، والكلمة صيغة مبالغة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹

وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) منتهى العناد: يشير القرآن هنا إلى

الطلب الذى تقدّم به جمع من عبدة الأصنام ويقول:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». أى إنّ عنادهم قد وصل حدّاً ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحراً لكيلا يستسلموا للحقيقة.

وَ قَالُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) خلق المبررات: من عوامل الكفر والإنكار الاخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات. ومن جملة الحجج التى احتج بها المشركون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأشار إليها القرآن فى كثير من آياته– ومنها هذه الآية– هى أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمكن لإنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ».

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَايُنظَرُونَ». أى لو نزل ملك لمعاونة رسول اللّه صلى الله عليه و آله لهلك الكافرون.

الثانية: هى أنّ الرسول الذى يبعثه اللّه لقيادة الناس وتربيتهم وليكون اسوة لهم، لابد أن يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، لذلك فالقرآن فى الجواب الثانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكاً حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر فى هيئة إنسان: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠

ثم يستنتج من ذلك أنّهم– فى هذه الحالة أيضاً– كانوا سيعترضون الإعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل اللّه مهمّة القيادة إلى بشر وأخفى عنّا وجه الحقيقة: «وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ». وفى الختام يهوّن الأمر على رسوله ويقول له: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

هذه الآية فى الواقع تسلية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد فى الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكّروا فى عاقبة أمرهم المؤلمة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية سبيلًا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر اولئك الذين كذّبوا بالحقائق، فلعلّ ذلك يوقظهم من غفلتهم «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين والأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيراً أعمق من مجرد قراءة كتب التأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسّد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة «انظروا» ولم يقل «تفكروا».

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة اللّه الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة. يتكوّن الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أوّلًا: يقول: «قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم وروحهم: «قُلْ لِّلَّهِ». فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكاً للّهوبيده وتدبيره.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١١

ثانياً: إنّ اللّه هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذى أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

هـذه الرحمـة نفسـها توجب أن يرتـدى الإنسان- الـذى عنـده إمكانيـة الخلود- لباس حياة جديـدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ».

فى نهايـة الآيـة إشارة إلى مصير المشـركين المعانـدين وعاقبتهم، فهؤلاء الـذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

الآية السابقة تشير إلى أنّ اللَّه مالك كل شـىء يستوعبه ظرف «المكان» أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية اللَّه لما يستوعبه ظرف «الزمان» الوسيع وتقول: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وفى نهايـة الآيـة وبعـد ذكر التوحيـد، تشير الآيـة إلى صـفتين بارزتين فى اللَّه فتقول: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». أى أنّ إتساع عالم الوجود، والكائنات فى آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون اللَّه عليماً بأسرارها.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶)

الهـدف من نزول هـذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشـرك وعبادة الأصـنام فالمشـركون، وإن اعتقدوا أنّ اللَّه هو خالق العالم، كانوا يتخـذون من الأصـنام ملجأً لأنفسـهم، ولربّما اتخذوا صـنماً لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسـلم، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

ولكى يزيل القرآن هـذا التفكير الخاطىء، يأمر رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أن «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲

هذه الآية تقتصـر على توكيد إتصاف اللَّه باطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته المادية هى حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوة، وقد يصل خضوعهم لُاولئك حـد العبوديـة، ففى هذا يقرر القرآن أنّ رزق الناس بيد اللَّه لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصـنام، فأصـحاب المال والقوة هم أنفسـهم محتاجون إلى الطعام، وأنّ اللَّه هو وحده الذى يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

ثم للردّ على اولئـك المشـركين الـذين كـانوا يـدعون رسول اللَّه إلى الإنضـمام إليهم، يؤكـد القرآن على ضـرورة رفض دعوة هؤلاء إنطلاقاً مـن مبـدأ نهى الـوحى الإلـهى عـن ذلـك، إضافـة إلى نهى العقـل: «قُلْ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الآيـة التاليـة فيها توكيـد أشـدّ لهذا النهى الإلهى عن إتّباع المشـركين: «قُلْ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». أى يأمر اللَّه رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، وأنّه يخاف- إن ركن إلى المشركين- عذاب يوم القيامة.

ولكى يتّضح أنّ النبى صلى الله عليه و آله لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إلى لطف اللَّه ورحمته، فكل شىء بيد اللَّه وبأمره، وحتى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله نفسه يترقّب بعين الرجـاء رحمـة اللَّه الواسـعة، ومنه يطلب النجـاة والفوز: «مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوزُ الْمُبِينُ».

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱۸) قدرة اللَّه القاهرة: قلنا إنّ هدف هذه السورة هو استئصال جذور الشـرك وعبادة الأصـنام، وهاتان الآيتان تواصـلان تحقيق ذلـك. فالقرآن يتساءل أوّلًا: لماذا تتوجّهون إلى غير اللَّه، وتلجأون إلى معبودات تصـطنعونها لحلّ مشاكلكم ودفع الضـر عن أنفسـكم واستجلاب الخير لهـا؟ بينمـا لو أصابـك أدنى ضـرر فلا يرفعه عنك غير اللَّه، وإذا أصابك الخير والبركـة والفوز والسـعادة فما ذلك إلّابقدرة اللَّه، لأنّه هو القادر القوى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۱».

(۱) «الضـر»: هـو كـل نقيصـة يتعرّض لهـا الانسـان إمّـا فى الجسم مثـل نقص عضـو والمرض، وإمّـا فى النفس مثـل الجهـل والسـفاهة والجنون، وإمّا فى امور اخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳

فى الواقع إنّ سـبب الإتجـاه إلى غير اللَّه إمّـا لتصوّرهم أنّ مـا يتّجهون إليه مصـدر الخيرات، وإمّـا لإعتقـادهم بقـدرته وأنّه يـدرأ عنهم المصائب ويحلّ لهم مشاكلهم.

وفى الآية التى تليها إكمال للبحث، فيقول: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ».

ولإزالـة كل وهم قـد يخطر لأحـدهم بأنّ اللَّه قـد يسـيء اسـتعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال فى ذوى القدرة من البشـر، يقول القرآن: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ». أى أنّه صاحب حكمة وكل أعماله محسوبة لأنّه خبير وعالم ولا يخطىء فى استعمال قدرته أبداً.

قُلْ أَىُّ شَـىْءٍ أَكْبَرُ شَـهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَـهِيدٌ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِىَ إِلَىَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْـهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُـلْ لَا أَشْـهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِـدٌ وَ إِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (۱۹) الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۰) أعظم الشاهدين: يذكر جمع من المفسـرين أنّ عدداً من مشركى مكة جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقـالوا: كيف تكون نبيّاً ولاـ نرى أحـداً يؤيّـدك؟ وحتى اليهود والنصارى الـذين سألناهم، لم يشـهدوا بصـحة أقوالك بحسب ما عندهم فى التوراة والإنجيل، فهات من يشـهد لك على رسالتك، والآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة. فى مواجهة هؤلاء المخالفين المعانـدين الـذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيداً من الشواهد، يؤمر النبى صـلى الله عليه و آله أن: «قُلْ أَىُّ شَـىْءٍ أَكْبَرُ شَـهَادَةً». أهناك شـهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ».

وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن:

«وَأُوحِىَ إِلَىَّ هذَا الْقُرْءَانُ».

هـذا القرآن الـذى لا يمكن أن يكون وليـد فكر بشـرى، خاصـة فى تلك الظروف الزمانيـة والمكانية، هذا القرآن الذى يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقاً إلهياً للدعوة!

يستفاد من هذه العبارة أيضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

ثم يشـير إلى هـدف نزول القرآن ويقول: «لِأُنـذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ». أى إنّ القرآن قـد نزل علىّ لكى أنذركم، وأنذر جميع الذين يصـل إليهم- عبر تاريخ البشر، وعلى إمتداد الزمان

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴

وفى أرجـاء العـالم كافـة- كلامـى، وأحـذّرهم من عواقب عصـيانهم. ثم أمر اللَّه رسوله أن يسألهم: «أَئِنَّكُمْ لَتَشْـهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى ويأمره أن:

«قُلْ لَاأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

أمّا الـذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشـهدوا لنبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله فإنّ الآية التى بعدها تردّ عليهم وتقول: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ». أى إنّ معرفتهم به لا تقتصـر على مبـدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصـيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً.

والآية تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائية: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

أى إنّ الـذين لاـ يؤمنون بـالنبى- مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضـحة- هم فقط اولئك الـذين خسـروا كل شـىء فى تجارة الحياة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (۲۳) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) أشدّ الظلم: تواصل هذه الآيات المنهج القرآنی فی مقارعة الشرک وعبادة الأصنام بشکل شامل. تقول الآیة الاولی بصراحة وبصورة استفهام إستنکاری: «وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

الجملة الاولی إشارة إلی إنکار التوحید والثانیة إشارة إلی إنکار النبوة حقّاً لا ظلم أکبر من أن یتخذ المرء قطعة جماد لا قیمة لها، أو إنساناً ضعیفاً مثله شریکاً لربّ لا تحدّه حدود وله الحکم علی کل عالم الوجود.

فلا شک إذن فی أنّ أیّ ظالم- وعلی الأخص اولئک الذین لظلمهم جوانب متعددة- لا یمکن أن یری السعادة والفلاح: «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

الآیة التالیة تشیر إلی مصیر المشرکین یوم القیامة مبیّنة أنّهم باعتمادهم علی مخلوقات ضعیفة کالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة فی هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلک فی الحیاة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵

الآخرة، فتقول الآیة: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ». أین هم؛ لماذا لا یأتون الیوم لإنقاذکم؟ لماذا لا یظهرون أیّ حول ولا یبدون أیّة قوة؟

فیستولی علی هؤلاء الرعب والخوف ویبهتون ولا یحیرون جواباً، سوی أن یقسموا باللَّه إنّهم لم یکونوا مشرکین، ظنّاً منهم أنّهم هناک أیضاً قادرون علی إخفاء الحقائق: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

الآیة الثالثة ومن أجل أن یعتبر الناس بمصیر هؤلاء الأفراد تقول: «انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ».

وتنهار المساند التی إختاروا الاستناد علیها وجعلوها شریکة للَّه، وخابوا فی مسعاهم «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۲۶) فی هذه الآیة إشارة إلی الوضع النفسی لبعض المشرکین، فهم لا یبدون أیّة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أکثر من ذلک، یناصبونها العداء، ویقذفونها بالتهم، فیبعدون أنفسهم وغیرهم عنها عن هؤلاء. تقول الآیة: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» «۱».

إنّ نسبة هذه الامور إلی اللَّه، إنّما هی إشارة إلی قانون «العلة والمعلول» وخاصیة «العمل»، أی إنّ أثر الاستمرار فی الانحراف والإصرار علی المعاندة والتشاؤم یظهر فی إتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفین والمذنبین یحسّون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولکنهم یعتادون ذلک بالتدریج، وقد یصل بهم الأمر إلی اعتبار أعمالهم القبیحة لازمة وضروریة.

---

(۱) «أکنة»: جمع «کنان» و هو کل ستار أو حاجز؛ و «الوقر»: بمعنی ثقل السمع.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶

وهؤلاء وصلوا حدّاً تصفه الآیة فتقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا» بل الأکثر من ذلک أنّهم عندما یأتون إلیک، لا یفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا یأتون- علی الأقل- بهیئة الباحث عن الحق الذی یسعی للعثور علی الحقیقة والتفکیر فیها، بل یأتون بروح وفکر سلبیین، ولا هدف لهم سوی الجدل والإعتراض: «حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ». أنّهم عند سماعهم کلامک الذی یستقی من ینابیع الوحی ویجری علی لسانک الناطق بالحق، یبادرون إلی إتهامک بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها اناس غابرون:

«يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

الآية التالية تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروّجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» ويبتعدون عنه بأنفسهم: «وَيَنَوْنَ عَنْهُ» (۱).

دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحق يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، وينتصر بما له من قوة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافى على سطح الماء، وعليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنهم لا يدركون الحقيقة: «وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۷) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۲۸) فى هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين وفيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكى يدركوا المصير المشؤوم الذى ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم- على الأقل- عبرة لغيرهم، فتقول الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» لتبيّن لك مصيرهم السيىء المؤلم.

إنّهم فى تلك الحال على درجة من الهلع بحيث إنّهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوّض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدّق آيات ربنا،

---

(۱) «ينأون»: من «نأى بمعنى إبتعد.

ونقف إلى جاب المؤمنين: «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية التالية تؤكد أنّ ذلك ليس أكثر من تمنّ كاذب، وإنّما تمنّوه لأنّهم رأوا فى ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه- من عقائد ونيات وأعمال سيئة- مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: «بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ».

غير أنّ هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرّة اخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» لذلك فهم ليسوا صادقين فى تمنّياتهم ومزاعمهم «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

وَ قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۲۹) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَ لَيْسَ هذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۳۲) هذه الآية إستئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلّبين الذين يتمنون- عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة- أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتّجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة «وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

الآية التالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدى اللَّه: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هذَا بِالْحَقّ». فيكون جوابهم أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: «قَالُوا بَلَى وَرَبّنَا».

عندئذ: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». لا شك أنّ «الوقوف بين يدى اللَّه» لا يعنى إنّ للَّهمكاناً، بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاة أنّه يقف بين يدى اللَّه وفى حضرته.

الآية التى بعدها، فيها إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸

كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ». إنّ المقصود بلقاء اللّه هو- كما قلنا من قبل- اللقاء المعنوى والإيمان الشهودى (الشهود الباطنى)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

ثم تبين الآيـة أنّ هـذا الإنكار لن يـدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامـة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالنـدم على ما قصّروا فى حق هذا اليوم: «حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا». «الساعـة»: هى يوم القيامـة؛ و «بغتـة»: تعنى فجأة وعلى حين غرّه، إذ تقوم القيامـة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى اللّه تعالى.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ».

«الأوزار»: جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعنى الأوزار هنا الـذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلًا على تجسّد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم.

وفى آخر الآية يقول اللّه تعالى: «أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ».

ثم لبيان نسبة الحياة الـدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول اللّه تعالى: «وَمَا الْحَيَوةُ الـدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ». فهؤلاء الـذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كله فى اللعب واللهو غافلين عن كل شىء.

إنّ تشبيه الحيـاة الـدنيا بـاللهو واللعب يستند إلى كون اللهو واللعب من الممارسـات الفارغـة السـطحية الـتى لاـ ترتبـط بأصـل الحيـاة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شىء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

ثم تقارن الآيـة حياة العالم الآخر بهـذه الدنيا، فتقول: «وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فتلك حياة خالدة لا تفنى فى عالم أوسع وعلى مستوىً أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع لا الخيال.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُـكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَـا يُكَـذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَـدُونَ (۳۳) وَ لَقَـدْ كُـذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَـا كُـذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتَـاهُمْ نَصْـرُنَا وَ لَـا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَـدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَـلِينَ (۳۴) المصلحون يواجهون الصعاب دائماً: لا شك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلّبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹

والتصلّب والتعنّت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كله كان النبى صلى الله عليه و آله يشعر بالغم والحزن، واللّه تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن يواسى النبى صلى الله عليه و آله ويصبّره على ذلك، لكى يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء فى هـذه الآيـة: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ». فاعلم أنّهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات اللّه، ولا يكذّبونك بل يكذّبون اللّه: «فَإِنَّهُمْ لَايُكَذّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

ومثل هـذا القول شائع بيننا، فقـد يرى «رئيس» أنّ «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضبـاً، فيقول له: «هوّن عليك، فإنّ ما قالوه لك إنّما كان موجّهاً إلىّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

الآية الثانية تستأنف مواساة الرسول صلى الله عليه و آله وتبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أنّ هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: «وَلَقَدْ كُذّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ».

ولكنهم صبروا وتحمّلوا حتى انتصروا بعون اللّه: «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتهُمْ نَصْرُنَا» وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: «وَلَا مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ».

وعليـه، فلاـ تجزع ولاـ تبـتئس إذا مـا كـذّبك قومـك وآذوك، بـل اصبر على معانـدة الأعـداء وتحمّـل أذاهم، واعلم أنّ الإمـدادات

والألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنّة، فتنتصر فى النهاية عليهم جميعاً، وإنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وإنتصارهم فى النهاية، لهو شهادة بيّنة لك:

«وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادىء وتعاليم بنّاءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة فى المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الإنتهازيين الذين يرون فى انتشار تلك التعاليم والمبادىء البنّاءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلّا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة اولئك المصلحين.

إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنّة الإلهية، تعمل عملها إلّا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰

وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۳۵) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶) الأموات المتحركون: هاتان الآيتان استمرار لمواساة النبى صلى الله عليه و آله التى بدأت فى الآيات السابقة لقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بأيّة وسيلة كانت. فيقول اللَّه تعالى: «وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بَايَةٍ». أى إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّماً يوصلك إلى السماء للبحث عن آية- إن استطعت- ولكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

فى هذه الآية يخبر اللَّه نبيّه بأن ليس فى تعليماتك ودعوتك وسعيك أى نقص، بل النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلك فإنّ أىّ مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكيلا يظن أحد أنّ اللَّه غير قادر على حملهم على التسليم يقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . أى لو أراد حملهم على الإستسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان باللَّه لكان على ذلك قديراً.

غير أنّ الإيمان الإجبارى لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبنى على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففى حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر» و «الصالح» من «غير الصالح» و «الصادق» من «الكاذب».

ثم يقول سبحانه لنبيّه: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ». أى لقد قلت هذا لئلا تكون من الجاهلين، أى لا تفقد صبرك ولا تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم.

وما من شك أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يعلم هذه الحقائق ولكن اللَّه ذكرها له من باب التطمين وتهدئة الروع.

فى الآية التى تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم صلى الله عليه و آله فتقول الآية: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱

أمّا الذين هم فى الواقع أشبه بالأموات فإنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم اللَّه يوم القيامة:

«وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».

يومئذٍ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلّاأنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئاً.

وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۷) تشير هذه الآية إلى واحد من

الأعـذار التى يتذرّع بها المشـركون، فقد جاء فى بعض الروايات أنّه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كل هذا الذى تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول، فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

من الواضـح أنّ اولئـك لم يكونوا جـادّين فى بحثهم عن الحقيقـة، لأنّ الرّسول صـلى الله عليه و آله كان قـد جاء لهم من المعاجز بما يكفى، لـذلك يـأمر اللَّه رسوله أن: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَـادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً». إلّـاأنّ فى ذلـك أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنّه إذا حقق اللَّه مطاليبكم التى يـدفعكم إليها عنادكم، ثم بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب اللَّه عليكم جميعاً، وتفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سـيكون منتهى الإسـتهتار بمقام الالوهيّة المقدس وبمبعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهى الآية بالقول: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وَ مَـا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْـأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَـىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَـرُونَ (۳۸) هذه الآية تسـتأنف ما جاء فى الآيات السابقـة من الكلام مع المشـركين وتحـذيرهم من مصيرهم يوم القيامـة، فتتحـدّث عن «الحشـر» وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحيّة والحيوانات، فتقول أوّلًا: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم».

يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان والطيور امم مثل البشر.

أى إنّ للحيوان والطير- أيضاً- إدراكه ومشاعره فى عالمه الخاص، ويعرف اللَّه ويسبّح له ويقدّسه بحسب طاقته، وإن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا فى الإنسان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲

«الدّابة»: من «دبّ» والدبيب المشـى الخفيف، ويستعمل ذلك فى الحيوان والحشرات أكثر. «الطائر» كل ذى جناح يسبح فى الهواء وقد يوصف بها بعض الامور المعنوية التى تتقدّم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه. «امم»: جمع امّة، وهى كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد. «يحشـرون»: من «حشر» بمعنى «الجمع» والمعنى الوارد فى القرآن يقصد به يوم القيامة، ولا سيما أنّه يقول: «إِلَى رَبّهِم».

ثم تقول الآيـة: «مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ». لعل المقصود «بالكتاب» هو القرآن الـذى يضم كل شـىء، أو المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم، يضمّ كل شيء ولا ينسى شيئاً.

وتختم الآية بالقول: «ثُمَّ إِلَى رَبّهِمْ يُحْشَرُونَ». من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم:

إنّ اللَّه الـذى خلق جميع الحيوانـات ووفّر لهـا ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشـراً ونشوراً، قـد أوجـد لكم دون شك بعثاً وقيامة وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والممات.

هل هناك بعث للحيوانات؟ ما من شك أنّ الشّـرط الأوّل للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعهما «التكليف والمسؤولية».

يقول أصحاب هذا الرأى: إنّ حياة كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدلّ على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحيّر فى بناء بيوتها وخلاياها، ولا شك أنّ هذه امور ليس من السهل اعتبارهـا ناشـئة بـدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبـة من طراز واحـد باسـتمرار، أمّا الأعمال التى تقع فى ظروف خاصـة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة. فالشاة التى لم يسبق لها أن رأت ذئباً فى حياتها تفزع منه أول ما تراه وتدرك خطره عليها وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

فضلًا عن ذلـك كله، فإنّ هناك بعض الآيات التى تـدل- بوضوح- على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكايـة هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمّـة أحـاديث إسـلامية كثيرة حول بعث الحيوانـات، من ذلك ما روى فى تفسـير مجمع البيان عن أبى ذر قال: بينا أنا عنـد رسول اللَّه

صلى الله عليه و آله إذ انتطحت عنزان، فقال النبى صلى الله عليه و آله:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳

«أتدرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندرى. قال: «ولكن اللّه يدرى وسيقضى بينهما».

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۹) مرّة اخرى يعود القرآن ليتطرّق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ». فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكى يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقةً بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق.

وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: «مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

إنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئة اللّه إنّما هما ثواب اللّه وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

وبعبارة اخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إثماً كبيراً يؤدّى به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحق، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحق، ويفقد لسانه القدرة على قول الحق.

وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أى قد يعمل الإنسان أعمالًا صالحة كثيرة بحيث إنّ عالماً من النور والضوء يشع فى روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعا، ويكون لسانه ابلغ فى إعلان الحق، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة اللّه ومشيئته.

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (۴۱) التوحيد الفطرى: يعود الكلام مرّة اخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية اللّه وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التى تمرّ بهم فى الحياة، ويستشهد بضمائرهم، فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، ولا يجدون غير اللّه ملجأ لهم. يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتكُم عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

الحالة النفسية التى تصوّرها هذه الآية لا تنحصر فى المشركين، بل فى كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدّة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان فى الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴

اللّه، إلّاأنّه فى الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كل شيء وإن ظلّ فى أعماقه يحس بأمل فى النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفيّة، وهذا هو التوجه إلى اللّه وحقيقة التوحيد.

حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها فى مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونُ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۵) مصير الذين لا يعتبرون: تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الامم الضّالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف اتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يلقوا بالًا إلى أىّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء) «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» «۱».

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا» ولكنّهم لم

يستيقظوا، ولذلك سببان:

الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم فى الشرك زايلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم:

«وَلكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ».

والثانى: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن فى نظرهم أعمالهم، فكل قبيح إرتكبوه أظهره لهم جميلًا، ولكل خطأ فعلوه جعله فى عيونهم صواباً: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ مَا

---

(۱) «البأساء»: الشدّة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقر. أمّا «الضّرّاء»: فأكثر ما تعنى العذاب الروحى كالهم والغم والإكتئاب والجهل أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵

كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم تذكر الآية التالية أنّه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم اللَّه تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذى وهب لهم كل تلك النعم، ويشخّصوا الطريق السوى: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَىْءٍ».

إلّا أنّ هذه النعم كانت فى الواقع ذات طابع مزدوج، فهى مظهر من مظاهر المحبة التى تستهدف إيقاظ النائمين، وهى كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرّت الغفلة، ولهذا يقول إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ» «۱».

وهكذا استؤصلت جذور اولئك الظلمة وانقطع نسلهم: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا».

ولمّا كان اللَّه قد وفّر لهؤلاء كل وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأىّ شىء منها، لذلك فإنّ الحمد يختص باللَّه الذى يربّى أهل الدنيا كافة: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

وإختتام الآية بقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» دليل على أنّ استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد للَّه.

فى الكافى عن فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... من أحبّ بقاء الظالمين، فقد أحبّ أن يعصى اللَّه، إنّ اللَّه تعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ»».

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

---

(۱) «الإبلاس»: الحزن المعترض من شدّة التألم بسبب كثرة المنغّصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس» وهى هنا تدل على شدّة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذٍ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶

اعرفوا واهب النعم: الخطاب ما يزال موجّهاً إلى المشركين. فى هذه الآيات حثّ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم اللَّه النعم الثمينة التى وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيء، والحق والباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ

عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ».

فى الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو اللَّه، وكانوا يعبدون الأصنام للإستشفاع بها عند اللَّه.

ثم تقول الآيـة: انظر إلى هؤلاء الـذين نشرح لهم الآيـات والـدلائل بمختلف الوسائـل، ولكنهم مع ذلـك يعرضون عنهـا: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ».

«نصرف»: من «التصريف» بمعنى «التغيير» والكلمـة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعـة. و «يصـدفون»: من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى إنّ المعرض عن شىء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية اخرى.

تشير الآية الثانية- بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا والآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلّها دفعة واحدة، فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ».

«بغتة»: بمعنى «فجأة» و «جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية.

والقصـد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو اللَّه وحـده، وإنّ الأصـنام لا دور لها فى هذا أبداً، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن اللَّه لحكمته ورحمته لا يعاقب إلّاالظالمين.

الآيـة الثالثـة تشير إلى مركز الأنبيـاء، فتقول: ليست الأصـنام العديمـة الروح هى وحـدها العاجزة عن القيام بأىّ أمر، فإنّ الأنبياء العظام والقـادة الإلـهيين أيضـاً لاـ عمل لهم سوى إبلاغ الرسالـة والإنـذار والتبشـير، فكلّ ما هنالك من نعم إنّما هى من اللَّه وبأمره، وأنّهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من اللَّه: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ».

ثم تقول: إنّ طريق النجـاة ينحصـر فى أمرين، فالـذين يؤمنون ويصـلحون أنفسـهم «وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى، ولا حزن على أعمالهم السابقة.

«فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷

أمّا اولئك الـذين لا يصدّقون بآياتنا، بل يكذّبون بها فإنّ عقابهم على فسـقهم وعصـيانهم عذاب من اللَّه: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

من الجـدير بالإنتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللَّه بعبارة «يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ» فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان حتى يشملهم بأشدّ ما يكون من العذاب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (۵۰) معرفة الغيب: هذه الآية استمرار للردّ على إعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الإعتراضات فى جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدّم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهـدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرّة يريـدون هبوط الملائكة، ومرّة يريـدون أن تتحوّل أرض مكة القاحلة المحرقة إلى بسـتان ملىء بالمياه والفواكه. ولعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنبى مقام الألوهية وإمتلاك الأرض والسماء، فللردّ على هؤلاء يأتى الأمر من اللَّه: «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ».

يتّضح أنّ «خزائن اللَّه» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهى تستقى من ذات اللَّه اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

ثم تردّ الآية على الذين كانوا يريدون من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكى يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

فى الجملـة الثالثـة ردّ على الـذين كـانوا يتصوّرون النبى صـلى الله عليه و آله ملكـاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به

البشر من تناول الطعام والسير فى الطرقات، وغير ذلك، فقال:

«وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ».

وفى الختام يؤمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيداً

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸

ويتفهمونها؟ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ».

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۵۱) فى ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفى هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهِمْ».

أى إنّ هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفى ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّى والقبول.

ثم يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللَّه ملجأ ولا شفيع: «لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى اللَّه، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (۵۲) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور (وتفسير المنار أيضاً): مرّ الملأ من قريش على النبى صلى الله عليه و آله وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منّ اللَّه عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل اللَّه فيهم القرآن: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهِمْ» إلى قوله «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

فى تفسير المنار عن عمر بن الخطاب قال: لو فعلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصبرون إليه من أمرهم فأنزل اللَّه تعالى الآيتان فى رفض إقتراحه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹

التّفسير

مكافحة التفكير الطبقى: فى هذه الآية إشارة إلى واحد من إحتجاجات المشركين، وهو أنّهم كانوا يريدون من النّبى صلى الله عليه و آله أن يقرّ ببعض الإمتيازات لطبقة الأغنياء ويفضّلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله منقصة لهم أىّ منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الإمتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرّون على هذا الطلب فى طرد اولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدلة حيّة، فيقول: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (۱).

فى الحقيقة كان هؤلاء يستندون فى طلبهم ذاك إلى سنّة قديمة خاطئة تقيّم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير.

ثم تقول الآيـة: إنّه ليس ثمّـة مـا يـدعو إلى إبعـاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ». ولكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً: «فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ».

والمقصود من «الحساب» هنا هو حساب الأعمال. إنّ المشـركين كانوا يتهمون أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الفقراء بالإبتعاد عن اللَّه بسبب فقرهم، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند اللَّه لزمه الترفيه والتوسعة عليهم فى معيشتهم.

فيرد القرآن على ذلـك مبيّنـاً أنّنـا حتى لو فرضـنا أنّهم كـذلك، فـإنّ حسـابهم على اللَّه، مادام هؤلاء قـد آمنوا وأصـبحوا فى صـفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأىّ ثمن، وبهذا يقف فى وجه إحتجاج أشراف قريش.

إمتياز كبير للإسـلام: إنّنا نعلم أنّ دائرة صـلاحيات رجال الدين المسـيحيين المعاصـرين قد اتسـعت إتساعاً مضحكاً بحيث إنّهم أعطوا أنفسـهم حق غفران الـذنوب، فبإمكـانهم طرد الأشـخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأـتفه الامـور. إلّاأنّ القرآن، فى هـذه الآيـة وفى آيات اخرى ينفى صـراحة أن يكون لأحـد الحق، بـل ولاـ لرسول اللَّه صـلى الله عليه و آله نفسه فى أن يطرد أحـداً أظهر إيمانه ولـم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأنّ غفران الذنوب والحساب بيد اللَّه وحده، ولا يحق لأحد التدخل فى هذا أبداً.

---

(۱) معنى «الوجه» فى اللغة معروف، ولكنّ الكلمة قد تعنى «الذات» كما فى هذه الآية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰

الآيـة الثانيـة يحـذّر فيهـا القرآن أصـحاب المـال والثروة من أنّ هـذه الامـور اختبـار لهم، فـإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحمّلوا العواقب المؤلمة، فاللَّه يمتحن بعضهم ببعض: «وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ». «الفتنة» تعنى هنا الامتحان.

ثم تضيف الآية: أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنّهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار «لِّيَقُولُوا أَهؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا».

ثم تجيب الآيـة على المعترضـين مؤكّدة أنّ هؤلاء الأشـخاص اناس شـكروا نعمة التشـخيص الصـحيح بالعمل، كما أنّهم شـكروا نعمة دعوة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بقبولها، فأىّ نعمـة أكبر وأىّ شـكر أرفع، ولـذلك رسّخ اللَّه الإيمان فى قلوبهم: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۴) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (۵۵) هذه الآية تبدأ أوّلًا بالطلب من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أن لاـ يطرد المـذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يسـتقبلهم ويتقبلهم: «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بَايَاتِنَا فَقُلْ سَلمٌ عَلَيْكُمْ».

يحتمل أن يكون هذا السـلام من اللَّه بوساطة رسوله أو أنّه من الرسول صـلى الله عليه و آله مباشـرة، وهو- على كلا الاحتمالين- دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة.

ثم تقول الآية: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

«كتب»: تأتى فى كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

وفى الجزء الأخير من الآية- وهو توضيح وتفسير لرحمة اللَّه- يتحدّث بلهجة عاطفية:

«أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

إنّ «الجهالة» فى مثل هذه المواضع تعنى طغيان الشهوة وسيطرتها.

الآيـة التالية ومن أجل توكيد هذا الموضوع تشـير إلى أنّ اللَّه سـبحانه يوضّح آياته وأوامره توضـيحاً بيّناً لكى يتبيّن طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱

المعاندين من أعداء اللَّه: «وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» «۱».

إنّ «المجرم» هنا هو اولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق. أى بعد هذه الدعوة العامّة إلى اللَّه، التى تشمل حتّى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۵۶) قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (۵۸) الإصرار العقيم: ما يزال الخطاب فى هذه الآيات موجّهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين- كدأب معظم آيات هذه السورة- يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى إعتناق دينهم، الأمر الذى يستدعى نزول الآية: «قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم بجملة «قُل لَّاأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ» يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية.

وفى ختام الآية يؤكد القرآن مرّة اخرى على أنّه إذا فعل ذلك «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

الآية التالية تتضمّن جواباً آخر وهو: «قُلْ إِنّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبّى وَكَذَّبْتُم بِهِ».

«البيّنة»: أصلًا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل.

---

(۱) جملة «ولتستبين» معطوفة على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲

إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يؤمر فى هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى فى قضية عبادة اللَّه ومحاربة الأصنام واضح وبيّن، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل. ثم يشير إلى حجة واهية اخرى من حججهم، وهى أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلًا فعجّل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد اللَّه: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

إنّ معنى «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» واضح، أى إنّ كل أمر فى عالم الخلق والتكوين وفى عالم الأحكام والتشريع بيد اللَّه، وكذلك كل منصب- بما فى ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء- إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر اللَّه تعالى

وبعد ذلك يقول مؤكّداً: إنّ اللَّه هو الذى «يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ».

الآية التالية تأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منّى على عجل كان فى سعتى وقدرتى، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بينى وبينكم شىء: «قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ».

ولكيلا يظنّوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» وسوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

«يقص»: فى اللغة ترد بمعنى القطع، وعلى هذا يكون معنى و «يَقُصُّ الْحَقَّ» إنّ اللَّه يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما.

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (۵۹) وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (۶۲) أسرار الغيب: فى هذه الآيات يدور الكلام

حول علم اللَّه وقدرته وسعة حكمه وأمره،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳

وهى تشرح ما اجملته الآيات السابقة. تشرع الآية فى الكلام على علم اللَّه فتقول: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

«مفاتح»: جمع «مفتح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح.

ثم لتوكيد ذلك أكثر يقول: «وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

«البرّ»: كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة؛ و «البحر»: كذلك تعنى المحل الواسع الذى يتجمّع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً. فالقول بأنّ اللَّه يعلم ما فى البرّ والبحر، كناية عن إحاطته بكل شىء.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحيّة، الكبيرة والصغيرة، فى أعماق البحار.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة فى الإلكترونات فى قلب الذّرة.

وهو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا ... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حد سواء.

لذلك فإنّه يؤكد ذلك مرّة اخرى فيقول: «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا». أى إنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة إنفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها فى الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلى أمام علم اللَّه.

كذلك لا تختفى حبّة بين طيّات التراب إلّاويعلمها اللَّه ويعلم كل تفاصيلها: «وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ».

التركيز هنا على نقطتين حسّاستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلّم الكمال فى صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

أىّ دماغ الكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات فى الخريف، وتطلّع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذٍ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهى أنّ علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً فى متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقة- فى الحقيقة- هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة فى مكمنها من الأرض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴

هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير اللَّه يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة.

إنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»: أمّا أثره الفلسفى، فينفى رأى الذين يحصرون علم اللَّه بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفى الآية هنا تأكيد على أنّ اللَّه يعلم الكليات والجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوى فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع للَّهيقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونيّاتك، وأفكارك كلها بيّنة أمام اللَّه، فإذا آمن الإنسان حقاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونيّاته.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

فى الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم اللَّه بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلى وإلى بيان قدرة اللَّه القاهرة، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ اللَّه هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، ويعلم ما تعملون فى النهار: «وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ».

«توفّى»: تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام فى إرتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف فى هذا الإرتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

«جرحتم»: من «جرح» وهى هنا بمعنى الإكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة اللّه وعلمه ليلًا ونهاراً، وانّ الذى يعلم بإنفلاق الحبّة ونموها فى باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها فى أىّ مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً.

ثم يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون فى الليل «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى». أى ثم يوقظكم فى النهار .. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

ويبيّن القرآن النتيجه النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية الثالثة توضيح أكثر لإحاطة علم اللّه بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵

«حفظة»: جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس.

ثم يبين القرآن الكريم أنّ حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت:

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَايُفَرِّطُونَ».

وتبين الآية فى النهاية أنّ هؤلاء الملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم فى حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

فى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ». أى عادوا إلى اللّه بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفّهم الحاوى على كل شىء.

وفى تلك المحكمة يكون النظر فى القضايا وإصدار الأحكام بيد اللّه: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ».

وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفّات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاخب فإنّ اللّه سريع فى النظر فيها: «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ».

روى فى تفسير مجمع البيان عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه سُئل كيف يحاسب اللّه الخلق ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه. وروى «أنّه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة». أى إنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) النور الذى يضىء فى الظلام: مرّة اخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك فى تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبى صلى الله عليه و آله قل لهم: «قُل مَن يُنَجّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

إنّ الظلام يكون حسياً أحياناً ومعنوياً أحياناً اخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النور إنقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهيد، والظلام المعنوى هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة.

وإذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً فى البحر،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶

وتحاصره فى ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنور الذى يسطع فى أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما

يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة اللَّه، لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: «تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً». وتعقدون- وأنتم فى تلك الحالة- عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: «لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ثم تأمر الآية النبى صلى الله عليه و آله أن يخبرهم أنّ اللَّه سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: «قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ».

«الكرب»: فى الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعنى العقدة المحكمة الشد فى حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التى تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵) ألوان العذاب: فى هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب اللَّه وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أى أنّ اللَّه وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففى هذه الآية يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل فى اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ».

إنّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرّق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوى والصواعق والزلازل، وهو كذلك، بل قد يكون الخراب الناشىء من اختلاف الكلمة والتفرّق أحياناً أشدّ وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أنّ دولًا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمى العالم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷

وفى الختام تقول الآية: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ». أى انظر كيف نوضّح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى اللَّه.

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷) تكمل هاتان الآيتان البحث الذى جرى فى الآيات السابقة عن الدعوة إلى اللَّه والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب اللَّه. الآية الاولى: تخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ قومه- أى قريش وأهل مكة- لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق وحق وتؤكده الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ». ثم يصدر الأمر إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ». أى إنّما أنا رسول ولست أضمن قبولكم.

إنّ المقصود من «وكيل» هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد والضامن لهم.

وفى الآية التالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوة إلى إختيار الطريق الصحيح، «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ». أى أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول صلى الله عليه و آله فى هذه الدنيا أو فى الآخرة موضع ومقر وسوف يتحقق فى موعده المقرر وعندئذ ستعرفون ذلك.

وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۶۸) وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۶۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لمّا نزلت «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذاً المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل اللَّه سبحانه «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ»: أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا».

التّفسير

إجتناب مجالس أهل الباطل: بما أنّ المواضيع التى تتطرّق إليها هذه السورة تتناول حال المشركين وعبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان عن موضوع آخر من المواضيع التى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸

تتعلق بهم، ففى البداية تقول للرسول صلى الله عليه و آله: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ» «۱». ثم تخاطب الآية رسول اللّه مؤكدة أهمية الموضوع: «وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». أى إذا أنساك الشيطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعليك- حالما تنتبه- أن تنهض فوراً وتترك مجالسة الظالمين.

سؤال: هل يمكن للشيطان أن يتسلط على النبى صلى الله عليه و آله ويسبب له النسيان؟

فى الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب فى الآية وإن يكن موجّهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله فهو يتحدّث فى الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا فى اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال إنتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث فى حياتنا اليومية وموجود فى مختلف آداب العالم، فأنت قد توجّه الخطاب إلى أحدهم ولكن هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إيّاك أعنى واسمعى يا جارة.

الآية التالية فيها إستثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين فى جلسات هؤلاء المشركين لكى ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدّى ذلك إلى انصراف اولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، وأنّ آثام اولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة والقيام بالواجب:

«وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَىْءٍ وَلكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وينبغى أن نعلم- فى الوقت نفسه- إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، وبعدم التأثّر بهم، وبالقدرة على التأثير فيهم.

وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

---

(۱) «الخوض»: كما يقول الراغب الأصفهانى فى «مفرداته» هو الدخول فى الماء والمرور فيه، ثم استعير للورود فى امور اخرى، وأكثر ما ترد فى القرآن بشأن الدخول فى موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹

هذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، وتأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يدع اولئك الذين يستهينون بأمر دينهم، ويتخذون ممّا يلهون ويلعبون به مذهباً لهم ويغترون بالدنيا وبمتاعها المادى: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

وتشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتى من حيث المحتوى أجوف وواه.

إنّ «دينهم» يعنى «دين الشرك وعبادة الأصنام» الذى كانوا يدينون به. فالآية لا تخصّ الكفار وحدهم، بل هى تشمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهية ومن المقدسات وسائل للتلهى وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادية الشخصية، اولئك الذين يجعلون الدين آلة الدنيا، والأحكام الإلهية ألعوبة أغراضهم الخاصة.

ثم يؤمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يتبّههم إلى أعمالهم هذه وإلى أنّ هناك يوماً لابدّ لهم أن يستسلموا فيه لنتائج أعمالهم ولن يجدوا من ذلك مفرّاً: «وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ» «۱».

يوم لا شفيع ينفع ولا ولى سوى اللّه: «لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

إنّهم يومئذ فى حال صعبة مؤلمة يرزحون فى قيود أعمالهم بحيث إنّهم يرتضون أن يدفعوا أيّة غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونه) ولكنّها لن تقبل منهم: «وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا» «۲».

ذلك لأنّهم يكونون بين مخالب أعمالهم، ولا فدية تنجيهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: «أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا».

ثم يشار إلى جانب ممّا سيصيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق والحقيقة:

«لَهُمْ شَرَابٌ مِن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

إنّهم يتعذّبون بالماء الحريق من الداخل، ويكتوون بنار الجحيم.

إنّ جملة «أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا» هى بمثابة السبب الذى يمنع من قبول الغرامة ومن قبول أىّ شفيع وولى، أى إنّ عقابهم ليس لعلّة خارجية بحيث يمكن دفعها بشكل من

---

(۱) «البسل»: هو حفظ الشىء ومنعه بالقوّة والقهر، والإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمة على الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، والجيش الباسل بمعنى القاهر الذى يحمل العدو على التسليم، والمعنى فى الآية هو تسليم المرء وخضوعه لأعماله السيئة.

(۲) «العدل»: بمعنى «المعادل» وهو ما يدفع جزاءاً وغرامة لقاء التحرر، وهو أشبه فى الواقع بما يفتدى به.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰

الأشكال، بل ينبع من داخل الذات وسلوكها وأعمالها، إنّهم أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفرّ لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله وآثارها إنّما هو فرار من ذاته، وهو غير ممكن.

قُلْ أَ نَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَ أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲) كان المشركون يصرّون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النبى صلى الله عليه و آله بالردّ عليهم ردّاً يدحض رأيهم ويفند دعوتهم فى جواب بصيغة الاستفهام الإستنكارى: أتريدون منّا أن نشرك مع اللَّه ما لا يملك لنا نفعاً فنعبده لذلك، ولا يملك لنا ضرراً فنخافه: «قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا».

هذه الآية تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهى إمّا أن تهدف إلى استجلاب منفعة وإمّا إلى دفع ضرر (مادياً كان أم معنوياً).

ثم يأتى باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقرى، وهذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: «وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَينَا اللَّهُ» «۱».

ثم يضرب مثلًا لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادى التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّها تكمن فى منعطفات الطرق وتغوى السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً فى الباديّة: «كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ» «۲». بينما له رفاق يرشدونه إلى

---

(۱) «أعقاب»: جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى انثنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

(۲) «إستهوته»: من «الهوى وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى و «الحيرة»: هى التردد فى الأمر، وفى الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱

الصراط السوى المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنه من الحيرة والتيه بحيث لا ـ يسمع النداء، أو إنّه غير قادر على اتخاذ القرار: «لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا».

وفى الختام يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول: إنّ الهداية من اللّه وليس لنا إلّاأن نسلم لأمر اللّه ربّ العالمين: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلّالخالق الكون ومالكه وربّ عالم الوجود، لا الأصنام التى لا دور لها فى إيجاد هذا العالم وإدارته.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: إنّنا فضلًا عن التوحيد، فقد أمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى اللّه: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَاتَّقُوهُ».

وفى الختام يشار إلى المعاد وإلى أنّ الناس إلى اللّه يرجعون: «وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۷۳) هذه الآية دليل على ما جاء فى الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم للّهوإتّباع رسوله، لذلك تقول: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ».

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذى يجب الخضوع والتسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

ثم يقول: إنّه فضلًا عن كونه مبدع عالم الوجود، فإنّ يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فوراً: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ».

ثم يضيف: أنّ ما يقوله اللّه هو الحق، أى إنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: «قَوْلُهُ الْحَقُّ».

وفى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك للّه: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ».

حكومة اللّه على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفى يوم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲

القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثّر فى مسار هذهالدنيا وتقدّمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود اللّه وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإنّ حكومة اللّه ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أىّ وقت سابق.

وفى ختام الآية إشارة إلى ثلاث من صفات اللّه تعالى، فهو: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ». أى إنّه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازى كلًّا بما يستحقه.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۷۴) لمّا كانت هذه السورة تحارب الشرك وعبادة الأصنام تستخدم هنا حكاية إبراهيم.

يقول: إنّ إبراهيم وبّخ أباه (عمّه) قائلًا: أتختار هذه الأصنام الحقيرة التى لا حياة فيها آلهة للعبادة: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنّى أَرَيكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

وأىّ ضلال أشدّ وأوضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهاً يعبده، ويتخذ من كائن جامد لا روح فيه ولا إحساس ملجأ يفزع إليه ويبحث عن حلّ مشاكله عنده.

هل كان آزر أبا إبراهيم؟ تطلق كلمة «الأب» فى العربية على الوالد غالباً، ولكنها قد تطلق أيضاً على الجد من جهة الام وعلى العم، وكذلك على المربى والمعلم والذين يساهمون بشكل ما فى تربية الإنسان.

وقد وردت فى القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما فى الآية (۱۳۳) من سورة البقرة:

«قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ ءَابَائِكَ إِبْرهِيمَ وَإِسْمعِيلَ وَإِسْحقَ إِلهًا وَاحِدًا».

والضمير فى «قالوا» يعود على أبناء يعقوب وكان إسماعيل عم يعقوب لا أباه.

الطبرى ينقل فى تفسيره جامع البيان عن مجاهد قال: ليس آزر أبا إبراهيم.

وفى تفسير روح المعانى: أنّ آزر اسم عم إبراهيم، والعم والجد يسميان أبا مجازاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳

وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هـذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هـذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هـذَا رَبِّى هـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹) أدلة التوحيد فى السماوات: على أثر الكره الذى كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقى مع مختلف عبدة الأصنام، وتبين كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلى الواضح. تبين أوّلًا أنّ اللَّه كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية اللَّه وسلطته المطلقة على السماوات والأرض: «وَكَذلِكَ نُرِى إِبْرهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«الملكوت»: من «ملك» بمعنى المالكية والحكم، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة اللَّه المطلقة على عالم الوجود برمّته.

وكما أنّه فى الختام يقول: إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ».

لا شك أنّ إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بواحدانية اللَّه، ولكنه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حدّ الكمال.

الآيات التالية تشرح هذا المعنى، وتبين استدلال إبراهيم من افول الكواكب والشمس على عدم الوهيتها، فعندما غطّى ستار الليل المظلم العالم كله، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربى! ولكنه إذ رآه يغرب، قال: لا أحب الذين يغربون: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْأَفِلِينَ».

ومرّة اخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضّى ذو الإشعاع واللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربى: ولكن مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيّات الافق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدنى ربى إلى الطريق الموصل إليه فسأكون فى عداد التائهين «فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هـذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ». عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقى بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبى تنشره على الجبل والوادى والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هـذا ربى فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنه إذ رآها كذلك تغرب وتختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائى قائلًا: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التى تجعلونها شريكة للَّه: «فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبِّى هذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هـذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فانّى أتجه إلى الذى خلق السماوات والأرض، وفى إيمانى هذا لن أشرك به أحداً، فإنّى موحد ولست مشركاً: «إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد للَّهالواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء ويقول: هذا ربّى؟ فإنّه عندما يقول: «هـذَا رَبّى» لا- يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكّر فى الأمر. أو أنّه قال «هـذَا رَبّى» تعنى: هذا ما تعتقدون أنّه ربى.

وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِّی فِی اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ یَشَاءَ رَبِّی شَیْئاً وَسِعَ رَبِّی كُلَّ شَیْءٍ عِلْماً أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَیْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْكُمْ سُلْطَاناً فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَیْنَاهَا إِبْرَاهِیمَ عَلَی قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِیمٌ عَلِیمٌ (٨٣)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۵

تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ».

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلًا: لماذا تجادلوننى فى اللّه الواحد الأحد وتخالفوننى فيه، وهو الذى وهبنى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى طريق التوحيد «قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينِ».

يتّضح فى هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأىّ ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته، قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها فى محاولة لإرعابه وإخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنّه لا يخشى أصنامهم التى لا حول لها ولا قوة فى إيصال أىّ أذى إليه «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ...» فما من أحد ولا من شيء بقادر على أن يلحق بى ضرراً إلّاإذا شاء اللّه:

«إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبّى شَيًا».

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السلام سعى لإتخاذ إجراء وقائى تجاه حوادث محتملة، فيؤكّد أنّه إذا أصابه فى هذا الصراع شيء- فرضاً- فلن يكون لذلك أىّ علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة اللّه.

ويضيف إلى ذلك مبيّناً أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كل شيء:

«وَسِعَ رَبّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا».

ثم يحرّك فيهم روح البحث والتفكير فيخاطبهم قائلًا: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

فى الآية التالية ينهج إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف يمكننى أن أخشى الأصنام ويستولى علىّ الخوف من تهديدكم، مع إنّى لا أرى فى أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود اللّه وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فانّكم لا تخافون غضبه:

«وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» «١».

كونوا منصفين إذن وقولوا:

«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

---

(١) «السلطان»: بمعنى التفوّق والإنتصار، ولمّا كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والإنتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أى لا وجود لأىّدليل على السماح.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۶

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنّكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أنّ تأثيرها وهمٌ من الأوهام، ولكنّكم بعدم خشيتكم من اللّه العظيم الذى نؤمن به جميعاً، ونعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمى، ولم يصدر اللّه تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

فى الآية التالية جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالًا عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أنّ الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه

كل شخص). يقول: إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

الآية التالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنهَا إِبْرهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ».

ثم تقول الآية: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ». ولكيلا يخامر بعضهم الشك فى أنّ اللّه يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إنّ اللّه متصف بالحكمة وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۸۴) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۵) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (۸۶) وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۸۷) فى هذه الآيات إشارة إلى النعم التى اسبغها اللّه على إبراهيم، وهى تتمثل فى أبناء صالحين وذرية لائقة، وهى من النعم الإلهية العظيمة. يقول سبحانه: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرد كونهما ولدى نبى، بل لإشعاع نور الهداية فى قلبيهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: «كُلًّا هَدَيْنَا».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۷

ثم لكيلا يتصور أحد أنّه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ».

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنّما هى توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و «الذرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من اسرة إبراهيم: «وَمِن ذُرّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهرُونَ». ثم يبيّن أنّ منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

فى الآية الثانية يرد ذكر زكريّا ويحيى وعيسى والياس على أنّهم جميعاً كانوا من الصالحين. أى إنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هى بسبب أعمالهم الصالحة فى سبيل اللّه: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: «وَإِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفى الآية الأخيرة إشارة عامة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماؤهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم اللّه: «وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (۸۹) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (۹۰) ثلاثة إمتيازات مهمة: بعد ذكر مجموعات الأنبياء فى الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامة لحياتهم، وتبدأ القول: «ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فى هذا الطريق، أو يظن أنّ اللّه

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۸

ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصة وإستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهى الذى يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآيـة التاليـة تشـير إلى ثلاثـة إمتيـازات مهمـة هى أسـاس جميع إمتيـازات الأنبياء، وهى قوله: «أَولئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

إنّ الحكم أصلًا هو المنع، ومن ذلك العقل الذى يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهى قد استعملت فى المعانى الثلاثة.

ثم يقول: لئن رفضت هـذه الجماعـة (أى المشـركون وأهل مكـة) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير إسـتجابة، إذ إنّنا قـد أمرنا جمعاً آخر، لا بقبولها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسـلكون طريق الكفر أبـداً، بل يتبعون الحق: «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ».

جاء فى تفسير المنار وتفسير روح المعانى عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، وقد أسرعوا فى قبول الإسلام وجاهدوا فى سبيل نشره، وظهر فيهم العلماء فى شتى العلوم والفنون الإسلامية وألّفوا الكثير من الكتب.

الآيـة الأخيرة تجعـل من منهـاج هؤلاـء الأنبيـاء العظـام قـدوة رفيعـة للهدايـة تعرض على رسول الخاتم صـلى الله عليه و آله فتقول له: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ».

تؤكد هذه الآية مرّة اخرى على أنّ اصول الدعوة التى قام بها الأنبياء واحدة.

إنّ للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الاصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الاصول الأخلاقية والتربوية.

ثم يؤمر النبى صـلى الله عليه و آله أن يقول للنـاس إنّه مثـل سائر الأنبياء لا يتقاضـى أجراً لقاء عمليـة تبليغ الرسالـة: «قُل لَّاأَسَـلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا».

ثم إنّ هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هى إلّاإيقاظ وتوعية للناس جميعاً: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ».

إنّ النعم العامة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هى امور عامة وعالمية، لا تباع ولا تشترى، ولا أجر يعطى لقاءها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ اليهود قالت يا محمّد! أنزل اللَّه عليك كتاباً؟

قال: «نعم». قالوا: واللَّه ما أنزل اللَّه من السماء كتاباً.

التّفسير

يبـدو من سـبب النزول وسياق الآيـة انّها بشأن اليهود لا المشـركين، لـذلك يرى بعضـهم أنّ هـذه الآيـة قـد نزلت فى المدينـة، إلّاأنّها وضـعت فى هـذه السورة المكيـة بأمر من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله ولهـذا فى القرآن ما يشابهه. فى البدايـة تقول الآيـة: إنّهم لم يعرفوا اللَّه معرفـة صـحيحة وأنكروا نزول كتاب سـماوى على أحد: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَـىْءٍ».

فيأمر اللَّه رسوله أن «قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ».

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صـحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم وتخفون ما تظنونه يضرّكم: «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا».

إنّكم تتعلمـون من هـذا الكتـاب السـماوى امـوراً كـثيرة لم تكونوا أنتم ولاـ أبـاؤكم تعلمون عنهـا شـيئاً: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ».

وفى ختـام الآيـة يؤمر النبى صـلى الله عليه و آله أن يـذكر اللَّه وأن يترك اولئـك فى أباطيلهم وعنادهم ولعبهم: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى

خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

وَ هذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (۹۲) تعقيباً على البحث الـذى دار فى الآيات السابقهٔ حول كتاب اليهود السـماوى، تشـير هذه الآيهٔ إلى القرآن باعتباره كتاباً سماوياً آخر، والواقع أنّ ذكر التوراهٔ مقدمـهٔ لذكر القرآن لإزالهٔ كل عجب وتخوّف من نزول كتاب سـماوى على فرد من البشـر، فتبدأ بالقول: «وَهذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ». وهو كتاب «مبارك» لأنّه مصدر كل خير وبركهٔ وصلاح وتقدم، ثم إنّه يؤكد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰

الكتب الـتى نزلت قبله: «مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ». والمقصـود من أنّ القرآن يصـدّق الكتب الـتى بين يـديه، هـو أنّ جميـع الإشـارات والإمارات التى وردت فيها تنطبق عليه. وبناءاً على ذلك فصدق القرآن يتجلى فى محتواه من جههٔ، وفى المستندات التاريخيهٔ من جههٔ اخرى.

ثم يبيّن القرآن هـدف نزوله وهو توجيه الإنـذار والتحـذير لُامّ القرى (مكـهٔ) والسـاكنين حولهـا وتنبيههم إلى مسؤولياتهم وواجباتهم: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

وفى الختـام تقرر الآيـهٔ أنّ الـذين يعتقـدون بيوم القيامـهٔ، يوم الحساب والجزاء، سـيصدّقون بهـذا الكتاب، ويؤدّون فريضـهٔ الصـلاهٔ ولا يفرّطون فيها: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

إنّ اليابسهٔ قد انتشرت من تحت الكعبهٔ وهو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض».

«ومن حولها» أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمّتها.

نلاحظ فى هـذه الآيهٔ أنّها تشـير إلى الصـلاهٔ من بين جميع الفرائض الدينيهٔ، ونعلم أنّ الصـلاهٔ هى مظهر الإرتباط باللّه، ولذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزلهٔ، ويرى بعضهم أنّه عند نزول هذه الآيهٔ كانت العبادهٔ الوحيدهٔ المفروضهٔ حتى ذلك الوقت هى الصلاهٔ.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: اختلفوا فيمن نزلت هذه الآيهٔ، فقيل: نزلت فى مسـيلمهٔ، حيث ادّعى النبوهٔ إلى قوله «وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ» وقوله «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ» فى عبـد اللّه بن سـعد بن أبى سـرح، فإنّه كان يكتب الوحى للنبى عليه السـلام فكان إذا قال له اكتب عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً، وإذا قال له اكتب غفوراً رحيماً كتب عليماً حكيماً، وارتدّ ولحق بمكهٔ، وقال إنّى مثل ما أنزل اللّه.

هذه الآيهٔ، مثل سائر آيات القرآن، نزلت فى ظروف خاصهٔ، وهى ذات محتوى عام يشمل كل من إدّعى النبوهٔ وأمثالهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱

التّفسير

فى الآيات السابقـهٔ مرّت الإشارهٔ إلى مزاعم اليهود الـذين أنكروا نزول أى كتاب سـماوى على أحـد، وفى هذه الآيهٔ يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماماً لأولئك، فيزعمون كذباً أنّ الوحى ينزل عليهم.

وتتناول الآيهٔ ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففى البدايهٔ تقول: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

والجماعهٔ الثانيـهٔ هم الـذين يـدّعون النبوّهٔ ونزول الوحى عليهم، فلاـ هم أنبيـاء، ولا نزل عليهم وحى: «أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ».

والجماعهٔ الثالثهٔ هم الذين أنكروا نبوّهٔ نبى الخاتم صلى الله عليه و آله أو زعموا ساخرين أنّهم يسـتطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن،

وهم فى ذلک کاذبون ولا قدرهٔ لهم على ذلک: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ».

نعم، هؤلاء کلهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدّعى لنفسه القيادهٔ الإلهيهٔ وليست لديه صلاحيهٔ مثل هذا المقام.

ثم تبيّن العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَكَهُٔ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ» «۱». أى لو أنّک- أيّها النبى- رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائکهٔ قبض الأرواح مادّين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيّا أخرجوا أرواحکم، لأدرکت العذاب الذى ينزل بهم.

عندئذٍ تخبرهم ملائکهٔ العذاب بأنّهم سينالون اليوم عذاباً مذلّاً لأمرين: الأوّل: إنّهم کذبوا على اللَّه، والآخر، إنّهم لم ينصاعوا لآياته: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ». «أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ» تعنى فى الواقع ضرباً من التحقير تبديه الملائکهٔ نحو هؤلاء الظالمين، وإلّا فإنّ إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائکهٔ.

---

(۱) «الغمرات»: جمع غمرهٔ (على وزن ضربهٔ)، و أصل الغمر إزالهٔ أثر الشيء، ثم استعملت للماء الکثير الذى يستر وجه الشيء تماماً، کما تطلق على الشدائد والصعاب التى تغمر المرء.

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى النضر بن الحرث بن کلدهٔ، حين قال: سوف يشفع لى اللات والعزى.

التّفسير

الضّالون: أشارت الآيهٔ السابقهٔ إلى أحوال الظالمين وهم على شفا الموت، وتنطلق هذه الآيهٔ لتتحدث عن خطاب اللَّه لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحهٔ يوم القيامهٔ، فتبدأ الآيهٔ بالقول بأنّهم يأتون يوم القيامهٔ منفردين کما خلقوا منفردين: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

والأموال التى وهبناها لکم وکنتم تستندون إليها فى حياتکم، قد خلّفتموها وراءکم، وجئتم صفر الأيدى: «وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ» «۱».

ولا نرى معکم تلک الأصنام التى قلتم إنّها سوف تشفع لکم وظننتم أنّها شريکهٔ فى تعيين مصائرکم «وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا».

ولکن الواقع أنّ جمعکم قد تبدد، وتقطعت جميع الروابط بينکم: «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ».

وکل ما ظننتموه وما کنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: «وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

کان المشرکون العرب يستندون فى حياتهم إلى أشياء ثلاثهٔ: القبيلهٔ أو العشيرهٔ التى کانوا ينتمون إليها، والأموال التى جمعوها لأنفسهم، والأصنام التى اعتبروها شريکهٔ للَّهفى تقرير مصير الإنسان وشفيعهٔ لهم عند اللَّه، والآيهٔ فى کل جملهٔ من جملها الثلاث تشير إلى واحدهٔ من هذه الامور، وإلى أنّها عند الموت تودعه وتترکه وحيداً فريداً.

---

(۱) «خوّلناکم»: من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارهٔ، وهو النعم التى يسبغها اللَّه تعالى على عباده.

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الإنشدادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياة الدنيا ليكون سنداً لهم يستعينون به فى يوم بؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحى بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنّهم لا يُروا بالعين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۹۵) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْبَاناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۹۶) مرّة اخرى يوجّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد فى عبارات جذّابة وفى نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه.

فى الآية الاولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفى الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماوية. يقول القرآن الكريم أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبّ وَالنَّوَى .

«الفلق»: شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض. و «الحب» و «الحبة»: تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التى تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً. و «النوى»: من النّواة.

وممّا يلفت الإنتباه أنّ الحبّة والنّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التى هى فى الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام إختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تُمكّنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثة عجيبة فى عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثم يقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيّتِ مِنَ الْحَيّ».

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التى لم تستطيع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴

مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحوّل إلى كائنات حيّة. لذلك نجد القرآن- وفى معرض إثبات وجود اللَّه- كثيراً ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسى، على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

وفى ختام الآية توكيد للموضوع: «ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». أى هذا هو ربّكم وهذه هى قدرته وعلمه اللامتناهى، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل.

فى الآية الثانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أوّلًا: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ».

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتى النّور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم اللَّه الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذى يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض- مثل القمر- عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدّى إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يهيّىء الإنسان تدريجياً لتقبّل هذين الاختلافين المتضادين والإنتقال من الظلمة إلى النور، ومن النور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمّل كل منهما.

ولكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا».

من الامور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتّجه الدم نحو سطح الجسم وتتهيّأ العضلات للفعالية والنشاط، ولذلك لا يكون النوم فى الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلّما كان الظلام أشد، حيث يتّجه الدم فيه نحو الداخل، وتدخل الخلايا عموماً فى نوع من السكون والراحة، لذلك نجد فى الطبيعة أنّ النوم فى الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فى الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها ونشاطها، بعكس الإنسان فى هذا العصر الآلى، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثم يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵

ثم يشير اللّه تعالى إلى الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا».

إنّه لموضوع مهم جدّاً أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، أنّ حساب هذا الدوران من الدقّة والضبط بحيث إنّه لا يتقدّم ولا يتأخر لحظة واحدة.

وهذا ما لا يمكن أن يكون إلّافى ظل علم وقدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه وينفذانه بدقة، لذلك تنتهى الآية بقولها: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر فى الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة اخرى من نعم اللّه على البشر، فجعل النجوم ليهتدى بها الانسان فى ليالى البر والبحر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

وتختتم الآية بالقول بأنّ اللّه قد بيّن آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

منذ آلاف السنين والإنسان يعرف النجوم فى السماء ونظامها، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الإتجاه فى الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص فى المحيطات الواسعة التى كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الإتجاه قبل إختراع الإسطرلاب.

إنّ النجوم هى التى هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى برّ السلامة.

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۹۹)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة اللّه، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به فى آفاق العالم البعيدة وقد يسير به فى داخل ذاته ويبيّن له آثار اللّه فى جسمه وروحه، فيتيح له أن يرى اللّه فى كل مكان. فيبدأ بالقول: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ». أى إنّكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير فى مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التى أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

ثم يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ».

«المستقر»: أصله من «القُر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضى السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع»: من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعنى أنّ الناس بعض «مستقر» أى ثابت، وبعض «مستودع» أى غير ثابت. يحتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين فى تركيب نطفة الإنسان، إنّ النطفة تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الانثى، والثانى هو «الحيمن» أو «المنى» من الذكر، فالبويضة فى رحم الانثى تكاد تكون مستقر ولكن حيمن الذكر حيوان حى يتحرك بسرعة نحوها،

وما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضـة حتى يمتزج بها و «يخصبها» ويصد (الحيامن) الاخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى

وفى ختام الآية يعود فيقول: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ».

الآيـة الثانيـة هى آخر آيـة فى هـذه المجموعـة التى تكشف لنـا عن عجائب عالم الخلق وتهـدينا إلى معرفـة اللّه بمعرفـة مخلوقاته. فى البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم اللّه التى يمكن أن تعتبر النعمة الام وأصل النعم الاخرى، وهى ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التى نزلت من السماء: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً».

وإنّما قال (من السـماء) لأنّ سماء كل شىء أعلاه، فكل ما فى الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثّر فى كمية المياه فى تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۷

ثم تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ».

المقصود من «نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ» هو كل أنواع النباتات وأصـنافها التى تسـقى من ماء واحـد، وتنبت فى أرض واحـدة وتتغـذّى من تربة واحدة، وأنّه لمن العجيب أنّ اللّه تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذى يحتاجه كل هؤلاء.

والأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصـحراء واليابسة ليست وحدها التى تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التى تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ثم تشرح الآيـة ذلـك وتضـرب مثلًا ببعض النباتـات التى تنمو بفضـل المـاء، فتـذكر أنّ اللّه يخرج بالماء سـيقان النباتات الخضـر من الأرض، ومن تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا» «۱».

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجناالحبّ متراصفاً منظماً: «نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا» «۲».

وكـذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثم يتشـقق فتخرج الاعـذاق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبّات التمر، فتتدلى من ثقلها: «وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ».

«الطلع»: هو عـذق التمر قبل أن ينفتـح غلافه الأخضـر، وإذ ينفتـح الطلع تخرج منه أغصان العـذق الرفيعة، وهى القنوان ومفردها قنو. و «دانية»: أى قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنّها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: «وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من روائع الخلق فى هذه الأشجار والأثمار، فتقول:

«مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

إنّ شـجرتى الرمـان والزيتون متشابهتـان من حيث الشـكل الخارجى وتكوين الأغصان وهيئـة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنّهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففى الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفى الرمان مادة حامضيـة أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان فى أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهتان وغير متشابهتين فى آن واحد.

---

(۱) كلمة «أخضـر» تشـمل كل أخضـر فى النبات، حتّى براعم الأشـجار، ولكن بما إنّها متبوعة مباشـرة بالحب المتراكب فالمقصود فى الآية هو زراعة الحبوب.

(۲) «المتراكب»: من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۸

ثـم تركّز الآيـة مـن بيـن مجمـوع اجزاء الشـجرة، على ثمرة الشـجرة وعلى تركيـب الثمرة إذا أثمرت، وكـذلك على نضـج الثمرة إذا

نضـجت، ففیهـا دلائـل واضـحة علی قـدرة اللَّه وحکمته للمؤمنین من النـاس: «انظُرُوا إِلَی ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَیَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِکَمْ لَأَیَاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ».

ما نقرؤه الیوم فی علم النبات عن کیفیـة طلوع الثمرة ونضـجها یکشف لنا عن الأهمیـة الخاصة التی یولیها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة فی عالم النبات أشـبه بولادة الأبناء فی عالم الحیوان، فنطفة الذکر فی النبات تخرج من أکیاس خاصة بطرق مختلفة (کالریاح أو الحیوانـات) وتحـط علی القسم الانـثوی فی النبات، وبعـد التلقیـح والترکیب تتشـکل البیضـة الملقحـة الاولی، وتحیط بها مواد غـذائیة مشابهـة لترکیبها، وهذه المواد الغذائیة تختلف من حیث الترکیب وکذلک من حیث الطعم والخواص الغذائیة والطبّیة. فقد تکون ثمرة (مثل العنب والرمان) فیها مئات من الحبّ، کل حبّة منها تعتبر جنیناً وبذرة لشجرة اخری، ولها ترکیب معقّد عجیب.

هـذا من جهـة، ومن جهـة اخری فـإنّ المراحـل المتعـددة التی تمرّ بهـا الثمرة منـذ تولـدها حتی نضـجها تثیر الإنتبـاه، لأنّ «المختبرات» الداخلیـة فی الثمرة لاـ تنفـک عن العمـل فی تغییر ترکیبهـا الکیمیـاوی إلی أن تصـل إلی المرحلـة النهائیـة ویثبت ترکیبهـا الکیمیاوی النهائی، فکل مرحلة من هذه المراحل دلیل علی عظمة الخالق وقدرته.

ولکن لابـدّ من القول- بحسب تعبیر القرآن- إنّ المؤمنین الـذین یمعنون النظر فی هذه الامور هم الذین یرون هذه الحقائق، وإلّا فعین العناد والمکابرة والإهمال والتساهل لا یمکن أن تری أدنی حقیقة.

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَنَاتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَی عَمَّا یَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِیعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۰۱) ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ کُلِّ شَیْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۱۰۲) لَا تُدْرِکُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ (۱۰۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۹

خالق کل شـیء: هـذه الآیات تشـیر إلی جانب من العقائـد السـقیمة والخرافات التی یؤمن بها المشـرکون وأصـحاب المذاهب الباطلة، وتردّ علیهم بالمنطق. فأوّلًا: قالوا: إنّ للَّهشرکاء من الجن «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکَاءَ الْجِنَّ».

فینکر الإسـلام علیهم ذلـک، إذ کیـف یمکن ذلـک وهـو الـذی خلـق الجن: «وَخَلَقَهُمْ». أی کیـف یمکن أن یکـون المخلوق شـریکاً للخالق، لأنّ الشرکة دلیل التماثل والتساوی، مع أنّ المخلوق لا یمکن أن یکون فی مصاف خالقه أبداً!

الخرافة الاخری هی قولهم- جهلًا- إنّ للَّهبنین وبنات: «وَخَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَبَنَاتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ».

أفضل دلیل علی أنّ هذه العقائد لیست سوی خرافة، هو أنّها تصدر عنهم «بِغَیْرِ عِلْمٍ».

أی إنّهم لا یملکون أیّ دلیل علی هذه الأوهام.

من الملاحـظ أنّ القرآن اسـتعمل لفظـة «خرقوا»: من الخرق، وهو تمزیق الشـیء بغیر رویـة ولا حساب، وهی فی النقطـة المقابلـة تماماً «للخلق» القائم علی الحساب، هاتان اللفظتان:

«الخلق والخرق» قـد تسـتعملان فی حالـات الکـذب والاختلاق، مع اختلاف بینهما، هو أنّ (الخلق والإختلاق) تسـتعمل فی الأکاذیب المدروسـة و (الخرق والإـختراق) فیما لا حساب فیه من الکـذب. أی إنّهم اختلقوا تلک الأکاذیب دون أن یـدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن یعدّوا له ما یلزم من الامور.

أمّا الطوائف التی کانت تنسب للَّهالبنین، فإنّ القرآن یذکر فی آیات اخری اسم طائفتین من هؤلاء:

الاولی: هم المسیحیون الذین قالوا: إنّ عیسی ابن اللَّه.

والاخری: هم الیهود الذین قالوا: عزیر ابن اللَّه.

یستفاد من الآیة (۳۰) من سورة التوبـة أنّ المسـیحیین والیهود لیسوا وحـدهم الذین نسـبوا إبناً للَّه، بل کان هذا موجوداً فی المعتقدات الخرافیة القدیمة.

أمّا بشأن نسبة بنات للَّه، فالقرآن نفسه يوضّح ذلك فى آيات اخرى: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا» (۱).
والقرآن يرفض تماماً فى نهاية الآية كل هذه الخرافات التى لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ».

---

(۱) سورة الزخرف/ ۱۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۰

و الآية التالية تردّ على تلك العقائد الخرافية فتؤكد أنّ اللَّه هو ذلك الذى أبدع خلق السموات والأرض: «بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».
«البديع»: تعنى موجد الشيء بغير سابق وجود، أى انّ اللَّه أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.
ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ». وما حاجته إلى زوجة؟ ثم من التى تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟
ومرّة اخرى تؤكد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شيء، ومحيطاً بكل شيء: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلّ شيْءٍ عَلِيمٌ».
الآية الثالثة تؤكد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية اللَّه لكل شيء، وإبداعه السماوات والأرض وإيجادها، وكونه منزّهاً عن الصفات والعوارض الجسمية وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلمية بكل شيء: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ» فلا يستحق العبودية غيره.
ولكى ينقطع كل أمل بغير اللَّه، وتنقلع كل جذور الشرك والإعتماد على غير اللَّه، تختتم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».
الآية الاخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية اللَّه وإحاطته بكل شيء وحفاظه على كل شيء، وكذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شيء، تقول: «لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». أى: إنّه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.
فى الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شيء ومربيه وملجأه لابد أن يتّصف بهذه الصفات.
لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أنّ اللَّه لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّاالأجسام، أو على الأصح بعضاً من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسماً ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأنّ لهذا الشيء حيّزاً واتجاهاً وكتلة، فى حين أنّ اللَّه أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود فى كل شيء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۱

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَ مَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷) ليس من واجبك الإكراه: تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففى البداية تقول:
«قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبّكُمْ».
«بصائر»: جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، ولكنها فى الغالب رؤية ذهنية وعقلانية، وهذه الكلمة فى هذه الآيات تعنى الدليل والشاهد، وتشمل جميع الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.
ثم لكى تبين أنّ هذه الأدلة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، تقول: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا». أى إنّ إبصارهم يعود بالنفع عليهم وعماهم يسبب الإضرار بهم.
وفى نهاية الآية تقول، على لسان النبى صلى الله عليه و آله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ».

الآية التالية تؤكد أنّ إتخاذ القرار النهائى فى إختيار طريق الحق أو الباطل إنّما يرجع للناس أنفسهم، وتقول: «وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ» «۱». أى كذلك نبين الأدلة والبراهين بصور وأشكال متنوعة.

لكن جمعاً عارضوا، وقالوا- دونما دليل وبرهان- إنّك تلقيت هذا من الآخرين (أى اليهود والنصارى): «وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ».

إلّا أنّ جمعاً آخر ممن لهم الإستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة وفهم وعلم، يرون وجه الحقيقة ويقبلونها: «وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إنّ إتهام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأنّه إقتبس تعاليمه من اليهود والنصارى قد تكرر من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم فى ذلك، مع أنّ حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة ولا درس ليتعلّم منها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شيئاً كما أنّ رحلاته إلى خارج

---

(۱) «نصرف»: من «التصرف» وهو بمعنى ردّ الشىء من حالة أو إبداله بغيره، أى إنّ الآيات تنزل فى صوروأشكال متنوعة ولمختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۲

الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالًا لمثل هذا الاحتمال، ثم إنّ معلومات اليهود والمسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة وتسطير الخرافات بحيث لا يمكن- أصلًا- مقارنتها بما فى القرآن ولا بتعاليم الرّسول صلى الله عليه و آله وسنشرح هذا الموضوع- إن شاء اللَّه- عند تفسير الآية (۱۰۳) من سورة النحل.

ثم تبين الآية واجب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى قبال معاندة المعارضين وحقدهم وإتهاماتهم، فتقول: «اتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». ومن واجبك أيضاً الإعراض عمّا يوجّهه إليك المشركون من إفتراءات: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ».

هذا ضرب من التسلية والتقوية المعنوية للنبى صلى الله عليه و آله لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أىّ ضعف فى مواجهة أمثال هؤلاء المعارضين.

فى الآية الأخيرة يكرر القرآن فيها- مرّة اخرى- القول بأنّ اللَّه لا يريد أن يكره المشركين ويجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أىّ مشرك: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا».

كما يؤكد القول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّك لست مسؤولًا عن أعمال هؤلاء، لأنّك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: «وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». ولا من واجبك حملهم على عمل الخير: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

«الحفيظ»: هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر؛ أمّا «الوكيل»:

فهو من يسعى لإحراز النفع لموكّله. إنّ الفكرة التى تسود هذه الآيات تستلفت النظر، فهى تقول: إنّ الإيمان باللَّه وبتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه والإجبار، بل يكون عن طريق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفكار الناس وأرواحهم، فالإيمان بالإكراه لا قيمة له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقة فيتقبّلوها بإرادتهم واختيارهم.

وَ لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸) تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإكراه، وهذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبّ ما يعبد الآخرون- أى المشركون- لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضاً- ظلماً وعدواناً وجهلًا- إلى توجيه السب إلى ذات اللَّه المقدسة: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۳

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحياناً الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهياً قاطعاً

عن ذلک، وأکّد التزام قواعد الأدب واللیاقة حتی فی التعامل مع أکثر المذاهب بطلاناً وخرافة.

إنّ السبب واضح، فالسّب والشّتم لا یمنعان أحداً من المضی فی طریق الخطأ، لأنّ کل امة تتعصّب عادة لعقائدها وأعمالها کما تقول العبارة التالیة من الآیة: «کَذلِکَ زَیَّنّا لِکُلّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ».

وفی الختام تقول الآیة: «ثُمَّ إِلَی رَبّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُم بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آیَةٌ لَیُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآیَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا یُشْعِرُکُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا یُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ کَمَا لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قالت قریش یا محمّد! تخبرنا أنّ موسی کانت معه عصا یضرب بها الحجر، فینفجر منه إثنتا عشرة عیناً، وتخبرنا أنّ عیسی کان یحیی الموتی، وتخبرنا أنّ ثمود کانت لهم ناقة، فائتنا بآیة من الآیات کی نصدّقک! فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أیّ شیء تحبّون أن آتیکم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتی نسألهم عنک أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائکة یشهدون لک، أو ائتنا باللَّه والملائکة قبیلًا! فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدّقوننی؟» قالوا: نعم، واللَّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعین. وسأل المسلمون رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أن ینزلها علیهم حتی یؤمنوا، فقام رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یدعو أن یجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئیل علیه السلام فقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولکن إن لم یصدّقوا عذّبتهم وإن شئت ترکتهم حتی یتوب تائبهم». فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «بل یتوب تائبهم». فأنزل اللَّه تعالی هذه الآیة.

التّفسیر

وردت فی الآیات السابقة أدلة کثیرة کافیة علی التوحید، وردّ الشرک وعبادة الأصنام، ومع ذلک فإنّ فریقاً من المشرکین المعاندین المتعصبین لم یرضخوا للحق، وراحوا یعترضون وینتقدون. فی الآیة الاولی یقول القرآن: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِیمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَایَةٌ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۴

لَّیُؤْمِنُنَّ بِهَا» «۱». وفی الردّ علیهم یشیر القرآن إلی حقیقتین: یأمر النبی صلی الله علیه و آله أوّلًا أن یقول لهم: «قُلْ إِنَّمَا الْأَیَاتُ عِندَ اللَّهِ». أی إنّ تحقیق المعجزة لا یکون وفق مشتهیاتهم، بل إنّها بید اللَّه وبأمره.

ثم یخاطب المسلمین البسطاء الذین تأثّروا بإیمان المشرکین فیقول لهم: «وَمَا یُشْعِرُکُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَایُؤْمِنُونَ». مؤکّداً بذلک أنّ هؤلاء المشرکین کاذبون فی قسمهم.

کما أنّ مختلف المشاهد التی جرت بینهم وبین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله تؤکد حقیقة أنّهم لم یکونوا یبحثون عن الحق، بل کان هدفهم من کل ذلک أن یشغلوا الناس ویبذروا فی نفوسهم الشک والتردد.

الآیة التالیة تبین سبب عنادهم وتعصبهم، فتقول: «وَنُقَلِّبُ أَفِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ کَمَا لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ». أی إنّهم بإصرارهم علی الانحراف والسیر فی طریق ملتو وتعصبهم الناشیء عن الجهل ورفض التسلیم للحق، أضاعوا قدرتهم علی الرؤیة الصحیحة والإدراک السلیم، فراحوا یعیشون فی متاهات الضلال والحیرة.

ثم تشیر الآیة فی الخاتمة إلی أنّ اللَّه، یترک أمثال هؤلاء فی حالتهم تلک لکی یشتد ضلالهم وتزداد حیرتهم: «وَنَذَرُهُمْ فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ».

نسأل اللَّه أن یجنبنا الإبتلاء بمثل هذا الضلال والحیرة الناتجة عن أعمالنا السیئة، وأن یمنحنا النظرة السلیمة الکاملة لکی نری الحقیقة ناصعة لا غبش علیها.

وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَیْهِمُ الْمَلَائِکَةَ وَ کَلَّمَهُمُ الْمَوْتَی وَ حَشَرْنَا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلًا مَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ یَشَاءَ اللَّهُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ یَجْهَلُونَ

(۱۱۱) هذه الآية تتبع سابقاتها فى تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب اولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مرّ. فيصرّح القرآن فى الآية المذكورة قائلًا: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا».

ثم يؤكد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّافى حالة واحدة وهى أن يجبرهم اللّه بإرادته

---

(۱) «الجهد»: بمعنى السعى وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد فى توكيد القسم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۵

على الإيمان: «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» إلّاأنّ إيماناً كهذا لا ينفع فى تربيتهم ولا يؤثّر فى تكاملهم وفى النهاية يقول: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ». وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳) تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل إنّ الأنبياء السابقين وقف فى وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنّ». لا عمل لهم سوى الكلام المنمّق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه فى غموض أو يهمس به بعض لبعض: «يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

ولكن: لو أراد اللّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ».

بيد أنّ اللّه لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم.

لذلك يأمر اللّه نبيّه فى آخر السورة أن لا يلقى بالًا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية:

«فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها:

«وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفِدَةُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ».

ثم يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية «وَلِيَرْضَوْهُ».

وختام كل ذلك كان إرتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: «وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ».

أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۱۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۶

هذه الآية هى نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التى تؤكد التوحيد: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا». وهو الذى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم الذى فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميّز بين الحق والباطل والنور والظلمة، والكفر والإيمان: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا».

وليس الرسول والمسلمون وحدهم يعلمون أنّ هذا الكتاب قد نزل من اللّه، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علائم هذا الكتاب السماوى قرؤوها فى كتبهم ويعلمون أنّه نزل من اللّه بالحق: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقّ».

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيّها النبى لا تشك فيه أبداً، «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

الآية التالية تقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«الكلمة»: بمعنى القول وتطلق على كل جملة وكل كلام مطولًا كان أم موجزاً، أمّا بالنسبة لاستعمالها فى هذه الآية إنّها تعنى القرآن لأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن. فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شكّ بأىّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل.

ويستند بعض المفسرين إلى هذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير «لَّامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» تعنى أنّ أحداً لا يستطيع أن يحدث فى القرآن تبديلًا أو تغييراً، لا ـ فى لفظه، ولا ـ فى أخباره، ولا فى أحكامه، وأنّ هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرّفين.

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت فى مكّة، يوم كان المسلمون قلّة فى العدد، ولعل قلّتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهّم بعضهم أنّه إذا كان دين اولئك

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۷

باطلًا فلم كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقاً، فما سبب قلّة معتنقيه؟

ولدفع هذا التوهّم يخاطب اللَّه نبيّه بعد ذكر أحقّية القرآن فى الآيات السابقة قائلًا: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

وفى الجملة التالية يبيّن ذلك وهو أنّهم يتبعون الظنون التى تخالطها الأهواء والأكاذيب ويمتزج بها الخداع والتخمين: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق الحق، ومن هذا نستنتج أنّه يجب التوجّه إلى اللَّه وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون فى هذا الطريق قلّة فى العدد.

والدليل على ذلك يرد فى الآية التالية التى تؤكد على أنّ اللَّه عليم بكل شىء ولا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق الهداية: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ مَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة الأصنام. ومن نتائج ذلك أنّ على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم اللَّه عليه، لذلك يبدأ القرآن بالقول:

«فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ». أى إنّ الإيمان ليس مجرّد قول وادّعاء وعقيدة ونظرية، بل لابدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذى يؤمن باللَّه يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أنّ حرمة الذبائح التى لم يذكر اسم اللَّه عليها، هى خلفية أخلاقية ومعنوية وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية اللَّه الواحد الأحد.

الآية التالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۸

تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم اللَّه عليها، فى الوقت الذى بيّن اللَّه لكم ما حرم عليكم؟

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ». مرّة اخرى نشير إلى أنّ التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك

أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أنّ هذه هى ما ينبغى أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة اخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم يستثنى من ذلك حالة واحدة: «إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان فى البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أنّ كثيراً من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن إتباع الهوى: «وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ».

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوّغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التى نقتلها بأنفسنا حلالًا، ولحوم الحيوانات التى يقتلها اللّه حراماً؟

بديهى أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه اللّه ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرّم اللّه أكله، وأخيراً يقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى الخفاء، وتقول:

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ».

يقال إنّهم فى الجاهلية كانوا يعتقدون أنّ الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أمّا إذا إرتكب علناً فهو الإثم! واليوم- أيضاً- نجد اناساً يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون إرتكاب الإثم علانية، ولكنّهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۹

وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱) دار الكلام فى الآيات السابقة حول الجانب الإيجابى من مسألة اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، وفى هذه الآية تأكيد للجانب السلبى من المسألة: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». ثم فى جملة واحدة يدين هذا العمل: «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة اللّه.

ولكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل ونقاش: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» ولكن كونوا على حذر، ولا تطيعوهم: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ».

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) وقولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ اللّه أماتها، وهى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أنّ عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل اللّه! غافلين أنّ الحيوان الميت موتاً طبيعياً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضمّ بين لحمه دماً قذراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم إنقطاع أوداجه.

ويستفاد من هذه الآية- ضمنياً- حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها- إضافة إلى الجهات الاخرى- لم يتقيّد ذابحها بذكر اسم اللّه عليها.

أ وَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۱۲۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان قيل: إنّها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل بن هاشم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۰

وذلك أنّ أبا جهل آذى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء معه قوس، فضرب بها رأس أبى جهل، وآمن.

وقيل: نزلت فى عمار بن ياسر حين آمن، وأبى جهل.

التّفسير

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيّروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذى يحييه اللّه بإرادته: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ».

الإيمان يغيّر الأفراد ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره فى كل الحركات والسكنات. ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ».

على الرغم من وجود الإختلاف فى تفسير هذا «النور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان باللّه الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين ... يمنحه رؤية واضحة ويوسّع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حياته المادية وجدران عالم المادة الضيّق إلى عالم أرحب وأوسع.

إنّه فى ضوء هذا النور يستطيع أن يميّز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها.

إنّ ما نقرأه فى الأحاديث الإسلامية من أنّ «المؤمن ينظر بنور اللّه» إشارة إلى هذه الحقيقة.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحى، الفعال، النيّر، والمؤثر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: «كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

إنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغة معطلة عن العمل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۱

وفى الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ولمّا كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبى هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش ومكة، فالآية الثانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا». أى إنّه عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدّت بهم إلى أن يصبحوا سدّاً على طريق الحق، وعاملًا على جرّ الناس نحو الانحراف والإبتعاد عن طريق الحق.

وفى الختام تقول الآية: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات والتعاسة التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى اللّه، ويخفون وجه الحق عن الناس.

وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى الوليد بن المغيرة قال: واللَّه لو كانت النبوة حقاً، لكنت أولى بها منك، لأنّى أكبر منك سناً وأكثر عنك مالًا.

التّفسير

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر «أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ».

إنّ القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلًا: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

بديهى أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحى، وطهارة الضمير، والسجايا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامى،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۲

والرأى السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة ... إنّ هذه الصفات، وخصوصاً الإستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير اللَّه، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد اولئك.

كما إنّ من يخلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لابدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحى والتشريع، أى أنّه حامى الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادى والمعنوى للناس، لذلك لابدّ له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإثم، لكى يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه. وبناءاً على ذلك، يكون اختياره من اللَّه أيضاً، فهو وحده الذى يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للإنتخابات والشورى.

وفى النهاية تشير الآية إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدّعون الباطل، فتقول: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» «۱».

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكن اللَّه سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنّهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنّهم سيلاقون العذاب الشديد فى الآخرة لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷) تعقيباً على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأوّل، والشقاء الذى سيصيب

---

(۱) «الإجرام»: من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذى يقطع العهود وإرتباطه باللَّه بعدم إطاعته، ولذلك اطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان إتّفاق مع الحق والطهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الإتفاق الفطرى الإلهى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۳

الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللَّه ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبّل الإسلام، أمّا الذى لا يريد اللَّه أن يوفّقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله وكأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْاسْلمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ».

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: «كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ».

فيسلبهم التوفيق ويركسهم فى التعاسة والشقاء.

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة أنّ المقصود من لفظى «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدّية إلى الهداية بالنسبة للّذين لهم الاستعداد لذلک، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلک، بالنظر إلى أعمالهم.

الآية التالية تؤكد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهى الذى يشمل السالكين فى خط الايمان والعبودية للّهويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل اللَّه، إنّما هو سنة إلهية مستقيمة ثابتة لا تتبدل «وَهذَا صِرَاطُ رَبِّکَ مُسْتَقِيمًا».

وفى ختام الآية توكيد آخر: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ». أى لمن يملكون قلوباً واعية وآذاناً سامعة.

الآية الثالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللَّه للذين يطلبون الحق، إحداهما:

«لَهُمْ دَارُ السَّلمِ عِندَ رَبِّهِمْ». والثانية: «وَهُوَ وَلِيُّهُم». أى ناصرهم وحافظهم، وكل ذلک لما قاموا به من الأعمال الصالحة: «بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فأىّ فخر أجل وأرفع من أن يتولى اللَّه امور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليه، وأيّة نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن والأمان، حيث لا-حرب ولا-سفک دماء، ولا-نزاع ولا-خصام، ولا-عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا إفتراء، ولا إتهام ولا حسد ولا حقد، ولا هم ولا غم، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّکَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِکَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكملان ما بحث فى السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۴

فيواجه التابعون والمتبوعون سؤالًا لا جواب لديهم عليه. تذكّر الآية فى البداية بذلک اليوم الذى يجتمع فيه الجن والإنس، ثم يقال يا أيّها المضلون من الجن لقد أضللتم كثيراً من الناس: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الْإِنسِ».

«الجن» هنا هم الشياطين، لأنّ كلمة الجن تشمل كل كائن غير مرئى والآية (۵۰) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنّه «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». ويبدو أنّ الشياطين المضلين لا-جواب لديهم على هذا السؤال ويطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: «وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا».

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا وكنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة ولذائذها غير متقيدين بشىء ولا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون فى آذاننا ويظهرون الدنيا لهم فى صور جميلة جذّابة.

إنّ المقصود من كلمة «أجل» هو نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيراً ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ اللَّه يخاطب التابعين والمتبوعين الفاسدين والمفسدين جميعاً: «قَالَ النَّارُ مَثْوَيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ رَبَّکَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» فعقابه مبنى على حساب دقيق، وكذلک عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التالية تشير إلى سنّة إلهية ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، وتقرر أنّ هؤلاء الطغاة والظالمين سيكون وضعهم فى الآخرة كما كانوا عليه فى الدنيا يجر بعضهم بعضاً نحو التهلكة وسوء المصير والانحراف: «وَكَذلِکَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وكما ذكرنا فى البحوث الخاصة بالمعاد فإنّ يوم القيامة مشهد ردود الفعل فى صور مكبرة، وما يوجد هناک إنعكاس عن أعمالنا فى هذه الدنيا.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (۱۳۰) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۵

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة فى الآيات السابقة ولكيلا يظن أحد أنّهم فى حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبين هذه الآيات أنّ تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفاية وتمّت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا».

«معشر»: من العدد «عشرة»، وبما أنّ العشرة تعتبر عدداً كاملًا، فالمعشر هى الجماعة الكاملة التى تضمّ مختلف الطوائف والأصناف.

ثم تقول الآية: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا» لأنّ يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفى شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: إنّنا نشهد ضدّ أنفسنا ونعترف أنّ الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكنّنا خالفناها.

نعم ... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من اللّه، وكان يميّزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحياة الدنيا ببريقها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

مرّة اخرى يؤكد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فى طريق الكفر ووقفوا إلى جانب منكرى اللّه: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ».

الآية التالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنّة ثابتة، وهى: أنّ اللّه لا يأخذ الناس فى المدن والمناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلّابعد أن يرسل إليهم الرسل لينبّهوهم إلى قبيح أعمالهم، ويحذّروهم من مغبّة أفعالهم: «ذلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ».

قد تعنى «بظلم» أنّ اللّه لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عمّا فعل وهو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، واللّه أرفع من أن يظلم أحداً.

وتذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أنّ لكل من هؤلاء- الأخيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبى العدالة والظالمين- درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإنّ ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزى كلًا بقدر ما يستحق: «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

هذه الآية تؤكد مرّة اخرى الحقيقة القائلة بأنّ جميع «الدرجات» و «الدركات» التى يستحقها الإنسان إنّما هى وليدة أعماله، لا غير.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۶

وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (۱۳۳) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱۳۴) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵) الآية الاولى تستدل على ما سبق فى الآيات التى مرّت بشأن عدم ظلم اللّه تعالى، وتؤكد أنّ اللّه لا حاجة له بشىء وهو عطوف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأنّ من يظلم لابدّ أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسى القلب فظاً: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» كما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم، بل إنّه قادر على إزالة كل جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ».

بناءاً على ذلك فهو غنى لا حاجة به إلى شىء، ورحيم، وقادر على كل شىء، فلا يمكن إذن أن نتصوّره ظالماً.

وإذا أدركنا قدرته التى لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق فى موعده بدون أىّ تخلّف: «إِنَّ مَا

تُوعَدُونَ لَآتٍ».

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (۱).

ثم يؤمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يهددهم: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۱۳۶)

---

(۱) «معجزين»: من «أعجز» أى جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنّكم لا تستطيعون أن تجعلوا اللَّه عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة اخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۷

لإقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الاذهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت فى بيان واضح أنّها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفّار مكّة وسائر المشركين يخصصون للَّهسهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخصّ اللَّه، وهذا القسم يخصّ شركاءنا أى الأصنام: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذَا لِشُرَكَائِنَا».

ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأنّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى اللَّه، ولكن ما خصصوه للَّهيصل إلى شركائهم «فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ».

انّهم إذا أصاب نصيب اللَّه ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا أهميّة له لأنّ اللَّه لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوّضوا عنه من نصيب اللَّه، قائلين: إنّ الأصنام أشدّ حاجة إليه.

وفى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

فأىّ حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذى لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكرىّ أحط من هذا؟

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (۱۳۷) يشير القرآن فى هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنّه كما ظهر لهم أنّ تقسيمهم الحصص بين اللَّه والأصنام عمل حسن بحيث أنّهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافى، بل والمضحك، عملًا محموداً، كذلك زيّن الشركاء قتل الأبناء فى أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنّهم راحوا يعدّون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و «العبادة»: «وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۸

«الشّركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا ينذرون أنّهم إذا وهبوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء فى تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإنّ نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أنّ شدة تعلقهم بأصنامهم وحبّهم لها كان يحدو بهم إلى إرتكاب هذه الجريمة النكراء.

ثم يوضّح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أنّ الأصنام وخدّامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، وشككوهم فى دين اللَّه، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».

ومع ذلك كله، فإنّ اللَّه قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنّة اللَّه، إنّ اللَّه يريد أن يكون عباده أحراراً لكى يمهّد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس فى الإكراه تربية ولا تكامل: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ».

ومادام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحياناً إلى اللَّه، إذن فاتركهم وإتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

وَ قَالُوا هـذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹) تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الاوثان، والتى تدل على قصر نظرتهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ فى الآيات السابقة. تذكر فى البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق فى نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرّمة إلّا على طائفة معينة: «وَقَالُوا هذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَايَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ».

ومرادهم المتولّون امور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

«الحجر» هو المنع.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۹

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب:

«وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا».

ثم تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطلة فتقول: «وَأَنْعَامٌ لَّايَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا».

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هى المطايا التى كانوا يحرّمون ركوبها للذهاب إلى الحج.

والأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى اللَّه كل ما يخطر لهم من كذب: «افْتِرَاءً عَلَيْهِ».

وفى ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ اللَّه: «سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما فى بطونها ميتاً، فكلّهم شركاء فيه: «وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ».

و يشجب القرآن هذا الحكم الجاهلى، ويقرر أنّ اللَّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ».

وختاماً تقول: «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم وإتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰) تعقيباً على الآيات السابقة التى تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة فى عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، ووأد البنات خشية العار، وتحريم بعض نعم اللَّه الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدّة، فى سبعة تعبيرات وفى جمل قصيرة نافذة توضّح حالهم. ففى البداية تقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ». وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأىّ علم يجيز

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۰

للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟ من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلّف الأقوام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم اللَّه وأحلّه لهم وكذبوا على اللَّه ونسبوا هذه الحرمة له سبحانه: «وَحَرَّمُوا مَا

رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ».

فى هذه العبارة إدانة اخرى لأعمالهم، فهم- أوّلًا- حرموا على أنفسهم النعمة التى «رزقهم» إيّاها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون اللَّه.

وهم- ثانياً- «افتروا» على اللَّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختام الآية وفى جملتين قصيرتين إدانة اخرى لهم، فهم: «قَدْ ضَلُّوا» ثم إنّهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۱۴۱) لقد جاءت الإشارة فى هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرّعٌ عن الآخر، ونتيجة عنه. فهو تعالى يقول أوّلًا: إنّ اللَّه تعالى هو الذى خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد فى موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وتجلب بمنظرها الساحر العيون والالباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقى بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميين، ويسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

ثم إنّ الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ».

ثم إنّه تعالى يضيف قائلًا: إنّ هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فمع أنّ جميعها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإنّ لكل واحدة منها رائحة خاصة، ونكهة معينة، وخاصية تختص بها، ولا توجد فى غيرها: «مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۱

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمى الفائدة، جَيلى النفع فى مجال التغذية البشرية إذ يقول: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

إنّ اختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيرة إنّما هو لأجل أنّ هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقّب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين:

«مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

وبعد ذكر كل هذه النعم المتنوّعة يقول سبحانه: «كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ».

ثم ينهى فى نهاية المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». «الإسراف»: تجاوز حدّ الاعتدال فى كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف فى الأكل، أو عدم الإسراف فى الإنفاق والبذل.

وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۴۴) إنّ هذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافية جاهلية كان المشركون يدينون بها فى مجال الزراعة والأنعام. ففى الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التى أنشأها اللَّه، وفى هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحللة اللحم، وما تؤدّيه من خدمات، وما يأتى منها من منافع. يقول أوّلًا: إنّ اللَّه هو الذى خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، واخرى صغيرة: «وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۲

«حمولة»: جمع وليس لها مفرد وتعنى الحيوانات الكبيرة التى تستخدم للحمل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها. و «فرش»: هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فُسّر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة.

ثم إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنّه لما كانت جميع هذه الانعام قد خلقها اللَّه تعالى وحكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلًا: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ».

ولتأكيد هذا الكلام وإبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

الآية الثانية تبيّن قسماً من الحيوانات المحلّلة اللحم، وبعض الأنعام التى يستفاد منها فى النقل، كما يستفاد منها فى تغذية البشر وطعامهم أيضاً فيقول: إنّ اللَّه خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر وانثى)، وزوجين من المعز: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ».

وبعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيّه فوراً بأن يسألهم بصراحة: هل أنّ اللَّه حرّم الذكور منها أم الاناث: «قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ». أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟: «أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

ثم يضيف قائلًا: إذا كنتم صادقين فى أنّ اللَّه حرّم شيئاً مما تدعونه، وكان لديكم ما يدل على تحريم أىّ واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك: «نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ثم فى الآية اللاحقة يبين الأزواج الأربعة الاخرى من الأنعام التى خلقها اللَّه للبشر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وانثى، ومن البقر ذكراً وانثى، فأىّ واحد من هذه الأزواج حرّم اللَّه عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل والبقر: «وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

إنّ الحكم بتحليل هذه الأنعام وتحريمها إنّما هو بيد اللَّه، خالقها وخالق البشر وخالق العالم كله. ولقد صرّح فى الآية السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أىّ دليل علمى أو عقلى على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنّهم لم يَدّعوا أيضاً نزول الوحى عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء اللَّه ورسله يوم أصدروا هذه

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۸۳

الأحكام، ولهذا يقول اللَّه لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم أمر اللَّه لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا».

وحيث إنّ الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفى والسَلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون فى هذا المجال إلّاالإفتراء، ولا يستندون إلّاإلى الكذب.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية قائلًا: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

فيستفاد من هذه الآية أنّ الإفتراء على اللَّه من أكبر الذنوب والآثام، إنّه ظلم للَّه‌تعالى ولمقامه الربوبىّ العظيم، وظلم لعباد اللَّه، وظلم للنفس.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١۴۵) ثم إنّه تعالى- بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البِدع التى أحدثها المشركون وأدخلوها فى الدين الحق- أمر نبيّه صلى الله عليه و آله فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: «لَّاأَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ» من الشريعة أىّ شىء من الأطعمة يكون «مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» من ذكر أو انثى وصغير أو كبير.

اللّهم «إِلَّا» عدّة أشياء، الأوّل: «أَن يَكُونَ مَيْتَةً». «أَوْ» يكون «دَمًا مَّسْفُوحًا» وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

«أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ».

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس ومنشأ لمختلف الأضرار «فَإِنَّهُ رِجْسٌ».

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: «أَوْ فِسْقًا أَهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» «۱». أى التى لم يذكر اسم اللَّه

---

(۱) «اهلّ»: أصله «الإهلال» وهو مأخوذ فى الأصل من الهلال والإهلال يعنى رفع الصَوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت رفيع، كما أنّه يطلق على بكاء الصبى عند الولادة الإستهلال، وحيث إنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوتٍ عالٍ عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۴

عليها عند ذبحها، لأنّها- من الناحية الأخلاقية والمعنوية- تدل على الإبتعاد عن اللَّه وعن جادة التوحيد ولهذا حرّمت أيضاً. وعلى هذا الأساس أنّ الشروط الإسلامية المقررة فى الذبح على نوعين: بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحّى. وبعضها الآخر- مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم اللَّه عنده، وكون الذابح مسلماً- لها جانب معنوى.

ثم إنّه سبحانه استثنى- فى آخر الآية- من اضطر إلى تناول شىء مما ذكر من اللحوم المحرّمة، كما لو لم يجد أىّ طعام آخر وتوقّفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم، إذ قال:

«فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» «۱». يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء مما ذكرٍ من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلّاً لما حرّمه اللَّه، أو متجاوزاً حدّ الضرورة، ففى هذه الصورة «فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وإنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرّع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدّوا حدود ما قرّره اللَّه بحجة الاضطرار.

وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْم ذلِکَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوکَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷) إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليتبين أنّ أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى). ولهذا يقول سبحانه فى البداية: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ».

يستفاد من الآية المبحوثة أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دواباً كانت أو طيوراً- كانت محرّمة على اليهود.

---

(۱) «الباغى»: من «البَغْى» وهو يعنى الطلب؛ و «العادى»: من «العَدْو» وهو يعنى التجاوز.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۵

ثم يقول سبحانه: «وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا».

ثم يستثنى بعد هذا ثلاثة موارد:

أوّلها: الشحوم الموجودة فى موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا».

وثانياً: الشحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: «أَوِ الْحَوَايَا» «۱».

وثالثاً: الشحوم التى امتزجت بالعظم والتصقت به «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ».

ولكنه صرّح فى آخر الآية بأنّ هذه الامور لم تكن محرّمة على اليهود ولكنهم بسبب ظلمهم وبغيهم حُرمُوا- بحكم اللَّه وأمره- من هذه اللحوم والشحوم التى كانوا يحبّونها «ذلِکَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ».

ويضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» وإنّ ما نقوله هو عين الحقيقة.

ولمّا كان عناد اليهود المشركين أمراً بيّناً، وكان من المحتمل أن يتصلّبوا ويتمادوا فى تكذيب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر اللَّه

تعالى نبيّه فى الآيـة الاخرى أن يقول لهم إن كـذّبوه: إنّ ربّكم ذو رحمـة واسـعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى اللّه، «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ».

ولكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هـذا الإمهال الإلهى، واستمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللّه إياهم حتمى لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه فى المآل: «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

إنّ هـذه الآيـة تكشف عن عظمـة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شـرح وبيان كل هذه المخالفات التى ارتكبها اليهود والمشـركون لا يعمد إلى التهديـد بالعـذاب فوراً، بـل يترك طريق الرجعـة مفتوحـاً، وذلـك بـذكر عبـارات تفيض بـالحب مثل قوله: «ربّكم»، «ذو رحمـة»، «واسعة».

حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

---

(۱) «الحوايا»: جمع «حاوية» وهى مجموعة ما يوجد فى بطن الحيوان والتى تكون على هيئة كرة تتضمّن الأمعاء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۶

ولكن حتى لاـ تبعث سـعة الرحمـة الإلهيـة هـذه على التمادى فى غيّهم، وتتسـبّب فى تزايـد جرأتهم وطغيانهم، وحتى يكفّوا عن العناد واللجاج هدّدهم فى آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰) عقيب الكلام المتقدم عن المشـركين فى الآيـات السابقـة، أشار فى هـذه الآيات إلى طائفـة من استدلالاتهم الواهيـة، مع ذكر الأجوبـة عنها. فيقول أوّلًا: إنّ المشـركين سـيقولون فى معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشـراك بـاللّه، وتحريم الأطعمـة الحلال: إنّ اللّه لو أراد أن لاـ نكون مشـركين، وأن لاـ يكون آباؤنا وثنيين، وأن لا نحرّم ما حرّمنا، لفعل:

«سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ».

إنّ المشركين- مثل كثير من العصاة- يريدون التملّص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر.

إنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت اللّه على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنّه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

ولكن القرآن تصـدّى لجوابهم وناقشـهم بشـكل قـاطع، فهو يقول أوّلًـا: ليس هؤلاـء وحـدهم يفـترون على اللّه مثـل هـذه الأكـاذيب: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (۱). ولكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: «حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا».

فهؤلاء كانوا يكذبون فى كلامهم هذا، كما أنّهم يكذّبون الأنبياء، ولو كان سبحانه راضياً

---

(۱) «كذّب»: فى اللغة تأتى بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۷

بهذه الامور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

إنّ دعوة الأنبياء أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع ومسلم على ما تدّعونه؟ هاتوه إن كان: «قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّن عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا».

ثم يضيف فى النهاية: إنّ ما تتبعونه ليس سوى أوهام وخيالات فجّة: «إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

وفى الآية اللاحقة يذكر دليلًا آخر لإبطال ادعاء المشركين، ويقول: قل إنّ اللّه أقام براهين جلية ودلائل واضحة وصحيحة على وحدانيته، وهكذا أقام أحكام الحلال والحرام سواء بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أىّ عذر لمعتذر: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ».

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدّعى أحدٌ أبداً أنّ اللّه أمضى- بسكوته- عقائدهم وأعمالهم الباطلة، وكذلك لايسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إنّ إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

ثم يقول فى ختام الآية: ولو شاء اللّه أن يهديكم جميعاً بالجبر لفعل: «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيكُمْ أَجْمَعِينَ».

ولكن فى مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التى تصدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أيّة قيمة، إنّما فضيلة الإنسان وتكامله فى أن يسلك طريق الهداية والتقوى بقدميه وبإرادته وإختياره.

وفى الآية التالية- ولكى يتضح بطلان أقوالهم، ومراعاة لُاسس القضاء والحكم الصحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كان لهم، لكى يشهدوا لهم بأنّ اللّه هو الذى حرّم الحيوانات والزروع التى ادعوا تحريمها، لهذا يقول: «قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا».

ثم يضيف قائلًا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (ولا يملكون حتماً) بل يكتفون بشهادتهم وادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيّدهم فى دعاويهم:

«فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ».

هذا مضافاً إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلّاأحكام مصطنعة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۸

مختلقة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال فى العبارة اللاحقة: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (۱).

يعنى أنّ وثنيتهم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، وإتباعهم للهوى، شواهد حيّة على أنّ أحكامهم هذه مختلقة أيضاً، وأنّ إدعاءهم فى مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب اللّه لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳) بعد نفى أحكام المشركين المختلقة التى مرّت فى الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات فى الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة فى عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبى ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرّمات الإلهية الواقعية، ويتركوا المحرمات المختلقة جانباً. يقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ».

۱- «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيًا».

---

(۱) «يعدلون»: مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة «وهم بربّهم يعدلون» هو أنّهم كانوا

یعتقدون بشریک وشبیه للّه‌سبحانه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۹

۲- «وَبِالْوَالِدَینِ إِحْسَانًا».

۳- «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَدَکُم مِّنْ إِمْلقٍ». أی بسبب الفقر والحرمان لأنّنا «نَّحْنُ نَرْزُقُکُمْ وَإِیَّاهُمْ».

۴- «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». أی لا تقربوها فضلًا عن أن لا ترتکبوها.

۵- «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ». فلا تسفکوا الدّماء البریئة، ولا تقتلوا النفوس التی حرّم اللّه قتلها إلّاضمن قوانین العقوبات الإلهیة، فیجوز أن تقتلوا من أذن اللّه لکم بقتله.

ثم إنّه تعالی بعد ذکر هذه الأقسام الخمسة یقول لمزید من التأکید: «ذلِکُمْ وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ» فلا ترتکبوها.

۶- «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْیَتِیمِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتَّی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ». فلا تقربوا مال الیتیم إلّا بقصد الإصلاح حتی یبلغ أشده ویستوی.

۷- «وَأَوْفُوا الْکَیْلَ وَالْمِیزَانَ بِالْقِسْطِ». فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحیث إنّ الإنسان- مهما دقق فی الکیل والوزن- قد یزید أو ینقص بما لا یمکن أن تضبطه الموازین والمکاییل المتعارفة لقلته وخفائه، لهذا عقّب علی ما قال بقوله: «لَانُکَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

۸- «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ کَانَ ذَا قُرْبَی . فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتی ولو کان علی القریب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

۹- «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» ولا تنقضوه.

والمراد من العهد الإلهی المذکور فی هذه الآیة یشمل جمیع العهود الإلهیة التکوینیة والتشریعیة والتکالیف الإلهیة وکل عهد ونذر ویمین.

ثم إنّه سبحانه یقول فی ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأکید-: «ذلِکُمْ وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ».

۱۰- «وَأَنَّ هذَا صِرَاطِی مُسْتَقِیمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَن سَبِیلِهِ». إنّ طریقی هذا هو طریق التوحید، طریق الحق والعدل، طریق الطهر والتقوی فامشوا فیه، واتّبعوه، واسلکوه ولا تسلکوا الطرق المنحرفة والمتفرقة، فتؤدّی بکم إلی الانحراف عن اللّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۰

وإلی الاختلاف، والتشرذم، والتفرق، وتزرع فیکم بذور الفرقة والنفاق. ثم یختم جمیع هذه الأقسام وللمرة الثالثة- لغرض التأکید- بقوله: «ذلِکُمْ وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ».

بحثان

۱- أهمیة الإحسان إلی الوالدین: إنّ ذکر مسألة الإحسان للوالدین- بعد مکافحة الشرک مباشرة، وقبل ذکر تعالیم مهمة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل- یدل علی الأهمیة القصوی التی یحظی بها حق الوالدین فی التعالیم الإسلامیة.

ویتّضح هذا الأمر أکثر عندما نری أنّ القرآن الکریم ذکر بدل تحریم أذی الوالدین الذی یلائم سیاق هذه الآیة فی استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إلیهما، یعنی أنّه لیس إزعاج الوالدین وإیذاؤهما محرّماً فقط، بل یجب الإحسان إلیهما.

والأجمل من هذا کله أنّ کلمة «الإحسان» عُدّیت بحرف «الباء» فقال: «وَبِالْوَالِدَینِ إِحْسَانًا». وعلی هذا الأساس فإنّ هذه الآیة تؤکد أنّ موضوع الإحسان إلی الوالدین من الأهمیة البالغة بحیث یجب علی الإنسان أن یباشر الاحسان بنفسه إلی الوالدین.

۲- قتل الأولاد من الإملاق والجوع: یستفاد من هذه الآیات أنّ العرب فی العهد الجاهلی لم یقتصروا علی قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبیات الخاطئة فحسب، بل کانوا یقتلون أولادهم الذین کانوا یُعدّون ثروة کبری فی المجتمع یومذاک، وذلک بسبب الفقر وخشیتهم من الفاقة.

ولکن هـذا العمـل الجـاهلی- وللأسف البالغ- یتکرّر الآن فی عصـرنا فی صورة اخری، إذ نلاحظ کیف یعمـد الناس إلی قتل الأطفال الأبریاء وهم أجنّة عن طریق الکورتاج والإجهاض بحجة النقصان الاحتمالی فی المواد الغذائیة.

إنّ إسـقاط الجنین وإن کـان یُبرّر الآـن بأدلـة وحجـج اخری أیضـاً، إلّـاأنّ مسألـة الفقر ومسألـة نقصـان المواد الغذائیـة، هی من أدلتها الأصلیة.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الاخری تشیر إلی أنّ العهد الجاهلی یتکرر فی شـکل آخر، وأنّ «جاهلیة القرن العشـرین» أکثر وحشیة من جاهلیة ما قبل الإسلام.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۱

ثُمَّ آتَیْنَا مُوسَـی الْکِتَابَ تَمَاماً عَلَی الَّذِی أَحْسَنَ وَ تَفْصِـیلًا لِکُلِّ شَـیْءٍ وَ هُـدًی وَ رَحْمَـةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذَا کِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَکٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أنْ تَقُولُوا إِنَّمَـا أُنْزِلَ الْکِتَابُ عَلَی طَائِفَتَیْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ کُنَّا عَنْ دِرَاسَـتِهِمْ لَغَافِلِینَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْکِتَابُ لَکُنَّا أَهْدَی مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَکُمْ بَیِّنَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ هُدًی وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَّبَ بِآیَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَـنَجْزِی الَّذِینَ یَصْدِفُونَ عَنْ آیَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا کَانُوا یَصْدِفُونَ (۱۵۷) فی الآیات السابقة دار الحدیث عن عشرة من أحکـام الإسـلام الأساسـیة التی لم تکن مختصّـ ة بالإسـلام، بـل هی موجودة ومقررة فی جمیع الأدیـان، ثم قـال عقیب ذلک فی هـذه الآیات: «ثُمَّ ءَاتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ تَمَامًا عَلَی الَّذِی أَحْسَنَ». فقد أتممنا نعمتنا علی المحسنین والذین سلّموا لأمره واتّبعوه.

إنّ عبارة: «الَّذِی أَحْسَنَ» إشارة إلی جمیع المحسنین، والذین یستجیبون للحق، ویقبلون بالأوامر الإلهیة.

«وَتَفْصِیلًا لِّکُلِّ شَیْءٍ» فإنّ فیه کل شیء مما یحتاج إلیه المجتمع، ومما له أثر فی تکامل الإنسان وترشیده.

«وَهُدًی وَرَحْمَةً». أی أنّ فی هذا الکتاب الذی نزل علی موسی مضافاً إلی ما سبق:

هدی ورحمة.

إنّ جمیع هـذه البرامـج مـا هی إلّـالکی یؤمنوا بیوم القیامـة، وبلقـاء اللَّه، ولکی یُطهّروا عن طریق الإیمـان بالمعـاد أفکـارهم، وأقوالهم، وأعمالهم ویزکّوها: «لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ».

الآیـة اللاحقـة تشیر إلی نزول القرآن وتعلیماته القیّمـة، وبـذلک أکملت البحث المطروح فی الآیـة السابقة، یقول تعالی: «وَهذَا کِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَکٌ» فهذا الکتاب الذی أنزلناه کتاب عظیم الفائدة، عظیم البرکة، وهو المنبع لکل أنواع الخیر والبرکة.

ولمّا کان الأمر کذلک وَجَبَ اتّباعه بصورة کاملة، ووجب التزوّد بالتقوی، والتجنّب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۲

عن مخالفته، لتشملکم رحمة اللَّه ولطفه «فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ».

وفی الآیـة الثالثـة أبطل سـبحانه جمیع المعاذیر والتحججات وسـدّ جمیع طرق التملّص والفرار فی وجه المشـرکین، فقال لهم أوّلًا: لقد أنزلنا هـذا الکتاب مع هـذه الممیزات لکی لا تقولوا: لقـد نزلت الکتب السـماویة علی الطائفتین السابقتین (الیهود والنصاری) وکنّا عن دراسـتها غافلین، ولیس تمرّدنا علی أوامر اللَّه إلّالکونها موجودة عند غیرنا من الامم، ولم یبلغنا منها شیء: «أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْکِتَابُ عَلَی طَائِفَتَیْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن کُنَّا عَن دِرَاسَـتِهِمْ لَغَافِلِینَ». ثم إنّه سـبحانه ینقل عنهم- فی الآیة اللاحقة- نفس ذلک التحجج ولکن بصورة أوسع، ومقروناً هـذه المرّة بنوع أشـد من الغرور والصّـلف وهو: أنّ القرآن الکریم لو لم ینزل علیهم لکان من الممکن أن یـدّعوا أنّهم کانوا أکثر استعداداً من أیّة امة اخری لقبول الأمر الإلهی:

«أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَیْنَا الْکِتَابُ لَکُنَّا أَهْدَی مِنْهُمْ».

والآیـة المتقدّمـة کانت تعکس هـذا التحجـج وهو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسـبب غفلتنا وجهلنا بالکتب السـماویة، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشـیء عن أنّ هـذه الکتب نزلت علی الآخرین، ولم تنزل علینا. أمّا هذه الآیة فتعکس صـفة الإحساس بالتفوّق والإدعاء الفارغ

الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربى على غيرهم.

فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هذه الإدعاءات أنّ اللَّه سبحانه سدّ عليكم كل سُبل التملّص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأنّ اللَّه آتاكم كل الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية وبالرحمة الربانية لكم: «فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ». ومع ذلك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا».

«صدف»: من «الصَدْف» ويعنى الإعراض الشديد- من دون تفكير- عن شىء، وهو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللَّه فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها.

وفى خاتمة هذه الآية بيّن اللَّه تعالى العقاب الأليم الذى اعدّ لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكّروا فيها ويدرسوها ولو قليلًا، بل ولا- يكتفون برفضها إنّما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بيّن كل ذلك فى قوله الموجز والبليغ: «سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٣

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) فى الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة وهى: أنّنا أتممنا الحجة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوى (أى القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكى لا يبقى لديهم أىّ عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة. وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم وعنادهم حدّاً لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البيّن، وكأنّهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون اموراً مستحيلة. فيقول أوّلًا: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلِكَةُ» لتقبض أرواحهم.

«أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ» إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

ويراد من هذا الكلام أنّهم ينتظرون اموراً مستحيلة.

ثم يقول: أو أنّكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية والعلامات الخاصة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبة: «أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ».

ثم يضيف عقيب ذلك قائلًا: «يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ لَايَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا» فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفاقدة لمعطيات الإيمان الاختيارى وقيمة التوبة النصوح.

ثم إنّه فى المقطع الأخير من الآية يوجّه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: «قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

إنّ من النقاط الهامة التى نستفيدها من الآية الحاضرة هو أنّ الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة فى الإيمان، ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل فى ظلّه عملًا صالحاً.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩٤

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقة، والتى امر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم، وبمكافحة أى نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمّن تأكيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لها. فيقول تعالى أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ» «١». أى أنّ الذين اختلفوا فى الدين وتفرّقوا فرقاً وطوائف لا يمتّون إليك بصلة أبداً،

كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ما هو إلّاواحد لا أكثر.

ثم قال تعالى- مُهدّداً مُوبّخاً اولئك المفرّقين-: «إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». أى أنّ اللّه هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيب شىء منها.

محتوى هذه الآية يمثّل حكماً عامّاً يشمل كل من يفرّق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد اللّه بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الامم السابقة أو فى هذه الامة.

هذه الآية تكرّر مرّة اخرى- وبمزيد من التأكيد- هذه الحقيقة وهى أنّ الإسلام دين الوحدة والإتحاد وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف فى صفوف الامة.

فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهيّة الواسعة، وإلى الثواب الإلهى الواسع الذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين وقد عقّبت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم قال: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا».

وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» وإنّما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و «الحسنة» و «السيئة» فى الآية الحاضرة يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئة.

---

(۱) «الشِيَع»: من حيث اللغة تعنى الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإنّ مفردهذه الكلمة يعنى من يتّبع مدرسة أو شخصاً معيّناً، هذا هو المعنى اللغوى لكلمة الشيعة. ولكن للفظة الشيعة معنى آخر فى الإصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أميرالمؤمنين علياً عليه السلام ويشايعه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوى والإصطلاحى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۵

قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۶۱) قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَ نُسُكِى وَ مَحْيَاىَ وَ مَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۶۲) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (۱۶۳) هذه الآية والآيات الاخر التى سنقرؤها فيما بعد والتى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت وانتهت بمكافحة الشرك والوثنية، وتركّزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. ففى البداية أمرت رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأن يقول فى مواجهة معتقدات المشركين والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: «قُلْ إِنَّنِى هَدَينِى رَبّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». أى طريق التوحيد، ورفض كل أشكال الشرك والوثنية.

ذكر كلمة «قل» فى هذه الآيات وأمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أنّ ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى اوحيت إلى رسول اللّه.

ثم إنّه تعالى يوضّح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية والآيتين اللاحقتين. فهو يقول أوّلًا: إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدى الخالد القائم المتكفل لُامور الدين والدنيا والجسد والروح: «دِينًا قِيَمًا».

وحيث إنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السلام محبة خاصة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنّه دين إبراهيم، فهذا هو الذى أدعو أنا إليه لا ماتزعمونه: «مِّلَّةَ إِبْرهِيمَ».

إبراهيم عليه السلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره وبيئته، وأقبل على التوحيد «حَنِيفًا». و «الحنيف»: يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، وأمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولّى وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحقة.

وكأنّ هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله مخالفته للعقيدة الوثنية التى

كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة فى البيئة ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعاً- كذلك أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۶

ثم يضيف للتأكيد قائلًا: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربته وكفاحه. الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول: إنّى لست موحّداً من حيث العقيدة فحسب، بل إنّى أعمل كل عمل صالح: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» فأنا أحيى للّه، وله أموت، وأفدى بكلّ شىء لأجله، وكل هدفى وكل حبّى بل كل وجودى له.

و «النُسُك»: يعنى فى الأصل العبادة، ولذا يقال للعابد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

ثم فى الآية الثالثة يضيف للتأكيد وإبطالًا لأىّ نوع من أنواع الشرك والوثنية قائلًا: «لَا شَرِيكَ لَهُ».

ثم يقول فى ختام الآية: «وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

فإنّ كون رسول الإسلام أوّل المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه وأهميته، لأنّ درجة إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الامة التى قبلت بالإسلام والقرآن.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبّاً وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴) هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب رباً غير اللّه الواحد فى حين أنّه هو المالك والمربى، وهو رب كل شىء وبيده أزمة جميع الكائنات، وحكمه جار فى جميع ذرات الوجود بلا استثناء:

«قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَىْءٍ».

ثم إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: اتّبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأً. قائلًا: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى فلا يعمل أحد إلّالنفسه، ولا يحمل أحد وزر أحد.

«ثُمَّ إِلَى رَبّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» فمآلكم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۷

وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۵) فى هذه الآية التى هى آخر الآيات من سورة الأنعام إشارة إلى أهمية مقام الإنسان ومكانته فى عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضية فى مجال تقوية دعائم التوحيد، ومكافحة الشرك. لهذا قال تعالى فى مطلع كلامه: «هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلئِفَ الْأَرْضِ».

إنّ الإنسان الذى هو خليفة اللّه فى أرضه، والذى سُخّرت له كل منابع هذا العالم وصدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب اللّه تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجمادات.

ثم أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب والاستعدادات فى المواهب البدنية والروحية لدى البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فيقول: «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَاكُمْ» من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ويختبركم بها.

ثم تشير فى خاتمة الآية الحاضرة إلى حرية الإنسان فى اختيار طريق السعادة وطريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات والإبتلاءات، إذ يقول: «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ». فإنّ ربك سريع العقاب مع الذين يفشلون فى هذا الاختبار، وغفور رحيم للذين ينجحون فيه ويسعون لإصلاح أخطائهم.

بحثان

۱- التفاوت بين أفراد البشر ومبدأ العدالة: لا ـ شك أنّ بين أفراد البشر طائفة من الاختلافات والفوارق المصطنعة، التى هى نتيجة المظالم التى يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلًا جماعة يمتلكون ثروات هائلة، وجماعات اخرى تعانى من الفقر المدقع.

جماعة يعانون من المرض والعلة بسبب سوء التغذية وندرة الوسائل الصحية، فى حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامة والعافية، بسبب توفّر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق والاختلافات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسلامة والمرض، هى فى الأغلب وليدة الاستعمار والاستثمار، وهى مظاهر مختلفة للعبودية والمظالم الظاهرة والخفية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۸

إنّ من المسلم أنّه لا يمكن أن تعتبر هذه الامور من فعل المشيئة الإلهية وليس من الصحيح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبرّرة أساساً. إنّ أفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجرة كبيرة واحدة يقوم كل فرد برسالة خاصة فى هذا الصرح العظيم، وله بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

ولهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق وهذا التفاوت وسيلة لاختباركم وامتحانكم، لأنّ الاختبار والامتحان الإلهى- كما قلنا سابقاً- يعنى «التربية».

۲- خلافة الإنسان فى الأرض: إنّ النقطة الاخرى الجديرة بالاهتمام، هى أنّ القرآن الكريم وصف الإنسان مراراً بأنّه خليفة اللَّه فى أرضه، إنّ هذا الوصف، وهذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان يبيّن هذه الحقيقة أيضاً، وهى: أنّ اللَّه تبارك وتعالى هو المالك الأصلى والحقيقى للأموال والثروات والقابليات، وجميع المواهب الإلهية الممنوحة للإنسان، وما الإنسان- فى الحقيقة- إلّاخليفة اللَّه ووكيل من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البديهى أنّ الوكيل- مهما كان- فهو غير مستقل فى تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلى، وتقع ضمن إجازته.

ومن هنا يتضح أنّ الإسلام- مثلًا- يختلف عن النظام الشيوعى، وكذا عن النظام الرأسمالى فى مسألة المالكية، لأنّ الفريق الأوّل يخصص الملكية بالجماعة، والفريق الثانى يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: الملكية لا هى للفرد ولا هى للمجتمع، بل هى فى الحقيقة للَّه‌تعالى، والناس وكلاء اللَّه، وخلفاؤه.

وبهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقة تصرف الأفراد فى الأموال كسباً وصرفاً، ويضع لكل ذلك قيوداً وشروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامى نظاماً متميزاً فى مقابل الأنظمة الاخرى.

«نهاية تفسير سورة الأنعام»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۹

۷. سورة الاعراف

هذه السورة من السور المكية إلّاقوله تعالى: «وَاسَلْهُم عَنِ الْقَرْيَةِ» إلى «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» الذى نزل فى المدينة.

محتوى السورة: يشير فى البدء إلى مسألة المبدأ والمعاد.

ثم بهدف إحياء شخصية الإنسان شرحت- باهتمام وعناية كبيرة- قصة خلق آدم.

ثم عدّدت- بعد ذلك- المواثيق التى أخذها اللَّه تعالى من أبناء آدم فى مسير الهداية والصلاح، واحداً واحداً.

ثم للتدليل على هزيمة وخسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد والعدالة والتقوى، وكذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين

وإنتصارهم، ذكرت قصص كثير من الاقوام الغابرة والأنبياء السابقين مثل «نوح» و «لوط» و «شعيب» وختمت ذلك ببيان قصة بنى إسرائيل، وجهاد «موسى» ضدّ فرعون، بصورة مفصلة.

وفى آخر السورة عادت مرّة اخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البداية والخاتمة.

فضيلة تلاوة هذه السورة: فى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف فى كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج۲ ۱۳۹

فى كل جمعة كان ممّن لا يحاسب يوم القيامة». ثم قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «أما إنّ فيها آياً محكمة فلا تدعوا قراءتها وتلاوتها والقيام بها فإنّها تشهد يوم القيامة لمن قرأها عند ربّه».

المص (۱) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (۳) فى مطلع هذه السورة نواجه مرّة اخرى «الحروف المقطعة»، ويمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المستمعين، ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف فى مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل فى نظر العرب، ومن شأنها أن تثير فى العربى حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

ثمّ يقول تعالى فى الآية اللاحقة: «كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ».

«الحرج»: فى اللغة يعنى الشعور بالضيق وأىّ نوع من أنواع المعاناة.

إنّ العبارة الحاضرة تسلّى النبى صلى الله عليه و آله وتطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب اللّه تعالى فيجب أن لا يشعر صلى الله عليه و آله بأىّ ضيق وحرج، لا من ناحية ثقل الرسالة الملقاة على عاتقه، ولا من ناحية ردود فعل المعارضين والأعداء الألدّاء تجاه دعوته، ولا من ناحية النتيجة المتوقّعة من تبليغه ودعوته.

ثم يضيف تعالى فى الجملة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب نواياهم وأعمالهم الشريرة، وتذكير المؤمنين الصادقين، إذ يقول: «لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم إنّه سبحانه يوجّه خطابه إلى عامة الناس ويقول: «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ».

وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومهمته ورسالته، وانتهى بوظيفة الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلًا: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» فلا تتبعوا غير أوامر اللّه، ولا تختاروا وليّاً غير اللّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۱

وحيث إنّ الخاضعين للحق والمتذكرين قليلون، لذا قال فى ختام الآية: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ومن هذه الآية يستفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولاية اللّه وقيادته، وإمّا الدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلك الطريق الأوّل كان اللّه وليّه، وأمّا إذا دخل تحت ولاية الآخرين فإنّ عليه- حينئذ- أن يخضع فى كل يوم لواحد من الأرباب، وأن يختار ربّاً جديداً.

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (۴) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۵) هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التى تترتب على مخالفة الأوامر التى تمّ بيانها فى الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التى ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذّر وينذر بشدة فى هذه الآية كل اولئك الذين يتمرّدون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين، بأن يتدبروا قليلًا فى حياة الأقوام السالفة وينظروا كم من قرية عامرة أبادها اللّه، وأهلك سكّانها

الفاسقين: «وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا».

ثم يبيّن كيفيهٔ هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم فى منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحهٔ والسكون، أو فى وسط النهار وهم يمضون لحظات الاستراحهٔ والإسترخاء بعد رحلهٔ من العمل والنشاط اليومى الدّائب: «فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ».

ثم يواصل الحديث فى الآيهٔ اللاحقهٔ هكذا: «فَمَا كَانَ دَعْوَيهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». فعندما يتورّطون فى البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: إنّا كنا ظالمين.

ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف الجبرى والاضطرارى الذى يضطرّ إليه حتى أشد الناس غروراً.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقهٔ لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللُامم والأقوام القادمهٔ، لأنّه لا معنى للتبعيض فى السنّهٔ الإلهيهٔ.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۰۲

والإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمهٔ مع كل ما اوتى من قوهٔ هو الآخر عاجز أمام الزلازل والعواصف، وأمام السيول والأمطار الغزيرهٔ، تماماً مثل عجز الامم ما قبل التاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئهٔ والأليمهٔ التى أصابت ظَلَمهٔ الامم الغابرهٔ وجباريها، وحلّت بالمغرورين والفسقهٔ والمتمردين ليلًا وحطّمتهم، ببعيدهٔ عن الإنسان الحاضر.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ (۷) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (۹) التحقيق الشامل: إنّ الآيهٔ المتقدمهٔ تحدّثت عن الجزاء الدنيوى للظالمين، وهذه الآيات تبحث فى الجزاء والعقاب الاخروى لهم، وبهذا يتّضح الإرتباط بينها. يقول تعالى أوّلًا وهو يقرر سنّهٔ عامهٔ: «فَلَنَسَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ». أى إنّنا سنسأل فى يوم القيامهٔ كل من أرسلنا لهدايته رسولًا، حتماً ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم: «وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

وعلى هذا الأساس فالجميع مسؤولون، قادهً وأتباعاً، رسلًا ومرسلًا إليهم، غايهٔ ما فى الأمر أنّه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفهٔ إلى اخرى.

فى الآيهٔ اللاحقهٔ- ولكى لا يتصور أحد بأنّ سؤال اللّه للانبياء يعنى أنّ الأمر قد خفى على اللّه وغاب عن علمه- قال تعالى بصراحهٔ مزيجهٔ بالقسم، بأنّنا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنا شىء من أفعالهم، وما غابوا هم عنا، فقد كنا معهم فى كل حين ومكان: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

المساءلهٔ لماذا؟ نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه يعلم بكل شىء، فهو الحاضر فى كل زمان ومكان، الناظر لكل شىء من نيّهٔ أو عمل، فما الحاجهٔ إلى مساءلهٔ الرسل والامم عامهٔ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۰۳

وبدون إستثناء؟!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقهٔ لم يصح أن يقع من العالِم العارف. وأمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجهٔ عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن فى ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرهٔ وقابَلَنا بالإساءهٔ والخيانهٔ، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإنّنا نسائله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمهٔ؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟

إنّ مثل هذه المساءلهٔ ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقهٔ المجهولهٔ، بل هى لتفهيم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقهٔ.

فى الآيهٔ اللاحقهٔ- تكميلًا لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضيهٔ «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنيهٔ الاخرى مثل ما جاء

فى سورة «المؤمنون» فى الآية (۱۰۲ و ۱۰۳) وسورة «القارعة» الآية (۶ و ۸).

فيقول أوّلًا: إنّ وزن الأعمال يوم‌القيامة أمر واقع لا ريب فيه: «وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

إذن، فالمسلم هو أنّ أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامة بأداة خاصة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمة والصالحين، وهذا ما يستفاد- أيضاً- من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إنّ أولياء اللَّه فى هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إنّ أكثر الحقائق فى هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام والغموض، تبرز فى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» «۱». وتنكشف هذه الحقائق وتنجلى للعيان.

ثمّ إنّه تعالى يقول فى المقطع الآخر من الآية: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ».

إنّ من البديهى أنّ المراد من الخفّة والثقل فى الموازين ليس هو خفة وثقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التى توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

إنّ جملة «كانوا بآياتنا يظلمون» إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل

---

(۱) سورة إبراهيم/ ۴۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۴

ظلموا- كذلك- البرامج الإلهية الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغى أن تكون سبلًا للهداية ووسائل للنجاة، ولو أنّ أحداً تجاهلها، ولم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (۱۰) مكانة الإنسان وعظمته فى عالم الوجود: عقيب الآيات التى أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث فى هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الانسان وأهمية مقامه، وكيفية خلق هذا الكائن والمفاخر التى وهبها اللَّه له. فهو يقول فى البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلّطناكم على الأرض: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ».

وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلّاقليلًا «قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (۱۱) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۱۲) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (۱۳) قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۱۵) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۶) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (۱۷) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۸) لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفية إيجاده فى سبع سور من سُوَر القرآن الكريم، وفى الآية المبحوثة الآن يقول اللَّه تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ» جدّكم الأوّل، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذى كان موجوداً فى صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلّاإبليس: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۵

وكما قلنا فى ذيل الآية (۳۴) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة للّه‌سبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع.

فی الآیة اللاحقة یقول تعالی: أنّه أخذ إبلیس علی عصیانه وطغیانه و «قَالَ مَا مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ». فتذرّع- فی مقام الجواب- بعذر غیر وجیه إذ: «قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِینٍ».

وکأنّ إبلیس کان یتصور أنّ النار أفضل من التراب، وهذه هی أکبر غلطاته وأخطائه، ولعله لم یقل ذلک عن خطأ والتباس، بل کذب عن وعی وفهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البرکات، ومنبع جمیع المواد الحیاتیة، وأهم وسیلة لمواصلة الموجودات الحیة حیاتها، علی حین أنّ الأمر بالنسبة إلی النار لیس علی هذا الشکل.

علی أنّ میزة الإنسان لم تکن فی کونه من التراب، بل إنّ میزته الأصلیة تکمن فی «الروح الإنسانیة» وفی خلافته للّه تعالی.

والظاهر أنّ الشیطان کان یعرف بکلّ هذه الامور، ولکن التکبر، والأنانیة هما اللذان منعاه عن امتثال أمر اللّه، وکان ما أتی به من العذر حجة داحضة، ومحض تحجج وتعلل.

بقی هنا سؤال وهو: کیف کان یتحدّث الشیطان مع اللّه، فهل کان ینزل علیه الوحی؟

الجواب هو: أنّ کلام اللّه لا- یکون بالوحی دائماً، فالوحی عبارة عن رسالة النبوة، فلا مانع من أن یکلّم اللّه أحداً لا بعنوان الوحی والرسالة، بل عن طریق الباطنی أو بواسطة بعض الملائکة، سواء کان من یحادثه اللّه من الصالحین الأبرار مثل مریم وام موسی، أو من غیر الصالحین مثل الشیطان.

ولنعد الآن إلی تفسیر بقیة الآیات:

حیث إنّ امتناع الشیطان من السجود لآدم علیه السلام لم یکن امتناعاً بسیطاً وعادیاً ولم یکن معصیة عادّیة، بل کان تمرّداً مقروناً بالاعتراض والإنکار للمقام الربوبی، لهذا فإنّ مخالفته کانت تعنی الکفر وإنکار العلم والحکمة الإلهیین، فوجب أن یخسر جمیع مراتبه ودرجاته، وبالتالی کل ما له من مکانة عند اللّه، ولهذا أخرجه اللّه من ذلک المقام الکریم، وجرّده من تلک المنزلة السامقة التی کان یتمتع بها فی صفوف الملائکة، فقال له: «فَاهْبِطْ مِنْهَا».

ثمّ إنّه تعالی شرح له منشأ هذا السقوط والتنزل بالعبارة التالیة: «فَمَا یَکُونُ لَکَ أن تَتَکَبَّرَ فِیهَا».

وأضاف للتأکید قائلًا: «فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِینَ». یعنی إنّک بعملک وموقفک هذا لم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۶

تصبح کبیراً، بل علی العکس من ذلک أصبتَ بالصغار والذلة.

إنّ هذه الجملة توضّح بجلاء أنّ شقاء الشیطان کله کان ولید تکبره. فی الکافی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «اصول الکفر ثلاثة: الحرص والاستکبار والحسد، فأمّا الحرص فإنّ آدم علیه السلام حین نهی عن الشجرة حمله الحرص علی أن أکل منها، وأمّا الاستکبار فإبلیس حیث امر بالسجود لآدم فأبی، وأمّا الحسد فإبنا آدم حیث قتل أحدهما صاحبه».

ولکن قصة الشیطان لم تنته إلی هذا الحد، فهو عندما عرف بأنّه صار مطروداً من حضرة ذی الجلال زاد من طغیانه ولجاجته، وبدل أن یتوب ویثوب إلی اللّه ویعترف بخطئه فإنّ الشیء الوحید الذی طلبه من اللّه تعالی هو أن یمهله ویؤجّل موته إلی یوم القیامة: «قَالَ أَنظِرْنِی إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ».

ولقد استجاب اللّه لهذا الطلب، ف «قَالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِینَ».

غیر أنّ الشیطان لم یبغ من مطلبه هذا (أی الإمهال الطویل) الحصول علی فرصة لجبران مافات منه أو لیعمّر طویلًا، إنّما کان هدفه من ذلک هو إغواء بنی البشر «قَالَ فَبِمَا أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَکَ الْمُسْتَقِیمَ». أی لأغوینهم کما غویت، ولُاضلنّهم کما ضللت.

ثمّ إنّ الشیطان أضاف- تأکیداً لقوله- بأنّه لن یکتفی بالقعود بالمرصاد لهم، بل سیأتیهم من کل حدب وصوب، ویسدّ علیهم الطریق من کل جانب «ثُمَّ لَأَتِیَنَّهُم مِّن بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَیْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شَاکِرِینَ».

ولقد نقل- فی المجمع- عن الإمام الباقر علیه السلام تفسیر أعمق لهذه الجهات الأربع حیث قال:

«ثمّ لآتينّهم من بين أيـديهم، معناه: اهوّن عليهم أمر الآخرة؛ ومن خلفهم، آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم؛ وعن أيمانهم، افسـد عليهم أمر دينهم بتزيين الضـلالة وتحسـين الشـبهة؛ وعن شـمائلهم، بتحبيب اللـذات إليهم وتغليب الشـهوات على قلوبهم».

وفى آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة اخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهى والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أنّ الأـمر بطرده هنـا اتّخـذ صورة أكثر ازدراء وتحقيراً، وأشـد عنفـاً ووقعـاً، ولعل هـذا كان لأجل العناد واللجاج الـذى أبـداه الشـيطان بالإلحاح على الوسوسـة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعنى أنّ موقفه الأثيم فى البدايـة كان منحصـراً فى التمرد على أمر اللّه وعدم إمتثاله، ولهـذا صـدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عنـدما أضاف معصـية أكبر إلى معصـيته بالعزم على إضـلال الآخرين جاء الأمر المشدد: «قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۷

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه: «لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ».

سؤال: بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل اللّه طلبه فى الإمهال، وتأخير الأجل؟

إنّ مواصـلة الشـيطان لحياته كقضـية سـلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثر ومفيد أيضاً، فإنّه مع غض النظر عن الشـيطان، هناك مجموعـة من الغرائز المختلفة فى داخلنا، وهى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفى مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده.

إنّ النقطـة المهمـة التى يجب الإنتباه إليها هى أنّ اللّه تعالى وإن كان ترك الشـيطان حرّاً فى القيام بوساوسه، ولكنه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرداً من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلًا: وهبه قوة العقل التى يمكن أن توجد سدّاً قوياً منيعاً فى وجه الوساوس الشيطانية خاصة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقيّة وحب التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعّال من عوامل السعادة.

وثالثـاً: يبعث الملائكـة التى تلهم الخيرات إلى الـذين يريـدون أن يعيشوا بمنـأى عن الوسـاوس الشـيطانية، كما يصـرّح القرآن الكريم بذلك- فى الآية (۳۰) من سورة فصّـلت- إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلِكَةُ». إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۹) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَ قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (۲۰) وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (۲۱) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَ لَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۲)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۸

وساوس شيطانية فى حُلل خَلّابـة: تُبيّن هـذه الآيات وتسـتعرض فصـلًا آخر من قصـة آدم، فتقول أوّلًا: إنّ اللّه سـبحانه أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكنا الجنة: «وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

ويسـتفاد من هـذه العبارة أنّ آدم وحواء لم يكونا فى بـدء الخلقـة فى الجنـة. وفى هـذه الأثناء صـدر أوّل تكليف وأمر ونهى إلى آدم وحواء من جـانب اللّه تعالى، بهـذه الصورة: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ». أى إنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنة مباح لكما، إلّاشجرة خاصه لا تقرباها، وإلّا كنتما من الظالمين.

ثم إنّ الشـيطان الذى طُرِد من رحمة اللّه تعالى بسـبب إحجامه عن السـجود لآدم، وكان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن.

بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية للّه، عنهما، فأبدى عورتهما التى كانت مخبأة مستورة:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا».

وللوصول إلى هـذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حب الإنسان ورغبته الذاتية فى التكامل والرقى والحياة الخالدة، وليوفّر لهما عـذراً يعتـذران ويتوسـلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللّه ونهيه، ولهـذا قال لآدم وزوجته: «مَا نَهكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ».

وبهذه الطريقة صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق فى التفكير ولكن الشيطان- من أجل أن يحكم قبضته ويعمّق وسوسته فى روح آدم وحواء- توسل بالأيمان المغلّظة للتدليل على أنّه يريد لهما الخير! «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ».

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع فى حبائل الشيطان وخدعه بعد ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الأيمان المغلّظة كذباً، ولهذا وقع فى حبال الشيطان، وسقط فى ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخّصه فى عبارة موجزة إذ يقول: «فَدَلهُمَا بِغُرُورٍ» «۱».

---

(۱) «دلّى»: من مادة التدلية وتعنى إرسال الدلو فى البئر بحبلٍ تدريجاً وهذه كناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والإبتعاد عن الرحمة الإلهية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۹

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما «فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا».

وجُرّدا من لباس الجنة الذى هو لباس الكرامة الإلهية.

ثم يقول: إنّ آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنة: «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ» «۱».

وفى هـذا الوقت بالـذات جاءهما نـداء من اللّه يقول: ألم احذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشيطان عدوّ لكما؟ فلماذا تناسيتم أمرى ووقعتم فى‌مثل هذه الأزمة: «وَنَادَيهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الاولى التى أجاز اللّه فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهى.

بحثان

۱- مـاذا كـانت الشجرة الممنوعـة؟ جـاءت فى المصـادر الإسـلامية تفسيران لهـا، أحـدهما «مادى» وهو أنّها كانت «الحنطـة» كما هو المعروف فى الروايات.

والتفسير الآخر «معنوى» وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة- كما فى الرّوايات- هو ما عبّر عنها ب «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الروايات- بعـد ملاحظـة مكانته ومقامه- تصوّر أنّه لا يوجـد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن اللّه تعالى أطلعه على مقام ثلّة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الأكرم وأهل بيته)، فحصل عنـده ما يشـبه الحسد، وكانت هذه هى الشـجرة الممنوعة التى امر آدم بأن لا يقربها.

وفى الحقيقـة تناول آدم- طبقاً لهـذه الروايات- من شـجرتين، كانت إحـداهما أقل منه مرتبـة وأدنى منه منزلـة، وقـد قادته إلى العالم

المادى، وكانت هى «الحنطة». والاخرى هى الشجرة المعنوية التى كانت تمثل مقام ثلّة من أولياء اللَّه، والذى كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أنّ هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرد إحساس

---

(١) «يخصفان»: من مادة «الخصف» وتعنى فى الأصل ضمّ شىء إلى شىء آخر، والجمع، ثمّ أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخياطته فقيل: خصف النعل أو الثوب، أى جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۰

نفسانى من دون أن تتبعه أيّة خطوة عملية على طبقه. ۲- هل ارتكب آدم معصية؟ إنّ المصادر الإسلامية تقول لنا: إنّ الأنبياء لايرتكبون إثماً وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أنّ آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: أنّ المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و «المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هى مخالفة النهى التحريمى، وتجاهل الأمر الإلهى القطعى، وهى تشمل كل نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هى أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه.

فالصلاة التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء اللَّه.

وهكذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب اللَّه، والمراد من ترك الأولى هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ويعمد إلى عمل جيّد أو مستحب أدنى منه فى الفضل.

إنّ نهى آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أولى، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدّ صدوره أمراً مهمّاً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهى (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب اللَّه تعالى.

قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۲۳) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (۲۴) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (۲۵) رجوع آدم إلى اللَّه وتوبته: وفى المآل عندما عرف آدم وحواء بكيد إبليس، وخطّته ومكره الشيطانى، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكّرا فى تلافى ما فات، وجبران ما صدر منهما،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۱

فكانت أوّل خطوة خطياها هى: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام اللَّه: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

إنّ توبة آدم وحواء الخالصة وإن قُبلت من جانب اللَّه تعالى- كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۷) من سورة البقرة: «فَتَابَ اللَّهُ»- ولكنهما لم يستطيعا على كل حال التخلّص من الأثر الوضعى والنتيجة الطبيعية لعملهما، فقد امرا بمغادرة الجنة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً: «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياة، ثم يخرجون من الأرض مرّة اخرى للحساب «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۲۶) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا

جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۷) وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۲۸) إنـذار إلى كـل أبنـاء آدم: إنّ اللّه تعـالى بيّن فى الآيات الحاضـرة وما بعـدها سلسـلة من التعاليم والبرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، وهى تعتبر فى الحقيقة استمراراً لبرامج آدم فى الجنة.

ففى البدايـة يشـير إلى مسألـة اللباس وستر سَوءات البـدن التى كان لها دور مهم فى قصـة آدم، إذ يقول: «يَا بَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ».

ولكن فائـدة اللبـاس الـذى أرسـلناه لكم لاـ تقتصـر على ستر البـدن وإخفـاء العيوب والسوءآت، بل للتجمل والزينـة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل مما هى عليه.

«وَرِيشًا».

«ريش»: فى الأصـل هو مـا يستر أجسام الطيور، وحيث إنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعى فى أجسامها، لهـذا اطلق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إنّ ريش الطير فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۲

الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال.

ثم تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التى كانت حول اللباس الظاهرى، عن حد اللباس المعنوى تبعاً لسيرته فى الكثير من الموارد التى تمزج بين الجانبين المادى والمعنوى، الظاهرى والباطنى إذ قال: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ».

وتشـبيه التقوى باللبـاس تشـبيه قوى الدلالـة، معبّر جـداً، لأـنّه كمـا أنّ اللبـاس يحفـظ البـدن من الحرّ والقرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسـمانية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنّها مضافاً إلى ستر عيوب الانسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ...

زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمّواً، وتزيدها جلالًا وبهاء.

والمراد من لباس التقوى هو «روح التقوى» التى تحفظ الإنسان، وتنطوى تحتها معانى «الحياء» و «العمل الصالح» وأمثالهما.

ثمّ إنّ اللّه تعـالى يقول فى ختام الآيـة: «ذلِكَ مِن ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». أى إنّ هـذه الألبسـة التى جعلها اللّه لكم، سواء الألبسـة المادية أو المعنوية، اللباس الجسمانى أو لباس التقوى، كلها من آيات اللّه ليتذكر الناس نعم الرب تعالى.

اللباس فى الماضـى والحاضـر: لم يزل الإنسان فيما مضـى- كما يشهد به التاريخ- يلبس الثياب ولكن الألبسة قد تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغـاً عبر الزمن. لقـد تطورت وسائـل إنتاج الألبسـة والثياب فى عصـرنا الراهن تطوراً هائلًا، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصـبح لا يقاس بما مضى.

ولكن- للأسف- قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنّها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس- اليوم- وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أنّنـا ربّما نشاهـد ألبسـة يرتـديها جماعات من الناس- وبخاصـة الشـباب المتغرب- يفوق طابُعها الجنونى على الطابع العقلانى، وتكون أشبه بكل شىء إلّاباللباس والثوب.

الآيـة اللاحقـة يحـذّر فيها اللّه سـبحانه جميع أبناء البشـر من ذريـة آدم من كيـد الشـيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۳

نزع عنه لباس الجنـة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: «يَا بَنِى ءَادَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم

مّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا».

ثمّ إنّ اللّه تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان وأعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء: «إِنَّهُ يَرَيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ». فلابدّ من شدة الحذر من مثل هذا العدو.

وفى خاتمة الآية يأتى سبحانه بجملة هى إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط اللّه العادل الرحيم عدوّاً بهذه القوة على الإنسان ... عدوّاً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان ... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه- حسبما جاء فى بعض الأحاديث- يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة اللّه سبحانه؟!

الآية الشريفة- فى خاتمتها- ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ». أى إنّ الخطوات الاولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع إجتياز حدود الروح ويعبرها إلّابعد موافقة من الإنسان نفسه.

وفى الآية (۴۲) من سورة الحجر نقرأ: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ».

فى الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمة والتى تجرى على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهى أنّه عندما يُسأل الشخص لدى إرتكابه عملًا قبيحاً، عن دليله يجيب قائلًا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا».

ثمّ يضيفون إلى هذه الحجة حجة كاذبة اخرى قائلين: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يَعبأ بالدليل الأول (يعنى التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وإنّما اكتفى بالردّ على الحجة الثانية، أو بالأحرى (التبرير الثانى) حيث قال: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ».

ثم يختم الآية بهذه العبارة: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

«الفحشاء»: هنا هو كل عمل قبيح منكر، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و «اتباع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۴

القادة والزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك.

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِيقاً هَدَى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰) بما أنّ الحديث فى الآية السابقة دار حول الفحشاء التى يشمل مفهوماً كل أنواع الفعل القبيح، وتأكّد أنّ اللّه لا يأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا اشير فى هذه الآية إلى أصول ومبادىء التعاليم الإلهية فى مجال الوظائف والواجبات العملية فى جملة قصيرة، ثم تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أى المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلًا: أيها النبى «قُلْ أَمَرَ رَبّى بِالْقِسْطِ» والعدل.

ونحن نعلم أنّ للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هى استخدام كل شىء فى مجاله، ووضع كل شىء فى محله.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فى العبادة ومحاربة كل ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال:

«وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ». أى وجّهوا قلوبكم نحو اللّه الواحد دون سواه «وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ».

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة، إذ قال: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

إنّ الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير فى مسألة المعاد الجسمانى، إذ تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذى يتكون من مقدار كبير من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان فى السابق؟

فالمياه المستخدمة فى جسمكم يحتمل أنّ كل قطرة منها كانت سادرة فى محيط من محيطات الأرض ثم تبخّرت وتبدلت إلى السُّحب، ثم نزلت فى شكل قطرات المطر على الأراضى، والذرات التى استخدمت فى نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم فى هيئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشى بدن الإنسان ورجوعه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۵

إلى حالته الاولى تجتمع تلك الذرات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالًا فلماذا وقع فى مبدأ الخلقة؟!

إذاً «كما بدأكم» اللّه «تعودون» أى يعيدكم فى الآخرة، وهذا هو الموضوع الذى تضمنته العبارة القصيرة.

فى الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التى أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَلَةُ».

ولأجل أن لا يتصور أحد أنّ اللّه يهدى فريقاً أو يضلّ فريقاً من دون سبب، أضاف فى الجملة ما يلى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى إنّ الضالين هم الذين إختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية اللّه، فضلوا.

والعجب أنّه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنّهم المهتدون الحقيقيون «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ».

إنّ هذه الحالة تختص بالذين غرقوا فى الطغيان والمعصية، وفى هذه الحالة اغلقت فى وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳۲) الحديث فى هاتين الآيتين يتناسب مع قصة آدم فى الجنة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها.

فى البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدى، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد: «يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسمانية» مما يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعنى الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۶

النية وطهارتها وإخلاصها. ثمّ فى العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب اخرى، يعنى الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا».

ولكن حيث إنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسىء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمة اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلًا: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

«الإسراف»: كلمة جامعة جدّاً بحيث تشمل كل إفراط فى الكم والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك.

وفى الآية اللاحقة يعمد إلى الردّ- بلهجة أكثر حدّةً- على من يظن أنّ تحريم أنواع الزينة والتزين والإجتناب من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى اللّه فيقول:

أيّها النبى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ».

ثمّ أضاف للتأكيد: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ». أى إنّ هذه النعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين فى هذه الحياة، وإن كان الآخرون- أيضاً- يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن فى يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هذه المواهب والنعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كلياً.

وفى ختام الآية يقول من باب التأكيد: «كَذلِكَ نُفَصّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

لقد اختار الإسلام- كسائر الموارد- حدّ التوسط والإعتدال فى مجال الإنتفاع والاستفادة من أنواع الزينة.

ولم يكتف الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل اوصى بذلك وحثّ عليه أيضاً.

توصية صحية هامة: إنّ عبارة «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا» التى جاءت فى الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جدّاً، إلّاأنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التى تبقى فى بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلًا على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهى من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۷

جانب آخر منبع مهيّأ لمختلف أنواع العفونات والأمراض.

إنّ العامل الأصل فى وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط فى الأكل والبطنة، والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّارعاية الإعتدال فى الأكل.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۳۳) لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الامور القبيحة والمحرمات، ليكمّل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث- عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهية وإباحة كل ما هو زينة وجمال- عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصة إلى عدة نقاط مهمة.

ففى البداية تحدث عن تحريم الفواحش وقال: يا أيّها النبى «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

«الفواحش»: جمع «فاحشة» وتعنى الأعمال القبيحة البالغة فى القبح والسوء لا جميع الذنوب، ولعل التأكيد على هذا المطلب (ماظهر منها وما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا اتى به سرّاً، ويحرّمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع وأشار إلى جميع الذنوب وقال: «وَالْإِثْمَ». أى كل إثم.

والإثمّ فى الأصل يعنى كل عمل مضر، وكل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وتردّى منزلته، ويمنعه ويحرمه من نيل الثواب والأجر الحسن. وعلى هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب فى المفهوم الواسع للإثم.

ومرّة اخرى يشير بصورة خاصة إلى عدد من كبريات المعاصى والآثام، فيقول:

«وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقّ». أى كل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز على حقوق الآخرين.

«البغى»: يعنى السعى والمحاولة لتحصيل شيء ولكن يراد منه غالباً الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرين، ولهذا يكون مفهومه- فى الغالب- مساوياً لمفهوم الظلم.

ثمّ أشار تعالى إلى مسألة الشرك وقال: «وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا». فهو أيضاً محرّم عليكم.

وآخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبة شيء للّهلايستند إلى علم: «وَأَن تَقُولُوا عَلَى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۸

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (۳۴) لكل امة أجل: فى هذه الآية يشير اللَّه تعالى إلى واحدة من سنن الكون والحياة، أى فناء الامم وزوالها، ويلقى ضوءاً أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاة، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقة. فيقول أوّلًا: «وَلِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ».

ثم يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر إن جاء «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». أى إنّ الامم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وأنّ الامم تندثر وينمحى أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها امم اخرى، وإنّ سنّة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والامم أيضاً، مع فارق وهو أنّ موت الشعوب والأمم يكون- فى الغالب- على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والإنغماس فى بحار الشهوات، والغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل والرفاهية.

فعندما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط فى النهاية.

ويجب الإلتفات إلى أنّ «الساعة» فى اللغة تعنى أصغر وحدة زمنية، فربّما تكون بمعنى لحظة، وربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن.

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۳۵) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۳۶) تعليم آخر لأبناء آدم: مرّة اخرى يخاطب اللَّه سبحانه أبناء آدم وذريته، إذ يقول: «يَا بَنِى ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايِتِى فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». أى إذا أتتكم رسلى يتلون عليكم آياتى فاتبعوهم، لأنّ من اتقى منكم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۹

واتبعهم وأصلح نفسه والآخرين كان فى أمن من عذاب اللَّه الأليم، فلا يخاف ولا يحزن.

وفى الآية اللاحقة يضيف سبحانه وتعالى قائلًا: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

فتلك عاقبة المؤمنين، وهذه عاقبة المكذبين لهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (۳۷) من هذه الآية فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيء الذى ينتظر المفترين والمكذبين لآيات اللَّه تعالى، وفى البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ تقول: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: «أُولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ». أى إنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

وعلى كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففى البداية يواجهون التوبيخ وعتاب الملائكة المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التى اتخذتموها من دون اللَّه والتى طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. «قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شيء، ويرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئة حول آلهتهموذهبت أدراجالرياح، قائلين: لانرى منها أثراً وإنّها لا تملك أن تدافع عنّا، وإنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثاً وباطلًا:

«قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا».

وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ». أى فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، وهذا هو أوّل سوط جهنمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۰

قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (۳۸) وَ قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۳۹) تنازع القادة والاتباع فى جهنم: فى هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات اللَّه، وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامة. ففى يوم القيامة يقول اللَّه لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النار «قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مّنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ فِى النَّارِ».

وعندما يدخل الجميع فى النار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباههم فى المسلك، وهى مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعة منهم فى النار لعنت الاخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحنتها «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا» «۱».

ففى البداية يبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شكايتهم، وحيث إنّهم لا يجدون مناصاً ممّا هم فيه يقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المغوين هم الذين أضلونا وخدعونا، فضاعف يا ربّ عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إيّانا، وهذا هو ما يتضمنه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيهُمْ لِأُولَيهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مّنَ النَّارِ».

ولكن العجيب هو أن يقال لهم فى معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِن لَّاتَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنّه ليس بيننا وبينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيّدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم،

---

(۱) التعبير بالاخت كناية عن الإرتباط الفكرى والصِّلة الرّوحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إنّ الامّة مؤنث لفظى، لهذا عبّر عنها بالاخت، لا الأخ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۱

وإذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب اللَّه الأليم «وَقَالَتْ أُولهُمْ لِأُخْرِيهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۴۱) مرّة اخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعنى اولئك الذين لا يخضعون لآيات اللَّه ولا يستسلمون للحق، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها. وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجّين وهو واد بحضرموت يقال له برهوت».

ثمّ أضاف قائلًا: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ».

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، حتى لا يشكّ أحد فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنة مطلقاً.

وفى خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلًا: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: «لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» (١).

ثم يضيف للتأكيد: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ».

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

---

(١) «المهاد»: جمع مهد وزان عهد أى الفرش؛ و «الغواش»: فى الاصل غواشى جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٢

ولقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات اللَّه، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وهذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغى لأحد أن يتصور بأنّ الإيمان باللَّه، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّالأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها.

إنّ هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية فى الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنّد العقيدة النصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة وأمثالها.

وفى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها اللَّه سبحانه لأهل الجنة، والتى تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكنتهم الروحية، إذ قال: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ».

«الغِل»: فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفيّة وسرّاً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية (الغل).

وإنّ من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياة، ومصدر الكثير من الصراعات الاجتماعية الواسعة التى تؤدّى- مضافاً إلى الخسائر الفادحة فى المال والنفس- إلى زعزعة الاستقرار الروحى، هو الحسد والحقد.

إنّ أهل الجنة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلية، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، إنّهم يعيشون معاً فى منتهى التواد والتحابب والصفاء والسكينة، ولهذا راضون عن وضعهم الذى هم فيه.

وبعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول:

«تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ».

ثم يعكس رضى أهل الجنة الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد والشكر للَّهوحده

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٣

على ما هداهم إليه من النعم «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَينَا لِهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَينَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبّنَا بِالْحَقّ».

وهنا يأتيهم النداء بأنّ ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم: «وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ

اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۴۴) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (۴۵) بعد البحث فى الآيات السابقة حول مصير أهل الجنة وأهل النار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين فى ذلك العالم، ويستفاد من ذلك أنّ أهل الجنة وأهل النار يتحادثون بينهم وهم فى مواقعهم فى الجنة أو النار، فيقول أوّلًا: «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا».

فيجيبهم أهل النار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك، عين الحقيقة «قَالُوا نَعَمْ».

ثم يضيف تعالى بأنّه فى هذا الوقت بالذات ينادى مناد بنداء يسمعه الجميع: أن لعنة اللَّه على الظالمين «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

ثم يعرّف الظالمين ويصفهم بقوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْأَخِرَةِ كَافِرُونَ» «۱».

جاء فى الأحاديث الإسلامية المفسرة والموضّحة لهذه الآية، تفسير المؤذّن بأمير المؤمنين على عليه السلام.

فى تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى بإسناده عن محمّد بن الحنفية عن على عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن».

و بإسناده عن ابن عباس: إنّ لعلىّ عليه السلام فى كتاب اللَّه أسماء لا يعرفها الناس، قوله «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» فهو المؤذن بينهم، يقول: «ألا لعنة اللَّه على الذين كذّبوا بولايتى واستخفّوا بحقى».

---

(۱) «يبغونها عوجاً»: بمعنى يطلبونها عوجاً، أى أنّهم يرغبون ويجتهدون فى أن يضلّوا الناس بإلقاء الشبهات والدعايات المسموعة عن الطريق المستقيم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۴

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۷) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (۴۸) أَ هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹) الأعراف معبر مهم إلى الجنة: عقيب الآيات السابقة التى بيّنت جانباً من قصة أهل الجنة وأهل النار، تحدث فى هذه الآيات حول «الأعراف» التى هى منطقة فى الحد الفاصل بين الجنة والنار مع خصوصياتها، وفى البداية يشير إلى الحجاب الذى أقيم بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يقول: «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ».

ويستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مرّ فى الآيات السابقة، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أى على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ». يرون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

ثم يقول: إنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنة ويسلّمون عليهم، ولكنهم لا يدخلون الجنة وإن كانوا يرغبون فى ذلك «وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النار يصطلون فيها، يتضرعون إلى اللَّه طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين: «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أمّا

ترون أنّ جمعكم للأموال والأفراد والتجبّر والتكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال واولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۵

من تلك المواقف والصفات السيئة؟! «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ».

ومرّة اخرى يقولون موبّخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: «أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

وفى المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

يستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمة السادة (يعنى الأنبياء والأئمة والصلحاء) الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۵۱) نِعم الجنة حرام على أهل النار: بعد أن استقر كل من أهل الجنة وأهل النار فى أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النار، وفى البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النار: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۶

الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ». فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشىء من الماء أو من نِعم الجنة.

ولكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ».

بحثان

۱- إنّ عبارة «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» التى هى عبارة مجملة، وتتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقة النعم الموجودة فى الجنة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول: (إنّ فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجملة ب «أو» يشير إلى أنّ النعم الاخروية الاخرى وخاصة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء وتطفىء عطش الإنسان.

۲- إنّ عبارة «حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ» إشارة إلى أنّ أهل الجنة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النار، لأنّه لا يقلّ منها شىء بسبب الإعطاء، ولا أنّهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد فى صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنة.

إنّ هذا الحرمان نوع من «الحرمان التكوينى» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

فى الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النار وأنّ أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أوّلًا: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا».

وهذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا واغتروا بها «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيا».

إنّ هذه الامور سببت فى أن يغرقوا فى وحل الشهوات، وينسوا كل شيء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهية، ولهذا أضاف قائلًا: «فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الإنحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخِذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّى والهازل، فتؤدّى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٧

وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۵۳) هذه الآية إشارة إلى أنّ حرمان الكفّار ومصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم وإلّا فليس هناك من جانب اللَّه أى تقصير فى هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نألُ جهداً ولم ندخر شيئاً فى مجال الهداية والإرشاد، بل أرسلنا لهم كتاباً شرحنا فيه كل شيء بحكمة ودراية: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَهُ عَلَى عِلْمٍ».

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة فى تفكير العصاة والمنحرفين فى صعيد الهداية الإلهية فيقول: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ». أى كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد والوعيد الإلهى بعيونهم (أى يروا أهل الجنّة وهم فيها، وأهل النار وهم فيها) حتى يؤمنوا.

ولكنّه توقّع سخيف، لأنّه عندما تُترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهى الامر، ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب اللَّه وتجاهلوا التعاليم الإلهية التى أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقّاً أيضاً: «يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقّ».

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق واضطراب، ويفكرون فى مخلّص ينقذهم من هذه المشكلة ويقولون: «فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا».

وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إنّنا لا نصلح أساساً للشفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلّم للحق والحقيقة «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ».

ولكن هذا التنبيه جاء متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة لأنّهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٨

قد خسروا كل رؤوس أموالهم وتورطوا فى خسران جميع وجودهم «قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ».

وسوف يثبت لهم أنّ أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أى دور هناك، وفى الحقيقة ضاعت- فى نظرهم- جميعاً «وَضَلَّ عَنْهُم مَّاكَانُوا يَفْتَرُونَ». من هذه الآية يستفاد أوّلًا: أنّ الإنسان حرّ مختار فى أعماله، وإلّا لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، و ثانياً: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۵۴) هذه الآية تصف المعبود الحقيقى مع ذكر صفاته الخاصة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى أنّ المعبود لا يمكن أن يكون إلّامن كان خالقاً.

هل خلق العالم فى ستة أيام؟ نظراً إلى المفهوم الواسع للفظة «يوم» وما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنّه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة. على هذا الأساس أنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض فى ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبيّن أى أمر يخالف هذا الموضوع.

ثمّ يقول القرآن الكريم: إنّ اللَّه تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أى ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

وهذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى اللَّه تعالى فى الخلق والإيجاد دون البقاء.

«العرش»: فى اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، وربّما يأتى بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، ولكن عندما ينسب إلى اللَّه سبحانه وتعالى ويقال: عرش اللَّه، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذى يعدّ فى الحقيقة سرير حكومة اللَّه تعالى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٩

وعلى هذا تكون عبارة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» كناية عن الإحاطة الكاملة للَّه‌تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون- سماءاً وأرضاً- بعد خلقها.

ثم يقول بأنّه تعالى هو الذى يلقى بالليل- كغشاء- على النهار، ويستر ضوء النهار بالأستار المظلمة «يُغْشِي الَّيلَ النَّهَارَ».

ثم يضيف بعد ذلك قائلًا: إنّ الليل يطلب النهار طلباً حثيثاً «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا».

ثم يضيف تعالى أنّه هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعة لأمره بعد خلقها:

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ».

ثم بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكّداً:

اعلموا أنّ خلق الكون وتدبير اموره كله بيده سبحانه دون سواه «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ».

إنّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأوّل. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر اللَّه تعالى، والتى تقود الكون فى مسيره المرسوم له. أى إنّ العالم كما يحتاج فى حدوثه إلى اللَّه، كذلك يحتاج فى تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى اللَّه، ولو أنّ اللَّه صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

ثمّ فى ختام الآية يقول: «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

إنّ هذه الجملة- بعد ذكر خلق وتدبير عالم الوجود- نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة.

فهو وجود مبارك أزلى أبدى، وهو بالتالى منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) شروط استجابة الدعاء: لقد أثبتت الآية السابقة- فى ضوء ما أقيم من برهان واضح- هذه الحقيقة، وهى أنّ الذى يستحق العبادة فقط هو اللَّه، وفى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٠

الذى هو مخ العبادة وروحها، يقول أوّلًا: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً».

«التضرع»: فى الأصل من مادة «ضَرْع» بمعنى الثدى، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدى من جهاتها المختلفة استداراً للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة فى من يظهر حركات خاصة إظهاراً للخضوع والتواضع. وعلى هذا فإنّ الآية المبحوثة، وعبارة «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا» تحثّنا على أن نقبل على اللَّه بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء فى أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده.

وأمره تعالى بأن يدعى اللَّه «خفية» وفى السّر، لأنّه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ثمّ قال تعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». أى إنّ اللَّه لا يحب المعتدين.

ولهذه العبارة معنى وسيع يشمل كل نوع من أنواع العدوان والتجاوز، سواء الصراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر

وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير اللَّه حين الدعاء.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلِحِهَا».

ولهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوّة.

والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها اللَّه بنبيّه صلى الله عليه و آله».

ومرّة اخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول: «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا». أى لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد فى حياتكم أيّة نقطة سوداء، إذ إنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر والسقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجة أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهى ولإجابة الدعاء، إذ إنّ هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۱

اليأس والقنوط هو الآخر سبب لإنطفاء شعلة السعى والإجتهاد، بل لابدّ أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحى (الخوف) و (الأمل) الخوف من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه.

وفى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه الآيات قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهى باختصار كالتالى:

۱- أن يكون الدعاء عن تضرع وخفية.

۲- أن لا يتجاوز حد الإعتدال.

۳- أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.

۴- أن يكون مقروناً بالخوف والامل المعتدلين.

۵- أن يكون مقروناً بالبرّ والإحسان، وفعل الخيرات.

وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸) لابد من المربى والقابلية: فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد ومعرفة اللَّه، من خلال الوقوف على أسرار الكون، وفى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هى سيرة القرآن الكريم ودأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، والملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة اللَّه، وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم، فيقول تعالى أوّلًا: «وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۲

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلة مشبّعة بالماء «حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا».

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضى الظامئة اليابسة، ويكلّفها بأن تروى تلك الأراضى العطاشى «سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ».

وبذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان «فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ».

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعة من الثمار والفواكة «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ثم عقيب ذلك يضيف: «كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ونلبسهم حلّة الوجود والحياة مرّة اخرى.

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم انموذجاً من المعاد فى هذه الدنيا، الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وفى الآية اللاحقة- وحتى لا يظن أحد أنّ نزول المطر على نمط واحد يدل على أنّ جميع الأراضى تصير حيّة على نمط واحداً أيضاً، وحتى يتّضح أنّ القابليات والإستعدادات المتفاوتة تسبّبت فى أن تتفاوت حالات الاستفادة والإنتفاع بالمواهب الإلهية يقول:

«وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ». أى إنّ الأرض الصالحة هى التى تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضى السبخة والخبيثة فلا تثمر إلّابعض الأعشاب غير النافعة «وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» «۱».

ثمّ فى ختام الآية يقول تعالى: إنّ هذه الآيات نبيّنها لمن يشكرونها، ويستفيدون من عِبَرها ومداليلها، ويسلكون فى ضوئها سبيل الهداية «كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

إنّ الآية الحاضرة إشارة إلى مسألة مهمّة وهى أنّ فاعلية الفاعل وحدها لا تكفى للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابدّ من «قابلية القابل» فهى شرط للتأثير والإثمار.

---

(۱) «النّكد»: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شيء منه بسهولة، ولو أنّه أعطى لأعطى الشيء اليسير الحقير. ولقد شبهت الأراضى المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۳

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۶۰) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴) رسالة نوح أوّل الرسل من أولى العزم: قد وردت قصة نوح فى سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، لكن هنا اكتفى بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى: يقول أوّلًا: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ».

إنّ أوّل شيء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونفى أىّ نوع من أنواع الوثنية «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

والمراد من «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة.

ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك فى ضلال واضح «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيكَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

ولقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم وخشونتهم بلحن هادىء ولهجة متينة تطفح بالمحبّة والرحمة،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۴

فقال فى معرض الردّ عليهم: أنا لست بضال، بل ليست فىّ أية علامة للضلال، ولكنى مرسل من اللّه «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَللَةٌ وَلكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ الأرباب التى تعبدوها كلها لا- أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلّااللّه الواحد الذى خلقها جميعاً وأوجدها من العدم. ثمّ إنّ هدفى إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة «أُبَلِّغُكُمْ رِسلتِ رَبِّى».

ولن آلو جهداً فى تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم «وَأَنصَحُ لَكَمْ».

ثمّ أضاف تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

إنّ هـذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف اللّه ورحمته، وتعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه، وكففتم عن تعنتكم، فإنّى أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تقفوا لحد الآن على سعتها.

وفى الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملًا لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

يعنى: أىّ شىء فى هذه القضية يدعو إلى الإستغراب والتعجب، لأنّ الانسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أى كائن آخر.

ولكن بـدل أن يقبلوا دعوة مثـل هـذا القائـد المخلص الواعى فقـد كـذّبه الجميع، فأرسـل اللّه عليهم طوفاناً فغرق المكـذبون ونجا فى السفينة نوح ومن آمن «فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا».

وفى خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ» «۱».

---

(۱) «عمين»: جمع عمى، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۵

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۶۵) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۶۶) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷۰) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲) لمحة عن قصة قوم هود: عقيب ذكر رسالة نوح والدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصة نبى آخر من الأنبياء العظام، وهو النبى هود عليه السلام وذكر ما جرى بينه وبين قومه. يقول تعالى أوّلًا: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا».

وقوم «عـاد» كـانوا امـة تعيش فى أرض «اليمن» وكانت امـة قويـة من حيث المقـدرة البدنيـة والثروة الوافرة التى كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والرعى، ولكنها كانت متخمة بالانحرافات الإعتقادية وبخاصة الوثنية والمفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

وقـد كُلّف «هود» الـذى كـان منهم- وكان يرتبط بهم بوشيجة القربى- من جانب اللّه بأن يـدعوهم إلى الحق ومكافحـة الفساد، ولعل التعبير ب «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود وقوم عاد.

ثمّ إنّه يحتمل أيضاً أن يكون التعبير ب «الأخ» فى شأن النبى هود، وكذا فى شأن عدّة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۶

أشـخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء، الآية ۱۰۶) وصالح (سورة الشعراء، الآية ۱۴۲) ولوط (سورة الشعراء، الآية ۱۶۱) وشعيب (سورة الأعراف، الآية ۸۵) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم فى منتهى الرحمـة، والمحبـة مثل

أخ حميم، ولا يألون جهداً فى إرشادهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصلاح.

ثم يذكر تعالى أنّ هود شرع فى دعوته فى مسألة التوحيد ومكافحة الشرك والوثنية:

«قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

ولكن هذه الجماعة الأنانية المستكبرة، وبخاصة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذين يعبّر عنهم القرآن بلفظة «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح عليه السلام: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولكن هوداً- وهو يتحلى بالوقار والمتانة التى يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون- من دون أن ينتابه غضب، أو تعتريه حالة يأس «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلكِنّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم إنّ هوداً أضاف: إنّ مهمته هى إبلاغ رسالات اللّه إليهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وانقاذهم من ورطة الشرك والفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص والنصح والأمانة والصدق «أُبَلِّغُكُمْ رِسلتِ رَبّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ثم إنّ هوداً أشار- فى معرض الردّ على من تعجب من أن يبعث اللّه بشراً رسولًا- إلى نفس مقولة نوح النبى لقومه: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ».

أى هل تعجبون من أن يرسل اللّه رجلًا من البشر نبياً، ليحذركم من مغبة أعمالكم، وما ينتظركم من العقوبات فى مستقبلكم؟

ثم إنّه إستثارة لعواطفهم الغافية، وإثارة لروح الشكر فى نفوسهم، ذكر قسماً من النعم التى أنعم اللّه تعالى بها عليهم، فقال: «وَاذْكُرُوا إِذ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ»، فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم وبادوا.

ولم تكن هذه هى النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوّة جسدية عظيمة «وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٧

وفى خاتمة الآية يذكّر تلك الجماعة الأنانيّة بأن يتذكروا نعم اللّه لتستيقظ فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، علّهم يفلحون «فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ولكن فى مقابل جميع المواعظ والإرشادات المنطقية، والتذكير بنعم اللّه ومواهبه، انبرت تلك الثلة من الناس الذين كانوا يرون مكاسبهم المادية فى خطر، وقبول دعوة النبى تصدّهم عن التمادى فى أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة: إنّك جئت تدعونا إلى عبادة اللّه وحده وترك ما كان أسلافنا يعبدون دهراً طويلًا، كلّا، لا يمكن هذا بحال «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا».

وفى النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى إنّنا لا نخشى تهديداتك أبداً «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق اولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربّكم «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ».

يعنى أنّكم قد غرقتم فى دوّامة الانحراف والفساد إلى درجة أنّ روحكم قد دفنت تحت اوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب اللّه، وشملكم سخطه.

ثم لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الاوثان من دون ردّ أضاف قائلًا: «أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ». فهذه الاصنام التى صنعتموها انتم وآباؤكم ليس لها من الالوهية الّا اسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثم وجئتم تجادلوننى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب اللّه.

ثم قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم، وأنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب اللَّه وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أى واحد من هذين الإنتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع «فَانتَظِرُوا إِنّى مَعَكُم مّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

وفى نهاية الآية بيّن القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين فى عبارة قصيرة موجزة:

«فَأَنجَيْنهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۸

أجل، لقد أنجى اللَّه هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأمّا الذين كذبوا بآيات اللَّه، ورفضوا الإنضواء تحت لواء دعوته، والإنصياع للحق، فقد أبيدوا نهائياً. «دابر»: فى اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية:

أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷۷) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (۷۹) قصة قوم صالح وما فيها من عبر: فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح وهود، فيقول تعالى فى البداية: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ولقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوة إلى التوحيد،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۹

وعبادة اللَّه الواحد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربهم «قَدْ جَاءَتْكُم بَيّنَةٌ مّن رَّبّكُمْ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً».

ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل فى أرض اللَّه ولا تمنعوها «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ثم يقول فى الآية اللاحقة: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ».

أى: من جانب لا تنسوا نعم اللَّه الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب اللَّه بذنوبهم وهلكوا.

ثم ركّز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: «تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا». فالأرض قد خُلقت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.

ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف والشتاء.

وفى ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيّه صالح: «فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

ثم إنّنا نلاحظ أيضاً أنّ جماعة الأغنياء والمترفين ذوى الظاهر الحسن، والباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملأ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النبى الإلهى العظيم.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً أنّ صالحاً مرسل من قبل اللّه «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صلِحًا مُّرْسَلٌ مّن رَبّهِ».

ولكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا مضافاً إلى اعتقادنا بأنّ صالحاً رسول من قبل اللّه، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

ولكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة اخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ».

عندما يئس من زعزعة الإيمان فى نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام ومن جانب آخر

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۰

مختصر الامثل ج ۲ ۱۷۹

رأوا أنّ وساوسهم وشائعاتهم لا تجدى نفعاً مع وجود «الناقة» التى كانت تُعَدّ معجزة صالح عليه السلام لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربهم «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ» «۱». ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتوا إلى صالح نفسه وبصراحة «قَالُوا يَا صلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

انّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام بهدف إضعاف روحيته وروحية المؤمنين به.

وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمرّدهم إلى آخر درجة، وأطفأوا فى نفوسهم آخر بارقة أمل فى الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقاً لقانون انتخاب الأصلح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

بأىّ شىء اهلك قوم ثمود: وهنا يطرح سؤال وهو: يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشىء الذى أهلك هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (۱۳) من سورة فصّلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ فى الآية (۵) من سورة الحاقّة: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ». يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشىء مدمّر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جملة واحدة، وهى جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجّة الأرضية فى منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أى أنّه تحدث صاعقة أوّلًا، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

«الطاغية»: فهى بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، وهذا ينسجم مع الزلزلة وكذا مع الصاعقة، ولهذا فلا يوجد أى تناقض بين الآيات.

وفى آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِن لَّاتُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

أى بعد هذه القضية تولى صالح وهو يقول: لقد أديت رسالتى إليكم، ونصحت لكم ولكنكم لا تحبّون من ينصحكم.

---

(۱) «العقر»: هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة والتنقل.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۱

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۸۴) مصير قوم لوط المؤلم: فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلًا آخر غنياً بالعبر من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة ويكمله، والقصة هذه المرّة هى قصة النبى الإلهى العظيم «لوط». الآية الاولى تقول فى البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه:

أترتكبون فعلًا قبيحاً لم يفعله قبلكم أحد من الناس! «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشرح المعصية التى ذكرت فى الآية السابقة ويقول: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ». وأىّ انحراف أسوأ وأقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقاربة الرجل للمرأة، والذى أودعه اللّه فى كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، ويعمد إلى «الجنس الموافق» ويفعل بالتالى ما يخالف- أساساً الفطرة والتركيب الطبيعى للجسم والروح الإنسانيين والغريزة السوية الصحيحة، ويكون نتيجته عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

ثم يقول تعالى فى نهاية الآية: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ». أى تجاوزتم حدود اللّه، ووقعتم فى متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة.

وفى الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت وغير المنطقى لقوم لوط، وقال:

إنّهم لم يكن لديهم أىّ جواب فى مقابل دعوة هذا النبى الناصح المصلح، إلّاأن قالوا:

أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدينتكم. ولكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ».

ويحتمل أيضاً فى تفسير جملة «إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النبى العظيم وأتباعه الأتقياء بالرياء والتظاهر بالتطهر، مع ملاحظة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۲

كل ما قيل فى الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام، ولهذا قال اللّه تعالى فى الآية اللاحقة: «فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» «۱». أى لمّا بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطاً وأتباعه الواقعيين وأهله الطيبين، إلّازوجته التى كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها. يستفاد من الآية (۱۰) من سورة التحريم إجمالًا أنّ زوجة لوط كانت فى البداية امرأة صالحة، ولكنها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، وجرأت أعداء لوط عليه.

وفى آخر آية من الآيات إشارة إلى العقوبة الشديدة والرهيبة التى حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا». أىّ مطر ... إنّه كان مطراً عجيباً حيث إنهالت عليهم الشهب والنيازك كالمطر وأبادتهم عن آخرهم!

«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ». إنّ هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله ولكنه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸۵) وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۸۶) وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (۸۷) رسالة شعيب فى مدين: فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلًا خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

---

(۱) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقى هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۳

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه- حسب كتب التاريخ- إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهى مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطفيف فى المكيال والميزان، والبخس فى المعاملة.

فى البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

إنّ «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إنّ أبناءه وأحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

ثم إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وقال: إنّ هـذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسـطة الأدلـة الواضـحة التى جاءتهم من جانب اللّه أيضاً: «قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ».

ثم إنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ فى محاربة المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفى البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش فى المعاملة، يقول: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» «۱».

ثم يشـير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد فى الأرض بعد أن اصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفى ضوء الإيمان فقال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَحِهَا».

ومن المسلّم أنّه لاـ يستفيد أحـد من إيجـاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقـدان الإيمان، أو عـدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآية قائلًا:

«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآيـة اللاحقـة يشير إلى رابع نصيحة لشـعيب، وهى منعهم عن الجلوس على الطرقـات وتهديـد النـاس، وصـدّهم عن سبيل اللّه، وتضـليل الناس بإلقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المسـتقيم فى نظرهم، فقال: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا».

وفى ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية

---

(۱) «البخس»: يعنى نقص حقوق الأشخاص، والنّزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيف.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۴

لتفعيل حسّ الشـكر فيهم، فيقول: تـذكّروا عنـدما كنتم أفراداً قلائل فزادكم اللّه فى الأفراد وضاعف من قوتكم: «وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ». ثم يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السـلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: «وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

إنّ آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه.

فيقول لهم شـعيب: إن كـانت طائفـة منكم آمنت بمـا بُعِثت به، وأعرضت اخرى فلاـ ينبغى أن يكون ذلـك سـبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم.

فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حق، ومن يكون على باطل «وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (۸۸) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (۸۹) هـذه الآيات تسـتعرض ردّ فعل قوم شـعيب مقابل كلمات هـذا النبى العظيم المنطقية، وحيث إنّ الملا والأثرياء المتكبرين فى عصـره كانوا أقوياء فى الظاهر، كان ردّ فعلهم أقوى من ردّ فعل الآخرين.

إنّهم كانوا- مثل كل المتكبرين المغرورين- يهددون شعيباً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

على أنّ تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات اخرى سنبحثها فى سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۵

وقد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل فى إمكانكم أن تعيدوننا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: «قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ».

وفى الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: «قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجنَا اللَّهُ مِنْهَا».

ثم يضيف شعيب قائلًا: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا».

ثم من دون إبطاء يضيف: إنّ اللّه لا يأمر بمثل هذا، لأنّ اللّه يعلم بكل شيء ويحط علماً بجميع الامور «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا».

وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلّامن كان علمه محدوداً، واشتبه ثم ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شيء ويحيط بجميع الامور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثم لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، وأنّه ثابت فى موقفه، قال: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيّته، ويظهر رغبته فى طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضوية والإخلال بالأمن يقول: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التى بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (۹۳) تتحدث الآية الاولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: «وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۶

والمقصود من الخسارة- هنا- الخسارات المادية التى تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، وعلى هذا الأساس كان يجب أن يخرجوا من بلدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم. وعندما وَصَل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، وعلى إضلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أىّ أمل فى إيمانهم وهدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميتة، فى داخل بيوتهم ومنازلهم «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

فى الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارة التالية: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». أى إنّ الذين كذبوا شعيباً ابيدوا إبادة عجيبة، وكأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفى ختام الآية يقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ».

وكأنّ هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضى شعيب، لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو وأتباعه فى حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنّهم ابيدوا كاملة، وكأنّهم لم يسكنوا فى تلك المنازل، فضلًا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفى مقابل قولهم: إنّ أتّباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجة الأمر أثبتت أنّ مخالفة شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

وفى آخر آية- من الآيات المبحوثة- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّى، ونصحتكم بالمقدار الكافى، ولم آلُ جهداً فى إرشادكم:

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسلتِ رَبّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ».

ثم قال: «فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ». أى لست متأسفاً على مصير الكافرين، لأنّنى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم وإرشادهم، ولكنهم لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩۵)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۷

إذ لم تنفع المواعظ: إنّ هذه الآيات- التى ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وقبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصة موسى بن عمران- أشار إلى عدّة أصول وقواعد عامة تحكم فى جميع القصص والحوادث، وهى قواعد واصول إذا فكّرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمة ترتبط بحياتنا- جميعاً- ارتباطاً وثيقاً. فى البداية يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّبِىّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ». فالصعاب والمشاق والبلايا التى تصيب الأفراد إنّما يفعلها اللَّه بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى اللَّه ويتوبوا إليه.

وذلك لأنّ الناس ما داموا فى الرخاء والرفاه فهم فى غفلة وقلما يكون لديهم استعداد وقابلية لقبول الحق. أمّا عندما يتورّطون فى المحنة والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون اللَّه قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هذه اليقظة والنهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهى فى كثير من الناس سريعة وعابرة وغير ثابتة، وبمجرّد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول فى الحياة، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

ولهذا قال تعالى فى الآية اللاحقة: عندما لم تغيّر تلك الجماعات سلوكها ومسيرها تحت ضغط المشكلات والحوادث، بل بقوا فى الضلال، رفعنا عنهم المشكلات وجعلنا مكانها النعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا».

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهى «النعمة» و «النقمة» بيد اللَّه، وأنّهم راجعون إلى اللَّه، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال «وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ». فهى إذن قضية طبيعية، ومسألة إعتيادية.

فيقول القرآن الكريم فى الختام: إنّ الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية- أبداً- بل ازدادوا غروراً وعنجهيّة وتكبراً أهلكناهم فجأة ومن غير سابق انذار، لأنّ ذلك أشد إيلاماً ونكالًا لهم، وعبرة لغيرهم: «فَأَخَذْنهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۸

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَ هُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) التقدم والعمران فى ظل الإيمان والتقوى: فى الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان النتائج المشحونة بالعبر فى هذه القصص، ولكن الآيات

الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». أى لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات اللّه والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب اللّه وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض.

والمراد من «بركات» الأرض والسماء إنّها المطر والنباتات التى تنبت من الأرض.

ولكن- للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة والرفاه والأمن وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم «وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم وأنّ القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً- يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتنزل بهم صاعقة أو يصبهم زلزال فى الليل وهم نائمون «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ».

وهل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار وهم غارقون فى أنواع اللهو واللعب «أَوَ أَمِنَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۹

أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ». يعنى أنّهم فى قبضة القدرة الإلهية فى جميع الأحوال والأوقات، ليلًا ونهاراً، فى اليقظة والنوم، فى ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوى صفحة حياتهم نهائياً.

وفى الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول:

أفأمن المجرمون من المكر الإلهى فى حين لا يأمن مكره إلّاالخاسرون «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ».

«المكر»: يعنى فى اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذى يمضى إليه، سواء كان حقاً أو باطلًا. والمراد من المكر الإلهى هو أنّ اللّه تعالى يصرفهم بخططه القوية التى لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.

وفى الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإلفات نظرهم إلى العبر التى كانت فى حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض- من الأقوام الماضية- إلى ما فى حياة الماضيين وقصصهم من عبر، فلو أنّنا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا: «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ».

ويمكننا أيضاً أن نتركهم أحياء ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز بالمرّة بسبب توغّلهم فى الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، ولا يقبلون نصيحة، ويعيشون بقية حياتهم حيرى «وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ».

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (۱۰۱) وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (۱۰۲) فى هاتين الآيتين ركّز القرآن الكريم على العبر المستفادة من بيان قصص الماضين، والخطاب متوجه هنا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّ الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أوّلًا: هذه هى القرى والأقوام التى نقص عليك قصصهم: «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۰

أَنبَائِهَا». ثم يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجّة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أوّلًا بالبراهين الجلية وبذلوا قصارى جهدهم فى إيقاظهم وإرشادهم «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ». ولكنهم قاوموا الأنبياء وخالفوا دعوتهم، وأصروا ولجّوا فى عنادهم، ولم يكونوا على إستعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ».

وفى العبارة اللاحقة يبين تعالى علة هذا التعنت واللجاج: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ». يعنى أنّ الذين يسيرون فى درب

خاطیء، ویستمرون فی السیر فی ذلک الطریق، ینتقش الانحراف والکفر علی قلوبهم نتیجة تکرار العمل السیء، ویتجذر الفساد فی نفوسهم، کما یثبت النقش علی السکة (والطبع فی اللغة نقش صورة علی شیء کالسکة) وهذا هو أثر العمل وخاصیته.

وقد نسب إلی اللّه هو تعالی مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثیر کل مؤثر، فهو یهب الفعل هذه الخاصّیة عند تکراره، حیث یجعله «مَلکة» فی نفس الشخص.

ولکن من الواضح والبیّن أنّ مثل الضلال لیس له أی صفة جبریة وقهریة، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان وإن کان التأثیر بأمر اللّه تعالی (فتأمل).

وفی الآیة اللاحقة یبیّن تعالی قسمین آخرین من نقاط الضعف الأخلاقی لدی هذه الجماعات، والتی تسببت فی ضلالها وهلاکها. فی البدایة یقول: إنّهم کانوا لا یحترمون العهود والمواثیق بل ینقضونها «وَمَا وَجَدْنَا لِأَکْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ».

وهذا العهد یمکن أن یکون إشارة إلی «العهد الفطری» الذی أخذه اللّه علی جمیع عباده بحکم الجبلة والفطرة.

کما أنّه یمکن أن یکون إشارة إلی العهد الذی کان الأنبیاء الإلهیّون یأخذونه من الناس، وکان أکثر الناس یقبلونه، ولکنهم ینقضونه.

أو یکون إشارة إلی جمیع المواثیق «الفطریة» و «التشریعیة».

وعلی کل حال فإنّ روح نقض المیثاق کان من أسباب معارضة الأنبیاء والإصرار علی سلوک طریق الکفر والنفاق، والإبتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم یشیر القرآن الکریم إلی عامل آخر إذ یقول: «وَإِن وَجَدْنَا أَکْثَرَهُمْ لَفَاسِقِینَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۱

یعنی أنّ روح التمرد والتجاوز علی القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانین الإلهیة، کان عاملًا آخر من عوامل استمرارهم علی الکفر، وإصرارهم علی مخالفة الدعوة الإلهیة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَی بِآیَاتِنَا إِلَی فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قَالَ مُوسَی یَا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلَی أَنْ لَا أَقُولَ عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرَائِیلَ (۱۰۵) قَالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقَی عَصَاهُ فَإِذَا هِیَ ثُعْبَانٌ مُبِینٌ (۱۰۷) وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذَا هِیَ بَیْضَاءُ لِلنَّاظِرِینَ (۱۰۸) المواجهة بین موسی وفرعون: بیّن تعالی فی هذه الآیات والآیات الکثیرة اللاحقة قصة موسی بن عمران، وما جری بینه وبین فرعون وملئه وعاقبة أمره. وعلی العموم یمکن حصر وتلخیص حیاة هذا النبی الإلهی العظیم فی خمس دورات ومراحل:

۱- مرحلة الولادة، وما جری علیه من الحوادث حتی ترعرعه فی بلاط فرعون.

۲- مرحلة فراره من مصر، وحیاته فی أرض «مدین» فی کنف النبی شعیب علیه السلام.

۳- مرحلة بعثته، ثم المواجهات الکثیرة بینه وبین فرعون وجهازه.

۴- مرحلة نجاته ونجاة بنی إسرائیل من مخالب فرعون.

۵- مرحلة مشاکله مع بنی إسرائیل.

فی الآیة الاولی من الآیات الحاضرة یقول تعالی: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَی بَایَاتِنَا إِلَی فِرْعَوْنَ وَمَلَإِیهِ». أی من بعد قوم نوح وهود وصالح.

«فرعون»: اسم عام، وهو یطلق علی کل ملوک مصر.

ثم یقول تعالی: «فَظَلَمُوا بِهَا».

ثم یقول تعالی فی ختام الآیة: «فَانظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ».

وهذه العبارة إشارة إجمالیة إلی هلاک فرعون وقومه الطغاة المتمردین، الذی سیأتی شرحه فیما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۲

أمّا الآيات اللاحقة فتسلّط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع، فيقول أوّلًا:

«وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنّى رَسُولٌ مّن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

وهذه هى أوّل مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهى صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

وفى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرسالة من جانب اللّه قال: فالآن إذ أنا رسول ربّ العالمين ينبغى ألا أقول عن اللّه إلّاالحق، لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً «حَقِيقٌ عَلَى أن لّاأَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

ثم لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدلة واضحة من جانب اللّه «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيّنَةٍ مّن رَّبّكُمْ».

فإذا كان الأمر هكذا «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وكان هذا قسماً من رسالة موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعونى.

فقال فرعون بمجرّد سماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم ببيّنة)- هات الآية التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقاً «قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

ومن دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظيمتين التى كانت إحداهما مظهر «الخوف» والاخرى مظهر «الأمل» وكانتا تكملان مقام إنذاره ومقام تبشيره، وألقى فى البداية عصاه:

«فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ».

ثم إنّ الآية اللاحقة تشير إلى المعجزة الثانية للنبى موسى عليه السلام التى لها طابع الرجاء والبشارة. يقول تعالى: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (۱۰۹) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (۱۱۱) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (۱۱۲) بدء المواجهة: فى هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعل لفرعون وجهازه فى مقابل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۳

دعوة موسى عليه السلام ومعجزاته. الآية الاولى تذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر فى سحره: «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ثم أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم «يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مّنْ أَرْضِكُمْ». يعنى أنّه لا يهدف إلّااستعماركم واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضى الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النبوة كلها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

يعنى أنّهم جلسوا يتشاورون فى أمر موسى، ويتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» بمعنى التشاور.

وعلى كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى وهارون، وأجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع أنحاء البلاد «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فى حرفته عليم فى سحره «يَأْتُوكَ بِكُلّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ».

إنّ هذا الإقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يريدون افتعال ذريعة سياسية لأىموقف سيتخذونه ضد موسى كما

كانوا يفعلون ذلك فى بقية مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية، ولهذا اقترحوا أرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة فى مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضفت بضم الثّانية إلى الاولى- مسحة من القداسة والجاذبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا فى بداية الأمر فى إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، ويسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتمحى عن الأذهان إلى الأبد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۴

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۱۱۳) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۱۱۴) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۱۲۰) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۲) كيف انتصر الحق فى النهاية: فى هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النبى موسى عليه السلام وبين السحرة وما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهة، وفى البداية تقول الآية: إنّ السحرة بادروا إلى فرعون بدعوته، وكان أوّل ما دار بينهم وبين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو «وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

فوعدهم فرعون وعداً جيداً وقال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقربين عندى «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنّه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفى المآل حُدّد موعدٌ معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء فى سورة «طه» و «الشعراء» دُعى جميع الناس لمشاهدة هذا النزال.

وحلّ اليوم الموعود، وهيّأ السحرة كل مقدمات العمل ... حفنة من العصىّ والحبال التى يبدو أنّها كانت معبئة بمواد كيمياوية خاصة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحول إلى غازات خفيفة تحرّك تلك العصى والحبال المجوفة.

وكانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلّاأخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۵

فالتفت السحرة فى غرور خاص وكبير إلى موسى عليه السلام وقالوا: إمّا أن تشرع فتلقى عصاك، وإمّا أن نشرع نحن فنلقى عصيّنا؟ «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ».

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة والإطمئنان: بل اشرعوا أنتم «قَالَ أَلْقُوا».

وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم فى وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقاويلهم المهرجة ومبالغاتهم خوفاً فى قلوب المتفرجين وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ».

«السحر»: تعنى فى الأساس الخداع والشعوذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئى.

فى هذه اللحظة التى اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالت صيحات الإبتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملائه ابتسامة الرضى، ولمع فى عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام وأمره بإلقاء العصى وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وتزعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ».

«تلقف»: مشتقة من مادة «لَقْف» (على وزن سَقف) بمعنى أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدى، ولكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع والإبتلاع أيضاً، والظاهر أنّها جاءت فى الآية الحاضرة بهذا المعنى.

«يأفكون»: مشتقّة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهى تعنى فى الأصل الإنصراف عن الشىء، وحيث إنّ الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

وفى هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزّيفة: «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». لأنّ عمل موسى كان عملًا واقعياً، وكانت أعمالهم حفنة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هى أوّل ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبّار.

ثم يقول تعالى فى الآية اللاحقة: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: «فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ».

والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى عليه السلام تغييراً كلّياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة اللّه «وَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۶

ثم نادوا بأعلى صوتهم و «قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهرُونَ».

ولم يكن فرعون والملأ يتوقعون هذا الأمر مطلقاً.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هـذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (۱۲۶) التهديدات الفرعونية الجوفاء: عندما توجهت ضربة جديدة- بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به- إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدة، لهذا عمد فوراً إلى عملين مبتكرين: فى البداية وجه اتهاماً (لعله مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثم هددهم بأشدّ التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقفين، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعونى، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

فى البداية يقول: إنّ فرعوناً قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم «قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

وهذه هى أعلى درجات الإستعباد والاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبى بأحد أو بعقيدة.

وهذا هو البرنامج الذى يواصله «الاستعمار الجديد»، يعنى أنّ المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

ثم يضيف فرعون قائلًا: «إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا».

إنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيّتاً قد دبرتموه قبل مدة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة.

وهذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنّه لم يكن يقتنع بها إلّاالعوام والجهلة من الناس.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۷

ثمّ إنّ فرعون هدّدهم بتهديد غامض ولكنّه شديد ومحكم، إذ قال: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة بيّن تفاصيل ذلك التهديد الذى هدّد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّن خِلفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

لقد قاوم السحرة كلتا حربتى فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلى ربّنا إذن «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ». يعنى إذا تحقق

تهديدك الثانى (وهو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادة وفخراً عظيماً لنا.

ثم إنّهم للرد على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، واثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إنّ الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أنّنا آمنا بآيات اللّه وقد جاءتنا «وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أن ءَامَنَّا بَايَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا».

ثم إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى اللّه سبحانه، وطلبوا منه الصبر والإستقامة، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ».

وأخيراً- وكما جاء فى الروايات وكتب التاريخ- استقام اولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، ومثّل بأجسامهم تمثيلًا مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل.

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٨

فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذى دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى عليه السلام. تقول الآية فى البداية: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ». يستفاد من هذا التعبير أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السلام ترك موسى وبنى إسرائيل أحراراً مدّة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى عليه السلام وأنّ فرعون كانت له معبودات وأصنام.

إنّ فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: «قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ». و الآية اللاحقة بيّنت خطّة موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادىء انتصروا على العدو حتماً:

أوّلها: الإتكال على اللّه فقط «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ».

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: «وَاصْبِرُوا».

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكّرهم بأنّ الأرض كلها ملك اللّه وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء «إنّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

وآخر هذه المبادىء هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتّقى «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

هذه المبادىء والشروط الثلاثة ليست شرائط إنتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة.

وفى آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل وعتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السلام فيقول: «قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا». فإذاً متى يحصل الفرج؟!

وكأنّ بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الامور بقيام موسى عليه السلام فى ليلة واحدة ....

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٩

ولكن موسى عليه السلام أفهمهم بأنّهم سينتصرون فى المآل، ولكن أمامهم طريقاً طويلًا، وإنّ هذا الإنتصار- طبقاً للسنة الإلهية- يتحقق

فی ظل الإستقامة والثبات والسعی والإجتهاد، کما جاء ذلک فی الآیة الحاضرة: «قَالَ عَسَی رَبُّکَمْ أن یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَیَسْتَخْلِفَکَمْ فِی الْأَرْضِ».

ثـم یقـول فی ختـام الآیـة: إنّ اللَّه أعطـاکم هـذه النعمـة، وأعـاد إلیکم حریتکم المسلوبة کی ینظر کیـف تتصـرفون أنتم «فَیَنظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ». یعنی ستبدأ- بعد الإنتصار- مرحلة امتحانکم واختبارکم.

وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِینَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسَی وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۱۳۱) العقوبات التنبیهیـة: لقد کان القانون الإلهی العام فی دعوة الأنبیاء- کما قلنا فی تفسیر الآیة (۹۴) من نفس هـذه السورة- هو أنّهم کلّمـا واجهوا معارضـة کان اللَّه تعالی یبتلی الاقوام المعانـدین بأنواع المشاکل والبلایا، حتی یحسّوا بالحاجة فی ضمائرهم وأعماق نفوسهم.

وفی أوّل آیـة من الآیتین الحاضـرتین إشارة إلی نفس هـذا المطلب فی قصّة فرعون، إذ یقول تعالی: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسّـِنِینِ وَنَقْصٍ مّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ».

ولکن بـدل أن یسـتوعب «آل فرعون» هـذه الـدروس الإلهیـة، ویستیقظوا من غفلتهم وغفوتهم العمیقـة، أسـاءوا اسـتخدام هـذا الظرف والحالـة، وفسّروها حسب مزاجهم، فـإذا کانت الأحوال مؤاتیـة ومطابقـة لرغبتهم، وکانوا یعیشون فی راحـة واسـتقرار قالوا: إنّ الوضـع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا «فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ».

ولکن عندما تنزل بهم النوائب فإنّهم ینسـبون ذلک إلی موسـی علیه السلام وجماعته فوراً ویقولون هذا من شؤمهم: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسَی وَمَن مَّعَهُ».

ولکن القرآن الکریم قـال فی معرض الردّ علیهم: اعلموا أنّ منشـأ کـل شؤم وبلاء أصابکم إنّما هو من قبل اللَّه، وأنّ اللَّه تعالی أراد أن تصیبکم نتیجة أعمالکم المشؤومة، ولکن أکثرهم لا یعلمون «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَایَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۰

مسألة التطیّر والتفاؤل والتشاؤم قد تکون منتشرة فی مختلف المجتمعات البشریة.

إنّ هـذین الأـمرین وإن لم یکن لهمـا أی أثر طبیعی إلّاأنّه یمکن أن یکون لهمـا أثر نفسـی لاـ ینکر، وإنّ التفـاؤل غالبـاً یوجب الأمل والتحرک، والتشاؤم یوجب الیأس والوهن والتراجع. ولعله لأجل هـذا لم یُنْه فی الروایات والأحادیث الإسـلامیة عن التفاؤل، بینما نهی عن التشاؤم بشدة، ففی حدیث مروی عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «تفاءلوا بالخیر تجدوه».

وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آیَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجَرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آیَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کَانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ (۱۳۳) النوائب المتنوعـة: فی هاتین الآیتین اشـیر إلی مرحلة اخری من الدروس المنبهة التی لقّنها اللَّه لقوم فرعون، وفی الآیة الاولی من الآیات المبحوثة یقول القرآن الکریم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا یلجّون فی إنکار دعوة موسـی، وقالوا: مهما تأتنا من آیـة وتریـد أن تسـحرنا بها فإنّنا لن نؤمن بک: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَایَةٍ لّتَسْـحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ».

ولکن حیث إنّ اللَّه سـبحانه لاـ یعـاقب امّـة أو قومـاً من دون أن یتمّ علیهم الحجّـة قال فی الآیـة اللاحقـة: نحن أنزلنا علیهم بلایا کثیرة ومتعددة لعلهم یتنبهون ... فقال أوّلًا: «فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمُ الطُّوفَانَ».

«الطوفان»: مشتقة من مادة «الطوف» وتعنی الشیء الذی یطوف ویدور، ثم اطلقت هذه اللفظة علی الحادثة التی تحیط بالإنسان.

ثم سلط الجراد علی زروعهم وأشجارهم «وَالْجَرَادَ».

وکلما کان یُصیبهم بلاء کانوا یلجأون إلی موسی علیه السلام ویسألونه أن یطلب من اللَّه أن یرفع عنهم ذلک البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أیضاً، وقبِل موسی علیه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولکنهم مع ذلک لم یکفّوا عن لجاجهم وتعنتهم.

وفى المرة الثالثه سلط عليهم القمل «وَالْقُمَّلَ».

والمراد من «القمل» نوع من الآفات الزراعية التى تصيب الغلات وتفسدها وتتلفها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۱

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا فى عنادهم سلط اللَّه عليهم فى المرحلة الرابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: «وَالضَّفَادِعَ».

ولكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا.

وفى هذا الوقت بالذات سلّط اللَّه عليهم «الدَّمَ».

وقال تعالى فى ختام ذلك: إنّ هذه الآيات والمعاجز الباهرة- رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى- ولكنهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. «ءَايَاتٍ مُّفَصَّلتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرَائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (۱۳۶) نقض العهد المتكرر: فى هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين فى مقابل النوائب والبلايا المنبّهة الإلهية، وفى الآية الاولى نقرأ: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِندَکَ».

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفى اللَّه بما وعده له من استجابة دعائه: «عَهِدَ عِندَکَ».

ثم يقولون: إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بنى إسرائيل: «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

«الرجز»: استعملت فى معانى كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البَرَد الصلب.

والمراد من عبارة «بِمَا عَهِدَ عِندَکَ» ومن ذلك العهد الإلهى الذى أعطاه سبحانه لموسى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه.

وفى الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۲

بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» «۱». إنّ جملة «إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ» إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: فى الوقت الفلانى سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أنّ إرتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من اللَّه تعالى.

وآخر هذه الآيات تبين- من خلال جملتين قصيرتين- عاقبة كل هذا التعنت، ونقض العهد، فتقول بصورة مجملة: «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

ثم تشرح هذا الإنتقام وتذكر تفصيله: «فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ». الإنتقام يعنى العقوبة والمجازاة.

والمقصود من الإنتقام الإلهى هو أنّ الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة فى نظام الخلق، ولابدّ أن تمحى من صفحة الوجود.

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّکَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِی إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (۱۳۷) قوم فرعون والمصير المؤلم: بعد هلاك قوم فرعون، وتحطّم قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم فى أغلال الأسر والعبودية أراضى الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا».

والمقصود من العبارة هو حكومة بنى إسرائيل على كل اراضى الفراعنة وبلادهم.

والتعبير ب «كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حالة ضعف دائمية: ضعف فكرى وضعف أخلاقى وضعف اقتصادى، ومن جميع الجهات وفى جميع النواحى.

والتعبير ب «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» إشارة إلى الأراضى الواسعة العريضة التى كانت تحت تصرّف الفرعونيين.

---

(۱) «النكث»: على وزن مَكْث، يعنى فل الحبل المفتول، ثمّ اطلق على نقض الميثاق والعهد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۳

وجملة «بَارَكْنَا فِيهَا» إشارة إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقة- يعنى مصر والشام.

ثم يقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُوا». أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.

ثم يضيف فى آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ».

«صنع»: يعنى الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة فى الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التى كان يستخدمها الفرعونيين فى أبنيتهم.

«يعرشون»: فى الأصل تعنى الأشجار والبساتين التى تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

«دمّرنا»: من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) قَالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۴۰) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِى ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۱۴۱) الاقتراح على موسى بصنع الوثن: فى هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بنى إسرائيل التى بدأت فى أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بنى إسرائيل إلى الوثنية التى بحثت بداياتها فى هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصلة فى سورة طه من الآية (۸۶- ۹۷)، وبصورة مختصرة فى الآية (۱۴۸) فما بعد من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۴

فى الآية الاولى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ». أى النيل العظيم.

ولكن فى مسيرهم مرّوا على قوم يعبدون الأصنام: «فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ». «عاكف»: مشتقة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شىء وملازمته المقارنة لإحترامه وتبجيله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ».

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الإقتراح الأحمق بشدة، وقال لهم: «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». لأنّ منشأ الوثنية هو جهل البشر.

وفى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عليه السلام- لتكميل حديثه لبنى إسرائيل- قال: إنّ هذه الجماعة الوثنية التى ترونها سينتهى أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له «إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم وكل قوم وثنيين ومشركين هو الهلاك والدمار.

ثم تضيف الآية التوكيد: إنّ موسى عليه السلام «قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهية الكبرى التى وهبها اللّه سبحانه لبنى إسرائيل، ليبعث بالإلتفات إلى هذه

النعمـة الكبرى حسّ الشـكر فيهم، وليعلموا أنّ اللائق بالخضوع والعبادة هو الـذات الإلهيـة المقدسـة فحسب، يقول فى البداية: تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً «وَإِذْ أَنجَيْنكُم مّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ثمّ تمشـياً مع أسـلوب القرآن فى بيان الامور بتفصـيل بعد إجمال شـرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق «يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ».

وقد كان فى هذا اختبار عظيم من اللّه لكم «وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۵

وَ وَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲) الميعاد الكبير: فى هذه الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بنى إسرائيل، ومشكلة موسى عليه السلام معهم، وذلـك هو قصـة ذهاب موسـى إلى ميقات ربّه، وتلقى أحكام التوراة عن طريق الوحى وكلامه مع اللّه، والتى ذكرت بعـد قصـة عبادة بنى إسـرائيل للعجل وانحرافهم عن مسير التوحيد، وضجّة السامرى العجيبة. يقول تعالى أوّلًا: «وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلِثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

هذه الأيام الأربعون بدأت من أوّل شهر ذى القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذى الحجة (عيد الأضحى).

«الميقـات»: مشـتقة من مـادة «الوقت» بمعنى الموعـد المضـروب للقيام بعمل ما، ويطلق عادة على الزمان، ولكنه قـد يطلق على المكان الذى يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلّامحرماً.

ثم ذكرت الآية أنّ موسـى اسـتخلف هارون وأمره بالإصـلاح فى قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هرُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ».

حديث المنزلة: أشار كثير من المفسـرين الشـيعة والسنّة- فى ذيل الآية مورد البحث- إلى حديث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشـيعة اعتبروا هـذا الحديث من الأدلة الحيّة والصـريحة على خلافة على عليه السـلام لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله مباشـرة وبلا فصل.

ولكى يتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلًا أسانيد ونص هذا الحديث باختصار، ثم نبحث فى دلالته.

أسانيـد حـديث المنزلـة: روى جمع كـبير من صـحابة النبى صـلى الله عليه و آله حول غزوة تبوك: أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله خرج إلى تبوك واسـتخلف علياً فقـال: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضـى أن تكون منّى بمنزلـة هارون من موسـى إلّاأنّه ليس نبى بعدى».

وهذا النص ورد فى أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنّة، يعنى صحيح البخارى وعن سعد بن أبى وقاص «۱».

---

(۱) صحيح البخارى ۵/ ۱۲۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۶

وقد روى هذا الحديث- أيضاً- فى صـحيح مسلم الذى يعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السنة: خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول اللّه تخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضـى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبى بعدى» «۱».

وقد ورد عين هذا الموضوع فى سنن ابن ماجه أيضاً «۲».

وقد أضيف فى سنن الترمذى مطلب آخر، وهو عن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال:

أمر معاوية بن أبى سـفيان سـعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فلن

أسبّه، لئن تكون لى واحدهٔ منهنّ أحبّ إليّ من حُمْر النَعَم. سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول لعلى وخلفه فى بعض مغازيه؟ فقال له يا رسول اللّه تخلفنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلهٔ هارون من موسى إلّاأنّه لا نبوّهٔ بعدى». وسمعته يقول يوم خيبر: «لاعطين الرايهٔ رجلًا يحب اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله». قال: فتطاولنا لها. فقال: «ادعوا لى علياً». قال فأتاه وبه رمد فبصق فى عينه فدفع الرايهٔ إليه ففتح اللّه عليه. وأنزلت هذه الآيهٔ «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» الآيهٔ دعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله علياً وفاطمهٔ وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلى» «۳».

وقد أشير إلى هذا الحديث فى (۱۳) موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارهٔ ذكرت فيه غزوهٔ تبوك، وتارهٔ من دون ذكر غزوهٔ تبوك بل بصورهٔ كليهٔ «۴».

والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يروه سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه و آله وحده، بل رواه- أيضاً- مجموعهٔ كبيرهٔ من الصحابهٔ الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم:

جابر بن عبداللّه، وأبو سعيد الخدرى، وأسماء بنت عميس، وابن عباس، وأم سليم، وعبد اللّه بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه و آله معاويهٔ بن أبى سفيان، وعمر بن الخطاب أيضاً.

---

(۱) صحيح مسلم ۷/ ۱۲۰.

(۲) سنن ابن ماجه ۱/ ۴۵.

(۳) سنن الترمذى ۵/ ۳۰۱.

(۴) مسند أحمد بن حنبل ۱/ ۱۷۰ و ۱۷۳ و ۱۷۵ و ۱۷۷ و ۱۷۹ و ۱۸۲ و ۱۸۴ و ۱۸۵ و ۳۳۱؛ و ۳/ ۳۲؛ و ۶/ ۳۶۹ و ۴۳۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۷

حديث المنزلهٔ فى سبعهٔ مواضع: النقطهٔ الاخرى، إنّ النبى صلى الله عليه و آله- وخلافاً لما يتصوره البعض- لم يقل هذا البحث فى على عليه السلام فى غزوهٔ تبوك فقط، بل قال هذه العبارهٔ فى عدّهٔ مواضع منها:

۱- فى المؤاخاهٔ الاولى: يعنى فى المرّهٔ الاولى التى آخى فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله بين المهاجرين واختار علياً عليه السلام فى هذه المؤاخاهٔ لنفسه وقال: «أنت منّى بمنزلهٔ هارون من موسى إلّا أنّه لا نبىّ بعدى» «۱».

۲- فى يوم المؤاخاهٔ الثانيهٔ: لمّا آخى النبى صلى الله عليه و آله بين أصحابه، قال علىّ: لقد ذهب روحى وانقطع ظهرى حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيرى فإن كان هذا من سخط على فلك العتبى والكرامهٔ فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «والذى بعثنى بالحق ما أخرتك إلّالنفسى وأنت منى بمنزلهٔ هارون من موسى غير أنّه لا نبىّ بعدى وأنت أخى ووارثى» قال: وما أرث منك يا رسول اللّه؟ قال: «ما ورثت الأنبياء من قبلى». قال: وما ورثت الأنبياء من قبلك؟

قال: «كتاب ربهم وسنهٔ نبيهم وأنت معى فى قصرى فى الجنهٔ مع فاطمهٔ بنتى وأنت أخى ورفيقى» «۲».

۳- أم سليم- التى كانت على جانب من الفضل والعقل، وكانت تعدّ من أهل السوابق، وهى من الدعاهٔ إلى الإسلام، واستشهد أبوها وأخوها بين يدى النبى صلى الله عليه و آله وفارقت زوجها لأنّه أبى أن يعتنق الإسلام، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يزورها فى بيتها ويسلّيها- تروى أم سليم هذه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لها ذات يوم: «إنّ علياً لحمه من لحمى ودمه من دمى، وهو منّى بمنزلهٔ هارون من موسى» «۳».

۴- عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: كفّوا عن ذكر على بن أبى طالب فإنّى سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: فى على ثلاث خصال لئن يكون لى واحدهٔ منهن أحبّ إلى ممّا طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبوبكر وأبو عبيدهٔ ابن الجراح ونفر من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله والنبى صلى الله عليه و آله متكىء على على بن أبى طالب حتى ضرب بيده على منكبه ثم

قال: «أنت يا على أوّل المؤمنين إيماناً، وأوّلهم إسلاماً». ثم قال: «وأنت منّى بمنزلة هارون من موسى وكذب على من زعم أنّه يحبنى ويبغضك» «۴».

(۱) كنز العمال ۵/ ۷۲۴.

(۲) كنز العمال ۹/ ۱۶۷/ ۲۵۵۵۴.

(۳) كنز العمال ۱۱/ ۶۰۷.

(۴) كنز العمال ۱۳/ ۱۲۲.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۸

۵- عن هانئ بن هانئ عن علىّ عليه السلام قال: لما صدرنا من مكة إذا ابنة حمزة تنادى: يا عم يا عم، فتناولها على عليه السلام عنه وأخذها فقال لصاحبته: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد وجعفر، فقال علىّ: أنا آخذها وهى بنت عمى. وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى. وقال زيد: ابنة أخى. فقضى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، ثم قال لعلىّ: «أنت منّى بمنزلة هارون وأنا منك» «۱». ۶- عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يا على إنّه يحلّ لك فى المسجد ما يحلّ لى وإنّك منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبىّ بعدى» «۲».

هذه الموارد الستّة هى غير غزوة تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنة، وإلّا فإنّ هناك فى الروايات المروية عن طريق الشيعة موارد اخرى قال فيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه العبارة فى شأن على عليه السلام أيضاً.

من مجموع ذلك يستفاد أنّ حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوة تبوك، بل هو أمر عام ودائم فى شأن على عليه السلام.

ومن هنا يتّضح أيضاً أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الآمدى» من أنّ هذا الحديث يتكفل حكماً خاصّاً فى مجال خلافة على عليه السلام وأنّه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصة، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات، تصور باطل أساساً، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله كرّر هذه العبارة فى مناسبات متنوعة ممّا يفيد أنّه كان حكماً عاماً.

محتوى حديث المنزلة: لو درسنا- بموضوعية وتجرّد- هذا الحديث، وتجنّبنا الأحكام المسبّقة والتحجحات الناشئة من العصبية، لاستفدنا من هذا الحديث أنّ علياً عليه السلام كان له- بموجب هذا الحديث- جميع المنازل التى كانت لهارون فى بنى إسرائيل- إلّاالنبوة.

وَ لَمَّا جاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳)

(۱) خصائص النسائى/ ۸۸.

(۲) ينابيع المودة ۱/ ۲۶۰.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۹

المطالبة برؤية اللَّه: فى هذه الآيات والآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بنى إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بنى إسرائيل من موسى عليه السلام- بإلحاح وإصرار- أن يَروا اللَّه سبحانه، وأنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلًا من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، وهناك رفع طلبهم إلى اللَّه سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبنى إسرائيل كل شىء فى هذا الصعيد. ففى الآيات الحاضرة يقول أوّلًا:

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ».

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبى: كلا، لن ترانى أبداً «قَالَ لَن تَرَينِى وَلكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا» «۱».

فلمّا رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنّه سقط على الأرض مغمىً عليه «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا».

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبتُ إليك، وأنا أوّل من آمن بك «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

هل يمكن رؤية اللّه أساساً؟ نقرأ فى الآية الحاضرة أنّ اللّه سبحانه قال لموسى: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى» فهل مفهوم هذا الكلام هو أنّ اللّه قابل للرؤية أساساً؟

الجواب هو أنّ هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ» وحيث كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر فى مكانه عند تجلّى اللّه له، لهذا ذكر هذا التعبير، كما أنّ مفهوم جملة «لَن تَرَينِى» إنّك لا ترانى لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر.

وعلى هذا الأساس، إذا جاء فى الأحاديث والأخبار الإسلامية أو الآيات القرآنية عبارة «لقاء اللّه» فإنّ المقصود هو المشاهدة بعين القلب والعقل.

---

(۱) «دك»: فى الأصل بمعنى سوّى الأرض، وعلى هذا فالمقصود من عبارة «جعله دكّاً» هو أنّه حطم الجبال وسواها كالأرض وجاء فى بعض الرّوايات أنّ الجبل تناثر أقساماً، سقط كل قسم منه فى جانب أو غار فى الأرض وتلاشى نهائياً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۰

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِى وَ بِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (۱۴۵) ألواح التوراة: وفى النهاية أنزل اللّه شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام. ففى البداية:

«قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسلتِى وَبِكَلمِى».

فإذا كان الأمر كذلك «فَخُذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُن مّنَ الشَّاكِرِينَ».

إنّ هدف الآية هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات اللّه وتحمّلها والآخر التكلّم مع اللّه وكلا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثم أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلّ شَىْءٍ».

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ».

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا».

كما يحذرهم بأنّ مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هى جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ».

بحوث

۱- يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أنّ اللّه تعالى كلّم موسى عليه السلام وكان تكليم اللّه لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية فى الفضاء أو فى الأجسام، وربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادى الأيمن» وربّما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى.

۲- يستفاد من عبارة «مِن كُلّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً» أنّه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة فى ألواح موسى عليه السلام لأنّ اللّه يقول: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۱

وهذا لأجل أنّ دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء ومن المسلم أنّ الأحكام الإلهية التى نزلت كانت فى حدود ما يحتاجه الناس فى ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرايع السماوية نزل آخر دستور إلهى يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

وتتّضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام فى بعض الروايات، وهى أنّ علياً عليه السلام كان عارفاً بجميع القرآن، الذى فيه تبيان كل شىء «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» فى حين أنّ التوراة لم يرد فيها إلّابعض المسائل.

۳- فى مجال قوله: «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» الظاهر أنّ المقصود منها هو جهنم، وهى مستقرّ كل اولئك الذين يخرجون من طاعة اللّه، ولا يقومون بوظائفهم الإلهية. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷) مصير المتكبرين: البحث فى هاتين الآيتين هو نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بنى إسرائيل، فقد بيّن اللّه فى هذه الآيات الحقيقة التالية وهى: إذا كان الفراعنة أو متمرّدو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز والبينات، وسماع كل تلكم الحجج والآيات الإلهية، فذلك بسبب أنّنا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق- بسبب أعمالهم- عن قبول الحق. ولهذا يقول أوّلًا:

«سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ».

ثم أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الاولى قوله تعالى: «وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا» إنّهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثانية: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» والثالثة إنّهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۲

على العكس: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا». بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ».

ثم تبين الآية اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

«الحبط»: يعنى بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصية، يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيراً فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجة.

وفى ختام الآية أضاف بأنّ هذا المصير ليس من باب الإنتقام منهم، إنّما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خيرها وشرها يوم القيامة.

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۱۴۹) اليهود وعبادتهم للعجل: فى هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفى نفس الوقت العجيبة التى وقعت فى بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، وهى قصّة عبادتهم للعجل التى تمّت على يد شخص يدعى «السامرى» مستعيناً بحلى بنى إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزّينة. وفى الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أوّلًا: إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حليّهم عجلًا، وكان مجرّد تمثال لا روح فيه، ولكنه كان له صوت كصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم:

«وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ».

کیف کان للعجل الـذهبی خوار؟ و «الخوار» هو الصوت الخاص الـذی یصـدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسّـرین إلی أنّ السامری بسبب ما کان عنده من معلومات وضع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۳

أنابیب خاصه فی باطن صـدر العجل الـذهبی، کان یخرج منها هواء مضـغوط فیصـدر صوت من فم ذلک العجل الذهبیّ شبیه بصوت البقر.

ثم یقول القرآن الکریم معاتباً وموبّخاً: ألم یر بنو إسـرائیل أنّ هذا العجل لا یتکلم معهم ولا یهدیهم لشـیء، فکیف یعبدونه؟ «أَلَمْ یَرَوْا أَنَّهُ لَایُکَلِّمُهُمْ وَلَا یَهْـدِیهِمْ سَبِیلًا». یعنی أنّ المعبود الحقیقی هو من یعرف- علی الأقل- الحسن والقبیـح، وتکون له القـدرة علی هـدایة أتباعه، ویتحدث إلی عبدته ویهدیهم سواء السبیل، ویعرّفهم علی طریقة العبادة.

إنّهم ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا یقول فی ختام الآیة: «اتَّخَذُوهُ وَکَانُوا ظَالِمِینَ».

بیـد أنّه برجوع موسـی علیه السـلام إلیهم، واتضـاح الأمر عرف بنو إسـرائیل خطأهم، ونـدموا علی فعلهم، وطلبوا من اللَّه أن یغفر لهم، وقالوا: إذا لم یرحمنا اللَّه ولم یغفر لنا فإنّنا لا شک خاسـرون «وَلَمَّا سُقِطَ فِی أَیْدِیهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ یَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَیَغْفِرْ لَنَا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِینَ».

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَـی إِلَی قَوْمِهِ غَضْـبَانَ أَسِـفاً قَالَ بِئْسَـمَا خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْـدِی أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ وَ أَلْقَی الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْـعَفُونِی وَ کَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۱۵۰) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنَا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ (۱۵۱) ردة فعل شدیدة تجاه عبادة العجل: فی هاتین الآیتین بیّن تعالی بالتفصیل ما جری بین موسـی علیه السـلام وبین عبـدة العجـل عنـد عودته من میقاته المشار إلیه فی الآیـة السابقـة. فهاتان الآیتان تعکسان ردة فعل موسـی علیه السـلام الشدیدة التی أدّت إلی یقظة هذه الجماعة. یقول فی البدء: ولما عاد موسی علیه السلام إلی قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضیعتم دینی وأسأتم الخلافة «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَی إِلَی قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِی مِن بَعْدِی». والمراد هو أنّکم تعجلتم فی الحکم بالنسبة إلی أمر اللَّه تعـالی فی قضـیة تمدیـد مـدّة المیقـات من ثلاثین إلی أربعین، فاعتبرتم عـدم مجیئی فی المدة المقررة- أوّلًا- دلیلًا علی موتی، فی حین کان یتعین علیکم أن تتریثوا وتنتظروا قلیلًا ریثما تمرّ أیام ثم تتّضح الحقیقة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۴

فهنا لابدّ أن یظهر موسـی علیه السـلام غضـبه الشدید إذ العودة إلی الحق والصواب عسیرة فی غیر هذه الصورة. إنّ القرآن یسـتعرض ردّة فعل موسـی الشدیدة فی قبال ذلک المشـهد وفی تلک الأزمة، إذ یقول: إنّ موسی ألقی ألواح التوراة التی کانت بیده، وعمد إلی أخیه هارون وأخذ برأسه ولحیته وجرهما إلی ناحیته ساخطاً غاضباً.

وفی الحقیقـة کـان هـذا الموقف یعکس- من جـانب- حالـة موسـی علیه السـلام النفسـیة، وانزعاجه الشدیـد تجاه وثنیـة بنی إسـرائیل وانحرافهم، ومن جانب آخر کان ذلک وسیلة مؤثرة لهزّ عقول بنی إسرائیل الغافیة، والفاتهم إلی بشاعة عملهم.

ثم إنّ القرآن الکریم ذکر أنّ هارون قال- وهو یحاول استعطاف موسی وإثبات براءته فی هذه المسألة-: یابن ام هذه الجماعة الجاهلة جعلونی ضعیفاً إلی درجة أنّهم کادوا یقتلوننی، فإذن أنا بریء، فلا تفعل بی ما سیکون موجباً لشماتة الأعداء بی ولا تجعلنی فی صف هؤلاء الظالمین «قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَکَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ».

لقـد هـدأ غضـب موسـی علیـه السـلام بعض الشـیء، وتـوجّه إلی اللَّه «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَلِأَخِی وَأَدْخِلْنَا فِی رَحْمَتِکَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ».

إنّ طلب موسـی علیه السـلام العفو والمغفرة من اللَّه تعالی لنفسه ولأخیه، لم یکن لذنب اقترفاه، بل کان نوعاً من الخضوع للَّه، والعودة إلیه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنیین القبیحـة، وکذا لإعطاء درس عملی للجمیع حتی یفکروا ویروا إذا کان موسـی وأخوه- وهما لم

يقترفا إنحرافاً- يطلبان من اللّه العفو والمغفرة هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتبهوا ويحاسبوا أنفسهم، ويتوجهوا إلى اللّه ويسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائيل هذا فعلًا- كما تفيد الآيتان السابقتان.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (۱۵۲) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۵۳) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (۱۵۴)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۷۵

لقد فعلت ردّة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها في المآل فقد ندم عَبَدة العجل الإسرائيليون- وهم أكثرية القوم- على فعلهم، وقد طرح هذا الندم في عدّة آيات قبل هذه الآية أيضاً (الآية ۱۴۹) ومن أجل أن لا يُتصور أنّ مجرّد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفي للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلًا: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

وهكذا لأجل أن لا يُتصور أنّ هذا القانون يختص بهم أضاف قائلًا: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ».

إنّ التعبير ب «اتّخذوا» إشارة إلى أنّ الوثن ليس له أيّة واقعية، ولكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذي أعطاه تلك الشخصية والقيمة الوهمية، ولهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فوراً، يعني أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتى بعد انتخابه للعبادة.

وفي الآية اللاحقة يكمّل القرآن الكريم هذا الموضوع ويقول في صورة قانون عام:

«والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» فالذين يتوبون من بعد السيئة وتتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر اللّه لهم ويعفو عنهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: ولما سكن غضب موسى عليه السلام وحصل على النتيجة التي كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التي كانت تحتوي- من أوّلها إلى آخرها- على الرحمة والهداية، رحمة وهداية للذين يشعرون بالمسؤولية، والذين يخافون اللّه، ويَخضعون لأوامره وتعاليمه: «وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ».

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (۱۵۵) وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۷۶

مندوبو بني إسرائيل في الميقات: في الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة اخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» في صحبة جماعة، ويقص قسماً آخر من تلك الحادثة. فقد قال القرآن الكريم في الآيتين الحاضرتين أوّلًا: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا».

ولكن بني إسرائيل حيث إنّهم سمعوا كلام اللّه طلبوا من موسى عليه السلام أن يطلب من اللّه تعالى أن يريهم نفسه- لبني إسرائيل- جهرة، وفي هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم وهلك الجماعة، ووقع موسى عليه السلام على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق قال: ربّاه لو شئتَ لأهلكتَنا جميعاً، يعني بماذا أجيبُ قومي لو هلك هؤلاء: «فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيىَ».

ثم قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم:

«أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا».

ثم إنّ موسى عليه السلام قال فى عقيب هذا التضرع والطلب من اللَّه: ربّاه إنّى أعلم أنّ هذا كان اختبارك وامتحانك، فأنت تضلّ من تشاء (وكان مستحِقاً لذلك) وتهدى من تشاء (وكان لائقاً لذلك) «إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» وإختبارك.

وفى ختام الآية يقول موسى عليه السلام: ربّاه: «أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

من مجموع الآيات والروايات يستفاد أنّ الهالكين قد استعادوا حياتهم فى المآل وعادوا برفقة موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل، وقصُّوا عليهم كل ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين وهدايتهم.

وفى الآية اللاحقة يشير إلى طلب موسى عليه السلام من ربّه وتكميل مسألة التوبة التى ذكرت فى الآيات السابقة، يقول موسى: «وَاكْتُبْ لَنَا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ».

«الحسنة»: تعنى كل خير وجمال، وعلى هذا الأساس تشمل جميع النعم، وكذا التوفيق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنّة، وكل نوع من أنواع السعادة.

ولقد أجاب اللَّه- فى النهاية- دعاء موسى عليه السلام وقبل توبته، ولكن لا بصورة مطلقة، بل جاء ذلك فى ختام الآية مشروطاً بشروط، إذ يقول: «قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» وكان مستحِقاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۷۷

ثم يضيف تعالى قائلًا: «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ».

إنّ هذه الرحمة الواسعة يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية والمعنوية، لأنّ النعم المعنوية لا تختص بقوم دون قوم، وإن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

ولكن حتى لا يظن أحد أنّ قبول التوبة، أو سعة الرحمة الإلهية وشموليتها، غير مقيدة وغير مشروطة، ومن دون حساب أو كتاب، يضيف فى ختام الآية: سرعان ما أكتب رحمتى للذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآياتى «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالَّذِينَ هُم بَايَاتِنَا يُؤْمِنُونَ».

«التقوى»: إشارة إلى إجتناب كل معصية وإثم.

«الزكاة»: مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحديث المعروف «لكل شىء زكاة» يشمل جميع الأعمال الصالحة والطيبة.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷) اتبعوا هذا النبى: هذه الآية تكمل الآية السابقة التى تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أى من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات اللَّه. وفى هذه الآية يذكر صفات اخرى لهم من باب التوضيح، وهى اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لأنّ الإيمان باللَّه غير قابل للفصل عن الإيمان بالنبى صلى الله عليه و آله وإتباع دينه، ولهذا يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ».

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

۱- أنّه نبىّ اللَّه «النَّبِىَّ».

والنبى يطلق على كل من يبين رسالة اللَّه إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلّفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه نبياً- مكلف بالدعوة إلى دين اللَّه، وتبليغه والإستقامة فى هذا السبيل.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۷۸

۲- أنّه نبى امّى لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: «الْأُمِّىَّ».

۳- ثم إنّ هذا النبى هو «الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلِ».

۴- ومن سمات هذا النبى أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة كاملة، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

۵- كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ».

۶- أنّه ليس كأدعياء النبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التى تكبّل عقولهم وأفكارهم وتثقل كاهلهم «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (۱).

وبما إنّ هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهى مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة ودليل قاطع على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم:

«فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولِئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

بحثان

۱- خمسة أدلة على النبوة فى آية واحدة: الأوّل: أنّه «امّى» لم يدرس، ولكنه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام فى التاريخ البشرى.

الثانى: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة فى الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته ....

الثالث: أنّ محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملًا مع العقل.

الرابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السويّة.

الخامس: لو لم يكن من جانب اللّه لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصة، وفى هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم فى حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، فى حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

---

(۱) «الإصر»: يعنى فى الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۹

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، والحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون.

وهكذا سائر الأغلال الاخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى.

۲- البشارات بظهور النبى فى العهدين: إنّ الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أنّ هذه الكتب ليست هى الكتب السماوية التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هى إلّاخليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام مما بقى فى أيدى تلامذتهم.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ فى ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمن اشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النبى العظيم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ

الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸) دعوة النبى العالمية: فى تفسير الصافى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! أنت الذى تزعم أنّك رسول اللّه، وأنّك الذى يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبى ساعة ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل اللّه هذه الآية التى صرّحت بأنّ رسالة النبى صلى الله عليه و آله رسالة عالمية.

وفى البداية يأمر اللّه تعالى رسول اللّه قائلًا: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۱۹۹

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة اخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

ثم إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النبى صلى الله عليه و آله بثلاث صفات:

۱- «الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» فله الحاكمية المطلقة.

۲- «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ» فلا معبود يليق للعبادة سواه.

۳- «يُحْيِ وَيُمِيتُ» بيده نظام الحياة والموت.

وفى الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان باللّه وبرسوله الذى لم يتعلّم القرآءة والكتابة والقائم من بين الناس «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىّ الْأُمّىّ».

النبى الذى لا يكتفى بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو فى الدرجة الاولى- بما يقول، يعنى الإيمان باللّه وكلماته «الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ».

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التى نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إنّ تأريخ النبى صلى الله عليه و آله برمّته يشهد بهذه الحقيقة وهى أنّه صلى الله عليه و آله كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التى جاء بها.

أجل، لابدّ لكم من اتّباع مثل هذا النبى حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهتدوا إلى طريق السعادة «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

وهذا إشارة إلى أنّه لا يكفى مجرد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا إقترن بالإتباع العملى.

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۶۰) جانب من نعم اللّه على بنى إسرائيل: فى الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هى تحرى القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۱

الدينية الصالحة، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأنّ هذا العرق القومى برمته ضالّ متمرد من دون إستثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصّاً بهؤلاء فيقول: «وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون فى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النبى ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.

وفى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم اللّه على بنى إسرائيل.

فیقول أوّلًا: «وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَیْ عَشَرَةَ أَسْبَاطًا أَمَمًا». وهذا التقطیع والتقسیم إنّما هو لأجل أن یسودهم نظام عادل، بعید عن المصادمات الخشنة.

«أسباط»: جمع «سبط» (بفتح السین وبکسرها) تعنی فی الأصل الإنبساط فی سهولة، ثم یطلق السبط والأسباط علی الأولاد وبخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط- هنا- هو قبائل بنی إسرائیل وفروعها، الذین کان کل واحد منها منشعباً ومنحدراً من أحد أولاد یعقوب علیه السلام.

والنعمة الاخری هی: أنّه عندما کان بنو إسرائیل متوجهین إلی بیت المقدس وأصابهم العطش الشدید الخطیر فی الصحراء، وطلبوا من موسی علیه السلام الماء، أوحی إلیه أن اضرب بعصاک الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاک «وَأَوْحَیْنَا إِلَی مُوسَی إِذِ اسْتَسْقَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاکَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَیْنًا».

وقد کانت الینابیع هذه مقسمة بین أسباط بنی إسرائیل بحیث عرف کل سبط منهم نبعه الذی یشرب منه «قَدْ عَلِمَ کُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

والنعمة الثالثة هی: أنّ اللَّه تعالی أرسل لهم- فی تلک الصحاری الملتهبة حیث لا سقف ولا ظلال- سحباً ظلّلتهم «وَظَلَّلْنَا عَلَیْهِمُ الْغَمَامَ».

والنعمة الرابعة إنزال المنّ والسلوی علیهم کغذائین لذیذین ومقویین: «وَأَنزَلْنَا عَلَیْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَی .

ثم یقول اللَّه تعالی: وقلنا «کُلُوا مِن طَیِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاکُمْ».

ولکنهم أکلوا وکفروا النعمة ولم یشکروها وبذلک ظلموا أنفسهم «وَمَا ظَلَمُونَا وَلکِن کَانُوا أَنفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۲

وَ إِذْ قِیلَ لَهُمُ اسْکُنُوا هذِهِ الْقَرْیَةَ وَ کُلُوا مِنْهَا حَیْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَکُمْ خَطِیئَاتِکُمْ سَنَزِیدُ الْمُحْسِنِینَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَیْرَ الَّذِی قِیلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا کَانُوا یَظْلِمُونَ (۱۶۲) فی تعقیب الآیات السابقة تشیر هاتان الآیتان إلی قسم آخر من المواهب الإلهیة لبنی إسرائیل وطغیانهم تجاه تلک النعم، وکفرانهم بها. یقول تعالی: «وَ» اذکروا «إِذْ قِیلَ لَهُمُ اسْکُنُوا هذِهِ الْقَرْیَةَ وَکُلُوا مِنْهَا حَیْثُ شِئْتُمْ».

وقلنا لهم اطلبوا من اللَّه حطّ الذنوب عنکم وعفوه عن خطایاکم، وادخلوا من باب بیت المَقدس بخضوع «وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا».

فاذا قمتم بهذه الامور غفرنا لکم خطایاکم، وأعطینا للمحسنین ثواباً أکبر «نَّغْفِرْ لَکُمْ خَطِیئَاتِکُمْ سَنَزِیدُ الْمُحْسِنِینَ».

وبالرغم من أنّ اللَّه فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا إغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضیهم وحاضرهم، ولکن لم یغتنم الظالمون من بنی إسرائیل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر اللَّه، وقالوا خلاف ما أمروا أن یقولوه: «فَبَدَّلَ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَیْرَ الَّذِی قِیلَ لَهُمْ».

وفی المآل نزل علیهم بسبب هذا الطغیان والظلم للنفس وللآخرین عذاب من السماء «فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا کَانُوا یَظْلِمُونَ».

وَ اسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْیَةِ الَّتِی کَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ یَعْدُونَ فِی السَّبْتِ إِذْ تَأْتِیهِمْ حِیتَانُهُمْ یَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ یَوْمَ لَا یَسْبِتُونَ لَا تَأْتِیهِمْ کَذلِکَ نَبْلُوهُمْ بِمَا کَانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۳) وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِیداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَی رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِیسٍ بِمَا کَانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِینَ (۱۶۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۳

قصة فيها عبرة: في هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بنى إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما في الأمر أنّ الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فيقول له: «وَسَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ». أي اسأل يهود عصرك عن قضية القرية التي كانت تعيش على ساحل البحر.

ثم تقول: وذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا- في يوم السبت- القانون الإلهي «إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثم يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا». فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء في يوم السبت، بينما كانت تختفي في غيره من الأيام.

«السبت»: في اللغة تعني تعطيل العمل للإستراحة، وسمّي «يوم السبت» بهذا الإسم لأنّ الأعمال العادية والمشاغل كانت تتعطل في هذا اليوم، ثمّ بقي هذا الإسم لهذا اليوم علماً له.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعي عادي أم كان له جانب استثنائي وإلهي، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه «كَذلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

وجملة «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» إشارة إلى أنّ اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصي والذنوب.

عندما واجهت هذه الجماعة من بني إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذي كان متداخلًا مع حياتهم تداخلًا كاملًا، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» وكانوا يشكّلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهي.

«الفريق الثاني» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا- تجاه الفريق الأوّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«الفريق الثالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۴

وفي الآية الثانية من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذي دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهي عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: «وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا».

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأنّنا ننهى عن المنكر لأنّنا نؤدّي واجبنا تجاه اللَّه تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين تجاهه، هذا مضافاً إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم «قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنّه ربّما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهية حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهية، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسي وتنامي البدع، وحينما يعدّ السكوت دليلًا على الرضا والموافقة. ففي هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهي في مكان حتى مع عدم تأثيره في العصاة والمذنبين.

ثم إنّ الآية اللاحقة تقول: وفي المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهي، وفي هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» «۱».

ثم يشرح العقوبات هكذا: «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» «۲».

وواضح أنّ أمر «كونوا» هنا أمر تكويني مثل: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «۳».

يجب الإلتفات إلى أنّ الممسوخين- حسب الروايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا ولم يتولد منهم نسل أبداً.

كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ إنّهم في البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثم لما صُغرت هذه المعصية في نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمته، فأخذوا

يصيدون السمك فى يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

---

(۱) «بئيس»: مشتقة من مادة «بأس» يعنى الشديد.

(۲) «عتوا»: من مادة «عتو» على وزن «غلوّ»، بمعنى الإمتناع عن طاعة أمر.

(۳) سورة يس/ ۲۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۵

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۶۸) تفرق اليهود وتشتتهم: هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التى أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر اللَّه تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق. فيقول فى البداية: واذكروا يوم أخبر اللَّه بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقاً يجعلها حليفة العذاب والأذى إلى يوم القيامة «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ويستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الإستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسّست لنفسها حكومة وشيّدت دولة.

وفى ختام الآية يضيف تعالى قائلًا: «إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبالنسبة إلى الكفّار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم.

وهذه الجملة تكشف عن أنّ اللَّه قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنّه قد كُتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرّق اليهود فى العالم فيقول: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ» فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا بنداء الإسلام وعرفوا دعوة النبى محمّد صلى الله عليه و آله آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية فى سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرّة اخرى تتجلى هذه الحقيقة فى هذه الآية وهى أنّ الإسلام لا يعادى العنصر اليهودى، ولا يشجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر وعرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثمّ يضيف تعالى قائلًا: «وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». أى ربّما

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۶

نكرمهم ونجعلهم فى رفاه ونعمة حتى نثير فيهم روح الشكر، ويعودوا إلى طريق الحق. وربّما نغرقهم فى الشدائد والمصاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانية والتكبر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى اللَّه، والهدف فى كلتا الحالتين هو التربية والهداية والعودة إلى الحق.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (۱۷۰) فى الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن فى الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم. وفى البداية يقول تعالى: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنَى . إنّهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنهم رغم ذلك فُتنوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها

الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافعهم الماديّة.

ثم يضيف قائلًا: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة اخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبة وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلًا سواءً من حلال أو حرام، واللَّه سيرحمنا ويغفر لنا «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا».

إنّ هـذه الجملة تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة- كما يقول القرآن الكريم- لم تكن لها أيّة جذور فى أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: «وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ».

«عَرَض»: على وزن «غرض» يعنى الشـىء الذى لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلًا غير ثابت فى الغالب.

إنّ هـذه الجملة إشارة إلى عمليات الإرتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، ونسيان أحكام اللَّه لمضادتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۸۷

ولهذا قال تعالى فى عقيب ذلك: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّايَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ». أى أنّهم اخذ عليهم الميثاق- بواسطة كتابهم السماوى التوراة- أن لا يفتروا على اللَّه كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلّاالحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الـذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذاراً، ولكن المشكلة هى أنّهم رأوا التوراة مراراً وفهموا محتواها ومع ذلك ضيّعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ».

وفى ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للأمور، وإنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً «وَالدَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ». ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وفى مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهية وكتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها وطبقوها فى حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: «وَالَّذِينَ يُمَسّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ».

إنّ الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهية، وهذا التعبير يؤكّد- مرّة اخرى- هذه الحقيقة، وهى أنّ الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادىء العدل والسلام والرفاه والإستقرار، وبالتالى كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱) آخر كلام حول اليهود: هذه الآية آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسرائيل وهى تتضمن تذكير قصة اخرى ليهود عصر النبى صلى الله عليه و آله قصة فيها عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه وجعلناه فوق

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۸۸

رؤوسهم كأنّه مظلّة «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» «۱». وقد ظنّوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد وفزع «وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ».

وفى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجديّة «خُذُوا مَا ءَاتَيْنكُم بِقُوَّةٍ».

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهى واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

يعنى أنّ رسالة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعاب ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر اللَّه، وتنفيذ مبادىء الحق والعدالة والطهر والتقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَی أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیَامَةِ إِنَّا کُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِینَ (۱۷۲) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَکَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ کُنَّا ذُرِّیَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (۱۷۳) وَ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیَاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۷۴) العهد الأوّل وعالم الذر: الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطرى» ووجود الإيمان فى أعماق روح الإنسان، ولذلك فإنّ هذه الآيات تُكمّل الأبحاث الواردة فى الآيات المتقدمة من هذه السورة فى شأن «التوحيد الإستدلالى». يقول اللَّه سبحانه مخاطباً نبيّه فى هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِن بَنِی ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَی أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی شَهِدْنَا».

«الذرية»: معناها فى الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلّاأنّها تطلق فى الغالب على عموم الأبناء.

ثم يشير اللَّه سبحانه إلى الهدف النهائى من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم فى مسألة التوحيد، فيقول: «أَن تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیمَةِ إِنَّا کُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِینَ».

---

(۱) «نتقنا»: من مادة «نتق» تعنى فى الأصل قلع وانتزاع شىء من مكانه، وإلقاءه فى جانب آخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۹

الآية التالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أنّ اللَّه تعالى إنّما أخذ هذا العهد من ذرية بنى آدم لئلا يعتذروا «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَکَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَکُنَّا ذُرِّیَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ».

أجل ... «وَکَذلِکَ نُفَصّلُ الْأَیَاتِ وَلَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ».

إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات» و «عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الامهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم اللَّه الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهى فى ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلى ... كما أودعه فى عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه اللَّه من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ألست بربّكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته.

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْنَاهُ آیَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطَانُ فَکَانَ مِنَ الْغَاوِینَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ذلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۱۷۶) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ کَانُوا یَظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ یُضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۷۸) فى هذه الآيات إشارة لقصة اخرى من قصص بنى إسرائيل، والآية الاولى من هذه الآيات يخاطب بها النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول تعالى: «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی ءَاتَیْنهُ ءَایتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطنُ فَکَانَ مِنَ الْغَاوِینَ». و الآية التالية تكمل هذا الموضوع على النحو التالى «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنهُ بِهَا».

و لكن من المسلم أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم والسنن الإلهية وحرية الإرادة ولا يكون ذلك دليلًا على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۰

تضيف مباشرة إنّنا تركناه وهواه وبدلًا من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى وانحطّ «وَلکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَیهُ». «أخلد»: من «الإخلاد» وهى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، وهى كناية عن عالم المادة وبهارجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثم تشبّه الآية هذا الفرد بالكلب الذى يُخرج لسانه لاهثاً دائماً كالحيوانات العطاشى فتقول: «فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ

أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث».

فهو لفرط اتّباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مَرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذى يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها وهى حالة العبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً.

ثم تضيف الآية: إنّ هذا المثال الخاص لا- يتعلق بفرد معين، بل: «ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

العالِم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: يستفاد من أغلب الروايات وأحاديث المفسرين أنّ هذا الشخص يسمّى (بلعم بن باعوراء) الذى عاصر النبى موسى عليه السلام وكان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أنّ موسى عليه السلام كان يعوّل عليه كداعية مقتدر، وبلغ أمره أن دعاءه كان مستجاباً لدى البارى جلّ وعلا، لكنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذٍ فى جبهة أعداء موسى عليه السلام.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآيتان التاليتان- كنتيجة عامّة وشاملة لقضية (بلعم) وعلماء الدين الذين أحبّوا الدنيا- فتقول اولاهما: «سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ».

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو يسخّر ملكاته المعنوية وعلومه النافعة التى بإمكانها أن تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ويضعها تحت اختيار المستكبرين وأصحاب القدرة الدنيوية ويبيعها بثمن بخس فيؤدّى ذلك إلى سقوطه وسقوط المجتمع و الآية الأخيرة تحذّر الإنسان وتؤكّد له أنّ الخلاص من مثل هذا الانحراف وما يكيده الشياطين لا يمكن إلّا بتوفيق وتسديد من اللّه عزّ وجلّ: «مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۱

وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (۱۷۹) وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۸۰) وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۸۱) علائم أهل النار: هذه الآيات تقسم الناس إلى مجموعتين ... وتحكى عن صفاتهما وهما أهل النار، وأهل الجنة. فتتحدث عن المجموعة الاولى- أهل النار- أوّلًا، فتأتى بالقسم والتوكيد فتقول: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ».

«ذرأنا»: مشتقة من «ذرأ»، وتعنى هنا الإيجاد والخلق، غير أنّها فى أصل اللغة تعنى نشر الشيء وتفريقه.

فإنّ اللّه سبحانه خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين إلّاأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم جهنّم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسراً ... وأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم الجنّة وكان عاقبة أمرهم السعادة ....

ثم يلخّص القرآن صفات أهل النار فى ثلاث جمل، إذ تقول الآية: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا».

والصفة الثانية التى ذكرتها الآية لأهل النار «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا».

والصفة الثالثه الواردة فى حقهم «وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ».

لأنّ البهائم والأنعام لا تملك هذه الإستعدادات والإمكانات، إلّاأنّهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقى والتكامل، إلّاأنّهم نتيجة لإتباعهم هواهم ورغبتهم- بكل هذه التوافه من الامور تركوا هذه الإستعدادات جانباً ... وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: «أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

فالمَعين الذى يحييهم ويروى ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلّاأنّهم يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة

أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۹۲

وفى الآية التالية إشارة إلى حال أهل الجنة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبر والتوجه إلى أسماء اللَّه الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النار، فتقول: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا». والمراد من «أسماء اللَّه الحسنى» هى صفات اللَّه المختلفة التى هى حُسنى جميعاً فالمراد من دعاء اللَّه بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلًا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغى أن نتمثّلَ هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وبتعبير أخرى: ينبغى أن نتّصف بصفاته ونتخلّق بأخلاقه.

من ذلك الرواية الواردة فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول اللَّه عزّ وجلّ «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» قال: «نحن واللَّه الأسماء الحسنى». فهى إشارة إلى أنّ إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة ....

ثم تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرّف أسماؤه فتقول: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». والمقصود من الإلحاد فى أسماء اللَّه هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لا- تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الأب والابن وروح القدس».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنة، إذ تقول الآية: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ لهؤلاء منهجين ممتازين فأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافاتهم حقّة وهى فى اتجاه الحق أيضاً كما أنّ أعمالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۱۸۳) الإستدراج: تعقيباً على البحث السابق الذى عالجته الآيات المتقدمة- والذى يبين حال أهل النار- تبين هاتان الآيتان واحدةً من سنن اللَّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهى ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الإستدراج».

والإستدراج جاء فى موطنين من القرآن: أحدهما فى الآيتين محل البحث، والآخر فى الآية (۴۴) من سورة القلم، وكلا- الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللَّه ومنكريها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۹۳

يقول سبحانه فى الآية الاولى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ». أى سنعذّبهم بالإستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوى حياتهم.

و الآية الثانية تؤكّد الموضوع ذاته، وتشير بأنّ اللَّه لا يتعجّل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللَّه؛ فتقول الآية «وَأُمْلِي لَهُمْ».

لأنّ الإستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، واللَّه قوى ولا يفلت من قبضته أحد «إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ».

فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل اللَّه لا يعنى صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من اللَّه، وأن لا- يحسبوا أنّ النعم التى غرقوا فيها هى دليل على قربهم من اللَّه، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والإنتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فاللَّه سبحانه يغشّيهم بالنعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، ثمّ يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوى بذلك وجودهم وتأريخ حياتهم كله.

فى الكافى: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول اللَّه عزّ وجلّ «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجدّد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب».

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله صعد الصفا وکان یدعو قریشاً، فخذاً فخذاً، إلی توحید اللّه، ویخوفهم عذاب اللّه، فقال المشرکون: إنّ صاحبهم قد جُنّ، بات لیلًا یصوّت إلی الصباح، فأنزل اللّه هذه الآیة.

التّفسیر

التُهم والأباطیل: فی الآیة الاولی من الآیات- محل البحث- یردّ اللّه سبحانه علی کلام

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۴

المشرکین الفارغ، بزعمهم أنّ النبی صلی الله علیه و آله قد جُنّ، فیقول سبحانه: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» «۱». وهذا التعبیر یشیر إلی أنّ النبی صلی الله علیه و آله لم یکن شخصاً مجهولًا بینهم، وتعبیرهم ب «الصاحب» یعنی المحب والمسامر والصدیق وما إلی ذلک، وکان النبی معهم أکثر من أربعین عاماً یرون ذهابه وإیابه وتفکیره وتدبیره دائماً وآثار النبوغ کانت بادیةً علیه، فمثل هذا الإنسان الذی کان یُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلی اللّه، کیف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما کان من الأفضل أن یتفکروا- بدلًا من إلصاق التهم به- فی احتمال أن یکون صادقاً فی دعواه ومرسل من قبل اللّه سبحانه؟! کما عقّب القرآن الکریم وبیّن ذلک بعد قوله أو لم یتفکروا؟ فقال: «إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفی الآیة التالیة- استکمالًا للموضوع آنف الذکر- دعاهم القرآن إلی النظر فی عالم الملکوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآیة: «أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ». لیعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقیق المحیّر المذهل لم یخلق عبثاً، وإنّما هناک هدف وراء خلقه. ودعوة النبی صلی الله علیه و آله هی من أجل ذلک الهدف، وهو تکامل الإنسان وتربیته وارتقاؤه.

ثم تقول الآیة معقبة لتنبههم من نومة الغافلین: «وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ».

وأخیراً فإنّ الآیة التالیة، تختتم الکلام بالقول: «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

فإنّ هذه التعابیر تختص باولئک الذین یقفون بوجه الحقائق معاندین ألدّاء، حتی کأنّما علی أبصارهم غشاوة وفی سمعهم صمم وعلی قلوبهم طبع، فلا یجدون إلّاأسداًلا من الظلمات تحجب طریقهم. وکل ذلک هو نتیجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهی «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ».

---

(۱) «الجنّة»: معناها الجنون، ومعناها فی الأصل: الحائل والمانع فکأنّما یُلقی علی العقل حائل عند الجنون. مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۵

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: جاء قوم من الیهود، فقالوا: یا محمّد أخبرنا عن الساعة متی هی إن کنت نبیاً؟ فنزلت الآیة.

وقیل: قالت قریش یا محمّد! متی الساعة؟ فنزلت الآیة.

التّفسیر

مع أنّ هـذه الآيـة ذات سبب خـاص فى النزول- كمـا ذكروا- إلّاأنّها فى الوقت ذاته لها علاقـة وثيقـة بالآيات المتقدمـة أيضاً، لأنّه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامـة ولزوم الإسـتعداد لمثل ذلك اليوم فى الآيات السابقة. وبالطبع فإنّ موضوعاً كهذا يسـتدعى السؤال عن موعده وقيامه، ويستثير كثيراً من الناس أن يسألوه: أيان يوم القيامة؟ لهذا فإنّ القرآن يقول: «يَسَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسهَا».

«الساعـة»: تعنى زمـان نهايـة الـدنيا، إلّاأنّهـا فى الغالب تأتى بمعنى القيامـة فى القرآن الكريم؛ و «أيّان»: تساوى «متى» وهما للسّؤال عن الزمان؛ و «المرسى»: ثبات الشىء أو وقوعه، فبناءً على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعنى: فى أىّ وقت تقع القيامة وتكون ثابتةً؟

ثم تضيف الآية مخاطبة النبى أن يرد عليهم بصراحة قائلة: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبّى لَا يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ».

إلّا أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلًا: «ثَقُلَتْ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

أيّة حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويُظلم القمر وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم جديد بثوب آخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۶

ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجىء وانقلاب سريع. «لَاتَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً».

ثمّ تقول الآية مرّة اخرى: «يَسَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا».

وتضيف الآية مخاطبة النبى الكريم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ أهل مكة قالوا: يا محمّد! ألا يخبرك ربّك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتريه فتربح فيه، وبالأرض التى تريد أن تجدب، فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت؟ فأنزل هذه الآية.

التّفسير

لا يعلم الغيب إلّااللَّه: إنّ الكلام كان فى الآيـة السابقـة على عـدم علم أحـد بقيام الساعـة إلّا اللَّه، والكلام فى هـذه الآيـة على نفى علم الغيب عن العباد بصورة كليـة. ففى الجملـة الاولى من هـذه الآية خطاب للنبى صـلى الله عليه و آله يقول: «قُلْ لَّاأَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

إنّ مالك جميع القوى والقـدرات وذو الاختيار المسـتقل- وبالذات- فى عالم الوجود هو اللَّه عزّ وجلّ فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوة.

وبعـد بيان هـذا الموضوع تشـير الآيـة إلى مسألة مهمّة اخرى ردّاً على سؤال جماعة منهم فتقول: «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ».

ثمّ تحكى الآية عن مقام النبى الواقعى ورسالته، فى جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۷

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۸۹) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۹۰) أَ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۱۹۱) وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۲) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (۱۹۳) جحدُ نعمـةٍ عظمى: فى هـذه الآيـات إشـارة إلى جانب آخر من حالات المشـركين واسلوب تفكيرهم والردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لمّا كانت الآية السابقة إشارة إلى توحيد أفعال اللَّه، فالآيات محل البحث

تعدّ مكملةً لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللَّه أيضاً. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» فجعل الحياة والسكن جنباً إلى جنبٍ «فَلَمَّا تَغَشهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ».

وبمرور الأيام والليالى ثقل الحمل «فَلَمَّا أَثْقَلَت» كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنّى أن يهبه اللَّه ولداً صالحاً، فلذلك «دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». وعندما استجاب اللَّه دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشركا باللَّه «فَلَمَّا ءَاتهُمَا صلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وتعقيباً على هذا الأمر يردّ القرآن- باسلوب بيّن متين- عقيدة المشركين وأفكارهم مرة اخرى، فيقول: «أَيُشْرِكُونَ مَا لَايَخْلُقُ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

والأوثان والأصنام فى حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ». فمن كان بهذه المنزلة وبهذا المستوى أنّى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسرين احتمالًا آخر فى تفسير الآية، أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهداية فلن يتحقق دعاؤكم وطلبكم على كل حال «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۸

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶) هاتان الآيتان- محل البحث- تواصلان الكلام على التوحيد ومكافحة الشرك، وتبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، فتقول الآية الاولى من هاتين الآيتين: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ».

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشيء مثله تحكمها قوانين الطبيعة، وأن يمدّ يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدّراته ومصيره تحت يده.

ثم تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلًا وشعوراً «فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وهذا هو الدليل الثانى على إبطال منطق المشركين.

وفى البيان الثالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتتساءل مستنكرةً: «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا» (۱).

وهكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامى عنها، وأخيراً فإنّ الآية تبين ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرابع مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ». أى إذا كنت كاذباً، وأنّ الأصنام مقرّبات عنداللَّه، وقد تجرأتُ عليها فلِمَ لا تغضب علىّ؟ وليس لها ولا لكم ولمكائدكم أى تأثير علىّ.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (۱۹۶) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۱۹۸)

---

(۱) «يبطشون»: فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الإستيلاء بالشدّة والصولة والقدرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۹

المعبودات التى لا قيمة لها: تعقيباً على الآية المتقدمة التى كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبى): «ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ» متبهة إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النبى بأدنى ضرر، فإنّ الآية الاولى- من الآيات- محل البحث- تذكر

الدليل على ذلك فتقول: «إِنَّ وَلِيِّىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ».

وليس وليي وحدى فحسب، بل هو وليّ جميع الصالحين «وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ».

ثم يؤكّد القرآن بالآية التالية على بطلان عبادة الأوثان مرّة اخرى فيقول: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

بل أبعد من ذلك «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَايَسْمَعُوا». وبالرغم من امتلاكهم العيون التى يخيل إلى الرائى أنّها تنظر: «وَتَرَيهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ».

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّى هذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وساوس الشيطان: فى هذه الآيات يبين القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم باسلوب أخّاذ رائق وجيز، وهى فى الوقت ذاته تتناسب والآيات المتقدمة التى كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً. ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلغين، فتوجّه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله فتقول فى البداية: «خُذِ الْعَفْوَ».

ثم تعقّب الآية بذكر الوظيفة الثانية للنبى صلى الله عليه و آله وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل ويدعو إليها اللَّه عزّ وجلّ قائلةً: «وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۰

مختصر الامثل ج ۲ ۲۳۹

أمّا الوظيفة الثالثة للنبى صلى الله عليه و آله فهى أن يتحمل الجاهلين، فتقول: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ».

فالقادة والمبلغون يواجهون فى مسيرهم أفراداً متعصبين جهلة يعانون من انحطاط فكرى وثقافى وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتّهم، ويُسيؤون الظن بهم ويحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل الطريق السليم هو التحمل والجلد وعدم الإكثرات بمثل هذه الامور، والتجربة خير دليل على أنّ هذا الاسلوب هو الاسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلك.

وفى الآية التالية دستور آخر، وهو يمثل الوظيفة الرابعة التى ينبغى على القادة والمبلغين أن يتحملوها، وهى أن لا يدعوا سبيلًا للشيطان إليهم، سواء كان متمثلًا بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلك، وأن يردعوا الشياطين أو المتشيطنين ووساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم. فالقرآن يقول: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطِنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفى الآية التالية بيان للإنتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِنَ الشَّيْطِنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ». أى يتذكرون ما أنعم اللَّه عليهم، ويفكرون فى سوء عاقبة الذنب وعذاب الاخرة فيتّضح لهم بذلك طريق الحق.

والطائف: هو الذى يطوف ويدور حول الشىء، فكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشىء ليجد منفذاً إليه.

وأساساً فإنّ كل إنسان فى أية مرحلة من الإيمان، أو أىّ عمر كان، يُبتلى بوساوس الشياطين. وربّما أحس أحياناً أنّ فى داخله قوة مهيمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إليه، ولا شك أنّ مثل هذه الحالة من الوساوس فى مرحلة الشباب أكثر منها فى أيّة مرحلة اخرى،

ولا ـ سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو فى العصر الحاضر من التحلّل والحريّة، لا الحرية بمعناها الحقيقى، بل بما يـذهب إليه الحمقى «من الإنسلاخ من كل قيد والتزام أخلاقى أو اجتماعى أو دينى» فتزداد الوساوس الشيطانية عندالشباب.

وطريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث والتحلل فى مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيد التقوى أولًا، كما أشارت إليه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» ثم المراقبة والتوجه نحو النفس، والإلتجاء إلى اللّه وتذكر ألطافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۱

وملخص القول: أنّنا لاحظنا فى الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان ووسوسته بذكر اللّه، إلّاأنّ الآثمين إخوة الشياطين يبتلون بمزيد الوساوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبّر الآية التالية عن ذلك قائلة: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىّ ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ».

«الإخوان»: كناية عن الشياطين، والضمير «هم» يعود على المشركين والآثمين.

وجملة «ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ» تعنى أنّ الشياطين لا يألون جهداً فى إضلال المشركين والآثمين.

ثم تذكر الآية التالية حال جماعة من المشركين والمذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول:

إنّهم يكذبونك- يا رسول اللّه- عندما تتلو عليهم آيات القرآن، ولكن عندما لا ـ تأتيهم بآية، أو يتأخر الوحى يتساءلون عن سبب ذلك: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا» «۱». ولكن قل لهم إنّنى لا ـ اعمل ولا أقول إلّابما يوحى اللّه إلىّ: «قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَىَّ مِن رَّبِّى هذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۲۰۴) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (۲۰۵) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (۲۰۶) وإذا قرىء القرآن فاستمعوا وانصتوا: لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، وتنتهى بالآيات- محل البحث- التى تتكلم عن القرآن أيضاً. فى البداية تقول الآية: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

ويستفاد من ظاهر الآية أنّ هذا الحكم عام غير مختص بحال ما ولا وقت معين، أى ينبغى إن قرىء القرآن- حيثما كان وكيف كان- أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأنّ القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثم هو كتاب عمل أيضاً.

---

(۱) «الإجتباء»: مأخوذ من الجباية، وأصلها جمع الماء فى الحوض ونحوه، ثمّ توسعوا فى الاستعمال فأطلقواعلى جمع الأشياء وانتخابها واختيار ما يراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبيتها» تعنى لولا اخترتها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۲

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أنّ بعض الروايات عبّرت عنه بالوجوب.

والمورد الوحيد الذى يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجباً، هو فى صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت ويستمع لقراءة الإمام، حتى أنّ جمعاً من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآية تدل على سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

وفى الآية التالية إكمالًا للأمر السابق يخاطب القرآن النبى الكريم- وهذا الحكم كلى وعام أيضاً وإن كان الخطاب موجهاً للنبى صلى الله عليه و آله كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الاخرى وأحكامها- إذ يقول سبحانه فى كتابه: «وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً».

ثم يضيف قائلًا: «وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوّ وَالْأَصَالِ» «۱».

«وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ».

فـذكر اللَّه فى كل حال وفى كل وقت، صـباحاً ومساءً، مـدعاة لإيقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أحيت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولية والبصيرة، وكل عمل إيجابى بنّاء ....

ثم تختتم سورة الأعراف بهـذه العبارة، وهى أنّكم لسـتم المكلفون فقط بـذكر اللَّه بل من يـذكر اللَّه من موقع الخشـية والاسـتكانة هم الملائكة المقربون: «إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ».

«نهاية تفسير سورة الأعراف»

---

(۱) «الآصال»: جمع الأصيل، ومعناه قبيل المغرب أو عند الغروب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۳

۸. سورة الانفال

محتوى السورة: فى بدايـة سورة الأنفال إشارة إلى قسم مهم من المسائل الماليـة من جملتها الأنفال والغنائم التى يُعـدّ كل منهما دعامة لبيت المال كما تضمنت هذه السورة مباحث اخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصـة معركـة بـدر، وهى أوّل مواجهـة مسـلحة بين المسـلمين وأعـدائهم، وما تضـمّنت من أحداث عجيبة تلهم العبر.

بعض أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدو المتواصل.

ماجرى للنبى صلى الله عليه و آله فى ليلته التاريخية «ليلة المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام وخرافاتهم.

ضعف المسلمين وعجزهم بادىء الأمر ثم زيادة قوتهم ببركة الإسلام.

حكم الخمس وكيفية تقسيمه.

مواجهة المنافقين وطريقة التعرّف عليهم. وأخيراً نجد فى هذه السورة سلسلة مسائل اخرى أخلاقية واجتماعية بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الروايات الواردة فى شأن هذه السورة وفضـيلتها، كالرواية الواردة- فى تفسـير مجمع البيان- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الأنفال وبراءة فى كل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۴

شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقّاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب». إنّ فضائل سور القرآن والثواب العظيم لا يتأتّى بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكر، والتفكر وسيلة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ النبى صـلى الله عليه و آله قال يوم بـدر: من جاء بكـذا، فله كـذا، ومن جاء بأسـير، فله كـذا، فتسـارع الشُّبّان وبقى الشـيوخ تحت الرايـات، فلما انقضـى الحرب، طلب الشُّـبّان ما كان قـد نفلهم النبى صـلى الله عليه و آله به، فقال الشيوخ: كنا ردءاً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا، وجرى بين أبى اليسر بن عمرو الأنصارى أخى بنى سلمة، وبين سعد بن معاذ، كلام فنزع اللَّه تعالى الغنائم منهم، وجعلها لرسوله، يفعل بها ما يشاء، فقسمها بينهم بالسوية.

التّفسير

إنّ الآیة- محل البحث- کما قرأنا فی سبب النزول، نزلت بعد معرکة بدر وتتکلم عن غنائم الحرب وتبیّن حکماً إسلامیاً واسعاً بشکل عام، فتخاطب النبی صلی الله علیه و آله بالقول:

«یَسْلُونَکَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ».

فبناءً علی ذلک: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَیْنِکُمْ وَأَطِیعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن کُنتُم مُّؤْمِنِینَ». أی: إنّ الإیمان لیس بالکلام فحسب، بل هو الطاعة للّهوالرسول دون قید أو شرط وفی جمیع مسائل الحیاة لا فی غنائم الحرب وحدها.

ما هی الأنفال؟ إنّ مفهوم الأنفال لا یقتصر علی غنائم الحرب فحسب، بل یشمل جمیع الأموال التی لیس لها مالک خاص (کالآجام وبطون الأودیة والموات) وهذه الأموال جمیعها للّه وللرسول ولمن یلی أمره ویخلفه، وبتعبیر آخر: إنّ هذه الأموال للحکومة الإسلامیة، وتصرف فی منافع المسلمین العامة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۵

کما قرأنا فی شأن النّزول آنفاً، أنّ مشاجرة وقعت بین بعض الأنصار فی شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآیة أن تکون الغنائم لغیر اللّه والرسول ثم أمرت المسلمین بإصلاح ذات البین.

وأساساً فإنّ إصلاح ذات البین وإیجاد التفاهم وقلع عناصر الکدر والبغضاء من صدور المسلمین، وتبدیل کل ذلک بالمحبة، یعدّ من أهم الأغراض الإسلامیة.

وقد أولت التعالیم الإسلامیة عنایة فائقة لهذا الموضوع حتی عدّته من أفضل العبادات.

فی نهج البلاغة: یقول علی علیه السلام فی آخر وصایاه- لما ضربه ابن ملجم بالسیف- لولدیه:

«إنّی سمعت جدّکما صلی الله علیه و آله یقول: صلاح ذات البین أفضل من عامة الصلاة والصیام».

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذَا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِیمَاناً وَ عَلَی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۲) الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴) خمس صفات خاصه بالمؤمنین: کان الکلام فی الآیة السابقة عن تقوی اللّه وطاعته وطاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظیة بین بعض المسلمین فی شأن الغنائم. وإکمالًا لهذا الموضوع یشیر فی هذه الآیات إلی خمس صفات بارزة فی المؤمنین: ثلاث منها ذات جانب معنوی وروحانی وباطنی، واثنتین منها لها جانب عملی وخارجی ....

فالثلاث الاولی عبارة عن «الإحساس بالمسؤولیة» و «الإیمان» و «التوکل»، والإثنتان الاخریان هما الإرتباط باللّه، والإرتباط بخلق اللّه سبحانه.

فتقول الآیات أوّلًا: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذَا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ».

«الوجل»: حالة الخوف التی تنتاب الإنسان، وهو ناشیءٌ عن أحد أمرین: فقد ینشأ عند إدراک المسؤولیة.

وقد ینشأ عند إدراک عظمة مقام اللّه، والتوجه إلی وجوده المطلق الذی لا نهایة له.

ثم تبین الآیة الصفة الثانیة للمؤمنین فتقول: «وَإِذَا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ ءَایَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِیمَانًا».

والمؤمنون لیسوا کالموتی من الجمود وعدم التحرک، ففی کل یوم جدید یکون لهم فکر جدید وتکون صفاتهم مشرقة جدیدة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۶

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنین هی أنّهم یتّکلون علی اللّه فقط «وَ عَلَی رَبّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ».

فهم یعیشون سعة الافق وسلامة التفکیر بحیث یرون ضعف جمیع المخلوقات مهما کانت فی الظاهر قویة ومقتدرة ولذلک یرفضون الخضوع والاعتماد علی أیّ موجود غیر اللّه تعالی، فمنه یقتبسون قوتهم ومنه یطلبون حاجاتهم.

ولا- ینبغی الوقوع فی المفهوم الخاطی للتوکل حیث تصور البعض أنّ التوکل یعنی عدم الأخذ بقانون العلیة والابتعاد معن السعی

والعمل، والصحيح أنّ مفهومه الحقيقى هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والّا فان الاستفادة من عالم الاسباب المسببات فى الطبيعة هو عين التوكل لأنّ كل تثير لهذه الاسباب فى الواقع الخارجى إنّما يحصل باذن اللّه ومشيئته.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقين تقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

التعبير ب «يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ» ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إنّهم يتحركون فى هذا الاتجاه اتقوية دعائهم الصلاة فى المجتمع وفى كل مكان.

وعبارة «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع مارزقهم اللّه تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك آخر آية من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند اللّه تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول فى البداية: «أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا».

ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: «لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبّهِمْ».

وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من اللّه «وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (۵) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶) قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدى العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حدّ ما). ففى الآيتين محل البحث يقول اللّه سبحانه لُاولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئاً مع أنّه فيه صلاحكم كما كان

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۷

الأمر فى أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين بادىء الأمر، إلّاأنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين. تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقاً لوحى إلهى ودستور سماوى، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامى، إلّاأنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلّا ظواهر الامور، ولهذا: «يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ».

إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، وأنّ خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأنّ هذه المعركة (معركة بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق وتمتد ألسنتهم بالإعتراض؟

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (۷) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸) أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر ... لمّا كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمة وحساسة فى تلك المعركة، ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التالية، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركة الحاسمة، لتتجلى لنا دقائق الامور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة فى شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر- طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدثون والمفسرون- حين كان أبو سفيان- كبير مكة- عائداً بقافلة تجارية مهمة مؤلفة من أربعون راكباً من قريش، وتحوى على ثروة تجارية تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النبى صلى الله عليه و آله أصحابه أن يتعبأوا ويتهيأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التى تحمل جلّ رأس مال العدو معها، وبمصادرة أموال القافلة يتمّ توجيه ضربة اقتصادية نحو العدو وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۰۸

إنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النبى على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضى إلى مكة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبى سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه- أو طمريه- وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكة أخذ يصرخ قائلًا: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها.

ولما كان أكثر أهل مكة شركاء فى هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالى ۹۵۰ مقاتلًا و ۷۰۰ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش.

وكان النبى صلى الله عليه و آله قد قارب بدراً فى نحوٍ من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيؤ أبى جهل ومن معه لمواجهته.

فتشاور النبى صلى الله عليه و آله مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أنّ عليهم أن يتهيأوا لمواجهة جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، وكرهت طائفة اخرى ذلك، إلّاأنّ النبى بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أى قتال العدو».

ومن جهة اخرى فإنّ طائفة من المسلمين كانت فى قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النبى وأصحاب أبى جهل! لكن النبى صلى الله عليه و آله طمأنهم بوعد اللَّه وقال: «إنّ اللَّه عزّ وجل وعدنى إحدى الطائفتين ولن يخلف اللَّه وعده، واللَّه لكأنّى أنظر مصرع أبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان». وأمر رسول اللَّه بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر.

وفى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولًا إلى قريش: إنّ اللَّه نجّى قافلتكم، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد فى هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره، إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان وأقسم باللات والعزى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۰۹

وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير.

فأقبلوا يضربونهم وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصلّى فانفتل من صلاته وقال: «إن صدّقوكم ضربتموهم وإن كذّبوكم تركتموهم!» فأتوه بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش. قال: «كم القوم؟!» قالوا: لا علم لنا بعددهم. قال: «كم ينحرون فى كل يوم من جزور؟» قالوا: تسعة إلى عشرة. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «القوم تسعمائة إلى ألف رجل». وأمر صلى الله عليه و آله بهم فحبسوا.

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدّد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار والمغنيات اللائى يثرن الحماسة، وكان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

المشكلة الاخرى التى كان أصحاب النبى يواجهونها، هى أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبى فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صُلبة صالحة للنزال، العجيب فى ذلك أنّ المطر كان فى جهة

العدو شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذى حصل عليه أصحاب النبى من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلًا حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية فى حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ اللَّه أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، ولكن النبى صلى الله عليه و آله- إتماماً للحجة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية- أرسل إلى قريش ممثلًا عنه ليقول لهم: إنّ النبى لا يرغب فى قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الإقتراح ورغبوا فى الصلح، إلّاأنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عمّ النبى وعلى ابن عمّ النبى الذى كان أصغر المقاتلين سنّاً وجها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النبى من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۰

مكة. فقال النبى صلى الله عليه و آله لأصحابه: «غضّوا أبصاركم وغضوا على النواجذ ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم». ثم رفع يده إلى السماء وقال: «يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد». ثم أصابه الغشى فسرى عنه وهو يسكب العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم فى ألف من الملائكة مردفين».

فهبت ريح عاصف على العدو، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين، وأبو جهل من القتلى، وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدُبر، ولم يُقتل من المسلمين إلّانفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وإنتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

التّفسير

فى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- إشارة إلى وعد اللَّه بالنصر فى معركة بدر إجمالًا، إذ تقول الآية: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ».

لكنكم لخوفكم من الخسائر واخطار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها «وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ».

«شوكة»: ترمز إلى القدرة وتعنى الشدّة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمة «الشوكة» فى نصول الرماح، ثم اطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة. فبناء على هذا فإنّ ذات الشوكة تعنى الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكة تعنى الجماعة غيرالمسلحة. أى إنّ فيكم من يرغب فى مواجهة العدو مواجهة غير المسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حبّاً منه للمنافع المادية، فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أنّ الصلاح يكمن فى تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاحبةً لإنتصارات كبيرة فى المستقبل، ولهذا فإنّ الآية تعقّب بالقول: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ» «۱».

---

(۱) «الدابر»: بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى «ويقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۱

ولم يكن هذا درساً لمسلمى ذلك اليوم فحسب، بل ينبغى لمسلمى اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألّا يغضوا أبصارهم عن المبادى الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفى آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ

إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١۴) دروس مفيدة من ساحة المعركة: إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهية الكثيرة التى شملت المسلمين لتثير فى نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر. وتشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ».

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: «اللّهم أنجز لى ما وعدتنى، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض». فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل اللّه تعالى «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الآية.

وعند ذلك «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلِكَةِ مُرْدِفِينَ».

«مردفين»: من «الإرداف» بمعنى اتخاذ محل خلف الشىء، فيكون مفهومها أنّ الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً فى النّزول لنصرة المسلمين.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١٢

ولئلا يعتقد بعض بأنّ النصر كان بسبب نصرة الملائكة فحسب، فإنّ الآية تقول: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

لأنّ اللّه عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا يُنزل نصرته إلّا للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك.

ثم تذكر الآية النعمة الثانية التى اكتنفت المؤمنين فتقول: «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مّنْهُ».

«يغشى : من مادة «الغشيان» بمعنى تغطية الشىء وإحاطته. فكأنّ النوم كالغطاء الذى وُضع عليهم فغطّاهم.

«النعاس»: يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم.

والرحمة الثالثه التى وصلتكم هى: «وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطنِ».

وهذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابة بعضهم، أو الأمرين معاً.

ثم إنّ اللّه تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين وكذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسط المطر: «وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ».

ويمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات وزيادة الثبات والإستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

والنعمة الاخرى التى أنعمها اللّه على المجاهدين فى بدر، هى الرعب الذى أصاب به اللّه قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشدّة، فيقول تعالى: «إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلِكَةِ أَنّى مَعَكُمْ فَثَبّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا». «سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». وإنّه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوى أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم- كما ينقل التاريخ- بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين.

ثم إنّ القرآن يذكّر المسلمين بالأمر الذى أصدره النبى صلى الله عليه و آله للمسلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر فى المشركين حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١٣

ضربات مؤثرة وقاطعة «فَأضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».

«البنان»: جمع «البنانـة» بمعنى رؤوس أصابع الأيـدى أو الأرجل، أو الأصابع نفسـها، وفى هـذه الآيـة يمكن أن تكون كناية عن الأيدى والأرجل أو بالمعنى الأصلى نفسه.

وبعـد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شـخص بأنّ هـذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشـفقة وأخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

«شاقوا»: من مادة «الشـقاق» وهى فى الأصل بمعنى الإنفطار والإنفصال، وبما أنّ المخالف أو العدو ويبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقاً: «وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ثم يؤكّد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب والأسر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: «ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (۱۸) هذه الآيات توجّه خطابها للمؤمنين وتأمرهم أمراً عاماً بالقتال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ».

فـالفرار من الحرب يعـدّ فى الإسـلام من كبائر الـذنوب، ولـذلك تـذكر الآيـة بعـدها جزاء من يفر من ميـدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ».

وكما نرى فقـد اسـتثنت الآيـة صورتين من مسألـة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صور الفرار، غير أنّهما فى الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الاولى: عُبّر عنها ب «مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۴

الإبتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعـداء: ثمّ يغافلونهم فى توجيه ضـربة قوية إليهم واسـتخدام فن الهجوم والإنسـحاب المتتابع وكما يقول العرب: (الحرب كرّ وفرّ). الصورة الثانيـة: أن يرى المقاتـل نفسه وحيـداً فى ساحـة القتـال، فينسـحب للإلتحـاق بإخوانه المقاتلين وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافاً إلى استحقاقه لغضب اللَّه فإنّ مصيره إلى النار: «وَمَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ومن ضـمن الإمتيازات الكثيرة التى كانت عند الإمام على عليه السلام وربّما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبراساً للآخرين قوله: «إنّى لم أفر من الزحف قطّ، ولم يبارزنى أحد إلّاسقيت الأرض من دمه» «۱».

ولئلا يصاب المسـلمون بالغرور فى انتصارهم، ولئلا يعتمـدوا على قواهم الجسـمية فحسب، وليذكروا اللَّه فى قلوبهم دائماً، وليتعلقوا به طلباً لألطافه، فإنّ الآية التالية تقول:

«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمَى .

وتشـير الآيـة فى ختامها إلى لطيفـة مهمـة اخرى، وهى أنّ ساحـة بـدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: «وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا».

لهـذا فإنّ الآيـة تختتم بهـذه الجملـة: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أى إنّ اللَّه سـمعَ صوت اسـتغاثة النبى والمؤمنين، واطلع على صدق نيّاتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم، وأنّ اللَّه يعامل عباده بهذه المعاملة حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم.

وفى الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأنّ مصير المؤمنين والكفار هو ما سمعتم، فيقول: «ذلِكُمْ». ثمّ يعقب القرآن مبيناً العلة: «وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ».

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۹)

---

(۱) تفسير نور الثقلين ۲/ ۱۳۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۵

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر ونزلت آيات توبخهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم وتعليمهم، ثم ذكّرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم اللَّه على عدوّهم القوى.

وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنّكم إذا سألتم اللَّه الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الإعتراض والجدال عند النبى صلى الله عليه و آله فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الاسلوب من الإعتراض فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين فى قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصرة اللَّه لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، وإنّ اللَّه مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (۲۰) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (۲۱) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (۲۲) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳)

الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون: تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله واسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وتضيف لتؤكّد الأمر من جديد: «وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ».

ولما كان القول بلا عمل، والإستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الاخرى لتؤكّد على هذه المسألة باسلوب آخر، فقالت: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ».

ولما كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائماً.

وتقول الآية بعدها إنّ اللَّه لايمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم وعلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۶

استعداد لتقبل الحق: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيرًا لَّأَسْمَعَهُمْ».

وفى تفسير مجمع البيان قيل معناه: لأسمعهم قول قصى بن كلاب فإنّهم قالوا: أحى لنا قصى، إنّ كلاب ليشهد بنبوتك. ويقول تعالى: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ».

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية، لكنهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيّتهم.

كما أنّ هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأنّ الخير يكمن فى الإنسان نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۵) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ

أَنْ يَتَخَطَّفَكَمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكَمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكَمْ تَشْكَرُونَ (۲۶) دعوة للحياة: تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة والتسليم لكنها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هى دعوة للعيش والحياة على جميع الأصعدة والناس فى الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ثم يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ اللّه عزّ وجلّ حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت والحياة والعلم والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من سواه. لأنّه مالك كل شيء والمحيط بجميع وجود الإنسان.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۱۷

ثم تشير الآية إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة اللّه ورسوله إلى الحياة فتقول: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً».

وكلمة «فتنة»: بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التى يصاب بها الجميع.

ومفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأنّ الاختلاف والتشتت فى قضايا المجتمع يؤدّى إلى إنهياره، ويتضرر بذلك الجميع.

وتُختتم الآية بلغة التهديد فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ويأخذ القرآن الكريم مرّة اخرى بأيدى المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا فى بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا، لعلّهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقة فيقول: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ».

وهذه عبارة تشير إلى الضعف وقلّة عدد المسلمين فى مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو فى المدينة بعد الهجرة فى مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: «فَاوَيكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۸)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر الأنصارى، وذلك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات، وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلّاأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فأتاهم، قالوا: ما ترى يا أبا لبابة أتنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه: إنّه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فواللّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت إنّى قد خنت اللّه

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۱۸

ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد. وقال: واللّه لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب اللّه علىّ! فمكث سبعة أيّام، لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب اللّه عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك.

فقال:

لا واللَّه لا أحل نفسى حتى يكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هو الذى يحلّنى. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى.

فقال صلى الله عليه و آله: «يجزئك الثلث أن تصدّق به».

التّفسير

الخيانة وأساسها: يوجه اللَّه سبحانه فى الآية الاولى من الآيتين محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ».

إنّ الخيانة للَّهورسوله، هى وضع الأسرار العسكرية للمسلمين فى تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم.

ثم تقول الآية: «وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ».

«الخيانة»: فى الأصل معناها: الإمتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهى ضد «الأمانة» والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة.

ويقول القرآن فى آخر الآية: «وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إنّه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة، ولكن الاقدام على الخيانة مع العلم.

و الآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابرة، لئلا يلقى على عيونهم وآذاتهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ».

فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك «أبى لبابة» وإذا كان المال هو السبب فى الإنحراف، فعلينا بذله وإنفاقه فى سبيل اللَّه.

وفى نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فتقول: «وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبة وكثيرة، فإنّ جزاء اللَّه وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١٩

الإيمان ووضوح الرّؤية: تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلّافى ظلال التقوى لذلك بيّنت الآية أربعة ثمار ونتائج للتقوى فقالت ابتداءاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا».

إنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون وضوحاً من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبداً، فهم يرون الأسباب الخفيّة للكثير من الحوادث التى تعصف بالمجتمع، ويرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعة.

ومن جانب آخر أنّ إهدار القوى والطاقات فى الذنوب يتسبب فى بقاء الناس على مستوىً دانٍ من البصيرة والمعرفة ويعيشون التخلّف الثقافى والانحطاط فى التفكير حتى وإن كانوا متقدمين فى الصناعة والحياة المادية.

ثم يقول: إنّه إضافة إلى معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطى على ذنوبكم ويمحوا آثارها من وجودكم «وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّاتِكُمْ».

مضافاً إلى ذلك، فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته «وَيَغْفِرْ لَكُمْ».

وثمار كثيرة اخرى تنتظركم لا يعلمها إلّااللَّه: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ». فهذه الآثار الأربعة هى ثمرات فى شجرة التقوى، ووجود روابط طبيعية بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى اللَّه تبارك وتعالى.

والفرق بين (تكفير السيئات) و (الغفران) هو أنّ (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسية والاجتماعية للذنوب والتى تزول بفعل التقوى،

ولكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهى والخلاص من الجزاء ....

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (۳۰)

سبب النّزول

ذكر المفسرون والمحدثون أنّ الآيهٔ- محل البحث- تشير إلى الحوادث التى أدّت إلى هجرهٔ الرسول صلى الله عليه و آله من مكهٔ إلى المدينهٔ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۰

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنّها نزلت فى قصهٔ دار الندوهٔ وذلك أنّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها، وهى دار قصى بن كلاب، وتآمروا فى أمر النبى صلى الله عليه و آله، فقال عروهٔ بن هشام: نتربّص به ريب المنون، وقال أبو البخترى: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، وقال أبو جهل: ما هذا برأى، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربهٔ رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالديهٔ، فصوّب إبليس هذا الرأى، وكان قد جاءهم فى صورهٔ شيخ كبير من أهل نجد، وخطّأ الأوّلين. فاتفقوا على هذا الرأى وأعدّو الرجال والسلاح وجاء جبرائيل عليه السلام فأخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله فخرج إلى الغار وأمر عليّاً فبات على فراشه، فلمّا أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا عليّاً. وقد ردّ اللّه مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدرى. فاقتصّوا أثره وأرسلوا فى طلبه، فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار، رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينهٔ.

التّفسير

هذه الآيهٔ وخمس آيات تليها، نزلت فى مكهٔ لأنّها تشير إلى هجرهٔ النبى صلى الله عليه و آله فتقول فى بدايتها: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ».

ثم تضيف الآيهٔ قائلهٔ: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمكِرِينَ».

إنّ المشركين قد بذلوا كل ما فى وسعهم وجهدهم من طاقاتٍ فكريهٔ وجسديهٔ للقضاء على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله حتى أنّهم أعدّوا جائزهٔ لهذا الغرض وهى مئهٔ ناقهٔ، ولكن اللّه سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسطهٔ نسيج العنكبوت!

ونظراً إلى أنّ هجرهٔ النبى صلى الله عليه و آله تمثل مرحلهٔ جديدهٔ فى التاريخ الإسلامى، بل التاريخ الإنسانى، فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد غير مسيرهٔ التاريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط ....

وهذا الأمر لا ينحصر بهجرهٔ النبى صلى الله عليه و آله بل فى جميع تأريخ الأنبياء، فإنّ اللّه سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضلال بأسباب هيّنهٔ كالريح- مثلًا- أو كثرهٔ البعوض، أو الطير الصغيرهٔ التى تُسمّى بالأبابيل، ليبين حالهٔ الضعف البشرى والعجز إزاء قدرته اللامتناهيهٔ وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۱

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۳۱) وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳۲) وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۳۳) وَ مَا لَهُمْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۴) وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۵) ذُكر فى الآيهٔ السابقهٔ مثل من منطق المشركين على مستوى العمل والممارسهٔ، وفى هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكرى، ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سلامهً فى الفكر ولا صحهٔ فى العمل، فجميع أساليبهم خاويهٔ بغير أساس. تقول الآيهٔ الاولى من الآيات محل البحث:

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

كـانوا يقولون مثـل هـذا الكلام عنـد ما يعجزون عن مواجهـة القرآن ومعارضـته، وكانوا يعرفون جيـداً أنّهم غير قادرين على معارضـة القرآن.

و الآيـة التاليـة تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

لقد كانوا يقولون ذلك لشدّة تعصـبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أنّ الدين الإسـلامى لا أساس له أبداً، وإلّا فإنّ أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

وفى ماتقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النبى صلى الله عليه و آله اشكالين:

الأوّل منهما: واضح البطلان وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

والإشكال الثانى: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل اللّه فأنزل علينا العقاب والبلاء، فيردّ عليهم القرآن فى الآيةْ الثالثه، من الآيات محل البحث، بقوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۲

ثم تعقب الآيـة بالقول: «ومَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ». إنّ مفهوم الآية لا يختص بمعاصـرى النبى صـلى الله عليه و آله بل هو قانون عام يشـمل جميع الناس. لهـذا فقـد روى فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السـلام أنّه قال: «كان فى الأرض أمانان من عذاب اللّه، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به». وقرأ هذه الآية.

و الآية التالية تقول: إنّ هؤلاء جديرون بعذاب اللّه «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

وهذا التعبير فى الآية يشير إلى يوم كان المسلمون فى مكة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية والإطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب. أو أنّ هذا التعبير يشـير إلى منع المشركين المسلمين وصدهم إيّاهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أنّ هؤلاـء المشـركين كـانوا يتصورون أنّ لهم حق التصـرف كيفَمـا شـاءوا فى المسـجد الحرام، وأنّهم أوليـاؤه. إلّاأنّ القرآن يضيف فى هذه الآية قائلًا: «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ». وبالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف «إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ومع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسـجد الحرام، إلّاأنّه يشـمل جميع المراكز الدينية والمساجد فإنّ سدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم إهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبثّ الوعى والإيقاظ.

والأـعجب فى هـذا الشـأن أنّ المشـركين كـانوا يـدّعون أنّهم يصلّون ويعبـدون اللّه بمـا كـانوا يقومون به من أعمال قبيحـة كالصـفير والتصدية عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: «ومَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً».

ونقرأ فى التاريـخ أنّ طائفـة من الأـعراب فى زمـان الجاهليـة عنـدما كـانوا يطوفـون بـالبيت العـتيق، كـانوا يخلعـون ثيـابهم ويصـفرون ويصفقون ويسمّون أعمالهم هذه عبادة.

تعقب الآيـة على مـا تقـدم لتقول: إنّ أعمـالكم- بـل حـتى صـلاتكم- مـدعاة للخجـل والسـفاهة ولـذلك «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۳

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (۳۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۳۷)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: نزلت فى قريش لما وافاهم ضـمضم وأخبرهم بخروج رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فى طلب العير

فأخرجوا أموالهم وحملوا وأنفقوا وخرجوا إلى محاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ببدر فقتلوا وصاروا إلى النار وكان ما أنفقوا حسرة عليهم.

التّفسير

مفهوم الآية مفهوم جامع يحمل فى معناه كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول فى مستهلها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ». إلّاأنّ هذا الإنفاق والبذل لن يحقق لهم نصراً «فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

ولا يبتلون بالحسرة والهزيمة فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخرة أيضاً «وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».

وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التى تليها تقول: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

هذه سنة إلهية دائمة أن يُعرف المخلص من غير المخلص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أى من ذلك مجهولًا أبداً، بل لابدّ فى النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه.

ثم تضيف الآية: «وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ».

فالخبيث من أيّة طائفة وفى أىّ شكل كان سيؤول فى النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية فى نهاية المطاف: «أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۴

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳۹) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۴۰) من المعلوم فى اسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أى أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب والعذاب، فإنّه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العودة أمامهم. والآية الاولى:

من الآيات محل البحث تتبع هذا الاسلوب ذاته، فتأمر النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ».

ويستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة.

وتضيف الآية قائلة: إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم «وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ». والمقصود من هذه السنّة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، وما أصاب المشركين عندما واجهوا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى معركة بدر.

ولما كانت الآية السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلى الحق، وإنّ هذه الدعوة قد تولّد هذه الفكرة لدى المسلمين وهى أنّه قد انتهت فترة الجهاد ولابدّ بعد الآن من اللين والتساهل، ترفعُ هذه الشبهة الآية التالية وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لم يجىء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمّد صلى الله عليه و آله ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض، كما قال اللّه تعالى: «يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا»».

وأخيراً فإنّ الآية فى نهايتها، وتزامناً مع الشدة فى العمل، تمدّ يد المحبة والرأفه إلى الأعداء مرّة اخرى فتقول: «فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». ولكن إذا تمادوا فى عنادهم وطغيانهم ولم يستسلموا للحق، فاعلموا أنّ النصر حليفكم والهزيمة من نصيب أعدائكم، لانّ اللّه مولاكم وهو خير ناصر ومعين: «وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۵

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱) وجدنا فى بداية هذه السورة كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا فى شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، وفى هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم. يقول الحق سبحانه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى [الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»- من ذرّية الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً.

ويضيف مؤكّداً: «إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ أى يوم بدر- يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ».

وتشير الآية فى نهايتها إلى قدرة اللَّه غير المحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أى: بالرغم من قلتكم يوم بدر وكثرة عدوّكم فى الظاهر، لكن اللَّه القادر خذلهم وأيدكم فانتصرتم عليهم.

إنّ الآية محل البحث جاءت فى سياق آيات الجهاد، إلّاأنّها تقول: «إنّ أية فائدة أو ربح تحصلون عليه- ومنه غنائم الحرب- فعليكم أن تعطوا خمسه».

ما هو المراد من سهم اللَّه؟ إنّ ذكر سهم على أنّه سهم اللَّه، للتأكيد على أهمية مسألة الخمس وإثباتها، ولتأكيد ولاية الرسول والقيادة الإسلامية وحاكمية النبى صلى الله عليه و آله أيضاً.

أى كما أنّ اللَّه جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النبى والإمام حق الولاية والتصرف فيه كذلك، وإلّا أنّ سهم اللَّه يُجعل تحت تصرف النبى أو الإمام يصرفه فى المكان المناسب، وليس للَّهحاجة فى سهم معين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۶

إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَى مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴) يعود القرآن فى هذه الآيات الكريمة- ولمناسبة الكلام فى الآيات السابقة عن يوم الفرقان يوم معركة بدر- ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على أهمية ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى .

«العُدوة»: مأخوذة من «العدو» على زنة «السَّرْو» ومعناها فى الأصل التجاوز، ولكنها تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنّها تتجاوز الحد الوسط إلى إحدى الجوانب، وجاءت هذه الكلمة فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، والجانب».

«الدنيا»: مأخوذة من «الدنّو» على وزن العلوّ وتعنى الأقرب، ويقابل هذا اللفظ الأقصى والقصوى.

وكان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء فى الجانب الجنوبى وهو الأبعد.

ثم تعقّب الآية قائلة: «وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: «وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ».

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۷

ولكن اللَّه جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: «وَلَكِن لِّيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

وليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ».

وتعقب الآية قائلةً: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ».

فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نياتكم، ولذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

وكان النبى صلى الله عليه و آله قد رأى فى منامه من قبل أنّ قلة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه صلى الله عليه و آله للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التى أولاها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَيكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ». ولهبطت معنوياتكم، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة «وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وِلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ» وانقذ الأمر بواسطة الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء، ولأنّ اللَّه يعرف باطنكم «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وتُذكّر الآية الاخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففى هذه المرحلة وفى ظل خطاب النبى المؤثر فيهم والبشائر الربانية، ورؤية حوادث حال التهيؤ للقتال- كنزول المطر لرفع العطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة- تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادى وكأنّه صغير ضعيف لا حول ولا قوة له، فتقول الآية المباركة: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا».

أمّا العدو فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلًا جدّاً، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآية فى الصدد «وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ».

لهذا فإنّ الآية تعقب على ما سبق قائلة: «لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة اللَّه فحسب، بل إنّ إرادته نافذة فى كل شىء «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۸

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) فى الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هى:

۱- أنها تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا». أى إنّ إحدى علائم الإيمان هى ثبات القدم فى جميع الأحوال، وخاصه فى مواجهة الأعداء.

۲- «وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولا ريب أنّ المراد من ذكر اللَّه هنا ليس هو الذكر اللفظى فحسب، بل حضور القلب، فهذا التوجه إلى اللَّه يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، ويُشعر الجندى بأنّ سنداً قوياً لا تستطيع أية قدرة فى الوجود أن تتغلب عليه يدعمه فى ساحة القتال. وإذا قُتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى.

۳- كما أنّ من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الإلتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والآمر، الآمر الذى لولاه لما تحقق النصر فى معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

۴- «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا» لأنّ النزاع والفرقة امام الأعداء يؤدّى إلى الضعف وخور العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هى ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ».

۵- ثم تأمر الآية بالإستقامة بوجه العدو، وفى قبال الحوادث الصعبة، فتقول: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل، والإستقامة والصبر فى الأمر الخامس، هو من جهة أنّ ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أمّا الإستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

۶- وتـدعو الآيـة الأخيرة من الآيات محل البحث المسـلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجـة البلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشـير إلى قضية أبى سفيان وأسلوب تفكيره هو

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۲۹

وأصحابه، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأهدافهم غير مقدسة، وكذلك أساليبهم فى الوصول إليها، وتختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (۵۰) ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۵۱) انّ أوّل آية من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ أَعْمَالَهُمْ».

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء والشهوات والرذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب.

ثم تقول الآية: «وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنّى جَارٌ لَّكُمْ».

ولن آلوَ جهداً فى الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره ويظهر له وفاءه وإخلاصه، والازمكم ملازمة الظل للشاخص.

ثم تقول الآية: «فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنّى بَرِىءٌ مّنكُمْ».

واستدل على نكوصه وتراجعه القهقهرى بدليلين هما:

أوّلًا قوله: «إِنّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ».

فإنّه يرى آثار النصر جيداً فى وجوه المسلمين الغاضبة ويشاهد عليها سمات اللطف

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۰

الإلهى والإمداد الغيبى وتأييد الملائكة لهم.

والثانى قوله: «إِنّى أَخَافُ اللَّهَ». فإنّ الجزاء الإلهى ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم «وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟ يعتقد بعض المفسرين أنّ الشيطان تجسد لهم فى صورة الإنسان، ففى رواية إنّ قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، جاءهم إبليس فى صورة «سراقة بن مالك» الذى كان من رؤوس بنى كنانة وطمأنهم بأنّهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنّهم سينتصرون، انّه نقل ما يشبه هذه القصة فى هجرة النبى صلى الله عليه و آله ومجىء رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة.

وتشير الآية بعدها إلى روحية جماعة ممن يميلون إلى الشرك فى ساحة بدر، فتقول: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ». حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلة العدد والعدة، أو أنّهم سينالون الشهادة والحياة الابدية فى هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهى أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنّه كما تقول الآية المباركة: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

المراد من «الْمُنَافِقُونَ» و «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» هما المنافقين فى المدينة إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكة لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا فى معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قلة المسلمين فى معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وتجسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

ثم يقال لُاولئك: «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ».

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۱

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (۵۴) فى هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب والامم والمجتمعات، فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

فبناءً على هذا فإنّ قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام فى مكة، الذين أنكروا آيات اللَّه ووقفوا بوجه الحق وحاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما إقترفوه، بل أنّ ذلك قانون دائم، وسنّة إلهيّة تشمل من هم أقوى منهم- كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك.

ثم توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وبعبارة اخرى: إنّ الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال والإستمداد منها فى سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإنّ اللَّه سبحانه سيثبت نعماءه ويزيدها، أمّا إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإنّ اللَّه سيسلبهم تلك النعم أو يُبدلها إلى بلاء ومصيبة، بناءً على ذلك فإنّ التغيير يكون من قِبلنا دائماً، وإلّا فإنّ النعماء الإلهية لا تزول ....

وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة- كفرعون وأقوام آخرين- فيقول: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَلِمِينَ» ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۲

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (۵۸) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (۵۹) فى هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة اخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه و آله المليئة بالأحداث، إلّاأنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مُرّاً وكانت عاقبة أمرهم خُسراً، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النبى صلى الله عليه و آله عدة مرات. وتبدأ الآيات فتعرّف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة فى هذه الدنيا فتقول: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

وتقول الآية الاخرى: «الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلّ مَرَّةٍ».

والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

فلاهم يخافون اللَّه تعالى، ولا يحذرون من مخالفة أوامره، ولا يراعون القواعد والاصول الإنسانية: «وَهُمْ لَايَتَّقُونَ». و الآية بعدها توضح كيفية اسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ». أى قاتلهم بشكل مدمّر بحيث أن الطوائف القابعة

خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

«تثقفنهم»: مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشيء بدقة وسرعة، وهي إشارة إلى وجوب التنبه والإطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

«شرّد»: مأخوذة من مادة «التشريد» وهي بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغي أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الاخرى من الأعداء وناقضي العهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۳

وهذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء في المستقبل أيضاً ويتجنّبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد- كذلك- الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلًا «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضي العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ».

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۱) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۳) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۶۴) تشير أوّل آية هنا- وتواصلًا مع الحديث في الآيات المتقدمة عن الجهاد- إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به في كل عصر ومصر، وهو لزوم الإستعداد العسكري لمواجهة الأعداء، فتقول: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ». أي لا تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والإستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلة: «وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ». «الرباط»: بمعنى شدّ الشيء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان في مكان ما لرعايته والمحافظة عليه.

والتعبير في الآية واسع إلى درجة أنّه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمة «قوّة» تشمل كل أنواع القوى والقدرات التي يكون لها أثراً ما في الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۴

إنّ هذا الشعار الإسلامي الكبير: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ» إذا أضحى شعاراً شاملًا في كل مكان، ينادي به الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، والمؤلف والخطيب، والجندي والضابط، والفلاح والتاجر، والتزموا به في حياتهم وطبقوه، كان كافياً لجبران التخلف والتأخر.

إنّ سيرة النبي صلى الله عليه و آله العملية وأئمة الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدو، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة في ذلك.

والمعروف أنّ النبي بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبي جماعة إلى اليمن لشرائه فوراً.

الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التعبئة العسكرية: ثم ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقي والإنساني من وراء هذا الموضوع، فيقول: إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس في العالم أو في مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمرة التي تهدم المدن وتحرق

الاخضر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضى الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسعة الإستعباد والاستعمار فى العالم، بل الهدف من ذلك هو «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمة الحق ولا يستجيبون لنداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوة.

ثم تضيف الآية بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: «وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ».

تتضمن الآية تعليماً لمسلمى اليوم أيضاً، وهو أنّه لا ينبغى الإكتفاء بالإستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهو للأعداء الاحتماليين أو «بالقوة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا فى أعلى حدّ من القوّة والقدرة.

وفى نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أنّ الإستعداد العسكرى وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل اللّه، ولن ينقص منه شيء أبداً «وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۵

إِلَيْكُمْ» فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم «وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ»، وستنالون ثواب ذلك فى هذه الدنيا فى إنتصار الإسلام وقوته وعظمته.

كما أنّ ثواباً أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمة اللّه.

إنّ جملة «وأنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أى أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدروا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

مع أنّ الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كافٍ، فإنّ الآية التالية التى تتحدّث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول: «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا».

ولما كان الناس يترددون أغلب الأحيان عندما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنّ الآية تأمر النبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

ومع ذلك فهى تحذر النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين من احتمال الإحتيال والخداع فى دعوة الأعداء إلى الصلح، فقد تكون دعوةً للتمويه والرّغبة فى توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّاأنّ الآية تطمئن النبى صلى الله عليه و آله أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأنّ اللّه عزّ وجلّ سيكفيه أمرهم وسينصره فى جميع الأحوال، إذ تقول: «وَإِن يُرِيدُوا أن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ».

وسيرتك أيّها النبى – السابقة – شاهدة على هذه الحقيقة، لأنّ اللّه «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ».

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً فى الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، ولكن اللّه شرح صدورهم بأنوار الهداية «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتى الأوس والخزرج بشكل لم يكن أى أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء فى يوم ما، ولكن اللّه القادر المتعال فعل ذلك ببركة الإسلام وفى ظلال القرآن.

ثم تضيف الآية أنّ اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۶

مادية «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ».

وتضيف الآية معقبة فى الختام: «إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فعزّته تقتضى عجز الاخرين من الوقوف فى مواجهته، وحكمته تقتضى أن تكون كل

اموره جاريةً وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإنّ الخطة الدقيقة وحّدت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنبى صلى الله عليه و آله لينشروا أنوار الهداية فى كل أرجاء العالم.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النبى بالقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶) فى هـاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً. فالآية الاولى منهما تخاطب الرسول فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ».

هذه الآية توضح أهمية الإعلام والتبليغ وشحذ همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثانى فتقول: «إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». فينبغى للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقداراً يُكافىء قوة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثم تشير الآية إلى علة هذا الحكم فتقول: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ» وهذا التعليل يبدو عجيباً لأوّل وهلة، إذ ما هى العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة والهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة ومتينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۷

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والإستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأىّ أمر يقاتلون؟

الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعث ظلمات الطريق وعدم معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على إنهيار أعصابهم وتفتّ فى عضدهم وثباتهم، وتجعل منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة اضعاف يخفف اللّه عن المؤمنين ويتنزل فى الحكم الذى يرهقهم فيقول: «الئَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا».

ثم يقول: «فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ».

ولكن على كل حال ينبغى أن لا تنسوا تسديد اللّه «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۷) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۶۸) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۹) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۰) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۷۱) بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة ومواجهة الأعداء، وفى هذه الآيات استكمال لما سبق فى عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، وأوّل موضوع مهم يثار فى هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أنّ كل نبى ليس له الحق فى أسر افراد العدو الّا بعد أن يثبت اقدامه فى الارض ويكيل الضربات القاضية للأعداء: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ».

«يثخن»: مأخوذ من «الثِخَن» على زنة «المحَن» ومعناه فى الأصل الضخامة والغلظة والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز والقوة والنصر والقدرة.

إنّ معنى الآية هو التفوق على العدو تماماً وإظهار القوة والقدرة وإحكام السيطرة على المنطقة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۸

ثم ألقت باللوم على اولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ». فلا ينبغى أن نترك المنافع الطويلة الأمد والمستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة.

وتُختتم الآيـة بالقول أن التعليم آنف الذكر- فى الواقع- مزيج من العزة والنصر والحكمة والتدبير، لأنّه صادر من قبل اللَّه تعالى «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

الآية التالية توجّه اللوم والتقريع ثانية لأولئك الذين يعرّضون المنفعة العامة والمصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: «لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

إلّا أنّه- كما صرحت الآيات الكريمة فى القرآن- فإنّ سُنة اللَّه اقتضت أن تُبين أحكامه ثم يجازى الذى يخالفون عن أمره.

وفى الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء.

فى تفسير القمى: لما قتل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول اللَّه! قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وهم قومك واساراك هبهم لنا يا رسول اللَّه وخذ منهم الفداء واطلقهم، فأنزل اللَّه عليهم «مَا كَانَ لِنَبِيّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى الآيات، فأطلق لهم أن يأخذوا الفداء ويطلقوهم.

إنّ الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف فى غنائم المعركة، والمبلغ الذى يأخذونه فداءً من الأسير، فقالت: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَللًا طَيِّبًا».

ويمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الاخرى غير الفداء.

ثم تأمرهم الآيـة بالتقوى فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ». وهـذا إشارة إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغى أن يجعل هدف المجاهدين فى المعركة هو جمع الغنائم وأن يأسروا العدو حتى يأخذوا فداءه، وإذا كان فى القلوب مثل هذه النيّات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، ويعدهم اللَّه بالعفو عمّا مضى فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». والمسألة المهمة فى شأن أسرى الحرب هى موضوع إصلاحهم وتربيتهم وهدايتهم، ولهذا فإنّ الآية الرابعة من الآيات محل البحث تخاطب النبى أن يدعو الأسرى إلى الإيمان باللَّه وإصلاح أنفسهم، ويرغبهم فى كل ذلك، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۹

والمراد من كلمة «خيراً» فى الجملة آنفة الذكر «إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» هو الإيمان وقبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» فى الجملة الاخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادى والمعنوى.

ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف اللَّه ويعفو عن سيئاتكم «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وحيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسىء إلى الإسلام ويخون النبى وينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تحذّر النبى والمسلمين من خيانتهم فتقول: «وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ».

وأىّ خيانة أعظم من عدم الإستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك باللَّه وعليهم أن لا ينسوا نصرة اللَّه لك «فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ».

وإذا أرادوا الخيانة فى المستقبل فلن يُفلحوا، لأنّ اللَّه مطلع على نيّاتهم، وجميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ

اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۷۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (۷۳) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۷۴) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷۵) تبحث هذه الآيات التى تُختتم بها سورة الأنفال- وتُعدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الاخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۰

مختصر الامثل ج۲ ۲۷۹

فتعطى كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة فى شأن الجهاد والمجاهدين.

وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هى:

۱- المهاجرون السابقون.

۲- الأنصار فى المدينة.

۳- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

۴- الذين آمنوا من بعدُ وهاجروا.

فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

إنّ الآية وصفت الطائفة الاولى بأربع صفات هى: الإيمان، والهجرة والجهاد المالى والاقتصادى والصفة الرابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

ثم تشير الآية إلى الطائفة الثالثه فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مّن وَلَيَتِهِم مّن شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا».

ثم استثنت فى الجملة التى بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها فى شأن هذه الطائفة، فقالت: «وَإِن اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مّيثَاقٌ».

وحضّت الآية على رعاية العهود والمواثيق والدقة فى أداء هذه المسؤولية، ومنبهة إلى علم اللّه بكل الأمور، فقالت: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أمّا الآية الثانية فتشير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسلامى، أى مجتمع الكفر وأعداء الإسلام، فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». أى إنّ علاقاتهم منحصرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم وتؤوهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

ثم تنبّه الآية المسلمين وتحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۱

إنّ المراد من «الفتنة» هو الإختلاف والتفرق وتزلزل مبانى العقيدة الإسلامية على أثر وسوسة الأعداء، و «الفساد» يشمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصة سفك الدماء البريئة والارهاب وأمثال ذلك.

أمّا فى الآية التالية فنجد تأكيداً على مقام المهاجرين والأنصار مرّة اخرى، وما لهما من موقع وأثر فى تحقق أهداف المجتمع

الإسلامى، فتثنى عليهم الآية بقولها: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا». لأنّهم هبوا لنصرة الإسلام فى الأيام الصعبة الشديدة وفى الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة للّهولرسوله صلى الله عليه و آله «لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». فهم فائزون بثواب اللّه والنعمة الاخروية، كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزّة ورفعة الرأس والكرامة.

أمّا الآية الأخيرة فتشير إلى الطائفة الرابعة من المسلمين، أى اولئك الذين آمنوا وهاجروا من بعد، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنكُمْ». أى إنّ المجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً منغلقاً ومحصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

وتشير الآية فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، وأولیتها فيما جعله اللّه فى عباده من أحكام، فتقول: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ».

إنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامّة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فى شأن الأرحام والأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان والهجرة يتمتعون بولاية الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورّثون بعضهم بعضاً، إلّاأنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قربى بينهم.

وفى آخر جملة من هذه الآية يقول اللّه سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

فما نزل فى هذه السورة من أحكام تتعلق بالأنفال وغنائم الحرب، وتعاليم الجهاد والصلح، وأحكام الأسرى والحرب، وما يتعلق بالهجرة وغيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنسانى، والعواطف البشرية، والمصالح العامة فى جميع جوانبها المختلفة.

«نهاية تفسير سورة الأنفال»

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۴۳

۹. سورة التوبة

ينبغى الإلتفات إلى الامور التالية قبل الشروع فى تفسير السورة:

۱- أسماء هذه السورة: ذكر المفسرون لهذه السورة أسماءً عديدة تبلغ العشرة، غير أنّ المشهور منها هو ما يلى: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة.

۲- متى نزلت هذه السورة؟ هذه السورة هى آخر سورة نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو من أواخر السور النازلة عليه فى المدينة.

والمعروف أنّ بداية نزول هذه السورة كانت فى السنة التاسعة للهجرة، وقسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الإستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

والآيات الاولى- هذه- والتى تتعلق بمن بقى من المشركين بلّغها أميرالمؤمنين عليه السلام فى موسم الحج.

۳- محتوى السورة: يتعلق قسم من آيات هذه السورة بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء المعاهدات التى كانت بينهم وبين المسلمين.

وقسماً مهماً منها تتحدّث عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم.

وبعض آيات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد فى سبيل اللّه وأهميته، كما أنّ قسماً منه

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۴۴

يكمل البحوث السابقة التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فى التبليغ وقيادة المجتمع. وحيث سبّب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعة اخرى كقصة هجرة النبى صلى الله عليه و آله، والأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما نزل علىّ القرآن إلّاآية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو اللَّه أحد، فإنّهما نزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول يا محمّد استوص بنسبة اللَّه خيراً».

۴- لِم لَم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ يُجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة- من قبل اللَّه- من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، وبيان غضب اللَّه عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم» الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب، والكاشفة عن صفة الرحمة واللطف الإلهى.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ (۲) إلغاء عهود المشركين: كانت فى المجتمع الإسلامى ومحيطه طوائف شتى، فطائفة منها مثلًا لم يكن لها أىّ عهد مع النبى صلى الله عليه و آله والنبى كذلك لم يكن له أىّ عهد معها.

وطوائف اخرى عاهدت النبى صلى الله عليه و آله فى الحديبية- وأمثالها- على ترك المخاصمة والمنازعة، وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أى سبب يجيز النقض وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

الآية الاولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة: «بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ».

يستفاد من الروايات أنّ علياً عليه السلام قد امر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس فى ذلك اليوم وهى:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۵

۱- إلغاء عهد المشركين.

۲- لا يحق للمشركين أن يحجّوا فى المواسم المقبلة.

۳- منع العراة والحفاة من الطواف الذى كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

۴- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

ثم أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيأوا للمواجهة والقتال، فقالت: «فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ».

وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴) نلحظ فى هاتين الآيتين البينتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النبى صلى الله عليه و آله والمشركين، حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد اعلن فى هذه الآية إذ نقول: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

إنّ اللَّه سبحانه يريد فى هذا الإعلان العام فى مكّة المكرمة، وفى ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع ألسنة المفسدين.

ثم يتوجه الخطاب فى الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ». أى إنّ

الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم ودنياكم وآخرتكم، فلو تدبّرتم بجد وصدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافی لكل جراحاتكم وليس فی الأمر منفعة للّه أو لرسوله.

ثم إنّ الآية تُحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: «وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِى اللَّهِ». فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۴۶

وكما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- ورفض عهد المشركين- يختص باولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإنّ الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (۶) الشدة المقرونة بالرفق: نقرأ فی الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدّة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة فی هذا الصدد فقال:

«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ».

ثم يقول: «وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ».

وهذه الشدة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته فی إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، لأنّ الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كی تُلحظ بعين الإحترام.

وهذه الشدة والقوة والصرامة لا- تعنی سدّ الطريق- طريق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإنّ الآية عقبت بالقول: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ».

ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». يتوب على عباده المنيبين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كيما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد والحق والعدالة، وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وإمتصاص المال، أو الإستيلاء على أراضی الآخرين، إذ تقول الآية: «وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلمَ اللَّهِ». أی عليك أن تعامل من يلجأ اليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبين له محتوى دعوتك فی كمال الإرادة والحرية،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۴۷

فإذا أشرقت أنوار الهداية فی قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثم تضيف الآية قائلة: «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد فی طريقه.

وأخيراً فإنّ الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْلَمُونَ».

فبناءً على ذلك لو فُتحت أبواب المعرفة بوجوهم، فإنّه يؤمّل خروجهم من الوثنية التی هی وليدة الجهل- وإلتحاقهم بركب التوحيد الذی هو وليد العلم والمعرفة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰)

المعتدون الناقضون العهد: كما لاحظنا فى الآيات السابقة أنّ الإسلام ألغى جميع العهود التى كانت بينه وبين المشركين وعبدة الأوثان- إلّاجماعة خاصة- وأمهلهم مدّة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه، والآيات محل البحث بيان لعلة إلغاء العهود من قِبل الإسلام، فتقول الآية الاولى من هذه الآيات مستفهمة استفهاماً إنكارياً: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ». أى: إنّهم لا ينبغى لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قِبل النبى صلى الله عليه و آله ومن جانب واحد، فى وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء بالعهد.

ثم استثنت الآية مباشرة اولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: «إِلَّا الَّذِينَ عهَدتُّم عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

وفى الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم منه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: «كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَايَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۸

وتضيف الآيه معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت:

«يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ». وفى نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ».

وفى الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالى «اشْتَرَوْا بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ».

ثمّ تعقب الآية بالقول: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فقد خسروا طريق السعادة وضيعوها، وحرموا الهداية، وهُم فى الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث فهى تأكيد آخر على ما ورد فى الآيات المتقدمة، إذ تقول الآية: «لَايَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

وهذه الخصلة فيهم لم يُبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَ لَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١۵) إنّ أحد أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهمية، وليكون له أثر فى النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامى من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۹

الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمية القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة فى الآيات محل البحث، فتقول الآية الاولى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدّينِ».

وتضيف معقبة: «وَنُفَصّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ولكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآية التالية: «وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَاأَيْمنَ لَهُمْ».

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلّاأنّ هذه المعاهدة- بنقضها مراراً، وكونها قابلة للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلًا ولا قيمة لها.

وتعقّب الآية مضيفة: «لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».

وفى الآيـة الاخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: «أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ».

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم «وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها «أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ».

وليس ذلك فحسب، بل، «وَيُخْزِهِمْ» «وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ».

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل اللَّه تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ».

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ فى إنتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإنَّ اللَّه يسدّدهم «وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ».

وتُختتم الآية بالقول: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

العبارة الأخيرة تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۰

اللَّه، لما لديهم من التهيؤ الروحى والقابلية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۶) فى هـذه الآية ترغيب للمسلمين فى الجهاد عن طريق آخر، حيث تُحمّل الآية المسلمين مسؤولية ذات عبء كبير، وهى أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّ كل شيء سيكون تامّاً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النية وصدق القول والإيمان الواقعى فى قتالكم الأعداء قتالًا خالصاً من أى نوع من أنواع النفاق، فتقول الآية أوّلًا: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً».

«الوليجة»: مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجة على من يُعتمد عليه فى الأسرار ومعناها يُشبه معنى البطانة تقريباً.

إنّ الجملة المتقدمة تُنبّه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل: الجهاد فى سبيل اللَّه لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثانى: ترك أيّة علاقة أو أيّ تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجى، والثانى يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

وتُختتم الآية بما يدلّ على الإخطار والتأكيد: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فلا ينبغى أن يتصور أحدٌ أنّ اللَّه لا يعرف العلائق السرية بين بعض الأفراد وبين المنافقين، بل يعرف كل شيء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (۱۷) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۱۸)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۱

من جملة المسائل التى يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لِم نُبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية

والمعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوى فى زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت اللَّه. فالآيتان محل البحث تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التى لا أساس لها، وتصّرح الآية الاولى منهما بالقول: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أنفُسِهِم بِالْكُفْرِ».

ثم تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

ولذلك فهى لا تجديهم نفعاً: «وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ».

فاللَّه طاهر منزّه، وينبغى أن يكون بيته طاهراً منزهاً كـذلك، فلا يصح أن تمسّه الأيدى الملوثة بالشرك. أمّا الآيةالتالية فتذكر شروط عمارة المسجدالحرام- إكمالًاللحديث آنفالذكر- فتبيّن خمسة شروط مهمة فى هذا الصدد، فتقول: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل والثانى اللذين يمثلان الأساس العقائدى.

ثم تشير الآية إلى الشرطين الثالث والرابع فتقول: «وَأَقَامَ الصَّلَوةَ وَءَاتَى الزَّكَوةَ».

أى: إنّ الإيمان بـاللَّه واليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان باللَّه ينبغى أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدّى صلاته باخلاص، كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللَّه وخلقه قوية، فيؤدى الزكاة إليهم.

وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ».

فقلبه ملىء بعشق اللَّه، ولا يحسّ إلّابالمسؤولية فى امتثال أمره ولايرى لأحد من عبيده أثراً فى مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر فى عمارة محل للعبادة.

ثم تضيف الآية معقبة بالقول: «فَعَسَى أُولئِكَ أن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ». فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

أهمية بناء المساجد: وردت أحاديث كثيرة فى أهمية بناء المساجد. ففى تفسير المنار عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من بنى للَّهمسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى اللَّه له بيتاً فى الجنة».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۲

إلّا أنّ ما هو أكثر أهمية هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، فالمسجد ينبغى أن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا ـ محلًا للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعى الفعال، لا مجال العاطلين والبطّالين والمرضى.

أ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۹) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى عن ابن بريدة، قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران، إذا مرّ بهما على بن أبى طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟»

فقال العباس: لقد اوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاج.

وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام.

فقال على عليه السلام: «استحييت لكما، فقد اوتيت على صغرى ما لم تؤتيا!»

فقالا: وما اوتيت يا على؟

قال: «ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما باللَّه ورسوله!»

فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتى دخل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلنى به على؟

فقال: «أدعو لى عليّاً». فدعى له فقال: «ما حملك على ما استقبلت به عمّك؟» فقال: «يا رسول اللَّه! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض!»

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم:

«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ» الآيات. فقال العباس: إنّا قد رضينا؛ ثلاث مرات.

التّفسير

مقياس الفخر والفضل: مع أنّ للآيات- محل البحث- شأناً فى نزولها، إلّاأنّها فى الوقت

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۳

ذاته تستكمل البحث الذى تناولته الآيات المتقدمة، ونظير ذلك كثير فى القرآن. فالآية الاولى من هذه الآيات تقول: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

ويحدثنا التاريخ أنّ منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهم المناصب وكان يضاهى منصب سدانة الكعبة.

أمّا الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة وتؤكّده بالقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأمّا الآية الثالثه- من الآيات محل البحث- فتقول: إنّ اللَّه أنعم على المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين فى سبيله ثلاث مواهب هى:

۱- «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ».

۲- «وَرِضْوَانٍ».

۳- «وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وتعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۲۴) كل شىء فداء للهدف: إنّ آخر وسوسة أو ذريعة يمكن أن يتذرع بها جماعة من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (وفعلًا فقد تذرع بعضهم وفقاً لما ورد فى قسم من التفاسير) بأنّ من بين المشركين وعبدة الأوثان أقارب لهم، فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلابدّ أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشيرتهم الخ. هذا كله من جهة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۴

ثم ومن جهة اخرى كانت رؤوس الأموال والقدرة التجارية بيد المشركين تقريباً، ولهذا يسبب تردد المشركين إلى مكة إزدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة كان للمسلمين فى مكة بيوت عامرة نسبياً، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج ومناسكه بمكة. فالآيتان- محل البحث- ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، وتردّان عليهم ببيان صريح، فتقول الآية الاولى منهما: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمنِ».

ثم تعقب- على وجه التأكيد- مضيفة: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأىّ ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشركين، ويظلم مجتمعه، ويظلم نبيّه أيضاً؟!

أمّا الآية التالية فهى تتناول هذا الموضوع بنحوٍ من التفصيل والتأكيد والتهديد والتقريع، فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله ليعنّف اولئك الذين لا يرغبون فى جهاد المشركين لما ذكرناه آنفاً، فتقول: «قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

ولما كان ترجيح مثل هذه الامور على رضا اللّه والجهاد فى سبيله، يعدّ نوعاً من العصيان والفسق البيّن، وإنّ من تشبث قلبه بالدنيا وزخرفها وزبرجها غير جدير بهداية اللّه، فإنّ الآية تعقب فى الختام قائلة: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

ما قرأناه فى الآيتين- محل البحث- ليس مفهومه قطع علائق المحبة بين الأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، والإنسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية وإلغائها، بل المراد من ذلك أنّه ينبغى أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنيوى، بحيث لا نطبّق فى تلك الحالة حكم اللّه، أو لا نرغب فى الجهاد، ويحول عشقنا المادى دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرعى الجانبين «العلاقة باللّه والعلاقة بالرحم».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۵۵

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين فى قلوب اطفال المسلمين وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحيى فى نفوس المسلمين روح التضحية والجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم وموروثهم المعرفى.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (۲۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (۲۶) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۷) الكثرة وحدها لا تجدى نفعاً: فى الآيات المتقدمة رأينا أنّ اللّه سبحانه يدعوا المسلمين إلى التضحية والجهاد على جميع الصُعد فى سبيل اللّه وقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان، ويهدد بشدة من يتقاعس منهم عن الجهاد والتضحية بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشيرة والمال والثروة. أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمة، وهى أنّ على كل قائد أن ينّبه أتباعه فى اللحظات الحساسة بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف الايمان والذين يحجبهم التعلق بالمال والولد والأزواج وما إلى ذلك عن الجهاد فى سبيل اللّه، فلا ينبغى أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعليهم أن يواصلوا طريقهم، لأنّ اللّه لم يتخلّ عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال فى معركة بدر، ولا يوم كانوا كثرة ملء العين (كما فى معركة حنين) وقد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن اللّه سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، فاللّه فى الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده ... لهذا فإنّ الآية الاولى من الآيات محل البحث تقول: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ».

ثم تضيف الآية معقبة: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيًا». وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثنى عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل فى الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى إغتر بعض المسلمين وقالوا: «لن نُغلب اليوم».

إلّا أنّه قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدى عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان فى قلوبهم فانكسر جيش المسلمين فى البداية وكاد العدو أن يغلبهم لولا أنّ اللّه أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجّاهم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۵۶

ويصوّر القرآن هذه الهزيمة بقوله: «وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ».

وفى هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النبى إلّا القلة، وكان النبى مضطرباً ومتألّماً جدّاً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهى: «ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا».

ويَذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: «وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». وكان هذا العذاب والجزاء أن قُتل بعض الكافرين، واسر بعضهم، وفرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الاسلامى.

ومع هـذا الحال فإنّ اللَّه يفتـح أبواب توبته للأسـرى والفارين من الكفار الـذين يرغبون فى قبول مبـدأ الحق «الإسـلام» لهـذا فإنّ الآيـة الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وجملة «يتوب» التى وردت بصيغة الفعل المضارع، والتى تدل على الإستمرار، مفهومها أنّ أبواب التوبة والرجوع نحو اللَّه مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

غزوة حنين ذات العبرة: «حنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أنّ الغزوة وقعت هناك فقد سمّيت باسم المنطقة ذاتها، وقد عُبّر عنها فى القرآن ب «يوم حنين» ولها من الأسماء:

غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أمّا تسـميتها بأوطاس، فلأنّ «أوطاس» أرض قريبـة من مكان الغزوة، وأمّا تسـميتها بهوازن، فلأنّ إحـدى القبائل التى شاركت فى غزوة حنين تُدعى هوازن.

إنّ رؤساء طائفـة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده فى اخريات شـهر رمضان أو شوال فى السـنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النبى صلى الله عليه و آله لواءه، وسلمه علياً عليه السلام.

وكان ألفا شـخص قـد أسـلم فى فتح مكة، فأضـيف عددهم إلى العشـرة آلاف الذين ساهموا فى فتح مكة، وصاروا حوالى اثنى عشـر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فلما صلّى النبى صـلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۷

المقاتلين جديدى الإسلام (بمكة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم.

فخلّى اللَّه بين جيش المسـلمين وجيش العـدو، وترك الجيشـين على حالهمـا، ولم يحم المسـلمين لغرورهم- مؤقتاً- حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلّا أنّ علياً حامل لواء النبى بقى يقاتل فى عدة قليلة معه، فأمر النبى صـلى الله عليه و آله عمّه العباس- وكان جهير الصوت- أن يصـعد على تل قريب وينادى: يا معشـر المهاجرين والأنصار، يا أصـحاب سورة البقرة، يا أهل بيعـة الشـجرة، إلى أين تفرّون؟ هـذا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

فلّما سـمع المسـلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سـيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كل جانب حملة شديدة، فقتل حوالى مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم.

ونقرأ فى نهايـة هـذه الحادثـة التأريخيـة أنّ ممثلى هوازن جاءوا النبى وأعلنوا إسـلامهم، وأبدى لهم النبى صـلى الله عليه و آله صـفحه وحبّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هـذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۸) لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: قلنا: إنّ واحداً من الامور الأربعة التى بلّغها الإمام على عليه السـلام فى موسم الحج فى السـنة التاسـعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشـركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشـير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذَا».

ثم تعقب الآيـة على ذوى النظرة السـطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشـركين إذا انقطعوا عن المسـجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا

فقراء مغوزين فتقول: «وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ».

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت اللَّه فى مكة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكة فى أحسن الظروف فهى بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۵۸

زرع، لكنها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن اللَّه مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة.

ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فكل ما يأمركم به اللَّه فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خبير بذلك.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (۲۹) مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب: كان الكلام فى الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية محل البحث (وما يليها من الآى) فتبيّن تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب. وفى هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حدّاً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث إتّباعهم لدينهم السماوى لهم شبه بالمسلمين، إلّاأنّهم من جهة اخرى لهم شبه بالمشركين أيضاً.

ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضى بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الاخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغاً قليلًا من المال بحدود وشروط معينة سنتناولها فى البحوث المقبلة إن شاء اللَّه.

وفى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآية محل البحث، إذ تقول الآية أوّلًا: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب- كاليهود والنصارى- باللَّه وباليوم الآخر، مع أنّنا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللَّه ويقرون بالمعاد أيضاً؟

والجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام.

ثم تشير الآية إلى الصفة الثانية لأهل الكتاب، فتقول: «وَلَا يُحَرّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۵۹

وتذكر الآية الصفة الثالثه التى كانوا يتصفون بها فتقول: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقّ». أى إنّ أديانهم منحرفة عن مسيرها الأصيل، فنسوا كثيراً من الحقائق والتزموا بكثير من الخرافات مكانها.

وبعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التى هى المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ».

ثم تبين الآية الفرق بين أهل الكتاب والمشركين فى مقاتلتهم، بالجملة التالية: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

«الصاغر»: مأخوذ من «الصِغَر» ومعناه الراضى بالذلة. والمراد من الآية أنّ الجزية ينبغى أن تُدفع فى حال من الخضوع للإسلام والقرآن.

ما هى الجزية؟ تُعدّ الجزية ضريبة مالية «إسلامية» وهى تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضى. أو بتعبير آخر: هى ضريبة مالية سنوية على الرؤوس. أنّ فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هى الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهى وظيفة عامة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلًا بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون ويتّجرون- مثلًا- فإنّ على الجماعة الثانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

فبناء على ذلك أنّ الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسؤولية فى الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳۱) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۳۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۰

شرك أهل الكتاب: كان الكلام فى الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب. وفى الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى منهم، ليتضح أنّه لو كان بعض التشدد فى معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك فى العقيدة، ونوع من الشرك فى العبادة. فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

من هو عزير؟ «عزير» فى لغة العرب هو «عزرا» فى لغة اليهود، فإنّ عزيراً- أو عزرا- له مكانة خاصه فى تاريخ اليهود، حتى أنّ بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لُامّة اليهود وبانى مجدهم، وفى الواقع فإنّه خدمةً كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً فى واقعته المشهورة، وجعل مُدُنَهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجىء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالى قرن.

ولمّا فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه فى اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التّوراة- ممّا بقى فى ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به- من جديد. ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحيى شريعتهم. وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن اللَّه».

وفى الآية التالية إشارة إلى شركهم العملى فى قبال الشرك الإعتقادى، أو بعبارة اخرى إشارة إلى شركهم فى العبادة، إذ تقول الآية: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ». «الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكبّ على العبادة.

وممّا لا شك فيه أنّ اليهود والنصارى لم يسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم اللَّه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى باتخاذ ربّ.

وفى ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، وهى أنّ جميع هذه العبادات للبشر بدعة، وهى من العبادات الموضوعة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهًا وَاحِدًا لَّاإِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۱

إنّ القرآن المجيد يعلّم أتباعه فى الآية محل البحث درساً قيّماً جدّاً، ويبين واحداً من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحق لأىّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، وجميع الطاعات يجب أن تكون فى إطار طاعة اللَّه، وإنّما يصح إتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين اللَّه، أيّاً كان ذلك الإنسان وفى أية مكانة أو منزلة.

وفى الآية الثالثه من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعى اليهود والنصارى، أو سعى جميع مخالفى الإسلام حتى المشركين، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقيم» الذى لا يعود عليهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآية: «يُرِيدُونَ أَن يُطْفُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هـذه المحاولات اليائسـة، وفى الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضـعيف إزاء قدرة اللَّه التى لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالًا ممّا ذكرته الآية.

الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فى نهاية المطاف تزف البُشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه- آنفاً- أنّ أعداء الإسلام لن يفلحوا فى محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

والمقصود من «الهدى» هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة الجلية التى وُجِدت فى الدين الإسلامى.

وأمّا المراد من «دين الحق» فهو هـذا الـدين الذى اصوله حقة وفروعه حقة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شـك أنّ الدين الذى محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقة، وتأريخه حق جلى، لابدّ أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمـان وتقـدم العلم وسـهولة الإرتباطـات، فـإنّ الواقع سـيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُـدُل الإعلاـم المضـللة، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التى وضعت فى طريق انتشار الإسلام.

وهكـذا فإنّ دين الحق سيسـتوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقـدمه شـيء أبداً، لأنّ الحركات المضادة للإسـلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۲

القرآن وظهور المهـدى: إنّ الآية محل البحث عينها وبالالفاظ ذاتها، وردت فى سورة الصف، الآية (۹) كما وردت فى الآية (۲۸) من سورة الفتـح باختلاف يسير؛ والآيـة تخبر عن حـدث مهمّ كبير اسـتدعت أهمّيته هـذه أن تتكرر الآيـة فى القرآن، وهذا الحدث الذى أخبرت عنه الآية هو استيعابُ الإسلام للعالم بأسره.

فمفهـوم الآيـة إنتصـار الإسـلام كليـاً- ومن جميع الجهـات- على جميع الأديـان، ومعنى هـذا الكلاـم أنّ الإسـلام سيُهيمن على الكرة الأرضية عامة، وسينتصر على جميع العالم.

ينقل الشـيخ الصدوق رحمه الله فى كتابه إكمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «واللَّه ما نزل تأويلها بعدُ، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر باللَّه العظيم».

كما فى تفسـير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السـلام أنّه قال: «إنّ ذلك يكون عنـد خروج المهـدى من آل محمّـد، فلا يبقى أحد إلّاأقرّ بمحمّد».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵) كنز الأمـوال: كـان الكلاـم فى الآيـات المتقدمـة عن أعمـال اليهود والنصارى المشوبـة بالشـرك، إذ كانوا يعبـدون الأحبار والرهبان من دون اللَّه. الآيـة الاولى محل البحث تقول: إنّ اولئك مضافاً إلى كونهم غير جـديرين بالالوهيـة فهم غير جـديرين بقيـادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضـة المضـطربة. فالآيـة هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوّغ أو مجوز، فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك فى آيات اخرى كما ورد فى التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۳

أوّلًا: إنّهم كتموا حقائق التعاليم التى جاء بها موسـى عليه السـلام فى توراته وعيسـى عليه السلام فى إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديـد، «الدين الإسـلامى» فتنقطع هداياهم وتغدو منافعهم فى خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (۴۱) و (۷۹) و (۱۷۴) من سورة

البقرة.

والثانى: إنّهم بأخذهم «الرشوة» كانوا يقلبون الحق باطلًا والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (۴۱) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة فى أخذ المال هو ما يسمّى ب «صكوك الغفران وبيع الجنة» فكانوا يتسلمون أموالًا باهظة من الناس.

وأمّا صدّهم عن سبيل اللّه فهو واضح، لأنّهم كانوا يحرفون آيات اللّه، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصة.

وتعقيباً على موضوع حب اليهود والنصارى لدنياهم وأكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلى فى شأن أصحاب المال وذوى الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيم».

فالآية محل البحث تحرم الكنز وجمع المال، والثروة، وتأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم فى سبيل اللّه وما فيه نفع عباد اللّه، وأن يتجنبوا كنزها ودفنها وإبعادها عن تحرك السوق، وإلّا فلينتظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم فى يوم القيامة فحسب، بل يشملهم فى الدنيا- لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقية بين الناس «الفقير والغنى» أيضاً.

متى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟ وفق كثير من الروايات أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا ـ غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولًا بحكم الكنز وإن جمع المال؟

ففى تفسير المنار عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، ثم سألوا النبى صلى الله عليه و آله فقال: «إنّ اللّه لم يفرض الزكاة إلّاليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنّما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم».

إلّا أنّنا نقرأ روايات اخرى فى المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً- ولأوّل وهلة- والتفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«ما زاد على أربعة آلاف «۱» فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّ، وما دونها فهو نفقة».

---

(۱) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۴

ويمكن الإستنتاج من مجموع الأحاديث- آنفة الذكر- منضمةً إليها الآية محل البحث، أنّه فى الظروف الاعتيادية المألوفة، حيث يرى الناس آمنين، أو غير محدق بهم الخطر، والمجتمع فى حال مستقر، فيكفى عندئذ دفع الزكاة وما تبقى لا يعد كنزاً.

وأمّا فى الحالات غيرالطبيعية وغير الاعتيادية، وعندما يقتضى حفظ مصالح المجتمع الإسلامى ذلك، فإنّ الحكومة الإسلامية، تحدّد لجمع المال مقداراً، كما مرّ فى حديث الإمام على عليه السلام أو تطالب الناس بالكنوز وما جمعوه من المال كلياً.

جزاء من يكنز: فى الآية التالية إشارة إلى واحد ممّا يحيق بمثل هؤلاء ممّن يكنز المال، فى العالم الآخر، إذ تقول الآية: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ».

ويخاطبهم ملائكة العذاب وهم فى هذه الحال: «هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ».

وهذه الآية توكّد مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ أعمال الإنسان لا تمضى سدى، بل تبقى وتتجسّد له يوم القيامة، وتكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

أَنْفُسَكُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۳۷) وقف القتال الإجبارى: لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلةً حول قتال المشركين، فالآيتان محل البحث تشيران إلى أحد مقررات الحرب والجهاد فى الإسلام، وهو إحترام الأشهر الحرم. فتقول الآية الاولى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرضَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۵

والتعبير ب «كتاب اللَّه» إشارة إلى كتاب الخلق وعالم الوجود.

فمنذ ذلك اليوم الذى استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين والأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

ثم تضيف الآية- آنفة الذكر- معقبّة: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ».

ثم تضيف الآية مؤكّدة: «ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ».

ويستفاد من بعض الروايات أنّ تحريم القتال فى هذه الأشهر الحرم، كان مشرّعاً فى الديانة اليهودية والمسيحية وسائر الشرائع السماوية، إضافة إلى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم تقول الآية: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ».

إلّا أنّه لما كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقبت الآية بالقول: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً». فبالرغم من أنّ هؤلاء مشركين، والشرك أساس التشتت والتفرقة، إلّاأنّهم يقاتلونكم فى صف واحد «كافة» فينبغى عليكم أن تقاتلوهم كافة، فذلك منكم أجدر لأنّكم موحدون فلابد من توحيد كلمتكم أمام عدوكم ولتكونوا كالبنيان المرصوص.

وتختتم الآية بالقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

وفى الآية الثانية- من الآيتين محل البحث- إشارة إلى إحدى السنن الخاطئة فى الجاهلية، وهى سنة النسىء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» ففى أحد الاعوام يقرّرون حليّة الشهر الحرام ويحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ». فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم اللَّه بحسب ما تمليه عليهم أهوائهم، والعجيب أنّهم يرضون عن عملهم، وفعلهم هذا كما تقول الآية: «زُيّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ». فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدّون ذلك تدبيراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصورون أنّ طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلابد من إثارة الحرب.

فاللَّه سبحانه إذا علم أنّ فى عباده من ليس أهلًا للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۶

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (۳۸) إِنْ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا لما رجع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من (الطائف)، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك فى زمان إدراك الثمار، فأحبّوا المقام فى المسكن والمال، وشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان صلى الله عليه و آله قلّما خرج فى غزوة إلّاكنّى عنها وورّى بغيرها إلّا (غزوة تبوك)، لبعد شقتها، وكثرة العدو، ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذى يريد، فلما علم اللَّه سبحانه تثاقل الناس، أنزل

الآية.

التّفسير

كما أشرنا آنفاً فى شأن نزول الآيتين، فإنّهما نزلتا فى غزوة «تبوك».

وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعدّ الآن من حدود الحجاز، وكانت آنئذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات «۱».

وقد حدثت هذه الواقعة فى السنة التاسعة للهجرة، أى بعد سنة من فتح مكة تقريباً.

ففى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان الترغيب تارة وبالعتاب تارة اخرى وبالتهديد ثالثة فهو يدعوهم ويهيؤهم إلى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب. إذ تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ».

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: «أَرَضِيتُم بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخُسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً

(۱) الفاصلة بين تبوك والمدينة ۶۱۰ كم والفاصلة بينها وبين الشام ۶۹۲ كم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۷

لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثم تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشدّ وأسلوب تهديدى جديد، فتقول:

«إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف وينطفىء نور الإسلام، فأنتم فى غاية الخطأ واللَّه غنى عنكم «وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصية فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والإستجابة والطاعة «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيًا».

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فاللَّه عزيز حكيم: «واللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰) المدد الإلهى للرسول فى أشد اللحظات: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدو، وكما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكّداً بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّكم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبى صلى الله عليه و آله فستذهب دعوته والإسلام أدراج الرياح. فالآية محل البحث تعقّب على ما سبق لتقول: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ».

وكان ذلك عندما تآمر مشركو مكة على اغتيال النبى صلى الله عليه و آله وقتله، وقد مرّ بيان ذلك فى ذيل الآية (۳۰) من سورة الأنفال بالتفصيل.

ولكن النبى صلى الله عليه و آله اطّلع- بأمر اللَّه- على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكة) والهجرة إلى (المدينة).

وقد سعى الأعداء سعياً حثيثاً للعثور على النبى، إلّاأنّهم عادوا آيسين، وبعد بضعة أيام وصل صلى الله عليه و آله المدينة سالماً، وبدأت مرحلة جديدة من تأريخ الإسلام هناك.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۸

فالآية آنفة الذكر تشير إلى أشدّ اللحظات حرجاً فى هذا السفر التاريخى، فتقول: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وبالطبع فإنّهم لم يريدوا

إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامرة خروج النبى صلى الله عليه و آله من مكة فراراً منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم.

ثم تقول: كان ذلك فى حال هو «ثَانِيَ اثْنَيْنِ».

وهذا التعبير إشارة إلى أنّه لم يكن معه فى هذا السفر الشاق إلّارجل واحد، وهو أبو بكر «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». أى غار ثور، فاضطرب أبو بكر وحزن فأخذ النبى صلى الله عليه و آله يسرّى عنه، وكما تقول الآية: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا».

ولعل هذه الجنود الغيبية هى الملائكة التى حفظت النبى صلى الله عليه و آله فى سفره الشاق المخيف، أو الملائكة التى نصرته فى معركتى بدر وحنين وأضرابهما.

«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا».

وهى إشارة إلى أنّ مؤامراتهم قد باءت بالخيبة والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشعّ نور اللَّه فى كل مكان، وكان الإنتصار فى كل موطن حليف محمّد صلى الله عليه و آله، ولم لا يكون الأمر كذلك «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فبعزته وقدرته نصر نبيه، وبحكمته أرشده سبل الخير والتوفيق والنجاح.

انْفِرُوا خِفَافاً وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۴۲)

الكسالى الطامعون: قلنا: إنّ معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، وكانت مقترنة بمقدمات معقّدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلّل» فى الإعتذار عن المساهمة فى هذه المعركة. وقد وردت فى الآيات المتقدمات ملامة للمؤمنين من قبل اللَّه سبحانه، وتعقيباً على هذا الكلام يدعو المؤمنين جميعاً مرّة اخرى- دعوة عامة- نحو الجهاد ويعنف المتسامحين فيقول سبحانه: «انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۹

«الخفاف»: جمع الخفيف؛ «الثقال»: جمع الثقيل، ولهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أى انفروا فى أيّة حالة كنتم شباباً أم شيوخاً، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنياءً أم فقراء، أصحابَ تجارة أو زراعة أم لستم من اولئك.

ثم تضيف الآية قائلة: «وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أى جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّاً قويّاً مستكبراً.

ولئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها اللَّه لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: «ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلى مرضاة اللَّه والسعادة الأبدية وأنواع النعم والمواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو فى هذه النهضة المقدسة العامة والتضحية المطلقة.

ثم يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النبى مبيّناً واقعهم فيقول: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» (۱).

والعجيب أنّهم لا يكتفون بالأعذار الواهية، بل «وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ». فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا! «يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث إنّ السفر ذو مشقة، ويواجهون صعوبةً وحرجاً، فإنّهم يتشبثون بالكذب والباطل. ولم يكن هذا الأمر منحصراً بغزوة تبوك وعصر النبى صلى الله عليه و آله فحسب، ففى كل مجتمع فئة من الكسالى

والمنافقين والطامعين والانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقحموا أنفسهم فى الصفوف الاولى، ويصرخوا بعالى الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين فى إنتصارهم دون أن يبذلوا أىّ جهد!

غير أنّ هؤلاء «المجاهدين» المخلصين! كما يزعمون، حين يواجهون الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعذار الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إنّى

---

(۱) «العَرَض»: ما يعرض ويزول عاجلًا ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الدنيا المادية؛ و «القاصد»: معناه السهل، لأنّه فى الأصل من قصد، والناس يسعون فى قصدهم إلى المسائل السهلة.

«الشقة»: تعنى الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذى يجلب على عابره المشقة والنصب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۰

مريض، ويقول الآخر: إنّى مبتلىً بطفلى، ويقول الثالث: زوجى مُقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرابع: يا ليتنى كنت معكم لولا ضعف فى عينىّ لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أثركم، وهكذا .... إلّا أنّ على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلًا للإصلاح فينبغى إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (۴۳) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵) التعرّف على المنافقين: يستفاد من الآيات- محل البحث- أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وبعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم- إستأذنوا النبى فى الانصراف عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النبى بالإنصراف. فاللَّه سبحانه يعتب على النبى فى الآية الاولى من الآيات محل البحث فيقول:

«عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ».

وهناك كلام طويل بين المفسّرين فى المراد من عتاب اللَّه نبيّه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أنّ إذن النبى صلى الله عليه و آله كان مخالفة، أم هو من باب ترك الاولى؟!

يُحتمل فى تفسير الآية هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنّما هو على سبيل الكناية، ولم يكن فى الأمر حتى «ترك الاولى» بل المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف وكناية فى المقام.

ويمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال، فلنفرض أنّ ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلّا أنّ أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده، فقد تكون راضياً عن سلوكه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطنى، إلّاأنّك ولإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك:

لم لا تركته يضربه على وجهه ويلطمه؟ وهدفك من هذا البيان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق وملامته من قِبلك.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۱

ثم يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين والمنافقين، فيقول: «لَايَسْتْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ».

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ويدعوهم الإيمان باللَّه واليوم الآخر ومسؤولياتهم وإيمانهم بمحكمة القيامة، كل ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق ويوصد بوجوههم الأعذار والحجج الواهية: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ».

ثمّ يضيف القرآن: «إِنَّمَا يَسْتْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

ويعقّب مؤكّداً عدم إيمانهم بالقول: «وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ».

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين والمنافقين فى صدر الإسلام ومعركة تبوك فحسب، بل يمكن فى عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدّعين الكاذبين بهاتين الصفتين. فالمؤمن شجاع ذو إرادة وتصميم وخطى واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ويبحث عن المعاذير دائماً.

وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (۴۸) عدم وجودهم أفضل: فى الآية الاولى- من الآيات أعلاه- بيان لعلامة اخرى من علائم كذبهم، وهى فى الحقيقة تكمل البحث الوارد فى الآيات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فيها «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». فالآية محل البحث تقول: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ولم ينتظروا الإذن لهم: «وَلكِن كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» «۱».

هذا أمر تكوينى نهض من باطنهم المظلم، وإنّه مقتضى عقيدتهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة، ويستفاد من الآية محل البحث أنّ لكل عمل ونيّة اقتضاءً يُبتلى به الإنسان شاء أم

---

(۱) «ثبطهم»: مشتق من التثبيط ويعنى الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۲

أبى، وليس لكل أحد قابلية السير فى سبيل اللَّه وتحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قِبَل اللَّه يوليه من يجد فيه طهارة النية والإستعداد والإخلاص. وفى الآية التالية إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد فى ساحة الجهاد ليس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، والآية تعطى درساً للمسلمين أن لا يكترثوا بكثرة المقاتلين أو قلّتهم وكميتهم وعددهم، بل عليهم أن يفكروا فى اختيار المخلصين المؤمنين وإن كانوا قلّة، فهذا درس لمسلمى الماضى والحاضر والمستقبل. وتقول الآية: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُم». أى إلى تبوك للقتال «مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا».

فبناءً على ذلك فإنّ حضورهم بتلك الروحية الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك والتردد وتثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

وتضيف الآية قائلة: «وَلَأَوْضَعُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» «۱».

ثم تنذر المسلمين من المتأثرين بهم فى صفوف المسلمين: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ».

فبناءً على ذلك فإنّ وظيفة المسلمين الراسخين فى الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. والمراد من السمّاع فى الآية هو الجاسوس الذى يتجسّس بين المسلمين ويجمع الأخبار للمنافقين.

وتُختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنبى صلى الله عليه و آله بأنّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأوّل مرّة إلى التخريب والتفرقة وبذر السموم، بل ينبغى أن تتذكر- يا رسول اللَّه- أنّ هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الامور وهم يتربصون الفرص الآن لينالوا مُناهم «لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ».

وهذه الآية تشير إلى ما جرى فى معركة احد حيث رجع عبداللَّه بن أبى وأصحابه وانسحبوا وهم فى منتصف الطريق، أو أنّها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامة التى كانوا يكيدونها للنبى صلى الله عليه و آله أو للمسلمين، ولم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته.

«وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ» وخطّطوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلّا أنّ كل تلك المؤامرات لم تفلح، وإنما رَقَموا على الماء ورشقوا سهامهم على الحجر «حَتَّى جَاءَ

(۱) «أوضعوا»: من مادة الإيضاع ومعناه، الإسراع فى الحركة، ومعناه هنا الإسراع فى النفوذ بين صفوف المقاتلين، و «الفتنة»: هنا بمعنى التفرقة واختلاف الكلمة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۳

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». غير أنّ مشيئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة اللَّه وإرادته، فقد شاء اللَّه أن ينصرك وأن يُبلغ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، ويزيل العراقيل والموانع عن منهاجك، وقد فعل.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (۴۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما استنفر الناس إلى تبوك، قال: «إنفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر». فقام جد بن قيس، أخو بنى سلمة من بنى الخزرج، فقال يا رسول اللَّه! ائذن لى، ولا تفتنّى ببنات الأصفر، فإنّى أخاف أن افتتن بهنّ. فقال: «قد أذنت لك». فأنزل اللَّه تعالى «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى» الآية.

فلما نزلت هذه الآية قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لبنى سلمة: «من سيّدكم»؟ قالوا: جدّ بن قيس غير أنّه بخيل جبان! فقال صلى الله عليه و آله: «وأىّ داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور».

التّفسير

المنافقون المتذرّعون: يكشف شأن النزول المذكور أنّ الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرّع بشتى الحيل. فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلًا: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى» بالنساء والفتيات الروميات الجميلات.

ولكن القرآن يقول مجيباً عليه وأمثاله: «أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». أى إنّ أمثال اولئك الذين تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فيه فعلًا، وأن جهنم محيطة بهم، لأنّهم تركوا ما أمرهم اللَّه ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۴

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵۰) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵۲) فى الآيات- آنفة الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلًا: «إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ».

وهذه المساءة دليل على العداوة الباطنية وفقدان الإيمان.

ولكنهم على خلاف هذه الحال عند الشدة والخطب: «وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ».

هؤلاء المنافقون عُمى القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم نُساهم فى المعركة الفلانية ولم نقع فى أىّ مأزق! كما ابتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك- يا رسول اللَّه- عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقى متين وذلك:

أوّلًا: «قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا». أجَلْ فلا يريد بنا إلّاالخير والصلاح: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». فهم يعشقون اللَّه

فحسب، ومنه يطلبون المدد والعون، ويتوكلون عليه ويلتجئون إليه عند الخطوب.

ثانياً: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». فإمّا أن نُبير الأعداء فى ساحة الحرب ونُبيدهم ونعود منتصرين، أو نُقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا ومصدر افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا والمصائب والعقوبات الإلهية سواء فى الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۵

«وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ». تربصوا غبطتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (۵۳) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (۵۴) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (۵۵) تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبيّن بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأىّ نفع.

ولمّا كان- من بين الأعمال الصالحة- الإنفاق فى سبيل اللّه «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهى العلاقة بين الخلق والخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً. تخاطب الآيات النبى الكريم فتقول: «قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ».

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: «إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ». فنيّاتكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنّما يتقبل اللّه العمل الطاهر من الورع التقى.

والمراد من «الفسق» هنا الكفر والنفاق، أو تلوّث الإنفاق بالرياء والتظاهر.

وفى الآية التالية يوضح القرآن مرّة اخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

والقرآن يعوّل كثيراً على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثمّ كفر بعد ذلك فإنّ الكفر يحبط عمله ولا يكون له أى أثر.

وبعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم فى العبادات فيقول: «وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى كما أنّهم «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ».

وأنّ نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأوّل: هو أنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۶

والثانى: أنّهم إنّما ينفقون عن كره وإجبار.

كما أنّ صلواتهم لا تُقبل لسببين أيضاً:

الأوّل: لأنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ ...».

والثانى: أنّهم «لَايَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى .

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يتوجه الخطاب نحو النبى قائلًا: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوَلدُهُمْ».

فهى وإن كانت نعمةً بحسب الظاهر، إلّاأنّه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

وفى الواقع فإنّهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال والأولاد، أى القوة الاقتصادية والإنسانية:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، ومثل هـذه الأموال لا بركة فيها، فيكونان مدعاة قلقهم وألَمِهم فى الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الـذين هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التى اكتسبوها عن طريق الإثم والحرام.

والثانى: لما كانوا متعلقين بهذه الأموال والأولاد، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولا بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعيمها الخالد، فليس من الهيّن أن يغمضوا عن هذه الأموال والذرية، وبالتالى يخرجون من هذه الدنيا- بحال مزرية وفى حال الكفر.

فالمال والبنون قد يكونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة إذا كانا طاهرين طيبين وإلّا فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷) علامة اخرى للمنافقين: ترسم الآيتان أعلاه حالة اخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآية الاولى: «وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» ومن شدّة خوفهم وَفَرقِهم يخفون كفرهم ويظهرون الإيمان.

و الآية التالية تصوّر شدّة عداوة المنافقين للمؤمنين ونفورهم منهم، فى عبارة موجزة إلّا أنّها فى غاية المتانة والبلاغة، إذ تقول: «لَوْ يَجِدُونَ مَلْجًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۷

فهذه الآية واحدة من أبلغ الآيات والتعابير التى يسوقها القرآن فى وصف المنافقين، وبيان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، ولو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لَولّوا إليه وهم يجمحون، ولكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التى تربطهم معكم من القبيلة والأموال والثروة، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (۵۹)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما النبى صلى الله عليه و آله يقسم قسماً- وقال ابن عباس: كانت غنائم هوازن يوم حنين- إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول اللَّه. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: يا رسول اللَّه إئذن لى فأضرب عنقه! فقال النبى صلى الله عليه و آله: «دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شيء ...» فنزلت فيهم الآيتان.

التّفسير

الأنانيون السفهاء: فى الآية الاولى أعلاه إشارة إلى حالة اخرى من حالات المنافقين، وهى أنّهم لا يرضون أبداً بنصيبهم. فمتى مُلئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما اعطوا حقهم وروعى العدل فى ايتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه. لذا فإنّ الآية تقول:

«وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ». لكنهم ينظرون إلى منافعهم الخاصة: «فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ».

فهؤلاء يرون أنّ النبى صلى الله عليه و آله غير منصف ولا عادل، ويتهمونه فى تقسيمه المال!

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۸

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ

اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰) موارد صرف الزكاة ودقائقها: فى تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما فى مكة، حيث كان هدف النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثانية فى المدينة، حيث أقدم النبى صلى الله عليه و آله على تشكيل حكومة إسلامية أجرى من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية.

ومما لا شك فيه أنّ أوّل وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هى إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية، وهى حاجات طبيعية توجد فى كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإنّ هذا الحكم شُرّع فى السنة الثانية للهجرة النبوية.

إنّ الآية التى نبحثها قد بيّنت الموارد الحقيقية التى تصرف فيها الزكاة، وأنهت التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزّكاة فى ثمانية أصناف:

۱- الفقراء.

۲- المساكين: وسيأتى البحث عن الفرق بين الفقير والمسكين.

۳- العاملين عليها: وهم الذين يسعون فى جباية الزكاة، وإدارة بيت المال.

۴- المؤلفة قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوى القوى من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن ويمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم فى الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته.

وكما جاء فى المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، وكذلك للروايات الواردة فى هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفار.

۵- فى الرقاب: وهذا يعنى أن قسماً من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية.

۶- الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۹

۷- فى سبيل اللَّه: والمراد منه جميع السبل التى تؤدّى إلى تقوية ونشر الدين الإلهى، وهى أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

۸- ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا فى الطريق لعلة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التى يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء فى واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو لأسباب أخر.

وفى خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها فى الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه:

«فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ» ولا شك أنّ هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جدّاً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأنّ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

بحثان

۱- الفرق بين الفقير والمسكين: إنّ «الفقير» هو الشخص الذى يعانى من حاجة مالية فى حياته ومعاشه مع أنّه يعمل ويكتسب، لكنه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا «المسكين» فهو أشد حاجة من الفقير، وهو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ يستعطى الناس ويسألهم.

۲- دور الزكاة فى الإسلام: إذا علمنا أنّ الإسلام ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية فى الحياة، وكذلك إذا علمنا أنّ تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وإذا علمنا أنّ الإسلام يهتم اهتماماً خاصاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقية فى المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التى تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أنّ فى كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم

ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هى التى تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التى تعتبر نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح وعلى الأموال الراكدة- اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت- جنباً إلى جنب- مع الصلاة فى كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۳۰۰

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۶۱)

سبب النّزول

هذا حسن لا-قبيح: فى تفسير مجمع البيان قيل: نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت، وشأس بن قيس وجحش بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر وغيرهم، قالوا ما لا ينبغى، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغ محمّداً ما تقولون، فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنّ محمّداً اذُن سامعة، فأنزل اللَّه الآية.

التّفسير

تتحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويقولون أنّه اذن ويصدّق كل ما يقال له سريعاً: «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ».

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- والتى هى سمة إيجابية للنبى صلى الله عليه و آله والتى يجب توفرها فى أى قائد كامل- نقطة ضعف فى سيرته ومعاملته صلى الله عليه و آله.

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، وأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، ويقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه اذُن، فإنّ ذلك فى مصلحتكم ولمنفعتكم «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ». فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، وبذلك- أيضاً- يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك وشق عليكم.

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف اللَّه تعالى أنّ النبى صلى الله عليه و آله يؤمن باللَّه ويطيع أوامره، ويصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين ويقبله ويرتب عليه الأثر، «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ».

وهذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان له طريقان واسلوبان فى عمله:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۱

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.

والثانى: فى مرحلة العمل، فقد كان صلى الله عليه و آله فى البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أمّا فى الواقع العملى فإنّه لا يعتنى ولا يقبل إلّاأوامر اللَّه واقتراحات وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين: «وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ».

بقى هنا شىء واحد، وهو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويتتبعون أحواله لعلّهم يجدون عيباً يشهّرون به يجب أن لا-يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، ولهذا قال تعالى فى نهاية الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ

جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ (۶۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لمّا نزلت الآيات التى ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قالوا المنافقين: لئن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فقال: واللَّه إنّ ما يقول محمّد حق، وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبى صلى الله عليه و آله فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أنّ عامراً كذّاب، فنزلت الآية.

التّفسير

المنافقون والتظاهر بالحق: إنّ إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتى أشار إليها القرآن مراراً هى إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيىء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم فى هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفى الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، ويحذّر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذبة من جهة اخرى. فى البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القَسَم هو إرضاؤكم «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۲

فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء اللَّه ورسوله أهم من إرضاءالمؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا اللَّه ورسوله، ولذا عقبت الآية فقالت: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

وفى الآية الثانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا».

ومن أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى: «ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ».

«يحادد»: مأخوذ من «المحادّة» وأصلها «حدّ»، ومعناها نهاية الشيء وطرفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون فى‌الطرف الآخر المقابل، لذا فإنّ مادة «المحادّة» قد وردت بمعنى العداوة أيضاً.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (۶۵) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى إثنى عشر رجلًا وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم.

وعمار كان يقود دابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: إضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاهم. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم».

التّفسير

يستفاد من الآية الاولى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۳

أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النبى صلى الله عليه و آله وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع

اقدامهم ويكفّوا عن تآمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيئة أسرارهم فقال: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ».

إلّا أنّ العجيب فى الأمر أنّ هؤلاء ولشدة حقدهم وعنادهم لم يكفّوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النبى صلى الله عليه و آله فإنّ اللّه لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنىء نيّاتهم، فقال: «قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ».

أمّا الآية الثانية فإنّها أشارت إلى اسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» «۱». أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، وجابههم بجواب لا ـ مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطبهم: «قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ».

أى إنّه يسألهم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى باللّه ورسوله وآيات القرآن؟

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النبى صلى الله عليه و آله من تلك العقبة الخطيرة، والتى تعنى الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟

ثم يأمر القرآن النبى صلى الله عليه و آله أن يقول للمنافقين بصراحة: «لَاتَعْتَذِرُوا» والسبب فى ذلك أنّكم «قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ». فهذا التعبير يُشعر أنّ هذه الفئة لم تكن منذ البداية فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآنفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

واختتمت الآية بهذه العبارة: «إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» فهى تبيّن أنّ طائفة قد استحقت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصى، وهذا دليل على أنّ أفراد الطائفة الاخرى إنّما شملهم العفو الإلهى لأنّهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

---

(۱) «خوض»: على وزن «حوض» وهو بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكناية، إلّاأنّها جاءت فى القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۸۴

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰) البحث فى هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم، فالآية الاولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلى، وهو أنّ روح النفاق يمكن أن تتجلّى بأشكال مختلفة وتبدو فى صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر فى أوّل الأمر، خصوصاً أنّ روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، لذلك يقول اللّه سبحانه: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مّن بَعْضٍ».

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم فى ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الاولى والثانية: إنّهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة، ويُبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من

جهـة اخرى «يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ». أى إنّهم يسـلكون طريقـاً ويتّبعون منهاجـاً هو عكس طريق المؤمنين تمامـاً، فإنّ المؤمنين يسـعون دائمـاً- عن طريق الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر- إلى أن يصـلحوا المجتمع وينقوه من الشوائب والفسـاد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية فى المجتمع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۵

واقتلاع جـذور الخير والأعمال الصالحـة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوّثة ستساعدهم كثيراً فى تحقيق أهدافهم.

الثـالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون فى سبيل اللَّه، ولا يعينون محروماً، ولا يسـتفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن: «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ».

الرابعـة: إنّ كل أعمالهم وأقوالهم وسـلوكهم يوضح أنّ هؤلاء قد نسوا اللَّه، والوضع الذى يعيشونه يبيّن أنّ اللَّه قد نسـيهم فى المقابل، وبالتـالى فإنّهم قـد حُرموا من توفيق اللَّه وتسديـده ومواهبه السـنية، أى إنّه سـبحانه قـد عاملهم معاملـة المنسـيين، وآثار وعلامات هـذا النسيان المتقابل واضحة فى كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ».

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر اللَّه سبحانه وتعالى، وقالت الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فى الآيـة الـتى تليهـا نلاحـظ الوعيـد الشديـد والإنـذار بالعـذاب الألـيم والجزاء الـذى ينتظر هؤلاء حيـث تقـول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» وأنّهم سيخلدون فى هذه النار المحرقة «خَالِدِينَ فِيهَا» وأنّ هذه المجازاة التى تشـمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفى هؤلاء إذ «هِىَ حَسْبُهُمْ». وبعبارة اخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبـة اخرى غير النار، حيث يوجـد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضـيف الآية فى خاتمتها أنّ اللَّه تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته وجازاهم بالعذاب الأبدى «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ»، بل إنّ البعد عن اللَّه تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم وأشد عقوبة وآلمها.

تكرر التاريـخ والإعتبـار به: من أجل توعيـة هؤلاء المنافقين، وضـعت الآيـة الآتيـة مرآة التاريـخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظـة حياتهم وسـلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الـذين تمردوا على أوامر اللَّه سـبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضـح الـدروس وأكثرها عبرة، فذكّرهم بأنّهم كالمنافقين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: «كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» علماً أنّ هؤلاء «كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا».

وكما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياة الدنيا، وصرفوا أعمارهم فى طريق قضاء

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۶

الشـهوات والمعصـية والفساد والإنحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلقِهِمْ».

«الخلاق»: فى اللغة بمعنى النصيـب والحصة. ثم تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضـى من أمثالكم قد أوغلتم وسـلكتم مسـلك الإستهزاء والسخرية، تماماً كهؤلاء: «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» «۱».

ثم تبين الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذّر المنافقين المعاصرين للنبى صلى الله عليه و آله وكل منافقى العالم فى جملتين:

الاولى: إنّ كـل أعمـال المنـافقين قـد ذهبت أدراج الريـاح، فى الـدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أىّ نتيجـة حسـنة، فقالت: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

الثانية: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة: «وَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

إنّ هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والإمتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود،

فإنّنا إذا أمعنّا النظر فسنرى أنّ هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا فی الدنيا ولا فی الآخرة.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النبی صلى الله عليه و آله ويتبع اسلول الإستفهام الإنكاری، فتقول الآية: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» «۲».

إنّ هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمردّهم فإنّ اللَّه الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظة، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم وإنقاذهم من الضلالة إذ «أَتَتْهُمْ

---

(۱) إنّ جملة «كالذی خاضوا» فی الواقع بمعنى: كالذی خاضوا فيه. وبعبارة اخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقی اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم والمواهب الإلهية فی طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذی) بمعنى (الذين) أی المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

(۲) «المؤتفكات»: مأخوذة من مادة الإئتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهی إشارة إلى مدن قوم لوط التی قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۷

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» إلّاأنّ هؤلاء لم يصغوا إلى أيّة موعظة ولم يقبلوا نصيحة من أنبياء اللَّه وأوليائه، ولم يقيموا وزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب فی سبيل هداية خلق اللَّه، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنی أن اللَّه عزّ وجلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۷۲) مرّ فی الآيات السابقة، ذكر خمس الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم والنساء، وتذكر هذه الآيات صفات وعلامات المؤمنين والمؤمنات، وتتلخص فی خمس صفات أيضاً، وتشرع الآية بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولی وصديق «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

۱- ففی البداية تبيّن أنّ هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

۲- إنّهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ».

۳- إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا اللَّه، فإنّهم يقيمون الصلاة، ويذكرون اللَّه فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم «وَيُقِيمُونَ الصَّلَوةَ».

۴- إنّهم- على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فی سبيل اللَّه وفی مساعدة عباد اللَّه وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم «وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ».

۵- إنّ المنافقين فسّاق ومتمردون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر اللَّه، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

أمّا ختام الآية فإنّه يتحدث عن إمتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذی ينتظرهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۸

وأوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التى تنتظرهم ف «أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ».

ولاـ شك أنّ وعـد اللّه للمؤمنين قطعى ويقينى لأنّ اللّه قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعـد بـدون سـبب، وليس اللّه القادر بعاجز عن الوفاء بوعـده حين وعـد «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». الآيـة الثانيـة شـرحت جانباً من هـذه الرحمـة الإلهيـة الواسـعة التى تعم المؤمنين فى بُعـديها المـادى والمعنوى. فهى أوّلًا تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتَهَا الْأَنْهرُ»، ومن خصـائص هـذه النعمة الكبيرة أنّها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدى، لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون «خَالِدِينَ فِيهَا».

ومن المواهب الإلهيـة الاـخرى الـتى سوف ينعمون بهـا هى المسـاكن الجميلـة، والمنـازل المرفهـة التى أعـدها اللّه لهم وسط الجنـان «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ».

ويتّضـح من الاحـاديث أنّ جنات عـدن حـدائق خاصـة فى الجنـة سيسـتقر فيها النبى صـلى الله عليه و آله وجماعـة من خلّص أصـحابه وأتباعه.

بعـد ذلك تشـير الآيـة إلى الجزاء المعنوى المعـد لهؤلاء، وهو رضـى اللّه تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الاخرى «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».

إنّ اللذة المعنوية والإحساس الروحى الذى يحس ويلتذ به الإنسان عند شـعوره برضـى اللّه سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصـفه أى بشر.

وفى النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأنّ «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۳) جهاد الكفار والمنافقين: وأخيراً، صدر القرار الإلهى للنبى الأكرم صـلى الله عليه و آله فى وجوب جهاد الكفار والمنافقين بكل قوة وحزم «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» ولا تأخـذك بهم رأفـة ورحمـة، بـل شـدد «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ». وهـذا العقاب هو العقاب الـدنيوى، أمّا فى الآخرة فإنّ محلهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۹

إن طريقـة جهـاد الكفـار واضـحة ومعلومـة، فإنّ جهادهم يعنى التوسل بكل الطرق والوسائل فى سبيل القضاء عليهم، وبالـذات الجهاد المسلح والعمل العسكرى.

والمقصـود مـن جهـاد المنـافقين هـو الأشـكال والطرق الاـخرى للجهـاد غير الجهـاد الحربى والعسـكرى، كالـذم والتوبيـخ والتهـديد والفضيحة، وربّما تشير جملة «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلى هذا المعنى.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۷۴)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيـان: نزلت فى جلاـس بن سويـد بن الصـامت، وذلـك أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنـافقين فسـمّاهم رجساً وعابهم، فقال الجلاس: واللّه لئن كان محمّـد صادقاً فيما يقول، فنحن شـرّ من الحمير! فسـمعه عامر بن قيس فقال: أجل واللّه! إنّ محمّداً لصادق وأنتم شـر من الحمير! فلما انصـرف رسول اللّه صـلى الله عليه و آله إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فـأخبره بمـا قـال الجلاـس، فقال الجلاس: كـذب يا رسول اللّه. فأمرهما رسول اللّه أن يحلفا عنـد المنبر فقام الجلاس عنـد المنبر فحلف باللّه ما قال، ثم قام عامر فحلف باللّه لقد قاله. ثم قال: اللهم أنزل علىّ نبيّك الصادق منا الصدق. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون: آمين.

فنزل جبرائيل عليه السـلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ» فقام الجلاس، فقال: يا رسول اللّه أسمع اللّه قد

عرض علیّ التوبـة صدق عامر بن قیس فیما قال لک، لقد قلته وأنا أسـتغفراللّه وأتوب إلیه. فقبل رسول اللّه صـلی الله علیه و آله ذلک منه.

التّفسیر

مؤامرة خطرة: إنّ هذه الآیة تزیح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقین، وهو أنّ هؤلاء عندما رأوا أنّ أمرهم قد انکشف، انکروا ما نُسب إلیهم بل أقسموا بالیمین الکاذبة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۰

علی مـدّعاهم. فی البدایـة تـذکر الآیـة أنّ هؤلاـء المنـافقین لاـ یرتـدعون عن الیمین الکاذبـة فی تأییـد إنکارهم، ولـدفع التهمـة فإنّهم «یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» فی الوقت الـذی یعلمون أنّهم إرتکبوا ما نسب إلیهم من الکفر «وَلَقَدْ قَالُوا کَلِمَةَ الْکُفْرِ» وعلی هـذا فإنّهم قد إختـاروا طریق الکفر بعـد إعلانهم الإسـلام «وَکَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ». ومن البـدیهی أنّ هؤلاء لم یکونوا مسـلمین منـذ البدایـة، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، وعلی هذا فإنّهم بإظهارهم الکفر قد هتکوا ومزّقوا حتی هذا الحجاب المزیف الذی کانوا یتسترون به. وفوق کل ذلـک فقـد صـمّموا علی أمر خطیر لم یوفقوا لتحقیقه «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ یَنَالُوا» ویمکن أن یکون هـذا إشارة إلی تلک المؤامرة لقتل النبی صلی الله علیه و آله فی لیلـة العقبـة، والتی مرّ ذکرهـا آنفـاً، أو أنّه إشارة إلی کل أعمال المنافقین التی یسـعون من خلالها إلی تحطیم المجتمع الإسلامی وبثّ بذور الفرقة والفساد والنفاق بین أوساطه، لکنّهم لن یصلوا إلی أهدافهم مطلقاً.

الجملة الاخری تبین واقع المنافقین القبیح ونکرانهم للجمیل فتقول الآیة: إنّ هؤلاء لم یروا من النبی صـلی الله علیه و آله أی خلاف أو أذی، ولم یتضـرروا بأی شـیء نتیجة للتشریع الإسلامی، بل علی العکس، فإنّهم قد تمتعوا فی ظل حکم الإسلام بمختلف النعم المادیة والمعنویة «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ» وهذه قمة اللؤم.

غیر أنّ القرآن- کعـادته- رغم هـذه الأعمـال لم یغلق الأـبواب بوجه هؤلاء، بل فتـح باب التوبـة والرجوع إلی الحق علی مصـراعیه إن أرادوا ذلک، فقال: «فَإِن یَتُوبُوا یَکُ خَیْرًا لَّهُمْ».

وهـذه علامـة واقعیـة الإسـلام واهتمامه بمسألـة التربیـة، ومعارضـته لاسـتخدام الشـدّة فی غیر محلّها وهکـذا فتح باب التوبة حتی بوجه المنافقین الذین طالما کادوا للإسلام وتآمروا علی نبیّه وحاکوا الدسائس والتهم ضده، بل إنّه دعاهم إلی التوبة أیضاً.

وفی نفس الوقت ومن أجـل أن لا یتصور هؤلاء أنّ هـذا التسامـح الإسـلامی صادر من منطق الضـعف، حـذّرهم بأنّهم إن اسـتمروا فی غیهم وتنکّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشدید سینالهم فی الدّارین «وَإِن یَتَوَلَّوْا یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِیمًا فِی الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ» وإذا کانوا یظنون أنّ أحداً یسـتطیع أن یمدّ لهم ید العون مقابل العذاب الإلهی فإنّهم فی خطأ کبیر، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صـباح المنذرین: «وَمَا لَهُمْ فِی الْأَرْضِ مِن وَلِیٍّ وَلَا نَصِیرٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۱

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ (۷۵) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا کَانُوا یَکْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۷۸)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: نزلت فی ثعلبة بن حاطب، وکان من الأنصار، فقال للنبی صـلی الله علیه و آله أن ادع اللّه أن یرزقنی مالًا. فقال «یا ثعلبـة! قلیل تؤدّی شـکره، خیر من کثیر لا تطیقه، أما لک فی رسول اللّه اسوة حسـنة؟ والـذی نفسـی بیـده لو أردت أن تسـیر الجبـال معی ذهبـاً وفضـة، لسارت». ثم أتاه بعـد ذلک فقال: یا رسول اللّه ادع اللّه أن یرزقنی مالًا، والـذی بعثک بالحق لئن رزقنی اللّه مالًا، لأعطینّ کل ذی حق حقّه! فقال صلی الله علیه و آله: «اللهم ارزق ثعلبة مالًا».

قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نموّاً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلّااخت الجزية! فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» وأنزل اللّه الآيات.

التّفسير

المنافقون وقلّة الاستيعاب: هذه الآيات تشير إلى صفة اخرى من صفات المنافقين السيّئة، وهى أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس والفقر والمسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، إلّاأنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادى فإنّهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع اللّه والناس، ويغرقون فى حبّ الدنيا. فالآية الاولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا اللّه على البذل والعطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم اللّه المال الوفير: «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

إلّا أنّهم يؤكّدون هذه الكلمات والوعود مادامت أيديهم خالية من الأموال «فَلَمَّا ءَاتهُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۲

مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ» غير أنّ عملهم هذا ومخالفتهم للعهود التى قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق فى قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» وإنّما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». وفى النهاية وبّخت الآية هؤلاء النفر ولامتهم على النوايا السيئة التى يضمرونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنّهم: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلمُ الْغُيُوبِ».

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۹) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۸۰)

سبب النّزول

وردت عدّة روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- وربّما كان ذلك فى تبوك- وكان محتاجاً لمعونة الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبى صلى الله عليه و آله.

أمّا الفقراء، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلًا، فحصلوا على صاعين من التمر، وشاركوا بهذا الشىء اليسير- الذى لا قيمة له ظاهراً- فى هذا المشروع الإسلامى الكبير. غير أنّ المنافقين الذين لا- همّ لهم إلّاتتبع ما يمكن التشهير به بدلًا من التفكير بالمساهمة الجدية فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياءً وسمعة، وأمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلّاجهدهم، والذين قدموا اليسير وهو عند اللّه كثير، فإنّهم سخروا منهم بأنّ جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، وهددتهم تهديداً شديداً وحذرتهم من عذاب اللّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۳

التّفسير

خبث المنافقين: فى هذه الآيات إشارة إلى صفة اخرى من الصفات العامة للمنافقين، وهى أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف فى أعمال الآخرين واحتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير. لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التى يتبعها هؤلاء، وعرّفها للمسلمين لكى لا يقعوا فى

حبائل مكر المنافقين ومن ناحية اخرى أراد أن يفهم المنافقون أنّ سهمهم لا يصيب الهدف فى المجتمع الإسلامى. ففى البداية يقول: إنّ هؤلاء «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَايَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

والمراد من جملة: «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» أنّ اللّه سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنّه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده وسخروا منهم.

ونلاحظ فى الآية التى تليها تأكيداً أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، وتذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام وتحويله من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب هذه المرّة هو النبى صلى الله عليه و آله فقالت:

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

وإنّما لن يغفر اللّه لهم لأنّهم قد أنكروا اللّه ورسالة رسوله، واختاروا طريق الكفر، وهذا الاختيار هو الذى أرداهم فى هاوية النفاق وعواقبه المشؤومة «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». ومن الواضح أنّ هداية اللّه تشمل السائرون فى طريق الحق وطلب الحقيقة، أمّا الفساق والمجرمون والمنافقون فإنّ الآية تقول: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة فى القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند فى أىّ مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكّد دائماً- وفى كل الموارد- على أنّ الأساس هو نوع العمل وكيفيته.

المهم أنّ كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلّته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص فى العمل.

ومن هذه الواقعة تتّضح حقيقة اخرى، وهى أنّ المسلمين فى المجتمع الإسلامى الواقعى السالم يجب أن يحسّوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التى تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والمتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل والمصاعب، بل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۴

على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا فى حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانته.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (۸۳) يستمر الحديث فى هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم. فى البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد فى تبوك، وتعذّروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس فى البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك فى الحرب رغم أنّها مخالفة لأوامر اللّه ورسوله: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلفَ رَسُولِ اللَّهِ». وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم فى سبيل اللّه لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا «وَكَرِهُوا أَن يُجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

إلّا أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا فى تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة فى صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكلّ عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر الحَرّ! «وَقَالُوا لَاتَنفِرُوا فِى الْحَرّ».

ثم تتغير وجهة الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فيأمره اللّه سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة واسلوب قاطع: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ». لكنّهم للأسف لضعف إيمانهم، وعدم الإدراك الكافى لا يعلمون أيّة نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا وأشدّ حرقة وألماً.

وتشير الآية الثانية إلى أنّ هؤلاء ظنوا بأنّهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخذيلهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۵

هو حال المنافقين فى كل عصر وزمن، إلّاأنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال:

«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا».

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم: ليبكوا على العذاب الأليم الذى ينتظرهم: ليبكوا على أنّهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، وأخيراً ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الخزى والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفى نهاية الآية يبين اللَّه تعالى أنّ هذه العاقبة التى تنتظرهم هى «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة اخرى دقيقة وخطرة من طرق المنافقين، وهى أنّهم حينما يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامى، فإنّهم يُظهرون أعمالًا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم مما يستحقون من العقوبة، وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك. إنّ الآية الكريمة تقول: «فإن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا». أى إنّ النبى صلى الله عليه و آله يجب أن يزرع اليأس فى نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلى على أحد، ولن يُخدع بهم أحد.

جملة «طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ» توحى أنّ هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النبى صلى الله عليه و آله السماح لهم فى الخروج إلى الجهاد.

ثم تبين الآية أنّ سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم ب «إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ».

وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨۴) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨۵) بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم فى ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرّهم، أمر اللَّه سبحانه وتعالى نبيّه بأن يتبع أسلوباً أشدّ وأكثر صراحة ليقتلع وإلى الأبد- جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم فى المجتمع الإسلامى، وكخطوة عملية فى مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهى «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۶

إنّ هذا الأسلوب- فى الواقع- هو نوع من الكفاح السلبى الفاعل فى مواجهة المنافقين.

إنّ هذا البرنامج والأسلوب الدقيق كان قد أعد لمقابلة منافقى ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب. وفى آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهى ب «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ورغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم «وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ».

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا- حقيقة- بهذا البعد عن رحمة اللَّه، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أى ود أو محبّة تجاههم، فلماذا فضّلهم اللَّه تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

فى الآية الاخرى يوجه اللَّه سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبى: «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ». فإنّها ليست منحة ومحبّة من اللَّه تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإنّ هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ هـذه الآيـة تشير إلى حقيقة وهى أنّ هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هى- غالباً- سبب لإبتلائهم وتعاستهم، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم فى مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كى يكونوا قرة عين لهم ومعتمدهم فى حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالباً فى طريق الشهوات والمعاصى ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهى السبب فى غفلتهم عن اللّه سبحانه وتعالى، وكذلك أولادهم فى خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً فى تراكم البلايا والمصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أنّ الأصل فى سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة والقوة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلّاأنّنا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أنّ الأساس فى سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۷

وَ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَکُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ يَکُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (۸۷) لکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِکَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۸۹) دناءة الهمّة:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، فالآية الاولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول صلى الله عليه و آله الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد فى سبيل اللّه، فإنّهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوى الأعذار: «وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَکُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ».

وفى الآية التى تليها وبخ القرآن هؤلاء وذمّهم وقبّحهم بأنّهم «رَضُوا بِأَن يَکُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

والمقصود من «الخوالف» فى هذه الآية كل الذين عُذروا عن المشاركة فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان.

ثم أضافت الآية: بأنّ هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والنفاق وصلوا إلى مرحلة «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ».

ثم تحدثت الآية التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التى تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن أعمالهم الحسنة، وبالتالى عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة اولئك، فهى تقول: «لکِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ» فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية فى الدنيا والآخرة «وَأُولئِکَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الخيرات»: تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهى تشمل المادية منها والمعنوية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۸

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ «الإيمان» و «الجهاد» إذا اتحدا فى شخص، فسيصحبهما كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شىء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلّافى ظل هذين العامَلين.

وفى آخر آية من الآيات التى نبحثها إشارة إلى قسم من الجزاء الاخروى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهى تبشرهم بأنّهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» وتوكّد لهم بأنّ هذه المواهب والنعم سوف لا تفنى ولا تنفد، بل سيبقون «خَالِدِينَ فِيهَا»، ثمّ تبيّن أنّ «ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ کَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۹۰) فى هذه الآية- ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج- إشارة إلى وضع وواقع

مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد. ففى البداية تقول الآية أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين فى عدم الاشتراك فى الجهاد، فإنّهم حضروا بين يدى النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه أن يأذن لهم فى الجهاد:

«وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ». وفى مقابل ذلك فإنّ الفئة الاخرى التى كذبت على اللَّه ورسوله قد تخلف أفرادها دون أى عذر، «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وفى النهاية هددت الآية المجموعة الثانية تهديداً شديداً وأنذرتهم بأنّه «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيم».

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَنْ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۹۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۹

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ الآية الاولى نزلت فى عبد اللَّه بن زائدة وهو ابن أم مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: يا نبى اللَّه إنّى شيخ ضرير، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لى قائد فهل لى رخصة فى التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبى صلى الله عليه و آله، فأنزل اللَّه الآية.

والآية الثانية نزلت فى البكائين وهم سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللَّه! احملنا فإنّه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه».

التّفسير

هذه الآيات قسمت المسلمين فى مجال المشاركة فى الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الاولى تقول: إنّ الضعفاء، والعاجزين لكبر أو عمى أو نقص فى الأعضاء، والذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها ويستفيدون منها فى المشاركة فى الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامى المهم: «لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ».

هذه الأقسام الثلاث تعذر فى كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضى هذا التسامح، ومن المسلم أنّ القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل فى أى مورد.

«الحرج»: فى الأصل تعنى مركز اجتماع الشىء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم فى مكان ومركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق والإزعاج والمسؤولية والتكليف، ويكون معناها فى هذه الآية هو المعنى الأخير، أى المسؤولية والتكليف.

ثم بيّنت الآية شرطاً مهماً فى السماح لهؤلاء بالإنصراف، وهو إخلاصهم وحبّهم للَّه ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لذا قالت: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ». أى إنّ هؤلاء قادرون على استعمال سلاح الكلمة والسلوك الإسلامى الأمثل، وبهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۰

ويجب أن لا يقصروا فى هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة فى نفوس أفراده قدر المستطاع.

ثم تذكر الآية الدليل على هذا الموضوع، فتذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يألون جهداً فى عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو

يُوبّخوا أو يُعاقبوا، إذ «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ».

بعد ذلك اختتمت الآية بذكر صفتين عظيمتين من صفات اللّه عزّ وجل- وكل صفاته عظيمة- كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت:

«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«غفور»: مأخوذة من مادة الغفران، أى الستر والإخفاء، أى إنّ اللّه سبحانه وتعالى سيلقى الستار على أعمال هؤلاء المعذورين ويقبل أعذارهم، وكون اللّه «رحيماً» يقتضى أن لا يكلف أحداً فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، وإذا اجبر هؤلاء على الحضور فى ميدان القتال، فإنّ ذلك لا يناسب غفران اللّه ورحمته، وهذا يعنى أنّ اللّه الغفور الرحيم سيعفى هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم.

ثم تشير الآية إلى الفئة الرابعة من المعفو عنهم وهؤلاء هم الذين حضروا- بشوق- عند النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة فى الجهاد، فاعتذر النبى صلى الله عليه و آله بأنّه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً على ما فاتهم، وعلى أنّهم لا يملكون ما ينفقونه فى سبيل اللّه: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ».

«تفيض»: من مادة الفيضان، أى الإنسكاب والتساقط بعد الإمتلاء، فإنّ الإنسان إذا أهمه أمر أو دهمته مصيبة، فإذا لم تكن شديدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلأت دون أن تجرى، أمّا إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

أمّا آخر آية فتبين وضع الفئة الخامسة، وهم الذين لم يعذروا، ولن يُعذروا عند اللّه تعالى، فإنّهم قد توفرت فيهم كل الشروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهى الخطير، فجاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله يطلبون الإذن فى الإنصراف عن الحرب، فبينت الآية أنّهم سيؤاخذون بتهرّبهم ويعاقبون عليه: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۱

مختصر الامثل ج۲ ۳۳۹

وتضيف الآية بأنّ هؤلاء يكفيهم عاراً وخزياً أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين والمرضى رغم سلامتهم وقدرتهم، ولم يهتموا بأنّهم سيحرمون من فخر الإشتراك فى الجهاد: «رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

وكفى به عقاباً أن يسلبهم اللّه القدرة على التفكر والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم اللّه «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

تتّضح من هذه الآيات المعنويات القوية العالية لجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الاخرى التى كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره فى ذلك اليوم، وتخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (۹۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت الآيات فى جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلًا، ولما قدم النبى صلى الله عليه و آله المدينة راجعاً من تبوك قال:

«لا تجالسوهم، ولا تكلموهم».

التّفسير

تستمر هذه السلسلة من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين. الآية الاولى تبين للمسلمين أنّ هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۲

ثم يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله- باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين: «قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ» لأنّا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضمرون وما تعلنون، إذ:

«قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ». إلّاأنّه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ».

ثم قالت الآية: إنّ كل أعمالكم ونيّاتكم ستثبت اليوم فى كتبكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية التالية إشارة اخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ».

إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارةً يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالإعتذار، وتارةً يعترفون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى اسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ».

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليله عقّبت الآية بأنّ السبب فى الاعراض عن هؤلاء «إِنَّهُمْ رِجْسٌ»، ولأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ». إنّ كل العواقب السيئة التى سيلقونها إنّما يرونها «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآية الأخيرة التى نبحثها هنا إشارة إلى يمين اخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين: «يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ».

الملفت للنظر هنا أنّ اللَّه تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تُشم منه رائحة التهديد، إذ يقول عزّ وجل: «فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

لا شك أنّ هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إنّ الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية والغضب عليهم من أفكار وقلوب المسلمين، ليكونوا فى المستقبل فى مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۳

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفَاقاً وَ أَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۹۸) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۹) فى هذه الآيات الثلاث- استمراراً للبحث المتقدم حول منافقى المدينة- حديث وبحث حول وضع منافقى الأعراب- وهم سكان البوادى- وعلاماتهم وأفكارهم، وكذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخلص منهم.

وربّما كان السبب فى تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أنّ المنافقين هم- فقط- هؤلاء المتواجدون فى المدينة، بل إنّ المنافقين من الأعراب أشدّ وأقسى فالآية الاولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم والتربية، وعدم سماعهم الآيات الربانية وكلام النبى صلى الله عليه و آله، أشدّ كفراً ونفاقاً من مشابهيهم فى المدينة: «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا» ولهذا البعد والجهل فمن الطبيعى، بل الأولى أن يجهلوا الحدود والأحكام الإلهية التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله: «وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا

أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ».

كلمة «الأعراب» من الكلمات التى تعطى معنى الجمع، وهذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا اطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمة ويلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابى.

«أجدر»: فهى مأخوذة من الجدار، ومن ثم اطلقت على كل شىء مرتفع ومناسب، ولهذا فإنّ «أجدر» تستعمل- عادةً- بمعنى الأنسب والأليق.

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». أى: إنّه تعالى عندما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلأنّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن ومن أجل أن لا يُتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادى يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من الأعراب. ففى البداية تتحدث عن أنّ قسماً من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضعف إيمانهم- عندما ينفقون شيئاً فى سبيل اللَّه، فإنّهم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۴

يعتبرون ذلك ضرراً وخسارة لحقت بهم، لا أنّه توفيق ونصر وتجارة رابحة: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا» «۱». ومن الصفات الاخرى لهؤلاء أنّهم دائماً ينتظرون أن تحيط بكم المصائب والنوائب والمشاكل، ويرميكم الدهر بسهمه: «وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ».

«الدوائر»: جمع دائرة، ومعناها معروف، ولكن العرب يقولون للحادثة الصعبة والأليمة التى تحل بالإنسان: دائرة، وجمعها «دوائر».

فى الواقع أنّ هؤلاء أفراد ضيقو النظر، وبخلاء وحسودون.

ثم تقول الآية- بعد ذلك- إنّ هؤلاء ينبغى أن لا يتربصوا بكم، وينتظروا حلول المصائب والدوائر بكم، لأنّها فى النهاية ستحل بهم فقط: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ».

ثمّ تختم الآية الحديث بقولها: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، فهو تعالى يسمع كلامهم، ويعلم بنياتهم ومكنون ضمائرهم.

أمّا الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثانية من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ». ولهذا السبب فإنّهم لا يعتبرون الإنفاق فى سبيل اللَّه خسارة أبداً، بل وسيلة للتقرب إلى اللَّه ودعاء الرسول صلى الله عليه و آله لإيمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزيل الذى ينتظر المنفقين فى سبيل اللَّه: «وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ».

هنا يؤيّد اللَّه تعالى ويصدّق هذا النوع من التفكير، ويؤكّد على أنّ هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من اللَّه قطعاً: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ» ولهذا «سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعثرات، فإنّ اللَّه سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۰۰)

---

(۱) «مغرم»: مأخوذة من مادة (غرم) على وزن (جرم)، وهى فى الأصل بمعنى ملازمة الشىء، ولهذه المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلّابأدائها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۵

هذه الآية تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون فى الإسلام والهجرة: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ».

الثانى: السابقون فى نصرة وحماية النبى صلى الله عليه و آله وأصحابه المهاجرين: «وَالْأَنصَارَ».

الثالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامى، فإنّهم

إرتبطوا بهؤلاء السابقين: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ».

والملفت للنظر هنا فقد قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة زوجة النبى صلى الله عليه و آله الوفية المضحية، وأمّا من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنّة قالوا: إنّ علياً عليه السلام أوّل من أسلم ولبّى دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: «رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنّ رضى اللَّه سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التى عملوها، ورضاهم عن اللَّه لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التى لا تدركها عقول البشر.

ومع أنّ الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهية، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال:

«وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ». ومن إمتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، وسيبقى هؤلاء «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». أىّ فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضى عنه، وقد وقّع على قبول أعماله؟

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (۱۰۱) مرّة اخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ». أى يجب أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين فى أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۶

ثمّ تضيف الآية بأنّ فى المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا فى النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوى خبرة فى النفاق: «وَمِن أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ».

«مردوا»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهى فى الأصل بمعنى التعرى والتجرد.

إنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهروا فى مصاف المؤمنين الحقيقين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير عن المنافقين الداخليين والخارجيين فى الآية يلاحظ جلياً، وربّما كان ذلك إشارة إلى أنّ المنافقين الداخليين أكثر تسلطاً على النفاق، وبالتالى فهم أشد خطراً، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقة، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجين، بل يراقبونهم أيضاً. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك: «لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ومن الطبيعى أنّ هذا إشارة إلى العلم الطبيعى للنبى صلى الله عليه و آله ولكن هذا لا ينافى أن يقف كاملًا على أسرارهم عن طريق الوحى والتعليم الإلهى.

وفى النهاية تبين الآية صورة العذاب الذى سيصب هؤلاء: «سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ».

إنّ العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، وفى نوعية العذابين الآخرين وماهيتهما الذى يرجّحه النظر أنّ واحداً من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعى لهؤلاء، والمتمثل فى فضيحتهم وهتك أسرارهم، والكشف عمّا فى ضمائرهم من خبيث النوايا.

والعذاب الثّانى هو ما أشارت إليه الآية (۵۰) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك:

«وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۰۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أنّهم ثلاثة نفراً من الأنصار: أبو لبابة بن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۷

عبـد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام، تخلّفوا عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل اللَّه فيمن تخلف عن نبيّه، أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسـهم بسوارى المسجد، فلم يزالوا كـذلك حتى قدم رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، فسأل عنهم، فذكر له أنّهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسـهم حتى يكون رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يحلّهم وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «وأنا أقسم لا أكون من حلّهم إلّاأن اؤمر فيهم بأمر». فلما نزل «عَسَـى اللَّهُ أن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إليهم، فحلّهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول اللَّه، فقالوا: هـذه أموالنا التى خلفتنا عنك فخـذها، وتصدّق بها عنّا. قال صـلى الله عليه و آله: «ما امرت فيها». فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» الآيات.

التّفسير

بعـد أن أشـارت الآيـة السابقـة إلى وضع المنـافقين فى داخل المدينـة وخارجها، أشارت هـذه الآيـة هنا إلى وضع جمع من المسـلمين العاصـين الـذين أقـدموا على التوبـة لجبران الأعمال السـيئة التى صدرت منهم، ورجاء لمحوها: «وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» ويشملهم برحمته الواسعة ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَک سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) الزكاة مطهرة للفرد والمجتمع: فى الآيـة الاولى من هـذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمة، وهى مسألة الزكاة، حيث تأمر النبى صلى الله عليه و آله بشكل عام أن: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً».

إنّ حكم «خـذ» دليل واضـح على أنّ رئيس الحكومـة الإسـلامية يسـتطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزكاة، وإلّا فلا.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول: «تُطَهّرُهُمْ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۸

وَتُزَكّيهِم بِهَا». فهى تطهرهم من الرذائل الأخلاقيـة، ومن حبّ الـدنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوىء الأخلاق، وتزرع مكانها خلال الحب والسـخاء ورعايـة حقوق الآخرين فى نفوسـهم. وفوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية والانحطاط الخلقى والاجتماعى المتولد من الفقر والتفاوت الطبقى والذى يؤدّى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الامور سـتقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية وأدائها.

ثم تضيف الآية فى خطابها للنبى صلى الله عليه و آله بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم «وَصَلّ عَلَيْهِمْ». إنّ هذا يدل على وجوب شكر النـاس وتقـديرهم، حـتى إذا كـان مـايؤدونه واجبـاً عليهم وحكمـاً شـرعياً يقومـون به، وترغيبهم بكـل الطرق، وخاصـة المعنـوية والنفسية.

فى المجمع روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللّهمّ صلّ عليهم».

ثم تقول الآية: «إِنَّ صَلَوتَک سَكَنٌ لَّهُمْ» لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

وفى نهاية الآية نقرأ: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فى الآية، إذ إنّ اللَّه سبحانه يسمع دعاء النبى صلى الله عليه و آله، ومطلع على نيات المؤدين للزكاة.

ولما كان بعض المذنبين- كالمتخلفين عن غزوة تبوك- يصـرّون على النبى صـلى الله عليه و آله فى قبول توبتهم، أشارت الآية الثانية من الآيات التى بين يـدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنبى صـلى الله عليه و آله، بل باللَّه الغفور الرحيم، لذا قالت: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». ولا ينحصـر الأمر بتوقف قبول التوبـة على قبول اللَّه لها، بل إنّه تعالى هو الـذى يأخذ الزكاة والصدقات

الاخرى التى يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: «وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ».

إنّ هـذا التعبير من ألطف التعبيرات التى تجسّد عظمة هذا الحكم الإسـلامى- أى الزكاة- فبالرغم من ترغيب كل المسـلمين ودعوتهم إلى القيام بهـذه الوظيفـة الإلهيـة الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة وتأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسـلامية ويتقيّدوا باحترام من يؤدّونها إليه، لأنّ من يأخذها هو اللّه عزّ وجل.

فى المجمع عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ الصدقة تقع فى يد اللّه قبل أن تصل إلى يد السائل».

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شىء إلّاوكّل به ملك إلّاالصدقة فإنّها تقع فى يد اللّه».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۹

ثم قالت الآية فى النهاية من باب التأكيد: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وتؤكّـد الآيـة التى تليهـا البحوث التى مرّت بصورة جديـدة، وتـأمر النبى صـلى الله عليه و آله أن يبلغ النـاس: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ». فهى تشـير إلى أن لاـ يتصور أحـد أنّه إذا عمل عملًا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سـيخفى على علم اللّه سبحانه، بل إنّ الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين يعلمون به إضافةً إلى علم اللّه عزّ وجلّ.

إنّ هـذا الإطلاع هو مقدمـة للثواب أو العقاب الـذى ينتظره فى العالم الآخر، لـذا فإنَّ الآيـة الكريمـة تعقب على ذلك مباشـرة وتقول: «وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

مسألـة عرض الأعمال: إنّ بين أتباع مـذهب أهل البيت عليهم السـلام ونتيجـة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّـة عليهم السـلام عقيـدة معروفـة ومشـهورة، وهى أنّ النبى صـلى الله عليه و آله والأئمّـة عليهم السـلام يطلعون على أعمال كل الامّـة، أى أنّ اللّه تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصه عليهم.

إنّ مسألـة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقـدين بها، فإنّى إذا علمت أنّ اللّه الموجود فى كل مكان معى، وبالإضافـة إلى ذلك فإنّ نبيي وأئمتى عليهم السـلام يطلعون على كل أعمالى، الحسـنة والسـيئة فى كل يوم، أو فى كل اسـبوع، فلا شك أنّى سأكون أكثر مراقبة ورعاية لما يبدر منّى من أعمال، وأحاول تجنب السيئة منها ما أمكن.

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان: نزلت الآيـة فى (ثلاثـة من المتخلفين عن تبـوك وهم:) هلاـل بن اميـة الـواقفى، ومرارة بن ربيـع، وكعب بن مالـك، وهم من الأوس والخزرج وكـان كعب بن مالـك رجل صـدق غير مطعون عليه، وإنّما تخلف توانياً عن الإسـتعداد، حتى فاته المسير وانصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: واللّه ما لى من عذر ولم يعتذر إليه بالكذب فقال صلى الله عليه و آله:

«صدقت، فمر حتى يقضـى اللّه فيك». وجاء الآخران فقالا مثل ذلك وصدقا. فنهى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله عن مكالمتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسـين ليلـة وبنى كعب خيمة على سـلع يكون فيها وحده. ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين فى الليل وهو قوله تعالى «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلّفُوا» الآية (۱۱۸) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۰

التّفسير

فى هـذه الآيـة إشارة إلى مجموعـة من المـذنبين الـذين لم تتّضـح جيـداً عاقبة أمرهم، فلا هم مسـتحقون حتماً للرحمة الإلهية، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى حقّهم: «وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ».

وتضيف الآية- بعد ذلك- أنّ اللّه سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضى بعلمه وحكمته: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْـجِداً ضِرَاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى

وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۰۷) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (۱۰۸) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰۹) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۱۰)

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة اخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد فی المدينة، عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

فی تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنّ بنی عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلی رسول اللَّه صلی الله عليه و آله أن يأتيهم فأتاهم وصلّی فيه فحسدهم عن جماعة من المنافقين من بنی غنم بن عوف، فقالوا: نبنی مسجداً فنصلّی فيه ولا نحضر جماعة محمّد. فبنوا مسجداً إلی جنب مسجد قباء فلما فرغوا منه، أتوا رسول اللَّه صلی الله عليه و آله وهو يتجهّز إلی تبوك فقالوا: يا رسول اللَّه! إنّا قد بنينا مسجداً لذی العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّی فيه لنا وتدعو بالبركة. فقال: «إنّی علی جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۱

فصلّينا لكم فيه». فلما انصرف رسول اللَّه من تبوك، نزلت عليه الآية فی شأن المسجد.

وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبی صلی الله عليه و آله بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلًا لرمی القاذورات والأوساخ.

التّفسير

معبد وثنی فی صورة مسجد: أشارت الآيات السابقة إلی وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، وتُعرّف الآيات التی نبحثها مجموعة اخری منهم، المجموعة التی دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة وذكية، إلّاأنّ اللطف الإلهی أدرك المسلمين، وبدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم. فالآية الاولی تقول: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا» وأخفوا أهدافهم الشريرة تحت هذا الإسم المقدس، ثم لخصت أهدافهم فی أربعة أهداف:

۱- إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم «ضِرَارًا».

۲- تقوية اسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلی الحالة التی كانوا يعيشونها قبل الإسلام: «وَكُفْرًا».

۳- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين فی هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع فی مسجد قبا الذی كان قريباً منه، أو مسجد النبی صلی الله عليه و آله الذی كان يبعد عنه «وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويظهر من هذه الجملة- وكذلك فهم بعض المفسرين- أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع فی مسجد علی جماعة المسجد الآخر.

۴- والهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر ومركز لإيواء المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئة، والإنطلاق من هذا المقر فی سبيل تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: «وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ».

إلّا أنّ مما يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة والأهداف المشؤومة فی لباس جميل ومظهر خداع، وأنّهم لايريدون إلّاالخير: «وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى .

إلّا أنّ القرآن الكريم يبين أنّ اللَّه تعالی الذی يعلم السرائر وما فی مكنون الضمائر، والذی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۲

تساوی لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد علی كذب هؤلاء: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». يؤكد اللَّه سبحانه وتعالی فی الآية

التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمة، ويأمر نبيّه بصراحة أن «لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» بل «لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ» لا المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ».

إنّ للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك والذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ والنجاسات.

وفى الآية الثالثه من الآيات مقارنة بين فريقين وفئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة والفساد. فهى تقول أوّلًا: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ».

إنّ التشبيه الوارد أعلاه يعطى صورة فى منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين وتزلزلها، وفى المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم.

ومن هنا، فإنّ المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإنّ الآية اختتمت بقوله: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وفى آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهى تعبّر عن تعصبهم وإصرارهم فى أعمالهم، وعنادهم فى نفاقهم، وحيرتهم فى ظلمة كفرهم، فهم فى شك من بنيانهم الذى بنوه، أو فى النتيجة المرجوة منه، وسيبقون فى هذه الحال حتى موتهم: «لَايَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ».

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فإنّه تعالى إنّما أمر نبيّه صلى الله عليه و آله بهدم هذا البناء الذى يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبيّن نيّات السوء التى انطوى عليها هؤلاء، وتنكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهى هو عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامى، وقد صدر على هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۳

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۱) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۲) لمّا كان الكلام فى الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع. لقد عرّف اللَّه سبحانه وتعالى نفسه فى هذا المثال بأنّه مشترٍ، والمؤمنين بأنّهم بائعون، وقال: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ».

ولمّا كانت كل معاملة تتكون فى الحقيقة من خمسة أركان أساسية، فقد أشار اللَّه سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة، والجنة ثمناً لهذه المعاملة، غاية ما فى الأمر أنّه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: «يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ».

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذى يشكل الركن الخامس فيها، فقال:

«وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَيةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ».

ثم، ومن أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ». أى إنّ ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلًا، إلّاأنّه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ اللَّه تعالى لقدرته واستغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده.

والأروع من كل شىء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون صفقة وفيرة الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ وجل: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۴

كما هى طريقة القرآن المجيد، حيث إنّه يُجمِل الكلام فى آية، ثم يعمد إلى التفصيل فى الآية التى تليها، فقد بيّن سبحانه فى الآية الثانية حال البائعين للروح والمال لربّهم عزّ وجل، فذكر تسع صفات مميزة لهم: ۱- فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: «التّئِبُونَ».

۲- وهم يطهرون أنفسهم فى نفحات الدعاء والمناجاة مع ربّهم: «الْعبِدُونَ».

۳- وهم يحمدون ويشكرون كل نعم اللّه المادية والمعنوية: «الْحمِدُونَ».

۴- وهم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: «السِحُونَ».

وبهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر فى العبادة، أو فى إطار محدود، بل إنّ كل مكان هو محل عبادة للّهوجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

۵- وهم يركعون مقابل عظمة اللّه: «الرَّاكِعُونَ».

۶- ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: «السَّاجِدُونَ».

۷- وهم يدعون الناس لعمل الخير: «الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

۸- ولم يقتنعوا بهذه الدعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

۹- وبعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعى، أى حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين اللّه، وإقامة الحق والعدالة:

«وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ».

وبعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ اللّه يرغّب- مرّة اخرى- أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان والعمل، ويقول للنبى صلى الله عليه و آله: «وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۱۳) وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۵

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ المسلمين قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا فى الجاهلية؟ فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية وبيّن أنّه لا ينبغى لنبى، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له.

التّفسير

نهت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهى تقول: «مَا كَانَ لِلنَّبِىّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ». ولكى تؤكّد ذلك قالت:

«وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى .

ثم أنّ القرآن الكريم بيّن سبب ودليل هذا الحكم فقال: «مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

فإنّ هذا العمل- أى الاستغفار للمشركين- عمل لا معنى له وفى غير محله، لأنّ المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، ولا سبيل لنجاة من سار فى طريق الشرك.

ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جدّاً أن يتبادر إلى اذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهياً عنه فكيف يفعله هذا النبى الكبير؟

لهذا نرى أنّ الآية الثانية تتطرق لهذا السؤال وتجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وفى آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدى اللَّه عزّ وجلّ، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: «إِنَّ إِبْرهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».

ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء: إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التى تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات فى القرآن الكريم أنّ كل إرتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى اللَّه ومحاربة كل أشكال الشرك والوثنية، كل أشكاليات الترابط بين المسلمين، لأنّ هذا الإرتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۱۶

العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱۵) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۱۱۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول اللَّه! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» الآية.

التّفسير

إنّ الآية الاولى تشير إلى قانون كلّى وعام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى مادام لم يبيّن حكماً، ولم يصل شىء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبتعبير آخر: فإنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو الذى يعبر عنه فى علم الاصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان). ولذلك فأوّل ما تطالعنا به الآية قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ».

وأخيراً تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». أى إنّ علم اللَّه يحتم ويؤكد على أنّ اللَّه سبحانه مادام لم يبين الحكم الشرعى لعباده، فإنّه سوف لايؤاخذهم أو يسألهم عنه.

وتستند الآية التالية على هذه المسألة وتؤكد: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» وأنّ نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنّه هو الذى «يُحْيِ وَيُمِيتُ» وعلى هذا: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ». وهو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات والحكومات فى عالم الوجود بيده، وخاضعة لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلوا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن اللَّه وإلى أعدائه وتوادّوهم، وتوثّقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۱۷

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همّ قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف اللَّه سبحانه.

وأمّا الآية الثانية: فإنّها نزلت فى شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن امية وذلك أنّهم تخلفوا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبى صلى الله عليه و آله المدينة، جاؤوا إليه، واعتذروا، فلم يكلّمهم النبى صلى الله عليه و آله وتقدم إلى المسلمين بأن لا يكلّمهم أحد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام، ولا يكلّمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلّمنا أحد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً! فتفرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً، يتضرعون إلى اللَّه تعالى، ويتوبون إليه فقبل اللَّه تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

التّفسير

تتحدّث هذه الآيات أيضاً عن غزوة تبوك، فتشير الآية الاولى إلى رحمة اللَّه اللامتناهية التى شملت النبى صلى الله عليه و آله والمهاجرين والأنصار فى اللحظات الحساسة، وتقول:

«لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ».

ثم تُبين أنّ شمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان فى وقت اشتدت فيه الحوادث والضغوط والاضطرابات إلى الحد الذى أوشكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: «مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۸

ثم تؤكّد مرّة اخرى على أنّ اللَّه سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». ولم تشمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الذى شارك فى الجهاد فقط، بل شملت حتى الثلاثة الذين تخلفوا عن القتال ومشاركة المجاهدين فى ساحة الجهاد: «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلّفُوا».

إلّا أنّ اللطف الإلهى لم يشمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء- وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، الذين مرّ شرح حالهم فى سبب النزول- مقاطعةً اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التى تصورها الآية، فتقول: «حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ».

بل إنّ صدور هؤلاء امتلأت همّاً وغمّاً بحيث ظنوا أن لا مكان لهم فى الوجود، فكأنّه ضاق عليهم «وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ» فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم فأيقنوا «وَظَنُّوا أَن لَّامَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» فأدركتهم رحمة اللَّه مرّة اخرى، وسهلت ويسّرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (۱۱۹) كونوا مع الصادقين: فى الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع اللَّه ورسوله، أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهى تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه. فى البداية تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ». ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى الملىء بالمنعطفات والاخطار بدون اشتباه وانحراف أضافت: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

والصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان باللَّه على أحسن وجه دون أى تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يُثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض فى قمّتها، وهم الذين نسمّيهم بالمعصومين، والبعض فى درجات أقل وأدنى

منها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۹

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۲۰) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۱)

كان البحث فى الآيات السابقة حول توبيخ وملامة الممتنعين عن الاشتراك فى غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائى لهذا الموضوع كقانون كلّى. فالآية الاولى تقول:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ» لأنّه قائد الامّة، ورسول اللّه، ورمز بقاء وحياة الامّة الإسلامية.

من البديهى أنّ التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلّا فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنّبى صلى الله عليه و آله فإنّ واجب كل المسلمين، وفى جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويبذلون قصارى جهدهم فى سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذى يحدق بهؤلاء يحدق بالامّة جميعاً.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها فى طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صلِحٌ». ومن المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من اللّه سبحانه، واحدة بواحدة، ف «إِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». وكذلك فإنّهم لا يبذلون شيئاً فى أمر الجهاد:

«وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» ولا يقطعون أرضاً فى ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلّاثبت كل ذلك فى كتبهم: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» وإنّما يثبت ذلك «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۰

وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۱۲۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا خرج غازياً، لم يتخلف عنه إلّا المنافقون والمعذرون. فلما أنزل اللّه تعالى عيوب المنافقين، وبيّن نفاقهم فى غزاة تبوك، قال المؤمنون: واللّه لا نتخلف عن غزاة يغزوها رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولا سرية أبداً! فلما أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحده فأنزل اللّه سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا» الآية.

التّفسير

محاربة الجهل وجهاد العدو: إنّ لهذه الآية إرتباطاً بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، وهى: أنّ الجهاد وإن كان عظيم الأهمية، والتخلف عنه ذنب وعار، إلّاأنّه فى غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنين كافة إلى ساحات الجهاد، خاصة فى الموارد التى يبقى فيها النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين ويتوجه الباقون إلى الجهاد: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدّينِ».

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، ويحذرونهم من مخالفتها: «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا

رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» والهدف من ذلک أن یحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر اللّه سبحانه بانذارهم «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

المسألة المهمة التی یمکن استخلاصـها من الآیة، هی الأهمیة الخاصة التی أولاها الإسلام لمسألة التعلیم والتعلم، إلی الدرجة التی ألزم فیها المسلمین بأن لا یذهبوا جمیعاً إلی میدان الحرب، بل یجب أن یبقی قسم منهم لتعلم الأحکام والمعارف الإسلامیة.

إنّ هـذا یعنی أنّ محاربة الجهل واجب کمحاربة الأعداء، ولا تقل أهمیة أحد الجهادین عن الآخر. بل إنّ المسـلمین مالم ینتصـروا فی محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع فإنّهم سوف لا ینتصرون علی الأعداء (لأنّ الامة الجاهلة محکومة بالهزیمة دائماً).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۱

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۲۳) قتـال الأقرب فالأقرب: أشارت الآیـة فی سیاق أحکام الجهاد التی ذکرت لحـد الآن فی هذه السورة- إلی أمرین آخرین فی هذا الموضوع الإسـلامی المهم، فوجهت الخطاب أوّلًا إلی المؤمنین وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ».

إنّ هـذه الآیـة بالرغم من أنّها تتحـدث عن العمل المسـلح والبعد المکانی، إلّاأنّه لیس من المسـتبعد أنّ روح الآیة حاکمة فی الأعمال المنطقیـة والفواصل المعنویـة، أی إنّ المسـلمین عندما یعزمون علی المجابهة المنطقیة والإعلامیة والتبلیغیة یجب أن یبدؤوا بمن یکون أقرب إلی المجتمع الإسـلامی وأشدّ خطراً علیه، فمثلًا فی عصـرنا الحاضـر نری أنّ خطر الإلحاد والمادیة یهدد کل المجتمعات، فیجب تقـدیم التصـدّی لها علی مواجهـة المـذاهب الباطلـة الاخری وهذا لا یعنی نسـیان هؤلاء، بل یجب اعطاء الأهمیة القصوی للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهکذا فی مواجهة الاستعمار الفکری والسیاسی والاقتصادی التی تحوز الدرجة الاولی من الأهمیة.

والأـمر الثـانی فیمـا یتعلق بالجهـاد فی الآیـة، هو اسلوب الحزم والشـدّة، فهی تقول: إنّ العـدو یجب أن یلمس فی المسـلمین نوعاً من الخشونة والشدّة: «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» وهی تشیر إلی أنّ الشجاعة والشهامة الداخلیة والإستعداد النفسی لمقابلة العدو ومحاربته لیست کافیـة بمفردهـا، بـل یجب اظهـار هـذا الحزم والصـلابة للعـدو لیعلم أنّکم علی درجـة عالیـة من المعنویات، وهـذا بنفسه سـیؤدّی إلی هزیمتهم وانهیار معنویاتهم.

وبعبارة اخری فإنّ امتلاک القدرة لیس کافیاً، بل یجب استعراض هذه القوة أمام العدو.

وفی النهایـة تبشـر الآیة المسـلمین بالنصـر من خلال هذه العبارة: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». ویمکن أن یشـیر هذا التعبیر- إضافةً لما قیل- إلی أنّ استعمال الشدّة والخشونة یجب أن یقترن بالتقوی، ولا یتعدی الحدود الإنسانیة فی أی حال.

وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هـذِهِ إِيمَانـاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (۱۲۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۲

تـأثیر آیـات القرآن المتبـاین علی القلوب: تشیر هاتـان الآیتان إلی واحـدة من علامات المؤمنین والمنافقین البارزة، تکملةً لما مرّ من البحوث حولهما. فتقول أوّلًا: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هـذِهِ إِيمنًا». وهم یریـدون بکلامهم هـذا أن یبینوا عدم تـأثیر سور القرآن فیهم، وعـدم اعتنـائهم بها، ویقولون: إنّ هـذه الآیات لا تحتوی علی الشـیء المهم والمحتوی الغنی، بل هی کلمات عادیة ومعروفة.

ولکن القرآن یجیبهم بلهجة قاطعة، ویقول ضمن تقسیم الناس إلی طائفتین: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

وهذا علی خلاف المنافقین ومرضی القلوب من الجهل والحسد والعناد «وأَمَّا الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ».

وفی النهایة فإنّ هؤلاء بعنادهم یغادرون الدنیا علی الکفر: «وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ القرآن الکریم یؤکّـد من خلال هاتین الآیتین علی حقیقـة، وهی أنّ وجود البرامج والقوانین الحیاتیة لا تکفی بمفردها لسـعادة فرد أو جماعة، بل یجب أن یؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضیة المهیئة والإستعداد للتلقی کشرط أساسی.

أَ وَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۱۲۷) يستمر الكلام فى هذه الآيات حول المنافقين، وهى توبّخهم وتذمهم فتقول: «أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ». والعجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون «ثُمَّ لَايَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ».

يظهر من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم، بل انّ هذا الاختبارات التى ينبغى أن تكون سبباً فى توعية هذه المجموعة كإزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم.

ثم تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهية، فتقول: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۲۳

إنّ خوف هؤلاء وقلقهم ناشى من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئاً لعمى قلوبهم، والإنسان عدوّ ما يجهل.

وعلى كل حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهية، إلّا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه ويسأله: «هَلْ يَرَيكُم مِّنْ أَحَدٍ»؟ وإذا ما أطمأنوا إلى أنّ الناس منشغلون بسماع كلام النبى صلى الله عليه و آله وغير ملتفتين إليهم خرجوا: «ثُمَّ انصَرَفُوا».

وتطرّقت الآية فى الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا يريدون سماع كلمات اللَّه سبحانه ولا يرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم ومعاصيهم فصرفها اللَّه سبحانه عن الحق، وأصبحوا أعداءً للحق لأنّهم أناس جاهلون لا فكر لهم: «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ».

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹) آخر آيات القرآن المجيد: إنّ هذه الآيات برأى بعض المفسّرين، هى آخر الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله وبها تنتهى سورة التوبة، فهى فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التى مرّت فى هذه السورة. ومن هنا فإنّ خطاب الآية الاولى موجّه للناس، فهى تقول: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ». خاصة وأنّه قد وردت لفظة «مّنْ أَنفُسِكُمْ» وهى تشير إلى شدة إرتباط النبى صلى الله عليه و آله بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس والمجتمع قد ظهرت بشكل النبى صلى الله عليه و آله.

فبعد ذكر هذه الصفة «مّنْ أَنفُسِكُمْ» أشارت الآية إلى أربع صفات اخرى من صفات النبى صلى الله عليه و آله السامية، والتى لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحريك أحاسيسهم. ففى البداية تقول: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ». أى أنّ الأمر لا ينتهى فى أنّه لا يفرح لأذاكم ومصاعبكم، بل إنّه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم لألمكم.

ثم تضيف أنّه: «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» ويتحمس لهدايتكم.

ثم تشير إلى الصفتين الثالثه والرابعة وتقول: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». وعلى هذا فإنّ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۲۴

كل الأوامر الصعبة التى يصدرها، (حتى المسير عبر الصحارى المحرقة فى فصل الصيف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوى فى غزوة تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته ولطفه، لنجاتكم ولتخليصكم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصى والتعاسة.

وفى الآية التى تليها، وهى آخر آية فى هذه السورة، وصف للنبى صلى الله عليه و آله بأنّه شجاع وصلب فى طريق الحق، ولا ييأس بسبب عصيان الناس وتمردهم، بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهو حصنه الوحيد ... أجل لا حصن لى إلّا اللَّه، فإليه استندت و «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

إنّ الـذى بيـده العرش والعالم العلوى وما وراء الطبيعـة بكلّ عظمتها، وهى تحت حمايته ورعايته، كيف يتركنى وحيداً ولا يعيننى على الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلية مقاومة قدرته؟ أم يمكن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

«نهاية تفسير سورة التوبة»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۵

۱۰. سورة يونس

محتوى وفضيلة السورة: هـذه السورة- على قول بعض المفسّرين- نزلت بعد سورة الإسـراء وقبل سورة هود، وتؤكّد على عدة مسائل أساسية، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد.

غايـة ما فى الأمر أنّها تتحـدث أوّلًا عن مسألـة الوحى ومقام النبى صـلى الله عليه و آله، ثمّ تتطرق إلى نماذج وعلامات الخلقة العظيمة التى تـدل على عظمـة اللَّه عزّ وجلّ، وبعـد ذلك تـدعو الناس إلى الإلتفات إلى عدم بقاء الحياة المادية فى هذه الدنيا، وحتمية زوالها، ووجوب التوجه إلى الآخرة والتهيؤ لها عن طريق الإيمان والعمل الصالح.

وقـد ذكرت السورة- كـدلائل وشواهـد على هـذه المسائـل- أقساماً مختلفـة من حياة كبار الأنبياء، ومن جملتهم نوح وموسـى ويونس عليهم السلام ولهذا سمّيت بسورة يونس.

وأخيراً فإنّهـا تسـتغل كـل فرصـة للبشـارة والإنـذار، البشـارة بـالنعم الإلهيـة التى لاـ حـدود لها للصالحين، والإنـذار والإرعاب للطاغين والعاصين، لتكملة ما ورد فيها من بحوث.

فى كتـاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «من قرأ سورة يونس فى كل شـهرين أو ثلاثـة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين». وذلك لأنّ آيات التحذير والوعيد وآيات التوعية كثيرة فى هذه السورة.

ربّما لا نحتاج أن نذكّر بأنّ فضائل السور لا يمكن تحصيله بمجرد تلاوة الآيات من دون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۶

إدراك معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأنّ التلاوة مقدمة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيم (۱) أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (۲) رسالـة النبى: فى هذه السورة نواجه- مرّة اخرى- الحروف المقطعة فى القرآن، والتى ذكرت بصورة «الر». بعد هذه الحروف تشير الآية أوّلًا إلى عظمة آيات القرآن وتقول:

«تِلْكَ ءَايتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ». إنّ التعبير ب «تلك» وهى إسم إشارة للبعيـد، بدل (هذه) التى تشـير للقريب، والذى جاء نظيره فى بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة فى القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن.

إنّ توصـيف الكتاب السـماوى- أى القرآن- بأنّه «حكيم» هو إشارة إلى أنّ آيات القرآن محكمـة ومنظمة ودقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالطها أىّ شكل من أشكال الباطل والخرافة، فهى لا تقول إلّاالحق، ولا تدعو إلّاإلى طريق الحق.

أمّـا الآيـة الثانيـة فإنّهـا تبيّن- ولمناسـبة تلـك الإشـارة التى مرّت إلى القرآن والوحى الإلهى فى الآيـة السابقـة- واحـداً من إشـكالات المشركين على النبى صلى الله عليه و آله وهو نفس الإشكال الذى جاء فى القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبيّن أنّ هذا الإشكال من إشـكالات المشـركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحى الإلهى من اللَّه على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ».

إنّ كلمـة «منهـم» تضـمنت الجـواب على سؤالهم، أى إنّ القائـد والمرشـد إذا كـان مـن جنس أتبـاعه، ويعلم أمراضـهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحى الإلهى وتلخصه فى أمرين:

الأوّل: إنّ الوحى الذى أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۷

والمعاصى: «أن أَنذِرِ النَّاسَ».

والثانى: هو «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبّهِمْ».

إنّ «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أنّ الإيمان له «سابقة فطرية» أو إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، أو أنّ القدم بمعنى القدوة والزعيم والقائد، أى إنّنا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

وأن تكون البشارة بكل هذه الامور هى المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهى الآية حديثها بذكر إتهام طالما كرّره المشركون واتهموا به النبى صلى الله عليه و آله فقالت: «قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ».

إنّ أمثال هذه التعبيرات التى كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النبى صلى الله عليه و آله دليل بنفسها على أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصه وأنّ التأكيد على السحر فى شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوى على الجاذبية الخارقة الموجودة فى هذا الكتاب السماوى، ولأجل خداع الناس فإنّهم كانوا يجعلونه فى إطار السحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۳) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۴) معرفة اللّه والمعاد: بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحى والنبوة فى بداية هذه السورة، انتقل فى حديثه إلى أصلين أساسيين فى تعليمات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبيّن هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة فى هاتين الآيتين.

فيقول أوّلًا: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى إنّ اللّه سبحانه قد خلق السماء والأرض فى ستة مراحل.

ثم تضيف الآية: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبّرُ الْأَمْرَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۸

«العرش»: تأتى أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشىء الذى له سقف، وتارةً بمعنى الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلى لها، أمّا معناها المجازى فهو القدرة. وبعد أن تبيّن أنّ الخالق والموجد هو اللّه سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام- هذه الموجودات الميتة والعاجزة- لا يمكن أن يكون لها أىّ تأثير فى مصير البشر، ولهذا قالت الآية فى الجملة التالية: «مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ».

وتتحدث الآية التالية- كما أشرنا- عن المعاد، وتبيّن فى جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها. فتقول أوّلًا: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا». وبعد الإستناد إلى هذهالمسألة المهمة والتأكيد عليها تضيف: «وَعْدَ اللَّهُ حَقًّا». ثم تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: «إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ».

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد فى القرآن توضح أنّ العلة الأساسية فى تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هى أنّهم كانوا يشكّون فى إمكان حدوث مثل هذا الشىء، وكانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التى تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الاولى؟ ولهذا نرى أنّ القرآن يقول: فإنّ من أوجد العالم فى البداية يستطيع أن يعيد ذلك الايجاد.

ثم تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على اللّه سبحانه مهما صغرت: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصلِحتِ بِالْقِسْطِ». أمّا اولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنّ الإعتقاد

الصالح أساس العمل الصالح- فإنّ العذاب الأليم وأنواع العقوبات بانتظارهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) جانب من آيات عظمة اللَّه: لقد مرّت فى الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۹

والمعاد، إلّاأنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء. لقد أشارت الآية الاولى التى نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة اللَّه سبحانه فى عالم الخلقة فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

إنّ الشمس التى تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هى العامل الأساس فى نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شىء فى فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح لليالينا المظلمة، ولا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلًا وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة اخرى لوجود القمر فقالت: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ». بل إنّه تقويم طبيعى دقيق جدّاً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تأريخ أعماله وامور حياته.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملًا غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وفى النهاية تؤكد الآية: «يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إلّاأنّ هؤلاء الغافلين وفاقدى البصيرة بالرغم من أنّهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلّاأنّهم لا يدركون أدنى شىء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: «إِنَّ فِى اخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». أى إنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصى.

لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات اللَّه سبحانه، وذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر فى إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذى تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۰

وكذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شىء سينجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ اللَّه سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (۷) أُولئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۰) أهل الجنّة والنار: هذه الآيات تفصيل حول المعاد ومصير الناس فى العالم الآخر. ففى البداية يقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا». فهم لا يعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كيما تستيقظ قلوبهم ويتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايتِنَا غَافِلُونَ». فكلتا هاتين الطائفتين مصيرهم إلى النار: «أُولئِكَ مَأْوَيهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

إنّ النتيجة الطبيعية والحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هى الإرتباط بهذه الحياة المحدودة والعلائق المادية، والاطمئنان بها والإعتماد عليها. وكذلك فإنّ الغفلة عن الآيات الإلهية هى أساس البعد عن اللّه سبحانه، والإبتعاد عن اللّه هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولية والتلوّث بالظلم والفساد والمعصية، وعاقبة ذلك لا تكون إلّاالنار.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، يتطلب تقوية رُكنى الإيمان باللّه والمعاد اللذين هما شرطان ضروريان وأساسيان، فإنّ عدم الإيمان باللّه سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، وعلى هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثم يشير القرآن إلى وضع فئة اخرى فى مقابل هذه الفئة، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۱

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ». فإنّ نور الهداية الإلهية الذى ينبعث من نور إيمانهم يضىء كل آفاق حياتهم، وقد اتّضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية وزبارجها، ولا الوساوس الشيطانية وبريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم ودفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب والحق.

إنّ وضع هؤلاء فى الحياة الاخرى أنّهم «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

إنّ هؤلاء يرفلون فى محيط مملوء بالصلح والصفاء وعشق اللّه وأنواع النعم، ففى كل وقت تنير وجودهم نفحة ورشحة من ذات اللّه وصفاته، فإنّ «دَعْوَيهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ».

وكلما التقى بعضهم بالآخر فإنّهم يتحدثون عن الصفاء والسلام «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَمٌ».

وأخيراً فإنّهم كلما إلتذوا بنعم اللّه المختلفة شكروا ذلك «وَءَاخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲) الهمج الرّعاع: الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الاولى بأنّ اللّه سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التى يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهى أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: «وَلَوْ يُعَجّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ». إلّاأنّ لطف اللّه سبحانه لما كان شاملًا لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم وجزائهم لعلهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

وفى الختام تقول الآية: يكفى عقاباً لهؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليبقوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: «فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۲

«وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا».

نعم ... إنّ خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، ويسطع عندها- ولو لمدّة قصيرة- نور التوحيد. ثم تقول الآية: إنّ هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الافق بحيث إنّهم يعرضون بمجرد كشف الضرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا ولم نساعدهم: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرّ مَّسَّهُ كَذلِكَ زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ اللّه سبحانه هو الذى يزين الأعمال، وذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال القبيحة والمحرّمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأمّا لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال فى وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، ويصرفه فى طريق الفساد والمعصية أو فى طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفانى ولا يربح من ذلك شيئاً.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١۴) الإعتبار بالظالمين السابقين: تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين فى هذه الدنيا، وقد نبّهت المسلمين- بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم- إلى أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير. فالآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». ثمّ تضيف:

«كَذٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة وتقول: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

يستفاد من جملة: «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أنّ اللَّه سبحانه يهلك فقط اولئك الذين لا أمل فى إيمانهم حتى فى المستقبل، وعلى هذا فإنّ الأقوام التى يمكن أن تؤمن فى المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۳

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١۵) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى خمسة نفر (من عبدة الأوثان)، قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بدّله تكلّم به من تلقاء نفسك.

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به. فى البداية تشير إلى واحد من الإشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، وتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرءَانٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ».

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنّبى صلى الله عليه و آله قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم.

إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هذا الإشتباه الكبير، ويأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم: «قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاىِٔ نَفْسِى». ثم يضيف للتأكيد: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ». ولست عاجزاً عن تغيير أو تبديل هذا الوحى الإلهى- فحسب- بل: «إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

ثم تتطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأنّى لست مختاراً فى هذا الكتاب السماوى: «قُلْ لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيكُم بِهِ». والدليل على ذلك:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۴

«فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ». لكنكم لم تسمعوا منّى مثل هذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هذه الآيات من عندى لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». وكذلك، ومن أجل التأكيد يضيف: بأنّى أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على اللَّه الكذب: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وعلى هذا فكيف يمكن أن أرتكب مثل هذا الذنب الكبير.

وكذلك فإنّ التكذيب بآيات اللّه سبحانه من أشدّ الكبائر وأعظمها: «أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

فإذا كنتم جاهلين بعظمة ما ترتكبونه من الاثم فى تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنّى لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آلهة بدون خاصية: واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفى الوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وإنتفاء قيمتها وأهميتها: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ».

ثمّ تتطرق إلى إدعاءات عبدة الأوثان الواهية، «وَيَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعؤُنَا عِندَ اللَّهِ».

أى إنّ هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الإعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها.

إنّ القرآن يقول فى دفع هذا الوهم: «قُلْ أَتُنَبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِي السَّموَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». وهو كناية عن أنّ اللّه سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه يعلم بوجودهم فى أىّ نقطة كانوا من السماء والأرض، لأنّ سعة علم اللّه لا تدع أصغر ذرة فى السماء والأرض إلّاوتحيط بها علماً.

وفى آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٥

وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) إنّ هذه الآية- تتمة للبحث الذى مرّ فى الآية السابقة حول نفى الشرك وعبادة الأصنام- تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، وتقول: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً».

إنّ فطرة التوحيد هذه، والتى كانت سالمة فى البداية، إلّاأنّها قد اختلفت وتلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، والميول الشيطانية والضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشرك، وقد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسمين مختلفين: قسم موحّد، وقسم مشرك: «فَاخْتَلَفُوا». بناءً على هذا فإنّ الشرك فى الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التى لا أساس لها.

وقد يطرح هنا هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع اللّه هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحّداً؟

ويجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهية تقتضى حرية البشر فى مسير الهداية، فهى رمز التكامل والرقى، ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ اللّه سبحانه كان سيقضى بينهم فى اختلافاتهم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) المعجزات المقترحة: مرّة اخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام: «وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ».

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النبى صلى الله عليه و آله وهو يستطيع أن يقوم به فى أى وقت وبأية كيفية يريد، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النبى صلى الله عليه و آله مباشرة: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». وبناء على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدى لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية وحجج ضعيفة.

وفى النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: «فَانتَظِرُوا إِنّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ». فانتظروا العقاب الإلهى، وأنا أنتظر النصر!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٦

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي

يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۲۲) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳) يدور الكلام فى هذه الآيات- أيضاً- حول عقائد وأعمال المشركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد ونفى كل أنواع الشرك. فالآية الاولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، وتقول: إنّنا عندما نبتلى الناس بالمشاكل والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبيههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضراء، فإنّهم بدلًا من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلًا يفسرون الإبتلاءات والمشاكل بأنّها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنّها دليل على شفقتها، أو أنّهم يعدون كل هذه الامور صدفة محضة: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا».

إنّ كلمة «مكر» فى الآية أعلاه، والتى تعنى بشكل عام إعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة وطرق التهرّب التى يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهية، وظهور أنواع البلايا والنعم. إلّاأنّ اللَّه سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيّه، وأمره أن «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا».

و «المكر»: فى الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفى، وعلى هذا فإنّه يصدق على اللَّه سبحانه كما يصدق على العباد. ومصداق المكر الإلهى فى هذه الآية إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التى يحلّ بعضها فى نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنّه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. وبتعبير آخر فإنّ اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۷

سبحانه فى أى وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، فى حين أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات والخطط ستُنسى، بل إنّ رسلنا- أى الملائكة- يكتبون كل هذه المخططات التى تهدف إلى إطفاء نور الحق: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» ولذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب والعقاب فى الحياة الاخرى

وتغوص الآية التالية فى أعماق فطرة البشر، وتوضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطرى، وكيف أنّ الإنسان عندما تلّم به المشاكل الكبيرة وفى أوقات الخطر، ينسى كل شىء إلّااللَّه تبارك وتعالى ويتعلق به. تقول الآية: «هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ». فى هذا الحال بالضبط تذكروا اللَّه ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». فيرفعون أيديهم فى هذا الوقت للدعاء:

«لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». فلا نظلم احداً ولانشرك بعبادتك غيرك.

ورغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوى فى الأفراد الملوّثين جدّاً، أنّها تقيم الحجّة عليهم، وستكون دليلًا على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوثوا بالمعاصى قليلًا، فإنّهم سيتنبهون فى هذه الحوادث ويصلحون مسارهم.

ولكن ما أن أنجاهم اللَّه وأوصلهم إلى شاطىء النجاة بدؤوا بالظلّم والجور: «فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ». لكن يجب أن تعلموا- أيّها الناس- إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم». وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلًا فى هذه الدنيا: «مَّتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ملاحظتان

۱- لقد ذكرت «الرحمة» فى الآيات أعلاه مقابل «الضراء» ولم تذكر السراء، وهى إشارة إلى أنّ أى حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهى من اللَّه سبحانه ورحمته اللامتناهية، فى حين أنّ السوء والنقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

۲- إنّ جملة «أُحِيطَ بِهِمْ» تعنى أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۸

جانب، إلّاأنّها هنا كناية عن الهلاك والفناء الحتمى لهؤلاء.

إِنَّمـا مَثَلُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا كَمـاءٍ أَنْزَلْنـاهُ مِنَ السَّمـاءِ فَاخْتَلَـطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَـذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۴) وَ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۵) لوحـة الحياة الـدنيا: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففى الآية الاولى من الآيات التى نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضـمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ».

إنّ قطرات المطر هـذه تسقط على الأراضـى التى لهـا قابليـة الحيـاة. وبهـذه القطرات سـتنمو مختلف النباتات التى يسـتفيد من بعضـها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعمُ».

إنّ هذه النباتات علاوة على أنّها تحتوى على الخواص الغذائية المهمة للكائنات الحيّة الاخرى، فإنّها تغطى سطح الأرض وتضفى عليها طابعاً من الجمال «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ». فى هـذه الأثناء حيث تتفتح الجنابذ وتورق أعالى الأشـجار وتعطى ذلك المنظر الزاهى وتبتسم الأزهار وتتلألأ الأعشاب تحت أشـعة الشـمس، وتتمايل الأغصان طرباً مع النسـيم، وتُظهر حبات الغـذاء والأثمار أنفسـها شـيئاً فشـيئاً وتجسم جانبـاً دائب الحركـة من الحياة بكلّ معنى الكلمـة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسـرور والفرح، بحيث «وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا». فى هـذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمّر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً «أَتهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ».

إنّ جملة «لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ» تعنى أنّها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشىء بالكلية بصورة كأنّه لم يكن له وجود مطلقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۹

وللتأكيد تقول الآية فى النهاية: «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

إنّ الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلمِ».

فلا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار.

ثم تضـيف الآية: إنّ اللَّه سبحانه يهدى من يشاء- إذا كان لائقاً لهذه الهداية- إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط التى ينتهى إلى دار السلام ومركز الأمن والأمان «وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۷) بيض الوجوه وسود الوجوه: مرّت الإشـارة فى الآيـات السابقـة إلى عالم الآخرة ويوم القيامـة، ولهـذه المناسبـة فإنّ هـذه الآيات تبيّن مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول فى البداية: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ». والمقصود من الزيادة فى هذه الجملة، هو الثواب المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحياناً عشـر مرات، واخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل.

ثم تضـيف الآيـة: «وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ». «يرهق»: مأخوذة من مادة «رهق» وهى بمعنى التغطيـة القهريـة والجبريـة، و «القتر»: بمعنى «الغبار» والدخان.

وفى النهاية تقول: «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنة.

ثم يأتى الحـديث فى الآية التالية عن أصـحاب النار الذين يشـكلون الطرف المقابل للمجموعة الاولى، فتقول: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيَاتِ

جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا». وهنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة فى الثواب فضل ورحمة، أمّا فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۰

مختصر الامثل ج۲ ۳۷۹

يكون بقدر الذنب ولا- يزيد ذرة واحدة. إلّاأنّ هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة وجوههم «وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ». وهذه هى خاصية وأثر العمل الذى ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج.

فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلّاأنّ الجملة التالية تقول بصراحة: «مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذى «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (۲۹) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰) مشهد من قيامة عبدة الأوثان: تتابع هذه الآيات أيضاً البحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، فتقول أوّلًا: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ».

ثم تضيف: أنّنا سوف نعزل هاتين الفئتين- أى العابدون والمعبودون- عن بعضهم البعض، ونسأل كلًا منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول فى كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأى دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة للّهوعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ».

فى هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتهم أوهام هؤلاء: «وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ» فأنتم كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم.

ثمّ، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ».

والمراد من الأصنام والشركاء فى هذه الآية أنّها تشمل كل المعبودات، غاية ما فى الأمر أنّ المعبودات التى لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التى لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۱

عقل لها ولا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، وتتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل.

ففى ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال- كما يتحدث القرآن فى آخر آية من آيات البحث- فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التى عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون والمعبودون المضلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون والمؤمنون من أىّ قوم ومن أىّ قبيل: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ». وفى ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى اللّه مولاهم الحقيقى، ومحكمة المحشر تبيّن أن الحكم لايتم إلّا بأمره «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلهُمُ الْحَقّ».

وأخيراً فإنّ جميع هذه الأصنام والمعبودات المختلقة التى جعلها هؤلاء شريكة للّهكذباً ستفنى وتمحى: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فإنّ القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلّاوتُظهر نفسها.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۳۳) الحديث فى هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود اللّه سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث الآيات السابقة حول هذا الموضوع. ففى البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين وعبدة الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

«الرزق»: يعنى العطاء والبذل المستمر، ولما كان الواهب لكل المواهب هو اللَّه سبحانه، فإنّ «الرازق» و «الرزّاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان إلّافيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة فى حق غيره فلا شك أنّها من باب المجاز.

والأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية أوّلًا عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۲

ثم تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، واللتان لا يمكن كسب العلم وتحصيله بدونهما، فقالت: «أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

فإنّ هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أوّلًا، ثمّ إلى المواهب والأرزاق المعنوية التى تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف والمحتوى.

ثم تطرقت الآية إلى ظاهرتى الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلقة، فتقول: «وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَىّ».

وهذا هو نفس الموضوع الذى حيّر عقول علماء الطبيعة وعلماء الاحياء، وهو كيف أتى الموجود الحى إلى الوجود من موجود ميت؟

هذه الآية تشمل الموت والحياة المعنويين إضافة إلى الموت والحياة الماديين، لأنّنا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك.

ثم تضيف الآية: «وَمَن يُدَبّرُ الْأَمْرَ». والكلام فى الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثم عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

يستفاد من هذه الجملة جيداً أنّه حتى مشركى وعبدة الأصنام فى الجاهلية كانوا يعلمون أنّ الخالق والرازق والمحيى ومدبر أمور عالم الوجود هو اللَّه سبحانه.

وفى آخر الآية يأمر اللَّه نبيّه: «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة وتدبير اللَّه فى السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم فى أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة وقالت: «فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ». لا الأصنام، ولا سائر الموجودات التى جعلتموها شريكة للبارى عزّ وجل، والتى تسجدون أمامها وتعظمونها.

ثم تنتهى إلى ذكر النتيجة: «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إِلَّا الضَّلَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ». وأنّى تولوا وجوهكم عن عبادة اللَّه وأنتم تعلمون ألّا خالق ولا معبود حقّاً سواه؟

إنّ هذه الآية تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أوّلًا فى سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۳

وتقول آخر آية فى بيان العلة فى عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق:

«كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَايُؤْمِنُونَ». وفى الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه وتجلّيه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (۳۶) واحدة من علامات الحق والباطل: تعقب هذه الآيات أيضاً

الإستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمر الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله أن «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». ثمّ تضيف: «قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

ثم تأمر الآية الاخرى النبى صلى الله عليه و آله مرّة اخرى: «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ».

لأنّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصة وأنّها هداية نحو الحق، فى حين أنّ آلهة المشركين، أعم من الجمادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدى أحداً إلى الحق بدون الهداية الالهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لايمكن من دون هداية اللَّه سبحانه وتسديده، ولذلك فإنّها تضيف مباشرة: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقّ». وإذا كان الحال كذلك «أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّايَهِدِى إِلَّا أَن يُهْدَى .

وتقول الآية فى النهاية بلهجة التوبيخ والتقريع والملامة: «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

وفى آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

وفى النهاية تخاطب الآية- باسلوب التهديد- مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أى منطق سليم وتقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۴

إنّ الآيات أعلاه تبيّن أنّ من برامج اللَّه الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتمّ ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته فى عالم الخلقة، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

وَ مَا كَانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴۰) عظمة دعوة القرآن وحقانيته: تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب فى معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بأنّه هو الذى اختلق القرآن ونسبه إلى اللَّه، فالآية الاولى تقول:

«وَمَا كَانَ هذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن وكونه وحياً سماوياً: فتقول «وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ». أى إنّ كل البشارات والدلالات الحقة التى جاءت فى الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراءً على اللَّه بل هو حق.

ثم تذكر الآية دليلًا آخر على أصالة هذا الوحى السماوى وهو: إنّ فى هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلاشك فى كونه من اللَّه تعالى، فتقول: «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

وبتعبير آخر: لايوجد فيه أى تضاد وتناقض مع برامج وأهداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلقاً فلابد أن يخالفها ويناقضها.

وذكر فى الآية التالية دليل ثالث على أصالة القرآن، وخاطبت الذين يدعون أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد افترى هذا القرآن على اللَّه، بأنّكم إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسورة من

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۵

مثله، واستعينوا فى ذلك بمن شئتم غير اللَّه، ولكنكم لاتستطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أنّ القرآن من وحى السماء «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين- بدون استثناء- بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من اللّه فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

وفى الآية التالية إشارة إلى واحدة من العلل الأساسية لمخالفة المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات والإيرادات، بل إنّ تكذيبهم وإنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ».

فى الحقيقة لم يكن لهؤلاء أىّ دليل على نفى المبدأ والمعاد، وكان الجهل والتخلف الناشىء من الخرافات والتعود على مذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التى هى الهدف النهائى من ذكر تاريخ الماضين.

إنّ مجموع هذه الجهالات والضلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكذيب، فى حين أنّ تأويل وتفسير وتحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبيّن بعد «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ».

«التأويل»: فى أصل اللغة بمعنى إرجاع الشىء وعلى هذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائى نقول عنه: إنّ تأويله قد حان وقته.

ثم يضيف القرآن مبيناً أن هذا المنهج الزائف لاينحصر بمشركى عصر الجاهلية، بل إنّ الأقوام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهذه المسألة، فإنّهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو إنتظار تحققه: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

فى حين أنّ العقل والمنطق يحكمان بأنّه لا ينبغى للانسان انكار ما يجهله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفى النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ». أى إنّ هؤلاء سيلاقون أيضاً نفس المصير.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۶

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لايبقون جميعاً على هذا الحال، بل إنّ جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن فى النهاية. فى حين أن الفئة الاخرى ستبقى فى عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: «وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّايُؤْمِنُ بِهِ».

ومن الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية فى النهاية:

«وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ». وهى إشارة إلى أنّ الذين لا يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم فى إفساده.

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُم عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله طريقة جديدة فى المواجهة، فقالت: «وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

إنّ لإعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجبار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنّهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون

أنفسهم، ولا يضرون إلّاأنفسهم.

وتشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إذعانهم للحق، وتبيّن أنّ التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التى تهزّ الوجدان والدلالات الاخرى الواضحة لا تكفى بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ إستعداد التقبل ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أنّ البذر لوحده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۷

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلّاأنّهم عمى لايبصرون: «وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ».

ولكن إعلم وليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام اللَّه ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإنّ اللَّه تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق وإتّباعه، ف «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيًا وَلكِنَّ النَّاسُ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۴۷) بعد بيان بعض صفات المشركين فى الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم فى القيامة. تقول الآية: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ».

الاحساس بقلة مقدار الإقامة فى دار الدنيا وقصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الاخروية لا يبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوى أكثر من قيمة ساعة.

يستفاد من الآيتان (۵۵ و ۵۶) من سورة الروم، أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون فى القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّاأنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لاتعلمون، ونحن نعلم أن البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.

ثم تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء فى ذلك اليوم: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۸

اللَّهِ». وأنفقوا كل ملكاتهم وطاقاتهم الحيوية دون جدوى «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» بسبب هذا التكذيب والإنكار والإصرار على الذنب، ولأنّ قلوبهم وأرواحهم كانت مظلمة. وتقول الآية التالية تهديداً للكفّار، وتسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله: «وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ».

وتبيّن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانوناً كلياً فى شأن كل الأنبياء، ومن جملتهم نبى الخاتم صلى الله عليه و آله، وكل الامم ومن جملتها الامة التى كانت تحيا فى عصر النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَلِكُلّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ». فإذا جاء رسولها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وكفر آخرون، فإنّ اللَّه سبحانه يقضى بينهم بعدله، ولا يظلم ربّك أحداً، فيبقى المؤمنون والصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فمصيرهم الفناء او الهزيمة: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

وهذا ما حصل لنبى الخاتم صلى الله عليه و آله وامته المعاصرة له، وبناء على هذا فإنّ القضاء والحكم الذى ورد فى هذه الآية هو القضاء التكوينى فى هذه الدنيا.

وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۸) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَا ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲) العذاب الإلهی واختيارات الرسول: بعد التهديدات التی ذكرت فی الآيات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منكری الحق، فإنّ هذه الآيات تنقل أوّلًا استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهی وسخريتهم وانكارهم. فتقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النبی صلى الله عليه و آله.

وفی مقابل هذا السؤال، فإنّ اللّه سبحانه أمر نبيّه صلى الله عليه و آله أن يجيبهم بعدّة طرق:

فيقول أوّلًا: «قُلْ لَّاأَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ». فإنّی لست إلّارسوله ونبيّه، وإنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۹

إنّ هذه الجملة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شیء فی هذا العالم باللّه سبحانه، وكل الحركات والأفعال معلولة لإرادته ومشيئته، فهو الذی ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذی يجازی المنحرفين بعدالته.

من البديهی أنّ ذلك لا ينافی أنّ اللّه قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا.

ثم يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهی بأن لا يعجلوا، فعندما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

وتطرح الآية الاخرى الجواب الثالث، فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا».

فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجیء غير المرتقب؟ وإذا كان الحال كذلك ف «مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ».

وفی الآية التالية ورد جواب رابع لهؤلاء، فهی تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأنّ إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنّكم هذا باطل لا صحّة له: «أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ». لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، وليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: «ءَالنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ».

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوی، وفی الآخرة: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ». فإنّ أعمالكم هی التی أخذت بأطرافكم، وهی التی تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۵۴) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶) لا معنى للشك فی العذاب الإلهی: كان البحث فی الآيات السابقة عن جزاء وعقاب

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۰

المجرمين فی هذه الدنيا والعالم الآخر، وتكمل هذه الآيات هذا البحث أيضاً. فالآية الاولى تقول: إنّ هؤلاء يسألونك بتعجب واستفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهی فی هذا العالم والعالم الآخر: «وَيَسْتَنْبُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ». ويأمر اللّه سبحانه نبيّه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتی من التأكيد: «قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ». وإذا ظننتم أنّكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهی فأنتم على خطأ كبير:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

وتؤكّد الآية الاخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصة فى القيامة، فتقول: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ».

إنّ هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهى، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عذابهم مقدار رأس ابرة، خاصة وأنّ لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، وهى أنّهم: يرون العذاب والفضيحة فى مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار الندم مزيداً من الخزى والعذاب النفسى فلذلك يحاولون عدم ابراز الندم: «وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ».

ثم تؤكّد الآية على أنّه بالرغم من كل ذلك، فإنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالعدل، ولا يظلم أحد منهم: «وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

ثم، ومن أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود والتهديدات الإلهية مأخذ الهزل، ولكى لايظنوا أنّ اللّه عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة اخرى، حيث تقول: «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ».

وبناء على ذلك فإنّ له القدرة على إماتة العباد، كما أنّ له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، وفى النهاية: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۵۸)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۱

القرآن رحمة إلهية كبرى: لقد جاءت فى بعض الآيات السابقة بحوث فى شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. وفى هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضاً، ففى البداية تخاطب جميع البشرية خطاباً عالمياً وشمولياً وتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن وتشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان فى ظل القرآن:

المرحلة الاولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الهداية التى تجرى بعد مرحلة التطهير.

المرحلة الرابعة: هى المرحلة التى يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمة اللّه ونعمته.

وتقول الآية الاخرى من أجل تكميل هذا البحث والتأكيد على هذه النعمة الإلهية الكبرى- أى القرآن المجيد-: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» ولا يفرحوا بمقدار الثروات، وعظم المراكز، وعزة القوم والقبيلة، لأنّ رأس المال الحقيقى والأساس للسعادة الحقيقية هو هذا القرآن، فهو أفضل من كل ما جمعوه، ولا يمكن قياسه بذلك المجموع، إذاً «هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ».

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَ حَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (۶۰) وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۶۱) هو الشاهد فى كل مكان: كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهية والهداية والرحمة فى هذا الكتاب السماوى، وتتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۲

المبتدعة والخرافية وأحكامهم الكاذبة. الآية الاولى وجهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت:

«قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا». إذ أنّهم طبقاً لسننهم الخرافية حرموا قسماً من الدواب وكذلك حرّموا جزءاً من محاصيلهم الزراعية. ثم تقول: «قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ».

الآن وقد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافةً إلى أنّهم حُرموا من النعم الإلهية، فإنّهم قد افتروا على الساحة الإلهية المقدسة، ولذلك تضيف الآية:

«وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» ولذلك فإنّه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فوراً على أعمالهم القبيحة.

إلّا أنّ هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية ويشكروا اللّه على ذلك وينيبوا إليه، فإنّ أكثرهم غافلون: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَشْكُرُونَ».

وحتى لا يتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم اللّه سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آية من آيات البحث تبيّن هذه الحقيقة بأبلغ عبارة وتوضح أنّ اللّه مطّلع على كل ذرات الموجودات فى خفايا السماء والأرض، ومطّلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: «وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ».

ثم تعقب الآية على مسألة اطلاع اللّه على كل شىء بتأكيد أكبر، فتقول: «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

«يعزب»: مأخوذة من العزوب، وهو فى الأصل بمعنى الإبتعاد عن البيت والأهل فى سبيل إيجاد وتهيئة المراتع للأغنام والحيوانات، ثمّ استعملت بمعنى الغيبة والإختفاء بصورة مطلقة.

و «الذّرة»: بمعنى الجسم الصغير جدّاً، ولذلك يقال للنمل الصغير: ذرة، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۰) من سورة النساء.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم اللّه الواسع، والذى يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

لقد بيّنت آخر هذه الآيات درساً كبيراً لكلّ المسلمين ... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق ويصرفهم عن الإنحرافات والطرق الملتوية ... درس فيه صلاح المجتمع مع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۳

التوجّه اليه، وهو: إنّنا يجب أن نعى هذه الحقيقة، وهى أنّ كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة تخطر فى أذهاننا، ولأى جهة ننظر، وعلى أىّ حال نكون، فليس اللّه سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقّة وانتباه.

فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً».

فإذا كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للخلق والعبادة للخالق خائفاً من عمله فى مقابل علم اللّه، فإنّ حالنا وحال الآخرين معلوم.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴) وَ لَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵) طمأنينة الروح فى ظل الإيمان: لمّا شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون فى الطرف المقابل لُاولئك تماماً، تقول الآية أوّلًا: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

إنّ المقصود من الغموم هى الغموم المادية والأخاويف الدنيوية، وإلّا فإنّ وجود أولياء اللّه مملوء بالخوف والخشية ... الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية.

والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شيء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقيّه، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

إنّ أولياء اللّه هم الذين لا يوجد حاجب وحائل بينهم وبين اللّه، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقلبون فى نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون اللّه بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهة، وبالنظر لهذه المعرفة باللّه الأزلى والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإنّ كل شيء سوى اللّه حقير فى نظرهم ولا قيمة له، وفانٍ لا أهمية له.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۴

إنّ الآية الثانية وضحت المقصود من «أولياء اللّه» فهى تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وتؤكّد الآية الثالثة على مسألة عدم وجود الخوف والغم والوحشة فى شخصية وقلوب أولياء الحق بهذه العبارة: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ».

ثم تضيف من أجل التأكيد أيضاً: «لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ». بل هى ثابتة حقّة، وأنّ اللّه سبحانه سيفى بما وعد به أولياءه، و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وحولت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله الذى يمثل رأس سلسلة أولياء اللّه وأحبائه مخاطبةً له بلحن المواساة وتسلية الخاطر: «وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». ولا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالى عالم بكل خططهم ودسائسهم. ف «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷) جانب من آيات عظمته: تعود الآيات أعلاه مرّة اخرى إلى مسألة التوحيد والشرك والتى تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجرّ المشركين إلى المحاكمة وتثبت عجزهم. فتقول أوّلًا: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ». وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الاولى أن تكون الأشياء الموجودة فى هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود.

ثمّ تضيف الآية: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ». إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

وأساساً، فإنّ إتباع الظن والحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهاية إلى وادى الكذب عادة.

ثمّ ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبيّن طرق معرفة اللّه، والإبتعاد عن الشرك وعبادة

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۵

الأوثان، أشارت الآية الثانية إلى جانب من المواهب الإلهية التى أودعت فى نظام الخلقة والدالة على عظمة وقدرة وحكمة اللّه عزّ وجل، فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

نعم «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». اولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقة يتبعونها ويسيرون على نهجها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهذَا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (۶۹) مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰) تستمر هذه الآيات- أيضاً- فى بحثها مع المشركين، وتذكر واحدة من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحة اللّه المقدسة، فتقول أوّلًا: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا».

إنّ هذا الكلام قاله المسيحيون فى حق المسيح عليه السلام ثمّ عبدة الأوثان فى عصر الجاهلية فى حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنّها بنات اللّه، وقاله اليهود فى شأن عزير. ويجيبهم القرآن بطريقين:

الأوّل: إنّ اللَّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شيء: «سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ». وهذا إشارة إلى أنّ الحاجة إلى الولد، إمّا للحاجة الجسمية إلى قوته ومساعدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان اللَّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

«لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ومع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده.

والجواب الثانى الذى يذكره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من يدعى شيئاً يجب عليه أن يقيم دليلًا على مدعاه: «إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطنٍ بِهذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وتعيد الآية التالية عاقبة الإفتراء على اللَّه المشؤومة، فتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۶

وعلى فرض أنّ هؤلاء يستطيعون بافتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدّة أيام، فإنّ ذلك «مَتعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ». إنّ التعبير ب «نذيقهم» يشير إلى أنّ هذا العذاب الذى سينال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحيث كأنّهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳) جانب من جهاد نوح: الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تأريخ الأنبياء، فيأمر اللَّه نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبرة لهم. فى البداية تطرقت إلى قصة نوح، فقالت: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بَايتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ». ولهذا فإنّى لا أخاف غيره.

ثم تضيف: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ». أى ادعوا أصنامكم أيضاً لتعينكم فى المشورة، حتى لا يبقى شىء خافياً على أحد ولا يتعرض منكم إلى الهم والغم أحد «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً». بل اتّخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح.

ثم يقول: «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ».

وإذا علمنا أنّ هذه الآيات نزلت فى مكة فى الوقت الذى كان يعيش فيه النبى صلى الله عليه و آله ظروفاً تشبه ظروف نوح، وكان المؤمنون قلّة، سيتّضح أنّ القرآن يريد أن يعطى للنبى- أيضاً- نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدرة العدو، بل يسير ويتقدم بكلّ حزم وجرأة وشجاعة، لأنّ اللَّه يسنده وينصره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۷

وهذا درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا ولا ينهاروا أمام عظمة الأعداء وكثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على اللَّه كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم واقتدار ويستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملًا مهماً فى تقوية معنويات الأتباع والمؤيدين، وتدمير معنويات العدو وانهيارها.

وذكرت الآية التالية بياناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيّته، هناك حيث تقول:

«فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ»، فإنّى أعمل له، ولا أريد الأجر إلّا منه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

إنّ مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أى جزاء مادى ومعنوى من الناس لقاء دعوتهم وتبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعاً من التعلق النفسى الذى يؤدّى إلى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة والنشاطات الحرة.

وتبيّن الآية الأخيرة عاقبة ومصير أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ». ولم

نتقذهم وحسب، بل «وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايتِنَا».

وفى النهاية توجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ».

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (۷۴)

الرسل بعد نوح: بعد انتهاء البحث الإجمالى حول قصّة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح وقبل موسى عليهما السلام لهداية الناس كإبراهيم وهود وصالح ولوط ويوسف عليهم السلام فقالت: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ».

فقد كانوا مسلّحين كنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلّاأنّ الذين سلكوا طريق العناد وكذّبوا الأنبياء السابقين، كذّبوا هؤلاء الأنبياء أيضاً ولم يؤمنوا بهم «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ». وكان ذلك نتيجة للعصيان والتمرّد وعداء الحق الذى أوصد تلك القلوب «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۸

جانب من جهاد موسى وهارون: لقد جرى ذكر قصص الأنبياء والامم السابقة كنماذج حيّة، وبدأ الحديث أوّلًا عن نوح عليه السلام ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، ووصل الدور فى هذه الآيات إلى موسى وهارون عليهما السلام ومواجهاتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآية الاولى:

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ بَايَاتِنَا».

إلّا أنّ فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسى، وعن التسليم فى مقابل الحق:

«فَاسْتَكْبَرُوا». ونظراً للتكبر والاستعلاء وعدم امتلاكهم لروح التواضع فإنّهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة فى دعوة موسى، وأصرّوا واستمروا فى إجرامهم: «وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى وأخيه هارون، وأوّل تلك المراحل هى مرحلة الإنكار والتكذيب والإفتراء واتهامهما بسوء النية، وابطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعى، كما يقول القرآن: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ».

إلّا أنّ موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففى البداية: «قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذَا».

صحيح أنّ لكل من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأنّ من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلّاأنّ السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزة التى هى حق، إذاً لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۹

إضافة إلى أنّه: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ». وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر.

إنّ السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلّامن أجل المال والثروة والمنصب والمنافع الشخصية، فى حين أنّ هدف الأنبياء هداية خلق اللّه وإصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمّ يستمر فرعون وملئه فى رمى موسى عليه السلام بسيل الإتهامات الصريحة، حيث «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

الواقع، أنّهم قدموا صنم «سنة الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى وهارون، بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدّسات مجتمعكم وبلادكم.

ثمّ استمروا فی هذا التشویه، وقالوا بأنّ دعوتکم إلی دین اللّه ما هی إلّاکذب محض، وکل هذه مصائد وخطط خیانیة بهدف التسلط علی الناس: «وَتَکُونَ لَکُمَا الْکِبْرِیَاءُ فِی الْأَرْضِ».

إنّ هؤلاء لما کانوا یسعون دائماً من أجل الحکم الظالم علی الناس کانوا یظنون أنّ الآخرین مثلهم، وهکذا کانوا یفسرون مساعی المصلحین والأنبیاء.

«وَمَا نَحْنُ لَکُمَا بِمُؤْمِنِینَ» لأنّا علی علم بنوایاکم وخططکم الهدامة.

وکانت هذه هی المرحلة الاولی من المواجهة السلبیة مع موسی.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِکُلِّ سَاحِرٍ عَلِیمٍ (۷۹) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَی أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَی مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَیُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا یُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ (۸۱) وَ یُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِکَلِمَاتِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲) المرحلة الثّانیة: فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسی، کالید البیضاء والحیة العظیمة، ورأی أنّ ادّعاء موسی لیس واهیاً بدون دلیل وبرهان، وأنّ هذا الدلیل سیؤثر فی جمیع أنصاره أو الآخرین قلیلًا أو کثیراً، فکّر بجواب عملی کما یقول القرآن: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِکُلِّ سحِرٍ عَلِیمٍ». «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَی أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ». فإنّ هؤلاء قد عبؤوا کل ما یملکون من قدرة، وألقوا کل ما أتوا به معهم فی وسط الحلبة: «فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَی مَا جِئْتُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۰

بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَیُبْطِلُهُ». فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنّکم تخدمون حکومة جبارة وظالمة وتعملون علی تقویة دعائم هذه الحکومة الغاشمة الدکتاتوریة وهذا بنفسه أقوی دلیل علی کونکم مفسدین، و «إِنَّ اللَّهَ لَایُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ».

وفی الآیة الأخیرة، إنّ موسی قال لهؤلاء: إنّ النصر والغلب لنا فی هذه المبارزة حتماً، لأنّ اللّه سبحانه قد وعد أن یظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبیائه القاهرة، ویفضح ویخزی المفسدین وأهل الباطل وإن کره المجرمون ذلک: «وَیُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِکَلِمتِهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

فَمَا آمَنَ لِمُوسَی إِلَّا ذُرِّیَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَی خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِمْ أَنْ یَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِی الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِینَ (۸۳) وَ قَالَ مُوسَی یَا قَوْمِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُسْلِمِینَ (۸۴) فَقَالُوا عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۸۵) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِکَ مِنَ الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ (۸۶) المرحلة الثالثه: عکست هذه الآیات مرحلة اخری من المواجهة الثوریة بین موسی وفرعون، ففی البدایة تبیّن وضع المؤمنین فتقول: «فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَی إِلَّا ذُرِّیَّةٌ مِّن قَوْمِهِ».

إنّ هذه المجموعة الصغیرة القلیلة، والتی کان الشباب والأشبال یشکّلون أکثریتها بمقتضی ظاهر کلمة ذریّة، کانت تواجه ضغوطا شدیدة من فرعون وأتباعه إلی درجة أنّهم خافوا أن یصل بهم الأمر إلی ترک دین موسی نتیجة هذه الضغوط الشدیدة: «عَلَی خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِیهِمْ أن یَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِی الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِینَ».

فقد حدّث موسی هؤلاء بلسان المحبّة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسکین قلوبهم: «وَقَالَ مُوسَی یَا قَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُوا إِن کُنتُم مُّسْلِمِینَ».

إنّ حقیقة التوکل هی إلقاء العمل والتصرف فی الامور علی کاهل الوکیل، ولیس معنی التوکل أن یترک الإنسان الجد والسعی، بل معناه أن یبذل قصاری جهده، فإذا لم یستطع أن یحل المشکلة فلا یدع للخوف طریقاً إلی نفسه، بل یصمد أمامها بالتوکل والإعتماد علی لطف اللّه والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهیة، ویستمر فی جهاده المتواصل.

إنّ هؤلاء المؤمنین المخلصین أجابوا دعوة موسی بالتوکل: «فَقَالُوا عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا». ثمّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۱

رجوا من اللّه سبحانه أن ینجیهم من شر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ویؤمّنهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ». «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِکَ

مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۸۷) وَ قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (۸۸) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۸۹) المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة: شرحت هذه الآيات مرحلة اخرى من نهضة وثورة بنى إسرائيل ضد الفراعنة. فتقول أوّلًا: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً». فالأمر الإلهى يقرر اختيار البيوت لبنى اسرائيل بمصر وأن تكون هذه البيوت متقاربة ومتقابلة.

ثم تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنوياً وروحياً، فقالت: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعيد وتزيد من قدرتهم المعنوية والثورية قالت: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

يستفاد من مجموع هذه الآية أنّ بنى إسرائيل كانوا فى تلك الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة ومتطفلة وملوّثة وخائفة، فلا مأوى لهم ولا اجتماع مركزى.

لذلك فإنّ موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمة وضع برنامج فى عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بنى إسرائيل، وخاصه فى الجانب الروحى:

۱- الإهتمام أوّلًا بمسألة بناء المساكن، وعزل مساكنهم عن الفراعنة.

۲- أن يبنوا بيوتهم متقاربة ويقابل بعضها الآخر.

۳- التوجه إلى العبادة، وخاصه الصلاة التى تحرر الإنسان من عبودية العباد.

الملفت للنظر أنّ بنى إسرائيل من أولاد يعقوب، وجماعة منهم من أولاد يوسف طبعاً، وقد حكم هو واخوته مصر سنين طويلة، وسعوا فى عمران هذا الوطن، إلّاأنّه نتيجة لتركهم طاعة اللّه والغفلة والخلافات الداخلية وصلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوى.

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۹۱) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۹۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۲

ثم أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ».

إنّ اللام فى «ليضلوا» لام العاقبة، أى إنّ جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئاً غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهية توقظ الناس وتوحدّهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بدّاً من معارضة الانبياء. ثم يطلب موسى عليه السلام من اللّه طلباً فيقول: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ».

«الطمس»: فى اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشىء، واللطيف فى الأمر أنّ ماورد فى بعض الروايات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنة، ربّما كان كناية عن أنّ التدهور الاقتصادى قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماماً وأصبحت كالخزف لا قيمة لها!

ثم اضافت: «وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ». أى: أسلبهم قدرة التفكير والتدبر أيضاً لأنّهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون

على حافة الزوال والفناء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربه النهائية لهؤلاء.

اللّهم إن كنت قد طلبت ذلك منك فى حق الفراعنة فليس ذلك نابعاً من روح الإنتقام والحقد بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: «فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

ثم خاطب اللّه سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنّه: الآن وقد أصبحتما مستعدين لتربية وبناء قوم بنى إسرائيل «قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» فى سبيل اللّه ولاـ تخافا سيل المشاكل، وكونا حازمين فى أعمالكما ولا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرّا فى برنامجكما الثورى «وَلَا تَتَّبِعَانّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۶۳

الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين: هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بنى إسرائيل والفراعنة وبيّنت مصير هؤلاء فى عبارات قصيرة، فتقول أوّلًا:

إنّنا جاوزنا ببنى إسرائيل البحر- وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، وعندما كانوا تحت ضغط ومطاردة هؤلاء: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ». إلّاأنّ فرعون وجنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بنى إسرائيل:

«فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا». «البغى»: يعنى الظلم، «والعدو»: بمعنى التعدى، أى إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأنّ فرعون وجنوده قد تتبعوا بنى إسرائيل طوعاً.

فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنذاك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطرى وصدع بالإيمان: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ». فلست مؤمناً بقلبى فقط، بل إنّى من المسلمين عملياً: «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ولمّا تحققت تنبؤات موسى عليه السلام الواحدة تلو الاخرى وأدرك فرعون صدق هذا النبى الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلّاالذى آمنت به بنو إسرائيل!

إلّا أنّ من البديهى أنّ مثل هذا الإيمان الذى يتجلّى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبث به كل جان ومجرم ومذنب وليست له أيّة قيمة، أو يكون دليلًا على حسن نيّته أو صدق قوله، ولهذا فإنّ اللّه سبحانه خاطبه فقال: «ءَالنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

لكن «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً». آية للحكام المستكبرين ولكلّ الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة.

والمراد من البدن هنا، جسد فرعون الذى فارقته الروح، لأنّ عظمة فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث إنّ الكثير لولاـ ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى اللّه سبحانه جسده خارج الماء.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۶۴

ويقول فى نهاية الآية: إنّه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة اللّه، ومع كل الدروس والعبر التى ملأت تاريخ البشر فإنّ الكثير معرضون عنها «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ». وتبيّن آخر آية من هذه الآيات النصر النهائى لبنى إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ».

إنّ التعبير ب «مُبَوَّأَ صِدْقٍ» يمكن أن يكون إشارة إلى أرض مصر، أم أراضى الشام وفلسطين.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ». إلّاأنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». وبعد

مشاهدة كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، وأدلة صدق دعوته، إلّا «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».
وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۹۴) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۹۵) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (۹۶) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (۹۷) لا تدع للشك طريقاً إلى نفسك: لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء والامم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكرى دعوة النبى صلى الله عليه و آله فى صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء. إلّاأنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبى صلى الله عليه و آله فقال: «فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ». ليثبت عن هذا الطريق بأنّه: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».
ثم تضيف الآية التالية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» من بعد ما اتّضحت لك آيات اللّه وصدق هذه الدعوة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۵

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت فى شك فاسأل اولئك المطلعين العالمين، وتقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلّا فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلّاالخسران.
ثم أنّها تخبر النبى صلى الله عليه و آله بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغّلوا فى طريق الباطل إلى الحدّ الذى فقدوا معه الضمير الإنسانى الحى تماماً، وتحولوا إلى موجودات لايمكن اختراقها، غاية ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هذا الموضوع بهذا التعبير: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ».
وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنّهم لا يؤمنون: «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» ولا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (۹۸) الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب: تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصة، والأقوام السابقة بصورة عامّة، وهى أنّ هؤلاء امتنعوا من الإيمان باللّه فى وقت الإختيار والسلامة، إلّاأنّهم لما أشرفوا على الموت والعذاب الإلهى أظهروا الإيمان الذى لم يكن نافعاً لهم آنذاك. وتطرح الآية التى نبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا». ثمّ استثنت قوم يونس فقالت: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ». أى إلى آخر عمرهم.
قصة إيمان قوم يونس: كانت قصّة هؤلاء على ما جاء فى التواريخ، أنّه عندما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى فى العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، فى حين أنّ عالماً كان معهم أيضاً اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، وأن يستمر فى إرشاده أكثر من قبل ولا ييأس.
يونس عليه السلام اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصيحة العالم وخرجوا معه خارج المدينة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإيمان والتوبة.
إنّ هذه التوبة والإيمان والرجوع إلى اللّه، الذى تمّ فى الوقت المناسب وعن وعى مقترن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۶

بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المياه إلى مجاريها، ولمّا رجع يونس إلى قومه بعد احداث ووقائع كثيرة وقعت له قبلوه بأرواحهم وقلوبهم. ثم إنّ القصة أعلاه تبيّن بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعى الرشيد الحريص فى القوم أو الامّة،

فى حين أن العابـد الـذى لا يمتلك الوعى الكافى يعتمـد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرواية منطق الإسـلام فى المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالاحساس بالمسؤولية.

وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النَّاسَ حَتَّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۹۹) وَ مَا کَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لَا یَعْقِلُونَ (۱۰۰) لا ـ خير فى الإيمـان الإجبـارى: لقـد طالعنا فى الآيات السابقـة أنّ الإيمان الاضـطرارى لا يجـدى نفعاً أبـداً، ولهـذا فإنّ الآيـة الاولى من هذه الآيات تقول: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا». وبناء على هذا فلا يعتصـر قلبك ألماً لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حرية الإرادة والاختيار أن يؤمن جماعة ويكفر آخرون، وإذا كان الأمر كذلك «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

إنّ هـذه الآيـة تنفى بصـراحة مرّة اخرى التهمة الباطلة التى قالها ويقولها أعداء الإسـلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنّ الإسـلام دين السيف، وقـد فرض بالقوة والإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآيـة- ككثير من آيات القرآن الاخرى- بأنّ الإيمان الإجبارى لا قيمة له، والدين والإيمان شـىء ينبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسـطة السيف، خاصه وأنّها حذرت النبى صلى الله عليه و آله من إكراه وإجبار الناس على الإيمان والإسلام.

الآية التالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضاً، وهى أنّ البشـر وإن كانوا أحراراً فى اختيارهم، إلّا أنّه «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ولهـذا فإنّ هؤلاء قـد ساروا فى طريق الجهل وعدم التعقل، ولم يكونوا مسـتعدين للاسـتفادة من رأس مال فكرهم وعقلهم، وسوف لا يوفقون للإيمان وهم على هذا الحال، إذ «وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۷

قُلِ انْظُرُوا مَا ذَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِی الْآیَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا یُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَیَّامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنَا وَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذٰلِکَ حَقّاً عَلَیْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۳) الموعظة والنصـيحة: كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ الإيمان يجب أن يكون اختيارياً لا بالجبر والاكراه، ولهذا فإن الآية الاولى هنا ترشـد الناس إلى الإيمان الاختيارى، وتخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

إنّ هـذه الجملـة تنفى بوضوح مسألـة الجبر وسـلب حريـة الإرادة، فهى تقول: إنّ الإيمان هو نتيجـة التـدبر فى عالم الخلقة، أى إنّ هذا الأمر فى اختياركم.

ثم تضـيف أنّه رغم كـل هـذه الآيـات والعلامـات الدالـة على الحق، فلا داعى للعجب من عـدم إيمان البعض، لأنّ الآيات والـدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الإستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه «وَمَا تُغْنِى الْأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَايُؤْمِنُونَ» «۱».

ثم تقول- بنبرة التهديـد المتلبسـة بلبـاس السؤال والإسـتفهام-: هل ينتظر هؤلاء المعانـدون الكافرون إلّاأن يروا مصـيراً كمصـير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهى، مصير كمصير الفراعنة والنماردة وشدّاد وأعوانهم وأنصارهم؟! «فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ».

وتحذرهم الآية أخيراً فتقول: يا أيّها النبى «قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذى ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

ومن أجل أن لايتوهم متوهم أنّ اللَّه سبحانه يصيب بعـذابه الصالـح والطالح، تضيـف الآية: إنّنا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: «ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا».

---

(۱) «نذر»: جمع نذير، أى المنذر، وهو كنايه عن الأنبياء والقادة الإلهيين أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۶۸

ثم تقول فى النهاية: إنّ هذا ليس مختصاً بالامم السالفة والرسل والمؤمنين الماضين، بل «كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۰۷) الحزم فى التعامل مع المشركين: هذه الآيات والآيات التى تليها، هى آخر آيات هذه السورة، وتتحدث جميعاً حول مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهى فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربة ومجابهة عبادة الأصنام التى بيّنت مراراً فى هذه السورة.

إنّ سياق الآية يوحى بأنّ المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النبى ويتسامح فى عقيدته فى شأن الأصنام ويعترف ويقرّ لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الإعتقاد باللَّه بنحو من الانحاء. إلّاأنّ القرآن ينسف هذا التوهم الواهى بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم احلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأىنوع من المساومة واللين فى مقابل الأصنام، ولا معبود إلّااللَّه، لاتزيد كلمة ولا تنقص اخرى. ففى البداية يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطب جميع الناس: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ» ولا تكتفى الآية بنفى آلهة اولئك، بل تثبت كل العبادة للَّهسبحانه زيادة فى التأكيد فتقول: «وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفكُمْ». ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أنّ هذه ليست إرادتى فقط، بل «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وبعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة فى نفى الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

«وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا» وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۶۹

المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«الحنيف»: تعنى الشخص الذى يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة.

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطرى، تشير إلى دليل عقلى واضح، فتقول:

«وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ». إذ تكون قد ظلمت نفسك ومجتمعك الذى تعيش فيه.

وهنا أيضاً لم تكتف الآية بجانب النفى، بل إنّها تؤكّد إضافةً إلى النفى على جانب الإثبات فتقول: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ»، وكذلك «وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ» لأنّ عفوه ورحمته وسعت كل شىء «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (۱۰۹) الكلمة الأخيرة: هاتين الآيتين تضمّنت إحداهما موعظة ونصيحة لعامة الناس، واختصت الثانية بالنبى صلى الله عليه و آله وقد كملتا الأوامر والتعليمات التى بيّنها اللَّه سبحانه على مدى هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلك تنتهى سورة يونس. فتقول أوّلًا، وكقانون عام:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ». هذه التعليمات وهذا الكتاب السماوى، وهذا الدين وهذا النبى كلها حق، والأدلّة على كونها حقّاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقيقة: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ». أى إنّى لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، لأنّ الإجبار على قبول الإيمان لا معنى له، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن

أدفع عنكم العذاب الإلهى، بل إنّ واجبى ومسؤوليتى هى الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهداية والقيادة.

ثم تبيّن وظيفة وواجب النبى صلى الله عليه و آله فى جملتين: الاولى «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ». فإنّ اللَّه قد حدّد مسيرك من خلال الوحى، ولا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنملة.

والثانية: إنّه ستعترضك فى هذا الطريق مشاكل مضنية ومصاعب جمة، فلا تدع للخوف

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۰

من سيل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل «وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

فإنّ أمره حق، وحكمه عدل، ووعده متحقق لا محالة.

«نهاية تفسير سورة يونس»

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۱

۱۱. سورة هود

محتوى السورة: إنّ هذه السورة بأكملها نزلت بمكة ... وطبقاً لما ورد فى «تاريخ القرآن» أنّها السورة التاسعة والأربعون فى ترتيب السور النازلة على المرسل صلى الله عليه و آله.

ونزلت فى السنوات الأخيرة التى قضاها النبى صلى الله عليه و آله بمكة، أى بعد وفاة عمّه أبى طالب عليه السلام وزوجته خديجة عليها السلام ... وبطبيعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت فى فترة من أشد الفترات صعوبة فى حياة النبى صلى الله عليه و آله ولذلك يلاحظ فى بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنبى صلى الله عليه و آله وللمؤمنين.

ويُشكل القسم المهم والعمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين وخاصة قصة نوح النبى عليه السلام الذى انتصر بالفئة القليلة التى معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين معه وهم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درساً لمخالفيهم من الاعداء.

إنّ آيات هذه السورة- كسائر السور المكية- تتناول أصول المعارف الإسلامية ولا سيما المواجهة مع الشرك وعبادة الأصنام، ومسألة المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النبى.

فى هذه السورة- إضافة إلى قصّة نوح النبى- إشارة إلى قصص الأنبياء هود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرك والكفر والانحراف والظلم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۲

شيبتنى سورة هود: إنّ آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح والميادين- فى الحرب والسلم- لكثرة الأعداء ومواجهاتهم الحادة، بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم ويستقيموا أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم.

وعلى هذا فإنّنا نقرأ فى الدرّ المنثور عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «شيّبتنى هود وأخواتها».

إنّ هذه السورة فيها آيات مؤثرة اخرى تتعلق بيوم القيامة والمحاسبة فى محكمة العدل الإلهى، وآيات تتعلق بما ناله الأقوام السابقون من جزاء، وما جاء مع بعضها من أوامر فى الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية ... فلا عجب إذاً أن يشيب الإنسان عندما يفكر فى مثل هذه المسؤوليات ...

مسألة دقيقة اخرى ينبغى الإلتفات إليها فى هذا المجال، وهى أنّ كثيراً من هذه الآيات تؤكّد ما ورد فى السورة السابقة- أى سورة يونس.

التـأثير المعنوى لهـذه السورة: فى تفسـير البرهـان عن النبى صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأ هـذه السورة اعطى من الأجر والثواب بعدد من صدّق هوداً والأنبياء عليهم السلام ومن كذّب بهم وكان يوم القيامة فى درجة الشهداء وحوسب حساباً يسيراً».

ومن الوضوح بمكـان أنّ مجرد التلاوة لا يعطى هـذا الأثر، وإنّما يكون هـذا الأثر إذا كانت تلاوة هـذه السورة مقرونـة بالتفكر والعمل بعدها. وهذا هو الذى يقرّب الإنسان إلى المؤمنين السالفين ويبعده عن الذين أنكروا على الأنبياء وجحدوا دعواتهم.

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِيرٍ (١) أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (٢) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۴) الاـصول الأربعـة فى دعوة الأنبيـاء: تبـدأ هـذه السورة ببيان أهميـة الكتاب العزيز المنزل من السـماء، ليلتفت الناس إلى محتوياته أكثر ويتفكروا فيه بنظرة أدق. وذكر الحروف المقطعـة «الر»- نفسه- دليل على أهمية هذا الكتاب السماوى العزيز الذى يتشكل من حروف

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧٣

بسـيطة معروفـة للجميع مثـل الألـف واللام والراء مع ما فيه من عظمـة وإعجاز بالغين، ثم يبيّن بعـد هـذه الحروف المقطعـة واحـدة من خصائص القرآن الكريم فى جملتين.

أوّلًا: إنّ جميع آياته متقنـة ومحكمة «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ». و ثانياً: إنّ تفصـيل حاجات الإنسان فى حياته الفردية والاجتماعية- مادية كانت أو معنوية- مبيّن فيها أيضاً «ثُمَّ فُصّلَتْ».

هـذا الكتـاب العظيم مع هـذه الخصـيصة، من أين انزل، وكيـف؟! انزل من عنـد ربّ حكيم وخـبير «مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ». فبمقتضـى حكمته احكمت آيات القرآن، وبمقتضى أنّه خبير مطلع بيّن آيات القرآن فى مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان.

إنّ كـل واحـدة من صـفات القرآن التى جـاءت فى هـذه الآيـة تسترفـد من واحـدة من صـفات اللَّه ... فاسـتحكام القرآن من حكمته، وشرحه وتفصيله من خبرته.

إنّ القرآن مجموعـة واحـدة مترابطـة كالبنيـان المرصوص الثـابت، كما تـدل على أنّه نازل من إله فرد، ولهـذا فلا يوجـد أى تضاد فى آياته، ولا يُرى بينها أى اختلاف.

وفى الآية التالية يبيّن أهم مايحتويه القرآن وما هو أساسه وهو التوحيد والوقوف بوجه الشرك «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

والثـانى من محتويـات الـدعوة السـماوية: «إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَـذِيرٌ وَبَشِيرٌ». نـذير لكم من الظلم والفساد والشـرك والكفر، واحـذركم من عنادكم وعقاب اللَّه لكم!

وثالث ما فى منهج دعوتى إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ».

ورابعها هو أن تعودوا إلى اللَّه بالتوبة، وأن تتصـفوا- بعد غسل الذنوب والتطهر فى ظل الاسـتغفار- بصـفات اللَّه، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعنى إلّاالإقتباس من صفاته «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ».

ثم تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالى «يُمَتّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». فاذا عملنا بهـذه الاـصول فـإنّ اللَّه سـبحانه يهبنـا حيـاة سـعيدة إلى نهايـة العمر، وفوق كـل ذلك فإنّ كُلًا يُعطى بمقـدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس فى كيفيـة العمل بهذه الأصول ... «وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ». وأمّا فى صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: «وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ». حين تمثلون للوقوف فى محكمة العدل الإلهى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٧۴

واعلموا أنّ «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ» كائنا من كنتم، وفى أى محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيليّة للقرآن وهى مسألـة «المعـاد والبعث» ولكن لا تتصوروا أنّه لا يسـتطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعـد الموت ويكسوها ثوباً جديـداً من

الحياة ... «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۵) هذه الآية تشير- على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التى كان يتبعها أعداء الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله وذلك بالاستفادة من طريقة النفاق والإبتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق. لذلك فإنّ الآية تقول: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ».

«يثنون»: مشيرة إلى كل عمل خفى- ظاهرى وباطنىّ- قام به أعداء النبى صلى الله عليه و آله. لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ اللّه يعلم ما يخفون وما يعلنون ... «أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (۶) جميع الأحياء ضيوف مأدبته: الآية السابقة أشارت إلى سعة علم اللّه وإحاطته بالسر وما يخفون وما يعلنون، والآية محل البحث تُعدّ دليلًا على تلك الآية المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجميع الموجودات ولايمكن يتمّ ذلك إلّابالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه.

تقول الآية «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

ويعلم تقلّبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه.

وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة فى كتاب مبين ولوح محفوظ فى علم اللّه «كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۵

ملاحظات

۱- بالرغم من أنّ كلمة «دابّة» مشتقة من مادة «دبيب» التى تعنى السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك فى سيره ببطء أو بسرعة.

۲- «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء اللّه المستمر للموجودات رزقاً.

۳- «المستقر»: تعنى المقر، لأنّ جذر هذه الكلمة فى اللغة مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» وتعنى كلمة القرّ البرد الشديد الذى يجعل الإنسان والموجودات الاخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً.

و «المستودع» و «الوديعة»: من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان فى الأصل تعنيان «اطلاق الشىء وتركه».

۴- «الكتاب المبين»: معناه المكتوب الواضح البيّن، ويشير إلى علم اللّه الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

تقسيم الأرزاق والسعى من أجل الحياة: طريقة إيصال الرزق من اللّه تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقّاً. من الجنين الذى يعيش فى بطن امّه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التى تعيش فى طيّات الأرض، وفى الأشجار وعلى قمم الجبال أو فى أعماق البحر، وفى الأصداف ... جميع هذه الموجودات يتكفل اللّه برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: «عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

الطريف فى الآيات آنفة الذكر أنّها تعّبر عن الموجودات التى تطلب الرزق ب «الدابّة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و «الحركة». ونعلم أنّه حيثما تكن حركة فلابد لها من طاقة، أى ما يكون منشأً للحركة.

وفى جواب السؤال هل أنّ رزق كل أحد مقدر ومعين من أوّل عمره إلى آخره، وهل أنّه يصل إليه شاء أم أبى

نقول: إنّ رزق كل أحد مقدّر وثابت، إلّاأنّه مشروط بالسعى والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.

المسألة المهمّة فى هذا المجال أنّ الآيات والرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق- فى الواقع- بمثابة الكابح للاشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمّنوا حياتهم!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۶

إنّ آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألّا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، بل يكفى أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، واللَّه سبحانه يضمن لهم الرزق. وبالطبع أنّ بعض الأرزاق مثل نور الشمس والمطر والعقل والفكر والاستعداد تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع.

ولكن هذه المواهب إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعى بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر!

إنّ النقطة الأساسية هنا أنّ جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحى الحياة المادية والمعنوية، وأنّ الفرار من العمل- بزعم أنّ الرزق مقسوم وأنّه آت لا محالة- غير صحيح ...

وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ وَ کَانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمَاءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّکُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَیَقُولَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ (۷) الهدف من الخلق: فى هذه الآية بُحثت ثلاث نقاط أساسية:

المطلب الأوّل: يبحث عن خلق عالم الوجود- وخصوصاً بداية الخلق- الذى يدل على قدرة اللَّه وعظمته سبحانه «وَهُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ».

إنّ المقصود من كلمة «اليوم» هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جدّاً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلًا، وقد نبّهنا على هذا المعنى فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف بشرح واف فى هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة.

ثم يضيف سبحانه أنّ عرشه كان على الماء «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمَاءِ».

«العرش»: فى الأصل يعنى السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّة العالية كأسرّة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك.

ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثُلّ عرش فلان» كنايةً عن ذهاب قدرته. كما ينبغى الإلتفات إلى هذه الدقيقة، وهى أنّ العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة اللَّه يستوعب جميع هذا العالم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۷

إنّه فى بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة فى هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالإنفصال، ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السيارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إنّ عالم الوجود ومرتكزات قدرة اللَّه كانت مستقرة بادىء الأمر على المواد المتراكمة الذائبة.

والمطلب الثانى: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذى يمثل ذروة الخلائق ... هذا الإنسان الذى كتب عليه أن يسير فى طريق التعليم والتربية ويشقّ طريق التكامل نحو اللَّه تعالى. يقول اللَّه سبحانه: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». أى ليختبركم ويمتحنكم أيّكم الأفضل والأحسن عملًا بهذه الدار الدنيا.

«ليبلوكم»: كلمة مشتقة من مادة «البلاء» و «الإبتلاء» ومعناها الاختبار والامتحان.

والمطلب الثالث: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر- هو مسألة المعاد الذى لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعنى التهيؤ إلى الحياة فى عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: «وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

وكلمة «هذا» التى وردت- فى الآية آنفة الذكر- على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النبى صلى الله عليه و آله فى شأن المعاد ... أى إنّ ما تدّعيه أيها النبى فى شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة،

والقول الذى لا أساس له.

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۸

استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم: فى هذه الآيات- وبمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين- بيان لزوايا الحالات النفسية ونقاط الضعف فى أخلاق هؤلاء الأفراد والتى تجر الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأوّل صفة تذكر لهؤلاء هى السخرية من الحقائق وعدم الإكتراث بها وبالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم وعدم معرفتهم وغرورهم حين يسمعون تهديد الانبياء فى مؤاخذة المسيئين ومعاقبتهم، ثم تمرّ عليهم عدة أيام يؤخر اللَّه تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطّن: ما السبب فى تأخر العذاب الإلهى، وأين عقاب اللَّه:

«وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ».

فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدّوه سخرية.

لكن القرآن يحذرهم وينذرهم بصراحة فى ردّه على كلامهم، ويبيّن لهم أن لا دافع لعذاب اللَّه إذا جاءهم «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» وأنّ الذين يسخرون منه واقع بهم ومدمّرهم «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ومن نقاط الضعف عند هؤلاء قلة الصبر بوجه المشاكل والصعاب وانحسار البركات الإلهية. حيث نجد فى الآية التالية قوله تعالى عنهم: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ».

والمراد من «الإنسان» فى مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة والمنحرفون عن جادة الحق.

ونقطة الضعف الثالثه عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة ويشعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شىء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيَاتِ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». ثمّ يستثنى اللَّه سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء لا يَغترّون عند وفور النعمة فينسون اللَّه، ولا ييأسون عند الشدائد والمصائب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۹

فيكفرون باللَّه، بل إنّ أرواحهم الكبيرة وافكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم والبلايا فى أنفسهم دون الغفلة عن ذكر اللَّه وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإنّ لهؤلاء ثواباً ومغفرة من اللَّه «أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

الامة المعدودة وأصحاب المهدى عليه السلام: فى روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الامة المعدودة تعنى النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدى عليه السلام وأنصاره.

ولكن أنّ ظاهر الآية من الامة المعدودة هو الزمان المعدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام على عليه السلام فى تفسير الامة المعدودة تشير إلى ما بيناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآنفة تشير إلى المعنى الثانى من الآية، وهو ما اصطلح عليه ب «بطن الآية».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

سبب النّزول

وردت فى شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً. الاولى: فى تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس: إنّ رؤساء مكة من قريش، أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! إن كنت رسولًا فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فأنزل اللَّه تعالى «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الآية. والثانية: روى العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «إنّى سألت ربّى أن يوالى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يؤاخى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يجعلك وصيى ففعل». فقال رجلان من قريش: واللَّه لصاع من تمر فى شنّ بال أحبّ إلينا مما سأل محمّد ربّه، فهلا سأله مُلكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته. فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۰

مختصر الامثل ج ۲ ۴۱۹

التّفسير

القرآن المعجزة الخالدة: يبدو من هذه الآيات أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يوكل إبلاغ الآيات- نظراً للجاجة الأعداء ومخالفتهم- لآخر فرصة، لذا فإنّ اللَّه سبحانه ينهى نبيّه فى أوّل آية نبحثها عن ذلك بقوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ». لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجىء الملائكة لتصديقه «أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ».

إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبى ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعناد والتحجج الواهى، فلذلك تأتى الآية معقبة: «إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ». سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فاللَّه هو الحافظ والناظر على كل شىء «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». أى لا تكترث بكفرهم وإيمانهم فإنّ ذلك لا يعنيك، وإنّما وظيفتك أن تبلغهم، واللَّه سبحانه هو الذى يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم.

وبما أنّ الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النبى كانوا أساساً منكرين لوحى اللَّه، ويقولون: إنّ هذه الآية ليست نازلة من قبل اللَّه، وإنّ هذا الكلام افتراه محمّد- وحاشاه من ذلك- على اللَّه كذباً، لذلك تأتى الآية التالية لتبيّن بصراحة تامة: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

فقل لهم يا رسول اللَّه- إن كانوا صادقين فى دعواهم أنّ ما تقوله ليس من اللَّه وأنّه من صنع الإنسان- فليأتوا بعشر سور مثل هذا الكلام مفتريات، وليدعوا- سوى اللَّه- ما شاؤوا «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

أمّا إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أنّ ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أنّ هذه الآيات نزلت من خزانة علم اللَّه، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضاً ... فلماذا لا يقدرون على ذلك: «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». واعلموا أيضاً أنّه لا معبود سوى اللَّه، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة «وَأَن لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة «فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ». أى بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك فى أنّ هذه الآيات منزلة من قبل اللَّه، ومع هذه المعجزة البينة ما زلتم منكرين، أم أنّكم تسلمون وتقرّون حقاً؟

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۱

إنّ الآيات- المذكورة- تؤكّد إعجاز القرآن مرّة اخرى وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً، بل هو وحى السماء الذى ينزل بعلم اللَّه اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنّه يتحدى جميع البشر أن يواجهوه بمثله.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶) الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين،

ولکن جماعة منهم امتنعوا عن القبول- لحفظ منافعهم الشخصیة- بالرغم من وضوح الحق، فالآیات هذه تشیر إلی مصیر هؤلاء فتقول: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» من رزق مادی وشهرة وتلذذ بالنعم «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ» نتیجة «أَعْمَالَهُمْ فِيهَا» فی هذه الدنیا «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ». أی لا ینقص من حقهم شیء فی الدنیا.

«البخس»: فی اللغة نقصان الحق، وجملة «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ» إشارة إلی أنّهم سینالون نتیجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.

هذه الآیة سنة إلهیة دائمة، وهی أنّ الأعمال «الإیجابیة» والمؤثرة لاتضیع نتائجها، مع فارق وهو أنّه إذا کان الهدف الأصلی منها هو الوصول إلی الحیاة المادیة فی هذه الدنیا فإنّ ثمراتها فی الدنیا فحسب، وأمّا إذا کان الهدف هو «اللّه» وکسب رضاه فإنّ تأثیرها ونتائجها ستکون فی الدنیا وفی الآخرة أیضاً حیث تکون النتائج کثیرة الثمار.

وهذا من قبیل مانراه بوضوح علی أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربی فتح أسراراً کثیرة من العلم بسعیه المتواصل والمنسّق، وأصبح متسلطاً علی قوی الطبیعة وحصل علی مواهب کثیرة لتصدیه الدائب لمشاکل الحیاة الدنیویة بصبر واستقامة وجد، فلا کلام فی نیل العالم الغربی جزاء أعماله وتحقیقه انتصارات مشرقة، ولکن لأنّ هدفه الحیاة المادیة فحسب، فإنّ أعماله لا تثمر غیر توفر الإمکانات المادیة.

فلذلک یقول سبحانه عنهم فی الآیة التالیة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» لیزول کل أثر اخروی لما عملوا فی هذه الدنیا ولا ینالون علیه أی ثواب «وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» وکل ما کان لغیر اللّه فسیزول أثره «وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۲

فی الدرّ المنثور- فی تفسیر هذه الآیات- عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «إذا کان یوم القیامة صارت امتی ثلاث فرق: فرقة یعبدون اللّه خالصاً، وفرقة یعبدون اللّه ریاءً، وفرقة یعبدون اللّه یصیبون به دنیا. فیقول للذی کان یعبد اللّه للدنیا: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ فیقول: الدنیا. فیقول:

لا جرم لا ینفعک ما جمعت ولا ترجع إلیه، انطلقوا به إلی النار.

ویقول للذی یعبد اللّه ریاءً: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ قال: الریاء. فیقول: إنّما کانت عبادتک التی کنت ترائی بها لا یصعد إلیّ منها شیء ولا ینفعک الیوم، انطلقوا به إلی النار.

ویقول للذی کان یعبد اللّه خالصاً: بعزّتی وجلالی، ما أردت بعبادتی؟ فیقول: بعزّتک وجلالک لأنت أعلم به منّی، کنت أعبدک لوجهک ولدارک، قال: صدق عبدی، انطلقوا به إلی الجنة».

أَ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۷) هناک أقوال کثیرة- فی تفسیر الآیة أعلاه- ولکن تفسیر منها أشد وضوحاً. فی بدایة الآیة یقول الحق سبحانه: «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ». أی من اللّه تعالی: «وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً». أی التوراة التی تؤیّد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل یستوی ومن لا یتمتع بهذه الخصال والدلائل البینة؟

هذا الشخص هو النبی صلی الله علیه و آله ودلیله الواضح هو القرآن المجید، والشاهد المصدق بنبوته کل مؤمن حق أمثال علی علیه السلام ومن قَبلُ وردت صفاته وعلائمه فی التوراة، فعلی هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقة واضحة.

الأوّل: القرآن الکریم الذی هو بیّنة ودلیل واضح فی یده.

الثانی: الکتب السماویة التی سبقت نبوّته وأشارت إلی صفاته بدقّة، وأتباع هذه الکتب السماویة فی عصر النبی کانوا یعرفونه حقّاً، ولهذا السبب کانوا ینتظرونه.

والثالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحّون الذین کانوا یبیّنون دعوته ویتحدثون عنه.

ومع وجود هذه الدلائل الحيّة، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين، أم هل ينبغى التردد فى صدق دعوته؟!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۳

ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول: «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». أى النبى الذى لديه هذه الدلائل الواضحة.

ثم يعقب بعد ذلك ببيان عاقبة المنكرين ومصيرهم بقوله تعالى: «وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

وفى ختام الآية- كما هى الحال فى كثير من آيات القرآن- يوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله ويبيّن درساً عاماً لجميع الناس، ويقول: بعد هذا كله من وجود الشاهد والبيّنة والمصدق بدعوتك، فلا تتردد فى الطريق ذاته «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ». لأنّه من قبل اللّه سبحانه «إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ». ولكن كثيراً من الناس ونتيجةً لجهلهم وأنانيتهم لا يؤمنون «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

وعلى هذا فالآية تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمة فى اختيار مذهبهم هذا ... وفى قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً ...

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۸) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (۱۹) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۲۲) أخسر الناس أعمالًا: بعد الآية المتقدمة التى كانت تتحدث عن القرآن ورسالة النبى محمّد صلى الله عليه و آله تأتى آيات اخر تشرح عاقبة المنكرين وعلاماتهم ومآل أعمالهم. ففى أوّل آية من هذه الآيات يقول سبحانه: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». ويعنى أنّ تكذيب دعوة النبى الصادق فى الواقع هو تكذيب لكلام اللّه وافتراء عليه بالكذب.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۴

ثم يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يُعرضون على محكمة العدل الإلهى «أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ». حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم وأنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على اللّه العظيم الرحيم وولى النعمة .... «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ» ثم ينادون بصوت عال «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». و الآية التى بعدها تبيّن صفات الظالمين فى ثلاث جمل:

الاولى تقول: إنّهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل اللّه «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» فمرّة عن طريق إلقاء الشّبهة، ومرّة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصدّ عن سبيل اللّه.

الثانية تقول: إنّهم يسعون فى أن يُظهروا سبيل اللّه وطريقه المستقيم عوجاً «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». أى بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التّفسير بالرأى وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للصراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير فى هذا الطريق.

والثالثه تقول: إنّهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة «وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات.

فى الآية التالية يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب اللّه فى الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه «أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» كما أنّهم لا يجدون وليّاً وحامياً لهم غير اللّه «وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ».

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفى الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» «۱».

وفى ختام الآية يبيّن اللَّه سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ».

---

(۱) سورة العنكبوت/ ۱۳.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۵

فهم بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين وسيلتى السمع والبصر لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل وأضلّوا سواهم أيضاً ...

وبديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية.

و الآية التى بعدها تبيّن فى‌جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم فى طريق الباطل، فتقول:

«أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ». وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى ...

ثم تضيف الآية: أنّهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً ... «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وفى نهاية الآية بيان الحكم النهائى لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير: «لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْأَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

والسبب واضح؛ لأنّهم حُرموا من نعمة السمع الحاد والبصر النافذ، وخَسِروا كل إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقالَ مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۲۴) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى أوضحت حال منكرى الوحى، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قبالهم، وهم المؤمنون حقّاً. فالآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ». أى: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر اللَّه ووعده الحق، «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الاخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حيّ وواضح ... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فتقول الآية: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا». ثمّ تعقّب الآية: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

حال منكرى الوحى، فبسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۶

التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة اللَّه، وعظمة التسليم لأمره. هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً فى ظلام مطبق وسكوت مميت ... فى حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بآذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (۲۷) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (۲۸) قصّة نوح المثيرة مع قومه: تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، فى البداية تذكر قصّة نوح عليه السلام وهو أحد الأنبياء أولى العزم، وضمن (۲۶) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير ... والآيات المتقدمة تبيّن بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية الاخرى يُلخّص محتوى رسالته فى جملة واحدة ويقول: رسالتى هى «أن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة اخرى: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

إنّ مسألة التوحيد والعبودية للّه‌الواحد الأحد هى أساس دعوة الأنبياء جميعاً، فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون ولا يعبدون

إلّااللَّه، ولا- ينقادون للأوثان الوهميـة الخارجيـة منها والداخليـة من قبيل الأنانيـة والهوى والشـهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبيات والخبائث فى المجتمع البشرى.

فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت واتّباع الهوى والمترفين وامثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۷

فقد أجاب اولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الأشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا». زعماً منهم أنّ الرسالـة الإلهيـة ينبغى أن تحملها الملائكـة إلى البشـر لا أنّ البشر يحملها إلى البشر! وظنّاً منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

والإشـكال الثانى: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلّاحفنـةً من الأراذل وغير الناضـجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: «وَمَا نَرَيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ».

الإشـكال الثالث: الـذى أوردوه على نوح عليه السـلام أنّهم قالوا: بالاضافـة إلى أنّك إنسان ولست ملكاً، وأنّ الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلًا «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ».

والآيات التى تعقبها تبيّن ردّ نوح عليه السـلام وإجاباته المنطقيـة على هؤلاء حيث تقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتِنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ».

وفى ختـام الآيـة يقول النبى نوح عليه السـلام لهم: هل أسـتطيع أن ألزمكم الإسـتجابة لـدعوتى وأنتم غير مسـتعدّين لها وكارهون لها: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ».

وَ يَا قَوْمِ لَـا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًـا إِنْ أَجرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَ لكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا فِى أَنْفُسِـهِمْ إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱) ما أنا بطارد الـذين آمنوا: هذه الآيات تتابع ما ردّ به نوح عليه السلام على قومه المنكرين.

فالآيـة الاولى الـتى تحمـل واحـداً من دلائـل نبـوّة نوح، ومن أجـل أن تنير القلوب المظلمـة من قومه تقول على لسـان نوح: «وَيَا قَوْمِ لَاأَسْلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا». فأنا لا أطلب لقاء دعوتى مالًا أو ثروة منكم، وإنّما جزائى وثوابى على اللَّه سبحانه الذى بعثنى بالنبوة وأمرنى بدعوة خلقه إليه: «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۸

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْـرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱) وهـذا معيار وميزان لمعرفـة القادة الصادقين من غيرهم الذين يتحيّنون الفرص ويهدفون إلى تأمين المنافع المادية فى كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعقب نوح عليه السـلام بعد ذلك فى ردّه على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء والشـباب فيقول بصورة قاطعة: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا». لأنّهم سيلاقون ربّهم ويخاصموننى فى الدار الآخرة «إِنَّهُمْ مُّلَقُوا رَبّهِمْ».

ثم تُختتم الآيـة ببيـان نوح لقومه بـأنّكم جـاهلون «وَلكِنّى أَرَيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وأىّ جهل وعـدم معرفـة أعظم من أن تضـيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها فى الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهرى.

ثمّ أنتم تتصورون- بجهلكم- أن يكون النبى من الملائكة، فى حين ينبغى أن يكون قائد الناس من جنسـهم ليحسّ بحاجاتهم ويعرف

مشاكلهم وآلامهم.

وفى الآية التى بعدها يقول لهم موضحاً: إنّنى لو طردت من حولى فمن ينصرنى من عدل اللَّه يوم القيامة وحتى فى هذه الدنيا «وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ».

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهيّن، إذ سيكونون خصومى يوم القيامة بطردى لهم، ولا أحد هناك يستطيع أن يدافع عنّى ويخلصنى من عدل اللَّه، ولربّما أصابتنى عقوبة اللَّه فى هذه الدنيا، أم أنّكم لا تفكرون فى أنّ ما أقوله هو الحقيقة عينها «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وآخر ما يجيب به نوح قومه ويردّ على إشكالاتهم الواهية ... إنّكم إذا كنتم تتصورون أن لى امتيازاً آخر غير الإعجاز الذى لدىّ عن طريق الوحى فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أستطيع أن أحقق كل شيءٍ أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكى الآية عن لسانه «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أقول لكم إنّنى مطلع على الغيب «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». ولا أدعى أنّنى غيركم كأن أكون من الملائكة مثلًا «وَلَا أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ» فهذه الادّعاءات الفارغة والكاذبة يتذرع بها المدّعون الكذبة، وهيهات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون.

وفى ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا»، بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا حُفاة لخلوّ أيديهم من المال والثروة فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً فى المال والمقام والسن، تجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۹

وعلى فرض صحة مدّعاكم أراذل و «أوباش» ف «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ».

أنا الذى لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب علىّ قبولهم، لأنّى مأمور بالظاهر، والعارف بأسرار العباد هو اللَّه سبحانه، فإن عملت غير عملى هذا كنت آثماً «إِنّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ».

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵) كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟ الآية الاولى من الآيات اعلاه تتحدث عن قوم نوح عليه السلام أنّهم: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا». فأين ما تعدنا به من عذاب اللَّه «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبة من قبل أنبياء اللَّه ونصائحهم التى تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنّما تحكى عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

لقد أجاب نوح عليه السلام على هذه اللجاجة والحماقة وعدم الإعتناء بقوله: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ». فذلك خارج من يدى على كل حال وليس باختيارى، إنّما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منّى العذاب والعقاب! ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

ثم يضيف: وإذا كان اللَّه يريد أن يضلّكم ويغويكم- لما أنتم عليه من الذنوب والتلوّث الفكرى والجسدى- فلا فائدة من نصحى لكم إذاً «وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ» فهو وليكم وأنتم فى قبضته «هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

سؤال: هل يمكن أن يريد اللَّه الغواية والضلال لعباده؟

الجواب: قد تصدر من الإنسان- أحياناً- سلسلة من الأعمال التى تكون نتيجتها الغواية والانحراف الدائمى وعدم العودة إلى الحق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۰

وفى آخر الآية- محل البحث- ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضيع التى بحثت قصة نوح فى الآيات السابقة واللاحقة، فتبيّن الآية أنّ الأعداء يقولون: إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه ونسبه إلى اللَّه «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

ففى جواب ذلك قل يا رسول اللّه: إن كان ذلك من عندى ونسبته إلى اللّه فذنبه علىّ «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى» ولكنى برىء من ذنوبكم «وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ».

«الإجرام»: مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك- سابقاً- فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثم اطلقت على كل ما يحدث من عمل سيء، وتطلق على من يحث الآخر على الذنب أنّه أجرم، وحيث إنّ الإنسان له إرتباط فى ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الإرتباط الإلهى منه.

وَ أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۳۹) إنّ قصة نوح عليه السلام الواردة فى آيات هذه السورة، بُيّنت بعدّة عبارات وجمل، كل جملة مرتبطة بالاخرى، وكل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السلام فى قبال المستكبرين، ففى الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السلام المستمرة والتى كانت فى غاية الجدية، وبالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة، وفى الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثالثه من هذه المواجهة، وهى مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصفية الإلهية.

ففى الآية الاولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن باللّه غير هؤلاء: «وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ».

وهى إشارة إلى أنّ الصفوف قد أمتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلابدّ إذاً من الإستعداد للتصفية والتحول النهائى.

وفى نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۱

هذه الأعمال «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». ونستفيد من هذه الآية- ضمناً- أنّ اللّه يطلع نبيّه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى.

وعلى كل حال لابدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبهم.

وجاء الأمر لنوح أن «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا».

وفى نهاية الآية ينذر اللّه نوحاً أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً «وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ».

هذه الجملة تبيّن بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكلّ شخص، بل للشفاعة شروطها فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنبى أن يشفع له ويطلب من اللّه العفو لأجله.

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- ولو لحظة واحدة- فى دعوة النبى نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أنّ هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحى اللّه» فتكون مسألة العذاب والطوفان حتمية! إلّاأنّهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرّة اخرى وهى عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، وكان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة «قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ماتصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

سفينة نوح: لا شكّ أنّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديّة ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفى للمدة التى يعيشها المؤمنون

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۹۲

والحيوانات فى السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل فى ذلك الزمان، فهذه السفينة ستجرى فى بحر بسعة العالم، وينبغى أن تمرّ سالمةً عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها. لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إنّ طول السفينة كان ألفاً ومئتى ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع (كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً).

ونقرأ فى بعض الروايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامّاً بالعقم وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمة لعذابهم وعقابهم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (۴۲) قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳) شروع الطوفان: رأينا فى الآيات المتقدمة كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذى طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة. والآيات- محل البحث- تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيّنه بهذا التعبير: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ».

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهى فوران التنور بالماء فى بيوتهم ولكن غضّوا أجفانهم وصمّوا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

فى هذه الحالة بلغ الأمر الإلهى نوحاً «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن ءَامَنَ».

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ «وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۹۳

هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان وقد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة اخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل.

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب اللَّه أمرهم أن يركبوا فى السفينة «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسهَا».

لماذا؟ لكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر اللَّه تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهى فتلبّدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جدّاً».

شرع المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا واد ولا تلعة ولا نجد إلّا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضمّاً ... أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضى فى هذا البحر «وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ». فإنّ مصيرك إلى الفناء إذا لم تركب معنا.

ولكن- للأسف- كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب اللّه أجاب والده نوحاً و «قَالَ سَاوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ». ولكن نوحاً لم ييأس مرّة اخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و «قَالَ لَاعَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». ولا ينجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف اللّه «إِلَّا مَن رَّحِمَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۴

وفى هذه الحالة التى كان ينادى نوح إبنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ».

بحوث

۱- دروس تربوية من طوفان نوح: إنّ هدف القرآن الأصلى من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفى هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جدّاً نشير إلى قسم منها:

تطهير وجه الأرض: صحيح أنّ اللّه رحيم ودود، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنّه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنّه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمربّين الإلهيين فى قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك فى الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتى.

وهذا الأمر غير منحصر فى قوم نوح ولا بزمان معين، إنّما هو سنة اللّه فى خلقه وعباده فى جميع العصور والأزمان حتى فى عصرنا الحاضر، وأى إشكال فى أن تكون كل من الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

۲- لِمَ كان العقاب أو الطوفان؟ صحيح أنّ قوماً أو امة كانوا فاسدين وينبغى زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق فى الآيات المتقدمة نستفيد أنّ هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب اللّه دائماً وأبداً «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى فى «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون ونهايته كان فى النيل.

وكان قوم نوح أهل زراعة و «أنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم فى «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ...

ومن هنا يتّضح جلياً أنّ حساب اللّه فى غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة فى عصرنا وفى الحرب العالمية الاولى والثانية كيف ابيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغى أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التى اعتمدوا عليها فى استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم ... أدت إلى زوالهم.

۳- المرتكزات الجوفاء: من الطبيعى أنّ كل أحد يعتمد فى التغلّب على الصعاب ومواجهة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۵

المشاكل فى حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم .. ولكن- كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ- لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى

مقاومة أمام أمر اللَّه وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً فى مثل هذا الوهم، وظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب اللَّه ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنّه وأنهت حياته.

۴- سفينة النجاة: وردت روايات كثيرة عن النبى صلى الله عليه و آله تعبر عن أهل بيته- وهم الأئمة الطاهرون وحملة الإسلام- بأنّهم «سفينة النجاة». أى أنّه حين يطغى الطوفان الفكرى والعقائدى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإنّ طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴) نهاية الحادث: كان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد اللَّه سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة فى كل صوب، وفى روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذى الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرّم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء فى بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة وحول الكعبة.

وأخيراً صدر الأمر الإلهى بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية- محل البحث- تبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته فى عبارات وجيزة جدّاً، وفى الوقت ذاته بليغة وأخّاذة، وقد جاءت الآية فى جمل ست:

۱- «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

۲- «وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» وصدر الأمر للسماء أن لا تمطرى.

۳- «وَغِيْضَ الْمَاءُ» ونزل الماء فى جوف الأرض.

۴- «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» انتهى حكم اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۶

۵- «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» واستقرت السفينة على طرف جبل الجودى.

۶- «وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» عندئذ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة اللَّه.

طائفة من علماء العرب: إنّ هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً فى غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أنّنا نقرأ فى تفسير مجمع البيان أنّ كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر، ولحوم الضأن، وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم. فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شىء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين. وتركو ما أخذوا فيه، وافترقوا. وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (۴۵) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۴۶) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِنْ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۴۷) حادثة ابن نوح المؤلمة: قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان. وهذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنّه حين رأى نوح إبنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة وتذكّر وعد اللَّه فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحة اللَّه منادياً «فَقَالَ رَبّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ».

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (۴۰) من هذه السورة، ولكنه سمع الجواب مباشرة ... جواب يهزّ هزّاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة ... حقيقة أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب والقرابة «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صلِح».

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. «فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللَّه لم يكن صحيحاً، ولا ينبغى أن يتصور نجاة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۷

ولده مما وعد اللَّه به فى نجاة أهله، لذلك توجه إلى اللَّه معتذراً مستغفراً و «قَالَ رَبّ إِنّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسَلَكَ مَا لَيسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

فى العيون عن الرضا عليه السلام: «كيف يقرأون هذه الآية؟» قيل: من الناس من يقرأ: أنّه عمل غير صالح ومنهم من يقرأ: أنّه عمل غير صالح فمن قرأ أنّه عمل غير صالح نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: «كلّا لقد كان إبنه، ولكن لمّا عصى اللَّه نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع اللَّه فليس منّا».

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَام مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹) هبوط نوح بسلام: هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التى تتحدث عمّا جاء فى نوح وقصته المليئة بالدروس والعبر فى سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعودة الحياة والعيش الطبيعى على الأرض. يقول القرآن فى الآية الاولى من هاتين الآيتين: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ».

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمّر كل آثار الحياة ... فالأراضى العامرة والمراتع الخُضر والغابات النضرة كلها ابيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن اللَّه سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأنّ كل ذلك سيكون مهيّأً وموفّراً لهم فلا ينبغى الحزن على شىء ...

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنّه ستعقب الامم التى معك امم من نسلها، ولكن هذه الامم ستغتر وتغفل عن نعم اللَّه فتنال جزاءها من اللَّه «وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مّنَّا عَذَابٌ أَلِيم».

وفى آخر آية تختم بها قصة نوح- فى هذه السورة- إشارة كلية عامة إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذَا».

فالخطاب هنا للنبى محمّد صلى الله عليه و آله يؤكّد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح عليه السلام

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۸

عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم اللَّه وبالمقدار الذى كان يريده اللَّه لهم، لا أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم.

والآن نودع قصّة نوح بكلّ ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبى عظيم آخر وهو هود الذى سُمّيت هذه السورة باسمه.

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (۵۰) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) فى الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأمّا الآن فالحديث عن هود عليه السلام. يقول سبحانه فى الآية الاولى من هذه القصة: «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا». ونلاحظ فى الآية أنّها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار فى لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ...

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّاً، وهذه الحالة هى صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم ....

معاملة خالية من أيّة شائبة وأىّ امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود- كما هو الحال فى دعوة الأنبياء جميعاً- توحيد اللّه ونفى الشرك عنه «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكَم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ».

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أى عمل، وأى افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلًا لقومه: لا تتصوروا أنّ دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا اريد منكم أىّ أجر «يَا قَوْمِ لَاأَسَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا». فأجرى وحده على من فطرنى ووهبنى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۹

الروح وأنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق والرازق «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى».

وأساساً فإنّى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالين، فبيّن أن هذا الأجر المادى مشروط بالايمان فيقول: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ». فإذا فعلتم ذلك فإنّه «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» «۱». لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ اللّه بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرعاكم «وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ».

فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، فعلى هذا إيّاكم والإبتعاد عن طريق الحق «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».

التوحيد أساس دعوة الأنبياء: يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفى الشرك ونفى عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإنّ أىّ إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها امور تسترفد من منبع واحد وهو توحيد المعبود.

وأمّا الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانية ... وما إلى ذلك ... وإرتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على أحد!

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَ رَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷)

---

(۱) «المدرار»: مشتق من «درّ» وهو انصباب حليب الأثداء، ثمّ استعمل فى انصباب المطر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۰

قوّة المنطق: والآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين والمغرورين- قوم عاد- مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ». أى لم تأتنا بدليل مقنع لنا «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ» الذى تدعونا به إلى عبادة اللّه وترك الأوثان «وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».

وأضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقية، أنّك يا هود مجنون و «إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَيكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ». ولا شك أنّ هوداً- كأى نبى من الأنبياء- أدّى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنهم لغرورهم- مثل سائر الأقوام- أنكروا معاجزه وعدّوها سحراً.

إنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوة أيضاً ... يقول القرآن فى جواب هود لهم: «قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ».

يشير بـذلك إلى أنّ الأصـنام إذا كانت لها القـدرة فاطلبوا منها هلاكى وموتى لمحاربتى لها علناً فعلام تسكت هـذه الأصـنام؟ وماذا تنتظر بى؟

ثم يضيف أنّه ليست الأصـنام وحدها لا تقدر على شىء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شىء، فإذا كنتم قادرين «مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونَ».

فأنا لا تردعنى كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكترث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمى ولديكم مختلف القدرات، إلّاأننى واثق بقدرة فوق كل القدرات، «إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبّى وَرَبّكُم».

فلو فكرتم جيـداً لكان هـذا وحـده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيـد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة فى مجتمع قوى ومتعصب، لكنّه فى الوقت ذاته لا يشعر فى نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثمّ يضيف: لستم وحدكم فى قبضة اللّه، فإنّه «مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا»، فما لم يأذن به اللّه، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً.

ولكن إعلموا أيضـاً أنّ ربّى القـدير ليس كالأشـخاص المقتـدرين الـذين يسـتخدمون قـدرتهم للهوى واللعب والأنانيـة وفى غير طريق الحق، بل هو اللّه الذى لا يفعل إلّاالحكمة والعدل «إِنَّ رَبّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

ثم إنّ هوداً قال لقومه فى آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۱

إشارة إلى أن لا يتصوروا أنّ هوداً سـيتراجع إن لم يسـتجيبوا لدعوته، فإنّه أدّى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته.

وكمـا هـدّد القـوم هـوداً، فـإنّه هـددهم بأشـدّ مـن تهديـدهم، وقـال: إن لم تسـتجيبوا لـدعوتى فـإنّ اللّه سـيبيدكم فى القريب العـاجل «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيًا».

هـذه سنّة اللّه فى خلقه وقـانونه العـام، إنّه متى كـان قوم غير لائقين لاسـتجابة الـدعوة والهدايـة والنعم الاخرى التى أنعمها عليهم فإنّه سيبعدهم ويسـتخلف قوماً لائقين بمكانهم «إِنَّ رَبّى عَلَى كُلّ شَىْءٍ حَفِيظٌ». فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شىء وقادر على كل شىء.

وَ لَمَّا جـاءَ أَمْرُنـا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَـذابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْـكَ عَادٌ جَحَـدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُـلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِى هـذِهِ الـدُّنْيا لَعْنَهً وَ يَوْمَ الْقِيَامَـهِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْـداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

اللعن الأبـدى على القوم الظـالمين: فى آخر الآيـات التى تتحـدث عن قصـة قوم عـاد ونبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعانـدين، فتقول الآيات: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا». وتؤكـد أيضاً نجاة المؤمنين «وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ».

وفى قوله تعالى: «نَجَّيْنَا» وتكرار هذه الكلمة فى الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسرين، ف «نجّينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجّينا» الثانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسـرين إلى مسألـة لطيفـة هنـا، وهى أنّ الكلاـم لمّـا كان على رحمـة اللّه فمن غير المناسب أن تتكرر كلمـة العـذاب مباشـرة، فأين الرحمـة من العـذاب؟ لـذلك تكررت كلمـة «نجّينا» لتفصل بين الرحمـة والعذاب دون أن ينقص شـىء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الإلتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهى أنّ آيات القرآن وصفت العذاب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۲

بالغليظ فى أربعة موارد «۱». وبملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء اللَّه- ورد ذكرهم فى سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا يَنسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلًا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ فى تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عادٍ فى ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات اللَّه وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلًا واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوّة نبيّهم إلّاجحدوه «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ».

والثانى: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء اللَّه «وَعَصَوْا رُسُلَهُ».

والثالث من الذنوب: إنّهم تركوا طاعة اللَّه ومالوا لكل جبار عنيد «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ». فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار»: يطلق على من يُجبر سواه على إتباعه ويريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهرى.

و «العنيد»: هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر مما ينبغى، ولا يرضخ للحق أبداً.

---

(۱) وهى فى السور التالية: ۱- ابراهيم/ ۷؛ ۲- لقمان/ ۳۴؛ ۳- فصّلت/ ۵۰؛ ۴- هود/ ۵۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۳

هاتان الصفتان تتجليان فى الطواغيت والمستكبرين فى كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمة.

وفى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة و الباطلة حيث تقول الآية: «وَأُتْبِعُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَالَعْنَةً» و بعدالموت لايبقى إلّاخزيهم والصيت السيىء «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ» يقال لهم: «أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ».

وكان يكفى تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتؤكّد عليهم أوّلًا، ولتشير إلى أنّهم القوم الذين آذوا نبيّهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم اللَّه عن رحمته.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قصة ثمود: انتهت قصة عاد، قوم هود، بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنا أيضاً أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيّهم «صالح» يذكره على أنّه أخوهم، وأىّ تعبير أروع وأجمل منه حيث بيّنا قسماً من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلّاالخير لجماعته «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ونجد أيضاً أنّ منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفى أى نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ولكى يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم اللَّه المهمة التى استوعبت جميع وجودهم فقال: «هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ».

ثمّ يُذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم اخرى موجودة فى الأرض حيث قال: «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا».

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ اللَّه عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنّما قال:

وفوّض إليكم إعمار الأرض «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» وهى إشارة إلى أنّ الوسائل معدّة فيها لكل شىء وعليكم إعمارها بالعمل والسعى المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها.

وبدون ذلك لا حظّ لكم فى الحياة الكريمة.

فإذا كان الأمر كذلك: «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» لدعواتكم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۰۴

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هـذَا أ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قَالَ يَا قَوْم أ رَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵) والآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبىّ اللَّه «صالح عليه السلام» إزاء منطقه الحى الداعى إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النبى «صالح» أو على الأقل للمحاولة فى عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامّى الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: «يَا صلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذَا». وكنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك فى امورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرايتك، ولم نشك فى إشفاقك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا، فأبديت عدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا «أَتَنْهَنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». والحقيقة أنّنا نشكّ فى دعوتك للواحد الأحد «وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

لكن هذا النبى الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة فى روحه الكبيرة فأجابهم قائلًا: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتِنِى مِنْهُ رَحْمَةً». أفأسكت عن دعوتى ولا أبلغ رسالة اللَّه ولا أواجه المنحرفين «فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ».

ولكن اعلموا أنّ كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا يزيدنى إلّاإيماناً بضلالتكم وخسرانكم: «فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ».

وبعد هذا كلّه ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعاجز الإلهية التى دونها

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۰۵

قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التى هى آية من آيات اللَّه وقال: «وَيَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ».

«الناقة»: فى اللغة هى انثى الجمل، وقد اضيفت إلى لفظ الجلالة «اللَّه» وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبّر عنها فى الآية المتقدمة بأنّها «آية» وعلامة إلهيّة ودليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة.

إنّ القرآن ذكر قصة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ فى روايات كثيرة، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص اخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» فى شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبى صالح عليه السلام، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا

يجدون فى دعوة صالح خطراً على مصالحهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة وهيأوا جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض «فَعَقَرُوهَا».

«عقروها»: مشتقة من مادة «العُقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشىء وأساسه وجذره، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل.

العلاقة الدينية: إنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطنى فى أمر ما والإرتباط معه إرتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه. يقول الإمام على عليه السلام فى الخطبة (۲۰۱) فى نهج البلاغة: «وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللَّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا».

وهناك روايات متعددة فى المضمون ذاته نقلت عن نبى الخاتم وأهل بيته الكرام، وهى تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء.

وفى نهاية الآية نقرأ أنّ النبى «صالحاً» بعد أن رأى تمرّد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم «فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ». فهو وعد اللَّه الذى لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۶

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸) نهاية ثمود؛ قوم صالح: فى هذه الآيات يتبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: «تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ» فتقول الآيات: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا» لا من العذاب الجسمانى والمادى فحسب، بل «وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ» «۱». لأنّ اللَّه قوى وقادر على كل شىء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أىّ شىء ولا قدرة فوق قدرته «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ».

وعلى هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب اللَّه ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة اللَّه تعالى.

إنّ رحمة اللَّه تستوجب ألّا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألّا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح «كَأَنَّ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ» عن لطف اللَّه ورحمته.

وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قَالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

---

(۱) «الخزى»: فى اللغة الإنكسار الذى يصيب الإنسان سواءً من نفسه أو من سواه ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۷

جانب من حياة محطّم الأصنام: والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذى حطم الأصنام، وما جرى له مع قومه، وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول فى البداية: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرهِيمَ بِالْبُشْرَى .

وهؤلاء الرسل هم الملائكة الذين امروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة.

أمّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الإحتمال الأوّل: البشرى بتولّد إسماعيل وإسحاق ويعدّ بشارة عظمى.

والإحتمال الثانى: إنّ إبراهيم كان مستاءً مما وجده فى قوم لوط من الفساد والعصيان، فحين أخبروه بأنّهم امروا بهلاكهم سُرّ، وكان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا إبراهيم «قَالُوا سَلمًا» فأجابهم أيضاً و «قَالَ سَلمٌ» ورحّب بهم «فَمَا لَبِثَ أن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ». «العجل»: فى اللغة ولد البقر؛ و «الحنيذ»: معناه المشوى.

ويستفاد من هذه الجملة أنّ من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصة إذا كان الضيف مسافراً، فإنّه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغى أن يقدم له الطعام عاجلًا ليخلد إلى الراحة.

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحسّ بالإستيحاش واستغرب ذلك منهم «فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً».

ومن السنن والعادات القديمة التى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للاسلاف، هى أنّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلح عليه:

تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، وعلى هذا فإنّ من له قصد سوء مع أحد- واقعاً- يحاول ألّا يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم فى نيّاتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنّهم يريدون به سوءاً.

أمّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما فى نفس إبراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و «قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۸

وفى هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ».

هذا الضحك من سارة يحتمل أن يكون لأنّها كانت مستاءةً من قوم لوط وفجائعهم، واطّلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

ثم تضيف الآية أنّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: «فَبَشَّرْنَهَا بِإِسْحقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحقَ يَعْقُوبَ».

الواقع أنّ الملائكة بشّروها بالولد وبالحفيد، فالأوّل إسحاق والثّانى يعقوب، وكلاهما من أنبياء اللَّه.

ومع التفات «سارة» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسنّ زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ».

إنّ رسل اللَّه ازالوا التعجب عنها فوراً وذكّروها بنعم اللَّه «الخارقة للعادة» عليها وعلى اسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمّة، فالتفتوا إليها و «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». ذلك الربّ الذى نجّى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم يصبه سوء وهم فى قلب النار.

وهذه الرحمة الإلهية لم تكن خاصة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى أهل هذا البيت، وأى بركة أعظم من وجود رسول اللَّه محمّد صلى الله عليه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام فى هذه الاسرة وفى هذا البيت بالذات.

وقالت ملائكة اللَّه لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم فى شأن اللَّه: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ».

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶) رأينا فى الآيات السابقة أنّ إبراهيم عرف فوراً أنّ أضيافه الجدد لم يكونوا أفراداً خطرين أو يخشى منهم، ولمّا ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من اولئك الأضياف، ومن ناحية اخرى فقد بشروه بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير فى قوم لوط الذين ارسل إليهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۹

هؤلاء الرُسل «الملائكـة» فأخـذ يجادلهم ويتحدث معهم فى أمرهم «فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرٰهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ» «۱».

وهنـا يمكن أن ينقـدح هـذا السؤال، وهو: لِمَ تبـاحث إبراهيم عليه السـلام مع رسل اللّه وجادلهم فى قوم آثمين ظالمين- كقوم لوط- وقد امروا بتدميرهم، فى حين أنّ هذا العمل لا يتناسب مع نبىّ، خاصةً إذا كان إبراهيم عليه السلام فى عظمته وشأنه؟

لهذا فإنّ القرآن يعقّب مباشرة فى الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على اللّه فيقول: «إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ» «۲».

هذه الاصاف الثلاث المجملة جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إنّ هذه الصـفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أنّ مجادلته كانت ممدوحة، وذلك لأنّ إبراهيم لم يتّضح له أنّ أمر العذاب صادر من قبل اللّه بصورة قطعية، ويحتمل أنّهم سيرتدون عن غيهم ويتّعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم ....

وتقول الآيـة التاليـة: إنّ الرسل قالوا لإبراهيم- مباشـرةً- أن أعرض عن اقتراحك لأنّ أمر ربّك قـد تحقق والعـذاب نازل لا محالـة. «يَا إِبْرٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ».

والتعبير ب «ربّك» لا يـدل على أنّ هـذا العـذاب خال من الطابع الانتقامى فحسب، بل يدل أيضاً على أنّه علامة لتربية العباد وإصـلاح المجتمع الإنسانى.

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالَ هـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۷۷) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (۷۸) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (۷۹) قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (۸۰)

---

(۱) «روع»: على وزن «نـوع» معناهـا «الخـوف و الوحشـة» و كلمـة «روع» على وزن «نوح» معناهـا «الروح» أو قسم منهـا الـذى هو محل الخوف و مركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

(۲) «الحليم»: مشتق من «الحلم» و هو: الأناة والصبر فى سبيل الوصل إلى هدف مقدس، والأواه فى الأصل: كثير التحسر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التى يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أى الرجوع.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۰

قوم لوط وحيـاة الخزى: مرّت فى آيـات من سورة الأعراف إشارة إلى شـىء من مصـير قوم لوط، وفسّرنا ذلك فى محلّه، وهنا يتناول القرآن الكريم- وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد فى الآيات المتقدمة عن قصة لوط وقومه- قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلى ألا وهو سعادة المجتمع الإنسانى ونجاته بأسره. يبيّن القرآن الكريم فى هذا الصـدد أوّلًا ... أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

وقـد ورد فى الروايـات الإسـلامية أنّ لوطـاً كـان فى مزرعته حيث فوجىء بعـدد من الشـباب الوسـيمين الصِباح الوجوه قـادمون نحوه وراغبون فى النزول عنده ولرغبته باسـتضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذى سيشـهده فى مدينته الملوّثة بالانحراف الجنسى من جهة اخرى، كل ذلك أوجب له الهم ...

ومرّت هذه المسائل على شـكل أفكار وصور مرهقة فى فكره، وتحدث مع نفسه «وَقَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ»، لاحتمال الفضـيحة والتورط فى مشاكل عويصة.

«سيىء»: مشتقة من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال؛ و «الذرع»: تعنى «القلب» على قول؛ وكلمة «عصيب»: مشتقة من «العصب» ومعناه ربط الشـىء بالآخر وشـده شدّاً محكماً، وبما انّ الحوادث الصـعبة تشدّ الإنسان وكأنّها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُـميت

«عصيبة» وتطلق العرب على الأيام شديدة الحر أنّها عصيبة أيضاً.

وورد فى بعض الروايات أنّ لوطاً أخّر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصفقت بيديها أوّلًا، ثم بإشعال النار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت فى «الشِباك».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» «۱». وكانت حياة هؤلاء

---

(۱) «يُهرعون»: مشتقّة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكأنّما تسوق غريزة هؤلاء إيّاهم بشدّة إلى أضيافه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۱

القوم مسودّة وملطخة بالعار «وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ» فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ ممّا يرى من شدّة استيائه و «قَالَ يَا قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» فأنا مستعد أنّ أزوجهن إياكم «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» يصدكم عن هذه الأعمال المخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

تعبير لوط «أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» فى آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، وهى أنّ وجود رجل- ولو رجل واحد رشيد- بين قوم ما وقبيلة ما يكفى لردعهم من أعمالهم المخزية، أى لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ ورشد لما قصدتم بيتى ابتغاء الإعتداء على ضيفى!

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ».

وهنا وجد لوط- هذا النبى العظيم- نفسه محاصراً فى هذه الحادثة المريرة فنادى و «قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً» أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلّب عليكم «أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳) عاقبة الجماعة الظالمة: وأخيراً حين شاهد الملائكة (رسل اللّه) الأضياف، ما عليه لوط من عذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ».

نقرأ فى الآية (۳۷) من سورة القمر: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ». ونقرأ فى بعض الروايات- أيضاً- أنّ أحد الملائكة غشّى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعاً.

إنّ اطلاع لوط عليه السلام على حال أضيافه ومأموريتهم، دنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۲

ثم أمر الأضياف لوطاً- مباشرة- أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ».

ولكن كونوا على حذر «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ» إلى الوراء «إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ» لتخلّفها عن أمر اللّه وعصيانها مع العُصاة الظَلَمة.

وخلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل اللّه- أى الملائكة- للوط عليه السلام: إنّ العذاب سينزل قومه صباحاً. ومع أوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ».

ونقرأ فى بعض الرّوايات أنّ الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه مما ساءه، وجرح قلبه وملأه همّاً وغمّاً أن يعجلوا عليهم بالعذاب فى الحال فإنّ الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه بقولهم: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ

بِقَرِيبٍ».

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النبى عليه السلام وكما يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجّيلٍ مَّنضُودٍ».

وكلمة «سجّيل»: فارسية الأصل، وهى مركبة من «سنگ» ومعناها الحجارة و «گل» ومعناها الطين، فعلى هذا هى شىء لاصلباً كالحجارة ولا رخواً كالزهرة، وإنّما هى برزخ «وسط» بينهما. و «المنضود»: من مادة «نضد» ومعناه كون الشىء مصفوفاً وموضوعاً بشكل متتابع ومتراكم، أى إنّ هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولكن هذه الأحجار ليست أحجاراً عادية، بل هى أحجار فيها علامات عند اللّه «مُسَوَّمَةً عِندَ رَبّكَ».

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل «وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير امتهم كما استهزؤوا بالإيمان والأخلاق الإنسانية، وكلّما نصحهم نبيّهم باخلاص وحرقة قلب لم يسمعوا له وسخروا منه.

تحريم الانحراف الجنسى: يُعدّ الميل الجنسى إلى المماثل «سواء وقع ذلك بين الرجال أو بين النساء» من الذنوب الكبيرة فى الإسلام، وقد جعل الإسلام لكل من الحالتين حداً شرعياً.

والرّوايات التى تذم الميل الجنسى إلى المماثل والمنقولة عن قادة الإسلام كثيرة ومذهلة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۳

والمطالع لهذه الروايات يحسّ أنّ قبح هذا الذنب ليس له مثيل بين الذنوب.

نقرأ مثلًا من هذه الروايات رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً لا ينقّيه ماء الدنيا، وغضب اللّه عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً. ثمّ قال: إنّ الذّكر يركب الذّكر فيهتزّ العرش لذلك» «۱».

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) مدين بلدة شعيب: مع انتهاء قصة قوم لوط تصل النوبة إلى قوم شعيب وأهل مدين، اولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم فى شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام فحسب، بل الدرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لوّثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد. فى بداية القصة تقول الآية: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا». وكلمة «أخاهم» تستعمل فى مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قِبَل الأنبياء لقومهم.

و «مدين»: اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

هذا النبى وهذا الأخ الودود المشفق على قومه- كأى نبى فى اسلوبه وطريقته فى بداية الدعوة- دعاهم أوّلًا إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثم أشار إلى أحد المفاسد الاقتصادية التى هى من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذ جدّاً، وقال: «وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ». أى حال البيع والشراء.

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۴/ ۲۴۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۴

ويشير هذا النبى العظيم بعد هذا الأمر إلى علتين: العلة الاولى: هى قوله «إِنّى أَرَيكَم بِخَيْرٍ».

يقول أوّلًا: إنّ قبول نصحى يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع.

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه الجملة «إِنّى أَرَيكُم بِخَيْرٍ» أنّ شعيباً يقول لهم: إنّى أراكم منعمين وفى خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس والكفر بدلًا من الشكر على نعم اللّه سبحانه.

وثانياً: «وَإِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» بسبب إصراركم على الشرك والتطفيف فى الوزن وكفران النعمة ... الخ.

وكلمة «محيط»: جاءت صفة ليوم، أى يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعنى شمول العذاب والعقاب فى ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى عقاب الدنيا الشامل.

و الآية الاخرى تؤكّد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلة البيع والبخس فى المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ».

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو اقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذى حق حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثم يخطو خطوة أوسع ويقول: «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ».

و «البخس»: معناه فى اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً.

ونجد فى نهاية الآية أنّ شعيباً يخطو خطوةً اخرى أوسع ويقول لقومه: «وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع فى الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعية، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيثيات بالإعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

إنّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، وهى أنّه بعد الإعتقاد بالتوحيد والنظر الفكرى الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهمية خاصة، كما تدلّان على أنّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۵

الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساساً للفساد الوسيع فى المجتمع.

ثم يخبرهم أنّ زيادة الثروة- التى تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين- ليست هى السبب فى غناكم، بل ما يغنيكم هو «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

التعبير ب «بقيت اللّه» إمّا لأنّ الربح الحلال القليل المترشح عن أمر اللّه فهو «بقيت اللّه» وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم اللّه وبقاء البركات ... وإمّا لأنّه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوى الذى يبقى إلى الأبد.

وقد قلنا مراراً إنّ آيات القرآن بالرغم من نزولها فى موارد خاصة، إلّاأنّها تحمل مفاهيم جامعة وكلية، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق فى العصور والقرون التالية وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أنّ المخاطبين فى الآية المتقدمة هم قوم شعيب، والمراد من (بقيت اللّه) هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهى، إلّاأنّ كل موجود نافع باق من قبل اللّه للبشرية، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ (بقيت اللّه) أيضاً.

ومن هنا فإنّ «المهدى الموعود عليه السلام» آخر إمام وأعظم قائد ثورى بعد النبى صلى الله عليه و آله من أجلى مصاديق (بقيت اللّه) وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصة أنّه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وفى نهاية الآية- محل البحث- نقرأ على لسان شعيب: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ». إذ وظيفته هى البلاغ وليس مسؤولًا على «إجبار» أحد أبداً.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قَالَ يَا قَوْمِ أ

رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸) وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۶

المنطق الواهى: والآن فلنَر ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السماوى «شعيب». فبما إنّهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش فى المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا: «يَا شُعَيْبُ أَصَلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». ونترك حريتنا فى التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها «أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشؤُا». إنّ هذا بعيد منك «إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ».

لقد كان قوم شعيب واقعين فى مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قِبَل مالكيها، فى حين يجب أن تكون الامور المالية تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلّا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

وعلى كل حال هؤلاء الأغنياء فلعلهم كانوا يتصورون متساءلين: إنّ هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر فى هذه الامور؟ على حين لو كان اولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الأمر الواقعى وهو أنّ الصلاة توقظ فى الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة اللَّه ومعرفة الحقوق، وتذكره باللَّه وبمحكمة عدل اللَّه، ولذلك فهى تخلّصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع ... الخ.

ولكن شعيباً ردّ على من اتّهمه بالسفه وقلة العقل بكلام متين و «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا». ثمّ يضيف هذا النبى العظيم قائلًا: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهكُمْ عَنْهُ». فلا تتصوروا أنّنى أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنّنى لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفى هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلحَ مَا اسْتَطَعْتُ».

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلائق والروابط الاجتماعية وأنظمتها «وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۷

بِاللَّهِ» للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى هذا فإنّنى، ولأجل أداء رسالتى والوصول إلى هذا الهدف الكبير «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه فى تحمّل الشدائد فى هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً.

ثم ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهى أنّه كثيراً ما يحدث للإنسان أنّه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة فى شىء ما، فيقول لهم «وَيَا قَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى» فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و «أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صلِحٍ» وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم اللَّه بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ».

و «مدين»: التى كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ الموطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وأمّا من الناحية العملية فالفرق كبير بين الانحراف الجنسى الذى كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادى الذى كان عليه قوم شعيب، لكن

كليهما يتشابهان فى توليد الفساد فى المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعى وإماتة الفضائل الخُلقية وإشاعة الانحراف.

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الأوّل: قوله: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ». أى لتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة فى المعاملات. والثانى: قوله: «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى ارجعوا إليه.

والواقع أنّ الاستغفار توقف فى مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى اللّه الكمال المطلق.

واعلموا أنّه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلًا فإنّ طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأنّ «رَبّى رَّحِيمٌ وَدُودٌ».

«الودود»: صيغة مبالغة مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أنّ اللّه يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبّهم كثيراً لأنّ رحمته ومحبّته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۸

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (۹۱) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳) التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه: إنّ شعيباً هذا النبى العظيم- الذى لُقّب بخطيب الأنبياء «۱» لخطبه المعروفة والواضحة، والتى كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادية والمعنوية لهذه الجماعة- واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلها تحكى عن جهلهم ولجاجتهم:

فأوّلها: أنّهم قالوا: «يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ».

والثانية: قولهم «وَإِنَّا لَنَرَيكَ فِينَا ضَعِيفًا».

والثالثة: هى أنّه لا تظنّ أنّنا نتردد فى القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذى يمنعنا من ذلك «وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَكَ».

«الرهط»: تطلق فى لغة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو عشرة، أو على قول- وهو الحد الأكثر- تطلق على أربعين نفراً.

وهم يشيرون بذلك إلى أنّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور اخرى.

وقولهم الأخير: «وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» فمهما كانت منزلتك فى عشيرتك، ومهما كنت كبيراً فى قبيلتك إلّاأنّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكن شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: «يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ» أفتذرونى من أجل

---

(۱) بحار الأنوار ۱۲/ ۳۸۷.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۹

رهطى وقبيلتى التى لا تتجاوز عدّة أنفار ولا تصغون لكلامى فى اللّه؟ وهل يمكن أن نقارن عدة أفراد بعظمة اللّه سبحانه ... وأنتم لم تهابوه وتوقّروه «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا».

وفى الختام يقول لهم: لا تظنوا أنّ اللّه غافل عنكم أو أنّه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل «إِنَّ رَبّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

فحيث أنّ المشركين من قوم شعيب هددوهُ فى آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على

النحو التـالى: «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكَمْ إِنّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَـذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنّى مَعَكَمْ رَقِيبٌ» «۱».

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵) عاقبة المفسدين فى مدين: قرأنا فى قصص الأقوام السابقين مراراً، أنّ الأنبياء كانوا فى المرحلة الاولى يـدعونهم إلى اللّه، وفى المرحلـة التى بعـدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرها نبيّها ويخوّفها من عذاب اللّه، وفى المرحلـة الثالثه، تبـدأ مرحلـة التصـفية وينزل العقاب. وفى شأن قوم شـعيب- أى أهل مدين- وصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ». «الصـيحة»: معناها فى اللغـة كـل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكى عن هلاك أقوام متعـددين بالصـيحة السـماوية، هـذه الصـيحة يحتمـل أن تكون صاعقة من السماء أو ما شابهها.

ثم يعقّب القرآن فيقول: «فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». أى: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ...

وهكذا طُوى سجلّ وطومار حياتهم «كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». وانطفأ بريق كل شىء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود- وقد حكى عنهما القرآن- فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً

---

(۱) «الرقيب»: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق فى الأصل من الرقبة وإنّما سُمّى بذلك لأنّه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنّه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدّى دور الرقابة والحفظ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج ۲ ۴۴۹

«أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ». والمقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة اللّه وكانوا من الهالكين.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِى هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹) البطل المبارز لفرعون: بعد انتهاء قصّة شعيب وأهل مدين، يُشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصة هى القصة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة. تحدث القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام وفرعون وبنى اسرائيل أكثر من مائة مرّة. وخصوصية قصة موسى عليه السلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب وصالح وهود ولوط عليهم السلام التى قرأناها فى ما سبق- هى أنّ اولئك الأنبياء عليهم السلام واجهوا الأقوام الضالين، لكن موسى عليه السلام واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبد هو فرعون الجبار. ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّنا نقرأ فى هـذا القسم من قصـة موسـى زاويـة صـغيرة فحسب ولكنها فى الوقت ذاته تحمل رسالـة كبيرة للناس جميعاً. يقول القرآن الكريم أوّلًا:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا وَسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: بمعنى التسلط، يستعمل تارةً فى السلطة الظاهرية، وأحياناً فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار.

ويبدو فى الآية المتقدمة أنّ «السلطان» استعمل فى المعنى الثانى، والمراد ب «الآيات» هى معاجز موسى الجليلة.

إنّ موسى ارسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوى «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

«الملأ»: تُطلق على الـذين يملأ مظهرهم العيون بـالرغم من خلوّ المحتوى الـداخلى، وفى منطق القرآن تطلق هـذه الكلمـة غالبـاً على

الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة ... إلّاأنّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة ... لمنطقه الحق ومعجزاته

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۱

«فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ». ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أوضمان نجاتهم وتكاملهم: «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ».

ويوم الحشر حين يأتى الناس عرصات القيامة فإنّ زعماؤهم وقادتهم فى الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يُرى فرعون هناك: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ» وبدلًا من أن ينقذهم ويخلصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ». فبدلًا من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلًا من الإرواء يزيدهم ظمأ إلى ظمأ.

ثم يقول القرآن: «وَأُتْبِعُوا فِى هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيمَةِ». فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنّهم قوم ضالون وجبابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النار لهم عطاء وجزاءً «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ».

«الرفد»: فى الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنّه إعانة من قِبَل المُعطى إلى المُطعى له.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴) فى آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين ولمحات من تاريخ أنبيائهم، وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث والأنباء حيث يقول: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ».

«قائم»: تشير إلى المدن والعمارات التى لا تزال باقية من الأقوام السابقين.

«حصيد»: معناها اللغوى قطع النباتات بالمنجل، وفى هذه الكلمة إشارة إلى بعض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۲

الأراضى البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إنّ واحدة منهما دمرها الغرق والثانية امطرت بالحجارة. «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ» حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» بل زادوهم ضرراً وخسراناً «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» «۱».

«وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ» فلا يدعها على حالها و «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

هذا قانون إلهى عام ومنهج دائم، فما من قوم أو امة من الناس يتجاوزون حدود اللَّه ويمدون أيديهم للظلم ولا يكترثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلّاأخذهم اللَّه أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

وبالطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصُفت القرية أو المدينةُ بأنّها «ظالمة» مع أنّ الوصف ينبغى أن يكون لساكنيها، فكأنّما هناك مسألة دقيقة وهى أنّ أهل هذه المدينة انغمسوا فى الظلم إلى درجة حتى كأنّ المدينة أصبحت مغموسة فى الظلم أيضاً.

وبما إنّ هذا قانون كلى فإنّ القرآن يقول مباشرة: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْأَخِرَةِ». لأنّ الدنيا لا تعدّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما فى الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع- من جميع النواحى- من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المُثُل والنماذج فى الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفى ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: «ذلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

هى إشارة إلى أنّ القوانين والسنن الإلهية كما هى عامّة فى هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس فى تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام.

وبما أنّ البعض قد يتوهم أنّ الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئة وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن يقول مباشرة: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ».

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، وليتجلى آخر منهج للأنبياء.

---

(۱) «التتبيب»: مشتق من مادة «تبّ» ومعناه الاستمرار فى الضرر، وقد يأتى بمعنى الهلاك أيضاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۲۳

والتعبير بكلمة «معدود» إشارة إلى قرب يوم القيامة، لأنّ كل شيء يقع تحت العدّ والحساب فهو محدود وقريب.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸) السعادة والشقاوة: أشير فى الآيات المتقدمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلهم فى تلك المحكمة العظيمة ... وهذه الآيات- محل البحث- بيّنت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم فى ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أوّلًا: «يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

إنّ الناس يقطعون فى ذلك اليوم مراحل مختلفة ... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففى قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أنّ أفواههم يُختم عليها فلا يتكلمون، وإنّما تنطق أعضاء أجسادهم التى حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفى المراحل الاخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن اللَّه فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يُلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار فى نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، واخرى بائسة تعيسة «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ». وليس هذا الشقاء وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيّات التى سلفت من الإنسان فى الدنيا.

ثم تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء حيث تقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ». وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

الطريف أنّ لفظ «شقوا» فى الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبنى للمعلوم، ولفظ «سعدوا» ورد بصيغة المبنى للمجهول، ولعل فى هذا الاختلاف فى التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهى أنّ الإنسان يطوى طريق الشقاء بخطاه، ولكن لابد لطىّ طريق السعادة من

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۲۴

الإمداد والعون الإلهى، وإلّا فإنّه لا يوفّق فى مسيره، ولا شك أنّ هذا الإمداد والعون يشمل اولئك الذين يخطون خطواتهم الاولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

بحثان

۱- مسألة الخلود فى القرآن: معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعنى الأبد وحده لأنّه تشمل كل بقاء طويل. ولكن ذُكرت فى كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلًا فى الآية (۱۰۰) من سورة التوبة، والآية (۱۱) من سورة الطلاق، والآية (۹) من سورة التغابن، حين تذكر هذه الآيات أهل الجنّة تأتى بالتعبير عنهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» ومفهومها أبدية الجنة لهؤلاء، ونقرأ فى آيات القرآن الاخرى وصف أهل النار كالآية (۱۶۹) من سورة النساء، والآية (۲۳) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» وهو دليل على عذابهم الأبدى.

وتعبیرات اخری مثل الآیة (۳) من سورة الکهف «مَّاکِثِینَ فِیهِ أَبَدًا» والآیة (۱۰۸) من سورة الکهف أیضاً: «لَایَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا» وأمثالها تدل بصورة قطعیة علی أنّ طائفة من أهل الجنة وطائفة من أهل النار سیبقون فی العذاب أو النعمة.

فالآیات- محل البحث- أیضاً تبیّن الدوام.

۲- أسباب السعادة والشقاء: السعادة ضالة کل الناس، وهی توفّر أسباب تکامل الفرد فی المجتمع، والنقطة المقابلة لها هی الشقاء وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتکامل. ولکن ینبغی الإلتفات إلی أنّ أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو یستطیع أن یوفر الوسائل لترشید نفسه وحتی مجتمعه، وهو الذی یستطیع أن یواجه عوامل الشقاء ویهزمها أو یستسلم لها.

ولیس الشقاء أو السعادة فی منطق الوحی ومدرسة الأنبیاء شیئاً من ذات الإنسان وحتی النواقص فی المحیط والعائلة والوراثة کل ذلک قابل للتغییر بتصمیم الإنسان وإرادته إلّا أن ننکر أصل الإرادة فی الإنسان وحریته، ونعدّه محکوماً بالظروف الجبریة، وکل من سعادته أو شقائه ذاتی أو هو نتیجة جبریة لمحیطه، وما إلی ذلک.

وهذا الرأی مرفوض فی نظر الأنبیاء وفی نظر المذهب العقلی أیضاً.

الطریف أنّنا نجد فی الرّوایات المنقولة عن النبی صلی الله علیه و آله وأهل البیت علیهم السلام إشارات إلی مسائل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۵

مختلفة علی أنّها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء ... بحیث یتعرف الإنسان خلال مطالعتها علی طریقة التفکیر الإسلامی فی هذه المسألة المهمّة، وسیقفُ علی الواقعیات العینیة وأسباب السعادة الحقیقیة.

فی کتاب الخصال عن الإمام الصادق علیه السلام عن جدّه أمیرالمؤمنین علی علیه السلام أنّه قال: «حقیقة السعادة أن یختم للرجل عمله بالسعادة، وحقیقة الشقاوة أن یختم للمرء عمله بالشقاوة».

ویقول نبی الخاتم صلی الله علیه و آله أیضاً: «أربع من السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التی من السعادة: المرأة الصالحة، والمسکن الواسع، والجار الصالح، والمرکب البهیّ. والأربع التی من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسکن الضیق، والمرکب السوء» «۱».

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة فی الأحادیث المتقدمة وحقیقتهما وأثرهما البالغ فی حیاة البشر، وقارنّاهما مع الأسباب والمسائل الخرافیة التی یعتقد بها جمع کثیر- حتی فی عصرنا- لوصلنا إلی هذا الواقع الذی یؤکّد أنّ التعالیم الإسلامیة منطقیة ومدروسة إلی أقصی حد.

فَلَا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ کُلًّا لَمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ کَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَکَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱۲) الاستقامة والثبات: هذه الآیات بمثابة تسلیة لخاطر النبی صلی الله علیه و آله کما أنّها نازلة لبیان وظیفته ومسؤولیته، وفی الواقع إنّ من أهم النتائج التی یُتوصل إلیها من القصص السابقة للُامم الماضیة هی أن لا یکترث النبی ومن معه من أتباعه المؤمنون حقاً من کثرة الأعداء، ولا یخافوا منهم، ولا یشکّوا أو یتردّدوا فی هزیمة عبدة الأصنام والظالمین الذی یقفون بوجوههم، وأن یواصلوا طریقهم ویعتمدوا علی اللّه واثقین به. لذلک یقول القرآن الکریم فی

---

(۱) بحار الأنوار ۷۳/ ۱۵۴/ ۳۴.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۶

هذا الصدد: «فَلَا تَکُ فِی مِرْیةٍ مِّمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ» «۱».

ويقول بعدها مباشرة: «وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ». إنّ هذه الآية تجسّم هذه الحقيقة، وهى أنّ ما قرأناه من قصص الامم السابقة لم يكن أسطورة، كما أنّها لا تختص بالماضين، فهى سنّة أبدية وخالدة وهى لجميع الناس ماضياً وحاضراً ومستقبلًا.

ويسلّى القرآن قلب النبى صلى الله عليه و آله مرّة اخرى، فيحدّثه عن موسى وقومه قائلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ».

ويقول إذا ما رأيت أنّ اللّه لا يعجل العذاب على قومك، فلأنّ مصلحة الهداية والتعليم والتربية لقومك توجب ذلك وإلّا فإنّ القرار الالهى المسبق يقتضى التعجيل بعملية التحكيم والقضاء وبالتالى إنزال العقاب «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكّ مِّنْهُ مُرِيبٍ».

«مريب»: مشتقة من «الريب» ومعناه الشك المقترن بسوء الظن والنظرة السيئة والقرائن المخالفة، وعلى هذا فيكون مفهوم هذه الكلمة أنّ عبدة الأصنام ما كانوا يترددون فى مسألة حقيقة القرآن أو نزول العذاب على المفسدين فحسب، بل كانوا يدّعون بأنّ لديهم قرائن تخالف ذلك أيضاً.

ويضيف القرآن لمزيد التأكيد: «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ». وهذا الأمر ليس فيه صعوبة على اللّه ولا حرج إذ: «إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

الطريف أنّ القرآن يقول: «لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» ليشير مرّة اخرى إلى مسألة تجسم الأعمال وأنّ الجزاء والثواب هما فى الحقيقة أعمال الإنسان نفسه التى تتخذ شكلًا آخر وتصل إليه ثانية.

وبعد ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسلية قلب النبى صلى الله عليه و آله وتقوية إرادته، يبيّن القرآن- عن هذا الطريق- أهمّ دُستور امر به النبى صلى الله عليه و آله وهو «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ».

«استقم» فى طريق الإرشاد والتبليغ وأداء الوظائف الإلهية ونشر التعليمات القرآنية.

ولكن هذه الإستقامة ليست لينال فلان أو فلان مستقبلًا زاهراً، بل هى لمجرد طاعة اللّه

---

(۱) «المِرية»: معناها التردد فى التصميم على أمر ما ....

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۷

واتّباع أمره. كما أنّ هذه الإستقامه ليست عليك وحدك، فعليك أن تستقيم أنت «وَمَن تَابَ مَعَكَ» استقامة خالية من كل زيادة ونقصان وإفراط أو تفريط «وَلَا تَطْغَوْا» إذ «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أى خطة اخرى ... الخ.

المسؤولية الكبيرة: فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ الصحابة قالوا يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: «أجل، شيبتنى هود وأخواتها».

وفى رواية اخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نزلت هذه الآية قال: «شمّروا شمّروا فما رُئى ضاحكاً».

والدليل واضح، لأنّ أربعة أوامر مهمة موجودة فى هذه الآية يلقى كل واحد منها عبئاً ثقيلًا على الكتف.

واليوم مسؤوليتنا المهمة- نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام- تتلخص فى هذه الكلمات الأربعة. وهى: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الامور بعضها إلى بعض فإنّ النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ... هذا النصر لايكون سوى أوهام فى مخيلة المسلمين.

وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (۱۱۳) الركون إلى الظالمين: إنّ هذه الآية تبيّن واحداً من أقوى وأهم الاسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» «۱». والسبب واضح «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» ومعلوم عندئذ حالكم

«ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ».

فى أى الامور لا ينبغى الركون إلى الظالمين؟ بديهى أنّه فى الدرجة الاولى لا يصح الإشتراك معهم فى الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامى وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع

(۱) «الركون»: مشتق من مادة «رُكن» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذى يربط البناء أو الأشياءالاخرى بعضها إلى بعض، ثمّ اطلق هذا اللفظ على الإعتماد أو الاستناد إلى الشيء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۸

وضعيف لا يستحق الحياة، لأنّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامى. وأمّا ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجارى والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلامية وثباتها، فهذا ليس داخلًا فى مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهة نظر الإسلام، وفى عصر النبى نفسه صلى الله عليه و آله والأعصار التى تلته كانت هذه الامور موجودة وطبيعية أيضاً.

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلِکَ ذِکْرَى لِلذَّاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۱۵) الصلاة والصبر: هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهمّ الأوامر الإسلامية، وهما فى الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتى الأمر أوّلًا بالصلاة: «وَأَقِمِ الصَّلَوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ».

وظاهر التعبير من «طَرَفَيِ النَّهَارِ» هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين يقعان طرفى النهار؛ و «الزلف»: جمع «زلفة» التى تعنى القرب، ويشار بها إلى أوّل الليل القريب من النهار فتنطبق على صلاة العشاء.

ولأهمية الصلوات اليومية- خاصة- وجميع العبادات والطاعات والحسنات- عموماً- فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّاتِ ذلِکَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ».

والآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة فى محو أثر الأعمال السيئة.

العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهى يهب روح الإنسان لطافةً بامكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدّل ظلمات نفسه إلى أنوار.

الأهمية القصوى للصلاة: تلاحظ فى الرّوايات المتعددة المنقولة عن النبى صلى الله عليه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام تعبيرات تكشف عن الأهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام. فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: «كنّا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى المسجد، ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: يا رسول اللَّه إنّى أصبت ذنباً. فأعرض عنه، فلمّا قضى النبى صلى الله عليه و آله الصلاة قام الرجل فأعاد القول، فقال النبى صلى الله عليه و آله: أليس قد صلّيت معنا هذه الصلاة، وأحسنت لها الطهور؟ قال بلى. قال: فإنّها كفارة ذنبک».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۹

متى ما أدّيت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنوية والروحانية بحيث توثق علائقه الإيمانية باللَّه، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلو صدأ القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان فى أعماق الروح البشرية، والصلاة تقوى الإرادة وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعية الفاعلة هى مذهب تربوى عظيم.

وتعقيباً على تأثير الصلاة فى بناء شخصية الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتى الأمر بالصبر فى الآية الاخرى بعدها: «وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». ومعنى ذلک أنّ العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومة.

إنّ «الصبر» فى هذه الآية يشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والطغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» أصل كلى وأساس إسلامى، يأتى أحياناً فى القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آت من أنّ الصلاة تبعث فى الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجد المقاومة، وهذان الأمران، أى «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يثمران كل اشكال النجاح والموفقية.

فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (۱۱۷) عامل الإنحراف والفساد فى المجتمعات: من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر فى هاتين الآيتين أصل أساسى اجتماعى يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، وهو أنّه مادام هناك فى كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً ودينياً، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصوناً من الزيغ والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقى المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمى.

الآية الاولى أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة:

«فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۰

إنّ أثر «أُولُوا بَقِيَّةٍ» فى بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إنّ المجتمع من دون «اولى بقية» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم فى الآية المتقدمة.

ثم تستثنى جماعة فتقول: «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ».

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنها كحال لوط عليه السلام واسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممّن آمن به، وصالح وجماعة من أتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام والكلى فى المجتمع. إنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتنعمهم، وكما تقول الآية: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ». يعنى متى كان المجتمع ظالماً ولكنه مقبل على اصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يُقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاك.

فهذا التنعم والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات فى المجتمعات المرفهة، لأنّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقها ودرك الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها فى العصيان والآثام.

وللتأكيد على هذه الحقيقة، تأتى الآية الثانية لتقول: إنّ هذا الذى ترون من إهلاك اللّه للُامم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ».

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹) فى الآية الاولى محل البحث إشارة إلى واحدة من سنن الخلق والوجود والتى تمثّل اللبنات التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... وهى مسألة الاختلاف والتفاوت فى بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشقاً، ومسألة حرية الإرادة والاختيار. تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ». لئلا يتصور أحد من الناس أنّ تأكيد اللّه وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم فى سير واحد ومنهج واحد.

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا فى مثل هذا الاتحاد ... فالإيمان القسرى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۱

الذى ينبع من هدف غير إرادى لا يكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب.

إلّا أنّ قيمة الإنسان وامتيازه وأهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هى هذه الموهبة، وهى حرية الإرادة والاختيار، وكذلك امتلاك الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة التى يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمّن بُعداً من أبعاده.

ومن طرف آخر فإنّ الاختلاف فى انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعى.

ولهذا يقول القرآن الكريم فى الآية الاخرى: «إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ». ولكن هذه الرحمة الإلهية ليست خاصه بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها «وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ».

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة اللَّه فإنّ الطريق مفتوح لهم ... الرحمة التى أفاضها اللَّه لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هذه الرحمة والموهبة، فإنّ أبواب الجنة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلّا فلا: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

إنّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة اللَّه، والتقهقر عن هداية الرسل والادلّاء من قِبله، وبهذا الترتيب.

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (۱۲۱) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۲۳) أربع معطيات لقصص الماضين: بانتهاء هذه الآيات تنتهى سورة هود، وفى هذه الآيات استنتاج كلى لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أنّ القسم الأهم من هذه السورة يتناول القصص التى تحمل العبر من سيرة الأنبياء والامم السابقة، فإنّ هذه القصص تعطى نتائج قيّمة ملخّصة فى أربعة مواضيع. تقول هذه الآيات أوّلًا: «وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ». وكلمة «كُلًّا» إشارة إلى تنوع هذه القصص.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۲

ثم تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثانية فتقول الآيات: «وَجَآءَكَ فِى هذِهِ الْحَقُّ».

أمّا ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما: «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى أنّه لا ينبغى أن نعدّ قصص القرآن ملهاة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هى مجموعة من أحسن الدروس الحياتية فى جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس فى الحاضر والمستقبل. ثم تخاطب الآيات النبى صلى الله عليه و آله وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق: «وَقُل لِّلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من اللَّه عليكم، وهو ما ستذقونه من قِبلنا أو من قِبَل اللَّه مباشرةً.

و آخر آية من هذه السورة تتحدث عن التوحيد كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد: توحيد علم اللَّه أوّلًا، فغيب السماوات والأرض خاص باللَّه وهو المطلع عليها جميعاً «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». أمّا سواه فعلمه محدود، وفى الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشىء من التعليم الإلهى، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، والعلم الذاتى بالنسبة لجميع ما فى السماوات والأرض مخصوص بذات اللَّه المقدسة.

ومن جهة ثانية فإنّ أزمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ». وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثم تستنتج الآية أنّه إذا علمت أنّ الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التى لا تنتهى ...

جمیعها مخصوص بذات اللَّه المقدّسة «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» وهذه مرحلة توحید العبادة.

فینبغی اجتناب العصیان والعناد والطغیان «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

بحثان

۱- علم الغیب خاص باللَّه: إنّ الإطلاع علی الأسرار الخفیة أو الأسرار الماضیة والآتیة کله خاص باللَّه ... والآیات المختلفة من القرآن تؤکّد هذه الحقیقة وتؤیدها أیضاً.

وإذا وجدنا فی قسم من آیات القرآن بیان أنّ الأنبیاء قد یعلمون بعض الامور الغیبیة،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۳

أو قرأنا فی بعض الآیات أو الروایات الکثیرة أنّ النبی صلی الله علیه و آله والإمام علیّاً والأئمة المعصومین علیهم السلام قد یخبرون عمّا یجری فی المستقبل من حوادث ویبیّنون أسراراً خفیة منها، فینبغی أن نعرف أنّ کل ذلک بتعلیم اللَّه سبحانه. فهو سبحانه حیث یجد المصلحة یطلع عباده وأولیاءه علی قسم من أسرار الغیب، ولکن هذا العلم لا هو علم ذاتی ولا غیر محدود، بل هو من تعلیم اللَّه وهو محدود بمقدار ما یریده اللَّه.

ولیس الإطلاع علی علم الغیب من قبل اللَّه خاصاً بالأنبیاء أو الأئمة فقد یطلع اللَّه غیر النبی والأئمة علی غیبه أیضاً ... فنحن نقرأ فی قصة ام موسی فی الآیة (۷) من سورة القصص أنّ اللَّه قال لها: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وقد یطلع اللَّه لضرورة الحیاة- أحیاناً- الطیور والحیوانات علی الأسرار الخفیة وحتی علی المستقبل البعید نسبیاً مما یصعب علینا تصوره وبهذا الترتیب قد تکون بعض المسائل التی نحسبها غیباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطیور أو الحیوانات لا تعد من الغیب.

۲- العبادة للَّهوحده: فی الآیة المتقدمة دلیل لطیف علی أنّ العبادة للَّهوحده، وهو أنّه لو کانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل کل شیء موجودة فی اللَّه، وأمّا الآخرون فلا شیء بالنسبة إلیه، وأکبر دلیل علی عظمة اللَّه علمه الواسع غیر المحدود وقدرته اللامتناهیة، وقد أشارت الآیة الآنفة إلی أنّهما مختصان باللَّه.

وإذا کانت العبادة لأجل الإلتجاء- فی حل المشاکل- إلی المعبود ... فإنّ مثل هذا العمل جدیر بمن هو علیم بجمیع حاجات العباد وأسرارهم الخفیة. وما یغیب علیهم، وهو قادر علی إجابة دعوتهم، وبالنتیجة فإنّ توحید الصفات یکون سبباً لتوحید العبادة (لاحظوا بدقة).

«نهایة تفسیر سورة هود»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۵

۱۲. سورة یوسف

بدایة سورة یوسف: قبل الدخول فی تفسیر آیات هذه السورة ینبغی ذکر عدّة أمور:

۱- جمیع آیات هذه السورة سوی الآیات القلیلة التی تقع فی نهایة السورة تبیّن قصة نبی اللَّه یوسف علیه السلام. القصة الطریفة والجمیلة والتی تحمل بین طیّاتها العِبَر، ولذلک سمّیت هذه السورة باسم «یوسف» وبهذه المناسبة- أیضاً- ورد ذکر یوسف- من مجموع (۲۷) مرة فی القرآن- (۲۵) مرّة فی هذه السورة ومرة واحدة فی سورة غافر الآیة (۳۴) ومرة اخری فی سورة الأنعام الآیة (۸۴).

ومحتوی هذه السورة- علی خلاف سور القرآن الاخری- مرتبط بعضه ببعض ویبیّن جوانب مختلفة من قصة واحدة وردت فی أکثر من عشرة فصول، مع بیان أخاذ موجز، عمیق، وطریف ومثیر.

وبالرغم من أنّ القصّاصین غیر الهادفین، أو من لهم اغراض رخیصة سعوا إلی أن یحوّلوا هذه القصة المهذبة إلی قصة عشق یحرک أهل الهوی والشهوة! وأن یمسخوا الوجه الواقعی لیوسف علیه السلام بحیث بلغت الحال أن یصوروا «فیلماً سینمائیاً» وینشروه بصورة

مبتذلـة ... إلّا أنّ القرآن- وكل ما فيه أسوة وعبرة- عكس فى ثنايا هـذه القصـة أسـمى دروس العفة وضـبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدة مرات فإنّه يتأثر- بدون اختيار- بأسلوبها الجذاب فى كل مرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۶

ولذا فقد عبّر القرآن عنها ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وجعل فيها العبر للمعتبرين «أُولِي الْأَلْبَابِ».

۲- التدقيق فى آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهى أنّ القرآن معجز فى جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم فى قصصه أبطال حقيقيّون لا خياليّون، وكل واحد فى نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذى حطّم الأصنام بروحه العالية التى لا تقبل المساومة مع الطغاة.

وموسى عليه السلام: البطل المربّى لقومه اللجوجين، والذى وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغى.

ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة ... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعـد هـذا كلّه تتجلّى القـدرة البيانيـة للوحى القرآنى بصورةٍ تحيّر الإنسان، لأنّ هـذه القصّة- كما نعرف- تنتهى فى بعض مواردها إلى مسائل العشق ودون أن يمسخها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث فى مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيء غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها فى المتن، ولكن تحفّها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

۳- قصة يوسف قبل الإسـلام وبعده: لا شك أنّ قصة يوسف كانت مشـهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسـلام، لأنّها مذكورة فى (۱۴) فصلًا من (سفر التكوين) فى التوراة بين (الفصل ۳۷- ۵۰) ذكراً مفصلًا.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة فى هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء فى التوراة وما جاء فى القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أنّ نصّ القصة فى القرآن فى غاية الصدق وتخلو من أى خرافة.

ومـا يقوله القرآن للنبى صـلى الله عليه و آله: «وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» يشـير إلى قصـة يوسف التى عبّر عنها بأحسن القصـص، حيث لم يكن النبى مطّلعاً على حقيقتها الخالصة.

وعلى كل حال فإنّ هذه القصة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخى الشرق والغرب ...

وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

۴- لِمَ ذكرت قصـة يوسف فى مكان واحـد بخلاف قصـص سائر الأنبياء؟ إنّ من خصائص قصة يوسف البارزة أنّ هذه القصة ذكرت فى مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التى ذكرت على شكل فصول مستقلة فى سور متعددة من القرآن.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۷

والحكمـة فى ذلك تعود إلى أنّ تفكيك فصول هـذه القصـة مع ملاحظة وضـعها الخاص يفقدها ترابطها وانسـجامها، فلهذا ينبغى أن تذكر كاملة فى مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة.

والخصيصة الاـخرى من خصائص هـذه السورة هى أنّ قصـص الأنبيـاء التى وردت فى السور الاـخرى من القرآن تبيّن عـادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطغاة.

أمّا فى قصـة يوسف فلا كلام عن هـذا الموضوع، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التى تنتهى أخيراً إلى استلامه سدّة الحكم، وهى فى حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

۵- فضيلة تلاوة سورة يوسف: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من قرأ سورة يوسف فى كل يوم أو فى كل ليلة، بعثه اللَّه يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد اللَّه الصالحين».

إنّ الروايـات التى وردت فى فضائـل سور القرآن- كمـا قلنـا مراراً- ليس معناهـا القراءة السـطحية دون تفكر وعمـل، بـل تلاوة تكون

مقدمة للتفكر ....

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هـذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) أحسن القصص بين يديك: تبدأ هذه السورة بالحروف المقطعة «الر» وهى دلالة على عظمة القرآن، وإنّ تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من أبسط الأجزاء، وهى حروف الهجاء «ألف- باء ... الخ».

وربّما كان لهذا السبب أن تأتى الإشارة- بعد هذه الحروف المقطعة مباشرةً- إلى بيان عظمة القرآن فى هذه السورة، فتقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ثم يأتى البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». فالهدف إذن ليس القراءة أو التلاوة أو التيمّن أو التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الأساسى هو الإدراك ... الإدراك القوى الذى يدعو الإنسان إلى العمل بجميع وجوده.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۳۸

فالتعبير بكون القرآن عربياً- الذى تكرر فى عشرة موارد من القرآن- جواب لأولئك الذين يتهمون النبى صلى الله عليه و آله بأنّه تعلم القرآن من أعجمى، وأنّ محتوى القرآن مستورد وليس وحياً إلهياً.

وهذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضمناً وظيفةً مفروضة على جميع المسلمين، وهى أن يسعوا جميعاً إلى معرفة اللغة العربية وأن تكون اللغة الثانية إلى جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحى ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثم يقول سبحانه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ».

يعتقد بعض المفسرين أنّ «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» إشارة إلى مجموع القرآن.

إنّ اللَّه سبحانه عبّر ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» عن مجموع هذا القرآن الذى جاء فى أجمل البيان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونةً بأسمى المعانى وأدقّها، بحيث يبدو ظاهره عذباً جميلًا، ومن حيث الباطن فمحتواها عظيم.

ولكن إرتباط الآيات المقبلة التى تبيّن قصة يوسف عليه السلام مع هذه الآية- محل البحث- بشكل يشدّ ذهن الإنسان إلى هذا المعنى، وهو أنّ اللَّه عبر عن قصة يوسف ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وقلنا مراراً أنّه لا مانع من أن تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعاً ... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامة، وقصة يوسف هى أحسن القصص بصورة خاصة.

أثر القصة فى حياة الناس: مع ملاحظة أنّ القسم المهم من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للُامم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لِم يحمل هذا الكتاب التربوى كل هذا «التاريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

١- إنّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان فى ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ.

٢- ثم بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصة جاذبية خاصة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة فى جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

والعلة فى ذلك قد تكون أنّ الإنسان حسى بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط فى المسائل المادية قبل أن يتعمق فى المسائل الفكرية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۳۹

وكلما ابتعد الانسان عن ميدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلية كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بيان الاستدلال العقلى يستمدّ المفكرون فى المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة من الأمثلة الحسية، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر فى الاستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم اولئك الذين لهم هيمنة على

انتخاب أحسن الأمثلة.

۳- القصة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، وعلى هذا فإنّ الكتاب الشامل الذى يريد أن يستفيد منه البدوى الامّى والمتوحش ... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبيّن أنّ القرآن خطا أحسن الخطوات فى بيان التواريخ والقصص فى سبيل التعليم والتربية.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ (۴) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶) بارقة الأمل وبداية المشاكل: بدأ القرآن بذكر قصة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا فى الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف فى أحد الأيام صباحاً إلى أبيه وهو فى غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمية فى الظاهر، ولكنها كانت إرهاصاً لبداية فصل جديد من حياته: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ».

يقول ابن عباس: إنّ يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التى صادفت ليلة القدر (ليلة تعيين الأقدار والآجال).

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۴۰

والمقصود من السجود هنا هو الخضوع والتواضع، وإلّا فإنّ السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر. إنّ هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النبى غارقاً فى التفكير ... فالقمر والشمس والكواكب، وأى الكواكب! إنّها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدى يوسف، كم هى رؤيا ذات مغزى! لا شك أنّ الشمس والقمر «أنا وامه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدى حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السماء.

إنّ ولدى «يوسف» عزيز عند اللّه إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرحة» و «قَالَ يَا بُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» وأنا أعرف «إِنَّ الشَّيْطَنَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلًا على عظمة يوسف فى المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوة التى سيصل إليها يوسف فى المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب- لولده يوسف- قائلًا: «وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ» «۱».

أجل فإنّ اللّه على كل شىء قدير و «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

الرؤيا والحُلم: إنّ الرؤيا والأحلام على أقسام:

۱- الرؤيا المرتبطة بماضى الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

۲- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التى تنشأ من التوهم والخيال وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسى.

۳- الرؤيا المرتبطة بالمستقبل والتى تخبر عنه.

---

(۱) «التأويل»: فى الأصل إرجاع الشىء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائى يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا فى الخارج مصداق للتأويل ... و «الأحاديث»: جمع الحديث، وهو نقل ما يجرى، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأنّ الإنسان ينقلها

للمعبرين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۱

ونقرأ فی الحديث عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاثة: بُشری من اللّه، وتحزين من الشيطان، والذی يحدّث به الإنسان نفسه فيراه فی منامه» «۱».

وواضح أنّ أحلام الشيطان ليست شيئاً حتی يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من اللّه فی الرؤيا فهی تحمل بشارة حتماً ... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

من الدروس التی نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغی أن يُطبق هذا الدرس أحياناً حتی أمام الإخوة، فدائماً تقع فی حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة علی حفظ هذه الأسرار دليل علی سعة الروح وتملك الإرادة.

وورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «سرّك من دمك فلا يجرينّ من غير أوداجك» «۲».

لَقَدْ كَانَ فِی يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (۷) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَی أَبِينَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِی ضَلَالٍ مُبِينٍ (۸) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ (۹) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِی غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (۱۰) المؤامرة: من هنا تبدأ قصة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه: ففی الآية الاولی- من الآيات محل البحث- إشارة إلی الدروس التربوية الكثيرة التی توحيها القصة، إذ تقول الآية: «لَّقَدْ كَانَ فِی يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لّلسَّائِلِينَ».

وأیّ درس أعظم من أن يجتمع عدّة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد- فی الظاهر- وبخطط أعدّها الحسدُ، ويبذلون أقصی جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل- ودون شعور وإرادة منهم- بات سبباً فی تربّعه علی سرير الملك وصيرورته آمراً علی البلد الكبير «مصر» ثم يأتی إخوته فی النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا يدلّ علی أنّ اللّه إذا

(۱) بحار الأنوار ۵۸/ ۱۹۱.

(۲) بحار الأنوار ۷۲/ ۷۱.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۲

أراد أمراً فهو قادر علی أن يجريه حتی علی أيدی من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلی أنّ الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً فی هذا العالم، فلو سعی جميع أفراد هذا العالَم إلی إزهاق روحه واللّه لا يريد ذلك، فإنّهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة. كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من ام واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولی هذين الولدين محبة خاصة، لا سيما يوسف. لأنّهما أوّلًا: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلی العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأنّ امّهما ارتحلت من الدنيا- طبقاً لبعض الروايات- وبعد هذا كله كانت بوادر النبوغ والذكاء الحادّ ترتسم علی يوسف، وهذه الامور أدّت إلی أن يولی يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلّا أنّ الإخوة الحساد- دون أن يلتفتوا إلی هذه الجهات- تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصه بعد اختلافهم فی الام والمنافسة الطبيعية المترتبة علی هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا علی المؤامرة «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَی أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ».

وحكموا علی أبيهم من جانب واحد بقولهم: «إِنَّ أَبَانَا لَفِی ضَللٍ مُّبِينٍ».

وبالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأنّ الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنّما

استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ أدّى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا:

«اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا- أرسلوه إلى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ».

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والخجل فى وجدانكم لأنّكم تقدمون على هذه الجناية فى حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب «وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».

إنّ هذه الجملة تدلّ على إحساسهم بالذنب من هذا العمل، وكانوا يخافون اللَّه فى أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألة المهمّة هنا هى أنّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة- فى الواقع- هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعدّ دليلًا على الندم أبداً.

ولكن كان من بين الاخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنّه لم يرض بقتل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۳

يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التى يُخشى عليه من الهلاك فيها ... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى فى البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية فى هذا الصدد: «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ». «الجبّ»: معناه «البئر» التى لم تنضّد بالطابوق والصخور، ولعلّ أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

يستفاد من جملة «إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ» أنّ القائل لم يكن يرغب- أساساً- حتى بهذا الاقتراح ولعلّه كان لا يوافقهم على إيذاء يوسف أصلًا.

أثر الحسد المدمّر فى حياة الناس: الدرس الآخر الذى نتعلّمه من هذه القصة، وهو أنّ الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو ايجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها.

ولهذا نجد فى الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلى:

۱- فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال اللَّه عزّ وجلّ لموسى بن عمران عليه السلام: يابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلى ولا تمدّن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإنّ الحاسد ساخط لنعمى صادّ لقسمى الذى قسمت بين عبادى، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّى».

۲- وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».

كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع فى القصة، وهو أنّ الوالدين ينبغى أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهما ومحبتهما لواحد منهم، لأنّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدةً فى نفوس الآخرين، إلى درجة أنّها تجرّهم إلى كل عمل مخرّب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولابدّ من تحطيم شخصية أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمية ووشائج القربى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنّه يظل يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسى.

وفى هذا الصدد نقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «واللَّه إنّى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۴

لُاصانع بعض ولدى، وأجلسته على فخذى، وأفكر له فى الملح، وأكثر له الشّكر، وإنّ الحق لغيره من ولدى، ولكن مخافة عليه منه ومن

غيره، لئلاـ يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته، وما أنزل اللّه سورة يوسف إلّاأمثالًا لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته، وبغوا عليه، فجعلها حجة ورحمة على من تولّانا، ودان بحبّنا وحجّة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب» «۱».

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۱۲) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (۱۳) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ (۱۴) المؤامرة المشؤومة: بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراح أخيهم فى عدم قتل يوسف، وإلقائه فى الجبّ، أخذوا يفكرون فى كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا إلى أبيهم بلسان ليّن يدعو إلى الترحم، وفى شكل يتظاهرون به أنّهم مخلصون له وحدثوا أباهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَاتَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ».

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا وما يزال صبياً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك فى البيت، فخلّ سبيله «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» «۲».

وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولكن يعقوب- دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد- أظهر تردّده فى إرسال يوسف لأمرين: الأوّل: أنّه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثانى: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و «قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أن يَأْكُلَهُ الذّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ».

وبديهى أنّ الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأوّل الذى أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عادياً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسد فى إخوة يوسف أكثر.

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۳/ ۳۴۴/ ۲۴۵۱۶.

(۲) «يرتع»: من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه فى الأصل رعى الأغنام والأنعام بصورة عامّة للنباتات وشبعها منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزّه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۵

ومن جهة اخرى فإنّ هذا الموضوع الذى أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ الولد لابدّ له من الإبتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثانى لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ». أى:

أترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقية وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

ومن الطريف أنّه كما أنّ إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان- ولا سيما الشاب- بالتنزّه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر ... ففى حياتنا المعاصرة- أيضاً- نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب فى سبيل تلويث أفكار الشباب، فينبغى أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لاضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحلّية والعالمية.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (۱۶) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (۱۷) وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (۱۸) الكذب المفضوح: وأخيراً إنتصر

إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئنى البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذى يقف عائقاً فى طريقهم ... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم. فجاؤوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته فى شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۶

خارج المدينة.

يقال: إنّ أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثم أخذ منهم يوسف وضمّه إلى صدره ودمعت عيناه، ثم أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا- يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدهم المتراكم لعدّة سنوات على رأس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجىء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيره أحد منهم.

نقرأ فى رواية أنّ يوسف كان يبكى تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه فى الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أنّ أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ... ولكنه رفع الستار عن ضحكه وعلّمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أننى نظرت- أيّها الإخوة- إلى عضلات أيديكم القوية وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت فى نفسى: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبى بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا اجار، وقد سلطكم اللَّه علىّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألّا أعتمد وأتوكّل على أحد سواه ... حتى ولو كانوا إخوتى.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبّ».

ثم تبيّن الآية أنّ اللَّه أوحى إلى يوسف وهدأ روعه وألهمه ألّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

وهذا الوحى الإلهى لم يكن وحى النبوة، بقرينة الآية (۲۲) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنّه ليس وحيداً، بل له حافظ ورقيب، وهذا الوحى بثّ فى قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفّذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغى أن يفكروا عند العودة كيف كى يصدّق أبوهم أنّ يوسف إنتهى بصورة طبيعية. وكانت الفكرة التى أوصلتهم إلى هذا الهدف هى ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه- ظاهراً-

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۷

عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيّفة!

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء الكاذب ممكن ... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذى كان ينتظر مجيىء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً ... فأجابوه و «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا» لصغر سنه ولأنّه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ».

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد «وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ». إذ لطخوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس .... ولكن حيث إنّ الكاذب لا- يمتلك حافظة قوية، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... وهى- على الأقل- أن يخرقوا

قمیص یوسف الملطخ بالدم لیدل علی هجوم الذئب ... فقد قدّموا القمیص سالماً غیر مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عیناه علی القمیص حتی فهم کل شیء و «قَالَ بَلْ سَوَّلَت لَکُمْ أَنفُسُکُمْ أَمْرًا».

فی تفسیر القرطبی عن ابن عباس: إنّهم أخذوا ظبیاً فذبحوه فطلخوا بدمه القمیص ولما جاؤوا به جعل یقلّبه فیقول: «ما أری أثر ناب ولا ظفر إنّ هذا السبع رحیم». وفی روایة أنّه أخذ القمیص وألقاه علی وجهه وبکی حتی خضب وجهه بدم القمیص، وقال: «تاللَّه ما رأیت کالیوم ذئباً أحلم من هذا، أکل إبنی ولم یمزّق علیه قمیصه». وجاء أنّه بکی وصاح وخرّ مغشیّاً علیه فأفاضوا علیه الماء فلم یتحرک ونادوه فلم یجب ووضع یهوذا یده علی مخارج نفسه فلم یحس بنفس ولا تحرک له عرق، فقال: ویل لنا من دیّان یوم الدین، ضیعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم یفق إلّابرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهیب روحه لم یجر علی لسانه ما یدل علی عدم الشکر أو الیأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: «فَصَبْرٌ جَمِیلٌ». ثم قال: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَی مَا تَصِفُونَ» وأسأله أن یبدل مرارة الصبر فی فمی إلی «حلاوة» ویرزقنی القوة والقدرة علی التحمل أکثر أمام هذا الطوفان العظیم، لئلا أفقد زمامی ویجری علی لسانی کلام غیر لائق.

ملاحظتان

۱- حول الترک الأولی: فی تفسیر البرهان عن الثمالی قال: صلّیت مع علیّ بن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۸

الحسین علیه السلام الفجر بالمدینة یوم الجمعة فلمّا فرغ من صلاته وسُبحته نهض إلی منزله وأنا معه، فدعا مولاةً له تسمّی سکینة فقال لها: «لا یعبُر علی بابی سائلٌ إلّاأطعَمتُموه فإنّ الیوم یوم الجمعة». قلت له: لیس کل من یسأل مستحِقّاً؟ فقال: «یا ثابت، أخاف أن یکون بعض من یسألنا محقّاً فلا نُطعمه ونردّه فینزل بنا- أهل البیت- ما نزل بیعقوب وآله. أطعِموهم أطعموهم. إنّ یعقوب کان یَذبح کل یوم کبشاً فیتصدّق منه ویأکل هو وعیاله منه، وإنّ سائلًا مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند اللَّه منزلة، وکان مجتازاً غریباً اعترّ علی باب یعقوب عشیّة جمعة عند أوان إفطاره یهتِف علی بابه: أطعموا السائل المجتاز الغریب الجائع من فضل طعامکم. یهتف بذلک علی بابه مراراً وهم یسمعونه، قد جهلوا حقّه ولم یصدقوا قوله، فلمّا أیس أن یطعموه وغشیه اللیل استرجع واستعبر وشکا جوعه إلی اللَّه عزّ وجلّ وبات طاویاً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً للَّه تعالی، وبات یعقوب وآل یعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم».

قال: «فأوحی اللَّه عزّ وجلّ إلی یعقوب فی صبیحة تلک اللیلة: لقد أذللت- یا یعقوب- عبدی ذلّة استجررت بها غضبی، واستوجبت بها أدبی، ونزول عقوبتی وبلوای علیک وعلی ولدک. یا یعقوب، إنّ أحبّ أنبیائی إلیّ وأکرمهم علیّ من رحم مساکین عبادی وقرّبهم الیه وأطعمهم، وکان لهم مأویً وملجأ. یا یعقوب، أما رحمت ذمیال عبدی المجتهد فی عبادته، القانع بالیسیر من ظاهر الدنیا عشاء أمس، لمّا اعترّ ببابک عند أوان افطاره وهتف بکم: أطعموا السائل الغریب المجتاز القانع. فلم تطعموه شیئاً، فاسترجع واستعبر وشکا ما به إلیّ وبات طاویاً حامداً لی وأصبح لی صائماً، وأنت- یا یعقوب- ووُلدک شِباعٌ، وأصبحت وعندکم فضل من طعامکم.

أوما علمت- یا یعقوب- أنّ العقوبة والبلوی إلی أولیائی أسرع منها إلی أعدائی؟»

فقلت لعلیّ بن الحسین علیه السلام: جعلت فداک، متی رأی یوسف الرؤیا؟ فقال: «فی تلک اللیلة التی بات فیها یعقوب وآل یعقوب شباعاً ...».

یستفاد من هذا الحدیث أنّ زلّة بسیطة أو بعبارة أدق: «ترک الأولی» وهو لا یعدّ خطیئة أو إثماً، لأنّ یعقوب لم یتّضح له حال السائل ... هذا الترک من قبل الأنبیاء والأولیاء یکون سبباً لأن یبتلیهم اللَّه بلاءً شدیداً ... وما ذلک إلّالمقامهم الکبیر الذی یوجب علیهم أن یراقبوا کل حرکاتهم وسکناتهم، لأنّ «حسنات الأبرار سیئات المقربین».

۲- دعاء یوسف البلیغ الجذّاب: فی الکافی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: لما طرح إخوة یوسف فی الجبّ أتاه جبرئیل علیه السلام فدخل علیه فقال: یا غلام ما تصنع ههنا؟ فقال: إنّ إخوتی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۹

ألقونى فى الجبّ. قال: فتحبّ أن تخرج منه؟ قال: ذاك إلى اللَّه عزّ وجلّ، إن شاء أخرجنى.

قال: فقال له: إنّ اللَّه ادعنى بهذا الدعاء حتى أخرجك من الجبّ فقال له: وما الدعاء؟ فقال:

قل: «اللّهم إنّى أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّاأنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلى على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لى ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً».

وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هذَا غُلَامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰) نحو أرض مصر: قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّةً، ولكنه بإيمانه باللَّه وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع فى قلبه نور الأمل، وألهمه اللَّه تعالى القوة والقدرة على تحمل الوحدة الموحشة، وأن ينجح فى هذا الإمتحان.

ولكن ... اللَّه أعلم كم يوماً قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلج النور «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ».

وانتخبت منزلها على مقربة من الجبّ، وطبيعى أنّ أوّل ما تفكر القافلة فيه- فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء وسد حاجتها منه «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ».

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثم رأى الحبل والدلو يسرعان إلى النزول، فانتهز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهى وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقُل أكثر مما ينبغى، فلما سحبه بقوة إلى الأعلى فوجىء نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ وقال: «يَا بُشْرَى هذَا غُلَمٌ».

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، أخفوه «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً» «۱».

وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه فى مصر.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». والذين شروا يوسف بثمن بخس،

---

(۱) «البضاعة»: فى الأصل من مادة «بضع» على وزن «نذر» ومعناها: القطعة من اللحم، ثمّ توسعوا فى المعنىوأطلقوا هذا اللفظ على القطعة المهمّة من المال. (راجع المفردات للراغب).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۹۹

هو من كان فى القافلة.

وباعوا يوسف بثمن قليل، أو كما عبّر عنه القرآن: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ». ولكن هذا أمر مألوف فإنّ السُراق أو اولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمة دون أى تعب ونصب يبيعونها سريعاً لئلا يطلع الآخرون.

ومن الطبيعى أنّهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غال.

«البخس»: فى الأصل معناه تقليل قيمة الشىء ظلماً.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ».

وهذا البيع البخس إمّا لأنّ أهل القافلة اشتروا يوسف بثمن بخس، أو إنّهم كانوا يخافون أن يفتضح سرّهم ويجدون من يدّعيه.

وَ قَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۲۲) فى قصر عزيز مصر: انتهت حكاية يوسف مع إخوته الذين ألقوه فى غيابة الجبّ وبيناها تفصيلًا، بدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث فى مصر ... فقد جىء بيوسف إلى مصر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذى كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه. يقول القرآن الكريم فى شأن يوسف: «وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَيْهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَيهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» «۱». فلا ينبغى أن تنظرى إليه كما ينظرإلى العبيد.

يستفاد من سياق الآية أنّ عزيز مصر لم يرزق ولداً وكان فى غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبى الجميل والسعيد تعلّق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ».

---

(۱) «المثوى»: من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۱

هذا «التمكين» فى الأرض إمّا أن يكون لمجيىء يوسف إلى مصر، وخاصه أن خطواته فى محيط مصر مقدمة لما سيكون عليه من الإقتدار والمكانة القصوى، وإمّا أنّه لا قياس، بين هذه الحياة فى مصر «العزيز».

ويضيف القرآن أيضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

والمراد من «تأويل الأحاديث»- كما أشرنا سابقاً- هو علم تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادراً على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله.

ثم يختتم القرآن هذه الآية بالقول: «وَاللَّه غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

لقد واجه يوسف فى هذا المحيط الجديد، الذى يعدّ واحداً من المراكز السياسية المهمة فى مصر مسائل مستحدثة ... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم ومن جهة اخرى كانت تتجسد فى ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع المماليك والعبيد ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر فى كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدراً على ذلك.

فاشتغل بتهذيب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

«أشدّ»: من مادة «شدّ» وهى هنا إشارة إلى الإستحكام الجسمانى والروحانى.

والمراد من «الحكم» و «العلم» الواردين فى الآية المتقدمة التى تقول: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» إمّا أن يكون مقام النبوة، وإمّا أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالى من اتباع الهوى والإشتباه، والمراد من العلم الإطلاع الذى لا يقترن معه الجهل، ومهما كان فإنّ الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما اللَّه ليوسف لتقواه وصبره وتوكله عليه.

فإنّه ليس مستبعداً أن يهب اللَّه سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين فى ميادين «جهاد النفس للهوى والشهوات» مواهب من المعارف والعلوم التى لا تقاس بأىّ معيار مادى.

وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَکَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (۲۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۲

العشق الملتهب: لم يأسر جمال يوسف الملكوتى عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيّماً بجماله. وامتدّت

مخالب العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هـذا العشق يتجذّر يوماً بعد يوم ويزداد إشتعالًا ... لكنّ يوسف هذا الشاب الطاهر التقى، لم يفكّر بغير اللّه، ولم يتعلق قلبه بغير عشق اللّه سبحانه.

وهناك امور اخرى زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف ... فمن جهة لم تُرزق الولد، ومن جهة اخرى إنغمارها فى حياة مترفة مفعمة بالبذخ ... ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأىّ نوع من البلاء كما هى حال المتنعمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة ... كل ذلك ترك امرأة العزيز- الفارغة من الإيمان والتقوى- تهوى فى وساوسها الشيطانية إلى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمّا فى قلبها وراودته عن نفسه.

واتّبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكى تلقى فى قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ». وجملة «راودته»: مأخوذة من مادّة «المراودة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعى، ثم توسّعوا فى هذا اللفظ فاطلق على كل ما يُطلب بالمداراة والملاءمة.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة وبدون أى تهديد، وأبدت محبتها القصوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فكّرت فى أن تخلو به وتوفّر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعطور عبقة شذية، وتجميلات مرغبة، حتى تستولى على يوسف وتأسره.

يقول القرآن الكريم: «وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ».

«غلّقت»: تدل على المبالغة وأنّها أحكمت غلق الأبواب.

وفى هذه الحال، حين رأى يوسف أنّ هذه الامور تجرى نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجّه يوسف إلى زليخا و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ». وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع. وبهذه الجملة إعترف يوسف بوحدانية اللّه تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثم أضاف: «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ» ... أليس التجاوز ظلماً وخيانة واضحة «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدقّ مرحلة وأخطرها، حيث يعبّر القرآن عنه تعبيراً ذا مغزى كبير «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهنَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۳

إنّ امرأة العزيز كانت تريد أن تقضى وطراً مع يوسف، وبذلت وسعها فى ذلك، وكاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعة كونه بشراً شابّاً لم يتزوج ويرى نفسه إزاء المثيرات الجنسية وجهاً لوجه ... لولا أن رأى برهان اللّه ... أى روح الإيمان والتقوى وتربية النفس، أضف إلى كل ذلك مقام العصمة الذى كان حائلًا دون هذا العمل.

الطريف أنّ هذا التفسير نقل عن الإمام الرضا عليه السلام فى عيون الأخبار للصدوق رحمه الله باسناده إلى على بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون:

يابن رسول اللّه أليس من قولك: أنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى». قال المأمون: فما معنى قول اللّه عزّ وجلّ إلى أن قال: فأخبرنى عن قول اللّه تعالى «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهنَ رَبِّهِ». فقال الرّضا عليه السلام: «لقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً والمعصوم لا يهُمّ بذنب ولا يأتيه». فقال المأمون: للّهدرُّك يا أبا الحسن.

والآن لنتوجّه إلى تفسير بقية الآية إذ يقول القرآن المجيد: «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». وهى إشارة إلى أنّ هذا الإمداد الغيبى والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل اللّه لم يكن إعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك وظلماته.

وبيان هذا الأمر يدل على أنّ مثل هذه الإمدادات الغيبية، فى لحظات الشدة والأزمة التى تدرك الأنبياء- كيوسف مثلًا- غير مخصوصة

بهم، فإنّ كل من كان فى زمرة عباد اللَّه الصالحين المخلصين فهو جدير بهذه المواهب أيضاً.

العفة والمتانة فى البيان: من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا يوجد فى تعبيره ركّة وإبتذال وعدم العفة وما إلى ذلك، كما أنّه لا يتناسب مع اسلوب الفرد العادى الامّى الذى تربّى فى محيط الجاهليّة، مع أنّ حديث كل أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره.

وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التى ينقلها توجد قصة غرام وعشق واقعية، وهى قصة (يوسف وامرأة عزيز مصر).

قصة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

ولكن القرآن يمزج فى رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصة- باسلوب معجب- الدقة فى البيان مع المتانة والعفة، دون أن يغض الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد استعمل جميع الاصول الأخلاقية والامور الخاصة بالعفة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۴

وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۵) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۲۶) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۷) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (۲۸) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (۲۹) فضيحة امرأة العزيز: المقاومة الشديدة التى أبداها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً ... ولكن يوسف الذى إنتصر فى هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحسّ أنّ بقاءه فى بيتها- فى هذا المزلق الخطر- غير صالح، وينبغى أن يبتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدى، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقدّته «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ». «الإستباق»: فى اللغة هو المسابقة بين شخصين أو أكثر.

و «قدّ»: بمعنى مَزّق طولًا، كما أنّ «قطّ» بمعنى مَزّق عرضاً.

فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأةً. يقول القرآن الكريم: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ».

والتعبير عن الزوج ب «السيد» كان طبقاً للعرف السائد فى مصر، حيث كانت تخاطب المرأة زوجها بالسيد.

فى هذه اللحظة التى رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجّج فى داخلها من جهة اخرى، كان أوّل شىء توجّهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحق متهمة يوسف إذ «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ولكن يوسف أدرك أنّ السكوت هنا غير جائز ... فأماط اللثام عن عشق امرأة العزيز «قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۵

وطبيعى أنّ مثل هذا الحادث من العسير تصديقه فى البداية، أى إنّ شاباً يافعاً غير متزوج لا يُعدّ آثماً، ولكن امرأة متزوجة ذات مكانة اجتماعية- ظاهراً- آثمة! فلذلك كانت أصابع الإتهام تشير إلى يوسف أكثر من امرأة العزيز.

ولكن حيث إنّ اللَّه حامى الصالحين والمخلصين فلا يرضى أن يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الإتهام، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

أمّا عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، وتحيّر فى قميص يوسف ذاهلًا: «فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ».

فى هذه الحال، ولخوف عزيز مصر من إنتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملأ، فتسقط منزلته وكرامته فى مصر رأى أنّ من

الصلاح كتمان القضية، فالتفت إلى يوسف وقال:

«يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هـذَا». أى: اكتم هـذا الأـمر ولاـ تخبر به أحـداً ... ثم التفت إلى امرأته وقـال: «وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ».

الشاهد الذى ختم «ملفّ يوسف وامرأة العزيز» بسرعة، هو أحد أقارب امرأة العزيز، وكلمة «من أهلها» دليل على ذلك. وعلى القاعدة فهو رجل حكيم وعارف ذكى ويقال: إنّ هذا الرجل كان من مشاورى عزيز مصر وكان معه.

حمايـة اللَّه فى الأزمات: الـدرس الكبير الآخر الـذى نتعلّمه من قصة يوسف، هو حماية اللَّه ورعايته للإنسان الأكيدة فى أشدّ الحالات، وبمقتضـى قوله: «يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَايَحْتَسِب». فمن جهـة كان يوسف لا يُصـدّق أبـداً أنّ نافـذة من الأمل سـتفتح له، ويكون قدّ القميص سنداً للطهارة والبراءة، ذلك القميص الذى يصنع الحوادث، فيوماً يفضح إخوة يوسف لأنّهم جاؤوا أباهم وهو غير ممزّق، ويوماً يفضح امرأة العزيز لأنّه قدّ من دُبر، ويوماً آخر يهب البصر والنور ليعقوب، وريحه المعروف يسافر مع نسيم الصباح من مصر إلى أرض كنعان ويبشّر العجوز «الكنعانى» بقدوم موكب البشير.

إنّ للَّه ألطافاً خفية لا يسبر غورها أحد، وحين يهبّ نسيم هذه الألطاف تتغير الأسباب والمسببات بشكل لا يمكن حتى لأذكى الأفراد أن يتنبّأ عنها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۵۶

وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۳۰) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَراً إِنْ هذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (۳۱) قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (۳۲) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَ إِنْ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۳۳) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۴) مؤامرة اخرى: بالرغم من أنّ عشق امرأة العزيز- المـذكور آنفاً- كان مسألـة خصوصـية بحيث أكّد حتى العزيز على كتمانها، ولكن حيث إنّ هذه الأسـرار لا تبقى خافية، ولا سيّما فى قصور الملوك وأصحاب المال والقوّة- التى فى حيطانها آذان صاغية- فسوف تتسرّب إلى خارج القصر كما يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا». ثم لُمْنَها وعَنّفنها بهذه الجملة: «إِنَّا لَنَرَيهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وواضح أنّ المتحدث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشراف مصر.

لم يكن فساد هؤلاـء النسـوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكن أيـديهن لم تصـل إلى يوسف، فكنّ يرين امرأة العزيز بسـبب هـذا العشق فى ضلال مبين.

«الشـغف»: من مادة «الشـغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشـغفها حبّاً معناه أنّها تعلّقت به إلى درجـة بحيث نفذ حبّه إلى قلبها واستقر فى أعماقه.

أمّا امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاحها «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكّينًا».

هـذا العمل دليـل على أنّ امرأة العزيز لـم تكـن تكـترث بزوجهـا، ولم تأخـذ الـدرس من فضـيحتها، ثم أمرت يوسـف أن يتخطّى فى المجلس «وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ».

نساء مصر- وطبقاً لبعض الروايات التى تقول: كن عشراً ... أو أكثر- فوجئن بظهور

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۵۷

يوسف كأنّه البـدر أو الشـمس الطالعـة، فتحيّرن من جماله «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» وفقـدن أنفسـهن «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» مكان الفاكهة، وحين

وجدن الحياء والعفة تشرقان من عينيه وقد احمر وجهه خجلًا صحن جميعاً و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إن هذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ».

وفى هذه الحال التى كانت الدماء تسيل من أيدى النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلها وصرن أمامه «كالخُشُب المسنّدة» كشفن عن أنّهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلّت امرأة العزيز هذه الفرصة ف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ».

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنّها وُفّقت فى ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكل صراحة بكل ما فعلت وقالت: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ».

وبدلًا من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكل جدّ يحكى عن إرادتها القطعية: «وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ» ... ولا أكتفى بسجنه، بل «وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ».

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها أنّ بعضاً من نسوة مصر أعطين الحق لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبنه بأن يستسلم لحبّها وكل واحدة تكلّمت بكلام.

فقالت واحدة: أيّها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولِم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الآسر؟ أليس عندك قلب؟! ألست شابّاً؟ ألا تستلذ بالعشق.

وقالت الثانية: إذا كنت لا ـ ترغب فى جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنّها ستنتقم لنفسها بما اوتيت من وسائل الإنتقام الخطرة.

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن من جهة، ووساوس النسوة من جهة اخرى، أوقعا يوسف فى أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إنّ يوسف كان قد صنع نفسه، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السماء ليناجى ربّه وهو فى هذه الشدة «قَالَ رَبّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ».

وحيث كان يدرى أن لا مهرب له إلّاإلى اللَّه فى جميع الأحوال ولا سيما فى الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند اللَّه بهذا الكلام «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ».

وحيث إنّ وعد اللَّه حقّ، وأنّه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سُدىً وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۸

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». فهو يسمع نجوى عبيده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحلّ لهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (۳۵) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۳۶) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (۳۷) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (۳۸) السجن بسبب البراءة: انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف فى قصر العزيز فى تلك الغوغاء والهياج، فإنّ الخوف من فضيحة جنسية فى اسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان الرأى بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلًا، وليشيع بين الناس أنّ المذنب الأصلى هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ».

أجل ... فى المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب، ... بل إنّ الأفراد النجباء كيوسف ينبغى أن يقبعوا فى زاوية النسيان ...

ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟ ... قطعاً لا ....

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان «وَدَخَلَ مَعَهُ السّجْنَ فَتَيَانِ».

وحيث إنّ الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادى، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهماً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۹

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً فى بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كل منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

«قَالَ أَحَدُهُمَا إِنّى أَرَينِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْأَخَرُ إِنّى أَرَينِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ». ثم أضافا: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

فقد إغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا- وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم- وبحجة التعبير كان يبيّن حقائق مهمة تفتح لهم السُبل ولجميع الناس أيضاً.

فى البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما وإعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذى كان مثار إهتمامهما وتوجّههما «قَالَ لَايَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا».

ثم إنّ يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان باللّه والتوحيد الجارى بجميع أبعاده فى أعماق وجوده، ليبيّن بوضوح أن لا شىء يتحقق إلّابإرادة اللّه قائلًا: «ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى» ولئلا يتصور أنّ اللّه يمنح مثل هذه الامور دون حساب، قال: «إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والمقصود بهذه الملة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغى لى أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقية، ثم إنّى تربّيت فى اسرة الوحى والنبوة «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِى إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يضيف على نحو التأكيد: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ». لأنّ اسرتنا اسرة التوحيد ... اسرة إبراهيم محطّم الأصنام «ذلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ». وهى الموهبة العامة التى تشمل جميع عباد اللّه المودعة فى أرواحهم المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۰

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۳۹) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۴۰) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (۴۱) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲) السجن أو مركز التربية: حين هيّأ يوسف فى البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد، توجّه إليهما وقال: «يَا صَاحِبَىِ السّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

فكأنّ يوسف يريد أن يفهم السجينين أنّه لِم تريان الحرية فى النوم ولا تريانها فى اليقظة؟

فلِم لا تجتمعون تحت راية التوحيد، وتعتصموا بحبل الواحد القهار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!

ثم يضيف قائلًا: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطنٍ» بل هى صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة ... «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» فلا ينبغى أن تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفراعنة، ثمّ أضاف زيادة فى التأكيد قائلًا:

«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ».

أى إنّ التوحيد فى جميع أبعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، وفى كل شىء- هو الدين الإلهى المستقيم والثابت. «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» ولذلك خضعوا لحكومة غير (اللَّه) فذاقوا الشقاء والسجون فى هذا السبيل.

ثم التفت إليهما وقال: «يَا صَاحِبَىِ السّجْنِ أَمَّا أَحَدُ كُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ».

ثم أضاف مؤكداً: «قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ». وهو إشارة إلى أنّ هذا التعبير ليس

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۶۱

تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التى تعلّمها من اللَّه، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

وحين أحسّ يوسف أنّ السجينين سينفصلان عنه عاجلًا، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبرأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذى كان يعلم أنّه سيطلق أن يذكره عند الملك «وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبّكَ» لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل الأفراد قليلى الإستيعاب، ما إن يبلغوا نعمةً ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا نسى يوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: «فَأَنسهُ الشَّيْطنُ ذِكْرَ رَبّهِ» وهكذا أصبح يوسف منسيّاً «فَلَبِثَ فِى السّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ».

أمّا عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك أقوال بين المفسرين، والمشهور أنّها سبع سنوات، إلّاأنّ بعضهم قال: إنّ يوسف بقى فى السجن إثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبى سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات ملأى بالتعب والنَصب إلّاأنّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة والخير.

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (۴۳) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (۴۴) وَ قَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹)

رؤيا ملك مصر وما جرى له: بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كأى إنسان منسىّ، ولم يكن لديه من عمل إلّابناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية الموجَعين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۶۲

منهم، حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر ... ولم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ امّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذى يقال أنّ اسمه هو «الوليد بن الريان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنّى أَرَى سَبْعَ بِقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِستٍ». ثم إلتفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ». ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و «قَالُوا أَضْغثُ أَحْلمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلمِ بِعَالِمِينَ».

«الأضغاث»: جمع «ضِغْث» ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شىء آخر؛ و «الأحلام»: جمع «حُلُم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى «أَضْغَاثُ أَحْلمٍ» هو الأطياف المختلطة، فكأنّها متشكلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء.

وهنا تذكّر ساقى الملك ما حدث له ولصاحبه فى السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف «وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ».

وهكذا حرّك كلام الساقى المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقى إلى السجن ليرى صديقه القديم ... ذلك الصديق الذى لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف

الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ».

إنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغى عمله فى المستقبل و «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ».

ثم أنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة مما جمعتم فى سنىّ الرخاء «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ».

ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ» وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لأنه «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۳

و «يُغَاثُ النَّاسُ». أى يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها ... الخ.

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً. فى الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدى الطغاة من جهة اخرى.

وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ (۵۲) وَ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) تبرئة يوسف من كل إتهام: لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً، لقد فهم الملك إجمالًا أنّ يوسف لم يكن رجلًا يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادى، دخل السجن نتيجة حادث خفى، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا ينبغى للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما يقول القرآن: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ» لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و «قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النّسْوَةِ الِتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ». إذن ... فيوسف لم يرغب أن يكون كأىّ مجرم، أو على الأقل كأىّ متهم يعيش مشمولًا ب «عفو الملك» ... لقد كان يرغب أوّلًا أن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوّث النظام الحكومى وما يجرى فى قصر وزيره.

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومى وبأى سبب وصلت السجن، فاللّه مطلع على ذلك «إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۴

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف فى نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتى شاركن فى الحادثة، والتفت إليهن و «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ». يجب أن تقلن الحق ... هل إرتكب يوسف خطيئة أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم فى نفوسهن، وأجبنه جميعاً بكلام واحد، متفق على طهارته و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ».

أمّا امرأة العزيز التى كانت حاضرة أيضاً، أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها

بشهادتها القاطعة فى حقه، وخاصه أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث إنفجار فى داخلها فجأةً وصرخت و «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ثم واصلت امرأة العزيز كلامها «ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» لأنّى عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندى من التجارب «أَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

وتواصل امرأة العزيز القول: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى» وبحفظه وإعانته نبقى مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لى ربّى هذا الذنب «إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فامرأة العزيز التى تدعى «زليخا» أو «راعيل» وإن ابتُليت فى عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة فى مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقّظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها ... والتفتت إلى ساحة اللَّه.

السعداء هم اولئك الذين يصنعون من الهزائم إنتصاراً، ومن سوء الحظّ حظّاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة.

وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۵

يوسف أميناً على خزائن مصر: رأينا أنّ يوسف- هذا النبى العظيم- ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أنّ الذنب الوحيد الذى أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التى كان يتحلّى بهما.

إضافةً إلى هذا فقد ثبت لهم أنّ هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذّة وعالية فى الإدارة.

ثم يستمر القرآن بذكر القصة فيقول: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى» وهكذا أمر الملك باحضاره لكى يجعله مستشاره الخاص ونائبه فى المهمّات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثم أرسل الملك مندوباً لزيارته فى السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثم قال له: إنّه قد لبّى طلبك فى البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتهامهن إيّاك، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التى تحكى عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، إزداد حبّاً له وقال: إنّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنّك فى موضع ثقتنا وإعتمادنا «فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» فلابدّ أن تتصدّى للمناصب الهامّة فى هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الامور الفاسدة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال إجعلنى مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنّى حفيظ عليم وعلى معرفة تامّة بأسرار المهنة وخصائصها «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ».

كان يوسف يعلم أنّ جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل فى ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن فى القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم- قدر ما يستطيع- الآلام والمصاعب ويستردّ حقوقهم من الظالمين.

وهنا نقطة اخرى يجب التنبيه عليها وهى إنّنا نلاحظ أنّ يوسف عليه السلام يخاطب الملك ويقول له: «إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وهذه إشارة إلى أهمية عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأنّ توفّر عنصر الأمانة والتقوى فقط فى شخص لا يؤهّله لأن يتصدّى لأحد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۶

المناصب الاجتماعية الحساسة، بل لابد من إجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصص والقدرة على الإدارة. ثم يقول اللَّه سبحانه

وتعالى مُنهياً بذلك قصة يوسف عليه السلام: «وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ».

نعم إنّ اللّه سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلًا لذلك «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ».

وأنّه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازى المحسنين، وإنّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

ولكن لا- يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين فى الدنيا، بل يجازى المتقين والمحسنين بأحسن من ذلك فى الآخرة وهو الجزاء الأوفى «وَلَأَجْرُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۸) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَ لَا تَقْرَبُونِ (۶۰) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (۶۱) وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۶۲) إقتراح جديد من يوسف لُاخوته:

وكما كان متوقّعاً، فقد تحسّنت الزراعة فى مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالى الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف قد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعى، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعية والإستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنّهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع- بخطّة محكمة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۷

ومنظمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، فى السنين القادمة- أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعياً فى ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصراً على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحطية بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها فى الشمال الشرقى، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثّرت بالجفاف، واشتدّ بهم الضيق، بحيث اضطرّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده- ما عدا بنيامين الذى أبقاه عنده بعد غياب يوسف- إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها- كما قيل- بعد ۱۸ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخية أنّ الأجانب عند دخولهم إلى الأراضى المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم فى قوائم معينة لكى تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء اخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرف أحد على حقيقتهم وأنّهم اخوته ....

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». وكان طبيعياً أن لا يتعرف إخوة يوسف عليه لأنّه فى جانب كان قد مضى على فراقهم إياه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة اخرى كان لا يخطر ببالهم أنّ أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

كما أنّ احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أية حال فإنّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب.

أمّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبى اللّه العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء اللّه العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغم والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكى لفراقه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۸

نقل بعض المفسرين أنّه كان من عادة يوسف أن لا يعطى ولا يبيع لكل شخص إلّاحمل بعير واحد، وبما أنّ إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ۱۰ أحمال من الحبوب، فقالوا: إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطباً إيّاهم وقال: فأتوا بأخيكم الصغير فى سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التّهمة عن أنفسكم. وهنا يقول القرآن الكريم: إنّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر «وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ». لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، وهو إنّنى سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتونى بأخيكم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ»، وكان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارة بالتهديد، واخرى بالتحبب، أن يلتقى بأخيه بنيامين ويبقيه عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أنّ الحبوب كانت تباع وتشترى فى مصر بالكيل لا بالوزن، واتّضح أيضاً أنّ يوسف كان يستقبل الضيوف- ومنهم اخوته- الذين كانوا يفدون إلى مصر بحفاوة بالغة ويستظيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيهم: «قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ».

ويستفاد من قوله «إِنَّا لَفَاعِلُونَ» وإجابتهم الصريحة لعزيز مصر، أنّهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفرّقوا بين يوسف وأبيه؟!

وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التى اشتروا بها الحبوب فى رحالهم- جلباً لعواطفهم- «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ بالنسبة للآيات السابقة فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو إنّه لماذا لم يعرّف يوسف نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهى آلامه لأجل فراق يوسف؟

حاول جمع من المفسرين- كالعلّامة الطبرسى فى مجمع البيان والعلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان والقرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن- الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعل أحسنها وأقربها هو أنّ يوسف لم يكن مجازاً من قبل اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۹

سبحانه وتعالى فى إخبار أبيه، لأنّ قصة يوسف مع غض النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلًا لإمتحانه، فلابدّ من أن يؤدّى يعقوب إمتحانه ويجتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافة إلى هذا فإنّ إسراع يوسف فى إخبار إخوته قد يؤدّى إلى عواقب غير محمودة، مثلًا قد يستولى عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبوه سابقاً فى حقه فلا يرجعوا إليه.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۶۳) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۶۴) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (۶۵) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶) موافقة يعقوب: رجع اخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم فى المستقبل وأنّه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنّه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن. ومن هنا يقول القرآن: «فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» ولا سبيل لنا للحصول عليه إلّاأن ترسل معنا أخانا «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ» وكن على يقين

من أنّنا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ثم أضاف: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ثم إنّ الاخوة حينما عادوا من مصر «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» فشاهدوا أنّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا».

فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير- ابعث معنا أخانا لكى نسافر ونشترى الطعام «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» وسوف نكون جادّين فى حفظ أخينا «وَنَحْفَظُ أَخَانَا»، وهكذا نتمكن من أن نشترى كيل بعير من الحبوب «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» وإنّنا على يقين فى أنّ سماحة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۰

العزيز وكرمه سوف يسهّلان حصوله «ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ». وفى كل الأحوال رفض يعقوب إرسال إبنه بنيامين معهم، ولكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوى بحيث اضطر إلى التنازل على مطلبهم ولم يَر بدّاً من القبول، ولكنّه وافق بشرط: «قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أن يُحَاطَ بِكُمْ».

والمقصود من قوله «مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» هو العهد واليمين المتضمن لإسم اللّه سبحانه وتعالى.

فقد وافق اخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلّظة قال يعقوب: «فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وَ قَالَ يَا بَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۶۸) وأخيراً توجّه إخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على إصطحاب أخيهم الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إيّاهم بقوله:

«وَقَالَ يَا بَنِىَّ لَاتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ».

ثم أضاف: إنّه ليس فى مقدورى أن أمنع ما قد قدّر لكم فى علم اللّه سبحانه وتعالى «وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ».

ثم قال أخيراً: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

لا شك فى أنّ عاصمة مصر كانت تمتلك أبواباً متعددة، ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ سبب هذه النصيحة هو أنّ إخوة يوسف كانوا يتمتعون بقسط وافر من الجمال وبأجسام قوية رشيقة، وكان الأب الحنون فى قلق شديد من الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكوّنة فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر وهو أنّ دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القويمة قد يثير الحسد والبغضاء فى بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۱

واصل الاخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضى المصرية، وعند ذاك «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ». فهم برغم تفرّقهم إلى جماعات صغيرة- طبقاً لما وصّاهم به أبوهم- فإنّ الفائدة والثمرة الوحيدة التى ترتّبت على تلك النصيحة ليس «إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضهَا». وهذه إشارة إلى أنّ أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التى إستولت على قلب الأب الحنون الذى بعد عنه أولاده، وبقى ذهنه وفكره مشغولًا بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشرور الطامعين، فما كان يتسلّى به فى تلك الأيّام لم يكن سوى يقينه القلبى بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن فى مدح يعقوب ووصفه بقوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». وهذه إشارة إلى أنّ كثيراً من

الناس يتيهون في الأسباب وينسون قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، إلّاأنّ يعقوب كان عالماً بأنّه بدون إرادة اللَّه سبحانه وتعالى لا يحدث شيء، فكان يتوكّل في الدرجة الاولى على اللَّه سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثم يبحث عن عالم الأسباب.

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (۷۰) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَا ذَا تَفْقِدُونَ (۷۱) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (۷۳) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (۷۴) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۲

يوسف يخطّط للإحتفاظ بأخيه: وأخيراً دخل الاخوة على يوسف وأعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب في البداية، ولكنّهم أصرّوا عليه وإنتزعوا منه الموافقة لكي يثبتوا لك إنّهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنّه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كل إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كل واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، وبقي بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لعطف عليّ ولأجلسني إلى جنبه على المائدة لأنّنا إخوة من أب واحد وامّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إيّاهم: إنّ أخاكم بقي وحيداً وإنّني سأجلسه بجنبي على المائدة ونأكل سويّة من الطعام، ثم بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها وليناموا، ومرّة اخرى بقي بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ في تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّهاً، عند ذاك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«تبتئس»: مأخوذ من مادّة «البؤس» وهو أصل بمعنى الضرر والشدّة، لكن في الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله «يعملون» هو معاملة الاخوة السيئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف.

وتقول بعض الروايات: إنّه عند ذاك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندي ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتي لا يوافقون على ذلك.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّي سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندي والرجوع دونك.

وبدأ يوسف بتنفيذ الخطّة، وأمر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثم عند ذاك «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ».

لا شك في أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامة، ولعله لم يطلع على هذه الخطة سوى موظف واحد وعند ذاك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكي الخاص،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۳

وبحث عنه الموظفون والعمّال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ «أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

وحينما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتهموا بالسرقة بعد الحفاوة التي قوبلوا بها من جانب يوسف، فتوجّهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ «قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ».

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ إنّه عندكم «قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» وبما أنّ الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإنّ لمن يعثر عليه جائزة، وهي حمل بعير من الطعام «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ». ثم أضاف المؤذن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنّني

شخصياً أضمن هذه الجائزة «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ».

فاشتدّ إضطراب الاخوة لسماعهم هذه الامور وزادت مخاوفهم، وتوجّهوا إلى الموظف مخاطبين إياه «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ».

إلّا أنّ الموظفين توجّهوا إليهم و «قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ».

أجاب الاخوة: إنّ عقاب من وجد الصواع فى رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ». وإنّ هذا العقاب هو جزاء السارق «كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ». وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنّباً عن إنكشاف الخطة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش فى أمتعة الاخوة أوّلًا قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنهم وجدوه أخيراً فى أمتعة بنيامين «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ».

بعد أن عثر على الصاع فى متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الاخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم فى حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزى والعار، ومن جهة اخرى إنّ هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كل هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم فى ذلك؟

ثم يستمرّ القرآن الكريم ويبين كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطة التى رسمها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۴

اللَّه له دون أن يثير فى اخوته أى نوع من المقاومة والرفض «كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ». والأمر المهم فى هذه القضية هو أنّه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين،- وطبقاً للقانون المصرى- لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للإحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم فى معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب إنّ للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به فى قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأنّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ». لكن اللَّه سبحانه وتعالى يستثنى بقوله: «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ». وهو إشارة إلى أنّ ما فعله يوسف بأخيه لم يكن إلّابأمر منه سبحانه وتعالى وطبقاً لإرادته فى الإحتفاظ ببنيامين، واستمراراً لإمتحان يعقوب وأولاده.

وأخيراً يضيف القرآن الكريم ويقول: إنّ اللَّه سبحانه يرفع درجات من استطاع أن يفوز فى الامتحان ويخرج مرفوع الرأس كما حدث ليوسف «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ» ولكن فى كل الأحوال فإنّ اللَّه تعالى عليم يهدى الإنسان إلى سواء السبيل وهو الذى أوقع هذه الخطة فى قلب يوسف وألهمه إيّاها «وَفَوْقَ كُلّ ذى عِلْمٍ عَلِيمٌ».

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (۷۷) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۷۸) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ (۷۹) موقف إخوة يوسف: وأخيراً إقتنع اخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد إرتكب فعلًا شنيعاً وقبيحاً وإنّه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرّأوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم «قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ». أى إنّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد إرتكب مثل هذا العمل القبيح،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۵

ونحن نختلف عنهما فى النسب.

وحينما سمع يوسف كلامهم تأثر بشدة لكنه كتم ما فى نفسه: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» لأنّه كان عالماً بأنّهم قد افتروا عليه واتّهموه كـذباً، إلّاأنّه لم يرد عليهم وقال لهم باختصار وإقتضاب: «قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا». أى: إنّكم أحقر وأشرّ مكاناً ممّن تتّهمونه وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندى.

ثم أضاف يوسف: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى أعلم بما تنسبون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ».

وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة- وطبقاً للسنّة والدستور المتعيّن عندهم- لابدّ وأن يبقى أخوهم الصغير بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر عبيده، ومن جهة اخرى فإنّهم قد أعطوا لأبيهم المواثيق والأيمان المغلّظة على أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا فى هـذه الحالـة توجّهوا إلى يوسف الذى كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إيّاه «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» لكى نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذى قطعناه له، فإنّه شيخ كبير ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك أن تترحّم علينا وعلى أبيه ف «إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

أمّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإنّ العدل والإنصاف يقتضـى أن يكون المعاقب هو السارق، وليس بريئاً رضى بأن يتحمل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين «إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ».

والطريف أنّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنّما عبّر عنه ب «مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» وهـذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التى كان ينتهجها يوسف فى حياته.

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَ اسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٧۶

رجوع الاخوة إلى أبيهم خائبين: حاول الاخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلّاأنّهم فشلوا فى ذلك، ورأوا أنّ جميع سبل النجاة قد سدّت فى وجوههم، إستولى عليهم اليأس وصمّموا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكى يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إيّاهم «فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا». أى: إنّهم بعد أن يئسوا من عزيز مصر أو من إنقاذ أخيهم، إبتعدوا عن الآخرين واجتمعوا فى جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

قوله تعالى «خلصوا»: بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الإبتعاد عن الآخرين والاجتماع فى جلسة خاصه، أمّا قوله تعالى «نجيّاً»: فهو من مادّة «المناجاة» وأصله من «نجوة» بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتبار أنّ الربوات منعزلة عن أراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث فى السر قياساً عليها ب «النجوى».

وفى ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلًا: «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا فى المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ» فالآن والحالة هكذا، فإنّنى لا اغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». والظاهر أنّ قصده بحكم اللَّه، إمّا الموت الذى هو حكم إلهى، أى لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح اللَّه سبحانه وتعالى له سبيلًا للنجاة، أو عذراً مقبولًا عند أبيه.

ثم أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم «ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ». وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع إنّه قد سرقها «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» ولكن نحن لا نعلم إلّاما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا «وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ».

ثم أرادوا أن يزيلوا الشك والريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقق وتسأل من المدينة التى كنا فيها «وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا»

«۱». ومن القافلة التى سافرنا معها إلى مصر

(۱) «القرية»: يشمل جميع الأرياف والمدن والقرى الصغيرة منها والكبيرة. والمقصود منها فى الآية هى مصر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۷

ورجعنا معها، حيث إنّ فيها اناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها «وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا» «۱». وفى كل الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذى دار بين الأولاد والأب أنّ قضية سرقة بنيامين كانت قد شاعت فى مصر، وأنّ جميع الناس علموا بأنّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفى الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (۸۵) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸۶) يعقوب والألطاف الإلهية: وأخيراً غادروا مصر متّجهين إلى كنعان فى حين تخلف أخواهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكى القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتى كانوا فيها فى غاية الفرح) علم أنّهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصه حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إيّاهم بنفس العبارة التى خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا». أى: إنّ أهواءكم الشيطانية هى التى إستولت عليكم وزيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التى أنتم تصفونه.

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: «فَصَبْرٌ

(۱) «عير»: تعنى الجماعة التى تصحب معها الإبل والدواب المحمّلة بالغذاء، أى يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأنّ الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۸

جَمِيلٌ». أى: أنّنى سوف أمسك بزمام نفسى، ولا أسمح لها بأن تطغى علىّ بل أصبر صبراً جميلًا على أمل بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى سوف يعيد لى أولادى (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) «عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا». فإنّه هو العالم بواقع الامور والخبير بحوادث العالم ما مضى منها وما سوف يأتى، ولا يفعل إلّاعن حكمة وتدبير «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». ثم بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكّر تلك الأيام الجميلة التى كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والذكاء العالى فيشمّ رائحته الطيّبة ويستعيد نشاطه، أمّا اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الامور إبتعد عن أولاده واستعبر ليوسف «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ». واشتدّ حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكرّرة وفقد أعزّ أولاده «وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ». لكن يعقوب كان مسيطراً على حزنه ويخفّف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوّه بما لا يرضى به اللَّه سبحان وتعالى «فَهُوَ كَظِيمٌ».

أمّا الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم مما أحدثوه ليوسف، وفى قضية بنيامين

شاهدوا أنفسـهم فی وضع صـعب وامتحان جدید، ومن جهۀ ثالثۀ کان یصـعب علیهم أن یشاهدوا أباهم یتجرّع غصـص المرارة والألم ویواصـل بکـاءه اللیل بالنهار، فلـذلک توجّهوا إلی أبیهم وخاطبوه معاتبین: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَـذْکُرُ یُوسُفَ حَتَّی تَکُونَ حَرَضًا أَوْ تَکُونَ مِنَ الْهَالِکِینَ» «۱». أی: إنّک تردّد ذکر یوسف وتتأسّف علیه حتی وتقع علی فراش المرض وتشرف علی الهلاک وتموت.

لکن شیخ کنعان هذا النبی العظیم صاحب الضـمیر الیقظ ردّ علیهم بقوله: «إِنَّمَا أَشْکُوا بَثّی وَحُزْنِی إِلَی اللَّهِ» «۲». لا إلیکم، أنتم الذین تخونون الوعد وتنکثون العهد لأنّنی «وَأَعْلَمُ مِنَ

---

(۱) «حرض»: بمعنی الشیء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المریض الذی ضعف جسمه وصار مشرفاًعلی الموت.

(۲) «بثّ»: بمعنی التفرقۀ والشیء الذی لا یمکن اخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذی لایخفی علی أحد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۹

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» فهو اللطیف الکریم الذی لا أطلب سواه.

یَا بَنِیَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ یُوسُفَ وَ أَخِیهِ وَ لَا تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْکَافِرُونَ (۸۷) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَیْهِ قَالُوا یَا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَۀٍ مُزْجَاۀٍ فَأَوْفِ لَنَا الْکَیْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَیْنَا إِنَّ اللَّهَ یَجْزِی الْمُتَصَدِّقِینَ (۸۸) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِیُوسُفَ وَ أَخِیهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (۸۹) قَالُوا أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ یُوسُفُ قَالَ أَنَا یُوسُفُ وَ هذَا أَخِی قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنَا إِنَّهُ مَنْ یَتَّقِ وَ یَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ (۹۰) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنَا وَ إِنْ کُنَّا لَخَاطِئِینَ (۹۱) قَالَ لَا تَثْرِیبَ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ یَغْفِرُ اللَّهُ لَکُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ (۹۲) اذْهَبُوا بِقَمِیصِی هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَی وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ (۹۳) الیأس علامۀ الکفر: کـان القحط والغلاء وشـحّۀ الطعـام یشـتدّ یوماً بعـد آخر فی مصـر وما حولها ومنها کنعان، ومرّۀ اخری أمر یعقوب أولاده بأن یتّجهوا صوب مصـر للحصول علی الطعام، لکنّه هـذه المرّۀ طلب منهم بالدرجـۀ الاولی أن یبحثوا عن یوسف وأخیه بنیامین، حیث قال لهم: «یَا بَنِیَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن یُوسُفَ وَأَخِیهِ».

لکن بمـا أنّ أولاد یعقوب کانوا مطمئنین إلی هلاک یوسف وعـدم بقاءه، تعجّبوا من توصـیۀ أبیهم وتأکیـده علی ذلک، لکن یعقوب نهـاهم عن الیـأس والقنوط ووصّـاهم بالإعتمـاد علی اللَّه سبحانه والإتکـال علیه بقوله: «وَلَا تَایَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ». فإنّه القادر علی حلّ الصعاب و «إِنَّهُ لَایَایَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْکَافِرُونَ».

«تحسّـس»: أصـله من «حس» بمعنی البحث عن الشـیء المفقود بأحد الحواس، والفرق بینه وبین «تجسّس» أنّ التحسّس هو البحث عن الخیر، والتجسّس هو البحث عن الشر.

قوله تعالی «روح» بمعنی الرحمۀ والراحۀ والفرج والخلاص من الشدۀ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۰

وأخیراً جمع الاخوۀ متاعهم وتوجّهوا صوب مصـر، وهذه هی المرۀ الثالثه التی یدخلون فیها أرض مصـر، هذه الأرض التی سبّبت لهم المشاکل وجرّت علیهم الویلات. لکن فی هذه السـفرۀ- خلافاً للسـفرتین السابقتین- کانوا یشعرون بشیء من الخجل یعذّب ضمائرهم فإنّ سـمعتهم عنـد أهل مصـر أو العزیز ملوّثـۀ للوصـمۀ التی لصـقت بهم فی المرۀ السابقـۀ، ولعلّهم کانوا یرونهم بمثابـۀ (مجموعـۀ من لصوص کنعان) الذین جاؤوا للسـرقۀ. إلّا أنّ الذی کان یبعث فی نفوسـهم الأمل ویعطیهم القدرۀ علی تحمل الصـعاب هو وصیۀ أبیهم «لَا تَایَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ».

وأخیراً استطاعوا أن یقابلوا یوسف، فخاطبوه- وهم فی غایۀ الشدّۀ والألم- بقولهم:

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَیْهِ قَالُوا یَا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ». أی: إنّ القحط والغلاء والشـدّۀ قـد ألمّت بنا وبعائلتنا ولـم نحمل معنا من کنعان إلّامتاعاً رخیصاً «وَجِئْنَا بِبِضَاعَۀٍ مُّزْجَاۀٍ» «۱».

لا ـ قيمة لها ولكن – فى كل الأحوال – نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل فى معروفك «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» بمنّك الكريم وصدقاتك الوافرة «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» ولا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من اللَّه سبحانه وتعالى حيث: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ».

والطريف أنّ إخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم فى البحث عن إخوتهم أوّلًا، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعل السبب فى ذلك ضعف أملهم فى العثور على يوسف، أو لعلّهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنّهم اناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثمّ يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

ونقرأ فى روايات وردت فى هذا المقام، أنّ الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب فى تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثم عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبّهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفى ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكّره أنّ بنيامين سليل بيت النبوة والرسالة وأنّه

---

(۱) «البضاعة»: أصلها «البضع» على وزن جزء، وهى بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق‌على جزء من المال الذى يقتطع منه ثمناً لشىء. «مزجاة»: من «الإزجاء» بمعنى الدفع، وبما أنّ الشىء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق عليه (مزجاة).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۱

لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصى.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة بإحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكى بحيث أنّ الدموع بلّت ثيابه.

وفى تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيّام الامتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهمّ، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله:

«هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ اذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ».

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكّروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الامور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التى لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلّايوسف.

ومن جهة اخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر فى وجه العزيز ودقّقوا فى ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف ... لكنهم فى نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه «قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ».

كانت اللحظات تمرّ بسرعة لكن يوسف لم يدع اخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و «قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِى». لكن لكى يشكر اللَّه سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكى يعلّم إخوته درساً آخر

من دروس المعرفة قال: إنّه «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنَا إِنَّهُ مَن یَتَّقِ وَیَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَایُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ».

هـذه اللحظات الحساسـة كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالـذنب والجريمـة التى اقترفوها فى حقه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۲

عن جريمتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنَا» «۱». أى: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد فضّلك علينا بالعلم والحلم والحكومة «وَإِن کُنَّا لَخَاطِئِینَ». أمّا يوسف الذى كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته فى حال الخجل والندامة- خاصه فى هذه اللحظات الحساسة وبعد إنتصاره عليهم، فخاطبهم بقوله: «قَالَ لَاتَثْرِیبَ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ» «۲». أى: إنّ العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحى الضـمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقـة منفـذاً إلى نفوسكم، ثم لكى يبيّن لهم أنّه ليس وحـده الـذى أسـقط حقّه وعفا عنهم، بل إنّ اللَّه سـبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: «یَغْفِرُ اللَّهُ لَکُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ». أى: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنّه أرحم الراحمين.

وهـذا دليـل على علو قـدر يوسف وغايـة فضـله حيث إنّه لم يعف عن سيّئات إخوته فحسب، بل طمأنهم على أنّ اللَّه سـبحانه وتعالى رحيم غفور وأنّه تعالى سوف يعفو عن سيئاتهم، وإستدلّ لهم على ذلك بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكّر الإخوة مصيبة اخرى قد ألمّت بعائلتهم والشاهد الحى على ما إقترفوه فى حقّ أخيهم، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصـره حزناً وفراقاً على يوسف، أمّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشـكلة حلّا حيث خاطبهم بقوله: «اذْهَبُوا بِقَمِیصِی هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَی وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیرًا». ثمّ طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً «وَأْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ».

ورد فى بعض الروايات أنّ يوسف قال: إنّ الذى يحمل قميصى المشافى إلى أبى لابدّ وأن يكون هو نفسه الذى حمل قميصى الملطّخ بالـدماء إليه، فأعطى ل (يهودا) قميصه بعـد أن اعترف له أنّه هو الذى حمل قميصه الملطّخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف.

إنّ الآيات السابقة تعلّمنا درساً من دروس الأخلاق الإسلامية، وهو أنّه بعد الإنتصار

---

(۱) «آثرك»: أصله من «الإيثار» وفى الأصل بمعنى البحث عن أثر الشيء، وبما أنّه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الفضيلة والعلو.

(۲) «تـثريب»: أصـله من مـادّة «ثرب ۹ وهو شـحمة رقيقـة تغطّى المعـدة والأمعـاء، والتـثريب بمعنى رفع هـذاالغطاء، ثمّ بمعنى العتـاب والملامة فكأنّ المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۳

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِیرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّی لَأَجِدُ رِیحَ یُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (۹۴) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلَالِکَ الْقَدِیم (۹۵) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِیرُ أَلْقَاهُ عَلَی وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِیراً قَالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۹۶) قَالُوا یَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا کُنَّا خَاطِئِینَ (۹۷) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۹۸) على العدو وكسر شوكته لابدّ أن لا ننسى العفو والرحمة، وأن لا نعامله بقساوة.

كما أنّنا نرى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حينما فتح مكّة وأذلّ المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى جوار الكعبـة وأخـذ بحلقـة بابها وكان المشـركون قد إلتجؤوا إليها، قال: «وأنا أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم».

أى: إنّ اليوم ليس يوم ملامة وإنتقام وإظهار الحقد والضغينة «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وأخيراً شملتهم رعاية اللَّه ولطفه: أمّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، لكن- مقارناً مع حركة القافلة من مصر- حدث فى بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرّك من مكانه وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّى بسوء ولم تنسبوا كلامى إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: «إِنّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ». فإنّى أحسّ بأنّ أيّام المحنة والآلام سوف تنصرم فى القريب العاجل، وأنّه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أنّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لا- تصدّقون كلامى «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنّى لَاجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أن تُفَنِّدُونِ».

أمّا الذين كانوا مع يعقوب- وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة- فقد إستولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلِلكَ الْقَدِيمِ». أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنّك لا زلت تزعم أنّه حى، وأخيراً تقول: إنّك تشمّ رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك فى الأوهام

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۸۴

والخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسّسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هذه الآية الشريفة أنّ المقصود ب (الضلال) ليس الانحراف فى العقيدة، بل الانحراف فى تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلّقة به. وبعد عدّة أيام من الإنتظار- والتى لا يعلم إلّااللَّه كيف قضاها يعقوب- إرتفع صوت المنادى معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن فى هذه المرّة- وخلافاً للمرّات السابقة- دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجّهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم ال (بشير) الذى بشّر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أمّا يعقوب الذى أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص، وأحسّ يعقوب بتغيّر حالته، وفجأةً رأى النور فى عينيه وأحسّ بأنّهما قد فتحتا ومرّة اخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: «فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا».

هذه الحالة التى حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكّرون فى ماضيهم الأسود الملىء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التى سار فيها ... وما أحلى تلك اللحظات التى يحاول المذنب أن يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه ويبعدها عن جادة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِينَ».

أمّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذى كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التى اقترفوها فى حقّه وحقّ أخيهم ... أجابهم بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّى» وأملى معقود بأن يغفر اللَّه سبحانه وتعالى ذنوبكم «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۸۵

بحوث

۱- الوعد بالاستغفار: نقرأ فى الآيات- محل البحث- أنّ يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ»

إلّاأنّ يعقوب عليه السلام قال لهم عندما اعترفوا عنده بالذنب وأظهروا الندامة: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكَمْ» وكان هدفه- كما تقول الرّوايات- أن يؤخّر إستجابة طلبهم الاستغفار إلى السحر (من ليلة الجمعة) الذى هو خير وقت لإستجابة الدعاء وقبول التوبة.

۲- التوسل جائز: يستفاد من الآيات- آنفة الذكر- أنّ طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف اللّه سبحانه، وإلّا فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه فى أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسلهم به.

۳- نهاية الليلة السوداء: إنّ الدرس الكبير الذى نستلهمه من الآيات المتقدمة هو أنّه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقق فعلًا) فإنّ أيّاً من اولئك لا يمنع من الرجاء والأمل بلطف اللّه، فاللّه الذى أعاد البصر برائحة القميص ونقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، وردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على أن يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، وأن يشفى آلام النفوس.

أجل إنّنا نجد الدرس التوحيدى الكبير ينطوى فى هذا القصص والتاريخ، وهو أنّه لا شىء على اللّه بعزيز ولا عسير، بل يهون كل شىء بأمره وإرادته: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّی حَقّاً وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِی وَ بَيْنَ إِخْوَتِی إِنَّ رَبِّی لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِی مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّی فِی الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِينَ (۱۰۱)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۶

عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته: مع وصول القافلة التى تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان ينبغى على أهل هذا البيت- وفقاً لوصية يوسف- أن يتحرّكوا ويتّجهوا نحو مصر، وتهيأت مقدمات السفر من جميع النواحى، وركب يعقوب راحلته وشفتاه رطبتان بذكر اللّه وتمجيده.

وهذا السفر كان خالياً من أيّة شائبة من شوائب الهمّ والغم. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قِبال ما يهدفون إليه فى مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالى والأيّام ببطء، إلّاأنّ القرآن الكريم- كعادته دائماً- حذف هذه المقدمات التى يمكن أن تدرك بأدنى تفكر وتأمل، فقال فى هذا الشأن: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ».

«آوى»: تعنى فى الأصل إنضمام شىء إلى شىء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن إحتضانهما ومعانقتهما.

وأخيراً تحقّقت أحلى سويعات الحياة ليعقوب، وفى هذا اللقاء والوصال الذى تم بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلّااللّه عواطفها فى تلك اللحظات الحلوة، وأيّة دموع إنسكبت من عينيهما من الفرح.

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ» لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف فى أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بوّابة المدينة لإستقبال والديه وإخوته، ولعل التعبير ب «دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهيأ مقدّمات الإستقبال لأبويه وإخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ».

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهية واللطف والموهبة التى منّ اللّه بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا».

وعندها إلتفت يوسف عليه السلام إلى أبيه «وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ».

ألم يقل أنّى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين؟!

فانظر يا أبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمرى «قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقًّا* وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السّجْنِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۷

الطريف هنا أنّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه فى مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلّم على الجبّ مراعاةً لإخوته.

ثم أضاف يوسف قائلًا: «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى».

وأخيراً يقول يوسف: إنّ جميع هذه المواهب هى من قِبَل اللّه، ولِمَ لا تكون كذلك ف «إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاءُ».

فيتولّى امور عباده بالتيسير والتدبير ... وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالإستجابة «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقى وولى النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: «رَبّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم فى تغيير حياتى وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت ياربّ: «فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: «أَنتَ وَلِىّ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ».

أى: إنّنى لا- أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياة المادية منك يا ربّ، لأنّ هذه الامور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق الجذاب. بل أطلب منك يا ربّ أن تكون عاقبة أمرى على خير، وأن أقضى حياتى وأموت مؤمناً فى سبيلك مسلّماً لإرادتك، وأن أكون فى صفوف الصالحين، فهذه الامور هى المهمة لدى فحسب.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (۱۰۲) وَ مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۰۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۸

الأدعياء مشركون غالباً: بعد ما انتهت قصة يوسف عليه السلام بكل دروسها التربوية ونتائجها الغزيرة والقيّمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية ... إنتقل الكلام إلى النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول القرآن الكريم: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ». فالوحى الإلهى فقط هو الذى جاءك بهذه الأخبار.

وكان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحى وسماعهم لهذه النصائح الإلهية، وأن يتراجعوا عن طريق الغىّ، ولكن يا أيها النبى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

إنّ الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النبى صلى الله عليه و آله لأن يؤمن الناس.

وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هى تسليةً لقلب النبى صلى الله عليه و آله حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب، كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة الكهف: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثُ أَسَفًا». وقوله تعالى: «وَمَا تَسْلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

فهؤلاء فى الواقع ليس لهم أى عذر أو مبرّر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما اتّضح من علامات الحق أنّك لم تسألهم أجراً حتى يكون مبرّراً لمخالفتك: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لّلْعَالَمِينَ».

وهذه الدعوة عامة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكل البشرية.

«وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ». فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كل يوم.

إنّ أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياة النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكل هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبّر أحد فيه وفى خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

ولهـذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزلة عليك، لأنّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كل مكان «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ».

قد يتصور هؤلاء أنّهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك فى أفكارهم وأقوالهم وضمائرهم.

فالمؤمن المخلص هو الذى لا يعتقد بأىّ معبود سوى اللّه، فتكون أقواله وأعماله وكل أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون اللّه.

وفى آخر آية يحذّر القرآن الكريم اولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۹

مرّ الكرام ويشركون فى أعمالهم حيث يقول: «أَفَأَمِنُوا أن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

«الساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى فى كثير من الآيات.

أصـدق الـدروس والعبر: فى الآيـة الاولى من هـذه المجموعـة يتلقّى النبى صـلى الله عليه و آله الأوامر لتحديـد الطريق والمنهـج الذى يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ».

ثم يضيف: «عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى».

وهذه الجملة توضّح أنّ كل فرد مسلم مقتدٍ بالرسول صلى الله عليه و آله له نفس الدور فى الدعوة إلى الحق، ولابدّ من دعوة الآخرين إلى اللّه، من خلال، الأقوال والأفعال وكذلك تؤكّد هذه الجملة على أنّ القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلّا فإنّ دعوته ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: «وَسُبْحنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ وقوع هـذه الآيـة بعد الآيات المتعلقة بيوسف تشير إلى أنّ طريقة ومنهج النبى لا يختلفان عن طريقة ومنهج يوسف النبى، فهو كان يـدعو إلى «اللّه الواحد القهار» حتى فى زوايا السـجن، أمّا غيره فكان يدعو إلى أسـماء انتقلت إليه بسـبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أمّا سيرة الأنبياء والرسل كلها واحدة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۰

وبما أنّ الأقوام الضالـة والجاهلـة كانت دائماً تثير هـذا الإعتراض على الأنبياء وهو أنّكم بشـر؟! ولماذا لا تُكلّف الملائكـة لهـذا الأمر؟ وبمـا أنّ الناس فى الجاهليـة كانوا يثيرون نفس الإعتراض بالنسـبة إلى الرسول صـلى الله عليه و آله ودعوته العامـة، فإنّ القرآن الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الإعتراض فيقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى . هؤلاء الرسل هم كباقى الناس يعيشون فى المـدن والقرى، ويتجوّلون بين النـاس ويشـعرون بآلامهم وإحتياجاتهم ومشاكلهم. فالوصف هنا ب «مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى تشـير إلى أنّ أنبياء اللّه لم ينهضوا من بين سـكنة الصـحراء لأنّ سـكّان الباديـة يتّصـفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسـية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلباتها.

ولكن الرسول من أهل مكة التى تعتبر مدينة كبيرة نسبيّاً.

ثم يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التى هى الدعوة إلى اللّه فإنّ عليهم أن يسـيروا ليروا آثار السابقين: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

إنّ السير والتجوال فى الأرض لمشاهـدة آثار الماضـين وخراب دورهم ومـدنهم بسـبب العـذاب الإلهى، أفضل درس لهم، درس حى وملموس للجميع، «وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ». لماذا؟ لأنّ الـدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أمّا الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.

«حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ».

تشير هذه الآية إلى أدقّ وأصعب لحظة فى حياة الأنبياء فتقول: إنّ الأنبياء يواجهون دائماً مقاومة عنيفة من قبل أقوامهم وطواغيت زمانهم حتى يصل الحال بالأنبياء إلى اليأس إلى حدّ يظنّون أنّ أتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم وتركوهم وحدهم فى مسيرتهم فى الدعوة إلى الحقّ، وفى هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم فى كل شىء أتاهم نصرنا، وفى نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

فهذه سنّة اللّه فى الذين أصرّوا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجة عليهم ينالهم العذاب الإلهى فلا تستطيع أى قوة أن تردّه.

و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل وجامع لكل الأبحاث التى ذكرناها فى هذه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۱

السورة، وهى: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

فهى مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصر والهزيمة، الهناء والحرمان، السعادة والشقاء، العزّ والذلة، والخلاصة كل ما له قيمة فى حياة الإنسان وما ليس له قيمة.

وهى مرآة لكل تجارب المجتمعات السابقة والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كل البشر. ولكن اولى الألباب وذوى البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا العبر فى صفحة المرآة العجيبة هذه: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ».

فهذه الآيات التى أنزلناها عليك والتى أزاحت الستار عن التاريخ الصحيح للُامم السابقة ليست من العلم البشرى الذى يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السماوية السابقة تشهد على ذلك وتصدّقه وتؤيّده وبالإضافة إلى ذلك ففى هذه الآيات كل ما يحتاجه الإنسان فى تأمين سعادته وتكامله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ».

ولهذا السبب فهى «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

«نهاية تفسير سورة يوسف»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۳

۱۳. سورة الرعد

محتوى السورة: كما قلنا سابقاً، بما أنّ السور المكية كان نزولها فى بداية دعوة النبى صلى الله عليه و آله وأثناء محاربته للمشركين، فإنّها غالباً ما كانت تتحدّث عن المسائل العقائدية وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشرك، فى الوقت الذى نرى فيه أنّ السور المدنية نزلت بعد إنتشار الإسلام وقيام الحكومة الإسلامية، فقد تناولت الأحكام والمسائل المتعلقة بالنظام الاجتماعى واحتياجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التى هى من السور المكية لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشير إلى أحقّية القرآن وعظمته، تتطرّق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التى هى من دلائل ذات اللّه المقدسة.

ثم تتطرّق إلى المعاد وبعث الإنسان من جديد ومحكمة العدل الإلهى، وهذه المجموعة من اصول المبدأ والمعاد تبيّن مسؤولية ووظائف الناس.

ثم لمعرفة الحق من الباطل، الأمثال الحيّة والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصيلة النهائية للإيمان بالتوحيد والمعاد هى تلك التطبيقات العملية والحيّة لها، فالقرآن فى هذه السورة يدعو الناس إلى

الوفاء بالعهد وصلة الأرحام والصبر والاستقامة والإنفاق فى السر والعلانية والنهى عن الإنتقام، ويوضّح لهم أنّ الدنيا فانية،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۴

والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلّافى ظل الإيمان باللّه.

وفى النهاية يأخذ بأيدى الناس ويغور بهم فى أعماق التاريخ، ويريهم العواقب السيئة للذين طغوا وعصوا وأبعدوا الناس عن الحق، ويختم السورة بتهديد الكفار.

إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهى بالبرامج التربوية للإنسان.

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴) آيات اللّه فى السماء والأرض وعالم النبات: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، تنفرد عن غيرها من السور ب «المر». فمن المحتمل أنّ هذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدىء ب «الم» و «الر».

فالآية الاولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ». ولا يوجد أى شك أو ترديد فى هذه الآيات، لأنّها تبيّن عين الحقيقة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حقّ لا يشوبه باطل، ولهذا السبب فإنّ علائم الحق واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

ثم تتطرّق السورة إلى شرح القسم المهم من أدلة التوحيد وآيات اللّه فى الكون، وتتجوّل بالإنسان فى عرض السماوات وتريه الكواكب العظيمة وأسرار هذا النظام وحركته، حتى يؤمن بالقدرة المطلقة والحكمة اللامتناهية «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۵

إنّ هذه الآية تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه فى ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى الهيئة تتحكّم فى المحافل العلمية فى العالم وعلى أفكار الناس وطبقاً لهذه النظرية فإنّ السماوات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل وإنّها لم تكن معلقة وبدون عمد بل كل واحدة منها تستند إلى الاخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصل علم الإنسان إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السماوية لها مقرّ ومدار ثابت، ولا تستند إلى شىء، فالشىء الوحيد الذى يجعلها مستقرة وثابتة فى مكانها هو تعادل قوة التجاذب والتنافر، فالاولى تربط الأجرام فيما بينها، والاخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوّتين الذى يشكّل أعمدة غير مرئية يحفظ الأجرام السماوية ويجعلها مستقرة فى مكانها.

«ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ». فى خصوص معنى العرش والإستواء عليه هناك شرح وافٍ عنه فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف.

وبعد أن بيّن خلق السماوات وهيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس والقمر «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

ولكن هذا النظام المادى ليس أبدياً، بل «كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم يضيف بعد ذلك: إنّ هذه الحركات والتغيّرات فى الأحوال ليست بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ».

وتعقيباً للآيات السابقة التى نقلت الإنسان إلى السماء تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أى الأرض والجبال والأنهار

وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها. قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ» وبسطها بالشكل الذى تتهيّأ فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات.

ثم يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ». فهى تلك الجبال التى عبّرت عنها فى آيات اخرى ب (الأوتاد) ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقى وتغطّى سطح الأرض، فهى تبطل الضغوط الداخلية فى الأسفل والضغط الخارجى المتمثّل بجاذبية القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضى على الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

ثم تضيف الآية بعد ذلك الأنهار: «وَأَنْهَارًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۶

رائع جدّاً نظام سقى الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأنّ كثيراً من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفى شقوق الوديان، ثم تذوب تدريجياً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوّة اخرى لمساعدتها. ثم يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التى تتكوّن من الأرض والمياه وأشعة الشمس، والتى هى أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: «وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ».

والآية تشير هنا إلى أنّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر والانثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدى «لينه» المختص بعلم النبات هو الذى توصّل إلى هذه الحقيقة فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وهى أنّ التزويج فى عالم النباتات يعتبر قانوناً عاماً فالقرآن الكريم قبل ألف واربعمائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة وهذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التى تبيّن عظمة هذا الكتاب السماوى الكبير.

وبما أنّ حياة الإنسان وكل الكائنات- وخصوصاً النباتات- لا يمكن لها الإستمرار إلّا بوجود نظام دقيق لليل والنهار، فإنّ القرآن يشير إلى ذلك فى القسم الآخر من الآية «يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ». ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كل النباتات، ولم تبق فاكهةً ولا أى كائن حى على وجه الأرض.

وتبيّن الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وفى الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتى تعبّر عن النظام الدقيق للخلقة، يقول أوّلًا: «وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ».

قوله تعالى: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ» «۱».

«صنوان»: جمع «صنو» تعنى الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففى بعض الأحيان يتمّ تركيب عدة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطى كل واحدة منها نوعاً خاصاً

---

(۱) «أعناب»: جمع عنب؛ و «النخيل»: جمع نخلة، ويحتمل أنّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتى قد تصل إلى مئات الأنواع فى العالم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۷

من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلك أنّها تسقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ».

أليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا فى آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ».

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَاباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (۶) تعجب الكفار من المعاد: بعد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمة اللّه ودلائله، تتطرّق الآية الاولى من هذه المجموعة إلى مسألة المعاد التى لها علاقة خاصه بمسألة المبدأ، ويؤكّد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: «وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ». أى: إذا أردت أن تتعجب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فى المعاد.

ثم يبيّن حالهم الحاضر ومصيرهم فى ثلاث جمل:

يقول أوّلًا: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبّهِمْ»؛ لأنّهم لو كانوا يعتقدون بربوبية اللّه لما كانوا يتردّدون فى قدرة اللّه على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنهم بالتوحيد وربوبية اللّه.

والأمر الآخر أنّه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها فى أعناقهم «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ».

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النار «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الثانية يشير إلى دعوى اخرى للمشركين حيث يقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بدلًا من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۸

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهية؟ «وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلتُ» «۱».

ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (۷) ذريعة اخرى: بعد ما أشرنا فى الآيات السابقة إلى مسألة «التوحيد» و «المعاد» تتطرّق هذه الآية إلى واحدة من إعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوة: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ».

ومن الواضح أنّ إحدى وظائف النبى صلى الله عليه و آله إظهار معاجزه لكى يدل على صدقه وصلته بالوحى الإلهى.

إنّ أعداء الأنبياء لم يكن لديهم حُسن نيّة أو اتّباع للحق عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسليمهم للأمر الواقع ولذلك كانوا يقترحون بين فترة واخرى معاجز عجيبة وغريبة. وهذه ما يسمّى ب «المعجزات الأخلاقية».

ولكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة وهى أنّ المعاجز بيد اللّه، ورسالتنا هداية الناس.

ولذلك نقرأ فى تكملة الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ».

فمعنى الآية: إنّ الكفار نسوا أنّ هدف الأنبياء الإنذار والدعوة إلى اللّه، واعتقدوا أنّ وظيفتهم القيام بالمعاجز.

وجه التفاوت بين «الإنذار» و «الهداية» هو إنّ الإنذار للذين أضلّوا الطريق ودعوتهم تكون إلى الصراط المستقيم، ولكن الهداية والإستقامة للذين آمنوا.

هناك روايات عديدة تؤكّد ما قلناه سابقاً، ففى تفسير جامع البيان عن ابن عباس قال:

لمّا نزلت «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ» وضع صلى الله عليه و آله يده على صدره فقال: «أنا المنذر ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب عليّ فقال: «أنت الهادى يا عليّ بك يهتدى المهتدون بعدى».

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (۸) عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (۹) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ (۱۰)

(۱) «المثلات»: جمع «مثلة» بفتح الميم وضمّ الثاء ومعناها العقوبات النازلة على الامم الماضية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۹

علم اللّه المطلق: نقرأ فى هذه الآيات قسماً من صفات الخالق، والتى تكمل بحث التوحيد والمعاد، فالحديث عن علمه الواسع ومعرفته بكل شىء. تقول الآية أوّلًا: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى فى رحمها، سواء من انثى الإنسان أو الحيوان، بل بكل خصائصه والطاقة الكامنة فيه؛ «وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ». أى: تنقص قبل موعدها المقرر «وَمَا تَزْدَادُ» «۱». أى: يعلم بما تزيد عن موعدها المقرّر.

«وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ». ولكى لا يتصور أحد أنّ هذه الزيادة والنقصان بدون دليل، كما أنّ للجنين ودم الرحم مقدار أيضاً، فالآية التى بعدها تؤكّد ما قلناه فى الآية السابقة حيث تقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» فعلمه بالغيب والشهادة لهذا السبب «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ» فهو يحيط بكل شىء، ولا يخفى عنه شىء.

ولتكميل هذا البحث وتأكيد علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: «سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلُ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ».

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (۱۱) المعقّبات الغيبية: علمنا فى الآيات السابقة أنّ اللّه بما أنّه عالم الغيب والشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس وخفاياهم، وتضيف هذه الآية أنّه مع حفظ وحراسة اللّه لعباده فإنّ «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

فى تفسير البرهان عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآية يقول: «بأمر اللّه من أن يقع فى ركى، أو يقع عليه حائط أو يصيبه شىء، حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبانه».

ولكى لا يتصور أحد أنّ هذا الحفظ بدون شروط وينغمس فى المزلّات، أو يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع كل ذلك ينتظر من اللّه أو الملائكة أن يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

وكى لا يتبادر إلى الأذهان أنّه مع وجود الملائكة الحافظة فأىّ معنى للعذاب أو الجزاء؟

(۱) «تغيض»: أصلها الغيض بمعنى إبتلاع السائل وهبوط مستوى الماء. وتأتى بمعنى النقصان والفساد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج۲ ۵۳۹

هنا تضيف الآية: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ». ولهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الإلهى على قوم أو امة، فسوف ينتهى دور المعقّبات ويتركون الإنسان عرضةً للحوادث. «المعقّبات»: جمع «معقبة» وهى بدورها جمع «معقّب» ومعناه المجموعة التى تعمل بشكل متناوب ومستمر.

التغيير يبدأ من النفس (قانون عام): تبيّن الجملة «إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ» والتى جاءت فى موردين متفاوتين فى القرآن الكريم، أنّها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر.

إنّ هذا الأصل القرآنى الذى يبيّن واحداً من أهمّ المسائل الاجتماعية فى الإسلام، يؤكّد لنا أن أى تغيير خارجى للُامم مرتبط بالتغيير الداخلى لها، وأى نجاح أو فشل يصيب الامة ناشىء من هذا الأمر، والذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير أعمالهم وتصرفاتهم ويعتبرون القوى المستعمرة والمتسلطة هى السبب فى شقائهم يقعون فى خطأ كبير، لأنّ هذه القوى الجهنمية لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا لم تكن لديها قدرة ومركز فى داخل المجتمع.

يقول هذا الأصل القرآنى: إنّنا يجب أن نثور من الداخل كى نُنهى حالة الشقاء والحرمان، ثورة فكرية وثقافية، ثورة إيمانية وأخلاقية،

وأثناء وقوعنا فى مخالب الشقاء يجب أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونطهّر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى اللّه، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بالنور والحركة، كى نستطيع فى ظلها أن نبدّل الهزيمة إلى نصر.

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَ هُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ (١۴) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ (١۵) قسم آخر من دلائل عظمة اللّه: يتطرّق القرآن الكريم مرّة ثانية إلى آيات التوحيد وعلائم العظمة وأسرار الخلقة، فتشير أوّلًا إلى البرق: «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۱

وَطَمَعًا». فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ومن جانب آخر فإنّه يسبّب هطول الأمطار ويروى ظمأ الصحراء ويسقى المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حساسة

ثم تضيف الآية: «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» القادرة على إرواء ظمأ الأراضى الزراعية.

الآية الاخرى تشير إلى صوت الرعد الذى يتزامن مع البرق «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ».

نعم، فهذا الصوت المدوّى فى عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق فى خدمة هدف واحد، ويقومان بعملية التسبيح، وبعبارة اخرى فالرعد لسان حال البرق يحكى عن عظمة الخالق وعن نظام التكوين.

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتى الملائكة «وَالْمَلِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ». فهم يخافون من تقصيرهم فى تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، وبالتالى فهم يخشون العقاب الإلهى، ونحن نعلم أنّ الخوف يُصيب اولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم ... خوف بنّاء يحثّ الشخص على السعى والحركة.

وللتوضيح أكثر فى مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقة: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ». ومع كل ذلك- وبمشاهدة آيات العظمة الإلهية فى عالم التكوين من السماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفى قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتى فى مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق- نرى أنّ هناك جماعة جاهلة تجادل فى اللّه «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ».

«المحال»: فى الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرّى وغير الظاهر، فالذى له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأوّل: قوله تعالى: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ». فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادر على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إيّاه وطلبنا منه حقاً، وليس باطلًا.

ولكن دعاء الأصنام باطل «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ».

ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالًا حيّاً ورائعاً يقول: «إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ». فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يدٍ ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلّامن إنسان مجنون.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۲

وللتأكيد على هذا الحديث يأتى فى نهاية الآية قوله تعالى: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَللٍ». وأىّ ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد فى السبيل الضالّ ... ولكنّه لا يصل إلى مقاصده. الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكى تُبرهن كيف أنّ المشركين ضلّوا الطريق تقول:

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ».

السجدة فى هذه الموارد تعنى الخضوع والتسليم، وهناك نوعان من السجود، سجود تكوينى وهو أنّ الكل خاضعون ومسلّمون للقوانين الطبيعية مثل الحياة والممات والمرض و ...، والبعض منهم له سجود تشريعى بالإضافة إلى السجود التكوينى، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون للّه.

عبارة «طَوْعًا وَكَرْهًا» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ المؤمنين خاضعون للّهبميلهم وإرادتهم، وأمّا غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعية التى تسير بأمر اللّه إن شاؤوا وإن أبوا.

«الظّلال»: جمع «ظِل» واستعمال هذه الكلمة فى الآية يشير إلى أنّ المقصود فى السجود ليس فقط السجود التشريعى، فظِلال الكائنات ليست خاضعة لارادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكوينى، يعنى التسليم للقوانين الطبيعية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۱۶) لماذا عبادة الأصنام؟ كان البيان فى الآيات السابقة عن معرفة اللّه وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب- أوّلًا- النبى صلى الله عليه و آله حيث تقول: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثمّ تأمر النبى أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم: «قُلِ اللَّهُ». ثم إنّه يلومهم ويوبّخهم بهذه الجملة: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا».

ثم يذكر مثالين واضحين وصريحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحدين والمشركين،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۳

فيقول أوّلًا: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ». فكما لا يستوى الأعمى والبصير لا يستوى المؤمن والكافر، ولا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانياً: «أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». كيف يمكن أن نجعل الأصنام التى هى الظلمات المحضة إلى جنب اللّه الذى هو النور المطلق؟

ثم يُدلِل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ». والحال ليس كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون أنّ اللّه خالق كل شيء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلك تقول الآية: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

يستفاد من الآية أعلاه أنّ الخلقة أمر مستمر ودائمى، وإنّه تعالى يفيض بالوجود عليهم بإستمرار وكل شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدبير العالم كلها بيد اللّه.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (۱۷) وصف دقيق لمنظر الحق والباطل: يستند القرآن الكريم- الذى يعتبر كتاب هداية وتربية- فى طريقته إلى الوقائع العينية لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسية الرائعة من حياة الناس، وهنا- أيضاً- لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التى كانت تدور حول التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الحق والباطل، يضرب مثلًا واضحاً جدّاً لذلك ..

يقول أوّلًا: «أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة، «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا» تتقارب السواقى الصغيرة فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كل ما يقف أمامها، وفى هذه الأثناء يظهر الزّبد وهو ما يرى على وجه الماء كرغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: «فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

رَّابِيًا».

وليس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار، بل «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۴

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ». أى: الفلزات المذابة بالنار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة فى الحياة. بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط فى الماء بل حتى للفلزات وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ».

ثمّ يتطرّق إلى شرحه فيقول: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ».

وفى آخر الآية- للمزيد من التأكيد فى مطالعة هذه الأمثال- يقول تعالى: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

المثال يعمّم المفاهيم: كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلى يفهمها الخواص فقط، ولا يستفيد منها عامة الناس، ولكن عندما يصحبها المثال تكون قابلة للفهم، ويستفيد منها الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) الذين استجابوا لدعوة الحق: بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهى الحق والباطل من خلال مثال واضح وبليغ، أشارت هذه الآية إلى مصير الذين إستجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة واتّجهوا صوب الباطل. تقول أوّلًا: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى .

«الحسنى»: فى معناها الواسع تشمل كل خير وسعادة.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ».

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية فى بيان شدّة عذابهم وعقابهم، يمتلك الإنسان كل ما فى الأرض وضعفه أيضاً ويفتدى به للنجاة ولا يحصل النجاة. تشير هذه الجملة فى الواقع إلى آخر امنية والتى لا يمكن أن يتصور أكثر منها، وهى أن يمتلك الإنسان كل ما فى الأرض، ولكن شدّة العذاب للظالمين ومخالفى الحق تصل بهم إلى درجة أن يفتدوا بكل هذه الامنية

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۵

أو بأكثر منها لنجاتهم.

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر «أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ». يعنى أنّ هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبّخون ويُلامون ومن ثم يستقصى منهم.

وفى نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثّالث أو النتيجة النهائية لجزائهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

«المهاد»: جمع «مهد»، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أنّ هؤلاء الطغاة بدلًا من أن يستريحوا فى مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار.

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢۴) الأبواب الثمانية للجنة وصفات اولى الألباب: تتحدّث هذه الآيات عن سيرة اولى الألباب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق. فى الآية الاولى من هذه المجموعة إستفهام إنكارى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى .

وهذه إشارة لطيفة إلى أنّه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلّاأن يكون أعمى القلب، ولذلك يجىء فى نهاية الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

«الألباب»: جمع «لبّ» بمعنى جوهر الشيء، ويقابل اولى الألباب اولوا الجهل والعمى.

إنّ هـذه الآية تحثّ الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثمّ بيّن سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأوّل ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له «الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۶

إنّ «عهد اللّه» له معنى واسع، ويشمل العهود الفطرية التى عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد وحبّ الحقّ والعدالة، والمواثيق العقلية التى يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقّل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعية، وهى ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه و آله عليه من الطاعة للأوامر الإلهية وترك المعاصى والذنوب. الصفة الثانية من صفات اولى الألباب هى: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أن يُوصَلَ».

فالإنسان له صلات وروابط كثيرة، صلته مع ربّه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كل الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلات.

والإنسان ليس منزوياً أو منفكّاً من عالم الوجود، بل تحكم كل وجوده الصلات والروابط.

الصفة الثالثه والرابعة من سيرة اولى الألباب هى قوله تعالى: «وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ».

الصفة الخامسة من صفات اولى الألباب الإستقامة فى مقابل جميع المشاكل التى يواجهها الإنسان فى مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد، والصبر فى مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» «۱».

فإنّ هذه الجملة تبيّن أنّ كل صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه اللّه، وأى عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

الصفة السادسة من صفاتهم هى: «وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ».

إنّ الإنسان يجدّد عهده وصلته باللّه سبحانه وتعالى صباحاً ومساءاً، ويتفكّر بعظمة الخالق ويدعوه، ويُطهّر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحق المطلق.

ثم يبيّن الصفة السابعة لدعاة الحق حيث يقول تعالى: «وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً».

فالصلاة تُحكم الصلة بين العبد وربّه والزكاة بين العباد.

والجملة «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تشمل كل العطايا من الأموال والعلوم والقوة والجاه، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد.

---

(۱) ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۷

والعبارة «سِرًّا وَعَلَانِيَةً» إشارة اخرى إلى هذه الحقيقة وهى أنّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارةً يكون سرّاً ويترتّب عليه أثر كبير، وذلك فى الحالات التى تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرّةً يكون الإنفاق العلنى أكثر تأثيراً وذلك فى الحالات التى تدعو الآخرين لكى يتأسّوا بهذا العمل الخيّر ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

الصفة الثامنة والأخيرة هى قوله تعالى: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ».

ومعنى هذه العبارة أنّهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند إرتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهّروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات.

ويحتمل فى تفسير الآية أنّهم لا ـ يقابلون السيء بالسيء، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر فى مواقفهم.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لُاولى الألباب، أشار فى نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: «أَولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الاخرى توضّح هذه العاقبة «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

والشيء الذى يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية «وَالْمَلِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مّن كُلّ بَابٍ سَلمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحمّلتم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكل شيء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب- هنا- معدّة لكم.

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أنّ للجنة عدّة أبواب، ولكن هذا التعدد للأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد.

ومن الظريف أنّ القرآن الكريم- فى الآية (۴۴) من سورة الحجر- يذكر لجهنم سبعة أبواب «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». وهذه إشارة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة وجنّة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة اللَّه سبقت غضبه.

وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۲۵) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (۲۶) للمفسدين الذين فقدوا حظّهم من العلم والمعرفة حيث يقول جلّ وعلا: «وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» «۱».

فى الحقيقة يتلخص فساد عقيدتهم فى الجمل الثلاث الآتية:

۱- نقض العهود الإلهية: وتشمل المواثيق الفطرية والعقلية والتشريعية.

۲- قطع الصلات: وتشمل الصلة مع اللَّه والرسل والناس ومع أنفسهم.

۳- الإفساد فى الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلات.

قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ». وهذه إشارة لُاولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون فى الأرض وينقضون عهد اللَّه ويقطعون ما أمر اللَّه به أن يوصل لكى يزيدوا من دخلهم المادى، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهى أنّ الرزق- فى زيادته ونقصه- بيد اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ».

ألا بذكر اللَّه تطمئنّ القلوب: فى سورة الرعد بحوث كثيرة حول التوحيد والمعاد والنبوة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرّةً اخرى فى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وتبيّن واحداً من أعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ».

إنّ هؤلاء يتوقّعون من النبى أن يجلس فى زاوية الدار ويُظهر لكل واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها.

ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ».

وهذه إشارة إلى أنّ العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأنّ الأنبياء قد أظهروا كثيراً من

---

(۱) «اللعن»: بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن فى الآخرة تشير إلى العقوبة وفى الدنيا الإبتعاد من رحمة اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۹

المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصب والجهل والذنوب التى تصدّ عن الإيمان.

تُشير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير «مَنْ أَنَابَ» حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ». ثم يذكر القاعدة العامة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِنُّ الْقُلُوبُ».

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَابٍ».

ما هو ذكر اللَّه، وكيف يتمّ؟ إنّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» وكل واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أيّة حال ليس المقصود من الذكر- فى الآية أعلاه- هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه و تهليله و تكبيره، بل المقصود هو التوجه القلبى له و إ دراك علمه و بأنّه الحاضر و الناظر، وهذا التوجّه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعى نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذى له كل هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدة من الروايات.

فمن وصايا النبى صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام يقول له: «يا على، ثلاث لا تطيقها هذه الامّة:

المواساة للأخ فى ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر اللَّه على كل حال، وليس هو سبحان اللَّه والحمد للَّهولا إله إلّااللَّه واللَّه أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللَّه عزّ وجلّ عنده وتركه» «۱».

كَذلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (۳۲)

---

(۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۴۵.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۰

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه و آله:

«اسجدوا للرحمن». قالوا: وما الرحمن؟

وفى سبب نزول الآية الثانية: إنّها نزلت فى نفر من مشركى مكة، منهم أبو جهل بن هشام، وعبد اللَّه بن أمية المخزومى جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه و آله فأتاهم، فقال له عبد اللَّه بن أمية: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا، حتى تنفسخ فإنّها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت أهون على ربّك من داود حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضى عليها مسيرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخرت له الريح فكما زعمت لنا فلست أهون على ربّك من سليمان. وأحى لنا جدك قصياً، أو من شئت من موتانا لنسأله: أحق ما تقول أم باطل؟ فإنّ عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ولست بأهون على اللَّه منه فأنزل اللَّه سبحانه «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا» الآية.

التّفسير

لا أمل فى إيمان أهل العناد: تبحث هذه الآيات مرّةً ثانية مسألة النبوّة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين فى النبوّة وجواب القرآن عليهم فتقول الآية: كما أنّنا أرسلنا رسلًا إلى الأقوام السالفة لهدايتهم: «كَذلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ». والهدف من ذلك «لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». فى الوقت الذى «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ». يكفرون باللَّه الذى عمّت رحمته كل مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثم قل لهم: إنّ الرحمن الذى عمّ فضله هو ربّى «قُلْ هُوَ رَبِّى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ».

ثم يجيب اولئك الذين يتشبّثون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أنّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى . فمع ذلك لا يؤمنون به.

ولكن كل هذه الأفعال بيد اللَّه ويفعل ما يريد متى يشاء «بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا».

ولكنكم لا تطلبون الحق، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التى صدرت من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۱

الرسول صلى الله عليه و آله كاف لإيمانكم.

ثم يضيف القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَايَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا». ولكنّه لا يفعل ذلك أبداً، لأنّ هذا الإيمان الإجبارى لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ». وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل إبتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهذه المصائب إن لم تنزل فى دارهم فهى «أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ» لكى يعتبروا بها ويرجعوا إلى اللّه جلّ وعلا.

وهذا الإنذار مستمر «حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ».

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكة التى سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أيّة حال فالوعد الإلهى أكيد: «إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الإقتراحية والإستهزاء من الكفار، بل «وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فوراً، بل «فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» لكى يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحق، أو نلقى عليهم الحجة الكافية على الأقل، لأنّ هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإنّ لطف اللّه وكرمه وحكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

وعلى أيّة حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» وهذا المصير ينتظر قومك المعاندين أيضاً.

أ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (۳۴) كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه؟! نعود مرّةً اخرى فى هذه الآيات إلى البحث حول

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۲

التوحيد والشرك، وهى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ». ولإتمام البحث السابق، ومقدمة للبحث الآتى. يقول تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ».

ثم يجيبهم بلا فاصلة وبعدّة طرق:

يقول أوّلًا: «قُلْ سَمُّوهُمْ». فكيف تجعلون هذه الموجودات التى لا تستحق حتى الأسماء والتى لا قيمة ولا أثر لها، فى عداد الخالق القادر المتعال؟

ويقول ثانياً: «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ».

ثالثاً: حتى أنتم لا تؤمنون بذلك فى قرارة أنفسكم، بل «أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ». ولهذا السبب نرى المشركين عندما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون باللّه، لأنّهم يعلمون فى قلوبهم أنّ الأصنام لا يمكن أن تعمل لهم شيئاً.

رابعاً: إنّ المشركين ليس لهم إدراك صحيح، وبما أنّهم تابعين لأهوائهم وتقليدهم الأعمى، فإنّهم غير قادرين على أن يقضوا بالحقّ وبشكل صحيح، ولهذا السبب ضلّوا الطريق، يقول تعالى: «بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

الإضلال الإلهى إنعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيّئة التى تجرّه إلى الضياع، وبما أنّ هذه الخاصية قد جعلها اللّه سبحانه وتعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل إليه.

ويشير القرآن الكريم فى الآية الأخيرة من هذه المجموعة إلى العقاب الأليم الذى يشملهم فى الدنيا والآخرة، الشقاء والهزيمة والحرمان وغيرها، حيث تقول: «لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَشَقُّ». لأنّها دائمة ومستمرة، جسدية وروحية، وفيها أنواع الآلام.

وإذا إعتقدوا بأنّ لهم طريقاً للفرار أو سبيلًا للدفاع فى مقابل ذلک، فإنّهم فى إشتباهٍ كبير، لأنّ «وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ».

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْکَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (۳۵) بالنظر إلى تناوب آيات هذه السورة فى بيان التوحيد والمعاد وسائر المعارف الإسلامية

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۳

الاخرى، تحدّثت هذه الآية مرّةً اخرى حول المعاد وخصوصاً نِعَم الجنة وعذاب الجحيم.

يقول تعالى: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ».

قد يكون التعبير ب «مثل» إشارة إلى هذه النكتة، وهى أنّ الجنّة وسائر النعم الاخروية غير قابلة للوصف بالنسبة إلى الساكنين فى هذا العالم المحدود الذى هو فى مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيراً جدّاً، ولذلک نستطيع أن نضرب لهم مثلًا أو صورة عن ذلک.

الوصف الثانى للجنة هو «أُكُلُهَا دَائِمٌ» فهى ليست كفاكهة الدنيا فصلية وتظهر فى وقت معين من السنة، بل فى بعض الأحيان وبسبب الآفات الزراعية تنقطع تماماً.

وكذلک «وَظِلُّهَا» كبقية النعم الاخرى خالدة ودائمة، ومن هذا يتّضح أن ليس فى الجنة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلک- أيضاً- أنّ شعاع الشمس موجود فى الجنة، وإلّا كان التعبير بالظل هناک بدون شعاع الشمس ليس له أى مفهوم.

وبعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى فى آخر الآية: «تِلْکَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ».

لقد بيّن وفصّل فى هذه العبارة نعم الجنة، ولكن بالنسبة إلى أصحاب النار ذكر جملة قصيرة وبعنف حيث ذكر أنّ عاقبة أمرهم إلى النار.

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ مِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِکَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَ إِلَيْهِ مَآبِ (۳۶) المؤمنون والأحزاب: أشارت هذه الآية إلى ردّ الفعل المتفاوت للناس فى مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما انزل على الرسول، بينما المعاندون يخالفون ذلک. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْکَ».

أى: أنّ الطالبون للحق من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرسول صلى الله عليه و آله لأنّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما فى أيديهم من العلامات، ومن جهة اخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شرّ الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحية الذين كانوا يستعبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنسانى.

ثم تضيف الآية: «وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ». المقصود من هذه المجموعة هى نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفى وأمثاله، ولذلک لم يعبّر القرآن الكريم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۴

عنهم بأهل الكتاب، لأنّهم لم يتّبعوا كتبهم السماوية، بل كانوا أحزاباً وكتلًا تابعين لخطّهم الحزبى. أو أنّ كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأنّ سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرقة اتّحدوا فى مخالفتهم للقرآن والإسلام. ونقل العلامة الطبرسى عن ابن عباس، أنّ هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف اللَّه بالرحمن، وأهل الكتاب- خصوصاً اليهود- يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» فى الآيات القرآنية، ومشركى مكة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

وفى آخر الآيـة يـأمر اللَّه النبى صـلى الله عليه و آله: «قُـلْ إِنَّمـا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُـدَ اللَّهَ وَلـا أُشْـرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـابِ». وتلك دعوة للموحدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلّموا أمام الأوامر الإلهية.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (۳۸) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (۳۹) وَ إِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (۴۰) الحوادث الثابتة والمتغيرة: تتابع هذه الآيات المسائل المتعلقة بالنبوّة، ففى الآية الاولى يقول تعالى: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنَهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا».

«العربى»: كما يقول الراغب فى مفرداته «الفصيح البيّن من الكلام» وعلى هذا فوصف القرآن بالعربى لأنّ أحكامه واضحة وبيّنة.

ثم يخاطب القرآن النبى صـلى الله عليه و آله بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا وَاق». وبما أنّ احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً فى شخصية الرسول صـلى الله عليه و آله لما يتميّز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير- أوّلًا:- يُوضّح أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس له إرتباط خاص مع أى أحد حتى لو كان نبيّاً، فمقام الأنبياء الشامخ إنّما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم وإستقامتهم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۱۵

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأنّ النبى صـلى الله عليه و آله إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهية فى حالة انحرافه عن مسيرة الحق وإتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

الآية الاخرى جواب لما كان يستشكله أعداء الرسول صلى الله عليه و آله. ومن جملة هذه الإشكالات:

أوّلًا: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرسول من جنس البشر، يتزوج وتكون له ذرّية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرّيَّةً».

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرسول أن يجيبهم على كل معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أنّ «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثالثاً: لماذا جاء نبى الخاتم صـلى الله عليه و آله وغيّر أحكام التوراة والإنجيل؟ وتجيب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: «لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ» كيما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزّل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثم القرآن، لأنّ البشرية فى تحوّلها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيرة والمتفاوتة.

الآية الاخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد فى ذيل الآية السابقة، وهو أنّ لكل حدث وحكم زمن معين كما يقال: إنّ الامور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أنّ بعض الكتب السماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» فيحذف بعض الامور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت اموراً اخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.

وفى النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التى كان يوعدهم النبى صـلى الله عليه و آله بها وكانوا ينتظرونها حتى أنّهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: «وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُم (من إنتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم فى حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ».

إنّ جملة «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ» تبيّن قانوناً عامّاً وشاملًا وقد اشير إليه فى مختلف المصادر الإسلامية، وهو أنّ تحقّق وصيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعيّة أو الثابتة، ولا سبيل للتغيير فيها (والتى أشارت إليها الآية أعلاه بام الكتاب) والاخرى المرحلة المتغيرة أو بعبارة اخرى «المشروطة» والتى يجد التغيير سبيلًا

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۱۶

إليها، وقد عبّر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو والإثبات» كأنّ ما كُتب فى اللوح

الأوّل محفوظ لا يتغيّر، أمّا الثانى فمن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره. فى تفسير العياشى عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الامور امور محتومة كائنة لا محالة، ومن الامور امور موقوفة عند اللّه يقدّم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً يعنى الموقوفة فأمّا ما جاءت به الرسل فهى كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته».

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (۴۳) البشرية فانية ووجه اللّه باق: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكرى رسالة النبى صلى الله عليه و آله فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. يقول تعالى أوّلًا: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». من الواضح أنّ المقصود من «الأرض» هنا هم أهل الأرض، يعنى أنّ هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أنّ الأقوام والحضارات والحكومات فى حال الزوال والإبادة، وإنذار لكل الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكّلون أركان المجتمع البشرى يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدنيا.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». ولذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كل الأفراد والامم من جهة، ومن جهة اخرى لا يستطيع أحد أن يغيّر هذا الحكم ولا الأحكام الاخرى، ومن جهة ثالثة أنّ حساب العباد سريع جدّاً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.

ثم يستمر البحث فى الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ». لكن خططهم كُشفت، واجهضت مؤامرتهم بأمر من اللّه، لأنّه أعلم الموجودات بهذه المسائل «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» ذاك هو العالم بكل شىء

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۷

و «يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ». ثم يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم ويقول:

«وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب اللّه والقرآن) تُنهى سورة الرعد فى التأكيد أكثر على معجزة القرآن. يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا».

فهم يصطنعون كل يوم عذراً، ويطلبون فى كل وقت المعاجز، ثم آخر الأمر يقولون: لست بنبى! قل فى جوابهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». فاللّه سبحانه وتعالى يعلم بأنّى رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأنّ القرآن هو كتاب سماوى، وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه.

«نهاية تفسير سورة الرعد»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۹

۱۴. سورة ابراهيم

هذه السورة مكية بإستثناء الآيات (۲۸) و (۲۹) طبقاً لما قاله كثير من المفسرين أنّها نزلت بالمدينة فى قتلى المشركين فى بدر.

محتوى السورة: المعلوم من اسم السورة أنّ قسماً منها نازل بشأن بطل التوحيد ومحطّم الأصنام سيّدنا إبراهيم عليه السلام (قسم من أدعيته).

والقسم الآخر من هذه السورة يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوى من دروس وعبر فيها.

وتكمل هذه المجموعة من البحوث فى السورة آيات الموعظة والنصيحة والبشارة والإنذار.

إنّ قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و «المعاد».

وخلاصة هذه السورة أنّها تبيّن عقائد ونصائح ومواعظ سيرة الأقوام الماضية، والهدف من رسالة الأنبياء ونزول الكتب السماوية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۰

وكما أسلفنا مراراً فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنية يلازمه التفكر ومن ثم العمل.

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۱) اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۲) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (۳) الخروج من الظلمات إلى النور: شرعت هذه السورة- كبعض السور القرآنية الاخرى- بالحروف المقطعة، والنقطة التى يجب ملاحظتها هنا أنّ من بين ۲۹ مورداً لسور القرآن التى ابتدأت بالحروف المقطعة هناك ۲۴ مورد ذكر بعدها مباشرةً القرآن الكريم، والتى تُبيّن أنّ هناك علاقة بين الاثنين، أى بين الحروف المقطعة والقرآن، ولعل هذه العلاقة هى نفسها التى ذكرناها فى بداية سورة البقرة، فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يوضّح من خلال هذا البيان أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم المتعهد لقيادة الإنسانية يتكوّن من مواد بسيطة تسمّى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهمية هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان.

وعلى أيّة حال فبعد ذكر الحروف «الر» يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ جميع الأهداف التربوية والإنسانية، المعنوية والمادية من نزول القرآن قد جُمعت فى هذه الجملة (الخروج من الظلمات إلى النور) أى الخروج من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أنّ «الظلمات» هنا جاءت بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وهذه إشارة إلى أنّ كل الحسنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالة واحدة فى ظلّ التوحيد

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۱

ونوره فهى مترابطة ومتحدة فيما بينها فتصنع مجتمعاً واحداً متحداً وطاهراً من كل جهة. بينما الظلمات تعنى التشتت وتفرقة الصفوف.

ومن هنا لما كان مصدر كل الخير هى الذات الإلهية المقدسة، والشرط الأساس لدرك التوحيد هو الإلتفات إلى هذه الحقيقة، فإنّه يضيف بلا فاصلة: «بِإِذْنِ رَبّهِمْ».

ولكى يبيّن أكثر ما هو النور يقول تعالى: «إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». فعزّته دالة على قدرته، لأنّه لا يستطيع أحد أن يغلبه، والحميد دالة على نعمه ومواهبه غير المتناهية، لأنّ الحمد والثناء دائماً تكون فى مقابل النعم والمواهب.

الآية الثانية ولكى تعرّف اللّه بصفاته، تبيّن درساً من دروس التوحيد حيث تقول:

«اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». فله كل شيء، لأنّه خالق جميع الموجودات ولهذا السبب هو القادر والعزيز وواهب النعم والحميد.

ثم يتطرّق فى نهاية الآية إلى مسألة المعاد (بعد أن ذكر المبدأ) فتقول الآية: «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

ثم يُعرّف القرآن الكريم الكفار فى الآية الاخرى، ويذكر لهم ثلاث صفات كيما نستطيع أن نعرفهم من أوّل وهلة، يقول تعالى أوّلًا: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ». فهم يضحّون بالإيمان والحق والعدالة والشرف التى هى من خصائص محبّى الآخرة، من أجل منافعهم الشخصية وشهواتهم.

ثم يبيّن تعالى أنّ هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون فى أن يضلّوا الآخرين «وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ». فهم- فى الواقع- يزيّنون الهوى، ويدعون الناس إلى الذنوب، ويخوّفونهم من الصدق والإخلاص.

ولا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». ثم يحاولون أن يصبغوا الآخرين بصبغتهم، ويسعون فى أن يحرفوا السبيل للوصول إلى هدفهم من خلال نشر الخرافات وإبتداع السنن الخبيثة «أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ».

وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافة بينهم وبين الحق فكان من العسير جدّاً عودتهم إلى طريق الحق، ولكن ذلك كان نتيجة لأعمالهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۲

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۵) وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِى ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (۷) كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الاولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن فى بُعد خاص وهو أنّ دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت بلسان أقوامهم الذين بُعِثوا إليهم. يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ». لأنّ الأنبياء يرتبطون فى الدرجة الاولى مع قومهم، وأوّل نور الوحى يشعّ من بينهم، وأوّل الصحابة والأنصار يُنتخبون منهم، لذلك فإنّ الرسول يجب أن يحدّثهم بلغتهم وبلسانهم «لِيُبَيِّنَ لَهُمْ».

إنّ دعوة الأنبياء كانت توضّح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية وبلسانهم الرائج لا من خلال أثر مرموز وغير معروف فى قلوب.

ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بيّن لهم الدعوة الإلهية: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ». فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، اللَّه سبحانه وتعالى هو الموجّه والهادى الحقيقى لعباده.

ولكى لا- يتصور أحد أنّ هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحرّيات، فيضيف القرآن مباشرة: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وبمقتضى عزته وقدرته فإنّه قادر على كل شىء، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدى ولا يضلّ أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الاولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية فى السير إلى اللَّه، ثم يشعّ نور الهداية وفيض الحق فى قلوبهم، كما فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۳

الآية (۶۹) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

وعلى هذا النحو فإنّ محور الهداية والضلال فى أيدى الناس أنفسهم.

تشير الآية الاخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء فى مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» «۱».

وكما قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الخاتم صلى الله عليه و آله هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر.

ثم يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى عليه السلام حيث يقول تعالى:

«وَذَكِّرْهُم بِأَيِم اللَّهِ». وهى جميع الأيام العظيمة فى تاريخ الإنسانية. فكل يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبى فيه، أو سقوط جبار وفرعون- أو كل طاغ- ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كل يوم يُعمل فيه بالحق والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفى فيه بدعة، هو من أيّام اللَّه.

الروايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنّهم فسّروا «أيّام اللَّه» بأيام مختلفة، ففى تفسير نور الثقلين عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيّام اللَّه، يوم يقوم القائم ويوم الكرّة «۲» ويوم القيامة».

وفى آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

«صبّار» و «شكور»: صيغة مبالغة فأحدهما تشير إلى شدة الصبر، والاخرى إلى زيادة الشكر، وتعنى أنّ المؤمنين كما لا يستسلمون

للحوادث والمشاكل التى تصيبهم فى حياتهم، كذلك لا يغترّون ولا يغفلون فى أيّام النصر والنعم.

تشير الآيهٔ الاخرى إلى أحد هذه الأيام التى كانت ساطعهٔ ومثمرهٔ فى تاريخ بنى إسرائيل، وذكرها تذكرهٔ للمسلمين حيث يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ». هؤلاء الفراعنهٔ الذين كانوا «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ

---

(۱) المعجزات التى ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآيهٔ أعلاه بلفظ الآيات، وهى ۹ معاجز مهمّهٔ طبقاً للآيهٔ (۱۰۱) من سورهٔ الإسراء، والتى سوف تأتى إن شاء اللّه فى تفسير تلك الآيهٔ.

(۲) يوم الكرّهٔ/ أى يوم الرجعهٔ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۴

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ».

وكان على طول التاريخ طريقهٔ كل المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلهٔ والمقاومهٔ، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها فى منافعهم الخاصهٔ. أىّ يوم أكثر بركهٔ من ذلك اليوم حيث أزال اللّه عنكم فيه شرّ المتكبرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقكم، وأى جريمهٔ أعظم من ذبح أبنائكم كالحيوانات (إنتبه إلى أنّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهمّ من ذلك فإنّ نواميسكم كانت خدماً فى أيدى الطامعين.

وليس هذا المورد خاص ببنى إسرائيل، بل فى جميع الامم والأقوام. فإنّ يوم الوصول إلى الاستقلال والحريهٔ وقطع أيدى الطواغيت يوم من أيام اللّه الذى يجب أن نتذكّره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنّا عليه فى الأيّام الماضيهٔ.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ». يمكن أن تكون هذه الآيهٔ من كلام موسى لبنى إسرائيل، ويمكن أن تكون جملهٔ مستقلّهٔ وخطاباً للمسلمين، ولكن على أيّهٔ حال فالنتيجهٔ واحدهٔ، لأنّ وروده فى القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً بنّاءاً لنا.

الشكر سبب لزيادهٔ النعم والكفر سبب للفناء: مما لا شك فيه أنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس بحاجهٔ إلى شكرنا فى مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمهٔ اخرى وهى واحدهٔ من المبادىء الساميهٔ فى التربيهٔ.

إنّ حقيقهٔ الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد للّه) أو الشكر اللفظى، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الاولى: يجب أن نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأوّل للشكر.

والثانيهٔ: الشكر باللسان.

والثالثه: وهى الأهمّ الشكر العملى، أى أن نعلم الهدف من منحنا للنعمهٔ، وفى أى مورد نصرفها، وإلّا كفرنا بها.

وهنا يتّضح هذه العلاقهٔ بين الشكر وزيادهٔ النعمهٔ، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهيهٔ فى هدفها الحقيقى، فسوف يثبتون عملياً إستحقاقهم لها وتكون سبباً فى زيادهٔ الفيوضات الإلهيهٔ عليهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۵

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (۸) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۹) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۱۰) الآيهٔ الاولى من هذه المجموعهٔ تؤيّد وتُكمل البحث السابق فى الشكر والكفران، وذلك ضمن الكلام الذى نقل عن لسان موسى عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا

أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إنّ الشكر والإيمان باللَّه سبب فى زيادة النعم والتكامل الإنسانى، وإلّا فاللَّه عزّ وجل ليس بحاجة إلى أىّ شىء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تَمسُّ كبرياءه بأدنى ضرر، لأنّه حميد فى ذاته.

ثم يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آيات، الفئات التى كفرت بأنعم اللَّه وخالفت الدعوة الإلهية، وهى تأكيد للآية السابقة. يقول تعالى: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقيباً على كلام موسى، أو بيان مستقل يخاطب به المسلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً.

ثم يضيف تعالى: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ» فهؤلاء لم يطّلع على أخبارهم إلّااللَّه «لَايَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ».

ولكى يوضّح القرآن الكريم مصيرهم يقول: «جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». أى: وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجب والإنكار «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۶

أُرْسِلْتُم بِهِ». لماذا؟ بسبب: «وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

وبما أنّ الآية السابقة بيّنت قول المشركين والكفار فى عدم إيمانهم بسبب شكهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفى هذا الشك من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». «فاطر»: من «فَطَر» وهى فى الأصل بمعنى «شقّ» وهنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثم يحفظها ويحميها، كأنّ ظلمة العدم شقّت بنور الوجود.

ولعل «فاطر» تشير إلى تشقّق المادة الأوّلية للعالم، كما نقرأ فى العلوم الحديثة إنّ مجموع مادة العالم كانت واحدة مترابطة ثم إنشقّت إلى كُراة مختلفة.

فالقرآن الكريم هنا- كما فى أغلب الموارد الاخرى- يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السماوات والأرض.

ثم يجيب القرآن الكريم على ثانى إعتراض للمخالفين، وهو إعتراضهم على مسألة الرسالة (لأنّ شكّهم كان فى اللَّه وفى دعوة الرسول) ويقول إنّ من المسلم أنّ اللَّه القادر والحكيم لا- يترك عباده بدون قائد، بل إنّه بإرسال الرسل: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ».

وزيادة على ذلك فإنّه: «وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». كيما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إنّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، والثانى إستمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والإثنان علة ومعلول، فالمجتمع الذى يستمر فى وجوده هو المجتمع النقى من الظلم والذنوب.

ومع كل ذلك لم يقبل الكفار المعاندون دعوة الحق المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: «قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا». علاوة على ذلك: «تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». وأكثر من ذلك: «فَأْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۷

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مَا لَنَا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) التوكل على اللَّه وحده: نقرأ فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، وإعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

يعنى لو إفترضنا أنّ اللَّه تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكل المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة

والقيادة هى من عند اللَّه، فالذى يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

ثم يجيب على السؤال الثالث دون أن يجيب على الثانى، وكأنّ الإعتراض الثانى الذى هو الإستنان بسنّة الأجداد ليس له أى أهمية وفارغ من المحتوى بحيث إنّ أىّ إنسان عاقل- بأقل تأمل- يفهم جوابه، بالإضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أجاب عنه فى آيات اخر.

وجواب السؤال الثالث هو أنّ عملنا ليس الإتيان بالمعاجز، فنحن لا نجلس فى مكان ونلبّى لكم المعاجز الإقتراحية وكل ما سوّلت لكم أنفسكم، بل «وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ومع ذلك فإنّ كل نبى كان يظهر لقومه المعاجز بمقدار كاف بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكى يثبت الأنبياء أحقّيتهم ولتكون المعاجز سنداً لصدقهم.

ولكى يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وبعد ذلك إستدل الأنبياء على مسألة التوكل حيث قالوا: «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينَا سُبُلَنَا».

ثم أضافوا: إنّ ملاذنا هو اللَّه، ملاذ لا يُقهر وهو فوق كل شىء: «وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا». وأخيراً أنهوا كلامهم بهذه الجملة: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

المقصود من التوكل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف فى مقابل المشكلات العظيمة، بل

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٢٨

بتوكله على قدرة اللَّه المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب فى زيادة المقاومة والثبات.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) خطط الجبارين المعاندين ومصيرهم: عندما يعلم الظالمون بضعف منطقهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أنّ الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسلهم: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا».

وكأنّ هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما فى الأرض ملكهم، حتى أنّهم لم يمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون «أرضنا»، وفى الحقيقة فإنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق الأرض وكل مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة فى الواقع ليس لهم أى حق فيها.

ثم يضيف القرآن الكريم لتسلية قلوب الأنبياء: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ».

فلا تخافوا من وعيدهم، ولا تُظهروا الضعف فى إرادتكم.

وبما أنّ الظالمين كانوا يهدّدون الأنبياء بالتبعيد عن أرضهم، فإنّ اللَّه فى مقابل ذلك كان يعد الأنبياء «وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ».

ولكن هذا النصر والتوفيق لا يناله إلّا «ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ».

وحين إنقطعت الأسباب بالأنبياء من كل جانب، وأدّوا جميع وظائفهم فى قومهم، فآمن منهم من آمن، وبقى على الكفر من بقى، وبلغ ظلم الظالمين مداه، فى هذه الأثناء طلبوا النصر من اللَّه تعالى: «وَاسْتَفْتَحُوا ...». وقد استجاب اللَّه عزّ وجلّ دعاء المجاهدين المخلصين «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٢٩

«خاب»: من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و «جبّار»: بمعنى المتكبّر هنا، وتطلق هذه الكلمة أحياناً على اللَّه جلّ وعلا فتعطى معنىً آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجة إلى

الإصلاح) أو بمعنى (المتسلط على كل شىء).

و «العنيد»: فى الأصل من «العَنَد» على وزن «رَنَد» بمعنى الإتّجاه، وجاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحق.

ومن الطريف أنّ «جبار» تشير إلى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و «عنيد» تشير إلى آثار تلك الصفة فى أفعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحق.

ثم يُبيّن نتيجة عمل الجبارين فى الآخرة ضمن آيتين فى خمسة مواضع:

۱- إنّ مثل هذا الشخص: «مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ». مع أنّ كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» فى مقابل أمام، إلّاأنّها فى هذه الموارد تعنى نتيجة وعاقبة العمل.

۲- أمّا فى جهنم فإنّه: «وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ». «الصديد»: القيح المتجمع بين اللحم والجلد، وهو بيان للماء المتعفن الكريه الذى يسقونه.

۳- فهذا المجرم المذنب عندما يرى نفسه فى مقابل هذا الشراب «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ». «يسيغه»: من إساغة، وهى وضع الشراب فى الحلق.

۴- ووسائل التعذيب كثيرة بحيث «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ». حتى يذوق وبال عمله وسيّئاته.

۵- وقد يتصور أن ليس هناك عقاباً أكثر من ذلك، ولكن «وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ».

وبهذا الترتيب فإنّ كل ما يخطر فى ذهن الإنسان وما لا يخطر من شدة العقاب هو فى إنتظار هؤلاء الظالمين والجبارين والمذنبين لأنّه النتيجة الطبيعية لعمل الإنسان، بل تجسيم أفعالهم فى الآخرة، فكل عمل يجسّم بشكل مناسب.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (۱۸) رمادٌ إشتدّت به الريح: ضربت هذه الآية مثالًا واضحاً وبليغاً لأعمال الكفار، وبذلك تكمل بحث الآيات السابقة فى مجال عاقبة أمرهم. يقول تعالى: «مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ». فيتناثر الرماد فى الريح العاصف بحيث لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۰

يستطيع أحد جمعه، كذلك منكرو الحق ليست باستطاعتهم أن يجمعوا ما كسبوا «لَّايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّللُ الْبَعِيدُ».

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۹) وَ مَا ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۲۰) الخلق على أساس الحق: بعد ما بحثنا عن الباطل وأنّه كالرماد المتناثر إذا إشتدّت به الريح، نبحث فى هذه الآية عن الحقّ وإستقراره، يقول اللَّه تعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه و آله باعتباره الاسوة لكل دعاة الحق: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ».

«الحق»: كما يقول الراغب فى مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات اخرى: فتارةً يستعمل الحق فى العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما فى الآية (۵) من سورة يونس:

«هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وتارةً يطلق على الشخص الذى قام بهذا العمل المحكم، كما- فى الآية (۳۲) من سورة يونس- نطلقها على اللَّه عزّ وجلّ: «فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ».

وتارةً اخرى يطلق على الإعتقاد الذى يطابق الواقع كما فى الآية (۲۱۳) من سورة البقرة: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقّ».

ومرّةً يقال للقول والعمل الذى يتحقق فى الوقت المناسب كما فى الآية (۱۳) من سورة السجدة: «حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ».

فمقابل «الحق» الباطل والضلال واللعب وأمثالهما؛ لكنّ الآية التى نحن بصددها تشير إلى المعنى الأوّل، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث

توضّح أنّ الغرض من خلق السماء والأرض هو الحكمة والنظام والحساب، فاللّه تعالى ليس محتاجاً فى خلقها ولا ناقصاً لكى يسدّ نقصه بها، بل هو الغنى عن كل شىء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثم يضيف: إنّ الدليل فى عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ».

وهذا العمل ليس صعباً عند اللّه «وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ».

والشاهد على هذا القول فى الآيات (۱۳۱– ۱۳۳) من سورة النساء: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۱

لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا».

وهذا التفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عباس.

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَ جَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (۲۳) المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه: أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذاك البحث. يقول تعالى أوّلًا:

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا».

وفى هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا فى وادى الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم «فَقَالَ الضُّعَفؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ» فيجيبونهم بدون توقّف «قَالُوا لَوْ هَدَينَا اللَّهُ لَهَدَيْنكُمْ».

ولكن للأسف فالمسألة منتهية «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ».

ولكن يجب أن يعلم المستكبرون أنّهم يتحمّلون مسؤولية ذنوب أتباعهم شاؤوا أم أبوا، طبقاً لصريح القرآن والرّوايات، لأنّهم المؤسسون للانحراف والضلال دون أن ينقص أى شىء من عذاب أتباعهم.

«المحيص»: من «المحص» بمعنى التخلّص من العيوب أو الألم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۲

ثم يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسى للجبارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطنُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ». وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبّخون تابعيهم البؤساء. ثم يضيف: «وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى». ويستمرّ فى القول «فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم». أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!

وعلى كل حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذى: «مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ». والآن اعلّمكم بأنّى أتبرّأ من شرككم وإطاعتكم لى «إِنّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» فقد فهمت الآن أنّ الشرك فى الطاعة أدّى إلى شقائى وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هى مجرد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم.

وبعد بيان حال الجبارين والظالمين ومصيرهم المؤلم، تتطرّق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم، حيث يقول تعالى: «وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الآية.

«التحيۀ»: فی الأصل «الحیاۀ» وتستعمل لسلامۀ وحیاۀ الأفراد، وتطلق لکل تحیّۀ وسلام ودعاء فی بدایۀ اللقاء.

ف «سلام» یشمل کل سلامۀ من أي نوع من أنواع العذاب الروحی والجسمی.

أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَۀً طَیِّبَۀً کَشَجَرَۀٍ طَیِّبَۀٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِی السَّمَاءِ (۲۴) تُؤْتِی أُکُلَهَا کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ کَلِمَۀٍ خَبِیثَۀٍ کَشَجَرَۀٍ خَبِیثَۀٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (۲۶) یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِی الْحَیَاۀِ الدُّنْیَا وَ فِی الْآخِرَۀِ وَ یُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِینَ وَ یَفْعَلُ اللَّهُ مَا یَشَاءُ (۲۷) الشجرۀ الطیبۀ والشجرۀ الخبیثۀ: هنا مشهد آخر فی تجسیم الحق والباطل، الکفر

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۳۳

والإیمان، الطیّب والخبیث ضمن مثال واحد جمیل وعمیق المعنی ... یُکمل البحوث السابقۀ فی هذا الباب. یقول تعالی أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَۀً طَیِّبَۀً کَشَجَرَۀٍ طَیِّبَۀٍ». ثمّ یشیر إلی خصائص هذه الشجرۀ الطیبۀ فی جمیع أبعادها ضمن عبارات قصیرۀ.

«الکلمۀ»: فی معناها الواسع تشمل جمیع الموجودات.

«الطیب»: کل طاهر ونظیف، فالنتیجۀ من هذا المثال أنّه یشمل کل سنّۀ ودستور وبرنامج وطریقۀ، وکل عمل، وکل إنسان ...

والخلاصۀ: کل موجود طاهر ونظیف وذی برکۀ، وجمیعها کشجرۀ طیبۀ فیها الخصائص التالیۀ:

۱- کائن یمتلک الحرکۀ والنمو، ولیس جامداً ولا خاملًا.

۲- هذه الشجرۀ طیّبۀ، من کل جهۀ ... ثمارها، أزهارها، ونسیمها جمیعها طیب وطاهر.

۳- لهذه الشجرۀ نظام دقیق، لها جذور وأغصان، وکل واحد له وظیفته الخاصۀ.

۴- أصلها ثابت محکم بشکل لا یمکن أن یقلعها الطوفان ولا العواصف، «أَصْلُهَا ثَابِتٌ».

۵- إنّ أغصان هذه الشجرۀ الطیبۀ لیست فی محیط ضیّق ولا ردیء، بل مقرّها فی عنان السماء، وهذه الأغصان والفروع تشقّ الهواء وتصعد فیه عالیاً «وَفَرْعُهَا فِی السَّمَاءِ».

ومن الواضح أنّ الأغصان کلّما کانت عالیۀ وسامقۀ تکون بعیدۀ عن التلوّث والغبار وتصبح ثمارها نظیفۀ.

۶- هذه الشجرۀ کثیرۀ الثمر لا کالأشجار الذابلۀ العدیمۀ الثمر، ولذلک فهی کثیرۀ العطاء «تُؤْتِی أُکُلَهَا».

۷- وثمارها لیست فصلیۀ، بل فی کل فصل وزمان، فإذا أردنا أن نمدّ یدنا إلی أغصانها فی أي وقت لم نرجع خائبین «کُلَّ حِینٍ».

۸- إنّ إنتاجها من الثمار یکون وفق قوانین الخلقۀ والسنن الإلهیۀ ولیس بدون حساب «بِإِذْنِ رَبِّهَا».

والآن یجب أن نفتّش، أین نجد هذه الخصائص والبرکات؟

نجدها بالتأکید فی کلمۀ التوحید ومحتواها، وفی الإنسان الموحد ذی المعرفۀ.

الرجال العظام من المؤمنین هم کلمۀ اللَّه الطیّبۀ، وحیاتهم أصل البرکۀ، دعوتهم توجب الحرکۀ، آثارهم وکلماتهم وأقوالهم وکتبهم وتلامیذهم وتاریخهم ... وحتی قبورهم جمیعها ملهمۀ وحیّۀ ومربیۀ.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۳۴

نعم «وَیَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ».

وبما أنّ أحد أفضل الطرق لتوضیح المسائل هو الاستفادۀ من طریق المقابلۀ والمقایسۀ، فقد جعلت النقطۀ المقابلۀ للشجرۀ الطیبۀ، الشجرۀ الخبیثۀ «وَمَثَلُ کَلِمَۀٍ خَبِیثَۀٍ کَشَجَرَۀٍ خَبِیثَۀٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

والکلمۀ «الخبیثۀ» هی کلمۀ الکفر والشرک، وهی القول السیء والردیء، وهی البرنامج الضال والمنحرف، والناس الخبثاء، والخلاصۀ: هی کل خبیث ونجس.

ومن الطریف أنّ القرآن الکریم فصّل الحدیث فی وصف الشجرۀ الطیّبۀ بینما إکتفی فی وصف الشجرۀ الخبیثۀ بجملۀ قصیرۀ واحدۀ

«اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

وهذا نوع من لطافة البيان أن يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمرّ بسرعة فى جملة واحدة بذكر «المبغوض».

وبما أنّ الآيات السابقة جسّدت حال الإيمان والكفر، الطيب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ الآية الأخيرة تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائى، يقول تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَيَوةِ الدُّنْيَا وفِى الْأَخِرَةِ». لأنّ إيمانهم لم يكن إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة ومتلوّنة.

فهنا يثبتون بالإيمان ويبرؤون من الذنوب، وهناك يُخلدون فى النعيم المقيم.

ثم يشير إلى النقطة المقابلة لهم: «وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ».

قلنا مراراً: إنّ الهداية والضلال التى تنسب إلى اللَّه عزّ وجلّ لا تتحققان إلّابأن يرفع الإنسان القدم الأوّل لها، فاللَّه عزّ وجلّ عندما يسلب المواهب والنعم من العبد أو يمنحها له يكون ذلك بسبب إستحقاقه أو عدم إستحقاقه.

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (۲۸) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ بِئْسَ الْقَرَارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (۳۰) نهاية كفران النعم: الخطاب فى هذه الآيات موجّه للرسول صلى الله عليه و آله وهو فى الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة». يقول تعالى أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۵

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ». هؤلاء هم جذور الشجرة الخبيثة وقادة الكفر والإنحراف.

مع أنّ بعض المفسرين الكبار عند متابعتهم للروايات الإسلامية فسّروا- أحياناً- هذه النعمة بوجود النبى صلى الله عليه و آله وأحياناً اخرى بالأئمة عليهم السلام وفسّروا الكافرين بهذه النعمة ب «بنى اميّة» و «بنى المغيرة» مرّةً، ومرّةً اخرى جميع الكفار الذين عاصروا عهد النبى صلى الله عليه و آله، ولكن من المسلم به أنّ للآية مفهوماً أوسع من هذا، وليس مختصاً بمجموعة معينة، بل تشمل جميع الأفراد الذين يكفرون بالنعم الإلهية.

ثم إنّ القرآن الكريم يُفسّر دار البوار بقوله تعالى: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» (۱).

ثم يشير فى الآية الاخرى إلى واحدة من أسوأ أنواع كفران النعم «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ». لكى يستفيدوا عدّة أيام من حياتهم المادية ومن رئاستهم وحكومتهم فى ظل الشرك والكفر لإضلال الناس عن طريق الحق.

أيّها النبى: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ». فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة.

«أنداد»: جمع «ندّ» بمعنى «المثل» ولكن الراغب فى مفرداته والزبيدى فى تاج العروس قالا: إنّ «الندّ» يقال للشىء الذى يشابه الشىء الآخر جوهرياً، و «المثل»: يطلق على كل شىء شبيه لشىء، ولذلك فالندّ له معنى أعمق وأدقّ من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أنّ أئمة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا للَّهشركاء ويشبهوهم فى جوهر ذاتهم باللَّه عزّ وجلّ، لكى يضلوا الناس عن عبادة اللَّه ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خِلَالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ (۳۳) وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴)

---

(۱) «يصلون»: من «الصلى» بمعنى الإشتعال والإحتراق بالنار.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۶

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن: تعقيباً للآيات السابقة فى الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم اللَّه وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد اللَّه المخلصين والنعم النازلة عليهم. يقول تعالى: «قُلْ لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً». قبل أن يأتى ذلك اليوم الذى لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة والنعيم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذ «مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِللٌ».

ثم تتطرّق الآية إلى معرفة اللَّه عن طريق نعمه، معرفة تؤدّى إلى إحياء ذكره فى القلوب، وتحثّ الإنسان على تعظيمه فى مقابل لطفه وقدرته، لأنّ من الامور الفطرية أن يشعر الإنسان فى قلبه بالحب والودّ لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ».

ثم أنّه «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» سواء من جهة موادها الأوّلية المتوفرة فى الطبيعة، أو من جهة القوة المحرّكة لها وهى الرياح التى تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى اخرى بيسر وسهولة: «لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» كى تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفى كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها فى صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض- فقط- مسخّرةً لكم، بل «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ».

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هى فى خدمتكم:

«وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ* وَءَاتكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من احتياجاتكم البدنيّة والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا» لأنّ النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهى غير قابلة للإحصاء، وعلاوةً على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة فى مقابل البحر.

وعلى الرغم من كل هذه الألطاف والنعم ف «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۷

حديقة غنّاء ولنفّذ مشروع المدينة الفاضلة.

إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخّر اللَّه له جميع ما فى الوجود، إمّا أن يكون زمام امورها بيده أو تتحرّك ضمن منافعه، وعلى أيّة حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

إنّ القرآن الكريم يناديه: أيّها الإنسان، كل شىء بالقدر الكافى تحت تصرفك، بشرط أن وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِى وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَ مَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۶) رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (۳۷) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (۴۱) لا تكون ظلوماً كفاراً، عليك أن تقنع بحقك ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

دعاء إبراهيم عليه السلام: لمّا كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين والشاكرين لأنعم اللَّه، عقّبت هذه الآيات فى بحث بعض أدعية وطلبات العبد المجاهد والشاكر للَّه إبراهيم عليه السلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق ونموذجاً حيّاً للذين يريدون أن يستفيدوا من النعم الإلهية أفضل إستفادة. يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ».

لأنّه علیه السلام کان یعلم حجم البلاء الکبیر الکامن فی عبادة الأصنام، ویعلم کثرة الذین ذهبوا ضحیّةً فی هذا الطریق: «رَبّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیرًا مِنَ النَّاسِ». فأیّ ضلال أکبر من هذا الضلال الذی یفقد الإنسان فیه حتی عقله وحکمته.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۸

إلهی إنّنی أدعو إلی توحیدک، وأدعو الجمیع إلی عبادتک «فَمَن تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنّی وَمَن عَصَانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». إنّ إبراهیم علیه السلام أراد بهذه العبارة أن یقول للَّه‌تعالی: إنّه حتی لو انحرف أبنائی عن مسیرة التوحید واتّجهوا إلی عبادة الأصنام فإنّهم لیسوا منّی، ولو کان غیرهم فی مسیرة التوحید فهم أبنائی وإخوانی.

ثم یستمر بدعائه ومناجاته: «رَبَّنَا إِنّی أَسْکَنتُ مِن ذُرّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلَوةَ».

وکان ذلک عندما رزقه اللَّه إسماعیل من جاریته «هاجر» فأثار ذلک حسد زوجته الاولی «سارة» ولم تستطیع تحمل وجود هاجر وإبنها، فطلبت من إبراهیم أن یذهب بهما إلی مکان آخر، فإستجاب لها إبراهیم طبقاً للأوامر الإلهیة، وجاء بإسماعیل وامّه إلی صحراء مکة القاحلة، ثم ودّعهم وذهب.

ثم یتابع إبراهیم علیه السلام دعاءه: إلهی، إنّ أهلی قد سکنوا فی هذه الصحراء المحرقة إحتراماً لبیتک المحرّم: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ».

ومن هنا لمّا کان الإنسان الموحّد والعارف یعلم بمحدودیة علمه فی مقابل علم اللَّه، وأنّه لا یعلم مصلحته إلّااللَّه تعالی، فما أکثر ما یطلب شیئاً من اللَّه ولیس فیه صلاحه، أو لا یطلبه وفیه صلاحه، وأحیاناً لا یستطیع أن یقوله بلسانه فیضمره فی أعماق قلبه، ولذلک یعقّب علی ما مضی من دعائه ویقول: «رَبَّنَا إِنَّکَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِی وَمَا نُعْلِنُ وَمَا یَخْفَی عَلَی اللَّهِ مِن شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ».

فإن کنت مغتمّاً لفراق إبنی وزوجتی فأنت تعلم بذلک ... وتری دموع عینی المنهملة.

وعندما فارقت زوجتی وقالت لی: «إلی من تکلنی» فأنت أدری بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثم یشیر القرآن إلی شکر إبراهیم علیه السلام لنعمه تعالی والتی هی من أهمّ ما إمتاز به علیه السلام شکره علی منحه ولدین بارّین إسماعیل وإسحاق وذلک فی سنّ الشیخوخة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ». نعم «إِنَّ رَبّی لَسَمِیعُ الدُّعَاءِ».

ثم یستمرّ بدعاءه ومناجاته أیضاً فیقول: «رَبّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلَوةِ وَمِن ذُرّیَّتِی رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۹

ثم یختم دعاءه هنا فیقول: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَلِوَالِدَیَّ وَلِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسَابُ».

وبهذا الترتیب فإنّ دعواته تبدأ بالأمن وتنتهی بالعفو والغفران، ومن الطریف أنّه لم یطلبها لنفسه فقط، بل للآخرین کذلک، لأنّ عباد الرحمن لیسوا أنانیّین. وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا یَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا یُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِیهِ الْأَبْصَارُ (۴۲) مُهْطِعِینَ مُقْنِعِی رُءُوسِهِمْ لَا یَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (۴۳) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ یَوْمَ یَأْتِیهِمُ الْعَذَابُ فَیَقُولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَی أَجَلٍ قَرِیبٍ نُجِبْ دَعْوَتَکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَکُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَکُمْ مِنْ زَوَالٍ (۴۴) وَ سَکَنْتُمْ فِی مَسَاکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَیَّنَ لَکُمْ کَیْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَکُمُ الْأَمْثَالَ (۴۵) الیوم الذی تشخص فیه الأبصار: کان الحدیث فی الآیات السابقة عن یوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسّم هذه الآیات حال الظالمین والمتجبرین فی ذلک الیوم، ثم تبیّن المسائل المتعلقة بالمعاد وتکمل الحدیث السابق حول التوحید وتبدأ فی تهدید الظالمین: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غفِلًا عَمَّا یَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».

وهذا فی‌الواقع جواب لُاولئک الذین یقولون: إذا کان لهذا العالم إله عادل فلماذا یترک الظالمین وحالهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا یستطیع أن یمنعهم وهو یعلم بظلمهم؟

فیجیب القرآن الکریم علی ذلک بأنّ اللَّه لیس غافلًا عنهم أبداً، لأنّ عدم عقابهم مباشرةً هو أنّ هذا العالم محلّ الامتحان والاختبار وتربیة الناس، وهذا لا- یتمّ إلّافی ظل الحریة، وسوف یأتی یوم حسابهم «إِنَّمَا یُؤَخّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِیهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِینَ مُقْنِعِی

رَءُوسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِدَتُهُمْ هَوَاءٌ».

«تشخص»: من مادة «الشخوص» بمعنى توقف العين عن الحركة والنظر إلى نقطة بدهشة؛ و «مهطعين»: من مادة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة؛ و «مقنعی»: من مادة «الإقناع» بمعنى رفع الرأس عالياً.

إنّ بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعی رؤوسهم، لا يرتدّ إليهم طرفهم، أفئدتهم هواء، صورة بليغة لهول وشدّة ذلک اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكل شیء، وأصبحوا فی هذا اليوم لا يستطيعون حتى تحريک أجفان أعينهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۰

مختصر الامثل ج۳ ۶

فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم ويعدّون الآخرين من الحمقى، فأصبحوا اليوم مدهوشين لدرجة أنّ نظرهم نظر المجانين، بل الأموات ... نظر جاف عديم الروح ومليء بالرعب والفزع .... نعم، عندما يريد القرآن الكريم أن يصوّر منظراً أو يجسّم موقفاً يستخدم أقصر العبارات فی أكمل بيان كما فی الآية أعلاه.

ولكی لا يعتقد أحد أنّ هذه المجازات تتعلق بمجموعة معينة، يقول تعالى لنبيه الكريم:

«وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ» حتى نستفيد من هذه الفرصة ثم «نُّجِبْ دَعْوَتَکَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ» ولكن هيهات إنّ ذلک محال «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِی مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ». فكلّ هذه الدروس لم تؤثّر بكم وأدمتم ظلمكم وجوركم، والآن وبعد أن وقعتم فی يد العدالة تطلبون تمديد المدّة؟ لقد إنتهى كل شیء.

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (۴۶) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (۴۷) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِی الْأَصْفَادِ (۴۹) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵۰) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۵۱) هذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (۵۲) لا فائدة من مكرهم: أشارت الآيات السابقة إلى نوع من عقاب الظالمين، وفی هذه الآيات أيضاً أشارت- أوّلًا- إلى جزء من أفعالهم، ومن ثم إلى قسم آخر من جزائهم الشديد وعقابهم الأليم. تقول الآية الاولى:

«وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ».

لقد عملوا كل ما بوسعهم من أجل طمس حقائق الإسلام، بدءً من الترغيب والتهديد وحتى الأذى ومحاولات القتل والإغتيال وبثّ الشائعات، ومع كل ذلک فإنّ اللَّه مطلع على

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۱

جميع مؤامراتهم وقد أحصى أعمالهم: «وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ». فلا تقلق فإنّهم لا يستطيعون بمكرهم هذا أن يصيبوک بسوء حتى «وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ».

«المكر»: بمعنى الإحتيال، فمرّةً يلازمه الفساد ومرّةً اخرى لا يلازمه، والمراد بكون مكرهم عند اللَّه إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته.

ثم يتوعّد اللَّه الظالمين والمسيئين مرّة اخرى من خلال مخاطبة النبی صلى الله عليه و آله: «فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ» لأنّ الإخلاف يصدر من الذی ليست له قدرة واستطاعة، ولكن:

«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ».

وهذه الآية مكمّلة للآية التی قبلها «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ». وتعنی أنّ المهلة التی أعطيت للظالمين ليست بسبب أنّ اللَّه غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم فی اليوم المعلوم.

ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّموَاتُ». وسوف يتجدّد كل شیء بعد الدمار، ويبعث الإنسان فی خلق جديد

وعالم جدید یختلف فی کل شیء عن هذا العالم، فی سعته، فی نعیمه وعقابه وسیظهر الإنسان بکل وجوده للّه‌تعالی: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

معنی بروز الناس للّه‌تعالی، إنکشاف بواطن وظواهر جمیع الناس فی یوم المحشر، فالظهور بالقیاس إلی علمنا ولیس إلی علم اللّه المطلق.

ووصفه بالقهّار دلیل علی تسلطه علی کل الأشیاء وسیطرته علی ظاهرها وباطنها.

وتصوّر الآیة التالیة کیفیة بروزهم إلی اللّه فتقول: «وَتَرَی الْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفَادِ».

«الأصفاد»: جمع «صفد» بمعنی الغلّ؛ و «مقرنین»: من مادة «القرن والإقتران» بمعنی الأشخاص المتقاربین مع بعضهم البعض.

إنّ هذا الغِل هو عبارة عن تجسید للروابط العملیة والفکریة بین المجرمین فی هذه الدنیا، حیث کان یساعد بعضهم البعض علی الظلم والفساد، وتتجسّد هذه العلاقة فی الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فیما بینهم.

ثم یتطرّق القرآن الکریم إلی لباسهم والذی هو أحد أفراد المجازاة الشدیدة: «سَرَابِیلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَی وُجُوهَهُمُ النَّارُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۲

«سرابیل»: جمع «سربال» علی وزن «مثقال» بمعنی القمیص من أی قماش کان. و «قطران»: بفتح القاف وسکون الطاء أو بکسر القاف وسکون الطاء، وهی مادةً تؤخذ من شجرة الأبهل ثم تُغلی فتثخن وتُطلی بها الإبل عند إصابتها بمرض الجرب، فهی مادة سوداء نتنة وقابلة للإشتغال.

وعلی هذا أنّهم یلبسون ثیاباً من مادة سوداء ونتنة وقابلة للإشتعال، حیث تمثّل أسوأ الألبسة لما کانوا یعملونه فی هذه الدنیا من إرتکاب الذنوب والفواحش. وسوادها یشیر إلی أنّ الذنوب تؤدّی إلی أن یکون الإنسان مسودّ الوجه أمام ربّه، وتعفّنها یشیر إلی تلوّث المجتمع بهم ومساعدتهم علی إشعال نار الفساد، وکأنّ القطران تجسید لأعمالهم فی الدنیا.

کل ذلک لأجل «لِیَجْزِیَ اللَّهُ کُلَّ نَفْسٍ مَا کَسَبَتْ». ومن الطریف أنّه لم یقل أنّ الجزاء بما کسبت أنفسهم، بل یقول: «ما کسبت» لیکون تجسیداً حیّاً لأعمالهم، وهذه الآیة بهذا التعبیر الخاص دلیل آخر علی تجسّم الأعمال.

وفی الختام یقول تعالی: «إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ». وهذا واضح تماماً لأنّ کل إنسان حسابه معه.

وورد فی الخبر: «إنّ اللّه تعالی یحاسب الخلائق کلهم فی مقدار لمح البصر». ولا ریب أنّ اللّه تعالی لا یحتاج إلی وقت لمحاسبة الأفراد، وما جاء فی الروایة أعلاه إشارة إلی أقصر الفترات.

وبما أنّ آیات هذه السورة- وکذلک جمیع الآیات- لها جانب الدعوة إلی التوحید وإبلاغ الأحکام الإلهیة إلی الناس وإنذارهم، یقول تعالی فی آخر آیة من هذه السورة: «هذَا بَلَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِیُنذَرُوا بِهِ وَلِیَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَلِیَذَّکَّرَ أُولُوا الْأَلْبَبِ».

بدایة وختام سورة إبراهیم: وکما رأینا فإنّ سورة إبراهیم ابتدأت فی بیان دور القرآن الکریم فی إخراج الناس من الظّلمات إلی نور العلم والتوحید، وانتهت فی بیان دور القرآن فی إنذار الناس وتعلیمهم التوحید.

إنّ هذه البدایة والنهایة تبیّن هذه الحقیقة، وهو أنّ کل ما نحتاجه موجود فی هذا القرآن، حیث یقول الإمام علی علیه السلام: «هو ربیع القلوب وینابیع العلم» ... «فاستشفوه من أدوائکم»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۳

وهذا البیان دلیل علی خلاف ما یراه بعض المسلمین من أنّ القرآن الکریم کتاب مقدس یقتصر وجوده فی ترتّب الثواب لقارئه. بل هو کتاب شامل لجمیع مراحل الحیاة الإنسانیة.

کتاب رشد وهدایة ودستور للعمل، فهو یذکّر العالِم ویستلهم منه عموم الناس.

إنّ هجران القرآن الکریم وإتّخاذ المبادیء المنحرفة الشرقیة منها والغربیة، أحد العوامل المهمة فی تأخّر المسلمین.

«نهاية تفسير سورة إبراهيم»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۵

۱۵. سورة الحجر

محتوى السورة: المشهور عند جلّ المفسرين أنّ سورة الحجر مكية، وهى السورة الثانية والخمسون من السور التى نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة المكرمة.

ويمكننا تلخيص ما حوته السورة فى سبع نقاط:

۱- الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر فى أسرار الإيجاد.

۲- الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.

۳- أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.

۴- محاولة إيقاظ وتنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، وتمرّد إبليس، وتبيان عاقبة التمرد.

۵- زيادة فى محاولة الإيقاظ والتنبيه من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.

۶- إنذار وبشارة، مواعظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغّبات المشوّقة.

۷- مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله لتقوية صبره وثباته قبال ما يحاك من دسائس.

وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، وهى السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسمية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۶

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (۴) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۵) سورة اخرى تفتتح بالحروف المقطعة «الر» لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هى إلّاعين تلك الأبجدية التى تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أى مخلوق الوصول لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو ذروة التحدى الربانى المعجز، وعليه فقد جاءت «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ» مباشرة، لأنّه يظهر الحقائق ويبيّن الحق من الباطل.

ثم يحذّر الذين يصرّون على الفساد ومخالفة آيات اللّه الجليّة، ويخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول:

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ».

فالمراد بكلمة «يودّ» التمنى وذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنّيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أنّ تمنيهم سيكون فى العالم الآخر وبعد معاينة نتائج الاعمال.

يمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلا العالمين (الدنيا والآخرة)، واعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة لجهات مختلفة.

ثم يأتى نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللذات المادية، وكل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور والغفلة والأمانى الزائفة ختمت على قلوبهم.

و لكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۷

أنفسهم أمام الموت أو فى عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسرانهم، وكيف أنّهم قد ضيّعوا أغلى ما كانوا يملكون.

الآية التالية توضّح محدودية اللذائذ الدنيوية لكى لا يظن أحد إنّها خالدة فتقول: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ».

ثم يقول تعالى: «مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ».

فقد سرت سنّة البارى جلّ شأنه بأن يعطى المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، وبفيوضات الرخاء تارة اخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كل ذلك إتماماً للحجة عليهم.

وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸) طلب نزول الملائكة: تبتدىء الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله من قبل الكفار، فتقول: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنبى صلى الله عليه و آله.

الملفت فى التهم الموجهة إلى أنبياء اللَّه تعالى أنّها تحمل بين طيّاتها تضاداً واضحاً يُلمس بأدنى تدبّر، ففى الوقت الذى يرمون النبى بالجنون يعودون ويقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أنّ الساحر لابدّ له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟!

إنّهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النبى صلى الله عليه و آله بل تحججوا قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فيجيبهم البارى جلّ شأنه: «مَا نُنَزِّلُ الْمَلِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ».

وبعبارة اخرى: فالإعجاز ليس أمراً ترفيهياً يناغى تصوّرات الأخرين بقدر ما هو حجّة إلهية لإثبات الحق وإماطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبى الخاتم صلى الله عليه و آله عن طريق القرآن والمعاجز الاخرى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۸

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۹) حفظ القرآن من التحريف: بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزاءهم بالنبى صلى الله عليه و آله والقرآن، تأتى هذه الآية المباركة لتواسى قلب النبى صلى الله عليه و آله من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة اخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهى حفظ القرآن من التلاعب والتحريف: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». فبناء هذا القرآن مستحكم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدىّ الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكّامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، ومزوّدين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبّار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته.

وقد اختلف المفسرون فى دلالة (حفظ القرآن) فى هذه الآية المباركة، والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أنّ اللَّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحى: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين، أنّ القرآن لم يتعرض لأىّ نوع من التحريف، وأنّ الذى بين أيدينا هو عين القرآن الذى نزل على صدر الحبيب محمّد النبى صلى الله عليه و آله. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (۱۰) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۱۱) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۱۲) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵) العناد والتعصب: تواسى الآيات قلب النبى صلى الله عليه و آله وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة. فتقول أوّلًا: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ».

ولكنّهم من العناد والتعصب لدرجة: «وَمَا يَأْتِيهِم مّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدّة:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۹

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النبى كى لا يؤثّر فى أوساط الفئة الواعية.

- واخرى، يحاولون بالإستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوى والحجج الدامغة لرسل اللَّه عزّ وجلّ.

- واخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.

- وأخيراً، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام- حسب تصورهم- يستلزم تقويضاً لكل شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فليجؤون للإستهزاء لتبرير إعراضهم وانكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثم يقول جلّ وعلا: «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ». أى: نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الربانى وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين «لَايُؤْمِنُونَ بِهِ» وهو ليس بجديد «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ».

ويصل أمر الغارقين فى شهواتهم والمصرّين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم لا يؤمنون حتى «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ». ومع ذلك «لَقَالُوا إِنَّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ».

عجباً، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد والتعصب.

إنّ الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثّر على الروح الطاهرة والفطرة السليمة، فتحجبهما عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، وتمنعهما من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث فى نظره فينكر كل ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة فى المراحل الاولى، ولكن إذا رسخت فى قلبه هذه الحالة وتجذّرت وأمست «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن ازالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أىّ تأثير فى قلبه.

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (۱۶) وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (۱۷) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (۱۸) تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد اللَّه، وبسياقها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۰

جاءت تكملةً لبحثى القرآن والنبوة المذكورين فى الآيات السابقة. قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» ويعنى «الظهور» ولهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينة أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص.

ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هى منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسنراها فى كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس فى برج الحمل «۱»- مثلًا- أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق فى حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

ثم يضيف: «وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ».

ويضيف فى الآية التالية: «وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ».

إنّ المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأنّ الشياطين ذوى الوساوس يحاولون أن يجدوا سبيلًا لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكن النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمة والعلماء) يبعدونهم ويطردونهم بالعلم والتقوى.

وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱) وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمة البارى على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا».

---

(۱) «الحمل»: مجموع منظومات شمسية تظهر فى السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۱

«المد»: فى الأصل بمعنى التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء.

ثم يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد: «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ».

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعلّ المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد).

ومن بديع خلق الجبال إضافةً إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوّة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وعيون.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات:

«وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ».

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكل تحمل خواصاً معينة ولها من الآثار ما يميّزها عن غيرها، وهى باب لمعرفة البارىء المصوّر جلّ شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وبما أنّ وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيّة حتى الخارجة عن مسؤوليتكم «وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ».

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش»: جمع «معيشة» وهى الوسائل والمستلزمات التى تتطلبها حياة الإنسان، والتى يحصل عليها بالسعى تارة، وتأتيه بنفسها تارة اخرى.

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوى جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، وهو: لماذا لم تهيّأ النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى وكدح؟! فتنطق الحكمة الإلهية جواباً: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ». فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاد ما نملك، وإنّما منبع ومخزن وأصل كل شىء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أىّ شىء وبأىّ وقت يكون، ولكن الحكمة إقتضت أن يكون كل شىء فى هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۲

الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر. ونقرأ فى الآية (۲۷) من سورة الشورى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ».

إنّ السعى والكدح فى صراع الحياة يضفى على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنّه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيى القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانى، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

والفقر والغنى من البلاء الذى يدخل ضمن مخطط التمحيص والإمتحان، فكما أنّ الفقر والعوز قد يجرّان الإنسان نحو هاوية السقوط فى مهالك الانحراف، فكذلك الغنى فى كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) دور الرياح والأمطار: بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليقة والنعم الإلهية كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير فى أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار فى عملية نزول المطر، فيقول: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ».

«لواقح»: جمع «لاقح» .. وهى تشير هنا إلى دور الرياح فى تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

ويمكن حمل «مَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ» على أنّها إشارة لخزن ماء المطر فى السحب قبل نزوله، أى: إنّكم لا تستطيعون استملاك السحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

ويمكن حملها على أنّها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أى إنّكم لا تقدرون

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۵۳

على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأنّ اللّه عزّ وجلّ هو الذى يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثم ينتقل من مظاهر توحيد اللّه إلى المعاد ومقدماته: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ». فيذكر مسألة الحياة والموت التى تعتبر من أهمّ المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكمّلات موضوع التوحيد، بالإضافة إلى أنّ وجود الحياة والموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، وأنّ الوارث الحقيقى لكل شىء هو اللّه تعالى.

ثم يضيف: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِرِينَ». أى: نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنّ أمر محاسبتهم وجزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

ولهذا نرى الآية التى تليها: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومتمّمة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت ... فحكمة البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شىء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهى كل شىء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق». وأمّا كونه سبحانه عليماً فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهة، وكذلك فى اعماق وجود الانسان من جهة اخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

إنّ كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور فى الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۵۴

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُوم (۲۷) وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (۲۹) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۱) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَنْ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۲) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّين (۳۵) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْم يُبْعَثُونَ (۳۶) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۳۷) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم (۳۸) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۳۹) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴۰) قَالَ هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (۴۱) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۳) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴) خلق الإنسان: بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللَّه فى الآيات السابقة، تأتى هذه الآيات لتبيّن أنّ الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقة إنّما هو خلق الإنسان، وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة فى شأن الخلق، زاخرةً بالمعانى. يقول تعالى فى البداية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصلٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ». «الصلصال»: هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شيء أحدث صوتاً ... و «الحمأ المسنون»: هو طين متعفن.

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُوم». «السّموم» لغة: الهواء الخارق، وسمى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان.

ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة اخرى فيتعرض إلى كلام اللَّه تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنّى خلِقٌ بَشَرًا مّن صَلْصلٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى». وهى روح شريفة طاهرة جليلة: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۵۵

وبعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين «فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

ولم يعص هذا الأمر إلّا إبليس: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

وهنا سأل اللَّه إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً فى بحر الغرور المظلم، وتائهاً فى حبّ النفس المقتم، وبعد أن غطّى حجاب الخسران عقله ... أجاب بوقاحة: «قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

ونتيجة للغرور وحبّ النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون فى درجة الملائكة وبين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهى مقرعاً: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ». أى: اخرج من الجنة، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكة.

واعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سبباً لكفرك، وكفرك قد أوجب طردك الأبدى «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ». أى: إلى يوم القيامة.

وهنا ... حينما وجد إبليس نفسه مطروداً من الساحة الإلهية، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغينة فى قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقى يرجع إلى إبليس نفسه وليس لآدم دخل فى ذلك، إلّاأنّ غروره وحبّه لنفسه وعناده المستحكم لم يعطياه الفرصة لدرك حقيقة شقاءه، ولهذا «قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، ليركّز عناده وعداءه!

وقبل اللَّه تعالى طلبه: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ». وهو: نهاية هذا العالم وانتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنية) تحلّ نهاية حياة جميع الكائنات، ولا يبقى حىّ إلّاالذات الإلهية المقدسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة

على بعض طلب إبليس.

وهنا أظهر إبليس نيّته الباطنية: «قَالَ رَبّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى». وكان هذا الإنسان سبباً لشقائى «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ» نعمها المادية «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» بإلهائهم بتلك النعم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۶

إلّا أنّه يعلم جيّداً بأنّ وساوسه سوف لن تؤثّر فى قلوب عباد اللّه المخلصين، وأنّهم متحصنون من الوقوع فى شباكه، لأنّ قوة الإيمان ودرجة الإخلاص عندهم بمكان يكفى لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم ... ولهذا نراه قد استثنى فى طلبه «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». «المخلصين»: جمع مخلَص (بفتح اللام) المؤمن الذى وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان والعمل بعد تعلّم وتربية ومجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشيطان وأىّ وسواس آخر.

ثم قال تعالى تحقيراً للشيطان وتقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: «قَالَ هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ». يعنى: يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلّا المنحرفين عن الصراط المستقيم والمستجيبين لدواعى رغباتهم وميولهم.

ثم يهدد اللّه بشدة أتباع الشيطان: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ» وأن ليس هناك وسيلة للفرار، والكل سيحاسب فى مكان واحد. «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ». هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها، وكل يحاسب بذنبه ... كما هو الحال فى أبواب الجنة التى هى عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۴۵) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (۴۶) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (۴۷) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (۴۸) نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (۵۰) نعم الجنة الثمان: رأينا فى الآيات السابقة كيف وصف اللّه تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم. وجرياً على أسلوب القرآن فى التربية والتعليم جاءت هذه الآيات المباركات (ومن باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنة وأهلها وما ترفل به من نعم مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۷

وقد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية ومعنوية) بما يساوى عدد أبواب الجنة.

۱- أشارت فى البدء إلى نعمة جسمانية مهمة: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». ويلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهى الخوف من اللّه والورع والالتزام، فهى إذن ... جامعة لكافّة صفات الكمال الإنسانى.

إنّ ذكر الجنات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوّع رياض الجنة وكثرة عيونها، والتى لكل منها لذّة مميزة وطعم خاص.

۲ و ۳- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمتين أخريتين (السلامة) و (الأمن) ..

السلامة من أىّ أذىً وألم، والأمن من كل خطر، فتقول- على لسان الملائكة مرحّبة بهم-:

«ادْخُلُوهَا بِسَلمٍ ءَامِنِينَ».

وفى الآية التالية بيان لثلاث نعم معنوية اخرى:

۴- «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ». أى: الحسد والحقد والعداوة والخيانة.

۵- «إِخوانًا» تربطهم أقوى صلات المحبة.

۶- «عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».

إنّ جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التى يُعانى منها عالمنا الدنيوى، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجّح والكلّ إخوان، يجلسون متقابلين فى صف واحد ومستوى واحد.

۷- ثم تأتى الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: «لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة والاستقرار.

۸- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نِعم «وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ».

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التى ينالها المتقون فى الجنة بذلك الرونق المؤثّر الذى يوقع المذنبين والعاصين فى بحار لجّية من الغمّ والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح اللَّه الرحمن الرحيم أبواب الجنة لهم ولكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله: «نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وكما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتى العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب والعذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، ولتوجد التعادل بين مسألتى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۸

الخوف والرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: «وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ».

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (۵۵) قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (۶۰) الضيوف الغرباء: تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنبة التربوية فى تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد اللَّه المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر).

ومن لطيف البيان القرآنى شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم. فتقول أوّلًا:

«وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ».

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الإبتسامة، فابتدأوه بالسلام «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلٰمًا».

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيّأ لهم طعاماً ووضعه أمامهم، إلّاأنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال فى خاطره «قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ». وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام مما كان عليه متعارفاً فى مسألة ردّ الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

ولكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم فى هذا الحال حتى: «قَالُوا لَاتَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلٰمٍ عَلِيمٍ». والغلام العليم: هو (إسحاق)، حيث نقرأ فى سورة هود الآية (۷۱) أنّ امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشّرته الملائكة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۹

كان إبراهيم يعلم جيّداً أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أنّ كل شىء مقدور للَّهعزّ وجل)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ». هل البشارة منكم أم من اللَّه عزّ وجل وبأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئناناً؟

وعلى أية حال ... لم يدع الملائكة مجالًا لشك وتعجب إبراهيم حيث «قَالُوا بَشَّرْنٰكَ بِالْحَقِّ». فهى بشارة من اللَّه وبأمره، فهى حق مسلّم به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأىاحتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: «فَلَا تَكُن مِّنَ الْقٰانِطِينَ».

لكن إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنّه مطمئن من أنّ أمر القدرة الإلهية نافذ فى جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل فى الموازنة، «قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ».

إنّ الضالين هم الذين لا- يعرفون اللَّه وقدرته المطلقة، اللَّه الذى خلق الانسان ببناءه العجيب المحيّر من ذرّة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سويّاً، اللَّه الذى حوّل نخلة يابسة إلى حاملة للثمر بإذنه، اللَّه الذى جعل النار برداً وسلاماً .. هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كل شيء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟!

وراود إبراهيم عليه السلام- بعد سماعه البشارة- أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلّامهمة عرضية ضمن مهمتهم الرئيسية، ولهذا «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف وأنّه دقيق فى كل شيء ولا يقنع بالعموميات، فبيّنوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ».

إنّ ظاهر تعبير «آل لوط» وما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضّالة التى وقفت فى صف المشركين، ولعلّ إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۰

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ (۶۹) قَالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (۷۰) قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵) وَ إِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) عاقبة مذنبى قوم لوط: طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء وبين إبراهيم عليه السلام وهذه الآيات تكمل لنا سير أحدث القصة فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام. فنقرأ أوّلًا: «فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ».

فالتفت إليهم لوط «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ».

يقول المفسرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، وهو يعلم ما كان متفشياً بين قومه من الانحراف الجنسى .. فمن جهة، هم ضيوفه ومقدمهم مبارك ولابد من إكرامهم واحترامهم، ولكن المحيط الذى يعيشه لوط عليه السلام مريض وملوّث.

ولكن الملائكة لم يتركوه وهذه الهواجس طويلًا حتى سارعوا إلى القول: «قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ». أى: إنّنا جئنا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيراً، وذلك لأنّهم لم يعتنوا ولم يصدّقوا بما ذكرته لهم.

ثم أكّدوا له قائلين: «وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ». أى: العذاب الحتمى والجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثم أضافوا لزيادة التأكيد: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة ولم يبق فى شأنهم محلّاً للشفاعة والمناقشة، كى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۱

لا يفكّر لوط فى التشفّع لهم وليعلم أنّهم لا يستحقونها أبداً.

ثم قالت الملائكة للوط: أخرج وأهلك من المدينة ليلًا حين ينام القوم أو ينشغلوا بشرابهم وشهواتهم، لأجل نجاة الثلّة المؤمنة من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).

«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ» وكن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم ولتكون محافظاً ورقيباً لهم «وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ» وعلى أن يكون نظركم إلى الأمام «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ». أى: إلى أرض الشام، أو أىّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثم ينتقل مجرى الحديث حين يقول تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ». أى: سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

ومن الملفت للنظر، أنّ القرآن قد ترك القصة عند هذا الحد وعاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه- لسبب سنشير إليه فيما بعد- فيقول: «وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ». أى:

إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط.

وحينما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم أغتمّ غمّاً شديداً لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدرى أنّهم ملائكة العذاب إلى ذلك الوقت ولهذا: «قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ».

أى: إن كنتم لا تؤمنون باللّه ولا تصدّقون بالنبى ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضيافة التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أىّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً فى دنياكم!

ثم أضاف قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ» أمام ضيفى.

ولكنهم من الوقاحة والإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنّه إرتكب جرماً فى استضافته لهؤلاء القوم «قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعلَمِينَ»، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!

وكان قوم لوط من البخل بحيث إنّهم لا يحبّون الضيافة، وكانت مدينتهم على طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لدفع الضيوف ولأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل المارّة، وتعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة.

وكما يبدو أنّ لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۲

عليه من عمل قومه الخبيث، ولما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلًا. وعليه، فكلمة «العالمين» فى الآية أعلاه- كما يبدو- إشارة إلى عابرى السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

وعندما رآهم لوط على تلك الحال من الوقاحة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج): «قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ».

مما لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، ولكن لوطاً الذى كان يهدف إلى إلقاء الحجة عليهم أراد أن يقول لهم: إنّنى مستعد إلى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الإنحراف.

لكن الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الانحراف والغرور والعناد .. التى مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتى بها يحسّون بالخجل والحياء أمام منطق لوط عليه السلام أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنّى لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثّرهم بحديث لوط استمروا فى غيّهم وأرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب اللّه تعالى نبيّه قائلًا: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

وبعد ذلك يبلغ كلام اللّه تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبيّن عاقبتهم السيئة فى آيتين قصيرتين وبشكل قاطع ملىء بالدروس

والعبر بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ».
أى صوت شديد عند شروق الشمس.
ويمكن حمل «الصيحة» على أنّها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب.
ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا».
وزيد فى التنكيل بهم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ».
ثم إنّ نزول هـذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبه، قلب المدينة، المطر الحجرى)- رغم أنّ كل واحدة منهنّ كانت تكفى لقطع دابر القوم- كان لمضاعفة عذابهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۳

لشدة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، وكى يكون عبرة لمن يعتبر.
وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية والتربوية فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ». العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم وذكائهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كل إشارة حقيقة ومن كل تنبيه درساً.
ولا تتصوروا أنّ آثارهم ذهبت تماماً، بل هى باقية على طريق القوافل والمارّة «وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ».
ثم تدعو الآية المؤمنين إلى التفكر ملياً فى هذه القصة واستخلاص العبر منها: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».
وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴) خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر: يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى قصّتين من قصص الامم السالفة، وهما (أصحاب الأيكة) و (أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذى عرضه فى الآيات السابقة حول قوم لوط. يقول أوّلًا: «وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ». «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» وعاقبناهم على ظلمهم واستبدادهم ..
وجعلنا أرضهم وأرض قوم لوط- المتقدمة قصّتهم- على طريقكم «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ». فانظروا إليها وإلى عاقبة أمرهم، واعتبروا يا اولى الألباب.
«الأيكة»: هى الأشجار المتشابكة مع بعضها، و «أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب» الذين عاشوا فى بلدة مليئة بالماء والأشجار بين الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفّهة ثريّة فاصيبوا بالغرور والغفلة، فأدّى ذلك إلى الإحتكار والفساد فى الأرض.
وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التى هم عليها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۴

ومن خلال ما بيّنته الآيات فى سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللَّه المهلك. وورد ذكرهم مفصّلًا فى الآيات (۱۷۶) حتى (۱۹۰) من سورة الشعراء.
أمّا «أصحاب الحجر» فهم قومٌ عُصاة عاشوا مرفّهين فى بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث اللَّه إليهم نبيّه صالح عليه السلام لهدايتهم.
ويقول القرآن عنهم: «وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ».
هذه البلدة كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام فى منزل يسمّى (وادى القرى فى جنوب (تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.
ومن الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط فى الآيات ۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام اخر كذّبت الأنبياء عليهم السلام والواضح من خلال ظاهر القصص أنّ لكل قوم كان نبى واحد لا أكثر.

ولعل مجيء هذا التعبير (المرسلين) في هذه الآية، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلة بحيث إنّ تكذيب أيّ منهم هو تكذيب للجميع.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: «وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ». وموقف الإعراض المشار إليه- كما يبدو- هو عدم إستعدادهم لسماع الآيات والتفكّر بها.

وتشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجدّ والدقّة في امور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنّهم «وَكَانُوايَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ».

وهو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبليّة، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أيّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأن لا يكلّف نفسه بسماع آيات اللّه والتفكر بها.

وأيّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أن يطبّق عليهم القانون الإلهي

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۵

الموعودين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين ..

فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ».

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمّر نزل على دورهم.

فالعذاب الإلهي لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصنة، ولا الأبدان القوية أو الأموال الوافرة، ولهذا يأتي في نهاية قصّتهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱) يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة- كقوم لوط وقوم شعيب وصالح- إلى مسألة التوحيد والمعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، ولعدم إرتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليهما معاً في آية واحدة: «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ». فنظامها محسوب ومحكم وهو حق، وكذا هدف خلقها حق.

فيكون هذا النظام البديع والخلق الدقيق المنظّم دليلًا واضحاً على الخالق العالم القادر جلّ وعلا، وهو حق أيضاً، بل هو حقيقة الحق، وكل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وكل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل ... هذا ما يخصّ التوحيد أمّا المعاد فيقول: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ». وإن تأخّرت فإنّها آتية بالنتيجة.

إنّ هذا العالم إنّما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيام الدنيوية المليئة بالآلام والمتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير- فليس الغرض من هذه الدنيا أن يعيش فيها الانسان هذه الحياة وتنتهي- ولهذا فمسألة خلق السماوات والأرض وما بينهما إنّما هو من موقع الحق ويدل على وجود يوم القيامة والحساب، وإلّا لكان الخلق عبثاً وليس حقاً، فتأمل.

وبعد ذلك يأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله أن يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۶

وعداءهم بالمحبة والعفو وغضّ النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أي غير مصحوب بملامة «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ». لأنّك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج وإياهم إلى الخشونة. بالإضافة إلى أنّ الخشونة مع الجهلة غالباً ما تؤدّي بهم إلى الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلك.

«الصفح»: هو وجه كل شىء، كوجه الصورة، ولهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك وغضّ النظر عنهم.
وبما أنّ إدارة الوجه وصرفه عن الشىء قد تعطى معنى عدم الإهتمام والنفرة وما شابه ذلك وكذلك معنى العفو والصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة «الجميل» بعد «الصفح» لكى تحدد المعنى الثانى.
الآية التالية بمنزلة الدليل على وجوب العفو والصفح الجميل، حيث تقول: «إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْخَلقُ الْعَلِيمُ».
ثم يواسى اللَّه تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله أن لا تقلق من وحشية الأعداء وكثرتهم وما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأنّ اللَّه أعطاك ما لا يقف أمامه شىء: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاکَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ».
اعتبر أكثر المفسرين أنّ «سبعاً من المثانى» كناية عن سورة الحمد، والروايات كذلك تشير لهذا المعنى. والداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها وعظمة محتواها فقد نزلت مرّتين على النبى محمّد صلى الله عليه و آله.
إنّ اللَّه تعالى قد صرّح لنبيه الكريم صلى الله عليه و آله بأنّك قد ملكت سنداً عظيماً (القرآن)، ولا تستطيع أى قوة فى عالم الوجود أن تصرعه.
وبالذات سورة الفاتحة منه التى لها من المحتوى والأثر بحيث لو إرتبط العبد بربّه ولو للحظة واحدة لحلّقت روحه لساحة قدس الرب، وهى تعيش حال التعظيم والتسليم والمناجاة والدعاء.
وبعد هذه الهبة العظيمة يأمر اللَّه تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله بأربعة أوامر فيقول له أوّلًا: «لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْکَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ». فمتاع الحياة الدنيا ليست دائمة ولا خالية من التبعات، والحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۷
ثم يقول فى الأمر الثانى: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» لما عندهم من أموال ونعم مادية.
فى تفسير القمّى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت هذه الآية لا تمدّنّ عينيك؛ قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من لم يتعزّ بعزاء اللَّه تقطّعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى بنظره إلى ما فى يد غيره كثر همّه ولم يشف غيظه ومن لم يعلم أنّ اللَّه عليه نعمة إلّافى مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه ومن أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على اللَّه ساخطاً ومن شكا مصيبة نزلت به فإنّما يشكو ربّه ومن دخل النار من هذه الأمّة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتّخذ آيات اللَّه هزواً ومن أتى ذا ميسرة فيخشع له طلب ما فى يديه ذهب ثلثا دينه».
فالأمر الأوّل يتعلّق بعدم الإهتمام والتوجه نحو النعم المادية، والأمر الثانى يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.
والأمر الثالث: جاء بخصوص ضرورة اللين والتواضع مع المؤمنين حيث يقول:
«وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِلْمُؤْمِنِينَ».
إنّ هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع والمحبة والملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحميهم من التشتت.
ونصل إلى الأمر الرابع: «وَقُلْ» لهؤلاء الكفرة المنعّمين بكل حزم «إِنّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ». قل: أنذركم من أمر اللَّه بنزول عذابه عليكم «كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ». أى: الذين قسّموا الآيات القرآنية أصنافاً، فما كان ينفعهم أخذوه، وما لا ينسجم ومشتهياتهم تركوه.
والمؤمن الخالص لا يجرؤ على تجزئة أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهية.
فَوَ رَبِّکَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۹۲) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۹۴) إِنَّا كَفَيْنَاکَ الْمُسْتَهْزِءِينَ (۹۵) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۹۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ يَضِيقُ صَدْرُکَ بِمَا يَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (۹۸) وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّى يَأْتِيَکَ الْيَقِينُ (۹۹) إصدع بما تؤمر: يبيّن القرآن فى أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين

ذُكروا فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۸

الآيات السابقة فيقول: «فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ عالم السر والعلن ومن لا يخفى عليه ذرة ما فى السماوات والأرضين لا يسأل لكشف أمر خفى عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) وإنّما السؤال لتفهيم المسؤول قبح فعله، فالسؤال قسم من العقاب الروحى.

ثم يأمر اللّه تعالى نبيه صلى الله عليه و آله بقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ». أى: لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تترد أو تسكت، بل أدعهم إلى رسالتك جهاراً.

«وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» ولا تعتن بهم.

«فاصدع»: من مادة «صدع» وهى لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عمّا فى داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع) وكأنّه من شدّته يريد أن يشق الرأس. وهى هنا ... بمعنى: الإظهار والإعلان والإفشاء.

فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحربهم، لأنّ المسلمين فى ذلك الوقت لم تصل قدرتهم- بعد- لمستوى المواجهة مع الأعداء وحربهم.

ثم يطمئن اللّه تعالى نبيه صلى الله عليه و آله تقوية لقلبه: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ».

ثم يصف المستهزئين: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

كأنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ أفكار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع اللّه- ما صنعوه بأيديهم- آلهة! ومع ذلك ... يستهزؤون بك.

ولمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النبى صلى الله عليه و آله يضيف تعالى قائلًا: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ». فروحك اللطيفة وقلبك الطيّب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة وأحاديث الكفر والشرك، ولذلك يضيق صدرك.

ولكن لا تحزن من قبح أقوالهم «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ». لأنّ تسبيح اللّه يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحبّاء اللّه.

ولهذا نقرأ فى رواية نقلًا عن ابن عباس أنّه قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثم يعطى اللّه نبيه صلى الله عليه و آله آخر أمر فى هذا الشأن: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

إنّ العبادة مدرسة عالية للتربية، لأنّها توقظ عقل الإنسان، وتوجّه فكره نحو المطلق،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۹

وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمّى فيه الصفات الإنسانية الرفيعة، وتقوّى إيمانه وتجعله أكثر وعياً واكبر مسؤولية.

فلا يمكن للإنسان الواقعى أن يستغنى عن هذه المدرسة الراقية، أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجة معينة لا يحتاج عندها إلى العبادة، فاولئك إمّا أنّهم يعتبرون عملية تكامل الإنسان محدودة وتنتهى بحد معين، أو أنّهم لم يدركوا معنى العبادة حقاً.

«نهاية تفسير سورة الحجر»

الجزء الثالث

۱۶ سورة النحل

محتوى السورة: من خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة

الشرك وعبادة الأصنام، وتارة اخرى ما تتناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة.

ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلى:

۱- ذكر النعم الإلهية، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها.

ومن النعم المذكورة فى السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الاخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيبات).

ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانى الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً لغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد اللّه.

۲- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷

۳- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة.

۴- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حيّة.

۵- وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه تعالى بالنعم التى أنعمها عليه من دار الدنيا».

فقراءة الآيات بتدبّر وتفكّر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلًا لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغى عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين.

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (۲)

أتى أمر اللّه: ذكرنا سابقاً أنّ قسماً مهمّاً من الآيات التى جاءت فى أوّل السورة هى آيات مكية نزلت حينما كان النبى صلى الله عليه و آله يخوض صراعاً مشتدّاً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهة جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنّها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنبى صلى الله عليه و آله حينما يهددهم وينذرهم بعذاب اللّه: إن كان ذلك حقاً فلِم لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجىء إلى الأصنام لتشفع لنا عند اللّه فى رفع العذاب ... ولِم لا يكون ذلك، أوَ لسن شفيعات؟!

وأوّل آية من السورة تُبطل أوهام اولئك بقوله تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ».

وإن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لكم عند اللّه فقد أخطأتم الظن «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبما أنّ مستلزمات العدل الإلهى اقتضت عدم العقاب إلّابعد البيان الكافى والحجة التامة، فقد أضاف سبحانه: «يُنَزّلُ الْمَلِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا». بناء على هذا الإنذار والتذكير «فَاتَّقُونِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸

أمّا المقصود من «الروح» فى الآية هو: الوحى والقرآن والنبوة، والتى هى مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

إنّ كلمة «الروح» فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى وإشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية العقول.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعُ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۷) وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفى الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجّه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما فى الخلائق من نظام عجيب.

الثانى: عن طريق العاطفة ببيان نعم اللّه الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: «خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ». وتتّضح حقانية السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثم يضيف: «تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده اللّه؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذن جعلوها شريكة اللّه سبحانه!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: «خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹

«النطفة»: فى الأصل بمعنى الماء القليل، أو الماء الصافى، ثم أطلقت على قطرات الماء التى تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها. وحقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة وقدرة اللّه عزّ وجل، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقى المخلوقات وعند اللّه أيضاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فخلق الأنعام الدال على علم وقدرة البارى سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال:

«وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ».

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل إستراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مراحها.

ف «الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتى، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات امّة كاملة، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الاقتصادى وقطع كل تبعيّة للغير.

ثم يشير تعالى فى الآية التى تليها إلى إحدى المنافع المهمة الاخرى فيقول: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ». وهذا مظهر من مظاهر رحمة اللّه عزّ وجلّ ورأفته حيث سخّر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة وقوّة «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

فالأنعام إذن: تعطى للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك تعطيه الألبان واللحوم ليتقوّت بها. وتترك فى نفس الإنسان آثاراً نفسية طيبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

ثم يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها فى تنقلاته، فيقول:

«وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً».

وتأتى الإشارة فى ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان فى الحصول على الوسائط

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰

النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: «وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ» من المراكب ووسائل النقل.

وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِرٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (۹) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۳)

بعد ذكر مختلف النعم فى الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم اخرى ... فتشير أوّلًا إلى نعمة معنوية عالية فى مرماها: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ». أى: عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كل انحراف، وقد وضعه فى متناول الإنسان.

ولكن أىّ النحوين من الصراط المستقيم هو المراد، التكوينى أم التشريعى؟

اختلف المفسرون فى ذلك، إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

فقد هدى اللَّه الإنسان بالعقل والقدرة وبقية القوى التكوينية التى تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء والوحى السماوى وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضى بهدى التشريع الربانى فى تكملة مشوار المسيرة، وترك باقى السبل المنحرفة.

ثم يحذّر البارى جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: «وَمِنْهَا جَائِرٌ».

وبما أنّ نعمة الإرادة وحرية الاختيار فى الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملة قصيرة: «وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيكُمْ أَجْمَعِينَ» ولا تستطيعون عندها غير ما يريد اللَّه.

إلّا أنّه سبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱

وفى الآية التالية يعود إلى الجانب المادى بما يثير حس الشكر للمنعم عند الناس، ويوقد نار عشق اللَّه فى قلوبهم بدعوتهم للتقرّب أكثر وأكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: «هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». ماء فيه سبب الحياة، وزلالًا شفافاً خال من أىّ تلوّث «لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ». وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم «وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

«تسيمون»: من مادة «الإسامة» بمعنى رعى الحيوانات.

ومما لا- شك فيه أيضاً أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفّسه براحة، وما شابه ذلك .. فالمذكور من فوائده فى هذه الآية ليس حصراً وإنّما من باب الأهم.

ويكمّل الموضوع بقوله: «يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ولا شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ثم يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة فى العالم للإنسان بقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». على عظمة وقدرة اللَّه وعظمة ما خلق.

وإضافة لكل ما تقدم: «وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ» من مخلوقات سخرّها لكم و «مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» من الأغطية والملابس والأغذية والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الاخرى «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیّاً وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَی الْفُلْکَ مَوَاخِرَ فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقَی فِی الْأَرْضِ رَوَاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ یَخْلُقُ کَمَنْ لَا یَخْلُقُ أَ فَلَا تَذَکَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲

نعمة الجبال والبحار والنجوم: تبيّن هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التى تفضّل بها اللَّه عزّ وجل على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياة، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ».

وكما هو معلوم أنّ البحار تشكّل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأنّ الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم فى إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار فى خدمة الإنسان ....

ثم يشير البارى سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: «لِتَأْكُلُوامِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا». فقد جعل اللَّه فى البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد فى تربيته، بل أوجدته ونمّته يد القدرة الإلهية.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

الحس الجمالى من الامور الفطرية التى فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وينبغى العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أىّ نوع من الإفراط والتفريط.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزيّن المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيّد، التطيّب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة ... الخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائدة الثالثه فى البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ».

وأعطاكم اللَّه هذه النعمة لتستفيدوا منها فى التجارة أيضاً «وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ».

وبعد ذكر هذه النعم التى تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتى فى ذيل الآية: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم يأتى الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: «وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳

ثم يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: «وَأَنْهَارًا».

ثم يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أنّ الجبال حاجز بين إرتباط الأراضى فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: «وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يضيف قائلًا: «وَعَلمتٍ». لأنّ الطرق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصة يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإنخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

وأمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل فى أىّ من سفر البر أو البحر، فقد جعل اللَّه تعالى علامات فى السماء تعوّض عن علامات الأرض.

وقد فسّرت «النجم» برسول اللَّه صلى الله عليه و آله و «العلامات» بالأئمة عليهم السلام فى روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفى بعضها فسّر «النجم» و «العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام وكل ذلك يشير إلى التفسير المعنوى لهذه الآيات.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «النجم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، والعلامات الأئمة عليهم السلام».

وبعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنسانى للحكم فى ذلك «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وكما اعتدنا عليه من القرآن فى اسلوبه التربوى الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة سؤال يترك الجواب عنه فى عهدة الوجدان الحى للإنسان.

وفى نهاية المطاف، يفنّد البارى سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا».

ونواجه فى هذا المقام سؤالًا وإستفساراً: كيف إذن نؤدّى حق الشكر للَّه؟ و .. ألسنا مع ما نحن فيه، فى زمرة الجاحدين؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة فى أداء أتمّ الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين فى حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصى النعم الربانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة للَّه، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه فى أعماق قلوبنا، وكذا يحرّك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمة عليهم السلام يتطرقون فى أقوالهم وأدعيتم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدّون جوانب منها، عبادة للَّهوتذكيراً ودرساً للآخرين.

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

آلهة لا تشعر: تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيّة منها على الأصنام، أمّا الآية الاولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثالثة للمعبود الحقيقى (وهى العلم) فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ». فلماذا تسجدون للأصنام التى لم تكن هى الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأيّة نعمة، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلًا عن سرّكم؟!

ثم يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بافق أوسع من الآية السابقة: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَايَخْلُقُونَ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وقد بحث لحدّ الآن فى عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة، ومع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵

ذلك كله، فإنّها «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ». ثم يضيف قائلًا عنها: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام، فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهنّ، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟!

وهذه هى الصفة الخامسة التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى وتفتقدها الأصنام.

إنّ مفهوم الصنم وعبادة الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة، فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل اللَّه عزّ وجل، ونسلّم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون اللَّه بألسنتهم، ولكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون اللَّه، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

وبعد هذه الإستدلالات الحيّة والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: «إِلهُكَمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».
وبما أنّ العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: «فَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ». فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلّاأنّ سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الإستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكة فى وجود المنكرين.
ثم تتطرق الآية الأخيرة إلى علم اللّه فى الغيب والشهادة: «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».
والآية فى واقعها تهديد للكفار وأعداء الحق، بأنّ اللّه عزّ وجل ليس بغافل عنهم.
فهم مستكبرون و «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». والإستكبار على الحق من علامات الجهل باللّه عزّ وجل.
مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶
وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۴) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (۲۷) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۲۹)
سبب النّزول
فى تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت فى المقتسمين وهم ستة عشر رجلًا خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبة أربعة منهم ليصدّوا الناس عن النبى صلى الله عليه و آله وإذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.
التّفسير
حمل أوزار الآخرين: دار الحديث فى الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث فى التنصّل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق. أمّا فى هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: «وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُم قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فليس هو وحى إلهى، بل أكاذيب القدماء.
«الأساطير»: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرّات فى القرآن الكريم نقلًا عن لسان الكفار ضدّ الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى اللّه عزّ وجل.
وفى جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة وأنّ الأيام ستتجاوزها حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم فى الآية (۳۱) من
مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷
سورة الأنفال: «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا».
والملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالًا للآخرين، ووصلت بهم الحماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، وما الآراء الدينية إلّاأساطير وخرافات، حتى أنّهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع ودوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون). أمّا لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة اخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى ويحطّم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.
توضّح الآية الاخرى أعمالهم بالقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ».

ثم تتحرك الآيـة الاخرى لتقرر أنّ تهمـة وصف الوحى الإلهى بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المسـتجد: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ».

ومن لطيف دقّة العبارة القرآنيـة، أنّ الآيـة أشـارت إلى أنّ اللَّه عزّ وجـل لاـ يـدمرّ البناء العلوى للمسـتكبرين فحسب، بل سـيدمّره من القواعد لينهار بكله عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر اللَّه عزّ وجل، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وعذابهم فى الحياة الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ يُخْزِيهِمْ».

فيسألهم اللَّه تعالى: «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ». أى تجادلون وتعادون فيهم، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكن: «قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهو نوع من العذاب الروحى، ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول:

«الَّذِينَ تَتَوَفهُمُ الْمَلِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸

لأنّ ممارسـة الظلم فى حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانيـة، ويهتك حرمـة الصـفات الفطرية الكامنة فيه.

أمّا حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون «فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ».

لماذا ينكرون عملهم القبيـح؟ فهل إنّهم يكذبون وقد أصبـح الكذب صـفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إنّنا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا اخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكن الجواب يأتيهم فوراً: إنّكم تكذبون فقد ارتكبم ذنوباً كثيرة: «بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» حتى بنيّاتكم.

وليس المقام محلًّا للإنكار أو التبرير ... «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِرِينَ».

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هـذِهِ الـدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (۳۰) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (۳۱) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲)

عاقبة المتقين والمحسـنين: قرأنا فى الآيات السابقة أقوال المشـركين حول القرآن وعاقبة ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين فى اعتقادهم وعاقبته .. فيقول القرآن: «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا».

ما أجمل هذا التعبير وأكمله «خيراً» خير مطلق يشـمل كل: صـلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادى ومعنوى، خير للدنيا والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع.

وتبيّن الآية مورد البحث نتيجة وعاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹

الآيات السابقة عاقبة ما قاله المشركين من عقاب دنيوى وأخروى، ومادى ومعنوى مضاعف: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

وقد أطلق الجزاء بال «حسنة» كما أطلقوا القول «خيراً»، ليشمل كل أنواع الحسنات والنعم فى الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: «وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ». ثم تصف الآيـة التاليـة- بشـكل عام- محل المتقين فى الآخرة بالقول: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

وقلنا أنّ الآيات مورد البحث توضّح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد فى الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عندما تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثم يقال لهم: «ادخلوا أبواب جهنم ...».

وأمّا عن المتقين: «الَّذِينَ تَتَوَفهُمُ الْمَلِكَةُ طَيِّبِينَ» طاهرين من كل تلوّثات الشرك والظلم والإستكبار، ومخلصين من كل ذنب: «يَقُولُونَ سَلمٌ عَلَيْكُمُ». السلام الذى هو رمز الأمن والنجاة.

ثم يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير عن موتهم ب «تَتَوَفهُم» يحمل بين طيّاته اللطف، ويشير إلى أنّ الموت لا يعنى الفناء والعدم أو نهاية كل شىء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفى تفسير الميزان: أنّ فى هذه الآية ثلاثة مسائل:

۱- طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

۲- يقولون لهم: «سَلمٌ عَلَيْكُمُ» وهو تأمين قولى لهم.

۳- «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ» وهو هداية لهم إليها.

وهذه المواهب الثلاث هى التى ذكرت فى الآية (۸۲) من سورة الأنعام: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۴) وَ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۳۷)

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلِكَةُ». أى:

ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال.

أو هل ينتظرون أن يأتى أمر اللَّه بعذابهم: «أَو يَأْتِيَ أَمْرُ رَبّكَ» حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح.

ثم يضيف: إنّ هؤلاء ليس أوّل مَن كانوا على هذه الحال والصفة وإنّما «كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

ثم يذكر عاقبة أمرهم بقوله: «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فتعبير الآية ب «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا عَمِلُوا» يؤكّد مرّة اخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذّبه وتؤلمه ولا شيء غر هذه الأعمال فى عذابه.

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱

شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ».

إنّ قولهم «وَلَا حَرَّمْنَا» إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التى حرّم لحومها المشركون فى عصر الجاهلية، والتى أنكرها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشدة. وكأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى اللَّه تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عما نقوم به، فسكوته وعدم منعه ما كنا نعمل دليل على رضاه.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: «كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

وهذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء وغيرهم) .. فهم: لا يداهنون فى دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا».

«الامّة»: من «الأم» بمعنى الوالدة، أو بمعنى كل ما يتضمن شيئاً آخر فى داخله؛ ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «امّة».

ويبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام بالقول: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

لأنّ اسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أى برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»: صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز والتعدى وعبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سبباً لتجاوز الحد المعقول، ولهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدّى إلى غير طريق الحق.

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: «فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّللَةُ».

والآية (۷۹) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: «مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ».

وفى نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: «فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإنْ كانت الهداية والضلال أمرين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲

إجباريين، لم يكن هناك معنىً للسير فى الأرض والنظر إلى عاقبة المكذبين.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكّد التسلية لقلب النبى صلى الله عليه و آله بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: «إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَيهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ».

«تحرص»: من مادة (حرص)، وهو طلب الشىء بجديّة وسعى شديد.

بديهى، أنّ الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأنّ الشمول يتعارض مع وظيفة النبى (هداية وتبليغ).

فعليه ... تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجة فى الباطل لأقصى درجات الضلال، وأصبحوا غرقى فى بحر الإستكبار والغرور والغفلة والمعصية فاغلقت أمامهم أبواب الهداية.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۳۸) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (۳۹) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه فوقع فى كلامه والذى أرجوه بعد الموت أنّه لكذا. فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت وأقسم باللَّه لا يبعث اللَّه من يموت. فأنزل اللَّه الآية.

التّفسير

المعاد ونهايـة الإختلافات: تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلًا لما بحث فى الآيات السابقـة ضـمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء. فتقول الآية الاولى:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ».

وهذا الإنكار الخالى من الدليل والذى ابتدؤوه بالقسم المؤكّد، ليؤكّد بكل وضوح على جهلهم ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: «بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحـد أهـداف المعـاد وقـدرة اللّه عزّ وجـل على ذلـك، ليردّ الإشـتباه القائل بعـدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعبثية المعاد ... فيقول: «لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳

يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ» فى إنكـارهم للمعـاد وبأنّ اللّه لا يبعث من يموت. فالرجوع إلى الوحـدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

ثم يشـير القرآن إلى الفقرة الثانيـة من بيـان حقيقـة المعاد، للرد على من يرى عـدم إمكان إعادة الإنسان من جديـد إلى الحياة من بعد موته: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

إنّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلّا لا حاجة فى أمر اللّه ل «كن» أيضاً، فإرادته سبحانه وتعالى كافية فى تحقيق ما يريد.

فإرادته إحـداثه لا غير ذلك، لأنّه لا يُروّى ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصـفات منفية عنه وهى من صـفات الخلق، فإرادة اللّه تعالى هى الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف.

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۴۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى المعذبين بمكة مثل صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكّنهم اللّه بالمدينة، وذكر أنّ صـهيباً قال لأهل مكـة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضـرّكم فخـذوا مالى ودعونى. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال له أبوبكر: ربح البيع يا صهيب.

التّفسير

ثواب المهاجرين: نرى فى الآيات السابقـة الحـديث عن المشـركين ومنكرى يوم القيامـة، وينتقل الحديث فى الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصـين، ليقارن بين المجموعتين ويبيّن طبيعتهما فيقول أوّلًا: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً». أمّا فى الآخرة: «وَلَأَجْرُ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

ثم يصف فى الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴

إنّ للمسلمين هجرتين؛ الاولى: كانت محدودة نسبياً (هجرة جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبى طالب إلى الحبشة)، والثانية: الهجرة العامـة للنبى صـلى الله عليه و آله والمسـلمين من مكـة إلى المدينـة. وظاهر الآية يشـير إلى الهجرة الثانية، كما يؤيّد ذلك شأن النزول.

وَ مَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۴۴)

اسألوا إن كنتم لاـ تعلمون: هـذه الآيـة يعود إلى بيـان المسائـل السابقـة فيمـا يتعلق باصول الـدين من خلال إجابته لأحـد الإشـكالات المعروفـة؛ حين يتقوّل المشـركون: لماذا لم ينزل اللّه ملائكـة لإبلاغ رسالته؟ أو يقولون: لِم لم يجهّز النبى صـلى الله عليه و آله بقـدرة خارقة ليجبرنا على ترك أعمالنا؟ فيجيبهم اللّه عزّ وجل بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ».

نعم. فإنّ أنبياء اللّه جميعهم من البشر، وبكل ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرك الحاجة كما يحس ويدرك الآخرون. فى حين أنّ الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الامور جيّداً.

ثم يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): «فَسَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

«الذكر»: بمعنى العلم والإطلاع؛ و «أهل الذكر»: له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين فى كافة المجالات.

فالآيـة مبيّنـة لأصل إسـلامى يتعيّن الأخـذ به فى كل مجالات الحياة الماديـة والمعنويـة، وتؤكّد على المسـلمين ضـرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هـذا فـإنّ «مسألـة التخصـص» لم يقررهـا القرآن الكريم ويحصـرها فى المسائـل الدينيـة بـل هى شاملـة لكـل المواضـيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء فى كافة التخصصات للرجوع إليهم.

ثم تقول الآية التالية: «بِالْبَيّنَاتِ وَالزُّبُرِ».

«البيّنات»: جمع بيّنة، بمعنى الدلائل الواضحة، ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معاجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء فى دعوتهم؛ و «الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵

فالبيّنـات تتحـدث عن دلائل إثبات النبوة، والزّبر إشارة إلى الكتب التى جمعت فيها تعليمات الأنبياء. ومن ثم يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، ليبيّن للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربّهم الحق. فـدعوتك ورسالتـك ليست بجديـدة من الناحيـة الأساسـية، وكما أنزلنا على الـذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلّموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبيّن تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنسانى ليسيروا فى طريق الحق.

أ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۴۵) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۴۶) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۴۷)

لكـل ذنب عقابه: ثمّـة ربط فى كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاسـتدلالية والمسائل الوجدانيـة بشـكل مؤثّر فى نفوس السامعين، والآيـات أعلاه نموذج لهـذا الاسـلوب. فالآيات السابقـة عبارة عن بحث منطقى مع المشـركين فى شأن النبوة والمعاد، فى حين جاءت هـذه الآيـات بالتهديـد للجبـابرة والطغاة والمـذنبين. فتبتـدأ القول: «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيَاتِ» من الـذين حاكوا الـدسائس المتعـددة لإطفاء نور الحق والإيمان «أن يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ».

فهل ببعيـد (بعـد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشـرة الأرضـية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضـعوا الـدسائس والخطـط وصولًا لأهـدافهم المشؤمـة السـيئة، كمـا فعـل المشـركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النبى صلى الله عليه و آله.

«يخسف»: من مادة «خسف» بمعنى الإختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم (الخسوف).

ثم يضيف: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ». أى:

عند ذهابهم ومجيئهم وحركتهم فى اكتساب الأموال وجمع الثروات. «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

إنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهى هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶

أو أنّ العذاب الإلهى لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجى ومقروناً بالإنذار المتكرر: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ».

فاليوم مثلًا، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفى يوم آخر تتلف بعض أموالهم ... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الاخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلّا فسيصيبهم العقاب الإلهى ويهلكهم.

إنّ العذاب التدريجى فى هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعة، واللَّه عزّ وجل لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين: «فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ (۴۸) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۴۹) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (۵۰)

سجود الكائنات للَّهعزّ وجل: تعود هذه الآيات مرّة اخرى إلى التوحيد بادئةً ب «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «۱».

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات اللَّه يميناً وشمالًا لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟

وهنا ... يعرض البارى سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالًا بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع.

وجاء فى الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا فى الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عامّاً شاملًا لكل الموجودات المادية وغير المادية، وفى أىّ مكان، فتقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلٰئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»، مسلمين للَّهولأوامره تسليماً كاملًا.

وحقيقة السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما نؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّامصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أنّ جميع مخلوقات اللَّه فى عالم التكوين والخلق مسلّمة للقوانين العامة لعالم الوجود،

---

(۱) «داخر»: فى الأصل من مادة (دخور) أى: التواضع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷

التى أفاضتها الإرادة الإلهية فإنّ جميع المخلوقات فى حالة سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغى لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلها مظهرة لعظمة وعلم وقدرة البارى عزّ وجل، ولتدلل على أنّها آية على غناه وجلاله ... والخلاصة: كلها دليل على ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنى الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة فى السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة فى الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

أمّا جملة «وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» فإشارة لحال وشأن الملائكة التى لا يداخلها أىّ استكبار عند سجودها وخضوعها للَّهعزّ وجل.

ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرةً وتأكيداً لنفى حالة الإستكبار عنهم:

«يَخَافُونَ رَبَّهُم مّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

ويستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ علامة نفى الإستكبار شيئان:

أ) الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض.

ب) ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغي والعمل وفق القوانين المعدّة لذلك.

وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (۵۱) وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (۵۲) وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ

يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵)

دين حق ومعبود واحد: تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة اللّه عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقة، لتتّضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، ويبتدأ ب «وَقَالَ اللَّهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيىَ فَارْهَبُونِ».

ثم يوضّح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات ... فيقول أوّلًا «وَلَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئاً، أم لمن له ما فى السماوات والأرض؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸

ثم يضيف: «وَلَهُ الدّينُ وَاصِبًا».

ثم يقول فى نهاية الآية: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ».

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟!

هذا ... «وَمَا بِكُم مّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ».

فهذه الآية تحمل البيان الثالث بخصوص لزوم عبادة اللّه الواحد جلّ وعلا، وأنّ عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهى ليست بمنعمة.

وعلاوة على ذلك ... «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ».

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعاً للضر وحلًّا للمعضلات، فهذا من اللّه.

وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

«تجئرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية فى كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

نعم. فاللّه سبحانه يسمع نداءكم فى كل الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ» بالعود إلى الأصنام.

فالقرآن فى الآية يشير إلى فطرة التوحيد فى جميع الناس، إلّاأنّ حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطّيها فى الأحوال الاعتيادية.

وفى آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتى التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثاً استدلالية فى نفى الشرك وعبادة الأصنام، تأتى هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلًا آخراً على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين: وتقول أوّلًا: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَايَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام. ثم يضيف القرآن الكريم قائلًا: «تَاللَّهِ لَتُسَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ».

وعليه فما تقومون به له ضرر مادى من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروى لأنّكم أسأتم الظن باللَّه واتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثانية فكانت: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ» من التجسّم ومن هذه النسبة. «وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ». أى: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى اللَّه، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء.

وإكمالًا للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثالثه: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

ولا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل «يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ».

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص فى فكر عميق: «أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ».

وفى ذيل الآية، يستنكر البارى حكمهم الظالم الشقى بقوله: «أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقى وراء تلك التلوّثات، ألا ـ هو عدم الإيمان بالآخرة: «لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فالسبب الرئيسى لكل انحراف وقبح وخرافة هو الغفلة عن ذكر اللَّه وعن محكمته العادلة فى الآخرة.

دور الإسلام فى إعادة اعتبار المرأة: لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الإحترام والتقدير حتى فى أكثر الامم تمدّناً فى ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكن عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدة هذه المهانة من كافة أبعادها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰

وأولى النبى صلى الله عليه و آله ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الإحترام ما جعل الناس فى عجب من أمره، حيث كان صلى الله عليه و آله مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبّل يد الزهراء عليها السلام وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أىّ أحد.

فالإحترام الذى أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (۶۱) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶۲) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴)

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة فى وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالى: لماذا لم يعذّب اللَّه المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيع؟ والآية الاولى (۶۱) تجيب بالقول: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ». أى: إنّ اللَّه لو يؤاخذ الناس على ما إرتكبوه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

فعندما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الاخرى وينقطع نسلها.

ويضيف القرآن الكريم قائلًا: «وَلكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». بل يدركهم الموت فى نفس اللحظة المقررة.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم فى الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والإعتقاد بأنّ الملائكة إناثاً) فيقول: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ».

فهذا تناقض عجيب، فإن كانت الملائكة بنات اللَّه سبحانه وتعالى فينبغى أن تكون البنت أمراً حسناً فلماذا تكرهون ولادتها؟ وإن كانت شيئاً سيّئاً فلماذا تنسبونها إلى اللَّه؟

ومع كل ذلك ... «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى .

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱

ولهذا يقول القرآن: «لَاجَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ». أى: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و «لهم النار» «وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ» أى: من المتقدمين فى دخول النار.

والمفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربّما يراود البعض منّا الإستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهى على قيد الحياة؟!

وكأنّ الآية التالية تجيب على ذلك: «تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَالَهُمْ».

ثم يضيف القرآن: إنّ مشركى اليوم على سنّة من سبقهم من الماضين من الذين زيّنوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان «فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ»، يستفيدون مما يعطيهم إيّاه.

ولهذا ... «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وتبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكّد حقيقة أنّ الأقوام والامم لو اتبعت الأنبياء وتخلّت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقى أثر لأىخرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷)

المياه، الثمار، الأنعام: مرّة اخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة اللّه، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الربانى تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات. فيقول: «وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزّ وجل يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲

وإنّ نعمة الأمطار دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذى يعتبر الخطوة الاولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: «وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وأيّة عبرة أكثر من أن: «نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ».

«الفرث»: لغة بمعنى الأغذية المهضومة فى المعدة والتى بمجرد وصولها إلى الامعاء تزوّد البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج .. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلّامقداراً قليلًا من الغذاء (كبعض المواد السكّرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كى يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصه داخل ثدى الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن فى استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوّثة.

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: «وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹)

«وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ»: انتقل الأسلوب القرآنى بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» وما يدّره من منتوج (العسل) ورمز إلى ذلك الالهام الخفى بالوحى الإلهى إلى النحل: «أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳

إنّ الوحى فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى والباعث الباطنى الذى أودعه اللّه فى الكائنات الحية.

وأوّل مهمة أمر بها النحل فى هذه الآية هى: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ اتخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، ومن ثم القيام ببقية الفعاليات.

ويذكر القرآن الكريم فى الآية التالية المهمة الثانية للنحل: «ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

وأخيراً يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة):

«يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

فى طبيعة حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، وهو دليل على عظمة وقدرة البارى عزّ وجل.

كما نعلم بأنّ للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعّالة لكثير من الأمراض، والشيء المهم فى موضوعنا ما توصّل إليه العلماء من خلال تجاربهم التى أكّدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث إنّه فى علمية صنعه للعسل لم يبذّر فيما تحويه النباتات والأوراد من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها فى العسل.

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۷۰) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَ فَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (۷۲)

سبب اختلاف الأرزاق: بيّنت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المجعولة فى عالمى النبات والحيوان، لتكون دليلًا حسيّاً لمعرفته جلّ شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقّة والتأمل على وجود المقدّر لذلك. فيبتدأ القول ب «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفكُمْ». فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنّكم لستم خالقين لأىّ من الطرفين (الحياة والموت).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم مَن يموت فى شبابه أو فى كهولته «وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ» «۱».

ونتيجة هذا العمر الموغل فى سنى الحياة «لِكَيْ لَايَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيًا».

فيكون كما كان فى مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم ... نعم ف «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ». فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلّاعندما يلزم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله فى الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنّما ... «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ». فاصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: «فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ».

والـذى نسـتفيده من الآيـة المبحوثـة أنّ الإسـلام يوصـى بمراعاة المساواة كبرنامـج أخلاقى بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفّل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلًا عليهم.

فالتفـاوت بين دخـل الأـفراد ينبع من التفاوت بالإسـتعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهيـة أيضاً، وإن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعاً.

فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، ويتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السـليمة، إلّاأنّ أساس النجاح يكمن فى السعى والمثابرة والجد، وينبغى أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف فى الإسـتعدادات وفى الدخل اليومى للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقى.

ولهذا يقول القرآن الكريم فى ذيل الآية مورد البحث: «أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

وذلك إشارة إلى أنّ هـذه الاختلافات فى حالتها الطبيعيـة (وليست الظالمـة المصـطنعة) إنّما هى من النعم الإلهيـة التى أوجدها لحفظ النظام الاجتماعى البشرى.

وتبـدأ الآيـة الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالـة «اللَّه» كما كان فى الآيتين السابقتين، ولتتحـدث عن النعم الإلهيـة فى إيجاد القوى البشرية، ولتتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلًا للحلقات الثلاثة من النعم المذكورة فى آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت

---

(۱) «أرذل»: من «رذل» بمعنى الحقـارة وعـدم المرغوبيـة؛ والمقصـود من «أرذل العمر»: السـنين المتقدمـة جـدّاً من عمر الإنسـان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵

البحث بنظـام الحيـاة والموت، ثم التفـاوت فى الأـرزاق والإسـتعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهى بالآيـة مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و ...

الأرزاق الطيبة. وتقول الآية: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشرى.

ولهذا تقول وبلافاصلة: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً».

«الحفدة»: بمعنى (حافد) وهى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا فى هذه الآية فالمقصود منها أولاد الأولاد.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ».

وبعد كل العرض القرآنى لآثار وعظمة قدرة اللَّه، ومع كل ما أفاض على البشـرية من نعم، نرى المشـركين بالرغم من مشاهدتهم لكل مـا أعطـاهم مولاـهم الحق، يـذهبون إلى الأصـنام ويتركون السبيـل التى توصـلهم إلى جـادة الحق «أَفَبِالْبَاطِـلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (۷۳) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۷۴)

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيـد السابقـة، وتشـير إلى موضوع الشـرك، وتقول بلهجـة شديدة ملؤها اللوم والتوبيخ: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ شَيًا».

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أن يخلقوا شيئاً.

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم فى عبادتكم للأصنام.

ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ». وذلك «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

إنّ عبارة «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» تشير إلى منطق المشركين فى عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه اولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نمتلك الأهلية لعبادة اللّه، فنعبدها لتقرّبنا إلى اللّه! وإنّ اللّه مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلّا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلّاأن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة اللّه!

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلًا: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» التى هى من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) ومليئة بالنواقص.

فاللّه الذى دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لاينبغى أن تشبّهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أى أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلّابعض الخواص «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ».

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۶) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۷۷)

مثلان للمؤمن والكافر: ضمن التعقيب على الآيات السابقة التى تحدثت عن: الإيمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخّص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيّين وواضحين.

يشبّه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأيّة خدمة لمولاه، ويشبّه المؤمنين بإنسان غنى، يستفيد الجميع من إمكانياته ... «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ».

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: «وَمَن رَّزَقْنٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة «وَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا». فاحكموا: «هَلْ يَسْتَوُونَ».

قطعاً، لا ... فإذن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الذى يكون عبده حرّ وقادر ومنفق، وليس الأصنام التى يكون عبّادها أسرى وعديمو القدرة ومحددون «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

ثم يضرب مثلًا آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شىء، ويشبّه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلٰهُ». ولهذا ..

«أَيْنَمَا يُوَجّههُّ لَايَأْتِ بِخَيْرٍ». وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

- أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).
- وعاجز لا يقدر على شىء.
- وكَلٌّ على مولاه.
- وأينما يوجّهه لا يأت بخير.

كما رأينا من ربط القرآن فى بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: «لِلَّهِ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ثم يضيف قائلًا: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة اللّه عزّ وجل المطلقة، وبخصوص مسألتى المعاد والقيامة، ولهذا يقول البارى فى ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۸) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۷۹) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَ مَتَاعاً إِلَى حِينٍ (۸۰) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (۸۱) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۸۲) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (۸۳)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸

أنواع النعم المادية والمعنوية: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى بعرض جملة اخرى من النعم الإلهية كدرس فى التوحيد ومعرفة اللّه، وأوّل ما يشير فى هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله ... ويقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيًا». فمن الطبيعى أنّكم فى ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم البارى سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفِدَةَ». لكى يتحرك حس الشكر للمنعم فى أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وتستمر الآية التالية فى بيان أسرار عظمة اللّه عزّ وجل فى علم الوجود، وتقول: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوّ السَّمَاءِ».

وبما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور فى الهواء بالتسخير.

ويضيف قائلًا: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ».

صحيح أنّ ثمّة امور مجتمعة تعطى للطيور إمكانية التحليق والطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة ... ولكن، من الذى خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

وفى نهاية الآية، يأتى قوله عزّ من قائل: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». أى: إنّهم ينظرون إلى هذه الامور بعين باصرة وأذن سميعة ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

وتستمر الآيات فى الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثه (مورد البحث) لتقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا».

وحقّاً إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من «البيتوتة» وهى فى الأصل بمعنى التوقف ليلًا، واطلقت كلمة «بيت» على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلًا.

وبعد أن تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال:

«وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹

وهى من الخفّة بحيث «تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أى: رحيلكم- وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ».

بل وجعل لكم: «وَمِن أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

فاستعمال المصطلحين «أَثَاثًا وَمَتَاعًا» على التوالى يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

الظلال، المساكن، الأغطية: ويشير القرآن الكريم إلى نعمة اخرى بقوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا».

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد اطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفى الجبال.

وكأنّ ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» فى الآية السابقة، للإشارة إلى أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة ... واحدة تعيش فى المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكناها، واخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة اولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى ... ولم يترك البارى جلّ شأنه المجموعة الثالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل فى طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم. وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»، وثمّة ألبسة اخرى تستعمل لحفظ أبدانكم فى الحروب «وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ».

«السرابيل»: جمع «سربال» بمعنى الثوب من أىّ جنس كان.

فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تُلبس الإنسان ثوب الكرامة وتقى بدنه من الأخطار الموجّهة إليه.

وفى ذيل الآية يقول القرآن مذكّراً: «كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ». أى: تطيعون أمره.

وطبيعى جدّاً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفة التى تحيط بوجوده.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة، يقول عزّ وجلّ أنّهم لو اعرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك ابلاغهم: «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلغُ الْمُبِينُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰

والمراد من هذا المقطع القرآنى هو مواساة النبى صلى الله عليه و آله وتسليته.

وتكميلًا للحديث ... يضيف القرآن الكريم القول: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا».

فعلّة كفرهم ليست فى عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنّما بحملهم تلك الصفات القبيحة التى تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد فى معاداة الحق.

ولعل ما جاء فى آخر الآية «وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلّة قياساً إلى اولئك.

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۸۴) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۵) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (۸۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۸۷) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (۸۸) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (۸۹)

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين: بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة جحود منكرى الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق فى هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهى الشديد الذى ينتظر اولئك فى عالم الآخرة، ليتبّه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر فى مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أوّلًا: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا».

وبخصوص تلك المحكمة، تأتى الآية لتقول: «ثُمَّ لَايُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهل من الممكن أن لا يأذن اللَّه للمجرمين فى الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان فى ذلك اليوم العظيم، لأنّ الجوارح من رجل وأذن وعين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱

وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التى أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام ب

«وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ». لأنّ هناک محل مواجهة نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم فى العذاب، وكيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدّة تارةً اخرى، فتقول:

«وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وفى الآية التالية يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنّهم سيحشرون فى جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: «وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ»، فهذه المعبودات هى التى وسوست لنا للوقوع فى درَك العمل القبيح، وهى شريكتنا فى الجرم أيضاً، فارفع عنّا بعض العذاب واجعله لها.

وعندها ... تبدأ تلک الأصنام بالتكلم (بإذن اللّه): «فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ»، فلم نكن شركاء للّه، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وتأتى الآية التالية لتبين أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة اخرى ... «وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ» مسلمين للّه، مذعنين لعظمته جلّ وعلا، لأنّ غرور وتعصب الجاهلين قد ازيل برؤية الحق الذى لا مفرّ من تصديقه والإذعان إليه.

وفى هذه الأثناء، وحيث كل شىء جلىّ كوضوح الشمس .. «وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ». فتبطل كذبتهم بوجود شريک للّه، وكذلک يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند اللّه، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأىّ عمل، بل ويرونها محشورة معهم فى نار جهنم.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبّاً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم فى درک الشرک، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه .. وبعد ذلک ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲

لأنّهم كانوا عاملًا مؤثّراً للفساد على الأرض وإضلال خلق اللّه بالصدّ عن سبيله.

والحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح: «من استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ومن استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد فى كل امّة (والذى ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ».

ومع أنّ عموم الحكم فى هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامى والنبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هؤُلَاءِ».

وبما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجة عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلک مباشرة: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

إنّ الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن: ۱- تبياناً لكل شىء. ۲- هدى. ۳- رحمة. ۴- بشرى للمسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰)

أكمل برنامج إجتماعى: بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكل شىء، جاءت هذه الآية لتقدّم نموذجاً من التعليمات

الإسلامية فى شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، فتقول فى البدء: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى .

فالعدل هو القانون الذى تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود.

والمعنى الواقعى للعدل يتجسد فى جعل كل شىء فى مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدّى على حقوق الآخرين، ما هى إلّاصور لخلاف أصل العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق فى كل الأوقات- الطبيعية والاستثنائية-

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳

فى عملية بناء المجتمع السليم، إلّاأنّها ليست العامل الوحيد الذى يقوم بهذه المهمّة، ولذلك جاء الأمر ب «الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة. فى نهج البلاغة عن على عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل».

وبعد ذكر القرآن الكريم للُاصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للُاصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ».

إنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفيّة؛ و «المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنية؛ و «البغى»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والإستعلاء عليهم.

وفى آخر الآية المباركة يأتى التأكيد مجدداً على أهمية هذه الأصول الستة: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى» ومكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء والمنكر، والبغى» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كل اضطراب، وخالية من أىّ سوء وفساد، وإذا روى عن ابن مسعود (الصحابى المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية فى كتاب اللَّه للخير والشر) فهو للسبب الذى ذكرناه.

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۹۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه و آله على الإسلام فقال

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴

سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا يحملنّكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإنّ اللَّه حافظكم. أى: اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالأيمان.

التّفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان: فى هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمة (الوفاء بالعهد والأيمان). يقول أوّلًا: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ». ثم يضيف: «وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

إنّ معنى «عهد اللَّه» هو: العهود التى يبرمها الناس مع اللَّه تعالى (وبديهى أنّ العهد مع النبى عهد مع اللَّه أيضاً)، وعليه فهو يشمل كل عهد إلهى وبيعة فى طريق الإيمان والجهاد وغير ذلك.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أى: القسم) التى وردت فى الآية- والتى عرض فيها المفسرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، ويتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنّه يشمل العهود التى يعقدها الإنسان مع اللَّه عزّ وجل، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان فى تعامله مع خلق اللَّه.

وحيث إنّ الوفاء بالعهد أهم الاسس فى ثبات أىّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره باسلوب يتّسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول:

«وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا» «۱».

والآيـة تشير إلى (رايطـة) تلـك المرأة التى عاشت فى قريش زمن الجاهليـة، وكانت هى وعاملاتها يعملن من الصـباح حتى منتصـف النهـار فى غزل مـا عنـدهن مـن الصـوف والشـعر، وبعـد أن ينتهيـن مـن عملهـن تـأمرهن بنقض مـا غزلن، ولهـذا عرفت بين قومهـا ب (الحمقاء).

ثم يضـيف القرآن الكريم قائلًا: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» «۲». أى: لا تنقضوا عهودكم مع اللَّه بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانة والفساد.

واعلموا: «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ».

---

(۱) «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حلّ خيوط الصوف والشعر بعـد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الـذى يصـنع من الصوف والشعر.

(۲) «الدّخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد والتقلب ومنها اخذ معنى (الداخل).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵

وستّتضح النتيجـة فى الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل: «وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من هـذا الأمر وغيره. و الآيـة التالية تجيب على توهّم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهى والتأكيد على الإلتزام بالعهود والوظائف، وخلاصـته: هل أنّ اللَّه لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً».

«امّـة واحـدة» من حيث الإيمـان والعمـل على الحق بشـكل إجبارى، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامى ولا فيه أفضلية للإنسان فى قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنّة اللَّه بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

ولا تعنى هـذه الحريـة بأنّ اللَّه سـيترك عباده ولا يعينهم فى سيرهم، وإنّما بقـدر ما يقـدمون على السير والمجاهـدة سيحصـلون على التوفيق والهدايـة والسـداد منه جلّ شأنه، حتى يصـلوا لهـدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هـذه النعمـة الربانيـة، فتراهم كلّما طال المقام بهم ازدادوا ضلالًا.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: «وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ».

ولكن الهدايـة الإلهيـة أو الإضـلال لا تسلـب المسؤوليـة عنكم، حيث إنّ الخطوات الاـولى على عواتقكم، ولهـذا يأتى النـداء الربانى: «وَلَتُسَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وتشير هذه العبارة إلى نسبـة أعمال البشـر إلى أنفسـهم، وتؤكّد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضـحة فى تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأنّ أيّاً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً.

وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ۲۶ من سورة البقرة).

وتأكيـداً على مسألـة الوفاء بالعهـد والثبات فى الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمـة فى ثبات المجتمع) يقول القرآن: «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ». أى: وسيلة للخداع والنفاق، لأنّ فى ذلك خطرين كبيرين:

الأوّل: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

الثانى: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» فى هذه الدنيا «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» فى الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفّرهم من الدين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶

الحق، وتشـتت الصـفوف وفقـدان الثقـة حتى لا يرغب الناس فى الإسـلام، وإن عقـدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسـهم ملزمين

بالوفاء به، وهذا ما يؤدّى لمساوى ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلف فى الحياة الدنيا.

وأمّا على صعيد الحياة الاخرى فإنّه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهى.

وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ رجلًا من حضر موت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول اللَّه، إنّ امرأ القيس الكندى جاورنى فى أرضى فاقتطع من أرضى فذهب بها منّى. فسأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله امرأ القيس عنه، فقال: لا أدرى ما يقول. فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالى أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلمّا قام ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ» الآيتان. فلمّا قرأهما رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال امرؤ القيس: أمّا ما عندى فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هى، فليأخذ من أرضى ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه «مَنْ عَمِلَ صلِحًا» الآية.

التّفسير

جاءت الآية الاولى من هذه الآيات لتؤكّد على قبح نقض العهد مرّة اخرى ولتبيّن عذراً آخراً من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتى هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبى على حياة الإنسان. ولهذا تقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

أى: إنّ قيمة الوفاء بعهد اللَّه لا تدانيها قيمة، ولو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷

لا يساوى قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد اللَّه. وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: «إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

ويبيّن القرآن فى الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: «مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ».

ثم يضيف قائلًا: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم»- وعلى الأخص فى الثبات على العهد والأيمان- «بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ التعبير ب «أحسن» دليل على أنّ أعمالهم الحسنة ليست بدرجة واحدة، فبعضها حسن والبعض الآخر أحسن، ولكن اللَّه تعالى يجزى الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروة اللطف والرحمة الربانية.

ثم يبيّن القرآن الكريم بعد ذلك- على صورة قانون عام- نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان فى هذه الدنيا وفى الآخرة، فيقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الإجتماعية أو ما شابه ذلك.

الحياة الطيبة، تعنى الحياة الطيبة بجميع جهاتها، وخالية من التلوّثات والظلم والخيانة والعداوة والذل وكل ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰)

تبيّن الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن وتتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافة المحتوى القرآنى لا تكفى وحدها لتوجيهنا،

ولابد من رفع الحجب المخيّمة على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كى نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثّر الغنى.

ولهذا يقول القرآن: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطنِ الرَّجِيمِ».

ولا يقصد من الإستعاذة الاكتفاء بالذكر، بل ينبغى لها أن تكون مقدمة لتحقيق وإيجاد الحالة الروحية المطلوبة. حالة: التوجه إلى اللَّه عزّ وجل، الإنفصال عن هوى النفس والعناد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸

المانع للفهم والدرك الصحيح للإنسان، وعندما نقرأ آية، نستعيذ باللَّه من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام اللَّه جلّ وعلا.

وإن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية.

وتأتى الآية التالية لتكون دليلًا على ما جاء فى الآية التى قبلها: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». «إِنَّمَا سُلْطنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، لأنّهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر اللَّه.

فالآية تؤكّد حقيقة أنّ سلطة الشيطان ليست إجبارية على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهّد الإنسان السبيل لدخول الشيطان فى نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوّابة قلبه.

وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (۱۰۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنّه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه.

التّفسير

تحدثت الآيات السابقة عن اسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، وتتناول الآيات

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹

مورد البحث جوانب اخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدىء ببعض الشبهات التى كانت عالقة فى أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: «وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزّلُ». فهذا التغيير والتبديل يخضع لحكمة اللَّه، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكن المشركين لجهلهم «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

إنّ المشركين لم يدخل فى تصوراتهم وأذهانهم أنّ القرآن فى صدد بناء مجتمع إنسانى جديد يسوده التطوّر والتقدم والحريّة والمعنوية العالية.

فبديهى والحال هذه أن يطرأ على التغيير والتبديل تدرّجاً مع ما يعيشونه، فغفلة المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للإعتقاد بأنّ أقوال النبى صلى الله عليه و آله تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء على اللَّه عزّ وجل وإلّا لعلموا أنّ النسخ فى الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظّمة على شكل برنامج تربوى دقيق لا- يمكن الوصول للهدف النهائى لنيل التكامل إلّابه.

وتستمر الآية التالية بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبّكَ بِالْحَقّ».

«روح القدس» أو (الروح المقدسة) هو أمين الوحى الإلهى «جبرائيل الأمين» وبواسطته كانت الآيات القرآنية تتنزّل بأمر اللَّه تعالى على

النبى الأكرم صلى الله عليه و آله سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، وهدفها واحد يتركّز فى توجيه الإنسان ضمن التربية الربانية له، وظروف وتركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة والمنسوخة فى العملية التربوية.

ولهذا، جاء فى تكملة الآية المباركة: «لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب، ونصيبه التثبيت فى العلم والإذعان، والإسلام فى ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الإهتداء إلى واجب العمل والبشرى بأنّ الغاية هى الجنة والسعادة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۹۹

وعلى أيّة حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية والسير فى طريق الهدى والبشرى لابدّ من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدريج يحلّ البرنامج النهائى الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ فى الآيات الإلهية.

وبعد أن فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة اخرى، أو على الأصح لذكر إفتراء آخر لمخالفى نبى الرحمة صلى الله عليه و آله فيقول: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ».

فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل كل ما كانوا يفترونه، بقوله: «لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» (۱).

فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآنى من حيث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبيته والتناسق الخاص فى ألفاظه وعباراته ما يفوق قدرة أىّ إنسان.

وبلهجة المهدّد المتوعّد يبيّن القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الإتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباع الإيمان فى نفوس هؤلاء، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بَايَاتِ اللَّهِ لَايَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأنّهم غير لائقين للهداية ولا يناسبهم إلّاالعذاب الإلهى، لما باتوا عليه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفى آخر آية يقول: إنّ الأشخاص الذين يتّهمون أولياء اللّه هم الكفار: «إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ». فأيّة أكاذيب أكبر من تلك التى تطلق على رجال الحق لتحول بينهم وبين المتعطشين للحقائق.

قبح الكذب فى المنظور الإسلامى: الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، وقد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين والمنكرين للآيات الإلهية.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصه لمسألة الصدق والنهى عن الكذب.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب.

فعن على عليه السلام أنّه قال: «الصدق يهدى إلى البرّ والبرّ يدعو إلى الجنة» (۲).

---

(۱) «يلحدون»: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أىّ انحراف، والمراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان ويدعون بأنّه معلم النبى صلى الله عليه و آله.

«الإعجام» و «العجمة» لغةً: بمعنى الإبهام، ويطلق الأعجمى على الذى فى بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، وباعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

(۲) مشكاة الأنوار للطبرسى/ ۳۰۰.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۰۶) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۱۰۷) أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (۱۰۸) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۰) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۱۱۱)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: الآیة الاولی نزلت فی جماعة اکرهوا وهم: عمار، ویاسر أبوه وامّه سمیة، وصهیب، وبلال، وخباب، عُذّبوا وقُتل أبو عمار وأمّه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلک رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال قوم: کفر عمار. فقال صلی الله علیه و آله: «کلّا، إنّ عماراً ملیء إیماناً من قرنه إلی قدمه واختلط الإیمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وهو یبکی، فقال صلی الله علیه و آله: «ما وراءک»؟ فقال: شرّ یا رسول اللّه، ما تُرکت حتی نلت منک وذکرت آلهتهم بخیر، فجعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله یمسح عینیه ویقول: «إن عادوا لک فعد لهم بما قلت». فنزلت الآیة.

التّفسیر

المرتدون عن الإسلام: تکمل هذه الآیات ما شرعت به الآیات السابقة من الحدیث عن المشرکین والکفار وما کانوا یقومون به، فتتناول الآیات فئة اخری من الکفرة وهم المرتدون. حیث تقول الآیة الاولی: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

تشیر الآیة إلی نوعین من الذین کفروا بعد إیمانهم:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲

النوع الأوّل: هم الذین یقعون فی قبضة العدو الغاشم ویتحملون أذاه وتعذیبه، ولکنّهم لا یصبرون تحت ضغط ما یلاقوه من أعداء الإسلام، فیعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للکفر، علی أنّ ما یعلنوه لا یتعدی حرکة اللسان، وأمّا قلوبهم فتبقی ممتلئة بالإیمان.

فهذا النوع یکون مشمولًا بالعفو الإلهی بلا ریب، بل لم یصدر منهم ذنب، لأنّهم قد مارسوا التقیة التی أحلّها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها فی طریق خدمة دین اللّه عزّ وجل.

النوع الثانی: هم الذین یفتحون للکفر أبواب قلوبهم حقیقةً، ویغیّرون مسیرتهم ویتخلّون عن إیمانهم، فهؤلاء یشملهم غضب اللّه عزّ وجل وعذابه العظیم.

وتتطرق الآیة التالیة إلی أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: «ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» الذین یصرّون علی کفرهم وعنادهم.

وخلاصة المقال: حین أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادیة وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا علی إسلامهم لشدة حبّهم لدنیاهم، وعادوا خاسئین إلی کفرهم.

وبدیهی أنّ من لا یرغب فی الإیمان ولا یسمح له بالدخول إلی أعماق نفسه، لا تشمله الهدایة الإلهیة.

وتأتی الآیة الاخری لتبیّن سبب عدم هدایتهم، فتقول: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ» بحیث إنّهم حُرموا من نعمة الرؤیة والسمع وإدراک الحقائق:

«وَأُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

إنّ ارتکاب الذنوب وفعل القبائح یترک أثره السلبی علی إدراک الإنسان للحقائق، وتغلق أبواب روحه من تقبّل أیّة حقیقة.

ثم تعرض الآیة التالیة عاقبة أمرهم، فتقول: «لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْأَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وهل هناك من هو أتعس حالًا من هذا الإنسان الذى خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس.

وبعد ذكر الفئتين السابقتين، أى الذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم ملأى بالإيمان، والذين ينقلبون إلى الكفر مرّة اخرى بكامل اختيارهم ورغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة وهم البسطاء المخدوعون فى دينهم، فتقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳

وتأتى الآية الأخيرة لتقدّم تذكيراً عاماً بقولها: «يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا» لتنقذها من العقاب والعذاب. ولكن ... لا فائدة من كل ذلك ... «وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴)

الذين كفروا فأصابهم العذاب: قلنا مراراً: إنّ هذه السورة هى سورة النِعم، النعم المادية والمعنوية وعلى كافة الأصعدة، وقد مرّ ذكر ذلك فى آيات متعددة من هذه السورة المباركة، وتصوّر لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعى.

ويبتدأ التصوير القرآنى بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة اللَّه عليه: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً» لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش فى أمن وأمان (مطمئنة) ومضافاً إلى ذلك «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ».

ولكن حالها قد تبدّل فى النهاية «فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وإضافة لاستكمال نعم اللَّه المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، ويدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ».

فكانت النتيجة أن: «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

وإنّكم حين تطّلعون على هذه النماذج الواقعية من الامم السابقة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق اولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم اللَّه «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَللًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

يحتمل حدثت هذه القصّة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، وأنّهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم اللَّه.

ومما يؤيد ذلك ما روى- فى العياشى- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ قوماً كان فى بنى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴

إسرائيل يؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل اللَّه بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلون منها وهو قول اللَّه: ضرب اللَّه مثلًا».

وثمّة احتمال آخر وهو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا فى اليمن، وقد ذكر القرآن الكريم قصّتهم فى الآيات (۱۵- ۱۹) من سورة سبأ، وكيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات فى أمن وسلام، حتى أصابهم الغرور والطغيان والإستكبار وكفران النعم الإلهية، فأهلكهم اللَّه وشتّت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين.

فالتعبير إشارة إلى أنّ القحط والخوف كانا من الشدة وكأنّهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات، وأبدانهم فى تماس معه.

وعرض الحادثة ما هو إلّاتنبيه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أنّ الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) فى أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبیه للذین یجمعون المواد الغذائیة فی بیوتهم لاستعمالهم الخاص، ویملؤون مخازنهم إنتظاراً لارتفاع سعرها فی الأسواق حتی یفسد ویذهب هباءً من غیر أن یستفیدوا من بیعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا یخلو أی عمل مما ذکر من عقوبة إلهیة، وأقل ما یعاقبون به هو سلب تلک النعم عنهم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مَا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۵) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُکُمُ الْکَذِبَ هذَا حَلَالٌ وَ هذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ لَا یُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتَاعٌ قَلِیلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (۱۱۷) وَ عَلَی الَّذِینَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لکِنْ کَانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۹)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵

لا یفلح الکاذبون: بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن النعم الإلهیة ومسألة شکر النعمة، تأتی الآیات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعیة وغیر الواقعیة لتفصل بین الدین الحق وبین البدع التی احدثت فی دین اللَّه، وتشرع بالقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِیرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ» «۱».

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات الیوم لیس خافیاً علی أحد، فالمیتة مصدر لأنواع الجراثیم، والدم من أکثر مکوّنات البدن تقبّلًا للتلوّث بالجراثیم، وأمّا لحم الخنزیر فیعتبر سبباً للإصابة بالکثیر من الأمراض الخطرة.

أمّا فلسفة تحریم ما یذبح لغیر اللَّه فلیست صحیة، بل هی أخلاقیة ومعنویة.

فمن جهة یکون التحریم حرباً علی الشرک وعبادة الأصنام، ومن جهة اخری یکون دعوة إلی خالق هذه النعم.

ویستفاد من المحتوی العام للآیة والآیات التالیة أنّ الإسلام یوصی بالإعتدال فی تناول اللحوم، فلا یکون المسلم کالذین حرّموا علی أنفسهم تناول اللحم واکتفوا بالأغذیة النباتیة، ولا کالذین أحلّوا لأنفسهم أکل اللحوم أیّاً کانت کأهل الجاهلیة والبعض ممن یدّعی التمدّن فی عصرنا الحاضر، ممن یجیزون أکل کل لحم (کالسحالی والسرطان وأنواع الدیدان).

وفی نهایة الآیة سیاقاً مع الأسلوب القرآنی، ذُکرت الحالات والموارد الاستثنائیة، یقول: «فَمَنِ اضْطُرَّ». کأن یکون فی صحراء ولا یملک غذاء؛ «غَیْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

«باغ» أو الباغی: (من البغی) بمعنی «الطلب» ویأتی هنا بمعنی طلب اللذة أو تحلیل ما حرّم اللَّه. و «عاد» أو العادی: (من العدو) أی «التجاوز» ویأتی هنا بمعنی أکل المضطر لأکثر من حد الضرورة.

وتأتی الآیة التالیة لتطرح موضوع تحریم المشرکین لبعض اللحوم بلا سبب أو دلیل، والذی تطرّق القرآن إلیه سابقاً بشکل غیر مباشر، فتأتی الآیة لتطرحه صراحة حیث

---

(۱) «اهِلّ»: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنی إعلاء الصوت عند رؤیة الهلال، وباعتبار أنّ المشرکین کانوا إذا ذبحوا حیواناتهم للأصنام صرخوا عالیاً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب «اهِلَّ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶

تقول: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُکُمُ الْکَذِبَ هذَا حَللٌ وَهذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ». أی: إنّ ما جئتم به لیس إلّاکذبة صریحة أطلقتها ألسنتکم فی تحلیلکم أشیاء بحسب ما تهوی أنفسکم، وتحریمکم لأخری! (إشارة إلی الأنعام التی حرّمها البعض علی نفسه، والبعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسماً منها لأصنامه).

فهل أعطاکم اللَّه حقّ سنّ القوانین؟ أم أنّ أفکارکم المنحرفة وتقالیدکم العمیاء هی التی دفعتکم لإحداث هذه البدع؟ ... أوَ لیس هذا کذباً وافتراءاً علی اللَّه؟

ويحذّر القرآن فى آخر الآية بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ».

لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفتراء على أى إنسان، فكيف به إذا كان على اللّه عزّ وجل؟ فلا أقل والحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

وتوضّح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ويمكن أن تكون «مَتَاعٌ قَلِيلٌ» إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التى كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها.

ويطرح السؤال التالى: لماذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنّها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ».

وهو إشارة إلى ما ذكر فى الآية (۱۴۶) من سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

وحقيقة هذه المحرمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جرّاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم فى آخر الآيات مورد البحث: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وفى آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشّياً مع الاسلوب القرآنى، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وفى هذه الآية ملاحظتان:

أوّلًا: اعتبرت علة ارتكاب الذنب «الجهالة» والجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷

ثانياً: إنّ الآية لا تحدّد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكمّلًا للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر اللّه».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

كان إبراهيم لوحده امّة: كما قلنا مراراً بأنّ هذه السورة هى سورة النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم، والآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور للّه، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد، وأوّل قدوة للمسلمين عامة وللعرب خاصة، والآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التى كان يتحلّى بها إبراهيم عليه السلام.

۱- «إِنَّ إِبْرهِيمَ كَانَ أُمَّةً». إنّ «امّة» اسم مفعول يطلق على الذى تقتدى به الناس وتنصاع له. كان إبراهيم عليه السلام منبعاً لوجود امّة ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة «امّة».

نعم فقد كان إبراهيم أمّة وكان إماماً عظيماً، وكان رجلًا صانع امّة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئة اجتماعية خالية من أىّ موحّد.

۲- صفته الثانية فى هذه الآيات: أنّه كان «قَانِتًا لِلَّهِ».

۳- وكان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق اللّه، طريق الحق «حَنِيفًا».

۴- «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل كان نور اللّه يملأ كل حياته وفكره، ويشغل كل زوايا قلبه.

۵- وبعد كل هذه الصفات، فقد كان «شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ».

وبعد عرض الصفات الخمسة يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمة لها، فيقول:

۱- «اجْتَبَهُ» للنبوة وإبلاغ دعوته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸

۲- «وَهَدَيهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، وحفظه من كل انحراف، لأنّ الهداية لا تأتى لأحد عبثاً، بل لابدّ من توفّر الإستعداد والأهلية لذلك.

۳- «وَءَاتَيْنهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً». «الحسنة»: فى معناها العام كل خير وإحسان، فتشمل منح مقام النبوة، مروراً بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد وما شابهها.

۴- «وَأَنَّهُ فِى الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». ومع أنّ إبراهيم كان على رأس الصالحين فى الدنيا، فإنّه سيكون منهم فى الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وهذه دلالة على عظمة مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم فى دار الآخرة، ولِم لا يكون ذلك وقد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربّه حين قال: «رَبّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ».

۵- وختمت عطايا اللَّه عزّ وجل لإبراهيم عليه السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة، بأن جعل دينه عامّاً وشاملًا لما ما سيأتى بعده من أزمان- وخصوصاً للمسلمين- ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال اللَّه عزّ وجل: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا» (۱).

ويأتى التأكيد مرّة اخرى: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

وبملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم وأنّ المسلمين يتّبعون سنن إبراهيم عليه السلام فى كثير من المسائل ومنها إحترام يوم الجمعة، فلماذا اتّخذ اليهود يوم السبت عيداً لهم بدلًا من الجمعة ويعطلون فيه أعمالهم؟ إنّ آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ». أى: إنّ السبت وما حرّم فى السبت كان عقوبة لليهود، وقد اختلفوا فيه أيضاً، فمنهم مَن قبله ومنهم مَن أهمله.

وتقول بعض الروايات: أنّ موسى عليه السلام دعا قومه- بنى اسرائيل- لاحترام يوم الجمعة وتعطيل أعمالهم فيه، وهو دين إبراهيم عليه السلام إلّاإنّهم تعللوا، واختاروا يوم السبت، فجعله اللَّه عطلة لهم ولكن بضيق وشدّة، ولهذا لا ينبغى الإعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائياً وذا طابع جزائى، وأفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا فى يومهم

---

(۱) «الحنيف»: بمعنى الذى يترك الإنحراف ويتّجه إلى الإستقامة والصلاح. وبعبارة اخرى: يغضّ نظره عن الأديان والأوضاع المنحرفة ويتوجّه نحو صراط اللَّه المستقيم، الدين الموافق للفطرة، ولهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طيّاته إشارة خفيّة إلى أنّ التوحيد هو دين الفطرة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹

المنتخب هذا، فبعض إحترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب اللَّه. ويقول القرآن الكريم فى آخر الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (۱۲۶) وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

عشرة قواعد أخلاقية ... سلاح داعية الحق: حملت آيات السورة بين طيّاتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة ليّنة واخرى باسلوب تقريع وشدّة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدّة أكثر مما سبقها من الآيات المباركات. أمّا الآيات أعلاه والتى تمثّل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبيّن أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التى ينبغى التحصّن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقى، كما وتبيّن كيفية العقاب والعفو واسلوب الصمود أمام

مؤامراتهم وما شابه ذلک.

ویمکن تسمیة ذلک بالأصول التکتیکیة ومنهج المواجهة فی الإسلام ضد المخالفین، کما وینبغی العمل به کقانون کلّی شامل لکل زمان ومکان.

ویتلخص هذا البرنامج الربانی بعشرة اصول، تمّ ترتیبها وفقاً لتسلسل الآیات مورد البحث:

۱- «ادْعُ إِلَی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ»: فأوّل خطوة علی طریق الدعوة إلی الحق هی التمکّن من الاستدلال وفق المنطق السلیم، أو النفوذ إلی داخل فکر الناس ومحاولة تحریک وإیقاظ عقولهم، کخطوة اولی فی هذا الطریق.

۲- «وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»: وهی الخطوة الثانیة فی طریق الدعوة إلی اللَّه، بالاستفادة من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۰

عملیة تحریک الوجدان الإنسانی، وذلک لما للموعظة الحسنة من أثر دقیق وفاعل علی عاطفة الإنسان وأحاسیسه، وتوجیه مختلف طبقات الناس نحو الحق.

۳- «وَجَادِلْهُم بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ»: الخطوة الثالثه تختص بتخلیة أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فیه والأفکار المغلوطة لیکون مستعداً لتلقی الحق عند المناظرة.

وفی ذیل الآیة الاولی، یقول القرآن: «إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِیلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ».

فالآیة تشیر إلی أنّ وظیفتکم هی الدعوة إلی طریق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أمّا مسألة من الذی سیهتدی ومن سیبقی علی ضلاله، فعلم ذلک عند اللَّه وحده سبحانه.

۴- إنصبّ الحدیث فی الأصول الثلاثة حول البحث المنطقی والاسلوب العاطفی والمناقشة المعقولة مع المخالفین، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم یتقبّلوا الحق وراحوا یعتدون، فهنا یأتی الأصل الرابع: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ».

۵- «وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِّلصَّابِرِینَ». فی تفسیر العیاشی: إنّ الآیة نزلت یوم احد لمّا رأی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب (فشقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة کبده فجعلت تلوکه وجدعوا أنفه وأذنه) قال: «اللّهم لک الحمد وإلیک المشتکی وأنت المستعان علی ما أری». ثم قال: «لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن».- وعن ابن عباس قال قال رسول اللَّه: «لأمثلن بسبعین رجلًا منهم».- فأنزل اللَّه: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِّلصَّابِرِینَ». قال فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أصبر أصبر».

ربّما کانت تلک اللحظة من أشد لحظات حیاة النبی صلی الله علیه و آله ولکنّه تمالک زمام امور نفسه واختار الطریق الثانی، طریق العفو والصبر.

۶- «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُکَ إِلَّا بِاللَّهِ»: والصبر إنّما یکون مؤثّراً وفاعلًا إذا قصد به رضوانه تعالی ولا یلحظ فیه أیّ شیء دون ذلک.

۷- وإذا لم ینفع الصبر فی التبلیغ والدعوة إلی اللَّه، ولا العفو والتسامح، فلا ینبغی أن یحلّ الیأس فی قلب المؤمن أو یجزع، بل علیه الاستمرار فی التبلیغ بسعة صدر وهدوء أعصاب أکثر، ولهذا یقول القرآن الکریم فی الأصل السابع: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ».

۸- «وَلَا تَکُ فِی ضَیْقٍ مِّمَّا یَمْکُرُونَ»: فمهما کانت دسائس العدو العنید واسعة ودقیقة وخطرة فلا ینبغی لک ترک المیدان، لظنّک أن قد وقعت فی زوایة ضیّقة وحصار محکم، بل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۱

لابد من التوکل علی اللَّه، وسوف تفشل کل الدسائس وتبطل مفعولها بقوة الإیمان والثبات والمثابرة والعقل والحکمة.

و آخر آیة من سورة النحل تعرض الأمرین التاسع والعاشر حیث تقول: ۹- «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوا»: التقوی فی جمیع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوی فی مواجهة المخالفین بمراعاة اصول الأخلاق الإسلامیة عند المواجهة، فمع الأسیر لابد من مراعاة

أصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف والأدب والتورّع عن الكذب والإتهام، وفى ميدان القتال لابد من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلًا: ينبغى عدم الهجوم على العزّل من الأعداء، وعدم التعرض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشى والمزارع لأجل إتلافها، ولا يقطع الماء على العدو ... وخلاصة القول: تجب مراعاة اصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم إستثناءاً وليس قاعدة).

۱۰- «وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ». وإذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنّه أفضل اسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامى يرفدنا بعيّنات رائعة فى هذا المجال ... منها: موقف معاملة النبى صلى الله عليه و آله مع مشركى مكة بعد الفتح.

وبنظرة تأملية ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصلية والفرعية لُاسلوب مواجهة المخالفين، وأنّ هذه الاصول إنّما احتوت كل الاسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكل ما يؤدّى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابى فيها.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

«نهاية تفسير سورة النحل»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۲

۱۷ سورة الإسراء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۳

أسماء السورة: بالرغم من أنّ الإسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلّا أنّ لها أسماء اخرى مثل «الإسراء» و «سبحان».

ومن الواضح أنّ ثمة علاقة بين أى اسم من أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهى «بنى إسرائيل» لأنّ هناك قسماً مهماً فى بداية السورة ونهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

وإذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلك يعود إلى الآية الاولى فيها التى تتحدث عن إسراء (ومعراج) النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

وأمّا تسميتها ب «سبحان» فإنّ ذلك يعود إلى الكلمة الاولى فى السورة المباركة.

محتوى السورة: هذه السورة مكية وفق القول المشهور بين المفسرين، لذا فإنّ محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكية.

وبالامكان فرز المحاور المهمة الآتية التى يدور حولها مضمون السورة:

۱- الإشارة إلى أدلة النبوة الخاتمة وبراهينها، وفى مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.

۲- ثمة بحوث فى السورة ترتبط بقضية المعاد.

۳- تتحدّث السورة فى بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۴

۴- تتعرض السورة إلى حرية الاختيار لدى الإنسان وأنّ الإنسان غير مجبر فى أعماله، وبالتالى فإنّ على الإنسان أن يتحمّل مسؤولية تلك الحريّة من خلال تحمّله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

۵- تبحث السورة قضية الحساب والكتاب فى هذه الدنيا، لكى يعى الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله فى اليوم الآخر.

۶- تشير إلى الحقوق فى المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب.

۷- تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس فى المكيال»، و «التكبر»، و «إراقة الدماء».

۸- فى السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة اللَّه تعالى

۹- تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأنّ الذنوب تتحوّل إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

۱۰- تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

۱۱- تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم فى معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

۱۲- تبحث السورة فى المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

۱۳- تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان وإغواءاته، وتنبههم إلىالمسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

۱۴- تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.

۱۵- أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سورة الإسراء فى مضمونها ومحتواها العقائدى والأخلاقى والإجتماعى لوحة متكاملة ومتناسقة لسمو وتكامل البشر فى المجالات المختلفة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة بنى إسرائيل فى كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۵

وينبغى أن يلاحظ أنّ التلاوة ينبغى أن تقترن بالتفكر فى معانيها والتأمل فى مفاهيمها، وأن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم فى سلوكه.

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱)

معراج النبى صلى الله عليه و آله: الآية الاولى فى سورة الإسراء تتحدّث عن إسراء النبى صلى الله عليه و آله أى سفره ليلًا من المسجد الحرام فى مكّة المكرمة إلى المسجد الأقصى (فى القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه صلى الله عليه و آله إلى السماء. وقد لوحظ فى هذا السفر أنّه تمّ فى زمن قياسى حيث إنّه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخارقاً للعادة.

السورة المباركة تبدأ بالقول: «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ».

وقد كان القصد من هذا السفر الليلى الإعجازى هو «لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا».

وبالرغم من أنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان عارفاً بعظمة اللَّه سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازى أن تمتلىء روح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أكثر بدلائل العظمة الربانية، وآيات اللَّه فى السماوات، ولتجد روحه السامية فى هذه الآيات زخماً إضافياً يوظّفه صلى الله عليه و آله فى هداية الناس إلى ربّ السماوات والأرض.

ثم خُتمت الآية بالقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وهذه إشارة إلى أنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يختر رسوله ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلّابعد أن اختبر استعداده لهذا الشرف ولياقته لهذا المقام، فاللَّه تبارك وتعالى سمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامى الذى اختاره له فى الإسراء والمعراج «۱».

---

(۱) من‌المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عندما كان فى مكة أسرى به اللَّه تبارك وتعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الربانية وآيات اللَّه الكبرى فى فضاء السماوات، ثم عاد صلى الله عليه و آله فى نفس الليلة إلى مكة المكرمة.

والمعروف أيضاً أنّ سفر الرسول صلى الله عليه و آله فى الإسراء والمعراج قد تمّ بجسم رسول اللَّه وروحه معاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۶

إنّ تعبير «أسرى» فى الآية يشير إلى وقوع السفر ليلًا. وبالرغم من أنّ كلمة «ليلًا» جاءت فى الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلّاأنّها تريد أن تبيّن أنّ سفر الرسول صلى الله عليه و آله قد تمّ فى ليلة واحدة فقط على الرغم من أنّ المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدّر بأكثر من مائة فرسخ، هذا السفر يقع فى ليلة واحدة فقط.

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (۴) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْداً مَفْعُولًا (۵) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨)

بعد أن أشارت الآية الاولى فى السورة إلى معجزة إسراء النبى صلى الله عليه و آله كشفت آيات السورة الاخرى عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق، فى هذا الإتجاه انعطفت الآية الاولى- من الآيات مورد البحث- على قوم موسى، لتقول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّ تأريخ النبوّات واحد، وإنّ موقف المعاندين واحد أيضاً، وأنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السلام. تقول الآية أوّلًا: «وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ».

وصفة هذا الكتاب أنّه: «وَجَعَلْنَهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ». والكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذى نزل على موسى عليه السلام هدى لبنى إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثة الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۷

إنّ التوحيد فى العمل هو واحدٌ من معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكىء على أحد سوى اللَّه.

ومن أجل أن تحرّك الآية التالية عواطف بنى إسرائيل وتحفّزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصاً نعمة نزول الكتاب السماوى، فإنّها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول:

«ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ». ولا تنسوا: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا».

والآية تخاطب بنى إسرائيل بأنّهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم فى الشكر لأنعم اللَّه.

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل المليء بالأحداث، فتقول:

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا».

والمقصود من «الأرض» فى الآية- بقرينة الآيات الاخرى- هى أرض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآية التى تليها تفصّل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل والحوادث التى تلى ذلك على أنّها عقوبة إلهية فتقول: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولهُمَا» وإرتكبتم ألوان الفساد والظلم والعدوان «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ».

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: «فَجَاسُوا خِللَ الدِّيَارِ». وهذا الأمر لا مناص منه: «وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا».

ثم تشير بعد ذلك إلى أنّ الألطاف الإلهية ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا».

وهذه المنّة واللطف الإلهى بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتتركوا القبائح والذنوب لأنّه: «إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا».

إنّ الآية تعبّر عن سنّة ثابتة، إذ إنّ محصلة ما يعمله الإنسان من سوء أو خير تعود لنفسه.

تقول الآيـة فى وصف المشـهد الثانى أنّه حين يحين الوعـد الإلهى سوف تغطّيكم جحافل من المحاربين ويحيق بكم البلاء إلى درجة أنّ آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْأَخِرَةِ لِيَسُوا وُجُوهَكُمْ». بل ويأخـذون منكم حتى بيت المقدس: «وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۸

وسوف لا يكتفون بذلك بل سيحتلّون جميع بلادكم ويدمّرونها عن آخرها:

«وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا». وفى هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهية مفتوحة: «عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ». «وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا». أى: إن عدتم لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخرة مصيركم جهنم:

«وجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» «۱». الإفسادان التأريخيان لبنى إسرائيل: تحـدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبنى إسرائيل، يقود كـل منهمـا إلى الطغيـان والعلو، وقـد لاحظنـا أنّ اللّه سـلّط على بنى إسـرائيل عقب كـل فسـاد، رجالًـا أشـدّاءً شُجعاناً يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوّهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزاء الأخروى الذى أعدّه اللّه لهم.

يستفاد من تاريخ بنى إسرائيل بأنّ أوّل من هجم على بيت المقدس وخرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصـر» حيث بقى الخراب ضارباً فيه لسبعين عاماً، إلى أنّ نهض اليهـود بعـد ذلـك لإعمـاره وبنـائه، أمّـا الهجـوم الثـانى الـذى تعرّض له، فقـد كـان من قبـل قيصـر الروم «أسبيانوس» الذى أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل. وقد تمّ ذلك فى حدود مائة سنة قبل الميلاد.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتى «نبوخذ نصر» و «أسبيانوس».

إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (۱۲)

---

(۱) «حصير»: مشتقة من «حصر» بمعنى الحبس، وكل شىء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير» ويقال للحصير العادية حصيراً لأنّ خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۹

أقصـر الطرق للهداية والسـعادة: الآيات السابقة تحدّثت عن بنى إسـرائيل وكتابهم السماوى «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهيـة ليلقوا بعض جزائهم فى هـذه الحياة الـدنيا، والباقى مـدّخر ليوم القيامة. وفى هذا المقطع من الآيات، إنتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوى للمسلمين، وآخر حلقة فى الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلًا: «إِنَّ هذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ».

إنّ معنى الآية أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثّل أقصر وأفضل طرق الإستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإنّ الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هى التى توافق بين الإعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو اللّه.

أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التى تسود المجتمع.

وأخيراً فـإنّ المنهـج الأقـوم بالنسـبة للنظم والسـلطات الحاكمـة، هو كـل ما يـدفعها إلى إقامـة العـدل، والـدعوة إلى إشاعـة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالاولى يكون حالها

كما يقول تعالى: «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا».

أمّا الفئة الثانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والإستهزاء.

الآية التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث وتشير إلى احدى العلل المهمة لعدم الإيمان وتقول بأنّ عجلة الإنسان وتسرّعه وعدم اطلاعه على الامور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له.

تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ». لماذا؟: «وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا».

إنّ استعجال الإنسان واندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية لُلامور بحيث إنّه لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة مما يفوّت عليه تشخيص

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۰

منفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المضطرب يَضيع عليه وجه الحقيقة، ويتغير مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة الضارّة. وهكذا ينتهى الإنسان- نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه فى رؤية الخير والحقيقة- إلى أن يطلب من اللَّه الشر، تماماً كما يطلب منه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الإضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية.

فى محاسن البرقى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد».

طبعاً هناك باب فى الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففى الكافى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ اللَّه يحبّ من الخير ما يعجّل».

إنّ العجلة المذمومة هى التى تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ فى الروايات: «سارعوا فى عمل الخير». أى: بعد أن يثبت أنّ هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويف.

الآية التى بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثالًا على معرفة اللَّه والتمعّن بآياته، والمثال أيضاً يفيد معنى التأمل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجّل والتسرّع. الآية تقول أوّلًا: «وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ». ثم: «فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً». ولنا فى ذلك هدفان: الأوّل: «لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» حيث تنطلقون نهاراً فى الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهية، وتنعمون ليلًا بالراحة والهدوء والإستقرار. والهدف الثانى فهو: «وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» لكى لا تبقى شبهة لأحد «وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلًا».

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (۱۴) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (۱۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۱

لقد تحدّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التى تتصل بالمعاد والحساب، لذلك فإنّ الآيات التى نبحثها الآن تتحدّث عن قضية «حساب الأعمال» التى يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك فى يوم المعاد والقيامة حيث يقول تعالى: «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَهُ طَئِرَهُ فِى عُنُقِهِ». «الطائر»: يعنى الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كان سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون فى ذلك على طبيعة الحركة التى يقوم بها الطير. فمثلًا إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم يعتبرون ذلك فألًا حسناً وجميلًا، أمّا إذا تحرّك الطير من اليُسرى فإنّ ذلك فى عُرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيّء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر.

إنّ القرآن يبيّن أنّ التفؤل الحسن والسيّء أو الحظ النحس والجميل، إنّما هى أعمالكم لا غير، والتى ترجع عهدتها إليكم وتتحملون على عاتقكم مسؤولياتها، وهذه الأعمال لا تنفصل عنكم فى الدنيا ولا فى الآخرة.

يقول القرآن بعد ذلك: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ كِتَابًا يَلْقهُ مَنشُورًا».

والمقصود من «الكتاب» فى الآية الكريمة هى صحيفة الأعمال لا غير، وهى نفس الصحيفة الموجودة فى هذه الدنيا والتى تثبت فيها الأعمال، ولكنها هنا (فى الدنيا) مخفية عنّا ومكتومة، بينما فى الآخرة مكشوفة ومعروفة.

فى هذه اللحظة يقال للإنسان: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

يعنى أنّ المسألة- مسألة المصير- بدرجة من الوضوح والعلنية والإنكشاف، بحيث لا مجال لانكارها.

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ» قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها».

الآية التى بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هى:

۱- أوّلًا تُقرر أنّ «مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ» حيث تعود النتيجة عليه.

۲- ثم تُقرر أيضاً أنّ «وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

وقرأنا نظير هذين الحكمين فى الآية السابعة من هذه السورة فى قوله تعالى: «إِنْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۲

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا». ۳- ثم تنتقل الآية لتقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . «الوزر»: بمعنى الحمل الثقيل؛ وأيضاً تأتى بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضاً- حمل معنوى ثقيل على عاتق الإنسان.

طبعاً هذا القانون الكلى الذى تُقرره آية «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (۲۵) من سورة النحل التى تقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم فى واقع الأمر يتحملون أوزارهم وذنوبهم.

۴- الحكم الرابع يتمثل فى قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (۱۶) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۱۷)

مراحل العقاب الإلهى: إنّ موضوع البحث فى هذه الآيات يُكمّل ما كنّا بصدد بحثه فى نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة اخرى، إذ تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنهَا تَدْمِيرًا» «۱».

إنّ الآيات التى كُنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهى لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو امّة، من دون أن تكون هناك حجة وبيان للتكليف من قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام والآية التى نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل ولكن بطريقة اخرى.

إنّ اللَّه لا يُعاقب أو يؤاخذ أحداً بالعذاب، قبل أن يتمّ الحجة عليه، وقبل أن يتّضح ويستبين تكليفه، ففى البداية يضع اللَّه تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا والآخرة. أمّا إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا الأوامر والنواهى الربانية، فسيحيق بهم العذاب، ويؤدّى إلى هلاكهم.

---

(۱) بالرغم من أنّ كلمة «قول» لها معنى واسع ولكنّها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۳

إضافة إلى ذلك، فإنّ التعبير فى الآية الكريمة ينطوى على إشارة مهمة، هى أنّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن اللّه تعالى، والذين يعيشون حياةً مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء والمفاسد.

الآية التى بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصل عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ» وفقاً لهذه القاعدة والسنّة، ثم تضيف بعد ذلك: «وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». أى: إنّ ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التى لا تنام لرب العالمين.

أمّا لماذا أكّدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السلام؟ فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياة قبل نوح عليه السلام كانت حياة بسيطة، والاختلافات التى تقسّم المجتمعات إلى مُترف ومستضعف، كانت بسيطة وضئيلة، لذلك فالعذاب الإلهى لم يشملهم بكثرة.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَ سَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (۱۹) كُلًّا نُمِدُّ هؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (۲۰) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (۲۱)

طلّاب الدنيا والآخرة: لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر اللّه تعالى، وكيفية هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات- التى نحن بصددها الآن- تشير إلى سبب التمرّد على شريعة اللّه، والعصيان لأوامره، وهذا السبب هو حبّ الدنيا، إذ يقول تعالى: «مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا».

«العاجلة»: تعنى النعم الزائلة، أو الحياة الزائلة.

والظريف فى الآية، أنّها لا تقول: إنّ من يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كل همّه، يحصل على كل ما يريد، بل قيّدت ذلك بشرطين هما: أوّلًا: سيحصل على جزء مما يريده؛ وأنّ هذا الجزء هو المقدار الذى نريده نحن، أى «مَا نَشَاءُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۴

ثانيا: إنّ جميع الأشخاص- رغم سعيهم الدنيوى- لا يحصلون على هذا المقدار، وإنّما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: «لِمَن نُّرِيدُ».

وبناءاً على ذلك، فلا كل طلّاب الدنيا يحصلون عليها، ولا اولئك الذين يحصلون على شىء منها، يحصلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضّح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدّون ليلًا ونهاراً ولكنهم لا يحصلون على شىء.

وما أكثر الذين لهم امنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلّاعلى القليل منها.

والجدير بالإنتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، والتى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآية، بكلمتى «مَذْمُومًا» و «مَّدْحُورًا» إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثانى يعنى الإبتعاد عن رحمة الخالق، وإنّ نار جهنّم تمثّل العقاب الجسدى لهم، أما «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للإثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة- وهى أسلوب قرآنى مميّز- يتوضّح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: «وَمَنْ أَرَادَ الْأَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولِئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُورًا».

بناءاً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هى:

أوّلًا: إرادة الإنسان: وهى الإرادة التى ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة باللذّات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية.

ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة فى المجال الفكرى والروحى للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، وتدفعه للحركة، وبذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال.

ثالثاً: إنّ كل ما سبق من حديث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان؛ الإيمان الثابت القوى. لأنّ أىّ تصميم وجهد، إذا أريد له أن يُثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان باللّه لا غير.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظانّاً أنّ نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها وطلّابها فقط، وأنّ طلّاب الآخرة وأهلها محرومون منها، لذلک فإنّ الآية التى بعدها تقف

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۵

أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: «كَلًّا نُّمِدُّ هؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ» لتضيف بعدها بقليل: «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا».

هذه النعم هى تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التى تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر ولكن هناک نعم لا تحصى وراء ذلک تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

الآية التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص وتقول: كما أنّ السعى فى هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلک الأمر فى الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوى محدود، لأنّ الدنيا هى نفسها محدودة، وأمّا الآخرة- ولكونها غير محدودة- فإنّ تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: «انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا».

هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفى نقيض؟ إنّنا نرى فى كثير من الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ولكن، وبرغم الأهمية الكبرى التى تختص بها النعم المادية، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير اخرى تحقّرها وتحطّ منها بقوة.

هذه المعانى المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً فى الأحاديث والروايات الإسلامية.

إنّه إذا تمّت الاستفادة من مواهب الدنيا وعطاياها التى تُعتبر من النعم الإلهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً فى نظام الخلق والوجود، وتمّت الاستفادة فى سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوى، فإنّ ذلک يعتبر أمراً جيّداً، وتمتدح معه الدنيا، أمّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغى والظلم.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا (۲۲) وَ قَضَى رَبُّكَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَ لَا تَنْهَرْهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً (۲۴) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (۲۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۶

أحكام إسلامية مهمة: الآيات التى نحن بصدد بحثها هى بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، والتى تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذى يعتبر الأساس والأصل لكل النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبنّاءة. فى البداية تبدأ هذه الآيات بالتوحيد وتقول: «لَّاتَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ».

إنّها لم تقل: لا تعبد مع اللَّه إلهاً آخر، بل تقول: «لَّاتَجْعَلْ» هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعنى: لا تجعل معبوداً آخر مع اللَّه لا فى العقيدة، ولا فى العمل، ولا فى الدعاء، ولا فى العبودية. بعد ذلک توضّح الآية النتيجة القاتلة للشرک: «فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا».

إنّ استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز. ومن هذا التعبير يمكن أن نستفيد أنّ للشرک ثلاثة آثار سيئة جدّاً فى وجود الإنسان، هى:

۱- الشرک يؤدّى إلى الضعف والعجز والذلة.

۲- الشرک موجب للذم واللوم، لأنّه خط انحرافى واضح فى قبال منطق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهية.

۳- الشرک يكون سبباً فى أن يترک اللَّه سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التى يعبدها، فإنّهم يصبحون «مخذولين» أى بدون ناصر ومعين.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدى، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية- بعد أن تؤكّد مرّة اخرى على التوحيد- تقول: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدى أكثر من كلمة «أمر» وهى تعنى القرار والأمر المحكم الذى لا نقاش فيه، وهذا أوّل تأكيد فى هذه القضية. أمّا التأكيد الثانى الذى يدل على أهمية هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «إحسان» والتى تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أم كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحساناً» نكرة، لتأكيد أهميتها وعظمتها.

ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلًا بالإحسان إلى الوالدين فتقول: «إِمَّا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۷

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» بحيث يحتاجان إلى الرعاية والإهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأى شكل من إشكال المحبة واللطف ولا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «اف»: «فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُف «۱» وَلَا تَنْهَرْهُمَا». بل: «وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». وكن أمامهما فى غاية التواضع «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا».

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة اخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنّين وضعيفين وكهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عندما كُنت صغيراً كُنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصّرا فى مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصّر أنت فى مداراتهم ومحبتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، وعن قصد وعلم فى أحيان اخرى، لذا فإنّ الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: «رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ». وهذه إشارة إلى أنّ علم اللّه ثابت وأزلى وأبدى وبعيد عن الإشتباهات، بينما علمكم أيّها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن جهل، ثم تاب بعد ذلك وأناب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنّه سيكون مشمولًا لعفو اللّه تعالى: «إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا».

إحترام الوالدين فى المنطق الإسلامى: إنّ الإسلام يُعطى التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، إلّافى قضايا نادرة اخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

أ) فى أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، وهذا الإقتران يدل على مدى الأهمية التى يوليها الإسلام للوالدين.

ب) إنّ مسألة إحترام الوالدين ورعاية حقهما من المنزلة بمكان، حتى أنّ القرآن

---

(۱) إنّ هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذى يخرج من الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من‌الغبار الموجود عليها. إنّ الآية تريد أن تقول لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۸

والأحاديث والروايات الإسلامية، تؤكّدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مشركين. ج) رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر اللّه تعالى.

د) القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك.

ه) بالرغم من أنّ الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلامية، إلّاأنّ رعاية الوالدين تعتبر أهم منه، بل لا- يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذية

الوالدين.

و) فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إيّاكم وعقوق الوالدين فإنّ ريح الجنة توجد من ميسرة ألف عام ولا يجدها عاقّ».

وفى الكافى عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «سأل رجل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشى بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له». (أى:

لا يفعل شيئاً يؤدّى إلى أن يسبّ الناس والديه).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (٢٨) وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)

رعاية الإعتدال فى الإنفاق والهبات: مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التى لها علاقة بحقوق القربى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغى أن يكون بعيداً عن كل نوع من أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: «وَءَاتِ ذَاالْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا».

إنّ كلمة «ذى الْقُرْبَى لها مفهوم عام وتشمل كل الأرحام والمقربين، الّا أنّ أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله هم من أوضح مصاديق القربى له والرسول فى طليعة المخاطبين بالآية الكريمة.

إنّ «التبذير» هو هدر المال فى غير موقعه ولو كان قليلًا، بينما إذا صُرف فى محلّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٧٩

الآية التى بعدها هى لتأكيد النهى عن التبذير: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيطِينِ وَكَانَ الشَّيْطنُ لِرَبّهِ كَفُورًا».

لأنّ اللَّه أعطاه قدرةً وقوّةً وإستعداداً وذكاءاً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد من هذه الامور فى غير محلّها، أى فى طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ثم إنّ استخدام «إخوان» تعنى أنّ أعمالهم متطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهة، أو أنّهم قرناء وجلساء للشيطان فى الجحيم.

ثم أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفى هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرف بالنحو الآتى: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا».

«ميسور»: مشتقة من «يسر» وهى بمعنى الراحة والسهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالإحترام والمحبة.

الإعتدال هو شرط فى كل الامور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ».

وهذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغى أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأنّ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بُخلًا وخشية من الإنفاق، ولكن فى نفس الوقت تقرّر الآية أنّ بسط اليد لا ينبغى أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول فى الصرف والبذل والعطاء، حتى لا ينتهى المصير إلى الملامة والإبتعاد عن الناس: «وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا».

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الافضل أن يعطيهم اللَّه ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». إنّه

اختبار لنا، فاللَّه قادر على كل شـىء، ولكنه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السـخاء والتضـحية والعطاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس فى حالة الكفاية وعدم الحاجة فإنّ ذلك يقود إلى الطغيان والتمرّد «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَءَاهُ اسْتَغْنَى ؛ لذلك من المفيد أن يبقوا فى حـد معين من الحاجـة. هـذا الحـد لاـ يسـبب الفقر ولاـ الطغيان، من ناحيـة اخرى يرتبط التقـدير والبسط فى رزق الإنسان بمقدار السعى وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨٠

المشيئة الإلهيـة ببسط الرزق وتقـديره لمن يشاء، وهـذا دليل الحكمـة، إذ تقضـى الحكمـة بزيادة رزق من يسـعى ويبذل الجهد، بينما تقضى بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعياً.

وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٣٣) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣۴) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣۵)

ستة أحكام مهمة: فى متابعة للأحكام الإسلامية التى أثارتها الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية اخرى وردت فى ست آيات.

أوّلًا: تشير الآيـة إلى عمل قبيـح وجاهلى هو من أعظم الـذنوب، فتنهى عنه: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلقٍ». فرزق هؤلاء ليس عليكم «نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ». أمّا علّة الحكم فهى: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطًا كَبِيرًا».

هـذه الآيـة تفيد أنّ الوضع الاقتصادى للعرب فى الجاهلية كان صـعباً وسيّئاً. بحيث إنّهم كانوا يقتلون أبناءهم فى بعض الأحيان خوف العيلـة والفقر، وهناك كلام بين المفسـرين فيما إذا كان العرب فى الجاهليـة يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضاً خوفاً من الفقر.

وفى الوقت الـذى نسـتغرب فيه ارتكـاب الجـاهليين لهـذه الجرائم بحق النوع البشـرى، فـإنّ عصـرنا الحاضـر- وفى أكثر مجتمعاته رُقيّاً وتقـدّماً- يعيـد تكرار هـذه الجريمـة ولكن بأسـلوب آخر، إذ أنّ العمليـات الواسـعة فى إسـقاط الجنين وقتله خوفاً من الضائقـة المالية وازدياد عدد السكان، هى نموذج آخر للقتل.

ثانياً: الآية التى بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨١

لم تقـل الآيـة: لاـ تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هـذا العمل الشائن، وهـذا الاسـلوب فى النهى فضـلًا عمّا يحمله من تأكيـد، فإنّه يوضّـح أنّ هناك مقـدمات تجر إلى الزنا ينبغى تجنّبها وعـدم مقاربتها، فخيانـة العين تعتبر واحدة من المقدمات، والسـفور والتعرّى مقدمة اخرى، الكتب السيئة والأفلام الملوّثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كل واحدة مِنها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعنى خلوة المرأة والرجل الأجنبى فى مكان واحد ولوحدهما) يعتبر عاملًا فى إثارة الشهوة.

وأخيراً فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصـة مع ملاحظة الصـعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هى من العوامل التى قد تؤدّى إلى الزنا.

والآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، ولكنّا نرى فى الأحاديث والروايات نهياً مفصّلًا عن كل واحدة من هذه المقدمات.

فلسفة تحريم الزنا: يمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل فى فلسفة تحريم الزنا، هى:

١- شـياع حالة الفوضى فى النظام العائلى، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التى تختص بكونها سبباً للتعارف الاجتماعى، بل إنّها تكون سبباً لصيانة الأبناء.

إنّ العلاقـات الاجتماعيـة القائمـة على أسـاس العلاقات العائليـة سـتتعرض للانهيار والتصـدّع إذا شاع وجود الابناء غير الشـرعيين «أبناء

الزنا».

وعلاوة على ذلک، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الاسرى الذى يعتبر عاملًا فى الحدّ من الجريمة فى المجتمع الإسلامى، وحينئذ يتحوّل المجتمع الإنسانى بالزنا إلى مجتمع حيوانى تغزوه الجريمة والقساوة من كل جانب.

۲- لقد أثبت العلم ودلّت التجارب على أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض والمآسى الصحية وكل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز فى المجتمعات المعاصرة، ونتائجها الصحية والنفسية المدمّرة).

۳- يجب أن لا ـ ننسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة فى تأسيس الحياة على أساس تحقيق الإستقرار الفكرى والأنس الروحى للزوجين. وأمّا تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهى آثار طبيعية للزواج، وكل هذه الامور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعيّة الجنسية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۲

ثالثاً: الحكم الآخر الذى تشير إليه الآية التى بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحريم قتل النفس حيث تقول: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ».

إنّ الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل وإراقة الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول- باطمئنان-: إنّنا لا نرى أىّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناک حالات ينتفى معها إحترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلک فإنّ الآية بعد أن تُثبت حرمة الدم كأصل، تشير للإستثناء بالقول: «إِلَّا بِالْحَقّ».

إنّ حرمة دم الإنسان فى الإسلام لا تختص بالمسلمين وحسب، بل تشمل غير المسلمين أيضاً من غير المحاربين، والذين يعيشون مع المسلمين عيشة مُسالمة، فإنّ دماءهم- أيضاً- وأعراضهم وأرواحهم مصونة ويحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلک إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتيل فتقول: «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سُلْطَانًا». ولكن فى نفس الوقت ينبغى لولى المقتول أن يلتزم حدّ الإعتدال ولا يسرف «فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا». إذ ما دام ولى الدم يتحرّک فى الحدود الشرعية فإنّه سيكون مورداً لنصرة اللَّه تعالى.

والنهى عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائداً فى الجاهلية، واليوم أيضاً يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يُقتل فرد من قبيلة معينة، فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعًا: الآية التى بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أنّ الآية استخدمت نفس اسلوب الآية التى سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنّما قالت: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ».

وفى هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يُهدر ويكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه قيّم، لذلک استثنت بقوله: «إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ». وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سن الرشد ويستطيع فكرياً واقتصادياً أن يكون قيّماً على نفسه وأمواله «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۳

خامساً: تشير الآية بعد ذلک إلى الوفاء بالعهد فتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْولًا». إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادى والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام

الاجتماعى وستحل الفوضى

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس فى ذلك ومحاربة التطفيف فى الميزان حيث تقول الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».

وعادة، فإنّ الحق والعدل والنظام والحساب، كل هذه الامور تعتبر أصولًا أساسية للحياة، بل وتدخل فى نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل- خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف فى الميزان- يؤدّى إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الإقتصادى بين الناس.

«قسطاس»: بكسر القاف أو ضمّها على وزن «مقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنّها كلمة عربية.

وهناك من يقول بأنّها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفّة الميزان.

وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (۳۶) وَ لَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (۳۷) كُلُّ ذلِکَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَكْرُوهاً (۳۸) ذلِکَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (۳۹) أَ فَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً (۴۰)

الإنقياد للعلم: فى الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الاصول والأحكام الإسلامية وفى الآيات التى نبحثها الآن نلتقى مع آخر مجموعة من سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدّة أحكام مهمة:

أوّلًا: فى البداية ينبغى للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة فى كل الامور ويجعل العلم رائده

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۴

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ». وفى النهاية تعلّل الآية عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤلًا».

والسؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنّه لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يُسأل عن الأفكار الخاطئة التى تدخل فى الأحكام الخاطئة.

ثانياً: الكبر والغرور: الآية التى بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وتنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبى صلى الله عليه و آله بالقول: «وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا» «۱». وهذه إشارة إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذى يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكى يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم فى السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: «إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا». إذ مثل هؤلاء كالنملة التى تمشى على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلّا أن الصخرة تسخر من حماقتها.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية، وما ذكر فى القرآن الكريم أنّ التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربة عن اللَّه وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ فى الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والإرتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

البرنامج الحياتى العملى لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقى فى هذا المجال.

ففى سيرة الرسول صلى الله عليه و آله نرى أنّه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه وهو راكب.

ونقرأ- أيضاً- أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء. وقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يلتزم هذا السلوك فى كل مواقفه حتى عند فتح مكة.

وفى سيرة الإمام على عليه السلام نقرأ أنّه كان يجلب الماء إلى البيت، وفى بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا فى سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنّه عليه السلام حج إلى بيت اللّه عشرين مرّة مشياً على

(۱) «مَرَح»: على وزن فَرَح، وهى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۵

الأقدام، والنجائب (المحامل والدواب) تقاد بين يديه، وكان عليه السلام يبيّن أنّ هذا العمل تواضع للّه تعالى.

أمّا الآيـة التى بعـدها فهى تؤكّد على ما تمّ تحريمه فى الآيات السابقـة كالشـرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصـرف فى مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيث تقول الآية: «كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا».

ومن هـذا التعبير يتّضـح أنّ اللّه سـبحانه وتعـالى ليس فقـط لايجبر الإنسان على الـذنب، وإنّما لا يريـد له (بمعنى لا يرغب ولا يَود) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلّا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد اللّه سبحانه وتعالى على كراهيه هذه الذنوب.

ثالثاً: لا تكن مشـركاً: من أجل التأكيد أكثر على أنّ كل هذه التعليمات إنّما تصدر من الوحى وتتسم بالحكمة، تقول الآية: «ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

إنّ هـذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هى ثابتة عن طريق الوحى الإلهى. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أنّ الإنسان لا يسـتطيع فى كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحى هو المجال الوحيد لمصداقية دركها والإيمان بها.

بعـد ذلـك ينتهى الحـديث عن مجموع هـذه الأحكام بنفس البدايـة التى انطلق منها، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ». لماذا؟ لأنّ المصـير سـيكون «فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا». إنّ الشـرك هو أساس جميع الإنحرافات والجرائم والـذنوب، لذلك فإنّ هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

آخر آيـة- من الآيات التى نبحثها- تشـير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشـركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأنّ الملائكة هم بنات اللّه، فى حين أنّهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها فى بيت يؤدّى إلى سوء الحظ. القرآن يُساير هذا المنطق فيقول لهم: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلِكَةِ إِنثًا».

إنّ البنات- بـدون شك- كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجـد أى تفاوت بينهم فى القيمـة الإنسانية. هدف القرآن هو مقابلتهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربّكم ما تحسبوه عاراً لكم؟

بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا». إذ هذا الكلام لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۶

يتلاءم مع أى منطق ويعتبر ضعيفاً من عدّة جهات، هى: ۱- إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدّس، لأنّه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصـفات الجسـمانية، ولا يحتاج فى بقائه إلى النسل. لـذا فالإعتقاد بهـذا الأمر يـدل على عـدم المعرفة بالصفات الإلهية.

۲- كيف تعتقـدون بأنّ أولاد اللّه كلّهم بنات، فى حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانـة واحتراماً من الأولاد؟ هـذا الإعتقاد السـفية يعتبر إهانة اخرى إلى مقام اللّه تبارك وتعالى.

۳- هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة اللّه الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟

وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴۱) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا

(۴۲) سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (۴۳) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۴)

كيف يفرّون من الحق؟ كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلق بقضيتى التوحيد والشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وقاطعية أكبر، ففى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

«صرّف»: مشتقّة من «تصريف» وتعنى التغيير والتحويل، وكونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة، وبما أنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة وفنوناً كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى والفطرى أو التهديد والترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوع فى هذا المقام.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: إذاً ما الفائدة من ذكر كل ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصه، ولكنه للمجتمع كافة، وطبيعى أنّ جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتّبع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۷

طريق الحق إذا استبانت له أدلته كما فى هذا النوع من الأدلة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدّى بمجموعة اخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد والذى يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنبى صلى الله عليه و آله: قل لهم: «قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا».

وبما أنّ كل صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته وتكميلها، لذا فإنّ وجود عدّة آلهة يؤدّى إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة فى عالم الوجود.

وبما أنّ كلام المشركين وعباراتهم توحى بأنّهم نزلوا فى إدراكهم للّهعزّ وجلّ إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

ثم لأجل إثبات عظمة الخالق وأنّه منزّه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدّسة إذ تقول: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ». ثم تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا- يقتصر على ما هو موجود فى السماوات والأرض، وإنّما ليس هناك موجود إلّاويسبّح ويحمد اللّه، ولكن لا تدركون تسبيحهم: «وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ». ومع ذلك:

«إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا». أى: لا يؤاخذكم ولا يعاقبكم بسبب كفركم وشرككم مباشرة، ولكن يمهلكم بالقدر الكافى، ويفتح لكم أبواب التوبة ويتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (۴۷) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۴۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزل قوله «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ» الآية فى قوم كانوا يؤذون

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۸

النبى صلى الله عليه و آله بالليل إذا تلا القرآن وصلّى عند الكعبة، وكانوا يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال

اللَّه سبحانه بينه وبينهم حتى لاـ يؤذوه. وروى- فى تفسير الكبير- عن ابن عباس، أنّ أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه و آله ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدرى ما يقول محمّد غير أنّى أرى شفتيه تتحركان بشىء. وقال أبو سفيان: إنّى لأرى بعض ما يقوله حقّاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ ...».

التّفسير

المغرورون وموانع المعرفة: بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إنّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا- إذن- لا يقبل المشركون هذه الحقيقة ولا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التى نبحثها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الاولى: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا». وهذا الحجاب والساتر هو نفسه التعصب واللجاجة والغرور والجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصدّ حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم ولا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد والمعاد وصدق الرسول فى دعوته وغير ذلك.

أمّا الآية التى بعدها فتقول: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا». أى:

إنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكى لا يفهموا معناه، وجعلنا فى آذانهم ثقلًا. لذلك فإنّهم: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا».

ثم يضيف اللَّه تبارك وتعالى مرّة اخرى: «نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ». أى: إنّ اللَّه تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم فى مجلسك و «إِذْ هُمْ نَجْوَى يتشاورون ويتناجون «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». إذ إنّهم لايأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وتصيّد الأخطاء.

الآية الأخيرة خطاب للنبى صلى الله عليه و آله وبالرغم من أنّ عبارة الآية قصيرة، إلّاأنّها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا». والآية لا تعنى أنّ الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مغلقة دون الإستجابة للحق، وعقولهم معطلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۹

وَ قَالُوا أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَ رُفَاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۴۹) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (۵۰) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (۵۲)

حتمية البعث ويوم الحساب: الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد وحاربت الشرك، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد والذى يعتبر مكمّلًا للتوحيد.

الآيات التى نحن بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها منكرو المعاد، ففى البداية تحكى الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: «وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» «۱».

إنّ التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة يدلل على أنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يبيّن فى دعوته «المعاد الجسمانى» بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين والمنكرين.

القرآن فى إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديداً: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا». وحتى لو كنتم أشدّ من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: «أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ». فإنّ البعث سيكون مصيركم.

السؤال التشكيكى الآخر الذى يثيره منكرو المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المندثرة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن

يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، ومن الذى له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: «فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا».

القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: «قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

بعد الانتهاء من الشك الأوّل والثانى الذى يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثالث الذى تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: «فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ». «سينغضون»: مشتقة من مادة «إنغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجب.

---

(۱) «رُفات»: على وزن «كُرات» وهو معنى يطلق على كل شىء قديم ومتلاش.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۰

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقى مجرّد وعد لا ندرى متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا فى آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره فى يومنا هذا ... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!

ويجيب القرآن بقوله: «قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا». إنّ يوم المعاد- طبعاً- قريب، لأنّ عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها فى قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شىء، إذ هى مجرّد لحظات سريعة وعابرة وسرعان ما تنتهى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت فى تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمة القيامة والتى هى الموت، تعتبر قريبة منا جميعاً، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، ولكنه علامة عليها ومذكّر بها.

فى الآية التى بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». أى: إنّ بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية- بالطبع- تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

فى ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلًا فى عالم ما بعد الموت (البرزخ) وهو قوله تعالى:

«وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا». إنّ هذا الإحساس سيطغى على الإنسان فى يوم القيامة، وهو يظن أنّه لم يلبث فى عالم البرزخ إلّاقليلًا، بالرغم من طول الفترة التى قضاها هناك، وهذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر فى مدتها شيئاً فى قبال عالم الخلود الاخروى.

وَ قُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (۵۳) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (۵۵) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لَا تَحْوِيلًا (۵۶) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (۵۷)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۱

التعامل المنطقى مع المعارضين: الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أمّا الآيات التى نحن بصددها فهى توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مع المعارضين وخصوصاً المشركين، لأنّه مهما كان المذهب عالى المستوى، والمنطق قويّاً، فإنّ ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع اسلوب صحيح للبحث والمجادلة مرفقاً بالمحبة بدلًا من الخشونة، لذا فإنّ أوّل آية من هذه المجموعة تقول: «وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ».

الأحسن من حيث المحتوى والبيان، والأحسن من حيث التلازم بين الدليل ومكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، ولكن لماذا يستعمل هذا الاسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة فى الكلام والمجادلة ف «إِنَّ الشَّيْطَنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ» ويثير بينهم الفتنة والفساد،

فلا تنسوا: «إِنَّ الشَّيْطَنَ كَانَ لِلْإِنْسنِ عَدُوًّا مُّبِينًا».

وكلمة «عبادى» خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية اسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع معارضى عقيدتهم ويقولون لهم بأنّهم من أهل النار والعذاب، وأنّهم ضالون، قد يكون هذا الموقف سبباً فى أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرسول صلى الله عليه و آله.

اضافة لذلك، فإنّ الإتهامات التى يطلقها المشركون ضد شخص رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويتهمونه فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً فى أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم ويبدأوا بالتشاجر مع المشركين ويستخدموا الألفاظ الخشنة ضدّهم ... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل ويدعوهم إلى التزام اللين والتلطّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات فى اسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

الآية التى بعدها تضيف: «رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ».

وفى آخر الآية مواساة للرسول صلى الله عليه و آله الذى كان يتأذى ويتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا».

إنّ مسؤوليتك- يا رسول اللّه- هى الإبلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر.

الآية التالية ذهبت أكثر من الآية السابقة فى التعبير عن إحاطة اللّه تبارك وتعالى وعلمه بأعمال ونيات عباده، فقالت: «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم أضافت:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۲

«وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا».

هذا التعبير القرآنى جواب على أحد أسئلة المشركين وشكوكهم، حيث كانوا يقولون- باسلوب استهزائى- لماذا انتخب اللّه للنبوة محمّد اليتيم، ثم ما الذى حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبياً وحسب، وإنّما خاتم الأنبياء. القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأنّ اللّه عليم بقيمة كل إنسان، وهو سبحانه وتعالى ينتخب أنبياءه من بين عامّة الناس، ويفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل اللّه) والآخر (كليم اللّه) والثالث (روح اللّه)، أمّا نبينا فقد أنتخبه بعنوان (حبيب اللّه).

وباختصار: لقد فضّل اللّه بعض النبيين على بعض لموازين يعلمها هو وتختص بها حكمته جلّ وعلا.

بالرغم من أنّ داود عليه السلام كان له حكم عظيم ودولة كبيرة وملك واسع، إلّاأنّ اللّه سبحانه لم يجعل هذه الامور سبباً لإفتخاره، بل اعتبر كتاب الزبور فخره، حتى يدرك المشركون أنّ عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال والثروة ووجود الحكومة والسلطة، كما أنّ اليتم والفقر ليس مدعاةً للذل أو دليلًا على الحقارة.

الآية التى تليها تستمر فى اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرسول صلى الله عليه و آله أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا».

إنّ هذه الآية- كما فى آيات اخرى كثيرة- تبطل منطق المشركين وتضرب صميم عقيدتهم من هذا الطريق، وهو أنّ عبادة الآلهة من دون اللّه، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، فى حين أنّ الآلهة التى يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أى نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

إنّ استخدام تعبير «الذين» فى هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التى يشركها الإنسان مع اللّه (كالأصنام وغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وأمثالهم.

بعد ذلك تؤكّد الآية التالية على ما ذكرناه فى الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون اللّه أن يحلّوا

مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن اللّه سبحانه وتعالى؟ الآية تجيب على ذلك بأنّ هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت اللّه، ويلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدسة لقضاء حوائجهم وحلّ مشاكلهم وتحقيق ما

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۳

يريدونه: «أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا».

إنّ كلمة «الوسيلة» يشمل كل عمل جميل ولائق، وتدخل فى مفهومها كل صفة بارزة اخرى، لأنّ كل هذه الامور تكون سبباً فى التقرب من اللّه.

وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنَا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (۶۰)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة مع المشركين فى قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أوّل آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسم هذه الآية النهاية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أنّ هذه الدنيا دار زوال وأنّ البقاء الأبدى فى مكان آخر، لذلك ما عليهم إلّاتهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: «وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا». فالطغاة والظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإنّ هذه الدنيا زائلة والكل يسلك طريق الفناء: «كَانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا». و «الكتاب» هنا هو نفس اللوح المحفوظ وهو العلم اللامتناهى للخالق جلّ وعلا، ومجموعة القوانين الإلهية التى لا يمكن التخلف عنها فى عالم الوجود هذا.

وهنا قد يقول المشركون: نحن لا- مانع لدينا من الإيمان ولكن بشرط أن يقوم الرسول صلى الله عليه و آله بجميع المعجزات التى نقترحها عليه، أى أن يستسلم لحججنا، القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرسِلَ بِالْأَيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ».

الآية تشير إلى أنّ اللّه تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وكافية للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه و آله، أمّا ما تقترحونه من معجزات فهى غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها ومشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنّ الأمم السابقة والتى كانت أوضاعها وحالاتها

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۴

مماثلة لأوضاعكم وحالاتكم، اقترحت نفس الإقتراحات ثم لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: «وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً».

لقد طلب قوم صالح الناقة فاخرجها اللّه لهم من الجبل، وأجيبت بذلك المعجزة التى طلبوها، وقد كانت معجزة واضحة وموضّحة! ولكن بالرغم من كل ذلك «فَظَلَمُوا بِهَا».

وعادة فإنّه ليس من مقتضيات البرنامج الإلهى أن يستجيب لأىّمعجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيذها الرسول، ولكن الهدف هو: «وَمَا نُرسِلُ بِالْأَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا».

ثم يواسى اللّه تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه و آله فى مقابل عناد المشركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبيّن له أن ليس هذا بالشىء الجديد: «وَإِذْ قُلْنَا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ». ففى قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام هناك دائماً مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقيّة السريرة، صافية الفطرة، فى مقابل مجموعة اخرى معاندة مكابرة لجوجة تتحجج وتجد لنفسها المعاذير فى معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وهكذا يتشابه الحال بين الأمس واليوم.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِى أَرَيْنکَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ». وامتحاناً لهم، وكذلك الشجرة الملعونة هى أيضاً امتحان وفتنة للناس: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ».

وفى الختام يأتى قوله تعالى: «وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». لماذا؟ لأنّه ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق والتسليم

له، فإنّ الكلام ليس لا يؤثّر فيه وحسب، بل إنّ له آثاراً معكوسة، حيث يزيد فى ضلال هؤلاء وعنادهم بسبب تعصبهم ومقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلك).

رؤيا النبى صلى الله عليه و آله والشجرة الملعونة: مجموعة من المفسرين الشيعة والسنّة، نقلوا أنّ هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتى رأى فيها النبى صلى الله عليه و آله فى المنام أنّ عدداً من القرود تصعد منبره وتنزل منه (تنزو على منبره صلى الله عليه و آله)، وقد حزن صلى الله عليه و آله كثيراً لهذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً من بعدها إلّاقليلًا (وقد تمّ تفسير هذه القرود التى تنزو على منبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ببنى أمية الذين جلسوا مكان النبى صلى الله عليه و آله الواحد تلو الآخر، يقلّد بعضهم بعضاً، وكانوا ممسوخى الشخصية، وقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وخلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله).

ومن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) فى القرآن إشارة إلى أى مجموعة منافقة وخبيثة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۵

ومطرودة من رحمة اللَّه تعالى ومقام الربوبية، خصوصاً تلك المجاميع مثل بنى أمية واليهود قساة القلب، والمعاندين وكل الذين يسيرون على خطاهم. وشجرة الزقوم فى القيامة تمثّل الأشجار الخبيثة فى العالم الآخر، وكل هذه الأشجار الخبيثة (المجاميع المعتيّة) هى لاختبار وتمحيص المؤمنين الصادقين فى الحياة الدنيا.

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (۶۱) قَالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (۶۲) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (۶۵)

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر اللَّه فى السجود لآدم عليه السلام، والعاقبة السيئة التى انتهى إليها.

إنّ طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة إلى أنّ الشيطان يعتبر نموذجاً كاملًا للإستكبار والكفر والعصيان. ثمّ انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإنّ من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة. الآية تقول: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

إنّ هذه السجدة التى أمر اللَّه تعالى بها هى نوع من الخضوع والتواضع بسبب عظمة خلق آدم عليه السلام وتميّزه عن سائر الموجودات، أو هى سجود للخالق جلّ وعلا فى قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكّمت الأنانية فى عقله، ظنّاً منه بأنّ التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكل الخيرات ومنبعاً للحياة أقل شأناً وأهمية من النار، لذا اعترض على الخالق جلّ وعلا وقال: «قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۶

ولكنه عندما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره وطغيانه فى مقابل أمر اللَّه له، قال: «قَالَ أَرَءَيْتَكَ هذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». «أحتنكن»: مشتقة من «احتناك» وهى تعنى قطع جذور شىء ما. لذا فإنّ هذا القول يشير إلى أنّ إبليس سيحرف كل بنى آدم عن طريق اللَّه وطاعته، إلّاالقليل منهم.

ويحتمل أن تكون كلمة «أحتنكن» مشتقة من «حنك» وهى المنطقة التى تحت البلعوم؛ وفى الواقع، فإنّ الشيطان يريد أن يقول بأنّه سيضع حبل الوسوسة فى أعناق الناس ويجرهم إلى طريق الغواية والضلال.

وهكذا كان، فقد أعطى الشيطان إمكانية البقاء والفعالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سبباً لتمحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوى عوده فى مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: «قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءًا مَّوْفُورًا». وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح فى الامتحان الإلهى الكبير.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك- باسلوب جميل- الطرق التى ينفذ منها الشيطان والأساليب التى يستخدمها فى الوسوسة والإغواء فقالت:

«وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ...».

«وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ...».

«وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلدِ ...».

«وَعِدْهُمْ ...».

ثم يجىء التحذير الإلهى: «وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطنُ إِلَّا غُرُورًا ...».

ثم اعلم أيّها الشيطان: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطنٌ ...». «وَكَفَى بِرَبّكَ وَكِيلًا».

«إستفزز»: مشتقة من «استفزاز» وهى تعنى الإثارة؛ الإثارة السريعة والعادية، ولكن الكلمة فى الأصل تعنى قطع شىءٍ ما. واستعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«اجلب»: مأخوذ من «إجلاب» وفى الأصل من «جلبة» وهى تعنى الصرخة الشديدة، والإجلاب تعنى الطرد مع الأصوات والصرخات. وأمّا النهى عن «الجلب» الوارد فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۷

الروايات فهو إمّا أن يعنى أنّ الذى يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح ويصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنّه يعنى أنّ على المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا فى وجوه الخيل الاخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل»: لها معنيان، فهى تعنى «الخيول» وأيضاً تعنى (الخيالة)، أمّا فى هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثانى.

أمّا «رَجِل»: فهى تعنى معكوس (الخيالة) أى (جيش الرجّالة والمشاة) وبهذا يتكوّن جيش الشيطان من (الخيالة والرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، وهذا يعنى أنّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان ويصبح من أعوانه ومساعديه فهؤلاء كالخيّالة، أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء وعلى مهل كالمشاة والرجّالة.

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (۶۶) وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (۶۹)

لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟ هذه الآيات تابعت البحوث السابقة فى مجال التوحيد ومحاربة الشرك، ودخلت فى البحث من خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وطريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل. ففى البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالى فتقول: «رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ».

طبعاً هناك أنظمة لأجل حركة الفلك فى البحار.

تعلمون- طبعاً- بأنّ السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإنّ هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثم يضيف تعالى: «لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ». حتى تساعدكم فى أسفاركم ونقل أموالكم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۸

وتجارتكم وتعينكم فى كل ما يخصّ امور دنياكم ودينكم. أمّا لماذا؟ فلأنّ اللّه تبارك وتعالى «إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا».

من هذا التوحيد الاستدلالى والذى يعكس جانباً صغيراً من نظام الخلق، وعلم وقدرة وحكمة الخالق جلّ وعلا، تنتقل الآية إلى اسلوب الاستدلال الفطرى فتقول: لا تنسوا «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ». حيث يضل أى شىء من دون اللّه، لأنّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان وغيره يذهب بكل الحواجز وأستار التقليد والتعصب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة

الذى هو نور التوحيد والإيمان والعبودية للّهدون غيره.

إنّ الآية تعبّر عن قانون عام، عرفه كل من جرّب ذلك، حيث تؤدّى المشاكل والصعوبات الحادّة التى يمرّ بها الإنسان- ويصل السكين العظم- إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التى كان يتعلق بها الإنسان، وتنعدم فاعلية العلل المادية التى كان يتشبث بها، وتنقطع كل الأسباب، إلّاالسبب الذى يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقتين، والذى هو- لوحده سبحانه وتعالى- قادر على حلّ أعقد المشكلات.

ثم تضيف الآية: «فَلَمَّا نَجكُمْ إِلَى الْبَرّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا».

مرّة اخرى تغطّى حجب الغرور والغفلة والتعصّب هذا النور الإلهى، ويغطّى غبار العصيان والذنوب وملاهى الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أنّ اللّه لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليابسة وفى قلب الصحارى والبرارى؟

لذلك تقول الآية: «أَفَأَمِنتُم أن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرّ». ثم أضافت: «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا».

بعد ذلك تضيف الآية مذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هذه هى المرّة الأخيرة التى تحتاجون فيها إلى السفر فى البحر: «أَمْ أَمِنتُمْ أن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا» (١). أى: لا أحد حينئذٍ

---

(١) «حاصب»: تعنى الهواء الذى يحرّك معه الأحجار الصغيرة.

«قاصف»: بمعنى المحطّم، وهى هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التى تقلع كل شىء من مكانه.

«تبيع»: بمعنى تابع، وهى تشير هنا إلى الشخص الذى ينهض للمطالبة بالدم، وثمن الدم والثأر ويستمر فى ذلك.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٩٩

يطالب بدمكم ويثأر لكم منّا.

وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَ مَنْ كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

الإنسان سيد الموجودات: إنّ واحدة من أبرز طرق الهداية والتربية، هى التنويه بشخصية الإنسان ومكانته ومواهبه، لذا فإنّ القرآن الكريم وبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين فى الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التى منحها إيّاها رب العالمين، لكى لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، ولا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ».

ثم تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التى حباها اللّه لبنى البشر، هذه المواهب هى أوّلًا: «وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

ثم قوله تعالى: «وَرَزَقْنَاهُم مّنَ الطَّيّبَاتِ» ومع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذى يشمل كل موجود طيّب وطاهر تتّضح عظمة وشمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أمّا القسم الثالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: «وَفَضَّلْنَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».

لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ إنّا نعلم أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكوّن من قوى مختلفة، مادية ومعنوية؛ جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدم.

فى كتاب علل الشرايع عن الإمام على عليه السلام قال: «إنّ اللّه عزّ وجل ركّب فى الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب فى البهائم شهوة

بلا عقل، ورکّب فی بنی آدم کلیهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خیر من الملائکة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم».

الآیة التی بعدها تشیر إلی موهبة اخری من المواهب الإلهیة التی حباها اللّه للإنسان، ورتّبت علیه المسؤولیات الثقیلة بسبب هذه المواهب. ففی البدایة تشیر الآیة إلی قضیة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج۳ ۱۴۹

القیادة ودورها فی مستقبل البشر فتقول: «یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ». یعنی أنّ الذین اعتقدوا بقیادة الأنبیاء وأوصیائهم ومن ینوب عنهم فی کل زمان وعصر، سوف یکونون مع قادتهم ویحشرون معهم، أمّا الذین انتخبوا الشیطان وأئمة الضلال والظالمین والمستکبرین قادة لهم، فإنّهم سیکونون معهم ویحشرون معهم. هذا التعبیر والإشارة إلی دور الإمامة وکونها من أسباب تکامل الإنسان، یعتبر فی نفس الوقت تحذیراً لکل البشریة کی تدقق فی انتخاب القیادة، ولا تعطی أزمّة وجودها الفکری والحیاتی بید أیّ شخص کان.

ثم تقسّم الآیة الناس یوم القیامة إلی قسمین: «فَمَنْ أُوتِیَ کِتَابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِکَ یَقْرَءُونَ کِتَابَهُمْ وَلَا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا» (۱). أمّا القسم الآخر فهو: من کان فی الدنیا أعمی القلب: «وَمَن کَانَ فِی هذِهِ أَعْمَی فَهُوَ فِی الْأَخِرَةِ أَعْمَی . وطبیعی أن یکون هؤلاء العمیان القلوب أضلّ من جمیع المخلوقات «وَأَضَلُّ سَبِیلًا».

وفی کتاب التوحید للصدوق عن الإمام الباقر علیه السلام فی قول اللّه عزّ وجلّ «وَمَن کَانَ فِی هذِهِ أَعْمَی قال: «من لم یدله خلق السماوات والأرض، واختلاف اللیل والنهار، ودوران الفلک والشمس والقمر والآیات العجیبات، علی أنّ وراء ذلک أمر أعظم منه، فهو فی الآخرة أعمی وأضلّ سبیلًا».

لذلک نقرأ فی الآیات (۱۲۴- ۱۲۶) من سورة طه، قوله تعالی: «وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنکًا وَنَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیمَةِ أَعْمَی قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمَی وَقَدْ کُنتُ بَصِیرًا* قَالَ کَذلِکَ أَتَتْکَ ءَایَاتُنَا فَنَسِیتَهَا وَکَذلِکَ الْیَوْمَ تُنسَی .

دور القیادة فی الإسلام: فی الکافی عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السلام ینقل أنّه عندما کان یتحدّث عن الأرکان الأساسیة فی الإسلام ذکر (الولایة) کخامس وأهم رکن، فی حین أنّ الصلاة التی توضّح العلاقه بین الخالق والخلق، والصیام الذی هو رمز محاربة الشهوات، والزکاة التی تحدّد العلاقة بین الخلق والخالق، والحج الذی یکشف الجانب الاجتماعی فی

---

(۱) «فتیل»: تعنی الخیط الرقیق الموجود فی شق نوی التمر، وفی المقابل فإنّ «نقیر» تعنی مؤخرة نوی التمر، بینما تعنی «قطمیر» الطبقة الرقیقة التی تغطّی نوی التمر. وکل هذه التعابیر کنایة عن الشیء الصغیر جدّاً والحقیر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۱

الإسلام، اعتبرت الأرکان الأربعة الأساسیة الاخری. ثم یضیف الإمام الباقر علیه السلام: «ولم یناد بشیء کما نودی بالولایة» لماذا؟ لأنّ تنفیذ الأرکان الاخری لن یتحقق إلّافی ظل هذا الأصل، أی فی ظل الولایة (۱).

وفی تفسیر العیاشی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «لا تترک الأرض بغیر إمام یحلّ حلال اللّه ویحرّم حرامه وهو قول اللّه: (یوم ندعو کلّ أناس بإمامهم).» ثم قال: «قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: من مات بغیر إمام مات میتة جاهلیّة».

التاریخ یشهد أنّ بعض الامم تکون فی الصف الأوّل بین دول العالم واممه بسبب قیادتها العظیمة والکفوءة، ولکن نفس الامّة تنهار وتسقط فی الهاویة، برغم امتلاکها لنفس القوی البشریة والمصادر الاخری، إذا کانت قیادتها ضعیفة وغیر کفوءة.

وَ إِنْ کَادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنَا غَیْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوکَ خَلِیلًا (۷۳) وَ لَوْ لَا أَنْ ثَبَّتْنَاکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلًا (۷۴) إِذاً لَأَذَقْنَاکَ ضِعْفَ الْحَیَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَکَ عَلَیْنَا نَصِیراً (۷۵)

بما أنّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك والمشركين، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تحذّر الرسول صلى الله عليه و آله من وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدى أدنى ضعف فى محاربة الشرك وعبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابة أكبر. فى البداية تقول الآية أنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثّر فيك: «وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا».

ثم بعد ذلك تضيف أنّه لولا نور العصمة وأنّ اللّه تعالى ثبّتك على الحق: «وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيًا قَلِيلًا».

وأخيراً لو أنّك ركنت اليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين فى الحياة الدنيا، وضعف عذابهم فى الآخرة: «إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا».

---

(۱) فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «بنى الإسلام على خمس، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودى بالولاية».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۲

إن كلّما زاد مقام الإنسان من حيث العلم والوعى والمعرفة والإيمان، ازدادت قيمة وعمق الأعمال الخيّرة التى يقوم بها، وبالتالى سيكون ثوابها أكثر، أمّا الثواب والعقاب فسوف يزداد تبعاً لهذه النسبة. إلهى لا تكلنى إلى نفسى: فى تفسير مجمع البيان قال ابن عباس إنّه لما نزلت هذه الآية، قال النبى صلى الله عليه و آله: «اللّهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً».

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدى صلى الله عليه و آله يعطينا درساً مهمّاً، وهو أنّه يجب أن نذكر اللّه دائماً ونلتجىء إليه، ونعتمد على لطفه، حيث إنّ الأنبياء المعصومين لم يسلموا من المزالق بدون نصرة اللّه وتثبيته لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كل ما يحيطنا من أشكال الوسوسة والإغواء الشيطانى.

وَ إنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَ إِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (۷۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (۷۷)

سبب النّزول

نزلت فى أهل مكة لمّا همّوا بإخراج النبى صلى الله عليه و آله من مكة.

التّفسير

مؤامرة خبيثة اخرى: فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن الطريق المستقيم، لكن اللّه أنجاه بلطفه له ورعايته إيّاه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التى بين أيدينا، وضع المشركون خطّة اخرى للقضاء على دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، وهذه الخطّة تقضى بإبعاد الرسول صلى الله عليه و آله عن مسقط رأسه (مكة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولًا وبعيداً عن الأنظار، إلّاأنّ هذه الخطّة فشلت أيضاً بلطف اللّه أيضاً.

الآية الاولى تقول: «وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا». بخطة دقيقة.

ثم يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: «وَإِذًا لَايَلْبَثُونَ خِلفَكَ إِلَّا قَلِيلًا». فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم فى إخراج القائد الكفوء- الذى تذهب نفسه حسرات على

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۳

العباد- من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة ويستحقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا الأمر لا يخص مشركى العرب وحسب، بل هو «سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا». وهذه السنة تنبع من

منطق واضح، حيث إنّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطّمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إنّ مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، وإنّ العقاب سيشملهم، ونعلم هنا أنّ اللّه تبارك وتعالى لا يفرّق بين عباده، وبذلك فإنّ الأعمال المتشابهة فى الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ وعلا.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (۷۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (۷۹) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (۸۰) وَ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (۸۱)

بعد سلسلة الآيات التى تحدثت عن التوحيد والشرك وعن مكائد المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والإرتباط باللّه والتى تعتبر عوامل مؤثّرة فى مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات فى البداية: «أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا».

فى الروايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام توضّح لنا أنّ معنى «دلوك» هو زوال الشمس؛ وأمّا «غسق الليل» فإنّها تعنى منتصف الليل، حيث إنّ «غسق» تعنى الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمةً فى منتصفه.

أمّا «قرآن» فهى تعنى كلاماً يقرأ، و «قرآن الفجر» هنا تعنى صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التى تشير بشكل إجمالى إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الاخرى بنظر الاعتبار فى مجال وقت الصلوات والروايات الكثيرة الواردة فى هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۴

الآية بعد ذلك تقول: «إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». والرّوايات الواردة فى تفسير هذه الآية تقول إنّ ملائكة الليل والنهار هى التى تشاهد، لأنّه فى بداية الصباح تأتى ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التى كانت تراقب العباد، وحيث إنّ صلاة الصبح هى فى أوّل وقت الطلوع، لذلك فإنّ المجموعتين من الملائكة تشاهدها وتشهد عليها.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التى بعدها إلى قوله تعالى:

«وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ». المفسرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التى وردت روايات عديدة فى فضيلتها.

ثم تقول الآية: «نَافِلَةً لَّكَ». أى: برنامج إضافى علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبره الكثير بأنّه دليل على وجوب صلاة الليل على الرسول صلى الله عليه و آله، حيث إنّ هذه (النافلة) والتى هى بمعنى (زيادة فى الفريضة) تخصّك أنت دون غيرك يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

فى ختام الآية تتوضّح نتيجة هذا البرنامج الإلهى الروحانى الرفيع حيث تقول: «عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا».

ولا ريب فإنّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّاً يستثير الحمد، وبما أنّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنّ حمد الأوّلين والآخرين يشملك.

الروايات الإسلامية تشير إلى أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنبى صلى الله عليه و آله هو أكبر الشفعاء فى ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التى بعدها فإنّها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذى ينبع من روح التوحيد والإيمان: «وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ» «۱». فأىّ عمل فردى أو اجتماعى لا أبدؤه إلّابالصدق ولا انهيه إلّابالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هى الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتى.

وفى الحقيقة فإنّ سرّ الانتصار يكمن هنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الربانيين حيث كانوا يتجنّبون كل غش وخداع وحيلة فى

أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكل ما يتعارض مع الصدق.

وعادة فإنّ المصائب التى نشاهدها اليوم والتى تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام

---

(۱) «مدخل» و «مخرج»: هى تعنى الإدخال والإخراج، تؤدّى هنا المعنى المصدرى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۵

والشعوب، إنّما هى بسبب الانحرافات عن هـذا الأساس، ففى بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكـذب والغش والحيلة، وفى بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق ولكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة.

أمّا الأصل الثانى الـذى يعتبر من ناحيـة ثمرة لشـجرة التوحيـد، ومن ناحيـة اخرى نتيجـة للدخول والخروج الصادق فى الأعمال، فهو ما ذكرته الآية فى نهايتها: «وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنکَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا».

وبعـد أن ذكرت الآيـات (الصـدق) و (التوكل) جاء بعـدها الأمل بالنصـر النهائى، والـذى يعتبر بحـد ذاته عاملًا للتوفيق فى الأعمال، إذ خاطبت الآية الرسول صلى الله عليه و آله بوعد اللَّه تعالى:

«وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» «۱»، لأنّ طبيعـة الباطـل الفناء والـدمار: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فللباطل جولـة، إلّاأنّه لا يـدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصاحبه وأنصاره.

وفى الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التى ابتعد عنها مسـلمو اليوم، ولهذا السـبب نرى هزائمهم المتكررة فى مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثـة هى: الـدخول الصادق والخالص فى الأعمال، والاسـتمرار على هـذه الحالة الصادقة حتى النهاية «رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ». ثمّ الإعتماد على قدرة الخالق جلّ وعلا، والإعتماد على النفس، وترك أىّ إعتماد أو تبعية للأجانب «وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنکَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا».

وفى بعض الروايات تمّ تفسير قوله «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» بقيام دولـة المهدى عليه السـلام فالإمام الباقر عليه السـلام يبيّن أنّ مفهوم الكلام الإلهى هو: «إذا قام القائم عليه السلام ذهبت دولة الباطل».

وفى تفسير نور الثقلين عن الخرايج والجرايح عن حكيمة خبر طويل وفيه لمّا ولد القائم عليه السلام كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

إنّ مفهوم هـذه الأحـاديث لا يحصـر المعنى الواسع للآيـة بهـذا المصـداق، بل إنّ ثورة المهـدى عليه السـلام ونهضـته هى من أوضـح المصاديق حيث تكون نتيجتها الإنتصار النهائى للحق على الباطل فى كل العالم.

---

(۱) «زهق»: من مادة «زهوق» بمعنى الإضـمحلال والهلاك والإبادة، و «زهوق»: على وزن «قبول» صـيغة مبالغةوهى تعنى الشـىء الذى تمّت إبادته بالكامل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۶

وخلاصـة القول: إنّ حقيقـة إنتصار الحق وانهزام الباطل هى تعبير عن قانون عام يجرى فى مختلف العصور، وإنتصار الرسول صـلى الله عليه و آله على الشـرك والأصـنام، ونهضة المهدى عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين فى العالم، هما من أوضح المصاديق لهذا القانون العام.

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (۸۲)

القرآن وصـفة للشـفاء: الآية التى نبحثها الآن تشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البنّاء فى هذا المجال حيث تقول: «وَنُنَزِّلُ مِنَ

الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ «الشفاء» هو فى مقابل الأمراض والعيوب والنواقص، لذا فإنّ أوّل عمل يقوم به القرآن فى وجود الإنسان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية منها والاجتماعية.

ثم تأتى بعدها مرحلة «الرحمة» وهى مرحلة التخلّق بأخلاق اللَّه، وتفتّح براعم الفضائل الإنسانية فى أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

أمّا الظالمون فإنّهم بدلًا من أن يستفيدوا من هذا الكتاب العظيم، فإنّهم يتمسكون بما لا ينتج لهم سوى الذل والهوان «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا».

لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، أمّا واقع المعاندين وأعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرّس فى روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (۸۳) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (۸۴)

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن شفاء القرآن، تشير الآية التى بين أيدينا إلى أحد أكثر الأمراض تجذّراً فتقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ». ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلك ولو قليلًا: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسًا».

«أعرض»: مشتقة من «إعراض» وهى تعنى عدم الإلتفات، والمقصود منها هنا هو عدم الإلتفات للخالق عزّ وجل، وإعراض الوجه عنه وعن الحق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۷

«نأى»: مشتقة من «نأى» وهى على وزن «رأى» وهى بمعنى الإبتعاد، وعند إضافة كلمة «بجانبه» إليها يكون المعنى التكبر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاستفادة من مجموع هذه الجملة أنّ الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجىء النعم، بحيث إنّهم ينسون واهب ومعطى هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الإعتراض والتكبر وعدم الإلتفات للخالق.

جملة «مَسَّهُ الشَّرُّ» تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. والمعنى أنّ هؤلاء من الضعف وعدم التحمل بحيث إنّهم ينسون أنفسهم ويغرقون فى دوّامة اليأس بمجرد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآية الثانية تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله فتقول: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ». فالمؤمنون يطلبون الرحمة والشفاء من آيات القرآن الكريم، والظالمون لا يستفيدون من القرآن سوى مزيد من الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور فى حال النعمة، ويصابون باليأس فى حال ظهور المشاكل ... هؤلاء جميعاً يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التى تتغير وفق التربية والتعليم والأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

وفى هذه الأحوال جميعاً فإنّ هناك علم اللَّه الشاهد والمحيط بالجميع وخاصه بالأشخاص المهتدين: «فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا».

«شاكلة»: فى الأصل مشتقة من «شكل» وهى تعنى وضع الزمام والرباط للحيوان.

و (شكال) تقال لنفس الزمام؛ وبما أنّ طبائع وعادات كل إنسان تقيّده بصفات معيّنة لذا يقال لذلك «شاكلة».

إنّ الشاكلة تطلق على كل عادة وطريقة ومذهب وأسلوب يعطى للإنسان اتجاهاً معيناً.

لذا فإنّ العادات والصفات التى يكتسبها الإنسان بتكرار الأعمال اختيارياً وإرادياً، وكذلك الإعتقادات التى يقتنع بها ويعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصب لرأى معين يطلق عليها كلها كلمة «شاكلة».

وَ يَسْأَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ مَا أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا (۸۵)

ما هى الروح؟ تبدأ هذه الآية فى الإجابة على بعض الأسئلة المهمة للمشركين ولأهل الكتاب، إذ تقول: «وَيَسَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۸

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة فى الآية أنّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التى تميّز الإنسان عن الحيوان، وقد شرّفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا وفعالياتنا منها، وبمساعدتها نكتشف أسرار العلوم. ولأنّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها اصول تحكمها تختلف عن الاصول التى تحكم المادة فى خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرسول صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء فى جملة قصيرة قاطعة: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّى». ولكى لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية: «وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنّها أقرب شيء إليكم.

وفى تفسير العياشى عن زرارة عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عن قوله تعالى «يَسَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» قالا: «إنّ اللّه تبارك وتعالى أحد صمد، والصمد الشيء الذى ليس له جوف، فإنّما الروح خلق من خلقه، له بصر وقوّة وتأييد يجعله فى قلوب الرسل والمؤمنين».

إنّ الروح الإنسانية لها مراتب ودرجات، فتلك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هى فى مرتبة ودرجة عالية جدّاً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإنّ روحاً مثل هذه هى أفضل من الملائكة بما فى ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبر)

وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنَا وَکِیلًا (۸۶) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کَانَ عَلَیْکَ کَبِیراً (۸۷)

ما عندك هو من رحمته وبركته: تحدثت الآيات السابقة عن القرآن، أمّا الآيتان اللتان نبحثهما الآن فهما أيضاً ينصبّان فى نفس الإتجاه. ففى البداية تقول الآية: «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». وبعد ذلك: «ثُمَّ لَاتَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا». إنّنا نحن الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائداً وهادياً للناس، ونحن الذين إذا شئنا استرجعناها منك، وليس لأحد أن يعترض على ذلك.

الآية التى بعدها جاءت لتستثنى، فهى تبيّن أنّنا إذا لم نأخذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمة من عندنا، حيث يقول تعالى: «إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ». وهذه الرحمة لأجل هدايتك وإنقاذك، وكذلك لهداية وإنقاذ العالم البشرى، وهذه الرحمة مكمّلة لرحمة الخلق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۹

وفى نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا».

إنّ وجود القابلية لهذا الفضل فى قلبك الكبير بجهادك وعبادتك من جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة اخرى، جعلا فضل اللّه عليك كبيراً للغاية فقد فتح اللّه أمامك أبواب العلم، وأنبأك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لَا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ فَأَبَی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلَّا کُفُوراً (۸۹)

معجزة القرآن: الآيات التى بين أيدينا تتحدّث عن إعجاز القرآن، ولأنّ الآيات اللاحقة تتحدّث عن حجج المشركين فى مجال المعجزات، فإنّ الآية التى بين أيدينا مقدمة للبحث القادم حول المعجزات. إنّ اللّه يخاطب رسوله صلى الله عليه و آله ويقول له: «قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْءَانِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».

إنّ هذه الآية دعت- بصراحة- العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أىّ كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة

والأدباء والمؤرخين والنوابغ وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحدّيه الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كنتم تظنون أنّ هذا الكلام ليس من الخالق وأنّه من صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إنّ هذه الدعوة للمقابلة والتى يصطلح عليها علماء العقائد ب «التحدّى» هى أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير فى أىّ مكان، نفهم بوضوح أنّ هذا الموضوع هو من المعجزات.

و تتحرك الآية التى بعدها لتوضيح جانب من جوانب الإعجاز القرآنى، متمثلًا فى شموليته وإحاطته بكل شىء، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ». ولكن بالرغم من ذلك: «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۰

حقّاً إنّ التنوع الذى يتضمّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصه وأنّه صدر من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففى هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصة حول قضايا العقائد، وذكرت- أيضاً- الأحكام المتعلقة بحاجات البشر فى المجالات كافة.

وتعرّض القرآن- أيضاً- إلى قضايا وأحداث تأريخية تعتبر فريدة فى نوعها ومثيرة فى بابها، وخالية من الخرافات.

وتعرّض إلى البحوث الأخلاقية التى تؤثّر فى القلوب المستعدة كتأثير المطر فى الأرض الميتة. القضايا العلمية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التى لم تكن تعرف فى ذلك الزمان من قبل أىّ عالم.

والخلاصة: إنّ القرآن سلك كل وادٍ وتناول فى آياته أفضل النماذج.

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (۹۲) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ جماعة من قريش- وفيهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان وأبوجهل- اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصموه، فبعثوا إليه إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر صلى الله عليه و آله إليهم ظنّاً منه أنّهم بدا لهم فى أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنّا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّهت الأحكام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالًا أعطيناك، وإن كنت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۱

تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال صلى الله عليه و آله: «ليس شىء من ذلك، بل بعثنى اللّه إليكم رسولًا، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم اللّه بيننا».

قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلداً منّا فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال، ويجرى لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق ....

فقال صلى الله عليه و آله: «ما بهذا بعثت» ....

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك.

قال صلى الله عليه و آله: «ذاك إلى اللّه إن شاء فعل».

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتى باللّه والملائكة قبيلًا. فقام النبى صلى الله عليه و آله وقام معه عبد اللّه بن أبى أمية المخزومى ابن

عمّته عاتکة بنت عبد المطلب، فقال: یا محمّد عرض علیک قومک ما عرضوا فلم تقبله ... فواللّه لا أؤمن بک أبداً حتی تتخذ سُلّماً إلی السماء ثم ترقی فیه وأنا أنظر، ویأتی معک نفر من الملائکة یشهدون لک، وکتاب یشهد لک ....

فانصرف رسول اللّه صلی الله علیه و آله حزیناً لما رأی من قومه، فأنزل اللّه سبحانه الآیات.

التّفسیر

بعد الآیات السابقة التی تحدثت عن عظمة وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآیات تشیر إلی ذرائع المشرکین، هذه الطلبات وردت علی ستة أقسام هی:

۱- فی البدایة یقولون: «وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ یَنبُوعًا».

۲- قولهم کما فی الآیة: «أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِیلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَلَهَا تَفْجِیرًا».

۳- «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ کَمَا زَعَمْتَ عَلَیْنَا کِسَفًا».

۴- «أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَالْمَلَئکَةِ قَبِیلًا».

۵- «أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِّن زُخْرُفٍ».

۶- «أَوْ تَرْقَی فِی السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنَا کِتَابًا نَّقْرَؤُهُ».

ثم یصدر الأمر من الخالق جلّ وعلا لرسوله صلی الله علیه و آله أن یقول لهؤلاء فی مقابل اقتراحاتهم هذه: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّی هَلْ کُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۲

وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَی إِلَّا أَنْ قَالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا (۹۴) قُلْ لَوْ کَانَ فِی الْأَرْضِ مَلَائِکَةٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنَا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَکاً رَسُولًا (۹۵)

ذریعة عامة: الآیات السابقة تحدّثت عن تذرّع المشرکین- أو قسم منهم- فی قضیة التوحید، أمّا الآیات التی نبحثها فإنّها تشیر إلی ذریعة عامة فی مقابل دعوة الأنبیاء، حیث تقول: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن یُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَی إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا».

هل یمکن التصدیق بأنّ هذه المهمة والمنزلة الرفیعة تقع علی عاتق الإنسان، ثم- والکلام للمشرکین- ألم یکن الأولی والأجدر أن تقع هذه المهمة وهذه المسؤولیة علی عاتق مخلوق أفضل کالملائکة- مثلًا- کی یستطیعوا أداء هذه المهمة بجدارة ... إذ أین الإنسان الترابی والرسالة الإلهیة؟!

إنّ هذا المنطق الواهی الذی تحکیه الآیة علی لسان المشرکین لا یخصّ مجموعة أو مجموعتین من الناس، بل إنّ أکثر الناس وفی امتداد تأریخ النّبوات قد تذرّعوا به فی مقابل الأنبیاء والر سل.

القرآن الکریم أجاب هؤلاء جمیعاً فی جملةٍ قصیرة واحدة ملیئة بالمعانی والدلالات، قال تعالی: «قُل لَّوْ کَانَ فِی الْأَرْضِ مَلَئکَةٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنَا عَلَیْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَکًا رَّسُولًا». یعنی أنّ القائد یجب أن یکون من سنخ من بعث إلیه، ومن جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، والملک لجماعة الملائکة.

ودلیل هذا التجانس والتطابق بین القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب یعتبر التبلیغ العملی أهم وظیفة فی عمل القائد من خلال کونه قدوة واسوة، وهذا لا یتمّ إلّاأن یکون القائد من جنسهم، یمتلک نفس الغرائز والأحاسیس، ونفس مکوّنات البناء الجسمی والروحی الذی یملکه کل فرد من أفراد جماعته.

من جانب آخر ینبغی للقائد أن یدرک جمیع احتیاجات ومشاکل أتباعه کی یکون قادراً علی علاجهم، والإجابة علی أسئلتهم، لهذا السبب نری أنّ الأنبیاء برزوا من بین عامة الناس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۳

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكَمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۹۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (۹۷)

بعد أن قطعت الآيات السابقة أشواطاً فى مجال التوحيد والنبوة وعرض حديث المعارضين والمشركين، فإنّ هذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف فى هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكل ذلك. ففى البداية تقول الآية إذا لم يقبل اولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا».

إنّ هذه الآية تستهدف أمرين فهى أوّلًا: تهدّد المعارضين المتعصبين والمعاندين، بأنّ اللَّه خبير وبصير ويشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا بأنّكم خارجون عن محيط قدرته أو أنّ شيئاً من أعمالكم خاف عنه.

الأمر الثانى هو أنّ الرسول صلى الله عليه و آله أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث إنّ ايمان المتحدّث القوى بما يقول، له أثر نفسى عميق فى المستمع، وعسى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثّراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكّد على أنّ الشخص المهتدى هو الذى قذف اللَّه تعالى نور الإيمان فى قلبه:

«وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ». أمّا من أضلّه اللَّه بسوء أعماله: «وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ». فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوى والقاطع لا يكفى للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهى لا يستقر الإيمان أبداً.

أمّا عن سبب مجىء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدد الآلهة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۴

الوهمية أو تنوع الوسائل التى يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكل ما تؤلّهون من آلهة من دون اللَّه، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة وسوء العاقبة. ثم تذكر الآيات- بصيغة التهديد القاطع- جانباً من مصيرهم بسبب أعمالهم فى يوم القيامة فتقول: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ». فبدلًا من الدخول بشكل عادى وبقامة منتصبة، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنم على وجوههم تعذيباً لهم.

أو يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

ثم هم يحشرون: «عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا».

إنّ مراحل ومواقف يوم القيامة متعددة، ففى بعض المراحل والمواقف يكون هؤلاء صماً وبكماً وعمياً، وهذا نوع من العقاب لهم، إلّاأنّ عيونهم فى مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسماع، وألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب ويسمعون كلام الشامتين، ويبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حيث إنّ كل هذه الامور هى نوع آخر من العقاب لهم.

إنّ المجرمين وأهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ ومن سماع امور تبعث على الفرح، ومن قول وكلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ولا يقولون إلّاما يؤذى ويؤلم.

فى الختام تقول الآية: «مَّأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ». لكن لا تظنّوا أنّ نارها كنار الدنيا تنطفى فى النهاية، بل هى: «كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا».

ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَ قَالُوا أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَ رُفَاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۹۸) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (۱۰۰)

كيف يكون المعاد ممكناً؟ فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ يوماً سيّئاً ينتظر المجرمين فى العالم الآخر، هذه العاقبة التى تجعل أىّ عاقل يفكّر فى هذا المصير، لذلك فإنّ الآيات التى بين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۵

أيـدينا تقف على هـذا الموضوع بشـكل آخر. فى البدايـة تقول: «ذلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بَايَاتِنَا وَقَالُوا أءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا».

وبعد تعجّبهم من المعاد الجسمانى واعتبارهم ذلك أمراً غير ممكن، يقول القرآن باسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». وعلى هؤلاء أن لا يعجّلوا فإنّ القيامـة وإن تأخّرت، إلّاأنّها سوف تتحقق بلا ريب: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارَيْبَ فِيهِ».

ولكن هؤلاء الظالمين والمعادين مستمرون على ما هم فيه رغم سماعهم هذه الآيات:

«فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كَفُورًا».

وحيث إنّهم كانوا يصـرخون ويصـرّون على أن لا يكون النبى من البشـر حسداً من عند أنفسـهم وجهلًا وضلالًا، وقد منعهم هذا الحسد والجهل من التصـديق بإمكانيـة أن يعطى اللَّه كل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ وعلا يخاطبهم بقوله: «قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ». ثم يقول: «وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا».

«قتور»: من «قَتَرَ» على وزن «قتل» وهى تعنى الإمساك فى الصرف، وبما أنّ (قتور) صيغة مبالغة فإنّها تعنى شدّة الإمساك وضيق النظر.

المعاد الجسمانى: الآيات أعلاه من أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسمانى، فالمشركين كانوا يعجبون من إمكانية عودة الحياة إلى العظـام النخرة، والقرآن يجيبهم بـأنّ القـادر على خلق السـماوات والأـرض، لـديه القـدرة على جمع الأجزاء المتناثرة للإنسان وأن يهبها الحياة مرّة اخرى.

كما إنّ الإستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ وجل فى إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التى يذكرها القرآن مراراً ويعتمد عليها كثيراً.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَـى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (۱۰۱) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصَائِرَ وَ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (۱۰۳) وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (۱۰۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۶

لم يؤمنوا رغم الآيـات: قبـل بضـعة آيات عرفنا كيف أنّ المشـركين طلبوا اموراً عجيبـة غريبـة من الرسول صـلى الله عليه و آله، وهـذه الآيـات- التى نبحثهـا- تقف على نماذج للُامم السابقـة ممن شاهـدوا أنواع المعاجز والأعمال غير العاديـة، إلّاأنّهم استمروا فى الإنكار وعدم الإيمان.

فى البدء يقول تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

والآيـات التسع هى: العصـا، اليـد البيضـاء، الطوفـان، الجراد، القمـل، الضـفادع، الـدم، الجفـاف، ونقص الثمرات. ولأجـل التأكيـد على الموضوع اسأل- والخطاب موجّه إلى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: «فَسَلْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ».

إلّا أنّ الطاغيـة الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسـلم للحق، بل أكثر من ذلك إتّهم موسـى «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَـى مَسْحُورًا».

إنّ التعبير القرآنى يكشف عن الاسـلوب الدعائى التحريضى الذى يستخدمه المستكبرون ويتّهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصـلاحيهٔ الربانيـة ضـد الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطغاة معجزاتهم بالسـحر أو ينعتونهم بالجنون كى يؤثّروا من هذا الطريق فى قلوب الناس ويفرّقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسـى عليه السلام لم يسكت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: «قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ

مَا أَنزَلَ هؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ».

لذا فإنّك- يا فرعون- تعلم بوضوح أنّك تتنكّر للحقائق، برغم علمك بأنّها من اللّه! فهذه «بصائر» أى أدلة واضحة للناس كى يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنّك- يا فرعون- تعرف الحق وتنكره، لذا: «وَإِنّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا». «مثبور»: من «ثبور» وتعنى الهلاك.

ولأنّ فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدلالات موسى القوية، فإنّه سلك طريقاً يسلكه جميع الطواغيت عديمى المنطق فى جميع القرون وكافّة الأعصار، وذاك قوله تعالى:

«فَأَرَادَ أن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا».

«يستفز»: من «استفزاز» وتعنى الإخراج بقوة وعنف.

ومن بعد هذا النصر العظيم: «وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۷

الْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا». فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف»: من مادة «لفّ» وهنا تعنى المجموعة المتداخلة المعقّدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا من أىّ قبيلة هم.

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۱۰۵) وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (۱۰۸) وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹)

مرّة اخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية وعظمة هذا الكتاب السماوى ويجيب على بعض ذرائع المعارضين. فى البداية تقول الآيات: «وَبِالْحَقّ أَنزَلْنَهُ». ثم تضيف: «وَبِالْحَقّ نَزَلَ». ثم تقول: «وَمَا أَرْسَلْنكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

والفرق بين الجملة الاولى: «وَبِالْحَقّ أَنزَلْنَهُ» والجملة الثانية: «وَبِالْحَقّ نَزَلَ» هو أنّ الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، ولكنه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب من ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شىء ويقدر على كل شىء، فإنّه يبدأ بداية صحيحة، وينهى العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذى يخرج ماءً صافياً من أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعه من التلوّث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين وهو ملوّث، إلّاأنّ الشخص القادر والمحيط بالامور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوّث حتى يصل إلى العطاشى والمحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، وهو محفوظ فى جميع مراحله سواء فى المرحلة التى كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التى كان الرسول فيها هو المتلقى، وبمرور الزمن لاتستطيع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فاللّه هو الذى يتكفّل حمايته وحراسته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۸

لذا فإنّ هذا الماء النقى الصافى الوحى الإلهى القويم لم تناله يد التحريف والتبديل منذ عصر الرسول صلى الله عليه و آله وحتى نهاية العالم. الآية التى تليها تردّ على واحدة من ذرائع المعارضين وحججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرسول صلى الله عليه و آله، ولماذا كان نزوله تدريجياً؟ كما تشير إلى ذلك الآية (۳۲) من سورة الفرقان التى تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا». فيقول اللّه فى جواب هؤلاء: «وَقُرْءَانًا فَرَّقْنَهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ». حتى يدخل القلوب والأفكار ويترجم عملياً بشكل كامل.

ومن أجل التأكيد أكثر تبيّن الآية- بشكل قاطع- أنّ جميع هذا القرآن أنزلناه نحن:

«وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا».

إنّ القرآن له إرتباط دقيق بعصره، أىء ارتباط ب (٢٣) سنة، هى عصر نبوة نبى الخاتم بكل ما كانت تتمخض به من حوادث وقضايا.

هل يمكن جمع حوادث (٢٣) سنة نفسها فى يوم واحد، حتى ينزل القرآن فى يوم واحد؟

النزول التدريجي يعنى الإرتباط الدائمى للرسول صلى الله عليه و آله مع مصدر الوحى، إلّاأنّ النزول الدفعى يتمّ بمرحلة واحدة لا يتسنّى للرسول صلى الله عليه و آله الإرتباط بمصدر الوحى لأكثر من مرّة واحدة.

الآية التى تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: «قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا».

إنّ المقصود من «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ» هم مجموعة من علماء اليهود والنصارى من الذين آمنوا بعد أن سمعوا آيات القرآن، وشاهدوا العلائم التى قرأوها فى التوراة والإنجيل، والتحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، وأصبحوا من علماء الإسلام.

«يخرّون»: بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلًا من السجود ينطوى على إشارة لطيفة، هى أنّ الواعين وذوى القلوب اليقظة عندما يسمعون آيات القرآن وكلام الخالق عزّ وجل ينجذبون إليه ويولهون به إلى درجة أنّهم يسقطون على الأرض ويسجدون خشية بدون وعى واختيار «١».

---

(١) يقول الراغب فى (المفردات): «يخرون» من مادة «خرير» ويقال لصوت الماء والريح وغير ذلك ممّا يسقط من علو. وقوله تعالى: «خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح، والتنبيه أنّ ذلك الخرير كان صوت تسبيحهم بحمد اللّه لا بشىء آخر، ودليله قوله تعالى فيما بعد: «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١١٩

«أذقان»: جمع «ذقن» ومن المعلوم أنّ ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلّا أنّ تعبير الآية إشارة إلى أنّ هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أنّ ذقنهم قد يلمس الأرض عند السجود.

الآية التى بعدها توضّح قولهم عندما يسجدون: «وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا». هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم واعتقادهم باللّه وبصفاته وبوعده.

والكلام على هذا الأساس يجمع اصول الدين فى جملة واحدة.

وللتأكيد- أكثر- على تأثّر هؤلاء بآيات ربّهم، وعلى سجدة الحب التى يسجدونها تقول الآية التى بعدها: «وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا». «الخشوع»: هو حالة من التواضع والأدب الجسدى والروحى للإنسان فى مقابل شخصية معينة أو حقيقة معينة.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحمنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَ لَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَ لَا تُخَافِتْ بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى.

التّفسير

آخر الذرائع والأعذار: بعد سلسلة من الذرائع التى تشبّث بها المشركون امام دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، نصل مع الآيات التى بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهى قولهم: لماذا يذكر رسول اللّه صلى الله عليه و آله الخالق بأسماء متعددة بالرغم من أنّه يدّعى التوحيد. القرآن ردّ على هؤلاء بقوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

إنّ هؤلاء عميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيث كانوا يذكرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكل اسم من هذه الأسماء كان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۰

يعرّف بشطر أو بصفة من صفات ذلك الشخص أو المكان. بعد ذلك، هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تتناسب مع افعاله وكمالاته وهو المطلق فى وجوده وفى صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عزّ وجلّ الذى يدير دفة هذا العالم والوجود؟

ففى نهاية الآية التى نبحثها نرى المشركين يتحدّثون عن صلاة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويقولون:

إنّه يؤذينا بصوته المرتفع فى صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول اللّه صلى الله عليه و آله عبر قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا».

إنّ الآية أعلاه تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعى بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها.

هذا الحكم الإسلامى فى الدعوة إلى الإعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الاولى: لا تؤدّوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونه بالوقار والهدوء والأدب.

الثانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأ لنا فى جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتكون جميع هذه الامور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: «وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا».

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد اللّه، كما افتتحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عزّ وجل.

إنّ هذه الآية هى خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التى وردت فى السورة، وهى ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هى تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله بالقول: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ».

ومثل هذا الرب فى مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكّر به: «وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا».

روى العلّامة الطبرسى رحمه الله فى تفسير مجمع البيان: إنّ فى هذه الآية ردّاً على اليهود والنصارى، حين قالوا اتّخذ اللّه الولد، وعلى مشركى العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء اللّه لذل اللّه.

«نهاية تفسير سورة الإسراء»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۱

۱۸ سورة الكهف

محتوى السورة: تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ وعلا، وتنتهى بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة- كما فى أغلب السور المكية- إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمة كان المسلمون يحتاجونها فى تلك الأيام بشدة، وهى عدم استسلام الأقلية- مهما كانت صغيرة- إلى الأكثرية مهما كانت قوية فى المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضدّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

إنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذى القرنين) حيث إنّ هذه القصص بخلاف

أغلب القصص القرآنية لم تتكرّر فى مكان آخر من القرآن (أشارت الآية ۹۶ من سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذى القرنين). وهذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ألا أدلّكم على سورة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۲

شيّعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض»؟ قالوا: بلى. قال:

«سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر اللّه له إلى الجمعة الاخرى، وزيادة ثلاثة أيام، واعطى نوراً يبلغ السماء، ووُقِى فتنة الدجّال».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الكهف فى كل ليلة جمعة لم يمت إلّاشهيداً، وبعثه اللّه مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء».

إنّ عظمة السور القرآنية وتأثيرها المعنوى، وبركاتها الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (۱) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (۲) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (۳) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (۴) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (۵)

البداية باسم اللّه، والقرآن: تبدأ سورة الكهف- كما فى بعض السور الاخرى- بحمد اللّه، وبما أنّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمة ومطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالى من كل اعوجاج، فتقول الآية: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتبَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا».

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتدل ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنسانى ويحمى سائر الكتب السماوية.

«قَيِّمًا». وينذر الظالمين من عذاب شديد: «لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ». وفى نفس الوقت فهو: «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا». وهؤلاء فى نعيمهم «مكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا».

ثم تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». فهى تحذّر النصارى بسبب اعتقادهم بأنّ المسيح ابن اللّه، وتحذّر اليهود لأنّهم اعتقدوا بأنّ عزير ابن اللّه، وتحذّر المشركين لظنّهم بأنّ الملائكة بنات اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۳

ثم تشير الآيات إلى أصل أساسى فى إبطال هذه الإدعاءات الفارغة فتقول: إنّ هؤلاء لا علم لهم ولا يقين بهذا الكلام، وإنّما هم مقلدون فيه للآباء، وإنّ آباءهم على شاكلتهم فى الجهل وعدم العلم: «مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَائِهِمْ». ومع ذلك فإنّهم يتفوّهون بكلام رهيب «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ». فهل يعقل أن يكون اللّه جسماً أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً ... إنّه كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوّهون به لا ينطقون إلّاكذباً: «إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

«قيّم»: على وزن كلمة «سيّد» مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتى بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنّها هى وصف للقرآن فى عدم وجود أى اعوجاج فى آياته، بل إنّ فى مضمونها تأكيد على استقامة واعتدال القرآن، وخلوّه من أىّ شكل من أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوى العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهية والعدل والفضائل البشرية.

صفة «القيّم»: مشتقة من «قيمومة» البارى عزّ وجل التى تعنى اهتمام البارى عزّ وجل وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذى هو كلام اللّه له نفس الصفة أيضاً.

فَلَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَفْسَکَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۷) وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (۸)

العالم ساحة اختبار: الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الرسالة وقيادة النبى صلى الله عليه و آله، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهى الإشفاق على الامّة فتقول: «فَلَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَّفْسَکَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

وهنا يجب الإنتباه إلى بعض الملاحظات:

«باخع»: من «بخع» على وزن «نخل» وهى بمعنى إهلاک النفس من شدّة الحزن والغم.

استخدام كلمة «حديث» للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة فى هذا الكتاب السماوى الكبير.

الآية التى بعدها تجسّد وضع هذا العالم وتكشف عن أنّه ساحة للاختبار والتمحيص

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۴

والبلاء، وتوضّح الخط الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا». لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إنّ كل جانب فيه يذهب بالقلب، ويحيّر الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية فى الإنسان، كيما يتسنى امتحانه فى ظلّ هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهّلاته المعنوية.

لذلک تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إنّ هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كى لا ينخدعوا فى ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلًا من ذلک عليهم أن يفكّروا بتحسين أعمالهم.

ثم يبيّن تعالى أنّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحو والزوال:

«وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا».

«صعيد»: مشتقة من «صعود» وهى هنا تعنى وجه الأرض، الوجه الذى يتّضح فيه التراب؛ و «جرز»: تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلّة المطر.

إنّ المنظر الذى نشاهده فى الربيع فى الصحارى والجبال لا تبقى إذ لابدّ أن يأتى الخريف، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحوّل، فلا بدّ أن يأتى ذلک اليوم الذى يضع نهاية للقصور التى تناطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التى يرفل بها الإنسان، كذلک تنتهى المناصب والمواقع والإعتبارات، وسوف لن يبقى شىء من المجتمعات البشرية سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درس عظيم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (۹) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (۱۰) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (۱۱) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً (۱۲)

أسباب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ النضر بن الحرث بن كلدة وعقبة بن أبى معيط

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۵

أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد وصِفا لهم صفته، وخبّراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبى صلى الله عليه و آله وقالا لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهنّ فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فرأوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأوّل ما كان من أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟

وفى رواية اخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبى.

فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد وقصّا عليهم القصّة. فجاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله فسألوه، فقال صلى الله عليه و آله: «اخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث صلى الله عليه و آله خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّه إليه فى ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة وتكلّموا فى ذلك. فشقّ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام عن اللّه سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه عن أمر الفتية والرجل الطوّاف، وأنزل عليه: «وَيَسْلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» الآية.

التّفسير

بداية قصة أصحاب الكهف: فى الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، وكيفية اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأنّ القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، أو أنّه يذكر نماذج من التاريخ لتجسيد الوعى بالقضية، لذا قام فى هذه السورة بتوضيح قصة أصحاب الكهف، وعبّرت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون فى ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم، إلّاأنّهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضدّ الطاغوت- طاغوت زمانهم- وذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم فى سبيل الإيمان والثبات عليه.

فى البداية يقول تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن ءَايَاتِنَا عَجَبًا».

إنّ لنا آيات أكثر عجباً فى السماوات والأرض، وإنّ كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ وعلا، وفى حياتكم- أيضاً- أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، وفى كتابك السماوى الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإنّ قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۶

«الرقيم»: فى الأصل مأخوذة من «رقم» وتعنى الكتابة، وهو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنّه فى النهاية تمّت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أنّ «الرقيم» اسم الجبل الذى كان فيه الغار.

ثم تقول الآيات بعد ذلك: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» وعندما انقطعوا عن كل أمل توجّهوا نحو خالقهم: «فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً». ثم: «وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا».

أى: أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق ويقرّبنا من مرضاتك وسعادتك، الطريق الذى فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر اللّه تعالى. وقد إستجيبت دعوتهم: «فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا». «ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا».

بحوث

۱- جملة «أَوَى الْفِتْيَةُ» من مادة (مأوى) وتعنى المكان الآمن، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

۲- «فتية»: جمع «فتى» وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمسنّين الذين يملكون روحية شابّة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم فى مقابل الحق.

۳- جملة «ضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ» كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أىّ شىء، وهو ستار النوم.

۴- جملة «لِنَعْلَمَ ...» لا- تعنى أنّ اللّه يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثر استخدام هذا التعبير فى القرآن، والغرض منه هو تحقق العلم

الإلهى، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى (۱۳) وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (۱۴) هؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۱۵) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (۱۶)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۷

القصة المفصلة لأصحاب الكهف: بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصل لها ضمن (۱۴) آية وكان المنطلق فى ذلک قوله تعالى: «نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ نَبَأَهُم بِالْحَقّ». كلام خال من أىّ شكل من أشكال الخرافة والتزوير. «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبّهِمْ وَزِدْنهُمْ هُدًى».

وتشير الآيات القرآنية- وما هو ثابت فى التاريخ- إلى أنّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئة فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هناک حكومة ظالمة تحمى مظاهر الشرک والكفر والإنحراف.

مجموعة أهل الكهف أحسّوا بالفساد وقرروا القيام ضدّ هذا المجتمع، وفى حال عدم تمكنهم من المواجهة والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: «وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَهًا».

فإذا عبدنا غيره: «لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا».

«شطط»: على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد والإفراط فى الإبتعاد لذا فإنّ (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشى وضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مرتفعة.

إنّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلًا واضحاً لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، وهو قولهم:

إنّنا نرى وبوضوح أنّ لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأنّ نظام الخلق دليل على وجوده، وما نحن إلّاجزء من هذا الوجود، لذا فإنّ ربّنا هو نفسه ربّ السماوات والأرض.

ثم ذكروا دليلًا آخر وهو: «هؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً».

فهل يمكن الإعتقاد بشىء بدون دليل وبرهان؟: «لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطنٍ بَيّنٍ».

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلًا على مثل هذا الإعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والإنحراف الكبير: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

وهذا الإفتراء هو ظلم للنفس، لأنّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذى تسرى فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم للّهوتعرّض لمقامه العظيم سبحانه وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرک عن قلوب الناس،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۸

وزرع غرسة التوحيد فى مكانها، إلّاأنّ ضجة عبادة الأصنام فى ذلک المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة اللّه فى صدورهم وانكمشت همهمات التوحيد فى حناجرهم. وهكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذى سيذهبون إليه ثم كان قرارهم: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ». حتى: «يَنشُرَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً».

«يهيّىء»: مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق»: تعنى الوسيلة التى تكون سبباً للطف والرفق والراحة.

وليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد فى الجملة الاولى إشارة إلى الألطاف المعنوية للّه‌تبارك وتعالى، فى حين أنّ الجملة الثانية تشير إلى الجوانب المادية التى تؤدّى إلى خلاصهم ونجاتهم.

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ هُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱۸)

مكان أصحاب الكهف: يشير القرآن فى الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف فى الغار، وكأنّها تحكى على لسان شخص جالس فى مقابل الغار ينظر إليهم. فى هاتين الآيتين إشارة إلى ستّ خصوصيات هى:

أوّلًا: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، فإنّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكلٍ مباشر، فالقرآن يقول إنّك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۹

طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ».

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدّى إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنّ عبارة (تزاور) التى تعنى (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، وكأنّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ من اليمين (يمين الغار). وكلمة «تقرض»: التى تعنى (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق.

ثانياً: «وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مّنْهُ».

لقد كان اولئك فى مكان واسع من الغار، وهذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مستقرّهم فى فتحة الغار التى تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كى يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيث يبيّن أنّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: «ذلِكَ مِنْ ءَايتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا».

نعم، إنّ الذين يضعون أقدامهم فى طريق اللّه، ويجاهدون لأجله فإنّ اللّه سيشملهم بلطفه فى كل خطوة وليس فى بداية العمل فقط. إنّ اللّه يرعى هؤلاء حتى فى أدق التفاصيل.

ثالثاً: إنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: «وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ».

هذه الحالة الاستثنائية لكى لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التى تخاف الإنسان اليقظ، أو لكى يكون شكلهم مرعباً كى لا يتجرأ إنسان على الإقتراب منهم، وهذا بنفسه اسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتى لا- تتهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التى مكثوا فيها نياماً فى الكهف، فإنّ اللّه تبارك وتعالى يقول: «وَنُقَلّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشّمَالِ».

حتى لا يتركز الدم فى مكان معين، ولا تكون هناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدة طويلة.

خامساً: فى وصفٍ جديد يقول تعالى: «وَكَلْبُهُم بسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۰

«وصيد»: كما يقول الراغب فى المفردات، تعنى فى الأصل الغرفة أو المخزن الذى يتمّ إيجاده فى الجبال لأجل خزن الأموال، إلّاأنّ

المقصود به هنا هو فتحة الغار.

سادساً: قوله تعالى: «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا».

وَ كَذلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰)

اليقظة بعد نوم طويل: سوف نقرأ فى الآيات القادمة أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلًا للغاية بحيث استمر (۳۰۹) سنة، وعلى هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنّ القرآن يقول فى الآيات التى نبحثها: «وَكَذلِكَ بَعَثْنَهُمْ».

يعنى مثلما كنّا قادرين على إنامتهم نوماً طويلًا فإنّنا أيضاً قادرون على إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم، «لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ». «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم، «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ».

ولكنّهم كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأنّ المخزون الحيوى فى جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضّية لشراء الغذاء: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». ثم أردفوا: «وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا». لماذا هذا التلطّف:

«إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ». ثم: «وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا».

وتوصيتهم هى توصية لكافة أنصار الحق، فى أن لا يفكروا بطهارة غذائهم المعنوى وحسب، بل عليهم أيضاً الإهتمام بطهارة طعام الأجسام كى يكون زكياً نقيّاً من جميع الأرجاس والشبهات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۱

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (۲۱) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲۲) وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذلِكَ غَداً (۲۳) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَداً (۲۴)

نهاية قصة أصحاب الكهف: لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرجال المتشخّصين إلى كل مكان وأغاظت بشدّة الملك الظالم. لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف فى كل مكان، وعليهم أن يتّبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

وقد يكون هذا الأمر- وهو قيام مجموعة من ذوى المناصب فى الدولة بترك مواقعهم العالية فى الدولة وتعريض أنفسهم للخطر- هو بحدّ ذاته سبباً ليقظة الناس ومصدراً لوعيهم، أو لوعى قسم منهم على الأقل.

إنّ قصة هؤلاء النفر قد استقرّت فى صفحات التاريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

والآن لنعد إلى الشخص المكلّف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة ولكنه فغر فاه من شدّة التعجب، فالشكل العام للبناء قد تغيّر، هندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحوّلت إلى قصور، وقصور الأمس تحوّلت إلى خرائب.

إنّه لا يزال يعتقد بأنّ نومهم فى الغار كان ليوم أو بعض يوم.

لقد انتهى عجبه عندما مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطعام الذى اشتراه، فالبائع وقع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۲

نظره على قطعة نقود ترجع فى قدمها إلى (۳۰۰) سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوباً عليها، وعندما طلب منه توضيحاً قال له بأنّه حصل عليها حديثاً.

وهنا أحسّ الشخص بأنّه وأصحابه كانوا فى نوم عميق وطويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة فى المدينة، وقد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن. فقسم منهم لم يكن قادراً على التصديق بأنّ الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلّاأنّ قصة أصحاب الكهف أصبحت دليلًا قاطعاً لُاولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسمانى. ولذا فإنّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس:

«وَكَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». ثم أضاف تعالى: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا».

إنّ هذه الإنامة والإيقاظ هى أكثر إثارة للعجب من الموت والحياة فى بعض جوانبهما، فمن جهة قد مرّت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تفن أو تتأثّر، وقد بقوا طوال هذه المدّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياءً طيلة هذه المدّة؟

أليس هذا دليلًا قاطعاً على قدرة اللَّه على كل شىء؟ فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة حتماً.

بعض المؤرخين كتب يقول: إنّ الشخص الذى أرسل لتهيئة الطعام وشرائه، عاد بسرعة إلى الكهف وأخبر رفقاءه بما جرى، وقد تعجّب كل منهم، فطلبوا من الخالق جلّ وعلا أن يميتهم، وينتقلون بذلك إلى جوار رحمته، وهذا ما حدث.

لقد ماتوا ومضوا إلى رحمة ربّهم، وبقيت أجسادهم فى الكهف عندما وصله الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسمانى وبين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسى قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كى يسلبوا أنصار المعاد الجسمانى هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافياً إلى الأبد عن أنظار الناس. قال تعالى: «إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا».

ولأجل إسكات الناس عن قصّيتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إنّ قضيتهم معقّدة ومصيرهم محاط بالألغاز. لذلك فإنّ: «رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ». أى: اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث عن قصّتهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۳

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلًا حيّاً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جهدوا على أن لا تنسى القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتّخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن ينسوهم أبداً، بالإضافة إلى ما يتبرّك به الناس من آثارهم: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا».

الآية التى بعدها تشير إلى بعض الإختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلًا تتحدّث الآية عن اختلافهم فى عددهم فتقول: «سَيَقُولُونَ ثَلثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ». وبعضهم «وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ». وذلك منهم «رَجْمًا بِالْغَيْبِ».

وبعضهم «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ». أمّا الحقيقة فهى: «قُلْ رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم».

ولذلك «مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ».

إنّ عدد أصحاب الكهف الحقيقى هو سبعة، حيث إنّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبان فى الأخير العدد الحقيقى لهم.

إنّ الآية تنتهى بنصيحة تحثّ على عدم الجدال حولهم إلّاالجدل القائم على أساس المنطق والدليل: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظهِرًا».

بمعنى قل لهم قولًا منطقيّاً بحيث تتوضّح رجحان منطقك.

إنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدث معهم بالإعتماد على الوحى الإلهى، لأنّ أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحى دون غيره: «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا».

الآية التى بعدها تعطى توجيهاً عاماً لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذلِكَ غَدًا». «إِلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى

یجب أن تقول (إن شاء اللّه) لکل ما یخصّ أخبار المستقبل وأحداثه ولکل تصمیم تتخذه، لأنّک أوّلًا غیر مستقل فی اتّخاذ القرارات، وإذا لم یشأ اللّه فإنّ کائناً من کان لا یستطیع القیام بأیّ عمل.

ثانیاً: لا یصح للإنسان- من الوجهة المنطقیة- أن یقطع فی أخباره المستقبلیة ومواقفه وتصمیماته، لأنّ قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلک الأفضل له ذکر جملة (إن شاء اللّه) مع کل تصمیم لفعل شیء.

وبعد ذلک یقول القرآن: «وَاذْکُر رَّبَّکَ إِذَا نَسِیتَ». وهذه إشارة إلی أنّ الإنسان إذا نسی قول (إن شاء اللّه) وهو یتحدث عن أمر مستقبلی، فعلیه أن یقولها فور تذکّره، حیث یعوّض بذلک عما مضی منه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۴

وبعد ذلک جاء قوله تعالی: «وَقُلْ عَسَی أَن یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَدًا».

وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (۲۵) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَیْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لَا یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَداً (۲۶) وَ اتْلُ مَا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ کِتَابِ رَبِّکَ لَا مُبَدِّلَ لِکَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۷)

نوم أصحاب الکهف: من القرائن الموجودة فی الآیات السابقة نفهم إجمالًا أنّ نوم أصحاب الکهف کان طویلًا جدّاً. هذا الموضوع یثیر غریزة الاستطلاع عند کل مستمع، إذ یرید أن یعرف کم سنة بالضبط استمرّ نومهم؟

فی المقطع الأخیر من مجموعة الآیات التی تتحدث عن أصحاب الکهف، تبعد الآیات الشک عن المستمع وتقول له: «وَلَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَازْدَادُوا تِسْعًا».

ووفقاً للآیة فإنّ مجموع نومهم وبقائهم فی الکهف هو (۳۰۹) سنة.

ومن أجل وضع حدّ لأقاویل الناس حول مکثهم فی الکهف تؤکّد الآیة: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا». لماذا؟ لأنّ: «لَهُ غَیْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

والذی یعرف خفایا وظواهر عالم الوجود ویحیط بها جمیعاً، کیف لا یعرف مدّة بقاء أصحاب الکهف: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» «۱». ولهذا السبب فإنّ سکّان السماوات والأرض: «مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِیّ».

وفی نهایة الآیة یأتی قوله تعالی: «وَلَا یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَدًا». هذا الکلام هو تأکید علی الولایة المطلقة للخالق جلّ وعلا.

وفی آخر آیة یتوجّه الخطاب إلی الرسول صلی الله علیه و آله ویقول اللّه له: «وَاتْلُ مَا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِن کِتَابِ رَبِّکَ». أی: لا تعر أیّة أهمیة إلی أقوال الآخرین المخلوطة بالکذب والخرافة والوضع، یجب أن یکون اعتمادک فی هذه الامور علی الوحی الإلهی فقط، لأنّه لا یوجد شیء یستطیع أن یغیّر کلامه تعالی: «لَامُبَدّلَ لِکَلِمتِهِ». فکلام اللّه تعالی وعلمه لیس من سنخ علم

---

(۱) جملة «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» هی صیغة تعجب، تبیّن لنا عظمة علم الخالق جلّ وعلا، والمعنی أنّه بصیر سمیعبحیث إنّ الإنسان یعجب من ذلک.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۵

الإنسان الذی یخضع یومیّاً للتغیّر والتبدیل بسبب الإکتشافات الجدیدة والمعرفة الحدیثة، لذلک لا یمکن الإعتماد علیه والرکون إلیه مائة فی المائة، ولهذه الأسباب: «وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا». «ملتحد»: مشتقة من «لحد» علی وزن «مهد» وهی الحفرة التی یمیل وسطها إلی أحد الأطراف (کاللّحد الذی یحفر لقبر الإنسان).

الجوانب التربویة لقصّة أهل الکهف: هذه القصّة التأریخیة العجیبة التی یذکرها القرآن خالیة من أیّ خرافة أو وضع، وفیها العدید من الدروس التربویة البنّاءة، تماماً کما فی قصص القرآن الاخری.

أ) إنّ أوّل دروس هذه القصة هو تحطيم حاجز التقليد، والإبتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد.

ب) الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر فى هذه القصة ذات العبر.

ج) التقية بمعناها البنّاء درس آخر نستفيده من هذه القصة.

ونحن نعرف أنّ التقية ليست سوى أن يتكتّم الإنسان على حقيقة أمره فى الأماكن والمواقف التى لا ـ يرتجى منها فائدة فى ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقية وقاية للنفس واحتفاظ بقوة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقية.

د) عدم وجود تفاوت بين الناس وهم فى طريق اللّه، فالوزير كان إلى جانب الراعى، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذى كان يقوم بالحراسة، وهذا درس آخر يتّضح من خلاله أنّ إمتيازات الدنيا المادية، والمناصب المختلفة ليس لها أدنى نصيب أو تأثير على تصنيف الناس من أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء ... إنّ طريق الحق هو طريق التوحيد، وطريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

ه) الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هى نتيجة اخرى يجب الاعتبار بها.

و) لقد تعلّمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى فى أصعب الظروف وأدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة فى روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق اللّه؛ طريق التقوى.

ز) ضرورة الاعتماد على مشيئة اللّه وطلب العون من لطفه تعالى: وقول (إن شاء اللّه) فى كل ما يتعلق بامور المستقبل ... درس آخر نتعلّمه من قصة أصحاب الكهف.

ح) ضرورة النقاش المنطقى مع المعارضين درسٌ آخر نستفيده من قصة أصحاب الكهف.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣٦

ط) وأخيراً، فإنّ إمكانية المعاد الجسمانى وعودة الناس إلى الحياة مرّة اخرى عند البعث، يعتبر عاشر وآخر درس نستفيده من هذه القصّة.

إنّ هدف القرآن ليس قصّ القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشرى المليء بالحوادث والمواقف.

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى سلمان، وأبى ذر، وصهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه و آله وذلك أنّ مؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللّه! إن جلست فى صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء روائح صنانهم وكانت عليهم جبات الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء.

فلمّا نزلت الآية قام النبى صلى الله عليه و آله يلتمسهم فأصابهم فى مؤخّر المسجد يذكرون اللّه عزّ وجل، فقال: «الحمد للّهالذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المحيا ومعكم الممات».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣٧

التّفسير

الحفاة الأطهار: من الدروس التى نستفيدها من قصة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروة، بل عندما يكون المسير فى سبيل اللّه يتساوى الوزير والراعى، والآيات التى نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمة وتعطى للرسول صلى الله عليه و آله هذا الأمر: «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ».

ثم تستمر الآيات مؤكّدة خطابها للرسول صلى الله عليه و آله: «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثم من أجل التأكيد مجدداً، يقول تعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا». «وَاتَّبَعَ هَوَيهُ» والمطيع لأهوائه النفسية، والمفرط فى أفعاله دائماً «وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۱».

إنّ الموضوع أعلاه من الأهمية بمكان، بحيث إنّ القرآن يقول للرسول صلى الله عليه و آله- بصراحة- فى الآية التى بعدها: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّکُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ».

ولكن اعلموا أنّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التى يرتديها أمثال سلمان وأبى ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مرفّهة باذخة ومليئة بالزينة، ستنتهى عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا».

نعم، إنّهم كانوا إذا عطشوا فى هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنّهم عندما يطلبون الماء فى جهنم يؤتى إليهم بماء كالمهل: «وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ» «۲». «بِئْسَ الشَّرَابُ». ثم «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» «۳».

وفى هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التى تحضر بين أيديهم بمجرد مناداة الساقى، وفى جهنم يوجد أيضاً ساقٍ وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنّه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء.

نعم، إنّ كل ما هو موجود هناک (فى الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (فى الدنيا).

وبما أنّ اسلوب القرآن اسلوب تربوى وتطبيقى، فإنّه بعدما بيّن أوصاف وجزاء عبيد

---

(۱) «فرط»: تعنى التجاوز عن الحد، وكل شيء يخرج عن حدّه ويتحول إلى إسراف يقال له (فُرط).

(۲) «مُهل»: على وزن «قفل» وهى تعنى أى معدن مُذاب.

(۳) «مُرتفق»: من كلمة «رَفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۸

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التى تنتظرهم جزاء ما فعلوا.

لقد أجملت الآية كل ذلک بشكلٍ مختصر، ثم بشكلٍ تفصيلى نوعاً مّا. ففى البدء قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا». أى: إنّنا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كلية أو جزئية، ومن أى شخص وفى أى عمرٍ كان:

«أُولَئِکَ لَهُمْ جَنتُ عَدْنٍ». (الجنات الخالدة).

«تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهرُ». (من تحت الأشجار والقصور).

«يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ» «۱».

«وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (من حرير ناعم وسميک).

«مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِکِ» «۲».

«نِعْمَ الثَّوَابُ». «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا». (وحسنت مجمعاً للأحبّة).

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (۳۲) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً (۳۳) وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (۳۶)

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ عبيد الدنيا كانوا يحاولون الإبتعاد فى كل شىء عن رجال الحق وأهله المستضعفين، ثم عرّفتنا الآيات جزاءهم فى الحياة الاخرى. الآيات التى نبحثها تشير إلى حادثة اثنين من الأصدقاء أو الإخوة الذين يعتبر كل واحدٍ منهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين. فى البداية تخاطب الآيات الرسول صلى الله عليه و آله

---

(۱) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهى بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و (كتاب) وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة فارسية عُرّبت واشتقت منها الأفعال العربية.

(۲) «أرائك»: جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذى تكون جوانبه جميعاً مغطاة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۹

فتقول: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنبٍ وَحَفَفْنهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا».

البستان والمزرعة كان فيهما كل شىء: العنب والتمر والحنطة وباقى الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية من كل شىء: «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيًا».

والأهم من ذلك هو توفّر الماء الذى يعتبر سرّ الحياة، وأمراً مهماً لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كان الماء بقدر كاف: «وَفَجَّرْنَا خِللَهُمَا نَهَرًا».

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: «وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ».

ولأنّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالى على الآخرين، حيث إلتفت وهو بهذه الحالة إلى صاحبه: «فَقَالَ لِصحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا».

لقد تضخّم هذا الإحساس ونما تدريجياً- كما هو حاله- ووصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إنّما هى امور أبدية، فدخل بغرور إلى بستانه (فى حين أنّه لا يعلم بأنّه يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التى كادت أغصانها أن تنحنى من شدّة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذى يجرى فى النهر القريب من البستان والذى كان يسقى أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، وبلسان الآية وتصوير القرآن الكريم: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا».

بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود فى هذا العالم يتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكّر فى إنكار القيامة وقال: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنّياته.

ثم أضاف: حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّى بموقعى ووجاهتى سأحصل عند ربى- إذا ذهبت إليه- على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً فى أوهامه: «وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا».

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التى يعيشها والتى صوّرها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه فى كل فترة وهماً بعد آخر من أمثال ما حكت عنه الآيات آنفاً، وعند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۰

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (۳۷) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنَ

جَنَّتِکَ وَ یُرْسِلَ عَلَیْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِیداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ یُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِیعَ لَهُ طَلَباً (۴۱)

جواب المؤمن: هذه الآيات هى ردّ على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن. لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيّق والفكر المحدود، حتى ينتهى من كلامه، ثم قال له:

«قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيكَ رَجُلًا».

ثم عمد الرجل الموحد المؤمن إلى تحطيم كفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبّى».

إنّك تتباهى بدنياك وأنا أفتخر بعقيدتى وإيمانى وتوحيدى: «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبّى أَحَدًا».

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدّد لومه لصاحبه قائلًا: «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ».

وقد وضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث إنّك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شىء.

ثم يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالًا وولداً: «إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا». «فَعَسَى رَبّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ».

وليس فقط أن يعطينى أفضل مما عندك، بل ويرسل صاعقة من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: «وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا».

أو أنّه سبحانه وتعالى يعطى أوامره إلى الأرض كى تمنعك الماء: «أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا».

«حُسبان»: على وزن «لقمان» وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثم وردت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۱

بعد ذلك بمعنى السهام التى تحسب عند رميها، وتأتى أيضاً بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد»: تعنى القشرة التى فوق الأرض، وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق»: بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث إنّ قدم الإنسان تنزلق عليها.

فى الواقع، إنّ الرجل المؤمن والموحد حذّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنّها جميعاً فى طريقها إلى الزوال وهى غير قابلة للإعتماد.

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (۴۴)

العاقبة السوداء: أخيراً انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثّر الشخص الموحد المؤمن فى أعماق الغنى المغرور، الذى رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أنّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنّه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه فى هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أنّ العذاب الإلهى قد نزل فى تلك اللحظة من الليل عندما خيّم الظلام، على شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هوجاء مخيفة، أو على شكل زلزال مخرّب ومدمّر. وأيّاً كان فقد دمّرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهى بتلك المحصولات من كل جانب: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ».

«أحيط»: مشتقة من «إحاطة» وهى فى هذه الموارد تأتى بمعنى (العذاب الشامل) الذى تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور فى رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنّه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش وموحش، يبس الماء فى فمه، وتحطّم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله. كأنّه صحا من نوم عميق:

«فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا».

وفى هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: «وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّى أَحَدًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۲

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة فى مقابل كل هذه المصائب والإبتلاءات: «وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ».

ولأنّه فقد ما كان يملكه من رأس المال ولم يبق لديه شىء آخر، فإنّ مصيره: «وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا».

وهكذا انتهى كل شىء ولا ينفع الندم، لأنّ مثل هذه اليقظة الإجبارية التى تحدث عند نزول الإبتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون ونمرود، وهى بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال من ينتبه.

«هُنَالِكَ الْوَلَيَةُ لِلَّهِ الْحَقّ». نعم، لقد إتضح أنّ جميع النعم منه تعالى، وأنّ كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنّه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا».

إذن، لو أراد الإنسان أن يحبّ أحداً ويعتمد على شىء ما، أو يأمل بهديّة من شخص ما، فمن الأفضل أن يكون اللَّه سبحانه محطّ أنظاره، وموقع آماله، ومن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) الْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (۴۶)

بداية ونهاية الحياة فى لوحة حيّة: الآيات السابقة تحدثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأنّ إدراك هذه الحقيقة فى عمر (۶۰- ۸۰) سنة يعتبر أمراً صعباً بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإنّ القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حى ومعبّر كى يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدة مرّات خلال عمرهم. يقول تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ». هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال والصحراء، وتعيد الحياة للبذور المستعدة الكامنة فى الأرض المستعدة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنّ الطبقة الخارجية السميكة للبذور تلين قبال المطر، وتسمح للبراعم فى الخروج منها، وأخيراً تشقّ هذه البراعم التراب وتخترقه، الشمس تشع، النسيم يهب، المواد الغذائية فى الأرض تقدّم ما تستطيع، تتقوى البراعم بسبب عوامل الحياة هذه ثم تواصل نموّها، بحيث

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۳

- بعد فترة- نرى أنّ نباتات الأرض تتشابك فيما بينها: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ».

الجبل والصحراء يتحوّلان إلى قوّة حياتية دافعة، أمّا البراعم والفواكه والأوراد فإنّها تزيّن الأغصان، وكأنّ الجميع يضحك، يصرخون صراخ الفرح؛ يرقصون فرحاً.

لكن هذا الواقع الجذّاب لا يدوم طويلًا، حيث تهب رياح الخريف وتلقى بغبار الموت على النباتات، يبرد الهواء، وتشح المياه، ولا تمضى مدّة حتى يمسى ذلك الزرع الجميل الأخضر ذو الأغصان المورقة، ميتاً ويابساً: «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا» «۱».

تلك الأوراق التى لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان فى فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث إنّ أى نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان ويرسلها إلى أىّ مكان شاء: «تَذْرُوهُ الرّيحُ» «۲».

نعم: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا».

الآية التى بعدها تذكر وضع المال والثروة والقوة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين فى الحياة الدنيا، حيث تقول: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

إنّ هـذه الآيـة تشـير إلى أهم قسـمين فى رأسـمال الحياة حيث ترتبط الأشـياء الاخرى بهما، إنّها تشـير إلى (القوة الاقتصادية) و (القوة الإنسانية).

ثم يضيف القرآن: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا».

إنّ مفهوم (الباقيات الصالحات) يشمل كل فكره وقول وعمل صالح تدوم وتبقى آثاره وبركاته بين الأفراد والمجتمعات.

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (۴۹)

---

(۱) «هشيم»: من «هشم» بمعنى محطّم، وهى هنا تطلق على النباتات المتيبسة والمتحطّمة.

(۲) «تذروه»: من «ذرو» وتعنى التشتيت.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۴

يا ويلتاه من هذا الكتاب: تعقيباً لما كانت تتحدّث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدّى إليه هذه الصـفات من إنكار للبعث والمعاد، ينصب المقطع الراهن من الآيات التى بين أيدينا على تبيان المراحل الممهدة للقيامة وفق الترتيب الآتى:

۱- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

۲- مرحلة البعث.

۳- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الاولى تذكّر الإنسان بمقدمات البعث والقيامة فتقول: إنّ إنهيار معالم الشـكل الراهن للعالم هى أوّل مقدمات البعث، وسـيتمّ هذا التغيير لشـكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، فى الطليعة منها تسـيير الجبال الرواسى وكل ما يمسك الأرض ويبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أىّ من المظاهر السابقة: «وَيَوْمَ نُسَيّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً».

هـذه الآيـة تشـير إلى حوادث قبيـل البعث، وهى حوادث كثيرة جـدّاً. والملاحـظ أنّ السور القصار تتحـدث عنها بشـكل بارز فى إطار حديثها عما بات يعرف اصطلاحاً ب «أشراط الساعة».

إنّ المسـتفاد من مجموعة تلك السور أنّ وجه العالم الراهن يتغيّر بشـكل كلى حيث تتلاشى الجبال، وعلى حطام كل ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الاخرى فى مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: «وَحَشَرْنهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

«نغـادر»: من «غـدر» بمعنى الترك. ولـذلك يقـال للـذى يخلف الوعـد والميثاق ويتركه بأنّه «غـدر» ويقال لمياه الامطار المتجمعـة فى مكان واحد ب «الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامة لا يستثنى منها أحد.

الآيـة التى بعدها تتحدث عن كيفية بعث الناس فتقول: «وَعُرِضُوا عَلَى رَبّكَ صَفًّا». إنّ اسـتخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشـر كـل مجموعـة من النـاس تتشـابه فى أعمالها فى صفٍ واحـد؛ أو أنّ الجميع سـيكونون فى صف واحـد دون أيّـة إمتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: «لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

فليس ثمة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الإمتيازات والمناصب

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۵

المادية، ولا الملابس المختلفة، وليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التى خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم من أنّكم كنتم

تتوهمون عدم امكان ذلك: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا».

وذلك فى وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكّرون فى حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثم تشير الآيات إلى مراحل اخرى من يوم البعث والمعاد فتقول: «وَوُضِعَ الْكِتبُ».

هـذا الكتاب الـذى يحتوى على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». وذلك عنـدما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

فى هذه الأثناء يصرخون: «وَيَقُولُونَ يوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتبِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصهَا».

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». وجدوا الحسنات والسيئات، الظلم والعدل، السلبيات والخيانات، كل هذه وغيرها وجدوها متجسّدة أمامهم.

فى الواقع إنّهم يلاقون مصير أعمالهم: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا». الذى سيشملهم هناك هو- لا محالة- ما قاموا به فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

ترى ما مقدار ما يعكسه الإيمان بهذا اليوم- بهذه المحكمة بكلّ ما تتخلله من مشاهد ومواقف- على قضية تربية الإنسان ودفعه ليتحرك فى خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات. فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم؟!

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ مَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٢) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٤٦

لا تتخذوا الشياطين أولياء: لقد تحدّثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إنّ هذا التكرار يتضمن دروساً متعددة، وفى كل مقطع مكرّر هناك دروس وعبر جديدة.

ولأنّ الآيات السابقة ذكرت مثالًا واقعياً عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين فى مقابل الفقراء المستضعفين وتجسّد عاقبة عملهم، ولأنّ الغرور كان هو السبب الأصلى لإنحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإنّ الآيات تعطف الكلام على قصة إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً منه وعلوّاً، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان.

فى البداية تقول الآيات: تذكّروا ذلك اليوم الذى فيه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، فى حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس- إذاً- طريق الطغيان والكفر إذا كان من جملتهم؟! لذلك فإنّ الآيات- منعاً لهذا الوهم- تقول مباشرة إنّه: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

إنّه إذاً لم يكن من الملائكة، لكنه- بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلّ وعلا- قرّب وكان فى صف الملائكة، إلّاأنّه- بسبب لحظة من الغرور والكبر- سقط وأصبح أكثر الموجودات نفرة وابتعاداً عن اللّه تبارك وتعالى.

ثم تقول الآية: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى».

والعجب أنّهم: «وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ». وهذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه منذ اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السلام.

فاتّخاذ الشيطان وأولاده بدلًا من الخالق المتعال أمر قبيح: «بِئْسَ لِلظلِمِينَ بَدَلًا».

الآيـة الـتى بعـدها هى دليـل آخر على إبطـال هـذا التصـور الخـاطىء، إذ تقـول: عن إبليس وابنـائه أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق السـماوات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: «مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ». حتى نطلب العون منهم فى خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۷

لـذا فـإنّ الشـخص الـذى ليس له أىّ دور فى خلق العـالم، وحتى فى خلق من يقع على شـاكلته ومن هو من نوعه، ولا يعرف شـيئاً من أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأىّ قدرة أو دور يملك؟

ثم تقول: «وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلّينَ عَضُدًا».

يعنى أنّ الخلق قائم على أساس الصـدق والصـحة والهداية، أمّا الكائن الذى يقوم منهج حياته على الإضـلال والإفساد، فليس له مكان فى إدارة هذا النظام.

آخر آيـة من الآيـات التى نبحثهـا، تحـذّر مرّة اخرى، وتقول: تـذكّروا يومـاً يـأتى فيه النـداء الإلهى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ».

لقـد كنتم تنـادونهم عمراً كاملًا، وكنتم تسـجدون لهم، واليوم وبعـد أن أحـاطت بكم أمواج العـذاب فى ساحـة الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادى الأشـخاص الذين لا تزال ترسّـبات أفكار الدنيا فى عقولهم: «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فلم يجيبوا على ندائهم، فكيف بمساعدتهم وانقاذهم!

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوبِقًا» (۱).

ثم تقول الآيةُ التى بعدها موضّحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: «وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ».

لقـد انكشـفت لهم النّار التى لم يكونوا يصدّقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشـعرون بأخطائهم، ويتيقّنون بأنّهم سـيدخلون النار: «فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا».

ثم يتيقّنون أيضاً أن لا منقذ لهم منها: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا».

فلاـ تنقـذهم اليوم منهـا لا معبوداتهم ولا شـفاعة الشـفعاء، ولا الكـذب أو التوسل بالـذهب والقوة، إنّها النار التى يزداد سـعيرها بسـبب أعمالهم.

«مواقعوهـا»: مشـتقة من «مواقعـة» بمعنى الوقوع على الآـخرين، وهى إشارة إلى أنّهم يقعون على النّار، وأنّ النّار تقع عليهم، فالنّار تنفذ فيهم وهم ينفذون فى النار؛ وقد قرأنا فى الآية (۲۴) من سورة البقرة قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

---

(۱) «موبق»: من «وبوق» على وزن «نبوغ» وهى تعنى الهلاك، و «موبق» تقال للمهلكة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۸

وَ لَقَـدْ صَرَّفْنَا فِى هـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا (۵۴) وَ مَـا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُـدَى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (۵۵) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِى وَ مَا أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶)

فى انتظار العقاب: تنطوى هـذه الآيات على تلخيص واسـتنتاج لما ورد فى الآيات السابقـة، وهى تشـير- أيضاً- إلى بحوث قادمة. الآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلّ مَثَلٍ».

لقـد ذكرنا نماذج من تأريـخ الماضـين الملىء بالإثارة، وقـد أوضـحنا للناس الحوادث المرّة للحياة واللحظات الحلوة فى التاريـخ، وقد

فصّلنا بيان هذه الامور بحيث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، وتكون الحجة على الآخرين تامّة، ولا يبقى ثمّة مجال للشك.

ولكن بالرغم من هذا فإنّ مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبداً: «وَكَانَ الْإِنسنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا».

الآية التى بعدها تقول: إنّه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المختلفة التى ينبغى أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنّ هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ». أى مصير الامم السالفة: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» (۱).

فيرونه بأمّ أعينهم.

إنّ هذه الآية إشارة إلى أنّ هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعى أبداً، بل هم يؤمنون فى حالتين فقط:

أوّلًا: عندما يصيبهم العذاب الأليم الذى نزل مثله فى الأقوام والامم السابقة.

ثانياً: عندما يشاهدون العذاب الإلهى بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

---

(۱) «قبل»: تعنى التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهى بالعين.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۹

ومن أجل طمأنة الرسول صلى الله عليه و آله فى مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية:

«وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

ثم تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات اللّه: «وَيُجدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا» (۱).

وهذه الآية تشبه الآيات (۴۲- ۴۵) من سورة الحج التى تقول: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ» الآيات.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵۷) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (۵۸) وَ تِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (۵۹)

لا استعجال فى العقاب الإلهى: الآيات السابقة كانت تتحدث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التى بين أيدينا تستمر فى نفس البحث. ففى البداية قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بَايتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ».

إنّ استخدام تعبير (ذكّر) يوحى إلى أنّ تعليمات الأنبياء عليهم السلام هى بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطرى فى أعماق الإنسان، وإنّ مهمة الأنبياء هى رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة.

الطريف فى الأمر أنّ الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هى:

---

(۱) «يدحضوا»: مشتقة من «إدحاض» بمعنى الإبطال والإزالة، وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة «دحض» بمعنى الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۱۹۹

أوّلًا: إنّ هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون فى فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم. ثانياً: إنّها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنّكم اقترفتم الذنوب، وأنّ منهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا». وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: «وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا».

إنّ البرنامج التربوى للخالق جلّ وعلا هو أن يعطى لعباده الفرصة بعد الاخرى، وهو جلّ وعلا لا يعاقب بشكل فورى مثل الجبّارين والظالمين، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضى دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التى بعدها تقول: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ». «لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ». فاذا كانت الإرادة الإلهية تقتضى انزال العذاب بسبب إرتكابهم للذنوب لتحقّق ذلك فوراً.

«بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا» (۱).

فغفرانه تعالى يقضى أن يرحم التوابين، ورحمته تقضى أن لا يعجّل عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف التوابين، إلّاأنّ عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طغيانهم وتمرّدهم إلى أقصى درجاته.

وأخيراً تنتهى هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرائبها والدمار الذى حلّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما إرتكبوا من ظلم، فى نفس الوقت الذى لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لمهلكهم: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

---

(۱) «موئل»: من كلمة «وئل» وتعنى الملجأ ووسيلة النجاة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۱

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً (۶۰) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هذَا نَصَباً (۶۲) قَالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قَالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً (۶۴)

لقاء موسى والخضر عليهما السلام: ذكر على بن إبراهيم فى تفسيره: لمّا أخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذى أمر اللَّه موسى عليه السلام أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصّته؟ فأنزل اللَّه تعالى.

لقد ذكرت فى سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هى: قصة أصحاب الكهف التى إنتهينا منها؛ وقصة موسى والخضر عليهما السلام؛ وقصة ذى القرنين التى سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود فى حياتنا وما تعوّدنا عليه وألفناه، وتبيّن لنا أنّ حدود العالم لا تنحصر فى نطاق ما نرى وما نشاهد، وأنّ الشكل العام للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الاولى.

فإنّ قصة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة اخرى. ففى القصة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّاً من أولى العزم بكل وعيه ومكانته فى زمانه يعيش محدودية فى علمه ومعرفته من بعض النواحى، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلّم على يديه.

فى أوّل آية نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَهُ لَاأَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا».

إنّ المعنى بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النبى المعروف من أولى العزم.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بنى اسرائيل.

«مجمع البحرين»: بمعنى محل التقاء البحرين، والمقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس»، وهذان الخليجان يتصلان بالبحر الأحمر.

«حقب»: تعنى المدة الطويلة والتى فسّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنّنى سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيّعته ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۲

قوله تعالى «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا» أى السمكة التى كانت معهما، أمّا العجيب فى الأمر فإنّ الحوت «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا».

هذه السمكة الذى كان معدّاً للغذاء كانت سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازى وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد فى هذه الفترة إلى الماء.

وفى تتمة القصة نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفى هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاماً، وعند ذلك قال لصاحبه: «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذَا نَصَبًا».

إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسى ويوشع قد سلكا طريقاً يمكن أن نسمّيه بالسفر، إلّاأنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلًا.

وفى هذه الأثناء قال له صاحبه: «قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسنِيهُ إِلَّا الشَّيْطنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا».

ولأنّ هذا الحادث والموضوع- بشكل عام- كان علامة لموسى عليه السلام، لكى يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذى خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: «قَالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ».

وهنا رجعا فى نفس الطريق: «فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا».

وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبى مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن ف «نَسِيَا حُوتَهُمَا».

فى الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان فى المسائل والموارد التى لا ترتبط بالأحكام الإلهية والامور التبليغية، أى فى مسائل الحياة العادية.

فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٣

رؤية المعلم الكبير: عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أى قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجأة: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا».

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة «عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا» فهى تبيّن أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً فى شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم فى قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة «مِن لَّدُنَّا» تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التى لا يعلمها سوى اللّه تعالى.

والمقصود من عبارة «رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا» هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التى وهبها اللّه تعالى لهذا الرجل كى يكون قادراً على استقبال العلم الإلهى.

فى هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا».

فى معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم يجيب موسى عليه السلام بكلام عجيب: «قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا».

ثم بيّن سبب ذلك مباشرة وقال: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا».

إنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التى تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، فى حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأموراً

بمعرفة البواطن، وبالتالى لم يكن يعرف عنها الكثير.

فى مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذى ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر.

وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمع هذا الكلام وخشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهّد بأن يصبر على جميع الحوادث و «قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا».

مرّة اخرى كشف موسى عليه السلام عن قمّة أدبه فى هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّى صابر، بل قال: إن شاء اللّه ستجدنى صابراً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۴

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيّئة فى الظاهر والتى لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة اخرى، وحذّره: «قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» «۱». وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

المعلم الإلهى والأفعال المنكرة: نعم، لقد ذهب موسى وصاحبه وركبا السفينة:

«فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا».

«خرق»: (كما يقول الراغب فى المفردات) الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كون موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً فقد كان من جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنسانى يضغط عليه ولا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التى يبدو ظاهرها سيّئاً قبيحاً، لذا فقد نسى العهد الذى قطعه للخضر (العالم) فاعترض و «قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

---

(۱) إنّ عبارة «أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة «أحدث» هو: إنّى أنا الذىأبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الاولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۵

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا».

وفى هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصة وخاطبه: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

أمّا موسى الذى ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذى قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلًا: «قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا». يعنى لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذنى بهذا الإشتباه.

«ترهقنى»: مشتقة من «إرهاق» وتعنى تغطية شيء ما بالقهر والغلبة، وتأتى فى بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفى الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعّب الامور علىّ، ولا تقطع فيضك عنّى بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجّلوا من السفينة: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ»، وقد تمّ ذلك بدون أى مقدمات.

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة اخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفلٍ بريء بدون أى سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسى وعده مرّةً اخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه فى المرّة الاولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الاولى: «قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ». أى إنّك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، «لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا».

ومرّة اخرى كرّر العالم الكبير جملته السابقة التى إتّسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: «قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن

تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا».

تـذکّر موسـی تعهـده فانتبه إلی ذلک وهو خجل، حیث أخلّ بالعهـد مرتین- ولو بسـبب النسـیان- وبـدأ تـدریجیاً یشـعر بصدق عبارة الأسـتاذ فی أنّ موسـی لا- یسـتطیع تحمل أعماله، لـذا فلا یطیق رفقته کما قال له عنـدما عرض علیه موسـی الرفقـة، لـذا فقـد بادر إلی الاعتذار وقال: إذا اعترضت علیک مرّة اخری فلا تصاحبنی وأنت فی حلّ منّی: «قَالَ إِن سَأَلْتُکَ عَن شَیْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصحِبْنِی قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّی عُذْرًا».

صیغة العذر هنا تدل علی انصاف موسی علیه السلام ورؤیته البعیدة للُامور، وتبیّن أنّه علیه السلام کان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۶

یستسلم للحقائق ولو کانت مرّة.

بعد هذا الکلام والعهد الجدید: «فَانطَلَقَا حَتَّی إِذَا أَتَیَا أَهْلَ قَرْیَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن یُضَیِّفُوهُمَا». والمقصود من کلمة قریة هو مدینة (الناصـرة) أو میناء (أیلة). المهم فی الأمر، أنّنا نسـتنتج من خلال ما جری لموسی علیه السلام وصاحبه من أهل هذه المدینة أنّهم کانوا لئاماً دنیئی الهمّة. فی مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «کانوا أهل قریة لئام».

ثم یضـیف القرآن: «فَوَجَدَا فِیهَا جِدَارًا یُرِیدُ أَن یَنقَضَّ فَأَقَامَهُ». وقد کان موسـی علیه السـلام شاهد کیف أنّ الخضـر قام بترمیم الجدار بالرغم من سـلوک أهل القریـة القبیـح إزاءهما، وکأنّه بذلک أراد أن یجازی أهل القریة بفعالهم السیّئة؛ وکان موسـی یعتقد بأنّ علی صاحبه أن یطالب بالأجر علی هذا العمل حتی یستطیعا أن یعدّا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسـی موسـی علیه السـلام عهده مرّة اخری وبدأ بالإعتراض، إلّاأنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفیفاً ف «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَیْهِ أَجْرًا».

وفی الواقع فإنّ موسی یعتقد بأنّ قیام الإنسان بالتضحیة فی سبیل أناس سیئین عمل مجاف لروح العدالة.

وهنا قال الرجل العالم کلامه الأخیر لموسـی بأنّک ومن خلال حوادث مختلفـة، لا تسـتطیع معی صبراً، لـذلک قرّر العالم قراره الأخیر: «قَالَ هـذَا فِرَاقُ بَیْنِی وَبَیْنِکَ سَأُنَبِّئُکَ بِتَأْوِیلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَیْهِ صَبْرًا». «تأویل»: من «أول» علی وزن «قول» وتعنی الإرجاع، لـذا فإنّ أی عمل أو کلام یرجعنا إلی الهدف الأصلی یسمّی «تأویل» کما أنّ رفع الحجب عن أسرار شیء هو نوع من التأویل.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغایة، لکن علی موسی علیه السلام أن ینصاع لهذه الحقیقة المرّة.

المفسر المعروف أبو الفتوح الرازی یقول: ورد فی الخبر، أنّ موسی علیه السلام عندما سئل عن أصعب ما لاقی من مشکلات فی طول حیاته، أجاب قائلًا: لقد واجهت الکثیر من المشاکل والصعوبات (إشارة إلی ما لاقاه علیه السلام من فرعون، وما عاناه من بنی إسرائیل) ولکن لم یکن أیّاً منها أصعب وأکثر ألماً علی قلبی من قرار الخضر فی فراقی إیّاه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۷

أَمَّا السَّفِینَةُ فَکَانَتْ لِمَسَاکِینَ یَعْمَلُونَ فِی الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِیبَهَا وَ کَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِکٌ یَأْخُذُ کُلَّ سَفِینَةٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَکَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَیْنِ فَخَشِینَا أَنْ یُرْهِقَهُمَا طُغْیَاناً وَ کُفْراً (۸۰) فَأَرَدْنَا أَنْ یُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَیْراً مِنْهُ زَکَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَکَانَ لِغُلَامَیْنِ یَتِیمَیْنِ فِی الْمَدِینَةِ وَ کَانَ تَحْتَهُ کَنْزٌ لَهُمَا وَ کَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّکَ أَنْ یَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ یَسْتَخْرِجَا کَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی ذلِکَ تَأْوِیلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً (۸۲)

الأسـرار الداخلیة لهذه الحوادث: بعد أن أصـبح الفراق بین موسـی والخضـر علیهما السلام أمراً حتمیاً، کان من اللازم أن یقوم الأستاذ الإلهی بتوضـیح أسـرار أعماله التی لم یسـتطع موسـی أن یصبر علیها، وفی الواقع فإنّ استفادة موسی من صحبته تتمثل فی معرفة أسرار هـذه الحوادث الثلاثـة العجیبـة، والتی یمکن أن تکون مفتاحـاً للعدیـد من المسائـل، وجواباً لکثیر من الأسـئلة. ففی البدایـة ذکر قصـة السفینة وقال: «أَمَّا السَّفِینَةُ فَکَانَتْ لِمَسکِینَ یَعْمَلُونَ فِی الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِیبَهَا وَکَانَ وَرَاءَهُم مَّلِکٌ یَأْخُذُ کُلَّ سَفِینَةٍ غَصْبًا».

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذى بدأ فى حينه عملًا مشيناً سيّئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذاً خلاصة المقصود فى الحادثة الاولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعنى هنا الجانب المكانى، وإنّما هى كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التى سوف تصيبه لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثانية التى قتل فيها الفتى، فيقول: «وَأَمَّا الْغُلَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَنًا وَكُفْرًا».

إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلّا لا معنى للخوف فى هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعى والقدرة.

وبعبارة اخرى: فإنّ الهدف هو الإتّقاء من حادث سيء نرغب أن نقى الأبوين منه على أساس المودة لهما.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۸

ثم تحكى الآيات على لسان العالم قوله: «فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا». «زكاة»: هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للامور الدينية والمادية، وقد يكون فى هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذى قال: «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ...» فقال له العالم فى الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يبدلهما ربّهما ابناً طاهراً بدلًا عن ذلك.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أبدلهما اللّه به جارية ولدت سبعين نبيّاً».

فى آخر آية من الآيات التى نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثالث الذى دعاه إلى بناء الجدار فقال: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صلِحًا». «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا». «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ». وأنا كنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوى هذين اليتيمين، كى لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفى خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفى أىّ شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكى يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه غيبى، قال العالم: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى» بل بأمر من اللّه.

وذلك سرّ ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: «ذلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا».

دروس قصة خضر وموسى عليهما السلام: هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلى:

أ: أهمية العثور على قائد عالم والاستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّاً من اولى العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفى أىّ عمر كانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهى تنبع من العبودية للّه‌تعالى.

ج: يجب تعلّم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه «مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». أى:

علمنى عملًا يقرّبنى من هدفى ومقصدى، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الإستعجال فى الأعمال، إذ العديد من الامور تحتاج إلى الفرص المناسبة.

ه: الظاهر والباطن من المسائل المهمّة الاخرى التى نتعلّمها من القصة، إذ يجب علينا أن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۹

لا نصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التى تقع فى مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا، إذ ما أكثر الحوادث التى نكرهها، ولكن يتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية، والقرآن يصرّح بمضمون هذه الحقيقة فى الآية (۲۱۶) من سورة

البقرة قوله تعالى: «عَسَى أن تَكْرَهُوا شَيًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكَمْ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكَمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

و: من دروس القصـة الإعتراف بالحقـائق واتخاذ المواقف المطابقـة لها، فعنـدما تخلّف موسـى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا يستطيع الاستمرار معه فى الصحبة.

يجب على الإنسـان أن لا يسـتمر إلى آخر عمره فى اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المسـتقبلية التى قـد لا تحصـل أبداً، اذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الإختبار وأن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء؛ لقـد تحمل الخضـر مسؤوليـة حمايـة الأبناء بالمقدار الذى كان يسـتطيعه، وذلك بسـبب الأب الصالح الملتزم، بمعنى أنّ الإبن يسـتطيع أن يسـعد فى ظل الإيمان وأمانـة والتزام الأب، وإنّ نتيجـة العمل الصالح الذى يلتزمه الأب تعود على الإبن أيضاً.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين عندما يطال الموت الإبن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه فى مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذىً وطغيان وكفر، قد يحرفهم عن الطريق الإلهى، كما رأينا ذلك فى القصة التى بين أيدينا.

ط: الناس أعـداء ما جهلوا؛ قـد يحـدث أن يقوم شـخص بالإحسان إلينا، إلّاأنّنا نتصوره عـدوّاً لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الامور، ونتسـرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والامور التى نجهلها ولا نحيط بأسـبابها علماً. من الطبيعى أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علمـاً من الأحـداث والقضايا، إلّاأنّ الـدرس المسـتفاد من القصـة هو أن لا نتسـرّع فى إصـدار الأحكام على مثل هـذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التى نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ى: أدب التلميذ والأسـتاذ؛ ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأسـتاذ ظهرت فى مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الربانى العالم، فمن ذلك مثلًا:

۱- اعتبار موسى عليه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: «أَتَّبِعُكَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۰

۲- وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً من هذا العلم، فقال:

«مِمَّا عُلِّمْتَ».

وَ يَسْأَلُونَـكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُـلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (۸۳) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَـىْءٍ سَـبَباً (۸۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (۸۵) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَـدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْـناً (۸۶) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَـذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (۸۷) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (۸۸) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۸۹) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَـدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَـلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (۹۰) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (۹۱)

قصة ذو القرنين العجيبة: قلنا فى بداية حديثنا عن أصـحاب الكهف: إنّ مجموعة من قريش قرّرت اختبار الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا ونحن الآن بصدد ذكر قصة «ذو القرنين»:

إنّ قصة ذو القرنين تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم.

وقد بذلت جهود ومساعى كثيرة للتعرّف على هذه الشخصية.

وسنقوم أوّلًا بتفسير الآيات الست عشرة الخاصّة بذى القرنين، ثم ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذى القرنين نفسه.

بتعبير آخر: إنّ مـا يهمنـا أوّلًا هـو الحـديث عن شخصـية ذى القرنين، وهـو مـا فعله القرآن، حيث يقـول تعـالى: «وَيَسَـلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ».

فيكون الجواب على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه و آله: «قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا».

إنّ بدايـة الآيـة تبيّن لنا أنّ قصـة ذو القرنين كانت متداولـة ومعروفـة بين الناس، ولكنّها كانت محاطـة بالغموض والإبهام، لهذا السـبب طالبوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفى إستئناف الحديث عن ذى القرنين يقول تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ». أى:

منحناه سبل القوّة والقدرة والحكم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۱

«وَءَاتَيْنٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا». إنّ اللّه تبـارك وتعـالى منـح «ذو القرنين» أسـباب الوصول لكـل الأشـياء: العقـل، العلم الكـافى، الإدارة السليمة، القوّة والقدرة، الجيوش والقوى البشـرية، بالإضافة إلى الإمكانات المادية، أى إنّه منح كل الأسباب والسبل المادية والمعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثم يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذى القرنين من هذه الأسباب والسبل فيقول:

«فَأَتْبَعَ سَبَبًا». ثم «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ». فرأى أنّهـا تغرب فى بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: «وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ» «۱».

«وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا». أى مجموعـة من الناس فيهم الصالـح والطالـح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب اللّه ذا القرنين فى شأنهم: «قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا».

بعـد ذلك تحكى الآيات جواب «ذى القرنين» الذى قال: «قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا» «۲». أى إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوى والأخروى معاً.

«وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صٰلِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى . «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا». أى:

أنّنا سـنتعامل معه بالقول الحسن، فضلًا عن أنّنا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبى منه ضرائب كثيرة.

وعندما إنتهى «ذو القرنين» من سـفره إلى الغرب توجه إلى الشـرق حيث يقول القرآن فى ذلك: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى اسـتخدم الوسائل والإمكانات التى كانت بحوزته.

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ». وهنا رأى أنّها: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا». وفى اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّاً، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التى لا تكفى لتغطية أبدانهم من الشمس.

أمّا بعض المفسرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التى تحميهم من الشمس.

---

(۱) «حمئـة»: تعنى فى الأصـل الطين الأسود ذا الرائحـة الكريهـة، أو الماء الآسن الموجود فى المسـتنقعات. وهـذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض الـتى بلغهـا «ذو القرنيـن» كـانت مليئـة بالمسـتنقعات، بشـكل كـان ذو القرنين يشـعر معه بـأنّ الشـمس كـانت تغرب فى هـذه المستنقعات، تماماً.

(۲) «نكر»: مشتقة من «منكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أى العذاب المجهول الذى لم يمكن تصوره.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۲

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هـذه، قوله تعالى: «كَذٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا». هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيّداً بإمكاناته.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۹۲) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (۹۳) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدّاً (۹۴) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيـدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩۶) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً (٩٨)

كيف تمّ بناء سدّ ذى القرنين: الآيات أعلاه تشير إلى سفرة اخرى من أسفار ذى القرنين حيث تقول: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى: بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمة التى كانت تحت تصرفه ومضى فى سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا».

والآية تشير إلى أنّه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد اناساً كانوا على مستوى دانٍ من المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدن لدى البشر.

فى هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجىء ذى القرنين، لأنّهم كانوا فى عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: «قَالُوا يذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا».

قد يكون كلامهم هذا تمّ عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذى القرنين.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: «قَالَ مَا مَكَّنّى فِيهِ رَبّى خَيْرٌ»، وأنّى لا أحتاج إلى مساعدتكم المالية وإنّما: «فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا».

«ردم»: على وزن «طرد» فى الأصل تعنى ملء الشق بالأحجار، إلّاأنّها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شمل كل سدّ، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۳

يعتقد بعض المفسرين أنّ كلمة «ردم» تقال للسدّ القوى.

ثم أمر ذو القرنين فقال: «ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ».

«زُبر»: جمع «زُبرة» على وزن (غرفة)، وتعنى القطع الكبيرة والضخمة من الحديد.

وعندما تهيّأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّى بين الجبلين بشكل كامل: «حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ». «صدف»: تعنى هنا حافة الجبل.

الأمر الثالث لذى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب وما شابهه، ووضعه على جانبى هذا السد، وأشعل النار فيه ثم أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدّة النار:

«قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا».

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدّاً من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذى يقام به اليوم فى ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: «قَالَ ءَاتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا».

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدى بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ من التآكل.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر من القوة والإحكام بحيث: «فَمَا اسْطعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطعُوا لَهُ نَقْبًا».

لقد كان عمل ذى القرنين عظيماً ومهماً، وكان له وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى به أو يمنّ به، إلّاأنّه قال بأدب كامل: «قَالَ هذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبّى»، لأنّ أخلاقه كانت أخلاقاً إلهية.

إنّه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنّما كان من قبل الخالق جلّ وعلا.

ثم استطرد قائلًا: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبدياً وخالداً: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ». «وَكَانَ وَعْدُ رَبّى حَقًّا».

لقد أشار ذو القرنين فى كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۴

بحثان

أوّلًا- ملاحظات التربوية فى هذه القصة التأريخية: هذه القصة تحوى على دروس تربوية كثيرة وفى الواقع أنّها هى الهدف القرآنى من إيرادها.

۱- إنّ أوّل درس تعلّمنا إيّاه أنّ العمل الدنيوى لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ اللَّه تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذى القرنين فى عمله.

۲- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذى اعتمد عليه ذو القرنين.

والإمام أمير المؤمنين على عليه السلام بلور هذا المعنى فى رسالته إلى مالك الأشتر والتى هى برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: «ولا يكونن المحسن والمسيىء عندك بمنزلة سواء، فإنّ فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة» «۱».

۳- التكليف الشاق والتصعّب فى الامور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الامور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبداً.

۴- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والإختلاف القائم فى حياة الناس وتراعى شرائط حياتهم المختلفة.

۵- إنّ «ذو القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التى لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: «لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأىّ اسلوب كان.

۶- الأمن هو أوّل وأهم شرط من شروط الحياة الإجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقّها لتأمين أمن القوم من أعدائهم.

۷- الدرس الآخر الذى يمكن أن نتعلّمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الاولى فى الإشتراك فى الجهد المبذول لحل مشكلتهم.

وعادة فإنّ العمل الذى يتمّ بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين فى المشكلة يؤدّى إلى إظهار استعداداتهم ويعطى قيمة خاصة للنتائج الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثم يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحمّلهم لمجهودات إنشائه.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۵

كما يتّضح من هذه النقطة أنّ، المجتمع المتخلف والمتأخر يستطيع أن ينجز أعمالًا مهمة وعظيمة إذا تمتّع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصة.

۸- الزعيم الإلهى والقائد الربانى لا يلتفت إلى الجزاء المادى والنفع المالى وإنّما يقتنع بما حباه اللَّه.

وفى القرآن الكريم نقرأ مراراً فى قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

۹- إحكام الامور هو درس آخر نستفيده من هذه القصة.

۱۰- مهما كان الإنسان قوياً ومتمكناً وصاحب قدرة واستطاعة فى إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلّمه من قصة «ذو القرنين».

۱۱- کل شـی إلی زوال مهما کان محکماً وصلداً. هـذا هو الـدرس الأخیر فی هـذه القصـة، وهو درس للذین یتمنّون أو یظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

ثانیاً- من هم یـأجوج ومـأجوج؟ ذکر القرآن الکریم یـأجوج ومـأجوج فی سورتین، إذ وردت المرّة الاولی فی الآیات الـتی نبحثها، والثانیة فی سورة الأنبیاء، الآیة (۹۶).

الآیـات القرآنیـة تؤیّـد بوضوح أنّ هـذین الاسـمین هما لقبیلتین همجیتین کانتا تؤذیان سکّان المناطق المحیطـة بهم. حیث طلب أهل القفقاز من «کورش» عند سفره إلیهم أن ینقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلک أقدم علی تأسیس السد المعروف بسدّ ذی القرنین.

وَ تَرَکْنَا بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (۹۹) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ لِلْکَافِرِینَ عَرْضاً (۱۰۰) الَّذِینَ کَانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطَاءٍ عَنْ ذِکْرِی وَ کَانُوا لَا یَسْتَطِیعُونَ سَمْعاً (۱۰۱) أَ فَحَسِبَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ یَتَّخِذُوا عِبَادِی مِنْ دُونِی أَوْلِیَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْکَافِرِینَ نُزُلًا (۱۰۲)

عاقبـة الکافرین: لقـد تناولت الآیة السابقة سد یأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآیات تسـتمر فی قضایا القیامة، فتقول أوّلًا: إنّنا سنترک فی ذلک الیوم- الذی ینتهی فیه العالم- بعضهم یموج ببعض: «وَتَرَکْنَا بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ».

إنّ استخدام کلمة «یموج» إمّا بسبب الکثرة الکاثرة للناس فی تلک الواقعة، أو بسبب

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۶

الإضطراب والخوف الذی یصیب الناس فی ذلک الیوم، وکأنّما أجسادهم تهتز کأمواج الماء.

بعد ذلک تضیف الآیات: «وَنُفِخَ فِی الصُّورِ فَجَمَعْنُهُمْ جَمْعًا». وبلا شک فإنّ کافة الناس سیجمعون فی تلک الساحة ولن یستثنی منهم أحد، وتعبیر «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» إشارة إلی هذه الحقیقة.

من مجموع الآیات نستفید أنّ ثمّة تحوّلان عظیمان سیحصلان عند نهایة هذا العالم وبدایة العالم الجدید:

الأوّل: فناء الموجودات والناس بشکل آنی.

والثانی: إحیاء الموتی بشکل آنی أیضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بین الحدثین، ولکنّ القرآن یعبّر عن هذین التحوّلین بعنوان (نفخ الصور).

ثم تتناول الآیات تفصـیل حال الکافرین، حیث توضّـح عاقبـة أعمالهم، والصـفات التی تقود إلی هـذه العاقبـة، فتقول: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ لِّلْکفِرِینَ عَرْضًا».

إنّ جهنّم ستظهر لهم، وتتّضح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، وهذا هو بحد ذاته عذاب ألیم موجع، فکیف إذا ولجوها؟!

ولکن من هم الکافرون؟ ولماذا یصابون بمثل هـذه العاقبـة؟ الآیـة تعرّف هؤلاء بجملـة قصیرة واحدة بقولها: «الَّذِینَ کَانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطَاءٍ عَن ذِکْرِی». وبالرغم من أنّهم یمتکون آذاناً، إلّاأنّهم یفقدون القدرة علی السماع: «وَکَانُوا لَایَسْتَطِیعُونَ سَمْعًا».

فهؤلاء أسـقطوا فی الواقع أهم وسـیلة لمعرفة الحق وإدارکه، وأهملوا الوسیلة الهامة فی شقاء أو سعادة الإنسان. یعنی أنّهم غطّوا أعینهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفکارهم الخاطئة وتعصبهم وحقدهم وصفاتهم القبیحة الاخری.

الآیـة التی بعـدها تشیر إلی نقطـة انحراف فکریـة لـدی هؤلاء هی أصل انحرافاتهم الاخری، فتقول: «أَفَحَسِبَ الَّذِینَ کَفَرُوا أن یَتَّخِذُوا عِبَادِی مِن دُونِی أَوْلِیَاءَ».

هل یملک هؤلاء المعبودون- کالمسیح والملائکـة- شیئاً للدفاع عن الآخرین بالرغم من مکانتهم العالیة، أو أنّ الأمر بالعکس إذ کل ما عند هؤلاء هو من اللَّه، وأنّهم أنفسهم یحتاجون إلی هدایته؟

إنّ هذه حقیقة واضحة، ولکن هؤلاء تناسوها وتورّطوا فی شراک الشرک.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۷

فى ختام الآيهٔ وللمزيد من التأكيد، تقول الآيهٔ: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكفِرِينَ نُزُلًا».

«نُزُل»: بمعنى الإقامهٔ، وتعنى أيضاً الشيء الذى يهيّأ لتقديمه للضيوف.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (۱۰۳) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِٔ وَزْناً (۱۰۵) ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِى وَ رُسُلِى هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (۱۰۷) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (۱۰۸)

أخسر الناس: هذه الآيات والآيات اللاحقهٔ- إلى نهايهٔ السورهٔ المباركهٔ- فى الوقت الذى تتحدث فيه عن صفات غير المؤمنين، فإنّها تعتبر نوعاً من التلخيص لكافّهٔ البحوث التى وردت فى هذه السورهٔ، خاصهٔ البحوث المتعلقهٔ بقصهٔ أصحاب الكهف وموسى والخضر وذى القرنين، وما بذلوه من جهود إزاء معارضيهم.

فالآيات تكشف أوّلًا عن أخسر الناس، ولكنها- بهدف إثارهٔ حب الإستطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضيهٔ- تعمد إلى إثارتها على شكل سؤال موجّه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فتقول: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْملًا».

ثم يأتى الجواب بدون أى توقف حتى لا يبقى المستمع فى حيرهٔ، فتقول: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح وحسب، بل إنّ الخسران الواقعى هو خسران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن من العقل والذكاء والطاقات الإلهيهٔ الموهوبهٔ للإنسان من عمر وشباب وصحهٔ؟

إنّ نتاج كل هذه المواهب هى أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هى فى الواقع انعكاس وتجسيد لطاقاتنا وقدراتنا.

عندما تتحوّل هذه الطاقات إلى أعمال مخرّبهٔ أو غير هادفهٔ، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت؛ إلّا أنّ الخسران الحقيقى والمضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادى والمعنوى فى مسالك خاطئهٔ ومجالات منحرفهٔ ويظن أنّه أحسن العمل، فهو فى هذه الحالهٔ لم يحصل على ثمرهٔ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۸

لعمله، وفى نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرّر العمل. الآيات الاخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعهٔ من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التى تكون أساساً فى مصائبهم فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ رَبّهِمْ».

إنّهم كفروا بالآيات التى تفتح الأبصار والمسامع، الآيات التى ترفع حجب الغرور وتجسّد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنّها آيات النور والضياء التى تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام والتصورات الخاطئهٔ وترشده إلى عالم الحقائق.

ثم إنّهم بعد ذلك نسوا اللَّه وكفروا بالمعاد وبلقاء اللَّه «وَلِقَائِهِ».

يعنى أنّ الإنسان فى يوم القيامهٔ يشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل من أى زمان، لذا فإنّه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعى البصير.

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأنّ هناك قوهٔ تراقب أعماله فإنّ الإنسان سوف لا يعير أهمّيهٔ إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثم تضيف الآيهٔ أنّهم بسبب من كفرهم بالمبدأ والمعاد فإنّ أعمالهم قد حبطت وضاعت:

«فَحَبِطَتْ أَعْملُهُمْ». وغدت تماماً كالرماد فى مقابل العاصفهٔ الهوجاء.

ولأنّهم لا يملكون عملًا قيّماً ثميناً لذا: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَهِٔ وَزْنًا».

لأنّ الوزن يخصّ الامور الموجودهٔ، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئاً من الأعمال، ولذلك ليس لهم وزن ولا قيمهٔ. روى فى تفسير مجمع البيان أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامهٔ لا يزن جناح بعوضهٔ».

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت فى الحياهٔ الدنيا عديمهٔ الأهميهٔ والفائدهٔ.

وفى إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب فى انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل اللّه، فتقول: «ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايتِى وَرُسُلِى هُزُوًا».

وبذلك فإنّ هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة فى الإعتقاد الدينى (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر من الإنكار أنّهم استهزؤوا بهذه الامور.

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالًا، وبعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجّه الآيات إلى المؤمنين فتبيّن عاقبتهم، وبمقايسة بين الاثنين نستطيع تشخيص

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۹

كل طرف بشكل كامل. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا». «الفردوس»: البستان الذى يشتمل على كل النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين فى الجنة.

وبما أنّ كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنّ الآية تقول: «خلِدِينَ فِيهَا».

وبالرغم من أنّ طبع الإنسان قائم على التغيّر والتنوع، إلّاأنّ سكّان الجنة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: «لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا». ذلك لأنّهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع والتكامل كما سيأتى شرح ذلك.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (۱۰۹) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (۱۱۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: لمّا نزل قوله «وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» «۱»، قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، وفيها علم كثير، فأنزل اللّه هذه الآية «قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمتُ رَبّى».

التّفسير

الذين يأملون لقاء اللّه: الآيات أعلاه فى نفس الوقت الذى تبحث بحثاً مستقلًا، إلّاأنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، وكأنّما القرآن يريد أن يقول فى هذه الآيات: إنّ الإطلاع على قصة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذى القرنين، يعتبر لا شىء إزاء علم اللّه غير المحدود. القرآن الكريم يخاطب الرسول صلى الله عليه و آله- فى أوّل آية نبحثها- بقوله: «قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمتُ رَبّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

«مداد»: تعنى الحبر، أو أى مادة ملوّنة تساعد فى الكتابة.

«كلمات»: جمع كلمة، وهى فى الأصل تعنى الألفاظ التى يتمّ التحدّث بها. أو بعبارة

---

(۱) سورة الإسراء/ ۸۵.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۰

اخرى: «الكلمة» لفظ يدل على المعنى، وبما أنّ كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدرة الخالق، لذا فإنّه يطلق فى بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمة اللّه) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمة العظيمة.

وفى الآية التى نبحثها فإنّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى أى إشارة إلى موجودات عالم الوجود التى تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة للّه‌تبارك وتعالى.

إنّ القرآن يلفت أنظارنا فى هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهى: لا تظنّوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر من السعة والعظمة بحيث لو أنّ البحار تتحوّل إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنّها- أى البحار- ستجف قبل أن

تحصى موجودات عالم الوجود.

وينبغى الإنتباه هنا إلى أنّ الآيهٔ أعلاه فى الوقت الذى تجسّد فيه سعهٔ عالم الوجود اللامتناهيهٔ فى الماضى والحاضر والمستقبل، فإنّها توضّح- أيضاً- العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلّ وعلا، لأنّنا نعلم أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً فى عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفى الوقت الذى يعتبر فيه علم اللَّه تعالى «علماً حضورياً» فإنّه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات (فدقق فى ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أنّ جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أنّ كافهٔ الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإنّ ذلك كلّه لا يستطيع الإحاطهٔ بما هو موجود فى علم الخالق جلّ وعلا.

العدد الحى هو العدد الذى تنشغل أفكارنا به، ويجسّد الحقائق كما هى ويملك روحاً ولساناً وعظمهٔ.

والقرآن الكريم بدلًا من أن يقول: إنّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز فى كثرتها الرقم الذى تقع على يمينه مئات الكيلومترات من الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكل البحار إلى مواد وحبر، فإنّ الأقلام ستتكسر ومياه البحار ستنتهى، ولا تنتهى أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التى يحيط بها جميعاً علم اللَّه تعالى.

الآيهٔ الثانيهٔ فى البحث والتى هى آخر آيهٔ فى سورهٔ الكهف، عبارهٔ عن مجموعهٔ من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۱

الأسس والأصول للإعتقادات الدينيهٔ، التى تتركّز فى التوحيد والمعاد ورسالهٔ الرّسول صلى الله عليه و آله.

ففى البدايهٔ تحدّثت السورهٔ عن اللَّه والوحى والجزاء والقيامهٔ، والآيهٔ الأخيرهٔ هى خلاصهٔ لمجموع ما ورد فى السورهٔ، التى اشتملت فى قسم مهم منها على الأصول الثلاثهٔ الآنفهٔ باعتبارها محاور للسورهٔ.

ولأنّ قضيهٔ النبوهٔ قد اقترنت مع أشكال من الغلو والمبالغهٔ على طول التاريخ، لذا فإنّ الآيهٔ تقول: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ».

وهذا التعبير القرآنى نسف جميع الإمتيازات المقرونهٔ بالشرك التى تخرج الأنبياء من صفهٔ البشريهٔ إلى صفهٔ الألوهيهٔ.

ثم تشير الآيهٔ إلى قضيهٔ التوحيد من بين جميع القضايا الاخرى فى الوحى الإلهى حيث تقول: «أَنَّمَا إِلهُكُم إلهٌ وَاحِدٌ».

أمّا لماذا تمّت الإشارهٔ إلى هذه القضيهٔ؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصهٔ جميع المعتقدات، وغايهٔ كل البرامج الفرديهٔ والاجتماعيهٔ التى تجلب السعادهٔ للإنسان.

وفى مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلًا من أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصهٔ لجميع أصول وفروع الإسلام.

لهذا السبب نقرأ فى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «حدثنى جبرائيل عليه السلام قال: سمعت ربّ العزّهٔ سبحانه وتعالى يقول: كلمهٔ لا إله إلّااللَّه حصنى فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى» «۱».

الجملهٔ الثالثهٔ فى الآيهٔ الكريمهٔ تشير إلى قضيهٔ البعث وتربطها بالتوحيد بواسطهٔ (فاء التفريع)، حيث تقول: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا».

بالرغم من أنّ لقاء اللَّه بمعنى المشاهدهٔ الباطنيهٔ ورؤيهٔ الذات المقدسهٔ بعين البصيرهٔ هو أمر ممكن فى‌هذه الدنيا بالنسبهٔ للمؤمنين الحقيقيين، إلّاأنّ هذه القضيهٔ تكتسب جانباً عاماً يوم القيامهٔ بسبب مشاهدهٔ الآثار الكبيرهٔ والواضحهٔ والصريحهٔ للخالق تبارك وتعالى. لذا فإنّ القرآن استخدم هذا التعبير فى خصوص يوم القيامهٔ.

---

(۱) بحار الأنوار ۴۹/ ۱۲۷.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۲

وفى آخر جملهٔ ثمّهٔ توضيح للعمل الصالح فى جملهٔ قصيرهٔ، هى قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

بعبارة اخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

فى الحقيقة إنّ العمل الصالح الذى ينبع من أهداف إلهيّة، ويمتزج بالاخلاص ويتفاعل معه، هو الذى يكون جوازاً للقاء اللَّه تبارك وتعالى.

فالعمل الخالص يعتبر مهماً فى الإسلام إلى الحد الذى يقول فيه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من أخلص للَّهأربعين يوماً فجّر اللَّه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «۱».

«نهاية تفسير سورة الكهف»

---

(۱) بحار الأنوار ۶۷/ ۲۴۹.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۳

۱۹ سورة مريم

محتوى السورة: لهذه السورة من جهة المحتوى عدة أقسام مهمّة:

۱- يشكّل القسم الذى يتحدث عن قصص زكريا ومريم والمسيح عليهم السلام ويحيى وإبراهيم عليهما السلام بطل التوحيد، وولده إسماعيل، وإدريس وبعض آخر من كبار أنبياء اللَّه- الجزء الأهم فى هذه السورة- ويحتوى على امور تربوية لها خصوصيات مهمّة.

۲- ثم يتحدث عن المسائل المرتبطة بالقيامة، وكيفية البعث، ومصير المجرمين، وثواب المتقين، وأمثال ذلك.

۳- القسم الثالث، وهو المواعظ والنصائح التى تكمّل الأقسام السابقة.

۴- إنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، ونفى الولد عن اللَّه سبحانه، ومسألة الشفاعة، وتشكّل بمجموعها برنامجاً تربوياً مؤثّراً من أجل دفع النفوس الإنسانية إلى الإيمان والطهارة والتقوى.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت فى الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه فى نفسه وماله وولده وكان فى الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام واعطى من الأجر فى الآخرة ملك سليمان بن داود فى الدنيا».

إنّ هذا الغنى وعدم الإحتياج- حتماً- قبس من وجود محتوى السورة وسريانها فى أعماق روح الإنسان، وانعاكسها من خلال أعماله وأقواله وسلوكه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۴

كهيعص (۱) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (۲) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (۳) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (۴) وَ إِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِى وَ كَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِراً فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (۵) يَرِثُنِى وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (۶)

دعاء زكريا المستجاب: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، ولمّا كنّا قد بحثنا تفسير هذه الحروف المقطعة بصورة مفصّلة فى بداية ثلاث سور مختلفة فيما سبق- سورة البقرة وآل عمران والأعراف- فلا نرى حاجة للتكرار هنا.

ولكن ما ينبغى اضافته هنا هو وجود طائفتين من الروايات فى المصادر الإسلامية تتعلق بالحروف المقطعة فى هذه السورة «كهيعص».

الاولى: تقول بأنّ كل حرف من هذه الحروف يشير إلى اسم من أسماء اللَّه الحسنى، فالكاف يشير إلى الكافى، وهو من أسماء اللَّه الحسنى، والهاء تشير إلى الهادى، والياء إشارة إلى الولى، والعين إشارة إلى العالم، والصاد إشارة إلى صادق الوعد «۱».

الثانية: تفسّر هذه الحروف المقطعة بحادثة ثورة الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء: فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة،

والياء يزيد لعنه اللّه وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد إشارة إلى صبره «۲».

وكما قلنا مراراً، فإنّ لآيات القرآن أنوار ومعان مختلفة، ومع تنوعها واختلافها فإنّه لا يوجد تناقض بينها.

وبعد ذكر الحروف المقطعة، تشرع الكلمات الاولى باستعراض قصة زكريا عليه السلام فتقول:

«ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا». وفى ذلك الوقت الذى كان زكريا عليه السلام مغتماً ومتألماً فيه

---

(۱) تفسير نور الثقلين ۳/ ۳۲۰.

(۲) المصدر السابق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۵

من عدم إنجاب الولد، توجّه إلى رحمة ربّه: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» بحيث لم يسمعه أحد. وذكر فى دعائه وهن وضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان ودعامته وأقوى جزء من اجزائه: «قَالَ رَبّ إِنّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا».

لقد شبّه زكريا نزول الكبر، وبياض كل شعر رأسه باشتعال النار، والرماد الأبيض الذى تتركه، وهذا التشبيه جميل وبليغ جدّاً.

ثم يضيف: «وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبّ شَقِيًّا». فقد عوّدتنى دائماً- فيما مضى- على استجابة أدعيتى، ولم تحرمنى منها أبداً، والآن وقد أصبحت كبيراً وعاجزاً فأجدنى أحوج من السابق إلى أن تستجيب دعائى ولا تخيّبنى.

إنّ الشقاء هنا بمعنى التعب والأذى أى إنّى لم أتعب ولم أتأذّ فى طلباتى منك، لأنّك كنت تقضيها بسرعة.

ثم يبيّن حاجته: «وَإِنّى خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِى». أى إنّى أخشى من أقربائى أن يسلكوا سبيل الانحراف والظلم، «وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبّ رَضِيًّا». أى مرضياً عندك.

إنّ للإرث هنا مفهوماً ومعنى واسعاً يشمل إرث الأموال كما يشمل إرث المقامات المعنوية، لأنّ الأشخاص الفاسدين إذا تولّوا أمر هذه الأموال، فإنّهم سيكونون مصدر قلق حقاً، وإذا وقعت زمام الامور وقيادة الناس المعنوية بيد أناس منحرفين، فإنّ ذلك أيضاً يثير المخاوف، وعلى هذا فإنّ خوف زكريا يمكن توجيهه فى كلا الصورتين.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً (۷) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَ كَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً (۸) قَالَ كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (۹) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (۱۰) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيّاً (۱۱)

بلوغ زكريا أمله: تبيّن هذه الآيات استجابة دعاء زكريا عليه السلام من قبل اللّه تعالى استجابة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۶

ممزوجة بلطفه الكريم وعنايته الخاصة، وتبدأ بهذه الجملة: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشّرُكَ بِغُلمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَّجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا». أمّا زكريا الذى كان يرى أنّ الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنّه طلب توضيحاً لهذه الحالة من اللّه سبحانه: «قَالَ رَبّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا».

«عاقر»: فى الأصل من لفظة «عقر» بمعنى الجذر والنهاية، أو بمعنى الحبس، وإنّما يقال للمرأة، عاقر؛ لأنّ قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتىّ»: تعنى الشخص الذى نحل جسمه وضعف هيكله، وهى الحالة التى تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلّا أنّ زكريا سمع فى جواب سؤاله قول اللّه سبحانه: «قَالَ كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيّنٌ».

إنّ هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن فى السن مثلك، وامرأة عقيم ظاهراً «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيًا»، فإنّ اللّه قادر على أن يخلق كل شىء من العدم، فلا عجب أن يتلطّف عليك بولد فى هذا السن وفى هذه الظروف.

وقد سرّ زكريا وفرح كثيراً لدى سماعه هذه البشارة، وغمر نور الأمل نفسه، لكن لمّا كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيرياً ومهماً جدّاً، فإنّه طلب من ربّه آية على هذا العمل:

«قَالَ رَبّ اجْعَل لِّى ءَايَةً».

لا ـ شك أنّ زكريا كان مؤمناً بوعد اللَّه، وكان مطمئناً لذلك، إلّاأنّه لزيادة الإطمئنان- كما أنّ إبراهيم الذى كان مؤمناً بالمعاد طلب مشاهدة صورة وكيفية المعاد فى هذه الحياة ليطمئن قلبه- طلب من ربّه مثل هذه العلامة والآية، فخاطبه اللَّه: «قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلّمَ النَّاسَ ثَلثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، واشغل لسانك بذكر اللَّه ومناجاته.

وهذه واقعاً معجزة بيّنة حيث إنّ إنساناً يمتلك لساناً سليماً، وقدرة على كل نحو من المناجاة مع اللَّه، ومع ذلك لا تكون له القدرة على التحدّث أمام الناس.

بعد هذه البشارة والآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلّمهم بالإشارة: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، لأنّ النعمة الكبيرة التى منّ اللَّه بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، وكان لها تأثير على مصير ومستقبل كل هؤلاء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۷

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ بإمكان هذه الموهبة التى تعتبر إعجازاً أن تحكّم أسس الإيمان فى قلوب الناس، وكانت هذه أيضاً موهبة اخرى.

لقد ورد اسم «يحيى» فى القرآن الكريم خمس مرات- فى سور آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء- فهو واحد من أنبياء اللَّه الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاته أنّه وصل إلى مقام النبوة فى مرحلة الطفولة.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (۱۲) وَ حَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيّاً (۱۳) وَ بَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (۱۴) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (۱۵)

صفات يحيى عليه السلام البارزة: رأينا فى الآيات السابقة كيف أنّ اللَّه سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، وبعد ذلك فإنّ أوّل ما نلاحظه فى هذه الآيات هو الأمر الإلهى المهم الذى يخاطب يحيى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتبَ بِقُوَّةٍ».

إنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، فإنّ المراد من أخذ الكتاب بقوة هو إجراء وتنفيذ ما جاء فى كتاب التوراة السماوى وأن يعمل بكلّ ما فيه، وأن يستعين بكل القوى المادية والمعنوية فى سبيل نشره وتعميمه.

ثم أشار القرآن الكريم إلى المواهب العشرة التى منحها اللَّه ليحيى والتى اكتسبها بتوفيق اللَّه:

۱- «وَءَاتَيْنهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». وهو أمر النبوة والعقل والذكاء والدراية.

۲- «وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا». و «الحنان» فى الأصل بمعنى الرحمة والشفقة والمحبة وإظهار العلاقة والمودة للآخرين.

۳- «وَزَكَوةً». أى أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.

۴- «وَكَانَ تَقِيًّا». فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.

۵- «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ».

۶- «وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا» فلم يكن رجلًا ظالماً ومتكبراً واناانيّاً.

۷- ولم يكن «عَصِيًّا» ولم يقترف ذنباً ومعصية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۸

۸، ۹، ۱۰- ولمّا كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإنّ اللَّه سبحانه قد سلّم عليه فى ثلاثة مواطن: «وَسَلمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». إنّ جملة «سَلمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ ...» يبيّن أنّ فى تاريخ حياة الإنسان وانتقاله من عالم إلى عالم آخر

ثلاثة أيام صعبة: يوم يضع قدمه فى هذه الدنيا: «يَوْمَ وُلِدَ» ويوم موته وانتقاله إلى عالم البرزخ «وَيَوْمَ يَمُوتُ» ويوم بعثه فى العالم الآخر «وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». ولمّا كان من الطبيعى أن تكون هـذه الأيّام مرافقة للإضـطرابات والقلق، فإنّ اللَّه سـبحانه يكتنف خاصة عباده بلطفه وعافيته، ويجعل هؤلاء فى ظلّ حمايته ومنعته فى هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

شهادة يحيى عليه السـلام: لقد أصبح يحيى ضحيّة للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلّق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته ببنت أخته «هروديا» ولذلك صمم على الزواج منها.

فبلغ هـذا الخبر نبى اللَّه العظيم يحيى عليه السـلام، فأعلن بصـراحة أنّ هـذا الزواج غير شـرعى ومخالف لتعليمات التوراة، وسأقف أمام مثل هذا العمل.

لقـد انتشـر صـخب وضوضاء هذه المسألة فى كل أرجاء المدينة، وسـمعت تلك الفتاة (هروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق فى طريقها، ولذلك صممت على الإنتقام منه فى فرصة مناسبة، فعمّقت علاقتها بخالها ووطّدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، فقالت هروديا: لا أريد منك إلّارأس يحيى.

فسلّم هيروديس لما أرادت من دون أن يفكّر ويتنبه إلى عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى احضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلّاأنّ عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه فى النهاية.

فى تفسـير مجمع البيـان عن على بن الحسـين عليهما السـلام قال: «خرجنا مع الحسـين عليه السـلام فما نزل منزلًا ولا ارتحل منه إلّاذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الـدنيا على اللَّه عزّ وجل أنّ رأس يحيى بن زكريا اهـدى إلى بغى من بغايا بنى إسـرائيل». أى إنّ ظروفى تشابه من هذه الناحية ظروف وأحوال يحيى، لأنّ أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۹

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيّاً (۱۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً (۱۷) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (۱۸) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً (۱۹) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيّاً (۲۰) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيّاً (۲۱)

ولادة عيسـى عليه السـلام: بعد ذكر قصة يحيى عليه السـلام، حوّلت الآيات مجرى الحديث إلى قصة عيسـى عليه السلام لوجود علاقة قوية وتقارب واضح جدّاً بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإن كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن فى السن وأم عقيم عجيبة، فإنّ ولادة عيسى من امّ دون أب أعجب.

وإن كـان الوصول إلى مقـام النبوة وبلوغ العقـل الكامـل- فى مرحلـة الطفولـة- باعثاً على الحيرة ومعجزاً، فإنّ التحـدّث فى المهـد عن الكتاب والنبوة أبعث على التعجب والحيرة، وأكثر إعجازاً.

وعلى كـل حال، فإنّ كلا الأمرين آيتان على قـدرة اللَّه الكبير المتعال، إحـداهما أكبر من الاخرى، وقـد صادف أن تكون كلتا الآيتين مرتبطتـان بشخصـين تربطهمـا أواصـر نسب قويـة، فكـل منهما قريب للآخر من ناحيـة النسب، حيث إنّ امّ يحيى كانت أخت امّ مريم، وكانت كلتاهما عقيمتين وتعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الاولى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا».

«انتبـذت»: أخـذت من مادة «نبذ» وهى تعنى إلقاء وإبعاد الأشـياء التى لا تسترعى الإنتباه، وربّما كان هذا التعبير فى الآية إشارة إلى أنّ مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة ومجهولة وخالية من كل ما يجلب الإنتباه، واختارت ذلك المكان من بيت اللَّه للعبادة.

فى هذه الأثناء ومن أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كل جهة، فإنّها «فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا». «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا». والروح هنا جبرئيل ملك اللَّه العظيم حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۰

إنّ الحالة التى اعترت مريم فى تلك اللحظة واضحة جدّاً، كم داخلها من الرعب والإضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبى جميل فى محل خلوتها، ولذلك فإنّها مباشرة: «قَالَتْ إِنّى أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا». وكانت هذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامة من جهة، وترغيب الرجل فى التقوى والإمتناع عن المعصية من جهة اخرى، كان من أجل أن يرتدع هذا الشخص المجهول إن كانت له نيّة سيّئة فى إرتكاب المعصية.

لقد كانت مريم تنتظر ردّ فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوّهت بهذه الكلمات إنتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّاأنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلّمها ذلك الشخص، ووضّح مهمّته ورسالته العظيمة «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبّكِ».

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذى يلقى على النار، فقد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّاأنّ هذا الإطمئنان لم يدم طويلًا، لأنّه أضاف مباشرة: «لِأَهَبَ لَكِ غُلمًا زَكِيًّا».

لقد اهتز كيان ووجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرّة اخرى فى قلق شديد:

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

لقد كانت تفكّر فى تلك الحالة فى الأسباب الطبيعية فقط. إلّاأنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول اللّه إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: «قَالَ كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيّنٌ». فأنت الواقفة على قدرتى والعالمة بها جيّداً ...

أنت التى رأيت ثمر الجنّة فى فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهة فى الدنيا جنب محراب عبادتك، أنت التى سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفّتك وطهارتك ... أنت التى تعلمين أنّ جدّك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثم أضاف: «وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مّنَّا». فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلى كل حال، «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا». فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۱

مريم فى عاصفة: وأخيراً حملت مريم، واستقرّ ذلك الولد الموعود فى رحمها:

«فَحَمَلَتْهُ».

إنّ هذا الأمر قد تسبب فى أن تبتعد عن بيت المقدس «فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا».

لقد كانت تعيش فى حالة بين الخوف والأمل، حالة من القلق والإضطراب المشوب بالسرور، فهى تفكّر أحياناً بأنّ هذا الحمل سيفتضح أمره فى النهاية.

فمن الذى سيقتنع بأنّ إمرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوّثت بالرذيلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإتهام؟

إلّا أنّها من جهة اخرى كانت تحسّ أنّ هذا المولود، نبى اللّه الموعود، تحفة سماوية نفيسة، فإنّ اللّه الذى بشّرنى بمثل هذا الغلام، وخلقه بهذه الصورة الإعجازية كيف سيذرنى وحيدة؟

ومهما كان فقد انتهت مدّة الحمل.

ومع أنّ النساء يلجأن عادة فى مثل هذه الحالة إلى المعارف والأصدقاء ليساعدوهنّ على الولادة، إلّاأنّ وضع مريم لمّا كان استثنائياً، ولم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها مطلقاً، فإنّها اتّخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة؛ ويقول القرآن فى ذلك:

«فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ».

إنّ التعبير بجذع النخلة، وبملاحظة أنّ الجذع يعنى بدن الشجرة، يوحى بأنّه لم يبق من تلك الشجرة إلّاجذعها وبدنها، أى إنّ الشجرة كانت يابسة.

فى هذا الحال غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم والحزن، لقد كان هذا الإضطراب والصراع صعباً جدّاً، وقد أثقل كاهلها إلى

الحد الذى تكلّمت فيه بلا إرادة و «قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا».

إنّ من البديهى أنّ الخوف من التهم فى المستقبل لم يكن الشيء الوحيد، وإن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أيّة مسألة اخرى، إلّاأنّ مشاكل ومصائب اخرى كوضع الحمل لوحدها بدون قابلة وصديق ومعين فى الصحارى الخالية، وعدم وجود مكان للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأكل، وعدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، وغير هذه الامور كانت تهزّها من الأعماق بشدة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلًا، فقد سطعت ومضة الأمل التى كانت موجودة دائماً فى

أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت، «فَنَادَيهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا». وانظرى إلى الأعلى كيف أنّ هذا الجذع اليابس قد تحوّل إلى نخلة مثمرة، «وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا* فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا» بالمولود الجديد، «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا». وهذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت. وعلى هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، ولا تدعى للهم طريقاً إلى نفسك.

ويظهر من تعبير الآية أنّ نذر صوم السكوت كان أمراً معروفاً فى ذلك المجتمع، ولهذا لم يعترضوا على هذا العمل؛ غير أنّ هذا النوع من الصوم غير جائز فى شريعتنا.

عن على بن الحسين عليه السلام (فى حديث) قال: «وصوم الصمت حرام» «١».

استفاد المفسرون مما جاء صريحاً فى هذه الآيات، أنّ اللَّه سبحانه قد جعل غذاء مريم حين ولادة مولودها الرطب.

فى الكافى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليكن أوّل ما تأكل النفساء الرطب، فإنّ اللَّه عزّ وجل قال لمريم: «وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا»».

ويستفاد من الروايات أنّ أفضل غذاء ودواء للحامل هو الرطب.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١) وَ بَرّاً بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢) وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (٣٣)

المسيح يتكلّم فى المهد: وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلى المدينة وقد احتضنت طفلها «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ». فلمّا رأوا طفلًا حديث الولادة بين يديها فغرّوا أفواههم تعجّباً، وتعجّل آخرون فى القضاء والحكم، وقالوا: إنّ من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضى المضيء، ومع الأسف على تلوّث سمعة تلك الأسرة الطاهرة، «قَالُوا يَا مَرْيَمُ

(١) وسائل الشيعة ٧/ ٣٩٠.

لَقَدْ جِئْتِ شَيًا فَرِيًّا».

والبعض الآخر واجهها، بالقول: «يَا أُختَ هرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا».

أمّا قولهم لمريم: «يَا أُختَ هرُونَ» لأنّ هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التى يضرب به المثل بين بنى إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنّه أخو أو أخت هارون.

فى هذه الساعة، سكتت مريم بأمر اللَّه، والعمل الوحيد الذى قامت به، هو أنّها أشارت إلى وليدها «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ». إلّاأنّ هذا العمل

جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، ثم غضبوا فقالوا:

مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ «قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِی الْمَهْدِ صَبِيًّا».

إنّ الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض- حسب بعض الروايات-: إنّ استهزاءها وسخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلًا، لأنّ ذلك الطفل الذی ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلّم:

«قَالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ ءَاتِنِیَ الْكِتبَ وَجَعَلَنِی نَبِيًّا* وَجَعَلَنِی مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ»، ومفيداً من كل الجهات للعباد «وَأَوْصنِی بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

وكذلك جعلنی مطيعاً ووفيّاً لُامی «وَبَرًّا بِوَالِدَتِی وَلَمْ يَجْعَلْنِی جَبَّارًا شَقِيًّا».

وروى- فی التفسير الكبير- أنّ عيسى عليه السلام قال: «قلبی لين وأنا صغير فی نفسی». وهو إشارة إلى أنّ هذين الوصفين يقعان فی مقابل الجبار والشقی.

وفی النهاية يقول هذا المولود- أی المسيح-: «وَالسَّلمُ عَلَیَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

هذه الآية فی حق يحيى عليه السلام كما وردت فی شأن المسيح عليه السلام، مع الاختلاف بأنّ اللَّه هو الذی قالها فی المورد الأوّل، أمّا فی المورد الثانی فإنّ المسيح قد طلب ذلك.

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِيهِ يَمْتَرُونَ (۳۴) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۳۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۴

أيمكن أن يكون للَّهولد؟! بعد تجسيد القرآن الكريم فی الآيات السابقة حادثة ولادة المسيح عليه السلام بصورة حيّة وواضحة جدّاً، انتقل إلى نفی الخرافات وكلمات الشرك التی قالوها فی شأن عيسى، فيقول: «ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». خاصّة وأنّه يؤكّد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمة لنفی بنوّته للَّهسبحانه. ثم يضيف: «قَوْلَ الْحَقّ الَّذِی فِيهِ يَمْتَرُونَ».

وتقول الآية التالية بصراحة: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ». وهذا إشارة إلى أنّ اتخاذ الولد- كما يظن المسيحيون فی شأن اللَّه- لا يناسب قداسة مقام الألوهية والربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، ومن جانب آخر المحدودية، ومن جهة ثالثة الإحتياج.

إنّ تعبير «كُن فَيَكُونُ» تجسيد حی جدّاً عن مدى سعة قدرة اللَّه، وتسلطه وحاكميته فی أمر الخلقة.

وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۳۶) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۳۷) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِی ضَلَالٍ مُبِينٍ (۳۸) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِیَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۳۹) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (۴۰)

إنّ آخر كلام لعيسى عليه السلام بعد تعريفه لنفسه بالصفات التی ذكرت، هو التأكيد على مسألة التوحيد، وخاصة فی مجال العبادة، فيقول: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

وعلى هذا فإنّ عيسى عليه السلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك وعبادة الآلهة المزدوجة والمتعددة منذ بداية حياته.

غير أنّه بالرغم من كل هذه التأكيدات التی أكّد عليها المسيح عليه السلام فی مجال التوحيد وعبادة اللَّه، فقد اختلفت الفئات، وأظهروا اعتقادات مختلفة، وخاصة فی شأن المسيح:

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إنّ تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذی حصل بعد المسيح عليه السلام فی شأنه، وحول مسألة التوحيد.

فذهب البعض: إنّ المسيح هو اللَّه الذى نزل إلى الأرض! فأحيى جماعة، وأمات اخرى، ثم صعد إلى السماء!

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۵

وقال البعض الآخر: إنّه ابن اللَّه!

ورأى آخرون: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب والإبن وروح القدس، اللَّه الأب، واللَّه الإبن وروح القدس.

وآخرون قالوا: إنّه ثالث ثلاثة: فاللَّه معبود، وهو معبود، وامّه معبودة!

وأخيراً قال البعض: إنّه عبد اللَّه ورسوله.

ولمّا كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أنّ اللَّه قد هدّد هؤلاء فى ذيل الآية بأنّهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم فى يوم القيامة، فى ذلك المشهد العام، وأمام محكمة اللَّه العادلة.

ثم تبيّن الآية التالية وضع اولئك فى عرصات القيامة، فتقول عندما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قويّة وابصار حادّه فيسمعون ويرون جميع الحقائق التى كانت خافية عليهم فى هذه الدنيا، ولكن الظالمين اليوم، أى فى هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكِنِ الظلِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

ومن الطبيعى أن تسلب المحكمة وآثار الأعمال نوم الغفلة من العين والأذن، وحتى عمى القلوب فإنّهم سيعون الأمر ويعلمون الحق، إلّاأنّ هذا الوعى والعلم لا ينفعهم شيئاً.

ثم تؤكّد الآية التالية مرّة اخرى على مصير المنحرفين والظالمين فى ذلك اليوم، فتقول:

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

حيث يتحسّر المؤمنون المحسنون على قلّة عملهم، ويا ليتهم كانوا قد عملوا أكثر، وكذلك يتحسّر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، وتتّضح حقائق الأعمال ونتائجها للجميع.

ثم تحذّر الآية الأخيرة- من آيات البحث- كل الظالمين والجائرين، وتذكّرهم بأنّ هذه الأموال التى تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أنّ حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شىء هو اللَّه سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (۴۱) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْکَ شَيْئاً (۴۲) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِکَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِکَ صِرَاطاً سَوِيّاً (۴۳) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً (۴۴) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّکَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۶

إبراهيم ومنطقه المؤثر والقاطع: تزيح هذه الآيات الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وتؤكّد على أنّ دعوة هذا النبى الكبير- كسائر المرشدين الإلهيين- تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أوّلًا: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ إِبْرهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَّبِيًّا».

إنّ أبرز صفة يلزم وجودها فى كل الانبياء وحملة الوحى الإلهى أن يوصلوا أوامر اللَّه إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثم تتطرق الآية التى بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر- والأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً فى لغة العرب بمعنى الأب، وأحياناً بمعنى العم- فتقول: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَايَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيًا».

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفى الشرك وعبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان فى معرفة الرب هو باعث الربح والخسارة، والضرر والنفع، والذى يعبّر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتّجه إلى معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنّه لا يملك أصلًا القدرة على السمع والبصر.

بعد ذلك دعاه- عن طريق المنطق الواضح- إلى اتّباعه، فقال: «يَا أَبَتِ إِنّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا». فإنّي قد وعيت اموراً كثيرة عن طريق الوحى، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنّى سوف لا- أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا

أدعوك أبداً إلى هذا الطريق المعوج.

ثم يعطف نظره إلى الجانب السلبى من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابى ويشير إلى الآثار التى تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: «يَا أَبَتِ لَاتَعْبُدِ الشَّيْطنَ إِنَّ الشَّيْطنَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا».

إنّ العبادة هنا بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثم يذكّره وينبّهه مرّة اخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: «يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطنِ وَلِيًّا».

إنّ تعبير إبراهيم هذا رائع جدّاً، فهو من جانب يخاطب عمّه دائماً ب «يَا أَبَتِ» وهذا يدل على الأدب واحترام المخاطب، ومن جانب آخر فإنّ قوله «أن يَمَسَّكَ» توحى بأنّ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۷

إبراهيم كان قلقاً ومتأثّراً من وصول أدنى أذى إلى آزر.

قَالَ أ رَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِى مَلِيّاً (۴۶) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً (۴۷) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُو رَبِّى عَسَى أَنْ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً (۴۸) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّاً (۴۹) وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً (۵۰)

نتيجة البعد عن الشرك والمشركين: مرّت فى الآيات السابقة كلمات إبراهيم عليه السلام التى كانت ممتزجة باللطف والمحبّة فى طريق الهداية، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكى تتّضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما. يقول القرآن الكريم: إنّ حرص وتحرّق إبراهيم، وبيانه الغنى العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و «قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَا إِبْرهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا».

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين، ومقابل هذه الغلظة والحدّة وقف بكل سمو وعظمة، و «قَالَ سَلمٌ عَلَيْكَ».

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأنّ إبراهيم بقوله: «سَلمٌ عَلَيْكَ» وما يأتى بعده من كلام يقصد ترك آزر؛ ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع.

ثم أضاف: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا». إنّ إبراهيم فى الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعده بالاستغفار وطلب مغفرة اللّه له.

ثم يقول: «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى: الأصنام. «وَأَدْعوا رَبّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبّى شَقِيًّا».

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم فى مقابل آزر، ومن جهة اخرى فإنّها تبيّن حزمه فى عقيدته.

لقد وفى إبراهيم بقوله، وثبت على عقيدته بكلّ صلابة وصمود، وكان دائماً ينادى بالتوحيد، بالرغم من أنّ كل ذلك المجتمع الفاسد فى ذلك اليوم قد وقف ضدّه وثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده فى النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مرّ القرون والأعصار، بحيث إنّ كل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۸

الموحدين وعباد اللّه فى العالم يفتخرون بوجوده. يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا».

إنّ هذه الموهبة العظيمة كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام واستقامته التى أظهرها فى طريق محاربة الأصنام، واعتزال المنهج الباطل والإبتعاد عنه. وإضافة إلى ذلك: «وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَحْمَتِنَا». تلك الرحمة الخاصة بالمخلصين، والرجال المجاهدين فى سبيل اللّه.

وأخيراً: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

إنّ هذا فى الحقيقة إجابة لطلب ودعاء إبراهيم الذى جاء فى الآية (۸۴) من سورة الشعراء: «وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْأَخِرِينَ».

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيّاً (۵۱) وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (۵۲) وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً (۵۳)

موسى النبى المخلص: فى هذه الآيات الثلاث إشارة قصيرة إلى موسى عليه السلام- وهو من ذرّية إبراهيم عليه السلام وموهبة من مواهب ذلك الرجل العظيم- حيث سار على خطاه.

وتوجّه الآية الخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ مُوسَى .

ثم تذكر خمس مواهب وصفات من المواهب التى أعطيت لهذا النبى الكبير:

۱- إنّه وصل فى طاعته وعبوديته للّهإلى حدّ «إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا». ولا ريب أنّ الذى يصل إلى هذه المرتبة سيكون مصوناً من خطر الانحراف والتلوّث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد اللّه، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» «۱».

۲- «وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا». فحقيقة الرسالة أن تلقى مهمّة على عاتق شخص، وهو مسؤول عن أدائها وإبلاغها، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إنّ ذكر كونه «نبيّاً» هنا إشارة إلى علوّ مقام هذا النبى العظيم، لأنّ هذه اللفظة فى الأصل مأخوذة من (النّبْوَة) وتعنى رفعة المقام وعلوّه.

۳- وأشارت الآية التالية إلى بداية رسالة موسى، فقالت: «وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ

---

(۱) سورة ص/ ۸۲ و ۸۳.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۹

الْأَيْمَنِ». ففى تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحارى مدين متوجّهاً إلى مصر، أخذ زوجته الطلق وألم الولادة، وكان البرد شديداً، فكان يبحث عن شعلة نار، وفجأة سطع نور من بعيد، وسمع نداء يبلغه رسالة اللّه، وكان هذا أعظم وسام وألذّ لحظة فى حياته.

۴- إضافة إلى ذلك: «وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا» «۱» فإنّ النداء كان موهبة، والتكلّم موهبة اخرى.

۵- وأخيراً «وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هرُونَ نَبِيًّا» ليكون معينه ونصيره.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيّاً (۵۴) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً (۵۵)

إسماعيل نبى صادق الوعد: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام وتضحيته، وبعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السلام المتسامية، يأتى الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، ويكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، وبرامجه ببرامج ولده، ويبيّن القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التى يمكن أن تكون قدوة للجميع.

ويبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ إِسْمعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا».

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (۵۶) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً (۵۷) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (۵۹) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ

لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (۶۰)

هؤلاء أنبياء اللَّه، ولكن ...: فى آخر قسم من تذكيرات هذه السورة، جاء الحديث عن

---

(۱) وهنا ينادى اللَّه موسى من بعيد، ولمّا اقترب ناجاه. ومن المعلوم أنّ اللَّه سبحانه ليس له لسان ولا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية فى الفضاء، ويتكلم مع عبد كموسى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۰

«إدريس» النبى، فقالت الآية أوّلًا: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَّبِيًّا».

«الصديق»: هو الشخص الصادق جدّاً، والمصدق بآيات اللَّه سبحانه، والمذعن للحق والحقيقة. ثم تشير الآية إلى مقامه العالى وتقول: «وَرَفَعْنهُ مَكَانًا عَلِيًّا». والمراد هو عظمة المقامات المعنوية والدرجات الروحية لهذا النبى الكبير.

ثم تبيّن الآية التالية بصورة جماعية عن كل الإمتيازات والخصائص التى مرّت فى الآيات السابقة حول الأنبياء العظام وصفاتهم وحالاتهم والمواهب التى أعطاهم اللَّه إياها، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيّينَ مِن ذُرّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوْحٍ وَمِنْ ذُرّيَّةِ إِبْرهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ».

إنّ المراد من ذرّية آدم فى هذه الآية هو إدريس، حيث كان- حسب المشهور- جدّ النبى نوح.

والمراد من الذرية، هم الذين ركبوا مع نوح فى السفينة، لأنّ إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح. والمراد من ذرّية إبراهيم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب؛ والمراد من ذرّية إسرائيل:

موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول: «وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمُ ءَايتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا» (۱).

ثم تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المربى للإنسان، وكانوا خلفاً سيئاً لم ينفّذوا ما أريد منهم، وتعدد الآية قسماً من أعمالهم القبيحة، فتقول: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلوةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا».

«خَلْف» بمعنى الأولاد الطالحين؛ و «خَلَف» بمعنى الأولاد الصالحين.

وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل ساروا فى طريق الضلال، فنسوا اللَّه، ورجّحوا اتباع الشهوات على ذكر اللَّه.

إنّ المراد من (إضاعة الصلاة) هنا القيام بأعمال تضيع الصلاة فى المجتمع.

ولمّا كان منهج القرآن فى كل موضع هو فتح ابواب الرجوع إلى الإيمان والحق دائماً، فإنّه

---

(۱) «سجد»: جمع ساجد؛ و «بكى»: جمع باك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۱

يقول هنا أيضاً بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيًا»، وعلى هذا فلا يعنى أنّ الإنسان إذا غاص يوماً فى الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة اللَّه.

طبقاً لنقل كثير من المفسرين، فإنّ إدريس جدّ سيدنا نوح عليه السلام واسمه فى التوراة «أخنوخ» وفى العربية (إدريس)، وذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النبوّة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أوّل من علّم البشر خياطة الملابس.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (۶۱) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً

(۶۲) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِیّاً (۶۳)

بعض صفات الجنهٔ: وصفت الجنهٔ ونعمها فی هذه الآیات بأنّها «جَنتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبَادَهُ بِالْغَیْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِیًّا».

ثم تشیر بعد ذلک إلی نعمهٔ اخری من أکبر نعم الجنهٔ فتقول: «لَّایَسْمَعُونَ فِیهَا لَغْوًا» فلا کذب، ولا عداء، لا تهمهٔ ولا جرح لسان، لا سخریهٔ ولا حتی کلام لا فائدهٔ فیه، بل الشیء الوحید الذی یسمعونه هو السلام «إِلَّا سَلمًا».

السلام الذی هو علامهٔ علی المحیط الآمن، المحیط الملی بالصفاء والعلاقهٔ الحمیمهٔ والطهارهٔ والتقوی والصلح والهدوء والإطمئنان.

وبعد هذه النعمهٔ تشیر الآیهٔ إلی نعمهٔ اخری فتقول: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِیهَا بُكْرَةً وَعَشِیًّا».

وبعد الوصف الإجمالی للجنهٔ ونعمها المادیهٔ والمعنویهٔ، تعرّف الآیهٔ أهل الجنهٔ فی جملهٔ قصیرهٔ، فتقول: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِیًّا». وعلی هذا فإنّ مفتاح باب الجنهٔ مع کل تلک النعم التی مرّت لیس إلّا «التقوی».

وَ مَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَیْنَ أَیْدِینَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَیْنَ ذلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِیّاً (۶۴) رَبُّ السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَیْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِیّاً (۶۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۲

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: احتبس الوحی أیّاماً، لمّا سئل النبی صلی الله علیه و آله عن قصهٔ أصحاب الکهف، وذی القرنین، والروح، فشقّ ذلک علیه فلمّا أتاه جبرائیل استبطأه فنزلت «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الآیهٔ.

التّفسیر

الطاعهٔ التامهٔ: بالرغم من أنّ لهذه الآیهٔ سبب نزول ذکر أعلاه، إلّاأنّ هذا لا یکون مانعاً من أن یکون لها إرتباطاً منطقیاً بالآیات السابقهٔ، لأنّها تأکید علی أنّ کل ما أتی به جبرئیل من الآیات السابقهٔ قد بلّغه عن اللّه بدون زیادهٔ أو نقصان، ولا شیء من عنده، فتتحدث الآیهٔ الاولی علی لسان رسول الوحی فتقول: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، فکل شیء منه، ونحن عباد وضعنا أرواحنا وقلوبنا علی الأکف، «لَهُ مَا بَیْنَ أَیْدِینَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَیْنَ ذلِكَ». والخلاصهٔ: فإنّ الماضی والحاضر والمستقبل، وهنا وهناک وکل مکان، والدنیا والآخرهٔ والبرزخ، کل ذلک متعلق بذات اللّه المقدسهٔ.

ثم تضیف الآیهٔ: إنّ کل ذلک بأمر ربک «رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَیْنَهُمَا» فإذا کان الأمر کذلک، وکل الخطوط تنتهی إلیه «فَاعْبُدْهُ» عبادهٔ مقترنهٔ بالتوحید والإخلاص.

ولما کان هذا الطریق- طریق العبودیهٔ والطاعهٔ وعبادهٔ اللّه الخالصهٔ- ملیء بالمشاکل والمصاعب، فقد أضافت: «وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ».

وتقول فی آخر جملهٔ: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِیًّا».

وهذه الجملهٔ فی الواقع، دلیل علی ما جاء فی الجملهٔ السابقهٔ، یعنی: هل لذاته المقدسهٔ شریک ومثیل حتی تمدّ یدک إلیه وتعبده؟

وَ یَقُولُ الْإِنْسَانُ أَ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَیّاً (۶۶) أَ وَ لَا یَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ یَكُ شَیْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّیَاطِینَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِیّاً (۶۸) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِیعَةٍ أَیُّهُمْ أَشَدُّ عَلَی الرَّحْمنِ عِتِیّاً (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِینَ هُمْ أَوْلَی بِهَا صِلِیّاً (۷۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان أنّ الآیات الاولی نزلت فی ابی بن خلف الجمحی، وذلک أنّه أخذ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۳

عظماً بالیاً فجعل یَفُتّه بیده ویذریه فی الریح ویقول: زعم محمّد أنّ اللّه یبعثنا بعد أن نموت ونکون عظاماً مثل هذا، إنّ هذا شیء لا یکون أبداً.

التّفسير

حال أهل النار: مرّت فى الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة والجنّة والجحيم، وتتحدّث هذه الآيات التى نبحثها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الاولى أقوال منكرى المعاد، فتقول: «وَيَقُولُ الْإِنسنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا». أى إنّ هذا الشىء غير ممكن.

ثم يجيبهم مباشرة بنفس التعبير: «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسنُ أَنَّا خَلَقْنهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيًا».

ثم تهدد الآية التالية منكرى المعاد، والمجرمين الكافرين: «فَوَرَبّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا».

إنّ هذه الآية توحى بأنّ محكمة الأفراد الكافرين والمجرمين قريبة من جهنم.

ولمّا كانت الأولويات تلاحظ فى تلك المحكمة العادلة، فإنّ الآية التالية تقول: «ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا» «۱». ونبدأ بحسابهم أوّلًا، فإنّهم عتوا عتواً نسوا معه كل مواهب اللَّه الرحمان، وجنحوا إلى التمرد والعصيان وإظهار الوقاحة أمام ولى نعمتهم.

ثم تؤكّد على هذا المعنى مرّة اخرى فتقول: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا».

فسنختار هؤلاء بدقة، وسوف لا يقع أيّ اشتباه فى هذا الإختيار.

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً (۷۱) ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً (۷۲)

الجميع يردون جهنم: تستمر الآيات فى بحث خصائص القيامة والثواب والعقاب، وأشارت فى البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة والعجب لدى أغلب الناس، فتقول: «وَإِن مّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا». فجميع الناس سيدخلون جهنّم بدون استثناء لأنّه أمر حتمى.

---

(۱) «الشيعة»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، وانتخاب هذا التعبير فى الآيةيمكن أن يكون إشارة إلى أنّ العتاة المردة والضالين الكافرين كانوا يتعاونون فى طريق الطغيان، ونحن سنحاسب هؤلاء أوّلًا، لأنّهم أكثر تمرّداً وعصياناً من الجميع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۴

«ثُمَّ نُنَجّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا». فنتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف والذّل.

وهناك بحث مفصّل بين المفسرين فى تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» فى جملة «وَإِن مّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا»؛ فاختار أكثر المفسرين، أنّ الورود هنا بمعنى الدخول، وعلى هذا الأساس فإنّ كل الناس بدون استثناء- محسنهم ومسيؤهم- يدخلون جهنّم، إلّاأنّها ستكون برداً وسلاماً على المحسنين، كحال نار نمرود على إبراهيم «يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلمًا عَلَى إِبْرهِيمَ»، لأنّ النار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفرّ منهم وتبتعد عنهم، إلّاأنّها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للجحيم كالمادة القابلة للإشتعال، فما أن تمسّهم النار حتى يشتعلوا.

إنّ مشاهدة جهنم وعذابها فى الحقيقة، ستكون مقدمة لكى يلتذّ المؤمنون بنعم الجنة بأعلى مراتب اللذة.

إنّ أهل النار أيضاً سيلقون عذاباً أشد من رؤية هذا المشهد.

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيّاً (۷۳) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَ رِئْياً (۷۴) قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (۷۵) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ مَرَدّاً (۷۶)

هذه الآيات تتابع ما مرّ فى الآيات السابقة فى الحديث عن الظالمين الذين لا- إيمان لهم، وتتعرّض لجانب آخر من منطق هؤلاء

الظالمين ومصيرهم.

ومن المعلوم أنّ أوّل جماعهٔ آمنت بالرسول الأعظم صلى الله عليه و آله كانوا من المستضعفين الطاهرى القلوب، والذين خلت أيديهم من مال الدنيا ومغرياتها.

ولما كان المعيار فى المجتمع الجاهلى فى ذلك الزمان- وكذا فى كل مجتمع جاهلى آخر- هو الذهب والزينهٔ والمال والمقام والمنصب والهيئهٔ الظاهريهٔ، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث وأمثاله يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك ويقولون: إنّ علامهٔ شخصيتنا معنا، وعلامهٔ عدم شخصيتكم فقركم ومحروميتكم، وهذا بنفسه دليل على أحقيّتنا وباطلكم، كما يقول القرآن الكريم فى أوّل آيهٔ من الآيات مورد البحث: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۵

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقى ومستدل تماماً، وفى الوقت نفسه قاطع ومفحم، فيقول: كأنّ هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، ولم ينظروا كم دمّرنا من الأقوام السابقين عند تمرّدهم وعصيانهم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا» «۱». فهل استطاعت أموالهم وثروتهم، ومجالسهم الفاسقهٔ، وملابسهم الفاخرهٔ، وصورهم الجميلهٔ أن تمنع العذاب الإلهى وتقف أمامه.

ثم تحذّرهم تحذيراً آخر، بأن لا تظنّوا أيها الظالمون الكافرون أنّ مالكم وثروتكم هذه رحمهٔ، بل كثيراً ما تكون دليلًا على العذاب الإلهى: «قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ». أى: إمّا العذاب فى هذه الدنيا، وإمّا عذاب الآخرهٔ، «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا».

وهذا هو ما ذكر فى بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الإستدراج».

هذه عاقبهٔ ومصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا وزبرجها، أمّا اولئك الذين آمنوا واهتدوا، فإنّ اللَّه يزيدهم هدىً وإيماناً «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى».

من البديهى أنّ للهدايهٔ درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الاولى فإنّ اللَّه يأخذه بيده ويرفعه إلى درجات أعلى.

وفى النهايهٔ تجيب الآيهٔ هؤلاء الذين اعتمدوا على زينهٔ الدنيا السريعهٔ الزوال، وجعلوها وسيلهٔ للتفاخر على الآخرين، فتقول: «وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا».

أ فَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَ وَلَداً (۷۷) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۷۸) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً (۷۹) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْداً (۸۰) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً (۸۱) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (۸۲)

تفكير خرافى ومنحرف: يعتقد بعض الناس أنّ الإيمان والطهارهٔ والتقوى لا تناسبهم،

(۱) «الأثاث»: بمعنى المتاع وزينهٔ الدنيا؛ و «رئى»: بمعنى الهيئهٔ والمنظر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۶

وأنّها السبب فى أن تدبر الدنيا عنهم، أمّا إذا خرجوا من دائرهٔ الإيمان والتقوى فإنّ الدنيا ستقبل عليهم، وتزيد ثروتهم وأموالهم. فقد كان فى عصر النبى- وكذلك فى عصرنا- أفراد جاهلون يظنّون هذه الظنون والأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدّث القرآن- كمواصلهٔ للبحث الذى بيّنه سابقاً حول مصير الكفار والظالمين- فى الآيات مورد البحث عن طريقهٔ التفكير هذه وعاقبتها، فيقول فى أوّل آيهٔ من هذه الآيات: «أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بَايَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا».

ثم يجيبهم القرآن الكريم: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا». فإنّ الذى يستطيع أن يتكهّن بمثل هذا التكهّن، ويقول بوجود

علاقـة بين الكفر والغنى وامتلاـك الأـموال والأولاـد، مطّلع على الغيب، لأنّا لا نرى أىّ علاقـة بين هاتين المسألتين، أو يكون قـد أخذ عهداً من اللّه سبحانه، وهذا الكلام أيضاً لا معنى له.

ثم يضيف بلهجة حادّة: إنّ الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون الكفر أساساً لزيادة مال وولد أحد مطلقاً: «كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ».

أجل، فإنّ هذا الكلام الذى لا أساس له قد يكون سبباً فى انحراف بعض البسطاء، وسيثبت كل ذلك فى صحيفة أعمال هؤلاء، «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا».

إنّ هـذه الأـموال والأولاـد التى هى أسـاس الغرور والضـلال هى بنفسـها عـذاب مسـتمر لهؤلاـء. «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» من الأموال والأولاد، «وَيَأْتِينَا فَرْدًا».

نعم، إنّه سيترك فى النهاية كل هذه الإمكانيات والأملاك المادية ويرحل، ويحضـر فى محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، وفى الوقت الذى اسودّت فيه صحيفة أعماله من الذنوب والمعاصى، وخلت من الحسنات ... هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء فى دار الدنيا.

وتشير الآية التالية إلى علّة اخرى فى عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». وليشفعوا لهم عند اللّه، ويعينوهم فى حلّ مشاكلهم، لكن، أىّ ظن خاطىء وخيال ساذج هذا؟!

ليس الأـمر كمـا يظن هؤلاـء أبـداً، فليست الأصـنام سوف لا تكون لهم عزّاً وحسب، بل سـتكون منبعاً لـذلّتهم وعـذابهم، ولهـذا فإنّهم سوف ينكرون عبادتهم لها فى يوم القيامة: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۷

إنّ هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذى نقرؤه فى الآية (۱۴) من سورة فاطر.

يستفاد هذا التفسير من حديث مروى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فى تفسير هذه الآية: «يكون هؤلاء الذين اتّخذوهم آلهة من دون اللّه ضداً يوم القيامة ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم إلى يوم القيامة».

أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (۸۳) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (۸۴) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (۸۵) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (۸۶) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۸۷)

بملاحظـة البحث فى الآيات السابقة الذى كان حول المشـركين، فإنّ البحث فى هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثم تبيّن الآيات فى النهايـة عاقبتهم المشؤومـة، وتثبت هـذه الحقيقـة، وهى أنّ هـذه الآلهة لم تكن سـبب عزّتهم بل أصـبحت سـبب ذلّهم وشقائهم، فتقول أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيطِينَ عَلَى الْكفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا».

«الأزّ»: فى الأصل يعنى غليان القـدر، وتقلّب محتواه عند شدة غليانه؛ وهو هنا كناية عن مدى تسـلّط الشـياطين على هؤلاء، بحيث إنّهم يوجّهونهم بالصورة التى يريدونها، وفى المسير الذى يشاؤون، ويقلّبونهم كيف يشتهون.

ومن البديهى أنّ تسلط الشياطين على بنى آدم ليس تسلطاً إجبارياً، بل إنّ الإنسان الذى يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه وروحه.

ثم يوجّه القرآن المجيد الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فيقول: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» وسنسجّل كل شىء لذلك اليوم الذى تشكّل فيه محكمة العدل الإلهى.

وهناك احتمال آخر فى تفسـير الآيـة، وهو أنّ المراد من عدّ أيام عمر- بل أنفاس- هؤلاء، أنّ مدّة بقائهم قصـيرة وداخلة تحت إمكان الحساب والعد.

ثم تـبيّن المسـير النهـائى للمتقين والمجرمين فى عبـارات موجزة، فتقول: إنّ كـل هـذه الأعمـال جمعناهـا وإدّخرناهـا لهم: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا».

فى تفسـير على بن ابراهيم عن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «سأل على عليه السـلام رسول اللّه صـلى الله عليه و آله عن تفسير قوله: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا» قال: يا على، الوفد لا يكون إلّاركباناً، اولئك رجال اتّقوا اللّه فأحبّهم واختصهم ورضى أعمالهم

فسمّاهم اللّه المتقين. ثم قال: يا على أما

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۸

والذى فلق الحبة وبرىء النسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ». ثم تقول فى المقابل: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا». كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّاأنّه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

وإذا كانوا يتصورون أنّهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنّهم يجب أن يعلموا أنّ هؤلاء الذين يرجونهم «لَّايَمْلِكُونَ الشَّفعَةَ» فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدروا على الشفاعة لأحد «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا» فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم وتشملهم شفاعة الشافعين، أو أنّ مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضاً، ولهم القدرة والصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

والمراد من العهد فى الآية الشريفة كل نوع من أنواع الإرتباط باللّه ومعرفته وطاعته، وكذلك الإرتباط بمذهب أولياء الحق، وكل عمل صالح.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (۸۹) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (۹۰) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (۹۲) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (۹۳) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدّاً (۹۴) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (۹۵)

لمّا كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، وعاقبة عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات فى نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أى الاعتقاد بوجود ولد للّهسبحانه، وتبيّن مرّة اخرى قبح هذا الكلام بأشدّ وأحدّ بيان، فتقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا».

فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأنّ «المسيح» هو الإبن الحقيقى للّهسبحانه، بل إنّ اليهود كانوا يعتقدون أيضاً مثل هذا الاعتقاد فى (عزير)، وكذلك عبدة الأصنام فى (الملائكة) فكانوا يظنّون أنّها بنات اللّه.

عند ذلك قالت الآية بلهجة شديدة: «لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيًا إِدًّا». «الإدّ»: معناه فى الأصل الصوت القبيح المضطرب الذى يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأمواج الصوتية فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۹

حنجرة البعير، ثم أطلق على الأعمال القبيحة والموحشة جدّاً.

ولمّا كانت مثل هذه النسبة غير الصحيحة مخالفة لأصل التوحيد فكأنّ كل عالم الوجود، الذىبنى على أساس التوحيد، قد اضطرب وتصدّع إثر هذه النسبة الكاذبة، ولذلك تضيف الآية التالية: «تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا».

ومن أجل تأكيد وبيان أهمية الموضوع فإنّها تقول: إنّ كل ذلك من أجل «أَن دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا».

إنّ هؤلاء لم يعرفوا اللّه قط، لأنّه: «وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا».

فإنّ الإنسان يطلب الولد لواحد من عدّة أشياء:

إمّا لأنّ عمره ينتهى فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته ليبقى نسله وذكره.

أو لأنّه يطلب الصديق والرفيق لأنّ قوته محدودة.

لكن أيّاً من هذه المعانى لا ينطبق على اللّه سبحانه، ولا يصح، فلا قدرته محدودة، ولا حياته تنتهى، ولا يعتريه الضعف والوهن، ولا يحس بالوحدة والحاجة، ولذلك قالت الآية الاخرى: «إِن كُلُّ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمنِ عَبْدًا».

فمع أنّ كل العباد مطيعون له، وقد وضعوا أرواحهم وقلوبهم على الأكف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.

ثم تقول الآية التالية: «لَّقَدْ أَحْصهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا». أى لا تتصور بأنّ محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، وعسير عليه سبحانه.

«وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيمَةِ فَرْدًا». وبناء على هذا فإنّ المسيح وعزير والملائكة وكل البشر يشملهم حكمه ولا يستثنى منه أحد، ومع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد ونقول بوجود ولد له، وكم ننقص من قدر ذاته المقدسة وننزلها من أوج العظمة وقمّتها، وننكر صفاته الجلالية والجمالية حينما ندّعى أنّ له ولداً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً (۹۶) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً (۹۷) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (۹۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۰

مختصر الامثل ج۳ ۲۴۹

الإيمان والمحبوبية: هذه الآيات الثلاث نهاية سورة مريم، والكلام فيها أيضاً عن المؤمنين، والظالمين الكافرين، وعن القرآن وبشاراته وإنذاراته، وهى- فى الحقيقة- عصارة البحوث السابقة بملاحظات ونكات جديدة. تقول أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا».

إنّ للإيمان والعمل الصالح نوراً وضياء بسعة عالم الوجود، ويعمّ نور المحبة الحاصل منهما كل أرجاء عالم الخلقة، وإنّ الذات الإلهية المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عند كل أهل السماء، وتقذف هذه المحبة فى قلوب أهل الأرض.

ثم تشير الآية التالية إلى القرآن الذى هو منبع ومصدر تنمية الإيمان والعمل الصالح، فتقول: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا».

«اللُدّ»:- بضم اللام وتشديد الدال- جمع «ألدّ» بمعنى العدو الشديد العداوة، وتطلق على المتعصب العنود فى عداوته، ولا منطق له.

وتقول الآية الأخيرة كتهدئة لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين، وتسلية لهم، خاصة مع ملاحظة أنّ هذه السورة نزلت فى مكة، وكان المسلمون يومذاك تحت ضغط شديد جدّاً؛ وكذلك تقول بنبرة التهديد والتحذير لكل الأعداء اللجوجين العنودين: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

«الركز»: بمعنى الصوت الهادىء، ويقال للأشياء التى يخفونهاتحت الأرض: «ركاز»، أى إنّ هؤلاء الأقوام الظالمين، وأعداء الحق والحقيقة المتعصبين، قد تمّ تدميرهم وسحقهم إلى حدّ لا يسمع صوت خفى منهم.

لقد صدرت روايات عديدة عن النبى صلى الله عليه و آله فى سبب نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا». فى كثير من كتب الحديث وتفسير السنة والشيعة، وهى تبيّن أنّ هذه الآية نزلت لأوّل مرّة فى حق على عليه السلام.

«نهاية تفسير سورة مريم»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۱

۲۰ سورة طه

محتوى السورة: إنّ أكثر ما يتحدث سورة (طه) عن المبدأ والمعاد كسائر السور المكية، ويذكر نتائج التوحيد وتعاسات الشرك.

۱- تشير هذه السورة إلى عظمة القرآن، وبعض صفات اللّه الجلالية والجمالية.

۲- يتحدث أكثر من ثمانين آية عن قصة موسى عليه السلام من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار وأعوانه.

۳- جاءت بعض المسائل حول المعاد.

۴- تناول جزء آخر من هذه السورة الحديث عن القرآن وعظمته.

۵- واحتوى قسم آخر قصة آدم وحواء فى الجنة، ثم حادثة وسوسة إبليس، وأخيراً هبوطهما إلى الأرض.

۶- وفى القسم الأخير، تبيّن السورة المواعظ والنصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب فى كثير من الآيات إلى نبى الخاتم صلى الله

عليه و آله.

فضيلة تلاوة السورة: فى كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإنّ اللّه يحبّها، ويحبّ من قرأها، ومن أدمن قراءتها أعطاه اللّه يوم القيامة كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما عمل فى الإسلام، وأعطى فى الآخرة من الأجر حتى يرضى».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۲

والمراد من التلاوة هى أن تكون التلاوة مقدمة للتفكر والتدبر، التفكر الذى تتجلّى آثاره فى كل أعمال وأقوال الإنسان.

طه (۱) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (۲) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (۳) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى (۴) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (۵) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ الثَّرَى (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى (۷) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (۸)

سبب النّزول

وردت روايات كثيرة فى سبب نزول الآيات الاولى من هذه السورة، يستفاد من مجموعها أنّ النبى صلى الله عليه و آله بعد نزول الوحى والقرآن كان يعبد اللّه كثيراً، وخاصة أنّه كان يكثر القيام والوقوف فى العبادة حتى تورّمت قدماه، وكان من شدّة التعب أحياناً يستند فى وقوفه على إحدى قدميه، ثم يستند على الاخرى حيناً آخر، وحيناً على كعب قدمه، وآخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات المذكورة وأمرت النبى صلى الله عليه و آله أن لا يحمّل نفسه كل هذا التعب والمشقة.

التّفسير

مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، والتى تثير حبّ الاستطاع لدى الإنسان: «طه».

فى كتاب معانى الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... وأمّا طه فإسم من أسماء النبى صلى الله عليه و آله ومعناه: يا طالب الحق الهادى إليه». ويظهر من هذا الحديث أنّ طه مركّب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلى طالب الحق، والهاء إلى الهادى إليه، ونحن نعلم أنّ استعمال الحروف الرمزية وعلامات الإختصار فيما مضى وفى يومنا هذا أمر طبيعى وكثير الاستعمال، خاصة فى عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول والاستعمال جدّاً.

وآخر كلام فى هذا الباب هو أنّ (طه) ك (يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبى صلى الله عليه و آله، حتى أنّهم يسمّون آل النبى صلى الله عليه و آله، (آل طه) أيضاً؛ وعبّر عن الإمام المهدى- عجّل اللّه تعالى فرجه- فى دعاء الندبة ب (يابن طه).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۳

ثم تقول الآية: «مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى . «تشقى : مأخوذة من مادة الشقاء ضدّ السعادة، إلّاأنّ هذه المادة تأتى أحياناً بمعنى المشقّة والتعب، والمراد فى الآية هذا المعنى.

ثم تبيّن الآية الاخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: «إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى .

إنّ التعبير ب «تذكرة» من جهة، وب «من يخشى» من جهة اخرى يشير إلى واقع لا يمكن إنكاره، وهو: إنّ التذكرة توحى بأنّ أسس ومقومات كل التعليمات الإلهية موجودة فى أعماق روح الإنسان وطبيعته، وتعليمات الأنبياء تجعلها مثمرة، وتوصلها إلى حدّ النضج، كما نذكّر أحياناً بمطلب وأمر ما.

إنّ تعبير «من يخشى» يبيّن أنّ نوعاً من الإحساس بالمسؤولية، والذى سمّاه القرآن بالخشية، إذا لم يكن موجوداً فى الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق.

ثم تتطرق الآيات إلى التعريف باللّه تعالى المنزل للقرآن، لتتضح عظمة القرآن من خلال معرفته، فتقول: «تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّموَاتِ الْعُلَى».

إنّ هذا التعبير إشارة إلى ابتداء وانتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلى الأرض وابتداؤه من السماوات.

ثم تستمر فى تعريف اللّه المنزل للقرآن فتقول: «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .

إنّ هذا التعبير كناية عن تسلّط اللّه، وإحاطته الكاملة بعالم الوجود، ونفوذ أمره وتدبيره فى جميع أنحاء العالم.

ثم تتحدث عن مالكية اللّه بعد حاكميته فتقول: «لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . «الثرى»: فى الأصل بمعنى التراب الرطب، ولمّا كانت قشرة الأرض- فقط- هى التى تجف نتيجة لأشعة الشمس وهبوب الرياح، وتبقى الطبقة السفلى- غالباً- رطبة، فإنّه يقال لهذه الطبقة: ثرى. وعلى هذا فإنّ «وَمَا تَحْتَ الثَّرَى تعنى أعماق الأرض وجوفها، وكلها مملوكة لمالك الملك وخالق عالم الوجود.

وأشارت الآية التالية إلى الركن الرابع، أى «العالمية»، فقالت: «وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى».

وعرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفة إجمالية فى الأبعاد الأربعة: الخلقة، والحكومة، والمالكية، والعلم.

و الآية التالية ربّما تشير إلى ما ذكرنا: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۴

إنّ التعبير بالأسماء الحسنى قد ورد مراراً وتكراراً فى الآيات القرآنية، ومن البديهى أنّ كل أسماء اللّه حسنة، ولكن لمّا كانت لبعض أسماء اللّه وصفاته أهمية أكبر، فقد سمّيت بالأسماء الحسنى.

وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (۹) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (۱۰) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى (۱۱) إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (۱۳) إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى (۱۴) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (۱۵) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (۱۶)

نار فى الجانب الآخر من الصحراء: من هنا تبدأ قصة نبى اللّه الكبير موسى عليه السلام، وتفصيل الجوانب المهمة من هذه القصة المليئة بالأحداث سيأتى فى أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة ومواساة وتسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة فى مكة ضغوطاً شديدةً من الأعداء.

ويمكن تقسيم مجموع الآيات فى هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن بداية نبوة موسى وبعثته، وأوّل ومضات الوحى.

القسم الثانى: يتحدث عن دعوة موسى وأخيه هارون لفرعون وملئه إلى دين التوحيد، ثم اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثالث: يبحث عن خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر، وكيفية نجاتهم من قبضة فرعون وأتباعه، وغرق هؤلاء وهلاكهم.

القسم الرابع: ويتحدث حول الإتجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، وقبول وساوس السامرى، ومواجهة موسى الحازمة لهذا الإنحراف.

فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق وجذاب: «وَهَلْ أَتَكَ حَدِيثُ مُوسَى .

إنّ هذا الاستفهام ليس هدفه تحصيل الخبر، بل مقدمة لبيان خبر مهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۵

ثم تقول: «إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى». «فَلَمَّا أَتهَا نُودِىَ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

ويستفاد من الآية (۳۰) من سورة القصص، أنّ موسى قد سمع هذا النداء من جهة شجرة كانت هناك: «فَلَمَّا أَتهَا نُودِىَ مِنْ شطِىِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أن يمُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ». إنّ موسى لمّا اقترب شاهد النار فى داخل الشجرة، وهذه

النار ليست ناراً عادية، بل إنّ هذا النور الإلهى الذى ليس لم يحرق الشجرة وحسب، بل إنّه منسجم معها، ألا وهو نور الحياة.

وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيى للروح: «إِنّى أَنَا رَبُّکَ» وشعر بكل وجوده بلذّة لا يمكن وصفها.

لقد امر أن يخلع نعليه، لأنّه قد وضع قدمه فى أرض مقدسة ... الأرض التى تجلّى فيها النور الإلهى، ويسمع فيها نداء اللّه، ويتحمل مسؤولية الرسالة، فيجب أن يخطو فى الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

ثم سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: «وَأَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . ومن بعدها تلقّى موسى أوّل جملة من الوحى على شكل ثلاثة امور: «إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَوةَ لِذِكْرِى». شرعت هذه الآية فى بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء فى هذه الآية، ألا وهو مسألة التوحيد، وبعدها ذكرت موضوع عبادة اللّه الواحد كثمرة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، وهى تعنى أكبر عبادة وأهم إرتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً فى عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

ولمّا كان المعاد هو الأصل والأساس الثانى، فبعد ذكر التوحيد وأغصانه وفروعه، أضافت الآية التالية: «إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى .

إنّ علّة إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هى: «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . وبتعبير آخر: فإنّ كون الساعة مخفية سيوجد نوعاً من حرية العمل للجميع.

وأشارت الآية الأخيرة إلى أصل اساسى يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية والتربوية، فتقول: «فَلَا يَصُدَّنَّکَ عَنْهَا مَن لَّايُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَيهُ» والّا فسوف تهلك «فَتَرْدَى فاصمد فى مقابل الكافرين ووساوسهم وعراقيلهم، ولا تدع للخوف من كثرتهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۶

ومؤامرتهم وخططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلًا، ولا تشك مطلقاً فى أحقية دعوتك وأصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء. إنّ جملة «يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، وجملة «واتبع هويه» بصيغة الماضى، وهى أشارت إلى هذه النكتة، وهى أنّ عدم إيمان منكرى القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحراراً ويفعلون ما تشتهى أنفسهم.

وَ مَا تِلْکَ بِيَمِينِکَ يَا مُوسَى (۱۷) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَ لِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (۱۸) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (۱۹) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى (۲۰) قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (۲۱) وَ اضْمُمْ يَدَکَ إِلَى جَنَاحِکَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (۲۲) لِنُرِيَکَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (۲۳)

عصا موسى واليد البيضاء: لا شك أنّ الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات إرتباطهم باللّه، وإلّا فإنّ أىّ واحد يستطيع أن يدعى النبوة. إنّ موسى عليه السلام بعد تلقّيه أمر النبوة، يجب أن يتلقّى دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقّى موسى عليه السلام فى تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من اللّه، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: «وَمَا تِلْکَ بِيَمِينِکَ يمُوسَى .

فأجاب موسى: «قَالَ هِىَ عَصَاىَ». ولمّا كان راغباً فى أن يستمر فى حديثه مع محبوبه الذى فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، وربّما كان يظن أيضاً أنّ قوله: «هِىَ عَصَاىَ» غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها وفوائدها فأضاف: «أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى» «۱». أى أضرب بها على اغصان الشجر فتتساقط اوراقها لتأكلها الأغنام «وَلِىَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى «۲».

إنّ موسى غطّ فى تفكير عميق: أىّ سؤال هذا فى هذا المجلس العظيم، وأىّ جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

وفجأة: «قَالَ أَلْقِهَا يمُوسَى فَأَلْقَهَا فَإِذَا حَيَّةٌ تَسْعَى . «تسعى»: من مادة السعى أى المشى السريع الذى لا يصل إلى الركض.

---

(۱) «أهش»: من مادة هشّ- بفتح الهاء- أى ضرب أوراق الشجر وتساقطها.

(۲) «مارب»: جمع مأربة، أى الحاجة والقصد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۷

وهنا صدر الأمر لموسى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى .

ثم أشارت الآية التالية إلى المعجزة المهمة الثانية لموسى، فأمرته: «وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى .

إنّ موسى كان مأموراً أن يدخل يده في جيبه ويوصلها إلى تحت إبطه.

وجملة «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أنّ بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أنّ لها لمعاناً وبريقاً خاصاً يظهر في لحظة ويختفي في لحظة اخرى.

وتقول الآية الأخيرة، وكنتيجة لما مرّ بيانه في الآيات السابقة: «لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى». والمراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه.

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (۲۴) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِى (۲۵) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِى (۲۶) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (۲۷) يَفْقَهُوا قَوْلِى (۲۸) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (۲۹) هَارُونَ أَخِي (۳۰) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى (۳۱) وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِى (۳۲) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (۳۳) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (۳۴) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (۳۵) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (۳۶)

موسى وطلباته القيّمة: إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، وتلقّى معاجز مهمّة تسترعي الإنتباه، إلّاأنّه من الآن فصاعداً صدر له أمر الرسالة ... رسالة عظيمة وثقيلة جدّاً ... الرسالة التي تبدأ بإبلاغ أعتى وأخطر شخص في ذلك المحيط، فتقول الآية: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .

أجل ... فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة، وإيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمة الكفر ... اولئك الذين لهم تأثير في جميع أركان المجتمع.

ومضافاً إلى أنّ موسى عليه السلام لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من اللّه أيّ تخفيف في هذه المهمّة، فإنّه قد تقبّلها بصدر رحب، غاية ما في الأمر أنّه طلب من اللّه أسباب النصر في هذه المهمّة. ولمّا كان أهم وأوّل أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقّاد، والعقل المقتدر، وبعبارة اخرى: رحابة الصدر، فقد «قَالَ رَبِّ اشْرَحِ لِي صَدْرِى».

ولمّا كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التي لا يمكن تجاوزها إلّابلطف اللّه، فقد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۸

طلب موسى من اللّه في المرحلة الثانية أن تيسر له اموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التي تعترضه، فقال: «وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى». ثم طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى».

خاصة وأنّه بيّن علة هذا الطلب فقال: «يَفْقَهُوا قَوْلِى». فهذه الجملة تفسير للآية التي قبلها. أي: أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أيّ سامع مرادي من الكلام جيّداً.

ولمّا كان إيصال هذا الحمل الثقيل- حمل رسالة اللّه، وقيادة البشر وهدايتهم، ومحاربة الطواغيت والجبابرة- إلى المحل المقصود يحتاج إلى معين ومساعد، ولا يمكن أن يقوم به إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من اللّه هو: «وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى».

ثم يشير إلى أخيه، فيقول: «هرُونَ أَخِى». وهارون كان الأخ الأكبر لموسى، وكان يكبره بثلاث سنين، وكان طويل القامة، جميلًا بليغاً، عالي الإدراك والفهم، وقد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين.

وقد كان نبيّاً مرسلًا كما كان نبيّاً وهبه اللّه لموسى من رحمته.

ثم يبيّن موسى عليه السلام هدفه من تعيين هارون للوزارة والمعونة فيقول: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى».

ويطلب، من أجل تكميل هذا المقصد والمطلب: «وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى». فيكون شريكاً في مقام الرسالة، وفي إجراء وتنفيذ هذا البرنامج

الكبير، إلّاأنّه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه ومقتداه.

وفى النهاية يبيّن نتيجة هذه المطالب فيقول: «كَى نُسَبّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا».

ولمّا كان موسى لم يهدف من طلباته المخلصة هذه إلّاالخدمة الأكثر والأكمل، فإنّ اللَّه سبحانه قد لبّى طلباته فى نفس الوقت: «قَالَ قَد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يمُوسَى .

إنّ موسى طلب كل ما كان يلزمه فى هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التى يجلس فيها لأوّل مرّة على مائدة الضيافة الإلهية ويطأ بساطها، واللَّه سبحانه كان يحبّ ضيفه أيضاً، حيث لبّى كل طلباته وأجابه فيها فى جملة قصيرة تبعث الحياة، وبدون قيد وشرط.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۹

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (۳۷) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (۳۸) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَ لِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى (۳۹) إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (۴۰) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (۴۱)

الربّ الرحيم: يشير اللَّه سبحانه فى هذه الآيات إلى فصل آخر من فصول حياة موسى عليه السلام، والذى يرتبط بمرحلة الطفولة ونجاته من قبضة الفراعنة. وهذا الفصل وإن كان من ناحية التسلسل التاريخى قبل فصل الرسالة والنبوّة، إلّاأنّه ذكر كشاهد على شمول عناية اللَّه عزّ وجل لموسى عليه السلام من بداية عمره، وهى فى الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة إلى الرسالة، فيقول أوّلًا: «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى «۱)».

وبعد ذكر هذا الإجمال تتطرق الآيات إلى الشرح والتفصيل، فتقول: «إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمّكَ مَا يُوحَى .

وهو إشارة إلى أنّنا قد علّمنا امّه كل الطرق التى تنتهى إلى نجاة موسى عليه السلام من قبضة الفراعنة، لأنّه يستفاد من سائر آيات القرآن أنّ فرعون شدّد ارهابه على بنى إسرائيل للتصدّى لقوّتهم وعصيانهم المحتمل، أو أنّه كان قد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء البنات للخدمة، لكى يمنع ولادة ولد من بنى إسرائيل كان قد أخبره المنجّمون أنّه يثور عليه ويزيل ملكه.

إنّ هذه الام أحسّت بأنّ حياة وليدها فى‌خطر، وإخفاؤه مؤقتاً سوف لا يحلّ المشكلة ...

فى هذه الأثناء ألهمها اللَّه- الذى رشّح هذا الطفل لثورة كبيرة؛ فألقى فى قلب الامّ: «أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمّ». «اليم»: هنا يعنى نهر النيل العظيم الذى يطلق عليه

(۱) «المنة»: فى الأصل من المن، وهو يعنى الأحجار الكبيرة التى كانوا يزنون بها، ولذلك فإنّ كل نعمة كبيرة ونفيسة يقال عنها: إنّها منّة. والمراد فى الآية هو هذا المعنى، وهذا المعنى مفهوم جميل وايجابى للمنّة، إلّاأنّ الإنسان إذا عظّم عمله الصغير بكلامه، وذكّر الطرف الآخر به، فإنّه مصداق حى للمنّة السلبية المذمومة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۰

أحياناً اسم البحر لسعته وكثرة مياهه؛ و «التابوت»: تعنى الصندوق الخشبى، ولا يعنى دائماً الصندوق الذى يوضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إنّ له معنى واسعاً. ثم تضيف: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ».

إنّ كلمة «عدو» قد تكررت هنا، وهذا تأكيد على عداء فرعون للَّه، ولموسى وبنى إسرائيل، وأشارت إلى أنّ الشخص الذى انغمس إلى هذا الحدّ فى العداء هو الذى سيتولّى فى النهاية تربية موسى.

ولما كان موسى عليه السلام يجب أن يحفظ فى حصن أمين فى هذا الطريق المليء بالمخاطر، فقد ألقى اللَّه قبساً من محبّته عليه، إلى الحدّ الذى لم ينظر إليه أحد إلّاويعشقه، فلا يكف عن قتله وحسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن فى بقية

هذه الآيات:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّى».

يقولون: إنّ قابلة موسى كانت من الفراعنة، وكانت مصمّمة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلّاأنّه لمّا وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأنّ ومضة برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوّقت محبته رقبتها، وابتعدت عن رأسها كل الأفكار السيئة.

وتقول الآية فى النهاية: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى».

وكان قصر فرعون قد بنى على جانب شط النيل، وبينما كان فرعون وزوجته على حافّة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلمّا فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلًا فيه، وهو شيء لم يكن بالحسبان.

وهنا تنبّه فرعون إلى أنّ هذا الوليد ينبغى أن يكون من بنى إسرائيل، وإنّما لاقى هذا المصير خوفاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلّاأنّ زوجته- التى كانت عقيماً- تعلّقت جدّاً بالطفل، فقد نفذ النور الذى كان ينبعث من عينى الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضربت على يد فرعون وطلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، وعبّرت عن هذا الطفل بأنّه (قرّة عين)، بل وتمادت فى طلبها، فطلبت منه أن يتخذاه ولداً ليكون مبعث أمل لهما، ويكبر فى أحضانهما، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه.

غير أنّ الطفل جاع، وأراد لبناً، فاخذ يبكى ويذرف الدموع.

والآن نقرأ بقية القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإنّا كنّا قدّرنا أن تتربى بأعيننا وعلمنا «إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ» بأمر امّك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۱

لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: «فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ». وربّما أضافت بأنّ هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأنّ هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالّتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت اخت موسى- والتى كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب والمجهول- امّها على الأمر، فجاءت امّه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أنّ أمواجاً من الحب والأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، واحتضنت الطفل، فلما شمّ الطفل رائحة امّه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كأنّه تضمّن لذة الروح وحلاوتها، واشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة وعشق شديدين، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين، وبدت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون.

فقد أمرها فرعون بالإهتمام بالطفل، وأكّدت زوجته كثيراً على حفظه وحراسته، وأمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة واخرى.

هنا تحقق ما قاله القرآن: «فَرَجَعْنكَ إِلَى أُمّكَ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».

ومرّت السنون والاعوام، وتربّى موسى عليه السلام وسط هالة من لطف اللّه ومحبته، وفى محيط آمن، وشيئاً فشيئاً أصبح شابّاً. وكان ذات يوم يمرّ من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من الأقباط- وهم المصريون، قوم فرعون- ولمّا كان بنو إسرائيل يعيشون دائماً تحت ضغط الأقباط الظالمين وأذاهم، هبّ موسى لمعونة المظلوم الذى كان من بنى إسرائيل، ومن أجل الدفاع عنه وجّه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطى، فقضت عليه.

إنّ موسى، وحسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفّياً من مصر، وتوجّه إلى مدين، فوجد محيطاً وجوّاً آمناً فى ظل النبى «شعيب»، والذى سيأتى شرح حاله فى تفسير سورة القصص إن شاء اللّه تعالى

هنا حيث يقول القرآن الكريم: «وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنكَ مِنَ الْغَمّ وَفَتَنكَ فُتُونًا». فبعد حادثة القتل اختبرناك كثيراً والقينا بك فى اتون الحوادث والشدائد «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ». وبعد اجتياز هذا الطريق الطويل، والإستعداد الروحى والجسمى، والخروج من دوامة

الأحداث بشموخ وانتصار «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يمُوسَى . أى لاستلام مهمة الرسالة فى زمان مقدّر إلى هذا المكان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۲

ثم يضيف: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى». فمن أجل مهمّة تلقّى الوحى الصعبة، ومن أجل قبول الرسالة، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم ربّيتك واختبرتك فى الحوادث الصعبة ومشاقّها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألقيت هذه المهمة الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهل من جميع الجوانب. «اصطناع»: من مادة «صنع» بمعنى الإصرار والاقدام الأكيد على اصلاح شيء. ويعنى إنّنى قد اصلحتك من كل الجهات.

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (۴۳) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (۴۴) قَالا رَبَّنا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغَى (۴۵) قالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى (۴۶) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (۴۷) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۴۸)

أوّل لقاء مع فرعون الجبار: الآن وقد أصبح كل شيء مهيّأً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب اللّه سبحانه موسى وهارون بقوله: «اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بَايتِى». الآيات التى تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السلام، كما تشمل كل آيات اللّه وتعليماته التى هى بذاتها دليل على أحقّية دعوته.

ومن أجل رفع معنوياتهما، والتأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعى والجهود، فقد أضاف سبحانه قائلًا: «وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى» وتنفيذ أوامرى، لأنّ الضعف واللين وترك الحزم سيذهب بكل جهودكما أدراج الرياح، فأثبتا ولاتخافا من أىّ حادثة، ولا تضعفا أمام أىّ قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأساس لهذه الحركة، والنقطة التى يجب أن تكون هدفاً لتشخيص المسار، فيقول: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فإنّه سبب كل الشقاء والتعاسة فى هذه المنطقة الواسعة، وما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أىّ عمل، لأنّ عامل تقدّم الامّة أو تخلّفها، سعادتها أو شقائها وبؤسها هو قادتها وحكّامها.

ثم بيّنت الآية طريقة التعامل المؤثرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه وتؤثّرا فيه «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۳

ومع هذه الحال، فقد كان موسى وهارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوى المتغطرس المستكبر، الذى عمّ رعبه وخشونته كل مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلّغان الدعوة، ويهلكهما، لذلك «قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى .

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد أجابهما بحزم: ف «قَالَ لَاتَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى وبناءً على هذا، فمع وجود اللّه القادر معكما فى كل مكان، اللّه الذى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب.

ثم يبيّن لهما بدقّة كيفية إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعة غنيّة المحتوى، ترتبط أوّلها بأصل المهمة، والثانية ببيان محتوى المهمة، والثالثة بذكر الدليل والسند، والرّابعة بترغيب الذين يقبلونها، وأخيراً فإنّ الخامسة تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أوّلًا: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبّكَ».

ثم تقول: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذّبْهُمْ».

ثم أشارت إلى دليلهما ووثيقتهما، فتقول: قولا له: «قَدْ جْئنكَ بَايَةٍ مِّن رَّبّكَ». وبناءً على هذا، فإنّ العقل يحكم بأن تفكّر فى كلامنا على الأقل، وأن تقبله إن كان صحيحاً ومنطقياً.

ثم تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: «وَالسَّلمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . وهذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، وهو أنّ

السلامة فى هذه الدنيا، والعالم الآخر من الآلام والعذاب الإلهى الأليم، ومن مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، من نصيب اولئك الذين يتّبعون الهدى الإلهى، وهذه فى الحقيقة هى النتيجة النهائية لدعوة موسى.

وأخيراً، فإنّ اللَّه يأمرهما أن يُفهماه العاقبة المشؤومة للتمرد على هذه الدعوة وعصيانها، بقولهما له: «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

إنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ ودوران، وبدون أى تغطية وتورية.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (۴۹) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (۵۰) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (۵۱) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَ لَا يَنْسَى (۵۲) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (۵۴) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (۵۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۴

لقد حذف القرآن المجيد هنا بعض المطالب التى يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، وتوجّه مباشرةً إلى محاورة موسى وهارون مع فرعون، والمبحث فى الواقع هكذا:

لمّا أصبح موسى أمام فرعون وجهاً لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثرة التى علّمه اللَّه إيّاها أثناء الأمر بالرسالة. فلما سمع فرعون هذا الكلام، كان أوّل ردّ فعله أن «قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يمُوسَى . والعجيب أنّ فرعون المغرور والمعجب بنفسه لم يكن مستعدّاً حتى أن يقول: من ربّى الذى تدّعيانه؟ بل قال: من ربّكما؟

فأجابه موسى مباشرةً بجواب جامع جدّاً، وقصير فى الوقت نفسه، عن اللَّه: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . ففى هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة والوجود، وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل يوصل إلى معرفة اللَّه:

الأوّل: إنّ اللَّه سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه.

والثانى: مسألة هداية وإرشاد الموجودات.

إنّ من الممكن أن يمتلك الإنسان أىّ شىء من أسباب الحياة، إلّاأنّه يجهل كيفية الاستفادة منها، والمهم أن يعرف طريقة استعمالها، وهذا هو الشىء الذى نراه فى الموجودات المختلفة بوضوح، وكيف أنّ كلّاً منها يستغلّ طاقته بصورة دقيقة فى إدامة حياته، كيف يبنى بيتاً، وكيف يتكاثر، وكيف يربّى أولاده ويخفيهم ويبعدهم عن متناول الأعداء، أو يعلّمهم كيف يواجهون الأعداء.

والبشر – أيضاً– لديهم هذه الهداية التكوينية.

فإنّ الإنسان نتيجة لإمتلاكه العقل والإرادة، فإنّ له واجبات ومسؤوليات، وبعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، ولذلك فإنّه إضافة إلى الهداية التكوينية محتاج إلى الهداية التشريعية.

فلما سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالًا آخر «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى .

أجابه موسى عليه السلام بقوله: «قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتبٍ لَّايَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى».

إنّ موسى قد نبّه بصورة ضمنيّة على إحاطة علم اللَّه بكل شىء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ أى شىء من عمله لا يخفى على اللَّه وإن كان بمقدار رأس الإبرة، وسوف ينال عقابه أو ثوابه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۵

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسألة التوحيد ومعرفة اللَّه، فإنّه يبيّن هنا فصلًا آخر فى هذا المجال، فيقول: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى . وفى مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم اللَّه الكبرى.

إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكّل حسب الترتيب الذى ورد فى الآية أولويّات حياة الإنسان، فقبل كل شيء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن وهدوء، وبعده إلى طرق المواصلات، ثم الماء، ثم المحاصيل الزراعية.

ثم أشار إلى خامس النعم وآخرها من سلسلة النعم الإلهية هذه، فقال: «كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ».

وفى النهاية، وبعد أن أشار إلى كل هذه النعم، قال: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِأُولِي النُّهَى .

«النهى»: جمع «نهية» وهى فى الأصل مأخوذة من مادة «نهى» مقابل الأمر، وتعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات، يعنى إنّ العقل والفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك ويطّلع على هذه الحقيقة.

وبما أنّ هذه الآيات دلّت على التوحيد بخلق الأرض ونعمها، فقد بيّنت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض فى آخر آية من هذه الآيات أيضاً فقالت: «مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبَى (۵۶) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى (۵۸) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (۶۰) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَ قَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (۶۱) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى (۶۲) قَالُوا إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (۶۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۶

فرعون يُهيّء نفسه للجولة الأخيرة: تعكس هذه الآيات مرحلة اخرى من المواجهة بين موسى وفرعون، ويبدأ القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: «وَلَقَدْ أَرَيْنَهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . ومن المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هى المعجزات التى أراها فرعون فى بداية دعوته، معجزة العصا، واليد البيضاء، ومحتوى دعوته السماوية الجامعة.

والآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى ومعجزاته، وكيف اتّهمه كما هى عادة كل المتسلطين والحكّام المتعنّتين؟ «قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يمُوسَى . وهو إشارة إلى أنّنا نعلم أنّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للإنتصار علينا، وبالتالى إخراجنا مع الأقباط من أرض آبائنا وأجدادنا.

إنّ هذه التهمة هى نفس الحربة التى يستخدمها الطواغيت والمستعمرون على إمتداد التاريخ، ويلوحون بها ويشهرونها كلّما رأوا أنفسهم فى خطر، ومن أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومة هؤلاء العتاة، ووجوده يعنى وجودهم!

ثم أضاف فرعون بأن لا تظن بأنّنا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر: «فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ». ولكى يظهر حزماً أكثر فإنّه قال: «فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّانُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى».

إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، ولم يدع للخوف من عنجهيّة فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» «۱».

إنّ التعبير ب «يَوْمُ الزّينَةِ» إشارة إلى يوم عيد إلّاأنّ المهم هو أنّ الناس كانوا يعطّلون أعمالهم فيه.

إنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، وتأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السلام بالإستعانة بالسّحرة، ولذلك وضع الإتفاق المذكور مع موسى «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى .

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ووقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم

---

(۱) «الضحى»: بمعنى زيادة أشعّة الشمس، أو إرتفاع الشمس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۷

السحرة، وكان عددهم- على رأى بعض المفسرين- إثنين وسبعين ساحراً، وقال آخرون إنّهم بلغوا أربعمائة، وذكر البعض أعداداً أكبر أيضاً، وكان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون وأنصاره وحاشيته، وأخيراً القسم الثالث الذى كان يشكّل الأكثرية، وهم الناس المتفرجون.

هنا توجّه موسى إلى السّحرة، أو إلى الفراعنة والسحرة، و «قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى .

وواضح أنّ مراد موسى من الإفتراء على اللَّه سبحانه هو أن يجعلوا شخصاً أو شيئاً شريكاً له، أو ينسبوا معجزات رسول اللَّه إلى السحر، ويظنّوا أنّ فرعون إلههم ومعبودهم.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السّحرة بوجه، بل إنّ نبرته كانت نبرة دعوة كل الأنبياء الحقيقيين، ونابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثّرت على بعض القلوب، وأوجدت إختلافاً بين ذلك الحشد من السّحرة، فبعض كان يناصر المواجهة والمبارزة، وبعض تردّد فى الأمر، واحتمل أن يكون موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً، وأثّرت فيهم تهديداته، خاصةً وأنّ لباس موسى وهارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، وعدم مشاهدة الضعف والتراجع على محيّاهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلًا آخر على أصالة أقوالهما وصدق نواياهما، ولذلك فإنّ القرآن يقول: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .

إلّا أنّ أنصار الاستمرار فى المواجهة إنتصروا أخيراً وأخذوا زمام المبادرة بيدهم، وشرعوا فى تحريك السحرة بطرق مختلفة، فأوّلًا «قَالُوا إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ». وبناءً على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنّكم كبار وأساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، ولأنّ قوّتكم وقدرتكم أكبر منهما.

ثم إنّهما «يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا». الوطن الذى هو أعزّ من أنفسكم. إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنّهما يريدان أيضاً أن يجعلا مقدساتكم اضحوكة ومحلًّا للسخرية «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى » (۱).

والآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردّد إلى أنفسكم طريقاً مطلقاً، بل

---

(۱) «الطريقة»: تعنى العادة والاسلوب المتبع، والمراد منها هنا المذهب؛ و «مثلى»: من مادّة «مثل» وهى هنا تعنى العالى والأفضل، أى الأشبه بالفضيلة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۸

«فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا» لأنّ الوحدة رمز إنتصاركم فى هذه المعركة المصيرية الحاسمة «وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (۶۵) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (۶۷) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (۶۸) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (۶۹)

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحة: لقد اتّحد السّحرة ظاهراً، وعزموا على محاربة موسى عليه السلام ومواجهته، فلمّا نزلوا إلى الميدان «قَالُوا يمُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى .

غير أنّ موسى عليه السلام بدون أن يبدى عجلة، لإطمئنانه بأنّ النصر سوف يكون حليفه، بل وبغضّ النظر عن أنّ الذى يسبق إلى الحلبة فى هذه المجابهات هو الذى يفوز «قَالَ بَلْ أَلْقُوا».

فقبل السحرة ذلك أيضاً، وألقوا كل ما جلبوه معهم من عصى وحبال للسحر فى وسط الساحة دفعة واحدة، وإذا قبلنا الرواية التى تقول: إنّهم كانوا آلاف الأفراد، فإنّ معناها أنّ فى لحظة واحدة القيت فى وسط الميدان آلاف العصى والحبال التى ملئت أجوافها

بمواد خاصة «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .
إنّ المشهد كان عجيباً جدّاً، فإنّ السحرة الذين كان عددهم كبيراً، وتمرّسهم وإطلاعهم فى هذا الفن عميقاً، وكانوا يعرفون جيّداً طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية والكيميائية الخفية، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كل هذه الأشياء الميتة قد ولجتها الروح، فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف والرعب، ويتراجعون إلى الخلف.
فى هذه الأثناء «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى . «أوجس»: أخذت من مادة «إيجاس» وفى الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفى، وبناءً على هذا فإنّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى والداخلى، وهذا يوحى بأنّ خوف موسى الداخلى كان سطحياً وخفيفاً. كما نقرأ فى خطبة الإمام على عليه السلام: «لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۹

أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال» «۱».
فقد نزل النصر والمدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، وبيّن له الوحى الإلهى أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: «قُلْنَا لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى .
فقد أرجعت لموسى إطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.
وخاطبه اللّه مرّة اخرى بقوله تعالى: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .
وممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (الق عصاك) بل يقول: «أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الإهتمام بالعصا، وإشارة إلى أنّ العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة اللّه وأمره، فإنّه إذا أراد اللّه شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل وأصغر منها قادر على إظهار مثل هذه القدرة.
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (۷۰) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَ أَبْقَى (۷۱) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (۷۲) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (۷۳) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (۷۴) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (۷۵) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (۷۶)
الإنتصار العظيم لموسى عليه السلام: إنتهينا فى الآيات السابقة إلى أنّ موسى امر أن يلقى عصاه ليبطل سحر السّاحرين، وقد عُقّبت هذه المسألة فى هذه الآية، غاية الأمر أنّ العبارات والجمل التى كانت واضحة قد حذفت، وهى (أنّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة

---

(۱) لقد قال الإمام على عليه السلام هذا الكلام فى وقت كان قلقاً من انحراف الناس، ويشير إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ قلقى ليس نابعاً من شكّى فى الحق. (نهج البلاغة الخطبة ۴).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۰

عظيمة لقفت كل آلات وأدوات سحر السّحرة، فعلت الصيحة والغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون وإرتبك، وفغر أتباعه أفواههم من العجب. فأيقن السحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، وكانوا يفرّقون جيّداً بين السحر وغيره، إنّ هذا الأمر ليس إلّامعجزة إلهية، وأنّ هذا الرجل الذى يدعوهم إلى ربّهم هو رسول اللّه، فاضطربت قلوبهم، وتبيّن التحوّل العظيم فى أرواحهم ووجودهم).

والآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

«فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبّ هرُونَ وَمُوسَى . إنّ التعبير ب (القى)- وهو فعل مبنى للمجهول- ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، وتأثّروا بمعجزته إلى الحد الذى سجدوا معه دون إرادة.

إنّ عمل السحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون وحكومته الجبارة المستبدة الظالمة، ولذلك لم ير فرعون بدّاً إلّاأن يجمع كيانه ويلملم ما تبقّى من هيبته وسلطانه عن طريق الصراخ والتهديد والوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السحرة و «قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

إنّ هذا الجبار المستكبر لم يكن يدّعى الحكومة على أجسام وأرواح الناس وحسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرفى أيضاً، ويجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذننى.

إنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالساحرين التهمة وقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السّحْرَ».

لا شكّ أنّ فرعون كان على يقين ومعرفة تامّة بكذب كلامه وبطلانه، إلّاأنّا نعلم أنّ الطغاة لا يتورّعون عن إلصاق أى كذب وتهمة بخصومهم عندما يرون مركزهم الذى حصلوا عليه بغير حق يتعرّض للخطر.

ثم إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال: «فَلَأُقَطّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مّنْ خِلفٍ وَلَأُصَلّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنّهم لم يخافوا ولم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم فى الميدان بصورة قاطعة، و «قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيّنتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ» لكن، ينبغى أن تعلم بأنّك تقدر على

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۱

القضاء فى هذه الدنيا، أمّا فى الآخرة فنحن المنتصرون، وستلاقى أنت أشدّ العقاب «إِنَّمَا تَقْضِى هذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنيَا».

ثم أضافوا بأنّا قد إرتكبنا ذنوباً كثيرة نتيجة السحر، ف «إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطينَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

وخلاصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، ومن جملتها محاربة نبى اللّه الحقيقى، فإذا كنت تهدّدنا بالموت فى الدنيا، فإنّنا نتقبّل هذا الضرر القليل فى مقابل ذلك الخير العظيم.

ثم واصل السحرة قولهم بأنّنا إذا كنّا قد آمنا فإنّ سبب ذلك واضح ف «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» ومصيبته الكبرى فى الجحيم هى أنّه «لَايَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى بل إنّه يتقلّب دائماً بين الموت والحياة، تلك الحياة التى هى أمرّ من الموت، وأكثر مشقّة منه.

«وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصلِحتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجتُ الْعُلَى جَنتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ خلِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى .

عندما صمّموا على قبول الحقّ والثبات عليه بعشق، وعلى قول المفسر الكبير العلّامة الطبرسى رحمه الله: «كانوا أوّل النهار كفّاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة».

نجاة بنى إسرائيل وغرق الفراعنة: بعد حادثة المجابهة بين موسى والسحرة، وإنتصاره الباهر عليهم، وإيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السلام ودينه أفكار الناس فى مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّاأنّ هذا كان ديدنهم دائماً، وكان بنو إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّة من المصريين فى حالة صراع دائم مع الفراعنة، ومرّت أعوام على هذا المنوال، وحدثت حوادث مرّة موحشة وحوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم فى الآية (۱۲۷) وما بعدها من سورة الأعراف.

وتشير الآيات التى نبحثها إلى آخر فصل من هذه القصة، أى خروج بنى إسرائيل من مصر، فتقول: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى». فتهيّأ بنو إسرائيل للتوجه إلى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۲

الوطن الموعود (فلسطين)، إلّاأنّهم لمّا وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقّبهم فرعون فى جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل

أنفسهم محاصرين بين البحر والعدو، إلّا أنّ اللَّه أمر موسى أن امض بقومك «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا». طريقاً متى ما مضيت فيه ف «لَّاتَخفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . وبذلك فإنّ موسى وبنى إسرائيل قد ساروا فى تلك الطرق التى فتحت فى أعماق البحر بعد إنحسار المياه عنها، فى هذه الأثناء وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر فدُهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقّع، ولذلك أعطى فرعون أمراً لجنوده باتّباعهم، وسار هو أيضاً فى نفس الطريق: «فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ».

إنّ فرعون الذى ركب الغرور والعصبية رأسه، وغرق فى بحر العناد والحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، وأمر جيشه فى المسير فى هذه الطرق البحرية المريبة حتى دخل من هذه الجهة آخر جندى فرعونى، فى وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل. فى هذه الأثناء صدر الأمر لأمواج المياه أن ترجع إلى حالتها الاولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسقط البناية الشامخة إذا هدّمت قواعدها «فَغَشِيَهُم مّنَ الْيَمّ مَا غَشِيَهُمْ». أجل، «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى .

صحيح أنّ جملة (أضلّ) وجملة (ما هدى) تعطى معنى واحداً تقريباً إلّاأنّ الظاهر أنّ هناك تفاوتاً فيما بينهما، وهو أنّ (أضلّ) إشارة إلى الإضلال، و (ما هدى) إشارة إلى عدم الهداية بعد وضوح الضلالة.

إنّ فرعون كان عنيداً إلى الحد الذى لم يبيّن لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته.

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ عَدُوِّكُم وَ وَاعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٢٣

طريق النجاة الوحيد: تعقيباً على البحث السابق فى نجاة بنى إسرائيل بصورة إعجازية من قبضة الفراعنة، خاطبت هذه الآيات الثلاث بنى إسرائيل بصورة عامة، وفى كل عصر وزمان، وذكرتهم بالنعم الكبيرة التى منحها اللَّه إيّاهم، وأوضحت طريق نجاتهم.

فقالت أوّلًا: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِن عَدُوّكُمْ».

ثم تشير إلى واحدة من النعم المعنوية المهمة، فتقول: «وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ». وهذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسى عليه السلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم فى الطور، ففى ذلك المكان أنزل اللَّه سبحانه ألواح التوراة على موسى وكلّمه، وشاهدوا جميعاً تجلّى اللَّه سبحانه.

وأخيراً أشارت إلى نعمة ماديّة مهمة من نعم اللَّه الخاصة ببنى إسرائيل، فتقول: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى . ففى تلك الصحراء كنتم حيارى، ولم يكن عندكم شىء من الطعام المناسب، فأدرككم لطف اللَّه، ورزقكم من الطعام الطيّب اللذيذ ما كنتم بأمسّ الحاجة إليه.

و «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعى كان موجوداً فى الجبال المجاورة لتلك الصحراء؛ و «السلوى» نوع من الطيور المحللة اللحم شبيهاً بالحمام.

ثم تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول: «كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ».

الطغيان فى النعمة هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم وسيلة للذنب والجحود والكفران والتمرد والعصيان، بدل أن يستغلّها فى طاعة اللَّه وسعادته، تماماً كما فعل بنو إسرائيل، ولذلك حذّرتهم الآية بعد ذلك فقالت: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى

.

«هوى»: فى الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذى تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنّه هنا إشارة إلى السقوط الرتبى والبعد عن قرب اللَّه، والطرد من رحمته.

ولما كان من الضرورى أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتتساوى كفّتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل

الأساسى فى تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: «وَإِنّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .

«غفّار»: صيغة مبالغة، وتوحى أنّ اللَّه سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمّهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۴

وَ مَا أَعْجَلَکَ عَنْ قَوْمِکَ يَا مُوسَى (۸۳) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْکَ رَبِّ لِتَرْضَى (۸۴) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (۸۶) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَکَ بِمَلْکِنَا وَ لکِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَکَذلِکَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هذَا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ (۸۸) أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِکُ لَهُمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِى وَ أَطِيعُوا أَمْرِى (۹۰) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاکِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (۹۱)

صخب السامرى: ذكر فى هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل، ويتعلق بذهاب موسى عليه السلام مع وكلاء وممثّلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى عليه السلام إلى «الطور» لتلقّى أحكام التوراة، ويصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل، غير أنّ شوق موسى عليه السلام إلى المناجاة مع اللَّه وسماع ترتيل الوحى، وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات اللَّه وميعاده. هنا نزل عليه الوحى: «وَمَا أَعْجَلَکَ عَن قَوْمِکَ يمُوسَى .

شوق المناجاة وسماع كلامک قد سلب قرارى، كنت مشتاقاً إلى أن آخذ منک أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لُأؤدّيها إلى عبادک، ولأنال رضاک عنّى بذلک ...

وفى هذا اللقاء إمتدّت مدّة الإشراقات والتجليات المعنوية الإلهية من ثلاثين ليلة إلى أربعين، وأدّت الأجواء المهيّأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامرى، ذلک الرجل الفطن والمنحرف صنع باستعماله الوسائل عجلًا، ودعا تلک الجماعة إلى عبادته، وأوقعهم فيها.

وأخيراً أخبر اللَّه موسى فى الميعاد بما جرى لقومه والسامرى إذ تحكى الآية التالية ذلک

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۵

فتقول: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِن بَعْدِکَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ». «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا».

وما أن وقعت عينه على ذلک المنظر القبيح، منظر عبادة العجل «قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا». وهذا الوعد الحسن إمّا أن يكون وعد بنى إسرائيل بنزول التوراة وبيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالنجاة والإنتصار على الفراعنة ووراثة حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة والعفو للذين يتوبون ويؤمنون ويعملون الصالحات، أو أنّه كل هذه الامور.

ثم أضاف: «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ».

وحتى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغى أن تلتزموا بالتعاليم الإلهية التى تعلّمتموها وتؤمنوا بالمعجزات التى رأيتموها: «أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى». فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيد وطريق طاعة اللَّه الخالصة، وأن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلّاأنّكم نسيتم كل كلامى فى غيابى، وكذلک تمردّتم على طاعة أمر أخى هارون وعصيتموه.

فلمّا رأى بنو إسرائيل أنّ موسى عليه السلام قد عنّفهم بشدة ولامهم على فعلهم وتنبّهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للإعتذار ف «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَکَ بِمَلْكِنَا» فلم نكن فى الواقع قد رغبنا وصمّمنا على عبادة العجل «وَلكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ».

إنّ كبير القوم إذا لام مَن تحت إمرته على إرتكابهم ذنباً ما، فإنّهم يسعون إلى نفى ذلك الذنب عنهم، ويلقونه على عاتق غيرهم، وكذلك عبّاد العجل من بنى إسرائيل، فإنّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم ورغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلّاأنّهم أرادوا أن يلقوا كل التبعة على السامرى.

على كلّ، فإنّ السامرى ألقى كل أدوات زينة الفراعنة وحليّهم التى كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم والمعصية- ولم يكن لها قيمة إلّاأن تصرف فى مثل هذا العمل المحرّم- فى النّار «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ» «۱» فلمّا رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأةً كل تعليمات موسى التوحيديّة «فَقَالُوا هذَا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى .

وبهذا فإنّ السامرى قد نسى عهده وميثاقه مع موسى، وإله موسى: «فَنَسِىَ».

وهنا قال اللَّه سبحانه توبيخاً وملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». فإنّ المعبود الواقعى يستطيع على الأقل أن يُلبّى طلبات

---

(۱) «الخوار»: صوت البقرة والعجل، ويطلق أحياناً على صوت البعير.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۶

عباده ويجيب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبى لوحده، دليلًا على جواز عبادة العجل، وصحّة تلك العبادة؟ ولا شك أنّ هارون، خليفة موسى ونبى اللَّه الكبير، لم يرفع يده عن رسالته فى هذا الصخب والغوغاء، وأدّى واجبه فى محاربة الانحراف والفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هرُونُ مِن قَبْلُ يقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ» ثم أضاف: «وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ».

لقد كنتم عبيداً فحرّركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالين فهداكم، وكنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم ووحّدكم تحت راية رجل ربانى، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن «فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى».

أنسيتم أنّ أخى موسى قد نصّبنى خليفة له وفرض عليكم طاعتى؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم فى هاوية الفناء؟

إلّا أنّ بنى إسرائيل تمسكّوا بهذا العجل عناداً، ولم يؤثّر فيهم المنطق السليم القوى لهذا الرجل، ولا أدلة هذا القائد الحريص، وأعلنوا مخالفتهم بصراحة: «قَالُوا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وبهذا لم يذعن بنو إسرائيل لأمر العقل ولا لأمر خليفة قائدهم وزعيمهم أيضاً.

ولكن إفترق عنهم هارون مع القلة من المؤمنين الثابتين، والذين كان عددهم قرابة إثنى عشر ألفاً، فى حين أنّ الأغلبية الجاهلة كادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَکَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَنْ تَتَّبِعَنِ أ فَعَصَيْتَ أَمْرِى (۹۳) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَ لَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (۹۴) قَالَ فَمَا خَطْبُکَ يَا سَامِرِيُّ (۹۵) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذلِکَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (۹۶) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلَى إِلهِکَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّمَا إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (۹۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۷

نهاية السامرى المريرة: تعقيباً على البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول تقريع موسى وملامته لبنى إسرائيل الشديدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التى نبحثها- فى البداية- محاورة موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامرى. فخاطب أوّلًا أخاه هارون «قَالَ يَا هرُونُ مَا مَنَعَکَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ» أفلم أقل لك أن «اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

الْمُفْسِدِينَ» «۱». فلماذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

إنّ المراد من جملة «أَلَّا تَتَّبِعَنِ» هو: لماذا لم تتّبع طريقة عملى فى شدّة مواجهة عبادة الأصنام؟

ثم أضاف: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى». لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه وهو فى فورة وسَورةٍ من الغضب، وكان يصرخ فى وجهه، وقد أخذ برأسه ولحيته يجرّه إليه، فلمّا رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له- من أجل تهدئته وليقلّل من فورته، وكذلك ليبيّن عذره وحجّته فى هذه الحادثة ضمناً ... «قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى».

إنّ هارون يريد أن يقول: إنّى إذا كنت قد أقدمت على الإشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، وكان من حقّك أن تؤاخذنى. وبهذا أثبت هارون براءته.

وبعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون وتبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامرى: لماذا فعلت ما فعلت، وما هدفك من ذلك: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ». فأجابه و «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى».

إنّ كلمة «الأثر» يعنى بعض تعليمات موسى عليه السلام؛ و «نبذتها» بمعنى ترك تعليمات موسى عليه السلام. وأخيراً فإنّ «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا» تشير إلى ما كان لديه من معلومات خاصّة عن دين موسى عليه السلام.

ومن الواضح أنّ جواب السامرى عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولًا بأىّ وجه، ولذلك فإنّ موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم فى هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأوّلًا: «قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيوةِ أَن تَقُولَ لَامِسَاسَ». أى يجب عليك الإبتعاد عن الناس وعدم الإتصال بهم إلى آخر العمر، فكلما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن

---

(۱) سورة الأعراف/ ۱۴۲.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۸

تقول له: لا تتصل بى ولا تقربنى، وبهذا الحكم الحازم طرد السامرى من المجتمع وجعله فى عزلة تامة. منزوياً بعيداً عنهم. قال بعض المفسرين: إنّ جملة «لَامِسَاسَ» إشارة إلى أحد القوانين الجزائية فى شريعة موسى عليه السلام التى كانت تصدر فى حق من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قذر، فلا يخالط أحداً أو يخالطه أحد «۱».

والعقاب الثانى: إنّ موسى عليه السلام قد أسمعه وأعلمه بجزائه فى القيامة فقال: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ».

والثالث: «وَانظُرْ إِلَى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا».

وشخّص موسى فى آخر جملة، ومع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، وحاكمية نهج اللّه، فقال: «إِنَّمَا إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا». فليس هو كالأوثان المصنوعة التى لا تسمع كلاماً، ولا تجيب سائلًا، ولا تحلّ مشكلة، ولا تدفع ضرّاً.

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (۹۹) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً (۱۰۰) خَالِدِينَ فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (۱۰۱) يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (۱۰۲) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (۱۰۳) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (۱۰۴)

مع أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث حول تاريخ موسى وبنى إسرائيل والفراعنة والسامرى الملىء بالحوادث، وقد بيّنت فى طيّاتها بحوثاً مختلفة، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامة فيقول: «كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ». ثم يضيف: «وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا» قرآناً مليئاً بالدروس والعبر، والأدلّة العقلية، وأخبار الماضين وما ينبّه المقبلين ويحذّرهم.

إنّ كلمة (ذكر) هنا، وفى آيات كثيرة اخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر وتذكير البشر، والوعى والحذر.

ولهذا السبب فإنّ الآية التالية تتحدث عن الذين ينسون حقائق القرآن ودروس التاريخ

(۱) تفسير فى ظلال القرآن ۵/ ۴۹۴.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۹

وعبره، فتقول: «مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وِزْرًا».

نعم ... إنّ الإعراض عن القرآن يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التى تحمّله أعباءاً ثقيلة من أنواع الذنوب والانحرافات الفكرية والعقائدية.

ثم تضيف: «خلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ حِمْلًا».

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة وبدايته، فتقول: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا». «زُرق»: جمع «أزرق» تأتى عادةً بمعنى زرقة العين، إلّاأنّها تطلق أحياناً على القاتم جسده بسبب الشدة والألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم والتعب والعذاب يضعف، ويفقد طراوته، فيبدو قاتماً وكأنّه أزرق.

فى هذه الحال يتحدث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم وبقائهم فى عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلّاعشر ليال، أو عشرة أيام بلياليها: «يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا».

وإنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب والخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنّه نتيجة شدة ضعفهم وعجزهم.

ثم يضيف: «نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» سواء تكلّموا بهمس أم بصراخ، وبصوت خفى أم عال «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا».

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً (۱۰۵) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَ لَا أَمْتاً (۱۰۷) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (۱۰۸) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِىَ لَهُ قَوْلًا (۱۰۹) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (۱۱۰) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَ لَا هَضْماً (۱۱۲)

مشهد القيامة المهول: تتابع هذه الآيات الكلام فى الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا وبداية القيامة. ويظهر من الآية الاولى أنّ الناس كانوا قد سألوا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۰

النبى صلى الله عليه و آله عن مصير الجبال عند انتهاء الدنيا. ولذلك يقول: «وَيَسْلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ».

والجواب: «فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبّى نَسْفًا» «۱».

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنّها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فهى ترجف وتهتزّ أوّلًا: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» «۲».

ثم تتحرّك: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» «۳».

وفى المرحلة الثالثة تتلاشى وتتحوّل إلى كثبان من الرمل: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا» «۴».

وفى المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء والطوفان من مكانها ويبعثرها فى الهواء وتبدو كالصوف المنفوش: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» «۵».

ثم تقول الآية: إنّ اللّه سبحانه بعد تلاشى الجبال وتطاير ذرّاتها يأتى أمره إلى الأرض «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَّاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» «۶». وفى ذلك الحين يدعو الداعى الإلهى جميع البشر إلى الحياة والاجتماع فى المحشر للحساب فيلبّى الجميع دعوته ويتّبعونه «يَوْمَئِذٍ

يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَاعِوَجَ لَهُ». كما أنّ سطح الأرض يصبح صافياً ومستوياً بحيث لا يبقى فيه أىّ إعوجاج، فإنّ أمر اللّه والداعى أيضاً كل منهما صافٍ ومستقيم جلى، واتّباعه واضح لا سبيل لأىّإنحراف وإعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو لهيمنة العظمة الإلهية على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب ونتيجة الأعمال، أو لكليهما.

---

(۱) «نسف»: تعنى وضع الحبوب الغذائية فى الغربال وغربلتها، أو ذرها فى الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، وهنا إشارة إلى تلاشى الجبال وتهشّمها، ثم تناثرها فى الهواء.

(۲) سورة المزمل/ ۱۴.

(۳) سورة الطور/ ۱۰.

(۴) سورة المزمل/ ۱۴.

(۵) سورة القارعة/ ۵.

(۶) يستفاد من مجموع هذين الوصفين (القاع وصفصفاً) أنّ كل الجبال والنباتات ستمحى من على وجهالأرض فى ذلك اليوم وستبقى الأرض مستوية خالية.

«العوج»: بمعنى الإعوجاج؛ و «الأمت»: أى الأرض المرتفعة والربية، وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية هو أنّه لا يرى فى ذلك اليوم أىّ إرتفاع وإنخفاض على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۱

وبما أنّ بعض الغارقين فى الذنوب والمعاصى قد يحتمل أن تنالهم شفاعة الشافعين وتنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: «يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أَذنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا». وهذا إشارة إلى أنّ الشفاعة هناك ليست إعتباطية وعشوائية، بل إنّ هناك تخطيطاً دقيقاً لها، سواء ما يتعلق بالشافعين أو المشفوع لهم، وما دام الأفراد لا يملكون الأهلية والاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

ولمّا كان حضور الناس فى عرصات القيامة للحساب والجزاء لابدّ معه من علم اللّه سبحانه بأعمالهم وسلوكهم ومعاملاتهم، فإنّ الآية التالية تضيف: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا». فهو يعلم ما قدّم المجرمون وما فعلوه فى الدنيا، وهو مطّلع على كل أفعالهم وأقوالهم ونيّاتهم فى الماضى وما سيلاقونه من الجزاء فى المستقبل، إلّاأنّهم لا يحيطون بعلم اللّه، وبهذا فإنّ إحاطة علم اللّه سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء وبجزائهم، وهذان الركنان فى الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل.

فى ذلك اليوم: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ».

«العنت»: من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، ولذلك يقال للأسير:

«عانى»، لأنّه خاضع وذليل فى يد الآسر، وإذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنّ كل الإحساسات النفسية، ومن جملتها الخضوع، تظهر آثارها أوّلًا على وجه الإنسان.

إنّ إنتخاب صفتى «الحى والقيوم» هنا من بين صفات اللّه سبحانه، لأنّهما يناسبان النشور أو الحياة وقيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

وتختتم الآية بالقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالظلم والجور كالحمل العظيم الذى يثقل كاهل الإنسان، ويمنعه من السير والرقى إلى نعم اللّه الخالدة.

ولمّا كانت طريقة القرآن غالباً هى بيان تطبيقى للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين فى ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا» «۱».

التعبير ب «مِنَ الصَّالِحَاتِ» إشارة إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كل الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح

---

(۱) «الهضم»: بمعنى النقص، وإذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهراً وتبقى فضلاته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۲

بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدة أيّام لكنها تجفّ آخر الأمر. مراحل القيامة: وردت الإشارة فى الآيات- محل البحث- إلى سلسلة من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة وبعدها:

۱- رجوع الأموات إلى الحياة: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ».

۲- جمع المجرمين وحشرهم: «نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ».

۳- تلاشى جبال الأرض، ثم تبعثرها فى كل مكان، وإستواء سطح الأرض تماماً:

«يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا».

۴- إستماع الجميع لدعوة داعى اللَّه، وإنقطاع جميع الأصوات: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ ...».

۵- عدم تأثير الشفاعة فى ذلك اليوم بدون إذن اللَّه: «يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفعَةُ ...».

۶- إعداد اللَّه تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا».

۷- خضوع الجميع فى مقابل حكمه: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىّ الْقَيُّومِ».

۸- يأس الظالمين: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

۹- رجاء المؤمنين لطف اللَّه ورحمته: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...».

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (۱۱۳) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً (۱۱۴)

الآيات محل البحث- فى الواقع- إشارة إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة والوعد والوعيد، فتقول: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا».

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التى بيّنت قبل هذه الآية.

كلمة «عربيًّا» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّاأنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد من جهتين:

الاولى: إنّ اللغة العربية- بشهادة علماء اللغة فى العالم- واحدة من أبلغ لغات العالم، وأدبها من أقوى الآداب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۳

والثانية: إنّ جملة (صرّفنا) أحياناً تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثة واحدة، فمثلًا نراه يبيّن مسألة الوعيد وعقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الامم السابقة وحوادثها تارة، وتارة اخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، وثالثة بتجسيد حالهم فى مشهد القيامة، وهكذا.

أمّا الآية التالية فتضيف قائلة: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ».

وبما أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يعجّل فى إبلاغ الوحى وما ينزل من القرآن لاهتمامه به وتعشّقه أن يحفظه المسلمون ويستظهروه، ولم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحى فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكّره بأن يتمهّل فتقول: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا».

فإذا كان النبى صلى الله عليه و آله مأموراً أن يطلب زيادة العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، وروحه المليئة وعياً وعلماً، فإنّ

واجب الآخرين واضح جدّاً، وفى الحقيقة، فإنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّاً، وزيادة الطلب فى كثير من الامور مذمومة إلّافى طلب العلم فانّها ممدوحة، والإفراط قبيح فى كل شىء إلّافى طلب العلم.

وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١۶) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَنْ تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى (١١٨) وَ أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢٢)

آدم ومكر الشيطان: إنّ هذه الآيات وما بعدها تتحدث عن قصة آدم وحواء، وعداء ومحاربة إبليس لهما، وربما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بالأمس واليوم، وموسى عليه السلام وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣۴

وبالرغم من أنّ قصة آدم وإبليس قد وردت مراراً فى القرآن، إلّاأنّها تمتزج فى كل مورد بملاحظات ومسائل جديدة، وهنا تتحدث أوّلًا عن عهد اللّه إلى آدم فتقول: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا». والمراد من العهد المذكور، أمر اللّه بعدم الإقتراب من الشجرة الممنوعة.

فلا شك أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى. أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم فى الجنّة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبية للإستعداد للحياة فى هذه الدنيا وتقبّل المسؤولية.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . ومن هنا يتّضح مقام آدم العظيم، آدم الذى سجدت له الملائكة، كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمناً من أوّل الأمر إذ لم يخضع لآدم ولم يعظّمه.

لا شك أنّ السجدة لا تعنى السجدة الخاصة بعبادة اللّه، ولا أحد أو موجود يستحق أن يكون معبوداً من دون اللّه سبحانه، وبناءً على هذا فإنّ هذه السجدة كانت للّه، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. فإنّ اللّه سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله: «فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى .

من الواضح أنّ الجنة هنا لا يراد منها جنّة الخلود فى العالم الآخر، والتى هى نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستاناً فيه كل شىء مما فى بساتين هذه الدنيا، ولم يكن فيها نصب ولا غصّة بلطف اللّه.

ثم يبيّن اللّه لآدم راحة الجنة وهدوءها، وألم ومشقة الخروج منها، فيقول: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى .

فقد اشير فى هاتين الآيتين إلى أربع إحتياجات أصلية وابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، والماء، واللباس- للحماية من حرارة الشمس- والمسكن، لكن ومع كل ذلك، فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطنُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّايَبْلَى .

«الوسوسة»: فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جدّاً، ثم قيلت لخطور الأفكار السافلة والخواطر السيئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إنّ الشيطان تتبع رغبة آدم وأنّها فى أىّ شىء، فوجد أنّ رغبته فى الحياة الخالدة

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣۵

والوصول إلى القدرة الأزلية، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وإستغلّهما فى سبيل جرّه إلى مخالفة أمر اللّه.

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاؤهما: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا» «١». فلما رأى آدم وحواء ذلك إستحييا «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ» «٢». نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة

«وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . «غوى»: اخذت من مادّة الغى، أى العمل الصبيانى الناشىء من إعتقاد خاطىء، ولما كان آدم هنا قد أكل- جهلًا وإشتباهاً- من الشجرة المحرمة، نتيجة للظن الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عُبّر عن عمله ب (غوى).

ولكن لما كان آدم نقيّاً ومؤمناً فى ذاته، وكان يسير فى طريق رضى اللّه سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ اللّه سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل «ثُمَّ اجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى .

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (۱۲۴) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (۱۲۵) قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (۱۲۶) وَ كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى (۱۲۷)

مع أنّ توبة آدم قد قبلت، إلّاأنّ عمله أدّى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الاولى، ولذا فإنّ اللّه سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشيطان أن يهبطوا جميعاً من الجنة: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ». إلّاأنّى اعلمكم بأنّ طريق النجاة والسعادة مفتوح أمامكم «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

---

(۱) «سوءات»: جمع سوءة، وهى فى الأصل كل شىء غير سار ويسىء الإنسان، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميّت، وأحياناً على العورة، والمراد هنا هو المعنى الأخير.

(۲) «يخصفان»: من مادّة خصف، وهى هنا تعنى خياطة اللباس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۶

ومن أجل أن يتّضح أيضاً مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ أَعْمَى «۱».

هنا «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا». فيسمع الجواب مباشرةً: «قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ ءَايتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى . وتعمى عينك عن رؤية نعم اللّه ومقام قربه.

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فهى بمثابة الاستنتاج والخلاصة إذ تقول:

«وَكَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بَايتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (۱۲۸) وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (۱۳۰)

لما كانت عدّة بحوث فى الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الاولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية وأكثرها تأثيراً، وهو مطالعة تأريخ الماضين، فتقول: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مّنَ الْقُرُونِ». اولئك الذين عمّهم العذاب الإلهى الأليم «يَمْشُونَ فِى مَسكِنِهِمْ».

إنّ هؤلاء يمرّون فى مسيرهم وذهابهم وإيّابهم على منازل قوم عاد- فى أسفارهم إلى اليمن- وعلى مساكن ثمود المتهدمة الخربة- فى سفرهم إلى الشام- وعلى منازل قوم لوط التى جُعل عاليها سافلها- فى سفرهم إلى فلسطين- ويرون آثارهم، إلّاأنّهم لا يعتبرون.

نعم ... «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِأُولِى النُّهَى «۲».

إنّ موضوع أخذ العبرة من تأريخ الماضين من الامور التى يؤكّد عليها القرآن والأحاديث الإسلامية كثيراً.

فى كتاب معانى الأخبار عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «... وأغفل الناس من لم يتّعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال». ولا يفكّر فى تقلّب الليل والنهار وتعاقبهما.

الآیة التالیة جواب عن سؤال یثار هنا، وهو: لماذا لا یجری اللّه سبحانه علی هذا القسم

(۱) «الضنک»: المشقّة والضیق، وهذه الکلمة تأتی دائماً بصیغة المفرد، ولیس لها تثنیة ولا جمع ولا تأنیث.

(۲) «النهی»: من مادّة نهی، وهی هنا بمعنی العقل، لأنّ العقل ینهی الإنسان عن القبائح والسیّئات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۷

من المجرمین ما أجراه علی المجرمین السابقین، فیقول القرآن: «وَلَوْلَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّکَ لَکَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّی».

إنّ هذه السنّة الإلهیة التی ذکرت فی مواضع عدیدة من القرآن باسم (کلمة) إشارة إلی قانون الخلقة المبتنی علی حریة البشر، لأنّ کل مجرم إذا عوقب مباشرة وبدون أن یمهل، فإنّ الإیمان والعمل الصالح سیتّصف بالجبر تقریباً، وسیکون علی الأغلب خوفاً من العقاب الآنی، وبناءً علی هذا فسوف لا یکون وسیلة للتکامل الذی هو الهدف الأصلی.

إضافةً إلی أنّه إذا تقرّر أن یعاقب جمیع المجرمین فوراً، فسوف لا یبقی أحد حیّاً علی وجه الأرض: «وَلَوْ یُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَکَ عَلَیْهَا مِن دَابَّةٍ» «۱». وبناءً علی هذا فیجب أن تکون هناک مهلة وفترة تعطی لکل المرتبطین بطریق الحق حتی یرجع المجرمون إلی أنفسهم ویسلکوا سبیل الصلاح، ولتکون کذلک فرصة لتهذیب النفس.

إنّ التعبیر ب (أجل مسمّی) بالشکل الذی یفهم من مجموع آیات القرآن، إشارة إلی الزمان الحتمی لنهایة حیاة الإنسان.

ثم یوجّه الخطاب إلی النبی صلی الله علیه و آله، فیقول: «فَاصْبِرْ عَلَی مَا یَقُولُونَ». ومن أجل رفع معنویات النبی صلی الله علیه و آله وتقویة قلبه، وتسلیة خاطره، فإنّه یُؤمر بمناجاة اللّه والصلاة والتسبیح فیقول: «وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَایِ الَّیْلِ فَسَبّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّکَ تَرْضَی ولا یتأثّر قلبک جرّاء کلامهم المؤلم.

لا شک أنّ هذا الحمد والتسبیح محاربة للشرک وعبادة الأصنام، وفی الوقت نفسه صبر وتحمّل أمام أقوال المشرکین السیئة، وکلامهم الخشن.

وَ لَا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلَی مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقَی (۱۳۱) وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَیْهَا لَا نَسْأَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَی (۱۳۲) وَ قَالُوا لَوْ لَا یَأْتِینَا بِآیَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَةُ مَا فِی الصُّحُفِ الْأُولَی (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَکْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَیْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آیَاتِکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَی (۱۳۴) قُلْ کُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِیِّ وَ مَنِ اهْتَدَی (۱۳۵)

(۱) سورة النحل/ ۶۱.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۸

لقد أصدرت فی هذه الآیات أوامر وتوجیهات للنبی صلی الله علیه و آله، والمراد منها والمخاطب فیها عموم المسلمین، وهی تتمة للبحث الذی قرأناه آنفاً حول الصبر والتحمل. فتقول أوّلًا:

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلَی مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ». فإنّ هذه النعم المتزلزلة الزائلة ما هی إلّا «زَهْرَةَ الْحَیَوةِ الدُّنْیَا».

فی الوقت الذی أمددناهم بها «لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَرِزْقُ رَبّکَ خَیْرٌ وَأَبْقَی . فإنّ اللّه سبحانه وهب لک مواهب ونعماً متنوّعة، فأعطاک الإیمان والإسلام، والقرآن والآیات الإلهیة والرزق الحلال الطاهر، وأخیراً نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات والعطایا المستمرة الدائمة.

وتقول الآیة التالیة تلطیفاً لنفس النبی صلی الله علیه و آله وتقویة لروحه: «وَأْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلَوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَیْهَا» لأنّ هذه الصلاة بالنسبة لک ولأهلک أساس العفّة والطهارة وصفاء القلب وسموّ الروح ودوام ذکر اللّه.

إنّ هذه السورة لمّا کانت قد نزلت فی مکة، فإنّ مصداق الأهل فی ذلک الزمان کان (خدیجة وعلیاً علیهما السلام) إلّاأنّ مصطلح

أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثم تضيف بأنّه إذا كان قد صدر الأمر لك ولأهلك بالصلاة فإنّ نفعها وبركاتها إنّما يعود كل ذلك عليكم، فإنّا «لَانَسَلُکَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُکَ» فإنّ هذه الصلاة لا تزيد شيئاً من عظمة اللَّه، بل هى رأس مال عظيم لتكامل البشر وإرتقائهم ودرس تعليمى وتربوى عال.

وتضيف الآية فى النهاية: «وَالْعِقِبَةُ لِلتَّقْوَى . فإنّ ما يبقى ويفيد فى نهاية الأمر هو التقوى، والمتقون هم الفائزون فى النهاية، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة والإنكسار.

ثم أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفار الواهية فقالت: «وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَايَةٍ مِّن رَّبِّهِ» واجابتهم مباشرة: «أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى . حيث كانوا يشكّكون ويطلبون الأعذار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، وبعد رؤية ومشاهدة تلك المعاجز إستمرّوا فى كفرهم وإنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهى، أفلا يعلمون بأنّهم إذا ساروا فى نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه.

إنّ هؤلاء المتذّرعين ليسوا اناساً طلّاب حق، بل إنّهم دائماً فى صدد إيجاد أعذار وتبريرات جديدة، فحتّى «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَکْنهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايتِکَ مِن قَبْلِ أن نَّذِلَّ وَنَخْزَى إلّاأنّهم الآن وقد جاءهم هذا النبى الكريم بهذا الكتاب العظيم، يقولون كل يوم كلاماً، ويختلقون الأعذار للفرار من الحق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۹

وقالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و «قُلْ کُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ» فنحن بإنتظار الوعود الإلهية فى حقّكم، وأنتم بإنتظار أن تحيط بنا المشاكل والمصائب «فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحبُ الصِّرَاطِ السَّوِىِّ وَمَنِ اهْتَدَى . وبهذه الجملة الحاسمة العميقة المعنى تنتهى المحاورة مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذّرعين.

«نهاية تفسير سورة طه»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۱

۲۱ سورة الأنبياء

محتوى السورة:

۱- إنّ هذه السورة كما تدلّ عليها تسميتها هى سورة الأنبياء، لأنّ اسم ستّة عشر نبيّاً قد جاء فى هذه السورة، بعضهم بذكر نماذج وصور من حالاتهم، والبعض كإشارة، وهم:

موسى- هارون- إبراهيم- لوط- إسحاق- يعقوب- نوح- داود- سليمان- أيّوب- إسماعيل- إدريس- ذو الكفل- ذو النون (يونس)- زكريا- يحيى عليهم السلام.

۲- إضافة إلى ما مرّ، فإنّ خاصية السور المكية التى تتحدث عن العقائد الدينية، وبالأخصّ المبدأ والمعاد، منعكسة تماماً فى هذه السورة.

۳- وتحدّث جانب آخر من هذه السورة عن إنتصار الحق على الباطل، والتوحيد على الشرك، وجنود الحق على جنود إبليس.

والذى يلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدىء بتهديد الناس الغافلين الجاهلين بالحساب الشديد، وتنتهى بتهديدات اخرى فى هذا المجال أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه اللَّه حساباً يسيراً، وصافحه وسلّم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن».

وقد قلنا مراراً: إنّ القرآن كتاب عقيدة وعمل، والقراءة مقدمة للتفكير والتدبر، وهو مقدمة للإيمان والعمل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۲

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (۱) مَا یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ یَلْعَبُونَ (۲) لَاهِیَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۳) قَالَ رَبِّی یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۴) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْیَأْتِنَا بِآیَةٍ کَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵)

تبدأ هذه السورة بتحذیر قوی شدید موجّه لعموم الناس، تحذیر یهزّ الوجدان ویوقظ الغافلین، فتقول: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِی غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

إنّ عمل هؤلاء یدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت کل وجودهم، وإلّا فکیف یمکن للإنسان أن یؤمن بإقتراب الحساب ... الحساب الدقیق المتناهی فی الدقة، ومع کل ذلک لا یکترث بالامور ویرتکب أنواع الذنوب.

کلمة (إقترب) لها دلالة على التأکید أکثر من (قرب) وهی إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قریباً جدّاً.

ثم إنّ الفرق بین «الغفلة» و «الإعراض» یمکن أن یکون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن إقتراب الحساب، وهذه الغفلة هی تسبّب الإعراض عن آیات اللَّه سبحانه.

إنّ المراد من إقتراب الحساب والقیامة هو أنّ ما بقی من الدنیا قلیل فی مقابل ما مضى منها، ولهذا فإنّ القیامة ستکون قریبة- قرباً نسبیّاً- خاصة وأنّه قد روی- فی تفسیر مجمع البیان- عن رسول اللَّه صلى الله علیه و آله قال: «بعثت أنا والساعة کهاتین» وأشار إلى السبابة والوسطى اللتین تقع إحداهما إلى جنب الاخرى.

ثم تبیّن الآیة التالیة علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: «مَا یَأْتِیهِم مّن ذِکْرٍ مّن رَّبّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ یَلْعَبُونَ».

کلمة «ذکر» فی الآیة إشارة إلى کل کلام منبّه یوقظ الغافلین، والتعبیر ب (محدث) إشارة إلى أنّ الکتب السماویة کانت تنزل الواحد تلو الآخر، وتحتوی کل سورة من سور القرآن، وکل آیة من آیاته محتوى جدیداً ینفذ إلى قلوب الغافلین بطرق مختلفة، لکن أیّ فائدة مع مَن یتّخذ کل ذلک هزواً؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۳

ثم تقول من أجل زیادة التأکید: «لَاهِیَةً قُلُوبُهُمْ» لأنّهم فی الظاهر یتخذون کل المسائل الجدیة لهواً ولعباً. ومن الطبیعی أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا یجدون طریق السعادة، ولا یوفّقون إلیه.

ثم تشیر إلى جانب من الخطط الشیطانیة فتقول: «وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلَّا بَشَرٌ مّثْلُکُمْ». وإذا لم یکن سوى بشر إعتیادی، فلابد أن تکون أعماله الخارقة ونفوذ کلامه سحراً، ولا یمکن أن یکون شیئاً آخر: «أَفَتَأْتُونَ السّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ».

إنّ هؤلاء قد أکّدوا على مسألتین فی أقوالهم: إحداهما: کون النبی صلى الله علیه و آله بشراً، والاخرى: تهمة السحر، وستأتی الإتهامات الاخرى فی الآیات التالیة أیضاً، ویتصدّى القرآن الکریم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن یجیبهم بصورة عامة على لسان النبی صلى الله علیه و آله فیقول: «قَالَ رَبّى یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» فلا تتصوروا أنّ نجواکم ومؤامراتکم المخفیة تخفى علیه «وَهُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ» فهو یعلم کل شیء، ومطلع على کل شیء، فلا یسمع کلامکم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفکار التی تمرّ فی أذهانکم، والقرارات التی فی صدورکم.

بعد ذکر نوعین من تذرّعات المخالفین، یتطرق القرآن إلى ذکر أربعة أنواع اخرى منها، فیقول: «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» «۱» وهم یعتقدون أنّها حقیقة.

وقد یغیّرون کلامهم هذا أحیاناً فیقولون: «بَلِ افْتَرَیهُ» ونسبه إلى اللَّه.

ویقولون أحیاناً: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»، وهذه الآیات مجموعة من خیالاته الشعریة.

وفی المرحلة الرابعة یقولون: إنّا نتجاوز عن کل ذلک فإذا کان مرسلًا من اللَّه حقّاً «فَلْیَأْتِنَا بَایَةٍ کَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ».

إنّ التحقيق فى هـذه الإدّعاءات المتضادة المتناقضـة فى حق النبى صـلى الله عليه و آله سـيوضّح أنّها بنفسـها دليل على أنّهم لم يكونوا طلّاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعذار، وإخراج خصمهم من الحلبة بأيّة قيمة وثمن، وبأىّ صورة كانت.

---

(۱) «أضـغاث»: جمع ضِغْث، وهو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة وما شاكل ذلك؛ و «الأحلام»: جمع حُلم وهو المنام والرؤية، ولمّا كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدّة أشياء متفرّقة إلى بعضها، فإنّ هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربة المتفرّقة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۴

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِی إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۷) وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (۸) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (۹) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۰)

كل الأنبياء كانوا بشـراً: قلنا: إنّ ستّة إشكالات وإيرادات قد اعيد ذكرها فى الآيات السابقة، وهذه الآيات التى نبحثها تجيب عنها، تارةً بصورة عامّة جامعة، واخرى تجيب عن بعضها بالخصوص. أشارت الآية الاولى إلى المعجزات المقترحة لُاولئك، ونقصد منها: المعجزات المقترحـة حسب أهوائهم تـدرّعاً، فتقول: إنّ جميع المـدن والقرى التى أهلكناهـا سابقاً كانت قـد طلبت مثل هـذه المعاجز، ولكن لمّا استجيب طلبهم كذّبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: «مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ». وهى تنذرهم بصورة ضمنية بأنّ الآيات لو تحقّقت على ما إقترحتم ثم لم تؤمنوا، فإنّ فناءكم حتمى!

ثم تطرّقت الآيـة التالية إلى جواب الإشـكال الأوّل- خاصةً- حول كون النبى صـلى الله عليه و آله بشـراً، فتقول: إنّك لست الوحيد فى كونك نبيّاً، وفى نفس الوقت أنت بشـر «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ» فإنّ هـذه حقيقـة تاريخية يعرفها الجميع «فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

لا- شـكّ أنّ «أَهْلَ الذِّكْرِ» تشـمل من الناحيـة اللغويـة كـل العلماء والمطلعين، والآيـة أعلاه تبيّن قانوناً عقلائياً عاماً فى مسألـة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإنّ مورد ومصـداق الآيـة وإن كان علماء أهل الكتاب، إلّاأنّ هذا لا يمنع من عمومية القانون، ولهذه العلة إسـتدلّ علماء وفقهاء الإسلام بهذه الآية فى مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

ثم تعطى الآية التالية توضيحاً أكثر حول كون الأنبياء بشراً، فتقول: «وَمَا جَعَلْنَهُمْ جَسَدًا لَّايَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خلِدِينَ».

لا شك فى أنّه يجب أن يكون قائـد البشـر ومرشـدهم من جنسـهم، بنفس تلك الغرائز والعواطف والأحاسيس والحاجات والعلاقات حتى يحسّ بآلامهم وعذابهم، ولينتخب

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۶

أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة واسوة لكل البشر، ويقيم الحجة على الجميع.

ثم تحـذّر الآية وتهدّد المنكرين المتعصبين العنودين، فتقول: إنّا كنّا قد وعدنا رسـلنا بأن ننقذهم من قبضة الأعداء، ونبطل كيد اولئك الأشرار «ثُمَّ صَدَقْنَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ».

أجل، فكما أنّ سـنّتنا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشـر، كذلك كانت سـنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، وإذا لم تؤثّر المواعظ والنصائح المتلاحقة أثرها فى المخالفين، فإنّنا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب- مرّة اخرى- فى جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: «لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فإنّ كل من يتـدبّر آيات هـذا الكتاب الـذى هو أساس التذكّر وحياة القلب، وحركة الفكر، وطهـارة المجتمع، سـيعلم جيـداً أنّه معجزة واضـحة وخالـدة، ومع وجود هـذه المعجزة البينـة التى تظهر فيهـا آثـار الإعجـاز من جهات مختلفـة ... من جهـة الجاذبيـة الخارقـة، ومن جهـة المحتوى، الأحكـام والقوانين، العقائـد والمعـارف، و ... فهل لا زلتم بإنتظار معجزة

اخرى؟

إنّ كون القرآن موقظاً ومنبّهاً لا يعنى إجباره الناس على هذا الوعى، بل إنّ الوعى مشروط بأن يريد الإنسان ويصمّم، وأن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١۴) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ (١۵)

كيف وقع الظالمون فى قبضة العذاب: تبيّن هذه الآيات مصير المشركين والكافرين مع مقارنته بمصير الأقوام الماضين، وذلك بعد البحث الذى مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الاولى:

«وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۷

«القصم»: يعنى الكسر المقترن بالشدة، فإنّها توحى بأنّ اللّه سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب والإنتقام للأقوام الظالمين الجائرين. عند ذلك توضّح الآية حال هؤلاء عندما تتّسع دائرة العذاب لتشمل ديارهم العامرة، وعجزهم أمام العقاب الإلهى، فتقول: «فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ» «١».

إلّا أنّه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ والتقريع: «لَاتَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلُونَ».

إنّ هذه العبارة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين فى تلك النعمة الوفيرة، كان السائلون وطالبو الحاجات يترددون دائماً إلى أبوابهم، يأتون والأمل يقدمهم، ويرجعون بالخيبة والحرمان، فالآية تقول لهم: إرجعوا وأعيدوا ذلك المشهد اللعين، وهذا فى الحقيقة نوع من الاستهزاء والملامة.

إنّ هؤلاء يعون فى هذا الوقت حقيقة الأمر، ويرون ما كانوا يسخرون منه من قبل قد تجلّى أمامهم بصورة جديّة تماماً، فتعلو صرختهم: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلّا أنّ هذا الوعى الاضطرارى للإنسان عندما يواجه مشاهد العذاب لا قيمة له، ولا يؤثّر فى تغيير مصير هؤلاء، ولذلك فإنّ القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث يضيف:

«فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَيهُمْ حَتَّى جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا» فيلقونهم على الأرض كالزرع المحصود، وتبدّل مدينتهم التى غمرتها الحياة والحركة والعمران إلى قبور مهدّمة مظلمة، فيصبحوا «خمِدِينَ» «٢».

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١۶) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

خلق السماء والأرض ليس لهواً: لمّا كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهى: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلّاالأكل

---

(١) «الركض»: يأتى بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب والدابة، ويأتى أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض؛ مثل «أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ»- سورة ص/ ۴۲.

(٢) «خامد»: من مادّة الخمود، بمعنى إنطفاء النّار، ثُمّ اطلقت على كل شىء يفقد حركته وفاعليّته ونشاطه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۸

والشرب والملذّات، ويظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول فى الآيات التى نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير،

وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كل العالم، وخاصة البشر: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينَ».

إنّ هذه الأرض الواسعة، وهذه السماء المترامية الأطراف، وكل هذه الموجودات المتنوعة البديعة التى توجد فى ساحتها تبيّن أنّ هدفاً مهماً فى خلقها ... نعم، إنّ الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة اخرى ليكون دليلًا على المعاد، وإلّا فإنّ كل هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

ثم تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب فى أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو اللّه سبحانه وتعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، ف «لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فعِلِينَ». «اللعب»: يعنى العمل غير الهادف، و «اللهو»:

إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهى.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الاولى: أنّه تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف اللّه هو اللهو.

والاخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادة المحدود.

ثم تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم هدفية الدنيا، بل هى للهو واللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحق والواقع، ولم يقم أساسه على الباطل «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ». وتقول فى النهاية: «وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» وتتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إنّنا نجعل الأدلة العقلية والإستدلالات الواضحة والمعجزات البيّنة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدفيين، لتتبخّر وتتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأى.

«نقذف»: من مادة «قذف» بمعنى الإلقاء، وخاصة الإلقاء من طريق بعيد، ولما كان للقذف من بعيد سرعة وقوة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة إنتصار الحق على الباطل.

«يدمغه»: (على قول الراغب) كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة فى بدن الإنسان حساسية، وهو تعبير بليغ عن غلبة جند الحق غلبة واضحة قاطعة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۹

وَ لَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (۱۹) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (۲۰) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (۲۱) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۲۲) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ (۲۳) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (۲۴) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (۲۵)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ عالم الوجود ليس عبثياً لا هدف من ورائه، فلا مزاح ولا عبث، ولا لهو ولا لعب، بل له هدف تكاملى دقيق للبشر.

ولما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهّم، وهو: ما حاجة اللّه إلى إيماننا وعبادتنا؟ فإنّ الآيات التى نبحثها تجيب أوّلًا عن هذا التوهّم، وتقول: «وَلَهُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ (أى: الملائكة) لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» «۱». ومع هذا الحال فأىّ حاجة لطاعتكم وعبادتكم؟ فإذا كنتم قد امرتم بالإيمان والعمل الصالح والعبودية فإنّ كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

وبعد أن نفت فى الآيات السابقة عبثيّة ولا هدفية عالم الوجود، وأصبح من المسلم أنّ لهذا العالم هدفاً مقدّساً، فإنّ هذه الآيات تتطرق

إلى بحث مسألة وحدة المعبود ومدبّر هذا العالم، فتقول: «أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ» «۲».

وهذه الجملة إشارة إلى أنّ المعبود يجب أن يكون خالقاً، وخاصّة خلق الحياة، لأنّها أوضح مظاهر الخلق ومصاديقه.

التعبير ب «ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ» إشارة إلى الأصنام والمعبودات التى كانوا يصنعونها من الحجارة والخشب، وكانوا يظنّونها حاكمة على السماوات.

---

(۱) «يستحسرون»: فى الأصل من مادّة حسر، وفى الأصل تعنى رفع النقاب والستار عن الشىء المغطّى، ثم‌استعملت بمعنى التعب والضعف، فكأنّ كل قوى الإنسان تصرف فى مثل هذه الحالة، ولا يبقى منها شىء مخفى فى بدنه.

(۲) «ينشرون»: من مادّة «نشر»، أى فكّ الشىء المعقّد الملفوف، وهو كناية عن الخلق وإنتشار المخلوقات فى أرجاء الأرض والسماء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۲۹۹

وتبيّن الآية التالية أحد الأدلة الواضحة على نفى آلهة وأرباب المشركين، فتقول: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحنَ اللَّهِ رَبّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

هذه الإدعاءات غير الصحيحة وهذه الأرباب المصنوعة والآلهة المظنونة ليست إلّا أوهاماً، وساحة كبرياء ذاته المقدسة لا تتلوّث بهذه النسب المغلوطة.

إنّ الدليل الوارد فى الآية آنفة الذكر الذى يتحرك لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، فى الوقت الذى هو بسيط وواضح، فإنّه من البراهين الفلسفية الدقيقة فى هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلى:

إنّنا نرى نظاماً واحداً حاكماً فى هذا العالم، إنّ إنسجام القوانين وأنظمة الخلقة هذه يحكى أنّها تنبع من عين واحدة، لأنّ البدايات إن كانت متعددة، والإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الإنسجام مطلقاً. لأنّ لكل واحدة قضاء، وكانت الاخرى تمحو أثر الاولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

وبعد أن ثبت بالإستدلال الذى ورد فى الآية توحيد مدبّر ومدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنّه قد نظّم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال والإنتقاص ولا أحد يعترض عليه فى خلقه: «لَايُسَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلُونَ».

إنّ لدينا نوعين من الأسئلة:

الأوّل: السؤال التوضيحى، وهو أن يكون الإنسان يريد أن يعلم النقطة الأصلية والهدف الحقيقى من المسائل، ومثل هذا السؤال جائز حتى حول أفعال اللَّه.

أمّا النوع الثانى: فهو السؤال الإعتراضى، والذى يعنى أنّ العمل الذى تمّ كان خطأً. من المسلم أنّ هذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال اللَّه الحكيم، إلّاأنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

وتشتمل الآية التالية على دليلين آخرين فى مجال نفى الشرك، فمضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلة.

تقول الآية أوّلًا: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ». وهو إشارة إلى أنّكم إذا صرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أنّ نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنّه لا يوجد أىّ دليل- على الأقل- على إثبات الشرك والوهية هذه الآلهة، فكيف يتقبّل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۱

ثم تشير إلى الدليل الأخير فتقول: «هذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى» وهذا هو الدليل الذى ذكره علماء العقائد تحت عنوان: (إجماع وإتّفاق الأنبياء على التوحيد).

ولما كانت كثرة المشركين (وخاصةً فى ظروف حياة المسلمين فى مكة، والتى نزلت فيها هذه السورة) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهى تضيف: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ».

لقد كانت مخالفة الأكثرية الجاهلة فى كثير من المجتمعات دليلًا وحجة لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، وقد إنتقد القرآن الإستناد إلى هذه الأكثرية بشدة فى كثير من الآيات، سواء التى نزلت فى مكة أو المدينة.

ولما كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلة الغافلين أنّ لدينا أنبياء كعيسى مثلًا دعوا إلى آلهة متعددة، فإنّ القرآن الكريم يقول فى آخر آية من الآيات محل البحث بصراحة تامة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ». وبهذا يثبت أنّه لا عيسى ولا غيره قد دعا إلى الشرك، ومثل هذه النسبة إليه تهمة وإفتراء.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢۶) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩)

لمّا كان الكلام فى آخر آية عن الأنبياء، ونفى كل أنواع الشرك، ونفى كون المسيح عليه السلام ولداً، فإنّ كل الآيات محلّ البحث تتحدّث حول نفى كون الملائكة أولاداً.

وتوضيح ذلك أنّ كثيراً من مشركى العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه، ولهذا السبب كانوا يعبدونها أحياناً، والقرآن الكريم إنتقد هذه العقيدة الخرافية التى لا أساس لها، وبيّن بطلانها بالأدلّة المختلفة. يقول أوّلًا: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا». فإن كان مرادهم الولد الحقيقى، فإنّه يلزم من هذا الجسمية، وإن كان المراد التبنّى- والذى كان إعتيادياً ومتداولًا بين العرب- فإنّ ذلك أيضاً دليل على الضعف والإحتياج، إلّاأنّ الوجود الأزلى الأبدى وغير الجسمانى، وغير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له، ولذلك فإنّ القرآن يقول مباشرةً: «سُبْحنَهُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥٢

ثم تبيّن أوصاف الملائكة فى ستّة أقسام تشكّل بمجموعها دليلًا واضحاً على نفى كونهم أولاداً:

١- «بَلْ عِبَادٌ».

٢- «مُّكْرَمُونَ».

فليس هؤلاء عباداً هاربين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، ولذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أحبّهم، وأفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم فى العبودية.

٣- إنّ هؤلاء على درجة من الأدب والخضوع والطاعة للّهبحيث «لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ».

۴- وكذلك من ناحية العمل أيضاً فهم مطيعون «وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثم أشارت إلى إحاطة علم اللّه بهؤلاء فتقول: إنّ اللّه تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة والمستقبلية، وكذلك أعمالهم السالفة، وأيضاً يعلم ما فى دنياهم وآخرتهم، وقبل وجودهم وبعده: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» ومن المسلّم أنّ الملائكة مطلعون على هذا الموضوع، وهو أنّ للّهإحاطة علمية بهم، وهذا العرفان هو السبب فى أنّهم لا يسبقونه بالقول، ولا يعصون أمره، ولهذا فإنّ هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

۵- ولا شك أنّ هؤلاء الذين هم عباد اللّه المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ هؤلاء «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى .

ثم إنّ هـذه الجملـة تجيب ضـمناً اولئك الذين يقولون: إنّنا نعبد الملائكة لتشـفع لنا عند اللّه، فيقول القرآن لهم: إنّ هؤلاء لا يقدرون على فعل شيء من تلقاء أنفسهم، وكل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من اللّه مباشرةً، وحتى إذن شفاعة الشافعين.

۶- ونتيجة لهذه المعرفة والوعى «وَهُم مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ».

«الخشـية»: تعنى الخوف المقترن بـالتعظيم والإحـترام؛ و «مشـفق»: من مادة الإشـفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنّها فى الأصـل مأخوذة من الشـفق، وهو الضـياء الممتزج بالظلمـة. فبناءً على هـذا، فإنّ خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثة مرعبة مخيفة، وكـذلك إشـفاقهم فـإنّه لاـ يشـبه خوف الإنسـان من موجود خطر، بـل إنّ خوفهم وإشـفاقهم ممزوجـان بالإـحترام، والعنايـة والتوجه، والمعرفة والإحساس بالمسؤولية.

من الواضح أنّ الملائكة مع هذه الصفات البارزة والممتازة، ومقام العبودية الخالصة لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۳

يـدّعون الالوهيـة مطلقـاً، أمّـا إذا فرضـنا ذلـك «وَمَن يَقُـلْ مِنْهُمْ إِنّى إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَـذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ». إنّ إدّعاء الالوهيـة فى الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس والمجتمع، ويندرج فى القانون العام «كَذلِكَ نَجْزِى الظلِمِينَ».

أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمـاوَاتِ وَ الْـأَرْضَ كَانَتَـا رَتْقـاً فَفَتَقْنَاهُمَـا وَ جَعَلْنَـا مِنَ الْمَـاءِ كُلَّ شَـىْءٍ حَىٍّ أ فَلَا يُؤْمِنُونَ (۳۰) وَ جَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳)

علامات اخرى للّهفى عالم الوجود: تعقيباً على البحوث السابقة حول عقائد المشـركين الخرافية، والأدلة التى ذكرت على التوحيد، فإنّ فى هـذه الآيات سلسـلة من براهين اللّه فى عالم الوجود، وتـدبيره المنظم، وتأكيـداً على هذه البحوث تقول أوّلًا: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ».

إنّ المراد من رتق السـماء هو أنّهـا لم تكن تمطر فى البدايـة، والمراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلّاأنّ اللّه سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات.

وأمّا فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحية من الماء، فهناك تفسيران مشهوران:

أحـدهما: إنّ حياة كل الكائنات الحيـة- سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هـذا الماء الذى كان مبدؤه المطر الذى نزل من السماء.

والآخر: إنّ الماء هنا إشارة إلى النطفة التى تتولّد منها الكائنات الحية عادةً.

وما يلفت النظر أنّ علماء عصـرنا الحـديث يعتقـدون أنّ أوّل إنبثاقة للحياة وجدت فى أعماق البحار، ولذلك يرون أنّ بداية الحياة من الماء، وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء والتراب.

وأشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد ونعم اللّه الكبيرة، فقالت:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۴

«وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أن تَمِيدَ بِهِمْ» «۱».

إنّ الجبال كالـدرع الـذى يحمى الأرض، وهذا هو الذى يمنع- إلى حد كبير- من الزلازل الأرضـية الشديدة التى تحدث نتيجة ضـغط الغازات الداخلية، إضافةً إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشـرة الأرضيّة أمام ظاهرة المدّ والجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

ومن جهـة اخرى فلولا الجبال، فإنّ سـطح الأرض سـيكون معرّضاً للرياح القويـة دائماً، وسوف لا تسـتقرّ على حال أبـداً، كما هى حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثم أشارت الآية إلى نعمة اخرى، وهى أيضاً من آيات عظمة اللَّه، فقالت: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

ولو لم تكن هذه الوديان والفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمة الموجودة فى المناطق المختلفة من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل إرتباطها تماماً، وهذا يدلّ انّ هذه الظواهر الكونية خلقت كلها وفق حساب دقيق.

ولما كان إستقرار الأرض لا يكفى لوحده لإستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمناً مما فوقه، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ».

المراد من السماء هنا هو الجو الذى يحيط بالأرض دائماً، وتبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء.

وهذه الطبقة رقيقة ظاهراً، وتتكوّن من الهواء والغازات، وهى محكمة ومنيعة إلى الحد الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّاويفنى ويتحطّم، فهى تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب والنيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشد خطراً حتى من القذائف والصواريخ الحربية.

إضافةً إلى أنّ هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفية أشعة الشمس التى تحتوى على أشعة قاتلة وتمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة.

وتطرقت الآية الأخيرة إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، فقالت: «وَهُوَ الَّذِى

---

(۱) «رواسى»: جمع راسية، أى الجبال الثابتة، ولمّا كانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فيمكن أن تكون إشارة إلى هذا الإرتباط؛ و «تميد»: من الميد، وهو الهزّة والحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۵

خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

إنّ المراد من حركة الشمس فى الآية إمّا الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية.

وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (۳۴) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (۳۵)

الموت يتربّص بالجميع: قرأنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسألة كون النبى صلى الله عليه و آله بشراً من أجل التشكيك بنبوته. إنّ الآيات محل البحث أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارةً أنّ إنتفاضة النبى (وفى نظرهم شاعر) لا دوام لها، وسينتهى بموته كل شيء، كما جاء فى الآية (۳۰) من سورة الطور: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ».

وكانوا يظنّون تارةً اخرى أنّ هذا الرجل لمّا كان يعتقد أنّه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبداً ليحفظ دينه، وبناء على هذا فإنّ موته فى المستقبل سيكون دليلًا على بطلان إدّعائه. فيجيبهم القرآن فى أوّل آية فيقول: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ».

إنّ قانون الخلقة هذا لا يقبل التغيير، أى انّه لا يكتب لأحد الخلود، وإذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: «أَفَإِين مّتَّ فَهُمُ الْخلِدُونَ».

إنّ بقاء الشريعة والدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه فى إقامة دينه والسير على خطاه.

ثم يذكر قانون الموت العام الذى يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إنّ لفظة (النفس) قد استعملت فى القرآن بمعان مختلفة، فأوّل معنى للنفس هو الذات، وهذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات اللَّه المقدسة، كما جاء فى الآية (۱۲) من سورة الأنعام: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

ثم استعملت هذه الكلمة فى الإنسان، أى مجموع جسمه وروحه، كما فى الآية (۳۲) من سورة المائدة: «مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

واستعملت أحياناً فى خصوص روح الإنسان كما فى الآية (۹۳) من سورة الأنعام:

«أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۶

والمراد من النفس فى الآيات التى نبحثها هو المعنى الثانى.

وبعد ذكر قانون الموت الكلّى يطرح هذا السؤال، وهو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ وأىّ فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». أى: إنّ مكانكم الأصلى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، وإنّما تأتون هنا لتؤدّوا الإختبار والامتحان، وبعد إكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلى وهو الدار الآخرة.

وَ إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كَافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴۰)

نواجه فى هذه الآيات مرّة اخرى، بحوثاً اخرى حول موقف المشركين من رسول اللّه صلى الله عليه و آله، حيث يتّضح نمط تفكيرهم المنحرف فى المسائل الاصولية، فتقول أوّلًا: «وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا». فهؤلاء لا عمل لهم إلّاالسخرية والإستهزاء، ويشيرون إليك بعدم إكتراث ويقولون: «أَهذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كفِرُونَ».

ممّا يثير العجب هو إنّه لو إزدرى أحدٌ هذه الأصنام الخشبية والحجرية (وما هو بمزدرٍ لها، بل يُفصح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هذه موجودات لا روح فيها ولا شعور ولا قيمة لها، لتعجّبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذى عمّت آثار رحمته وعظمته الأرض والسماء وما من شىء إلّاوفيه دليل على عظمته ورحمته، لما أثار إعجابهم.

ثم تشير إلى أمر آخر من الامور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فتقول: «خُلِقَ الْإِنسنُ مِنْ عَجَلٍ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۷

إنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان؛ والمراد من «عجل» هى العجلة والتعجيل.

إنّ تعبير «خُلِقَ الْإِنسنُ مِنْ عَجَلٍ» نوع من التأكيد، أى إنّ الإنسان عجول إلى درجة كأنّه خلق من العجلة، وتشكّلت أنسجته ووجوده منها! وفى الواقع، فإنّ كثيراً من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون فى الخير وفى الشر.

وتضيف الآية فى النهاية: «سَأُرِيكُمْ ءَايتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ».

التعبير ب (آياتى) هنا يمكن أن يكون إشارة إلى آيات العذاب وعلاماته والبلاء الذى كان يهدّد به النبى صلى الله عليه و آله مخالفيه، ولكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مراراً: فأين تلك الإبتلاءات والمصائب التى تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول: لا تعجلوا فلا يمضى زمن طويل حتى تحيط بكم.

ثم يشير القرآن إلى إحدى مطالب اولئك المستعجلين فيقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ». فهؤلاء غافلون عن أنّ قيام القيامة يعنى تعاستهم وشقاءهم المرير.

وتجيبهم الآية التالية فتقول: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَايَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ». أى إنّ هذه الأصنام التى يظنّون أنّها ستكون شفيعة لهم وناصرة، لا تقدر على أىّ شىء.

ممّا يلفت النظر أنّ العقوبة الإلهية لا يعيّن وقتها دائماً «بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» وحتى إذا استمهلوا، وطلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون «وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۴۱) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (۴۳) بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَ فَهُمُ الْغَالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۸

لاحظنا فی الآيات السابقة أنّ المشركين والكفار كانوا يستهزئون برسول اللّه صلى الله عليه و آله، فتقول الآية الاولى تسلية للنبی: لست الوحيد الذی يستهزأ به «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن فی النهاية نزل بهم العذاب الذی كانوا يستهزئون به «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

وتقول الآية التالية: قل لهم إنّ أحداً لا يدافع عنكم أمام عذاب اللّه فی القيامة، بل وفی هذه الدنيا: «قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ». أی من عذابه، فلو أنّ اللّه سبحانه لم يجعل السماء- أی الجو المحيط بالأرض سقفاً محفوظاً كما مرّ فی الآيات السابقة- لكان هذا وحده كافياً أن تتهاوی النيازك وتُمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

مما يستحق الإنتباه أنّ كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (اللّه) فی هذه الآية، أی انظروا إلی أنفسكم كم إقترفتم من الذنوب حتی أغضبتم اللّه الذی هو مصدر الرحمة العامة؟!

ثم تضيف: «بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ» فلا هم يصغون إلی مواعظ الأنبياء ونصحهم، ولا تهزّ قلوبهم نعم اللّه وذكره، ولا يستعملون عقولهم لحظة فی هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أیّ شیء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين والمجرمين فی مقابل العقوبات الإلهية؟ «أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ» «۱». فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من العذاب، ولا تكون مصحوبة بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلی أحد علل تمرّد وعصيان الكافرين المهمة، فتقول: «بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». إلّاأنّ هذا العمر الطويل والنعم الوفيرة بدل أن تحرّك فيهم حس الشكر والحمد، ويطأطئوا رؤوسهم لعبودية اللّه، فإنّها أصبحت سبب غرورهم وطغيانهم.

ولكن ألا يری هؤلاء أنّ هذا العالم ونعمه زائلة؟ «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». فإنّ الأقوام والقبائل تأتی الواحدة تلو الاخری وتذهب، وحتی العلماء والعظماء

---

(۱) «يصحبون»: من باب الإفعال، وفی الأصل يعنی أن يجعلوا شيئاً تحت تصرّفهم بعنوان المساعدة والحماية، وهو هنا يعنی أنّ هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتياً، ولا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوّة من قبل اللّه تعالی، ونحن نعلم أنّ أيّة قوّة دفاعية فی عالم الوجود إمّا أن تنبع من ذات الشیء، أو تمنح له من قبل اللّه تعالی. أی أنّها إمّا ذاتية أو عرضية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۹

الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم وودّعوا الدنيا! ومع هذا الحال «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ». إنّ الآية تريد أن تبيّن أنّ موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربة اللّه تعالی لا تنتج سوی الإندحار.

ثم تقرّر الآية حقيقة أنّ وظيفة النبی صلى الله عليه و آله هی إنذار الناس عن طريق الوحی الإلهی، فتوجّه الخطاب إلی النبی صلى الله عليه و آله، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْىِ» وإذا لم يؤثّر فی قلوبكم القاسية، فلا عجب من ذلك، وليس ذلك دليلًا علی نقص الوحی الإلهی، بل السبب هو «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ».

إنّ الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام اللّه، أمّا الآذان التی أصمّتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحقّ مطلقاً.

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (۴۷)

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حالة غرور وغفلة الأفراد الكافرين، تقول الآية الاولی أعلاه: إنّ هؤلاء المغرورين لم يذكروا اللّه

يوماً فى الرخاء، ولكن: «وَلَئِنْ مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

«نفحة»: تعنى الشىء القليل، أو النسيم اللطيف، وبالرغم من أنّ هذه الكلمة تستعمل غالباً فى نسمات الرحمة والنعمة غالباً، إلّاأنّها تستعمل فى مورد العذاب أيضاً.

ولو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه اليقظة الاضطرارية لا تنفعهم.

أمّا الآية الأخيرة التى نبحثها فتشير إلى حساب القيامة الدقيق، وجزائها العادل، ليعلم الكافرون والظالمون أنّ العذاب على فرض أنّه لم يعمّهم فى هذه الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة حتمى، وسيحاسبون على جميع أعمالهم بدقة، فتقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيمَةِ».

ونقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ موازين الحساب فى القيامة هم الأنبياء والأئمة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۰

والصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء فى صحيفة أعمالهم.

«القسط»: يعنى أحياناً عدم التبعيض، وأحياناً يأتى بمعنى العدالة بصورة مطلقة، وما يناسب المقام هو المعنى الثانى، ولهذا تضيف مباشرةً: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيًا» فلا ينقص من ثواب المحسنين شىء، ولا يضاف إلى عقاب المسيئين شىء.

إلّا أنّ نفى الظلم والجور هذا لا يعنى عدم الدقة فى الحساب، بل «وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حسِبِينَ».

«الخردل»: نبات له حبّة صغيرة جدّاً يضرب المثل بها فى الصغر والحقارة.

لمحة من قصص الأنبياء: ذكرت هذه الآيات وما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بامور تربوية بالغة الأثر، وتوضّح البحوث السابقة حول نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ومواجهته المخالفين بصورة أجلى مع ملاحظة الاصول المشتركة الحاكمة عليها.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ».

«الفرقان»: يعنى فى الأصل الشىء الذى يميّز الحق عن الباطل، وهو وسيلة لمعرفة الإثنين. إنّ من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراة، وإلى سائر معجزات ودلائل موسى عليه السلام.

ثم تعرّف الآية التالية المتّقين بأنّهم «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ».

ولكلمة «الغيب» هنا تفسيران: الأوّل: إنّه إشارة إلى ذات اللَّه المقدّسة، أى مع أنّ اللَّه سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدليل العقل.

والآخر: إنّ المتقين لا يخافون اللَّه فى العلانية وبين المجتمع فقط، بل يعلمون أنّه حاضر وناظر إليهم حتى فى خلواتهم.

فإنّ المتّقين يحبّون يوم القيامة، لأنّه مكان الثواب والرحمة، إلّاأنّهم فى الوقت نفسه مشفقون من حساب اللَّه فيه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۱

وقارنت الآية الأخيرة بين القرآن وباقى الكتب السابقة: «وَهذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدلّة أحقّيته فيه، وقد سطعت نورانيته، والذين يسيرون فى طريقه سعداء منتصرون؟!

ولكى نعرف مدى أثر القرآن فى التوعية وما له من البركات، فيكفى أن نرى حال سكّان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون فى جاهلية جهلاء وفقر وتعاسة وتفرّق وتمزّق، ثم نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا اسوة ومثلًا حسناً للآخرين، ونرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم وبعده.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (۵۱) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (۵۲) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (۵۳) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۵۴) قَالُوا أ جِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (۵۵) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (۵۷) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵۸)

قلنا: أنّ هذه السورة تحدثت عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء، فقد اشير فى الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وعكست هذه الآيات وبعض الآيات الآتية جانباً مهماً من حياة إبراهيم عليه السلام ومواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ علِمِينَ». «الرشد»: فى الأصل بمعنى السير إلى المقصد والغاية، ومن الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، وأنّ إبراهيم عرفها واطّلع عليها منذ سنى الطفولة، وقد يكون إشارة إلى كل خير وصلاح بمعنى الكلمة الواسع.

والتعبير ب «مِن قَبْلُ» إشارة إلى ما قبل موسى وهارون عليهما السلام.

ثم أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عندما قال لأبيه وقومه- وهو إشارة إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّى العمّ أباً- ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عكِفُونَ».

وجملة «أَنتُمْ لَهَا عكِفُونَ» بملاحظة معنى «العكوف»: الذى يعنى الملازمة المقترنة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۲

بالإحترام، توحى بأنّ اولئك كانوا يحبّون الأصنام، وكأنّهم كانوا ملازميها دائماً.

إنّ مقولة إبراهيم عليه السلام هذه إستدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنّ ما نراه من الأصنام هو المجسمة والتمثال، والباقى خيال وظن وأوهام.

إلّا أنّ عبدة الأصنام لم يكن عندهم- فى الحقيقة- جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويلقوها على عاتق آبائهم، ولهذا «قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عبِدِينَ».

ولمّا كانت حجتهم بأنّ «هذه العبادة هى سنة الآباء» غير مجدية نفعاً ... ولا نمتلك دليلًا على أنّ السابقين من الآباء والأجداد أعقل وأكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضية على العكس غالباً، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرةً ف «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

إنّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، والحاكى عن الحزم التام سبّب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلًا، ويتوجّهوا إلى التحقق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم «قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللعِبِينَ» لأنّ اولئك الذين كانوا قد إعتادوا على عبادة الأصنام، وكانوا يظنّون أنّ ذلك حقيقة حتمية، ولم يكونوا يصدّقون أنّ أحداً يخالفها بصورة جدية، ولذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجّباً.

إلّا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحة: «قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذلِكُم مِّنَ الشهِدِينَ».

إنّ إبراهيم عليه السلام قد بيّن بهذه الكلمات القاطعة أنّ الذى يستحق العبادة هو خالقهم وخالق الأرض وكل الموجودات.

ومن أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هذه المسألة، وأنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، وأنّه يتقبّل كل ما يترتّب على ذلك بكل وجوده، أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ».

«أكيدنّ»: مأخوذة من الكيد، وهو التخطيط السرى، والتفكير المخفى وكان مراده أن يفهمهم بصراحة بأنّنى سأستغلّ فى النهاية فرصة مناسبة واحطّم هذه الأصنام.

إنّ إبراهيم من دون أن يحذر من مغبّة هذا العمل، دخل الميدان برجولة وتوجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء بشجاعة خارقة وحطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۳

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ» وكان هدفه من تركه «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

صحيح أنّ أذهاننا تنصرف من لفظ عبادة الأصنام إلى الأصنام الحجرية والخشبية على الأكثر، إلّاأنّ الصنم والصنمية- من وجهة نظر-

لها مفهوم واسع يشمل كل ما يُبعد الإنسان عن اللّه، بأىّ شكل وصورة كان.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هـذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۵۹) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (۶۰) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (۶۱) قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَ هـذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (۶۲) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (۶۳) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (۶۴) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (۶۵) قَالَ أ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ (۶۶) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۶۷)

وأخيراً عبدة الأصنام دخلوا المعبد وواجهوا منظراً أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلًا من الأيادى والأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر فى ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و «قَالُوا مَن فَعَلَ هـذَا بَالِهَتِنَا». ولا ريب أنّ من فعل ذلك ف «إِنَّهُ لَمِنَ الظلِمِينَ» فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا ونفسه، لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعة منهم تذكّروا ما سمعوه من إبراهيم عليه السلام وإزدرائه بالأصنام وتهديده لها وطريقة تعامله السلبى لهذه الآلهة المزعومة، «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرهِيمُ».

إنّ إبراهيم كان شاباً، وربّما لم يكن سنّه يتجاوز (۱۶) عاماً.

إنّ المألوف- عادةً- عندما تقع جريمة فى مكان ما، فإنّه ومن أجل كشف الشخص الذى قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهى أنّه لم يكن هناك شخص فى تلك البيئة من يعادى الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و «قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عليه بالجريمة.

فنادى المنادون فى نواحى المدينة: «ليحضر كل من يعلم بعداء إبراهيم وإهانته للأصنام».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۴

وأخيراً تشكّلت المحكمة، وكان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك، ويقول بعض المفسرين: أنّ نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمة، وأوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيم عليه السلام هو أن: «قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هذَا بَالِهَتِنَا يَا إِبْرهِيمُ».

فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم فى حيرة لم يجدوا منها مخرجاً «قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذَا فَسَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ».

إنّ من اسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت باديةً على يد الصنم الكبير، [وفقاً للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير].

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين وأيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، وأثار فطرتهم التوحيدية من خلف حجب التعصب والجهل.

ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ». فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذى تنتمون إليه، وكذلك ساحة اللّه واهب النعم المقدسة.

ولكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل والتعصب والتقليد الأعمى كان أكبر من أن يُصقل ويُمحى تماماً بنداء بطل التوحيد.

ولم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدسة، ورجع كل شىء إلى حالته الاولى، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: «ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ». ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البُكْم قالوا: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلَاءِ يَنطِقُونَ». وأرادوا بهذا العذر الواهى أن يخفوا ضعف وذلة الأصنام.

وهنا فُتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للاستدلال المنطقى ليوجّه لهم أشدّ هجماته: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنفَعُكُمْ شَيًا وَلَا يَضُرُّكُمْ».

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التقريع على روحهم التى فقدت الإحساس، فقال: «أُفّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». إلّاأنّه لم يلحّ فى توبيخهم وتقريعهم لئلّا يلجّوا فى عنادهم.

ويستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، وهم وإن قلّوا عدداً، إلّاأنّهم كانوا من الأهمية بمكان، إذ هيّأوا الاستعداد النسبى لفئة اخرى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۵

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ فَاعِلِینَ (۶۸) قُلْنَا یَا نَارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلَاماً عَلَی إِبْرَاهِیمَ (۶۹) وَ أَرَادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِینَ (۷۰)

عندما تصیر النار جنة: مع أنّ عبدة الأوثان اسقط ما فی أیدیهم نتیجة إستدلالات إبراهیم العلمیة والمنطقیة، إلّاأنّ عنادهم وتعصبهم الشدید منعهم من قبول الحق، ولذلک فلا عجب من أن یتخذوا قراراً صارماً وخطیراً فی شأن إبراهیم. یقول القرآن الکریم: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَکُمْ إِن کُنتُمْ فعِلِینَ».

فقد قالوا الکثیر من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضدّ إبراهیم بحیث إنّهم لم یکتفوا بعدّة حزم من الحطب تکفی لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم وألقوها حتی صارت جبلًا من الحطب. فقد القی إبراهیم فی النار وسط زغارید الناس وسرورهم وصراخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح ظانّین أنّ محطّم الأصنام قد فنی إلی الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لکن اللَّه الذی بیده کل شیء حتی النار لا تحرق إلّاباذنه، شاء أن یبقی هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلک النار الموقدة لیضیف وثیقة فخر جدیدة إلی سجل إفتخاراته، وکما یقول القرآن الکریم: «قُلْنَا یَا نَارُ کُونِی بَرْدًا وَسَلمًا عَلَی إِبْرهِیمَ».

لا شک أنّ أمر اللَّه هنا کان أمراً تکوینیاً، کالأمر الذی یصدره فی عالم الوجود إلی الشمس والقمر، والأرض والسماء، والماء والنار، والنباتات والطیور.

والمعروف أنّ النار قد بردت برداً شدیداً إصطکّت أسنان إبراهیم منه، وحسب قول بعض المفسرین: إنّ اللَّه سبحانه لو لم یقل: سلاماً، لمات إبراهیم من شدة البرد.

ویقول اللَّه سبحانه فی آخر آیة من الآیات محل البحث علی سبیل الاستنتاج باقتضاب:

أنّهم تآمروا علیه لیقتلوه ولکن النتیجة لم تکن فی صالحهم «وَأَرَادُوا بِهِ کَیْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِینَ».

لا یخفی أنّ الوضع قد إختلف تماماً ببقاء إبراهیم سالماً، وخمدت أصوات الفرح. غیر أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحق، وإن کان أصحاب القلوب الواعیة قد استفادوا من هذه الواقعة، وزاد إیمانهم مع قلّتهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۶

وَ نَجَّیْنَاهُ وَ لُوطاً إِلَی الْأَرْضِ الَّتِی بَارَکْنَا فِیهَا لِلْعَالَمِینَ (۷۱) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ یَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ کُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِینَ (۷۲) وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِیتَاءَ الزَّکَاةِ وَ کَانُوا لَنَا عَابِدِینَ (۷۳)

هجرة إبراهیم من أرض الوثنیین: لقد هزّت قصة حریق إبراهیم علیه السلام ونجاته الإعجازیة من هذه المرحلة الخطیرة أرکان حکومة نمرود، وأنّه لو بقی فی تلک المدینة والبلاد علی هذا الحال، ومع ذلک اللسان المتکلم والمنطق القوی، والشهامة والشجاعة التی لا نظیر لها، فمن المحتّم أنّه سیشکّل خطراً علی تلک الحکومة الجبارة الغاشمة.

ومن جهة اخری، فإنّ إبراهیم کان قد أدّی رسالته وبذر بذور الإیمان والوعی فی تلک البلاد، فلابد من الهجرة إلی موطن آخر لإیجاد أرضیة لرسالته هناک، ولذلک صمّم علی الهجرة إلی الشام بصحبة لوط- وکان ابن أخ إبراهیم- وزوجته سارة، وربّما کان معهم جمع قلیل من المؤمنین، کما یقول القرآن الکریم: «وَنَجَّیْنهُ وَلُوطًا إِلَی الْأَرْضِ الَّتِی برَکْنَا فِیهَا لِلْعَالَمِینَ».

وبالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم یرد صریحاً فی القرآن، إلّاأنّه بملاحظة الآیة الاولی من سورة الإسراء یتّضح أنّ هذه الأرض هی أرض الشام ذاتها، التی کانت من الناحیة الظاهریة أرضاً غنیّة مبارکة خضراء، ومن الجهة المعنویة کانت معهداً لرعایة الأنبیاء.

وأشارت الآیة التالیة إلی أحد أهمّ مواهب اللَّه لإبراهیم، وهی هبته الولد الصالح، والنسل المفید، فقالت: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَیَعْقُوبَ نَافِلَةً وَکُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِینَ».

وتشیر الآیة الأخیرة إلی مقام إمامة وقیادة هذا النبی الکبیر، وإلی جانب من صفات الأنبیاء ومناهجهم المهمة القیّمة بصورة جماعیة.

لقد عُدّت فى هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، وإذا اضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين- والذى يستفاد من الآية السابقة- فستصبح سبعة.

يقول أوّلًا: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً». أى: إنّنا وهبناهم مقام الإمامة إضافةً إلى مقام النبوة والرسالة، والإمامة هى آخر مراحل سير الإنسان التكاملى، والتى تعنى القيادة العامة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۷

ثم يذكر فى المرحلة التالية ثمرة هذا المقام، فيقول: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» ولا يعنى بالهداية الإرشاد وبيان الطريق الصحيح، والذى هو من شأن النبوّة والرسالة. أمّا الموهبة الثالثة والرابعة والخامسة فقد عبّر عنها القرآن بقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوةِ».

وفى آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: «وَكَانوا لَنَا عبِدِينَ» «۱». والتعبير ب «كانوا» الذى يدلّ على الماضى المستمر فى هذا المنهج، ربّما كان إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالًا صالحين موحدين مؤهّلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوة والإمامة، وفى ظلّ ذلك المخطّط وهبهم اللَّه سبحانه مواهب جديدة.

وَ لُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (۷۴) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵)

نجاة لوط من أرض الفجّار: لمّا كان لوط من أقرباء إبراهيم وذوى أرحامه، ومن أوائل من آمن به، فقد أشارت الآيتان بعد قصة إبراهيم عليه السلام إلى جانب من إجتهاده وسعيه فى طريق إبلاغ الرسالة، والمواهب التى منحها اللَّه سبحانه له، فتقول: «وَلُوطًا ءَاتَيْنٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا».

لفظة «الحكم» جاءت فى بعض الموارد بمعنى أمر النبوة والرسالة.

والمراد من العلم كل العلوم التى لها أثر فى سعادة ومصير الإنسان.

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم وجاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين فى الفساد والمعاصى، وخاصةً الانحرافات الجنسية، وقد سعى كثيراً من أجل هداية هؤلاء القوم، وتحمل المشاق فى هذا الطريق، إلّاأنّه لم يؤثّر فى اولئك العُمى القلوب.

وأخيراً، نعلم أنّ الغضب والعذاب الإلهى قد حلّ بهؤلاء، وقلب عالى مدينتهم سافلها، واهلكوا جميعاً، إلّاعائلة لوط باستثناء امرأته.

---

(۱) تقديم كلمة (لنا) على (عابدين) يدلّ على الحصر، وإشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدّمين‌الكبار، أى إنّ هؤلاء كانوا يعبدون اللَّه فقط.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۸

ولذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التى وهبت للوط، وهى: «وَنَجَّيْنٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فٰسِقِينَ».

والتعبير ب «الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالًا قبيحة وخبيثة اخرى.

والتعبير ب «الفاسقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ اولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهية، وحتى مع قطع النظر عن الدين والإيمان، فإنّهم كانوا أفراداً حمقى ومنحرفين فى نظر المعايير الإجتماعية بين الناس.

ثم أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهية للنبى لوط، فقالت: «وَأَدْخَلْنٰهُ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَ نُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (۷۷)

نجاة نوح من القوم الكافرين: بعد ذكر جانب من قصّة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام، تطرّقت السورة إلى ذكر جانب من قصة نبى آخر من الأنبياء الكبار- أى: نوح عليه السلام- فقالت:

«وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ». أى قبل إبراهيم ولوط.

إنّ هذا النداء- ظاهراً- إشارة إلى الدعاء واللعنة التى ذكرت فى الآية (۲۶ و ۲۷) من سورة نوح أو إنّه إشارة إلى الجملة التى وردت فى الآية (۱۰) من سورة القمر.

ثم تضيف الآية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

إنّ للأهل- هنا- معنى وسيعاً يشمل أهله المؤمنين وخواص أصحابه، وعلى هذا فإنّ الذين اعتنقوا دين نوح يعدّون فى الواقع من عائلته وأهله.

«الكرب»: تعنى الغمّ الشديد، وهى فى الأصل مأخوذة من تقليب الأرض وحفرها، لأنّ الغمّ الشديد يقلب قلب الإنسان، ووصفه بالعظيم يكشف عن منتهى كربه وأساه.

وأىّ كرب أعظم من أن يدعو قومه إلى دين الحق (۹۵۰) عاماً، كما صرّح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدة الطويلة إلّاثمانون شخصاً.

وتضيف الآية التالية: «وَنَصَرْنَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۹

فَأَغْرَقْنَهُمْ أَجْمَعِينَ». إنّ هذه الجملة تؤكّد مرّة اخرى على حقيقة أنّ العقوبات الإلهية لا تتّصف بصفة الإنتقام مطلقاً، بل هى على أساس إنتخاب الأصلح، أى إنّ حق الحياة والتنعّم بمواهب الحياة لُاناس يكونون فى طريق التكامل والسير إلى اللّه، أو انّهم إذا ساروا يوماً فى طريق الانحراف إنتبهوا إلى أنفسهم ورجعوا إلى جادة الصواب.

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (۷۸) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (۷۹) وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (۸۰)

قضاء داود وسليمان عليهما السلام: بعد الحوادث والوقائع المتعلقة بموسى وهارون وإبراهيم ونوح ولوط عليهم السلام، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفى البداية أشارت إشارة خفية إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فتقول: «وَدَاوُودَ وَسُلَيْمنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شهِدِينَ» «۱».

إنّ القصة كانت كما يلى: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلًا إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كل الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان- والذى كان طفلًا آنذاك- لأبيه: يا نبى اللّه العظيم، غيّر هذا الحكم وعدّ له. فقال الأب: وكيف ذاك؟

قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان فى يد صاحب الأغنام ليسعى فى إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الاولى يُردّ إلى صاحبه، وتردّ الأغنام أيضاً إلى صاحبها؛ وأيّد اللّه حكم سليمان فى الآية التالية: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمنَ». ولكن هذا لا يعنى أنّ حكم داود كان إشتباهاً وخطأً، لأنّها تضيف مباشرةً: «وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا».

ثم تشير إلى إحدى المواهب والفضائل التى كان اللّه سبحانه قد وهبها لداود عليه السلام، فتقول:

---

(۱) «نفشت»: من مادّة نَفْش على وزن (حرب)، أى التفرّق والتبعثر فى الليل، ولمّا كان تفرّق الأغنام فى الليل، وفى المزرعة سيقترن

بالتهام نباتها حتماً، لذا قال البعض: إنّها الرعی فی اللیل؛ و «نَفَش» (علی وزن علم) تعنی الأغنام التی تتفرّق فی اللیل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۰

«وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبّحْنَ وَالطَّيْرَ». فإنّ ذلک لیس شیئاً مهمّاً أمام قدرتنا «وَكُنَّا فعِلِينَ».

وأشارت الآیـة الأخیرة إلی موهبـة اخری من المواهب التی وهبها اللّه لهـذا النبی الجلیل، فقالت: «وَعَلَّمْنهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شكِرُونَ».

«اللبوس»: کل نوع من أنواع الأسلحة الدفاعیة والهجومیة، إلّافی هنا تعنی الدرع التی لها صفة الحفظ فی الحروب.

وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ (۸۱) وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (۸۲)

الریاح تحت إمرة سلیمان: تشیر هاتان الآیتان إلی جانب من المواهب التی منحها اللّه لنبی آخر من الأنبیاء- أی: سلیمان علیه السلام- فتقول الآیـة الاولی منهما: «وَلِسُلَيْمنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا». وهـذا الأمر لیس عجیباً، لأنّنا عارفون به «وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ علِمِينَ». فنحن مطّلعون علی أسرار عالم الوجود، والقوانین والأنظمة الحاکمة علیه.

«العاصفة»: تعنی الریـاح القویّة أو الهائجـة، وهنـا یمکن أن تکون من بـاب بیان الفرد الأهمّ، أی لیست الریاح الهادئـة لوحـدها تحت إمرته، بل حتی العواصف الشدیدة کانت رهن إشارته أیضاً، لأنّ الثانیة أعجب، وکانت تتحرّک حیث أراد.

ثم تذکر الآیة التالیة أحد المواهب الخاصة بسلیمان علیه السلام، فتقول: «وَمِنَ الشَّيطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ» لإستخراج الجواهر والأشیاء الثمینة الاخری «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حفِظِينَ» من التمرد والطغیان علی أوامر سلیمان علیه السلام.

إنّ هذه الجماعة کانوا أفراداً أذکیاء نشطین فنّانین صنّاعاً ماهرین فی مجالات مختلفة.

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (۸۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۱

أیوب ونجاته من المصاعب: تتحدث الآیتان عن نبی آخر من أنبیاء اللّه العظماء وقصّته المُلهمة، وهو «أیّوب» وهو عاشر نبی اشیر إلی جانب من حیاته فی سورة الأنبیاء.

إنّ لأیوب قصّة حزینة، وهی فی نفس الوقت عظیمة سامیة، فقد کان صبره وتحمله عجیبین، خاصةً أمام الحوادث المرّة، بحیث إنّ صبر أیوب أصبح مضرباً للمثل منذ القدم.

غیر أنّ هاتین الآیتین تشیران- بصورة خاصة- إلی مرحلة نجاته وإنتصاره علی المصاعب، وإستعادة ما فقده من المواهب، فتقول: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». «الضرّ»: تطلق علی کل سوء وأذی یصیب روح الإنسان أو جسمه، وکذلک لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعزّة وإنهیار الشخصیة وأمثال ذلک، وکما سنقول فیما بعد، فإنّ أیوب قد إبتلی بکثیر من هذه المصائب.

وتقول الآیة التالیة: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرّ وَءَاتَيْنهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» لیعلم المسلمون أنّ المشاکل کلما زادت، وکلما زادت الإبتلاءات، وکلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم، فإنّها جمیعاً ترفع وتحلّ بنظرة ومنحة من لطف اللّه، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إنّ اللّه سبحانه یعطی الصابرین أکثر ممّا فقدوا جزاءً لصبرهم وثباتهم.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (۸۵) وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۶)

إسماعیل وإدریس وذو الکفل علیه السلام: تعقیباً علی قصة أیوب علیه السلام التربویة، وصبره وثباته بوجه سیل الحوادث، تشیر الآیتان- محلّ البحث- إلی صبر ثلاثة من أنبیاء اللّه الآخرین فتقول الاولی: «وَإِسْمعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَاالْكِفْلِ كُلٌّ مّنَ الصَّابِرِينَ».

ثم تبيّن الآية الاخرى موهبة إلهية لهؤلاء مقابل الصبر والثبات، فتقول: «وَأَدْخَلْنهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (۸۷) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (۸۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۲

نجاة يونس من السجن المرعب: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة النبى الكبير يونس عليه السلام، حيث تقول الاولى واذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضباً عليهم: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا». «النون»: تعنى السمكة العظيمة. أو بتعبير آخر: تعنى الحوت. وبناءً على هذا فإنّ «ذاالنون» معناه صاحب الحوت.

إنّه ذهب مغاضباً «فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ» «۱». فقد كان يظنّ أنّه قد أدّى كل رسالته بين قومه العاصين، ولم يترك حتى «الأولى فى هذا الشأن، مع أنّ الأولى هو بقاؤه بينهم والصبر والتحمّل والتجلّد، فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم ويتّجهون إلى اللَّه سبحانه.

وأخيراً، ونتيجة تركه الأولى هذا، ضيّقنا عليه فابتلعه الحوت «فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». فقد ظلمت نفسى، وظلمت قومى، فقد كان ينبغى أن أتقبّل وأتحمّل أكثر من هذه الشدائد والمصائب، وأواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلّهم يهتدون.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ».

جملة «كَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ» العميقة المعنى توحى بأنّ ما أصاب يونس من البلاء والنجاة لم يكن حكماً خاصّاً، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات والمراتب.

إنّ كثيراً من الحوادث المؤلمة والإبتلاءات الشديدة والمصائب نتيجة لذنوبنا ومعاصينا، فمتى ما تنبّه الإنسان إلى ثلاثة امور [التى إنتبه إليها يونس فى مثل هذا الظرف فإنّه سينجو حتماً:

۱- التوجّه إلى حقيقة التوحيد، وأنّه لا معبود ولا سند إلّااللَّه.

۲- تنزيه اللَّه عن كل عيب ونقص وظلم وجور، وتجنّب كل سوء ظنّ بذاته المقدّسة.

۳- الإعتراف بذنبه وتقصيره.

فى تفسير الدرّ المنثور عن سعد سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «اسم اللَّه الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى». قلت يا رسول اللَّه هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها، ألم تسمع قول اللَّه «وَكَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ»، فهو شرط من اللَّه لمن دعاه».

---

(۱) «نقدر»: من مادّة قدر بمعنى التعسير والتضييق، لأنّ الإنسان عند التضييق يأخذ من كل شىء قدراًمحدوداً، لا على نطاق واسع وبدون حساب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۳

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (۸۹) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (۹۰)

نجاة زكريا من الوحدة: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة شخصيتين اخريين من أنبياء اللَّه العظماء، وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، فتقول الاولى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبّ لَاتَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، واشتعل رأسه شيباً، ولم يرزق الولد حتى ذلك الحين، ثم أنّ زوجته كانت عقيماً، وقد كان يأمل أن يُرزق ولداً يستطيع أن يُكمل مناهجه الإلهية وأعماله التبليغية.

وعندئذ توجّه إلى اللّه بكلّ وجوده وسأله ولداً صالحاً.

فاستجاب اللّه هذا الدعاء الخالص المليء بعشق الحقيقة، وحقّق امنيته وما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى . ومن أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته وجعلناها قادرة على الإنجاب «وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ».

ثم أشار اللّه سبحانه إلى ثلاث صفات من الصفات البارزة لهذه الاسرة فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خشِعِينَ».

«رغباً»: بمعنى الرغبة والميل والعلاقة؛ و «رهباً»: بمعنى الخوف والرعب؛ و «الخشوع»: هو الخضوع المقرون بالإحترام والأدب، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إنّ ذكر هذه الصفات الثلاث ربّما تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما فى الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان.

وَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (۹۱)

مريم السيدة الطاهرة: اشير فى هذه الآية إلى مقام مريم وعظمتها وعظمة إبنها المسيح عليهما السلام. إنّ ذكر مريم فى ثنايا البحوث التى تتكلّم على الأنبياء الكرام؛ إمّا من أجل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۴

ولدها عيسى عليه السلام، أو لأنّ ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من جهات متعددة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى ذيل آيات سورة مريم، أو ليوضّح أنّ العظمة غير مختصة بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يدلّ تاريخهن على عظمتهن، وكنّ قدوة ومثلًا أسمى لنساء العالم. تقول الآية: واذكر مريم، «وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ».

«الفرج»: معناه فى اللغة الفاصلة والشقّ، واستعمل كناية عن العضو التناسلى.

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۹۲) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (۹۳) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (۹۴)

امّة واحدة: لمّا ورد فى الآيات السابقة أسماء جمع من أنبياء اللّه، وكذلك مريم، تلك المرأة التى كانت مثلًا أسمى وجانب من قصصهم، فإنّ هذه الآيات تستخلص نتيجة مما مرّ، فتقول: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فقد كان منهجهم واحداً، وهدفهم واحداً بالرغم من اختلافهم فى الزمان والمحيط والخصائص والأساليب والطرائق.

إنّ توحيد ووحدة الخطط والأهداف هذه تعود إلى أنّها جميعاً تصدر عن مصدر واحد، عن إرادة اللّه الواحد، ولهذا تقول الآية مباشرةً: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».

إنّ توحيد الأنبياء الإعتقادى فى الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحى.

«الامّة»: تعنى كل جماعة تربطهم جهة مشتركة، وهنا إشارة إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم فى الآيات السابقة.

وأشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت:

«وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ». فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضدّ بعض، ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرّأ منه، ولم يكتفوا بذلك، بل شهروا السلاح فيما بينهم، وسفكوا الدماء الكثيرة، وكانت هذه الأحداث نتيجة الإنحراف عن أصل التوحيد ودين اللّه الحق.

«تقطّعوا»: من مادّة قطع، بمعنى تفريق القطع المتصلة بموضوع واحد. إنّ اولئك قد إستسلموا أمام عوامل التفرقة والنفاق، ورضوا بأن يبتعد أحدهم عن الآخر، وأنهوا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۵

إتحادهم الفطرى والتوحيدى، فمُنوا- نتيجة ذلك- بكل تلك الهزائم والشقاوة.

وتضيف في النهاية: «كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ». فإنّ هذا الإختلاف عرضى يمكن إقتلاعه، وسيسيرون فى طريق الوحدة جميعاً فى يوم القيامة.

وتبيّن الآية الأخيرة نتيجة الإنسجام مع الامّة الواحدة فى طريق عبادة اللَّه، أو الإنحراف عنها وإتخاذ طريق التفرقة، فتقول: «فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ». ومن أجل زيادة التأكيد قالت: «وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ».

إنّ هذه الآية ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدّت الإيمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحة.

وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)

الكافرون على أعتاب القيامة: كان الكلام فى آخر الآيات السابقة عن المؤمنين العاملين للصالحات، وتشير الآية الاولى من هذه الآيات إلى الأفراد فى الطرف المقابل لُاولئك، وهم الذين استمرّوا فى الضلال والفساد إلى آخر نفس، فتقول: «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

إنّ هؤلاء اناس ترفع الحجب عن أعينهم وأنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهى، أو بعد فنائهم وإنتقالهم إلى عالم البرزخ، وعندها يأملون أن يرجعوا إلى الدنيا ليصلحوا أخطاءهم ويعملون الصالحات، إلّاأنّ القرآن يقول بصراحة: إنّ رجوع هؤلاء حرام تماماً، ولم يبق طريق لجبران ما صدر منهم.

إنّ هؤلاء المغفلين فى غرور وغفلة على الدوام، وتستمرّ هذه التعاسة حتى نهاية العالم، كما يقول القرآن: «حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ».

فتقول مباشرةً: «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصرُ الَّذِينَ كَفَرُوا». لأنّ الرعب يسيطر على وجودهم إلى حدّ أنّ عيونهم تتوقف عن الحركة وتصبح جاحظة لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۶

فى هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة والغرور، فيرتفع صوتهم: «يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا». ولما كانوا لا يقدرون على تغطية ذنبهم بهذا العذر ليبرّئوا أنفسهم، فإنّهم يقولون بصراحة: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ».

كيف يمكن عادةً مع وجود كل هؤلاء الأنبياء، والكتب السماوية، وكل هذه الحوادث المثيرة والعبر والدروس أن يكونوا فى غفلة؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصير وظلم لأنفسهم وللآخرين.

«حدب»: على زنة «أدب» معناه ما إرتفع من الأرض بين منخفضاتها، وقد يطلق على ما إرتفع وبرز من ظهر الإنسان أيضاً.

«ينسلون»: من مادة «نسول» (على وزن فضول)، أى الخروج بسرعة.

«شاخصة»: من الشخوص، وهو فى الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدينة إلى اخرى، ولما كانت العين عند التعجب والدهشة كأنّها تريد الخروج من الحدقة، فقد قيل لذلك «شخوص» إنّ هذه هى حالة المذنبين العاصين فى القيامة يصبحون حائرين كأنّ أعينهم تريد أن تخرج من أحداقهم.

إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

حصب جهنم: متابعة للبحث السابق عن مصير المشركين الظالمين، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب إليهم، وجسّدت مستقبلهم ومستقبل آلهتهم بهذه الصورة: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ». «الحصب»: فى الأصل يعنى الرمى والإلقاء، وتقال بالذات لإلقاء قطع الحطب فى التنور.

إنّكم وآلهتكم ستكوّنون حطب جهنم، وستُلقون الواحد تلو الآخر فى نار جهنم كقطع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۷

الحطب التى لا-قيمة لها، ثم تضيف: «أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ». إنّهم يلقون آلهتكم فى النار أوّلًا، ثم تردون عليها، فكأنّ آلهتكم تستقبلكم وتستضيفكم بالنار المنبعثة من وجودها.

ثم تقول كإستخلاص للنتيجة: «لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا». ولكن اعلموا أنّهم لا يدخلون جهنم وحسب، بل «وَكُلٌّ فِيهَا خلِدُونَ».

ولمزيد الإيضاح عن حال هؤلاء «العابدين الضالين» المؤلمة المخزية قبال «آلهتهم الحقيرة»، تقول الآية محل البحث: «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ».

«الزفير»: فى الأصل يعنى الصراخ المقترن بإخراج النفس. وهنا إشارة إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن وشدة الكرب.

إنّ هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصراً على العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشياطين أيضاً يصطرخون معهم.

ثم تذكّر الجملة التالية أحد العقوبات الاخرى المؤلمة لهؤلاء، وهى «وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ». وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يسمعون الكلام الذى يسرّهم ويبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنم المؤلم المنغّص وصراخ ملائكة العذاب فقط.

وقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء يوضعون فى توابيت من نار بحيث لا يسمعون صوت أىّ أحد أبداً، فكأنّهم لوحدهم فى العذاب، وهذا بنفسه يعتبر عقوبة أشد.

ثم تبيّن الآية التالية حالات المؤمنين الحقيقيين من الرجال والنساء ليتبيّن وضع الفريقين من خلال المقارنة بينهما، فتقول أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». وهو إشارة إلى أنّنا سنفى بكل الوعود التى وعدنا بها المؤمنين فى هذه الدنيا، وأحدها إبعادهم عن نار جهنم.

وتذكر الآيتان الأخيرتان أربع نعم إلهية كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالاولى: إنّهم «لَايَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا». و «الحسيس»: الصوت المحسوس، وجاءت أيضاً بمعنى الحركة، أو الصوت الناشىء من الحركة، ونار الجحيم المشتعلة دائماً لها صوت خاص، وهذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنّه صوت النار، ومن جهة أنّه صوت حركة النار والتهامها.

والثانية: إنّهم «وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خلِدُونَ». فليس حالهم كما فى هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۸

المحدودة، فإنّهم ينالون كل نعمة يريدونها، مادية كانت أو معنوية، وليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على إمتداد الخلود.

والثالثة: إنّهم «لَايَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ». وقد اعتبر بعضهم أنّ هذا الفزع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى هى أكبر من كل هول وفزع.

والرابعة: من ألطاف اللّه تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث: «وَتَتَلَقهُمُ الْمَلِكَةُ هذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (۱۰۴)

يوم تطوى السماء: قرأنا فى آخر آية من الآيات السابقة أنّ المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر وهمّه، وتجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، وفى الحقيقة تبيّن وتجسّد علة عظمة وضخامة هذا الرعب، فتقول: «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ» «۱».

وفى هذه الآية تشبيه لطيف لطىّ سجل عالم الوجود عند إنتهاء الدنيا، ففى الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، وتقرأ كل رسومه وخطوطه، وكل منها فى مكان معين، أمّا إذا صدر الأمر الإلهى بقيام القيامة فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكل رسومه وخطوطه.

ثم تضيف: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ».

وفى النهاية تقول الآية: «وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فعِلِينَ».

ويستفاد من بعض الروايات أنّ المراد من رجوع الناس إلى الحالة الاولى، هو أنّهم يرجعون حفاة عراة مرّة اخرى كما كانوا فى بداية الخلق. وهذا أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الاولى.

سيحكم الصالحون الأرض: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة فى هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيوية لهؤلاء،

---

(۱) «السَجْل»: الدلو العظيمة؛ و «السِّجِلّ» حجر كان يكتب فيه، ثم سمّى كل ما يكتب فيه سجلًا.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۹

فتقول: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

«الأرض»: تطلق على مجموع الكرة الأرضية. «الإرث»: يعنى إنتقال الشىء إلى شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء.

إنّ المراد من الزبور كتاب داود، والذكر بمعنى التوراة.

إنّ كلمة الصالحون لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كل المؤهّلات، الأهلية من ناحية التقوى، والعلم والوعى، ومن جهة القدرة والقوة، ومن جانب التدبير والتنظيم والإدراك الاجتماعى.

إنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدد: «إِنَّ فِى هذَا لَبَلغًا لّقَوْمٍ عبِدِينَ».

لقد فسّرت هذه الآية فى بعض الروايات بأصحاب المهدى عليه السلام، وهو بيان مصداق عال وواضح، ولا تحدّ من عمومية مفهوم الآية مطلقاً.

إنّ نظام الخلقة سيكون دليلًا واضحاً على قبول نظام اجتماعى صحيح فى المستقبل، فى عالم الإنسانية، وهذا هو الذى يستفاد من الآية مورد البحث، والأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمى العظيم، المهدى الموعود.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (۱۰۷) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (۱۰۹) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (۱۱۰) وَ إِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (۱۱۱) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (۱۱۲)

النبى رحمة للعالمين: لمّا كانت الآيات السابقة قد بشّرت العباد الصالحين بوراثة الأرض وحكمها، ومثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكل البشر، فإنّ الآية الاولى أشارت إلى رحمة وجود النبى صلى الله عليه و آله العامة، فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعلَمِينَ». فإنّ عامّة البشر فى الدنيا، سواء الكافر منهم والمؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنّك تكفّلت بنشر الدين الذى يُنقذ الجميع.

إنّ التعبير ب «العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر وعلى إمتداد الأعصار والقرون،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۰

ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبى الإسلام، لأنّ وجوده رحمة وقدوة لكل الناس إلى نهاية الدنيا.

ولمّا كان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمة، وأثبت دعامة لذلك هى مسألة التوحيد وتجلياته، فإنّ الآية التالية تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحِى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ».

وهذه الآية فى الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

الاولى: إنّ التوحيد هو الدعامة الأساسية للرحمة، التوحيد فى الإعتقاد، وفى العمل، والتوحيد فى الكلمة، وتوحيد الصفوف، وفى القانون وفى كل شىء.

الثانية: إنّ كل دعوات الأنبياء تتلخص فى أصل التوحيد، والتوحيد كالروح السارية فى البدن.

والنقطة الثالثة: إنّ المشكلة الأساسية فى جميع المجتمعات هى التلوّث بالشرك بأشكال مختلفة، لأنّ جملة «فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ» توحى بأنّ المشكلة الأساسية هى الخروج من الشرك ومظاهره، ورفع اليد عن الأصنام وتحطيمها، ليس الأصنام الحجرية والخشبية فحسب، بل كل الأصنام، وفى أىّ شكل كانت، وخاصة طواغيت البشر.

ثم تقول الآيـة التالية: إنّهم إذا لم يذعنوا ويهتمّوا لدعواتنا ونداءاتنا هذه «فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ». «آذنت»: من مادة الإيذان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، والظاهر أنّ النبى أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره وإبتعاده عن اولئك، ويبيّن بأنّه قد يئس منهم تماماً.

ثم يبيّن هـذا التهديـد بصورة أوضح، فيقول بأنّى لا أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: «وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ». فلا تظنّوا أنّ هذا الوعيد بعيد، فربّما كان قريباً وقريباً جدّاً.

قـد يكون المراد من العذاب والعقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففى الصورة الاولى هو مختص بعلم اللَّه، ولا يعلم أىّ أحـد تاريـخ وقوع القيامـة بدقـة حتى أنبياء اللَّه، وفى الصورة الثانية والثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته وزمانه، وأنا لا أعلم بجزئياته.

ثم إنّكم لاـ ينبغى أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تـأخّرت فهـذا يعنى أنّ اللَّه غير مطّلع على أعمـالكم وأقوالكم، فهو يعلم كل شـىء، ف «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ».

فإنّ الجهر والإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث إنّ علمكم محدود عادةً، أمّا بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإنّ الغيب والشـهادة، والسرّ والعلن سواء لديه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۱

وكـذلك إذا رأيتم أنّ العقوبـة الإلهية لا تحيط بكم فوراً، فلا تظنّوا أنّ اللَّه سـبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعلّه إمتحان لكم: «وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ». ثم يأخذكم أشدّ مأخذ ويعاقبكم أشدّ عقاب.

لقد أوضحت الآية فى الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهى:

الاولى: مسألة الامتحان والاختبار، فإنّ اللَّه سبحانه لا يعجّل فى العذاب أبداً حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافى، ويُتمّ الحجة عليهم.

والثانية: إنّ هناك أفراداً قد تمّ اختبارهم وحقّت عليهم كلمة العذاب حتماً، إلّاأنّ اللَّه سبحانه يوسّع عليهم النعمة ليشدّد عليهم العذاب، فـإذا مـا غرقـوا فى النعمـة تمامـاً، وغـاصوا فى اللذائـذ، أهـوى عليهم بسـوط العـذاب ليكون أشـدّ وآلم، وليحسّوا جيّـداً بـألم وعـذاب المحرومين والمضطهدين.

وتتحـدث آخر آيـة هنا- وهى آخر آيـة من سورة الأنبياء- كالآيـة الاولى من هـذه السورة عن غفلـة الناس الجهّال، فتقول حكاية عن النبى صلى الله عليه و آله فى عبارة تشبه اللعن، وتعكس معاناته صلى الله عليه و آله من كل هذا الغرور والغفلة، وتقول: إنّ النبى صلى الله عليه و آله بعد مشاهدة كل هذا الإعراض «قَالَ رَبّ احْكُم بِالْحَقّ» «۱». وفى الجملة الثانية يوجّه الخطاب إلى المخالفين ويقول: «وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ».

إنّه ينبّه هؤلاء بكلمة (ربّنا) إلى هذه الحقيقة، وهى أنّنا جميعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربّنا وخالقنا جميعاً.

والتعبير ب «الرّحمن»، والذى يشير إلى الرحمة العامة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أنّ الرحمة الإلهية قد عمّت كل وجودنا، فلماذا لا تفكّروا لحظة فى خالق كل هذه النعمة والرحمة.

وجملة «الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» يحـذّر هؤلاء بـأن لاـ تظنّوا أنّا وحيـدون أمام جمعكم وكثرتكم، ولا تتصوروا أنّ كل إتهاماتكم وأكاذيبكم، سواء كانت على ذات اللَّه المقدسـة، أو علينا، سـتبقى بـدون جواب وجزاء، كلّا مطلقاً، فإنّه تعالى سـندنا ومعتمدنا جميعاً، وهو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كل أشكال الكذب والإفتراء والإتهام.

«نهاية تفسير سورة الأنبياء»

---

(۱) لا شكّ أنّ حكم اللَّه سبحانه بالحقّ دائماً، وعلى هذا فإنّ ذكر كلمة (بالحقّ) هنا له صبغة التوضيح.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۳

۲۲ سورة الحج

محتوى السورة: سـمّيت هذه السورة ب «سورة الحج» لأنّ جزءاً من آياتها تحدّث عن الحج. ويمكن تقسيم مواضيعها إلى عدّة أقسام هى:

۱- تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» وأدلته المنطقية، وإنذار الغافلين عن يوم القيامة ونظائر ذلك التى تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءاً كبيراً منها.

۲- يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك والمشركين.

۳- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الاعتبار بمصير الأقوام البائدة، وما لاقت من عذاب إلهى.

۴- وتناول جزء آخر منها مسألة الحج وتاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

۵- وتضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين والتصدّى لأعداء الإسلام المحاربين.

۶- وإحتوى قسم آخر نصائح فى مجالات الحياة المختلفة.

۷- التشجيع على أعمال الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتوكل والتوجه إلى اللّه (سبحانه وتعالى).

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال النبى صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الحج اعطى من الأجر كحجة حجّها، وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۴

وهذا الثواب والفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظيّة فقط، وإنّما لتلاوة تنير الفكر، وتفكّر يتبعه عمل وتطبيق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (۱) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (۲)

زلزلة البعث العظيمة: تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث ومقدماته، وهما آيتان تبعدان الإنسان- دون إرادته- عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكّر بالمستقبل المخيف الذى ينتظره، المستقبل الذى سيكون جميلًا وسعيداً إن فكّرت فيه اليوم، ولكنّه مخيف حقّاً إن لم تعدّ العدة له، والآية المباركة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». خطاب للناس جميعاً بلا استثناء، فقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، واللغة، والزمان، والأماكن الجغرافية، والطوائف، والقبائل، فهو موجّه للجميع: المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، على إمتداد العصور.

ثم بيّنت الآية التالية فى عدّة جمل إنعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» من شدة الوحشة والرعب.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا».

وثالث إنعكاس لهذا الذعر الشديد: «وَتَرَى النَّاسَ سُكرَى وَمَا هُمْ بِسُكرَى . وعلة ذلك هو شدة العذاب فى ذلك اليوم «وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». هذا العذاب الذى أرعب الناس وأفقدهم صوابهم.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (۳) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (۴)

أتباع الشيطان: بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۵

القيامة، أوضحت الآيات اللاحقة حالة اولئك الذين نسوا اللّه، وكيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة فى أساس التوحيد ووحدانية الحق تبارك وتعالى، ومرّة يجادلون فى قدرة اللَّه على إحياء الموتى، وفى البعث والنشور، ولا دليل لهم على ما يقولون.

ثم تضيف هذه الآية: «وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰنٍ مَّرِيدٍ». فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتّبعون منطقاً أو علماً، وإنّما يتّبعون كل شيطان عنيد ومتمرد، ولا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس والجن، الذين لكل منهم برنامجه وأحابيله وشراكه.

«مريد»: مشتقة من «مَرَدَ» وأصلها الأرض المرتفعة التى لا نبت فيها. وهنا يقصد ب «المريد» الشخص الذى خلا من أىّ خير وسعادة. وطبيعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيداً وظالماً وعاصياً.

ومن هنا كانت الآية اللاحقة: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» (۱).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۵) ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (۷)

دليل المعاد فى عالم الأجنة والنبات: بما أنّ البحث فى الآيات السابقة كان يدور حول

---

(۱) «السعير»: مشتقة من «سَعَرَ» بمعنى لهب النّار، وتعنى هنا نار جهنّم الحارقة التى تمتاز بأنّها أكثر حرقاً من أىّ نار.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۶

تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسمانى: أحدهما التغيّرات التى تحدث فى مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيّرات التى تحدث فى الأرض عند خروج النبات. والخطاب القرآنى يعمّ جميع الناس بنوره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» (۱). كل ذلك من أجل أن نوضّح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأىّ عمل «لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ». فتبقى الأجنّة فى الأرحام إلى مدّة معلومة نحن نحدّدها لتمرّ بمراحل تكاملها، ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام فى وسط الطريق قبل أن تكمل «وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم تبدأ الأجنّة مرحلة تطور جديدة، لنخرجكم أطفالًا من أرحام امهاتكم، «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» وبهذا تنتهى مرحلة حياتكم المحدّدة فى بطون امهاتكم. فتضعون أقدامكم فى محيط أوسع مملوء بالنور والصفاء، وإمكانات واسعة جدّاً، إلّاأنّ تكاملكم يستمر فى قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا وهو الرشد والكمال الجسمى والعقلى، «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ». وهنا يتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى وتستمر فبعضكم يودّع الحياة بينما يستمر آخرون حتى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: «وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ».

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان، ويصبح فى وضع وكأنّه طفل «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيًا». وهذا الضعف والخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة إنتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج مما يدل على وصولها إلى مرحلة الإنفصال.

ثم تتناول الآية بيان الدليل الثانى أى حياة النباتات، فتبيّن ما يلى: انظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّة وميتة، فإذا سقط المطر وحلّ الربيع، دبّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (۲).

---

(۱) «المضغة»: مشتقة من «المضغ» وتعنى مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه فى لقمة واحدة، وهذا تشبيهرائع للجنين فى المرحلة التى تعقب مرحلة العلقة.

(۲) «الهامدة»: تعنى فى الأصل النّار التى أطفئت، ويطلق على الأرض التى جفّت نباتاتها وأصبحت دون حركة (مفردات الراغب الاصفهانى). والبعض الآخر قال: إنّ كلمة «هامدة» تطلق على الحد الفاصل بين الموت والحياة (تفسير فى ظلال القرآن).

«إهتزّت»: مشتقة من «الهزّ» وتعنى تحرّكت بشدة.

«ربت»: مشتقة من «الربو» وتعنى الزيادة والنمو، كما أنّ كلمة «ربا» مشتقة أيضاً من «الربو».

«بهيج»: تعنى الجميل الساحر السارّ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۷

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصّلنا إليه، وذلك بإستعراض خمس ملاحظات:

۱- إنّ ما إستعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التى تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ اللَّه تعالى حقّ «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ». وبما أنّه هو الحق، فالنظام الذى خلقه حق أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف.

وبما أنّ هذه الحياة ليست عبثاً، وأنّ لها هدفاً، وأنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فى حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

۲- إنّ هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياة يقول لنا «وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى . إنّ الذى يلبس الأرض لباس الحياة، ويغيّر النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى.

۳- الهدف الآخر هو أن نعلم «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ولا يستحيل على قدرته شيء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة، ويطوّر هذه النطفة التافهة فى مراحل الحياة، أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟!

۴- إنّ كل هذا لتعلموا أنّ ساعة نهاية هذا العالم وبداية عالم آخر، ستحلّ بلا شك فيها «وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا».

۵- ثم إنّ كل هذا مقدمة لنتيجة أخيرة هى «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ».

وعلى هذا الأساس أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّه سيقع حتماً.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (۸) ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (۹) ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۱۰)

الجدال بالباطل مرّة اخرى: تتحدث هذه الآيات أيضاً عمّن يجادلون فى المبدأ والمعاد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۸

جدالًا خاوياً لا أساس له، فى البداية يقول القرآن المجيد: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتبٍ مُّنِيرٍ». وعبارة «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» هى ذاتها التى ذكرت فى آية سابقة، والآية السابقة الذكر دالة على وضع الأتباع الضالين الغافلين، فى وقت تكون فيه هذه الآية دالة على قادة هذه المجموعة الضالة.

إنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلى؛ و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين؛ و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أى أنّها تعنى الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنّة» و «الدليل العقلى».

ثم يتطرّق القرآن المجيد فى جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: «ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ». إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل اللَّه بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام اللَّه وبالأدلّة العقليّة الواضحة.

«ثانى»: مشتقة من «ثنى» بمعنى التواء؛ و «عطف»: تعنى «جانب» فالجملة تعنى ثنى الجانب، أى الإعراض عن الشيء وعدم الإهتمام به.

ويعقّب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد فى الدنيا والآخرة بهذه الصورة: «لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ».
ونقول له: «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلمٍ لِّلْعَبِيدِ». لا يعاقب اللّه أحداً بلا ذنب، ولا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه «۱».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (۱۱) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (۱۲) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (۱۳) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (۱۴)

---

(۱) «ظلّام»: صيغة مبالغة تعنى كثير الظلم. وطبيعى أنّ اللّه لا يظلم أبداً لا كثيراً ولا قليلًا، ويمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشارة إلى أنّ العقاب دون مبرّر من قبل اللّه تعالى- جلّ عن ذلك وعلا علوّاً كبيراً- مصداق ظلم كبير.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۹

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت هذه الآية «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ» فى جماعة كانوا يقدمون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة. فكان أحدهم إذا صحّ جسمه ونتجت فرسه وولدت إمرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضى به، واطمأن إليه، وإن أصابه وجع فى المدينة، وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت فى هذا الدين إلّاشرّاً.

التّفسير

الواقف على حافّة وادى الكفر: تحدثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالين، والقادة المضلين، أمّا هذه الآيات، فتتحدث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان، قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ». أى إنّ بعض الناس يعبد اللّه بلقلقة لسان، وإنّ إيمانه ضعيف جدّاً، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ». إنّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلًا على أحقّية الإسلام، إلّاأنّهم يتغيّرون ويتّجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون فى هذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّاً، وإلّا فلا.

ويضيف القرآن المجيد فى الختام: «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةَ» و «ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ». مؤكّداً أنّ أفدح الضرر وأفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه ودنياه.

وتشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الإنحراف عن صراط التوحيد والإيمان باللّه، فتقول: «يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُ وَمَا لَايَنفَعُهُ». أى إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه المادية والإبتعاد عن الخسائر ويرى صحّة الدين فى إقبال الدنيا عليه، وبطلانه فى إدبارها عنه، فلماذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمّل منها خير، ولا يخاف منها ضرر، فهى أشياء لا فائدة فيها، ولا أثر لها فى مصير البشر. أجل، «ذلِكَ هُوَ الضَّللُ الْبَعِيدُ». إنّ هؤلاء ليبتعدون عن الصراط المستقيم بُعداً حتى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلّارجاءً ضعيفاً جدّاً.

ويوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: «يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ». لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، ويدفعهم نحو الخرافات والجهل، ويدعهم فى الآخرة فى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۰

وتضيف الآية فى الختام: «لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ». فما أسوأه ناصراً ومعيناً، وما أسوأه مؤنساً ومعاشراً.

وفى ختام الآيـة المباركـة نلحظ مقارنـة بين الخير والشرّ كما هو دأب القرآن الكريم لتتّضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ». فعاقبتهم معلومـة ومنهج تفكيرهم وسلوكهم واضح فمولاهم هو اللَّه تعـالى، ورفـاقهم وجلسـاؤهم فى الآـخرة هم الأنبيـاء والصـالحون والملائكـة، وأنّ اللَّه سـبحانه يُثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة والسرور جزاء إستقامتهم على الحق وإستجابتهم له فى الحياة الدنيا «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». وثوابهم يسير عليه- جلّ وعلا- يُسْرَ عقـاب الـذين ظلموا أنفسهم بإيثـار الباطـل على الحق، وبعبادتهم الأصـنام من دون اللَّه سبحانه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١۵) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ (١۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

البعث نهاية جميع الخلافات: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة اخرى عن هؤلاء فتقول: «مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ». هذه الآية تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّى المزاج، والضعيفى الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالًا جنونية كلما بلغت امورهم طريقاً مسدوداً فى الظاهر.

وأشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنهُ ءَايتٍ بَيّنتٍ».

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلّة المعاد والبعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۱

ونموّ النباتات وإحياء الأرض بعد موتها، ولكن هذه الأدلّة الواضحة والبراهين الدامغة لا تكفى لتقبّل الحق، بل لابد من إستعداد ذاتى لذلك. ولهذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية:

«وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ».

وأشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، وخمس منها غير مسلمة:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصبِئِينَ وَالنَّصرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ».

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبَالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

الوجود كلّه يسجد للّه: بما أنّ الحديث فى الآيات السابقة كان عن المبدأ والمعاد، فإنّ الآية- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحيد، قد أكملت دائرة المبدأ والمعاد، وتخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ». ولا يقتصر الحال على هـذه المخلوقات، بل إنّ الكثير من الناس يشاركون عالم الموجود بالسجود للّه‌تعالى سوى بعض الكفار الـذين يتحركون من موقع العناد والجحود: «وَكَثِيرٌ مّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ». ثم تضيف: وهؤلاء ليست لهم قيمـة عند اللَّه تعالى، ومن كان كذلك فهو مهان: «وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ». أى إنّ من يهينه اللَّه لا يكرمه أحد، وليست له سعادة ولا أجر، حقّاً «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فهو يكرم المؤمنين به، ويذلّ المنكرين له.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد فى الآية- موضع البحث- شكلين من السجود:

«سجود تكوينى» و «سجود تشريعى».

فالسجود التكوينى هو الخضوع والتسليم لإرادة اللَّه ونواميس الخلق والنظام المسيطر على هـذا العالم دون قيد أو شرط، وهو يشمل

ذرّات المخلوقات كلها، حتى أنّه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة والمنكرين العنودين وذرّات أجسامهم فالجميع يسجدون للّه‌تعالى تكويناً.

وحسبما يقوله عدد من الباحثين، فإنّ ذرّات العالم كلها لها نوع من الإدراك والشعور، ولذا يسبّحون اللّه ويحمدونه ويسجدون له ويصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۲

تفسير الآية ۴۴ من سورة الإسراء) وإذا رفضنا هذا النوع من الإدراك والشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعاً للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كله.

أمّا «السجود التشريعى» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين للّه‌سبحانه.

هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (۱۹) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (۲۰) وَ لَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (۲۲) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (۲۳) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية «هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ» فى ستّة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة وعلى بن أبى طالب عليه السلام قتل الوليد بن عقبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبة بن ربيعة.

التّفسير

خصمان متقابلان: أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين وطوائف مختلفة من الكفار، وحدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: «هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ».

ثم تبيّن الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين للّه‌تعالى بوعى منهم، والعقاب الأوّل حول لباسهم، فتقول الآية: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذى اعدّ لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنم بهم من كل جانب.

ثم: «يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ». أى يصبّ على رؤوسهم سائل حارق هو حميم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۳

النار، وهذا الماء الحارق الفوّار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها وظاهرها «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ» «۱».

وثالث نوع من العقاب هو: «وَلَهُم مَّقمِعُ مِن حَدِيدٍ» «۲». أى اعدّت لهم أسواط من الحديد المحرق.

والرابع: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». أى كلّما أرادوا الخروج من جهنم والخلاص من آلامها وهمومها اعيدوا إليها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وأوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة اسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، وهنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافئات للمؤمنين: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ».

فخلافاً للمجموعة الاولى الذين يتقلّبون فى نار جهنم، نجد أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتّعون بنعيم رياض الجنة على ضفاف الأنهر وهذه هى المكافأة الاولى، وأمّا لباسهم وزينتهم فتقول الآية: و «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» «۳».

وهاتان مكافأتان يمنّ اللَّه بهما كـذلك على عباده العالمين فى الجنـة، يهبهم أفخر الملابس التى حرموا منها فى الـدنيا، ويحلّيهم بزينة الأسـاور التى منعوا عنها فى الحياة الاولى، لأنّها كانت تؤدّى إلى إصابتهم بالغرور والغفلـة، وتكون سـبباً لحرمان الآخرين وفقرهم، أمّا فى الجنّة فينتهى هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلى وغيرها.

وأخيراً الهبة الرابعة والخامسة التى يهبها اللَّه للمؤمنين الصالحين ذات سـمة روحانية «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» حديث ينمى الروح. وألفـاظ تثير حيويـة الإنسان، وكلمات ملؤها النقاء والصـفاء التى تبلغ بالروح درجـة الكمال وتملأ القلب بهجـةً وسـروراً، «وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» «۴». هكذا يهدون إلى طريق اللَّه الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة اللَّه

---

(۱) «يصهر»: مشتقة من «صهر» على وزن «قهر» وتعنى تذويب الشحم؛ أمّا «الصِهر» على وزن «فكر» فتعنى النسيب.

(۲) «المقامع»: جمع «مقمع» على وزن «منبر» وتعنى السوط أو العمود الحديدى يضرب به المذنب عقاباً له.

(۳) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهى بدورها جمع لكلمة «سوار» على وزن «كتاب» وتعنى المعضد.

(۴) «الحميـد»: تعنى المحمود، وتطلق على من يسـتحقّ الثناء، وهنا يقصـد بها اللَّه تعالى، وعلى هـذا فإنّ «الصـراطالحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرّب من اللَّه تعالى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۴

والتقرب المعنوى والروحى إليه، سبيـل العشق والعرفـان. حقّـاً إنّ اللَّه يهـدى المؤمنين إلى هـذا الطريق الـذى ينتهى إلى أعلى درجات اللذة الروحية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (۲۵)

الـذين يصـدّون عن بيت اللَّه الحرام: تحـدثت الآيـات السابقـة عن عامـة الكفـار، وهـذه الآيـة تشـير إلى مجموعـة خاصّـة منهم بـاءت بمخالفات وذنوب عظيمـة، ذات علاقـة بالمسـجد الحرام ومراسم الحج العظيم. تبدأ هذه الآية ب «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

وكذلك يصدّون ويمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ». أى سواءً المقيمون فيه والـذين يقصـدونه من مكان بعيـد. «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ». أى كل من أراد الانحراف فى هـذه الأرض المقدسة عن الحق ومارس الظلم والجور أذقناه عذاباً أليماً.

وهذه الفئة من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافةً إلى إنكارها الحق، وجرائمها هى:

۱- صدّ الناس عن سبيل اللَّه والإيمان به والطاعة له.

۲- صدّهم عن حج بيت اللَّه الحرام، وتوهّم أنّ لهم إمتيازاً عن الآخرين.

۳- ممارستهم للظلم وإرتكابهم الإثم فى هذه الأرض المقدسة، واللَّه يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۲۶) وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲۷) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (۲۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۵

الدعوة العامة للحج: تناولت الآية السابقة قضيّة المسجد الحرام وحجّاج بيت اللَّه، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السلام، ووجوب الحج وفلسفته، وبعض أحكام هذه العبادة الجليلة. إذ بدأت بقصة تجديد بناء الكعبة: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ». أى تذكّر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة ليقوم ببنائها.

«بوّأ»: مشتقة من بواء، أى الأرض المسطّحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقاً.

وتقصد هذه الآية أنّ اللَّه هدى إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدّمت بطوفان نوح وخفيت معالمها، إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب وكشفت عن اسس البيت، أو بعث اللَّه سحابة ظلّلت مكان البيت، أو بأىّ اسلوب آخر كشف اللَّه لإبراهيم عليه السلام أسس الكعبة، فقام هو وإبنه إسماعيل عليهما السلام بتجديد بناء بيت اللَّه الحرام.

وتضيف الآية الكريمة أنّه عندما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السلام: «أن لَّاتُشْرِكْ بِى شَيًا وَطَهّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

فمهمّة إبراهيم عليه السلام كانت تطهير البيت وما حوله من أىّ نجس ظاهر أو باطن، ومن أىّ صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده فى هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة فى محيط إيمانىّ لا يخالطه شرك.

وبعد إعداد البيت للعبادة، أمر اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام: «وَأَذّن فِى النَّاسِ بِالْحَجّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلّ فَجّ عَمِيقٍ».

«أذّن»: مشتقة من «الأذان» أى «الإعلان»؛ و «رجال»: جمع «راجل» أى «ماشى»؛ و «الضامر»: تعنى الحيوان الضعيف؛ و «الفجّ»: فى الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعة؛ و «العميق»: تعنى هنا «البعيد».

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: لمّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أمره اللَّه أن يؤذن فى الناس بالحج فقال: «يا ربّ وما يبلغ صوتى». فقال اللَّه: «أذن عليك الأذان وعلى البلاغ».

وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارتفع المقام حتى كان أطول من الجبال فنادى وأدخل اصبعيه فى اذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبيك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۶

اللهم لبيك أوَلاـ ترونهم يأتون يلبون فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهم ممن استجاب للَّهوذلك قوله «فِيهِ ءَايَاتٌ بَيّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرهِيمَ» يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج. وتناولت الآية التالية فلسفة الحج فقالت: «لِّيَشْهَدُوا مَنفِعَ لَهُمْ». أى إنّ على الناس الحج إلى هذه الأرض المقدسة، ليروا منافع لهم بام أعينهم.

إنّ كلمة «المنافع» تشمل جميع المنافع والبركات المعنوية والمكاسب المادية، وكل عائد فردى واجتماعى، ومعطيات سياسية واقتصادية وأخلاقية، فما أحرى بالمسلمين أن يتوجّهوا من أنحاء العالم إلى مكة ليشهدوا هذه المنافع.

ثم تضيف الآية: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مّن بَهِيمَةِ الْأَنْعمِ». أى أنّه على المسلمين أن يحجّوا إلى البيت ويقدّموا القرابين من المواشى التى رزقهم اللَّه، وأن يذكروا اسم اللَّه عليها حين الذبح فى أيّام معينة تبدأ من العاشر من ذى الحجة وتنتهى بالثالث عشر منه.

وهذا الذكر إشارة إلى توجّه الحاج إلى اللَّه كل التوجه عند تقديم الاضحية، وهمّه كسب رضى اللَّه وقبوله القربان، كما أنّ الاستفادة من لحم الاضحية تقع ضمن هذا التوجه.

ويعتبر تقديم الأضاحى رمزاً لإعلان الحاج إستعداده للتضحية بنفسه فى سبيل اللَّه، على نحو ما ذكر من قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بإبنه إسماعيل عليه السلام. إنّ الحجاج بعملهم هذا يعلنون إستعدادهم للإيثار والتضحية فى سبيل اللَّه حتى بأنفسهم.

وعلى كل حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينفى اسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التى يعبدونها على أضاحيهم،

ليحيلوا هذه المراسم التوحيدية إلى شرك باللّه، وجاء فى ختام الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ».

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيرةً إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أوّلًا: «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ». أى ليطهّروا أجسامهم من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۷

الأوساخ والتلوّث، ثم ليوفوا ما عليهم من نذور. «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ». أى يطوفوا بذلك البيت الذى صانه اللّه عن المصائب والكوارث وحرّره.

«تفث»: تعنى القذارة وما يلتصق بالجسم وزوائده كالأظافر والشعر. بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعدّ من مناسك الحج.

إنّما سمّيت الكعبة بالبيت العتيق، و «العتيق»: مشتقة من «العتق»، أى التحرّر من قيود العبودية، وربّما كان ذلك لأنّ الكعبة تحرّرت من قيود ملكية عباد اللّه، ولم يكن لها مالك إلّا اللّه، كما حرّرت من قيد سيطرة الجبابرة كأبرهة.

ومن معانى «العتيق» أيضاً الشيء الكريم الثمين، وهذا المعنى يتجسّد فى الكعبة بوضوح.

ومن المعانى الاخرى للعتيق «القديم»، فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت اللّه بعد ملاحظة ما تتضمّنه هذه الكلمة من معان.

والمراد من «الطواف» هنا طواف النساء، ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول اللّه عزّ وجل: «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» قال: «طواف النساء» «۱».

وأشارت الآية الأخيرة إلى خلاصة ما بحثته الآيات السالفة الذكر، حيث تبدأ بكلمة «ذلِكَ» التى لها جملة محذوفة تقديرها «كذلك أمر الحج والمناسك». ثم تضيف تأكيداً لأهميّة الواجبات التى شرحت: «وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ».

والمقصود هنا ب «الحرمات»- طبعاً- أعمال ومناسك الحجّ، ويمكن أن يضاف إليها إحترام الكعبة خاصة والحرم المكّى عامة.

ثم تشير هذه الآية وتناسباً مع أحكام الإحرام إلى حلّية المواشى، حيث تقول:

«وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ».

وفى ختام هذه الآية ورد أمران يخصّان مراسم الحج ومكافحة العادات الجاهلية:

الأوّل يقول: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثنِ». و «الأوثان»: جمع «وثن» على وزن «كفن» وتعنى الأحجار التى كانت تُعبد زمن الجاهلية، وهنا جاءت كلمة الأوثان إيضاحاً لكلمة «رجس» التى ذكرت فى الآية، حيث تقول: «اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ». ثم تليها عبارة «مِنَ الْأَوْثنِ». أى الرجس هو ذاته الأوثان.

---

(۱) وسائل الشيعة ۹/ ۳۹۰.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۸

والأمر الثانى هو: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ». أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصحّة.

إنّ هذه الآية إشارة إلى كيفيّة تلبية المشركين فى مراسم الحج فى زمن الجاهلية، لأنّهم يلبّون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، ويبعدونه عن صورته التوحيدية.

ومع هذا فإنّ إهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين، لا يمنع من تعميمها على بطلان أيّة عبادة للأصنام بأيّة صورة كانت، وإجتناب أيّ قول باطل مهما كانت صورته.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳)

عقّبت الآيات هنا المسألة التى أكّدتها آخر الآيات السابقة، وهى مسألة التوحيد، وإجتناب أىّ صنم وعبادة الأوثان، حيث تقول: «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ». أى أقيموا مراسم الحج والتلبية فى حالة تخلصون فيها النية للّٰهوحده لا يخالطها أىّ شرك أبداً.

«حنفاء»: جمع «حنيف» أى الذى إستقام وإبتعد عن الضلال والانحراف. أو بتعبير آخر:

هو الذى سار على الصراط المستقيم.

إنّ الآيـة السابقة اعتبرت الإخلاص وقصد القربة إلى اللّٰه محرّكاً أساسياً فى الحج والعبادات الاخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة، والمراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أىّ نوع من الشرك وعبادة غير اللّٰه.

ثم ترسم الآيـة- موضع البحث- صورة حيّة ناطقة عن حال المشـركين وسـقوطهم وسوء طالعهم، حيث تقول: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ» «۱».

«السماء»: هنا كناية عن التوحيد؛ و «الشرك» هو السبب فى السقوط من السماء هذه.

والذى يسقط من السماء يفقد كل قدرة على اتّخاذ قرار ما، ويبتلى بفقدانه هذا المكان

---

(۱) «تخطفه»: مشـتقة من «الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشـىء أثناء تحرّكه بسرعة؛ و «سحيق»: تعنى «البعيد» وتطلق على النخلة العالية كلمة «سحوق».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۹

السامى بأهوائه النفسية المعاندة وتزداد سرعة سقوطه لحظة بعد اخرى نحو العدم، ويصبح نسياً منسياً.

وأوجزت الآيـة التالية مسائل الحج وتعظيم شـعائر اللّٰه ثانية فتقول «ذلِكَ» أى إنّ الموضوع كما قلناه، وتضـيف: «وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ».

«الشـعائر»: جمع «شـعيرة» بمعنى العلامـة والـدليل، وعلى هـذا فالشـعائر تعنى علامات اللّٰه وأدلّته، وهى تضمّ عناوين لأحكامه وتعاليمه العامة، وأوّل ما يلفت النظر فى هذه المراسم مناسك الحج التى تذكّرنا باللّٰه سبحانه وتعالى.

ويمكن القول: إنّ شعائر اللّٰه تشمل جميع الأعمال الدينية التى تذكّر الإنسان باللّٰه سبحانه وتعالى وعظمته، وإنّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

ويسـتدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعـة من المسـلمين كانوا يعتقـدون بعدم جواز الركوب على الاضـحية (الناقة أو ما شابهها) حين جلبهـا من موطنهم إلى منى للذبـح، كمـا يرون عـدم جواز حلبهـا أو الإسـتفادة منها بأىّ شـكل كان، ولكن القرآن نفى هـذه العقيـدة الخرافية حيث قال: «لَكُمْ فِيهَا مَنٰفِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

وتذكر الآية فى ختامها نهاية مسار الاضحية: «ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

وعلى هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصّصة للاُضحية ما دامت فى الطريق إلى موضع الذبح، وبعد الوصول يجرى ما يلزم.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَـكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْـلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (۳۴) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِى الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۵)

بشّـر المخبتين: يمكن أن يتسـاءل الناس عن الآيات السابقـة. ومنها التعليمات الواردة بخصوص الاضـحية، كيف شـرّع الإسـلام تقـديم القرابين لكسب رضـى اللّٰه؟ وهـل اللّٰه سـبحانه بحاجـة إلى قربـان؟ وهـل كـان ذلـك متّبعـاً فى الأديان الاخرى، أو يخصّ المشـركين وحدهم؟

تقول أوّل آيـة- من الآيات موضع البحث- لإيضاح هـذا الموضوع أنّ هـذا الأمر لا يختص بكم، بل إنّ كل امّة لها قرابين: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعٰمِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۰

مختصر الامثل ج۳ ۳۴۹

ذبح حيوان باسم اللَّه ولكسب رضاه يبيّن إستعداد الإنسان للتضحية بنفسه فى سبيل اللَّه، والاستفادة من لحم الاضحية وتوزيعه على الفقراء أمر منطقى.

ولذا يذكر القرآن فى نهاية هذه الآية: «فَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ». وبما أنّه إله واحد «فَلَهُ أَسْلِمُوا». وبشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربانية و «بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» «۱».

ثم يوضّح القرآن المجيد فى الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) وهى أربع: إثنتان منها ذات طابع معنوى، وإثنتان ذات طابع جسمانى.

يقول فى الأوّل: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ». لا يخافون فى غضبه دون سبب ولا يشكّون فى رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التى بذمّتهم، واحتمال تقصيرهم فى أدائها، وليقينهم بجلال اللَّه سبحانه يقفون بين يديه بكل خشوع.

والثانى: «وَالصبِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ». فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه فى حياتهم من مصائب وآلام، ولا يكفرون بأنعم اللَّه أبداً، وبإيجاز نقول: يستقيمون وينتصرون.

والثالث والرابع: «وَالْمُقِيمِى الصَّلَوةِ وَمِمَّا رَزَقْنهُمْ يُنفِقُونَ». فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارىء الخلق وإزدادوا تقرّباً إليه، ومن جهة اخرى إشتدّ إرتباطهم بالخلق بالإنفاق.

وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۳۶) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا وَ لكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (۳۸)

لماذا الاضحية؟ عاد الحديث عن مراسم الحج وشعائره الإلهية والاضحية ثانية، ليقول أوّلًا: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَهَا لَكُم مّن شَعَائِرِ اللَّهِ». إنّ «البُدن»: وهى الإبل البدينة تعلّقت بكم من جهة، ومن جهة اخرى هى من شعائر اللَّه وعلائمه فى هذه العبادة العظيمة، فالاضحية فى

---

(۱) «المخبتين»: مشتقة من «الإخبات» وأصلها «خبت» وهى الأرض المستوية الواسعة التى يمشى الإنسان فيها بكلّ سهولة، كما جاءت بمعنى الإطمئنان والخضوع، لأنّ السير فى هذه الأرض يلازمه الإطمئنان، ولهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۱

الحج من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التى أشرنا إلى فلسفتها من قبل.

ثم تضيف الآية: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» فمن جهة تستفيدون من لحومها وتطعمون الآخرين، ومن جهة اخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثاركم وسماحكم وعبادتكم اللَّه، وبهذا تتقرّبون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تبيّن الآية كيفية ذبح الحيوان: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ». أى: اذكروا اسم اللَّه حين ذبح الحيوان وفى حالة وقوفه مع نظائره فى صفوف.

وليس لذكر اللَّه حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصة، بل يكفى ذكر اسم من أسماء اللَّه عليها، كما يبدو من ظاهر الآية.

«صوافّ»: جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ، وكما ورد فى الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميّتين معاً حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر، وطبيعى أنّ أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتتمدّد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ». أى عندما تستقر ويهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة) فكلوا منها وأطعموا الفقير القانع والسائل المعتر.

الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أنّ القانع يطلق على من يقنع بما يُعطى وتبدو عليه علائم الرضـى والإرتياح ولا يعترض أو يغضب، أمّا المعترّ فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضاً.

إنّ عبارة «كُلُوا مِنْهَا» توجب أن يأكل الحجّاج من أضاحيهم، ولعلّها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجّاج والفقراء.

وتنتهى الآية بالقول: «كَذلِكَ سَخَّرْنهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وإنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معاً ثم ينحره.

تجيب الآيـة التاليـة عن هذه الأسئلة: «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا». إنّ اللّه ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، ولا هو بحاجة إلى شىء، وإنّما هو موجد كل وجود وموجود. إنّ الغاية من الاضحية كما تقول الآية: «وَلكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ». فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليبلغوا الكمال ويتقربوا إلى اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۲

إنّ جميع العبادات دروس فى التربية الإسلامية، فتقديم الاضحية- مثلًا- فيه درس الإيثار والتضحية والسماح والاستعداد للشهادة فى سبيل اللّه، وفيه درس مساعدة الفقراء والمحتاجين. وعبارة «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا» مع أنّ دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم وأحياناً الكعبة بدماء هذه القرابين.

وقد اتّبعهم فى ممارسة هذا العمل الخرافى مسلمون جاهلون، حتى نهتهم هذه الآية المباركة.

ثم تشير الآية ثانيةً إلى نعمة تسخير الحيوان قائلة: «كَذلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيكُمْ».

إنّ الهدف الأخير هو التعرف على عظمة الخالق جلّ وعلا، لهذا تقول الآية فى الختام:

«وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ». اولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهية فى طاعة اللّه، وأنجزوا واجباتهم على خير وجه، ولم يقصّروا فى الإنفاق فى سبيل اللّه أبداً.

وقد تؤدّى مقاومة خرافات المشركين التى أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، ووقوع إشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

لتتّحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود والنصارى والمشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكّنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنّ اللّه وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعداً تجلّى صدقه فى دوام الإسلام حتى يوم القيامة، ولا يختص الدفاع الإلهى عن المؤمنين فى الصدر الأوّل للإسلام وحسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كنّا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع الإلهى عنّا أكيد. ومن ذا الذى لا يلتمس دفاع اللّه سبحانه عن عباده الصالحين؟

وفى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين وأتباعهم بين يدى اللّه بهذه العبارة الصريحة: «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ». اولئك الذين أشركوا باللّه حتى أنّهم ذكروا أسماء أوثانهم عند التلبية. فثبتت عليهم الخيانة والكفر لأنعم اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۳

أُذنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳۹) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۴۰) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴۱)

أوّل حكم بالجهاد: فى تفسير مجمع البيان (والتفسير الكبير أيضاً) كان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجىء مشجوج ومضروب إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويشكون ذلك إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيقول لهم صلوات اللّه عليه وآله: «اصبروا فإنّى لم اؤمر بالقتال». حتى هاجر، فأنزل اللّه عليه هذه الآية بالمدينة، وهى أوّل آية نزلت فى القتال.

ولمّا وعد اللّه المؤمنين بالدفاع عنهم فى الآية السابقة يتّضح جيّداً الإرتباط بين هذه الآيات. تقول الآية: إنّ اللّه تعالى أذن لمن يتعرّض

لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلك بسبب أنّهم ظلموا: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا». ثم أردفت بنصرة اللَّه القادر للمؤمنين «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

عليكم بالجدّ والعمل بكل ما تستطيعون من قدرة، وعندما تستحقون النصر بإخلاصكم ينجدكم اللَّه وينصركم على أعدائه، وهذا ما حدث للرسول صلى الله عليه و آله فى جميع حروبه التى كانت تُكلّل بالنصر.

ثم توضّح هذه الآيات للمظلومين- الذين أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم- بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام فى هذا القسم من الجهاد فتقول: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيرِهِم بِغَيْرِ حَقّ». وذنبهم الوحيد أنّهم موحّدون: «إِلَّا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

ثم تستعرض الآية واحداً من جوانب فلسفة تشريع الجهاد فتقول: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا». أى إنّ اللَّه إن لم يدافع عن المؤمنين، ويدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۴

لهدّمت أديرة وصوامع ومعابد اليهود والنصارى والمساجد التى يذكر فيها اسم اللَّه كثيراً.

وكل دعوة لعبادة اللَّه وتوحيده مضادّة للجبابرة الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبّهاً منهم باللَّه تعالى، لهذا يهدّمون أماكن توحيد اللَّه وعبادته، وهذا من أهداف تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء. «الصوامع»: جمع «صومعة» وهى عادةً مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزهّاد والعبّاد. و «البِيَع»: جمع بيعة بمعنى معبد النصارى، ويطلق عليها كنيسة أيضاً. و «الصلوات»: جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، ويرى البعض أنّها معرّبة لكلمة «صلوتا» العبرية، التى تعنى المكان المخصّص بالصلاة. وأمّا «المساجد»: فجمع مسجد، وهو موضع عبادة المسلمين. والصوامع والبيع، رغم أنّها تخصّ النصارى، إلّاأنّ إحداهما معبد عام والاخرى لمن ترك الدنيا.

وفى الختام أكّدت هذه الآية ثانية وعد اللَّه بالنصر: «وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ» ولا شكّ فى إنجاز هذا الوعد، لأنّه من رب العزة القائل: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، من أجل ألّا يتصوّر المدافعون عن خطّ التوحيد أنّهم وحيدون فى ساحة قتال الحقّ للباطل، ومواجهة جموع كثيرة من الأعداء الأقوياء.

و آخر آية تفسّر المراد من أنصار اللَّه الذين وعدهم بنصره فى الآية السابقة، وتقول:

«الَّذِينَ إِن مَّكَّنَهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ».

إنّهم فئة لا تلهو ولا تلعب كالجبابرة بعد انتصارها، ولا يأخذها الكبر والغرور، إنّما ترى النصر سلّماً لإرتقاء الفرد والجماعة، إنّها لن تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لإرتباطها القوى باللَّه، والصلاة رمز هذا الإرتباط بالخالق، والزكاة رمز للإلتحام مع الخلق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعامتان قويّتان لبناء مجتمع سليم، وهذه الصفات الأربع تكفى لتعريف هؤلاء الأفراد، ففى ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطوّر.

وتقول الآية فى ختامها: «وَلِلَّهِ عقِبَةُ الْأُمُورِ». وتعنى أنّ بداية أىّ قدرة ونصر من اللَّه تعالى، وتعود كلّها فى الأخير إليه ثانية.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمّين فى فلسفة الجهاد:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۵

أوّلهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكدة والطبيعية، التى يؤكّدها عقل الإنسان وفطرته. وليس له أن يستسلم للظلم.

وثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر اللَّه من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبثّ الوعى وإيقاظ الناس.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۴۴) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (۴۵)

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- وقد طمأنت الآيات- موضع البحث- الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين وخفّفت عنهم من جهة، وبيّنت لهم أنّ العاقبة السيئة تنتظر الكفرة من جهة اخرى، فقالت: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ». أى إذا كذّبك هؤلاء القوم فلا تبتئس ولا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذّبت رسلها أيضاً، وأضافت: «وَقَوْمُ إِبْرهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ».

وكذلك كذّب أهالى مدينة «مدين» نبيّهم «شعيب»، وكذّب فرعون وقومه نبيّهم «موسى» «وَأَصْحبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى .

وإنّ هذه المعارضة والتكذيب لن تؤثّر فى روحك الطاهرة ونفسك المطمئنة، مثلما لم تؤثّر فى أنبياء كبار قبلك ولم تعق مسيرتهم التوحيدية ودعوتهم إلى الحق والعدل قطّ.

إلّا أنّ هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصورون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية.

«فَأَمْلَيْتُ لِلْكفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ». أجل، أمهل اللّه الكافرين ليؤدّوا إمتحانهم وليتمّ الحجة عليهم فأغرقهم بنِعَمه، ثم حاسبهم حساباً عسيراً. «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» «۱» ورأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، وبيّنت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتى وجعلتهم على أسوأ حال ... سلبت سعادتهم الدنيوية وعوّضتهم بالموت.

---

(۱) «النكير»: تعنى الإنكار وهنا تعنى فرض العقاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۶

آخر آية موضع البحث يبيّن اللّه تعالى كيفية عقاب الكفار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة: «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ». وأضافت الآية أنّ سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: «فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا». أى إنّ الواقعة كانت شديدة حتى أنّ السقوف إنهارت أوّلًا ثم الجدران على السقوف «وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ» فما أكثر الآبار المترعة بمياهها العذبة، ولكنّها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطّلة لا نفع فيها.

«وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ» «۱». أجل ما أكثر القصور المشيدة التى إرتفعت شاهقة وزُيّنت، إلّاأنّها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، والنتيجة إنّهم تركوا مساكنهم وقصورهم المجللة، وأهملوا مياههم وعيونهم التى كانت مصدر حياتهم وعمران أراضيهم وذهبوا، وكذلك الآبار الغنيّة بالماء أصبحت معطّلة لا ماء فيها.

أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (۴۶) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۴۸)

السير فى الأرض والعبرة: تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التى عاقبها اللّه على ما إقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، وأكّدت الآية الاولى هذه القضيّة فقالت: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا».

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمة، ومنازل الجبابرة المهدّمة، وعبدة الدنيا.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضى هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم فى الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذى صبّه اللّه عليهم.

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: «فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصرُ

---

(۱) «المشيد»: مشتقة من «شيد» ذات معنيين: أوّلهما الإرتفاع، والثانى الجصّ، فتعنى لفظة «قصر مشيد» القصرالمرتفع.

والمعنى الثانى القصر الذى بنى على اسس ثابتة قويّة ليصان من حوادث الزمان، وبما أنّ معظم منازل ذلك العصر تبنى من الطين، فإنّ

المنزل الذى يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت ويكون متميّزاً عنها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۷

وَلكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ».

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أمّا العمى الحقيقيون فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً. فى تفسير القمى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «شرّ العمى، عمى القلب». وفى الكافى: «وأعمى العمى عمى القلب».

وترسم الآية الثانية- موضع البحث- صورة اخرى لجهل الأغبياء وعديمى الإيمان فتقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ» فردّ عليهم ألّا تعجلوا «وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ».

فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: «وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

وفى آخر آية نجد تأكيداً على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفة الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى والبلاد التى أمهلناها ولم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، ولمّا لم يفيقوا وينتبهوا أمهلناهم مرّة اخرى ليغرقوا فى النعيم والرفاهية، وفجأةً نزل عليهم العذاب: «وَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا».

إنّ اولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخّر العذاب عليهم، ويسخرون من وعيد الأنبياء، ولا يرونه إلّاباطلًا، إلّاأنّهم ابتلوا بالعذاب أخيراً ولم ينفعهم صراخهم أبداً «وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ». أجل كل الامور تعود إلى اللّه، وتبقى جميع الثروات فيكون اللّه وارثها.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۵۱)

تحدثت الآيات السابقة عن تعجيل الكفر والعذاب الإلهى، وإنّ ذلك ليس من شأن النبى صلى الله عليه و آله وإنّما يرتبط بمشيئة اللّه تعالى، فأوّل آية من الآيات أعلاه تقول: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وترسم الآيتان التاليتان صورةً للبشرى واخرى للإنذار، لأنّ رحمة اللّه واسعة، فتقدم على عقاب اللّه. تتحدّث أوّلًا عن البشرى: «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». يتطهّرون بماء المغفرة الإلهية أوّلًا، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم اللّه ورحمته.

عبارة «رزق كريم» ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية والمعنوية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۸

وأضافت الآية اللاحقة: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحبُ الْجَحِيمِ» «۱». أى إنّ الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهية ومحوها، وكانوا يعتقدون بأنّ لهم القدرة على مغالبة إرادة اللّه المطلقة، فهم أصحاب الجحيم.

«جحيم»: من مادّة «جحم» بمعنى شدّة توقّد النار، وتقال كذلك لشدّة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، وهى هنا تشير إلى نار الآخرة.

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۲) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۴)

وساوس الشياطين فى مساعى الأنبياء: تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين والكفرة لمحو التعاليم الإلهية والإستهزاء بها، أمّا الآيات موضع البحث فقد تضمّنت تحذيراً مهمّاً حيث قالت: إنّ هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضدّ الأنبياء. فى البداية تقول الآية: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أمراً لصالح الدين والمجتمع وفكّر فى خطّة لتطوير العمل «أَلْقَى الشَّيْطنُ فِى أُمْنِيَّتِهِ» إلّاأنّ اللّه لم يترك نبيّه وحده إزاء إلقاءات الشياطين «فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطنُ ثُمَّ

يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايتِهِ». إنّ هـذا العمـل يسـير على اللّه تعـالى، لأنـّه عليم بجميـع هـذه المـؤامرات الدنيئـة، ويعرف كيف يحبطهـا «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إلّا أنّ المؤامرات الشـيطانية التى كان يحيكها المشـركون والكفرة، كانت تشكّل ساحة لإمتحان المؤمنين والمتآمرين فى آنٍ واحد، إذ تضيف الآية: «لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطنُ فِتْنَةً

(۱) «سعوا»: مشتقة من «السعى» وتعنى فى الأساس الهرولة، وهنا المحاولة فى تخريب الآيات الإلهيةومحوها.

«المعاجزون»: مشتقة من «العجز» وتعنى هنا الذى يحاول الغلبة على قدرة اللّه غير المحدودة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۹

لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ». «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ» فهم بعيدون عن الحق لشدّة عداوتهم وعنادهم.

وكـذلك الهدف من هذا البرنامج: «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». وطبيعى أنّ اللّه لا يترك المـؤمنين الـواعين المطـالبين بحقـوقهم والمـدافعين عن الحـق وحـدهم فى هـذا الطريق الوعر «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

إنّ كلمة الرسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من اللّه أمروا بنشرها بين الناس.

أمّا كلمة «النبى» وهو الذى ينبأ بالوحى الإلهى رغم أنّه لم يُكلّف بإبلاغه بشكل واسع.

وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۵۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۵۶) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (۵۷) وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۵۸) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (۵۹)

تحـدثت الآيـات السابقـة عن محاولات المخـالفين فى محـو الآيـات الإلهيـة، أمّا الآيـات الـتى نقـف فى ضوئهـا، فأشـارت إلى هـذه المحاولات من قبل أشـخاص متعصبين قساة. تقول الآيـة الاولى: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ». بديهى أنّ الآية هنا قصدت فئة من الكفار لا الكفار كلّهم، لأنّ الكثير منهم أسـلموا والتحقوا بالنبى صـلى الله عليه و آله وبصـفوف المسلمين، قصدت الآية زعماء الكفار والمعاندين والمتعصبين بقوّة والحاقدين الذين لم يؤمنوا قطّ، واستمرّوا فى عرقلة المسيرة الإسلامية.

وتعنى كلمـة «مريـة» الشكّ والترديد، وتبيّن لنا الآية أنّ هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوماً على يقين ببطلان الإسـلام ودعوة النبى صـلى الله عليه و آله بالرغم من إظهارهم لذلك فى كلماتهم.

والمراد من «الساعة» ختام العالم وعشيّة يوم القيامة، والتى رافقت كلمة «بغتة».

ويقصد ب «عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» عقاب يوم القيامة، وقد وصف يوم القيامة بالعقم لأنّه لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۰

يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيّرة تعوّض عمّا فاته وتؤثّر فى مصيره. ثم أشارت الآيـة التالية إلى السيادة المطلقة لربّ العالمين يوم القيامة: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ». وهذا أمر ملازم للّهالحاكم الدائم والمالك المطلق، وليس ليوم القيامة فقط.

ولكن كل هذا يزول وتتّضح حقيقة وحدانية المالك والحاكم يومئذ.

وبمـا أنّ اللّه هو المالـك الحقيقى، فهو إذن الحـاكم الحقيقى، وتعمّ حكومته على المؤمنين والكافرين على السواء، ونتيجـة ذلك كما يقـول القرآن المجيـد: «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنتِ النَّعِيمِ». الجنّات الـتى تتـوفّر فيهـا جميـع المواهب وكـل الخيرات والبركات.

ویضیف القرآن الکریم: «وَالَّذِینَ کَفَرُوا وَکَذَّبُوا بَایَاتِنَا فَأُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِینٌ».

عذابٌ یذلّ الکفرة والذین کذّبوا بآیات اللَّه، اولئک الذین عاندوا اللَّه واستکبروا علی خلقه یهینهم اللَّه.

وبما أنّ الآیات السابقة تناولت المهاجرین من الذین طردوا من دیارهم وسلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: ربّنا اللَّه، ودافعوا عن شریعته، فقد اعتبرتهم الآیة التالیة مجموعة ممتازة جدیرة بالرزق الحسن وقالت: «وَالَّذِینَ هَاجَرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَیَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ».

فی تفسیر القرطبی: سبب نزول هذه الآیة أنّه لمّا مات بالمدینة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبدالأسد، قال بعض الناس: من قتل فی سبیل اللَّه أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآیة مسویّة بینهم، وأنّ اللَّه یرزق جمیعهم رزقاً حسناً. وظاهر الشریعة یدلّ علی أنّ المقتول أفضل.

وعرضت الآیة الأخیرة صورة من هذا الرزق الحسن: «لَیُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا یَرْضَوْنَهُ». فإذا طردوا من منازلهم فی هذه الدنیا ولاقوا الصعاب، فإنّ اللَّه یأویهم فی منازل طیّبة فی الآخرة ترضیهم من جمیع الجهات.

وتنتهی هذه الآیة بعبارة: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِیمٌ حَلِیمٌ». أجل، إنّ اللَّه عالم بما یقوم به عباده، وهو فی نفس الوقت حلیم لا یستعجل فی عقابهم، من أجل تربیة المؤمنین فی ساحة الإمتحان هذه، ولیخرجوا منها وقد صلب عودهم وإزدادوا تقرّباً إلی اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۱

ذلِکَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶۰) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهَارَ فِی اللَّیْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (۶۱) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ (۶۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ الآیة الاولی نزلت فی قوم من مشرکی مکة، لقوا قوماً من المسلمین للیلتین بقیتا من المحرم، فقالوا: إنّ أصحاب محمّد لا یقاتلون فی هذا الشهر. فحملوا علیهم، فناشدهم المسلمون أن لا یقاتلوهم فی الشهر الحرام فأبوا، فأظفر اللَّه المسلمین بهم.

التّفسیر

من هم المنتصرون؟ حدّثتنا الآیات السابقة عن المهاجرین فی سبیل اللَّه، وما وعدهم اللَّه من رزق حسن یوم القیامة. ومن أجل ألّا یتصور المرء أنّ الوعد الإلهی یختص بالآخرة فحسب، تحدّثت الآیة- موضع البحث- فی مطلعها عن إنتصارهم فی ظل الرحمة الإلهیة فی هذا العالم: «ذَلِکَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنصُرَنَّهُ اللَّهُ». إشارة إلی أنّ الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حق طبیعی لکل إنسان.

وبما أنّ الوعد بالنصر الذی یقوی القلب لابدّ وأن یصدر من مقتدر علی ذلک. لهذا تستعرض الآیة قدرة اللَّه فی عالم الوجود التی لا تنتهی، فتقول: «ذَلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ یُولِجُ الَّیْلَ فِی النَّهَارِ وَیُولِجُ النَّهَارَ فِی الَّیْلِ». فما أن یقل من أحدهما حتی یزداد فی الآخر وفق نظام مدروس.

«یولج»: مشتقة من «الإیلاج» وهو فی الأصل من الولوج أی الدخول، وهذه العبارة تشیر إلی التغییرات التدریجیة المنظّمة تنظیماً تامّاً، کمسألة اللیل والنهار، فما یقلّ أحدهما إلّالیزداد الآخر علی مدی فصول السنة.

وتنتهی الآیة ب «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ». أجل، إنّ اللَّه یلبّی حاجة المؤمنین، ویطّلع علی حالهم وأعمالهم، ویعینهم برحمته عند اللزوم، مثلما یطّلع علی أعمال ومقاصد أعداء الحق.

و آخر آیة من الآیات السالفة الذکر فی الواقع دلیل علی ما مضی، حیث تقول: «ذلِکَ بِأَنَ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۲

اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

إن شاهدتم إنتصار الحق وهزيمهٔ الباطل، فإنّ ذلك بلطف اللّه الذى ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم. إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامهٔ، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶۳) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶۴) أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

دلائل اللّه فى ساحهٔ الوجود: تحدّثت الآيات السابقهٔ عن قدرهٔ اللّه غير المحدودهٔ وأنّه الحق المطلق، وبيّنت هذه الآيات الأدلّهٔ المختلفهٔ على هذه القدرهٔ الواسعهٔ والحق المطلق وتقول أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً».

لقد اخضّرت الأرض المرتديهٔ رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل المطر عليها، فأصبحت تسرّ الناظرين. أجل «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». «لطيف»: مشتقهٔ من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقّته؛ وكلمهٔ «الخبير»: تعنى المطّلع على الامور الدقيقهٔ.

يرسل اللّه المطر بقدرهٔ وبخبرهٔ منه، فإن زاده صار سيلًا، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف فى الأرض.

الآيهٔ التاليهٔ تعرض علامهٔ اخرى على قدرهٔ اللّه غير المتناهيهٔ، وهو قوله سبحانه وتعالى: «لَّهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

فهو سبحانه خالق الجميع ومالكهم، وبهذا الدليل يكون قادراً عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، ولا يحتاج هو إلى شىء أو إلى أحد.

ويزداد هذا المعنى إشراقاً فى قوله سبحانه: «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

والتحام صفتى الغنى والحميد جاء فى غايهٔ الإحكام، لأنّ عدداً كبيراً من الناس أغنياء،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۳

إلّاأنّهم بخلاء يستغلّون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، أمّا غنى اللّه سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماح والجود والكرم، لذا استحقّ الحمد والثناء من عباده.

وتشير الآيهٔ التاليهٔ إلى نموذج آخر من تسخير اللّه تعالى الوجود للإنسان «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ» وجعل تحت اختياركم جميع المواهب والإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأىّ صورهٔ تريدون، وكذلك جعل السفن والبواخر التى تتحرّك وتمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. «وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». إضافهً إلى «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وذلك من رحمهٔ اللّه لعباده ولطفه بهم، وهذا ما نلمسه فى ختام الآيهٔ المباركهٔ: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

وتتناول الآيهٔ الأخيرهٔ أهمّ قضيهٔ فى الوجود، أى قضيهٔ الحياهٔ والموت فتقول: «وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ». أى كنتم تراباً لا حياهٔ فيه فألبسكم لباس الحياهٔ «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وبعد إنقضاء دورهٔ حياتكم يميتكم «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». أى يمنحكم حياهٔ جديدهٔ يوم البعث.

وتبيّن الآيهٔ ميل الإنسان إلى نكران نِعم اللّه عليه قائلهً: «إِنَّ الْإِنسنَ لَكَفُورٌ». فرغم كل ما أغدق اللّه على الإنسان من أنعم فى الأرض والسماء، فى الجسم والروح، لا يحمده ولا يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. ومع أنّه يرى كل الدلائل الواضحهٔ والبراهين المؤكّدهٔ لوجود اللّه تبارك وتعالى، والشاهدهٔ بفضله عليه وإحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه وأجهله.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (۶۷) وَ إِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (۶۸) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۶۹) أ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷۰)

لكل امّهٔ عبادهٔ: تناولت البحوث السابقهٔ المشركين خاصهٔ، ومخالفى الإسلام عامهٔ، ممّن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادىء نسخت بعض تعاليم الأديان السابقهٔ، وكانوا يرون من ذلك ضعفاً فى الشريعهٔ الإسلاميهٔ، وقوهٔ فى أديانهم، فى حين أنّ ذلك لا يشكّل

ضعفاً إطلاقاً، بل هو نقطـة قوّة ومنهـج لتكامل الأديان ولذا جاء الفصل الربانى جلّياً «لِّكَلّ أَمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَـكًا هُمْ نَاسِـكَوهُ». «المناسك»: جمع «منسک» أى مطلق العبادات، ومن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۴

الممكن أن تشـمل جميع التعاليم الإلهيـة. لهذا فإنّ الآية تبيّن أنّ لكل امّة شـرعة ومنهاجاً يفى بمتطلّباتها بحسب الأحوال التى تعيشـها، لكن ارتقاءها يسـتوجب تعاليم جديـدة تلبّى مطامحها المترقية، وهذا ما صدعت به الآية المباركة وأنارته قائلة: «فَلَا يُنزِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ». فبما تقدّم لا ينبغى لهم منازعتك فى هذا الأمر. «وَادْعُ إِلَى رَبّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٌ». تخاطب الآية النبى صلى الله عليه و آله أن يا أيّها النبى لا يؤثّر هؤلاء فى دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضالة، فالمهتدى إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب فى التيه.

ثم أضافت الآية: «وَإِن جدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلو استمرّوا فى جدالهم ومنازعتهم معك، ولم يؤثّر فيهم كلامك. فقل لهم: إنّ اللَّه أعلم بأعمالكم، وستحشرون إليه فى يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، وتحلّ جميع الإختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وبما أنّ القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم وإطّلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». و «إِنَّ ذلِكَ فِى كِتبٍ». أجل، إنّ جميع ذلك قد ثبت فى كتاب علم اللَّه الذى لا حدود له، كتاب عالم الوجود وعالم العلة والمعلول، عالم لا يضيع فيه شـىء، فهو فى تغيير دائم، وكل هذه الموجودات حاضرة بين يدى اللَّه سبحانه بجميع صفاتها وخصائصها، وهذا من معانى القدرة الإلهية التى نلمسها فى قوله تعالى: «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۵

معبودات أضـعف من ذبابة: تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد والشرك، فتحدثت ثانية عن المشركين وأفعالهم الخاطئة، فتقول الآيـة الاولى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا». وهذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ اللَّه سـمح لهم بعبادة الأوثان وأنّها تشـفع لهم عنـد اللَّه. وتضـيف الآيـة «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ». أى: يعبدون عبادةً لا يملكون دليلًا على صـحّتها لا من طريق الوحى الإلهى، ولا من طريق الاسـتدلال العقلى، ومن لا يعمل بـدليل يظلم نفسه وغيره، ولا أحـد يـدافع عنه يوم الحساب، لهـذا تقول الآية فى ختامها: «وَمَا لِلظلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ».

وتشير الآية الثانية- موضع البحث- إلى عناد الوثنيين وإستكبارهم عن الإستجابة لآيات اللَّه تعالى، فى جملة وجيزة لكنها ذات دلالات كبيرة: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ».

وهنا يسـفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم وتعصب الجاهليـة الـذى لا يرضـخ للحق ولا يفتـح قلبه لنـدائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربّهم إلّاظهرت علائم الإستكبار عنها فى وجوههم حتى إنّهم «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا».

أى كـأنّهم يريـدون مهاجمـة الـذين يتلون عليهم آيـات اللَّه عزّ وجـل وضـربهم بقبضـات أيـديهم، تنفيساً عن التكبّر البغيض فى قرارة أنفسهم.

«يسطون»: مشتقة من «السطوة» أى رفع اليد ومهاجمة الطرف الآخر.

وقد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله أن يجيب هؤلاء المتغطرسـين هاتفاً «قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّ مّن ذلِكُمُ النَّارُ». أى: إن زعمتم أنّ هذه الآيات البينات شـرّ، لأنّها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإنّنى اخبركم بما هو شرّ منها، ألا وهو عقاب اللَّه الأليم،

النار التى أعدّها اللَّه جزاءً: «وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وترسم الآيـة الآتيـة صـورة معبّرة لمـا كـان عليه الوثنيون، ومـا يعبـدونه من أشـياء ضـعيفة هزيلـة تكشف عن بطلان آراء المشـركين وعقيـدتهم، مخاطبـةً للناس جميعاً خطاباً هادياً أن «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَلٌ فَاسْـتَمِعُوا لَهُ» وتدبّروا فيه جيّداً «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ». أجل، لو إجتمعت الأوثان كلها، وحتى العلماء والمفكّرين والمخترعين جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابـة. فكيف تجعلون أوثـانكم شـركاء لخالق السـماوات والأرض وما فيهن من آلاف مؤلّفـة من أنواع المخلوقات فى البرّ والبحر، فى الصحارى والغابات، وفى أعماق الأرض؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۶

وتستكمل الآية البيان عن ضـعف الأوثان وعجزها المطلق وأنّها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل «وَإِن يَسْـلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيًا لَّايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ».

ويعلو صدى الحق فى تقرير ضعف الوثن وعبدته فى قوله تعالى: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذا المثال الواضح، قرّر حقيقة مهمة، وهى: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

فالمشـركون لو كـانوا على أدنى معرفـة باللَّه تعالى لما أنزلوا قـدره إلى مسـتوى هـذه الآلهـة الضـعيفة العاجزة ولما جعلوا مصـنوعاتهم شركاء له، تعالى عما يفعلون علواً كبيراً، ولو كان لـديهم أدنى معرفـة بقدرة اللَّه لضـحكوا من أنفسـهم وسـخروا من أفكارهم، وتقول الآيـة فى النهايـة: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». أجل، إنّ اللَّه قادر على كل شـىء ولا مثيل لقدرته ولا حدّ، فهو ليس كآلهة المشـركين التى لو إجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة، بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

اللَّهُ يَصْـطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُـلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۷۵) يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۷۶) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْـجُدُوا وَ اعْبُـدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۷۷) وَ جَاهِـدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَـادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ وَ فِي هـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۷۸)

سبب النّزول

فى التفسـير الكبير: قال الوليـد بن المغيرة: أأنزل عليه الـذكر من بيننا؟ فأنزل اللَّه تعالى هـذه الآيـة «اللَّهُ يَصْـطَفِى مِنَ الْمَلِكَةِ رُسُـلًا وَمِنَ النَّاسِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۷

التّفسير

بما أنّ الآيات السابقـة تناولت بحث التوحيـد والشـرك وآلهـة المشـركين الوهميّـة، وبما أنّ بعض الناس قد اتّخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهـة للعبادة، فإنّ أوّل الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد اللَّه وتابعون لأمره: «اللَّهُ يَصْـطَفِى مِنَ الْمَلِكَةِ رُسُـلًا وَمِنَ النَّاسِ».

أجل، إختار اللَّه من الملائكة رسلًا كجبرئيل، ومن البشر رسلًا كأنبياء اللَّه الكبار.

وختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ بَصِـيرٌ». أى: إنّ اللَّه ليس كالبشـر، لا يعلمون أخبار رسـلهم فى غيابهم، بل إنّه على علم بأخبار رسـله لحظة بعد اخرى، يسمع كلامهم ويرى أعمالهم.

وتشـير الآية الثانية إلى مسؤولية الأنبياء فى إبلاغ رسالة اللَّه من جهة، ومراقبة اللَّه لأعمالهم من جهة اخرى، فتقول: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». إنّه يعلم ماضيهم ومستقبلهم «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فالجميع مسؤولون فى ساحة قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكـة اللَّه سـبحانه وأنبياءه عليهم السـلام عباد مطيعون له مسؤولون بين يديه، لا يملكون إلّاما وهبهم من لطفه، وقوله

تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» إشارة إلى واجب ومسؤولية رسل اللَّه ومراقبته سبحانه لأعمالهم.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين وتبيّنان مجموعة من التعاليم الشاملة التى تحفظ دينهم ودنياهم وإنتصارهم فى جميع الميادين، وبهذه الروعة والجمال تختتم سورة الحج. فى البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وقد بيّنت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع والسجود لأهميّتهما الاستثنائية فى هذه العبادة العظيمة.

ثم يصدر اللَّه أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عزّ من قائل: «وَجهدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».

والمراد بالجهاد هى كل نوع من الجهاد فى سبيل اللَّه والإستجابة له وممارسة أعمال البرّ والجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء والظلمة (الجهاد الأصغر).

ولا شكّ فى أنّ حق الجهاد له معنىً واسع يشمل الكيف والنوع والمكان والزمان وسواها.

ولكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۸

والتعليمات الشاملة الواسعة؟ ولهذا تجيب بقية الآية الشريفة فتقول أوّلًا: «هُوَ اجْتَبكُمْ». أى: حمّلكم هذه المسؤوليات بإختياركم من بين خلقه.

والعبارة الاخرى قوله جلّ وعلا: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدّينِ مِنْ حَرَجٍ». أى: إذا دقّقتم جيّداً لم تجدوا صعوبة فى التكاليف الربّانية لإنسجامها مع فطرتكم التى فطركم اللَّه عليها، وهى الطريق إلى تكاملكم.

وثالث عبارة: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرهِيمَ».

إنّ إطلاق كلمة «الأب» على إبراهيم عليه السلام، إمّا بسبب كون العرب والمسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السلام غالباً، وإمّا لكون إبراهيم عليه السلام هو الأب الروحى للموحدين جميعاً.

ويليها تعبير: «هُوَ سَمكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا». أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة.

وخامس عبارة خصّ بها المسلمين وجعلهم قدوة للُامم الاخرى هى قوله المبارك: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».

وكون الرسول صلى الله عليه و آله شاهداً على جميع المسلمين يعنى إطلاعه على أعمال امّته. فجميع الامة شهداء، والأئمة الطاهرين شهود ممتازون على هذه الامة.

وأعادت الآية فى ختامها بشكل مركّز الواجبات الخمسة فى ثلاث جمل هى «فَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ». فإنّ اللَّه هو قائدكم وناصركم ومعينكم: «هُوَ مَوْلكُمْ» و «فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ». أى: إنّ اللَّه أمركم بالإعتصام به لكونه خير الموالى وأجدر الأعوان.

«نهاية تفسير سورة الحج»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۹

۲۳ سورة المؤمنون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مواضيع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

۱- إنّ السورة يبدأ بالآية «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» وينتهى بعدد من الآيات التى تذكر صفات هى مدعاة لفلاح المؤمنين.

۲- وأشار هذه السورة إلى علائم اخرى للمؤمنين، التوحيد وآيات عظمة اللَّه وجلاله فى عالم الوجود.

۳- وشرح ما حدث لعدد من كبار الأنبياء.

۴- ووجّه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المستكبرين يحذّرهم ببراهين منطقيّة تارةً، واخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عزّ وجلّ.

۵- ثم بيّن فى بحث مركّز المعاد.

۶- وتناول قسم آخر سيادة اللّه على عالم الوجود، وإطاعة العالم ولأوامره.

۷- بحثت هذه السورة عن حساب يوم القيامة، وجزاء الخير للمحسنين، وعقاب المذنبين. وينتهى السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة المؤمنين ختم اللّه له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها فى كل جمعة، وكان منزله فى الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۰

ونؤكّد أنّ فضيلة السورة، إنّما يجب أن يرافق ذلك التمعّن فى معانيها والعمل بما أوجبته، لأنّ هذا الكتاب يبنى الذات الإنسانية ويربّيها.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (۴) وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (۵) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العَادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ (۸) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (۹) أُولئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۱)

صفات المؤمنين البارزة: اختيار اسم المؤمنين لهذه السورة لأنّه جاء فى بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبّرة صفات المؤمنين، ومما يلفت النظر أنّها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، إستنارةً للشوق فى قلوب المسلمين للوصول إلى هذا الفخر العظيم بإكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

«أفلح»: مشتقة من الفلح والفلاح، وتعنى فى الأصل الحرث والشقّ، ثم اطلقت على أىّ نوع من النصر والوصول إلى الهدف والسعادة بشكل عام، ولكلمة الفلاح معنىً واسعاً يضمّ الفلاح المادى والمعنوى، ويكون الإثنان للمؤمنين.

ثم تشرح الآية هذه الصفات فتؤكّد قبل كل شىء على الصلاة فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خشِعُونَ». «خاشعون»: مشتقة من خشوع، بمعنى التواضع وحالة التأدّب يتخذها الإنسان جسماً وروحاً بين يدى شخصية كبيرة، أو حقيقة مهمة تظهر فى الإنسان وتبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

والقرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنّما تظهر فى المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى اللّه تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۱

وروى- فى تفسير مجمع البيان- أنّ النبى صلى الله عليه و آله رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته، فقال: «أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

إشارة منه صلى الله عليه و آله إلى أنّ الخشوع الباطنى يؤثّر فى ظاهر الإنسان.

وثانى صفة للمؤمنين بعد الخشوع مما تذكره الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ».

حقّاً نرى جميع حركات وسكنات المؤمنين تتجّه لهدف واحد مفيد وبنّاء.

وتشير الآية الرابعة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، وهى ذات جانب إجتماعى ومالى حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكوةِ فعِلُونَ».

ورابع صفة من صفات المؤمنين هى الطهارة والعفة بشكل تام، وإجتناب أى معصية جنسية، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حفِظُونَ» «۱». يحفظونها ممّا يخالف العفّة «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ».

بما أنّ الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرّداً، ولضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى والإيمان القوى، لهذا أكدّت الآية التالية على هذه المسألة: «فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

إنّ عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أنّ فقدان المراقبة المستمرة فى هذا المجال تؤدّى بالفرد إلى خطر التلوّث بالانحرافات الكثيرة.

وأشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة والسادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

إنّ المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، وكذلك الالتزام بالعهد والميثاق بين يدى الخالق والخلق من صفات المؤمنين البارزة، وتعنى الأمانة بمفهومها الواسع أمانة اللَّه ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم اللَّه على خلقه. وتضمّ أيضاً أمانة اللَّه الدين الحق والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات اللَّه سبحانه وتعالى بيد البشر.

وهكذا أنّ الحكومة وديعة إلهية مهمة جدّاً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

وبيّنت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

---

(۱) «الفروج»: جمع فرج، وهو كناية عن الجهاز التناسلى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۲

وممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفة للمؤمنين كانت الخشوع فى الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، لأنّ الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق والمخلوق، وأغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

وإنّ الصلاة إن اقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيّنت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت: «أُولئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ».

اولئك الذين يرثون الفردوس ومنازل عالية وحياة خالدة: «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خلِدُونَ». «الفردوس»: الجنة العالية، وأفضل البساتين.

إنّ هذه المنزلة العالية- حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه- خاصة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، ونجد أهل الجنة الآخرين فى منازل أقلّ أهمية من هؤلاء المؤمنين.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (۱۶)

مراحل تكامل الجنين فى الرحم: تبيّن الآيات موضع البحث- وقسم من الآيات التالية لها- السبيل لكسب الإيمان والمعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» وليكشف له أسرار باطنه وهو «السير الأنفسى»، وتثير الآيات التالية لها إنتباه الإنسان إلى عالم الظاهر والمخلوقات المدهشة فى عالم الوجود وسير عالم الآفاق، وهو «السير الآفاقى».

تقول الآيات أوّلًا: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسنَ مِن سُللَةٍ مّن طِينٍ» «۱».

وتضيف الآية التالية: «ثُمَّ جَعَلْنهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ».

وفى الواقع فإنّ الآية الاولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم وأبنائه وأنّهم خلقوا جميعاً من التراب، إلّاأنّ الآية التالية تشير إلى تداوم واستمرارية نسل الإنسان بواسطة تركيب نطفة الذكر ببويضة الانثى فى الرحم.

---

(۱) «السلالة»: تعنى الشيء الذى يستخلص من شيء آخر، وهى فى الحقيقة خلاصة ونتيجة منه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۳

والتعبير عن الرحم ب «قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشارة إلى أهميـة الرحم فى الجسم، حيث يقع فى مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقرى من جهـة، وعظم الحوض القوى من جهـة اخرى، وأغشيـة البطن العديـدة من جهة ثالثة، ودفاع اليدين يشكّل حرزاً رابعاً له، وكل ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثم تشـير الآيـة الثالثـة إلى المراحل المدهشـة والمثيرة لتـدرّج النطفة فى مراحلها المختلفة، واتخاذها شـكلًا معيّناً فى كل منها فى ذلك القرار المكين، حيث تقول: إنّنـا جعلنا من تلك النطفـة على شـكل قطعـة دم متخثّر (علقـة) ثم بـدّلناها على شـكل قطعـة لحم ممضوغ (مضـغة)، ثم جعلنا من هذه المضـغة عظاماً، وأخيراً ألبسـنا هذه العظام لحماً: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا».

وفى الختام أشارت الآيـة إلى آخر مرحلـة والتى تعتبر- فى الحقيقـة- أهمّ مرحلـة فى خلق البشـر، بعبارة عميقـة وذات معنى كبير: «ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلِقِينَ». مرحبـاً بهـذه القـدرة الفريـدة، الـتى خلقت فى ظلمـات الرحم هـذه الصورة البديعـة، وصاغت من قطرة ماء كل هذه الامور المدهشة.

طوبى لهذا العلم والحكمة والتدبير، الذى خلق فى هذا الموجود البسـيط كل هذه القابليات والجدارة، تعالى اللَّه فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

وتنتقل الآيـة التاليـة من تناول مسألـة التوحيد ومعرفة المبدأ- بشـكل دقيق وجميل- إلى مسألة المعاد حيث تقول: «ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ».

ومن أجـل أن لاـ يعتقـد المرء بـأنّ المـوت نهايـة كـل شـىء، تقول الآيـة: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ». أى إنّ خلقكم بهـذه الصورة المدهشة لم يكن عبثاً أو لتعيشوا أيّاماً معدودات، فتضيف الآية أنّكم ستبعثون يوم القيامة فى مستوى أعلى وفى عالم أوسع.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۲۰) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۲۱) وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۴

مرّة اخرى مع علائم التوحيـد: تحـدثت الآيـات السابقـة عن آيـات اللَّه العظيمـة فى وجودنا، وتناولت هـذه الآيات بعـدها عالم الظاهر وآفاق الكون وعظمة خلق الأرض والسماوات، حيث قالت الآية الاولى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ».

فإنّ الآية تعنى طبقات السماء السبع.

وربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعة والعظمة ألا يوجب أن يغفل اللَّه تعالى عن إدارته؟

فتجيب الآية مباشرةً: «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غفِلِينَ».

وأشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهية، الذى يعتبر من بركات السماوات والأرض، ألا وهو المطر، حيث تقول:

«وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ».

ثم أشارت الآية إلى قضيّة أكثر أهميّة، هى قضية إحتياطى المياه الجوفية فتقول: «فَأَسْكَنَّهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدِرُونَ».

نحن نعلم أنّ القشرة السطحية من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إنّ اللَّه الرحيم جعل القشرة الاولى من سطح الأرض نافذةً، وتليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطاً للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو توجّه للإنسان أقلّ أذى «۱».

وتشير الآية التالية إلى الخير والبركة فى نعمة المطر، أى المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: «فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنتٍ مّن نَّخِيلٍ وَأَعْنبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فمضافاً إلى التمر والعنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعية فانّ فيها أنواع اخرى من الفواكه كثيرة.

وممّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان فى ماء النطفة، ومنشأ حياة النبات من ماء المطر، وفى الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء.

ثم تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة اخرى نمت من ماء المطر، إضافةً إلى بساتين النخيل والكروم والأشجار والفاكهة الاخرى: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ» «۲».

إنّ جملة «طُورِ سَينَاءَ» إشارة إلى جبل الطور المعروف فى صحراء سيناء أو ذات جانب

---

(۱) ويجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشرة النافذة فى معظم الأوقات.

(۲) صبغ الآكلين: غذاء يؤكل مع الخبز.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۵

وصفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ «الطور» يعنى الجبل، و «سيناء» تعنى ذات البركة والجمال والشجر).

«صبغ»: تعنى فى الأصل اللون، وبما أنّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق، لهذا اطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ.

بعد بيان جانب من أنعم اللَّه فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلى ذلك بحث جانب مهم من أنعم اللَّه وهباته فى عالم الحيوان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعمِ لَعِبْرَةً».

ثم تشرح الآية «العبرة» فتقول: «نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا». أجل إنّ الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملًا، ويمنح الجسم حرارة كبيرة، ويخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدرة اللَّه حيث يتمكّن من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوّثة.

ثم تضيف الآية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

كما يستفاد من الحيوانات فى الركوب فى البرّ، والسفن فى البحر «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

كل هذه الخصائص والفوائد فى الحيوان تعتبر- حقّاً- عبرة لنا، تعرّف الإنسان على ما خلق اللَّه من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر والثناء على اللَّه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۲۳) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (۲۴) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (۲۵)

منطق الجبناء المغرورين: تحدثت الآيات السابقة عن التوحيد ومعرفة اللَّه وأسباب عظمته فى عالم الخليقة، أمّا الآيات- موضع البحث والآيات المقبلة- فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء ومن خلال تاريخ حياتهم، حيث بدأت بأوّل أنبياء اولى العزم

والمنادى بالتوحيد نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ». أى: مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۶

أمّا الأشراف الأثرياء والمغرورون والملأ من الناس، وهم اللذين يملأون العين فى ظاهرهم، والفارغون فى واقعهم من قوم نوح عليه السلام: «فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ». وبهذا اعتبروا أوّل عيب له كونه إنساناً فاتّهموه بالسلطوية، وحديثه عن اللّه والتوحيد والدين والعقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثم أضافوا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلِكَةً». ولإتمام هذا الاستدلال الخاوى قالوا: «مَّا سَمِعْنَا بِهذَا فِى ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثّر فى معنويات هذا النبى الكبير، حيث واصل دعوته إلى اللّه، ولم يكن فى عمله دليل على رغبته فى الحصول على إمتياز على الآخرين، أو أن يتسلط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة اخرى إليه، هى الجنون الذى كان يتّهم به جميع أنبياء اللّه عبر التاريخ، حيث قالوا: «إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ».

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۲۹) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (۳۰)

خاتمة حياة قوم معاندين: استعرضت الآيات السابقة التهم التى وجّهها أعداء نوح عليه السلام إليه، إلّاأنّه يستدلّ من آيات قرآنية اخرى- بشكل واضح- أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السلام لم يتحدّد بهذه الامور، بل شمل كل وسيلة يمكن بها إيذاؤه، فى حين بذل جميع ما فى وسعه فى سبيل هدايتهم وإنقاذهم من براثن الشرك والكفر. وعندما يئس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّامجموعة صغيرة، دعا اللّه ليعينه، حيث نقرأ فى الآية الاولى: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ».

هنا نزل الوحى الإلهى، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السلام وأصحابه القلّة وهلاك المشركين المعاندين «فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۷

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك فى هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا.

وإستعمال عبارة «وحينا» يكشف لنا أنّ نوحاً عليه السلام تعلّم صنع السفينة بالوحى الإلهى.

ثم تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر اللّه، وعلامة ذلك فوران الماء فى التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كل نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر وانثى) واصعد به إلى السفينة: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ». إشارة إلى زوجة نوح عليه السلام وأحد أبنائه.

ثم أضافت الآية: «وَلَا تُخطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ».

وتقول الآية التالية: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجنَا مِنَ الْقَوْمِ الظلِمِينَ».

وبعد الحمد والثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالب الظلمة، ادعوه هكذا: «وَقُلْ رَّبّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ».

وقد أشارت الآية الأخيرة- من الآيات موضع البحث- إلى مجمل هذه القصة فقالت: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ». ففى هذه الحوادث التى جرت على نوح عليه السلام وإنتصاره على أعدائه الظالمين، ونزول أشدّ أنواع العقاب عليهم، آيات ودلائل لأصحاب العقول السليمة.

«وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ». أى إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۳۱) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۳۲) وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (۳۳) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (۳۴) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَاباً وَ عِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (۳۵) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (۳۶) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۳۷) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (۳۸) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (۳۹) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (۴۰) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۱)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۸

المصير المؤلم لقوم ثمود: تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام. ومنطقهم يتناغم ومنطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة. فهى تقول أوّلًا: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ».

«القرن»: مشتقّ من الإقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، وقياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتّبع ما تعارفته الأقوام المختلفة.

وبما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّانى، فقد بعث اللّه أنبياءه يدعون إلى توحيده ويقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية: «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وهذه هى الركيزة الأساسية لدعوة الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، اسّ جميع الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وبعدها أكّد رسول اللّه لهم القول: إنّكم وبعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك وعبادة الأوثان: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، وبعث اللّه النبى «صالح عليه السلام» لهدايتهم، إلّاأنّهم كفروا وطغوا فأهلكهم اللّه بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة).

ولننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذى أعلنه هذا النبى الكبير؟ يقول القرآن فى الآية التالية:

«وقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ».

أجل إنّ القوم بما كانوا يرون فى دعوة نبى اللّه خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: «وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخسِرُونَ».

ومن ثم أنكروا المعاد، الذى كان دوماً سدّاً منيعاً لاتّباع الشهوات وأرباب اللذات، وقالوا: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ». لتعيشون حياة جديدة «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ». فقد تساءل الكفار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثرت ذرّاتهم هنا وهناك؟ إنّ ذلك مستحيل.

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة اخرى لتحلّ محلّهم، ولا حياة بعد الموت: «إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۹

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

وأخيراً لخّصوا التّهم التى وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ».

وعندما طغى عناد الكفار، تجاسروا على اللّه، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معاجز أنبيائه بكل صلافة، وقد أتمّ اللّه حجّته عليهم، عندها توجّه هذا النبى الكبير إلى اللّه سبحانه وتعالى و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ». ربّاه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، واتّهمونى

بما شاؤوا وكذّبوا دعوتى.

فأجابه اللَّه عزّ وجل كما ذكرت الآية: «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَدِمِينَ». ألا إنّهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

وهكذا جرى «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سريعة خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بيّنت الآية الكريمة:

«فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً». أى: جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل «فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّلِمِينَ».

والغثاء، يعنى النباتات الجافّة المتراكمة والطافية على مياه السيول، كما يطلق الغثاء على الزبد المتراكم على ماء القدر حين الغليان، وتشبيه الأجسام الميتة بالغثاء دليل على منتهى ضعفها وإنكسارها وتفاهتها.

وهذا إستنتاج نهائى من كل هذه الآيات، فما قيل بصدد إنكار وتكذيب الآيات الإلهية والمعاد والعاقبة المؤلمة والنهاية السيئة لا تختص بجماعة معينة، بل تشمل جميع الظلمة عبر التاريخ.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (۴۲) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (۴۴)

هلاك الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر: بعد أن تحدّث القرآن عن قصة قوم نوح، أشار إلى أقوام اخرى جاءت بعدهم، وقبل النبى موسى عليه السلام حيث يقول: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ». لأنّ هذا أمر اللَّه وسنّته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۰

عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحقهم ودفع هذه المسيرة إلى أمام. ولهذه الأقوام تأريخ معين وأجل محدود: «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ». فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

«الأجل»: بمعنى العمر ومدّة الشىء، فالأجل المحتّم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، ولا تغيير فيه. إنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتّم».

وتكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى اللَّه حيث تقول: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا».

«تترا»: مشتقة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، ومن مجموعها يتيقّن الإنسان بصدقها.

إنّ معلّمى السماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّاأنّ الأقوام المعاندة كانوا يواصلون الكفر والإنكار، فإنّه: «كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ».

وعندما تجاوز هذا الكفر والتكذيب حدّه وتمّت الحجة عليهم. «فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا». أى: أهلكنا الامم المعاندة الواحدة بعد الاخرى ومحوناهم من الوجود.

وقد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداولها الناس «وَجَعَلْنَهُمْ أَحَادِيثَ». إشارة إلى أنّ كل امّة تتعرض للهلاك، ويبقى منهم بعض الأفراد والآثار هنا وهناك، وأحياناً لا يبقى منهم أىّ أثر. وهذه الامم المعاندة والطاغية كانت ضمن المجموعة الثانية.

وتقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة: «فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّايُؤْمِنُونَ».

وهؤلاء لم يكونوا بعيدين عن رحمة اللَّه فى هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضاً، لأنّ تعبير الآية جاء عامّاً يشمل الجميع.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْماً عَالِينَ (۴۶) فَقَالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹)

قيام موسى وهلاك الفراعنة: كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث اللَّه لهم رسلًا قبل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۱

موسى عليه السلام، وهلكوا. أمّا الآيات موضع البحث فقد تحدّثت باختصار جدّاً عن إنتفاضة موسى وهارون على الفراعنة ومصير هؤلاء القوم المستكبرين، فقالت:

«ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هرُونَ بَايتِنَا وَسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

إنّ «الآيـات» تعنى المعجزات التى أعطاها اللَّه لموسى بن عمران (الآيات التسع). وتقصد عبارة «سلطان مبين» المنطق القوى والبرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنة.

أجل بعثنا موسى وأخاه هارون بهذه الآيات وسلطان مبين «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

لعل ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، ولا يصلح أىّ بلد إلّابصلاح قادته، إلّاأنّهم «فَاسْتَكْبَرُوا» لأنّهم لم يرضخوا لآيات الحق والسلطان المبين.

والفراعنة كانوا مستكبرين طاغين، كما تقول الآية: «وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ».

ومن الدلائل الواضحة على إحساسهم بالإستعلاء، قولهم: «وَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عبِدُونَ» (۱). فقد تصدّوا لموسى وأخيه هارون بهذه الأدلة الخاوية، مخالفة منهم للحق «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ». وهكذا إنتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سدّاً مانعاً لدعوة موسى وهارون إلى اللَّه سبحانه.

وبدأت بعدها مرحلة تعليم وتربية بنى إسرائيل، فأنزل اللَّه فى هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للإهتداء بهذا الكتاب وتطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَات قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (۵۰)

آية اخرى من آيات اللَّه: أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام وامه مريم، فقالت:

«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً».

وقد استعملت «الآيـة» عبارة «ابن مريم» بدلًا من ذكر اسم عيسى، لجلب الإنتباه إلى حقيقة ولادته من ام دون أب بأمر من اللَّه، وهذه الولادة هى بذاتها من آيات اللَّه الكبيرة.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسبغها اللَّه على هذه الامّ الزكية وإبنها فتقول: «وَءَاوَيْنهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَات قَرَارٍ وَمَعِينٍ». «الربوة»: مشتقة من «الربا» بمعنى الزيادة والنمو،

---

(۱) يطلق على الإنسان «البشر»، لأنّ بشرته وجلده عارية، خلافاً لما عليه الحيوانات من لباس طبيعى خاص بكلّ نوع منهما.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۲

وتعنى هنا المكان المرتفع؛ و «المعين»: مشتق من «المعن» بمعنى جريان الماء. إنّ هذا المكان الآمن هو مولد السيد المسيح عليه السلام فى صحراء القدس، وقد جعله اللَّه أمناً لهذه الام والوليد، وفجّر لهما ماء معيناً ورزقهم من النخل الجاف رطباً جليّاً.

فقد كانت الآية دليلًا على حماية اللَّه تعالى الدائمة لرسله ولمن يدافع عنهم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (۵۴)

جميع الامة يد واحدة: تحدثت الآيات السابقة عن ماضى الأنبياء واممهم، أمّا هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبتِ وَاعْمَلُوا صلِحًا إِنّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

بيّنت هذه الآية ثلاثة مؤثّرات فى العمل الصالح:

الأوّل: طيب الغذاء الذى يورث صفاء القلب ونقاوته.

والثانى: شكر اللَّه تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبة اللَّه سبحانه للأعمال كلها.

ثم دعت الآية جميع الأنبياء وأتباعهم إلى توحيد اللَّه والتزام تقواه: «وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فالإختلافات الموجودة بينكم، وكذلك بين أنبيائكم ليست دليلًا على التعدّدية إطلاقاً. «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ». فنحن بين يدى دعوة واعية إلى وحدة الجماعة والقضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس امّة واحدة، كما أنّ اللَّه ربّهم واحد أحد.

ولهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتّباع تعاليم موحدة، ذات أساس واحد فى كل مكان.

وقد حذّرت الآية التالية البشر من الفُرقة والاختلاف، بعد أن تمّت فى الآية السابقة دعوتهم إلى التمسك بالوحدة، فقالت:

«فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا». وممّا يثير الدهشة أنّ «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

«الزبر»: جمع «زبرة» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه، يجمعه الراعى ليفصله عن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۳

باقى الشعر، ثم أطلقت هذه الكلمة على كل شيء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا». إشارة منها إلى تفرّق الامّة إلى مجموعات وفئات مختلفة.

تستعرض الآية حقيقة نفسية واجتماعية هى أنّ التعصب الجاهلى للأحزاب والفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة، لأنّ كلًّا منها قد اتّخذ سبيلًا خاصّاً به.

وهذه الحالة نتجت عن حبّ الذات المفرط والعناد، وهما أكبر عدوّ للحقيقة، ولوحدة الامة.

ولهذا تقول الآية الأخيرة هنا: «فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ». أى: اتركهم على حالهم حتى يأتى أجلهم، أو يأتيهم اللَّه بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصرّوا على البقاء فى جهلهم ومتاهتهم.

«حين»: قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

«الغمرة»: على وزن «ضربة» فهى بالأصل من «غمر» أى إتلاف كل شيء، ثم أطلق غمر وغامر على الماء الكثير الذى يزيل كل شيء يواجهه، ويواصل جريانه، ثم أطلق على الجهل والبلايا التى يغرق فيها الإنسان، كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة والضياع والجهل والضلال.

أ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (۵۹) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (۶۰) أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (۶۱)

تعرّض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب والمجموعات المعاندة التى غلب عليها التعصب وحبّ الذات، بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانية: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ» «۱». هو من أجل أنّنا: «نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ». فهل يتصوّرون أنّ أموالهم الوافرة وكثرة أولادهم دليل على أنّهم على حق، ودليل على

---

(۱) وهذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن فى قضيّة (الإستدراج فى النعم).

«نمدّ»: مشتقة من «الإمداد» وهو إتمام النقص والحيلولة دون القطع، وإيصال الشىء إلى نهايته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۴

قرب منزلتهم من اللَّه؟ «بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ» أنّ كثرة أموالهم وأولادهم نوع من العذاب، أو مقدمة للعذاب ولعقاب اللَّه، إنّهم لا يدركون

أنّ ما أغدق عليهم ربّهم من نعم إنّما هو من أجل أن يتورّطوا فى العقاب الإلهى، ويمسى عقابهم أشد ألماً. وبعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين والمسارعين فى الخيرات، وتبيّن صفاتهم الرئيسية، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ». و «الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والتقديس.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ هُم بَايتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

وتأتى بعد مرحلة الإيمان بآيات اللَّه، مرحلة تنزيهه عن كل شبهة وشريك، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَايُشْرِكُونَ».

بعد هذا تأتى مرحلة الإيمان بالمعاد والبعث، والإهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التى تساعدهم عملياً فى السيطرة على أعمالهم وأقوالهم، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ».

وبعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: «أُولئِكَ يُسرِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ».

وقد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أوّلًا بالخوف الممتزج بتعظيم اللَّه، وهو الدافع إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه، وانتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمة العدل الإلهى، الذى يشكّل الشعور بالمسؤولية، ويدفع الإنسان إلى كل عمل طيّب، فهى تبيّن أربع خصال للمؤمنين ونتيجةً واحدةً. (فتأمّلوا جيداً).

وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هـذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُون ذلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذَا أَخَـذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷)

بما أنّ خصال المؤمنين هى سبب القيام بالأعمال الخيّرة التى أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأنّ هذه الخصال والقيام بهذه الأعمال لا تتيسّر لكل أحد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۵

فتجيب أوّل آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: «وَلَا نُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وكل إنسان يكلّف حسب عقله وطاقته.

وهذه إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعية هى فى حدود طاقة الإنسان، وأنّها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، وكما يقول علماء اصول الفقه: إنّ هذه القاعدة حاكمة على جميع الواجبات الشرعية ومقدمة عليها.

وقد يُسأل: كيف يُحاسب كل البشر على أعمالهم كلّها صغيرها وكبيرها؟

فتجيب الآية: «وَلَدَيْنَا كِتبٌ يَنطِقُ بِالْحَقّ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى اللَّه العلى القدير.

ولكون هذه الحقائق مؤثّرة فى الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأنّ هؤلاء الكفار المعاندين غارقون فى دوّامة الجهل والغفلة لدرجة أنّهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مّنْ هذَا».

وتضيف هذه الآية: «وَلَهُمْ أَعْملٌ مِّن دُونِ ذلِكَ هُمْ لَهَا عمِلُونَ».

المهمّ هو الإنتباه إلى أنّ مصدر الأعمال الشريرة يكمن فى إنغمار القلوب فى الجهالة.

ولكن هؤلاء المترفين يبقون فى هذه الغفلة ما داموا فى نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدة العذاب الإلهى، كما تقول الآية: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَرُونَ».

فيخاطبون: «لَاتَجَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَاتُنصَرُونَ».

وتكشف الآية التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم: «قَدْ كَانَتْ ءَايتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقبِكُمْ تَنكِصُونَ». بدلًا من الاستفادة منها والإنتباه للواقع.

«تنكصون»: مشتقة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

«أعقاب»: جمع «عقب» على وزن «فَعِل» وتعنى عقب القدم.

وهذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاماً غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقرى على عقبى قدميه.

ثم إنّه لا يرجع إلى الوراء لمجرد سماعه آيات اللَّه، وإنّما يصبح ممن وصفتهم الآية: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ».

وإضافةً إلى ذلك: «سمِرًا تَهْجُرُونَ». أى يتسامرون فى لياليهم ويتحدثون عن النبى والقرآن بالباطل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۶

«سامراً»: مشتقة من «سَمَرَ» على وزن «نصر» بمعنى التحدّث ليلًا.

«تهجرون»: مشتقة من «هَجْر» وتعنى بالأصل الإبتعاد والانفصال، وقد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض، لأنّ كلامه فى تلك الحالة غير سليم، ويبعث على النفور كما أنّ الهُجر (على وزن كُفر) يعنى السباب، وهو أيضاً يبعث على الإبتعاد والقطيعة.

وقد جاءت كلمة «تهجرون» فى الآية بالمعنى الأخير، فتقول: إنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخّرة من الليل، وهم يهذون ويكيلون السباب والشتائم كالمرضى.

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۷۲) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (۷۴)

أعذار المنكرين المختلفة: تحدّثت الآيات السابقة عن إعراض الكفار وإستكبارهم إزاء الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله. وتناولت هذه الآيات أعذارهم فى هذا المجال والردّ عليهم، وشرحت الدوافع الحقيقية لإعراض المشركين عن القرآن والرسول صلى الله عليه و آله، ويمكن تلخيصها فى خمس مراحل:

الاولى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ». فأوّل سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكّر فى مضمون دعوة النبى صلى الله عليه و آله ولو تفكّروا مليّاً لما بقيت مشكلة لديهم.

وفى المرحلة الثانية تقول الآية: «أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ». سألت الآية مستنكرةً: أكانت الدعوة إلى التوحيد والمعاد، والهدى إلى الأعمال الصالحة مختصة بهم دون آبائهم الأوّلين، ليحتجّوا بأنّها بدعةً، ويقولوا: لماذا لم يبعثه اللَّه للأوّلين، وهو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادىء له مضمون سائر الرسالات التى حملها الأنبياء عليهم السلام فهذا التبرير غير منطقى ولا معنى له.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۷

وفى المرحلة الثالثة تقول الآية: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». أى: إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حق، إلّاأنّ هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، فيحتمل أن نُخدع بكلامه، ولكنّهم يعرفون ماضيك جيّداً، وكانوا يدعونك محمّداً الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانك، ويعرفون جيّداً والديك وقبيلتك، فلا حجة لهم.

وفى المرحلة الرابعة تقول الآية: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ». أى إنّه مجنون، فبعد إعترافهم بأنّك لست مجهولًا بالنسبة لهم، إلّاأنّهم يشكّكون فى سلامة عقلك وينسبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلًا على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفى هذه الحجة: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ». وكلامه شاهد على هذه الحقيقة، ويضيف: «وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كرِهُونَ».

أجل، إنّ كلمات الرسول راشدة حكيمة، إلّاأنّهم ينكرونها لعدم إنسجامها مع أهوائهم النفسية، فألصقوا به تهمة الجنون فى الوقت الذى لا ضرورة فى توافق الحق مع رغبات الناس: «وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ».

لأنّه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنّها تميل إلى الشر والفساد غالباً.

وتأكيداً لـذلك تقول الآيـة: «بَلْ أَتَيْنهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ». أى: منحناهم القرآن الذى هو أساس للذكر والتوجه إلى اللّه، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلّاأنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يُضيء لهم درب السعادة والشرف.

وفى المرحلة الخامسة تقول الآيـة: هـل أنّ عـذرهم فى فرارهم من الحق هو أنّك تريـد منهم أجراً على دعوتـك: «أَمْ تَسَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

والقرآن الكريم بإيضاحه هذه المراحل الخمس برهن على أنّ هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحق، وأنّ أعذارهم فى إنكار الحق أعذار واهية.

وجاءت الآية التالية باستنتاج عام لكل ما مضى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

ورغم أنّ الروايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية على عليه السلام، إلّاأنّها تكشف عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالقرآن والإيمان بالمبدأ والمعاد والتقوى والجهاد والعدل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۸

وتستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعية لهذا الموضوع، فتقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ عَنِ الصّرَاطِ لَنَكِبُونَ».

«نـاكب»: مشتقة من «النكب» و «النكـوب» أى الانحراف عن الطريق. «نكبت الـدنيا» تقع فى مقابل إقبال الـدنيا، وتعنى إدبار الـدنيا وإعراضها عن المرء.

والصراط يقصد به هنا ما فى الآية السابقة.

أوضحت الآيات السابقة عدداً من صفات القادة إلى طريق الحقّ، فهم المعروفون بالصلاح والإستقامة.

ويواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم وحقدهم عليهم.

والصفة الاخرى للأنبياء أنّهم لم يطلبوا أجراً من الناس.

وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۵) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (۷۶) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۷) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (۷۸) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۹) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۸۰)

طرق التوعيـة الإلهيـة المختلفـة: عرضت الآيات السابقـة الحجـج التى يتـذرّع بها منكرو الحق فى رفض الرسالات وإيذاء الأنبياء عليهم السـلام، وتناولت هـذه الآيات إتمام الحجـة عليهم من قبل اللّه تعالى وتوعيتهم. فتقول أوّلًا: إنّنا تارةً نشـملهم برعايتنا ونرزقهم من وفير النعمة لينتبهوا، ولكن: «وَلَوْ رَحِمْنهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْينِهِمْ يَعْمَهُونَ».

واللّه تعالى يبتليهم لعلهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكن طائفة غالبة منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذل:

«وَلَقَدْ أَخَذْنهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۹

فاللّه تعالى يواصل هذه الرحمة والنعمة والعقوبات، والمشركون يواصلون طغيانهم وعنادهم: «حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» «۱».

الواقع، أنّ نوعين من العقـاب الإلهى: أوّلهما «عقاب الإبتلاء»، وثانيهما «عقاب الإستيصال» والإقتلاع من الجـذور، والهـدف من العقاب الأوّل وضع الناس فى صعوبات وآلام ليدركوا مدى ضعفهم وليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثانى الذى ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، وتطهيرها من عراقيلهم.

ثم تناول القرآن المجيد القضية من باب آخر، فعدّد النعم الإلهية لدفع الناس إلى الشكر: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصرَ وَالْأَفِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

والتأكيد على (الاذن والعين والعقل) لأنها الأجهزة التى بها يتعرف الإنسان على المحسوسات والقضايا، فالأشياء الحسيّة يبلغها بالعين والاذن، والقضايا غير الحسية يدركها بالعقل.

وتناولت الآية اللاحقة خلق اللَّه سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: «وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ» «۲».

وبما أنّه- جلّ إسمه- خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّة ثانية، ثم يبعثكم: «وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

ولو فكّرتم فى خلقكم من تراب لا قيمة له، لدلّكم على خالق الوجود سبحانه، وعرّفكم على كريم لطفه بكم وإحسانه إليكم، وقادكم إلى الإيمان به وبالمعاد.

وبعد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآية المذكورة آنفاً دلائل اخرى من بديع صنع اللَّه تعالى «وَهُوَ الَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَفُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وبهذا الترتيب بدأ البيان القرآنى من الدافع لإستيقاظ القلب وإنبعاثه على معرفة ربّه سبحانه وإنتهى بذكر بعض أهمّ الآيات الأنفسية والآفاقية.

---

(۱) «المبلس»: كلمة مشتقة من «الإبلاس» بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدّة أثر الحادثة، وتدفع بالإنسان إلى الصمت والحيرة واليأس.

(۲) «ذرأ»: مشتقة من الذرء (على وزن زرع)، وهى فى الأصل بمعنى الخلق والإيجاد والإظهار.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۰

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (۸۱) قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۸۲) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۸۳) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۸۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۸۶) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۸۷) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۸) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (۸۹) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۹۰)

دعت الآيات السابقة منكرى اللَّه والمعاد إلى التفكر فى خلق عالم الوجود وآيات الآفاق والأنفس، وأضافت هذه الآيات أنّ هؤلاء تركوا عقولهم واتبعوا أسلافهم وقلّدوهم تقليداً أعمى: «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ».

ثم إنّ هؤلاء ملكهم التعجب و: «قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

إنّ ذلك لا يُصدّق، «لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هذَا مِن قَبْلُ». فكانت وعوداً كاذبة، و «إِنْ هذَا إِلَّا أَسطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

ولكون الكفار والمشركين أشدّ خوفاً من اليوم الآخر وما فيه من هول الحساب وعدل الكتاب، وسدّدت الآيات موضع البحث إلى هذا المنطق الواهى من ثلاث طرق.

ومما يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين إعترافاً بكل مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم. يقول أوّلًا: «قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

ثم تضيف الآية أنّهم يؤمنون باللَّه خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، وسيجيبونك و: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». فأجبهم: «قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». كيف تتصورون إستحالة إحياء الموتى بعد إعترافكم الصريح؟

ثم يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّموَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

فيأتى الجواب نابعاً من الفطرة التى فطر اللَّه الناس عليها، وهى الإعتراف بربوبيته تعالى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۱

«سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». وبعد هذا الإعتراف الواضح فلماذا لا تخافون اللَّه، ولا تعترفون بالمعاد وبعث الإنسان مرّة ثانية: «قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

واسألهم مرّة اخرى عن سيادة اللَّه على السماوات والأرض: «قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ». ومن الذى يجير اللاجئين وجميع المحرومين ولا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

فيعترفون بأنّ العالم ومالكيته وحكومته وإجارة الآخرين يعود للَّهفقط: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». «قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ». أى: كيف تقولون: إنّ الرسول صلى الله عليه و آله سحركم رغم كل هذا الإعتراف والإقرار منكم؟!

وأخيراً يقول القرآن فى عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنّه ليس سحراً ولا شعبذة ولا شيء آخر: «بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ».

«الأساطير»: جمع «اسطورة». قال بعض اللغويين: إنّها مشتقة من «السطر» بمعنى الصفّ، فيطلق على الكلمات التى إصطفّت فى خطّ واحد لفظ السطر. فالاسطورة: الكتابة أو السطور التى تركها لنا الآخرون، ولأنّ كتابات القدماء تحتوى على أساطير خرافية، تطلق الأساطير على الحكايات والقصص الخرافية الكاذبة. وقد تكرّرت كلمة الأساطير فى القرآن المجيد تسع مرّات، وجميعها جاء على لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء اللَّه تعالى.

«الملكوت»: مشتقة من «المُلك» (على وزن كُفر)، بمعنى الحكومة والمالكية.

«العرش»: يعنى السرير ذا القوائم العالية، ويطلق أحياناً على السقف وشبهه، وعندما تتعلق هذه الكلمة باللَّه سبحانه، فإنّها تعنى عالم الوجود كلّه.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۹۱) عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۹۲)

الشرك يجرّ العالم نحو الدمار: تناولت الآيات السابقة بحوثاً فى المعاد والملك والحكم والربوبية، أمّا هذه الآيات فقد تناولت نفى الشرك، وإستعرضت جانباً من إنحرافات المشركين، وردّتها عليهم بالأدلة الساطعة، قائلة: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۲

إنّ المسيحيين يرون النبى عيسى عليه السلام إبناً للَّه، والمشركون يرون الملائكة بنات للَّه، وهذا أوضح مظهر للشرك.

ثم بيّنت الآية بطلان الشرك: أنّه لو كان هناك آلهة متعدّدة تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصة به يحكم عليها ويدبّر امورها.

وسيكون تبعاً لذلك أنظمة متعددة للعالم، لأنّ كل واحد من الآلهة يدير منطقته بنظام خاص: «إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ».

وهذا ينافى وحدة النظام الحاكم فى هذا العالم.

«وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ». وهذه نتيجة محتومة لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبة الآخرين والهيمنة عليهم، وهذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكّك النظام الموحد السائد فى العالم.

وجاء فى ختام الآية تقديس للَّهسبحانه «سُبْحنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». و الآية التالية تردّ على المشركين المغالطين فتقول: «عِلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهدَةِ». أى: إنّ اللَّه يعلم ظاهر الأشياء وباطنها، فكيف تتصورون وجود إله آخر تعرفونه أنتم ولا يعرفه الربّ الذى خلقكم والذى يعلم الغيب والشهادة فى هذا العالم؟

وبهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافية: «فَتَعلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وختام هذه الآية يشبه ختام الآية (۱۸) من سورة يونس، كما أنّ هذه العبارة تهديد موجّه للمشركين بأنّ اللَّه الذى يعلم السرّ والعلن، يعلم ما تقولونه، وسيحاسبكم عليه يوم القيامة فى محكمته العادلة.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (۹۳) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۹۴) وَ إِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (۹۵) ادْفَعْ بِالَّتِى

هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا یَصِفُونَ (۹۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّیَاطِینِ (۹۷) وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ (۹۸)
مع مخاطبة هذه الآیات للرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، واصلت مقاصد الآیات السابقة فی تهدید الکفار والمشرکین المعاندین بأنواع العذاب الإلهی: «قُلْ رَّبّ إِمَّا تُرِیَنّی مَا یُوعَدُونَ». «رَبّ فَلَا تَجْعَلْنِی فِی الْقَوْمِ الظلِمِینَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۳

والمراد بهذا العذاب أنّه العقاب الدنیوی الذی ابتلی اللَّه به المشرکین.

وتأکیداً لهذا الموضوع ولنفی کل شک لدی الأعداء، ولتسلیة خاطر الرسول صلی الله علیه و آله والمؤمنین، أضافت الآیة اللاحقة: «وَإِنَّا عَلَی أن نُّرِیَکَ مَا نَعِدُهُمْ لَقدِرُونَ».

ولقد تجلّت قدرة اللَّه سبحانه فی ساحات مختلفة بعد ذلک.

ثم یأمر اللَّه الرسول صلی الله علیه و آله باتباع سیاسة اللین فی الدعوة إلی الهدی ودین الحق: «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَةَ» «۱». أی: ادفع عدوانهم وسیئاتهم بالعفو والصفح والإحسان، وکلامهم البذی بالکلام المنطقی الموزون: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا یَصِفُونَ». واللَّه یعلم أنّ أعمالهم القبیحة وکلامهم البذیء وأذاهم القاسی یؤلم الرسول صلی الله علیه و آله، إلّاأنّه عزّ وجل یدعو إلی عدم الردّ بالمثل، بل یوجب أن یکون الردّ بالتی هی أحسن. وهذا خیر سبیل لإیقاظ الغافلین والمخدوعین.

ثم نقرأ أمراً ربّانیاً بالإستعاذة باللَّه من مکائد الشیطان: «وَقُلْ رَّبّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّیطِینِ». إنّه دعاء بالإنقاذ من تربّص الشیطان ومکره الخفی، ولا یقف الدعاء عند همزات الشیاطین بل یستمر فی الإستعاذة من حضورهم عنده: «وَأَعُوذُ بِکَ رَبّ أَن یَحْضُرُونَ». أی: حضور الشیاطین فی اجتماعات النبی صلی الله علیه و آله الذی یؤدّی إلی إغفال المجتمعین وإضلالهم، فعلی محبّی الحق والذابّین عنه وناشدیه أن یفوّضوا أمرهم إلی اللَّه، لیحفظهم من وساوس الشیاطین ومکائدهم.

حَتَّی إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (۹۹) لَعَلِّی أَعْمَلُ صَالِحاً فِیمَا تَرَکْتُ کَلَّا إِنَّهَا کَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۱۰۰)

طلب المستحیل: تابعت هاتان الآیتان ما تناولته الآیات السابقة من عناد المشرکین والمذنبین وتمسکهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخیم حین الموت. وأنّهم یستمرون فی باطلهم: «حَتَّی إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ».

حینما یجبر المذنب والمشرک علی ترک الدنیا لینتقل إلی عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة والغرور، فیری بام عینه مصیره المؤلم، فلا مال ولا جاه، فقد عاد کل ما یعنیه هباءً فی

(۱) والجدیر بالذکر أنّ هذا الأمر خاصّ بحالات لا یسیء العدو الاستفادة من هذا المبدأ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۴

هباءٍ، وهو یشاهد الیوم عاقبة أمره، وما إرتکبه من ذنوب ومعاص، فیرتفع صراخه وعویله: «قَالَ رَبّ ارْجِعُونِ». ارجعنی یا ربّ «لَعَلّی أَعْمَلُ صلِحًا فِیمَا تَرَکْتُ». ولکن قانون الخلق العادل لا یسمح بمثل هذه العودة، لا یسمح بعودة الصالح ولا الطالح، فیأتیه النداء الدامغ «کَلَّا». «إِنَّهَا کَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». کلام لم یصدر من أعماقه، ومتی هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبیحة.

وتشیر الآیة فی نهایتها إلی عالم البرزخ الغامض بعبارة قصیرة ذات دلالة کبیرة «وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ» «۱».

فَإِذَا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَ لَا یَتَسَاءَلُونَ (۱۰۱) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِینُهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۲) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِینُهُ فَأُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِی جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (۱۰۳) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِیهَا کَالِحُونَ (۱۰۴)

جانب من عقاب المسیئین: تحدّثت الآیات السابقة عن عالم البرزخ، وأعقبتها آیات تناولت القیامة بالبحث، وتناولت کذلک جانباً من وضع المذنبین فی عالم الآخرة. فهی تقول أوّلًا: «فَإِذَا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَلَا یَتَسَاءَلُونَ».

من المعلوم- بالإستناد إلى آيات القرآن الكريم- أنّ النفخ فى الصور يجرى مرتين: اوليهما فى نهاية هذا العالم، حيث يموت مَن فى الأرض والسماوات، وفى ثانيتهما يبدأ بعث من فى القبور ليعودوا لحياة جديدة وليستعدّوا للحساب والجزاء.

إنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

اوليهما: إنتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الاسرة والقبيلة التى تسود حياة الناس فى هذا العالم تؤدّى فى كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم فى حلّ مشاكلهم، أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كل إنسان وعمله، فلا معين له، ولا

---

(۱) «البرزخ»: فى الأصل الشىء الذى يقع حائلًا بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين، ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۵

نفع فى ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهى، هو يوم كما اطّلعنا عليه فى مطلع سورة الحج: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُم بِسُكَرَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ».

وبعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب وقياس الأعمال بميزان خاص بيوم القيامة: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الموازين»: جمع «ميزان» وهو وسيلة للقياس، وكما ورد فى الأحاديث المختلفة أنّه ميزان تقاس به الأعمال والناس، وهم قادة الإسلام الكبار، فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» «۱».

وعلى هذا فإنّ الرسل وأوصياءهم هم الذين يقاس الناس وأعمالهم بهم، ليتبيّن إلى أىّ درجة يشبهونهم.

«وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ». وهم الذين فقدوا الإيمان والعمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة لأنّهم خسروا رأسمال وجودهم: «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خلِدُونَ».

عبارة «خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ» تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكبر رأسمال لهم- أى وجودهم- فى سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

وتشرح الآية التالية عذابهم الأليم: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ». ألسنة النار ولهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف، «وَهُمْ فِيهَا كلِحُونَ» وهم من شدة الألم وعذاب النار، فى عبوس واكفهرار.

«تلفح»: تعنى فى الأصل ضربة السيف، وقد وردت هنا كناية، لأنّ لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، وريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

«كالح»: بمعنى التعبيس واكفهرار الوجه.

---

(۱) بحار الأنوار ۷/ ۲۵۲.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۶

أ لَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۱۰۵) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (۱۰۶) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (۱۰۷) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ (۱۰۸) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۰۹) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (۱۱۰) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ

الْفَائِزُونَ (۱۱۱)

تحدثت الآيات السابقة عن العذاب الأليم لأهل النار، وتناولت الآيات- موضع البحث- إستعراض جانب من كلام اللَّه مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه وتعالى بعتاب: «أَلَمْ تَكُنْ ءَايتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ».

وهم يعترفون فى ردّهم: «قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالّينَ».

«الشقوة» و «الشقاوة»: نقيض السعادة، وتعنى توفّر وسائل العقاب والبلاء. أو بتعبير آخر: هى الشر والبلاء الذى يصيب الإنسان.

ولعلّهم فى إعترافهم هذا يودّون نيل رضى اللَّه ورحمته، لهذا يضيفون مباشرةً: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظلِمُونَ».

يقولون ذلك وكأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة دار جزاء وليست دار عمل، وأنّ العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم اللَّه سبحانه وتعالى بقوة: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلّمُونِ».

وعبارة «اخسؤا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرد الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعنى تحقيره ومعاقبته.

ثم يبيّن اللَّه عزّ وجل دليل ذلك بقوله: هل نسيتم، «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ». ولكنّكم كنتم تستهزئون بهم إلى درجة أنّ كثرة الإستهزاء والسخرية منهم أنساكم ذكرى: «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ» على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم «إِنّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأمّا أنتم فقد إبتليتم بأسوأ حالة، وبأكثر العذاب ألماً، ولا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقونه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۷

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (۱۱۲) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (۱۱۳) قَالَ إنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱۴) أ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (۱۱۵) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (۱۱۶)

الدنيا وعمرها القصير: بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانباً من عذاب أهل النار الأليم، عقّبت الآيات- موضع البحث- ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجه من قبل اللَّه تعالى لأهل النار للإستهانة بهم. تقول الآية الاولى: «قَالَ كَمْ لَّبِثْتُم فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ». يخاطبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة قائلًا: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

إلّا أنّهم يرون فى هذه المقارنة أنّ الدنيا قصيرة جدّاً: «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

والحقيقة أنّ الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابة صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة والعقاب غير المحدود.

وللتأكيد أو للردّ بدقة قالوا: «فَسَلِ الْعَادّينَ». أى: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد ويحسبوها بدقة حين مقارنة بعضها مع بعض.

وهنا يؤنّبهم اللَّه ويستهزىء بهم: «قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

وإستعملت الآية اسلوباً مؤثراً آخر لإيقاظ هذه الفئة وتعليمها: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ».

هذه العبارة الموجزة والعميقة تبيّن واحداً من أقوى الأدلّة على البعث وحساب الأعمال والجزاء، وتعنى أنّ الحياة الدنيا تصبح عبثاً إن لم تكن القيامة والمعاد، فالدنيا بما فيها من مشاكل وما وضع فيها اللَّه من مناهج ومسؤوليات وبرامج، تكون عبثاً وبلا معنى إن كانت لأيّام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك فى المسائل الآتية.

وبما أنّ عدم عبثيّة الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية: «فَتَعلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۱۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۸

المفلحون والخائبون: بما أنّ الآيات السابقة تحدثت عن قضية المعاد، واستعرضت الصفات الإلهية، فإنّ الآية الأُولى أعلاه تناولت

التوحيد نافيةً الشرك مؤكّدة للمبدأ والمعاد في قوله تعالى: «وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ لَابُرْهنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ».

أجل، إنّ المشركين ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته وإشراق حقيقته، ويقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه.

وفى النهاية تقول الآية: «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ».

ما أجمل بداية هذه السورة «قَدْ أَفلح المؤمنون» وما أجمل نهايتها المؤكدة لبدايتها: «لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ» هذه هى صورة جامعة لحياة المؤمنين والكافرين من البداية إلى النهاية.

وختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجّهت الكلام إلى الرسول صلى الله عليه و آله: «وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

والآن وقد إختارت فئة الشرك سبيلًا، وجارت فئة اخرى وظلمت، فأنت أيّها الرسول ومن معك تدعون اللّه ربّكم أن يغفر لكم ويرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

«نهاية تفسير سورة المؤمنون»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۹

۲۴ سورة النّور

محتوى السورة: يمكن اعتبار هذه السورة خاصة بالطهارة والعفة، وكفاح الإنحطاط الخلقى، والقرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هى:

۱- بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية والرجل الزانى، وهو ما ورد حاسماً فى الآية الثانية من هذه السورة.

۲- بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلّابشروط مشدّدة للغاية.

ثم طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من إتهام إحدى نساء النبى صلى الله عليه و آله.

۳- وتناولت الآية أحد السبل المهمة لاجتناب التدهور الأخلاقى، من أجل ألا يتصور أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسى المهمة ناجم عن هاتين المسألتين.

۴- وكخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف، دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف.

۵- وبيّنت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادىء تربية الأولاد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۳۹۹

۶- وجاء ذكر مسائل خاصة بالتوحيد والمبدأ والمعاد والإمتثال لتعاليم النبى صلى الله عليه و آله. كل ذلك خلال البحوث المطروحة. وتطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالمية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور وحصّنوا بها نساءكم، فإنّ من أدمن قراءتها فى كل ليلة أو فى كل يوم لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت. فإذا مات شيعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون اللّه له حتى يدخل إلى قبره».

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

حدّ الزانی والزانیة: سمّیت هذه السورة بالنور لأنّ آیة النور فیها من أهم آیاتها، واولی آیات هذه السورة المبارکة بمثابة إشارة إلی مجمل بحوث السورة: «سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا وَأَنزَلْنَا فِیهَا ءَایتٍ بَیِّنتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ».

إنّ «سورة» بناء جمیل مرتفع، وهذه الکلمة تطلق أیضاً علی قسم من بناء کبیر، وتطلق السورة علی أقسام القرآن المختلفة المفصولة بعضها عن بعض.

إنّ هذه العبارة إشارة إلی کون أحکام ومواضیع هذه السورة- من اعتقادات وآداب وأوامر إلهیة- ذات أهمیة فائقة، لأنّها کلها من اللَّه.

وبعد هذا الإستعراض العام، تناولت السورة أوّل حکم حاسم للزانی والزانیة: «الزَّانِیَةُ وَالزَّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ». ولتأکید هذا الحکم قالت: «وَلَا تَأْخُذْکُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِی دِینِ اللَّهِ إِن کُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ».

وأشارت الآیة فی نهایتها إلی مسألة اخری لإکمال الاستنتاج من العذاب الإلهی «وَلْیَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِینَ».

وتشتمل هذه الآیة علی ثلاثة تعالیم:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۱

۱- الحکم بمعاقبة النساء والرجال الذین یمارسون الزنا.

۲- إقامة هذا الحکم الإلهی بعیداً عن الرأفة بمن یقام علیه.

۳- أوجب اللَّه حضور عدد من المؤمنین فی ساحة معاقبة الزناة لیتعظ الناس بما یرون من إقامة حکم اللَّه العادل علی المذنبین.

وبعد بیان حدّ الزنا، جاء بیان حکم الزواج من هؤلاء فی الآیة الثالثة کما یلی: «الزَّانِی لَایَنکِحُ إِلَّا زَانِیَةً أَوْ مُشْرِکَةً وَالزَّانِیَةُ لَا یَنکِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِکٌ وَحُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ».

إنّ الآیة تبیّن واقعة ملموسة، فالمنحطون یختارون المنحطات، وکذلک یفعلن هنّ فی اختیارهن، بینما یَسْمو المتطهّرون المؤمنون عن ذلک. کما تبیّن فی هذه العبارة حکماً شرعیاً وأمراً إلهیاً یمنع المؤمنین من الزواج مع الزانیات، ویمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقیة کالأمراض الجسمیة المعدیة فی الغالب.

وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِینَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَ أُولئِکَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۴) إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵)

عقوبة البهتان: قد یستغلّ المعترضون ما نصّت علیه الآیات السابقة من عقوبات شدیدة للزانی والزانیة فیسیئون للمتطهّرین، فبیّنت الآیات اللاحقة هنا عقوبات شدیدة للذین یرمون المحصنات. تقول الآیة: «وَالَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» «۱». فالأشخاص الذین یتّهمون النساء العفیفات بعمل ینافی العفة (أی: الزنا)، ولم یأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات إدعائهم. فحکمهم: «فَاجْلِدُوهُمْ ثَمنِینَ جَلْدَةً». وتضیف الآیة حکمین أخرین: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهدَةً أَبَدًا وَأُولئِکَ هُمُ الْفسِقُونَ».

«القذف»: إذا جری بلفظ صریح، وبأیّ لغة وأیّة صورة فحدّه هو ثمانون جلدة، وإذا لم یکن صریحاً فیعزّر القاذف.

وهذا التشدید فی الحکم المشرّع لحفظ الشرف والطهارة، لیس خاصاً بهذه المسألة، ففی کثیر من التعالیم الإسلامیة نراه ماثلًا أمامنا.

(۱) «الرّمی» فی الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وقد استخدمت الکلمة هنا کنایة عن اتّهام الأشخاص وسبابهم ووصفهم بما لا یلیق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۲

وفی الکافی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «إذا اتّهم المؤمن أخاه انماث الإیمان من قلبه کما ینماث الملح فی الماء».

ولکن المولی العزیز الحکیم سبحانه وتعالی لا یسدّ باب رحمته فی وجه التائبین، الذین تابوا من ذنوبهم وطهّروا أنفسهم، وندموا علی

ما فرّطوا، وسعوا فی تعویض ما فاتهم من البرّ «إِلَّا الَّذِینَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِکَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

فمعنی ذلک قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالته الحکم بفسقهم.

وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِینَ (۶) وَ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَیْهِ إِنْ کَانَ مِنَ الْکَاذِبِینَ (۷) وَ یَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْکَاذِبِینَ (۸) وَ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَیْهَا إِنْ کَانَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۹) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَکِیمٌ (۱۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتیت لکاع وقد یفخذها رجل، لم یکن لی أن اهیجه حتی آتی بأربعة شهداء، فواللَّه ما کنت لآتی بأربعة شهداء حتی یفرغ من حاجته ویذهب، وإن قلت ما رأیت فإنّ فی ظهری لثمانین جلدة.

وبنزول الآیات السابقة علم المسلمون الحل السلیم لهذه المشکلة.

التّفسیر

عقاب توجیه التهمة إلی الزوجة: یستنتج من سبب النّزول أنّ هذه الآیات فی حکم الإستثناء الوارد علی حدّ القذف، فلا یُطبق حدّ القذف (ثمانین جلدة) علی زوج یتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ویمکن فی هذه الحالة أن یکون صادقاً کما یمکن أن یکون کاذباً فی شهادته وهنا یقدم القرآن المجید حلًا أمثل هو: علی الزوج أن یشهد أربع مرات علی صدق إدّعائه: «وَالَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ یَکُن لَّهُمْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۳

شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْصدِقِینَ وَالْخمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَیْهِ إِن کَانَ مِنَ الْکذِبِینَ».

وبهذا علی الرجل أن یعید هذه العبارة: «أشهد باللَّه إنّی لمن الصادقین فیما رمیتها من الزنا». أربع مرات لإثبات إدعائه من جهة، ولیدفع عن نفسه حدّ القذف من جهة اخری. ویقول فی الخامسة: «لعنة اللَّه علیّ إن کنت من الکاذبین».

وهنا تقف المرأة علی مفترق طریقین، فإمّا أن تقرّ بالتهمة التی وجهها إلیها زوجها، أو تنکرها علی وفق ما ذکرته الآیات التالیة.

ففی الحالة الاولی تثبت التهمة؛ وفی الثانیة: «وَیَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْکذِبِینَ وَالْخمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَیْهَا إِن کَانَ مِنَ الصدِقِینَ».

وبهذا الترتیب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس- أیضاً- لتنفی التهمة عنها بأن تکرر أربع شهادات: «أشهد باللَّه إنّه لمن الکاذبین فیما رمانی من الزنا». وفی الخامسة تقول: «أنّ غضب اللَّه علیّ إن کان من الصادقین».

وهذه الشهادات منهما هی ما یسمّی ب «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن فی الشهادة.

ولیترتب علی هذین الزوجین أربعة أحکام نهائیة.

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

وثانیها: تحرم الزوج علی الزوجة إلی الأبد، أی لا یمکنهما العودة إلی الحیاة الزوجیة معاً بعقد جدید.

وثالثها: سقوط حدّ القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة.

ورابعها: الطفل الذی یولد بعد هذه القضیة لا ینسب إلی الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصیل الحکم السابق فی الآیات المذکورة أعلاه، وإنّما جاء فی آخر الآیة موضع البحث: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَکِیمٌ».

فهذه الآیة إشارة إجمالیة إلی تأکید الأحکام السابقة، لأنّها تدل علی أنّ اللعان فضل من اللَّه، إذ یحل المشکلة التی یواجهها الزوجان، بشکل صحیح.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۴

إِنَّ الَّذِينَ جاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۱) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قَالُوا هذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (۱۲) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (۱۳) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (۱۵) وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذَا سُبْحَانَكَ هذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (۱۶)

حديث الإفك المثير: يستفاد من مجموع الآيات هو أنّه قد اتهم شخص برىء بعمل مخلّ بالعفة والشرف حين نزول هذه الآيات، وأنّ الشائعات كانت منتشرة فى المدينة، وأنّ مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الاخلال بالمجتمع الإسلامى إلى أخسّ السبل لتلويث سمعة النبى صلى الله عليه و آله والحط من شأنه المقدس لدى الناس، بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، وتصدّت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم. وهذه الأحكام نافذة فى كل بيئة وزمان. تقول أوّل آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ».

«الإفك»: على وزن «فكر» يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذى يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة»، ثم اطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

و «العُصبة»: على وزن «فُعْلَة» مشتقة من العَصَبْ، وجمعها أعصاب، وهى التى تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة فى الجسم، ثم أطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الإرتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين فى ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۵

إنّ القرآن طمأن وهدّأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمة إلى شخصية متطهرة: «لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، لأنّه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمين أنّ اتّباع الذين يروّجون الشائعات يجرّهم إلى الشقاء، وأنّ عليهم أن يقفوا بقوّة أمام هذا العمل.

ثم تعقب هذه الآية بذكر مسألتين:

أوليهما: «لِكُلِّ امْرِىٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْم». إشارة إلى أنّ المسؤولية الكبرى التى تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، ولهذا يتحمل كل شخص مسؤوليته إزاء أية مؤامرة.

والمسألة الثانية: «وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

وقائد هذه المجموعة سيعاقب عقاباً عظيماً لكبر ذنبه.

ثم توجّهت الآية التالية إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم بشدّة: «لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا». أى: لماذا لم تقفوا فى وجه المنافقين بقوة، بل استمعتم إلى أقوالهم التى مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأنّ هذا الكلام كذب وافتراء: «وَقَالُوا هذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ».

أنّكم كنتم تعرفون جيداً الماضى القبيح لهذه المجموعة من المنافقين.

ثم تهتم الآيات بالجانب القضائى للمسألة فتقول: «لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ». أى لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكذِبُونَ».

إنّ هـذه الملامة تبيّن أنّ الحكم بأداء أربعة أشـخاص لشـهادتهم، وكذلك حدّ القذف فى حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التى تناولت حديث الإفك.

وأخيراً جمعت الآيـة التاليـة هـذه الملامات، فقالت: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۶

ونظراً لأن «أفضـتم» مشـتقة من الإفاضـة، بمعنى خروج الماء بكثرة، واسـتعملت فى حالات اخرى للتوغل فى الماء، نتج من هذه العبارة أنّ شائعة الإتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافاً إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

وتبيّن الآية التالية البحث السابق وهو كيف ابتلى المؤمنون بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم، فتقول: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ». أى تذكّروا كيف رحّبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها: «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ».

وتشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة فى هذا المجال:

الأوّل: تَقبُّل الشائعة: استقبالها وتناقلها.

الثانى: نشر الشائعة دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثالث: استصـغار الشائعة واعتبارها وسـيلة للهو وقضاء الوقت. فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السلام قال: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

ونظراً لهول هذه الحادثة التى استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فانّبتهم مرّة اخرى ولذعتهم بعباراتها إذ قالت: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهذَا سُبْحنَكَ هذَا بُهْتنٌ عَظِيمٌ».

وسبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الإتهام باطلًا، وهنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، ولا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم وقد كنتم سبباً لنشرها.

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۲۰)

حرمة إشاعة الفحشاء: تحدثت هذه الآيات أيضاً عن حديث الإفك، والنتائج المشؤومة والأليمة لاختلاق الشائعات ونشرها، فذكر أوّلًا: «يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ». أى أنّ من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، والجملة المذكورة تشكل أحد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۷

أركـان التوبـة، إذ أنّ النـدم على الماضـى لاـ يكفى، بل يجب التصـميم على عـدم تكرار ارتكاب الـذنوب فى المسـتقبل، لتكون توبة كاملة.

وللتأكيـد أكثر على أنّ هـذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن اللَّه العليم الحكيم، ولبيان الحقائق ذات الأثر الفعال فى مصير الإنسان، يقول سـبحانه وتعـالى: «وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فهو يعلم حاجاتكم وما يضـرّكم وما ينفعكم بمقتضـى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ».

ولجملة (تشيع الفاحشة) مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء والمنكر.

وتختم الآيـة بـالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». إنّه يعلم الـذين يـبيتون فى قلوبهم حب هـذا الـذنب، ويعلم الـذين يمـارسونه تحت

واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونه.

وكررت الآية الأخيرة- مما نحن بصدده من الآيات التی تناولت حديث الإفک ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقذف المؤمنين المتطهرين- هذه الحقيقة لتؤكّد القول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢۵) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٢۶)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣۵٨

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفک بصراحة، إلّاأنّها تعتبر مكملة لمضمون ذلك البحث، وتحذّر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعة الفحشاء أو إرتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره وتوسّعه.

وتخاطب الآية الاولى المؤمنين، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ».

وحيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد اخرى فی طريق الفساد.

وأخيراً الإبتلاء بالكبائر، وهذه معنى جملة «خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ».

ثم تشير الآية إلى أهم النعم الكبيرة التی منّ اللّه بها على الإنسان فی هدايته فتقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكّى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولا شک فی أنّ الفضل والرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الإنحطاط والانحراف من الذنوب جميعاً، فاللّه منحه العقل، ولطف به فأرسل إليه الرسل، ويسّر له سبل الإرتقاء والإهتداء، وأعانه على استكمال الخير، وإضافة إلى هذه المواهب شمل اللّه الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، وإمداداته التی يستحقونها، والتی تعتبر أهم عنصر فی تطهير وتزكية النفس.

وذكر عدد من المفسرين- ومنهم الطبرسی فی المجمع- سبباً لنزول الآية الثانية- من الآيات موضع البحث- يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: نزلت فی جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلّم بشیء من الإفک ولا يواسوهم. فنزلت هذه الآية لتمنعهم من ردّ فعل قاس، وأمرتهم بالعفو والسماح.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النزول هذا. يقول القرآن: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسكِينَ وَالْمُهجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عدداً ممن تورّط فی قضية الإفک كانوا من المهاجرين فی سبيل اللّه إذ خدعهم المنافقون، ولم يجز اللّه طردهم من المجتمع الإسلامی لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر مما يستحقونه.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣۵٩

«يأتل»: مشتقة من «أليّة» أى اليمين.

ثم تضيف الآية: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا». لتشجيع المسلمين وترغيبهم فی العفو والصفح بقولها: «أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ». فإنّكم مثلما تأملون من اللّه العفو عنكم وأن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو والصفح عن الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وترسم هـذه الآيـات صورة للتعـادل الإسـلامى فى جـذبه ودفعه، وتشـكل آيـات الإفـك والعقوبات الشديـدة التى تفرض على الـذين يتهمون الآخرين فى شرفهم «قوة الدفع». وأمّا الآية موضع البحث التى تتحدث عن العفو والصفح وكون اللّه غفوراً رحيماً.

فإنّها تكشف عن «قوة الجذب».

ثم تعود الآية إلى قضـية القذف واتّهام النساء العفيفات المؤمنات فى شرفهن، فتقول بشكل حازم: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنتِ الْغفِلتِ الْمُؤْمِنتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فى تفسير الميزان: هـذه الآية أخذ الصـفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصـية فإنّ كلًا من الإحصان بمعنى العفـة والغفلة والإيمان سـبب تام فى كون الرمى ظلماً والرامى ظالماً والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن فى الدنيا والآخرة والعذاب العظيم «۱».

والمراد من «الغافلات» أنّهن لا يعلمن بما ينسب إليهنّ من بهتان فى الخارج، ولهذا لسن فى صدد الدفاع عن أنفسهن، وفى النتيجة فإنّ الآية تطرح موضوعاً جديداً للبحث، لأنّ الآيات السابقة تحدثت عن مثيرى التهم الذين يمكن التعرف عليهم ومعاقبتهم. إلّاأنّ الحديث هنا يـدور حول مثيرى الشايعات الذين أخفوا أنفسـهم عن العقاب والحد الشـرعى، فتقول الآية: إنّ اللّه تعالى سـيبعدهم عن رحمته فى هذه الدنيا، كما ينتظرهم العذاب العظيم فى الآخرة.

وتحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل فى ساحة العدل الإلهى، قائلة: «يَوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تدور ألسنتهم بما لا تشتهى أنفسهم لتستعرض الحقائق.

---

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۱۵/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۰

وتشهد أيديهم وأرجلهم، وكما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم، حقاً إنّه يوم البروز والإفتضاح، ويوم تنكشف فيه السرائر.

ثم تقول الآية: «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ». واستناداً إلى هذا الدليل أيضاً «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۲۷) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (۲۹)

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم: بيّنت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشـرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التى لها علاقة وثيقة بقضايـا عامـة حول حفظ العفـة، حيث تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا».

وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابدّ من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

يجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حـدّ كاف؛ حتى أنّ جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه. ونصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصة فى هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلّانادراً.

روى- فى التفسير الكبير- أنّ أبا سـعيد الخدرى اسـتأذن على الرسول صـلى الله عليه و آله وهو مسـتقبل الباب فقال: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب».

وفى الدرّ المنثور عن عبداللّه بن بشـر قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم السلام عليكم».

وممـا يلفت النظر فى هـذا الحكم الـذى يتصف بأبعاد إنسانيـة وعاطفيـة واضـحة، مرافقـة لجملتين، أولاها: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» وثانيتهما:

«لَعَلَّكَمْ تَذَكَّرُونَ».

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة اخرى فى الآية التالية: «فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۱

قد يكون المراد من هذه العبارة أنّه ربّما كان فى المنزل أحد، ولكن من لديه حق إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

ثم تضيف الآية: «وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ».

إشارة إلى أنّه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعل صاحب المنزل فى وضع غير مريح، أو أنّ منزله لم يهيأ لاستقبال الضيوف.

وبما أنّ بعض الناس قد يدفعهم حبّ الإطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

وبما أنّ لكل حكم استثناءً، لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: «لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ».

وتضيف فى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ». ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلّاأنّ اللّه يعلم بكل هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۱)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۲

سبب النّزول

فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنّعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهى مقبلة، فلما جازت نظر إليها ودخل فى زقاق قد سمّاه ببنى فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم فى الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على صدره وثوبه، فقال: واللّه لآتين رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولأخبرنّه». قال: «فأتاه فلما رآه رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: «قُلْ لّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»».

التّفسير

مكافحة السفور وخائنة الأعين: قلنا فى البداية: إنّ هذه السورة اختصت بالعفة والطهارة وتطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسية، ولا يخفى على أحد إرتباط هذا البحث بالبحوث الخاصة بالقذف. تقول الآية أوّلًا: «قُلْ لّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ». «يغضوا»: مشتقة من «غضّ» من باب «ردّ» وتعنى فى الأصل التنقيص، لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم، بل أمرت أن يغضّوا من نظرهم.

إنّ الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية والشهوات، لأنّ «ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ». كما نصّت عليه الآية– موضع البحث–

فى ختامها.

ثم تحذر الآية اولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، ويبررون عملهم هذا بأنّه غير متعمّد، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

وتناولت الآية التالية شرح واجبات النساء فى هذا المجال، فأشارت أوّلًا إلى الواجبات التى تشابه ما على الرجال، فتقول:

«وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وبهذا حرم اللّه النظر بريبة على النساء أيضاً مثلما حرّمه على الرجال، وفرض تغطية فروجهنّ عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلك واجباً على الرجال.

ثم أشارت الآية إلى مسألة الحجاب فى ثلاث جمل:

أ) «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا». فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهنّ المخفية، وإن كانت لا تُظهر أجسامهنّ، أى لا يجوز لهنّ الكشف عن لباس يتزيّن به تحت اللباس

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۳

العادى أو العباءة، بنص القرآن الذى نهاهن عن ذلك.

ب) وثانى حكم ذكرته الآية هو: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ». «خُمُر»: جمع «خِمار» فى الأصل تعنى «الغطاء»، إلّاأنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشىء الذى تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهنّ؛ و «الجيوب»: جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقة القميص، وأحياناً يطلق على الجزء الذى يحيط بأعلى الصدر لمجاورته الياقة.

ويستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمى أطراف الخمار حول أعناقهن؛ أى فوق ياقة القميص ليسترن بذلك الرقبة والجزء المكشوف من الصدر.

ج) وتشرح الآية فى حكمها الثالث الحالات التى يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهن وإظهار زينتهن، فتقول: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا». ۱- «لِبُعُولَتِهِنَّ». ۲- «أَوْ ءَابَائِهِنَّ». ۳- «أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ۴- «أَوْ أَبْنَائِهِنَّ». ۵- «أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ۶- «أَوْ إِخْوَانِهِنَّ». ۷- «أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ». ۸- «أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ». ۹- «أَوْ نِسَائِهِنَّ».

۱۰- «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ».

۱۱- «أَوِ التبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ». أى: الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلًا بالعنن أو بمرض غيره.

۱۲- «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ».

د) وتبيّن الآية رابع الأحكام فتقول: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ». أى: على النساء أن يتحفظن عفتهنّ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۴

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدة بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم. وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالًا ونساءً إلى التوبة والعودة إلى اللّه ليفلحوا: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وتوبوا أيّها الناس مما ارتكبتم من ذنوب فى هذا المجال، بعدما اطلعتم على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى اللّه لتفلحوا.

فلسفة الحجاب: مما لا شك فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين فى عصرنا الذى سمّوه بعصر التعرى والحرية الجنسية، ليس حديثاً سارّاً حيث يتصورونه اسطورة يعود لعصور خلت. إلّاأنّ الفساد الذى لا حدّ له، والمشاكل المتزايدة والناتجة عن هذه الحريات التى لا قيد لها ولا حدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الاذن الصاغية لهذا الحديث.

والقضية المطروحة (نقولها مع الإعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الامور خاصة لأزواجهن؟

يقول الإسلام: إنّ الامور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاص بالأزواج، ومحرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّى إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة «ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ» التى جاءت فى الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

۱- إنّ تعرى النساء وما يرافقه من تجميل ودلال- وما شاكل ذلك- يحرك الرجال- خاصّة الشباب- ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية.

خاصة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز فى الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب فى أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كل حادثة مهمة امرأة.

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ وهل هذا العمل عقلانى؟

۲- تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكّك الاسرة فى العالم، بسبب زيادة التعرّى، لأنّ فى سوق التعرى والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى أو فى أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته.

۳- انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۵

الحجاب، فشواهدها ظاهرة فى المجتمع الغربى، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

۴- قضية «ابتذال المرأة» وسقوط شخصيتها فى المجتمع الغربى ذات أهمية كبيرة فعندما يرغب المجتمع فى تعرى المرأة، فمن الطبيعى أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والإنحدار السلوكى، وتسقط شخصية المرأة فى مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلةً إعلامية يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنّه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداةٌ لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة فى صور البشر.

كيف يمكن للمرأة فى هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

الترغيب فى زواج يسير التكاليف: طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلًا أمينة متعددة للحيلولة دون الإنحطاط الخلقى والفساد إلى عالم أرحب من الطهر والاستقامة، ويحول دون تقهقرها أو انحدارها فى مهاوى الرذيلة، وقد أشارت الآيات- موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذى يتمّ بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب. لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: «وَأَنْكِحُوا الْأَيمَى مِنكُمْ وَالصلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ». «الأيامى»: جمع «أيّم» على وزن «قيّم» وتعنى فى الأصل المرأة التى لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۶

زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكراً أم ثيباً. وعبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا» فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج، ولا اختلاف فى أنّ أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهمية الزواج الخاصة، وهى أهمية بالغة المدى.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع اللّه بينهما».

وبما أنّ بعض الأعذار كالفقر أو عدم وجود وتوفّر الإمكانات اللازمة قد تقف حائلًا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الاسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: «إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إنّ المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولًا عن المحافظة على زوجته، وماء وجه اسرته، وتأمين حياةٍ سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد فى نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، ولا جدال فى أنّ الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذى تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون فى ذلك، مما يضطره إلى مضى فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكى لا يظن أنّ إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرعت الآية التالية لتأمره بالطهارة والعفّة فقالت: «وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ويهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبة «۱» فتقول الآية:

«وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمنُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا».

ولأجل ألا يقع العبيد فى مشاكل لا يتمكنون من حلّها ويعجزون عن تسديد ما

---

(۱) إنّ عقد المكاتبة نوع من الإتفاقات يتمّ بين المولى وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيّده، فإذا دفع آخر قسطينال حريته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۷

بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: «وَءَاتُوهُم مّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى ءَاتكُمْ».

والهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وعقّبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التى كان يمارسها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

وهذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة والإنحطاط الخلقى الذى كان سائداً فى عهد الجاهليه، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجد عصرنا الذى سمى بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق فى بلدان تدّعى المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان.

وفى الختام- على حسب الاسلوب الذى يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: «وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وعلى نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج وتلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايتٍ مُّبَيِّنَاتٍ». وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم فى يومكم هذا: «وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ

اللَّهُ بِكَلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ (۳۶) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۳۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۸

آية النور: تحدث الفلاسفة والمفسرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهى مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التى عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أنّ ضمانة تنفيذ الأحكام الإلهية، وخاصة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيما الغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الإستناد إلى الإيمان، ومن هنا إمتد البحث إلى الإيمان وأثره القوى، فقالت الآية أوّلًا: «اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمة التى لا نظير لها ولا شبيه) فلا نجد خيراً من النور! اللَّه الذى خلق كل شىء فى عالم الوجود ونوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع فى ظلمات الفناء والعدم.

ومما يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط باللَّه بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام اللَّه.

والدين الإسلامى نور لأنّه دينه.

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

والأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهية، لأنّهم حفظة دينه بعد النبى صلى الله عليه و آله.

والإيمان نور، لأنّه رمز الإلتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته- عزّ وجل-.

ولهذا: «اللَّه نور السماوات والأرض».

وإذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته والمظهر لغيره فى هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات اللَّه المقدسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من اللَّه تعالى فى العالم، وكل الأشياء تظهر من بركات وجوده.

وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهى إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذْ ذكر مثالًا رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهى: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِی زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّیٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِیءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۹

عَلَى نُورٍ يَهْدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ».

«المشكاة»: فى الأصل تعنى الكُوّة التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح.

«الزجاجة»: تطلق فى الأساس على الأحجار الشفّافة، وهنا تعنى الزجاجة التى توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح»: يتألف من وعاء للزيت وفتيل.

عبارة «زَيْتُونَةٍ لَّاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» تشير إلى الطاقة التى تُجهّز هذا المصباح بوقود لا- ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم إنّ هذا الزيت يُحصل عليه من زيتون شجر يتعرض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون

الشجره فى الجانب الشرقى من البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون فى جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس.

وتوضيح هذا المثال: إنّ نور الإيمان الموجود فى قلوب المؤمنين يحتوى على العناصر الأربعة المتوفرة فى المصباح المضىء، هى:

«المصباح» وهو شعلة الإيمان فى قلب المؤمن يضىء طريق الهداية.

و «الزجاجة» هى قلب المؤمن ينظم الإيمان فى ذاته ويحفظه من كل سوء.

و «المشكاة» صدر المؤمن. أو بعبارة اخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكره الذى يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هى الوحى الإلهى الذى يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعلة إيمان المؤمنين- فى الحقيقة- من نور اللَّه الذى ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلة العقلائية بنور الوحى، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهى تهتدى، وهى المقصودة بعبارة «يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ».

وتجب المحافظة على نور الوحى من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذى يؤدّى إلى التفسخ والإندثار.

ولتعبىء قوى الإنسان بشكل سليم بعيداً عن كل فكر مستورد وانحراف، لتكون

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۰

مصداقاً ل «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِى‌ءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ». ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه، ليتّضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه فى هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ» لكى تكون فى مأمن من الشياطين والأعداء والانتهازيين، «وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

ثم تبيّن المقصود من هذه البيوت فى آخر الآية حيث تقول: أنّه فى هذه البيوت يسبّح أهلها صباحاً ومساءاً: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». «رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصرُ». إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هى المراكز التى حُصّنت بأمر من اللَّه، وأنّها مركز لذكر اللَّه ولبيان حقيقة الإسلام وتعاليم اللَّه، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصة بيت النبى صلى الله عليه و آله وبيت على عليه السلام.

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافى لحراس نور الهداية وعشّاق الحق والحقيقة، فقالت: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ». أى: أنّ اللَّه يكافىء جميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها اللَّه بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

ولا عجب فى ذلك، لأنّ الفضل الإلهى لمن كان جديراً به غير محدود: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰)

أعمال سرابية: تحدثت الآيات السابقة عن نور اللَّه، نور الإيمان والهداية، ولإتمام هذا البحث ولتوضيح المقارنة بين الذين نوّر اللَّه قلوبهم وبين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر والجهل والإلحاد المظلم. الكلام فى الآية الاولى عن الذين يبحثون عن الماء فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۱

صحراء جاقّة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً، فى الوقت الذى عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أوّلًا: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيًا». ولكن يجد اللَّه عند أعماله: «وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

ثم تناولت الآیـة الثانیـة مثالًا آخر لأعمال الکفار وقالت: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِی بَحْرٍ لُّجِّیٍّ یَغْشَهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ». وبهـذا المنوال تکون «ظُلُمتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ یَدَهُ لَمْ یَكَدْ یَرَیهَا».

أجل، إنّ النور الحقیقی فی حیاة البشـر هو نور الإیمان فقط، ومن دونه تسود الحیاة الظلمات، ونور الإیمان هـذا إنّما هو لطف من عند اللّه: «وَمَن لَّمْ یَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ».

فقد شبّهت الآیة أعمال غیر المؤمنین بنور کاذب کسراب یراه ظمآن فی صحراء جافة.

ثم ینتقـل القرآن من الحـدیث عن هـذا النور الکـاذب، الـذی هو عبـارة عن أعمـال المنـافقین إلی باطن هـذه الأعمال، الباطن المظلم والمخیف والموحش حیث تتعطل فیه حواس الإنسان، وتظلم علیه الدنیا حتی لا یری نفسه.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّیْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِیحَهُ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِمَا یَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ (۴۲)

الجمیع یسبّح للّه: تحـدثت الآیـات السابقـة عن نور اللّه، نور الهدایـة والإیمـان، وعن الظلمات المضاعفـة للکفر والضـلال، أمّا الآیات موضع البحث، فإنّها تتحدث عن دلائل الأنوار الإلهیة وأسباب الهدایة، وتخاطب الآیة النبی صلی الله علیه و آله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُسَبِّحُ لَهُ مَن فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». وکذلک الطیر یسبّحن للّهفی حال أنّها باسطات اجنحتهنّ فی السماء «وَالْطَّیْرُ صفتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِیحَهُ وَاللَّهُ عَلِیمٌ بِمَا یَفْعَلُونَ».

وبما أنّ هـذا التسبیح العام دلیل علی خلقه تعالی لجمیع المخلوقات، وخالقیته دلیل علی مالکیته للوجود کله، وکـذلک دلیل علی أنّ کل ما فی الوجود یرجع إلیه سبحانه، فتضیف الآیة: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۲

إنّ القصـد من التسبیح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله». أی نظام الوجود وأسـراره المدهشة الکامنة فی کل مخلوق تتحدث بصـراحة عن عظمـة الخالق وعلمه وحکمته التی لا حـدود لها، إذ کل مخلوق جمیل، وکل أثر فنی بدیع یثیر الدهشة والإعجاب، حتی أنّ لوحـة فنیة وقطعة شـعریة جمیلة، تحمد وتسبّح لمبدعها. فمن جهة تکشف عن صـفاته (بحمدها له) ومن جهة اخری تنفی عنه أی عیب أو نقص (فتسبحه)، فکیف وهذا الکون العظیم بما فیه من عجائب وغرائب لا تنتهی.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحَاباً ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِیهَا مِنْ بَرَدٍ فَیُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشَاءُ وَ یَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ یَشَاءُ یَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ یَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (۴۳) یُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّیْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِی ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصَارِ (۴۴) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلَی بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلَی رِجْلَیْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلَی أَرْبَعٍ یَخْلُقُ اللَّهُ مَا یَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۵)

جـانب آخر من الخلق العجیب: نـواجه ثانیـة- فی هـذه الآیـات- جانبـاً آخر من مسألـة الخلق المدهشـة، ومـا احتوته من آیـات العلم والحکمه والعظمة، وکل ذلک من أدلة توحید ذات اللّه الطاهرة. یخاطب القرآن المجید النبیّ صلی الله علیه و آله ثانیة ویقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحَابًا ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُكَامًا». وبعـد أن تتراکم السـحب تری قطرات المطر تخرج من بین السـحاب وتهبط علی الجبال والسهول والصحاری، «فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلِلِهِ».

«یزجی»: مشتقة من «الإزجاء»، أی سوقه باسلوب لین لترتیب المخلوقات المتبعثرة هنا وهناک بقصد جمعها.

«رکام»: علی وزن «غلام»، بمعنی الأشیاء المتراکمة بعضها فوق بعض.

«الودق»: علی وزن «شرق»، أنّها حبّات المطر.

فهو الذی یحیی الأرض بعد موتها ویبعث الحیاة فی الأشجار والنباتات، ویروی عطش البشر والحیوان.

وأشار القرآن إلی ظاهرة اخری من ظواهر السماء المدهشة، وهی السحاب، حیث قال:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۳

«وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ». أى من جبال السحب فى السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج وبرد، فتكون بلاء لمن يريد اللَّه عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع والثمار وتتلفها وقد تصيب الناس والحيوانات فتؤذيهم، «فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ». ومن لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء، «وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ».

أجل، إنّه هو الذى ينزّل الغيث المخصب من سحابة تارة ... وهو الذى يصيّره برداً بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، وربّما يكون مهلكاً أحياناً.

وهذا يدل على منتهى قدرته وعظمته إذ جعل نفع الإنسان وضرره وموته وحياته متقارنة، بل مزج بعضها ببعض.

وفى نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية التى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه: «يَكَادُ سَنَابَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصرِ».

فالسحب المؤلفة من ذرات الماء تحمل فى طيّاتها الشحنات «الكهربائية»، وتُومض إيماضاً يُذهل برقها (العيون) والأبصار ويصكّ رعدها السمع من صوته، وربّما اهتزت له جميع الاجواء.

إنّ هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرةٌ للدهشة حقاً ...

وأشارت الآية التالية إلى إحدى معاجز الخلق ودلائل عظمة اللَّه، وهو خلق الليل والنهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول: «يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصرِ».

إنّ لتعاقب الليل والنهار والتغييرات التدريجية الحاصلة منه أثر فعّال فى استدامة الحياة وبقاء الإنسان، وفى ذلك عبرة لُاولى الأبصار.

وأشارت آخر الآيات موضع البحث- إلى أوضح دليل على التوحيد، وهى مسألة الحياة بصورها المختلفة، فقالت: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مّن مَّاءٍ». أى أنّ أصلها جميعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة: «فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ» كالزواحف؛ «وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ» كالإنسان والطيور؛ «وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ» كالدواب.

وليس الخلق محدداً بهذه المخلوقات، فالحياة لها صور اخرى متعددة بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحرية أم حشرات بأنواعها المتعددة التى تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية فى الختام: «يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۴

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶) وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۷) وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (۴۹) أَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان قيل: نزلت الآيات فى رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودى إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشراف.

التّفسير

الإيمان وقبول حكم اللَّه: تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان باللَّه وعن دلائل توحيده وعلائمه فى عالم التكوين، بينما تناولت الآيات- موضع البحث- أثر الإيمان وانعكاس التوحيد فى حياة الإنسان، وإذعانه للحقّ والحقيقة. تقول أوّلًا: «لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايتٍ مُّبَيّنتٍ». آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتزيد فى فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدّل ظلمات حياته إلى نور على نور. وطبيعى أنّ هذه الآيات المبينات تُمهد للإيمان، إلّاأنّ الهداية الإلهية هى صاحبة الدور الأساسى: «وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

وكما نعلم فإنّ إرادة اللَّه ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله.

ثم استنكرت الآية الثانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون الإيمان فى الوقت الذى خلت فيه قلوبهم من نور اللَّه، فتقول الآية

عن هذه المجموعة: «وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذلِكَ وَمَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

ما هذا الإيمان الذى لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له فى أعمالهم.

ثم تذكر الآية التى بعدها دليلًا واضحاً على عدم إيمانهم: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ».

ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا وفضح شركهم، تضيف الآية: «وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ» وبكامل التسليم والخضوع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۵

وبيّنت الآية الأخيرة فى ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول صلى الله عليه و آله، فقالت أوّلًا: «أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ».

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، ولكنّهم لا يسلّمون بحكم اللَّه ورسوله، ولا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبياً عن التوحيد أو الشك والتردد: «أَمِ ارْتَابُوا». وطبيعى أنّ الذى يتردد فى عقيدته، لن يستسلم لها أبداً.

وثالثها فيما لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: «أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ».

فى الوقت الذى يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذى يؤمن برسالة محمّد صلى الله عليه و آله ويعتبر حكمه حكم اللَّه تعالى أن ينسب الظلم إلى الرسول صلى الله عليه و آله؟!

وهل يمكن أن يظلم اللَّه أحداً؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ اللَّه تعالى مقدس عن كل هذه الصفات؛ «بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظلِمُونَ». إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، وهم يعلمون أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۵۴)

الإيمان والتسليم التام إزاء الحقّ: لاحظنا فى الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين لحكم اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله، أمّا الآيات- موضع البحث- فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم اللَّه ورسوله، فتقول: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم اللَّه، وهو يعتقد بأنّ اللَّه عالم بكلّ شيء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرّحمن الرّحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم اللَّه إلّاالسمع والطاعة؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۶

لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ولا شك فى أنّ الفلاح نصيب الذى يسلّم أمره إلى اللَّه، ويعتقد بعدله وحكمه فى حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

لحن الآية التالية- وكذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير- يعنى أنّ بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة والتى وجّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وأقسموا يميناً مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، ولهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ» إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملًا اطاعة اللَّه بصدق واخلاص: «قُل لَّاتُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

إنّ كلمة «ليخرجنّ» فى هذه الآية يقصد منها عدم التهالك على المال والحياة، وأتباع الرّسول صلى الله عليه و آله أينما رحل وحلّ

وطاعته.

لهذا أكدت الآية التالية- التى هى آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، وتقول للرسول صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

ثم تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ». ففى صورة العصيان فقد ادّى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنّكم مسؤولون عن أعمالكم حين أنّ وظيفتكم الطاعة، ولكن «وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل اللَّه والحق والصواب.

فى كل الأحوال: «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَغُ الْمُبِينُ». وإنّه صلى الله عليه و آله مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر اللَّه به، فإن أطاعوه استفادوا، وإن لم يطيعوه خسروا.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۵۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۷

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لما قدم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلّامع السلاح ولا يصبحون إلّافيه. فقالوا: ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلّااللَّه؟ فنزلت هذه الآية.

التّفسير

حكومة المستضعفين العالمية: تحدثت الآية السابقة عن طاعة اللَّه ورسوله والتسليم له، وقد واصلت الآية- موضع البحث- هذا الموضوع، وبيّنت نتيجة هذه الطاعة ألا وهى الحكومة العالمية التى وعدها اللَّه المؤمنين به. فقالت الآية مؤكّدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ» ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

«وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيًا». وبعد سيادة حكم التوحيد فى العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، «وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفسِقُونَ».

وعلى كل حال يبدو من مجمل هذه الآية أنّ اللَّه يبشّر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

۱- استخلافهم وحكومتهم فى الأرض.

۲- نشر تعاليم الحق بشكل جذرى وفى كل مكان (كما يستفاد من كلمة «تمكين» ...).

۳- انعدام جميع عوامل الخوف والإضطراب.

وينتج من كل هذا أن يُعبد اللَّه بكل حرية، وتُطبق تعاليمه ولا يشرك به، ويتمّ نشر عقيدة التوحيد فى كل مكان.

الذين وعدهم اللَّه باستخلاف الأرض: لقد وعداللَّه المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة بالإستخلاف فى الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هى خصائص هؤلاء الموعودين بالإستخلاف؟

إنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدى عليه السلام مصداق لها، إذ يتفق

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۸

المسلمون كافة من شيعة وسنة على أنّ المهدى عليه السلام يملأ الأرض عدلًا وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. ومع كل هذا لا مانع من تعميمها، وينتج من ذلك تثبيت اسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين فى كل عصر وزمان، وأنّ لهم الغلبة والحكم اذا الأسس الثابتة.

إنّ جميع الجهود- من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية- تنصّب فى ظلّ هذه الحكومة فى مسيرة العبودية للّه الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۵۷)

استحالة الفرار من حكومته تعالى: وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة فى الأرض، وتهيىء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، فهى تقول أوّلًا: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». وهى الوسيلة التى توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرّب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

«وَءَاتُوا الزَّكَوةَ». وهى الوسيلة التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوى ارتباطهما العاطفى.

وبشكل عام يكون فى كل شىء تبعاً للرسول: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ». طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم فى الأرض، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وتكونون لائقين لحمل راية الحقّ والعدل.

وإذا احتملتم أنّ الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم اللّه إيّاه، فذلك غير ممكن، لأنّه قادر على كل شىء، ولا يحجب إرادته شىء، ولهذا: «لَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ». فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب اللّه وعذابه فى الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنّهم فى الآخرة، «وَمَأْوَيهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۹

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۸) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۹) وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۶۰)

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين: إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة هى مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفة. وقد تناولت الآيات- موضع البحث- إحدى المسائل التى ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها. فتقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلثَ مَرَّاتٍ».

فيجب على عبيدكم وأطفالكم الإستئذان فى ثلاث أوقات: «مّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ». «ثَلثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ». أى هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصة بكم.

«العورة»: مشتقة من «العار»، أى: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلى العورة، لأنّ الكشف عنه عار.

إنّ إطلاق كلمة «العورة» على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس فى حالة خاصة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التى يرتدونها فى الأوقات الاخرى.

وطبيعى أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الاصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أنّ عمومية الآية تعنى شمولها الأطفال البنين والبنات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۰

وتختتم الآية بالقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ». فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون إستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأيتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وبيّنت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفلُ مِنكَمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتْذِنُوا كَمَا اسْتْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

«الحلم»: على وزن «كتب»، بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذى يعتبر توأماً لطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة فى حياة الإنسان.

ويستفاد من الآية السابقة، أنّ الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأنّ أولئك يجب عليهم إستئذان الوالدين فى الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الإستئذان كل مرة، وكما أنّهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أمّا الشباب البالغ، فهم مكلّفون فى جميع الأوقات بالإستئذان حين الدخول على الوالدين.

ويخصّ هذا الحكم المكان المخصّص لاستراحه الوالدين.

وتقول الآية فى الختام للتأكيد والإهتمام الفائق: «كَذلِكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وفى آخر الآيات موضع البحث- استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنّات من هذا الحكم، فقال:

«وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ التِى لَايَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرّجتٍ بِزِينَةٍ».

ولهذا الإستثناء شرطان:

أوّلهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه. أو بعبارة اخرى: أن يفقدن كل جاذبية انثوية.

وثانيهما: ألا يتزيّن بزينة بعد رفع حجابهن.

كما أنّ- من الواضح- أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب اباحة خلع الملابس كلّها والتعرىّ، بل خلع اللباس الفوقانى فقط.

وكما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار.

وتضيف الآية فى ختامها: «وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۱

فالإسلام يرغب فى أن تكون المرأة أكثر عفّة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتى يسئن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن باسلوب لا يليق بشرفهن، تقول الآية محذرة إيّاهن: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» كلما تقولونه يسمعه اللَّه، وما تكتمون فى قلوبكم أو فى أذهانكم يعلمه اللَّه أيضاً.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

البيوت التى يسمح بالأكل فيها: تحدثت الآيات السابقة عن الإستئذان فى أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاصّ بالأب والام، أمّا الآية موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنّه يجوز لهم الأكل فيها دون إستئذان، حيث تقول هذه الآية أوّلًا: «لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ».

لأنّ أهل المدينة كانوا- كما ورد بصراحة فى بعض الأحاديث- وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى والأعرج والمريض من المشاركة فى مائدتهم، ويتنفّرون من هذا العمل.

وقد استفسر من الرسول صلى الله عليه و آله عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التى نصّت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى والأعرج والمريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة.

ثم يضيف القرآن المجيد: «وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ».

والمقصود بعبارة بيوتكم، الأبناء أو الزوجات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۲

«أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أُمَّهتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَعْممِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ عَمتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ خلتِكُمْ». «أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ». «أَوْ صَدِيقِكُمْ». «الصداقة»: تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التزاور فيما بينهم والأكل من طعام الآخر.

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتى ذكرها فى آخر تفسير الآية.

ثم تضيف الآية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا».

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان الذى نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهى.

ذكر الشيخ الطوسى رحمه الله فى تفسير التبيان أنّ مجموعة من المسلمين كانوا إذا نزل بهم الضيف تحرجوا أن يأكلوا معه، فأباح اللّه الأكل منفرداً ومجتمعاً.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: «فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبرَكَةً طَيِّبَةً».

واختتمت بهذه العبارة: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

يجب السلام عند الدخول إلى أىّ منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلّم أهل المنزل أحدهم على الآخر، وأمّا إذا لم يجد أحداً فى المنزل فيحيى المرء نفسه «۱»، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

---

(۱) فيقول: «السّلام عليكم من قبل ربّنا». أو: «السّلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۳

سبب النّزول

فى تفسير على بن ابراهيم: نزلت الآية الاولى فى قوم كانوا إذا جمعهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله لأمر من الأمور فى بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم اللّه عزّ وجل عن ذلك وقوله «فَإِذَا اسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ» قال نزلت فى حنظلة بن أبى عياش وذلك أنّه تزوج فى الليلة التى فى صبيحتها حرب احد، فاستأذن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يقيم عند أهله فأنزل اللّه هذه الآية «فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن فى صحايف فضة بين السماء والأرض». فكان يسمى غسيل الملائكة.

التّفسير

لا تتركوا النبى وحده: إنّ الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة اللّه ورسوله، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات- موضع البحث- حول هذا الموضوع، فتقول أوّلًا: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتْذِنُوهُ».

والمراد من «أمر جامع» كل عمل يقتضى اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملًا استشارياً، أو مسألة حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة فى الظروف الإستثنائية وأمثالها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۴

وفى الحقيقة إنّ هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائى، فإذا وجد القائد أنّ غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى لهذا تضيف الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتْذِنُونَكَ أُوْلئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ».

وتقول الآیة فی الختام: «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

تبیّن هـذه العبارة ضـرورة عدم الإستئذان بالقدر الممکن، واتباع التضـحیة والإیثار حتی لا یتورطوا بارتکاب عمل ترکه أولی کمغادرة الجماعة لعمل بسیط.

ومن الطبیعی أن لاـ تخصّ هـذه التعـالیم التنظیمیـة الرسول صـلی الله علیه و آله وأصـحابه فقـط، وإنّما هی واجبـة الإتباع إزاء کل قائد إلهی، سواء کان نبیاً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حیث یتوقف مصیر المسلمین علی هذه الطاعة، کما یحتمه- إضافة إلی القرآن- العقل والمنطق.

ثم بیّنت الآیـة التالیـة حکماً آخر له علاقة بتعالیم النبی صـلی الله علیه و آله حیث تقول: «لَّاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعَاءِ بَعْضِکُم بَعْضًا».

إن الرسول صـلی الله علیه و آله عنـدما یـدعوکم للاجتمـاع، فـإنّه لابـدّ من أن یکون لمسألـة إلهیـة مهمـة، لهـذا یجب علیکم الإهتمام بدعوته، والإلتزام بتعالیمه، وألّا تهملوها، فأمره من اللَّه ودعوته منه سبحانه وتعالی.

ثم تضیف الآیة: «قَدْ یَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِینَ یَتَسَلَّلُونَ مِنکُمْ لِوَاذًا فَلْیَحْذَرِ الَّذِینَ یُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِیبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ یُصِیبَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

«یتسلّلون»: مشـتقة من «تسـلل»، وتعنی سـحب الشـیء من موضعه، کما یطلق علی الذین یفرون سرّاً من مکان تجمع محدد لهم، کلمة «متسللون».

«لواذاً»: مشتقة من «ملاوذة» بمعنی الإختفاء، وتعنی هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار. أو بتعبیر آخر:

اسـتغفال الآخرین ثم الفرار من مکان تجمعهم، وهذا ما کان یقوم به المنافقون حینما یوجه الرسول صلی الله علیه و آله الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر.

و آخر آیـة من الآیات موضع البحث- والتی هی آخر سورة النور- إشارة بلیغة إلی قضـیة المبدأ والمعاد حیث تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِی السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فإنّ اللَّه العالم بکل شیء، «قَدْ یَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَیْهِ». أی: یعلم اسلوبکم فی التعامل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۵

وأعمـالکم واعتقـادکم ومقاصـدکم، فکلّهـا واضـحة له سـبحانه وتعالی، وثابتـة فی لوحـة علمه «وَیَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». ویجازیهم بها «وَاللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ».

ومما یلفت النظر تأکید الآیة ثلاث مرات علی علم اللَّه بأعمال البشـر، لیشـعر الإنسان أنّه مراقب بشـکل دائم، ولا یخفی علی اللَّه شـیء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الإعتقاد أثره التربوی الکبیر ویضمن سیطرة الإنسان علی نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

«نهایة تفسیر سورة النور»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۷

۲۵ سورة الفرقان

محتوی السورة: تتألف هذه السورة فی مجملها من ثلاثة أقسام:

۱- الـذی یشـکل مطلع هـذه السـورة، یـدحض منطـق المشـرکین بشـدّة، ویسـتعرض ذرائعهم، ویردّ علیهـا، ویخوفهم من عـذاب اللَّه، وحساب یوم القیامة، وعقوبات جهنم الألیمة، ویذکّرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضیة.

۲- ولأجل إکمال هذا البحث، تبحث الآیات بعض دلائل التوحید ومظاهر عظمة اللَّه فی الأکوان.

۳- مختصـر جذاب، وجامع لصـفات المؤمنین الحقیقیین (عباد الرحمن) وعباد اللَّه المخلصـین، فی مقایسة مع الکفار المتعصبین الذین

ذکروا فی القسم الأوّل، فتتحدد منزلة کل من الفریقین تماماً، کما أنّنا سنری أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقادیات والأعمال الصالحة ومکافحة الشهوات، وامتلاک الوعی الکافی، والإحساس والإلتزام بالمسؤولیة الإجتماعیة.

واسم هذه السورة قد اخذ من آیتها الاولی، التی تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفاصل بین الحق والباطل).

فضیلة تلاوة السورة: فی فی تفسیر مجمع البیان قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «من قرأ سورة الفرقان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۸

بعث یوم القیامة وهو یؤمن أنّ الساعة آتیة لا ریب فیها، وأنّ اللّه یبعث من فی القبور».

تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً (۱) الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً (۲)

المقیاس الأعلی للمعرفة: تبدأ هذه السورة بجملة «تبارک» من مادة «برکة»، ونعلم أنّ الشیء ذو برکة، عبارة عن أنّه ذو دوام وخیر ونفع کامل. یقول تعالی: «تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعلَمِینَ نَذِیرًا».

الملفت للإنتباه أنّ ثبوت البرکة لذات الخالق عزّ وجل بواسطة نزول الفرقان، یعنی أنّه أنزل قرآناً فاصلًا بین الحق والباطل، وهذا یدل علی أنّ أعظم الخیر والبرکة هی أن یمتلک الإنسان بیده وسیلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل.

فمقام العبودیة والإنقیاد التامین هو الذی یحقق اللیاقة لنزول الفرقان، ولتلقی موازین الحق والباطل.

وعبارة «للعالمین» کاشفة عن أنّ شریعة الإسلام عالمیة، بل إنّ بعضهم قد استدل منها علی خاتمیة النبی صلی الله علیه و آله.

الآیة الثانیة تصف اللّه الذی نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هی الأساس، والبقیة نتائج وفروع لها، فتقول أوّلًا: «الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبالإلتفات إلی تقدم «له» علی «ملک السماوات» الذی هو دلیل الحصر فی اللغة العربیة یستفاد أنّ الحکومة الواقعیة والحاکمیة المطلقة فی السماوات والأرض منحصرة به تبارک وتعالی.

ثم یتناول تفنید عقائد المشرکین واحدة بعد الاخری، فیقول تعالی: «وَلَمْ یَتَّخِذْ وَلَدًا».

وبهذا الترتیب، یدحض اعتقاد النصاری بأنّ «المسیح» ابن اللّه، أو ما یعتقده الیهود أنّ «العزیر» ابن اللّه، وکذلک یدحض اعتقاد مشرکی العرب.

ثم یضیف جلّ ذکره: «وَلَمْ یَکُن لَّهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ».

فإذا کان لمشرکی العرب اعتقاد بوجود الشریک أو الشرکاء، ویتوهمونهم شرکاء للّهفی

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۹

العبادة، فإنّ القرآن یدین ویدحض کل هذه الأوهام.

ویقول تعالی فی العبارة الأخیرة: «وَخَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیرًا».

لیس کمثل اعتقاد الثنویین الذین یعتقدون بأنّ قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «اللّه»، وأنّ قسماً منها مخلوقات «الشیطان».

وبهذا الترتیب کانوا یقسمون الخلق والخلقة بین اللّه والشیطان.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ وَ لا یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَ لا نَفْعاً وَ لا یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لا حَیاةً وَ لا نُشُوراً (۳) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا إِفْکٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاءُوا ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۶)

الإتهامات المتعددة الألوان: هذه الآیات تتمة للبحث الذی ورد فی الآیات السابقة، فی مسألة المواجهة مع الشرک وعبادة الأوثان. الآیة الاولی تجر المشرکین إلی المحاکمة، ولتحریک وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسیط، وفی نفس الوقت قاطع وداحض:

«وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّايَخْلُقُونَ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وبعد، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادهٔ الأوثان التى لا تملك لنفسـها نفعاً ولا ضراً، ولا تملك موتاً ولا حياهٔ ولا نشوراً، فما بالك بما تستطيعه للآخرين؛ «وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا».

والاصول المهمهٔ عند الإنسان هى هذه الامور الخمسهٔ بالذات: النفع والضر، والموت، والحياهٔ، والنشور.

فمن يكن بحق مالكاً أصيلًا لهذه الامور، يكن بالنسبهٔ إلينا جديراً بالعبادهٔ.

هذه الأوثان ليست عاجزهٔ فى الدنيا عن حل مشكلهٔ ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا يؤمل منها شىء فى الآخرهٔ أيضاً.

الآيـهٔ التاليهٔ- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- فى مقابل دعوهٔ النبى صـلى الله عليه و آله، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۰

لكن القرآن يردّ عليهم فى جملهٔ واحدهٔ فقط، تلك هى: «فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا» «۱».

«الظلم» هنـا لأنّ رجلًا أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله اتّهموه بالكـذب والإفتراء على اللَّه، وبالإشتراك مع جماعهٔ من أهل الكتاب، فظلموا أنفسـهم والناس أيضاً. و «الزور» هنا أنّ قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأنّ النبى صـلى الله عليه و آله دعاهم عدّهٔ مرات إلى الإتيان بسورهٔ وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدى.

كلمهٔ «زور» فى الأصل من «زَور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شىء يتمايل عن حدّ الوسط، وبما أنّ «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد سمّوه «زوراً».

تتنـاول الآيـهٔ التاليـهٔ لونـاً آخر من التحليلات المنحرفـهٔ والحجـج الواهيـهٔ للمشـركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا» «۲».

وهو يستلهمها من الآخرين طيلهٔ اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف: «فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

إنّه يتلقى المعونهٔ لأجل هدفه فى الأوقات التى يقلّ فيها تواجد الناس، أى بكرهٔ وعشياً.

لذا فالآيهٔ الأخيرهٔ تصرح بصيغهٔ الرد على هذه الإتهامات الواهيهٔ، فتقول: «قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

إشارهٔ إلى أنّ محتوى هـذا الكتاب، والأسـرار المتنوعـهٔ فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقوام الأوّلين، والقوانين والاحتياجات البشـريهٔ، وحتى أسـرار عالم الطبيعهٔ والأخبار المسـتقبليهٔ، تدل على أن ليس من صـنع ومتناول عقل البشـر، ولم ينظّم بمساعدهٔ هذا أو ذاك، بل بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شىء علماً.

لكن مع كل هـذا، فإنّ القرآن يترك طريق التوبهٔ مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضـين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى فى ختام الآيهٔ: «إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا».

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماويهٔ، وبمقتضى غفوريته سيعفو فى ظل الإيمان والتوبهٔ عن ذنوبكم التى لا تحصى.

---

(۱) «جاءو»: من مادهٔ «مجىء»، يراد بها عادهٔ معنى «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان».

(۲) ففى الواقع إنّ أولئك كانوا يريـدون أن يتهموا النبى صـلى الله عليه و آله من هذا الطريق، بأنّه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۱

وَ قَالُوا مَا لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِـى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (۷) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَ قَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْـحُوراً (۸) انْظُرْ كَيْفَ ضَـرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۹) تَبَارَكَ الَّذِى

إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذلِکَ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ یَجْعَلْ لَکَ قُصُوراً (١٠)

سبب النّزول

فی کتاب الاحتجاج للطبرسی رحمه الله وعن أبی محمد الحسن العسکری علیه السلام قال: قلت لأبی علی بن محمد علیهما السلام هل کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یناظر الیهود والمشرکین إذا عاتبوه ویحاجهم؟ قال: مراراً کثیرة وذلک أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کان قاعداً ذات یوم بمکة بفناء الکعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قریش .. فابتدأ عبد اللَّه بن أبی أمیة المخزومی فقال: یا محمّد زعمت أنّک رسول اللَّه ربّ العالمین، وما ینبغی لربّ العالمین وخالق الخلق أجمعین أن یکون مثلک رسوله بشراً مثلنا، تأکل کما نأکل وتشرب کما نشرب، وتمشی فی الأسواق کما نمشی .. فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «اللهم أنت السامع لکل صوت، والعالم بکل شیء، تعلم ما قاله عبادک». فأنزل اللَّه علیه: یا محمّد «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ ...» إلی قوله تعالی: «وَیَجْعَل لَّکَ قُصُورًا».

والحدیث طویل أخذنا منه موضع الحاجة.

التّفسیر

لم لا ـ یملک هذا الرسول کنوزاً وجنات؟ استعرض القرآن فی الآیات السابقة قسماً من إشکالات الکفار فیما یخص نزول القرآن المجید، وأجاب علیها، ویعرض فی هذه الآیات قسماً آخر یتعلق بشخص الرسول ویجیب عنها، فیقول تعالی: «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعَامَ وَیَمْشِی فِی الْأَسْوَاقِ».

وفی الوقت الذی یرید هذا الرسول التبلیغ بالدعوة الإلهیة، ویرید أیضاً السلطنة علی الجمیع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۲

لقد کان المشرکون یرون أنّه لا یلیق بذوی الشأن الذهاب إلی الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ینبغی أن یرسلوا خدمهم ومأموریهم من أجل ذلک.

ثم أضافوا: «لَوْلَا أُنزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیرًا». فلِمَ لم یرسل إلیه- علی الأقل- ملک من عند اللَّه، شاهد علی صدق دعوته، وینذر معه الناس؟ حسن جداً، لنفرض أنّنا وافقنا علی أنّ رسول اللَّه یمکن أن یکون إنساناً، ولکن لماذا یکون فقیراً فاقداً للثروة والمال؟! «أَوْ یُلْقَی إِلَیْهِ کَنزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّةٌ یَأْکُلُ مِنْهَا».

ولم یکتفوا بهذا أیضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطیء، کما نقرأ فی ختام هذه الآیة نفسها:

«وَقَالَ الظلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». ذلک أنّهم کانوا یعتقدون أنّ السحرة یستطیعون أن یتدخلوا فی فکر وعقول الأفراد فیسلبونهم قوام عقولهم.

الآیة التالیة تبیّن جواب جمیع هذه الإشکالات فی عبارة موجزة: «انظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثلَ فَضَلُّوا فَلَا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا».

إنّ (الأمثال) هنا، بمعنی الأقوال الفارغة الواهیة.

هذه العبارة الموجزة أداء بلیغ عن هذه الحقیقة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهیة التی لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن- الذی محتواه شاهد ناطق علی إرتباطه باللَّه- لیخفوا وجه الحقیقة.

الآیة الأخیرة مورد البحث- کالآیة التی قبلها- توجّه خطابها إلی النبی صلی الله علیه و آله علی سبیل تحقیر مقولات اولئک، وأنّها لا تستحق الإجابة علیها. یقول تعالی: «تَبَارَکَ الَّذِی إِن شَاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْرًا مِّن ذلِکَ جَنتٍ تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ وَیَجْعَل لَّکَ قُصُورًا».

وإلّا، فهل أحد غیر اللَّه أعطی الآخرین القصور والبساتین؟ من غیر اللَّه خلق جمیع هذه النعم والجمال فی هذا العالم؟ تُری أیستحیل علی اللَّه القادر المنّان أن یجعل لک أفضل من هذه القصور والبساتین؟!

لکنّه لا یرید أبداً أن یعتقد الناس أنّ مکانتک مردّها المال والثروة والقصور، ویکونوا غافلین عن القیم الواقعیة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۳

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (١٢) وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١۴) قُلْ أَ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيراً (١۵) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولًا (١۶)

فى هذه الآيات- على أثر البحث فى الآيات السابقة حول انحراف الكفار فى مسألة التوحيد والنبوة- يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم فى مسألة المعاد، ويتّضح مع بيان هذا القسم أنّهم كانوا أسارى التزلزل والانحراف فى تمام أصول الدين. يقول تعالى أوّلًا: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ».

ذلك أنّه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى وبالجزاء الإلهى، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا الإستهزاء واللامبالاة، ولن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النبى وبراهينه الظاهرة، لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالى، ذلك لأنّ هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال والمنطق، بل واجههم بتهديد مخيف وجسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم والأليم، فهذا الاسلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أوّلًا: «وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» (١).

ثم وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: «إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا».

فى هذه الآية تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهى ويدل على أنّ نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير باللّه».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أمّا حالهم فى نار جهنم فيصفها تعالى: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا».

لأنّ جهنم مكان واسع، لكن اولئك يُحصرون مكاناً ضيقاً فى هذا المكان الواسع، فهم «يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط».

---

(١) «سعير»: من «سَعْر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطة والمحرقة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۴

«مقرنين»: من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، ويقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء «قرن»، ويقولون أيضاً لمن تقيد يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرّن».

«ثبور»: فى الأصل بمعنى «الهلاك والفساد». فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شىء مخيف ومهلك، فإنّه يصرخ عالياً «واثبورا» التى مفهومها ليقع الموت على.

لكنهم يجابون عاجلًا: «لَّاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا».

فلن تنفعكم استغاثتكم فى شىء، ولن يكون ثمّة موت أو هلاك، بل ينبغى أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

ثم يوجّه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه و آله، ويأمره أن يدعو اولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: «قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

تلك الجنة التى «لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

تلك الجنة التى سيبقون فيها أبداً «خلِدِينَ».

أجل، إنّه وعد الله الذى أخذه على نفسه: «كَانَ عَلَى رَبّكَ وَعْدًا مَّسُولًا».

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لَا نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩)

المحاكمة بين المعبودين وعبدتهم الضالين: كان الكلام فى الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركين فى القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذى يسأل اللَّه عنه معبودى المشركين فى القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير. فيقول تعالى: واذكر يوم يحشر اللَّه هؤلاء المشركين وما يعبدون من دون اللَّه:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

والمقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إنّ كل واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبوداً لهم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٥

فيسأل المعبودين: «فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ».

ففى الإجابة: «قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا.

وكان سبب انحراف أولئك هو: أنّ اللَّه تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآباءهم وبدلًا من شكر اللَّه تعالى غرقوا فى هذه الملذات ونسوا ذكر اللَّه: «وَلكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ». فالحياة المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور، ولهذا هلكوا واندثروا «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

«بور»: من مادة «بوار» وهى فى الأصل بمعنى شدّة كساد الشيء، ولأنّ شدّة الكساد تبعث على الفساد، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثم اطلقت بعد هذا على الهلاك.

وعلى هذا فإنّ قوله تعالى: «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا» إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم فى الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم اللَّه واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة.

هنا يوجّه اللَّه تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: «فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ».

لأنّ الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

لا شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أنّ موضوع البحث فى الآية هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلّا أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أنّ «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أنّ القسم الأوّل من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم فى الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة لقبول الإيمان على أثر سماعها محاورات العابدين والمعبودين فى القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: «وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٦

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: هذه الآية نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟

وقال ابن عباس: لما عير المشركون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالفاقة وقالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام الآية، حزن النبى صلى الله عليه و آله لذلك فنزلت تعزية له فقال جبرئيل عليه السلام: السلام عليك يا رسول اللَّه! اللَّه ربّك يقرئك السلام ويقول لك: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ». أى يبتغون المعايش فى الدنيا.

التّفسير

في عدّة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين وأجيب عليها بجواب إجمالي أمّا الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطي جواباً أكثر تفصيلًا. فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ».

فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» وامتحاناً.

وهذا الإمتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصة إذا كان في مستوىً واطيء من حيث الإمكانات المادية.

وعلى أثر هـذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: «أَتَصْبِرُونَ». ذلك لأنّ أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة ...

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا». فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافياً ومستوراً عن عين اللّه وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء، إنّه يراها بدقة ويعلمها جميعاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۷

الإدعاءات الكبيرة: الآيات الحاليـة، تطرح شـكلين آخرين من ذرائع المشـركين وتجيب عليها، فيقول تعالى أوّلًا: «وَقَالَ الَّذِين لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». فعلى فرض أنّنا سـنقبل أنّ النبي يسـتطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به.

وأفضـل دليـل على أنّهم لم يكونوا يقولون هـذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوّة النبي، هو أنّهم طلبوا أن يشاهـدوا الخالق، وأنزلوه إلى حـدّ جسم يمكن رؤيته، ذلـك الطلب نفسه الـذي طلبه مجرمو بني إسـرائيل أيضاً، فسـمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في الآية (۱۴۳) من سورة الأعراف. لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث:

«لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا». «العتو»: على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن الطاعـة، والتمرد على الأمر، مصـحوباً بالعناد واللجاجة.

وتعبير «في أنفسـهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاـء صاروا أسارى الغرور والتكبر في أنفسـهم. ومن الممكن أن يكون أيضـاً بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

ثم يقول تعالى بصـيغة التهديـد: إنّ هؤلاء الـذين يطلبون أن يروا الملائكـة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَئِكَةَ لَابُشْـرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ».

بلى سوف لن يُسـرّوا برؤية الملائكة في ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التي كانوا يطلقونها في الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون:

الأمان .. الأمان، اعفوا عنّا: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا».

«حجر»: على وزن «قشـر»، تقال في الأصل للمنطقـة التي حجروها وجعلوها ممنوعـة الورود، وعندما يقال «حجر إسـماعيل» فلأنّ حائطاً انشـيء حوله فحجز داخله. يقولون للعقـل أيضـاً «حجراً» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفـة. وأيضاً «اصـحاب الحجر» الـذين ورد اسـمهم في القرآن (الآية ۸۰ من سورة الحجر) وهم قوم صالـح الـذين كانوا ينحتون لأنفسـهم بيوتاً حجريـة محكمة في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

أمّا جملة «حجراً محجوراً» فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۸

الآيـة التي بعـدها تجسد مصـير أعمال هؤلاء المجرمين في الآخرة، فتقول: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا». يعني أنّ

أعمال اولئک لا قیمة لها ولا اثر إلی حدّ کأنّهم لم یعملوا شیئاً، لأنّ الشیء الذی یعطی عمل الإنسان الشکل والمحتوی، هو النیة وغایة العمل النهائیة، فأهل الإیمان یتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهی وعلی أساس أهداف مقدسة طاهرة، فی حین أنّ من لا إیمان لهم، فغالباً یقعون أساری التظاهر والریاء والغرور والعجب، فیکون سبباً فی انعدام أیة قیمة لأعمالهم.

وبما أنّ القرآن- عادة- یضع الحسن والسیء متقابلین حتی یتّضح وضع کل منهما بالمقایسة فإنّ الآیة التی بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: «أَصْحبُ الْجَنَّةِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِیلًا». «مستقر»: بمعنی محل الإستقرار؛ و «مقیل»: بمعنی محل الإستراحة فی منتصف النهار، من مادة «قیلولة»، وقد جاءت بمعنی النوم منتصف النهار.

وَ یَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِکَةُ تَنْزِیلًا (۲۵) الْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ کَانَ یَوْماً عَلَی الْکَافِرِینَ عَسِیراً (۲۶)

تشقق السماء بالغمام: مرّة اخری یواصل القرآن فی هذه الآیات البحث حول القیامة، ومصیر المجرمین فی ذلک الیوم، فیقول أوّلًا: إنّ یوم محنة وحزن المجرمین هو ذلک الیوم الذی تنشق فیه السماء بواسطة الغیوم: «وَیَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَممِ وَنُزّلَ الْمَلِکَةُ تَنزِیلًا».

«الغمام»: من «الغم» بمعنی ستر الشیء، لذلک فالغیم الذی یغطی الشمس یقال له «الغمام»، وکذلک الحزن الذی یغطی القلب یسمّونه «الغم».

هذه الآیة ردّ علی طلبات المشرکین، وعلی إحدی ذرائعهم، لأنّهم کانوا یتوقعون أن یأتی اللّه والملائکة طبقاً لأساطیرهم وخرافاتهم من خلال الغیم، فیدعونهم إلی الحق، وفی أساطیر الیهود جاء- أیضاً- أنّ اللّه أحیاناً یظهر ما بین الغیوم.

والمقصود من تشقق السماء بالغمام، هو أن ترتفع حجب العالم المادی عن عین الإنسان من جهة، فیشاهد عالم ماوراء الطبیعة، ومن جهة اخری ستتلاشی الأجرام السماویة، وتظهر الغیوم الانفجاریة، فتبرز التشققات ما بینها فی ذلک الیوم، یوم نهایة هذا العالم وبدایة النشور، یوم ألیم جدّاً للمجرمین الظالمین المعاندین الذین لا إیمان لهم.

بعد ذلک یتناول القرآن الکریم أوضح علائم ذلک الیوم فیقول: «الْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۹

حتی اولئک الذین کان لهم فی هذا العالم نوع من الملک المجازی والمحدود والفانی والسریع الزوال، یخرجون أیضاً من دائرة الملک، فتکون الحاکمیة من کل النواحی وجمیع الجهات لذاته المقدسة خاصة، وبهذا: «وَکَانَ یَوْمًا عَلَی الْکفِرِینَ عَسِیرًا».

فی الوقت الذی یکون علی المؤمنین سهلًا یسیراً وهیناً جدّاً.

وَ یَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَی یَدَیْهِ یَقُولُ یَا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلًا (۲۷) یَا وَیْلَتَا لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِیلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ الذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِی وَ کَانَ الشَّیْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (۲۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قال ابن عباس: نزل قوله تعالی «وَیَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ» فی عقبة بن أبی معیط، وابی بن خلف، وکانا متخالّین، وذلک أنّ عقبة کان لا یقدم من سفر إلّاصنع طعاماً فدعا إلیه أشراف قومه، وکان یکثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات یوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی طعامه، فلمّا قربوا الطعام قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «ما أنا بآکل من طعامک حتی تشهد أن لا إله إلّااللّه وأنّی رسول اللّه». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّااللّه وأشهد أنّ محمّداً رسول اللّه. وبلغ ذلک ابی بن خلف فقال: صبأت یا عقبة؟ قال: لا واللّه ما صبأت، ولکن دخل علی رجل فأبی أن یطعم من طعامی إلّاأن أشهد له فاستحییت أن یخرج من بیتی ولم یطعم، فشهدت له فطعم. فقال ابی: ما کنت براض عنک أبداً حتی تأتیه فتبزق فی وجهه! ففعل ذلک عقبة وارتدّ، وأخذ رحم دابّة فألقاها بین کتفیه. فقال النبی صلی الله علیه و آله: «لا ألقاک خارجاً من مکة إلّاعلوت رأسک بالسیف». فضرب عنقه یوم بدر صبراً.

وأمّا ابی بن خلف فقتله النبی صلی الله علیه و آله یوم احد بیده فی المبارزة.

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذى يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

التّفسير

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها فى الآيات السابقة، وفى هذه الآيات اشارة إلى قسم آخر منها، وهى مسألة حسرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۰

مختصر الامثل ج۳ ۴۴۹

تعالى أوّلًا: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا».

«يعضّ»: من مادة «عضّ»، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدّة الحسرة والأسف. وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب فى نفوسهم والشعور بالراحة.

ثم يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدى الغارق فى عالم الأسف، يقول: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» «۱».

والمقصود ب «فلان» هو ذلك الذى أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال.

ثم يستمر ويقول: «لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى».

«الذكر» فى الجملة أعلاه، له معنىً واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التى نزلت فى الكتب السماوية، بل يدخل فى إطاره كل ما يوجب يقظة ووعى الإنسان.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «وَكَانَ الشَّيْطنُ لِلْإِنسنِ خَذُولًا». ذلك لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثم يتركه حيران ويذهب لسبيله.

وحقيقة الخذلان هى أى يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانته تماماً فى اللحظات الحساسة.

نقرأ فى حديث عن الإمام محمّد التقى الجواد عليه السلام قال: «ايّاك ومصاحبة الشرير، فإنّه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره» «۲».

وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَ نَصِيراً (۳۱) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (۳۲) وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (۳۳) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۳۴)

---

(۱) «خليل»: تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه.

(۲) بحار الأنوار ۷۱/ ۱۹۸.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۱

إلهى، إنّ الناس قد هجروا القرآن: كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تتناول الآية الاولى فى مورد البحث هنا حزن وشكاية الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بين يدى اللَّه عزّ وجل من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا».

قول الرسول صلى الله عليه و آله هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدى اللَّه أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتى فى القوانين

المدنية والجزائية.

إنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه فى زخرفة المساجد بعنوان الفن المعمارى، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

تقول الآية التى بعدها فى مواساة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِىّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ».

لست وحدك قدواجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العداء.

ولكن إعلم أنّك لست وحيداً، وبلا معين، «وَكَفَى بِرَبّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا». فلا وساوسهم تستطيع أن تضلك، لأنّ اللَّه هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأنّ الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التى بعدها تشير أيضاً إلى ذريعة اخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً».

واساساً فقد كان الأفضل للنبى صلى الله عليه و آله أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كيما يجيب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن فى تتمة هذه الآية نفسها يجيبهم: «وَكَذلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا».

إنّ القرآن مجموعة من أوامر ونواهى، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظة، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير فى مواجهة الأحداث التى كانت تبرز أمام مسير الامة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۲

الإسلامية، كتاب- كهذا- يبيّن وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور فى ميادين حياة الامة، لا يمكن أن ينظم ويُدوّن دفعة واحدة. وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهيه- التى يصدرها فى المناسبات المختلفة- دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، تُرى هل يعتبر هذا العمل عقلائياً؟!

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَكَ بِالْحَقّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا». أى أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها.

وبما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أنّ محمّداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرّ خلق اللَّه- العياذ باللَّه- ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة وبلاغة القرآن، فإنّ اللَّه سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وهذا علامة على مهانتهم وذلتهم، لأنّهم كانوا فى الدنيا فى غاية الكبر والغرور والإستهانة بخلق اللَّه، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى تجسيد لضلالتهم فى هذا العالم، ذلك أنّ من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأى شكل، وغافل عما حوله.

فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنة.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (۳۵) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (۳۷) وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (۳۸) وَ كُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (۳۹) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۳

أشار القرآن المجيد فى هذه الآيات إلى تاريخ الامم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكّداً على ست أمم. يقول أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هرُونَ وَزِيرًا».

فقد القيت على عاتقيهما المسؤولية الثقيلة فى جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثورى بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر: «فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا». فإنّهم قد كذبوا دلائل اللَّه وآياته التى فى الآفاق وفى الأنفس وفى كل عالم الوجود، ومن جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الانبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعى التى بذلها موسى وهارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبينات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا «فَدَمَّرْنهُمْ تَدْمِيرًا». «تدمير»: من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك باسلوب يثير العجب.

وكذلك: «وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنهُمْ وَجَعَلْنهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا».

وكذلك: «وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحبَ الرَّسّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذلِكَ كَثِيرًا».

«قوم عاد» هم قوم النبى «هود» العظيم، الذى بعث فى منطقة (الأحقاف) أو (اليمن). و «قوم ثمود» قوم نبى اللَّه «صالح» الذى بعث فى منطقة وادى القرى (بين المدينة والشام).

«رسّ»: فى الأصل بمعنى الأثر القليل، و «أصحاب الرس» كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر كان يافث بن نوح غرسها وكان لهم إثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له «الرسّ»، ولمّا طال منهم الكفر باللَّه وعبادة الشجرة، بعث اللَّه إليهم رسولًا من بنى إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة اللَّه وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلمّا رأوا ذلك ساءهم، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، فأتبعهم اللَّه بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

«قرون»: جمع «قرن» وهى فى الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً فى زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

لكنّنا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثلَ».

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التى يوردونها عليك، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أيّ من ذلك أهلكناهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۴

ودمّرناهم تدميراً: «وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا» «۱». وفى نهاية المطاف- فى الآية الأخيرة مورد البحث- يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التى تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحى الناطق عن المصير الأليم لُاولئك الملوثين والمشركين، فيقول تعالى: «وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا».

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنّهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنّهم: «بَلْ كَانُوا لَايَرْجُونَ نُشُورًا».

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (۴۱) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۴)

الآيات الحالية تتناول لوناً آخر من منطق المشركين وكيفية تعاملهم مع رسول الخاتم صلى الله عليه و آله ودعوته الحقة. يقول تعالى أوّلًا:

«وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: «إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَن ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا».

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففى البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التى ما كانت أهلًا للمنطق: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها.

---

(۱) «تتبير»: من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۵

الجواب القرآنى الثانى على مقولاتهم ورد فى الآية التى بعدها، موجهاً الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله على سبيل المواساة وتسلية الخاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النبى من قبل اولئك، فيقول: «أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَيهُ».

فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه، «أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا».

يعنى إذا وقف اولئك أمام دعوتك بالإستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفى دينك شك أو ريبة، بل لأنهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، واتباع الهوى مصدر الغفلة ومنبع الكفر وعدم الإيمان.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآنى الثالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يعنى لا يؤذينك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً ل «يعقلون». أو أنّه فاقد للعلم ولكنه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً ل «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من اولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا فرق بينهم وبين الانعام، بل هم أتعس من الأنعام وأعجز، إذ أنّ الأنعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

أ لَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (۴۵) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَ النَّوْمَ سُبَاتاً وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَ أَنَاسِيَّ كَثِيراً (۴۹) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۵۰)

حركة الظلال: فى هذه الآيات كلام فى أقسام مهمّة من النعم الإلهية، وكلام فى نعمة «الظلال» ثم فى آثار وبركات «الليل» و «النوم والإستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضى الموات» و «سقاية» الأنعام والناس.

يقول تعالى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۶

أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا».

هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنأ الظلال والساعات هى تلك؛ لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا». إشارة إلى أنّ مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثم إنّنا نجمعه جمعاً ويئداً، «ثُمَّ قَبَضْنهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا».

من المعلوم أنّ الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً فى بعض المناطق، وفى مناطق اخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفى دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الإنتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائى يكون ضاراً بجميع المخلوقات.

بعـد ذكر نعمـة الظلال، تنـاول القرآن الكريم بالشـرح نعمتين اخريين متناسـبتين معها تناسـباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسـرار نظام الوجود الدالة على وجود اللّه، يقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ لِبَاسًا».

هـذا الحجاب الظلامى الـذى لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الـذى يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثم يشير تعالى إلى نعمة النوم: «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا».

«السبات»: فى اللغة من «سبت» بمعنى القطع، ثم جاء بمعنى تعطيل العمل للإستراحة.

هذا التعبير إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم.

النوم فى وقته وبحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب.

وفى ختام الآية أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا».

«النشور»: فى الأصـل من النشـر بمعنى البسـط، فى مقابـل الطى وربّمـا كـان هـذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح فى أنحاء البـدن، حين اليقظة التى تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس فى ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض.

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقّاً، كما أنّ الظلام باعث على النوم والهدوء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۷

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التى هى أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة اخرى مهمة جدّاً فيقول: «وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا».

لاـ يخفى أنّ دور الريـاح هو أنّهـا الطلائع المتقدمـة لنزول الرحمـة الإلهيـة، لأنّ إذا لم تحمـل الريـاح هـذه الغيوم المثقلة من أعـالى المحيطات باتجاه الأراضى اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

إنّ قسـماً من هـذه الرياح المتقدمـة لقطعات الغيوم فى حركتها وامتزاجها برطوبـة ملائمـة، تبعث النسـيم المنعش الـذى تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذى يُنبىء عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير ب «الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفة منها، فبعض شمالى، وبعض جنوبى، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً فى انتشار الغيوم فى كل الآفاق.

المهم هنا هو أنّ «الماء» قد وصف ب «الطهور» التى هى صيغة مبالغة من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعنى أنّ الماء طاهر بذاته ويطهر الأشياء الملوثة.

فمضافاً إلى خاصيـة الإحياء، فإنّ للماء خاصيـة كبيرة الأهميـة هى التطهير، فلولا الماء فإنّ أجسامنا ونفوسـنا وحياتنا تتسـخ وتتلوث فى ظرف يوم واحد.

مضافاً إلى أنّ تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصيـة التطهير هـذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت فى الدرجة الثانية، لذا يضـيف القرآن الكريم فى الآية التى بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: «لِّنُحِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا». وأيضاً: «وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا».

فى الآيـة الأخيرة- مورد البحث- يشـير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هـذه الآيات بينهم بصور مختلفـة ومؤثرة ليتذكروا وليتعرفوا من خلاله على قـدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلّاالإنكار والكفران: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۸

وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِى كُلِّ قَرْيَهٍٔ نَذِيراً (۵۱) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هـذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ

هذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کَانَ رَبُّکَ قَدِیراً (۵۴) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا یَنْفَعُهُمْ وَ لَا یَضُرُّهُمْ وَ کَانَ الْکَافِرُ عَلَی رَبِّهِ ظَهِیراً (۵۵)

الآیـة الاولی- مورد البحث- أشارت إلی عظمـة مقام النبی صلی الله علیه و آله، یقول تعالی: لو أردنا لبعثنا نبیّاً فی کل مدینـة وبلـد، لکنّنا لم نفعل هـذا وألقینا مسؤولیـة هدایـة العالمین علی عاتقک، «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِی کُلِّ قَرْیَةٍ نَّذِیرًا». لأنّ تمرکز النبوة فی وجود فرد واحد یکون باعثاً علی وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من کل فرقة وتشتت.

إنّ هذه الآیة دلیل علی عظمة مقام النبی صلی الله علیه و آله، فهی دلیل کذلک علی وجوب وحدة القائد، وعلی ثقل عبء مسؤولیته.

وبنفس هـذا الـدلیل، یبیّن اللَّه تبارک وتعالی فی الآیـة التالیة أمرین إلهیین مهمین یشـکلان منهجین أساسیین للانبیاء، فیوجه الخطاب أوّلًا إلی الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله ویقول: «فَلَا تُطِعِ الْکفِرِینَ». لا تخطُ أیّة خطوة علی طریق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفین آفة الدعوة إلی اللَّه.

أمّا القانون الثانی فهو: جاهد اولئک بالقرآن: «وَجهِدْهُم بِهِ جِهَادًا کَبِیرًا».

جهاداً کبیراً بعظمـة رسالتک، وبعظمة جهاد کل الأنبیاء الماضـین، الجهاد الذی یشـمل جمیع الأبعاد الروحیة والفکریة للناس، ویشـمل کل الأصعدة المادیة والمعنویة.

هـذا التعبیر یجسـد أیضاً عظمة مقام القرآن، ذلک لأنّه وسـیلة هذا الجهاد الکبیر وسـلاحه القاطع، فإنّ قدرته البیانیة واسـتدلاله وتأثیره العمیق وجاذبیته فوق تصور وقدرة البشر.

ثم یتناول القرآن الکریم مجدداً الاسـتدلال علی عظمة الخالق عن طریق بیان نعمه فی النظام الکونی، فیشـیر بعد ذکر المطر فی الآیات السابقـة إلی عـدم الإختلاط بین المیاه العذبة والمالحة: «وَهُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَیْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۹

«مرج»: من مادة «المرج» (علی وزن فلج) بمعنی الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنی المجاورة بین الماء العذب والمالح.

«عذب»: بمعنی سائغ وطیب وبارد، و «فرات» بمعنی لذیذ وهنیء.

«ملح»: بمعنی مالح، و «أجاج» بمعنی مُرّ وحار.

«برزخ»: بمعنی حجاب وحائل بین شیئین.

فهذه الآیة تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق فی عالم مخلوقاته، وکیف یستقر حجاب غیر مرئی، وحائل خفی بین البحر المالح والبحر العذب، فلا یسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتّضح الیوم أنّ هذا الحجاب اللامرئی، هو ذلک «التفاوت بین کثافة المالح والعذب» وفی الإصطلاح «تفاوت الوزن النوعی» لهما، حیث یکون سبباً فی عدم امتزاجهما إلی مدة طویلة.

إنّ جعـل هـذه الآیـة وسط آیات تتعلق ب «الکفر» و «الإیمان» ربّما تکون أیضاً إشارة وتمثیلًا لهـذا الأمر، ففی المجتمع الواحـد أحیاناً، وفی المدینة الواحدة، بل حتی فی البیت الواحد أحیاناً، یتواجد أفراد مؤمنون کالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إیمان کالماء المالح الأجاج ... مع طرازین من الفکر، ونوعین من العقیدة، ونمطین من العمل، طاهر وغیر طاهر، دون أن یمتزجا.

فی الآیـة التالیة- بمناسـبة البحث فی نزول المطر، وفی البحرین العذب والأجاج المتجاورین- یتحدث القرآن الکریم عن خلق الإنسان من الماء، فیقول تعالی: «وَهُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا». أی إنّ الإنسان الأوّل خلق من ماء، وأن تکوّن جمیع أفراد البشر من ماء النطفة أیضـاً، وأنّ المـاء یشـکل أهم مـادة فی بناء جسم الإنسان أیضاً ... الماء الـذی یعتبر من أبسط موجودات هـذا العالم، کیف صار مبـدأ إیجاد مثل هذا الخلق الجمیل؟! وهذا دلیل بیّن علی قدرته تبارک وتعالی.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الأنسان، فيقول: «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا».

المقصود من «النسب» هو القرابة التى تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل إرتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من «صهر» التى هى فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۰

الأصل بمعنى «الختن» هو الإرتباط الذى يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل إرتباط الإنسان بأقرباء زوجته. فى ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغة التأكيد على المسائل الماضية: «وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا».

ويبيّن القرآن الكريم فى نهاية المطاف فى الآية الأخيرة- مورد البحث- انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسة بين قدرة الأصنام وقدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها فى الآيات السابقة، يقول: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ».

من المسلّم أنّ وجود المنفعة والضرر لا يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبيّن من خلال هذا التعبير هذه النكتة، وهى أنّهم يفتقدون أية حجة فى هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأى تأثير سلبى أو إيجابى.

ويضيف القرآن الكريم فى ختام الآية: أنّ الكفرة يعين بعضهم بعضاً فى مواجهة خالقهم «فى طريق الكفر» «وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا». ويعبئون القوى ويقيمون العراقيل ضد دين اللّه ونبيّه والمؤمنين الحقيقيين.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

أجرى هو هدايتكم: كان الكلام فى الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تضرّ ولا تنفع، وفى الآية الحالية الاولى يشير القرآن إلى مهمة النبى صلى الله عليه و آله قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك فى البشارة والإنذار.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمّة النبى صلى الله عليه و آله، كذلك يسلّيه، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم.

ثم يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم أننى لا اريد منكم فى مقابل هذا القرآن وابلاغكم رسالة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۱

السماء أى أجر وعوض: «قُلْ مَا أَسْلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». ثم يضيف: إنّ الأجر الوحيد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق اللّه «إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبّهِ سَبِيلًا».

يعنى أجرى وجزائى هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النبى صلى الله عليه و آله لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ أجره وجزاءه سعادتهم.

وتبيّن الآية التى بعدها المعتمد الأساس للنبى صلى الله عليه و آله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىّ الَّذِى لَايَمُوتُ».

فمع هذا المعتمد والملجأ فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم.

والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح اللّه تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات: «وَسَبّحْ بِحَمْدِهِ».

ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأنّ اللّه مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: «وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا».

الآية التالية بيان لقدرة الخالق فى ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين. يقول تعالى: «الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» فأخذ بتدبير العالم.

إنّ من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثة.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «الرَّحْمنُ»: من شملت رحمته العامة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصى والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التى لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربّك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنّه المطلع على احتياجات جميع عباده: «فَسَلْ بِهِ خَبِيرًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

البروج السماوية: كان الكلام فى الآيات الماضية عن عظمة وقدرة اللّه، وعن رحمته

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۲

أيضاً، ويضيف اللّه تعالى فى الآية الاولى هنا: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمنُ». نحن لا نعرف «الرحمن» أصلًا، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا». نحن لا نخضع لأىّ أحد، وسوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك، «وَزَادَهُمْ نُفُورًا». أى أنّهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحق.

لا شكّ أنّ أنسب اسم من أسماء اللّه للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظهروا تأثراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: «وَمَا الرَّحْمنُ».

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن؟» وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» فى الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج». فالبروج السماوية إشارة إلى الصور الفلكية الخاصة حيث تستقر الشمس والقمر فى كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلًا: استقرت الشمس فى برج «الحمل» يعنى أنّها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر فى «العقرب» يعنى وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب».

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا».

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل مازلتم تجهلونه وتقولون: «وما الرحمن؟!»

فى الآية الأخيرة يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرّة اخرى فى قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعتمة، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا اللّه عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۳

وَ عِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (۶۳) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيَاماً (۶۴) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (۶۵) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَ مُقَاماً (۶۶) وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَاماً (۶۷)

الصفات الخاصة لعباد الرحمن: هذه الآيات- فما بعد- تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصة لعباد الرحمن، وتبيّن اثنتى عشر صفة من صفاتهم الخاصّة، إكمالًا للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم اللّه «الرحمن» يقولون وملء

رؤوسهم استهزاء وغرور «وما الرحمن؟» ورأينا أنّ القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

إنّ أوّل صفة ل «عباد الرحمن» هو نفى الكبر والغرور والتعالى، الذى يبدو فى جميع أعمال الإنسان حتى فى طريقة المشى، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها فى حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إنّ من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه- بدقة- من أسلوب مشيته. يقول تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِين يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» «۱».

نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، فى حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

الصفة الثانية ل «عباد الرّحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن فى مواصلته هذه الآية: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجهِلُونَ قَالُوا سَلمًا». السلام الذى هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشىء عن الضعف؛ وليس سلام التحية الذى هو علامة المحبة ورابطة الصداقة، بل السلام الذى هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

وتتناول الآية الثانية، خاصيتهم الثالثة التى هى العبادة الخالصة للّه، فيقول تعالى:

---

(۱) «هون»: مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادى المتواضع، واستعمال المصدر فى معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد؛ يعنى أنّهم فى ما هم عليه كأنّهم عين الهدوء والتواضع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۴

«وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبّهِمْ سُجَّدًا وَقِيمًا».

فى عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألذّ من ذلك، حيث ذكر اللّه والقيام والسجود بين يدى عظمته عزّ وجلّ. الصفة الرابعة لهم هى الخوف من العذاب الإلهى: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا». أى شديداً ومستديماً. «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

ومع أنّهم مشتغلون بذكر اللّه وعبادته فى الليالى، ويقضون النهار فى إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات.

«غرام»: فى الأصل بمعنى المصيبة والألم الشديد الذى لا يفارق الانسان. وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها شديد ودائم لا يزول.

فى الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التى هى الإعتدال والإبتعاد عن أى نوع من الإفراط والتفريط فى الأفعال، خصوصاً فى مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَامًا».

الملفت للإنتباه أنّه يورد الكلام فى كيفية إنفاقهم فيقول: إنّ إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أى إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جياعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

إنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفى غير حق، وبلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

«قوام»: لغة بمعنى العدل والإستقامة والحد والوسط بين شيئين.

وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (۶۸) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (۶۹) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (۷۱)

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التى وردت فى هذه الآيات هى التوحيد الخالص الذى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۵

يبعدهم عن كل أنواع الشرك والثنوية والتعددية فى العبادة، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ لَايَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ».

الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أنّ جميع الأنفس الإنسانية محترمة فی الأصل، ومحرم إراقة دمائها إلّاإذا تحققت أسباب ترفع هذا الإحترام الذاتی فتبيح إراقة الدم.

صفتهم الثامنة: هی أنّ عفافهم لا يتلوث أبداً: «وَلَا يَزْنُونَ».

إنّهم على مفترق طريقين: الكفر والإيمان، فينتخبون الإيمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان فی الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنّهم يهيئون المحيط الخالی من كل أنواع الشرك والتعدی والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفی ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَامًا».

«الإثم» و «آثام»: فی الأصل بمعنى الأعمال التی تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنها هنا بمعنى جزاء الذنب.

تتكیء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أنّ لهذه الذنوب الثلاثة أهمية قصوى فيقول تعالى: «يُضعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا».

والمقصود من مضاعفة العذاب أنّ كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة فی هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلًا عن أنّ ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الاخرى، مثل الكفر الذی يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهی.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين فی أی وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففی الآية التالية يقول تعالى هكذا: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدّلُ اللَّهُ سَيَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

تبديل السيئات حسنات: هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

۱- حينما يتوب الإنسان ويؤمن باللّه، تتبدل سيئات أعماله فی المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلًا للنفس المحترمة فی الماضی، فإنّه يتبنى مكانها فی المستقبل الدفاع عن المظلومين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۶

ومواجهة الظالمين. وهذا التوفيق الإلهی يناله العبد فی ظل الإيمان والتوبة.

۲- إنّ اللّه تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات. ۳- والمقصود من السيئات آثارها السيئة التی تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: «وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» «۱». يعنی أنّ التوبة وترك الذنب ينبغی ألّا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغی- إضافة إلى ذلك- أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى اللّه تبارك وتعالى.

الصفة التاسعة ل «عباد الرحمن»، هی احترام وحفظ حقوق الآخرين: إنّ هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ». والمقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعنی أنّ عباد الرّحمن لا يتواجدون فی مجالس الباطل. فعباد الرّحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأنّ الحضور فی هذه المجالس- فضلًا عن ارتكاب الذنب- فإنّه مقدمة لتلوث القلب والروح.

ثم يشير تعالى فى آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهى امتلاك الهدف الإيجابى فى الحياة، فيقول: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا».

إنّهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان.

وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَ عُمْيَاناً (٧٣) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَاماً (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَ مُقَاماً (٧٦)

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والاذن السامعة حين مواجهتهم

---

(١) «متاب»: مصدر ميمى بمعنى التوبة، ولأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۷

لآيات الخالق، فيقول تعالى:

«وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا».

من المسلّم أنّ المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات اللّه أصلًا، بل إنّ المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات اللّه بأعين وآذان موصدة، دون أن يتدبّروا حقائقها، ويستهدوه فى أعمالهم.

التلقى الواعى عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأنّ من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الإنحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادى الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

الصفة الثانية عشر الخاصّة لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هى التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ».

بديهى أنّ معنى هذا ليس أن يقبعوا فى زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إنّ الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلى لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

والصفة الثالثة عشر ل «عباد الرحمن»، التى هى أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هى أنّهم لا يقنعون أبداً أنّهم على طريق الحق، بل إنّ همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً. إنّهم ليسوا كالزهاد المنزوين فى الزوايا، وليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إنّ سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى. لذا يقول فى آخر الآية، إنّهم الذين يقولون: «وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا».

نعم، إنّهم عباد الرحمن، وكما أنّ رحمة اللّه العامة تشمل الجميع فإنّ رحمة اللّه بهؤلاء العباد عامة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبيانهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع فى طريق هداية خلق اللّه.

اولئك نماذج الإنسان الكامل والاسوة فى المجتمع الإنسانى.

اولئك قدوات المتقين.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثة عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفى صورة الكوكبة الصغيرة، فيبيّن جزاءهم الإلهى: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا». «غرفة»: من مادة «غرف» (على وزن حرف) بمعنى رفع الشىء وتناوله، ويقال لما يغترف ويتناول «غرفة»، ثم اطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۸

الطبقات العليا، وهى هنا كناية عن أعلى منازل الجنة.

المهم أنّ الصبر ليس وصفاً جديداً لهم، بل هو ضمانة تطبيق جميع الصفات السابقة، وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعى الذنوب، تجتمع كلها فى ذلك المفهوم.

ثم يضيف تعالى: «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَمًا».

أهل الجنّة يحيى بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أنّ اللّه يحييهم ويُسلم عليهم.

ثم يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: «خلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

لولا ـ دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: هذه الآية التى هى الآية الأخيرة فى سورة الفرقان، جاءت فى الحقيقة نتيجة لكل السورة، وللأبحاث التى بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». وبناء على هذا، إنّ ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند اللّه هو الإيمان باللّه والتوجه إليه، والعبودية له.

ثم يضيف تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا».

يعنى: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات اللّه وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى اللّه، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.

«نهاية تفسير سورة الفرقان»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۹

۲۶ سورة الشّعراء

محتوى السورة: إنّنا نعلم أنّ السور المكية التى أنزلت فى بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الاصول الاعتقادية:

التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء اللّه، وأهمية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى عدة أقسام:

۱- مطلع هذه السورة الذى يتكون من الحروف المقطعة، ثم يتحدث فى عظمة القرآن، وتسلية النبى صلى الله عليه و آله فى مواجهة إصرار وحماقة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات اللّه تبارك وتعالى.

۲- يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، والذى يشبه كثيراً منطق مشركى عصر النبى صلى الله عليه و آله، فكان هذا سبباً فى تسلية النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والإبتلاءات المروعة التى حلّت بهذه الأمم، والذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبى فى تلك الشرائط.

۳- وتغلب عليه جنبه الإستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النبى صلى الله عليه و آله، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النبى صلى الله عليه و آله فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۰

وبالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التى تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح عليه السلام وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وابراهيم عليهم السلام وبعدد من كذّب بعيسى عليه السلام وصدّق بمحمّد صلى الله عليه و آله».

والمراد من التلاوة هى ما كانت مقدمة للتفكر، ثم العزم والعمل.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (۴) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (۵) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۶)

مرّةً اخرى نواجه فى بداية هذه السورة مثلًا آخر من الحروف المقطعة وهو: «طسم».

ورد فى روايات متعددة عن النبى صلى الله عليه و آله أو بعض أصحابه فى تفسير «طسم» أنّ هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء اللَّه تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنة.

وهذه الرّوايات تؤيد التّفسير الذى نقلناه فى مستهلّ سورة الأعراف فى هذا الصدد، كما أنّها فى الوقت ذاته لا تنافى ما قلناه فى مستهل سورة البقرة من أنّ المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إنّ هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة.

و الآية التالية تبيّن عظمة القرآن بهذا النحو: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْمُبِينِ».

ووصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جليّاً بيّناً عظيماً معجزاً- فكلّما أمعن الإنسان النظر فى محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر ... ثم بعد هذا فإنّ القرآن يبيّن الحق ويميزه عن الباطل، ويوضّح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٢١

وتتحرك الآية التالية لتُسرّى عن قلب النبى صلى الله عليه و آله وتثبته فتقول: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». «باخع»: مشتقة من «البَخْع»، ومعناه إهلاك النفس من شدة الغمّ.

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على اممهم ولا سيما الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الذى ورد فى شأنه هذا التعبير القرآنى أكثر من مرّة ...

قال بعض المفسرين: إنّ سبب نزول الآية الآنفة الذكر هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يدعو أهل مكة إلى توحيد اللَّه باستمرار، إلّاأنّهم لم يؤمنوا، فأسف النبى وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته فى وجهه، فنزلت الآية آنفة الذكر لتسرّى عن قلب النبى صلى الله عليه و آله «١».

ولبيان أنّ اللَّه على كل شىء قدير حتى أنّه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقاً ويضطرّهم إلى ذلك، فإنّ الآية التالية تقول: «إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ».

وهى إشارة إلى أنّ اللَّه قادر على إنزال معجزة مذهلة- من السماء- أو أن يرسل عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطئوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلّاأنّ الإيمان بإكراه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعى وإدراك وتفكر.

ثم يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفار من آيات القرآن فيقول: «وَمَا يَأْتِيهِم مّن ذِكْرٍ مّنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ».

والتعبير ب «الرّحمن» إشارة إلى أنّ نزول هذه الآيات من قبل اللَّه إنّما هو من رحمته العامة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال.

والتعبير ب «محدث»- أى جديد- إشارة إلى أنّ آيات القرآن تنزل واحدةً تلو الاخرى، وكل منها ذو محتوى جديد.

ثم يضيف القرآن: أنّ هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الإستهزاء به، فيقول: «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». «الأنباء»: جمع «انبأ»، أى الخبر المهم، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم

من العقاب الشديد الدنيوى والأخروى.

والتحقيق فى هذه الآية والآية السابقة يكشف أنّ الإنسان حين ينحرف عن الجادة المستقيمة فإنّه يفصل نفسه عن الحق- بشكل مستمر.

---

(۱) تفسير روح الجنان ۸/ ۳۲۴.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۲

ففى المرحلة الاولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه ... ثم بالتدريج يبلغ مرحلة الإنكار والتكذيب .. ثم يتجاوز هذه المرحلة إلى السخرية والإستهزاء ... ونتيجةً لذلك ينال عقاب اللَّه وجزاءه (وقد ورد نظير هذا التعبير فى الآيتين ۴ و ۵ من سورة الأنعام).

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۷) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۹)

الزوجية فى النباتات: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أى القرآن المجيد)، أمّا فى الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل اللَّه فى خلقِه وما أوجده سبحانه؛ فتقول الآية الاولى من هذه الآيات:

«أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». «كريم»: فى الأصل تعنى كل شىء قيّم وثمين.

والمراد من «كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة.

وتأتى الآية التالية لتقول مؤكّدة بصراحة: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً». إلّاأنّ اولئك الذين طُبع على قلوبهم فى غفلة وجهل إلى درجة يرون معها آيات اللَّه بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويترسخ فى قلوبهم العناد والجدل. لذلك فإنّ الآية هذه تعقّب قائلة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ». أى إنّ عدم الإيمان لدى اولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدل على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

«العزيز»: معناه المقتدر الذى لا يغلب ولا يُقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنّه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم .. إلّاأنّه مع كل ذلك رحيم، ورحمته وسعت كل شىء، ويكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظة قصيرة، لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته.

وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لَا يَتَّقُونَ (۱۱) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۳

بداية رسالة موسى: قلنا إنّ فى هذه السورة بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل فى عصر النبى صلى الله عليه و آله ... فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هى قصة موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفة من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق فى النيل.

وممّا يلفت النظر تكرار عبارة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»، بعد تمام الحديث عن كل نبى ...

وهو التعبير ذاته الوارد فى بداية هذه السورة فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله .. وهذا الإتساق فى التعبير شاهد حىّ على أنّ ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التى أكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية والإجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآيتان الاوليان من الآيات محل البحث: «وَإِذْ نَادَى رَبُّکَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ».

ويتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغى الإلتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هى الظلم، ومن الواضح أنّ الظلم له معنى جامع واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (۱۳) من سورة لقمان: «إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

كما أنّ استعباد بنى إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الاخرى أيضاً، ثم بعد هذا كلّه فإنّ قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده ...

ويحكى القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول فى الآية التالية: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ». وأخشى أن اطرد قبل أن أكمل أداء رسالتى بما الاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

وكان لموسى الحق فى كلامه هذا تماماً، لأنّ فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأىشخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً ..

وإضافة إلى ذلك فإنّ صدرى لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: «وَيَضِيقُ صَدْرِى».

ثم بعد هذا كلّه فلسانى قد يعجز عن بيانها: «وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى» ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۴

فلذلك فإنّى أطلب أن تشدّ أزرى بأخى: «فَأَرْسِلْ إِلَى هرُونَ». لنؤدّى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا فى مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردوننى «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ» كما يعتقدون لأنّى قتلت واحداً منهم- حين كان يتنازع مع إسرائيلى مظلوم- بضربة حاسمة، وأنا قلق من ذلك: «فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ».

إنّ موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من اللَّه سبحانه مزيد القوة لهذه المواجهة ...

فاستجاب اللَّه طلب موسى ودعوة الصادقة و «قَالَ كَلَّا». فلن يستطيعوا قتلك، أو كلّا لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً فى شأن أخيك، فهو مأمور معك فى هذه المهمة: «فَاذْهَبَا بَايَاتِنَا» لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد اللَّه.

ولا تظنّا بأنّ اللَّه بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان: «إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ» ...

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ (۱۷) قَالَ أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِينَا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِکَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِى فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (۱۹) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (۲۰) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَ جَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ (۲۲)

مواجهة فرعون مواجهةً منطقية وقاطعة: انتهت فى الآيات المتقدمة المرحلة الاولى لمأمورية موسى عليه السلام وهى موضوع الوحى والرسالة وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير ... وتعقيباً على المرحلة الآنفة تأتى الآيات- محل البحث- لتمثل المرحلة الثانية، أى مواجهة موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيرى الذى جرى بينهم. تقول الآية الاولى من هذه الآيات مقدمة لهذه المرحلة: «فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يُرسل بنى إسرائيل ويرفع يده عنهم: «أَن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وبديهى أنّ المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبودية والقهر

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۵

والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفى الرسالة ويقول لموسى «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ...». إذْ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فانقذناك من الهلاك، وهيّأنا لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر فى قتل أبناء بنى إسرائيل الذى كنت مشمولًا به، فتربّيت فى محيط هادىء آمن منعّماً ... وبعد أن تربيت فى بيتنا عشت زماناً «وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ».

ثم توجه إلى موسى وذكره بموضوع قتل القبطى فقال: «وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ».

ثم بعد هذا كلّه: «وَأَنتَ مِنَ الْكفِرِينَ».

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّاأنّه قدّم الإجابة على الإشكال الثانى نظراً لأهميته. (أو أنّه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلًا على عدم جواز هداية مربّيه إن كان المربى ضالًا، ليسلك سبيل الرشاد) وأجابه موسى عليه السلام: «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ».

إنّ موسى عليه السلام استخدم التورية فى تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق فى ذلك الزمان ... لكن اللَّه عرّفه إيّاه بعدئذ، ووهب له حكماً- فجعله من المرسلين، إلّاأنّه كان يقصد فى الباطن أنّه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدّى إلى هذه النتيجة من الجهد والعناء واضطراب البال- مع أنّ أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة.

ثم يضيف موسى قائلًا: «فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه فى أنّه ربّاه وتعهده منذ طفولته وصباه، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَاءِيلَ».

حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة.

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعنى امى فى الصندوق حفاظاً على، وتلقينى فى أمواج النيل، وكانت مشيئة اللَّه أن تسوق الأمواج «زورقى» الصغير حتى توصله إلى قصرك ... أجل إنّ ظلمك الفاحش هو الذى جعلنى رهين منّتك وحرمنى من بيت أبى الكريم، وصيرنى فى قصرك الملوّث ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۶

قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (۲۳) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لَا تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹)

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجة شديدة وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون فى ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول رب العالمين، و «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ». وفرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال متجاهلًا ومستهزئاً.

إلّا أنّ موسى لم يجد بُداً أن يجيب على فرعون بجدّ ... وحيث إنّ ذات اللَّه سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّه أخذ يحدثه عن آيات اللَّه فى الآفاق وآثاره الحية إذ: «قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ».

وينبغى الإلتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكل موجود فى هذا العالم ربّاً، وكانوا يعدّون العالم تركيباً من نُظُم متفرقة، إلّاأنّ كلام موسى عليه السلام يشير إلى أنّ هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة فى عالم الوجود دليل على أنّ له ربّاً واحداً ...

وجملة «إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ» لعلها إشارةً إلى أنّ موسى عليه السلام يريد أن يفهم فرعون ومن حوله- ولو تلويحاً- أنّه يعرف أنّ الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة ... لأنّه لو أراد إدراك الحقيقة والبحث عنها لكان استدلاله كافياً .. لتصححوا نظرتكم نحو

الكون.

إلّا أنّ فرعون عاد لمواصلة الاستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ».

ومعلوم من هم الذين حول فرعون، فهم أشخاص من نسيجه وجماعة من أصحاب القوة والظلم والقهر والمال.

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقى يؤثر فى القلوب المظلمة لُاولئك الرهط ... فعدّه كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلّا أنّ موسى عليه السلام عاد مرّةً اخرى إلى كلامه المنطقى دون أى خوف ولا ـ وهن ولا إيهام، فواصل كلامه و «قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۷

إنّ موسى عليه السلام بدأ فى المرحلة الاولى ب «الآيات الآفاقية»، وفى المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الأنفسية»، إلّاأنّ فرعون تمادى فى حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف «قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

وذلك ما اعتاده الجبابرة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين، إلّاأنّ هذه التهمة لم تؤثر فى روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار اللَّه فى عالم الإيجاد فى الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل ف «قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ».

فإذا كنت- يا فرعون- تحكم حكما ظاهريّاً فى أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّى الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق فى وجوه الموجودات.

غير أنّ هذا المنطق المتين الذى لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى استعمال «حربة» يفزع إليها المستكبرون عند الإندحار، فجابه موسى و «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

إنّ فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الإرهابى، لأنّ مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً فى إيقاظ الناس.

قَالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (۳۵) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (۳۷)

رأينا فى الآيات المتقدمة أنّ فرعون يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام، وهنا يقلب موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقةً اخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوة أيضاً، القوة الإلهية التى تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّياً و «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ».

وهنا وجد فرعون نفسه فى طريق مغلق مسدود، لأنّ موسى عليه السلام أشار إلى خطّة جديدة ولفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لإعترض عليه الجميع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۸

فاضطر فرعون إلى الإستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و «قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ». «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» «بأمر اللَّه».

ثم أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده فى جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فإذا هى بيضاء منيرة: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

إنّ هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والاخرى مظهر الأمل، فالاولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبشارة.

غير أنّ فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق فى وحشة عميقة ولكى يحافظ على قدرته الشيطانية التى أحدق بها الخطر بظهور

موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملأ من حوله فى توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد «قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ذلك الإنسان الذى كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم.

ومن أجل أن يعبّىء الملأ ويُثير حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: «يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

والغريب فى الأمر أنّ فرعون الذى قال هذا الكلام هو الذى كان يقول من قبل: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ». والآن حيث يرى عرشه متزعزعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم فى خطر.

يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟!» إنّها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» «۱». أى: أمهلهما وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار، «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم».

وقالوا: لحسن الحظّ إنّ فى بلادنا العريضة سحرةً كثيرين، فلابدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

---

(۱) «أرجه»: مشتقة من «الإرجاء» ومعناها التأخير وعدم الإستعجال فى القضاء.

«حاشرين»: مأخوذة من مادة «الحشر» ومعناه التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۹

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُوم (۳۸) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (۴۰) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (۴۱) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۲)

اجتماع السحرة من كل مكان: فى هذه الآيات يُعرض مشهداً آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد: «فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

وبتعبير آخر: إنّهم هيأوهم من قبل لمثل هذا اليوم.

وطُلب من الناس الحضور فى هذا المشهد: «وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ».

وقيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغى علينا اتباعهم: «لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ». فلابدّ من تهييج الساحة للمساعدة فى هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

كل هذا من جهة، ومن جهة اخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنّه فى طريق مسدود، وكان مستعدّاً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (۴۶) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۷) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (۴۸) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵۱)

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشدّ من عزمهم، فإنّهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۰

بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ماسنحت لهم الفرصة عصيّهم وحبالهم، ويظهر أنّهم صيّروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية

كالزئبق- مثلًا- بحيث تتحرك وتلمع عند شروق الشمس عليها. وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخية: «قَالَ لَهُمْ مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ».

وأمّا السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم فى هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: «فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغلِبُونَ» «۱».

وهنا- كما يبيّن القرآن فى الآية (۶۶) من سورة طه- تحركت العصىّ كأنّها الأفاعى والثعابين و «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل فى عينى فرعون وأتباعه، إلّاأنّ موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم: «فَأُلْقِيَ مُوسَـِى عَصَاهُ» فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة: «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» «۲».

وهنا فر جماعة من مكانهم وبقى آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

وتبدّل كل شىء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا- إلى تلك اللحظة- مع فرعون غارقين فى الشيطنة، ولأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنّهم تيقنوا أنّ عصا موسى لم تكن سحراً، بل هى معجزة إلهية كبرى: «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سجِدِينَ».

واقترن هذا العمل العبادى- وهو السجود- بالقول بلسانهم ف «قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». ولئلّا يبقى مجال للإبهام والغموض والتردد، ولئلّا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنّهم قالوا: «رَبِّ مُوسَى وَهرُونَ».

---

(۱) «الحبال»: جمع «حبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح؛ و «العصى»: جمع العصا.

(۲) «تلقف»: مشتق من «اللقف» على زنه (السقف) ومعناه إمساك الشىء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أنّ المراد هنا الإمساك بالفم والإبتلاع.

«يأفكون» مشتق من «الإفك» ومعناه الكذب، وهى إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۱

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أنّ وجوده وسلطانه فى خطر، وخاصة أنّه كان يعرف أىّ تأثير عميق لإيمان السحرة فى قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و «قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

لقد تربع على عرش الإستبداد سنين طوالًا، كان ترقّبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، إلّاأنّ فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين اخريين ليُثبت موقعه كما يتصوّر أوّلًا، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً.

فاتّهم السحرة أوّلًا بأنّهم تآمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السّحْرَ».

إلّا أنّنى لا- أدعكم تنتصرون فى هذه المؤامرة، وسأخنق المؤامرة فى مهدها «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

إلّا أنّ فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأنّ السحرة قبل لحظة- والمؤمنين فى هذه اللحظة- قد غمر قلوبهم الإيمان، بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع واحبطوا خطته و «قَالُوا لَاضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبّنَا مُنقَلِبُونَ».

ثم أضافوا بأنّهم واجهوا النبى موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك ف «إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ».

إنّنا لا نستوحش اليوم من أى شىء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل.

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ

لَنَا لَغَائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ (۵۹)

فى الآيات المتقدمة رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصراً من تلك المواجهة وهذه الامور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتمّ الحجة عليهم.

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز، ولمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحى على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلًا:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۲

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ». وفعلًا امتثل موسى عليه السلام هذا الأمر، وعبأ بنى إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، إلّاأنّ من البديهى أنّ حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أنّ فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حشِرِينَ».

ولتعبئة الناس- ضمناً- وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يُعلَن «إِنَّ هؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ».

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

«الشرذمة»: فى الأصل تعنى القلة من الجماعة، كما تعنى ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أى موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأنّ فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم ...

ثم تضيف الآية الاخرى حاكية عن لسان فرعون: «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ». فمن يسقى مزارعنا غداً، ومن يخدم فى البيوت والقصور غيرهم؟!

ثم إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حذِرُونَ» ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بنى إسرائيل، فيقول: «فَأَخْرَجْنهُم مِّن جَنتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ».

أجل، «كَذلِكَ وَأَوْرَثْنهَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶۰) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (۶۲) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (۶۴) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۳

عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة: فى هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بنى إسرائيل وانتصارهم، وكما قرأنا فى الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهيأ مقداراً كافياً من «القوّة» والجيش.

تحركوا فى جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ». فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة ... هؤلاء الغاضبون علينا.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بنى إسرائيل ... لحظات مُرّة لا يمكن وصف مرارتها ... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا

معنويـاتهم وروحيـاتهم، إلّاأنّ موسـى عليه السـلام كان مطمئناً هادىء البال، وكان يعرف أنّ وعـد اللّه فى هلاك فرعون وقومه ونجاة بنى إسرائيل لا يتخلف أبداً ولن يخلف اللّه وعده رسله ...

لذلك التفت إلى بنى إسرائيل الفزعين بكمال الإطمئنان والثقة و «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ».

وفى هـذه الحال التى قد يكون البعض سـمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر اللّه كما يقول القرآن: «فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ...». فامتثـل موسـى عليه السـلام أمر ربّه فضـرب البحر، فإذا أمامه مشـهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بنى إسرائيل، إذا انشقّ البحر «فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ».

«انفلق»: مأخوذ من «الفَلَق» ومعناه الإنشقاق؛ و «فَرَق» من مادة «فرْق» على زنة «حلق» ومعناه الإنفصال.

وبتعبير آخر، كما يقول الراغب فى مفرداته: إنّ الفرق بين (فلق) و (فرق) هو أنّ الأوّل يشـير إلى الإنشـقاق (أو الإنشـطار) والثانى يشير إلى الإنفصال.

«الطّود»: معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة فى الآية تأكيد آخر على معناه.

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهـدتهم هـذه المعجزة الكبرى الواضـحة لم يـذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ».

وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۴

وتقول الآية التالية: «وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ».

وحين خرج آخر من كـان من بنى إسـرائيل من البحر، ودخـل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صـدر أمر اللّه فعادت الأمواج إلى حالتها الاولى.

ويبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ».

وهكـذا إنتهى كـل شـىء فى لحظـة واحـدة ... فالأرقـاء أصـبحوا أحراراً، وهلـك الجبـابرة، وانتهت تلك الحضارة المشـيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والملك المستضعفون بعدهم.

أجل، «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ». فكأنّ فى أعينهم عمىً، وفى آذانهم وقراً، وعلى قلوب أقفالًا.

فحيث لاـ يؤمن فرعون وقومه مع مـا رأوا من المشاهـد العجيبـة، فلا تعجب إذاً ألّا يؤمن بك المشـركون- يا محمّـد- ولا تحزن عليهم لعدم إيمانهم.

والتعبير ب «أكثرهم» إشارة إلى أنّ جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه.

أمّا آخر آية من هذه الآيات فتشير إلى قدرة اللّه ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فمن عزّته أنّه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذى كان أساس حياتهم وثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه.

ومن رحمته أنّه لا يعجل فى الأمر أبداً، بل يمهل سـنين طوالًا، ويرسل معاجزه إتماماً للحجة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (۶۹) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (۷۰) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (۷۱) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (۷۷) الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ الَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ الَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (۸۱) وَ الَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (۸۲)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۵

تعقّب هـذه الآيات على قصـة موسـى وفرعون المليئـة بالـدروس لتبيّن قصة إبراهيم ومواجهاته المشـركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر فتقول: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرهِيمَ».

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبىّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القسم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ».

فأجابوه مباشـرةً: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عكِفِينَ». وهذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلّاأنّهم أضافوا هذه العبارة: «فَنَظَلُّ لَهَا عكِفِينَ».

إنّ إبراهيم لما سـمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال والإعتراض بشدّة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم فى طريق مغلق، ف «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ».

إنّ أقلّ ما ينبغى توفره فى المعبود هو أن يسمع نداء عابده، وأن ينصره فى البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره ... إلّاأنّ هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أنّ لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير فى عواقب الناس.

إلّا أنّ عبـدة الأصـنام الجهلـة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذى يكررونه دائماً، ف «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ».

وهـذا الجواب الـذى يكشف عن تقليـدهم الأعمى لأسـلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذى اسـتطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليل بطلانه كامن فيه.

فالتفت إبراهيم مُوبّخاً لهم ومبيناً موقفهُ منهم و «قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لّى إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أجل ... إنّهم جميعاً أعدائى وأنا معاديهم، ولا أسالمهم أبداً ...

ثم يصف إبراهيم الخليـل ربّ العالمين ويـذكر نعمه المعنويـة والماديـة، ويقايسـها بالأصـنام التى لا تسـمع الـدعاء ولا تنفع ولا تضـرّ، ليتّضح الأمر جليّاً ...

فيبدأ بذكر نعمة الخلق والهداية فيقول: «الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۶

وبعـد بيان أولى مراحل الربوبيـة، وهى الهدايـة بعـد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السـلام النعم المادية فيقول: «وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ».

ولست مشـمولًا بنعمة فى حال الصـحة فقط، بل فى كل حال، «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ». ومع أنّ المرض أيضاً قد يكون من اللَّه، إلّاأنّ إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب فى الكلام ...

ثم يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها ... إلى الحياة الدائمة فى الدار الآخرة، فيقول: «وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ».

وحين أردُ عرصات يوم القيامة اعلقّ حبل رجائى على كرمه: «وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيَتِى يَوْمَ الدّينِ».

وممّا لا شك فيه أنّ الأنبياء معصومون من الـذنب، وليس عليهم وزر كى يغفر لهم ... إلّاأنّه- كما قلنا سابقاً- قـد تعـدّ حسـنات الأبرار سيئات المقربين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنّهم تركوا خيراً منه ... فيقال عندئذ فى حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السـلام لا يعوّل على أعماله الصالحة، فهى لا شـىء بإزاء كرم اللَّه، ولا تقاس بنعم اللَّه المتواترة، بل يعوّل على لطف اللَّه فحسب، وهذه هى آخر مرحلة من مراحل الإنقطاع إلى اللَّه ...

رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (۸۳) وَ اجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ (۸۴) وَ اجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (۸۵) وَ اغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (۸۶) وَ لَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (۸۷)

دعاء إبراهيم عليه السـلام: من هنا تبـدأ أدعيـة إبراهيم الخليل وسؤالاته من اللَّه، فكأنّه بعـد أن دعا قومه الضالين نحو اللَّه، يتجه بوجهه

نحو اللَّه ويعرض عنهم، فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو «رَبّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

إنّ إبراهيم عليه السلام يطلب من اللَّه قبل كل شىء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحاكمية، لأنّ أى منهج لا يتحقق دون هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۷

وبعد هذا الطلب يسأل من اللَّه إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها ب «الحكمة العملية» فى مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية» ...

وبما أنّه ليس للحكمة حد معين، ولا لصلاح الإنسان حدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو فى موقع النبوة، وأنّه من أولى العزم .. لا يكتفى بهذه العناوين.

وبعد هذين الطلبين يطلب موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: «وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْأَخِرِينَ». أى: اجعلنى بحال تذكرنى الأجيال الآتية بخير.

فاستجاب اللَّه دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه فى الآية (۵۰) من سورة مريم: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: «وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ».

«جنة النعيم» التى تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التى لا زوال لها ولا اضمحلال ... النعم التى لا يمكن أن نتصورها.

إنّ التعبير بالإرث فى شأن الجنة إمّا لأنّ معنى الإرث الحصول على الشىء دون مشقة وعناء، أو أنّ ذلك- طبقاً لما ورد فى بعض الروايات- لأنّ كل إنسان له بيت فى الجنة وآخر فى النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته فى الجنة.

وفى خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضالّ، وكما وعده أنّه سيستغفر له، فإنّه يقول فى هذا الدعاء: «وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ».

وأخيراً فإنّ دعاءه السادس من ربّه فى شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة: «وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ». «تخزنى»: مأخوذ من مادة «خزى» على زنة (حزب)، وكما يقول الراغب فى مفرداته، معناه الذل والإنكسار الروحى الذى يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجونه ويخجلونه.

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنّه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والإعتماد على لطف اللَّه العظيم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۸

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ (۸۸) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (۹۱) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (۹۳) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۹۷) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۹۸) وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (۱۰۰) وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۰۴)

اشير فى آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد، أمّا فى هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع «فى تلك السوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو: «يَوْمَ لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

إنّ هاتين الدعامتين المهمتين فى الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة.

وبديهى أنّ المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما يكون- من المال والبنين- فى مرضاة اللَّه، بل المراد منه الإستناد إلى الامور الماديّة، فالمراد إذاً هو أنّ هذه الدعامات المادية لا تحلّ معضلًا فى ذلك اليوم.

ثم يضيف القرآن فى ختام الآية، على سبيل الإستثناء: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

وياله من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح، ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح.

ثم يبيّن القرآن الجنة والنار بالنحو التالى فيقول: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ». أى الضالين.

وهذا الأمر قبل ورود كل من أهل الجنة والنار إليهما، فكل طائفة ترى مكانها من قريب .. فيفرح المؤمنون ويستولى الرعب على الغاوين، وهذا أوّل جزائهما هناك.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٣٩

ثم يتحدث القرآن عن ملامة هؤلاء الضالين، وما يقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». فهل يستطيعون معونتكم فى هذه الشدة التى أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة، «هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ» «١».

إلّا أنّهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لا يتوقع أحد منهم ذلك ... «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ».

كما يقول بعض المفسرين: إنّ كلًا منهم سيُلقى على الآخر يوم القيامة: «وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ».

وفى الحقيقة أنّ هذه الفرق الثلاث، الأصنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الإنحراف، يساقون جميعاً إلى النار ... ولكن بهذه الكيفية ... وهى أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى فى النار.

إلّا أنّ الكلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: «قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ».

أجل ... إنّ العبدة الضالين الغاوين يقسمون باللَّه فيقولون: «تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ».

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية.

«فَمَا لَنَا مِن شَفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ». والخلاصة أنّ الأصنام لا تشفع لنا كما كنّا نتصور ذلك فى الدنيا، ولا يتأتى لأى صديق أن يعيننا هنالك.

إلّا أنّهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل فى تلك الدار لجبران ما فات فى دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا ... ويقولون: «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القسم من قصّة إبراهيم، يكرر اللَّه آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا فى ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا فى

---

(١) قد يكون المراد من «ينتصرون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم ... أو مجموعهما، لأنّنا سنلاحظ فى الآيات المقبلة أنّ العَبدَةَ ومعبوديهم يساقون إلى النار.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٤٠

قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النبى صلى الله عليه و آله وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين فى كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا فى الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء ... وليطمئنوا إلى رحمة اللَّه وعزته، كما أنّ هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنّه لو وجدوا الفرصة فى حياتهم وأمهلهم اللَّه إمهالًا فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته

و كرمه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۰۹) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قَالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قَالَ وَ مَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۱۵)

يتحدث القرآن الكريم بعد الإنتهاء ممّا جرى لإبراهيم وقومه الضالين عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبرة والإتعاظ ... فيذكر عنادهم وشدّتهم فى موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حيائهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات ... فيقول أوّلًا: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ».

وواضح أنّ قوم نوح إنّما كذبوا نوحاً فحسب ... ولكن لما كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيباً للمرسلين جميعاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام، الذى سبق أن أشار إليه فى كلامه حول إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا فى دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس.

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التى هى أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۱

القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» فإنّ إطاعتى من إطاعة اللَّه سبحانه.

ومرّة اخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانية دعوته، ويأتى بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: «وَمَا أَسْلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ».

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذى جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

إلّا أنّ المشركين الحمقى، حين رأوا سبل ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، ف «قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ».

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين فى أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّاأنّ خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية ومعيارها ... إذ كانوا يرون معيار القيم فى المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة فى الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف.

إلّا أنّ نوحاً عليه السلام جابههم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و «قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النبى، وقالوا له: لبيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحق من أن ينفذ إلى قلوبهم.

وإذا كانوا فى ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست محاسباً ولا- مسؤولًا عنهم آنئذ: «إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبّى لَوْ تَشْعُرُونَ».

وإنّما علىّ أن أبسط جناحى لجميع طلّاب الحق: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».

وهذه العبارة جواب ضمنى لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله.

ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقى هى أن أنذر الناس فحسب «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

فمن سمع إنذارى وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعى كائناً من كان، وفى أى مستوى طبقى ومقام اجتماعى أو

مادی.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۲

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱۱۶) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِی كَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَيْنِی وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِی وَ مَنْ مَعِیَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (۱۲۰) إِنَّ فِی ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲)

نجاة نوح وغرق المشركين: كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين فی مواجهة نبيّهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الإعتماد على القوّة والتهديد بالموت والفناء: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

«الرجم»: مأخوذ من «رجام» على وزن (كتاب) وهو جمع «رجمة» على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التی توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعنی الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتی أحياناً بمعنى القتل بأیّ شكل كان، لأنّ القتل كان بالحجر سابقاً.

والتعبير ب «من المرجومين» يدلّ على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جارياً فی شأن المخالفين.

ونوح شكا إلى ربّه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربّه أن ينجّيه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم ... إذ: «قَالَ رَبّ إِنَّ قَوْمِی كَذَّبُونِ».

ثم يلتفت إلى ربّه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وأفصل بينی وبينهم: «فَافْتَحْ بَيْنِی وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا».

«الفتح»: معناه واضح، وهو ما يقابل الغلق ويضاده، وله استعمالان: فتارة يستعمل فی القضايا المادية كفتح الباب مثلًا، وتارة يستعمل فی القضايا المعنوية كفتح الهمّ ورفع الغم.

ثم يضيف فيقول: «وَنَجّنِی وَمَن مَّعِیَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة اللَّه نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبة وخيمة مفجعة، إذ يقول: «فَأَنجَيْنهُ وَمَن مَّعَهُ فِی الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ». أی المليء بالناس وانواع الحيوانات: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ». «المشحون»: مأخوذ من مادة «شحن» على وزن «صحن» ومعناه الملء، وقد يستعمل بمعنى التجهيز؛ و «الشحناء» تطلق على العداوة التی تستوعب جميع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۳

جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلك الفلك [/ أی السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل ... ولم يكن فيه أی نقص ... أی إنّ اللَّه بعد ما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يبتلی نوح وجميع من فی الفلك بأیّ نوع من أنواع الأذى ... وهذا بنفسه إحدى نعم اللَّه عليهم.

وفی ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله فی ختام قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: «إِنَّ فِی ذلِكَ لَأَيَةً». أی فی ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفيه: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

ولهذا فلا تحزن يا رسول اللَّه من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما امرت ... فإنّ عاقبتك وعاقبة أصحابك عاقبة نوح وأصحابه، وعاقبة الضالين من قومك كعاقبة الضالين من قوم نوح.

«وَ» اعلم «إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فرحمته تقتضی أن يمهلهم ويتمّ عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصرك عليهم، وتكون عاقبة أمرهم خسراً.

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۲۴) إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۲۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۲۶) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۲۷) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (۱۲۸) وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (۱۲۹) وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (۱۳۰) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۳۱) وَ اتَّقُوا الَّذِی أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (۱۳۲) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ

(۱۳۳) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۳۴) إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكَمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳۵)

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية: والآن يأتى الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشرة آية من آياته. فيقول القرآن: «كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ».

بالرغم من أنّهم كذبوا هوداً فحسب، إلّاأنّه لمّا كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنّهم كذبوا الأنبياء جميعاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۴

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى فى منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة «أخوهم».

ثم أضاف قائلًا: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». وما سبق من حياتى بين ظهرانيكم يدل على هذه الحقيقة، فإنّى لم أخنكم أبداً ولم تجدوا منّى غير الصدق والحق.

ثم يضيف مؤكّداً: لما كنتم تعرفوننى جيداً «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». لأنّ إطاعتكم إيّاى إطاعة للّه‌سبحانه ... ولا تتصوروا بأنّى أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتى إيّاكم فى حياتى الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك، «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». فجميع النعم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردت شيئاً طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعاً.

والقرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيرة «هود» فى قومه إلى أربعة امور على الترتيب:

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد اللّه وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى.

أمّا الامور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود فى ثوب الإستفهام الإنكارى، فيقول: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ».

«الريع»: فى الأصل يطلق على المكان المرتفع؛ و «تعبثون»: مأخوذ من «العبث» ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظة كلمة «آية» التى تدل على العلامة، يتّضح معنى العبارة بجلاء، وهو أنّ هؤلاء القوم المثرين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الاخر مبانى عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المبانى (كالأبراج وما شاكلها) لم يكن من ورائها أى هدف سوى لفت أنظار الآخرين.

وأمّا الأمر الثالث الذى ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ».

«المصانع»: جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء المجلل المحكم، والنبى هود لا- يعترض عليهم لأنّ لديهم هذه البنايات المريحة الملائمة، بل يريد أن يقول لهم: إنّكم غارقون فى أمواج

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۵

الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل فى القصور حتى نسيتم الدار الآخرة.

فى تفسير مجمع البيان روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ لكل بناء يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة، إلّاما لابدّ منه».

ثم ينتقد النبى (هود) قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: «وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ».

يدل هذه الآيات الثلاث أعلاه على أنّ عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر اللّه حتى ادعوا الألوهية.

والقسم الثالث من حديث هود مما بيّنه لقومه، هو ذكر نعم اللّه على عباده ليحرك فيهم- عن هذا الطريق- الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو اللّه.

وفى هذا الصدد يتبع النبى هود أسلوبى الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران فى كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أوّلًا فيقول: «وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ» «۱».

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم اللّه عليهم، فيقول: «أَمَدَّكُم بِأَنْعمٍ وَبَنِينَ».

ثم يضيف بعد ذلك: «وَجَنتٍ وَعُيُونٍ».

وهكذا فقد وفر اللّه لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل.

وأخيراً، فإنّ هوداً فى آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب اللّه لهم، فيقول: «إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وعادةً- يستعمل لفظ (اليوم العظيم) فى القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه، إلّاأنّه قد يستعمل فى القرآن فى اليوم الصعب الموحش المؤلم على الامم. فبناء على هذا قد يكون التعبير ب «يوم عظيم» فى الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذى ابتلى به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم.

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه، أو إلى العذابين معاً، فيوم الاعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً.

---

(۱) «أمدّ»: مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق فى الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ اللّه يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۶

لا تتعب نفسك فى نصحنا: رأينا فى الآيات المتقدمة أحاديث النبى هود المحترق القلب شفقةً على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية، والآن ينبغى أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقى ولا المعقول، يقول القرآن فى هذا الصدد: «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مّنَ الْوَاعِظِينَ». فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أمّا اعتراضك علينا بهذه الامور فلا محل له من الاعراب: «إِنْ هذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ».

وليس الأمر كما تقول، فإنّه لا شىء بعد الموت، «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ»، لا فى هذا العالم، ولا فى العالم الآخر.

«الخُلُق»:- بضم الخاء واللام- معناه العادة والسلوك والأخلاق لأنّ هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع والسجيّة والعادة الأخلاقية، وهى هنا إشارة إلى الأعمال التى كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الإنتقام أو الجزاء، أى إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد.

ويبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنهُمْ».

وفى ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا فى نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً» على قدرة اللّه، واستقامة الأنبياء وعاقبة المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فيمهل إمهالًا كافياً، ويمنح الفرصة، ويبيّن الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا، إلّاأنّه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفرّ لأحد منه أبداً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۷

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (۱۴۱) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۴۲) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۴۳) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۴۴) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۴۵) أَ تُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (۱۴۶) فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۴۷) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (۱۴۸) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (۱۴۹) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۵۰) وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (۱۵۱) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (۱۵۲)

القسم الخامس من قصص الأنبياء فى هذه السورة، هو قصة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون فى «وادى القرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة.

وبداية القصة هذه مشابهة لبداية قصة عاد (قوم هود) وبداية قصة نوح وقومه، وهى تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول:

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ».

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ثم يقول لهم معرفاً نفسه: «إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» وسوابقى معكم شاهد مبين على هذا الأمر «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». إذ لا أريد إلّارضا اللّه والخير والسعادة لكم.

ولذلك فأنا لا- أطلب عوضاً منكم فى تبليغى إيّاكم، «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ»، فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه.

ثم يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: «أَتُتْرَكُونَ فِى مَا ههُنَا ءَامِنِينَ».

وتتصورون أنّ هذه الحياة المادية التى تستغفل الإنسان دائمة له.

وبالأسلوب المتين، اسلوب الإجمال والتفصيل، يشرح النبى صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنّكم مخلّدون «فِى جَنتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ» «۱».

---

(۱) «الطلع»: مأخوذ من مادة «الطلوع» ويستعمل فى ما يكون منه الرطب بعدئذ، وقد يستعمل الطلع فى الثمرة الاولى للنخل؛ و «الهضيم»: من مادة «هضم»، وله معان مختلفة، فتارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنظوم المنضد، فإذا كان الطلع فى الآية محل البحث بمعنى العذق أوّل طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أوّل الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۸

ثم ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فرِهِينَ». «الفاره»: مشتق من «فره» ومعناه فى الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى.

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النبى صالح عليه السلام فى القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الإسراف»: هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين وقانون التشريع ... وأىّ تجاوز عن الحد موجب للفساد والاختلال. بتعبير آخر: إنّ مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هى الفساد أيضاً.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۵۳) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۵۴) قَالَ هذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُوم (۱۵۵) وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيم (۱۵۶) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (۱۵۷) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۵۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۵۹)

عناد قوم صالح ولجاجتهم: لقد استمعتم إلى منطق صالح عليه السلام المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين- فى الآيات المتقدمة- والآن لنستمع إلى جواب قومه فى هذه الآيات.

إنّهم واجهوه بكلام خشن و «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ». فلذلك فقدت عقلك وتتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

ثم بعد هذا كلّه «مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مّثْلُنَا». وكل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع إنساناً مثله «فَأْتِ بَايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ» لكى نؤمن بك ونتبعك.

«المسحّر»: مشتقة من «السحر» ومعناها المسحور، أى المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أنّ السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل. أجل، إنّهم كانوا يرون بمعيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، ويطبّق نفسه على جميع المفاسد ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۹

فلو أنّ رجلًا مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عدّوه- بحسب منطقهم- مجنوناً «مسحّراً».

إنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفة الحق، بل تذرعاً بالحجة الواهية، وعلى نبيّهم أن يُتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم- وبأمر اللَّه-: «قَالَ هذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

هذه الناقة لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل، ومن خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحيّ في يوم، واليوم الآخر لأهل الحي «أو القرية».

وكان على صالح عليه السلام أن يعلمهم أنّ هذه الناقة ناقة عجيبة وخارقة للعادة، وهي آية من آيات عظمة اللَّه المطلقة فعليهم أن يَدَعوها على حالها، وقال: «وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وبديهي أنّ المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدّي إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتآمروا على نحر الناقة: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِمِينَ» «۱». لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهي.

ولما تجاوز طغيانهم الحدّ، وأثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة اللَّه ومشيئته أنّ يطهر الأرض من وجودهم الملوّث «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ».

ويقول القرآن في ختام هذه الحادثة ما قاله في ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم، فيعبّر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إنّ في قصة قوم صالح، وفي صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البيّنة، والمصير الأسود الذي آلو إليه دروس وعبر: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

أجل، ليس لأحد أن يغلب ربّه؛ فما فوق قوّته من قوة، وهذه القوة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضاً: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

---

(۱) «عقروها»: مأخوذة من مادة «عُقر» ومعناها في الأصل أساس الشيء وجذره، وقد تأتي بمعنى حز الرأس، وتأتي بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۴۹۹

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۶۰) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۶۳) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۶۴) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (۱۶۶)

السفلة المعتدون: سادس نبيّ- ورد جانب من حياته وحياة قومه المنحرفين في هذه السورة- هو لوط عليه السلام. يقول القرآن أوّلًا في هذا الصدد: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التي تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق في تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثم أضاف لوط قائلًا: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». فلم تعرفوا عنّي خيانة حتى الآن ... وسأرعى الأمانة في إيصال رسالة اللَّه إليكم أبداً ... «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاة.

ولا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأنّ وراءها هدفاً مادياً، كلّا: «وَمَا أَسَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية ... وحيث إنّ أهم نقطة فى انحرافاتهم ... هى مسألة الانحراف الجنسى، لذلک فإنّه ركّز عليها وقال: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ». فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم.

أى، إنّكم على الرغم مما خلق اللّه لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلّاأنّكم تركتم نعمة اللّه هذه وراءكم، ولوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ...

ثم أضاف قائلًا: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مّن أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ».

فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواءً كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع أبداً، وإنّما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۱

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (۱۶۷) قَالَ إِنِّی لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (۱۶۸) رَبِّ نَجِّنِی وَ أَهْلِی مِمَّا يَعْمَلُونَ (۱۶۹) فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۷۰) إِلَّا عَجُوزاً فِی الْغَابِرِينَ (۱۷۱) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۷۲) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳) إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵)

عاقبة قوم لوط: إنّ قوم لوط الغارقين بالغرور والمتمادية بهم رياح الشهوة، بدلًا من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهى، فتدخل مواعظه فى قلوبهم ويخلصوا من تلک الأمواج الرهيبة، فإنّهم نهضوا لمواجهته و «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ».

إنّ فعل هؤلاء الضالين- بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهارة.

ويستفاد من عبارة «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا اناساً طاهرين من حيّهم.

إلّا أنّ لوطاً لم يكترث بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و «قَالَ إِنّى لِعَمَلِكُم مّنَ الْقَالِينَ».

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادى إيّاكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترک مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالإعتراض والنقد ...

والتعبير ب «من القالين» يدلّ أيضاً على أنّ جماعة كانوا مثل النبى لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها.

«القالين»: جمع «قال» من مادة «قَلَى أو «قِلِىَ» (على وزنى حَلَق وشَرِک) ومعناها العداوة الشديدة التى تترک أثرها فى قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم.

وأخيراً بدّل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع عفن ... وتمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية.

فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: «رَبّ نَجّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ».

فاستجاب اللّه دعاؤه كما تقول الآية التالية: «فَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ» «۱». وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النبى لوط التى لم تؤمن به أبداً.

---

(۱) «الغابر»: من مادة (الغبور) ومعناه الباقى، ومتى ما تحركت جماعة وبقى شخص فى المكان فإنّه يدعى (غابراً)، ولهذا السبب سمى التراب الباقى غباراً ... والغبرة: الباقى من اللبن فى ثدى الحيوان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۲

أجل، لقد نجّى اللّه لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلًا من تلک المدينة- أو القرية- فترک قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب اللّه فى الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً فى ديارهم، وقد عبّر القرآن عن كان ذلک بعبارة موجزة بليغة، فقال: «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْأَخَرِينَ»، ولم يكف ذلک بل «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا». وأىّ مطر، إنّه وابل من احجار نزل على تلک الخرائب ليمحو أثرها من الانظار، «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ».

والأمطار عادة تمنح الحياة، إلّاأنّ هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخرّباً ...

ویستفاد من الآیة (۸۲) من سورة هود أنّ قری قوم لوط ومدنهم قُلب عالیها سافلها أوّلًا، ثم أمطرت بالحجر النضید المتراکم.

ومرّة اخری نواجه فی نهایة هذه القصة الجملتین اللتین تکررتا فی القصص المشابهة لها فی هذه السورة، فی شأن خمسة أنبیاء کرام آخرین، إذ یقول القرآن: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَأَیَةً وَمَا کَانَ أَکْثَرُهُم مُّؤْمِنِینَ». «وَإِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ». وأیّة رحمة أعظم من أنّه لا یعاقب أقواماً فاسقین کقوم لوط فوراً، بل یمهلهم إمهالًا کافیاً لعلّهم یهتدون، ویجددوا نظرهم فی أعمالهم.

وأیّة رحمة أعظم من أن لا یخلط عقابه «الأخضر بالیابس» بل لو کان فی ألف ألف اسرة غیر صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنّه ینجیها منها وینزل العذاب علی اولئک.

وأیّة عزّة أعظم من أن تری بطرفة عین واحدة دیار الفاسقین قد دُمرت تدمیراً ولم یبق منها أی أثر.

کَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَیْکَةِ الْمُرْسَلِینَ (۱۷۶) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَیْبٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۷۹) وَ مَا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی رَبِّ الْعَالَمِینَ (۱۸۰) أَوْفُوا الْکَیْلَ وَ لَا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِیمِ (۱۸۲) وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۱۸۳) وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِینَ (۱۸۴)

شعیب وأصحاب الأیکة: هذه هی القصة السابعة، والحلقة الأخیرة من قصص الأنبیاء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۳

الواردة فی هذه السورة، وهی قصة شعیب علیه السلام وقومه المعاندین.

کان هذا النبی یقطن فی «مدین»، وهی مدینة تقع جنوب الشامات.

تقول الآیة الاولی من الآیات محل البحث: «کَذَّبَ أَصْحبُ لَیْکَةِ الْمُرْسَلِینَ».

«أیکة»: علی وزن (لیلة)، قریة أو أرض معمورة علی مقربة من مدین.

ثم یتحدث القرآن إجمالًا عن شعیب علیه السلام وعنهم فیقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَیْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

إنّ دعوة شعیب علیه السلام انطلقت من النقطة التی ابتدأها سائر الأنبیاء، وهی التقوی ومخافة اللَّه التی تعدّ أساس المناهج الإصلاحیة والتغییرات الأخلاقیة والاجتماعیة جمعاء.

ثم أضاف شعیب قائلًا: «إِنّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِیعُونِ». فطاعتکم لی طاعة للَّه.

واعلموا أنّی أبتغی ثوابه ووجهه، «وَمَا أَسْلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی رَبّ الْعَالَمِینَ».

و «شعیب» کسائر الأنبیاء الذین ورد جانب من تأریخ حیاتهم فی هذه السورة، فهو یدعو قومه بعد الدعوة العامّة للتقوی وطاعة اللَّه، إلی إصلاح انحرافاتهم الأخلاقیة والاجتماعیة وینتقدهم علی هذه الإنحرافات، وحیث إنّ أهم انحراف عند قومه کان الاضطراب الاقتصادی، والاستثمار والظلم الفاحش فی الأثمان والسلع، والتطفیف فی الکیل، لذلک فقد اهتم بهذه المسائل أکثر من غیرها، وقال لهم: «أَوْفُوا الْکَیْلَ وَلَا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِیمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ».

«تبخسوا»: مأخوذة من «البخس» وهو فی الأصل النقص ظلماً من حقوق الناس ... وقد یأتی أحیاناً بمعنی الغش أو التلاعب المنتهی إلی تضییع حقوق الآخرین ... فبناء علی ما تقدم، فإنّ الجملة الآنفة «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیَاءَهُمْ» لها معنی واسع یشمل جمیع أنواع الغش والتزویر والتضلیل، والتلاعب فی المعاملات، وغمط حقوق الآخرین.

وأمّا جملة «وَلَا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ» فمعناه واسع أیضاً، إذ یشمل بالإضافة إلی البخس والتطفیف کل ما من شأنه أن یکون سبباً للخسارة وإیذاء الطرف الآخر فی المعاملة.

ثم إنّ «شعیباً» فی آخر تعلیماته- فی هذا القسم- یدعوهم مرد اخری إلی تقوی اللَّه فیقول: «وَاتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِینَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۴

«الجبلة»: مأخوذة من «الجبل» وهو معروف «ما ارتفع من الأرض کثیراً» ویسمی الطود أحیاناً، فالجبلة تطلق علی الجماعة الکثیرة التی

هى كالجبل فى العظمة.

قال بعضـهم: الجبلـة مقـدار عـددها عشـرة آلاف. كما تطلق الجبلة على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنّها لا تتغير، كما أنّ الجبل لا يتغير عادةً.

والتعبير المتقـدم لعله إشارة إلى أنّ شـعيباً يقول: إنّما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعايـة العـدل، لأنّ ذلك موجود فى داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأوّل، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۸۵) وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّکَ لَمِنَ الْکَاذِبِینَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَیْنَا کِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۸۷) قَالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ کَانَ عَذَابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۸۹) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ مَا کَانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۹۱)

عاقبـة الحمقى: لمـا رأى قـوم شـعيب الظـالمون- أنّهم لا يملكون دليلًا ليواجهوا به منطقه المـتين، ومن أجـل أن يسـيروا على نهجهم ويواصـلوا طريقهم، رشـقوه بسـيل من التُهم والأكاذيب. فالتهمة الاولى هى ما يلصـقها الجبابرة دائماً والمجرمون بالأنبياء، وهى السـحر فاتّهموه بها و «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» «۱».

ثم ما الفارق بينك وبيننا لنتّبعك؟! ولا مزيّة لك علينا، «وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّکَ لَمِنَ الْکذِبِينَ».

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارةً يدعونه (من الكاذبين) ورجلًا انتهازياً، وتارةً يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّاً «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ». حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب.

«كِسَف»: جمع «كِسْفَة» على وزن (قطعة)، ومعناها قطعـة أيضاً، والمراد من هـذه «القطع من السـماء» هى قطع الأحجار التى تهوى من السماء.

(۱) «المسحّر»: هو المسحور ... أو الذى يقع عليه السحر من قبل السَحرة لينفذوا فى عقله ويبطلوا عمله.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۵

إلّاأنّ شـعيباً عليه السلام، وهو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة والكلمات القبيحة وطلبهم عذاب اللَّه، كان جوابه الوحيد لهم أن «قَالَ رَبّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فإذا لم تنفع المواعظ وتمّت الحجة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له.

إنّ عذاب اللَّه أزف موعده- وكما يعبر القرآن عنه فى الآية التالية قائلًا: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

«الظلة»: فى الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أى ذى الظل.

إنّ حرّاً شديداً محرقاً حلّ فى أرضـهم سبعة أيام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر فى السماء- بعد السبعة أيام- وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

وتُختتم القصة هـذه بما خُتمت القصـص الست السابقـة عن أنبياء اللَّه الكرام، إذ يقول القرآن: إنّ فى حكايـة أصحاب الايكة ودعوة نبيّهم شـعيب وعنادهم وتكـذيبهم، وبالتـالى نزول العـذاب على هؤلاء المتكبرين درس وعبرة لمن اعتبر «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

ومع ذلـك كلّه فإنّ اللَّه رحيم ودود يمهلهم لعلّهم يرجعون ويصـلحون أنفسـهم، فإذا تمادوا فى الغى واسـتوجبوا عـذاب اللَّه، أخـذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل، «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فى ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة ينبغى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة» وهى أنّ قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت فى سور اخر من القرآن أيضاً، إلّاأنّها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أنّ بداية دعوتهم منسجمة، كما أنّ نهاياتها منسجمة أيضاً.

وهذا الإنسجام- قبل كل شىء- يدل على تجلى مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة.

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۱۹۴) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (۱۹۶) أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (۱۹۷)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۶

عظمة القرآن فى كتب السابقين: بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبر الكامنة فى تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرّة اخرى إلى البحث الذى شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهى المبين، إذ يقول: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبّ الْعَالَمِينَ».

لذلك تضيف الآية التالية قائلة: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ».

ولو كان القرآن لم يُنزله ملك الوحى «الروح الأمين من قِبَل اللَّه» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل.

فالروح هى أساس الحياة، والأمانة، هى شرط أصيل فى الهداية والقيادة.

أجل، إنّ هذا الروح الأمين نزل بالقرآن «عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

إنّ الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفاً فكرياً ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان.

ولئلا تبقى حجة لأحد ولا عذر، فإنّ القرآن انزل «بِلِسَانٍ عَرَبِىّ مُّبِينٍ».

والجدير بالذكر أنّ أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحة والبلاغة؛ وفى هذه الصورة فإنّه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه.

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».

وخاصة أنّ أوصاف هذا النبى العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراة موسى عليه السلام بحيث أنّ علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك. لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلًا: «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمؤُا بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وواضح أنّه مع وجود اولئك العلماء من بنى إسرائيل فى ذلك المحيط الملىء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً؛ لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب وصوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أنّ هذا الموضوع كان جليّاً فى ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات- محل البحث.

وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (۱۹۸) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۹۹) كَذلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۲۰۰) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (۲۰۱) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۲۰۲) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (۲۰۳)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۷

لو نُزل القرآن على الأعاجم: فى هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الإحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق فى نزول القرآن بلسان عربى مبين، فيقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أنّ القرآن نزل على عربى شريف من أسرة كريمة، فى بيان رائع رائق بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة، وشهد بذلك علماء بنى إسرائيل، ومع ذلك كلّه لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نبيّهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة.

ثم تضيف الآية لمزيد التأكيد: «كَذلِكَ سَلَكْنهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ».

فى بيان بليغ وبلسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقة، وبمحتوى بشرت به الكتب السماوية السابقة.

والخلاصة إنّنا نسلكه بجميع هذه الأوصاف فى قلوب المجرمين ليكون مقبولًا سهلًا مطبوعاً إلّاأن هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله، فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذى تلفظه المعدة السقيمة.

ولذلك تقول الآية: «لَايُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ». أى: إنّ هؤلاء المجرمين المعاندين، يظلون على حالهم حتى نزول العذاب. أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب «فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

لا شك أنّ المراد من هذا العذاب، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الإستئصال.

لذا فإنّ القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنّهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والإيمان بالرسالة الإلهية: «فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ».

أ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (۲۰۴) أ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (۲۰۵) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (۲۰۶) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (۲۰۷) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (۲۰۸) ذِكْرَى وَ مَا كُنَّا ظَالِمِينَ (۲۰۹) وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (۲۱۰) وَ مَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ (۲۱۱) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (۲۱۲)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۸

تهمة اخرى للقرآن: حيث إنّ الآيات المتقدمة ختمت بجملة «هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ» التى يقولها المجرمون عندما يأتيهم العذاب بغتة وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال، فالآيات محل البحث تردّ عليهم عن طريقين:

الأوّل قوله تعالى: «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

والآخر أنّه: «أَفَرَءَيتَ إِن مَّتَّعْنهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ». فعلى فرض أنّهم امهلوا ثانية (ولن يُمهلوا بعد إتمام الحجة عليهم) الا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب الماديّة فحسب. وهل يعوّضون عمّا فاتهم؟! كلّا أبداً.

وهنا يثار سؤال وهو أنّه مع الإلتفات إلى أنّ اللَّه عالم بمستقبل كل قوم وجماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثم أنّ الامم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، فعلام يأتى الأنبياء منذرين ومبشرين؟!

فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأنّ ذلك سنة اللَّه: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ». فنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم «ذِكْرَى .

ولو كنّا نأخذهم بدون إتمام الحجة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين- من قِبل اللَّه- لكان ظلماً منّا «وَمَا كُنَّا ظلِمِينَ».

فمن الظلم أن نُهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجة عليهم.

ثم يردّ القرآن على إحدى الذرائع أو التُهم الباطلة من قِبَل اعداء القرآن وهى أنّ النبى مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أنّ القرآن يؤكّد أنّ هذه الآيات هى من «تنزيل ربّ العالمين».

فيضيف هنا قائلًا: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيطِينُ».

ثم يبيّن جواب هذه التهمة الواهية التى اختلقها الأعداء، فيقول: «وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ». أى: أنّ محتوى هذا الكتاب العظيم الذى يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنّه لا شباهة له بأفكار الشياطين وما يلقونه.

ثم إنّ الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك «وَمَا يَسْتَطِيعُونَ».

فإذا كانت لهم القدرة فينبغى على سائر من كان فى محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۹

بالشياطين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله. «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ».

ویستفاد من سائر آیات القرآن أنّ الشیاطین کانوا یصعدون إلی السماء ویسترقون السمع من الملائکة، فینقلون ما یدور بین الملائکة من مطالب إلی أولیائهم، إلّاأنّه بظهور نبی الخاتم صلی الله علیه و آله وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الإرتباط الخبری بین الشیاطین وأولیائهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَکُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِینَ (۲۱۳) وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ (۲۱۴) وَ اخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۲۱۵) فَإِنْ عَصَوْکَ فَقُلْ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۱۶) وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ (۲۱۷) الَّذِی یَرَاکَ حِینَ تَقُومُ (۲۱۸) وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ (۲۱۹) إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۲۲۰)

وأنذر عشیرتک الأقربین: تعقیباً علی الأبحاث الواردة فی الآیات السابقة فی شأن مواقف المشرکین من الإسلام والقرآن، فإنّ اللَّه سبحانه یبیّن لنبیّه- فی الآیات محل البحث- منهجه وخطّته فی خمسة أوامر، فی مواجهة المشرکین.

وقبل کل شیء فإنّ اللَّه یدعو النبی صلی الله علیه و آله إلی الإعتقاد التام بالتوحید؛ التوحید الذی هو أساس دعوات الأنبیاء جمیعاً. یقول سبحانه: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ فَتَکُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِینَ».

ثم یأمره اللَّه فی مرحلة اخری أن ینطلق إلی مدی أرحب فی دعوته قائلًا: «وَأَنذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» «۱».

ولا شک أنّه للوصول إلی منهج تغییری ثوری واسع، لابدّ من الابتداء من الحلقات الأدنی والأصغر.

أمّا المرحلة الثالثة، فإنّ اللَّه یوصی النبی فی دائرة أوسع فیقول: علیک أن تعامل أتباعک

(۱) «العشیرة»: مشتقة من «العشرة» العدد المعروف [۱۰] وحیث إنّ العشرة تعتبر فی نفسها عدداً کاملًا، فقد سمی أقرباء الرجل الذین یکمل بهم عشیرة، ولعلّ المعاشرة مأخوذة من هذا المعنی، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة کاملة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۰

باللطف والمحبة: «وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ». وهذا التعبیر الجمیل الرائع کنایة عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، کما أنّ الطیور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتکون مصانةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرّق، فکذلک الأمر بالنسبة للنبی إذ امر أن یخفض جناحه للمؤمنین الصادقین.

ثم تأتی المرحلة الرابعة وهی أنّ الأعداء لم یقبلوا دعوتک وعصوا أوامرک. فلا تبتئس ولا تحزن: «فَإِنْ عَصَوْکَ فَقُلْ إِنّی بَرِیءٌ مّمَّا تَعْمَلُونَ». أی إذا لم یذعنوا بعد دعوتک إیاهم للحق، وواصلوا شرکهم وعنادهم، فعلیک أن تبیّن موقفک منهم.

وأخیراً فالأمر الالهی الخامس للنبی صلی الله علیه و آله لإکمال مناهجه السابقة، هو: «وَتَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ».

ذلک اللَّه «الَّذِی یَرَیکَ حِینَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَکَ فِی السجِدِینَ».

أجل، «إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ».

وهکذا تذکر الآیات ثلاث صفات للَّهبعد وصفه بالعزیز الرحیم وکل منها یمنح الأمل ویشدّ من عزم النبی علی مواصلة طریقة، إذ أنّ اللَّه یری جهوده وأتعابه وحرکاته وسکناته، وقیامه وسجوده ورکعاته.

ذلک اللَّه الذی یسمع صوته.

اللَّه الذی یعلم حاجاته وطلباته حاجته.

«التقلب»: معناه الحرکة والإنتقال من حال إلی حال، وهذا التعبیر لعله إشارة إلی سجود النبی صلی الله علیه و آله بین الساجدین فی أثناء الصلاة، أو إلی حرکة النبی صلی الله علیه و آله وتنقله بین أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وکان یتابع أحوالهم ویسأل عنهم.

وفی المجموع فإنّ هذا التعبیر إشارة إلی أنّ اللَّه سبحانه لا یخفی علیه شیء من حالاتک وسعیک، سواءً کانت شخصیة فردیة، أم کانت مع المؤمنین فی صورة جماعیة، لتدبیر امور العباد ولنشر مبدأ الحق.

إنـذار الأقربين (حـديث يوم الـدار): وفقاً لما ورد في التواريخ الإسـلامية، امر النبي في السـنة الثالثة بدعوته الأقربين من عشـيرته، فدعا النبي صلى الله عليه و آله «عشيرته» إلى بيت عمّه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالى أربعين رجلًا.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۱

وبعـد أن تنـاولوا الطعام، قال صـلى الله عليه و آله: «يا بني عبـد المطّلب، إنّي واللَّه ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الـدنيا والآخرة ... وقـد أمرني اللَّه أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصـيي وخليفتي فيكم؟» فـأحجم القوم عنها غير علي، وكان أصـغرهم (سـناً)، فقال: «يا نبيّ اللَّه، أنا أكون وزيرك عليه»، فأخـذ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله برقبته، وقال: «إنّ هذا وصييّ وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (۲۲۱) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۲۲۲) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (۲۲۳) وَ الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (۲۲۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (۲۲۵) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (۲۲۶) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (۲۲۷)

هـذه الآيات- محل البحث- هي آخر الآيات من سورة الشـعراء، تعود ثانيـة لتردّ على الإتهام السابق- من قبل الأعـداء- بأنّ القرآن من إلقـاء الشـياطين، تردهم ببيـان أخـاذ بليـغ مفحم، فتقول: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ». أي الكـاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعونه مع اضافة أكاذيب كثيرة عليه «يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كذِبُونَ» «۱».

وملخص الكلام أنّ ما تلقيه الشـياطين له علائم واضـحة، ويمكن معرفته بعلائمه أيضاً. فالشيطان موجود مؤذٍ ومخرب، وما يلقيه يجري في مسـير الفسـاد والتخريب، وأتباعه هم الكـذابون المجرمون، وليس شـيء من هـذه الامور ينطبق على القرآن، ولا على مبلّغه، وليس فيها أي شبهٍ بهما.

وفي الآيـة الرابعـة- من الآيات محل البحث- يردّ القرآن على إتهام آخر كان الكفار يرمون به النبي فيـدعونه شاعراً، كما في الآية (۵) من سورة الأنبياء: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ». وربّما

(۱) «أفّاك»: من «الإفك» والإفك هو الكذب الكبير، فمعنى الأفلاك من يكذب كثيراً أكاذيب كبيرة ... و «أثيم»: من مادة «إثم» على وزن (إسم) ومعناه في الأصل: العمل الذي يؤخر صاحبه عن الثواب، ويطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۲

دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآية (۳۶) من سورة الصافات:

«وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ».

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقي، بأنّ منهج النبي يختلف عن منهج الشـعراء؛ فالشـعراء يتحركون في عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعيات، لتنظيم العالم الإنساني.

والشـعراء يبحثون عن العيش واللـذة والغزل (كمـا هي الحـال بالنسبة لشـعراء ذلـك العصـر في الحجـاز خاصـة حيث يظهر ذلـك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإنّ أتباعهم هم الضالون: «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ».

ثم يضيف القرآن على الجملة آنفة الذكر معقّباً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلّ وَادٍ يَهِيمُونَ».

فهم غارقون في أخيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أنّ القوافي تجرهم إلى هذا الإتجاه أو ذاك، ويهيمون معها في كل واد.

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مراً وأنزلوه في شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوياً.

ثم إنّ الشـعراء عادةً هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصـحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول

عنهم: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ».

غير أنّ النبى الكريم صلى الله عليه و آله رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبى صلى الله عليه و آله.

ولما كان بين الشعراء اناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلًا يومئذ». فالقرآن من أجل أن لا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون فى شعرهم أهدافاً الهية وإنسانية، ولا يغرقون فى الأشعار فيغفلون عن ذكر اللَّه، بل كما يقول القرآن: «وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا».

وأشعارهم تذكر الناس باللَّه أيضاً ... وإذا ما ظُلموا كان شعرهم انتصاراً للحق «وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۳

وهكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهى الإيمان، والعمل الصالح، وذكر اللَّه كثيراً، والانتصار للحق من بعدما ظلموا، مستعينين بشعرهم فى الذب عنه.

وحيث إنّ معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النبى، والتسرية عنه، وعن المؤمنين القلة فى ذلك اليوم فى قبال كثرة الأعداء، وحيث إنّ كثيراً من آيات هذه السورة فى مقام الدفاع عن النبى صلى الله عليه و آله ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللائقة به، فإنّ السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ».

«نهاية تفسير سورة الشعراء»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۵

۲۷ سورة النّمل

محتوى السورة: محتوى هذه السورة- بصورة عامة- كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر إهتمامها- من الوجهة الاعتقادية- ينصبّ على المبدأ والمعاد.

وأمّا من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لُاممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلية للمؤمنين القلة بمكة فى ذلك اليوم، وفى الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم فى صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد.

وأحد خصائص هذه السورة هى بيان قسم مهم من قصة النبى سليمان عليه السلام وملكة سبأ، وكيفية إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير- كالهدهد، والحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السلام.

وهذه السورة سمّيت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنّها سمّيت بسورة «سليمان» كما فى بعض الروايات.

وتتحدث هذه السورة ضمناً عن علم اللَّه غير المحدود، وهيمنته وسلطانه على كل شىء فى عالم الوجود، وحاكميته على عباده ... والإلتفات إلى ذلك له أثره الكبير فى المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرى وتنتهى بالتهديد، فالبشرى للمؤمنين، والتهديد للناس بأنّ اللَّه غير غافل عن أعمالكم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۶

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات

بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلّااللّه».

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُبِينٍ (۱) هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶)

القرآن مُنزَل من لدن حكيم عليم: نواجه مرّة اخرى- فى بداية هذه السورة- الحروف المقطعة من القرآن «طس» وبملاحظة أنّ ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أنّ واحداً من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم والآيات البينات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطة ... وإنّ الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

ثم يضيف القرآن قائلًا: «تِلْكَ ءَايتُ الْقُرْءَانِ وَكِتبٍ مُّبِينٍ».

والإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعبير ب (المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً.

وفى الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: «هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ». لأنّه إذا لم يكن فى قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى والتسليم والإيمان بالواقع، فإنّه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولا يفيد من نور هذا الكتاب المبين. «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

وهكذا فإنّ اعتقاد المؤمنين راسخ فى شأن المبدأ والمعاد، وإرتباط متين باللّه وخلقه أيضاً ... فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملى الجامع.

وتتحدث الآية التالية عن الأشخاص فى المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ». أى: حيارى فى حياتهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۷

فهم يرون الملوّث نقيّاً، والقبيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادةً وانتصاراً.

وهذا التغير فى القِيم، أو اضطراب المعايير فى نظر الإنسان، يؤدّى إلى الحيرة فى متاهات الحياة ... وهو من أسوأ الحالات التى تصيب الإنسان.

ثم تبيّن الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» وعاقبة اولئك الذين شغفوا بها فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ». فهم فى الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم فى الآخرة «وَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

وأمّا الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهى بمثابة إكمال البيانات السابقة فى صدد عظمة محتوى القرآن، ومقدمة لقصص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشرة فتقول: «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

وبالرغم من أنّ الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم اللّه سبحانه، إلّاأنّ الحكمة تبيّن الجوانب العملية، والعلم يبيّن الجوانب النظرية ... وبتعبير آخر: إنّ العليم يخبر عن علم اللّه الواسع، والحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم وإنزال القرآن على قلب النبى (محمّد صلى الله عليه و آله).

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۸) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۱۲) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا

مُبْصِرَةً قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۱۴)

موسى يقتبس النور: يجرى الكلام فى هذه السورة- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهمية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر اممهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۸

الكافرين. فأوّل نبىّ تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السلام أحد الأنبياء «أولى العزم» وتبدأ مباشرة بأهم نقطة من حياته وأكثرها «حسّاسية» وهى لحظة نزول الوحى على قلبه وإشراقه فيه، وتكليم اللّه إيّاه، إذ تقول الآية: «إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنّى ءَانَسْتُ نَارًا» «۱». أى رأيت ناراً من بعيد، فامكثوا هنيئة «سَاتِيكُم مّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» «۲».

فى تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السلام يسير بزوجته بنت النبى شعيب عليه السلام فى طريق مصر- وفى الصحراء- فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مقرّباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النار لتصطلى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أىّ شىء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سُرّ كثيراً، وعلم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى وآتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

وهكذا فقد ترك موسى أهله فى ذلك المكان واتّجه نحو «النار» التى آنسها «فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحنَ اللَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ المراد من «مَن فِى النَّارِ» هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التى عندها، فكأنّ موسى كان فى النار نفسها؛ وأنّ المراد من «مَنْ حَوْلَهَا» هم الملائكة المقربون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت. أو أنّ المراد- على عكس ما ذكرنا آنفاً- فمن فى النار: هم الملائكة المقربون، ومن حولها هو موسى عليه السلام.

ومرّة اخرى نودى موسى بالقول: «يمُوسَى إِنّى أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وذلك يزول عن موسى عليه السلام كل شك وتردد، وليعلم أنّ الذى يكلمه هو رب العالمين، لا شعلة النار ولا الشجرة، الربّ القوى العزيز الذى لا يغلب ولا يُقهر، والحكيم ذو التدبير فى جميع الامور.

وحيث إنّ الصدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم

(۱) «آنستُ»: فعل ماض مأخوذ من «الإيناس»، وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينة وإنّما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

(۲) «الشهاب»: هو النور الذى ينبثق من النّار كالعمود، وكل نور له عمود يدعى شهاباً؛ و «القبس»: شعلة من النّار تنفصل عنها؛ و «تصطلون»: من الاصطلاء وهو الدفء (بالنّار).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۹

كفرعون)، لابدّ له من قوة ظاهرية وباطنية وسند على حقانيّته ... فلذا أمر موسى بأن يلقى عصاه: «وَأَلْقِ عَصَاكَ».

فألقى موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلمّا رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّات الصغار خاف وولّى هارباً ولم يلتفت إلى الوراء: «فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقّبْ».

وهنا خوطب موسى مرّة اخرى أن «يمُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ».

ومعنى الآية: أن يا موسى إنّك بين يدى خالق الوجود العظيم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق.

إلّا أنّ فى الآية التالية استثناءاً للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: «إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

أمّا المعجزة الثانية التى أمر موسى أن يظهرها، فهى اليد البيضاء، إذ تقول الآية: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ».

والقيد «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أنّ بياض اليد ليس من برص ونحوه، بل هو بياض نورانى يلفت النظر، وهو بنفسه كاشف عن إعجاز

وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن يظهر اللَّه تعالى عنايته ولطفه لموسى أكثر، وكذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأنّ معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآنفتين، بل «فِى تِسْعِ ءَايتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فسِقِينَ».

ويستفاد من ظاهر الآية أنّ هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة.

وأخيراً تعبّأ موسى بأقوى سلاح- من المعاجز- فجاء إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك فى آية التالية: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

و معلوم أنّ هذا الإتهام «بالسحر» لم يكن خاصاً بموسى عليه السلام، بل اتخذه المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدّاً فى طريق الآخرين، والإتهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقاً للعادة، بحيث اتّهموه بالسحر.

ومما يلفت النظر أنّ القرآن يضيف فى آخر الآية- محل البحث- قائلًا: إنّ هذا الإتهام لم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۰

يكن لأنّهم كانوا فى شك من أمرهم ومترددين فعلًا، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها، «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». ويستفاد من هذا التعبير أنّ الإيمان له حقيقة وواقعية غير العلم واليقين، ويمكن أن يقع الكفر جحوداً وإنكاراً بالرغم من العلم بالشىء.

إنّ القرآن يذكر عاقبة فرعون وقومه على أنّه درس من دروس العبرة، فى جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم وغرقهم فيقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْماً وَ قَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶)

حكومة داود وسليمان عليهما السلام: بعد الكلام عن جانب من قصة موسى عليه السلام فى هذه السورة، يتحدث القرآن الكريم عن نبيّين آخرين من الأنبياء العظام، وهما «داود» و «سليمان» ... لأنّهما كانا من أنبياء بنى إسرائيل أيضاً، وما نجده من اختلاف بين تاريخهما وتاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما- ونتيجة للإستعداد الفكرى وملائمة المحيط الاجتماعى فى عهدهما- قد وفّقا إلى تأسيس حكومة عظيمة، وأن ينشرا بالإستعانة والإفادة من حكومتهما دين اللَّه، لذلك لا نجد هنا أثراً أو خبراً عمّا عهدناه من أسلوب فى تلك الآيات التى كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، وهم يواجهون قومهم المعاندين، وربّما نالوا منهم الأذى والطرد والاخراج من مدنهم وقراهم .. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

والطريف، أنّ القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التى هى أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمنَ عِلْمًا».

إنّ من الواضح أنّ العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل فى نفسه علم التوحيد والإعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التى ينبغى توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء للَّه: «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۱

والذى يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشرة ... ليكون واضحاً أنّ كل نعمة لابدّ لها من شكر، وحقيقة الشكر هو أن يستفاد من النعمة فى طريقها الذى خلقت من أجله.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أوّلًا، فتقول: «وَوَرِثَ سُلَيْمنُ دَاوُدَ».

ثم تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

وجملة «أُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ» فهى تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة اللَّه فى ذلك الحين.

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

سليمان فى وادى النمل: يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أنّ «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعاجز المختلفة. وفى الحقيقة فإنّ اللّه أظهر قدرته فى هذه الحكومة وما سخّر لها من قوى.

وأوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ».

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها «فَهُمْ يُوزَعُونَ». «يوزعون»: من مادة «وزع» على وزن (جمَع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى اطلق على الجند أو الجيش فيعنى إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره، لكى يحفظ من التشتت والتفرق.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«حشر»: فعل ماض من «الحشر» على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقرّ، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۲

إنّ سليمان عليه السلام تحرك بهذا الجيش العظيم «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ». فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: «قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ويستفاد ضمناً من جملة «لَايَشْعُرُونَ» أنّ عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أنّ سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنّما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا».

إنّ سليمان توجه نحو اللّه .. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله: «وَقَالَ رَبّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ» «۱».

أى، لتكون لى القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها فى ما أمرتنى به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحق «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضهُ». وهو يشير إلى أنّ بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدّى عملًا صالحاً يرضى به ربّه.

والطلب الثالث الذى طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآية، هو أن يجعله فى زمرة الصالحين، إذ قال: «وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَ قَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَنْ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

قصة الهدهد وملكة سبأ: يشير القرآن فى هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من

---

(۱) «أوزعنى»: من مادة «إيزاع» ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلّاأنّ أغلب المفسرين إختاروا المعنى الأوّل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۳

حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكة سبأ. فيقول أوّلًا: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ».

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهى أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شىء،

حتى لو كان طائراً واحداً.

وما لا- شك فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأنّ القرآن يضيف استمراراً للكلام: «فَقَالَ مَا لِيَ لَاأَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ».

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابياً، وأن لا يؤثر غياب الهدهد على بقية الطيور، فضلًا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلًا: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

إنّ سليمان قبل أن يقضى غيابياً ذكر تهديده اللازم فى صورة ثبوت التخلف.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنّه- حتى بالنسبة للطائر الضعيف- يستند فى حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعوّل على القوة والقدرة أبداً.

ولكن غيبة الهدهد لم تطل «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ» عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: «فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ».

إنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: «إِنّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق فى تفكيره، إلّاأنّ الهدهد لم يمهله طويلًا فأخبره بخبر جديد ... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: «وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَلَهُمْ». فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». وقد غرقوا فى عبادة الأصنام حتى أنّى لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم «فَهُمْ لَايَهْتَدُونَ».

ثم أضاف الهدهد قائلًا: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ».

«خبء»: على وزن (صبر) معناها كل شيء خفى مستور، وهى هنا إشارة إلى إحاطة علم اللّه بغيب السماوات والأرض، أى:

لِمَ لا يسجدون للّهالذى يعلم غيب السماوات

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۴

والأرض وما فيهما من أسرار؟! وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلى «توحيد العبادة» و «توحيد الربوبية» للّهتعالى، مؤكداً نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

قَالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتَابِى هـذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَا ذَا يَرْجِعُونَ (۲۸) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم (۳۰) أَنْ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِى مُسْلِمِينَ (۳۱) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَا ذَا تَأْمُرِينَ (۳۳) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (۳۵)

الملوك مفسدون مخرّبون: لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام .. وفكّر مليّاً، فينبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر فى هذا المجال: «قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذِبِينَ».

سليمان عليه السلام لم يتّهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب .. ولم يصدّق كلامه دون أى دليل ... بل جعله أساساً للتحقيق.

وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجيزاً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: «اذْهَب بّكِتَبِى هذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

يستفاد من التعبير «أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ» أن يلقى الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، واطّلعت على مضمونه، وحيث إنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب

يـدل على إقـدامه وعزمه الشديـد فى شأن بلدة «سـبأ»، لذلك فكّرت مليّاً، ولما كانت فى مثل هذه المسائل المهمة تستشير من حولها، لذلك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۵

فقد دعتهم وتوجهت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتبٌ كَرِيمٌ».

وقول الملكة: «إِنّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتبٌ كَرِيمٌ» «أى قيم» لعلّه لمحتواه العميق، أو لأنّه بُدىء باسم اللّه أو لأنه ختم بإمضاء صحيح.

ثم إنّ «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: «إِنَّهُ مِن سُلَيْمنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

وبعـد أن ذكرت ملكـة سـبأ محتوى كتـاب سـليمان لقومها ... التفتت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ». «أفتونى»: مشتقة من «الفتوى»، معناها فى الأصل الحكم الدقيق والصحيح فى المسائل الغامضة والصعبة.

«تشهدون»: مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها ف «قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ».

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم فى الإعتماد على القوة والحضور فى ميدان الحرب.

ولما رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافاً لميلها الباطنى، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك:

«قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً».

ولمزيد التأكيد أردفت قائلةً: «وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ».

إنّ ملكة سبأ التى كانت بنفسها ملكةً، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأنّ سيرتهم تتلخص فى شيئين:

۱- الإفساد والتخريب.

۲- وإذلال الأعزة ...

لأنّهم يفكرون فى مصالحهم الشخصية، ولا يكترثون بمصالح الامة وعزتها ... وهما على طرفى نقيض دائماً.

ثم أضافت الملكة قائلةً: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبىّ حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يذلّ الناس أم يحترمهم ويعزّهم؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۶

فينبغى أن نرسل شيئاً إليه «وَإِنّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

فالملوك لهم علاقـة شديدة بالهدايا، ونقطة الضـعف كامنة فى هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سـليمان بهذه الهديـة فهو ملـك، وينبغى أن نواجهه بـالقوة فنحن أقويـاء ... وإذا ألـح على كلامه ولم يكترث بنـا فهو نبى، وفى هـذه الصورة ينبغى التعامل معه بالحكمة والتعقل.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ (۳۷)

لا تخـدعونى بالمال: خرج رسل ملكـة سـبأ بقافلـة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سـليمان «فى الشام» ظنّاً منهم أنّ سـليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم، لكن ما إن حضـروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإنّ سليمان عليه السلام مضافاً إلى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا، «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتِنِىَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتكُمْ».

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوة والعلم والهداية والتقوى، «بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ».

وهكذا فقد حقّر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أنّ هناك معياراً آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوى شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صٰغِرُونَ».

لأنّهم لم يذعنوا- ويُسلموا- للحق ... وإنّما قصدوا الخداع والمكر.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (۳۸) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۷

حضور العرش فى طرفة عين: وأخيراً عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة مُلك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومى، وكل واحد من هذه الامور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل اللّه حقّاً، وحكومته حكومة إلهية. لذلك قررت الملكة أن تأتى بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أىّ طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السلام، فعزم على إظهار قدرته العجيبة- والملكة وأصحابها فى الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شىء على إعجازه، ليذعنوا له ويسلّموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب، إذ «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ». فهذا الأمر علىّ يسير، ولا أجد فيه مشقّة، كما أنّى لا أخونك أبداً، لأنّى قادر على ذلك «وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ». «العفريت»: معناه المارد الخبيث.

وجملة «وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ» المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات تشر إلى احتمال خيانة هذا العفريت ... لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنّه أمين وفىّ.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلًا صالحاً له علم ببعض ما فى الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: «قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالإستعانة بقوته المعنوية: «فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هٰذَا مِن فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ».

ثم أضاف قائلًا: «وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ».

الفرق بين «علم من الكتاب» و «علم الكتاب»: فى كتاب ينابيع المودة للقندوزى عن أبى سعيد الخدرى قال: سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن هذه الآية «قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» قال: «ذاك وزير أخى سليمان بن داود عليه السلام». وسألته عن قول اللّه عزّ وجلّ «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَن عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» قال: «ذاك أخى علىّ بن أبى طالب».

والإلتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذى يعنى (العلم الجزئى) و «علم الكتاب»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۸

الذى يعنى (العلم الكلى)، يكشف البون الشاسع بين آصف وعلى عليه السلام.

نور الإيمان فى قلب الملكة: نواجه فى هذه الآيات مشهداً آخر، مما جرى بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرايتها، ويهىء الجوّ لإيمانها باللّه، أمر أن يغيروا عرشها وينكّروه ف «قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَايَهْتَدُونَ». والمراد من جملة «أَتَهْتَدِى» هى معرفة عرشها.

«فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهكَذَا عَرْشُكِ» إنّ ملكة سبأ أجابت جواباً دقيقاً و «قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ».

ومع كل ذلك فإنّ ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات ... فقالت مباشرة: «وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ». أى: إذا كان مراد سليمان عليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكى نؤمن به، فإنّنا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر ... كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

وهكذا فإنّ سليمان عليه السلام منعها «وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ» بالرغم من «إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كفِرِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمان عليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجرى الماء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۹

من تحتها، فلما وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان «قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ» «۱». فلما رأته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهى متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجارى، وكما يقول القرآن: «فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا» «۲».

إلّا أنّ سليمان عليه السلام التفت إليها و «قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ» «۳». فلا حاجة إلى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أنّ سليمان نبى كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق والتزيّن الرائق ... والصرح الممرّد والبساط الممهّد .. وصحيح أنّه كان حاكماً مبسوط اليد، إلّاأنّ الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنّه، ما يمنع أن يُرى سليمان ملكة سبأ التى كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة .. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف فى حياتها لتعيد النظر فى ميزان القيم ومعيار الشخصية.

وبتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، وقبول دين الحق، والوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمراً مسرفاً. ولذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعلَمِينَ».

لقد كنت فى ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة فى الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنّى أعلى الناس فى الدنيا. أمّا الآن فإنّنى أفهم أنّنى ضعيفة جدّاً.

ربّاه ... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمرى، خاضعة عنقى إليك.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلَى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷)

---

(۱) «صرح»: معناه الفضاء الواسع، وقد يأتى بمعنى البناء العالى والقصر وفى الآية المشار إليها آنفاً معناه ساحة القصر أى فضاءه الواسع ظاهراً.

(۲) «اللّجة»: فى الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدة، ثم أطلق على ذهاب الصوت وإيابه فى الحنجرة تعبير «لجة»، أمّا الأمواج المتلاطمة فى البحر فتسمى «لُجة» وهى هنا فى الآية بهذا المعنى الأخير.

(۳) «الممرّد»: معناه الصافى؛ و «القوارير»: جمع قارورة وهى الزجاجة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۰

صالح فى ثمود: بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصة رابع نبى- وتبيّن جانباً من حياته مع قومه- فى هذه السورة، وهى ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»، إذ يقول القرآن: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ». وكما قيل من قبل: إنّ التعبير ب «أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبة

والإشفاق من قبل الأنبياء لُاممهم، كما أنّ فى بعض المواطن إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم».

إنّ جميع دعوة هذا النبى العظيم تلخصت فى جملة «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ». أجل، إنّ عبادة اللّه هى عصارة كل تعليمات رسل اللّه تعالى.

ثم يضيف قائلًا: «فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ».

فأخذ صالح عليه السلام ينذرهم ويحذرهم من عذاب اللّه الأليم ... إلّاأنّ اولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبيّاً فليحل بنا عذاب اللّه «وقد صرحت الآية (۷۷) من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب»: «وَقَالُوا يَا صلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

إلّا أنّ صالحاً أجابهم محذراً و «قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ».

إنّ عذاب اللّه إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للإيمان.

تعالوا واختبروا صدق دعوتى فى البعد الإيجابى والأمل فى رحمة اللّه فى ظل الإيمان به «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهذا أمر عجيب حقّاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة.

إنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلًا من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة ... منها أنّهم «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ». ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلها بسبب قدوم هذا النبى وأصحابه.

لكنه ردّ عليهم و «قَالَ طَئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ» فهو الذى يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدّت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهى كبير لكم، أجل: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۱

هذه امتحانات وفتن إلهية ... هذه إنذارات وتنبيهات لينتبه- من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو اللّه.

وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (۴۸) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۴۹) وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنَا مَكْراً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۱) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۵۳)

تآمر تسعة رهط فى وادى القرى: نقرأ هنا قسماً آخر من قصة صالح وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتى على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل صالح من قِبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر فى وادى القرى منطقة النبى صالح وقومه. يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الرهط»: يعنى فى اللغة الجماعة التى تقلّ عن العشرة أو تقلّ عن الأربعين، فإنّه يتّضح أنّ كلّا من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد فى الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعى) ومبادىء العقيدة والأخلاق فيه.

ولا ريب أنّ ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية فى حقّهم: «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصدِقُونَ».

الطريف أنّ اولئك كانوا يقسمون باللّه، ويعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون باللّه، مع أنّهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدأون باسمه فى المسائل المهمة.

جاء فى التواريخ أنّ المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهى أنّ جبلًا كان فى طرف المدينة وكان فيه غار يتعبّد فيه صالح، وكان يأتيه ليلًا بعض الأحيان يعبد اللّه فيه ويتضرع إليه،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۲

فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل، ويحملوا على بيته بعد استشهاده ثم يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سئلوا

أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلما كمنوا فى زاوية واختبأوا فى ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم فى الحال. لذلك يقول القرآن فى الآية التالية: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ثم يضيف قائلًا: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ».

وكلمة «مكر» تستعملها العرب فى كل حيلة وتفكير للتخلص أو الإهتداء إلى أمر ما .. ولا تختص بالامور التى تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر وما ينفع .. فإذا نسبت هذه الكلمة إلى اللّه فإنّها تعنى إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرين.

ثم يعبّر القرآن عن كيفية هلاكهم وعاقبة أمرهم فيقول: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا». أجل، لقد أذهبهم ريح عتوّهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إلّا أنّ الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخدوا بجرم الأشقياء ... بل سلم المتقون «وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

انحراف قوم لوط: إنّ النبى الخامس الذى وردت الإشارة إليه فى هذه السورة: نبى اللّه العظيم «لوط». يقول القرآن فى الآيتين محل البحث أوّلًا: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ». «الفاحشة»: تعنى الأعمال السيئة القبيحة، والمراد منها الإنحراف الجنسى وعمل اللواط المخزى.

ثم يضيف القرآن قائلًا: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ».

ولكى يتّضح بأنّ الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلًا: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۳

تجهلون باللّه، وتجهلون هدف الخلق ونواميسه، وتجهلون آثار هذا الذنب وعواقبه الوخيمة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ يُشْرِكُونَ (۵۹)

عندما تعدّ الطهارة عيباً كبيراً: والآن، لنستمع إلى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط». يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ». فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى والسقوط الأخلاقى البعيد.

جاء فى الروايات أنّ لوطاً كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاماً وينصحهم، إلّاأنّه لم يؤمن به إلّاأسرته وأهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم.

بديهى أنّ مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصلاحهم فى عالم الدنيا، فينبغى أن يطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآية التالية فى هذا الشأن: «فَأَنجَيْنهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنهَا مِنَ الْغبِرِينَ» «۱».

وبعد أن خرج آل لوط فى الموعد المعين «سحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت عليهم الحجارة من السماء، وتزلزت الأرض بهم، فدفنوا جميعاً تحت الحجارة والأنقاض، وإلى هذا تشير الآية التالية: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث، وبعد بيان ما جرى على لوط وقومه المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النبى الكريم «محمّد صلى الله عليه و آله» ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

الحمد والثناء الخاص للّه، لأنّه أهلك امماً مفسدين كقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم.

ثم يضيف قائلًا: «وَسَلمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .

سلام على موسى وصالح ولوط وسليمان وداود، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

---

(۱) «الغابرين»: جمع الغابر ومعناه هنا الباقى من الذاهبين من المكان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۴

وعباد اللَّه الصالحين، ومن والاهم بإحسان.

ثم يقول: «ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ».

أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَ جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَ جَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۳) أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۶۴)

أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين: فى آخر آية من آيات البحث السابق، القى هذا السؤال الوجيز المتين: «ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ». أمّا فى الآيات محل البحث فتفصّل السؤال .. وتوجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد فى الآيات الخمس فى اثنى عشر مثلًا.

فالآية الاولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول:

هل أنّ معبوداتكم أفضل «أَمَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ».

«الحدائق»: جمع «الحديقة»، وهى البستان الذى يحيطه الجدار أو الحائط، وله ماء كاف؛ و «البهجة»: معناها الجمال وحسن الظاهر الذى يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد فى ختام الآية فيقول: «مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا».

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذى جعل الحياة فى قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۵

فتكون شجراً، هو اللَّه فحسب.

وبتعبير آخر: فإنّ التوحيد فى الخلق يؤدّى إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد فى الربوبية «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة».

ولذلك فالقرآن يقول فى نهاية الآية: «أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ» ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن اللَّه وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» «۱».

والسؤال الثانى بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنّها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، «أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَلَهَا أَنْهرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ» «۲». كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد فى هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الإدعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآية هذا السؤال: «أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ». حاش للّه «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التى تحكى عن محاورة ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: «أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».

أجل، عندما تُغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإنّ الذى يحلّ المعضلة، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو اللّه لا غير.

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة فى أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين

---

(۱) قد يكون «يعدلون» من مادة «العدول» أى الإنحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة «عِدْل» على وزن (قِشر) ومعناه المعادل والنظير .. ففى الصورة الاولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن اللّه الواحد إلى غيره، وفىالصورة الثانية مفهومها أنّهم يجعلون له عديلًا.

(۲) «الخلال»: فى الأصل معناه الشق بين الشيئين؛ و «الرواسى»: جمع «راسية» وهى الثابتة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۶

حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف اللّه، كما نقرأ فى الآية (۶۵) من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ» ولكنّكم لا تتعضون بهذه الدلائل .. «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ويثير القرآن فى السؤال الرابع مسألة الهداية فيقول: هل أنّ الأصنام أفضل، «أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» بواسطة النجوم «وَمَن يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث.

ويخاطب القرآن فى ختام الآية المشركين مرّة اخرى فيقول: «أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ».

ثم يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلًا: «تَعلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس فى شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، «أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ» .. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير اللّه «قُلْ هَاتُوا بُرْهنَكُمْ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

والمراد من (الرزق السماوى) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضى) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التى تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التى يتمتع بها الإنسان فى حياته.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (۶۶) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَ آبَاؤُنَا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸)

لما كان البحث فى آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإنّ الآيات- محل البحث-

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۷

تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أوّلًا على السؤال الذى يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ ومتى هذا الوعد؟ فتقول: «قُلْ لَّايَعْلَمُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

لاـ شك أنّ علم الغيب- ومنه تاريخ وقوع القيامة- خاص باللَّه، إلّاأنّه لا منافاة فى أن يجعل اللَّه بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ فى الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن: «عِلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ».

ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ».

«ادّارك»: فى الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْأَخِرَةِ»: أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم مما بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات فى هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة:

«بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ». لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة فى هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة فى فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنّها كانت فى فصل الشتاء جرداء ... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق فى مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلّاأنّهم كالعُمى الذين لا يبصرون كل شيء.

و الآية التالية توجز منطق منكرى القيامة والبعث فى جملة واحدة، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ».

مع أنّهم كانوا أوّل الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياءً بعد أن كانوا تراباً.

ثم يحكى القرآن عمّا يضيفه المشركون من قول: «لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ»، ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد، «إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما هى سوى خرافات وخزعبلات القدماء.

فبناءً على هذا فإنّهم يبدأون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساساً للإنكار المطلق.

ويستفاد- ضمناً من هذا التعبير- أنّهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبى فى شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولوا: إنّ هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۸

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (۷۵)

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم: كان الكلام فى الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر. ولما كان البحث المنطقى غير مُجد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد مما يُرى كل يوم فى عالم النباتات وفى عالم الأجنة، وما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث بدلًا من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب اللَّه الذى شمل من سبقهم من الكفار، وأنذرتهم بعقابه المخزى ... فوجهت الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله قائلةً:

«قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ».

فأنتم تعترفون أنّ هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، ولم يروا ضرراً.

وحيث إنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً .. فإنّ الآية التالية تسرى عن قلب النبى فتقول له: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» ولا تقلق من مؤآمراتهم «وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ».

إلّا أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلًا من أن يأخذوا إنذار النبى المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه ويسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

وهنا يردّ القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيّه: «قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى

تَسْتَعْجِلُونَ».

والمراد من العذاب الذى كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۹

كما ويحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذى دفع أخيراً، ببركة وجود النبى إذ كان رحمة للعالمين، والآية (۳۳) من سورة الأنفال شاهدة عليه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ».

ثم يتحدث القرآن فى الآية التالية عن هذه الحقيقة وهى أنّ اللّه إذا لم يعجل فى عقابكم، فذلك بفضله وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافى لإصلاح أنفسهم، فيقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَشْكُرُونَ».

وإذا كانوا يتصورون أنّ تأخير العقاب لعدم علم اللّه سبحانه لما يدور فى خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم فى غاية الخطأ: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» «۱». فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيّان.

ثم يضيف القرآن قائلًا: إنّه ليس علم اللّه منحصراً بما تكنّ القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق. «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتبٍ مُّبِينٍ».

إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد، أمّا فى الآيات- محل البحث- فيقع الكلام على مسألة النبوة، وحقانية القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم. فتقول الآيات أوّلًا: «إِنَّ هذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

---

(۱) «تكنّ»: مأخوذ من كَنّ (على وزن جَنّ)، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر فى قلوب الكفار من خواطر وأفكارعدوانية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۰

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم فى مسائل كثيرة، فقد اختلفوا فى شأن مريم وعيسى عليهما السلام. وفى شأن النبى الذى بشّرت به «التوراة» من هو؟ كما أنّهم اختلفوا فى ما بينهم فى كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية ... فجاء القرآن موضحاً هذه الامور بجلاء.

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإنّ الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلى» وتقول: «وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات.

وحيث إنّ جماعة من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر اللّه، فإنّ الآية التالية تقول فى شأنهم: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ». وهذا الكلام إضافة إلى أنّه يبيّن عظمة القرآن، وهو تهديد لبنى إسرائيل، فهو فى الوقت ذاته تسلية عن قلب النبى وتسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

توكّل على اللّه العزيز الذى لا يغلب، والعليم بكل شىء .. فتوكّل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندين، لأنّه يرعاك و «إِنَّكَ عَلَى

الْحَقّ الْمُبِينِ».

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان اولئك لا يذعنون للحق المبين، ولا يؤثر فى قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب .. ل «إِنَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى .

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم توّاقة إليه، أمّا إحياء الموتى- أو موتى الأحياء- لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلاترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا احياء فإنّهم صمّ لا يسمعون فلايمكنهم أن يسمعوا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك، «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلّاأنّهم عمى «وَمَا أَنتَ بِهدِى الْعُمْىِ عَن ضَللَتِهِمْ».

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صمّ موقرة، وأعينهم عمى.

فأنت يا رسول اللَّه: «إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ» ويشعرون فى أنفسهم بالاذعان للحق.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۱

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِى وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨۴) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨۵)

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ونزوله، فإنّ الآيات- محل البحث- تشير إلى بعض الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بَايَاتِنَا لَايُوقِنُونَ». «الدّابة»: معناها ما يدب ويتحرك. وقد طبق هذا المفهوم فى روايات كثيرة على أمير المؤمنين عليه السلام، والروايات الكثيرة فى تفسير الآية، تدل على أنّ المراد من «دابّة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج فى آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمة الخالق.

ثم تشير الآيات إلى علامة اخرى من علامات القيامة، فتقول: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذّبُ بَايَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ». «الحشر»: معناه إخراج جماعة ما من مقرّها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره؛ «الفوج»: الجماعة التى تتحرك بسرعة؛ و «يوزعون»: معناه حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أنّ يوماً سوف سيأتى يحشر اللَّه فيه من كل امة جماعة، ويهيؤهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

والكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.

«حَتَّى إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بَايَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُم تَعْمَلُونَ».

وقائل هذا الكلام هو اللَّه سبحانه. والمراد من «الآيات» هى المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، أو أوامر اللَّه، أو الجميع.

وبديهى أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أىّ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَايَنطِقُونَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۲

وهذا القول أو العذاب دنيوى، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة «١».

أ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۸۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّماوَاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (۸۷) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (۸۸)

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية: مرّة اخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ والمعاد، وآثار عظمة اللّه، ودلائل قدرته فى عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا». وفى ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة اللّه وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». و الآية التالية تتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: «وَ» اذكر «يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ». أى خاضعين.

ويستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ فى الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات:

فالمرّة الاولى يقع النفخ فى الصور عند نهاية الدنيا وبين يدى القيامة، وبها يفزع من فى السماوات والأرض إلّامن شاء اللّه.

والثانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعلّ هاتين النفختين واحدة.

والمرّة الثالثة ينفخ فى الصور عند البعث وقيام القيامة .. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه إلّاأنّ الظاهر من الآية يدل على أنّ النفخة هنا إشارة إلى النفخة الاولى التى تقع فى نهاية الدنيا.

و الآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة اللّه فى هذا العالم الواسع، فتقول: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع فى الخلق، لا ريب فى علمه و «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

---

(۱) و «الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها فى عبارة موجزة بهذا النحو: بعد ظهور المهدى عليه السلام وبين يدى القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخلّص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا .. فالطائفة الاولى تصعد فى مدارج الكمال ... والطائفة الثانية تنال عقابها الشديد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۳

إنّ الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة اللّه فى هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التى لا نحس بها، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۹۲) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۳)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم اللّه بها، أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام فى مستهلّها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ».

إنّ معنى الآية واسع كما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أيضاً، فهى تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان باللّه وبرسوله وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، التى تعدّ فى طليعة الأعمال الحسنة، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة اخرى تشملها الآية.

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الاخرى التى تقابل أصحاب الحسنات فتقول: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ».

وليس لهذه الطائفة أىّ توقع غيرها «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«كُبت»: مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» ومعناه فى الأصل إلقاء الشىء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر «وجوههم» فى الآية هو من باب التوكيد.

إنّ اولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يُلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين ... فالآن لابدّ أن يبتلوا بمثل هذا العذاب.

ثم يوجه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله فى الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكّد له هذه الحقيقة وهى أن يخبر اولئك المشركين بأنّ عليه أن يؤدّى رسالته ووظيفته، سواءً آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الاولى من هذه الآيات: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ».

هذه البلدة المقدسة التى يتلخّص كل وجودكم وشرفكم بها.

أجل، أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة «الَّذِى حَرَّمَهَا» وجعل لها خصائص وأحكاماً

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۴

وحرمة، وأموراً اخر لا تتمتع بها أية بلدة اخرى فى الأرض.

لكن لاتتصوروا أنّ هذه البلدة وحدها للّه، بل له كل شى فى عالم الوجود «وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ».

والأمر الثانى الذى أمرت به، هو أن أسلم وجهى له «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وهكذا فإنّ الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النبى وهما (عبادة الواحد الأحد، والتسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: «وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ».

أتلوه فأستضىء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياة، وأن أعول فى جميع مناهجى على هديه. أجل، فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والإنحراف والضلال ومكافحتها.

ثم تعقب الآية لتحكى عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى، كما أنّ اللّه غنى عنكم، بل: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ».

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم اخروية فهى عائدة للمهتدى نفسه والعكس صحيح «وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ».

والأمر الأخير- فى آخر آية من هذه السورة- موجه للنبى أن يحمد اللّه على هذه النعم الكبرى، ولا سيما نعمة الهداية فيقول: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمة القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمة للجملة التالية: «سَيُرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا».

وهذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها .. وستعرفون نعم اللّه وعظمة قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم .. وإراءة الآيات هذه مستمرة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر.

إلّا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم اللّه سدى «وَمَا رَبُّكَ بِغفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

ولا تتصوروا بأنّ اللّه إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنّها لا تسجل فى اللوح المحفوظ.

وجملة «وَمَا رَبُّكَ بِغفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» الواردة بنفسها أو مع شىء من التفاوت اليسير فى تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهى تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة النمل»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۵

۲۸ سورة القصص

محتوى السورة: هـذه السورة نزلت في مكـة، وفي ظروف كان المؤمنون في قبضـة الأعداء الأقوياء وبين مخالبهم، الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدّ قدرةً وقوةً ونفيراً.

وبما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التي كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة.

في بداية السورة يبشر المستضعفين بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الإطمئنان والقدرة.

و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثري الذي كان يعتمد على علمه وثروته، حتى لقي أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود.

احدهما غريق في الماء والآخر دفين في الأرض.

وبين هـذين القسـمين دروس حيّـة وقيّمـة من التوحيـد والمعاد وأهميـة القرآن، وبيان حال المشـركين في يوم القيامـة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهي «نتيجة» الأوّل و «مقدمة» للقسم الثاني.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ طسم القصص

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۶

اعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذّب به، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّاشهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً».

وبديهي أنّ كل هذا الأجر والثواب هو لُاولئك الذين يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم.

طسم (۱) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۴) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (۶)

هـذه هي المرّة الرابعـة عشـرة التي نواجه بها بدايات السورة بالحروف المقطعة في القرآن، وقد تكررت فيها «طسم» ثلاث مرات، وهي هنا- أي «طسم»- ثالث المرات وآخرها.

إنّه يظهر من كثير من الروايات في شأن «طسم» أنّ هـذه الحروف إشـارات موجزة عن صـفات اللَّه سـبحانه وتعـالى، أو أنّهـا أمـاكن مقدسّـة، ولكنها في الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التّفسـير المعروف الـذي أكّـدنا عليه مراراً، وهو أنّ اللَّه تعالى يريـد أن يوضـح هـذه الحقيقة للجميع، وهي أنّ هذا الكتاب السـماوي العظيم الذي هو أساس التغيير الكبير في تأريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانية يتشكّل من امور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التي يستطيع أن يتلفظ بها كل صبّي.

ومن هنا تتجلى عظمة القرآن وأهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التي هي في اختيار الجميع.

ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد الحروف المقطعة مباشرةً عن عظمة القرآن، إذ يقول: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْمُبِينِ».

والقرآن بعد ذكر هذه المقدمة يحكي قصة «فرعون» و «موسى» فيقول: «نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۷

نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافة واسطورة، وبعيـد عن الأباطيل والأكاذيب، فهي إذن تلاوة مقترنة بالحق والواقعية.

والتعبير ب «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» هو تأكيـد على هـذه الحقيقـة، وهي أنّ مؤمني ذلك العصـر الذين كانوا يرزخون تحت ضـغوط المشـركين

والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهى أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم وتزايدوا عَدداً وعُدداً، وأنّ المؤمنين مهما قلّوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغى أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شيء عند اللَّه سهل يسير ..

ثم يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ».

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الربوبية.

والتعبير ب «الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها.

إنّ فرعون- من أجل تقوية قواعده الإستكبارية- قد أقدم على عدّة جرائم كبرى، فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا».

فلا يمكن أن تحكم الأقلية- التى لا تُعدّ شيئاً- على الأكثرية إلّابالخطة المعروفة «فرّق تَسُدْ» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» ويخافون منهما أبداً، ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض.

إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت فى أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «فى قبضة الأقباط» وكانوا محاطين بالفقر والحرمان.

والجريمة الثانية هى استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۸

ولكون ورود جملة «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ» بعد جملة «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ» فإنّ مسألة اخرى تتجلى أمامنا، وهى أنّ الفراعنة اتخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثم يخدمن فى بيوتهم. وفى آخر جملة تأتى الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

والتعبير ب «يذبّح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الاخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء ويحتزون رؤوسهم.

ثم تأتى الآية الاخرى لتقول: إنّ إرادتنا ومشيئتنا إقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا وكرمنا؛ «وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ» وأن تشملهم رعايتنا ومواهبنا تكون بيد الحكومة ومقاليد الأمور: «وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

ويكونون اولى قوة وقدرة فى الأرض «وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ».

فهى بشارة فى صدد إنتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر.

وهى بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة وحكومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور.

وحكومة بنى إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هى إلّانموذج لتحقق هذه المشيئة الإلهية والمثل الأكمل هو حكومة نبى الأعظم صلى الله عليه و آله وأصحابه بعد ظهور الإسلام.

والمثل الأكبر والأوسع هو ظهور حكومة الحق والعدالة على جميع وجه البسيطة- والكرة الأرضية- على يد «المهدى» أرواحنا له الفداء.

ومن الطبيعى أنّ حكومة المهدى عليه السلام العالمية فى آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية فى معايير محدودة قبلها من

قبل المستضعفين ضد المستكبرين، ومتى ما تمّت الظروف والشروط لمثل هذه المحكومات الإسلامية فإنّ وعد اللّه المحتوم والمشيئة الإلهية سيتحققان فى شأنها، ولابدّ أن يكون النصر حليفها بإذن اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۹

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَ قالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)

فى قصر فرعون: من أجل رسم مثل حى لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد فى سرد قصة موسى وفرعون. يقول القرآن: «وَأَوْحَيْنا إِلى أُمّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وهذه الآية على إيجازها تشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، وهى خلاصة قصة كبيرة وذات أحداث ومجريات ننقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خططت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بنى إسرائيل حتى أنّ القوابل [من آل فرعون كنّ يراقبن النساء الحوامل [من بنى إسرائيل ، ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السلام «وكان الحمل خفيّاً لم يظهر أثره على امّ موسى» وحين أحسّت امّ موسى بأنّها مقرب وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنّها تحمل جنيناً فى بطنها وتوشك أن تضعه، فهى بحاجة- هذا اليوم- إليها.

وحين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهىّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور وطُبع حُبّه فى قلبها، وأنار جميع زوايا قلبها، فالتفتت القابلة إلى امّ موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونى بهذا الوليد ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبّه الشديد فى قلبى، فاهتمى بالمحافظة عليه، وأظنّ أنّ عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

ثم خرجت القابلة من بيت ام موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى امّها وأخبرتها بأن تتهيأ للأمر، وفى هذه الحالة من الإرتباك وهى ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة وألقته فى التنور فإذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلّا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج۳ ۵۵۰

التنور المشتعل ناراً. وقد جعل اللّه النار عليه برداً وسلاماً «اللّه الذى نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الام لم تهدأ إذ أنّ الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت.

وفى هذه الحال اهتدت ام موسى بإلهام جديد، فجاءت إلى نجّار مصرى «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

والوقت كان فجراً والناس- بعد- نيام، وفى هذه الحال خرجت ام موسى وفى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثم ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج.

ورد فى الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، وكانت هذه البنت تعانى من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهن ونتوقع أنّ إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» فى إنتظار هذا «الحادث» وفى يوم من الأيام .. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به

ليعرفوا ما به؟!

ومثّل الصندوق «المجهول» الخفى أمام فرعون، فلما وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبّه فى قلوب الجميع، وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصة من لسانه. يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا».

«التقط»: مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها فى الأصل الوصول إلى الشىء دون جهد وسعى، وإنّما سميت الأشياء التى يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً ..

ثم تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهمنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خطِينَ». وأى خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل والحق، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك.

وأى خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن اللّه سبحانه أودعه فى أيديهم وقال لهم: خذوا عدوّكم هذا وربّوه ليكبر عندكم.

ويستفاد من الآية التالية أنّ شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أنّ بعض

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۱

أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا».

إنّ فرعون وجد فى مخايل الطفل والعلائم الاخرى أنّ هذا الطفل من بنى إسرائيل، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه. ولكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولداً ذكراً، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى- على ما قدمناه- فسيكون دليلًا آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

ولكن القرآن- بجملة مقتضبة وذات مغزى كبير- ختم الآية قائلًا: «وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر اللّه النافذ ومشيئته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطراً ... ولا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً ..

وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳)

عودة موسى إلى حضن امّه: فى هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة .. فام موسى التى قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها فى أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفاً .. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف اللّه تداركها، وكما يعبّر القرآن الكريم: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «الفارغ»: معناه الخالى، والمقصود به هنا أنّ قلب امّ موسى أصبح خالياً من كل شىء إلّامن ذكر موسى؛ «ربطنا»: من مادة «ربط» ومعناها فى الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً فى مكانه.

والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته .. أى تثبيت قلب ام موسى، لتؤمن بوعد اللّه

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۲

وتتحمل هذا الحادث الكبير. وعلى أثر لطف اللّه أحست امّ موسى بالاطمئنان، ولكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ».

«قصّيه»: مأخوذة من مادة «قصّ» ومعناها البحث عن آثار الشىء، وإنّما سميّت القصة قصةً لأنّها تحمل فى طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «اخت موسى» لأمر امّها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه آل فرعون .. ويقول القرآن فى هذا الصدد: «فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ».

ولكن اولئك لم يلتفتوا إلى أنّ أخته تتعقبه: «وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة اللّه أن يعود هذا الطفل إلى امّه عاجلًا ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم:

«وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ» «۱».

وطبيعى أنّ الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنّه يجوع ويبكى.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب فى الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

وهذا هو التحريم التكوينى من قبل اللّه تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعاً.

والطفل يبكى وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل: «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهَلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نصِحُونَ».

فسرّ بها هؤلاء وجاءوا بام موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة امه التقم ثديها بشغف كبير.

فى التفسير الكبير: لما قبل ثديها قال هامان إنّك لُامّه. قالت: لا. قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت: أيّها الملك إنّى إمرأة طيّبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحى صبى إلّاأقبل على ثديى. قالوا: صدقت. فلم يبق أحد من آل فرعون إلّاأهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

أجل، إنّ اللّه أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن امه ليستطيع أن ينهض بوجه

---

(۱) «المراضع»: جمع «مُرضِع» ومعناها المرأة التى تسقى الطفل لبنها من ثديها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۳

الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتمّ كل شىء بأمر اللّه: «فَرَدَدْنهُ إِلَى أُمِّهِ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (۱۵) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۶) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷)

موسى عليه السلام وحماية المظلومين: فى هذه الآيات نواجه المرحلة الثالثة من قصة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التى شاهدها وهو فى مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثم سبب هجرته إلى مدين. تقول الآيات فى البداية: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

«أشدّ»: مشتقة من مادة «الشدّة» وهى القوة.

«استوى»: مشتقة من «الاستواء» ومعناها كمال الخلقة واعتدالها.

والمراد بالحكم والعلم هنا ليس النبوة والوحى، بل المقصود من الحكم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة على القضاء الصحيح وما شابه ذلك، وقد منح اللّه هذه الامور لموسى عليه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة.

وعلى كل حال فإنّ موسى «دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا».

يحتمل أنّ هذه المدينة هى عاصمة مصر.

والمقصود من جملـة «عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم ويعطلون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعـة يـذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن اخرى .. هـذه الساعة هى المعبر عنها بساعة الغفلة فى بعض الروايات الإسـلامية. فى معانى الأخبار قال النبى صلى الله عليه و آله: «تنفّلوا فى ساعة الغفلة ولو بركعتين خفيفتين فإنّهما تورثان دار الكرامة».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۴

قيـل: يا رسول اللّه ومتى ساعـة الغفلـة؟ قال: «ما بين المغرب والعشاء». والحق أنّ هـذه الساعـة ساعـة غفلـة وكثيراً ما تحـدث الجنايات والفساد والإنحرافات الأخلاقية فى مثل هذه لساعة من أوّل الليل .. فلا الناس مشغولون بالكسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هى حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادةً فى هذه الساعة.

وموسى دخل المدينة، وهنالك واجه مشادّة ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هذَا مِن شِيعَتِهِ وَهذَا مِنْ عَدُوِّهِ». والتعبير ب «شيعته» يدلّ على أنّ موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بنى إسرائيل.

فلما بصر الإسرائيلى بموسى استصرخه، «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ».

فجـاءه موسـى عليه السـلام لإسـتنصاره وتخليصه من عـدوّه الظـالم .. الـذى يقـال عنه أنّه كان طباخاً فى قصـر فرعون، وكان يريـد من الإسرائيلى أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتاً فى الحال. تقول الآية: «فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ» (۱).

ومما لا شك فيه، فإنّ موسـى لم يقصـد أن يقتل الفرعونى، لـذلك فإنّ موسـى عليه السـلام أسف على هـذا الأمر: «قَالَ هذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ».

فـإنّ موسـى عليه السـلام كـان يريـد أن يبعـد الفرعونى عن الرجـل الإسـرائيلى، وإن كان الفرعونيون يسـتحقون أكثر من ذلك، لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل.

ثم يتحدث القرآن عن موسى عليه السلام فيقول: «قَالَ رَبِّ إِنّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

ومن المسلم به أنّ موسـى عليه السـلام لم يصـدر منه ذنب هنـا، بـل ترك الأـولى، فكـان ينبغى عليه أن يحتـاط لئلا يقع فى مشـكلة، ولذلك فإنّه استغفر ربّه وطلب منه العون.

لذلك فإنّ موسى عليه السلام حين نجا بلطف اللّه من هذا المأزق: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ» من عفوك عنى وانقاذى من يد الأعداء وجميع ما أنعمت على منذ بداية حياتى لحدّ الآن «فَلَنْ

---

(۱) «وكز»: مأخوذ من «الوكز» ومعناه الضرب بقبضة اليد، وهناك معان اخرى لا تناسب المقام.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۵

أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ»، ومعيناً للظالمين.

ويريد موسـى عليه السـلام أن يقول: «إنّه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً .. بل سـيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين ..».

فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَهِٔ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِينٌ (۱۸) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِى الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (۱۹) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَهِٔ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَکَ مِنَ النَّاصِحِينَ

(۲۰) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۱) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (۲۲)

موسى يتوجّه إلى مدين خُفية: نواجه فى هذه الآيات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوى الكبير، حيث إنّ مقتل الفرعونى فى مصر انتشر بسرعة، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكوراً من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم. لذلك يقول القرآن فى بداية هذا المقطع: «فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» «۱». وهو على حال من الترقب والحذر، فوجىء فى اليوم التالى بالرجل الإسرائيلى الذى آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطى آخر وطلب من موسى أن ينصره: «فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» «۲».

ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و «قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ». إذ تحدث كل يوم نزاعاً ومشادة مع الآخرين.

ولكنّه كان مظلوماً فى قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً فى المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أن يعينه وينصره. «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا» صاح ذلك القبطى: «قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ويبدو من عملك هذا أنّك لست إنساناً منصفاً، «إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ

---

(۱) «يترقب»: مأخوذ من «الترقب»، ومعناه الإنتظار، وموسى هنا فى انتظار نتائج هذه الحادثة.

(۲) «يستصرخ»: مشتقة من مادة «الإستصراخ»، ومعناها الإستغاثة، ولكنّها فى الأصل تعنى الصياح أو طلب الصياح من الآخر، وهذا عادة ملازم للإعانة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۶

الْمُصْلِحِينَ». وهذه العبارة تدلّ بوضوح على أنّ موسى عليه السلام كان فى نيّته الإصلاح من قبل، سواءً فى قصر فرعون أو خارجه.

ومن جهة اخرى فإنّ الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحسّ فرعون ومن معه فى القصر أنّ تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان فى القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة .. وكما يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ».

وهذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذى كان يكتم إيمانه ويدعى «حزقيل» وكان من أسرة فرعون.

أمّا موسى عليه السلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّية وقبل نصحه ووصيته فى مغادرة المدينة، «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ».

وتضرع إلى اللَّه بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و «قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ثم قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التى كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة؛ إلّاأنّه كان لديه فى هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان باللَّه والتوكل عليه، لذا لم يكترث بأى شيء وواصل السير .. «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ» «۱».

وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (۲۳) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (۲۴) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۵)

---

(۱) «تلقاء»: مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصوب الذى قصده.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۷

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير: نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصة، وهى قضية ورود موسى عليه السلام إلى مدينة مدين.

قيل: إنّ هذا الشاب الطاهر قطع الطريق فى ثمانية أيام، حتى لقى ما لقى من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشى.

وكان يقتات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعاً لجوعه.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئاً فشيئاً، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لإقترابه من المدينة. يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ» «١».

فحركه هذا المشهد ... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و «قَالَ مَا خَطْبُكُمَا» «٢».

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، فلم يتحمل ذلك كلّه، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم خرج من وطنه.

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقى هؤلاء الرعاة أغنامهم: «قَالَتَا لَانَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ» «٣».

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما: «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ».

فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدّة، فتقدم وأخذ الدلو وألقاها فى البئر .. يقال: إنّ هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّاأنّ موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمّته بنفسه دون أن يعينه أحد: «فَسَقَى لَهُمَا» أغنامهما.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير فى الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها .. «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

---

(١) «تذودان»: مشتقة من «ذود» ومعناها المنع، فهما إذاً كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الاخرى.

(٢) ما خطبكما: أى ما شأنكما وما شغلكما هنا؟!

(٣) «يصدر»: مأخوذ من مادة «صدر» ومعناه الخروج من الماء؛ و «الرعاء»: جمع راعٍ، وهو سائس الغنم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٠٨

أجل .. إنّه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه فى هذه المدينة. لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود، خطوة نحو اللَّه، فتح لموسى فصلًا جديداً، وهيأ له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية .. ووجد ضالته التى ينبغى أن يبحث عنها سنين طوالًا.

وبداية هذا الفصل عندما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنّها تستحى من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه «فَجَاءَتْهُ إِحْدَيهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ» فلم تزد على أن «قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا».

فلمع فى قلبه إشراقٌ من الأمل، وكأنّه أحس بأن سيواجه رجلًا كبيراً .. رجلًا عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب».

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّاأنّ الهواء كان يحرّك ثيابها وربّما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفّة وحياء طلب منها أن تمشى خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب.

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لاتَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». فالتفت موسى إلى أنّه وجد استاذاً عظيماً .. كما أحسّ شعيب أنّه عثر على تلميذ جدير ولائق.

قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (۲۶) قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷) قَالَ ذلِكَ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (۲۸)

موسى فى دار شعيب: هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، وبعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتى شعيب بالقول: إنّنى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و «قَالَتْ إِحْدَيهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۹

اسْتَجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ».

فرضى شعيب عليه السلام باقتراح إبنته، وتوجه إلى موسى و «قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمنِىَ حِجَجٍ». ثم أضاف قائلًا: «فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ».

فلا أريد إيذاءك «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

واستجابة لهذا القرار والعقد الذى أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى و «قَالَ ذلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ». ثم أردف مضيفاً بالقول:

«أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ». أى سواءً قضيت عشر سنين أو ثمانى سنين «حجج» فلا عدوان علىّ.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام اللّه كفيلًا وقال: «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على إبنته.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (۳۱) اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۳۲) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۳۴) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (۳۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۰

الشرارة الاولى للوحى: نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصة ..

لا يعلم أحد- بدّقة- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب، ولا شك أنّ هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام. ومن البديهى أنّ موسى عليه السلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعدّ غنيمة كبرى، فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

إنّ القرآن يقول فى أوّل من آية هذا المقطع: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا». ثم التفت إلى أهله و «قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ». أى (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقة من مادة «إيناس»، ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة. «جذوة»: هى القطعة من النار.

ويستفاد من قوله «لَّعَلّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ» أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أنّ الوقت كان ليلًا بارداً.

«فَلَمَّا أَتٰهَا». أي أتى النار التي آنسها ورآها، فتعجب موسى من ذلك: «نُودِيَ مِن شٰطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أن يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

«الشاطىء»: معناه الساحل؛ و «الوادى»: معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول؛ و «الأيمن»: مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، وهو صفة للوادى؛ و «البقعة»: القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أنّ اللّه سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية فى كل شيء، فأوجد فى الوادى شجرة ليكلّم موسى.

ومع الإلتفات إلى أنّ موسى عليه السلام سيتحمل مسؤولية عظيمة وثقيلة .. فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل اللّه تعالى مناسبة لمقامه النبوى، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الاولى قوله تعالى: «وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ».

فى هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة اخرى النداء من الشجرة: «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١١

«الجانّ»: فى الأصل معناه الموجود غير المرئى، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً؛ لأنّها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.

كانت المعجزة الاولى آية «من الرعب»، ثم أمر أن يظهر المعجزة الثانية وهى آية اخرى «من ا لنور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر: «اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ». فالبياض الذى يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض- كالبرص ونحوه- بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزّت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الامور الخارقة للعادات فى الليل المظلم وفى الصحراء الخالية .. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره: «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ».

وجاء موسى النداء معقّباً: «فَذٰنِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فٰسِقِينَ».

هنا تذكر موسى عليه السلام حادثة مهمّة وقعت له فى حياته بمصر، وهى قتل القبطى، وتعبئه القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه وقتله. لذلك فإنّ موسى: «قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ».

وبعد هذا كلّه فإنّى وحيد ولسانى غير فصيح، «وَأَخِى هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ».

«أفصح»: مشتقة من «الفصيح» وهو فى الأصل كون الشىء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة «الفصيح» أيضاً. و «الردء»: معناه المعين والمساعد.

فأجاب اللّه دعوته، وطمأنه بإجابة ما طلبه منه و «قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» فالسلطة والغلبة لكما فى جميع المراحل.

وبشرهما بالنصر والفوز، وأنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك؛ إذ قال سبحانه: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِايَاتِنَا». فبهذه الآيات والمعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الاضرار بكما «أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ».

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَ مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣۶) وَ قَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١٢

موسى فى مواجهة فرعون: نواجه المقطع الثامن من هذه القصة العظيمة .. لقد تلقى موسى عليه السلام من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة والرسالة فى تلك الليلة المظلمة والأرض المقدّسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمّل .. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة اللّه. يقول القرآن فى أوّل آية من هذا المقطع: «فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بَايَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى».

وأنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك، «وَمَا سَمِعْنَا بِهذَا فِى ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

فواجهوا موسى متوسلين بحربة توسل بها جميع الجبابرة والضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم .. وهى حربة «السحر».

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار «وَقَالَ مُوسَى رَبّى أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عقِبَةُ الدَّارِ».

إشارة إلى أنّ اللّه يعلم حالى، وهو مطلع على بالرغم من اتهامكم إيّاى بالكذب ..

ثم بعد هذا، لو كان كلامى كذباً فأنا ظالم و «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

كيف كان عاقبة الظالمين: نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ المليء بالأحداث والعبر.

فقد شاع خبر إنتصار موسى عليه السلام على السحرة فى مصر، وموقع الحكومة الفرعونية أصبح فى خطر جدى شديد. فيجب صرف أفكار الناس، واشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية، لإغفال الناس وتحميقهم. وفى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١٣

فرعون للتشاور فى معالجة الموقف، إذ نقرأ فى أوّل آية من هذا المقطع: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرِى».

فأنا إلهكم فى الأرض .. أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكنّنى سأتحقق فى الأمر ولا أترك الإحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: «فَأَوْقِدْ لِى يَا همنُ عَلَى الطِّينِ». ثم أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّاً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى. «فَاجْعَلْ لِّى صَرْحًا لَّعَلّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَإِنّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكذِبِينَ».

ولمّا بلغ البناء تمامه .. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعده بتشريفات خاصة.

المعروف أنّه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أنّ جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدّقوا ما قاله فرعون ونشروه فى كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إذعانهم لمسألتى «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنايات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: «وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَايُرْجَعُونَ».

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟ يقول القرآن الكريم: «فَأَخَذْنهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنهُمْ فِى الْيَمّ». أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم وقوّتهم مقبرةً لهم.

إنّ تعبير «نبذناهم» من مادة «نبذ»، ومعناه رمى الأشياء التى لا قيمة لها وطرحها بعيداً.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

ثم يضيف القرآن قائلًا فى شأنهم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيمَةِ لَايُنصَرُونَ». فكما أنّهم كانوا فى هذه الدنيا أئمّة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضاً- أئمة النار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم.

ولمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم وماهيتهم فى الدنيا والآخرة: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۴

هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيمَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ».

لعنة اللَّه معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هى الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶)

نصل فى هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التى تتعلق بقصة موسى وما تحمله من معان كبيرة، وهى تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أى إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبى «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابى» والبناء. يبدأ هذا المقطع بالآية التالية: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وفى أنّ المقصود من «القرون الاولى» من هم؟ قال بعض المفسرين: هو إشارة إلى الكفار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، لأنّه بتقادم الزمان ومضيّه تمحى آثار السابقين.

وقال بعض المفسرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين، لأنّ اللَّه سبحانه آتى موسى كتاب «التوراة» بعد هلاكهم.

ولكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الاولى فى الآية شاملًا لجميع الأقوام.

«البصائر»: جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التى تستوجب إنارة قلوب المؤمنين ..

و «الهدى» و «الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة .. وعلى أثرها تتيقظ القلوب.

ثم يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهى أنّ ما ذكرناه لك يا رسول اللَّه، فى شأن موسى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۵

وفرعون وما جرى بينهما بدقائقه، هو فى نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضراً» فى هذه «الميادين» التى كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه، ولم تشهدها بعينيك .. بل هو من الطاف اللَّه عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول القرآن: «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ». أى الأمر بالنبوّة؛ «وَمَا كُنتَ مِنَ الشهِدِينَ».

ثم يضيف القرآن: «وَلكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم فى قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبيّنا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [/ أى: على أهل مكة] ءَايَاتِنَا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۱».

وأوحينا إليك هذه ا لأخبار الدقيقة التى تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين «۲».

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلًا: «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا». أى: نادينا موسى بأمر النبوة، ولكنّنا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من اللَّه عليك «وَلكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰)

---

(۱) «ثاوى»: مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالإستقرار، ولذا سمّى المستقر والمكان الدائم بالمثوى

(۲) كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبى (محمّد صلى الله عليه و آله) حدود ألفى عام.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۶

ذريعة للفرار من الحق: حيث إنّ الآيات- آنفة الذكر- كانت تتحدث عن إرسال النبى صلى الله عليه و آله لينذر قومه، ففى هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف اللَّه على وجود النبى فى قومه فيقول: إنّنا وقبل أن نرسل إليهم رسولًا ا ذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم وسيئاتهم قالوا: لماذا لم ترسل لنا رسول يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به: «وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أنّ طريق الحق واضح وبيّن ... وكل «عقل» حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام ..

وقبح كثير من الأعمال التى تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام- كالمظالم وما شاكلها- هى من مستقلات حكم العقل.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنّهم- بعد إرسال الرسل- لم يكفّوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى .

فلم لم تكن عصا موسى فى يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟ ولِمَ لَم ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا». أى: موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلّ كفِرُونَ».

إنّ مشركى مكة المعاندين كانوا يصرّون على أنّه لِم لَم يأت النبى صلى الله عليه و آله بمعاجز كمعاجز موسى، ومن جهة اخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه فى «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة. لذا يخاطب القرآن النبى محمّداً صلى الله عليه و آله ليتحدّاهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

ثم يضيف القرآن: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ». ولكن من أضيع منهم، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَيهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظلِمِينَ».

ومن الطريف هنا أنّ روايات عديدة تفسّر الآية بأنّ المراد منها من ترك إمامه وقائده

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۷

الإلهى واتبع هواه.

وهذه الرّوايات هى من قبيل المصداق البارز. وبتعبير آخر: إنّ الإنسان محتاج لهداية اللَّه ... هذه الهداية تارة تنعكس فى كتاب اللَّه، واخرى فى وجود النبى وسنته، واخرى فى أوصيائه المعصومين، واخرى فى منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان فى خطّ الهداية الإلهية غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضىء بهذه الأنوار.

وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ (۵۵)

سبب النّزول

نقل المفسرون ورواة الأخبار روايات كثيرة ومختلفة فى شأن نزول الآيات المتقدمة، والجامع المشترك فيها واحد، وهو إيمان طائفة من علماء اليهود والنصارى والأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة- بالقرآن ونبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

قال سعيد بن جبير نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى فلما قدموا على النبى صلى الله عليه و آله قرأ عليهم «يس والقرآن

الحكيم» حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا.

التّفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن: حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التى يقدّمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأة لقبول قول الحق. يقول القرآن فى هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعاً، «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

إلّا أنّ (اليهود والنصارى) «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ». لأنّهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۸

يرونه منسجماً مع ما ورد فى كتبهم السماوية من علامات ودلائل.

ثم يضيف القرآن فى وصفهم قائلًا: «وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا».

ثم يضيف القرآن متحدثاً عنهم: إنّنا مسلمون لا فى هذا اليوم فحسب، بل «إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ». ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التى آمنت بالنبى من غير تقليد أعمى، وإنّما طلباً للحق، فيقول: «أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا».

فمرّة لإيمانهم بكتابهم السماوى الذى كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه ... ومرّة اخرى لإيمانهم بنبىّ الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله النبى الموعود المذكور عندهم فى كتبهم السماوية.

ثم يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و «الإنفاق مما رزقهم اللّه» و «المرور الكريم باللغو والجاهلين» وكذلك الصبر والإستقامة، وهى خصال أربع ممتازة. حيث يقول فى شأنهم القرآن الكريم: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ».

والخصلة الاخرى فى هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنّهم: «وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ».

وليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم اللّه من العلم والقوى الفكرية والجسميّة والوجاهة الإجتماعية، وجميع هذه الامور من مواهب اللّه ورزقه- فهم ينفقون منها فى سبيل اللّه.

وآخر صفة ممتازة بيّنها القرآن فى شأنهم قوله: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ».

ولم يردّوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل «وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

ثم يضيف القرآن فى شأنهم حين يواجهون الجاهلين يقولون: «سَلمٌ عَلَيْكُمْ لَانَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ». أجل، هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الإيمان فى نفوسهم، والذين بذلوا جهداً وقاوموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶) وَ قَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۵۷)

الهداية بيد اللّه وحده: إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۹

مشركى أهل مكة المعاندين، كان رسول صلى الله عليه و آله شديد الإصرار على هدايتهم؛ وطائفة من أهل الكتاب والأفراد البعيدين عن مكة، تلقوا هداية اللّه برحابة صدر، ولم يستوحشوا من الضغوط والعزلة وما إلى ذلك.

فمع الإلتفات إلى كل هذه الامور، نلاحظ أنّ الآية الاولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: «إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

والمقصود من الهداية ليس «إراءة الطريق»، لأنّ إراءة الطريق هى من وظيفة النبى صلى الله عليه و آله، وتشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب والهدف»، والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد اللّه وحده.

إنّ هذه الآية بمثابة التسلية والتثبيت لقلب النبى ليطمئن إلى هذه الحقيقة، وهى إنّه لا إصرار المشركين وعنادهم وإن كانوا من أهل

مكة، ولا إيمان أهل الحبشة ونجران وغيرهما أمثال سلمان الفارسى وبحيرا الراهب من دون دليل وسبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفة الأولى.

وفى الآيـة الثانيـة- من الآيتين محل البحث- يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام فى واقعهم وأيقنت به قلوبهم، إلّا أنّهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصية وملاحظات ذاتية، حيث يقول: «وَقَالُوا إن نَّتَّبِع الْهُدَى مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا».

هـذا الكلام لا يقوله إلّامن يستضـعف قـدرة اللَّه ولا يعرف كيف ينصـر اللَّه أولياءه ويخـذل أعداءه. لذلك يقول القرآن ردّاً على مثل هذه المزاعم: «أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًّا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ» «۱».

اللَّه سـبحانه الـذى جعل هـذه الأرض المالحة والمليئة بالصـخور والخالية من الأشـجار والأنهار، جعلها حرماً تهفوا إليه القلوب، ويؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهرة.

كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفنة من الجاهليين عبّاد الأوثان؟

---

(۱) «نمكّن»: فى الآيـة بمعنى نجعل؛ و «يجبى»: مشـتق من مادة «جباية»، والجبابة معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذى يجمع فيه الماء جابية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۰

فكيف يمكن أن يحرمكم اللَّه منهما بعد الإسلام؟

لتكن قلوبكم قوية وآمنوا بما انزل اليكم فإنّ ربّ الكعبة وربّ مكة معكم.

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْکَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (۵۸) وَ مَا كَانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ (۵۹) وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۶۰)

لا تخـدعنكم علائق الـدنيا: كان الحـديث فى الآيات المتقدمـة يدور حول ما يدعيه أهل مكة، وقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنـا بهجوم العرب علينا، وتتكـدر حياتنا ويختل وضـعنا المعاشـى والاقتصادى، وفى هـذه الآيات مورد البحث ردّان آخران على كلامهم:

الأوّل: يقول .. على فرض أنّكم لم تؤمنوا، وحييتم فى ظـل الشـرك مرفهين ماديّاً، ولكن لاـ تنسوا أن تعتبروا بحيـاة من قبلكم، «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا» «۱».

أجـل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجرّ حياتهم إلى النار ... «فَتِلْکَ مَسَاكِنُهُم لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا».

بلى ... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها ولم يسكنها أحد إلّالفترة قليلة «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ».

جملة «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقى هو اللَّه سبحانه المالک لكل شىء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلًا حتى يرثه اللَّه أيضاً.

و الآيـة الثانيـة جواب عن سؤال مقـدر، وهو: إذا كـان الأمـر كـذلك، بـأن يهلـك اللَّه الطغـاة، فلم لم يهلك المشـركين من أهل مكة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلّاوارتكبوه، ولم لم يعذبهم اللَّه بعذابه الأليم؟

---

(۱) «بطرت»: مشتقة من «بطر»، ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۱

يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا».

أجل ... لا يعذب اللَّه قوماً حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ اللَّه لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ».

والتعبير ب «مَا كُنَّا» أو «وَمَا كَانَ رَبُّكَ» دليل على أنّ سنة اللَّه الدائمة والأبدية التى كانت ولا زالت، هى أن لا يعذب أحداً إلّا بعد إتمام الحجة الكافية.

و آخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثانى على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه و آله: «إن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» ويبعدنا العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ممّا عندكم من النعيم الفانى .. إذ إنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار والمشاكل المختلفة، وليس من نعمة مادية خالية من الضرر والخطر أبداً.

إضافة إلى ذلك فإنّ النعم التى عند اللَّه «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم اللَّه- إذن- خير وأبقى.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغى أن يضحى بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

أ فَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۶۱) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (۶۴)

كان الحديث فى الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصية، ورجّحوا الشرك على التوحيد، وفى الآيات التى بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين. ففى بداية هذه الآيات يلقى القرآن سؤالًا يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويثير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: «أَفَمَن وَعَدْنَهُ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۲

وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

جملة «هُوَ يَوْمَ‌الْقِيمَةِ مِنَ‌الْمُحْضَرِينَ» إشارة إلى الإحضار فى محضر اللَّه يوم القيامة للحساب. وجملة «الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» التى تكررت فى سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الاخرى، لأنّ كلمة «دنيا» فى الأصل مأخوذة من «دنو» ومعناها القرب فى المكان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثم توسّع هذا المفهوم ليطلق بلفظ «دنيا» أو «أدنى على الموجودات الصغيرة التى تحت اليد فى مقابل الموجودات الكبيرة، وقد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التى لا قيمة لها فى مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، وربّما استعمل فى القرب فى مقابل البعد، وحيث إنّ هذه «الحياة» فى مقابل العالم الآخر صغيرة ولا قيمة لها وقريبة أيضاً، فإنّ تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جدّاً.

ثم يأتى الكلام عن عرصات يوم القيامة ومشاهدها ليجسّده أمام الكفار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

فهذا السؤال فى الحقيقة فيه نوع من الإهانة والتوبيخ والعقوبة.

ولكنّهم بدلًا من أن يجيبوا بأنفسهم، فإنّ معبوديهم هم الذين يردّون الجواب، ويتبرؤون منهم، ويتنفرون من عبادة المشركين إيّاهم.

ونعرف أنّ معبودات المشركين وآلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن يكونوا أصناماً «وأحجاراً وخشباً» أو من المقدسين كالملائكة والمسيح، وإمّا أن يكونوا من الشياطين والجنّ. فالذين يردّون على السؤال ويجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن: «قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ».

وتعقيباً على السؤال عن آلهتهم وعجز المشركين عن الجواب، يطلب أن يدعوهم لنصرتهم «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» «۱».

وحيث يعلم المشركون أنّ دعاءهم غير نافع، وأنّ المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من شدّة الهلع والوحشة، أو استجابة لأمر اللَّه، يتوجهون إلى الشركاء ويدعونهم كما يقول القرآن الكريم: «فَدَعَوْهُمْ».

---

(۱) التعبير ب «شركاءكم» مع أنّ هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء اللَّه سبحانه، هو إشارة إلى أنّ هؤلاء الشركاء من صنعكم وهم متعلقون بكم لا باللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۳

ومن الواضح أنّه لا- أثر لهذا النداء والطلب، ولا- يقال لهم «لبيك» .. «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فحينئذٍ لا ينفعهم شيء «وَرَأَوُا الْعَذَابَ». ويتمنون «لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ».

وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَا ذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (۶۵) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (۶۶) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (۶۷) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۸) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (۶۹) وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰)

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان فى الآيات السابقة فى شأن المشركين وما يسألون يوم القيامة. فبعد أن يُسألوا عن شركائهم ومعبوديهم، يسألون عن مواقفهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ».

ومن المسلم به أنّ هؤلاء «المشركين» لا يملكون جواباً لهذا السؤال. فكل ما يقولون كاشف عن فضيحتهم وشقائهم، حتى أنّ الأنبياء والمرسلين فى ذلك اليوم يجيبون ربّهم حين يسألون: «مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَاعِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلمُ الْغُيُوبِ» «۱».

ما الذى يقوله فى ذلك اليوم وفى ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟ لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَايَتَسَاءَلُونَ». أى يسأل بعضهم بعضاً ولا يعرفون جواباً.

وحيث إنّ اسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين والآثمين دائماً، لعلّهم يتوبون ويرجعون إلى الحق فى أى مرحلة كانوا من الإثم، فإنّه يضيف فى الآية التى بعدها: «فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ».

فسبيل النجاة- حسب ما يوضحه القرآن- يتلخّص فى ثلاث جمل هى العودة والتوبة إلى اللَّه، والإيمان، والعمل الصالح، وعاقبتهما النجاة والفلاح حتماً.

و الآية التى بعدها دليل على نفى الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: «وَرَبُّكَ

---

(۱) سورة المائدة/ ۱۰۹.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۴

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ». فالخلق بيده، والتدبير والإختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير اللَّه؟ لذلك فإنّ الآية تنزه اللَّه عن الشرك وتقول: «سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا الآية التى بعدها فتتحدث عن علم اللَّه الواسع، وهى تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع فى الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية: «وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فإحاطته بكل شىء دليل على اختياره لكل شىء، كما هى- ضمناً- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أنّ اللَّه غير مطلع على سرائرهم ونيّاتهم و «مؤامراتهم».

و الآيـة الأـخيرة من هـذا المقطع، هى نتيجـة الحكم، وتوضيـح للآيات السابقـة فى مجال نفى الشـرك، وهى ذات أربعـة أوصاف من أوصاف اللّه، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأوّل: أنّه «وَهُوَ اللَّهُ لَاإِلهُ إِلَّا هُوَ».

فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند اللّه فهو من المضلين الخاطئين.

والثانى: أنّ جميع النعم دنيويةً كانت أم اخروية هى منه، وهى‌من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: «لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ».

الثالث: أنّه «وَلَهُ الْحُكْمُ». فهو الحاكم فى هذا العالم، وفى العالم الآخر.

والرابع: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» للحساب والثواب والعقاب.

فاللّه الخالق، وهو المطّلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَ فَلَا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۳) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷۴) وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۷۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۵

نعمتا الليل والنهار العظيمتان: هـذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم كبير من مواهب اللّه سبحانه، التى تدل على التوحيد ونفى الشـرك من جهـة، كما أنّها تكمّل البحث السابق .. وتـذكر مثلًا للنعم التى تسـتوجب الحمـد والثناء. ففى الآيـة الاولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمـة النهار والنور الـذى هو أساس لأيّة حركة، فتقول الآية: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ».

كما تتحـدث الآيـة الاخرى عن نعمة الظلمة فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ القِيمَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

أمّا الآيـة الثالثـة فتحكى عن نتيجـة النعمـة المشـار إليهـا فى الآـيتين السابقتين فيقول: «وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

إنّ سعة رحمة اللّه تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم.

ومرّة اخرى- بعـد ذكر جانب من دلائل التوحيـد ونفى الشـرك- يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الـذى أثير فى الآيات السابقة ليقول: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

وهذه الآية مكررة فى السورة نفسـها، إذ وردت بنصّها فى الآية (۶۲)، ولعلّ هذا التكرار ناشـىء عن السؤال مرتين فى يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسـهم، ومرّة بصورة عامّة فى محضر الشهود، وهو ما أشير إليه فى الآية التى بعدها .. ليخجلوا أيضـاً من حضـورهم. لـذلك تـأتى الآيـة الـتى بعـدها فتقول: «وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» «۱». أيّها المشركون الضالون.

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الامور لا تبقى خافية، «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

هؤلاء الشـهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الاخرى فى القرآن، إذ أنّ كل نبى شاهد على امته، ونبى الخاتم صـلى الله عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والامم.

---

(١) التعبير ب «نزعنا» التى تعنى جذب الشيء من مقرّه، هى إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وامّة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٢٦

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

الثّرى الإسرائيلى البخيل: جاء تفصيل قصة موسى عليه السلام العجيبة ومواجهاته ومواقفه مع فرعون فى قسم كبير من الآيات السابقة فى هذه السورة .. وفى القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بنى إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون».

المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه (ابن عمه أو ابن خالته) وكان عارفاً بالتوراة، وكان فى بداية أمره مع المؤمنين، إلّاأنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك فى الآيات التالية. يقول القرآن فى شأنه أوّلًا: «إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ». وسبب بغيه وظلمه إنّه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوى وشخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة وجرّته إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: «وَءَاتَيْنهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ». «المفاتح»: جمع «مفتح» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشىء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار ب «القاصة». فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء «أُولِى الْقُوَّةِ». «تنوأُ»: مشتقة من «النوء» ومعناه القيام بمشقّة وثقل، وتستعمل فى حمل الأثقال التى لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والآن لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن فى هذا الصدد: «إِذ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ» «١».

---

(١) «الفرحين»: جمع الفرح، وتعنى من يكون مغروراً على أثر تملكه الشيء ومتكبراً بطراً منتشياً من ريح النّصر.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٢٧

ثم يقدمون له أربع نصائح قيّمة اخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له: «لَاتَفْرَحْ».

فالنصيحة الاولى قولهم له: «وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَيكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ». وهذا إشارة إلى أنّ المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، وفى أى طريق ينفق.

وكان قارون رجلًا ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، ولكن ما الفائدة منها وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

والنصيحة الثانية قولهم له: «وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا». والآية تشير إلى مسألة واقعية، وهى أنّ لكل فرد منّا نصيباً من الدنيا، فالأموال التى يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة ... فالإنسان ... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ وكم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ وكم يمكن أن يحوز من المساكن والمراكب؟ وإذا مات وكم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟ فالباقى- إذن- رضى أم أبى هو من نصيب الآخرين.

وما أجمل قول الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة حيث يقول: «يابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك».

والنصيحة الثالثة هى: «وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

وبتعبير آخر: كما أنّ اللّه تفضل عليك وأحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا تغرنّك هذه الأموال والإمكانات المادية فتجرّك إلى الفساد: «وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

وهذا أيضاً حقيقة واقعية اخرى، إنّ كثيراً من الأثرياء وعلى أثر جنون زيادة المال- أحياناً- أو طلباً للاستعلاء، يفسدون فى المجتمع، فيجرّون إلى الفقر والحرمان، ويحتكرون جميع الأشياء فى أيديهم.

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغى والظالم الإسرائيلى لجماعته الواعظين له.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى».

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدونى إلى كيفية التصرف بمالى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۸

وهنا يجيب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: «أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا».

أتقول: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى» ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشدّ قوّة وأثرى مالًا، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهى؟!

وفى ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء فى غاية الإيجاز: «وَلَا يُسَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ».

بعبارة اخرى: أنّ العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم وكان لديه مجال والجواب، لكن بعد إتمام الحجة ونزول العذاب الإلهى، عندئذ لا مجال للتفكير والجواب، فإذا حلّ العذاب الإلهى بساحته فهو الهلاك الحتمى.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۷۹) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (۸۰) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۸۱) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (۸۲)

جنون الثروة: المعروف أنّ أصحاب الثروة يبتلون بأنواع الجنون ... وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، فإنّ قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلًا بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه فى جملة موجزة فى بعض آياته فيقول: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ». امام قومه من بنى اسرائيل.

وجملة «فى زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، وهى أنّه أظهر جميع قدرته وقوّته ليبدى ما لديه من زينة وثروة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۹

هنا أصبح الناس طائفتين- بحسب العادة فطائفة وهم الأكثرية- من عبدة الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم ... «قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

وأمام هذه الطائفة التى ذكرناها آنفاً طائفة اخرى من العلماء والمتقين الورعين، فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». ثم أردفوا مؤكّدين: «وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ».

فى الدر المنثور عن ابن عباس أنّ قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغى العلم حتى جمع علماً فلم يزل فى أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إنّ اللّه أمرنى أن آخذ الزكاة فأبى. فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم

بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا- نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن ارسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنّه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم. فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال:

أمرنى أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك باللَّه إلّاما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتنى فإنّهم دعونى وجعلوا لى جعلًا على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد أنّك بريء وأنّك رسول اللَّه.

فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكى فأوحى اللَّه إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى اللَّه: «يا موسى سألك عبادى وتضرّعوا إليك فلم تجبهم فو عزّتى لو أنّهم دعونى لأجبتهم» «۱».

---

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۱۶/ ۸۳.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۰

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ».

يا للعجب ... ففرعون يهوى فى ماء النيل ... وقارون فى أعماق الأرض.

الماء الذى هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون، والأرض التى هى مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه.

ومن البديهى أنّ قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا فى أعماق الأرض جميعاً. «فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ».

أمّا آخر آية- محل البحث- فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، وما شابه ذلك. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإنّ الرزق بيد اللَّه؛ «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ».

لذلك شكروا اللَّه على هذه النعمة وقالوا: «لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ». فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الْأَرْضِ وَ لَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۸۴)

نتيجة حبّ التسلط والفساد فى الأرض: بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الاولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا».

إنّ ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة فى العلو» أى الاستكبار؛ و «الفساد فى الأرض» وهما الذنوب.

ويقول القرآن فى نهاية الآية: «وَالْعقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». و «العاقبة» بمفهومها الواسع هى النتيجة الصالحة، وهى الإنتصار فى هذه الدنيا، والجنّة ونعيمها فى الدار الاخرى ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۱

وبعد ذكر هذه الواقعية، وهى أنّ الدار الآخرة ليست لمن يحب السلطة والمستكبرين، بل هى للمتقين المتواضعين وطلبة الحق، تأتى الآية الثانية لتبيّن قانوناً كلّياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان. فتقول: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا».

وهذه هى مرحلة التفضل، أى أنّ اللّه سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقة، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلّاأنّ اللّه قد يضاعف الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربّما بالآلاف، إلّاأنّ أقلّ ما يتفضل اللّه به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وهذه هى مرحلة العدل الإلهى، لأنّ المسىء لا يجازى إلّابقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أيّة عقوبة.

إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۸۵) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (۸۶) وَ لَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۸۷) وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل النبى صلى الله عليه و آله بالجحفة فى مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها، اشتاق إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال: نعم. قال جبرائيل: فإنّ اللّه يقول: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» «۱». يعنى مكة ... ونعلم إنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً.

---

(۱) راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبى، ومجمع البيان، «التّفسير الكبير» للفخر الرازى، وتفاسير غيرها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۲

فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازى السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبى صلى الله عليه و آله إلى مكة بصورة قطعية ودون أىّ قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهى الكبير.

التّفسير

الوعد بعودة النبى إلى حرم اللّه الآمن: قلنا: إنّ الآية الاولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسرين نزلت فى «الجحفة» فى مسير النبى صلى الله عليه و آله، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرسول» ... لكن هذا الحنين والشوق والتعلق بمكة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الإبتعاد عن حرم اللّه الآمن.

وهنا يشرق فى قلبه الطاهر نور الوحى، ويبشّره بالعودة إلى وطنه الذى ألفه فيقول: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ». فلا تكترث ولا تُذهب نفسك حسرات، فاللّه الذى أعاد موسى إلى امّه هو الذى أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات فى مدين.

هو اللّه سبحانه الذى يردك إلى مكة بكل قوة وقدرة، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً فى هذه الأرض المباركة.

ثم يضيف القرآن فى خطابه للنبى صلى الله عليه و آله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه اللّه: «قُلْ رَّبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

إنّ طريق الهداية واضح، وضلالهم بيّن، وهم يتعبون أنفسهم عبثاً، فاللّه يعرف ذلك جيداً، والقلوب التى تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضاً.

أمّا الآیـة التالیـة فتتحـدث عن نعمـة اخری من نعم اللَّه العظیمة علی النبی صـلی الله علیه و آله فتقول: «وَمَا کُنتَ تَرْجُوا أن یُلْقَی إِلَیْکَ الْکِتبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّکَ».

ثم یضیف القرآن فی خطابه للنبی صلی الله علیه و آله أن طالما کنت فی هذه النعمة: «فَلَا تَکُونَنَّ ظَهِیرًا لِّلْکفِرِینَ».

ومن المسلّم به أنّ النبی صلی الله علیه و آله لم یکن ظهیراً للکافرین أبداً، إلّاأنّ الآیة جاءت فی مقام التأکید علی النبی صلی الله علیه و آله وبیان المسؤولیة للآخرین.

وفی هـاتین الآـیتین أربعـة أوامر من اللَّه لنبیّه صـلی الله علیه و آله، وأربعـة صـفات للَّهتعـالی، وبهـا یکتمل ما ورد فی هـذه السورة من أبحاث.

یقول أوّلًا: «وَلَا یَصُدَّنَّکَ عَنْ ءَایتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۳

إِلَیْکَ». وبالرغم من أنّ النهی موجه إلی الکفار، إلّاأنّ مفهوم الآیة عدم تسلیم النبی صلی الله علیه و آله أمام صدّ الکافرین، وإحباطهم ومؤامراتهم.

وبهـذا الأسـلوب یأمر اللَّه النبی صـلی الله علیه و آله أن یقف راسـخ القـدم عند نزول الآیات ولا یتردد فی الأمر، وأن یزیل الموانع من قارعة الطریق مهما بلغت، ولْیسر نحو هدفه مطمئناً، فإنّ اللَّه حامیه ومعه أبداً.

وبعـد هذا الخطاب الذی فیه جنبة نهی، یأتی الخطاب الثانی وفیه سـمة إثبات فیقول: «وَادْعُ إِلَی رَبِّکَ» .. فاللَّه الذی خلقک وهو الذی ربّاک ورعاک ...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحید اللَّه، هو نفی جمیع أنواع الشرک وعبادة الأصنام «وَلَا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ».

والأمر الرابع تأکید آخر علی نفی جمیع أنواع الشرک، إذ یقول تعالی: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ».

وهذه الأوامر المتتابعة کل واحد منها یؤکّد الآخر، یوضح أهمیة التوحید فی المنهج الإسلامی، إذ بدونه یکون کل عمل زیفاً ووهماً.

وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتی أوصاف أربعة للَّهسبحانه، وهی جمیعاً تأکید علی التوحید أیضاً:

فالأوّل قوله: «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

والثانی قوله: «کُلُّ شَیْءٍ هَالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

والوصف الثالث: «لَهُ الْحُکْمُ» والحاکمیة فی عالمی التشریع والتکوین.

والرابع: أنّ معادنا إلیه «وَإِلَیْهِ تُرْجَعُونَ».

والأوصاف الثلاثـة الأخیرة یمکن أن تکون دلیلًا علی إثبات التوحیـد وترک جمیع أنواع عبادة الأصـنام، الـذی أشـیر إلیه فی الوصـف الأوّل.

«نهایة تفسیر سورة القصص»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۵

۲۹ سورة العنکبوت

محتوی السورة: إنّ أبحاث هذه السورة تتلخص فی أربعة أقسام:

۱- فی البدایة یتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقین»، وهذان الأمران متلازمان لا یقبلان الإنفکاک.

۲- وقسم آخر من هذه السورة هو لتسلیة قلب النبی صلی الله علیه و آله والمؤمنین القلّة الأوائل، عن طریق بیان جوانب من حیاة الأنبیاء العظام السابقین، أمثال نوح وإبراهیم ولوط وشعیب علیهم السلام وعواقبهم؛ إذ واجهوا أعـداءً ألـدّاء أمثال نمرود وطواغیت المال

البخلاء.

٣- ثم يتحدث عن التوحيد ودلائل اللَّه فى عالم خلقه، والمواجهة مع المشركين، ويدعوا الفطرة والوجدان إلى الإحتكام والقضاء الحق.

۴- وفى قسم آخر من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التى تعبد من دون اللَّه، وعبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبى الخاتم، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.

وتسمية السورة هذه ب «العنكبوت» مأخوذة من الآية (۴١) من هذه السورة، التى تشبّه عبدة الأوثان من دون اللَّه بالعنكبوت، التى تبنى بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵٣۶

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم فى شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو واللَّه من أهل الجنة، لا أستثنى فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب اللَّه علىّ فى يمينى إثماً، وإنّ لهاتين السورتين من اللَّه مكاناً».

ولا- شك أنّ محتوى هاتين السورتين الغزير، والدروس العملية المهمة منها فى التوحيد، وما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أىّ إنسان ذى لب وفكر وعمل إلى الجنة والخلود فيها.

الم (١) أ حَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

نواجه فى بداية هذه السورة الحروف المقطعة «الم» أيضاً .. وقد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة «١».

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهى مسألة الشدائد والضغوط والامتحان الإلهى فيقول أوّلًا: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ» «٢».

ثم يذكر القرآن هذه الحقيقة- بعد الآية المتقدمة مباشرة- وهى أنّ الامتحان سنة إلهية دائمية جارية فى جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

ووقعوا أيضاً- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساة والجهلة المعاندين ..

وينبغى أن يكون الأمر كذلك، لأنّه فى مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً .. فلابدّ من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالامتحان، وينبغى أن تعرف النيات والسرائر إلى أى مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.

---

(١) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف.

(٢) «يفتنون»: مشتق من «الفتنة» وهى فى الأصل وضع الذهب فى النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوى.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵٣٧

أجل: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكذِبِينَ».

من البديهى أنّ اللَّه يعرف جميع هذه الامور جيداً- قبل أن يخلق الإنسان- إلّاأنّ المراد من العلم هنا هو ظهور الآثار والشواهد العملية

... ومعناه أنّه ينبغى أن يرى علم اللّه فى هذه المجموعة عملياً فى الخارج، وأن يكون لها تحقق عينى.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۷)

لاـ مهرب من سلطان اللّه: كان الكلام فى الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الاولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفّار والمذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضيّقون على المؤمنين ويضغطون عليهم دون أن يعاقبهم اللّه فوراً، فإنّ اللّه غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ أن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». فلا ينبغى أن يغرّهم إمهال اللّه إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة اللّه تعالى.

ثم يتحدث القرآن مرّة اخرى عن سير المؤمنين ومناهجهم، ويقدم النصح لهم، فيقول: «مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ». فعليه أن يعمل ما فى وسعه على امتثال الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعين سيأتى حتماً «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَأَتٍ».

ثم إنّ اللّه سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم ونيّاتكم ... لأنّه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

إنّ «لقاء اللّه» فى يوم القيامة ليس لقاءاً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطنى.

وكما يقول العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان: إنّ المقصود من لقاء اللّه، هو أنّ العباد يكونون فى موقف لا يكون بينهم وبين اللّه حجاب، لأنّ طبيعة يوم القيامة هى ظهور الحقائق كما يقول القرآن: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ». سورة النور الآية (۲۵).

أمّا الآية التى تليها فهى تعليل لما سبق بيانه فى الآية الآنفة، إذ تقول: إنّ على المؤمنين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۸

الذين يرغبون فى لقاء اللّه السعى بما اوتوا من قدرة وقابلية من أجل ذلك فإنّ نتيجة كل ذلك السعى والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: «وَمَن جَهَدَ فَإِنَّمَا يُجهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». إنّ خطة الامتحان الإلهى هى الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان ...

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره فى الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيَاتِهِمْ».

إذن أوّل فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هى تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أنّ الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن فى نهاية هذه الآية أيضاً: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«نكفّر»: مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها فى الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو اللّه وصفحه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۷) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ (۹)

سبب النّزول

وردت روايات مختلفة فى شأن نزول الآية الآنفة الذكر، ومضمون الجميع واحد وهى أنّ بعض الرجال الذين كانوا فى مكة وأسلموا «۱»، حين سمعت امهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أنّ أية واحدة من هؤلاء الامهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلّاأنّ الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع اسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والامهات، فى مجال الكفر والإيمان.

(۱) ورد فى بعض الروايات اسم (سعد بن أبى وقاص) وفى بعضها اسم (عياش بن أبى ربيعة المخزومى).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۹

التّفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين: إنّ واحداً من أهم الامتحانات الإلهية، هى مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرابة .. والقرآن فى هذا المجال يوضح وظيفة المسلمين بجلاء. فى البداية يتحدث عن قانون كلى يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ».

إنّ التعبير ب «الإنسان» هنا يلفت النظر .. فهذا القانون لا يختص بالمؤمنين، بل كل من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغى أن يكون عارفاً بحق الأبوين ... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره .. وإن كان كل ذلك لا يفى بحقوقهما.

بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمةً على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتى استثناء صريح ليوضّح هذا الموضوع فى الآية، فيقول تعالى: «وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا».

جملة «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إشارة إلى عدم منطقية الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بيّن.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشىء فلا ينبغى أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟ فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

ثم يضيف تعالى فى نهاية الآية: «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وهذه الجملة تهديد لُاولئك الذين يسيرون فى طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق ..

و الآية التى بعدها تؤكد الحقيقة فى اولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ».

وأساساً فإنّ عمل الإنسان يترك فى الإنسان أثره .. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه ويدخله فى زمرة «الصالحين».

كما أنّ العمل السيء يدخله فى زمرة «الخاطئين والمسيئين».

إنّ الكلام فى الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّاأنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذى هو فى نفسه ثواب آخر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۰

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ (۱۰) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (۱۱) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۲) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳)

شركاء فى الإنتصار أمّا فى الشدة فلا: حيث إنّ الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين والمشركين بشكل صريح، ففى الآيات الاولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثالث- أى المنافقين- فيقول القرآن فيهم: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ». فلا يصبرون على الأذى والشدائد، ويحسبون تعذيب المشركين لهم وأذى الناس أنّه عذاب من اللّه «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ». فنحن معكم فى هذا الافتخار والفتح.

ترى هل يظنون أنّ اللّه خفىّ عليه ما فى أعماق قلوبهم فلا يعرف نيّاتهم «أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ».

ولعل التعبير ب «آمنّا» بصيغة الجمع، مع أنّ الجملة التى تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا

أنفسهم فی صف المؤمنین، فلذلک یقولون «آمنّا» أی آمنّا كسائر الناس الذین آمنوا.

وجملة «أُوذِیَ فِی اللَّهِ» معناه أوذی فی سبیل اللّه، أی إنّهم قد یتعرض لهم العدوّ- أحیاناً- وهم فی سبیل اللّه والإیمان فیؤذیهم.

وفی الآیة التالیة- لمزید التأكید- یضیف القرآن قائلًا: «وَلَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَلَیَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِینَ». فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سیكونون فی منأی عن علم اللّه فهم فی خطأ كبیر جدّاً.

إنّ التعبیر بالمنافقین لها معنی واسع، ویشمل حتی الأفراد ضعاف الإیمان الذین یبدّلون عقیدتهم لأدنی مكروه یصیبهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۱

و الآیة الاخری بعدها تشیر إلی منطق المشركین الخاوی والملتوی، الذی لا یزال موجوداً فی طبقات المجتمع الواسعة فتقول: «وَقَالَ الَّذِینَ كَفَرُوا لِلَّذِینَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَایَاكُمْ».

والیوم نری كثیراً من الخبثاء یقولون للآخرین عند دعوتهم إلی أمر: إن كان فیه ذنب فعلی رقابنا فی حین أنّنا نعلم أنّه لا یمكن لأحد أن یتحمل وزر أحد، فاللّه عادل سبحانه ولا یؤاخذ أحداً بجرم الآخر.

لذلک فإنّ القرآن یقول بصراحة فی الجملة التالیة: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِینَ مِنْ خَطَایَاهُم مِّن شَیْءٍ إِنَّهُمْ لَكذِبُونَ».

وبعد ذلک، ومن أجل أن لا یتصور أنّ هؤلاء الدعاة للكفر والشرک وعبادة الأصنام والظلم، لا شیء علیهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن یضیف فی الآیة التالیة قائلًا: «وَلَیَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ».

وثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرین علی الذنب، وهو ثقل السنّة التی عبّر عنها النبی صلی الله علیه و آله فقال: «من سنّ سنة سیئة فعلیه وزرها ووزر من عمل بها من غیر أن ینقص من وزره شیء» «۱».

وتختتم الآیة بالقول: «وَلَیُسَلُنَّ یَوْمَ الْقِیمَةِ عَمَّا كَانُوا یَفْتَرُونَ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِینَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَیْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِینَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آیَةً لِلْعَالَمِینَ (۱۵) وَ إِبْرَاهِیمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُم خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً إِنَّ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا یَمْلِکُونَ لَکُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْکُرُوا لَهُ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُکَذِّبُوا فَقَدْ کَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مَا عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِینُ (۱۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا کَیْفَ یُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ إِنَّ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ (۱۹)

---

(۱) التفسیر الكبیر ۲۵/ ۴۰.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۲

إشارة لقصّتی نوح وإبراهیم: لما كان الكلام فی البحوث السابقة عن الإمتحانات العامة فی الناس، فإنّ الكلام هنا- وفی ما بعد- یقع علی الإمتحانات الشدیدة للأنبیاء.

تبدأ الآیات أوّلًا بالكلام علی أوّل نبی من أولی العزم وهو نوح علیه السلام وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتُجمل قسماً من حیاته التی تناسب- كثیراً- الواقع الراهن للمسلمین- آنئذ- فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِینَ عَامًا».

كان نوح مشغولًا لیل نهار بالتبلیغ ودعوة قومه إلی توحید اللّه- فرادی ومجتمعین، مستفیداً من جمیع الفرص فی هذه المدة الطویلة (أی تسعمائة وخمسین عاماً) یدعوهم إلی اللّه ... ولم یشعر بالتعب والنصب من هذا السعی المتتابع ولم یظهر علیه الضعف والفتور.

ومع كل هذا الجهد الجهید لم یؤمن به إلّاجماعة قلیلة فی حدود الثمانین شخصاً كما تنقل التواریخ (أی: بمعدّل نفر واحد لكل اثنتی عشرة سنة).

فعلی هذا لا تظهروا الضعف والتعب فی سبیل الدعوة إلی الحق ومواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغایة.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألدّاء: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

ويضيف القرآن الكريم فى الآية الاخرى: «فَأَنجَيْنَهُ وَأَصْحبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلعَالَمِينَ».

ثم يعقّب على قصة نوح وقومه التى وردت بشكل مضغوط، ويأتى بقصة إبراهيم عليه السلام، ثانى الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: «وَإِبْرهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هى السعادة الأبدية.

ثم يذكر إبراهيم عليه السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن فى تعابير مختلفة يتضمن كل منها دليلًا على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أوّلًا: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا».

الأصنام التى ليس لها إرادة، ولا عقل، وهى فاقدة لكل شيء، بحيث إنّ شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان».

ثم يتوسع فى حديثه ويمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۳

ثم يبيّن الدليل الثالث وهو أنّ عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم فى «الاخرى» وكلا الهدفين باطل ... وذلك: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَايَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا».

وأنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو اللّه، فالذى يتكفل بالرزق هو اللّه، «فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ».

ولأنّه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه «وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ».

وإذ كنتم تبتغون الدار الاخرى فإنّه «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك.

وبهذا الأدلة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهى وأفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام مهدّداً لهم ومبدياً عدم اكتراثه بهم قائلًا: «وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ» كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزى بتكذيبهم والعاقبة الوخيمة «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ» سواءً استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه.

والمقصود بالامم قبل امة إبراهيم عليه السلام، امة نوح عليه السلام وما بعده من الامم.

والقرآن يترك قصة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق اللّه؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أوّلًا قادر على إعادته أيضاً.

ويضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد: «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يُعدّ أمراً بسيطاً.

وطبيعى أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلّا فإنّ اليسير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (۲۱) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۲۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۳)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۴

الآيسون من رحمة اللّه: هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضاً، فإنّ القرآن يدعو فى الآية الاولى من هذا المقطع الناس إلى «السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أنّ الآية السابقة كانت السمة فيها «السير فى الأنفس» أكثر. يقول القرآن:

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ». انظروا إلى أنواع الموجودات الحية، والاقوام والامم المتنوعة والمختلفة، وكيف أنّ

اللّه تعالى خلقها أولًا، ثم إنّ اللّه نفسه الذى أوجدها فى البداية من العدم قادر أيضاً على ايجادها فى الآخرة: «ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْأَخِرَةَ» ولأنّه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أوّلًا، إذن ف «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فهذه الآية والآية التى قبلها- أيضاً- أثبتتا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد ..

«النشأة»: فى الأصل، تعنى إيجاد الشيء وتربيته، وقد يعبر أحياناً عن الدنيا بالنشأة الاولى، كما يعبر عن الاخرى بالنشأة الآخرة.

ثم يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهى مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: «يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ».

ومع أنّ رحمة اللّه مقدمة على غضبه، إلّاأنّ الآية هنا تبدأ أوّلًا بذكر العذاب ثم الرحمة، لأنّها فى مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الاسلوب.

وإكمالًا لهذا البحث الذى يبيّن أنّ الرحمة والعذاب هما بيد اللّه والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان اللّه وحكومته ولا يمسّكم عذابه، فأنتم فى خطأ كبير ... فليس الأمر كذلك؛ «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ» «۱».

وإذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محضٌ أيضاً: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ».

وهكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين .. لذلك يقول فى الآية التى بعدها بشكل قاطع: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يِسُوا مِنْ رَّحْمَتِى». ثم يضيف مؤكداً: «وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة اللّه.

---

(۱) «معجزين»: مشتقة من مادة «عجز»، ومعناها فى الأصل التخلّف والتأخر عن الشيء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة فى الضعف الباعث على التخلف والتأخر؛ «المعجزة»: معناه الذى يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إنّ الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» فى هذا الصدد أيضاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۵

والمراد ب «آيات اللّه» هى جميع الآيات فى عالم الوجود والتشريع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۶) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷)

اسلوب المستكبرين فى جوابهم لإبراهيم: والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضالون لإبراهيم عليه السلام ردّاً على أدلته الثّلاثة فى مجال التوحيد والنبوة والمعاد؟!

إنّهم- قطعاً- لم يكن لديهم جواب منطقى وكجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ».

وأخيراً رُجح الرأى الأوّل، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنار.

وفى هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار سوى هذا المقدار الذى استكملت به الآية الكريمة، وهو «فَأَنجهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ».

غير أنّ تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء الآيات (٦٨- ٧٠) وقد بيّنا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته.

ويضيف القرآن في الختام: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

إنّ ابراهيم عليه السلام نجّى من النار بصورة خارقة للعادة وبلطف اللّه سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه .. بل نهض بالأمر وازداد همّة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثم توجه إبراهيم إلى المشركين، «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٤٦

الْحَيَوةِ الدُّنْيَا». ولكن هذه المودة والمحبة تتلاشى في الآخرة، «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نصِرِينَ».

إنّ عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزاً للوحدة لكل قوم ولكل قبيلة، كما تربط بينهم وبين اسلافهم. ثم بعد هذا كلّه فإنّ سراة الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلائق والوشائج والإرتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة.

وفي الآية التي بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجرة إبراهيم، إذ تقول: «فَامَنَ لَهُ لُوطٌ».

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السلام» وحيث إنّ اتّباع شخص عظيم- لإبراهيم- بمنزلة أفراد امة كاملة فقد تحدث سبحانه- خاصةً- عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهماً.

ثم تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام، فتقول: «وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السلام وزوجه سارة- بمعيّة لوط- من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء والتوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك ويوسع دعوة التوحيد.

وفي آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التي منحها اللّه لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الاولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنبوة في بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ». وهما نبيّان كبيران واصل كل منهما السير على منهاج إبراهيم محطم الأصنام.

الموهبة الثانية: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتبَ».

الموهبة الثالثة: «وَءَاتَيْنهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا». فما هو هذا الأجر الذي لم يوجهه القرآن؟ لعلّه إشارة إلى امور مختلفة مثل الاسم الحسن، ولسان الصدق والثناء بين جميع الامم، لأنّ الامم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنّه نبي عظيم الشأن، ويفتخرون بوجوده ويسمونه «شيخ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٤٧

الأنبياء».

الموهبة الرابعة، هي: «وَإِنَّهُ فِي الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». وهكذا تشكّل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفاخر.

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

المنحرفون جنسياً: بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصة حياة النبي المعاصر لإبراهيم «لوط عليه السلام» فيقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ». «الفاحشة»: مشتقة من مادة «فَحَشَ»

وهى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سيء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنسى. (اللواط).

لوط عليه السلام هذا النبى العظيم، كشف أخيراً ما فى نفسه وقال لقومه: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ». أفتريدون أن تقطعوا النسل «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ».

ولا ترعوون عن الأعمال المخزية فى مجالسكم العامة «وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ».

«النادى»: مشتق من «النداء» وهو يعنى المجلس العام، كما يأتى أحياناً بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادى بعضهم بعضاً وترتفع أصواتهم.

ورد فى التواريخ: إنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والإبتذال، أو يضرب أحدهم الأخر على ظهره، أو يلعبون القمار، ويستعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم فى مجتمعهم ويغدون عراة ... الخ «۱».

والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبى لوط عليه السلام المنطقية. يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ».

وهنا لم يكن للوط عليه السلام بدّ إلّاأن يلتفت إلى اللَّه بقلب حزين مهموم ... و «قَالَ رَبّ انصُرْنِى

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۸

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ». القوم المنحرفين، المتمادين فى الأرض فساداً، والذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفسد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال.

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (۳۱) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (۳۲) وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵)

وهذه هى عاقبة المنحرفين: لقد استجيب دعاء لوط أخيراً، وصدر الأمر من اللَّه تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رسالة اخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، وهذه الرسالة التى سبقت العذاب، هى بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

والآيات المتقدمة تذكر أوّلًا قصة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ».

والتعبير «هذه القرية» يدل على أنّ مُدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام.

والتعبير ب «الظالمين» هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقى وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التى كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبى العظيم و «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۹

فما عسى أن تكون عاقبته؟

إلّا أنّهم أجابوه على الفور: «قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا» فلا تحزن عليه، لأنّنا لا نحرق «الأخضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً ... ثم أضافوا: «لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

إنتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَلَمَّا أن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذى وجوه مليحة، ومجىء أمثال هؤلاء الضيوف فى مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال.

«سىء»: مشتقة من «ساء» ومعناه سوء الحال؛ و «الذرع»: معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى «ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا» أى ضاق قلبه وانزعج.

إلّا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم إرتياحه كشفوا عن «هويّتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: «وَقَالُوا لَاتَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

وبعد هذا، ولكى تتضح خطة عملهم فى شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين أكثر، أضافوا: «إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والمراد ب «القرية» هى «سدوم» من قرى قوم لوط عليه السلام.

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنّه قال: «وَلَقَدْ تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إلّا أنّ فى سورة هود الآية (۸۲) منها وكذلك سورة الأعراف الآية (۸۴) منها، تفصيلًا فى بيان العذاب، وهو أنّه أصابت قراهم فى البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجارة من السماء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۰

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۳۷) وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ (۳۹) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

تنوع العذاب للظالمين: بعد بيان قصّة لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد أشير فى هذه الآيات- محل البحث- إلى كل منهم إشارة موجزة «مكثفة» للإستنتاج والعبرة. فى البداية تقول الآية:

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

والتعبير بكلمة «أخاهم»، هو إشارة إلى منتهى محبّة هؤلاء الأنبياء إلى اممهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و «مدين» مدينة واقعة جنوب غربى الأردن، وتدعى اليوم ب «معان» وهى فى شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها.

وشعيب كسائر أنبياء اللّه العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقة: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْأَخِرَ».

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأنّ اللّه يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجّل أعماله؛ والإيمان بالمعاد يذكّر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شىء وكل عمل مهما كان تافهاً ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۱

مختصر الامثل ج۳ ۵۹۳

والمبدأ الثالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الإجتماعية، إذ قال: «وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم .. الخ .. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءة.

«تعثوا»: من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما فى الأمر أنّ هذا التعبير كثيراً ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلّا أنّ تلك الجماعة بدلًا من أن تصغى لمواعظه ونصائحه بآذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً فى أن تصيبهم زلزلة شديدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جٰثِمِينَ». أى مكبوبين على وجوههم ميتين.

«الجاثم»: مشتق من «جثم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف فى مكان ما ... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلّاأنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التى تزامنت معها فماتوا.

أمّا الآية التى بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومى (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران فى آيات عديدة من القرآن، وهما أى قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: «وَعَادًا وَثَمُودَا».

ثم تضيف الآية: «وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ» المتهدمة والتى هى على طريقكم فى منطقة الحجر واليمن.

ثم تشير الآية إلى السبب الأصلى لشقائهم وسوء حظّهم، إذ تقول: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ».

وكانت فطرتهم على فطرة اللّه وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً فى هدايتهم، وبذلوا قدراً كافياً من النصح والإرشاد لهم، لكنّهم حادوا «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ». و الآية الاخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: «وَقٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ».

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة.

وفرعون كان مظهر القدرة الإستكبارية المقرونة بالشيطنة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۲

وأمّا هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين.

ثم يضيف القرآن: «وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» والدلائل «فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ». فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرةالعسكرية، وعلى قوّة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفّلين الجهلة. لكن .. برغم كل ذلك لم يفلحوا «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ».

كلمة «سابقين» تعنى من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ». أى إنّهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان اللّه برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم اللّه فى اللحظة التى أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزى.

كما يذكر فى الآية التى بعدها: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ».

فإنّه يذكر فى هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم فيقول: «فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا». «الحاصب»: معناه الاعصار الذى يحمل حصى كثيرة معه.

والمقصود ب «منهم» هنا هم «عاد» قوم هود.

«وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» وهذا هو العذاب الذى عذب اللّه به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين ...

«وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ». وهذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل.

«وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا». وهذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما.

ويبيّن فى ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم، فاللّه أكثر عدلًا وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۳

دعامة واهية كبيت العنكبوت: بيّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأنانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم ... وبهذه المناسبة، ففى الآيات التى بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالًا بليغاً ومؤثراً يعبدون غير اللّه ويتخذون من دونه أولياء، وكلّما أمعنا النظر فى هذا المثال وفكرنا فيه مليّاً انقدحت فى أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

والجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.

فلو دققنا النظر فى بيوت العنكبوت لرأينا منظراً طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرةً على قواعد هذا «البناء النسيجى»، وبالطبع فإنّ هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنه فى المجموع لا يمكن تصور بيت أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبوديهم، إذ تركوا عبادة اللّه والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان.

أمّا الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ» ولا يخفى على اللّه شركهم الظاهر ولا شركهم الخفى «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» على الإطلاق.

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أنّ قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة للّهعليهم، فيهتدى من هو جدير بالهدى.

و الآية الثالثة- من الآيات محل البحث- لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبى صلى الله عليه و آله فى هذه الأمثلة التى ضربها اللّه، وكانوا يقولون: اللّه الذى خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟

فيردّ القرآن بقوله: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ».

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يضيف القرآن الكريم: «خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ». ليس فى عمل اللّه باطل أو عبث ... فإذا التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوى هو أمر محسوب بدقّة، وإذا ما إختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلّا فهو خالق أعظم المجرّات والمنظومات الشمسية وغيرها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۴

اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (۴۵)

إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الامم السابقة وأنبيائهم العظام، يتوجه الخطاب- على سبيل تسلية الخاطر، وإراءة الخط الكلى أو الخطوط العامة- للنبى صلى الله عليه و آله ويأمره بما ينبغى عليه أن يفعل. فيبدأ أوّلًا بقوله: «اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتبِ» ... أى إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل.

وبعد بيان هذا الأمر الذى يحمل طابعاً تعليمياً، يأتى الأمر الثانى الذى هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَوةَ».

ثم يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: «إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ» «۱».

طبيعة الصلاة- حيث إنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الإعتقاد بالمبدأ والمعاد- فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر.

إنّ النهى عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه».

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ».

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة اخرى فى‌الصلاة، أى أنّ أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلى للنهى عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر اللَّه، وكونه أكبر لأنّه العلة والأساس للصلاة.

وحيث إنّ نيّات الناس، وميزان حضور القلب منهم فى الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدّاً، فإنّ الآية تختتم بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ». أى يعلم ما تصنعون

---

(۱) إنّ الفحشاء هى إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أنّ الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۵

من أعمال فى الخفاء أو العلن، والنيّات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم.

وَ لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنَا وَ إِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (۴۷) وَ مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴۹)

اتّبعوا أحسن الأساليب فى البحث والجدال: كان أكثر الكلام فى الآيات المتقدمة فى كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة حادّاً، أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- فيقع الكلام فى شأن مجادلة أهل الكتاب الذين ينبغى أن يكون الكلام معهم لطيفاً، فيقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتبِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ».

«تجادلوا»: مشتق من «جدال» ومعناه فى الأصل فتل الحبل وإحكامه، كما تستعمل هذه المفردة فى البناء المحكم وما أشبهه، وحين يتناقش اثنان فى بحث معين فكل واحد منهما يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته وفكرته .. لذا فقد سمّى هذا النقاش جدالًا.

والمراد من قوله «وَلَا تُجَادِلُوا»، المناقشات المنطقية.

والتعبير ب «الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» تعبير جامع يشمل الأساليب والطرق الصحيحة والمناسبة للتباحث أجمع.

فعلى هذا إنّ ألفاظكم ينبغى أن تكون بطريقة مؤدّبة، والكلام ذا مودّة، والمحتوى مستدلًا، وصوتكم هادئاً غير خشن.

وبالطبع فإنّ هذا الأصل الكلى فى البحث والمجادلة الإسلامية، فقد يُعدّ فى بعض الموارد ضعفاً، أو يكون الطرف الآخر مغروراً إلى درجة أنّ هذا التعامل الإنسانى يزيده جرأة وعدواناً وتكبراً، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنياً: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، وكتموا كثيراً من الآيات، لئلا يطلع الناس

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۶

على أوصاف النبى محمّد صلى الله عليه و آله. ويختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة بالتى هى أحسن» ويمكنه أن يكون قدوة لأىبحث، فيقول القرآن الكريم: «وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنَا وَإِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

وهذا مثل واحد من المجادلة بالتى هى أحسن التى ينجذب إليها كل من يسمعها، ويدلّ على أنّ الإنسان يجب أن يكون بعيداً عن التحزب أو طلب التفرقة.

و الآية الاخرى تؤكّد على الاصول الأربعة التى سبق ذكرها فى الآية المتقدمة، فتقول: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتبَ». أى القرآن.

أجل ... نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، وتوحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، والتسليم دون قيد أو شرط لأمر اللَّه؛ والمجادلة بالتى هى أحسن.

ثم يضيف القرآن الكريم: «فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» ويعتقدون بصدقه إذ أنّهم وجدوا علائمه فى كتبهم، كما أنّ محتواه من حيث الاصول العامة والكلية منسجم مع كتبهم.

ويضيف القرآن بعدئذ: «وَمِنْ هؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ». أى أهل مكة والمشركون العرب.

ثم يقول القرآن فى كفر الطائفتين من اليهود والنصارى: «وَمَا يَجْحَدُ بَايَاتِنَا إِلَّا الْكفِرُونَ».

ومع الإلتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشىء بقلبه وينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أنّ الكفار يعترفون فى قلوبهم بعظمة هذه الآيات، ويرون علامات الصدق عليها، إلّاأنّهم ينكرون ذلك عناداً وتعصباً، وتقليداً أعمى لأسلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصية.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى علامة اخرى من علائم حقانية دعوة النبى صلى الله عليه و آله الجلية والواضحة، وهى تأكيد على محتوى الآية السابقة، فيقول: «وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». وقالوا إنّ ما جاءنا به هذا النبى هو حصيلة مطالعاته لكتب الماضين.

وفى الآية التالية علامة اخرى أيضاً على حقانية القرآن، إذ تقول: «بَلْ هُوَ ءَايتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

والتعبير ب «الآيات البيّنات» كاشف عن هذه الحقيقة وهى أنّ دلائل حقانية القرآن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۷

تتجلى بنفسها عياناً، وتشرق فى أرجائه، فدليلها معها.

ثم بعد هذا كلّه، فإنّ أتباع هذه الآيات وطلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولوا العلم والإطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية وأرجلهم حافية.

وتُختتم الآية بقوله تعالى: «وَمَا يَجْحَدُ بَايَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» ... لأنّ دليلها واضح، وقد وردت علائمها فى الكتب المتقدمة.

وَ قَالُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۵۲) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَوْ لَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۳) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

أليس القرآن كافياً فى إعجازه: الأشخاص الذين لم يذعنوا ويسلّموا للبيان الاستدلالى والمنطقى الذى جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالقرآن ... تذرّعوا بحجّة اخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهى أنّه لم لا تأت- يا محمّد- بمعجزة من المعاجز التى جاء بها موسى وعيسى: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايتٌ مِّن رَّبِّهِ».

ومن دون شك فإنّ النبى صلى الله عليه و آله كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، إلّاأنّ اولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم

الحصول على معجزة.

إنّ القرآن، للردّ على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهية، يدخل من طريقين:

فيقول أوّلًا فى خطابه لنبيّه: «قُلْ إِنَّمَا الْأَيتُ عِندَ اللَّهِ». أى قل لُاولئك المعاندين أنّ اللّه يدرى أية معجزة تناسب أى زمان وأى قوم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۸

ثم يضيف القرآن معقباً أن قل: «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

والجواب الآخر هو قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتبَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ».

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحدّ ذاته أعظم معجزة معنوية ...

معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

وفى‌نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». «ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إنّ القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة.

ولعل الفرق بين «الرحمة» و «الذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوى على القوانين التى تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلًا كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلّاأنّها لم يكن لها أثر فى حياة الناس اليومية، غير أنّ القرآن معجزة، هو فى الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولما كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبيّن فى الآية الاخرى أنّ خير شاهد هو اللَّه: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا».

وبديهى أنّه كلّما كان إطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإنّ قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلًا: «يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنّه حين يؤتى اللَّه نبيّه معجزة كبرى كالقرآن، فقدوقع على سند حقانيته وأمضاه.

وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ فى آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية فى نبوة النبى صلى الله عليه و آله.

ويمكن أنّ المراد من شهادة اللّه فى الآية هى ما سبق من الوعد والذكر فى كتب اللَّه السابقة «كالتوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة.

وتختتم الآية بنحو من الوعيد والتهديد لُاولئك الكفار باللّه، فيقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخسِرُونَ». وأى خسران أعظم من أن يعطوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية فى سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثنى وأهملوا ذكر اللَّه، فلم يُعد عليهم هذا إلّابالضرر والخسران.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۹

أمّا فى الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثالثة إذ تقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ». إذ يقولون: لو كان عذاب اللَّه حقّاً على الكافرين فلم لا يأتينا؟!

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأوّل: «وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ».

وهذا الزمان المعين (الأجل) إنّما هو لهدف أصلى، للارعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم.

والثانى: إنّ اولئك الذين يتذرّعون بهذا القول ما يدريهم لعلّ العذاب يأخذهم على حين غرةٍ من أنفسهم «وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ» «۱».

وبالرغم من أنّ موعد العذاب معين ومقرّر إلّاأنّ المصلحة تقتضى ألّا يطّلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنّه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفار والمذنبين وجسارتهم .. وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنّهم سيتجهون بالتوبة إلى اللّه وينيبون إليه.

والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والإستيحاش منها عاملًا على الردع.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآنى الثالث يتبيّن فى الآية إذ يقول: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكفِرِينَ».

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصيبهم حتماً بحيث إنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعلىّ (وكأنّ جهنم الآن محيطة بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقّةً لهذه الآية، وهو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلًا بالكافرين، من جهتين - بالمعنى الواقعى للكلمة.

الجهة الاولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التى أعدّوها لأنفسهم.

و الجهة الثانية: طبقاً لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلًا، فإنّ جهنم موجودة فى باطن الدنيا، وبهذا فهى محيطة بهم على نحو الحقيقة.

ثم يضيف القرآن: «يَوْمَ يَغْشَهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا

(١) «البغتة»: مشتقة من «البغت» ومعناه التحقق المفاجىء وغير المنتظر لأمر.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحاً لإحاطة عذاب جهنم فى يوم القيامة بالكفار، ويمكن أن تكون بياناً مستقلًا لذلك العذاب الأليم لهم الذى يحيط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفى غدٍ يتجلى هذا العذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً. أمّا جملة «ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» التى يظهر أنّ قائلها هو اللّه تعالى، فهى بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهى كاشفة عن هذه الحقيقة، وهى أنّ عذاب اللّه ليس إلّاانعكاساً للأعمال التى يقوم بها الإنسان نفسه فى النشأة الآخرة.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية الاولى فى المستضعفين من المؤمنين بمكة امروا بالهجرة عنها.

ونزل قوله «وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا» فى جماعة كانوا بمكة يؤذيهم المشركون فأمروا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار، ولا غفار ومن يطعمنا ومن يسقينا؟

التّفسير

لابدّ من الهجرة: حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام والمسلمين، ففى الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين ومسؤولياتهم قبال المشاكل المختلفة، أى مشاكل أذى الكفار وضغوطهم وقلّة عدد المسلمين وما إلى ذلك، فتقول الآية الاولى: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيىَ فَاعْبُدُونِ».

لأنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبداً للّه، فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسى

والنهائى مستحيلًا، فلا سبيل عندئذ إلّا الهجرة.

وحيث إنّ البعض بقوا فى ديار الشرك، ولم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنّهم يخشون الخروج من ديارهم ويخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الاخرى التى تهددهم ... إضافة إلى فراق الأحبّة والمتعلقين والأبناء والأصدقاء، فإنّ القرآن يردّهم بجواب جامع قائلًا: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ».

لا تظنوا أنّ الموت نهاية كل شىء، لأنّكم جميعاً «إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» ... إلى اللّه العظيم، وإلى نعمه التى لا حدّ لها ولا انتهاء لأمدها.

و الآية التالية تبيّن جانباً من هذه النعم فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنهرُ» «١».

والامتياز الآخر لغرف الجنة أنّها دائمة «خلِدِينَ فِيهَا».

ويضيف القرآن معقباً فى ختام الآية: «نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

والمراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، وإن كانت كلمة العاملين مطلقة.

و الآية التالية تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

إذ يبتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبيت والأحباب والأصدقاء وكل شىء عزيز عليهم، لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة والتهجير عن أوطانهم ويصبرون.

وإذ أمعنا النظر وفكّرنا جيداً رأينا أنّ الصبر والتوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاكل، والتوكل هو الهدف والباعث على الحركة فى هذا الطريق المديد الملتوى.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- جواب لُاولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا وأهلينا، فمن سيطعمنا ويرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا- تحزنوا على الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو اللّه، لا لكم فحسب بل: «وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ».

---

(١) «لنبوئنّهم»: من مادة «تبوئة»، معناها إعطاء السكنى للإقامة والبقاء الدائم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٦٢

فالقرآن يؤكّد فى نهاية الآية قائلًا: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

يسمع كلامكم كلّه، ويعرف لسان حالكم، ولسان حال جميع الدواب، وهو خبير بحاجات الجميع، ولا يخفى على علمه الذى لا حدّ له شىء أبداً.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَ مَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

الإقرار بالتوحيد فى الباطن والشرك فى الظاهر: كان الحديث فى الآيات السابقة موجّهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقانيّة الإسلام، إلّاأنّهم لم يكونوا مستعدين للإيمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم، أمّا فى هذه الآيات، فالحديث موجه للنّبى صلى الله عليه و آله، وفى الواقع لجميع المؤمنين، وهو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق «الخلقة»، و «الربوبيّة»، و «الفطرة»، أى عن ثلاث طرائق متفاوتة، ويريهم أنّ مصيرهم وعاقبة أمرهم بيد اللّه الذى يجدون آثاره فى الآفاق وفى أنفسهم، لا بأيدى الأصنام والأوثان التى لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث، مشيرةً إلى خلق السماوات والأرض وتستعين باعتقاداتهم الباطنية ...

فتقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أى أحد آخر يقول: إنّ خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بيد الإنسان.

وبتعبير آخر: لايشك فى «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين فى عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنّما نعبد أوثاناً ليقربونا إلى اللَّه زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۳

وهم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أيّة فاصلة.

إنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم ويستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب؟!

«يؤفكون»: مشتقة من «إفك» ومعناها إعادة الشيء من صورته الواقعية والحقيقية.

والتعبير ب «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة.

والمراد من تسخير الشمس والقمر النظم التى أقرها اللَّه تعالى، وجعل الشمس والقمر فى دائرة هذه النظم فى خدمة الإنسان، ومنافعه.

ثم يضيف القرآن تأكيداً لهذا المعنى، وهو أنّ اللَّه خالق الخلق ورازقهم، فيقول: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ». فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس ولا بيد الأصنام.

وإذا كانوا يتصورون أنّ اللَّه قادر، إلّاأنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير ل «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وفى المرحلة الثانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» ونزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ». فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام فى الباطن، ولا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم، فهم يعرفون أنّ الخالق هو اللَّه، وأنّه ربّ العالم ومدبره.

ثم يضيف القرآن مخاطباً نبيّه: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». فالحمد والثناء لمن أنعم جميع النعم.

وحيث إنّ أقوال المشركين من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وكلماتهم من جهة اخرى، يناقض بعضها بعضاً، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

وإلّا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتارةً يرى أنّ الخالق والرازق والمدبر للعالم هو اللَّه، وتارة يسجد للأوثان التى لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس.

ومن أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن فى الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الاخرى الخالدة، فى عبارة موجزة ومليئة بالمعانى، فيقول: «وَمَا هذِهِ الْحَيوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». «اللهو»: معناه الإنشغال، أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية. أمّا «اللعب»: فيطلق على الأعمال التى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۴

فيها نوع من النظم الخيالى، والهدف الخيالى أيضاً. فالقرآن فى هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيّناً أنّ الحياة الدنيا هى نوع من الإنشغال واللعب، ثم يطوى كل شيء ويغدو فى سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التى الافناء بعدها، فهى الحياة الآخرة فحسب.

وينبغى الإلتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً. وهذا التعبير: «وَإِنَّ الدَّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ» إشارة إلى أنّ الحياة الحقيقية هى فى الاخرى، لا فى هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياة فى الاخرى تفور من جميع أبعادها، ولا

شيء هناك إلّاالحياة.

وبـديهى أنّ القرآن لا يريـد أن ينسـى وينفى مواهب اللَّه فى هـذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الاخرى قياساً صـريحاً وواضحاً ... وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغى أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفى المرحلـة الثالثـة ... يتجه القرآن نحو الفطرة والجبلّـة الإنسانية، ونحو تجلّى نور التوحيد فى أشدّ الأزمات فى أعماق روح الإنسان، وضمن مثالٍ بديع جدّاً وبليغ فيقول: «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ فَلَمَّا نَجهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ».

أجـل، إنّ الشدائـد والأزمـات هى التى تهيء الأرضـية لتفتـح الاجتماعيـة «الفطرة» الإنسانيـة، لأنّ نور التوحيـد مخفى فى أرواح الناس جميعاً.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئـة والغفلـة والغرور- وخاصة عند السـلامة ووفور النعمة- تلقى عليها أسـتاراً، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وفى آخر آيـة- من الآيـات محل البحث- وبعـد ذكر جميع هـذه الـدلائل على التوحيـد وعبادة اللَّه، يواجه القرآن المشـركين والكفار بتهديـد شديـد فيقول: إنّ هؤلاء أنكروا آياتنـا وكفروا بمـا رزقنـاهم من النعم فليتمتعوا بهـا أيّاماً قلائل: «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عاقبة كفرهم وشركهم.

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أ لَيسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۵

سبب النّزول

فى الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ جماعة من المشـركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل فى دينك إلّامخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا فى دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل اللَّه: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا» الآية.

التّفسير

أشـارت الآيـات- التى سبق ذكرهـا- إلى بعض الحجـج الواهيـة للمشـركين، وهى أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثم هاجرنا معك يا رسول اللَّه، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة، وفى الآيات- محل البحث- يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا». أى أرض مكة المكرمة.

فى حين أنّ العرب كانوا يعيشون فى حالـة غير آمنة خارج مكة، وكانت قبائلهم مشـغولة بالنهب والسـلب والغارات، إلّاأنّ هذه الأرض باقية على أمنها «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ».

فـاللَّه المقتـدر على أن يجعل فى هـذا البحر المتلاطم والطوفان المحـدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكـة كالجزيرة الهادئـة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة اللَّه العظيمة جلّ وعلا؟

«أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ».

وبعـد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن إلى هذه النتيجة فى الآية التالية: «وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُ». لقـد قـدمنا دلائل واضـحة لكم على أنّه لا شـيء أحق بالعبادة وأحرى بها من اللَّه، لكنّكم كذبتم على اللَّه، وصـنعتم له شـركاء بأيديكم.

إنّ الشـرك مصدر جميع المفاسد الإجتماعية، وفى الواقع إنّ المظالم الاخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل

منها نوع من الشرك.

ولكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم والخزى للمشركين «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَفِرِينَ». و آخر آية- من الآيات محل البحث- وهى فى الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهى عصارة جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها. تقول الآية ... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى اللّه، من قبيل مشكلة معرفة الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۶

يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهى أنّ اللّه يمنحكم القوة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: «وَالَّذِينَ جهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى وجهاد فى سبيل اللّه ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه «جهَدُوا فِينَا» سواءٌ كان فى سبيل كسب المعرفة، أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو فى إعانة الضعفاء، أو فى الإقدام على أى عمل حسن وصالح.

وعلى هذا أنّنا إذا أصبنا بأى نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا فى جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل.

«نهاية تفسير سورة العنكبوت»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۷

۳۰ سورة الرّوم

محتوى السورة: يمكن تلخيص مضامين هذه السورة فى سبعة أقسام:

۱- التنبؤ بانتصار الروم على الفُرس فى معركة تحدث فى‌المستقبل.

۲- جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم.

۳- قسم مهم من آيات «عظمة اللّه» فى الأرض والسماء، وفى وجود الإنسان.

۴- الكلام عن التوحيد «الفطرى» بعد بيان دلائله فى الآفاق وفى الأنفس لمعرفة اللّه سبحانه.

۵- العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد فى الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم.

۶- إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوى القربى، وذم الربا.

۷- العودة- مرّة اخرى- إلى دلائل التوحيد، وآيات اللّه وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبّح للّه ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع فى يومه وليلته».

ومن البديهى أنّ من جعل محتوى هذه السورة فى روحه وقلبه، وراقب اللّه فى كل لحظة،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۸

فإنّ تقوى اللّه تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۶) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (۷)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قال المفسرون: غلبت فارس الروم وظهروا علیهم علی عهد رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله وفرح بذلک کفار قریش من حیث إنّ أهل فارس لم یکونوا أهل کتاب وساء ذلک المسلمین. وکان بیت المقدس لأهل الروم، کالکعبة للمسلمین. فدفعتهم فارس عنه. فنزلت الآیات الآنفة وقالت: لئن غلب الفرس الروم لیأتینّ النصر والغلبة للروم خلال فترة قصیرة، وقد حدّدت الفترة لانتصار الروم علی الفرس «فِی بِضْعِ سِنِینَ».

وهذا الکلام السابق لأوانه، هو من جهة دلیل علی إعجاز القرآن، هذا الکتاب السماوی الذی یستند علمه إلی الخالق غیر المحدود، ومن جهة اخری کان فألًا حسناً للمسلمین فی مقابل فأل المشرکین، حتی أنّ أبابکر ناحب بعض المشرکین قبل أن یحرم القمار علی شیء، إن لم تغلب فارس فی سبع سنین. فقال رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله: «لم فعلت فکل ما دون العشرة بضع». فکان ظهور فارس علی الروم فی تسع سنین ثم أظهر اللّٰه الروم علی فارس زمن الحدیبیة ففرح المسلمون بظهور أهل الکتاب.

التّفسیر

تنبؤ عجیب: هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرین سورة تبدأ بالحروف المقطعة «الم». وقد بحثنا مراراً فی تفسیر هذه الحروف المقطعة وخاصة فی بدایة سورة البقرة وآل عمران والأعراف. والفارق الوحید الذی نلاحظه هنا عن بقیة السور، ویلفت النظر، هو أنّه خلافاً لکثیر من السور التی تبدأ بالحروف المقطعة، التی یأتی الحدیث بعدها علی عظمة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۹

القرآن الکریم، بل بحثاً عن انحدار الروم وانتصارهم فی المستقبل، ولکن مع التدقیق یتّضح أنّ هذا البحث یتحدث عن عظمة القرآن الکریم أیضاً ... لأنّ هذا الخبر الغیبی المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الکتاب السماوی.

یقول القرآن بعد الحروف المقطعة: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ».

والمراد ب «أدنی الأرض» المکان القریب من بلاد فارس، أی إنّ المعرکة وقعت فی أقرب نقطة بین الفرس والروم.

ثم یضیف القرآن: «وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ». وهم أی الروم.

ثم یبیّن الفترة القصیرة من هذه السنین بهذا التعبیر: «فِی بِضْعِ سِنِینَ». والمعلوم أنّ «بضع» ما یکون أقله الثلاث وأکثره التسع.

وإذا أخبر اللّٰه عن المستقبل، فلأنّه «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ».

إنّ هذه العبارة ترید أن توضح هذه اللطیفة، وهی أنّ القادر بالذات والمالک علی الإطلاق هو اللّٰه، وکل من لدیه شیء فهو منه.

ثم یضیف القرآن: أنّه إذا فرح المشرکون الیوم بانتصار الفرس علی الروم فإنّه ستغلب الروم «وَیَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ».

أجل، یفرحون «بِنَصْرِ اللَّهِ یَنصُرُ مَن یَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ».

إنّ المسلمین «المؤمنین» فرحوا فی ذلک الیوم لجهات متعددة:

۱- من إنتصار أهل الکتاب علی المجوس، لأنّه ساحة لإنتصار الموحدین علی المشرکین.

۲- من الإنتصار المعنوی لظهور إعجاز القرآن.

۳- ومن الإنتصار المقارن لذلک الإنتصار، ویحتمل أن یکون صلح الحدیبیة، أو بعض فتوحات المسلمین الاخر.

ولزیادة التأکید یضیف أیضاً: «وَعَدَ اللَّهِ لَایُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَایَعْلَمُونَ». والسبب فی عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم باللّٰه وقدرته، فهم لم یعرفوا اللّٰه حق معرفته، فهم لا یعلمون هذه الحقیقة، وهی أنّ اللّٰه محال علیه أن یتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو للضعف وعدم القدرة، لکن اللّٰه لا یتخلف عن الوعد، لأنّه یعرف عواقب الامور، وقدرته فوق کل شیء.

ثم یضیف القرآن معقباً: «یَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَیَوةِ الدُّنْیَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غفِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۰

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها فى هـذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة، لأنّ التدقيق فى هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أنّ التدقيق فى مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أنّ الهدف النهائى ليس هو هـذه المرحلة من حياة الجنين فحسب، بل هى مقدمة لحياة أوسع. إعجاز القرآن من جهة علم الغيب: إنّ واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح فى هـذه الآيات- محل البحث- ففى عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن إنتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين .. ويعدّ ذلك وعداً إلهياً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ... فقد انتصر الروم فى حربهم الجديدة على الفرس، واقترن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» وطبقاً لرواية اخرى أنّه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون إنتصاراً ملحوظاً على الكفار.

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)

كان الكلام فى آخر آية من البحث السابق عن السطحيين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادى .. وكانوا جاهلين بماوراء الطبيعة ويوم القيامة، أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أوّلًا على صورة استفهام فتقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۱

أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». أى: لو أنّهم فكروا جيداً ورجعواإلى عقلهم فى الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أوّلًا: إنّ العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمة هى دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدرة كاملة.

وثانياً: هذا العالم يمضى إلى الزوال، وحيث إنّ الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا.

لذلك يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاىِٕ رَبّهِمْ لَكفِرُونَ» فينكرون لقاء اللَّه؛ أو إنّهم ينكرون المعاد أصلًا؛ أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين.

وحيث إنّ التعبير ب «أَجَلٍ مُّسَمًّى» كاشف عن أنّ هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف فى الآية التالية قائلًا: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيّنَاتِ». أى بالدلائل الواضحات ... إلّاأنّهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب اللَّه الأليم، «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فتبيّن آخر مرحلة من كفرهم فتقول: «ثُمَّ كَانَ عقِبَةَ الَّذِينَ أَسؤُا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بَايتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ».

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات اللَّه، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الإستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات اللَّه، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أيّة حكمة وأيّة آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب اللَّه المؤلمة له.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۲

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (۱۳) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (۱۵) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (۱۶)

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن الذين يكذّبون ويستهزؤون بآيات اللّه، وفى الآيات- محل البحث- تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين فى القيامة. فتبدأ الآيات بالقول: «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». ويبيّن فى هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة اخرى فى بعض آيات القرآن الاخرى ومنها: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلقُ الْعَلِيمُ» «۱». و الآية الاخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ».

«يبلس»: مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعنى فى الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

فيحق للمجرمين أى ييأسوا ويبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى. لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعؤُا». فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون اللّه ويبرأون منها «وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كفِرِينَ».

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ».

---

(۱) سورة يس/ ۷۹- ۸۱.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۳

«يحبرون»: مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضاً.

و «الروضة»: معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِنَا وَلِقَاىِ الْأَخِرَةِ فَأُولئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيّاً وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (۱۸) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۹)

التسبيح والحمد فى جميع الأحوال للّه: بعد الأبحاث الكثيرة التى وردت فى‌الآيات السابقة فى شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم، ففى الآيات محل البحث يذكر التسبيح والحمد والتقديس والتنزيه للّه‌من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآية: «فَسُبْحنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ».

وعلى هذا فقد ورد فى هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح اللّه:

۱- بداية الليل «حِينَ تُمْسُونَ».

۲- وطلوع الفجر «حِينَ تُصْبِحُونَ».

۳- وعصراً «عَشِيًّا».

۴- وعند الزوال- فى الظهر- «حِينَ تُظْهِرُونَ».

وفى الآيـة التاليـة عودة إلى المعـاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ». أى: إنّ ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحى من الميت» والآخر «خروج الميت من الحى» يتكرران أمـام أعينكم، فلا مجـال للتعجب من أن تحيـا الكائنات جميعاً، ويعودالناس فى يوم القيامة إلى الحياة مرّة اخرى.

أمّا التعبير ب «يخرج الحى من الميت» المستعمل للأراضـى الموات، واضـح أنّ الأرض تبـدوا ميتـة فى فصل الشـتاء، ولكن فى فصـل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدبّ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۴

الحركة فى الأرض، وهذا ميدان المعاد الذى نراه فى هذه الدنيا. وأمّا مسألة «إخراج الميت من الحى» فهى ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً. وأمّـا مـا يتعلق ب «إخراج الحى من الميت» فبـالرغم من أنّه من المسلّم به- فى العصر الحاضر على الأقـل- أنّه لم يُر فى المختبرات والمشاهـدات اليوميـة أنّ موجوداً حيّاً يتولد من موجود ميّت، غير أنّ الثابت علمياً والمسلّم به أنّه كانت الأرض فى البداية قطعة ملتهبة من النّار، ولم يوجـد عليها أى موجود حى، ثم وفقاً لظروف خاصـة لم يكتشـفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحيّة من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة.

لكن الـذى نلمسه ونـدركه، هو أنّ الموجودات الميتـة دائمـاً تكون جزءاً من الموجودات الحيّة وتكسـى ثوب الحيـاة، فالمـاء والطعام اللـذان نتناولهمـا ليسـا من الموجودات الحيـة، لكنّهمـا حين يكونـان فى البـدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حى وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه.

فعلى هـذا يمكن القول بـأنّ فى نظام الطبيعـة دائماً يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وبهـذا الـدليل فإنّ اللَّه الـذى خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى فى العالم الآخر.

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (۲۲)

آيـات اللَّه فى الآفـاق وفى الأنفس: تحـدثت هـذه الآيـات- وبعض الآيات الأخر التى تليها- عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيـد، وآيات اللَّه وآثاره فى نظام عالم الوجود، وهى تكمل البحوث السابقة.

ويتحدث القرآن هنا أوّلًا عن خلقة الإنسان التى تعد أوّل موهبة إلهيّة له، وأهمهما أيضاً، فيقول: «وَمِن ءَايتِهِ أن خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ».

فى هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة اللَّه.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، وربّما كان إشارة إلى الخلق الأوّل للإنسان، أى آدم عليه السلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائية التى تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۵

الثانى: كثرة النسل «الآدمى» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة.

و الآيـة الثانيـة من الآيـات محـل البحث تتحـدث أيضـاً عن قسم آخر من الآيـات فى الأنفس، التى تمثل مرحلـة ما بعـد خلق الإنسان، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ أن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا». أى من جنسكم والغاية هى السكينة الروحية والهدوء النفسى.

وحيث إنّ اسـتمرار العلاقـة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبى وروحانى، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفة: «وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ولمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ومن هنا يمكن الإستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنّة الإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة فى بقائهم عزّاباً).

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فهى مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

السماوات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرّات، السماوات التى مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها ... وكلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

ثم ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: «وَاخْتِلفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ». لذلك خلق اللَّه الأصوات والألوان واختلاف الألسنة لتنظيم المجتمع البشرى.

ويقول القرآن فى نهاية الآية الآنفة الذكر: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّلْعَالِمِينَ».

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۶

آيات عظمته- مرّةً اخرى: تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات اللَّه فى الآفاق وفى الأنفس، تتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة. فتتحدث فى البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق ومثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ».

وتختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

هذه الموهبة العظيمة تؤدّى إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابة وقفة لعمل البدن، ونوع من التعطيل له.

ومن المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعة، ولعجل عليه العجز والشيخوخة.

و الآية التى تلتها، والتى تبيّن خامس آية من آيات عظمة اللَّه، تتجه أيضاً إلى «الآيات فى الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياة الأرض بعد موتها، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا».

«الخوف»: مما يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق؛ و «الطمع»: من جهة نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق والرعد على هيئة قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإنّ البرق السماوى مقدمة لنزول الغيث.

ثم يضيف القرآن معقباً: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

ويؤكّد القرآن فى نهاية هذه الآية مضيفاً: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ويفهمون أنّ وراء هذه الخطة المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصّماء أبداً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية اخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائهما ودوامهما، إذ تقول: «وَمِن ءَايتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ». أى إنّ خلق السماوات- المشار إليه فى الآيات السابقة- ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية اخرى، فهذه الأجرام العظيمة فى دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى امور كثيرة، وأهمّها المحاسبة المعقدة للقوة الجاذبة والدافعة.

وفى نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۷

والتعبیر ب «دعاکم» إشارة إلی أنّه کما أنّ أمراً واحداً منه کاف للتدبیر ولنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه کافیة لأن تبعثکم من رقدتکم وتنشرکم من قبورکم لیوم القیامة.

وَ لَهُ مَنْ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (۲۶) وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَی فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲۷) ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِکُمْ هَلْ لَکُمْ مِنْ مَا مَلَکَتْ أَیْمَانُکُمْ مِنْ شُرَکَاءَ فِی مَا رَزَقْنَاکُمْ فَأَنْتُمْ فِیهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیَاتِ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ فَمَنْ یَهْدِی مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِینَ (۲۹)

المالکیة للّه‌وحده: کانت الآیات المتقدمة تتحدث حول توحید الخالق، وتوحید الرّب، أمّا الآیة الاولی من هذه الآیات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحید، وهو توحید الملک فتقول: «وَلَهُ مَن فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولأنّهم ملک یده ف «کُلٌّ لَّهُ قِنِتُونَ» وخاضعون.

أی إنّ زمام أمر الجمیع من جهة القوانین التکوینیة کله فی یده، وهم مستسلمون لقانون عالم التکوین وفق مشیئة اللّه، شاؤوا أم أبوا.

والدلیل علی هذه «المالکیة» هو الخالقیة والربوبیة، فإنّ من خلق الموجودات فی البدایة وتکفلها بالتدبیر، فمن المسلم أنّه هو المالک الأصلی لها لا سواه.

وحیث إنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هی کالنسیج الواحد فی انسجامها فی سلسلة الآیات الآنفة، والتی ستأتی فی ما بعد، ففی الآیة التالیة یعود القرآن إلی موضوع المعاد، فیقول: «وَهُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ».

إنّ القرآن یثبت فی هذه الآیة- بأوجز الإستدلال- مسألة إمکان المعاد، إذ یقول لهم: إنّکم تعتقدون أنّ بدایة الخلق من قبل اللّه، فعودة الخلق مرّة اخری أیسر وأهون من بدایة الخلق.

ولکن من الضروری أن نلتفت إلی هذه «اللطیفة»، وهی أنّ التعبیر بالهیّن والصعب، هو

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۸

من خلال نافذتنا الفکریة، وأمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بین «الصعب والسهل». وربّما کان لهذا السبب أن عقّب القرآن فی ذیل الآیة مباشرة بالقول: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَی فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

لأنّنا لو تصورنا أی وصف کمالی لأی‌موجود فی السماء والأرض، من علمٍ وقدرة وملک وعظمة وجود وکرم، فمصداقه الأتم والأکمل هو عند اللّه، لأنّ الجمیع لدیهم المحدود من الصفات، إلّاهو وحده فإنّ لدیه الأوصاف غیر المحدودة، والجمیع لدیهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف اللّه فذاتیة، وهو مصدر الکمالات وأساسها.

وتنتهی الآیة بما هو ضرب من التأکید أو الدلیل، إذ یقول سبحانه: «وَهُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ». هو عزیز لا یقهر، إلّاأنّه وفی منتهی قدرته غیر المحدودة لا یصدر منه فعل غیر دقیق، فکلّ أفعاله وفق حکمته.

وبعد بیان قسم آخر من دلائل التوحید والمعاد فی الآیات المتقدمة، یتناول القرآن موضوع «نفی الشرک» فی مثال بیّن فیقول: «ضَرَبَ لَکُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِکُمْ».

هذا المثال هو لو کان لدیکم- أیّها المشرکون- عبید وممالیک ف «هَل لَّکُم مِّن مَّا مَلَکَتْ أَیْمنُکُم مِّن شُرَکَاءَ فِی مَا رَزَقْنَاکُمْ فَأَنتُمْ فِیهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنفُسَکُمْ». أی إنّ عبیدکم هؤلاء یشارکونکم فی أموالکم وفی ما رزقناکم، بحیث تکونون أنتم وعبیدکم سواء فی مالکیة هذه الأموال والنعم وتخافون أن یتصرفوا فی هذه الأموال بشکل مستقل کما هو الحالة فی تصرف شرکاءکم الأحرار فیها أو فی المیراث مثلًا ... فأنتم غیر مستعدین لأن یتصرفوا فی أموالکم.

فلو کان لکم عبید وملک یمین «وهو ملک مجازی» لما رضیتم بمثل هذا الفعل منهم، فکیف تتصورون المخلوقات التی هی ملک

حقيقى للّهشركاءه، أو تزعمون أنّ بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة اللّه أو بعض المخلوقات الاخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبية شركاءه، ألا ساء ما تحكمون.

والتعبير ب «مَا رَزَقْنَاكُمْ» يشير إلى هذه اللطيفة، وهى أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك للّهوحده.

ويعقب القرآن فى ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: «كَذلِكَ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٧٩

نُفَصِّلُ الْأَيتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة فى حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا للّه- على الأقل- ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم.

غير أنّ هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ». ولذلك فإنّ اللّه خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتاهوا فى وادى الضلالة «فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ».

ولا شك أنّ من يتركهم اللّه ويخلّى بينهم وبين أنفسهم «وَمَا لَهُم مِّن نصِرينَ»

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة اللّه، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، وتعقيباً على الآيات الآنفة الذكر، فإنّ الآية الاولى- من هذه الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد الفطرى، أى الإستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضرورى والوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا»، لأنّها «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». «الوجه»: معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطنى، ووجه القلب والروح؛ وكلمة «أقم»: مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة) ... وكلمة «حنيف»: مشتقة من «حَنَف»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة. فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

إنّ جملة «لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وبعدها جملة «ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ» تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة ...

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٨٠

ويضيف القرآن فى الآية التالية: ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطرى حالة كونكم «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغى أن تعودوا إليه أيضاً.

«منيبين»: من مادة «إنابة» وهى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، وتعنى هنا الرجوع نحو اللّه والعودة نحو الفطرة (التوحيدية).

ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهى كلمة تجمع معانى أوامر اللّه ونواهيه، إذ يقول: «وَاتَّقُوهُ» أى اتقوا مخالفة أوامره.

ثم يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». لأنّ الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشدّ الوسائل تأثيراً فى تقوية أسس التوحيد والإيمان باللّه سبحانه.

كما أنّه يؤكّد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهى فيقول: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». لأنّ الشرك أعظم الذنوب وأكبر

الكبائر، فإنّ اللَّه لا يغفره.

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يبيّن القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه في عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرق واحزاب كثيرة: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا».

والعجيب في الأمر أنّهم على تضادّهم واختلافهم فإنّ «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

أجل، إنّ واحدة من علائم الشرك هي التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هي منشأ الأساليب المتفاوتة وهي أساس الانفصال والتفرق.

بحث

التوحيد باعث داخلي قوي: كما أنّ الدلائل العقلية والمنطقية توجّه الإنسان، فإنّ في داخله دوافع وموانع أيضاً .. بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدري أو لا يدري.

وفلسفة وجودها في داخل الإنسان، هي أنّ الإنسان لا- يستطيع- دائماً- أن ينتظر إيعاز العقل والمنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلًا لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق في كل ذلك، لكان ينبغي أن ينقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بكثير- إلّاأنّ الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والإشتهاء للطعام من جهة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۱

اخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلّما كانت الأهداف حياتيةً أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشدّ وأقوى أيضاً.

لكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير.

وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعي، أي إنّ هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها في العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق.

وعادة يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثاني «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة اللَّه والإتجاه نحوه لهما مكانه في نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه ب «الفطرة».

إنّ لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى اللَّه» فطرياً، بل تؤكّد هذا الميل في جميع اصول الدين وأبعاده:

۱- إنّ دوام الإعتقاد الديني والإيمان باللَّه على إمتداد التاريخ البشري بنفسه دليل على الفطرة، لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة، لما كانت له جنبة عمومية ولا جنبة دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

۲- إنّ المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون- وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعي لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات.

۳- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات في المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الديني». أو بتعبير آخر: «بعد قدسي» أو «رباني» وربّما عدّوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الاخرى وهي «البعد العلمي» و «البعد الجمالي» و «البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأنّ البواعث الأساسية للروح البشرية هي هذه:

أ) دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمي) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات في معرفة عالم الوجود.

ب) حس «الإحسان والعمل الصالح» الذي يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۲

كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها. ج) الحس «الجمالى»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربّما أصبح مصدر التحول فى حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

د) الحس «الدينى»، أى الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتّباعه.

۴- إنّ التجاء الإنسان فى الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطنى والإلهام الفطرى، ويمكن- بضمها إلى مجموع الشواهد التى ذكرناها آنفاً- أنّ توقفنا على مثل هذا الدافع الباطنى فى داخلنا نحو اللّه سبحانه.

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۳۳) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (۳۵) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (۳۶)

إنّ الآية الاولى من المقطع الذى بين أيدينا، هى فى الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق فى مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهى عند الشدائد والصعاب، إذ تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ».

إلّا أنّهم إلى درجة من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنّه بمجرد انتهاء المشكلة وهبوب نسيم الرحمة الإلهية ... «ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مّنْهُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ».

جملة «مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ» إشارة لطيفة للمعنى التالى، وهو أنّ الأساس فى الفطرة هو توحيد اللّه وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شاؤوا أم أبوا.

والطريف هنا أنّ «الرحمة» فى الآية مسندة إلى «اللّه»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أنّ الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الإبتلاءات والمشاكل التى تحوطنا هى من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

و كلمة «ربّهم» التى تكررت فى الآية تكررت فى الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۳

يحسّ بالتدبير الإلهى وربوبية اللّه على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

أمّا الآية الاخرى فجاءت بعنوان التهديد لُاولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ» وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة السيئة لذلك: «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

والقرآن فى الآية الاخرى يصوغ الكلام فى صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: «أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ». «السلطان»: معناه ما يدل على السلطة وينتهى إلى الإنتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقة تفكير وروحية هؤلاء الجهلة الاغبياء الذين يقنطون ويحزنون لأقل مصيبة، فتقول: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ».

فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر اللّه عند النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشكرون اللّه على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتّجهون إلى اللّه تعالى.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسماً من المصائب والإبتلاءات التى تحل بالإنسان هى- على الأقل- نتيجة أعماله وذنوبه.

إنّ جملة «فَرِحُوا بِهَا» ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۴

الآيـة الاولى من الآيات محل البحث تتحـدث عن التوحيـد والربوبية أيضاً، وانسـجاماً مع سـياق الآيات السابقة التى كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عنـد إقبال النعمـة عليهم، ويأسـهم وقنوطهم عنـد مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنّها تقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

إنّ العالم هو عالم الأسباب، لكن هذه القاعدة فى الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادّين يركضون من هنا وهناك، إلّاأنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدّون وتتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب وصوب.

وهـذه الاسـتثناءات كأنّهـا لبيـان أنّ اللّه بـالرغم من جميع ما جعل للأسـباب من تأثير، لا ينبغى أن يُنسـى فى عالم الأسـباب، ولا ينبغى للإنسان أن يغفل أنّ وراء هذا العالم يداً قوية اخرى تديره كيف شاءت.

لذلك يقول القرآن فى نهاية الآية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وحيث إنّ كـل نعمـة وموهبـة ينالها الإنسان تحمّله وظائف ومسؤوليّات وعليه أداؤها، فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبى صـلى الله عليه و آله فى الآية التالية قائلًا: «فَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ».

والتعبير ب «حقّه» كـاشف عن أنّهم شـركاء فى أمـوال الإنسـان، وإذا دفـع المرء شـيئاً من مـاله إليهم فإنّمـا يؤدّى حقّهم، وليس له منّ عليهم.

إنّ القرآن يـبيّن فى نهايـة الآيـة ترغيبـاً للمحسـنين، وشـرط القبـول ضـمناً، فيقـول: «ذلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ومع الإلتفـات إلى أنّ المراد من «وَجْهَ اللَّهِ» ذاته المقدّسـة، فـإنّ هـذه الآيـة تشـير إلى أنّ الإنفـاق وإيتـاء حقّ الأقارب وأصـحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أى أنواع الرياء والمنة والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

وتشـير الآيـة التاليـة- بمناسـبة البحث المتقـدم عن الإنفاق الخالص- إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما للّه، والآخر يراد منه الوصول إلى مـال الـدنيا، فتقـول: «وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ».

«الربا»: معناه فى الأصل «الزيادة»، وهنا أنّ المراد من الربا هو الهدايا التى يقدمها بعض

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۵

الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كى ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر.

وبـديهى أنّه فى مثل هـذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الإعتبار اسـتحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصـل الهديـة إلى مكان، تعود على مُهـديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعى أنّ مثل هـذه الهـدايا ليس فيها «جنبـة» إخلاص، فلا قيمـة لها من الجهة الأخلاقية والمعنوية.

فعلى هـذا يكون معنى «الربا» فى هـذه الآيـة هو «الهديـة والعطيـة»، والمراد من جملـة «لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ» هو أخذ الأجر الوافر من الناس. ولا شك أنّ أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلّاأنّه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية ...

وفى الآيـة الأـخيرة- من الآيات محل البحث- عودة اخرى إلى مسألـة المبـدأ والمعاد، وهى الموضوع الأساس الـذى ورد فى كثير من آيات هـذه السورة ... وتصف الآيـة «اللّه» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشـرك، ودليلًا على المعاد أيضاً فتقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و من المسلّم به أنّ المشـركين لم يكن أىّ منهم يعتقـد بـأنّ الخلق كـان من قِبل الأوثان، أو أنّ أرزاقهم بيـد الأوثان والأصـنام، أو أنّ نهاية حياتهم بأيدى هذه الأوثان كذلك، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفى، والاستفهام هنا استفهام إنكارى.

إنّ القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد اللَّه، فالعبادة ينبغى أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: «سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» وهى أنّ المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه فى العبادة مع أوثانهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۶

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم: كان الكلام فى الآيات االسابقة عن الشرك، ونعلم أنّ أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن- فى هذه الآيات محل البحث- يتحدث عن ظهور الفساد فى الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ». واللَّه يريد أن يريهم ما قدموه و «لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

والآية الآنفة الذكر تبيّن المعنى الواسع حول إرتباط الفساد بالذنب، الذى لا يختص بأرض «مكة» والحجاز، ولا بعصر النبى صلى الله عليه و آله.

وفى الآية التالية يأمر اللَّه الناس بالسير فى الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيّة» من مسألة ظهور الفساد فى الأرض بسبب المعاصى والذنوب من قبل الناس. ويوصى نبيّه صلى الله عليه و آله أن يأمرهم بذلك، فيقول: «قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ».

أجل «كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ». والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال.

وحيث إنّ التصور والوعى والإنتباه، ثم العودة والإنابة إلى اللَّه، كل ذلك لا يكون- دائماً- مفيداً ومؤثراً، ففى الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قائلًا: «فَأَقِمْ وَجهَكَ لِلدّينِ الْقَيِّم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ».

أى يتفرقون «فريق فى الجنّة وفريق فى السعير».

ووصف الدين بأنّه «قيّم» مع ملاحظة أنّ «القيّم»: معناه الثابت والقائم، هو إشارة إلى أنّ هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هى للدين .. أى لأنّ الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم فى الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم.

وإنّما وجه الخطاب للنبىّ صلى الله عليه و آله ليعرف الآخرون واجبهم ووظيفتهم أيضاً.

والتعبير ب «يصّدّعون» من مادة «صدع» معناه فى الأصل: كسر الإناء، ثم انتقل بالتدريج إلى أى نوع من أنواع التفرق والتشتت، وهنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران.

و الآية التالية بيان لهذا الإنفصال فى يوم القيامة، إذ تقول: «مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ».

«يمهدون»: مشتقة من «المهد» وكما يقول الراغب فى مفرداته فإنّ معناه السرير المعدّ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۷

للطفل، ثم توسعوا فى المعنى فصار المهد والمهاد لكل مكان مهيأ ومعد «وفيه منتهى الدعة والراحة» وقد انتخب هذا التعبير لأهل الجنّة والمؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

ومن الطريف أنّ القرآن اكتفى فى شأن الكفار بالتعبير ب «مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» ولكن بالنسبة للمؤمنين تضيف الآية التالية: أنّ المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم اللَّه من مواهبه وفضله فيقول: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ».

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵۰)

ومن المسلّم به أنّ هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْكفِرِينَ».

قلنا: إنّ فى هذه السورة قسماً مهمّاً «يستلفت النظر» من دلائل التوحيد وآيات اللّه، مبيناً فى سبع آيات تبدأ كل منها بقوله:

«وَمِن ءَايَاتِهِ» قرأنا ستّ آيات منها بصورة متتابعة، والآية الاولى من الآيات أعلاه هى سابع الآيات التى مرّت، وآخرها.

وحيث كان الكلام فى الآيات السابقة عن الإيمان والعمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد- أيضاً- تأكيداً على ذلك. تقول هذه الآية:

«وَمِنْ ءَايتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ». فهى تمضى سابقةً للغيث فى حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم وتربط بينها وتؤلفها وتحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، وتغطى صفحة السماء، ومع تغير درجة حرارة الجو تهىء المطر للنزول من هذه الغيوم.

ولذلك فنحن نقرأ فى تعقيب الآية قوله تعالى: «وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۸

أجل، إنّ الرياح هى وسيلة لتكاثر النعم العديدة فى مجال الزراعة والتدجين، وهى وسيلة للحمل والنقل أيضاً، وأخيراً فهى سبب للازدهار التجارى. وفى الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، فى حين أنّ الآية التى بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّة اخرى، ولعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضى.

ولعل ذكر النبوة إلى جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد.

إنّ الآية تقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ». أى المعجزات والدلائل الواضحة والبراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، ولم يستجب آخرون لها برغم النصائح «فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» ونصرنا المؤمنين «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ».

وبالمجموع تعطى الآية هذا المعنى: «إنّ نصر المؤمنين من المسلّم به هو فى عهدتنا وهذا الوعد سنجعله عملياً دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

أمّا الآية الاخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: «اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا» «۱». أى القطع الصغيره المتراكمة ثم تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلِلِهِ» «۲».

ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

ثم تأتى الآية الاخرى بعدها فتقول: «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» «۳».

وإنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم وتنقّلهم فى الصحراء، ولحياتهم علاقة وصلة قريبة مع هذه القطرات.

---

(۱) «الكِسَف»: جمع «كسفَة» ومعناها القطعة، وهى هنا- كما يبدو- إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

(۲) «الودق»: على وزن (الحلق)، وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث فى السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.

(۳) «مبلس»: مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۹

وفی آخر آیـة- من الآیـات محل البحث- یتوجه الخطاب إلی النبی صـلی الله علیه و آله قائلًا: «فَانظُرْ إِلَی ءَاثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ کَیْفَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

والتعبیر ب «رَحْمَتِ اللَّهِ» فی شأن المطر هو إشارة الآثار المبارکة فیه من جهات مختلفة.

ومع الإلتفات إلی العلاقـة بین المبـدأ والمعاد فی المسائل المختلفة، فإنّ «القرآن» یضـیف قائلًا فی نهایة الآیة: «إِنَّ ذلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتَی وَهُوَ عَلَی کُلّ شَیْ‌ءٍ قَدِیرٌ».

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِیحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ یَکْفُرُونَ (۵۱) فَإِنَّکَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَی وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ (۵۲) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِی الْعُمْیِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ یُؤْمِنُ بِآیَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵۳) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَیْبَةً یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْقَدِیرُ (۵۴)

حیث إنّ الکلام کان- فی الآیات السابقـة- عن الریاح المبارکـة التی کانت مبشـرات بالغیث والرحمـة، ففی أوّل آیة من الآیات أعلاه إشـارة إلی الریـاح المـدمرّة والـتی تجلب الضـرر، إذ یقـول القرآن فی هـذا الصـدد: «وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِیحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ یَکْفُرُونَ».

اولئک هم الضعفاء الحمقی فهم قبل نزول الغیث مبلسون آیسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ریح صفراء فی بعض الأیام وابتلوا مؤقتاً تراهم یتصارخون وبالکفر یجأرون ویتجرأون.

علی العکس من المؤمنین الصادقین الذین هم بنعمة اللَّه مستبشرون وعلیها یشکرون، وعند نزول المصائب والمشاکل تراهم صابرون.

«مصـفراً»: مشـتقة من «الصُفرة» وهی لون معروف؛ ویعتقد أکثر المفسرین أنّ الضمیر فی «رأوه» یعود علی الشجر والنباتات التی تصفر وذبل علی أثر هبوب الریاح المخربة.

وفی الآیتین التالیتین بمناسبة البحث الوارد فی الآیة السابقة- فإنّ الناس یقسمون إلی أربعة طوائف:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۰

۱- طائفة «الموتی» الذین لا یدرکون أیّة حقیقة، وإن کانوا أحیاء فی الظاهر.

۲- وطائفة «الصُم» الذین هم غیر مستعدین للاستماع إلی الکلام الحق.

۳- وطائفة «العمی» الذی حُرموا من رؤیة وجه الحق.

۴- وأخیراً طائفةالمؤمنین الصادقین الذین لهم قلوب یفقهون بها، ولهم أعین یبصرون بها، ولهم آذان یسمعون بها.

فتقول الآیـة الاولی: «فَإِنَّکَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَی ، ولذلک لا تؤثر مواعظک فی أصـحاب القلوب المیتة. وکذلک «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ».

وتأتی الآیة الثانیة لبیان بقیة الطوائف فتقول: «وَمَا أَنتَ بِهدِ الْعُمْیِ عَن ضَلَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن یُؤْمِنُ بَایَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ».

إنّ القرآن لدیه ما هو أفضل من «الحیاة والموت المادیین والجسـمانیین» وأفضل من السمع والبصر الظاهریین فلدیه نوع اسمی من هذه الحیاة والموت والسمع والبصر، وتکمن فیها سعادة الإنسان أو شقاؤه.

وفی آخر آیـة- من الآیات محل البحث- یشیر القرآن إلی دلیل آخر من أدلـة التوحید، وهو دلیل الفقر والغنی، ویکمل البحوث التی تـدور حول التوحیـد فی هـذه السورة، فیقول: «اللَّهُ الَّذِی خَلَقَکُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَیْبَةً».

کنتم فی البدایة ضعافاً إلی درجة أنّکم لم تکن لکم القدرة علی طرد الذباب عنکم، أو أن تحافظوا علی لعاب أفواهکم أن یسیل، هذا من الناحیـة الجسـمیة، أمّا من الناحیـة الفکریـة فمصداقـة قوله تعالی: «لَاتَعْلَمُونَ شَیًا» بحیث لم تعرفوا حتی أبویکم المشـفقین علیکم.

لكن- قليلًا قليلًا- صرتم ذوى رشد وقوة، وصار لكم جسم قوى، وفكر جيد، وعقل مقتدر إدراك واسع. ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهى أنّه لم تكن القوة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة اخرى.

أمّا آخر جملة فى الآية فهى إشارة إلى علم اللّه الواسع وقدرته المطلقة: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». وهى بشارة وإنذار فى الوقت ذاته، أى إنّ اللّه مطلع على جميع نيّاتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۵۹) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (۶۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۱

فى هذه الآيات- محل البحث- يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، وذلك بتجسيمه حالة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فى عالم البرزخ. أجل، «كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها.

والتعبير ب «الساعة» عن يوم القيامة هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع فى لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أنّ أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ اللّه سريع الحساب.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتبِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

وتقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

وجملة «فِى كِتَابِ اللَّهِ» لعلّه إشارة إلى الكتاب التكوينى، أو إلى الكتاب السماوى، أو إشارة إليهما معاً، أى كان- بأمر اللّه التكوينى والتشريعى- مقدّراً أن تلبثوا مثل هذه المدّة فى البرزخ، ثم تحشرون فى يوم القيامة.

فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هذا الصدد: «فَيَوْمَئِذٍ لَّايَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۲

وواحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم فى الكفر والنفاق.

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان فى تضليلهم وانحرافهم وأنّه وسوس لهم.

وفى الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السورة ... إذ تقول: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ». لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهى، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

وفى الحقيقة، إنّ فى القرآن- بشكل عام- وسورة الروم- بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب.

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر فى قلوبهم المظلمة السوداء أى من هذه الامور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: «وَلَئِن جِئْتَهُم بَايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ».

والتعبير ب «مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معانى الدجل والإفتراء والنسب الكاذبة والفاسدة من قبل المشركين.

والآيـة التى بعـدها تبيّن السـبب فى مخالفـة هـذه الطائفـة، فتقول: إنّ لجاجـة هؤلاء التى لا حـدّ لها وعـداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الإحساس والإدراك بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنّهم لا يعلمون شيئاً ... إذ تقول: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

«يطبع»: مـأخوذة من الطبع، ومعناهـا ختم الشـىء، وهى إشـارة إلى ما كان يجرى فى السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشـىء كيلا يتصـرف به ويُغلق بإحكام، وقـد يضـعون عليه القفل ويضـربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشىء إلّابكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكـان القرآن اسـتعمل هـذا التعبير كنايـة عن القلوب التى لاـ ينفـذ إليها النصـح، والـذين فقـدوا الوجـدان والعقل والعلم، ولا أمل فى هدايتهم.

ومما يسترعى الإنتباه أنّ فى الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفى هذه الآية ذُكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق.

أمّا آخر آيـة من السورة الروم، فهى تـأمر النبى صـلى الله عليه و آله أمرين مهمين، وتبشـره بشـارة كبرى، لتحثه على مواصـلة الوقوف والتصدى للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۳

تقول أوّلًا: إذا كـان الأـمر كـذلك، فعليـك بالصبر والاسـتقامة أمام الحوادث المختلفـة، وفى مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب «فَاصْبِرْ».

لأنّ الصبر والإستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النبى صلى الله عليه و آله أكثر اطمئناناً، فإنّ الآية تضيف: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف فى الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل، وسوف يُلبس هذا الوعد ثوب العمل.

وتـأمر ثانيـاً بضـبط الأعصـاب والهـدوء وعـدم الانحراف فى المواجهـة الشديـدة والمتتابعـة، حيث تقول الآيـة: «وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَايُوقِنُونَ».

«يسـتخفّنّك»: مشـتقة من «الخفـة» وهى خلاف الثقل. أى: كن رزيناً قائماً على قـدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلًا للمسيرة باطمئنان، إذ أنّهم فاقدوا اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان.

هذه السورة بدأت بوعد إنتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلّاأنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة.

«نهاية تفسير سورة الروم»

الجزء الرابع

۳۱. سورة لقمان

محتوى السورة: إنّ محتوى هذه السورة يتلخص فى خمسة أقسام:

۱- يشير- بعد ذكر الحروف المقطعة- إلى عظمة القرآن وكونه هدىً ورحمة للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصة.

۲- يتحدث عن آيات اللَّه فى خلق السماء ورفعها بدون أى عمد، وخلق الجبال، والأحياء المختلفة، ونزول المطر، ونموّ النباتات.

۳- ينقل جانباً من كلام لقمان الحكيم والمتألّه فى وصـيته لابنه، وتسـمية هـذه السورة بسورة «لقمان» بسـبب هـذا البحث المهم العميق المحتوى.

۴- ثم تعود السورة إلى أدلـة وعلامات التوحيـد مرّة اخرى فتتحدث عن تسـخير السـماء والأرض ونعم اللَّه الوفيرة، وذمّ منطق الوثنيين

الذين سقطوا فى وادى الضلال والانحراف نتيجة التقليد واتّباع الآباء والأجداد.

وتكشف الستار عن علم اللّه المطلق بذكر مثال واضح.

۵- إنّه يشير إشارة قصيرة مؤثرة تهزّ الوجدان إلى مسألة المعاد والحياة بعد الموت، وتحذّر الإنسان من الإغترار بهذه الدنيا.

ثم تنهى هذا المبحث بذكر جانب من علم اللّه بالغيب بما يتعلق بالإنسان، ومن جملة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶

ذلك لحظة موته، وحتى على الجنين فى بطن امّه، وبذلك تنتهى السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة لقمان، كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة، واعطى من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة لقمان فى ليلة وكّل اللّه به فى ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسى».

وكل هذا الفضل والثواب والإمتياز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدمة للتفكر، والتفكر مقدمة للعمل.

الم (۱) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيم (۲) هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (۳) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) «الم» تبدأ هذه السورة بذكر أهمية وعظمة القرآن، وبيان الحروف المقطعة فى بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى ومفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامة، ولذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطعة: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْحَكِيمِ».

«تلك»: فى لغة العرب إشارة للبعيد، وهذا التعبير كناية عن عظمة وأهمية هذه الآيات.

إنّ وصف «الكتاب» ب «الحكيم» إمّا لقوّة ومتانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقاً وسبيلًا، ويطرد عن نفسه كل نوع من الخرافات والأساطير؛ أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فيعلّم، ويعظ وينصح، ويرغّب ويرهّب، ويحذّر ويتوعّد، ويبيّن القصص ذات العبرة. وخلاصة القول فإنّه حكيم بكل معنى الكلمة. ولهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷

ثم تذكر الآية التالية الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ».

إنّ الهداية مقدّمة لرحمة اللّه، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أوّلًا فى ظلّ نور القرآن، ويعتقد بها ويعمل بها، وبعد ذلك يكون مشمولًا برحمة اللّه الواسعة ونعمه التى لا حدّ لها.

ثم تصف الآية التالية المحسنين بثلاث صفات، فتقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

فإنّ إرتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاة، وبخلق اللّه عن طريق الزكاة، ويقينهم بمحكمة القيامة باعث قوى على الإبتعاد عن الذنب والمعصية، ودافع لأداء الواجبات.

وتبيّن الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- عاقبة عمل المحسنين، فتقول: «أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

جملة «أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» توحى بأنّ هداية اولئك قد ضُمنت من قبل ربّهم.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (۸) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزل قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ»: فی النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصى بن كلاب، كان يتّجر فيخرج إلى فارس، فيشترى أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا احدثكم بحديث رستم، واسفنديار، وأخبار الأكاسرة. فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن.

التّفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة: الكلام فى هذه الآيات عن جماعة يقعون تماماً فى الطرف المقابل لجماعة المحسنين والمؤمنين الذين ذكروا فى الآيات السابقة. الكلام والحديث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸

هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفية وإضلال المجتمع، ويشترون شقاء وبؤس دنياهم وآخرتهم. فتقول أوّلًا: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا». ثم تضيف أخيراً: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

إنّ شراء لهو الحديث والكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال فى مقابل سماع الخرافات والأساطير، أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو والباطل والغناء. ويحتمل أيضاً أن يكون للشراء هنا معنى كنائى، والمراد منه كل أنواع السعى للوصول إلى هذه الغاية.

وأمّا «لَهْوَ الْحَدِيثِ» فإنّ له معنىً واسعاً يشمل كل نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو والغفلة، ويجرّ الإنسان إلى اللاهدفية أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء والألحان والموسيقى المهيّجة المثيرة للشهوة والغرائز والميول الشيطانية، أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه ومضامينه.

ولجملة «لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» مفهوم واسع أيضاً، يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصة النضر بن الحرث وأبى جهل، وكذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

والتعبير ب «بِغَيْرِ عِلْمٍ» إشارة إلى أنّ هذه الجماعة الضالة المنحرفة لا تؤمن حتى بمذهبها الباطل، بل يتّبعون الجهل والتقليد الأعمى لا غير.

أمّا وصف العذاب ب (المهين) فلأنّ العقوبة متناغمة مع الذنب، فإنّ هؤلاء قد استهزؤوا بآيات اللّه وأهانوها، ولذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أعدّ لهم عذاباً مهيناً، إضافة إلى كونه أليماً.

وأشارت الآية التالية إلى ردّ فعل هذه الفئة أمام آيات اللّه، وتوحى بالمقارنة بردّ فعلهم تجاه لهو الحديث، فتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا». أى ثقلًا يمنعه من السماع ..

ثم تذكر أخيراً عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

إنّ التعبير ب «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا» إشارة إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعاً من تضرّر مصالحه الدنيوية والحدّ من رغباته وشهواته فحسب، بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبر أمام عظمة اللّه وآياته، وهو أعظم ذنب فيه.

إنّ تعبير (بشّر) فى مورد العذاب الإلهى الأليم، يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتخذون آيات اللّه هزواً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹

ثم تعود الآيات التالية إلى شرح وتبيان حال المؤمنين الحقيقيين، وقد بدأت السورة فى مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلًا ثم ختمت به فى نهاية هذا المقطع أيضاً، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ».

والأهم من ذلك أنّ هذه الجنان الوافرة النعم خالدة لهؤلاء: «خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» واللّه سبحانه لا يعد كذباً، وليس عاجزاً عن الوفاء بوعوده «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وللنعيم معنىً واسع يشمل كل أنواع النعم المادية والمعنوية.

بحثان

۱- تحريم الغناء: لا شك فى أنّ الغناء بصورة إجمالية حرام على المشهور بين علماء الشيعة، وتصل هذه الشهرة إلى حد الإجماع.

والذى يمكن استفادته من مجموع كلمات فقهاء فى هذا المجال، أنّ الغناء هو الأصوات والألحان التى تناسب مجالس الفسق والفجور، وأهل المعصية والفساد، ويحرّك القوى الشهوانية فى الإنسان.

والملفت للنظر أنّ بعض الألحان تعدّ أحياناً غناءً ولهواً باطلًا بذاتها ومحتواها، مثال ذلك أشعار العشق والغرام والأشعار المفسدة التى تُقرأ بألحان وموسيقى راقصة.

وقد تكون الألحان بذاتها غناءً أحياناً اخرى، مثال الأشعار الجيدة، أو آيات القرآن والدعاء والمناجاة التى تُقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين والفساق، وهو حرام فى كلتا الصورتين «فتأمل».

ومن الطبيعى أن يكون للغناء موارد شك- ككل المفاهيم الاخرى- وأنّ الإنسان لا يعلم حقّاً هل أنّ الصوت الفلانى يناسب مجالس الفسق والفجور، أم لا؟ وفى هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة.

والكلام الأخير هو أنّ ما ذُكر أعلاه يتعلق بالغناء، وأمّا استعمال الآلات الموسيقية وحرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

۲- فلسفة تحريم الغناء: فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلًا: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق:

لقد بيّنت التجربة أنّ كثيراً من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى وألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، واتّجهوا نحو الشهوات والفساد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰

إنّ مجلس الغناء- عادةً- يُعدّ مركزاً لأنواع المفاسد، والدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

وينقل فى تفسير روح المعانى حديثاً عن أحد زعماء بنى امية أنّه قال لهم: إيّاكم والغناء فإنّه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وإنّه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر. وهذا يبيّن أنّه حتى اولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضاً.

ثانياً: الغفلة عن ذكر اللّه:

إنّ التعبير باللهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الروايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبداً ثملًا من الشهوات حتى يغفل عن ذكر اللّه.

فى الأمالى للطوسى رحمه الله عن على عليه السلام قال: «كلّما ألهى عن ذكر اللّه فهو من الميسر».

ثالثاً: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء والموسيقى أحد العوامل المهمة فى تخدير الأعصاب، ولهذا فإنّ كثيراً من مفاسد المخدّرات موجودة فى الغناء، سواء كان تخديره خفيفاً أم قوياً.

ويستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيّات فى عصرنا الحالى بأنّ معدّل موت الفجأة قد ازداد بالمقارنة مع السابق، وقد ذكروا أسباباً مختلفة كان من جملتها الغناء والموسيقى.

رابعاً: الغناء أحد وسائل الإستعمار:

إنّ مستعمرى العالم يخافون دائماً من وعى الشعوب، وخاصة الشباب، ولذلك فإنّ جانباً من برامجهم الواسعة لاستمرار وإدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة والجهل والضلال، وتوسعة وسائل اللهو المفسدة.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هى أحد الوسائل السياسية المهمة، فإنّ السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء ونوادى القمار ووسائل اللهو الفاسدة الاخرى، ومن جملتها توسعة ونشر الغناء والموسيقى، وهى من أهم الوسائل التى

يصرّ عليهـا المسـتعمرون لتخـدير أفكـار النـاس، ولهـذا فـإنّ الموسـيقى تشـكّل القسم الأكبر من وقت إذاعات العالم ووسائل الإعلام الأساسية.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۱۰) هذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَا ذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۱۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱

هـذا خلق اللَّه: مواصلـة للبحث حول القرآن والإيمـان به فى الآيـات السابقـة، تتحـدث الآيتـان أعلاه عن أدلـة التوحيـد الـذى هو أهمّ الاـصول العقائديـة. تشير الآيـة الاـولى إلى خمسـة أقسام من مخلوقات اللَّه التى ترتبط مع بعضـها إرتباطاً وثيقاً لا ينفصل، وهى: خلق السـماء، وكون الكواكب معلقـة فى الفضاء، وخلق الجبال لتثبيت الأرض، ثم خلق الدواب، وبعد ذلك الماء والنباتات التى هى وسيلة تغذيتها، فتقول: «خَلَقَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

«العَمَـد»: جمع «عمود» وتقييـد بنائهـا وإقامتها ب «تَرَوْنَهَا» دليل على أنّه ليس لهـذه السـماء أعمـدة مرئيّـة، ومعنى ذلك أنّ لها أعمـدة إلّاأنّها غير قابلة للرؤية، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى قانون الجاذبية الذى يبدو كالعمود القوى جدّاً، إلّاأنّه غير مرئى، يحفظ الأجرام السماوية.

إنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجيد العلميّة، وقد أوردنا تفصيلًا أكثر عنها فى ذيل الآية (۲) من سورة الرعد.

ثم تقول الآية فى الغاية من خلق الجبال: «وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».

وبعـد ذكر نعمـة اسـتقرار السـماء بأعمـدة الجاذبيـة، واسـتقرار وثبـات الأـرض بواسـطة الجبـال، تصـل النوبـة إلى خلق الكائنات الحية واستقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادىء مطمئن، فتقول: «وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلّ دَابَّةٍ».

إنّ التعبير ب «مِن كُلّ دَابَّةٍ» إشارة إلى تنوع الحياة فى صور مختلفة.

إلّا أنّ من المعلوم أنّ هـذه الحيوانات تحتاج إلى الماء والغـذاء، ولـذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ كَرِيمٍ».

فالكرة الأرضيـة تعتبر سـماطاً واسـعاً ذا أغذية متنوعة يمتدّ فى جميع أنحائها، ويصلح لكل نوع منها حسب خلقته، مما يدل على عظمة الخالق جل وعلا.

ثم تشير هـذه الآيـة مرّة اخرى إلى مسألـة (الزوجية فى عالم النباتات) وهى أيضاً من معجزات القرآن العلمية، لأنّ الزوجية- أى وجود الذكر والانثى- فى عالم النباتات لم تكن ثابتة فى ذلك الزمان بصورة واسعة، والقرآن كشف الستار عنها.

بعـد ذكر عظمة اللَّه فى عالم الخلقة، وذكر صور مختلفة من المخلوقات، وجّهت الآية الخطاب إلى المشـركين، وجعلتهم موضع سؤال واستجواب، فقالت: «هذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲

مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ». من المسـلم أنّ اولئـك لم يكونوا يسـتطيعون إدّعاء كون أىّ من المخلوقات من خلق الأصـنام، وعلى هـذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يسـتطيعون تعليل الشرك فى العبادة؛ لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الرب وكون مدبّر العالم واحداً، وهو دليل على توحيد العبودية.

ولذلك اعتبرت الآية عمل اولئك منطبقاً على الظلم والضلال، فقالت: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

ومعلوم أنّ «الظلم» له معنىً واسـعاً يشـمل وضع كل شـىء فى غير موضـعه، ولما كان المشـركون يربطون العبادة، وتـدبير العالم أحياناً بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم وضلالة.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ

يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵) لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد والشرك، وأهميّة وعظمة القرآن، والحكمة التى استعملت واتّبعت فى هذا الكتاب السماوى، فقد ورد الكلام فى هذه الآيات التى نبحثها والآيات الاخرى التالية عن لقمان الحكيم، وعن جانب من المواعظ المهمة لهذا الرجل المتألّه فى باب التوحيد ومحاربة الشرك.

إنّ هذه المواعظ العشرة التى ذكرت ضمن ستّ آيات، قد بيّنت باسلوب رائع المسائل العقائدية، إضافةً إلى اصول الواجبات الدينية والمباحث الأخلاقية.

لقد ورد اسم «لقمان» فى آيتين من القرآن فى هذه السورة، وأنّ اسلوب القرآن فى شأن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳

لقمان يوحى بأنّه لم يكن نبيّاً.

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «حقّاً أقول: لم يكن لقمان نبيّاً، ولكن كان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ اللَّه فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة».

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إنّ الحكمة التى يتحدث عنها القرآن، والتى كان اللَّه قد آتاها لقمان، كانت مجموعة من المعرفة والعلم، والأخلاق الطاهرة والتقوى ونور الهداية.

فإنّ لقمان بامتلاكه هذه الحكمة كان يشكر اللَّه، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهية، وكيفية استغلالها والاستفادة منها، وكان يضعها بدقة وصواب كامل فى مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذى خلقت من أجله، وهذه هى الحكمة، وهى وضع كل شيء فى موضعه، وبناءً على هذا فإنّ الشكر والحكمة يعودان إلى نقطة واحدة.

والتعبير ب «غَنِيٌّ حَمِيدٌ» إشارة إلى أنّ شكر الناس للأفراد العاديين إمّا أن يؤدّى إلى النفع المادّى للمشكور، أو زيادة مكانة صاحبه فى أنظار الناس، إلّاأنّ أيّاً من هذين الأمرين لا معنى له ولا مصداق فى حق اللَّه تعالى، فإنّه غنى عن الجميع، وهو أهل لحمد كل الحامدين وثنائهم.

وبعد تعريف لقمان ومقامه العلمى والحِكَمى، أشارت الآية التالية إلى اولى مواعظه، وهى فى الوقت نفسه أهم وصاياه لولده، فقالت: «وَإِذْ قَالَ لُقْمنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

وأى ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها فى مصافّ اللَّه ودرجته، وهم يظلمون أنفسهم أيضاً حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية للَّهويهوون بها إلى منحدر ذلة العبودية لغيره.

والآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها اللَّه تعالى فى طيّات مواعظ لقمان، لكن هذا الإعتراض لا يعنى عدم الإتصال والإرتباط، بل يعنى الصلة الواضحة لكلام اللَّه عزّ وجل بكلام لقمان، لأنّ فى هاتين الآيتين بحثاً عن نعمة وجود الوالدين ومشاقّهما وخدماتهما وحقوقهما، وجعل شكر الوالدين فى درجة شكر اللَّه.

إضافةً إلى أنّهما تعتبران تأكيداً على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأنّ الوالدين مع

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴

هذه العلاقة القوية وخلوص النية لا يمكن أن يذكرا فى مواعظهما إلّاما فيه خير وصلاح الولد، فتقول أوّلًا: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ».

وعندئذ تشير إلى جهود ومتاعب الام العظيمة، فتقول: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ». وهذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات فى فترة الحمل يُصبن بالضعف والوهن، لأنّهن يصرفن خلاصة وجودهن فى تغذية وتنمية الجنين،

ويقدّمن له من موادهن الحياتية أفضلها.

وهـذا الأمر يستمر حتى فى فترة الرضاعـة، لأنّ اللبن عصارة وجود الام، ولهـذا تضيف بعـد ذلك فترة رضاعه سنتان: «وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ». كما اشير إلى ذلك فى الآيـة (۲۳۳) من سورة البقرة: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ». والمراد فترة الرضاعة الكاملة، وإن كانت تتمّ أحياناً بفترة أقلّ.

ثم تقول: «أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ». فاشكرنى لأنّى خالقك والمنعم الأصليّ عليك، ومنحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، واشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض وقد تحمّلا مسؤولية إيصال نعمى إليك.

ويقول اللَّه تعالى فى نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد والعتاب: «إِلَيَّ الْمَصِيرُ».

فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كل هـذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقـة فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب اللَّه.

إنّ الوصية بالإحسان إلى الأبوين قـد توجـد الإشتباه والوهم عنـد البعض وذلك حينما يظنّ أنّه يجب مـداراتهما واتّباعهما حتى فى مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكن الآية التالية تقول: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا».

فيجب أن لا تكون علاقـة الإنسان بامّه وأبيه مقدمـة على علاقته باللَّه مطلقاً، وأن لا تكون عواطف القرابـة حاكمـة على عقيدته الدينية أبداً.

ولما كان من الممكن أيضاً أن يوجـد هـذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونـة مع الوالـدين المشركين وعـدم إحترامهما، ولذلك أضافت الآيـة إنّ عـدم طاعتهما فى مسألـة الشرك ليس دليلًا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن: «وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا».

فلأطفهما وأظهر المحبة لهما فى الحياة الدنيوية والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵

واقتراحاتهما من الناحيـة العقائديـة والبرامج الدينية، وهذه بالضبط نقطة الإعتدال الأصلية التى تجمع فيها حقوق اللَّه والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ».

لأنّ المصير إليه سبحانه: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

إنّ الآية أعلاه تشبه ما جاء فى الآية (۸) من سورة العنكبوت، حيث تقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹) كانت اولى مواعظ لقمان عن مسألـة التوحيـد ومحاربـة الشرك، وثانيتها عن حساب الأعمال والمعاد، والتى تكمّل حلقـة المبدأ والمعـاد، فيقول: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّموَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ». أى فى يوم القيامة.

ويضعها للحساب: «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ».

«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّاً يضرب المثل بصغرها؛ وهذا التعبير إشارة إلى أنّ أعمال الخير والشر مهما كانت صغيرة لا قيمـة لها، ومهما كانت خفية كخردلة فى بطن صخرة فى أعماق الأرض، أو فى زاوية من السـماء، فإنّ اللَّه اللطيف الخبير المطّلع على كل الموجودات، صغيرها وكبيرها فى جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب والعقاب والثواب، ولا يضيّع شيئاً فى هذا الحساب.

إنّ الإلتفات والتوجه إلى هذا الإطلاع التام من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان وعلمه بها، هو أساس كل الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وهو قوة وطاقة محركة نحو الخيرات، وسدّ منيع من الشرور والسيئات.

وبعد تحكيم اسس المبدأ والمعاد، والتى هى أساس كل الإعتقادات الدينية، تطرّق لقمان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶

إلى أهمّ الأعمال، أى مسألة الصلاة، فقال: «يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوةَ». لأنّ الصلاة أهم علاقة وإرتباط مع الخالق، والصلاة تنوّر قلبك، وتصفّى روحك، وتضيء حياتك، وتطهّر روحك من آثار الذنب، وتقذف نور الإيمان فى أنحاء وجودك، وتمنعك عن الفحشاء والمنكر. وبعد الصلاة يتطرّق لقمان إلى أهم دستور اجتماعى، أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيقول: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ».

وبعد هذه الأوامر العملية المهمة الثلاثة، ينتقل إلى مسألة الصبر والإستقامة، والتى هى من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيقول: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

«العزم»: بمعنى الإرادة المحكمة القوية، والتعبير ب «عَزْمِ الْأُمُورِ» هنا إمّا بمعنى الأعمال التى أمر اللّه بها أمراً مؤكّداً، أو الامور والأعمال التى يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية وتصميماً راسخاً، وأيّاً من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهمية تلك الأعمال.

والتعبير ب «ذلك» إشارة إلى الصبر والتحمل.

ثم انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالناس والنفس، فيوصى أوّلًا بالتواضع والبشاشة وعدم التكبر، فيقول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». أى لا تعرض بوجهك عن الناس «وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ».

«تُصعّر»: من مادة (صعَر)، وهى فى الأصل مرض يصيب البعير فيؤدّى إلى إعوجاج رقبته؛ و «المرح»: يعنى الغرور والبطر الناشيء من النعمة؛ و «المختال»: من مادة «الخيال» و «الخيلاء» وتعنى الشخص الذى يرى نفسه عظيماً وكبيراً، نتيجة سلسلة من التخيلات والأوهام؛ و «الفخور»: من مادة «الفخر» ويعنى الشخص الذى يفتخر على الآخرين.

وعلى هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّاً وأساس توهين وقطع الروابط الاجتماعية الصميمية: إحداهما التكبر وعدم الاهتمام بالآخرين، والاخرى الغرور والعجب بالنفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهم والخيال ونظرة التفوق على الآخرين، وإسقاطه فى هذه الهاوية، وبالتالى تقطعان علاقته بالآخرين وتعزلانه عنهم.

إنّ مراد لقمان محاربة كل مظاهر التكبر والغرور.

فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من مشى على الأرض

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷

اختيالًا لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها».

ثم بيّن فى الآية التالية أمرين وسلوكين أخلاقيين إيجابيين فى مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين فى الآية السابقة فيقول: إبتغ الإعتدال فى مشيك: «وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ». وابتغ الإعتدال كذلك فى كلامك ولا ترفع صوتك عالياً، «وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

إنّ هاتين الآيتين فى الحقيقة أمرتا بصفتين، ونهتا عن صفتين:

فالنهى عن «التكبر» و «العجب»، فإنّ أحدهما يؤدّى إلى أن يتكبر الإنسان على عباد اللّه، والآخر يؤدّى إلى أن يظنّ الإنسان أنّه فى مرتبة الكمال وأسمى من الآخرين، وبالتالى سيغلق أبواب التكامل بوجهه، وإن كان لا يقارن بينه وبين الآخرين.

أمّا الأمر بصفتين، فهما رعاية الإعتدال فى العمل والكلام، لأنّ التأكيد على الإعتدال فى المشى أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فى الحقيقة.

والحق أنّ الإنسان الذى يتّبع هذه النصائح الأربع موفق وسعيد وناجح فى الحياة، ومحبوب بين الناس، وعزيز عند اللّه.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أكثر ما تلج به امتى الجنة تقوى اللّه وحسن الخلق».

أ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (۲۰) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أ وَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (۲۱) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَ إِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (۲۴) بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ والمعاد وطريقة الحياة، وخطط وبرامج القرآن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸

الأخلاقية والاجتماعية، ولأجل إكمال البحث، تتّجه الآيات إلى بيان نعم اللّه تعالى لتبعث فى الناس حسن الشكر ... الشكر الذى يكون منبعاً لمعرفة اللّه وطاعة أوامره، فيوجّه الخطاب لكل البشر، فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

ثم تضيف الآية: «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظهِرَةً وَبَاطِنَةً».

«أسبغ»: من مادة «سَبغ» وهى فى الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثم اطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضاً.

وتتحدث الآية فى النهاية عمّن يكفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، والتى تحيط الإنسان من كل جانب، ويهبّ إلى الجدال ومحاربة الحق، فتقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ». وبدل أن يعرف ويقدّر هبة وعطاء كل هذه النعم الظاهرة والباطنة، فإنّه يتّجه إلى الشرك والجحود نتيجة الجهل.

والملفت للنظر هو أنّ «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التى يدركها الإنسان عن طريق عقله؛ و «الهدى»: إشارة إلى المعلمين والقادة الربانيين والسماويين، والعلماء الذين يأخذون بيده فى هذا المسير ويوصلونه إلى الغاية والهدف؛ والمراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التى تملأ قلب الإنسان نوراً عن طريق الوحى.

إنّ هذه الجماعة العنيدة لا- يمتلكون علماً، ولا- يتّبعون مرشداً وهادياً، ولا- يستلهمون من الوحى الإلهى، ولما كانت طرق الهداية منحصرة بهذه الامور الثلاثة فإنّ هؤلاء لما تركوها سقطوا فى هاوية الضلال والضياع ووادى الشياطين.

وتشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

ولمّا لم يكن اتّباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءاً من أىّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطانى، وقال: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطنُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ».

ثم تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنين الخلّص، والكفار الملوّثين، وتجعلهم مورد اهتمامها فى المقارنة بينهم، فقالت: «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹

والإستمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقة، وهى أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّة والإرتقاء إلى أعلى قمم المعرفة والمعنويات وتسامى الروح، إلى واسطة ووسيلة محكمة مستقرّة ثابتة، وليست هذه الوسيلة إلّاالإيمان والعمل الصالح، وكل سبيل ومتّكأ غيرهما متهرّىء متخرّق هاوٍ وسبب للسقوط والموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيلة، وكل ماعداها فانٍ، ولذلك فإنّ الآية تقول فى النهاية: «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».

فى تفسير البرهان: من طريق العامة عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ستكون بعدى فتنة مظلمة، الناجى منها من تمسّك بالعروة الوثقى. فقيل: يا رسول اللّه، وما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيد الوصيين. قيل: يا

رسول اللّه، ومن سيد الوصيين؟ قال: أمير المؤمنين. قيل: يا رسول اللّه ومن أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين وإمامهم بعدى. قيل: يا رسول اللّه، ومن مولى المسلمين وإمامهم بعدك؟ قال: أخى على بن أبى طالب».

وقد رويت روايات اخرى فى هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروة الوثقى مودّة أهل البيت عليهم السلام، أو حبّ آل محمّد صلى الله عليه و آله، أو الأئمة من ولد الحسين عليهم السلام.

وقد قلنا مراراً: إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، ولا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد والتقوى وأمثال ذلك.

ثم تطرقت الآية التالية إلى بيان حال الفئة الثانية، فقالت: «وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُو». لأنّك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه، وهو الذى قد ظلم نفسه.

فلا تحزن أن تكفر جماعة من الناس، ويظلموا ويجوروا وهم متنعمون بالنعم الإلهية ولا يعاقبون، فلا عجلة فى الأمر، إذ: «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». فإنّنا مطّلعون على أسرارهم ونيّاتهم كاطّلاعنا على أعمالهم، ف: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ثم يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياة لا ـ ينبغى أن يثير عجبك، لأنّا «نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ» ذلك العذاب الأليم المستمر.

إنّ هذا التعبير لعله إشارة إلى أنّ هؤلاء لا ـ يتصوروا أنّهم خارجون عن قبضة قدرة اللّه سبحانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة وإتمام الحجة والأهداف الاخرى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) مَا خَلْقُكُمْ وَ لَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰) عشر صفات للّه‏سبحانه: بيّنت الآيات الستة أعلاه مجموعة من صفات اللّه سبحانه، وهى عشر صفات رئيسية، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى: الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحق، العلى، والكبير.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ الآية الاولى تتحدث عن «خالقية» اللّه، والآية الثانية عن «مالكيته» المطلقة، والثالثة عن «علمه» اللامتناهى، والآية الرابعة والخامسة عن «قدرته» اللامتناهية، والآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، وهى أنّ الذى يمتلك هذه الصفات ويتمتّع بها هو اللّه تعالى، وكل ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الاولى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

هذا التعبير يدل من جهة على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقاً، ومن جهة اخرى يدل على كون التوحيد فطريّاً وأنّ هذا النور كامن فى طينة وطبيعة كل البشر.

ثم تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم تتطرق إلى «مالكية» اللّه، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقاً لا حاجة إلى دليل على كونه مالكاً، فتقول: «لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱

ومن البديهى أنّ الخالق والمالك يكون مدبّراً لأمر العالم أيضاً.

ولذلك تقول الآية فى النهاية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

إنّه غنيّ على الإطلاق، وحميد من كل جهة، لأنّ كل موهبة فى هذا العالم تعود إليه، وكل ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه وخزائن

كل الخيرات بيده، وهذا دليل حى على غناه.

ولما كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، وكل حسن نراه فى هذا العالم فهو من اللَّه سبحانه، فإنّ كل حمد وثناء منه.

ثم تجسّد الآية التالية علم اللَّه اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّاً فيقول: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

«يمدّه»: من مادة «المداد» وهى بمعنى الحبر أو المادة الملوّنة التى يكتبون بها، وهى فى الأصل من «مدّ» بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

«الكلمات»: جمع «كلمة» وهى فى الأصل الألفاظ التى يتحدث ويتكلم بها الإنسان، ثم اطلقت على معنى أوسع، وهو كل شىء يمكنه أن يبيّن المراد والمطلب، ولمّا كانت مخلوقات هذا العالم المختلفة يبيّن كل منها ذات اللَّه المقدسة وعظمته، فقد أطلق على كل موجود (كلمة اللَّه)، ثم استعملت كلمات اللَّه بمعنى علم اللَّه لهذه المناسبة.

بعد ذكر علم اللَّه اللامحدود، تتحدث الآية الاخرى عن قدرته اللامتناهية، فتقول: «مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ».

الآية التالية تأكيد وبيان آخر لقدرة اللَّه الواسعة، وقد وجّهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فقالت: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لخدمة الناس وتأمين احتياجاتهم «كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

«الولوج»: فى الأصل بمعنى «الدخول»، ودخول الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجى على مدار السنة، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجياً، ويضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة بخصائصها وآثارها المباركة.

وجملة «كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» إشارة إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمر إلى الأبد، بل إنّ له نهاية بانتهاء الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص نتيجة جامعة كلية: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

إنّ مجموع البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول كون اللَّه خالقاً ومالكاً، وعن علمه وقدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الامور، وأنّ الحق هو اللَّه وحده، وكل شىء غيره زائل وباطل ومحدود ومحتاج؛ والعلى والكبير الذى يسمو على كل شىء، ويجلّ عن كل وصف، هو ذاته المقدسة.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۱) وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (۳۲) يدور البحث والحديث فى هاتين الآيتين أيضاً عن نعم اللَّه سبحانه، وأدلّة التوحيد فى الآفاق والأنفس، فالحديث فى الآية الاولى عن دليل النظام، وفى الآية الثانية عن التوحيد الفطرى، وهما فى المجموع تكمّلان البحوث التى وردت فى الآيات السابقة. تقول الآية الاولى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايتِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

لا شك أنّ حركة السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعة من قوانين الخلقة.

وبعد بيان نعمة حركة السفن فى البحار، والتى كانت ولا تزال أكبر وأنفع وسائل حمل ونقل البضائع والبشر، أشارت هذه الآية إلى صورة اخرى لهذه المسألة، فقالت: «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ». «الظلل»: جمع ظُلّة بمعنى سحابة تظلّ.

أى إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحاباً قد أظلّهم بظل مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفاً وعاجزاً رغم كل تلك القوى والإمكانيات الظاهرية التى أعدّها لنفسه.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكل قلبه ويغمره، ويعتقد بأنّ الدين والعبادة مختصة به سبحانه.

ثم تضيف الآية إنّ اللَّه سبحانه لما نجّاهم من الهلكة إنقسم الناس قسمين: «فَلَمَّا نَجهُمْ إِلَى الْبَرّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳

«مقتصد»: من مادة «قصد» بمعنى الإعتدال فى العمل، والوفاء بالعهد.

وهؤلاء وفوا بعهدهم ولم ينقضوه، ولم ينسوا منّة اللَّه عليهم فى تلك اللحظات الحساسة.

وتضيف الآية فى النهاية: «وَمَا يَجْحَدُ بَايَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ».

«ختّار»: من «الختر» بمعنى نقض العهد، وهذه الكلمة صيغة مبالغة، لأنّ المشركين والعاصين يتوجّهون إلى اللَّه مراراً، ويقطعون على أنفسهم العهود، وينذرون النذور، إلّاأنّهم بمجرّد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، ويكفرون بنعم اللَّه عليهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴) فى هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ والنصائح السابقة ولأدلة التوحيد والمعاد، وتوجيه الناس إلى اللَّه واليوم الآخر وتحذير من الغرور الناشىء من الدنيا والشيطان، ثم الحديث عن سعة علم اللَّه سبحانه وشموله لكل شىء، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَايَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيًا».

إنّ الدستور الأوّل هو التوجه إلى المعاد، فالدستور الأوّل يحيى فى الإنسان قوة المراقبة، والثانى ينمّى روح الثواب والعقاب، ولا شك أنّ الإنسان الذى يعلم أنّ شخصاً خبيراً ومطّلعاً على كل أعماله يراه ويعلم به ويسجّل كل أعماله، ومن ناحية اخرى يعلم أنّ محكمة عادلة ستتشكّل للتحقيق فى كل جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد ومعصية.

جملة «لَايَجْزِى» من مادة الجزاء، و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة والمعاقبة مقابل شىء، كما يقال: جزّاه اللَّه خيراً.

والآخر: الكفاية والنيابة والتحمل للشىء عن الآخرين، كما جاء فى الآية مورد البحث:

«لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴

ومن الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الثواب والعقاب يحلّان محل العمل وينوبان عنه، وهما بمقداره أيضاً- تأمّلوا ذلك-.

على كل حال، فإنّ كل إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومبتلى بمعطيات أعماله وآثارها إلى درجة أنّه لا ينظر إلى أحد ولا يهتم به، حتى وإن كان أبوه، أو إبنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقاً.

وتحذّر الآية فى النهاية البشر من شيئين، فتقول: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ». أى الشيطان.

فى الواقع، يلاحظ هنا نهيان فى مقابل الأمرين اللذين كانا فى بداية الآية، فإنّ الإنسان إذا نمت فيه مسألة التوجه إلى اللَّه، والخوف من الحساب والجزاء، فلا يخاف عليه من الإنحراف والفساد، إلّامن طريقين:

أحدهما: أن تقلب زخارف الدنيا وزبرجها الحقائق فى عينيه بصور اخرى، وتسلب منه القدرة على التشخيص، لأنّ حبّ الدنيا رأس كل الخطايا وأساسها.

والآخر: أن تخدعه وساوس الشيطان وتغرّه، وتبعده عن المبدأ والمعاد.

فإذا أغلق طريقى نفوذ المعصية والذنب هذين، فسوف لا يهدّده أىّ خطر، وعلى هذا فإنّ الدساتير والبنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعة كاملة من برنامج نجاة وخلاص الإنسان.

وفى آخر آيـة من هـذه السورة، وبمناسـبة البحث الـذى جاء فى الآيـة السابقة حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختصة باللَّه سبحانه، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ» ومطّلع على جميع جزئياته وتفاصيله ...

«وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

فكأنّ مجموع هـذه الآية جواب عن سؤال يطرح فى باب القيامة، وهو نفس السؤال الذى سأل المشـركون به النبى صـلى الله عليه و آله مراراً وتكراراً، وقالوا: «مَتَى هُوَ» «۱». فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، ويقول: «إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا» «۲».

«نهاية تفسير سورة لقمان»

---

(۱) سورة الإسراء/ ۵۱.

(۲) سورة طه/ ۱۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵

۳۲. سورة السجدة

محتوى السورة: هـذه السورة بحكم كونها من السور المكيـة تتابع بقوة الخطوط الأصـلية للسور المكية، أى البحث فى المبدأ والمعاد، والبشارة والإنذار، وعلى العموم تنقسم مباحثها إلى عدّة أقسام:

۱- الكلام عن عظمة القرآن، ونزوله من قبل رب العالمين.

۲- ثم البحث حول آيات اللَّه سبحانه فى السماء والأرض، وتدبير هذا العالم.

۳- بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و «النطفـة» و «الروح الإلهيـة»، ومنحه وسائل تحصـيل العلم، أى العين والاذن والعقل من قبل اللَّه تعالى.

۴- ثم تتحدث بعد ذلک عن القيامة والحوادث التى تسبقها، أى الموت، وما بعدها.

۵ و ۶- بحوث مؤثرة تهزّ الوجدان عن البشارة والإنذار.

وبهذا فإنّ الهدف الأصلى للسورة تقوية اسس الإيمان بالمبدأ والمعاد، وإيجاد دفعة قوية فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى.

أسـماء هذه السورة: اسم هذه السورة فى بعض الروايات، وكذلک المشـهور على لسان المفسـرين: سورة (السجدة)، أو (الم السجدة)، ويسمّونها أحياناً (سجدة لقمان) لتمييزها عن سورة (حم السجدة)، لأنّها جاءت بعد سورة لقمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶

وذكرت فى بعض الروايات باسم (الم تنزيل).

فضـيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ الم تنزيل، وتبارک الذى بيده الملک، فكأنّما أحيا ليلة القدر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «من قرأ سورة السـجدة فى كل ليلة جمعة أعطاه اللَّه كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما كان منه، وكان من رفقاء محمّد صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام».

فلا شـک أنّ تلاوتهـا- التلاوة التى تكون مصـدراً للتفكير، وبالتالى مبـدءاً للتصـميم والحركـة- قادرة على أن تصـنع من الإنسان مثالًا

متكاملًا تشمله كل هذه الفضيلة والفخر.

الم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (۴) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵) عظمة القرآن، والمبدأ والمعاد: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة «الم» فى هذه السورة، وهذه هى المرّة الخامسة عشرة التى نرى فيها مثل هذه الحروف فى بداية السور القرآنية.

والبحث الذى جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهمية القرآن يبيّن مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ «الم» إشارة إلى عظمة القرآن، والقدرة على إظهار عظمة اللَّه سبحانه، وهذا الكتاب العظيم الغنى المحتوى، والذى هو معجزة محمّد صلى الله عليه و آله الخالدة يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التى يعرفها الجميع. تقول الآية: «تَنزِيلُ الْكِتبِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

هذه الآية جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوى، فتقول فى الجواب: إنّ محتواه حقّ ولا مجال لأدنى شك فيه؛ والسؤال الثانى يدور حول مبدع هذا الكتاب، وفى الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل رب العالمين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷

ثم يشير إلى التهمة التى طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. وقد إدّعى كذباً بأنّه من اللَّه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ». فيقول جواباً على إدّعاء هؤلاء الزائف: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبّكَ». وأدلّة أحقّيته واضحة وبيّنة فيه من خلال آياته.

ثم يتطرق إلى الهدف من نزوله، فيقول: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

جملة «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» إشارة إلى أنّ القرآن يهيّء أرضية الهداية، إلّاأنّ التصميم واتّخاذ القرار النهائى موكول ومرتبط بنفس الإنسان.

إنّ المراد من «النذير» هنا النبى الكبير الذى يوضّح ويبيّن دعوته مقرونة بالمعجزات وفى محيط واسع، ومعلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم فى الجزيرة العربية وبين قبائل مكة.

بعد بيان عظمة القرآن ورسالة النبى صلى الله عليه و آله تطرقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم اسس ودعائم العقائد الإسلامية، فتقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». والمراد من «سِتَّةِ أَيَّامٍ» فى هذه الآيات: ستّ مراحل.

وبعد مسألة الخلق تتطرق الآية إلى مسألة حاكمية اللَّه سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ اللَّه تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته وسيطر على جميع الكائنات: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

«العرش»: تعنى فى الأصل الكراسى الطويلة القوائم، وتأتى عادة كناية عن القدرة.

إنّ استواء اللَّه على العرش بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، وكذلك الحاكم على كل العالم.

وتكمّل الآية مراحل التوحيد بالإشارة إلى توحيد «الولاية» و «الشفاعة»، فتقول: «مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىّ وَلَا شَفِيعٍ».

والمراد من «الشفيع» هنا: الناصر والمعين، ونحن نعلم أنّ الناصر والولى والمعين هو اللَّه وحده.

فمع هذا الدليل الواضح، فلماذا تنحرفون وتضلّون وتتمسّكون بالأصنام؟ «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التى انعكست فى الآية أعلاه يعتبر كل منها دليلًا على الاخرى، فتوحيد الخالقية دليل على توحيد الحاكمية، وتوحيد الحاكمية دليل على توحيد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸

الولى والشفيع والمعبود. وتشير الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث إلى توحيد اللَّه سبحانه فى البداية، ثم إلى مسألة «المعاد»، وبهذا تكمل هنا فروع وأركان التوحيد الثلاثة التى اتّضحت فى الآيات السابقة- (توحيد الخالقية والحاكمية والعبودية)- بذكر توحيد

الربوبيـة، أى تـدبير عالم الوجود من قبل اللَّه سـبحانه فقط، فتقول: إنّ اللَّه يدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

ثم تضيف: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُو أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

والمراد من هذا اليوم يوم القيامة.

والمراد من الآية هو أنّ اللَّه سـبحانه خلق هذا العالم، ونظّم ودبّر السماء والأرض بتدبير خاصّ، إلّاأنّه يطوى هذا التدبير فى نهاية العالم، وبعد طيّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج ومشروع عالمى جديد أوسع، أى سيبدأ عالم آخر بعد إنتهاء هذه الدنيا.

ذِلكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (۹) مراحل خلق الإنسان العجيبة: إنّ الآيـات- مورد البحث- إشـارة وتأكيـد فى البدايـة على بحوث التوحيـد التى مرّت فى الآيـات السابقـة، والتى كـانت تتلخص فى أربع مراحل: توحيد الخالقية، والحاكمية، والولاية، والربوبية، فتقول: «ذلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

ثم تشير الآيـة التالية إلى نظام الخلقة الأحسن والأكمل بصورة عامة، ومقدمة لبيان خلق الإنسان ومراحل تكامله بشكل خاص: «الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ». وأعطى كل شىء ما يحتاجه. وبتعبير آخر: فإنّ تشييد صرح الخلقة العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

بعد هذه المقدّمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، وكما تحدّث فى بحث الآيات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹

الآفاقية عن عدة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدث هنا عن عدة مواهب عظيمة فى مورد البشـر: يقول أوّلًا: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسنِ مِن طِينٍ». ليبيّن عظمة وقدرة اللَّه سبحانه، هذا من جانب، ومن جانب آخر يحذّر الإنسان ويذكّره من أين أتيت، وإلى أين ستذهب؟!

ومن المعلوم أنّ هذه الآية تتحدث عن خلق آدم، لا كل البشـر، لأنّ استمرار نسله قد ذكر فى الآية التالية، وظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، قد تمّ من الطين مباشرة وبدون واسطة.

ثم تشير الآية بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، وكيفية تولد أولاد آدم فى مراحل، فتقول:

«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِّن سُللَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ».

«جعل»: هنا بمعنى الخلق؛ و «النسل»: بمعنى الأولاد والأحفاد فى جميع المراحل.

«السـلالة»: فى الأصـل، بمعنى العصارة الخالصـة لكل شـىء، والمراد منها هنا نطفـة الإنسان التى تعتبر عصارة كل وجوده، ومبـدأ حياة وتولد الذرية واستمرار النسل.

«مهين»: التى تعنى الضعيف إشارة إلى وضعه الظاهرى، وإلّا فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

وتشير الآية التالية إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّدة فى عالم الرحم، وكذلك المراحل التى طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: «ثُمَّ سَوَّيهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصرَ وَالْأَفِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

«سوّيه»: من التسويـة، أى الإكمال، وهذه إشارة إلى مجموع المراحل التى يطويها الإنسان من حال كونه نطفة إلى المرحلة التى تتّضـح فيها جميع أعضاء بدنه، وكذلك المراحل التى طواها آدم بعد خلقه من التراب حتى نفخ الروح.

والتعبير ب «النفـخ» كناية عن حلول الروح فى بدن الإنسان، لأنّ النطفة عندما تنعقد فى البداية ليس لها إلّانوعاً من «الحياة النباتية»، أى التغذية والنمو فقط، أمّا الحس والحركة التى هى علامة «الحياة الحيوانية»، وكذلك قوة الإدراكات التى هى علامة الحياة الإنسانية، فلا أثر عن كل ذلك.

إنّ تكامل النطفـة فى الرحم تصل إلى مرحلـة تبـدأ عنـدها بالحركـة، وتحيا وتنبعث فيها القوى الإنسانيـة الاخرى تـدريجياً، وهـذه هى

المرحلة التى يعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافة «الروح» إلى «اللَّه» فهى «إضافة تشريفية»، أى إنّ روحاً ثمينة وشريفة بحيث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰

إنّ من المناسب أن تسمّى «روح اللَّه» قد دبّت فى الإنسان ونفخت فيه.

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کافِرُونَ (۱۰) قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَری إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَیْنا کُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ (۱۳) فَذُوقُوا بِما نَسِیتُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا إِنَّا نَسِیناکُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴) الندم وطلب الرجوع: تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلى حول المعاد، ثم تبيّن وتبحث حال المجرمين فى العالم الآخر، وهى فى المجموع تتمة للبحوث السابقة التى تحدثت حول المبدأ، إذ إنّ البحث عن المبدأ والمعاد مقترنان غالباً فى القرآن المجيد فتقول: إنّ هؤلاء الكفار يتساءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا وتحوّلت أبداننا إلى تراب واندثرت تماماً فهل سوف نُخلق من جديد: «وَقَالُوا أَءذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

إنّ التعبير ب «ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ» إشارة إلى أنّ الإنسان يصبح تراباً بعد موته كسائر الأتربة ويتفرّق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية وغير الطبيعية، ولا يبقى منه شيء حتى يعيده اللَّه سبحانه فى القيامة مرّة اخرى.

إلّا أنّ هؤلاء ليسوا بمنكرين قدرة اللَّه «بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبّهِمْ كَافِرُونَ» فإنّهم ينكرون مرحلة لقاء اللَّه والحساب والثواب والعقاب لتبرير حرية العمل وليعملوا ما يريدون.

وهذه الآية تشبه كثيراً الآيات (۳- ۶) من سورة القيامة التى تقول: «أَيَحْسَبُ الْإِنسنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قدِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوّىَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيمَةِ».

بناء على هذا، فإنّ هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحية الاستدلال، ولكن شهواتهم حجبت قلوبهم، ونيّاتهم السيئة منعتهم من قبول مسألة المعاد.

وتجيب الآية هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم وأجسامكم، بل بأرواحكم، وهى باقية ومحفوظة: «قُلْ يَتَوَفكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكّلَ بِكُمْ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱

ثُمَّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ».

إذا لاحظنا أنّ معنى «يتوفّاكم» من مادة «توفّى» (على وزن تصدّى)، هو الإستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التى تشكّل أهم من وجود الإنسان.

إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم فى تفرق الأجزاء الجسمية، فإنّكم تقرّون بقدرة اللَّه سبحانه ولا- تنكرونها، وإذا كان إشكالكم فى اضمحلال وفناء شخصية الإنسان على أثر تناثر تلك الذرات، فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصية الإنسان يستند إلى الروح.

ثم تجسّد وضع هؤلاء المجرمين الكافرين ومنكرى المعاد الذين يندمون فى القيامة أشدّ الندم على ما كان منهم لدى مشاهدة مشاهدها ومواقفها المختلفة، فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ».

ستعجب حقّاً! أهؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم اولئك المتكبرون العتاة العصاة الذين لم يكونوا يذعنون فى الدنيا لأيّة حقيقة؟

«الناكس»: من مادة «نكس» على وزن (كلب) بمعنى إنقلاب الشيء، وهنا يعنى خفض الرأس إلى الأسفل وطأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد والمواقف أوّلًا، ثم يسمع إستجواب اللَّه والملائكة.

إنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، وخاصة منكرى القيامة.

ولما كان كل هذا الإصرار والتأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز اللَّه سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيهَا».

فمن المسلم أنّ اللَّه تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلّاأنّ الإيمان الذى يتحقق ويتم بالإجبار لا قيمة له، ولذا فالمشيئة الإلهية أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختاراً، وأن يسير فى طريق التكامل بحريته واختياره، ولذلك تضيف فى النهاية: لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختاراً «وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

أجل ... إنّ المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، ولذلك فهم مستحقون للعقاب،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲

ونحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملأ جهنم منهم.

ولذلك تقول الآية التالية: إنّا سنقول لأصحاب النار «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». مرّة اخرى يستفاد من هذه الآية أنّ نسيان محكمة القيامة العادلة هو الأساس لكل تعاسة وشقاء للإنسان، لأنّه سيرى نفسه فى هذه الصورة حرّاً إزاء ارتكاب القبائح والظلم والعدوان.

وكذلك يستفاد من الآية بوضوح أنّ العقاب الأبدى للفرد معلول لما إرتكبه من أعمال فى دار الدنيا، لا لشىء آخر.

وضمناً يتّضح أنّ المراد من «نسيان اللَّه» هو عدم رعايته ونصرته لهم.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۱۵) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۱۶) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۷) أَ فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (۱۸) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۰) جوائز عظيمة لم يطّلع عليها أحد: إنّ طريقة القرآن هى أنّه يبيّن كثيراً من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتكون مفهومة ومستقرّة فى القلب تماماً، وهنا أيضاً بعد الشرح والتفصيل الذى مرّ فى الآيات السابقة حول المجرمين والكافرين، فإنّه يتطرق إلى صفات المؤمنين الحقيقيين البارزة، ويبيّن اصولهم العقائدية، وبرامجهم العملية بصورة مضغوطة ضمن آيتين بذكر ثمان صفات، فيقول أوّلًا: «إِنَّمَا يُؤْمِنُ بَايَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكّرُوا بِهَا خَرُّوا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳

سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» «۱».

«خرّوا»: فى الأصل من مادة «الخرير» أى صوت الماء وأمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، واستعماله هذا التعبير فى شأن الساجدين إشارة إلى أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح فى لحظة هويّهم إلى الأرض للسجود.

لقد بيّنت فى هذه الآية أربع صفات:

۱- أنّهم يسجدون بمجرد سماعهم آيات اللَّه. لقد ذكرت هذه الصفة والخاصية فى سورة مريم الآية (۵۸) كأحد أبرز صفات الأنبياء، كما يقول اللَّه سبحانه فى شأن جمع من الأنبياء العظام: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا».

وبالرغم من أنّ الآيات هنا ذكرت بصورة مطلقة، ولكن من المعلوم أنّ المراد منها غالباً الآيات التى تدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

۲ و ۳- فهم ينزّهون اللَّه تعالى عن النقائص من جهة، ومن جهة اخرى فإنّهم يحمدونه ويثنون عليه لصفات كماله وجماله.

۴- والصفة الاخرى لهؤلاء هى التواضع وترك كل أنواع التكبر.

ثم أشارت الآية الثانية إلى أوصاف هؤلاء الاخرى، فقالت: «تَتَجَافِى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» «۲». فيقومون فى الليل، ويتّجهون إلى ربّهم ومحبوبهم ويشرعون بمناجاته وعبادته.

إنّ هؤلاء يستيقظون ويحيون قدراً من الليل فى حين أنّ عيون الغافلين تغطّ فى نوم عميق، وحينما تتعطّل برامج الحياة العادية، وتقلّ المشاغل الفكرية إلى أدنى مستوى، ويعمّ

---

(۱) ينبغى الإلتفات إلى أنّ الآية الاولى هى اولى السجدات الواجبة فى القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الإحتياط فى وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

(۲) «تتجافى»: من مادة «جفا» وهى فى الأصل بمعنى القطع والحمل والإبعاد؛ و «الجنوب»: جمع جنب، وهوالجانب؛ و «المضاجع»: جمع مضجع، وهو محل النوم، وإبعاد الجانب عن محلّ النوم كناية عن النهوض من النوم والتوجّه إلى عبادة اللَّه فى جوف الليل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴

الهدوء والظلام كل الأرجاء، ويقلّ خطر التلوّث بالرياء فى العبادة. والخلاصة: عند توفّر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنّهم يتّجهون بكل وجودهم إلى معبودهم، ويخبرونه بما فى قلوبهم، فهم أحياء بذكره، وكؤوس قلوبهم طافحة بحبّه وعشقه.

ثم تضيف: «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا».

وهنا تذكر الآية صفتين اخريين لهؤلاء هما: «الخوف» و «الرجاء»، فلا يأمنون غضب اللَّه عزّ وجل، ولا ييأسون من رحمته، والتوازن بين الخوف والرجاء هو ضمان تكاملهم وتوغّلهم فى الطريق إلى اللَّه سبحانه، والحاكم على وجودهم دائماً، لأنّ غلبة الخوف تجرّ الإنسان إلى اليأس والقنوط، وغلبة الرجاء تغرى الإنسان وتجعله فى غفلة، وكلاهما عدوّ للإنسان فى سيره التكاملى إلى اللَّه سبحانه. وثامن صفاتهم، وآخرها فى الآية أنّهم: «وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ».

فهم لا- يهبون من أموالهم للمحتاجين وحسب، بل ومن علمهم وقوّتهم وقدرتهم ورأيهم الصائب وتجاربهم ورصيدهم الفكرى، فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

ثم تطرقت الآية التالية إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتعون بالصفات المذكورة فى الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكى الأهمية الفائقة لثوابهم: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ» وكذلك التعبير ب «قُرَّةِ أَعْيُنٍ» مبيّن لعظمة هذه المواهب والعطايا التى لا عدّ لها ولا حصر.

وفى حديث- رواه البخارى ومسلم جميعاً- عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ اللَّه يقول: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وتبيّن الآية التالية المقارنة التى مرّت فى الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول:

«أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّايَسْتَوُونَ».

لقد جعل «الفاسق» فى مقابل «المؤمن» فى هذه الآية، وهذا دليل على أنّ للفسق مفهوماً واسعاً يشمل الكفر والذنوب الاخرى.

وتبيّن الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع وأكثر تفصيلًا، فتقول: «أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى «۱».

ثم تضيف الآية بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها اللَّه تعالى لاستقبالهم فى مقابل أعمالهم الصالحة: «نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ التعبير ب «نزلًا»، والذى يقال عادةً للشىء الذى يهيّئونه لاستقبال وإكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أنّ المؤمنين يُستقبلون ويُخدمون دائماً.

---

(۱) «المأوى»: من مادة «أوى» بمعنى إنضمام شيء إلى شيء آخر، ثم قيلت للمكان والمسكن والمستقرّ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵

وتطرقت الآيـة التاليـة إلى النقطة التى تقابل هؤلاء، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيهُمُ النَّارُ». فهؤلاء مخلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث إنّهم: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ».

مرّة اخرى نرى هنـا العـذاب الإلـهى قـد جعـل فى مقابل «الكفر والتكـذيب»، والثواب والجزاء فى مقابل «العمل»، وهـذا إشارة إلى أنّ الإيمـان لاـ يكفى لوحـده، بـل يجب أن يكون حـافزاً وباعثـاً على العمل، إلّاأنّ الكفر كافٍ لوحـده للعـذاب، وإن لم يرافقه ويقترن به عمل.

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۱) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (۲۲) عقوبـات تربويـة: بعـد البحث الـذى مرّ فى الآيات السابقـة حول المجرمين وعقابهم الأليم، فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحـد الألطاف الإلهيـة الخفيّة، وهى موارد العـذاب الخفيف فى الـدنيا ليتّضـح أنّ اللّه سبحانه لا يريد أن يبتلى عبداً بالعـذاب الخالد أبداً، ولذلك يسـتخدم كل وسائل التوعية لنجاته. تقول الآية: «وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

من المسلّم أنّ «العذاب الأدنى» له معنىً واسع يتضمّن أغلب الاحتمالات التى كتبها المفسرون بصورة مفصلة:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب والآلام والمشـقّة؛ أو القحط والجفاف الشديد الذى دام سبع سنين وابتلى به المشركون فى مكة حتى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى؛ أو الضربة القاصمة التى نزلت عليهم فى غزوة بدر، وأمثال ذلك.

وأمّا «العذاب الأكبر» فيعنى عذاب يوم القيامة الذى يفوق كل عذاب حجماً وألماً.

ولمـا لم تنفع أيّة وسيلة من وسائـل التوعيـة والتنبيه، حتى العـذاب الإلهى، لم يبق طريق إلّا انتقام اللّه من هؤلاء القوم الـذين هم أظلم الناس، وكذلك تقول الآية التالية: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بَايَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ».

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶

شرط الإمامة، الصبر والإيمان: تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة إلى قصة «موسى عليه السلام» وبنى إسرائيل لتسلّى نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل وتطيّب خواطرهم، وتـدعوهم إلى الصبر والتحمّل والثبات أمام تكـذيب وإنكار المشـركين التى اشير إليها فى الآيات السابقة. تقول الآية أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ».

أى: فلا تشكّ أو تتردّد فى أنّ «موسـى» قد تلقّى آيات اللّه، وقد جعلنا كتاب موسـى «التوراة» وسيلة لهداية بنى إسرائيل «وَجَعَلْنهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ».

ثم تشـير الآيـة التاليـة إلى الأوسـمة والمفـاخر التى حصل عليها بنو إسـرائيل فى ظلّ الإسـتقامة والإيمان لتكون درساً للآخرين، فتقول: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَايَاتِنَا يُوقِنُونَ».

لقد ذكرت الآية هنا شرطين للإمامة: أحدهما: الإيمان واليقين بآيات اللّه عزّوجل؛ والثانى: الصبر والإستقامة والصمود.

ولمّا كان بنو إسـرائيل- كسائر الامم- قـد اختلفوا بعـد هؤلاء الأئمـة الحقيقيين، وسـلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

أجـل ... إنّ مصـدر ومنبع الاختلاف دائماً هو مزج الحق بالأهواء والميول، ولما كانت القيامـة يوماً لا معنى فيه للأهواء والميول، حيث تمحى ويتجلّى الحق بأجلى صوره، فهناك ينهى اللّه سبحانه الاختلافات بأمره، وهذه أيضاً إحدى فلسفات المعاد.

أ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ أ فَلَا يَسْمَعُونَ (۲۶) أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أ فَلَا يُبْصِرُونَ (۲۷) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۸) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰) يوم إنتصارنا: كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفار، وتقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث إكمالًا لهذا التهديد: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷

الْقُرُونِ». فهؤلاء يسيرون بين الخرائب ويرون آثار اولئك الأقوام الذين هلكوا من قبلهم «يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ».

تقع مساكن «عاد» و «ثمود» المدمّرة، ومدن «قوم لوط» الخربة فى طريق هؤلاء إلى الشام، وكان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لبيوت هؤلاء وقصورهم المتهدمة مئة لسان، وتبيّن لهم وتحدثهم بنتيجة الكفر والإنحطاط، ولذلك تضيف الآية فى النهاية: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ».

وتشير الآية التالية إلى أحد أهم النعم الإلهية التى هى أساس عمران كل البلدان، ووسيلة حياة كل الكائنات الحية، ليتّضح من خلالها أنّ اللّه سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمّرة والميتة، ومنح عباده كل نوع من المواهب، فتقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ».

«الجُرُز»: تعنى الأرض القاحلة التى لا ينبت فيها شيء قطّ.

ولما كانت الآيات السابقة تهدّد المجرمين بالإنتقام، وتبشّر المؤمنين بالإمامة والنصر، فإنّ الكفار يطرحون هذا السؤال غروراً واستكباراً وتعلّلًا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقق، كما يذكر القرآن ذلك: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

فيجيبهم القرآن مباشرةً، ويأمر النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَايَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ». أى: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النبى لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئاً.

والمراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الإستئصال»؛ أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، ولا يدع لهم فرصة الإيمان. وبتعبير آخر: فإنّ عذاب الإستئصال نوع من العذاب الدنيوى، الذى يُنهى حياة المجرمين بعد إتمام الحجة.

وأخيراً تنهى الآية الأخيرة هذه السورة- سورة السجدة- بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ».

الآن، حيث لم تؤثّر فى هؤلاء البشارة ولا الإنذار، فأعرض عنهم، وانتظر رحمة اللّه سبحانه، ولينتظروا عذابه فإنّهم لا يستحقون سواه.

«نهاية تفسير سورة السجدة»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹

۳۳. سورة الأحزاب

محتوى السورة: إنّ هذه السورة من أغنى سور القرآن المجيد وأجناها ثماراً، وتتابع وتبحث مسائل متنوعة وكثيرة جدّاً فى باب اصول الإسلام وفروعه.

ويمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

۱- بداية السورة التى تدعو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى طاعة اللّه وترك اتّباع الكافرين ومقترحات المنافقين.

۲- أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهلية، كالظهار، وكذلك مسألة التبنّى، وأكّدت على بطلانها، وحصرت العلاقات والروابط العائلية والسببية بالروابط الواقعية والطبيعية.

۳- وهو أهم أقسام هذه السورة، ويرتبط بمعركة «الأحزاب» وحوادثها المرعبة، وإنتصار المسلمين المعجز على الكفار.

۴- يرتبط بزوجات النبى، حيث يجب أن يكنّ اسوة وانموذجاً أسمى لكل نساء المسلمين، ويصدّر لهن فى هذا الباب أوامر مهمة.

۵- يتطرق إلى قصة «زينب بنت جحش» التى كانت يوماً زوجة لزيد، وهو ابن النبى بالتبنّى، وافترقت عنه، فتزوّجها النبى صلى الله عليه و آله بأمر اللّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰

۶- يتحدث عن مسألة الحجاب، والتى ترتبط بالبحوث السابقة، ويوصى كل النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامى.

۷- يشير إلى مسألة المعاد المهمة، وطريق النجاة فى ذلك الموقف العظيم، وكذلك يشرح مسألة أمانة الإنسان العظمى، أى مسألة التعهد والتكليف والمسؤولية.

لما كان جزء مهم من هذه السورة يتحدث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخندق) فإنّ هذا الإسم قد اختير لها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الأحزاب وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه، اعطى الأمان من عذاب القبر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة فى جوار محمّد وآله وأزواجه».

إنّ هذه الفضائل لا تُنال بالتلاوة الخالية من الروح، بل التلاوة التى تكون مبدأً للتفكر الذى يضيء آفاق الإنسان يظهر آثاره فى أعماله وسلوكه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ هذه الآيات نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل، وأبى أعور السلمى، قدموا المدينة ونزلوا على عبد اللّه بن ابى بعد غزوة احد بأمان من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبداللّه بن ابى وعبد اللّه بن أبى سرح وطعمة بن ابيرق فدخلوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومنات، وقل إنّ لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربّك. فشقّ ذلك على النبى صلى الله عليه و آله فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول اللّه فى قتلهم؟ فقال: «إنّى أعطيتهم الأمان». وأمر صلى الله عليه و آله فاخرجوا من المدينة ونزلت الآية: «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» وأمرته أن لا يصغى لمثل هذه الإقتراحات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱

التّفسير

اتّبع الوحى الإلهى فقط: إنّ من أخطر المنعطفات والمنحدرات التى تعترض طريق القادة الكبار قضية اقتراحات الصلح والتنازل والوفاق التى تطرح من قبل المخالفين.

لقد بذل مشركو «مكة» ومنافقو «المدينة» كل ما فى وسعهم ليحرّفوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن خط التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام والإتّفاق، إلّاأنّ اولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، ودعت النبى صلى الله عليه و آله إلى الإستمرار فى اسلوبه الحاسم فى خط التوحيد بدون أدنى تراجع وتنازل ومسالمة.

إنّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النبى صلى الله عليه و آله بأربعة أوامر مهمة:

الأوّل: فى مجال التقوى، والتى تهيّء الأرضية لكل برنامج آخر، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ».

إنّ حقيقة التقوى هى ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية، ولولا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع ولا يتحرّك باتّجاه أى برنامج

بنّاء.

الثاني: نفي ورفض طاعة الكافرين: «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

وتقول الآية في النهاية تأكيداً لهذا الموضوع: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم إتّباع هؤلاء، فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنّه يعلم ما اخفى في هذ الإتّباع والمهادنة من المصائب، الأليمة، والمفاسد الجمّة.

الثالث: نشر بذور التوحيد واتّباع الوحي الإلهي، فيقول: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» واحذر ف «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». وبناءً على هذا، فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكة.

ولما كانت هناك مشاكل كثيرة، وتهديدات ومؤامرات، ومعوّقات في الاستمرار في سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر الرابع بأن: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا». فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا تخش ولا تخف منهم لأنّي ناصرك ومعينك.

ومع أنّ المخاطب في هذه الآيات هو النبي صلى الله عليه و آله، إلّاأنّه خطاب لكل المؤمنين، ولعامة المسلمين في كل عصر وزمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (۴) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (۶) إدعاءات جوفاء: تعقيباً للآيات السابقة التي كانت تأمر النبي صلى الله عليه و آله أن يتّبع الوحي الإلهي فقط، ولا يتّبع الكافرين والمنافقين، تعكس هذه الآيات التي نحن بصددها عاقبة اتّباع هؤلاء وأنّه يدعو الإنسان إلى مجموعة من الخرافات والأباطيل، وقد ذكرت الآية الاولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أوّلًا: «مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ».

إنّ للجملة معنى عميق، وهو: أنّه ليس للإنسان إلّاقلب واحد، ولا يحتوي هذا القلب ولا يختزن إلّاعشق معبود واحد، وعلى هذا فإنّ اولئك الذين يدعون إلى الشرك والآلهة المتعدّدة ينبغي أن تكون لهم قلوب متعدّدة، ليجعلوا كل واحد منها بيتاً لعشق معبود واحد.

في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله «مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا يجتمع حبّنا وحبّ عدوّنا في جوف إنسان، إنّ اللَّه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فيحبّ بهذا ويبغض هذا، فأمّا محبّنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا ولسنا منه واللَّه عدوّهم وجبرئيل وميكائيل واللَّه عدوّ للكافرين».

وبناءً على هذا، فإنّ القلب مركز الإعتقاد الواحد، وينفّذ برنامجاً عملياً واحداً، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشيء حقيقة وينفصل عنه في العمل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳

ثم يتطرق القرآن إلى خرافة اخرى من خرافات الجاهلية، وهي خرافة «الظهار»، حيث إنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نسائهم، وأرادوا أن يبدوا تنفّرهم وعدم ارتياحهم، قالوا للزوجة: «أنت عليّ كظهر امّي». فيعتبرها بمثابة امّه، وكان يعدّ هذا الكلام بمنزلة الطلاق.

يقول القرآن الكريم في تتمة هذه الآية: «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ». فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلي، ولم يصادق عليه، بل جعل عقوبة لمن يتعاطاه، وهي: أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحق له أن يقرب زوجته حتى يدفع الكفارة، وإذا لم يدفعها ولم يأت زوجته فإنّ لها الحق في أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلّقها وفقاً لأحكام الإسلام

ويفارقها، أو أن يكفّر ويستمر فى حياته الزوجية كالسابق.

ثم تطرقت الآية إلى ثالث خرافة جاهلية، فقالت: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ».

وتوضيح ذلك: أنّه كان من المتعارف فى زمن الجاهلية أنّهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، ويسمّونهم أولادهم، وبعد هذه التسمية يعطونه كل الحقوق التى يستحقها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنّى الولد.

وقد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية والخرافية أشد النفى. ولذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: «ذلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ».

إنّكم تقولون: إنّ فلاناً ولدى، وأنتم تعلمون علم اليقين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ الأمواج الصوتية فقط هى التى تخرج من أفواهكم ولا تنبع مطلقاً من إعتقاد قلبى، وهذا كلام باطل ليس إلّا «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ».

إنّ «قول الحق» يطلق على القول الذى ينطبق على الواقع الموضوعى تماماً، أو أن يكون من الامور الاعتبارية التى تنسجم مع مصالح كل أطراف القضية، ونعلم أنّ مسألة «الظهار» فى الجاهلية، أو «التبنّى» الذى كان يسحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حد كبير- لم يكونا من الموضوعات العينية، ولا من الاعتباريات الحافظة لمصلحة عامة الناس.

ثم يضيف القرآن مؤكّداً وموضّحاً الخط الصحيح والمنطقى للإسلام: «ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ».

وتقول الآية لرفع الأعذار والحجج: «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ». أى إنّ عدم معرفة آبائهم لا يكون دليلًا على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴

لهذا الإبن، بل يمكنكم أن تخاطبوهم كإخوانكم فى الدين أو أصدقائكم ومواليكم.

«الموالى»: جمع «مولى»، وقد ذكر المفسرون له معانى عديدة، فالبعض فسّره هنا بمعنى الصديق والصاحب، والبعض الآخر بمعنى الغلام المعتق والمحرّر. ولكن ربّما يدعو الشخص إنساناً لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقاً، أو لسبق لسانه، أو لاشتباه فى تشخيص نسب الأفراد، وهذا خارج عن حدود اختيار الإنسان، فإنّ اللَّه العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، ولذا أردفت الآية: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إنّه تعالى يغفر لكم ما سبق، ويعفو عن السهو والنسيان والإشتباه.

ثم تتطرق الآية التالية إلى مسألة مهمة اخرى، أى إبطال نظام «المؤاخاة» بينهم.

وتوضيح ذلك: أنّ المسلمين لمّا هاجروا من مكة إلى المدينة وقطع الإسلام كل روابطهم وعلاقاتهم بأقاربهم وأقوامهم المشركين الذين كانوا فى مكة تماماً، فقد أجرى النبى صلى الله عليه و آله بأمر اللَّه عقد المؤاخاة بينهم وعقد عهد المؤاخاة بين «المهاجرين» و «الأنصار»، وكان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلّاأنّ هذا الحكم كان مؤقّتاً وخاصّاً بحالة استثنائية جدّاً، فنزلت الآية أعلاه وألغت نظام المؤاخاة الذى كان يحلّ محلّ النسب، وجعل حكم الإرث وأمثاله مختّصاً باولى الأرحام الحقيقيين.

غاية ما فى الأمر أنّ الآية قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكمين آخرين- أى كون النبى صلى الله عليه و آله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكون نساء النبى صلى الله عليه و آله كامهاتهم- كمقدمة، فقالت:

«النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» (۱). «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» (۲).

ومع أنّ النبى صلى الله عليه و آله بمنزلة الأب، وأزواجه بمنزلة امهات المؤمنين إلّاأنّهم لا يرثون منهم

(۱) إنّ النبى صلى الله عليه و آله أولى من كل إنسان مسلم فى المسائل الاجتماعية والفردية، وكذلك فى المسائل المتعلقة بالحكومة والقضاء والدعوة، وإنّ إرادته ورأيه مقدم على إرادة أى مسلم ورأيه، وهذا لأنّ النبى صلى الله عليه و آله معصوم ووكيل للَّهسبحانه،

ولا یفكّر ویقرّر إلّافى صالح المجتمع والفرد.

(۲) وهی طبعاً امومة معنویة وروحیة، كما أنّ النبی صلی الله علیه و آله أب روحی ومعنوی للُامة.

إنّ تأثیر هذا الإرتباط المعنوی كان منحصراً فی مسألة حفظ احترام أزواج النبی صلی الله علیه و آله وحرمة الزواج منهن، كما جاء الحكم الصریح بتحریم الزواج منهن بعد وفاة النبی صلی الله علیه و آله، أی إنّ المسلمین كان من حقهم أن یتزوجوا بنات النبی، فی حین أنّ أیّ أحد لا یستطیع الزواج من ابنة امه، وكذلک مسألة كونهن أجنبیات، وعدم جواز النظر إلیهن إلّاللمحارم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵

مطلقاً، فكیف یُنتظر أن یرث الإبن المتبنّی؟!

ثم تضیف الآیة: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَی بِبَعْضٍ فِی كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَالْمُهَاجِرِینَ». ولكن مع ذلک، ومن أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمین تماماً ولیكون بإمكان المؤمنین تعیین شیئاً من الإرث لإخوانهم- وإن كان بأن یوصوا بثلث المال- فإنّ الآیة تضیف فی النهایة: «إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَی أَوْلِیَائِكُم مَّعْرُوفًا».

وتقول فی آخر جملة تأكیداً لكل الأحكام السابقة، أو الحكم الأخیر: «كَانَ ذلِكَ فِی الْكِتَابِ مَسْطُورًا»- فی اللوح المحفوظ أو فی القرآن الكریم-.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثَاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِیمَ وَ مُوسَی وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِیثَاقاً غَلِیظاً (۷) لِیَسْأَلَ الصَّادِقِینَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِینَ عَذَاباً أَلِیماً (۸) میثاق اللّه الغلیظ: لما كانت الآیات السابقة قد بیّنت الصلاحیات الواسعة للرسول الأكرم صلی الله علیه و آله تحت عنوان (النبی أولی بالمؤمنین من أنفسهم)، فإنّ هذه الآیات تبیّن واجبات النبی وسائر الأنبیاء العظام الثقیلة العظیمة، لأنّا نعلم أنّ الصلاحیات تقترن دائماً بالمسؤولیات. تقول الآیة الاولی: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِیینَ مِیثَاقَهُمْ وَمِنکَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَهِیمَ وَمُوسَی وَعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّیثَاقًا غَلِیظًا».

وعلی هذا فإنّها تذكر أوّلًا جمیع الأنبیاء فی مسألة المیثاق، ثم تخصّ بالذكر منهم خمسة أنبیاء هم اولوا العزم، وعلی رأسهم نبی االخاتم صلی الله علیه و آله لعظمته وجلالته وشرفه.

هذا المیثاق هو تأدیة مسؤولیة التبلیغ والرسالة والقیادة وهدایة الناس فی كل الأبعاد والمجالات.

إنّ الأنبیاء كانوا مكلفین بأن یؤیّد بعضهم بعضاً، كما أنّ الأنبیاء اللاحقین یصدّقون ویؤكّدون صحّة دعوة الأنبیاء السابقین.

وتبین الآیة التالیة الهدف من بعثة الأنبیاء والمیثاق الغلیظ الذی اخذ منهم، فتقول:

«لِّیَسْئَلَ الصَّادِقِینَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِینَ عَذَابًا أَلِیمًا».

إنّ المراد من الصادقین: هم الذین أثبتوا صدقهم وإخلاصهم فی میادین حمایة دین اللّه والجهاد والثبات والصمود أمام المشاكل وبذل الأرواح والأموال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ رِیحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیراً (۹) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (۱۰) هُنَالِکَ ابْتُلِیَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِیداً (۱۱) الإمتحان الإلهی العظیم فی مواجهة الأحزاب: تتحدث هذه الآیات والآیات الاخری التالیة، والتی تشكّل بمجموعها سبع عشرة آیة، عن أعسر الامتحانات والاختبارات الإلهیة للمؤمنین والمنافقین، واختبار مدی صدقهم فی العمل، الذی بحث فی الآیات السابقة.

إنّ هذه الآیات تبحث أحد أهم حوادث تاریخ الإسلام، أی عن «معركة الأحزاب».

إنّ حرب الأحزاب- وكما یدل علیها إسمها- كانت مجابهة شاملة من قبل عامة أعداء الإسلام والفئات المختلفة التی تعرّضت

مصالحها ومنافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع وانتشار هذا الدين.

لقد اشعلت أوّل شرارة للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكة وأغروا «قريش» بحرب النبى صلى الله عليه و آله، ووعدوهم بأن يساندوهم ويقفوا إلى جانبهم حتى النفس الأخير، ثم أتوا قبيلة «غطفان» وهيّئوهم لهذا الأمر أيضاً.

ثم دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيلة «بنى أسد» و «بنى سليم»، ولما كان الجميع قد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحدوا واتّفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد.

أمّا المسلمون اجتمعوا للتشاور بأمر النبى صلى الله عليه و آله، وقبل كل شيء أخذوا برأى «سلمان الفارسى» وحفروا حول المدينة خندقاً حتى لا يستطيع العدو عبوره بسهولة ويهجم على المدينة، ولهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة وخطرة جدّاً على المسلمين، وكانت القلوب قد بلغت الحناجر، وكان المنافقون من جهة اخرى قد شمّروا عن السواعد وجدّوا فى تآمرهم على الإسلام، وكذلك ضخامة عدد الأعداء وقلة عدد المسلمين- (ذكروا أنّ عدد الكفار كان عشرة آلاف، أمّا المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) وإستعداد الكفار من ناحية المعدّات الحربية، كل ذلك قد رسم صورة كالحة للمصير المجهول فى أعين المسلمين. إلّاأنّ اللَّه سبحانه أراد أن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷

ينزل هنا آخر ضربة بالكفر، ويميّز صفّ المنافقين عن صفوف المسلمين.

وأخيراً انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمين فقد هبّت بأمر اللَّه عاصفة هوجاء إقتلعت خيام الكفار وأتلفت وسائلهم، وألقت فى قلوبهم الرعب الشديد، وأرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

وقد اضيف إلى ذلك تجلّى قدرة وعظمة أمير المؤمنين على عليه السلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون القدرة على القيام بأىّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشرة من هذه السورة، واستطاعت بتحليلاتها الدقيقة والفاضحة أن تستفيد من هذه الحادثة المهمة من أجل إنتصار الإسلام النهائى وقمع المنافقين بأفضل وجه.

يلخّص القرآن الكريم هذه الحادثة فى آية واحدة أوّلًا، ثم يتناول تبيان خصوصياتها فى الستّ عشرة آية الاخرى، فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ [كثيرة جدّاً] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا». ويعلم أعمال كل جماعة وما قامت به فى هذا الميدان الكبير.

إنّ التعبير ب «الجنود» إشارة إلى مختلف الأحزاب الجاهلية كقريش وغطفان وبنى سليم وبنى أسد وبنى فزارة وبنى أشجع وبنى مرّة، وكذلك إلى طائفة اليهود فى داخل المدينة.

إنّ المراد من «جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا» والتى نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التى ورد نصرها للمؤمنين فى غزوة بدر فى القرآن المجيد بصراحة.

والملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين وشدّ عزيمتهم وإثارة حماسهم.

وتقول الآية التالية تجسيداً للوضع المضطرب فى تلك المعركة، وقوّة الأعداء الحربية الرهيبة، والقلق الشديد لكثير من المسلمين: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا».

إنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل أعداء الإسلام.

إنّ جملة «زَاغَتِ الْأَبْصَارُ»- بملاحظة أنّ «زاغت» من مادة الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد- إشارة إلى الحالة التى يشعر بها الإنسان عند الخوف والإضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، وتتسمّر وتثبت على نقطة معيّنة، ويبقى متحيّراً حينذاك.

وجملة «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» إشارة إلى أنّ بعض المسلمين خطرت على أفكارهم ظنون شيطانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸

هنا كان الامتحان الإلهى قد بلغ أشدّه كما تقول الآية التالية: «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا».

من الطبيعى أنّ الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الإبتلاء، بل ستظهر عليه آثار الإضطراب والتزلزل.

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً (۱۳) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً (۱۴) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (۱۵) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۶) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۱۷) المنافقون فى عرصة الأحزاب: فار تنوّر امتحان حرب الأحزاب، وابتلى الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير، وهنا انقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، وفئة خواص المؤمنين، وجماعة ضعاف الإيمان، وفرقة المنافقين، وجمع المنافقين العنودين المتعصّبين، وبعضهم كان يفكّر فى بيته وحياته والفرار، وجماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، والبعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

وتعكس اولى الآيات مورد البحث مقالة المنافقين ومرضى القلوب، فتقول: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا».

جاء فى تاريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، وبينما كان المسلمون يعملون فخرجت عليهم صخرة كسرت المِعوَل فأعلموا النبى صلى الله عليه و آله فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم فكبّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمسلمون ثم الثانية كذلك، ثم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹

الثالثة كذلك ثم خرج وقد صدعها فسأله سلمان عما رأى من البرق فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الاولى، وأخبرنى جبرئيل أنّ امّتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحُمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء، وأخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر والمسلمون.

وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل ويخبركم أنّه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى وإنّها تُفتَح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل اللّه: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» «۱».

ثم تتطرق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث وأفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: واذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم فى هذا المكان موقع فلا تتوقفوا هنا وارجعوا إلى بيوتكم: «وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا».

وبذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

ومن جانب آخر: «وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا».

«عورة»: مأخوذة من مادة «عار»، وتقال للشيء الذى يوجب ظهوره العار، وتقال أيضاً للشقوق والثقوب التى تظهر فى اللباس أو جدران البيت، وكذلك للثغور الضعيفة والنقاط الحدودية التى يمكن اختراقها وتدميرها، وعلى ما يخافه الإنسان ويحذره، والمراد هنا البيوت التى ليس لها جدار مطمئن وباب محكم، ويخشى عليها من هجوم العدو.

و «يثرب»: هو الإسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النبى صلى الله عليه و آله، وبعد هجرته أصبح إسمها تدريجياً «مدينة الرسول»،

ومخفّفها المدينة.

وتشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينة من كل جانب وصوب، واستولى عليها، ثم دعاهم إلى الشرك والكفر فسوف يقبلون ذلك ويسارعون إليه: «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا».

---

(۱) الكامل فی التّاريخ لابن الأثير ۲/ ۷۰ (ذكر غزوة الخندق وهی غزوة الأحزاب). مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۹۹

من المعلوم أنّ اناساً بهذا الضعف والتزلزل وعدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدو ومحاربته، ولا هم متأهّبون لتقبّل الشهادة فی سبيل اللَّه، بل يستسلمون بسرعة ويغيّرون مسيرهم. وبناءً على هذا، فإنّ المراد من كلمة «الفتنة» هنا هی الشرك والكفر.

ثم يستدعی القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا». وعليه فإنّهم مسؤولون أمام تعهّدهم.

إنّ كل من يؤمن ويبايع النبی صلی الله علیه و آله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام والقرآن ولو كلّفه ذلك حياته.

وبعد أن أفشى اللَّه سبحانه نيّة المنافقين وبيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنبی صلی الله علیه و آله: «قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فی غزوة احد، حيث أشار القرآن فی الآية (۱۵۳) من سورة آل عمران إلى فئة اخرى من المنافقين المثبطين للعزائم، والمفرّقين لوحدة الصف.

والثانی: ألم تعلموا أنّ مصائركم بيد اللَّه، ولن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة اللَّه وقدرته ومشيئته: «قُلْ مَن ذَا الَّذِی يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

بناءً على هذا، فإنّكم إذا علمتم أنّ كل مقدّراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره فی الجهاد الذی هو أساس العزة والكرامة والشموخ فی الدنيا وعند اللَّه، وحتى إذا تقرّر أن تنالوا وسام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِی يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِی الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (۲۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱

فئة المعوّقين: أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضاً إلى اعتزال القتال، فقالت: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».

«المعوّقين»: من مادة «عوق» على زنة (شوق) تعنی منع الشیء ومحاولة صرف الآخرين عنه؛ و «البأس»: فی الأصل يعنی (الشدّة)، والمراد منه هنا الحرب.

وتضيف الآية التالية: إنّ الدافع لكل تلك العراقيل التی وضعوها أمامكم هو أنّهم بخلاء:

«أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ» «۱». لا- فی بذل الأرواح فی ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتى فی المعونات الماديّة لتهيئة مستلزمات الحرب، وفی المعونة البدنية فی حفر الخندق، بل ويبخلون حتى فی المساعدة الفكرية، بخلًا يقترن بالحرص المتزايد يومياً.

وبعد تبيان بخل هؤلاء وامتناعهم عن أیّ نوع من المساعدة والإيثار، تتطرق الآية إلى بيان صفات اخرى لهم، والتی لها صفة العموم

فى كـل المنـافقين، وفى كـل العصور والقرون، فتقول: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

فلأنّهم لما لم يـذوقوا طعم الإيمان الحقيقى، ولم يستندوا إلى عماد قوى فى الحياة، فإنّهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماماً عندما يواجهون حادثاً صعباً ومأزقاً حرجاً، وكأنّهم يواجهون الموت.

ثم تضيف الآية: «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ». فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون والمتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون ويطلبون سهمهم من الغنائم، وهم كانوا أبخل من الجميع فى المشاركة فى الحرب والثبات فيها.

«سلقوكم»: من مادة «سَلْق»، وهى فى الأصل بمعنى فتح الشىء بعصبية وغضب، سواء كان هـذا الفتح باليد أو اللسان، وهذا التعبير يستعمل فى شأن من يطلب الشىء بالزجر واسلوب الأمر؛ و «الألسنة الحداد» تعنى الألسنة الجارحة المؤذية، وهى هنا كناية عن الخشونة فى الكلام.

وتشير الآية فى النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، والتى هى أساس كل شقائهم وتعاستهم، فقالت: «أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ». لأنّها لم تكن منبعثة عن الإخلاص والدافع الدينى الإلهى: «وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

---

(۱) «أشحّة»: جمع شحيح، من مادة (الشحّ)، أى البخل المقترن بالحرص.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲

وتجسّد الآية التالية بتصوير أبلغ جبن وخوف هذه الفئة، فتقول: «يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا».

ثم تضيف الآية: «وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ». أى: منتشرون فى الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك ويتتبعون أخباركم: «يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ». فيسألون من كل مسافر آخر الأخبار لئلّا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، وهم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً.

وتضيف الآية فى آخر جملة: وعلى فرض أنّهم لم ينهزموا ويفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم، «وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا». فلا تحزنوا وتقلقوا لذهابهم، ولا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم اناس لا قيمة لهم ولا صفة تحمد، وعدمهم أفضل من وجودهم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (۲۳) لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (۲۵)

دور المؤمنين المخلصين فى معركة الأحزاب: يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة ومخطّطاتهم وأدوارهم فى غزوة الأحزاب، ويتحدّث القرآن المجيد فى نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العالية ورجولتهم وثباتهم وسائر خصائصهم فى الجهاد الكبير.

ويبدأ مقدمة هذا البحث بالحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث كان إمامهم وقدوتهم، فيقول: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳

فإنّ النبى صلى الله عليه و آله خير نموذج لكم، لا فى هـذا المجال وحسب، بل وفى كل مجالات الحياة، فإنّ كلّاً من معنوياته العاليـة، وصبره واستقامته وصموده، وذكائه ودرايته، وإخلاصه وتوجهه إلى اللَّه، وتسلّطه وسيطرته على الحوادث نموذج يحتذى به كل المسلمين.

«الاسوة»: تعنى فى الأصل الحالة التى يتلبّسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر. وبتعبير آخر:

هى التأسـى والإقتداء. وبناءً على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصـفة، ومعنى جملة: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، هو أنّ لكم فى النبى صـلى الله عليه و آله تأسّـياً واقتداءً جيّداً، فإنّكم تسـتطيعون بالإقتداء به واتباعه أن تصلحوا اموركم وتسيروا على الصراط المستقيم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ علياً عليه السـلام مع شـهامته وشـجاعته فى كل ميادين الحرب، والتى تمثّل معركة الأحزاب نموذجاً منها، يقول فى نهج البلاغة فيما روى عنه: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللّه صلى الله عليه و آله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه».

بعد ذكر هذه المقدمة تطرقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت:

«وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا».

هـذا الوعـد إشارة إلى الكلام الـذى كان رسول اللّه قـد تكلّم به من قبل بأنّ قبائل العرب ومختلف أعـدائكم سـيتّحدون ضـدّكم قريباً ويأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر سيكون حليفكم فى النهاية.

إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صدق إخبار اللّه ورسوله، وزاد إيمانهم وتسليمهم.

وتشير الآية التالية إلى فئة خاصة من المؤمنين، وهم الذين كانوا أكثر تأسّـياً بالنبى صلى الله عليه و آله من الجميع، وثبتوا على عهدهم الـذى عاهـدوا اللّه به، وهـو التضـحية فى سبيـل دينه حـتى النفس الأـخير، وإلى آخر قطرة دم، فتقول: «مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ». من دون أن يتزلزل أو ينحرف ويبـدّل العهـد ويغيّر الميثـاق الـذى قطعه على نفسه «وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».

«نحب»: على زنة «عهد» تعنى العهد والنذر والميثاق.

إنّ للآية مفهوماً واسـعاً يشـمل كل المؤمنين المخلصـين الصادقين فى كل عصـر وزمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة فى سبيل اللّه، أم من ثبت على عهده مع ربّه ولم يتزعزع، وكان مستعدّاً للجهاد والشهادة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴

وتبيّن الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين والمنافقين فى جملة قصيرة، فتقول:

«لِّيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا». فلا يبقى صـدق وإخلاص ووفاء المؤمنين بدون ثواب، ولا ضعف وإعاقات المنافقين بدون عقاب.

وتطرح الآيـة الأخيرة من هـذه الآيات- والتى تتحدث عن غزوة الأحزاب وتنهى هذا البحث، فتقول فى الجملة الاولى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا».

«الغيـظ»: يعنى (الغضب) ويـأتى أحيانـاً بمعنى (الغمّ)، وهنـا جـاء مزيجـاً من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قـد بـذلت قصارى جهـدها للإنتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، ورجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ والغضب.

والمراد من «الخير» هنا الإنتصار فى الحرب، ولم يكن إنتصار جيش الكفر خيراً أبـداً، بل إنّه شـرّ، ولمّا كان القرآن يتحـدّث من وجهة نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، وهو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أىّ نصر فى هذا المجال.

وتضـيف فى الجملـة التاليـة: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ». فقـد هيّأ عوامل بحيث انتهت الحرب من دون حاجـة إلى إلتحام واسع بين الجيشـين، ومن دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحـة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصـة قـد مزّقت أوضاع المشـركين من جهة، ومن جهـة اخرى فإنّ اللّه تعالى قـد ألقى الرعب والخوف فى قلوبهم من جنود اللّه التى لا ترى، ومن جهة ثالثة فإنّ الضـربة التى أنزلها على بن أبى طالب عليه السـلام بأعظم بطل من أبطالهم، وهو «عمرو بن عبـد ودّ»، قـد تسـبّبت فى تبدّد أحلامهم وآمالهم، ودفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم ويتركوا محاصرة المدينة ويرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة والخسران.

وتقول الآيـة فى آخر جملـة: «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا». فمن الممكن أن يوجد اناس أقوياء، لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يُقهرون، بل هناك من يقهرهم ومن هو أقوى منهم، إلّاأنّ القوى العزيز الوحيد فى العالم هو اللَّه عزّ وجل الذى لا حدّ لقدرته وقوّته ولا انتهاء.

نتائـج حرب الأـحزاب: لقـد كانت حرب الأحزاب نقطـة انعطاف فى تاريـخ الإسـلام، قلبت كفّـة التوازن العسـكرى والسياسـى لصالح المسلمين إلى الأبد.

ويمكن تلخيص النتائج المثمرة لهذه المعركة فى عدّة نقاط:

أ) فشل مساعى العدو، وتحطّم قواه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵

ب) كشف المنافقين، وفضح الأعداء الداخليين الخطرين.

ج) جبران الذكرى الأليمة لهزيمة احد.

د) قوة المسلمين، وازدياد هيبتهم فى قلوب الأعداء.

ه) إرتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمة التى رأوها فى هذه المعركة.

و) تثبيت مركز النبى صلى الله عليه و آله فى داخل المدينة وخارجها.

ز) تهيؤ الأرضية لتصفية المدينة وإنقاذها من شرّ بنى قريظة.

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۷) غزوة بنى قريظـة إنتصـار عظيم آخر: كان فى المـدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، وهم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت هذه الطوائف قد عاهدت النبى صلى الله عليه و آله على أن لا تعين عـدوّاً له ولا يتجسّـسوا لـذلك العدوّ، إلّاأنّ «بنى قينقاع» قد نقضوا عهدهم فى السـنة الثانية للهجرة، و «بنو النضـير» فى السـنة الرابعـة للهجرة بأعـذار شتّى، وصـمّموا على مواجهة النبى صـلى الله عليه و آله وانهارت مقاومتهم فى النهاية، وطردوا إلى خارج المدينـة. بناءً على هـذا، فإنّ «بنى قريظـة» كانوا آخر من بقى فى المدينة إلى السـنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، فإنّهم اتّصلوا بمشركى العرب، وشهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعـد انتهاء غزوة الأحزاب فإنّ النبى صـلى الله عليه و آله عاد إلى منزله، فنزل عليه جبرئيل بأمر اللَّه وقال: لماذا ألقيت سـلاحك وهـذه الملائكة قد استعدّت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بنى قريظة وتنهى أمرهم.

كان المسلمون فى حرارة الإنتصار، وبنو قريظة يعيشون لوعة الهزيمة المرّة، وهم فى طريقهم إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبة.

هنا نادى مناد من قبل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن توجّهوا إلى بنى قريظة قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعة وتهيّئوا للمسير إلى الحرب، وما كادت الشمس تغرب إلّاوكانت حصون بنى قريظة المحكمة محاصرة تماماً.

لقد اسـتمرت هذه المحاصـرة خمسة وعشـرين يوماً، وأخير سلّموا جميعاً فقُتل بعضهم، واضيف إلى سجل إنتصارات المسلمين إنتصار عظيم آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶

وقـد أشارت الآيات- مورد البحث- إلى هـذه الحادثـة، وأوضـحت أنّ هذه الحادثة كانت نعمة وموهبة إلهية عظيمة، فتقول الآية أوّلًا: «وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ».

«الصياصى»: جمع (صيصية)، أى: القلعة المحكمة، ثم اطلقت على كل وسيلة دفاعية.

ويتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم وحصونهم إلى جانب المدينة فى نقطة مرتفعة.

ثم تضيف الآيـة: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ». وأخيراً بلغ أمرهم أنّكم «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ».

والتعبیر عن هذه الغنائم ب «الإرث» لأنّ المسلمین لم یبذلوا کثیر جهد للحصول علیها، وسقطت فی أیدیهم بسهولة کل تلک الغنائم التی کانت حصیلة سنین طویلة من ظلم وجور الیهود واستثماراتهم فی المدینة.

وتقول الآیة فی النهایة: «وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا».

وهذا إشارة إلی البساتین والأراضی الخاصّة ببنی قریظة، والتی لم یکن لأحد الحق فی دخولها، لأنّ الیهود کانوا یبذلون قصاری جهودهم فی سبیل الحفاظ علی أموالهم وحصرها فیما بینهم.

وأخیراً فإنّ التأکید علی قدرة اللّه عزّ وجل فی آخر آیة: «وَکَانَ اللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرًا». إشارة إلی أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالریاح والعواصف والجنود الغیبیین یوماً، وهزم ناصریهم- أی یهود بنی قریظة- بجیش الرعب والخوف یوماً آخر.

نتائج غزوة بنی قریظة: إنّ الإنتصار علی اولئک القوم الظالمین العنودین قد حمل معه نتائج مثمرة للمسلمین، ومن جملتها:

أ) تطهیر الجبهة الداخلیة للمدینة، واطمئنان المسلمین وتخلّصهم من جواسیس الیهود.

ب) سقوط آخر دعامة لمشرکی العرب فی المدینة، وقطع أملهم من إثارة القلاقل والفتن داخلیاً.

ج) تقویة بنیة المسلمین المالیة بواسطة غنائم هذه الغزوة.

د) فتح آفاق جدیدة للإنتصارات المستقبلیة، وخاصة فتح «خیبر».

ه) تثبیت مکانة الحکومة الإسلامیة وهیبتها فی نظر العدوّ والصدیق، فی داخل المدینة وخارجها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷

یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْوَاجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیَاةَ الدُّنْیَا وَ زِینَتَهَا فَتَعَالَیْنَ أُمَتِّعْکُنَّ وَ أُسَرِّحْکُنَّ سَرَاحاً جَمِیلًا (۲۸) وَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظِیماً (۲۹) یَا نِسَاءَ النَّبِیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ یُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَیْنِ وَ کَانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۳۰) وَ مَنْ یَقْنُتْ مِنْکُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَیْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً کَرِیماً (۳۱)

سبب النّزول

فی تفسیر علی بن إبراهیم: لمّا رجع رسول اللّه صلی الله علیه و آله من غزاة خیبر وأصاب کنز آل أبی الحقیق، قلن أزواجه أعطنا ما أصبت، فقال لهن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قسمته بین المسلمین علی ما أمر اللّه فغضبن من ذلک وقلن لعلّک تری أنّک إن طلقتنا أن لا نجد الأکفاء من قومنا یتزوجونا فانف اللّه لرسوله فأمره أن یعتزلهن فاعتزلهن رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی مشربة أم إبراهیم تسعة وعشرین یوماً حتی حضن وطهرن ثم أنزل اللّه هذه الآیة وهی آیة التخییر فقال «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُل لِّأَزْوَاجِکَ» إلی قوله «أَجْرًا عَظِیمًا» فقامت أم سلمة وهی أوّل من قامت وقالت قد اخترت اللّه ورسوله فقمن کلهن فعانقنه وقلن مثل ذلک فأنزل اللّه «تُرْجِی مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوی إِلَیْکَ مَن تَشَاءُ» الآیة.

التّفسیر

أمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنیا: لم یعزب عن أذهانکم أنّ الآیات الاولی من هذه السورة قد توّجت نساء النبی بتاج الفخر حیث سمّتهن ب «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِینَ». ومن البدیهی أنّ المناصب والمقامات الحساسة التی تبعث علی الفخر تصاحبها مسؤولیات ثقیلة، فکیف یمکن أن تکون نساء النبی امّهات المؤمنین وقلوبهن وأفکارهن مشغولة بحبّ الدنیا ومغریاتها؟

وبغضّ النظر عن ذلک، فإنّ النبی صلی الله علیه و آله یجب أن لا یکون لوحده اسوةً للناس بحکم الآیات السابقة، بل یجب أن تکون عائلته اسوة لباقی العوائل أیضاً، ونساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتی تقوم القیامة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸

فخاطبت الآية الاولى من الآيات أعلاه النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا».

«امتّعكن»: من مادة متعة، تعنى الهدية التى تلائم أحوال المرأة، والمراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر، وإن لم يكن المهر معيّناً فإنّه يعطيها هدية لائقة بحالها بحيث ترضيها، ويتمّ طلاقها وفراقها فى جوّ هادىء مفعم بالحبّ.

«السراح»: فى الأصل من مادة «سرح» أى الشجرة التى لها ورق وثمر. والمراد من «السراح الجميل» فى الآية طلاق النساء وفراقهن فراقاً مقترناً بالإحسان، وليس فيه جبر وقهر.

وتضيف الآية التالية: «وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا».

وبناءً على هذا، فإنّ إظهار عشق اللّه وحبّه، والتعلق بالنبى واليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحبّ والعشق.

وبهذا فقد بيّن اللّه سبحانه تكليف نساء النبى وواجبهن فى أن يكنّ قدوة واسوة للمؤمنات على الدوام.

ومع أنّ المخاطب فى هذه الآية هو نساء النبى إلّاأنّ محتوى الآيات ونتيجتها تشمل الجميع، وخاصة من كان فى مقام قيادة الناس وإمامتهم واسوة لهم.

ثم تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النبى أمام الأعمال الصالحة والطالحة، وكذلك مقامهنّ الممتاز، ومسؤولياتهنّ الضخمة بعبارات واضحة، فتقول: «يَا نِسَاءَ النَّبِيّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

فأنتنّ تعشن فى بيت الوحى ومركز النبوّة، والآخرين ينظرون إليكن ويتخذون أعمالكن نموذجاً وقدوة لهم. بناءً على هذا، فإنّ ذنبكن أعظم عند اللّه، لأنّ الثواب والعقاب يقوم على أساس المعرفة، ومعيار العلم، وكذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئة.

والمراد من «الفاحشة المبيّنة» الذنوب العلنية.

أمّا قوله عزّ وجل: «وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فهو إشارة إلى أن لا تظنّن أنّ عذابكن وعقابكن عسير على اللّه تعالى، وأنّ علاقتكن بالنبى صلى الله عليه و آله ستكون مانعة منه.

أمّا فى الطرف المقابل، فتقول الآية: «وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۹

«يقنت»: من القنوت، وهو يعنى الطاعة المقرونة بالخضوع والأدب، والقرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهن بأن يطعن اللّه ورسوله، ويراعين الأدب مع ذلك تماماً.

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمّن كل المواهب المادية والمعنوية، وتفسيره بالجنة باعتبارها مجمعاً لكل هذه المواهب.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِن اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۳۲) وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (۳۳) وَ اذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (۳۴) هكذا يجب أن تكون نساء النبى: كان الكلام فى الآيات السابقة عن موقع نساء النبى ومسؤولياتهن الخطيرة، ويستمرّ هذا الحديث فى هذه الآيات، وتأمر الآيات نساء النبى صلى الله عليه و آله بسبعة أوامر مهمة؛ فيقول سبحانه فى مقدّمة قصيرة: «يَا نِسَاءَ النَّبِيّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ». فإنّ انتسابكن إلى النبى قد منحكن موقعاً خاصاً بحيث تقدرن على أن تكنّ نموذجاً وقدوة لكل النساء، سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصية.

وبعد هذه المقدمة التى هيّأتهن لتقبّل المسؤوليات وتحمّلها، فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر فى مجال العفّة، فيقول: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ». بل تكلّمن عند تحدثكنّ بجدّ وباسلوب عادى.

إنّ التعبير ب «الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ» تعبير بليغ جدّاً، ومؤدّ لحقيقة أنّ الغريزة الجنسية عندما تكون فى حدود الإعتدال والمشروعية فهى عين السلامة، أمّا عندما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضاً قد يصل إلى حد الجنون.

ويبيّن الأمر الثانى فى نهاية الآية فيقول عزّ وجل: يجب عليكن التحدّث مع الآخرين بشكل لائق ومرضى للّهورسوله، ومقترناً مع الحق والعدل: «وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۰

إنّ جملة «لَاتَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ» إشارة إلى طريقة التحدّث؛ وجملة: «وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا» إشارة إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كل ما قيل، إضافةً إلى أنّه ينفى كل قول باطل لا فائدة فيه ولا هدف من ورائه، وكذلك ينفى المعصية وكل ما خالف الحق.

ثم يصدر الأمر الثالث فى باب رعاية العفة، فيقول: «وَقَرْنَ فِی بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَی .

«قرن»: من مادة «الوقار»، أى الثقل، وهو كناية عن التزام البيوت؛ و «التبرّج»: يعنى الظهور أمام الناس، وهو مأخوذ من مادة (برج)، حيث يبدو ويظهر لأنظار الجميع.

والمراد من «الجاهلية» أنّها الجاهلية التى كانت فى زمان النبى صلى الله عليه و آله، ولم تكن النساء محجّبات حينها- كما ورد فى التواريخ- وكنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهن مع إظهار نحورهن وجزء من صدورهن وأقراطهن وقد منع القرآن الكريم أزواج النبى من مثل هذه الأعمال.

ولا شك أنّ هذا الحكم عام، والتركيز على نساء النبى من باب التأكيد الأشدّ.

وأخيراً يصدر الأمر الرابع والخامس والسادس فيقول سبحانه: «وَأَقِمْنَ الصَّلوةَ وَءَاتِينَ الزَّكوةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

إنّ هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست مختصة بنساء النبى، بل هى للجميع، وإن أكّدت عليهن.

ويضيف اللّه سبحانه فى نهاية الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا».

إنّ التعبير ب (إنّما)- والذى يدل على الحصر عادةً- دليل على أنّ هذه المنقبة خاصة بأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله؛ وجملة (يريد) إشارة إلى إرادة اللّه التكوينية.

وبتعبير آخر: فإنّ المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية وأعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة والاختيار فى إتيانها.

«الرجس»: تعنى الشىء القذر، سواء كان نجساً وقذراً من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها؛ و «التطهير»: الذى يعنى إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس ونفى السيئات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۱

فإنّ الرّوايات الكثيرة جدّاً الواردة فى كتب الفريقين تنفى شمول الآية لكل أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله، وتقول: إنّ المخاطبين فى الآية والمقصود بأهل بيت النبى هم خمسة أفراد فقط، وهم: محمّد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وبيّنت الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- سابع وظيفة وآخرها من وظائف نساء النبى، ونبّهتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التى تتاح لهن فى سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام والعلم بها وبأبعادها، فتقول: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَی فِی بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ».

وفيما هو الفرق بين «آيات اللّه» و «الحكمة»؟ قال بعض المفسرين: إنّ كليهما إشارة إلى القرآن، غاية ما فى الأمر أنّ التعبير ب (الآيات) يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن، والتعبير ب (الحكمة) يتحدث عن المحتوى العميق والعلم المخفى فيه.

وأخيراً تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا». وهى إشارة إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال وأخفاها، ويعلم نيّاتكم تماماً، وهو

خبير بأسراركم الدفينة فى صدوركم.

جاهلية القرن العشرين: مرّت الإشارة إلى أنّ جمعاً من المفسرين تورّطوا فى تفسير (الجاهلية الاولى) وكأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهلية اخرى فى العالم بعد ظهور الإسلام، وأنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلّاأنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهليّة القرن العشرين المرعبة، ويجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية.

إذا كان العرب فى زمان الجاهلية يغيرون ويحاربون، وإذا كان سوق عكاظ- مثلًا- ساحة لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّة مرّات، وقتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت فى جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيّتها عشرون مليون إنسان، وجرح وتعوّق أكثر من هذا العدد.

وإذا كانت النساء «تتبرّج» فى زمن الجاهلية ويلقين خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهن ونحورهن وقلائدهن وأقراطهن، ففى عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراة- ونموذجها مشهور فى بريطانيا.

وإذا كانت فى الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاماً فوق بيوتهن ليدعين الناس إلى أنفسهن، ففى جاهلية قرننا اناس يطرحون اموراً ومطالب فى هذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۲

المجال عبر صحف خاصة، يندى لها الجبين، ولجاهلية العرب مئة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية. إنّ ما قلناه كان جانباً من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يبتعدون عن اللَّه تعالى، فإنّهم وإن امتلكوا آلاف الجامعات والمراكز العلمية والعلماء المعروفين، فهم غارقون فى وحل الفساد ومستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية وعلماءها فى خدمة هذه الفجائع والمفاسد أحياناً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لمّا رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب، دخلت على نساء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا.

فأتت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: يا رسول اللَّه! إنّ النساء لفى خيبة وخسار. فقال: «وممّ ذلك»؟ قالت: لأنّهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

شخصية المرأة ومكانتها فى الإسلام: بعد البحوث التى ذكرت فى الآيات السابقة حول واجبات أزواج النبى صلى الله عليه و آله، فقد ورد فى هذه الآية كلام جامع عميق المحتوى فى شأن كل النساء والرجال وصفاتهم، وبعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائدية والأخلاقية والعملية، بيّنت الثواب العظيم المعدّ لهم فى نهايتها. تقول الآية: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ». أى المطيعين لأوامر اللَّه والمطيعات.

وهو إشارة إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذى يجعل الإنسان فى صف المسلمين، ويصبح مشمولًا بأحكامهم، إلّاأنّ «الإيمان» هو التصديق بالقلب والجنان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۳

«قانت»: من مادة «القنوت»، وهى الطاعة المقترنة بالخضوع، وهذه إشارة إلى الجوانب العملية للإيمان وآثاره.

ثم تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنين الحقيقيين، أى حفظ اللسان فتقول:

«وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ».

ولمّا كان الصبر والتحمل والصلابة أمام المشاكل والعقبات هو أساس الإيمان، ودوره ومنزلته فى معنويات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآية بصفتهم الخامسة، فقالت: «وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ».

ونعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقية هو الكبر والغرور وحبّ الجاه، والنقطة التى تقع فى مقابله هى «الخشوع»، لذلك كانت الصفة السادسة: «وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ».

وإذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أيضاً آفةً كبرى، وعبادته والتعلّق به ذلّة خطيرة مرّة، ويقابله الإنفاق ومساعدة المحتاجين، لذلك كانت صفتهم السابعة: «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ».

قلنا: إنّ ثلاثة أشياء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سيبقى فى مأمن من كثير من الآفات والشرور الأخلاقية، وهى: اللسان والبطن والشهوة الجنسية، وقد اشير إلى الأوّل فى الصفة الرابعة، أمّا الشيء الثانى والثالث فقد أشارت إليهما الآية فى الصفتين الثامنة والتاسعة، فقالت: «وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ».

وأخيراً تطرقت الآية إلى الصفة العاشرة التى يرتبط بها الإستمرار فى كل الصفات السابقة والمحافظة عليها، فقالت: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

إنّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع اللّه ويذكروه فى كل حال، وفى كل الظروف، وأن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفلة والجهل، ويبعدوا عن أنفسهم همزات الشياطين ووساوسهم، وإذا ما بدرت منهم عثرة فإنّهم يهبون لجبرانها فى الحال لئلّا يحيدوا عن الصراط المستقيم.

ثم تبيّن الآية فى النهاية الأجر الجزيل لهذه الفئة من الرجال والنساء الذين يتمتعون بهذه الخصائص العشرة بأنّهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التى كانت سبباً فى تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثم كتب لهم الثواب العظيم الذى لا يعرف مقداره إلّاهو.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۴

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً (۳۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (۳۷) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى زينب بنت جحش الأسدية وكانت بنت اميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله فخطبها رسول اللّه صلى الله عليه و آله على مولاه زيد بن حارثة، ورأت أنّه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنّه يخطبها على زيد، أبت وأنكرت وقالت: أنا ابنة عمتك فلم أكن لأفعل. وكذلك قال أخوها عبداللّه بن جحش فنزل: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ» الآية. يعنى عبداللّه بن جحش واخته زينب.

فلما نزلت الآية، قالت: رضيت يا رسول اللّه وجعلت أمرها بيد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكذلك أخوها فأنكحها رسول اللّه صلى الله عليه و آله زيداً.

التّفسير

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، ويجب أن يكون تسليماً لأمر اللَّه تعالى بدون قيد أو شرط، وقد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفة من القرآن الكريم، وبعبارات مختلفة، ومن جملتها الآية أعلاه، والتى تقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة اللَّه تعالى، كما أنّ كل وجودهم من الشعر حتى أخمص القدمين مرتبط به ومذعن له. ولذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة فى نهايتها، حيث تقول: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۵

ثم تناولت الآية التالية قصة «زيد» وزوجته «زينب» المعروفة، والتى هى إحدى المسائل الحساسة فى حياة النبى صلى الله عليه و آله، ولها إرتباط بمسألة أزواج النبى التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

والمراد من نعمة اللَّه تعالى هى نعمة الهداية والإيمان التى منحها لزيد بن حارثة، ومن نعمة النبى صلى الله عليه و آله أنّه كان قد أعتقه وكان يعامله كولده الحبيب العزيز.

ويستفاد من هذه الآية أنّ شجاراً قد وقع بين زيد وزينب، وقد استمرّ هذا الشجار حتى بلغ أعتاب الطلاق، ويستفاد أنّ النبى كان ينصحه دائماً ويمنعه من الطلاق.

ثم تضيف الآية: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَهُ».

إنّ مسألة خشية اللَّه سبحانه توحى بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعى، يجب عنده طرح كل الاعتبارات الشخصية جانباً من أجل اللَّه تعالى ليتحقق هدف مقدس من أهداف الرسالة، حتى وإن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التى يلقيها جماعة المنافقين فى اتّهاماتهم للنبى. لهذا تقول الآية فى متابعة المسألة: إنّ زيداً لمّا أنهى حاجته منها وطلّقها زوّجناها لك: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا». وكان لابدّ أن يتمّ هذا الأمر: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

بناءً على هذا، فإنّ هذه المسألة كانت مسألة أخلاقية وإنسانية، وكذلك كانت وسيلة مؤثرة لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين، وهما: الإقتران بمطلّقة الإبن المتبنّى والزواج من مطلّقة عبد معتق.

«الأدعياء»: جمع «دعى»، أى الإبن المتبنّى؛ و «الوطر» هو الحاجة المهمة.

والتعبير ب «زَوَّجْنَاكَهَا» دليل على أنّ هذا الزواج كان زواجاً بأمر اللَّه.

وتقول الآية الأخيرة فى تكميل المباحث السابقة: «مَّا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ». فحيث يأمره اللَّه سبحانه لا- تجوز المداهنة فى مقابل أمره تعالى، ويجب تنفيذه بدون أىّ تردّد.

وأساساً فإنّ مخالفة السنن والأعراف، واقتلاع الآداب والعادات الخرافية وغير

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۶

الإنسانية يقترن عادةً بالضجيج والغوغاء والصخب، وينبغى أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا الضجيج والصخب مطلقاً، ولذلك تعقب الجملة التالية فتقول: «سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ». فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكلة، بل إنّ الأنبياء جميعاً كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم، وعند سعيهم لإجتثاث اصول الأعراف الفاسدة منها.

ويقول اللَّه سبحانه فى نهاية الآية تثبيتاً لاتّباع الحزم فى مثل هذه المسائل الأساسية:

«وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا».

إنّ التعبير ب «قَدَرًا مَّقْدُورًا» قد يكون إشارة إلى كون الأمر الإلهى حتمياً، ويمكن أن يكون دالًّا على رعاية الحكمة والمصلحة فيه،

إلّاأنّ الأنسب فى مورد الآية أن يراد منه كلا المعنيين.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) من هم المبلّغون الحقيقيون: تشير الآية مورد البحث، ومناسبة للبحث الذى مرّ حول الأنبياء السابقين فى آخر آية من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامة، فتقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

وكذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغى أن لا تخش أحداً فى تبليغ رسالات اللَّه.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السلام فى كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن والأعراف عادةً، ولو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف وتردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون فى أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم وثبات، ويستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المتزنة، ويستمرّوا فى طريقهم دون أن يهتّموا بإصطناع الأجواء ضدهم، وضجيج العوام، وتآمر الفاسدين والمفسدين وتواطئهم، لأنّ كل الحسابات بيد اللَّه سبحانه، ولذلك تقول الآية فى النهاية: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

إنّه يحسب إيثار الأنبياء وتضحياتهم فى هذا الطريق ويجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئة وثرثرتهم ليحاسبهم عليها ويجازيهم.

إنّ الآية المذكورة دليل واضح على أنّ الحزم والإخلاص وعدم الخوف من أى أحد إلّا اللَّه تعالى، شرط أساسى فى التقدم والرقى فى مجال الإعلام والتبليغ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۷

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠) مسألة الخاتمية: هذه الآية هى آخر ما بيّنه اللَّه سبحانه فيما يتعلق بمسألة زواج النبى صلى الله عليه و آله بمطلّقة زيد لكسر عرف جاهلى خاطىء، وتبيّن فى نهايتها حقيقة مهمة اخرى- وهى مسألة الخاتمية- بمناسبة خاصة. تقول أوّلًا: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ». لا زيد ولا غيره، وإذا ما أطلقوا عليه يوماً إنّه «ابن محمّد» فإنّما هو مجرد عادة وعرف ليس إلّا، وما إن جاء الإسلام حتى اجتثّت جذوره، وليس هو رابطة طبيعية عائلية.

ثم تضيف: بأنّ علاقة النبى صلى الله عليه و آله معكم إنّما هى من جهة الرسالة والخاتمية فقط: «وَلكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ». وبهذا قطع صدر الآية الإرتباط والعلاقة النسبية بشكل تام وقطعى، وأثبت ذيلها العلاقة المعنوية الناشئة من الرسالة والخاتمية، ومن هنا يتّضح ترابط صدر الآية وذيلها.

ولا شك أنّ اللَّه العليم الخبير قد وضع تحت تصرفه كل ما كان لازماً فى هذا الباب، من الاصول والفروع، والكليات والجزئيات فى جميع المجالات، ولذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤) تحية اللَّه والملائكة فرج للمؤمنين: لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن مسؤوليات نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وواجباته الثقيلة الملقاة على عاتقه، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن جانباً من وظائف المؤمنين من أجل تهيئة الأرضية اللازمة لهذا التبليغ، وتوسعة أطرافه فى جميع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إليهم جميعاً وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا». ونزّهوه صباحاً ومساءاً «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

لما كانت عوامل الغفلة فى الحياة المادية كثيرة جدّاً، وسهام وسوسة الشياطين ترمى من كل جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلّابذكر اللَّه الكثير.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۸

إنّ «الذكر الكثير»- بالمعنى الواقعى للكلمة- يعنى التوجه إلى اللَّه سبحانه بكل الوجود، لا بلقلقة اللسان وحسب.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أكثر ذكر اللّه أظلّه اللّه فى جنته».

والآيـة التالية بمثابة نتيجة وعلّة غائيّة للتسبيح فى الواقع، فهى تقول: «هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ». أى: من ظلمـات الشـرك والكفر والجهـل إلى نور الإيمان والعلم والتقوى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا». وبسـبب هـذه الرحمـة كتب على نفسه هداية البشر وإرشادهم، وأمر ملائكته أن تعينهم فى ذلك.

«يصلّى»: من مادة «صلاة» وهى هنا تعنى الرعاية والعناية الخاصة، وهذه العناية بالنسبة للّه‌تعنى نزول الرحمة، وبالنسبة للملائكة تعنى الاستغفار وطلب الرحمة.

هـذه هى رحمـة اللّه الخاصـة الـتى تخرج المـؤمنين من ظلمـات الأوهـام والشـهوات والوسـاوس الشـيطانية، وتهـديهم إلى نـور اليقين والإطمئنان والسيطرة على النفس، ولولا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات والعراقيل لا يكون سالكاً.

وتجسّد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين وثوابهم بأروع تجسيد وأقصر عبارة، فتقول: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلمٌ».

«التحية»: من مادة «حياة»، وهى تعنى الدعاء لسلامة وحياة اخرى.

هذا السلام يعنى السلامة من العذاب، ومن كل أنواع الألم والعذاب والمشقة، سلام ممتزج بالهدوء والإطمئنان.

بعد هذه التحية، التى ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت: «وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (۴۷) وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۴۸) السراج المنير: الخطاب فى هذه الآيات موجّه إلى النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ نتيجته لكـل المؤمنين، وبـذلك فإنّهـا تكمـل الآيـات السابقـة التى كانت تبحث فى بعض وظائف المؤمنين وواجباتهم.

لقد جاءت فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنبى صلى الله عليه و آله وجاء

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۹

فى الآيتين الاخريين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، وتكمل إحداها الاخرى.

تقول الآية أوّلًا: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا». فهو من جانب شاهد على أعمال امّته، لأنّه يرى أعمالهم.

وهو من جانب آخر شاهـد على الأنبياء الماضـين الذين كانوا شـهوداً على اممهـم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيدًا» «۱».

ومن جهـة ثالثـة فـإنّ وجودك بما لك من الصـفات والأخلاق والبرامـج والتعليمات البنّاءة، إضافةً إلى تاريخك المشـرق وأعمالك المشرّفة، شاهد على أحقّية دينك، وشاهد على عظمة اللّه وقدرته.

ثم تطرقت الآية إلى الصـفتين الثانية والثالثة فقالت: «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». فهو مبشّـر للمحسـنين بثواب اللّه اللامتناهى ... بالسـلامة والسعادة الخالـدة ... بـالظفر والتوفيق الملىء بـالفخر والإعتزاز ... ونـذير للكافرين والمنافقين من عـذاب اللّه الأليم ... من خسـران كل رأسـمال الوجود، ومن السقوط فى شراك التعاسة فى الدنيا والآخرة.

وأشارت الآية التالية إلى الصفة الرّابعة والخامسة، فقالت: «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا».

إنّ كون النبى صـلى الله عليه و آله (سـراجاً منيراً) إشارة إلى المعجزات وأدلـة أحقيـة دعوة الرسول، وعلامـة صـدقها، فهو سـراج منير شاهد بنفسه على نفسه.

إنّ وجود النبى صلى الله عليه و آله أساس الهدوء والإطمئنان، ونمو روح الإيمان والأخلاق، والخلاصة:

أساس الحياة والحركة، وتأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

وفى الآـيتين الاـخريين من الآيـات مورد البحث بيانـاً لخمسـة واجبات من واجبات النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله فتقول أوّلًا: «وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا». وهى إشارة إلى أنّ مسألة تبشير النبى صلى الله عليه و آله لا يحدّ بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إنّ اللّه سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل والجزاء تماماً.

ثم تناولت الواجب الثانى والثالث، فقالت: «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

لا شك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم يطع الكافرين والمنافقين مطلقاً، إلّاأنّ هذا الموضوع من

---

(١) سورة النّساء/ ٤١.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٧٠

الأهمية بمكان، ولذلك أكّدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النبى صلى الله عليه و آله والتحذير والقدوة للآخرين. ثم تقول فى الأمر الرابع والخامس: «وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

إنّ هذا الجزء من الآية يوحى بأنّهم قد وضعوا النبى صلى الله عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الإستسلام، واستخدموا ضدّه وضدّ أصحابه كل أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان والكلام الفاحش والإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الإقتصادى.

يقول التاريخ: إنّ النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى، ولم يقبلوا عار الإستسلام والهزيمة قطّ، وأخيراً انتصروا فى حركتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا (۴۹) جانب من أحكام الطلاق: إنّ آيات هذه السورة- الأحزاب- جاءت على شكل مجموعات مختلفة، والخطاب فى بعضها موجّه إلى النبى صلى الله عليه و آله، وفى بعضها الآخر إلى كل المؤمنين، وهذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان مراداً بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضاً. تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا».

لقد بيّن اللّه سبحانه هنا حكماً استثنائياً من حكم عدة النساء المطلّقات، وهو أنّ الطلاق إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّة، ومن هذا التعبير يفهم أنّ حكم العدة كان قد بُيّن قبل هذه الآية.

ثم تتطرق الآية إلى حكم آخر من أحكام النساء اللاتى يطلّقن قبل المباشرة الجنسية- والذى سبقت الإشارة إليه فى سورة البقرة أيضاً- فتقول: «فَمَتِّعُوهُنَّ». أى اعطوهن هدية مناسبة.

ولا شك أنّ تقديم هدية مناسبة إلى المرأة يكون واجباً فى حالة عدم تعيين المهر من قبل.

أمّا مقدار هذه الهدية، فقد بيّنه القرآن المجيد فى الآية (٢٣۶) من سورة البقرة إجمالًا بقوله: «مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ». وكذلك قال فى نفس تلك الآية: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُو وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُو».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٧١

وآخر حكم فى الآية مورد البحث هو: «وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا».

«السراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبّة والإحترام، وترك كل خشونة وظلم وجور واحتقار.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَنَاتِ عَمِّكَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالِكَ وَ بَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) يمكنك الزواج من هذه النسوة: بعد ذكر جانب من الأحكام المتعلقة بطلاق النساء، وجّهت الخطاب هنا إلى النبى صلى الله عليه و

آله، وفصّلت الموارد السبعة التى يجوز للنبى الزواج فيها من تلك النسوة:

۱- فقالت أوّلًا: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ». والمراد من هؤلاء النساء- بقرينة الجمل التالية- النساء اللاتى لم يكنّ يرتبطن بالنبى صلى الله عليه و آله برابطة قرابة وقد تزوّجنه، وربّما كانت مسألة دفع المهر لهذا السبب، لأنّ العرف المتّبع آنذاك هو أنّهم كانوا يدفعون المهر نقداً عند زواجهم من الأجنبيات، إضافةً إلى أفضلية التعجيل فى هذا الدفع، وخاصة إذا كانت الزوجة بحاجة إليه إلّاأنّ هذا الأمر ليس من الواجبات على أى حال، إذ يمكن أن يبقى المهر ديناً فى ذمة الزوج إذا ما اتّفق الطرفان على ذلك.

۲- «وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ».

«أفاء»: من مادة «الفىء»، وتقال للأموال التى يحصل عليها الإنسان بدون جهد ومشقة، ولذلك يطلق (الفىء) على الغنائم الحربية، وكذلك الأنفال.

۳- «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ».

إنّ التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلّاأنّ شرط الهجرة من أجل أنّها كانت دليلًا على الإيمان فى ذلك اليوم، وعدم الهجرة دليل على الكفر، أو لأنّ الهجرة تمنحهنّ امتيازاً أكبر وفخراً أعظم، والهدف من الآية هو بيان النساء الفاضلات المؤهّلات لأن يصبحن زوجات للنبى صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۲

۴- «وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ من دون مهر إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». أى أنّ هذا الحكم خاص للنبى صلى الله عليه و آله ولا يشمل سائر المؤمنين «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ».

وبناءً على هذا، فإذا كنّا قد حدّدنا بعض المسائل فيما يتعلق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد كان ذلك استناداً إلى مصلحة حاكمة فى حياتك وحياتهن، ولم يكن أىّ من هذه الأحكام والمقررات اعتباطياً وبدون حساب.

ثم تضيف الآية: «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ». وبالتالى ستكون قادراً على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك فى القيام بهذا الواجب «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إنّ الجملة الأخيرة فى الآية أعلاه إشارة فى الواقع إلى فلسفة هذه الأحكام الخاصة بنبينا الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث تقول: إنّ للنبى ظروفاً لا يعيشها الآخرون، وهذا التفاوت فى الظروف أصبح سبباً للتفاوت فى الأحكام.

إنّ الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل والصعوبات من كاهل النبى صلى الله عليه و آله.

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱)

سبب النّزول

نزلت الآية حين غار بعض امّهات المؤمنين على النبى صلى الله عليه و آله وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير، فأمره اللّه تعالى أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة ...

وعلى أنّه يؤوى من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن ويرضين به، قسم لهنّ، أو لم يقسم، أو قسم لبعضهنّ ولم يقسم لبعضهن أو فضل بعضهن على بعض فى النفقة والقسمة والعشره أو سوّى بينهن، والأمر فى ذلك إليه يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه صلى الله عليه و آله، فرضين بذلك كله واخترنه على هذا الشرط.

التّفسير

حل مشكلة اخرى فى حياة النبى: إنّ قائداً ربّانياً عظيماً كالنبى صلى الله عليه و آله خاصة يجب أن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۳

يكون له هدوء نسبى فى حياته الداخلية ليقوى على التفرغ لحل سيل المشاكل التى أحاطت به من كل جانب.

إنّ الإختلاف بين زوجات النبى، والمنافسة النسوية المعروفة بينهن، قد أثار فى الوقت نفسه عاصفة من الإضطراب داخل بيت النبى ممّا شغل فكره وزاد فى همّه.

هنا منح اللَّه سبحانه نبيّه إحدى الخصائص الاخرى، وأنهى هذه الحوادث والأخذ والعطاء فى الجدل إلى الأبد، وأراح فكر النبى صلى الله عليه و آله من هذه الجهة، وهدأ خاطره وروعه، فقال سبحانه فى هذه الآية: «تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ».

«ترجى»: من «الإرجاء»، أى: التأخير؛ و «تؤوى»، من «الإيواء» ويعنى إستضافة شخص فى بيتك.

ونعلم أنّ أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعددة تقضى بأن يقسّم الزوج أوقاته بينهن بصورة عادلة، ويعبّرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهية الإسلامية ب «حق القسْم».

فكانت إحدى مختصات النبى صلى الله عليه و آله هى سقوط رعاية حق القسم منه بحكم الآية أعلاه، وبسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادراً على أن يقسّم أوقاته كيف يشاء، غير أنّه صلى الله عليه و آله كان يراعى تحقيق العدالة ما أمكن رغم هذه الظروف.

ثم تضيف الآية: وعندما ترغب عن إحداهن وتعتزلها، ثم ترغب فيها فلا تثريب عليك: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ».

وبهذا فليس الخيار بيدك فى البداية وحسب، بل إنّه بيدك حتى فى الأثناء أيضاً، ولذلك يضيف سبحانه: «ذلِكَ أَدْنَى أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ».

وذلك أوّلًا: لأنّ هذا الحكم عام يشملهنّ جميعاً ولا يتفاوتن فيه، وثانياً: إنّ الحكم الذى يشرّع من جانب اللَّه سبحانه إنّما يشرّع لمصلحة مهمة. وبناءً على هذا فيجب الإذعان له برغبة ورضا.

وأخيراً ينهى المطلب بهذه الجملة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا».

لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل إنّ اللَّه يعلم بأى حكم قد رضيتم، وله أذعنتم بقلوبكم، وعن أى حكم لم ترضوا.

وهو سبحانه يعلم أيّاً من أزواجكم تحبّون أكثر، ومن منهن تحظى باهتمام أقل، ويعلم كيف تراعون حكمه وتنفّذوه مع هذا الإختلاف فى الميول والرغبات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۴

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَ لَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) حكم مهم آخر فيما يتعلق بأزواج النبى: لقد بيّن اللَّه سبحانه فى هذه الآية حكماً آخر من الأحكام المتعلقة بزوجات النبى، فقال عزّ وجل: «لَّايَحِلُّ لَكَ النّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ». فالآية منعت الرسول من الزواج الجديد إلّاالإماء والجوارى: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ رَّقِيبًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴)

أسباب النّزول

نزلت آية الحجاب لما بنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بزينب بنت جحش، وأولم عليها. قال أنس: أولم عليها بتمر وسويق، وذبح شاة، وبعثت إليه امى ام سليم بحَيْس فى تور من حجارة، فأمرنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن أدعو أصحابه إلى الطعام،

فدعوتهم، فجعل القوم يجيئون ويأكلون ويخرجون. ثم يجىء القوم فيأكلون ويخرجون. قلت: يا نبى اللَّه! قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه؟ فقال: ارفعوا طعامكم فرفعوا طعامهم، وخرج القوم، وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فى البيت، فأطالوه المكث. فقام صلى الله عليه و آله وقمت معه، لكى يخرجوا. فمشى حتى بلغ حجرة عائشة.

ثم ظن أنّهم قد خرجوا، فرفع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية.

قيل: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة وكانت معهم، فكره صلى الله عليه و آله ذلك، فنزلت آية الحجاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۵

وقيل: إنّ رجلين قالا: أينكح محمّد نساءنا ولا ننكح نساءه واللَّه لئن مات لنكحنا نساءه فنزلت الآية أعلاه وحرّمت الزواج بنساء النبى من بعده مطلقاً، وأنهت هذه المؤامرة.

التّفسير

مرّة اخرى يوجّه الخطاب إلى المؤمنين، لتبيّن الآية جانباً آخر من أحكام الإسلام، وخاصة ما كان مرتبطاً بآداب معاشرة النبى صلى الله عليه و آله وبيت النبوة، فتقول أوّلًا: لا ينبغى لكم دخول بيوت النبى إلّاإذا دعيتم إلى طعام واذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا فى الوقت المقرر، لا أن تأتوا قبل ذلك بفترة وتجلسون فى انتظار وقت الغذاء، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاهُ» «۱».

ومن المسلم أنّ هذا الحكم لا يختص ببيت النبى صلى الله عليه و آله، إذ ينبغى أن لا تدخل دار أى إنسان بدون إذنه كما نقرأ- فى الكافى- فى أحوال النبى صلى الله عليه و آله أنّه عندما كان يريد دخول بيت إبنته فاطمة عليها السلام كان يستأذن، وكان معه جابر بن عبداللَّه يوماً، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه.

إضافةً إلى أنّهم إذا دُعوا إلى طعام فينبغى أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلّا يوقعوا صاحب البيت فى جهد وإحراج فى غير مكانه.

ثم تناولت الحكم الثانى فقالت: «وَلكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا».

وتقول فى الحكم الثالث: «وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ» فلا تجلسوا حلقاً تتحدثون بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك فى بيت النبى، أم فى بيت أى صاحب دعوة.

طبعاً، قد يرغب المضيفون فى مثل هذه الحلقات والمجالس، فهذه الحالة مستثناة.

ثم تبيّن الآية علة هذا الحكم فتقول: «إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِ مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقّ».

من المسلّم أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن يتردد لحظة، ولا يخشى شيئاً، أو يستحيى من شىء فى بيان الحقّ فى الموارد التى لم يكن لها بعد شخصى وخاصّ، إلّاأنّ بيان الحق إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أمّا تبيانه من قبل الآخرين فانّه رائع ومستحسن، ومورد الآية من هذا القبيل أيضاً.

---

(۱) «إناه»: من مادة «أنّى- يأنى» أى حلول وقت الشيء، وتعنى هنا تهيئة الطعام للتناول.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۶

ثم تبيّن الآية الحكم الرابع فى باب الحجاب، فتقول: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ».

ومن الواضح أنّ جعل نساء النبى عرضة لأنظار الناس- وإن كنّ يرتدين الحجاب الإسلامى- لم يكن بالأمر الحسن، ولذلك صدر الأمر إلى الناس إذا سألتم أزواج النبى صلى الله عليه و آله شيئاً تحتاجون إليه، فاسألوهنّ من وراء الستر.

ولذلك بيّن القرآن فلسفة هذا الحكم فقال: «ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ».

ثم تبيّن الآيـة الحكم الخامس بأنّه: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ». فبالرغم من أنّ هذا العمل قد ذكر فى نفس الآية، ولكن معنى الآية فهو يشمل كل نوع من الأذى.

وأخيراً تبيّن الآيـة الحكم السـادس والأـخير فى مجـال حرمـة الزواج بنساء النبى صـلى الله عليه و آله من بعـده، فقالت: «وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا».

وحـذّرت الآية الثانية الناس بشدة، فقالت: «إِن تُبْدُوا شَيًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمًا». فلا تظنّوا أنّ اللّه سـبحانه لا يعلم ما خططتم له فى سبيل ايـذاء النبى صـلى الله عليه و آله سواء ما ذكرتموه، أو الـذى أضـمرتموه، فإنّه تعالى يعلم كل ذلك جيداً، ويعامل كل إنسان بما يناسب عمله.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَ لَا أَبْنَائِهِنَّ وَ لَا إِخْوَانِهِنَّ وَ لَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لَا نِسَائِهِنَّ وَ لَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً (۵۵)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيـان: لمـا نزلت آيـة الحجـاب قـال: الآبـاء والأبنـاء والأقارب يا رسول اللّه، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب؟ فأنزل اللّه تعالى قوله: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ» الآية. أن يروهن ولا يحتجبن عنهم.

التّفسير

الموارد المسـتثناة من قانون الحجاب: لما كان الحكم الـذى ورد فى الآية السابقة حول حجاب نساء النبى مطلقاً، ويمكن أن يوهم هذا الإطلاق بأنّ المحارم مكلفون بتنفيذه أيضاً، وأن يحدّثوهن من وراء حجاب كالأجانب، فقد نزلت هذه الآية وفصلت حكم هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۷

المسألـة. تقول الآيـة: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ».

وبتعبير آخر: فإنّ محارمهن الذين استثنوا فى الآية هم هؤلاء الستّة فقط.

ويتغيّر اسلوب الآية فى نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا». فإنّ الحجاب والستر وأمثالهما وسائل للحفظ والإبعاد عن الذنب والمعصـية ليس إلّا، والدعامة الأساسية هى التقوى فحسب، ولولاها فسوف لا تنفع كل هذه الوسائل.

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

الصـلاة على النبى والسـلام عليه: بعـد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النبى صـلى الله عليه و آله وعدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدث أوّلًا عن محبة اللّه وملائكته للنبى صلى الله عليه و آله وتعظيمهم له، وبعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثم تـذكر العواقب المشؤومـة الأليمـة لُاولئك الـذين يؤذون النبى صـلى الله عليه و آله ثم تبيّن أخيراً عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم والإفتراء عليهم. تقول أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ».

إنّ مقام النبى صـلى الله عليه و آله ومنزلته من العظمـة بمكان، بحيث إنّ خالق عالم الوجود، وكل الملائكـة الموكّلين بتـدبير أمر هـذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلّون عليه، وإذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، ف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، وقد جُعل بينكم بلطف اللّه، فلا تستصغروا قدره، ولا تنسوا مقامه ومنزلته عند اللّه وملائكة السماوات ...

«الصـلاة»: وجمعها «صـلوات»، كلّما نسـبت إلى اللّه سـبحانه فإنّها تعنى «إرسال الرحمـة»، وكلّما نسـبت إلى الملائكة فإنّها تعنى «طلب

الرحمة».

إنّ التعبير ب «يصلّون» وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعنى أنّ اللَّه وملائكته يصلّون عليه دائماً وباستمرار صلاة دائمة خالدة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۸

إنّ «صلّوا» أمر بطلب الرحمة والصلاة على النبى، أمّا «سلّموا» فتعنى التسليم لأوامر نبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو أن يكون بمعنى «السلام» على النبى صلى الله عليه و آله ب (السلام عليك يا رسول اللَّه) وما أشبه ذلك، والذى يعنى طلب سلامة النبى من اللَّه سبحانه.

مما يلفت النظر أنّه قد ورد صريحاً فى كيفية الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله وفى روايات لا تحصى من طرق العامة وأهل البيت، أن يضاف (آل محمّد) عند الصلوات على محمّد صلى الله عليه و آله، وكيفية الصلاة هى: ألّلهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد.

ثم تبيّن الآية التالية النقطة المقابلة للآية السابقة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا».

والمراد من أذى اللَّه سبحانه هو الكفر والإلحاد الذى يُغضِب اللَّه عزّ وجل.

وأمّا ايذاء نبى الخاتم صلى الله عليه و آله فله معنى واسع، ويشمل كل عمل يؤذيه.

بل ويستفاد من الرواية الواردة فى ذيل الآية أنّ ايذاء أهل بيت النبى وخاصة على وفاطمة عليهما السلام، يدخل ضمن الآية، وقد جاء فى المجلد الرابع من صحيح البخارى، أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «فاطمة بضعة منّى فمن أغضبها أغضبنى».

وورد هذا الحديث فى المجلد السابع من صحيح مسلم بهذه العبارة: «إنّما فاطمة بضعة منّى يؤذينى ما آذاها».

وروى هذا المعنى فى حق على عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «۱».

وتتحدث الآية الأخيرة عن ايذاء المؤمنين، وتهتمّ به جدّاً بعد ايذاء اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله فتقول: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا». لأنّ للمؤمن علاقة باللَّه ورسوله عن طريق الإيمان، ولهذا جعل فى مرتبة اللَّه ورسوله هنا.

وتعبير «بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا» إشارة إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنباً حتى يؤذوا.

وفى عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللَّه تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتى يخرج مما قاله فيه».

---

(۱) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۹

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۶۲)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم فى سبب نزول الآية الاولى: فإنّه كان سبب نزولها أنّ النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلّين خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وإذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة والغداة، يقعد الشبّان لهن فى طريقهن فيؤذونهن ويتعرّضون لهنّ فأنزل اللَّه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

التّفسير

تحذير شديد للمؤذين ومختلقی الإشاعات: بعد النهی عن ايذاء رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذی ورد فی الآية السابقة، أكّدت الآية هنا على أحد موارد الأذى، ومن أجل الوقوف أمامه سلكت طريقين، فتقول الآية فی الجزء الأوّل: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ».

إنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات فی أمر الحجاب كبعض النساء المتحلّلات والمتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج يغری السفلة والأراذل ويلفت إنتباههم.

ولما كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات مما كان منهن قبل ذلك، فقد أضافت الآية فی نهايتها: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

فكل ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجة الجهل فإنّ اللّه سيغفره لكن فتبن إلى اللّه وارجعن إليه، ونفذن واجب العفة والحجاب جيداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۰

بعد الأمر الذی صدر فی الآية السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بُعداً آخر لهذه المسألة، أی أساليب الأراذل والأوباش فی مجال الإيذاء، فقالت: «لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

«المرجفون»: من مادة «إرجاف»، وهی إشاعة الأباطيل بقصد ايذاء الآخرين وإحزانهم؛ و «نغرينّك» من مادة «الإغراء»، ويعنی الدعوة إلى تنفيذ عمل، أو تعلّم شیء، دعوة تقترن بالترغيب والتحريض.

ويستفاد من سياق الآية أنّ ثلاث فئات فی المدينة كانت مشتغلة بأعمال التخريب والهدم، وكل منها كان يحقّق أهدافه باسلوب خاصّ، فظهر ذلك كتيار ومخطّط جماعی، ولم تكن له صبغة فردية:

فالفئة الاولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لإقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضدّه.

و الثانية: هم «الأراذل» الذين يعبّر عنه القرآن: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ».

والفئة الثالثة: هم الذين كانوا يبثّون الإشاعات فی المدينة، وخاصةً عندما كان النبی صلى الله عليه و آله وجيش المسلمين يتّجهون إلى الغزوات، لإضعاف معنوياتهم.

وعندما يطردون من هذه المدينة، ويخرجون عن حماية الحكومة الإسلامية، فإنّهم سيكونون «مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا».

«ثقفوا»: من مادة «ثقف» و «ثقافة»، وهی: السيطرة على الشیء بدقّة ومهارة، وهذا التعبير إشارة إلى أنّهم سوف لا يجدون مكاناً آمناً بعد هذا الهجوم، بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقة حتی يجدوهم ويرسلوهم إلى ديار الفناء.

ثم تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديداً، بل: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» فكلما زادت صلافة المفسدين وتجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

ولما كان هذا الحكم سنّة إلهية، فإنّه سوف لا يتغير ولا يتبدل أبداً، حيث إنّ سنّة اللّه ثابتة «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا».

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقياً وجدياً، ليعلموا أنّ هذا المطلب والمصير

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۱

حتمی، وله جذوره ونظائره فی التاريخ، ولا سبيل إلى تغييره وتبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

إنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلامية لا يختص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم والتآمر قد تجاوز الحد على أرض الواقع، وأصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامی بأخطار حقيقية، فما المانع من أن تنفّذ الحكومة الإسلامية أوامر الآيات أعلاه، والتی انزلت على النبی صلى الله عليه و آله ومنحته هذه الصلاحية، وتعبیء الناس للقضاء على جذور الفساد.

والمراد من السنّة فی مثل هذه الموارد: القوانین الإلهیة الثابتة والأساسیة، سواء التکوینیة منها أم التشریعیة، التی لا تتغیّر مطلقاً.

یَسْأَلُکَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَهِْ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا یُدْرِیکَ لَعَلَّ السَّاعَهَْ تَکُونُ قَرِیباً (۶۳) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْکَافِرِینَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِیراً (۶۴) خَالِدِینَ فِیهَا أَبَداً لَا یَجِدُونَ وَلِیّاً وَ لَا نَصِیراً (۶۵) یَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِی النَّارِ یَقُولُونَ یَا لَیْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا (۶۶) وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ کُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِیلَا (۶۷) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَیْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً کَبِیراً (۶۸) یسألون أیّان یوم القیامهْ: کانت الآیات السابقهْ تتحدث عن مؤامرات المنافقین والأشرار، وقد اشیر فی هذه الآیات التی نبحثها إلی واحدهْ اخری من خططهم الهدّامهْ، وأعمالهم المخرّبهْ، حیث کانوا یطرحون أحیاناً هذا السؤال: متی تقوم القیامهْ التی یخبر بها محمّد ویذکر لها کل هذه الصفات؟ وذلک إمّا استهزاءً، أو لزرع الشک فیها فی قلوب البسطاء، فتقول الآیهْ: «یَسْئَلُکَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَهِْ».

ثم تقول الآیهْ- مورد البحث- فی مقام جوابهم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ» ولا یعلمها حتی المرسلون والملائکهْ المقربون.

ثم تضیف بعد ذلک: «وَمَا یُدْرِیکَ لَعَلَّ السَّاعَهَْ تَکُونُ قَرِیبًا».

ثم تطرقت الآیهْ إلی تهدید الکافرین، وتناولت جانباً من عقابهم الألیم، فقالت: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْکَافِرِینَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِیرًا* خَالِدِینَ فِیهَا أَبَدًا لَّایَجِدُونَ وَلِیًّا وَلَا نَصِیرًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۲

الفرق بین «الولی» و «النصیر» هنا هو: أنّ «الولی» من یتولّی القیام بکل الأعمال وتنفیذها، أمّا «النصیر» فهو الذی یعین علی الوصول إلی الهدف المطلوب، إلّاأنّ هؤلاء الکافرین لا ولیّ لهم فی القیامهْ ولا نصیر. ثم بیّنت جزءاً آخر من عذابهم الألیم فی القیامهْ فقالت: «یَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِی النَّارِ». وهذا التقلیب إمّا أن یکون فی لون البشرهْ والوجه حیث تصبح حمراء أو سوداء أحیاناً، أو من جههْ تقلّبهم فی النار ولهیبها حیث تکون وجوههم فی مواجههْ النار أحیاناً، وأحیاناً جوانب اخری (نعوذ باللَّه من ذلک).

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم، و «یَقُولُونَ یَا لَیْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا». فإنّا لو کنّا أطعناهما لم یکن ینتظرنا مثل هذا المصیر الأسود الألیم.

«وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَکُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِیلَا».

«السادهْ»: جمع «سیّد»، وهو المالک العظیم الذی یتولّی إدارهْ المدن المهمهْ أو الدول؛ و «الکبراء» جمع «کبیر» وهو الفرد الکبیر سواء من ناحیهْ السنّ، أو العلم، أو المرکز الاجتماعی وأمثال ذلک. وبهذا فإنّ السادهْ إشارهْ إلی رؤساء البلاد العظام، والکبراء هم الذین یتولّون إدارهْ الامور تحت إشراف اولئک السادهْ، ویعتبرون معاونین ومشاورین لهم، وکأنّهم یقولون: إنّنا قد جعلنا طاعهْ السادهْ محل طاعهْ اللَّه، وطاعهْ الکبراء مکان طاعهْ الأنبیاء، فابتلینا بأنواع الإنحرافات والتعاسهْ والشقاء.

هنا تثور ثائرهْ هؤلاء الجهنمیین الضالین، ویطلبون من اللَّه سبحانه أن یزید فی عذاب مضلّیهم وعقابهم أشدّ عقاب فیقولون: «رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَیْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا کَبِیرًا»- عذاب لضلالهم وعذاب لإضلالهم-.

من المسلم أنّ هؤلاء یستحقون العذاب واللعن، واستحقاقهم للعذاب المضاعف واللعن الکبیر بسبب سعیهم فی سبیل إضلال الآخرین، ودفعهم إلی طریق الإنحراف. یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ آذَوْا مُوسَی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ کَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِیهاً (۶۹) یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِیداً (۷۰) یُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمَالَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِیماً (۷۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۳

بماذا رموا موسی علیه السلام واتّهموه: بعد البحوث التی مرّت فی الآیات السابقهْ حول وجوب إحترام مقام النبی صلی الله علیه و آله، وترک کل ما یؤذیه والإبتعاد عنه، فقد وجّهت هذه الآیات الخطاب للمؤمنین، وقالت: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَکُونُوا کَالَّذِینَ ءَاذَوْا مُوسَی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَکَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِیهًا».

إنّ اختيار موسى عليه السلام من جميع الأنبياء الذين طالما اوذوا، بسبب أنّ المؤذين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبيّ آخر.
والمراد من ايذاء موسى عليه السلام هو بيان حكم كلى عام جامع، لأنّ بنى إسرائيل قد آذوا موسى عليه السلام من جوانب متعددة ... ذلك الأذى الذى لم يكن يختلف عن أذى بعض أهل المدينة (لنبيّنا صلى الله عليه و آله) كإشاعة بعض الأكاذيب وإتّهام زوج النبى بتهم باطلة، وقد مرّ تفصيلها فى تفسير سورة النور، ذيل الآيات (۱۱- ۲۰).
ويستفاد من هذه الآية أنّ من كان عند اللَّه وجيهاً وذا منزلة، فإنّ اللَّه سبحانه يدافع عنه فى مقابل من يؤذيه ويتّهمه بالأباطيل.
قولوا الحق لتصلح أعمالكم: بعد البحوث السابقة حول ناشرى الإشاعات والذين يؤذون النبى، تصدر الآية التالية أمراً هو فى الحقيقة علاج لهذا المرض الإجتماعى الخطير، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».
«القول السديد»: يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد والباطل.
ثم تبيّن الآية التالية نتيجة القول السديد، فتقول: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْملَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ».
إنّ التقوى فى الواقع هى دعامة إصلاح اللسان وأساسه، ومنبع قول الحق، والقول الحق أحد العوامل المؤثرة فى إصلاح الأعمال، وإصلاح الأعمال سبب مغفرة الذنوب، وذلك ل «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» «۱».
ثم تضيف الآية فى النهاية: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا».
وأى فوز وظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحة، وذنوبه مغفورة، وهو عند اللَّه من المبيضّة وجوههم الذين رضى اللَّه عنهم.

---

(۱) سورة هود/ ۱۱۴.

•

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۴
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا (۷۲) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۳) حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر: تكمل هاتان الآيتان- اللتان هما آخر آيات سورة الأحزاب- المسائل المهمة التى وردت فى هذه السورة فى مجالات الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد، والإيثار، والعفة والأدب والأخلاق، وتبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعاً سامياً جدّاً بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة اللَّه العظيمة.
تبيّن الآية أوّلًا أعظم إمتيازات الإنسان وأهمّها فى كل عالم الخلقة، فتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنِ أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا».
ممّا لا شك فيه أنّ إباءها تحمل المسؤولية وامتناعها عن ذلك لم يكن استكباراً منها، بل إنّ إباءها كان مقترناً بالإشفاق، أى الخوف الممتزج بالتوجه والخضوع.
إلّا أنّ الإنسان، اعجوبة عالم الخلقة، قد تقدم: «وَحَمَلَهَا الْإِنسنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».
إنّ الأمانة الإلهية هى قابلية التكامل غير المحدودة والممتزجة بالإرادة والإختيار، والوصول إلى مقام الإنسان الكامل، وعبودية اللَّه الخاصة وتقبّل ولاية اللَّه.
والمراد من عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال هو المقارنة، أى أنّها عندما قارنت حجم هذه الأمانة مع ما لديها من القابليات والإستعدادات أعلنت عدم لياقتها وإستعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.
وبهذا فإنّ السماوات والأرض والجبال قد صرخت جميعاً بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.
ولأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤولية والقيام بها، وأن يتقبّل ولاية اللَّه، ويسير فى طريق العبودية والكمال

ويتّجه نحو المعبود الدائم، وأن يطوى هذا الطريق بقدمه وإرادته، وبالإستعانة بربّه.

وهذا لم يكن قبول اتفاق وعقد، بل كان قبولًا تكوينياً حسب عالم الإستعداد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۵

أمّا وصف الإنسان بهاتين الصفتين- ظلوماً، جهولًا- بسبب نسيان غالب البشر وظلمهم أنفسهم، وعدم العلم بقدر الإنسان ومنزلته ... وبسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قِبل قابيل وأتباعه، ولا يزال إلى اليوم.

وتبيّن الآية التالية علة عرض هذه الأمانة على الإنسان، وبيان حقيقة أنّ أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنافقين والمشركين والمؤمنين، فتقول:

«لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

«نهاية تفسير سورة الأحزاب»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۷

۳۴. سورة سبأ

محتوى السورة: إنّ محتوى هذه السورة يندرج فى خمسة مواضيع:

۱- التوحيد وبعض الآثار الدالة عليه فى عالم الوجود، وبعض صفات اللَّه المقدسة كالوحدانية، والربوبية، والالوهية.

۲- قضية المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السورة.

۳- نبوّة الأنبياء السابقين وبالأخص رسول الخاتم صلى الله عليه و آله والرد على تخرّصات أعدائه حوله، وذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

۴- التعرض لذكر بعض النعم الإلهية العظيمة، ومصير الشاكرين والجاحدين من خلال استعراض جانب من حياة النبى سليمان عليه السلام وحياة قوم سبأ.

۵- الدعوة إلى التفكر والتأمل والإيمان والعمل الصالح، وبيان تأثير هذه العوامل فى سعادة وموفقية البشر.

سمّيت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصة قوم سبأ.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبى ولا رسول إلّاكان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الحمدين جميعاً، سبأ وفاطر، فى ليلة لم يزل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۸

ليلته فى حفظ اللَّه تعالى وكلائه، فإن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، واعطى من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه».

وهذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفى من قراءته بلقلقة اللسان وحسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدمة للتفكير الذى يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (۲) هو المالك لكل شىء والعالم بكل شىء: خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد اللَّه»، وإرتبط (الحمد) فى ثلاثة منها بخلق السموات والأرض وهى (سبأ وفاطر والأنعام) بينما كان مقترناً فى سورة الكهف بنزول القرآن على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وجاء فى سورة الفاتحة تعبيراً جامعاً شاملًا لكل هذه

الإعتبارات: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الحمد والشكر للَّه‌تعالى فى مطلع سورة سبأ هو فى قبال مالكيته وحاكميته تعالى فى الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْأَخِرَةِ».

لذا فإنّ الحاكمية والمالكية فى الدنيا والآخرة له سبحانه، وكل موهبة، وكل نعمة، ومنفعة وبركة، وكل خلقة سوية عجيبة مذهلة، تتعلّق به تعالى، ولذا فإنّ كل مدح وثناء يصدر من أحدٍ على شىء فى هذا العالم، فإنّ مرجعه فى النهاية إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم يضيف تعالى قائلًا: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ».

فقد اقتضت حكمته البالغة أن يُخضع الكون لهذا النظام العجيب، وأن يستقرّ- بعلمه وإحاطته- كل شىء فى محلّه من الكون، فيجد كل مخلوق- كل ما يحتاج إليه- فى متناوله.

إنّ هذا الحمد والثناء لا ـ ينطلق من ألسنة الناس والملائكة فقط، بل تُسمع همهمة الحمد والتسبيح من كل ذرّة فى عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلّاويحمده ويسبّحه تعالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۹

تنتقل الآية التى بعدها إلى التوسّع فى إظهار جانب من علم اللَّه اللامحدود، تناسباً مع وصف الآية السابقة له تعالى بالحكيم والخبير، فيقول سبحانه: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا».

نعم، فقد أحاط علماً بكل حبّة مطر وقطرة ماء تنفذ وتلج فى أعماق الأرض حتى إذا وصلت طبقة صلدة تجمّعت هناك وصارت ذخيرة للإنسان.

ويعلم بالبذور التى تنتقل على سطح الأرض لتنبت فى مكان ما وتصبح شجرة باسقة أو عشباً طريّاً.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها فى أعماق التربة بحثاً عن الماء والغذاء.

يعلم بالموجات الكهربائية والغازات المختلفة، بذرّات الهواء التى تنفذ فى الأرض.

وكذلك، يعلم بالكنوز والدفائن وأجساد الموتى من الإنسان وغيره ... نعم إنّه مطّلع على كل هذا.

وكذلك فهو عارف وعالم بالنباتات التى تخرج من الأرض، والناس الذين يبعثون منها، بالعيون التى تفور بالماء منها، بالغازات التى تتصاعد منها، بالبراكين التى تلوّح بجحيمها.

والخلاصة، فهو عالم بكل الموجودات التى تلج الأرض وتخرج منها أعم مما نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثم يضيف قائلًا: «وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا».

فهو يعلم بحبّات المطر، وبأشعة الشمس التى تنثر الحياة، بأمواج الوحى والشرائع السماوية العظيمة، وبالملائكة التى تهبط إلى الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهية المختلفة، بالأشعة الكونية التى تدخل جو الأرض من الفضاء الخارجى، بالشهب والذرات المضطربة فى الفضاء والتى تهوى نحو الأرض، فهو تعالى محيط بهذا كله.

وكذلك فإنّه يعلم بأعمال العباد التى تعرج إلى السماء، والملائكة التى تقفل صاعدة إلى السماء بعد أداء تكاليفها، وبالشياطين الذين يرتقون إلى السماء لاستراق السمع، وبالأبخرة التى تتصاعد من البحار إلى أعالى السماء لتتكاثف مكونةً سحباً، وبالآهات التى تنطلق من قلب المظلوم متصاعدة إلى السماء ... نعم هو عالم بكل ذلك.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۰

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَ الَّذِينَ سَعَوْا

فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵) أقسم باللَّه لتأتينكم القيامة: تتعرض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد وصفات اللَّه فى نفس الوقت الذى تهىء أرضية لموضوع المعاد، لأنّ مشكلات (بحث المعاد) لا يمكن حلّها إلّاعن طريق العلم اللامتناهى للبارى عزّ وجل، كما سنرى. لذا فإنّ الآيات مورد البحث تبدأ أوّلًا بقوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ».

ويريدون بذلك الفكاك والتحرّر من قيود هذه الإعتقادات؛ الحساب والكتاب والعدل والجزاء، ليرتكبوا ما يحلوا لهم من الأعمال.

ولكن القرآن بناءً على وضوح أدلة القيامة يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بصورة حاسمة وفى معرض بيان النتيجة، فيقول: «قُلْ بَلَى وَرَبّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ».

والتركيز على كلمة «ربّ» لأنّ القيامة فى الأصل من شؤون الربوبية، فكيف يمكن أن يكون اللَّه مالكاً ومربّياً للبشر يقودهم فى سيرهم التكاملى، ثم يتخلّى عنهم فى منتصف الطريق لينتهى بالموت كل شىء.

وبما أنّ أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكّهم- من جانب- فى إمكانية جمع وإعادة بناء أعضاء الإنسان الميّت بعد تبعثرها وتفسّخها فى التراب، وكذلك- من جانب آخر- فى إمكانية وجود من يمكنه النظر فى جميع أعمال العباد التى عملوها فى السر والعلن والظاهر والباطن، لذا فإنّ اللَّه تعالى يضيف فى تتمة الآية الكريمة: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّموَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

والمقصود من «الكتاب المبين» هو «لوح العلم الإلهى اللامتناهى» ضُبط وقُيد كل شىء، بدون أن يجد التغيير والتبديل طريقه إليه.

ثم يوضّح تعالى الهدف من قيام القيامة فى آيتين، أو بتعبير آخر: إعطاء الدليل على لزوم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۱

مثل ذلك العالم بعد عالمنا الحالى لمنكرى القيامة، فيقول تعالى: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

فإن لم يُجاز المؤمنين بصالح عملهم ثواباً، أفلا يعنى ذلك تعطيل أصل العدالة الذى هو أهم أصل من اصول الخلقة؟

«الرزق الكريم» يشمل كل رزق ذى قيمة، ومفهوم ذلك واسع.

وبتعبير آخر: فإنّ «الجنة» بكل نعمها المعنوية والماديّة جمعت فى هذه الكلمة.

ثم تضيف الآية التالية، موضّحة نوعاً آخر من العدالة فيما يخصّ عقاب المذنبين والمجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذّبوا آياتنا وسعوا فى إنكارها وإبطالها وتصوروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائرة قدرتنا ... «وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ».

«الرّجز»: فى الأصل بمعنى الإضطراب وعدم القدرة على حفظ التوازن، ثم اطلقت الكلمة على كل ذنب ورجس. فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب- الذى يتأكّد بإرداف كلمة «الأليم» أيضاً.

«سعو»: من «السعى»، بمعنى كل جهد وجدّ فى أمر، والمقصود منها هنا، الجدّ والجهد فى تكذيب وإنكار آيات الحق وصدّ الناس عن طريق اللَّه سبحانه وتعالى.

«معاجزين»: من «المعاجزة»، بمعنى معجّزين، أى مثبطين، أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوّهمهم بأنّه يستطيع القيام بأيّة جناية يشاء، ثم يستطيع الفرار من سلطة القدرة الإلهية.

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (۷) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ (۸) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۹)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۲

العلماء يرون دعوتك إنّها حق: كان الحديث فى الآيات السابقة عن عمى البصائر، المغفّلين الذين أنكروا المعاد، والآيات مورد البحث، تتحدث عن العلماء والمفكرين الذين صدّقوا بآيات اللّه وسعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها. يقول تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

إنّ عبارة «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»، يشمل كل العلماء والمفكرين فى كل عصر وزمان ومكان.

واليوم، فإنّ هناك كتباً متنوّعة كتبها مفكّرون غربيون وشرقيون حول الإسلام والقرآن، تحوى إعترافات ظاهرة على عظمة الإسلام وصدق الآية مورد البحث.

ويعود تعالى إلى مسألة القيامة والبعث فى الآية التى بعدها، ويكمل البحوث السابقة بطريقة اخرى، فيقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

يبدو أنّ إصرار- هؤلاء الكفار- على إنكار مسألة المعاد يعتمد على أمرين:

الأوّل: توهمّهم أنّ المعاد الذى تحدّث عنه رسول الأكرم صلى الله عليه و آله وهو «المعاد الجسمانى»، أمر يسهل الإشكال عليه والطعن فيه.

الثانى: أنّ الإعتقاد بالمعاد، أو حتى القبول باحتماله- على كل حال- إنّما يفرض على الإنسان مسؤوليات وتعهدات، وهذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطراً حقيقياً.

والعجيب أنّهم: «افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ».

ولكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلًا: «بَلِ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَلِ الْبَعِيدِ».

والحقيقة أنّ الحياة لو حُدّت بهذه الأيام القليلة من عمر الدنيا لكان تصور الموت بالنسبة لكل إنسان كابوساً مرعباً، لهذا السبب نرى أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغّص وعذاب أليم، بينما المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء.

ثم ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين، فيقول تعالى: «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإنّ هذه السماء بكواكبها الثابتة والسيّارة، وكذلك الأرض بكل مدهشاتها وأنواع موجوداتها الحية، وبركاتها ومواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلّاق العظيم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۳

وهذا هو «برهان القدرة» الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهة منكرى المعاد، ومن جملة هذه الآيات، الآية (۸۲) من سورة يس، والآية (۹۹) من سورة الإسراء، والآيتين (۶ و ۷) من سورة ق.

ونشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدمة لتهديد تلك الفئة المتعصبة من ذوى القلوب السوداء، الذين يصّرون على عدم رؤية كل هذه الحقائق، لذا يضيف تعالى قائلًا: «إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ». فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزلة مهولة وتبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر وتدمّر بيوتهم وتهلكهم «أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ». أجل، إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة اللّه تعالى على كل شىء، ولكن يختص بإدراك ذلك كل إنسان يتدبر فى مصيره ويسعى فى الإنابة إلى اللّه: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِكُلّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ».

ونحن المحكومون بقدرته فى كل طرفة عين إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (۱۰) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱) المواهب الإلهية العظيمة لداود: بناء على ما مرّ ذكره فى آخر المجموعة السابقة من الآيات وما قلناه حول «العبد

المنيب» والثواب، ولعلمنا بأنّ هـذا الوصف قد ذكر للنبى داود عليه السـلام (فى الآية ۲۴ من سورة ص)- كما سيرد شرحه بإذن اللَّه- فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حياة هـذا النبى عليه السـلام كمثال للإنابة والتوبة وإكمال البحث السابق، وهى أيضاً تنبيه لكل من يغمط نعم اللَّه ويتناساهـا، ويتخلّى عن عبوديته للَّهعنـد جلوسه على مسـند القـدرة والسـلطة. فى الآيـة الاولى يقول تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا».

فبعـد هذه الإشارة الإجمالية العامة، تبدأ الآية بشـرح وتوضـيح جوانب من الفضائل المعنوية والمادية التى تمتّع بها داود، فيقول تعالى: «يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ».

«أوّبى»: فى الأصـل من «التـأويب» بمعنى الترجيع وإعـادة الصوت فى الحلق، وهـذا الأصـل يسـتعمل أيضاً بمعنى «التوبـة» لأنّ حقيقتها الرجوع إلى اللَّه.

وفى كتـاب كمال الـدين وتمام النعمـة عن الصادق عليه السـلام أنّه قال فى حـديث يـذكر فيه قصـة داود عليه السـلام: «إنّه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّاجاوبته».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۴

وبعـد ذكر هـذه الفضـيلة المعنويـة، تذكر الآية فضـيلة مادية اخرى فتقول: «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ». إنّ ظاهر الآية يدلّل على أنّ ليونة الحديد تمّت لداود بأمر إلهى.

وروى- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه أوحى إلى داود عليه السلام:

نعم العبـد أنت إلّاأنّك تأكل من بيت المال! فبكى داود أربعين صـباحاً، فألان اللَّه له الحديـد، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستّين درعاً فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً فاستغنى عن بيت المال».

الآية التى بعدها تتعرض لشرح صناعة داود للدروع والأمر الإلهى العميق المعنى بهذا الخصوص. يقول تعالى: «أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ».

«سابغات»: جمع «سابغ» وهو الدرع التامّ الواسع؛ و «سرد»: فى الأصل بمعنى حياكة ما يخشن ويغلظ كنسج الدرع وخرز الجلد، واستعير لنظم الحديـد، وجملة «وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ» معناها مراعاة المقاييس المتناسـبة فى حلقات الدرع وطريقة نسـجها، وفى الواقع فإنّ اللَّه تعالى قـد أمر داود بـأن يكون مثالًا يحتـذى لكـل الحرفيين والعمّـال المؤمنين فى العـالم، بمراعاته للإتقان والدقـة فى العمل من حيث الكمّ والكيف فى المصنوعات، ليستطيع بالتالى مستهلكوها استعمالها براحة وبشكل جيّد، والإفادة من متانتها.

ثم تُختم الآية بخطاب لداود وأهل بيته: «وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فالهدف ليس صناعة الدروع وتحقيق الربح، بل إنّ ذلك كله وسيلة فى المسير باتّجاه العمل الصالح، وليستفيد أيضاً داود وأهل بيته.

وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (۱۳) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (۱۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۵

هيبـة سـليمان وموته العبرة: بعـد الحـديث عن المواهب التى أغـدق اللَّه بها على داود عليه السـلام تنتقل الآيات إلى الحـديث عن إبنه سليمـان عليه السـلام، فهـذه الآيـات تشـير إلى ثلاث مواهب عظيمـة خُصّ بها إبنه سـليمان عليه السـلام. يقول تعالى: «وَلِسُلَيْمنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ».

الملفت هنا أنّ اللَّه تبارك وتعالى حينما سـخّر للأب جسماً خشناً وصلباً جدّاً وهو الحديد، نرى أنّه قد سخّر للإبن موجوداً لطيفاً للغاية،

ولكنّ العملين كانا نافعين وإعجازيين.

أمّا كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أكانت كرسياً أم بساطاً)؟ فليس بواضح لنا، والقدر المتيقّن هو أن لا شىء يمثّل مشكلة أو عقبة أمام قدرة اللّه.

بعدئذ تنتقل الآية إلى الموهبة الثانية التى خصّ اللّه بها سليمان عليه السلام، فتقول الآية الكريمة:

«وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ».

«أسلنا»: من مادة «سيلان» بمعنى الجريان؛ و «القطر» بمعنى النحاس، والمقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز وجعلناه كعين الماء.

والأمر ليس واضحاً لدينا وما نعلمه هو أنّ ذلك أيضاً كان من الألطاف الإلهية على هذا النبى العظيم.

أخيراً تنتقل الآية إلى بيان الموهبة الإلهية الثالثة لسليمان عليه السلام وهى تسخير مجموعة كبيرة من الجن لخدمته فتقول الآية: «وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ».

الآية التالية، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامة، التى كان يقوم بها فريق الجن بأمر سليمان. يقول تعالى: «يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ».

فكل ما أراده سليمان من معابد وتماثيل وأوانى كبيرة للغذاء والتى كانت كالأحواض الكبيرة، وقدور واسعة ثابتة، كانت تهيّأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية والعبادية، وبعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، وكانت متناسبة مع أعداد جيشه وعمّاله الهائلة.

«محاريب»: جمع محراب، ويعنى «مكان العبادة» أو «القصور والمبانى الكبيرة» التى بنيت كمعابد.

فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة والجميلة فى ظلّ حكومته الإلهية والعقائدية، حتى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۶

«تماثيل»: جمع تمثال، بمعنى الرسم والصورة والمجسمة؛ «جفان»: جمع «جفنة» بمعنى إناء الطعام؛ «جوابى»: جمع «جابية» بمعنى حوض الماء.

وهنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد فى الآية الكريمة، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السلام أوانى للطعام كبيرة جدّاً، بحيث إنّ كلّاً منها كان كالحوض، لكى يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله وتناول الطعام منه.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالى، أى الإناء الذى يطبخ فيه الطعام؛ و «راسيات»: جمع «راسية» بمعنى ثابتة، والمقصود أنّ القدور كانت من العظمة بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

وتعرج الآية فى الختام وبعد ذكر هذه المواهب الإلهية، إلى آل داود فتخاطبهم: «اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ».

والمقصود من (الشكر) هو (الشكر العملى)، أى الإستفادة من تلك المواهب فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها، والمسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهية فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها هم الندرة النادرة.

آخر آية من هذه الآيات، وهى آخر حديث عن النبى سليمان عليه السلام، يخبرنا اللّه سبحانه وتعالى فيها بطريقة موت ذلك النبى العجيبة والداعية للإعتبار. يقول تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» «۱».

وتضيف الآية بعد ذلك: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ». «تبيّنت»: من مادة «بيّن» بمعنى «العلم والإطّلاع». يعنى أنّ الجن لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثم علموا وفهموا أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتى ذلك الحين فى تعب وآلام الأعمال الشاقة التى كلّفوا بها.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶) ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ

نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

---

(١) «منسأته»: من مادة «نسأ» وهو التأخير فى الوقت؛ والمنسأة: عصا يُنسأ بها الشىء، أى يؤخّر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۷

المدينـة الراقيـة التى أضاعها الكفران: بعـد أن تطرّقت الآيات السابقـة إلى توضـيح النعم الإلهيـة العظيمة التى أولاها اللَّه داود وسـليمان عليهمـا السـلام، وأداء هـذين النّبيين العظيمين وظيفتهمـا بالشـكر، تنتقـل الآيـات أعلاـه إلى الحـديث عن قوم آخرين يمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق .. قوم شملهم اللَّه بأنواع النعم، ولكنهم سلكوا طريق الكفران. يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ».

والمشهور أنّ «سبأ» اسم «أبى العرب» فى اليمن.

ومن الممكن أن يكون «سـبأ» اسم شـخص ابتـداءً، ثم بعدئـذ سـمّى كل أولاده وقومه من بعـده باسـمه، ثم انتقل الاسم ليشـمل مكان سكناهم.

تنتقل الآية بعد ذلك لتجلّى الموقف عن تلك الموهبة الإلهية التى وضعت بين يدى قوم سبأ. فيقول تعالى: «جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ».

ما حصل هو أنّ قوم سـبأ اسـتطاعوا- ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسـية فى منطقتهم- حصر مياه السيول المدمّرة أو الضائعة هدراً على الأقل، والإفادة منها ... وبإحـداث منافذ فى ذلك السدّ سـيطروا تماماً على ذلك الخزّان المائى الهائل، وبالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعة مساحات شاسعة من الأرض.

ثم يضيف القرآن: «كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ».

فبلحاظ النعم المادية هواء نقى، ونسـيم يبعث على السـرور، أرض معطاءة وأشـجار وافرة الثمر، وبلحاظ النعم المعنوية فمغفرة اللَّه التى شملتهم، والتغاضى عن تقصيرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين، لم يخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام.

قال تعالى: «فَأَعْرَضُوا» استهانوا بنعمة اللَّه، توهّموا بأنّ العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا اللَّه، وأسكرتهم النعمة.

وهنا مسّهم سوط الجزاء، يقول تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ». فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحوّلها إلى خرائب ..

«العرم»: من «العرامة» وهى شراسة وصعوبة فى الخلق تظهر بالفعل، ووصف «السيل» بالعرم إشارة إلى شدّته وقابليته على التدمير.

بعدئذٍ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلى: «وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۸

ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ». «اكـل»: بمعنى الطعام؛ و «خمط»: بمعنى النبات المرّ وهو «الأراك»؛ و «أثل»: شـجر معروف.

وبذا يكون قد نبت محل تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة.

يقول تعالى فى الآية التالية بصراحة وكتلخيص واستنتاج لهذه القصة: «ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا».

ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من المسلم أنّه يعمّ كل من كانت لهم أعمال شبيهة بأعمال هؤلاء. وهكذا تضيف الآية:

«وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ».

وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَ قَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»: تعود هـذه الآيات إلى قصـة قوم سـبأ مرّة اخرى، وتعطى شـرحاً وتفصـيلًا أكثر حولهم وحول العقاب الـذى حلّ

بهم، ليكون درساً بليغاً وتربوياً لكل سامع. يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً». فقد جعلنا بينهم وبين الأرض المباركة مدائن وقرىً اخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثانية.

والمقصود من «الأرض المباركة» هو «صنعاء» أو «مأرب» وكلتاهما كانتا فى اليمن.

ولكن العمران وحده لا يكفى، بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»، ولذلك تضيف الآية: «وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ». أى جعلنا بينها فواصل معتدلة: «سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ».

وبهذا فإنّ الفواصل والمسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، وكذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضوارى أو السرّاق أو قطّاع الطرق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۹

ولكن هؤلاء جحدوا نعم اللّه العظيمة ولبسهم الغرور، وأحاطت بهم الغفلة ونشوة النعيم وعدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران وعدم الشكر، وانحرفوا عن الصراط وتركوا أوامر اللّه خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبة من اللّه، «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا». أى طلبوا أن يجعل اللّه المسافات بين قراهم طويلة، كى لا يستطيع الفقراء السفر جنباً إلى جنب مع الأغنياء، ومقصودهم هو أن تكون بين القرى- كما أسلفنا- فواصل صحراوية شاسعة، حتى لا يستطيع الفقراء ومتوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركب، وبذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء وعلامة على القدرة والثروة.

فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم «وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ».

فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلّوا خنجراً ومزّقوا به صدورهم.

ويا له من تعبير رائع، ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول:

إنّنا جازيناهم ودمّرنا بلادهم ومعيشتهم بحيث: «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ».

فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، والتمدّن العريض المشرق، إلّاأخبار على الألسن، وذكريات فى الخواطر، وكلمات على صفحات التاريخ «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ».

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، وبذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كل مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، حتى أضحى تفرّقهم مثلًا يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ».

و فى ختام الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

ذلك لكونهم بصبرهم واستقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى والهوس الجموح، ويقفون بوجه المعاصى، وبشكرهم للّه‌تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به ويقظون، وعليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيّد.

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۰) وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۲۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج۴ ۱۴۹

لا- أحد مجبر على اتّباع الشيطان: هذه الآيات فى الحقيقة تمثّل نوعاً من الإستنتاج العام من قصة «قوم سبأ» التى مرّت فى الآيات السابقة. يقول تعالى فى الآية الاولى من هذه الآيات: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».

بتعبير آخر: فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم وطرده من محضر الكبرياء الإلهى، توقّع وقال: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ

مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» «۱».

وتشير الآيةُ التالية إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانية، والأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، والأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ».

وذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» «۲». ولكن من الواضح أنّه بعد إجابة دعوته من قبل عديمى الإيمان، وعبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآية تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس فى وسوساته، إنّما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممّن هم فى شك: «إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ».

والمقصود من الجملة أعلاه هو التحقق العينى لعلم اللَّه، لأنّ اللَّه سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً بناءً على علمه بالبواطن، والأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للإمتحان، ومن خلال وساوس الشياطين وهوى النفس يُظهر الإنسان ما بداخله- بكامل الإرادة والإختيار- إلى الواقع الفعلى، ويتحقق علم اللَّه سبحانه وتعالى عيناً.

ثم تختتم الآية بتنبيه للعباد: «وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ». حتى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم وأقوالهم تتلاشى فى هذه الدنيا، أو أنّ اللَّه ينسى.

---

(۱) سورة الحجر/ ۳۹ و ۴۰.

(۲) سورة إبراهيم/ ۲۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۱

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَ مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (۲۲) وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَا ذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲۳) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲۴) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَ لَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (۲۶) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷) قلنا فى بداية السورة بأنّ هناك مجموعة من آياتها تتحدث حول المبدأ والمعاد والإعتقادات الحقّة، ومن ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة. فى هذا المقطع من الآيات يجرّ القرآن المشركين فى الواقع إلى المحاكمة، ثم يبيّن تفسّخ منطقهم الواهى بخصوص شفاعة الأصنام.

فى الآية الاولى يقول تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ». ولكن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبداً، ولا يحلّون لكم مشكلة.

ثم تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى: لأنّهم «لَايَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ».

وللإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التى بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى اللَّه تعالى فإنّهم لا يشفعون إلّابإذنه وأمره: «وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ».

وعليه فإنّ العذر الذى يتعلّل به الوثنيون بقولهم: «هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» «۱». ينتهى بهذا الجواب، وهو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى، لم يجز شفاعتها أبداً.

لذا تقول العبارة بعدها بأنّه فى ذلك اليوم تهيمن الوحشة والإضطراب على القلوب، ويستولى القلق على الشافعين والمشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر اللَّه بجواز الشفاعة؟

وعلى من ستجوز تلك الشفاعة؟ وتستمر حالة القلق والإضطراب، حتى حين ... فيزول

---

(۱) سورة يونس/ ۱۸.

ذلك الفزع والإضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهى: «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ».

هنا وحينما يتواجه الفريقان ويتساءلان، (أو أنّ المذنبين يسألون الشافعين): «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». فيجيبونهم: «قَالُوا الْحَقَّ». وما الحق إلّاجواز الشفاعة لمن لم يقطعوا إرتباطهم تماماً مع اللَّه.

وتضيف الآية فى الختام: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

وهذه العبارة متمّمة لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ اللَّه عليّ وكبير فأى أمر يصدره هو عين الحق، وكل حق ينطبق مع أوامره.

فى الآية التالية يلج القرآن الكريم طريقاً آخر لإبطال عقائد المشركين، ويجعل مسألة «الرازقية» عنواناً بعد طرحه لمسألة «الخالقية» التى مرّت معنا فى الآيات السابقة. يقول تعالى: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

بديهى أن لا- أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية والخشبية هى التى تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات فى الأرض.

الجميل أنّه- بدون إنتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلًا: «قُلِ اللَّهُ».

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساساً لدليل واقعى ومتوائم مع غاية الأدب والإنصاف، بطريقة تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور والعناد الذى يمتطيه، وتدفعه إلى التفكر والتأمل. يقول تعالى: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

وهذا إشارة إلى: أنّ عقيدتنا وعقيدتكم متضادّتان، وعليه- بناءً على إستحالة الجمع بين النقيضين- فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حقّ.

وتستمر الآية التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر- ولكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد والغرور. يقول تعالى: «قُل لَّاتُسَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

وهنا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، وتعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، وبذا تتّضح أنّ كل شخص مسؤول أن يعطى تفسيراً لأعماله وأفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها وقبيحها.

الآية التالية توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحق والآخر على الباطل، وإلى أنّ كلّاً منهما مسؤول عن أعماله، إنتقل إلى توضيح كيفية

التحقّق من وضع الجميع، والتفريق بين الحق والباطل ومجازاة كل فريق طبق مسؤوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ اللَّه سوف يجمعنا فى يوم البعث، ويحكم بيننا بالحق، ويفصل بعضنا عن بعض، حتى يعرف المهتدون من الضالين، ويبلغ كل فريق بنتائج أعماله. «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقّ».

وإذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، وكلّاً يدّعى بأنّه على الحق وبأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، ولابدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف، فربوبية اللَّه إقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحق» عن «الباطل» فى النهاية. ويستقرّ كل منهما فى مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم، وفى أى صفّ ستقفون، وهل أحضرتم إجابة لمساءلة اللَّه فى ذلك اليوم؟

وفى آخر الآية يضيف ليؤكّد حتمية ذلك التفريق فيقول: «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ».

هـذان الاسـمان- وهمـا من أسـماء اللَّه الحسنى- أحـدهما يشير إلى قـدرة اللَّه تعـالى على عمليـة فصـل الصـفوف، والآخر إلى علمه اللامتناهى، إذ إنّ عملية تفريق صفوف الحق عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين.

واستخدام كلمة «الربّ» فى الآية أعلاه إشارةً إلى أنّ اللَّه هو المالك والمربّى للجميع، وذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّاً، وهى إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

«فتح»: كما يشير الراغب فى مفرداته، الفتح إزالة الإغلاق والإشكال. وذلك ضربان:

أحـدهما: يـدرك بالبصـر كفتـح الباب ونحوه، وكفتـح القفل، والغلق والمتاع؛ والثانى: يـدرك بالبصـيرة كفتـح الهم وهو إزالـة الغمّ، وذلك ضـروب: أحـدها: فى الامور الدنيويـة كغمّ يُفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، والثانى: فتـح المسـتغلق من العلوم، ... إلى أن يقول: و «فتـح القضـية فتاحاً» فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها». وعليه فإنّ استخدام هذه المفردة هنا لأنّ الحكم والقضاء يتمّ أيضاً هناك، فضلًا عن الفصل والتفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمة «فتح»- ومجازاة كل بما يستحق.

فى الآيـة الأخيرة من هـذه الآيات والتى هى عبارة عن الأمر الخامس للرسول صـلى الله عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّة اخرى فى مسألة التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها. يقول تعالى:

«قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۴

فبعد هذه الجملة مباشرة، وبكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول: «كَلَّا».

فهذه الأشياء لا تستحق أن تعبد أبداً وهذه الأوهام والتصورات ليس لها شىء من الواقعية.

ثم لأجل تأكيـد وتثبيت هـذا المعنى يقول مختتماً الحـديث: «بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». فعزته وقـدرته الخارقـة، تقتضـى الـدخول فى حريم ربوبيته، وحكمته تقتضى توجيه هذه القدرة فى محلها.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۸) وَ يَقُولُونَ مَتَى هـذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۹) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَ لَا تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰) الـدعوة العالميـة: الآيـة الاولى من هـذه الآيات، تتحدث فى نبوّة الرسول صلى الله عليه و آله، والآيات التى تليها تتحدث حول الميعاد.

أشارت الآيات ابتداءً إلى شـمولية دعوة الرسول صـلى الله عليه و آله وعمومية نبوّته لجميع البشر فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

«كافّة»: من مـادة «كفّ» وتعنى الكفّ من يـد الإنسان، وبما أنّ للإنسان يقبض على الأشـياء بكفّه تارةً ويـدفعها عنه بكفّه تارةً اخرى، فلـذا تسـتخدم هـذه الكلمـة للقبض أحياناً، وللمنع اخرى. وهنا بمعنى «الجمع» وفى هـذه الحالة يكون مفهوم الآية «إنّنا لم نرسـلك إلّا لجميع الناس». أى عالمية دعوة الرسول صلى الله عليه و آله.

وبناءً على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يجمع الناس ويحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكرى المعاد كما يلى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ولكن القرآن الكريم يمتنع دائماً عن الإجابـة الصـريحة على هذا السؤال وتعيين زمان وقوع البعث، ويؤكّد أنّ هذه الامور هى من علم اللَّه الخاصّ به سبحانه وتعالى، وليس لأحد غيره الإطّلاع عليها.

لذا فقد تكرّر فى الآية التى بعدها، هذا المعنى بعبارة اخرى. يقول تعالى: «قُل لَّكُم مِّيعَادُ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۵

يَوْمٍ لَّاتَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ».

إنّ إخفاء تأريخ قيام الساعة- حتى على شـخص الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله- كما أسـلفنا- لأنّ اللَّه سبحانه وتعالى أراد لعباده

نوعـاً من حريـة العمل مقترنـة بحالـة من التهيّؤ الـدائم، لأنّه لو كان تاريـخ قيام القيامـة معلوماً فإنّ الجميع سـيغطّون فى الغفلـة والغرور والجهـل حينما يكون بعيـداً عنهم، أمّا حين إقترابه منهم فسـتكون أعمالهم ذات جنبـة اضـطراريه، وفى كلتا الحالتين تتحجّم الأهـداف التربوية للإنسان.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَ قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْـدَاداً وَ أَسَـرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) لمناسبة البحث الوارد فى الآيات السابقـة حول مواقف المشـركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كى يقفوا على خاتمة أعمالهم. أوّلًا يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ».

أى ولا بالكتب السماوية السابقة.

فـإنّ إنكـار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به، نفى نبوّة الرسول صـلى الله عليه و آله من خلال نفى الكتب السـماوية الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّـد على موضوع ورود دلائل على نبوّة الرسول صـلى الله عليه و آله فى التوراة والإنجيل، ولهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب ولا بالكتب التى سبقته.

ثم تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبة الرسول صـلى الله عليه و آله فيقول تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۶

فى حين أنّ «المستضـعفين» الـذين اتّبعوا بجهلهم «المسـتكبرين» وهم الـذين سـلكوا طريق الغرور والتسـلط على الآخرين ورسـموا لهم منهجهم الشـيطانى، هناك: «يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ». إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسؤولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية فى دار الدنيا.

لكن «المستكبرين» لا يبقون على صمتهم بل: «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم».

كلّا، فلسـنا بمسؤولين، فمع إمتلاككم حريـة الإرادة، استسـلمتم لأحاديثنا الباطلة، وكفرتم وألحدتم متناسـين أحاديث الأنبياء المنطقية، «بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ».

ولكن المستضـعفين لا- يقتنعـون بهـذا الجواب، ويعـاودون القول مرّة اخرى لإثبـات جرم المسـتكبرين: «وَقَـالَ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا».

فصـحيح أنّنا كنّا أحراراً فى القبول بـذلك، ولكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسؤولون ومجرمون، خاصة وأنّكم كنتم تتحدثون معنا دائماً من موقع القدرة والسلطة.

لـذا فإنّ الفريقين ينـدمون على ما قـدّمت أيـديهم، المسـتكبرون على إضـلالهم للآخرين، والمستضـعفون على إيمانهم وقبولهم بتلك الأباطيـل المشؤومـة، ولكن لكى لا- يفتضـحوا أكثر فـانّهم يكتمون النـدم حينما يواجهون العـذاب الإلهى ... «وَأَسَـرُّوا النَّدَامَـةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْللَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا».

فهم فى الـدنيا حينما يلتفتون إلى إشـتباههم وينـدمون لم يكونوا يمتلكون الشـجاعة لإظهار نـدمهم الـذى هو أوّل طريق التوبـة وإعادة النظر، وتلك هى الخصلة الأخلاقية الخاصة بهم والتى يمارسونها فى الآخرة أيضاً.

فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم: «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فالآية تشير أيضاً إلى قضية تجسم الأعمال.

التعبير ب «الذين كفروا» يشير إلى أنّ فريقى الغاوين والمغويين المستضعفين وكل الكفار يلقون ذلك المصير.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۷

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۳۴) وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَاداً وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (۳۸) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة فى الغاوين من المستكبرين، فإنّ جانباً آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة اخرى، فتقول الآية المباركة: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ».

«نذير»: من «الإنذار» وهو الإخبار الذى فيه تخويف، وإشارة إلى أنبياء اللّه الذين ينذرون الناس من عذاب اللّه فى قبال الانحرافات والظلامات والذنوب والفساد.

«مترفوها»: جمع «مترف» من مادة «ترف» بمعنى «التوسّع فى النعمة» و (المترف) الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة أى أطغته.

تشير الآية التالية إلى المنطق الأجوف الذى يتمسك به هؤلاء لإثبات أفضليتهم ولاستغفال العوام فتقول: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا».

إنّ اللّه يحبّنا، فقد أعطانا المال الوفير، والقوّة البشرية، وذلك دليل على لطفه بحقّنا وإشارة إلى مقامنا وموقعنا عنده، ولذلك لن نعاقب أبداً «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

الآية التى بعدها تردّ بأرقى اسلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع وتنسفه من الأساس، وبطريق مخاطبة الرسول صلى الله عليه و آله تقول الآية الكريمة: قل لهم: إنّ ربّى يرزق من يشاء ويقدر لمن يشاء، وذلك أيضاً طبق مصالح مرتبطة بامتحان الخلق وبنظام حياة الإنسان، وليس له أى ربط بقدر ومقام الإنسان عند اللّه سبحانه وتعالى: «قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

وعليه فلا يجب إعتبار سعة الرزق دليلًا على السعادة، وقلّته على الشقاء، «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». طبعاً أكثر الجهّال المغفّلين هم كذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۸

ثم تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى .

ولكن ليس معنى هذا هو حثّ الإنسان على ترك السعى والدأب اللازم لإقامة الأود، بل المقصود هو التأكيد على أنّ امتلاك الإمكانات الاقتصادية والقوة البشرية الواسعة لا يمثّل أبداً أيّة قيمة معنوية للإنسان عند اللّه.

ثم تتناول الآية موضوع المعيار الأصلى لتقييم الناس، وما يسبّب قربهم منه (على شكل استثناء منفصل) فتقول: «إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ».

وعليه فجميع المعايير تعود أصلًا إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح».

هنا يشطب القرآن وبصراحة قلّ نظيرها على كل الظنون المنحرفة والخرافات بخصوص عوامل القرب من اللّه.

كلمة «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفة الشيء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفة لأكثر من مرتين»، وقد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى.

«غرفات»: جمع «غرفة» بمعنى الحجرات العلوية من البناء، والتى غالباً ما تكون إضاءتها أكثر وهواؤها أفضل، وبعيدة عن الآفات.

التعبير ب «آمنون» فيما يخصّ أهل الجنة، تعبير جامع يعكس حالة الطمأنينة الروحية والجسدية لهم من كافّة النواحى.

الآية التالية تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذين يسعون ويجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون ولا يتركون غيرهم

يسيرون فى طريق الإيمان، ويتوهّمون أنّهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون فى عذاب أليم يوم القيامة «وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم وأولادهم وكثرة عددهم لتكذيب الأنبياء، وعملوا على إغواء عباد اللَّه.

«معاجزين»: كما ذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوروا أنّهم يستطيعون الفرار من دائرة قدرة اللَّه تعالى وجزائه وعقابه، إلّاأنّ هذا التوهّم باطل وسراب خادع.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۹

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۴۲) نفور المعبودين من عابديهم: تعود هذه الآيات لتؤكّد مرّة اخرى خطأ الذين يتوهمون بأنّ أموالهم وأولادهم سبب لقربهم من اللَّه فتقول: «قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

وفى الكافى: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة».

والجدير بالتذكير هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال والكسب المشروع، وإلّا فلا قبول لغيره عند اللَّه ولا بركة فيه.

فمع أنّ محتوى هذه الآية يؤكّد ما عرضته الآيات السابقة إلّاأنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى: أنّ الآية السابقة التى عرضت نفس المفهوم، كانت تتحدث عن أموال وأولاد الكفار، بينما الآية محل البحث باحتوائها على كلمة «عباد» تشير إلى المؤمنين.

الثانية: الآية السابقة أشارت إلى سعة الرزق وضيقه بالنسبة إلى مجموعتين مختلفتين، فى حين أنّ هذه الآية تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبة لشخص واحد، حيناً يتّسع رزقه وحيناً يضيق.

ولأنّ فريقاً من الأثرياء الظالمين الطغاة كانوا فى صفّ المشركين، وادّعوا بأنّهم يعبدون الملائكة وأنّهم شفعاؤهم يوم القيامة، فقد ردّ القرآن على هذا الإدعاء الباطل فقال: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ».

والهدف من هذا السؤال هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائكة، لكى يخسأ هؤلاء الضالّون ويخيب ظنّهم، ويعلموا بأنّ الملائكة متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۰

الأبد. ذكر (الملائكة) من بين المعبودات التى كان المشركون يعبدونها، إمّا لأنّ الملائكة أشرف المخلوقات التى عبدها الضالّون، أو أنّه من قبيل أنّ عبدة الأوثان كانوا يعتقدون بأنّ الأحجار والأخشاب هى مظهر ونموذج لموجودات علوية (كالملائكة وأرواح الأنبياء)، ولذا عبدوها.

والآن لننظر ماذا تقول الملائكة للإجابة على سؤال البارىء عزّ وجل؟ لقد اختارت الملائكة فى الحقيقة أكثر الأجوبة شمولية وأعظمها أدباً: «قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ».

والمقصود (بالجن) هو (الشيطان) وسائر الموجودات الخبيثة التى شجّعت عبدة الأوثان على ذلك العمل، وعليه فإنّ المراد من عبادة الجن هى تلك الطاعة والإنقياد لأوامرها والرضى بأضاليلها.

لذا- وكاستخلاص للنتيجة- تقول الآية الكريمة التى بعدها: «فَالْيَوْمَ لَايَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا». وبناءً على ذلك فلا الملائكة- الذين هم ظاهراً معبودون- يستطيعون الشفاعة لهم، ولا هم يستطيعون مساعدة بعضهم البعض.

«وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ».

التعبير عن «الكفر» ب «الظلم». أو عن «الكافرين والمشركين» ب «الظالمين»، ذلك لأنّهم قبل كل شيء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبودية للّهعن رؤوسهم.

وفى الحقيقة فإنّهم سيعاقبون يوم القيامة على شركهم وعلى إنكارهم للمعاد.

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۴۳) وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۴۵) بأىّ منطق ينكرون آيات اللّه: تعود هذه الآيات لتكمل البحث الذى تناولته الآيات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۱

السابقة حول المشركين الكفار وأقوالهم يوم القيامة، فتتحدث حول وضع هؤلاء فى الدنيا ومواقفهم عند سماعهم القرآن حتى يتّضح أنّ مصيرهم الاخروى المشؤوم إنّما هو نتاج تلك المواقف الخاطئة التى اتّخذوها إزاء آيات اللّه فى الدنيا. تقول الآية الكريمة الاولى: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ».

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البينات» وهو السعى إلى تحريك حس العصبية فى هؤلاء القوم المتعصبين.

ثم توضّح الآية مقولتهم الثانية التى قصدوا بها إبطال دعوة النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَقَالُوا مَا هذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى».

«إفك»: بمعنى كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه.

وأخيراً، كان الإتّهام الثالث الذى ألصقوه بالرسول صلى الله عليه و آله هو (السحر) كما نرى ذلك فى آخر هذه الآية: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

فى الآية التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الإدّعاءات الواهية، فيقول:

«وَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ».

وهى إشارة إلى أنّ هذه الإدّعاءات يمكنها أن تكون مقبولة فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوة الجديدة، فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها. أمّا من لا يعتمد إلّاعلى فكره الشخصى- بدون أى وحى من السماء- وبدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحق له الحكم لمجرد تلفيقه الخرافات والأوهام.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تهدّد تلك المجموعة المتمردة بكلمات بليغة مؤثرة فتقول:

«وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» فى حين أنّ هؤلاء لم يبلغوا فى القوة والقدرة عشر ما كان لُاولئك الأقوام «وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ».

فمدنهم المدمّرة بضربات العقوبة الإلهية الساحقة ليست ببعيدة عنكم ... فهى فى الشام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآةً للعبرة، واستمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار، وقارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّة الإلهية قابلة للتغيير ولا أنتم أقوى منهم.

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَ فُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۴۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۲

الثورة الفكرية أساس لأىثورة أصيلة: فى هذا المقطع من الآيات والآيات التالية، والتى تشكّل أواخر سورة سبأ المباركة، يُؤمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مرّة اخرى بدعوة هؤلاء بالأدلة المختلفة ليؤمنوا بالحق، ويرجعوا عن ضلالهم. ففى الآية الاولى إشارة إلى اللبنة الأساسية فى كل التحولات والتبدّلات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكّروا» دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلق دليل على العموم، أى فى كل شىء، فى الحياة المعنوية والمادية، فى الامور الكبيرة والصغيرة، وبكلمة: فى كل أمر يجب التفكر أوّلًا، وأهمّ من ذلك كله هو التفكر للعثور على الإجابة للأسئلة الأربعة التالية: من أين جئت؟ لأىّ شىء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ وأين أنا الآن؟

تعبير «صاحبكم» إشارة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وإنّه ليس نكرة بالنسبة لكم، لقد عرفتموه بالأمانة والصدق والإستقامة.

«جنّة»: بمعنى «جنون» وفى الأصل من مادة «جن» بمعنى ستر الشىء عن الحاسّة، ومن كون أنّ (المجنون) سُتر عقله، فقد اطلق عليه هذا التعبير، والجدير بالملاحظة هنا هو أنّ العبارة تريد الكشف عن هذه الحقيقة، وهى أنّ من يدعو إلى التفكر والإنتباه كيف يكون هو مجنوناً.

جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم» تلخص رسالة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى مسألة «الإنذار» أى:

التحذير من المسؤولية، ومن المحكمة الإلهية، والعقاب الإلهى.

فالآية السابقة كانت دعوة للتفكر ونفى أى حالة من عدم التوازن الروحى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وفى مطلع هذه الآيات، يتحدث القرآن فى عدم مطالبة الرسول صلى الله عليه و آله بأى أجر مقابل تبليغ الرسالة. تقول الآية الاولى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

أنا دعوتكم للتفكر، والآن تأمّلوا، واسألوا وجدانكم، أى سبب يدعونى لأن أنذركم من العذاب الإلهى الشديد؟، وأى ربح سوف أجنيه من هذا العمل، لأنّى أساساً لم اطالبكم بأى أجر أو جزاء.

وأنّكم إن لاحظتم أنّى فى بعض ما أخبرتكم به عن اللَّه سبحانه وتعالى، قلت لكم: «لَّا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۳

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى «۱»». فهذا أيضاً يعود نفعه إليكم، لأنّ مودّة ذى القربى ترتبط بمفهوم (الإمامة والولاية) واستمرار خطّ النبوّة، الذى هو ضرورى لإدامة هدايتكم.

ثم تختم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ». فإن كنت اريد أجرى من اللَّه وحده فلأنّه وحده عالم بكل أعمالى ومطّلع على نواياى.

بالإلتفات إلى ما قيل حول حقانية دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، تضيف الآية التى بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنّه ملقى من اللَّه سبحانه وتعالى على قلب الرسول صلى الله عليه و آله: «قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

«يقذف»: من مادة «قذف» وهو الرمى البعيد. والمقصود ب «يقذف بالحق» هو الكتب السماوية والوحى الإلهى على قلوب الأنبياء والمرسلين، ولأنّه سبحانه وتعالى هو علّام الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهيّأة، فينتخبها ويقذف الوحى فيها حتى ينفذ إلى أعماقها.

ويحتمل أن يكون المقصود بتعبير «القذف» هنا هو نفوذ حقّانية القرآن إلى نقاط العالم القريبة والبعيدة، وهى إشارة إلى أنّ هذا الوحى السماوى سيضىء جميع العالم بنوره فى نهاية الأمر.

بعدئذ ولزيادة التأكيد يضيف سبحانه وتعالى: «قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ». وعليه فلن يكون للباطل أى دور مقابل الحق، لا خطّة اولى جديدة، ولا خطّة معادة، ولهذا السبب فلم يتمكّن الباطل من طمس نور الحق ومحو أثره من القلوب.

ثم يضيف تعالى لأجل إيضاح أنّ ما يقوله صلى الله عليه و آله هو من اللَّه، وأنّ كل هداية منه، وأن ليس هناك أدنى خطأ أو نقص فى الوحى الإلهى: «قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى». أى: إنّنى لو اتّكلت على نفسى فسوف أضلّ، لأنّ الإهتداء إلى طريق الحق من بين أكداس الباطل ليس ممكناً بغير إمداد اللَّه، ونور الهداية الذى ليس فيه ضلال وتيه هو نور الوحى الإلهى.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ».

(۱) سورة الشورى ۲۳.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۴

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۴۷) قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۴۸) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا یُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا یُعِیدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِمَا یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ (۵۰) لیس للکافرین مفرّ: الآیات الأخیرة من سورة سبأ تعود إلی الحدیث فی المشرکین المعاندین الذین مرّ الحدیث فیهم فی الآیات السابقة عن طریق مخاطبة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فتصوّر حال تلک المجموعة عند وقوعها فی قبضة العذاب الإلهی، کیف تفکّر فی الإیمان، حین لا یکون لإیمانهم أدنی فائدة. یقول تعالی: «وَلَوْ تَرَی إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّکَانٍ قَرِیبٍ».

وذلک الصراخ والفزع والإضطراب تتحدث عن الدنیا وعذاب الإستئصال، أو لحظة تسلیم الروح، إذ یقول تعالی فی الآیة الأخیرة من هذا المقطع: «وَحِیلَ بَیْنَهُمْ وَبَیْنَ مَا یَشْتَهُونَ کَمَا فُعِلَ بِأَشْیَاعِهِم مِّن قَبْلُ».

والمقصود من جملة «أُخِذُوا مِن مَکَانٍ قَرِیبٍ» هو أنّ هؤلاء الأفراد الکافرین والظالمین، لیس فقط لا یمکنهم الفرار من ید القدرة الإلهیة فحسب، بل إنّ اللَّه سبحانه وتعالی یأخذهم بالعذاب من مکان قریب منهم جدّاً.

الآیة التی بعدها، تعرض وضع هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهی تقول الآیة الکریمة:

«وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ». ولکن «أَنَّی لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّکَانٍ بَعِیدٍ».

نعم فبحلول الموت وعذاب الإستئصال اغلقت أبواب العودة کلیّاً، وحیل کالسدّ المحکم بین الإنسان وبین أن یکفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإیمان فی ذلک الحین، کأنّه کائن من مکان بعید، وهو إیمان إضطراری بسبب الخوف الشدید من العذاب الذی یعاین هناک، مثل ذلک الإیمان أصلًا لا قیمة له.

«التناوش»: من مادة «نوش» بمعنی التناول، وبعضهم اعتبروا أنّها بمعنی «التناول بسهولة». أی کیف یتناولون الإیمان من مکان بعید ولم یکونوا یتناولونه من قریب.

کیف یستطیعون الآن وبعد أن انتهی کل شیء أن ینبروا لجبران خطایاهم ویؤمنوا، فی حین أنّهم قبل هذا کفروا: «وَقَدْ کَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۵

ولم یکتفوا بالکفر فقط، بل إنّهم ألصقوا بالرسول صلی الله علیه و آله وبتعالیمه مختلف أنواع التّهم، وحکموا أحکاماً خاطئة فیما یخصّ (عالم الغیب- والقیامة- والنبوّة): «وَیَقْذِفُونَ بِالْغَیْبِ مِن مَّکَانٍ بَعِیدٍ».

«القذف»: الرمی من بعید؛ و «الغیب» هو عالم ماوراء الحس، والجملة کنایة لطیفة عمّن یطلق أحکامه علی عالم ما وراء الطبیعة بلا سابق علم أو معرفة، کمن یرمی شیئاً من نقطة بعیدة، فقلّما یصیب الهدف، فظنونهم وأمانیهم وأحکامهم لا تصیب أهدافها أیضاً.

ثم یضیف تعالی: «وَحِیلَ بَیْنَهُمْ وَبَیْنَ مَا یَشْتَهُونَ کَمَا فُعِلَ بِأَشْیَاعِهِم مِّن قَبْلُ».

ففی لحظة مؤلمة فصل بینهم وبین کل ثرواتهم وأموالهم، وقصورهم ومقاماتهم، وأمانیهم، فکیف سیکون حالهم؟ هؤلاء الذین کانوا یعشقون الدرهم والدینار، والذین کانت قلوبهم لا تطاوعهم فی التخلّی عن أبسط الإمکانات المادیة ... کیف سیکون حالهم فی تلک اللحظة التی یجب علیهم فیها أن یودّعوا کل ذلک وداعاً أخیراً، ثم یغمضون عیونهم ویسیرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

«نهایة تفسیر سورة سبأ»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۷

۳۵. سورة فاطر

محتوی السورة: یمکن تلخیص آیات هذه السورة فی خمسة أقسام:

۱- قسم مهم من آیات هذه السورة یتحدث حول آثار عظمة اللَّه فی عالم الوجود، وأدلة التوحید.

۲- قسم آخر من آیاتها یبحث فی ربوبیة اللَّه، وعن خالقیته ورزاقیته، وخلق الإنسان من التراب ومراحل تکامل الإنسان.

۳- قسم آخر یتحدث حول المعاد ونتائج الأعمال فی الآخرة، ورحمة اللَّه الواسعة فی الدنیا، وسنّته الثابتة فی المستکبرین.

۴- قسم من الآیات یشیر إلی مسألة قیادة الأنبیاء وجهادهم الشدید والمتواصل ضدّ الأعداء المعاندین، ومواساة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی هذا الخصوص.

۵- القسم الأخیر منها یتعرّض للمواعظ والنصائح الإلهیة فیما یخصّ المواضیع المذکورة أعلاه، ویعتبر مکمّلًا لها.

سمّیت هذه السورة ب «فاطر» أو «الملائکة» لابتداء آیاتها بآیة ذکر فیها «فاطر» و «الملائکة».

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأ سورة الملائکة،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۸

دعته یوم القیامة ثلاثة أبواب من الجنة أن ادخل من أیّ الأبواب شئت».

ومع الإلتفات إلی ما نعلمه من أنّ أبواب الجنة هی تلک العقائد والأعمال الصالحة التی سبّبت الوصول إلی الجنة، فیمکن أن تکون الروایة السالف ذکرها إشارة إلی أبواب القاعدة الإعتقادیة الثلاثیة الأساس «التوحید- المعاد- النبوّة».

ونقول کما قلنا سابقاً بأنّ القرآن برنامج عمل، وتلاوته بدایة للتفکر والإیمان الذی هو بدوره وسیلة للعمل بمحتوی الآیات، وکل هذا الثواب العظیم یتحقق بهذه الشروط.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِکَةِ رُسُلًا أُولِی أَجْنِحَةٍ مَثْنَی وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مَا یَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱) مَا یَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِکَ لَهَا وَ مَا یُمْسِکْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲) یَا أَیُّهَا النَّاسُ اذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَیْرُ اللَّهِ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ (۳) فاتح مغالیق الأبواب: تبدأ هذه السورة بحمد اللَّه والثناء علیه لخلقه هذا الکون الفسیح.

یقول تعالی: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وأصله الشقّ طولًا، لأنّ خلق الموجودات یشبه شقّ ظلمة العدم وظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبیر فیما یخصّ الخلق.

ولأنّ تدبیر امور هذا العالم قد نیطت من قبل الباریء عزّ وجل- بحکم کون عالمنا عالم أسباب- بعهدة الملائکة، فالآیة تنتقل مباشرةً إلی الحدیث فی خلق الملائکة وقدراتها العظیمة التی وهبها اللَّه إیّاها. «جَاعِلِ الْمَلِکَةِ رُسُلًا أُولِی أَجْنِحَةٍ مَّثْنَی وَثُلثَ وَرُبَاعَ یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مَا یَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

إنّ المقصود من الرسالة مفهوم واسع یشمل کلًا من «الرسالة التشریعیة» و «الرسالة التکوینیة».

«أجنحة»: جمع «جناح» ما یستعین به الطائر علی الطیران، وهو بمثابة الید فی الإنسان،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۹

ولأنّ الجناح فی الطائر یستخدم کوسیلة مساعدة علی الإنتقال والحرکة والفعالیة، فقد استخدمت هذه الکلمة کنایة عن وسیلة الحرکة ذاتها وعامل القدرة والاستطاعة؛ والمقصود فی الآیة هو القدرة علی الإنتقال والتمکن من الفعل.

بعد الحدیث عن خالقیة اللَّه سبحانه وتعالی، ورسالة الملائکة الذین هم واسطة الفیض الإلهی، تنتقل الآیات إلی الحدیث عن رحمة اللَّه سبحانه، والتی هی الأساس لکل عالم الوجود. تقول الآیة الکریمة: «مَّا یَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِکَ لَهَا وَمَا یُمْسِکْ فَلَا

مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الخلاصة أنّ تمام خزائن الرحمة عنده، وهو يفيض منها على كل من يراه أهلًا لها.

وتشير الآية التالية إلى «توحيد العبادة» على أساس «توحيد الخالقية والرازقية» فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

فكّروا ملياً ما هو منشأ كل هذه المواهب والبركات والإمكانيات الحياتية التى قيّضت لكم ... «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإذا علمتم أنّ مصدر كل هذه البركات هو اللَّه، فاعلموا أنّ: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

وعليه فكيف تنحرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل، وتسجدون للأصنام بدلًا من السجود للّهسبحانه؟ «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (۶) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷) لا يغرنّكم الشيطان والدنيا: بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقية والرازقية ينتقل القسم الثانى من هذه المجموعة من الآيات إلى الحديث فى تفصيل البرامج العملية للرسول صلى الله عليه و آله ويوجّه الخطاب إليه أوّلًا، ثم لعموم الناس، وبيان المناهج العملية لهم بعد تفصيل البرامج العقائدية سابقاً.

فى البداية تقدم الآيات للرسول درس الإستقامة على الصراط السوى، والذى هو أهمّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۰

الدروس له، فتقول الآية الكريمة: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مّن قَبْلِكَ». فهؤلاء الرسل الذين سبقوك قاوموا، ولم يهدأ لهم بال فى أداء رسالتهم، وأنت أيضاً يجب أن تقف بصلابة، وتؤدّى رسالتك، والبقية بعهدة اللَّه: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فهو الناظر والرقيب على كل شىء، وسوف يحاسب على جميع الأعمال. فهو تعالى لا يتغافل عن المشاق التى تتحمّلها فى هذا الطريق، كما أنّه لن يترك هؤلاء المكذبين المخالفين المعاندين يمضون دون عقاب.

ثم تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشرية، فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فالقيامة والحساب والكتاب والميزان والجزاء والعقاب والجنة والنار كلّها وعود إلهية لا يمكن أن يُخلفها اللَّه تعالى.

ومع الإنتباه إلى هذه الوعود الحقّة: «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ». فلا ينبغى أن تخدعكم الحياة الدنيا، ولا يخدعكم الشيطان بعفو اللَّه ورحمته ..

أجل، إنّ عوامل الإثارة، وزخارف الدنيا وزبارجها، إنّما تريد أن تملأ قلوبكم، وتلهيكم عن تلك الوعود الإلهية العظيمة.

«غَرور»: صيغة مبالغة بمعنى الخدّاع، والظاهر أنّه إشارة الشيطان.

الآية التالية تنذر وتنبّه جميع المؤمنين فيما يخصّ مسألة وساوس الشيطان ومكائده والتى تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: «إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا».

تلك العداوة التى شرع بها الشيطان من أوّل يوم خُلق فيه آدم عليه السلام.

فى آخر الآية يضيف تعالى للتأكيد أكثر: «إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ». «حزب»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى لها فعالية، ولكنّها تطلق عادةً على كل مجموعة تتبع برنامجاً وهدفاً خاصاً.

إنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصى والذنوب ولوث الشهوات إلى الشرك والطغيان والإضطهاد، وبالنتيجة إلى جهنم وبئس المصير.

آخر آية من هذه الآيات توضّح عاقبة «حزب اللَّه» السعيدة وخاتمة «حزب الشيطان» المريرة، فتقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

إنّ الكفر وحده يكفى للخلود فى عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۱

أ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (۸) وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (۱۰) تبيّن ممّا مرّ تقسيم الناس إلى مجموعتين «المجموعة المؤمنة» و «المجموعة الكافرة» أو «حزب اللَّه» و «حزب الشيطان»، وتنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمة لهاتين المجموعتين والتى هى فى الواقع المصدر لسائر برامجهما. تقول الآية الاولى: «أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا». هل هو كمن يرى الحقائق كما هى من حيث الحسن والقبح؟!

إنّ هذه القضية هى المفتاح لكل مصائب الأقوام الضالة والمعاندة، الذين يرون أعمالهم القبيحة أعمالًا جميلة، وذلك لإنسجامها مع شهواتهم وقلوبهم المعتمة.

أمّا من الذى زيّن سوء أعمال هؤلاء فى أنظارهم؟

مما لا شك فيه أنّ العامل الأصلى لذلك هو الهوى والشيطان، ولكن لأنّ اللَّه هو الخالق لذلك الأثر فى أعمالهم، فيمكن نسبة ذلك إلى اللَّه تعالى، لأنّ الإنسان وفى بداية طريق المعاصى يشعر بعدم الإرتياح حين إرتكاب المعصية، لسلامة فطرته وحيوية وجدانه وسلامة عقله، ولكن بتكرار تلك الأعمال يقلّ عدم الإرتياح إلى أن يصل إلى درجة عدم الإكتراث. ثم إذا استمرّ فى ذلك الطريق يمسى القبيح جميلًا فى نظره، حتى يصل إلى أن يتوهّم أنّ ذلك من مفاخره وفضائله، والحال أنّه يغطّ فى بركة آسنةٍ من التعاسة والشقاء.

ثم يضيف القرآن موضّحاً علّة الفرق بين الفريقين فيقول: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ».

وواضح أنّ هذه المشيئة الإلهية توأم لحكمته تعالى، وإنّما تعطى لكل ما يناسبه، لذا فإنّ الآية تضيف فى الختام: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ».

ذلك لأجل: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۲

واستناداً إلى البحوث التى سبقت حول الهداية والضلالة والإيمان والكفر، تنتقل الآية التالية إلى بحث المبدأ والمعاد بعبارات مضغوطة، وتقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآية الكريمة: «وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلِكَ النُّشُورُ». نظام دقيق يتحكّم فى حركة الرياح، ثم فى حركة السحاب، ثم فى نزول قطرات المطر الباعثة للحياة، ثم فى حياة الأرض الميتة، وهو أحسن دليل على أنّ يد القدرة الحكيمة هى من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير اموره.

الآن، وبعد هذا المبحث التوحيدى، تشير الآية إلى الإشتباه الخطير الذى وقع فيه المشركون لإعتقادهم بأنّ العزّة تأتيهم من أصنامهم، فتقول الآية: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا».

«العزّة»: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ... من قولهم: أرض عزاز، أى صُلبة.

ولأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو الذات الوحيدة التى لا تُغلب، وجميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابلة لأن تُغلب، وعليه فإنّ العزّة جميعها من اللَّه، وكل من اكتسب عزّة فمن بحر عزّته اللامتناهى.

فى كتاب كفاية الأثر عن جنادة بن أبى اميّة قال: دخلت على الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السلام فى مرضه الذى توفّى فيه وبين يديه طشت يقذف فيه الدم ويخرج كبده قطعة قطعة، من السم الذى أسقاه معاوية (لعنه اللَّه)، فقلت: يا مولاى ما لك لا تعالج

نفسک؟

فقال: «يا عبد اللَّه، بماذا اعالج الموت؟»

قلت: إنّا للَّهوإنّا إليه راجعون.

ثم التفت إلىّ فقال: «لقد عهد إلينا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد على وفاطمة، ما منّا إلّامسموم أو مقتول». ثم رفعت الطشت وبكى صلوات اللَّه عليه وآله قال: فقلت له: عظنى يابن رسول اللَّه قال: «نعم ... وإذا أردت عزّاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية اللَّه إلى عزّ طاعة اللَّه عزّ وجل ...» الحديث.

ثم توضّح الآية طريق الوصول إلى (العزة)، فيقول تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

فقد فسّر «الكلم الطيب» بأنّه العقائد الصحيحة فيما يخصّ المبدأ والمعاد والنبوّة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۳

ثم تنتقل الآية إلى ما يقابل كل ذلک فتقول: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِکَ هُوَ يَبُورُ».

«يبور»: من مادة «بوار» و «بوران» فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، ولأنّ مثل هذا الكساد يكون سبباً للهلاک، فقد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الهلاک والفناء. وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذلِکَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَ مَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ هذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْکَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲) مع الإلتفات إلى ما كان من حديث فى الآيات السابقة حول التوحيد والمعاد وصفات اللَّه، تتعرض هذه الآيات أيضاً إلى قسم آخر من آيات «الأنفس والآفاق» التى تدلّل على قدرة اللَّه من جانب، وعلى علمه من جانب آخر، وقضية إمكانية المعاد من جانب ثالث.

فى البداية تشير إلى خلق الإنسان فى مراحله المختلفة فتقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا».

وهذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطين- والنطفة- ومرحلة الزوجية.

بديهى أنّ الإنسان من التراب، إذ إنّ آدم عليه السلام خلق من تراب، كما أنّ جميع المواد سواء التى يتشكّل منها جسم الإنسان، أو التى يتغذّى عليها، أو التى تنعقد منها نطفته، جميعها تنتهى إلى مواد هى ذاتها التى يحتويها التراب.

ثم ينتقل إلى المرحلة الرابعة والخامسة، «حمل النساء» و «الولادة» فيقول تعالى: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

أين ذلک التراب الميّت الجامد من الإنسان الحى العاقل الفطن المبتكر؟! وأين تلک النطفة الحقيرة التى تتكوّن من بضع قطرات من الماء المتعفن من ذلک الإنسان الراشد الجميل والمجهز بالحواس والأجهزة العضوية المختلفة.

ثم تشير الآية إلى المرحلتين السادسة والسابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۴

حلقة اخرى، فتذكر مراحل العمر المختلفة والعوامل المؤثّرة فى زيادته ونقصانه فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ». «معمّر»: من مادة «عُمْر» فى الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، والعمر اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة خلال مدة معيّنة.

المقصود من «الكتاب» هو العلم الإلهى اللامحدود.

وأخيراً تختم الآية بهذه الجملة: «إِنَّ ذلِکَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، وبدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفة» وكذلک المسائل المرتبطة بتحديد الجنس، ثم الزوجية، والحمل، والولادة، وزيادة أو نقص العمر سواء بلحاظ القدرة أو بلحاظ العلم والحسابات كلها بالنسبة إليه تعالى سهلة وبسيطة، وذلک بمجموعه يمثّل جانباً من «آيات الأنفس» التى تربطنا ببداية عالم الوجود والتعرّف عليه من جهة، كما تعتبر أدلّة حيّة

على مسألة إمكانية المعاد من جهة اخرى.

إنّ هناك سلسلة من العوامل الطبيعية التى تؤثّر على طول أو قصر العمر، والتى أصبح أكثرها معروفاً عند الناس، كالتغذية الصحيحة بعيداً عن الإفراط والتفريط، العمل وإدامة الحركة، تحاشى المواد المخدّرة، والإدمانات الخطرة والمشروبات الكحولية، الإبتعاد عن المهيّجات المستمرة، التمسك بإيمان قوى يساعد الإنسان على العيش بإطمئنان وهدوء فى الملمّات، ويعطيه القدرة على مواجهة ذلك.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك عوامل اخرى والروايات أكّدت عليها، وكنموذج نورد الروايات التالية:

أ) فى مكارم الأخلاق للطبرسى عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «إنّ الصدقة وصلة الرحم تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار».

ب) وفى وسائل الشيعة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «البر وصدقة السرّ ينفيان الفقر ويزيدان فى العمر، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء».

تشير الآية التالية- التى تعتبر قسماً آخر من آيات الآفاق الدالة على عظمته وقدرته سبحانه وتعالى- إلى خلق البحار وبركاتها وفوائدها، فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ».

فمع أنّ كلا البحرين فى الأصل كانا بصورة قطرات من الماء الصافى والسائغ نزلت من

السماء إلى الأرض، وأنّ كليهما من أصل واحد، إلّاأنّهما يظهران على هيئتين متفاوتتين تماماً وبفوائد متفاوتة أيضاً.

والعجيب أنّ الإنسان يحصل على السمك الطازج من كل منهما: «وَمِن كُلّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا». علاوة على إمكانية الإفادة من كليهما للنقل والإنتقال «وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يستخرج من البحار وسائل الزينة المختلفة من أمثال (اللؤلؤ- والمرجان- والصدف- والدرّ)، وتركيز القرآن على ذكر هذه المسألة لأنّ روح الإنسان تختلف عن الحيوان باحتوائها على أبعاد مختلفة منها «الحس الجمالى» الذى هو منبع ظهور جميع المسائل الذوقية والفنيّة والأدبية التى يؤدّى إشباعها بصورة صحيحة إلى إشاعة السرور فى النفس.

إنّ البضائع التى يتمّ حملها ونقلها عبر البحار، وكذا أعداد المسافرين الذين يتمّ نقلهم من مكان إلى آخر، على درجة من الكثرة بحيث لا يمكن مقايستها مع أيّة من وسائل النقل الاخرى.

وتأكيد القرآن الكريم على مفهوم «لحماً طريّاً» إشارة عميقة المحتوى لفوائد التغذية بهذه اللحوم فى مقابل أضرار اللحوم القديمة والمعلّبة وأمثال ذلك.

جملة «لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ» لها معنى واسع وشامل لكل فعالية اقتصادية تعتمد على البحر.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (۱۳) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (۱۴) تعاود هذه الآيات الإشارة إلى قسم آخر من آيات التوحيد والنعم الإلهية اللامتناهية، لكى تدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها ومعرفة المعبود الحقيقى، وليرجع عن أى شرك أو عبادة خرافية. يقول تعالى: «يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ».

«يولج»: من مادة «إيلاج» بمعنى الدخول فى مضيق. ويمكن أن يكون إشارة إلى أحد

المعنيين أو كليهما، أى: الزيادة والنقص التدريجى فى الليل والنهار على مدار السنة، مما يؤدى إلى حصول الفصول المختلفة بكل آثارها وبركاتها، أو الإنتقال التدريجى من الليل إلى النهار وبالعكس، وذلك بواسطة الشفق والغسق الذى يقلّل من مخاطر الإنتقال

المفاجىء من النور إلى الظلام وبالعكس. ثم يشير إلى مسألة تسخير الشمس والقمر فيقول تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

وأى تسخير أفضل من حركة هذين الكوكبين باتّجاه تحقيق المنافع المختلفة للبشر، وهذا التسخير يعتبر مصدراً لمختلف أنواع البركات فى حياة البشر.

ومع ما تتمتّع به الشمس والقمر فى أفلاكها من مسير دقيق ومنتظم لتؤدّى المنفعة المناسبة والجيّدة للبشر، فإنّ النظام الذى يحكمها ليس بخالد. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: «كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم يقول تعالى مسلّطاً الضوء على نتيجة هذا البحث التوحيدى: «ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

اللَّه الذى قرّر نظام النوم والظلام والحركات الدقيقة للشمس والقمر بكل بركاتها. «لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ».

«قطمير»: هو الأثر فى ظهر النواة، وهنا كناية عن موجودات حقيرة تافهة.

ثم تضيف الآية: «إِن تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ»، لأنّها قطع من الحجر والخشب لا ـ أكثر، جمادات لا ـ شعور لها، «وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ».

إذ اتّضح أنّها لا تملك نفعاً ولا ضرّاً حتى بمقدار (قطمير).

وأدهى من ذلك «وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ».

ما ورد فى هذه الآية شبيه بما ورد فى الآية (۲۸) من سورة يونس حيث يقول تعالى:

«وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ».

ثم يقول تعالى فى ختام الآية من أجل تأكيد أكثر أن لا ـ أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك اللَّه تعالى: «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».

فإذا قالت الآية أنّ الأصنام تتنكّر لكم فى يوم القيامة، وتتضايق منكم، فلا تتعجبوا من هذا القول، فإنّ من يخبركم هو الذى يعلم بكل ما فى هذا الكون بالتفصيل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۷

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۵) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۶) وَ مَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۱۷) وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۱۸) بعد الدعوة المؤكّدة إلى التوحيد ومحاربة أىّ شكل من أشكال الشرك وعبادة الأوثان، يحتمل أن يتوهّم البعض فيقول: ما هى حاجة اللَّه لأن يُعبد بحيث يصرّ كل هذا الإصرار، فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه، واحد أحد، وهو اللَّه تعالى، وكل البشر بل كل الموجودات محتاجة إليه فى جميع شؤونها وفقيرة إليه ومرتبطة بذلك الوجود المستقل بحيث لو قطع إرتباطها به لحظة واحدة لأصبحت عدم فى عدم.

فنحن المحتاجون والفقراء إلى اللَّه ونسلك سبيل تكاملنا عن طريق عبادته وطاعته، ونقترب بذلك من مصدر الفيض اللامتناهى، ونغترف من أنوار ذاته وصفاته.

وعليه فهو «غنى» كما أنّه «حميد» أى إنّه فى عين إستغنائه عن كل أحد، فهو رحيم وعطوف وأهل بكل حمد وشكر.

الإلتفات إلى هذه الحقيقة له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهى تستنزلهم من مركب الغرور والأنانية والطغيان من جانب، وتنبههم إلى أنّهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم يستقلّون به، وأنّهم مؤتمنون على كل ما فى أيديهم من جانب آخر، لكى لا يمدّوا يد الحاجة إلى غيره، ولا يضعوا طوق العبودية لغير اللَّه فى أعناقهم.

ولتأکید هذا الفقر والحاجة فی الإنسان، یقول تعالی فی الآیة التالیة: «إِن یَشَأْ یُذْهِبْکَمْ وَیَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ». فهو تعالی لیس محتاجاً لطاعتکم ولا خائفاً من معصیتکم.

وفی الآیة الثالثة أیضاً یعود التأکید مرّةً ثانیة فیقول تعالی: «وَمَا ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ».

نعم، فإنّما أمره إذا أراد شیئاً أن یقول له کن فیکون، وهذا یصدق علی جمیع عالم الوجود.

الآیة الأخیرة من هذه الآیات تشیر إلی خمسة مواضیع فیما یتعلق بما سبق بحثه فی الآیات السابقة:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۸

الأوّل: من الممکن أن یثیر ما ورد فی الآیة الماضیة من قوله تعالی: «إِن یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَیَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ». سؤالًا فی أذهان البعض من أنّ المقصودین فی هذه الآیة لیس المذنبین فقط، فهل یمکن أن یکون هؤلاء أیضاً معرضین للعقوبات المترتبة علی أعمال الطالحین، ویُحکمون بالفناء علی حد سواء؟ هنا یجیب: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَی .

«وزر»: بمعنی الثقل، وقد اخذ من «وَزَر» (علی زنة کرب) بمعنی الملجأ فی الجبل، وأحیاناً یأتی بمعنی المسؤولیة.

وهذه الجملة ترتبط من جانب بالعدل الإلهی، بحیث یرتهن کل بعمله، ومن جانب آخر فإنّ فیها إشارة إلی شدّة العقوبة یوم القیامة.

هذه المسألة تطرح فی الجملة الثانیة من الآیة بشکل آخر، یقول تعالی: «وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَی حِمْلِهَا لَایُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَلَوْ کَانَ ذَا قُرْبَی » (۱).

وفی الجملة الثالثة من الآیة، ترفع الستارة عن حقیقة أنّ إنذارات الرسول صلی الله علیه و آله لها أثرها فی القلوب المهیّأة لذلک فقط، تقول الآیة الکریمة: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَیْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ».

فإن لم یکن خوف اللَّه متمکّناً من القلب، ولم یکن هناک إحساس بمراقبة قوة غیبیة فی السرّ أو العلن، ولم تنفع الصلاة التی تؤدّی إلی إحیاء القلب والتذکیر باللَّه فی تقویة ذلک الإحساس ... فلن یکون لإنذارات الأنبیاء أثر یذکر.

وفی الجملة الرابعة یعود مرّة اخری إلی حقیقة (إنّ اللَّه غیر محتاج لأحد) فتضیف: «وَمَن تَزَکَّی فَإِنَّمَا یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ».

وفی الختام یتبّه فی الجملة الخامسة إلی أنّ المحسنین والمسیئین إن لم ینالوا جزاء أعمالهم فی الدنیا فلیس لذلک أهمیة ما دام المصیر إلی اللَّه: «وَإِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ».

وَ مَا یَسْتَوِی الْأَعْمَی وَ الْبَصِیرُ (۱۹) وَ لَا الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ (۲۰) وَ لَا الظِّلُّ وَ لَا الْحَرُورُ (۲۱) وَ مَا یَسْتَوِی الْأَحْیَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی الْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِیرٌ (۲۳)

---

(۱) «مثقلة»: بمعنی «الحامل لحمل ثقیل» ویقصد بها هنا حامل الوزر علی عاتقه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۹

وما تستوی الظلمات ولا النور: تذکر الآیات مورد البحث- بما یتناسب مع البحوث التی مرّت حول الإیمان والکفر فی الآیات السابقة- أربعة أمثلة جمیلة للمؤمن والکافر، توضّح بأجلی شکل آثار الإیمان والکفر.

فی المثال الأوّل: شبّه «الکافر والمؤمن» ب «الأعمی والبصیر» حیث تقول الآیة الکریمة:

«وَمَا یَسْتَوِی الْأَعْمَی وَالْبَصِیرُ».

الإیمان نور وإشراق، یعطی البصیرة والمعرفة للإنسان فی النظرة إلی العالم، وفی الإعتقاد، والعمل وفی کل الحیاة، أمّا الکفر فظلمة کالحة، فلا إعتقاد صحیح ونظرة سلیمة عن العالم، ولا عمل صالح.

وبما أنّ العین المبصرة وحدها لا تکفی لتحقق الرؤیة، فیجب توفّر النور والإضاءة أیضاً لکی یستطیع الإنسان الإبصار بمساعدة هذین العاملین، تضیف الآیة التالیة: «وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ».

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون والركود، الظلام مسبّب لكل أنواع المخاطر، أمّا النور والضياء فهو منشأ الحياة والمعيشة والحركة والرشد والنمو والتكامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ». فالمؤمن يستظل فى ظل إيمانه بهدوء وأمن وأمان، أمّا الكافر فلكفره يحترق بالعذاب والألم.

ثم يقول تعالى فى آخر تشبيه: «وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ». المؤمنون حيويون، سعاة متحركون، أمّا الكافر فمثل الخشبة اليابسة، لا فيها طراوة ولا ورق ولا ورد ولا ظل لها، ولا تصلح إلّاحطباً للنار.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ». لكى يسمع دعوة الحق ويلبّى نداء التوحيد ودعوة الأنبياء «وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ».

فمهما بلغ صراخك، ومهما كان حديثك قريباً من القلب، ومهما كان بيانك معبّراً، فإنّ الموتى لا يسعهم إدراك شىء من ذلك، ومن فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصى، وغرق فى التعصب والعناد والظلم والفساد، فبديهى أن ليس لديه الإستعداد لقبول دعوتك.

وعليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، ولا تجزع، فليس عليك من وظيفة إلّاالإبلاغ والإنذار «إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۰

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (۲۴) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۲۶) لا عجب من عدم إيمان: توصّلنا فى الآيات السابقة إلى أنّ هناك أفراداً كالأموات والعميان لا تترك مواعظ الأنبياء فى قلوبهم أدنى أثر، وعلى ذلك فإنّ الآيات مورد البحث تقصد مواساة الرسول صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص وتخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيراً.

أوّلًا تقول الآية الكريمة: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ».

أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشّرهم بثواب اللَّه، وأنذرهم عقابه، سواء استجابوا أو لم يستجيبوا.

ويضيف تعالى فى الآية التالية: «وَإِن يُكَذّبُوكَ». فلا عجب من ذلك، ولا تحزن بسبب ذلك، لأنّه «فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

«البيّنات»: بمعنى الدلائل الواضحة والمعجزات التى تثبت حقانية النبى؛ والمقصود ب «الزبر»: ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبرة والموعظة والنصيحة والمناجاة (كزبور داود)؛ وأمّا «الكتاب المنير» فتلك المجموعة من الكتب السماوية التى تحتوى على الأحكام والقوانين والتشريعات الاجتماعية والفردية المختلفة مثل التوراة والإنجيل والقرآن.

تشير الآية الأخيرة من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعة فتقول: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا» «۱». فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى، وإن استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان، وبعض بالريح العاصفة المدمّرة، وآخرون بالصيحة والصاعقة والزلزلة.

أخيراً لتأكيد وبيان شدّة وقسوة العقوبة عليهم يقول: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ». ذلك تماماً

---

(۱) «أخذت»: من مادة «أخذ» بمعنى حيازة الشىء وتحصيله، لكنّها هنا كناية عن المجازاة، لأنّ الأخذ مقدّمةللعقاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۱

مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهم ثم يسأل الحاضرين: كيف كان عملى؟

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸) العجائب

المختلفة للخلقة: مرّة اخرى تعود هذه الآيات إلى مسألة التوحيد، وتفتح صفحة جديدة من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين ومنكرى التوحيد المتعصبين. أوّلًا تقول الآية الكريمة: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا».

شروع هذه الجملة بالإستفهام التقريرى، وبتحريك حس التساؤل لدى البشر، إشارة إلى أنّ هذا الموضوع جلى إلى درجة أنّ أى شخص إذا نظر من موقع طلب الحقيقة أبصرها.

نعم، يبصر هذه الفواكه والزهور الجميلة والأوراق والبراعم المختلفة بأشكال مختلفة تتولّد من ماء وتراب واحد.

«ألوان»: قد يكون المراد «الألوان الظاهرية للفواكه» أو كناية عن التفاوت فى المذاق والتركيب والخواص المتنوّعة لها.

ثم تشير الآية إلى تنوع أشكال الجبال والطرق الملوّنة التى تمرّ من خلالها وتؤدى إلى تشخيصها وتفريقها الواحدة عن الاخرى، فتقول: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ».

«جدد»: جمع «جدّة» بمعنى الجادة والطريق.

«بيض»: جمع «أبيض» كما أنّ «حمر» جمع «أحمر» وهو إشارة إلى الألوان.

«غرابيب»: جمع «غربيب»- على وزن كبريت- وهو الشبيه للغراب فى السواد.

فإنّ تشكيل الجبال بألوان مختلفة من جهة، وتلوين الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، من جهة اخرى، دليل آخر على عظمة وقدرة وحكمة اللَّه سبحانه وتعالى والتى تتجلّى وتتزيّن كل آن بشكل جديد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۲

وفى الآية التالية تطرح مسألة تنوع الألوان فى البشر والأحياء الاخرى، فيقول تعالى:

«وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ».

فالبشر مع كونهم جميعاً لأب واحد وام واحدة، إلّاأنّهم عناصر وألوان متفاوتة تماماً، فالبعض أبيض البشرة كالوفر، والبعض الآخر أسود كالحبر، وحتى فى العنصر الواحد فإنّ التفاوت فى اللون شديد أيضاً.

ناهيك عن التفاوت والإختلاف الكامل فى بواطنهم عدا أشكالهم الظاهرية، وفى خلقهم ورغباتهم وخصوصيات شخصياتهم وإستعداداتهم وذوقهم.

وبعد عرض تلك الأدلة التوحيدية يقول تعالى فى الختام جامعاً: نعم إنّ الأمر كذلك «كَذلِكَ».

ولأنّ إمكانية الإنتفاع من آيات الخلق العظيمة هذه تتوفّر أكثر عند العباد العقلاء والمفكرين يقول تعالى فى آخر الآية: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمؤُا».

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشية «وهى الخوف من المسؤولية متوافق مع إدراك لعظمة اللَّه سبحانه»، حالة (الخشية) هذه تولّدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية والأنفسية، والتعرّف على حقيقة علم وقدرة اللَّه وغاية الخلق.

الراغب فى مفرداته يقول: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها».

روى- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم».

وفى ختام الآية يقول تعالى، كدليل موجز على ما مرّ: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ».

«عزّته» وقدرته اللامتناهية منبع للخوف والخشية عند العلماء، و «غفرانه» سبب فى الرجاء والأمل عندهم، وبذا فإنّ هذين الاسمين المقدّسين يحفظان عباد اللَّه بين الخوف والرجاء، ونعلم بأنّه لا يمكن إدامة الحركة باتّجاه التكامل بدون الإتصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافىء.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (۳۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۳

التجارة المربحة مع اللَّه: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى مرتبة الخوف والخشية عند العلماء، تشير الآيات مورد البحث إلى مرتبة «الأمل والرجاء» عندهم أيضاً. يقول تعالى أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ».

إنّ «التلاوة» هنا لا تعنى مجرّد القراءة السطحية الخالية من التفكر والتأمل، بل قراءة تكون سبباً وباعثاً على التفكّر، الذى يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح، الذى يربط الإنسان باللَّه من جهة، ومظهر ذلك الصلاة، ويربطه بخلق اللَّه من جهة ثانية، ومظهر ذلك الإنفاق من كل ما تفضّل به اللَّه تعالى على الإنسان.

هذا الإنفاق تارةً يكون (سرّاً)، فيكون دليلًا على الإخلاص الكامل؛ وتارةً يكون (علانية) فيكون تعظيماً لشعائر اللَّه ودافعاً للآخرين على سلوك هذا الطريق.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، توضّح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول: إنّهم يعملون الخيرات والصالحات «لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».

هذه الجملة تشير إلى منتهى إخلاصهم، لأنّهم لا ينظرون إلّاإلى الأجر الإلهى.

وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۳۲) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين المخلصين الذين يتلون الكتاب الإلهى ويطبّقون وصاياه، تتحدث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السماوى وأدلّة حقانيته، وكذلك عن الحملة الحقيقيين لذلك الكتاب، وبذا يستكمل الحديث الذى إفتتحه الآيات السابقة حول التوحيد، بالبحث الذى تثيره هذه الآيات حول النبوّة. تقول الآية الكريمة:

«وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ».

جملة «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوى.

جملة «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ» توضّح علة حقانية القرآن وإنسجامه مع الواقع جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (۳۳) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (۳۴) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (۳۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۴

والحاجات البشرية، لأنّه نازل من اللَّه سبحانه وتعالى الذى يعرف عباده خير معرفة، وهو البصير الخبير فيما يتعلق بحاجاتهم. «الخبير»: العالم بالبواطن والعقائد والنيات والبُعد الروحى فى الإنسان؛ و «البصير»:

العالم بالظواهر والبعد الجسمانى للإنسان.

الآية التالية تتحدث فى موضوع مهم بالنسبة إلى حملة هذا الكتاب السماوى العظيم، اولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى زمانه وبعده على مرّ القرون والعصور، وهم يحفظونه ويحرسونه، فتقول: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا».

والمقصود من «الكتاب» هنا، «القرآن الكريم».

إنّ «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقّة أو جهد، واللَّه سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم للمسلمين هكذا بلا

مشقّة أو جهد.

ثم تنتقل الآيـة إلى تقسيم مهمّ بهـذا الخصوص، فتقول: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ».

إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد أوكل مهمّة حفظ هذا الكتاب السماوى، بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى هذه الامة، الامة التى إصطفاها اللَّه سبحانه، غير أنّ فى تلك الامة مجاميع مختلفة: بعضهم قصّروا فى وظيفتهم العظيمة فى حفظ هذا الكتاب والعمل بأحكامه، وفى الحقيقة ظلموا أنفسهم، وهم مصداق «ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ».

ومجموعة اخرى، أدّت وظيفتها فى الحفظ والعمل بالأحكام إلى حدّ كبير، وإن كان عملها لا يخلو من بعض الزلّات والتقصيرات أيضاً.

وأخيراً مجموعة ممتازة، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، وسبقوا الجميع فى ميدان الإستباق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۵

الحمد للَّهالذى أذهب عنا الحزن: هذه الآيات نتيجة لما ورد ذكره فى الآيات الماضية.

يقول تعالى: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا».

«جنات»: جمع «جنّة» بمعنى (الروضة) وكل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض؛ و «عدن»: بمعنى الإستقرار والثبات، وعليه فإنّ «جنات عدن» بمعنى «جنات الخلد والدوام والإستقرار». فإنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ نعم الجنة العظيمة خالدة وثابتة.

ثم تشير الآية إلى ثلاثة أنواع من نعم الجنة، بعضها إشارة إلى جانب مادى وبعضها الآخر إلى جانب معنوى وباطنى، وبعض أيضاً يشير إلى عدم وجود أى نوع من المعوّقات.

فتقول الآية: «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ».

فهؤلاء لم يلتفتوا فى هذه الدنيا إلى بريقها وزخرفها، ولم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر، واللَّه سبحانه وتعالى يعوّضهم عن كل ذلك، فيلبسهم فى الآخرة أفخر الثياب.

بعد ذكر تلك النعمة المادية، تنتقل الآية مشيرة إلى نعمة معنوية خاصة فتقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ».

«الحزن»: (على وزن عدم)، و «الحزن»- على وزن عُسر- كليهما لمعنىً واحد، وأصله الوعورة والخشونة فى الأرض واطلق على الخشونة فى النفس لما يحصل فيها من الغم ويضادّه الفرح.

ثم يضيف أهل الجنة هؤلاء: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ».

فبغفرانه أزال عنّا حسرة الزلّات والذنوب، وبشكره وهبنا المواهب الخالدة التى لن يلقى عليها الغم بظلاله المشؤومة.

أخيراً تنتقل الآية مشيرة إلى آخر النعم، وهى عدم وجود عوامل الإزعاج والمشقة والتعب والعذاب، فتحكى عن ألسنتهم «الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَايَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ».

«النصب»: بمعنى التعب؛ و «اللغوب»: يطلق على المشاقّ الروحية.

وبذا فلا وجود هناك لعوامل التعب والمشقّة، سواء كانت نفسية أو جسمانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۶

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۳۸) ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً: القرآن الكريم يقرن (الوعيد) (بالوعود) ويذكر «الإنذارات»، إلى جانب «البشارات» لتقوية عاملى الخوف والرجاء الباعثين للحركة التكاملية فى الإنسان. فمتابعة

للحديث الذى كان فى الآيات السابقة عن المواهب الإلهية، ينتقل الحديث هنا إلى العقوبات الأليمة للكفار، والحديث هنا أيضاً عن العقوبات المادية والمعنوية. تبتدىء الآيات بالقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ»، فكما أنّ الجنة دار المقامة والخلد للمؤمنين، فإنّ النار أيضاً مقام أبدى للكافرين.

ثم تضيف: «لَايُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا». فالموت بالنسبة إلى هؤلاء ليس سوى منفذ للخلاص من العذاب، لكن اللّه تعالى أوصد دونهم ذلك المنفذ.

يبقى منفذ آخر هو أن يبقوا على قيد الحياة ويخفّف عنهم العذاب شيئاً فشيئاً، أو أن يزداد تحمّلهم للعذاب فينتج عن ذلك تخفيف العذاب عنهم، ولكن تتمّة الآية أغلقت هذا المنفذ أيضاً: «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا».

ثم تضيف الآية وللتأكيد على قاطعية هذا الوعد الإلهى: «كَذلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ».

فجزاء الكفار ليس سوى الحريق والعذاب الأليم، الحريق بالنار التى أشعلوها بأيديهم فى الحياة الدنيا واحتطبوا لها من أفكارهم وأعمالهم ووجودهم.

وتنتقل الآية التالية إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، وتشير إلى بعض النقاط الحسّاسة فى هذا الخصوص، فتقول الآية الكريمة: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ» «۱».

---

(۱) «يصطرخون»: من مادة «صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للإستغاثة وطلب النجدة، للتخلّص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۷

فهم بمشاهدة نتائج أعمالهم السيّئة، يغرقون فى ندم عميق، ويصرخون من أعماق قلوبهم ويطلبون المحال، العودة إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحة.

ففى قبال ذلك الطلب الذى يطلبه اولئك من اللّه سبحانه وتعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه وتعالى حيث يقول: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ». فإذا لم تنتفعوا بكل ما توفّر بين أيديكم من وسائل النجاة تلك ومن كل الفرص الكافية المتاحة «فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ».

فى الآية الأخيرة- من هذه الآيات- يرد الجواب على طلب الكفار فى العودة إلى الدنيا فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فهو سبحانه وتعالى يعلم أنّه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنم، وأعادهم إلى الدنيا فسوف يعاودون نفس المسيرة المنحرفة التى كانوا عليها.

إضافةً إلى ذلك فالآية تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص فى نيّاتهم، وأن لا يأخذوا بنظر الاعتبار غير اللّه سبحانه وتعالى.
هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۱) تنتقل الآيات إلى مرحلة اخرى من تشخيص عوامل ضعف وبطلان مناهج الكفار والمشركين فى التعامل أو التفكير لتكمل البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول أوّلًا:

«هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلفَ فِى الْأَرْضِ».

«خلائف»: هنا سواء كانت بمعنى خلفاء وممثّلى اللّه فى الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقوام السابقين، فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى

على البشر حيث إنّه قيّض لهم جميع إمكانات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۸

الحياة، أعطاهم العقل والشعور والإدراك، وعلّمه طريقة الاستفادة من تلك الإمكانات، فكيف نسى الإنسان والحال هذه ولى نعمته الأصلى. هذه الجملة بيان ل «توحيد الربوبية» الذى هو دليل على «توحيد العبادة». وهذه الجملة أيضاً تنبيه للبشر جميعاً ليعلموا بأنّ مكثهم ليس أبديّاً ولا خالداً، فكما أنّهم خلائف لأقوام آخرين، فما هى إلّامدّة حتى ينتهى دورهم ويكون غيرهم خلائف لهم.

لذا تردف الآية قائلة: «فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا».

فغضبه بمعنى رفع الرحمة ومنع اللطف الإلهى من شمول اولئك الذين ارتكبوا السيئات.

الآية التالية ترد على المشركين بجواب قاطع حازم، وتذكّرهم بأنّ الإنسان إذا اتّبع أمراً أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، وأنتم أيّها الكفار حيث لا تملكون أيّاً من الدليلين فليس لديكم سوى المكر والغرور. تقول الآية الكريمة: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ». فهل خلقوا شيئاً فى الأرض، أم شاركوا اللّه فى خلق السماوات؟!

ومع هذا الحال فما هو سبب عبادتكم لها، لأنّ كون الشيء معبوداً فرع كونه خالقاً.

والآن بعد أن ثبت أنّكم لا تملكون دليلًا عقلياً على ادّعائكم، فهل لديكم دليل نقلى؟

«أَمْ ءَاتَيْنهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيّنَتٍ مّنْهُ».

كلّا، فليس لديهم أىّ دليل أو بيّنة أو برهان واضح من الكتب الإلهية، إذاً فليس لديهم سوى المكر والخديعة: «بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا».

وتنتقل الآية التى بعدها إلى الحديث عن حاكمية اللّه سبحانه وتعالى على مجموعة السماوات والأرض، وفى الحقيقة فإنّها تنتقل إلى إثبات توحيد الخالقية والربوبية بعد نفى اشتراك المعبودات الوهمية فى عالم الوجود فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا».

فليس بدء الخلق- فقط- مرتبطاً باللّه، فإنّ حفظ وتدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضاً، بل إنّ المخلوقات فى كل لحظة لها خلق جديد، وفيض الوجود يغمر الخلق لحظة بعد اخرى من مبدأ الفيض. ولو قطعت الرابطة بين الخلق وبين ذلك المبدأ العظيم الفيّاض، فليس إلّاالعدم والفناء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۹

وللتأكيد تضيف الآية قائلة: «وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مّن بَعْدِهِ».

فلا الأصنام التى صنعتموها ولا الملائكة، ولا غير ذلك، لا أحد غير اللّه قادر على ذلك.

وفى ختام الآية- لكى يبقى طريق الأوبة والإنابة أمام المشركين الضالّين مفتوحاً- يقول تعالى محبّذاً لهم التوبة فى كل مرحلة من الطريق: «إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».

فبمقتضى (حلمه) لا يتعجّل عقابهم، وبمقتضى (غفرانه) يتقبّل توبتهم- بشرائطها- فى أى مرحلة من مراحل مسيرهم.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴۲) اسْتِكْبَاراً فِى الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (۴۳) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (۴۴)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم فقالوا: لعن اللَّه اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذّبوهم، فواللَّه لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الامم. فلّما أشرقت شمس الإسلام من افق بلادهم، وجاءهم النبى صلى الله عليه و آله بالكتاب السماوى، رفضوا، بل كذّبوا، وحاربوا، ومارسوا أنواع المكر والخديعة.

فنزلت الآيات أعلاه تلومهم وتوبّخهم على إدّعاءاتهم الفارغة.

التّفسير

إستكبارهم ومكرهم سبب شقائهم: تواصل هذه الآيات الحديث عن المشركين ومصيرهم فى الدنيا والآخرة. الآية الاولى تقول: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ».

فعندما طالعوا صفحات التاريخ، تعجّبوا كثيراً وادّعوا لأنفسهم الإدّعاءات وتفاخروا على هؤلاء بأن يكون حالهم أفضل منهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۰

حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد الجملة الاولى من الآية بالقول: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

هذا التعبير يدلّل على أنّهم كانوا قبل بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- وعلى خلاف ما يدّعون- بعيدين عن دين اللَّه سبحانه وتعالى، فقد كانت حنيفية إبراهيم معروفة بينهم، إلّاأنّهم لم يكونوا يحترمونها.

الآية التالية توضيح لما فى الآية السابقة، تقول: إنّ بُعدهم عن الحق لأنّهم سلكوا طريق الاستكبار فى الأرض، ولم تكن لديهم أهلية الخضوع لمنطق الحق: «اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ». وكذلك لأنّهم كانوا يحتالون ويسيئون «وَمَكْرَ السَّيِّئِ».

ولكن «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ».

جملة «لا يحيق»: الفعل (يحيق) من (حاق) بمعنى نزل وأصاب، والجملة معناها «لا ينزل ولا يصيب ولا يحيط»؛ إشارة إلى أنّ الاحتيال قد يؤدى- مؤقتاً- إلى الإحاطة بالآخرين، ولكنّه فى النهاية يعود على صاحبه، فهو مفضوح وضعيف وعاجز أمام خلق اللَّه، وسيندمون حتماً أمام اللَّه سبحانه وتعالى، وذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكة.

هذه الآية تريد القول بأنّهم لم يكتفوا فقط بالإبتعاد عن النبى صلى الله عليه و آله، بل إنّهم استعانوا بكل قدرتهم واستطاعتهم لأجل إنزال ضربة قوية به وبدعوته، والسبب فى كل ذلك لم يكن سوى الكبر والغرور وعدم الرضوخ للحق.

ختام الآية تهديد لتلك المجموعة المستكبرة الماكرة والخائنة، وبجملة عميقة المعنى وبكلمات تهزّ المشاعر، يقول تعالى: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ».

هذه الجملة تشير إلى جميع المصائر المشؤومة التى أحاقت بالأقوام السالفة كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، حيث أصاب كلًا منهم بلاء عظيم.

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد قائلة: «فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا».

الآية التالية تدعو هؤلاء المشركين والمجرمين إلى مطالعة آثار الماضين والمصير الذى وصلوا إليه، حتى يروا بامّ أعينهم فى آثارهم ومواطنهم السابقة جميع ما سمعوه، وبذا يتحول البيان إلى العيان، فتقول الآية الكريمة: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۱

فإذا كانوا يتصورون أنّهم أشد قوة من اولئك فهم على إشتباه عظيم، لأنّ الأقوام السالفة كانت أقوى منهم: «وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً».

إضافةً إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوة والقدرة، فإنّ قدرته وقوته لا شىء إزاء قوة اللَّه، لماذا؟ لأنّه «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». فهو العليم القدير: «إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا»، لا يخفى عليه شىء، ولا يستعصى على قدرته شىء، ولا يغلبه أحد.

وَ لَوْ یُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا کَسَبُوا مَا تَرَکَ عَلَی ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلَی أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ کَانَ بِعِبَادِهِ بَصِیراً (۴۵) لولا لطف اللَّه ورحمته: الآیة مورد البحث وهی الآیة الأخیرة من آیات سورة فاطر، وبعد تلک البحوث الحادّة والتهدیدات الشدیدة التی مرّت فی الآیات المختلفة للسورة، تنهی هذه الآیة السورة ببیان اللطف والرحمة الإلهیة بالبشر، تماماً کما ابتدأت السورة بذکر إفتتاح اللَّه الرحمة للناس.

زیادة علی ذلک، فإنّ الآیة السابقة التی تهدّد المجرمین والکفار بمصیر الأقوام الغابرین، تطرح کذلک السؤال التالی، وهو إذا کانت السنّة الإلهیة ثابتة علی جمیع الطغاة والعاصین، فلماذا لا یُعاقب مشرکو مکة؟! وتجیب علی السؤال قائلة: «وَلَوْ یُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا کَسَبُوا». ولا یمنحهم فرصة لإصلاح أنفسهم والتفکّر فی مصیرهم وتهذیب أخلاقهم: «مَا تَرَکَ عَلَی ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ» «۱».

نعم لو أراد اللَّه مؤاخذتهم علی ذنوبهم لأنزل علیهم عقوبات متتالیة، صواعق، وزلازل، وطوفانات، فیدمّر المجرمین ولا یبقی أثراً للحیاة علی هذه الأرض. «وَلکِن یُؤَخِّرُهُمْ إِلَی أَجَلٍ مُّسَمًّی» ویعطیهم فرصة للتوبة وإصلاح النفس.

هذا الحلم والإمهال الإلهی له أبعاد وحسابات خاصة، فهو إمهال إلی أن یحلّ أجلهم «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ کَانَ بِعِبَادِهِ بَصِیرًا».

«نهایة تفسیر سورة فاطر»

---

(۱) «دابّة»: من مادة «دبّ» والدبّ والدبیب مشی خفیف، ویستعمل ذلک فی الحیوان وفی الحشرات أکثر، ویستعمل فی کل حیوان وإن اختّصت فی التعارف بالخیل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۳

۳۶. سورة یس

محتوی السورة: یلاحظ فی هذه السورة أربعة أقسام رئیسیة:

۱- تتحدث السورة أوّلًا عن رسالة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والقرآن المجید والهدف من نزول ذلک الکتاب السماوی العظیم.

۲- قسم آخر من السورة یتحدث عن رسالة ثلاثة من أنبیاء اللَّه، وکیف کانت دعوتهم للتوحید، وجهادهم المتواصل المریر ضد الشرک.

۳- قسم آخر منها، والذی یبدأ من الآیة (۳۳) وحتی الآیة (۴۴)، مملوء بالنکات التوحیدیة الملفتة للنظر.

۴- قسم مهم آخر منها یتحدث حول المواضیع المرتبطة بالمعاد والأدلة المختلفة علیه، وکیفیة الحشر والنشر، والسؤال والجواب فی یوم القیامة، ونهایة الدنیا، ثم الجنة والنار.

وخلال هذه البحوث الأربعة ترد آیات محرکة ومحفّزة لأجل تنبیه وإنذار الغافلین والجهال، لها الأثر القوی فی القلوب والنفوس.

فضیلة تلاوة السورة: سورة یس من أهمّ السور القرآنیة، إلی حد أنّ الأحادیث لقّبتها ب «قلب القرآن». ففی المجمع عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «إنّ لکل شیء قلباً، وقلب القرآن یس».

وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «إنّ لکل شیء قلباً وقلب القرآن یس، فمن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۴

قرأ یس فی نهاره قبل أن یمسی کان فی نهاره من المحفوظین والمرزوقین حتی یمسی، ومن قرأها فی لیله قبل أن ینام وکّل به ألف ملک یحفظونه من کل شیطان رجیم ومن کل آفة».

إنّ عظمة فضیلة هذه السورة إنّما هی لعظمة محتواها .. محتویً یوقظ من الغفلة ویضخّ فی النفس الإیمان، ویولد روح المسؤولیة ویدعو إلی التقوی، بحیث إنّ الإنسان إذا تفکّر فی هذه الآیة وجعل ذلک التفکر یلقی بظلاله علی أعماله، فإنّه یفوز بخیر الدنیا

والآخرة.

يس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰) هذه السورة تبدأ- كما هو الحال فى ثمان وعشرين سورة اخرى- بحروف مقطعة وهى «يس».

فى تفسير على بن إبراهيم: قال الصادق عليه السلام: «يس اسم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والدليل عليه قوله: «إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»».

بعد هذه الحروف المقطعة- وكما هو الحال فى أغلب السور التى تبدأ بالحروف المقطعة- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسماً بالقرآن، إذ يقول: «وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ».

الملفت للنظر أنّه وصف «القرآن» هنا ب «الحكيم»، فى حين أنّ الحكمة عادةً صفة للعاقل، كأنّه سبحانه يريد طرح القرآن على أنّه موجود حى وعاقل ومرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمة أمام البشر.

بديهى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأن يقسم، ولكن الأقسام القرآنية تتضمن- دائماً- فائدتين أساسيتين: الاولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، والثانية بيان عظمة الشىء الذى يقسم به اللَّه تعالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۵

الآية التى بعدها توضّح الأمر الذى من أجله أقسم اللَّه تعالى فى مقدمة السورة الكريمة:

«إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

بعد ذلك تضيف الآية: «تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ».

فإنّ عزّته ورحمته إحداهما مظهر للإنذار والاخرى للبشارة، وبإقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرية.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ». أى إنّه لم يأت نذير لآبائهم.

إنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، وتذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، والذنوب والمعاصى التى إرتكبوها، والشرك وأنواع المفاسد التى تلوّثوا بها.

ثم يتنبّأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفار والمشركين فيقول تعالى: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

والمراد من «القول» هنا الوعيد الإلهى لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنم.

فإنّ ذلك يخصّ اولئك الذين قطعوا كل إرتباط لهم باللَّه سبحانه وتعالى، وأغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، فهم لن يؤمنوا أبداً.

الآية التى بعدها تواصل وصف تلك الفئة المعاندة، فتقول: «إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ». أى: مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال»: جمع «غل» من مادة «غلل» ويعنى تدرع الشىء وتوسطه، ومنه الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشجر. و «الغل» الحلقة حول العنق أو اليدين وتربط بعد ذلك بسلسلة، وبما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفردة فى هذا المورد.

ويا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبدة الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان، فقد طوّقوا أنفسهم بطوق «التقليد الأعمى»، وربطوا ذلك بسلسلة «العادات والتقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض والإتّساع أنّها أبقت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى وحرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، وبذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدرة والفعّالية والحركة، ولا قدرة الإبصار.

فإنّ الآية أعلاه، تعتبر شرحاً لحال تلك الفئة الكافرة فى الدنيا وحالهم فى عالم الآخرة الذى هو تجسيد لمسائل هذا العالم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۶

الآيـة التاليـة تتناول وصـفاً آخر لحالـة تلك المجموعـة، وتمثيلًا ناطقاً عن عوامل وأسـباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا». وحوصـروا بين هذين السدّين وأمسوا لا يملكون طريقاً لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، آنئذ: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ». فكذلك حال المستكبرين المعاندين العمى الصمّ فى قبال الحقائق.

لهذا فإنّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه المجموعة: «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». فمهما كان حديثك نافذاً فى القلوب ومهما كان أثر الوحى السماوى، فإنّه لن يؤثّر ما لم يجد الأرضية المناسبة.

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) من هم الـذين يتقبّلون إنـذارك: كان الحـديث فى الآيات السابقـة عن مجموعة لا تملك أى إسـتعداد لتقبّل الإنـذارات الإلهيـة ويتساوى عنـدهم الإنـذار وعدمه، أمّا هذه الآيات فتتحدّث عن فئة اخرى هى على النقيض من تلك الفئـة، وذلك لكى يتّضـح المطلب بالمقارنـة بين الفئتين كما هو اسـلوب القرآن. تقول الآية الاولى من هذه المجموعة: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ».

التعبير ب «الغيب» هنا إشارة إلى معرفة اللَّه عن طريق الاستدلال والبرهان.

جملة «فبشّـره» تكميل للإنـذار، إذ إنّ الرسول صـلى الله عليه و آله فى البـدء ينذر، وحين يتحقق للإنسان اتّباع الذكر والخشـية وتظهر آثارها على قوله وفعله، هنا يبشّره البارىء عزّ وجل.

يبشّره بأنّ اللَّه العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، ويبشّره بعدئذ بأجر كريم وثواب جزيل لا يعلم مقداره ونوعه إلّااللَّه سبحانه.

بعـد ذلك وبما يتناسب مع البحث الذى كان فى الآية السابقة حول الأجر والثواب العظيم للمؤمنين، تنتقل الآية التالية إلى الإشارة إلى مسألة المعاد والبعث والكتاب والحساب والمجازاة، تقول الآية الكريمة: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوتَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۷

«وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ». وعليه فإنّ صحيفة الأعمال لن تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا وتحفظها إلى يوم الحساب.

جملة «مـا قـدّموا» إشـارة إلى الأعمـال التى قاموا بها ولم يبق لها أثر، أمّا التعبير «وآثارهم» فإشارة إلى الأعمال التى تبقى بعـد الإنسان وتنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصـدقات الجاريـة (المبانى والأوقاف والمراكز التى تبقى بعـد الإنسان وينتفع منها الناس).

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد: «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ».

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَ مَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية: لمتابعة البحوث الماضية فى الآيات السابقة حول القرآن ونبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، والمـؤمنين الصـادقين، والكفـار المعانـدين، تطرح هـذه الآيـات نموذجـاً من موقف الامـم السابقـة بهـذا الصـدد، وتتحدث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين لتكون تنبيهاً لمشـركى مكة من جهة، وتسـلية للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ولفئة المؤمنين القليلـة به فى ذلك اليوم، فإنّ التأكيـد على إيراد هذه القصة فى قلب هذه السورة التى تعتبر هى بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصة مع ظروف المسلمين فى ذلك اليوم.

أوّلًا تقول الآية الكريمة: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ».

«القريـة»: فى الأصل اسم للموضع الـذى يجتمع فيه الناس، وتطلق أحياناً على نفس الناس أيضاً، لذا فمفهومها يتّسع حتى يشـمل المدن

والنواحى، وأطلقت فى لغة العرب وفى القرآن المجيد مراراً على المدن المهمة مثل «مصر» و «مكة» وأمثالهما.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۸

والمراد من القريـة هنا «أنطاكيـة» إحـدى مـدن بلاد الشام، فإنّه يظهر جيـداً من آيات هـذه السورة أنّ أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، وأنّ هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد ونبذ الشرك.

ثم تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التى جرت فتقول: «إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ».

وفى أسماء هؤلاء الرسل قال بعض المفسرين: إنّ أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» والثالث «بولس».

الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين قبال دعوة الرسل. القرآن الكريم يقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعـذار الواهية التى يتذّرع بها الكثير من الكفار دائماً فى مواجهة الأنبياء «قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ».

فإذا كان مقرّراً أن يأتى رسول من قبل اللَّه سبحانه، فيجب أن يكون ملكاً مقرّباً وليس إنساناً مثلنا. هـذه هى الذريعـة التى تـذرّعوا بها لتكذيب الرسل وإنكار نزول التشريعات الإلهية.

فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالين ولم يضعفوا، وفى جوابهم:

«قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ». ومسؤوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل بيّن فحسب.

«وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

ويستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالًا أنّهم أظهروا دلائـل ومعـاجز تشـير إلى صـدق ادّعـائهم، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، وذلك لا يمكن تحقّقه إلّامن خلال بعض الدلائل والمعجزات الواضحة.

وقـد ورد فى بعض الرّوايات أيضاً أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شـفاء بعض المرضـى المستعصـى علاجهم- بإذن اللَّه- كما كان لعيسى عليه السلام.

ولكن الوثنيين لم يسـلموا أمـام ذلـك المنطق الواضـح وتلـك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم فى المواجهـة، وإنتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد والتعامل الشديد «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ».

ويحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم فى نفس الفترة التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء، وكانت إمّا نتيجة معاصى هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم.

وإنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل، وأظهروا سوء نواياهم من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۹

خلال التهديد الصريح والعلنى، وقالوا: «لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ومن الممكن أنّ ذكر «العذاب الأليم» إشارة إلى أنّنا سنرجمكم إلى حد الموت.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هـذيان هؤلاء: «قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم». فإذا أصابكم سوء الحظّ وحوادث الشؤم، ورحلت بركـات اللَّه عنكم، فـإنّ سـبب ذلـك فى أعماق أرواحكم، وفى أفكاركم المنحطّة وأعمالكم القبيحـة المشؤومـة، وليس فى دعوتنا.

وفى الختام قال الرسل لهؤلاء: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ».

فإذا أنكرتم التوحيد وأشركتم فسبب ذلك هو الإسراف وتجاوز الحق، وإذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف فى المعاصى والتلوّث بالشهوات. وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (۲۰) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) وَ مَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۲) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لَا يُنْقِذُونِ (۲۳) إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲۴) إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (۲۵) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (۲۶) بِمَا

غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (۲۷) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (۲۹) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۰) المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف: تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذى وردت الإشارة إليه فى هذه القصة. والإشارة تتعلق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل وبشجاعتهم فى قبال الأكثرية الكافرة المشركة ... وكيف وقفوا حتى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل. تشرع هذه الآيات بالقول: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۱۹۹

هذا الرجل الذى يذكر أغلب المفسرين أنّ اسمه «حبيب النجار»، وحينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب ويحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع وأوصل نفسه إلى مركز المدينة ودافع عن الحق بما إستطاع؛ بل إنّه لم يدّخر وسعاً فى ذلك.

التعبير ب «رجل» بصورة النكرة إشارة إلى أنّه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة أو إمكانية متميّزة فى المجتمع، لكى يأخذ المؤمنين فى عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله درساً بأنّهم وإن كانوا قلّة فى عصر صدر الإسلام، إلّاأنّ المسؤولية تبقى على عواتقهم، وأنّ السكوت غير جائز حتى للفرد الواحد.

والآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأى منطق وبأى دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أوّلًا إلى هذه القضية: «اتَّبِعُوا مَن لَايَسْئَلُكُمْ أَجْرًا». فتلك القضيّة بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّة منفعة مادية شخصية، ولا- يريدون منكم مالًا ولا جاهاً ولا مقاماً، وحتى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. والخلاصة: لا يريدون منكم أجراً ولا أى شيء آخر.

وهذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنية مراراً فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم وصفاء قلوبهم، وفى سورة الشعراء وحدها تكرّرت هذه الجملة خمس مرّات «وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ».

ثم يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم وكلامهم انّهم أشخاص مهتدون: «وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

ثم ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذى يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول:

«وَمَا لِيَ لَاأَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى».

فإنّ من هو أهل لأن يُعبد هو الخالق والمالك والوهّاب، وليس الأصنام التى لا تُضرّ ولا تنفع.

وبعد ذلك يتبّه إلى أنّ المرجع والمآل إلى اللَّه سبحانه فيقول: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». أى: لا تتصوروا أنّ اللَّه له الأثر والفاعلية فى حياتكم الدنيا فقط، بل إنّ مصيركم فى العالم الآخر إليه أيضاً، فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم فى الدارين.

وفى ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام وإثبات العبودية للَّهبنفى العبودية للأصنام، فيكمل قائلًا: «ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرّ لَّاتُغْنِ عَنّى شَفَاعَتُهُمْ شَيًا وَلَا يُنقِذُونِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۱

هنا أيضاً يتحدث عن نفسه حتى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة والإستعلاء عليهم، وهو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعاً لنا أمام اللَّه.

ثم يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد والتوضيح أكثر: إنّى حين أعبد هذه الأصنام وأجعلها شريكاً للَّهفإنّى سأكون فى ضلال بعيد: «إِنّى إِذًا لَّفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

فأىّ ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنباً إلى جنب خالق السماوات والأرض.

وعندما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من إستعراض تلك الاستدلالات والتبليغات المؤثرة أعلن لجميع الحاضرين: «إِنّى ءَامَنتُ

بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ».

أمّا من هو المخاطب فى هذه الجملة «فَاسْمَعُونِ»؟

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشىء حول ذلك، ولكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه وقتلوه.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ».

إنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنة كان مقترناً باستشهاد هذا الرجل المؤمن.

والمقصود من الجنة هنا، هى (جنة البرزخ) لأنّه يستفاد من الآيات ومن الروايات أنّ الجنة الخالدة يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين، كما أنّ جهنم ستكون نصيب المجرمين.

فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة اللَّه وفى نعيم الجنان، وهناك لم تكن له سوى امنية واحدة: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ».

يا ليت قومى يعلمون بأى شىء «بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ». أى: ليت أنّ لهم عين تبصر الحق، لهم عين غير محجوبة بالحجب الدنيوية الكثيفة والثقيلة، فيروا ما حُجب عنهم من النعمة والإكرام والإحترام من قبل اللَّه، ويعلموا أى لطف شملنى به اللَّه فى قبال عدوانهم علىّ .. لو أنّهم يبصرون ويؤمنون، ولكن يا حسرةً.

رأينا كيف أصرّ أهالى مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، والآن لننظر ماذا كانت نتيجة عملهم؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۲

القرآن الكريم يقول فى هذا الخصوص: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ».

فلسنا بحاجة إلى تلك الامور، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم ومعيشتهم إلى عوامل موت وفناء.

ثم يضيف تعالى: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ».

فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة فى وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كل شىء عن التحرك.

الآية الأخيرة تتعرّض إلى طريقة جميع متمردى التاريخ إزاء الدعوات الإلهية لأنبياء اللَّه بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: «يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

هؤلاء الضالون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الإستماع بآذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنّهم أصرّوا على السخرية والإستهزاء منهم.

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (۳۱) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (۳۲) الغفلة الدائمة: تتحدث هاتان الآيتان- استناداً إلى ما مرّ فى الآيات السابقة- عن الغفلة المستمرّة لمجموعة كبيرة من البشر فى هذا العالم على مرّ العصور والقرون، فتقول الآية:

«أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ».

فهؤلاء الكفار ليسوا بدعاً من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا على الحقّ مثلهم عاشوا فى هذه الدنيا، ومصائرهم الأليمة التى ملأت صفحات التاريخ، فهل يكفى ذلك المقدار لتحقّق العبرة والاعتبار؟

فى آخر الآية يضيف تعالى: «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَايَرْجِعُونَ». أى: أنّ رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران مافاتهم وتبديل ذنوبهم حسنات، فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبداً.

هذا التفسير يشبه بالضبط ما قاله على بن أبى طالب عليه السلام فى نهج البلاغة حينما تحدّث فى أخذ العبرة من الموتى فقال: «لا عن قبيح يستطيعون انتقالًا ولا فى حسن يستطيعون ازدياداً».

وتضيف الآية التالية: «وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ». أى: أنّالمسألة لا تنتهى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۳

بهلاكهم وعدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا، كلّا، فعاجلًا سيحضر الجميع فى عرصة المحشر للحساب، ثم العقاب الإلهى المتلاحق والمستمر فى إنتظارهم.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلَا يَشْكُرُونَ (۳۵) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (۳۶) آيات اخرى: مما مرّ بحثه فى الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضد الشرك وعبادة الأوثان، وكذلك التعرض إلى مسألة المعاد فى الآية الأخيرة من المقطع السابق، توضّح الآيات- مورد البحث- مسألتى التوحيد والمعاد معاً لإيقاظ المنكرين لهاتين المسألتين ودفعهم إلى الإيمان. تتعرض الآية الاولى إلى قضية إحياء الأرض الميتة والبركات التى تعود على الإنسان من ذلك فتقول: «وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ».

قضية الحياة والبقاء من أهمّ دلائل التوحيد، فبرغم التطور والتقدم الحاصل فى وسائل الدراسة وفى العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحل، وحتى الآن لم يُعلم تحت تأثير أى العوامل تتحول موجودات ميتة إلى خلايا حية؟

جملة «فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» إشارة إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، ولكن له فوائد اخرى كتغذية الحيوانات، وصناعة الأصباغ، والأدوية، والامور الاخرى التى لها أهميّة فى حياة الإنسان.

الآية التالية توضيح وشرح للآية الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: «وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ».

كان الحديث فى الآية الاولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية والمغذّية والتى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز وأهمّ نماذجها حيث يعتبر كل منهما غذاءً كاملًا.

الآية التالية تشرح وتوضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد فى ذلك ودون تدخّل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۴

الإنسان فى صناعتها ... «لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل بمجرد جنيها من أغصانها، ولا تحتاج إلى طبخ أو أيّة تغييرات اخرى. ذلك إشارة إلى غاية لطف اللّه بهذا الإنسان وكرمه. فالهدف هو تحريك حس تشخيص الحق، والشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة اللّه عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أوّل قدم فى طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدث عن تسبيح اللّه وتنزيهه، وتشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقة، وتوضّح طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ».

بديهى أنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد ومنهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

إنّ هذه الآية واحدة من الآيات التى توضّح محدودية علم الإنسان، وتدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا وعن معلوماتنا حتى الآن.

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰) هذه

الآيات تتحدث فى قسم آخر من آثار عظمة اللّه فى عالم الوجود. تقول الآية الكريمة الاولى: «وَءَايَةٌ لَهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ».

«نسلخ»: من مادة «سلخ» وتعنى فى الأصل نزع جلد الحيوان، والتعبير فى الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، يُنزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتى، والتأمّل فى هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، وهى أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، وأنّ النور والإضاءة صفة عارضة عليها تأتيها من مصدر آخر، فهو

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۵

كاللباس الذى يرتدى، وحينما يُخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعى للبدن.

الآية التى بعدها تتعرض إلى النور والإضاءة وتذكر الشمس، فتقول: «وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا».

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر. أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ أحدث التفاسير التى ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيراً من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التى تكون المجموعة الشمسية جزءاً منها، وقيل أنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّاً أطلقوا عليه اسم «وجا».

فإنّ حركة كوكب الشمس الذى يعادل مليون ومائتى الف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة ومنظمة فى هذا الفضاء اللامتناهى، ليس مقدوراً لغير اللّه سبحانه الذى تفوق قدرته كل قدرة وبعلمه اللامتناهى، لذا فإنّ الآية تضيف فى آخرها: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

أمّا آخر ما قيل فى تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشىء عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذى يعطى لحياة الإنسان نظاماً وبرنامجاً معيّناً يؤدّى إلى تنظيم حياته من مختلف النواحى. لذا فإنّ الآية التالية تتحدث عن حركة القمر ومنازله التى تؤدى إلى تنظيم أيام الشهر، وذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ».

المقصود ب (المنازل) تلك المستويات الثمانية والعشرون التى يطويها القمر قبل الدخول فى «المحاق» والظلام المطلق.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، ومن جهة اخرى فهو تقويم سماوى طبيعى لا يحتاج إلى تعلّم القراءة والكتابة لمتابعته.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدث عن ثبات ودوام ذلك النظم فى السنين والشهور، والنهار والليل، فقد وضع اللّه سبحانه وتعالى لها نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو إختلال فى وضعها وحركتها، وبذا ثبت تاريخ البشر وإنتظم بشكل كامل، تقول الآية: «لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

من المعلوم أنّ الشمس تطوى فى دورانها خلال العام الأبراج الإثنى عشر، فى حين أنّ القمر يطوى منازله خلال شهر واحد، وعليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس فى مدارها إثنتى عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۶

فى حركته فتقطع فى شهر واحد ما تقطعه فى سنة واحدة. وبذا يختلّ النظام السنوى لها.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس فى هذا البحث، هى الحركة بحسب حِسّنا بها.

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (۴۳) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعاً إِلَى حِينٍ (۴۴) حركة السفن فى البحار آية إلهية: تحدّثت الآيات السابقة عن دلالة قدرة البارىء عزّ وجل فى خلق الشمس والقمر والليل والنهار وكذلك الأرض وبركاتها، وفى هذه الآيات التى أمامنا يتحدث البارىء عزّ وجل عن البحار وقسم من بركات ونعم ومواهب البحار، يعنى حركة السفن التجارية والسياحية على سطحها. لذا فإنّ الآيات الكريمة تقول أوّلًا: «وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

فإنّ حركة السفن والبواخر التى هى من أهم وأضخم وسائل الحمل والنقل البشرى، وما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما

تستطيعه المركّبات الاخرى، كل ذلك ناجم عن خصائص الماء ووزن الأجسام التى تصنع منها السفن، والطاقة التى تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية. وكل هذه القوى والطاقات التى سخّرها اللَّه للإنسان، كل واحدة منها وكلها معاً آية من آيات اللَّه سبحانه وتعالى.

ولكى لا يتوهم أنّ المركب الذى أعطاه اللَّه للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: «وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ».

المراكب التى تسير على الأرض، أو فى الهواء وتحمل البشر وأثقالهم.

الآية التالية- لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرّض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة فتقول: «وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ».

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة فى كل إتّجاه بأمرنا، ولكننا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. وإذا وقعت بين الحين والحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلك لينتبهوا إلى أهميّة هذه النعمة الغامرة.

وأخيراً تضيف الآية لتكمل الحديث فتقول: «إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

نعم فهم لا يستطيعون النجاة بأية وسيلة إلّابرحمتنا ولطفنا بهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۷

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۴۷) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن الآيات الإلهية فى عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدث عن ردّ فعل الكفار المعاندين فى مواجهة هذه الآيات الإلهية، وكذلك توضّح دعوة النبى صلى الله عليه و آله لهم وإنذارهم بالعذاب الإلهى الأليم. يفتتح هذا المقطع بالقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

إنّ المقصود ب «ما بين أيديكم» العقوبات الدنيوية التى أوردت الآيات السابقة نماذج منها؛ والمقصود ب «ما خلفكم» عقوبات الآخرة، وكأنّه يراد القول بأنّها خلفهم ولم تأت إليهم وسوف تصل إليهم فى يوم ما وتحيط بهم؛ والمقصود ب «التقوى» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التى تؤدى إلى وقوع هذه العقوبات.

الآية التالية تؤكّد نفس المعنى وتشير إلى لجاجة هؤلاء الكفار وإعراضهم عن آيات اللَّه وتعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

فلا الآيات الأنفسية تؤثّر فيهم، ولا الآفاقية، ولا التهديد والإنذار، ولا البشارة والتطمين بالرحمة الإلهية، فهم مبتلون بالعمى الكلى بحيث لا يتمكّنون حتى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، وحتى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمة الليل وشمس الظهيرة.

ثم يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمة لعنادهم وإعراضهم فيقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

ذلك المنطق الضعيف الذى يتمسك به الأنانيون والبخلاء فى كل عصر وزمان ويقولون:

إنّ فلاناً أصبح فقيراً بسبب عمل إرتكبه وأدّى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف اللَّه ورحمته، وعليه فليس فقره ولا غنانا كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۸

الدنيا إنّما هى دار امتحان وإبتلاء، واللَّه سبحانه وتعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآخر بالغنى والثروة، وربّما يضع اللَّه الإنسان وفى وقتين مختلفين فى بوتقة الامتحان:

الغنى والفقر، وينظر هل يؤدّى الأمانة حال فقره ويتمتع بمناعة الطبع ويلج مراتب الشكر اللائقة، أم أنّه يطأ كل ذلك بقدمه ويمرّ؟

وفى حال الغنى هل ينفق مما تفضّل اللّه به عليه، أم لا؟

وَ يَقُولُونَ مَتَى هـذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۸) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (۵۳) صيحة النشور: بعد ذكر المنطق الأجوف والذرائع التى تشبّث بها الكفار فى مسألة الإنفاق فى الآيات السابقة، تتعرض هذه الآيات إلى الحديث عن إستهزائهم بالقيامة، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافاً إلى أنّها تكمل بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة بالبحث حول المعاد.

تقول الآية الكريمة الاولى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنّكم لستم بصادقين فى حديثكم.

الآية التالية ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخرية بجواب قاطع حازم، وتخبرهم بأنّ قيام الساعة ليس بالأمر المعقّد أو المشكل بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى: «مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ».

فكل ما يقع هو صيحة سماوية كافية لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقّين من الناس على سطح الأرض بلحظة واحدة وهم على حالهم، وتنتهى هذه الحياة المليئة بالصخب والدعاوى والمعارك والحروب، ليتخلّف وراءها صمت مطبق، وتخلو الأرض من أىّ صوت أو إزعاج.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۹

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم».

«صيحة» صاح: رفع الصوت، وأصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت، وصيح الثوب كذلك.

«يخصّمون»: من مادة «خصم» بمعنى النزاع.

والمقصود هو التخاصم على أمر الدنيا والامور المعيشية الاخرى.

فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير والحازم إنّما أراد تنبيههم إلى أنّ القيامة ستأتى وبشكل غير متوقّع، هذا أوّلًا. وأمّا ثانياً فإنّ قيام الساعة ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون ويتنازعون فيه، فبمجرّد صيحة واحدة ينتهى كل شىء وتنتهى الدنيا بأسرها. لذا فهو تعالى يضيف فى الآية التالية قائلًا: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ».

فى العادة فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثة ويحسّ بعدها بقرب أجله، يحاول جاهداً أن يوصل نفسه إلى أهله ومنزله ويستقرّ بين عياله، ثم يقوم بإنجاز بعض الامور المعلّقة، ويعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصية أو غير ذلك. ويوصى بإنجاز بعض الامور الاخرى.

ولكن هل تترك الصيحة السماوية فرصة لأحد؟ ولو سنحت الفرصة فرضاً فهل يبقى أحد حيّاً ليستمع الوصية.

ثم تشير الآيات إلى مرحلة اخرى، مرحلة الحياة بعد الموت، فتقول: «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ».

التراب والعظام الرميم تلبس الحياة من جديد، وتنتفض من القبر بشراً سويّاً، ليحضر المحاكمة والحساب فى تلك المحكمة العظيمة المهولة، وكما أنّهم ماتوا جميعاً بصيحة واحدة، فبنفخة واحدة يبعثون أحياء من جديد، فلا هلاكهم يشكّل عقبة أمام قدرة اللّه سبحانه وتعالى، ولا حياتهم كذلك.

«أجداث»: جمع «جدث» وهو القبر، والتعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبة جسمانية بالإضافة إلى الجنبة الروحية، وأنّ الجسد يعاد

بناؤه جديداً من نفس المواد السابقة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۰

وقوله تعالى: «رَبِّهِمْ» كأنّها تلميح إلى أنّ ربوبية ومالكية وتربية اللّه كلها توجب أن يكون هناك حساب وكتاب ومعاد.

تضيف الآية التالية: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرقَدِنَا هذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

نعم فإنّ المشهد مهول ومذهل إلى درجة أنّ الإنسان ينسى جميع الخرافات والأباطيل ولا يتمكّن إلّامن الإعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآية تصوّر القبور «بالمراقد» والنهوض من القبور (بالبعث) كما ورد فى الحديث: «كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون».

ثم تقول الآية لبيان سرعة النفخة: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

وعليه فإحياء الموتى وبعثهم من القبور وإحضارهم فى محكمة العدل الإلهى لا يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحة الاولى للموت، والصيحة الثانية للحياة والحضور فى محكمة العدل الإلهى.

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (۵۶) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (۵۷) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب فى المحشر، ثم ينتقل فى الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصلحاء والكفار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الاولى: «فَالْيَوْمَ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيًا». فلا ينقص من أجر وثواب أحد شيئاً، ولا يزاد على عقوبة أحد شيئاً.

ثم تنتقل الآية لتوضّح تلك الحقيقة وتعطى دليلًا حيّاً عليها فتقول: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ثم تنتقل الآيات لتتعرض إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، وقبل كل شىء تشير إلى مسألة الطمأنينة وراحة البال فتقول: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ».

«شغل»:- على وزن سرر- و «شغل»- على وزن لطف-: كليهما بمعنى العارض الذى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۱

يذهل الإنسان ويصرفه عن سواه، سواء كان مما يبعث على المسرّة أو الحزن، ولكن لإلحاقه كلمة «فاكهون» التى هى جمع «فاكه» وهو المسرور الفرح الضاحك، يمكن إستنتاج أنّ المعنى إشارة إلى الإنسان المشغول بنفسه والمنصرف تماماً عن التفكير فى أى قلق أو ترقّب، والغارق فى السرور والسعادة والنشاط بشكل لا يترك أى مجال للغمّ والحسرة أن تعكّر عليه صفوه، وحتى أنّه ينسى تماماً هول قيام القيامة والحضور فى محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التى لولا نسيانها فإنّها حتماً ستلقى بظلالها الثقيلة من الغمّ والقلق على القلب، وبناءً على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبة على إنشغال الذهن بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر.

وبعد التعرض إلى نعمة الطمأنينة وراحة البال التى هى أساس جميع النعم الاخرى وشرط الاستفادة من جميع المواهب والنعم الإلهية الاخرى، ينتقل إلى ذكر بقية النعم، فيقول تعالى: «هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكُونَ».

«أزواج» تشير إلى الزوجة التى يعطيها اللّه فى الجنة، أو الزوجة المؤمنة التى كانت معه فى الدنيا.

التعبير ب «ظلال» يدلّل على وجود الشمس هناك، ولكنّها ليست شمساً مؤذية.

إضافةً إلى ذلك فإنّ: «لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ».

«يدعون»: أى يطلبون، والمعنى أنّ كل ما يطلبونه ويتمنّونه يحصلون عليه.

وعليه فإنّ كل ما يخطر على بال الإنسان وما لا يخطر من المواهب والنعم الإلهية موجود هناك معدّ ومهيّأ، واللّه عنده حسن الثواب.

وأهمّ من كل ذلك، المواهب المعنوية التى أشارت إليها آخر آية بقولها: «سَلمٌ قَوْلًا مّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ».

هذا النداء الذى تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبة اللّه، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى

بالمعنويات التى لا يرقى إليها وصف ولا تعادلها أيّة نعمة اخرى. نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندى بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنة بالحبور ... الحبور الذى تعادل اللحظة منه جميع ما فى الدنيا، بل ويفيض عليه.

ففى الدرّ المنثور قال النبى صلى الله عليه و آله: «بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قول اللّه تعالى: «سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيم» قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتوا إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۲

وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِى هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲) لماذا عبدتم الشيطان: مرّ فى الآيات السابقة جانب من المصير المشوّق لأهل الجنة، وفى هذه الآيات مورد البحث جانب بئيس من مصير أهل النار وعبدة الشيطان.

أوّلًا: يخاطبون فى ذلك اليوم خطاباً تحقيرياً: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ».

فأنتم ربّما دخلتم فى صفوف المؤمنين فى الدنيا وتلوّنتم بلونهم تارةً، واستفدتم من حيثيتهم واعتبارهم، أمّا اليوم «فامتازوا عنهم» وأظهروا بشكلكم الأصلى الحقيقى.

الآية التالية تشير إلى لوم اللّه تعالى وتوبيخه المجرمين فى يوم القيامة قائلًا: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَن لَّاتَعْبُدُوا الشَّيْطنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

جرى هذا التحذير وبشكل متكرر على لسان الأنبياء والرسل.

ومن جانب آخر فإنّ هذا العهد اخذ على الإنسان فى عالم التكوين، وبلسان إعطاء العقل له، إذ إنّ الدلائل العقلية تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل وأخرجه من الجنة، وأقسم على إغواء أبنائه من بعده.

ومن جانب ثالث فقد اخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهية للناس على التوحيد، وإنحصار الطاعة فى اللّه سبحانه، وبهذا لم تتحقق التوصية الإلهية هذه بلسان واحد، بل بعدة ألسنة وأساليب، وامضى هذا العهد والميثاق.

الآية التالية تأكيد أشد وبيان لوظيفة بنى آدم، تقول الآية الكريمة: «وَأَنِ اعْبُدُونِى هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

اخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه؟! .. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، اخذ عليه العهد بطاعة اللّه سبحانه وتعالى، لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم، وهذا فى الحقيقة أعظم محرّك للبشر.

ويستفاد كذلك من هذا التعبير ضمناً بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ إنّ الطريق لا يُرسم لأحد إلّالمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۳

وللتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ».

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟

إذن لماذا أنتم غير جادّين فى معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات ومرّات؟ ولا زلتم تتخذونه صديقاً بل قائداً ووليّاً وإماماً.

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَ لَا يَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَ فَلَا يَعْقِلُونَ (۶۸) تعرّضت الآيات السابقة إلى قسم من التوبيخات والتقريعات الإلهية وإلى مخاطبته سبحانه المجرمين فى يوم القيامة، هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضاً.

نعم، ففى ذلك اليوم وحينما تظهر جهنم للمجرمين الكافرين يذكّرهم اللَّه بوعده، والآية تشير إلى ذلك فتقول: «هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

فقد بُعث إليكم الأنبياء واحداً بعد واحد، وحذّروكم من مثل هذا اليوم ومن مثل هذه النار، ولكنكم لم تأخذوا أقوالهم إلّاعلى محمل السخرية والاستهزاء: «اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

ثم يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة ... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

ففى ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته وميوله، فهى بأجمعها تتخلّى عن إمتثال أمره وتستسلم لأمر اللَّه سبحانه، ويالها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التى شهودها

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۴

نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التى كانت الوسائل لإرتكاب المعاصى والذنوب. فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال اللَّه عزّ وجل: «فَمَن أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»».

الآية التالية تشير إلى أحد ألوان العذاب التى يمكن أن يبتلى اللَّه تعالى بها المجرمين فى هذه الدنيا، تقول الآية الكريمة: «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ» (۱).

وفى تلك الحالة التى يبلغ فيها الرعب الذروة عندهم: «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ». فهم عاجزون حتى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحق وسلوك الصراط المستقيم.

وعقوبة مؤلمة اخرى لهم: إنّنا لو أردنا لمسخناهم فى مكانهم على شكل تماثيل حجرية فاقدة للروح والحركة، أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدّم إلى الأمام، ولا الرجوع إلى الخلف: «لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ» (۲).

إنّ الآيتين أعلاه تتحدّثان عن عذاب الدنيا.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان فى آخر عمره من حيث الضعف والعجز العقلى والجسمى، لتكون إنذاراً لهم وليختاروا طريق الهداية عاجلًا، ولتكون جواباً على الذين يلقون بمسؤولية تقصيرهم على قصر أعمارهم، وكذلك لتكون دليلًا على قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوى إلى ضعف وعجز الوليد الصغير ... قادر على مسألة المعاد بالضرورة، وعلى الطمس على عيون المجرمين ومنعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: «وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

«ننكّسه»: من مادة «تنكيس» وهو قلب الشيء على رأسه، وهى هنا كناية عن الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة.

---

(۱) «طمسنا»: من «طمس»- على وزن شمس- بمعنى إزالة الأثر بالمحو، وهذه إشارة إلى إزالة ضوء العين أو صورتها بشكل كلّى بحيث لا يبقى منها أثر.

(۲) «مكانتهم»: بمعنى محل التوقّف، وهى إشارة إلى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم فى محلّ توقّفهم، يغيّر أشكالهم، ويفقدهم القدرة على الحركة، تماماً كالتمثال الخالى من الروح.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۵

وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (۷۰) إنّه ليس بشاعر

... بل نـذير: قلنا أنّ فى هذه السورة بحوثاً حيّة وجامعة حول اصول الإعتقادات: التوحيد، والمعاد، والنبوّة، وتنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرحت فى الآيات السابقـة بحوث مختلفة حول التوحيد والمعاد، وتعود هاتان الآيتان إلى البحث فى مسألة النبوّة، وقد أشارتا إلى أكثر الإتّهامات رواجـاً والـتى اثيرت بـوجه الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله، وردّت عليهم ردّاً قويّاً، منهـا اتّهـام الرسول بكونه شـاعراً، فقالت: «وَمَا عَلَّمْنَهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ».

كان ذلك بسبب الجاذبيـة الخاصّـة للقرآن الكريم ونفوذه فى القلوب، الأمر الـذى كان محسوساً للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، وقـد كانت جاذبيـة القرآن الكريم الخاصّة قد أثّرت حتى فى نفوس الكفار الذين كانوا أحياناً يأتون إلى جوار منزل النبى صلى الله عليه و آله بشكل خفى ليلًا لكى يستمعوا إلى تلاوته للقرآن فى عمق الليل.

وهنا حاول الكفار من أجل تفسير هـذه الظاهرة العظيمة، ولغرض إسـتغفال الناس وصـرف أنظارهم من كون ذلك الكلام وحياً إلهيّاً، فأشاعوا تهمة الشعر فى كل مكان، والتى كانت بحدّ ذاتها تمثّل إعترافاً ضمنياً بتميّز كلام القرآن الكريم.

وأمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله أن يكون شاعراً، فلأنّ طبيعـة الشـعر تختلف تماماً عن الوحى الإلهى، للأسـباب التالية:

۱- إنّ أساس الشعر- عادةً- هو الخيال والوهم، والحال أنّ الوحى يُستمدّ وجوده من مبدأ الوجود ويدور حول محور الحقيقة.

۲- الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيّرة، وهى فى حال تغيّر وتبدّل مستمرين، أمّا الوحى الإلهى فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.

۳- لطافـة الشـعر تنبع فى الغالب من الإغراق فى التمثيل والتشبيه والمبالغة، إلى درجة أن قيل: «أحسن الشـعر أكذبه»، أمّا الوحى فليس إلّاالصدق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۶

۴- وأخيراً يقول أحد المفسّـرين: إنّ الشعر مجموعة من الأشواق التى تحلّق منطلقة من الأرض باتّجاه السماء، بينما الوحى حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، وهذان الإتّجاهان واضح تفاوتهما.

وهنا يجب أن لا ننسـى تقدير مقام اولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق باتّجاه أهداف مقدسة، ويصونون أشعارهم من كل ما لا يرضى اللَّه.

ثم يضيف تعالى فى آخر الآية لنفى الشعر عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ».

والهدف هو الإنذار وإتمام الحجة: «لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ».

هـذه الآيات «ذكر» ووسـيلة تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبين» يوضّح الحق بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية وصـراحة، ولذا فهو عامل إنتباه وحياة وبقاء.

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبُ أَ فَلَا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (۷۴) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (۷۶) فوائد الأنعام للإنسان: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى فى هذه الآيات إلى مسألة التوحيد والشـرك، ويشـير- ضـمن تعداد قسم من آثار عظمة اللَّه فى حياة البشـر، وحلّ مشـكلاتهم ورفع حاجاتهم- إلى ضعف وعجز الأصـنام، وبمقارنة واضـحة يشطب على الشرك ويثبت بطلانه، وفى نفس الوقت يثبت حقّانية خطّ التوحيد. تقول الآية الكريمة الاولى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ».

ولكى يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ».

ولا تنتهى منافعها إلى هـذا الحـد، بل «وَلَهُمْ فِيهَا مَنَفِعُ وَمَشَارِبُ». وعليه: «أَفَلَا يَشْكُرُونَ». الشـكر الذى هو وسـيلة معرفة اللَّه وتشـخيص

وليّ النعمة.

جملة «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ» إشارة إلى مسألة فى غاية الأهمية، وهى تذليل هذه الحيوانات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۷

للإنسان. فتلك الحيوانات القوية والتى تنسى فى بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهى، وتثور وتغضب وتعاند فتصبح خطرة إلى درجة أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها؟

وفى حالاتها الاعتيادية فإنّ قافلة كاملة من الجمال يقودها تارةً صبى لم يبلغ الحلم، ويدفعها فى الطريق الذى يرتئيه.

جملة «لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الاخرى التى تتحقّق للإنسان، ومن جملتها الأصواف والأوبار التى تصنع منها مختلف الملابس والخيم والفرش، والجلود التى تصنع منها الحقائب والملابس والأحذية ووسائل اخرى مختلفة.

«مَشَارِبُ» إشارة إلى الحليب الذى يؤخذ من تلك الدواب ويؤمّن مع منتجاته قسماً مهمّاً من المواد الغذائية للإنسان.

لذا فإنّ الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين ووصف حالهم فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ».

فيا له من خيال باطل وفكر ضعيف؟ ذلك الذى يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التى لا تملك لنفسها- ناهيك عن الآخرين- ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونها إلى جانب اللَّه سبحانه وتعالى ويقرنونها به تعالى، ويلجأون إليها لحل مشاكل حياتهم؟

وعليه تضيف الآية التالية: إنّ المعبودات لا تستطيع نصرة المشركين، وسيكون هؤلاء المشركون جنوداً مجنّدة يتقدمونها إلى جهنم: «لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ».

وياله من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنم زمراً فى ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حل عقدة مشكلة واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين فى ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب «مُّحْضَرُونَ» يكون عادةً للتحقير، لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّل على حقارتهم.

أخيراً- وفى آخر آية من هذه الآيات، ولمواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، والفتن والأعمال الخرافية- تقول الآية الكريمة: «فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ». تارةً يقولون شاعر، واخرى ساحر، وأمثال ذلك من التهم: «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فلا تخفى علينا نواياهم، ولا مؤامراتهم فى الخفاء، ولا جحودهم وتكذيبهم لآياتنا فى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۸

العلن، نعلم بكل ذلك، ونحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، وستكون أنت أيضاً فى أمان من شرّهم فى هذه الدنيا.

أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ ابىّ بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء بعظم بال متفتت، وقال: يا محمّد أتزعم أنّ اللَّه يبعث هذا؟ فقال: «نعم». فنزلت الآية «أوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ» إلى آخر السورة.

التّفسير

هذه السورة ابتدأت بمسألة النبوّة، واختتمت بسبعة آيات تمثّل أقوى البيانات حول المعاد. فتقول: «أوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» «۱».

فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قويّاً إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهية، وينسى ماضيه ومستقبله، ليكون مصداقاً حيّاً لقوله تعالى: «فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

ويكفى لمعرفة مدى غفلته وحمقه أنّه جاء: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» «۲».

المقصود من ضرب المثل هنا الاستدلال وذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن.

والجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة وهى قوله تعالى: «وَنَسِيَ خَلْقَهُ». ثم أردفها بتوضيح أكثر.

فكأنّه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما إستدللت بهذا الإستدلال الواهى الفارغ أبداً.

أيّها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلًا إلى الوراء وانظر فى خلقك، كيف كنت نطفة تافهة

---

(۱) «خصيم»: بمعنى المصرّ على الخصومة والجدال؛ و «الرؤية» بمعنى العلم.

(۲) «رميم»: من مادة «رم»، وهو إصلاح الشيء البالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۹

وكل يوم أنت فى لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت فى حال موت وبعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلًا بالغاً، وبكميّة من عالم النبات الجامد، ومن عالم الحيوان الميّت أيضاً أصبحت إنساناً، ولكنّك نسيت كل ذلك وصرت تسأل: من يحيى العظام وهى رميم؟ ألم تكن أنت فى البدء تراباً كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟!

لذا فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يأمر الرسول صلى الله عليه و آله بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسى: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح تراباً وتنتشر فى الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط إنتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضاً واضح: «وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

فمن كان له مثل هذا (العلم) وهذه (القدرة) فإنّ مسألة المعاد وإحياء الموتى لا تشكّل بالنسبة إليه أيّة مشكلة.

الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) تتابع هذه الآية البحوث المختلفة حول المعاد وتقول: «الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ».

ثمّة تفسير عميق، والذى ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء فى عصرنا الحاضر وقد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «إنبعاث الطاقة».

وتوضيح ذلك كما يلى: إنّ من أهمّ الوظائف التى تقوم بها النباتات هى عملية «التركيب الضوئى» والتى تعتمد أساساً على أخذ غاز «ثانى اوكسيد الكربون» من الهواء، والإفادة منه بواسطة «المادّة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء وضوء الشمس. ذلك الغذاء الذى يؤدّى إلى تكوّن حلقات السليلوز فى النباتات من ذوات الفلقتين، ويكون ناتج عملية التركيب الضوئى الأوكسجين الذى يطلق فى الهواء مرّة اخرى.

ولو نظرنا إلى العملية بطريقة اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثانى أوكسيد الكاربون) وتجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركّباً مع غيره من الماء لتكوّن الخشب وتطلق الأوكسجين.

والمهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأنّ أيّة عملية تركيب كيمياوى تحتاج إلى طاقة ما لكى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۰

يتمّ ذلك التفاعل الكيمياوى، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّى إلى إطلاق طاقة كناتج عنه، وبناءً عليه فإنّ التفاعل الذى يتمّ نتيجة التركيب الضوئى إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل. وعليه فالشجرة إنّما تقوم بإدّخار هذه الطاقة فى الخشب الذى يتكوّن نتيجة لهذه العملية. وعندما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدّخرة. وبذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكاربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثانى أوكسيد الكاربون) الذى ينطلق فى الهواء مرّة اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

ويقال إنّ كل الطاقات فى الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساساً، وواحد من مظاهره ما ذكرنا.

وهنا وحيث بلغنا «إنبعاث الطاقات» نلاحظ أنّ النور والحرارة المبعثرة فى الجو والتى تقوم الأشجار بجمعها فى أخشابها لتنمو فإنّها لا

تفنى أبـداً، بل إنّها تتبـدّل شـكلًا. وتختفى بعيـداً عن أعيننا فى كل ذرّة من ذرّات الخشب، وعندما نقوم بإيقاد النار بقطعة من الحطب، فإنّ إنبعاثها يبـدأ، وجميع ما كان فى ذرّات الخشب من النور والحرارة وطاقة الشـمس، فى تلك اللحظة- لحظة الحشـر والنشـر- تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمل بدقة).

أ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) هو المالك والحاكم على كل شـىء: بعـد ذكر دلائل المعاد والفـات الأنظار إلى الخلق الأوّل، ونشوء النار من الشـجر الأخضـر فى الآيات السابقـة، تتابع الآيـة الاولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثـالث وهو قـدرة اللَّه اللامتناهيـة، فتقول الآيـة الاـولى: «أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلقُ الْعَلِيمُ».

الآيـة اللاحقـة تأكيـد على ما ورد فى الآيات السابقة، وتأكيد على حقيقة أنّ أى خلق وإيجاد بالنسبـة للَّهسبحانه وتعالى وقدرته سـهل وبسيط، وخلق السماوات العظيمة والكرة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۱

الأرضية يعادل فى سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هيّن بسيط.

يقول تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

فـإنّ اللَّه سـبحانه وتعـالى مـا إن يرد شـيئاً إلّاتحقق فوراً، وليس بين إرادته ووجود ذلك الشـىء أيّـة فاصـلة، وعليه فإنّ «أمره» و «قوله» وجملة «كن» كلّها توضيح لمسألة الخلق والإيجاد. وتوضيح للتحقّق السريع بوجود كل ما أراده سبحانه وتعالى.

الآيـة الأـخيرة من هـذه الآيـات وهى فى ذات الـوقت آخر آيـة من سورة «يس» تنهى البحث فى مسألـة المبـدأ والمعـاد بشـكل جميل وبطريقة الإستنتاج الكلى فتقول: «فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

«ملكوت»: من أصل «ملك» بمعنى الحكومة والمالكية. ومعنى الآية كما يلى: إنّ الحاكمية والمالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شـرط بيـد قـدرته المطلقـة، وكـذلك فإنّ اللَّه سـبحانه منزه ومبرّأ عن أى عجز أو نقص فى القـدرة، وبهذا الشـكل فإنّ إحياء الموتى وإلباس العظام المتفسّـخة لباس الحياة من جديـد، كل ذلك لن يشـكّل لـديه أية مشـكلة، ولذلك فاعلموا يقيناً أنّكم إليه ترجعون وأنّ المعاد حق.

بحوث

۱- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى: إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشـقاً للفناء، وأن يلتذّ بنهاية عمره وبموته فى حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن سارّاً للإنسان فى أى وقت، وهو يفرّ منه بكل وجوده.

إنّ السعى لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، وبناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، والجرى وراء ما يسمّى بماء الحياة ودواء الشباب وما يطيل العمر، كل ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى ولا فائدة.

لا تنسوا أنّنا نتابع البحث فى مسألة المعاد بعد الإتفاق على الإعتقاد بوجود اللَّه الحكيم العالم، ونحن نعتقد بأنّ كل ما خلقه اللَّه سبحانه وتعالى فى وجودنا إنّما هو وفقاً لحساب وغرض، وبناءاً عليه فإنّ عشق البقاء لابد أن يكون له حساب خاص، منسجم مع الخلق والعالم بعد الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۲

وبتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجـد فينا عطشاً، فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجوداً فى العالم الخارجى، كـذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسيـة والميل إلى الجنس الآخر يـدلّل على وجود الجنس الآخر فى العالم الخارجى، وإلّا فإنّ الإنجـذاب بـدون أن يكون له مدلول

وموضوع خارجی لا یتفق مع حکمة الخلق.

ومن جهة اخری فعندما نبحث فی التاریخ البشری منذ أیام نشأة ذلک التاریخ فإنّنا نجد دلائل کثیرة علی الإعتقاد الراسخ لدی الإنسان بالحیاة بعد الموت، فالآثار التی وصلت إلینا من البشر الغابرین- وحتی إنسان ما قبل التاریخ- وبالأخص طریقة دفن الموتی، وکیفیة بناء القبور، وحتی دفن الأشیاء المختلفة مع الموتی، کلها دلیل علی ما ترسّخ فی وجدانهم من الإعتقاد بالحیاة بعد الموت.

«صاموئیل کنیک» أحد علماء النفس المعروفین یقول: «إنّ التحقیقات الدقیقة تشیر إلی أنّ المجموعات البشریة الاولی علی سطح الأرض، کانت لهم إعتقادات معینة، لأنّهم کانوا یلحدون موتاهم بطریقة معینة فی الأرض، ویضعون معهم وسائل وآلات أعمالهم التی کانوا یمارسونها قبل الموت إلی جانبهم، وبهذه الطریقة فإنّهم یثبتون إعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت» «۱».

فهؤلاء اعتقدوا بالحیاة بعد الموت، وإن کانوا قد سلکوا طریقاً خاطئاً فی إعتقادهم کتوهّمهم أنّ تلک الحیاة شبیهة بهذه الحیاة تماماً.

علی کل حال، فلا یمکن قبول أنّ ذلک الإعتقاد القدیم مجرد وهم أو نتیجة للتلقین والعادة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ وجود محکمة «الوجدان»، دلیل آخر علی فطریة الإعتقاد بالمعاد.

فکلّ إنسان عندما ینجز عملًا حسناً فإنّه یستشعر فی أعماقه وفی وجدانه الطمأنینة التی لا یمکن أحیاناً وصفها بأی بیان أو کلام.

وعلی العکس عندما یرتکب الذنوب وخصوصاً الجنایات الکبری، فإنّه یستشعر عدم الراحة، إلی حد تصل الحالة فی البعض إلی الإنتحار، أو یسلّموا أنفسهم إلی المحاکم لنیل العقاب والتعلق علی أعواد المشانق.

---

(۱) علم الإجتماع،ساموئیل کنیک/ ۱۹۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۳

کل ذلک دلیل علی عذاب الضمیر والوجدان.

وللإنسان أن یسأل نفسه: کیف یمکن أن یکون عالم صغیر کعالم النفس له تلک المحکمة، ولا یکون لهذا العالم العظیم مثل هذا الوجدان وهذه المحکمة؟!

وبهذا الشکل یتّضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد أمر فطری، ومن عدّة طرق:

من طریق العشق البشری العام للبقاء.

ومن طریق وجود ذلک الإعتقاد بالحیاة بعد الموت علی طول التاریخ البشری.

ومن طریق وجود النموذج المصغّر لها فی داخل الإنسان.

۲- أثر الإعتقاد بالمعاد علی حیاة البشر: إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشریة، وخلود الأعمال- سواء کانت خیراً أو شرّاً- یترک أثره العمیق علی فکر وأعصاب وجسد الإنسان، ویمکنه أن یکون عاملًا مؤثّراً فی التشجیع علی الأعمال الحسنة.

إنّ تأثیر الإیمان بالحیاة بعد الموت فی إصلاح الأفراد الفاسدین والمنحرفین وتشجیع الأفراد المضحّین والمجاهدین، أکثر بکثیر من تأثیر المحاکم والعقوبات المعمول بها عادةً فی الدنیا، للمزایا التی یتمتّع بها ذلک الإیمان عن المحاکم العادیة، ففی محکمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، ولا أثر للإضطهاد الفکری علی صاحبها، ولا فائدة من إعطاء وثائق کاذبة ومزوّرة، ولا تستغرق- عبر روتینها- مدة من الزمن.

القرآن الکریم یقول: «وَاتَّقُوا یَوْمًا لَّاتَجْزِی نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَیًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا یُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ یُنصَرُونَ» «۱».

کذلک یقول تعالی: «وَلَوْ أَنَّ لِکُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِی الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِیَ بَیْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَایُظْلَمُونَ» «۲».

کذلک قوله تعالی: «لِیَجْزِیَ اللَّهُ کُلَّ نَفْسٍ مَّا کَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ» «۳».

وإنّ حسابه تعالى سريع وحاسم كما ورد فى الخبر: «أنّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر».

ولهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء،

(۱) سورة البقرة/ ۴۸.

(۲) سورة يونس/ ۵۴.

(۳) سورة إبراهيم/ ۵۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۴

فقال تعالى: «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا» «۱».

حتى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقداً بالقيمة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد فى وصفه تعالى للمطفّفين فى الميزان، قوله تعالى:

«أَلَا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» «۲».

والحماسة الخالدة لمجاهدى الإسلام سابقاً وحاضراً فى ميادين الجهاد، والتضحية والفداء والإيثار الذى يظهره الكثير من المسلمين فى الدفاع عن بلدان الإسلام وعن المحرومين والمستضعفين، يدلّل على أنّه بجميعه إنعكاس لحالة الإعتقاد بالحياة الخالدة فى الدار الآخرة، وقد دلّت الدراسات من قبل المفكرين، والتجارب المختلفة على أنّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون- فى المقياس الواسع الشامل- إلّاعن طريق العقيدة بالحياة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذى منطقه: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» «۳». أى: الوصول إلى إحدى السعادتين، إمّا النصر أو الشهادة، هو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمة.

إنّ الموت الذى يبعث على الوحشة لدى كثير من الناس، وحتى أنّهم يحاذرون من ذكر إسمه أو كل ما يذكّر به، ليس موحشاً ولا قبيحاً قطّ بالنسبة إلى المعتقدين بالحياة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إليهم نافذة على عالم رحيب، وتحطّم القفص الدنيوى وكسر القيود المادّية التى تأسر الروح، وبلوغ الحريّة المطلقة.

إنّ مسألة المعاد تعتبر الخط الفاصل بين الإلهيين والماديين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالمادى يرى الموت فناءً مطلقاً، ويفرّ منه بكل وجوده، لأنّ كل شىء سينتهى به.

والإلهى يرى الموت ولادة جديدة، وولوجاً فى عالم واسع كبير مشرق، والإنطلاق فى السماء اللامحدودة. ومن الطبيعى فإنّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال للخوف والوحشة للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق الموت والشهادة. بل إنّهم يستلهمون من قول على بن أبى طالب عليه السلام: «واللَّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امّه» «۴».

(۱) سورة السجدة/ ۱۴.

(۲) سورة المطفّفين/ ۴ و ۵.

(۳) سورة التوبة/ ۵۲.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۵

ويستقبلون الموت فى سبيل الهدف برحابة صدر. ولهذا فإنّ أمير المؤمنين حينما تلقّى الضربة السامّة من اللعين الخاسر «عبد الرحمن بن ملجم» لم يقل سوى «فزت وربّ الكعبة».

خلاصـة القول: فـإنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنساناً شـجاعاً شـهماً هادفاً، تمتلیء حياته بالحماسـة والتضـحية والصدق والتقوى.

۳- الدلائل العقليّة على المعاد: فضـلًا عن الدلائل النقلية الكثيرة على المعاد سواء الواردة فی القرآن المجيد، والتی تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص، فإنّ هناک أدلّة عقلية واضحة أيضاً على هذه المسألة، والتی نحاول ذکرها هنا بشکل مختصر:

أ) برهان الحكمة: إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر، فسيكون فارغاً وبلا معنى تماماً، كما لو افترضنا بوجود الحياة فی الأطوار الجنينية بدون الحياة فی هذه الدنيا.

فلو کان قانون الخلق يقضـی بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرد نزولهم من بطون امّهاتهم ويموتون، فإنّ الدور الجنينی سيكون بلا معنى؟ کذلک لو کانت الحياة فی هذا العالم مبتورة عن الحياة فی العالم الآخر، فسـنواجه نفس الاضطراب والحيرة، فما ضرورة أن نعيش سـبعين عاماً أو أکثر أو أقل فی هـذه الـدنيا وسط کل هـذه المشـکلات؟ فنبـدأ الحياة ونحن لا نملک تجربـة معيّنة، وحين بلوغ تلک المرتبة يهجم الموت وينتهی العمر ... نسـعى مدة لتحصـيل العلم والمعرفة، وحينما نبلغ درجة منه بعد إشتعال الرأس شيباً يستقبلنا الموت.

ثم لأجل ماذا نعيش؟ الأكل واللبس والنوم والإستيقاظ المتكرر يومياً، وإستمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهل حقّاً إنّ هـذه السـماء المتراميـة الأطراف وهذه الأرض الواسـعة، وکل هذه المقدمات والمؤخّرات وکل هؤلاء الأساتذة والمعلمين والمربين وکل هـذه المکتبات الضـخمة وکل هذه الامور الدقيقة والأعمال التی تداخلت فی خلقنا وخلق باقی الموجودات، کل ذلک لمجرّد الأكل والشرب واللبس والحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، ويقدم بعضهم على الإنتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

وكيف يمكن لمن يؤمن باللَّه وبحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون إرتباطها بحياة اخرى ذات قيمة وذات شأن؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۶

يقول تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ» «۱». أی: أنّه لو لم يكن رجوع بعـد هذه الدنيا إلى اللَّه، فإنّ الحياة فی هذه الدنيا ليست سوى عبث فی عبث.

نعم فإنّ الحياة فی هـذه الـدنيا تجـد معناها ويکون لها مفهوماً ينسـجم مع حکمـة اللَّه سـبحانه وتعالى عنـدما تعتبر هـذه: «الدنيا مزرعة للآخرة» و «الـدنيا قنطرة» ومکان تعلّم، وجامعـة للإسـتعداد للعالم الآخر ومتجر لـذلک العالم، تماماً کما يقول أمير المؤمنين على عليه السـلام فی نهـج البلاغـة فی کلماته العميقـة المعنی: «إنّ الـدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنی لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها. مسجد أحبّاء اللَّه، ومصلّى ملائكة اللَّه، ومهبط وحی اللَّه، ومتجر أولياء اللَّه».

خلاصـة القول، إنّ الفحص والمطالعـة فی وضع هـذا العالم يؤدّی إلى الإعتقاد بعالم آخر وراء هـذا العالم: «وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» «۲».

ب) برهان العدالـة: التـدقيق فی نظام الوجود وقوانين الخلق، يسـتنتج منه أنّ کل شـیء منها محسوب بدقّـة متناهية. ففی مؤسـسة البدن البشـری، يحکم نظـام عـادل دقيق، بحيث أنّه لو تعرّض لأدنی تغيير أو عـارض ما لأدّی إلى إصابته بالمرض أو حتى الموت، حرکات القلب، دوران الدم، أجفان العين، وکل جزء من خلايا الجسم البشـری مشـمول بهذا النظام الدقيق، الذی يحکم العالم بأسره و «بالعدل قامت السماوات والأرض». فهل يستطيع الإنسان أن يکون وحده النغمة النشاز فی هذا العالم الواسع؟!

صحيـح أنّ اللَّه سـبحانه وتعـالى أعطى للإنسـان بعض الحريـة فی الإرادة والاختيـار لکی يمتحنه ولکی يتکامـل فی ظـل تلک الحرية ويطوی مسـير تکامله بنفسه، ولکن إذا أساء الإنسان الاستفادة من تلک الحرية فماذا سيکون؟! ولو أنّ الظالمين الضالين المضلين بسوء استفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمرّوا على مسيرهم الخاطیء فماذا يقتضی العدل الإلهی؟!

وصحيح أنّ بعضاً من المسيئين يعاقبون فى هذه الدنيا ويلقون مصير أعمالهم- على

(۱) سورة المؤمنون/ ۱۱۵.

(۲) سورة الواقعة/ ۶۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۷

الأقل قسم منهم- ولكن المسلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحق، كما أنّ جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيبة فى الدنيا، فهل من الممكن أن تكون كلتا المجموعتين فى كفّة عدالة اللّه سواء؟!

ويقول القرآن الكريم: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» «۱».

وفى موضع آخر يقول تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» «۲».

على كل حال، فلا شك فى تفاوت الناس وإطاعة أوامر اللّه سبحانه وتعالى، كما أنّ محاكم «القصاص والثواب الدنيوية» و «محكمة الوجدان» و «الآثار الوضعية للذنوب» كل ذلك لا يكفى لإقرار العدالة على ما يبدو، وعليه يجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامة تراعى بدقة الخير أو الشر فى حساباتها، وإلّا فإنّ أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبداً.

وبناءً على ما تقدّم يجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهى مساوٍ بالضرورة لوجود المعاد والقيامة، القرآن الكريم يقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيمَةِ» «۳».

ويقول: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» «۴».

ج) برهان الهدف: على خلاف ما يتوهمه الماديون، فإنّ الإلهيين يرون أنّ هناك هدفاً من خلق الإنسان، والذى يعبّر عنه الفلاسفة ب «التكامل» وفى لسان القرآن والحديث فهو «القرب إلى اللّه» أو «العبادة»: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» «۵».

فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكل شىء؟!

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم ويستمر فيه سير الإنسان التكاملى، وهناك يحصد ما زرع فى هذا العالم، وكما قلنا فى موضع آخر فإنّه فى ذلك العالم الآخر يستمر سير الإنسان التكاملى ليبلغ هدفه النهائى.

الخلاصة: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، وإذا قطعنا الإرتباط بين هذا العالم وعالم ما بعد الموت، فكل شىء سيتحوّل إلى ألغاز، وسوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

(۱) سورة القلم/ ۳۵ و ۳۶.

(۲) سورة ص/ ۲۸.

(۳) سورة الأنبياء/ ۴۷.

(۴) سورة يونس/ ۵۴.

(۵) سورة الذاريات/ ۵۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۸

د) برهان نفى الإختلاف: لا شك أنّنا جميعاً نتعذّب كثيراً من الاختلافات بين المذاهب والعقائد فى هذا العالم، وكلّنا نتمنّى أن تحلّ هذه الاختلافات، فى حين أنّ جميع القرائن تدلّل على أنّ هذه الاختلافات هى من طبيعة الحياة، ويستفاد من عدة دلائل بأنّه حتى بعد قيام المهدى عليه السلام- وهو المقيم لحكومة العدل العالمية والمزيل لكثير من الاختلافات- ستبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تامّ، وكما يقول القرآن الكريم، فإنّ اليهود والنصارى سيبقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: «فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

إِلَى يَومِ الْقِيمَةِ» «۱».

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى الذى يقود كل شيء باتّجاه الوحدة سينهى تلك الاختلافات حتماً، ولوجود الحجب الكثيفة لعالم المادة فى الدنيا فإنّه لا- يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، ونعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور والإنكشاف، إذن فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، وستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائى تام.

الجميل أنّه تمّ التأكيد فى آيات متعددة من القرآن الكريم على هذه المسألة، يقول تعالى فى الآية (۱۱۳) من سورة البقرة: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وفى الآيات (۳۸ و ۳۹) من سورة النحل يقول تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ».

۴- القرآن ومسألة المعاد: تعتبر مسألة المعاد المسألة الثانية بعد مسألة التوحيد والتى تعتبر المسألة الأساس فى تعليمات الأنبياء بخصائصها وآثارها التربوية، لذا ففى بحوث القرآن الكريم نجد أنّ أكثر الآيات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الكثرة الكاثرة التى اختصّت ببحث مسألة التوحيد.

والمباحث القرآنية حول المعاد تارةً تكون بشكل إستدلالات منطقية، واخرى بشكل بحوث خطابية وتلقينية شديدة الوقع بحيث إنّ سماعها فى بعض الأحيان يؤدّى إلى قشعريرة شديدة فى البدن بأسره. والكلام الصادق- كالاستدلالات المنطقية- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانية.

---

(۱) سورة المائدة/ ۱۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۹

فى القسم الأوّل، أى الاستدلالات المنطقية، فإنّ القرآن الكريم يؤكّد كثيراً على موضوع إمكانية المعاد، إذ إنّ منكرى المعاد غالباً ما يتوهمون إستحالته، ويعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصورة معاد جسمانى يستلزم عودة الأجسام المهترئة والتراب إلى الحياة مرّة اخرى.

ففى هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقاً متنوعة ومتفاوتة تلتقى كلها فى نقطة واحدة، وهى مسألة «الإمكان العقلى للمعاد».

فتارةً يجسّد للإنسان النشأة الاولى، وبعبارة واضحة تقول الآية: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» «۱».

وتارةً يجسّد حياة وموت النبات، وبعثه الذى نراه بامّ أعيننا كل عام، وفى الختام يقول إنّ بعثكم تماماً كالنبات: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذلِكَ الْخُرُوجُ» «۲».

وفى موضع آخر يقول تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلِكَ النُّشُورُ» «۳».

وحيناً يطرح مسألة قدرة اللَّه سبحانه وتعالى على خلق السموات والأرض فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۴».

وحيناً آخر يعرض عملية إنبعاث الطاقة وإشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، وجعل النار فى قلب الماء فيقول: «الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا» «۵».

وتارةً يجسّد أمام ناظرى الإنسان الحياة الجنينية فيقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُم فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» «۶».

وأخيراً فإنّ القرآن تارةً يدلّل على البعث بالنوم الطويل- النوم الذى هو قرين الموت

---

(۱) سورة الأعراف/ ۲۹.

(۲) سورة ق/ ۹- ۱۱.

(۳) سورة فاطر/ ۹.

(۴) سورة الأحقاف/ ۳۳.

(۵) سورة يس/ ۸۰.

(۶) سورة الحجّ/ ۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۰

وأخوه، بل إنّه الموت بعينه من بعض الجوانب- كنوم أصحاب الكهف الذى استمر ثلاثمائة وتسع سنين، وبعد تفصيل جميل حول النوم واليقظة يقول: «وَكَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا» «۱».

تلك هى الأساليب الستّة المختلفة التى طرحتها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانية المعاد.

علاوةً على قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة (البقرة- ۲۶۰) وقصة عزير (البقرة- ۲۵۹) وقصة الشهادة من بنى إسرائيل (البقرة- ۷۳)، والتى تشكّل كل واحدة منها نموذجاً تأريخياً على هذه المسألة وهى من الشواهد والدلائل الاخرى التى ذكرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصة القول، إنّ ما يعرضه القرآن الكريم عن المعاد ومظاهره المختلفة ومعلوماته ونتائجه، والدلائل الرفيعة التى يطرحها بهذا الخصوص، حيّة ومقنعة بحيث إنّ أىّ إنسان إذا كان لديه ذرّة من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

۵- المعاد الجسماني: المقصود من المعاد الجسماني ليس إعادة الجسم وحده فى العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح والجسم معاً، وبتعبير آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، والحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحى فقط، وينظرون إلى الجسد على أنّه مركّب، يكون مع الإنسان فى هذه الدنيا فقط، وبعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل من الجسد ويندفع نحو عالم الأرواح.

ولكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح والجسم، وهنا لا يقيّد البعض بعودة الجسم السابق، ويقولون بأنّ اللَّه قيّض للروح جسداً، ولكن شخصية الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

فى حال أنّ المحققين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذى يصبح تراباً ويتلاشى، يتلبّس بالحياة مرّة اخرى بأمر اللَّه الذى يجمعه ويكسوه بالحياة، هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إنّ الشواهد على المعاد الجسماني فى الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جدّاً، بحيث يمكن

---

(۱) سورة الكهف/ ۲۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۱

القول قطعاً بأنّ الذين يعتقدون بإقتصار المعاد على المعاد الروحى فقط لا يملكون أدنى إطّلاع على الآيات العديدة التى تبحث فى موضوع المعاد، وإلّا فإنّ جسمانية المعاد واضحة فى الآيات القرآنية إلى درجة تنفى أدنى شك فى هذه المسألة.

فهذه الآيات التى قرأناها فى آخر سورة يس، توضّح هذه الحقيقة فحينما تساءل الإنسان: «قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ» أجابه القرآن بصراحة ووضوح: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

إنّ كل تعجّب المشركين والمخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضية، وهى كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت وبعد أن نصبح تراباً متناثراً وضائعاً فى هذه الأرض؟ «وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» «۱».

إنّهم يقولون: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ» «۲».

وتعجّبوا من هـذه المسألـة إلى درجـة أنّهم اعتبروا إظهارها دليلًا على الجنون أو الكـذب على اللّه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» «۳».

لهذا السبب فإنّ إستدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عموماً تدور حول هذا المحور وهو «المعاد الجسمانى» وما عرضناه فى الفصل السابق فى ستّة طرق كانت دليلًا وشاهداً على هذا الادّعاء.

علاوةً على أنّ القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنّكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم والقبور مرتبطة بالمعاد الجسمانى.

والأوصاف التى يـذكرها القرآن الكريم عن المواهب الماديـة والمعنويـة للجنـة، كلها تدلّل على أنّ المعاد معاد جسـمى ومعاد روحى أيضاً، وإلّا فلا معنى للحور والقصور وأنواع الأغذية والنعيم فى الجنة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كـل حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق والثقافـة القرآنيـة وينكر المعاد الجسـمانى. وبتعبير آخر: فإنّ إنكار المعاد الجسمانى بنظر القرآن الكريم مساوٍ لإنكار أصل المعاد.

---

(۱) سورة السجده/ ۱۰.

(۲) سورة المؤمنون/ ۳۵.

(۳) سورة سبأ/ ۷.

علاوةً على هذه الأدلة النقلية، فإنّ هناک أدلّة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتّسع البحث كثيراً.

۶- الجنـة والنـار: الكثيرون يتوهّمون بـأنّ عالم ما بعـد الموت يشـبه هـذا العالم تماماً ولكنّه بشـكل أكمل وأجمل، غير أنّ لـدينا قرائن عديـدة تـدلّل على الفروق الكبيرة بين العـالمين من حيث الكيفيـة والكميّـة، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجنينى وهـذه الـدنيا لظلّت المقايسة أيضاً غير كاملة.

فوفقـاً لصريح الروايـات الواردة فى هـذا الشـأن فـإنّ فى عالم ما بعـد الموت ما لا عين رأت ولا اذن سـمعت ولا خطر على فكر بشـر، القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» «۱».

الأنظمـة الحاكمـة فى ذلـک العـالم أيضاً تتفاوت تماماً مع الأنظمـة فى هـذا العالم، ففى حين يسـتفاد فى هـذا العالم من أفراد يسـمّون «الشـهود» فى المحاكمـات، نرى أنّ هنـاک تشـهد الأيـدى والأرجل وحتى الجلـد: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۲». «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» «۳».

على كل حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوى صورة باهتة، وعادةً فإنّ اللغة التى نتحدث بها والثقافة التى لدينا غير قادرة جميعها على الوصف الحقيقى لما هو موجود هناک، ولكن لا يترک الميسور بالمعسور. فالمقـدار المتيقن هو أنّ الجنـة هى مركز كل النعم والمواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، وجهنم هى مركز لكل أنواع العذاب الأليم المادى والمعنوى أيضاً.

«نهاية تفسير سورة يس»

---

(۱) سورة السجده/ ۱۷.

(۲) سورة يس/ ۶۵.

(۳) سورة فصّلت/ ۲۱.

۳۷. سورة صافّات

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى سورة الصافات في خمسة أقسام:

۱- يبحث حول مجاميع من ملائكة الرحمن، ومجموعة من الشياطين المتمردين ومصيرهم.

۲- يتحدث عن الكافرين، وإنكارهم للنبوّة والمعاد، والعقاب الذى ينتظرهم يوم القيامة، والعذاب الإلهى الذى سيشملهم، كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجودة فى الجنة إضافةً إلى ملذّاتها وجمالها وسرور أهلها.

۳- يشرح تأريخ الأنبياء أمثال (نوح) و (إبراهيم) و (إسحاق) و (موسى) و (هارون) و (إلياس) و (لوط) و (يونس) ويتحدث هذا القسم بشكل مفصل عن إبراهيم محطّم الأصنام وعن جوانب مختلفة من حياته.

۴- يعالج صورة معيّنة من صور الشرك والذى يمكن إعتباره من أسوأ صور الشرك، وهو الإعتقاد بوجود رابطة القرابة بين اللَّه سبحانه وتعالى والجن والملائكة.

۵- يتناول فى عدّة آيات قصار إنتصار جيوش الحق على جيوش الكفر والشرك والنفاق، وإبتلاءهم- أى الكافرين والمشركين والمنافقين- بالعذاب الإلهى، وتنزّه آيات هذا القسم اللَّه سبحانه وتعالى وتقدّسه عن الأشياء التى نسبها المشركون إليه.

إنّ تسمية هذه السورة بالصافات جاءت نسبة إلى الآية الاولى فيها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۴

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جنّى وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمناً بالمرسلين».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الصافات فى كل يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بليّة فى حياته الدنيا، مرزوقاً فى الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يصبه اللَّه فى ماله ولا ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم، ولا جبار عنيد، وإن مات فى يومه أو ليلته بعثه اللَّه شهيداً، وأماته شهيداً، وأدخله الجنة مع الشهداء فى درجة من الجنة».

إنّ الهدف من التلاوة هو التفكّر، ومن ثم الإعتقاد، ومن بعد العمل، ومن دون شك فإنّ الذى يتلو هذه السورة بتلك الصورة، سيحفظ من شرّ الشياطين، ويتطهّر من الشرك، ويمتلك الإعتقاد الصحيح القوى، ويمارس أعمالًا صالحة، وإنّه سيحشر مع الشهداء.

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّاً (۱) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً (۳) إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (۴) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (۵) الملائكة المستعدة لتنفيذ المهام: هذه السورة هى أوّل سورة فى القرآن الكريم تبدأ بالقسم، القَسَم الملىء بالمعانى والمثير للتفكّر، القسم الذى يجوب بفكر الإنسان فى آفاق و أجواء هذا العالم، ويجعله متهيّئاً لتقبّل الحقائق.

من المسلّم به أنّ اللَّه تبارك وتعالى هو أصدق الصادقين، وليس بحاجة إلى القسم.

ونلفت الإنتباه إلى نقطتين لحل مشكلة القسم فى كل آيات القرآن التى سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولى: أنّ القسم يأتى دائماً بالنسبة إلى امور مهمة وذات قيمة، ولذلك فإنّ أقسام القرآن تشير إلى عظمة وأهمية الأشياء المقسم بها.

الثانية: أنّ القسم يأتى للتأكيد، وللدلالة على أنّ الامور التى يقسم من أجلها هى امور جديّة ومؤكّدة.

إنّ بداية هذه السورة تذكر أسماء ثلاثة طوائف أقسم بها اللَّه تعالى.

الاولى: «وَالصَّافَّاتِ صَفًّا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۵

الثانية: «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا».

الثالثة: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا».

إنّ المعروف والمشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكة ...

طوائف اصطفّت فى عالم الوجود بصفوف منظمة، وهى مستعدّة لتنفيذ الأمر الإلهى.

وطوائف من الملائكة تزجر بنى آدم عن إرتكاب المعاصى والذنوب، وتحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم، أو الملائكة الموكّلة بتسيير السحاب فى السماء وسوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها.

وأخيراً طوائف من الملائكة تتلو آيات الكتب السماوية حين نزول الوحى على الرسل.

«الصافّات»: هى جمع كلمة «صافّة» وهى بدورها تحمل صفة الجمع أيضاً، وتشير إلى مجموعة مصطفّة، إذن ف «الصافّات» تعنى الصفوف المتعددة.

و «الزاجرات»: مأخوذة من «الزجر» ويعنى الصرف عن الشىء بالتخويف والصراخ، وبمعنى أوسع فإنّها تشمل كل منع وطرد وزجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعنى مجاميع مهمّتها نهى وصرف وزجر الآخرين.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمة بالمعانى، أى القسم بالملائكة والإنس؟

الآية التالية توضّح ذلك وتقول: «إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ».

قسم بتلك المقدسات التى ذكرناها فإنّ الأصنام ستزول وتدمّر، وإنّه ليس هناك من شريك ولا شبيه ولا نظير للّهسبحانه وتعالى.

ثم يضيف: «رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ».

فالشمس فى كل يوم تشرق من مكان غير المكان الذى أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، والفواصل الموجودة بين هذه النقاط منظمة ودقيقة للغاية، حيث إنّها لا تزيد ولا تقلّ بمقدار ۱۱۰۰۰ من الثانية، وهذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين، كما أنّ هذا النظام ينطبق على ظهور وغروب النجوم.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (۷) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (۹) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (۱۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۶

حفظ السماء من تسلّل الشياطين: الآيات السابقة تحدثت عن طوائف الملائكة المكلفة بتنفيذ المهام الجسام، والآيات مورد البحث تتحدث عن الطائفة المقابلة لها، أى الشياطين وعن مصيرهم. ويمكن أن تكون هذه الآيات مقدمة لدحض معتقدات مجموعة من المشركين الذين يعبدون الشياطين والجن، وتتضمّن كذلك درساً فى التوحيد بين طيّاتها.

تبدأ الآية بالقول: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ».

حقّاً إنّ منظر النجوم فى السماء رائع الجمال، ولا تملّ أىّ عين من طول النظر إليه، بل إنّ النظر إليه يزيل التعب والهمّ من داخل الإنسان، (ممّا يذكر أنّ أبناء المدن فى العصر الحاضر التى يغطّيها دخّان المصانع، لا يستمتعون بمشاهدة السماء وهى مرصّعة بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروى حيث يدركون هذه المقولة القرآنية- أى تزيين السماء بالكواكب- بصورة أفضل).

أمّا الآية: «وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ» فإنّها تشير إلى حفظ السماء من تسلّل الشياطين إليها.

«مارد»: مشتقة من «مرد» التى تعنى الأرض المرتفعة الخالية من الزرع، وهنا المقصود هو الشخص الخبيث العارى من الخير.

ثم يضيف القرآن الكريم: إنّ الشياطين لا تتمكّن من سماع حديث ملائكة الملأ الأعلى ومعرفة أسرار الغيب التى عندهم، فكلّما حاولوا عمل شىء ما لسماع الحديث، رشقوا بالشهب من كل جانب: «لَّايَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ».

نعم، إنّهم يطردون من السماء بشدّة، وقد أعدّ لهم عذاب دائم، كما جاء فى قوله تعالى:

«دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ». «لَّا يَسَّمَّعُونَ» بمعنى (لا يستمعون) ويفهم منها أنّ الشياطين يحاولون معرفهٔ أخبار «الملأ الأعلى» إلّاأنّه لا يسمح لهم بذلك.

«الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، تعنى ملائكهٔ السماوات العلى، لأنّ كلمهٔ «ملأ» تطلق فى الأصل على الجماعهٔ التى لها وجههٔ نظر واحدهٔ.

وعندما يوصف الملأ ب (الأعلى) فذلك إشارهٔ إلى الملائكهٔ الكرام ذوى المقام الأرفع والأسمى.

«يقذفون»: مشتقهٔ من «قذف» وتعنى رمى الشىء إلى مكان بعيد، والمقصود هنا طرد الشياطين بواسطهٔ الشهب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۷

وهنا إشارهٔ إلى أنّ الشياطين لا يطردون ولا يمنعون من الإقتراب من السماء فحسب، بل سيصيبهم فى النهايهٔ- مع ذلك- عذاب دائم.

وأشارت الآيهٔ أيضاً إلى طائفهٔ من الشياطين الشريرهٔ التى تحاول الصعود إلى السماء العليا لإستراق السمع، وإلى المصير الذى ينتظرها هناك، كما جاء فى الآيهٔ الشريفهٔ: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ».

«الخطفهٔ»: أى اختلاس الشىء بسرعهٔ.

و «الشهاب»: شىء مضىء متولد من النار، ويرى نوره فى السماء على شكل خط ممتد.

وكما هو معروف فإنّ الشهب ليست نجوماً، وإنّما تشبه النجوم، وهى عبارهٔ عن قطع صغيرهٔ من الحجر متناثرهٔ فى الفضاء، عندما تدخل فى مجال جاذبيهٔ الأرض، تنجذب نحوها، ونتيجهٔ دخولها بسرعهٔ إلى جوّ الأرض وإحتكاكها الشديد مع الهواء المحيط بالكرهٔ الأرضيهٔ فإنّها تشتعل وتحترق.

و «ثاقب»: تعنى النافذ والخارق.

وهذه إشارهٔ إلى أنّ الشهاب يثقب كل شىء يصيبه ويحرقه.

فَاسْتَفْتِهِمْ أ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵) الذين لا يقبلون الحق أبداً: هذه الآيات تعالج قضيهٔ منكرى البعث، وتتابع البحث السابق بشأن قدرهٔ البارىء عزّ وجل خالق السماوات والأرض، وتبدأ بالإستفسار منهم وتقول: إسألهم هل أنّ معادهم وخلقهم مرّهٔ ثانيهٔ أصعب أو خلق الملائكهٔ والسماوات والأرض: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا».

نعم، فنحن خلقناهم من مادهٔ تافههٔ، من طين لزج: «إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ».

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقهٔ بشأن خلق السماوات والأرض والملائكهٔ. إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السماوات والأرض والملائكهٔ، إلّاأنّ القرآن الكريم أجابهم بالقول: إنّ خلق الإنسان مقابل خلق الأرض

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۸

والسماء والملائكهٔ الموجودهٔ فى هذه العوالم، يعدّ لا شىء، لأنّ أصل الإنسان يعود إلى حفنهٔ من التراب اللزج. ولأنّ أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، وبعد فترهٔ أضحى طيناً متجمّعاً ذا رائحهٔ نتنهٔ، ثم تحول إلى طين متماسك (وهذه الصورهٔ هى جمع لحالات متعددهٔ مذكورهٔ فى عدّهٔ آيات فى القرآن المجيد).

ثم يضيف القرآن الكريم: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ».

وما يكمن وراء تلك التصرفات القبيحهٔ ليس هو الجهل- فقط- وعدم المعرفهٔ، بل إنّها اللجاجهٔ والعناد، إذ أنّهم كلّما ذكّروا بدلائل المعاد والعقوبات الإلهيهٔ لا يتذكّرون «وَإِذَا ذُكِّرُوا لَايَذْكُرُونَ».

والأنكى من ذلك، أنّهم كلّما شاهدوا معجزهٔ من معجزاتك، لا يكتفون بالإستهزاء، وإنّما يدعون الآخرين للإستهزاء أيضاً: «وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ». «وَقَالُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات والآيات الإلهيهٔ والإنتقاص منها.

أ إذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أ إنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أ وَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هـذَا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰) هـذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (۲۳) هل نبعث من جديد: الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكرى المعاد، وتواصل الردّ عليها، فالآيةُ الاولى تعكس إستبعاد البعث من قبل منكريه بهذا النص: «أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

وهل سيبعث آباؤنا الأوّلون أيضاً؟ «أوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ». فمن يستطيع جمع تلك العظام النخرة وأكوام التراب المتفرّقة المتبقيّة من الإنسان؟ ومن يتمكّن من إعادة الحياة إليها؟

فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنّهم كانوا تراباً فى اليوم الأوّل، ومن التراب خلقوا، وإذ كانوا يشكّكون فى قدرة اللَّه، فعليهم أن يعرفوا أنّ اللَّه كان قد أراهم قدرته، وإن كانوا يشككون بإستحالة التراب، فقد أثبت ذلك من قبل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۹

ثم يردّ القرآن على تساؤلاتهم عندما يقول للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: قل لهم: نعم أنتم وأجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلّاء، «قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ».

فهل تتصورون أنّ عمليةَ إحيائكم والأوّلين تعدّ مستحيلةً، أو هى عمل عسير على اللَّه القادر والقوى؟ كلّا، فإنّ صرخةً عظيمةً واحدةً ممّن كلّفهم اللَّه سبحانه وتعالى بذلك كافيةً لبعث الحياة بمن فى القبور، ونهوض الجميع فجأة من دون أىّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحة المحشر التى كانوا بها يكذّبون: «فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ».

تعبير «زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» مع الإلتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أنّ البعث يتمّ بسرعة وعلى حين غرّة، وإلى سهولته فى مقابل قدرة البارىء عزّ وجل.

وهنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين وتبيّن ضعفهم وعجزهم وعوزهم، ويقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين: «وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هذَا يَوْمُ الدّينِ».

نعم، فعندما تقع أعينهم على محكمة العدل الإلهى وشهودها وقضاتها، وعلى علامات العقاب فإنّهم- من دون أن يشعروا- يصرخون ويبكون، ويعترفون بحقيقة البعث.

وهنا يوجّه إليهم الخطاب من البارىء عزّ وجل أو من ملائكته: نعم، اليوم هو يوم الفصل الذى كنتم به تكذّبون، «هـذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذّبُونَ».

وبما أنّ المجرمين لا يفكّرون إلّابالجزاء والعقاب الذى سينالهم، يطلق على يوم القيامة اسم يوم الجزاء، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعدّ أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم الفصل.

يوم فصل الحق عن الباطل، فيجب أن تتبيّن كل الخطوط المتضادة والبرامج الحقيقية والكاذبة و يوم المحاكمة.

فطبيعة الدنيا هى إختلاط الحق بالباطل، فى حين أنّ طبيعة البعث هو فصل الحق عن الباطل، ولهذا السبب فإنّ أحد أسماء يوم القيامة فى القرآن المجيد (يوم الفصل).

ثم يصدر البارىء عزّ وجل أوامره إلى ملائكته المكلفين بإرسال المجرمين إلى جهنم أن «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ».

نعم احشروهم وما كانوا يعبدون «مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ».

«احشروا»: مشتقة من «حشر»، ويقول الراغب فى مفرداته: إنّها تعنى إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۰

(أزواج) هنا إمّا أن تشير إلى زوجات المجرمين والمشركين، أو إلى من يعتقد إعتقادهم ويعمل عملهم ومن هو على شاكلتهم، لأنّ

هذه الكلمة تشمل المعنيين.

جملة «مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» تشير إلى آلهة المشركين، كالأصنام والشياطين والطغاة المتجبّرين والفراعنة والنماردة.

ففى أحد الأيام ارشدوا إلى الصراط المستقيم ولكنّهم لم يقبلوه، واليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، وهم مجبرون على القبول به، وهذا توبيخ عنيف لهم يجعلهم يتحرّقون ألماً فى أعماقهم.

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (۲۴) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۲۷) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (۳۲) الحوار بين القادة والأتباع الضالين: الآيات السابقة إستعرضت كيفية سوق ملائكة العذاب للظالمين ومن يعتقد إعتقادهم برفقة الأصنام والآلهة الكاذبة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، إلى مكان معين، ومن ثم هدايتهم إلى صراط الجحيم.

واستمراراً لهذا الإستعراض يقول القرآن: «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسُولُونَ».

ولكن عمّاذا يسألون؟ هناك روايات يذكرها الشيعة والسنّة فى أنّهم يسألون عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام «(۱)».

وبالطبع، فإنّ مثل هذه الروايات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآيات، بل تعكس مصاديقها الواضحة. بناءً على ذلك فإنّه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن كل شىء، عن العقائد وعن التوحيد والولاية، وعن الحديث والعمل، وعن النعم والمواهب التى وضعها اللّه سبحانه وتعالى فى إختيار الإنسان.

على أيّة حال، فعندما يساق المجرمون إلى صراط الجحيم، تكون أيديهم مقطوعة عن

---

(۱) الرواية هذه وردت فى الصواعق المحرقة/ ۸۹، عن الديلمى عن أبى سعيد الخدرى نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله كما وردت عن الحاكم بن أبوالقاسم الحسكانى فى شواهد التنزيل ۲/ ۱۶۰، نقلًا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۱

كل شىء وقاصرة عن تحصيل العون، ويقال لهم: أنتم الذين كان أحدكم يلجأ إلى الآخر فى المشكلات ويطلب العون منه، لِمَ لا ينصر بعضكم بعضاً الآن «مَا لَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ».

فكل الدعائم التى تصوّرتم إنّها دعامات مطمئنة فى الدنيا ازيلت عنكم، ولا يمكن أن يساعد بعضكم البعض، كما أنّ آلهتكم ليسوا بقادرين على تقديم العون لكم، لأنّهم عاجزون ومنشغلون بأنفسهم.

الآية التى تليها تضيف: إنّهم فى ذلك اليوم مستسلمون لأوامر اللّه وخاضعون له، ولا يمكنهم إظهار المخالفة أو الإعتراض، «بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ».

وهنا يبدأ كل واحد منهم بلوم الآخر، ويسعى إلى إلقاء أوزاره على عاتق الآخر، والتابعون يعتبرون رؤساءهم وأئمّتهم هم المقصّرون، فيقابلونهم وجهاً لوجه، ويبدأ كل منهم بسؤال الآخر، كما تقول الآية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

وهنا يقول التابعون لمتبوعيهم: إنّكم شياطين، إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحة والهداية والتوجيه وإرادة الخير والسعادة لنا، ولكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر والضياع «قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ».

إذ أنّنا- بحكم فطرتنا- كنّا نسعى وراء الخير والطهارة والسعادة، ولذا لبّينا دعوتكم. نعم فكل الذنوب التى إرتكبناها أنتم مسؤولون عنها، لأنّنا لم نكن نملك شيئاً سوى حسن النية وطهارة القلب، وأنتم الشياطين الكذّابون لم يكن لديكم سوى الخداع والمكر.

«يمين»: تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهة اليمنى) والعرب تعتبرها فى بعض الأحيان كناية عن الخير والبركة والنصيحة.

وفى المقابل فإنّ المتبوعين والقادة يجيبون تابعيهم بالقول: «قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

ودليلنا واضح، إذ لم تكن لنا أى سلطة عليكم، ولم نضغط عليكم ونجبركم لعمل أى شيء: «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ».

إنّما أنتم قوم طغاة ومعتدون، وأخلاقكم وطبيعتكم الظالمة صارت سبب تعاستكم «بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ».

وكم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده وإمامه الذى كان قد إرتبط به قلبيّاً طوال عمره، قد تسبّب فى تعاسته وشقائه ثم يتبرّأ منه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۲

فى الحقيقة، إنّ كلتا المجموعتين صادقة فى قولها.

فجدالكم لا يؤدى إلى نتيجة، وهنا يعترف أئمة الضلال بهذه الحقيقة، ويقولون: بهذا الدليل ثبت أمر اللَّه علينا، وصدر حكم العذاب بحق الجميع، وسينالنا جميعاً عذاب اللَّه «فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ».

إنّكم كنتم طاغين، وهذا هو مصير الطغاة، أمّا نحن فقد كنا ضالين ومضلين.

فنحن أضللناكم كما كنّا نحن أنفسنا ضالين «فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ».

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعاً شركاء فى هذه المصائب وهذا العذاب؟

إنّ سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم؛ هذا الطغيان هيّأ لديكم أرضية التأثّر بإغوائنا، وعبر هذا الطريق تمكّنا من نقل الخرافات إليكم.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (۳۸) وَ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۴۰) مصير أئمة الضلال وأتباعهم: الآيات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذى يدور بين أئمة الضلال وتابعيهم يوم القيامة قرب جهنم، أمّا الآيات أعلاه فقد وضّحت- فى موضع واحد- مصير المجموعتين، وشرحت أسباب تعاستهم. ففى البداية تقول: إنّ التابع والمتبوع والإمام والمأموم مشتركون فى ذلك اليوم بالعذاب الإلهى، «فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ».

وبالطبع فإنّ إشتراكهم فى العذاب لا يمنع من وجود إختلاف فى المكان الذى سيلقون منه فى جهنم، إضافةً إلى اختلاف نوع العذاب الإلهى؛ إذ من الطبيعى أنّ الذى يتسبّب فى انحراف الآلاف من البشر لا يتساوى عذابه مع فرد ضالّ عادى.

وللتأكيد أكثر على تحقق العذاب تقول الآية التى تلتها: «إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

إنّ هذه هى سنّتنا، السنّة المستمدّة من قانون العدالة.

ثم توضّح السبب الرئيسى الكامن وراء تعاسة اولئك، وتقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۳

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ».

إنّ التكبر والغرور، وعدم الإنصياع للحق، والعمل بالعادات الخاطئة والتقاليد الباطلة بإصرار ولجاجة، والنظر إلى كل شيء باستخفاف واستحقار، تؤدّى جميعاً إلى إنحراف الإنسان.

لكن هؤلاء برّروا إرتكابهم للذنوب الكبيرة بتبريرات أسوأ من ذنوبهم، كقولهم: هل نترك آلهتنا وأصنامنا من أجل شاعر مجنون؟ «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ».

لقد أطلقوا على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كلمة (شاعر) لأنّ كلامه كان ينفذ إلى قلوبهم ويحرّك عواطفهم، فأحياناً كان يتكلّم إليهم بكلام يفوق أفضل الأشعار وزناً، فى الوقت الذى لم يكن حديثه شعراً، وكانوا يعتبرونه (مجنوناً) لكونه لم يتلوّن بلون المحيط الذى يعيش فيه، ووقف موقفاً صلباً أمام العقائد الخرافية التى يعتقد بها المجتمع المتعصّب حينذاك، الموقف الذى اعتبره المجتمع

الضال فى ذاك الوقت نوع من الإنتحار الجنونى، فى الوقت الـذى كان أكبر فخر لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله، هو عدم إستسـلامه للوضع السائد حينذاك.

وهنا تدخل القرآن لردّ إدّعاءاتهم التافهة والدفاع عن مقام الوحى ورسالة النبى صـلى الله عليه و آله عندما قال: «بَلْ جَاءَ بِالْحَقّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ».

فمحتوى كتابه من جهة، وتوافق دعوته مع دعوات الأنبياء السابقين من جهة اخرى، هى خير دليل على صدق حديثه.

وأمّا أنتم أيّها المستكبرون الضالون، فإنّكم ستذوقون العذاب الإلهى الأليم: «إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيم».

ولا تتصوّروا أنّ اللّه منتقم، وأنّه يريد الإنتقام لنبيّه منكم، كلّا ليس كذلك: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وجزاؤكم إنّما هو نتيجة أعمالكم وتكبّركم وكفركم وعدم إيمانكم باللّه وزعمكم بأنّ آيات اللّه هى (شعر) ورسوله (مجنون) إضافةً إلى ظلمكم وإرتكابكم القبائح.

آخر آيـة فى هذا البحث، والتى هى مقدمة للبحث المقبل، تستثنى مجموعة من العذاب، وهى مجموعة عباد اللّه المخلصين: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

وكلمـة «عِبَادَ اللَّهِ» يمكنها لوحـدها أن تبيّن إرتباط هـذه المجموعـة باللّه سبحانه وتعالى، وعنـدما تضاف إليها كلمة (مخلصين) فإنّها تعطى لتلك الكلمة عمقاً وحياةً.

نعم فهذه المجموعة لا تحاسب على أعمالها، وإنّما يعاملها اللّه سبحانه وتعالى بفضله

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۴

وكرمه، ويمنحها من الثواب بغير حساب.

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَوَاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (۴۴) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹)

جوانب من النعم لأهل الجنـة: الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحـدثت عن عباد اللّه المخلصين، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطايا والنعم غير المحدودة التى يهبها اللّه سبحانه وتعالى لأهل الجنة، ويمكن توضيحها فى سبعة أقسام:

تقول الآية أوّلًا: إنّ لهم رزقاً معلوماً ومعيّناً «أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ».

وهى الهبـات المعنويـة والمتع الروحيـة ودرك مظـاهر ذات اللّه، وتناول الشـراب الطاهر والغمرة فى عشق اللّه، اللـذة التى لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوّقها ويعيش رحابها.

ثم ينتقل إلى بيان نعم اخرى، ويعدّد قبل كل شىء بعض نعم الجنة التى تقدّم لأهل الجنة بكل إحترام وتكريم: «فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ».

ثم يقول: إنّ أماكنهم فى حدائق خضراء مملوءة بنعم الجنة «فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

فأىّ نعمة يتمنّونها موجودة هناك، وكل ما يطلبون يجدونه أمامهم.

وأشارت الآيات إلى النعمـة الرابعـة، وهى إستئناس أهل الجنـة بمجالس السّـمر التى يعقـدونها مع أصـدقائهم فى جوّ ملؤه الصـفاء، إذ يجلسون على سرر متقابلة وينظر كل منهم إلى الآخر: «عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».

«سرر»: هى جمع «سرير» وهى الأسرّة التى يجلس عليها الناس فى مجالس سمرهم.

أمّا القسم الخامس فيتحـدث عن نعمة اخرى من النعم التى تغدق على أهل الجنة، إذ تطرّق إلى الشـراب الطهور الذى يطاف به عليهم بكؤوس مملوءة بـأنواع الخمور الطـاهرة، ومتى ما أرادوا فإنّهم يسـقون من ذلك الخمر ليغرقوا فى عالم من النشاط والروحيـة: «يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ».

وهذه الكؤوس ليست فى مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، وإنّما يطاف بها عليهم:

«يُطَافُ عَلَيْهِم».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۵

«كـأس»: يطلقها أهل اللغـة على إناء الشـراب المملوء، فيما يطلقون كلمـة «قـدح» عليه إن كان خالياً؛ و «معين»: مشـتقة من «معن» على وزن (صحن) وتعنى الجارى، إشارة إلى أنّ هناك عيوناً جارية من الخمر الطاهر، تملأ منها- فى كل لحظة- الكؤوس، ومن ثم يطاف بها على أهل الجنة.

ثم ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إنّها بيضاء اللون ومتلألئة وتعطى لذة للشاربين بها «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ».

إنّها أشربة طاهرة، خالية من الألوان الشيطانية، وبيضاء اللون شفّافة.

الآيـة السابقـة التى تطرّقت إلى الشـراب والكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أمّا الآيـة التى تليها فتطرد فى جملـة قصـيرة كافّة تلك المفاهيم عن الأذهان: «لَافِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ».

«غول»: على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشيء بصورة غير محسوسة.

«ينزفون»: من مادة «نزف» على وزن (حـذف) وتعنى فقـدان الشـيء تـدريجيّاً. والمقصود فى هذه الآية ذهاب العقل تدريجيّاً والوصول إلى حالة السكرة، أمّا خمر الجنة الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل ولا يسبّب أى مضارّ.

أمّا القسم السادس، فإنّه يشـير إلى الحور العين فى جنات النعيم: «وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ». أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن ويقصرن طرفهنّ عليهم فقط، ولهذه الزوجات أعيناً واسعة وجميلة.

«طرف»: فى الأصل تعنى جفن العين، وهذه الكلمة كناية عن النظر، إذ إنّ أجفان العين تتحرّك عندما ينظر الإنسان إلى شـيء ما؛ إذن فإنّ عبارة «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» تعنى النساء اللواتى ينظرن نظرة قصيرة، وأنّهن ينظرن إلى أزواجهنّ فقط.

هـذا التعبير كنايـة عن كونهنّ لا يعشـقن إلّاأزواجهن، وقلوبهم متيمة بمحبّتهم، ولا توجد محبّة اخرى فى قلوبهنّ، وهذا هو أكبر إمتياز للمرأة التى تحبّ زوجها وتتأمل به.

إنّ آخر آيـة فى بحثنـا هـذا تعطينـا وصـفاً آخر لزوجـات الجنـة، إذ توضّـح طهارتهن وقداسـتهنّ من خلال هـذه العبارة: «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ». أى إنّهن نظيفات وظريفات.

الهبات التى منّ اللَّه تعالى بها على أهل الجنـة- المـذكورة فى الآيات السابقـة- هى مجموعـة من الهبات الماديّـة والمعنويـة، وإن كان حقيقة النعم التى تغدق على أهل الجنة خفيّة عن أهل الدنيا، إلّاإذا ذهبوا إلى هناك وشاهدوها عن قرب ليدركوها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۶

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۵۰) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹) إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (۶۱) البحث عن رفيق السوء: عباد اللَّه المخلصون الـذين إسـتعرضت الآيات السابقـة النعم المادية والمعنوية التى أغـدقت عليهم، كالفاكهـة، والحور، والأصـدقاء الطيبين الـذين يجالسونهم ويتحـدثون معهم، وفجأة يتـذكّرون أصـدقاءهم فى الـدنيا، أصدقاءهم الذين إنفصلوا عنهم فى الطريق، ولم يجدوا لهم أى أثر فى الجنة، فيسعون إلى معرفة مصيرهم.

نعم، ففى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث والسؤال عن أحوال بعضهم البعض، «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

فجأةً خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلًا: لقد كان لى صديق فى الدنيا «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ».

ومع الأسف، فإنّه انحرف عن الطريق الصحيح، وصار منكراً ليوم البعث، وكان دائماً يقول لى: هل تصدّق هـذا الكلام وتعتقد به؟ «يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ».

هل أنّنا إذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً نحيا مرّة اخرى، لنساق إلى الحساب: «أءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أءِنَّا لَمَدِينُونَ» «۱».

وهنا يخاطب من كان يتحدث معهم من أهل الجنة، بالقول: ليتنى أعرف أين هو الآن؟

وفى أيّة ظروف يعيش؟

ويضيف: أيّها الأصدقاء، هل تستطيعون البحث عنه، ومعرفة حاله، «قَالَ هَلْ أَنْتُم مُّطَّلِعُونَ» «۲».

---

(۱) «مدينون»: من مادة «دين» وتعنى الجزاء، وهنا تعنى: هل أنّنا سنجزى؟

(۲) «مطّلعون»: من مادة «إطّلاع» وتعنى التفتيش والبحث، والإشراف على شىء من مكان عالٍ، وأخذ المعلومات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۷

وأثناء بحثه عن قرينه وصديقه ينظر إلى جهنم، ويرى فجأةً صديقه وسط جهنم:

«فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ» «۱».

فيخاطبه قائلًا: أقسم باللّه لقد كدت أن تهلكنى وتسقطنى فيما سقطت فيه «قَالَ تَاللَّهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ» «۲».

فلولا لطف اللّه الذى منعنى من ذلك ونعمته التى سارعت لمساعدتى، لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك فى نار جهنم «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وهنا يلقى نظرة اخرى إلى صديقه فى جهنم، ويقول له موبّخاً إيّاه: ألم تكن أنت القائل لى فى الدنيا بأنّنا لا نموت «أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ». سوى مرّة واحدة فى الدنيا، وبعدها لا حياة اخرى ولا عذاب «إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

هنا اختتم الحديث بجملة عميقة المعانى: «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ما أعظم هذا الفوز الذى يغرق فيه الإنسان بنعمة الخلود والحياة الأبدية، وتشمله الألطاف الإلهية.

ثم يقول تبارك وتعالى فى ختام البحث جملة توقظ القلوب وتهزّ الأعماق: «لِمِثْلِ هـذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ». أى لمثل هذا فليعمل الناس، ومن أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

فما أجمل التعبير الذى صاغته الآيات القرآنية المذكورة أعلاه، عندما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف، أى نيل الجنان المملوءة بالملذّات الروحية والجسمية، التى تشمل الشراب الطاهر الذى يغرق الإنسان فى الظلّ الملكوتى، والقرناء والأصدقاء الطيبين ذوى القلوب الصافية الذين تزيل مجالستهم كل أشكال الغم.

أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم (۶۲) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (۶۳) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (۶۹) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (۷۰)

---

(۱) «سواء»: تعنى الوسط.

(۲) «تردين»: من مادة «إرداء» وتعنى السقوط من مكان عالٍ، وهلاك الساقط.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۸

جوانب من العذاب الأليم لأهل النار: بعد توضيح النعم الكثيرة والخالدة التى يغدقها اللّه سبحانه وتعالى على أهل الجنة، تستعرض الآيات أعلاه العذاب الأليم والمثير للأحزان الذى أعدّه اللّه لأهل جهنم، وتقارنه مع النعم المذكورة سابقاً، بحيث تترك أثراً عميقاً فى النفوس يردعها عن إرتكاب الأعمال السيّئة والمحرّمة. ففى البداية تقول: «أَذلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ».

«نُزُل»: تعنى الشىء الذى يهيّأ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد، والبعض الآخر قال:

إنّها تعنى الشىء الأوّل الذى يقدّم للضيف حين وروده.

و «زقّوم»: اسم نبات مرّ وذى طعم ورائحة كريهة.

و «شجرة»: لا- تأتى دائماً بمعناها المعروف، وإنّما تعنى فى بعض الأحيان (النبات)؛ والقرائن هنا تشير إلى أنّ المراد من الشجرة هو المعنى الثانى أى (النبات). مختصر الامثل ج۴ ۲۱۹

ثم يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، ويقول: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ».

«فتنة»: تعنى المحنة والعذاب، كما تعنى الامتحان، وهو إشارة إلى أنّ المشركين عندما سمعوا كلمة (الزقّوم) عمدوا إلى السخرية والاستهزاء، فيما كان هذا الأمر إمتحاناً لُاولئك الطغاة.

ويضيف القرآن الحكيم: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ».

ولكن الظالمين المغرورين يواصلون إستهزاءهم، ويقولون: كيف يمكن لنبات أو شجر أن ينبت فى قعر جهنم؟ فأين النار وأين الشجر والنبات؟

وكأنّهم كانوا غافلين عن أنّ الاصول التى تحكم فى ذلك العالم- أى الآخرة- تختلف كثيراً عن الاصول الحاكمة فى العالم الدنيوى.

ثم يضيف القرآن الكريم: «طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ».

إنّ التشبيه هنا استخدم لبيان شدّة قباحة ثمار الزقّوم وشكلها الباعث على النفور والإشمئزاز.

ويواصل القرآن الكريم إستعراض العذاب الذى سينال المشركين والكافرين: «فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ».

هذا هو العذاب والفتنة الذى أشرنا إليه فى الآيات السابقة، حيث إنّ أكل هذا النبات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۹

الذى ينبت فى جهنم ذو الرائحة الكريهة والطعم المرّ واللبن الذى يورم ويحرق الأبدان فور ما يصيبها، وتناوله- وبكميّات كبيرة- يعدّ عذاباً أليماً.

ومن البديهى، فإنّ من يتناول هذا الطعام السىء الطعم والمرّ، يصيبه العطش، ولكن حينما يشعر بالعطش ماذا يشرب؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول: «ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ».

«الشوب»: هو الشىء المخلوط أو الممزوج مع شىء آخر؛ و «حميم»: هو الماء الحار البالغ فى حرارته، وهذا هو غذاء أهل جهنم، وهذا هو شرابهم.

وبعد هذه الضيافة إلى أين يذهبون، فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضاً بالقول: «ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ».

الآية الأخيرة فى بحثنا تناولت السبب الرئيسى الذى أدّى إلى دخول اولئك إلى جهنم ونيلهم العذاب الأليم والشديد هناك، تناولته فى آيتين مليئتين بالمعانى والحقائق: «إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ».

وإنّهم كانوا يسرعون على آثارهم ومن دون أى إرادة، «فَهُمْ عَلَى ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ».

«يهرعون»: من مادة «هرع» أى أسرع، وهى إشارة إلى أنّهم كانوا يقلّدون آباءهم قلباً وديناً وإنّهم كانوا يحثّون الخطى على آثارهم إلى درجة كأنّهم يسارعون فى ذلك من دون أى إرادة وإختيار، وإشارة اخرى إلى تعصّبهم وتمسّكهم بالخرافات التى كان أجدادهم الضالّون يعتقدون بها.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (۷۱) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۷۴) الامم الضالة السابقة: بما أنّ المسائل السابقة المتعلقة بالمجرمين والضالين لا تختّص بزمان ومكان معينين، فالقرآن يتوسّع فى الآيات التى تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، ويهىء الأرضية فى عدة آيات قصيرة ومختصرة لشرح امور كثيرة عن الامم السابقة، والتى بالإطلاع عليها تكون أدلّة ناطقة للبحوث السابقة.

ومن تلك الامم أقوام نوح وإبراهيم وموسى وهارون ولوط ويونس وغيرهم، إذ يقول:

«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۰

ثم يضيف القرآن المجيد أنّ ضلالتهم لم تكن بسبب إفتقادهم القائد وعدم موعظتهم:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ».

إذ أنّنا أرسلنا إليهم أنبياء لإنذارهم من خطر الشرك باللّه والكفر به، والظلم والإعتداء، وتقليد الآخرين بصورة عمياء، ولإطّلاعهم على مسؤولياتهم.

ثم يقول فى عبارة ذات معان عميقة: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ».

إنّ هذه الآية المباركة تشير إلى نهاية أقوام سنستعرض أحوالها وأوضاعها بصورة مفصّلة فى الآيات القادمة.

أمّا آخر آية فى بحثنا فإنّها تستثنى جماعة من العذاب الإلهى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى عاقبة هذه الامم، وتدعو إلى التمعّن فى العذاب الأليم الذى ابتلوا به، والذى أهلكهم وأبادهم جميعاً ماعدا عباد اللّه المؤمنين والمخلصين الذين نجوا من هذا العذاب.

وَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (۷۷) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (۷۸) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ (۷۹) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزى الْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۸۲)

مقتطفات من قصة نوح: من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء اللّه الكبار، والذين كانت الآيات السابقة قد تطرّقت إليهم بصورة خفيّة، وتشرع الآيات بنوح شيخ الأنبياء وأوّل اولى العزم من الرسل. بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم: «وَلَقَدْ نَادَينَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ».

هذا الدعاء يمكن أن يكون إشارة إلى الدعاء الذى ورد فى سورة نوح: «وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» «۱».

فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يجيبه فى الآية التى تليها بالقول: «وَنَجَّيْنهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

---

(۱) سورة نوح/ ۲۶ و ۲۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۱

يمكن أن يكون ذلك الغمّ نتيجة إستهزاء قومه الكافرين المغرورين به، وتجريحهم إيّاه بكلمات نابية وساخرة تستهدف إهانته وأتباعه المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إيّاه.

ويضيف القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ».

وإضافةً إلى ذلك يقول القرآن: أنّنا جعلنا لنوح ثناءً وذكراً جميلًا فى الأجيال والامم اللاحقة: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْأَخِرِينَ».

فقد وصفه القرآن المجيد بالنبى المقاوم والشجاع والصبور والرحيم والعطوف، وأطلق عليه لقب شيخ الأنبياء.

فبعد تحمّله كافّة الصعاب والآلام، منحه اللّه سبحانه وتعالى وساماً خالداً يفتخر به فى العالمين «سَلَمٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ».

ولكى تكون خصوصيات نوح عليه السلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». و «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ درجة عبودية نوح للّهوإيمانه به- إضافةً إلى إحسانه وعمله الصالح الذى ذكرته الآيتان الأخيرتان- كانت السبب الرئيسى وراء اللطف الإلهى الذى شمل نوحاً وأنقذه من الغمّ الكبير، وبعث إليه بالسلام، السلام الذى يمكن أن يشمل كل من عمل بما عمل به

نوح، لأنّ معايير الألطاف الإلهية لا تتخلّف، ولا تختّص بشخص دون آخر.

أمّا الآية الأخيرة فى بحثنا فقد وضّحت بعبارة شديدة اللهجة مصير تلك الامّة الظالمة الشريرة الحاقدة: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ».

إذ إنهمر المطر سيلًا من السماء، وتفجّرت الأرض عيوناً، وغطّت المياه اليابسة كبحر هائج دكّ بأمواجه المتلاطمة الشامخة عروش الطغاة ودمّرها، لافظاً إيّاهم بعدئذ أجساداً هامدة لا حياة فيها ولا روح.

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (۸۳) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۸۷) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (۸۸) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (۹۰) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَ لَا تَأْكُلُونَ (۹۱) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (۹۲) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۲

خطّة إبراهيم الذكية فى تحطيم الأصنام: آيات بحثنا هذا تتناول بشيء من التفصيل حياة النبى الشجاع إبراهيم عليه السلام محطّم الأصنام بعد آيات إستعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السلام المليء بالحوادث. الآية الاولى ربطت بين قصة إبراهيم وقصة نوح بهذه الصورة:

«وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرهِيمَ». أى: إنّ إبراهيم كان سائراً على خطى نوح عليه السلام فى التوحيد والعدل والتقوى والإخلاص، وكل واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

بعد هذا العرض المختصر ندخل فى التفاصيل. قال تعالى: «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

فى الكافى عن الصادق عليه السلام قال: «القلب السليم الذى يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه».

واعتبر القرآن الكريم القلب السليم رأس مال نجاة الإنسان يوم القيامة، حيث نقرأ فى سورة الشعراء، وفى الآيات (۸۸ و ۸۹) على لسان النبى الكبير إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

نعم، من هنا تبدأ قصة إبراهيم ذى القلب السليم، والروح الطاهرة، والإرادة الصلبة، والعزم الراسخ، مع قومه، إذ كلّف بالجهاد ضدّ عبّاد الأصنام، وبدأ بأبيه وعشيرته: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ». ما هذه الأشياء التى تعبدونها؟

أليس من المؤسف على الإنسان الذى كرّمه اللّه على سائر المخلوقات، وأعطاه العقل أن يعظّم قطعة من الحجر والخشب العديم الفائدة؟ أين عقولكم؟

ثم يكمل العبارة السابقة التى كان فيها تحقير واضح للأصنام، ويقول: «أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ».

واختتم كلامه فى هذا المقطع بعبارة عنيفة: «فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». إذ تأكلون ما يرزقكم به يوميّاً، ونعمه تحيط بكم من كل جانب، ورغم هذا تقصدون موجودات لا قيمة لها من دون اللّه.

وجاء فى كتب التاريخ والتّفسير، أنّ عبدة الأصنام فى مدينة بابل كان لهم عيد يحتفلون به سنوياً، يهيّئون فيه الطعام داخل معابدهم، ثم يضعونه بين يدى آلهتهم لتباركه، ثم يخرجون جميعاً إلى خارج المدينة، وفى آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول الطعام والشراب.

وحين دعاه قومه ليلًا للمشاركة فى مراسمهم نظر إلى النجوم: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ». «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ». وبهذا الشكل إعتذر عن مشاركتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۳

بعد إعتذاره تركوه وأسرعوا لتأدية مراسمهم، «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ».

إنّ أهل بابل كانوا يستقرئون النجوم، وبالطبع كانت هناك خرافات كثيرة فى هذا المجال شائعة فى أوساطهم، منها أنّهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثّر على حظوظهم، وكانوا يطلبون منها الخير والبركة، كما كانوا يستدلّون بها على الحوادث المستقبلية.

ولكى يوهمهم إبراهيم عليه السلام بأنّه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء وقال حينذاك: إنّى سقيم، فتركوه ظنّاً منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه.

ولكن روحه متعبة من جرّاء الممارسات التافهة لقومه وكفرهم وظلمهم وفسادهم، رغم أنّهم تصوّروا شيئاً آخر، واعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسدية.

وبهذه الطريقة بقى إبراهيم عليه السلام وحده فى المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متوجّهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله ونور الإشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه، إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها، وعليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام وإلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهزّ العقول التافهة لعبدتها وتوقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، ونظر إلى صحون وأوانى الطعام المنتشرة فى المعبد، ثم نظر إلى الأصنام وصاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم عبدتكم، إنّه غذاء دسم ولذيذ ومتنوع، ما لكم لا تأكلون؟ «فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» (۱).

ثم أضاف: لِم لا تتكلّمون؟ لِم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ «مَا لَكُمْ لَاتَنطِقُونَ».

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس وانقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكل ما لديه من قوّة: «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ».

إنّ إنقضاض إبراهيم عليه السلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربة موحشة.

وفى آخر اليوم عاد عبدة الأصنام إلى مدينتهم، واتّجهوا فوراً إلى معبدهم، فشاهدوا مشهداً رهيباً وغامضاً.

ثم تحوّل جوّ السكوت الذى خيّم عليهم لحظة مشاهدة المشهد، تحوّل إلى صراخ وإستفسار عمّن فعل ذلك بآلهتهم؟

ولم يمرّ وقت طويل، حتى تذكّروا وجود شاب يعبد اللّه فى مدينتهم إسمه إبراهيم، كان يستهزىء بأصنامهم «فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ».

---

(۱) «راغ»: من مادة «روغ» وتعنى التوجّه والتمايل بشكل سرّى ومخفى أو بشكل مؤامرة وتخريب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۴

«يزفّون»: مشتقة من «زفّ» وتستعمل بخصوص هبوب الرياح والحركة السريعة للنعامة الممتزجة ما بين السير والطيران، ثم تستخدم للكناية عن (زفاف العروس) إذ تعنى أخذ العروس إلى بيت زوجها.

قَالَ أَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (۹۶) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ (۹۷) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (۹۸) وَ قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ (۹۹) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰۰) فشل مخطّطات المشركين: بعد أن حطّم إبراهيم الأصنام، استدعى إبراهيم بهذه التهمة إلى المحكمة، وقد شرح القرآن الكريم فى سورة الأنبياء الحادثة بصورة مفصلة، بينما اكتفى القرآن فى آيات بحثنا بالإشارة لمقطع حساس واحد من مواقف إبراهيم عليه السلام وهو آخر كلامه معهم فى مجال بطلان عقيدتهم فى عبادة الأصنام: «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ».

فهل هناك شخص عاقل يعبد شيئاً من صنع يديه؟

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان، وليس صنيعة يده، من الآن فكّروا واعرفوا معبودكم الحقيقى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ».

فهو خالق الأرض والسماء، ومالك الوقت والزمان، ويجب السجود لهذا الخالق وحمده وعبادته.

إنّ هذه الحجّة كانت من الوضوح والقوّة إلى حد جعلتهم يقفون أمامها مبهوتين وغير قادرين على ردّهاودحضها.

ومن المعروف أنّ الطغاة والجبابرة لا يفهمون لغة المنطق والدليل.

ولإيقاف إنتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينة بابل، عمد الطغاة الذين أحسّوا بخطر إنتشاره على مصالحهم الخاصة إلى استخدام منطق القوّة والنار ضد إبراهيم عليه السلام، حيث هتفوا بالإعتماد على قدراتهم الدنيوية: أن ابنوا له بنياناً عالياً، واشعلوا فى وسطه النيران ثم ارموه فيه: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ».

ومن هـذه العبـارة يسـتفاد أنّ الأوامر كانت قـد صـدرت ببناء أربعـة جـدران كبيرة، ومن ثم إشـعال النيران فى داخلها، وبناء الجـدران الأربعـة الكبيرة، إنّمـا تمّ- كمـا يحتمل- للحؤول دون إمتـداد النيران إلى خارجها، ومنع وقوع أخطار محتملـة قـد تنجم عنها، ولإيجاد جهنم واقعية

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۵

كتلك التى كان إبراهيم يتهدّد ويتوعّد عبدة الأوثان بها.

«الجحيم»: فى اللغة هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

وآيـات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى تفاصيل هـذا الحادث الـذى ورد فى سورة الأنبياء، وإنّما أنهت هـذه الحادثـة بخلاصـة مركّزة ولطيفة: «فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ».

«كيد»: فى الأصل تعنى الإحتيال، أكان بطريقة صـحيحة أم خطأ، مع أنّها غالباً ما تسـتعمل فى موارد مذمومة، وهى إشارة إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاة بابل للقضاء على دعوة إبراهيم للناس بقوله وعمله ومحو آثارها.

إبراهيم عليه السـلام الـذى نجا بإرادة اللَّه من هـذه الحادثـة الرهيبـة والمؤامرة الخطيرة التى رسـمها أعـداؤه له، صـمّم على الهجرة إلى أرض بلاد الشام، إذ إنّ رسالته فى بابل قد إنتهت؛ «وَقَالَ إِنّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبّى سَيَهْدِينِ».

من البـديهى أنّ اللَّه لاـ يحويه مكان، والهجرة التى تتمّ فى سبيله من المجتمع الملوّث الفاسـد إلى المجتمع الطاهر الصافى، فإنّها هجرة إلى اللَّه.

الآيـات- هنا- عكست أوّل طلب لإبراهيم عليه السـلام من البارىء عزّ وجل، إذ طلب الولـد الصالـح، الولـد الـذى يتمكّن من مواصـلة خطّه الرسالى، ويتمم ما تبقّى من مسيرته، وذلك حينما قال: «رَبّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ».

فاستجاب اللَّه لدعاء عبده إبراهيم، ورزقه أولاداً صالحين (إسماعيل وإسحاق).

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۱۰۲) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵) إِنَّ هذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (۱۰۶) وَ فَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (۱۰۹) كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۱۰) بحثنـا فى الآيات السابقـة إنتهى عنـد هجرة إبراهيم عليه السـلام من بابل بعـد أن أدّى رسالته هناك، وطلبه من اللَّه أن يرزقه ولـداً صالحاً، إذ لم يكن له ولـد، وأوّل آيـة فى هـذا البحث تتحـدث عن الإستجابة لدعاء إبراهيم، إذ قالت الآية: «فَبَشَّرْنهُ بِغُلمٍ حَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۶

فى الواقع إنّ ثلاثـة بشائر جمعت فى هذه الآية، الاولى أنّه سـيرزق طفلًا ذكراً، والثانية أنّ هذا الطفل يبلغ سنّ الفتوّة، أمّا الثالثة فهى أنّ صفته حليم.

أخيراً، ولد الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشارة الإلهية، وأثلج قلب إبراهيم الذى كان ينتظر الولد الصالح لسـنوات طوال، إجتاز الطفل مرحلة الطفولة وأضـحى غلاماً، وهنا يقول القرآن: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ». يعنى أنّه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعى وبذل الجهد مع والده فى مختلف امور الحياة وإعانته على اموره.

فقد ذهب جمع من المفسرين: إنّ عمر إسماعيل كان (۱۳) عاماً حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحيّر، والذى يدلّ على بدء امتحان عسير آخر لهذا النبى ذى الشأن العظيم، إذ رأى فى المنام أنّ اللَّه يأمره بذبح إبنه الوحيد وقطع رأسه.

امتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الـذى نجح فى كافّة الإمتحانات الصـعبة السابقة وخرج منها مرفوع الرأس، ولكن قبل كل شىء، فكّر إبراهيم عليه السلام فى إعداد إبنه لهذا الأمر، حيث «قَالَ يَا بُنَىَّ إِنّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى .

الولـد الـذى كان نسـخة طبق الأصل من والده، والذى تعلّم خلال فترة عمره القصـيرة الصبر والثبات والإيمان فى مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهى بصدر واسع وطيبة نفس، وبصراحة واضحة قال لوالده: «قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ولا تفكّر فى أمرى، فإنّك «سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ».

فما أعظم كلمـات الأب والإبن وكم تخفى فى بواطنها؛ فمن جهـة، الأب يصارح ولـده البالغ من العمر (۱۳) عاماً بقضية الذبح، حيث جعله هنا شخصية مستقلّة حرّة الإرادة.

ومن جهة اخرى، عمد الإبن إلى ترسيخ عزم وتصميم والده فى تنفيذ ما أمر به.

وبهذا الشكل يجتاز الأب وإبنه المرحلة الاولى من هذا الإمتحان الصعب بإنتصار كامل.

كتب البعض: إنّ إسماعيل ساعد والده فى تنفيذ هذا الأمر الإلهى، وعمل على تقليل ألم وحزن والدته.

يـا أبت، أحكم شـدّ الحبـل كى لاـ تتحرّك يـدى ورجلى أثنـاء تنفيـذك الأمر الإلهى، أخاف أن يقلّل ذلك من مقـدار الجزاء الـذى سأناله.

والدى العزيز اشحذ السكّين جيّداً، وامرره بسرعة على رقبتى كى يكون تحمّل ألم الذبح سهلًا بالنسبة لى ولك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۷

والدى قبل ذبحى اخلع ثوبى من على جسدى كى لا يتلوّث بالدم، لأنّى أخاف أن تراه والدتى وتفقد عنان صبرها.

ثم أضاف: أوصل سلامى إلى والدتى، وإن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبى إليها كى يسلّى خواطرها ويهدّىء من آلامها.

قربت اللحظات الحسّاسـة، فعنـدما رأى إبراهيم عليه السـلام درجة إستسـلام ولده للأمر الإلهى إحتضنـه وقبّل وجهه، وفى هذه اللحظة بكى الإثنان.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر فى جملة قصيرة ولكنّها مليئة بالمعانى، فيقول تعالى:

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» «۱».

كبّ إبراهيم عليه السـلام إبنه على جبينه، ومرّر السـكّين بسـرعة وقوّة على رقبة إبنه، وروحه تعيش حالة الهيجان، إلّاأنّ السكّين الحادّة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

وهنـا غرق إبراهيم فى حيرته، ومرّر السـكّين مرّة اخرى على رقبـة ولـده، ولكنّهـا لم تؤثّر بشـىء كالمرّة السابقـة. نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكّين: إذبحى، لكن اللَّه الجليل يعطى أوامره للسكّين أن لا تذبحى، والسكّين لا تستجيب سوى لأوامر البارىء عزّ وجل.

وهنا ينهى القرآن كل حالات الإنتظار وبعبارة قصيرة مليئة بالمعانى العميقة:

«وَنَادَيْنَهُ أَنْ يَا إِبْرهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

ثم يضيف القرآن الكريم: «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْبَلؤُا الْمُبِينُ».

عملية ذبح الإبن البارّ المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عملية سهلة وبسيطة بالنسبة لأب إنتظر فترة طويلة كى يرزقه اللَّه بهذا الإبن.

والذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر اللَّه، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح وإطمئنان يحفّه اللطف الإلهى، وإستسلام فى مقابل هذا الأمر.

ولكى لا يبقى برنامـج إبراهيم ناقصاً، وتتحقق امنية إبراهيم فى تقديم القربان للَّه، بعث اللَّه كبشاً كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلًا عن إبنه إسماعيل، ولتصير سنّة للأجيال القادمة التى تشارك فى مراسم الحجّ وتأتى إلى أرض (منى): «وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ».

---

(۱) «تلّه»: من مـادة «تلّ» وتعنى فى الأصل المكان المرتفع؛ و (تلّه للجبين) تعنى أنّه وضع أحـد جوانب وجه إبنه على مكان مرتفع من الأرض.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۸

وإحدى دلائل عظمة هذا الذبح، هو إتّساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، وحالياً يذبح فى كل عام أكثر من مليون اضحية تيمّناً بذلك الذبح العظيم وإحياءاً لذلك العمل العظيم. النجاح الذى حقّقه إبراهيم عليه السلام فى الإمتحان الصعب، لم يمدحه اللَّه فقط ذلك اليوم، وإنّما جعله خالداً على مدى الأجيال: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْأَخِرِينَ».

ولما إمتاز به إبراهيم عليه السلام من صفات حميدة، خصّه البارىء عزّ وجل بالسلام: «سَلمٌ عَلَى إِبْرهِيمَ».

نعم، إنّا كذلك نجزى ونثيب المحسنين: «كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلًا لسلام اللَّه عزّ وجل عليه.

من هو ذبيح اللَّه؟ ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفة تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح اللَّه.

وجاء فى روايات عن الإمامين المعصومين الباقر والصادق عليهما السلام، أنّهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنّه إسماعيل.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳) إبراهيم ذلك العبد المؤمن: الآيات الثلاث المذكورة أعلاه هى آخر الآيات التى تواصل الحديث عن قصة إبراهيم وإبنه وتكملها. فى البداية تصف الآية القرآنية إبراهيم:

«إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضّح حقيقة مفادها أنّ إيمان إبراهيم القوى دفعه إلى أن يضع كل وجوده وكيانه وحتى إبنه العزيز البارّ، فى صحن الإخلاص فداءً لربّه سبحانه وتعالى.

ثم تتناول هذه الآيات نعمة اخرى من النعم التى وهبها اللَّه تعالى لإبراهيم: «وَبَشَّرْنهُ بِإِسْحقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الأخيرة تتحدث عن البركة التى أنزلها البارىء جلّ وعلا على إبراهيم وإبنه إسحاق: «وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحقَ».

«بركة»: مشتقة من «برك» على وزن (درك) وتعنى صدر البعير، وتدريجياً أعطت هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۹

الكلمة معنى الثبات وبقاء شىء ما؛ والآية مورد بحثنا تشير إلى ثبات ودوام النعم الإلهية على إبراهيم وإسحاق وعلى اسرتهم.

وهذه البركات لا تشمل كل أفراد عائلة إبراهيم وعشيرته، وإنّما تشمل- فقط- المؤمنين والمحسنين منهم، إذ تقول الآية فى آخرها: «وَمِن ذُرّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لّنَفْسِهِ مُبِينٌ».

«محسن»: جاءت هنا بمعنى المؤمن والمطيع للَّه؛ و «ظالم»: جاءت هنا بمعنى الكافر والمذنب. فالآية المذكورة أعلاه تجيب اليهود والنصارى الذين افتخروا بكونهم من أبناء الأنبياء، وتقول لهم: إنّ صلة القربى لوحدها ليست مدعاة للإفتخار، إن لم ترافقها صلة فى الفكر والالتزام بالرسالة.

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (۱۱۶) وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۲۰) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲) النعم التى منّ بها اللَّه على موسى وهارون: الآيات المباركة هذه تشير إلى جوانب من النعم الإلهية التى أغدقها اللَّه جلّ شأنه على موسى وأخيه هارون.

الآية الاولى تشير إلى قوله تعالى: «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهرُونَ».

«المنّة»: فى الأصل من «المنّ» ويعنى الحجر الذى يستعمل للوزن، ثم أطلق على النعم الكبيرة والثقيلة، فلو كانت لها جنبة عملية وموضوعية فالمنّة جميلة ومحمودة، ولو إقتصرت على اللفظ والكلام فهى سلبية ومذمومة.

إنّ اللّه سبحانه وتعالى أنعم على الأخوين موسى وهارون بنعمة عظيمة. أمّا الآيات التى تلتها فتشرح سبعة من هذه النعم، وكل واحدة منها أفضل من اختها. ففى المرحلة الاولى يقول سبحانه وتعالى: «وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

فهل هناك قلق أكثر من هذا، وهو أنّ بنى إسرائيل يعيشون فى قبضة الفراعنة المتجبّرين

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۰

الطغاة؟ يذبحون أولادهم ويسخّرون نساءهم فى خدمتهم، ويستعبدون رجالهم ويستعملونهم فى الأعمال الشاقّة. وفى المرحلة الثانية، قال البارىء عزّ وجل: «وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ».

ففى ذلك اليوم كان جيش الفراعنة ذا قوّة عظيمة ويتقدّمه الطاغية فرعون، فيما كان بنو إسرائيل قوم ضعفاء وعاجزين يفتقدون لرجال الحرب وللسلاح أيضاً، إلّاأنّ المدد الإلهى وصلهم فى تلك اللحظات، وأغرق فرعون وجيشه وسط أمواج البحر، وأورث بنى إسرائيل قصور وثروات وحدائق وكنوز الفراعنة.

وفى المرحلة الثالثة من مراحل إغداق النعم على بنى إسرائيل وشمولهم بعنايته، جاء فى محكم كتابه العزيز: «وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ».

نعم (التوراة) هو كتاب مستبين، أى يوضّح لهم المجهولات المبهمة، ويجيبهم على كل ما يحتاجونه فى دينهم ودنياهم، كما أكّدت الآية (۴۴) من سورة المائدة ذلك: «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَيةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

وفى المرحلة الرّابعة أشار القرآن الكريم إلى نعمة معنوية اخرى منّ بها جلّ شأنه على موسى وهارون، وهى هدايتهما إلى الصراط المستقيم، «وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

أمّا المرحلة الخامسة فإنّها أكّدت على استمرار رسالتهما والثناء الجميل عليهما، إذ تقول الآية: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْأَخِرِينَ». و المرحلة السادسة تستعرض التحيّة الطيّبة المباركة التى وردت إلى كل من موسى وهارون من عند اللّه: «سَلَمٌ عَلَى مُوسَى وَهرُونَ».

سلام من عند اللّه، السلام الذى هو رمز لسلامة الدين والإيمان والرسالة والمذهب، السلام الذى يوضّح النجاة والأمن من العقاب والعذاب فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

وفى المرحلة السابعة- الأخيرة- نصل إلى مرحلة الثواب والمكافأة الكبرى التى يقدّمها البارىء عزّ وجل إليهما: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

نعم إنّ حصولهما على كل هذه المفاخر لم يكن من دون دليل أو سبب، إذ كانا من المحسنين والمؤمنين والمخلصين والطيّبين، فمثل هؤلاء جديرون بالثواب والمكافأة.

الآية الأخيرة فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصة نوح وإبراهيم من قبل:

«إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۱

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان ويعطيه القوّة، ويدفعه إلى الطهارة والتقوى وعمل الإحسان والخير.

وَ إِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۲۸) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلَامٌ عَلَى إِلْ‌يَاسِينَ (۱۳۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) النبى إلياس ومواجهته للمشركين: القصة الرابعة فى هذه السورة إستعرضت بصورة مختصرة حياة نبى اللّه (إلياس). يقول تعالى: «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم تبدأ الآيات بالتفصيل بعد الإجمال وتقول: واذكر عندما أنذر قومه «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ». أى: اتّقوا اللّه واجتنبوا الشرك وعبادة الأصنام وإرتكاب الذنوب والمظالم، وكل ما يؤدّى بالإنسان إلى الباطل والفساد.

أمّا الآية التى تلتها فقد تحدّثت بصراحة أكثر: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

قيل: (بعل) إسم صنم وكان من ذهب وطوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن «۱».

فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدّة، وقال لهم: «اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

وإستخدام كلمة (ربّ) هنا أفضل منبّه للعقل والفكر، لأنّ أهمّ قضية فى حياة الإنسان هى أن يعرف من الذى خلقه؟ ومن هو مالكه ومربّيه وولى نعمته اليوم؟

إلّا أنّ قومه اللجوجين والمتكبّرين لم يعطوا اذناً صاغية لنصائحه ومواعظه، ولم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم، وإنّما كذّبوه «فَكَذَّبُوهُ».

ومقابل تصرّفاتهم هذه توعّدهم اللّه سبحانه وتعالى بعذابه بعبارة قصيرة جاء فيها: إنّنا سنحضرهم إلى محكمة العدل الإلهى وسنعذّبهم فى جهنم «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» لينالوا جزاء أعمالهم القبيحة والمنكرة.

---

(۱) روح المعانى ۲۳/ ۱۳۹.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۲

ولكن يبدو أنّ هناك مجموعة من الأطهار المحسنين والمخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، ولكى لا يضيع حق هؤلاء، قال تعالى مباشرةً بعد تلك الآية: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

الآيات الأخيرة من بحثنا إستعرضت نفس القضايا الأربعة التى وردت بحقّ الأنبياء الماضين (نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون) ولأهميّتها نستعرضها مرّة اخرى.

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْأَخِرِينَ». أى: إنّ الامم القادمة سوف لن تنسى الجهود الكبيرة التى بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خطّ التوحيد.

وفى المرحلة الثانية أثنى اللّه سبحانه وتعالى وبعث بتحيّاته إلى آل ياسين. قال تعالى:

«سَلَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ».

وفى المرحلة الثالثة، قال تعالى: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

أمّا المرحلة الرابعة فتطرح الإيمان كأمر أساسى يجب أن يتوفّر فى الأنبياء الذين إستعرضتهم هذه السورة المباركة فتقول الآية هنا: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

«الإيمان» و «العبودية» للّههما مصدر الإحسان، والإحسان يؤدّى إلى إنضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام اللّه.

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۳۸) تدمير قوم لوط: «لوط» هو خامس نبى يذكر اسمه فى هذه السورة ضمن تسلسل الآيات التى تحدّثت بصورة مختصرة عن تأريخه لإستمداد العبر منه.

وطبقاً لما جاء فى آيات القرآن بشأن لوط، يتّضح أنّه كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام، وأنّه من أنبياء اللّه العظام.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: «وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يبيّن جوانب من قصة لوط، حيث قال: تذكر تلك الفترة الزمنية التى أنقذنا فيها لوطاً وأهله: «إِذْ نَجَّيْنهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ».

عدا زوجته العجوز التى جعلناها مع من بقى فى العذاب: «إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ». «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْأَخَرِينَ».

الجمل القصيرة- التى وردت أعلاه- تشير إلى تأريخ قوم لوط الملىء بالحوادث، والتى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۳

ورد شرحها فى سور (هود) و (الشعراء) و (العنكبوت).

وباعتبار أنّ هـذه الآيات كانت مقدّمـة لإيقاظ الغافلين والمغرورين، فقد أضاف القرآن الكريم: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ». أى: إنّكم تمرّون فى كل صباح بجانب ديارهم الخربة من جرّاء العذاب.

كما تمرّون من هناك فى الليل أفلا تعقلون؟ «وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

هـذه الآيات تخاطب قوافل أهل الحجاز التى كانت تذهب ليلًا ونهاراً إلى بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، وتقول: لو كان لهم آذان حيّة لسمعوا الصراخ المذهل والعويل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبين. نعم، إنّه درس ما أكثر العبر فيه، ولكن المعتبرين منه قليل.

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (۱۴۳) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (۱۴۸) يونس فى بوتقة الإمتحان: الحديث هنا عن قصة نبى اللَّه «يونس» عليه السلام وقومه التائبين، والتى هى سادس وآخر قصة تتناول قصص الأنبياء والامم السابقة.

فى البداية، وكما تعوّدنا فى القصص السابقة، فإنّ الحديث يكون عن مقام رسالته، إذ تقول الآية: «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

نبى اللَّه «يونس» عليه السـلام كسـائر الأنبيـاء العظام بـدأ بالـدعوة إلى توحيـد اللَّه ومجاهـدة عبـدة الأصـنام، ومن ثم محاربـة الأوضاع الفاسدة التى كانت منتشرة فى مجتمعه آنذاك، إلّاأنّ قومه المتعصّبين الذين كانوا يقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الإستجابة لدعوته، عدا مجموعة قليلة منهم، يحتمل أن لا تتعدّى الشخصين (أحدهما يسمّى بالعابد والثانى بالعالم) آمنت برسالته.

وبعد فترة طويلة من دعوته إيّاهم إلى عبادة اللَّه وترك عبادة الأصنام، يئس يونس من هدايتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۴

وبالفعـل فقـد دعا عليهم، فنزل عليه الوحى وحـدّد له وقت حلول العـذاب الإلهى بهم، ومع حلول موعـد نزول العـذاب، رحل يونس- بمعيّـة الرجل العابـد- عن قومه وهو غاضب عليهم، ووصل إلى ساحل البحر، وشاهـد سـفينة عنـد الساحل غاصّـة بالركاب فطلب منهم السماح له بالصعود إليها.

وهذا ما أشارت إليه الآية التالية، حيث قالت: «إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

«أبق»: مشتقة من «إباق» والتى تعنى فرار العبد من سيّده، إنّها لعبارة عجيبة، إذ تبيّن أنّ ترك العمل بالأولى من قبل الأنبياء العظام ذوى المقـام الرفيع عنـد اللَّه، مهما كان بسـيطاً فإنّه يؤدّى إلى أن يتّخـذ البارىء عزّ وجل موقفاً معاتباً ومؤنّباً للأنبياء، كإطلاق كلمـة (الآبق) على نبيّه.

ومن دون أى شـك فـإنّ نبى اللَّه يونس عليه السـلام، معصوم عن الخطأ، ولكن كان الأجـدر به أن يتحمّل آلاماً اخرى من قومه، وأن يبقى معه حتى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم ويتوبوا إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

ووفق ما ورد فى الروايات، فقد صـعد يونس عليه السـلام إلى السـفينة، ثم إنّ حوتاً ضـخماً وقف أمام السـفينة، فاتحاً فمه وكأنّه يطلب الطعـام، فقال ركّاب السـفينة أنّ هناك شـخصاً مـذنباً معنا يجب أن يكون طعام هـذا الحوت، ولم يجـدوا سبيلًا سوى الإقتراع لتحـديد الشخص الذى يرمى للحوت، وعندما إقترعوا خرج اسم يونس.

وقد أشار القرآن المجيد فى آية قصيرة إلى هذه الحادثة، قال تعالى: «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ».

«ساهم»: من مادة «سـهم» وتعنى إشتراكه فى الإقتراع، فالإقتراع تمّ على ظهر السـفينة بالشـكل التالى، كتبوا اسم كل راكب على (سهم) ثم خلطوا الأسهم وسحبوا سهماً واحداً، فخرج السهم الذى يحمل اسم يونس عليه السلام.

«مـدحض»: مشـتقة من «دَحْض» وتعنى إبطال مفعول الشـىء أو إزالته أو التغلّب عليه؛ والمراد هنا أنّ إسـمه ظهر فى عمليـة الإقتراع من بين بقية الأسماء.

وقال القرآن الكريم: «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ». أى إنّ حوتاً عظيماً التقمه وهو مستحق للملامة.

«التقم»: مشتقة من «الإلتقام» وتعنى (البلع).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۵

«مليم»: من مادة «لوم» وتعنى التوبيخ والعتب.

ومن المسلّم أنّ هذه الملامة لم تكن بسبب إرتكابه ذنباً كبيراً أو صغيراً وإنّما بسبب تركه العمل بالأولى، وإستعجاله فى ترك قومه وهجرانهم.

فى تفسير الدرّ المنثور: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لما أراد اللَّه حبس يونس عليه السلام فى بطن الحوت أوحى اللَّه إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً».

يونس عليه السلام إنتبه بسرعة للحادث، وتوجّه على الفور إلى اللَّه سبحانه وتعالى وتكامل وجوده مستغفراً اللَّه على تركه العمل بالأولى، وطالباً العفو منه.

ونقلت الآية (۸۷) فى سورة الأنبياء صورة توجّه يونس عليه السلام بالدعاء الذى يسمّيه أهل العرفان باليونسية. قال تعالى: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أن لَّاإِلهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَکَ إِنِّي کُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

إعتراف يونس الخالص بالظلم، وتسبيحه اللَّه المرافق للندم أدّى مفعوله، إذ إستجاب اللَّه له وأنقذه من الغم، كما جاء فى الآية (۸۸) من سورة الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنهُ مِنَ الْغَمِّ وَکَذلِکَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ».

ونلاحظ الآن ماذا تقول الآيات بشأن يونس عليه السلام. قال تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ کَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

أى لو لم يكن من المسبّحين لأبقيناه فى بطن الحوت حتى يوم القيامة، ويعنى تبديل سجنه المؤقّت إلى سجن دائم، ومن ثم تبديل سجنه الدائم إلى مقبرة له.

ويضيف القرآن، وقد ألقينا به فى منطقة جرداء خالية من الأشجار والنباتات، وهو مريض: «فَنَبَذْنهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ».

فالحوت الضخم لفظ يونس- الذى لم يكن غذاءً صالحاً لذلك الحوت- على ساحل خالٍ من الزرع والنبات، والواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثّر على سلامة وصحّة جسم يونس، إذ أنّه تحرّر من هذا السجن وهو منهار ومعتل.

كانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. والقرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة والرطبة: «وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ».

«اليقطين»: تعنى كل نبات لا ساق له وله أوراق كبيرة، مثل نبات البطّيخ والقرع والخيار

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۶

وما يشابهها؛ و «الشجرة»: تطلق على النباتات التى لها ساق وأغصان والتى ليس لها ساق وأغصان. وبعبارة اخرى: تشمل كل الأشجار والنباتات. فبعد أن ترك يونس قومه وهو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبيّن لهم قرب موعد الغضب الإلهى، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّة وأعادتهم إلى رشدهم، ودفعتهم إلى اللجوء للشخص (العالم) الذى كان آمن بيونس وما زال موجوداً فى المدينة، واتّخاذه قائداً لهم ليرشدهم إلى طريق التوبة.

وجلسوا يبكون، داعين اللَّه سبحانه وتعالى بإخلاص أن يتقبّل توبتهم ويغفر ذنوبهم وتقصيرهم بعدم اتّباعهم نبى اللَّه يونس.

وهنا أزاح اللَّه عنهم سُحُب العذاب وأنزلها على الجبال، وهكذا نجا قوم يونس التائبون المؤمنون بلطف اللَّه.

بعد هذا عاد يونس إلى قومه ولكن ما إن عاد إلى قومه حتى فوجىء بأمر أثار عنده الدهشة والعجب، وهو أنّه ترك قومه فى ذلك اليوم يعبدون الأصنام، وهم اليوم يوحّدون اللَّه سبحانه.

القرآن يقول هنا: «وَأَرْسَلْنهُ إِلَى مِائَةِ الْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ». كانوا قد آمنوا باللَّه، واغدقت عليهم النعم الإلهية المادية والمعنوية لمدّة معيّنة، «فَامَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ».

وبالطبع فإنّهم بعد توبتهم كانوا يتمتعون بإيمان بسيط، وقد إزداد بعد عودة يونس إليهم، أى إزداد إيمانهم باللّه وبرسوله يونس، وأخذوا ينفّذون تعليماته وأوامره.

دروس كبيره فى قصة يونس عليه السلام: من هذه القصة يمكن إستخلاص الدروس التربوية ومن جملتها:

أ) هذه القصة توضّح كيف أنّ قوماً مذنبين مستحقين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التاريخية، بعودتهم إلى أحضان الرحمة الإلهية، وإنقاذ أنفسهم من العذاب.

ب) هذه الحادثة تبيّن أنّ الإيمان باللّه والتوبة من الذنوب علاوة على أنّها تتسبّب فى نزول الآثار والبركات المعنوية، فهى توجد النعم والهبات الدنيوية وتجعلها فى اختيار الإنسان، وتوجد حالة من العمران والبناء، وتطيل الأعمار.

ج) أخيراً فإنّ مجريات هذه القصة تستعرض قدرة البارىء عزّ وجل العظيمة التى لا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۷

يقف أمامها شىء ولا يصعب عليها شىء، إلى درجة تستطيع حفظ حياة إنسان فى فم وجوف حيوان كبير وحشى، وإخراجه سالماً من هناك.

فَاسْتَفْتِهِمْ أ لِرَبِّکَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِکَةَ إِنَاثاً وَ هُمْ شَاهِدُونَ (۱۵۰) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْکِهِمْ لَیَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَکَاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (۱۵۳) مَا لَکُمْ کَيْفَ تَحْکُمُونَ (۱۵۴) أ فَلَا تَذَکَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَکُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِکِتَابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۵۹) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۰) التهم القبيحة: بعد إستعراض ستّ قصص من قصص الأنبياء السابقين، يغيّر القرآن موضوع الحديث، ويتناول موضوعاً آخر يرتبط بمشركى مكة آنذاک.

إنّ مجموعة من المشركين العرب وبسبب جهلهم وسطحية تفكيرهم كانوا يقيسون اللّه عزّ وجل بأنفسهم، ويقولون: إنّ للّهعزّ وجل أولاداً، وأحياناً يقولون: إنّ له زوجة.

فى البداية يقول: اسألهم هل أنّ اللّه تعالى خصّ نفسه بالبنات، وخصّهم بالبنين، «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّکَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ».

وكيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى اللّه، حيث إنّهم طبق عقائدهم الباطلة كانوا يكرهون البنات بشدة ويحبّون الأولاد كثيراً.

فإنّ الولد والبنت من حيث وجهة النظر الإنسانية، ومن حيث التقييم عند اللّه سبحانه وتعالى متساوون، وميزان شخصيتهم هو التقوى والطهارة.

ثم ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسّى على المسألة هذه، وبشكل إستفهام إستنكارى، قال تعالى: «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلِکَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ».

ومن دون أى شك فإنّ جوابهم فى هذا المجال سلبى، إذ لم يستطع أحداً منهم الإدّعاء بأنّه كان موجوداً أثناء خلق الملائكة.

مرّة اخرى يطرح القرآن الدليل العقلى المقتبس من مسلّماتهم الذهنية ويقول: «أَلَا إِنَّهُم مّنْ إِفْکِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَکَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ».

هل تدركون ما تقولون وكيف تحكمون: «مَا لَکُمْ کَيْفَ تَحْکُمُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۸

ألم يحن الوقت الذى تتركون فيه هذه الخرافات والأوهام القبيحة والتافهة؟ «أَفَلَا تَذَکَّرُونَ». إذن أنّ هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أنّ أى إنسان له ذرّة من عقل ودراية، ويتفكّر فى الأمر جيّداً، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان إدّعاءاتهم الخرافية بدليل تجريبى وآخر عقلى، ننتقل إلى الدليل الثالث وهو الدليل النقلى، حيث يقول القرآن الكريم مخاطباً إيّاهم: لو كان ما تزعمونه صحيحاً لذكرته الكتب السابقة، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، «أَمْ لَکُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ».

وإذا كنتم صادقين فى قولكم فأتوا بذلك الكتاب: «فَأْتوا بِكِتَابِكَمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

هـذا القول يشـبه بقيّـة الأقوال التى يخاطب بها القرآن عبـدة الأصـنام: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا أَشَـهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَلُونَ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ ءَاتَيْنهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» «۱».

الآيـة اللاحقـة تطرّقت إلى خرافـة اخرى من خرافات مشـركى العرب، والـتى تزعم بوجـود نسـبة بين اللّه عزّ وجـل والجن، فالآيـة هنا تخاطبهم بضمير الغائب، لأنّهم اناس تافهون، ولا تتوفّر فيهم الكفاءة واللياقة للردّ على زعمهم: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا».

والمراد من كلمـة (نسب) كـل أشـكال الرابطـة والعلاقـة، حتى ولو لم يكن هناك أى صـلة للقرابـة فيها، وكما نعلم فإنّ مجموعـة من المشـركين العرب كانوا يعبدون الجن ويزعمون أنّها شركاء للّه، ولهذا كانوا يقولون بوجود علاقة بينها وبين اللّه. فالقرآن المجيد ينفى هذه المعتقدات الخرافية بشدة، ويقول: «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ».

ونزّه اللّه تعـالى نفسه عمّـا قـاله اولئك الضالون فى صـفاته تعالى، قائلًا: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». وإسـتثنى وصف عباده المخلصـين (الذين وصفوه عن علم ومعرفة ودراية) حيث وصفوه بما يليق بذاته المقدّسة. قال تعالى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

العباد الخالصون من كل أشكال الشرك وهوى النفس والجهل والضلال، والذين لا يصفون البارىء عزّ وجل إلّابما سمح لهم به.

---

(۱) سورة الزّخرف/ ۱۹- ۲۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۹

نعم، ينبغى لنـا مراجعـة كلمـات الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله وخطب على بن أبى طـالب عليه السـلام، وأدعيـة الإمـام علىّ بن الحسين عليه السلام فى صحيفته، كى نستنير بضياء وصفهم له جلّ وعلا.

فأمير المؤمنين عليه السـلام- فى الخطبة ۱۸۶ فى نهـج البلاغـة- يصف اللّه عزّ وجل بالقول: «لا تناله الأوهام فتقدّره، ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره، ولاـ تـدركه الحواسّ فتحسّه، ولاـ تلمسه الأيـدى فتمسّه، ولاـ يتغيّر بحال، ولا يتبـدّل فى الأحوال، ولا تبليه الليالى والأيّام، ولا يغيّره الضـياء والظّلام، ولاـ يوصف بشـىء من الأـجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيريّـة والأبعاض، ولا يقال: له حدّ ولا نهاية، ولا انقطاع ولا غاية».

أمّا الإمام علىّ بن الحسـين زين العابدين عليه السـلام، فقد قال فى الدعاء الأوّل فى الصـحيفة السـجّادية: «الحمد للّهالأوّل بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذى قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين».

فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (۱۶۱) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (۱۶۲) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (۱۶۳) وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (۱۶۵) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۶۸) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰) الإدّعاءات الكاذبة: الآيات السابقة تحدثت عن الآلهة المختلفة التى كان المشركون يعبدونها، أمّا الآيات- مورد بحثنا الآن- فتتابع ذلك الموضوع، حيث توضّح فى كل بضع آيات موضوعاً يتعلق بهذا الأمر.

بدايـة البحث تؤكّد الآيات على أنّ وساوس عبدة الأصـنام لا تؤثّر فى الطاهرين والمحسـنين، وإنّما قلوبكم المريضة وأرواحكم الخبيثة هى التى تستسلم لتلك الوساوس. قال تعالى: «فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ».

نعم، أنتم ومـا تعبـدون لاـ تسـتطيعون خـداع أحـد بوسائـل الفتنـة والفساد عن الطريق المؤدّى إلى اللّه «مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ». إلّااولئك الذين يريدون أن يحترقوا فى نار جهنم «إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ».

بعـد إنتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقـة التى وضّـحت مسألة إختيار الإنسان فى مقابل فتن وإغراءات عبدة الأصـنام، نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التالية والتى تتناول

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۲۴۹

المرتبة العالية لملائكة اللَّه، وتقول مخاطبة عبدة الأصنام: إنّ الملائكة التى كنتم تزعمون أنّها بنات اللَّه لها مقام معيّن، والجميل فى هذه العبارة أنّ الملائكة هى التى تتحدث عن نفسها «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ». وتضيف ملائكة الرحمن: وإنّنا جميعاً مصطفون عند اللَّه فى إنتظار أوامره، «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ».

وإنّنا جميعاً نسبّحه، وننزّه عمّا لا يليق بساحة كبريائه: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ».

نعم، نحن عباد اللَّه، وقد وضعنا أرواحنا على الأكف بإنتظار سماع أوامره، إنّنا لسنا أبناء اللَّه، إنّنا ننزّه البارىء عزّ وجل من تلك المزاعم الكاذبة والقبيحة.

إنّ الآيات المذكورة أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكة:

الاولى: أنّ لكل واحد منهم مقام معيّن ومشخص ليس له أن يتعدّاه.

والثانية: أنّهم مستعدّون دائماً لإطاعة أوامر اللَّه سبحانه وتعالى وتنفيذها فى عالم الوجود.

والثالثة: أنّهم يسبّحون اللَّه دائماً وينزّهونه عمّا لا يليق بساحة كبريائه.

الآيات الأربع الأخيرة من هذا البحث تشير إلى أحد الأعذار الواهية التى تذرّع بها المشركون فيما يخصّ هذه القضية وعبادتهم للأصنام، وتجيب عليهم قائلة: «وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ». «لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

الآية التالية تقول: لقد تحقق ما كانوا يأملونه، إذ أنزل عليهم القرآن المجيد الذى هو أكبر وأعظم الكتب السماوية، إلّاأنّ هؤلاء الكاذبين فى إدّعاءاتهم كفروا به، ولم يفوا بما قالوا، واتّخذوا موقفاً معادياً إزاءه، فسيعلمون وبال كفرهم «فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۵) أ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۷) حزب اللَّه هو المنتصر: لازلنا نتابع البحث فى آيات هذه السورة المباركة، والتى شارفت على الإنتهاء، بعد أن إستعرضنا فى الأبحاث السابقة جهاد الأنبياء العظام والمصاعب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۱

والعراقيل التى أثارها وأوجدها المشركون، ففى آيات بحثنا الحالى سنتطرّق لأهمّ القضايا الواردة فى هذه السورة، إذ زفّت البشرى للمؤمنين بإنتصار جيش الحق على جيش الشيطان. الوعد الإلهى الكبير هذا إنّما جاء لبعث الأمل فى صفوف المؤمنين فى صدر الإسلام الذين كانوا لحظة نزول هذه الآيات يرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام فى مكة، ولكل المؤمنين والمحرومين فى كل زمان ومكان، والإستعداد لجهاد ومقاومة جيوش الباطل:

«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ». «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ». الوعد الإلهى من أهمّ الامور التى ينتظرها السائرون فى طريق الحق بإشتياق، حيث يستمدّون منه القوى الروحية والمعنوية.

ولمواساة النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين، وللتأكيد على أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، وفى نفس الوقت لتهديد المشركين، جاءت الآية التالية لتقول: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ».

ويؤكّد القرآن الكريم التهديد الأوّل بتهديد آخر جاء فى الآية التى تلتها، إذ تقول: انظر إلى لجاجتهم وكذبهم وإعتقادهم بالخرافات، إضافةً إلى حمقهم، فإنّهم سيرون جزاء أعمالهم القبيحة عن قريب: «وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

وسوف ترى فى القريب العاجل إنتصارك وإنتصار المؤمنين وإنكسار وهزيمة المشركين المذلّة فى الدنيا.

وعن تكرار اولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أين العذاب الإلهى الذى واعدتنا به؟ وإن كنت صادقاً،

فلِم هذا التأخير؟

يردّ القرآن الكريم عليهم بلهجة شديدة مرافقة بالتهديد، قائلًا: اولئك الذين يستعجلون العذاب وأحياناً يتساءلون (متى هذا الوعد؟)، وأحياناً اخرى يقولون متسائلين (متى هذا الفتح؟): «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

فعندما ينزل عذابنا عليهم، ونحيل صباحهم إلى ظلام حالك، فإنّهم فى ذلك الوقت سيفهمون كم كان صباح المنذرين سيّئاً وخطيراً «فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ».

استخدام عبارة (ساحة) والتى تعنى فناء البيت أو الفضاء الموجود فى وسط البيت، جاء ليجسّم لهم نزول العذاب فى وسط حياتهم، وكيف أنّ حياتهم الطبيعية ستتحوّل إلى حياة موحشة ومضطربة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۲

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۸) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (۱۸۱) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۸۲) تولّ عنهم: كما قلنا، فإنّ الآيات الأخيرة النازلة فى هذه السورة جاءت لمواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والمؤمنين الحقيقيين، ولتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوّليتان فى بحثنا هذا، تشبهان الآيات التى وردت فى البحث السابق، إذ تقول بلغة مرفقة بالتهديد: تولّ عنهم واتركهم فى شأنهم لمدّة معيّنة «وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ».

وانظر إلى لجاجة اولئك الكافرين وكذبهم وممارساتهم العدائية ونكرانهم لوجود اللَّه، الذين سينالون جزاء أعمالهم عن قريب «وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

التكرار جاء للتأكيد، وذلك ليدرك اولئك الكافرون أنّ جزاءهم وهزيمتهم وخيبتهم أمر قطعى لابدّ منه وسيكون ذلك عن قريب، وسيبتلون بالنتائج المريرة لأعمالهم، كما أنّ إنتصار المؤمنين هو أمر قطعى ومسلّم به أيضاً.

ثم تختتم السورة بثلاثة آيات ذات عمق فى المعنى بشأن (اللَّه) و (الرسل) و (العالمين)، إذ تنزّه اللَّه ربّ العزّة والقدرة من الأوصاف التى يصفه بها المشركون والجاهلون: «سُبْحَانَ رَبّكَ رَبّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ».

فأحياناً يصفون الملائكة بأنّها بنات اللَّه، وأحياناً يقولون بوجود نسبة بين اللَّه والجن، وأحياناً اخرى يجعلون مصنوعات لا قيمة لها من الحجر والخشب بمرتبة البارىء عزّ وجل.

وفى الآية الثانية شمل البارىء عزّ وجل كافّة أنبيائه بلطفه غير المحدود، وقال: «وَسَلمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ». السلام الذى يوضّح السلامة والعافية من كل أنواع العذاب والعقاب فى يوم القيامة، السلام الذى هو صمّام الأمان أمام الهزائم ودليل للإنتصار على الأعداء.

وأخيراً إختتمت السورة بآية تحمد اللَّه: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

الآيات الثلاث الأخيرة يمكن أن تكون إشارة وإستعراضاً مختصراً لكل القضايا والامور الموجودة فى هذه السورة، لأنّ الجزء الأكبر منها كان بشأن التوحيد والجهاد ضدّ مختلف أنواع الشرك، فالآية الاولى تعيد ما جاء بشأن تسبيح وتنزيه اللَّه عزّ وجل عن الصفات التى وصف بها من قبل المشركين، والقسم الآخر من السورة يبيّن جوانب من أوضاع سبع أنبياء كبار أشارت إليها هنا الآية الثانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۳

والآية الثالثة إستعرضت جزءاً آخر من النعم الإلهية، وبالخصوص أنواع النعم الموجودة فى الجنة، وإنتصار جند اللَّه على جنود الكفر، والحمد والثناء الذى جاء فى الآية الأخيرة، فيه إشارة لكل تلك الامور.

روى- فى تفسير مجمع البيان- عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للَّهربّ العالمين».

«نهاية تفسير سورة الصافات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۵

۳۸. سورة ص

محتوى السورة: سورة (ص) يمكن إعتبارها مكمّلة لسورة الصافات، فمجمل مواضيعها يشابه كثيراً ما ورد فى سورة الصافات.

ويمكن تلخيص محتويات هذه السورة فى خمس أقسام:

۱- يتحدّث عن مسألة التوحيد والجهاد ضدّ الشرك والمشركين، ومهمّة نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وعناد ولجاجة الأعداء تجاه الأمرين المذكورين أعلاه.

۲- يعكس جوانب من تأريخ تسع من أنبياء اللَّه ومن بينهم (داود) و (سليمان) و (أيّوب) حيث تتحدث عنهم السورة أكثر من غيرهم.

۳- يتطرّق إلى مصير الكفرة الطغاة يوم القيامة ومجادلة بعضهم البعض فى جهنم، ويبيّن للمشركين وللذين لا يؤمنون باللَّه إلى أين ستؤدّى بهم أعمالهم.

۴- يتناول مسألة خلق الإنسان وعلوّ مقامه وسجود الملائكة له.

۵- يتوعّد الأعداء المغرورين بالعذاب، ويواسى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ويبيّن هذه الحقيقة، وهى أنّ النبى لا يريد جزاء من أحد مقابل دعوته، ولا يريد الشقاء والأذى لأحد.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة ص اعطى من الأجر بوزن كل جبل سخّره اللَّه لداود حسنات وعصمه اللَّه أن يصرّ على ذنب صغيراً أو كبيراً».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۶

وفى كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة ص فى ليلة الجمعة اعطى من خير الدنيا والآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلّانبى مرسل أو ملك مقرّب، وأدخله اللَّه الجنة وكل من أحبّ من أهل بيته حتى خادمه الذى يخدمه».

والمراد من التلاوة هنا التلاوة التى ترافق التفكير العميق والتصميم الجدّى، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء فى هذه السورة المباركة.

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (۲) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (۳)

سبب النّزول

فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبى طالب، فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا، فادعه ومره فليكفّ عن آلهتنا ونكفّ عن إلهه».

قال: «فبعث أبو طالب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فدعاه، فلمّا دخل النبى صلى الله عليه و آله لم ير فى البيت إلّا مشركاً فقال: السلام على من اتّبع الهدى، ثم جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا له، فقال: أوَهل لهم فى كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم؟ فقال أبو جهل نعم وما هذه الكلمة؟ فقال: تقولون لا إله إلّااللَّه».

قال: «فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وخرجوا هراباً وهم يقولون: ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلّاإختلاق». فأنزل اللَّه تعالى فى قولهم: «ص وَالْقُرْءَانِ ذِى الذّكْرِ» إلى قوله «إنْ هذَا إلَّا اخْتِلَقٌ».

التّفسير

مرّة اخرى تمرّ علينا سورة تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطعة وهو حرف «ص» ويطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطعة، ولكن مجموعة من المفسرين إعتبرت هنا حرف (ص) رمزاً يشير إلى أحد أسماء اللَّه، وذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع)؛ أو أنّه إشارة إلى (صدق اللَّه) التى إختصرت بحرف واحد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۷

ثم يقسم اللَّه تعالى بالقرآن ذى الذكر والذى هو حقّاً معجزة إلهية: «وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ».

فالقرآن ذكر ويشتمل على الذكر، والذكر يعنى التذكير وصقل القلوب من صدأ الغفلة، تذكّر اللَّه، وتذكّر نعمه، وتذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، وتذكّر هدف خلق الإنسان.

الآية التالية تقول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات اللَّه الواضحة ولقرآنه المجيد، فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستاراً يغطّى كلام الحق، وإنّما هم مبتلون بالتكبر والغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول الحق، كما أنّ عنادهم وعصيانهم- هما أيضاً- مانع يحول دون تقبّلهم لدعوتك: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

«العزّة»: كما قال الراغب فى مفرداته، هى حالة تحول دون هزيمة الإنسان (حالة الذى لا يقهر)، وتعطى معنيين، فأحياناً تعنى (العزّة الممدوحة) المحترمة، كما فى وصف ذات اللَّه الطاهر بالعزيز، وأحياناً تعنى (العزّة بالإثم) أى الوقوف بوجه الحق والتكبر عن قبول الواقع، وهذه مذلّة فى حقيقة الأمر.

«شقاق»: مشتقة من «شقّ»، ومعناه واضح، ثم استعمل فى معنى المخالفة، لأنّ الإختلاف يسبّب فى أن تقف كل مجموعة فى شقّ، أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسألة العجرفة والتكبر والغرور وطىّ طريق الإنفصال والتفرقة من أسباب تعاسة الكافرين.

ولإيقاظ اولئك المغرورين المغفّلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر، ليريهم مصير الامم المغرورة والمتكبرة، كى يتّعظوا ويأخذوا العبر منها «كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ». أى: إنّ امماً كثيرة كانت قبلهم قد أهلكناها (بسبب تكذيبها الأنبياء، وإنكارها آيات اللَّه، وظلمها وإرتكابها للذنوب) وكانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، ولكن ما الفائدة فقد تأخّر الوقت! ولم يبق أمامهم متّسع من الوقت لإنقاذ أنفسهم: «فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

فعندما كان أنبياء اللَّه فى السابق يعظونهم ويحذّرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصمّ آذانهم وعدم الإستماع، وإنّما كانوا يستهزئون ويسخرون من الأنبياء ويعذّبون المؤمنين ويقتلونهم، فبذلك أضاعوا الفرصة ودمّروا كل الجسور التى خلفهم، فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعاً، العذاب الذى رافقه إنغلاق باب التوبة والعودة، وفور نزوله تبدأ أصوات الإستغاثة تتعالى، والتى لا تغنى عنهم يومئذ شيئاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۸

(لات): جاءت للنفى، وهى فى الأصل (لا) نافية اضيفت إليها (تاء) التأنيث، لتعطى معنى التأكيد؛ و «مناص»: من مادة «نوص» وتعنى الملاذ والملجأ.

وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (۴) أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً وَاحِداً إِنَّ هذَا لَشَیْءٌ عُجَابٌ (۵) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذَا لَشَیْءٌ يُرَادُ (۶) مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِی الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (۷)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم: نزلت بمكة لما أظهر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الدعوة بمكة اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فإن كان الذى يحمله على ذلك العدم، جمعنا له حالًا حتى يكون أغنى رجل فى قريش، ونملّكه علينا. فأخبر أبو طالب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بذلك فقال: «لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما أردته، ولكن يعطونى كلمة يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم ويكونون ملوكاً فى الجنة».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم وعشر كلمات، فقال لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «تشهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّى رسول

اللَّه».

فقالوا: ندع ثلاث مائة وستّين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً؟

فأنزل اللَّه تعالى: «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا»- إلى قوله- «إِلَّا اخْتِلقٌ».

التّفسير

هل يمكن قبول إله واحد بدلًا من كل تلك الآلهة: المغرورون والمتكبرون لا يعترفون بأمر لا يلائم أفكارهم المحدودة والناقصة، إذ يعتبرون أفكارهم المحدودة والناقصة مقياساً لكل القيم. لذا فعندما رفع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لواء التوحيد في مكة، وأعلن الإنتفاضة ضد الأصنام الكبيرة والصغيرة في الكعبة، والبالغ عددها (۳۶۰) صنماً، تعجّبوا: لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ «وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ».

كان تعجّبهم بسبب أنّ محمّداً صلى الله عليه و آله منهم ... أنّهم اعتبروا هذا الإمتياز الكبير نقطة سلبية في دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وتعجّبوا من أمر بعثته إليهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۹

وأحياناً كانوا يجتازون مرحلة التعجّب إلى مرحلة إتّهام رسول اللَّه بالسحر والكذب «وَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

إنّ إتّهامهم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالسحر، إنّما نتج من جرّاء رؤيتهم لمعجزاته التي لا تقبل الإنكار وتنفذ بصورة مدهشة إلى أفكار المجتمع، وإتّهامه بالكذب بسبب تحدّثه بامور تخالف سنّتهم الخرافية وأفكارهم الجاهلية التي كانت جزءاً من الامور المسلّم بها في ذلك المجتمع، وإدّعاء الرسالة من اللَّه.

وعندما أظهر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دعوته لتوحيد اللَّه، أخذ أحدهم ينظر للآخر ويقول له:

تعال واسمع العجب العجاب «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ».

نعم، فالغرور والتكبّر إضافة إلى فساد المجتمع، تساهم جميعاً في تغيّر بصيرة الإنسان، وجعله متعجباً من بعض الامور الواقعية والواضحة، في حين يصرّ بشدة على التمسك ببعض الخرافات والأوهام الواهية.

وبعد أن يئس طغاة قريش من توسط أبي طالب في الأمر وفقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثم إنطلقوا وقال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا وتمسّكوا أكثر بآلهتكم، واصبروا على دينكم، وتحمّلوا المشاق لأجله، لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلى الفساد والضياع وزوال النعمة الإلهية عنّا بسبب تركنا الأصنام، وإنّه يريد أن يترأس علينا؛ «وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ».

«إنطلق»: مشتقة من «إنطلاق» وتعني الذهاب بسرعة والتحرّر من عمل سابق، وهنا تشير إلى تركهم مجلس أبي طالب وعلامات الضجر والغضب بادية عليهم.

و (الملأ) إشارة إلى أشراف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلى أبي طالب.

وجملة «لَشَيْءٌ يُرَادُ» إشارة إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوة مؤامرة ضدّها، وقالت: إنّ ظاهرها يدعو إلى اللَّه، وباطنها يهدف إلى السيادة والرئاسة علينا وعلى العرب، ودعت الناس إلى التمسك أكثر بعبادة الأصنام، وترك تحليل أمر هذه المؤامرة إلى زعماء القوم.

فإنّ زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقوية المعنويات المنهارة لأتباعهم، والحيلولة دون تزعزع معتقداتهم، ولكن كل مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

ولخداع عوام الناس وإقناع أنفسهم، قال زعماء المشركين: «مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذَا إِلَّا اخْتِلقٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۰

فلو كان ادّعاء التوحيد وترك عبادة الأصنام أمراً واقعياً لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمة والشخصية قد أدركوا ذلك، وكنّا قد سمعنا ذلك منهم، لذا فهو مجرد حديث كاذب وليست له سابقة. وعبارة «الْمِلَّةِ الْأَخِرَةِ» تشير إلى آخر الأديان قبل ظهور نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

«إختلاق»: مشتقة من «خلق» وتعنى إبداء أمر لم تكن له سابقة، والمراد فى الآية- مورد البحث- أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبى مجهول بالنسبة لنا ولآبائنا الأوّلين.

أ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) الآيات السابقة تحدثت عن المواقف السلبية التى إتّخذها المعارضون لنهج التوحيد والإسلام، ونواصل فى هذه الآيات الحديث عن مواقف المشركين، فمشركو مكة بعد ما أحسّوا أنّ مصالحهم اللامشروعة باتت فى خطر، وإثر تزايد إشتعال نيران الحقد والحسد فى قلوبهم، ومن أجل خداع الناس وإقناع أنفسهم عمدوا إلى مختلف الإدّعاءات بمنطق زائف لمحاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومنها سؤالهم بتعجب وإنكار: «أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ مِن بَيْنِنَا».

من البديهى أنّ أشكال التعجب والإنكار المتولّدة عن الخطأ فى «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد وحبّ الدنيا، لا يمكن أن تكون معياراً منطقياً فى القضاء.

لهذا فإنّ تتمّة الآية تقول: إنّ مرض اولئك شىء آخر، إنّهم فى حقيقة الأمر يشكّكون فى أمر الوحى وأمر اللّه «بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّن ذِكْرِى».

ملاحظاتهم التى لا قيمة لها على شخصية الرسول ما هى إلّاأعذار واهية، وشكّهم وتردّدهم فى هذه المسألة ليس بسبب وجود إبهام فى القرآن المجيد، وإنّما بسبب أهوائهم النفسية وحبّ الدنيا وحسدهم.

وفى نهاية الأمر فإنّ القرآن الكريم يهدّدهم بهذه الآية: «بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ». أى إنّ هؤلاء لم يذوقوا العذاب الإلهى، ولهذا السبب تجاسروا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

ويضيف القرآن الكريم فى الردّ عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمة الإلهية كى يهبوا أمر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۱

النبوّة لمن يرغبون فيه، ويمنعونها عمّن لا يرغبون فيه؟ «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ».

فاللّه سبحانه وتعالى بمقتضى كونه (ربّ) هذا الكون ومالكه، وبارىء عالم الوجود وعالم الإنسانية، ينتخب لتحمل رسالته شخصاً يستطيع قيادة الامة إلى طريق التكامل والتربية.

وبمقتضى كونه (العزيز) فإنّه لا يقع تحت تأثير الآخرين ويسلّم مقام الرسالة إلى أشخاص غير لائقين. ولكونه (الوهّاب) فإنّه ينفذ أىّ شىء يريده، ويمنح مقام النبوّة لكل من يرى فيه القدرة على تحمّله.

ويمكن الاستفادة من كلمة (رحمة) هنا فى أنّ النبوّة إنّما هى رحمة ولطف ربّ العالمين بعالم الإنسانية.

الآية اللاحقة واصلت تناول نفس الموضوع، ولكن من جانب آخر، حيث قالت: «أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ».

هذا الكلام يعدّ مكمّلًا للبحث السابق، إذ جاء فى الآية السابقة: إنّكم لا تمتلكون خزائن الرحمة الإلهية، كى تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائكم، والآن تقول الآية التالية لها: بعد أن تبيّن أنّ هذه الخزائن تحت تصرف البارىء عزّ وجل، إذن فليس أمامكم غير طريق واحد، وهو أن ترتقوا إلى السماوات لتمنعوا الوحى أن ينزل على رسول اللّه وإنّكم تعرفون أنّ تحقيق هذا الأمر شىء محال، وأنتم عاجزون عن تنفيذه.

الآيـة الأخيرة فى بحثنا جاءت بمثابة تحقير لُاولئك المغرورين السـفهاء، قال تعالى: «جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ». فهؤلاء جنود قلائل مهزومون ...

«هنالك» إشارة للبعيـد، وبسـبب وجودها فى الآيـة، فقـد اعتبر بعض المفسـرين أنّها إشارة إلى هزيمـة المشـركين فى معركة بدر، التى دارت رحاها فى منطقة بعيدة بعض الشيء عن مكة المكرّمة.

وإسـتخدام كلمـة (الأـحزاب) هنـا إشارة- حسب الظاهر- إلى كل المجموعات التى وقفت ضـدّ رسل اللّه، والـذين أبادهم البارىء عزّ وجل.

وفى ذلك اليوم لم تكن هنالك الإنتصارات فى بدر والأحزاب وحنين قد تحققت.

ولكن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء- الذين هم مجموعة صغيرة من تلك المجموعات- سيهزمون فى نهاية المطاف.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۲

واليوم يبشّـر القرآن الكريم مسلمى العـالم المحاصـرين من كل الجهات من قبل القوى المعتديـة والظالمـة بنفس البشائر التى بشّـر بها المسلمين قبل (۱۴۰۰) عام، فى أنّ اللّه سـبحانه وتعالى سـينجز وعده فى هزيمة جند الأحزاب، إن تمسك مسـلمو اليوم بعهودهم تجاه اللّه كما تمسّك بها المسلمون الأوائل.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزَابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (۱۴) وَ مَا يَنْظُرُ هؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (۱۵) وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (۱۶)

تكفيهم صيحة سـماوية واحـدة: تتمـة للآيـة الآنفـة الـذكر، التى بشّـرت بهزيمة المشـركين مسـتقبلًا، تناولت آيات بحثنا الحالى بعض الأـحزاب التى كـذّبت رسـلها، وبيّنت المصـير الأـليم الـذى كان بإنتظارها، إذ تقول: إنّ أقوام نوح وعاد وفرعون ذى الأوتاد كانت قد كذّبت قبلهم بآيات اللّه ورسله، «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ».

كذلك أقوام ثمود ولوط وأصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى قد كذّبت رسلهم: «وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزَابُ».

فكلّ قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل اللّه، وأنزل العذاب الإلهى بحقّه: «إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ».

والتاريخ بيّن كيف أنّ كل قوم من تلك الأقوام ابيد بشـكل من أشـكال العذاب، وكيف أنّ مدنهم تحوّلت إلى خرائب وأطلال خلال لحظات، وأصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!

فهل يتوقّع مشـركو مكـة أن يكون مصـيرهم أفضل من مصـير اولئك من جرّاء الأعمال العدائيـة التى يقومون بها؟ لـذا فإنّ الآية التالية تخاطبهم بلغة التهديد الحازمة والقاطعة: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلّاصـيحة سماوية واحدة تقضى عليهم وتهلكهم وما لهم من رجوع، «وَمَا يَنظُرُ هؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ».

يمكن أن تكون هذه الصـيحة مماثلة للصـيحات السابقة التى نزلت على الأقوام الماضـية، كأن تكون صاعقة رهيبة أو زلزالًا عنيفاً يدمّر حياتهم وينهيها.

وقد تكون إشارة إلى صيحة يوم القيامة، التى عبّر عنها القرآن الكريم ب (النفخة الاولى فى الصور).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۳

«فواق»: على وزن (رواق) هو الفاصـل بين كـل رضـعتين، إذ بعـد فـترة معيّنـة من حلب الشـدى بصورة كاملـة يعود فينزل إليه اللبن من جديد. وبما أنّ الثدى يستريح قليلًا بعد كل حلبة، فكلمة (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء والراحة. وبما أنّ هذه الفاصـلة من أجل عودة الحليب مرّة اخرى إلى الثدى فإنّ هذه الكلمة تعطى مفهوم العودة والرجوع.

فالصيحة الرهيبة ليس بعدها رجوع ولا راحة ولا هدوء ولا إفاقة، ففور شروعها تغلق كل الأبواب أمام الإنسان.

الآيـة الأـخيرة فى هـذا البحث تشـير إلى كلامـ آخر للكـافرين حيث قـالوا باسـتهزاء وسـخرية: ربّنـا عجّل علينا العـذاب قبل حلول يوم الحساب، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ».

«قِط»: على وزن (جِنّ) تعنى قطع الشـىء عرضاً، فيما تعنى كلمة «قَد» وهى على نفس الوزن السابق، قطع الشـىء طولًا؛ وكلمة «قط» هنا تعنى نصيباً أو سهماً.

وهـذا الكلاـم قيـل بعـد نزول آيـات قرآنيـة تؤكّـد على أنّ هناك مجموعـة تعطى صـحائفها باليـد اليمنى، ومجموعـة اخرى تستسـلم صحائفها باليد اليسرى.

وهنا قالت مجموعة من مشركى مكة وهى تستهزىء: ما أجمل أن تسلّم إلينا الآن صحف أعمالنا لنقرأها ونشاهد ماذا عملنا؟

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (١٨) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَـةَ وَ فَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) تعلّم من داود: تتمـة للبحوث السابقـة التى إسـتعرضت فيها آيـات القرآن أذى المشـركين لرسـول اللّٰه صـلى الله عليـه و آله ونسـبتهم إليه مـا لاـ يليـق به، فـإنّ القرآن الكريم لمواسـاة رسـول اللّٰه وأصـحابه المؤمنين القلائل، طرح قصـة داود عليه السـلام. ففى البدايـة تقول آيات بحثنا: «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

«الأيد»: بمعنى القدرة، وتأتى أيضاً بمعنى النعمة.

وقد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود، إذ كان يتمتّع بقوّة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۴

فأسقطه من فرسه مضرّجاً بدمه خلال إحدى المعارك. أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة ومستعدّة دائماً لمواجهة الأعداء، بكل قوّة وإقتدار، حتى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبة الإسـتعداد من المساء حتى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

ومن حيث قدرته الأخلاقية والمعنوية والعبادية، فإنّه كان يقوم معظم الليل فى عبادة اللّٰه، ويصوم نصف أيّام السنة.

وأمّا من حيث النعم الإلهية، فقد أنعم عليه البارىء عزّ وجل بالكثير من النعم الظاهرية والباطنية.

خلاصـة الحـديث، إنّ داود كـان رجلًا ذا قوّة وقـدرة فى الحروب والعبادات والعلم والمعرفـة وفى السـياسة، وكان أيضاً صاحب نعمة كبيرة «۱».

فإنّ الآيات الآنفة بعد أن تطرّقت بصورة موجزة إلى نعم اللّٰه على داود، تشـرح أنواعاً من تلك النعم. قال تعالى: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبّحْنَ بِالْعَشِىّ وَالْإِشْرَاقِ».

كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كى تسبّح اللّٰه معه: «وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً».

فكل الطيور والجبال مسخّرة لداود ومطيعة لأوامره، وتسبّح معه البارىء عزّ وجل، وتعود إليه، «كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ».

إنّ تسبيحها كان توأماً مع صوت ظاهرى، مرافقاً لنوع من الإدراك والشعور الذى هو فى باطن ذرّات العالم، وطبقاً لهذا الإحتمال، فإنّ كل موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل والشعور، وحينما تسـمع صوت مناجاة هـذا النبى الكبير تردّد معه المناجاة، ليمتزج تسبيحها مع تسبيح داود عليه السلام.

وتواصل الآية التالية إستعراض نعم اللّٰه على داود عليه السلام، قال تعالى: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ».

أى: ثبّتنا وأحكمنا مملكته، بحيث كان العصاة والطغاة من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوّتها.

وإضافة إلى هذا فقد آتيناه الحكمة والعلم والمعرفة «وَءَاتَيْنهُ الْحِكْمَةَ».

(الحكمة) هنا تعنى العلم والمعرفة وحسن تدبير امور البلاد، أو مقام النبوّة، أو جميعها.

---

(۱) «أيد»: جمع «يد»، وقد إستعملت هنا لكونها مظهر القوّة والنعمة والملك، وقد حملت كل هذه المعانى هنا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۵

وآخر نعمة إلهية انعمت على داود هى تمكّنه من القضاء والحكم بصورة صحيحة وعادلة «وَفَصْلَ الْخِطَابِ».

وهناك إحتمال آخر لتفسير هذه العبارة، وهو أنّ اللّه سبحانه وتعالى أعطى داود منطقاً قويّاً يدلّل على سمو وعمق تفكيره، ولم يكن هذا خاصّاً بالقضاء وحسب، بل فى كل أحاديثه.

وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (۲۲) إِنَّ هذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (۲۳) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعاً وَ أَنَابَ (۲۴) فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵) داود والإمتحان الكبير: تتمة للآيات السابقة التى إستعرضت الصفات الخاصة بداود والنعم الإلهية التى أنزلها البارىء عزّ وجل عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضية عرضت على داود. ففى البداية يخاطب القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «وَهَلْ أَتَيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ».

«الخصم»: تطلق على الطرفين المتنازعين.

«تسوّروا»: مشتقة من «سور» وهو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينة؛ وتعنى هذه الكلمة فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

فرغم أنّ داود عليه السلام كان محاطاً بأعداد كبيرة من الجند والحرس، إلّاأنّ طرفى النزاع تمكّنا- من طريق غير مألوف- تسوّر جدران المحراب، والظهور أمام داود عليه السلام فجأةً، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون إستئذان ومن دون إعلام مسبق، وظنّ داود عليه السلام أنّهم يكنّون له السوء: «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۶

إلّا أنّهما عمدا بسرعة إلى تطييب نفسه وإسكان روعه، وقالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر؛ «قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ».

فاحكم الآن بيننا ولا تتحيّز فى حكمك وأرشدنا إلى الطريق الصحيح: «فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ».

«تشطط»: مشتقة من «شطط» على وزن (فقط)، وتعنى البعيد جدّاً، ولكون الظلم والطغيان يبعدان الإنسان كثيراً عن الحقّ، فكلمة (شطط) تعنى الإبتعاد عن الحق، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

ولذلك تقدّم أحدهما وطرح المشكلة على داود، وقال: هذا أخى، يمتلك (۹۹) نعجة، وأنا لا أمتلك إلّانعجة واحدة، وإنّه يصرّ علىّ أن أعطيه نعجتى ليضمّها إلى بقية نعاجه، وقد شدّد علىّ فى القول وأغلظ: «إِنَّ هذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ».

«النعجة»: هى الانثى من الضأن، وقد تطلق على انثى البقر الوحشى والخراف الجبلية.

«اكفلنيها»: مشتقة من «الكفالة»، وهى هنا كناية عن التخلى (ومعنى الجملة: إجعلها لى وفى ملكيتى وكفالتى، أى إمنحنى إيّاها).

«عزّنى»: مشتقة من «العزّة» وتعنى التغلّب، وبذا يكون معنى الجملة إنّه تغلّب علىّ.

وهنا التفت داود عليه السلام إلى المدّعى قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضّحه ظاهر الآية) وقال: من البديهى أنّه ظلمك بطلبه ضمّ

نعجتك إلى نعاجه؛ «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ».

وهـذا الأمر ليس بجديـد، إذ إنّ الكثير من الأصـدقاء والمخالطين بعضـهم لبعض يبغى على صاحبه، إلّاالـذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم قلّة: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» «۱».

فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة فى معاشرتهم وصداقتهم الطرف المقابل، ولا

---

(۱) «خلطاء»: جمع «خليط» وتعنى الأشـخاص أو الأشـياء المخلوطة بعضـها مع بعض، كما تطلق على الصديق والشريك والجار، ورغم أنّ الظلم والإعتداء لم يختصّ بالخلطاء، إلّاأنّ ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الإتّصالات المتكرّرة فيما بينهم، وإحتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقّع حدوث أى ظلم وطغيان من قبل اولئك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۷

يعتدون عليه أدنى إعتداء ويؤدّون حقوق أصدقائهم ومعارفهم بصورة كاملة قليلون جدّاً، وهم المتزودّون بالإيمان والعمل الصالح.

على أيّة حال، فالظاهر أنّ طرفى الخصام إقتنعا بكلام داود عليه السلام وغادرا المكان.

ولكن داود غرق فى التفكير بعـد مغادرتهمـا، رغم أنّه كـان يعتقـد أنّه قضـى بالعـدل بين المتخاصـمين، فلو كان الطرف الثانى مخالفاً لإدّعاءات الطرف الأوّل- أى المدّعى- لكان قد إعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضية هى كما طرحها المدّعى.

ولكن آداب مجلس القضـاء تفرض على داود أن يتريّث فى إصـدار الأحكـام ولاـ يتعجّل فى إصـدارها، وكـان عليه أن يسأل الطرف الثانى أيضاً ثم يحكم بينهما، فلذا ندم كثيراً على عمله هذا، وظنّ أنّما فتنه البارىء عزّ وجل بهذه الحادثة: «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَهُ».

وهنـا أدركته طبيعته، وهى أنّه أوّاب، إذ طلب العفو والمغفرة من ربّه وخرّ راكعـاً تائباً إلى اللّه العزيز الحكيم: «فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ».

«خرّ»: مشتقة من «خرير» وتعنى سقوط شىء من علو ويسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنّها كناية عن السجود.

و «راكعاً»: إمّا أنها تعنى السجود كما جاءت فى اللغة، أو لكون الركوع مقدمة للسجود.

فاللّه سبحانه وتعالى شـمل عبـده داود بلطفه وعفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضّـحه الآية التالية: «فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ».

وإنّ له منزلة رفيعة عند اللّه «وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَابٍ».

«زلفى»: تعنى المنزلة (والقرب عند اللّه)؛ و «حسن مآب»: إشارة إلى الجنة ونعم الآخرة.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (۲۶) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (۲۸) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (۲۹) احكم بالعدل ولا تتّبع هوى النفس: نواصل استعراض قصة داود، ونقف هنا على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۸

أعتابها النهائية، حيث إنّ آيات بحثنا هذا هى آخر الآيات الواردة فى هذه السورة بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجة حازمة وبعبارات مفعمة بالمعانى، شارحة له وظائفه ومسؤولياته الجسيمة بعد أن وضّحت مقامه الرفيع، إذ تقول: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ».

محتوى هذه الآية التى تتحدث عن مقام داود الرفيع والوظائف المهمّة التى كلّف بها، تبيّن أنّ القصـص الخيالية والكاذبة التى نسـجت بشـأن زواج داود من زوجـة (أوريـا) كلّها كاذبـة ولا أساس لها من الصـحة. فهل يمكن أن ينتخب البارىء عزّ وجل شـخصاً ينظر إلى شرف المؤمنين والمقربين منه بعين خؤونة ويلوّث يده بدم الأبرياء، خليفة له فى الأرض، ويمنحه حكم القضاء المطلق؟!

هذه الآية تضمّ خمس جمل كل واحدة منها تتحدث عن حقيقة معيّنة:

الاولى: خلافة داود فى الأرض.

هذه الآية تبيّن أنّ الحكومة فى الأرض يجب أن تستلهم شرعيّتها من الحكومة الإلهية، وأىّ حكومة لا تستلهم شرعيّتها من الحكومة الإلهية فإنّها حكومة ظالمة وغاصبة.

الجملة الثانية: تأمر داود قائلة: بعد أن منحك اللّه سبحانه وتعالى هذه النعمة الكبيرة، أى الخلافة، فإنّك مكلّف بأن تحكم بين الناس بالحقّ «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقّ».

وفى واقع الأمر فإنّ إحدى ثمار خلافة اللّه هى ظهور حكومة تحكم بالحق.

أمّا الجملة الثالثة: فإنّها تشير إلى أهمّ خطر يهدّد الحاكم العادل، ألا وهو اتّباع هوى النفس «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى .

نعم، فهوى النفس ستار سميك يغطّى بصيرة الإنسان، ويباعد بينه وبين العدالة.

لهذا فإنّ الجملة الرابعة تقول: «فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع فى ذلك، وأينما اتّبع هوى النفس فإنّ عاقبته الضلال.

والجملة الخامسة تشير إلى أنّ كل ضلال عن سبيل اللّه لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب، ومن ينسى يوم الحساب فإنّ عذاب اللّه الشديد ينتظره: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ».

وتتمّة للبحث الذى إستعرض حال داود وخلافته فى الأرض، تتطرق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كى تشخّص أسباب الحكومة على الأرض التى هى جزء من ذلك العالم،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۹

فيقول تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ».

هناك مسألة مهمّة تعدّ مصدراً لكل الحقوق، وهى: ما الهدف من وجود الخلق؟ فعندما ننظر إلى هذا العالم الوسيع، ونوافق على أنّ هذا العالم الوسيع لم يخلقه اللّه عبثاً، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذى يمكن إيجازه فى كلمات قصيرة وعميقة، وهى (التكامل) و (التعليم) و (التربية) ومن هنا نستنتج أنّ الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخطّ، فعليها أن تثبت اسس التربية والتعليم لتكون أساس التكامل المعنوى عند الإنسان.

الآية التالية تضيف: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ».

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمراً مستحيلًا، فمن المستحيل أيضاً المساواة بين الصالحين والطالحين، لأنّ المجموعة الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغاية النهائية، بينما كانت المجموعة الثانية تسير بإتّجاه مخالف لمسير المجموعة الاولى.

وبعبارة اخرى: فلإثبات مسألة المعاد- أحياناً- يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان (الحكمة) وأحياناً اخرى عن طريق برهان (العدالة)، فالآية السابقة استدلال بالحكمة، والآية التى بعدها إستدلال بالعدالة.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضّح- فى حقيقة الأمر- الهدف من الخلق، إذ جاء فى الآية الكريمة: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

فتعليماته خالدة، وأوامره عميقة وأصيلة، ونظمه باعثة للحياة وهادية للإنسان إلى الطريق المؤدّى إلى إكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر- فقط- على تلاوته وتلفّظ اللسان به، بل لكى تكون آياته منبعاً للفكر والتفكّر وسبباً ليقظة الوجدان، لتبعث بدورها الحركة فى مسير العمل.

وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (۳۱) فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (۳۲) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (۳۳)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۰

سليمان عليه السلام يستعرض قوّاته القتالية: هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السلام. فالآية الاولى تزفّ البشرى لداود فى أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، وسيتولّى الحكم وأعباء الرسالة من بعده، وتقول: «وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

هذه الجملة تبيّن عظمة مقام سليمان، ويحتمل كونها ردّاً على الإتّهامات القبيحة والعارية من الصحّة الواردة فى التوراة المحرّفة عن ولادة سليمان من زوجة أوريّا، والتى كانت شائعة فى المجتمع قبل نزول القرآن.

الآية التالية تبدأ بقصّة خيل سليمان، التى فسّرت بأشكال مختلفة، حيث إنّ البعض فسّرها بصورة سيّئة ومعارضة لموازين العقل، إذ يقول القرآن: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ».

«صافنات»: جمع «صافنة» وتطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم وترفع أحد قوائمها الأمامية قليلًا ليمسّ الأرض على طرف الحافر، وهذه الحالة تخصّ الخيول الأصيلة التى هى على أهبّة الإستعداد للحركة فى أيّة لحظة.

«الجياد»: جمع «جواد» وتعنى الخيول السريعة السير، وكلمة «جياد» مشتقة فى الأصل من (جود)، والجود عند الإنسان يعنى بذل المال، وعند الخيول يعنى سرعة سيرها.

ويستشف من الآية مع القرائن المختلفة المحيطة بها، أنّه فى أحد الأيّام وعند العصر إستعرض سليمان عليه السلام خيوله الأصيلة التى كان قد أعدّها لجهاد أعدائه.

فقد جاء هذا الوصف فى القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجاً من أعماله.

ولكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين فى أنّ حبّه لهذه الخيول القوية ناتج من حبّه للدنيا، جاء فى قوله تعالى: «فَقَالَ إِنّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبّى».

إنّى احبّ هذه الخيل من أجل اللّه وتنفيذ أمره، واريد الإستفادة منها فى جهاد الأعداء.

وإستمرّ سليمان عليه السلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدّة لجهاد أعداء اللّه، وهو يعيش حالة من السرور، حتى توارت عن أنظاره: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ».

كان هذا المشهد جميلًا ولطيفاً لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة اخرى: «رُدُّوهَا عَلَيَّ». وعندما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السلام إلى مسح سوقها وأعناقها: «فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ».

وبهذا الشكل أشاد بجهود مدربى تلك الخيول، وأعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۱

الطبيعى لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد ووجهه ورقبته وشعر رقبته، أو يمسح على ساقه، وأبرز فى نفس الوقت تعلقه الشديد بخيله التى تساعده فى تحقيق أهدافه العليا السامية، وتعلق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب.

«طفق»: بإصطلاح النحويين من أفعال المقاربة، وتأتى بمعنى (شرع)؛ و «سوق»: هى جمع (ساق)؛ و «أعناق»: جمع (عنق) ومعنى الآية هو أنّ سليمان شرع بمسح سوق الجياد وأعناقها.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (۳۴) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۳۵) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (۳۶) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (۳۷) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ (۳۸) هذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۳۹) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (۴۰) الإمتحان الصعب لسليمان وملكه الواسع: هذه الآيات تتحدث عن أحداث اخرى من قصة سليمان. القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلى أحد الإمتحانات التى إمتحن اللّه بها عبده سليمان، الإمتحان فى ترك العمل بالأولى، وكيف توجّه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى اللّه سبحانه وتعالى طالباً منه العفو والتوبة

لتركه العمل بالأولى

الآيةُ الاولى فى بحثنا هذا تقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ».

إنّ سليمان عليه السلام كان متزوجاً من عدّة نساء، وكان يأمل أن يُرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه فى إدارة شؤون البلاد وجهاد الأعداء، فحدّث نفسه يوماً قائلًا: لأطوفنّ على نسائى كى ارزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدوننى فى تحقيق أهدافى، ولكونه غفل عن قول (إن شاء اللَّه) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التى تبيّن توكّل الإنسان على اللَّه سبحانه وتعالى فى كل الامور والأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقة جيء به والقى على كرسى سليمان عليه السلام.

سليمان عليه السلام غرق- هنا- فى تفكير عميق، وتألّم لكونه غفل عن اللَّه لحظة واحدة وإعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى اللَّه وعاد إليه.

فإنّ القرآن الكريم- من خلال الآية التالية- يكرّر الحديث بصورة مفصلة حول قضية توبة سليمان التى وردت فى آخر عبارة تضمّنتها الآية السابقة: «قَالَ رَبّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۲

مُلْكًا لَّايَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ».

إنّ سليمان طلب من البارىء عزّ وجل أن يهب له ملكاً مع معجزات خاصة، لأنّنا نعرف أنّ لكل نبى معجزة خاصة به. وهذا الأمر لا يعدّ عيباً أو نقصاً بالنسبة للأنبياء الذين يطلبون من اللَّه أن يؤيّدهم بمعجزة خاصة.

الآيات التالية تبيّن موضوع إستجابة اللَّه سبحانه وتعالى لطلب سليمان ومنحه ملكاً يتميّز بإمتيازات خاصة ونعم كبيرة، يمكن إيجازها فى خمسة أقسام:

۱- تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير، كما تقول الآية: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ».

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، وكل ما نعرفه أنّ تلك الامور الخارقة توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم.

۲- النعمة الاخرى التى أنعمها البارىء عزّ وجل على عبده سليمان عليه السلام، هى تسخير الموجودات المتمردة ووضعها تحت تصرّف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التى يحتاجها «وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ». أى: إنّ مجموعة منها منشغلة فى البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، واخرى منشغلة بالغوص فى البحر.

وبهذا الشكل فإنّ اللَّه وضع تحت تصرّف سليمان قوّة مستعدّة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين- التى من طبيعتها التمرّد والعصيان- سخّرت لسليمان لتبنى له، ولتستخرج المواد الثمينة من البحر.

۳- النعمة الاخرى التى أنعمها البارىء عزّ وجل على سليمان، هى سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا- فائدة فيه، ولا- سبيل أمام سليمان سوى تكبيلهم بالسلاسل، كى يبقى المجتمع فى أمان من شرورهم، كما جاء فى القرآن المجيد «وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ».

«مقرّنين»: مشتقة من (قرن) وهى تشير إلى ربط الأيدى والأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد»: جمع «صفد» على وزن (مطر) وتعنى القيود التى تكبّل بها أيدى السجناء.

وقال البعض: إنّ عبارة «مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ» تعنى الجامعة التى تجمع بين الرقبة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۳

واليدين، وهذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوى وأكثر مناسبة له.

۴- النعمة الرّابعة التى أنعمها اللَّه سبحانه وتعالى على نبيّه سليمان هى إعطاؤه الصلاحيات الواسعة والكاملة فى توزيع العطايا والنعم

على من يريد، ومنعها عمّن يريد حسب ما تقتضيه المصلحة، «هذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

عبارة «بِغَيْرِ حِسَابٍ» إمّا أن تكون إشارة إلى أنّ البارىء عزّ وجل قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعة لن تكون مورد حساب أو مؤاخذة، وذلك لصفة العدالة التى كان يتمتّع بها سليمان فى مجال استخدام تلك الصلاحيات، أو أنّ العطاء الإلهى لسليمان كان عظيماً بحيث إنّه مهما منح منه فإنّه يبقى عظيماً وكثيراً.

۵- والنعمة الخامسة التى منّ اللّه سبحانه وتعالى بها على سليمان، هى المراتب المعنوية اللائقة التى شملته، كما ورد فى آخر آية من آيات بحثنا: «وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَابٍ».

إنّ عبارة «حُسْنَ مَابٍ» التى تبشّره بحسن العاقبة والمنزلة الرفيعة عند اللّه، هى- فى نفس الوقت- إشارة إلى زيف الادّعاءات المحرّفة التى نسبتها كتب التوراة إليه، والتى تدّعى أنّ سليمان انجرّ فى نهاية الأمر إلى عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، وعمد إلى بناء معبد للأصنام، إلّاأنّ القرآن الكريم ينفى ويدحض كل تلك البدع والخرافات.

بحث

من جملة الامور التى رسمتها قصة سليمان، ما يلى:

إنّ إمساكه بزمام امور مملكة قويّة ذات إمكانيات ماديّة واقتصادية واسعة وحضارة ساطعة لا تتنافى مع المقامات المعنوية والقيم الإلهية والإنسانية.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ (۴۱) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۴۴) حياة أيّوب المليئة بالحوادث والعبر: إنّ أيّوب هو ثالث نبى من أنبياء اللّه تستعرض هذه السورة (سورة ص) جوانب من حياته، وهى بذلك تدعو رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله إلى تذكّر هذه القصة، وحكايتها للمسلمين، كى يصبروا على المشاكل الصعبة التى كانت تواجههم، ولا ييأسوا من لطف ورحمة اللّه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۴

اسم «أيّوب» أو قصّته وردت فى عدّة سور من سور القرآن المجيد، منها الآية (۱۶۳) فى سورة النساء، والآية (۸۴) فى سورة الأنعام، التى ذكرت إسمه فى قائمة أنبياء اللّه الآخرين، وبيّنت وأثبتت مقام نبوّته، بخلاف كتاب التوراة الحالى الذى لم يعتبره من الأنبياء، وإنّما اعتبره أحد عباد اللّه المحسنين والأثرياء وذا عيال كثيرين.

كما أنّ الآيات (۸۳ و ۸۴) فى سورة الأنبياء إستعرضت بصورة مختصرة جوانب من حياة أيّوب عليه السلام. أمّا آيات بحثنا هذه فإنّها تستعرض حياته بصورة مفصلة أكثر من أىّ سورة اخرى من خلال أربعة آيات:

فالاولى تقول: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنّى مَسَّنِيَ الشَّيْطنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ».

هذه الآية تبيّن أوّلًا علوّ مقام أيّوب عند البارىء عزّ وجل، وذلك من خلال كلمة «عبدنا»، وثانياً فإنّها تشير بصورة خفيّة إلى الإبتلاءات الشديدة التى لا تطاق، وإلى الألم والعذاب الذى مسّ أيّوب عليه السلام.

ففى تفسير على بن إبراهيم نقرأ أنّ أبا بصير سأل الإمام الصادق عليه السلام عن بليّة أيّوب التى ابتلى بها فى الدنيا لأىّ علة كانت؟ قال: «لنعمة أنعم اللّه عليه بها فى الدنيا وأدّى شكرها، وكان فى ذلك الزمان لا يحجب إبليس من دون العرش فلمّا صعد ورأى شكر نعمة أيّوب حسده إبليس وقال: يا ربّ، إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّابما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبداً، فسلّطنى على دنياه حتى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمة أبداً».

(ولكى يوضّح البارىء عزّ وجل إخلاص أيّوب للجميع، ويجعله نموذجاً حيّاً للعالمين حتى يشكروه حين النعمة ويصبروا حين البلاء، سمح البارىء عزّ وجل للشيطان فى أن يتسلّط على دنيا أيّوب).

«فقيل له: قد سلّطتك على ماله وولده. قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالًا ولا ولداً إلّا أعطبه [أى أهلكه فازداد أيّوب شكراً للّهوحمداً. قال: فسلّطنى على زرعه، قال: قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب للّهشكراً وحمداً. فقال: يا ربّ! سلّطنى على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها فإزداد أيوب للّهشكراً وحمداً، وقال: يا ربّ سلّطنى على بدنه، فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه، فبقى فى ذلك دهراً طويلًا يحمد اللّه ويشكره ...».

(ولكن وقعت حادثة كسرت قلبه وجرحت روحه جرحاً عميقاً، وذلك عندما زارته مجموعة من رهبان بنى إسرائيل).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۵

«... قالوا: يا أيّوب لو أخبرتنا بذنبك لعل اللّه كان يهلكنا إذا سألناه؟ وما نرى إبتلاك بهذا البلاء الذى لم يبتل به أحد إلّامن أمر كنت تستره؟ فقال أيوب: وعزّة ربّى أنّه ليعلم أنّى ما أكلت طعاماً إلّاويتيم أو ضيف يأكل معى وما عرض لى أمران كلاهما طاعة للّهإلّاأخذت بأشدهما على بدنى».

حقّاً إنّ شماتة أصحابه كانت أكثر ألماً عليه من أيّة مصيبة اخرى حلّت به، ورغم هذا لم يفقد أيّوب صبره، وإنّما توجّه إلى البارىء عزّ وجل وذكر العبارة التى ذكرناها آنفاً، أى قوله تعالى: «أَنّى مَسَّنِيَ الشَّيْطنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ». ولكونه خرج من الإمتحان الإلهى بنتيجة جيّدة، فتح البارىء عزّ وجل- مرّة اخرى- أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمل أيوب، وأعاد عليه النعم التى إفتقدها الواحدة تلو الاخرى، لا بل أكثر مما كان يمتلك من المال والزرع والغنم والأولاد، وذلك كى يفهم الجميع العاقبة الحسنة للصبر والتحمل والشكر.

فى النهاية خرج أيّوب عليه السلام سالماً من بودقة الامتحان الإلهى، ونزول الرحمة الإلهية عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ».

«اركض»: مشتقة من «ركض» على وزن (فقر) وتعنى دكّ الأرض بالرجل، وأحياناً تأتى بمعنى الركض، وهنا تعطى المعنى الأوّل.

عين باردة لأيوب ليشرب منها ويغتسل بمائها للشفاء من كافّة الأمراض التى أصابته (الظاهرية والباطنية).

فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشارة إلى التأثيرات الخاصة التى يتركها الماء البارد على سلامة الجسم، وذلك ما أثبته الطب الحديث اليوم.

النعمة المهمة الاولى التى اعيدت على أيوب هى العافية والشفاء والسلامة، أمّا بقية النعم التى اعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

المشكلة الوحيدة التى بقيت لأيوب عليه السلام هى قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أيام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلدنّ امرأته مائة جلدة أو أقل لأمر أنكره عليها، ولكن بعدما برىء من مرضه رغب أيوب فى العفو عنها إحتراماً وتقديراً لوفائها ولخدماتها التى قدّمتها إليه أيام مرضه، ولكن مسألة القسم باللّه كانت تحول دون ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۶

وهنا شمل البارىء عزّ وجل أيوب عليه السلام مرّة اخرى بألطافه ورحمته، وذلك عندما أوجد حلّاً لهذه المشكلة المستعصية على أيوب: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ».

«ضغث»: تعنى ملء الكفّ من الأعواد الرقيقة، كسيقان الحنطة والشعير أو الورد وما شابهها.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا- التى هى بمثابة عصارة القصة من أوّلها حتى آخرها- تقول:

«إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

فى هذه الآية أنّها أعطت ثلاثة أوصاف لأيّوب، كل واحد منها إن توفّر فى أى إنسان فهو إنسان كامل.

أوّلًا: مقام عبوديته.

ثانياً: صبره وتحمله وثباته.

ثالثاً: إنابته المتكررة إلى اللّه.

الفرج بعد الشدة نقطة اخرى تكمن فى مجريات هذه القصة، فعندما تشتدّ أمواج الحوادث والبلاء على الإنسان وتحيط به من كل جانب، عليه أن لا ييأس ويفقد الأمل، وإنّما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما يقول على بن أبى طالب عليه السلام فى نهج البلاغة: «عند تناهى الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء».

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَ الْأَبْصَارِ (۴۵) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (۴۷) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (۴۸) الأنبياء الستّة: متابعة للآيات السابقة تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّة من أنبياء اللّه، وتوضّح بصورة مختصرة بعض صفاتهم البارزة التى يمكن أن تكون انموذجاً حيّاً لكل بنى الإنسان. ففى البداية تخاطب رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ».

فالعبودية للّه‌تعنى التبعية المطلقة له، وتعنى الاستسلام الكامل لإرادته، والإستعداد لتنفيذ أوامره فى كل الأحوال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۷

العبودية للّه‌تعنى عدم الاحتياج لغيره، وعدم التوجه لسواه، والتفكير بلطفه ورحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان وأفضل شرف له.

ثم تضيف الآية: «أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ».

وقد وصف البارىء عزّ وجل أنبياءه بأنّهم ذوو إدراك وتشخيص وبصيرة قويّة، وذوو قوّة وقدرة كافية لإنجاز أعمالهم.

إنّهم قدوة لكل السائرين فى طريق الحق، فبعد مقام العبودية الكامل للّه‌تعالى، تسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

وعلى هذا أنّه ليس المراد من اليد والعين أعضاء الحس التى يمتلكها غالبية الناس، وإنّما هى كناية عن صفتين هما (العلم والقدرة).

أمّا الصفة الرابعة لهم فيقول القرآن بشأنها: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ».

إنّهم يتطلّعون إلى عالم آخر، وافق نظرهم لا- ينتهى عند الحياة الدنيا ولذاتها المحدودة، بل يتطلّعون إلى ما وراءها من حياة أبدية ونعيم دائم، ولهذا يبذلون الجهد ويسعون غاية السعى لنيلها.

الصفتان الخامسة والسادسة جاءتا فى الآية التالية: «وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ».

إنّ إيمانهم وعملهم الصالح كانا السبب فى إصطفاء البارىء عزّ وجل لهم من بين الناس لأداء مهام النبوّة وحمل الرسالة.

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى مقام ثلاثة أنبياء بارزين، تشير الآية التالية، إلى ثلاثة آخرين، إذ تقول: «وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ».

فكل واحد منهم كان مثالًا واسوة فى الصبر والإستقامة وطاعة أوامر البارىء عزّ وجل، خاصة «إسماعيل» الذى كان على إستعداد كامل للتضحية بروحه فى سبيل اللّه، ولهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح اللّه).

وإستعراض آيات القرآن الكريم لحياة اولئك العظام ليستلهم منها رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وكل المسلمين العبر، وتبعث فيه روح التقوى والتضحية والإيثار، وتجعله فى نفس الوقت صابراً صامداً أمام المشاكل والحوادث الصعبة.

الآية (۸۶) من سورة الأنعام بيّنت أنّ (اليسع) من ذرية إبراهيم، وأنّه من الأنبياء الكبار؛

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۸

وأمّا (ذو الكفل) فهو أيضاً معروف بأنّه أحد أنبياء اللّه، وذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآية (۸۵) من سورة الأنبياء.

هذَا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (۵۰) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (۵۲) هذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (۵۳) إِنَّ هذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (۵۴) هذا ما وُعد به المتّقون: آيات هذه السورة إنتقلت بنا إلى شكل آخر من الحديث، إذ أخذت تقارن بين المتّقين والعصاة المتجبّرين، وتشرح مصير كل منهما

يوم القيامة، وهى بصورة عامّة تكمل بحوث الآيات السابقة. فى البداية، وكخلاصة لشرح حال الأنبياء السابقين والنقاط المضيئة فى حياتهم، تقول الآية: «هذَا ذِكْرٌ».

لم يكن الهدف من بيان مقاطع من تاريخ اولئك الأنبياء الرائع والمثير سرد بعض القصص، وإنّما الهدف الذكر والتذكّر، كما أكّدت عليه بداية هذه السورة.

فالهدف هو إيقاظ الأفكار، ورفع المستوى العلمى، وزيادة قوّة المقاومة والصمود لدى المسلمين الذى نزلت إليهم هذه الآيات.

ثم أخرجت الامور من طابعها الخاصّ وبيان أوضاع وأحوال الأنبياء، إلى طابعها العام، لتشرح بصورة عامة مصير المتقين، إذ تقول: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَابٍ».

بعد هذه الآية القصيرة، يعمد القرآن المجيد مجدّداً إلى اتّباع اسلوبه الخاص، وهو اسلوب الإيجاز والتفصيل، ليشرح ما فاز به المتقون: «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ».

عبارة «مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ» إشارة إلى أنّهم لا يتكلّفون حتى بفتح أبواب الجنة، إذ أنّها تنفتح بدون عناء لإستقبال أهل الجنة، إذ إنّ الجنة بإنتظارهم، وعندما تراهم تفتح لهم أبوابها وتدعوهم للدخول إليها.

ثم تبيّن الهدوء والسكينة التى تحيط بأهل الجنة، إذ تقول: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ».

بعد هذا تتطرّق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنة، إذ تقول: «وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۹

«الطرف»: جفن العين، وأحياناً يأتى بمعنى النظر، ووصف آخر نساء الجنة بقاصرات الطرف (أى ذوات النظرات القصيرة) يشير إلى إقتصار نظرهن على أزواجهن فقط، وحبّهن وعشقهن لهم وعدم تفكيرهم بسواهم، وهذه من أفضل مزايا وحسنات الزوجات.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى النعم السبع التى يغدقها البارىء عزّ وجل على أهل الجنة، والتى وردت فى الآيات السابقة. قال تعالى: «هذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ».

وعدٌ لا يُخلف، ويبعث فى نفس الوقت على النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنّه وعد من اللَّه العظيم.

وللتأكيد على خلود هذه النعم، جاء فى قوله تعالى: «إِنَّ هذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ».

أى: أنّ النعم فى الجنان خالدة ولا تنفد ولا تزول كما فى الحياة الدنيا، ولا يظهر عليها أىّ نقص، لأنّ اللَّه أراد ذلك.

هذَا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (۵۶) هذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (۵۸) هـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (۵۹) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (۶۰) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النَّارِ (۶۱) وهذه هى عاقبة الطغاة: الآيات السابقة إستعرضت النعم السبع وغيرها من النعم التى يغدقها البارىء عزّ وجل على عباده المتقين، أمّا آيات بحثنا فإنّها تستخدم اسلوب المقارنة الذى كثيراً ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح المصير المشؤوم والعقوبات المختلفة التى ستنال الطغاة والعاصين. قال تعالى: «هذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَابٍ».

ثم تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفادة من اسلوب الإيجاز والتفصيل، إذ تقول:

«جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ». أى إنّ جهنم هى المكان المشؤوم الذى سيردونه، وإنّهم سيحترقون بنيرانها، فيا لها من فراش سيء.

«مهاد»: تعنى الفراش، وهو مكان إستراحة، ويجب أن يكون مناسباً- فى كل الأحوال- لوضع الشخص وملائماً لرغبته، ولكن كيف سيكون حال الذين خصّصت لهم نار جهنم فراشاً؟!

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۲۸۰

ثم تتطرّق الآيات إلى أنواع اخرى من العذاب الإلهى، إذ تقول: «هـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ». أى يجب عليهم أن يشربوا الحميم

والغسّاق.

«الحميم»: هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، والذى هو أحد أنواع أشربة أهل جهنم.

و «غسّاق»: من «غسق» على وزن (رمق) وتعنى شدّة ظلمات الليل.

وقال الراغب فى مفرداته: إنّ (غسّاق) تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنم ومن الجراحات الموجودة فى أجسامهم.

آيات بحثنا تشير مرّة اخرى إلى نوع آخر من أنواع العذاب الأليم: «وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ». أى أنّ هناك عذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج»: تعنى الأنواع والأقسام، وهذه إشارة موجزة إلى أنواع اخرى من العذاب لا تختلف عن أنواع العذاب السابقة، ولكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها وقد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها وإدراكها.

وآخر عذاب لهم أنّ جلساءهم فى جهنم ذوو ألسنة بذيئة لا تنطق إلّابالقبيح من الكلام، فعندما يرد رؤساء الضلال النار، ويرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنم يخاطب بعضهم البعض ويقول له: «هذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ».

فيجيبونهم: «لَامَرْحَبًا بِهِمْ».

ثم يضيفون: «إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ».

«مقتحم»: من «إقتحام» وتعنى الدخول فى شىء بمشقّة وبصعوبة وخوف، وغالباً ما تعطى معنى الدخول فى شىء من دون أى إطلاع وعلم مسبق.

وتوضّح هذه العبارة أنّ متّبعى سبيل الضلال يردون نار جهنم الرهيبة نتيجة تركهم البحث والتفكير، واتّباعهم لأهوائهم، إضافة إلى تقليدهم الأعمى لآبائهم الأوّلين.

فإنّ الصوت يصل إلى مسامع الأتباع الذين يغضبون من كلام أئمّة الضلال، ويلتفتون إليهم قائلين: «قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ».

وأراد الأتباع من جوابهم القول: بأنّ من حسن الحظّ أنّكم (أى أئمّة الضلال والشرك) مشتركون معنا فى هذا الأمر. وهذا يشفى غليل قلوبنا (وكأنّهم شامتون بأئمّتهم).

لكن الأتباع لا يكتفون بهذا المقدار من الكلام، لأنّ أئمة الضلال هم الذين كانوا السبب المباشر لإرتكابهم الذنوب، ولذا فإنّهم يعتبرونهم أصحاب الجريمة الحقيقيين، وهنا يلتفتون

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۱

إلى البارىء عزّ وجل قائلين: «قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ».

العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم، والثانى لأنّهم أضلّونا.

هذه هى نهاية كل من عقد الصداقة مع المنحرفين وبايعهم على السير فى طرق الضلال والإنحراف، فإنّهم عندما يرون نتائج أعمالهم الوخيمة يلعن بعضهم بعضاً ويتخاصمون فيما بينهم.

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات التى تذكر النعم التى يغدقها البارىء عزّ وجل على المتّقين كانت أكثر تنوّعاً من الآيات التى إستعرضت عذاب الطغاة المتجبّرين، إذ أشارت آيات القسم الأوّل إلى سبع نعم، بينما أشارت آيات القسم الثانى إلى خمسة أنواع من العذاب، يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمة اللّه لغضبه، «يامن سبقت رحمتُه غضبَه».

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (۶۲) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (۶۳) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴) تخاصم أهل النار: آيات بحثنا تواصل إستعراض الجدال الدائر بين أهل جهنم. تقول اولى تلك الآيات: «وَقَالُوا مَا لَنَا لَانَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ».

فعندما يبحث أفراد اتّبعوا أئمّة الضلال، أمثال أبی جهل وأبی لهب، عن أشخاص آخرين مثل عمّار بن ياسر وخباب وصهيب وبلال، فی نار جهنم يرجعون إلی ذاتهم متسائلين، ويستفسرون من الآخرين: أين اولئک الأشخاص؟

وتضيف الآيات نقلًا عن أهل جهنم: «أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ».

إنّنا كنّا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوی المقام الرفيع، ونعتبرهم اناساً حقراء لا يستحقّون أن ننظر إليهم، ولكن اتّضح لنا الآن أنّ جهلنا وغرورنا وأهواءنا هی التی أسدلت علی أعيننا ستائر حجبت الحقيقة عنّا، فهؤلاء كانوا من المقربين للّهومكانهم الآن فی الجنة.

ومن الضروری الإلتفات إلی أنّ أحد أسباب عدم إدراک الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ، إضافة إلی الإستهزاء بها، إذ يجب علی الدوام مناقشة الحقائق بشكل جدّی للوصول إليها.

ثم تخرج الآية الأخيرة بالنتيجة التی تمخّض عنها الجدال بين أهل جهنم، وتؤكّد علی ما مضی بالقول: «إِنَّ ذلِکَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۲

فأهل جهنم مبتلون فی هذه الدنيا بالخصام والنزاع والحروب. فالنزاع والجدال يتحكّم بهم، وفی كل يوم يتخاصمون مع هذا وذاک.

وفی يوم القيامة، ذلک اليوم الذی تبرز فيه الأسرار وما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم فی جهنم.

الجدير بالذكر أنّ أهل الجنة متكئون علی الأسرّة، ويتحدثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبة والصدق، كما ورد فی آيات مختلفة من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حالة من الصراع والجدال، إذن فتلک نعمة كبيرة، وهذا عذاب أليم.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَ مَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) مَا كَانَ لِی مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَی إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹) إِنْ يُوحَی إِلَیَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰) إنّما أنا نذير: البحوث السابقة كانت تحمل طابع إنذار وتهديد للمشركين والعاصين والظالمين، أمّا آيات بحثنا فتتابع ذلک البحث، إذ جاء فی اولی آياتها: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ».

صحيح أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله مبشّر أيضاً، ولكن بما أنّ البشری تخصّ المؤمنين فإنّ الإنذار يخصّ المشركين والمفسدين، والحديث هنا يخصّ المجموعة الأخيرة، وإعتمد فيه علی الإنذار.

ثم يضيف: «وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

كلمة (القهّار) وردت فی هذه العبارة، كی لا يغترّ أحد بلطف اللّه، ويظنّ أنّه يعيش فی مأمن من قهر اللّه، ولكی لا يغرق فی مستنقع الكفر وإرتكاب الذنب.

وتطرح دلائل توحيد الخالق جلّ وعلا فی الالوهية والعبودية بشكل مباشر، وتضيف:

«رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ».

فی الواقع هناک ثلاث صفات من صفات الباریء عزّ وجل ذكرت فی هذه الآية، وكل واحدة منها جاءت لإثبات مفهوم ما. الاولی: «ربوبيته» لعالم الوجود، ومالكيته لكل هذا العالم، المالک المدبّر لشؤون عالم الوجود.

والصفة الثانية والثالثة وصف الباریء عزّ وجل ب (العزيز) و (الغفّار) وهو دليل آخر علی

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۳

توحّده تعالی فی الالوهية، لأنّه الوحيد الذی يستحق العبادة والطاعة، وإضافة إلی ربوبيته فإنّه يمتلک القدرة علی المعاقبة، وإضافةً إلی إمتلاكه للقدرة علی المعاقبة، فإنّ أبواب رحمته ومغفرته مفتوحة للجميع.

ثم يخاطب الباریء عزّ وجل نبيّه الأكرم فی عبارة قصيرة وقويّة: «قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ».

ثم تقول الآية، مقدمةً لسرد قصة خلق آدم، والمكانة الرفيعة التی يحتلّها الإنسان الذی سجدت له كافّة الملائكة: «مَا كَانَ لِیَ مِنْ عِلْمٍ

بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

أى: لا علم لى بالمناقشات التى دارت بين الملأ الأعلى وملائكة العالم العلوى بخصوص خلق الإنسان، حيث إنّ العلم يأتينى عن طريق الوحى، والشىء الوحيد الذى يوحى إلىّ هو أنّنى نذير مبين: «إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ورغم أنّ الملائكة لم تناقش وتجادل البارىء عزّ وجل، ولكنّهم قالوا عندما أخبرهم البارىء عزّ وجل بأنّه سيجعل فى الأرض خليفة، فقالوا: أتخلق فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟

مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) وهى تسمية مجازية.

إِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (۷۱) فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ (۷۲) فَسَجَدَ الْمَلَائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلَّا إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَ کَانَ مِنَ الْکَافِرِینَ (۷۴) قَالَ یَا إِبْلِیسُ مَا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعَالِینَ (۷۵) قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (۷۶) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلَی یَوْمِ الدِّینِ (۷۸) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۷۹) قَالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ (۸۰) إِلَی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۸۱) قَالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۲) إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ (۸۳) تكبر الشيطان وطرده من رحمة اللَّه: هذه الآيات توضيح لإختصام (الملأ الأعلى) و (إبليس) وبحث حول مسألة خلق آدم عليه السلام. الآية الاولى تذكّر بإخبار اللَّه عزّ وجل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۴

ملائكته بأنّه سيخلق بشراً من الطين: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ».

ولكى لا- يتصور البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين وحسب، أضافت الآية التالية: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

وبهذا الشكل إنتهت عملية خلق الإنسان، وذلك بعد إمتزاج روح البارىء عزّ وجل الطاهرة مع التراب. فخُلق موجود عجيب لم يسبق له مثيل، ولم توضع لرقيّه وإنحطاطه أيّة حدود. الموجود الذى زوّده البارىء عزّ وجل بإستعدادات خارقة تجعله لائقاً لخلافة اللَّه، والذى سجدت له الملائكة بأجمعها فور إكتمال عملية خلقه: «فَسَجَدَ الْمَلِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

إلّا أنّ إبليس كان الوحيد الذى أبى أن يسجد لآدم لتكبره وتمرده وطغيانه، ولهذا السبب أنزل من مقامه الرفيع إلى صفوف الكافرين: «إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

نعم، فالتكبر والغرور من أقبح الامور التى يبتلى بها الإنسان، ويحرماه من إدراك الحقائق وفهمها، ويؤدّيان به إلى التمرد والعصيان، ويخرجانه أيضاً من صفوف المؤمنين المطيعين للَّهإلى صفّ الكافرين الباغين والطاغين، ذلك الصفّ الذى يترأسه إبليس ويقف فى مقدّمته.

وهنا إستجوب البارىء عزّ وجل إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ».

وبما أنّ البارىء عزّ وجل منزّه عن كافّة أشكال الجسم والتجسيم، فعبارة (يدى) هنا كناية عن القدرة، ومن الطبيعى أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل.

ثم تضيف الآية: «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ». أى أكان عدم سجودك لأنّك استكبرت، أم كنت من الذين يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!

ومن دون أى شك فإنّه لا أحد يستطيع أن يدّعى أنّ قدرته ومنزلته أكبر من أن يسجد للَّه (أو لآدم بأمر من اللَّه).

إلّا أنّ إبليس إختار- بكل تعجب- الشقّ الثانى، وكان يعتقد بأنّه أعلى من أن يؤمر بذلك، لذلك قال- بكل وقاحة- أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارىء عزّ وجل:

«قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۵

وخطأ إبليس أنّ النار أشرف من التراب، ولا يحقّ لأحد أن يأمر مخلوقاً بالسجود لمخلوق آخر دنى منه.

ولكن أوّلًا: إنّ آدم لم يكن تراباً فقط، وإنّما نفخت فيه الروح الإلهية، وهذا هو سبب عظمته.

ثانياً: التراب ليس بأدنى من النار، وإنّما هو أفضل منها بكثير، لأنّ كل الحياة أصلها من التراب، فالنباتات وكل الموجودات الحية بأجمعها تستمدّ غذاءها ومصدر حياتها من التراب.

والنار إنّما يستفاد منها فى الوسائل الترابية، وقد تكون أداة خطرة ومدمّرة.

ولو أمعنا النظر فى أدلّة إبليس لرأينا فيها كفراً عجيباً، لأنّه بكلامه أراد نفى حكمة اللّه، والتقليل من شأن أوامره (نعوذ باللّه).

وهنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملأ الأعلى وملائكة العالم العلوى، فخاطبه البارىء عزّ وجل بالقول: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ».

فهذا المكان مكان الطاهرين والمقربين، وليس بمكان المذنبين والعاصين ذوى القلوب المظلمة.

«رجيم»: من «رجم»، وبما أنّ لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثم أضاف البارىء عزّ وجل: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ».

المهم أنّ الإنسان عندما يرى النتائج الوخيمة لأعماله السيّئة عليه أن يستيقظ من غفلته، وأن يفكّر فى كيفية إصلاح ذلك الخطأ، ولا شيء أخطر من بقاءه راكباً لموج الغرور واللجاجة واستمراره فى السير نحو حافّة الهاوية، لأنّه فى كل لحظة يبتعد أكثر عن الصراط المستقيم، وهذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

وهنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، كما قال القرآن: «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

إنّه طلب من البارىء عزّ وجل أن يمهله إلى يوم يبعثون كى ينتقم من أبناء آدم عليه السلام ويدفعهم جميعاً إلى طريق الضلال.

وفى الحقيقة، إنّه كان يريد الإستمرار فى إغواء بنى آدم حتى آخر فرصة متاحة له، لأنّ فى يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان، ولا معنى هناك للوساوس والإغواءات، إضافةً إلى هذا فقد طلب من اللّه عزّ وجل أن يبقيه حيّاً إلى يوم القيامة، رغم أنّ كل الموجودين فى العالم يموتون فى هذه الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۶

وهنا إقتضت مشيئة اللّه سبحانه- بدلائل سنشير إليها- أن يستجيب اللّه لطلب إبليس، ولكن هذه الإستجابة كانت مشروطة وليست مطلقة، كما توضّحه الآية التالية: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم البعث الذى تبعث فيه الخلائق، وإنّما إلى زمان معلوم. قال تعالى:

«إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

وهذا إشارة إلى يوم نهاية العالم، لأنّ كل الموجودات الحيّة فى ذلك اليوم تموت، وتبقى ذات اللّه المقدسة فقط، كما ورد فى الآية (۸۸) من سورة القصص: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

هنا كشف إبليس عما كان يضمره فى داخله، وعن الهدف الحقيقى لطلبه البقاء خالداً إلى زمن معيّن إذ: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

القسم بالعزّة تبيّن أنّه مصمّم بصورة جديّة على المضى فى عمله، وأنّه سيبقى إلى آخر لحظة من عمره ثابتاً على عهده بإغواء بنى آدم.

وبعد قسمه إنتبه إبليس إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هناك مجموعة من عباد اللّه المخلصين لا يمكن كسبهم بأى طريقة إلى داخل منطقة نفوذه، لذلك اعترف بعجزه فى كسب اولئك فقال:

«إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

اولئک الذین یسیرون فی طریق المعرفهٔ والعبودیهٔ لک بصدق وإخلاص وصفاء، إنّک دعوتهم إلیک، وأخلصتهم لک، وجعلتهم فی منطقهٔ أمنک.

سؤال: لماذا تمّت الباریء عزّ وجل الموافقهٔ علی طلب إبلیس فی البقاء حیّاً؟

فی الجواب نقول: إنّ عالم الدنیا هذا هو ساحهٔ للإختبار والإمتحان (الإختبار الذی هو وسیلهٔ لتربیهٔ وتکامل الإنسان) وکما هو معروف فإنّ الاختبار لا یتمّ من دون مواجههٔ عدو شرس ومجابههٔ مختلف أنواع الأعاصیر والمشاکل.

وبالطبع، إن لم یکن هناک شیطان، فإنّ هوی النفس ووساوسها هی التی تضع الإنسان فی بودقهٔ الإختبار، ولکن حرارهٔ هذه البودقهٔ تزداد بوجود الشیطان، لأنّ الشیطان سیکون فی هذه الحالهٔ العامل الخارجی المؤثّر علی الإنسان، وهوی النفس والوساوس ستکون العامل الداخلی.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۷

قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۵) قُلْ مَا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْرٌ لِلْعَالَمِینَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِینٍ (۸۸) آخر حدیث بشأن إبلیس: آیات بحثنا هی آخر آیات سورهٔ (ص)، وهی خلاصهٔ لکل محتوی هذه السورهٔ، ونتیجهٔ للأبحاث المختلفهٔ التی تناولتها السورهٔ.

فی البدایهٔ ردّاً علی تهدید إبلیس فی إغواء کل بنی آدم عدا المخلصین منهم، یجیبه الباریء عزّ وجل بالقول: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ». أقسم بالحق، ولا أقول إلّاالحق: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنکَ وَمِمَّن تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ».

فما ورد فی بدایهٔ السورهٔ إلی هنا حق، والذی ورد بشأن أحوال الأنبیاء الکبار فی هذه السورهٔ بسبب حروبهم وجهادهم حقّ، والحدیث فی هذه السورهٔ عن القیامهٔ والعذاب الألیم الذی سینزل بالطغاهٔ والنعم التی سیغدقها الباریء عزّ وجل علی أهل الجنهٔ حقّ، ونهایهٔ السورهٔ حقّ، واللّه سبحانه یقسم بالحق ویقول الحق بأنّه سیملأ جهنم بالشیطان وأتباعه.

إنّ هاتین الجملتین تشتملان علی الکثیر من التأکید، لکی لا یبقی لأحد أدنی شک وتردید بهذا الشأن، إذ لا سبیل لنجاهٔ الشیطان وأتباعه، والاستمرار بالسیر علی خطاه یؤدّی إلی جهنم.

وفی نهایهٔ هذا البحث یشیر الباریء عزّ وجل إلی أربعهٔ امور:

ففی المرحلهٔ الاولی یقول: «قُلْ مَا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ».

إنّما أجری علی اللّه، کما ذکرت ذلک آیات اخری فی القرآن المجید کالآیهٔ (۴۷) من سورهٔ سبأ، والتی تقول: «إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ».

وهذه هی إحدی دلائل صدق رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

وفی المرحلهٔ الثانیهٔ یقول: أنا لست من المتکلّفین، فکلامی مستند علی الأدلّهٔ والمنطق، ولا یوجد فیه أی تکلّف، وعباراتی واضحهٔ وکلامی خالٍ من الغموض واللفّ والدوران «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۸

أمّا المرحلهٔ الثالثهٔ فتبیّن الهدف الأصلی من هذه الدعوهٔ الکبیرهٔ من نزول هذا الکتاب السماوی «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْرٌ لِّلْعَالَمِینَ».

المهمّ هو أن یوقظ الناس من غفلتهم ویجعلهم یتعمّقون فی التفکیر.

هذه العبارهٔ تبیّن أنّ محتوی دعوهٔ الأنبیاء فی کل المراحل یتناسب مع الفطرهٔ التی فطرنا علیها الباریء عزّ وجل.

وأمّا فی المرحلهٔ الرابعهٔ، فإنّه یهدّد المعارضین والمخالفین بعبارهٔ قصیرهٔ غزیرهٔ المعنی:

«وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُو بَعْدَ حِینٍ».

یقول: من الممکن أن لا تأخذوا هذا الکلام مأخذ الجدّ، إلّاأنّه سیثبت لکم عاجلًا صدق کلامی، سیثبت فی هذا العالم فی ساحات

قتال الإسلام ضدّ الكفر، وفى ساحات العمل الاجتماعى والفكرى، وفى العالم الآخر بواسطة العذاب الإلهى الأليم الذى ستعذّبون به.

«إنتهت تفسير سورة ص»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۹

۳۹. سورة الزمر

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تضمّ عدّة أقسام مهمة:

۱- تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد اللَّه.

۲- الأمر المهم الآخر الذى تكرر فى عدّة آيات فى هذه السورة من بدايتها حتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) والمحكمة الإلهية الكبرى، ومسألة الثواب والعقاب، وغرف الجنة، وكور النار فى جهنم، ومسألة الخوف والرهبة من يوم القيامة، وظهور نتائج الأعمال فى ذلك اليوم، وتجسّدها فى ذلك المشهد الكبير، وهذه الامور التى تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير وكأنّها تشكّل معها نسيجاً واحداً.

۳- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، وتأثيره القوى على القلوب والأرواح.

۴- قسم آخر أيضاً يبيّن مصير الأقوام السابقين والعذاب الإلهى الأليم الذى نزل بهم من جرّاء تكذيبهم لآيات اللَّه تعالى.

۵- وقسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، وكون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب فى العودة إلى اللَّه.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزمر) وهذا الاسم مأخوذ من الآيتين (۷۱) و (۷۳) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۰

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع اللَّه رجاه، وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافو اللَّه تعالى».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر أستخفها من لسانه أعطاه اللَّه من شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهابه من يراه وحرّم جسده على النار وبنى له فى الجنة ألف مدينة».

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها، يوضّح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكر والتفكر مقدمة للإيمان والعمل.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (۳) عليك الإخلاص فى الدين: هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد:

الأولى تقول: إنّ اللَّه هو الذى أنزل القرآن، و الثانية: تبيّن محتوى وأهداف القرآن.

فى البداية تقول: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

من الطبيعى أنّ كل كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك أنّ هذا الكتاب السماوى الكبير مستلهم من علم اللَّه القادر والحكيم، الذى لا يقف أمام قدرته المطلقة شىء، ولا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أنّ محتوياته حق وكلها حكمة ونور وهداية.

ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوى وأهدافه: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ».

ولكون هدف نزول القرآن يتحدد فى إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإنّ آخر الآية يقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدّينَ».

إنّ (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد اللَّه المخلصين أن يخلصوا كل حياتهم للَّه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۱

الآية التالية تؤكّد مرّة اخرى على مسألة الإخلاص، وتقول: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ».

وهذه العبارة ذات معنيين:

الأوّل: هو أنّ البارىء عزّ وجل لا يقبل سوى الدين الخالص، والاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط.

والثانى: هو أنّ الدين والشريعة الخالصة يجب أخذها من اللَّه فقط، لأنّ أفكار الإنسان ناقصة وممزوجة بالأخطاء والأوهام.

إنّ هذه الآية فى الواقع استدلال للآية التى جاءت قبلها، فهناك تقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينُ». وهنا تقول: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ».

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهى الضعيف للمشركين الذين تركوا طريق الإخلاص، وضاعوا فى طرق الشرك والإنحراف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وهنا سيتّضح للجميع فساد أفكارهم وأعمالهم وبطلان عقائدهم ..

هذه الآية هى تهديد قاطع للمشركين فى أنّ البارىء عزّ وجل سيحاكمهم فى يوم القيامة، اليوم الذى تنكشف فيه الإلتباسات وتظهر فيه الحقائق، ليجزوا ويعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع فى ساحة المحشر.

والقرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل باللَّه من دون أىّ واسطة، وأن يتحدث معه ويناجيه ويطلب منه حاجته.

وبهذا الشكل فالبارىء عزّ وجل ليس ببعيد عنّا، ولسنا بعيدين عنه كى تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كل قريب، وموجود فى كل مكان وفى أعماق قلوبنا.

وفقاً لهذا فإنّ عبادة الوسطاء من الملائكة والجن ونظائرهم، أو الأصنام الحجرية والخشبية، عمل باطل لا صحّة له، إضافة إلى أنّه يعدّ كفراً بنعمة اللَّه، لأنّ الذى يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ».

لأنّه أوصد بكلتا يديه أبواب الهداية أمامه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۲

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۴) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵) ما حاجة اللَّه إلى الأولاد: المشركون إضافة إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطاً وشفيعاً لهم عند اللَّه- كما استعرضت ذلك الآيات السابقة- فقد اعتقدوا- أيضاً- أنّ بعض المخلوقات- كالملائكة- هى بنات اللَّه، والآية الاولى فى بحثنا تجيب على هذا الإعتقاد الخاطىء والتصور القبيح بالقول: «لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

والأفضل هو القول بأنّ الآية تريد القول: إنّ الإبن مطلوب إمّا لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، وبفرض المحال فإنّ اللَّه عزّ وجل لو كان محتاجاً لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضاً ممّن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولداً؟

ولكن لكونه الواحد الذى لا نظير له والقاهر والغالب لكل شىء والأزلى والأبدى، فإنّه لا يحتاج إلى مساعدة أىّ أحد، ولا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الانس مع الآخرين، لهذا فهو منزّه ومقدس عن الولد، حقيقياً كان أو منتخباً.

ولإثبات حقيقة أنّ اللَّه لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول البارىء عزّ وجل: «خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». كون تلك الامور حقّاً دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفى مقدّمتها الإنسان، ثم لا تنتهى عند البعث.

بعـد عرض هـذا الخلق الكبير، تشـير الآيهٔ إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيّرات التى تطرأ بحسابات دقيقهٔ، والأنظمهٔ الدقيقهٔ أيضـاً التى تحكم اولئك، إذ يقول القرآن المجيد:

«يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ».

من هـذه الآيـهٔ يتجلّى لنا أنّ الأرض كرويـهٔ وتدور حول نفسـها، ومن جرّاء هذا الدوران، يطوق الأرض دائماً شـريطان، أحدهما سواد الليل، والثانى بياض النهار، ولا يبقى هذان الشريطان ثابتين، وإنّما يغطى الشريط الأسود الأبيض من جههٔ والشريط الأبيض يغطى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۳

الأسود من جههٔ اخرى، أثناء حركهٔ الأرض حول نفسها.

فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهرهٔ الليل والنهار و (النور) و (الظّلمات) فى عدّهٔ آيات مختلفهٔ، كل واحدهٔ منها تشير إلى نقطهٔ معيّنهٔ، وتنظر إلى هذه الظاهرهٔ من زاويهٔ خاصهٔ.

ثم تنتقل إلى جانب آخر، ألا وهو التدبير والنظام الدقيق المسيّر لشؤون هذا العالم. قال تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

فلا يظهر فى حركـهٔ الشـمس التى تدور حول نفسـها، أو التى تتحرك مع بقيّهٔ كواكب المجموعهٔ الشمسـيهٔ نحو نقطهٔ خاصهٔ فى مجرهٔ درب التبانـهٔ، أدنى خلـل، فهى تتحرك وفق نظـام خاص ودقيق جـدّاً، ولا يظهر أىّ خلل فى حركـهٔ القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكل يخضع لقوانين (الخالق) ويتحرك وفقها، وسيستمر فى التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

نهايهٔ الآيهٔ كانت بمثابهٔ تهديد وترغيب للمشركين، إذ تقول: «أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ».

فبحكم عزّته وقدرته المطلقهٔ لا يمكن لأىّمذنب ومشـرك أن يهرب من قبضهٔ عذابه، وبمقتضى كونه الغفار، فإنّه يستر عيوب وذنوب التائبين، ويظللهم بظل رحمته.

«غفار»: صـيغهٔ مبالغهٔ مشـتقهٔ من المصدر «غفران» وتعنى فى الأصل لبس الإنسان لشىء يقيه من التلوّث، وعندما تستخدم بشأن البارىء عزّ وجل فإنّها تعنى ستره لعيوب وذنوب عباده النادمين وحفظهم من عذابه وجزائه.

والهـدف من ذكر هاتين الصـفتين فى آخر الآيـهٔ، هو إيجاد حالـهٔ من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، وهما عاملان رئيسـيان وراء كل تحرك نحو الكمال.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۷) الجميع مخلوقون من نفس واحدهٔ: مرّهٔ اخرى تستعرض آيات القرآن الكريم عظمهٔ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۴

خلق اللَّه، وتبيّن فى نفس الوقت بعض النعم الاخرى التى منّ بها اللَّه سـبحانه وتعالى على الإنسان. فى البدايهٔ تتحدث عن خلق الإنسان وتقول: «خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا».

خلـق كـل بنى آدم مـن نفس واحـدهٔ إشـارهٔ إلى مسألـهٔ خلـق آدم أبى البشـر، إذ إنّ كـل البشـر وبتنـوع خلقتهم وأخلاقهم وطبـائعهم وإستعداداتهم وأذواقهم المختلفهٔ يعودون فى الأصل إلى آدم عليه السلام.

وعبـارهٔ: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» إشارهٔ إلى أنّ اللَّه خلق آدم فى البدايـهٔ، ثم خلق حواء ممّا تبقى من طينته التى خلق منها، وذلك كما ورد فى الرّوايات الإسلاميهٔ.

بعـد هـذا ينتقل الحـديث إلى مسألـهٔ خلق أربعهٔ أنواع من الأنعام تؤمّن للإنسان ضـروريات الحياهٔ، حيث يسـتفيد من جلودها لملابسه،

ومن حليبها ولحمها لغذائه، ومن جهة اخرى يصنع من جلودها وأصوافها عدّة امور يستفيد منها فى حياته، ومن جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقله وحمل أثقاله: «وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ».

والمقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر والانثى لكل من الإبل والبقر والضأن والمعز.

وعبارة «أَنزَلَ لَكُمْ» والتى تخص هنا الأنعام الأربعة- كما بيّنا ذلك من قبل- لا تعنى فقط إنزال الشىء من مكان عال، وإنّما فى مثل هذه الحالات تعنى (تدنّى المقام) والنعم من مقام أعلى إلى أدنى.

ثم تتطرّق الآيات إلى حلقة اخرى من حلقات خلق اللَّه، وهى عملية نمو الجنين، إذ تقول الآية: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلٰثٍ».

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطى معنى الاستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة إلى التحولات العجيبة والصور المختلفة التى تطرأ على الجنين فى مراحل وجوده المختلفة فى بطن الام.

وقوله «ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» إشارة إلى ظلمة بطن الامّ وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذى يستقر فيه الجنين) التى هى ثلاثة أغلفة سميكة تغطّى الجنين.

الإمام الحسين عليه السلام- فى دعائه المعروف بدعاء عرفه الذى يعدّ دورة دراسية كاملة وعالية فى التوحيد- عند استعراضه للنعم التى منّ بها البارىء عزّ وجل عليه يقول:

«وابتدعت خلقى من منى يمنى، ثم أسكنتنى فى ظلمات ثلاث: بين لحم وجلد ودم لم تشهدنى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۵

خلقى، ولم تجعل إلىّ من أمرى ثم أخرجتنى للذى سبق لى من الهدى إلى الدنيا تامّاً سويّاً».

وفى نهاية الآية، بعد ذكر الحلقات التوحيدية الثلاث الخاصة بخلق الإنسان والأنعام ومراحل خلق الجنين، يقول البارىء عزّ وجل: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ».

فأحياناً يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيدية العظيمة إلى مقام الشهود، ثم أشار تعالى إلى ذاته القدسية حيث يقول: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

عبارتى «ربّكم» و «له الملك» تدلان على حصر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسة، والذى اتّضح بصورة جيّدة فى عبارة: «لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذكر هذه النعم الكبيرة التى منّ بها البارىء عزّ وجل على عباده، تتطرق الآية التالية إلى مسألة الشكر والكفر، وتناقش جوانب من هذه المسألة. فى البداية تقول: «إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ». أى إن تكفروا أو تشكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم، واللَّه غنى عنكم فى حال كفركم وشكركم.

ثم تضيف، إنّ غناه وعدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا وتتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف ونعمة إلهية. قال تعالى: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ».

وبعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآية نقطة ثالثة وهى تحمل الشخص مسؤولية أعماله، لأنّ قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر. قال تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

ولأنّه لا ـ معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب وثواب، فالآية تشير فى المرحلة الرابعة إلى قضية المعاد، وتقول: «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ولكون مسألة الحساب والعقاب لا يمكن أن تتمّ ما لم يكن هناك إطلاع وعلم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

بهذا الشكل، ومن خلال جمل قصار، استعرضت فلسفة التكليف وخصوصياته ومسؤولية الإنسان ومسألة العقاب والثواب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۶

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩) الآيات السابقة تحدثت بالأدلة والبراهين عن توحيد ومعرفةالبارىء عزّ وجل، وذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمة له فى الآفاق والأنفس، أمّا آيات بحثنا فتتحدث فى البداية عن التوحيد الفطرى وتوضّح أنّ ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعة فى شؤون الخلق موجود بصورة فطرية فى أعماقه، وأنّه يظهر أثناء المشاكل وأعاصير الحوادث التى تعصف به. تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ». ونادماً من ذنوبه وغفلته.

وعندما يمنّ اللَّه على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل والإبتلاءات السابقة التى دعا اللَّه عزّ وجل من أجل كشفها عنه، قال تعالى: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ».

إذ يجعل للَّهأنداداً وشركاء ويعمد إلى عبادتها، ولا يكتفى بعبادتها بل يعمد- أيضاً- لإضلال وحرف الناس عن سبيل اللَّه: «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ».

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الذين لم يتربّوا فى ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، ولا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون اللَّه فى السّراء والضّراء ويطلبون العون من لطفه دائماً.

نهاية الآية تخاطب مثل اولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح والحازم والقاطع:

«قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

الآية التالية استخدمت اسلوب المقارنة، الاسلوب الذى طالما استخدمه القرآن المجيد لإفهام الآخرينالقضايا المختلفة، حيث تقول: هل أنّ مثل هذا الشخص انسان لائق وذو قيمة: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۷

«قانت»: من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع والخضوع.

«آناء»: هى جمع «انا»- على وزن كذا- وتعنى ساعة أو مقداراً من الوقت.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأنّ تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، وتقلّ نسبة تلوّثه بالرياء أكثر من أىّ وقت آخر.

وتتمة الآية تخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالقول: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». كلّا، إنّهم غير متساوين: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

لا شك فى أنّ السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، ولكن إشارة إلى سؤال آخر قد طرح، وهو: هل يستوى المشركون والمؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثانى يشير أكثر إلى هذه المسألة وهو: هل أنّ الذين يعلمون بأنّ المشركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة!

فهذه العبارة أحد شعارات الإسلام الأساسية وهو سمو وعلوّ منزلة العلم والعلماء فى مقابل الجهل والبديهى أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عند البارىء عزّ وجل، وغير متساويين لدى العقلاء، ولا يقفون فى صفّ واحد لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة وأنّهم مختلفون ظاهراً وباطناً.

العلم فى هذه الآية وبقية الآيات لا يعنى معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، وإنّما يقصد به المعرفة الخاصة التى تدعو الإنسان إلى (القنوت) أى إلى طاعة البارىء عزّ وجل والخوف من محكمته وعدم اليأس من رحمته، هذه هى حقيقة العلم، فإذا كانت العلوم الدنيوية تؤدّى إلى ما ذكرناه آنفاً، فهى علم أيضاً، وإلّا فهى سبب الغفلة والظلم والغرور والفساد فى الارض، ولا يحصل منها سوى «القيل والقال».

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكَمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (۱۲) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى (۱۴) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۸

الخطوط الرئسية لمناهج العباد المخلصين: تتمة لما جاء فى بحث الآيات السابقة التى قارنت بين المشركين المغرورين والمؤمنين المطيعين للّه، وبين العلماء والجهلة، فإنّ آيات بحثنا هذا تبحث الخطوط الرئيسية لمناهج عباد اللّه الحقيقيين المخلصين وذلك ضمن سبعة مناهج وردت فى عدّة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الاولى تحثّ النبى صلى الله عليه و آله على التقوى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ».

نعم، فالتقوى هى الحاجز الذى يصدّ الإنسان عن الذنوب، وتجعله يحسّ بالمسؤولية وبتكاليفه أمام البارىء عزّ وجل، وهى المنهج الأوّل لعباد اللّه المؤمنين والمخلصين، وهى ميزان شخصية وكرامة الإنسان عند البارىء عزّ وجل.

المنهج الثانى يختص بالإنسان والعمل الصالح فى هذه الدنيا التى هى دار العمل، وقد شجعت الآية الناس وحثّتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

نعم فالإحسان بصورة مطلقة فى هذه الدنيا- سواء كان فى الحديث، أو فى العمل، أو فى نوع التفكر والتفكير بالأصدقاء والغرباء- يؤدّى إلى نيل ثواب عظيم فى الدنيا والآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

وفى الواقع فإنّ التقوى عامل ردع، والإحسان عامل صلاح، وكلاهما يشمل (ترك الذنب) و (أداء الفرائض والمستحبات).

المنهج الثالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشرك والكفر الملوّثة بالذنوب، قال تعالى:

«وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ».

هذه الآية ردّ على ذوى الإرادة الضعيفة والمتذرعين بمختلف الذرائع الذين يقولون: إنّنا عاجزون عن أداء الأحكام الإلهية، لأنّنا فى أرض مكة التى يحكمها المشركون. والقرآن يردّ عليهم بأنّ أرض اللّه لا تقتصر على مكة، هاجروا من المواطن الملوّثة بالشرك والكفر والظلم التى لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

وهذا يوضّح- بصورة جيّدة- أنّ المؤمن الذى تحيط به الضغوط والكبت، ويستطيع أن يهاجر فى سبيل اللّه عليه أن يهاجر، وإلّا فإنّه غير معذور أمام اللّه.

ولأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة فى مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلّق بالصبر والإستقامة. قال تعالى:

«إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۹

وعبارة (بغير حساب) تبيّن أنّ للصابرين أفضل الأجر والثواب عند اللّه، ولا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر والإستقامة.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر بالإخلاص والتوحيد الخالى من شوائب الشرك، وهنا تتغير لهجة الكلام بعض الشىء، ويتحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن وظائفه ومسؤولياته، إذ يقول: «قُلْ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهِ مُخْلِصًا لَّهُ الدّينَ».

ثم يضيف: «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ». وهذا هو المنهج السادس الذى يعترف بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو أوّل الناس إسلاماً وتسليماً لأوامر البارىء عزّ وجل.

أمّا المنهج السابع والأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارىء عزّ وجل يوم القيامة. قال تعالى: «قُلْ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

التأمل فى هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله هو عبد من عباد اللّه، وهو مكلف أيضاً بعبادة اللّه بإخلاص، لأنّه- هو أيضاً- يخاف العذاب الإلهى.

وهذا دليل على عظمته وأحقّيته.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة فى الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

ولكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة فى مقابل العلل المختلفة للشرك، تعود الآيات لتؤكّد عليها مرّة اخرى، إذ تقول وبنفس اللهجة السابقة: «قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى».

أمّا أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون اللّه: «فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ».

ثم تضيف: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

أى: إنّهم لم يستثمروا طاقاتهم وعمرهم، ولا استفادوا من عوائلهم وأولادهم لإنقاذهم، ولا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، وهذا هو الخسران العظيم: «أَلَا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ».

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: «لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ».

وبهذا الشكل فإنّ أعمدة النيران تحيط بهم من كل جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟

وهل هناك عذاب أشدّ من هذا؟

«ظلل»: جمع «ظلّة» على وزن «سنّة» وتعنى الستر الذى ينصب فى الجهة العليا، وطبقاً

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۰

لهذا فإنّ إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت اهل النار اطلاق مجازى ومن باب التوسّع فى معنى الكلمة. هذا تجسيد لأحوالهم وأوضاعهم فى هذه الدنيا، إذ أنّ الجهل والكفر والظلم محيط بكل وجودهم، ومستحوذ عليهم من كل جانب.

ثم تضيف الآية مؤكّدة وواعظة إيّاهم: «ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ».

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة فى هذه الآية، ولعدّة مرّات إشارة إلى أنّ تهديد البارىء عزّ وجل لعباده بالعذاب إنّما هو لطف ورحمة منه، وذلك كى لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم.

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (۱۷) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ (۱۹) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (۲۰) عباد اللّه الحقيقيون: استخدم القرآن الكريم مرّة اخرى أسلوب المقارنة فى هذه الآيات، إذ قارن بين عباد اللّه الحقيقيين والمشركين المعاندين الذين لا مصير لهم سوى نار جهنم. قال تعالى: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى .

عبارة «اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ» تعنى الإبتعاد عن كل أشكال الشرك وعبادة الأصنام وهوى النفس والشيطان، وتجنّب الإنصياع والاستسلام للحكّام المتجبرين الطغاة.

أمّا عبارة «أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ» فإنّها تجمع روح التقوى والزهد والإيمان، وأمثال هؤلاء يستحقون البشرى.

ثم تعرّج الآية على تعريف العباد الخاصّين فتقول: «فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامى، وقد بيّنتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الإختيار فى مختلف الامور.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۱

ولكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يرغب- بشدّة- فى هداية المشركين والضالين، و كان يتألّم كثيراً لإنحراف اولئك الذين لم يعطوا آذاناً صاغية للحقائق، فإنّ الآية التالية عمدت إلى مواساته بعد أن وضّحت له حقيقة أنّ عالمنا هذا هو عالم الحرية والامتحان، ومجموعة من الناس- فى نهاية الأمر- يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ».

ومن البديهى أنّ حتمية تعذيب هذه المجموعة لا تحمل أىّ طابع إجبارى، بل إنّهم يعذبون بسبب الأعمال التى إرتكبوها.

ولبعث السرور فى قلب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولزيادة الأمل فى قلوب المؤمنين، جاء فى آخر الآية: «لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ».

فإن كان أهل جهنم مستقرين فى ظلل من النار، كما ورد فى الآية السابقة: «لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ».

فإنّ لأهل الجنة غرفاً من فوقها غرف اخرى، وقصور فوقها قصور اخرى، لأنّ منظر الورود والماء والأنهار والبساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشكل أكثر.

وكشفت الآية أيضاً عن أنّ غرف أهل الجنة الجميلة قد زيّنت بأنهار تجرى من تحتها «تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». نعم، هذا وعد اللَّه: «وَعْدَ اللَّهِ لَايُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ».

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (۲۱) أ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲۲) فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم مرّة اخرى دلائل التوحيد والمعاد، ليكمل البحوث التى تناولت مسألة الكفر والإيمان الواردة فى الآيات السابقة، إذ تقول موجّهة الخطاب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله باعتباره القدوة لجميع المؤمنين: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ».

قطرات المطر التى تبعث الحياة حينماتنزل من السماء تمتصها الطبقة الاولى من طبقات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۲

الأرض، وعندما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة اخرى فى الأرض ولا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرّة اخرى إلى سطح الأرض بصورة عيون وقنوت وآبار. وتضيف الآية فيما بعد: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» ذات الأشكال المختلفة.

أى: مختلف الأنواع كالحنطة والشعير والرز والذرة، ذات الأشكال المختلفة و الألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، والأخضر الفاتح، وبعضها ذو أوراق عريضة وكبيرة، والبعض الآخر ذو أوراق دقيقة وصغيرة.

ثم تنتقل الآية إلى مرحلة اخرى من مراحل حياة هذه النباتات، إذ تقول: «ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرًّا» «۱». حيث تعصف به الرياح من كل جانب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه، ويضيف تعالى: «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا».

نعم، إنّ فى هذا لذكرى لأصحاب العقول وأهل العلم: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

هذا المشهد يذكّر الإنسان بالنظام الدقيق والعظيم الذى وضعه البارىء عزّ وجل لعالم الوجود، وإنّه تذكير بنهايةالحياة وانطفاء شعلتها، ومن ثم بمسألة البعث وعودة الأموات إلى الحياة.

وكتتمة لهذا الدرس الكبير فى التوحيد والمعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة بين المؤمنين والكافرين، كى توضّح حقيقة أنّ القرآن والوحى السماوى هما كقطرات المطر التى تهطل على الأرض، وكما أنّ الأرض التى لها الإستعداد هى التى تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف اللَّه، هى- فقط- التى تستفيد من آيات اللَّه، وذلك طبقاً لقوله تعالى: «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُو لِلإِسْلمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ».

كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور. «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ».
أمّا القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثّر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة. نعم، «أُولئِكَ فِى ظَلَلٍ مُّبِينٍ».
ويقال للقلوب التى لا تظهر أىّ استجابة لنور الحق والهداية، ولا تسمح بنفوذ نور الحق والهداية إليها (قلوب قاسية).

---

(۱) «يهيج»: من مادة «هيجان» ولها معنيان فى اللغة، الأوّل هو جفاف النبات واصفراره، والثانى هو التحرك والإنتفاض، ومن الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنّه يستعد للإنفصال والإنتشار والتحرك والهيجان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۳

فى تفسير القرطبى: روى عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول اللَّه قوله تعالى «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُو لِلإِسْلم فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ» كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح». قلنا يا رسول اللَّه وما علامة ذلك؟ قال صلى الله عليه و آله: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والإستعداد للموت قبل نزوله».

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۲۴) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۲۶)

سبب النّزول

نقل بعض المفسرين عن عبد اللَّه بن مسعود: مل أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ملة، فقالوا: يا رسول اللَّه حدثنا، فنزلت أوّل آية من الآيات أعلاه معرّفة القرآن ب (أحسن الحديث).

التّفسير

الآيات السابقة تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبّل الحق.

الآيات التى يدور حولها البحث تواصل التطرّق إلى هذا الأمر، كى تكمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحيد والمعاد مع ذكر بعض دلائل النبوة، إذ تقول الفقرة الاولى من الآية: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ».

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصية الاولى فهى: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا». والمقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسق الذى لا تناقض فيه ويشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه ولا تضاد، وكل آية فيه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۴

أفضل من الاخرى والمتماثل من حيث اللطف والجمال والعمق فى البيان.

وهذا بالضبط على عكس العبارات التى يصوغها الإنسان، والتى مهما اعتنى بصياغتها فإنّها لن تخلو من الاخطاء والاختلافات والتناقضات، ودراسة آثار الكتّاب الكبار المعروفين فى مجالى النثر والشعرهى خير شاهد على هذا الموضوع. أمّا الخاصية الثانية فهى: «مَّثَانِىَ»- أى المكرر- وهذه الكلمة تشير إلى تكرار بحوثه المختلفة وقصصه ومواعظه، التكرار الذى لا يملّ منه الإنسان، وإنّما على العكس من ذلك، إذ يتشوّق لتلاوته أكثر، وهذه إحدى اسس الفصاحة.

أمّا الخاصية الثالثة فهى: «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ». وهذه الخاصية للقرآن فتتجلّى فى مسألة نفوذه وتأثيره العميقين والخارقين فى اعماق النفوس؛ «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ».

إنّه لوصف وتجسيد لطيف وجميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب، إذ أنّه فى بداية الأمر يبعث فى القلب شيئاً من

الخوف والرهبة، الخوف الذی یکون أساساً للصحوة ولبدء الحرکة، والرهبة التی تجعل الإنسان یتحسس مسؤولیاته المختلفة، ثم تأتی مرحلة الهدوء وقبول آیات اللّه وتتبعها السکینة والإستقرار.

فی تفسیر مجمع البیان روی عن العباس بن عبد المطلب أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشیة اللّه، تحاتت عنه ذنوبه کما یتحات عن الشجرة الیابسة ورقها».

وفی نهایة الآیة یقول تعالی بعد أن بیّن تلک الخصائص: «ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَن یَشَاءُ».

حقاً إنّ القرآن نزل لهدایة الجمیع، لکن المتقین وطلّاب الحق والحقیقة هم المستفیدون- فقط- من نوره، أمّا اولئک الذین تعمّدوا إغلاق کافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الکریم، والذین تتحکم بأرواحهم ظلمات التعصب والعناد- فقط- لا یستفیدون من نور القرآن، وإنّما یزدادون ضلالة من جرّاء عنادهم وعدائهم، لذلک فإنّ تتمة الآیة تقول: «وَمَن یُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

فهذه الضلالة هی التی یضع الإنسان حجر أساسها بیده، ویحکم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة والسیئة، ولذلک لا تتنافی اطلاقاً مع إرادة الإنسان وحریته.

الآیة التالیة تقارن بین مجموعة من الظالمین والمجرمین، ومجموعة من المؤمنین الذین

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۵

استعرضت أوضاعهم فیما قبل، وذلک کی تجعل الحقیقة أکثر وضوحاً فی هذه المقارنة، إذ تقول: «أَفَمَن یَتَّقِی بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ یَوْمَ الْقِیمَةِ».

إنّ أوضاع الظالمین فی جهنم فی ذلک الیوم تجبرهم علی استخدام وجوههم کوسیلة دفاعیة، لأنّ أیدیهم وأرجلهم مقیدة بالسلاسل.

ثم تضیف نهایة الآیة: «وَقِیلَ لِلظَّالِمِینَ ذُوقُوا مَا کُنتُمْ تَکْسِبُونَ».

نعم، إنّ ملائکة العذاب هی التی توضّح لهم هذه الحقیقة المرّة والمؤلمة، إذ یقولون لهم: إنّ أعمالکم ستبقی معکم وستعذبکم، وهذا التوضیح هو تعذیب روحی آخر لهؤلاء.

إنّ ما قیل لحدّ الآن هو إشارة بسیطة لعذابهم الألیم فی یوم القیامة، و الآیة التالیة تتحدث عن العذاب الدنیوی لهؤلاء، کی لا یتصور أحد أنّه یعیش فی أمان بهذه الدنیا، قال تعالی: «کَذَّبَ الَّذِینَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَیْثُ لَایَشْعُرُونَ».

الآیة الأخیرة فی بحثنا هذا تبیّن أنّ عذاب هؤلاء الدنیوی لا یقتصر علی العذاب الجسدی، وإنّما یشتمل أیضاً علی عقوبات نفسیة: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْیَ فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیَا» «۱».

ولکن العار والخزی للإنسان أن یخرج من هذه الدنیا حقیراً وذلیلًا، قد ابتلی بعذاب فاضح یریق ماء وجهه، «وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کَانُوا یَعْلَمُونَ».

کلمة (أکبر) کنایة عن شدّة العذاب وقسوته.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِیّاً غَیْرَ ذی عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِیهِ شُرَکَاءُ مُتَشَاکِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ عِنْدَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱) قرآن لا- عوج فیه: الآیات- هنا- تبحث خصائص القرآن المجید أیضاً، وتکمل البحوث السابقة فی هذا المجال. ففی البدایة تتحدث عن مسألة شمولیة القرآن، إذ تقول الآیة الکریمة:

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْءَانِ مِن کُلِّ مَثَلٍ».

---

(۱) «خزی»: تعنی الذلّ والهوان کما تعنی الفضیحة (یراجع لسان العرب).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۶

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة والمتمردين الرهيبة، وعواقب الذنوب الوخيمة، ونصائح ومواعظ، وأسرار الخلق ونظامه، وأحكام وقوانين متينة، وبكلمة أنّه وضّح فيه كل ما هو ضرورى لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلهم يتذكرون ويعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم: «لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ».

فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم- بكل هذه الصفات التى ذكرناها- هو: «لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ثم يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التى ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد والمشرك، وذلك ضمن إطار مثل ناطق وجميل، إذ يقول: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» «۱».

كل واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معيّن.

والأدهى من كل ذلك أنّه عندما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، والآخر يرميه على الأوّل، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً. وفى مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد «وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ».

فهذا الشخص خطه ومنهجه واضح، وولى أمره معلوم فلا تردد ولا حيرة ولا تضاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنة، فهل أنّ هذين الرجلين متساويان:

«هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا».

هذا المثال ينطبق على (المشرك) و (الموحّد) فالمشرك يعيش فى وسط المتضادات والمتناقضات، وكل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، أمّا الموحّدون فإنّهم يعشقون اللَّه وحده.

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ إنّ حبّ الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وتتمة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد والشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج

---

(۱) «متشاكسون»: أصلها من «شكاسة» وتعنى سوء الخلق والتنازع والاختصام، ولهذا يقال «متشاكس» لمن يتخاصم ويتنازع بعصبية وسوء خلق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۷

الشرك والتوحيد فى موقف القيامة، إذ تبدأ بمسألة الموت الذى هو بوّابة القيامة، وتبيّن لكل البشرية أنّ قانون الموت عامّ وشامل للجميع: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ».

قال بعض المفسرين: إنّ أعداء رسول اللَّه كانوا ينتظرون وفاته، وكانوا فى نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يموت فى نهاية الأمر، فالقرآن- هنا- أجابهم بالقول: إن مات رسول اللَّه فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصّت عليه الآية (۳۴) من سورة الأنبياء: «أَفَإِين مّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ».

ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد فى ساحة المحشر: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ».

«تختصمون»: مشتقة من «اختصام» وتعنى النزاع والجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل منهما تفنيد كلام الآخر.

ولكن الآيات التالية تبيّن أنّ المخاصمة تقع بين الأنبياء والمؤمنين من جهة، والمشركين المكذّبين من جهة اخرى.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (۳۲) وَ الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (۳۴) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۳۵) هذه الآيات تواصل البحث الخاص بموقف الناس فى ساحة المحشر، وتخاصمهم فى تلك المحكمة

الكبرى، وتقسّم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون) و (المصدقون)، والقرآن الكريم يعطى صفتين لأصحاب المجموعة الاولى، أى «المكذبين». قال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصّدْقِ إِذْ جَاءَهُو».

الكافرون والمشركون يكذبون كثيراً على البارىء عزّ وجل، فأحياناً يعتبرون الملائكة بنات اللّه، وأحياناً يقولون: عيسى هو ابن اللّه، وأحياناً اخرى يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند اللّه، وأحياناً يبتدعون أحكاماً كاذبة فى الحلال والحرام وينسبونها إلى اللّه، وما شابه ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۸

وأمّا الكلام الصادق الذى أنزل إليهم وكذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبيّن فى جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد. قال تعالى: «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ» «۱».

أمّا المجموعة الثانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: «وَالَّذِى جَاءَ بِالصّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

عبارة «الَّذِى جَاءَ بِالصّدْقِ» يشمل كل الذين يبلّغون نهج الأنبياء ويروّجون كلام اللّه.

وبهذا الشكل فإنّ الآية تتحدث عن أناس هم من حملة الرسالة ومن العاملين بها، وتتحدث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحى من كلام البارىء عزّ وجل وهم يؤمنون به ويعملون به، وهكذا فإنّ الآية تضم الأنبياء والأئمة المعصومين والدعاة لنهج الأنبياء.

الآية التالية تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أى المصدقين، إذ تقول فى البداية: «لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبّهِمْ ذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ».

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كل النعم المادية والمعنوية.

أمّا المكافأتان الثانية والثالثة اللتان يمنحهما البارىء عزّ وجل للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: «لِيُكَفّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كم هى عبارة جميلة ولطيفة! فمن جانب يدعون اللّه سبحانه وتعالى ليكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بظل لطفه، ويطهّرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، ومن جهة اخرى يدعون اللّه ليجعل أفضل وأحسن أعمالهم معياراً للمكافأة، وأن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضح من الآيات الكريمة هو أنّ اللّه استجاب لدعواهم، عندما غفر لهم وعفا عن أسوء أعمالهم، وجعل أفضل الأعمال معياراً للمكافأة.

أ لَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۳۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ (۳۷)

---

(۱) «مثوى : من مادة (ثواء) وتعنى الإقامة المستمرة فى مكان ما ولهذا فإنّ (مثوى هنا تعنى المكان والمنزل الدائم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۹

سبب النّزول

الكثير من المفسرين قالوا: إنّ مشركى قريش كانوا يخوّفون رسول اللّه صلى الله عليه و آله من آلهتهم ويحذّرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزرية، ويوعدونه بأنّه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، وللرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه.

التّفسير

إنّ اللَّه كاف: تتمة لتهديدات البارىء عزّ وجل التى وردت فى الآيات السابقة للمشركين، والوعد لأنبيائه. تتطرق الآية الاولى فى بحثنا لتهديد الكفار: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ».

إنّ قدرة البارىء عزّ وجل أقوى وأعظم من كل القدرات الاخرى، وهو الذى يعلم بكل احتياجات ومشكلات عباده، والذى هو رحيم بهم غاية الرحمة واللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث وعدوان بعض الأعداء!

إنّ فى هذه الآية بشرى لكل السائرين فى طريق الحق والمؤمنين الحقيقيين، خاصة أولئك الذين يعيشون أقلية فى بعض المجتمعات، والمحاطين بمختلف أشكال التهديد من كل جانب.

وكتتمة للآية السابقة، تشير الآية التالية إلى مسألة (الهداية) و (الضلالة) وتقسّم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهتدين) وكل هذا من اللَّه سبحانه وتعالى، كى تبيّن أنّ جميع العباد محتاجون لرحمته، ومن دون إرادته لا يحدث شىء فى هذا العالم. قال تعالى: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». «وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلّ».

ومن البديهى أنّ الضلالة لا تأتى من دون سبب، وكذلك الهداية بل إنّ كل حالة منهما هى استمرار لإرادة الإنسان وجهوده.

وما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات وبقية آيات القرآن واعتبروها شاهداً على ما ورد فى المذهب الجبرى، وكأنّهم لا يعلمون أنّ آيات القرآن تفسّر إحداها الاخرى، بل إنّ القرآن الكريم يقول فى نهاية هذه الآية: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ». وهو خير شاهد على هذا المعنى.

وكما هو معروف فإنّ الإنتقام الإلهى هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التى اقترفها الإنسان، وهذا يشير إلى أنّ إضلاله سبحانه وتعالى للإنسان هو بحدّ ذاته نوع من أنواع

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۰

الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، وبالطبع فإنّ هدايته سبحانه وتعالى للإنسان هى بحدّ ذاتها نوع من أنواع الثواب، وهى ردّ فعل للأعمال الصالحة والخالصة التى يقوم بها الإنسان.

الهداية والإضلال من اللَّه: «الهداية»: فى اللغة تعنى التوجيه والإرشاد بلطف ودقّة، وتنقسم إلى قسمين (بيان الطريق) و (الإيصال إلى المطلوب). وبعبارة اخرى: (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية).

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يصف أحياناً الطريق للسائل بدقّة ولطف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف فى قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب، وأحياناً اخرى يصف الإنسان الطريق للسائل ومن ثم يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة ل (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لاتّضح لنا- بصورة جيّدة- أنّ القرآن يعتبر أنّ الظلالة والهداية من اللَّه؛ أى أنّ الإثنين ينسبان إلى اللَّه.

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدّى إلى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها ووقوعهم فى فخاخ المذهب الجبرى.

إنّ أدقّ تفسير يتناسب مع كل آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً هو أنّ الهداية التشريعية التى تعنى (إراءة الطريق) لها خاصية عامة وشاملة، ولا توجد فيها أى قيود وشروط، كما ورد فى الآية (۳) من سورة الإنسان: «إِنَّا هَدَيْنَهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». وفى الآية (۵۲) من سورة الشورى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». ومن البديهى أنّ دعوة الأنبياء هى مظهر دعوة اللَّه تعالى، لأنّ كل ما عند النبى هو من اللَّه.

وبالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد فى الآية (۲۳) من سورة النجم:

«وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى .

أمّا الهداية التكوينية فتعنى الإيصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان فى كل منعطفات الطريق، وحفظه وحمايته من كل الأخطار التى قد تواجهه فى تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، وهى- أى الهداية التكوينية- موضع بحث الكثير من آيات القرآن الاخرى التى لا يمكن تقييدها بأيّة شروط، فالهداية هذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم فى القرآن، أمّا الضلال الذى هو النقطة المقابلة للهداية فإنّه يخص مجموعة اخرى ذكرت أوصافهم أيضاً فى القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۱

مختصر الامثل ج۴ ۳۱۹

القرآن المجيد يقول فى الآية (۲۶) من سورة البقرة: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ». وفى الآية (۲۵۸) من سورة البقرة: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وهذا يبيّن أنّ الظلم مقدمة للظلال. ومن هنا يتّضح أنّ الفسق، أى عدم إطاعة أوامر البارىء تعالى هو مصدر الضلال.

وفى الآية (۲۶۴) من سورة البقرة نقرأ: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

وهنا اعتبر الكفر هو الذى يهيّء أرضية الضلال.

وقد ورد فى الآية (۳) من سورة الزمر: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ».

يعنى أنّ الكذب والكفر هما مقدمة الضلال.

والآية (۲۸) من سورة غافر تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

أى إنّ الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

إنّ ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلالة الإلهية تشمل كل من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب) و (الإسراف).

أمّا فيما يخصّ الهداية، فقد وردت فى القرآن المجيد شروط وأوصاف تبيّن أنّ الهداية لا تقع من دون سبب وخلاف الحكمة الإلهية.

وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التى تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطاً باللطف الإلهى؛ منها ما ورد فى الآية (۱۶) من سورة المائدة: «يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

إذن فإتباع أمر اللَّه، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

وفى الآية (۲۷) من سورة الرعد نقرأ: «إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ».

إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

وورد فى الآية (۶۹) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

فالجهاد، وخاصة (الجهاد الخالص فى سبيل اللَّه) هو من الشروط الرئيسية للهداية.

وأخيراً نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة محمّد: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى».

أى أنّ قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للإستمرار فيه بلطف البارىء عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۲

نستنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر اللَّه، ولا جهاد فى سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإنّ اللطف الإلهى لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك البارىء بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب. فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلّون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم فى هذا المجال واضحة جدّاً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الإبتلاء (لأنّهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا فى طريق الخيال).

إذن يجب القول بأنّهم هم الذين إختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أيّة حال، فإنّ المشيئة الإلهية فى آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أىّ حكمة، وإنّما تتمّ بشرائط خاصة، بحيث تبيّن تطابق حكمة البارىء عزّ وجل مع ذلك الأمر.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (۳۸) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۹) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۴۰) هل إنّ آلهتكم قادرة على حلّ مشاكلكم: الآيات السابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشركين والعواقب الوخيمة التى حلّت بهم، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض دلائل التوحيد كى تكمل البحث السابق بالأدلة، كما تحدّثت الآيات السابقة عن دعم البارىء عزّ وجل لعباده وكفاية هذا الدعم، والآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

فى البداية تقول الآية: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

العقل والوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصنام التى لا روح فيها ولا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۳

عقل ولا شعور هى التى خلقت هذا العالم، وبهذا الشكل فإنّ القرآن يحاكم اولئك إلى عقولهم وشعورهم وفطرتهم، كى يثبّت أوّل أسس التوحيد فى قلوبهم، وهى مسألة خلق السماوات والأرض.

وفى المرحلة التالية تتحدث الآيات عن مسألة الربح والخسارة، وعن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كى تثبت لهم أنّ الأصنام لا دور لها فى هذا المجال، وتضيف: «قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ».

والآن بعد أن اتّضح أنّ الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئاً ولا باستطاعتها أن تتدخل فى ربح الإنسان وخسارته، إذن فلم نعبدها ونترك الخالق الأصلى لهذا الكون، وكنتيجة نهائية وشاملة يقول البارىء عزّ وجل: «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ».

آيات القرآن المجيد أكّدت- ولعدّة مرات- على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض. وهذا الأمر يبيّن أنّ الموضوع كان بالنسبة للمشركين من المسلّمات، وهذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأنّ توحيد خالق الكون والاعتراف بمالكيته وربوبيته أفضل دليل على (توحيد المعبود) ومن كل هذا نخلص إلى أنّ التوكّل لا يكون إلّاعلى اللَّه فكيف بعبادة غيره؟!

الآية التالية تخاطب اولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل والوجدان بتهديد إلهى مؤثر، إذ تقول: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزى والعذاب الخالد فى الآخرة: «مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

وبهذا الشكل فإنّ آخر كلام يقال لُاولئك هو: إمّا أن تستسلموا لمنطق العقل و الشعور وتستجيبوا لنداء الوجدان، أو أن تنتظروا عذابين سيحلان بكم، أحدهما فى الدنيا وهو الذى سيخزيكم ويفضحكم، والثانى فى الآخرة وهو عذاب دائمى خالد، وهذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم، وأشعلتم النيران فى الحطب الذى جمعتموه بأيديكم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۴

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۴۱) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لَا يَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴) بعد ذكر دلائل التوحيد، وبيان مصير المشركين والموحدين، تبيّن الآية الاولى- فى هذا البحث- حقيقة، مفادّها أنّ قبول ما جاء فى كتاب اللَّه أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، وإن كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصرّ عليكم فى هذا المجال، فإنّه لم يكن يبتغى جنى الأرباح من وراء ذلك، وإنّما كان يؤدّى واجباً إلهيّاً: «إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقّ».

وتضيف الآية: «فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

فإنّك لست مكلّفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنّما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

ثم لتوضّح أنّ الحياة والموت وكل شؤون الإنسان هى بيد اللَّه سبحانه وتعالى، قالت الآية: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا».

وبهذا الشكل فإنّ (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة.

وتضيف الآية: «فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

نعم، «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وبعدما أصبحت حاكمية (اللَّه) على وجود الإنسان وتدبير أمره عن طريق نظام الحياة والموت والنوم واليقظة، أمراً مسلّماً من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كى تثبت لهم أنّ مالك الشفاعة هو مالك حياة وموت الإنسان، وليس الأصنام الجامدة التى لا شعور لها: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۵

وكما هو معروف فإنّ إحدى الأعذار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هى ما ورد فى مطلع هذه السورة: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .

إذ أنّهم كانوا يعدّونها تماثيل وهياكل للملائكة و الأرواح المقدسة، ويزعمون أنّ هذه الأحجار والأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

ولكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذى هو، أوّلًا: يشعر ويدرك ويفهم؛ وثانياً: قدير ومالك وحكيم. فإنّ تتمة الآية تجيبهم: «قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَايَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ».

إذا كنتم تتخذون من الملائكة والأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، لأنّ كل ما عندهم هو من اللَّه، وإذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شفعاء لكم، فإنّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئاً لأنفسهم، فهم لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور.

لذا فإنّ اللَّه جلّ وعلا يضيف فى الآية التالية: «قُلْ لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا». لأنّه: «لَّهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وكما يقول بعض المفسرين: إنّ حقيقة الشفاعة، هى التوسل بأسماء اللَّه الحسنى، التوسل برحمته وغفرانه وستره، طبقاً لهذا فإنّ كافة أشكال الشفاعة تعود فى النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره وبدون إذنه «۱».

وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۴۸) الذين يخافون من اسم اللَّه: مرّة اخرى يدور الحديث عن التوحيد والشرك، إذ

---

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۱۷/ ۲۸۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۶

عكست الآية الاولى إحدى الصور القبيحة والمشوّهة للمشـركين ولمنكرى المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» «۱». فأحياناً يستحسن الإنسان القبائح ويستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق ويستبشر إذا سمع اسم الباطل. وفى المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم اللَّه ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كل ما لديهم فى سبيله.

وعندما يصل الأمر إلى درجة أنّ مجموعة من اللجوجين والجهلة المغرورين ينفرون ويشمئزون حتى من سماع اسم اللَّه، يوحى البارىء عزّ وجل إلى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله أن يتركهم ويتوجّه إلى البارىء عزّ وجل ويشتكى إليه من هؤلاء بلحن مليء بالعواطف الرفيعة والعشق الإلهى لكى يبعث على تسكين قلبه المليء بالغم من جهة، وعلى تحريك العواطف الهامدة عند اولئك من جهة اخرى: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

نعم أنت الحاكم المطلق فى يوم القيامة، وهناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، ويفكّرون فى إصلاح ما مضى، ولكن ما الفائدة؟

الآية التالية تقول: «وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيمَةِ». ولكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضاً وبقية المظالم.

ثم تضيف الآية: «وَبَدَا لَهُم مّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ».

وسيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم.

الآية التالية توضيح أو تتمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: «وَبَدَا لَهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

---

(۱) «اشمأزت»: من مادة «اشمئزاز» وتعنى الإنقباض والنفور عن الشيء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۷

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) فى الشدائد يذكرون اللَّه، ولكن ...: الآيات هنا تتحدث مرّة اخرى عن المشركين والظالمين، وتعكس صورة اخرى من صورهم القبيحة. فى البداية يقول: «فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا». لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفضّل عليه البارىء عزّ وجل ويكشف عنه الضر والشدائد، حتى يتبجح ناكراً لهذه النعم، وزاعماً بأنّه هو الذى أنقذ نفسه من ذلك الضر: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ» «۱».

إنّ أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم والمعارف التى يمتلكها الإنسان إنّما هى نعمة إلهية.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين، الذين ينسون أنفسهم وخالقهم بمجرّد زوال المحنة وتوفّر النعمة، قائلًا: «بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

فالهدف من إبتلائهم بالحوادث الشديدة والصعبة، ومن ثم إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم والكشف عن بواطنهم.

وتضيف الآية التالية: «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

نعم، فقارون وأمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم وغفلوا عن أنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى منّ بهذه النعم عليهم وأنّه المصدر الأصل للنعم والواهب الحقيقى لها، وأنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية.

ثم يقول: «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا».

فكلّ واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهى وهلك، كابتلائهم بالطوفان والسيل والزلزال والصيحة السماوية.

---

(١) «خول»: من مادة «تخويل» و تعنى الإعطاء على نحو الهبة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۸

ويضيف: إنّ هذا المصير لا ينحصر باولئك الاقوام وحسب بل إنّ مشركى مكة سيبتلون فى القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، ولا يستطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضة العذاب الإلهى الذى سينزل بهم جميعاً: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

وسينال هذا العذاب والإبتلاء كل الطغاة والمغرورين والمشركين، وفى كل العصور والقرون.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنّهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم وقدرتهم، عندما دعاهم إلى مراجعة تاريخ الأوّلين للإطّلاع على أنواع الإبتلاءات والعذاب الذى ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، وهذا هو ردّ تأريخى وواقعى.

ثم يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلى، إذ يقول: «أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين والبسطاء، فى حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء ومتنعمين من كل النواحى، فلو كان الظفر المادى كلّه يأتى عن طريق جهد وسعى الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد.

لذا تضيف الآية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآيات التى وضّحها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام عندما قال: «عرفت اللَّه بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم» «١».

وهى كلمة سامية تدلّ على ضعف وعجز الإنسان كى لا يتيه ولا يبتلى بالغرور والتكبر.

إنّ اللَّه يغفر الذنوب جميعاً: بعد التهديدات المتكررة التى وردت فى الآيات السابقة قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵۳) وَ أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (۵۵)

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۵۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۹

بشأن المشركين والظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسى من كل هذه الأمور هو التربية والهداية وليس الإنتقام والعنف، فبلهجة مملوءة باللطف والمحبة يفتح البارىء أبواب رحمته أمام الجميع ويصدر أوامر العفو عنهم، عندما يقول: «قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

التدقيق فى عبارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التى تعطى الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام: «ما فى القرآن آية أوسع من يا عبادى الّذين أسرفوا» الآية «١».

إنّ الوعد الذى أعطاه اللَّه بغفران الذنوب مشروط بأن يعودوا إلى أنفسهم بعد إرتكاب الذنب، ويتوجّهوا فى مسيرهم نحو البارىء عزّ وجل، ويستسلموا لأوامره، ويظهروا صدق توبتهم وإنابتهم بالعمل.

الآية التاليه ترشد المجرمين والمذنبين إلى الطريق للدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ». واصلحوا اموركم ومسير حياتكم: «وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ».

بعد طى هاتين المرحلتين «الإنابة» و «التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثالثة وهى مرحلة (العمل)، إذ تقول: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ».

وبهذا الشكل فإنّ مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الاولى: التوبة والندم على الذنب والتوجه إلى اللَّه تعالى.

الخطوة الثانية: الإيمان باللَّه والإستسلام له.

الخطوة الثالثة: العمل الصالح.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (۵۹)

(۱) تفسير مجمع البيان ۸/ ۴۰۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۰

الندم لا ينفع فى ذلك اليوم: الآيات السابقة أكّدت على التوبة وإصلاح الذات وإصلاح الأعمال السابقة، وآيات بحثنا الحالى تواصل التطرّق لذلك الموضوع؛ ففى البداية تقول: «أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ».

نعم، فعندما يرد الإنسان إلى ساحة المحشر، ويرى بامّ عينيه نتائج إفراطه وإسرافه ومخالفته، يصرخ فجأة (واحسرتاه) إذ يمتلىء قلبه فى تلك اللحظات بغمّ كبير مصحوب بندم عميق، وهذه الحالة النفسية التى وردت فى الآيات المذكورة.

عبارة «جَنْبِ اللَّه» تعنى أنّ الامور ترجع إلى جانب اللَّه، فأوامره وإطاعته والتقرّب إليه، والكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة فى هذا المعنى

ثم تضيف الآية: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَينِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

يبدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عندما يوقف أمام ميزان الحساب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنة وهم محمّلون بأعمالهم الحسنة، وهنا يتمنى الكافر لو أنّه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنة الخلد.

وتضيف الآية مرّة اخرى: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

وهذا ما يقوله الكافر- أيضاً- حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنار نحو جهنم، وترى عيناه نار جهنم ومنظر العذاب الأليم فيها، وهنا يتأوه من أعماق قلبه ويتوسل لكى يسمح له بالعودة مرّة اخرى إلى الحياة الدنيا ليطهّر نفسه من الأعمال السيئة والقبيحة ويستبدلها بأعمال صالحة.

القرآن المجيد يردّ على القول الثانى من بين الأقوال الثلاثة، إذ يقول: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

إنّ قولك: لو كانت الهداية قد شملتنى لأصبحت من المتقين، فما هى الهداية الإلهية؟ هل هى غير الكتب السماوية ورسل اللَّه، وآياته وعلاماته الصادقة فى الآفاق والأنفس؟ إنّك سمعت باذنيك وشاهدت بعينيك كل هذه الآيات، فما كان ردّ فعلك إزاءها غير التكذيب والتكبّر والكفر.

فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسى، ومن بعد يأتى التكذيب بآيات اللَّه، وحصيلة الاثنين هو الكفر وعدم الإيمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۱

وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا

يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۶۲) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (۶۴) الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذّابين والمستكبرين الذين يندمون يوم القيامة على ما قدّمت أيديهم ويتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، ولكن هيهات أن يستجاب لهم طلبهم، وآيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول: «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ».

ثم تضيف: «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ».

إنّ عبارة «كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ» تستهدف اولئك الذين قالوا بوجود شريك للّه، أو باتخاذ اللّه ولداً من الملائكة، أو الذين يزعمون أنّ المسيح عليه السلام هو ابن اللّه، وأمثال هذه المزاعم والإدّعاءات.

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين وابتهاجهم فى يوم القيامة، إذ تقول: «وَيُنَجّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ» «۱».

ثم توضّح فوزهم وانتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعانى: «لَايَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

نعم، إنّهم يعيشون فى عالم لا يوجد فيه سوى الخير والطهارة والسرور، وهذه العبارة القصيرة جمعت- حقّاً- كل الهبات الإلهية فيها.

الآية التالية تتطرق من جديد إلى مسألة التوحيد والجهاد ضد الشرك، وتواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

العبارة الاولى فى هذه الآية تشير إلى (توحد اللّه فى الخلق) والثانية تشير إلى (توحده فى الربوبية).

---

(۱) «مفازة»: مصدر ميمى بمعنى الفوز والظفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۲

فمسألة (توحده فى الخلق) هى حقيقة اعترف بها حتى المشركون، ولكنّهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسألة (توحده فى الربوبية)، ففى بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هى التى تحفظهم وتحميهم وتدبّر أمرهم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أىّ مشكلة.

أمّا الآية التالية فقد تطرّقت إلى (توحيد اللّه فى‌المالكية) لتكمل بحث التوحيد الذى ورد فى الآيات السابقة، إذ تقول: «لَّهُ مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولهذا السبب قررت الآية المذكورة بمثابة استنتاج: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

لأنّهم تركوا المصدر الرئيسى والمنبع الحقيقى لكل الخيرات والبركات وتاهوا فى صحارى الضلال عندما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات والأرض، وتوجّهوا نحو موجودات عاجزة تماماً عن تقديم أدنى عمل لهم.

من مجموع كل الامور التى ذكرناها فى الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيّدة، وهى أنّ التوحيد فى العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها وعلى كل إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، ولهذا فإنّ البحث ينتهى بآية تتحدث بلهجة حازمة ومتشددة: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ».

هذه الآية- وبالنظر إلى أنّ المشركين والكفرة كانوا أحياناً يدعون رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى احترام آلهتهم وعبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو النهى عن عبادتها- أعلنت وبمنتهى الصراحة أنّ مسألة توحيد اللّه وعدم الإشراك به هى مسألة لا تقبل المساومة والاستسلام أبداً، إذ يجب أن تزال كافة أشكال الشرك وتمحى من على وجه الأرض.

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶) وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۷) الشرك محبط للاعمال: آيات بحثنا تواصل التطرّق للمسائل المتعلقة بالشرك والتوحيد والتى كانت قد استعرضت فى الآيات

السابقة أيضاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۳

الآيـة الاولى تتحدث بلهجة قاطعة وشديدة حول أخطار الشرك، وتقول: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وبهذا الترتيب، فإنّ للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء اللَّه فيما لو أصبحوا مشركين، على فرض المحال.

النتيجة الاولى: إحباط الأعمال، والثانية: الخسران والضياع.

وإحباط الأعمال يعنى محو آثار ثواب الأعمال السابقة، وذلك بعد كفره وشركه باللَّه، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، ولا يقبل أىّ عمل بدون هذا الاعتقاد.

وأمّا خسارتهم فإنّها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا وهى العقل والإدراك والعمر فى سوق التجارة الدنيوية، وشراؤهم الحسرة والألم بثمنها.

الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر: «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ».

تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر، وذلك يعنى أنّ ذات اللَّه المنزهة يجب أن تكون معبودك الوحيد.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسى لانحرافهم، وتقول: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ». ولهذا تنزّلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للأوثان.

ثم يأتى القرآن بعبارتين كنائيتين بعد العبارة السابقة، وذلك لبيان عظمة وقدرة البارىء عزّ وجل، إذ يقول كلام اللَّه المجيد: «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ».

«القبضة»: الشىء الذى يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم- عادة- للتعبير عن القدرة المطلقة والتسلّط التام؛ و «مطويّات»: من مادة «طى» وتعنى الثنى، والتى تستعمل أحياناً كناية عن الوفاة وانقضاء العمر، أو عن عبور شىء ما.

فالذى يثنى طوماراً ويحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار الذى يحمله بتلك اليد، وانتخبت اليد اليمنى هنا لأنّ أكثر الأشخاص يؤدّون أعمالهم المهمة باليد اليمنى ويحسّون بأنّها ذات قوّة وقدرة أكثر.

خلاصة الكلام، أنّ كل هذه التشبيهات والتعابير هى كناية عن سلطة اللَّه المطلقة على عالم الوجود فى العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أنّ مفتاح النجاة وحلّ المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كى لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة بذريعة أنّها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۴

إنّ السماء والأرض أيضاً فى قبضته فى الحياة الدنيا ولكن فى ذلك اليوم أكثر من أىّ وقت مضى وكل إنسان يدرك ويشعر أنّ كل شىء هو من عند اللَّه وتحت تصرفه.

فبعد التوضيحات التى ذكرت آنفاً، يعطى البارىء عزّ وجل فى آخر الآية نتيجة مركّزة وظاهرية، إذ يقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات اللَّه المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة والمحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك وعبادة الأصنام.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (۶۸) (النفخ فى الصور) وموت وإحياء جميع العباد: الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، وآية بحثنا الحالى تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة فى الدنيا، وتقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي

السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ».

يستفاد من الروايات إنّ هـذه المجموعة المتبقية تموت فى نهاية الأمر، ولا يبقى أحد حيّاً فى هذا العالم سوى البارىء عزّ وجل إذ هو: «حَيٌّ لَايَمُوتُ».

يتّضح بصورة جيّدة من هذه الآية أنّ حادثتين تقعان مع نهاية العالم وعند البعث، فى الحادثة الاولى يموت الأحياء فوراً، وفى الحادثة الثانيـة- التى تقع بعـد فترة من وقوع الحادثة الاولى- يعود كل الناس إلى الحياة مرّة اخرى، يقفون بانتظار الحساب. وَ أَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (۷۰) اليوم الذى تشرق الأرض بنور ربّها: آيتا بحثنا تواصلان استعراض الحديث عن القيامة والذى بدأ قبل عدّة آيات. فى البداية تقول: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا».

وقد اختلف المفسرون فى معنى إشراق الأرض بنور ربّها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا إثنين منها، وهى:

۱- قالت طائفة: إنّ المراد من نور الرب هو الحق والعدالة، الذى ينير بهما ربّ العالمين الأرض فى ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۵

۲- أمّا المفسر الكبير العلّامة الطباطبائى رحمه الله، صاحب تفسير الميزان، فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما يخصّ يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وتجلّى الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدل العلّامة الطباطبائى على هذا الرأى بالآية (۲۲) من سورة «ق»: «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». وهـذا الإشـراق وإن كـان عاماً لكل شـىء يسـعه النور، لكن لمّا كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذٍ من الشأن، خصّها بالبيان.

ومن دون شك فإنّ هـذه الآيـة تتعلق بيوم القيامـة، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار عليهم السـلام تفسّرها على أنّها تعود إلى ظهور القائم المهـدى المنتظر (عـج)، فهى فى الواقع نوع من التطبيق والتشبيه، وتأكيـد لهـذا المعنى وهو عنـد ظهور المهدى (عج) تصبح الـدنيا نموذجاً حيّاً من مشاهـد القيامـة، إذ يملأ هـذا الإمام بالحق ونائب الرسول الأكرم وخليفـة اللَّه، الأرض بالعـدل إلى الحد الذى ترتضيه الحياة الدنيا.

العبارة الثانية فى هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ».

الصحائف التى تتضمن جميع صغائر وكبائر أعمال الإنسان.

وتضيف العبارات التى تتحدث عن الشهود: «وَجِاىءَ بِالنَّبِيّينَ وَالشُّهَدَاءِ».

فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، كما ورد فى الآية (۶) من سورة الأعراف: «وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

كما يحضـر شـهداء الأعمال فى محكمـة العـدل الإلهيـة ليـدلوا بشـهاداتهم، صـحيح أنّ البارىء عزّ وجل مطّلع على كل الامور، ولكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور فى تلك المحكمة.

العبارة الرّابعة تقول: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقّ».

والخامسة تضيف: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

فمن البـديهيات، عنـدما يكون الحـاكم هو البـارىء عزّ وجل، فلا يحكم إلّابالحق، وفى مثل هـذه المحاكم لا وجود للظلم والاسـتبداد مطلقاً.

العبارة السادسة فى الآية التالية أكملت الحديث بالقول: «وَوُفّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ».

إنّ جزاء الأعمال وعواقبها سترد إليهم، وهل هناك مكافأة ومجازاة أعلى من أن يردّ عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۶

فالـذى يتمكن من تنفيـذ مثل هـذه المناهـج العادلـة بدقّة، هو الذى أحاط علمه بكل شـىء، لهذا فإنّ العبارة السابعة والأخيرة فى هذا البحث تقول: «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ».

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأنّ اللَّه هو أعلم من كل أولئك الشهود، ولكن لطفه وعدله يقتضيان إحضار الشهود.

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هـذَا قَالُوا بَلَى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَـةُ الْعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (۷۱) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲) الّـذين يـدخلون جهنـم زمراً: تواصـل الآيـات هنـا بحث المعـاد، وتسـتعرض بالتفصـيل ثـواب وجزاء المـؤمنين والكافرين، الذى استعرض بصورة مختصرة فى الآيات السابقة.

وتبدأ بأهل جهنم، إذ تقول: «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا».

عبارة «زمر» تعنى الجماعة الصغيرة من الناس، وتوضّح أنّ الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات صغيرة ومتفرقة.

و «سيق»: من مادة «سوق» وتعنى (الحث على السير).

ثم تضـيف: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا» «۱».

يتّضح بصورة جيّدة من خلال هذه العبارة، أنّ أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق اولئك الكفرة، وهى كأبواب السـجون المغلقة التى تفتـح أمام المتهمين الذين يراد سـجنهم، وهذا الحدث المفاجىء يوجد رعباً ووحشة كبيرة فى قلوب الكافرين، وقبل دخولهم يتلقاهم خزنـة جهنم باللوم والتوبيـخ، الـذين يقولون اسـتهجاناً وتوبيخاً لهم: لم كفرتم وقد هيأت لكم كافة أسـباب الهداية، فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

فإنّ الكافرين يجيبون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: «قَالُوا بَلَى

---

(۱) «خزنة»: جمع (خازن) من مادة «خزن» وتعنى حافظ الشىء، و (خازن) تطلق على المحافظ والحارس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۷

وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وبهذا الشكل اعترفوا بأنّهم كذّبوا الأنبياء وانكروا آيات اللَّه، وبالطبع فإنّ مصيرهم لن يكون أفضل من هذا.

هذا النقاش القصير ينتهى مع اقترابهم من عتبة جهنم: «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

فأبواب جهنم- كما أشـرنا إليها من قبل- يمكن أن تكون قـد نظّمت حسب أعمال الإنسان، وإنّ كل مجموعـة كافرة تدخل جهنم من الباب الذى يتناسب مع أعمالها، وذلك مثل أبواب الجنة التى يطلق على أحد أبوابها اسم «باب المجاهدين».

والذى يلفت النظر هو أنّ ملائكة العذاب تؤكّد على مسألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التى تؤدّى بالإنسان إلى السقوط فى نار جهنم، وذلك إشارة إلى أنّ التكبر والغرور وعـدم الإنصياع والاستسـلام أمام الحق هو المصـدر الرئيسـى للكفر والإنحراف وإرتكاب الـذنب. ولهـذا نقرأ فى رواية- فى الكافى- عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السـلام قالا: «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرّة من كبر».

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (۷۳) وَ قَالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى صَـدَقَنَا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۷۵) المتقون يدخلون الجنة افواجاً: هذه الآيات- التى هى آخر آيـات سورة (الزمر)- تواصـل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحـدث عن كيفيـة دخول المؤمنين المتقين الجنـة، بعـد أن

كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتتوضح الامور أكثر من خلال هذه المقارنة. فى البداية تقول: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا».

عبارة (سيق) أثار التساؤل، لأنّ هذا التعبير يستخدم فى موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أىّ اشتياق ورغبة فى تنفيذه، ولذلك فإنّ هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۸

جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنة الذين يتوجّهون إلى الجنة بتلهّف واشتياق؟

إنّ التفسير الأصح لهذه العبارة هى: مهما كان حجم عشق المتقين للجنة، فإنّ الجنة وملائكة الرحمة مشتاقة أكثر لوفود اولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق للضيف والمتلهّف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره وإنّما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتى هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هى كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنة.

«زمر»: تعنى هنا المجموعات الصغيرة؛ وتبيّن أنّ أهل الجنة يساقون إلى الجنة على شكل مجموعات مجموعات كل حسب مقامه.

ثم تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ».

الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنّهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، ويقول بشأن أهل الجنة، إنّ أبواب الجنة مفتحة لهم من قبل، وهذه إشارة إلى الاحترام والتبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة.

وقد قرأنا فى الآيات السابقة أنّ ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم والتوبيخ الشديدين، أمّا ملائكة الرحمة فإنّها تبادر أهل الجنة بالسلام المرافق للاحترام والتبجيل.

الملاحظ أنّ «الخلود» استخدم بشأن كل من أهل الجنة وأهل النار، وذلك لكى لا يخشى أهل الجنة من زوال النعم الإلهية، ولكى يعلم أهل النار بأنّه لا سبيل لهم للنجاة من النار.

الآية التالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعانى تنقل عن لسان أهل الجنة السعادة والفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُو».

وتضيف فى العبارة التالية: «وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ».

المراد من الأرض هنا أرض الجنة؛ واستخدام عبارة (الإرث) هنا، إنّما جاء لكونهم حصلوا على كل هذه النعم فى مقابل جهد قليل بذلوه، إذ- كما هو معروف- أنّ الميراث هو الشيء الذى يحصل عليه الإنسان من دون أىّ عناء مبذول.

العبارة الثالثة تكشف عن الحرية الكاملة التى تمنح لأهل الجنة فى الاستفادة من كافة ما هو موجود فى الجنة الواسعة، إذ تقول: «نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ».

أمّا العبارة الأخيرة فتقول: «فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۹

وهذه إشارة إلى أنّ هذه النعم الواسعة إنّما تعطى فى مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعاً) ليكون صاحبه لائقاً ومستحقاً لنيل مثل هذه النعم.

وفى النهاية تخاطب الآية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قائلة: «وَتَرَى الْمَلَكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». يسبحون اللّه ويقدّسونه ويحمدونه.

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش اللّه، أنّها تعبّر عن إستعداد اولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، ولهذا تقول العبارة التالية: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقّ».

وباعتبار أنّ هذه الامور دلائل على ربوبية البارىء عزّ وجل واستحقاق ذاته المقدسة والمنزهة لكل أشكال الحمد والثناء، فإنّ الجملة

الأخيرة تقول: «وَقِيلَ الْحَمْدُلِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الحمد والثناء على اللَّه هو منهاج كل اولى الألباب، ومنهاج كل الخواص والمقربين.

«نهاية تفسير سورة الزمر»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۱

۴۰. سورة غافر

محتوى السورة: سورة غافر هى طليعة الحواميم، والحواميم فى القرآن الكريم سبع سور متتالية يلى بعضها بعضاً، نزلت جميعاً فى مكة، وهى تبتدأ ب «حم».

يمكن النظر إلى محتوى السورة فى إطار ما تثيره النقاط والأقسام الآتية:

۱- تتحدث عن بعض أسماء اللَّه الحسنى خصوصاً تلك التى ترتبط باحياء معانى الخوف والرجاء فى القلوب، مثل قوله تعالى: «غَافِرِ الذَّنبِ» و «شَدِيدِ الْعِقَابِ».

۲- تهديد الكفار والطواغيت بعذاب فى هذه الدنيا، بالإضافة إلى التعرّض لعذاب الآخرة، وتتناول بعض الصور والمشاهد التفصيلية فيه.

۳- بعد أن وقفت السورة على قصة موسى وفرعون، بدأت بالحديث- بشكل واسع- عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعى الشجاع الذى اصطلح عليه ب «مؤمن آل فرعون» وكيف واجه البطانة الفرعونية وخلّص موسى عليه السلام من كيدها.

۴- تتعرض السورة المباركة فيه إلى قضيتى التوحيد والشرك، بوصفهما دعامتين لوجود الإنسان وحياته، وفى ذلك تتناول جانباً من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

۵- تنتهى السورة بدعوة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله للتحمل والصبر، ثم تخلص السورة فى خاتمتها إلى ذكر بعض النعم الإلهية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۲

إنّ تسمية السورة ب «غافر» يعود إلى كون هذه الكلمة هى بداية الآية الثالثة من آيات السورة المباركة، أمّا تسميتها ب «المؤمن» فيعود إلى اختصاص قسم منها بالحديث عن «مؤمن آل فرعون».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الحواميم ديباج القرآن».

وروى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحواميم ريحان القرآن، فاحمدوا اللَّه واشكروه بحفظها وتلاوتها. وإنّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر. وإنّ اللَّه ليرحم تاليها وقارءها، ويرحم جيرانه وأصدقاءه ومعارفه وكل حميم أو قريب له، وإنّه فى القيامة يستغفر له العرش والكرسى وملائكة اللَّه المقرّبون».

ومن الواضح أنّ هذه الفضائل الجزيلة ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذى إذا واظب الإنسان على تطبيقه فى حياته والعمل به، والإلتزام بما يستلزمه من مواقف وسلوك، فإنّه سيكون مستحقاً للثواب العظيم والفضائل الكريمة التى قرأناها.

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۲) غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳)

تواجهنا فى مطلع السورة الحروف المقطعة وهى هنا من نوع جديد لم نعهده فى السور السابقة، حيث افتتحت السورة ب «حم».

إنّ الحروف التى تبدأ بها سورة غافر- كما يستفاد ذلك من بعض الروايات ومن آراء المفسرين- تشير إلى أسماء اللَّه التى تبدأ بحروف هذه السورة، أى «حميد» و «مجيد» كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام «۱».

البعض الآخر ذهب إلى أنّ «ح» إشارة إلى أسمائه تعالى مثل «حميد» و «حليم» و «حنان»، بينما «م» إشارة إلى «ملك» و «مالك» و «مجيد».

وهناك احتمال فى أنّ «ح» يشير إلى الحاكمية، فيما يشير «م» إلى المالكية الإلهية.

ويتّضح فى نهاية الفقرة عدم وجود تناقض بين الآراء والتفاسير الآنفة الذكر، بل هى تعمد جميعاً إلى تفسير الحروف المقطعة بمعنى واحد.

---

(۱) يلاحظ معانى الأخبار، للشيخ الصدوق/ ۲۲ (باب: معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور من القرآن).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۳

فى الآية الثانية- كما جرى على ذلك الاسلوب القرآنى- حديث عن عظمة القرآن، وإشارة إلى أنّ هذا القرآن بكل ما ينطوى عليه من عظمة وإعجاز وتحدّ، إنّما يشتكّل فى مادته الخام من حروف الألف باء ... وهنا يكمن معنى الإعجاز. يقول تعالى: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

إنّ قدرته تعالى تجعل الأشياء الاخرى عاجزة عن الوقوف إزاءها، فقدرته ماضية فى كل شىء، وعزّته مبسوطة، أمّا علمه تعالى فهو فى أعلى درجات الكمال، بحيث يستوعب كل احتياجات الإنسان ويدفعه نحو التكامل.

و الآية التى بعدها تعدّد خمساً من صفاته تعالى، يبعث بعضها الأمل والرجاء، بينما يبعث البعض الآخر منها على الخوف والحذر. يقول تعالى: «غَافِرِ الذَّنبِ». «وَقَابِلِ التَّوْبِ». «شَدِيدِ الْعِقَابِ». «ذِى الطَّوْلِ». «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة وهو الذى يملك الجزاء فى العقاب والثواب.

مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ (۴) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (۵) وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (۶) بعد أن تعرّضت الآيات السابقة إلى نزول القرآن، وإلى بعض الصفات الإلهية التى تستهدف بعث الخوف والرجاء، ورد كلام فى الآيات التى بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة والمنازعة حيال آيات اللّه ... الآية الكريمة توضّح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير وقاطع، فتقول: «مَا يُجَادِلُ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا».

صحيح أنّ هذه المجموعة قد تملك العدّة والعدد، إلّاأنّ ذلك لن يدوم إلّالفترة، فلا تغتر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۴

وتنخدع إذاً لتحرّكهم فى البلاد وتنقّلهم فى المدن المختلفة، واستعراضهم لقوّتهم: «فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلدِ». «يجادل»: مشتقة من «جدل» وهى فى الأصل تعنى لفّ الحبل وإحكامه، ثم عمّ استخدامها فى الأبنية والحديد وما شابه، ولهذا فإنّ كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الاشخاص المتقابلين ويريد كل شخص أن يلقى حجته ويثبت كلامه ويغلب خصمه.

«تقلب»: مشتقة من «قلب» وتعنى التغيير، و «تقلّب» هنا بمعنى التصرّف فى المناطق والبلاد المختلفة للسيطرة والتسلّط عليها، وتعنى الذهاب والإياب فيها أيضاً.

إنّ هدف الآية تحذير للرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين به- فى بداية البعثة- من الذين كانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانات المالية أو القوة السياسية والاجتماعية للكفار، ويعتبرونها دليلًا على حقانيتهم أو سبباً لقوتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم فى تاريخ هذه الدنيا، وقد انكشف ضعفهم وسقطت عنهم سرابيل القوة المزعومة ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهى.

لذلك توضّح الآية التى بعدها عاقبة بعض الامم السابقة التى ضلّت الطريق وانكفأت عن جادّة الحق والصواب، فتقول فى عبارات قاطعة واضحة تحكى عاقبة قوم نوح وحالهم ومن تلاهم من أقوام وجماعات: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ».

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا ووقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات ومضامينها الربانية.

إنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كل امّة منهم لأن تمسك بنبيّها فتسجنه وتؤذيه، بل وحتى تقتله: «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ».

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضاً، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق ومحوه، وأصرّوا على إضلال الناس وصدّهم عن شريعة اللّه: «وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» (۱).

إلّا أنّ هذا الوضع لم يستمر طويلًا، ولم يبق لهم الخير دوماً، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهى: «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ».

---

(۱) «ليدحضوا»: مصدرها ثلاثى «إدحاض» وتعنى الإزالة والإبطال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۵

لكم- أيها الناس- أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم وأثناء تجوالكم ... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدوّنة على صفحات التاريخ وفى صدور أهل العلم، فانظروا واعتبروا.

الآية الأخيرة- فى المقطع الذى بين أيدينا- تشير إلى الجزاء الاخروى الذى ينتظر هؤلاء، بالإضافة إلى قسطهم من العقاب الدنيوى: «وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

إنّ المعنى الظاهرى للآية واسع، يشمل جميع الكفار والمعاندين من جميع الأقوام.

إنّ حتمية العقاب الإلهى لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمرة، والأعمال التى يقومون بها بملء إرادتهم خلافاً لرسالة اللّه.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (۷) رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹) دعاء حملة العرش للمؤمنين: يتضح من اسلوب الآيات السابقة أنّها نزلت فى فترة كان فيها المسلمون قلّة محرومة، بينما كان الأعداء فى أوج قوّتهم، بعد ذلك نزلت الآيات التى نحن بصددها لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين والصابرين، بأنّكم لستم وحدكم. فالقرآن يقول: «الَّذِى يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا».

أمّا قولهم ودعاؤهم فهو: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا». فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين ورحيم بهم: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

يوضّح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون اللّه وتسبحونه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۶

وتحمدونه، فقبلكم الملائكة المقربون وحملة العرش ومن يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ وعلا ويحمدونه. وهى من جانب آخر تحذّر الكفار وتقول لهم: إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهماً.

ومن جانب ثالث، فى الآية إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم فى هذا العالم- بالرغم من أنّكم أقلية فى محيطكم- فأعظم قوّة غيبية فى العالم وحملة العرش هم معكم ويساندونكم ويدعون لكم.

فى الآية التى تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين. يقول تعالى: «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ».

وأيضاً: «وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

لماذا؟ ل «إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

والوعد الإلهى الذى أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذى ورد مراراً على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أمّا تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو فى الواقع يكشف عن حقيقة أنّ هناك مجموعة تأتى بالدرجة الاولى، وهى تحاول أن تتبع الأوامر الإلهية بشكل كامل.

أمّا المجموعة الاخرى فهى ليست بدرجة المجموعة الاولى ولا فى مقامها، وإنّما بسبب انتسابها إلى المجموعة الاولى ومحاولتها النسبية فى اتباعها سيشملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: «وَقِهِمُ السَّيِّاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ».

ثم ينتهى الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: «وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، ويبتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهية ويدخل الجنة الخالدة، وثم يلتحق به أقرباؤه الذين يودّهم؟

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُم أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۷

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص: تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أمّا مجموعة الآيات التى بين أيدينا فهى تتحدث عن «غضب» اللَّه تعالى على الكافرين، كى يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين ومشهدين متقابلين. فى البداية تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ».

من الذى ينادى هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أنّ ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم وفضحهم، فى مقابل ما تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين والصالحين.

«المقت»: تعنى فى اللغة البغض والعداوة الشديدة. وهذه الآية تبيّن أنّ غضب اللَّه تعالى على الكافرين هو أشدّ من عداوتهم لأنفسهم.

أمّا فيم يتعلّق مقت الكفار لأنفسهم، يتمثل فى ارتكاب هؤلاء فى الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهل ثمّة عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، ويفتح على نفسه أبواب العذاب.

عندما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة وأهوالها، ويرون مشاهد الغضب الإلهى حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة ويفكّرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم ويقولون: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنَ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ».

عندما تزول حجب الغرور والغفلة، وينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الإعتراف بالذنوب.

والمقصود من «أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ» هو الموت فى نهاية العمر والموت فى نهاية البرزخ؛ أمّا المقصود من «أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنَ» فهى الإحياء فى نهاية البرزخ والإحياء فى القيامة.

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك حياة جسمانية وحياة برزخية، ففى نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية؛ لكن فى نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتتين: حياة برزخية، وحياة فى يوم القيامة.

من الطبيعى أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عمّا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۸

فاتهم هو الرفض. وهذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التى نبحثها، لكن نستطيع أن نعتبر الآية التى بعدها دليلًا على ما نقول، إذ تقول: «ذلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا». فعندما يدور الكلام عن التوحيد والتقوى والأوامر الحقّة تشمئزون وتحزنون، أمّا إذا دار الحديث عن الكفر والنفاق والشرك فستفرحون وتنبسط أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

وفى نهايـة الآيـة، ومن أجـل أن لا ييأس هؤلاء المشـركون ذوو القلوب المظلمـة، تقول الآيـة إنّ الحاكميـة تختص بـذات اللَّه سـبحانه وتعالى: «فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيّ الْكَبِيرِ». إذ لا يوجد غيره قاض وحاكم فى محكمة الآخرة، ولا يوجد غيره على وكبير، فلا يسـتطيع أحد أن يغلبه، ولا يوجد طريق للهروب من حكمه.

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١۴) رَفِيعُ الـدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١۵) ادع اللَّه وحده رغماً على الكافرين: هذه الآيات المتضمنة للنصيحة والتهديد والإنذار، استدلال على المسائل المطروحة فى الآيات السابقة، فهى استدلال على التوحيد والربوبية ونفى الشرك وعبادة الأصنام. تقول الآية أوّلًا: «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ».

ثم توضّح واحدة من هذه الآيات: «وَيُنَزّلُ لَكُم مّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا».

قطرات المطر تهب الحياة، ونور الشـمس يحيى الكائنات، والهواء سرّ الوجود والحياة؛ حياة جميع الكائنات، حيوانات، نباتات، اناس ... كلّها تنزل من السماء.

وأخيراً تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التى تسود هذا العالم الواسع، وتغمر الوجود بضيائها، إلّاأنّ العيون العمياء والقلوب المحجوبـة لاـ تكاد ترى شـيئاً، وإنّما يتـذكّر- فقط- من ينيب إلى خالقه ويغسل قلبه وروحه من الـذنوب: «وَمَا يَتَـذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٣٠٩

الآية التى بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ».

وأخلصوا نيّاتكم: «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

تصف الآية التى تليها خالق الكون ومالك الحياة والموت، وبعض الصفات المهمة، فتقول: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ».

فهو رفيع فى علمه، وفى قـدرته، وفى جميع أوصافه الكماليـة والجمالية، هو تعالى رفيع فى أوصافه بحيث إنّ عقل الإنسان برغم قابليته واستعداده لا يستطيع أن يدركها.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: «ذُو الْعَرْشِ».

فكلّ عالم الوجود تحت حكومته وفى قبضته.

وفى وصف ثالث تضيف الآية أنّه هو تعالى الذى: «يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». وهذه الروح هى نفس القرآن ومقام النبوة والوحى، حيث تحيى هذه الامور القلوب، وتكون فى الانسان كالروح لجسد الإنسان.

والملفت للنظر هنـا أنّ الآيـات السابقـة كـانت تتحـدث عن رزق الأجسـاد من مطر ونور وهواء، فيمـا تتحـدث هـذه الآيـات عن الرزق «الروحى» والمعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

والآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السلام؟

الإجابة يقدّمها القرآن فى نهاية الآية بقوله: «لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ».

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق وقادته، ورموز الباطل وزعامته وأنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم والمظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان والملائكة ...

وأخيراً، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله وأقواله فى محكمة العدل الإلهى.

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۱۷)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۰

يوم التلاقى: هذه الآيات والتى تليها، هى توضيح وتفسير (ليوم التلاق) وهو اسم ليوم القيامة. يبيّن تعالى أنّ يوم التلاقى، هو: «يَوْمَ هُم بَارِزُونَ» ... إنّه اليوم الذى تزول فيه جميع الحجب والأستار، ثم تنكشف الأسرار الباطنية والمخفية.

الوصف الثانى لذلك اليوم المهول، هوانكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى شيء منها على اللَّه تعالى: «لَايَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ».

بالطبع ... فى هذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شيء على اللَّه العالم المطلق، ولكن «البروز» فى ذلك اليوم يكون مؤكّداً أكثر بحيث إنّ الآخرين سيطّلعون على أسرار بعضهم البعض؛ أمّا بالنسبة للَّهفالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصية الثالثة ليوم التلاقى هو انبساط الحاكمية المطلقة للَّهتعالى، ويظهر ذلك من خلال نفس الآية التى تسأل عن الحكم والملك فى ذلك اليوم: «لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ».

يأتى الجواب: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

إنّ هذا السؤال وجوابه لا- يطرحان من قبل فرد معيّن، بل هو سؤال يطرحه الخالق والمخلوق، الملائكة والإنسان، المؤمن والكافر، تطرحه جميع ذرّات الوجود، وكلّهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنّك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، وأينما تدقق ترى علائم قاهريته واضحة.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ».

أجل، إنّ ظهور وبروز الاحاطة العلمية للَّهتعالى وحاكميته ومالكيته وقهاريته كلّها أدلة واضحة على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من جهة، والمفرحة من جهة اخرى.

أمّا الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهى ما يختصره قوله تعالى: «لَاظُلْمَ الْيَوْمَ».

وكيف يمكن أن يحصل الظلم، فى حين أنّ الظلم إمّا أن يكون عن جهل، واللَّه عزّ وجل قد أحاط بكل شيء علماً.

وإمّا أن يكون عن عجز، واللَّه عزّ وجل هو القاهر والمالك والحاكم على كل شيء.

الصفة السادسة والأخيرة ليوم التلاقى، هى سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وسرعة الحساب بالنسبة للَّهتعالى تجرى كلمح البصر. ورد فى الخبر: «أنّه تعالى يحاسب للخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۱

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ (۱۹) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲۰) يوم تبلغ القلوب الحناجر: هذه الآيات تستمر، كالآيات السابقة، فى وصف القيامة.

يقول تعالى: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزِفَةِ».

«الآزفة»: باللغة بمعنى (القريب). وإذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة حيال يوم القيامة، ولأنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يذكر أىّ تاريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السلام، لذا يجب الإستعداد دائماً لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثانى ليوم الآزفة هو: «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» من شدة الخوف.

الصفة الثالثة لذلك اليوم تعبّر عنها الآية ب «كَاظِمِينَ». أى إنّ الهمّ والغمّ سيشمل كل وجودهم، إلّاأنّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كـاظم»: مشـتقة من «كظم» وهى فى الأصـل تعنى غلق فوهـة القربـة المملوءة بالماء، ثم أطلقت بعـد ذلك على الأشـخاص المملوئين غضباً إلّاأنّهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

الصـفة الرابعـة ليوم التلاقى هو يوم: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ». أى صـديق، نعم إنّ تلك المجموعـة من الأصـدقاء الكـذابين التى تحيط بالشخص كذباً وتملّقاً- كما يحيط الذباب بالحلويات- طمعاً فى مقامه وقدرته وجاهه وماله.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: «وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ».

ذلك أنّ شفاعة الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء إنّما تكون بإذن اللَّه تعالى، وعلى هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون فى الحياة الدنيا أنّ أصنامهم ستشفع لهم فى حضرة اللَّه جلّ وعلا.

وفى المرحلـة السادسة تذكر الآية أحد صـفات الخالق جلّ وعلا، والتى تعتبر فى نفس الوقت وصـفاً لكيفية القيامة، حيث تقول: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ».

إنّ اللَّه تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۲

الآية التى تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل فى قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ». أمّا غيره: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَقْضُونَ بِشَىْءٍ».

فى ذلك اليوم يختص اللَّه وحده بالقضاء، وهو جلّ جلاله لا يقضى إلّابالحق.

وفى الختام وللتأكيد على المطالب المذكورة فى الآيات السابقة تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو تعالى سـميع وبصـير بمعنى الكلمة، أى إنّ كل المسموعات والمبصرات حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شىء، وقضاوته بالحق، فإنّه لو لم يكن سميعاً وبصيراً مطلقاً فلا يستطيع أن يقضى بالحق.

أ وَ لَمْ يَسِـيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَاراً فِى الْأَرْضِ فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (۲۱) ذلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيـدُ الْعِقَابِ (۲۲) اعتبروا بعاقبـة أسـلافكم الظـالمين: إنّ اسـلوب القرآن الكريم فى كثير من الآيـات أنّه بعـد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسـة والمهمـة يمزجها ببعض المسائل الجزئية والمحسوسة ويأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضيـة والحالية، لذلك فإنّ الآيات التى بين أيـدينا تتحـدث عن أحوال الامـم الظالمـة السابقـة ومنهم فرعون والفراعنـة وما حلّ بهم من جزاء أليم، وتـدعوا الناس للاعتبار بمصـير اولئك، بعـد ما كانت الآيات السابقـة قد حدّثتنا عن يوم القيامة وصـفاته وطبيعة الحساب الدقيق الذى ينطوى عليه. يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ».

إنّ الـذى تحكيه الآيات وتـدعونا للاعتبار به ليس تاريخاً مـدوّناً نسـتطيع أن نشـكّك فى طبيعـة الوثائق والنصوص المكوّنـة له، فهـذه قصور الظـالمين الخربـة، وهـا هى عظـامهم النخرة التى يطويهـا التراب، والقصور المدفونـة تحت الأرض ... هـا هى كلّها تحكى عظة الدرس، وعظيم العبرة، خصوصاً وأنّ القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۳

كانوا يملكون السلطات القوية، والجيوش العظيمة، والمدنية الباهرة التى لا يمكن مقايستها بحياة مشركى مكة.

ولكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوة وحياة ونماء، هى كما يقول تعالى: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ».

فلم تنفعهم كثرتهم ولم تمنعهم أموالهم وقدرتهم وشوكتهم من العذاب الإلهى عندما نزل بساحتهم.

الآية التى بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقاً بإيجاز. يقول تعالى: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا». فلم يكن الأمر أنّهم

كانوا غافلين ولم يعرفوا الأمر، ولم يكن كفرهم وارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترا، كما يستفاد من قوله تعالى: «كَانَت تَّأْتِيهِمْ» إلّاأنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية.

وحينئذ: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ». وعاقبتهم أشدّ العقاب: «إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ (٢٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَ قَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التى بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى وفرعون، وهامان وقارون. يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

أرسله تعالى: «إِلَى فِرْعَوْنَ وَهمنَ وَقرُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

إنّ «آيات» فى الآية التى نحن بصددها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطق موسى عليه السلام القوى وأدلته القاطعة فى مقابل الفراعنة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۴

وبذلك كانت دعوة موسى عليه السلام تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، والمخططات الشيطانية لرموز السياسة فى حاشية السلطان الظالم، وبتر تجاوزات الأثرياء المستكبرين، وبناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة فى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية.

الآية التى بعدها تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة فى مقابل دعوة النبى موسى عليه السلام: «فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ».

وما نستفيده من الآية هو أنّ قضية قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر- كاسلوب طاغوتى- على الفترة التى سبقت ولادة موسى عليه السلام فحسب، وإنّما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى عليه السلام.

ويعبّر هذا الاسلوب عن واحدة من الممارسات والخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التى تستهدف إبادة وتعطيل الصاقات الفعالة، وترك غير الفاعلين للإستفادة منهم فى خدمة النظام.

القرآن يجيب: «وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَللٍ».

لقد قضى اللَّه تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهق الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. يقول تعالى: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ».

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشاريه أو بعضهم على الأقل كانوا يعارضون قتل موسى، لخوفهم أن يطلب عليه السلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية.

وقد استدل فرعون على تصميمه فى قتل موسى عليه السلام بدليلين، الأوّل ذو طابع دينى ومعنوى، والآخر ذو طابع دنيوى ومادى، فقال فى الأوّل، كما يحكى القرآن ذلك: «إِنّى أَخَافُ أَن يُبَدّلَ دِينَكُمْ».

وفى الثانى: «أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ».

والآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السلام والذى يبدو أنّه كان حاضراً فى المجلس؟

يقول القرآن فى ذلك: «وَقَالَ مُوسَى إِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبّكُم مّن كُلّ مُتَكَبِرٍ لَّايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۵

ويستفاد من قول موسى عليه السلام أيضاً أنّ من تحلّ فيه صفتا «التكبر» و «عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيذ باللَّه من شرّه وكيده.

وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (۲۸) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (۲۹) أتقتلون رجلًا أن يقول ربّى اللَّه: مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ موسى عليه السلام وفرعون، لم تطرح فى أىّ مكان آخر من القرآن الكريم.

المرحلة التى نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذى كان من المقربين إلى فرعون، ولكنه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنّما تكتم عليه واعتبر نفسه- من موقعه فى بلاط فرعون- مكلفاً بحماية موسى عليه السلام من أىّ خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أنّ حياة موسى فى خطر بسبب غضب فرعون، بادر باسلوبه المؤثّر للقضاء على هذا المخطط. يقول تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ». أتقتلوه فى حين أنّه: «وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ».

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: «وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ».

ثم تضيف الآيات: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

فإذا كان موسى سائراً فى طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشمله الهداية الإلهية، وإذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنّما استمرّ يحاول معهم بلينٍ وحكمة، حيث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۶

قال لهم- كما يحكى ذلك القرآن-: أنّ بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها ونعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهى. «يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا». ويظهر أنّ هذا الكلام أثّر فى حاشية فرعون وبطانته، فقلّل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى .

وهو إنّى أرى من المصلحة قتل موسى ولا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثم إنّنى: «وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ».

وهذه هو حال كافة الطواغيت والجبارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره.

وَ قَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (۳۱) وَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (۳۲) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۳۳) التحذير من العاقبة: كان الشعب المصرى آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدّن والثقافة، وقد اطّلع على أقوال المؤرخين بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وثمود الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آل إليه مصيرهم. لذلك كلّه فكّر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلى أحداث التاريخ وأخذ يحذّرهم من تكرار العواقب الأليمة التى نزلت بغيرهم، عساهم أن يتيقظوا ويتجنّبوا قتل موسى عليه السلام. يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: «وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يقَوْمِ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ».

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنّنى خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التى كانت متفشّية فى الأقوام السالفة: «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ».

هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك؛ أو أنّ العقوبات الإلهية لا تشملكم؛ ترى ماذا عمل اولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفى بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإنّى أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۷

ولكن ينبغى أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم ويقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبما جنت أيديكم: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ».

ثم تضيف الآية على لسانه: «وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ». أى يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلّاأصواتكم لا تصل إلى أىّ مكان.

«التناد»: مأخوذة أصلًا من كلمة «ندا» وتعنى «المناداة» والمشهور بين المفسرين أنّ (يوم التناد) هو من أسماء يوم القيامة. يعنى (يوم مناداة البعض للبعض الآخر). وهذا المعنى يعبّر عن ضعف الإنسان وعجزه عندما تنزل به المحن وتحيطه المصاعب والملمّات، وينقطع عنه العون وأسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ ولكن بغير نتيجة.

وفى عالمنا هذا ثمّة أمثلة عديدة على «يوم التناد» مثل الأيام التى ينزل فيها العذاب الإلهى، أو الأيام التى يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدود لكثرة ما إرتكب من ذنوب وخطايا، وقد نستطيع أن نتصور صوراً اخرى عن يوم التناد فى حياتنا من خلال الحالات التى يمرّ بها الناس بالمشاكل والصعاب المختلفة حيث يصرخ الجميع عندها طالبين للحلّ والنجاة.

الآية التالية تفسّر يوم التناد بقولها: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

ومثل هؤلاء حق عليهم القول: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». إنّ هؤلاء الذين ضلّوا فى الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد والهداية وتنكّبهم عن الطريق المستقيم، سيظلّون فى الآخرة عن الجنة والرضوان والنعم الإلهية الكبرى.

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (۳۴) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵) عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح: هذا المقطع من الآيات الكريمة يستمر فى عرض كلام مؤمن آل فرعون، ومن خلال نظرة فاحصة فى سياق الآيات، يظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح كلامه فى خمسة مقاطع.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۸

المقطع الأوّل: راعى فيه مؤمن آل فرعون الإحتياط، ودعا القوم إلى الحذر من الأضرار المحتملة.

المقطع الثانى: وفيه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوة إلى التأمل بما حلّ بالأقوام السابقة.

المقطع الثالث: كامن فى الآيات القرآنية التى بين أيدينا، إذ تذكّرهم الآيات- من خلال خطاب مؤمن آل فرعون- بجزء من تأريخهم، هذا التاريخ الذى لا يبعد كثيراً عنهم، ولم تُمح بعد أواصر الإرتباط الذهنى والتاريخى فيما بينهم وبينه؛ وهذا الجزء يتمثّل فى نبوّة يوسف عليه السلام، الذى يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ». وبالدلائل الواضحة لهدايتكم ولكنّكم: «فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ».

وشككم هنا ليس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتمالها على الأدلة والعلائم الكافية، بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك والتردد فيها.

ولأجل أن تتنصلوا من المسؤولية، وتعطوا لأنفسكم الذرائع والمبررات، قلتم: «حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا».

بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهداية الإلهية بسبب أعمالكم ومواقفكم: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ».

لقد سلكتم سبيل الإسراف والتعدّى على حدود اللّه تعالى كما قمتم بالتشكيك فى كل شىء، حتى غدا ذلك كلّه سبباً لحرمانكم من اللطف الإلهى فى الهداية، فسدرتم فى وادى الضلال والغى، كى تنتظركم عاقبة هذا الطريق الغاوى.

الآية التى تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول اللّه تبارك وتعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ».

وللكشف عن قبح هذه المواقف عند اللّه وعند الذين آمنوا، تقول الآية: «كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

ذلك لأنّ الجدال بالباطل (الجدال السلبى) واتخاذ المواقف ضدّ الوقائع والآيات القائمة على أساس الدليل المنطقى، يعتبر أساساً

لضلال المجادلين وتنكّبهم عن جادة الهداية والصواب، وكذلك فى اغواء الآخرين.

فى النهاية، وبسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبِرٍ جَبَّارٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۹

إنّ العناد فى مقابل الحق يشكّل ستاراً مظلماً حول فكر الإنسان، ويسلب منه قابليته على التشخيص الهادى الصحيح.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (۳۶) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (۳۷) أريد أن أطّلع إلى إله موسى: بالرغم من النجاح الذى أحرزه مؤمن آل فرعون فى إثناء عزم فرعون عن قتل الكليم عليه السلام، إلّاأنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبّره وتعاليه إزاء الحق. يقول تعالى فى وصف هذا الموقف: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا همنُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ». أى لعلى أحصل على وسائل وتجهيزات توصلنى إلى السماوات.

«أَسْبَابَ السَّموَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَإِنّى لَأَظُنُّهُ كذِبًا».

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! «وَكَذلِكَ زُيّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ».

«الصرح»: فى الأصل تعنىالوضوح؛ و «التصريح»: بمعنى التوضيح، ثم عُمّم معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة والقصور الجميلة العالية؛ و «تباب»: تعنى الخسارة والهلاك.

فمن خلال عملية التأمّل والتمحيص، يمكن أن تنتهى إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرف. والأهداف هذه هى:

أوّلًا: أراد فرعون أن يختلق وضعاً يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوّة موسى عليه السلام وثورة بنى إسرائيل.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكى يجد هؤلاء فى هذا الشغل عزاءً- ولو مؤقتاً- عن مظالم فرعون وينسون جرائمه وظلمه، ومن ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدّى إلى إرتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالى إرتباطهم بنظامه وسياساته.

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمى سهماً نحو السماء، ويرجع إلى الناس فيقول لهم: لقد انتهى كل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۳۴۹

شيء بالنسبة لإله موسى، والآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال.

طبعاً، يمكن للخطط السياسية والمواقف المضلّلة أن تخدع الناس شطراً من الزمان، وتؤثّر فيهم لفترة من الوقت، إلّاأنّها تنتهى بالفشل على المدى البعيد.

وَ قَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (۳۸) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (۴۰) اتّبعونى أهدكم سبيل الرشاد: أشرنا آنفاً إلى أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه فى مجموعة من المقاطع، وفى هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف على المقطع الرابع بعد أن أشرنا فى الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصبّ فى مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، وقضية المعاد والحشر والنشر، إذ إنّ تركيز هذه القضايا فى حياة الناس له تأثير جذرى فى تربيتهم.

يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ».

ثم تضيف الآية: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ».

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا وبقاء الآخرة وحسب، بل الأهم من ذلك هى قضية الحساب والجزاء، حيث يقول تعالى: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

إنّ مؤمن آل فرعون- بكلامه هذا أثار أوّلًا قضية عدالة اللّه تبارك وتعالى، حيث يقاضى الإنسان بما اكتسبت يداه خيراً أو شرّاً.

و من جهة ثانية أشار فى كلامه إلى الثواب والفضل الإلهى لذوى العمل الصالح.

ومن جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان والعمل الصالح.

ورابعة يشير أيضاً إلى مساواة الرجل والمرأة فى محضر اللّه تبارك وتعالى، وفى القيم الإنسانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۱

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر فى أنّ الحياة الدنيا وإن كانت متاعاً لا يغنى شيئاً عن الحياة الاخرى، إلّاأنّه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهى والعطايا التى تصدر عن المطلق جلّ وعلا.

إنّ عبارة «مثلها» تشير إلى أنّ العقاب فى العالم الآخر يشبه نفس العمل الذى قام به الإنسان فى هذه الدنيا.

وَ يَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَ تَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَ لَا فِى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (۴۴) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (۴۵) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَ عَشِيّاً وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (۴۶) الكلام الأخير: فى خامس وآخر- مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كل ما هو ضرورى، أمّا القوم من ملإ فرعون، فكان لهم- كما سنرى ذلك- قرارهم الخطير بشأنه.

يفهم من خلال القرائن أنّ اولئك المعاندين والمغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، وإنّما قاموا بطرح «مزايا» الشرك فى مقابل كلامه، ودعوه كذلك إلى عبادة الأصنام. لذا فقد صرخ قائلًا: «وَيَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ».

نعم، إنّكم: «تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ».

لقد ذكّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۲

إنّ عبارة (العزيز) و (الغفار) تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف والرجاء) ومن جانب ثانٍ تشير إلى إلغاء الوهية الأصنام والفراعنة، حيث لا يملكون العزّة ولا العفو.

ينتقل الخطاب القرآنى- على لسان مؤمن آل فرعون- إلى قوله تعالى: «لَاجَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْأَخِرَةِ».

إنّ هذه الموجودات لا تملك الحس والشعور، إنّها أصنام لا تتكلم ولا تضر ولا تنفع، وإنّ عليكم أن تعلموا: «وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ». فهو سبحانه وتعالى الذى أرسل رسله إلى الناس لأجل هدايتهم، وهو الذى يثيبهم ويعاقبهم على أعمالهم.

ويجب أن تعلموا أيضاً: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

وهكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفى من إيمانه، وبذلك فقد انكشف هنا خطّه الإيمانى التوحيدى، وانفصل علناً عن خط الشرك الملوّث.

فى آخر كلامه- وبتهديد ذى مغزى- يقول لهم: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ».

إنّ ما قلته لكم ستذكرونه فى الدنيا والآخرة، وستعلمون صدقى عندما تصيبكم المصائب، وينزل بساحتكم الغضب الإلهى، لكن سيكون ذلك كلّه بعد فوات الأوان، فإن كان فى الآخرة فلا طريق للرجوع، وإن كان فى الدنيا فهو لا يتمّ إلّاحين يحلّ بكم العذاب الإلهى، وعندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ».

لهذا كلّه لا أخشى تهديداتكم.

اللَّه تبارك وتعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيداً وإنّما: «فَوَقَهُ اللَّهُ سَيِّاتِ مَا مَكَرُوا».

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: «وَحَاقَ بَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ».

إنّ العذاب والعقاب الإلهى أليم بمجمله، إلّاأنّ تعبير «سوء العذاب» يظهر أنّ اللَّه تبارك وتعالى انتخب لهم عذاباً أشدّ إيلاماً من غيره، وهو ما تشير إليه الآية التى بعدها، حيث قوله تعالى: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا». ثم: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۳

وهنا نلفت النظر إلى الملاحظتان الآتيتان:

أوّلًا: تقول الآية: إنّهم يعرضون على النار صباحاً ومساءً، ثم تقول: فى يوم القيامة يكون العذاب أشد ما يمكن، وهذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، وهو ممّا يلى موت الإنسان ومغادرة روحه جسده، ويقع قبل يوم القيامة، إنّ العرض على نار جهنم يهزّ الانسان ويجعله يرتعد خوفاً وهلعاً.

ثانياً: إنّ تعبير ب (الغدو) و (العشى) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب. أو قد يفيد انقطاع العذاب البرزخى ليقتصر على (الغدو) و (العشى) أى الصبح والمساء، وهو الوقت الذى يقترن فى حياة الفراعنة وأصحابهم مع أوقات لهوهم واستعراضهم لقوّتهم وجبروتهم فى حياتهم الدنيا.

وَ إِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (۴۸) وَ قَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ (۴۹) قَالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ (۵۰) نقاش الضعفاء والمستكبرين فى جهنم: لقد لفت مؤمن آل فرعون فى نهاية كلامه نظر القوم إلى القيامة والعذاب وجهنم، لذلك جاءت هذه المجموعة من الآيات الكريمة وهى تقف بشكل رائع دقيق على تحاجج وتخاصم أهل النار فيما بينهم، وبالذات تحاجج المتستضعفين مع المستكبرين. يقول تعالى: «وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ».

المراد من «الضعفاء» هنا هم اولئك الذين يفتقدون العلم الكافى والإستقلال الفكرى، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذى يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين، وكانت التبعية مجرد انقياد أعمى بلا تفكير أو وعى.

وهؤلاء الأتباع يلجأون إليهم كى يتحملوا عنهم قسطاً من العذاب؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۴

وهى نوع من السخرية والإستهزاء واللوم، يوم يثبت أنّ كل ادعاءات المستكبرين مجرد تقوّلات زائفة عارية عن المضمون والحقيقة.

إنّ المستكبرين لم يسكتوا على هذا الكلام وذكروا جواباً يدل على ضعفهم الكامل وذلّتهم فى ذلك الموقف المهول، إذ يحكى القرآن على لسانهم قولهم: «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ».

وعندما تغلق فى وجههم السبل، سبل النجاة والخلاص، يتوجّه الجميع إلى خزنة النار:

«وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ» (۱).

إنّهم يعلمون أنّ العذاب الإلهى لا- يرتفع، لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم ولو ليوم واحد كى يرتاحوا قليلًا ... إنّهم قانعون بهذا المقدار!

لكن إجابة الخزنة تأتى منطقية واضحة: «قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ».

وفى الجواب: «قَالُوا بَلَى .

فيستطرد الخزنة: «قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلل».

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (۵۱) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (۵۳) هُدًى وَ ذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (۵۵) الوعد بنصر المؤمنين: بعد أن تحدثت الآيات التى سبقتها عن مؤمن آل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآيات البينات تتحدث عن شمول الحماية والنصر الإلهى لأنبياء اللّه ورسله وللذين آمنوا فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

إنّها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآية الكريمة: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهدُ».

إنّها الحماية المؤكّدة بأنواع التأكيد، والتى لا ترتبط بقيد أو شرط، والتى يستتبعها الفوز

---

(۱) «خزنة»: جمع خازن، وتعنى الحارس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۵

والنصر، النصر فى المنطق والبيان؛ وفى الحرب والميدان؛ وفى إرسال العذاب الإلهى على القوم الظالمين، وفى الإمداد الغيبى الذى يقوى القلوب ويشدّ الأرواح ويجذبها إلى بارئها جلّ وعلا.

«أشهاد»: جمع «شاهد» أو «شهيد» وهى تعنى الذى يشهد على شىء ما. والمقصود بالأشهاد، هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضاح الكافرين وسوء عاقبة الظالمين، هو: «يَوْمَ لَايَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التى إنتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية والدعم الربانى لهم، فتتحدث عن النبى الكليم عليه السلام: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ».

إنّ هداية اللّه لموسى تنطوى على معانى واسعة، إذ تشمل مقام النبوّة والوحى، والكتاب السماوى (التوراة) والمعاجز التى وقعت على يديه عليه السلام أثناء تنفيذه لرسالات ربّه وتبليغه إيّاها.

الآية التى بعدها تضيف: «هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْببِ».

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أنّ الهداية تكون فى مطلع العمل وبدايته، أمّا التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بامور سمعها مسبقاً وآمن بها لكنّه نسيها.

وبعبارة اخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية ونور فى بداية انطلاقة الإنسان، وترافقه فى أشواط حياته تبثّ من نورها وهداها عليه.

ولكن الذى يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولوا الألباب» وأصحاب العقل، وليس الجهلة والمعاندون المتعصّبون.

الآية الأخيرة- من المقطع الذى بين أيدينا- تنطوى على وصايا وتعليمات مهمة للرسول صلى الله عليه و آله وهى فى واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرسول الكريم صلى الله عليه و آله. يقول تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتتحمل أحياناً أذاهم وتخاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۶

إنّ جميع انتصارات الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر والإستقامة، واليوم لابدّ أن نسير على خطى رسول اللَّه ونصبر كما صبر الرسول وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الاخرى من التعليمات الربانية تقول: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ».

واضح أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله معصوم لم يرتكب ذنباً ولا معصية، لكنّا قد أشرنا في غير هذا المكان إلى أنّ أمثال هذه التعابير في القرآن الكريم، والتي تشمل في خطابها الرسول الأكرم وسائر الأنبياء، إنّما تشمل ما نستطيع تسميته ب «الذنوب النسبية» لأنّ الغفلة- مثلًا- لا تليق بمقامهم، ولو للحظة واحدة، إذ إنّ منزلتهم الرفيعة ومعرفتهم العالية تستوجب أن يحذروا هذه الامور ويستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

الفقرة الأخيرة في الآية الكريمة تقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ».

«العشي»: فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس؛ أمّا «الإبكار»: فهو ما بين الطلوعين.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۵۷) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۵۹) ما يستوى الأعمى والبصير: دعت الآيات السابقة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى الصبر والإستقامة أمام المعارضين وأكاذيبهم ومخططاتهم الشيطانية، والآيات التي نحن بصددها تذكر سبب مجادلتهم للحق. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ».

«المجادلة»: تعني العناد في الكلام وإطالته بأحاديث غير منطقية، وإن كانت تشمل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۷

أحياناً في معناها الواسع الحق والباطل.

أمّا «آتاهم» فهي إشارة إلى الأدلة والبراهين التي أوحى اللَّه بها إلى أنبيائه عليهم السلام.

أمّا المقصود ب «آيات اللَّه» التي كانوا يجادلون فيها، فهي معجزات وآيات القرآن والأحاديث المختصة بالمبدأ والمعاد، حيث كانوا يعتبرونها سحراً، أو أنّها علامات الجنون، أو أساطير الأوّلين.

من ذلك يتبيّن أن ليس لهؤلاء من دليل حي ومنطقي في المجادلة سوى التعالي والغرور والتكبر عن الإنصياع إلى الحق.

ثم تضيف الآية: «مَّا هُم بِبَالِغِيهِ».

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كباراً، يفاخرون بذلك ويفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذلة والخسران.

في نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يستعيذ باللَّه من شرّ هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو- تعالى- يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، وينظر إلى مؤامراتهم وأعمالهم القبيحة وخططهم الشريرة.

إنّ قضية المعاد وعودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التي يجادل فيها الكفار، ويعاندون بها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، وإعادة طرحها وفق منطق قرآني آخر، إذ يقول تعالى: «لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

إنّ خـالق هـذه المجرّات العظيمـة ومـدبّرها يسـتطيع- بطريق أولى أن يحيى الموتى، وإلّا كيف يتّسق القول بخلقه السـماوات والأرض وعجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

لقد تضـمّنت الآية الكريمة سـبباً آخر من أسـباب المجادلة متمثلًا ب «الجهل» فى حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». والعاملان يرتبطان مع بعضهما، لأنّ أصل وأساس «الكبر» هو «الجهل» وعدم معرفة الإنسان لحدوده وقدره، ولعدم تقديره لحجم علمه ومعرفته.

الآية التى بعدها، وفى إطار مقارنة واضحة تكشف عن الفرق بين حال المتكبرين الجهلة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۸

وبين المؤمنين الواعين، حيث تقول: «وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ». إلّا أنّكم بسبب جهلكم وتكبركم: «قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ».

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، وبذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم ومعرفتهم وموقعهم، إلّاأنّ الأعمى لا يـدرك موقعه أو حجمه فى الزمـان والمكان وفى عموم الوجود المحيط به، لـذلك فهو يخطىء دائماً فى تقييم أبعاد وجوده، ويصاب بالكبر والغرور والوهم الذى يدفعه إلى ما هو قبيح وسيّء.

الآيـة الأخيرة فى المجموعـة القرآنيـة التى بين أيـدينا تتعرّض إلى وقوع القيامة وقيام الساعة حيث يقول تعالى: «إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

أمّا سـبب القول: ب «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ» فلا يعود إلى أنّ قيام القيامـة من القضايا المجهولة والمبهمة، بل ثمّة ميل فى الإنسان نحو «الحريـة» فى الاسـتفادة غير المشـروطة أو المقيـدة من ملـذّات الـدنيا وشـهواتها، بالإضافـة إلى الأمل الطويل العريض الذى يلازم الإنسان فينساق مع الحياة، ويغفل عن التفكير بالقيامة، أو الإستعداد لها.

وَ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳) ادعونى أسـتجب لكم: لقد تضمّنت الآيات السابقة ألوان الوعيد والتهديـد لغير المؤمنين من المتكبرين والمغرورين، المجموعـة التى بين أيـدينا من الآيـات الكريمـة تفيض حبّاً إلهيّاً ولطفاً، وتنبجس بالرحمة الشاملة للتائبين. يقول تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

الدعاء فى نفسه نوع من العبادة، لأنّ الآية أطلقت فى نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۹

تتضمّن الآية فى نهايتها تهديداً قويّاً للذين يستنكفون عن الدعاء، حيث يقول تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» «۱».

فى الكافى عن الإمام جعفر الصادق عليه السـلام قال: «إنّ عنـد اللَّه عزّ وجل منزلـة لا تنال إلّابمسألـة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فسل تعط يا ميسر إنّه ليس من باب يقرع إلّايوشك أن يفتح لصاحبه».

فبمـا أنّ الـدعاء وطلب الحوائـج من اللَّه تعـالى يعتبر فرعـاً لمعرفته، لـذا تتحـدث الآيـة التى تليهـا عن حقائق تؤدّى إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، وتزيد شرطاً جديداً لإجابة الدعاء، متمثلًا بالأمل فى الإجابة، بل وانتظار تنجز الحاجة وتمامها. يقول تعالى:

«اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ».

إنّ ظلمـة الليل وهـدوءه وسـكونه يعتبر- من جانب- سـبباً قهرياً لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوى ونشاطه، ومن ناحية اخرى تمحو عن الإنسان تعب النهار، وتدفعه إلى الإستقرار والرأفة لجسده وأعصابه، فى حين يعتبر النور والنهار أساس الحياة والحركة.

لذلك يضيف تعالى: «وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

ثم تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ».

إنّ طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم وترك الشكر، كما نقرأ ذلك فى الآيـة (۳۴) من سورة إبراهيم، فى قوله تعـالى: «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

الآية التى تليها تبدأ من توحيد الربوبية وتنتهى بتوحيد الخالقية والربوبية. فتقول أوّلًا:

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ». ومربيكم الذى من صفاته أنّه: «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

ولا معبود إلّااللّه: «لَّاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

فى الواقع إنّ وجود كـل هـذه النعم دليـل على الربوبيـة والتـدبير، وخالق كل شـىء عنوان لصـفة التوحيـد فى الربوبيـة، لأنّ الخالق هو المالـك والمربى. ومن المعلوم أنّ الخلق يسـتدعى الرعايـة الدائمـة لأنّ الخالقيـة لا تعنى أنّ اللّه يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لابدّ وأن يكون الفيض الإلهى مستمراً فى كل لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالقية لا تنفصل عن الربوبية.

---

(۱) «داخر»: من «دخور» وتعنى الذلة، وهذه الذلة هى عقوبة ذلك التكبر والإستعلاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۰

وتتساءل الآية فى نهايتها: كيف يسوّغ الإنسان لنفسه الإنحراف والتنكّب عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

والملاحظ أنّ «تؤفكون» صـيغة مجهول، بمعنى أنّها تحرفكم عن طريق الحق، وكأنّ المراد هو أنّ المشركين فاقدون للإرادة إلى درجة أنّهم يساقون فى هذا المسير دون أىّ نسبة من الحرية والإرادة والإختيار فى هذا المجال!

الآية الأخيرة- من مجموعة الآيات التى نبحثها- تأتى وكأنّها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: «كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

«يجحـدون»: مشـتقة من مادة «جحد» وهى فى الأصل تعنى إنكار الشـىء الموجود فى القلب والنفس. بمعنى أنّ الإنسان يقر فى نفسه وقلبه بعقيدة أو بشىء ما، وفى نفس الوقت ينفيه ويتظاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه فى نفسه ويثبته فى لسانه.

ويطلق وصف الجحود على البخلاء والذين لا يؤمّل منهم الخير ويتظاهرون بالفقر دائماً.

بعض علماء اللغة أوجز فى تفسير «جحد» و «جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ الجحود يتضمّن فى داخله نوعاً من معانى العناد فى مقابل الحق.

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۵) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِى الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۶) ذلكم اللّه ربّكم: تسـتمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بـذكر المواهب الإلهية العظيمة وشـمولها للعباد، كى تهب لهم المعرفة، وتُربّى فى نفوسـهم الأمل بالدعاء والتسليم وطلب الحوائج من اللّه تعالى.

والطريف فى الأمر هنا أنّ الآيات السابقـة كانت تتحـدث عن «النعم الزمانيـة» من ليل ونهار، بينما تتحـدث هـذه المجموعـة عن «النعم المكانية» أى الأرض المستقرة، والسقف المرفوع (السماء) حيث تقول: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۱

إنّه المكان الخالى من المعوّقات الصـعبة، متناسق فى تشـكيلته مع تكوين الإنسان الروحى والجسـدى، حيث تتوفر فى الأرض المصادر المختلفة للحياة والوسائل المتنوعة والمجانية التى يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً». أى كالسقف والقبة فوقكم.

والمقصود بالسماء هنا الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض.

ثم ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ».

لقد ذهب بعض المفسرين فى تفسير: «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» إلى معنى أوسع من الصورة والشكل الظاهرى والتكوين الداخلى، فقال: إنّ المعنى يتضمّن كل الإستعدادات والأذواق التى خلقها اللّه فى الإنسان وأودعها فيه، ففضّله بها على كثير ممن خلق.

وفى آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا والمواهب الإلهية، تتحدث الآية عن النعمة الرابعة، وهى الرزق الطيّب بقوله تعالى: «وَرَزَقَكُم مّنَ الطَّيِّبَاتِ».

«الطيبات» تشتمل على معنى وسيع جدّاً، وهى تشمل الجيّد من الطعام واللباس والزوجة والمسكن والدواب، وهى أيضاً تشمل الكلام والحديث الطيّب الزكى النافع.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية، تعود الآية للقول: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (١).

الآية التى بعدها تستمر فى إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر، فتؤكّد انحصار الحياة الواقعية باللّه تعالى وتقول: «هُوَ الْحَيُّ».

إنّ حياته عين ذاته، ولا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ وتعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت وحياتها محدودة وموقتة تسترفد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغى للإنسان الفانى المحدود المحتاج أن يرتبط فى عبادته بالحى المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية فى العبودية من خلال قوله تعالى: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

---

(١) «ذلكم»: اسم إشارة للبعيد، واستخدامها فى مثل هذه الموارد كناية على العظمة وعلوّ المقام.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۲

وعلى أساس هذه الوحدانية تتقرّر قضية اخرى يتضمّنها قوله تعالى: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينِ». ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

والتعبير القرآنى درس للعباد بأن يتوجّهوا بالشكر والحمد إلى الخالق جلّ وعلا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب متواصل النعم على عباده، خاصة نعمة الحياة والوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هى فى الواقع خلاصة لكل البحوث التوحيدية الآنفة، وجاءت لكى تقضى على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجّهاً كلامه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبّى».

ولم ينهانى ربّى عن عبادة غيره فحسب، بل: «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ أمثال هذه الصيغ والأساليب المؤثّرة يمكن أن نلمسها فى كل مكان من كتاب اللّه العزيز، فهى تجمع الليونة والأدب حتى إزاء الأعداء والخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيتأثرون بالاسلوب المذكور.

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) المراحل السبع لخلق الإنسان: تتميماً لما تحدّثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التى بين أيدينا فى إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية» والمراحل التى تطوى خلق الإنسان وتطوّره، من البدء إلى النهاية.

الآية الكريمة تتحدث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ وعلا وجزيل مواهبه ونعمه على العباد. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا

أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۳

يتّضح من سياق الآية الكريمة أنّ المرحلة الاولى أو بداية الإنسان فى مسيرة الخلق والوجود تكون من التراب، حيث خلق اللَّه أبانا الأوّل آدم عليه السلام من تراب، أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أنّ المواد الغذائية التى تشكّل قوام الإنسان ووجوده، بما فى ذلك النطفة- سواء كانت حيوانية أم نباتية- كلّها تستمد أساسها واصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هى مرحلة النطفة التى تشمل جميع البشر كأصلٍ ثانٍ فى وجودهم عدا آدم وزوجته حوّاء.

المرحلة الثالثة التى تتكامل فيها النطفة وتنمو بشكلٍ مستمر وتتحوّل إلى قطعة دم فتسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحوّل «العلقة» إلى «مضغة» أشبه ما تكون باللحم «الممضوغ» وهى مرحلة ظهور الأعضاء، ثم مرحلة الحس والحركة، والآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الاخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرابعة تتمثل فى ولادة الجنين، بينما تتمثل المرحلة الخامسة فى تكامل القوّة الجسمية التى قيل إنّها تتم فى سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنسانى أكبر قدر ممكن من نموه وتكامل قواه.

وقال البعض: إنّ الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، ومن الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآنى.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقرى إلى الوراء، فيفقد الإنسان قواه تدريجياً، فيصل إلى الشيب الذى يعتبر المحطة السادسة من محطات حياة الإنسان.

أخيراً، تنتهى حياة كل إنسان فى الأرض بالموت والإنتقال إلى العالم الآخر.

بعد كل هذه التغيّرات والتطوّرات، هل ثمّة من شك فى قدرة وعظمة مبدىء عالم الوجود، وألطاف اللَّه ومواهبه على الخلق؟!

الآية الأخيرة فى هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة اللَّه تبارك وتعالى متمثلة بقضية الحياة والموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان- بالرغم من تقدّم العلم وتطوّره- فى نطاق الامور الغامضة والمجهولة فى معرفة الإنسان وعلمه. قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۴

إنّ نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوّعاً فى عالم الوجود وكل الكائنات تنتهى بأجلٍ معيّن إلى الموت، سواء فى ذلك الكائن ذو الخليّة الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التى تعيش فى الأعماق المظلمة للمحيطات والبحار، أو الطيور التى تعانق السماء، ومن الأحياء احادية الخليّة السابحة فى امواج المحيطات إلى الأشجار التى يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإنّ لكل واحد منها حياة خاصة وشرائط معيّنة، وبهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، وبدون شك فإنّ أشكال الحياة هى أكثر أشكال الخلقة تنوّعاً وأعجبها.

وكل واحدة من هذه القضايا المعقّدة والمتنوعة لا تعتبر مشكلة وعسيرة بالنسبة إلى قدرة الخالق جلّ وعلا، حيث تتحقق بمجرد إرادته. لذلك تقول الآية فى نهايتها بياناً لهذه الحقيقة: «فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶) عاقبة المعاندين المغرورين: مرّةً اخرى تعود آيات اللَّه البينات للحديث عن الذين يجادلون فى آيات اللَّه، فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ».

إنّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلّافى

الروح الباحثة عن الحقيقة ومن ثم الإذعان لمنطقها.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عندما تقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۵

من الضروری أن نشیر أوّلًا إلی أنّ السورة التی بین أیدینا تحدّثت أکثر من مرّة عن «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ» جاء ذلک فی الآیتین (۳۵) و (۵۶) وهذه الآیة، ونستفید من القرائن أنّ المقصود ب «آیات اللّه» هیدلائل النبوّة وعلائمها علی الأکثر، بالإضافة إلی ما تحویه الکتب السماویة، وطالما تتضمّن الکتب السماویة آیات التوحید، والمسائل الخاصة بالمبدأ والمعاد، لذا فإنّ هذه القضایا مشمولة بجدال القوم وخصومتهم للحق.

وتنتهی الآیة بتهدید من خلال قوله تعالی: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». أی سوف یعلمون نتیجة أعمالهم وعاقبة أعمالهم السیئة وذلک فی وقت «إِذِ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ». أی یلقی بهم فی الماء المغلی: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» «۱».

إضافة إلی هذا العذاب الجسمانی سیعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحی والنفسی کما تشیر إلیه الآیة التالیة، حیث یقول تعالی: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». أی: أین شرکاؤکم من دون اللّه کی ینقذوکم من هذا العذاب الألیم وأمواج النار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنّکم تعبدونهم وتطیعونهم وتتخذونهم أرباباً لیشفعوا لکم، إذاً أین شفاعتهم الآن؟!

فیجیبون بخضوع یغشاهم وذلّ یعلوهم: «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا». أی اختفوا وهلکوا وابیدوا بحیث لم یبق منهم أثر.

وعندما یری هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عاراً علیهم وعلامةً تمیّزهم، فإنّهم یبدأون بالإنکار فیقولون: «بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيًا».

لقد کانت الأصنام مجرّد أوهام، لکنّا کنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابتة، لکنّها أصبحت کالسراب الذی یتصوّره العطشان ماءً، أمّا الیوم فقد ثبت لنا أنّها لم تکن سوی أسماء من غیر مسمی وألفاظ لیس لها معنی، وأنّ عبادتها لم تنفعنا بشیء سوی الضلال. لذلک فهؤلاء الیوم یواجهون الواقع الذی لا سبیل إلی إنکاره.

هناک احتمال آخر فی تفسیر الآیة، هو أنّهم سیکذبون لینقذوا أنفسهم من الفضیحة، کما نقرأ ذلک فی الآیتین (۲۳ و ۲۴) من سورة الأنعام: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا

---

(۱) «الأغلال»: جمع «غل» وتعنی الطوق حول العنق أو الرجل، وهی فی الأصل مأخوذة من کلمة «غلل» علی وزن «أجل» بمعنی الماء الذی یجری بین الأشجار.

«السلاسل»: جمع «سلسلة»؛ و «یسحبون» من کلمة «سحب» علی وزن (سهو).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۶

مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وأخیراً یقول تعالی: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ». إنّ کفرهم وعنادهم سیکون حجاباً علی قلوبهم وعقولهم، ولذلک سیترکون طریق الحق ویسلکون سبیل الباطل، فیحرمون یوم القیامة من الجنة وینتهی مصیرهم إلی النار.

وهکذا یضل اللّه الکافرین.

الآیة التی بعدها تشیر إلی علة مصائب هذه المجموعة، حیث یقول تعالی: «ذلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ».

کانوا یفرحون بمعارضة الأنبیاء وقتل المؤمنین والتضییق علی المحرومین، وکانوا یشعرون بالعظمة عند إرتکاب الذنوب ورکوب المعاصی والیوم علیهم أن یتحمّلوا ضریبة کل ذلک الفرح والغفلة والغرور من خلال هذه النیران والسلاسل والسعیر.

ولمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهى: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى على أنّ التكبر هو أساس المصائب.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِکَ الْمُبْطِلُونَ (۷۸) فاصبر ... حتى يأتيک وعد اللّه: بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين وغرورهم وتكذيبهم الآيات الإلهية والدلائل النبوية، تأتى هاتان الآيتان لمواساة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتأمرانه بالصبر والإستقامة فى مواجهة المشاكل والصعاب. يأتى الأمر أوّلًا فى قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

إنّ وعده بالنصر حق، ووعده بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما سيتحققان، فعلى أعداء الحق أن لا يظنّوا بأنّهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهى بسبب تأخّر عقابهم، لذلک تضيف الآية: «فَإِمَّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۷

إنّ مسؤوليتک هى التبليغ البليغ وإتمام الحجة على الجميع، حتى تتنوّر القلوب اليقظة ببلاغک، ولا يبقى للمعاندين عذر.

ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذى واجهه الرسل والأنبياء قبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله كى تكون فى هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلّاأنّهم استمروا فى طريقهم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِکَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْکَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ».

ورد فى الروايات والمصادر الإسلامية المختلفة أنّ عدد الأنبياء كان (۱۲۴) ألف نبى. لقد واجه كل منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين.

ومن جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، ومشركو مكة لم يشذّوا على غيرهم فى طلب المعاجز من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لذلک يخاطب اللّه تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بقوله: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم تهدّد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهى إذا كان هذا الرسول صادقاً؟

فتقول الآية: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِکَ الْمُبْطِلُونَ».

فى ذلک اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، ويخسر أهل الباطل صفقتهم.

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱) منافع الأنعام المختلفة: تعود الآيات التى بين أيدينا للحديث مرّة اخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ وعلا) ومواهبه العظيمة لبنى البشر، وتشرح جانباً منها كى تزيد من وعى الإنسان ومعرفته باللّه تعالى، ولينـدفع نحو الثناء والشكر فيزداد معرفة بخالقه. يقول تعالى: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال.

«أنعام»: جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق فى الأصل على الجمال، لكنّها توسّعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۸

إضافة لما سبق تقول الآية التى بعدها: إنّ هناک منافع اخرى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ».

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الاخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها فى تسميد الأرض وإخصاب الزرع.

ثم تضيف الآية: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ».

وهذا إشارة إلى الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلک من رغبات تنطوى عليها نفس الإنسان.

ولأنّ الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية فى نهايتها: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التى عليها، وجعل اللّه تعالى الحركة فى الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها فى حركتها و ايصال الإنسان و البضائع إلى مناطق مختلفة فى العالم.

الآية الأخيرة هى قوله تعالى: «وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ».

أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (۸۵) هذه الآيات هى آخر مجموعة من سورة غافر، ونستطيع أن نعتبرها نوعاً من الاستنتاج للبحوث السابقة. فأوّلًا تقول: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

فاولئك: «كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ».

عبارة: «ءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ» لعلّها إشارة إلى تقدّمهم الزراعى- كما جاء فى الآية (۹) من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۹

سورة الروم- أو إشارة إلى البناء العظيم للأقوام السابقين فى قلب الجبال والسهول.

ومع هذه القوّة والعظمة التى كانوا يتمتعون بها، فإنّهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهى: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

الآية التى بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء ومعاجز الرسل البيّنة، حيث يقول تعالى: «فَلَمَّا جَاءَتْهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ». أى إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات والأخبار، وصرفوا وجوههم عن الأنبياء وأدلتهم. وكان هذا الأمر سبباً لأن ينزل بهم العذاب الالهى: «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والمقصود من العلم الذى كان عندهم، هو اعتماد البشر على ما لديهم، واستعلاءهم بهذه «المعرفة» على دعوات الرسل ومعاجز الأنبياء، بل واندفع هؤلاء حتى إلى السخرية بالوحى والمعارف السماوية.

لكنّ القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء وعلوّهم وتكبرهم إزاء آيات اللّه، حينما يقول: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُو وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ».

ثم تأتى النتيجة سريعاً فى قوله تعالى: «فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا».

لماذا؟ لأنّه عند نزول «الإستئصال» تغلق أبواب التوبة.

وهذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم، بل هو: «سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ».

ففى ذلك اليوم عندما ينزل العذاب بساحتهم، سيفهم هؤلاء بأنّ رصيدهم فى الحياة الدنيا لم يكن سوى الغرور والظنون والأوهام.

وهكذا تنتهى السورة المباركة (غافر) التى بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين، ببيان نهاية هؤلاء وما آل إليه مصيرهم من العذاب والخسران.

«نهاية تفسير سورة غافر»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۱

۴۱. سورة فصلت

محتوى السورة: يمكن الحديث عن محتويات السورة من خلال الخطوط العريضة التالية:

۱- التركيز على موضوع القرآن وما يتصل به من بحوث.

۲- إثارة قضية خلق السماء والأرض، خاصة ما يتعلق ببداية العالم الذى خلق من مادة (الدخان) ثم مراحل نشوء الكرة الأرضية والجبال والنباتات والحيوانات.

۳- ثمة فى السورة إشارات إلى عاقبة الأقوام المغرورين الأشقياء من الامم السابقة، مثل قوم عاد وثمود، وهناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السلام.

۴- تتضمّن السورة تهديد المشركين وإنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة وما يتعلّق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، وتوبيخ اللَّه تبارك وتعالى لأمثال هؤلاء.

۵- تتناول السورة قسماً من أدلة البعث والقيامة وخصوصياتهما.

۶- تنتهى السورة ببحث لطيف عن آيات الآفاق والأنفس، وتعود كرّةً اخرى إلى قضية المعاد.

إنّ تسمية السورة ب «فصّلت» مشتق من الآية الثالثة فيها، وإطلاق «حم السجدة» عليها لأنّها تبدأ ب «حم» والآية (۳۷) فيها هى آية السجدة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ حم السجدة اعطى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۲

بعدد كل حرف منها عشر حسنات».

و أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن الخليل بن مرة أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة».(۱)

و طبيعى أنّ هذه السورة المباركة بكل ما تتضمّن فى مضامينها العالية من أنوار ومعارف ومواعظ إنّما تكون مؤثّرة فيما لو تحوّلت تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتتحوّل فى حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامة نحو الصراط والخلاص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، والتفكير مقدمة للعمل.

حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (۴) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (۵) عظمة القرآن: فى الدرّ المنثور عن جابر بن عبداللَّه قال: اجتمع قريش فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا:

أنت يا أبا الوليد. فأتاه فقال: يا محمّد أنت خير أم عبداللَّه؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. قال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك. أما واللَّه ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب حتى لقد طار فيهم أنّ فى قريش ساحراً وأنّ فى قريش كاهناً واللَّه ما ننتظر إلّامثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف. يا أيّها الرجل إن كان نما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا واحداً وإن كان نما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «فرغت»؟ قال: نعم. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم

---

(۱) روح المعانى ۲۴/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۳

* تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَت ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» حتى بلغ «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ

عَادٍ وَثَمُودَ» فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا- فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنّكم تكلمون به إلّاكلمته قالوا: فهل أجابك؟ قال: والذى نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنّه قال: «أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال؟ قال لا واللّه ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

نعود الآن إلى المجموعة الاولى من آيات هذه السورة المباركة، التى تطالعنا بالحروف المقطعة فى أوّلها «حم».

إنّ البعض اعتبر (حم) اسماً للسورة، أو أنّ (ح) إشارة إلى «حميد»، و (م) إشارة إلى «مجيد» وحميد ومجيد هما من أسماء اللّه العظمى.

ثم تتحدث عن عظمة القرآن فتقول: «تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ».

إنّ «الرحمة العامة» و «الرحمة الخاصة» للّه‌تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التى هى رحمة للعدو والصديق، ولها بركات خاصة للأولياء.

بعد التوضيح الاجمالى الذى أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلى حول أوصاف هذا الكتاب السماوىالعظيم، وذكرت له خمسة صفات ترسم الوجه الأصلى للقرآن: فتقول أوّلًا: إنّه كتاب ذكرت مطالبه ومواضيعه بالتفصيل كل آية فى مكانها الخاص، بحيث يلبّى احتياجات الإنسان فى كل المجالات والأدوار والعصور، فهو:

«كِتَابٌ فُصِّلَت ءَايَاتُهُ». وهو كتاب فصيح وناطق: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

وهذا الكتاب بشير للصالحين، نذير للمجرمين: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا». إلّاأنّ أكثرهم:

«فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ».

بناءً على ذلك فإنّ أوّل خصائص هذا الكتاب هو أنّه يتضمّن فى تشريعاته وتعاليمه كل ما يحتاجه الإنسان وفى جميع المستويات، ويلبّى ميوله ورغباته الروحية.

الصفة الثانية أنّه متكامل، لأنّ «قرآن» مشتق من القراءة، وهى فى الأصل بمعنى جمع أطراف وأجزاء الكلام.

الصفة الثالثة تتمثل بفصاحة القرآن وبلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقّة بليغة دون أىّ نواقص، وفى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل وجذّاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۴

الصفتان الرابعة والخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق اسلوب الإنذار والوعيد والتهديد والترغيب، فآية تقوم بتشويق الصالحين والمحسنين بحيث إنّ النفس الإنسانية تكاد تطير وتتماوج فى آفاق الملكوت والرحمة، وأحياناً تقوم آية بالتهديد والإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة وعنف المشهد. ومع ذلك فإنّ المتعصّبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، وكأنّهم لا- يسمعونها أبداً بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنّهم فى الواقع يفتقدون لروح السماع وإدراك الحقائق، ووعى محتويات النذير والوعيد القرآنى.

وهؤلاء- كمحاولة منهم لثنى الرسول صلى الله عليه و آله عن دعوته، وايغالًا منهم فى الغى وفى زرع العقبات- يتحدّثون عند رسول اللّه بعناد وعلو وغرور حيث يحكى القرآن عنهم: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ».

مادام الأمر كذلك فاتركنا وشأننا، فاعمل ما شئت فإنّنا عاكفون على عملنا: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ».

«أكنّة»: جمع «كنان» وتعنى الستار.

هكذا ... بمنتهى الوقاحة والجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

عبارة «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» محاولتهم زرع اليأس عند النبى صلى الله عليه و آله. أو قد يكون المراد نوعاً من التهديد له. والتعبير يمثّل منتهى العناد والتحدّى الأحمق للحق ولرسالاته.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكَمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكَمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸) من هم المشركون: الآيات التى بين أيدينا تستمر فى الحديث عن المشركين والكافرين، وهى فى الواقع إجابة لما صدر عنهم فى الآيات السابقة، وإزالة لأىّوهمّ قد يلصق بدعوة النبى صلى الله عليه و آله. يقول تعالى لرسوله الكريم: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».

ثم تستمر الآية: «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ».

ثم تضيف الآية محذّرة: «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۵

الآية التى تليها تقوم بتعريف المشركين، وتسلّط الضوء على جملة من صفاتهم وتختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ لَايُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

إنّ هؤلاء يعرّفون بأمرين: ترك الزكاة، وإنكار المعاد.

والمقصود من الزكاة فى الآية هو المعنى العام للإنفاق، أمّا كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالى فى سبيل اللَّه يعتبر من أوضح علامات الإيثار والحب للَّه، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان ونفسه، وبذلك فإنّ الإنفاق- وعدمه- يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان والشرك، خصوصاً فى تلك المواقف التى يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه ونفسه، كما نرى ذلك واضحاً فى بعض الأمثلة المنتشرة فى حياتنا.

بعبارة اخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذى يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ وعلا، والأمر من هذه الزاوية بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازماً لإنكار وجوبه.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه عزّ وجل فرض للفقراء فى أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهى الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سمّوا مسلمين».

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف فى الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، وتتعرّض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ». «ممنون»: مشتق من «منّ» وتعنى هنا القطع أو النقص، لذا فإنّ غير ممنون تعنى هنا غير مقطوع أو منقوص.

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۹) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (۱۰) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (۱۱) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۱۲) مراحل خلق السماوات والأرض: الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، وعلائم العظمة،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۶

وقدرة الخالق جلّ وعلا فى خلق الأرض والسماء، وبداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بمخاطبة الكافرين والمشركين. يقول تعالى: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ». وتجعلون للَّه‌تعالى شركاء ونظائر: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا».

إنّه لخطأ كبير، وكلام يفتقد إلى الدليل: «ذلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». إنّ الذى يدبّر امور هذا العالم، أليس هو خالق السماء والأرض؟ فإذا كان سبحانه وتعالى هو الخالق، فلماذا تعبدون هذه الأصنام وتجعلونها بمنزلته؟!

الآية التى تليها تشير إلى خلق الجبال والمعادن وبركات الأرض والمواد الغذائية، حيث تقول: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ». وهذه المواد الغذائية هى بمقدار حاجة المحتاجين: «سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ».

وبهذا الترتيب فإنّه تبارك وتعالى قد دبّر لكل شيء قدره وحاجته.

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان والحيوان والنبات.

ووفق هذا التفسير فإنّ اللَّه تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية وحسب، وإنّما فعل ذلك للحيوانات والنباتات أيضاً.

بعد الإنتهاء من الكلام عن خلق الأرض ومراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا». فكانت الإجابة: «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ». وفى هذه الأثناء: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ». ثم: «وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». وأخيراً: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا». نعم: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

إنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أنّ دحو وتوسيع الأرض وتفجّر العيون ونبات الأشجار والمواد الغذائية، قد تمّ جميعاً بعد خلق السماوات.

ملاحظات

تبقى أمامنا ملاحظات ينبغى أن نشير إليهم:

۱- عبارة «بَارَكَ فِيهَا» إشارة إلى المعادن والكنوز المستودعة فى باطن الأرض، وما على الأرض من أشجار وأنهار ونباتات ومصادر للماء الذى هو أساس الحياة والبركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

۲- عبارة «فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (أى خلق الجبال،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۷

خلق المصادر وبركات الأرض، خلق المواد الغذائية).

۳- جملة «هى دخان» تبيّن أنّ بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، وهذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصّلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق والعالم.

۴- قوله تعالى: «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» لا تعنى أنّ كلاماً قد جرى باللفظ، وإنّما قول الخالق وأمره هو نفسه الأمر التكوينى، وهو عين إرادته فى الخلق. أمّا التعبير ب «طوعاً أو كرهاً» فهو إشارة إلى أنّ الإرادة الإلهية الحتمية قد ارتبطت بتكوّن السماوات والأرض. والمعنى أنّه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

۵- قوله تعالى: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ» يشير إلى وجود مرحلتين فى خلق السماوات، كل مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، وكل مرحلة تتضمن مراحل اخرى، ومن المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبديل الغازات المضغوطة إلى سوائل ومواد مذابة، ثم مرحلة تبديل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

۶- إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للكثرة، بمعنى أنّ هناك سماوات كثيرة وأجرام كثيرة.

ومن المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أى إنّ عدد السماوات هى سبع بالتحديد. ومع هذا التقييد، فإنّ جميع ما نرى من كواكب ونجوم ثابتة وسيّارة هى من السماء الاولى، وبذلك يكون عالم الخلقة متشكّلًا من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية.

۷- قوله تعالى: «وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ» تدلّ على أنّ جميع النجوم زينة للسماء الاولى، وهى ليست للزينة وحسب، بل فى الليالى المعتمة تكون مصابيح للتائهين وأدلة لمن يسير فى الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۱۴) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنْصَرُونَ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۸

احذّركم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود: بعد البحث المهم الذى تضمّنته الآيات السابقة حول التوحيد ومعرفة الخالق جلّ وعلاه تنذر الآيات- التى بين أيدينا- المعارضين والمعاندين الذين تجاهلوا كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البينات، وتحذّرهم أنّ نتيجة الإعراض، نزول العذاب بهم. يقول تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». «الصاعقة»: تعنى الصوت المهيب فى السماء، ويشتمل على النار أو الموت أو العذاب.

يواصل الحديث القرآنى سياقه بالقول: «إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

إنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل والأساليب لهدايتهم، حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

لكن لنرى ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسل اللّه تعالى. يقول تعالى: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً» لإبلاغ رسالته بدلًا من إرسال الناس، والآن ومادام الأمر كذلك: «فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ». وما جئتم به لا نعتبره من اللّه.

إنّها نفس الذريعة التى ينقلها القرآن مراراً على لسان منكرى النبوات ورسالات اللّه ومكذبى الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائماً ملائكة، وكأنّما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم فى الآية (۷) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا».

إنّ قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كى يعرف مشاكل الإنسان واحتياجاته ويتفاعل مع قضاياهم، وكى يستطيع أن يكون القدوة والاسوة، لذلك يصرّح القرآن فى الآية (۹) من سورة «الأنعام» بقوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا».

بعد المجمل الذى بيّنته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن- كما هو اسلوب القرآن الكريم- إلى تفصيل ما اوجز من خبر قوم عاد وثمود فتقول: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً».

لكنّ القرآن يردّ على هؤلاء ودعواهم بالقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۹

تضيف الآية فى النهاية قوله تعالى: «وَكَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

نعم، إنّ الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرّد أن يشعر بقليل من القدرة والقوّة، وأحياناً بدافع من جهله، فيتوهم أنّه يصارع اللّه جلّ وعلا.

لكن ما أسهل أن يبدل اللّه عوامل حياته إلى موت ودمار، كما تخبرنا الآية عن مآل قوم عاد: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

إنّ هذه الريح الصرصر، وكما تصرّح بذلك آيات اخرى، كانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثم ترطمهم بها، بحيث أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية- يلاحظ الوصف فى سورة القمر الآيتين (۱۹ و ۲۰) وسورة الحاقّة الآية (۶) فما بعد.

لقد استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانية أيّام، وحطّمت كيانهم وكل وسائل عيشهم، نكالًا بما ركبوا من حماقة وعلو وغرور، ولم يبق منهم سوى أطلال تلك القصور العظيمة، وآثار تلك الحياة المرفهة.

هذا فى الدنيا، وهناك فى الآخرة: «وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَخْزَى .

إنّ العذاب الدنيوى هو فى الواقع كالشرارة فى مقابل بحر لجّى من النار فى عذاب الآخرة.

والأنكى من ذلك أن ليس هناك من ينصرهم: «وَهُمْ لَايُنصَرُونَ».

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) عاقبة قوم ثمود: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان فى قضية قوم ثمود ومصيرهم، حيث تقول: إنّ اللّه قد بعث الرسل والأنبياء لهم مع الدلائل البيّنة، إلّاأنّهم: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .

لذلك: «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وهؤلاء مجموعة تسكن «وادى القرى (منطقة بين الحجاز والشام) وقد وهبهم اللّه أراضى خصبة خضراء مغمورة، وبساتين ذات نعم كثيرة، وكانوا يبذلون الكثير من جهدهم فى الزراعة، ولقد وهبهم اللّه العمر الطويل والأجسام القوية، وكانوا مهرة فى البناء القوى المتماسك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۳۹۸

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوى، ومعه المعاجز الإلهية، إلّاأنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته وحسب، بل آذوه وأتباعه القليلين، لذلك شملهم اللّه بعقابه فى الدنيا، ولن يغنى ذلك عن عذاب الآخرة شيئاً.

القرآن يجيبنا على ذلك بقول اللّه عزّ وجل: «وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

قال بعض المفسرين: لقد آمن بالنبى صالح (۱۱۰) أشخاص من بين مجموع القوم.

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها وتقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها وعنادها؛ والمجموعتان يمكن أن تكونا نموذجاً لفئات من هذه الأمة.

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۲۳) كانت الآيات السابقة تتحدث عن الجزاء الدنيوى للكفار المغرورين والظالمين والمجرمين، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب الاخروى، وعن مراحل مختلفة من عقاب أعداء اللّه. يقول تعالى: «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ».

ولكى تتصل الصفوف ببعضها يتمّ تأخيرالصفوف الاولى حتى تلتحق بها الصفوف الاخرى: «فَهُمْ يُوزَعُونَ» «۱». وحينذاك: «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه ولا يمكن إنكار شهادتها، لأنّها كانت حاضرة فى جميع المشاهد والمواقف وناظرة لكل الأعمال، وهى إذ تتحدث فبأمر اللّه تعالى.

---

(۱) «يوزعون»: من «وزع» وهى بمعنى المنع، وعندما تستخدم للجنود أو الصفوف الاخرى، فإنّ مفهومها يعنى أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۱

إنّ قوله تعالى «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا» يبيّن أنّ المحكمة تنعقد بالقرب من النار.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، وآية استغرابهم قوله تعالى: «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا».

وفى الجواب يقولون: «قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ».

ثم تستمر الآية بقوله تعالى: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

ومرّة اخرى تضيف: «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ».

وإنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: «وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَايَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

كنتم غافلين عن أنّ اللّه يسمع ويرى، يشهد أعمالكم فى كل حال ومكان، ثم هناك عناصر الرقابة التى ترافقكم وهى معكم فى كل

مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم وآذانكم وجلودكم؟

ثم يقول تعالى: «وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَيكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

توضّح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن باللّه تعالى، ومآل ذلك إلى الهلاك والخسران.

وبعكس ذلك فإنّ حسن الظن باللّه تعالى سبب للنجاة فى الدنيا والآخرة.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (۲۵) قرناء السوء: فى أعقاب البحث السابق حيث تحدّثت الآيات الكريمة عن مصير «أعداء اللّه» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء فى الدنيا والآخرة. يقول تعالى: «فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ». ولا يمكنهم الخلاص منها لأنّها مصيرهم سواء صبروا أم لم يصبروا.

«مثوى»: من «ثوى» على وزن «هوى» وتعنى المقرّ ومحل الاستقرار.

وللتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: «وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۲

«يستعتبون»: مأخوذة فى الأصل من «العتاب» وتعنى إظهار الخشونة، ومفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه ويرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعنى الإسترضاء وطلب العفو. ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوىء لهم حسنات.

«قيضنا»: من «قيض» على وزن (فيض) وتعنى فى الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثم قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

وهذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء والرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، ويهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك والإحساس المستقل، وعندها ستكون الامور القبيحة السيئة جميلة حسنة فى نظرهم.

لقد ورد هذا المعنى بشكلٍ أوضح فى الآيتين (۳۶ و ۳۷) من سورة الزخرف فى قوله تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

وبسبب هذا الوضع تضيف الآية بأنّ الأمر الالهى صدر بعذابهم وأنّ مصيرهم هو مصير الامم السالفة: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ».

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹) الضجيج فى مقابل صوت القرآن: بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد وثمود، وتحدّثت عن جلساء السوء وقرناء الشر، تتحدث المجموعة التى بين أيدينا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۳

من الآيات البينات عن جانب من جوانب الإنحراف لمشركى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات، حيث يقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ».

هذا الاسلوب فى مواجهة تأثير الحق ونفوذه بالرغم من كونه اسلوباً قديماً، إلّاأنّه يستخدم اليوم بشكلٍ أوسع وأخطر لصرف أفكار الناس وخنق أصوات المنادين بالحق والعدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة والضوضاء والصفير.

واخرى بواسطة القصص الكاذبة والخرافية.

وثالثة بواسطة قصص الحب والعشق المثيرة للشهوات.

وقد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد وأنواع الأفلام المبتذلة والمطبوعات المنحرفة الرخيصة، والألاعيب السياسية الكاذبة والمثيرة، إنّهم يعمدون إلى الإستعانة بأى أسلوب يؤدّى إلى حرف أفكار الناس واهتماماتهم عن الحق.

الآية الاخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا».

خاصة اولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات اللَّه.

وهذا العذاب يمكن أن يشملهم فى الدنيا بأن يقتلوا على أيدى أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أو يقعوا فى أسرهم، وقد يكون فى الآخرة، أو يكون العذاب فى الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كما أنّ قوله تعالى: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» دليل على أنّه سيتمّ التأكيد على الأعمال التى كانوا يقومون بها دائماً.

وللتأكيد على قضية العذاب، يأتى قوله تعالى: «ذلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ».

وهذه النار ليست مؤقتة زائلة بل: «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ». نعم، فذلك: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا بَآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

«يجحدون»: من «جحد» إشارة إلى إنكار الحقائق مع العلم بها، وهذا من أسوأ أنواع الكفر.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذى سيشمل الكفار وهم فى الجحيم فيقول:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۴

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ». إنّ اولئك كانوا ينهونا عن سماع قول النبى وكانوا يقولون: إنّه ساحر مجنون.

والمقصود من الجن والإنس- فى الآية- هم الشياطين، والناس الذين يقومون بالغواية مثل الشياطين، وليس هما شخصان معيّنان.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲) نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين: بعد أن تحدّث القرآن الكريم عن المنكرين المعاندين الذين يصدّون عن آيات اللَّه، وأبان جزاءهم وعقوبتهم، بدأ الآن (فى الصورة المقابلة) فى الحديث عن المؤمنين الراسخين فى إيمانهم، وأشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذى يشملهم جزاء ومثوبة لهم. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا».

فلا تقلقوا من الصعوبات التى تنتظركم، ولا تحزنوا على ذنوبكم الماضية.

هناك الكثير من الذين يدّعون محبة اللَّه، إلّاأنّنا لا نرى الإستقامة واضحة فى عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودّعون الإيمان ويشركون فى عملهم.

وينبغى أن ننتبه هنا إلى أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هى ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، وتأسست قواعد وجوده النفسى على التقوى، كما أنّ الاستقامة تقوى فى الإنسان ملكة التقوى والسير فى طريق الحق والإيمان.

روى أنّ سفيان بن عبداللَّه الثقفى قال: قلت: يا رسول اللَّه! حدثنى بأمر أعتصم به. قال:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۵

«قل ربّى اللَّه ثم استقم» «۱».

فبعد البشارتين الاولى والثانية والمتمثلتين بعدم (الخوف) و (الحزن) تصف الآية المرحلة الثالثة بقوله تعالى: «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ

تُوعَدُونَ».

والبشارة الرّابعة يتضمّنها قوله تعالى: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ».

فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم فى الخير وتعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنة.

وهذا- أى البشارة الرابعة- دليل على أنّ المؤمنين من ذوى الاستقامة يسمعون هذا الكلام من الملائكة فى الدنيا عندما يكونون أحياء، إلّاأنّ ذلك لا- يكون باللسان واللفظ، بل يسمعون ذلك باذُن قلوبهم، بما يشعرون به من هدوء واستقرار وسكينة وإحساس كبير بالراحة عند المشاكل والصعاب، وتثبّت أقدامهم من السقوط والإنحراف.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ». أى: فى الجنة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه. بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ».

أمّا البشارة السابعة والأخيرة فهى أنّكم ستحلون ضيوفاً لدى البارىء عزّ وجل وفى جنته الخالدة، وستقدّم لكم كل النعم تماماً مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: «نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ».

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَ قَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣۴) وَ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣۵) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣۶) ادفع السيّئة بالحسنة: مازالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدث عن الصورة الاخرى عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول. يقول تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

---

(١) سنن ابن ماجة ٢/ ١٣١۴؛ سنن ترمذى ۴/ ٣٢.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٣۵۶

إنّ الآية الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذى القول الحسن هى: الدعوة إلى اللّه، والعمل الصالح، والتسليم حيال الحق. بعد بيان الدعوة إلى اللّه وأوصاف الدعاة إلى اللّه، شرحت الآيات اسلوب الدعوة وطريقتها، فقال تعالى: «وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ».

فى الوقت الذى لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الإفتراء والإستهزاء والسخرية والكلام البذىء وأنواع الضغوط والظلم؛ يجب أن يكون سلاحكم- أنتم الدعاة- التقوى والطهر وقول الحق واللين والرفق والمحبة.

وبالرغم من أنّ (الحسنة) و (السيّئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كل إحسان وجميل وخير وبركة، والسيئة تشمل كل انحراف وقبح وعذاب، إلّاأنّ الآية تقصد ذلك الجانب المحدّد من السيّئة والحسنة، الذى يختص بأساليب الدعوة.

ثم تضيف الآية: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ».

إدفع الباطل بالحق، والجهل والخشونة بالحلم والمداراة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح، لأنّ هذا اسلوب من همّه الانتقام، ثم إنّ هذا الاسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

وتشير الآية فى نهايتها إلى فلسفة وعمق هذا البرنامج فى تعبير قصير، فتقول: إنّ هذا التعامل سيقود إلى: «فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ».

«ولى»: هنا بمعنى الصديق؛ و «حميم»: تعنى فى الأصل الماء الحار المغلى، ويقال للأصدقاء المخلصين والمحبين للشخص «حميم» والآية تقصد هذا المعنى.

إنّ هذا الاسلوب من التعامل مع المعارضين والأعداء ليس بالأمر العادى السهل، والوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقى عميق، لذلك فإنّ الآية التى بعدها تبيّن الاسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل فى تعبير قصير ينطوى على معانى كبيرة، حيث يقول تعالى:

«وَمَا يُلَقهَا إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا».

و كذلك: «وَمَا يُلَقهَا إلَّا ذُو حَظّ عَظِيم».

إنّ هناك- بلا شك- موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، وإنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله بوصفه الاسوة والقدوة فتقول له: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«نزغ»: تعنى الدخول فى عملٍ ما لإفساده، ولهذا السبب يطلق على الوساوس

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۷

الشيطانية «نزغ»، وهذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلّا بالقوّة، وأمثال ذلك من الوساوس التى تنتهى إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: إيّاكم والسقوط فى مهاوى هذه الوساوس، ولا تلجأوا إلى القوّة إلّا فى موارد معدودة.

وأخيراً، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة باللَّه فى دائرة واسعة.

وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۳۹) السجود للَّهتعالى: تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد فى هذه السورة، فهى تختص بقضايا التوحيد والمعاد، ودلائل النبوة وعظمة القرآن، وهى فى الواقع مصداق واضح للدعوة إلى اللَّه فى مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام. تبدأ أوّلًا من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات الآفاقية: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» «۱».

فالليل وظلمته للراحة، والنهار وضوءه للحركة. أمّا الشمس فهى مصدر كل البركات المادية فى منظومتنا، فالضوء والحرارة والحركة ونزول المطر، ونمو النباتات ونضج الفواكه، وحتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين فى وجوده إلى الشمس.

القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالى المظلمة، وضوءه دليل السائرين فى دروب الصحراء، وهو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار وحدوث الجزر والمد فيه.

ولعل البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين وبعبادتهما بسبب الخيرات

---

(۱) ينبغى الإلتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة فى حال سماع الآية أو تلاوتها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۸

والبركات الآنفة الذكر، فتاهوا فى عالم الأسباب. ولذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: «لَاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». إنّ هذه الآية تستدل على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذى يتحكّم بالشمس والقمر والليل والنهار، وإنّ حاكميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلًا على وجوب عبادته.

فاللَّه تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: «فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبّكَ يُسَبّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَايَسْمُونَ» «۱».

فليس مهماً أن لا تسجد مجموعة من الجهلة والغافلين حيال جبروت اللَّه وذاته المقدسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع ملىء بالملائكة المقربين الذين يركعون ويسجدون ويسبحون له دائماً ولا يفترون أبداً.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة اللَّه ولا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم وكمالهم لا يتمّ إلّافى ظل العبودية له سبحانه وتعالى.

نعود مرّة اخرى إلى آيات التوحيد التى تعتبر الأرضية للمعاد. يقول تعالى: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ».

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التى ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار والخفايا والغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى .

نعم: «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فدلائل قدرته واضحة فى كل مكان، فكيف نشكّك بالمعاد ونعتبره محالًا؟

«خاشعة»: من «الخشوع» وتعنى فى الأصل التضرّع والتواضع الملازم للأدب؛ واستخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعاً من الكناية.

«ربت»: من «ربو» على وزن (غلو) وتعنى الزيادة والنمو، والربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأنّ المرابى يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت»: من «هز» على وزن «حظ» وتعنى التحريك الشديد.

---

(۱) «يسأمون»: من كلمة «السئامة» وتعنى التعب من الإستمرار فى العمل أو فى موضوع معيّن.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۹

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَ فَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲) محرّفو آيات الحق: المجموعة التى بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، وتضليل الناس، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَاتِنَا لَايَخْفَوْنَ عَلَيْنَا».

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس باسلوب المغالطة وباستخدام السفسطة الكلامية، ويخفوا ذلك عن الناس؛ إلّاأنّه ليس بوسعهم إخفاء ذرّة ممّا يقومون به عن اللّه تبارك وتعالى.

«يلحدون»: من «إلحاد» وهى فى الأصل من «لحد» على وزن (عهد) وتعنى الحفرة الواقعة فى جانب واحد، ولهذا السبب يطلق على الحفرة فى جانب القبر اسم «اللحد». ثم اطلقت كلمة (إلحاد) على أىّ عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، وهى لذلك تطلق لوصف الشرك وعبادة الأصنام، ويقال لمن لا يؤمن باللّه تعالى (الملحد).

والمقصود من «الإلحاد فى آيات اللّه» هو إيجاد الوساوس والتمويه فى أدلة التوحيد والمعاد التى ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «ومن آياته».

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء فى إطار مقارنة واضحة فقال تعالى: «أَفَمَن يُلقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيمَةِ».

الأشخاص الذين يحرقون ايمان الناس وعقائدهم بنيران الشبهات والتشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم إلى التوحيد والإيمان، فإنّهم سيكونون فى أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان فى هذه الدنيا؟

وعندما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ».

لكن عليكم أن تعلموا: «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۰

لكن هذا الأمر لا يعنى أنّ لهم الحرية فى أن يعملوا ما يشاؤون، أو أن يتصرّفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم لإعراضهم عن كلام الحق.

الآية التى بعدها تتحوّل من الحديث عن التوحيد والمعاد إلى القرآن والنبوّة، وتحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالذّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ».

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان وإيقاظه، وشرح وتفصيل الحقائق له بشكلٍ إجمالى عن طريق فطرته.

ثم تنطلق الآية لبيان عظمة القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ».

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلّب عليه، منطقه عظيم واستدلاله قوى، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذرية، وأحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر فى أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة اخرى مهمة حول عظمة القرآن وحيويته، فيقول تعالى: «لَّايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ».

يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه، ولا ينقض بشىء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، ولا يعارض كذلك بالإكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، ولا يمكن أن ينسخ فى المستقبل.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص فى آية أو كلمة، ولن يطاله ذلك مستقبلًا.

لأنّه: «تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

أفعال اللّه عزّ وجل لا تكون إلّاوفق الحكمة وفى غاية الكمال. لذا فهو أهل للحمد دون غيره.

مَا يُقَالُ لَکَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِکَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِکَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَکٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّکَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۱

كتاب الهداية والشفاء: قام الكفار والمشركون بمحاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتكذيبه، والتصدّى للاسلام والقرآن. والآيات السابقة كانت تحكى عن إلحادهم وكفرهم بآيات اللّه لذلك جاءت الآية الاولى من الآيات التى بين أيدينا لمواساة النبى صلى الله عليه و آله وارشاد المسلمين الذين يواجهون الأذى بأن لا محيص لهم عن الاستقامة والصبر. يقول تعالى: «مَّا يُقَالُ لَکَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِکَ».

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون والكهانة والسحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء والمرسلين.

إنّ دعوتك لدين الحق ليست جديدة، وإنّ ما تواجهه وأنت تدعو للدين الجديد ليس جديداً أيضاً، لذلك ما عليك- يا رسول اللّه- إلّاأن ترابط بقوّة وتلزم ما أنت عليه ولا تهتم بكلام هؤلاء، لأنّ اللّه معك.

يقول اللّه تبارك وتعالى فى نهاية الآية: «إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ».

فرحمته ومغفرته للمصدّقين، وعذابه للمكذبين والمعارضين.

الآية التى بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، وترد على واحدة منها، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر ويستفيد منه غير العرب؟

وهنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ».

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمى من رسول عربى؟: «ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ».

أو يقولون: كتاب أعجمى لُامّة تنطق بالعربية؟!

«أعجمى»: من «عجمة» وتعنى عدم الفصاحة والإبهام فى الكلام، وتطلق «عجم» على غير العرب لأنّ العرب لا يفهمون كلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث والكلام سواء كان عربياً أم غير عربى.

ثم يخاطب القرآن الرسول صلى الله عليه و آله بالقول: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ».

أمّا لغيرهم: «وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ». أى «ثقل» ولذلك لا يدركونه.

ثم إنّه: «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى». أى إنّهم لا يرونه بسبب عماهم، فهؤلاء كالأشخاص الذين ينادون من بعيد: «أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

الآية التالية تستمر فى مواساة رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنين معه وتقول لهم: إنّ للعناد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۲

والإنكار تاريخ طويل فى حياة النبوّات: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ». وإذ ترى أنّنا لا نعجل فى عقاب هؤلاء الأعداء المعاندين، فذلك لأنّ المصلحة تقتضى أن يكونوا أحراراً حتى تتمّ الحجة عليهم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ». أى لكان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنّ التأجيل الإلهى إنّما يتم هنا لمصلحة الناس ومن أجل المزيد من فرص الهداية والنور، وبغية إتمام الحجة عليهم، وهذه السنّة كانت نافذة فى جميع الأقوام السابقة، وهى تجرى فى قومك أيضاً.

لكنّهم لم يصدّقوا بهذه الحقيقة بعد: «وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ».

«مريب»: من «ريب» بمعنى الشك الممزوج بسوء الظن والقلق، لذلك فمعنى الآية: إنّ المشركين لا يشكّون فى كلامك وحسب، بل يزعمون وجود القرائن على بطلانه والتى تؤدّى بزعمهم إلى الريب.

فى الآية الأخيرة- من المجموعة- نقف أمام قانون عام يرتبط بأعمال الناس، وقد أكّده القرآن مراراً، وهذا القانون يكمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنين من القرآن، بينما يحرم غير المؤمنين أنفسهم من فيض النور الإلهى والهدى الربانى. يقول تعالى فى هذا القانون: «مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلمٍ لِّلْعَبِيدِ».

لذا فإنّ من لم يؤمن بهذا الكتاب والدين العظيم فسوف لن يضروا اللّه تعالى ولا يضروك، لأنّ الحسنات والسيئات تعود إلى أصحابها، وهم الذين سينالون حلاوة أعمالهم ومرارتها.

كلمة «ظلّام» والتى هى صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير- هنا وفى آيات قرآنية اخرى- إلى أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقاً للظلم الكثير، لأنّه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

وذهب بعضهم إلى أنّ اللّه تعالى له عباد كثيرون، فلو أراد أن يظلم كل واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقاً ل «ظلّام».

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۳

اللّه العالم بكل شىء: الآية الأخيرة- فى المجموعة السابقة- تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان مسؤولية أعماله خيراً كانت أم شراً، وعودة آثار أعماله على نفسه، وهى إشارة ضمنية لقضية الثواب والعقاب فى يوم القيامة.

وهنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التى تتحدث عنها؟ الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أوّلًا عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إنّ اللّه وحده يختص بعلم قيام الساعة: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ».

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة وحده من مختصات العلم الإلهى فحسب، بل يندرج معه أشياء اخرى مثل أسرار هذا العالم، وما يختص بالكائنات الظاهرة والمخفية: «وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

«أكمام»: جمع «كم» على وزن «جم» وتعنى الغلاف الذى يغطّى الفاكهة و «كم» على وزن «قُم» تعنى الجزء من الرداء الذى يغطّى اليد.

وبما أنّ أدقّ المراحل فى عالم الكائن الحى هى مرحلة النمو فى الرحم والولادة، لذلك أكّد القرآن على هاتين القضيتين، سواء فى

عالم الإنسان والحيوان، أم فى عالم النبات.

ثم يضيف السياق القرآنى: إنّ هذه المجموعة التى تنكر القيامة وتستهزىء بها، ستتعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ».

فما كنّا نقوله هو كلام باطل، كان كلاماً نابعاً من الجهل والعناد والتقليد الأعمى، واليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية.

وهؤلاء فى نفس الوقت الذى يسجلون اعترافهم السابق، فهم أيضاً لا يشاهدون أثراً للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون اللَّه من قبل: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ».

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسون خواطر تلك الأصنام والمعبودات التى كانوا يعبدونها ويسجدون لها ويذبحون لها القرابين.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: «وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ».

«محيص»: من «حيص» على وزن «حيف» وتعنى العدول والتنازل عن شيء، ولأنّ (محيص) اسم مكان، فهى تعنى هنا الملجأ والمفر.

«ظنوا»: من «ظنّ» ولها فى اللغة معنىً واسع، فهى أحياناً بمعنى اليقين، وتأتى أيضاً بمعنى الظن، وفى الآية مورد البحث جاءت بمعنى اليقين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۴

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذَا لِى وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) فى نفس الاتجاه الذى تحدثت فيه الآيات السابقة، نلتقى مع مضمون المجموعة الجديدة من الآيات التى بين أيدينا. يقول تعالى: «لَّايَسَمُ الْإِنسنُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ».

ولكنّه: «وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسٌ قَنُوطٌ».

والمقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربى بعدُ باصول التربية الإسلامية، والذى لم يتنور قلبه بالمعرفة الإلهية والإيمان باللَّه، ولم يحسّ بالمسؤولية بشكل كامل.

الآية التالية تشير إلى صفة اخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العلم والإيمان متمثلة بالغرور: «وَلَئِنْ أَذَقْنهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذَا لِى».

أى: إنّنى مستحق ولائق لمثل هذه المواهب والمقام.

تضيف الآية بعد ذلك أنّ هذا الغرور يقود الإنسان فى النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». ولنفرض أنّ هناك قيامة فإنّ حالى سيكون أحسن من هذا: «وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُو لَلْحُسْنَى .

لكنّ اللَّه يحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ». «العذاب الغليظ»: هو العذاب الشديد المتراكم.

الآية التى بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هى حالة النسيان عند النعمة والفزع والجزع عند المصيبة. يقول تعالى: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ». أمّا:

«وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ».

«نا»: من «نأى» على وزن «رأى» وتعنى الابتعاد، وعندما تقترن مع كلمة «بجانبه» فتكون كناية عن التكبر والغرور، لأنّ المتكبرين ينأون بوجوههم دون اهتمام ويبتعدون.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۵

«العريض»: مقابل الطويل، ويستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة والكثرة.

إنّ الإنسان الـذى يفتقـد الإيمان والتقوى يكون عرضـة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناسٍ للَّه، وإذا أدبرت عنه فقنوط يائس كثير الجزع.

وفى الجـانب المقابـل نرى أنّ رجـال الحق وأتبـاع الأنبيـاء والرسل لا يتغيّرون إذا أقبلت عليهم النعم، ولا يهنون أو ييأسون أو يجزعون عند إدبارها.

الآية الأخيرة تتضـمن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبيّن لهم- بوضوح- الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

إنّه نفس الاسـلوب الـذى نقرأ عنه فى محاججـة أئمـة المسـلمين لأمثـال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضـحاً فى الحادثـة التى ينقلها العلّامة الكلينى رحمه الله فى الكافى حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ عبـد الكريم بن أبى العوجـاء كـان من ملاحـدة عصـره ودهرييه، وقـد حضـر الموسم الحـج أكثر من مرّة والتقى مع الإمام الصادق عليه السـلام فى مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصـحابه عنه إلى الإسلام، ولكن ابن أبى العوجاء لم يسلم، وقد صرّح الإمام عليه السلام بأنّ سبب ذلك: «هو أعمى من ذلك لا يسلم».

والحادثة موضع الشاهد هنا، هى أنّ الإمام بصُر بابن أبى العوجاء فى الموسم فقال له:

«مـا جاء بك إلى هـذا الموضع»؟ فقال: عادة الجسـد، وسـنّة البلـد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة؟ فقال له عليه السلام: «أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم» «۱».

فـذهب يتكلم فقال له عليه السـلام: «لا جـدال فى الحج». ونفض ردائه من يده وقال: «إن يكن الأمر كما تقول وليس كما تقول نجونا ونجوت وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت».

فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت فى قلبى حزازة (ألم) فردّونى، فردّوه فمات.

---

(۱) يناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقى مع كونه منكراً للَّهلكى يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۶

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴) علائـم الحـق فى العـالم الكـبير والصـغير: الآيتـان الختاميتـان فى هـذه السورة تشـيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الاولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد. يقول تعالى:

«سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

«آيات الآفاق» تشـمل خلق الشـمس والقمر والنجوم والنظام الـدقيق الـذى يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسـرار لا تعد ولا تحصى وما فى عالم الأحياء من عجائب لا تنتهى، إنّ كل هذه الآيات هى دليل على التوحيد وعلى وجود اللَّه.

أمّا «الآيات النفسـية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحيّر الـذى يتحكّم بالمـخ وحركات القلب المنتظمة والشـرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفـة ونمو الجنين فى ظلمات الرحم. ثم أسـرار الروح العجيبـة. إنّ كل ذلك هى كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

نعود الآن إلى الآية التى تنتهى بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التى كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، فى الأوراد والزهور، وبين طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفى آفاق السماء وبواطن الأرض، وفى كل شىء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه (سبحانه وتعالى).

الآية الأخيرة فى السورة تشير إلى الأساس والسبب فى شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ».

ولأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم والمعاصى مهما

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۷

كانت. ولكنّهم يجب أن يعلموا: «أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ».

إنّ جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة فى علم اللّه، وكل ذلك يسجّل لمحكمة القيامة والحشر.

«مرية»: تعنى التردّد فى اتخاذ القرار، والبعض اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة.

والآية- فى هذا الجزء منها- ردّ على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون:

كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟

والأكثر من ذلك: من الذى يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تاريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كل ذلك بالقول: كيف يمكن للخالق المحيط بكل شىء أن لا تكون هذه الامور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إنّ دليل إحاطة علمه بكل شىء، هو تدبيره لكل هذه الامور، فكيف يجوز له أن لا يعلم بامور ما خلق ودبّر.

إنّ إحاطة الخالق جلّ وعلا بالموجودات والكائنات تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل فى ارتباط كل الكائنات والموجودات بالذات المقدسة.

وبعبارة اخرى: لا يوجد فى عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الإرتباط لحظة واحدة فلا يبقى شىء منها.

«نهاية تفسير سورة فصّلت»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۹

۴۴. سورة الشورى

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تتناول قضايا يمكن الإشارة إليها بما يلى:

۱- فى القسم الأوّل وهو أهم أقسام السورة، يشتمل البحث فيه على قضية الوحى الذى يمثل طريق ارتباط الأنبياء عليهم السلام باللّه تبارك وتعالى.

۲- ثم يشير إلى دلائل التوحيد، وآيات اللّه فى الآفاق والأنفس التى تكمّل البحث فى موضوع الوحى.

۳- فى السورة إشارات إلى قضية المعاد ومصير الكفار فى القيامة، وهو محدود قياساً إلى الأقسام الاخرى.

۴- تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية.

إنّ إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (۳۸) منها والتى تدعو المسلمين إلى المشورة فى امورهم.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ حم عسق بعثه اللّه يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدى اللّه عزّ وجل فيقول:

عبدى أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هى وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة». وعندما يدخل الجنة يرفل بأنواع النعم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۰

الإلهية التى ذكرها الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث الآنف بشكل مفصّل «۱».

حم (۱) عسق (۲) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵) مرّة اخرى تواجهنا الحروف المقطعة فى مطلع السورة، وهى هنا تنعكس بشكل مفصّل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة فى بداية سبع سور قرآنية (المؤمن، فصّلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف) ولكن فى سورة الشورى اضيف إليها مقطع «عسق».

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحى، فتقول: «كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة ومضامينها.

ومصدر الوحى واحد، وهو علم اللّه وقدرته، ومحتوى الوحى فى الاصول والخطوط العريضة واحد أيضاً بالنسبة لجميع الأنبياء والرسالات.

وضرورى أن نشير إلى أنّ الآيات التى نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات اللّه الكمالية، لكل منها دور فى قضية الوحى بشكل معيّن، ومن ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما فى هذه الآية: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فعزّته تعالى وقدرته المطلقة تقتضى سيطرته على الوحى ومحتواه العظيم. وحكمته تستوجب أن يكون الوحى الإلهى حكيماً متناسقاً مع حاجات الإنسان التكاملية فى جميع الامور والشؤون.

قوله تعالى: «لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

إنّ مالكيته تعالى لما فى السماء والأرض تستوجب ألّا يكون غريباً عن مخلوقاته وما

---

(۱) ثواب الأعمال، نقلًا عن تفسير نور الثقلين ۴/ ۵۵۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۱

يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير امورها وحاجاتها عن طريق الوحى، وهذه هى الصفة الثالثة من الصفات السبع.

أمّا «العلىّ» و «العظيم» اللذان هما رابع وخامس صفة له- سبحانه وتعالى- فى هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأىّ طاعة أو عبودية من عباده.

الآية التى بعدها تضيف: «تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ» «۱».

وذلك بسبب نزول الوحى من قبل اللّه، أو بسبب التُهم الباطلة التى كان المشركون والكفار ينسبونها إلى الذات المقدسة ويشركون الأصنام فى عبادته.

ويتّضح مما سلف أنّ للجملة معنيين:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحى، وهو فى الواقع يشبه ما جاء فى الآية (۲۱) من سورة الحشر فى قوله تعالى: «لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

الثانى: أنّ السماوات تكاد تتفطّر وتتلاشى بسبب شرك المشركين وعبادتهم للأصنام من دون اللّه، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات والموجودات وبين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ وعلا.

بقية الآية، قوله تعالى: «وَالْمَلِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ».

أمّا الرابطة بين هذا الجزء من الآية والجزء الذى سبقه، فهو- وفقاً للتفسير الأوّل- أنّ الملائكة الذين هم حملة الوحى العظيم وواسطته، يسبحون ويحمدون اللّه دائماً، يحمدونه بجميع الكمالات، وينزّهونه عن جميع النواقص، وعندما ينحرف المؤمنون أحياناً، تقوم الملائكة بنصرهم ويطلبون المغفرة لهم من اللّه تعالى.

أمّا وفق التفسير الثانى، فإنّ تسبيح الملائكة وحمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عمّا ينسب إليه من شرك، وهم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا وسلكوا طريق التوحيد ورجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

وأخيراً تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس وسابع صفة من صفات اللّه تبارك وتعالى، وتنصب حول الغفران والرحمة، وتتصل بقضية الوحى ومحتواه، وبخصوص وظائف

---

(۱) «يتفطّرن»: من كلمة «فطر» على وزن «سطر» وتعنى فى الأصل الشق الطولى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۲

المؤمنين، حيث يقول تعالى: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وبهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من الأسماء الحسنى المختصة باللّه تعالى والمرتبطة بالوحى.

وفى نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل إنّه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۸) انطلاقة من ام القرى: تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإنّ الآية الاولى فى المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين وعاقبة أمرهم، حيث يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ».

ثم تخاطب الآية رسول اللّه صلى الله عليه و آله بقوله تعالى: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

إنّ مسؤوليتك هى تبليغ الرسالة وإيصال نداء اللّه إلى جميع العباد.

يعود القرآن إلى قضية الوحى مرّةً اخرى، وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحى، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائى له، إذ يقول تعالى: «وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

و «امّ القرى» هى مكة المكرمة.

ثم تنذر الناس من يوم القيامة وهو يوم الجمع الذى يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء:

«وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَارَيْبَ فِيهِ».

وفى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: «فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ».

وبما أنّ الآية أعلاه يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآية التى بعدها تضيف: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»؛ على الهداية. إلّاأنّ الإيمان الإجبارى ليست له قيمة، وكيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معياراً للكمال الإنسانى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۳

وكما أنّ ملكة الحرية والإختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضاً سنّة إلهية لا تقبل التغيير.

تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنة والسعادة حيال أهل النار، فيقول تعالى:

«وَلكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

إنّ كلمة «ولى» تشير إلى المشرف الذى يقوم بالحماية والمساعدة بحكم ولايته ودون أىّ طلب. أمّا «النصير» فالذى يقوم بنصر الإنسان ومساعدته بعد أن يطلب العون.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۲)

الولى المطلق: أوضحت الآيات السابقة أن لا ولىّ ولا نصير سوى اللَّه، والآيات التى بين أيدينا تعطى أدلة على هذه القضية، وتنفى الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.

تقول الآية باسلوب التعجب والإنكار: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ». إلّاأنّه: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ». فلو أراد هؤلاء أن يختاروا ولياً، فعليهم أن يختاروا اللَّه.

ثم تذكر دليلًا آخر فتقول: «وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى .

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد والبعث بيده، وأنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعدالموت.

ثم تذكر دليلًا ثالثاً فتقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وهذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسى للولى هو امتلاكه للقدرة الحقيقية.

الآية التى بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». فهو الوحيد الذى يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولى إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب.

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية باللَّه، تقول الآيات على لسان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۴

النبى صلى الله عليه و آله: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى». فهو الذى يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب:

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». أى: أعود إليه فى المشكلات والشدائد والزلات. الآية التى تليها يمكن أن تكون دليلًا خامساً على ولاية اللَّه المطلقة، أو دليلًا على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: «فَاطِرُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وتعنى فى الأصل فتق شىء ما، وكأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج الموجودات منه.

والمقصود بالسماوات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: «جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ».

إنّ الزواج يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

الصفة الثالثة التى تذكرها الآية هو قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية فى معرفة صفات اللَّه الاخرى، وبدونها لا يمكن التوصّل إلى أىّ صفة من صفات اللَّه، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين فى طريق معرفة اللَّه يتمثل فى «التشبيه» حيث يشبّهون الخالق جلّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدّى للسقوط فى وادى الشرك.

إنّ وجود اللَّه تعالى ليس له نهاية ولا يحدّ بحدّ، وكل شىء غيره له نهاية وحدّ من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل ...؛ وفى كل شىء.

وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

تشير نهاية الآية إلى صفات اخرى من صفات اللَّه: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

هو الخالق والمدبّر، والسميع والبصير، وفى نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير أو مثيل.

الآية التى بعدها تتحدث عن ثلاثة أقسام اخرى من صفات الفعل والذات حيث توضّح كل واحدة منها قضية الولاية والربوبية فى بعدٍ خاص. يقول تعالى: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغى أن يطلبه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۵

منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» «۱».

«مقاليد»: جمع «مقليد» وتعنى المفتاح، وهى تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كل شىء.

وفى الصفة الاخرى، والتى هى فى الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: «يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض، فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته، ويقسّمها وفقاً لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الاخرى، لذا تضيف الآية فى آخر صفة قوله تعالى: «إِنَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

وبذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التى بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات اللَّه الكمالية سواء الذاتية منها أم الفعلية.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴) الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء: بما أنّ العديد من بحوث هذه السورة تتعلّق بالمشركين، وأنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضاً، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تبيّن هذه الحقيقة، وهى أنّ دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة. تقول الآية: «شَرَعَ لَكُم مّنَ الدّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا». والذى هو أوّل نبىّ من أولى العزم.

---

(۱) سورة المنافقون/ ۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۶

وأيضاً: «وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى .

وبهذا الشكل فما كان موجوداً فى شرائع جميع الأنبياء موجود فى شريعتك أيضاً.

لذا، وكتعليمات عامّة لجميع الأنبياء العظام، تقول الآية فى الجملة الاخرى: «أَنْ أَقِيمُوا الدّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ». وبعد ذلك تقول: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ».

فلقد تطبّع هؤلاء على الشرك وعبادة الأصنام بسبب الجهل والتعصّب لسنين طويلة، وعشعش ذلك فى أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم وتوحشهم.

وكما أنّ انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضاً: «اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ».

لقد أشارت هذه الآية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبياء اولوا العزم، أى أصحاب الدين والشرائع، وفى الحقيقة فإنّ الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

وبما أنّ أحد أركان دعوة الأنبياء من اولى العزم هو عدم التفرّق فى الدين، فقد كانوا يدعون لذلک حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كل هذه الاختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الاخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنّه:

«وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

وبهذا الترتيب فإنّ أساس التفرّق فى الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغى والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية.

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و «الحاقدون من الناس والمتعصبون» إتحدوا معاً لزرع هذه الاختلافات.

وتعتبر هذه الآية ردّاً واضحاً على الذين يقولون بأنّ الدين أوجد الاختلاف بين البشر، وأدّى إلى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ».

حيث يهلک أتباع الباطل وينصر أتباع الحق.

فالدنيا هى محل الاختبار والتربية والتكامل، ولا يحصل هذا بدون حرية العمل، وهذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۷

هو الأمر التكوينى الإلهى الذى كان موجوداً منذ بدء خلق الإنسان ولا يقبل التغيير، إنّ هذه هى طبيعة الحياة الدنيوية، ولكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أنّ جميع هذه الاختلافات ستنتهى وسوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة.

أمّا آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أى الذين لم يدركوا عصر الرسل، حيث تقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ».

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵) فاستقم كما امرت: بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن تفرّق الامم بسبب البغى والظلم والانحراف، لذا فإنّ الآية التى نبحثها تأمر النبى بمحاولة حلّ الاختلافات وإعادة الحياة إلى دين الأنبياء، وأن يبذل منتهى الاستقامة فى هذا الطريق، فتقول: «فَلِذلِكَ فَادْعُ». أى:

ادعوهم إلى الدين الإلهى الواحد وامنع الإختلافات.

ثم تأمره بالإستقامة فى هذا الطريق، فتقول: «وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ».

ولعلّ جملة «كما امرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الإستقامة، أو إلى أنّ الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية والكيفية والزمن والخصوصيات الاخرى مطابقة للقانون الإلهى.

وبما أنّ أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة فى هذا الطريق، لذا تقول الآية فى ثالث أمر لها: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، لأنّ كل مجموعة ستدعوک إلى أهوائها ومصالحها الشخصية، تلک الدعوة التى يكون مصيرها الفرقة والاختلاف والنفاق.

وبما أنّ لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإنّ نقطة البداية هى شخص الرسول صلى الله عليه و آله، حيث تقول الآية فى رابع أمر لها: «وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ».

وبما أنّ رعاية (أصل العدالة) ضرورى لإيجاد الوحدة، لذا فإنّ الآية تطرح ذلک فى خامس أمر لها فتقول: «وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ».

سواء فى القضاء والحكم، أو فى الحقوق الإجتماعية والقضايا الاخرى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۸

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقوام والتى تتلخص بخمس فقرات، حيث تقول: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ». وكل واحد مسؤول عن أعماله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ». «لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ».

إضافة إلى ذلک فإنّنا جميعاً سوف نجتمع فى مكان واحد: «اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا».

والذى سوف يقضى بيننا فى ذلك اليوم هو الأحد الذى: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

وعلى هـذا الأسـاس فإنّ إلهنا واحـد، ونهايتنا سـتكون فى مكان واحـد، والقاضـىالذى إليه المصـير واحـد، وبالرغم من كل هـذا فإنّنا مسؤولون جميعاً حيال أعمالنا، وليس هناك فرق لإنسان على آخر إلّابالإيمان والعمل الصالح.

وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (۱۸) الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبى صلى الله عليه و آله، كـاحترامه لمحتوى الكتب السـماوية، وتطبيق العدالـة بين جميع النـاس وترك أىّ محاجـة أو خصومـة بينه وبينهم، أمّا الآيـات التى نبحثهـا، فلكى تكمِّل البحث السابق وتثبت أنّ حقانيـة نبى الخـاتم لا- تحتـاج إلى دليـل، تقول: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ».

وبما أنّ نقاشهم ومحاجتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد والإصرار تقول الآية:

«وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ». «وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

والمقصـود من جملـة «مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ» هـو اسـتجابة عامـة النـاس من ذوى القلوب الطـاهرة، والـذين ليست لهم نوايـا خبيثـة، ويستسـلمون للحق ويخضـعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية ومشاهدة محتوى الوحى والمعاجز المختلفة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۹

ثم يشير القرآن إلى أحـد أدلة التوحيد وقدرة الخالق، وفى نفس الوقت يتضـمّن إثبات النبوّة حيال المتحاججين ذوى المنطق الواهى، حيث تقول الآية: «اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ».

«الحق» كلمـة جامعـة تشـمل المعارف والعقائد الحقة، والأخبار الصـحيحة والبرامج المتطابقة مع الحاجة الفطرية والاجتماعية، وما شابه ذلك.

وأمّـا «الميزان» فله معنى عـام فى مثـل هـذه الموارد، بـالرغم من أنّ معناه اللغوى هو وسـيلة لقياس الوزن، إلّاأنّه فى معناه الكنائى يطلق على أىّ معيار للقياس الصـحيح، وحتى شـخص الرسول صـلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام، حيث أنّ وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل وميزان يوم القيامة، والميزان فى القيامة يراد به هذا المعنى.

بناءً على هذا فإنّ الخالق أنزل كتاباً على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بحيث يعتبر هو الحق، والميزان للتقييم.

وبما أنّ نتيجة كل هذه الامور، خاصة ظهور الحق بشكل كامل وتحقق العدالة وإقامة الميزان تتّضح فى يوم القيامة، لذا فإنّ الآية تقول فى نهايتها: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ».

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار والمؤمنين حيال القيامة، فتقول الآية: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِهَا».

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشقهم للقيامة والوصول إلى لقاء المحبوب، أبداً، إنّ كلامهم هذا من قبيل الاستهزاء والإنكار.

«وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ».

ومن هنا يتّضـح مدى التأثير التربوى العميق للإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهى الكبيرة على المؤمنين خاصة وفى احتمالهم حصول هذا الأمر فى أيّة لحظة من اللحظات.

وكإعلان عام، تقول الآيـة فى نهايتها: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَللٍ بَعِيدٍ». لأنّ نظام هـذا العالم يعتبر- بحـدّ ذاته- دليلًا على أنّه مقدمة لعالم آخر وبدونه سيكون خلق هذا العالم عبثاً وليس له أىّ معنى، وهذا لا يتناسب مع حكمة الخالق ولا مع عدالته.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۱۹) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ نَصِیبٍ (۲۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۰

بما أنّ الآیات السابقة کانت تتحدث عن العذاب الإلهی الشدید وعن طلب منکری المعاد للتعجیل بقیام القیامة، لذا فإنّ أوّل آیة نبحثها هنا تقرن «الغضب» الالهی مع «اللطف» الالهی فی معرض ردّها علی استعجال منکری المعاد: «اللَّهُ لَطِیفٌ بِعِبَادِهِ».

ثم تطرح الآیة أحد مظاهر لطفه العام وهو الرزق، فتقول: «یَرْزُقُ مَن یَشَاءُ». وهذا لا یعنی أنّ هناک جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط فی الرزق لمن یشاء.

ونقرأ فی الآیة (۲۷) من هذه السورة: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ».

وواضح أنّ (الرزق) هنا یشمل الرزق المعنوی والمادی، الجسمانی والروحانی.

وتقول الآیة فی نهایتها: «وَهُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ».

وعندما یعداللَّه تعالی عباده بالرزق واللطف فهو قادر علی إنجاز هذا الأمر، ولهذا السبب لا یوجد أیّ تخلّف فی وعوده أبداً.

الآیة التی بعدها شبّهت أفراد العالم حیال رزق الخالق وکیفیة الاستفادة منه بالمزارعین الذین یقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة والقسم الآخر للدنیا، وتحدد عاقبة کل قسم منهم وفق تشبیه لطیف حیث تقول: «مَن کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَمَن کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِی الْأَخِرَةِ مِن نَّصِیبٍ».

وعلی هذا الأساس فلا طلّاب الدنیا یصلون إلی ما یریدون، ولا طلّاب الآخرة یحرمون من الدنیا.

أَمْ لَهُمْ شُرَکَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّینِ مَا لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لَا کَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (۲۱) تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا یَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ (۲۲) ذٰلِکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: ورد فی سبب نزول الآیات (۲۳- ۲۶) من هذه السورة، أنّه ذکر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۱

أبو حمزة الثمالی فی تفسیره: حدّثنی عثمان بن عمیر عن سعید بن جبیر عن عبداللَّه بن عباس:

أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حین قدم المدینة واستحکم الإسلام قالت الأنصار فیما بینها: نأتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فنقول له: إن تَعرُک امور فهذه أموالنا تحکم فیها غیر حرج ولا محظور علیک. فأتوه فی ذلک فنزلت: «قُلْ لَاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی . فقرأها علیهم وقال:

«تودّون قرابتی من بعدی». فخرجوا من عنده مسلّمین لقوله. فقال المنافقون: إنّ هذا الشیء افتراه فی مجلسه أراد بذلک أن یذلّلنا لقرابته من بعده. فنزلت: «أَمْ یَقُولُونَ افْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِبًا». فأرسل إلیهم فتلاها علیهم فبکوا واشتدّ علیهم فأنزل اللَّه: «وَهُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» الآیة. فأرسل فی أثرهم فبشّرهم وقال: «وَیَسْتَجِیبُ الَّذِینَ ءَامَنُوا» وهم الذین سلّموا لقوله.

التّفسیر

أجر الرسالة فی مودّة أهل البیت علیهم السلام: بما أنّ الآیة (۱۳) من هذه السورة کانت تتحدث عن تشریع الدین من قبل الخالق بواسطة الأنبیاء اولی العزم، لذا فإنّ أوّل آیة فی هذا البحث- کاستمرار للموضوع- تقول فی مجال نفی تشریع الآخرین، وأنّ جمیع القوانین لیست معتبرة قبال القانون الإلهی، وأنّ التقنین یختص بالخالق: «أَمْ لَهُمْ شُرَکَؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدّینِ مَا لَمْ یَأْذَن بِهِ اللَّهُ».

وبعد ذلک یقوم القرآن بتهدید المشرّعین بالباطل، حیث تقول الآیة: «وَلَوْلَا کَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ» حیث یصدر الأمر بعذابهم.

وفی نفس الوقت یجب علیهم أن لاینسوا هذه الحقیقةوهی: «وَإِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

المقصود من (کلمة الفصل) هی المدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، کی تکون لهم حریة العمل وتتم الحجة علیهم.

کما أنّ عبارة (ظالمین) تتحدث عن المشرکین الذین لهم عقائد منحرفة قبال القوانین الإلهیة وذلک بسبب اتساع مفهوم الظلم، وإطلاقه علی أیّ عمل لیس فی مورده.

ویظهر أنّ المقصود من (العذاب الألیم) هو عذاب یوم القیامة.

ثم تذکر الآیة بیاناً مجملًا حول (عذاب الظالمین) ثم بیاناً مفصّلًا عن (جزاء المؤمنین)، فتقول: «تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۲

«روضات»: جمع (روضة) وتعنی المکان الذی یشتمل علی الماء والشجر الکثیر، لذا فإنّ کلمة (روضة) تطلق علی البساتین الخضراء، ونستفید من هذه العبارة بشکل واضح أنّ بساتین الجنة متفاوتة، والمؤمنون من ذوی الأعمال الصالحة فی أفضل بساتین الجنة.

إلّا أنّ الفضل الإلهی بخصوص المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة لا ینتهی هنا، فسوف یشملهم اللطف الإلهی بحیث: «لَهُم مَّا یَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ».

وبهذا الترتیب لا یوجد أیّ قیاس بین (العمل) و (الجزاء)، بل إنّ جزاءهم غیر محدود من جمیع الجهات.

والأجمل من ذلک عبارة «عِندَ رَبِّهِمْ» حیث توضّح اللطف الإلهی اللامتناهی بشأنهم، وهل هناک فوز أکبر من أن یصلوا إلی قرب مقام الخالق.

ولیس غریباً أن تقول الآیة فی نهایتها: «ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ».

ولبیان عظمة هذا الجزاء تقول الآیة التی بعدها: «ذلِکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

یبشرهم حتی لا تَصعُب عندهم آلام الطاعة والعبودیة ومجاهدة هوی النفس والجهاد حیال أعداء اللّه.

وقد یتوهم أنّ نبی الخاتم صلی الله علیه و آله یرید جزاءً وأجراً علی إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن یأمر الرسول بعد هذا الکلام لیقول: «قُلْ لَّاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی . أی حبّ أهل بیتی.

ومودّة ذوی القربی ومحبّتهم ترتبط بقضیة الولایة وقبول قیادة الأئمة المعصومین علیهم السلام من آل الرسول حیث تعتبر فی الحقیقة استمراراً لقیادة النبی واستمراراً للولایة الإلهیة، وجلیّ أنّ قبول هذه الولایة والقیادة کقبول نبوّة النبی صلی الله علیه و آله ستکون سبباً لسعادة البشریة نفسها وستعود نتائجها إلیها.

فی تفسیر القرطبی: فی روایة سعید بن جبیر عن ابن عباس: لمّا أنزل اللّه عزّ وجل: «قُلْ لَّا أَسْئَلُکُم عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی قالوا: یا رسول اللّه! من هؤلاء الذین نودهم؟

قال: «علی وفاطمة وأبناؤهما».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۳

ومن الضروری الإشارة إلی هذه الملاحظة، وهی أنّه ورد فی آخر الآیة: «وَمَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ».

وهل هناک حسنة أفضل من أن یکون الإنسان دائماً تحت رایة القادة الإلهیین، یحبّهم بقلبه، ویستمر علی خطهم، یطلب منهم التوضیح للقضایا المبهمة فی کلام الخالق، یعتبرهم القدوة والأسوة وسیرتهم وعملهم هو المعیار.

«اقترف» مأخوذة فی الأصل من (قرف) علی وزن (حرف) وتعنی قطع القشرة الإضافیة من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حیث تکون أحیاناً علامة علی شفاء الجرح وتحسنه، هذه الکلمة استخدمت فیما بعد فی الإکتساب سواء کان حسناً أو سیئاً.

والطريف فى الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و (السدّى) أنّ المقصود من (اقتراف الحسنة) فى الآية الشريفة هو مودة آل محمّد.

وجاء فى حديث عن الإمام الحسن بن على عليه السلام: «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

وواضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أنّ معنى اكتساب الحسنة لايتحدد بمودّة أهل‌البيت عليهم السلام، بل له معنى أوسع و أشمل ولكن بما أنّ هذه الجملة وردت بعد قضية مودّة ذى القربى لذا فإنّ أوضح مصداق لإكتساب الحسنة هو هذه المودّة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (۲۶) هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقة فى موضوع الرسالة وأجرها، ومودّة ذوى القربى وأهل البيت عليهم السلام. فأوّل آية تقول: إنّ هؤلاء القوم لا يقبلون الوحى الإلهى، بل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وهذا الإعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

فى حين: «فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» ويجرّدك من قابلية إظهار هذه الآيات.

وفى الحقيقة، فإنّ هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقى‌المعروف، وهو أنّه إذا ادعى شخص النبوّة، وجاء بالآيات البينات والمعاجز، وشمله النصر الإلهى، فلو كذب على الخالق فإنّ الحكمة الإلهية تقتضى سحب المعاجز منه وفضحه وعدم حمايته.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۴

فهذه هى مسؤولية الخالق فى توضيح الحق وفضح الباطل وفقاً لحكمته، وإلّا فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه وفى نفس الوقت ينصره ويظهر على يديه المعاجز؟

كما أنّ من الاخطاء الكبيرة أن يتصور بعض المشركين قيام الرسول صلى الله عليه و آله بهذا العمل مخفياً ذلك عن علم الخالق: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وبما أنّ الخالق يبقى طريق الرجعة مفتوحاً أمام العباد، لذا فإنّ الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين والمذنبين القبيحة تشير إلى أنّ الابواب التوبة مفتوحة دائماً، ولذا تقول الآية محل البحث: «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ».

إلّا أنّكم إذا تظاهرتم بالتوبة وأخفيتم أعمالًا اخرى، فلا تتصوروا أنّ ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنّه: «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

أمّا آخر آية فتوضّح الجزاء العظيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين فى جمل قصيرة فتقول: إنّ اللَّه تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين وطلباتهم: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». بل: «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ». وسوف يعطيهم ما لم يطلبوا: «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ». هذه السورة (سورة الشّورى) من السور المكية إلّاأنّ بعض المفسرين يعتقدون أنّ هذه الآيات الأربع (۲۳- ۲۶) نزلت فى المدينة، وسبب النزول الذى ذكرناه فى بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

وأيضاً فإنّ الروايات التى تفسّر أهل البيت بعلىّ وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام تناسب هذا المعنى، لأنّنا نعلم أنّ زواج على من سيدة النساء عليهما السلام تمّ فى المدينة، وولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانتا فى العام الثالث والرابع الهجرى على ما رواه المؤرخون.

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۳۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۵

سبب النّزول

فی تفسیر القرطبی: قال خباب بن الأرت: أنّ الآیـهٔ «وَلَوْ بَسَطَ ...» فینا نزلت، نظرنا إلی أموال بنی النضیر وقریظهٔ وبنی قینقاع فتمنیناها فنزلت.

التّفسیر

ورد فی آخر آیـهٔ من الآیات السابقـهٔ من أنّ الخالق یستجیب دعوهٔ المؤمنین، وفی أعقاب ذلک یطرح هـذا السؤال: لماذا نری البعض منهم فقراء، ولا ینالون ما یرغبونه مهما یدعون؟

تقول الآیهٔ: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ وَلکِن یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا یَشَاءُ».

وبهذا الترتیب فإنّ تقسیم الأرزاق یقوم علی حساب دقیق من قبل الخالق تجاه عباده، وهذا یحدث بسبب: «إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ».

فهو یعلم بمقدار استیعاب أیّ شخص فیعطیه الرزق وفقاً لمصلحته، فلا یعطیه کثیراً لیطغی، ولا قلیلًا فیعیش الضنک من الفقر.

صحیـح أنّ الخالق ینزل الرزق بقـدر حتی لا یطغی العباد، إلّاأنّه لا یمنعهم أو یحرمهم، لذا فإنّ الآیهٔ التی بعدها تقول: «وَهُوَ الَّذِی یُنَزِّلُ الْغَیْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَیَنشُرُ رَحْمَتَهُ».

ولماذا لا یکون هذا: «وَهُوَ الْوَلِیُّ الْحَمِیدُ».

هـذه الآیـهٔ تتحـدث عن آیات وعلائم التوحیـد فی نفس الوقت الـذی تبیّن فیه نعمهٔ ولطف الخالق، لأنّ نزول المطر یشتمل علی نظام دقیق للغایهٔ ومحسوب.

ولهـذه المناسبـهٔ- أیضـاً- فـإنّ الآیـهٔ التی بعـدها تتحـدث عن أهم آیـات علم وقـدرهٔ الخـالق، حیث تقول: «وَمِن ءَایَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِیهِمَا مِّن دَابَّهٍٔ».

وتقول الآیهٔ فی نهایتها: «وَهُوَ عَلَی جَمْعِهِمْ إِذَا یَشَاءُ قَدِیرٌ».

والمقصود من جمع الأحیاء الذی تذکره هذه الآیهٔ، فقد ذکر العدید من المفسّرین أنّه الجمع للحساب وجزاء الأعمال فی القیامهٔ.

ویحتمـل فی تفسیر الآیـهٔ أعلاه أنّ المقصود من (الجمع) الجانب المقابل ل (بث)، أی أنّ (بث) تشیر إلی خلق أنواع الکائنات الحیهٔ باختلافها، ثم إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها.

فکما أنّ العدیـد من الأحیاء- (علی مـدی التاریـخ)- انتشـرت بشـکل عجیب، ثم انقرضت واختفت فیما بعـد، کذلک جمعها وإبادتها یکون بید الخالق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۶

وبمـا أنّ الآیـات السابقـهٔ کانت تتحـدث عن الرحمـهٔ الإلهیـهٔ، لـذا یُطرح سؤال فی هـذا المجال، وهو کیف تجتمع الرحمـهٔ وکل هـذه المصائب التی تصیبنا.

الآیهٔ الاخری تجیب علی هذا السؤال وتقول: «وَمَا أَصَابَکُم مِّن مُّصِیبَهٍٔ فَبِمَا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ».

ثم إنّ هذا الجزاء لیس جزاءً علی جمیع أعمالکم القبیحهٔ، لأنّه «وَیَعْفُوا عَن کَثِیرٍ».

تبیّن هذه الآیهٔ وبوضوح أنّ فلسفهٔ الحوادث المؤلمهٔ والمشاکل الحیاتیهٔ التی تصیب الإنسان هی نوع من التحذیر والعقاب الإلهی.

فی جـامع الأخبـار عن الإمـام علی بن أبی طالب علیه السـلام قال: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبیاء درجـهٔ، وللأولیاء کرامهٔ».

علی أیّهٔ حال، فقد یتصوّر البعض أنّهم یستطیعون الهروب من هذا القانون الإلهی الحتمی، لذا فإنّ آخر آیهٔ فی هذا البحث تقول: «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ» «۱».

وفى السماء بطريق أولى وكيف تستطيعون الهروب من قدرته وحاكميته فى حين أنّ كل عالم الوجود هو فى قبضته ولا منازع له. وإذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم وينصركم، فاعلموا: «وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ».

وفى الحقيقة فإنّ آخر آية تجسّد ضعف وعجز الإنسان، والآية التى قبلها عدالة الخالق ورحمته.

وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۳) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (۳۴) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۵) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۳۶)

---

(۱) «معجزين»: من كلمة «إعجاز»، إلّاأنّها وردت فى العديد من الآيات القرآنية بمعنى الهروب من محيط القدرة الإلهية ومن عذابه، حيث يقتضى معناها ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۷

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن: مرّة اخرى نشاهد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلة التوحيد، وتستمر فى البحث الذى أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص، وهنا تذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً فى حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكّان السواحل، حيث تقول الآية: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ».

«جوار»: جمع «جارية» وهى صفة للسفن حيث لم تذكر للإختصار، وعادةً فإنّ الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

«أعلام»: جمع «علم» تعنى الجبل، إلّاأنّها فى الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقى الذى يخبر عن شىء معيّن، مثل (علم الطريق) و (علم الجيش) وما شابه.

أمّا سمّى الجبل بالعلم لأنّه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا يشعلون النار فوق قمّته حتى تكون مناراً للسائرين.

وعلى هذا الأساس فإنّ القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة فى هذه الآية- كما فى الآيات المتعددة الاخرى- بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: «إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ».

وكإستنتاج تضيف الآية فى نهايتها: «إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذى يتحكّم بهذه الامور ... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

«صبّار» و «شكور» صيغتا مبالغة، فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأنّ المؤمن صبور فى المشاكل والإبتلاءات وشكور فى النعم.

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر».

مرّة اخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الاخرى: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا». أى لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التى إرتكبها المسافرون.

إلّا أنّه بالرغم من ذلك فإنّ اللطف الإلهى يشمل الإنسان: «وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ».

ونقرأ فى الآية (۴۵) من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

«وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ». وما لهم من ملجأ سوى ذاته

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۸

المنزّهة.

«محيص»، مأخوذة من كلمة «حيص» على وزن (حيف) وتعنى الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أنّ (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام فى آخر آية موجّه إلى الجميع حيث تقول: «فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

ولكن «وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوى الزائل المحدود التافه بمتاع أبدى خالد، فتلك هى التجارة المربحة العديمة النظير.

فى صحيح مسلم: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «واللَّه ما الدنيا فى الآخرة إلّامثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع»؟

وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۸) وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۴۰) هذه الآيات استمرار للبحث الوارد فى الآيات السابقة بخصوص الأجر الإلهى للمؤمنين المتوكلين.

فبعد ذكر الإيمان والتوكل اللذين لهما طبيعة قلبيّة، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية، وهذه البرامج توضّح اسس المجتمع الصالح والحكومة الصالحة القوية.

فأوّل صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية أنّ الثواب الإلهى العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ».

«كبائر»: جمع «كبيرة» وتعنى الذنوب الكبيرة. وقد ورد تفسير للكبائر فى روايات أهل البيت عليهم السلام بأنّها: «التى أوجب اللَّه عزّ وجل عليها النار» «۱».

---

(۱) من لا يحضره الفقيه ۱/ ۱۷۵؛ تفسير العياشى ۱/ ۱۵۱؛ ثواب الأعمال/ ۱۹۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۹

وعلى هذا الأساس فإنّ أوّل علائم الإيمان والتوكّل هو الاجتناب عن (الكبائر).

أمّا ثانى صفة، والتى لها طبيعة تطهيرية أيضاً، فهى السيطرة على النفس عند الغضب الذى يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآية: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ».

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب ولا يرتكبون الجرائم عنده، والأكثر من ذلك غسل قلوبهم وقلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو والغفران.

وهذه الصفة لا تتوفر إلّافى ظل الإيمان الحقيقى والتوكّل على الحق.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ومن ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا غضب، حرّم اللَّه جسده على النار».

الآية الاخرى تشير إلى الصفة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، حيث تقول:

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ». «وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ». «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

فالآية السابقة كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب والتغلب على الغضب، إلّا أنّ الآية التى نبحثها تتحدث عن بناء النفس فى المجالات المختلفة، ومن أهمها إجابة دعوة الخالق، والتسليم حيال أوامره.

وتقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقيين: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ». أى: أنّهم إذا تعرّضوا للظلم لا

یستسلمون له، بل یطلبون النصر من الآخرین.

فإنّ المظلوم مکلّف بمقاومة الظالم وطلب النصرة، وأیضاً فإنّ المؤمنین مکلّفون بإجابته.

هذا البرنامج الإیجابی البنّاء یحذّر الظالمین من مغبّة ظلم المؤمنین، حیث إنّهم لا یسکتون علی ذلک ویقفون بوجوههم، وهو أیضاً یؤمّل المظلومین بأنّ الآخرین سوف ینصرونکم عند استغاثتکم.

ولکن بما أنّ التناصر یجب أن لا ـ یخرج عن حدّ العدل وینتهی إلی الإنتقام والحقد والتجاوز عن الحد، لذا فإنّ الآیة التی بعدها اشترطت ذلک بالقول: «وَجَزَاؤُا سَیِّئَةٍ سَیِّئَةٌ مِّثْلُهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۰

وعمل الظالم یجب أن یسمی ب (سیّئة) إلّاأنّ جزاءه وعقابه لیس (سیّئة) وإذا وجدنا أنّ الآیة عبّرت عن ذلک بالسیئة فبسبب العقاب ألیم ومؤذٍ، والألم والأذی بحدّ ذاته (سیء) بالرغم من أنّ قصاص الظالم ومعاقبته یعتبر عملًا حسناً بحد ذاته.

إنّ هذه العبارة یمکن أن تکون مقدمة للعفو الوارد فی الجملة التی بعدها، وکأنّما ترید الآیة القول: إنّ العقاب مهما کان فهو نوع من الأذی، وإذا ندم الشخص عندها یستحق العفو.

لذا ففی مثل هذه الموارد ینبغی علیکم العفو، لأنّ «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللَّهِ».

وتقول الآیة فی نهایتها: «إِنَّهُ لَایُحِبُّ الظَّالِمِینَ».

فإنّ کلّاً من العفو والعقاب له موقعه الخاص، فالعفو یکون عندما یستطیع الإنسان الإنتقام، وهذا یسمی العفو البنّاء.

والعقاب والإنتقام والردّ بالمثل یکون عندما یبقی الظالم مستمراً فی غیّه وضلاله، والمظلوم لم یثبّت أرکان سیطرته بعد، فالعفو هنا یکون من موقع الضعف فیجب الردّ بالمثل.

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ مَا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ (۴۱) إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۴۳) الظلم والإنتصار: تعتبر هذه الآیات تأکیداً وتوضیحاً وتکمیلًا للآیات السابقة بشأن الإنتصار ومعاقبة الظالم والعفو فی المکان المناسب. فأوّلًا تقول الآیة: «وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ مَا عَلَیْهِمْ مِّن سَبِیلٍ».

لأنّ الإنتصار وطلب العون من الحقوق الطبیعیة لأیّمظلوم، ونصر المظلومین مسؤولیة کل إنسان حر ومتیقظ الضمیر.

«إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَیَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ». وإضافة إلی عقابهم الدنیوی: «أُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ» ینتظرهم فی الآخرة.

«بغی : تعنی فی الأصل الجد والمثابرة والمحاولة للحصول علی شیء ما، ولکن کثیراً ما تطلق علی المحاولات لغصب حقوق الآخرین، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإنّ للظلم مفهوماً خاصاً وللبغی مفهوماً عاماً یشمل أیّ تعدٍ أو تجاوز للحقوق الإلهیة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۱

أمّا آخر آیة فتشیر مرّة اخری إلی الصبر والعفو، لکی تؤکّد أنّ الإنتقام والعقاب والقصاص من الظالم لا یمنع المظلوم من العفو، حیث تقول: «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

عبارة (عزم الامور) إشارة إلی أنّ هذا العمل من الأعمال التی أمر اللّه بها ولا یمکن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التی یجب أن یشد الإنسان العزم لها.

وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَی الظَّالِمِینَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ یَقُولُونَ هَلْ إِلَی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ (۴۴) وَ تَرَاهُمْ یُعْرَضُونَ عَلَیْهَا خَاشِعِینَ مِنَ الذُّلِّ یَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِیٍّ وَ قَالَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِینَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِینَ فِی عَذَابٍ مُقِیمٍ (۴۵) وَ مَا کَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِیَاءَ یَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِیلٍ (۴۶) هل من سبیل للرجعة:

الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أمّا الآيات التى نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة وجوانب من عقابها.

فهى تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أىّ ولىّ، فتقول: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِىّ مّن بَعْدِهِ».

إنّه لا الهداية ولا الضلالة مفروضة وجبرية، إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحياناً يقوم الإنسان بعمل معيّن وبسببه يسلب الخالق منه التوفيق ويطمس على قلبه ويمنع عنه نور الهداية ويتركه سابحاً فى الظلمات.

ثم تضيف الآية: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ».

ولكن مهما كانت هذه الطلبات فإنّها ستواجه بالرفض، لأنّ العودة غير ممكنة أبداً.

الآية الاخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول: «وَتَرَيهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىّ».

هذه صورة لحالة شخص يخشى من شىء أشدّ خشية ولا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۲

بطرف خفى.

أمّا آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم والتوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء فى آخر الآية: «وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثم زوجه، وأبناءه وأقرباءه؟

ونصيبه نار الفراق وهو فى داخل العذاب الإلهى؟!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: «أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ».

ومن الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهى أنّ (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أنّ المقصود هم الكافرون، و الآية التى بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول:

«وَمَا كَانَ لَهُم مّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مّن دُونِ اللَّهِ».

ولتأكيد هذا المعنى تقول الآية فى نهايتها: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ».

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَ إِنَاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰) بما أنّ الآيات السابقة ذكرت جانباً من العقاب الأليم الموحش للكافرين والظالمين، فإنّ الآيات أعلاه تحذّر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، وتدعوهم إلى الإستجابة لدعوة الخالق والعودة إلى طريق الحق. فأوّل آية تقول: «اسْتَجِيبُوا لِرَبّكُم مّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ».

وإذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، وأحداً يحميكم غير رحمته، فإنّكم على خطأ، لأنّ: «مَا لَكُم مّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مّن نَّكِيرٍ».

عبارة «يَوْمٌ لَّامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» تشير إلى يوم القيامة، وليس إلى يوم الموت. كما أنّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۳

عبارة (من اللَّه) تشير إلى أنّ أحداً لا يستطيع أن يتخذ قراراً بالعودة قبال أمر الخالق جلّ وعلا.

الآية التى بعدها تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله وتواسيه قائلة: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسؤولًا عن حفظهم من الانحراف.

«إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ» سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

ثم ترسم صورة لحال هـذه الجماعـة غير المؤمنة والمعرضة عن الحق فتقول: «وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا». ويغفل عن ذكر الخالق: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ».

فلا النعم الإلهية وشكر المنعم توقظ هذا الإنسان وتجرّه نحو الشكر والمعرفة والطاعة، ولا العقوبات التى تصيبه بسبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، ولا دعوة الرسول تؤثر فيه.

فعوامـل الهدايـة من حيث «التشـريع» هى دعوة رسـل الخـالق، ومن حيث «التكوين» قـد تكون النعم وقـد تكون المصائب، إلّاأنّ هؤلاء الجهلة ذوى القلوب الميتة لا تؤثّر فيهم أىّ من هذه العوامل.

ثم لبيان حقيقـة أنّ أىّ نعمـة ورحمـة فى هذا العالم مصدرها الخالق، ولا يملك الأفراد شـيئاً من عندهم، أشارت الآية إلى قضـية عامة ومصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: «لِّلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ».

و «نموذج» واضـح لهـذه الحقيقـة وأنّ كل ما موجود هو منه، والأفراد لا يملكون شـيئاً من عنـدهم هو أنّه: «يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا».

وبهـذا الترتيب فإنّ الناس يُقسّـمون إلى أربع مجاميع: من عنـده الأولاد الـذكور ويريـد البنات، ومن عنـده البنات ويريـد الذكور، ومن عنده الذكور والإناث، والمجموعة التى تفتقد الأبناء ويأملون ويرغبون فيهم.

«عقيم»: مـأخوذة من «عقم» تعنى فى الأصـل الجفـاف والتصـلب المـانع من قبـول التـأثير، والنسـاء العقيمـات تطلـق على اللواتى تكون أرحامهنّ غير مستعدة لتقبّل النطفة ونمو الطفل.

و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذى ليس فيه سرور وفرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۴

إنّ استخدام عبارة (يهب) تعتبر دليلًا واضحاً على أنّ الإناث والذكور من هدايا الخالق وهباته، وليس صحيحاً للمسلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كمـا أنّ اسـتخدام عبـارة (يزوّجهم) لاـ تعنى التزويـج هنـا، بـل تعنى جمع الهبتين (الإناث والـذكور) لبعض الناس. وبعبارة اخرى: فإنّ مصطلح (التزويج) يأتى أحياناً بمعنى الجمع بين الأشـياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأنّ (زوج) تعنى فى الأصل شـيئين أو شخصين متقارنين.

وعلى أيّة حال، فإنّ المشـيئة الإلهية هى التى تتحكم فى كل شـىء وليس فى قضـية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر والعليم والحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإنّ الآية تقول فى نهايتها: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱)

سبب النّزول

فى تفسـير القرطبى: إنّ اليهود قالوا للنبى صـلى الله عليه و آله: ألا تكلم اللَّه وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنّا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبى صلى الله عليه و آله: «إنّ موسى لن ينظر إليه». فنزل قوله «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ اللَّهُ» الآية.

التّفسير

طرق ارتباط الأنبياء بالخالق: هذه السورة، كما قلنا فى بدايتها، تهتم بشـكل خاص بقضـيـة الوحى والنبوّة، فهى تبدأ بالوحى وتنتهى به، لأنّ الآيات الأخيرة تتحـدث عن هـذا الموضوع (أى الوحى). وبما أنّ الآيات السابقـة كانت تتحـدث عن النعم الإلهيـة، لـذا فإنّ هـذه الآيات تتحدث عن أهمّ نعمة إلهية وأكثرها فائدة لعالم البشـرية، ألا وهى قضية الوحى والإرتباط بين الأنبياء والخالق. تقول الآية: «وَمَا

کَانَ لِبَشَرٍ أن یُکَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْیًا». لأنّ الخالق منزّه عن الجسم والجسمانیة.

«أَوْ مِن وَرَآیِ حِجَابٍ» کما کان یفعل موسی حیث إنّه کان یتحدث فی جبل الطور.

«أَوْ یُرْسِلَ رَسُولًا» کما کان یقوم به جبرائیل الأمین وینزل علی الرسول صلی الله علیه و آله:

«فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ مَا یَشَاءُ».

فلا یوجد طریق آخر سوی هذه الطرق الثلاثة لتحدّث الخالق مع عباده ل «إِنَّهُ عَلِیٌّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۵

حَکِیمٌ». فهو أعلی وأجل من أن یری أو یتکلم عن طریق اللسان، وکل أفعاله حکیمة، ویتمّ ارتباطه بالأنبیاء وفق برنامج.

هذه الآیة تعتبر ردّاً علی الذین یتصورون- بجهالة- أنّ الوحی یعنی مشاهدة الأنبیاء للخالق وهم یتکلمون معه.

وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتَابُ وَ لَا الْإِیمَانُ وَ لکِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ أَلَا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ (۵۳) القرآن روح من الخالق: بعد البحث العام الذی ورد فی الآیة السابقة بخصوص الوحی، تتحدث الآیات التی نبحثها عن نزول الوحی علی شخص الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله حیث تقول:

«وَکَذلِکَ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا».

والمقصود من کلمة (روح) فی هذه الآیة هو القرآن الکریم، لأنّه أساس حیاة القلوب وحیاة جمیع الأحیاء.

فإنّ الآیة تضیف: «مَا کُنتَ تَدْرِی مَا الْکِتَابُ وَلَا الْإِیمَانُ وَلکِن جَعَلْنَهُ نُورًا نَّهْدِی بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا». فهذا هو اللطف الإلهی الذی شملک وأنزل علیک هذا الوحی السماوی وآمنت بکل ما یحتویه.

وتضیف الآیة فی نهایتها: «وَإِنَّکَ لَتَهْدِی إِلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِیمٍ».

فالقرآن نور للجمیع ولیس لک فحسب، وهو وسیلة لهدایة البشر إلی الصراط المستقیم.

وقد ورد نفس هذا المعنی بعبارة اخری فی الآیة (۴۴) من سورة فصّلت حیث تقول الآیة: «قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ ءَامَنُوا هُدًی وَشِفَاءٌ وَالَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ فِی ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ».

ثم تقول الآیة مفسّرة للصراط المستقیم: «صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ».

أمّا آخر جملة فی هذه الآیة- وهی آخر آیة فی سورة الشوری- فهی دلیل علی أنّ الطریق المستقیم هو الطریق الوحید الذی یوصل إلی الخالق، حیث تقول: «أَلَا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۶

هذه الجملة بُشری للمتقین، وهی فی نفس الوقت تهدید للظالمین والمذنبین، لأنّ الجمیع سوف یرجعون إلی الخالق.

وهی دلیل علی أنّ الوحی یجب أن یکون من الخالق فقط، لأنّ جمیع الامور ترجع إلیه، وتدبیر کل شیء بیده.

وهکذا نری أنّ بدایة ونهایة هذه الآیات منسجمة فیما بینها ومترابطة، ونهایة السورة- أیضاً- یتلاءم مع بدایتها والموضوع العام الساری علیها.

بحث

ماذا کان دین الرسول الأعظم قبل نبوّته: لا یوجد شک فی أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله لم یسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ینحرف عن خط التوحید، فتاریخ حیاته یعکس بوضوح هذا المعنی، إلّاأنّ العلماء یختلفون فی الدین الذی کان علیه:

فأفضل قول هو: لقد کان الرسول صلی الله علیه و آله یملک برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وکان یعمل به، وفی الحقیقة فقد کان له دین خاص حتی زمان نزول الإسلام علیه.

والدليل على هذا الكلام الجملة التى ورد فى الخطبة (۱۹۲) فى نهج البلاغة، وهو: «ولقد قرن اللَّه به- صلّى اللَّه عليه وآله- من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

«نهاية تفسير سورة الشورى»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۷

۴۳. سورة الزخرف

محتوى السورة: يمكن تلخيص مباحث هذه السورة فى سبعة فصول:

۱- فى بداية السورة يتحدث عن أهمية القرآن المجيد، ونبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله، ومواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوى.

۲- يذكر قسماً من أدلة التوحيد فى الآفاق، ونعم اللَّه المختلفة على البشر.

۳- ثم يكمّل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، ونفى ما ينسب إلى اللَّه عزّ وجل من الأقاويل الباطلة، ومحاربة التقاليد العمياء.

۴- وينقل جانباً من قصص الأنبياء الماضين واممهم، وتاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. مختصر الامثل ج۴ ۴۱۹

۵- ويتعرض إلى مسألة المعاد، وجزاء المؤمنين، ومصير الكفار المشؤوم، ويحذّر المجرمين ويهدّدهم بتهديدات وتحذيرات وإنذارات قوية.

۶- ويتناول القيم الباطلة التى كانت ولا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص الماديين، ووقوعهم فى مختلف الإشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياة ويزنونها بالميزان الدنيوى.

۷- وهو فصل المواعظ والنصائح العميقة المؤثّرة حيث يكمل الفصول الاخرى.

وقد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (۳۵) منها، والتى تتحدث فى القيم المادية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة الزخرف، كان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۸

ممّن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب».

إنّ هذه البشارة العظمى، والفضيلة التى لا تقدّر، لا تحصل بمجرد التلاوة الخالية من التدبر والإيمان والعمل الصالح، لأنّ التلاوة مقدمة للفكر، والإيمان والعمل الصالح ثمرة له.

حم (۱) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴) أ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ (۶) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۷) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸) مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، وهى حروف «حم». وهذه رابع سورة تبدأ ب (حم).

ويقسم تعالى بالقرآن الكريم فى الآية الثانية، فيقول: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ».

قسماً بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، والبيّنة معانيه ومفاهيمه، والظاهرة دلائل صدقه.

ثم يضيف: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

إنّ كون القرآن «عربياً»، إمّا بمعنى أنّه نزل بلغة العرب التى هى أوسع لغات العالم فى بيان الحقائق، أو بمعنى فصاحته، لأنّ أحد معانى كلمة «عربى» هو (الفصيح) وهى إشارة إلى أنّا قد جعلناه فى منتهى الفصاحة وغايتها، لتظهر الحقائق جيّداً من خلال كلماته وجمله،

ويدركها الجميع جيداً.

ثم يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات اخرى لهذا الكتاب السماوى فيقول: «وَإِنَّهُ فِى أُمّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ».

«الام»: فى اللغة تعنى أصل كل شىء وأساسه، وإنّما يقول العرب للأم امّاً لأنّها أساس العائلة ومأوى الأولاد، وعلى هذا فإنّ (ام الكتاب) يعنى الكتاب الذى يكون أساساً لكل الكتب السماوية. إنّه كتاب علم اللّه المحفوظ لديه، والذى ادرجت فيه كل حقائق العالم، وكل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۹

حوادث الماضى والمستقبل، وكل الكتب السماوية، ولا يستطيع أى أحد أن يصل إليه ويعلم ما فيه، إلّاإذا أراد اللّه سبحانه أن يُعلم أحداً بالمقدار الذى يريده عزّ وجل.

وهذا وصف عظيم للقرآن الذى ينبع من علم اللّه اللامتناهى، وأصله وأساسه لديه سبحانه، ولهذا يقول فى الصفة الثانية: (لعلىّ) وفى الثالثة (حكيم).

واعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، وهى بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم.

وفى الآية التالية يخاطب المنكرين للقرآن والمعرضين عنه فيقول: «أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذّكْرَ صَفْحًا أن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ».

صحيح أنّكم لم تألوا جهداً فى مخالفتكم للحق وعدائه، إلّاأنّ رحمة اللّه سبحانه واسعة بحدّ لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزاً فى طريقها، ونظل ننزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، وآياته التى تبعث الحياة فيكم، حتى تهتزّ القلوب التى لها أدنى حظ من الإستعداد وتثوب إلى طريق الحق، وهذا هو مقام رحمة اللّه العامة، أى: رحمانيته التى تشمل العدو والصديق، والمؤمن والكافر.

«الصفح»: فى الأصل بمعنى جانب الشىء وطرفه، ويأتى أيضاً بمعنى العرض والسعة، وهو فى الآية بالمعنى الأوّل. أى: أنحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكرة إلى جانب وطرف آخر؟

«المسرف»: من الإسراف، وهو تجاوز الحدّ، إشارة إلى أنّ المشركين وأعداء النبى صلى الله عليه و آله لم يقفوا عند حدّ فى خلافهم وعدائهم مطلقاً.

ثم يقول فى عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، وتسليةً لخاطر النبى صلى الله عليه و آله وتهديداً للمنكرين المعاندين: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىّ فِى الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مّن نَّبِىّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

إنّ هذه المخالفات وأنواع السخرية لم تكن لتمنع لطف اللّه ورحمته أبداً، فإنّها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، ووجود يعمّ عطاؤه كل العباد، بل إنّه سبحانه قد خلقهم للرحمة «وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ» «۱». ولهذا فإنّ إعراضكم وعنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقاً.

---

(۱) سورة هود/ ۱۱۹.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۰

لكن، ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء بأنّ لطف اللّه اللامتناهى سيحول دون عقابهم فى النهاية، لأنّ العقاب بنفسه من مقتضى حكمته، ولذلك يضيف فى الآية التالية: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ». فالآية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله بأنّنا سبق وأن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هذه الأقوام العاصية الطاغية، وأوحينا إليك تفصيل حالهم بدون زيادة أو نقصان، وكان من بينهم أقوام أقوى وأشدّ من مشركى العرب كثيراً، ولهم إمكانيّات وثروات وأفراد وجيوش وإمكانات واسعة ... كفرعون وآل فرعون.

«البطش»: بمعنى أخذ الشىء بالقوة، وهنا اقترن بكلمة «أشدّ» وتعطى مفهوم شدّة القوة والقدرة أكثر.

والضمير فى «مِنْهُم» يعود على مشركى العرب الذين خوطبوا فى الآيات السابقة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۹) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْوَاجَ کُلَّهَا وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلَی ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنَا هذَا وَ مَا کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ (۱۳) وَ إِنَّا إِلَی رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴) وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَکَفُورٌ مُبِینٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا یَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَاکُمْ بِالْبَنِینَ (۱۶) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ کَظِیمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ یُنَشَّأُ فِی الْحِلْیَةِ وَ هُوَ فِی الْخِصَامِ غَیْرُ مُبِینٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِکَةَ الَّذِینَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُکْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ یُسْأَلُونَ (۱۹) وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَیْنَاهُمْ کِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ (۲۱) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) وَ کَذلِکَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَی آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قَالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ بِأَهْدَی مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَیْهِ آبَاءَکُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کَافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُکَذِّبِینَ (۲۵) وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِی بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلَّا الَّذِی فَطَرَنِی فَإِنَّهُ سَیَهْدِینِ (۲۷) وَ جَعَلَهَا کَلِمَةً بَاقِیَةً فِی عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّی جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِینٌ (۲۹) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هذَا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ کَافِرُونَ (۳۰) وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلَی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ (۳۱) أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیّاً وَ رَحْمَةُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمَّا یَجْمَعُونَ (۳۲) وَ لَوْ لَا أَنْ یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَیْهَا یَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَ سُرُراً عَلَیْهَا یَتَّکِئُونَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذلِکَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ (۳۵) وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّی إِذَا جَاءَنَا قَالَ یَا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (۳۸) وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذَابِ مُشْتَرِکُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ مَنْ کَانَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۴۰) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) بعض أدلّة التوحید: من هنا یبدأ البحث حول التوحید والشرک، فتستعین الآیات بفطرة هؤلاء وطینتهم لإثبات التوحید. یقول سبحانه: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ».

إنّ هذا التعبیر الذی ورد بتفاوت یسیر فی أربع آیات من القرآن الکریم- العنکبوت/ ۶۱، لقمان/ ۲۵، الزمر/ ۳۸ والزخرف فی الآیة التی نبحثها- دلیل علی کون معرفة اللَّه سبحانه أمر فطری مغروس فی طینة البشر وطبیعتهم من جانب، ومن جانب آخر یدلّ علی

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۱

أنّ المشرکین کانوا مقرّین بأنّ خالق السماوات والأرض هو اللَّه سبحانه.

ثم یشیر سبحانه إلی خمس نعم من نعم اللَّه العظیمة، والتی تعتبر کل منها نموذجاً من نظام الخلقة، وآیة من آیات اللَّه سبحانه، فیقول أوّلًا: «الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا».

ونعلم أنّ الهدوء النفسی هو الدعامة الأساسیّة للاستفادة من النعم الاخری والتنعّم بها.

ثم یضیف سبحانه لتبیان النعمة الثانیة: «وَجَعَلَ لَکُمْ فِیهَا سُبُلًا لَّعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ».

إنّا نعلم أنّ التظاریس تعمّ کل الیابسة تقریباً، وفیها الجبال والتلال والهضاب، والبدیع أن توجد بین أعظم سلال جبال العالم فواصل یستطیع الإنسان أن یشقّ طریقه من خلالها، وقلّما اتّفق أن تکون هذه الجبال سبباً لإنفصال أقسام الکرة الأرضیة عن بعضها تماماً، وهذا واحد من أسرار نظام الخلقة، ومن مواهب اللَّه سبحانه وعطایاه للعباد.

وذکرت الموهبة الثالثة- وهی موهبة نزول المطر، وإحیاء الأراضی المیّتة- فی الآیة التالیة: «وَالَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّیْتًا کَذلِکَ تُخْرَجُونَ». من قبورکم یوم البعث.

وبعد ذکر نزول المطر وحیاة النباتات، یشیر فی المرحلة الرابعة إلی خلق أنواع الحیوانات، فیقول سبحانه: «وَالَّذِی خَلَقَ الْأَزْوَاجَ کُلَّهَا».

إنّ التعبير ب «الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقرينة ذكر النباتات فى الآية السابقة.

ونعلم أنّ قانون الزوجية سنّة حياتية فى كل الكائنات الحية، والعيّنات الاستثنائية لا تقدح بجامعية هذا القانون.

وفى المرحلة الخامسة تبيّن الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة فيقول سبحانه: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ».

إنّ هذه النعمة هى إحدى مواهب اللَّه سبحانه للبشر، وكراماته التى منّ بها عليهم، وهى لا تلاحظ فى الأنواع الاخرى من الموجودات.

وتذكر الآية التالية الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: «لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ».

وتذكر آخر آية- من هذه الآيات- قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: «وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ».

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد، لأنّ الإنتباه إلى الخالق والمبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائماً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۲

وهى أيضاً إشارة إلى أن لا تغترّوا عندما تركبون هذه المراكب وتتسلّطون عليها، ولا تغرقوا فى مغريات الدنيا وزخارفها، بل يجب أن تذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْأَلُونَ (۱۹) كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات اللَّه: بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيلة ذكر آيات اللَّه سبحانه فى نظام الوجود، وذكر نعمه ومواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أى محاربة الشرك وعبادة غير اللَّه تعالى، فتطرّقت أوّلًا إلى أحد فروعها، أى عبادة الملائكة فقالت:

«وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا».

إنّ التعبير ب «الجزء» يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد اللَّه تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب والأمّ، وينفصل عنهما كنطفة تتكوّن وتتلقّح، وإذا ما تلقّحت تَكَوّن الولد من تلك اللحظة. ويبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنّهم كانوا يظنّون الملائكة جزءاً من الآلهة فى مقابل اللَّه سبحانه.

ثم تضيف: «إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ». فمع كل هذه النعم الإلهية التى أحاطت بوجوده، والتى مرّ ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، فإنّه بدل أن يطأطىء رأسه إعظاماً لخالقه، وإجلالًا لولى نعمته، سلك سبيل الكفر واتّجه إلى مخلوقات اللَّه ليعبدها.

فى الآية التى بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكرية لدى هؤلاء من أجل إدانة هذا التفكير الخرافى، لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأة، وكانوا يعدّون البنت عاراً- عادةً- يقول تعالى: «أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفكُم بِالْبَنِينَ».

فإذا كان مقام البنت أدنى فى اعتقادكم، فكيف ترجّحون أنفسكم وتعلونها على اللَّه، فتجعلون نصيبه بنتاً، ونصيبكم ولداً؟

وتتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۳

مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

والمراد من «بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا» هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات اللَّه، وكانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم، وأنّها شبيهة به- سبحانه- ومثله.

إنّ لفظة (كظيم) من مادة «كظْم»، وتعنى الحلقوم، وجاءت أيضاً بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، ولذلك فإنّ هذه الكلمة استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضباً أو غمّاً وحزناً، وهذا التعبير يحكى جيّداً عن خرافة تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليّة فيما يتعلق بولادة البنت، وكيف أنّهم كانوا يحزنون ويغتمّون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلّا أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ

الملائكة بنات اللّه سبحانه.

وتضيف فى الآية الكريمة: «أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» «۱».

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالباً، تنبعثان من ينبوع عاطفتهن، إحداهما: تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينة، والاخرى: عدم إمتلاكهن القدرة الكافية على إثبات مرادهن أثناء المخاصمة والجدال لحيائهن وخجلهنّ.

وتذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا».

ثم تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكارى فتقول: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ».

وتضيف فى النهاية: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَلُونَ».

وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين: أعطت الآيات السابقة أوّل جواب منطقى على عقيدة عبدة الأوثان الخرافيّة، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات اللّه، وتتابع هذه الآيات نفس الموضوع، وتسلك مسالك اخرى لإبطال هذه الخرافة القبيحة، فتتعرض أوّلًا لأحد الأدلّة الواهية لهؤلاء ثم تجيب عليه فتقول: «وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُم».

---

(۱) «ينشّؤا»: من مادة «الإنشاء»، أى إيجاد الشىء، وهنا بمعنى تربية الشىء وتنميته؛ و «الحلية»: تعنى الزينة؛ و «الخصام»: هو المجادلة والنزاع على شىء ما.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۴

إنّ هذا التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بالجبر، وأنّ كل ما يصدر منا فهو بإرادة اللّه، وكل ما نفعله فهو برضاه.

وتجيب الآية فى النهاية على هذا الاستدلال الواهى لعبدة الأصنام، فتقول: «مَّا لَهُم بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

إنّ هؤلاء لا علم ولا إيمان لهم حتى بمسألة الجبر أو رضى اللّه سبحانه عن أعمالهم، بل هم- ككثير من متبعى الهوى والمجرمين الآخرين- يتخذون مسألة الجبر ذريعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب والفساد، فيقولون: إنّ يد القضاء والقدر هى التى جرتنا إلى هذا الطريق وحتمته علينا.

«يخرصون»: من «الخرص»، وهو فى الأصل بمعنى التخمين، وأطلقت هذه الكلمة أوّلًا على تخمين مقدار الفاكهة، ثم أطلقت على الحدس والتخمين، ولمّا كان الحدس والتخمين يخطىء أحياناً ولا يطابق الواقع، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، و «يخرصون» فى هذه الآية من هذا القبيل.

وتشير الآية التالية إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به، فتقول: «أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ». أى: يجب على هؤلاء أن يتمسّكوا بدليل العقل لإثبات هذا الإدّعاء، أو بدليل النقل، فى حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل ولا من النقل، فإنّ كل الأدلّة العقلية تدعو إلى التوحيد، وكذلك دعا كل الأنبياء والكتب السماوية إلى التوحيد.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى ذريعتهم الأصلية، وهى فى الواقع خرافة لا أكثر، أصبحت أساساً لخرافة اخرى، فتقول: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ».

لم يكن لهؤلاء دليل إلّاالتقليد الأعمى للآباء والأجداد، والعجيب أنّهم كانوا يظنون أنّهم مهتدون بهذا التقليد، فى حين لا يستطيع أى إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد فى المسائل العقائدية والأساسية التى يقوم عليها بناؤه الفكرى، خاصة إذا كان التقليد تقليد «جاهل لجاهل».

وَ كَذلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قَالَ أَ وَ لَوْ

جِئْتُكَمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أَرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۲۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۵

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلى للمشركين فى عبادتهم للأصنام، وهو تقليد الآباء والأجداد، فتقول: إنّ هذا مجرد ادعاء واه من مشركى العرب: «وَكَذلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

إنّ هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمؤمنين ليعلموا أنّ ذرائع المشركين واستدلالاتهم هذه ليست بالشىء الجديد، إذ إنّ هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التاريخ.

وتبيّن الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين والمنحرفين بوضوح تام، فتقول: «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ».

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيدين مغرورين، ولا يجرح عواطفهم أو يمسها مطلقاً.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاورة والمجادلة وخاصة أمام الجاهلين المغرورين.

ومع كل ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا غرقى الجهل والتعصب والعناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط: «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ».

من البديهى أنّ مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، وليست لهم أهليّة الحياة، ولابدّ أن ينزل عذاب اللَّه، ولذلك فإنّ آخر آية- من هذه الآيات- تقول:

«فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ». فبعضهم بالطوفان، وآخرون بالزلزلة المدمرة، وجماعة بالعاصفة والصاعقة، وخلاصة القول: إنّا دمّرنا كل فئة منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

وأخيراً وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله من أجل أن يعتبر مشركو مكة أيضاً، فقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» فعلى مشركى مكة المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هذَا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (۳۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۶

التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة: أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصة إبراهيم، وما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذى ورد فى الآيات السابقة، وذلك لأنّه:

أوّلًا: إنّ إبراهيم عليه السلام كان الجد الأكبر للعرب، وكانوا يعدونه محترماً ويقدّسونه، ويفتخرون بتأريخه، فإذا كان اعتقادهم وقولهم هذا حقّاً فيجب عليهم أن يتبعوه عندما مزّق حجب التقليد، وإذا كان سبيلهم تقليد الآباء، فلماذا يقلّدون عبدة الأوثان ولا يتّبعون إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: إنّ عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهى- وهو اتّباع الآباء- فلم يقبله إبراهيم منهم أبداً.

ثالثاً: إنّ هذه الآية نوع من التطييب لخاطر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله والمسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات والتوسّلات بالمعاذير والحجج الواهية كانت موجودة دائماً، فلا ينبغى أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ».

ولمّا كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون اللَّه أيضاً، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال:

«إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ».

إنّه عليه السلام يذكر فى هذه العبارة الوجيزة دليلًا على انحصار العبوديّة باللّه تعالى، لأنّ المعبود هو الخالق والمدبر، وكان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو اللّه سبحانه، وكذلك أشار عليه السلام فى هذه العبارة إلى مسألة هداية اللّه التكوينية والتشريعية التى يوجبها قانون اللطف.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام من أنصار أصل التوحيد، ومحاربة كل أشكال الشرك طوال حياته وحسب، بل إنّه بذل قصارى جهده من أجل ابقاء كلمة التوحيد فى هذا العالم إلى الأبد، كما تبيّن ذلك الآية التالية، إذ تقول: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «۱».

والطريف أنّ كل الأديان التى تتحدث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها وأفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السلام التوحيدية، وأنّ ثلاثة من أنبياء اللّه العظام- وهم موسى وعيسى عليهما السلام

---

(۱) «العقب»: فى الأصل بمعنى كعب القدم، إلّاأنّ هذه الجملة استعملت فيما بعد فى الأولاد وأولاد الأولاد بصورة واسعة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۷

ومحمّد صلى الله عليه و آله- من ذرّيته، وهذا دليل على صدق تنبؤ القرآن فى هذا الباب.

والآية التالية جواب عن سؤال وهو: فى مثل هذه الحال لِمَ لا يعذّب اللّه مشركى مكة؟ ألم نقرأ فى الآيات السابقة: «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

فتقول الآية مجيبة: «بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ».

فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك والوثنيّة، ولا بحكم وجدانهم بالتوحيد، بل أمهلناهم لإتمام الحجّة عليهم حتى يقوم هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا النبى العظيم محمّد صلى الله عليه و آله بهدايتهم.

إلّا أنّ العجيب أنّه: «وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ».

وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَ رَحْمَةُ رَبِّکَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۳۲) لـمَ لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء: كان الكلام فى الآيات السابقة فى ذرائع المشركين فى مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا يتّهمونهم بالسحر تارة، ويتوسلون تارة أخرى بتقليد الآباء وينبذون كلام اللّه وراء ظهورهم، وتشير الآيات- مورد البحث- إلى حجّة واهية اخرى من حجج اولئك المشركين، فتقول: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ». أى: مكة والطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار فى تقييمهم للبشر هو المال والثروة والمقام الظاهرى والشهرة. وهذا هو السبب فى بلاء المجتمعات البشرية العظيم، والعامل الأساس فى انحرافها الفكرى، حيث تقلب الحقائق تماماً فى بعض الأحيان.

ويردّ القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافى، ويجسد النظرة الإلهية الإسلامية تماماً، فيقول: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ». فيمنحوا النبوّة من يشاؤون، وينزلوا عليه الكتاب السماوى.

فضلًا عن ذلك، فإنّ وجود التفاوت والإختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدلّ على تفاوتهم فى المقامات والمنازل المعنويّة مطلقاً، بل: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۸

فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا».

لقد نسى هؤلاء أنّ حياة البشر حياة جماعية، ولا يمكن أن تدار هذه الحياة إلّاعن طريق التعاون والخدمة المتبادلة. بناءً على هذا فينبغى أن لا يخدعهم هذا التفاوت، ويظنّوا أنّه معيار القيم الإنسانية، إذ:

«وَرَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِّمَّا یَجْمَعُونَ»؛ بل إن كل المقامات والثروات لا تعدل جناح بعوضة فى مقابل رحمة اللّه والقرب منه.

وَ لَوْ لَا أَنْ یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَیْهَا یَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَ سُرُراً عَلَیْهَا یَتَّکِئُونَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذلِکَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ (۳۵) قصور فخمة سُقُفها من فضة! (قيم كاذبة): تستمر هذه الآيات فى البحث حول «نظام القيم فى الإسلام» وعدم اعتبار كون المال والثروة والمناصب المادية هى المعيار فى التقييم، فتقول الآية الاولى: «وَلَوْلَا أَن یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن یَکْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ».

ولجعلنا لهم بيوتاً لها عدّة طوابق ولها سلالم جميلة «وَمَعَارِجَ عَلَیْهَا یَظْهَرُونَ».

ثم تضيف الآية الاخرى: «وَلِبُیُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَیْهَا یَتَّکُونَ».

ولم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنّه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج وانواع الزينة «وَزُخْرُفًا».

ثم تضيف الآية: «وَإِن کُلُّ ذلِکَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَیَوةِ الدُّنْیَا وَالْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ».

«الزخرف»: فى الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم والتصوير، ولما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف؛ وإنّما قيل للكلام الأجوف الذى لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنّهم يحيطونه ويلبسونه المزوقات ليصبح مقبولًا.

إنّ هذه الاسس المادية ووسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند اللَّه تعالى فلا ينبغى أن تكون إلّامن نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين ومنكرى الحق، ولو لم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۹

يتأثر الناس من طلاب الدنيا ويميلوا إلى الكفر لجعل اللَّه تعالى هذه الامور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أنّ هذه الامور ليست هى المعيار والمقياس لشخصية الإنسان وقيمته ومقامه.

ومن هنا يتّضح أنّ وجود جماعة من الكفار والظالمين بهذه القدرة المادية ليس دليلًا على رفعة شخصيتهم، ولا أنّ حرمان المؤمنين منها، أو من التمتع بها فى حد المعقول كأدوات للزينة، يضر بإيمانهم وتقواهم، وهذا هو التفكير الإسلامى والقرآنى الصحيح.

وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّی إِذَا جَاءَنَا قَالَ یَا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (۳۸) وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذَابِ مُشْتَرِکُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ مَنْ کَانَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۴۰) أقران الشياطين: لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيّمون كل شىء على أساس المعايير المادية، فإنّ الآيات- مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميتة الناشئة عن الإرتباط بالدنيا والتعلق بها، ألا وهو الإبتعاد عن اللَّه سبحانه. تقول الآية الاولى: «وَمَن یَعْشُ عَن ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» «۱».

نعم، إنّ الغفلة عن ذكر اللَّه، والغرق فى لذات الدنيا، والإنبهار بزخارفها ومغرياتها يؤدّى إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائماً، ويلقى لجاماً حول رقبته يشدّه به، ويجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء.

ثم أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: «وَإِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ».

وتزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: «وَیَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

وهكذا تستمر هذه الحالة على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، وتستمر الشياطين فى إضلاله، حتى ترفع الحجب، وتنفتح عين رؤيته على الحقيقة: «حَتَّی

---

(۱) «نقيّض»: من مادة قيض، وهى فى الأصل بمعنى الغشاء الذى يغطى البيضة، ثم جاءت بمعنى جعل شىء مستولياً على شىء آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۰

إِذَا جَاءَنَا قَالَ یَا لَیْتَ بَیْنِی وَبَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنَ فَبِئْسَ الْقَرِینُ». نعم، إنّ عرصة القيامة تجسيد واسع لمشاهد هذه الدنيا، والقرين والرفيق

والقائد والدليل هنا وهناك واحد، بل إنّهما- برأى بعض المفسرين- يقرنان بسلسلة واحدة.

إلّا أنّ هذا الأمل لا يتحقق مطلقاً، ولا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء وبين الشياطين، ولذلك فإنّ الآية التالية تضيف: «وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ». فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الاخرى إلى الأبد.

وبهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء فى الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم.

ويترك القرآن هنا هذه الفئة وشأنها، ويوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله ويتحدث عن الغافلين عمى القلوب الذى كذّبوا إرتباطه باللّه، وهم من جنس من تقدم الكلام عنهم فى الآيات السابقة، فيقول: «أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

إنّ القرآن يقول بنوعين من السمع والبصر والحياة للإنسان: السمع والبصر والحياة الظاهرية، والسمع والبصر والحياة الباطنية، والمهم هو القسم الثانى من الإدراك والنظر والحياة، فإنّها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظة وإرشاد، ولا إنذار وتحذير.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (۴۴) وَ اسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵) متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن الكفار المعاندين الظالمين الذين لا أمل فى هدايتهم، تخاطب هذه الآيات نبى الأكرم صلى الله عليه و آله مهدّدة الكفار أشدّ تهديد من جانب، ومسليّة خاطر النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ».

والمراد من الذهاب بالنبى صلى الله عليه و آله من بين اولئك القوم، وفاته.

ثم تضيف الآية: «أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ».

فهم فى قبضتنا على أية حال، سواء كنت بينهم أم لم تكن، والعقاب والإنتقام الإلهى حتمى فى حقّهم إذا ما استمروا فى أعمالهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۱

بعد هذه التحذيرات تأمر الآية النبى صلى الله عليه و آله أن: «فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». وعدم قبول جماعة من هؤلاء به لا يدل على عدم حقانيتك.

ثم تضيف الآية الاخرى: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ». فإنّ الهدف من نزوله إيقاظ البشر، وتعريفهم بتكاليفهم: «وَسَوْفَ تُسَلُونَ».

ثم تطرّقت الآية الأخيرة إلى نفى عبادة الأصنام وإبطال عقائد المشركين بدليل آخر، فقالت: «وَسَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ».

إشارة إلى أنّ كل أنبياء اللّه قد دعوا إلى التوحيد، ووقفوا جميعاً ضد الوثنية بحزم، وعلى هذا فإنّ نبى الخاتم صلى الله عليه و آله فى مخالفته الأصنام لم يقم بعمل لم يسبقه به أحد، بل أحيا بفعله سنة الأنبياء الأبدية.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰) الفراعنة المغرورون ونقض العهد: فى هذه الآيات إشارة إلى جانب ممّا جرى بين نبى اللّه موسى بن عمران عليه السلام وبين فرعون، ليكون جواباً لمقالة المشركين الواهية بأنّ اللّه إن كان يريد أن يرسل رسولًا، فلماذا لم يختر رجلًا من أثرياء مكة والطائف لهذه المهمة العظمى؟

قالت الآية الاولى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنّى رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِينَ».

المراد من «الآيات»: المعجزات التى كانت لدى موسى، والتى كان يثبت حقانيته بواسطتها، وكان أهمها العصا واليد البيضاء.

يقول القرآن الكريم فى الآية التالية: «فَلَمَّا جَاءَهُم بَايَاتِنَا إِذَا هُم مّنْهَا يَضْحَكُونَ».

وهذا الموقف هو الموقف الأوّل لكل الطواغيت والجهال المستكبرين.

إلّا أنّنا أرسلنا بآياتنا الواحدة تلو الاخرى لإتمام الحجة: «وَمَا نُرِيهِم مّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۲

وقد أريناهم بعد معجزتى العصا واليد البيضاء معاجز الطوفان والجراد والقمل والضفادع وغيرها.

ثم تضيف الآية: «وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

إنّ هذه الحوادث وإن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجأون إلى موسى، غير أنّهم بمجرد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شىء، ويجعلون موسى غرضاً لسهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك فى الآية التالية: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ».

أى تعبير عجيب هذا! فهم من جانب يسمّونه ساحراً، ومن جانب آخر يلجأون إليه لرفع البلاء عنهم، ومن جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية.

إنّ موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعة والمحقرة لم يكفّ عن السعى لهدايتهم مطلقاً، ولم ييأس بسبب عنادهم وتعصبهم، بل استمرّ فى طريقه، ودعا ربّه مرات كى تهدأ عواصف البلاء، وهدأت، لكنّهم كما تقول الآية التالية: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ».

كل هذه دروس حيّة وبليغة للمسلمين، وتسلية للنبى صلى الله عليه و آله لكى لا ينثنوا مطلقاً أمام عناد المخالفين وتصلبهم.

وهى أيضاً تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنّهم ليسوا أقوى من فرعون وآل فرعون ولا أشد، فلينظروا عاقبة أمر اولئك، وليتفكروا فى عاقبتهم.

وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أ لَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى أ فَلَا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶) إذا كان نبيّاً فلم لا يملك أسورة من ذهب: لقد ترك منطق موسى عليه السلام من جهة، ومعجزاته المختلفة من جهة اخرى، وزعزعت أفكار الناس واعتقادهم بفرعون.

هنا أراد فرعون بسفسطته ومغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۳

مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

وبهذا فقد عظّم فرعون القيم المبتدعة السيئة، وجعل المال والمقام والجاه هى معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام فى عصر الجاهلية فى موقفهم أمام نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

ثم يضيف: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مّنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ».

وبهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين- حكومة مصر، وملك النيل- وذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر ولكنة اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أيّة لكنة فى اللسان، لأنّ اللّه تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مّن لّسَانِى» «۱».

ومن المسلّم أنّ دعاءه قد استجيب، والقرآن شاهد على ذلك أيضاً.

ثم تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال: «فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكَةُ مُقْتَرِنِينَ».

إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور والقلائد الذهبية، ولذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم

يكن معه مثل آلات الزينة هذه، وهذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصية فى نظره الذهب والفضة وأدوات الزينة.

أمّا أنبياء اللَّه فإنّهم بطرحهم هـذه المسائل- بالـذات- جانباً كانوا يريـدون أن يبطلوا هـذه المقاييس الكاذبـة، وأن يزرعوا محلّها القيم الإنسانيـة الأصـيلة- أى العلم والتقوى والطهـارة- لأنّ نظام القيم إذا لم يُصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبداً.

وتشير الآيـة التاليـة إلى نكتـة لطيفـة، وهى: إنّ فرعـون لم يكن غافلًا عن واقع الأـمر تمامـاً، وكـان ملتفتـاً إلى أن لاـ قيمـة لهـذه القيم والمعايير، إلّاأنّه: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ».

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الإسـتمرار فى تحقيق أهدافها وأنانياتها، هى الإبقاء على الناس فى مستوى متردٍ من الفكر والثقافة والوعى، وتسعى إلى تركهم حمقى لاـ يعون مـا حولهم باسـتخدام أنواع الوسائـل، لأنّ يقظتها ووعيها، وتنامى رشـدها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، ويعتبر أكبر عدو للحكومات المستبدة.

والطريف أنّ الآية المذكورة تنتهى بجملة: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» إشارة إلى أنّ

---

(۱) سورة طه/ ۲۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۴

هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسـقين ومتمردين على طاعـة اللَّه عزّ وجل وحكم العقل، لما كانوا يستسـلمون لمثل هذه الدعايات والخزعبلات ويصغون إليها.

نعم، كـان هؤلاـء قوماً فاسـقين يتبعون فاسـقاً. كانت هـذه جنايات فرعون وآل فرعون ومغالطاتهم فى مواجهـة رسول اللَّه موسـى عليه السـلام، لكنّنا نرى الآن إلى أين وصـلت عاقبـة أمرهم بعـد كل هـذا الوعظ والإرشاد وإتمام الحجـج من طرق مختلفـة، إذ لم يسـلموا للحق. تقول الآية: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ». فقد اختار اللَّه سـبحانه لهؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبـات، وذلـك لأـنّ كـل عزّتهم وشوكتهم وافتخارهم وقوّتهم كانت بنهر النيل العظيم وفروعه الكثيرة الكبيرة، والـذى كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوّته، إذ قال: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى».

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم وقوّتهم، سبب هلاكهم وفنائهم، ويكون قبراً لهم ليعتبر الآخرون.

«آسفونا»: من مادة «الأسف»، وهو الحزن والغم، ويأتى بمعنى الغضب.

والطريف أنّ غضب اللَّه يعنى «إرادة العقاب»، ورضاه يعنى «إرادة الثواب».

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مرّ من كلام: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْأَخِرِينَ».

«السـلف»: فى اللغة يعنى كل شـىء متقدم، ولذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، وللأجيال الآتية: خلف، ويسمّون المعاملات التى تتمّ قبل الشـراء «سـلفاً» لأنّ ثمن المشترى يـدفع من قبل؛ و «المَثَل»: يقال للكلام الـدائر بين الناس كعبرة، ولما كانت قصة فرعون والفراعنة ومصيرهم المؤلم عبرة عظمى فقد ذكرت فى هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُکَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قَالُوا أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَکَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِکَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۵

سبب النّزول

فى جامع البيان: جلس رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فيما بلغنى يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسـجد، فجاء النضـر بن الحارث حتى

جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلّم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فعرض له النضر بن الحارث، وكلّمه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» [أنبياء ۹۸ و ۹۹]. ثم قام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأقبل عبداللَّه بن الزبعرى بن قيس بن عدى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبداللَّه الزبعرى:

واللَّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبداللَّه بن الزبعرى: أما واللَّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّداً: أكل من عبد من دون اللَّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان فى المجلس من قول عبد اللَّه الزبعرى (ورأوا أنّه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله من قول عبداللَّه بن الزبعرى، فقال) رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «نعم كل من أحبّ أن يعبد من دون اللَّه فهو مع من عبده، إنّما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته» «۱».

فأنزل اللَّه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ...» أنبياء ۱۰۱ و ۱۰۲. أى عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة اللَّه تعالى ونزل فيما يذكرون أنّهم يعبدون الملائكة وأنّها بنات اللَّه «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا ...» أنبياء ۲۶- ۲۹ والآيات بعدها. ونزل فى إعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ...» الزخرف ۵۷ و ۵۸ «۲».

التّفسير

أى الآلهة فى جهنم: تتحدث هذه الآيات حول مقام عبودية المسيح عليه السلام، ونفى مقولة المشركين بالوهيته والوهية الأصنام، وهى تكملة للبحوث التى مرت فى الآيات السابقة حول دعوة موسى ومحاربته للوثنية الفرعونية، وتحذير لمشركى عصر النبى صلى الله عليه و آله وكل مشركى العالم. تقول الآية الاولى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» «۳».

---

(۱) جامع البيان ۱۷/ ۱۲۷.

(۲) البداية والنهاية ۳/ ۱۱۰.

(۳) «يصدّون»: من مادة «صد»، تعنى الضحك والصراخ، وإحداث الضجيج والغوغاء، حيث يضعون يداً بيد عند السخرية والإستهزاء عادة. (يراجع لسان العرب، مادة: صدد).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۶

إنّ المثل كان من جانب المشركين، وضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأنّا نقرأ فى الآيات التالية: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا». إنّ المشركين قالوا أنّ عيسى بن مريم قد كان معبوداً، فينبغى أن يكون فى جهنم بحكم هذه الآية، وأى شيء أفضل من أن نكون نحن وأصنامنا مع عيسى؟! قالوا ذلك وضحكوا واستهزؤوا وسخروا.

ثم استمرّوا: «وَقَالُوا ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». فإذا كان من أصحاب الجحيم، فإنّ آلهتنا ليست بأفضل منه ولا أسمى.

ولكن، اعلم أنّ هؤلاء يعلمون الحقيقة، و «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».

بل: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنهُ مَثَلًا لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ».

لقد كان عيسى مقرّاً طوال حياته بالعبودية للَّه، ودعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، ولمّا كان موجوداً فى امته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، ولكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده.

ولئلا يتوهموا أنّ اللَّه سبحانه محتاج لعبوديتهم، وأنّه يصر عليها، فإنّه تعالى يقول فى الآية التالية: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ». ملائكة تخضع لأوامر اللَّه، ولا تعرف عملًا إلّاطاعته وعبادته.

والآية التالية تشير إلى خصيصة اخرى من خصائص المسيح عليه السلام وتقول: إنّ عيسى سبب العلم بالساعة «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ». إمّا

أنّ ولادته من غير أب دليل على قدرة اللّه اللامتناهية، فتحل على ضوئها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السلام من السماء فى آخر الزمان طبقاً لروايات عديدة، ونزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

ثم تقول الآية بعد ذلك: إنّ قيام الساعة حتم، ووقوعها قريب: «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا» لا من حيث الإعتقاد بها ولا من حيث الغفلة عنها.

«وَاتَّبِعُونَ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» وأى صراط أكثر استقامة من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، ويحذركم منه، ويدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث؟!

إلّا أنّ الشيطان يريد أن يبقيكم فى عالم الغفلة والإرتباط بها، فاحذروا: «وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل، مرّة عند وسوسته لأبيكم وأمكم- آدم وحواء-

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۷

وإخراجهما من الجنة، واخرى عندما أقسم على إضلال بنى آدم وإغوائهم، إلّاالمخلَصين منهم.

وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵) مرّت الإشارة إلى جانب من خصائص حياة المسيح عليه السلام فى الآيات السابقة، وتكمل هذه الآيات ذلك البحث. تقول الآية أوّلًا: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

إنّ «الحكمة» اطلقت على كل العقائد الحقة، وبرامج الحياة الصحيحة التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدة والعمل، وتتناول تهذيب نفسه وأخلاقه، وعلى هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمة العلمية» و «الحكمة العملية».

ولهذه الحكمة- إضافة إلى ما مرّ- هدف آخر، وهو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، وتجعل الناس حيارى مضطربين، ولهذا السبب نرى المسيح عليه السلام يؤكّد على هذه المسألة.

وتضيف الآية فى النهاية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

بعد ذلك، ومن أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسألة عبوديته، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ».

وأنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر، فهو مالكى ودليلى.

وللتأكيد أكثر يضيف: «فَاعْبُدُوهُ». إذ لا يستحق العبادة غيره، ولا تليق إلّابه، فهو الرب والكل مربوبون، وهو المالك والكل مملوكون.

ثم يؤكّد كلامه بجملة اخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعة، فيقول: «هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

نعم، إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبودية للّهسبحانه ... ذلك الطريق الذى لا انحراف فيه ولا إعوجاج.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۸

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ».

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذى نزل إلى الأرض.

وبعض آخر اعتبره ابن ربّه.

وآخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثة (الذوات المقدسة الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس).

وهناك فئة قليلة فقط هم الذين اعتبروه عبداللّه ورسوله، غير أنّ عقيدة الأغلبية هى التى هيمنت، وعمت مسألة التثليث والآلهة الثلاثة عالم المسيحية.

وهددهم اللّه سبحانه فى نهاية الآية بعذاب يوم القيامة الأليم، فقال: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۶۶) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (۶۷) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹) ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة: كان الكلام فى الآيات السابقة

يدور حول عبدة الأوثان العنودين، وكذلك حول المنحرفين والمشركين فى امّة عيسى عليه السلام، والآيات مورد البحث تجسد عاقبة أمرهم. يقول تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

فى الدرّ المنثور قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان اللقحة، والرجلان يطويان الثوب». ثم قرأ: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ثم رفعت الآية الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضاً، ويسيرون معاً فى طريق المعصية والفساد، والإغترار بزخارف الدنيا، فتقول: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» «۱».

---

(۱) «الأخلاء»: جمع «خليل»- من مادة خلة- بمعنى المودّة والمحبّة، وأصلها من الخلل أى الفاصلة بين جسمين، ولما كانت المحبّة والصداقة كأنّها تنفذ فى أعماق القلب وثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۹

إنّ تبدل مثل هذه المودّة إلى عداوة فى ذلك اليوم أمر طبيعى، لأنّ كلّا منهم يرى صاحبه أساس تعاسته وسوء عاقبته.

أمّا المتقين تبقى روابط أخوتهم، وأواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القيم والمعايير الخالدة، وتتّضح نتائجها المثمرة فى عرصة القيامة أكثر، فتمنحها قوّة إلى قوّتها.

والآية التالية تبيان لأوصاف المتقين وأحوالهم، وبيان لعاقبتهم التى تبعث على الفخر والإعتزاز فى ذلك اليوم العصيب. يقول لهم اللّه تعالى: «يَا عِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ».

كم هو جميل هذا النداء! نداء مباشر من اللّه سبحانه من دون واسطة توصله ... نداء يبدأ بأحسن الصفات: يا عبادى! نداء يزيل قلق الإنسان فى يوم ليس فيه إلّاالقلق والاضطراب ... نداء يطهر القلب من غم الماضى وحزنه، وينقيه ... نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة المذكورة.

وتبيّن آخر آية- من هذه الآيات- هؤلاء المتقين والعباد المكرمين بصورة أكثر وضوحاً، بذكر جملتين اخريين، فتقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ».

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۷۳) فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين: تبيّن هذه الآيات جزاء عباد اللّه المخلصين، والمؤمنين الصالحين الذين مرّ وصفهم فى الآيات السابقة، وتبشرهم بالجنة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية. تقول أوّلًا: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». وبذلك فإنّ مضيفهم الحقيقى هو اللّه تعالى الذى يدعو ضيوفه ويقول لهم: ادخلوا الجنة.

ثم أشارت إلى أوّل نعمة من تلك النعم، فقالت: «أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ». ومن الواضح أنّ كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معاً اللذة والسرور، فإذا كانا شريكين فى همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين فى سرور الآخرة ونشوتها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۴۴۹

ثم تضيف: «تُحْبَرُونَ».

«تحبرون»: من مادة «حِبْر» أى الأثر المطلوب، وتطلق أحياناً على الزينة وآثار الفرح التى تظهر على الوجه.

وتقول فى بيان النعمة الثالثة: «يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». فهم يضافون ويخدمون بأفضل الأوانى، وألذّ الأطعمة، فى منتهى الهدوء والإطمئنان والصفاء.

«الصحاف»: جمع «صحفة»، وهى فى الأصل من مادة «صحف»، أى التوسع، وتعنى هنا الأوانى الكبيرة الواسعة والأكواب جمع كوب، وهى أقداح الماء التى لا عروة لها.

وتشير فى الرابعة والخامسة إلى نعمتين اخريين جمعت فيهما كل نعم العالم المادية والمعنوية، فتقول: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ».

وعلى قول الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان: وقد جمع اللَّه سبحانه بقوله «مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ» ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنة من أنواع النعيم، لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان.

ولما كانت قيمة النعمة فى كونها خالدة، فقد طمأنت الآية أصحاب النعيم من هذه الجهة عندما ذكرت الصفة السادسة فقالت: «وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». لئلّا يكدر التفكير فى زوال هذه النعمة صفو عيشهم ولذّتهم، فيقلقوا من المستقبل وما يخبئه.

وهنا، من أجل أن يتّضح أنّ كل نعم الجنة هذه تعطى جزاءً لا اعتباطاً وعبثاً، تضيف الآية: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

أى أنّ أعمالكم هى أساس خلاصكم ونجاتكم، إلّاأنّ ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشىء المجانى المعطى من قبل اللَّه تعالى، وكالهبة حصلتم عليها بفضله.

والكلام فى النعمة السابعة والأخيرة فى ثمار الجنة التى هى من أفضل نعم اللَّه، فتقول الآية: «لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ».

وجاء فى الحديث: «لا ينزع رجل فى الجنة ثمرة من ثمرها إلّانبت مثلاها مكانها» «۱».

---

(۱) تفسير روح البيان ۸/ ۳۹۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۱

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (۷۴) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (۷۸) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَى وَ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب: لقد فصّلت هذه الآيات القول فى مصير المجرمين والكافرين فى القيامة، ليتّضح الفرق بينه وبين مصير المؤمنين- المطيعين لأمر اللَّه- المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين. تقول الآية الاولى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ».

«المجرم»: من مادة «جرم»، وهو فى الأصل بمعنى القطع الذى يستعمل فى قطع الثمار من الشجرة- أى القطف- وكذلك فى قطع نفس الشجرة، إلّاأنّه استعمل فيما بعد فى القيام بكل عمل سىء، وربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه وعن القيم الإنسانية، وتبعده عنهما.

والمراد هنا هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلًا لهم.

ولما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمى بمرور الزمان، وتقل شدته تدريجياً، فإنّ الآية التالية تضيف: «لَايُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ».

إنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، وعدم تخفيف العذاب، والحزن واليأس المطلق، وما أشد العذاب الذى تمتزج فيه هذه الامور الثلاثة وتجتمع.

وتنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، واشتروه بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، فتقول: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ».

إنّ القرآن يرى ارادة الإنسان وأعماله السبب الأساسى لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية والوهمية التى اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثم تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذلة هؤلاء ومسكنتهم، فقالت، «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ».

فمع أنّ كل امرىء يهرب من الموت ويريد استمرار الحياة وبقاءها، إلّاأنّه عندما تتوالى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۲

عليه المصائب أحياناً ويضيق عليه الخناق يتمنّى على اللّه الموت، وإذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحياناً لبعض الناس فى الدنيا، فإنّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلّهم يتمنى الموت. ولكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النار وخازنها يجيبهم: «قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ» «۱».

وتقول الآية الاخرى، وهى تشير إلى علّة خلود هؤلاء فى نار جهنم: «لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ».

وللتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، وإن كانت مسألة التوحيد والمعاد والقرآن تأتى فى الدرجة الاولى.

وهذا التعبير يشير إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، وإنّما خالفتم الحق فى الواقع، وهذه المخالفة هى التى ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

وتعكس الآية التالية جانباً من كراهية هؤلاء للحق واشمئزازهم منه، وكذلك مناصرتهم للباطل والتمسك به، فتقول: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ».

فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس ودبّروا المؤمرات لإطفاء نور الإسلام، وقتل النبى صلى الله عليه و آله ولم يتورعوا فى إنزال الضربات بالإسلام والمسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وفى المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء فى هذه الحياة الدنيا، وفى الآخرة بأشد العذاب.

و الآية الاخرى بيان لإحدى علل التآمر، فتقول: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَانَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُم».

فإنّ الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع ورسلنا: «بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ».

«السر»: هو ما يضمره الإنسان فى قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه وأصدقائه؛ و «النجوى»: هى الهمس فى الاذن.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (۸۱) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵)

---

(۱) «ماكثون»: من مادة «مكث»، وهو فى الأصل التوقف المقترن بالإنتظار، وربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاءً، كما نقول- أحياناً- لمن يطلب شيئاً لا يستحقه انتظر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۳

لما كان البحث فى الآيات السابقة- وخاصة فى بداية السورة- عن مشركى العرب واعتقادهم بأنّ للّهولداً، وأنّهم كانوا يظنون الملائكة بنات اللّه، ولما مر البحث فى عدة آيات مضت عن المسيح عليه السلام ودعوته إلى الوحدانية الخالصة والعبودية للّهوحده، فقد ورد البحث فى هذه الآيات فى نفى هذه العقائد الفاسدة عن طريق آخر. تقول الآية: «قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ».

وعلى هذا، فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: لو كان للّهولد لبادرت قبلكم إلى احترامه وتعظيمه، ليطمئن هؤلاء من إستحالة أن يكون للّهولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلًا واضحاً على نفى هذه الإدعاءات، فقالت: «سُبْحَانَ رَبّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

فإنّ من كان مالكاً للسماوات والأرض ومدبراً لها، وربّاً للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد.

ثم تضيف الآية الاخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين وتهديد لهم، وهو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء

الأفراد: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ».

إنّه نفس اليوم الموعود الذى أقسم اللّه تعالى به فى الآية (۲) من سورة البروج، حيث تقول الآية: «وَالْيَوْمِ الْمُوعُودِ».

وتواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسألة التوحيد، وهما تشكلان نتيجة للآيات السابقة من جهة، ومن جهة اخرى دليلًا لتكملتها وإثباتها، وفيهما سبع من صفات اللّه سبحانه، ولجميعها أثر فى تحكيم وتقوية مبانى التوحيد.

فتقف الآية الاولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلهاً، وللصحراء إلهاً وآخر للحرب، ورابعاً للصلح والسلم، وآلهة مختلفة ومتعددة بتعدد الموجودات، فتقول: «وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلهٌ».

وتقول فى الصفتين الثانية والثالثة: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ». فكلّ أعماله تقوم على أساس الدقّة والحساب والنظم، وهو عليم بكل شىء ومحيط به، وبذلك فإنّه يعلم أعمال العباد جيداً، ويجازيهم عليها طبقاً لحكمته.

وتتحدث الآية الثانية فى الصفتين الرابعة والخامسة، بركات وجوده الدائمة الوفيرة، وعن امتلاكه السماء والأرض وما بينهما، فتقول: «تَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۴

وَمَا بَيْنَهُمَا». «تبارك»: من مادة «بركة»، وتعنى امتلاك النعمة الوفيرة، أو الثبات والبقاء، أو كليهما، وكلاهما يصدقان فى شأن اللّه تعالى. وتضيف فى الصفتين السادسة والسابعة: «وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وعلى هذا فإذا أردتم الخير والبركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإنّ مصائركم إليه يوم القيامة، وهو المرجع الوحيد لكم، وبيده كل شىء.

وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹) من يملك الشفاعة: لا زال الحديث فى هذه الآيات- وهى آخر آيات سورة الزخرف- حول إبطال عقيدة الشرك وتفنيدها، وعاقبة المشركين المُرّة، وهى توضح بطلان عقيدتهم بدلائل اخرى. تقول الآية الاولى: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ».

ولمّا كانت الملائكة وأمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا فى ذيل الآية، فقالت: «إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقّ».

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأى كان، حتى وإن كان وثنياً ومشركاً ومنحرفاً عن طريق التوحيد وضالًا عن الصراط المستقيم، بل «وَهُمْ يَعْلَمُونَ». جيداً لمن يشفعون.

ثم تدين المشركين من أفواههم، وتجيبهم جواباً قاطعاً، فتقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

إنّ من النادر أن يوجد من بين مشركى العرب وغيرهم من يعتقد أنّ الأصنام هى الخالقة لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط وشفعاء يقربونهم إلى اللّه زلفى، أو أنّها دلائل وعلامات لأولياء اللّه المقدسين، ثم يضمون إليها ذريعة أن معبودنا يجب أن يكون موجوداً ملموساً ومحسوساً لنأنس به، فيعبدونها، ولذا فإنّهم متى ما سئلوا عن خالقهم فسيقولون: اللّه. ولذلك فإنّ الآية تقول فى نهايتها: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». وهو لوم وتوبيخ لهم ... فإنّكم إذا علمتم حقيقة الأمر فلم تعرضون عن اللّه وتعبدون غيره؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۵

وتحدثت الآية التالية عن شكوى النبى صلى الله عليه و آله إلى اللّه سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبين الذين لا منطق لديهم، فقالت: «وَقِيلِهِ يَا رَبّ إِنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّايُؤْمِنُونَ».

إنّه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً، فأتيتهم من طريق التبشير والإنذار، وذكرت لهم قصص الأقوام الماضين المؤلمة، إلّاأنّ حرارة كلامى لم تؤثر فى برودة قلوبهم، فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلم يؤمنوا.

ويأمر اللّه سبحانه نبيّه فى آخر آية أن «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» ولا يكن إعراضك عنهم إعراض افتراق وغضب وأذى وجرح للمشاعر، بل

أعرض عنهم «وَقُلْ سَلَمٌ» لا سلام تحيّة ومحبّة، بل سلام وداع وافتراق.

إنّ هذا السلام يشبه ذلك السلام الذى ورد فى الآية (۶۳) من سورة الفرقان: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». سلام هو علامة اللامبالاة بهم ممتزجةً بالعلوّ والعزة.

ومع ذلك فإنّه تعالى يهددهم ويحذرهم بجملة عميقة المعنى، لئلا يتصوروا أنّ اللّه تاركهم بعد هذا الفراق والوداع، فيقول: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

نعم، سوف يعلمون أى نار محرقة قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، وأى عذاب أليم قد هيأوا أسبابه ليطالهم فيما بعد؟

«نهاية تفسير سورة الزخرف»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۷

۴۴. سورة الدخان

محتوى السورة: يمكن تلخيص فصول هذه السورة فى سبعة:

۱- بداية السورة بالحروف المقطعة، ثم بيان عظمة القرآن، مع تبيان نزوله فى ليلة القدر أوّل مرة.

۲- وتتحدث عن التوحيد ووحدانية اللّه سبحانه، وبيان بعض مظاهر عظمته فى عالم الوجود.

۳- ويتحدث عن مصير الكفار وعاقبتهم، وأنواع العقوبات الأليمة التى نزلت وستنزل بهم.

۴- وتتحدث عن قصة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل مع قوم فرعون، وهزيمة قوم فرعون وهلاكهم وفنائهم، من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.

۵- وتشكل مسألة القيامة وأنواع العذاب الأليم الذى سينال أصحاب الجحيم، والمثوبات العظيمة التى تسر الروح، والتى سينالها المتقون.

۶- ومن المواضيع الاخرى التى طرحت فى هذه السورة موضوع الغاية من الخلق، وعدم كون خلق السماء والأرض عبثاً.

۷- وأخيراً تنتهى السورة ببيان عظمة القرآن الكريم كما بدأت بذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۸

ولمّا كان الكلام فى الآية العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبين»، فقد سميت بسورة الدخان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى اللّه له بيتاً فى الجنة».

وروى أبو حمزة الثمالى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الدخان فى فرائضه ونوافله بعثه اللّه من الآمنين يوم القيامة، وأظلّه تحت ظلّ عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، واعطى كتابه بيمينه».

حم (۱) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (۳) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۸) نزول القرآن فى الليلة المباركة: نلاحظ فى بداية هذه السورة- وكالسور الأربعة السابقة، والسورتين الآتيتين، والتى يكون مجموعها سبع سور هى سور الحواميم- الحروف المقطعة «حم».

إنّ بعض المفسرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح فى الآية قسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ك (حم)، وقسم بهذا الكتاب المقدس الذى يكون من هذه الحروف.

وكما قلنا، فإنّ الآية الثانية أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ».

لكن لنَر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟ الآية التالية توضح هذا الأمر، فتقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ».

لقـد فسّرها أغلب المفسرين بليلـة القدر، تلك الليلة العظيمة التى تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم ... تلك الليلة التى تقدر فيها مصائر الخلائق.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القرآن كلّه قد نزل فى ليلة القدر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۹

أمّا ما هو الهـدف الأساس من نزوله؟ نهايـة الآيـة أشارت إليه إذ قالت: «إِنَّا كُنَّا مُنـذِرِينَ». فإنّ سـنتنا الدائمـة هى إرسال الرسل لإنـذار الظالمين والمشركين، وكان إرسال نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بهذا الكتاب المبين آخر حلقة من هذه السلسلة المباركة المقدسة.

والآية التالية وصف وتوضيح لليلة القدر، حيث تقول: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ».

التعبير ب (يفرق) إشارة إلى أنّ كل الامور والمسائل المصيرية تقدر فى تلك الليلة؛ والتعبير ب «الحكيم» بيان لاستحكام هذا التقدير، وعدم تغيره، وكونه حكيماً.

وهـذا البيان ينسجم مع الروايات الكثيرة التى تقول: إنّ مقـدرات بنى آدم بأجمعهم لمـدّة سـنة تقـدر فى ليلـة القـدر، وكـذلك تفرق الأرزاق والآجال والامور الاخرى فى تلك الليلة.

وتقول الآية الاخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل اللَّه تعالى: «أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ».

ولأجل تبيان العلة الأساسية لنزول القرآن وإرسال النبى صلى الله عليه و آله وكون المقدرات فى ليلة القدر، تضيف الآية: «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ».

نعم، فإنّ رحمته التى لا تُحدّ توجب أن لا يترك العباد وشأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمة لترشدهم فى سيرهم إلى اللَّه.

وتذكر نهاية هذه الآية- والآيات التالية- سبع صفات للَّهسبحانه، وكلّها تبين توحيده ووحدانيته، فتقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فهو يسمع طلبات العباد، وهو عليم بأسرار قلوبهم.

ثم تقول مبينة للصفة الثالثة: «رَبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ».

لما كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة وأرباب عديدين، وكانوا يظنون أنّ لكل موجود من الموجودات إله، فإنّ هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة: «رَبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». وأثبتت أنّ ربّ كل موجودات العالم واحد.

وتقول فى الصـفة الرّابعـة والخامسـة والسادسة: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ». فحياتكم ومماتكم بيده، وهو سبحانه ربّكم وربّ العالمين، وعلى هذا فلا إله سواه، أوَ يكون من ليس له مقام الربوبية ولا أهليتها، ولا يملك الحياة والموت ربّاً ومعبوداً؟!

وتضيف فى الصفة السابعة: «وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۰

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (۱۰) يَغْشَى النَّاسَ هذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۱) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّى لَهُمُ الـذِّكْرَى وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (۱۵) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶) لمـا كان الكلام فى الآيات السابقـة فى أنّ هؤلاء إن كانوا طلّاب يقين، فإنّ سبل تحصيله كثيرة، وتضيف أوّل آيـة من هـذه الآيات: «بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ» فإنّ شك هؤلاء فى حقانيـة هذا الكتاب السـماوى وفى نبوّتك، ليس نابعاً من كون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جديتهم فى التعامل معها.

ثم انتقلت الآيـة التاليـة إلى تهديـد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، فى الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صـلى الله عليه و آله فقالت: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغشَى النَّاسَ هذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

إنّ المراد من «الـدخان المبين» هو ذلك الـدخان الغليظ الذى سيغطى السـماء فى نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب اللَّه الأليم للظالمين والمفسدين.

عنـد ذلـك سيعم الخوف والاضـطراب كل وجودهم، وتزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، ويتجهون إلى اللَّه تعالى بالقول: «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ».

إلّا أنّ اللَّه عزّ وجل يرفض طلب هؤلاء ويقول: «أَنَّى لَهُمُ الـذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ». رسول كان واضـحاً فى نفسه وتعليماته وبرامجه وآياته ومعجزاته، ومبيناً لها جميعاً.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، ويؤمنوا باللَّه الواحد الأحد، ويتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النبى صلى الله عليه و آله: «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ».

ثم تضيف الآية التالية: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ».

ويقول سبحانه فى آخر آية من هذه الآيات: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ».

«البطش»: هو تناول الشـىء بصولـة، وهنا بمعنى الأخذ للإنتقام الشديد، ووصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التى تنتظر هذه الفئة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۱

وَ لَقَـدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَ إِنِّى عُـذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ (٢١) متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدث حول تمرد مشـركى العرب وعدم إذعانهم للحق، تشـير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التى سارت فى نفس هـذا المسير، وابتليت أخيراً بالعـذاب الأـليم والهزيمـة النكراء، ليكـون ذلـك تسـلية للمؤمنين، وتحـذيراً للمنكرين المعانـدين. وذلك النموذج هو قصة موسى وفرعون، حيث تقول الآيـة: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ».

«فتنّا»: من مـادة «فتنـة»، وهى فى الأصـل تعنى وضع الـذهب فى فرن النـار لتخليصه من الشوائب، ثم أطلقت على كـل امتحان واختبار يجرى لمعرفة نسبة خلوص البشر.

ثم تضيف الآية: «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ».

لقد خاطبهم موسى عليه السلام باسلوبه المؤدب جدّاً، المليء بالود والمحبة، فقال: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

وطبقاً لهـذا التفسـير، فإنّ «عِبَادَ اللَّهِ» بحكم المخاطب، والمراد منهم الفراعنـة، وبالرغم من أنّ هذا التعبير يسـتعمل فى آيات القرآن فى شـأن العبـاد الصـالحين، إلّاأنّه أطلق أيضاً فى موارد عديـدة على الكفار والمجرمين، من أجل تحريك وجـدانهم، وجـذب قلوبهم نحو الحق.

بناء على هذا، فإنّ المراد من «أَدُّوا» إطاعة أمر اللَّه سبحانه وتنفيذ أوامره.

ثم يقول لهم موسـى عليه السلام بعد أن دعاهم إلى طاعة اللَّه سبحانه، أو إطلاق سراح بنى إسرائيل وتحريرهم: إنّ مهمّتى الاخرى أن أقول لكم: «وَأَن لَّاتَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنّى ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» معجزاته بينة، وأدلته منطقية واضحة.

ولما كان المستكبرون وعبيد الدنيا لا يدعون أى تهمة وافتراء، إلّاوألصقوهما بمن يرونه مخالفاً لمنافعهم ومصالحهم اللامشروعة بل لا يتورعون حتى عن قتله وإعدامه، لذا فإنّ موسى عليه السلام يضيف للحد من مسلكهم هذا: «وَإِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ».

وتخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: «وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۲

لأنّ موسـى عليه السـلام كان واثقاً من نفوذه بين أوساط الناس، ومختلف طبقاتهم، بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات، والأدلة القوية،

والسلطان المبين.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (۲۶) وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹) لقد استخدم موسى عليه السلام كل وسائل الهداية للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلّا أنّها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، وطرق كل باب ولكن ما من مجيب. لذلك يئس منهم، ولم ير لهم علاجاً إلّالعنهم والدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل فى هدايتهم لا يستحقون الحياة فى قانون الخلقة، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب اللّه ويجتثهم ويطهر الأرض من دنسهم. لذلك تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ».

وقد استجاب اللّه سبحانه دعاءه، وكمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، ونجاة بنى إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السلام أن «فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ».

لكن لا تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إنّ ما حذف هنا من أجل الاختصار وُضّح فى آيات اخرى من القرآن بعبارات موجزة، فمثلًا نقرأ فى الآية (۷۷) من سورة طه: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَاتَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى .

ثم تضيف الآية التى بعدها: عندما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا». والمراد من البحر فى هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

من الطبيعى أنّ موسى عليه السلام وبنى إسرائيل كانوا راغبين فى أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرّة اخرى وتملأ هذا الفراغ، ويبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، ويتجهوا بسلامة إلى الوطن الموعود، إلّاأنّهم امروا أنّ لا يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون وآخر جندى من جنوده يردون النيل، فإنّ أمر إهلاكهم وإماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمة الغاضبة، ولذلك تقول الآية فى ختامها: «إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۳

يبيّن القرآن الكريم فى الآيات التالية تركة الفراعنة العظيمة التى ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكون الفهرس العام لكل حياة الفراعنة، فيقول أوّلًا: «كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

لقد كانت البساتين والعيون ثروتين من أهم وأروع ثروات هؤلاء.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ». وكانت هاتان ثروتين مهمّتين أخريين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التى تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية وغيرها، والمحصولات التى امتدت فى جميع أنحاء مصر، وكانوا يستخدمونها غذاءاً لهم ويصدرون الفائض منها إلى الخارج؛ ومن جهة اخرى كانت القصور والمساكن العامرة، حيث إنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

ولمّا كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الامور الأربعة المهمة التى مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعاً فى جملة مقتضبة، فقال: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ».

ثم يضيف: «كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ».

والمراد من «قَوْمًا ءَاخَرِينَ» هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك فى الآية (۹۵) من سورة الشعراء.

وقد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة وورثوا ميراثهم، وحكموا هناك.

وتقول الآية الأخيرة من هذه الآيات: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ».

إنّ عدم بكاء السماء والأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، وعدم وجود ولى ولا نصير لهم ليحزن عليهم ويبكيهم.

وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (۳۳) بنو إسرائيل فى بوتقة الاختبار: كان الكلام فى الآيات السابقة عن غرق الفراعنة وهلاكهم، وانكسار شوكتهم وانتهاء حكومتهم، وانتقالها إلى الآخرين، وتتحدث هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۴

الآيات فى النقطة المقابلة لذلك أى نجاة بنى إسرائيل وخلاصهم، فتقول: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ». من العذاب الجسمى والروحى الشاق، من ذبح الأطفال الذكور، واستحياء البنات للخدمة وقضاء المآرب، من السخرة والأعمال الشاقة جدّاً، وأمثال ذلك. لقد نجّى اللَّه سبحانه هذه الامّة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم سفاكى الدماء فى التاريخ، فى ظل ثورة موسى بن عمران عليه السلام الربانية، لذلك تضيف الآية: «مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مّنَ الْمُسْرِفِينَ».

وتشير الآية التالية إلى نعمة اخرى من نعم اللَّه سبحانه على بنى إسرائيل، فتقول: «وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». إلّاأنّهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا وعوقبوا.

وعلى هذا فإنّهم كانوا الامة المختارة فى عصرهم، لأنّ المراد من العالمين البشر فى ذلك العصر والزمان لا فى كل القرون والأعصار.

وتشير آخر آية من هذه الآيات إلى بعض المواهب الاخرى التى منحهم اللَّه إيّاها، فتقول: «وَءَاتَيْنَاهُم مّنَ الْأَيَاتِ مَا فِيهِ بَلَؤٌا مُّبِينٌ».

وهذا تحذير لكل الامم والأقوام فيما يتعلق بالإنتصارات والمواهب التى يحصلون عليها بفضل اللَّه ولطفه، فإنّ الامتحان عندئذ عسير.

إِنَّ هؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۶) لا شيء بعد الموت: بعد أنّ جسدت الآيات السابقة مشهداً من حياة فرعون والفراعنة، وعاقبة كفرهم وإنكارهم، تكرر الكلام عن المشركين مرّة اخرى، وأعادت هذه الآيات مسألة شكهم فى مسألة المعاد- والتى مرّت فى بداية السورة- بصورة اخرى، فقالت: «إِنَّ هؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى . وسوف لا نعود إلى الحياة اطلاقاً وما يقوله محمّد عن المعاد والحياة بعد الموت والثواب والعقاب، والجنة والنار لا حقيقة له.

أى إنّنا نموت مرّة واحدة وينتهى كل شيء.

ثم تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: «فَأْتُوا بَابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۵

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (۳۸) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۹) قوم تبع: لقد كانت أرض اليمن- الواقعة فى جنوب الجزيرة العربية- من الأراضى العامرة الغنية، وكانت فى الماضى مهد الحضارة والتمدن، وكان يحكمها ملوك يسمّون «تبّعاً»- وجمعها تبابعة- لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر ويتبعه فى الحكم.

وهذه الآيات تواصل البحث الذى ورد حول مشركى مكة وعنادهم وإنكارهم للمعاد- فتهدد اولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبّع، بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهى فى القيامة وحسب، بل سوف تلاقون فى هذه الدنيا أيضاً مصيراً كمصير قوم تبّع المجرمين الكافرين، فتقول: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ».

ثم تعود الآية التى بعدها إلى مسألة المعاد مرّة اخرى، وتثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لعِبِينَ» «۱».

فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية فسيكون هذا الخلق لعباً ولهواً وعبثاً، لا فائدة من ورائه ولا هدف.

ثم تضيف الآية التى بعدها لتأكيد الكلام: «مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ».

إنّ كون هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون له هدف عقلائى، وذلك الهدف لا يتحقق إلّا بوجود عالم آخر. «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ»،

لأنّهم لا يعملون الفكر فى التوصل إلى الحقائق، وإلّا فإنّ أدلة المبدأ والمعاد واضحة بينة.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۴۲)

---

(۱) «لاعب»: من مادة «لعب»، ويقول الراغب فى المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۶

يوم الفصل: تمثل هـذه الآيات نتيجـة الآيات السابقـة التى بحثت مسألة المعاد، والتى اسـتدل بها عن طريق حكمة خلق هذا العالم على وجود البعث والحياة الاخرى.

فتستنتج الآية الاولى من هذا الإستدلال: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ».

ثم ذكرت الآية التالية شرحاً موجزاً ليوم الفصل هذا، فقالت: «يَوْمَ لَايُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

«المولى»: من مادة «ولاء»، وهى فى الأصل تعنى الإتصال بين شيئين بحيث لا يوجد بينهما حاجز، وله مصاديق كثيرة.

والفرق بين «لا- يغنى» وبين «لا- هم ينصـرون» هو: إنّ الأوّل إشـارة إلى أنّ أى فرد لا يقـدر فى ذلك اليوم على حل مشـكلة فرد آخر بصورة إنفرادية مستقلة، والثانى إشارة إلى أنّهم عاجزون عن حلّ المشاكل حتى وإن تعاونوا فيما بينهم.

لكن هناك جماعة واحدة مستثناة فقط، وهى التى أشارت إليها الآية التالية، فقالت: «إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

لا شك أنّ هذه الرحمة الإلهية لا تُمنح اعتباطاً، بل تشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم (۴۳) طَعَامُ الْأَثِيم (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيم (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيم (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيم (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) شجرة الزقوم: تصف هذه الآيات أنواعاً من عـذاب الجحيم وصـفاً مرعباً يهز الأعماق، وهى تكمل البحث الـذى مرّ فى الآيات السابقة حول يوم الفصل والقيامة، فتقول: «إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِيم». فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المر القاتل، والخبيث الطعام النتن الرائحة.

«الزقوم»: اسم شـجرة لها أوراق صـغيرة وثمرة مرّة خشـنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت فى أرض تهامة من جزيرة العرب، كان المشركون يعرفونها، وهى شجرة عصيرها مرّ، وإذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۷

أصـابت البـدن تورّم؛ و «الأـثيم»: من مـادة «إثم»، وهو المقيم على الـذنب، والمراد هنـا الكفـار المعانـدون المعتـدون، المصـرون على الذنوب والمعاصى المكثرون منها.

ثم تضيف الآية: «كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيم».

«المهل»: الفلز المذاب؛ و «الحميم»: هو الماء الحار المغلى.

فعنـدما يـدخل الزّقوم بطون هؤلاء، فإنّه يولـد حرارة عاليـة لا تطاق، ويغلى كما يغلى الماء، وبـدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوة والطاقة فإنّه يهبهم الشقاء والعذاب والألم والمشقة.

ثم يخاطب سبحانه خزنة النار، فيقول: «خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيم».

«فاعتلوه»: من مادة «العَتْل»، وهى الأخـذ والسـحب والإلقاء؛ و «سواء»: بمعنى الوسط، لأنّ المسافـة إلى جميع الأطراف متساويـة، وأخذ أمثال هؤلاء الأشخاص وإلقاؤهم فى وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوى ما تكون فى الوسط، والنار تحيط بهم من كل جانب.

ثم تشـير الآيـة التاليـة إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الـذى يناله هؤلاء، فتقول: «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيم». وبهـذا فـإنّهم يحترقون من الـداخل، وتحيط النار بكل وجودهم من الخارج، وإضافـة إلى ذلك يصب على رؤوسـهم الماء المغلى فى وسط

الجحيم.

وبعد كل أنواع العذاب الجسمى هذه، تبدأ العقوبات الروحية والنفسية، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصى الكافر: «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ».

أنت الذى ركبك الغرور فلم تدع ذنباً لم ترتكبه، ولا موبقة لم تأتها، فذق الآن نتيجة أعمالك التى تجسدت أمامك، وكما أحرقت أجسام الناس وآلمت أرواحهم، فليحترق الآن داخلك وخارجك بنار غضب اللّه والماء المغلى الذى يصهر ما فى بطونهم والجلود.

ويضيف القرآن الكريم فى آخر آية- من الآيات مورد البحث- مخاطباً إيّاهم: «إِنَّ هذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَام أَمِينٍ (۵۱) فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَ وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۵۷)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۸

المتقون ومختلف نعم الجنة: لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن العقوبات الأليمة لأهل النار، فإنّ هذه الآيات تذكر المواهب والنعم المعدّة لأهل الجنة، لتتضح أهمية كل منهما من خلال المقارنة بينهما. وقد لخّصت هذه المواهب فى سبعة أقسام:

الاولى هى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ». على هذا فلا يصيبهم أى إزعاج أو خوف، بل هم فى أمن كامل من الآفات والبلايا، من الغم والأحزان، ومن الشياطين والطواغيت.

ثم تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: «فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

إنّ التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق والبساتين التى يتمتع بها كل فرد من أهل الجنة، فهى تحت تصرّفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة ودرجاتهم المتفاوتة، لأنّ حدائق الجنة وبساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنة.

وتشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: «يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ».

«السندس»: يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة؛ و «الإستبرق» هى الأقمشة الحريرية السميكة.

طبعاً، ليس فى الجنة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

وتصل النوبة فى النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: «كَذلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ».

«الحور»: جمع حوراء وأحور، وتقال لمن اشتد سواد عينه، واشتد بياض بياضها؛ و «العين»: جمع أعين وعيناء، أى أوسع العين، ولما كان أكثر جمال الإنسان فى عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العِين الجميلة الساحرة.

ثم تناولت الآية الاخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنة فقالت: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ».

ولا أثر هنا للأمراض والاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، وكذلك لا خوف من فسادها وقلّتها.

خلود الجنة ونعمها هى النعمة السادسة من نعم اللّه سبحانه على المتقين، لأنّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال واللقاء هو خوف الفراق، ولذلك تقول الآية: «لَايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۹

وأخيراً يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم وآخرها، فيقول: «وَوَقَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ». فإنّ كمال هذه النعم إنّما يتم عندما يخلو فكر أصحاب الجنة من احتمال العذاب، وعدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ اللّه سبحانه سيعفو عنها بلطفه وكرمه، ويطمئنهم بأن لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلًا.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعة، وكنتيجة لما مر تقول:

«فَضْلًا مّن رَّبّک ذلِک هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ».

صحيح، إنّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلّاأنّ من المسلّم أنّ تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كل هذه النعم الخالدة، بل هى فضل من اللَّه سبحانه، إذ جعل كل هذه النعم والعطايا تحت تصرّفهم ووهبهم إيّاها.

فَإِنَّمَا یَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِک لَعَلَّهُمْ یَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹) قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببيان عظمة القرآن وعمقه، وتنتهى بهذه الآيات التى تبيّن كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتنسجم بذلك بداية السورة مع نهايتها. تقول الآية الاولى: «فَإِنَّمَا یَسَّرْنهُ بِلِسَانِک لَعَلَّهُمْ یَتَذَكَّرُونَ». فمع أنّ محتواه عميق جداً، وأبعاده مترامية، لكنّه بسيط واضح، يفهمه الجميع، وتقتبس من أنواره كل الطبقات، أمثاله جميلة رائعة، وتشبيهاته واقعية بليغة، وقصصه حقيقية تربوية، دلائله واضحة محكمة، وبيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، وهو فى الوقت نفسه ذو حلاوة وجاذبية، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين، ويعلم الجاهلين، ويذكّر من كان له قلب.

وهذه الآية شبيهة بالآية التى تكررت عدّة مرّات فى سورة القمر: «وَلَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».

لكن لمّا كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر اللَّه، ولم يسلموا ويستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددتهم الآية الأخيرة، وحذرتهم فقالت: «فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ». فانتظر ما وعدك اللَّه بالنصر على الكفار، ولينتظروا الهزيمة والخسران ...

انتظر نزول عذاب اللَّه الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك وعدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أى الإنتظارين هو الصحيح؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۰

«ارتقب»: فى الأصل مأخوذة من «الرقبة»، ولما كان من ينتظر شيئاً يمد رقبته نحوه دائماً، فقد جاءت بمعنى انتظار الشىء ومراقبته.

«نهاية تفسير سورة الدخان»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۱

۴۵. سورة الجاثية

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى سبعة فصول:

۱- عظمة القرآن المجيد وأهميته.

۲- بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.

۳- ذكر بعض ادّعاءات الدهريين، والرد عليها بجواب قاطع.

۴- إشارة وجيزة إلى عاقبة بعض الأقوام الماضين، كبنى إسرائيل.

۵- تهديد الضالين المصرّين على عقائدهم المنحرفة والمتعصبين لها تهديداً شديداً.

۶- الدعوة إلى العفو والصفح، لكن مع الحزم وعدم الانحراف عن طريق الحق.

۷- الإشارات البليغة المعبّرة إلى مشاهد القيامة المهولة.

واسمها مقتبس من الآية (۲۸) منها؛ و «الجاثية»: تعنى الجثو على الركب، وهى إشارة إلى وضع كثير من الناس فى ساحة القيامة، فى محكمة العدل الإلهية تلك.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ حم الجاثية ستر اللَّه عورته، وسكن روعته عند الحساب».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۲

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴) وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶) إنّ هذه السورة هى سادس السور التى تبدأ بالحروف المقطعة «حم» وهى تشكل مع السورة الآتية- أى سورة الأحقاف- سور الحواميم السبعة.

يقول الطبرسى رحمه الله فى بداية هذه السورة: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ (حم) اسم هذه السورة، ثم ينقل عن بعض المفسرين، أنّ تسمية هذه السورة ب (حم) للإشارة إلى أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

وربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول:

«تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

«العزيز»: هو القوى الذى لا يقهر؛ و «الحكيم»: هو العارف بأسرار كل شىء، وتقوم كل أفعاله على أساس الحكمة والدقّة.

ثم تناولت الآية التى بعدها بيان آيات اللَّه سبحانه ودلائل عظمته فى الآفاق والأنفس، فقالت: «إِنَّ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ عظمة السماوات من جانب، ونظامها العجيب الذى مرّت عليه ملايين السنين الذى لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، ونظام خلقة الأرض وعجائبها، من جانب ثالث، يكون كل منها آية من آيات اللَّه سبحانه.

غير أنّ علامات التوحيد هذه، وعظمة اللَّه تعالى إنّما يلتفت إليها وينتفع بها المؤمنون، أى طلّاب الحق والسائرون فى طريق اللَّه.

ثم انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: «وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

كل واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، ودليل على علم مبدئ الخلقة وحكمته وقدرته اللامتناهية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۳

وتذكر الآية التالية ثلاث مواهب اخرى لكل منها أثره الهام فى حياة الإنسان والكائنات الحية الاخرى، وكل منها آية من آيات اللَّه تعالى، وهى مواهب «النور» و «الماء» و «الهواء»، فتقول: «وَاخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إنّ نظام «النور» و «الظلمة» وحدوث الليل والنهار حيث يخلف كل منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّاً، وهو عجيب فى وضعه وسنّته وقانونه.

ويحتمل فى تفسير الآية أنّ لا يكون المراد من اختلاف الليل والنهار تعاقبهما، بل هو إشارة إلى اختلاف المدة وتفاوت الليل والنهار، فى فصول السنة، فيعود نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الإختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة والنباتات والفواكه، ونزول الثلوج وهطول الأمطار والبركات الاخرى.

ثم تتناول الحديث فى الفقرة الثانية عن الرزق السماوى، أى «المطر». والماء يشكل الجانب الأكبر والقسم الأساسى من بدن الإنسان، وكثير من الحيوانات الاخرى، والنباتات.

ثم تتحدث فى الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح .. تلك الرياح التى تنقل الهواء الملىء بالأوكسجين من مكان إلى آخر، وتضعه تحت تصرف الكائنات الحية، وتبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى والغابات لتصفيته، ثم إعادته إلى المدن.

والعجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحية- أى الحيوانات والنباتات- متعاكسة فى العمل تماماً، فالاولى تأخذ الأوكسجين وتعطى غاز ثانى أوكسيد الكاربون، والثانية على العكس تتنفس ثانى أوكسيد الكاربون وتزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فى نظام الحياة، ولكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فإنّه يلقح النباتات فيجعلها حاملة للأثمار والمحاصيل، وينقل أنواع البذور إلى الأراضى المختلفة لبذرها هناك، وينمى المراتع الطبيعية والغابات، ويهيج الأمواج المتلاطمة فى قلوب المحيطات، ويبعث الحركة والحياة فى البحار ويثير أمواجها العظيمة، ويحفظ الماء من التعفّن والفساد، وهذه الرياح نفسها هى التى تحرك السفن على وجه المحيطات والبحار وتجريها.

وتقول الآية الأخيرة، إجمالًا للبحوث الماضية، وتبياناً لعظمة آيات القرآن وأهميتها:

«تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۴

«التلاوة»: من مادة «تلو» أى الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقباً، وبناء على هذا فإنّ تلاوة آيات القرآن تعنى قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

والتعبير «بالحق» إشارة إلى محتوى هذه الآيات، وهو أيضاً إشارة إلى كون نبوّة النبى صلى الله عليه و آله والوحى الإلهى حقّاً. وبعبارة اخرى، فإنّ هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت فى طياتها الاستدلال على حقانيتها وحقانية من جاءها.

وحقّاً إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شيء سوف يؤمنون؟ ولذلك تعقب الآية:

«فَبِأَىّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ».

حقّاً إنّ للقرآن الكريم محتوىً عميقاً من ناحية الاستدلال والبراهين على التوحيد، وكذلك فهو يحتوى على مواعظ وإرشادات تجذب العباد إلى اللَّه سبحانه حتى القلوب التى لها أدنى استعداد- أو أرضية صالحة- وتدعو كل مرتبط بالحق إلى الطهارة والتقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات فى أحد فلا أمل فى هدايته بعد ذلك.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۰) ويل لكل أفّاك أثيم: رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام اللَّه مدعماً بمختلف أدلة التوحيد والمواعظ والإرشاد، فلا يترك أثراً فى قلوبهم القاسية، أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول أوّلًا: «وَيْلٌ لِّكُلّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ».

«الأفّاك»: صيغة مبالغة، وهى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدّاً، وتقال أحياناً لمن يكذب كذبة عظيمة حتى وإن لم يكثر من الكذب.

و «الأثيم»: من مادة إثم، أى المجرم والعاصى، وتعطى أيضاً صفة المبالغة.

ويتّضح من هذه الآية جيداً أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات اللَّه سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا فى الذنوب والآثام والكذب، لا اولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يذعنون لها لطهارتهم ونقاء سريرتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۵

ثم تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: «يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا».

وتهدده الآية فى نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: «فَبَشّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». فكما أنّه آذى قلب النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين وآلمهم، فإنّنا سنبتليه بعذاب أليم أيضاً.

ثم تضيف الآية التى بعدها: «وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا».

إنّه يتخذ كل آياتنا هزواً، سواء التى علمها والتى لم يعلمها، وغاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزىء به وهو لم يفهمه أصلًا، وهذا خير دليل على عناد اولئك وتعصّبهم.

ثم تصف الآية عقاب هؤلاء في النهاية فتقول: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

وتوضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: «مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ».

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنم أمامهم وسيصلونها في المستقبل، يمكن أن يكون ناظراً إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا ونبذوا الآخرة والعذاب وراء ظهورهم.

إنّ الآية تضيف مواصلةً الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائلة وآلهتهم التي ابتدعوها ستحل شيئاً من أثقالهم، وأنّها ستغني عنهم من اللَّه شيئاً، فإنّهم قد وقعوا في اشتباه عظيم، حيث: «وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ».

ولمّا لم يكن هناك سبيل نجاة وفرار من هذا المصير، فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا في عذاب اللَّه ونار غضبه: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ولقد استصغر هؤلاء آيات اللَّه سبحانه، ولذلك سيعظم اللَّه عذابهم، وقد اغتر هؤلاء وتفاخروا فألقاهم اللَّه في العذاب الأليم.

هـذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١۴) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۶

مواصلة للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول عظمة آيات اللَّه، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: «هـذَا هُدًى». فهو يميز بين الحق والباطل، ويضيء حياة الإنسان، ويأخذ بيد سالكي طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم ومنزلهم المقصود، لكن:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ». «الرجز»: يعني الاضطراب والإهتزاز وعدم الإنتظار، وتطلق هذه الكلمة أيضاً على مرض الطاعون والإبتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجية الشديدة، والوساوس الشيطانية وأمثال ذلك، لأنّ كل هذه الامور تبعث على الإضطراب وعدم الإنتظام والانضباط.

ثم تحول زمام الحديث إلى بحث التوحيد الذي مرّ ذكره في الآيات الاولى لهذه السورة، فتعطي المشركين دروساً بليغة مؤثرة في توحيد اللَّه سبحانه ومعرفته. فتارة تدغدغ عواطفهم، وتقول: «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

بعد بيان السفن التي لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التي بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ».

فلماذا يعرض الإنسان عنه ويلجأ إلى غيره، ويتسكع على أعتاب المخلوقات الضعيفة، ويبقى في غفلة وذهول عن المنعم الحقيقي عليه؟

ولذلك تضيف الآية في النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان وتحاول إثارتها، وهنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان وفكره، فما أعظم رحمة ربّنا سبحانه! إنّه يتحدث مع عباده بكل لسان وأسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّة بحديث القلب، واخرى بلسان الفكر، والهدف واحد من كل ذلك، ألا وهو إيقاظ الغافلين ودفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

ثم تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقي يحدد كيفية التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله وقالت: «قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَايَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ».

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، وتعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، وألفاظهم بذيئة، وذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان وأسس التربية الإلهية، غير أنّ عليكم أن تقابلوهم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۷

بكل رحابة صدر لئلا يصروا على كفرهم ويزيدوا فى تعصبهم، فتبعد المسافة بينهم وبين الحق.

لكن، ومن أجل أنّ لا ـ يستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجميل والعفو والتسامى، فقد أضافت الآية: «لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

لقد اعتبر بعض المفسرين هذه الجملة تهديداً للكفار والمجرمين، فى حين أنّ البعض الآخر اعتبرها بشارة للمؤمنين لهذا العفو والصفح، لكن لا مانع من أن تكون تهديداً لتلك الفئة من جانب، وبشارة لهذه الجماعة من جانب آخر، كما أشير إلى هذا المعنى فى الآية التالية أيضاً. تقول الآية: «مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ».

إنّ هذا التعبير الذى ورد فى القرآن الكريم مراراً، وبعبارات مختلفة، يشكل جواباً لمن يقول: ماذا يضر عصياننا اللَّه تعالى، وما تنفعه طاعتنا؟

فتقول هذه الآيات: إنّ كل ضرر ذلك وكل نفعه يعود عليكم، فأنتم الذين تسلكون مراقى الكمال فى ظل الأعمال الصالحة، وتحلّقون إلى سماء قرب اللَّه عزّ وجل، كما أنّكم أنتم الذين تهوون إلى الحضيض نتيجة ارتكابكم الآثام والمعاصى، فتبتعدون عن اللَّه عزّ وجل وتستحقون بذلك اللعنة الأبدية.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰) آتينا بنى إسرائيل كل ذلك، ولكن ...: متابعة للبحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول نعم اللَّه المختلفة وشكرها والعمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجاً من حياة بعض الأقوام الماضين الذين غمرتهم نعم اللَّه سبحانه، إلّاأنّهم كفروا بها ولم يرعوها حق رعايتها.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مّنَ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۸

الطَّيّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

تبيّن هذه الآية فى مجموعها خمس نعم أنعم اللَّه بها على بنى إسرائيل.

النعمة الاولى هى الكتاب السماوى، أى التوراة التى كانت مبينة للمعارف الدينية والحلال والحرام، وطريق الهداية والسعادة؛ والثانية مقام الحكومة والقضاء.

أمّا النعمة الثالثة فقد كانت نعمة مقام النبوّة، حيث اصطفى اللَّه سبحانه أنبياء كثيرين من بنى إسرائيل.

وقد ورد فى رواية أنّ عدد أنبياء بنى إسرائيل بلغ ألف نبى، وفى رواية اخرى: «إنّ عدد أنبياء بنى إسرائيل أربعة آلاف نبى».

وتتحدث الآية فى الفقرة الرابعة حديثاً جامعاً شاملًا عن المواهب المادية، فتقول:

«وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيّبَاتِ».

النعمة الخامسة، هى تفوقهم وقوّتهم التى لا ينازعهم فيها أحد، كما توضح الآية ذلك فى ختامها فتضيف: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

لا شك أنّ المراد من «العالمين» هنا هم سكان ذلك العصر.

وتشير الآية التالية إلى الموهبة السادسة التى منحها اللَّه سبحانه لهؤلاء المنكرين للجميل، فتقول: «وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مّنَ الْأَمْرِ».

«البيّنات»: يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات الواضحة التى أعطاها اللَّه سبحانه موسى بن عمران عليه السلام وسائر أنبياء بنى إسرائيل، أو أنّها إشارة إلى الدلائل والبراهين المنطقية الواضحة، والقوانين والأحكام المتقنة الدقيقة.

فمع وجود هذه المواهب والنعم العظيمة، والدلائل البيّنة الواضحة لا يبقى مجال للاختلاف، إلّاأنّ الكافرين بالنعم هؤلاء ما لبثوا أن

اختلفوا، كما يصور القرآن الكريم ذلك فى تتمة هذه الآية إذ يقول: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

ويهددهم القرآن الكريم فى نهاية الآية بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وبهذا فقد فقدوا قوّتهم وعظمتهم فى هذه الدنيا بكفرانهم النعمة، واختلافهم فيما بينهم، واشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة.

بعد بيان المواهب التى منّ اللّه تعالى بها على بنى إسرائيل، وكفرانها من قبلهم، ورد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۹

الحديث عن موهبة عظيمة أهداها اللّه سبحانه لنبى الخاتم صلى الله عليه و آله والمسلمين، فقالت الآية:

«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

«الشريعة»: تعنى الطريق التى تستحدث للوصول إلى الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التى يكون مستوى الماء فيها أخفض من الساحل، ثم أطلقت على كل طريق يوصل الإنسان إلى هدفه ومقصوده.

لقد استعملت هذه الكلمة مرّة واحدة فى القرآن الكريم، وفى شأن الإسلام فقط.

والمراد من «الأمر» هنا هو دين الحق الذى مرّت الإشارة إليه فى الآية السابقة أيضاً، حيث قالت: «بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

ولمّا كان هذا المسير مسير النجاة والنصر، فإنّ اللّه سبحانه يأمر النبى صلى الله عليه و آله بعد ذلك أن «فَاتَّبِعْهَا».

وكذلك لما كانت النقطة المقابلة ليس إلّااتباع أهواء الجاهلين ورغباتهم، فإنّ الآية تضيف فى النهاية: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

وتعتبر الآية التالية تبياناً لعلّة النهى عن الإستسلام أمام مقترحات المشركين وقبول طلباتهم، فتقول: «إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيًا». فإذا ما اتبعت دينهم الباطل وأحاط بك عذاب اللّه تعالى فإنّهم عاجزون عن أن يهبّوا لنجدتك وإنقاذك، ولو أنّ اللّه سبحانه سلب منك نعمة فإنّهم غير قادرين على إرجاعها إليك.

ومع أنّ الخطاب فى هذه الآيات موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ المراد منه جميع المؤمنين.

ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». فكلّهم من جنس واحد، ويسلكون نفس المسير، ونسجهم واحد، وكلّهم ضعفاء عاجزون.

لكن لا تذهب بك الظنون بأنّك وحيد، ومن معك قليل ولا ناصر لكم ولا معين، بل:

«وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ».

وكتأكيد لما مرّ، ودعوة إلى اتباع دين اللّه القويم، تقول آخر آية من هذه الآيات: «هذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

«البصائر»: جمع «بصيرة»، وهى النظر، ومع أنّ هذه اللفظة أكثر ما تستعمل فى وجهات النظر الفكرية والنظريات العقلية، إلّاأنّها تطلق على كل الامور التى هى أساس فهم المعانى وإدراكها.

هذا تعبير جميل يعبر عن عظمة هذا الكتاب السماوى وتأثيره وعمقه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۴۷۹

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۲۳) ليسوا سواءً محياهم ومماتهم: متابعة للآيات السابقة التى كان الكلام فيها يدور حول فئتين هما: المؤمنون والكافرون، أو المتقون والمجرمون، فإنّ أولى هذه الآيات قد جمعتهما فى مقارنة أصولية بينهما، فقالت: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً

مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

«اجترحوا»: فى الأصل من الجرح الذى يصيب بدن الإنسان أثر إصابته بحادث، ولما كان إرتكاب الذنب والمعصية كأنّما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمة الإجتراح بمعنى إرتكاب الذنب.

فإنّ الآيـة تقول: إنّه لظن خاطئ أن يتصوروا أنّ الإيمان والعمل الصالح، أو الكفر والمعصـية، لا يترك أثره فى حياة الإنسان، فإنّ حياة هذين الفريقين ومماتهم يتفاوتان تماماً.

أمّا الآيـة التاليـة فـإنّه تفسير لسابقتهـا وتعليـل لهـا، إذ تقول: «وَخَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». فكـلّ العالم يوحى بأنّ خالقه قـد خلقه وجعله يقوم على محور الحق، وأن يحكم العـدل والحق كل مكان، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل اللَّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين.

وكـذلك فإنّ الآيـة الأخيرة من هـذه الآيات توضـيح وتعليل آخر لعـدم المساواة بين الكافرين والمؤمنين، إذ تقول: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَيهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

ولا صنم أخطر من إتباع هوى النفس الذى يوصد كل أبواب الرحمة وطرق النجاة بوجه الإنسان؟

فى تفسير القرطبى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى اللَّه من الهوى».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۱

لأنّ الأصـنام العاديـة موجودات لا خصائص لها ولا صـفات فعالـة مهمـة، أمّا صنم الهوى، فإنّه يغوى الإنسان ويسوقه إلى إرتكاب أنواع المعاصى، والإنزلاق فى هاوية الإنحراف.

وَ قَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَ مَا لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۵) عقائد الدهريين: فى هذه الآيات بحث آخر حول منكرى التوحيد، غايـة ما هناك أنّه ذكر هنا اسم جماعـة خاصة منهم، وهم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقاً، فى حين أنّ أكثر المشـركين كانوا يؤمنون ظاهراً باللَّه، وكانوا يعتبرون الأصـنام شـفعاء عنـد اللَّه، فتقول الآيـة أوّلًا: «وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا».

فكما يموت من يموت منّا، يولد من يولد منّا وبذلك يستمر النسل البشرى: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

وبهذا فإنّهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، والجملة الاولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أمّا الجملة الثانية فتشير إلى إنكار المبدأ.

إنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجملـة وجيزة عميقـة، تلاحظ فى موارد اخرى من القرآن الكريم أيضاً، فقال: «وَمَا لَهُم بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

وقـد ورد نظير هذا المعنى فى الآيـة (۲۸) من سورة النجم فى من يظنون أنّ الملائكـة بنات اللَّه سـبحانه: «وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى القول بقتل المسيح، [النساء ۱۵۷] وعقيدة مشركى العرب فى الأصنام، [يونس ۶۶].

وأشارت الآيـة التاليـة إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهيـة وحججهم الباطلة فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بَابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

كان هؤلاء يرددون أنّه إذا كانت حياة الأموات وبعثهم حقّاً فأحيوا آباءنا كنموذج لإدعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، ولنسألهم عمّا يجرى بعد الموت، وهل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۲

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرَى كُلَّ أَمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۳۰) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱) الكل جاثٍ فى محكمة العدل الإلهى: هذه الآيات جواب آخر على كلام الدهريين، الذين كانوا ينكرون المبدأ والمعاد، وقد أشير إلى كلامهم، فى الآيات السابقة؛ فتقول الآية أوّلًا: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ».

لم يكن هؤلاء يعتقدون باللّه ولا باليوم الآخر، ومحتوى هذه الآية استدلال عليهما معاً، حيث أكّدت على مسألة الحياة الاولى.

ومن جهة اخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياة الاولى عاجزاً عن إعادتها ثانياً؟

ولمّا كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل ولا يدقق النظر فيها، فإنّ الآية تضيف فى النهاية: «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

أمّا الآية التالية فهى دليل آخر على مسألة المعاد، وقد قرأنا الشبهة المطروحة حوله فى آيات القرآن الاخرى، فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». فلما كان مالكاً لتمام عالم الوجود الواسع وحاكماً عليه، فمن المسلّم أن يكون قادراً على إحياء الموتى، ومع وجود تلك القدرة المطلقة لا تكون عملية الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل اللّه سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، ومتجراً وافر الربح إلى ذلك العالم، ولذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ».

إنّ الحياة والعقل والذكاء ومواهب الحياة الاخرى هى رأس مال الإنسان فى سوق التجارة هذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فانٍ سريع الزوال، ولذلك فإنّهم حين يأتون يوم القيامة، يوم لا ينفع إلّاالقلب السليم والإيمان والعمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۳

بام أعينهم، ولات ساعة مندم.

«يخسر»: من الخسران، وهو فقدان رأس المال؛ و «المبطل»: من مادة «إبطال»، فلها فى اللغة معان مختلفة، كإبطال الشىء، والكذب، والاستهزاء والمزاح، وطرح أمر باطل وذكره، وكل هذه المعانى يمكن أن تقبل فى مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، والذين نشروا عقيدة الباطل وأهدافه، والذين كذبوا أنبياء اللّه، وسخروا من كلامهم، سيرون خسرانهم المبين فى ذلك اليوم.

وتجسّد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جدّاً، فتقول: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً».

ثم تبيّن الآية ثانى مشاهد القيامة، فتقول: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». فإنّ هذا الكتاب صحيفة أعمال سجلت فيها كل الحسنات والسيئات، والقبائح والأفعال الجميلة، وأقوال الإنسان وأعماله، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: «لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «۱».

وعبارة «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» يوحى بأنّ لكل امة كتاباً يتعلق بأفرادها جميعاً، إضافة إلى صحيفة الأعمال الخاصة بكل فرد.

ثم يأتيهم الخطاب من قبل اللّه مرّة اخرى، فيقول مؤكّداً: «هـذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ». فقد كنتم تفعلون كل ما يحلو لكم، ولم تكونوا تصدّقون مطلقاً أنّ كل أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما، ولكن «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«نستنسخ»: من مادة «إستنساخ»، وهى فى الأصل مأخوذة من النسخ، وهو إزالة الشىء بشىء آخر، ثم استعملت فى كتابة كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

وتبيّن الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة وإصدار قرار الحكم، حيث تنال كل فئة جزاء أعمالها، فتقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ».

والتعبير ب «ربّهم» يحكى عن لطف اللّه الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنة».

وتبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: «ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ».

---

(۱) سورة الكهف/ ۴۹. مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۴

إنّ ل «رحمة اللَّه» معنى واسعاً يشمل الدنيا والآخرة، وقد أطلقت فى آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، واخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، وثالثة على المطر الغزير المبارک، ورابعة على نعم اخرى كنعمة النور والظلمة، وأطلقت فى موارد كثيرة على الجنة ومواهب اللَّه سبحانه فى القيامة.

«الفوز»: تعنى الظفر المقترن بالسلامة، وقد استعملت فى (۱۹) مورداً من آيات القرآن المجيد، فوصف الفوز مرّة بالمبين، واخرى بالكبير، أمّا فى غالب الآيات فقد وصف بالعظيم، وهو مستعمل عادة فى شأن الجنة.

وتذكر الآية الآتية مصير من يقع فى الطرف المقابل لُاولئک السابقين، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

ومما يلفت النظر أنّ الكلام فى هذه الآية عن الكفر فقط، وأمّا أعمال السوء التى هى عامل الدخول فى عذاب اللَّه وسببه فلم يجر لها ذكر، وذلک لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب.

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۳) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۶) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷) يوم تبدو السيّئات: الآية الاولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر فى الآيات السابقة بصورة مجملة، توضيح لمسألة استكبار الكافرين على آيات اللَّه ودعوة الأنبياء، فتقول:

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَارَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن جزاء هؤلاء وعقابهم، ذلک الجزاء الذى لا يشبه عقوبات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۵

المحاكم الدنيوية، فتقول: «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا». فستتجسد القبائح والسيئات أمام أعينهم، وتتّضح لهم، وتكون لهم قريناً دائماً يتأذون من وجوده إلى جانبهم ويتعذبون من صحبته: «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والأشد ألماً من كل ذلک هو الخطاب الذى يخاطبهم به اللَّه الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا».

لا شک أنّ النسيان لا معنى له بالنسبة إلى اللَّه سبحانه الذى يحيط علمه بكل عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصى وعدم الإهتمام به.

وتتابع الآية الحديث، فتقول: «وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ». وإذا كنتم تظنون أنّ أحداً سيهبّ لنصرتكم وغوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلک، واعلموا أنّه: «وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ».

أمّا لماذا ابتليتم بمثل هذا المصير؟ ف «ذلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

وتكرر الآية ما ورد فى الآية السابقة وتؤكّده باسلوب آخر، فتقول: «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

فقد كان الكلام هناک عن مأواهم ومقرهم الثابت، والكلام هنا عن عدم خروجهم من النار .. حيث قال هناک: ما لهم من ناصرين، وهنا يقول: لا يقبل منهم عذر، والنتيجة هى أنّ لا سبيل لنجاتهم.

وفى نهاية هذه السورة، ولإكمال بحث التوحيد والمعاد، والذى كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية اللَّه وعظمته، وقدرته وحكمته، وتذكر خمس صفات من صفات اللَّه سبحانه فى هذا الجانب، فتقول أوّلًا: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ». لأنّه «رَبّ السَّموَاتِ وَرَبّ الْأَرْضِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

وبعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد والربوبية، تضيف الآية فى الصفة الثالثة: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». لأنّ آثار عظمته ظاهرة فى السماء المترامية الأطراف، والأرض الواسعة الفضاء، وفى كل زاوية من زوايا العالم.

وأخيراً تقول الآية فى الوصفين الرابع والخامس: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وبذلك تكمل مجموعة العلم والقدرة والعظمة والربوبية والمحمودية، والتى هى مجموعة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۶

من أهمّ صفات اللَّه، وأسمائه الحسنى.

وبوصف اللَّه سبحانه بالعزيز والحكيم تنتهى سورة الجاثية كما بدأت بهما، وكل محتواها وما تضمنته شاهد على عزّة اللَّه سبحانه وحكمته السامية.

«نهاية تفسير سورة الجاثية»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۷

۴۶. سورة الأحقاف

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

۱- بيان عظمة القرآن.

۲- محاربة كل أنواع الشرك والوثنية بشكل قاطع.

۳- توجيه الناس إلى مسألة المعاد ومحكمة العدل الإلهى.

۴- إنذار المشركين والمجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»، ومنها اخذ اسم هذه السورة.

۵- الإشارة إلى سعة دعوة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وكونها عامة تتخطى حتى حدود البشر، أى إنّها تشمل طائفة الجن أيضاً.

۶- ترغيب المؤمنين وترهيب الكافرين وإنذارهم، وإيجاد دوافع الخوف والرجاء.

۷- دعوة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله إلى التحلى بالصبر والاستقامة إلى أبعد الحدود، والإقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف لم يصبه اللَّه بروعة فى الدنيا، وآمنه من فزع يوم القيامة».

ومن البديهى أنّ كل هذه الحسنات والدرجات لا تمنح لمجرد التلاوة اللفظية، بل التلاوة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۸

البنّاءة المؤدّية إلى السير فى طريق الإيمان والتقوى، ولمحتوى سورة الأحقاف هذا الأثر حقّاً إذا كان الإنسان طالب حقيقة ومستعداً للعمل والتطبيق.

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَـمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳) خلق هذا العالم على أساس الحق: هذه السورة هى آخر سورة تبدأ ب «حم» وتسمى جميعاً الحواميم.

إنّ هذه الآيات التى تهزّ الأعماق، وتحرك الوجدان، والتى تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من

الألف والباء، والحاء والميم وأمثالها، وكفى بها دليلًا على عظمة اللّه سبحانه إذ أظهر هذا المركّب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة.

وربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآية مباشرة: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم».

إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بداية ثلاث سور من الحواميم، وهى: المؤمن، والجاثية، والأحقاف.

ولا شك فى الحاجة إلى قوّة لا تقهر، وحكمة لا حد لها، لكى تنزل مثل هذا الكتاب.

ثم تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات والأرض وكونهما حقاً، فقالت: «مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». فلا ترى فى كتاب سمائه كلمة تخالف الحق، ولا تجد فى مجموع عالم خلقه شيئاً نشازاً لا ينسجم والحق.

لكن مع أنّ القرآن حق، وخلق العالم حق أيضاً: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ».

فالآيات القرآنية تهددهم وتنذرهم بصورة متلاحقة متوالية، وتحذرهم بأنّ محكمة عظمى أمامهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ نظام الخلقة بدقته وأنظمته الخاصة يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حساباً ونظاماً، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۹

قُلْ أَ رَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (۵) وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (۶) أضلّ الناس: كان الكلام فى الآيات السابقة عن خلق السماوات والأرض وأنّها جميعاً من صنع اللّه العزيز الحكيم، ومن أجل تكملة هذا البحث، تخاطب هذه الآيات النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ».

كنتم تقرّون بأنّ الأصنام لا دخل لها فى خلق الموجودات الأرضية مطلقاً، فعلام تمدون أكفكم إلى الأصنام التى لا تضرّ ولا تنفع، ولا تسمع ولا تعقل، تستمدون منها العون فى حلّ معضلاتكم، ودفع البلاء عنكم، واستجلاب البركات إليكم؟

وإذا قلتم- على سبيل الفرض-: إنّها شريكة فى أمر الخلق والتكوين ف «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ جملة «أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ...» إشارة إلى دليل العقل؛ وجملة «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذَا» إشارة إلى الوحى السماوى، والتعبير ب «أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ» إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين وأوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين.

بعد ذلك تبيّن الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين وانحرافهم، فتقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ». ولا يقف الأمر عند عدم إجابتهم وحسب، بل إنّهم لا يسمعون كلامهم: «وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ».

والأشد أسفاً من ذلك أنّه: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ».

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنّهم سيهبّون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السلام يظهر اشمئزازه وتنفره من عابديه، وتتبرأ الملائكة منهم، بل وحتى الشياطين والجن تظهر عدم رضاها. وأمّا المعبودات التى لا عقل لها ولا حياة، فإنّ اللّه سبحانه سمنحها العقل والحياة لتنطق بالبراءة من هؤلاء العبدة وتبدى غضبها عليهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۰

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۸) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ

بِى وَ لَا بِكَمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) لم أكن أوّل نبيّ: يستمر الحديث فى هذه الآيات عن حال المشركين، وكيفية تعاملهم مع آيات اللّه، فتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ». فهم لا- يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع فى القلوب، وجاذبيته التى لا- تقاوم من جهة، وهم من جهة اخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته وكونه حقّاً، ولذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف ويقولون: إنّه سحر مبين، وهذا القول- بحدّ ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق فى قلوب البشر.

بناءً على هذا، فإنّ «الحق»- فى الآية المذكورة- إشارة إلى آيات القرآن.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة وإلصاقها به، بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوةً أوسع، وأكثر صراحةً: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

إنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، ويعطيهم البرهان الجلى بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحنى ولا تستطيعون الدفاع عنّى مقابل عقابه: «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيًا».

وهذا كما ورد فى الآيات (۴۴- ۴۷) من سورة الحاقّة: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ثم يضيف مهدداً: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ» وسيعاقبكم فى الوقت اللازم.

ثم يقول فى الجملة التالية كتأكيد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جدّاً: «كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ». فهو يعلم صدق دعوتى، وسعيى وجهدى فى إبلاغ الرسالة، كما يعلم كذبكم وافتراءكم والعوائق التى تضعونها فى طريقى، وهذا كاف لى ولكم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۱

ومن أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق، ويعلّمهم بأنّه مفتوح إن أرادوا العودة، يقول: «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». فهو يعفو عن التائبين ويغفر لهم، ويدخلهم فى رحمته.

ويضيف فى الآية التالية: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

يقول النبى صلى الله عليه و آله أنا لست أوّل نبى دعا إلى التوحيد، فقد جاء قبلى أنبياء كثيرون كلّهم كانوا بشراً، وكانوا يلبسون الثياب ويأكلون الطعام، ولم يَدّع أحد منهم أنّه يعلم الغيب المطلق، ولم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التى كان يقترحها الناس، والتى كانت تقوم على أساس الرغبة والميول.

وتضيف آخر آية من هذه الآيات، ولتكملة ما ورد فى الآيات السابقة: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

إنّ الشاهد من بنى إسرائيل الذى شهد على كون القرآن المجيد حقّاً هو «عبد اللّه بن سلام» عالم اليهود المعروف، الذى آمن فى المدينة والتحق بصفوف المسلمين.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَ رَحْمَةً وَ هذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١۴)

سبب النّزول

إنّ الإسلام لاقى ترحيباً واسعاً وامتداداً سريعاً بين الطبقات الفقيرة وسكان البوادى، وذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، ولم يكن الغرور قد ركبهم وملأ عقولهم، وقلوبهم أطهر من قلوب المترفين ومتبعى الشهوات والرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، والذى كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل

المستكبرين فقالوا: أى دين هذا الذى يتبعه سكان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۲

البوادى والفقراء والحفاة والجوارى والعبيد؟ إذا كان ديناً مقبولًا ومعقولًا فلا ينبغى أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعياً، ونتخلف نحن أعيان المجتمع وأشرافه عن اتباعه. وقد أجاب القرآن هؤلاء جواباً شافياً كافياً سيتّضح فى تفسير هذه الآيات.

التّفسير

شرط الإنتصار الإيمان والإستقامة: تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين وأفعالهم، ثم تقريعهم وملامتهم بعد ذلك، فتشير أوّلًا إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنىّ على أساس الكبر والغرور، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ».

فما هؤلاء إلّاحفنة من الفقراء الحفاة من سكان القرى، والعبيد الذين لاحظ لهم من العلم والمعرفة إلّاالقليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق وأن يقبلوا عليه ونحن- أعيان المجتمع وأشرافه- فى غفلة عنه؟

ولذلك فإنّ الآية تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ». أى: إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أنّ القصور فى قابلية القرآن على الهداية.

جملة «سيقولون» بصيغة المضارع، تدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائماً، وكانوا يتخذون هذا الإتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثم تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقاً، ولنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إنّ من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسى الذى يعتبر إماماً أى قدوة للناس ورحمة قد أخبر عن هذا النبى وصفاته، وهذا القرآن أيضاً كتاب منسجم فى آياته وفيه العلائم المذكورة فى التوراة: «وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ». وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

ثم تضيف بعد ذلك: «لِّسَانًا عَرَبِيًّا» يفهمه الجميع ويستفيدون منه.

ثم تبيّن فى النهاية الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: «لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ». وإذا لاحظنا أنّ جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار والدوام، فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر، فهو يحذر الظالمين

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۳

والمجرمين على مدى التأريخ ويخوفهم وينذرهم، ويبشر المحسنين على الدوام.

و الآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

وبناءً على هذا، فإنّ «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، وفى خط الإستقامة والصبر من الناحية العملية.

وتبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشارة وأثمنها، فتقول:

«أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب «الأصحاب» إشارة إلى اجتماعهم الدائم وتنعمهم الخالد بنعم الجنة.

وعبارة «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يدل من جهة على أنّ الجنة لا تمنح مجاناً، بل إنّ لها ثمناً يجب أن يؤدّى، ويشير من جهة اخرى إلى أصل حرية الإنسان واختياره.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي

مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (۱۶) أيّها الإنسان أحسن إلى والديك: هذه الآيات والتى تليها، توضيح لما يتعلق بالفريقين:

الظالم والمحسن، اللذين أشير إليهما إجمالًا فى الآيات السابقة، وتتناول الآية الاولى وضع المحسنين، وتبدأ بمسألة الإحسان إلى الوالدين وشكر جهودهم وأتعابهم التى بذلوها، والذى يعتبر مقدمة لشكر اللّه سبحانه، فتقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا».

«الوصية» و «التوصية» بمعنى مطلق الوصية، ولا ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت، ولذلك فسّرها جماعة هنا بأنّها الأمر والتشريع.

إنّ مسألة الإحسان إلى الوالدين من الاصول الإنسانية، ينجذب إليها ويقوم بها حتى اولئك الذين لا يلتزمون بدين أو مذهب، وبناءً على هذا، فإنّ الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفة، ويرفضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۴

ثم تطرّقت إلى سبب وجوب معرفة حق الام، فقالت: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَثُونَ شَهْرًا».

تضحى خلالها الام أعظم التضحيات، وتؤثر ولدها على نفسها أيّما إيثار، لأنّ آلام ومعاناة الام فى طريق تربية الطفل محسوسة وملموسة أكثر، ولأنّ جهود الام أكثر أهمية إذا ما قورنت بجهود الأب، كان التأكيد أكثر على قدر الام فى الروايات الإسلامية.

ثم إنّه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآنى أنّه كلّما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (۳۰) شهراً.

ثم تضيف الآية: إنّ حياة هذا الإنسان تستمر «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُو وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

إنّ بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمى، وبلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكرى والعقلى.

وفى الحديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبى وجه لا يفلح» «۱».

إنّ القرآن الكريم يضيف فى متابعة هذا الحديث: إنّ الإنسان العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربّه ثلاث طلبات، فيقول أولًا: «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ».

أمّا طلبه الثانى فهو: «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضهُ».

وأخيراً يقدم طلبه الأخير فيقول: «وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى».

وتبيّن الآية فى نهايتها مطلبين، كل منهما تبيان لبرنامج عملى مؤثر، فتقول: «إِنّى تُبْتُ إِلَيْكَ». فقد بلغت مرحلة يجب أن أعين فيها مسير حياتى، وأسير فى ذلك الخط ما حييت.

والآخر: «وَإِنّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

والآية التالية بيان بليغ لأجر هؤلاء المؤمنين الشاكرين وثوابهم، وقد أشارت إلى مكافآت مهمّة ثلاث، فقالت أوّلًا: «أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا».

إنّ جملة «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضهُ» تبيّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذى يبعث على رضى اللّه سبحانه.

---

(۱) تفسير روح المعانى ۲۶/ ۱۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۵

وتعبير «أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» والذى ورد فى آيات عديدة من القرآن المجيد، يبيّن فضل اللّه الذى لا يحصى فى مقام مكافأة العباد وجزائهم، حيث يجعل أحسن أعمالهم معياراً لكل أعمالهم الحسنة فى الحساب والمثوبة.

والهبة الثانية هى تطهيرهم، فتقول: «وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ».

والموهبة الثالثة هى أنّهم: «فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ». فيطهرون من الهفوات التى كانت منهم، ويكونون فى جوار الصالحين المطهرين المقربين عند اللَّه سبحانه.

وتضيف الآية فى نهايتها- كتأكيد على هذه النعم التى مرّ ذكرها-: «وَعْدَ الصّدقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ».

وَ الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَ تَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَ هُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۷) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (۱۸) وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۱۹) مضيّعو حقوق الوالدين: كان الكلام فى الآيات السابقة عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من اللَّه، فبلغوا الغاية ووسعتهم رحمة اللَّه، وكرمهم لطفه، وكل ذلك فى ظل الإيمان والعمل الصالح، وشكر نعم اللَّه سبحانه، والإلتفات إلى حقوق الأبوين والذرية وأدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمّن يقفون فى الطرف المقابل، وهم الكافرون المنكرون للجميل والحق، والعاقون لوالديهم، فتقول: «وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى».

إلّا أنّ أبويه المؤمنين لم يستسلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآية: «وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». غير أنّه يأبى إلّاأن يسير فى طريق الضلالة والعناد الذى اختطه لنفسه، ولذلك نراه يجيبهما بكل تكبر وغرور ولا مبالاة: «فَيَقُولُ مَا هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما تقولانه عن المعاد والحساب ليس إلّاخرافات وقصص كاذبة أتتكم من الماضين من قبلكم، ولست بالذى يعتقد بها وينقاد لها.

وكما بيّنت الآيات السابقة ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإنّ هذه الآيات تبيّن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۶

عاقبة أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على اللَّه، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ». وأى خسارة أعظم من أنّهم خسروا كل رأس مال وجودهم إذ اشتروا به غضب اللَّه عزّ وجل وسخطه.

أمّا الآية الأخيرة من هذه الآيات فإنّها تشير أوّلًا إلى تفاوت درجات كلا الفريقين، فتقول: «وَلِكُلّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا». فليس كل أصحاب الجنة أو أصحاب النار فى درجة واحدة، بل إنّ لكل منهما درجات ومراتب تختلف باختلاف أعمالهم، وحسب خلوص نيّتهم وميزان معرفتهم، وأصل العدالة هو الحاكم هنا تماماً.

«الدرجات»: جمع «درجة»، وتقال عادةً للسلالم التى يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى؛ و «الدركات» جمع «درك»، وهى تقال للسلّم الذى ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، ولذلك يقال فى شأن الجنة: درجات، وفى شأن النار: دركات، لكن لما كانت الآية مورد البحث قد تحدثت عنهما معاً، ولأهمية مقام أصحاب الجنة، ورد لفظ (الدرجات) للأثنين، وهو من باب التغليب.

ثم تضيف الآية: «وَلِيُوَفّيَهُمْ أَعمَالَهُمْ» وهذا التعبير إشارة اخرى إلى مسألة تجسم الأعمال، حيث أنّ أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحة باعثاً على الرحمة به واطمئنانه، وأعماله الطالحة سبباً للبلاء والعذاب الأليم.

وتقول الآية أخيراً كتأكيد على ذلك: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» لأنّهم سيرون أعمالهم وجزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم والجور؟

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰) الزهد والإدخار للآخرة: تستمر هذه الآية فى البحث حول عقوبة الكافرين والمجرمين، وتذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمى والروحى الذى سينال هؤلاء، فتقول: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا».

نعم، فقد كنتم غارقين فى الشهوات، ولم تكونوا تعرفون شيئاً إلّاالتمتع بطيّبات هذا العالم ونعمه المادية، ومن أجل أن تكونوا متحللين من كل القيود فى هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، وسخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كل أنواع الظلم والجور

بحق الآخرين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۷

«فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ». فاليوم ترون جزاء كل ذلك التمتع الباطل، واتّباع الشهوات الأعمى، وعبادة الهوى، والإستكبار والفسق والفجور وتذوقون العذاب المذل والمهين بسبب تلكم الأعمال.

إنّ هذا العرض بحد ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب، حيث يرى الكافرون بأعينهم كل أقسام جهنم من الخارج قبل أن يردوها، وليشاهدوا مصيرهم المشؤوم ويتعذبوا ويتألموا له.

لقد ذكر فی ذيل هذه الآية ذنبان لأصحاب الجحيم، الأوّل: الإستكبار، و الثانی: الفسق.

ويمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات اللّه وبعث الأنبياء والقيامة، والثانی إشارة إلى أنواع الذنوب والمعاصی، فأحدهما يتحدّث عن ترك أصول الدين، والآخر عن تضييع فروع الدين «۱».

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۲) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۲۵) قوم عاد والريح المدمرة: لمّا كان القرآن يذكر قضايا كلية، ثم يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها، ليطبق تلك الكليات. فإنّه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: «وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ».

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النبی العظيم وحرصه على قومه.

ثم تضيف الآية: «إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ».

---

(۱) الميزان فی تفسير القرآن ۱۸/ ۲۰۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۸

«الأحقاف»: تعنی الكثبان الرملية التی تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات ومنحنيات، على أثر هبوب العواصف فی الصحاری، ويتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضاً حصباء كبيرة. إنّ هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن.

يقول القرآن الكريم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم هدّدهم بقوله: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إلّا أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهية، وخاطبوا هوداً: «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

إلّا أنّ هوداً عليه السلام قال فی ردّه على هذا الطلب المتهور الذی يدل على الجنون: «قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ». فهو الذی يعلم متى وفی أی ظروف ينزل عذاب الإستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم وتمنيكم، ولا هو تابع لرغبتی، بل يجب أن يتمّ الهدف ويتحقق، ألا وهو إتمام الحجة عليكم، فإنّ حكمته سبحانه تقتضی ذلك.

ثم يضيف: «وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ». فهو مهمتی الأساسية، ومسؤوليتی الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار فی شأن طاعة اللّه وأوامره فهو أمر يتعلق بكم، وإرادة نزول العذاب ومشيئته تتعلق به سبحانه.

«وَلكِنِّي أَرَيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وجهلكم هذا هو أساس تعاستكم وشقائكم، فإنّ الجهل المقترن بالكبر والغرور هو الذی يمنعكم من دراسة دعوة رسل اللّه، ولا يأذن لكم فی التحقيق فيها ...

وأخيراً لم تؤثر نصائح هود عليه السلام المفيدة، وإرشاداته الأخوية فی قساة القلوب اولئك، وبدل أن يقبلوا الحق لجّوا فی غيّهم

وباطلهم، وتعصبوا له، وحتى نوح عليه السلام كذّبه قومه بهذا الادّعاء الواهى وهو أنّك إن كنت صادقاً فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

والآن، وقد تمّت الحجة بالقدر الكافى، وأظهر اولئك عدم أهليتهم للبقاء، وعدم استحقاقهم للحياة، فإنّ حكمة اللّه سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الإستئصال» ذلك العذاب الذى يجتث كل شيء ولا يبقى ولا يذر.

وفجأة رأوا سحاباً قد ظهر فى الأفق، واتسع بسرعة: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» «۱».

---

(۱) «عارض»: من مادة «عرض»، وهنا بمعنى السحاب الذى ينتشر فى عرض السماء، وربّما كان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنّها تتسع فى ذلك الأفق ثم تصعد؛ و «الأودية»: جمع «واد»، وهو المنخفض ومجرى السيول والمياه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۹

لكن، قيل لهم سريعاً بأنّ هذا ليس سحاباً ممطراً: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

والظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللّه سبحانه، أو أنّ هوداً لمّا سمع صرخات فرحهم واستبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدمّرة: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا».

قال بعض المفسرين: إنّ المراد من «كُلَّ شَيْءٍ» البشر ودوابهم وأموالهم، لأنّ الجملة التالية تقول: «فَأَصْبَحُوا لَايُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ». وهذا يوحى بأنّ مساكنهم كانت سالمة، أمّا هم فقد هلكوا، وألقت الرياح القوية أجسادهم فى الصحارى البعيدة، أو فى البحر.

روى أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجوّ حتى يرى كأنّها جرادة، وقيل: أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت فيها كشهب النار، وروى أنّ أوّل ما عرفوا به أنّه عذاب أليم أنّهم رأوا ما كان فى الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأحال اللّه عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لها أنين.

وجاء فى الآية (۷) من سورة الحاقة: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ».

ثم كشف الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر «۱».

وتشير الآية فى النهاية إلى حقيقة، وهى أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: «كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصَاراً وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

---

(۱) التفسير الكبير ۲۸/ ۲۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۰

لستم بأقوى من قوم عاد أبداً: إنّ هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركى مكة وتقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ».

فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، وأقدر منكم من ناحية المال والثروة والإمكانات المادية، ولكن عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهى، فكيف بكم إذن.

ثم تضيف الآية: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً». فقد كانوا أقوياء فى مجال إدراك الحقائق وتشخيصها أيضاً، وكانوا يدركون الامور جيداً، وكانوا يستغلون هذه المواهب الإلهية من أجل تأمين حاجاتهم ومآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ

سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِدَتُهُم مّن شَیْءٍ إِذْ کَانُوا یَجْحَدُونَ بَایَاتِ اللَّهِ».

وأخیراً: «وَحَاقَ بِهِم مَّا کَانُوا بِهِ یَسْتَهْزِءُونَ».

ثم تخاطب الآیة مشرکی مکة من أجل التأکید علی هذا المعنی ولزیادة الموعظة والنصیحة، فتقول: «وَلَقَدْ أَهْلَکْنَا مَا حَوْلَکُم مّنَ الْقُرَی

.

اولئک الأقوام الذین لا تبعد أوطانهم کثیراً عنکم، وکان مستقرهم فی أطراف جزیرة العرب.

ثم تضیف الآیة بعد ذلک: «وَصَرَّفْنَا الْأَیَاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ».

وتوبخ الآیة الأخیرة من هذه الآیات هؤلاء العصاة، وتذمهم بهذا البیان: «فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً».

حقّاً، إذا کانت هذه الآلهة علی حق، فلماذا لا تعین أتباعها وعبادها وتنصرهم فی تلک الظروف الحساسة، ولا تنقذهم من قبضة العذاب المهول المرعب؟ إنّ هذا بنفسه دلیل محکم علی بطلان عقیدتهم حیث کانوا یظنّون أنّ هذه الآلهة المخترعة هی ملجأهم وحماهم فی یوم تعاستهم وشقائهم.

ثم تضیف: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ». فإنّ هذه الموجودات التی لا قیمة لها ولا أهمیة، والتی لیست مبدأ لأیأثر، ولا تأتی بأی فائدة، وهی عند العسر صماء عمیاء، فکیف تستحق الألوهیة وتکون أهلًا لها؟

وأخیراً تقول الآیة: «وَذلِکَ إِفْکُهُمْ وَمَا کَانُوا یَفْتَرُونَ». فإنّ هذا الهلاک والشقاء، وهذا

العذاب الألیم، واختفاء الآلهة وقت الشدّة والعسر، کان نتیجةً لأکاذیب اولئک وأوهامهم وافتراءاتهم.

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلَی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ (۲۹) قَالُوا یَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا کِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَی مُصَدِّقاً لِمَا بَیْنَ یَدَیْهِ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ وَ إِلَی طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۰) یَا قَوْمَنَا أَجِیبُوا دَاعِیَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِیمٍ (۳۱) وَ مَنْ لَا یُجِبْ دَاعِیَ اللَّهِ فَلَیْسَ بِمُعْجِزٍ فِی الْأَرْضِ وَ لَیْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِیَاءُ أُولَئِکَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۳۲)

سبب النّزول

فی تفسیر علی بن إبراهیم: أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خرج من مکة إلی سوق عکاظ ومعه زید بن حارثة یدعو الناس إلی الإسلام فلم یجبه أحد ولم یجد من یقبله، ثم رجع إلی مکة، فلما بلغ موضعاً یقال له وادی مجنة: تهجد بالقرآن فی جوف اللیل، فمر به نفر من الجن فلمّا سمعوا قراءة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله استمعوا له فلما سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض: «أنصتوا». یعنی اسکتوا (فلمّا قضی) أی فرغ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من القراءة «وَلَّوْا إِلَی قَوْمِهِم مُّنذِرِینَ» إلی قوله «أُولئِکَ فِی ضَلَلٍ مُّبِینٍ» فجاؤا إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فاسلموا وآمنوا وعلمهم رسول اللَّه شرائع الإسلام فأنزل اللَّه علی نبیه «قُلْ أُوحِیَ إِلَیَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنّ» السورة کلها.

التّفسیر

إیمان طائفة من الجن: جاء فی هذه الآیات بحث مختصر حول إیمان طائفة من الجن بنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وکتابه السماوی.

لقد کانت قصة قوم عاد تحذیراً لمشرکی مکة، وقصة إیمان طائفة من الجن تحذیراً آخر.

تقول الآیة أوّلًا: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَیْکَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ».

«صرّفنا»: یعنی نقل الشیء وتبدیله من حالة إلی اخری؛ ولعله إشارة إلی أنّ الجن کانوا

یصغون إلی أخبار السماء عن طریق استراق السمع، ومع ظهور نبی الخاتم صلی الله علیه و آله رجعوا إلیه واتّجهوا نحو القرآن. ثم

تضيف الآية: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا». وذلك حينما كان النبى صلى الله عليه و آله يتلو آيات القرآن فى جوف الليل، أو فى صلاة الصبح.

وأخيراً أضاء نور الإيمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فى أعماقهم كون آيات القرآن حقاً، ولذلك: «فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ».

وتبيّن الآية التالية كيفية دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوة المتناسقة الدقيقة، الوجيزة والعميقة المعنى: «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى .

ومن صفاته أنّا رأيناه يصدق الكتب السماوية السالفة ويتطابق معها فى محتواها، وفيه العلائم الواردة فى تلك الكتب: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ».

وصفته الاخرى أنّه: «يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ». بحيث إنّ كل من يستند إلى عقله وفطرته يرى آيات حقانيته واضحة جلية.

وآخر صفة أنّه يهدى إلى الرشد: «وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيم».

ثم أضافوا: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ». إذ ستمنحون حينها مكافأتين عظيمتين: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيم» «۱».

المراد من: «دَاعِىَ اللَّهِ» نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى كان يرشدهم إلى اللَّه سبحانه.

وتذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- كلام مبلغى الجن، فتقول: «وَمَن لَّايُجِبْ دَاعِىَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ». ينصرونه من عذاب اللَّه، ولذلك فإنّ: «أُولئِكَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

أى ضلال أشد وأسوأ وأجلى من أن يهبّ الإنسان إلى محاربة الحق ونبى اللَّه، بل حتى إلى محاربة اللَّه الذى لا ملجأ له سواه فى كل عالم الوجود، ولا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟!

---

(۱) «يجركم»: من مادة «إجارة»، وقد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب، الإيواء، والحفظ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۳

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۳۳) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أ لَيْسَ هذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (۳۵)

فاصبر كما صبر أولوا العزم: تواصل هذه الآيات البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسألة المعاد فى الآيات السابقة حكاية عن لسان مبلغى الجن- هذا من جهة.

ومن جهة اخرى، فإنّ سورة الأحقاف تتحدث فى فصولها الاولى عن مسألة التوحيد، وعظمة القرآن المجيد، وإثبات نبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله، وتبحث فى آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتكمل بذلك البحث فى الاصول الإعتقادية الثلاثة.

تقول الآية الاولى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

هذا أحد أدلة المعاد العديدة التى يؤكّد عليها القرآن ويستند إليها فى آيات مختلفة، ومن جملتها الآية (۸۱) من سورة يس.

وتجسّد الآية التالية مشهداً من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين ومنكرى المعاد، فتقول:

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ».

وعندما يُعرض الكافرون على النار، ويرون ألسنة لهبها العظيمة المحرقة المرعبة يقال لهم:

«أَلَيْسَ هذَا بِالْحَقِّ». وهل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث ومحكمة اللَّه العادلة، وثوابه وعقابه، وتقولون: ما هذا إلّاأساطير الأوّلين؟

غير أنّ اولئك الذين لا حيلة لهم: «قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا». فهنا يقول اللّه سبحانه، أو ملائكة العذاب: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». وبهذا فإنّهم يرون كل الحقائق بام أعينهم فى ذلك اليوم ويعترفون بذلك الإعتراف الذى لن ينفعهم، وسوف لن تكون نتيجته إلّاالهم والحسرة، وتأنيب الضمير والعذاب الروحى.

ويأمر اللّه سبحانه نبيّه فى آخر آية من هذه الآيات، وهى آخر آية فى سورة الأحقاف،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۴

على أساس ملاحظة ما مرّ فى الآيات السابقة حول المعاد وعقاب الكافرين، أن: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» فلست الوحيد الذى واجه مخالفة هؤلاء القوم وعداوتهم، فقد واجه أولوا العزم هذه المشاكل وثبتوا أمامها واستقاموا.

عبارة (من الرّسل) إشارة إلى فئة خاصة من الأنبياء كانوا أصحاب شريعة، وهم الذين أشارت إليهم الآية (۷) من سورة الأحزاب: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا».

وقد رويت فى هذا الباب روايات كثيرة فى مصادر الشيعة والسنّة، تدل على أنّ الأنبياء أولى العزم كانوا خمسة.

ثم يضيف القرآن بعد ذلك: «وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ». أى للكفار لأنّ القيامة ستحل سريعاً، وسيرون بأعينهم ما أطلقوه عليها وادعوه فيها، ويجزون أشد العذاب، وعندها سيطلعون على أخطائهم، ويعرفون ما كانوا عليه من الضلالة والغى.

إنّ عمر الدنيا قصير جدّاً بالنسبة إلى عمر الآخرة، حتى: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَهَارٍ».

ثم تضيف الآية كتحذير لكل البشر: «بَلَغٌ» لكل اولئك الذين خرجوا عن خط العبودية للّه‌تعالى .. لُاولئك الغارقين فى بحر الحياة الدنيا السريعة الزوال والفناء، والعابدين شهواتها .. وأخيراً هو بلاغ لكل سكان هذا العالم الفانى.

وتقول فى آخر جملة تتضمن استفهاماً عميق المعنى، وينطوى على التهديد: «فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ».

ملاحظة

كان نبى الخاتم مثال الصبر والإستقامة: إنّ حياة أنبياء اللّه العظام- وخاصة نبى الأكرم صلى الله عليه و آله- تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة والشدائد العسيرة، والعواصف الهوجاء، والمشاكل القاصمة، ولما كان طريق الحق مليئاً بهذه المشاكل دائماً، فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء فى هذا المسير.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضيئة فى تاريخ الإسلام إلى أيّام مرّت على الإسلام ونبيّه صلى الله عليه و آله صعبة مظلمة، وهذه النظرة من المستقبل إلى الماضى تجسم الوقائع والحقائق بشكل آخر، فينبغى علينا أن ندرك أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان وحيداً فريداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۵

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتى أنّ أقاربه وعشيرته كانوا فى الخط الأوّل فى هذه المجابهة.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بحيث أغلقوا جميع الأبواب والطرق بوجهه وبوجه أتباعه، حتى مات بعضهم جوعاً، وأقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النبى صلى الله عليه و آله أيّام يصعب على القلم واللسان وصفها، فعندما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثّون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا، ويسيؤوا فى كلامهم إليه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدوّ ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى ...» «۱».

كانوا يسمونه ساحراً تارة، واخرى يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب والرماد على رأسه حيناً، وحيناً يجمعون على قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف والرماح.

إلّا أنّه رغم كل تلك الظروف استمر فى صبره وصموده واستقامته.
وأخيراً جنى الثمرة الطيبة لهذه الشجرة المباركة، فقد عمّ دينه شرق العالم وغربه، لا جزيرة العرب وحدها، ويدوّى اليوم صوت انتصاره صباح مساء فى كل أرجاء الدنيا، وفى قارات العالم الخمسة، وهذا هو معنى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».
«نهاية تفسير سورة الأحقاف»

---

(۱) سيرة النبى صلى الله عليه و آله، لابن هشام ۲/ ۲۸۵؛ تاريخ الطبرى ۲/ ۸۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۷

۴۷. سورة محمد

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى السورة بصورة عامة فى عدة فصول:
۱- مسألة الإيمان والكفر، والمقارنة بين أحوال المؤمنين والكفار فى هذه الدنيا وفى الحياة الآخرة.
۲- بحوث معبرة بليغة وصريحة حول مسألة الجهاد وقتال المشركين، والتعليمات الخاصة فيما يتعلق بأسرى الحرب.
۳- شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدّامة كثيرة حين نزول هذه الآيات فى المدينة.
۴- فصل آخر يتناول مسألة السير فى الأرض، وتدبر مصير الأقوام الماضية وعاقبتهم، كدرس للاعتبار والإتعاظ.
۵- وفى جانب من آيات هذه السورة ذكرت مسألة الاختبار الإلهى لمناسبتها موضوع القتال والجهاد.
۶- ورد الحديث فى فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذى يعتبر بحدّ ذاته نوعاً من الجهاد، وجاء الحديث عن مسألة البخل الذى يقع فى الطرف المقابل.
۷- وتناولت بعض آيات هذه السورة- لمناسبة موضوعها- مسألة الصلح مع الكفار- الصلح الذى يكون أساساً لهزيمة المسلمين وذلّتهم- ونهت عنه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۸

سمّيت هذه السورة بسورة محمّد صلى الله عليه و آله لأنّ اسمه الشريف قد ذكر فى الآية الثانية، واسمها الآخر هو: سورة القتال، والواقع أنّ مسألة الجهاد وقتال أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الذين كفروا لم يرتب أبداً، ولم يدخله شك فى دينه أبداً، ولم يبله اللَّه بفقر أبداً، ولا خوف من سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكّل اللَّه به فى قبره ألف ملك يصلون فى قبره، ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفونه موقف الأمن عند اللَّه عزّ وجل، ويكون فى أمان اللَّه، وأمان محمّد صلى الله عليه و آله».

إنّ الذين يعيشون محتوى هذه السورة فى نفوسهم و أعماق وجودهم، وتشبّعت به أرواحهم، وهم أشداء فى جهاد الأعداء اللدودين القساة، والذين لم يدعوا للشك والتزلزل إلى أنفسهم سبيلًا، تكون أسس دينهم قوية، وإيمانهم صلباً، ولا يملكهم خوف ولا تنالهم ذلّة ولا يعتريهم فقر، وهم فى الآخرة منعمون فى جوار رحمة اللَّه.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ (۲) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (۳) المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل: إنّ هذه الآيات الثلاث تعتبر فى الحقيقة مقدمة لأمر حربى مهم صدر فى الآية الرابعة، فبيّنت الاولى منها وضع الكافرين وحالهم، والثانية حال المؤمنين، وقارنت ثالثتهما بين الإثنين،

وذلك لتتهيأ الأرضية والاستعداد للجهاد الدينى ضد الأعداء الظالمين العتاة باتضاح حال الفئتين.

تقول الآية الاولى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وهى إشارة إلى زعماء الكفر ومشركى مكة الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، ولم يكتفوا بكونهم كفاراً، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل اللّه بأنواع الحيل والخدع والمخططات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۹

والمراد من: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أنّه كل أعمالهم التى قاموا بها، وظاهرها معونة للفقراء والضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك، ستحبط لعدم إيمانهم.

فإنّ اللّه سبحانه قد أحبط كل مؤامراتهم وما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، وحال بينهم وبين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

والآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فى الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فى الآية السابقة، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

والجدير بالإلتفات إليه أنّ الآية تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل اللّه.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب؛ وبناءً على هذا فإنّ إصلاح البال يعنى تنظيم كل شؤون الحياة والامور المصيرية، وهو يشمل الفوز فى الدنيا.

وبيّنت الآية الأخيرة العلّة الأساسية لهذا الإنتصار وتلك الهزيمة من خلال مقارنة مختصرة بليغة، فقالت: «ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ».

ف «الحق» يعنى الحقائق العينية، وأسماها ذات اللّه المقدّسة، وتليها الحقائق المتعلقة بحياة الإنسان، والقوانين الحاكمة فى علاقته باللّه تعالى، وفى علاقته بالآخرين؛ و «الباطل» يعنى الظنون، والأوهام، والمكائد والخدع، والأساطير والخرافات، والأفعال الجوفاء التى لا هدف من ورائها، وكل نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمة فى عالم الوجود.

وتضيف الآية فى النهاية: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ». أى: كما أنّه سبحانه قد بيّن الخطوط العامة لحياة المؤمنين والكفار، وعقائدهم وبرامجهم العملية ونتائج أعمالهم فى هذه الآيات، فإنّه يوضح مصير حياتهم وعواقب أعمالهم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (۴) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بَالَهُمْ (۵) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۰

مختصر الامثل ج۴ ۵۲۰

يجب الحزم فى ساحة الحرب: إنّ الآيات السابقة كانت مقدمة لتهيئة المسلمين من أجل إصدار أمر حربى مهم ذكر فى الآيات مورد البحث، فتقول الآية: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ».

من البديهى أنّ «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، فإنّ الهدف هو دحر العدو والقضاء عليه، ولما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكّدت الآية عليه.

فإنّ هذا الحكم مرتبط بساحة القتال، لأنّ «لقيتم»- من مادة اللقاء- تعنى الحرب والقتال فى مثل هذه الموارد.

ثم تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

«أثخنتموهم»: من مادة «ثخن»، بمعنى الغلظة والصلابة، ولهذا تطلق على النصر والغلبة الواضحة، والسيطرة الكاملة على العدو.
فإنّ الآيـة المـذكورة تبيّن تعليماً عسـكرياً دقيقاً، وهو أنّه يجب أن لا يُقدم على أسـر الأسـرى قبل تحطيم صـفوف العدو والقضاء على آخر حصن لمقـاومته، لأنّ الإقـدام على الأسـر قـد يكون سـبباً فى تزلزل وضع المسلمين فى الحرب، وسـيعيق المسـلمين الإهتمام بأمر الأسرى ونقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.
وتبيّن الجملة التالية حكم أسرى الحرب الذى يجب أن يقام بحقّهم بعد انتهاء الحرب، فتقول: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».
وعلى هذا لا يمكن قتل الأسير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إنّ ولى أمر المسـلمين- طبقاً للمصـلحة التى يراها- يطلق سراحهم مقابل عوض أحياناً، وبلا عوض أحياناً اخرى، وهذا العوض- فى الحقيقة- نوع من الغرامة الحربية التى يجب أن يدفعها العدو.
طبعاً يوجد حكم ثالث فى الإسـلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، وهو اسـتعباد الأسـرى، إلّا أنّه ليس أمراً واجباً، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينفّذه عندما يراه ضرورة فى ظروف خاصة، ولعلّه لم يرد فى القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بيّنته الرّوايات الإسلامية فقط.
ثم تضـيف الآية بعد ذلك: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا». فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو ويصـبح عاجزاً عن مواجهتكم، وعندها سيخمد لهيب الحرب.
ثم تضيف الآية: «ذلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ». بالصواعق السماوية، والزلازل،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۱

والعواصف، والإبتلاءات الاخرى، لكن باب الإختبار وميدانه سيغلق فى هذه الصورة:
«وَلكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ».
هـذه المسألـة هى فلسـفة الحرب، والنكتـة الأساسـية فى صـراع الحق والباطل، ففى هـذه الحروب سـتتميز صـفوف المؤمنين الحقيقيين والعاملين من أجل دينهم عن المتكلمين فى المجالس المتخاذلين فى ساعـة العسـرة، وبـذلك سـتتفتح براعم الاسـتعدادات، وتحيا قوة الإستقامة والرجولة، ويتحقق الهدف الأصلى للحياة الدنيا، وهو الإبتلاء وتنمية قوة الإيمان والقيم الإنسانية الاخرى.
وتحـدّثت آخر جملـة من الآيـة مورد البحث عن الشـهداء الذين قدّموا أرواحهم هدية لدينهم فى هذه الحروب، ولهم فضل كبير على المجتمع الإسلامى، فقالت: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ».
هذه هى أحدى مواهب اللّه فى شأن الشهداء.
وهناك ثلاث مواهب اخرى أضيفت فى الآيات التالية:
تقول الآية أوّلًا: «سَيَهْدِيهِمْ» إلى المقامات السامية، والفوز العظيم، ورضوان اللّه تعالى.
والاـخرى: «وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» فيهبهم هـدوء الروح، واطمئنـان الخـاطر، والنشـاط المعنـوى والروحى، والإنسـجام مع صـفاء ملائكـة اللّه ومعنوياتهم، حيث يجعلهم جلساءهم وندماءهم فى مجالس أنسهم ولذّتهم، ويدعوهم إلى ضيافته فى جوار رحمته.
والموهبة الأخيرة هى: «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ».
إنّه تعـالى لم يبيّن لهم الصـفات الكليّـة للجنات العلى وروضـة الرضوان وحسب، بل عرف لهم صـفات قصورهم فى الجنـة وعلاماتها، بحيث أنّهم عندما يردون الجنة يتوجّهون إلى قصورهم مباشرة.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۲

إن تنصروا اللّه ينصركم: تستمر هذه الآيات فى ترغيب المؤمنين فى جهاد أعداء الحق، وهى ترغّبهم فى الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

إنّ التأكيد على مسألة «الإيمان» إشارة إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقى هو جهاد أعداء الحق.

وعبارة «تَنصُرُوا اللَّهَ» تعنى نصرة دينه، ونصرة نبيّه، وشريعته وتعليماته.

يقول: «يَنصُرْكُمْ» فهو سبحانه يلقى فى قلوبكم نور الإيمان، وفى نفوسكم وأرواحكم التقوى، وفى أرادتكم القوّة والتصميم أكثر، وفى أفكاركم الهدوء والإطمئنان.

ومن جانب آخر يرسل الملائكة لمدكم ونصرتكم، ويغيّر مسار الحوادث لصالحكم، ويجعل أفئدة الناس تهوى إليكم، ويجعل كلماتكم نافذة فى القلوب، ويصيّر نشاطاتكم وجهودكم مثمرة. نعم، إنّ نصرة اللَّه تحيط بالجسم والروح، من الداخل والخارج؛ إلّاأنّه سبحانه يؤكّد على مسألة تثبيت الأقدام من بين كل أشكال النصرة، وذلك لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، وإنّما يكسب الحرب الذين يصمدون ويستقيمون أكثر.

ولمّا كانت حشود العدو العظيمة، وأنواع معداتهم وتجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين فى سبيل اللَّه أحياناً، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وتبيّن الآية التالية علّة سقوط هؤلاء، وجعل أعمالهم هباءً منثوراً، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لقد أنزل اللَّه سبحانه دين التوحيد قبل كل شيء، إلّاأن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر اللَّه سبحانه بالحق والعدالة، والعفّة والتقوى، غير أنّهم أعرضوا عنها جميعاً، واتجهوا صوب الظلم والفساد، بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم اللَّه تعالى وحده: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» «۱».

وإذا كان هؤلاء يتنفّرون من هذه الامور، فمن الطبيعى أن لا يخطوا خطوة فى هذا المسير، ولقد كانت كل مساعيهم وجهودهم فى مسير الباطل وخدمته، فمن الطبيعى أيضاً أن تحبط كل هذه الأعمال.

---

(۱) سورة الزمر/ ۴۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۳

ولمّا كان القرآن الكريم فى كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أيضاً إلى التدبّر فى أحوال الماضين، فقال: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ومن أجل أن لا يظنّ هؤلاء أنّ ذلك المصير المشؤوم كان مختصّاً بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضافت الآية: «وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا».

وتناولت آخر آية- من الآيات مورد البحث- سبب حماية اللَّه المطلقة للمؤمنين ودفاعه عنهم، وإهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ». «المولى»: بمعنى الولى والناصر، وبذلك فإنّ اللَّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين ونصرتهم، أمّا الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، ومن الواضح أنّه تعالى يعين اولئك المستظلين بظل ولايته، ويدفع عنهم النوائب، ويزيل عن طريقهم العراقيل، ويثبّت أقدامهم، وأخيراً فإنّهم ينالون مرادهم بنصرة اللَّه ومعونته، أمّا اولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، وتكون عاقبتهم الهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (۱۴) عاقبة المؤمنين والكافرين: لمّا كانت الآيات السابقة تتحدث عن الصراع الدائم بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبة المؤمنين والكفار من خلال مقارنة واضحة، وهى بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان فى الحياة الدنيا وحسب، بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع فى الآخرة، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ».

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون فى الدنيا، ويتنعّمون بمواهبها ولذّاتها، إلّاأنّ الفرق يكمن فى أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، والأعمال المفيدة البنّاءة لجلب رضى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۴

اللّه تعالى، أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل والشرب والنوم والتمتع بلذات الحياة. ومن أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالية بين مشركى مكة وعبدة الأوثان الماضين، وبعبارة أوضح، فإنّها تهدّدهم تهديداً شديداً، وتؤكّد ضمنياً على بعض جرائمهم الشنيعة التى تدلّ على جواز قتالهم فتقول: «وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ».

فلا يظنّ هؤلاء أنّ الدنيا مستوسقة لهم إلى درجة أنّهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل اللّه من أقدس المدن، فإنّ الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد وثمود والفراعنة وجيش أبرهة موجودات ضعيفة عاجزة، واللّه قادر على تدميرهم بكل سهولة، والقضاء عليهم يسير على اللّه سبحانه.

وتطرح آخر الآيات- مورد البحث- مقارنة اخرى بين المؤمنين والكفار، بين فئتين تختلفان فى كل شىء، فإحداهما مؤمنة تعمل الصالحات، وتحيا الاخرى حياة حيوانية بكل معنى الكلمة .. بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولاية اللّه سبحانه، والآخر لا مولى له ولا ناصر، فتقول: «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم».

إنّ الفريق الأوّل قد اختاروا طريقهم عن معرفة صحيحة، ورؤية واقعية، وعن يقين ودليل وبرهان قطعى؛ أمّا الفريق الثانى فقد ابتلوا بسوء التشخيص، وعدم إدراك الواقع، وظلمة المسير والهدف، فهم فى ظلمات الأوهام حائرون، والعامل الأساس فى هذه الحيرة والضلالة هو اتّباع الهوى والشهوات.

ومن الواضح أنّ الاستفهام فى جملة: «أَفَمَن كَانَ ...» استفهام إنكارى، أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبداً.

«البينة»: تعنى الدليل الواضح الجلى، وهى هنا إشارة إلى القرآن، ومعاجز الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، والدلائل العقلية الاخرى.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَ سُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (۱۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۵

وصف آخر للجنة: إنّ هذه الآية وصف لمصير كل من المؤمنين والكافرين، فالفئة الاولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، وعن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، وهى تحدد عاقبة كلا الفريقين وتوضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار فى الجنة، لكل منها سائله ومحتواه الخاص، ثم تتحدث عن فواكه الجنة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية. تقول الآية أوّلًا: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ».

ثم تضيف: «وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» وذلك أنّ الجنة مكان لا يعتريه الفساد، ولا تتغيّر أطعمة الجنة بمرور الزمن، وإنّما تتغيّر الأطعمة فى هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التى تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثم تطرّقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنة، فقالت: «وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ».

لا يخفى أنّ خمر الجنة وشرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوّث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن فى الآية (۴۷) من سورة الصافات: «لَافِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ»، وليس فيه إلّا العقل والنشاط واللذة الروحية.

وأخيراً تبيّن الآية رابع أنهار الجنة بأنّه: «وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى».

وعلاوة على هذه الأنهار المختلفة التى خلق كل منها لغرض، فقد تحدثت الآية عن فواكه الجنة فى الموهبة الخامسة، فقالت الآية: «وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

وأخيراً تتحدث عن الموهبة السادسة التى تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ إنّ هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: «وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ».

ولنرَ الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أى الكفار؟

تقول الآية متابعة لحديثها: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ».

جملة «سُقُوا» بصيغة الفعل المبنى للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، وبدل الإرتواء فى تلك النار المحرقة فإنّه يقطّع أمعاءهم، وكما هى طبيعة الجحيم، فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الاولى، حيث لا موت هناك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۶

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَا ذَا قَالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (۱۶) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ (۱۹) تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، وطريق تعاملهم مع الوحى الإلهى، وكلمات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ومسألة قتال أعداء الإسلام ومحاربتهم.

تقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا». وكان مرادهم من ذلك الرجل هو النبى صلى الله عليه و آله.

إنّ تعبير هؤلاء فى شأن النبى وكلماته البليغة، كان من القبح والبذاءة إلى درجة تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحى السماوى قط.

«آنفاً»: من مادة «أنف»، ولمّا كان للأنف بروزاً متميّزاً فى وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل فى شأن أشراف القوم، وكذلك تستعمل فى مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء فى الآية مورد البحث.

إلّا أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جواباً قاطعاً، فقال: إنّ كلام النبى صلى الله عليه و آله لم يكن غامضاً ولا معقّداً، بل «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

ويقف المؤمنون الحقيقيون فى الطرف المقابل لهؤلاء، وعنهم تتحدث الآية التالية فتقول:

«وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَيهُمْ».

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الاولى بأنفسهم، واستخدموا عقلهم وفطرتهم فى هذا المسير، ثم أخذ اللّه سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم.

وتحذّر الآية التالية اولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَيهُمْ».

إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجباً عليهم، ومفيداً لهم، بل كانوا فى طغيانهم يعمهون، وبآيات اللّه يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة وبداية القيامة تهزّ العالم وتزلزله، يصيبهم الفزع ويظهرون خضوعهم ويؤمنون، ولا ينفعهم يومئذ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۷

إيمانهم وخضوعهم.

«الأشراط»: جمع «شَرَط»، وهى العلامة، وعلى هذا فإنّ (أشراط الساعة) إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.

وتقول آخر آيـة من هـذه الآيات وكاسـتخلاص لنتيجة البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول الإيمان والكفر، ومصـير المؤمنين والكفار: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». أى:

اثبت على خط التوحيد، فإنّه الدواء الشافى، واعلم أنّ أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذى بيّنت الآيات السالفة آثاره.

وبعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى والعفة عن المعصية، فتقول:

«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ».

لاـ يخفى أنّ النبى صـلى الله عليه و آله لم يرتكب ذنباً قـط بحكم مقـام العصـمة، وأمثـال هـذه التعـابير إشـارة إلى ترك الاولى، فإنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين، أو إلى أنّه قدوة للمسلمين.

ويقول سبحانه فى ذيل الآية، وكتبيان للعلة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَيكُمْ».

فهو يعلم ظـاهركم وبـاطنكم، كتمـانكم وعلاـنيتكم، سرّكم ونجواكم، بـل ويعلم حتى نيّاتكم، وما توسوس به أنفسـكم، ويخطر على أذهانكم، وما يجرى فى ضـمائركم، ويعلم حركاتكم وسـكناتكم، ولهـذا وجب عليكم التوجّه إليه ورفع الأكف بين يديه وطلب العفو والمغفرة والرحمة منه.

«المتقلّب»: هو المكان الذى يكثر التردّد عليه؛ و «المثوى»: هو محل الإستقرار.

إنّ لهاتين الكلمتين معنى واسعاً يشمل كل حركات ابن آدم وسكناته، سواء التى فى الدنيا أم فى الآخرة.

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۸

يخافون حتى من اسم الجهاد: تبيّن هـذه الآيات المواقف المختلفـة للمؤمنين والمنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكملة للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول هذين الفريقين.

تقول الآية الاولى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ».

سورة يكون فيها أمر بالجهاد، يوضح واجبنا تجاه الأعداء القساة.

وأمّا المنافقون: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

إنّ ميـدان الجهـاد بالنسـبة إلى المـؤمنين ميـدان إظهـار عشـقهم لمحبوبهم، ميـدان تفجّر الإسـتعدادت والقابليـات، وهو ميـدان الثبـات والمقاومـة والإنتصـار، ولاـ معنى للخوف فى مثل هـذا الميـدان. إلّاأنّه بالنسـبة إلى المنافقين ميـدان موت وفناء وتعاسـة، ميـدان هزيمة ومفارقة لذائذ الدنيا، وهو أخيراً ميدان مظلم يعقبه مستقبل مرعب غامض.

فإنّ الآية تضيف فى النهاية فتقول: «فَأَوْلَى لَهُمْ».

إنّ جملة أعلاه تعبّر فى الأدب العربى عن التهديد واللعنة، وتمنّى التعاسة والفناء للآخر.

وتضيف الآية التالية: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ».

ثم تضـيف: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَـدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ». وسـيرفع رؤوسـهم فى الدنيا، ويمنحهم العزّة والفخر، ويؤدّى إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، والأجر الكبير، والفوز العظيم فى الآخرة.

وجملة «عَزَمَ الْأَمْرُ» تشير فى الأساس إلى استحكام العمل، إلّاأنّ المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التى سبقتها والتى تليها.

وتضيف الآية التالية: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ». لأنّكم إن أعرضتم عن القرآن والتوحيد، فإنّكم

سترجعون إلى جاهليّتكم حتماً، ولم يكن في الجاهلية إلّاالفساد في الأرض، والإغارة والقتل وسفك الدماء، وقطيعة الرحم، ووأد البنات.

وتوضح الآية التالية المصير النهائي لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ».

إنّ هؤلاء يظنّون أنّ الجهاد الإسلامي القائم على أساس الحق والعدالة، قطيعة للرحم، وفساداً في الأرض، أمّا كل الجرائم التي إرتكبوها في الجاهلية، والدماء البريئة التي سفكوها

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۹

أيّام تسلطهم، والأطفال الأبرياء الذين وأدوهم ودفنوهم وهم أحياء يستغيثون، كانت قائمة على أساس الحق والعدل! لعنهم اللَّه إذ لا اذن واعية لهم، ولا عين ناظرة بصيرة.

وتناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا».

ولهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، ويكون في صميمها لا على هامشها، وعليهم أن يجعلوه قدوتهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كل أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

لكن، أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس وجهادها، وإن كان القرآن بنفسه معيناً في تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت مقفلة بأقفال الهوى والشهوة، والكبر والغرور، واللجاجة والتعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى لَهُمْ (۲۵) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (۲۷) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (۲۸) أفلا يتدبّرون القرآن: تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين ومواقفهم المختلفة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ».

«سوّل»: من مادة «سُؤْل»، وهي الحاجة التي يحرص عليها الإنسان؛ و «التسويل»: بمعنى الترغيب والتشويق إلى الامور التي يحرص عليها، ونسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التي يلقيها في نفس الإنسان، وتمنع من هدايته؛ و «أملى : من مادة «إملاء»، وهو زرع طول الأمل فيهم، والآمال البعيدة المدى، والتي تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق والهدى.

وتشرح الآية التالية علّة هذا التسويل والتزيين الشيطاني، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ». وهذا دأب المنافقين في البحث عن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۰

العصاة والمخالفين، وإذا لم يكونوا مشتركين ومتفقين معهم في كل المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل ويطيعونهم إذا اقتضى الأمر. بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة- وهم «بنو النضير» و «بنو قريظة» الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثة النبي صلى الله عليه و آله، أمّا بعد ظهوره ومبعثه، وتعرّض مصالحهم للخطر، ولحسدهم وكبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام ديناً باطلًا، وغير سليم- ولمّا كان هناك قدر مشترك بين المنافقين واليهود في مخالفتهم النبي صلى الله عليه و آله، وتآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام والمسلمين.

وربّما كان جملة «فِى بَعْضِ الْأَمْرِ» إشارة إلى أنّنا نتعاون معكم في هذا الجزء فقط، فإنّكم تخالفون عبادة الأصنام، وتعتقدون بالبعث والقيامة، ونحن لا نتفق معكم في هذه الامور.

وتهدد الآيات هؤلاء في نهايتها فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ». فهو عليم بكفرهم الباطن ونفاقهم، وبتآمرهم مع اليهود، وسيعاقبهم ويجازيهم في الوقت المناسب.

و الآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وهم يضربون وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء اللّه، ويضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات اللّه ونبيّه.

وتناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علّة هذا العذاب الإلهى وهم على إعتاب الموت، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لأنّ رضى اللّه سبحانه هو شرط قبول الأعمال وكل سعى وجهد.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (۳۱) يعرف المنافقون من لحن قولهم: تشير هذه الآيات إلى جانب آخر فى صفات المنافقين وعلاماتهم، وتؤكّد بالخصوص على أنّهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم وصورتهم الحقيقية عن النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين دائماً، وأن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۱

الكبرى، فتقول أوّلًا: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ».

«الأضغان»: جمع «ضِغْن»، وهو الحقد الشديد.

إنّ الآية التالية تضيف: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ». فنجعل فى وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، وتراهم رأى العين فتنظر واقعهم عندما تنظر ظاهرهم.

ثم تضيف: «وَلَتَعْرِفَنَّهمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ». فيمكنك فى الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم. أى: يمكن معرفة المنافقين مرضى القلوب من خلال الكناية فى كلامهم، وتعبيراتهم المؤذية التى تنطوى على النفاق.

فى تفسير مجمع البيان عن أبى سعيد الخدرى قال: لحن القول بغضهم عليّ بن أبى طالب عليه السلام. قال: وكنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله ببغضهم عليّ بن أبى طالب عليه السلام «۱».

لقد كانت إحدى العلامات البارزة للمنافقين أنّهم كانوا يعادون أوّل من آمن من الرجال، وأوّل مضحٍ فى سبيل الإسلام، ويبغضونه.

واليوم أيضاً لا تصعب معرفة المنافقين من لحن قولهم ومواقفهم المضادة فى المسائل الاجتماعية المهمّة، وخاصة عند الإضطرابات أو الحروب، ويمكن التعرف عليهم بأدنى دقّة فى أقوالهم وأفعالهم.

وأخيراً تضيف الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعمَالَكُمْ». فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها وما بطن، ويعلم أعمال المنافقين، وإذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقى عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن اللّه الذى هو معهم فى سرّهم وعلانيهم، وخلوتهم واجتماعهم؟

وتضيف الآية التالية مؤكّدة وموضحة طرقاً اخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ». الحقيقيين من المتظاهرين بالجهاد والصبر.

---

(۱) مجمع البيان ۹/ ۱۷۶. ثم إنّ جماعة من كبار العامّة نقلوا مضمون هذا الحديث فى كتبهم؛ ومن جملتهم: أحمد بن حنبل فى كتاب فضائل الصحابة، وابن عبد البر فى الإستيعاب، والذهبى فى تاريخ أوّل الإسلام، وابن الأثير فى جامع الاصول، والعلّامة الگنجى فى كفاية الطالب، والسيوطى فى الدرّ المنثور، والآلوسى فى روح المعانى، وأورده جماعة آخرون فى كتبهم؛ وهو يبيّن أنّها إحدى الروايات المسلّمة عن الرسول الأعظم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۲

وتقول الآية الأخيرة: «وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ».

وبهذا فإنّ اللَّه سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم وأخبارهم. فليست هذه المرة الاولى التى يخبر اللَّه سبحانه الناس فيها بأنّى أبلوكم لتمييز صفوفكم، وليعرف المؤمنون الحقيقيون وضعفاء الإيمان والمنافقون، وقد ذكرت مسألة الإمتحان والإبتلاء هذه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهى فى ذيل الآية (۱۵۵) من سورة البقرة، وكذلك وردت فى بداية سورة العنكبوت.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (۳۲) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (۳۳) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (۳۴) بعد البحوث المختلفة التى دارت حول المنافقين فى الآيات السابقة، تبحث هذه الآيات وضع جماعة اخرى من الكفار، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ». حتى وإن عملوا خيراً، لأنّه لم يكن مقترناً بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركى مكة، أو الكفار من يهود المدينة، أو كليهما.

أمّا «تبيّن الهدى»، فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركى مكة، وعن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب.

و «إحباط أعمالهم» إمّا أن يكون إشارة إلى أعمال الخير التى قد يقومون بها أحياناً كإقراء الضيف، والإنفاق، ومعونة ابن السبيل، أو أن يكون إشارة إلى عدم تأثير خطط هؤلاء ومؤامراتهم ضد الإسلام.

وبعد أن تبيّن حال المنافقين، والخطوط العامة لأوضاعهم، وجّهت الآية التالية الخطاب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۳

إلى المؤمنين مبيّنة خطهم وحالهم، فقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ».

فإنّ اسلوب الآية يوحى بأنّ من بين المؤمنين أفراداً كانوا قد قصروا فى طاعة اللَّه ورسوله وفى حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، ولذلك فإنّ اللَّه سبحانه يحذّرهم فى هذه الآية.

وجاءت الآية الأخيرة من هذه الآيات موضحة ومؤكّدة لما مرّ فى الآيات السابقة حول الكفار، وتهدى إلى الصراط المستقيم من يريد التوبة إلى طريق الرجوع، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». لأنّ أبواب التوبة ستغلق بنزول الموت، ويحمل هؤلاء أوزارهم وأوزار الذين يضلّونهم، فكيف يغفر اللَّه لهم.

فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (۳۵) الصلح المذل: متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدث حول مسألة الجهاد، تشير هذه الآية إلى أحد الامور الهامة فى مسألة الجهاد، وهو أنّ ضعفاء الإيمان يطرحون غالباً مسألة الصلح للفرار من مسؤولية الجهاد، ومصاعب ميدان الحرب. ولذلك تقول الآية الشريفة:

الآن وقد سمعتم الأوامر الإلهية فى الجهاد «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ».

أى: الآن وقد لاحت علائم انتصاركم وتفوّقكم، كيف تذلّون أنفسكم وترضون بالمهانة باقتراح الصلح الذى لا يعنى إلّاالتراجع والهزيمة؟ فليس هذا صلحاً فى الواقع، بل هو استسلام وخضوع ينبع من الضعف والإنهيار، وهو نوع من طلب الراحة والعافية، ويقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمة الخطرة.

ومن أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآية: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعمَالَكُمْ». «يتركم»: من مادة «الوتر»، وهو المنفرد، ولذلك يقال لمن قتل قريبه، وبقى وحيداً: وِتْر. وجاء أيضاً بمعنى النقصان؛ وفى الآية- مورد البحث- كناية جميلة عن هذا المطلب، بأنّ اللَّه سبحانه لن يترككم وحدكم، بل سيقرنكم بثواب أعمالكم، خاصّةً وأنّكم تعلمون أنّكم لن تخطوا خطوةً إلّاكتبت لكم، فلم يكن اللَّه لينقص من أجركم شيئاً، بل سيضاعفه ويزيد عليه من فضله وكرمه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۴

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (۳۷) هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (۳۸) قلنا: إنّ سورة محمّد هی سورة الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، وبه تنتهی، والآیات مورد البحث- وهی آخر آیات هذه السورة- تتناول مسألة اخری من مسائل حیاة البشر فی هذا المیدان، فتطرح کون الحیاة الدنیا لا- قیمة لها لزیادة ترغیب المسلمین ودعوتهم إلی طاعة اللّه سبحانه عموماً، وإلی أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنیا والإنشداد إلیها أحد العوامل المهمّة التی تعیق المسلمین عن الجهاد، فتقول: «إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ».

«اللعب»: یقال للأعمال التی تتصف بنوع من الخیال للوصول إلی هدف خیالی؛ و «اللهو»: یقال لکل عمل یشتغل الإنسان به فیصرفه عن المسائل الأساسیة.

والحق أنّ الدنیا لعب ولهو لیس إلّا، فلا یحصل منها أنس وارتیاح، ولیس لها دوام وبقاء، وإنّما هی لحظات کلمح البصر، ولذات زائلة تحفّها الآلام والمتاعب.

ثم تضیف الآیة: «وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ». فلا- اللّه یسألکم أجراً مقابل الهدایة والرشاد وکل تلک الهبات العظیمة فی الدنیا والآخرة، ولا رسوله، فإنّ اللّه تعالی غنی عن العالمین، ولا یحتاج رسوله إلی غیر اللّه.

وإذا کان الشیء الزهید من أموالکم یؤخذ کزکاة وخمس وحقوق شرعیة اخری، فإنّه یعود علیکم ویصرف فیکم، لحمایة یتاماکم ومساکینکم وضعفائکم وأبناء السبیل منکم، وللدفاع عن أمن بلادکم واستقلالها، ولاستقرار النظام والأمن، ولتأمین احتیاجاتکم، وعمران دیارکم.

بناءً علی هذا، فحتی هذا المقدار الیسیر هو من أجلکم ومنفعتکم، فإنّ اللّه ورسوله فی غنی عنکم، وبذلک فلا منافاة بین مفهوم هذه الآیة وآیات الزکاة والإنفاق وأمثالها.

ولتبیان تعلق أغلب الناس بأموالهم وثرواتهم الشخصیة تضیف الآیة التالیة: «إِن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۵

يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ».

«یحفکم»: من مادة «إحفاء»، أی: الإصرار والإلحاح فی المطالبة والسؤال، وهی فی الأصل من حفأ، وهو المشی حافیاً، وهذا التعبیر کنایة عن الأعمال التی یتابعها الإنسان إلی أبعد الحدود؛ و «الأضغان» جمع ضغن، وهو بمعنی الحقد الشدید.

وبذلک فإنّ الآیة ترید أن توقظ أرواح البشر الغاطّة فی نومها العمیق بسوط التقریع والملامة والعتاب، لیرفعوا عن أعناقهم قیود الذل والعبودیة للأموال، ویصبحوا فی حال یضحّون عندها بکل ما لدیهم فی سبیل اللّه، ویقدّمون ما عندهم بین یدیه، ولا یرجون فی مقابل ما یعطون إلّاالإیمان به وتقواه ورضاه عنهم.

والآیة الأخیرة- من الآیات مورد البحث، وهی آخر آیة من سورة محمّد- تأکید آخر علی ما مرّ فی الآیات السابقة حول المسائل المادیة وتعلّق الناس بها، ومسألة الإنفاق فی سبیل اللّه، فتقول: «هَا أَنتُمْ هؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ».

وهنا یأتی سؤال، وهو: إنّ الآیات السابقة قد ذکرت أنّ اللّه لا یسألکم أموالکم، فکیف أمرت هذه الآیة بالإنفاق فی سبیل اللّه؟

غیر أنّ تتمة الآیة تجیب عن هذا السؤال عن طریقین، فتقول أوّلًا: «وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ». لأنّ ثمرة الإنفاق تعود علیکم أنفسکم فی الدنیا والآخرة، حیث یقلّ التفاوت الطبقی، وعندها سیعم الأمن والهدوء فی المجتمع، وتحل المحبة والصفاء محل العداوة والحقد، هذا ثوابکم الدنیوی.

وأمّا فی الآخرة، فستمنحون مقابل کل درهم أو دینار تنفقونه الهبات والنعم العظیمة التی لم تخطر علی قلب بشر، وعلی هذا فإنّ من یبخل یبخل عن نفسه. وبتعبیر آخر: فإنّ الإنفاق هنا یعنی أکثر ما یعنی الإنفاق فی أمر الجهاد، والتعبیر ب «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» یلائم هذا

المعنی أيضاً، ومن الواضح أنّ أی نوع من المساهمة فی تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع واستقلاله وشرفه.

والجواب الآخر هو: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ» فهو غنی عن إنفاقكم فی سبيله، وغنی عن طاعتكم، وإنّما أنتم الفقراء إلی لطفه ورحمته وثوابه وكرمه فی الدنيا والآخرة.

وتحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، والموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم وأنصار دينه وأتباع رسوله وأصحابه،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۶

فحذار أن تقصّروا فی تعظيم هذه النعمة وإكبارها، إذ: «وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم».

وقد جاء نظير هذا التهديد فی الآية (۵۴) من سورة المائدة، حيث تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَی الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وفی تفسير مجمع البيان: روی أبوهريرة أنّ ناساً من أصحاب رسول اللَّه صلی الله عليه و آله قالوا: يا رسول اللَّه! من هؤلاء الذين ذكر اللَّه فی كتابه وكان سلمان إلی جنب رسول اللَّه صلی الله عليه و آله فضرب بيده علی فخذ سلمان فقال: «هذا وقومه، والّذی نفسی بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

وفی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «واللَّه أبدل بهم خيراً منهم الموالی».

«نهاية تفسير سورة محمّد»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۷

۴۸. سورة الفتح

محتوی السورة: هذه السورة كما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالة الفتح والنصر؛ الفتح والنصر علی أعداء الإسلام، الفتح المبين والأكيد «سواءً كان هذا الفتح متعلّقاً بفتح مكة أو بصلح الحديبية أو فتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق».

وفی تفسير مجمع البيان عن عبد اللَّه بن مسعود قال: أقبل رسول اللَّه صلی الله عليه و آله من الحديبية فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل اللَّه عليه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا». فأدركنا رسول اللَّه صلی الله عليه و آله وبه من السرور ما شاء اللَّه، فأخبر أنّها نزلت عليه.

وبمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنّها تتألف من سبعة أقسام:

۱- تبدأ السورة بموضوع البشری بالفتح كما أنّ آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضاً، وفيها تأكيد علی تحقق رؤيا النبی التی تدور حول دخوله وأصحابه مكة وأداء مناسك العمرة.

۲- يتحدث قسم آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلقة بصلح الحديبية ونزول السكينة علی قلوب المؤمنين و «بيعة الرضوان» وما إلی ذلك.

۳- ويتحدث قسم ثالث منها عن مقام النبی صلی الله عليه و آله وهدفه الأسمی.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۸

۴- ويكشف القسم الرابع الستار عن غَدر المنافقين ونقضهم العهد ونكثهم له ويعطی أمثلةً من أعذارهم الواهية فی مسألة عدم مشاركتهم النبی جهاده المشركين والكفار.

۵- وفی قسم آخر يقع الكلام علی طلبات «المنافقين» فی غير محلّها.

۶- والقسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا حرج عليهم.

۷- وأخيراً يتحدث عن خصائص أصحاب النبی وأتباعه فی طريقته وسنّته وصفاتهم التی يتميّزون بها.

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق أنت من عبادى المخلصين، ألحقوه بالصالحين من عبادى وادخلوه جنات النعيم واسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور».

ومن الواضح أنّ الهدف الأصلى من تلاوة هذه السورة هو تطبيق أعمال القارئ وخلقه وطبعه على مفاد هذه السورة ومضامينها.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (۱) الفتح المبين: فى الآية الاولى من هذه السورة بشرى عظيمة للنبى صلى الله عليه و آله بشرى هى عند النبى طبقاً لبعض الرّوايات أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، إذ تقول الآية: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا».

وهو إشارة إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبية».

ومن الأفضل وقبل الولوج فى تفسير الآيات أن نعرض قصة صلح الحديبية ليتّضح «المقام» وليكون هذا العرض بمثابة شأن نزول الآيات أيضاً.

قصة صلح الحديبية: فى السنة السادسة خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله معتمراً فى ذى القعدة لا ـ يريد حرباً ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار ومن تبعه من الأعراب ألف وأربعمائة وساق الهَدْىَ معه سبعين بَدَنة ليعلم الناس أنّه إنّما جاء زائراً للبيت فلما بلغ عُسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبى فقال: يا رسول اللّه هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذى طوى يحلفون باللّه لا تدخلها عليهم أبداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۹

إنّ النبى صلى الله عليه و آله قال للناس: «انزلوا». فقالوا: ما بالوادى ماء ينزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه فنزل فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش الماء بالرىّ حتى ضرب الناس بعطن ..

وبدأ التزاور بين سفراء النبى صلى الله عليه و آله وممثليه وسفراء قريش وممثليها لتحلّ المشكلة على أى نحو كان وأخيراً جاء عروة بن مسعود الثقفى الذى كان رجلًا حازماً عند النبى فقال النبى:

«إنّا لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين ...» فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أىّ قوم قد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشى فواللّه ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمّد محمّداً، وحدّثهم ما رأى وما قال النبى صلى الله عليه و آله ...

فدعا رسول اللّه عمر ليرسله إلى مكة، فقال: ليس بمكة من بنى عدى من يمنعنى وقد علمت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها وأخافها على نفسى فأرسل عثمان فهو أعزّ بها منى فدعا عثمان فأرسله ليبلغ عنه فانطلق فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره فأتى أبا سفيان، وعظماء قريش فبلغهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا لعثمان حين فرغ من أداء الرسالة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف به فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبى صلى الله عليه و آله فاحتبسته قريش عندها فبلغ النبى صلى الله عليه و آله أنّه قد قتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة .. ثم أتى الخبر أنّ عثمان لم يقتل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى النبى صلى الله عليه و آله ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل سهيل بن عمرو إلى النبى صلى الله عليه و آله وأطال معه الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح، فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله علىّ بن أبى طالب فقال: «اكتب بسم اللّه الرّحمن الرّحيم». فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فكتبها، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللّه سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو نعلم أنّك رسول اللّه لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال لعلى: «امح رسول اللّه». فقال: لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله وليس يحسن أن يكتب فكتب موضع رسول اللّه محمّد بن عبد اللّه، وقال لعلى لتبلين بمثلها، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن الناس، وإنّه من أتى منهم رسول اللّه بغير إذن وليّه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول اللّه لم يردّوه عليه ومن أحب أن يدخل فى عهد رسول اللّه دخل ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة فى عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وأن يرجع

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنهم عامه ذلك فإذا كان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۰

عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، وسلاح الراكب السيوف فى القِرَب لا تدخلها بغيرها ... فلما فرغ النبى صلى الله عليه و آله من قضيته قال: «قوموا فانحروا ثم احلقوا».

فما فتح فى الإسلام قبله فتح كان أعظم منه حيث أمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فدخل فى الإسلام تينك السنتين مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

وفى ذلك الحين نزلت سورة الفتح وأعطت للنبى الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين «۱».

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۲) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (۳) نتائج الفتح المبين الكبرى: فى هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركة من «الفتح المبين» (صلح الحديبية) والتى ورد ذكره فى الآية السابقة.

فتقول الآيتان: «لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا* وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا».

وبهذا فإنّ اللَّه منح نبيّه الكريم فى ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمة هى:

«المغفرة»، و «إتمام النعمة»، و «الهداية» و «النصر».

الإجابة على سؤال مهم: تثار هنا سؤال وهو: ما المراد من العبارة الآنفة «لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» مع أنّ النبى معصوم من الذنب؟

وللحصول على الإجابة «الجامعة» لهذه الإشكال لابدّ من ذكر مقدمة وهى:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفية بين فتح الحديبية ومغفرة الذنب! وبالتدقيق فى الحوادث التاريخية وما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، وهى أنّه حين يظهر أىّ مذهب حق ويبرز فى عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافية الذين يرون أنفسهم ووجودهم فى خطر يكيلون التهم والامور التافهة إليه ويشيعون الشائعات والأباطيل وينشرون الأراجيف الكاذبة بصدده. ولكن حين ينال الانتصار وتحظى مناهجه وخططه بالموفقية فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء، وتتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات وندامة ويقولون عندئذ لم نكن نعلم.

---

(۱) الكامل فى التّاريخ ۲/ ۸۶- ۹۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۱

وخاصّة فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله كانت هذه التصورات والذنوب التى وصموها به كثيرة، إذ عدّوه باغياً للحرب والقتال ومثيراً لنار الفتنة معتداً بنفسه لا يقبل التفاهم وما إلى ذلك.

وقد كشف صلح الحديبية أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهباً «تقدّمياً» إلهيّاً ..

فهو يحترم كعبة اللَّه وبيته العتيق ولا يهاجم أية جماعة أو قبيلة دون سبب، ويدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «اللَّه» وإذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعية للسلام والصلح والدعة ...

وعلى هذا فقد غسل صلح الحديبية جميع الذنوب التى كانت قبل الهجرة وبعد الهجرة قد نسبت إلى النبى صلى الله عليه و آله أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالًا ... وحيث إنّ اللَّه جعل هذا الفتح نصيب النبى فيمكن أن يقال أنّ اللَّه غفر للنبى ذنوبه جميعاً.

والنتيجة أنّ هذه الذنوب لم تكن ذنوباً حقيقية أو واقعية بل كانت ذنوباً تصورية وفى أفكار الناس وظنّهم فحسب، وكما نقرأ فى الآية (۱۴) من سورة الشعراء فى قصة موسى قوله مخاطباً ربّه: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ». فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصرة المظلوم من بنى إسرائيل وسحق ظلم الفراعنة لا غير.

وبديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنباً، بل دفاع عن المظلومين ولكنّه كان يعدّ ذنباً فى نظر الفراعنة وأتباعهم.

وبتعبير آخر: أنّ «الذنب» فى اللغة يعنى الآثار السيّئة والتبعات التى تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهور الإسلام فى البداية تدميراً لحياة المشركين، غير أنّ إنتصاراته المتلاحقة والمتتابعة كانت سبباً لنسيان تلك التبعات.

وهكذا بالنسبة لمشركى مكة سواءً قبل هجرة النبى أم بعدها إذ كانت أفكارهم وأذهانهم مبلبلة عن الإسلام وشخص النبى بالذات، غير أنّ إنتصارات الإسلام أزالت هذه التصورات والأفكار.

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۲

نزول السكينة على قلوب المؤمنين: ما قرأناه فى الآيات السابقة هو ما أعطاه اللَّه من مواهب عظيمة لنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالفتح المبين «صلح الحديبية»، أمّا فى الآية أعلاه فالكلام عن الموهبة العظيمة التى تلطف اللَّه بها على جميع المؤمنين، إذ تقول الآية: «هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ».

ولم لا تنزل السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

«السكينة»: فى الأصل مشتقة من «السكون»، ومعناها الاطمئنان والدعة وما يزيل كل أنواع الشك والتردّد والوحشة من الإنسان ويجعله ثابت القدم فى طوفان الحوادث.

وهذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم والمقاومة والاستقامة والصبر.

وتعبيرات الآية نفسها تتناسب مع استعمال السكينة فى معناها الأوّل أكثر.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷) نتيجة اخرى من الفتح المبين: فى روح المعانى عن أنس قال: أنزلت على النبى صلى الله عليه و آله ليغفر لك اللَّه من ذنبك وما تأخر فى مرجعه من الحديبية فقال: «لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ ممّا على الأرض». ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول اللَّه قد بين اللَّه تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت «لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» حتى بلغ «فَوْزًا عَظِيمًا».

إنّ هذه الآيات تتحدث عن علاقة صلح الحديبية وآثاره وردّ الفعل المختلف فى أفكار الناس ونتائجه المثمرة، وكذلك عاقبة كل من الفريقين اللذين امتحنا فى هذه «البوتقة» والمختبر. فتقول الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث: «لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۳

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». فلا تُسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبداً ..

وإضافة إلى ذلك فإنّ اللَّه يعفو عنهم «وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا».

وبهذا فإنّ اللَّه قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه فى فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظيمتين هما: «الجنة خالدين فيها» و «التكفير عن سيّئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم ومجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزاً عظيماً لأولئك الذين خرجوا من الإمتحان بنجاح وسلامة.

غير أنّ إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين والمشركين الذين تتحدث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

أجل، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النبى صلى الله عليه و آله ومعه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين.

ثم يفصّل القرآن ببيان عذاب هؤلاء وعقابهم ويجعله تحت عناوين أربعة فيقول أوّلًا:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ». «الدائرة»: فى اللغة هى الحوادث وما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان فى حياته، فهى أعم من أن تكون حسنةً أو سيّئة غير أنّها هنا بقرينة كلمة «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبة.

وثانياً: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

وثالثاً: «وَلَعَنَهُمْ».

ورابعاً: فإنّه بالمرصاد «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة اخرى إلى عظمة قدرة اللَّه فتقول الآية:

«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

وممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف اللَّه بالعلم والحكمة، وهما يناسبان مقام الرحمة، ولكنّه حين يذكر المنافقين والمشركين يصف اللَّه بالعزة والحكمة، وهما يناسبان العذاب.

ما المراد من جنود السماوات والأرض: هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكة «وهى من جنود السماء» كما يشمل جنوداً اخر كالصواعق والزلازل والطوفانات والسيول والأمواج والقوى الغيبية غير المرئية التى لا نعرف عنها شيئاً .. لأنّ جميع هذه الأشياء هى جنود اللَّه وهى مطيعة لأوامره.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۴

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) مكانة النبى وواجب الناس تجاهه: قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدة على صلح الحديبية وحتى أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الإحترام بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه و آله وكان مجموع هذه الامور يستوجب أن يؤكّد القرآن مرّةً اخرى على عظمة النبى صلى الله عليه و آله وجلالة قدره. لذلك فإنّ الآية الاولى من الآيات أعلاه تخاطب النبى فتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

«شاهداً» على جميع الامّة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم.

وفى الآية التالية خمسة أوامر مهمة، هى بمثابة الهدف من سمات النبى المذكورة آنفاً:

وتشكل أمرين فى طاعة اللَّه وتسبيحه وتقديره، وثلاثة أوامر منها فى «طاعة» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه». إذ تقول الآية: «لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

«تعزّروه»: من مادة «تعزير»، وهو فى الأصل يعنى «المنع» ثم توسّعوا فيه فأطلق على كل دفاع ونصرة وإعانة للشخص فى مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضاً؛ و «توقّروه»: مشتقة من مادة «توقير»، وجذورها «الوقر» ومعناها الثِقَل .. فيكون معنى التوقير هنا التعظيم والتكريم.

وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الضميرين فى «تعزّروه» و «توقّروه» يعودان على شخص النبى صلى الله عليه و آله والهدف من ذلك هو الدفاع عنه بوجه أعدائه وتعظيمه واحترامه.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلى مسألة «بيعة الرضوان» وقد جاء التفصيل عنها فى الآية (١٨) من السورة ذاتها.

إنّ القرآن يتحدث عن مبايعة المسلمين فى الآية محل البحث فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۵

و «البيعة»: معناها المعاهدة على اتّباع الشخص وطاعته، وكان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذى يعاهد الآخر ويبايعه يمد يده إليه ويظهر وفاءه ومعاهدته عن هذا الطريق لذلك الشخص أو لذلك «القائد» المبايَع.

وحيث أنّ الناس يمدّون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند البيع وما شاكله من المعاملات ويعقدون المعاملة بمد الأيدى و «المصافحة» فقد أطلقت كلمة «البيعة» على هذه العقود والعهود أيضاً. وخاصةً أنّهم عند «البيعة» كأنّما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذى يظهرون وفاءهم له.

وعلى هذا يتّضح معنى «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» .. إذ إنّ هذا التعبير كناية عن أنّ بيعة النبى هى بيعة اللَّه، فكأنّ اللَّه قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النبى فحسب بل يبايعون اللَّه، وأمثال هذه الكناية كثيرة فى اللغة العربية.

ثم يضيف القرآن الكريم قائلًا: «فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».

«نكث»: مشتقة من «نكْث» ومعناها الفتح والبسط ثم استعملت فى نقض العهد.

والقرآن فى هذه الآية يُنذر جميع المبايعين للنبى صلى الله عليه و آله أنّ يثبتوا على عهدهم وبيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه اللَّه أجراً عظيماً ومن نَكث فإنّما يعود ضرره عليه ولا ينال اللَّه ضرره أبداً ..

سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِکُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذٰلِکَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۶

المخلفين: هذه الآيات تبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقة حال المنافقين والمشركين لتتمّ حلقات البحث ويرتبط بعضها ببعض. تقول هذه الآيات:

«سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ».

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى فى توبتهم.

فأبلغهم يا رسول و «قُلْ فَمَن يَمْلِکُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا».

أجلْ «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وهو يعلم جيداً أنّ هذه الحيل والحجج الواهية لا صحة لها ولا واقعيّة ..

ومن أجل أن ينجلى الأمر ويتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جيمع الأستار فيقول: «بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا».

أجلْ، إنّ السبب فى عدم مشاركتكم النبى وأصحابه فى هذا السفر التاريخى لم يكن هو كما زعمتم- انشغالكم بأموالكم وأهليكم- بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم باللَّه، وكنتم تتصوّرون خطأً أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنّبى وأصحابه وينبغى الاجتناب عنه.

وما ذلک إلّاما وسوست به أنفسكم «وَزُيِّنَ ذٰلِکَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ».

لأنّكم تخيّلتم أنّ اللَّه أرسل نبيّه فى هذا السفر وأودعه فى قبضة أعدائه ولن يخلصه ويحميه عنهم، «وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا»- أى هالكين- فى نهاية الأمر.

وأى هلاک أشدّ وأسوأ من عدم مشاركتهم فى هذا السفر التاريخى وبيعة الرضوان وحرمانهم من المفاخر الاخر .. ثم الفضيحة الكبرى .. وبعد هذا كلّه ينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة.

وحيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآية التالية قائلًا:

«وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا». «السعير»: معناه اللهيب.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن ومن أجل أن يثبت قدرة اللَّه على معاقبة الكفار والمنافقين: «وَلِلَّهِ مُلْکُ السَّموَاتِ

وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۷

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (۱۷)

المخلّفون الانتهازيون: يعتقد أغلب المفسرين أنّ هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذى كان فى بداية السنة السابعة للهجرة وبعد صلح الحديبية. وتوضيح ذلك أنّه طبقاً للروايات حين كان النبى صلى الله عليه و آله يعود من الحديبية بشّر المسلمين المشتركين بالحديبية- بأمر اللَّه- بفتح خيبر، وصرّح أن يشترك فى هذه الحرب من كان فى الحديبية من المسلمين فحسب، وأنّ الغنائم لهم وحدهم ولن ينال المخلّفين منها شىء أبداً.

إلّا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لما فهموا من القرائن أنّ النبى سينتصر فى المعركة المقبلة قطعاً- وأنّه ستقع غنائم كثيرة فى أيدى جنود الإسلام- أفادوا من الفرصة، فجاؤوا إلى النبى وطلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك فى حرب خيبر، وقد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً وأنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك فى الآية الاولى من الآيات محل البحث-: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ».

إنّ القرآن الكريم يقول رداً على كلام هؤلاء الانتهازيين وطالبى الفُرص: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللَّهِ». ثم يضيف قائلًا للنبى: «قُل لَّن تَتَّبِعُونَا».

وليس هذا هو كلامى بل «كَذلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ» وأخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إنّ أمر اللَّه أن تكون غنائم خيبر خاصة بأهل الحديبية ولن يشاركهم فى ذلك أحد. لكن هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا فى تبجّحهم واتهموا النبى ومن معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۸

وهكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتى النبى صلى الله عليه و آله ويعدّون أساس منعهم من الاشتراك فى معركة خيبر الحسد فحسب.

وفى ذيل الآية يصرّح القرآن عن حالهم فيقول: «بَلْ كَانُوا لَايَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

أجل إنّ أساس جميع شقائهم وسوء حظهم هو جهلهم وعدم فقاهتهم، فالجهل ملازم لهم أبداً، جهلهم باللَّه سبحانه وعدم معرفة مقام النبى صلى الله عليه و آله وجهلهم عن مصير الإنسان وعدم توجّههم إلى أنّ الثروة فى الدنيا لا قرار فيها، فهى زائلة لا محالة.

واستكمالًا لهذا البحث فإنّ الآية التالية تقترح على المخلّفين عن الحديبية اقتراحاً وتفتح عليهم باب العودة فتقول: «قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فينبغى أن تؤدّوا امتحان صدقكم فى الميادين الصعبة وأن تُسهموا فيها مرّةً اخرى، وإلّا فإنّ إجتناب الميادين الصعبة، والمساهمة فى الغنائم وميادين الراحة غير مقبول.

ومن هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب «أولى بأس شديد» فى الآية وأى جماعة هم؟!

نقول: جملة «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» تدلّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يُجبرون على قبول الإسلام، بل يُخيّرون بين قبوله أو دفع الجزية والحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمة.

وإنّما الذين لا يُقبل منهم إلّاالإسلام هم المشركون وعبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام ديناً ويرى أنّه لابدّ

من إجبار الناس على ترك عبادتها.

ومع الإلتفات إلى أنّه لم تقع معركـة مهمـة فى عصـر النبى بعـد حادثة الحديبية مع المشـركين سوى فتح مكة وغزوة حنين، فيمكن أن تكون الآية المتقدمة إشارة إلى ذلك وخاصة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

الآيـة الأـخيرة من الآيـات محلّ البحث تبيّن أعـذارهم وخاصـة أنّ بعض المفسّـرين قالوا إنّ جماعـة من المعوّقين جاؤوا إلى النبى بعد نزول الآيـة وتهديـدها للمخلّفين بقولها «يعـذّبكم عـذاباً أليماً»، فقالوا: يا رسول اللّه، ما هى مسؤوليتنا فى هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: «لَّيسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ».

وليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهية هى سلسلة من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۹

الشرائط العامة ومن ضمنها الطاقة والقدرة، وكثيراً ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى

وبالطبع فإنّ هـذه الجماعـة وإن كانت معـذورة من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلّاأنّ عليها أن تساهم بمقـدار ما تسـتطيع لتقوية قوى الإسلام وتقدّم الأهداف الإلهية.

ولعل الجملـة الأخيرة فى الآيـة محل البحث تشـير أيضاً إلى هـذا المعنى فتقول: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارِ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا».

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹) رضى اللّه عن المشتركين فى بيعة الرضوان: ذكرنا آنفاً أنّه فى الحديبية جرى حوار بين ممثلى قريش والنبى صـلى الله عليه و آله وكان من ضـمن السـفراء عثمان بن عفان الذى تشدّه أواصـر القربى بأبى سـفيان، ولعل هذه العلاقة كـان لهـا أثر فى انتخابه ممثلًا عن النبى صـلى الله عليه و آله فأرسـله إلى أبى سـفيان وأشـراف قريش يخبرهـم أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته فاحتبسته قريش عندها. فبلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى الشجرة فاستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا «۱».

فبلغ صدى هذه البيعة مكة واضطربت قريش من ذلك بشدة واطلقوا عثمان.

وكمـا نعرف فـإنّ هـذه البيعـة عرفت ببيعـة الرضوان وقـد أفزعت المشـركين وكـانت منعطفاً فى تاريـخ الإسـلام. فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصّة فتقول الاولى: «لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

والهـدف من هـذه البيعـة الإنسـجام أكثر فأكثر بين القوى وتقويـة المعنويات وتجديـد التعبئـة العسـكرية ومعرفة الأفكار واختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء.

فأعطى اللّه هؤلاء المؤمنين المضحّين والمؤثرين على أنفسهم نفس رسول اللّه فى هذه

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۹/ ۱۹۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۰

اللحظـة الحسّاسـة والذين بايعوه تحت الشـجرة أعطاهم أربعة أجور، ومن أهمّ تلك الأجور والاثابات الأجر العظيم وهو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآية (۷۲) من سورة التوبة:

«وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .. أيضاً. ثم تضيف الآية قائلة: «فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ».

سكينـة واطمئناناً لا حدّ لهما، وهم بين سـيل الأعداء فى نقطة بعيدة عن الأهل والديار والعدو مدجّج بالسـلاح، فى حين أن المسـلمين

عُزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة».

وهذا هو الأجر الثانى والموهبة الإلهية الاخرى.

وفى ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثالث إذ تقول الآية: «وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا».

هذا الفتح هو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسرين.

والتعبير ب «قريباً» تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر».

والأجر الرّابع أو النعمة الرابعة التى كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هى: «وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا».

وحيث إنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهى اطمئناناً كاملًا فإنّ الآية تضيف فى الختام: «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

فإذا ما أمركم فى الحديبية أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، وإذا ما وعدكم بالفتح القريب والغنائم الكثيرة فهو قادر على أن يُلبس وعده ثياب الإنجاز والتحقّق.

وهكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولى الإيمان والإيثار اكتسبوا فى ظل بيعة الرضوان فى تلك اللحظات الحسّاسة انتصاراً فى الدنيا والآخرة، فى حين أنّ المنافقين الجهلة وضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات.

بحث

البيعة وخصوصيّاتها: «البيعة» من مادة «بيع» وهى فى الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثم أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة.

وتدلّ القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هى سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، ولهذا السبب فإنّ طائفة من «الأوس» و «الخزرج» جاؤوا فى بداية الإسلام

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۱

خلال موسم الحج من المدينة إلى مكة وبايعوا النبى صلى الله عليه و آله فى العقبة، وكان تعاملهم فى قضية البيعة يوحى بأنّها أمر معروف، وبعدها وخلال فرص ومناسبات متعددة جدّد النبى البيعة مع المسلمين، وكانت إحداها هذه البيعة التى عرفت ببيعة الرضوان فى الحديبية، وأوسع منها البيعة التى كانت عند فتح مكة، وسيأتى شرحها فى تفسير «سورة الممتحنة» بإذن اللَّه.

ولكن كيف تتم البيعة؟! .. بصورة عامة تتمّ البيعة كما يلى:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايَع ويبدى الطاعة والوفاء بلسان الحال أو المقال .. وربّما ذكر شروطاً أو حدوداً لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد والمرأة.

وكان النبى الكريم يقبل بيعة النساء أيضاً لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده فى طرف منه وتدخل يدها فى طرف آخر.

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيراً (۲۱) من بركات صلح الحديبية مرّةً اخرى تتحدث هاتان الآيتان- كالآيات السابقة المتعلّقة بصلح الحديبية والوقائع التالية لها- عن البركات وما حصل عليه المسلمون من غنائم فى هذا الطريق.

فتقول الآية الاولى منهما: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ».

ويدلّ لحن الآية أنّ المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التى جعلها اللَّه للمسلمين سواءً فى أمد قصير أم بعيد.

ثم يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف اللَّه على المسلمين- فى هذه الحادثة- فيقول:

«وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ».

وهـذا لطف كبير أن يكون المسـلمون على قلـة العَـدد والعُدد وفى نقطة نائية عن الوطن وفى مقربة من العدو- فى مأمن منه وأن يلقى اللَّه رعباً ووحشة منهم فى قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۲

ثم يضـيف القرآن فى تكملة الآية مشـيراً إلى نعمتين كُبريين اخريين من مواهب اللَّه ونعمه إذ يقول: «وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

وفى الآية التالية أعطى اللَّه بشارةً اخرى للمسلمين إذ قال: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا».

إنّ هذا الوعد إشارة إلى فتح مكة وغنائم حنين.

أو إشـارة إلى الفتوحـات والغنـائم التى كانت نصـيب المسـلمين بعـد النبى (كفتـح فارس والروم ومصـر)، كما يحتمل أيضاً أنّه إشارة لجميع ما تقدّم ذكره.

فإنّ الآيـة من إخبار القرآن بالمغيّبات والحوادث الآتيـة، وقـد حـدثت هـذه الفتوحات فى مدّة قصيرة وكشـفت عن عظمة هذه الآيات بجلاء.

وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۲۲) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۲۳) وَ هُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۲۵) هذه الآيات تتحدث أيضاً عن أبعاد اخر لما جرى فى الحديبية وتشير إلى «لطيفتين» مهمّتين فى هذا الشأن.

الاولى: هى أنّه لا تتصوروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشـركى مكة فى الحديبية لانتصـر المشركون والكفرة. «وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وليس هذا منحصراً بكم بل: «سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». فهذا هو قانون إلهى دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصة وقلوب طاهرة ولم يضعفوا فى أمر الجهاد نصرهم اللَّه على عدوّهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۳

واللطيفـة الاـخرى التى بيّنتهـا هـذه الآيـات أنّها قالت: «وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

حقاً .. كان ما حـدث مصـداقاً جليّاً «للفتـح المبين» ونعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعـدوّ الذى زحف بجيشه مراراً نحو المدينة وسـعى سـعياً عجيباً لإيقاع الهزيمـة بالمسـلمين، إلّا أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم فى حريمه ودياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنّه يقترح الصلح معهم.

وفى آخر آيـة من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة اخرى تتعلّق بمسألة صـلح الحديبية وحكمتها، إذ تقول الآية: «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» «۱».

كان أحد ذنوبهم كفرهم، والذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العُمرة زيارة بيت اللَّه ولم يجيزوا أن تنحروا الهدى فى محله، أى مكة.

ومثل هـذه الـذنوب يسـتوجب أن يسـلّطكم اللَّه عليهم لتعاقبوهم بشـدة، لكنّ اللَّه تعالى لم يفعل ذلك فلماذا؟! ذيل الآية يبيّن السـبب بوضوح إذ يقول: «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

وهذه الآية تشير إلى طائفة (من الرجال والنساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام فى مكة ولم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

«المعرّة»: من مـادة «عرّ» على زنـة «شـرّ» (والعرّ على زنـة الحر) فى الأصـل معنـاه مرض الجرب وهو من الأمراض الجلديـة التى تصـيب

الحيوانات أو الإنسان أحياناً ثم توسّعوا فى المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كل ضرر يصيب الإنسان.

ولإكمال الموضوع تضيف الآية: «لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ».

أجل، كان اللّه يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكة أن تشملهم الرحمة ولا تنالهم أيّة صدمة ..

ولمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

أى: لو افترقت وانفصلت صفوف المؤمنين والكفار فى مكة ولم يكن هناك خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفار بأيديكم عذاباً أليماً.

---

(۱) «معكوفاً»: مشتق من «العكوف»، ومعناها المنع عن الحركة والبقاء فى المكان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۴

صحيح أنّ اللّه قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، ولكن سنّة اللّه- فى ما عدا الموارد الاستثنائية- أن تكون الامور وفقاً للأسباب العادية.

«تزيلوا»: من مادة «زوال»، وهنا معناها الإنفصال والتفرّق.

ويستفاد من روايات متعدّدة منقولة عن طرق الشيعة والسنّة حول ذيل هذه الآية أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا فى أصلاب الكافرين واللّه سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين ..

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۲۶) التعصب وحمية الجاهلية أكبر سدّ فى طريق الكفار: هذه الآية تتحدث مرّة اخرى عن (مجريات) الحديبية وتجسّم ميادين اخرى من قضيتها العظمى ... فتشير أوّلًا إلى واحد من أهم العوامل التى تمنع الكفار من الإيمان باللّه ورسوله والإذعان والتسليم للحق والعدالة فتقول: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

ولذلك منعوا النبى والمؤمنين أن يدخلوا بيت اللّه ويؤدّوا مناسكهم وينحروا «الهدى» فى مكة. وقالوا: لو دخل هؤلاء- الذين قتلوا آباءنا وإخواننا فى الحرب- أرضنا وديارنا وعادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! وأية حيثية واعتبار لنا بعد هذا؟

فهؤلاء- بهذا العمل- هتكوا حرمة بيت اللّه والحرم الآمن من جهة، وخالفوا سننهم وعاداتهم من جهة اخرى، كما أسدلوا ستاراً بينهم وبين الحقيقة أيضاً.

«الحمية»: فى الأصل من مادة حَمى- على وزن حمد- ومعناها حرارة الشمس أو النار التى تصيب جسم الإنسان وما شاكله، ومن هنا سمّيت الحُمّى التى تصيب الإنسان بهذا الاسم؛ «حُمّى» على وزن كبرى، ويقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصب المقرون بالغضب حمية أيضاً.

ثم تضيف الآية الكريمة- وفى قبال ذلك-: «فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۵

هذه السكينة التى هى وليدة الإيمان والإعتقاد باللّه والإعتماد على لطفه دعتهم إلى الإطمئنان وضبط النفس وأطفأت لهب غضبهم حتى أنّهم قبلوا- ومن أجل أن يحفظوا ويرعوا أهدافهم الكبرى- بحذف جملة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» التى هى رمز الإسلام فى بداية الأعمال وأن يثبتوا- مكانها «بسمك اللهم» التى هى من موروثات العرب السابقين- فى أوّل المعاهدة وحذفوا حتى لقب «رسول اللّه» الذى يلى اسم محمّد صلى الله عليه و آله.

وقبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديبية دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت ويؤدّوا مناسك العمرة، ونحروا هديهم خلافاً للسنّة التى فى الحج أو العمرة فى المكان ذاته وأحلّوا من احرامهم دون أداء المناسك ..

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كل المشاكل الصعبة، ولو كانت فيهم حميّة الجاهلية لكان واحد من هذه الامور الآنفة كفيلًا

أن يشعل الحرب بينهم فى تلك الأرض.

ثم يضيف القرآن فى هذا الصدد قائلًا: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا».

«كلمة»: هنا بمعنى «روح»، ومعنى الآية أنّ اللّه ألقى روح التقوى فى قلوب أولئك المؤمنين وجعلها ملازمة لهم ومعهم.

وتختتم الآية بقوله سبحانه: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». فهو سبحانه يعرف نيّات الكفار السيئة ويعرف طهارة قلوب المؤمنين أيضاً فينزل السكينة والتقوى عليهم هنا.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷) رؤيا النبى الصادقة: هذه الآية- أيضاً- ترسم جانباً آخر من جوانب قصة الحديبية المهمّة، والقصّة كانت على النحو التالى:

رأى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة رؤيا أنّه يدخل مكة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه فسُرّوا جميعاً، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصورون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق فى تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلى مكة أصابهم الشك والتردد ... ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النبى غير صادقة؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۶

فكان جواب النبى لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟! فنزلت الآية الآنفة فى هذا الصدد والنبى عائد من الحديبية إلى المدينة وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة ... تقول الآية: «لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقّ».

فما رآه النبى فى المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثم تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا». وكان فى هذا التأخير حكمةٌ: «فَجَعَلَ مِن دُونِ ذلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

جملة «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هنا لعلها نوع من تعليم العباد لكى يعوّلوا على مشيئة اللّه عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة اللّه، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه.

التعبير ب «فَتْحًا قَرِيبًا» إشارة إلى «فتح خيبر» لأنّه كان «تحقّقه العينى» بعد هذه الرؤيا فى فترة أقل زمناً من فتح مكة بعدها.

الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التى أخبر عنها القرآن، وهى شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوى وأنّه من معاجز النبى الكريم حيث يخبر قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام فى المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم أنّ هذين التنبؤين قد حدثا فعلًا.

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) فى هاتين الآيتين اللتين بهما تنتهى سورة الفتح إشارة إلى مسألتين مهمّتين من «الفتح المبين» أى «صلح الحديبية»: احداهما تتعلّق بعالمية الإسلام و الثانية تتعلق بأوصاف

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۷

أصحاب النبى وخصائصهم وما وعدهم اللّه سبحانه به. فالاولى منهما تقول: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُو عَلَى الدّين كُلّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وهذا وعد صريح وقاطع من اللّه سبحانه فى غلبة الإسلام وظهوره على سائر الأديان.

أى لا- تعجبوا لو أخبركم اللّه عن طريق رؤيا نبيّه محمّد بالإنتصار وأن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهى الأمان وتؤدّوا مناسك العمرة

دون أن يجرؤ أحد على إيذائكم، كما لا تعجبوا أن يبشّركم اللّه بالفتح القريب- فتح خيبر «فأوّل الغيث قطرة» وسيكون الإسلام باسطاً ظلاله فى أرجاء المعمورة ويظهر على جميع الأديان …

والمراد ب «الظهور على الدين كلّه»، أهو الظهور المنطقى، أم الظهور (والغلبة) العسكريان؟!

إنّ كلمة «يظهر» دليل على الغلبة الخارجية … ولهذا يمكن القول أنّه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام فى مناطق كثيرة واسعة من الشرق والغرب وهى تحت لوائه اليوم وتدين به أكثر من أربعين دولة إسلامية بنفوس يقدّر إحصاؤها بأكثر من مليارد نسمة فإنّه سيأتى زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعمورة «رسميّاً» وسيكتمل هذا الأمر بظهور المهدى (عج) إن شاء اللّه.

وفى آخر آية وصف بليغ لأصحاب النبى الخاصين والذين كانوا على منهاجه على لسان التوراة والإنجيل وهو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم ورُجولتهم فى الحديبية والمراحل الاخر كما أنّه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون والأعصار …

فتقول الآية فى البداية: «مُّحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

ثم تصف الآية أصحابه وخلالهم (وسجاياهم) الباطنية والظاهرية ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ».

وصفتهم الثانية أنّهم: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ».

وفى الحقيقة أنّ عواطفهم وأفكارهم تتلخّص فى هاتين الخصلتين: «الرحمة» و «الشدة» … لكن لا- تضادّ فى الجمع بينهما أوّلًا، ولا رحمتهم فيما بينهم وشدّتهم على الكفار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جادّة الحق ثانياً …

ثم تضيف الآية مبيّنة وصفهم الثالث فتقول: «تَرَيهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».

هذا التعبير يجسد العبادة بركنيها الأساسيين: «الركوع والسجود» على أنّها حالة دائمية لهم، العبادة التى هى رمز للتسليم أمام أمر اللّه الحق، ونفى الكبر والغرور والأنانية عن وجودهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۸

أمّا الوصف الرابع الذى تذكره الآية عن هؤلاء الأصحاب فهو بيان نيّتهم الخالصة الطاهرة فتقول: «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا». فهم لا يعملون رياءً ولا يبتغون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا اللّه وفضله فحسب.

أمّا الوصف الخامس فهو عن سيماهم المشرق إذ تقول الآية: «سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ».

إنّ القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: «ذِلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَيةِ».

فهذه حقيقة مقولة قبلًا وأوصاف وردت فى كتاب سماوى نزل منذ أكثر من ألفى عام …

ولكن لا ينبغى أن ننسى أنّ التعبير ب «وَالَّذِينَ مَعَهُ» يحكى عن معيّة النبى فى كل شىء، فى الفكر والعقيدة والأخلاق والعمل لا عن أولئك الذين كانوا فى عصره- وإن اختلفوا وإيّاه فى المنهج.

ثم يتحدّث القرآن عن وصفهم فى كتاب سماوى كبير آخر وهو الإنجيل فيقول: «وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَازَرَهُو فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ».

وفى الحقيقة إنّ أوصافهم المذكورة فى «التوراة» تتحدث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف والأهداف والأعمال وصورتهم الظاهرية …

وأمّا الأوصاف الواردة فى «الإنجيل» فهى تتحدث عن حركتهم ونموّهم وتكاملهم فى جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أناس متّصفون بصفات عليا لا يفترون عن الحركة لحظة واحدة … وينشرون الإسلام بأقوالهم وأعمالهم فى العالم ويوماً بعد يوم يزداد عددهم فى المجتمع الإسلامى …

ثم تضيف الآية معقّبة: أنّ هذه الأوصاف العليا وهذا النمو والتكامل السريع وهذه الحركة المباركة بقدر ما تعجب المحبّين وتسرّهم

فهى فى الوقت ذاته: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكَفَّارَ».

ويضيف القرآن مختتماً هذه الآية المباركة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

بديهى أنّ أوصاف أصحاب النبى التى وردت فى بداية الآية محل البحث جمعت فيها الإيمان والعمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشارة إلى استمرارهما وديمومتهما: أى أنّ اللَّه وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمّد صلى الله عليه و آله واستمروا بالإيمان والعمل الصالح.

«نهاية تفسير سورة الفتح»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۹

۴۹. سورة الحجرات

محتوى السورة: هذه السورة تحمل مسائل مهمّة تتعلق بشخص النبى الكريم صلى الله عليه و آله والمجتمع الإسلامى بعضه ببعض. وحيث أنّ أغلب المسائل الأخلاقية تدور فى هذه السورة فيمكن أن نسمّى هذه السورة ب «سورة الأخلاق والآداب».

ويمكن تقسيم مضامين السورة على النحو التالى:

۱- فى بداية السورة تبين طريقة التعامل مع النبى صلى الله عليه و آله وآدابها وما ينبغى على المسلمين مراعاته من أصول عند حضرة النبى.

۲- تشتمل هذه السورة على سلسلة من اصول «الأخلاق الاجتماعية» المهمة.

۳- الأوامر الإرشادية المتعلقة بكيفية مواجهة الاختلافات والتنازع أو القتال الذى قد يقع بين المسلمين أحياناً ...

۴- يتحدث عن معيار قيمة الإنسان عند اللَّه وأهمية التقوى ...

۵- يعالج قضية أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لابدّ من ظهور آثاره فى أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنفس- إضافةً إلى الإعتقاد فى القلب-.

۶- يتحدث عن علم اللَّه وإطّلاعه وعن جميع أسرار الوجود الخفية وأعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۰

مختصر الامثل ج ۴ ۵۴۹

وتسمية هذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الكلمة فى الآية الرابعة منها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع اللَّه ومن عصاه».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحجرات فى كل ليلة أو فى كل يوم كان من زوّار محمّد صلى الله عليه و آله».

وبديهى أنّ كل هذه الحسنات التى هى بعدد المطيعين والعاصين إنّما تكون فى صورة ما لو أخذنا بنظر الإعتبار كلّاً من الفريقين وأن نفكّر جيداً فنجعل مسيرنا وفقاً لمنهج المطيعين ونبتعد عن منهج العاصين.

ونيل زيارة النبى أيضاً فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكورة فى الحضور عنده صلى الله عليه و آله لأنّ التلاوة فى كل مكان مقدمة للعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

صَوْتِ النَّبِیِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِینَ یَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِکَ الَّذِینَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَی لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۳) إِنَّ الَّذِینَ یُنَادُونَکَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَکْثَرُهُمْ لَا یَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّی تَخْرُجَ إِلَیْهِمْ لَکَانَ خَیْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵)

أسباب النّزول

فی تفسیر القرطبی: روی أنّ النبی صلی الله علیه و آله أراد أن یستخلف علی المدینة رجلًا إذا مضی إلی خیبر فأشار علیه عمر برجل آخر، فنزلت الآیة وأمرت أن لا تقدموا بین یدی اللَّه ورسوله.

وأمّا فی شأن الآیة الثانیة فقد قال المفسرون إنّ طائفة من بنی تمیم وأشرافهم وردوا المدینة، فلمّا دخلوا مسجد النبی نادوا بأعلی صوتهم من وراء الحجرات التی کانت للنبی: یا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۱

محمّد أخرج إلینا. فأزعجت هذه الصرخات غیر المؤدبة النبی، فخرج إلیهم فقالوا له: جئناک لنفاخرک فأجز شاعرنا وخطیبنا لیتحدث عن مفاخر قبیلتنا، فأجازهم النبی صلی الله علیه و آله فنهض خطیبهم وتحدّث عن فضائلهم الخیالیة الوهمیة کثیراً ...

فأمر النبی ثابت بن قیس «۱» أن یردّ علیهم فنهض وخطب خطبةً بلیغة فلم یُبق لخطبة اولئک من أثر ...

ثم نهض شاعرهم وألقی قصیدة فی مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردّ علیه بقصیدة شافیة کافیة.

فأمر النبی صلی الله علیه و آله أن تُهدی لهم هدایا لیکتسب قلوبهم إلیه فکان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوته.

فالآیات محل البحث ناظرة إلی هذه القضیة والأصوات من خلف الحجرات.

التّفسیر

إنّ فی محتوی هذه السورة قسماً من المباحث الأخلاقیة المهمّة والتعلیمات الإنضباطیة التی تدعونا إلی تسمیة هذه السورة ب «سورة الأخلاق»، وهذه المسائل والتعلیمات تقع فی الآیات الأوّل من السورة محل البحث، والآیات هذه علی نحوین من التعلیمات.

الأوّل: عدم التقدّم علی اللَّه ورسوله وعدم رفع الصوت عند رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ... فتقول الآیة الاولی فی هذا الصدد: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ».

والمراد من عدم التقدیم بین یدی اللَّه ورسوله هو أن لا یُقترح علیهما فی الامور، وترک العجلة والإسراع أمام أمر اللَّه ورسوله ...

والآیة الثانیة تشیر إلی الأمر الثانی فتقول: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُکُمْ وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ».

والجملة الاولی: «لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیّ» إشارة إلی أنّه لا ینبغی رفع الصوت علی صوت النبی، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبیة فی محضره المبارک، والنبی له مکانته، وهذا الأمر لا یجدر أن یقع أمام الأب والام والأستاذ لأنّه مخالف للإحترام والأدب أیضاً.

---

(۱) کان ثابت بن قیس خطیب الأنصار وخطیب النبی کما کان حسّان بن ثابت شاعره [اسد الغابة ۱/ ۲۲۹].

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۲

أمّا جملة: «لَاتَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ» فیمکن أن تکون تأکیداً علی المعنی المتقدم فی الجملة الاولی، أو أنّها إشارة إلی مطلب آخر، وهو ترک مخاطبة النبی صلی الله علیه و آله بالنداء «یا محمّد» والعدول عنه بالقول: «یا رسول اللَّه» ...

وبدیهی أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة والإهانة لشخص النبی ومقامه الکریم فذلک موجب للکفر، وإلّا فهو ایذاء له وفیه إثم أیضاً ...

وفى الصورة الاولى تتّضح علة الحبط وزوال الأعمال، لأنّ الكفر يحبط العمل ويكون سبباً فى زوال ثواب العمل الصالح ...

وفى الصورة الثانية أيضاً، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السيء باعثاً على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

وفى الآيـة الاخرى مزيد تأكيد على الثواب الذى أعدّه اللّه لُاولئك الذين يمتثلون أمر اللّه ويراعون الآداب عند رسول اللّه، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

«يغضّون»: مشتقة من غضّ- على وزن حظّ- ومعناها تقليل النظر أو خفات الصوت ويقابل هذه الكلمة الإمعان بالنظر والجهر بالصوت.

و «امتحن»: مشتقة من الإمتحان، والأصل فى استعمالها إذابـة الذهب وتطهيره من غير الخالص، ثم استعملت بعدئذ فى مطلق الاختبار كما هى الحال بالنسبة للآية محل البحث.

أمّا الآيـة الاخرى فتشير إلى جهل أولئك الـذين يجعلون أمر اللّه وراء ظهورهم، وعـدم إدراكهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

وأساساً كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن ومن هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل.

«الحجرات»: جمع «حجرة» وهى هنـا إشارة إلى البيوت المتعـددة لأزواج النبى المجاورة للمسـجد .. وأصل الكلمـة مأخوذ من «الحَجْر» على وزن الأجر: أى «المنع» لأنّ الحجرة تمنع الآخرين من الدخول فى حريم «حياة» الإنسان ... والتعبير ب «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهة كان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۳

ويضيف القرآن إكمالًا للمعنى فى نهاية الآية قائلًا: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ».

صحيـح أنّ العجلة قـد تجعـل الإنسان أحياناً يبلغ قصـده بسـرعة، إلّاأنّ الصبر فى مثل هـذا «المقام» والتأنّى مـدعاة إلى المغفرة والأجر العظيم.

وحيث إنّ بعضـهم قد ارتكبوا جهلًا هذا الخطأ من قبل، واسـتوحشوا من هذا الأمر وحاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإنّ القرآن يضيف قائلًا إنّهم تشملهم الرحمة عند التوبة:

«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

بحثان

۱- الأدب أغلى القيم: اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بمسألة رعاية الأدب، والتعامل مع الآخرين مقروناً بالإحترام والأدب سواءً مع الفرد أم الجماعة.

يقول الإمام على عليه السلام: «الآداب حُلل مجدّدة» «۱».

ويقول فى مكان آخر: «الأدب يُغنى من الحسب» «۲».

وأساساً فإنّ الـدين مجموعـة من الآداب، الأدب بين يدى اللّه والأدب بين يدى الرسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدى الأسـتاذ والمعلم، أو الأب والأم والعالم والمفكّر.

۲- الإنضـباط الإسـلامى فى كل شـىء وفى كل مكان: إنّ مسألة المديرية لا تتم بدون رعاية الإنضـباط، وإذا أريد للناس العمل تحت مديرية وقيادة حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال سينعدم عندئذ وإن كان المديرون والقادة جديرين.

وكثير من الأحـداث والنواقص التى نلاحظها تحـدّث عن هـذا الطريق، فكم من هزيمـة أصابت جيشاً قوياً أو نقصاً حـدث فى أمر يهمّ جماعة وما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفاً ...

ولقـد ذاق المسـلمون أيضاً مرارة مخالفة هذه التعاليم مراراً فى عهد النبى صـلى الله عليه و آله أو بعده، ومن أوضح الامور قصة هزيمة المسلمين فى معركة احُد لعدم الإنضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

(۱) نهج البلاغة، الحكمة ۵.

(۲) كنز الفوائد، أبوالفتح الكراجكى/ ۴۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۴

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ» نزل فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى صدقات بنى المصطلق فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة فى الجاهلية، فظن أنّهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: إنّهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه. فغضب النبى صلى الله عليه و آله وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية.

التّفسير

لا تكترث بأخبار الفاسقين: كان الكلام فى الآيات الآنفة على ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون ووظائفهم أمام قائدهم ونبيّهم محمّد صلى الله عليه و آله. أمّا الآيات محل البحث فهى تبيّن الوظائف الاخرى على هذه الامة إزاء نبيّها. وتقول ينبغى الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النبى فلو أنّ فاسقاً جاءكم بنبإ فتثبتوا وتحقّقوا من خبره، ولا تكرهوا النبى على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه ... فتقول الآيات أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا».

ثم تبيّن السبب فى ذلك فتضيف: «أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ».

فلو أنّ النبى قد أخذ بقول «الوليد بن عقبة» وعدّ قبيلة بنى المصطلق مرتدين وقاتلهم لكانت فاجعة عظمى ...

واستدل جماعة من علماء الاصول على حجية خبر الواحد بهذه الآية لأنّها تقول: «إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا ...» ومفهومها أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا يلزم التبيّن.

والآية التالية- وللتأكيد على الموضوع المهم فى الآية السابقة- تضيف قائلةً: «وَاعْلَمُوا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۵

أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» «۱».

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول اللَّه وهو مرتبط بعالم الوحى، ولا تصرّوا وتلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم ...

ويشير القرآن معقّباً فى الآية إلى موهبة عظيمة اخرى من مواهب اللَّه سبحانه فيقول:

«وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ».

فإنّ القرآن يقرّر قاعدةً كلية وعامة فى نهاية هذه الآية لواجدى الصفات المذكورة فيها فتقول: «أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ».

أى: لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان والتنفّر من الكفر والفسوق» ولم تلوّثوا هذا النقاء والصفات الفطرية فإنّ الرشد والهداية دون أدنى شك فى انتظاركم ...

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة وهى أنّ محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول: «فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فعلمه وحكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد والسعادة ويكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف

المنشود ... «وهو الجنة».

ولا شك أنّ علم اللّه بحاجة العباد وحكمته فى مجال التكامل وتربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (وهى محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان).

وعلى هذا فإنّ عشق الإيمان والتنفّر من الكفر موجودان فى قلوب جميع الناس دون استثناء وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة اخطائهم وسلوكياتهم وأعمالهم، فإنّ اللّه لم يُلق فى قلب أىّ شخص حبّ العصيان وبغض الإيمان ...

وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۹) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

---

(۱) «لعنتّم»: مشتقة من مادة «العنت» ومعناه الوقوع فى عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذى يشقّ على الإنسان، ومن هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرّضه للضربة بأنّه عنت ..

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۶

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزل فى الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسعف والنعال.

التّفسير

المؤمنون إخوة: يقول القرآن هنا قولًا هو بمثابة القانون الكلى العام لكل زمان ومكان:

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا».

«اقتتلوا»: مشتقة من مادة «القتال» ومعناها الحرب، إلّاأنّها كما تشهد بذلك القرائن تشمل كل أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة «العسكرية».

فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلّا تسيل الدماء وأن يعرفوا مسؤوليتهم فى هذا المجال، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الذين يمرّون بهذه الامور دون اكتراث وتأثّر! فهذه هى وظيفة المؤمنين الاولى عند مواجهة أمثال هذه الامور.

ثم يبيّن القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالى: «فَإِن بَغَتْ إِحْدَيهُمَا عَلَى الْأُخْرَى . ولم تستسلم لاقتراح الصلح: «فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

وبديهى أنّه لو سالت دماء الطائفة الباغية والظالمة- فى هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إنّ دماءهم هدر، وإن كانوا مسلمين.

وهكذا فإنّ الإسلام يمنع من الظلم وإن أدّى إلى مقاتلة الظالم، لأنّ ثمن العدالة أغلى من دم المسلمين أيضاً، ولكن لا يكون ذلك إلّاإذا فشلت الحلول السلمية.

ثم يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: «فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ».

أى لا ينبغى أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفية الباغية الظالمة بل ينبغى أن يعقب ذلك الصلح وأن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النزاع، وإلّا فإنّه بمرور الزمن ما أن يُحسّ الظالم فى نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويثير النزاع.

وحيث إنّه تميل النوازع النفسية أحياناً فى بعض الجماعات عند الحكم والقضاء إلى إحدى الطائفتين المتخاصمتين وتنقض «الإستقامة» عند القضاة فإنّ القرآن ينذر المسلمين فى رابع تعليماته وما ينبغى عليهم فيقول: «وأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» «۱».

والآية التالية تضيف لبيان العلّة والتأكيد على هذا الأمر قائلةً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ».

(۱) «المقسطين»: مأخوذة من «القسط» ومعناها فى الأصل التقسيم بالعدل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۷

وحيث إنّه فى كثير من الأوقات تحلّ «الروابط» فى أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف فى نهاية هذه الآية مرّةً اخرى قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهكذا تتّضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين فى ما بينهم فى تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحث

أهمية الأخوة الإسلامية: إنّ جملة «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» الواردة فى الآيات المتقدمة واحدة من الشعارات الأساسية و «المتجذرة» فى الإسلام.

فعلى هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقوميّاتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوة وإن عاش بعضهم فى الشرق والآخر فى الغرب ...

ففى مناسك الحج مثلًا حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة فى مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والإرتباط والإنسجام والوشائج محسوسة وميداناً للتحقق العينى لهذا القانون الإسلامى المهم ...

وبتعبير آخر: إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعاً بحكم الأسرة الواحدة ويخاطبهم جميعاً بالإخوان والأخوات ليس ذلك فى اللفظ والشعار، بل فى العمل والتعهدات المتماثلة أيضاً، جميعهم (أخوة وأخوات).

وفى الروايات الإسلامية تأكيد على هذه المسألة أيضاً.

فى كنز الفوائد: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً، لا براءة له منها إلّا بالأداء العفو؛ يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويُقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعى ذمّته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافى صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضى حاجته، ويشفع مسئلته، ويسمّت عطسته، ويرشد ضالّته، ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويُبرّ أنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالى وليّه، ولا يعادى عدوه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه، ولا يُسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يُحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۸

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۱۱) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (۱۲)

أسباب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزل قوله: «لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ» فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى‌اذنه وقر، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبى فيسمع ما يقول.

فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مُغضباً.

فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر امّاً له كان يعيّر بها فى الجاهلية. فنكس الرجل رأسه

حياء، فنزلت الآية.

وقوله «وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ» نزل فى نساء النبى صلى الله عليه و آله سخرن من ام سلمة. وذلك أنّها ربطت حقويها بسبية وهى ثوب أبيض، وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره. فقالت عائشة لحفصة: انظرى ماذا تجر خلفها، كأنّه لسان كلب فلهذا كانت سخريتهما.

وقوله «وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» نزل فى رجلين من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اغتابا رفيقهما وهو سلمان، بعثاه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليأتى لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على رحله، فقال: ما عندى شىء. فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة وقالا لسلمان: لو بعثاه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول اللَّه. فقال لهما رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ما لى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما». قالا: يا رسول اللَّه! ما تناولنا يومنا هذا لحماً. قال: «ظلتم تأكلون لحم سلمان وأسامة». فنزلت الآية.

التّفسير

الإستهزاء وسوء الظن والغيبة والتجسس والألقاب السيئة حرام: حيث أنّ القرآن المجيد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۹

اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامى على أساس المعايير الأخلاقية فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين فى مورد النزاع والمخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بيّن فى الآيتين محل البحث قسماً من جذور هذه الإختلافات ليزول الإختلاف (بقطعها) ويُحسم النزاع.

ففى كل من الآيتين الآنفتين تعبير صريح وبليغ عن ثلاثة امور يمكن أن يكون كل منها شرارة لإشتعال الحرب والاختلاف، إذ تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ».

لأنّه: «عَسَى أن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ». «وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ».

والخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يعمّ الرجال والنساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأنّ أساس السخرية والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ.

ثم تقول الآية فى المرحلة الثانية: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ».

«تلمزوا»: هى من مادة «لَمْز» على زنة «طنز» ومعناها تتّبع العيوب والطعن فى الآخرين.

وتضيف الآية فى المرحلة الثالثة أيضاً قائلة: «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ».

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديماً وحديثاً، ماضياً وحاضراً مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، ومن هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين ويدمّرون شخصياتهم وربّما انتقموا منهم أحياناً عن هذا الطريق، وقد يتّفق أنّ شخصاً كان يعمل المنكرات سابقاً، ثم تاب وأناب وأخلص قلبه للَّه، ولكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه.

الإسلام نهى عن هذه الامور بصراحة ومنع من إطلاق أى إسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاةً لتحقير المسلم ...

وروى- فى تفسير مجمع البيان- أنّ صفية بنت حيى بن أخطب، جاءت إلى النبى صلى الله عليه و آله تبكى فقال لها: «ما وراءك»؟ فقالت: إنّ عائشة تعيّرنى وتقول يهودية بنت يهوديين! فقال لها: «هلّا قلت أبى هارون وعمّى موسى وزوجى محمّد». فنزلت الآية.

ولذلك فإنّ الآية تضيف قائلةً: «بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ». أى قبيح جدّاً على من دخل فى سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۰

وتُختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: «وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأى ظلم أسوأ من أن يؤذى شخص بالكلمات اللاذعة و «اللاسعة» والتحقير واللمز قلوب المؤمنين التى هى «مركز عشق» اللَّه.

فى هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».

المراد من هـذا النهی هو النهی عن ترتیب الآثـار، أی متی ما خطر الظنّ السیـء فی الـذهن عن المسـلم فلا ینبغی الإعتناء به عملیّاً، ولا ینبغی تبدیل اسلوب التعامل معه ولا تغییر الروابط مع ذلک الطرف.

ولذلک نقرأ فی هذا الصدد حدیثاً- فی الأمالی للصدوق- عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام قال:

«... وضَع أمر أخیـک علی أحسـنه حتی یأتیـک مـا یَغلِبُِـک منه، ولاـ تظنّن بکلمـهٔ خرجت من أخیـک سوءاً وأنت تجـد لهـا فی الخیر محملًا».

ثم تذکر الآیهٔ موضوع «التجسّس» فتنهی عنه بالقول: «وَلَا تَجَسَّسُوا».

وأخیراً فإنّ الآیهٔ تضیف فی آخر هذه الأوامر والتعلیمات ما هو نتیجهٔ الأمرین السابقین ومعلولهما فتقول: «وَلَا یَغْتَب بَّعْضُکُم بَعْضًا».

وهکذا فإنّ سوء الظن هو أساس التجسـس، والتجسـس یسـتوجب إفشاء العیوب والأسـرار، والإطّلاع علیها یسـتوجب الغیبهٔ، والإسـلام ینهی عن جمیعها علهً ومعلولًا.

ولتقبیح هذا العمل یتناول القرآن مثلًا بلیغاً یجسّد هذا الأمر فیقول: «أَیُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَن یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتًا فَکَرِهْتُمُوهُ».

أجل، إنّ کرامهٔ الأخ المسلم وسمعته کلحم جسده، وابتذال ماء وجهه بسبب اغتیابه وإفشاء أسراره الخفیهٔ کمثل أکل لحمه.

کلمهٔ «میتاً» للتعبیر عن أنّ الإغتیاب إنّما یقع فی غیاب الأفراد، فمثلهم کمثل الموتی الذین لا یسـتطیعون أن یدافعوا عن أنفسـهم، وهذا الفعل أقبح ظلم یصدر عن الإنسان فی حق أخیه.

وحیث أنّه من الممکن أن یکون بعض الأفراد ملوّثین بهـذه الذنوب الثلاثهٔ ویدفعهم وجدانهم إلی التیقّظ والتنبّه فیلتفتون إلی خطئهم، فإنّ السبیل تفتحه الآیهٔ لهم إذ تُختتم بقوله تعالی: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِیمٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۱

فلابدّ أن تحیا روح التقوی والخوف من اللَّه أوّلًا: وعلی أثر ذلک تکون التوبهٔ والإنابهٔ لتشملهم رحمهٔ اللَّه ولطفه.

بحوث

۱- الأمن الإجتماعی الکامل: إنّ الأوامر أو التعلیمات الستهٔ الواردهٔ فی الآیتین آنفتی الذکر (النهی عن السخریهٔ واللمز والتنابز بالألقاب وسـوء الظن والتجسـس والإغتیـاب) إذا نُفّـذت فی المجتمع فـإنّ سـمعهٔ وکرامـهٔ الأـفراد فی ذلـک المجتمع تکون مضـمونهٔ من جمیع الجهات.

إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعهٔ ویجب أن تحفظ جمیعاً فی حصن هذا القانون وهی:

«النفس والمال والناموس وماء الوجه».

والتعـابیر الواردهٔ فی الآـیتین محل البحث والروایات الإسـلامیهٔ تـدل علی أنّ ماء وجه الأفراد کأنفسـهم وأموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسـلام یریـد أن یحکم المجتمع أمن مطلق، ولاـ یکتفی بأن یکفّ الناس عن ضـرب بعضـهم بعضاً فحسب، بل أسـمی من ذلک بأن یکونوا آمنین من ألسـنتهم، بل وأرقی من ذلک أن یکونوا آمنین من تفکیرهم وظنّهم أیضاً .. وأن یُحسّ کلٌّ منهم أنّ الآخر لا یرشقه بنبال الإتهامات فی منطقهٔ أفکاره.

وهـذا الأـمن فی أعلی مستوی ولا یمکن تحقّقه إلّافی مجتمع رسالی مؤمن. یقول النبی صـلی الله علیه و آله فی هـذا الصـدد: «إنّ اللَّه حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن یُظنّ به ظنّ السّوء» «۱».

۲- لا تجسّـسوا: رأینا أنّ القرآن یمنع جمیع أنواع التجسس بصراحهٔ تامّهٔ، وحیث إنّه لم یذکر قیداً أو شرطاً فی الآیهٔ فیدلّ هذا علی أنّ التجسـس علی أعمال الآخرین والسعی إلی إذاعهٔ أسرارهم إثم، إلّاأنّ القرائن الموجودهٔ داخل الآیهٔ وخارجها تدل علی أنّ هذا الحکم متعلق بحیاهٔ الأفراد الشخصیهٔ والخصوصیهٔ.

ويصدق هذا الحكم أيضاً فى الحياة الاجتماعية للأفراد بشرط أن لا يؤثر فى مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنّه إذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعاً آخر، ومن هنا فإنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد أعدّ أشخاصاً وأمرهم أن يكونوا

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۶۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۲

عيوناً لجمع الأخبار واستكشاف المجريات واستقصائها ليحيطوا بما له علاقة بمصير المجتمع. ومن هذا المنطلق أيضاً يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصاً يكونون عيوناً لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الامور، وأن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التى يراد بها إرباك الوضع الأمنى فى البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك فى إطار الحياة الخاصة للأفراد.

إلّا أنّ هذا الأمر لا ينبغى أن يكون ذريعةً لهتك حرمة هذا القانون الإسلامى الأصيل، وأن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا فى حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر والإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلًا، أو يراقبوا الهاتف ويهجموا على بيوتهم بين حين وآخر.

والخلاصة أنّ الحد بين التجسس بمعناه السلبى وبين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق وظريف جداً، وينبغى على مسؤولى إدارة الامور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحد بدقة لئلّا تهتك حرمة أسرار الناس، ولئلّا يتهدد أمن المجتمع والحكومة الإسلامية.

۳- الغيبة من أعظم الذنوب وأكبرها: قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم فى حياته ماء وجهه وحيثيته، وأى شىء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

وأحياناً يعدّ اغتيال وقتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحياناً.

إنّ واحدةً من حِكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الاعتبار العظيم ورأس المال المعنوى للأشخاص لخطر التمزّق والتلوّث.

والأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة وتضعف العلائق الاجتماعية وتوهنها وتتلف رأس مال الإعتماد وتزلزل قواعد التعاون «الإجتماعى».

قال البراء خطبنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى أسمع العواتق فى بيوتهنّ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع اللَّه عورته ومن تتّبع اللَّه عورته يفضحه فى جوف بيته» «۱».

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۵۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۳

وأوحى اللَّه تعالى موسى عليه السلام: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرّاً عليه فهو أوّل من يدخل النار» «۱».

فى الكافى: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «الغيبة أسرع فى دين الرجل المسلم من الآكلة فى جوفه».

إنّ هذه التأكيدات والعبارات المثيرة إنّما هى للأهمية القصوى التى يوليها الإسلام لصون ماء الوجه وحيثية المؤمنين الاجتماعية، وكذلك للأثر المخرّب- الذى تتركه الغيبة- فى وحدة المجتمع والإعتماد المتبادل فى القلوب.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳)

التقوى أغلى القيم الإنسانية: كان الخطاب فى الآيات السابقة موجّهاً للمؤمنين وكان بصيغة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»، وقد نهى الذكر الحكيم فى آيات متعددة عمّا يوقع المجتمع الإسلامى فى خطر، وتكلّم فى جوانب من ذلك.

فى حين أنّ الآيـة محـل البحث تخاطب جميع الناس وتبيّن أهم أصل يضـمن النظم والثبات، وتميّز الميزان الواقعى للقيم الإنسانيـة عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا».

والمراد ب «خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى هو أصـل الخلقـة وعودة أنساب الناس إلى «آدم وحواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحـد فلا ينبغى أن تفتخر قبيلة على اخرى من حيث النسب، وإذا كان اللَّه سبحانه قد خلق كل قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعية.

إنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهات فى العصـر الجاهلى ويُلغى التفاضل بالأنساب والقبائل يتّجه نحو المعيار الواقعى القيم، فيضيف قائلًا: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَكُمْ».

وهكـذا فإنّ القرآن يشـطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهريـة والماديـة، ويعطى الأصالـة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من اللَّه، ويقول إنّه لا شىء أفضل من التقوى فى سبيل التقرب إلى اللَّه وساحة قدسه.

---

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۵۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۴

وبما أنّ «التقوى» صـفة روحانية وباطنية ينبغى أن تكون قبل كل شـىء مستقرّةً فى القلب والروح، وربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية قائلًا: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

فـاللَّه يعرف المتقين حقّاً وهو مطّلع على درجـات تقواهم وخلوص نيّاتهم وطهارتهم وصـفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذَبَة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

بحثان

۱- القيم الحقّـة والقيم الباطلـة: لاـ شـك أنّ كـل إنسـان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمـة وافتخار، ولـذلك فهو يسـعى بجميع وجوده لكسب القيم ...

إلّا أنّ معرفة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكان فى قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترى بأنّ قيمتها الواقعية فى الإنتساب إلى القبيلة المعروفة.

وكـان الاهتمام بالقبيلـة والإفتخار بالإنتساب إليها من أكثر الامور الوهميّـة رواجاً فى الجاهليـة إلى درجـة كانت كل قبيلـة تعـدّ نفسـها أشـرف من القبيلـة الاخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية فى أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد والمجتمعات! وجماعة اخرى تعوّل على مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الامور، فتعدّها دليلًا على القيمة الشخصية وتسعى من أجل كل ذلك دائماً.

وهكذا تخطو كل جماعة فى طريق خاص وتنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصى.

وبما أنّ هذه الامور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية وعابرة فإنّ مبدأً سـماوياً كمبدأ الإسـلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً .. لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان فى صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الدينى.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمة كالعلم والثقافة إذا لم تكن فى خطّ «الإيمان والتقوى والقيم الأخلاقية» ...

فى الـدرّ المنثور عن جـابر بن عبـداللَّه قـال: خطبنـا رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فى وسـط أيام التشـريق خطبـة الوداع فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۵

عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّابالتقوى إنّ أكرمكم عنداللّه أتقاكم ألا هل بلّغت»؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

۲- حقيقة التقوى: يستفاد من آيات القرآن أنّ التقوى هى الإحساس بالمسؤولية والتعهد الذى يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه فى قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته فى خلوص من أيّة شائبة.

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

أ) حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

ب) تجنّب كل إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلًا لمعصية.

ج) التجلّد والإصطبار عن كل ما يشغل القلب ويصرفه عن الحق، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵)

سبب النّزول

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنون عليه، فأنزل اللّه تعالى فيهم هذه الآية «۱».

التّفسير

الفرق بين الإسلام والإيمان: كان الكلام فى الآية المتقدمة على معيار القيم الإنسانية، أى التقوى، وبما أنّ التقوى ثمرة لشجرة الإيمان، الإيمان النافذ فى أعماق القلوب، ففى الآيتين

(۱) أسباب نزول الآيات، الواحدى النيسابورى/ ۲۶۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۶

الآنفتين بيان لحقيقة الإيمان إذ تقول الآية الاولى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ». وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسلام» و «الإيمان» فى أنّ: الإسلام له شكل ظاهرى قانونى، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو فى زمرة المسلمين وتجرى عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعى وباطنى، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجرى على اللسان أو ما يبدو ظاهراً.

فى مجمع البيان: روى أنس عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الإسلام علانية والإيمان فى القلب».

وهذا المعنى نفسه وارد فى تعبير آخر فى بحث الإسلام والإيمان. فى الكافى عن فضيل بن يسار قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر فى القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء».

ثم تضيف الآية محل البحث فتقول: «وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَايَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيًا». وسيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ولا ينقص منها شيئاً.

وذلك ل «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«يلتكم»: مشتق من «لَيت» على زنة (ريب) ومعناه الإنقاص من الحق.

والعبارات الأخيرة في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسلّم به وهو أنّ شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذا كنتم مؤمنين باللّه ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم للّهوالرسول فإنّ أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شيء، ويثيبكم اللّه، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ اللّه غفور رحيم.

وحيث إنّ الحصول على هذا الأمر الباطني أي الإيمان ليس سهلًا، فإنّ الآية التالية تتحدث عن علائمه، العلائم التي تميّز المؤمن حقّاً عن المسلم والصادق عن الكاذب، وأولئك الذين استجابوا للّهوللرسول رغبةً وشوقاً منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعاً أو للوصول إلى المال والدنيا فتقول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

أجل، إنّ أوّل علامة للإيمان هي عدم التردد في مسير الإسلام، والعلامة الثانية الجهاد بالأموال، والعلامة الثالثة التي هي أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۷

ولذلك فإنّ الآية تُختتم بالقول مؤكّدة: «أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هذا هو المعيار الذي حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق وتمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهراً، وليس هذا المعيار منحصراً بفقراء جماعة بني أسد، بل هو معيار واضح وجلي ويصلح لكل عصر وزمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، ولبيان قيمة اولئك الذين يمنّون بأن أسلموا على النبي صلى الله عليه و آله وذلك بحسب الظاهر فحسب، إلّاأنّه عند التطبيق والعمل لا يوجد فيهم أقلّ علامة من الإيمان أو الإسلام.

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۷) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۸)

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا: فلما نزلت الآيتان- آنفاً- أتو رسول اللّه صلى الله عليه و آله يحلفون أنّهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل اللّه سبحانه الآية الاولى من الآيات مورد البحث وأنذرتهم أن لا يحلفوا، فاللّه يعرف باطنهم وظاهرهم، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

التّفسير

لاـ تمنّوا عليّ إسلامكم: كانت الآيات السابقة قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين، وحيث إنّا ذكرنا في شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا النبي صلى الله عليه و آله وقالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقةً وإنّ الإيمان مستقر في قلوبهم، فإنّ هذه الآيات تنذرهم وتبيّن لهم أنّه لا حاجة إلى الإصرار والقسم، كما أنّ هذا البيان والإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر والإيمان) إنّما يطّلع عليها اللّه الخبير بكل شيء.

ولحن الآيات فيه عتاب وملامة، إذ تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «قُلْ أَتُعَلّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

ولمزيد التأكيد تقول الآية أيضاً: «وَاللَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ». فذاته المقدسة هي علمه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۸

بعينه وعلمه هو ذاته بعينها ولذلك فإنّ علمه أزلي أبدي.

ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النبي بأنّهم أسلموا وأنّهم أذعنوا لدينه في الوقت الذي حاربته

القبائل العربیة الاخری. فیقول القرآن جواباً علی کلماتهم هذه: «یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أنْ أَسْلَمُوا قُل لَّاتَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلَمَکُم بَلِ اللَّهُ یَمُنُّ عَلَیْکُمْ أنْ هَدَیکُمْ لِلْإِیمَانِ إن کُنتُمْ صَادِقِینَ».

«المنّة»: من مادة «المن» ومعناه الوزن الخاص الذی یوزن به، ثم استعمل هذا اللفظ علی کل نعمة غالیة وثمینة، والمنّة علی نوعین: فإذا کان فیها جانب عملی کعطاء النعمة والهبة فهی ممدوحة، ومنن اللّه من هذا القبیل، وإذا کان فیها جانب لفظی، کمنّ کثیر من الناس بالقول بعد العمل، فهی قبیحة وغیر محبوبة.

فالإیمان وقبل کل شیء یمنح الإنسان إدراکاً جدیداً عن عالم الوجود، ویکشف عنه حجب الأنانیة والغرور، ویوسع علیه أفق نظرته، ویجسّد له عظمة خلقه فی نظره.

ومن هنا کان علی الإنسان أن یؤدّی شکر نعمة اللّه صباح مساء، وأن یهوی إلی السجود بعد کل صلاة وعبادة، وأن یشکر اللّه علی جمیع هذه الامور.

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث تأکید آخر علی ما ورد فی الآیة الآنفة إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ غَیْبَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِیرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلا تصرّوا علی أنّکم مؤمنون حتماً ولا حاجة للقسم .. فهو حاضر فی أعماق قلوبکم، وهو علیم بما یجری فی غیب السماوات والأرض جمیعاً.

«نهایة تفسیر سورة الحجرات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۹

۵۰. سورة ق

محتوی السورة: إنّ محور بحوث هذه السورة هو موضوع «المعاد» والمسائل المرتبطة بالمعاد. تمت الإشارة فی هذه السورة إلی الامور التالیة:

۱- إنکار الکافرین مسألة المعاد وتعجّبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسمانی».

۲- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الإلتفات إلی مطلق التکوین والخلق وخاصة إحیاء الأرض المیتة بنزول الغیث.

۳- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الإلتفات إلی الخلق الأوّل.

۴- الإشارة إلی مسألة ثبت الأعمال والأقوال لیوم الحساب.

۵- المسائل المتعلقة بالموت والإنتقال من هذه الدنیا إلی الدار الاخری.

۶- جانب من حوادث یوم القیامة وأوصاف الجنة والنار.

۷- إشارة إلی حوادث نهایة هذا العالم المذهلة والمثیرة.

وفی الأثناء إشارات (موجزة وذات تأثیر بلیغ) عن حال الامم الماضیة وطغیانها وعاقبتها الوخیمة أمثال قوم فرعون وعاد وقوم لوط وقوم شعیب وقوم تبع وما ورد من تعلیمات للنبی فی التوجه إلی اللّه تعالی ... کما وردت فی بدایة السورة ونهایتها إشارة إلی عظمة القرآن.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۰

فضیلة تلاوة السورة: یستفاد من الروایات الإسلامیة أنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یهتمّ إهتماماً کبیراً بسورة «ق» حتی أنّه صلی الله علیه و آله کان یقرأها فی کل جمعة إذا خطب الناس «۱».

فی تفسیر مجمع البیان عن الباقر علیه السلام قال: «ومن أدمن فی فرائضه ونوافله سورة ق وسّع اللّه فی رزقه وأعطاه کتاباً بیمینه وحاسبه حساباً یسیراً».

وکل هذه الفضیلة والفخر لا یحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هی بدایة لتیقّظ الأفکار، وهی بدورها مقدّمة للعمل الصالح

والإنسجام مع محتوى السورة هذه.

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (۴) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) مرّةً اخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطعة، وهو الحرف «ق»، وكما قلنا من قبل أنّ واحداً من التفاسير المتينة هو أنّ هذا القرآن على عظمته مؤلّف من حروف بسيطة هى ألف باء الخ ... وهذا يدلّ على أنّ مُبدع القرآن ومنزله لديه علم لا محدود وقدرة مطلقة بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالى من هذه الوسائل البسيطة المألوفة.

قال بعض المفسرين: إنّ «ق» إشارة إلى بعض أسماء اللّه تعالى «كالقادر والقيّوم» وما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف.

ومن جملة الامور التى تثبت على أنّ هذا الحرف (ق) هو من الحروف المقطعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجىء القسم مباشرةً- بعد هذا الحرف- بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: «ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ».

«المجيد»: مشتقة من المجد ومعناها الشرف الواسع؛ وبما أنّ القرآن عظمته غير محدودة وشرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيداً من كل جهة، فظاهره رائق، ومحتواه عظيم، وتعاليمه عالية، ومناهجه مدروسة، تبعث الروح والحياة فى نفوس العباد.

ثم يبيّن القرآن جانباً من إشكالات الكفار والمشركين العرب الواهية فيذكر إشكالين

---

(۱) مستدرك، الحاكم النيسابورى ۱/ ۲۸۴؛ صحيح مسلم ۳/ ۱۳؛ مسند أحمد ۶/ ۴۶۳.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۱

منها ... الأوّل هو حكايته عنهم: «بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ».

وبعد إشكالهم الأوّل على نبوّة النبى محمّد صلى الله عليه و آله وهو كيف يكون النبى بشراً؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى دعوته ووضعوا أصابع الدهشة على مسألة اخرى كانت عندهم أمراً غريباً وهى: «أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ».

إنّ القرآن يردّ عليهم بطرق متعددة؛ فتارةً يشير إلى علم اللّه الواسع فيقول: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ».

إذا كان إشكالكم هو أنّه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة ولحمه الذى صار تراباً ومن يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئاً؟! فجواب ذلك معلوم ... فاللّه الذى أحاط بكل شىء علماً يعرف جميع هذه الذرّات ويجمعها متى شاء، كما أنّ ذرّات الحديد المتناثرة فى تلّ من الرمل يمكن جمعها بقطعة من «المغناطيس» فكذلك جمع ذرّات الإنسان أيسر على اللّه من ذلك.

وإذا كان إشكالهم أنّه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أنّ جميع أعمال الناس فى لوح محفوظ، ولا يضيع أى شىء فى هذا العالم، وكل شىء- حتى أعمالكم- سيظلّ باقياً وإن تغيّر شكله.

ثم يردّ القرآن عليهم بجواب آخر، وفيه منحى نفسى أكثر إذ يقول: «بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ». أى: إنّهم جحدوا الحق مع علمهم به، وإلّا فإنّه لا غبار على الحق، وكما سيتّضح فى الآيات المقبلة فإنّهم يرون صورة مصغّرة للمعاد بأعينهم مراراً فى هذه الدنيا وليس عندهم مجال للشك والتردد.

لذلك فإنّ القرآن يختتم هذه الآية مضيفاً: «فَهُمْ فِي أَمرٍ مَّرِيجٍ». فلأنّهم كذّبوا الرسالة فهم دائماً فى تناقض فى القول وحيرة فى العمل وإضطراب فى السلوك.

فتارةً يتّهمون النبى بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو كاهن.

وتارةً يقولون بأنّه يعلّمه بشر.

وهذه الكلمات المتفرقة والمتناقضة تدلّ على أنّهم فهموا الحق، إلّاأنّهم يتذرّعون بحجج واهية شتّى، ولذلك لا يقرّون على كلام واحد أبداً.

«مریج»: مشتقة من مرج ومعناها الأمر المختلط والمشتبه والمشوش، ولذلک فقد أطلقوا علی الأرض التی تکثر فیها النباتات المختلفة والمتعددة بأنّها «مرج» أو «مرتع».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۲

أَ فَلَمْ یَنْظُرُوا إِلَی السَّماءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْناها وَ زَیَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَیْنا فِیها رَواسِیَ وَ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِکْری لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَکاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِیدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِیدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْیَیْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ الْخُرُوجُ (۱۱) انظروا إلی السماء لحظةً: هذه الآیات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارةً تتحدث عن قدرة اللّه المطلقة لإثبات المعاد، واخری تستشهد له بوقائع ونماذج تحدث فی الدنیا تمثّل حالة المعاد، فهی تستجلب وتُلفت أنظار المنکرین إلی خلق السماوات فتقول: «أَفَلَمْ یَنظُرُوا إِلَی السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْنَاهَا وَزَیَّنَّاهَا».

والمراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفکیر الذی یدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذی خلق السماء الواسعة وما فیها من عجائب مذهلة وتناسق وإستحکام ونظم ودقة.

جملة «وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ» أی لا إنشقاق فیها، إمّا أن یکون بمعنی عدم النقص والعیب، أو أن یکون معناه عدم الإنشقاق والإنفطار فی السماء المحیطة بأطراف الأرض وهی ما یعبّر عنها بالغلاف الجوّی للأرض أو ما یعبّر القرآن عنه بالسقف المحفوظ.

ثم تشیر الآیات إلی عظمة الأرض فتقول: «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَیْنَا فِیهَا رَوَاسِیَ وَأَنبَتْنَا فِیهَا مِن کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ».

أجل، خلق الأرض من جهة، ثم اتّساعها «وخروجها من تحت الماء» من جهة اخری، ووجود الجبال «الرواسی» علیها وإرتباط بعضها ببعض کأنّها السلاسل التی تشدّ الأرض وتحفظها من الضغوط الداخلیة والخارجیة والجزر والمدّ الحاصلین من جاذبیة الشمس والقمر من جهة ثالثة ... ووجود أنواع النباتات بما فیها من عجائب واتّساق وجمال من جهة رابعة جمیعها تدلّ علی قدرته اللّامحدودة.

أمّا الآیة التالیة فهی بمثابة الإستنتاج إذ تقول: «تَبْصِرَةً وَذِکْرَی لِکُلِّ عَبْدٍ مُّنِیبٍ».

أجل إنّ من له القدرة علی خلق السماوات بما فیها من عظمة وجمال وجلال، والأرض بما فیها من نعمة وجمال ودقّة، کیف لا یمکنه أن یلبس الموتی ثوب الحیاة مرّة اخری وأن یجعل لهم معاداً وحیاة اخری.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۳

أمّا الآیة التالیة ففیها إستدلال آخر علی هذا الأمر إذ تقول: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَکًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِیدِ».

ثم تضیف الآیة: «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِیدٌ».

«باسقات»: جمع «باسقة» بمعنی الشجرة المرتفعة العالیة؛ و «الطلع»: ثمر النخل وما یکون منه الرطب والتمر بعدئذ؛ «النضید»: معناها المتراکم بشکل دقیق.

والآیة الأخیرة من الآیات محل البحث تقول: «رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْیَیْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّیْتًا کَذلِکَ الْخُرُوجُ».

وهکذا فإنّ هذه الآیات ضمن بیان النعم العظمی للعباد وتحریک إحساس الشکر فیهم فی مسیر المعرفة تذکّرهم بأنّهم یرون مثلًا للمعاد کل سنة فی حیاتهم فی هذه الدنیا، فالأرض المیتة الخالیة والیابسة تهتزّ وتنبت النباتات علیها عند نزول قطرات الغیث وکأنّ أصداء القیامة تترنّم علی شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شریک له».

فهذه الحرکة العظیمة نحو الحیاة فی عالم النباتات تکشف عن هذه الحقیقة، وهی أنّ باریء عالم الموجودات قادر علی إحیاء الموتی مرّةً اخری، لأنّ وقوع الشیء أقوی دلیل علی إمکانه.

کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ کُلٌّ کَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیدِ (۱۴) أَ فَعَیِینا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۵) لست وحدک المبتلی بالعدوّ: تعالج هذه الآیات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعددة.

ففى البدايـة ومن أجل تثبيت قلب النبى صـلى الله عليه و آله وتسـليته تقول: لست وحدك المرسل الذى كذّبه الكفار وكذّبوا محتوى دعواته ولا سيّما المعاد فإنّه: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ».

وجماعة «ثمود» هم قوم صالح النبى العظيم إذ كانوا يقطنون منطقة «الحجر» شـمال الحجاز. أمّا «أصـحاب الرسّ» فالكثير من المفسرين يعتقدون أنّهم طائفة كانت تقطن اليمامة، وكان عندهم نبىّ يُدعى حنظلة فكذّبوه. وألقوه فى البئر فى آخر الأمر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۴

ثم يضـيف القرآن قائلًا: «وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ». والمراد بـإخوان لوط هم قومه، وقـد عـبّر القرآن عن لوط بـأنّه أخوهم، وهـذا التعبير مستعمل فى اللغة العربية بشكل عام.

وكذلك من بعدهم: «وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ». و «الأيكة»: معناها الأشـجار الكثيرة المتداخلة بعضها ببعض- أو الملتفّة أغصانها- و «أصحاب الأيكة» هم طائفة من قوم شعيب كانوا يقطنون منطقة غير «مدين» وهى منطقة ذات أشجار كثيرة.

والمراد من «قوم تبّع» طائفة من أهل اليمن، لأنّ «تبّع» لقب لملوك اليمن، باعتبار أنّ هؤلاء القوم يتبعون ملوكهم.

ثم إنّ الآية هذه أشارت إلى جميع من ذكرتهم من الأقوام الثمانية فقالت: «كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ».

فإنّ هؤلاء الامم كذّبوا أنبياءهم وكذّبوا مسألة المعاد والتوحيد أيضاً، وكانت عاقبة أمرهم نُكراً ووبالًا عليهم، فمنهم من ابتلى بالطوفان، ومنهم من أخذته الصاعقة، ومنهم من غرق بالنيل، ومنهم من خُسفت به الأرض أو غير ذلك، وأخيراً فإنّهم ذاقوا ثمرة تكذيبهم المرّة.

ثم يشير القرآن إلى دليل آخر من دلائل إمكان النشور ويوم القيامة فيقول: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ».

ثم يضـيف القرآن: إنّهم لا يشكّون ولا يتردّدون فى الخلق الأوّل لأنّهم يعلمون أنّ خالق الإنسان هو اللَّه ولكنّهم يشكّون فى المعاد مع كل تلك الدلائل الواضحة: «بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ».

وفى الحقيقـة إنّهم فى تنـاقض بسـبب هوى النفس والتعصّب الأـعمى، فمن جهـة يعتقـدون بـأنّ خالق الناس أوّلًا هو اللَّه إذ خلقهم من تراب، إلّاـأنّهم من جهـة اخرى حين يقع الكلام على المعاد وخلق الإنسان ثانيـة من التراب يعـدّون ذلك أمراً عجيباً ولا يمكن تصوّره وقبوله.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيـدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (۱۷) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸) كتابه جميع الأقوال: يُثار فى هـذه الآيات قسم آخر من المسائل المتعلّقة بالمعاد، وهو

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۵

ضبط أعمال الإنسان وإحصاؤها لتعرض على صاحبها عند يوم الحساب.

تبدأ الآيات فتتحدث عن علم اللَّه المطلق وإحاطته بكلّ شيء فتقول: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْانسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ».

«توسوس»: مشـتقة من الوسوسـة وهى- كمـا يراه الراغب فى مفرداته- الأفكـار غير المطلوبـة التى تخطر بقلب الإنسـان، وأصل الكلمة «الوسواس» ومعناه الصوت الخفى وكذلك صوت أدوات الزينة وغيرها.

والمراد من الوسوسـة فى الآية هنا هى أنّ اللَّه لمّا كان يعلم بما يخطر فى قلب الإنسان والوساوس السابحة فى أفكاره، فمن البديهى أنّه عالم بجميع عقائده وأعماله وأقواله، وسوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

وجملة «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْانسَانَ» يمكن أن تكون إشارةً إلى أنّ خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه.

أجل، هو الخالق، وخلقه دائم ومستمر ونحن مرتبطون به فى جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا يعلم باطننا وظاهرنا.

ويضيف القرآن لمزيد الإيضاح فى ذيل الآية قائلًا: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

وهذا ما أشار إليه القرآن فى الآية (۲۴) من سورة الأنفال، إذ قال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وبالطبع فإنّ هـذا كلّه تشبيه تقريبى، واللَّه سبحانه أقرب من ذلك وأسـمى رغم كون المثال المـذكور أبلغ تصوير محسوس على شدّة القرب.

إنّ الإلتفات إلى هـذه الحقيقـة يوقظ الإنسان، ويكون على بيّنة من أمره وما هو مذخور له فى صـحيفة أعماله عند محكمة عدل اللَّه ... فيتحوّل من إنسان غافل إلى موجود واعٍ ملتزم ورع تقىّ.

ويضـيف القرآن فى الآيـة التاليـة قائلًا: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ». أى: أنّه بالإضافة إلى إحاطة علم اللَّه «التامة» على ظاهر الإنسان وباطنه، فهنالك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه وشماله.

«تلقّى»: معناها الأخذ والتسلّم؛ و «المتلقّيان»: هما ملكان مأموران بكتابة أعمال الناس؛

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۶

و «قعيـد»: مـأخوذة من القعود ومعناهـا «جـالس» والمراد بالقعيـد هنـا الرقيب والملازم للإنسان. وبتعبير آخر: أنّ الآيـة هـذه لا تعنى أنّ الملكين جالسـين عن يمين الإنسـان وعن شـماله، لأنّ الإنسـان يكون فى حال السير تارةً، واخرى فى حال الجلوس، بل التعبير هنا هو كناية عن وجودهما مع الإنسان وهما يترصّدان أعماله. وورد فى الروايات الإسـلامية أنّ ملك اليمين كاتب الحسـنات، وملك الشمال كـاتب السيّئات، وصاحب اليمين أميرٌ على صاحب الشـمال، فإذا عمل الإنسان حسـنةً كتبها له صاحب اليمين بعشـر أمثالها، وإذا عمل سيئـة فـأراد صـاحب الشـمال أن يكتبهـا قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سـبع ساعات، فإذا إسـتغفر اللَّه منها لم يكتب عليه شىء، وإن لم يستغفر اللَّه كتب له سيّئة واحدة.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث فتتحدث عن الملكين أيضاً فتقول: «مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

وكان الكلام فى الآيـة الآنفـة عن كتابة جميع أعمال الإنسان، وفى هذه الآية إهتمام بخصوص ألفاظه، وهذا الأمر هو للأهمية القصوى للقول وأثره فى حياة الناس، حتى أنّ جملة واحدة أو عبارة قصيرة قد تؤدى إلى تغيير مسير المجتمع نحو الخير أو الشرّ.

«الرقيب»: معناها المراقب؛ و «العتيد»: معناها المتهيء للعمل.

وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (۲۰) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هـذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲) القيامـة، والبصـر الحديد: تعكس الآيات أعلاه مسائل اخرى تتعلق بيوم المعاد: «مشـهد الموت» و «النفخ فى الصور» و «مشهد الحضور فى المحشر». فتقول أوّلًا: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ».

سكرة الموت: هى حال تشبه حالـة الثمل السـكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الاضـطراب والإنقلاب والتبـدّل، وربّما إسـتولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره وإختياره.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۷

وللإمام على عليه السلام كلام بليغ- فى الخطبة ۱۰۹ فى نهج البلاغة- يرسم لحظة الموت وسكراتها إذ يقول: «اجتمعت عليهم سكرت الموت وحسـرت الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحـدهم ومنطقه وأنّه لبين أهله ينظر ببصـره ويسـمع باذنه على صـحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره! ويتـذكّر أموالًا جمعها أغمض فى مطالبها وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمّتعون بها».

ثم يضيف القرآن فى ذيل الآية قائلًا: «ذلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ» «۱».

أجل، إنّ الموت حقيقـة يهرب منها أغلب الناس لأنّهم يحسـبونه فناءً لا نافـذةً إلى عالم البقاء، أو أنّهم لعلائقهم وإرتباطاتهم الشديـدة بالدنيا والمواهب المادية التى لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفة أعمالهم. أيّاً كان فهم منه يهربون ... ولكن ما ينفعهم ومصيرهم المحتوم فى إنتظار الجميع ولا مفرّ لأحد منه.

ثم يتحدث القرآن عن النفخ فى الصور فيقول: «وَنُفِخَ فِی الصُّورِ ذلِکَ یَوْمُ الْوَعِیدِ».

والمراد من «النفخ فى الصور» هنا هو النفخة الثانية، وهى نفخة «القيام والجمع والحضور» وتكون فى بداية البعث والنشور والقيامة وبها يحيى الناس جميعهم ويخرجون «وينسلون» من الأجداث والقبور إلى ربّهم وحساب «عدله» وجزائه.

وفى الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: «وَجَاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِیدٌ».

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل اللّه، والشهيد يشهد على أعماله! وهى كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين ويأتون معهم للمحكمة ويشهد عليهم الشهود.

وهنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فرداً فرداً) فيقال: «لَّقَدْ کُنتَ فِی غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا فَکَشَفْنَا عَنکَ غِطَاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ».

أجل، إنّ أستار عالم المادة من الآمال والعلاقة بالدنيا والأولاد والمرأة والأنانية والغرور والعصبية والجهل والعناد وحبّ الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد والنشور، فهذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلة، وتماط عنك حجب الجهل

---

(۱) «تحيد»: مشتقة من مادة «حيد»- على وزن صيد- ومعناها العدول عن الشيء والفرار منه ..

والتعصّب واللجاجة، وتنشقّ أستار الشهوات والآمال، وما كان مستوراً وراء حجاب الغيب يبدو ظاهراً اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز ويوم الشهود ويوم تبلى السرائر.

وَ قَالَ قَرِینُهُ هذَا مَا لَدَیَّ عَتِیدٌ (۲۳) أَلْقِیَا فِی جَهَنَّمَ کُلَّ کَفَّارٍ عَنِیدٍ (۲۴) مَنَّاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ مُرِیبٍ (۲۵) الَّذِی جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِیَاهُ فِی الْعَذَابِ الشَّدِیدِ (۲۶) قَالَ قَرِینُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَیْتُهُ وَ لکِنْ کَانَ فِی ضَلَالٍ بَعِیدٍ (۲۷) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَیَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ (۲۸) مَا یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ وَ مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۲۹) یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ (۳۰) قرناء الإنسان من الملائكة والشياطين: مرّةً اخرى ترتسم فى هذه الآيات صورة اخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث إنّ الملك- قرين الإنسان- يبيّن محكومية الإنسان بين الملأ ـ ويصدر حكم اللّه لمعاقبته وجزائه. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: يقول صاحبه وقرينه هذا كتاب أعمال هذا الإنسان حاضر لديّ: «وَقَالَ قَرِینُهُ هذَا مَا لَدَیَّ عَتِیدٌ».

فيكشف الستار عن كل صغيرة وكبيرة صدرت منه.

والمراد من «قرينه» هو الملك الذى يرافق الإنسان فى الدنيا والذى كان مأموراً بتسجيل أعماله وضبطها ليشهد عليه هناك فى محكمة عدل اللّه.

ثم يخاطب اللّه الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما: «أَلْقِیَا فِی جَهَنَّمَ کُلَّ کَفَّارٍ عَنِیدٍ».

«عنيد»: مشتقة من العناد، ومعناها التكبر وحبّ الذات وعدم الخضوع للحق.

وفى الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف الذميمة المنحطّة التى يتّصف بها هؤلاء الكفار- إذ تقول الآية: «مَّنَّاعٍ لِّلْخَیْرِ مُعْتَدٍ مُّرِیبٍ».

«معتد»: معناها المتجاوز على الحدود، سواءً أكان متجاوزاً لحقوق الآخرين أو لحدود اللّه وأحكامه؛ و «مريب»: مشتقة من الريب، وتعنى من هو فى شك، الشك المقرون بسوء الظن، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل فى شك من أمرهم ... فيضلّوا عن سواء السبيل.

ثم تضيف الآية التالية لتذكر وصفاً ذميماً لمن كان من طائفة الكفار فتقول: «الَّذِی جَعَلَ

مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ». أجل: «فَأَلْقِیَاهُ فِی الْعَذَابِ الشَّدِیدِ».

وفى هذه الآيات بيان ستّة أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدمة بعضها لبعض بمثابة العلة والمعلول، أمّا الوصف السادس

فإيضاح للجذر الأصيل لهذه الأوصاف، لأنّ معنى الكفار هو من أصرّ على كفره كثيراً، وينتهى هذا الأمر إلى العناد.
والمعاند أو العنيد يصرّ على منع الخير أيضاً، ومثل هذا الشخص بالطبع يكون معتدياً متجاوزاً على حقوق الآخرين وحدود اللّه.
والمعتدون يصرّون على إيقاع الآخرين فى الشك والريب وسلب الإيمان عنهم.
وفى الوصف السادس أى: «الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ» يكمن الجذر الأصيل والأساس لجميع الإنحرافات الآنف ذكرها، والمراد من هذا الوصف هو الشرك، لأنّ التدقيق فيه يكشف أنّ الشرك هو الباعث على جميع هذه الامور المتقدمة.
وفى الآية التالية يكشف الستار عن مشهد آخر وصورة اخرى مما يجرى على هؤلاء الكفار وعاقبتهم، وهو المجادلة بينهم وبين الشيطان الغوى فى يوم القيامة، فكل من الكفار يلقى التبعات على الشياطين، إلّاأنّ قرينه «الشيطان» يردّ عليه ويقول كما يحكى عنه القرآن: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلكِن كَانَ فِى ضَللٍ بَعِيدٍ». فلم أجبره على سلوك طريق الغواية والضلالة، بل هو الذى سلكه باختياره وإرادته وإختار هذا الطريق.
وبالرغم من أنّ هذه الآيات تتحدث عن دفاع الشيطان عن نفسه فحسب، ولا يظهر فيها كلام على إعتراض الكفار وردّهم على الشيطان، إلّاأنّه وبقرينة سائر الآيات التى تتحدث عن مخاصمتهم فى يوم القيامة وبقرينة الآية التالية يتّضح جدال الطرفين إجمالًا، لأنّها تقول حاكية عن رب العزة: «قَالَ لَاتَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ».
وأخبرتكم عن هذا المصير.
إشارة إلى قوله تعالى للشيطان من جهة: «قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا» «۱».
ومن جهة اخرى فقد أنذر سبحانه من تبعه من الناس: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» «۲».

---

(۱) سورة الإسراء/ ۶۳.
(۲) سورة ص/ ۸۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۵۹۰

ولمزيد التأكيد تقول الآية التالية حاكية عن لسان رب العزة: «مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلمٍ لِّلْعَبِيدِ».
والمراد من «القول» هنا هو التهديد أو الوعيد الذى أشار إليه اللّه سبحانه مراراً فى آيات متعددة وذكرنا آنفاً أمثلةً منها.
والتعبير ب «ظلّام» وهو صيغة مبالغة معناه إشارة إلى أنّ مقام عدل اللّه وعلمه فى درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيراً جدّاً ولكان مصداقاً للظلّام، فعلى هذا فإنّ اللّه بعيد عن أى أنواع الظلم.
إنّ هذا التعبير دليل على أنّ العباد مخيّرون ولديهم الحرية «فى الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته وعمله، ولا الكفار مجبورون على الكفر وأتباع طريق الشيطان، ولا العاقبة والمصير القطعى الخارج عن الإرادة قد تقرّرا لأحد أبداً.
وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى جانب قصير ومثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ».
إنّ هذه الآية تدل دلالة واضحة أنّ أهل جهنم كثيرون، وأنّ صورة جهنم مرعبة وموحشة وأنّ تهديد اللّه جدّى وحق يربك الفكر فى كل إنسان فيهزّه ويحذّره ألّا يكون واحداً من أهلها.
وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (۳۱) هذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (۳۲) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (۳۳) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (۳۵) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (۳۷) مع الإلتفات إلى أنّ أبحاث هذه

السورة يـدور أغلبها حول محور المعاد والامور التى تتعلق به، ومع ملاحظة أنّ الآيات آنفة الذكر تتحدث عن كيفية القاء الكفار المعاندين فى نار جهنم وما يلاقونه من عذاب شديد وبيان صفاتهم التى جرّتهم وساقتهم إلى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۱

ففى هذه الآيات محل البحث تصوير لمشهد آخر، وهو دخول المتقين الجنة بمنتهى التكريم والتجلّة وإشارة إلى أنواع النعم فى الجنة، كما أنّ هذه الآيات تبيّن صفات أهل الجنة لتتّضح الحقائق أكثر بهذه المقارنة ما بين أهل النار وأهل الجنة.

فتبدأ الآيات بالقول: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ».

«ازلفت»: من مادة «زُلفى»- على زنة كبرى- ومعناها القرب، أى قُرّبت.

ثم تبيّن الآيات أوصاف أهل الجنة فتقول: «هذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ».

«أوّاب»: من مادة «أوب»- على زنة ذوب- ومعناها العودة؛ ومع ملاحظة أنّ هذه الصيغة هى للمبالغة فإنّها تدلّ على أنّ أهل الجنة رجال متقون بحيث إنّ أى عامل أو مؤثّر أراد أن يبعدهم عن طاعة اللَّه فهم يلتفتون ويتذكّرون فيرجعون إلى طاعته فوراً، ويتوبون عن معاصيهم وغفلاتهم ليبلغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ»: معناه الحافظ، والمراد منه هو الحافظ لعهد اللَّه إذ أخذه من بنى آدم ألّا يعبدوا الشيطان كما ورد فى الآية (۶۰) من سورة يس؛ والحافظ لحدود اللَّه وقوانينه والحافظ لذنوبه والمتذكّر لها مما يستلزم التوبة والجبران.

وإستدامةً لبيان هذه الأوصاف فإنّ الآية التالية تشير إلى وصفين آخرين منها، وهما بمثابة التوضيح لما سبق ذكره، إذ تقول الآية: «مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ». أى: أنّهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس ولا فى خلوتهم وإبتعادهم عنهم.

وهذا الخوف «أو الخشية» يكون سبباً للإنابة، فيكون قلبهم متوجّهاً إلى اللَّه ويقبل على طاعته دائماً ويتوب من كل ذنب، وأن يواصلوا هذه الحالة حتى نهاية العمر ويردوا عرصات المحشر على هذه الكيفية.

ثم تضيف الآية الاخرى بأنّ اولئك الذين يتمتعون بالصفات الأربع هذه حين تتلقّاهم الملائكة عند أبواب الجنة يقولون لهم بنهاية التجلّة والإكرام: «ادْخُلُوهَا بِسَلمٍ».

«السلام» من كل أنواع الأذى والسوء والعذاب والمعاقبة، السلامة الكاملة فى لباس الصحّة والعافية.

ولطمأنتهم يُضاف أنّ ذلك اليوم يوم الدعّة و «ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ».

وإضافةً لهاتين البشارتين بشرى الدخول بسلام، وبشرى الخلود فى الجنة، يبشّرهم اللَّه بشريين اخريين بحيث تكون مجموع البشريات أربعاً كما أنّهم يتصفون بأربع صفات يقول:

«لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۲

وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه: «لَدَيْنَا مَزِيدٌ» من النعم التى لم تخطر ببال أحد.

وبعد الانتهاء من بيان الحديث حول أهل الجنة وأهل النار ودرجاتهما، فإنّ القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة والاستنتاج فيقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى الْبِلدِ». فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء وكانوا يفتحون البلدان ويتسلّطون عليها، إلّاأنّهم وبسبب كفرهم وظلمهم أهلكناهم ... فهل وجدوا منفذاً ومخرجاً للخلاص من الموت والعذاب الإلهى: «هَلْ مِن مَّحِيصٍ».

«القرن» و «الإقتران»: فى الأصل هو «القرب» أو «الإقتراب» ما بين الشيئين أو الأشياء، ويطلق لفظ «القرن» على الجماعة المتزامنة فى فترة واحدة، ويجمع على «قرون»، فإهلاك القرون معناه إهلاك الامم السابقة.

و «البطش» معناه حمل الشيء وأخذه بالقوّة والقدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك والحرب.

و «المحيص»: معناها الانحراف والعدول عن الشيء، ومن هنا فقد استعملت هذه الكلمة فى الفرار من المشاكل والهزيمة عن المعركة.
فإنّ الآيةَ تنذر الكفار المعاصرين للنبى صلى الله عليه و آله أن يستقرئوا تاريخ الماضين وأن ينظروا فى قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين الذين كانوا امماً وأقواماً أشد من هؤلاء «وليفكّروا بعاقبتهم أيضاً».
ويضيف القرآن فى آخر آيـة من الآيات محل البحث مؤكّداً أكثر فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ».
والمراد ب «القلب» هنا وفى الآيات الاخر من القرآن التى تتكلم على إدراك المسائل هو العقل والشعور والإدراك.
أمّا «أَلْقَى السَّمْعَ» فكناية عن الإصغاء ومنتهى الإستماع بدقة.
و «الشهيد»: يطلق على من هو حاضر القلب.
وهكذا فإنّ مضمون الآية بمجموعه يعنى ما يلى: إنّ هناك فريقين ينتفعان بهذه المواعظ والنصيحة ... فالفريق الأوّل من يتمتع بالذكاء والعقل ... ويستطيع بنفسه أن يحلّل المسائل بفكره.
أمّا الفريق الآخر فليس بهذا المستوى، إلّاأنّه يمكن أن يلقى السمع للعلماء ويصغى لكلماتهم بحضور القلب ويعرف الحقائق عن طريق الإرشاد.
مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۳
وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (۴۰) خالق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى: تعقيباً على ما ورد فى الآيات آنفة الذكر ودلائلها المتعددة فى شأن المعاد، تشير الآيات محل البحث إلى دليل آخر من دلائل إمكان المعاد ... ثم تأمر النبى بالصبر والاستقامة والتسبيح بحمد اللّه ليبطل دسائس المتآمرين وما يحيكونه ضدّه، فتقول الآية الاولى من هذه الآيات: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ».
«اللغوب»: بمعنى «التعب» وبديهى أنّ من كان قادراً على إيجاد السماوات والأرض وخلق الكواكب والمجرّات وأفلاكها جميعاً، قادر على إعادة الإنسان بعد موته وأن يُلبسه ثوباً جديداً من الحياة.
وبعد ذكر دلائل المعاد المختلفة وتصوير مشاهد المعاد ويوم القيامة المتعددة فإنّ القرآن يخاطب النبى ويأمره بالصبر- لأنّ هناك طائفة لا تذعن للحق وتصرّ على الباطل فيقول:
«فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ». إذ بالصبر والإستقامة- وحدهما- يستطاع التغلّب على مثل هذه المشاكل.
وبما أنّ الصبر والإستقامة يحتاجان إلى دعامة ومعتمد، فخير دعامة لهما ذكر اللّه والإرتباط بالمبدأ- مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم- لذلك فإنّ القرآن يضيف تعقيباً على الأمر بالصبر قائلًا: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ».
وكذلك: «وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ».
و «التسبيح» فى الأوقات الأربعة إشارة إلى الصلوات الخمس اليومية وبعضاً من النوافل الفضلى على الترتيب والنحو التالى:
ف «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» إشارة إلى صلاة الصبح، لأنّ فى آخر وقتها تطلع الشمس فينبغى أداؤها قبل طلوع الشمس.
وقبل الغروب إشارة إلى صلاتى الظهر والعصر لأنّ الشمس تغرب آخر وقتيهما.
مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۴
أمّا قوله: «وَمِنَ الَّيْلِ» فيشير إلى صلاتى المغرب والعشاء وقوله: «وَأَدْبَارَ السُّجُودِ» ناظر إلى النوافل بعد صلاة المغرب.
وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (۴۱) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (۴۲) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (۴۳) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ

يَخَافُ وَعِيدِ (۴۵) يخرج الجميع أحياءً عند صيحة القيامة: هذه الآيات محل البحث التى تختتم بها سورة «ق» كسائر آياتها تتحدث على المعاد والقيامة كما أنّها تعرض جانباً منهما أيضاً وهو موضوع النفخة فى الصور، وخروج الأموات من القبور فى يوم النشور ... فتقول: «وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ».

والمخاطب بالفعل «استمع» هو النبى صلى الله عليه و آله نفسه إلّاأنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس.

والمراد من «استمع» إمّا هو الإنتظار والترقّب، لأنّ من ينتظر حادثة تبدأ بصوت مهول يُرى فى حالة ترقّب دائماً، فهو منتظر لأن يسمع الصوت؛ أو هو الإصغاء إلى كلام اللّه فيكون المعنى «استمع كلام اللّه» إذ يقول: يوم يسمعون الصيحة الخ.

هذا المنادى هو «إسرافيل» الذى ينفخ فى الصور ... وقد وردت الإشارة فى آيات القرآن إليه لا بالإسم بل بتعبيرات خاصة.

عبارة «مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» إشارة إلى أنّ هذه الصيحة ينتشر صداها فى الفضاء بدرجة أنّها كما لو كانت فى اذن كل أحد.

ولكى يعرف من الحاكم فى هذه المحكمة الكبرى، فإنّ القرآن يضيف قائلًا: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ».

ثم يضيف القرآن فيخبر عن ميقات النشور فيقول: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا».

أى: يخرجون مسرعين من القبور. ويضيف مختتماً: «ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ».

و «الحشر»: معناه الجمع من كل جهة ومكان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۵

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث وهى آخر آية من سورة «ق» ذاتها فهى تخاطب النبى وتسرّى عنه وتسلّى قلبه لما يلاقيه من المعاندين والكفرة فتقول: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ».

فمسؤوليتك البلاغ والدعوة نحو الحق والبشارة والنذارة: «فَذَكّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ».

وذلك إشارة إلى أنّ القرآن كافٍ للإنذار وإيقاظ المؤمنين، فكل صفحة منه تذكر بيوم القيامة وآياته المختلفة التى تتحدث عن قصص الماضين وعاقبتهم وتصف أهل النار وأهل الجنة وما يقع عند قيام الساعة فى محكمة عدل اللّه هى خير موعظة ونصيحة لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة ق»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۷

۵۱. سورة الذاريات

محتوى السورة: يدور محور هذه السورة حول المسائل المتعلقة بالمعاد ويوم القيامة والثواب والعقاب لكل من المؤمنين والكافرين.

إنّ مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور وهى:

۱- إنّ القسم المهم منها يتكلم عن المعاد وبداية السورة ونهايتها أيضاً هما حول المعاد.

۲- القسم الآخر ناظر إلى مسألة توحيد اللّه وآياته فى نظام الخلق والوجود، وهى تكمل مبحث المعاد طبعاً.

۳- وفى قسم آخر يقع الكلام على ضيف إبراهيم من الملائكة وما امروا به من تدمير مدن قوم لوط.

۴- والآيات الاخر من هذه السورة فيها إشارات إلى قصّة موسى عليه السلام وبعض الامم كعاد وثمود وقوم نوح.

۵- وقسماً من هذه السورة يتحدث عن مواجهة الامم المعاندين لأنبيائهم وتأمر النبى صلى الله عليه و آله بالصبر والاستقامة بوجه المشاكل والشدائد وتسرّى عنه وتسلّى قلبه.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الذاريات فى يومه أو ليلته أصلح اللّه له معيشته، وأتاه برزق واسع ونور له فى قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۸

والهدف هو التلاوة بتفكر ... التفكر الباعث على العمل.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أى (الذاريات) من الآية الاولى فيها.

وَ الـذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (۴) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الـدِّينَ لَوَاقِعٌ (۶)

قسماً بالأعاصير والسُحُب الذاريات: هذه السورة هى الثانية بعد سورة «الصافات» التى تبدأ بالقَسم المتكرر، القسم العميق والباعث على التفكر.

والطريف فى الأمر أنّ هذا القَسم يرتبط محتواه بمحتوى يوم القيامة والنشور.

والحقيقة أنّ كل قسم فى القرآن هو بنفسه- وإن كثرت الأقسام- أو الأيمان- وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الكتاب السماوى، وهو من أجمل جوانبه وأبهاها وسيأتى تفصيل كل ذلك فى موقعه.

وفى مستهلّ السورة يقسم اللَّه سبحانه بخمسة أشياء مختلفة، فيقول اللَّه فى البداية:

«وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا» «١». أى قسماً بالرياح التى تحمل السحب فى السماء وتذرو البذور على الأرض فى كل مكان ...

ثم يضيف: «فَالْحَامِلتِ وِقْرًا». قسماً بالسحب التى تحمل أمطاراً ثقيلة معها ..

«فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا». و «الجاريات»: هنا هى السفن. أى: قسماً بالسفن التى تجرى فى الأنهار العظيمة والبحار الشاسعة بيسر وسهولة ..

«فَالْمُقَسّمَاتِ أَمْرًا». و «المقسّمات»: هنا معناها الملائكة الذين يقسّمون الامور.

فهناك تفسير آخر يمكن ضمّها إلى هذا التفسير، وهو أنّ المراد ب «الجاريات» هى الأنهار التى تجرى بماء المزن؛ و «المقسّمات أمراً» هى الأرزاق التى تقسّم بواسطة الملائكة عن طريق الزراعة.

وعلى هذا فإنّ الكلام عن الرياح ثم الغيوم وبعدها الأنهار وأخيراً نمو النباتات فى الأرض يتناسب تناسباً قريباً مع مسألة المعاد، لأنّنا نعرف أنّ واحداً من أدلة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث وقد ذكر ذلك عدة مرات فى القرآن بأساليب مختلفة.

---

(١) «الذّاريات»: جمع «الذّارية»، ومعناها الريح التى تحمل معها الأشياء وتنشرها فى الفضاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۹

وبعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التى تبيّن أهمية الموضوع الذى يليها، يقول القرآن: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ».

ومرّة اخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلًا: «وَإِنَّ الدّينَ لَوَاقِعٌ». «الدين»: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ». أى يوم الجزاء.

وأساساً فإنّ واحداً من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و «يوم الجزاء». ويتضح من ذلك أنّ المراد من الوعود الواقعة «هنا» هى ما يوعدون عن يوم القيامة وما يتعلق بها من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار وسائر الامور المتعلقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الاولى شاملة لجميع الوعود، والجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الـدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١۴) والسماء ذات الحُبك:

تبدأ هذه الآيات كالآيات المتقدمة بالقسم وتتحدث عن إختلاف الكفار وجدلهم حول يوم الجزاء والقيامة. فتقول الآيات فى البداية:

قسماً بالسماء ذات الخطوط والتعرّجات الجميلة: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ».

«الحبك»: جمع «حباك» وفى اللغة معان كثيرة لها، وجميع هذه المعانى تعود إلى معنى واحد وهى التجاعيد والتعاريج الجميلة التى تظهر على صفحات الرمل فى الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد فى الشعر أو السُحب فى السماء.

وتطبيق هذا المعنى على السماء ووصفها بها «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» هو إمّا لنجومها ذات المجاميع المختلفة وصورها الفلكية.

وإمّا للأمواج الجميلة التى ترتسم فى السحب أو لمجرّاتها العظيمة. فعلى هذا يكون معنى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أنّ القرآن يقسم بالسماء ومجراتها العظيمة.

أمّا الآية التالية فهى جواب للقسم وبيان لما وقع عليه القسم، إذ تقول مؤكّدة: «إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ». فدائماً أنتم تتناقضون فى الكلام؛ ففى مسألة المعاد تقولون أحياناً: لا نصدّق أبداً أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميماً.

وتارةً تقولون نحن نشك فى هذه القضية ونتردد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۰

وتارةً تضيفون أن هاتوا آباءنا وأسلافنا من قبورهم ليشهدوا أنّ بعد الموت قيامةً ونشوراً لنقبل بما تقولون.

وتقولون فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله تارةً بأنّه شاعر، أو بأنّه ساحر، وتارةً تقولون أنّه لمجنون، وتارةً تقولون إنّما يعلمه بشر فهو معلّم.

كما تقولون فى شأن القرآن بأنّه: أساطير الأوّلين تارةً، أو تقولون بأنّه شعر، وتارةً تسمّونه سحراً، وحيناً آخر تقولون أنّه كذب إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... الخ.

فقسماً بحُبك السماء وتجاعيدها إنّ كلامكم مختلف ومليء بالتناقض، وكأنّ هذا التناقض فى كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبداً.

وهذا التعبير إنّما هو استدلال على بطلان إدّعاء المخالفين فى شأن التوحيد والمعاد والنبى والقرآن «وإن كان إعتماد هذه الآيات فى الأساس على مسألة المعاد كما تدل عليه القرينة فى الآيات التالية».

وفى الآية التالية يبيّن القرآن علة الانحراف عن الحق فيقول: «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ». أى:

يؤفك عن الإيمان بالقيامة والبعث كل مخالف للحق، وإلّا فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة وجليّة.

«الإفك»: فى الأصل يطلق على صرف الشيء.

ومع ملاحظة أنّ الكلام كان فى الآيات المتقدمة على المعاد والقيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلى من الإنحراف والإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة ... كما أنّه حيث كان الكلام فى الآية المتقدمة عن اختلاف كلام الكفار وتناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم اولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انحرفوا عن مسير الدليل العقلى والمنطق السليم الباحث عن الحق.

وفى الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين وتهديد لتخرصاتهم، إذ تقول: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ».

«الخراص»: من مادة «خَرْص» ومعناه فى الأصل كل كلام يقال تخميناً أو ظنّاً، وحيث إنّ مثل هذا الكلام غالباً ما يكون كذباً فقد استعملت هذه الكلمة فى الكذب أيضاً.

إنّ القضاء بلا دليل ولا مدرك أو مستند بيّن بل على الظن والحدس هو عمل يسوق إلى الضلال ويستحق اللعن والعذاب.

ثم يعرّف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: «الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۱

«الغمرة»: فى الأصل معناها الماء الغزير الذى يغطّى محلًا ما ... ثم استعملت على الجهل السحيق الذى يغطّى عقل الشخص.

و «ساهون»: جمع ل «ساهٍ» وهى مشتقة من «السهو» والمراد بها هنا الغفلة.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة «الخرّاصون» هم الغارقون فى جهلهم وكل يوم يتذرّعون بحجة واهية فراراً من الحق.

ولذلك فهم دائماً: «يَسَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدّينِ».

جملة «يسألون» والفعل للمضارع يدل على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيّان يوم الدين؟! باستمرار ... على أنّه ينبغى أن يكون يوم القيامة

وموعده مخفياً، ليكون محتمل الوقوع فى أىّ زمان، ويحصل منه الأثر التربوى للإيمان بيوم القيامة الذى هو بناء الشخصية والاستعداد الدائم.

إلّا أنّه ومع هذه الحال فإنّ القرآن يردّ عليهم مجيباً بلغة شديدة ويعنّفهم: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ».

وعندئذ يقال لهم هنالك: «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ». إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹) ثواب المستغفرين بالأسحار: تعقيباً على الكلام المذكور فى الآيات آنفة الذكر الذى كان يدور حول الكذبة والجهلة ومنكرى القيامة وعذابهم، فى الآيات محل البحث يقع الكلام عن المؤمنين المتقين وأوصافهم وثوابهم لتتجلّى بمقارنة الفريقين- كما هو عليه اسلوب القرآن- الحقائق أكثر فأكثر. تقول الآيات هنا: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

وصحيح أنّ البستان بطبيعته يكون ذا سواق وروافد، لكن ما ألطف أن تتدفّق مياه العيون فى داخل البستان نفسه وتسقى أشجاره ... فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنة ... فهى ليست ذات عين واحدة بل فيها عيون ماء متعددة تجرى متدفّقه هناك.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى نعم الجنّات الاخر فيتحدث عنها بتعبير مغلق فيقول:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۲

«ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ». أى أنّهم يتلقّون هذه المواهب الإلهية بمنتهى الرضا والرغبة والشوق ... ويعقّب القرآن فى ختام الآية بأنّ هذه المواهب وهذا الثواب كل ذلك ليس إعتباطاً بل «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ». و «الإحسان»: هنا يحمل معنى وسيعاً بحيث يشمل طاعة اللّه والأعمال الصالحة الاخر أيضاً. والآيات التالية تبيّن كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أوّلًا: «كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ».

«يهجعون»: مشتقة من الهجوع، ومعناه النوم ليلًا. فعلى هذا فهم كل ليلة يحيّون قسماً منها بالعبادة وصلاة الليل، أمّا الليالى التى يرقدون فيها حتى مطلع الفجر ... وتفوت عليهم العبادة فيها كليّاً ... فهى قليلة جدّاً.

والوصف الثانى من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: «وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».

فحيث إنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل والمحيط هادىء تماماً، فلا شىء يشغل فكر الإنسان ويقلق باله ... يصلّون ويستغفرون عن ذنوبهم خاصة.

ثم يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنة المتقين فيقول: «وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

كلمة «حق» هنا هو إمّا لأنّ اللّه أوجب ذلك عليهم: كالزكاة والخمس وسائر الحقوق الشرعية الواجبة؛ أو لأنّهم التزموه وعاهدوا أنفسهم على ذلك.

ويمكن أن يقال إنّ الفرق بين المحسنين وغيرهم هو أنّ المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، فى حين أنّ غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

وما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السلام يؤكّد أيضاً أنّ المراد من «حق معلوم» شىء غير الزكاة الواجبة.

وفى الفرق بين «السائل» و «المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من يطلب العون من الناس، أمّا «المحروم» فمن يحافظ على ماء وجهه ويبذل قصارى جهده ليعيش دون أن يمدّ يده إلى أحد، أو يطلب العون من أحد، بل يصبّر نفسه.

فهذا التعبير يشير إلى هذه الحقيقة وهى لا تنتظروا أن يأتيكم المحتاجون ويمدّوا أيديهم إليكم، بل عليكم أن تبحثوا عنهم وتجدوا الأفراد المحرومين الذين يعبّر عنهم القرآن بأنّهم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۳

«يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» «۱» ... لتساعدوهم وتحفظوا ماء وجوههم.

وَ فِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (۲۰) وَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ

إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) آيات اللّه وآثاره فى أنفسكم: تعقيباً على الآيات المتقدمة التى كانت تتحدث عن مسألة المعاد وصفات أهل النار وأهل الجنة، تأتى هذه الآيات- محل البحث- لتتحدث عن آيات اللّه ودلائله فى الأرض وفى وجود الإنسان نفسه ليطّلع على مسألة التوحيد ومعرفة اللّه وصفاته التى هى مبدأ الحركة نحو الخيرات كلها من جهة، وعلى قدرته على مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة اخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض وما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك. تقول هذه الآية أوّلًا: «وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ».

والحق أنّ دلائل اللّه وقدرته غير المتناهية وعلمه وحكمته التى لا حد لها فى هذه الأرض كثيرة ووفيرة إلى درجة أنّ عمر أى إنسان مهما كان لا يكفى لمعرفتها جميعاً.

ولا- بأس أن ننقل هنا جانباً من كلمات بعض العلماء المعروفين فى العالم الذين لهم دراسات كثيرة فى هذا الصدد: إنّه «كرسى موريسين» فلنصغ إليه قائلًا: «لقد روعى منتهى الدقة فى تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخّمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممّا كانت عليه عشر مرّات لأنعدم الأوكسجين الذى هو المادّة الأصلية للحياة، ولو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقاً ممّا هى عليه قليلًا أو كثيراً، لأنجذب جميع الأوكسجين والكربون من سطح الأرض ولم يعد أى إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض».

ويقول فى مكان آخر: «أنّ نسبة الأوكسجين فى الهواء هى إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لأحترق به كل ما من شأنه الاشتعال فى هذا العالم ... ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة فى غابة لأحترقت الغابة جمعاء» «٢».

---

(١) سورة البقرة/ ٢٧٣.

(٢) أسرار خلق الإنسان، كرسى موريسين/ ٣٣- ٣۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۴

ويضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». أى أفلا تبصرون هذه الآيات فى أنفسكم أيضاً. ولا شك أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو فى العالم الأكبر موجود فى عالم الإنسان الأصغر أيضاً، بل فى الإنسان عجائب لا توجد فى أى مكان من العالم.

إنّ الأجهزة الموجودة فى بدن الإنسان كالقلب والكلية والرئة وخاصة عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة والأعصاب الدقيقة التى لا- ترى بالعين المجرّدة وجميعها مسؤولة عن إيصال الغذاء والماء والتهوية إلى عشرة مليون مليارد خلية، والحواس المختلفة كالسمع والبصر والحواس الاخر كل منها آية عظمى من آيات اللّه.

وأهمّ من كل ذلك لغز الحياة التى لم تعرف أسرارها وبناء الروح أو العقل الإنسانى الذى يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس.

وقد ورد فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» «١».

وفى الآية الثالثة من الآيات- محل البحث- إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق وقدرته على المعاد، إذ تقول: «وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ».

إنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر وغيرها كنور الشمس الذى يأتى من السماء وله أثره الفاعل فى الحياة، والهواء الذى هو أساس حياة الموجودات.

إنّ ما يمنع البصيرة ويصدّها عن مطالعة أسرار الخلق هو «الحرص على الرزق»، فاللّه سبحانه يطمئن الإنسان فى الآية الأخيرة بأنّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم ويتحقق فيه قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

وجملة «وَمَا تُوعَدُونَ» فيمكن أن تكون تأكيداً على مسألة الرزق ووعد اللّه فى هذا المجال، أو أنّ المراد منها عذاب ينزل من السماء.

فهـذه الآیـات الثلاث فیها ترتیب لطیف، فالآیـة الاولی تتحـدث عن أسـباب وجود الإنسان وحیاته، والآیـة الثانیـة تتحـدث عن الإنسان نفسه، والآیة الثالثة تتحدث عن أسباب بقائه ودوامه.

لذلک فإنّ الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث تُقسم فتقول: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّکُمْ تَنطِقُونَ».

وقد بلغ الأمر حدّاً أن یقسم اللّه علی ما لدیه من عظمة وقدرة لیُطمئن عباده الشاکّین

---

(۱) بحار الأنوار ۲/ ۳۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۵

ضعاف الأنفس الحریصین إنّ ما توعدون فی مجال الرزق والثواب والعقاب والقیامة جمیعه حق ولا ریب فی کل ذلک.

هَلْ أَتَاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْرَاهِیمَ الْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَرَاغَ إِلَی أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قَالَ أَ لَا تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِیمٍ (۲۸) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قَالُوا کَذلِکِ قَالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (۳۰) ضـیوف إبراهیم علیه السـلام: من هذا المقطع- فما بعـد- یتحدث القرآن فی هذه السورة عن قصـص الأنبیاء الماضـین والامم المتقدمة تأکیداً وتأییداً للموضوع آنف الذکر وما حواه من مسائل، وأوّل جانب یثیره هـذا المقطع هو قصـة الملائکـة الـذین جاءوا لعذاب قوم لوط، ومرّوا علی إبراهیم علیه السـلام علی صورة بشر، لیبشّروه بالولد، مع أنّ إبراهیم بلغ سنّاً کبیراً فهو فی مرحلة المشیب وامرأته کانت عقیماً کذلک.

فمن جهـة ... یعـدّ إعطاء هـذا الولـد لإبراهیم وزوجه وهما فی مرحلـة الکبر والیأس من الإنجاب تأکیداً علی کون الأرزاق مقدّرة کما اشیر إلی ذلک فی الآیات المتقدمة.

ومن جهة اخری یُعدّ دلیلًا آخر علی قدرة الحق وآیة من آیات معرفة اللّه التی ورد البحث عنها فی الآیات آنفاً.

ومن جهـة ثالثـة یُعدّ بُشـری للُامم المؤمنة بأنّها فی رعایة الحق، کما أنّ الآیات التالیة تتحدث عن عذاب قوم لوط وهی فی الوقت ذاته تهدید للمجرمین.

ففی البدء یوجّه اللّه سبحانه الخطاب لنبیّه فیقول: «هَلْ أَتَیکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْرهِیمَ الْمُکْرَمِینَ».

والتعبیر ب «المکرمین» إمّا لأنّ هؤلاء الملائکة کانوا مأمورین من قبل الحق، أو لأنّ إبراهیم علیه السلام أکرمهم، أو للوجهین معاً.

ثم یبیّن القرآن حالهم فیقول: «إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقَالُوا سَلمًا قَالَ سَلمٌ قَوْمٌ مُّنکَرُونَ».

فإنّ إبراهیم أدّی ما علیه من حق الضیافة: «فَرَاغَ إِلَی أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۶

«راغ»: مشتق من «روغ»- علی وزن شوق- ومعناه التحرّک مقروناً بخطّة خفیة.

و «العجل»: علی وزن «طفل» معناه ولـد البقر وفی الأصل مأخوذة من العجلة، لأنّ هذا الحیوان فی هذه السن وفی هذه المرحلة یتحرک حرکـة عجلی، وحین یکبر تزول عنه هـذه الصـفة تماماً؛ و «السـمین»: معنـاه المکتنز لحمه، وإنتخـاب مثـل هـذا العجل إنّما هو لإکرام الضیف ولیسع المتعلقین والأکلة الآخرین.

ثم تضیف الآیة بالقول عن إبراهیم وضیفه: «فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ». إلّاأنّه لاحظ أنّ أیدیهم لا تصل إلی الطعام فتعجب و «قَالَ أَلَا تَأْکُلُونَ».

وکـان إبراهیم یتصور أنّهم من الآـدمیین «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً» لأـنّه کان معروفاً فی ذلک العصـر وفی زماننا أیضاً بین کثیر من الناس الملتزمین بالتقالید العرفیة، أنّه متی ما أکل شـخص من طعام صاحبه فلن یناله أذی منه ولا یخونه ولذلک فإنّ الضیف إذا لم یأکل من طعام صاحبه، یثیر الظن السیء بأنّه جاء لأمر محذور.

وهنا قال له الضیف کما ورد فی الآیة (۷۰) من سورة هود طمأنةً له ف «قَالُوا لَاتَخَفْ».

ويضيف القرآن: «وَبَشَّرُوهُ بِغُلم عَلِيم».

وبديهى أنّ الغلام عند ولادته لا يكون عليماً، إلّاأنّه من الممكن أن يكون له إستعداد بحيث يكون فى المستقبل عالماً كبيراً ... والمراد به هنا هو ذلك المعنى.

والمشهور بين المفسرين أنّ هذا الغلام هو إسحاق.

«فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ». ونقرأ فى الآية (۷۲) من سورة هود قوله تعالى: «قَالَت يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِى شَيْخًا».

«صرّة»: مشتقة من الصرّ على وزن الشرّ، ومعناه فى الأصل الشدّ والإرتباط. وفى الآية محل البحث معناها هو الصوت العالى الشديد.

و «صكّت»: معناها الضرب الشديد أو الضرب، والمراد منها هنا هو أنّ امرأة إبراهيم حين سمعت بالبشرى ضربت بيدها على وجهها- كعادة سائر النساء- تعجباً وحياءً.

وطبقاً لما يقول بعض المفسرين وما ورد فى سفر التكوين فإنّ امرأة إبراهيم كانت آنئذ فى سن التسعين وإبراهيم نفسه كان فى سن المئة عاماً ... أو أكثر. إلّاأنّ الآية التالية تنقل جواب الملائكة لها فتقول: «قَالُوا كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ».

والتعبير ب «الحكيم» و «العليم» إشارة إلى أنّه لا يحتاج إلى الإخبار بكونك امرأة عقيماً عجوزاً وبعلك شيخاً، فاللّه يعرف كل هذه الامور.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۷

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (۳۷) مُدن قوم لوط المدمّرة آية وعبرة: تعقيباً على ما سبق من الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيفاً على إبراهيم وبشارتهم إيّاه فى شأن الولد «إسحاق» تتحدث هذه الآيات عمّا دار بينهم وبين إبراهيم فى شأن قوم لوط.

توضيح ذلك: إنّ إبراهيم بعد ما ابعد إلى الشام ... واصل دعوة الناس إلى اللّه ومواجهته لكل أنواع الشرك وعبادة الأصنام ... وقد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام ويُحتمل أنّه كان مأموراً من قبله بتبليغ الناس وهداية الضالين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أى مدن سدوم» فحلّ فى قوم مجرمين ملوّثين بالشرك والمعاصى الكثيرة، وكان أقبحها تورّطهم فى الإنحراف الجنسى واللواط، وأخيراً فقد أمر رهط من الملائكة بعذابهم وهلاكهم إلّاأنّهم مرّوا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

وقد عرف إبراهيم من حال الضيف (الملائكة) أنّهم ماضون لأمر مهم، ولم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولد إسحاق، لأنّ واحداً منهم كان كافياً لمهمة «البشارة»، أو لأنّهم كانوا عَجِلين فأحسّ بأنّ لديهم «مأمورية» مهمّة. لذلك فإنّ أوّل آية من الآيات محل البحث تحكى بداية المحاورة فتقول: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ».

فأماط الملائكة اللثام عن «وجه الحقيقة» ومأموريتهم ف «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ثم أضافوا قائلين: «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ».

والتعبير ب «حجارة من طين» هو ما أشارت إليه الآية (۸۲) من سورة هود بالقول من «سجّيل»؛ ولعلها فى المجموع إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ هلاك قوم لوط المجرمين لم يكن يستلزم إنزال أحجار عظيمة وصخور وجلاميد من السماء، بل كان يكفى أن يمطروا بأحجار صغيرة ليست صلبة جدّاً كأنّها حبّات «المطر».

ثم أضاف الملائكة قائلين: «مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبّكَ لِلْمُسْرِفِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۸

والقرآن هنا يكشف عما جرى لرسل اللّه إلى نبيّه لوط فيقول: «فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مّنَ

الْمُسْلِمِينَ».

أجل عدالتنا لا تسمح أن يبتلى المؤمن بعاقبة الكافر.

وهـذا هو مـا أشارت إليه الآيتان (۵۹ و ۶۰) مـن سـورة الحجر بـالقول: «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

إنّ هـذا القسم من قصـة قوم لوط ورد فى هـذه السور الخمس فى عبارات مختلفـة وجميعها يتحـدث عن حقيقة واحدة ... إلّاأنّه حيث يمكن أن ينظر إلى حادثـة مـا من زوايـا متعـددة وكـل زاويـة لهـا بعـدها الخـاصّ ... فإنّ القرآن ينقل الحوادث التاريخيـة- على هـذه الشاكلة- غالباً.

وفى مقام التربية يلزم أحياناً أن يعول على مسألة مهمّة مراراً لتترك أثرها العميق فى ذهن القارىء.

فإنّ اللَّه سبحانه زلزل مدن قوم لوط وقلب عاليها سافلها ثم أمطرها بحجارة من سجّيل منضود ولم يبق منها أثراً ... حتى أنّ أجسادهم دفنت تحت الأنقاض والحجارة لتكون عبرةً لمن يأتى بعدهم من المجرمين والظالمين غير المؤمنين.

ولذلك فإنّ القرآن يضيف قائلًا فى آخر آية من الآيات محل البحث: «وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ من يعتبر ويتّعظ بهذه الآيات هم الذين لديهم إستعداد للقبول فى داخل كيانهم ويحسّون بالمسؤولية.

وَ فِى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم (۴۲) وَ فِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۴۶) دروس العبرة من الأقوام السالفة: يتحدث القرآن فى هذه الآيات محل البحث- تعقيباً

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۹

على قصّة قوم لوط وعاقبتهم الوخيمة- عن قصص أقوام آخرين ممّن مضوا فى العصور السابقة. فيقول أوّلًا: «وَفِى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: ما يكون به التسلط، والمراد به هنا المعجزة أو الدليل والمنطق العقلى القوى أو كلاهما، وقد واجه موسى فرعون بهما.

إنّ فرعون لم يسلّم لمعجزات موسى الكبرى التى كانت شاهداً على إرتباطه باللَّه ولم يطأطىء رأسه للدلائل المنطقية ... بل بقى مصرّاً لما كان فيه من غرور وتكبر: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

والطريف أنّ الجبـابرة المتكبرين حين كـانوا يتّهمون الأنبيـاء بالكـذب والإفـتراء كـانوا يتنـاقضون تناقضـاً عجيباً، فتارةً يتّهمونهم بأنّهم سحرة، واخرى بـأنّهم مجـانين، مع أنّ السـاحر ينبغى أن يكون ذكياً وأن يعوّل على مسائل دقيقـة ويعرف نفوس الناس حتى يسـحرهم ويخدعهم بها ... والمجنون بخلافه تماماً.

إلّا إنّ القرآن يخبر عن فرعون الجبار وأعوانه بقوله: «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمّ وَهُوَ مُلِيمٌ».

جملة «فنبذناهم» إشارة إلى أنّ فرعون وجنوده كانوا فى درجة من الضـعف أمام قدرة اللَّه بحيث ألقاهم فى اليمّ كأنّهم موجود لا قيمة ولا مقدار له.

المراد بالمليم ذو الملامة؛ أى هو الشخص الذى يرتكب عملًا يكون بنفسه ملامة.

والتعبير ب «وهو مليم» إشارة إلى أنّ العقاب الإلهى لم يَمحُه فحسب بل التاريـخ من بعـده يلومه على أعماله المخزية ويذكرها بكل ما يشينه ويلعنه ويفضح غروره وتكبره بإماطة النقاب عنهما.

ثم يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر وهم «قوم عاد»، فيقول: «وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرّيحَ الْعَقِيمَ».

ثم يذكر القرآن سرعة الريح المسلطة على عاد فيقول: «مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم».

«الرميم»: مأخوذ من الرمّة وهى العظام النخرة البالية. وهذا التعبير يدل على أنّ سرعة الريح المسلطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعية، بل إضافةً إلى تخريبها البيوت وهدمها المنازل، فهى محرقة وذات سموم مما جعلت كل شيء رميماً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۰

ثم تصل النوبة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم اللّه قليلًا ليتلقوا العذاب بعد ذلك ... فيقول اللّه فيهم: «وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ».

والمراد ب «حَتَّى حِينٍ» هو الأيام الثلاثة المشار إليها فى الآية (۶۵) من سورة هود إمهالًا لهم: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ».

أجل: «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ».

«عتوا»: مشتقة من العتوّ- على وزن غلوّ- ومعناه الإعراض «بالوجه»، والإنصراف عن طاعة اللّه، والظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما كان منهم من إعراض طوال الفترة التى دعاهم فيها نبيّهم صالح كالشرك وعبادة الأوثان والظلم وعقرهم الناقة التى كانت معجزة نبيّهم، لا الإعراض الذى كان منهم خلال الأيام الثلاثة فحسب، وبدلًا من أن يتوبوا وينيبوا غرقوا فى غرورهم وغفلتهم.

وأخيراً فإنّ آخر جملة تتحدث عن شأن هؤلاء القوم المعاندين. تقول: «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ».

إنّ قوم صالح (ثمود) الذين كانوا من القبائل العربية وكانوا يقطنون «الحجر» وهى منطقة تقع شمال الحجاز مع إمكانات مادية هائلة وثروات طائلة وعمّروا طويلًا فى قصور مشيّدة ... اهلكوا بسبب إعراضهم عن أمر اللّه وطغيانهم وعنادهم والشرك والظلم، وبقيت آثارهم درساً بليغاً من العبر للآخرين.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى عاقبة خامس امّة من الامم، وهى قوم نوح، فتقول: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ». و «الفاسق» يُطلق على من يخرج على حدود اللّه وأمره، ويكون ملوّثاً بالكفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۱) والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون: مرّة اخرى تتحدث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة اللّه فى عالم الخلق، وهى تتمة لما ورد فى الآيتين (۲۰ و ۲۱) من هذه السورة فى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۱

شأن آياته فى الأرض وفى نفس «الإنسان» ووجوده- وهى ضمناً دليل على قدرة اللّه على المعاد والحياة، فتقول أوّلًا: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ».

«الأيد»: على وزن الصيد، معناه القدرة والقوة- وقد تكرّر هذا المعنى فى آيات القرآن المجيد، وهو هنا بمعنى قدرة اللّه المطلقة العظيمة فى خلق السماوات.

ودلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جلية فى عظمة السماوات ونظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضاً.

ومع الأخذ بنظر الإعتبار ما إكتشفه العلماء من اتّساع العالم هو أنّ اللّه خلق السماوات ويوسعها دائماً.

والعلم الحديث (المعاصر) يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم وتثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجاً، بل السماء أيضاً فى اتّساع دائم، أى أنّ بعض النجوم المستقرة فى المجرّات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتى أنّ هذه السرعة لها أثرها فى الإتّساع فى كثير من المواقع.

وبعد خلق السماء والأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة فى السماء والأرض وأنواع النباتات والحيوانات فتقول الآية التالية فى هذا الشأن: «وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

جملة «وَمِن كُلِّ شَىْءٍ» يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحية فحسب، فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرات مؤلفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة وتدعى بالبروتون.

ويضيف القرآن فى الآية التالية مستنتجاً مما تقدم من الأبحاث التوحيدية قائلًا: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنّى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

والتعبير ب «الفرار» هنا يطلق فى ما إذا واجه الإنسان موجوداً أو حادثاً مخيفاً فيُسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان ويلتجىء إلى نقطة الأمن والأمان ... فالآية تقول: فرّوا من عقيدة الشرك الموحشة وعبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذى هو منطقة الأمن والأمان الواقعى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۲

فرّوا من السيئات والقبائح وعدم الإيمان وظلمة الجهل والعذاب الدائم والتجأوا إلى رحمة الحق وسعادته الأبدية.

ولمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة للّهالأحد فيقول: «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنّى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

كَذلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُوم (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (۵۵) قرأنا فى الآية (۳۹) من هذه السورة أنّ فرعون اتّهم موسى عليه السلام عندما دعاه إلى اللَّه وترك الظلم أنّه ساحر أو مجنون، فهذا الإتهام ورد على لسان المشركين فى زمان النبى محمّد صلى الله عليه و آله أيضاً إذ اتّهموه بمثل ما اتّهم فرعون موسى وقد عزّ ذلك على المؤمنين الأوائل والقلائل كما كان يؤلم روح النبى. فالآيات محل البحث ومن أجل تسلية النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين تقول:

«كَذلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

كانوا يتّهمون الرسل السابقين بأنّهم سحرة لأنّهم لم يجدوا جواباً منطقياً لمعاجزهم الباهرة، وكانوا يخاطبون رسولهم بأنّه «مجنون» ... لأنّه لم يكن على غرارهم ومتلوّناً بلون المحيط ولم يستسلم للُامور المادية.

ثم يضيف القرآن هل أنّ هذه الأقوام الكافرة تواصت فيما بينها على توجيه هذه التهمة إلى جميع الأنبياء: «أَتَوَاصَوْا بِهِ».

ويعقّب القرآن على ذلك قائلًا: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ».

وهذه هى إفرازات روح الطغيان حيث يتوسّلون بكل كذب واتّهام لإخراج أهل الحق من الساحة.

ولمزيد التسرّى عن قلب النبى وتسليته يضيف القرآن: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ».

وكن مطمئناً بأنّك قد أدّيت ما عليك من التبليغ والرسالة: «فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ».

وهذه الجملة تذكّر بالآيات السابقة التى تدل على أنّ النبى كان يتحرق لقومه حتى يؤمنوا ويتأثر غاية التأثر لعدم إيمانهم حتى كاد يهلك نفسه من أجلهم.

كما تشير الآية (۶) من سورة الكهف حيث نقرأ فيها: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۳

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون، وظنوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حل حتى نزلت الآية بعدها لتأمر النبى بالتذكير: «وَذَكّرْ فَإِنَّ الذّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» «۱».

فكان أن أحسّ الجميع بالإطمئنان.

والآية تشير إلى أنّ هناك قلوباً مهيّأة تنتظر كلامك يا رسول اللَّه وتبليغك فإذا ما عاند جماعة ونهضوا بوجه الحق مخالفين، فإنّ هناك جماعةً آخرين تتوق إلى الحق من أعماق قلوبهم وأرواحهم ويؤثّر فيها كلامك اللّين.

وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۵۶) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵۸)

هـدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن: من أهمّ الأسـئلة التى تختلج فى خاطر كل إنسان هو لِمَ خُلِقنا؟! وما الهدف من خلق الناس والمجيىء إلى هذه الدنيا؟!

فالآيات آنفـة الذكر تجيب على هذا السؤال المهم والعام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، وتكمّل البحث الوارد فى آخر آية من الآيات المتقدمـة حول تـذكير المؤمنين، لأنّ ذلك من أهمّ الاصول التى ينبغى على النبى أن يتابعها ... كما توضّـح- ضـمناً- معنى الفرار إلى اللَّه الوارد فى الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكيةً عن اللَّه سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ».

وأنّه غير مفتقر إلى أىّ منهم أبـداً: «مَا أُرِيـدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ». بل إنّ اللَّه تعالى هو الذى يرزق عباده ومخلوقاته ... «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وبقليل من التأمل فى مفهوم آيات القرآن نرى أنّ الهـدف الأصـلى هو «العبوديـة» وهو ما اشـير فى هذه الآيات محل البحث، أمّا العلم والإمتحان وأمثالهما فهى أهداف ضمن مسير العبودية للَّه، ورحمة اللَّه الواسعة نتيجة العبودية للَّه.

وهكذا يتّضح أنّنا خلقنا لعبادة اللَّه، لكن المهم أن نعرف ما هى حقيقة هذه العبادة؟!

إنّ العبودية هى إظهار منتهى الخضوع للمعبود، ولذلك فالمعبود الوحيد الذى له حق

---

(۱) مجمع البيان ۹/ ۲۶۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۴

العبادة على الآخرين هو الذى بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى اللَّه سبحانه.

فبناءً على ذلك فالعبودية هى قمّة التكامل وأوج بلوغ الإنسان وإقترابه من اللَّه.

فإنّ العبوديـة الكاملـة هى أن لا يفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعى أى الكمال المطلق، ولا يسـير إلّافى منهجه اللاحب وأن ينسـى سواه حتى (نفسه وشخصه).

وهذا هو الهدف النهائى من خلق البشر الذى أعدّ اللَّه له الامتحان والاختبار لنيله، ومنح الإنسان العلم والمعرفة، وجعل نتيجة كل ذلك فيض رحمته للإنسان.

هؤلاء يشاركون أصحابهم فى العذاب: الآيتان أعلاه هما آخر سورة الذاريات، وهما نوع من الإستنتاج لما تقدم من الآيات الواردة فى السورة ذاتها. فالآية الاولى تقول أنّه بعد أن أصبح معلوماً أنّ هؤلاء المشركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقى للخلقة، فليعلموا أنّ لهم قسطاً وافراً من العذاب الإلهى كما كان للأقوام السالفة: «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ» .. ويقولوا إن كان عذاب اللَّه حقّاً فلِمَ لا يصيبنا؟!

والتعبير ب «الظلم» فى شأن هـذه الجماعة هو لأنّ الشـرك والكفر من أكبر الظلم، ولأنّ حقيقة الظلم هى وضع الشـىء فى غير موضـعه المناسب، ومن المعلوم أنّ عبادة الأصـنام مكان عبادة اللَّه تعـدّ أهم مصـداق للظلم، ولذلك فهم يسـتحقون العاقبة التى نالها الأقدمون من المشركين.

وفى الآية الأخيرة إستكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة، إذ تقول: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ».

وكما أنّ هذه السورة بُدئت بمسألة المعاد والقيامة، فإنّها إنتهت بالتأكيد عليها كذلك.

«نهاية تفسير سورة الذاريات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۵

۵۲. سورة الطور

محتوى السورة: تتركز بحوث هذه السورة- أيضاً- على مسألة المعاد وعاقبة الصالحين والمتقين.

يمكن أن يقسّم محتوى هذه السورة إلى ستّة أقسام.

۱- الآيات الاولى من السورة التى تبدأ بالقَسم تلو القسم، وهى تبحث فى عذاب اللَّه، ودلائل القيامة وعلاماتها وعن النار وعقاب الكافرين (الآيات ۱- ۱۶).

۲- ثم يذكر بتفصيل نعم الجنة ومواهب اللَّه فى القيامة، (الآيات ۱۷- ۲۸).

۳- ثم يقع الكلام عن نبوّة محمّد صلى الله عليه و آله وما وجّه إليه الأعداء من التّهم، ويردّ عليها بنحو موجز (الآيات ۲۹- ۳۴).

۴- ثم بحث عن التوحيد باستدلالات واضحة (الآية ۳۵- ۴۳).

۵- ثم عود على مسألة المعاد وبعض أوصاف يوم القيامة (الآيات ۴۴- ۴۷).

۶- والقسم الأخير الذى لا يتجاوز الآيتين يختتم الامور المذكورة آنفاً بأمر نبى الإسلام بالصبر والاستقامة والتسبيح والحمد للَّهووعده بأنّ اللَّه حاميه وناصره.

وقد اشتق اسم هذه السورة (الطور) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة والطور كان حقّاً على اللَّه أن يؤمنه من عذابه وأن ينعّمه فى جنّته».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۶

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطور جمع اللَّه له خير الدنيا والآخرة».

وواضح أنّ كل هذا الأجر والثواب العظيم هو لُاولئك الذين يجعلون هذه التلاوة وسيلة للتفكر والتفكر بدوره وسيلة للعمل.

وَالطُّورِ (۱) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (۴) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (۵) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (۷) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (۸) هذه السورة- هى الاخرى- من السور التى تبدأ بالقسم ... القسم الذى يهدف لبيان حقيقة مهمة، وهى مسألة القيامة والمعاد ومحاسبة أعمال الناس.

يقول سبحانه وتعالى: «وَالطُّورِ».

«الطور»: فى اللغة معناه الجبل، ولكن مع ملاحظة أنّ هذه الكلمة تكرّرت فى عشر آيات من القرآن الكريم، تسع منها كانت فى الكلام على «طور سيناء» وهو الطور أو الجبل الذى نزل الوحى عنده على موسى، فيُعلم أنّ المراد منه فى الآية محل البحث (الطور ذاته).

فبناءً على ذلك، فإنّ اللَّه يقسم فى أوّل مرحلة بواحد من الأمكنة المقدسة فى الأرض حيث نزل عليها الوحى.

وفى تفسير قوله تعالى «وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ» احتمالات متعددة، ولكن بتناسب القسَم المذكور آنفاً فإنّ الآية تشير هنا إلى «كتاب موسى» أو كل كتاب سماوى.

«فِى رَقّ مَّنشُورٍ». «الرقّ»: من الرقّة، وهى فى الأصل الدقة واللطافة، كما تطلق هذه الكلمة على الورق أو الجلد الخفيف الذى يكتب عليه؛ و «المنشور»: معناه الواسع.

«وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ». والمراد منه «الكعبة» وهى بيت اللَّه فى الأرض المعمور بالحجاج والزوار، وهو أوّل بيت وضع للعبادة على الأرض.

«وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ». والمقصود هو «السماء» لأنّنا نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة الأنبياء: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا».

ولعل الوجه- فى التعبير- بالسقف هو أنّ النجوم والكرات السماوية إلى درجة من الكثرة بحيث غطّت السماء فصارت كأنّها السقف، أو إشارة إلى الجو الذى يحيط بالأرض أو ما يسمّى بالغلاف الجوّى، وهو بمثابة السقف الذى يمنع النيازك والشهب أن تهوى إلى

الأرض وتصدّ الأشعّة الضارّة من الوصول إلى الأرض.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۷

«وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ». «المسجور»: معناه الملتهب، كما فى الآيتين (۷۱ و ۷۲) من سورة غافر، إذ قال سبحانه: «يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ».

هـذا «البحر المسـجور» هو البحر المحيط بالأرض، أو البحار المحيطـة بها وسـيلتهب قبل يوم القيامة، ثم ينفجر كما نقرأ ذلك فى الآية (۶) من سورة التكوير: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

البحر الذى فى باطن الأرض وهو مؤلّف من مواد منصهرة مذابة.

ولعلّ أن تكون الآية قَسماً بهما معاً، إذ كلاهما من آيات اللَّه ومن عجائب هذا العالم الكبرى.

وعلاقـة هـذه الأقسـام الخمسـة فيمـا بينهـا، أنّ الظـاهر أنّ الأقسـام الثلاثـة الاول بينها إرتباط وعلاقـة، لأنّها جميعاً تتحـدث عن الوحى وخصوصـياته، فـالطور محـل نزول الوحى، والكتاب المسـطور إشارة إلى الكتاب السـماوى أيضاً، سواءً كان التوراة أو القرآن، والبيت المعمور هو محل ذهاب وإيّاب الملائكة ورُسل وحى اللَّه.

أمّا القَسمان الآخران فيتحدثان عن الآيات التكوينية «فى مقابل الأقسام الثلاثة التى كانت تتحدث عن الآيات التشريعية».

وهـذان القَسـمان واحـد منهما يشـير إلى أهمّ دلائل التوحيد وعلائمه وهو «السـماء» بعظمتها، والآخر يشـير إلى واحد من علائم المعاد المهمة ودلائله، وهو الواقع بين يدى القيامة.

فبناءً على هذا فإنّ التوحيد والنبوة والمعاد جمعت فى هذه الأقسام [أو الأيمان الخمسة.

«إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ». إنّ هـذه الأقسام والتى تدور حول محور قدرة اللَّه فى عالم التكوين والتشـريع تدل على أنّ اللَّه قادر على إعادة الحياة وبعث الموتى من قبورهم مرّة اخرى، وهـذا هو غايـة الأقسام المـذكورة كما قرأنا فى الآيات الأخيرة من الآيات محل البحث.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (۱۰) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۱) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (۱۲) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (۱۳) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (۱۵) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۸

كانت فى الآيات السابقة إشارة وتلميح عن عذاب اللَّه فى يوم القيامة- بصورة مغلقة- أمّا الآيات محل البحث ففيها توضيح وتفسير لما مرّ، فتتحدث أوّلًا عن بعض حالات يوم القيامة وخصائصه، ثم عن كيفية تعذيب المكذبين فتقول: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا».

«المَوْر»: معناه الحركـة السـريعة والـدوران المقترن بالذهاب والإياب والاضـطراب والتموّج. وعلى هذا فإنّ النظام الحاكم على الكرات يضطرب بين يدى يوم القيامة وتنحرف عن مداراتها وتتّجه إلى كل جهة ذهاباً وإيّاباً، ثم تتبدّل وتولّد سماء جديدة بأمر اللَّه كما تقول الآية (۱۰۴) من سورة الأنبياء: «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ».

ثم يضيف القرآن فى آية اخرى: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا».

كل ذلك هو إشارة إلى أنّ هـذه الدنيا وما فيها وما عليها تندكّ ويحدث مكانها عالم جديد بأنظمة جديدة ويكون الإنسان أمام نتائج أعماله وجهاً لوجه.

لذا فإنّ القرآن يضيف فى الآية التالية قائلًا: «فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لّلْمُكَذّبِينَ».

أجل، حين تعمّ الوحشة والإضطراب جميع الخلق لتغيّر العالم، تهيمن على المكذبين وحشة عظيمة وهى العذاب الإلهى ... لأنّ «الويل»: إظهار التأسف والحزن لوقوع حادثة غير مطلوبة.

ثم تبيّن الآيات من هم «المكذبون» فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ».

فيزعمون أنّ آيات القرآن ضرب من الكذب والإفتراء وأنّ معجزات النبى سحر وأنّه مجنون، ويتلقّون جميع الحقائق باللعب ويسخرون منها ويستهزئون بها.

«خوض»: معناه الدخول فى الكلام الباطل، وهو فى الأصل ورود الماء والعبور منه.

ثم تبيّن الآيات ذلك اليوم وعاقبة هؤلاء المكذبين فى توضيح آخر، فتقول: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» «۱». أى يساقون نحو جهنم بعنف وشدة.

ويقال لهم حينئذ: «هذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ».

كما يقال لهم أيضا: «أَفَسِحْرٌ هذَا أَمْ أَنتُمْ لَاتُبْصِرُونَ».

لقد كنتم تزعمون فى الدنيا إنّ ما جاء به محمّد سحر، وليختطف عقولنا! ويرينا اموراً على أنّها معاجز، ويذكر لنا كلاماً على أنّه وحى منزل من اللَّه.

---

(۱) «دعّ»: على وزن جدّ معناه الدفع الشديد والسوق بخشونة وعنف.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۹

لذلك فحين يردون نار جهنم يقال لهم بنحو التوبيخ والملامة والإحتقار وهم يلمسون حرارة النار: أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟!

كما يقال لهم هناك أيضاً: «اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

أجل، هذه هى أعمالكم وقد عادت إليكم، فلا ينفع الجزع والفزع والآه والصراخ ولا أثر لكل ذلك أبداً.

وهذه الآية تأكيد على «تجسم الأعمال» وعودتها نحو الإنسان، وهى تأكيد جديد أيضاً على عدالة اللَّه ... لأنّ نار جهنم مهما كانت شديدة ومحرقة فهى ليست سوى نتيجة أعمال الناس أنفسهم، وأشكالها المتبدلة هناك.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (۱۷) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (۱۸) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲۰) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱) تعقيباً على المباحث الواردة فى الآيات المتقدمة حول عقاب المجرمين وعذابهم الأليم تذكر الآيات محل البحث ما يقابل ذلك من المواهب الكثيرة والثواب العظيم للمؤمنين والمتقين لتتجلى بمقايسة واضحة مكانة كل من الفريقين. تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ».

والتعبير ب «المتقين» بدلًا من المؤمنين، لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضاً، خاصة أنّ «التقوى» تقع مقدمةً وأساساً للإيمان فى بعض المراحل.

ثم يتحدث القرآن عن تأثير هذه النِعَم الكبرى على روحية أهل الجنة فيقول فى الآية التالية: «فَاكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ» «۱».

---

(۱) «فاكهين»: مشتقة من فكه و معناها كون الإنسان مسروزاً، وجعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب. مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۰

خاصةً أنّ اللَّه قد طمأنهم وآمنهم من العقاب: «وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

وهذه الجملة قد تكون ذات معنين ... الأوّل بيان النعمة المستقلة قبال نعم اللَّه الاخر ...

و الثانى أن يكون تعقيباً على الكلام السابق، أى أنّ أهل الجنة مسرورون من شيئين «بما آتاهم اللَّه من النعم فى الجنة»، و «بما وقاهم من عذاب الجحيم».

ثم تشير الآية الاخرى إلى نعم المتقين فى الجنة فتقول: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير ب «هنيئاً» هو إشارة إلى أنّ أطعمة الجنة وشرابها السائغة غير منغّصة، فهى ليست كأطعمة الدنيا وشرابها التى تجرّ الإنسان إلى الوبال عند الإفراط أو التفريط بها ...

إضافةً إلى كل ذلك لا يحصل عليها بمشقة، ولا يخاف من إنتهائها، ولذلك فهى هنيئة.

ومن المعلوم أنّ أطعمة الجنة هنيئة بذاتها، ولكن قول الملائكة لأهل الجنة «هنيئاً» هذا القول له لطفه وعذوبته الخاصة.

والنعمة الاخرى التى يتمتع بها أهل الجنة هى كونهم: «مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ».

فهم يلتذّون بالاستئناس إلى أصحابهم والمؤمنين الآخرين، وهذه لذة معنوية فوق أية لذة اخرى.

وهذا التعبير لا ينافى ما ورد فى هذه الآية محل البحث، لأنّ مجالس الانس والسرور ترتّب الأسرة فيها على شكل مستدير ومصفوفة جنباً إلى جنب، فجلّاسها على سرر مصفوفة متقابلون.

والتعبير ب «متكئين» إشارة إلى منتهى الهدوء، لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكىء عادةً، والذين هم فى قلق وحزن لا يرون كذلك.

ثم يضيف القرآن بأنّا زوّجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة «وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ» «۱».

---

(۱) «الحور»: جمع حوراء وأحور، فهو جمع للمذكّر والمؤنث سواء، ويطلق على من حدقة عينه سوداء وبياضها شفّاف أو هو كناية عن الجمال، لأنّ الجمال يتجلّى فى العينين قبل كل شىء، والعين جمع لأعين وعيناء، معناه العين الواسعة؛ وهكذا فإنّ الحور العين مفهوماً واسعاً يشمل الأزواج جميعاً الذكور والإناث من أهل الجنة فالذكور للإناث وبالعكس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۱

هذه بعض من نعم أهل الجنة المادية والمعنوية، إلّاأنّهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، وإنّما تضاف إليها نعم ومواهب معنوية ومادية اخر: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ».

وهذه نعمة بنفسها أيضاً أن يرى الإنسان ذريته فى الجنة ويلتذ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شىء أبداً.

فمثل هؤلاء الأبناء وهذه الذرية إذا كان فى عملهم نقص وتقصير فإنّ اللَّه سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، ويرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، وهذه المثوبة موهبة للآباء والأبناء.

إنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية: «كُلُّ امْرِيٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ». أى: أنّ أعمال كل إنسان ملازمة له، سواءً كانت صالحة أو طالحة، ولذلك فإنّ المتقين فى الجنة رهينو أعمالهم، وإذا كان أبناؤهم وذرياتهم معهم، فلا يعنى ذلك أنّ أعمالهم ينقص منها شىء أبداً.

وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَ لَا تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۲۵) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (۲۶) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸) أشارت الآيات المتقدمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنة، وتشير الآيات محل البحث إلى خمسة اخر منها بحيث يستفاد من المجموع أنّ ما هو لازم للهدوء والطمأنينة والفرح والسرور واللذة مهيّأ لهم فى الجنة. فتشير الآية الاولى من الآيات محل البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنة فتقول: «وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ».

«أمددناهم»: مشتق من الإمداد ومعناه العطاء والزيادة والإدامة ... أى إنّ طعام الجنة وفواكهها لا ينقص منهما شىء بتناولهما، وهما ليسا كطعام الدنيا وفواكهها بحيث يتغيّران أو ينقصان.

والتعبير ب «مِّمَّا يَشْتَهُونَ» يدل على أنّ أهل الجنة أحرار تماماً فى إنتخاب الأطعمة ونوعها وكميّتها وكيفيتها، فمهما طلبوا فهو مهىء لهم ... وبالطبع فإنّ طعام الجنة غير منحصر بهذين النوعين اللحم والفاكهة، إلّاأنّهما يمثّلان الطعام المهم، وتقديم الفاكهة على اللحم إشارة إلى أفضليتها عليه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۲

ثم تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنة من شراب سائغ فتقول: «يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّالَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ».

حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم والإفساد، ويشربون شراباً سائغاً عذباً لذيذاً يهب النشاط خالياً من أى نوع من أنواع التخدير وفساد العقل! ولا يعقبه لغو ولا إثم، بل كلّه لذّة وإنتباه ونشاط «جسمى وروحانى».

«يتنازعون»: من مادة التنازع ومعناه أخذ بعضهم من بعض. بأنّ أهل الجنة يتجاذبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح والسرور.

أمّا النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنة فوجود الخدم والغلمان إذ تقول الآية: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ».

و «اللؤلؤ المكنون»: هو اللؤلؤ داخل صدفه، وهو فى هذه الحالة شفّاف وجميل إلى درجة لا توصف وإن كان خارج الصدف شفّافاً وجميلًا أيضاً، غير أنّ الهواء الملوّث والأيدى التى تتناوله كل ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الاولى من الشفافية! فالغلمان وخدمة الجنة هم إلى درجة من الصفاء حتى كأنّهم اللؤلؤ المكنون كما يعبّر القرآن الكريم.

وبالرغم من أنّه لا حاجة فى الجنة إلى الخدمة، وما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلّاأنّ هذا بنفسه إكرام أو إحترام آخر لأهل الجنة.

فى تفسير مجمع البيان: قيل يا رسول اللَّه! الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذى نفسى بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وآخر نعمة فى هذه السلسلة من النعم هى نعمة الطمأنينة وراحة البال من كل عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ».

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا فى مفازة جرداء ويتحيّروا. مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساة ويضيّقوا علينا الميدان. ولكن اللَّه منّ علينا برحمته الواسعة: «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُوم».

«السموم»: يعنى الحرارة التى تدخل فى مسام البدن فتؤذى الإنسان، ويطلق على الريح التى تتسم بهذه السمة بريح السموم كما يطلق عذاب السموم على مثل هذا العذاب الذى تدخل حرارته مسام البدن فتؤذيه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۳

وأمّا إطلاق كلمة «السم» على المواد القاتلة فهو لأنّها تنفذ فى جميع أجزاء البدن.

والكلام الذى ينقله القرآن على لسان أهل الجنة هنا يشير إلى إعترافهم بهذه الحقيقة وهى أنّ كون اللَّه برّاً رحيماً يعرفه أهل الجنة فى ذلك الزمان أكثر من أى وقت مضى فيقولون: «إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ».

إلّا أنّنا نعرف هذه الصفات الآن بشكل واقعى أكثر مما كنا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظيمة قبال هذه الأعمال التى لا تعدّ شيئاً وأحسن إلينا مع كل تلك الذنوب الكثيرة.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (۳۰) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (۳۲) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (۳۳) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (۳۴)

سبب النّزول

فى الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ قريشاً لما اجتمعوا فى الدار الندوة «۱» فى أمر النبى صلى الله عليه و آله قال قائل منهم احبسوه فى وثاق وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة إنّما هو كأحدهم فأنزل اللَّه فى ذلك من قولهم «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ».

التّفسير

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن قسم مهم من نعم الجنة وثواب المتقين وكان الكلام فى الآيات التى سبقتها عن بعض عذاب أهل

النـار. لـذلک فـإنّ الآيـة الاولى من الآيـات محـل البحث تخـاطب النبى فتقول: «فَذَكِّرْ». لأنّ قلوب عشّاق الحق تكون أكثر إستعداداً بسماعها مثل هذا الكلام، وقد آن الأوان أن تبيّن الكلام الحق لها.

ثم يذكر القرآن الإتهامات التى أطلقها أعداء النبى الألدّاء المعاندون فيقول: «فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّکَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ».

---

(١) «دار النـدوة»: وهى دار قصـى بن كلاب التى لا تقضـى قريش أمراً من أمورها إلّافيها، وكانت هـذه الـدار بابهاإلى مسـجد الكعبة. (راجع سيرة النبى صلى الله عليه و آله، ابن هشام الحميرى ۲/ ۳۳۱). مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۴

«الكاهن»: يطلق على من يخبر عن الأسرار الغيبية، وغالباً ما كان الكاهن يدّعى بأنّه له علاقة بالجن ويستمد الأخبار الغيبية منهم.

فإنّ قريشاً ومن أجل أن تشتّت الناس وتصرفهم عن النبى صلى الله عليه و آله كانت تتّهمه ببعض التّهم، فتارةً تتّهمه بأنّه كاهن، وتارةً تتّهمه بـأنّه مجنون، والعجب أنّهـا لم تقف على تضـاد الوصـفين، لأنّ الكهنـة انـاس أذكيـاء والمجانين على خلافهم! ولعل الجمع بين الإفترائين فى الآية إشارة إلى هذا التناقض فى الكلام من قبل القائلين.

ثم يذكر القرآن الإتهام الثالث الذى يخالف الوصفين السابقين أيضاً فيقول: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ».

«المنون»: مشتق من المنّ، وهو على معنيين: النقصـان والقطع، ثم اسـتعملت كلمـة «المنون» فى الموت أيضاً، لأنّه ينقص العـدد ويقطع المـدد؛ «ريب»: أصـلها الشك والتردد والوهم فى الشـىء الـذى تنكشف أسـتاره بعدئـذ فتتضح حقيقته. وهذا التعبير يسـتعمل فى شأن الموت، فيقال «ريب المنون» لأنّ وقت حصوله غير معلوم لا أصل تحققه.

إلّا أنّ جماعة من المفسرين قالوا: إنّ المراد من «ريب المنون» فى الآية محل البحث هو حوادث الدهر، حتى إنّه نقل عن ابن عباس أنّه قال حيث ما وردت كلمة «ريب» فى القرآن فهى بمعنى الشك والتردد، إلّافى هذه الآية من سورة الطور فمعناها الحوادث.

فاولئک كانوا يطمئنون أنفسـهم ويرضون خاطرهم بأنّ حوادث الزمان كفيلـة بالقضاء على النبى صـلى الله عليه و آله وكانوا يتصورون أنّهم سـيتخلصون من هذه المشـكلة العظمى التى أحدثتها دعوة النبى صـلى الله عليه و آله فى سائر المجتمع ... لذلک فإنّ القرآن يرد عليهم بجملة موجزة مقتضبة ذات معنى غزير ويهدّد هؤلاء- عمى القلوب- مخاطباً نبيّه فيقول: «قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ».

ثم يوبّخهم القرآن توبيخاً شديداً فيقول فى شأنهم: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُم بِهذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ».

إنّ هذه التّهم والإفتراءات ليست مما تقول به عقولهم وتأمرهم به، بل أساسها طغيانهم وتعصبهم وروح العصيان والتمرد.

«الأحلام»: جمع «حُلُم» ومعناه العقل؛ وهـذه الكلمـة قـد تأتى بمعنى الرؤيا والمنام ولا يبعـد مثل هـذا التّفسـير فى الآيـة محل البحث ... فكأنّ كلماتهم ناتجة عن أحلامهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۵

ومرّة اخرى يشير القرآن إلى اتّهام آخر- من اتهاماتهم- الذى يعدّ الرابع فى سلسلة اتّهاماتهم فيقول: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّايُؤْمِنُونَ».

«تقوّله»: مشتق من مادة تقوّل- على وزن تكلّف- ومعناه الكلام الذى يفتعله الإنسان بينه وبين نفسه دون أن يكون له واقع.

إنّ القرآن يردّ عليهم ردّاً يدحرهم ويتحدّاهم متهكماً فيقول: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ».

فأنتم اناس مثله ولـديكم العقل والقـدرة على البيان والإطلاع والخبرة على أنواع الكلام فلِمَ لا يأتى مفكّروكم وخطباءكم وفصحاءكم بمثل هذا الكلام.

وجملـة «فليأتوا» أمر تعجيزى، والهـدف منه بيان عجزهم وعـدم قـدرتهم على مجاراة القرآن. وهذا ما يعبّر عنه فى علم الكلام والعقائد بالتحدّى أى دعوة المخالفين إلى المعارضة والإتيان بالمثل «فى مواجهة المعجزات».

فهذه آية من الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بجلاء، ولا يختصّ مفهومها بمن عاصروا النبى صلى الله عليه و آله بل يشمل جميع الذين يزعمون- بـأنّ القرآن كلام بشر، وأنّه مفترى على اللّه- على إمتـداد القرون والأعصـار، فهم مخـاطبون بهـذه الآيـة أيضاً ... أى هاتوا

حديثاً مثله إن كنتم تزعمون بأنّه ليس من اللّه وأنّه كلام بشر.

إنّ نداء القرآن فى هذه الآية والآيات المشابهة كان عالياً أبداً، ولم يستطع أى إنسان خلال أربعة عشر قرناً- منذ بعثة النبى صلى الله عليه و آله حتى يومنا هذا- أن يرد بجواب إيجابى.

وهذا العجز «العمومى» شاهد حى على أصالة هذا الوحى السماوى.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣۵) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴٢) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴٣) هذه الآيات تواصل البحث الاستدلالى السابق- كذلك- مع أحد عشر سؤالًا متتابعاً،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۶

وهى تناقش المنكرين للقرآن ونبوّة محمّد صلى الله عليه و آله وقدرة اللّه سبحانه. فأوّل ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

وهذه إشارة إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد فى الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود اللّه، وهو أنّ العالم الذى نعيش فيه ممّا لا شك- فيه- حادث (لأنّه فى تغيير دائم، وكل ما هو متغيّر فهو فى معرض الحوادث، وكل ما هو فى معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزليّاً).

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثاً فلا يخرج عن الحالات الثلاث التالية:

١- وُجد من دون علّة.

٢- هو نفسه علّة لنفسه.

٣- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذى يكون وجوده ذاتياً له.

وبطلان الاحتمان المتقدمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، وإلّا فينبغى أن يكون كل شىء موجوداً فى أى ظرف كان، والأمر ليس كذلك.

والاحتمال الثانى وهو أن يوجد الشىء من نفسه محال أيضاً، لأنّ مفهومه أن يكون موجوداً قبل وجوده، ويلزم منه إجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

فبناءً على ذلك لا طريق إلّاالقبول بالاحتمال الثالث، أى خالقية واجب الوجود.

الآية التالية تثير سؤالًا آخر على الإدّعاء فى المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول:

«أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

فإذا لم يوجدوا من دون علّة ولم يكونوا علّة أنفسهم أيضاً، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات والأرض؟! وإذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أوكل اللّه إليهم أمر خلق السماء والأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون وبيدهم أمر الخلق أيضاً.

من الواضح أنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا هذا الإدّعاء الباطل، لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول: «بَل لَّايُوقِنُونَ».

أجل، فهم يتذرّعون بالحجج الواهية فراراً من الإيمان.

ثم يتساءل القرآن قائلًا: فإذا لم يدّعوا هذه الامور ولم يكن لهم نصيب فى الخلق، فهل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۷

عندهم خزائن اللّه: «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبّكَ» «١». ليهبوا من شاؤوا نعمة النبوّة والعلم أو الأرزاق الاخر ويمنعوا من شاؤوا ذلك: «أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ» على جميع العوالم وفى أيديهم امور الخلائق؟!

إنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا أبداً أنّ عندهم خزائن اللَّه تعالى، ولا يملكون تسلطاً على تدبير العالم، لأنّ ضعفهم وعجزهم إزاء أقل مرض بل حتى على بعوضة تافهة وكذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائية للحياة خير دليل على عدم قدرتهم وفقدان هيمنتهم! وإنّما يجرّهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس والعناد وحبّ الجاه والتعصب والأنانية.

وكلمة «مصيطرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التى هى من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أنّ كل نوع من أنواع العالم إنساناً كان أمّ حيواناً آخر أم جماداً أم نباتاً له مدبّر وربّ خاصّ يدعى بربّ النوع ويدعون اللَّه «ربّ الأرباب» وهذه العقيدة تعدّ فى نظر الإسلام «شركاً» والقرآن فى آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو للَّهوحده ويصفه بربّ العالمين.

ومن المعلوم أنّه لا- منكرو النبوة ولا- المشركون فى العصر الجاهلى ولا- سواهما يدّعى أيّاً من الامور الخمسة التى ذكرها القرآن، ولذلك فإنّه يشير إلى موضوع آخر فى الآية التالية فيقول: إنّ هؤلاء هل يدعون أنّ الوحى ينزل عليهم أو يدعون أنّ لهم سُلّماً يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحى: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» «۲».

وحيث إنّه كان من الممكن أن يدّعوا بأنّهم على معرفة بأسرار السماء فإنّ القرآن يطالبهم مباشرةً بعد هذا الكلام بالدليل فيقول: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

ومن الواضح أنّه لو كانوا يدّعون مثل هذا الادّعاء فإنّه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبداً.

ثم يضيف القرآن قائلًا: هل صحيح ما يزعمون أنّ الملائكة اناث وهم بنات اللَّه؟! «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ».

وفى هذه الآية إشارة إلى واحد من إعتقاداتهم الباطلة، وهو استياؤهم من البنات

---

(۱) الخزائن: جمع الخزينة ومعناها مكان كل شىء محفوظ لا تصل إليه اليد ويدّخر فيه ما يريد الإنسان يقولالقرآن فى هذا الصدد: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» سورة الحجر/ ۲۱.

(۲) «سُلّم»: يعنى «المصعد» كما يأتى بمعنى أيّة وسيلة كانت.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۸

بشدة، وإذا علموا أنّهم رزقوا من أزواجهم «بنتاً» اسودّت وجوههم من الحياء والخجل ومع هذا فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات اللَّه. وبديهى أنّ الذكر والانثى لا يختلفان فى نظر القيمة الإنسانية ... والتعبير فى الآية المتقدمة هو فى الحقيقة من قبيل الاستدلال بعقيدتهم الباطلة ومحاجتهم بها.

ثم يتنازل القرآن إلى مرحلة اخرى، فيذكر واحداً من الامور التى يمكن أن تكون ذريعة لرفضهم فيقول: «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ».

«المغرم»:- على وزن مغْنَم وهو ضدّ معناه- أى ما يصيب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهة، أمّا الغريم فيطلق على الدائن والمدين أيضاً.

و «المُثقَل»: مشتق من الأثقال، ومعناه تحميل العبء والمشقة، فبناءً على هذا المعنى يكون المراد من الآية: تُرى هل تطلب منهم غرامة لتبليغ الرسالة فهم لا يقدرون على أدائها ولذلك يرفضون الإيمان؟!

ومرّة اخرى يخاطبهم القرآن متسائلًا «أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ». فهؤلاء يدّعون أنّ النبى شاعر وينتظرون موته لينطوى بساطه وينتهى كل شىء بموته وتلقى دعوته فى سلّة الإهمال. فمن أين لهم أنّهم سيبقون أحياء بعد وفاة النبى؟ ومن أخبرهم بالغيب؟!

ثم يتناول القرآن إحتمالًا آخر فيقول: لو لم يكن كل هذه الامور المتقدمة، فلابدّ أنّهم يتآمرون لقتل النبى وإجهاض دعوته ولكن ليعلموا أنّ كيد اللَّه أعلى وأقوى من كيدهم:

«أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ».

وأخيراً فإنّ آخر ما يثيره القرآن من أسئلة فى هذا الصدد قوله: «أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ».

ويضيف- منزّهاً-: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فعلى هذا لا أحد يستطيع أن يمنعهم من اللّه ويحميهم، وهكذا فإنّ القرآن يستدرجهم ويضعهم أمام استجواب عجيب وأسئلة متّصلة تؤلّف سلسلة متكاملة مؤلفة من أحد عشر سؤالًا، ويضطرهم مرحلة بعد مرحلة إلى التراجع والتنازل من الإدعاءات الفارغة، ثم يوصد عليهم سُبُل الفرار كلها ويحاصرهم فى طريق مغلق.

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (۴۴) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبَارَ النُّجُوم (۴۹)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۹

تعقيباً على البحث الوارد فى الآيات المتقدمة الذى يناقش المشركين والمنكرين المعاندين، هذا البحث الذى يكشف الحقيقة ساطعةً لكل إنسان يطلب الحق، تميط الآيات محل البحث النقاب عن تعصبهم وعنادهم فتقول: «وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ».

إنّ هؤلاء المشركين معاندون إلى درجة إنكارهم الحقائق الحسية وتفسيرهم الحجارة الساقطة من السماء بالسحاب.

وهكذا يتّضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنوية. لذلك فإنّ الآية التالية تضيف بالقول: «فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ».

«يُصعقون»: مأخوذة من صعق، والإصعاق هو الإهلال، وأصله مشتق من الصاعقة، وحين أنّ الصاعقة تُهلك من تقع عليه فإنّ هذه الكلمة استعملت بمعنى الإهلاك أيضاً.

إنّ جملة «ذرهم» أمر يُفيد التهديد، والمراد منه أنّ الإصرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدى نفعاً إذ لا يهتدون.

ثم يبيّن القرآن فى الآية التالية هذا اليوم فيقول: «يَوْمَ لَايُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

أجل، من يمت تقم قيامته الصغرى «من مات قامت قيامته» وموته بداية للثواب أو العقاب الذى يكون قسم منه فى البرزخ والقسم الآخر فى القيامة الكبرى، أى القيامة العامة، وفى هاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرّع ولا يجد الإنسان وليّاً من دون اللّه ولا نصيراً.

ثم تضيف الآية أنّه لا ينبغى لهؤلاء أن يتصوروا أنّهم سيواجهون العذاب فى البرزخ وفى القيامة فحسب، بل لهم عذاب فى هذه الدنيا أيضاً: «وَإِنَّ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

أجل، إنّ على الظالمين أن ينتظروا فى هذه الدنيا عذاباً كعذاب الامم السابقة كالصاعقة والزلازل والكسف من السماء والقحط أو القتل على أيدى جيش التوحيد كما كان ذلك فى معركة بدر وما ابتلى به قادة المشركين فيها إلّاأن يتيقّظوا ويتوبوا ويعودوا إلى اللّه آيبين منيبين.

وجملة «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ» تشير إلى أنّ أغلب اولئك الذين ينتظرهم العذاب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۹۰

فى الدنيا والآخرة هم جهلة، ومفهومها أنّ القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلّاأنّه فى الوقت ذاته يُصرّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة والعناد عن الحق.

وفى الآية التالية يخاطب القرآن نبيّه ويدعوه إلى الصبر أمام هذه التّهم والمثبّطات وأن يستقيم فيقول: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ».

فإذا ما اتّهموك بأنّك شاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، وإذا زعموا بأنّ القرآن مفترى فاصبر، وإذا أصرّوا على عنادهم وواصلوا رفضهم لدعوتك برغم كل هذه البراهين المنطقية فاصبر، ولا تضعف همّتك ويفتر عزمك: «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا».

نحن نرى كل شيء ونعلم بكل شيء ولن ندعك وحدك.

وبما أنّ الحاجة للّهوعبادته وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه والإلتجاء إلى ذاته المقدسة كل هذه الامور تمنح الإنسان الدّعة والاطمئنان والقوة، فإنّ القرآن يعقّب على الأمر بالصبر بالقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ».

سواء كان الحمد التسبيح سحراً، أو عند صلاة الفريضة، أو عند القيام من أى مجلس كان.

أجل، نوّر روحك وقلبك بتسبيح اللّه وحمده فإنّهما يمنحان الصفاء ... وعطر لسانك بذكر اللّه ... واستمدّ منه المدد واستعدّ لمواجهة أعدائك.

وفى الدرّ المنثور: إنّه لما كان بآخرة كان إذا قام من مجلسه قال: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّاأنت أستغفرك وأتوب إليك». فقيل يا رسول اللّه! ما هؤلاء الكلمات التى تقولهن، قال: «هنّ كلمات علمنيهنّ جبرئيل كفارات لما يكون فى المجلس».

ثم يضيف القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث قائلًا: «وَمِنَ الَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ».

«نهاية تفسير سورة الطور»

الجزء الخامس

۵۳. سورة النجم

محتوى السورة: هذه السورة- كما يقول بعض المفسرين- هى أوّل سورة تلاها النبى صلى الله عليه و آله جهراً وبصوت عال فى حرم مكة بعد أن أضحت دعوته علناً ... وأصغى إليها المشركون وسجد لها جميع المسلمين حتى المشركون «۱».

إنّ هذه السورة- لكونها مكية- تحمل بين ثناياها بحوثاً فى الاصول الاعتقادية خاصة «النبوة والمعاد» وفيها تهديد ووعيد وإنذارات مكررة لإيقاظ الكفار وردعهم عن غيّهم.

ويمكن تقسيم محتوى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

۱- بداية السورة تتحدث بعد القَسم العميق المغزى عن حقيقة الوحى وإتّصال النبى صلى الله عليه و آله مباشرةً بمنزل الوحى «جبريل».

۲- ثم يجرى الكلام على معراج الرسول صلى الله عليه و آله، له علاقة مباشرة بالوحى أيضاً.

۳- ثم يجرى الكلام عن خرافات المشركين فى شأن الأصنام وعبادة الملائكة.

۴- ويفتح القرآن سبيل التوبة بوجه المنحرفين وعامة المذنبين، ويؤمّلهم بمغفرة اللّه الواسعة، ويؤكّد على أنّ كلّاً مسؤول عن عمله، ولا تزر وازرة وزر اخرى.

۵- وإكمالًا لهذه الأهداف يبيّن جوانب من مسألة- المعاد- ويقيم دليلًا واضحاً على هذه

---

(۱) تفسير روح البيان ۹/ ۲۰۸.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶

المسألة بما هو موجود فى النشأة الاولى- الدنيا-.

۶- وكعادة القرآن فى سائر السور ترد فى هذه السورة إشارات لعواقب الامم المؤلمة لعداوتهم للحق وعنادهم.

۷- وأخيراً فإنّ السورة تختتم بالأمر بالسجود للّهوعبادته.

وتسمية السورة ب «النجم» هى لورود هذا اللفظ فى الآية الاولى من السورة ذاتها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة النجم اعطى من الأجر عشر حسنات

بعدد من صدّق بمحمّد صلى الله عليه و آله ومن جحد به».

ومن المسلّم به أنّ مثل هذا الثواب العظيم هو لُاولئك الذين يتّخذون تلاوة هذه السورة وسيلة للتفكير، ثم العمل، وأن يطبّقوا تعليمات هذه السورة على أنفسهم فى حياتهم.

وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى (٢) وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (۴) ممّا يجدر بيانه أنّ السورة السابقة «الطور» ختمت بكلمة «النجوم»، وهذه السورة بُدئت ب «والنّجم»- إذ أقسم به اللَّه قائلًا: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى .

والظاهر من الآيـة ما يقتضيه إطلاق كلمـة «والنجم» القسم بنجوم السـماء كافّة التى هى من أدلّـة عظمـة اللَّه ومن أسـرار عالم الوجود الكبرى ومن المخلوقات العظيمة للَّهتعالى.

والتعويـل على غروبهـا وافولها مع أنّ طلوعها وإشـراقها يسترعى النظر أكثر، هو لأنّ غروب النجم دليل على حـدوثه كما أنّه دليل على نفى عقيـدة عبادة الكواكب كما ورد فى قصّة إبراهيم الخليل: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْأَفِلِينَ» «۱».

لكن لنعرف لِمَ أقسم اللَّه بالنجم؟ الآية التالية توضّح ذلك فتقول: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى .

---

(١) سورة الأنعام/ ٧۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ٧

والتعبير ب «الصاحب» أى الصديق أو المحبّ لعلّه إشارة إلى أنّ ما يقوله نابع من الحبّ والشفقة.

ومن أجل التأكيد على هذا الموضوع وإثبات أنّ ما يقوله هو من اللَّه فإنّ القرآن يضيف قائلًا: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى .

وهـذا التعبير مشابه التعبير الاسـتدلالى الوارد فى الآيـة آنفـة الـذكر فى صـدد نفى الضـلالة والغواية عن النبى صـلى الله عليه و آله لأنّ أساس الضلال غالباً ما يكون من اتّباع الهوى.

ثم تأتى الآية التالية لتصرّح: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .

فهو لا يقول شيئاً من نفسه، وليس القرآن من نسج فكره! بل كل ما يقوله فمن اللَّه، والدليل على هذا الإدعاء كامن فى نفسه، فالتحقيق فى آيـات القرآن يكشف بجلاء أنّه لن يستطيع إنسـان مهمـا كـان عالماً ومفكّراً- فكيف بالامّى الـذى لم يقرأ ولم يكتب فى محيط مملوء بالخرافـات- أن يـأتى بكلام غزير المحتوى كـالقرآن، إذ ما يزال بعـد مضـى القرون والعهود ملهماً للأفكار، ويمكنه أن يكون أساساً لبناء مجتمع صالح مؤمن سالم.

وينبغى الإلتفات- ضمناً- إلى أنّ هذا القول ليس خاصّاً بآيات القرآن، بل بقرينة الآيات السابقة يشمل سنّة الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً وأنّها وفق الوحى، لأنّ هذه الآية تقول بصراحة: «وما ينطق عن الهوى».

والحديث الطريف التالى شاهد آخر على هذا المدعى.

فى الدرّ المنثور: أمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن تسد الأبواب التى فى المسجد فشق عليهم قال:

حبة أنّى لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول:

أخرجت عمك وأبابكر وعمر والعباس، وأسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ ما يالوا برفع ابن عمه قال فعلم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قد شق عليهم فدعا الصـلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً فلما فرغ قال: «يا أيّها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسـكنته». ثم قرأ: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .

وهـذا الحديث الذى يكشف عن علوّ مقام أمير المؤمنين على عليه السـلام بين جميع الامة الإسـلامية بعد الرسول يدل على أنّه ليسـت

أقوال النبى طبق الوحى فحسب بل حتى أعماله وأفعاله وتقريره وسيرته أيضاً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (۷) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (۸) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (۹) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (۱۰) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (۱۱) أَ فَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (۱۲) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى تحدثت عن نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه و آله يجرى الكلام فى هذه الآيات عن معلم الوحى. تقول الآية: إنّ من له تلك القدرة العظيمة هو الذى علّم النبى صلى الله عليه و آله: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى .

وللتأكيد أكثر تضيف الآية بعدها إنّه ذو قدرة خارقة ومتسلط على كل شيء: «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى .

وقد علّمه هذا التعليم عندما كان بالافق الأعلى: «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى .

ثم اقترب واقترب حتى كان بفاصلة قوسين من معلّمه أو أقل «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . ثم أنّ اللّه تعالى أنزل عليه الوحى «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى .

«المِرّة»: معناها الفَتل، وبما أنّ الحبل كلّما فُتل أكثر كان أشدّ إحكاماً وقوة ... فإنّ هذه الكلمة استعملت فى الامور المادية أو المعنوية المحكمة والقوية.

«تدلّى»: فعل مأخوذ من التدلّى ومعناه، كما يقول الراغب فى مفرداته، الإقتراب، فبناءً على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، وكلا الفعلين بمعنى واحد تقريباً.

«قاب»: بمعنى مقدار؛ و «قوس» (معروف معناه) وهو ما يوضع فى وترة السهم ليُرمى به فمعنى «قاب قوسين» ... قدر طول قوسين.

ورد فى الروايات عن أهل البيت عليهم السلام بأنّ المراد من هذه الآيات الرؤية الباطنية (القلبية) لذات اللّه المقدسة التى تجلّت للرسول وتكرّرت فى المعراج واهتزّ لها النبى وهالته.

فعلى هذا التفسير يبيّن القرآن نزول الوحى على النبى صلى الله عليه و آله بالصورة التالية:

إنّ اللّه الذى هو شديد القوى علّم النبى فى وقت بلغ حدّ الكمال والإعتدال فى الافق الأعلى. ثم قرب وصار أكثر إقتراباً حتى كان بينه وبين اللّه مقدار قاب قوسين أو أقل وهناك أوحى اللّه إليه ما أوحاه. وبما أنّ هذا اللقاء الباطنى يصعب تصوّره لدى البعض، فإنّه يؤكّد

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹

أنّ ما رآه قلب النبى كان حقّاً وصادقاً ولا ينبغى تكذيبه أو مجادلته.

وكما بيّنا فإنّ تفسير هذه الآيات بشهود النبى الباطنى للّه‌تعالى هو أكثر صحّة وأكثر إنسجاماً وموافقة للرّوايات الإسلامية، وأكرم فضيلة للنبى، ومفهومها أجمل وألطف، واللّه أعلم بحقائق الامور.

ونختم هذا البحث بحديث عن النبى صلى الله عليه و آله وآخر عن على عليه السلام.

۱- فى تفسير القرطبى: سئل رسول اللّه صلى الله عليه و آله هل رأيت ربّك؟ فقال: «رأيته بفؤادى».

۲- وفى خطبة الإمام على (۱۷۹) فى نهج البلاغة إذ سأله ذعلب اليمانى: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟ ...».

وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (۱۳) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (۱۴) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (۱۵) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (۱۶) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى (۱۷) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (۱۸) هذه الآيات هى أيضاً تتمة للأبحاث السابقة فى شأن مسألة الوحى وإرتباط النبى صلى الله عليه و آله باللّه والشهود الباطنى، إذ تقول: «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى . أى مرّة ثانية، وكان ذلك «عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى . أى عند شجرة سدر فى الجنة تدعى بسدرة المنتهى ومحلها فى جنة المأوى:

«عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى .

هذه حقائق واقعية شاهدها النبى صلى الله عليه و آله بام عينيه و «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكَبْرَى .

ورغم أنّه لم يرد توضيح عن سدرة المنتهى فى القرآن الكريم، إلّاأنّ الأخبار والروايات الإسلامية ذكرت لها أوصافاً كثيرة. وهذه التعابير تشير إلى أنّ المراد من هذه الشجرة ليس كما نألفه من الأشجار المورقة والباسقة على الأرض أبداً، بل إشارة إلى ظلّ عظيم فى جوار رحمة اللّه وهناك محل تسبيح الملائكة ومأوى الامم الصالحة.

أمّا «جَنَّةُ الْمَأْوَى فمعناها الجنة التى يُسكن فيها؛ والمراد من هذه الجنة هو «جنة البرزخ» التى تحلّ فيها أرواح الشهداء والمؤمنين بصورة مؤقتة.

والآية: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى إشارة إلى أنّ بصر النبى، وأنّ عينيه الكريمتين لم تميلا يمنة ولا يسرة، وما رآه النبى بعينيه هو عين الواقع؛ لأنّ «زاغ»: من مادة «زيغ» معناه الانحراف يميناً أو شمالًا؛ و «طغى : من الطغيان، معناه التجاوز عن الحد.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰

إنّ التعبير ب «نَزْلَةً أُخْرَى معناه أنّ النبى صلى الله عليه و آله رأى اللّه فى شهود باطنى عند معراجه فى السماء. وبتعبير آخر: نزل اللّه مرّة اخرى على قلب النبى وتحقّق الشهود الكامل فى (المنتهى إليه) القريب إلى اللّه عند سدرة المنتهى حيث جنّة المأوى والسدرة تغطّيها حجب من أنوار اللّه.

ورؤية قلب النبى فى هذا الشهود لم تكن لغير الحق أبداً، ولم ير سواه، ولقد رأى من دلائل عظمة اللّه فى الآفاق والأنفس أيضاً وشاهدها بعينيه.

بحثان

۱- ما هو الهدف من المعراج؟ الهدف من المعراج هو بلوغ النبى صلى الله عليه و آله مرحلة الشهود الباطنى من جهة، ورؤية عظمة اللّه فى السماوات بالبصر الظاهرى من جهة اخرى والتى أشارت إليه آخر آية من الآيات محل البحث: «لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .

وفى الآية الاولى من سورة الإسراء: «لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا» والإطلاع على مسائل مهمّة- كثيرة- كأحوال الملائكة وأهل الجنة وأهل النار وأرواح الأنبياء والتى كانت مصدر إلهام للنّبى طوال عمره الشريف فى تعليم وتربية الناس.

۲- جانب من إيحاءات اللّه وكلماته لرسوله فى ليلة المعراج: فى كتاب ارشاد القلوب للديلمى: روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «أنّ النبى صلى الله عليه و آله سأل ربّه سبحانه ليلة المعراج فقال:

يا ربّ أيّ الأعمال أفضل؟! فقال اللّه عزّ وجل: ليس شىء عندى أفضل من التوكل علىّ والرّضا بما قسمت. يا محمّد! وجبت محبّتى للمتحابّين فىّ، ووجبت محبّتى للمتعاطفين فىّ، ووجبت محبّتى للمتواصلين فىّ، ووجبت محبّتى للمتوكّلين علىّ، وليس لمحبتى علم ولا غاية ولا نهاية».

وجاء فى جانب آخر: «يا أحمد «۱» فاحذر أن تكون مثل الصبى إذا نظر إلى الأخضر والأصفر أحبّه وإذا اعطى شىء من الحلو والحامض اغترّ به. فقال: يا ربّ، دُلّنى على عمل أتقرّب به إليك.

قال: اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلًا. قال: ربّ وكيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صلاة وطعامك الجوع».

كما جاء فى مكان آخر منه: «يا أحمد، محبّتى محبّة للفقراء فادن الفقراء وقرّب مجلسهم

---

(۱) إنّ إسم النبى فى كل مكان من هذا الحديث ورد بلفظ أحمد إلّافى بدايته، أجل فاسم النبى فى الأرض محمّد وفى السماء أحمد.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱

منك ادنِك وبعّد الأغنياء وبعّد مجلسهم منك فإنّ الفقراء أحبّائى».

وجاء فى موضع آخر أيضاً: «يا أحمد، أبغض الدنيا وأهلها وأحبّ الآخرة وأهلها. قال يا ربّ ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام، وإنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدّعون بما ليس لهم، ويتكلّمون بما يتمنّون ويذكرون مساوى الناس ويخفون حسناتهم.

قال: يا ربّ، هل يكون سوى هذا العيب فى أهل الدنيا؟ قال: يا أحمد، إنّ عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء».

ثم يتناول الحديث أهل الجنة فيقول: «يا أحمد، إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم، كثير حياؤهم، قليل حمقهم، كثير نفعهم، قليل مكرهم، الناس منهم فى راحة وأنفسهم منهم فى تعب، كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متعبين لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كُتب الناس من الغافلين كتبوا من الذاكرين، فى أوّل النعمة يحمدون وفى آخرها يشكرون، دعاؤهم عند اللّه مرفوع، وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، ... الناس [الغَفلَة] عندهم موتى واللّه عندهم حى قيّوم كريم، يدعون المدبرين كرماً ويريدون المقبلين تلطّفاً قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة، يموت الناس مرّة ويموت أحدهم فى كل يوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم ... وإن قاموا بين يدى كأنّهم بنيان مرصوص لا أرى فى قلبهم شغلًا لمخلوق ... فوعزّتى وجلالى لأحيينّهم حياةً طيّبةً إذا فارقت أرواحهم من جسدهم ولا اسلّط عليهم ملك الموت ولا يلى قبض روحهم غيرى ولأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلها ولأرفعن الحجب كلها دونى، ولآمرنّ الجنان فلتزيننّ»

... «يا أحمد، إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذا طيّبت مطعمك ومشربك فأنت فى حفظى وكنفى».

وجاء فى مكان آخر منه: «يا أحمد، هل تدرى أىّ عيش أهنأ وأىّ حياة أبقى؟ قال اللّهمّ لا.

قال: أمّا العيش الهنيء فهو الذى لا يفترّ صاحبه عن ذكرى ولا ينسى نعمتى ولا يجهل حقى،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲

يطلب رضاى فى ليله ونهاره. وأمّا الحياة الباقية فهى التى يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر فى عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواى على هواه ويبتغى مرضاتى ويعظّم حق عظمتى ويذكر علمى به ويراقبنى بالليل والنهار عند كل سيّئة أو معصية وينقّى قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلًا فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتى أجعل قلبه لى وفراغه وإشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التى أنعمت بها على أهل محبّتى من خلقى وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالى وعظمتى». وأخيراً فإنّ هذا الحديث القدسى الكريم يختتم بهذه العبارات المؤثّرة: «يا أحمد، لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض ويصوم صيام أهل السماء والأرض ويطوى من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العارى ثم أرى فى قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سعتها أو رئاستها أو حليّها أو زينتها لا يجاورنى فى دارى ولأنزعنّ من قلبه محبّتى وعليك سلامى ورحمتى والحمد للّه ربّ العالمين» «۱».

هذه الأحاديث القدسية «من ربّ العرش» التى تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها وتعرج به إلى حالة الشهود هى قسم من الحديث القدسى المشار إليه آنفاً.

ونضيف إلى ذلك أنّنا على يقين أنّه كان بين النبى ومحبوبه فى تلك الليلة الكريمة أسرار وإشارات وكلمات اخرى لا تستطيع الآذان الإصغاء إليها ولا الأفكار الساذجة إستيعابها؛ ولذلك بقيت فى نفس النبى صلى الله عليه و آله طىّ الكتمان فلم يَبُح بها لأحد إلّالخلصائه المختصين به.

أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (۱۹) وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (۲۰) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثَى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (۲۲) إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (۲۳) هذه الأصنام وليدة أهوائكم: بعد بيان الأبحاث المتعلّقة بالتوحيد والوحى والمعراج وآيات عظمة الواحد الأحد فى السماء، يتناول القرآن أفكار المشركين، فينقضها ويتحدث عن معتقداتهم الخرافية ... فيقول: بعد أن أدركتم عظمة اللَّه وآياته فى خلقه فهل أنّ أصنامكم

---

(۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۲۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳

مثل اللات والعزّى والصنم الثالث وهو «مناة» بإمكانها أن تنفعكم أو تضرّكم: «أَفَرَءَيْتُمُ اللتَ وَالْعُزَّى وَمَنَوةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى .

مع أنّكم تزعمون أنّ قيمة البنت دون قيمة الولد ولو بلغكم أنّ أزواجكم أنجبن بنات حزنتم واسودّت وجوهكم.

«تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيْزَى . فهذه قسمة غير عادلة بينكم وبين اللَّه تعالى فعلام تجعلون نصيب اللَّه دون نصيبكم؟!

وهكذا يتناول القرآن أفكارهم الخرافية مستهزئاً بها! ويقول لهم: إنّكم ترون البنت عاراً وذلّةً وتئدونها وهى حيّة فى القبر، وفى الوقت ذاته تزعمون بأنّ الملائكة بنات اللَّه، ولا تعبدون الملائكة من دون اللَّه فحسب بل تصنعون لها التماثيل وتجعلون لها تلك القدسية.

ومن هنا يبدو واضحاً أنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنّها تماثيل الملائكة، الملائكة التى يسمّون كلّاً منها بربّ النوع ومدير الوجود ومدبّره، وكانوا يرون أنّ الملائكة بنات اللَّه.

ومن هنا يتبيّن أنّ القرآن لا يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر والانثى، بل يريد بيان ما هو مقبول ومسلّم عندهم (وهو منطق الجدل)، وإلّا فلا فرق فى نظر الإسلام ومنطقه بين الذكر والانثى من حيث القيمة الإنسانية، ولا الملائكة فيهم ذكر وانثى، ولا هم بنات اللَّه، وليس عند اللَّه من ولد أساساً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن بضرس قاطع: «إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ».

فلا دليل لديكم من العقل، ولا دليل عن طريق الوحى على مدّعاكم، وليس لديكم إلّا حفنة من الأوهام والخيالات الباطلة.

ثم يختتم القرآن الآية بالقول: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ». فهذه الخيالات والموهومات وليدة هوى النفس «وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى .. إلّاأنّهم أغمضوا أعينهم عنه وخلّفوه وراء ظهورهم وتاهوا فى هذه الأوهام والضلالات.

وأساساً فإنّ «هوى النفس» ذاته يعدّ أكبر الأصنام وأخطرها، وهو الأصل لظهور الأصنام الاخرى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (۲۴) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَى (۲۵) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَى (۲۶) هذه الآيات أيضاً تتناول بالبحث والتعقيب موضوع عبادة الأصنام وخرافتها، وهى تتمّة لما سبق بيانه فى الآيات المتقدمة. فتتناول أوّلًا الامنيات الجوفاء عند عبدة الأصنام وما كانوا يتوقّعون من الأصنام: «أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى .

تُرى! هل من الممكن أن تشفع هذه الأجسام التى لا قيمة لها ولا روح فيها عند اللَّه سبحانه؟ أو يُلتجأ إليها عند المشكلات؟ كلّا! «فَلِلَّهِ الْأَخِرَةُ وَالْأُولَى .

إنّ عالم الأسباب يدور حول محور إرادته، وكل ما لدى الموجودات فمن بركات وجوده، فالشفاعة من اختياراته أيضاً، وحلّ المشاكل بيد قدرته كذلك.

وهكذا فإنّ القرآن يقطع أمل المشركين تماماً- بشفاعة الأصنام.

وفى آخر الآيات محل البحث يقول القرآن مضيفاً ومؤكّداً على هذه المسألة: «وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّموَاتِ لَاتُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى .

فحيث لا تستطيع الملائكة على عظمتها حتى ولو بشكل جماعى أن تشفع لأحد إلّاباذن اللّه ورضاه، فما عسى يُنتظر من هذه الأصنام التى لا قيمة لها.

بحث

سعة الأمانى: الأمل أو التمنّى إنّما ينبع من محدودية قدرة الإنسان وضعفه، الإنسان إذا كانت له علاقة بالشىء ولم يستطع أن يبلغه ويحقّقه فإنّه يأخذ صورة التمنّى عنده ...

وبالطبع قد تكون أمانىّ الإنسان أحياناً نابعة من روحه العالية وباعثاً على الحركة والجدّ والنشاط والجهاد وسيره التكاملى ... كما لو تمنّى بأن يتقدم الناس بالعلم والتقوى والشخصية والكرامة.

إلّا أنّه كثيراً ما تكون هذه الأحلام «والأمانى» كاذبة، وعلى العكس من الأمانى الصادقة فانّها- أى الكاذبة- أساس الغفلة والجهل والتخدير والتخلّف كما لو تمنّى الإنسان الخلود فى الأرض والعمر الدائم، وأن يملك أموالًا طائلة، وأن يحكم الناس جميعاً وأمثال هذا الخيال الموهوم.

ولذلك فقد رغّبت الروايات الإسلامية الناس فى تمنّى الخير، كما فى كتاب الخصال عن

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵

على عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من تمنّى شيئاً وهو للّهعزّ وجل رضاً لم يخرج من الدنيا حتى يعطاه».

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) هذه الآيات- محل البحث- كالآيات المتقدمة، تبحث موضوع نفى عقائد المشركين، فتقول أوّلها: «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى .

أجل، إنّ هذا الكلام القبيح والمخجل إنّما يصدر من اناس لا يعتقدون بيوم الحساب ولا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا وقالوا مثل هذا الكلام، وأى كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل ... بل الدلائل العقلية تبرهن على أنّه ليس للّهمن ولد، وليس الملائكة إناثاً، ولا هم بنات اللّه كذلك.

ثم يتناول القرآن واحداً من الأدلة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقّباً:

«وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

فالإنسان الهادف والمعتقد لا يطلق كلامه دون علم ودراية، ولا ينسب أيّة نسبة لأحد دونما دليل .. فالتعويل على الظن والتصور إنّما هو من عمل الشيطان أو من يتّصف بالشيطانية ... وقبول الخرافات والأشياء الموهومة دليل الإنحراف وعدم العقل.

ولكن الظن المعقول وهو ما يخطر فى الذهن، ويكون مطابقاً للواقع غالباً، وعليه يبنى الإنسان أعماله و سلوكياته اليومية عادة- كشهادة الشهود فى المحكمة وقول أهل الخبرة وظواهر الألفاظ وأمثال ذلك- غير داخل فى هذه الآيات، وهذه الامور نوع من العلم العرفى لا الظن.

ومن أجل أن يبيّن القرآن أنّ هؤلاء الجماعة ليسوا أهلًا للإستدلال والمنطق الصحيح، وقد ألهاهم حب الدنيا عن ذكر اللّه وجرّهم إلى الوحل فى خرافاتهم وأوهامهم يضيف قائلًا:

«فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶

إنّما عبارة (ذكرنا) ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كل توجّه نحو اللّه، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذكّر القيامة وما إلى ذلك.

وربّما لا حاجـة إلى التـذكير أنّ الأمر بالإعراض عن هـذه الفئـة (أهل الدنيا) لا ينافى تبليغ الرسالة الذى هو وظيفة النبى الأساسـية، لأنّ التبليغ والإنـذار والبشـارة كلهـا لاـ تكون إلّـافى موارد احتمال التأثير، فحيث يعلم ويتيقّن عـدم التأثير فلا يصحّ هـدر الطاقات، وينبغى الإعراض بعد إتمام الحجة.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يثبت القرآن إنحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفاً:

«ذلِکَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ».

إنّ آية أعلاه يمكن أن تكون إشارةً إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام وجعلهم الملائكة بنات اللّه: أى أنّ منتهى علمهم هو هذه الأوهام. أو أنّها إشارة إلى حبّ الدنيا والأسر فى قبضة الماديات، أى أنّ منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل والشرب والنوم والمتاع الفانى فى هذه الدنيا وزبرجها وزخرفها الخ.

وقـد جـاء فى الـدعاء المعروف فى أعمال شـعبان المنقول عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «ولا تجعل الـدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا».

وتختتم الآية بالقول: «إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى .

ختام الآيـة يشـير إلى هـذه الحقيقـة، وهى أنّ اللّه يعرف الضالين جيّـداً كما يعرف المهتدين أيضاً، فيصبّ غضـبه على الضالّين ويسـبغُ لطفه على المهتدين، ويجازى كلّاً بعمله يوم القيامة.

وَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَـنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّکَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) لما كان الكلام فى الآيات المتقدمـة عن علم اللّه بالضالين والمهتـدين، فإنّ الآيات أعلاه تتمّـة لما جاء آنفاً. تقول: «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷

فالمالكيـة المطلقة فى عالم الوجود له وحده، والحاكمية المطلقة على هذا العالم له أيضاً، ولذلك فإنّ تدبير عالم الوجود بيده فحسب. ولما كان الأمر كذلك فهو وحده الجدير بالعبادة والشفاعة.

إنّ هدفه الكبير من هذا الخلق الواسع ليستيقظ الإنسان فى عالم الوجود وليسير فى مسير التكامل فى ضوء المناهج التكوينية والتشريعية وتعليم الأنبياء وتربيتهم، لـذلك فإنّ القرآن يذكر نتيجة هذه المالكية فيختتم الآية بالقول: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى .

ثم يصف القرآن المحسنين فى الآية التالية فيقول: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ».

«الكبائر»: جمع كبيرة؛ و «الإثم» فى الأصل هو العمل الـذى يُبعـد الإنسان عن الخير والثواب، لـذلك يطلق على الذنب عادةً؛ و «اللمم»: معناه الإقتراب من الذنب. فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اللمم: الرجل يلمّ بالذنب فيستغفر اللّه منه».

والقرائن الموجودة فى هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضاً ... إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثم يلتفت إليها فيتوب منها. أضف إلى ذلك فإنّ الجملة التالية بعد الآية فى القرآن تقول: «إِنَّ رَبَّکَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

وهـذا يـدل على أنّ ذنبـاً صـدر من الإنسـان وهـو بحاجـة إلى غفران اللّه. يعنى أنّ الـذين أحسـنوا من الممكن أن ينزلقوا فى منزلق ما فيـذنبوا، إلّاأنّ الذنب على خلاف سـجيّتهم وطبعهم وقلوبهم الطاهرة- وإنّما تقع الذنوب عَرضاً، ولذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلّا ندموا وتذكّروا وطلبوا المغفرة من اللّه سبحانه.

ويتحـدث القرآن فى ذيل الآيـة عن علم اللّه المطلق مؤكّـداً عـدالته فى مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ».

وقوله «أنشأكم من الأرض» إمّا هو بإعتبار الخلق الأوّل عن طريق آدم عليه السلام الذى خلقه من تراب، أو باعتبار أنّ ما يتشكّل منه وجود الإنسان كله من الأرض، حيث له الأثر الكبير فى التغذية وتركيب النطفة، ثم بعد ذلك له الأثر فى مراحل نمو الإنسان أيضاً.

وعلى كل حال، فإنّ الهدف من هذه الآية أنّ اللَّه مطّلع على أحوالكم وعليم بكم منذ كنتم ذرّات فى الأرض ومن يوم إنعقدت نطفتكم فى أرحام الامّهات فى أسجاف من الظلمات فكيف- مع هذه الحال- لا يعلم أعمالكم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸

وهذا التعبير مقدمة لما يليه من قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

فلا حاجة لتعريفكم وتزكيتكم وبيان أعمالكم الصالحة، فهو مطّلع على أعمالكم وعلى ميزان خلوص نيّاتكم، وهو أعرف بكم منكم.

فى علل الشرائع عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى «فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ» قال:

«لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لأنّ اللَّه تعالى أعلم بمن اتّقى منكم».

بحث

ما هى كبائر الإثم: إنّ كل ذنب فيه أحد الشروط التالية يعدّ كبيراً:

أ الذنوب التى ورد الوعيد من قبل اللَّه فى شأنها والعذاب لمرتكبها.

ب الذنوب المذكورة فى نظر أهل الشرع ولسان الروايات بأنّها عظيمة.

ج الذنوب التى عدّتها المصادر الشرعية أكبر من الذنوب التى هى من الكبائر.

د وأخيراً الذنوب المصرّح بها فى الروايات المعتبرة بأنّها من الكبائر.

وقد ورد ذكر الكبائر فى الروايات الإسلامية مختلفاً عددها فيه، إذ جاء فى بعضها أنّها سبع. فى ثواب الأعمال عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «... والكبائر السبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف».

وجاء فى بعض الروايات أنّها «عشر»، وأوصلتها روايات اخر إلى «تسع عشرة» كبيرةً، وربّما ترقّى هذا العدد إلى أكثر مما ذكر فى بعض الروايات أيضاً.

أ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (۳۳) وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْدَى (۳۴) أ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (۳۵) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (۳۶) وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (۳۷) أَنْ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (۳۸) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (۳۹) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (۴۰) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (۴۱)

سبب النّزول

فى مجمع البيان: نزلت فى عثمان بن عفان، كان يتصدق وينفق ماله، فقال له أخوه من الرضاعة عبداللَّه بن أبى سرح: ما هذا الذى تصنع يوشك أن لا يبقى لك شىء؟ فقال عثمان:

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹

إنّ لى ذنوباً، وإنّى أطلب بما أصنع رضى اللَّه وأرجو عفوه. فقال له عبداللَّه: أعطنى ناقتك، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه، وأشهد عليه، وأمسك عن الصدقة. فنزلت الآيات.

وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على دينه، فعيره بعض المشركين، وقالوا: تركت دين الأشياخ وظلتهم، وزعمت أنّهم فى النار؟ قال: إنّى خشيت عذاب اللَّه. فضمن له الذى عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه، أن يتحمل عنه عذاب اللَّه، ففعل. فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل، ومنعه تمام ما ضمن له، فنزلت الآيات.

التّفسير

كان الكلام فى الآيات السابقة فى أن يجزى اللَّه تعالى من أساء بإساءته ويثيب المحسنين بإحسانهم ... وبما أنّه من الممكن أن يتصور أن يعذّب أحد بذنب غيره أو أن يتحمل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفى هذا التوهم فى المقام، وبيّنت هذا الأصل الإسلامى المهم أنّ كلّاً يرى نتيجة عمله، فقالت أوّلًا: «أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى . أى تولّى من الإسلام أو الإنفاق. «وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى «۱». بمعنى أنّه أنفق القليل ثم إمتنع وأمسك وهو يظنّ أنّ غيره سيحمل وزره يوم القيامة ..

«أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . فأىّ رجل جاءهم من الغيب و «القيامة» فأخبرهم بأنّه يمكن أخذ الرشوة وتحمّل آثام الآخرين؟

وبعد هذا تأتى الآية الاخرى لتبيّن إعتراض القرآن الشديد على ذلك، وبيان لأصل كلى مطّرد فى الأديان السماوية كلها فتقول: تُرى أهذا الذى إمتنع عن الإنفاق وآمن بالوعود الخيالية، ويريد أن يخلص نفسه من عذاب اللَّه بإنفاقه اليسير والزهيد من أمواله، أتغنيه هذه الخيالات والتصورات: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرهِيمَ الَّذِى وَفَّى «۲».

«إبراهيم»: هو ذلك النبى العظيم الذى أدّى حق رسالة اللَّه، وبلّغ ما أمره به ووفى بجميع عهوده ومواثيقه، ولم يخش تهديد قومه وطاغوت زمانه، ذلك الإنسان الذى بذل نفسه للنيران وقلبه للرحمن وولده للقربان وماله للُاخوان.

ثم تأتى الآية الاخرى لتقول: «أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

---

(۱) «أكدى»: مأخوذ من الكدية ومعناه الصلابة، ثم أطلق على من يمسك والبخيل.

(۲) «وفّى»: مصدره توفية معناه البذل والأداء التامّ ..

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰

«الوزر»: فى الأصل مأخوذ من «الوَزَر»- على زنة خطر- ومعناه المأوى أو الكهف أو الملجأ الجبلى، ثم استعملت هذه الكلمة فى الاعباء الثقيلة! لشباهتها الصخور الجبلية العظيمة، وأطلقت على الذنب أيضاً، لأنّه يترك عبئاً ثقيلًا على ظهر الإنسان. والمراد من «الوازرة» من يتحمل الوزر.

ولمزيد الإيضاح يضيف القرآن قائلًا: «وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

أمّا الآية التالية فتقول: «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . فالإنسان لا يرى غداً نتائج أعماله التى كانت فى مسير الخير أو الشرّ فحسب، بل سيرى أعماله نفسها يوم الحساب، كما نجد التصريح بذلك فى الآية (۳۰) من سورة آل عمران: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا».

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فتقول: «ثُمَّ يُجْزَيهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى .

والمراد من «الجزاء الأوفى» هو الجزاء الذى يكون طبقاً للعمل، وبالطبع هذا لا ينافى لطف اللَّه وتفضّله بأن يضاعف الجزاء على الأعمال الصالحة عشرة أضعاف أو عشرات الأضعاف ومئاتها وإلى ما شاء اللَّه.

اشير فى الآيات- آنفة الذكر- إلى ثلاثة اصول من الاصول الإسلامية، وقد أكّدت عليها الكتب السماوية السابقة وهى:

أ) كل إنسان مسؤول عن ذنبه ووزره.

ب) ليس للإنسان فى آخرته إلّاسعيه.

ج) يُجزى اللَّه كل إنسان على عمله الجزاء الأوفى.

وهكذا فإنّ القرآن يشجب الكثير من الأوهام والخرافات التى يهتمّ بها عامة الناس أو السائدة بينهم وكأنّها مذهب عقائدى.

وَ أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (۴۲) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكَى (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (۴۶) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (۴۹) كل شىء ينتهى إليه: فى هذه الآيات تتجلى بعض صفات اللَّه التى ترشد الإنسان إلى مسألة التوحيد وكذلك المعاد أيضاً. ففى هذه الآيات وإكمالًا للبحوث

الواردة فى شأن جزاء

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱

الأعمال يقول القرآن: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّکَ الْمُنتَهَى .

وليس الحساب والثواب والجزاء فى الآخرة بيد قدرته فحسب، فإنّ الأسباب والعلل جميعها تنتهى سلسلتها إلى ذاته المقدسة، وجميع تدبيرات هذا العالم تنشأ من تدبيراته، وأخيراً فإنّ ابتداء هذا العالم والموجودات وانتهاؤها كلّها منه وإليه، وتعود إلى ذاته المقدسة.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا انتهى الكلام إلى اللّه فأمسكوا وتكلموا فيما دون العرش، ولا تكلموا فيما فوق العرش». أى لا تتكلّموا فى ذات اللّه فإنّ العقول تحار فيه ولا تصل إلى حدّ فإنّه لا يمكن للعقول المحدودة أن تفكّر فى ما هو غير محدود لأنّه مهما فكّرت العقول فتفكيرها محدود وحاشا للّهأن يكون محدوداً.

إنّ هذا التفسير لا ينافى ما ذكرناه آنفاً ويمكن الجمع بين المفهومين فى الآية.

ثم يضيف القرآن فى الآية التالية مبيّناً حاكمية اللّه فى أمر ربوبيته وإنتهاء امور هذا العالم إليه فيقول: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَأَبْکَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّکَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى .

وهذه الآيات الأربع وما قبلها هى بيان جامع وتوضيح طريف لمسألة انتهاء الامور إليه وتدبيره وربوبيته، لأنّها تقول: إنّ موتكم وحياتكم بيده واستمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، وكل ما يحدث فى الحياة فبأمره، فهو يضحك، وهو يبكى، وهو يميت، وهو يحيى، وهكذا فإنّ أساس الحياة والمعوّل عليه من البداية حتى النهاية هو ذاته المقدسة.

وقد جاء فى بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك والبكاء فى هذه الآية ففسّرت بأنّه سبحانه: «أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات» «۱».

وبعد ذكر الامور المتعلقة بالربوبية والتدبير من قِبَل اللّه يتحدث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: «وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى .

«النشأة»: معناها الإيجاد والتربية، و «النشأة الاخرى» ليست شيئاً سوى القيامة.

ثم يضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى .

فاللّه سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاه غنى يرفع عنه حاجاته المعنوية من امور التربية والتعليم والتكامل عن طريق إرسال الرسل إليه وإنزال الكتب السماوية وإعطائه المواهب العديدة.

---

(۱) تفسير على بن إبراهيم القمى ۲/ ۳۳۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲

«أغنى»: فعل مشتق من غنى ومعناه عدم الحاجة؛ و «أقنى»: فعل مشتق من قنية على وزن جِزية، ومعناها الأموال التى يدّخرها الإنسان. فيكون معنى الآية على هذا النحو: هو أغنى أى رفع الحاجات الفعلية، وأقنى معناه إيلاء المواهب التى تدخّر سواء فى الامور المادية كالحائط أو البستان والأملاک وما شاكلها، أو الامور المعنوية كرضا اللّه سبحانه الذى يُعدّ أكبر «رأس مال» دائم.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى .

تخصيص القرآن «الشعرى» النجم المعروف فى السماء بالذكر، بالإضافة إلى أنّه أكثر النجوم لمعاناً ويطلع عند السحر فى مقربة من الجوزاء مما يلفت النظر تماماً ... فإنّ طائفةً من المشركين العرب كانت تعبده، فالقرآن يشير إلى أنّ الأولى بالعبادة هو اللّه لأنه ربّ الشعرى «وربّكم».

وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عَاداً الْأُولَى (۵۰) وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى (۵۲) وَ الْمُؤْتَفِکَةَ أَهْوَى (۵۳) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (۵۴) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّکَ تَتَمَارَى (۵۵) ألا تكفى دروس العبرة هذه: هذه الآيات- كالآيات المتقدمة- تستكمل المسائل

المذكورة فى الصحف الاولى وما جاء فى صحف إبراهيم وموسى.

وكانت الآيات المتقدمة قد ذكرت عشر مسائل ضمن فصلين:

الأوّل: كان ناظراً إلى مسؤولية كل إنسان عن أعماله.

الثانى: ناظر إلى إنتهاء جميع الخطوط والحوادث إلى اللّه سبحانه. أمّا الآيات محل البحث فتتحدث عن مسألة واحدة- وإن شئت قلت- تتحدث عن موضوع واحد ذلك هو مجازاة أربع امم من الامم المنحرفة الظالمة وإهلاكهم، وفى ذلك إنذار لُاولئك الذين يلوون رؤوسهم عن طاعة اللّه ولا يؤمنون بالمبدأ والمعاد.

فتبدأ الآية الاولى من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى .

وصف عاد ب «الاولى» إمّا لقدمها حتى أنّ العرب تطلق على كل قديم أنّه «عادىّ» أو لوجود امّتين فى التاريخ باسم «عاد» والامّة المعروفة التى كانت نبيّها هود عليه السلام تُدعى ب «عاد الاولى».

ويضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى .

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳

ويقول فى شأن قوم نوح: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى .

لأنّ نبيّهم نوحاً عاش معهم زماناً طويلًا، وبذل قصارى جهده فى إبلاغهم ونصحهم، فلم يستجب لدعوته إلّاقليل منهم، وأصرّوا على شركهم وكفرهم وعتوّهم وإستكبارهم وإيذائهم نبيّهم نوحاً وتكذيبهم إيّاه وعبادة الأوثان بشكل فظيع كما سنعرض تفصيل ذلك فى تفسير سورة نوح إن شاء اللّه.

وأمّا رابعة الامم فهى «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: «وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى .

والظاهر أنّ زلزلة شديدة أصابت حيّهم وقريتهم فقذفت عماراتهم نحو السماء بعد إقتلاعها من الأرض وقلبتها على الأرض، وطبقاً لبعض الروايات كان جبرئيل قد إقتلعها بإذن اللّه وجعل عاليها سافلها ودمّرها تدميراً ... «فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى .

لقد امطروا بحجارة من السماء، فغشّت حيّهم وعماراتهم المنقلبة ودفنتها عن آخرها.

وفى ختام هذا البحث يشير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرها فى الآيات المتقدمة ويلمح إليها بصورة استفهام إنكارى قائلًا: «فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبّكَ تَتَمَارَى .

فهل تشكّ وتتردّد بنعم اللّه، كنعمة الحياة أو أصل نعمة الخلق والإيجاد، أو نعمة أنّ اللّه لا- يأخذ أحداً بوزر أحد؛ وما جاء فى الصحف الاولى وأكّده القرآن؟!

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلى من هذه الآية إفهام الآخرين.

هذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (۵۶) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (۵۷) لَيسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (۵۸) أ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ (۶۰) وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ (۶۱) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (۶۲) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى كانت تتحدث عن إهلاك الامم السالفة لظلمهم، تتوجّه هذه الآيات- محل البحث- إلى المشركين والكفار ومنكرى دعوة النبى صلى الله عليه و آله فتخاطبهم بالقول:

«هذَا نَذِيرٌ مّنَ النُّذُرِ الْأُولَى . أى النبى أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

وقوله عن «القرآن أو النبى «هذا نذير من النذر الاولى» يعنى أنّ رسالة محمّد وكتابه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴

السماوى لم يكن (أى منهما) موضوعاً لم يسبق إليه، فقد أنذر اللّه امماً بمثله فى ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجبكم.

ومن أجل أن يلتفت المشركون والكفار إلى الخطر المحدق بهم ويهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلًا: «أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ».

والتعبير ب «الآزفة» عن القيامة هو لإقترابها وضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأزف على وزن نَجَف، ومعناه ضيق الوقت، وبالطبع فإنّ مفهومه يحمل الإقتراب أيضاً.

وتسمية القيامة بالآزفة فى القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محل البحث، واردة فى الآية (۱۸) من سورة غافر أيضاً ... وهو تعبير بليغ وموقظ، وهذا المعنى جاء بتعبير آخر فى الآية (۱) من سورة القمر: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ». فإنّ إقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الاعتبار عمر الدنيا المحدود والقصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصة ما ورد أنّ من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثم يضيف القرآن قائلًا: أنّ المهمّ هو أنّه لا أحد غير اللّٰه بإمكانه إغاثة الناس فى ذلك اليوم والكشف عمّا بهم من شدائد: «لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ».

«الكاشفة»: هنا معناه مزيحة الشدائد.

فالحاكم والمالك وصاحب القدرة فى ذلك الحين وكل حين هو اللّٰه سبحانه، فإذا أردتم النجاة فالتجئوا إليه وإلى لطفه وإذا طلبتم الدّعة والأمان فاستظلّوا بالإيمان به.

ويضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ».

ولعلّ هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفاً، أو أنّها إشارة إلى القرآن، لأنّه ورد التعبير عنه ب «الحديث» فى بعض الآيات كما فى الآية (۳۴) من سورة الطور، أو أنّ المراد من «الحديث» هو ما جاء من القصص عن هلاك الامم السابقة أو جميع هذه المعانى.

ثم يقول مخاطباً: «وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ». أى فى غفلة مستمرّة ولهو وتكالب على الدنيا، مع أنّه لا مجال للضحك هنا ولا الغفلة والجهل، بل ينبغى أن يُبكى على الفرص الفائتة والطاعات المتروكة، والمعاصى المرتكبة، وأخيراً فلابد من التوبة والرجوع إلى ظلّ اللّٰه ورحمته.

ويقول القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث- وهى آخر آية من سورة النجم أيضاً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵

- بعد أن بيّن أبحاثاً متعددة حول إثبات التوحيد ونفى الشرك: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا» «۱».

فإذا أردتم أن تسيروا فى الصراط المستقيم والسبيل الحق فاسجدوا لذاته المقدسة فحسب، إذ للّٰهوحده تنتهى الخطوط فى عالم الوجود، وإذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التى أصابت الامم السالفة لشركهم وكفرهم فوقعوا فى قبضة عذاب اللّٰه، فاعبدوا اللّٰه وحده.

الذى يجلب النظر- كما جاء فى روايات متعددة- أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما تلا هذه الآية وسمعها المؤمنون والكافرون سجدوا لها جميعاً.

وليست هذه هى المرّة الاولى التى يترك القرآن بها أثره فى قلوب المنكرين ويجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد فى قصّة «الوليد بن المغيرة» أنّه لمّا سمع آيات فصّلت وبلغ النبى صلى الله عليه و آله (فى قوله) إلى الآية: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». قام من مجلسه واهتزّ لها وجاء إلى البيت فظنّ جماعة من المشركين أنّه صبا إلى دين محمّد.

«نهاية تفسير سورة النجم»

---

(۱) ينبغى الإلتفات إلى أنّ هذه الآية هى ثالثة السجدات الواجبة فى القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الإحتياط فى وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷

۵۴. سورة القمر

محتوى السورة: تحوى هذه السورة خصوصيات السور المكية التى تتناول الأبحاث الأساسية حول المبدأ والمعاد، وخصوصاً العقوبات التى نزلت بالامم السالفة، وذلك نتيجة عنادهم ولجاجتهم فى طريق الكفر والظلم والفساد .. مما أدّى بها الواحدة تلو الاخرى إلى الإبتلاء بالعذاب الإلهى الشديد، وسبّب لهم الدمار العظيم.

ونلاحظ فى هذه السورة تكرار قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» وذلك بعد كل مشهد من مشاهد العذاب الذى يحلّ بالامم لكى يكون درساً وعظة للمسلمين والكفار.

ويمكن تلخيص أبحاث هذه السورة فى عدّة أقسام هى:

۱- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وموضوع شقّ القمر، وإصرار وعناد المخالفين فى إنكار الآيات الإلهية.

۲- ثم يبحث بتركيز واختصار عن أوّل قوم تمرّدوا على الأوامر الإلهية، وهم قوم نوح، وكيفية نزول البلاء عليهم.

۳- ثم يتعرض إلى قصة قوم «عاد» وأليم العذاب الذى حلّ بهم.

۴- ثم تتحدث الآيات عن قوم «ثمود» ومعارضتهم لنبيّهم صالح عليه السلام وبيان معجزة الناقة،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸

وأخيراً إبتلاؤهم بالصيحة السماوية.

۵- تتطرق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف لإنحرافهم الأخلاقى ... ثم عن السخط الإلهى عليهم وإبتلائهم بالعقاب الربانى.

۶- ثم تركّز الآيات الكريمة الحديث عن آل فرعون، وما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم وضلالهم.

۷- ثم تعرض مقارنة بين هذه الامم ومشركى مكة ومخالفى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله والمستقبل الخطير الذى ينتظر مشركى مكة فيما إذا استمرّوا على عنادهم وإصرارهم فى رفض الدعوة الإلهية.

وتنتهى السورة ببيان صور ومشاهد من معاقبة المشركين، وجزاء وأجر المؤمنين والمتقين.

وسورة القمر تتميّز آياتها بالقصر والقوّة والحركية.

وقد سمّيت هذه السورة ب (القمر) لأنّ الآية الاولى منها تتحدث عن شقّ القمر.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة اقتربت الساعة فى كل غبّ بُعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كل ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق».

ومن الطبيعى أن تكون النورانية التى تتّسم بها هذه الوجوه تعبيراً عن الحالة الإيمانية الراسخة فى قلوبهم نتيجة التأمل والتفكر فى آيات هذه السورة المباركة والعمل بها بعيداً عن التلاوة السطحية الفارغة من التدبر فى آيات اللّه.

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳) شقّ القمر: يتناول الحديث فى الآية الاولى حادثتين مهمّتين:

أحدهما: قرب وقوع يوم القيامة، والذى يقترن بأعظم تغيير فى عالم الخلق، وبداية لحياة جديدة فى عالم آخر، ذلك العالم الذى يقصر فكرنا عن إدراكه نتيجة محدودية علمنا وإستيعابنا للمعرفة الكونية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹

والحادثة الثانية التى تتحدث الآية الكريمة عنها هى معجزة إنشقاق القمر العظيمة التى تدلّل على قدرة البارىء عزّ وجل المطلقة، وكذلك تدلّ- أيضاً- على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله. قال تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ».

وجدير بالذكر أنّ سورة النجم التى أنهت آياتها المباركة بالحديث عن يوم القيامة «أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ» تستقبل آيات سورة القمر بهذا المعنى أيضاً، مما يؤكّد قرب وقوع اليوم الموعود رغم أنّه عندما يقاس بالمقياس الدنيوى فقد يستغرق آلاف السنين ويتوضّح هذا المفهوم، حينما نتصور مجموع عمر عالمنا هذا من جهة، ومن جهة اخرى عندما نقارن جميع عمر الدنيا فى مقابل عمر الآخرة فإنّها لا تكون سوى لحظة واحدة.

إنّ إقتران ذكر هاتين الحادثتين فى الآية الكريمة: «إنشقاق القمر واقتراب الساعة» دليل على قرب وقوع يوم القيامة، حيث إنّ ظهور الرسول الأكرم- وهو آخر الأنبياء- قرينة على قرب وقوع اليوم المشهود.

ومن جهة اخرى، فإنّ إنشقاق القمر دليل على إمكانية إضطراب النظام الكونى، ونموذج مصغّر للحوادث العظيمة التى تسبق وقوع يوم القيامة فى هذا العالم، حيث إندثار الكواكب والنجوم والأرض يعنى حدوث عالم جديد، استناداً إلى الروايات المشهورة التى ادّعى البعض تواترها.

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين. فقال لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «إن فعلت تؤمنون»؟ قالوا: نعم.

وكانت ليلة بدر فسأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ربّه أن يعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فرقتين ورسول اللَّه ينادى: «يا فلان! يا فلان! اشهدوا».

يقول سبحانه: «وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ».

والمراد من قوله تعالى «مستمر» أنّهم شاهدوا من الرسول الكريم صلى الله عليه و آله معجزات عديدة، وشقّ القمر هو استمرار لهذه المعاجز، وأنّهم كانوا يبرّرون إعراضهم عن الإيمان وعدم الاستسلام لدعوة الحق وذلك بقولهم: إنّ هذه المعاجز كانت «سحر مستمر».

أمّا قوله تعالى: «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ». فإنّه يشير إلى سبب مخالفتهم وعنادهم وسوء العاقبة التى تنتظرهم نتيجة لهذا الإصرار.

إنّ مصدر خلاف هؤلاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه و آله أو تكذيب معاجزه ودلائله، وكذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتّباع هوى النفس.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰

والمراد من جملة «وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ»، هو أنّ كل شىء فى هذا العالم لا يفنى ولا يزول، فالأعمال الصالحة أو السيّئة تبقى مع الإنسان حتى يرى جزاء ما فعل. حيث إنّ الحق سيظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، كما أنّ وجه الباطل القبيح سيظهر قبحه كذلك، وهذه سنّة إلهيّة فى عالم الوجود.

وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (۴) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸) تأتى هذه الآيات لتواصل البحث عن الكفار الذين كذّبوا الرسول صلى الله عليه و آله ولم يذعنوا للحقّ حيث أعرضوا عن جميع المعاجز التى شاهدوها.

والآيات أعلاه تشرح حال هؤلاء الأفراد وموضّحة المصير البائس الذى ينتظر هؤلاء المعاندين فى يوم القيامة. يقول سبحانه إنّ هؤلاء لم يعدموا الإنذار والإخبار، بل جاءهم من الأخبار ما يوجب إنزجارهم عن القبائح والذنوب: «وَلَقَدْ جَاءَهُم مّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ». وذلك ليلقى عليهم الحجة.

والقصد من «الأنباء» الإخبار عن الامم والأقوام السابقة الذين هلكوا بألوان العذاب المدمّر الذى حلّ بهم، وكذلك أخبار يوم القيامة وجزاء الظالمين والكفار، حيث اتّضحت كل تلك الأخبار فى القرآن الكريم.

ويضيف تعالى: «حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ». فهذه الآيات حكم إلهية بليغة ومواعظ مؤثرة، إلّاأنّها لا تفيد أهل العناد «۱».
الآية التالية تؤكّد على أنّ هؤلاء ليسوا على إستعداد لقبول الحق، فاتركهم لحالهم وأعرض عنهم وتذكّر يوم يدعو الداعى الإلهى إلى أمر مخيف، وهو الدعوة إلى الحساب،

(۱) «نذر»: جمع «نذير» ويعنى (المنذرين) والمقصود بالمنذرين هى الآيات القرآنية وأخبار الامم والأنبياء الذين وصل صوتهم إلى أسماع الناس.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱

حيث يقول سبحانه: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ» «۱».
أمّا المراد من «شَيْءٍ نُّكُرٍ» فهو الحساب الإلهى الدقيق الذى لم يكن معلوماً من حيث وقته قبل قيام الساعة، أو العذاب الذى لم يخطر على بالهم، أو جميع هذه الامور، ذلك لأنّ يوم القيامة فى جميع أحواله حالة غير مألوفة للبشر.
وفى الآية اللاحقة يبيّن اللَّه سبحانه وتعالى توضيحاً أكثر حول هذا الموضوع ويذكر أنّ هؤلاء يخرجون من القبور فى حالة: «خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ».
نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأنّ المشهد مرعب ومخيف إلى حدّ لا تستطيع الأنظار رؤيته، لذلك فإنّها تتحوّل عنه وتطرق نحو الأسفل.
والتشبيه هنا ب «الْجَرَادٌ مُّنتَشِرٌ» لأنّ النشور فى يوم الحشر يكون بصورة غير منتظمة لحالة الهول التى تعترى الناس فيه، كما هى حركة إنتشار الجراد التى تتمثّل فيها الفوضى والاضطراب خلافاً للقسم الأكبر من حركة الطيور التى تطير وفق نظم خاصة فى الجو، مضافاً إلى أنّهم كالجراد من حيث الضعف وعدم القدرة.
إنّ حالة هؤلاء الفاقدين للعلم والبصيرة، حالة ذهول ووحشة وتخبّط فى المسير كالسكارى يرتطم بعضهم ببعض فاقدين للوعى والإرادة.
وأمّا قوله تعالى: «مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» فإنّ كلمة «مهطعين»: تأتى من مادة «اهطاع» أى مدّ الرقبة، والبعض يرجعها إلى النظر بإنتباه أو الركض بسرعة نحو الشيء، ويحتمل أن تكون كل واحدة من هذه المعانى هى المقصودة، حيث إنّ بمجرد سماع صوت الداعى الإلهى تمدّ الرقاب إليه ثم يتبعه التوجّه بالنظر نحوه، ثم الإسراع إليه والحضور فى المحكمة الإلهية العادلة عند دعوتهم إليها.
وهنا يستولى الخوف من الأهوال العظيمة لذلك اليوم على وجود الكفار والظالمين، لذا يضيف سبحانه معبّراً عن حالة البؤس التى تعترى الكافرين بقوله: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هذَا يَوْمٌ عَسِرٌ».
ويستفاد من هذا التعبير أنّ يوم القيامة يوم غير عسير بالنسبة للمؤمنين.

(۱) «نكر»: مفرد من مادة «نكارة» وتعنى الشيء المبهم المخيف.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ قَالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَات أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷) قصة قوم نوح عبرة وعظة: جرت السنّة القرآنية فى كثير من الموارد أنّ اللَّه سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة والعاقبة المؤلمة التى انتهوا إليها إنذاراً وتوضيحاً (للكفار والمجرمين) بأنّ الاستمرار فى طريق الضلال سوف لن يؤدى بهم إلّاإلى المصير البائس الذى لاقته الأقوام السابقة.

وفى هـذه السورة، إكمالًا للبحث الـذى تناولته الآيات السابقـة، فى إثارات وإشارات مختصـرة ومعبّرة حول تاريـخ خمسـة من الأقوام المعاندة ابتداءً من قوم نوح كما فى قوله تعالى:

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ». فمضافاً إلى تكـذيبه وإتّهامه بالجنون صـبّوا عليه ألوان الأذى والتعذيب ومنعوه من الإستمرار فى أداء رسالته.

فتارةً يقولون له مهدّدين ومنذرين: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» «۱».

وتارةً اخرى يضغطون رقبته بأيديهم حتى يفقد وعيه، ولكنّه ما أن يفيق إلى وعيه حتى يقول: «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون» «۲».

والتعبير ب «عبدنا» إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم المعاندين والمغرورين فى الواقع يبارزون اللَّه تعالى لا مجرّد شخص «نوح».

ثم يضيف تعالى أنّ نوح عندما يئس من هداية قومه تماماً: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ».

«انتصر»: طلب العون، وهنا جاءت بمعنى طلب الإنتقام على أساس العدل والحكمة.

---

(۱) سورة الشعراء/ ۱۱۶.

(۲) الدرّ المنثور ۳/ ۹۵؛ تفسير القرطبى ۸/ ۲۷۳؛ وجامع البيان ۲۹/ ۱۲۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳

ثم يشير هنا إشارة معبّرة وقويّة فى كيفية العذاب الذى إبتلوا به وصبّ عليهم حيث يقول سبحانه: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ».

إنّ تعبير إنفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جدّاً، ويستعمل عادةً عند هطول الأمطار الغزيرة.

«منهمر»: من مادة «همر» على وزن (صبر) وتعنى النزول الشديد للدموع أو الماء.

ويـذكر أنّ المـاء الـذى أدّى إلى الطوفـان لم يكن من هطول الأمطـار فقـط، بـل كان من تفجير العيون فى الأرض، حيث يقول تعالى: «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا». وهكذا إختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدّر وملأ البسيطة: «فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ».

وتترك الآيـات الكريمـة مسألـة الطوفان، لأنّ ما قيل فيها من الآيات السابقـة يعتبر كافياً فتنتقل إلى سـفينة نجاة نوح عليه السـلام حيث يقول تعالى: «وَحَمَلْنَهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ».

«دسر»: جمع «دِسار» بمعنى الإبعاد أو النهر بشدة مقترناً مع حالة عدم الرضا.

فإنّ التعبير القرآنى هنا ظريف، لأنّه كما يقول البارىء عزّ وجل بأنّنا وفى وسط ذلك الطوفان العظيم، الـذى غمر كل شـىء أودعنا أمر نجاة نوح وأصحابه إلى مجموعة من المسامير وقطع من الخشب، وهكذا تتجلّى القدرة الإلهية العظيمة.

ويشير سبحانه إلى لطف عنايته للسفينة المخصّصة لنجاة نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه:

«تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا». أى أنّ هذه السفينة تسير بالعلم والمشيئة الإلهية، وتشقّ الأمواج العالية بقوّة وتستمر فى حركتها تحت رعايتنا وحفظنا.

ثم يضيف تعالى: «جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ».

إنّ نوح عليه السـلام كسائر الأنبياء الإلهيين يعتبر نعمـة إلهية عظيمة وموهبة من مواهبه الكبيرة على البشـرية، إلّاأنّ قومه الحمقى كفروا به وبرسالته.

ثم يقول سبحانه وكنتيجة لهذه القصة العظيمة موضع العظّة والاعتبار: «وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

وفى الآيـة اللاحقـة يطرح اللَّه سـبحانه سؤالًا معبّراً ومهـدّداً للكـافرين الـذين اتّبعوا نفس المنهـج الـذى كان عليه قوم نوح حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ».

هل هذه حقيقة واقعة، أم قصة واسطورة؟

ويضيف مؤكّداً هذه الحقيقة فى آخر الآية مورد البحث فى قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴

إنّ هـذا الكتاب العظيم الخالى من التعقيـد والمجسّـد لعناصـر التأثير من حيث عذوبـة ألفاظه وجاذبيتها، وطبيعـة قصـصه الواقعيـة ذات المحتوى الغزير ... لـذا فـإنّ القلوب المهيأة لقبول الحق والمتفاعلـة مع منطق الفطرة والمسـتوعبة لمنهـج العقل تنجـذب بصورة متميّزة، والشاهد على هذا أنّ التاريخ الإسـلامى يذكر لنا قصصاً عديدة عجيبة محيّرة من حالات التأثير العميق الذى يتركه القرآن الكريم على القلوب الخيّرة.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ (٢١) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) مصير قوم عاد: تستعرض الآيات الكريمة أعلاه نموذج آخر من الكفار والمجرمين بعد قوم نوح، وهم (قوم عاد) وذلك كتحذير لمن يتنكّب طريق الحق والهداية الإلهية.

وتبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: «كَذَّبَتْ عَادٌ».

لقد بذل هود عليه السـلام غاية جهده فى توعية قومه وتبليغهم بالحق الذى جاء به من عند اللّه، وكان عليه السـلام كلّما ضاعف سعيه وجهـده لإنتشـالهم من الكفر والضـلال إزدادوا إصـراراً ونفـوراً ولجاجـة فى غيّهم وغرورهم الناشـىء من الـثراء والإمكانـات الماديـة، بالإضافـة إلى غفلتهم نتيجـة إنغماسـهم فى الشـهوات، جعلتهم صمّ الآذان، عمى العيون، فجـازاهم اللّه بعقـاب أليم، ولهـذا تشـير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ».

كما نلاحظ التفصيل فى الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ».

«صرصـر»: من مادة «صـرّ» على وزن (شـرّ)، وفى الأصل تعنى (الإغلاق والإحكام) ويأتى تكرارها فى هذا السياق للتأكيد، ولأنّ الرياح التى عذّبوا بها كانت باردة وشديدة ولاذعة ومصحوبة بالأزيز، لذا اطلق عليها (صرصر).

«نحس»: ففى الأصـل معناهـا (الإحـمرار الشديـد) الـذى يظهر فى الافـق أحياناً، كما يطلق العرب أيضاً كلمـة (نحاس) على وهـج النار الخالية من الدخان، ثم أطلق هذا المصطلح على كل (شؤم) مقابل (السعد).

«مستمر» صفة ل (يوم) أو ل (نحس) ومفهومه فى الحالة الاولى هو استمرار حوادث

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵

ذلك اليوم كما فى الآية (٧) من سورة الحاقة قوله تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ».

وتعنى فى الحالة الثانية إستمرار نحوسة ذلك اليوم حتى هلك الجميع.

ثم يستعرض سبحانه وصف الريح بقوله: «تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ».

«منقعر»: من مادة «قعر» بمعنى أسفل الشىء أو نهايته، ولذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشىء من أساسه.

«أعجاز»: جمع «عجز»- على وزن رجل- بمعنى خَلْفُ أو تحت، وقد شبّهوا بالقسم الأسفل من النخلة وذلك حسبما يقول البعض لأنّ شـدة الريـح قطّعت أيـديهم ورؤوسـهم ودفعتها باتّجاهها، وبقيت أجسادهم المقطعة الرؤوس والأطراف كالنخيل المقطعة الرؤوس، ثم قُلعت أجسادهم من الأرض وكانت الريح تتقاذفها.

وللسبب المذكور أعلاه، يكرّر اللّه سبحانه وتعالى إنذاره للكفار بقوله: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ».

فنحن كذلك فعلنا وجازينا الأقوام السالفة التى سلكت سبيل الغى والطغيان والعصيان، فعليكم أن تتفكروا فى مصيركم وأنتم تسلكون نفس الطريق الذى سلكوه.

وفى نهاية القصة يؤكّد قوله سبحانه: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

والنقطـة الأخيرة الجـديرة بالـذكر هى تأكيـد قوله سـبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ» حيث تكرّرت مرّتين: الاولى: فى بداية الحديث

عن قصـة قوم عـاد، والثانيـة: في نهايتها، ولعل سـبب هـذا الاختلاف بين قوم عاد والأقوام الاخرى، أنّ عـذاب قوم عاد كان أكثر شـدّة وإنتقاماً، رغم أنّ جميع ألوان العذاب الإلهي شديد.

إنّ مسألـة الإهتمام بموضوع (سـعد ونحس) الأيام، وكـذلك الحوادث التي وقعت فيها، بالإضافـة إلى أنّها ترشدنا للكثير من الحوادث التأريخية ذات العظة والعبرة، فإنّها أيضاً عامل للتوسل باللَّه والتوجّه إلى رحاب عظمته السامقة، واستمداد العون من ذاته القدسية، وهذا ما نلاحظه في روايات عديدة.

ففي الأيـام النحسـة مثلًا نسـتطيع أن نطمئن نفسـياً لممارسـتنا العمليـة وبكل تفاؤل وموفّقيـة، وذلك حينما نـدعو اللَّه ونطلب منه العون ونتصدق على الفقراء، ونقرأ شيئاً من الآيات القرآنية ونتوكل على الذات الإلهية المقدسة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقَالُوا أ بَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (۲۶) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (۲۷) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (۲۹) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ (۳۰) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۳۲) العاقبـة الأليمة لقوم ثمود: تكملة للأبحاث السابقة، تتحدث الآيات الكريمة باختصار عن ثالث قوم ذكروا في هـذه السورة، وهم (قوم ثمود) الـذين عاشوا في (حجر) الواقعـة في شـمال الحجاز، ليسـتفاد من قصّ‌تهم الـدروس والعبر.

لقد بذل نبيّهم «صالح» عليه السلام أقصى الجهد من أجل هدايتهم وإرشادهم ولكن دون جدوى. قال تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ».

إنّ «نذر» جاءت هنا جمع «إنذار» وهو الكلام الذي يتضمن التهديد، والذي هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعاً.

ويستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: «فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَللٍ وَسُعُرٍ».

إنّ الكبرياء والغرور والنظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حبّ الذات كانت حاجزاً عن الإسـتجابة لدعوة الأنبياء عليهم السلام، لقد قالوا: إنّ (صالح) شخص مثلنا وليست له أيّ امتيازات علينا ليصبح زعيماً وقائداً نطيعه ونتّبعه، كما لا يوجد سبب لإتّباعه.

وهذا هو الإشكال الذي تورده جميع الأقوام الضالة على أنبيائها بأنّهم أشخاص مثلنا، ولذا لا يستطيع أن يبلغ رسالة سماوية.

وتزداد اللجاجة والعناد في قوم ثمود فيتساءلون: إذا اريد نزول الوحي على إنسان، فلماذا اختّص بصالح من بيننا: «أَءُلْقِيَ الذّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا».

وفي الحقيقة أنّ هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركي مكة، ذلك أنّهم شكّكوا برسالة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷

النبي بأقوال مماثلة: «مَالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا» «۱».

ثم تختتم الآية بقوله سبحانه: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ». وذلك إتّهاماً لصالح عليه السلام بالكذب فيما ادّعاه من اختصاص الوحي به وإنذار قومه وأنّه يريد أن يتحكّم علينا ويجعل كل امورنا تحت قبضته ويسيرنا وفق هواه وإرادته ..

«أشر»: وصف من مادة «أشر» على وزن (قمر) بمعنى بطر ومرح زائد عن الحد.

ويردّ الباريء عزّ وجل عليهم بصورة قاطعة بقوله: «سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ».

وعنـدما يـدركهم العذاب الإلهي ويسوّيهم مع التراب ويحوّلهم رماداً، وبعد أن يجازيهم اللَّه بأعمالهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... عندئـذ سيدركون حقيقة اتّهاماتهم الزائفة التي اتّهموا بها نبي من أنبياء اللَّه المقربين، وسيعلمون أيضاً أنّ هذه الإفتراءات هي أحق بهم وألصق.

ثم يشـير سـبحانه إلى قصة «الناقة» التي ارسـلت كمعجزة ودلالة على صدق دعوة صالح عليه السـلام حيث يقول: «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً

لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ».

«الناقة»: انثى البعير، وهى ليست كبقية النوق لما تتصف به من خصوصيات خارقة للعادة، وطبقاً للروايات المشهورة فإنّ هذه الناقة قد خرجت من بطن صخرة جبل حجة دامغة للمنكرين والمعاندين.

ومن الواضح أنّ قوم ثمود قد جُعلوا أمام إمتحان عسير، حيث يستعرض سبحانه هذا الإختبار لهم بقوله: «وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ». يوم لهم ويوم للناقة.

ومع أنّ القرآن الكريم لم يوافنا بتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع، ولكن كما يذكر الكثير من المفسرين فإنّ ناقة صالح عليه السلام كانت تشرب كل الماء يوم يكون شربها، ويعتقد البعض الآخر أنّ هيئتها ووضعها كانا بشكل يدفع الحيوانات إلى الفرار من الماء عندما تقترب الناقة نحوه، ولذلك فإنّهم إقترحوا حلًا وهو: أن يكون الماء يوماً لهم وآخر للناقة.

إنّ قوم ثمود المتمردين عقدوا العزم على قتل الناقة، فى الوقت الذى حذّرهم نبيّهم

---

(۱) سورة الفرقان/ ۷.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸

صالح عليه السلام من مسّها بسوء، وأخبرهم بأنّ العذاب الإلهى سيقع عليهم بعد فترة وجيزة إن فعلوا ذلك. ونظراً لإستخفافهم بهذا التحذير (فقد نادوا أحد أصحابهم حيث تصدّى للناقة وقتلها). يقول اللَّه سبحانه: «فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

ويمكن أن يكون المراد ب (صاحب) أحد رؤساء ثمود، وكان أحد أشرارهم المعروفين ويعرف فى التاريخ ب (قدارة بن سالف) «۱».

«عَقَرَ»: من مادة «عقر» على وزن (ظلم) وفى الأصل بمعنى الأساس والجذر، وإذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقة فإنّه يعنى القتل والنحر.

وتأتى الآية اللاحقة مؤكّدة إنذارهم قبل نزول العذاب الشديد عليهم، حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ». ثم وقع العذاب والسخط الإلهى على هؤلاء المتمردين المعاندين حيث يضيف سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ».

«الهشيم»: من مادة «هشم» على وزن «حسم» وفى الأصل بمعنى إنكسار الأشياء الضعيفة كالنباتات.

«محتظر»: فى الأصل من مادة «حظر» على وزن (حفز) بمعنى المنع، ولذلك فإنّ إعداد الحظائر للحيوانات والمواشى تكون مانعة لها من الخروج ولدرء المخاطر عنها، ومفردها (الحظيرة)، و «محتظر» على وزن محتسب- هو الشخص الذى يملك مثل هذا المكان.

والإستعراض الذى ذكرته الآية الكريمة حول عذاب قوم ثمود عجيب جدّاً ومعبّر للغاية، حيث لم يرسل اللَّه لهم جيوشاً من السماء أو الأرض للتنكيل بهم، وإنّما كان عذابهم بالصيحة السماوية العظيمة، فكانت صاعقة رهيبة، أخمدت الأنفاس، وكان إنفجاراً هائلًا حطّم كل شىء فى قريتهم.

إنّ إستيعاب هذا اللون من العذاب كان صعباً وعسيراً للأقوام السالفة، ولكنّه يسير بالنسبة لنا، وذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجة من الإنفجارات، حيث إنّها تحطّم كل شىء يقع ضمن دائرة إشعاعاتها.

ومن الطبيعى أنّنا لا نستطيع المقارنة بين الإنفجارات البشرية وصاعقة العذاب الإلهى

---

(۱) «قدارة»: على وزن (منارة)- كان رجلًا قبيح الشكل والسيرة، ومن أكثر الأشخاص شؤماً فى التاريخ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹

التى أشاعت الدمار الرهيب فى هؤلاء القوم الحمقى المستبدين، وعلى بيوتهم وقصورهم، عسى أن يكون عبرة ودرساً للآخرين، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَ نُذُرِ (۳۷) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذَابِى وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰) المصير الأكثر شؤماً: نلاحظ فى هذه الآيات تعبيرات قصيرة وقوية حول قصة «قوم لوط» والعذاب الشديد الذى حلّ بهم، وهم المجموعة الرابعة من الأقوام التى اتّصفت بالقبح والضلال والتى استعرضتهم هذه السورة المباركة ... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه:

«كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ».

«نذر»: جمع «إنذار» وتعنى التهديد والتخويف. ومن المحتمل أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النبى لوط لقومه، والتى كُذّب بها أجمع، كما يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط والأنبياء الذين سبقوه فى الدعوة إلى اللّه ذلك أنّ جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة وهى العبودية للّه.

وتستعرض الآيات التالية مشاهد من العذاب الذى نزل بقوم لوط وكيفية نجاة عائلته حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا».

«حاصب»: تعنى الريح الشديدة التى تأتى بالحجارة والحصباء، والحصباء هى الحصى، ويكون المقصود: إنّا أمطرناهم بالحجارة والحصباء حتى علت أجسادهم ودفنوا تحتها؛ «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ».

وتتحدث الآيات القرآنية الاخرى عن هول العذاب الذى حلّ بقوم لوط حيث الزلازل التى قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، وبذلك اصيبت بكارثة الدمار الماحق ... وتتحدث عن مطر الحجارة والحصى الذى نزل عليهم بشدة، فيقول سبحانه فى ذلك: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا

جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ» «۱». ويضيف البارىء عزّ وجل بقوله: «نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ».

إنّ لوطاً عليه السلام قد أتمّ الحجة على قومه قبل أن ينزل البلاء عليهم، حيث يوضّح اللّه سبحانه هذه الحقيقة فيقول تعالى: «وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ».

«بطش»: على وزن (فرش) وتعنى فى الأصل أخذ الشىء بالقوة، ولأنّ المجرم لا يؤخذ إلّا بالقوة ليلقى جزاءه، لذلك فإنّها تعنى المجازاة.

«تماروا»: من «تمارى» بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشك وإلقاء الشبهة مقابل الحق، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك والشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النبى العظيم «لوط» عليه السلام.

ولم يكتف هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهات العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة والصلف وعدم الحياء حدّاً أنّهم تجرّؤوا على ملائكة الرحمن وضيوف النبى الكريم المأمورين بعذاب هؤلاء القوم حينما دخلوا بيت لوط عليه السلام بصورة شباب وسيمين، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ». أى أنّهم طلبوا منه أن يضع ضيوفه تحت تصرفهم.

لقد بلغ الألم الذى اعترى «لوطاً» عليه السلام حدّاً لا يطاق نتيجة هذا التصرف القبيح والمخجل لقومه، وطلب بإصرار أن يكفّوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف والحياء.

بل وأبدى إستعداده عليه السلام لتزويج بناته لهم- إن أعلنوا توبتهم- وهذه أعلى حالات المظلومية التى يتعرض لها هذا النبى الكريم من قبل قوم عديمى الحياء والإيمان والقيم الخيرة، كما فى قوله سبحانه: «قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ» «۲».

ولم يمض وقت طويل حتى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأوّلى لعملهم الإجرامى حيث يقول فى ذلك سبحانه: «فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ».

إنّ يد القدرة الإلهية إمتدّت لتنتقم من هؤلاء القوم المجرمين، وذلك بأن طمست على أعينهم، حيث يقول البعض بأنّ جبرائيل قد امر

أن يخفق بجناحهم على عيونهم حيث فقدوا

(۱) سورة هود/ ۸۲.

(۲) سورة الحجر/ ۷۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱

بصرهم حالًا، وقيل إنّ بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

وجاءت الساعة المرتقبة حيث أمر اللّه بفنائهم وقلبت الزلزلة مدينتهم رأساً على عقب وصُبّ عليهم العذاب صبّاً مع أوّل خيط من أشعّة فجر ذلك اليوم، فتتمزّق أجسادهم وتتلاشى أبدانهم وتدمّر بيوتهم وتندثر قصورهم وتتحول إلى أنقاض وخرائب، وإذا بالمطر الحجرى ينهمل عليهم ويطمس كل معالم الحياة لديهم حتى لم يبق أى أثر لهم.

وذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى بإختصار وتركيز: «وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ».

«مستقرّ»: تعنى الثبوت والإحكام، أى بمعنى (ثابت الحكم). ويحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أنّ العذاب الإلهى كان شديداً إلى حدّ أنّ أى قوّة لم تكن قادرة على مواجهته.

ثم يضيف سبحانه مؤكّداً ومكرّراً مرّة اخرى قوله: «فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ».

لكى لا يكون مجال للشك والتردد فى إنذار الأنبياء لكم بعد هذا.

وفى نهاية المطاف وفى آخر آية من بحثنا هذا تتكرّر جمل الموعظة والعبرة وللمرّة الرابعة فى هذه السورة بقوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».

نعم، لم يتّعظ قوم لوط من النذر، ولم يتّعظوا من العذاب الأوّل الذى أعمى أبصار البعض منهم والذى كان بمثابة إنذار لهم فهل أنّ الآخرين الذين يرتكبون نفس الذنوب يتّعظون لدى سماع آيات القرآن هذه وينوبوا إلى رشدهم ويندموا على ما فرط منهم ..

وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (۴۱) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ (۴۳) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۴۵) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهَى وَ أَمَرُّ (۴۶) هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة: المجموعة الخامسة التى يتحدث عنها القرآن فى هذه السلسلة هم قوم فرعون، ولأنّ الحديث عن هؤلاء القوم قد طرح بصورة تفصيلية فى السور القرآنية المختلفة، لذا فإنّ هذه السورة المباركة تستعرض هذه القصة فى مقاطع مختصرة ومركّزة حول ضرورة الاستفادة من العبر التى جاءت فيها والإتّعاظ منها ...

يقول سبحانه: «وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲

المقصود من (آل فرعون) ليسوا أهل بيته ومتعلقيه فقط، بل يشمل كل أتباعه بصورة عامة.

«نذر»: على وزن (كتب) وهى جمع نذير، وهنا إشارة إلى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

و الآية اللاحقة تكشف عن ردّ الفعل لآل فرعون من دعوة النبيين الإلهيين، والإنذارات التى وجّهوها لهم حيث يقول اللّه سبحانه: «كَذَّبُوا بَايَاتِنَا كُلّهَا».

(آيات) لها معنى واسع تشمل الدلائل العقلية والمعجزات والدلائل النقلية، وعند ملاحظة قوله تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيّنَاتٍ» يتبين لنا أنّ المقصود ب (الآيات) هنا هى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

إنّ الإنسان إذا كان صادقاً فى البحث عن الحقيقة فإنّه يكفيه أن يرى واحدة منها، وخاصة تلك التى يسبقها إنذار، ثم بلاء، ثم زوال هذا البلاء عند دعاء النبى الإلهى، ولكن العناد والإصرار على الباطل والغرور إذا ركب الإنسان، فحتى لو أصبحت جميع السماء

والأرض آيات للّه، فلن تكون ذات تأثير على أمثال هؤلاء، والجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهى الذى يقضى على النزعات الشريرة والنفوس المريضة التى يملؤها الهوى والغرور. كما قال تعالى: «فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ» تكملة للآية مورد البحث. والتعبير الآخر الذى أتى فى آخر هذه القصة لا يوجد له شبه فى التعابير المماثلة فى القصص الاخرى، وذلك لأنّ الفراعنة كانوا يتباهون بقوّتهم وسطوتهم وعزّهم أكثر من بقية الامم، والحديث عن قوّة سلطانهم كان فى كل مكان. يقول اللّه تعالى: «فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ». وذلك كى يكون واضحاً للجميع أنّ القوة الحقيقة هى للّهوحده، لأنّ كل قوة وعزة اخرى غير قوّته وما يتّصل بذاته وهميّة لا تساوى شيئاً فى قبال عزّته وقدرته ...

والعجيب أنّ نهر النيل العظيم الذى كان مصدر خير وثروة لهم، هو الذى امر بالإنتقام منهم، والأعجب من ذلك أنّ أضعف المخلوقات سلّطت عليهم كالجراد والضفادع والقمل فجعلتهم فى حالة عجز ومسكنة لا يقدرون على دفعها، وهم الذين كانوا من السطوة والقوّة موضع حديث أهل زمانهم.

وبعد بيان هذه المشاهد المؤثّرة من قصص الأقوام المنصرمة والعذاب الإلهى العظيم الذى حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمرّدين على الحق، يخاطب اللّه سبحانه فى الآية اللاحقة مشركى مكة بقوله تعالى: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳

فما الفرق بينكم وبين قوم فرعون وقوم نوح ولوط وثمود؟ فكما أنّ اولئك الأقوام قد عذّبوا بالطوفان تارةً والزلازل والصواعق اخرى. ومن الطبيعى أنّ مثل هذه الادّعاءات ادّعاءات كاذبة لا يقوم عليها أى دليل «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ».

والجدير بالذكر هنا أنّ الآية السابقة كانت بصورة خطاب، أمّا فى الآية مورد البحث والآيات اللاحقة، فإنّ الحديث عن الكفار بلغة الغائب، وهو نوع من أنواع التحقير، أى أنّهم غير مؤهّلين للخطاب الإلهى المباشر.

ويواجه القرآن الكريم هؤلاء السادرين فى غيّهم بإخبار غيبى حاسم وقوى، حيث يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

«سيهزم»: من مادة «هزم» فى الأصل بمعنى الضغط على الجسم اليابس لحد التلاشى.

وهذا إشارة إلى النقطة التالية وهى: رغم حالة الإتحاد والإنسجام لهؤلاء القوم ظاهراً، إلّا أنّهم كالموجودات اليابسة والفاقدة للروح، فبمجرد تعرّضها إلى ضغط قوى تتهشّم.

لقد صدق هذا التنبّؤ فى معركة بدر وسائر الحروب الاخرى حيث كانت هزيمة الكفار ساحقة، فإنّه رغم قدرتهم وقوّتهم فقد تلاشى جمعهم.

وفى آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أنّ الهزيمة التى مُنى بها المشركون سوف لن تكون فى الدنيا فقط، وإنّما هى فى الآخرة أشدّ وأدهى، حيث يقول البارىء عزّ وجل: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ».

«أدهى»: من مادة (دَهَوَ) و (دهاء)، بمعنى المصيبة والكارثة العظيمة والتى لا مخرج منها ولا نجاة، ولا علاج لها، وتأتى أيضاً بمعنى الذكاء الشديد، إلّاأنّ المقصود منها فى الآيه الكريمة هو المعنى الأوّل.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱) وَ كُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴

إنّ هذه الآيات هى استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين والمجرمين فى يوم القيامة، وآخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، وهو أنّ يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار فى الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة والصعوبة والأهوال لهم، والتى هى أشد وأقسى مما اصيبوا به فى هذه الدنيا. وتتحدث الآية الاولى- مورد البحث- عن ذلك حيث

يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَلٍ وَسُعُرٍ».
يقول البارىء عزّ وجل: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ».
وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ فى جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر شكا إلى اللَّه عزّ وجل شدّة حرّه، وسأله أن يأذن له أن يتنفّس فتنفس فأحرق جهنم».
ولكى لا يتصور أنّ هذه الشدة فى العذاب لا تتناسب مع المعاصى، يقول سبحانه: «إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ».
إنّ عذابهم فى هذه الدنيا كان بتقدير وحساب، وكذلك سيكون عقابهم المؤلم فى الآخرة، وليس الجزاء فقط، ذلك أنّ اللَّه سبحانه خلق كل شىء بحساب وتقدير.
ثم يضيف تعالى إنّه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل انّها مقترنة مع القدرة والحسم، لأنّه: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ».
ولذلك فإنّ اليوم الذى تقوم فيه الساعة يحدث بأمر اللَّه بلمح البصر، وكل شىء يكون فى مسار الآخرة حينئذ، وتبعث الحياة من جديد فى الأبدان.
كما أنّ المشيئة الإلهية فى مجازاة المجرمين بالصواعق والصيحات السماوية والزلازل والطوفان والرياح العاتية ... كل ذلك يحدث بمجرد الأمر الإلهى وبدون تأخير.
إنّ أمره تعالى فى كل مكان وكل شىء هو (كلمة واحدة) والتى تكون أسرع من لمح البصر، ولكن محتوى الأمر الإلهى متفاوت ومختلف، ومن خلال معرفة السنّة التدريجية للعالم المادى وخاصيته وطبيعة الحركة- نلاحظ أنّها تتأثّر بالزمان.
وفى الآية اللاحقة يخاطب الكفار والمجرمين مرّة اخرى، ويلفت إنتباههم إلى مصير الأقوام السابقة حيث يقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ».
إنّ الآية الكريمة تؤكّد هذه الحقيقة مرّة اخرى، وهى أنّ أعمال مشركى قريش وممارساتهم هى نفس أعمال وممارسات وعقائد الأقوام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أنّ مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتّعظوا وعوا.
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵
ثم يشير القرآن إلى هذا الأصل وهو أنّ صفحة أعمال الأقوام السابقة لم تنته بموتهم، بل هى باقية ومسجّلة عليهم، يقول سبحانه: «وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ». فكذلك أعمالكم مثبتة ومحفوظة ليوم الحساب.
«زبر»: جمع «زبور» بمعنى الكتاب، وهى تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان.
ثم يضيف سبحانه: «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ».
وبناءً على هذا فحساب الأعمال فى ذلك اليوم هو حساب شامل وتامّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حيث يستلم المجرمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها ويصطرخون لدقّتها: «وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «۱».
ولما كانت السنّة المتّبعة فى القرآن الكريم غالباً ما تعتمد المقارنة بين جبهة الصلاح والهدى من جهة، وجبهة الفساد والضلال من جهة اخرى، لأنّ فى المقارنة يبرز التفاوت والاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضاً بعد الحديث عن مصير الكفار والمجرمين يشير سبحانه إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة والحبور العظيم الذى يكون من نصيب المتقين حيث يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ».
وفى آخر آية مورد البحث والتى هى آخر آية فى سورة القمر يوضّح البارىء بصورة أكثر (مستقر المتقين) حيث يقول سبحانه أنّهم: «فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ».
ويا له من وصف رائع وظريف! حيث إنّ هذا الوصف يتميّز بخصوصيتين تجمعان كل السمات الرائعة:
الاولى: أنّ المكان هو (مستقرّ صدق) وليس فيه باطل، بل كلّه حق يجد فيه المتقون كل ما وعدوا به كاملًا غير منقوص.
الثانية: أنّهم فى جوار وقرب اللَّه سبحانه، وهذا هو المستفاد من كلمة (عند) والذى يشير إلى غاية القرب المعنوى، وهذا القرب هو من

اللَّه المالـك القادر ... ما أروعه عن قرب من الربّ الكريم الوهّاب والـذى يمنـح العطايا والهبات لضـيوفه المتقين بجميل لطفه وعظيم إحسانه وواسع كرمه، حيث جميع ما فى الوجود تحت قبضته وإمرته ومالكيته، وهو المنّان

---

(۱) سورة الكهف/ ۴۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶

الذى لا ينقصه شيء فى السماوات والأرض، والذى وعد المتقين بالخير العظيم وأعدّ لهم عظيم العطايا والإحسان.

والنقطـة الجـديرة بالذكر فى هاتين الآيتين والتى تتحدث فيها عن الهبات وجزاء أصـحاب اليمين، حيث فى البداية تتحدث عن العطايا الماديّة التى تشـمل البساتين الوارفة والحدائق الغنّاء والأنهار الجارية، ثم تتحدث بعد ذلك عن الجزاء المعنوى العظيم، والذى يتجسّـد بحضورهم من المليك المقتدر، وذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى اخرى، يغمرها الشوق والحبور والرغبة فى العمل الصالح.

«نهاية تفسير سورة القمر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷

۵۵. سورة الرحمن

محتوى السورة: توضّح هذه السورة بصورة عامة النعم الإلهية المختلفة، سواء كانت مادية أو معنوية، والتى تفضّل بها البارىء عزّ وجل على عبـاده وغمرهم بهـا، ويمكن تسـميتها لهـذا السـبب ب (سـورة الرحمـة) أو (سورة النعمـة) ولهـذا فإنّهـا بـدأت بالإـسم المبـارك (الرحمن) الـذى يشـير إلى صـنوف الرحمـة الإلهيـة الواسـعة، وتنهى هذه السورة آياتها بإجلال وإكرام البارىء سـبحانه، وبإقرار عباده بالنعم التى تفضّل بها عليهم (إحدى وثلاثين مرّة) وذلك من خلال تكرار آية: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ويمكن أن نقسّم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

۱- فى الآيـات الاـولى من هـذه السورة حـديث عن النعم الإلهيـة الكـبيرة، سواء تلـك الـتى تتعلق بخلق الإنسـان أو تربيته وتعليمه، أو الحساب والميزان، وكذلك سائر الامور الاخرى التى يتجسّد فيها الخير للإنسان، إضافةً إلى الغذاء الروحى والجسمى له.

۲- يتناول توضيح مسألة خلق الإنس والجن.

۳- يتضمن توضيح الآيات والدلائل الإلهية فى الأرض والسماء.

۴- وفيه بعـد تجاوز النعم الإلهيـة على الإنسان فى الـدنيا تتحـدث الآيات عن نعم اللَّه فى عالم الآخرة بدقّة وظرافـة، خاصـة عن الجنة، وبصورة أعمّ وأشمل عن البساتين والعيون والفاكهة وحور العين وأنواع الملابس من السندس والإستبرق ...

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸

۵- تتحدث عن مصير المجرمين وجزائهم المؤلم المحسوب.

إنّ تكرار آيـة: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» وفى مقـاطع قصـيرة أعطت وزنـاً متميّزاً للسورة، وخاصـة إذا قرىء بـالمعنى المعبّر الـذى يسـتوحى منها ... فإنّ حالـة من الشوق والإنبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن. ولذلك فلا نعجب عندما نقرأ فى حديث للرسول صـلى الله عليه و آله حيث يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره» «۱».

فضيلة تلاوة السورة: إنّ اتّصاف هذه السورة بما يثير الإحساس بالشكر على أفضل صورة أدّى إلى ورود روايات كثيرة فى فضل تلاوة هذه السورة تلك التلاوة التى ينبغى أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية وتحركها باتّجاه الطاعات وبعيداً عن لقلقة اللسان.

وفى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الرحمن، رحم اللَّه ضعفه، وأدّى شكر ما أنعم اللَّه عليه».

وفى ثواب الأعمـال عن أبى عبـداللَّه الصـادق عليه السـلام قـال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عنـد كل: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»: لا

شیء من آلائک ربّی اکذّب، فإن قرأها لیلًا ثم مات، مات شهیداً، وإن قرأها نهاراً ثم مات، مات شهیداً».

الرَّحْمنُ (۱) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (۳) عَلَّمَهُ الْبَیَانَ (۴) الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (۵) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْجُدَانِ (۶) بدایهٔ النعم الإلهیهٔ: لمّا کانت هذه السورهٔ تبیّن أنواع النعم والهبات الإلهیهٔ العظیمهٔ، فإنّها تبدأ باسم (الرحمن) والذی یرمز إلی الرحمهٔ الواسعهٔ، ولو لم تکن (الرحمانیهٔ) من صفاته لم ینعم بهذا الخیر العمیم علی عباده الصالحین والعاصین، لذلک یقول: «الرَّحْمنُ». «عَلَّمَ الْقُرْءَانُ» وبهذا فإنّ أوّل نعمهٔ تفضّل بها اللَّه سبحانه، هی نعمهٔ «تعلیم القرآن».

والظریف هنا أنّ بیان نعمهٔ (تعلیم القرآن) ذُکرت قبل «خَلَقَ الْإِنسَانَ» و «عَلَّمَهُ الْبَیَانَ» فی الوقت الذی یفترض فیه أن تکون الإشارهٔ أوّلًا إلی مسألهٔ خلق الإنسان، ومن ثم نعمهٔ تعلیم البیان، ثم نعمهٔ تعلیم القرآن، وذلک استناداً للترتیب الطبیعی، إلّاأنّ عظمهٔ القرآن الکریم أوجبت أن نعمل خلافاً للترتیب المفترض.

---

(۱) تفسیر مجمع البیان ۹/ ۳۲۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹

وقد جاءت هذه الآیهٔ جواباً لقولهم: وما الرحمن فی قوله: «وَإِذَا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ». [الفرقان قالوا وما الرحمن؟ وقد روی أنّه لما نزل قوله «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ» قالوا: ما نعرف الرحمن إلّاصاحب الیمامهٔ. فقیل لهم «الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانُ» أی: علم محمّداً صلی الله علیه و آله القرآن، وعلّمه محمّد صلی الله علیه و آله امته «۱».

وعلی کل حال فإنّ لإسم «الرحمن» أوسع المفاهیم بین أسماء الباریء عزّ وجل بعد إسم الجلالهٔ (اللَّه) لأنّنا نعلم أنّ للَّه‌رحمتین: (الرحمهٔ العامهٔ) و (الرحمهٔ الخاصهٔ) واسم «الرحمن» یشیر إلی رحمهٔ اللَّه العامهٔ التی تشمل الجمیع، کما أنّ اسم «الرحیم» یشیر إلی «الرحمهٔ الخاصهٔ» بأهل الإیمان والطاعهٔ، ولعله لهذا السبب لا یطلق اسم الرحمن علی غیر اللَّه سبحانه (إلّا إذا کانت کلمهٔ عبد قبله)، أمّا وصف «الرحیم» فیقال لغیر اللَّه أیضاً، وذلک لأنّه لا أحد لدیه الرحمهٔ العامهٔ سوی اللَّه تعالی، أمّا الرحمهٔ الخاصهٔ فإنّها موجودهٔ فی المخلوقات وإن کانت بصورهٔ محدودهٔ.

وهنا یطرح التساؤل التالی: من الذی علّمه اللَّه سبحانه القرآن الکریم.

إنّ هذه السورهٔ تبیّن الرحمهٔ الإلهیهٔ للإنس والجن ولذا أکّد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدی وثلاثین مرّهٔ، وذلک بقوله: «فَبِأَیِّ ءَالَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ». والأنسب هو أنّ اللَّه علّم القرآن للإنس والجن بواسطهٔ نبیّه الکریم محمّد صلی الله علیه و آله.

وبعد ذکره سبحانه لنعمهٔ القرآن التی لا مثیل لها ینتقل إلی أهمّ نعمهٔ فی الترتیب المذکور ویقول: «خَلَقَ الْإِنسنَ».

من الطبیعی أنّ المقصود هنا هو نوع الإنسان ولیس آدم علیه السلام فقط.

وإطلاق کلمهٔ (البیان) التی تأتی بعد خلق الإنسان دلیل علی عمومیهٔ کلمهٔ الإنسان.

إنّ ذکر إسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر یستوجب التأمل، ذلک لأنّ القرآن الکریم یمثّل مجموعهٔ أسرار الکون بصورهٔ مدوّنهٔ «الکتاب التدوینی»، والإنسان هو خلاصهٔ هذه الأسرار بصورهٔ تکوینیهٔ «الکتاب التکوینی»، کما أنّ کل واحدهٔ منها هو صورهٔ من هذا العالم الکبیر.

وتشیر الآیهٔ اللاحقهٔ إلی أهمّ النعم بعد نعمهٔ خلق الإنسان حیث یقول الباریء عزّ وجل: «عَلَّمَهُ الْبَیَانَ».

---

(۱) تفسیر مجمع البیان ۹/ ۳۲۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۵ ۹۹

كلمة (البيان) لها معنى لغوى واسع، حيث تقال لكل شيء يوضّح ويبيّن شيئاً معيناً.

وبناءً على هذا فإنّها لا تشمل النطق والكلام فحسب، بل تجمع الكتابة والخطّ وأنواع الاستدلالات العقلية والمنطقية التى تبيّن المسائل المختلفة والمعقّدة أيضاً رغم أنّ معالم هذه المجموعة هى التكلم والنطق.

وإذا أخذنا دور البيان فى تكامل وتقدم الحياة الإنسانية، فمن الواضح أنّ الإنسان لم يكن بمقدوره وإمكانه أن ينقل تجاربه وعلومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة وبالتالى أدّى إلى التقدم والعلم والدين والأخلاق ... وإذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإنّ المجتمع الإنساني سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، ولو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذى يشمل الخط والكتابة والفنون المختلفة، فإنّه سيتّضح لدينا بصورة أكثر دوره الهامّ فى الحياة الإنسانية.

ويتطرق بعد ذلك إلى النعمة الإلهية الرابعة والتى هى هبة من هبات اللّه العظيمة أيضاً، حيث يقول تعالى: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ».

إنّ أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهية للإنسان، لأنّ العيش فى المنظومة الشمسية بدون نور وحرارة الشمس أمر غير ممكن. إنّ نمو ونضج النبات والمواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار وهبوب الرياح، كلّها ببركة هذه الهبة الإلهية.

كما أنّ للقمر دوراً هامّاً فى حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنّه يضيء الليالى المعتمة، فإنّ جاذبيته هى علة المد والجزر فى البحار والمحيطات، وهى عامل لبقاء الحياة فى البحار، كما أنّها تقوم بدورها فى إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل والتى تصبّ الأنهار بالقرب منها.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ ثبات الإنتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، وحركة الأرض حول الشمس) هو السبب فى الظهور المنتظم لليل والنهار والسنين والشهور والفصول المختلفة، وبالتالى فإنّه سبب أساسى لإنتظام الحياة الإنسانية وبرمجة الامور التجارية والصناعية والزراعية، وإن فقد الإنتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية وتختلّ الكثير من مرتكزاتها.

وليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جدّاً فحسب، بل إنّ مقدار كثافة وجاذبية

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱

ومسافة كل منهما عن الأرض هى الاخرى محسوبة بدقّة وحساب (وحسبان).

ومن المؤكّد أنّ اختلال كل واحدة من هذه الامور سيولّد اختلالات عظيمة فى المنظومة الشمسية، ومن ثم فى النظام الحياتى للبشر.

والجدير بالذكر أنّ الشمس بالرغم من أنّها فى وسط المنظومة الشمسية وتبدو ساكنة وثابتة، إلّاأنّها مع جميع كواكبها وأقمارها تسير فى وسط المجرّة المتعلقة بها إلى نقطة معينة (تسمّى هذه النقطة بنجمة فيكا) وهذه الحركة لها أيضاً نظام وسرعة معينان.

ثم يتحول بنا اللّه إلى نعمة عظيمة اخرى هى الخامسة فى مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم فى هذه السورة المباركة، حيث يوجّه النظر إلى ألطافه فى الأرض حيث يقول:

«وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ».

«النجم»: يأتى أحياناً بمعنى كوكب، ويأتى اخرى بمعنى النبات الذى لا ساق له، ولمّا جاءت الكلمة هنا بقرينة «الشجر» فيكون المقصود هو المعنى الثانى، أى النباتات بدون سيقان.

ومن الواضح أنّ النبات مصدر جميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلك قسماً مباشراً منه، والقسم الآخر تستهلكه الحيوانات الاخرى التى هى جزء أساسى من غذاء الإنسان، ومن هنا فإنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وهذا المعنى يصدق أيضاً فى عالم الحيوانات البحرية، لأنّها تتغذّى على نباتات صغيرة جدّاً تنبت فى البحر وتوجد بكثرة هائلة تقدّر بملايين البليارات، وهى المصدر الغذائى لهذه الحيوانات البحرية، وتنمو هذه النباتات الصغيرة فى البحر بتأثير الضوء (أشعة الشمس) التى تتحرك بين الأمواج.

وبهذا فإنّ «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين والخيار وأمثاله).

أمّا «الشجر» فإنّه النوع الآخر من النباتات التى لها سيقان وتشمل أشجار الفاكهة ونباتات الغلّات وغير ذلك.

وتعبير «يسجدان» إشارة إلى التسليم والخضوع أمام القدرة الإلهية وقوانين الخلقة والإبداع الإلهى لأجل نفع الإنسان. وهنا إشارة إلى الأسرار التوحيدية أيضاً حيث توجد فى كل ورقة وكل بذرة آيات عجيبة من عظمة وقدرة اللّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲

وَ السَّمَاءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ (۷) أَنْ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (۸) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (۹) وَ الْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (۱۰) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (۱۱) وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحَانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۱۳) السماء رفعها ووضع الميزان: فى الآية مورد البحث يتحدث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا وهى نعمة خلق السماء حيث يقول: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا».

(السماء) فى هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض ... إنّ كل واحدة من هذه المعانى هبة عظيمة ونعمة لا مثيل لها، وبدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

إنّ النور الذى يمنحنا الدفء والحرارة والهداية والحياة والحركة يأتينا من السماء وكذلك الأمطار، والوحى أيضاً، (وبذلك فإنّ للسماء مفهوماً عاماً، مادياً ومعنوياً).

ثم يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: «وَوَضَعَ الْمِيزَانَ».

«الميزان»: كل وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحق من الباطل، أو العدل من الظلم والجور، أو قياس القيم وقياس حقوق الإنسان فى المراحل الاجتماعية المختلفة.

و (الميزان) يشمل كذلك كل نظام تكوينى ودستور اجتماعى، لأنّه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

ونستنتج من الآية اللاحقة استنتاجاً رائعاً حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى:

«أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ».

يا له من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة فى هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) وبالتالى ينقلنا إلى حقيقة التوحيد، حيث مصدر جميع القوانين والموازين الحاكمة على العالم هى واحدة فى جميع المفردات وفى كل مكان.

ويؤكّد مرّة اخرى على مسألة العدالة والوزن حيث يقول سبحانه: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳

هذه الآية يؤكّد على مسألة الوزن بمعناها الخاص، ويأمر البشر أن يدقّقوا فى قياس ووزن الأشياء فى التعامل، وهذه أضيق الدوائر.

إنّ أهمية الميزان فى أى معنى كان عظيمة فى حياة الإنسان بحيث إنّنا إذا حذفنا حتى مصداق الميزان المحدود والصغير والذى يعنى (المقياس) فإنّ الفوضى والإرتباك سوف تسود المجتمع البشرى.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ (الميزان) قد فسّر بوجود (الإمام)، وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحق من الباطل، ومعيار لتشخيص الحقائق وعامل مؤثّر فى الهداية. وهكذا فى تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى.

ثم ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عزّ وجل: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ».

إنّ القرائن الموجودة فى السورة وطبيعة النداءات الموجّهة للإنس والجن تدلّل على أنّها المقصود هنا (الجن والإنس).

وفى الآية اللاحقة يستعرض ذكر النعمتين التاسعة والعاشرة من النعم الإلهية، والتى تتضمّن قسماً من المواد الغذائية التى وهبها اللّه سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: «فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ».

«الفاكهة»: تشمل كل نوع من الفاكهة.

و «أكمام»: جمع (كِم) تطلق على الغلاف الذى يغطّى الفاكهة.

إنّ إختیـار هـذا الوصف لفاکهـة شـجرة النخـل- والتی تکون فی البدایـة مختفیـة فی غلاـف ثم ینشقّ الغلاف عن ثمر منظود وبشـکل جمیل وجذّاب- یمکن أن یکون لهذا الجمال الأخّاذ، أو للمنافع الجمّة الکامنة فی هذا الغلاف، والتی تتمیّز بالمنافع الطبیّة والغذائیة.

ثم یتحدث سبحانه عن النعمة الحادیة عشرة والثانیة عشرة حیث یقول سبحانه:

«وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّیْحَانُ».

الحبوب مصـدر أساسـی لغـذاء الإنسـان، وأوراقها الطازجـة والیابسـة هی غـذاء للحیوانات التی هی لخدمـة الإنسان، حیث یسـتفید من حلیبها ولحومها وجلودها وأصوافها، وبهذا الترتیب فلا یوجد شیء فیها غیر ذی فائدة.

ومن جهة اخری، فإنّ اللَّه تعالی خلق الأزاهیر المعطّرة والورود التی تعطّر مشام الجسم والروح وتبعث الاطمئنان والنشاط، ولذا فإنّ اللَّه سبحانه قد أتمّ نعمه علی الإنسان.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴

وبعـد ذکر هـذه النعم العظیمـة (المادیـة والمعنویـة) ینقلنا فی آخر آیة من البحث مخاطباً الجن والإنس بقوله تعالی: «فَبِأَیِّ ءَالَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ». هذه النعم التی یدلّ کل هذا علی لطف وحنان الخالق ... فکیف یمکن التکذیب بها إذاً؟

إنّ هـذا الاسـتفهام اسـتفهام تقریری جیء به فی مقام أخـذ الإقرار، وقـد قرأنا فی بدایـة السورة روایـة تؤکّد علی ضـرورة تعقیبنا بهذه العبارة (لا شیء من آلائک ربّی اکذّب) بعد کل مرّة نتلو فیها الآیة الکریمة: «فَبِأَیِّ ءَالَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ».

إنّ التعبیر ب (أیّ) إشارة إلی أنّ کل واحـدة من هـذه النعم دلیل علی مقام ربوبیة اللَّه ولطفه وإحسانه، فکیف بها إذا کانت هذه النعم مجتمعة.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ کَالْفَخَّارِ (۱۴) وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (۱۵) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۱۶) رَبُّ الْمَشْرِقَیْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَیْنِ (۱۷) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۱۸) الصلصال وخلق الإنسان: إنّ اللَّه تعالی بعـد ذکره للنعم السابقـة والتی من جملتها «خَلَقَ الْإِنْسَانَ»، یتعرّض فی الآیات مورد البحث إلی شـرح خاص حول خلق الإنس والجن کـدلیل علی قـدرته العظیمـة من جهـة، وموضـع درس وعبرة للجمیع من جهة اخری، فیقول سبحانه: «خَلَقَ الْإِنسَنَ مِن صَلْصلٍ کَالْفَخَّارِ».

«صلصال»: فی الأصل معناه (ذهاب ورجوع أو تردد الصوت فی الأجسام الصلبة)، ثم اطلقت الکلمة علی الطین الیابس الـذی یخرج صوتاً.

«فخار»: من مادة «فخر» بمعنی الشـخص الذی یفخر کثیراً، ولکون الأشخاص الذین یعیشون الفراغ فی شخصیاتهم ومعنویاتهم یکثرون الثرثرة والإدّعاء عن أنفسهم، فإنّ هذه الکلمة تستعمل لکل إناء من الطین أو «الکوز»، وذلک بسبب الأصوات الکثیرة التی یولّدها.

ومن هنا یسـتفاد بوضوح من الآیات القرآنیـة المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنّه کان من التراب ابتداءً. قال تعالی: «فَإِنَّا خَلَقْنَاکُم مِّن تُرَابٍ» «۱». ثم خرج مع الماء وأصبح طیناً:

(۱) سورة الحجّ/ ۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵

«هُوَ الَّذِی خَلَقَکُم مِّن طِینٍ» «۱». ثم أصبح بصورة طین خبیث الرائحة: «إِنِّی خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» «۲». ثم أصبح مادة فی حالـة لاصـقة: «إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِینٍ لَّازِبٍ» «۳». ومن ثم یتحول إلی حالـة یابسـة ویکون من «صَلْصلٍ کَالْفَخَّارِ» کما ذکر فی الآیة مورد البحث.

هـذه المراحـل کم تسـتغرق من الوقت، وکم هی المـدة التی یتوقف فیهـا الإنسـان فی کل مرحلـة من هـذه المراحل، وفی أی ظروف تحدث هذه التطورات؟

هذه المسائل خفيت عن علمنا وإدراكنا، واللَّه وحده هو العالم بها فقط.

ثم يتطرق سبحانه لخلق الجن حيث يقول: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ».

«مارج»: فى الأصل من «مرج» على وزن (مرض) بمعنى الإختلاط والمزج، والمقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة.

ولكن كيف خلق الجن من هذه النيران المتعددة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أنّ الخصوصيات الاخرى عن هذا المخلوق، قد بيّنت لنا عن طريق الوحى الربانى وكتاب اللَّه الكريم، ولكن محدودية معلوماتنا لا تعنى السماح لنا أبداً بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصة بعد ما ثبتت عن طريق الوحى الإلهى. (وسيكون لنا إن شاء اللَّه شرح مفصّل حول خلق الجن وخصوصيات هذا المخلوق فى تفسير سورة الجن).

وبعد أن تحدّث عن النعم التى كانت فى بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى:

«فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فى الآية اللاحقة يستعرض نعمة اخرى، حيث يقول سبحانه: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ».

بما أنّ الشمس فى كل يوم تشرق من نقطة وتغرب من اخرى، وبعدد أيام السنة لها

---

(۱) سورة الأنعام/ ۲.

(۲) سورة الحجر/ ۲۸.

(۳) سورة الصّافات/ ۱۱.

شروق وغروب، ولكن نظراً للحدّ الأكثر من الميل الشمالى للشمس والميل الجنوبى لها، ففى الحقيقة أنّ للشمس مشرقين ومغربين والبقية بينهما.

إنّ هذا النظام الذى هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد وبركات كثيرة، ويؤكّد ويكمّل ما مرّ بنا فى الآيات السابقة، وذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس والقمر، وكذلك عن وجود الميزان فى خلق السماوات، وإجمالًا فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلقة وحركة الأرض والقمر والشمس، وكذلك فإنّه يشير إلى النعم والبركات التى هى موضع استفادة الإنسان. فإنّ اللَّه تعالى يؤكّد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس والجن بقوله: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (۱۹) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۲۱) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ (۲۲) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۲۳) وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (۲۴) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۲۵) البحار وذخائرها الثمينة: استمراراً لشرح النعم الإلهية يأتى الحديث هنا عن البحار، ولكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامة، بل عن كيفية خاصة ومقاطع معينة منها تمثّل ظواهر عجيبة وآية على القدرة اللامتناهية للحقّ، بالإضافة إلى ما فيها من النعم التى هى موضع استفادة البشرية. يقول تعالى: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ». ولكن بين هذين البحرين المتلاقيين فاصل يمنع من طغيان وغلبة أحدهما على الآخر: «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ».

المقصود من البحرين هما الماء العذب والماء المالح، وذلك بالاستدلال بقوله تعالى:

«وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا» (۱).

إنّ الأنهار العظيمة ذات المياه العذبة عندما تصبّ فى البحار والمحيطات فإنّها تشكّل بحراً من الماء الحلو إلى جنب الساحل وتطرد الماء المالح إلى الخلف، والعجيب أنّ هذين الماءين لا يمتزجان مع بعضهما لمدة طويلة بسبب اختلاف درجة الكثافة؛ وتثير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة.

ومرّة اخرى يخاطب اللَّه تعالى عباده فى معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم

(۱) سورة الفرقان/ ۵۳.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷

سبحانه: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

واستمراراً لهذا الحديث يقول عزّ وجل: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

«اللؤلؤ»: فهو حبّة شفافة ثمينة تنمو فى داخل الصدف فى أعماق البحار، وكلّما كبر حجمها زاد ثمنها؛ و «المرجان»: فهو كائن حى يشبه الغصن الصغير للشجرة، وينشأ فى أعماق البحار، وكان العلماء يتصورون لفترة زمنية أنّ هذه الشجرة نوع من أنواع النباتات، إلّا أنّه اتّضح فيما بعد أنّه نوع من الحيوانات. وأفضل أنواع المرجان الذى يستعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، وكلّما كان إحمراره أشدّ كانت قيمته أغلى وأثمن.

واستمراراً لهذا القسم من النعم الإلهية يشير سبحانه إلى موضوع (السفن) التى هى فى الحقيقة أكبر وأهمّ وسيلة لنقل البشر وحمل الأمتعة فى الماضى والحاضر، حيث يقول سبحانه: «وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَم».

والظريف هنا أنّه فى الوقت الذى يعبّر عن السفن بأنها «منشآت» والتى تحكى أنّها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (وله) أى للَّه‌تعالى وهو إشارة إلى أنّ جميع الخواص التى يستفاد منها فى صناعة السفن، والتى منحها اللَّه للبشر المخترعين لهذه الصناعة هى للَّه، وكذلك فإنّه هو الذى أعطى خاصية السيولة لمياه البحر والقوة للرياح، وأنّ اللَّه تعالى هو الذى أوجد هذه الخواص فى المواد المتعلّقة بالسفينة.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنّها فى الأصل بمعنى (علامة وأثر) والذى يخبر عن شىء معين، ولأنّ الجبال تكون واضحة من بُعد فإنّه يعبّر عنها ب (العلم) كما أنّ لفظة (عَلَم) تطلق أيضاً على «الراية».

ومرّة اخرى يكرّر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (۲۶) وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَام (۲۷) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۲۸) يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (۲۹) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۳۰) كل شىء هالك إلّاوجهه: استمراراً لشرح النعم الإلهية، فى هذه الآيات يضيف سبحانه قوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». وهنا يتساءل كيف يكون الفناء نعمة إلهية؟

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۸

وللجواب على هذا السؤال نذكر ما يلى: يمكن ألّا يكون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، وإنّما هو الباب الذى يطلّ منه على عالم الآخرة، والجسر الذى لابدّ منه للوصول إلى دار الخلد؛ أو أنّ النعم الإلهية الكثيرة- المذكور سابقاً- يمكن أن تكون سبباً لغفلة البعض وإسرافهم فيها بأنواع الطعام والشراب والزينة والملابس والمراكب وغير ذلك، مما يستلزم تحذيراً إلهياً للإنسان، بأنّ هذه الدنيا ليست المستقر، فالحذر من التعلق بها، ولابد من الاستفادة من هذه النعم فى طاعة اللَّه ... إنّ هذا التنبيه والتذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمة عظيمة. ويضيف فى الآية اللاحقة قوله سبحانه: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلِلِ وَالْإِكْرَام».

«وجه» معناه اللغوى معروف وهو القسم الأمامى للشىء بحيث يواجهه الإنسان فى الطرف المقابل، وإستعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدسة).

أمّا «ذُو الْجَلِلِ وَالْإِكْرَام» والذى هو وصف ل (الوجه) فإنّه يشير إلى صفات الجمال والجلال للَّه‌سبحانه، لأنّ «ذُو الْجَلِلِ» تتبّئنا عن الصفات التى يكون اللَّه أسمى وأجلّ منها (الصفات السلبية). وكلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التى تظهر حسن وقيمة الشىء، وهى الصفات الثبوتية للَّه‌سبحانه كعلمه وقدرته.

وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية بصورة عامّة يصبح كالآتى: إنّ الباقى فى هذا العالم هو الذات المقدسة للَّه‌سبحانه، والتى تتّصف

بالصفات الثبوتية والمنزهة عن الصفات السلبية.

ثم يخاطب الخلائق مرّة اخرى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ومضمون الآية اللاحقة هى نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول سبحانه: «يَسْئَلُهُ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولماذا لا يكون كذلك فى الوقت الذى يفنى الجميع ويبقى وحده سبحانه.

التعبير ب (يسأله) جاء بصيغة المضارع، وهو دليل على أنّ السؤال والطلب فى الكائنات مستمر من الذات الإلهية المقدسة، وهذا شأن الموجود الممكن الذى هو مرتبط بواجب الوجود ليس فى الحدوث فقط، وإنّما فى البقاء أيضاً.

ثم يضيف سبحانه: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ».

إنّ خلقه مستمر، وإجاباته لحاجات السائلين والمحتاجين لا تنقطع، كما أنّ ابداعاته مستمرّة فيجعل الأقوام يوماً فى قوّة وقدرة، وفى يوم آخر يهلكهم، ويوماً يعطى السلامة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۹

والشباب، وفى يوم آخر الضعف والوهن، ويوماً يذهب الحزن والهمّ من القلوب وآخر يكون باعثاً له، وخلاصة الأمر أنّه فى كل يوم- وطبقاً لحكمته ونظامه الأكمل- يخلق ظاهرة جديدة وخلقاً وأحداثاً جديدة.

ومرّة اخرى- بعد هذه النعم المستمرة والإجابة لاحتياجات جميع خلقه من أهل السماوات والأرض يكرّر قوله سبحانه: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (۳۱) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۳۲) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (۳۳) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۳۴) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (۳۵) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۳۶) النعم الإلهية التى إستعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلّاأنّ الآيات مورد البحث تتحدث عن أوضاع يوم القيامة، وخصوصيات المعاد، وفى الوقت الذى تحمل تهديداً للمجرمين، فإنّها وسيلة لتربية وتوعية وإيقاظ المؤمنين، بالإضافة إلى أنّها مشجّعة لهم للسير فى طريق مرضاته سبحانه، ومن هنا فإنّنا نعتبرها نعمة، لذلك بعد ذكر كل واحدة من هذه النعم يتكرّر نفس السؤال الذى كان يعقّب ذكر كل نعمة من النعم السابقة.

يقول سبحانه فى البداية: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ».

«الثقلان»: من مادة «ثقل» على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل وجاءت بمعنى الوزن أيضاً، إلّاأنّ «ثقل» على وزن (خبر) تقال عادةً لمتاع وحمل المسافرين، وتطلق على جماعة الإنس والجن وذلك لثقلهم المعنوى، لأنّ اللّه تبارك وتعالى قد أعطاهم عقلًا وشعوراً وعلماً ووعياً له وزن وقيمة بالرغم من أنّ الثقل الجسدى لهم ملحوظ أيضاً.

وبعد هذا يكرّر اللّه سبحانه سؤاله مرّة اخرى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وتعقيباً على الآية السابقة التى كانت تستعرض الحساب الإلهى الدقيق، يخاطب الجن والإنس مرّة اخرى بقوله: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» للفرار من العقاب الإلهى؛ «فَانفُذُوا لَاتَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ». أى بقوّة إلهيّة، فى حين أنّكم فاقدون لمثل هذه القوّة والقدرة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۰

«معشر»: فى الأصل من «عشر» مأخوذ من عدد «عشرة»، ولأنّ العدد عشرة عدد كامل، فإنّ مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة والتى تتكوّن من أصناف وطوائف مختلفة. «أقطار»: جمع «قُطْر» بمعنى أطراف الشيء.

«تنفذوا»: من مادة «نفوذ»، وهى فى الأصل بمعنى خرق وعبور من شيء.

والتعبير (من أقطار) إشارة إلى شقّ السماوات وتجاوزها إلى خارجها.

إنّ الآية أعلاه تتحدث عن الهروب والفرار من يد العدالة الإلهية الذى يفكّر به العاصون فى ذلك اليوم.

فى مجمع البيان: روى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: كنا عند أبى عبداللَّه عليه السلام، فأنشأ يحدثنا فقال: «إذا كان يوم القيامة جمع اللَّه العباد فى صعيد واحد، وذلك أنّه يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطى بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس والملائكة. ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات فيصير الجن والإنس فى سبع سرادقات من الملائكة ثم ينادى مناد: «يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ» الآية. فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة».

ويخاطب سبحانه هاتين المجموعتين (الجن والإنس) بقوله: «فَبِأَىّ ءَالَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ».

والتهديد هنا لطف إلهى أيضاً، فالبرغم من أنّه يحمل تهديداً ظاهرياً، إلّاأنّه عامل للتنبيه والإصلاح والتربية، حيث إنّ وجود المحاسبة فى كل نظام هو نعمة كبيرة.

وما ورد فى الآية اللاحقة تأكيد لما تقدّم ذكره فى الآيات السابقة، والذى يتعلق بعدم قدرة الجن والإنس من الفرار من يد العدالة الإلهية، حيث يقول سبحانه: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ».

«شواظ»: بمعنى (الشعلة العديمة الدخان). إنّ هذا التعبير يشير إلى شدة حرارة النار.

و «نحاس»: بمعنى الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان)، لأنّها تتحدث عن موجود يحيط بالإنسان فى يوم القيامة ويمنعه من الفرار من حكومة العدل الإلهى.

ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَىّ ءَالَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۱

والكلام هنا عن النعم والآلاء من أجل ما ذكرنا من اللطف فى الآية السابقة.

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (۳۷) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۳۸) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (۳۹) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۴۰) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (۴۱) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۴۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (۴۳) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۴۵) تكملة للآيات السابقة يتحدث القرآن الكريم عن بعض مشاهد يوم القيامة، والآيات أعلاه تذكر خصوصيات من مشاهد ذلك اليوم الموعود، وعن كيفية الحساب والجزاء والعقاب.

يقول سبحانه فى بداية الحديث: «فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدّهَانِ».

ويستفاد من مجموع آيات «القيامة» بصورة واضحة أنّ النظام الحالى للعالم سوف يتغير ويضطرب وتقع حوادث مرعبة جدّاً فى كل الوجود، فتتغير الكواكب والسيارات والأرض والسماء، وتحصل تغيّرات يصعب تصورها، ومن جملتها ما ذكر فى الآية أعلاه، وهى إنشقاق وتناثر الكرات السماوية، حيث يصبح لونها أحمر بصورة مذابة كالدهن.

ولأنّ الإخبار بوقوع هذه الحوادث المرعبة فى يوم القيامة- أو قبلها- تنبيه وإنذار للمؤمنين والمجرمين على السواء، ولطف من ألطاف اللَّه سبحانه، يتكرر هذا السؤال: «فَبِأَىّ ءَالَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ».

وفى الآية اللاحقة ينتقل الحديث من الحوادث الكونية ليوم القيامة إلى حالة الإنسان المذنب فى ذلك اليوم، حيث يقول سبحانه: «فَيَوْمَئِذٍ لَّايُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ».

وكل شىء واضح، وكل شىء يُقرأ فى وجه الإنسان.

إنّ يوم القيامة يوم طويل جدّاً، وعلى الإنسان أن يجتاز محطّات ومواقف متعددة فيه، حيث لابد من التوقف فى كل محطّة مدة زمنية.

إنّ فى بعض هذه المواقف لا يسأل الإنسان إطلاقاً، كما أنّ بعض المواقف الاخرى لا يسمح له بالكلام، حيث تشهد عليه أعضاء بدنه.

قال تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۲

وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۱». كما أنّ فى بعض المحطّات يُسأل الإنسان وبدقة متناهية عن كافة أعماله.

ومرّة اخرى يخاطب سبحانه عباده، حيث يقول: «فَبِأَيّ ءَالَاءِ رَبّكما تُكَذّبَانِ».

نعم، إنّه لا يسأل حيث «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ».

ثم يضيف سبحانه: «فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى وَالْأَقْدَام».

«النواصى»: جمع ناصية وفى الأصل بمعنى الشعر وما يكون بمقدمة الرأس، من مادة (نصأ) وتعنى الإتصال والإرتباط، «وأخذ بناصيته» بمعنى أخذه من شعره الذى فى مقدمة رأسه، كما تأتى أحياناً كناية عن الغلبة الكاملة على الشيء.

والمعنى الحقيقى للآية المباركة هو أنّ الملائكة تأخذ المجرمين فى يوم القيامة من نواصيهم وأرجلهم، ويرفعونهم من الأرض بمنتهى الذلة ويلقونهم فى جهنم، أو أنّه كناية عن منتهى ضعف المجرمين وعجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم فى نار جهنم بذلة تامة.

ومرّة اخرى يضيف سبحانه: «فَبِأَيّ ءَالَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ». لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثم يقول سبحانه: «هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ».

ويضيف سبحانه فى وصف جهنم وعذابها المؤلم الشديد حيث يقول: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ».

«آن» و «آنى» هنا بمعنى الماء المغلى وفى منتهى الحرارة والإحراق.

فإنّ المجرمين يحترقون وسط هذا اللهيب الحارق لنار جهنم، ويظمأون ويستغيثون للحصول على ماء يروى ظمأهم، حيث يعطى لهم ماء مغلى (أو يصبّ عليهم) مما يزيد ويضاعف عذابهم المؤلم.

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجنب جهنم، ويلقى فيها من يستحق عذابها ثم فى النار يسجرون. قال تعالى: «يُسْحَبُونَ فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى

---

(۱) سورة يس/ ۶۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۳

النَّارِ يُسْجَرُونَ» «۱».

ومرّة اخرى بعد هذا التنبيه والتحذير الشديد الموقظ، الذى هو لطف من اللَّه يقول البارىء عزّ وجل: «فَبِأَيّ ءَالَاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ».

وَ لِمَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (۵۰) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵) الجنّتان اللتان اعدّتا للخائفين: يترك القرآن الكريم وصفه لأهل النار وحالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، ويحدثنا فيها عن الجنة وأهلها، وما أعدّ لهم من النعم فيها، والتى يصوّرها سبحانه بشكل مشوّق ومثير ينفذ إلى أعماق القلوب فى عملية مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم والتى تحدثت عنها الآيات السابقة، وما ينتظر المؤمنين من جنّات وعيون وقصور وحور فى الآيات أعلاه، يقول سبحانه: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنَّتَانِ».

وللخوف من اللَّه أسباب مختلفة، فأحياناً يكون بسبب قبح الأعمال وانحراف الأفكار، واخرى بسبب القرب من الذات الإلهية حيث الشعور بالخوف والقلق من الغفلة والتقصير فى مجال طاعة اللَّه، وأحياناً اخرى لمجرد تصورهم لعظمة اللَّه اللامتناهية وذاته اللامحدودة فينتابهم الشعور بالخوف والضعة أمام قدسيته العظيمة ... وهذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة للَّهسبحانه،

ويكون خاصاً بالعارفين والمخلصين لحضرته.

ومرّة اخرى، وبعد ذكر هذه النعم العظيمة يخاطب الجميع بقوله: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف سبحانه فى وصفه لهاتين الجنتين بقوله: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ».

وبعد ذكر هذه النعم يكرّر سبحانه السؤال مرّة اخرى فيقول: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ولأنّ البساتين النضرة والأشجار الزاهية ينبغى أن تكون لها عيون، أضاف سبحانه فى وصفه لهذه الجنة بقوله: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ».

ثم يطرح مقابل هذه النعمة الإضافية قوله: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

---

(۱) سورة غافر/ ۷۱ و ۷۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۴

وفى الآية اللاحقة ينتقل البحث إلى فاكهة هاتين الجنّتين حيث يقول سبحانه: «فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

لقد طرحت فى الآيات السابقة ثلاث صفات لهاتين الجنّتين، وتستعرض الآية التالية الصفة الرابعة حيث يقول تعالى: «مُتَّكِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ».

وهذا التعبير يدلّل على الهدوء الكامل والإستقرار التامّ لدى أهل الجنة.

إنّ أثمن قماش يتصور فى هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أنّ القسم الظاهر لا- يمكننا وصفه من حيث الجمال والجاذبية.

وأخيراً، وفى خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة، حيث يقول:

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ». «جنى»: على وزن (بقى) وتعنى الفاكهة التى نضج قطفها؛ و «دان» فى الأصل (دانى) بمعنى قريب.

ومرّة اخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۵۹) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (۶۰) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (۶۱) الجنة والزوجات الحسان: فى الآيات السابقة ذكرت خمسة أقسام من هبات وخصوصيات الجنتين، وهنا نتطرّق لذكر النعمة السادسة وهى الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ». قد قصرن طرفهنّ على أزواجهن، ولم يردن غيرهم. ثم يضيف تعالى: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» «۱».

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو ذرّ: إنّها تقول لزوجها: وعزة ربّى ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد للّهالذى جعلنى زوجتك، وجعلك زوجى.

«طرف»: على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، وبما أنّ الإنسان عندما يريد النظر يحرّك

---

(۱) «يطمثهنّ»: من مادة «طمث»، فى الأصل بمعنى دم الدورة الشهرية، وجاءت بمعنى زوال البكارة؛ والمراد هنا أنّ النساء الباكرات فى الجنة لم يكن لهنّ أزواج قطّ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۵

أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، وبناءً على هذا فإنّ التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتى يقصرن طرفهن على أزواجهن، ويعنى أنّهن يكننّ الحبّ والودّ لأزواجهن فقط، وهذه هى إحدى ميزات الزوجة التى لا تفكّر بغير زوجها ولا تضمر لسواه الودّ.

وفی التعقیب علی نعمة الجنة هذه یکرّر قوله تعالی: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکَما تُکَذّبَانِ».

ثم یتطرق إلی المزید من وصف الزوجات الموجودات فی الجنة، حیث یقول: «کَأَنَّهُنَّ الْیَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ».

ومرّة اخری، وبعد ذکر هذه النعمة یقول سبحانه: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُما تُکَذّبَانِ».

وفی نهایة هذا البحث یقول عزّ وجل: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ».

وهل ینتظر أن یجازی من عمل عملًا صالحاً فی الدنیا بغیر الإحسان الإلهی؟

یقول الراغب فی المفردات: الإحسان فوق العدل، وذاک أنّ العدل هو أن یعطی ما علیه ویأخذ ماله، والإحسان أن یعطی أکثر ممّا علیه ویأخذ أقلّ مما له فالإحسان زائد علی العدل ..

ویتکرّر قوله سبحانه مرّة اخری: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُمَا تُکَذّبَانِ».

وذلک لأنّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمة کبیرة من قبل اللّه تعالی، حیث یؤکّد سبحانه أنّ جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لکرمه ولطفه ولیس لأعمالهم، مضافاً إلی أنّ طاعاتهم وعباداتهم إنّما هی بتوفیق اللّه ولطفه، وبرکاتها تعود علیهم.

وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (۶۲) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۶۳) مُدْهَامَّتَانِ (۶۴) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۶۵) فِیهِمَا عَیْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (۶۶) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۶۷) فِیهِمَا فَاکِهَهٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ (۶۹) جنتان بأوصاف عجیبة: بعد بیان صفات جنتی الخائفین وخصوصیاتهما المتمیزة، واستمراراً للبحث ینتقل الحدیث فی الآیات التالیة عن جنتین بمرتبة أدنی من السابقتین یکونان لأشخاص أقلّ خوفاً وإیماناً باللّه تعالی من الفئة الاولی، حیث إنّ هدف العرض هو بیان سلسلة درجات ومراتب للجنان تتناسب مع الإیمان والعمل الصالح للأفراد.

یقول سبحانه فی البدایة: «وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۶

فی تفسیر مجمع البیان: فقد روی عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «جنتان من فضة آنیتهما وما فیهما، وجنتان من ذهب آنیتهما وما فیهما».

وفی نفس الموضوع ورد فی حدیث آخر: «جنتان من ذهب للمقربین، وجنتان من ورق لأصحاب الیمین» «۱». أی من فضة. ثم یضیف سبحانه: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُمَا تُکَذّبَانِ».

ثم ذکر القرآن الخصوصیات الخمس لهاتین الجنتین التی تشبه- إلی حد ما- ما ذکر حول الجنتین السابقتین، کما أنّهما تختلفان فی بعض الخصوصیات الاخری حیث یقول سبحانه:

«مُدْهَامَّتَانِ».

«مدهامتان»: من مادة (أدهیمام) ومن أصل (دهمه) علی وزن (تهمه) ومعناها فی الأصل السواد وظلمة اللیل، ثم اطلقت علی الخضرة الغامقة المعتمة، ولأنّ مثل هذا اللون یحکی عن غایة النضرة للنباتات والأشجار، ممّا یعکس منتهی السرور والإنشراح، لهذا فقد استعمل لهذا المعنی.

ویضیف سبحانه مرّة اخری: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُمَا تُکَذّبَانِ».

وفی الآیة اللاحقة یصف الجنة وصفاً إضافیاً حیث یقول سبحانه: «فِیهِمَا عَیْنَانِ نَضَّاخَتَانِ». «نضّاختان»: من مادة (نضخ) بمعنی فوران الماء.

ومرّة اخری یسأل سبحانه عن الإنس والجن سؤالًا إستنکاریاً فیقول: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُمَا تُکَذّبَانِ».

وتتحدث الآیة التالیة حول فاکهة هاتین الجنتین حیث تقول: «فِیهِمَا فَاکِهَهٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ».

ویکرّر سبحانه السؤال مرّة اخری: «فَبِأَیّ ءَالَاءِ رَبّکُمَا تُکَذّبَانِ».

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٧٨)

---

(١) الدرّ المنثور ۶/ ۱۴۶. والتعبير بالذهب والفضة يمكن أن يكون إشارة إلى اختلاف درجة هاتين الجنتين.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۷

زوجات الجنة ... مرّة اخرى: استمرار لشرح نعم الجنتين التى ذكرت فى الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التى تزخر بها جنان اللّه التى أعدّها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه فى البداية: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ».

تستعمل كلمة (خير) غالباً للصفات الجيدة والجمال المعنوى، أمّا «حسن» فإنّها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإنّ المقصود ب «خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» اولئك النسوة اللواتى جمعن بين حسن السيرة، وحسن الظاهر.

وجاء فى الروايات فى تفسير هذه الآية أنّ الصفات الحسنة للزوجات فى الجنة كثيرة ومن جملتها طيب اللسان والنظافة والطهارة، وعدم الإيذاء، وعدم النظر للرجال الأجانب.

ومرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف مستمراً فى وصف الزوجات فى الجنة: «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ».

«حور»: جمع حوراء وأحور، وتطلق على الشخص الذى يكون سواد عينه قاتماً وبياضها ناصعاً، وأحياناً تطلق على النساء اللواتى يكون لون وجوههن أبيض.

والتعبير ب «مقصورات» إشارة إلى أنّهن مرتبطات ومتعلقات بأزواجهن ومحجوبات عن الآخرين.

ومرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ويضيف سبحانه وصفاً آخر لحوريات الجنة، حيث يقول: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ».

ويستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين فى هذه الدنيا سيلتحقان فى الجنة مع بعضهما ويعيشان فى أفضل الحالات.

ويستفاد أيضاً من الروايات أنّ درجة ومقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى وأفضل من حوريات الجنة وذلك بما قمن به فى الدنيا من صالح الأعمال وعبادة اللّه سبحانه.

ثم يضيف تعالى: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفى آخر وصف للنعم الموجودة فى هذه الجنة يذكر سبحانه تعالى: «مُتَّكِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىّ حِسَانٍ».

«رفرف»: فى الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثم اطلقت على الأقمشة الملوّنة الزاهية التى تشبه مناظر الحدائق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۸

«عبقرى»: فى الأصل بمعنى كل موجود قلّ نظيره.

و «حسان»: جمع «حسن» على وزن «نسب» بمعنى جيّد ولطيف.

فإنّ هذه التعابير حاكية جميعاً عن أنّ كل موجودات الجنة لا نظير له ولا شبيه فى نوعه.

وللمرّة الأخيرة وهى (الحادية والثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجن والإنس هذا السؤال: «فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

هل النعم المعنوية؟ أم النعم الماديّة؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجودة فى الجنة؟ إنّ كل هذه النعم شملت وجودكم وغمرتكم ... إلّاأنّه- مع الأسف- قد أنساكم غروركم وغفلتكم هذه الألطاف العظيمة، ومصدر عطائها وهو اللّه سبحانه الذى أنتم بحاجة مستمرّة إلى نعمه فى الحاضر والمستقبل ... فأيّاً منها تنكرون وتكذّبون؟

ويختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: «تَبَارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلَلِ وَالْإِکْرَام».

«تبارک»: من أصل (برک) بمعنى صدر البعير، وذلک لأنّ الجمال حينما تبرک تضع صدرها على الأرض أوّلًا، ومن هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات والدوام والاستقامة، لذا فإنّ كلمة (مبارک) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، وأكرم من تطلق عليه هذه الكلمة هى الذات الإلهية المقدسة باعتبارها مصدراً لجميع الخيرات والبركات.

واستعملت هذه المفردة هنا لأنّ جميع النعم الإلهية- سواء كانت فى الأرض والسماء فى الدنيا والآخرة والكون والخلق- فهى من فيض الوجود الإلهى المبارک، لذا فإنّ هذا التعبير من أنسب التعابير المذكورة فى الآية لهذا المعنى.

والملفت للنظر هنا أنّ هذه السورة بدأت باسم اللَّه (الرحمن) وانتهت باسم اللَّه ذى الجلال والإكرام) وكلاهما ينسجمان مع مجموعة مواضيع السورة.

«نهاية تفسير سورة الرحمن»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۶۹

۵۶. سورة الواقعة

محتوى السورة: إنّ سورة الواقعة نزلت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكانت قبلها سورة (طه) وبعدها (الشعراء) «۱».

هذه السورة- كما هو واضح من لحنها، وذكره المفسرون أيضاً- نزلت فى مكة، بالرغم من أنّ بعضهم قال: إنّ الآيتين (۸۱ و ۸۲) نزلتا فى المدينة، إلّاأنّ هذا الإدعاء ليس له دليل، كما أنّ محتوى الآيتين الكريمتين لا يساعدان على ذلک أيضاً.

وسورة الواقعة- كما هو واضح من إسمها- تتحدث عن القيامة وخصوصياتها، ولذا فإنّ هذا الموضوع هو الأساس فى البحث.

إلّا أنّنا نستطيع أن نلخّص موضوعات السورة فى ثمانية أقسام:

۱- بداية ظهور القيامة والحوادث المرعبة المقترنة بها.

۲- تقسيم أنواع الناس فى ذلک اليوم إلى ثلاثة طوائف: (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقربين).

۳- بحث مفصل حول مقام المقربين، وأنواع الجزاء لهم فى الجنة.

---

(۱) الفهرست للنديم/ ۲۸.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۰

۴- بحث مفصل حول القسم الثانى فى الناس وهم أصحاب اليمين، وأنواع الهبات الإلهية الممنوحة لهم.

۵- بحث حول أصحاب الشمال وما ينتظرهم من جزاء مؤلم فى نار جهنم.

۶- بيان أدلة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بيان قدرة اللَّه عزّ وجل، وخلق الإنسان من نطفة حقيرة، وظهور الحياة فى النباتات، ونزول المطر، إشتعال النار.

۷- وصف حالة الاحتضار والإنتقال من هذا العالم إلى حيث العالم الاخروى والتى تعتبر من مقدمات يوم القيامة.

۸- وأخيراً نظرة إجمالية كلية حول جزاء المؤمنين وعقاب الكافرين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الواقعة، كتب ليس من الغافلين». وذلک لأنّ آيات هذه السورة تتّصف بالتحريک والإيقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن يبقى فى جوّ الغفلة.

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى كل ليلة جمعة الواقعة أحبّه اللَّه وأحبّه إلى الناس أجمعين، ولم ير فى الدنيا بؤساً أبداً ولا فقراً ولا فاقة، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين عليه السلام».

ومن الواضح أننا لا ـ نستطيع الحصول على جميع البركات التى وردت لهذه السورة بالقراءة السطحية، بل ينبغى بعد تلاوتها التفكر والتدبر، ومن ثم الحركة والعمل.

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (۱) لَيسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (۲) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (۳) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً (۴) وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً (۵) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً (۷) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (۹) وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴) الواقعة العظيمة: إنّ الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالباً فى القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسية عظيمة قاصمة ومدمّرة، وهذا ما يلاحظ فى الكثير من السور القرآنية التى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۱

تتحدث عن القيامة؛ وفى سورة الواقعة، نجد هذا واضحاً فى الآيات الاولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ». «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ». وذلك لأنّ الحوادث التى تسبقها عظيمة وشديدة بحيث تكون آثارها واضحة فى كل ذرات الوجود.

فإنّ الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إنّ البشر يتغيّر كذلك كما يقول سبحانه فى الآية اللاحقة: «خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ».

أجل، بعض يسقط إلى قاع جهنم، وبعض آخر إلى أعلى عليين فى الجنة.

وفى الخصال عن الإمام على بن الحسين عليهما السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «خافضة خفضت واللَّه بأعداء اللَّه فى النار، رافعة رفعت واللَّه أولياء اللَّه إلى الجنة».

ثم يستعرض القرآن الكريم وصفاً أوسع فى هذا الجانب حيث يقول: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا».

يا له من زلزال عظيم وشديد إلى حدّ أنّ الجبال فيه تندكّ وتتلاشى. قال تعالى: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا».

«رُجّت»: من مادة «رجّ» على وزن (حجّ) بمعنى التحرّك الشديد للشىء وتقال رجرجة للإضطراب؛ و «بُسّت»: من مادة «بسّ» على وزن (حجّ) والأصل بمعنى تليّن الطحين وتعجنه بواسطة الماء؛ و «هباءً»: بمعنى غبار؛ و «منبث»: بمعنى منتشر.

وبعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة والحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس فى ذلك اليوم، حيث قسّم الناس إلى ثلاثة أقسام بقوله سبحانه: «وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَثَةً».

وحول القسم الأوّل يحدّثنا القرآن الكريم بقوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ». والمقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، وهذا الأمر رمز لأهل النجاة، ودليل الأمان للمؤمنين والصالحين فى يوم القيامة، كما ذكر هذا مراراً فى الآيات القرآنية.

عبارة «ما أصحاب الميمنة» هو بيان حقيقة السعادة التى ليس لها حدّ ولا يمكن تصوّرها لهؤلاء المؤمنين.

ثم يستعرض اللَّه تعالى المجموعة الثانية بقوله: «وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۲

الْمَشْئَمَةِ». حيث الشؤم والتعاسة، وإستلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التى هى رمز سوء عاقبتهم وعظيم جرمهم وجنايتهم، نتيجة عمى البصيرة والسقوط فى وحل الضلال. والتعبير ب «ما أصحاب المشئمة» هو الآخر يعكس نهاية سوء حظّهم وشقاوتهم.

وأخيراً يصف المجموعة الثالثة أيضاً بقوله سبحانه: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».

(السابقون) ليسوا الذين سبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل فى أعمال الخير والأخلاق والإخلاص، فهم اسوة وقدوة وقادة للناس، ولهذا السبب فهم من المقربين إلى الحضرة الإلهية.

وإذا فسّرت (السابقون) كما فى بعض الروايات الإسلامية بأنّها تعنى الأشخاص الأربعة وهم «هابيل»، و «مؤمن آل فرعون»، و «حبيب النجار» الذين تميّز كل منهم بأسبقيته فى قومه، وكذلك «أمير المؤمنين» عليه السلام الذى هو أوّل من دخل فى الإسلام من الرجال،

فإنّ هذا التفسیر هو بیان للمصادیق الواضحة، ولیس تحدیداً لمفهوم الآیة.

ثم یوضّح المقام العالی للمقربین، حیث یقول سبحانه: «فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ».

التعبیر ب «جَنَّاتِ النَّعِیمِ» یشمل أنواع النعم المادیة والمعنویة.

ویشیر فی الآیة اللاحقة إلی الحالة العددیة فی الامم السابقة وفی هذه الامة أیضاً حیث یقول سبحانه: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِینَ». أی أنّهم جماعة کثیرة فی الامم السالفة والأقوام الاولی.

«وَقَلِیلٌ مِّنَ الْأَخِرِینَ».

وطبقاً لهاتین الآیتین فإنّ قسماً کبیراً من المقربین هم من الامم السابقة، وقسم قلیل منهم فقط هم من امة محمّد صلی الله علیه و آله.

عَلَی سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّکِئِینَ عَلَیْهَا مُتَقَابِلِینَ (۱۶) یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَکْوَابٍ وَ أَبَارِیقَ وَ کَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ (۱۸) لَا یُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لَا یُنْزِفُونَ (۱۹) وَ فَاکِهَةٍ مِمَّا یَتَخَیَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَیْرٍ مِمَّا یَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِینٌ (۲۲) کَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَکْنُونِ (۲۳) جَزَاءً بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۲۴) لَا یَسْمَعُونَ فِیهَا لَغْواً وَ لَا تَأْثِیماً (۲۵) إِلَّا قِیلًا سَلَاماً سَلَاماً (۲۶) الجنة بإنتظار المقربین: هذه الآیات تتحدث عن أنواع نعم الجنة التی أعدّها اللَّه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۳

سبحانه للقسم الثالث من عباده المقربین، والتی کل واحدة منها أعظم من اختها وأکرم ..

وقد لخّصت هذه النعم بسبعة أقسام:

یقول تعالی فی البدایة: «عَلَی سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ* مُّتَّکِئِینَ عَلَیْهَا مُتَقَابِلِینَ».

«سرر»: جمع «سریر» من مادة (سرور) بمعنی التخت الذی یجلس علیه المنعّمین فی مجالس الانس والسرور.

ونلاحظ استمرار الأوصاف الرائعة فی القرآن الکریم لسرر الجنة، ومجالس أهلها، ومنتدیات أحبّتها مما یدل علی أنّ من أهم نعم وملذات هؤلاء هی جلسات الانس هذه ..

ثم یتحدث سبحانه عن نعمة اخری لهم حیث یقول: «یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ».

التعبیر ب «یطوف» من مادة (طواف) إشارة إلی استمرار خدمة هؤلاء (الطوافین) لضیوفهم.

والتعبیر ب «مخلّدون» إشارة إلی خلود شبابهم ونشاطهم وجمالهم وطراوتهم، والأصل أنّ جمیع أهل الجنة مخلّدون وباقون.

ویضیف القرآن أنّ هؤلاء الولدان یقدّمون لأصحاب الجنة أقداح الخمر وکؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنة: «بِأَکْوَابٍ وَأَبَارِیقٍ وَکَأْسٍ مِّن مَّعِینٍ» (۱).

وشرابهم هذا لیس من النوع الذی یأخذ لباب العقل والفکر، حیث یقول تعالی: «لَّا یُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا یُنزِفُونَ» (۲).

إنّ الحالة التی تنتابهم من النشوة الروحیة حین تناولهم لهذا الشراب لا یمکن أن توصف، إذ تغمر کل وجودهم بلذة لیس لها مثیل.

ثم یشیر سبحانه إلی رابع وخامس قسم من النعم المادیة التی وهبها اللَّه للمقربین فی الجنة، حیث یقول سبحانه: «وَفَاکِهَةٍ مِّمَّا یَتَخَیَّرُونَ». «وَلَحْمِ طَیْرٍ مِّمَّا یَشْتَهُونَ».

---

(۱) «أکواب»: جمع «کوب» بمعنی القدح أو الإناء الذی لا عروة له؛ و «أباریق»: جمع «إبریق» وهی فی الأصل اخذت من الفارسیة (أبریز) بمعنی الأوانی ذات الید من جهة، ومن الاخری ذات أنبوب لصبّ السائل؛ و «کأس»: تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة یفیض من جوانبه؛ و «معین» من مادة «معن» بمعنی الجاری.

(۲) «یصدّعون»: من مادة «صداع» علی وزن (حباب)، بمعنی وجع الرأس، وهذا المصطلح فی الأصل من (صدع) بمعنی (الإنفلاق) لأنّ الإنسان عندما یصاب بوجع رأس شدید فکأنّ رأسه یرید أن ینفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الکلمة قد استعملت فی هذا

المعنى؛ و «ينزفون»: من أصل «نزف» بمعنى سحب جميع مياه البئر بصورة تدريجيّة، وتستعمل أيضاً حول (السُكْرُ) وفقدان العقل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۴

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصة عند أكلها قبل الطعام. والذى يستفاد من بعض الروايات أنّ غصون أشجار الجنة تكون فى متناول أيدى أهل الجنة، بحيث يستطيعون بكل سهولة أن يتناولوا أى نوع من الفاكهة مباشرة، وهكذا الحال بالنسبة لبقيّة الأغذية الموجودة فى الجنة، إلّاأنّ مما لا شك فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلّدين) له صفاء خاص ولطف متميز حيث إنّ تقديم الطعام يعبّر عن مزيد الإحترام والإكرام لأهل الجنة.

ثم يشير سبحانه إلى سادس نعمة وهى الزوجات الطاهرات الجميلات، حيث يقول سبحانه: «وَحُورٌ عِينٌ». «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ».

«حور»: جمع حوراء وأحور، ويقال للشخص الذى يكون سواد عينه شديداً وبياضها شفافاً؛ و «عين»: جمع عيناء وأعين، بمعنى العين الواسعة.

«مكنون»: بمعنى مستور، والمقصود هنا الاستتار فى الصدف. أنّهن مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامة، لا يد تصل إليهن ولا عين تقع عليهن.

وبعد الحديث عن هذه المنح، والعطايا المادية الستّة، يضيف سبحانه: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». كى لا يتصور أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافاً، بل إنّ الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لنيلها والحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمر الخالص حتى تكون هذه الألطاف الإلهية من نصيبه.

ويلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطى معنى الإستمرار.

ويتحدث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنة، وهى التى تتسّم بالطابع الروحى المعنوى، حيث يقول تعالى: «لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا».

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، ولا تهم، ولا إفتراءات، ولااستهزاء ولا غيبة ولا ألفاظ نابية وعبارات لاذعة ... وليس هنالك لغو ولا كلام فارغ.

ثم يضيف سبحانه: «إِلَّا قِيلًا سَلمًا سلمًا».

سلام وتحية من اللّه، ومن الملائكة المقربين، وسلامهم وتحيّتهم لبعضهم البعض فى تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء والتى تفيض بالودّ والاخوّة والصدق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۵

وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (۳۵) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (۳۶) عُرُباً أَتْرَاباً (۳۷) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۴۰) أصحاب اليمين وهباتهم: بعد بيان الهبات والنعم الماديّة والمعنوية (للمقرّبين) يأتى الدور فى الحديث عن (أصحاب اليمين)، ويشير سبحانه إلى نعم ستّ، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى فى مقابل سبع نِعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

تبدأ الآيات فى الحديث عنهم أوّلًا من حيث مقامهم العالى، حيث يقول عزّ وجل:

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ».

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف لهؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل فى موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، وهو تعبير عن المقام العالى لأصحاب اليمين.

وتشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمة منحت لهذه الجماعة، حيث تقول: «فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ».

وفى تفسير روح المعانى: كان أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقولون: إنّ اللَّه تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابى يوماً، فقال: يا رسول اللَّه! لقد ذكر اللَّه فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أنّ فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها؟

قال: «وما هى». قال: السدر، فإنّ له شوكاً.

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أليس اللَّه يقول: فى سدر مخضود، خضد اللَّه شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة، وأنّ الثمرة من ثمره تفتق اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر».

ثم يأتى الحديث عن ثانى هبة لهم حيث يقول سبحانه: «وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ».

«الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون والرائحة، وذكر البعض أنّها شجرة الموز التى تتميّز بأوراق عريضة وخضراء وجميلة، وفاكهتها حلوة ولذيذة.

و «منضود»: من مادة (نضد) بمعنى متراكم.

وقال بعض المفسرين: بالنظر إلى أنّ أوراق شجر السدر فى غاية الصغر، وأوراق شجر

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۶

الموز فى غاية الكبر فقوله تعالى «فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ» اشارة إلى ما يكون ورقه فى غاية الصغر من الأشجار وإلى ما يكون ورقه فى غاية الكبر منها فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر «۱».

ثم يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ».

فسّر البعض هذا (الظل الواسع) بحالة شبيهة للظل الذى يكون ما بين الطلوع الفجر إلى طلوع الشمس من حيث إنتشاره فى كل مكان، وقد نقل حديث للرسول صلى الله عليه و آله بهذا المعنى فى روضة الكافى «۲».

وينتقل الحديث إلى مياه الجنة حيث يقول سبحانه: «وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ».

«مسكوب»: من مادة «سكب» تعنى فى الأصل الصبّ، ولأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلّال فهى إحدى الهبات التى منحها اللَّه لأهل الجنة.

ومن الطبيعى أنّ هذه الجنة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لابدّ أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه فى ذكر خامس نعمة:

«وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ».

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها فى فصول معيّنة من أسابيع أو شهور.

ثم يشير سبحانه إلى نعمة اخرى حيث يقول: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ». أى الزوجات الرفيعات القدر والشأن.

«فرش»: جمع فراش وتعنى فى الأصل كل فراش يفرش ولهذا التناسب فإنّها تستعمل فى بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلًا أو امرأة).

ويصف القرآن الكريم زوجات الجنة بقوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً».

وهذه الآية لعلّها تشير إلى الزوجات المؤمنات فى هذه الدنيا حيث يمنحهنّ اللَّه سبحانه خلقاً جديداً فى يوم القيامة، ويدخلن الجنة وهنّ فى قمّة الحيوية والشباب والجمال والكمال الظاهر والباطن، وبشكل يتناسب مع كمال الجنة وخلوّها من كل نقص وعيب.

ثم يضيف تعالى: «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا».

واحتمال أن يكون الوصف مستمرّاً، كما صرّح كثير من المفسرين بذلك، واشير له فى

---

(۱) التّفسير الكبير، الفخر الرازى ۲۹/ ۱۶۲.

(۲) روضة الكافى ۸/ ۹۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۷

الروايات الإسلامية أيضاً، حيث الزواج لا يغيّر وضعهن ويبقين أبكاراً «۱».

ويضيف فى وصفهن بوصف آخر فيقول تعالى: «عُرُبًا».

«عُرُباً»: جمع «عروبة» بمعنى المرأة التى يحكى وضع حالها عن مقام عفّتها وطهارتها، وعمّا تكنّه من المحبة لزوجها؛ و «إعراب»: معناه هو نفس مدلول الإظهار، ويأتى هذا المصطلح أيضاً بمعنى الفصاحة ولطافة الكلام، ويمكن جمع المعنيين فى هذه الآية.

والوصف الآخر لهن: «أَتْرَابًا». أى: أنّها متماثلات فى الجمال وأتراب فى الظاهر والباطن، ومتماثلات فى العمر مع أزواجهن.

«أتراب»: جمع «ترب» بمعنى المثل والشبيه. إنّ هذا الشبه والتماثل يمكن أن يكون فى أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهن، كى يدركن إحساسات ومشاعر أزواجهن كاملة.

ثم يضيف تعالى: «لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ».

وهذا تأكيد جديد على إختصاص هذه الصفات والنعم الإلهية بهم.

وفى نهاية هذا العرض يقول سبحانه: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ».

«ثلّة»: فى الأصل بمعنى قطعة مجتمعة من الصوف، ثم اطلقت على كل مجموعة من الناس عظيمة ومتماسكة، وبهذا الترتيب فإنّ مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الامم السابقة، ومجموعة عظيمة من الامة الإسلامية، لأنّ بين المجموعتين كثير من الصالحين والمؤمنين، بالرغم من أنّ السابقين للإيمان فى الامة الإسلامية أقلّ من السابقين للإيمان فى الامم السابقة، وذلك لكثرة تلك الامم وكثرة أنبيائها.

وَ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (۴۱) فِى سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (۴۳) لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (۴۵) وَ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (۴۶) وَ كَانُوا يَقُولُونَ أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (۴۹) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰) العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال: بعد الاستعراض الذى مرّ بنا حول النعم والهبات العظيمة التى منحها اللّه سبحانه للمقربين من عباده ولأصحاب اليمين من أوليائه، يتطرق

---

(۱) روح المعانى ۲۷/ ۱۴۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۸

الآن إلى ذكر المجموعة الثالثة (أصحاب الشمال) والعذاب المؤلم والعاقبة السيئة التى حلّت بهم، فى عملية مقارنة لوضع المجموعات الثلاثة، حيث يقول البارىء: «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ». أصحاب الشمال هم الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى إشارة إلى سوء عاقبتهم، وأنّهم من أهل المعاصى والذنوب.

ثم يشير سبحانه إلى ثلاثة أنواع من العقوبات التى يواجهونها، الهواء الحارق القاتل من جهة: «فِى سَمُومٍ»، والماء المغلى المهلك من جهة اخرى: «وَحَمِيمٍ»، وظل الدخان الخانق الحارّ من جهة ثالثة: «وَظِلّ مِّن يَحْمُومٍ».

هذه الألوان من العذاب تحاصرهم وتطوقهم وتسلب منهم الصبر والقدرة.

ثم يضيف البارىء مؤكّداً فيقول: «لَّابَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ».

المظلة عادةً تحمى الإنسان من الشمس والمطر والهواء ولها منافع اخرى، والظل المشار إليه فى الآية الكريمة ليس له من هذه الفوائد شىء يذكر.

ومن الطبيعى أنّ مظلّة من الدخان الأسود الخانق لا ينتظر منها إلّاالشر والضرر.

وبالرغم من أنّ جزاء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلّاأنّ ذكر الأقسام الثلاثة يكفى لإعطاء فكرة عن بقية الأهوال.

وفى الآيات اللاحقة يذكر الأسباب التى أدّت بأصحاب الشمال إلى هذا المصير المخيف والمشؤوم، وذلك بثلاث جمل: أ) يقول سبحانه وتعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ».

«مترف»: من مادة «ترف» بمعنى التنعّم، وتطلق على الشخص الذى ملكته الغفلة وجعلته مغروراً سكراناً، وجرّته إلى الطغيان.

صحيح أنّ أصحاب الشمال ليسوا جميعاً من زمرة المترفين، إلّاأنّ المقصودين فى القرآن الكريم هم أربابهم وأكابرهم.

ب) ثم يشير سبحانه إلى العامل الذى كان مصدراً وسبباً لعذاب أصحاب الشمال، فيقول سبحانه: «وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ».

«الحنث»: فى الأصل يعنى كل نوع من الذنوب. فإنّ خصوصية أصحاب الشمال ليس فقط فى إرتكاب الذنوب ولكن فى الإصرار عليها.

ج) وثالث عمل سبب لهم هذا الويل والعذاب، هو أنّهم قالوا: «وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۷۹

وعلى هذا فإنّ إنكار القيامة والذى هو بحدّ ذاته مصدر للكثير من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، ومصدر لشقائهم. وتعبير «كَانُوا يَقُولُونَ» يوضّح لنا أنّهم كانوا يصرّون ويعاندون فى إنكار يوم القيامة أيضاً.

إنّ الذنوب الثلاثة التى اشير إليها فى الآيات الثلاثة السابقة كانت بمثابة نفى اصول الدين الثلاثة من قبل أصحاب الشمال.

ففى آخر آية تحدّث القرآن الكريم عن تكذيبهم ليوم القيامة، وفى الآية الثانية عن إنكار التوحيد، وفى الآية الاولى كان الحديث عن المترفين وهى إشارة إلى تكذيب الأنبياء.

إنّهم لم يكتفوا بما ذكروا وذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث قالوا بتعجب: «أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ».

ثم إنّ القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أن يجيبهم: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

«ميقات»: من مادة «وقت» بمعنى الزمان الذى يحدّد لعمل ما أو موعد. والمقصود من الميقات هنا هو نفس الوقت المقرر للقيامة.

ويستفاد من التعابير المختلفة التى وردت فى الآية السابقة والتأكيدات العديدة حول مسألة الحشر، أنّ حشر جميع الناس ينجز فى يوم واحد.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ معلومية يوم القيامة هى عند اللّه فقط، وإلّا فإنّ جميع البشر بما فيهم الأنبياء والمرسلون والمقربون والملائكة ليس لهم علم بتوقيتها.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۵۳) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (۵۴) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (۵۵) هذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (۵۶) عقوبات جديدة للمجرمين: هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ».

«زقّوم»: نبات مرّ نتن الرائحة وطعمه غير مستساغ، وفيه عصارة إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورّم، وتقال أحياناً لكل نوع من الغذاء المنفّر لأهل النار.

وجملة «فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشارة إلى الجوع الشديد الذى يصيبهم بحيث إنّهم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۰

يأكلون بنهم وشره من هذا الغذاء النتن وغير المستساغ جدّاً فيملؤون بطونهم. وعند تناولهم لهذا الغذاء السىء يعطشون ولكن ما هو شرابهم! يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ».

إنّ البعير الذى يبتلى بداء العطش فإنّ شدة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتى يهلك، وهذا هو نفس مصير «الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ» فى يوم القيامة.

وفى آخر آية- مورد البحث- يشير سبحانه إلى طبيعة مأكلهم ومشربهم فى ذلك اليوم حيث يقول: «هذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدّينِ».

ومن الطبيعى أنّ أهل النار ليسوا ضيوفاً، وأنّ الزقّوم والحميم ليس وسيلة لضيافتهم بل هو نوع من الطعن فيهم، وأنّه إذا كان كل هذا العذاب هو مجرد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تُصَدِّقُونَ (۵۷) أَ فَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ (۵۸) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (۵۹) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۶۰) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (۶۱) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ (۶۲) سبعة أدلة على المعاد: بما أنّ الآيات السابقة تحدثت عن تكذيب الضالين ليوم المعاد، فإنّ الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلة على هذه المسألة المهمة، كى يتركّز الإيمان وتطمئن القلوب بالوعود الإلهية التى وردت فى الآيات السابقة حول «المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال». يقول سبحانه فى المرحلة الاولى: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدّقُونَ».

أى لِمَ لا تصدّقون بالمعاد؟! لماذا تتعجبون من الحشر والمعاد الجسمى بعد أن تصبح أجسامكم تراباً؟ ألم نخلقكم من التراب أوّل مرّة؟ أليس حكم الأمثال واحداً؟

وفى الآية اللاحقة يشير البارىء إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول: «أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ».

وهل أنّ القادر على الخلق المتكرر يعجز عن إحياء الموتى فى يوم القيامة؟

ثم يستعرض ذكر الدليل الثالث حيث يقول سبحانه: «نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۱

إنّنا لن نغلب أبداً، وإذا قدّرنا الموت فلا يعنى ذلك أنّنا لا نستطيع أن نمنح العمر السرمدى، بل إنّ الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس ونأتى بآخرين محلّهم، وأخيراً نعيدكم خلقاً جديداً فى عالم لا تعلمون عنه شيئاً: «عَلَى أَن نُّبَدّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ».

ويمكن توضيح الدليل بالصورة التالية: إنّ اللَّه الحكيم الذى خلق الإنسان وقدّر له الموت فطائفة يموتون وآخرين يولدون باستمرار، من البديهى أنّ له هدف.

فإذا كانت الحياة الدنيا هى الهدف فالمناسب أن يكون عمر الإنسان خالداً وليس بهذا المقدار القصير المقترن مع ألوان الآلام والمشاكل.

وسنّة الموت تشهد أنّ الدنيا معبراً وليست منزلًا وأنّها جسر وليست مقصداً، لأنّها لو كانت مستقرّاً ومقصداً للزم أن تدوم الحياة فيها.

وفى آخر آية- مورد البحث- يتحدث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الاولى: إنّ خلق هذه الدنيا العظيمة وما فيها هل يمكن أن يكون لهدف صغير محدود، كأن يعيش الإنسان فيها بضعة أيام؟ كلّا ليس كذلك، وإلّا فإنّه يعنى أنّ خلق العالم سيكون بدون هدف، ولكن مما لا شك فيه أنّ هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شريف- مثل الإنسان- ليعرف اللَّه سبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد فى الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، وهذا دليل آخر على المعاد.

الثانية: هو أنّنا نلاحظ مشاهد المعاد فى هذا العالم تتكرر أمامنا فى كل سنة وفى كل زاوية وكل مكان، حيث مشهد القيامة والحشر فى عالم النبات، فتحيى الأرض الميتة بهطول الأمطار الباعثة للحياة. قال تعالى: «إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى «۱»».

أَ فَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ (۶۳) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (۶۴) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (۶۵) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (۶۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۶۷) هل أنتم الزارعون أم اللَّه: استعرضنا لحدّ الآن أربعة أدلة من الأدلة السبعة التى جاء

(۱) سورة فصّلت/ ۳۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۲

ذكرها فى هـذه السورة حول المعاد، والآيات- مورد البحث واللاحقـة لها- تسـتعرض الأدلـة الاخرى المتبقّيـة والتى كل منها مصـداق لقـدرة اللَّه اللاـ متناهيـة. فالـدليل الأـوّل يرتبـط بخلق الحبوب الغذائيـة، والثانى يرتبط بخلق الماء، والثالث يتعلق بالنار، وهـذه المحاور تشكّل الأركان الأساسية فى الحياة الإنسانية.

يقول سبحانه فى البداية: «أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ».

واللَّه سـبحانه هو الـذى يخلق فى وسـط هـذه البـذرة الحياة، فعنـدما توضع البـذرة فى محيط مهيّأ من حيث التربـة والضوء والماء، فإنّها تسـتفيد ابتـداءاً من المواد الغذائية المخزونة فيها إلى أن تصبـح برعماً وتولّد جذراً، ثم تنمو بسـرعة عجيبة مسـتفيدة من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض.

وفى الآية اللاحقة يؤكّد الدور الهامشى للإنسان فى نمو ورشد النباتات فيقول: «لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ».

«حطام»: من مادة «حطم» تعنى فى الأصل كسر الشيء، وغالباً ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة وسيقان النباتات الجافّة، والمقصود هنا هو التبن.

ويحتمل أيضاً أنّ المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور فى التربة وعدم نموّها.

نعم، تتعجبون وتغمركم الحيرة وتقولون: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» «۱».

وإذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا وتـدفعوا عن زرعكم الأضـرار والمصـير المـدمّر والنتيجـة البائسـة؟ وهـذا التحدى يؤكّد لنا أنّ جميع امور الخلق من اللَّه سبحانه.

أ فَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (۶۸) أ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (۶۹) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ (۷۰) أ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُـورُونَ (۷۱) أ أَنْتُمْ أَنْشَـأْتُمْ شَـجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِـئُونَ (۷۲) نَحْنُ جَعَلْنَاهَـا تَـذْكِرَةً وَ مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (۷۳) فَسَـبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۷۴) من الـذى خلق الماء والنار: يشـير سـبحانه فى هـذه الآيات إلى سادس وسابع دليل للمعاد فى هـذا القسم من آيات سورة الواقعة، التى تبيّن قدرة اللَّه تعالى على إحياء الموتى، بل

---

(۱) «مغرمون»: من مادة «غرامة» بمعنى الضرر وفقدان الوقت والمال.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۳

فى كل شىء: «أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ». «ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ».

«مزن»: يعنى (الغيوم البيضاء) وفسّرها البعض بأنّها (الغيوم الممطرة).

إنّ هـذه الآيات تجعل الوجـدان الإنسانى أمام اسـتفسارات عـدّة كى تأخذ إقراراً منه، حيث يسأل اللَّه سـبحانه: هل فكّرتم بالماء الذى تشربونه باستمرار والذى هو سرّ حياتكم؟

وإذا لاحظنا فى الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب- فقط- وعدم التحدث عن تأثيره فى حياة الحيوانات أو النباتات فإنّ السبب هو الأهميـة البالغـة للماء فى حياة الإنسان نفسه، بالإضافـة إلى أنّه قـد اشير له فى الآيات السابقة فى حديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

وأخيراً- ولإكمال البحث فى الآيـة اللاحقـة- يقول سـبحانه: «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْـكُرُونَ». «اجاج»: من مادة «أجّ» وقد أخذت فى الأصـل مـن «أجيـج النـار» يعنى إشـتعالها وإحتراقهـا، ويقـال «اجـاج» للميـاه الـتى تحرق الفمّ عنـد شـربها لشـدّة ملوحتهـا ومرارتها وحرارتها.

وأخيراً نصل إلى سابع- وآخر- دليل للمعاد فى هذه السلسلة من الآيات الكريمة، وهو خلق النار التى هى أهمّ وسيلة لحياة الإنسان وأكثرها أهمية له فى المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: «أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشُونَ». «تورون»: من مادة «ورى» بمعنى الستر، ويقال للنار التى تكون مخفية فى الوسائل التى لها القابلية على الإشتعال والتى تظهر بشرارة، ويقال «ورى» و «ايراء».

جملة (تورون)- بمعنى إشعال النار- بالرغم من أنّها فسّرت هنا بما يستفاد منه توليد النار، إلّاأنّه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضاً كالحطب باعتباره ناراً خفيّة تظهر وقت توفّر الشروط المناسبة لها.

وفى الآية اللاحقة يضيف مؤكّداً الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ».

إنّ عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان فى الحشر من جهة، ومن جهة اخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۴

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» «۱». جملة «مَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ» إشارة إلى الفوائد الدنيوية لهذه النار.

يستنتج سبحانه نتيجة مهمّة بعد ما ركّز على أهميّة هذه النعم للإنسان وذلك بتسبيحه والشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم ... فيقول سبحانه فى آخر آية مورد البحث: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبّكَ الْعَظِيمِ».

إنّ اللّه الذى خلق كل هذه النعم، والتى كل منها تذكّرنا بقدرته وتوحيده وعظمته ومعاده، لائق للتسبيح والتنزيه من كل عيب ونقص. إنّه ربّ، وكذلك فإنّه «عظيم» وقادر ومقتدر، وبالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية هو الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله إلّاأنّ من الواضح أنّ جميع البشر هم المقصودون.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (۷۷) فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ (۷۸) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (۷۹) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۸۰) أ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (۸۲) المطهّرون ومعرفة أسرار القرآن: استمراراً للأبحاث التى جاءت فى الآيات السابقة، والتى تركّز الحديث فيها حول الأدلة السبعة الخاصة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهمية القرآن الكريم باعتباره يشكّل مع موضوع النبوة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ والمعاد والتى بمجموعها تمثّل أهمّ الأركان العقائدية. يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه:

«فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ».

وعندما يلاحظ الإنسان- طبقاً لتصريحات العلماء- أنّ فى (مجرّتنا) فقط ألف مليون نجمة، وتوجد فى الكون مجرّات كثيرة، وكل واحدة منها لها مسار خاص، عندئذ ستتوضّح لنا أهمية هذا القسم القرآنى.

ولهذا السبب فإنّه تعالى يضيف فى الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ».

وهذه بحد ذاتها تعتبر إعجازاً علميّاً للقرآن الكريم، حيث فى الوقت الذى كانت تعتبر

---

(۱) جامع البيان ۲۷/ ۲۶۲؛ وروح المعانى ۲۷/ ۱۵۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۵

النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فإنّ مثل هذا البيان القرآنى الرائع فى ظلّ ظروف وأوضاع يخيّم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادى.

وتوضّح الآية اللاحقة ما هو المقصود من ذكر هذا القسم؟ حيث يقول سبحانه: «إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ».

وبهذه الصورة فإنّه يردّ على المشركين المعاندين الذين يصرّون بإستمرار على أنّ هذه الآيات المباركة هى نوع من التكهّن- والعياذ باللَّه- أو أنّه حديث جنونى أو شعر، أو أنّه من قبل الشيطان ... فيردّ عليهم سبحانه بأنّه وحى سماوى وحديث بيّن وعظمته وأصالته لا غبار عليها، ومحتواه يعبّر عن مبدأ نزوله.

نعم، إنّ القرآن كريم وقائله كريم ومن جاء به كذلك، وأهدافه كريمة أيضاً.

ثم يستعرض الوصف الثانى لهذا الكتاب السماوى العظيم حيث يقول تعالى: «فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ».

إنّه فى «لوح محفوظ» فى علم اللَّه، محفوظ من كل خطأ وتغيير وتبديل.

وفى ثالث وصف له يقول سبحانه: «لَّايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

ذكر الكثير من المفسرين- تماشياً مع بعض الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام- بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

كما اعتبر بعضهم أنّها إشارة إلى أنّ الحقائق والمفاهيم العالية فى القرآن الكريم لا يدركها إلّا المطهّرون. فإنّ طهارة الروح فى طلب الحقيقة تمثّل حدّاً أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، وكلّما كانت الطهارة والقداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن ومحتوياته بصورة أفضل.

وفى رابع وآخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: «تَنزِيلٌ مّن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ اللَّه المالك والبارىء لجميع الخلق، قد نزّل هذا القرآن لهداية البشر، وقد أنزله سبحانه على قلب النبى الطاهر، وكما أنّ العالم التكوينى صادر منه وهو تعالى رب العالمين فكذلك الحال فى المجال التشريعى، فكل نعمة وهداية فمن ناحيته ومن عطائه.

ثم يضيف سبحانه: «أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ». هل أنتم بهذا القرآن وبتلك الأوصاف المتقدمة تتساهلون، بل تنكرونه وتستصغرونه فى حين تشاهدون الأدلة الصادقة والحقّة بوضوح، وينبغى لكم التسليم والقبول بكلام اللَّه سبحانه بكل جديّة، والتعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشك فيها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۶

عبارة «هذا الحديث» فى الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم.

«مدهنون»: فى الأصل من مادة «دهن» بالمعنى المتعارف عليه، ولأنّ الدهن يستعمل للبشرة وامور اخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة والمرونة، وفى بعض الأحيان بمعنى الضعف وعدم التعامل بجدية ... ولأنّ المنافقين والكاذبين غالباً ما يتّصفون بالمداراة والمصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحياناً بمعنى التكذيب والإنكار، ويحتمل أن يكون المعنيان مقصودان فى الآية. وفى آخر آية- مورد البحث- يقول سبحانه إنّكم بدلًا من أن تشكروا اللَّه تعالى على نعمه ورزقه وخاصة نعمة القرآن الكبيرة، فإنّكم تكذّبون به: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذّبُونَ».

فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (۸۶) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۸۷) عندما تصل الروح إلى الحلقوم: تكملة لأبحاث المعاد والردّ على المنكرين والمكذبين فإنّ القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبّرة ومجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه:

«فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ» ولا تستطيعون عمل شىء من أجله.

والمخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته فى ساعة الاحتضار من جهة، ويلاحظون ضعفه وعجزه من جهة ثانية، وتتجلّى لهم قدرة اللَّه تعالى على كل شىء، حيث إنّ الموت والحياة بيده، وأنّهم- أى أقاربه- سيلاقون نفس المصير.

ثم يضيف سبحانه: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلكِن لَّاتُبْصِرُونَ».

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذى يجول فى خواطر المحتضر؟ وما هى الإزعاجات التى تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمرنا

بقبض روحه فى وقت معيّن، إنّكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، ولا تعلمون كيفية إنتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة.

ثم للتأكيد الأشد فى توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: «فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ ضعفكم هذا دليل أيضاً على أنّ مالك الموت والحياة واحد، وأنّ الجزاء بيده، وهو الذى يحى ويميت.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۷

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (۸۹) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (۹۰) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (۹۱) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (۹۲) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (۹۳) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (۹۴) إِنَّ هذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۹۶) مصير الصالحين والطالحين: هذه الآيات نوع من الخلاصة للآيات الاولى والأخيرة من هذه السورة، كما أنّها تجسّد حالة التفاوت بين البشر فى حالة الاحتضار، وكيف أنّ قسماً منهم يلفظون أنفاسهم بهدوء وراحة فى تلك اللحظات الصعبة، وآخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، ويسيطر عليهم الخوف والاضطراب والهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة.

يقول سبحانه فى البداية: «فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ».

«روح»: على وزن (قول) فى الأصل بمعنى التنفّس؛ و «الريحان»: بمعنى النبات أو الشىء ذى العطر، ثم اصطلح على كل شىء باعث للحياة والراحة، كما أنّ الريحان يطلق على كل نعمة ورزق كريم. وبناءً على هذا فإنّ الروح إشارة إلى كل الامور التى تخلّص الإنسان من الصعوبات ليتنفّس براحة، وأمّا الريحان فإنّه إشارة إلى الهبات والنعم التى تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

والجدير بالملاحظة أنّ الحديث عن «جنّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح والريحان وقد يستفاد من هذا أنّ الروح والريحان يكون من نصيب المؤمنين فى الإحتضار والقبر والبرزخ، وأمّا الجنة ففى الآخرة. فى الأمالى للصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: « «فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ» يعنى فى قبره، وجنّة نعيم يعنى فى الآخرة».

ثم يضيف سبحانه: «وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ». وهم تلك الثلّة الصالحة من الرجال والنساء الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز والنصر والنجاح «فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ».

وبهذا الترتيب فإنّ ملائكة اللّه المختصّين بقبض الروح فى لحظات الإنتقال من هذه الدنيا يوصلون سلام أصحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى- فى الآية (۲۶) من نفس السورة- فى وصف أهل الجنة وكلامهم: «إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۸

ثم تستعرض الآيات الكريمة القسم الثالث الذين مرّ ذكرهم فى أوائل هذه السورة عبر التصنيف الذى ذكر واصطلح عليهم ب (أصحاب الشمال)، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ».

نعم، إنّهم على مشارف الموت حيث يذوقون أوّل عذاب إلهى، ويتجرّعون مرارة عقاب يوم القيامة فى القبر والبرزخ.

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ قسماً من الأشخاص الضالين من فصيلة الأفراد المستضعفين أو الجهلة القاصرين الذين ليس لديهم إصرار وعناد على الباطل، يمكن أن تشملهم الألطاف الإلهية، أمّا المكذبون المعاندون فإنّهم سيبتلون بالمصير البائس والعاقبة السيّئة التى تقدّم ذكرها.

وفى نهاية هذا الحديث يضيف سبحانه: «إِنَّ هذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

إنّ التعبير ب (فسبّح)- الفاء تفريعية- هو إشارة إلى أنّ ما قيل حول الأقسام الثلاثة هو عين العدالة، وبناءً على هذا اعتبر (ربّك) منزّهاً من كل ظلم، وإذا ما اريد الإبتعاد عن مصير أصحاب الشمال فعلينا أن نتنزّه من كل شرك وظلم المتلازمان مع إنكار القيامة.

وفى الدرّ المنثور: لما نزلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» قال: «اجعلوها فى ركوعكم». ولما نزلت «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال: «اجعلوها فى سجودكم».

«نهاية تفسير سورة الواقعة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۸۹

۵۷. سورة الحديد

محتوى السورة: نستطيع أن نقسّم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

۱- الآيات الاولى من هذه السورة لها بحث جامع حول التوحيد وصفات اللَّه تعالى.

۲- يتحدث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهى الذى أشرق فى ظلمات الشرك.

۳- يستعرض وضع المؤمنين والمنافقين فى يوم القيامة، وبهذا تعكس السورة فى أبحاثها الاصول الإسلامية الثلاثة: التوحيد والنبوّة والمعاد.

۴- تتحدث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان والخروج من الشرك، وعن مصير الأقوام الضالة من الامم السابقة.

۵- جزء مهم من هذه السورة يتحدث حول الإنفاق فى سبيل اللَّه، وخصوصاً فى تقوية اسس الجهاد فى سبيل اللَّه، وأنّ مال الدنيا ليس له وزن وقيمة.

۶- فى قسم قصير من الآيات- إلّاأنّه وافٍ ومستدلّ- يأتى الحديث عن العدالة الاجتماعية والتى هى إحدى الأهداف الأساسية للأنبياء.

۷- وفيه تتحدث الآيات عن سلبية الرهبانية والإنزواء الاجتماعى وأنّ ذلك يمثّل إبتعاداً عن الخط الإسلامى.

إنّ تسمية السورة ب (الحديد) هو لما جاء فى الآية (۲۵) من ذكر كلمة الحديد.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۰

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) لَهُ مُلْکُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۳) فضيلة تلاوة السورة: وردت فى الروايات الإسلامية نقاط جديرة بالملاحظة حول فضيلة تلاوة سورة الحديد، ومما لا شك فيه أنّ المقصود فى التلاوة هى تلاوة التدبر والتفكر الذى يكون توأماً مع العمل.

فى الدرّ المنثور عن عرباض بن سارية أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إنّ فيهنّ آية أفضل من ألف آية».

وفى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام، لم يمت حتى يرى القائم عليه السلام، وإن مات كان فى جوار رسول اللَّه صلى الله عليه و آله».

آيات للمتفكّرين: إنّ هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذى يشتمل على عشرين صفة من صفات اللَّه سبحانه، تلك الصفات التى بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية باللَّه، وتعمّق معرفته بذاته المقدسة، وهذه الأوصاف والتى تشير إلى جانب من صفات جلاله وجماله، كلما تعمق العلماء وأهل الفكر فيها توصّلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهية المقدسة.

فى الكافى: عندما سئل الإمام علىّ بن الحسين عليهما السلام عن التوحيد فقال: «إنّ اللَّه عزّ وجل علم أنّه يكون فى آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل اللَّه تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» فمن رام وراء ذلك فقد هلك».

إنّ أوّل آية من هذه السورة بدأت بتسبيح وتنزيه اللَّه عزّ وجل حيث يقول سبحانه:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهية يعنى (العزة والحكمة) يتطرق إلى (مالكيته وتدبيره، وقدرته فى عالم الوجود) والتى هى من مستلزمات القدرة والحكمة، حيث يقول تعالى: «لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۱
إنّ مالكية اللَّه عزّ وجل لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية وتشريعية، إذ أنّها مالكية حقيقية وتكوينية. وهذا يعنى أنّ اللَّه سبحانه محيط بكل شىء، وأنّ جميع العالم فى قبضته وقدرته وتحت إرادته وأوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء والإفناء) والقدرة على كل شىء.
الاختلاف بين «العزّة» و «القدرة» هو أنّ العزّة أكثر دلالة على تحطيم المقابل والقدرة تعنى توفير الأسباب وإيجادها. وبناءً على هذا فإنّهما يعدّان وصفين مختلفين بالرغم من أنّهما مشتركان فى أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).
ثم يتطرق سبحانه إلى ذكر خمس صفات اخرى حيث يقول: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».
الوصف هنا ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» تعبير رائع عن أزليته وأبديته تعالى، لأنّنا نعلم أنّه وجود لا متناهى وأنّه (واجب الوجود) أى أنّ وجوده من نفس ذاته، وليس خارجاً عنه حتى تكون له بداية ونهاية، وبناءً على هذا فإنّه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد.
إنّه بداية عالم الوجود، وهو الذى سيبقى بعد فناء العالم أيضاً. وبناءً على هذا فإنّ التعبير ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» ليس له زمان خاصّ أبداً، وليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معينة.
والوصف ب «الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية- أى وجود اللَّه- بالنسبة لجميع الموجودات، أى إنّه أظهر من كل شىء لأنّ آثاره شملت جميع مخلوقاته فى كل مكان، وهو خفى أكثر من كل شىء أيضاً لأنّ كنه ذاته لم يتّضح لأحد.
فإنّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدمة هو ما جاء فى نهاية الآية الكريمة: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». إذ إنّ من كان فى البداية ويبقى فى النهاية، وموجود فى ظاهر وباطن العالم ...
سيكون عالماً بكل شىء قطعاً.
هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۵) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۶)
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۲
على عرش القدرة دائماً: تحدثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهية المقدسة، وتبيّن الآيات أعلاه أوصافاً اخرى حيث اشير فى الآية الاولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف اخرى من صفات جلاله وجماله. ويبدأ الحديث عن مسألة الخلقة حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ».
لقد ذكرت مسألة الخلقة فى (ستّة أيام) سبع مرّات فى القرآن الكريم، المرّة الاولى فى الآية (۵۴) من سورة الأعراف، والأخيرة هى هذه الآية مورد البحث (الحديد/ ۴).
فإنّ المقصود من (اليوم) فى هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيراً أو طويلًا حتى لو بلغ ملايين السنين.
ثم تتطرق الآيات إلى مسألة الحكومة وتدبير العالم حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».
إنّ زمام حكومة وتدبير العالم كانت دائماً بيده ولا زالت، وبدون شك فإنّ اللَّه تعالى ليس جسماً، ولذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطة، والتعبير كناية لطيفة عن الحاكمية المطلقة للَّهسبحانه ونفوذ تدبيره فى عالم الوجود.
ثم يستعرض نوعاً آخر من علمه اللا متناهى بقوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا».
وفى رابع وخامس صفة له سبحانه يركّز حول نقطة مهمة حيث يقول: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».
وكيف لا يكون معنا فى الوقت الذى نعتمد عليه، ليس فى إيجادنا فحسب، بل فى البقاء لحظة بلحظة- أيضاً- ونستمدّ منه العون، إنّه

روح عالم الوجود.

الحقيقـة أنّ الاحساس بأنّ اللَّه معنا فى كل مكان يعطى للإنسان عظمة وجلالًا من جهة، ومن جهة اخرى يخلق فيه إعتماداً على النفس وشجاعة وشهامة، ومن جهة ثالثة فإنّه يثير إحساساً شديداً بالمسؤولية، لأنّ اللَّه حاضر معنا فى كل مكان، وناظر ومراقب لأعمالنا، وهذا أكبر درس تربوى لنا. وهذا الاعتقاد يمثّل دافعاً جدّياً للتقوى والطهارة والعمل الصالح فى الإنسان، ويعتبر رمز عظمته وعزّته.

وبعد مسألة الحاكمية والتدبير يأتى الحديث عن مسألة مالكيته سبحانه فى كل عالم الوجود، حيث يقول: «لَّهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۳

وأخيراً يشير إلى مسألة مرجعيته فيقول تعالى: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

نعم، عندما يكون الخالق والمالك والمدبر معنا فى كل مكان، فمن البديهى أن يكون رجوعنا ورجوع أعمالنا إليه كذلك.

وفى آخر آية مورد للبحث يشير إلى صفتين اخريين بقوله تعالى: «يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ».

بالتدريج ينقص أحد الوقتين (الليل والنهار) ليضيف للآخر، وتبعاً لذلك يتغير طول النهار والليل فى السنة، وهذا التغير يكون مصحوباً بالفصول الأربعة فى السنة مع كل البركات التى تكون مختصة فى هذه الفصول لبنى الإنسان.

وتفسير آخر لهذه الآية هو: إنّ شروق وغروب الشمس لن يحدثا فجأة ودون مقدّمات، بل يتمّ هذا التغيير بصورة تدريجية حتى يتهيّأ الجميع لذلك.

ويضيف سبحانه فى النهاية: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فكما أنّ أشعة الشمس الباعثة للحياة تنفذ فى أعماق ظلمات الليل، وتضيء كل مكان، فإنّ اللَّه عزّ وجل ينفذ كذلك فى كل زوايا قلب وروح الإنسان، ويطّلع على كل أسراره.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷) وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۹) وَ مَا لَكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قَاتَلُوا وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۰) مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۱) الإيمان والإنفاق أساسان للنجاة: بعد البيان الذى تقدم حول دلائل عظمة اللَّه فى عالم الوجود وأوصاف جماله وجلاله، تلك الصفات المحفّزة للحركة باتّجاه اللَّه تعالى، ننتقل الآن إلى جوّ هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان والعمل ...

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۴

يقول سبحانه فى البداية: «ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

إنّ هـذه الـدعوة دعوة عامـة لجميع البشـر، فهى تـدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل وأرسـخ، وتدعو- أيضاً- غير المؤمنين إلى التصديق والإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه و آله، وهذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأماً مع أدلة التوحيد التى تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

ثم يدعو إلى أحد الالتزامات المهمة للإيمان وهى: (الإنفاق فى سبيل اللَّه) حيث يقول تعالى: «وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ».

إنّ للإنفاق مفهوماً واسعاً ولا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل- أيضاً- العلم والهداية والسمعة الاجتماعية ورؤوس الأموال المعنوية والمادية.

ثم يقول تعالى فى الحثّ على الإنفاق: «فَالَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفِقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ».

إنّ وصف الأجر بأنّه «كبير» إشارة إلى عظمة الألطاف الإلهية والهبات الإلهية، وأبديتها وخلوصها ودوامها ليس فى الآخرة فحسب، بل

فى عالم الدنيا أيضاً حيث إنّ قسماً من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان فى الدنيا.

وبعد الأمر بالإيمان والإنفاق يعطى بياناً لكل منهما، وهو بمثابة الاستدلال والبرهان، وذلك بصورة استفهام توبيخى ابتداءاً، حيث يستفسر عن علة عدم قبول دعوة الرسول صلى الله عليه و آله حول الإيمان باللَّه فيقول سبحانه: «وَمَا لَكُمْ لَاتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

يعنى أنّكم إذا كنتم مستعدّين حقيقة وصدقاً لقبول الحق، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة والعقل، وكذلك عن طريق النقل.

وجاءت الآية اللاحقة لتأكيد وتوضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: «هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

إنّ كلمة (رؤوف) جاءت هنا إشارة إلى محبته ولطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، فى حين أنّ كلمة (رحيم) إشارة إلى رحمته بخصوص العاصين.

ثم يأتى استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». أى أنّكم سترحلون عن هذه الدنيا وتتركون كل ما منحكم اللَّه فيها، وتذهبون إلى عالم آخر، فلماذا لا تستفيدون من هذه الأموال التى جعلها اللَّه تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق.

ولأنّ للإنفاق قيماً مختلفة وأحوالًا متفاوتة الشرائط والظروف، يضيف يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (۱۳) يُنَادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۱۴) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۵)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۵

سبحانه: «لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ». أى أنّ الذين بذلوا المال والنفس فى الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج وهدوء العاصفة. لذلك وللتأكيد أكثر يضيف تعالى: «أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا».

وبما أنّ القسمين (الإنفاق والجهاد) مشمولان بعناية الحق تعالى مع اختلاف الدرجة، فيضيف فى النهاية: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى .

وهذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا فى هذا الطريق.

وكلمة (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كل ثواب وجزاء وخير فى الدنيا والآخرة.

ولكون قيمة العمل بإخلاصه للَّهسبحانه فيضيف فى نهاية الآية: «وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

نعم، إنّه يعلم بكيفية وكميّة أعمالكم. وكذلك نيّاتكم ومقدار خلوصكم، ولغرض الحثّ على ضرورة الإنفاق فى سبيل اللَّه، ومن خلال تعبير رائع يؤكّد سبحانه ذلك فى الآية مورد البحث بقوله: «مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا». فينفق مما آتاه اللَّه فى سبيل اللَّه «فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

والمراد من الإقراض للَّهتعالى هو كل إنفاق فى سبيله، وأحد مصاديقه المهمة الدعم الذى يقدّم للرسول صلى الله عليه و آله وأئمة المسلمين من بعده، كى يستعمل فى الموارد اللازمة لإدارة الحكومة الإسلامية. لذا نقل فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه لم يسأل خلقه مما فى أيديهم قرضاً من حاجة به إلى ذلك، وما كان للَّهمن حق فإنّما هو لوليّه».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۶

لقد بشّر اللَّه المنفقين فى آخر آية من الآيات السابقة بالأجر الكريم، واستمراراً للبحث فالآيات أعلاه تتحدث عن هذا الأجر، وتبيّن

مدى قيمته وعظمته فى اليوم الآخر. يقول سبحانه: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم».

والمقصود من النور– فى الواقع– تجسيم نور الإيمان، لأنّ فى ذلك اليوم تتجسّد أعمال البشر، فيتجسّد الإيمان الذى هو نور هدايتهم بصورة نور ظاهرى، ويتجسّد الكفر الذى هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهرية.

وهنا يصدر هذا النداء الملائكى بإحترام للمؤمنين: «بُشْرَيكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

أمّا المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام والكفر والذنوب والمعصية، فإنّ صراخهم يعلو فى مثل تلك الساعة ويلتمسون من المؤمنين شيئاً من النور، لكنّهم يواجهون بالردّ والنفى، كما فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ».

ويأتى الجواب على طلبهم بقوله تعالى: «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا».

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التى تركتموها وراءكم، وذلك بإيمانكم وأعمالكم الصالحة، إلّاأنّ الوقت انتهى، وفاتت الفرصة عليكم ولا أمل هنا فى حصولكم على النور.

«فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ». وهذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص وأمره فريد، حيث إنّ كلًا من طرفيه مختلف عن الآخر تماماً، حيث: «بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ».

ويمكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنة ويتحسّرون عليها، أو أنّ من كان قليل التلوّث بالذنوب وقد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها ويكون مع المؤمنين فى نعيمهم.

غير أنّ هذا الحائط ليس من النوع الذى يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: أنّ المنافقين «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ». لقد كنّا نعيش معكم فى هذه الدنيا فما الذى حدث وإنفصلتم عنّا وذهبتم إلى الروح والرحمة الإلهية وتركتمونا فى قبضة العذاب؟

«قَالُوا بَلَى . كنّا معكم فى أماكن كثيرة فى الأزقّة والأسواق، فى السفر والحضر، وكنّا

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۷

أحياناً جيراناً أو فى بيت واحد ... نعم كنّا معاً، إلّاأنّ اختلافاتنا فى العقيدة والعمل كانت هى الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون فى خطّ منفصل عن خطّنا وكنتم غرباء عن اللّه فى الاصول والفروع، لذا فأنتم بعيدون عنّا، ثم يضيفون: لقد إبتليتم بخطايا وذنوب كثيرة من جملتها:

۱– «وَلكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ» وخدعتموها بسلوك طريق الكفر والضلال.

۲– «وَتَرَبَّصْتُمْ» وانتظرتم موت النبى وهلاك المسلمين وإنهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهرّب من إنجاز كل عمل إيجابى وكل حركة صحيحة، حيث تتعلّلون وتماطلون وتسوّفون إنجازها.

۳– «وَارْتَبْتُمْ» فى المعاد وحقّانية دعوة النبى والقرآن ..

۴– وخدعتكم الآمال «وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ».

هذه الأمانى لم تعطكم مجالًا– حتى لحظة واحدة– للتفكر الصحيح، لقد كنتم مغمورين فى تصوراتكم وتعيشون فى عالم الوهم والخيال، واستولت عليكم امنية الوصول إلى الشهوات والأهداف المادية.

۵– «وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ». إنّ الشيطان غرّكم بوساوسه فى مقابل وعد اللّه عزّ وجل، فتارةً صوّر لكم الدنيا خالدة باقية واخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع، وفى بعض الأحيان غرّكم بلطف اللّه والرحمة الإلهية، وأحياناً جعلكم تشكّون فى أصل وجود اللّه العظيم الخالق.

وأخيراً فإنّ المؤمنين– بلحاظ ما تقدّم– يخاطبون المنافقين بقولهم: «فَالْيَوْمَ لَايُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». وبهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفار أيضاً، وكلّهم رهينة ذنوبهم وأعمالهم القبيحة، ولا يوجد لهم أى طريق للخلاص.

ثم يضيف سبحانه: «مَأْوَيكَمُ النَّارُ هِىَ مَوْلكَمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الإنسان- عادةً- لكى ينجو من العقوبة المتوقعة فى الدنيا، يتوسل للخلاص منها إمّا بالغرامة المالية أو طلب العون والمساعدة من قوّة شفيعة، إلّاأنّه فى يوم القيامة تنقطع كل الأسباب والوسائل المادية المتعارف عليها فى هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة.

وبهذه الصورة يوضّح القرآن الكريم أنّ الوسيلة الوحيدة للنجاة فى ذلك اليوم هى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا، حتى أنّ دائرة الشفاعة محدودة للأشخاص الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيّئاً وليسوا من الغرباء مطلقاً عن الإيمان والذين قطعوا إرتباطهم بصورة كلية من اللَّه وأوليائه وعصوا أوامره.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۸

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (۱۶) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۷) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۸)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ الآية الاولى نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنّهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم فقالوا: حدثنا عما فى التوراة، فإنّ فيها العجائب. فنزلت «الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» إلى قوله «لَمِنَ الْغَافِلِينَ» «۱» فخبّرهم أنّ القرآن أحسن القصص وأنفع لهم من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء اللَّه. ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزلت آية «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا» «۲» فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء اللَّه. ثم عادوا فسألوا سلمان، فنزلت هذه الآية.

التّفسير

إلى متى هذه الغفلة: بعد ما وجّهت الآيات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة والتنبّهات الموقظة، وبيّنت المصير المؤلم للكفّار والمنافقين فى يوم القيامة، جاءت الآية الاولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجة كلية من ذلك، فتقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۳».

«تخشع»: من مادة «خشوع» بمعنى حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمى والروحى، حيث تنتاب الإنسان هذه الحالة- عادةً- مقابل حقيقة مهمّة أو شخصية كبيرة.

---

(۱) سورة يوسف/ ۱- ۳.

(۲) سورة الزمر/ ۲۳.

(۳) «يأن»: من مادة إنا، على وزن (ندا) ومن مادة (أناء) على وزن جفاء بمعنى الإقتراب وحضور وقت الشيء.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۹۹

ومن الواضح أنّ ذكر اللَّه عزّ وجل إذا دخل أعماق روح الإنسان، وسمع الآيات القرآنية بتدبّر فإنّها تكون سبباً للخشوع، والقرآن الكريم هنا يلوم بشدة قسماً من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الامور، لأنّه قد إبتلى كثير من الامم السابقة بمثل هذا من الغفلة والجهل.

وهذه الغفلة تؤدّى إلى قساوة القلب وبالتالى إلى الفسق والعصيان.

إنّ آية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...» من الآيات المثيرة فى القرآن الكريم، حيث تليّن القلب، وترطّب الروح وتمزّق حجب الغفلة. لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أنّ أفراداً مذنبين جدّاً قد هداهم اللَّه إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التى وقعت

فى نفوسهم كالصاعقة، وأيقظتهم من سباتهم وغفلتهم التى كانوا فيها، ولهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد منها، حتى أنّ البعض منهم أصبح فى صفّ الزهّاد والعبّاد. مختصر الامثل ج۵ ۱۱۹

ولأنّ إحياء القلوب الميتة لا- يكون إلّابالذكر الإلهى، الحياة الروحية التى لن تكون إلّا بظل الخشوع والخضوع وخاصة فى أجواء القرآن الكريم ... لذا فإنّ القرآن يشبّه عملية إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضى الميتة، فكما أنّ هذه تحيا ببركة نزول الأمطار كذلك فإنّ القلوب تحيا بذكر اللَّه سبحانه ... حيث يضيف سبحانه فى الآية اللاحقة: «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

هذه الآية تشير إلى إحياء الأراضى بوسيلة المطر، كذلك فإنّ إحياء القلوب الميتة يكون بواسطة ذكر اللَّه وقراءة القرآن المجيد الذى نزل من سماء الوحى على القلب الطاهر للنّبى محمّد صلى الله عليه و آله وكلاهما جديران بالتدبر والتعقل.

ويرجع مرّة اخرى فى الآية اللاحقة إلى مسألة الإنفاق، والتى هى إحدى ثمار شجرة الإيمان والخشوع، حيث يتكرر نفس التعبير الذى قرأناه فى الآيات السابقة مع إضافة، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

إنّ المقصود من القرض الحسن للَّهفى هذه الآيات والآيات المشابهة هو الإنفاق فى سبيل اللَّه، بالرغم من أنّ القرض لعباد اللَّه هو من أفضل الأعمال أيضاً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۰

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۹) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (۲۰) استمراراً للبحث الذى تناولته الآيات السابقة فى بيان حال المؤمنين وأجرهم عند اللَّه تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصّدّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبّهِمْ».

«الصدّيق»: صيغة مبالغة من «الصدق» بمعنى الشخص الذى يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدّق عمله قوله، وهو النموذج التام للصدق.

«شهداء»: جمع «شهيد» بمعنى الحضور مع المشاهدة. إلّاأنّ المراد من (الشهداء) فى الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الاخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال اممهم، ورسول الإسلام شاهد عليهم وعلى الامة الإسلامية، والمسلمون أيضاً شهداء على أعمال الناس.

واحتمل البعض أنّ (شهداء) هنا هو الشهداء فى سبيل اللَّه، أى الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر وثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء.

ثم يضيف تعالى: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ».

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر والنور الذى ينتظرهم.

وفى النهاية يضيف تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وذلك كى تتوضّح بهذه المقارنة والنتيجة التى آلت إليها المجموعتان، والتى تتدرّج بين القمّة والقاع، حيث إنّ القسم الأوّل فى المقام العالى من دار الخلد، والقسم الثانى فى الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظّهم وإنحطاط مصيرهم.

وبما أنّ المجموعة الاولى كانت فى أعلى مستويات الإيمان، ففى المقابل أيضاً ذكرت الآية

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۱

أيضاً الكفر بأسوأ صوره فى الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات اللّه.

ولأنّ حبّ الدنيا مصدر كل رذيلة، ورأس كل خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا والمراحل المختلفة والمحفّزات والظروف والأجواء التى تحكم كل مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: «اعْلَمُوا إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَدِ».

وبهذه الصورة فإنّ «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ويذكر سبحانه مثالًا لبداية ونهاية الحياة ويجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا» «۱».

«كفّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، ولكن بمعنى «الزرّاع» لأنّ أصل الكفر هو التغطية، وبما أنّ الزارع عندما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر.

«حطام»: من مادة «حطم» بمعنى التكسير والتفتيت، ويطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) وهى التى تأخذها الرياح باتّجاهات مختلفة.

إنّ المراحل التى يمرّ بها الإنسان مدّة سبعين سنة أو أكثر تظهر فى النبات بعدّة أشهر، ويستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة ويراقب بداية ونهاية العمر فى وقت قصير.

ثم يتطرّق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر ونتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: «وَفِى الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ».

وأخيراً تنهى الآية حديثها بهذه الجملة: «وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ».

«غرور»: فى الأصل من مادة «غَرّ» بمعنى الأثر الظاهر للشىء، ويقال (غُرّة) للأثر الظاهر فى جبهة الحصان، ثم اطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث إنّ ظاهر الإنسان واعٍ، ولكنّه غافل فى الحقيقة، وتستعمل أيضاً بمعنى الخدعة والحيلة.

«المتاع»: بمعنى كل نوع ووسيلة يستفاد منها، وبناءً على هذا فإنّ جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت فى قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ». تعنى أنّها وسيلة

---

(۱) «يهيج»: من مادة «هيجان» جاءت هنا بمعنيين الأوّل: جفاف النبات، والآخر: التحرّك والحيوية، وقد يرجع هذان المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات عند جفافه يكون مهيّأ للإندثار والإنتشار بحركة الرياح.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۲

وأداة للحيلة والخدعة للفرد وللآخرين. وطبيعى أنّ هذا المعنى وارد فى الأشخاص الذين يعتبرون الدنيا هدفهم النهائى، وتكون منتهى غاياتهم، ولكن إذا كانت الهبات المادية فى هذا العالم وسيلة للوصول بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعدّ من الدنيا، بل ستكون جسراً وقنطرة ومزرعة للآخرة التى ستتحقّق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقّاً.

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۱) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۲۲) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (۲۳) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۴) المسابقة المعنوية الكبرى: بعد ما بيّنت الآيات السابقة قيمة هذه الدنيا المتواضعة الفانية، وكيف أنّ الناس فيها منهمكون فى اللذات والتكاثر والتفاخر وجمع الأموال ... تأتى الآيات مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع فى الدار الآخرة، ذلك الموقع المتّسم بالثبات والبقاء والخلود، وتدعوهم إلى السباق فى هذا المجال وبذل الجهد فيه، حيث يقول سبحانه: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

وفى الحقيقة أنّ مغفرة اللَّه هى مفتاح الجنة، تلك الجنة التى عرضـها السماوات والأرض وقد اعدّت من الآن لضيافة المؤمنين، حتى لا يقول أحد إنّ الجنة نسيئة ودَين ولا أمل فى النسيئة.

وممّـا ينبغى ملاحظته أنّ المسارعـة لمغفرة اللَّه لابـدّ أن تكون عن طريق أسـبابها كالتوبـة والتعويض عن الطاعات الفائتـة، وأساساً فإنّ طاعة اللَّه عزّ وجل يعنى تجنّب المعاصى.

ويضيف تعالى فى نهاية الآية: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۳

ومن المؤكّـد أنّ جنّة بذلك الإتّساع وبهذه النعم، ليس من السـهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل واللطف والرحمة الإلهية- فقط- هى التى تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم فى مقابل اليسير من أعماله، إذ إنّ الجزاء الإلهى لا يكون دائماً بمقياس العمل، بل إنّه بمقياس الكرم الإلهى.

ولمزيـد من التأكيـد على عـدم التعلق بالدنيا، وعدم الفرح والغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضـيف سـبحانه: «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

إنّ المصـائب التى تحـدث فى الطبيعـة كالزلازل والسـيول والفيضانـات والآفـات المختلفـة، وكـذلك المصـائب التى تقع على البشـر كالموت وأنواع الحوادث المؤلمة التى تشمل الإنسان، فإنّها مقدّرة من قبل ومسجّلة فى لوح محفوظ.

والجـدير بالإنتباه أنّ المصـائب المشـار إليهـا فى الآيـة هى المصـائب التى لاـ يمكن التخلّص منها، وتكون مقـدّرة وحتميـة وغير قابلة للإجتنـاب، وليست ناتجـة عن أعمـال الإنسـان. وإلّا فإنّ المصائب والمصاعب التى تكون بسـبب ذنوب الإنسان وتسامحه فى الطاعات والالتزامات الإلهية، فإنّ لمواجهتها لابدّ من وضع برنامج صحيح فى حياة الإنسان.

والمقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللاـ متناهى للَّهسـبحانه، أو صـحيفة عالم الخلقـة ونظام العلّة والمعلول، والتى هى مصـداق العلم الفعلى للَّهسبحانه.

ولنلاحظ الآن ما هى فلسفة تقدير المصائب فى اللوح المحفوظ، ومن ثم بيان هذه الحقيقة فى القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهم حيث يقول تعالى: «لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ».

هاتان الجملتان تحلّان- فى الحقيقـة- إحـدى المسائل المعقّـدة لفلسـفة الخلقـة، لأنّ الإنسان يواجه دائماً مشاكل وصـعوبات وحوادث مؤسفة فى عالم الوجود، ويسأل دائماً نفسه هذا السؤال وهو: رغم أنّ اللَّه رحمن رحيم وكريم ..، فلماذا هذه الحوادث المؤلمة؟!

ويجيب سبحانه أنّ هدف ذلك هو: ألا تأسركم مغريات هذه الدنيا وتنشدّوا إليها وتغفلوا عن أمر الآخرة ... كما ورد فى الآية أعلاه.

هذه المصائب هى إنذار للغافلين وسوط على الأرواح التى تعيش الغفلة والسبات، ودلالة على قصر عمر الدنيا وعدم خلودها وبقائها.

إنّ هذه المصائب تكسر حدّة الغرور والتفاخر وحيث يقول سبحانه فى نهاية الآية:

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۴

«وَاللَّهُ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ». «مختال»: من مادة «خيال» بمعنى متكبر، لأنّ التكبر من التخيّل، أى من تخيّل الإنسان الفضل لنفسه، وتصوره أنّه أعلى من الآخرين؛ و «فخور»: صيغة مبالغة من مادة «فخر» بمعنى الشخص الذى يفتخر كثيراً على الآخرين.

والشـخص الوحيـد الـذى يبتلى بهـذه الحالات هو المغرور الـذى أسـكرته النعم، وهـذه المصائب والآفات بإمكانها أن توقظه عن هـذا السكر والغفلة وتهديه إلى سير التكامل.

ومن ملاحظـة ما تقدم أعلاه فإنّ المؤمنين عندما يرزقون النعم من قبل اللَّه سـبحانه فإنّهم يعتبرون أنفسـهم مؤتمنين عليها، ولا يأسـفون على فقدانها وفواتها، ولا يغفلون ويسكرون بوجودها.

وفى آخر آيـة مورد البحث نلاحظ توضـيحاً وتفسـيراً لما جاء فى الآيات السابقـة، والـذى يوضّح حقيقة الإنسان المختال الفخور حيث

يقول عنه تعالى: «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ».

نعم، إنّ الإنشداد العميق لزخارف الدنيا ينتج التكبر والغرور، ولازم التكبر والغرور هو البخل ودعوة الآخرين للبخل، أمّا البخل فلأنّ التكبر والغرور كثيراً ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذى يدفعه إلى أن يحرص عليه، وبالتالى يبخل فى إنفاقه، ومن هنا فإنّ لازمة الغرور والتكبر هو البخل.

أمّا دعوة الآخرين إلى البخل، فلأنّ سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء، هذا أوّلًا، والثانى أنّ البخيل يحبّ البخل، لذا فإنّه يدعو للشيء الذى يرغب فيه.

ولكى لا يتصور أنّ تأكيد اللّه سبحانه على الإنفاق وترك البخل، أو كما عبّرت عنه الآيات السابقة ب (القرض للّه) مصدره إحتياج ذاته المقدسة، فإنّه يقول فى نهاية الآية:

«وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

بل نحن كلّنا محتاجون إليه وهو الغنى عنّا جميعاً، لأنّ جميع خزائن الوجود عنده وتحت قبضته، ولأنّه جامع لصفات الكمال فإنّه يستحق كل شكر وثناء.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۵

الهدف الأساس من بعثة الأنبياء: ابتدأ اللّه سبحانه وتعالى عباده بالنعم فكانت رحمته ولطفه ومغفرته، ونعمه الكثيرة التى لا تحصى والتى اشير إليها فى الآيات السابقة ... ولأنّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين فى استعمالها، ونظم وشرائط لنيل نتائجها المرجوّة، لذا فإنّه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها والإشراف عليها وإعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، وهؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) والآية مورد البحث- التى تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى- تشير إلى هذا المعنى، وتبيّن هدف إرسال الأنبياء ومناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

وبهذه الصورة فإنّ الأنبياء كانوا مسلّحين بثلاث وسائل وهى: «الدلائل الواضحة»، و «الكتب السماوية»، و «معيار قياس الحق من الباطل» والجيّد من الردىء. ولا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بيّنة) أى معجزة، وهو كذلك كتاب سماوى ومبيّن للأحكام والقوانين، أى أنّ الأبعاد الثلاثة تصبّ فى محتوى واحد وهى موجودة فى القرآن الكريم.

وعلى كل حال، فإنّ الهدف من تعبئة هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط والعدل.

وأنّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لارسال الرسل.

ثم إنّ أى مجتمع إنسانى مهما كان مستواه الأخلاقى والاجتماعى والعقائدى والروحى عالياً، فإنّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو والطغيان، ويقفون فى طريق القسط والعدل، واستمراراً لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: «وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ».

إنّ هذه الأسلحة الثلاثة التى وضعت تحت تصرّف الأنبياء هى بهدف أن تكون الأفكار والمفاهيم التى جاء بها الأنبياء فاعلة ومؤثّرة، وتحقّق أهدافها المنشودة، فقد وضع الحديد والبأس الشديد فى خدمة رسل اللّه.

إنّ تعبير (أنزلنا) إشارة إلى الهبات التى تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، وهنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام فى تفسيره لهذا القسم من الآية حيث قال: «فإنزاله ذلك: خلقه إيّاه» (۱).

---

(۱) الاحتجاج، الشيخ الطبرسى ۱/ ۳۷۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۶

ثم يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف ارسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وخلقه وتسخيره الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلًا، حيث يقول تعالى: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ».

المقصود من (علم اللَّه) هنا هو التحقق العينى ليتوضّح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصرة اللَّه ومبدئه، ويقومون بالقسط، ومن هم الأشخاص الذين يتخلّفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة.

ومفهوم هذه الآية يشبه ما ورد فى الآية (۱۷۹) من سورة آل عمران: «مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

وبهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة إختبار وتمحيص واستخراج الصفوة التى استجابت لمسؤوليتها والقيام بواجبها الإلهى، وهذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية فى هذا البرنامج.

ومن الطبيعى أنّ المقصود ب (نصرة اللَّه) أنّها نصرة الدين والمبدأ والحاملين وحى الرسالة، وإقامة الحق والقسط ... وإلّا فإنّ اللَّه ليس بحاجة إلى نصرة أحد، بل الكل محتاج إليه.

ولتأكيد هذا المعنى تنتهى الآية بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأساً على عقب بإشارة واحدة، ويهلك أعداءه، وينصر أولياءه ... وبما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التربية وتكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ وجل إلى نصرة مبدأ الحق.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (۲۶) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (۲۷) تعاقب الرسل واحداً بعد الآخر: للقرآن الكريم منهجه المتميز، ومن خصوصياته أنّه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۰۷

بعد بيان سلسلة من الاصول العامة يشير ويذكّر بمصير الأقوام السابقة، لكى يكون ذلك شاهداً وحجّة.

وهنا أيضاً يتجسّد هذا المنهج، حيث يشير فى المقدمة إلى ارسال الرسل مع البينات والكتاب والميزان والدعوة إلى الإيمان بالحق، لنيل مرضاته سبحانه والفوز بالسعادة الأبدية ... ثم يتحدث عن بعض الامم السابقة وأنبيائهم ويعكس هذه الاسس فى منهج دعوتهم.

ويبدأ بشيوخ الأنبياء وبداية سلسلة رسل الحق، نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».

ومما يؤسف له أنّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، والنعم الإلهية الفيّاضة، والهبات والألطاف العميمة، حيث يقول عزّ وجل: «فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ».

نعم، لقد بدأت النبوّة بنوح عليه السلام توأماً مع الشريعة والمبدأ، ومن ثم إبراهيم عليه السلام من الأنبياء اولى العزم فى إمتداد خطّ الرسالة.

ثم يشير إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التى تختتم بعيسى عليه السلام آخر رسول قبل نبيّنا محمّد صلى الله عليه و آله حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا».

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، وتعاقبوا فى حملها الواحد بعد الآخر، حتى وصل الدور إلى السيّد المسيح: «وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

ثم يشير هنا إلى الكتاب السماوى للسيّد المسيح عليه السلام حيث يقول: «وَءَاتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ».

ويستمرّ متحدّثاً عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً».

وفي تفاوت مصطلحي «الرأفة» و «الرحمة» قالوا: إنّ «الرأفة» تعني الرغبة في دفع الضرر، و «الرحمة» تعني الرغبة في جلب المنفعة. ولهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالباً، لأنّ قصد الإنسان ابتداءً هو دفع الضرر ومن ثم يفكّر في جلب المنفعة.

ثم يضيف سبحانه: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۱».

---

(۱) إنّ الرهبانية أخذت من «الرهبة» التي جاءت بمعنى الخوف من اللَّه.

إنّ المستفاد من الآية أعلاه إجمالًا هو أنّ الرهبانية لم تكن في شريعة السيّد المسيح عليه السلام، وأنّ أصحابه ابتدعوها من بعده، وكان ينظر إليها في البداية على أنّها نوع من أنواع الزهد والإبداعات الخيّرة لكثير من السنن الحسنة التي تشيع بين الناس. ولا تتّخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعي، إلّاأنّ هذه السنّة تعرّضت إلى الانحراف- فيما بعد- وتحريف التعاليم الإلهية، بل إقترنت بممارسات قبيحة على مرّ الزمن.

ومن جملة الممارسات القبيحة للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرّغ (للرهبنة) والإنزواء الاجتماعي، وإهمال كافّة المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيدة، والعيش في محيط منزوٍ عن المجتمع ... بالإضافة إلى جملة من المفاسد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان.

وفي أمالي الصدوق رحمه الله عن أنس بن مالك، قال: توفي ابن لعثمان بن مظعون، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال له: «يا عثمان، إنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنّما رهبانية امّتي الجهاد في سبيل اللَّه».

إنّ الإسلام ندّد للرهبانية بشدّة، حتى أنّ الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹)

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: قال سعيد بن جبير: بعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جعفراً في سبعين راكباً إلى النجاشي، يدعوه. فقدم عليه ودعاه، فاستجاب له وآمن به. فلمّا كان عند إنصرافه، قال ناس ممّن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلًا: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به.

فقدموا مع جعفر. فلمّا رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وقالوا: يا

نبي اللَّه! إنّ لنا أموالًا ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها. فأذن لهم فانصرفوا. فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين.

فأنزل اللَّه تعالى فيهم: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» إلى قوله «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» «۱» فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين. فلمّا سمع أهل الكتاب ممّن لم يؤمن به قوله: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» فخروا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين! أمّا من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا، فله أجر كاجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ» الآية، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور والمغفرة.

التّفسير

الـذين لهم سـهمان من الرحمهٔ الإلهيهٔ: بما أنّ الحديث فى الآيات السابقهٔ كان عن أهل الكتاب والمسيحيين، فإنّ الآيات مورد البحث مكمّلهٔ لما جاء فى الآيات السابقهٔ. يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ».

إنّ المخاطب فى هـذه الآيـهٔ هم جميع المؤمنين الذين قبلوا- بالظاهر- دعوهٔ الرسول صـلى الله عليه و آله ولكنّهم لم يؤمنوا بها الإيمان الراسخ الذى يضىء أعماق النفوس ويتجسّد فى أعمالهم وممارساتهم.

وتكملـهٔ للآيـهٔ الكريمهٔ يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمهٔ تحصل فى ظلّ الإيمان العميق والتقوى، حيث يقول تعالى: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«كفـل»: على وزن (طفـل) بمعنى الحصّـهٔ التى توفّر للإنسـان حـاجته، ويقـال للضـامن «كفيل» أيضاً بهـذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل ويضمنه بنفسه.

والمقصود من هاتين الحصّتين أو النصيبين هو ما جاء فى قوله تعالى: «رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْأَخِرَةِ حَسَنَةً».

وحول القسم الثانى من الجزاء والأجر يقول تعالى: «وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ».

إنّ للآيـهٔ مفهومـاً مطلقـاً واسـعاً حسب الظـاهر ولاـ يختص بالـدنيا فقط ولا بالآخرهٔ فحسب. وبتعبير آخر: فإنّ الإيمان والتقوى هى التى تسبّب زوال الحجب عن قلوب

---

(۱) سورهٔ القصص/ ۵۲- ۵۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۰

المؤمنين، حيث يتبيّن لهم وجه الحقيقـهٔ واضـحاً وبـدون حجاب، وفى ظلّ الإيمان والتقوى هذين سـيكون للإنسان وعى وبصـيرهٔ حرم غير المؤمنين منها، لأنّ أكبر حاجز عن المعرفـهٔ وأهمّ مانع لها هو الحجاب الذى يغطّى قلب الإنسان، والذى هو هوى النفس والنزعات الذاتيـهٔ والأمانى الفارغـهٔ، والآمال البعيـدهٔ، والوقوع فى أسر المادهٔ ومغريات الدنيا، حيث لا تسـمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعيهٔ، وبالتالى فإنّ الحكم على الأشياء يكون بعيداً فى منطق العقل والصواب.

إلّا أنّ إستقرار الإيمان والتقوى فى القلوب يبدّد هذه الحجب ويزيل عتمتها وظلامها عن صفحهٔ القلب.

وفى الآيـهٔ اللاحقـهٔ- والتى هى آخر آيات هـذه السورهٔ- بيان ودليل لما جاء فى الآيـهٔ الآنفـهٔ الـذكر حيث يقول تعالى: «لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

إنّه جواب لهؤلاء الكتابيين الـذين زعم قسم منهم: أنّ لهم أجراً واحداً كبقيهٔ المسـلمين حينما رفضوا الإيمان بالرسول صـلى الله عليه و آله وأمّـا الـذين آمنـوا بـالرسول منهم فلهم أجران: أجر الإيمـان بالرسـل السـابقين، وأجر الإيمـان بمحمّـد صـلى الله عليه و آله، حيث يجيبهم القرآن ويردّ عليهم بأنّ المقصود بالآيهٔ هم المسلمون.

فهؤلاـء هم الـذين لهم أجران، لأـنّهم آمنوا جميعاً برسول اللّه بالإضافـهٔ إلى إيمانهم بكل الأنبياء السابقين، أمّا أهل الكتاب الـذين لم يؤمنوا برسول اللّه فليس لهم أى نصيب أو سـهم من الأجر، ذلك ليعلموا أنّ الرحمهٔ الإلهيهٔ ليست فى اختيارهم حتى يهبوا ما يشاؤون منها وفق مشتهياتهم، ويمنعوها عن الآخرين.

«نهايهٔ تفسير سورهٔ الحديد»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۱

۵۸. سورهٔ المجادلهٔ

محتوى السورة: نزلت هـذه السورة فى المدينة، وانسـجاماً مع موضوعات السورة المدنية فإنّها تتحدث فى الغالب عن الأحكام الفقهية، ونظام الحياة الاجتماعية، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم ... ونستطيع أن نلخّص أهمّ أبحاثها فى ثلاثة أقسام:

۱- يتحدث عن حكم (الظهار) الذى كان يعتبر نوعاً من الطلاق والانفصال الدائم، حيث قوّمه الإسلام وجعله فى الطريق الصحيح.

الثانى: يتحدث عن مجموعة من التعليمات الخاصة بآداب المجالسة، والتى منها:

«التفسّح» فى المجالس ومنع النجوى.

يتعرض إلى بحث وافٍ ومفصل عن المنافقين، تلك الفئة التى تتظاهر بالإسلام، إلّاأنّها تتعاون مع أعدائه، ويحذّر المسلمين المؤمنين من الدخول فى حزب الشيطان والنفاق، ويدعوهم إلى الحب فى اللّه والبغض فى اللّه والإلتحاق بحزب اللّه.

وقد اشتق اسم هذه السورة (المجادلة) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة المجادلة كتب من حزب اللّه فى يوم القيامة».

فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة فى صلاة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۲

فريضة أدمنهما لم يعذّبه اللّه حين يموت أبداً، ولا يرى فى نفسه ولا فى أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصة فى بدنه».

وحيث إنّ موضوعات هـذه السورة تتناسب مع الجزاء المرتقب من اللّه تعالى، لـذلك فإنّ الروايات أعلاه توضّح لنا الهدف من التلاوة من أجل العمل بمحتوياتها.

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۱) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۲) وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۳) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۴)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم: حدّثنا على بن الحسين قال: حدّثنا محمّد بن أبى عبد اللّه عن الحسن بن محبوب عن أبى ولّاد عن حمران عن أبى جعفر عليه السلام قال: «إنّ امرأة من المسلمات أتت النبى صلى الله عليه و آله فقالت: يا رسول اللّه! إنّ فلاناً زوجى وقد نثرت له بطنى وأعنته على دنياه وآخرته، لم ير منّى مكروهاً أشكوه إليك. فقال: فيم تشكينه؟ قالت: إنّه قال: أنت علىّ حرام كظهر امّى، وقد أخرجنى من منزلى فانظر فى أمرى. فقال لها رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما أنزل اللّه تبارك وتعالى علىّ كتاباً أقضى فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلّفين، فجعلت تبكى وتشتكى ما بها إلى اللّه عزّ وجل وإلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وانصرفت.

قال: فسمع اللّه تبارك وتعالى مجادلتها لرسول اللّه فى زوجها وما شكت إليه وأنزل اللّه فى ذلك قرآناً: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» إلى قوله «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۳

التّفسير

الظهار عمل جاهلى قبيح: بالنظر إلى ما قيل فى سبب النزول، وكذلك طبيعة الموضوعات التى وردت فى السورة، فإنّ الآيات الاولى منها واضحة فى دلالتها حيث يقول سبحانه: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا».

«تجادل»: من المجادلة مأخوذة من مادة «جدل» وتعنى فى الأصل (فتل الحبل).

ثم يضيف تعالى: «وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا».

«تحاور»: من مادة «حور» بمعنى المراجعة فى الحديث أو الفكر.

«إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». إنّ اللّه عالم بكل المسموعات والمرئيات، بدون أن يحتاج إلى حواس نظر أو سمع، لأنّه حاضر وناظر فى كل مكان، يرى كل شيء ويسمع كل حديث.

ثم يستعرض تعالى حكم الظهار بجمل مختصرة وحاسمة تقضى بقوة على هذا المفهوم الخرافى حيث يقول سبحانه: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللِّي وَلَدْنَهُمْ».

«الام» و «الولد» ليس بالشيء الذى تصنعه الألفاظ، بل إنّهما حقيقة واقعية عينية خارجية لا يمكن أن تكون من خلال اللعب بالألفاظ.

ويضيف تعالى مكمّلًا الآية: «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» «۱».

وتماشياً مع مفهوم هذه الآية فإنّ «الظهار» عمل محرّم ومنكر، ومع أنّ التكاليف الإلهية لا تشمل الممارسات السابقة، إلّاأنّها ملزمة لحظة نزول الحكم، ولابدّ عندئذ من ترتيب الأثر، حيث يضيف اللّه سبحانه هذه الآية: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».

وبناءً على هذا فإذا كان المسلم قد إرتكب مثل هذا العمل قبل نزول الآية فلا بأس عليه لأنّ اللّه سيعفو عنه، وأمّا مسألة الكفارة باقية بقوّتها.

إلّا أنّ مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئاً يستطيع الإسلام أن يغضّ النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفارة ثقيلة نسبيّاً كى يمنع من تكراره، وذلك بقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا».

ثم يضيف تعالى: «ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ».

---

(۱) «زور»: فى الأصل بمعنى الإنحناء الموجود على الصدر وجاءت أيضاً بمعنى الانحراف، ولأنّ حدود الكذب والباطل منحرفة عن الحق، فيقال له (زور) كما يطلق على الصنم أيضاً بهذا اللحاظ. مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۴

أى يجب ألّا تتصوروا أنّ مثل هذه الكفارة فى مقابل الظهار، كفارة ثقيلة وغير متناسبة مع الفعل، إنّ المقصود بذلك هو الموعظة والإيقاظ لنفوسكم، والكفارة عامل مهم فى وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحة والمحرمة، ومن ثم السيطرة على أنفسكم وأقوالكم.

وأساساً فإنّ جميع الكفارات لها جنبة روحية وتربوية، والكفارات المالية يكون تأثيرها غالباً أكثر من التعزيرات البدنية.

ولأنّ البعض يحاول أن يتهرّب من إعطاء الكفارة بأعذار واهية فى موضوع الظهار، يضيف عزّ وجل أنّه يعلم بذلك حيث يقول فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

إنّه عالم بالظهار، وكذلك عالم بالذين يتهرّبون من الكفارة، وكذلك بنيّاتكم!

ولكن كفارة تحرير (رقبة) قد لا تتيسّر لجميع من يرتكب هذا الذنب كما لاحظنا ذلك فى موضوع سبب نزول هذه الآية المباركة.

وقد يتعذّر وجود المملوك، ليقوم المكلّف بتحرير رقبته حتى مع قدرته المالية، كما فى عصرنا الحاضر، لهذا كله ولأنّ الإسلام دين عالمى خالد فقد عالج هذه المسألة بحكم آخر يعوّض عن تحرير الرقبة، حيث يقول عزّ وجل: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا».

وهذا اللون من الكفارة له أثر عميق على الإنسان، حيث إنّ الصوم بالإضافة إلى أنّه وسيلة لتنقية الروح وتهذيب النفس، فإنّ له تأثيراً عميقاً وفاعلًا فى منع تكرّر مثل هذه الأعمال فى المستقبل.

ومن الواضح- كما فى ظاهر الآية- أنّ مدّة الصوم يجب أن تكون ستّين يوماً متتابعاً، وكثير من فقهاء أهل السنّة أفتوا طبقاً لظاهر الآية، إلّاأنّه قد ورد فى روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ المكلّف إذا صام أيام قلائل حتى ولو يوماً واحداً بعد صوم الشهر الأوّل،

فإنّ مصداق التتابع فى الشهرين يتحقق، وهذا الرأى حاكم على ظاهر الآية.

ولأنّ الكثير من الناس غير قادرين على الوفاء بالكفارة الثانية، وهى صوم الشهرين المتتابعين، فقد ذكر لذلك بديل آخر حيث يقول سبحانه: «فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

والظاهر من الإطعام أن يعطى غذاء يشبع الشخص فى وجبة طعام، إلّاأنّ الروايات الإسلامية ذكرت أنّ المقصود بذلك هو (مدّ) لإطعام كل واحد (والمد يعادل ۷۵۰ غم).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۵

ثم يشير تعالى فى تكملة الآية مرّة اخرى إلى الهدف الأساس لمثل هذه الكفارات:

«ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

نعم إنّ إزالة الذنوب بوسيلة الكفارات تقوّى اسس الإيمان، وتربط الإنسان بالتعاليم الإلهية قولًا وعملًا.

وفى نهاية الآية يؤكّد سبحانه بصورة قاطعة على الالتزام بأوامره حيث يقول: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يقال للقوانين الإلهية إنّها حدود، وذلك لحرمة تجاوزها.

وقد أدان الإسلام للظهار وشرّع له حكم الكفارة.

وبناءً على هذا فكلّما جعل الرجل على زوجته ظهاراً فإنّ الزوجة تستطيع أن تراجع الحاكم الشرعى وتلزمه، إمّا أن يطلّقها بصورة شرعية، أو يرجعها إلى حالتها الزوجية السابقة، بعد دفعه للكفارة بالصورة التى مرّت بنا سابقاً.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (۵) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۶) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷) اولئك أعداء اللَّه: إذا كانت آخر جملة فى الآيات السابقة تحثّ الجميع بضرورة الالتزام بالحدود الإلهية وعدم تجاوزها، فإنّ الآيات مورد البحث لا تتحدث عن الأشخاص الذين تجاوزوا حدود اللَّه فحسب، بل عن الذين حاربوا اللَّه ورسوله، وتوضّح عاقبتهم ومصيرهم فى هذه الدنيا والعالم الآخر كذلك. يقول سبحانه فى البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

«يحادون»: من مادة «محادة» بمعنى الحرب المسلّحة والاستفادة من الحديد وتقال أيضاً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۶

للحرب غير المسلّحة؛ و «كبتوا»: من مادة «كبت» بمعنى المنع بذلة، و (كبتوا) إشارة إلى أنّ اللَّه تعالى يجعل جزاء المحاربين للَّهورسوله الذلّة والهوان ويمنعهم من لطفه الشامل. ثم يضيف البارى سبحانه: «وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

وبناءً على هذا فقد تمّت الحجة بشكل كامل، ولم يبق عذر، وحجة للمخالفة، ومع ذلك فإن خالفوا، فلابدّ من أن يجازوا، ليس فى هذه الدنيا فحسب، بل فى القيامة: «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

فإنّ هذا التهديد الإلهى للأشخاص الذين يقفون بوجه الرسول صلى الله عليه و آله والقرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلة والإنكسار فى غزوة بدر وخيبر والخندق وغير ذلك، وأخيراً فى فتح مكة حيث كسرت شوكتهم واحبط كيدهم بانتصار الإسلام فى كل مكان.

والآية اللاحقة تتحدث عن إستعراض زمان وقوع العذاب الاخروى عليهم حيث يقول عزّ وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». نعم: «أَحْصَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ».

وهذا بحد ذاته عذاب مؤلم، لأنّ اللَّه تعالى يذكّرهم بذنوبهم المنسيّة ويفضحهم فى مشهد الحشر أمام الخلائق.

وفى نهاية الآية يقول البارىء سبحانه: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ».

إنّ حضور اللَّه سبحانه فى كل مكان وفى كل زمان وفى الداخل والخارج، يوجب ألّا يحصى أعمالنا- فقط- بل نيّاتنا وعقائدنا، وفى ذلك اليوم الكبير الذى هو «يوم البروز» يُعرف كل شيء ولكى يعلم الإنسان السبب فى شدة العقاب الإلهى.

ولتأكيد حضور اللَّه سبحانه فى كل مكان وعلمه بكل شىء ينتقل الحديث إلى مسألة «النجوى» حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

ثم يضيف تعالى: «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

المقصود من أنّ «اللَّه» رابعهم أو سادسهم هو أنّ اللَّه عزّ وجل موجود حاضر وناظر فى كل مكان وعالم بكلّ شىء، وإلّا فإنّ ذاته المقدسة لا مكان لها، ولا يوصف بالعدد أبداً، ووحدانيّته أيضاً ليست وحدة عدديّة، بل بمعنى أنّه لا شبيه له، ولا نظير ولا مثيل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۷

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۸) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۰)

سبب النّزول

نقلت روايتان حول سبب نزول الآية الاولى أعلاه، وكل واحدة منهما تخصّ قسماً من الآية الكريمة. تقول الرواية الاولى: قال ابن عباس: نزل قوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى الآية، فى اليهود والمنافقين، إنّهم كانوا يتناجون فيما بينهم، دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلّاوقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل، أو مصيبة أو هزيمة. فيقع ذلك فى قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك شكوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت الآية «۱».

أمّا الرواية الثانية فقد نقل فى صحيح مسلم والبخارى وكثير من كتب التفسير، ففى صحيح مسلم عن عائشة قالت: أتى النبى صلى الله عليه و آله اناس من اليهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم». قالت عائشة قلت: بل عليكم السام والذام. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «يا عائشة لا تكونى فاحشة». فقالت ما سمعت ما قالوا. فقال: «أوليس قد رددت عليهم الذى

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۹/ ۴۱۳؛ وتفسير روح المعانى ۲۸/ ۲۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۸

قالوا قلت وعليكم». فأنزل اللَّه عزّ وجل «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ...» «۱».

التّفسير

النجوى من الشيطان: البحث فى هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة.

يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ».

ويستفاد من هذه الآية بصورة جليّة أنّ المنافقين واليهود قد نهوا من قبل ومنعوا من النجوى التى تولّد سوء الظن عند الآخرين وتسبّب

لهم القلق.

واستمراراً لهذا الحديث فإنّ القرآن الكريم يشير إلى مورد آخر من أعمال التجاوز والمخالفة للمنافقين واليهود، حيث يقول تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ».

«حيّوك»: من مادة «تحيّة» مأخوذة فى الأصل من الحياة بمعنى الدعاء بالسلام والحياة الاخرى؛ والمقصود بالتحية الإلهية فى هذه الآية هو: (السلام عليكم) أو (سلام اللَّه عليك) والتى وردت نماذج منها فى الآيات القرآنية عن الأنبياء وأصحاب الجنة، ومن جملتها قوله تعالى فى الآية (۱۸۱) من سورة الصافات: «سَلَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ».

ثم يضيف تعالى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا مثل هذه الذنوب العظيمة فقط بل كانوا مغرورين متعالين وكأنّهم سكارى فيقول عزّ وجل: «وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ».

وبهذه الصورة فإنّهم قد أثبتوا عدم إيمانهم بنبوّة الرسول صلى الله عليه و آله وكذلك عدم إيمانهم بالإحاطة العلمية للَّهسبحانه.

ويرد عليهم القرآن الكريم: «حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

والطبيعى أنّ هذا الكلام لا ينفى عذابهم الدنيوى، لأنّ النجوى قد تكون بين المؤمنين أحياناً وذلك للضرورة أو لبعض الميول، لذا فإنّ الآية اللاحقة تخاطب المؤمنين ستكون مناجاتهم فى مأمن من التلوّث بذنوب اليهود والمنافقين حيث يقول البارىء عزّ وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

يستفاد من هذا التعبير- بصورة واضحة- أنّ النجوى إذا كانت بين المؤمنين فيجب أن

(۱) صحيح مسلم ۷/ ۵؛ صحيح البخارى ۸/ ۵۱؛ وفى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام ۲/ ۶۴۸.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۱۹

تكون بعيدة عن السوء وما يثير قلق الآخرين، ولابدّ أن يكون مسارها التواصى بالخير والحسنى، وبهذه الصورة فلا مانع منها.

ولذلك فإنّ القرآن يحذّر منها أشدّ تحذير فى آخر آية مورد البحث، حيث يقول تعالى:

«إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا». ولكن يجب أن يعلموا أنّ الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلّاأن يأذن اللَّه بذلك «وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ذلك لأنّ كل مؤثّر فى عالم الوجود يكون تأثيره بأمر اللَّه حتى إحراق النار وقطع السيف.

«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». إذ أنّهم- بالروح التوكّلية على اللَّه، وبالاعتماد عليه سبحانه- يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل.

لهذا العمل- أى النجوى- من الوجهة الفقهية الإسلامية أحكام مختلفة:

فتارةً يكون هذا العمل «حراماً» وذلك فيما لو أدّى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

وقد تكون النجوى أحياناً «واجبة» وذلك فى الموضوعات الواجبة السرّية، حيث إنّ إفشاءها مضرّ ويسبّب الخطر والأذى، وفى مثل هذه الحالة فإنّ عدم العمل بالنجوى يستدعى إضاعة الحقوق وإلحاق خطر بالإسلام والمسلمين.

وتتصف النجوى فى صورة اخرى بالإستحباب، وذلك فى الأوقات التى يتصدّى فيها الإنسان لأعمال الخير والبرّ والإحسان، ولا يرغب بالإعلان عنها وإشاعتها وهكذا حكم الكراهة والإباحة.

وأساساً، فإنّ كل حالة لا يوجد فيها هدف مهم فالنجوى عمل غير محمود، ومخالف لآداب المجالس، ويعتبر نوعاً من اللامبالاة وعدم الإكتراث بالآخرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى الصفّة، وفى المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة. وكان صلى الله عليه و آله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فجاء اناس من أهل بدر، وفيهم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۰

مختصر الامثل ج۵ ۱۴۹

ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا فى المجلس. فقاموا حيال النبى صلى الله عليه و آله فقالوا: السلام عليك أيّها النبى ورحمة اللَّه وبركاته، فردّ عليهم النبى صلى الله عليه و آله. ثم سلّموا على القوم بعد ذلك، فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشقّ ذلك على النبى صلى الله عليه و آله، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر. فشقّ ذلك على من اقيم من مجلسه، وعرف الكراهية فى وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أنّ صاحبكم يعدل بين الناس، فواللَّه ما عدل على هؤلاء أنّ قوماً أخذوا مجالسهم وأحبّوا القرب من نبيّهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم! فنزلت الآية.

التّفسير

إحترام أهل السابقة والإيمان: تعقيباً على الموضوع الذى جاء فى الروايات السابقة حول ترك (النجوى) فى المجالس، يتحدث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ».

جملة «يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ» لها مفهوماً واسعاً، وتشمل كل سعة إلهية، سواء كانت فى الجنة أو فى الدنيا أو فى الروح والفكر أو فى العمر والحياة، أو فى المال والرزق.

وبما أنّ المجالس تكون مزدحمة أحياناً بحيث إنّه يتعذّر الدخول إلى المجلس فى حالة عدم التفسّح أو القيام، وإذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين واستمراراً لهذا البحث، يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا». أى إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

ولا ينبغى أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحياناً يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين فى المجلس، وذلك لشدّة التعب أو الكهولة أو للإحترام الخاص لهم، وأسباب اخرى.

ثم يتطرق سبحانه إلى الجزاء والأجر الذى يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهى، حيث يقول عزّ وجل: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ».

وذلك إشارة إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله إذا أمر البعض بالقيام وإعطاء أماكنهم للقادمين، فإنّه لهدف إلهى مقدس، وإحتراماً للسابقين فى العلم والإيمان.

وبما أنّ البعض يؤدّى هذه التعليمات ويلتزم بهذه الآداب عن طيب نفس ورغبة، والآخرون يؤدّونها عن كراهية أو للرياء، والتظاهر ... فيضيف تعالى فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۱

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

بالرغم من أنّ الآية نزلت فى مورد خاص، إلّاأنّ لها مفهوماً عاماً، وبملاحظة أنّ ما يرفع مقام الإنسان عند اللَّه شيئان: الإيمان، والعلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیْ نَجْوَاکُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّکَاةَ وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی الأغنیاء، وذلک أنّهم کانوا یأتون النبی صلی الله علیه و آله فیکثرون مناجاته. [وهذا العمل بالإضافة إلی أنّه یشغل الرسول صلی الله علیه و آله ویأخذ من وقته فإنّه کان یسبّب عدم إرتیاح المستضعفین منه، وحیث یشعرهم بامتیاز الأغنیاء علیهم فأمر اللّه سبحانه بالصدقة عند المناجاة. فلمّا رأوا ذلک، انتهوا عن مناجاته. فنزلت آیة الرخصة.

[التی لامت الأغنیاء ونسخت حکم الآیة الاولی وسمح للجمیع بالمناجاة، حیث إنّ النجوی هنا حول عمل الخیر وطاعة المعبود].

التّفسیر

الصدقة قبل النجوی (إختبار رائع): فی قسم من الآیات السابقة کان البحث حول موضوع النجوی، وفی الآیات مورد البحث استمراراً وتکملة لهذا المطلب. یقول سبحانه:

«یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَیْتُمُ الرَّسُولُ فَقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَی نَجْوَیکُمْ صَدَقَةً».

ثم یضیف بقوله تعالی: «ذلِکَ خَیْرٌ لَّکُمْ وَأَطْهَرُ».

أمّا کون الصدقة «خیر» فإنّها کانت للأغنیاء موضع أجر وللفقراء مورد مساعدة، وأمّا کونها (أطهر) فلأنّها تغسل قلوب الأغنیاء من حبّ المال، وقلوب الفقراء من الغلّ والحقد.

ولکن لو کان التصدّق قبل النجوی واجباً علی الجمیع، فإنّ الفقراء عندئذ سیحرمون من طرح المسائل المهمّة کاحتیاجاتهم ومشاکلهم أمام الرسول صلی الله علیه و آله فلذا جاء فی ذیل الآیة إسقاط هذا الحکم عن المجموعة المستضعفة مما مکّنهم من مناجاة الرسول صلی الله علیه و آله والتحدّث

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۲

معه: «فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». وبهذه الصورة فإنّ دفع الصدقة قبل النجوی کان واجباً علی الأغنیاء دون غیرهم.

والطریف هنا أنّ للحکم أعلاه تأثیراً عجیباً وامتحاناً رائعاً أفرزه علی صعید الواقع من قبل المسلمین فی ذلک الوقت، حیث امتنع الجمیع من إعطاء الصدقة إلّاشخص واحد، ذلک هو الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام، وهنا اتّضح ما کان یجب أن یتّضح، وأخذ المسلمون درساً فی ذلک، لذا نزلت الآیة اللاحقة ونسخت الحکم حیث یقول سبحانه: «ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیْ نَجْوَیکُمْ صَدَقَاتٍ».

حیث اتّضح أنّ حبّ المال کان فی قلوبکم أحبّ من نجواکم للرسول صلی الله علیه و آله واتّضح أیضاً أنّ هذه النجوی لم تکن تطرح فیها مسائل أساسیة، وإلّا فما المانع من أن تقدّم هذه المجموعة صدقة قبل النجوی، خاصة أنّ الآیة لم تحدّد مقدار الصدقة فبإمکانهم دفع مبلغ زهید من المال لحلّ هذه المشکلة.

ثم یضیف تعالی: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّکَوةَ وَأَطِیعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِیرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ مَا هُمْ مِنْکُمْ وَ لَا مِنْهُمْ وَ یَحْلِفُونَ عَلَی الْکَذِبِ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۱۴) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِیداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۱۵) اتَّخَذُوا أَیْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِینٌ (۱۶) لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً أُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ (۱۷) یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِیعاً فَیَحْلِفُونَ لَهُ کَمَا یَحْلِفُونَ لَکُمْ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَی شَیْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْکَاذِبُونَ (۱۸) اسْتَحْوَذَ عَلَیْهِمُ الشَّیْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِکْرَ اللَّهِ أُولئِکَ حِزْبُ الشَّیْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّیْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۹) حزب الشیطان: هذه الآیات تفضح قسماً من تآمر المنافقین وتعرض صفاتهم للمسلمین، وذکرها بعد آیات النجوی یوضّح لنا أنّ قسماً ممّن ناجوا الرسول کانوا من المنافقین، حیث کانوا بهذا العمل یظهرون قربهم للرسول صلی الله علیه و آله

ويتستّرون على مؤامراتهم، وهذا ما سبّب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامّة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۳

يقول تعالى فى البداية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم».

ثم يضيف تعالى: «مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ». فهم ليسوا أعوانكم فى المصاعب والمشاكل، ولا- أصدقاءكم وممّن يكنون لكم الودّ والإخلاص، إنّهم منافقون يغيّرون وجوههم كل يوم ويظهرون كل لحظة لكم بصورة جديدة.

ويضيف- أيضاً- واستمراراً لهذا الحديث أنّ هؤلاء ومن أجل إثبات وفاءهم لكم فإنّهم يقسمون بالأيمان المغلّظة: «وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه طريقة المنافقين، فيقومون بتغطية أعمالهم المنفرة ووجوههم القبيحة بواسطة الأيمان الكاذبة والحلف الباطل، فى الوقت الذى تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

ثم يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصرّين على الباطل والمعاندين للحقّ، حيث يقول تعالى: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». وبدون شك فإنّ هذا العذاب عادل وذلك:

«إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم للتوضيح الأكثر حول بيان سمات وصفات المنافقين يقول سبحانه: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

يحلفون أنّهم مسلمون وليس لهم هدف سوى الإصلاح، فى حين أنّهم منهمكون بفسادهم وتخريبهم ومؤامراتهم ... وفى الحقيقة فإنّهم يستفيدون من الاسم المقدس للّهللصدّ والمنع عن سبيل اللّه تعالى ...

ويضيف تعالى فى النهاية: «فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». أى مذلّ.

إنّهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم وتجميل صورتهم، إلّاأنّ اللّه سيبتليهم بعذاب أليم مذلّ.

ولأنّ المنافقين يعتمدون فى الغالب على أموالهم وأولادهم وهما (القوة الاقتصادية والقوة البشرية) فى تحقيق مآربهم وحلّ مشاكلهم، فإنّ القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: «لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وهذه الأموال ستصبح لعنة عليهم وطوقاً فى أعناقهم وسبباً لعذابهم المؤلم، كما يوضّح اللّه سبحانه ذلك فى الآية (۱۸۰) من سورة آل عمران: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

وفى ذيل الآية يهدّدهم ويقول: «أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

والعجيب أنّ المنافقين لا يتخلّون عن نفاقهم حتى فى يوم القيامة أيضاً، كما يوضّح اللّه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۴

سبحانه ذلك فى قوله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ». إنّ يوم القيامة يوم تتجلّى فيه الأعمال، وحقيقة الإنسان التى كان عليها فى الدنيا، ولأنّ المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر والبرزخ، فإنّها ستتضح يوم القيامة أيضاً، ومع علمهم بأنّ اللّه سبحانه لا- يخفى عليه شىء وأنّه علّام الغيوب، إلّاأنّهم- إنسجاماً مع سلوكهم المعهود- فإنّهم يحلفون أمام اللّه حلفاً كاذباً.

ثم يضيف عزّ وجل أنّهم بهذا اليمين الكاذب يظنّون أنّه بإمكانهم كسب منفعة أو دفع ضرر: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ».

إنّ هذا التصور الواهى ليس أكثر من خيال.

وأخيراً تنتهى الآية بهذه الجملة: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ». وبهذه الصورة سيفتضح.

وفى آخر آية مورد البحث يبيّن البارى عزّ وجل المصير النهائى للمنافقين العمى القلوب بقوله تعالى: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

«استحوذ»: من مادة «حوذ» بمعنى الجزء الخلفى لفخذ البعير، ولأنّ أصحاب الإبل عندما يسوقون جمالهم يضربونها على أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنى التسلّط أو السوق بسرعة.

نعم، إنّ المنافقين المغرورين بأموالهم ومقامهم، ليس لهم مصير سوى أن يكونوا تحت سيطرة الشيطان واختياره ووساوسه بصورة تامّة، وينسون اللَّه بصورة كلية، أنّهم ليسوا منحرفين فحسب، بل إنّهم فى زمرة الشيطان وهم أنصاره وحزبه وجيشه فى إضلال الآخرين.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولِئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولِئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۵

كان الحديث عن المنافقين وأعداء اللَّه وبيان بعض صفاتهم وخصائصهم فى الآيات السابقة، واستمراراً لنفس البحث- فى هذه الآيات التى هى آخر آيات سورة المجادلة- تطرح خصوصيات اخرى لهم، ويتّضح المصير الحتمى لهم حيث الموت والإندحار. يقول تعالى فى البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولِئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ» «۱». أى أذلّ الخلائق.

والآية اللاحقة دليل على هذا المعنى حيث يقول سبحانه: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».

وبنفس القدر الذى يكون فيه اللَّه قويّاً عزيزاً فإنّ أعداءه يكونون ضعفاء أذلّاء، وهذا بنفسه بمثابة الدليل على ما ورد فى الآية السابقة من وصف الأعداء بأنّهم «فِى الْأَذَلّينَ».

ولقد اتّضح على مرّ العصور هذا الإنتصار للمرسلين الإلهيين فى أوجه مختلفة، سواء فى أنواع العذاب الذى أصاب أعداءهم وصوره المختلفة كطوفان نوح وصاعقة عاد وثمود والزلازل المدمّرة لقوم لوط وما إلى ذلك، وكذلك فى الإنتصارات فى الحروب المختلفة كغزوات بدر وحنين وفتح مكة، وسائر غزوات رسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وأهمّ من ذلك كلّه إنتصارهم الفكرى والمنطقى على أفكار الشيطان وأعداء الحق والعدالة.

آخر آية مورد البحث- والتى هى آخر آية من سورة المجادلة- تعدّ من أقوى الآيات القرآنية التى تحذّر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حبّ اللَّه وحبّ أعدائه، إذ لابدّ من اختيار طريق واحد لا غير، وإذا ما كانوا حقّاً مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حبّ أعداء اللَّه.

يقول تعالى: «لَّاتَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ».

إنّ حبّ الآباء والأبناء والاخوان والعشيرة شيء ممدوح، ودليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّاأنّ هذه المحبة حينما تكون بعيدة عن حبّ اللَّه فإنّها ستفقد خاصيتها.

ثم يتطرّق القرآن الكريم إلى الجزاء العظيم لهذه المجموعة التى سخّرت قلوبها لعشق اللَّه تعالى، حيث يستعرض خمسة من أوصافهم والتى يمثّل بعضها مدداً وتوفيقاً من اللَّه تعالى، والآخر نتيجة العمل الخالص له سبحانه ... وفى بيان القسم الأوّل والثانى يقول تعالى: «أُولِئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ».

---

(۱) «يحادّون»: من مادة «محادّة» بمعنى الحرب المسلّح وغير المسلّح، أو بمعنى الممانعة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۶

ومن الطبيعى أنّ هذا الإمداد واللطف الإلهى لا- يتنافى أبداً مع أصل حرية الارادة واختيار الإنسان، لأنّ الخطوات الاولى فى ترك أعداء اللَّه قد قرّرها المؤمنون ابتداءً، ثم جاء الإمداد الإلهى بصورة استقرار الإيمان حيث عبّر عنه ب (كتب).

هذه الروح الإلهية التى يؤيّد اللَّه سبحانه المؤمنين بها هى نوع من الحياة المعنوية الجديدة التى أفاضها اللَّه تعالى على المؤمنين.

ويقول تعالى فى ثالث مرحلة: «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا».

ويضيف فى رابع مرحلة لهم: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنّ أعظم ثواب معنوى وجزاء روحانى لأصحاب الجنة فى مقابل النعم المادية العظيمة فى القيامة من جنان وحور وقصور هو شعورهم وإحساسهم أنّ اللَّه راضٍ عنهم وأنّ رضى مولاهم ومعبودهم يعنى أنّهم مقبولون عنده، وفى كنف حمايته وأمنه، حيث يجلسهم على بساط قربه، وهذا أعظم إحساس ينتابهم، ونتيجته رضاهم الكامل عن اللَّه سبحانه.

وفى آخر مرحلة يضيف تعالى بصورة إخبار عام يحكى عن نعم وهبات اخرى حيث يقول: «أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وليس المقصود بالفلاح هنا ما يكون فى عالم الآخرة ونيل النعم المادية والمعنوية فى يوم القيامة فحسب، بل كما جاء فى الآيات السابقة أنّ اللَّه تعالى ينصرهم بلطفه فى هذه الدنيا أيضاً على أعدائهم وستكون بأيديهم حكومة الحق والعدل التى تستوعب هذا العالم أخيراً.

«نهاية تفسير سورة المجادلة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۷

۵۹. سورة الحشر

محتوى السورة: تأخذ هذه السورة بصورة متميزة قصة حرب المسلمين مع بعض اليهود (يهود بنى النضير) والتى انتهت بإخراجهم من المدينة وتطهير هذه المدينة المقدسة منهم.

وهذه السورة من السور المهمة والمثيرة والموقظة فى القرآن الكريم، ولها انسجام قريب جدّاً مع الآيات الأخيرة مع السورة السابقة، والتى وعدت «حزب اللَّه» بالنصر، والنصر الوارد فى هذه السورة يعدّ مصداقاً بارزاً لذلك النصر الموعود.

ويمكن تلخيص موضوعات هذه السورة فى ستة أقسام هى:

۱- تتحدث عن تسبيح اللَّه الحكيم العليم من قبل الموجودات جميعاً.

۲- يوضّح قصة إشتباك المسلمين مع ناقضى العهد من يهود المدينة.

۳- يستعرض القرآن قصة منافقى المدينة مع اليهود والتعاون بينهما.

۴- يشمل مجموعة من التوجيهات والنصائح العامة لعموم المسلمين.

۵- عبارة عن وصف بليغ للقرآن الكريم وبيان أثره فى تطهير الروح والنفس.

۶- يتناول قسماً مهماً من أوصاف جلال وجمال الذات الإلهية المقدسة، وبعض أسمائه الحسنى، وهذه الصفات تكون عوناً للإنسان فى طريق معرفة اللَّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۸

إنّ اسم هذه السورة مأخوذ من الآية الثانية فيها، والتى تتحدث عن «الحشر»، والذى يعنى هنا تجمّع اليهود للرحيل عن المدينة، أو حشر المسلمين اليهود لطردهم منها.

وأخيراً فإنّ هذه السور هى إحدى (سور المسبّحات) والتى بدأت بتسبيح اللَّه، وانتهت بتسبيح اللَّه أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«ومن قرأ سورة الحشر لم يبق جنّة ولا نار، ولا عرش ولا كرسى ولا حجاب، ولا السماوات السبع ولا الأرضون السبع، والهوام والرياح

والطير والشجر والدواب، والشمس والقمر والملائكة، إلّا صلّوا عليه، واستغفروا له، وإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً».

ومما لا شك فيه أنّ هذا من آثار التفكّر والتدبّر فى محتوى هذه السورة وعند قراءتها.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ (۲) وَ لَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۴) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ (۵)

سبب النّزول

ذكر المفسرون والمحدّثون والمؤرّخون بصورة مفصّلة سبب نزول هذه الآيات، وخلاصة ما ذكروه هى ما يلى:

كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود وهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، ويذكر أنّهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلًا، وإنّما قدموا إليها واستقرّوا فيها، وذلك لما قرأوه فى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۲۹

كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبى فى أرض المدينة، حيث كانوا بإنتظار هذا الظهور العظيم.

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرّض كل منهما للآخر، إلّاأنّهم كلّما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهداً فى نقض العهد.

ومن جملة ذلك أنّهم نقضوا العهد بعد غزوة احد، التى وقعت فى السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب كعب بن الأشرف زعيم قبيلة بنى النضير مع أربعين فارساً إلى مكة، وهنالك عقد مع قريش حلفاً لقتال محمّد صلى الله عليه و آله، وجاء أبو سفيان مع أربعين شخصاً، وكعب بن الأشرف مع أربعين نفراً من اليهود، ودخلا معاً إلى المسجد الحرام ووثقوا العهد فى حرم الكعبة، فعلم النبى صلى الله عليه و آله بذلك عن طريق الوحى.

والمؤامرة الاخرى هى أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دخل يوماً مع شيوخ الصحابة وكبارهم إلى حى بنى النضير، وذلك بحجّة إستقراض مبلغ من المال منهم كديّة لقتيلين من طائفة بنى عامر، قتلهما (عمرو بن اميّة) أحد المسلمين، وربّما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يتحدث مع كعب بن الأشرف إذ حيكت مؤامرة يهودية لإغتيال رسول اللَّه وتنادى القوم: إنّكم لا تحصلون على هذا الرجل بمثل هذه الحالة وهاهو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح ويرميه بحجر عظيم ويريحنا منه، فقام عمرو بن جحاش وأبدى إستعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلّاأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علم عن طريق الوحى بذلك، فقفل راجعاً إلى المدينة دون أن يتحدث بحديث مع أصحابه، إلّاأنّ الصحابة تصوروا أنّ الرسول سيعود مرّة اخرى، ولمّا عرفوا فيما بعد أنّ الرسول فى المدينة عاد الصحابة إليها أيضاً.

وهنا أصبح من المسلّم لدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نقض اليهود للعهد، فأعطى أمراً للإستعداد والتهيّؤ لقتالهم.

وجاء فى بعض الروايات أيضاً أنّ أحد شعراء بنو النضير هجا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشعر يتضمّن مسّاً بكرامة الرسول وهذا دليل آخر لنقضهم العهد.

وبدأت خطّة المسلمين فى مواجهة اليهود وكانت الخطوة الاولى أن أمر رسول اللَّه (محمّد بن سلمة) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، وقد نفّذ هذا العمل بعد مقدمات وقتله.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۰

إنّ قتل كعب بن الأشرف أوجد هزّة وتخلخلًا فى صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمراً للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

وعندما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمة وحصونهم القوية، وأحكموا الأبواب، إلّا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

فقد إرتفع صوت اليهود عندما شعروا بالضيق، وهم محاصرون فى حصونهم ... فقالوا: يا محمّد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذى حدا بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟

فنزلت الآية (۵) من الآيات محل البحث وبيّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من اللَّه عزّ وجل.

واستمرّت المحاصرة لعدّة أيّام، ومنعاً لسفك الدماء إقترح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عليهم أن يتركوا ديارهم وأراضيهم ويرحلوا من المدينة، فوافقوا على هذا وحملوا مقداراً من أموالهم تاركين القسم الآخر ... واستقرّ قسم منهم فى «أذرعات الشام»، وقليل منهم فى «خيبر»، وجماعة ثالثة فى «الحيرة»، وتركوا بقية أموالهم وأراضيهم وبساتينهم وبيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها «۱».

التّفسير

بدأت هذه السورة بتنزيه وتسبيح اللَّه وبيان عزّته وحكمته. يقول سبحانه: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وهذه مقدمة لبيان قصة يهود بنى النضير، اولئك الذين انحرفوا عن طريق التوحيد ومعرفة اللَّه وصفاته.

التسبيح العام الوارد فى الآية لجميع موجودات الأرض والسماء، أعم من الملائكة والبشر والحيوانات والنباتات والجمادات يمكن أن يكون بلسان «القال» ويمكن أن يكون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقّة النظام المثير للعجب لها فى خلق كل ذرّة من ذرّات هذا الوجود، وهو التسليم المطلق للَّهسبحانه والإعتراف بعلمه وقدرته وعظمته وحكمته.

ومن جهة اخرى فإنّ قسماً من العلماء يعتقدون أنّ كل موجود فى العالم له نصيب وقدر من العقل والإدراك والشعور، بالرغم من أنّنا لم ندركه ولم نطّلع عليه، وبهذا الدليل فإنّ هذه المخلوقات تسبّح بلسانها، بالرغم من أنّ آذاننا ليس لها القدرة على سماعها.

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۹/ ۴۲۵؛ وتفسير على بن إبراهيم ۲/ ۳۵۸؛ وتفسير القرطبى ۱۸/ ۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۱

وبعد بيان المقدمة أعلاه نستعرض أبعاد قصة يهود بنى النضير فى المدينة حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ».

«حشر»: فى الأصل تحريك جماعة وإخراجها من مقرّها إلى ميدان حرب وما إلى ذلك، والمقصود منه هنا اجتماع وحركة المسلمين من المدينة إلى قلاع اليهود، أو اجتماع اليهود لمحاربة المسلمين، ولأنّ هذا أوّل اجتماع من نوعه فقد سمّى فى القرآن الكريم بأوّل الحشر، وهذه بحد ذاتها إشارة إلى بداية المواجهة المقبلة مع يهود بنى النضير ويهود خيبر وأمثالهم.

ويضيف البارىء عزّ وجل: «مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ». لقد كانوا مغرورين وراضين عن أنفسهم إلى حدّ أنّهم اعتمدوا على حصونهم المنيعة، وقدرتهم المادية الظاهرية.

ولأنّ اللَّه سبحانه يريد أن يوضّح للجميع أن لا قوّة فى الوجود تقاوم إرادته، فإنّ إخراج اليهود من أراضيهم وديارهم بدون حرب، هو دليل على قدرته سبحانه، وتحدّ لليهود الذين ظنّوا أنّ حصونهم مانعتهم من اللَّه.

ولذلك يضيف- استمراراً للبحث الذى ورد فى الآية- قوله تعالى: «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ». نعم، إنّ هذا الجيش غير المرئى هو جيش الخوف الذى يرسله اللَّه تعالى فى كثير من الحروب

لمساعدة المؤمنين، وقد ختّم على قلوبهم، وسلب منهم قدرة الحركة والمقاومة، لقد جهّزوا وهيّأوا أنفسهم لقتال المهاجرين والأنصار غافلين عن إرادة اللّه تعالى، حيث يرسل لهم جيشاً من داخلهم.

وفى نهاية الآية- بعنوان استنتاج كلى- يقول تعالى: «فَاعْتَبِرُوا يَأُولِى الْأَبْصَارِ».

«اعتبروا»: من مادة «إعتبار» وفى الأصل مأخوذة من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، ويقال لدمع العين «عبرة» بسبب عبور قطرات الدموع من العين، وكذلك يقال «عبارة» لهذا السبب، حيث إنّها تنقل المطالب والمفاهيم من شخص إلى آخر، وإطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنّه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

وبهذه المناسبة يقال للحوادث التى فيها دروس وعظات «عبر» لأنّها توضّح للإنسان سلسلة من التعاليم الكليّة وتنقله من موضوع إلى آخر.

والتعبير ب «اولى الأبصار» إشارة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۲

واقعية ويتوغلون إلى أعماقها.

والمقصود من العبرة والإعتبار فى الآية أعلاه هو الإنتقال المنطقى والقطعى من موضوع إلى آخر. يعنى مقايسة الحوادث المتشابهة من خلال إعمال العقل. وتضيف الآية اللاحقة: «وَلَوْلَا أن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا».

وبدون شك فإنّ الجلاء عن الوطن وترك قسم كبير من رؤوس الأموال التى جهدوا جهداً بليغاً فى الحصول عليها، هو بحدّ ذاته أمر مؤلم لهم، وبناءً على هذا فإنّ مراد الآية أعلاه أنّه لو لم يحلّ بهم هذا العذاب، فإنّ بإنتظارهم عذاباً آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين ...

إلّا أنّ اللّه سبحانه أراد لهم التيه فى الأرض والتشرّد فى العالم، لأنّ هذا أشدّ ألماً وأسىً على نفوسهم، إذ كلّما تذكّروا أرضهم وديارهم ومزارعهم وبساتينهم التى أصبحت بيد المسلمين، وكيف أنّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد ومؤامراتهم ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فإنّ ألمهم وحزنهم ومتاعبهم تضاعف وخاصة على المستوى النفسى.

وكان هذا عذاباً دنيوياً لهم، إلّاأنّ لهم جولة اخرى مع عذاب أشدّ وأخزى، ذلك هو عذاب الآخرة، حيث يضيف سبحانه فى نهاية الآية: «وَلَهُمْ فِى الْأَخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ».

وبما أنّ ذكر هذه الحادثة مضافاً إلى تجسيد قدرة اللّه وصدق الدعوة المحمّدية، فهى فى نفس الوقت تمثّل إنذاراً وتنبيهاً لكل من يروم القيام بأعمال مماثلة لفعل بنى النضير، لذا ففى الآية اللاحقة يرشدنا سبحانه إلى هذا المعنى: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

«شاقّوا»: من مادة «شقاق» وهى فى الأصل بمعنى الشقّ والفصل بين شيئين، وبما أنّ العدو يكون دائماً فى الطرف المقابل، فإنّ كلمة (شقاق) تطلق على هذا العمل.

وفى الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث نلاحظ جواباً على إعتراض يهود بنى النضير على قطع المسلمين لنخيلهم- كما ورد فى شأن النزول- بأمر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لتهيئة ظروف أفضل لقتال بنى النضير أو لزيادة حزنهم وألمهم، فيضطرّوا للنزول من قلاعهم ومنازلة المسلمين خارج القلعة، وقد أثار هذا العمل غضب اليهود وحنقهم، فقالوا: يا محمّد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فنزلت الآية مبيّنة لهم أنّ ذلك من أمر اللّه سبحانه حيث يقول البارىء: «مَا قَطَعْتُم مّن لّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۳

فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ». «لينة»: من مادة «لون» تقال لنوع جيّد من النخل.

وَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله «مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الآيـة. فى أموال كفار أهل القرى، وهم قريظة وبنو النضير، وهما بالمدينـة. وفدك، وهى من المدينـة على ثلاثة أميال. وخيبر، وقرى عرينة، وينبع، جعلها اللّه لرسوله، يحكم فيها ما أراد. وأخبر أنّها كلّها له. فقال اناس: فهلا قسمها، فنزلت الآية.

[وسنلاحظ أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قسّم هـذه الأموال بين المهاجرين الفقراء فى المدينـة، وعلى قسم من الأنصار من ذوى الفاقة].

التّفسير

حكم الغنائم بغير الحرب: بما أنّ هـذه الآيات تكملـة للآيات القرآنيـة السابقة التى تتحدث عن إندحار يهود بنى النضير، لذا فإنّ هذه الآيـات تبيّن حكم غنـائم بنى النضير، كمـا أنّهـا فى نفس الوقت توضّح حكماً عاماً حول الغنائم التى يحصل عليها المسلمون بـدون حرب، كما ذكر ذلك فى كتب الفقه الإسلامى بعنوان (الفىء).

يقول اللّه تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ».

«أفـاء»: من مادة «فىء» وهى فى الأصل بمعنى الرجوع، وإطلاق كلمـة (فىء) على هـذا اللون من الغنائم لعلّه باعتبار أنّ اللّه سبحانه قد خلق هـذه النعم والهبـات العظيمـة فى عـالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، وعلى رأسـهم الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الـذى هو أشرف الكائنات.

وبناءً على هـذا فإنّ الجاحـدين لوجود اللّه والعاصين له بالرغم من إمتلاكهم للبعض من هذه النعم بموجب القواعد الشرعية والعرفية، إلّاأنّهم يعتبرون غاصبين لها، ولذلك فإنّ عودة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۴

هـذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (وهم المؤمنون) يسمّى (فيئاً) فى الحقيقـة. «أوجفتم»: من مادة «إيجاف» بمعنى السّوق السريع الذى يحدث غالباً فى الحروب.

«خيل»: بمعناه المتعارف عليه (وهى اسم جنس وجمعها خيول) «۱».

«ركاب»: من مادة «ركوب» وتطلق فى الغالب على ركوب الجمال.

والهـدف من مجموع الجملـة أنّ جميع الموارد التى لم يحـدث فيهـا قتال وفيها غنائم، فإنّها لا توزّع بين المقاتلين، وتوضع بصورة تامّة تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية وهو يصرفها فى الموارد التى سيأتى الحديث عنها لاحقاً.

ثم يضيف سبحانه أنّ الإنتصارات لا تكون غالباً لكم «وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

نعم، لقد تحقّق الإنتصار على عدو قوى وشديد كيهود (بنى النضير) وذلك بالمدد الإلهى الغيبى، ولتعلموا أنّ اللّه قادر على كل شىء. ولابـدّ للمسـلمين أن يتعلّمـوا مـن ذلـك دروس المعرفـة الإلهيـة، ويلاحظوا علائم حقّانيـة النبى صـلى الله عليـه و آلـه، ويلتزموا منهجالإخلاص والتوكل على الذات الإلهية المقدسة فى جميع ممارساتهم.

والآيـة اللاحقـة تبيّن بوضوح مورد صرف (الفىء) الوارد فى الآية السابقة وتقول بشكل قاعدة كليّة: «مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ».

وهـذا يعنى أنّ هـذه الغنائم ليست كباقى الغنائم الحربية التى يكون خمس منها فقط تحت تصـرّف الرسول صـلى الله عليه و آله وسائر

المحتاجين، والأربعة الأخماس الاخرى للمقاتلين.

وإذا ما صرّحت الآية السابقة برجوع جميع الغنائم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعاً فى موارده الشخصية، وإنّما اعطيت له لكونه رئيساً للدولة الإسلامية، وخاصة كونه المتصدّى لتغطية حاجات المعوزين، لذا فإنّ القسم الأكبر يصرف فى هذا المجال.

إنّ الرسول صلى الله عليه و آله لا- يريد الأموال لُاموره الشخصية، بل بعنوان قائد المسلمين ورئيس دولتهم يصرفها فى الامور التى تحقّق مصلحة الدولة الإسلامية بشكل عام.

---

(۱) يقول الراغب فى المفردات: إنّ الخيل فى الأصل من مادة (خيال) بمعنى التصوّرات الذهنية، وخيلاء بمعنى التكبر والتعالى على الآخرين لأنّه ناتج من تخيّل الفضيلة، ولأنّ ركوب الإنسان على الحصان يشعر بالإحساس بنوع من الفخر والزهو غالباً، لذلك أطلق لفظ الخيل على الحصان، والنقطة الجديرة بالملاحظة أنّ خيل تطلق على الحصان وكذلك على راكبه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۵

ومما يجدر بالملاحظة أنّ هذا الحق ينتقل من بعد الرسول صلى الله عليه و آله إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم إلى نوّابهم. يعنى (كل مجتهد جامع للشرائط) لأنّ الأحكام الإسلامية لا- تعطّل، والحكومة الإسلامية من أهمّ المسائل التى يتعامل المسلمون معها وقسم من هذه الاسس قنّنت ضمن الهيكل الاقتصادى العام للمجتمع الإسلامى، كما أنّها تمثّل مبدأً أساسياً فى النظام الاقتصادى للدولة الإسلامية.

ثم يستعرض سبحانه فلسفة هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: «كَىْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ». فيتداول الأغنياء الثروات فيما بينهم ويحرم منها الفقراء.

والمفهوم الذى ورد فى هذه الآية يوضّح أصلًا أساسياً فى الاقتصاد الإسلامى وهو:

وجوب التأكيد فى الاقتصاد الإسلامى على عدم تمركز الثروات بيد فئة محدودة وطبقة معيّنة تتداولها فيما بينها، مع كامل الإحترام للملكية الشخصية، وذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرّك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الامة.

ويضيف سبحانه فى نهاية الآية: «وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

وبالرغم من أنّ هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بنى النضير، إلّاأنّ محتواها حكم عام فى كل المجالات، ومدرك واضح على حجية سنّة الرسول صلى الله عليه و آله.

وطبقاً لهذا الأصل فإنّ جميع المسلمين ملزمون بإتّباع التعاليم المحمّدية، وإطاعة أوامر رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وإجتناب ما نهى عنه، سواء فى مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الاقتصادية أو العبادية وغيرها.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۸) وَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۹) وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۰)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۶

السمات الأساسية للأنصار والمهاجرين والتابعين: هذه الآيات- التى هى إستمرار للآيات السابقة- تتحدث حول طبيعة مصارف الفىء الستّة، التى تشمل الأموال والغنائم التى حصل عليها المسلمون بغير حرب، وقد أوضحت الآية المعنى باليتامى والمساكين وأبناء السبيل، مع التأكيد على المقصود من أبناء السبيل بلحاظ أنّهم يشكّلون أكبر رقم من عدد المسلمين المهاجرين فى ذلك الوقت، حيث

تركوا أموالهم ووطنهم نتيجة الهجرة، وكانوا فقراء بعد أن هجروا الدنيا من أجل دينهم. يقول تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هنا بيّنت الآية ثلاثة أوصاف مهمة وأساسية للمهاجرين الأوائل، تتلخص ب:

«الإخلاص» و «الجهاد» و «الصدق».

وفى الآية اللاحقة يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، ومن بين ما يستعرضه فى الآية الكريمة أيضاً وصف رائع ومعبّر جدّاً عن طائفة الأنصار، ويكمل البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول المهاجرين، فيقول سبحانه: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ».

«تبؤوا»: من مادة «بواء» وهى فى الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان. وبعبارة اخرى يقال: (بواء) لترتيب وتسوية مكان (ما)، هذا التعبير كناية لطيفة لهذا المعنى، وهو أنّ طائفة الأنصار- أهل المدينة- قد هيّؤوا الأرضية المناسبة للهجرة.

والتعبير «تَبَوَّءُو» يوضّح لنا أنّ الأنصار لم يهيّؤوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنّهم فتحوا قلوبهم ونفوسهم وأجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيّف فى التعامل مع وضع الهجرة المرتقب.

وجملة «مِن قَبْلِهِمْ» يوضّح لنا أنّ كل تلك الامور كانت قبل هجرة مسلمى مكة، وهذا أمر مهمّ.

ثم يتطرق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات اخرى توضّح روحية الأنصار بصورة عامة، حيث يقول تعالى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ».

فلا فرق بين المسلمين فى وجهة نظرهم والمهمّ لديهم هو مسألة الإيمان والهجرة وهذا الحبّ كان يعتبر خصوصية مستمرّة لهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۷

والأمر الآخر: «وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا». فهم لا يطمعون بالغنائم التى اعطيت للمهاجرين، ولا يحسدونهم عليها، ولا حتى يحسّون بحاجة إلى ما اعطى للمهاجرين منها.

ويضيف تعالى فى المرحلة الثالثة إلى وصفهم: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» «۱».

ومن هذه السمات الثلاث: «المحبّة» و «عدم الطمع» و «الايثار»، كانت تتشكّل خصوصية الأنصار المتميزة.

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم بنى النضير للأنصار:

«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم فى هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة». فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية.

وفى نهاية الآية- ولمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمة، وبيان تأثيرها الإيجابى العميق- يضيف سبحانه: «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الشحّ»: البخل مقترناً بالحرص عادةً؛ و «يوق»: من مادة وقاية.

وفى الكافى عن الفضل بن أبى قرة قال: قال الصادق عليه السلام: «تدرى ما الشحيح»؟ قلت: هو البخيل. قال: «الشحّ أشدّ من البخل، إنّ البخيل يبخل بما فى يده، والشحيح يشحّ على ما فى أيدى الناس، وعلى ما فى يديه، حتى لا يرى مما فى أيدى الناس شيئاً إلّاتمنّى أن يكون له بالحلّ والحرام، ولا يقنع بما رزقه اللَّه».

وفى آخر آية مورد البحث يأتى الحديث عن آخر طائفة من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم ب (التابعين)، والذين يشكّلون المجموعة الغالبة من المسلمين بعد المهاجرين والأنصار الذين تحدّثت عنهم الآيات السابقة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

---

(۱) «خصاصة»: من مادة «خصاص» بمعنى الشقوق التى توجد فى جدران البيت، ولأنّ الفقر فى حياة الإنسان يمثّل شقّاً، لذا عبّر عنه

بالخصاصة. مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۸

وبهذا الترتيب فإنّ خصوصياتهم هى: (تربية النفس) و (الإحترام للسابقين فى الإيمان) و (الإبتعاد عن الحسد والبغضاء).

والتعبير ب (إخوان) والإستمداد من الرؤوف الرحيم فى نهاية الآية يحكى عن روح المحبّة والصفاء والاخوّة التى يجب أن تسود المجتمع الإسلامى أجمع، فكل شخص يتمنّى صفة حسنة لا يتمنّاها لنفسه فحسب.

إنّ الآيد أعلاه لبيان هذه الحقيقة وهى أنّ أموال «الفىء» لا تنحصر بمحتاجى المهاجرين والأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مرّ العصور.

بحث

الصحابة فى ميزان القرآن والتاريخ: يصرّ بعض المفسرين- بدون الإلتفات إلى الصفات التى مرّت بنا فى الآيات السابقة لكل من المهاجرين والأنصار والتابعين- على إعتبار جميع الصحابة بدون استثناء متّصفين بجميع الصفات الإيجابية (للمهاجرين والأنصار والتابعين) وأنّهم نموذج يقتدى بهم من حيث نزاهتهم وطهرهم والتسامح فيما بينهم، وكل خلاف صدر منهم أحياناً سواء فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله أو من بعده فإنّهم يغضّون النظر عنه، وبهذا اعتبروا كل مهاجر وأنصارى وتابع شخصاً محترماً ومقدّساً بصورة عامة، دون الإلتفات إلى أعمالهم وتقييمها حسب الموازين الشرعية.

إلّا أنّ الملاحظ أنّ فى الآيات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حيث تحدّد الآية التقييم وفق ضوابط وموازين دقيقة للمهاجرين الحقيقيين والأنصار والتابعين.

ففى «المهاجرين»: الإخلاص والجهاد والصدق.

وفى «الأنصار»: المحبة للمهاجرين والإيثار، والإبتعاد عن كل حرص وبخل.

وفى «التابعين»: بناء أنفسهم، والإحترام للسابقين فى الإيمان، والإبتعاد عن كل بغض وحسد.

إنّنا فى الوقت الذى نحترم فيه السابقين فى خطّ الرسالة والإيمان، يجدر بنا أن ندقّق فى سوابقهم وملفّ فعالهم، سواء على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أو المخاضات المختلفة التى حدثت بعده فى التاريخ الإسلامى، وعلى أساس الضوابط والمعايير الإسلامية المستلهمة من هذه الآيات المباركات نحكم لهم أو عليهم، وعندئذ نقوّى أواصرنا مع من بقى على العهد، ونقطعها أو نحدّدها- بما يناسب- مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلك الموازين والضوابط، وهذا هو المنطق الصحيح والمنسجم مع حكم القرآن والعقل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۳۹

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۱۳) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

فى تفسير روح البيان: إنّ قسماً من منافقى المدينة- كعبد اللَّه بن ابى وأصحابه- أرسلوا إلى بنى النضير وأبلغهم بما يلى: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم فإنّ معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين وهو جالس فى بيته حتى قال أحد سادات بنى النضير وهو سلام بن مشكم لحيى بن أخطب الذى كان هو المتولى لأمر بنى النضير واللَّه يا حيى إنّ قول ابن ابى لباطل وليس بشىء وإنّما يريد أن يورطك فى الهلكة حتى تحارب محمّداً فيجلس فى بيته يتركك فقال حيى نأبى الاعداوة محمّد والا قتاله فقال سلام فهو

واللّه جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا فكان ما كان كما سبق فى أوّل السورة وفيه حجة بينة لصحة النبوة واعجاز القرآن.

التّفسير

دور المنافقين فى فتن اليهود: بعد بيان ما جرى ليهود بنى النضير فى الآيات السابقة، وبيان حالة الأصناف الثلاثة من المؤمنين، يتعرّض القرآن الكريم الآن لشرح حالة المنافقين ودورهم فى هذا الحادث، وفى البداية يتحدث مع الرسول صلى الله عليه و آله حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۰

وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ». وهكذا فإنّ هؤلاء المنافقين وعدوا طائفة اليهود بامور ثلاثة، وجميعها كانت كاذبة.

ولهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحة: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

أجل، لقد كان المنافقون كاذبين دائماً، والكاذبون منافقين غالباً.

ثم ... للإيضاح والتأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

«لَئِنْ أُخْرِجُوا لَايَخْرُجُونَ مَعَهُمْ». «وَلَئِن قُوتِلُوا لَايَنصُرُونَهُمْ». «وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ». «ثُمَّ لَايُنصَرُونَ».

والآية اللاحقة تتحدث عن سبب هذا الإندحار، حيث يقول سبحانه: «لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ».

ولأنّهم لا يخافون اللّه، فإنّهم يخافون كل شيء خصوصاً إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ».

ثم يستعرض دليلًا واقعياً واضحاً يعبّر عن حالة الخوف والاضطراب حيث يقول سبحانه: «لَايُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ».

«قرى»: جمع قرية، أعمّ من المزروعة وغير المزروعة، وتأتى أحياناً بمعنى الناس المجتمعين فى مكان واحد.

«محصّنة»: من مادة «حصن» بمعنى مسوّرة، وبناءً على هذا فإنّ (القرى المحصّنة) تعنى القرى التى تكون فى أمان بوسيلة أبراجها وخنادقها والمواضع التى تعيق تقدّم العدو فيها.

نعم، بما أنّهم خرجوا من حصن الإيمان والتوكل على اللّه، فإنّهم بغير الإلتجاء والإتّكاء على الجدران والقلاع المحكمة لا يتجرّؤون على مواجهة المؤمنين.

ثم يوضّح أنّ هذا ليس ناتجاً عن جهل بمعرفة فنون الحرب، أو قلة فى عددهم وعدّتهم، أو عجز فى رجالهم، بل إنّ «بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ».

ولهذا السبب- واستمراراً لما ورد فى نفس الآية- نستعرض سبباً آخر من أسباب إندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۱

وهكذا فإنّ الإنسجام الظاهرى للعناصر غير المؤمنة والإتفاقيات العسكرية والاقتصادية يجب ألّا تخدعنا أبداً، لأنّ وراءها قلوب متناحرة متنافرة، ودليلها واضح وهو إنهماك كل منهم بمنافعه المادية بشكل شديد، وبما أنّ المنافع غالباً ما تكون متعارضة، فعندئذ تبرز الاختلافات والشحناء فيما بينهم، ولن تغنى عن ذلك العهود والإتفاقيات وشعارات الوحدة والانسجام الظاهرى. فى الوقت الذى تكون فيه وحدة وانسجام المؤمنين على قواعد واصول ربانية كأصل الإيمان والتوحيد والقيم الإلهية.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۵) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (۱۶) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَ ذلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (۱۷) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ

هُمُ الْفَاسِقُونَ (۱۹) لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (۲۰) يستمرّ البحث فى هذه الآيات حول قصة بنى النضير والمنافقين ورسم خصوصية كل منهم فى تشبيهين رائعين: يقول سبحانه فى البداية: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

تحدّثنا هذه الآية عن ضرورة الاعتبار بما جرى لبنى النضير والقوم الذين كانوا من قبلهم وما جرى لهم.

ويعتقد كثير من المفسرين أنّ المقصود بقوله «الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» هو إشارة إلى قصة يهود «بنى قينقاع»، التى حدثت بعد غزوة بدر، وانتهت بإخراجهم من المدينة، لأنّ يهود بنى قينقاع كيهود بنى النضير كانوا ذوى ثراء ومغرورين بقدرتهم القتالية، يهدّدون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمسلمين بقوّتهم وقدرتهم العسكرية إلّاأنّ العاقبة لم تكن غير حصاد التيه والتعاسة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۲

«وبال»: بمعنى (عاقبة الشؤم والمرارة) وهى فى الأصل مأخوذة من «وابل» بمعنى المطر الغزير، لأنّ المطر الغزير غالباً ما يكون مخيفاً.

ثم يستعرض القرآن الكريم تشبيهاً للمنافقين حيث يقول سبحانه: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىءٌ مِّنكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

والمقصود ب «الإنسان» فى هذه الآية هو مطلق الإنسان الذى يقع تحت تأثير الشيطان، وينخدع بأحابيله ووعوده الكاذبة، ويسير به فى طريق الكفر والضلال، ثم إنّ الشيطان يتركه ويتبرّأ منهم.

نعم، هكذا حال المنافقين حيث يدفعون بحلفائهم من خلال الوعود الكاذبة والمكر والحيلة إلى اتون المعارك والمشاكل ثم يتركونهم لوحدهم، ويتخلّون عنهم، لأنّ الوفاء لا يجتمع والنفاق.

وتتحدث الآية اللاحقة عن مصير هاتين الجماعتين (الشيطان وأتباعه، والمنافقين وحلفائهم من أهل الكفر) وعاقبتهما البائسة، حيث النار خالدين فيها، فيقول سبحانه عنهم: «فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ».

وهذا أصل كلّى فإنّ عاقبة تعاون الكفر والنفاق، والشيطان وحزبه، هو الهزيمة والخذلان، وعدم الموفّقية، وعذاب الدنيا والآخرة، فى الوقت الذى تكون ثمره تعاون المؤمنين وأصدقائهم تعاون وثيق وبنّاء، وعاقبته الخير ونهايته الانتصار والتمتع بالرحمة الإلهية الواسعة فى عالم الدنيا والآخرة.

وتوجّه الآية اللاحقة حديثها للمؤمنين بعنوان استنتاج من حالة الشؤم والبؤس التى اعترت المنافقين وبنى النضير والشياطين، حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ».

إنّ هذه الذخيرة الاخروية تمثّل أكبر رأسمال حقيقى للإنسان فى مشهد يوم القيامة، لذا فإنّ هذا النوع من الأعمال الصالحة يلزم إعداده وتهيئته وإرساله مسبقاً، وإلّا فلا أحد يهتمّ له بعد وفاته وإنقضاء أجله، وإذا ارسل شيئاً فليس له شأن يذكر.

ثم يضيف تعالى مرّة اخرى للتأكيد بقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

نعم، التقوى والخوف من اللَّه يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقية وتخليص وتطهير أعماله.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۳

وأكّدت الآية اللاحقة بعد الأمر بالتقوى والتوجّه إلى يوم القيامة على ذكر اللَّه سبحانه، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ».

وأساساً فإنّ جوهر التقوى شيئان: ذكر اللَّه تعالى، وذلك بالتوجّه والإنشداد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه واستشعار حضوره فى كل مكان وفى كل الأحوال، والخشية من محكمة عدله ودقّة حسابه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها فى صحيفة أعمالنا ...

ولذا فإنّ التوجّه إلى هذين الأساسين (المبدأ والمعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأنبياء والأولياء، وذلك لتأثيرها العميق فى تطهير الفرد والمجتمع.

وأساساً فإنّ النسيان- بحدّ ذاته- من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان وشقائه، لأنّ قيمة الإنسان فى قابلياته ولياقاته الذاتية وطبيعة خلقه التى تميّزه عن الكثير من المخلوقات، وإذا نسيها فهذا يعنى نسيان إنسانيته، وفى مثل هذه الحالة يسقط الإنسان فى وحل الحيوانية، ويصبح همّه الأكل والشرب والنوم والشهوات.

وهذه كلّها عامل أساس للفسق والفجور، بل إنّ نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق والخروج عن طاعة اللّه، ولهذا يقول سبحانه: «أُولِئكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وفى آخر آية- مورد البحث- يستعرض سبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعة المؤمنة المتّقية السائرة باتّجاه المبدأ والمعاد، والجماعة الغافلة عن ذكر اللّه، التى ابتليت كنتيجة للغفلة عن اللّه بنسيان ذاتها، حيث يقول سبحانه: «لَايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ».

ليس فى الدنيا، ولا فى المعتقدات، وليس فى طريقة التفكير والمنهج، وليس فى طريقة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان وأهدافه، ولا ـ فى المحصّلة الاخروية والجزاء الإلهى ... إذ إنّ خطّ كل مجموعة من هاتين المجموعتين فى اتّجاه متعارض ... متعارض فى كل شىء وكل مكان وكل هدف ... إحداهما تؤكّد على ذكر اللّه والقيامة وإحياء القيم الإنسانية الرفيعة، والقيام بالأعمال الصالحة كذخيرة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... والاخرى غارقة فى الشهوات واللذات المادية، وأسيرة الأهواء ومبتلية بالنسيان .. وبهذا فإنّ الإنسان على مفترق طريقين، إمّا أن يرتبط بالقسم الأوّل، أو بالقسم الثانى، وليس غيرهما من سبيل آخر.

وفى نهاية الآية نلاحظ حكماً قاطعاً حيث يضيف سبحانه: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۴

فليس فى الدار الآخرة فقط يوجد (فائزون وخاسرون) بل فى هذه الدنيا أيضاً، حيث يكون الإنتصار والنجاة والسكينة من نصيب المؤمنين المتقين، كما أنّ الهزيمة والخسران فى الدارين تكون من نصيب الغافلين.

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (۲۲) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۲۳) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۴) لو نزل القرآن على جبل: تكملة للآيات السابقة التى كانت تهدف إلى تحريك النفوس والقلوب الإنسانية، وخاصة عن طريق التذكير بالنهاية التى يكون عليها الإنسان، والمصير الذى ينتظره، والذى يجدر أن يهيّئه فى أبهى وأفضل صورة ... تأتى هذه الآيات المباركات التى هى آخر آيات سورة الحشر، والتى تأخذ بنظر الاعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضّح حقيقة اخرى حول القرآن الكريم، وهى: أنّ هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جدّاً حتى على الجمادات، حيث إنّه لو نزل على الجبال لهزّها وحرّكها وجعلها فى وضع من الإضطراب المقترن بالخشوع إلّا أنّه- مع الأسف- هذا الإنسان القاسى القلب يسمع آيات اللّه تتلى عليه ولا تتحرّك روحه ولا يخشع قلبه. يقول سبحانه: «لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدّعًا مّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» «۱».

وقد حملها البعض الآخر على ظاهرها وقالوا: إنّ كل الموجودات فى هذا العالم- ومن جملتها الجبال- لها نوع من الإدراك والشعور الخاصّ بها، وإذا نزلت هذه الآيات عليها فإنّها

---

(۱) «متصدّع»: من مادة «صدع»، بمعنى شقّ الأشياء القوية، كالحديد والزجاج، وإذا قيل لوجع الرأس: صداع، فإنّه بسبب شعور الإنسان أنّ رأسه يريد أن يتشقّق من الألم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۵

ستتلاشى، ودليل هذا ما ورد فى الآية (۷۴) من سورة البقرة فى وصف جماعة من اليهود.

قال تعالى: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِن خَشْيَةِ اللَّهِ».

الآيات اللاحقة تستعرض قسماً مهمّاً من صفات جمال وجلال اللّه سبحانه، التى لكل واحدة منها الأثر العميق فى تربية النفوس وتهذيب القلوب، وتحوى الآيات القرآنية الثلاثة خمسة عشر وصفاً للّهسبحانه. أو بتعبير آخر: فإنّ ثمانى عشرة صفة من صفاته العظيمة تذكرها ثلاث آيات، وكل منها تتعلّق ببيان التوحيد الإلهى والاسم المقدس، وتوضّح للإنسان طريق الهداية إلى العالم النورانى لأسماء وصفات الحق سبحانه. يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ».

هنا وقبل كل شىء يؤكّد على مسألة التوحيد، التى هى أصل لجميع صفات الجمال والجلال، وهى الأصل والأساس فى المعرفة الإلهية، ثم يذكر علمه بالنسبة للغيب والشهود.

ثم يعتمد على رحمته العامة التى تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) ورحمته الخاصة التى تخصّ المؤمنين، (والرحيم) لتعطى للإنسان أملًا، ولتعينه فى طريق بناء نفسه والتكامل بأخلاقه وسلوكه بالسير نحو اللّه.

أمّا فى الآية اللاحقة، فبالإضافة إلى التأكيد على مسألة التوحيد فإنّها تذكر ثمانية صفات اخرى للّهسبحانه، حيث يقول البارىء عزّ وجل: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ». «الْمَلِكُ» الحاكم والمالك الحقيقى لجميع الكائنات.

«الْقُدُّوسُ» المنزّه من كل نقص وعيب.

«السَّلمُ» لا يظلم أحد، وجميع الخلائق فى سلامة من جهته.

ثم يضيف سبحانه:

«الْمُؤْمِنُ» يعطى الأمان لأحبّائه، ويتفضّل عليهم بالإيمان.

«الْمُهَيْمِنُ» الحافظ والمراقب لكل شىء.

«الْعَزِيزُ» القادر الذى لا يقهر.

«الْجَبَّارُ»: مأخوذ من (جبر) وقد ورد هذا المصطلح عشر مرّات فى القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين والمستكبرين المتسلّطين على رقاب الامّة والمفسدين فى الأرض ومرّة واحدة فقط عن اللّه القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۶

ثم يضيف سبحانه: «الْمُتَكَبِّرُ».

«المتكبر»: من مادة «تكبر» وجاءت بمعنيين:

الأوّل: إستعملت صفة المدح، وقد اطلقت على لفظ الجلالة، وهو إتّصافه بالعلو والعظمة والسمات الحسنة بصورة عامة.

والثانى: استعملت صفة الذم وهو ما يوصف به غير اللّه عزّ وجل.

ولأنّ العظمة وصفات العلو والعزة لا تكون لائقة لغير مقام اللّه سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابى حول اللّه سبحانه، وكلّما إستعمل لغير اللّه أعطى معنى الذم.

وفى نهاية الآية يؤكّد مرّة اخرى مسألة التوحيد التى كان الحديث حولها ابتداءً حيث يقول تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وفى آخر آية مورد البحث يشير سبحانه إلى ستّ صفات اخرى حيث يقول تعالى:

«هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ». «الْبَارِئُ». «الْمُصَوِّرُ».

ولأنّ صفات اللّه لا تنحصر فقط بالتى ذكرت فى هذه الآية فإنّه سبحانه يشير إلى صفة أساسية لذاته المقدسة اللامتناهية، حيث يقول

عزّ وجل: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .
ولهذا السبب فإنّه سبحانه منزّه ومبرّأ من كل عيب ونقص: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ويعتبرونه تامّاً وكاملًا من كل نقص وعيب.
وأخيراً- للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلقة- يشير سبحانه إلى وصفين آخرين من صفاته المقدسة، التى ذكر أحدهما فى السابق بقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».
الاولى دليل كمال قدرته على كل شىء، وغلبته على كل قوّة.
والثانية إشارة إلى علمه وإطّلاعه ومعرفته ببرامج الخلق وتنظيم الوجود وتدبير الحياة.
إنّ مجموع ما ورد فى الآيات الثلاث بالإضافة إلى مسألة التوحيد التى تكرّرت مرّتين، فإنّ مجموع الصفات المقدسة للّهسبحانه تكون سبع عشرة صفة مرتبة بهذا الشكل: ١- عالم الغيب والشهادة، ٢- الرحمن، ٣- الرحيم، ۴- الملك، ۵- القدوس، ۶- السلام، ٧- المؤمن، ٨- المهيمن، ٩- العزيز، ١٠- الجبار، ١١- المتكبر، ١٢- الخالق، ١٣- البارىء، ١۴- المصور، ١۵- الحكيم، ١۶- له الأسماء الحسنى، ١٧- الموجود الذى تسبّح له كل موجودات العالم.
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۷
إنّ هذه الآيات تأخذ بيد السائرين فى طريق معرفة اللّه، وتقودهم من درجة إلى درجة ومن منزل إلى منزل، حيث تبدأ الآيات أوّلًا بالحديث عن ذاته المقدسة، ومن ثم إلى عالم الخلقة، وتارةً اخرى بالسير نحو اللّه تعالى، حيث ترتفع روحيته إلى سمو الواحد الأحد، فيتطهّر القلب بالأسماء والصفات الإلهية المقدسة، ويربى فى أجواء هذه الأنوار والمعارف، حيث تنمو براعم التقوى على ظاهر أغصان وجوده، وتجعله لائقاً لقرب جواره لكى يكون وجوداً منسجماً مع كل ذرّات الوجود، مردّدين معاً ترانيم التسبيح والتقديس.
إنّ الآيات الأخيرة لهذه السورة آيات خارقة وعظيمة وملهمة، وهى درس تربوى كبير للإنسان.
فى تفسير مجمع البيان: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:
«اسم اللّه الأعظم فى ستّ آيات فى آخر سورة حشر».
وعن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ آخر سورة الحشر، غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر».
«نهاية تفسير سورة الحشر»
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۴۹

۶۰. سورة الممتحنة

محتوى السورة: تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:
١- يتحدث عن موضوع «الحبّ فى اللّه» و «البغض فى اللّه»، وينهى عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، ويدعو المسلمين لكى يستلهموا من سيرة الرسول العظيم إبراهيم عليه السلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه آزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئى، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى فى هذا المجال ويتكرّر هذا المعنى فى نهاية السورة، كما فى بدايتها.
٢- يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة وضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاماً اخرى فى هذا الصدد.
واختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص والإمتحان التى وردت فى الآية العاشرة من هذه السورة «١».
كما ذكر اسم آخر لهذه السورة وهو (سورة المودّة) وذلك بلحاظ النهى عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، وقد أكّدت عليه السورة كثيراً.

---

(۱) قرأها البعض «ممتحَنة» (بفتح الحاء) وذلک بسبب حالة التمحیص والإمتحان للنسوة المهاجرات، وقرأها آخرون «ممتحِنة» (بکسر الحاء) وذلک لأنّ موضوعات السورة- أجمع- کانت وسیلة للامتحان والتمحیص.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۰

مختصر الامثل ج۵ ۱۶۹

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان: عن ابی بن کعب قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

«ومن قرأ سورة الممتحنة، کان المؤمنون والمؤمنات له شفعاء یوم القیامة».

إنّ هذه النعم والألطاف الإلهیة تکون للأشخاص الذین لا یکتفون بالتلاوة السطحیة الفارغة من محتوی الروح، والبعیدة عن العلم والعمل.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیَاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ کَفَرُوا بِمَا جَاءَکُمْ مِنَ الْحَقِّ یُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِیَّاکُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّکُمْ إِنْ کُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِی سَبِیلِی وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِی تُسِرُّونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَیْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ یَفْعَلْهُ مِنْکُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِیلِ (۱) إِنْ یَثْقَفُوکُمْ یَکُونُوا لَکُمْ أَعْدَاءً وَ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ (۲) لَنْ تَنْفَعَکُمْ أَرْحَامُکُمْ وَ لَا أَوْلَادُکُمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ یَفْصِلُ بَیْنَکُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی حاطب بن أبی بلتعة، وذلک أنّ سارة مولاة أبی عمرو بن صیفی بن هشام، أتت رسول اللّه صلی الله علیه و آله من مکة إلی المدینة بعد بدر بسنتین، فقال لها رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «أمسلمة جئت»؟ قالت: لا. قال: «أمهاجرة جئت»؟ قالت: لا- قال: «فما جاء بک»؟ قالت: کنتم الأصل والعشیرة والموالی، وقد ذهب موالی واحتجت حاجة شدیدة، فقدمت علیکم لتعطونی وتکسونی وتحملونی! قال: «فأین أنت من شباب مکة»؟ وکانت مغنیة نائحة. قالت: ما طلب منّی بعد وقعة بدر [وهذا یدلّ علی عمق النازلة التی نزلت بمشرکی قریش فی بدر]؛ فحثّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله علیها بنی عبدالمطلب، فکسوها وحملوها، وأعطوها نفقة. وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یتجهّز لفتح مکة، فأتاها حاطب بن أبی بلتعة وکتب معها کتاباً إلی أهل مکة، وأعطاها عشرة دنانیر وکساها برداً علی أن توصل الکتاب إلی أهل مکة وکتب فی الکتاب: «من حاطب بن أبی بلتعة إلی أهل مکة إنّ رسول اللّه یریدکم فخذوا حذرکم»! فخرجت سارة ونزل جبرائیل فأخبر النبی صلی الله علیه و آله بما فعل، فبعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۱

علیاً وعمّاراً وعمر والزبیر وطلحة والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد وکانوا کلّهم فرساناً وقال لهم: انطلقوا حتی تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعینة معها کتاب من حاطب إلی المشرکین، فخذوه منها. فخرجوا حتی أدرکوها فی ذلک المکان الذی ذکره رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقالوا لها: أین الکتاب؟ فحلفت باللّه ما معها من کتاب، فنحوها وفتّشوا متاعها فلم یجدوا معها کتاباً، فهمّوا بالرجوع. فقال علی علیه السلام: «واللّه ما کذبنا ولا کُذِبنا»، وسلّ سیفه وقال لها: «أخرجی الکتاب وإلّا واللّه لأضربنّ عنقک»! فلمّا رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها قد أخبأته فی شعرها.

فرجعوا بالکتاب إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فأرسل إلی حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الکتاب»؟ قال: نعم. قال: «فما حملک علی ما صنعت»؟ قال: یا رسول اللّه! واللّه ما کفرت منذ أسلمت، ولا غششتک منذ نصحتک، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولکن لم یکن أحد من المهاجرین إلّاوله بمکة من یمنع عشیرته وکنت عریراً فیهم [أی غریباً] وکان أهلی بین ظهرانیهم فخشیت علی أهلی فأردت أن أتّخذ عندهم یداً، وقد علمت أنّ اللّه ینزل بهم بأسه وأنّ کتابی لا یغنی عنهم شیئاً، فصدقه رسول اللّه صلی الله علیه و آله وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال:

دعنى يـا رسول اللّه أضـرب عنق هـذا المنافق. فقال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله: «وما يـدريك يا عمر لعلّ اللّه اطّلع على أهل بـدر فغفر لهم فقال لهم: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

[وكيفية العلاقة التى يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهة، والمشركين وأعداء اللّه من جهة اخرى، والتأكيد على إلغاء وتجنّب أى ولاء مع أعداء اللّه .

التّفسير

نتيجة الولاء لأعداء اللّه: علمنا مما تقدّم أنّ سبب نزول الآيات السابقة هو التصرف المشين الذى صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعة) ورغم أنّه لم يكن قاصداً التجسّس إلّاأنّ عمله نوع من إظهار المودّة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات مستقبلًا وتنهاهم عنها.

يقول سبحانه فى البداية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ». مؤكّداً أنّ أعداء اللّه وحدهم هم الذين يضمرون العداء للمؤمنين والحقد عليهم، ومع هذا التصور فكيف تمدّون يد الصداقة والودّ لهم.

ويضيف تعالى: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۲

إنّهم يخالفونكم فى العقيدة، كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عمليّاً، ويعتبرون إيمانكم باللّه- الذى هو أكبر فخر لكم وأعظم قداسة تجلّلكم- غاية الجرم وأعظم الذنب، ومع هذه الأعمال التى مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودّة لهم.

ثم يضيف القرآن الكريم موضّحاً: «إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى». فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء والودّ.

فإذا كنتم ممّن تدّعون حبّ اللّه حقّاً، وهاجرتم من دياركم لأجله سبحانه وترغبون فى الجهاد فى سبيله طلباً لرضاه تعالى، فإنّ هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء اللّه سبحانه.

ثم يضيف عزّ وجل للمزيد من الإيضاح فيقول: «تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ».

وبناءً على هذا فما عسى أن يغنى الإخفاء وهو واقع بعلم اللّه فى الغيب والشهود؟

وفى نهاية الآية نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذى أمر به اللّه سبحانه بقوله:

«وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فمن جهة انحرف عن معرفة اللّه تعالى بظنّه أنّ اللّه لا يعلم ولا يرى ما يصنع، وكذلك إنحرف عن طريق الإيمان والإخلاص والتقوى، حينما يعقد الولاء وتقام أواصر المودّة مع أعداء اللّه، وبالإضافة إلى ذلك فإنّه وجّه ضربة قاصمة إلى حياته حينما أفشى أسرار المسلمين إلى الأعداء، ويمثّل ذلك أقبح الأعمال وأسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل ويقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإيمان والقداسة.

وفى الآية اللاحقة يضيف سبحانه للتوضيح والتأكيد الشديد فى تجنّب موالاتهم: «إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ» «۱».

أنتم تكنّون لهم الودّ فى الوقت الذى يضمرون لكم حقداً وعداوة عميقة ومتأصّلة، وإذا ما ظفروا بكم فإنّهم لن يتوانوا عن القيام بأى عمل ضدّكم.

والأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث فى ردّكم عن دينكم وإسلامكم، والعمل على تجريدكم من أعظم مكسب وأكبر مفخرة لكم، وهى حقيقة الإيمان: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ».

---

(۱) «يثقفوكم»: من مادة: «ثقف» و «ثقافة»، بمعنى المهارة فى تشخيص أو إنجاز شىء ما، ولهذا السبب تستعمل- أيضاً- بمعنى الثقافة

أو التمکّن والتسلّط المقترن بمهارة على الشیء.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۳

وفی آخر آیة من هذه الآیات یستعرض سبحانه الجواب على حاطب بن أبی بلتعة ومن یسایره فی منهجه من الأشخاص، حینما قال فی جوابه لرسول اللّه عن السبب الذی حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمین لمشرکی مکة، حیث قال بلتعة: أهلی وعیالی فی مکة، وأردت أن أمنع عنهم الأذى وأصونهم بعملی هذا، (واتّخذ عند أهلها یداً). یقول تعالى: «لَن تَنفَعَکُمْ أَرْحَامُکُمْ وَلَا أَوْلَدُکُمْ».

وذلک لأنّ الأرحام والأولاد المشرکین سوف لن یجلبوا خیراً وعزّة فی الدنیا ولا نجاة فی الآخرة.

ثم یضیف تعالى: «یَوْمَ الْقِیمَةِ یَفْصِلُ بَیْنَکُمْ».

وهذا تأکید على أنّ مقام أهل الإیمان هو الجنة، وأنّ أهل الکفر یساقون إلى جهنم وبئس المصیر.

وفی نهایة الآیة یحذّر الجمیع مرّة اخرى بقوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ».

إنّه عالم بنیّاتکم، وعالم بالأعمال التی تصدر منکم، سواء کانت فی حالة السرّ أو العلن، وإذا کانت المصلحة الإلهیة تقتضی عدم إفشاء أسرارکم أحیاناً کما فی حادثة حاطب بن أبی بلتعة، فلأنّها لحکمة أو مصلحة یراها سبحانه، ولیس لأنّه لا یعلم بها أو تخفى علیه خافیة.

قَدْ کَانَتْ لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرَاهِیمَ وَ الَّذِینَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْکُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ کَفَرْنَا بِکُمْ وَ بَدَا بَیْنَنَا وَ بَیْنَکُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِیمَ لِأَبِیهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَکَ وَ مَا أَمْلِکُ لَکَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ رَبَّنَا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنَا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنَا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ (۴) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۵) لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُو اللَّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۶) إنّ منهج القرآن (من أجل التأکید على تعالیمه القیّمة) یعتمد فی کثیر من الموارد طریقة الاستشهاد بنماذج أساسیة فی عالم الإنسانیة والحیاة، وبعد التشدید السابق الذی مرّ بنا خلال الآیات السابقة فی تجنّب عقد الولاء لأعداء اللّه، یتحدث القرآن الکریم عن

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۴

إبراهیم علیه السلام ومنهجه القدوة کنموذج رائد یحظى باحترام جمیع الأقوام وخصوصاً العرب منهم. قال تعالى: «قَدْ کَانَتْ لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِی إِبْرٰهِیمَ وَالَّذِینَ مَعَهُ».

والمراد من تعبیر «الَّذِینَ مَعَهُ» هم المؤمنون الذین ساروا برفقته فی هذا الطریق بالرغم من قلّة عددهم. ثم یضیف سبحانه لتوضیح هذا المعنى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنکُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

ومرّة اخرى یؤکّدون مضیفین: «کَفَرْنَا بِکُمْ». والکفر هنا هو کفر البراءة الذی اشیر له فی بعض الروایات ضمن ما ورد فی تعدّد أقسام الکفر الخمسة.

ویضیفون للمرّة الثالثة مؤکّدین بصورة أشدّ: «وَبَدَا بَیْنَنَا وَبَیْنَکُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ».

وبهذا الإصرار وبهذه القاطعیة وبدون أی تردّد أو مواربة یعلن المؤمنون انفصالهم وإبتعادهم ونفرتهم من أعداء اللّه حتى یؤمنوا باللّه وحده، وهم مستمرّون فی موقفهم وإلى الأبد ولن یتراجعوا عنه أو یعیدوا النظر فیه إلّاإذا غیّر الکفار مسارهم وتراجعوا عن خطّ الکفر إلى الإیمان.

ولأنّ هذا القانون العام کان له استثناء فی حیاة إبراهیم علیه السلام یتجسّد ذلک بإمکانیة هدایة بعض المشرکین، حیث یقول سبحانه معقّباً: إنّ هؤلاء قطعوا کل إرتباط لهم مع قومهم الکافرین حتى الکلام الودود والملائم: «إِلَّا قَوْلَ إِبْرٰهِیمَ لِأَبِیهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَکَ وَمَا أَمْلِکُ لَکَ مِنَ اللَّهِ مِن شَیْءٍ». وقد عمل إبراهیم علیه السلام بما وعد آزر به.

ویقول عزّ وجل فی بیان هذا المعنى: «وَمَا کَانَ إِسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِیمَ لِأَبِیهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِیَّاهُ فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ

إِبْرهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» «۱».

إنّ إبراهيم عليه السلام وأصحابه كانوا من أشدّ المخالفين والمحاربين للشرك، ولابدّ لنا من الإقتداء بهم وأخذ الدروس والعبر من سيرتهم، بما فى ذلك ما يتعلق بموقفه من «آزر» إذا توفّرت لنا نفس الشروط والخصوصيات.

وبما أنّ محاربة أعداء اللّه، والصرامة والشدّة معهم- خصوصاً مع تمتّعهم بقدرة ظاهرية- سوف لن تكون فاعلة إلّابالتوكل على اللّه تبارك وتعالى، يضيف سبحانه فى نهاية الآية:

---

(۱) سورة التوبة/ ۱۱۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۵

«رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وفى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهم وحسّاس لإبراهيم عليه السلام وأصحابه فى هذا المجال، حيث يقول تعالى: «رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا».

من المحتمل أن يكون ما ورد فى الآية إشارة إلى عمل حاطب بن أبى بلتعة واحتمال صدور شبيهه من أشخاص جهلة يكونون سبباً فى تقوية الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصورون أنّهم يعملون لمصلحة الإسلام.

ويضيف فى نهاية الآية: «وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فقدرتك يا اللّه لا تقهر، وحكمتك نافذة فى كل شىء.

ومرّة اخرى يؤكّد سبحانه فى آخر آية من هذه الآيات على نفس الأمر الذى ذكر فى أوّل آية، حيث يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَخِرَ».

لقد كانوا لنا اسوة، ليس فقط فى موقفهم ضد منهج الكفر وعبدة الأوثان، بل هم اسوة لنا فى الدعاء بين يدى البارىء عزّ وجل، وقدوة لنا فى طلب المغفرة منه.

وبدون شك فإنّ هذا التأسّى والإقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه فى النهاية قوله: «وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ».

وذلك أنّ عقد الولاء مع أعداء اللّه يقوّى عودهم وشوكتهم وبالتالى يؤدّى إلى هزيمة المسلمين.

وفى الغالب فإنّ وجود القدوة فى حياة البشر مؤثّر فى تربيتهم وتوجيههم، ولهذا السبب فإنّ النبى الأعظم صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين، وبقية الأنبياء الكرام عليهم السلام كانوا موضع هداية البشرية من خلال أعمالهم والتزاماتهم.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۸) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۶

مودّة الكفار غير الحربيين: يستمر الحديث فى هذه الآيات المباركات تكملة للموضوعات التى طرحت فى الآيات السابقة حول «الحبّ فى اللّه والبغض فى اللّه» وقطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أنّ قطع هذه الرابطة يولّد فراغاً عاطفياً بالنسبة للبعض من المسلمين، فإنّ المؤمنين الصادقين، وأصحاب رسول اللّه المخلصين آمنوا بهذا المنهج وثبتوا عليه، واللّه تعالى بشّر هؤلاء ألّا يحزنوا، لأنّ الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أنّ هذه الحالة سوف لن تستمرّ طويلًا، حيث يقول سبحانه: «عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً».

ويتحقق هـذا الوعـد وتصدق البشارة فى السـنة الثامنة للهجرة حيث منّ اللَّه على المسـلمين بفتح مكة، ودخل أهلها جماعات جماعات فى دين الإسـلام الحنيف، مصداقاً لقوله تعالى: «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا». وعند ذلك تتبدّد غيوم الظلمة والعداء والعناد من سـماء حياتهم، وتشرق نفوسهم بنور الإيمان وحرارة الودّ وأجواء المحبة والصداقة.

وعلى كل حال، إذا تباعد بعض الناس عن خط الإسلام والمسلمين وكانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففى مثل هذه الحالة لا ينبغى اليأس، لأنّ اللَّه تعالى قادر على كل شىء، ويستطيع تغيير ما فى قلوبهم، فهو الذى يغفر الذنوب والخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وتبيّن الآيات اللاحقـة شارحة وموضّـحة طبيعة علاقة المودة مع المشـركين، حيث يقول سـبحانه: «لَّايَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

إنّ المسـتفاد من الآيات الكريمـة حول طبيعـة وكيفية العلاقة بين المسـلمين وغيرهم هو (أصل كلى) لا يختص بذلك الوقت فقط، بل يمثّل خطاً عاماً لطبيعة هذه العلاقة فى كل الأزمنة سواء اليوم أو غداً، فى حياتنا المعاصرة والمستقبلية.

وواجب المسـلمين وفق هـذه الاسـس أن يقفوا بكـل صـلابة أمـام أيـة مجموعـة، أو دولـة، تتّخـذ موقفاً عـدائياً منهم أو تعين من أراد بالإسلام والمسلمين سوءاً ... وقطع كل صلّة قائمة على أساس المحبة والصداقة معهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۷

أمّا إذا كان الكفار فى موقع محايـد إزاء الإسـلام والمسـلمين، أو أنّهم متعاطفون معهم، عندئـذ يسـتطيع المسـلمون أن يقيموا علاقات حسـنة ويرتبطوا وإيـاهم بروابـط المودة على أن لاـ تكون بـالصورة التى تكون بين المسـلمين أنفسـهم، ولاـ بالشـكل الـذى يؤدّى إلى تغلغلهم فى صفوف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَ اسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰) وَ إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۱۱)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: قال ابن عباس: صالـح رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بالحديبيـة مشـركى مكة على أنّ من أتاه من أهل مكة، رده عليهم، ومن أتى أهـل مكـة من أصـحاب رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فهو لهم، ولم يردّوه عليه، وكتبوا بـذلك كتاباً، وختموا عليه. فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسـلمية، مسـلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه و آله بالحديبية. فأقبل زوجها مسافر من بنى مخزوم، فى طلبها، وكان كافراً. فقال: يا محمّـد، اردد علىّ امرأتى، فإنّك قد شـرطت لنا أن ترد علينا من أتاك وهذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد. فنزلت الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ» من دار الكفر إلى دار الإسلام «فَامْتَحِنُوهُنَّ».

قـال ابن عباس: امتحانهن أن يسـتحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبـة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلّاحبّاً للَّهورسوله. فاستحلفها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فحلفت باللَّه الذى لا إله إلّاهو على ذلك. فأعطى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب.

فكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحنّ ويعطى أزواجهن مهورهنّ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۸

التّفسير

تعویض خسائر المسلمین والکفار: إستعرضت الآیات السابقة موضوع «البغض فی اللَّه» وما یترتّب علی ذلک من قطع أی صلة مع أعداء اللَّه ... أمّا موضوع هذه الآیات فهو عن «الحبّ فی اللَّه» وعن طبیعة العلاقة مع الذین إنفصلوا عن الکفر وإرتبطوا بالإیمان.

وینصبّ الحدیث فی الآیة الاولی- من هذه الآیات المبارکات- عن النساء المهاجرات، حیث ضمّت هذه الآیة سبع نقاط تتعلق بالنساء المهاجرات، کما تناولت نقاطاً اخری تختص بالنساء المشرکات.

النقاط التی تختص بالنساء المهاجرات هی:

۱- امتحان النساء المهاجرات، حیث یوجّه سبحانه الحدیث إلی المؤمنین فیقول تعالی:

«یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَکُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ».

إنّ هذا الإمتحان هو أن یستحلفن أنّ هجرتهن لم تکن إلّامن أجل الإسلام.

کما یوجد احتمال آخر حول کیفیة امتحان النسوة المهاجرات، وذلک کما ورد فی الآیة (۱۲) من نفس السورة. قال تعالی: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذَا جَاءَکَ الْمُؤْمِنَاتُ یُبَایِعْنَکَ عَلَی أَن لَّا یُشْرِکْنَ بِاللَّهِ شَیًا وَلَا یَسْرِقْنَ وَلَا یَزْنِینَ وَلَا یَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا یَأْتِینَ بِبُهْتَانٍ یَفْتَرِینَهُ بَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا یَعْصِینَکَ فِی مَعْرُوفٍ فَبَایِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

ومن الممکن أن یکون الکذب فی الحلف أیضاً، فیقول البعض خلافاً لما یعتقد به، إلّاأنّ التزام الکثیر من الناس حتی المشرکین فی ذلک الزمان بمسألة البیعة والحلف باللَّه کان سبباً فی تقلیص دائرة غیر الصادقین.

لذا یضیف سبحانه فی العبارة التالیة: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِیمَانِهِنَّ».

۲- یقول سبحانه فی الأمر اللاحق: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَی الْکُفَّارِ».

۳- فی ثالث نقطة التی هی دلیل علی الحکم السابق یضیف تعالی: «لَاهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ یَحِلُّونَ لَهُنَّ».

فالإیمان والکفر لا یجتمعان فی مکان واحد، لأنّ عقد الزواج المقدس لا یمکن أن یربط بین محورین وخطّین متضادین (خط الإیمان) من جهة و (الکفر) من جهة اخری.

۴- کان المتعارف بین العرب أن یدفعوا للمرأة مهرها سلفاً، ولهذا المعنی أشار سبحانه فی قوله فی الأمر الرابع: «وَءَاتُوهُمْ مَّا أَنفَقُوا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۵۹

بالرغم من أنّ أزواج المؤمنات کفار فلابدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهور علی زوجاتهم، وذلک لأنّ الطلاق والانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب إیمانها، لذا توجب العدالة الإسلامیة دفع خسارة الزوج.

وطبیعی أنّ دفع المهر یکون لمن عقد معاهدة صلح من الکفار مع المسلمین، کما فی صلح الحدیبیة.

۵- الحکم الآخر الذی یلی الحکم أعلاه، فهو قوله تعالی: «وَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ أَن تَنکِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ».

ومن الضروری ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الکافر لا یحتاج إلی طلاق، إلّاأنّه لابدّ من انتهاء العدّة.

۶- أمّا إذا کان الزوج قد آمن بالإسلام، وبقیت المرأة کافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجیة، فتنقطع صلة زواجهما، کما فی قوله تعالی: «وَلَا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوَافِرِ».

«عصم»: جمع عصمة، وهی فی الأصل بمعنی المنع، وهنا بمعنی النکاح والزوجیة.

«الکوافر»: جمع کافرة، بمعنی النساء الکافرات.

۷- أمّا آخر حکم ذکر فی الآیة الکریمة، فهو مهور النساء اللواتی ارتددن عن الإسلام والتحقنّ بالکفار فإنّ لکم الحق فی المطالبة بمهورهن مثلما للکفار الحق فی المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتی دخلن دائرة الإسلام والتحقن بالمسلمین، حیث یقول تعالی: «وَسَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْیَسَلُوا مَا أَنفَقُوا». وهذا ما توجبه العدالة والإحترام المتقابل للحقوق.

وفی نهایة الآیة- وتأکیداً لما سبق- یقول سبحانه: «ذلِکُمْ حُکْمُ اللَّهِ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ».

إنّ هذه الأحكام المستلهمة من العلم الإلهی، الممتزجة بحكمته تعالی.

والإلتفات إلی حقیقة أنّ كون جمیع هذه الأحكام إلهیة یُعدّ أكبر ضمانة إجرائیة لها فی قوّة التنفیذ.

وإستعرضت ثانی و آخر آیة من هذه الآیات متابعة لما تقدّم، بعض الامور فی هذا الصدد.

یقول تعالی أنّه فی كل مرّة ترتدّ امرأة متزوّجة عن الإسلام وتلتحق بالكفار، ثم حدثت معركة بینكم وبین الكفار وحالفكم النصر علیهم وغنمتم منهم مغانم فاعطوا الذین ذهبت زوجاتهم إلی الكفار: «وَإِن فَاتَكُمْ شَیْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَی الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَاتُوا الَّذِینَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۰

وتدعو الآیة الكریمة فی نهایتها جمیع المسلمین إلی الالتزام بالتقوی حیث یقول تعالی:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ».

والأمر بالتقوی هنا یمكن أن یكون بمراعاة الدقة والعدل فی تعیین مقدار مهر الزوجة، باعتبار أنّ هذا الأمر یعتمد فیه علی قول الزوج فی الغالب، ولا یوجد سبیل لإثبات هذا الحق إلّاأقوال الزوجین، ولاحتمال أن تسبّب الوساوس الشیطانیة فی الإدعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقیقی للمهر، لذا یوصی بالتقوی.

یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ یُبَایِعْنَكَ عَلَی أَنْ لَا یُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَیْئاً وَ لَا یَسْرِقْنَ وَ لَا یَزْنِینَ وَ لَا یَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَ لَا یَأْتِینَ بِبُهْتَانٍ یَفْتَرِینَهُ بَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لَا یَعْصِینَكَ فِی مَعْرُوفٍ فَبَایِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۲) شروط بیعة النساء: استمراراً للبحث الذی تقدّم فی الآیات السابقة والذی استعرضت فیه أحكام النساء المهاجرات، تتحدث هذه الآیة عن تفاصیل وأحكام بیعة النساء المؤمنات مع الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله.

لقد ذكر المفسرون أنّ هذه الآیة نزلت یوم فتح مكة لما فرغ النبی صلی الله علیه و آله من بیعة الرجال وهو علی الصفا جاءته النساء یبایعنه فنزلت هذه الآیة، فشرط اللَّه تعالی فی مبایعتهم أن یأخذ علیهن هذه الشروط. یقول تعالی: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ یُبَایِعْنَكَ عَلَی أَن لَّا یُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَیًا وَلَا یَسْرِقْنَ وَلَا یَزْنِینَ وَلَا یَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا یَأْتِینَ بِبُهْتَانٍ یَفْتَرِینَهُبَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا یَعْصِینَكَ فِی مَعْرُوفٍ فَبَایِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

وبعد هذه الآیة أخذ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله البیعة من النساء المؤمنات.

وروی أنّه صلی الله علیه و آله كان إذا بایع النساء، دعا بقدح ماء، فغمس فیه یده، ثم غمسن أیدیهن فیه. وقیل: إنّه كان یبایعهن من وراء الثوب.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ قَدْ یَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا یَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (۱۳) بدأت هذه السورة بآیة تؤكّد علی قطع كل علاقة بأعداء اللَّه، وتختتم هذه السورة بآیة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۱

تؤكّد هی الاخری علی نفس المفهوم والموقف من أعداء اللَّه: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ».

ویحذّر القرآن الكریم من أن یتّخذ أمثال هؤلاء أولیاء وأن تفشی لهم الأسرار فیحیطون علماً بخصوصیات الوضع الإسلامی.

إنّ عبارة «قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ» لها مفهوماً واسعاً حیث یشمل جمیع الكفار والمشركین. والتعبیر ب «الغضب» فی القرآن الكریم لا ینحصر بالیهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقین أیضاً كما فی الآیة (۶) من سورة الفتح.

ثم تتناول الآیة أمراً یعتبر دلیلًا علی هذا النهی حیث یقول تعالی: «قَدْ یِسُوا مِنَ الْأَخِرَةِ كَمَا یَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ».

ذلك أنّ موتی الكفار سیرون نتیجة أعمالهم فی البرزخ حیث لا رجعة لهم لجبران ما مضی من أعمالهم السیّئة، لذلك فإنّهم یئسوا تماماً من النجاة، وهؤلاء المجرمون فی هذه الدنیا قد غرقوا فی آثامهم وذنوبهم إلی حدّ فقدوا معه كل أمل فی نجاتهم، كما هو الحال

بالنسبة للموتى من الكفار.

«نهاية تفسير سورة الممتحنة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۳

۶۱. سورة الصف

محتوى السورة: تدور أبحاث هذه السورة حول محورين أساسيين.

الأوّل: فضيلة الإسلام على جميع الأديان السماوية، وضمان خلوده وبقائه.

والثانى: وجوب الجهاد فى طريق حفظ المبدأ وترسيخ أركانه وتطوير العمل لتقدّمه والإلتزام به.

إلّا أنّنا حينما نتأمل فى الآيات الكريمة نلاحظ إمكانية تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أخرى:

۱- الدعوة إلى الانسجام بين القول والعمل.

۲- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود ونقضهم لها، بالإضافة إلى بشارة السيد المسيح عليه السلام بظهور الإسلام العظيم.

۳- استعراض لحياة حوارى السيد المسيح والدعوة لاستلهام الدروس من سيرتهم.

إنّ إختيار إسم «الصّف» لهذه السورة كان بلحاظ العبارة التى وردت فى الآية الرابعة منها، وتسمّى أحياناً بسورة «عيسى»، أو سورة «الحواريين».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة عيسى عليه السلام كان عيسى مصلّياً عليه، مستغفراً له ما دام فى الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقه».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۴

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (۲) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (۳) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِی سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: وددنا لو أنّ اللَّه دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبرهم اللَّه أنّ أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه والجهاد. فكره الناس، وشق عليهم، وتباطأوا عنه، فنزلت الآية.

التّفسير

اعتبرت هذه السورة من السور المسبّحات، ذلك لأنّها تبدأ بتسبيح اللَّه فى بدايتها:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ».

ولِم لا يسبّحونه ولا ينزّهونه من كل عيب ونقص: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» القدير الذى لا يقهر والحكيم المحيط بكل شىء علماً.

ثم يضيف البارىء عزّ وجل فى معرض لوم وتوبيخ للأشخاص الذين لم يلتزموا بأقوالهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاتَفْعَلُونَ».

ثم يضيف سبحانه مواصلًا القول: «كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَاتَفْعَلُونَ».

فمفهوم الآية يشمل كل تخلّف عن عمد، سواء تعلق بنقض العهود والوعود أو غير ذلك من الشؤون، حتى أنّ البعض قال: إنّها تشمل حتى النذور.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف اللَّه بدأ، ولمقته تعرّض، وذلك قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاتَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَاتَفْعَلُونَ»».

ثم تطرح الآية اللاحقة مسألة مهمة للغاية فى التشريع الإسلامى، وهى موضوع الجهاد فى سبيل اللَّه، حيث يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۵

«مرصوص»: من مادة «رصاص» بمعنى معدن الرصاص، ولأنّ هذه المادة توضع بعد تذويبها بين طبقات البناء من أجل استحكامه وجعله قوياً ومتيناً للغاية، لذا اطلقت هذه الكلمة هنا على كل أمر قوى ومحكم.

والمقصود هنا أن يكون وقوف وثبات المجاهدين أمام العدو قوياً راسخاً.

إنّ من العوامل المهمة والمؤثرة فى تحقيق النصر عامل الانسجام ووحدة الصفوف أمام الأعداء فى ميادين القتال، وهذا المبدأ لا يجدر بنا الالتزام به فى الحرب العسكرية فحسب، بل علينا تجسيده فى الحروب الإقتصادية والسياسية ... وإلّا فسوف لن نحقق شيئاً.

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۵) وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (۶) البشارة بظهور النبى (أحمد): تأتى الآية الكريمة- أعلاه- مكمّلة لمحورين أساسيين تحدثت عنهما الآيات السابقة وهما (الانسجام بين القول والعمل) و (وحدة الصف الإيمانى)، لتستعرض لنا زاوية من حياة النبيين العظيمين (موسى وعيسى) عليهما السلام، ومتطرّقة إلى طبيعة التناقض والانفصام بين أقوال أتباعهم وأعمالهم، بالإضافة إلى (عدم إنسجام صفوفهم) وأخيراً المصير السيء الذى انتهوا إليه. يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَدْ تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ».

والمراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السلام من تهم، كما يبيّن ذلك فى الآية (۶۹) من سورة الأحزاب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا».

ومما لا شك فيه أنّ هذه الممارسات لم تبق بدون عقاب كما نقرأ ذلك فى نهاية الآية حيث قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إنّ ما يستفاد من المفهوم الذى إستعرضته الآية المباركة أنّ الهداية والضلالة وإن كانت من قبل اللَّه سبحانه، إلّاأنّ مقوّماتها وأرضيتها تكون من الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۶

وتشير الآية اللاحقة إلى مسألة تكذيب بنى إسرائيل لرسالة عيسى عليه السلام ومخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَيةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى إِسْمُهُ أَحْمَدُ».

وهذا بيان من عيسى عليه السلام أنّه يمثّل همزة وصل وحلقة من الرسالة بين نبيين وكتابين وامّتين، فقد سبقته رسالة موسى عليه السلام وكتابه، وستليه رسالة الإسلام على يد النبى العظيم محمّد صلى الله عليه و آله.

وبالرغم من أنّ قسماً من بنى إسرائيل قد آمنوا بالرسول الموعود، إلّاأنّ الأكثرية الغالبة كان لهم موقف عدائى متشدّد تجاهه، مما دعاهم وسوّل لهم إنكار معاجزه الواضحة، وذلك ما يجسّده قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

العجيب هو أنّ اليهود كانوا قد شخّصوا الرسول العظيم محمّد صلى الله عليه و آله قبل مشركى العرب، إلّا أنّهم بقى على لجاجتهم وإصرارهم وعنادهم وإنكارهم له.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۸) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹) يريدون ليطفئوا نور اللَّه بأفواههم: لاحظنا فى الآيات السابقة موقف الإصرار والعناد لجموع أهل الكتاب من دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله رغم ما

بشّر به المسيح عليه السلام حول ظهور رسول الإسلام، وما اقترن بـذلك من بيّنات ودلائل ومعاجز واضحة. وتبيّن الآيات- مورد البحث- عاقبة هؤلاء ومصيرهم السيء ونتيجة عملهم الخائب. فيقول تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلم».

نعم، إنّ أمثال هؤلاء المكـذّبين لـدعوة الرسول الإلهى، الذين يعتبرون ما يأتى الرسول به من إعجاز سحراً، وما يتحدث به من مبادىء إلهيـة سامية ضلالًا وباطلًا ... فإنّ هؤلاء هم أظلم الناس، لأنّهم يصدّون أنفسهم عن طريق الحق والهداية والنجاة، ويصدّون سائر عباد اللّه عن منابع الفيض الإلهى ويحرمونهم من السعادة الأبدية.

ويضيف سبحانه فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۷

ثم يستعرض القرآن الكريم نقطة اخرى ويبيّن لنا أنّ أعداء الحق ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادىء السماء والأنوار الإلهية العظيمة، حيث يقول سبحانه: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

إنّ هـذه الجهود والمؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير وإطفاء شعلة الوهـج الرسالى الـذى أتى به محمّـد صلى الله عليه و آله، وبـذلك تحقّق التنبؤ القرآنى فى الفشل الـذريع الـذى لحق بهؤلاء الـذين أرادوا كيـداً بالرسالـة الإلهية ... بل إنّ النور الإلهى فى حالة إنتشار وإتّساع يوماً بعـد يوم، كما تكشف ذلك لنا الاحصائيات، حيث إنّ عدد مسلمى العالم فى تزايد مستمر رغم الجهود المتظافرة من الصهاينة والصليبيين و (الماديين الشرقيين).

وهذا الأمر بحد ذاته يمثّل معجزة خالدة من معاجز القرآن الكريم وهذا الدين العظيم.

ويتوضّح التأكيد الأكثر فى آخر آية- مورد البحث- حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحة بقوله عزّ وجل: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

وبـذلك أثبتت أحـداث المستقبل صـدق هذا التنبؤ العظيم، وغلبة الإسلام من الناحية المنطقية على كافّة المذاهب الاخرى وقد حقّق خطوات عظيمة فى طريق التقدّم على الأعداء، واكتسح مناطق واسعة من العالم، وهو الآن فى تقدّم مستمر، وقوّة يخشى منها عالميّاً.

ومن المسلّم أنّ النتيجة النهائيـة كما نعتقـد سوف تكون للإسلام، وذلك عنـد ظهور الإمام المهـدى- أرواحنا فداه- إنّ هذه الآيات بـذاتها دليل على هـذا الظهور العظيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (۱۰) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۳) التجارة الرابحـة: قلنا فى بدايـة السورة أنّ الأهداف المهمة لهذه السورة هو الدعوة إلى الإيمان والجهاد فى سبيل اللّه، وما الآيات مورد البحث إلّاتأكيد على هذين الأصلين، من

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۸

خلال مثال رائع يبعث على الحركـة الإلهيـة فى روح الإنسان، والتى هى شرط إنتصار الإسلام على كل الأديان، وقـد اشير إلى هـذا العامل فى الآيات الماضية. يقول تعالى فى البداية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيم».

وقـد بادر فى نفس الوقت وبـدون إنتظار للإجابة متحدّثاً عن هذه التجارة المتعددة المنافع، حيث يضيف تعالى: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ». ومما لا شك فيه أنّ اللّه سبحانه غنى عن هـذه التجارة النافعـة وأنّ جميع منافعها تعود على المؤمنين. لذا يقول فى نهاية الآية: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

إنّ الإيمان بالرسول لا ينفصل عن الإيمان باللّه تعالى، كما أنّ الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال.

وعنـد التـدقيق فى الآيـة المباركـة نلاحظ أنّه تعالى قـد قـدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لا باعتباره أكثر أهميـة، بل بلحاظ أنّه

مقدمة للجهاد بالنفس، لأنّ مستلزمات الجهاد لا تتهيّأ إلّاعند توفّر الإمكانات المادية.

لقد تمّ تسليط الأضواء على ثلاثة عناصر أساسية فى هذه التجارة العظيمة والتى لا مثيل لها.

(فالمشترى) هنا هو اللّه سبحانه، و (البائع) هم المؤمنون، و (البضاعة) هى الأنفس والأموال، ويأتى دور العنصر الرابع فى هذه الصفقة وهو الثمن والعوض لهذه المعاملة العظيمة.

يقول تعالى: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وتستعرض الآية مرحلة الجزاء الاخروى فى البداية حيث غفران الذنوب باعتبارها أهمّ عوامل القلق وعدم الراحة الفكرية والنفسية للإنسان، وعندما يتحقق الغفران له فمن المسلّم أنّ الراحة والهدوء والإطمئنان تنشر ظلالها عليه.

كما أنّنا نقرأ فى الآية اللاحقة عن شعبتين من الهبات الإلهية التى تفضل بها البارىء على عباده المؤمنين فى هذه الدنيا حيث يقول: «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ».

يالها من تجارة مباركة مربحة حيث تشتمل على الفتح والنصر والنعمة والرحمة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۶۹

ولهذا فإنّه سبحانه يبارك للمؤمنين تجارتهم العظيمة هذه، ويزفّ لهم البشرى بقوله تعالى: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (۱۴) كونوا كالحواريين: فى الآية الأخيرة من سورة الصّف يدور الحديث مرّة اخرى حول محور (الجهاد) الذى مرّ ذكره سابقاً فى هذه السورة، إلّاأنّ الحديث عنه يستمر هنا فى هذه الآية- أيضاً باسلوب جديد. لقد طرحت الآية الكريمة مسألة مهمة غير الجنة والنار وذلك بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ».

نعم، أنصار اللّه، اللّه الذى هو منشأ جميع القدرات، ومرجعها.

ثم يستشهد بنموذج تاريخى رائد كى يوضّح سبحانه أنّ هذا الطريق لن يخلو من السالكين والعشّاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ».

ويكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر والإعتزاز: «قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ». وساروا فى هذا الدرب حاملين لواء الخير والهداية، ومتصدّين لحرب أعداء الحق والرسالة، حيث يقول سبحانه: «فَامَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ».

وهنا يأتى العون والنصر والإغاثة والمدد الإلهى للطائفة المؤمنة حيث يقول سبحانه:

«فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

وأنتم أيضاً يا حواريى محمّد، يشملكم هذا الفخر وتحيطكم هذه العناية واللطف الإلهى، لأنّكم أنصار اللّه، وإنّ النصر على أعداء اللّه سيكون حليفكم أيضاً، كما انتصر الحواريون عليهم.

من هم الحواريون؟ جاء ذكر الحواريين فى القرآن الكريم خمس مرّات، مرتين منها فى هذه السورة المباركة.

«الحواريون»: تعبير يراد به الإشارة إلى إثنى عشر شخصاً من الأنصار الخواص

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۰

لعيسى عليه السلام وقد ذكرت أسماؤهم فى الأناجيل المتداولة حالياً ك (إنجيل متّى، ولوقا باب ۶).

فى الدرّ المنثور: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله للنفر الذين لاقوه بالعقبة: «أخرجوا إلى إثنى عشر رجلًا منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم». مما يعكس أهمية هؤلاء العظام.

«نهاية تفسير سورة الصّف»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۱

۶۲. سورة الجمعة

مختصر الامثل ج۵ ۱۹۹

محتوى السورة: تدور هذه السورة حول محورين أساسيين:

۱- التوحيد وصفات اللَّه والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

۲- الأثر التربوى لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيات المتعلقة بهذه العبادة العظيمة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الجمعة اعطى عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة، وبعدد من لم يأتها فى أمصار المسلمين».

وقد ورد فى الروايات التأكيد الكثير على قراءة سورة الجمعة والمنافقون فى صلاة الجمعة، وقد ورد فى بعض الروايات أن لا تترك قراءتها ما أمكن، ومع أنّ العدول فى القراءة عن سورة «التوحيد» و «كافرون» إلى سور اخرى غير جائز، إلّاأنّ هذه المسألة مستثناة فى صلاة الجمعة، فيجوز العدول عنهما إلى سورة «الجمعة» و «المنافقون» بل عدّ ذلك مستحبّاً.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۴)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۲

تبدأ هذه السورة كذلك بالتسبيح للَّهعزّ وجل، وتشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى للَّه، ويعتبر ذلك فى الحقيقة مقدمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». حيث يسبّحونه بلسان الحال والقال وينزّهونه عن جميع العيوب والنقائض: «الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

وبناءً على ذلك تشير الآية أوّلًا إلى «المالكية والحاكمية المطلقة»، ثم «تنزّهه من أى نوع من الظلم والنقص» وذلك لإرتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسى، فجاءت كلمة «قدّوس» لتنفى كل ذلك عنه جلّ شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات اللَّه، يتحدث القرآن عن بعثة الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدوس، حيث يقول: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ».

وذلك من أجل أن يطهّرهم من كل أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد «وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

«الامّيين»: جمع «امّى» وهو الذى لا يعرف القراءة والكتابة (ونسبته إلى الام باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليماً فى معهد أو مدرسة غير مدرسة الام).

إنّ الآية تؤكّد على أنّ نبى الإسلام بعث من بين هؤلاء الاميين الذين لم يتلقّوا ثقافة وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقانيتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى وفى ذلك المحيط الجاهلى ومن شخص امّى أيضاً، بل هو نور أشرق فى الظلمات، وهى بحد ذاتها معجزة باهرة وسنداً قاطعاً على حقانيته.

ولخصّت الآية الهدف من بعثة الرسول صلى الله عليه و آله فى ثلاثة امور، جاء أحدها كمقدمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أى (تهذيب وتزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرسول صلى الله عليه و آله ليعطى الإنسانية ويعلّمها العلم والأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم وجناح الأخلاق) أن تحلّق فى عالم السعادة وتطوى مسيرها إلى اللّه لتنال القرب منه.

ويمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» هو أنّ الأوّل إشارة إلى القرآن والثانى إشارة إلى سنّة الرسول صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۳

وتعبير «الضلال المبين» إشارة إلى سابقة العرب وماضيهم الجاهلى فى عبادة الأصنام.

نعم لقد جاء الرسول وأنقذهم ببركة الكتاب والحكمة من هذا الضلال والتخبّط وزكّاهم وعلّمهم. وحقّاً إنّ تربية وتغيير مثل هذا المجتمع الضال يعتبر أحد الأدلة على عظمة الإسلام ومعاجز نبيّنا العظيمة.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الامّى فقط، بل كانت دعوته عامة لجميع الناس، فقد جاء فى الآية التالية: «وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ».

بناءً على ذلك تكون الآية أعلاه شاملة لجميع الأقوام الذين يأتون بعد أصحاب الرسول من العرب والعجم.

وجاء فى آخر الآية: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

بعد أن يشير إلى هذه النعمة الكبيرة- أى نعمة بعث نبى الأكرم وبرنامجه التعليمى والتربوى- يضيف قائلًا: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۶) وَ لَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۷) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) الحمار الذى يحمل الأسفار: جاء فى بعض الروايات أنّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث فى أوّل بيان لها بأنّ رسالته قد اشير إليها فى كتابكم السماوى لو أنّكم قرأتموه وعملتم به. يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَيةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا». أى نزلت عليهم التوراة وكلّفوا بالعمل بها ولكنّهم لم يؤدّوا حقّها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا».

لقد إقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۴

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذى يضرب به المثل فى الغباء والحماقة.

ثم يقول تعالى: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِ اللَّهِ». إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملًا، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث نصّت الآية (۸۷) من سورة البقرة وهى تصف اليهود قائلة: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ».

ويقول تعالى فى آخر الآية فى عبارة وجيزة: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

صحيح أنّ الهداية شأن إلهى، ولكن ينبغى أن تهيّأ لها الأرضية اللازمة، وهى الروح التواقة لطلب الحق والبحث عنه، وهى امور يجب أن يهيّئها الإنسان نفسه، ولا شك أنّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

وقد حملت الروايات بشدّة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون، ففى رواية عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من اللّه إلّابعداً» «۱».

ومثل هؤلاء العلماء سيكونون بلاءً على المجتمع ووبالًا عليه، وسينتهى المجتمع الذى علماؤه من هذا القبيل إلى مصير خطير.

يقول الشاعر:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنهافكيف إذا الرعاة لها ذئاب.

وأوضحنا سابقاً أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم امّة مختارة، أو نسيجاً خاصاً لا يشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء اللّه وأحبّاؤه المنتقمون، وهذا ما أشارت إليه الآية (۱۸) من سورة المائدة: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ». (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيين).

ولكن القرآن شجب هذا التعالى مرّة اخرى بقوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فالأحبّاء يتمنون اللقاء دائماً، ولا يتمّ اللقاء المعنوى باللّه يوم القيامة.

إنّ خوفكم وفراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلقون بهذه الدنيا وغير صادقين فى إدعائكم.

---

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۱/ ۱۲۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۵

ثم يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: «وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشىء من عاملين أساسيين:

الأوّل: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنّ الموت زوال وفناء.

والثانى: أعماله السيّئة التى يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته فى عالم الآخرة عندما تقام المحكمة الإلهية.

وإنّما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنّهم يعتقدون- أيضاً- بيوم الحساب.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيّئة والجرائم التى إرتكبوها، من قتلهم الأنبياء وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفاسد الأخلاقية.

غير أنّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يجدى شيئاً، فالموت أمر حتمى لابدّ أن يدرك الجميع، إذ يقول تعالى: «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

الموت قانون عام يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الْجَللِ وَالْإِكْرَامِ» (۱).

وكذلك المثول أمام محكمة العدل الإلهى لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم اللّه تعالى بأعمال عباده بدقّة وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى اللّه وتطهير النفس والقلب من المعاصى، وبعد أن يخلص الإنسان للّه‌تعالى فإنّه لن يخاف الموت حينئذٍ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰) وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱)

---

(۱) سورة الرحمن/ ۲۶ و ۲۷.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۶

سبب النّزول

نقل فى سبب نزول هذه الآيات وخصوصاً الآية «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً» روايات مختلفة جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنّه فى أحد السنوات: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبى صلى الله عليه و آله يخطب يوم

الجمعة فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبى صلى الله عليه و آله إلّارهط، فنزلت الآية فقال صلى الله عليه و آله:

«والذى نفسى بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادى ناراً».

وقال المقاتلان: بينا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخطب يوم الجمعة، إذ قدم دحية بن خليفة بن فروة الكلبى، ثم أحد بنى الخزرج ثم أحد بنى زيد بن مناة من الشام بتجارة. وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق، إلّاأتته وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق، أو برّ، أو غيره فينزل عند أحجار الزيت، وهو مكان فى سوق المدينة، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه، فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه.

فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله قائم على المنبر يخطب. فخرج الناس، فلم يبق فى المسجد إلّااثنا عشر رجلًا وامرأة، فقال صلى الله عليه و آله: «لولا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء». وأنزل اللَّه هذه الآية «۱».

التّفسير

أكبر تجمّع عبادى سياسى اسبوعى: كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسألة التوحيد والنبوّة والمعاد، وكذلك ذمّ اليهود عبيد الدنيا، بينما انصبّ الحديث فى الآيات مورد البحث على الركائز الإسلامية المهمة التى تؤثّر كثيراً على استقرار أساس الإيمان، وتمثّل الهدف الأساس للسورة، وهى صلاة الجمعة وبعض الأحكام المتعلقة بها. ففى البداية يخاطب اللَّه تعالى المسلمين جميعاً بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

«نودى»: من مادة «نداء» وهى هنا بمعنى الأذان إذ لا نداء للصلاة غير الأذان.

فعندما يرتفع الأذان لصلاة الجمعة يكون لزاماً على الناس أن يتركوا مكاسبهم ومعايشهم، ويذهبوا إلى الصلاة وهى أهمّ ذكر للّه.

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۷

من الواضح أنّ لأمر ترك البيع والشراء مفهوماً واسعاً يشمل كل عمل يمكن أن يزاحم الصلاة.

المقصود من (ذكر اللَّه) بالدرجة الاولى هو الصلاة، ولكنّنا نعلم أنّ خطبتى صلاة الجمعة مشتملة هى الاخرى ومتضمنة (لذكر اللَّه) وهى جزء من صلاة الجمعة، وبناءً على ذلك ينبغى الإسراع لحضور الخطبتين أيضاً.

تضيف الآية التى تليها قائلة: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

فى آخر الآية- مورد البحث- ورد ذمّ عنيف للأشخاص الذين تركوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى صلاة الجمعة وأسرعوا للشراء من القافلة القادمة، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا».

ولكن «قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فمن المؤكّد، أنّ الثواب والجزاء الإلهى والبركات التى يحظى بها الإنسان عند حضوره صلاة الجمعة والإستماع إلى المواعظ والحكم التى يلقيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وما ينتج عن ذلك من تربية روحية ومعنوية، لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر، فإذا كنتم تظنّون إنقطاع الرزق فإنّكم على خطأ كبير لأنّ «اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

التعبير ب «اللهو» إشارة إلى الطبل وسائر آلات اللهو التى كانت تستعمل عند دخول قافلة جديدة إلى المدينة، فقد كانت تستعمل كإعلان وإخبار عن دخول القافلة، إضافةً إلى كونها وسيلة للترفيه والدعاية واللهو.

بحوث

۱- أوّل صلاة جمعة فى الإسلام: فى المجمع: قيل: قبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام

وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر اللَّه عزّ وجل ونشكره. وكما قالوا يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وذكرهم فسمّوه يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم أسعد بن زرارة شاة، فتغدوا وتعشوا من شاة واحدة، وذلك لقلتهم. فأنزل اللَّه تعالى فى ذلك: «إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوةِ» الآية. فهذه أوّل جمعة فى الإسلام. فأمّا أوّل جمعة جمعها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأصحابه فقيل: إنّه قدم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مهاجراً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۸

حتى نزل قبا على عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين، لإثنتى عشرة ليلة، خلت من شهر ربيع الأوّل حين الضحى، فأقام بقبا يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسّس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة قاصداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم قد اتخذ اليوم فى ذلك الموضع مسجده. وكانت هذه الجمعة أوّل جمعة جمعها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى الإسلام. فخطب فى هذه الجمعة وهى أوّل خطبة خطبها بالمدينة.

۲- أهمية صلاة الجمعة: إنّ أفضل دليل على أهمية هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة فى هذه السورة المباركة، التى أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكل ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة.

ورد عن النبى صلى الله عليه و آله فى خطبة طويلة نقلها المخالف والؤالف: «إنّ اللَّه تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها فى حياتى أو بعد موتى إستخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع اللَّه شمله ولا بارك له فى أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتى يتوب» «۱».

ومن الملفت للنظر أنّه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عينيّاً (أى فى زمن حضور الإمام المعصوم) وأمّا فى زمن الغيبة، فإنّه لا يكون مشمولًا بهذا الذم والتقريع رغم عظمة صلاة الجمعة وأهميتها فى هذا الوقت أيضاً.

۳- فلسفة صلاة الجمعة العبادية والسياسية: إنّ صلاة الجمعة- قبل كل شىء- عبادة جماعية ولها أثر العبادات عموماً، حيث تطهّر الروح والقلب من الذنوب، وتزيل صدأ المعاصى عن القلوب.

أمّا من الناحية السياسية والاجتماعية فهى أكبر مؤتمر اسبوعى عظيم بعد مؤتمر الحج السنوى، لهذا نجد الرسول صلى الله عليه و آله يقول فى رواية أنّ الجمعة حج من لا يملك القدرة على المشاركة فى الحج.

ويعطى الإسلام أهمية خاصة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:

---

(۱) وسائل الشيعة ۵/ ۷ (باب وجوب صلاة الجمعة). رسائل شهيد الثانى، رسالة الجمعة/ ۶۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۷۹

التجمعات التى تتمّ يومياً لصلاة الجماعة.

التجمع الأسبوعى الأوسع فى صلاة الجمعة.

ومؤتمر الحج الذى يعقد فى كل سنة مرّة.

ودور صلاة الجمعة مهم جدّاً خاصة وأنّ من واجبات الخطيب هو التحدّث فى الخطبتين عن المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

«نهاية تفسير سورة الجمعة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۱

۶۳. سورة المنافقون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث هذه السورة بأربعة أقسام:

۱- صفات المنافقين وتتضمن نقاطاً مهمة وحساسة.

۲- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين ووجوب الإنتباه إلى ذلک ورصده بشكل دقيق.

۳- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق في الدنيا وزخرفها والإنشغال بذلک عن ذكر اللّه.

۴- حثّ المسلمين على الإنفاق في سبيل اللّه، والإنتفاع من الأموال قبل الموت وقبل إشتعال الحسرة في نفوسهم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الواجب على كل مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة وسبّح اسم ربّک الأعلى، وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين، فإذا فعل ذلک فكأنّما يعمل كعمل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكان جزاؤه وثوابه على اللّه الجنة».

إنّ المرور على هذه السور دون الاستفادة منها على الصعيد العملي وجعلها برنامجاً للحياة، سوف لن يؤدّي إلى زوال روح النفاق وإجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۲

إِذَا جَاءَکَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُکَ أَجْسَامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۴) مصدر النفاق وعلامات المنافقين: نذكر مقدمة قبل الدخول في تفسير هذه الآيات، وهي أنّ الإسلام طرح مسألة النفاق والمنافقين مع هجرة الرسول صلى الله عليه و آله وأصحابه إلى المدينة، وبداية استحكام اسس الإسلام وظهور عزّه، فلم تبرز ظاهرة النفاق في مكة، لأنّ الأعداء يصعب عليهم التجاهر في عدائهم، بل قد يتعذر ذلک عليهم في بعض الأحيان، لهذا اختار أعداء الإسلام المهزومون أن يواصلوا خططهم التخريبية من خلال إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وانخرطوا ظاهراً في صفوف المسلمين، بينما ظلّوا محافظين على كفرهم في باطنهم.

وهكذا تكون غالباً طبيعة أعداء كل ثورة ودعوة بعد إشتداد عودها وقوّة ساعدها، إذ تواجه الكثير من الأعداء وكأنّهم أصدقاء.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا نزلت كل تلک الآيات التي تصف المنافقين وتشرح حالهم، في المدينة ولم تنزل في مكة.

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ هذه المسألة- أي مسألة النفاق- غير محصورة بعصر الرسول، بل إنّ جميع المجتمعات- وخاصة الثورية منها- تكون عرضة للإصابة بهذه الظاهرة الخطيرة، ولذلک يجب أن يدرس القرآن الكريم وما جاء فيه من تجارب وإرشادات من خلال هذه النظرة الحيوية، لا من خلال اعتبارها مسألة تاريخية لا علاقة لها بالواقع، وبهذا يمكن إستلهام الدروس والحكم لمكافحة النفاق وخطوط المنافقين في المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقي الأعداء، لخفائهم وعدم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۳

القدرة على تشخيصهم بسهولة من جهة، ولكونهم أعداء يعيشون في داخل الجسم الإسلامي وربّما ينفذون إلى قلبه نفوذاً يصعب معه فرزهم وتحديدهم من جهة اخرى.

ويأتي خطرهم ثالثاً من إرتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

ولهذا نرى أنّ أكثر الضربات التي تلقّاها الإسلام على مدى التاريخ جاءته من هذا المعسكر، أي معسكر النفاق ولهذا نلاحظ أنّ

الإسلام شنّ حملات شديدة جدّاً عليهم.

وبعد هذه المقدمة نرجع إلى تفسير الآيات.

إنّ أوّل صفة يذكرها القرآن للمنافقين هى: إظهار الإيمان الكاذب الذى يشكّل الظاهرة العامة للنفاق، حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ».

ويضيف: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». لأنّهم لم يريدوا الإخبار عن واقعية رسالة رسول اللّه وإنّما أرادوا الإخبار عن إعتقادهم برسالته، وهذا من الكذب المحض.

وهذه أوّل علامة من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففى الوقت الذى يظهر المنافقون الإيمان ويدعونه بألسنتهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماماً، وهذه الظاهرة تشكّل المحور الرئيسى للنفاق.

وتذكر الآية اللاحقة العلامة الثانية: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ذلك لأنّهم يضعون الموانع والعراقيل فى طريق هداية الناس، وليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الإهتداء.

من عبارة «جُنَّةً» يتّضح أنّ المنافقين فى حالة حرب دائمة ضد المؤمنين، وأنّ الظواهر التى يتخفّون وراءها لا ينبغى أن تخدع أحداً.

وتتطرق الآية اللاحقة إلى ذكر السبب الذى يقف وراء هذه الأعمال السيئة، حيث يقول تعالى: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ».

والواقع أنّ المنافقين مجموعتان:

المجموعة الاولى: كان إيمانها منذ البداية ظاهرياً وصورياً.

والثانية: كان إيمانها حقيقيّاً فى البداية ثم ارتدّوا ولزموا طريق النفاق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۴

والظاهر أنّ الآية- مورد البحث- تتعرض للمجموعة الثانية.

وتشبه هذه الآية (۷۴) من سورة التوبة التى تقول: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلِمِهِمْ».

فإنّ عدم قدرتهم على إدراك الحقائق الواضحة تعتبر علامة ثالثة من علامات نفاقهم.

وتوضّح الآية اللاحقة علامات المنافقين بشكل أكثر وضوحاً، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ» فهم يتمتعون بظواهر جميلة وأجسام لطيفة.

«وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ» لأنّه ينطوى على شىء من التحسين والعذوبة.

وفى الوقت الذى يتأثّر الرسول بحديث بعضهم- كما يبدو من ظاهر التعبير- فكيف بالآخرين؟!

هذا فيما يخصّ ظاهرهم، أمّا باطنهم ف «كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ».

فأجسامهم خالية من الروح، ووجوههم كالحة، وكيانهم خاوٍ منخور من الداخل، ليس لهم أيّة إرادة ولا- يتمتعون بأيّة استقلالية (كالأخشاب المسنّدة) المكدّسة.

وكان هؤلاء يتميّزون بالضعف والخواء فى داخلهم، لا يعرفون التوكل والاعتماد على اللّه ولا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم فى آية اخرى: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ».

يسيطر عليهم الخوف والرعب وسوء الظن، وتغمر أرواحهم النظرة السوداء السيّئة ...

تجدهم فى خوف دائم من ظلمهم وخيانتهم.

وقد نبّه القرآن الكريم فى نهاية الآية قائلًا: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ». أى: هم الأعداء الواقعيون.

ويضيف: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى: كيف ينحرفون عن الحق.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۸)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۵

سبب النّزول

ذكرت كتب التاريخ والتفسير سبباً مسهباً لنزول هذه الآيات، وجاء فى الكامل فى التاريخ: أنّه بعد غزوة بنى المصطلق إزدحم الناس على الماء، وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له: جهجاه، فازدحم هو وسنان الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا- فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد اللَّه بن أبى سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث السنّ فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا فى بلادنا، أما واللَّه «لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ»، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم وقاسمتموهم أموالكم، واللَّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبى صلى الله عليه و آله وذلك عند فراغ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من غزوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللَّه مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كيف إذا تحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذن بالرحيل. فارتحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن حضير فسلّم عليه وقال: يا رسول اللَّه، لقد رحت فى ساعة لم تكن تروح فيها؟ فقال: أو ما بلغك ما قال عبد اللَّه بن ابى؟ قال: وماذا قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل. قال أسيد: فأنت واللَّه تُخرجُه إن شئت، فإنّك العزيز وهو الذليل.

ثم قال: يا رسول اللَّه، ارفق به فواللَّه لقد منّ اللَّه بك وإنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنّك قد استلبته ملكاً. وسمع عبد اللَّه بن ابى أنّ زيداً أعلم النبى صلى الله عليه و آله قوله فمشى إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فحلف باللَّه ما قلت ما قال ولا تكلّمت به، وكان عبد اللَّه فى قومه شريفاً، فقالوا: يا رسول اللَّه عسى أن يكون الغلام قد أخطأه. وأنزل اللَّه: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» تصديقاً لزيد، فلما نزلت أخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باذن زيد وقال: هذا الذى أوفى اللَّه باذنه. وبلغ عبد اللَّه بن أبى سلول ما كان من أمر أبيه، فأتى النبى صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللَّه! بلغنى أنّك تريد قتل أبى، فإن كنت فاعلًا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيرى بقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال النبى صلى الله عليه و آله: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثاً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۶

عاتبه قومه وعنّفوه وتوعدوه «۱».

التّفسير

علامات اخرى للمنافقين: تأتى هذه الآيات لتكمّل توضيح علامات المنافقين التى بدأتها الآيات التى سبقتها. يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ».

إنّ حبّ المنافقين لأنفسهم وعبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذى يعنى التسليم والرضا والاستسلام الكامل للحق.

«لوّوا»: من مادة «لى» وهى فى الأصل بمعنى برم الحبل، وتأتى أيضاً بمعنى إمالة الرأس وهزّه إعراضاً واستكباراً.

ومن أجل أن لا- يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إنّ استغفار النبى تؤثّر حينما يتوبون بصدق وإخلاص، ويستسلمون للحقّ، هنالك يؤثّر استغفار الرسول وتقبل شفاعته.

والمقصود من الفسّاق، هم تلك المجموعة من الفسّاق أو المذنبين الذين يصرّون على ذنوبهم ويركبون رؤوسهم.

والشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامة لهم واضحة جدّاً، هو قوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا». فلا تعطوا المسلمين شيئاً من أموالكم وإمكاناتكم لكى يتفرقوا عن رسول اللَّه.

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ».

إنّ هؤلاء فقدوا الوعى والبصيرة، ولم يعرفوا أنّ كل ما لدى الناس إنّما هو من اللَّه. وأن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنّما هو من دواعى الإفتخار والإعتزاز، ولا ينبغى أن يمنّوا به على أحد.

ثم يقول تعالى فى إشارة اخرى إلى مقالة اخرى سيّئة من مقالاتهم: «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».

---

(۱) الكامل فى التاريخ ۲/ ۸۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۷

وهذا نفس الكلام الذى أطلقه عبد اللَّه بن ابى، ويريدون من ورائه أنّهم أهل المدينة الأصليّون الذين سيخرجون منها الرسول وأصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوة بنى المصطلق التى مرّت الإشارة إليها.

ورغم أنّ هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنه كان لسان حال المنافقين جميعاً، وهذا ما جعل القرآن يعبّر عنهم بشكل جماعى «يقولون ...» فيردّهم ردّاً حازماً، إذ يقول:

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَايَعْلَمُونَ».

ولم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين رووا هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عندما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعة القليلة الفقيرة من المسلمين إذا حاصرناهم إقتصادياً أو أخرجناهم من مكة).

وهكذا نرى اليوم الدول المستكبرة وهى تحذّر الشعوب التى ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنّها تملك الدنيا وخزائنها، فإن لم تخضع لها تحاصرها اقتصادياً لتركيعها.

وهؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم واتّخذوا منهجاً واحداً على مدى التاريخ، وظنّوا أنّ ما لديهم باق، ولم يعلموا أنّ اللَّه قادر على إزالته وإزهاقه بلمحة بصر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۹) وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۱) لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم: إنّ حبّ الدنيا والتكالب على الأموال والإنشداد إلى الأرض، من الأسباب المهمة التى تدفع باتّجاه النفاق، وهذا ما جعل القرآن يحذّر المؤمنين من مغبّة الوقوع فى هذه المصيدة الخطيرة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

ورغم أنّ الأموال والأولاد من النعم الإلهية التى يستعان بها على طاعة اللَّه وتحصيل رضوانه، لكنّها يمكن أن تتحول إلى سدّ يحول بين الإنسان وخالقه إذا ما تعلق به الإنسان بشكل مفرط.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۸

بعد هذا التحذير الشديد، يأمر اللَّه تعالى بالإنفاق فى سبيله حيث يقول: «وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ».

والأمر بالإنفاق هنا يشمل كافّة أنواع الإنفاق الواجبة والمستحبة.

والطريف أنّه جاء فى ذيل الآية «فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ» لبيان تأثير الإنفاق فى صلاح الإنسان.

إنّ هناك عدداً كبيراً من الناس يضطربون كثيراً حينما يجدون أنفسهم على وشك الإنتقال إلى عالم البرزخ، والرحيل عن هذه الدنيا، وترك كل ما بنوا فيها من أموال طائلة وملاذ واسعة، دون أن يستثمروها فى تعمير الآخرة، عندئذ يتذكّر هؤلاء ويطلبون العودة إلى الحياة الدنيا مهما كان الرجوع قصيراً وعابراً، ليعوّضوا ما فات، ويأتيهم الجواب «وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا».

وفى الآية (۳۴) من سورة الأعراف: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

ثم تنتهى الآية بهذه العبارة: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فقد سجل كل شيء عنكم وستجدونه محضراً من ثواب وعقاب.

«نهاية تفسير سورة المنافقون»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۸۹

۶۴. سورة التغابن

محتوى السورة: إنّ سياق الآيات الأخيرة فى هذه السورة ينسجم مع السور المدنية، وصدرها أكثر انسجاماً مع السور المكية، ولكنّنا نرى أنّها مدنية طبقاً للمشهور.

يمكن تقسيم مباحث هذه السورة إلى عدّة أقسام:

۱- بداية السورة التى تبحث فى التوحيد وصفات وأفعال اللَّه تعالى.

۲- حثّ الناس على ملاحظة أعمالهم ظاهراً وباطناً، وأن لا يغفلوا عن مصير الأقوام السابقين.

۳- ثم يجرى الحديث عن المعاد، وأنّ يوم القيامة «يوم تغابن»، تغبن فيه جماعة وتفوز فيه جماعة، واسم السورة مشتقّ من هذا المفهوم.

۴- الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه و آله وتحكيم قواعد النبوّة.

۵- ويأمر اللَّه تبارك وتعالى فى القسم الأخير من السورة بالإنفاق فى سبيله، ويحذّر من الإنخداع بالأموال والأولاد والزوجات، وتختم السورة بذكر صفات اللَّه تبارك وتعالى.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة التّغابن فى فريضته كانت شفيعة له يوم القيامة، وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنة».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۰

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۴) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۵) ذلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶) تبدأ هذه السورة بتسبيح اللَّه، اللَّه المالك المهيمن على العالمين القادر على كل شيء:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ويضيف: «لَهُ الْمُلْكُ». والحاكمية على عالم الوجود كافّة، ولهذا السبب: «وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يشير تعالى إلى أمر الخلقة الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ» وأعطاكم نعمة الحرية والإختيار «فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ».

وبناءً على هذا فإنّ الإمتحان الإلهى يجد له معنى عميقاً: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ثم يوضّح مسألة الخلقة أكثر بالإشارة إلى الهدف منها، إذ يقول فى الآية اللاحقة: «خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

فإنّ هذا الخلق الحق الدقيق ينطوى على غايات عظيمة وحكمة بالغة، حيث يقول تعالى فى الآية (۲۷) من سورة «ص»: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا».

ثم يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، ويدعونا بعد آيات الآفاق إلى السير فى آفاق الأنفس. يقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ». لقد صوّر الإنسان بأحسن الصور وأجملها، وجعل له من المواهب الباطنية الفكرية والعقلية ما جعل العالم كلّه ينطوى فيه، وأخيراً تنتهى الامور إليه تعالى: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

ولأنّ الإنسان خلق لهدف سام عظيم، فعليه أن يكون دائماً تحت إرادة البارىء وضمن

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۱

طاعته، فإنّه: «يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

تجسّد هذه الآية علم اللَّه اللامتناهى فى ثلاثة مستويات: علمه بكل المخلوقات، وما فى السماوات والأرض.

ثم علمه بأعمال الإنسان كافّة، سواء أضمرها أو أظهرها.

والثالث علمه بنيّة الإنسان وعقائده الداخلية التى تحكم قلب الإنسان وروحه.

وممّا لا شك فيه أنّ ذلك سيهيىء الإنسان للحركة نحو الرقى والتكامل.

ثم يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى أهمّ عامل فى تربية الإنسان وتعليمه، وهو الإتّعاظ بمصارع القرون وما جرى على الأقوام السالفة حيث يقول: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ألم تمرّوا على مدنهم المهدّمة وآثارهم المدمّرة فى طريقكم إلى الشام والأماكن الاخرى، فتروا بامّ أعينكم نتيجة كفرهم وظلمهم، وكان هذا عذابهم فى الدنيا وفى الآخرة لهم عذاب أشد.

ثم تشير الآية اللاحقة إلى سبب هذه العاقبة المؤلمة وهو الغرور والتكبر على الأنبياء:

«ذلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا». وبهذا المنطق عصوا وكفروا «فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا» واللَّه فى غنى عن طاعتهم «وَاسْتَغْنَى اللَّهُ» فطاعتهم لأنفسهم وعصيانهم عليها و «اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

ولو كفرت كل الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شىء، كما أنّ طاعتهم لا تزيده شيئاً، نحن الذين نحتاج إلى كل هذه التعليمات والمناهج التربوية.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۸) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۰)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۲

فى أعقاب تلك الآيات التى بحثت مسألة الخلقة والهدف من الخلق، جاءت هذه الآيات لتكمّل البحث الذى يطرح قضية المعاد والقيامة، حيث يقول تعالى: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا».

فإنّ القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم فى أعقاب هذا الكلام بقوله: «قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

لأنّهم فى البداية كانوا عدماً وخلقهم اللَّه، فإعادتهم إلى الوجود مرّة اخرى أيسر ..

ولابدّ أن تكون النتيجة كما قرّرتها الآية اللاحقة وأنّه بعد أن ثبت أنّ المعاد حق: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وبناءً على ذلک يأمرهم البارىء أن يعدوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، ويستعدّوا للبعث ويوم الجزاء.

والإيمان هنا لابدّ أن يرتكز على ثلاثة اصول: (اللَّه) و (الرسول) و (القرآن) التى تتضمن الامور الاخرى جميعاً.

وتصف الآية اللاحقة يوم القيامة بقولها: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ».

فإنّ أحد أسماء يوم القيامة هو «يوم الجمع» الذى ورد كراراً بتعبيرات مختلفة فى القرآن الكريم، منها ما جاء فى الآية (۴۹ و ۵۰) من سورة الواقعة: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْأَخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

ثم يضيف تعالى: «ذلِکَ يَوْمُ التَّغَابُنِ». أى اليوم الذى يعرف فيه «الغابن» بالفوز عن «المغبون» بالغلبة، وهو اليوم الذى ينكشف فيه من هم الناس الذين غبنوا وخسرت تجارتهم.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين فى ذلک اليوم (يوم القيامة) أو (يوم التغابن) قائلًا: «وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وستتنزّل النعم الإلهية والبركات بتحقق الشرطين الأساسيين، الإيمان والعمل الصالح.

ثم يقول تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِايَاتِنَا أُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وهناک عاملان أساسيان للشقاء يذكرهما القرآن، هما الكفر والتكذيب بالآيات الإلهية، وهما النقيضان الواقعيان للإيمان والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۳

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۱۲) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۳) كل ما يصيبنا بإذنه وعلمه: فى أوّل آية مورد البحث يشير القرآن إلى أصل كلّى عن المصائب والحوادث الأليمة التى تصيب الإنسان، ولعلّ ذلک يعود إلى أنّ الكفار كانوا دائماً يتذرّعون بوجود المصائب والبلايا لنفى العدالة الإلهية فى هذا العالم، أو يكون المراد أنّ طريق الإيمان والعمل الصالح مقرون دائماً بالمشاكل، ولا يصل الإنسان المؤمن إلى مرتبة مقاومتها، وبذلک يتّضح وجه الإرتباط بين هذه الآية وما قبلها.

يقول تعالى أوّلًا: «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

فما يجرى من حوادث كلّها بإذن اللَّه لا تخرج عن إرادته أبداً.

وعندما نقول يقع ذلک بإرادة اللَّه، فإنّما نعنى «الإرادة التكوينية» لا الإرادة التشريعية.

من مجموع الآيات التى وردت فى هذا المجال، فنلاحظ أنّها عرضت المصائب على نوعين:

الأوّل: ما يكون جزءاً من طبيعة تكوين الإنسان كالموت والحوادث الطبيعية الاخرى، وهذه لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه، فيقرّر القرآن الكريم بأنّ ذلک يقع بإذن اللَّه.

الثانى: هو تلک المصائب التى تأتى من تقصير الإنسان ومن عمل يده، وله الدور الأساسى فى تحققها، وهذه يقول القرآن: إنّها تصيبكم بسبب أعمالكم.

ويبشّر القرآن المؤمنين بقوله: «وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ».

فالمؤمن لا تهزمه المصائب ولا ييأس ولا يجزع، واللَّه يهدى الإنسان حينما يكون شكوراً لنعمه، صابراً على بلائه، مستسلماً لقضائه.

وتقول الآية فى نهاية المطاف: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وقد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات والاختبارات الصعبة، وهو إيقاظ الناس وتربيتهم وإعدادهم لمجابهة الغرور والغفلة، وسيؤثر ذلک حتماً ويدفع الإنسان إلى طاعة اللَّه ورسوله، و «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

لا يخفى أنّ إطاعة الرسول فرع عن إطاعة اللَّه تعالى وطاعة الرسول تقع فى طول طاعة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۴

اللَّه، فهما فى خطّ واحد، وهذا ما جعله يكرّر كلمة إطاعة. وإذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإنّ طاعة اللَّه تتعلق باصول القوانين والتشريعات الإلهية، بينما طاعة الرسول فى تفسيرها وفى المسائل التنفيذية وفى التفاصيل، فعلى هذا تكون الاولى هى الأصل، والثانية فرع.

ثم يضيف قائلًا: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

نعم، إنّ الرسول ملزم بتبليغ الرسالة، وسيتولّى البارىء جلّ شأنه محاسبتكم، وهذا نوع من التهديد الخفى الجاد.

ويشير القرآن الكريم فى الآية اللاحقة إلى قضية التوحيد فى العبودية، التى تشكّل المبرّر الطبيعى لوجوب الطاعة، إذ يقول تعالى: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». وبما أنّه كذلك إذاً: «عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

فليس غير اللَّه يستحق العبودية، لأنّه لا مالك ولا قادر ولا عالم غيره، والغنى كله له، وكل ما لدى الآخرين فمنه وإليه، فيجب الرجوع له والإستعانة به على كل شىء.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۶) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (۱۷) عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى قوله تعالى:

«إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ». وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تعلّق به ابنه وامرأته وقالوا: ننشدك اللَّه أن تذهب عنّا وتدعنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم اللَّه أبناءهم ونساءهم، ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۵

يمضى ويذرهم ويقول: أما واللَّه لئن لم تهاجروا معى ثم يجمع اللَّه بينى وبينكم فى دار الهجرة لا أنفعكم بشىء أبداً، فلمّا جمع اللَّه بينه وبينهم أمره اللَّه أن يوفى ويحسن ويصلهم فقال: «وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

التّفسير

أولادكم وأموالكم وسيلة لإمتحانكم: حذّر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع فى الحب المفرط للأولاد والأموال، الذى قد يجرّ إلى عدم الطاعة للَّهورسوله حيث قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ».

إنّ هناك مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحياناً يتعلقون بثيابكم ليحرموكم خير الهجرة، واخرى ينتظرون موتكم ليسيطروا على أموالكم وثروتكم، وما إلى ذلك.

وتظهر هذه العداوة أحياناً بمظهر الصداقة وتقديم الخدمة، وحيناً آخر تظهر بسوء النية وخبث المقصد.

ومن أجل أن لا يؤدى ذلك إلى الخشونة فى معاملة الأهل، نجد القرآن يوازن ذلك بقوله فى ذيل نفس الآية: «وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فإذا ندموا واعتذروا والتحقوا بكم فلا تتعرضوا لهم بعد ذلك، واعفوا عنهم واصفحوا كما تحبّون أن يعفو اللَّه عنكم.

«العفو»: بمعنى صرف النظر عن العقوبة؛ و «الصفح»: فى مرتبة أعلى، ويراد به ترك أى توبيخ ولوم؛ و «الغفران»: الذى يعنى ستر

الذنب وتناسيه.

وتشير الآيـة اللاحقـة إلى أصل كلى آخر حول الأموال والأولاد، حيث تقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَـدُكُمْ فِتْنَةٌ». فإذا تجاوزتم ذلك كله فإنّ: «وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وقـد تقـدم فى الآيـة السابقـة الكلام عن عـداء بعض الأزواج والأولاد الـذين يـدعون الإنسان إلى الانحراف وسـلوك طريق الشـيطان والمعصـية والكفر، وفى هـذه الآيـة نجـد الكلام عن أنّ جميع الأموال والأولاد عبارة عن «فتنة»، وهذين الأمرين (الأموال والأولاد) من أهمّ وسائل الإمتحان والإبتلاء.

يقول أمير المؤمنين عليه السـلام فى نهج البلاغة: «لا يقولنّ أحدكم: أللّهم إنّى أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّاوهو مشـتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن فإنّ اللّه سبحانه يقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۶

وجاء فى الآية اللاحقة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ».

لقـد أمر اللّه تعالى أوّلًا بإجتناب الـذنوب، ثم بإطاعـة الأوامر، وتعـدّ الطاعة فى قضـية الإنفاق مقدمة لتلك الطاعة، ثم يخبرهم أنّ خير ذلك يعود إليكم ولأنفسكم.

وللتأكيد على أهمية الإنفاق ختمت الآية ب «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«شحّ»: بمعنى «البخـل المرادف للحرص»، أنّ هـاتين الخصـلتين السـيّئتين من أكبر الموانع أمـام فوز الإنسـان، وتغلق عليه سبيل الإنفاق وتصدّه عن الخير.

وفى تفسـير على بن إبراهيم عن الفضل بن أبى مرة قال: رأيت أبا عبـداللّه الصادق عليه السـلام يطوف من أوّل الليل إلى الصـباح وهو يقول: «اللّهمّ قنى شـحّ نفسـى»! فقلت: جعلت فداك ما سـمعتك تدعو بغير هذا الدعاء. قال: «وأى شـيء أشد من شحّ النفس وأنّ اللّه يقول: «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»».

وللتشجيع على الإنفاق والتحذير من البخل، يقول تعالى: «إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ».

فاللّه الخالق الواهب للنعم الذى له كل شيء، يستقرض منّا ثم يعدنا بأنّه سيعوّضنا أضعاف ذلك، إنّه لطف ما بعده لطف.

«القرض»: فى الأصل بمعنى القطع، ولأنّها اقترنت بكلمة «حسن» فإنّها تعنى فصل المال عن النفس وإنفاقه فى الخير.

وعبارة «يَغْفِرْ لَكُمْ» للإشارة إلى أنّ الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

ويقول فى آخر الآيـة: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». إنّه مطّلع على أعمـال عباده ومنها النفقـة والبـذل فى سبيل اللّه، وإنّه غير محتاج لكى يستقرض من عباده وإنّما هو إظهار لكمال لطفه ومحبّته لعباده.

«نهاية تفسير سورة التّغابن»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۷

۶۵. سورة الطلاق

محتوى السورة: يمكن أن نقسّم مباحث هذه السورة إلى قسمين:

۱- الآيات السبع الاول التى تتحدث عن الطلاق وما يرتبط به من امور.

۲- ويشـكّل الدافع الحقيقى للقسم الأوّل من السورة، ويدور الحديث فيه عن عظمة اللّه ومقام رسوله وثواب الصالحين وجزاء العاصين على شـكل مجموعـة منسـجمة لضـمان إجراء هـذه المسألـة الإجتماعيـة المهمّـة، ويذكر أنّ لهذه السورة أسـماء اخرى كسورة «النساء القصرى» (على وزن صغرى) مقابل سورة «النساء» المعروفة «النساء الكبرى».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الطلاق مات على سنّة رسول اللَّه».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (۱)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۸

شرائط الطلاق والإنفصال: تقدم أنّ أهمّ بحث فى هذه السورة هو بحث الطلاق، حيث يشرّع القرآن فيها مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بصفته القائد الكبير للمسلمين، ثم يوضّح حكماً عموميّاً بصيغة الجمع، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ».

إنّ المراد هو أن تجرى صيغة الطلاق عند نقاء المرأة من الدورة الشهرية، مع عدم المقاربة الزوجية- هذا هو أوّل شرط للطلاق.

ثم يذكر الحكم الثانى وهو حساب العدّة، حيث يقول تعالى: «وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ».

«أحصوا»: من مادة «الإحصاء» بمعنى الحساب.

والجدير بالملاحظة هنا أنّ المخاطب فى «حساب العدّة» هم الرجال وليس النساء، وذلك لوقوع مسؤولية «النفقة والسكن» على عاتق الرجال، كما أنّ «حق الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم وليس إلى النساء، وإلّا فهنّ ملزمات أيضاً فى إحصاء العدّة لتعيين تكليفهنّ.

بعد ذلك يدعو اللَّه تعالى الناس جميعاً إلى التقوى واجتناب المعاصى، حيث يقول تعالى:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ». فهو ربّكم الحريص على سعادتكم، فلا تعصوا له أمراً ولا تتركوا له طاعة، وخاصة فى «حساب العدّة» والتدقيق بها.

ثم يذكر الحكم «الثالث» الذى يتعلق بالأزواج والحكم «الرابع» الذى يتعلق بالزوجات. يقول تعالى: «لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ».

ورغم أنّ كثيراً من الجهلة لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرد إجراء صيغة الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها والرجوع إلى أقاربها بمجرد ذلك.

ولكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمّة وحكمته البالغة، فهو بالإضافة إلى إسداء الإحترام إلى المرأة، يهيىء أرضية جيّدة للانصراف والإعراض عن الطلاق، ويؤدى إلى تقوية الأواصر الزوجية.

إنّ عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامى الخطير، الذى جاء فى نصّ القرآن الكريم، يسبّب كثيراً من حالات الطلاق التى تؤدى إلى الفراق الدائم، بينما كثيراً ما يؤدى الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع والصلح والعودة إلى الزوجية مجدداً.

ولكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة وعدم القدرة على الاحتفاظ بها فى البيت،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۱۹۹

فيجيىء الحكم الخامس الاستثنائى، إذ يقول تعالى: «إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ».

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقاً، ويكون أحدهما مثلًا سيىء الأخلاق إلى الدرجة التى لا يمكن معها البقاء معه فى بيت واحد، وإلّا ستنشأ مشاكل جديدة وعديدة.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكّد القرآن الكريم- مرّة اخرى- بقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ». لأنّ الغرض من هذه الأحكام هو اسعاد الناس أنفسهم، والتجاوز على هذه الأحكام- سواء من قبل الرجل أو المرأة- يؤدّى إلى توجيه ضربة قويّة إلى سعادتهم.

ويقول تعالى فى لفتة لطيفة إلى فلسفة العدّة، والحكمة من تشريعها، وعدم السماح للنساء المعتدات بالخروج من مقرّهن الأصلى البيت. يقول: «لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْرًا».

ومع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب والعصبية الذى قد يسبّب الطلاق، غير أنّ مرور الزمن وحضور الزوجة إلى جانب زوجها خلال

هـذه الفترة فى البيت، وإظهار نـدم ومحبّـة كل واحـد منهما إلى الآخر، وكـذلك التفكير ملياً فى عواقب هـذا العمل القبيح، خاصة مع وجود الأطفال، كل هذه الأمور قد تهييء أرضية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم.

فى الكـافى عن الإمـام الصـادق عليه السـلام قـال: «المطلّقـة تكتحـل وتختضب وتطيّب وتلبس مـا شاءت من الثياب، لأنّ اللَّه عزّ وجل يقول: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْرًا» لعلّها تقع فى نفسه فيراجعها».

أبغض الحلال إلى اللَّه الطلاق: إنّ أصل الطلاق من الضـروريات التى لا يمكن إلغاؤها بأى وجه من الوجوه، ولكن ينبغى أن لا يصار إليهـا إلّافى الحالات التى يتعـذر فيها مواصـلة العلاقـة الزوجيـة والحياة المشتركـة. ولهـذا نجـد أنّ الطلاق قـد ذمّ فى روايات إسـلامية عديدة، وذكر على أنّه (أبغض الحلال إلى اللَّه).

ففى الكافى عن الإمام الصادق قال: «قال رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: ... وما من شـىء أبغض إلى اللَّه عزّ وجل من بيت يخرّب فى الإسلام بالفرقة يعنى الطلاق».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شىء ممّا أحلّه اللَّه عزّ وجل أبغض إليه من الطلاق».

والطلاق هو السبب وراء مآس عديدة تحلّ بالعوائل والرجال والنساء، وأكثر منهم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۰

مختصر الامثل ج۵ ۲۳۹

بالأطفال والأولاد.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (۳) فامسـكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف: يشـير فى الآيـة مورد البحث، وكاسـتمرار للأبحاث المرتبطـة بالطلاـق التى وردت فى الآيـات السابقـة، إلى عـدّة أحكام اخرى، إذ يقول تعالى فى البدايـة: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

والمراد من عبارة «بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» هو تشـرف على الانتهاء، فإنّ الرجوع بعـد نهاية العدة غير جائز، إلّاأن يكون إبقاؤهن عن طريق صـيغة عقد جديدة.

فـإنّ هـذه الآيـة تطرح أهمّ الأواصـر المرتبطـة بالحياة الزوجيـة وأكثرها نضـجاً، وهى: إمّا أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان ومعروف وتوافق، أو أن ينفصلا بإحسان.

فالانفصال ينبغى أن يتمّ بعيـداً عن الهياج والعربدة، وعلى اصول صـحيحة، ويجب أن تحفظ فيه الحقوق واللياقات لكى تكون أرضـية صالحـة ومهيّأة للعودة والرجوع إذا مـا قرّرا الرجوع إلى الحياة المشتركـة فيما بعـد، فإنّ العودة إذا تمّت فى جو مظلم ملبّـد بالخلافات والتعـديات، فسوف لا تكون عودة موفّقـة تسـتطيع الاسـتمرار مـدّة طويلـة، هـذا إضافة إلى أنّ الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثاراً، ليس فقط على الزوج والزوجة، وإنّما قد تتعدى إلى عشيرة وأقرباء كل منهما، وتقطع طريق المساعدة لهما فى المستقبل.

ثم يذكر القرآن الكريم الحكم الثانى حيث يقول: «وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ».

وذلك لكى لا يستطيع أحد أن ينكر فى المستقبل ما جرى.

وفى الحكم الثالث يبيّن القرآن الكريم وظيفة الشهود، حيث يقول: «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ». حذار أن يكون ميلكم وحبّكم لأحد الطرفين مانعاً عن إظهار الحق.

إنّ تعبير «ذَوَىْ عَدْلٍ مِنكُمْ» دليل على أنّ الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين ومن الذكور.

ولتأكيد الأحكام السابقة جميعاً، تقول الآية الكريمة: «ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

مختصر الامثل، ج‌۵، ص: ۲۰۱

وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وبسبب المشاكل المعيشية والحياة المستقبلية فإنّ الزوجين قد ينحرفان عن جادة الصواب عند الطلاق والرجوع، وقد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعانهما عن أداء الشهادة الصحيحة والعادلة، لهذا تؤكّد الآية فى نهايتها قائلة: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا». ويساعده حتماً على إيجاد الحل لمشكلاته.

«وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ». ولا يتصور تحصيله.

«وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». وسيكفيه ما يهمّه من اموره.

«إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ». لأنّ اللَّه عزّ وجل قادر مطلق، وأمره نافذ فى كل شىء وتخضع جميع الكائنات لمشيئته وإرادته ...

ولهذا يحذّر النساء والرجال والشهود أن لا يخافوا قول الحق، ويحثّهم على الاعتماد عليه واللجوء إليه فى تيسير الصعوبات، لأنّه قد تعهّد بأن ييسّر للمتقين أمرهم.

إنّ تلاوة الآيات السابقة تبعث- أكثر من غيرها- الأمل فى النفوس، وتمنح القلب صفاءً خاصاً، وتمزّق حجب اليأس والقنوط، إذ تعد كل المتقين بحلّ مشاكلهم وتسهيل امورهم.

فى الدرّ المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى قوله «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا»: «من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة».

وَ اللَّائِی یَئِسْنَ مِنَ الْمَحِیضِ مِنْ نِسَائِکُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِی لَمْ یَحِضْنَ وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ یُسْراً (۴) ذلِکَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَیْکُمْ وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئَاتِهِ وَ یُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵) أَسْکِنُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ سَکَنْتُمْ مِنْ وُجْدِکُمْ وَ لَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَیِّقُوا عَلَیْهِنَّ وَ إِنْ کُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَیْهِنَّ حَتَّی یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَکُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَیْنَکُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَی (۶) لِیُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ فَلْیُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا یُکَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَیَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ یُسْراً (۷)

مختصر الامثل، ج‌۵، ص: ۲۰۲

أحكام النساء المطلّقات وحقوقهن: من بين الأحكام المستفادة من الآيات السابقة لزوم إحصاء العدة بعد الطلاق، ولما كانت الآية (۲۲۸) من سورة البقرة قد بيّنت حكم العدة للنساء اللاتى يرين العادة الشهرية وذلك بأن تعد ثلاث دورات شهرية متتالية وبمشاهدة الثالثة تكون المرأة قد أنهت عدّتها، فقد ذكرت الآيات محل البحث حكم النسوة اللواتى لا حيض لديهم لأسباب معينة، أو الحوامل لتكمل بحث العدة. يقول تعالى فى بداية الأمر:

«وَالِّى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُم إِنِ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَثَةُ أَشْهُرٍ».

فإذا شككتم فى وجود الحمل فمدّة العدة حينئذ ثلاثة أشهر، وكذلك النسوة اللائى لم يرين الحيض ولم تحدث لهن العادة الشهرية بعد: «وَالِّى لَمْ يَحِضْنَ».

ثم يشير تعالى إلى ثالث مجموعة حيث يضيف قائلًا: «وَأُولتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

وبهذا اتّضح حكم المجاميع الثلاثة، مجموعتان يجب أن يحصين عدتهن ثلاثة أشهر، والمجموعة الثالثة- أى النساء الحوامل- تنتهى عدّتهن بوضع الحمل، سواء كان بعد ساعة من الطلاق، أو بعد ثمانى أشهر مثلًا.

ومعنى عبارة «إِنِ ارْتَبْتُمْ» هو الشك فى وجود «الحمل» بمعنى أنّه هناك إحتمال حمل بعد سنّ اليأس (خمسون سنة للنساء العاديات، وستون سنة للنساء القرشيات) فمن أجل هذا الاحتمال الضعيف الذى نادراً ما يقع، يجب أن تحتاط النساء فتحصى عدّتها ثلاثة أشهر.

وأخيراً يؤكّد مرّة اخرى فى نهاية الآية على التقوى، حيث يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا».

ييسّر اموره ويسهّلها فى هذا العالم، وكذلك فى العالم الآخر، بألطافه سواء فى هذه القضيّة أى قضية الطلاق أو فى قضايا اخرى.

وللتأكيد على أحكام الطلاق والعدة فقد أضاف تعالى فى الآية اللاحقة قائلًا: «ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ». «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا».

وتعطى الآية اللاحقة توضيحاً أوسع وأشمل لحقوق المرأة بعد الطلاق، من حيث «السكن» و «النفقة» وامور اخرى. يقول تعالى فى سكن النساء المطلّقات: «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مّن وُجْدِكُمْ». «وجد»: على وزن (حكم)، بمعنى القدرة والتمكّن.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۳

ومن الطبيعى أنّه حينما يكون الإسكان على نفقة الزوج وفى عهدته، فإنّ الامور الاخرى من الإنفاق ستقع هى الاخرى على عاتق الزوج، والشاهد على هذا المدّعى ذيل الآية الذى يتحدث عن نفقة النساء الحوامل.

ثم يتطرق تعالى لذكر حكم آخر: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ».

حذار أن يغرّكم البعض ويزرع بينكم البغض والعداوة والنفور، مما يؤدّى إلى إخراجكم عن جادة الحق، فتحرمونهن حقوقهن الطبيعية فى السكن والنفقة.

يقول تعالى فى ثالث حكم حول النساء الحوامل: «وَإِن كُنَّ أُولتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

فما دمن حاملات فهنّ فى حالة عدة يستحقّن النفقة والسكن على الزوج.

ويقول تعالى فى الحكم الرابع حول حقوق النساء المرضعات: «فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ».

اجرة تتناسب مع مقدار وزمان الإرضاع، وطبقاً لما هو معروف وشائع عرفاً.

ونظراً لأنّ الأطفال كثيراً ما يصبحون نقطة للنزاع والخلاف بين الزوج والزوجة بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن فى الحكم الخامس هذا الأمر بشكل قاطع ولائق حيث قال:

«وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ». وتشاوروا بينكم فى مصير الأولاد ومستقبلهم.

ويحذّر القرآن الكريم من مغبّة أن يكون الأطفال ضحيّة الخلاف الواقع بين الزوج والزوجة، مما يترك عليهم آثاراً واضحة على تكوينهم الجسمى والنفسى، إذ يحرمون من حنان الام والأب وشفقتهما فينبغى أن يتّقى الأبوان اللّه تعالى ويحفظا حقوق الأطفال فإنّهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

وفى حالة عدم حصول التوافق والتفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال وقضية إرضاعهم، يقول القرآن فى سادس حكم فى هذا المجال: «وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى .

وتبيّن الآية اللاحقة سابع- وآخر حكم- فى هذا المجال حيث يقول تعالى: «لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَيهُ اللَّهُ لَايُكَلّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا».

إنّ هذا الأمر يرتبط بالنساء اللائى يتعهدن رضاعة أطفالهن بعد الفرقة والطلاق، وأثناء العدة التى اشير إليها فى الآيات السابقة.

وبناءً على هذا لا ينبغى للذين ليس لهم القدرة أن يتشدّدوا ويعقدوا الامور، كما أنّ الذين لا يملكون القدرة المالية غير مأمورين إلّابالقدر الذى تسعه قدرتهم المالية ولا يحق

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۴

للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك. وفى نهاية المطاف يبشّرهم اللّه تعالى بقوله: «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا». أى: لا تجزعوا ولا تحزنوا ولا يكن الضيق فى المعيشة سبباً لخروجكم عن الطريق السوى، فإنّ الدنيا أحوال متقلّبة لا تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابرة والمرحلية حبل صبركم.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً (۸) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا

خُسْراً (۹) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (۱۰) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱) العاقبة المؤلمة للعاصين: فى كثير من الموارد يأتى القرآن على ذكر الامم السابقة بعد إيراد سلسلة من الأحكام والتكاليف، لكى يرى المسلمون بأعينهم عاقبة كل من (الطاعة والعصيان) فى تجارب الماضى وتأخذ القضية طابعاً حسيّاً.

ولم يخرج القرآن الكريم فى هذه السورة عن هذا النهج، فبعد ذكر وظائف كل من الرجال والنساء عند الطلاق، يحذّر العاصين والمتمردين من العواقب الوخيمة التى تنتظرهم بقوله فى البداية: «وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا».

والمقصود ب «القرية» هو محل اجتماع الناس، وهو أعمّ من المدينة والقرية، والمراد هو أهلها.

«عتت»: من مادة «عتو» بمعنى التمرّد على الطاعة؛ و «نكر»: يعنى العمل الصعب الذى لم يسبق له مثيل.

«حساباً شديداً» إشارة إلى عاقبة الأقوام السابقة المتمرّدة العاصية فى هذه الدنيا.

لذلك يضيف تعالى فى الآية اللاحقة: «فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا».

وأى خسارة أفدح من خسران رأس المال الذى وهبه اللَّه، والخروج من هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۵

ليس فقط بعدم شراء المتاع- وإنّما بالانتهاء إلى العذاب الإلهى والدمار.

ثم يشير تعالى إلى عقابهم الاخروى بقوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». عذاباً مؤلماً، مخيفاً، مذلًا، فاضحاً، دائماً أعدّه لهم منذ الآن فى نار جهنم.

والآن «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

إنّ الفكر والتفكّر من جهة، والإيمان والآيات الإلهية من جهة اخرى، تحذّركم وتدعوكم لملاحظة مصائر الأقوام السابقة المتمردة التى عصت أمر ربّها، والاعتبار بذلك والحذر من أن تكونوا مثلهم.

وبعد ذلك يخاطب اللَّه تعالى المؤمنين الذين يتفكّرون فى آيات اللَّه بقوله: «قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا». وهو الشىء الذى يوجب تذكركم.

وأرسل لكم رسولًا يتلو عليكم آيات اللَّه الواضحة: «رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ «الذكر» يعنى القرآن؛ و «رسولًا» تعنى شخص الرسول؛ ومعنى «الإنزال» هنا هو وجود الرسول صلى الله عليه و آله فى الامة وبعثه فيها من قبل اللَّه تعالى.

إنّ الهدف من إرسال الرسول وإنزال هذا الكتاب السماوى، هو لإخراج الناس من الظلمات والكفر والجهل وإرتكاب الذنوب والمآثم والمفاسد الأخلاقية، إلى نور الإيمان والتوحيد والتقوى.

وفى ختام الآية يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: «وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا».

وأشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم وعملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان والمكان، وإنّما لهما استمرار وديمومة.

والتعبير ب (خالدين) دليل على كون الجنة خالدة.

والتعبير ب «رزقاً» يشمل كل النعم الإلهية فى الدنيا والآخرة، لأنّ الصالحين والمتقين لهم حياتهم الكريمة حتى فى الحياة الدنيا.

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۶

الهدف من خلق العالم: هذه الآية هى آخر آية من سورة الطلاق، وفيها إشارة معبّرة وصريحة إلى عظمة وقدرة البارىء جلّ شأنه فى خلق السماوات والأرض وبيان الهدف النهائى للخلق. يقول تعالى أوّلًا: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَموَاتٍ». «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ». بمعنى أنّ الأرضين سبع كما السماوات سبع، وهذه هى الآية الوحيدة التى تشير إلى الأرضين السبع فى القرآن الكريم.

إنّ مفهوم هذه الآية مع الإلتفات إلى الآية (۶) من سورة الصّافات التى تقول: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ». هو أنّ علم البشر ومعرفته مهما اتّسعت فهى محدودة ومتعلّقة بالسماء الاولى التى توجد وراءها ثوابت وسيّارات ستة هى عبارة عن العوالم الاخرى التى لا تتسع لها معرفتنا المحدودة ولا ينالها إدراكنا الضيّق.

أمّا الأرضين السبع وما حولها، فربّما تكون إشارة إلى طبقات الأرض المختلفة، لأنّ الأرض تتكوّن من طبقات مختلفة كما ثبت اليوم علميّاً، أو لعلها تكون إشارة إلى المناطق السبع التى تقسّم بها الأرض فى السابق وحالياً.

ثم يشير تعالى إلى إدارة هذا العالم الكبير وتدبيره بقوله جلّ شأنه: «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ».

وأخيراً يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول: «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا».

ومن ثم يجب أن يعلم الإنسان أنّ اللَّه محيط بكل أسرار وجوده، عالم بكل أعماله ما ظهر منها وما بطن، ثم يجب أن يعلم الإنسان أنّ وعد اللَّه فى البعث والمعاد والثواب والعقاب وحتمية انتصار المؤمنين، كل ذلك غير قابل للتخلف والتأخر.

«نهاية تفسير سورة الطّلاق»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۷

۶۶. سورة التحريم

محتوى السورة: تتكوّن هذه السورة من أربعة أقسام رئيسية:

۱- يرتبط بقصة الرسول صلى الله عليه و آله مع بعض أزواجه حينما حرم بعض أنواع الطعام على نفسه، فنزلت الآيات من (۱- ۵).

۲- خطاب لكل المؤمنين فى شؤون التربية ورعاية العائلة ولزوم التوبة من الذنوب، وهو من الآية (۶- ۸).

۳- وهو الآية التاسعة التى تتضمن خطاباً إلى الرسول صلى الله عليه و آله بضرورة مجاهدة الكفار والمنافقين.

۴- يتضمن توضيحاً للأقسام السابقة بذكر نموذجين صالحين للنساء، وهما (مريم العذراء، وزوجة فرعون) ونموذجين غير صالحين (زوجة نوح، وزوجة لوط) ويحذّر نساء النبى صلى الله عليه و آله من هذين النموذجين الأخيرين ويدعوهنّ إلى الإقتداء بالنموذجين الأوّلين من الآية (۱۰- ۱۲).

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطلاق والتحريم فى فريضة أعاذه اللَّه من أن يكون يوم القيامة ممّن يخاف أو يحزن وعوفى من النار وأدخله اللَّه الجنة بتلاوته إيّاهما ومحافظته عليهما لأنّهما للنبى صلى الله عليه و آله».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۸

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِکَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ

هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (۴) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَ أَبْكَاراً (۵)

سبب النّزول

عن عائشة: إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يمكث عند زينب ابنة جحش [إحدى أزواج الرسول ويشرب عندها عسلًا فتواصيت أنا وحفصة ان أتينا دخل عليها النبى صلى الله عليه و آله فلتقل إنّى لأجد منك ريح المغافير أكلت المغافير [وهو نوع من الصمغ يترشّح من بعض أشجار الحجاز يسمّى عرفط ويترك رائحة غير طيبة، علماً أنّ الرسول كان يصرّ على أن تكون رائحته طيّبة دائماً]، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال: «لا بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له». [ولهذا أقسم بأنّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرّة اخرى، خوفاً من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذّت على شجر صمغ المغافير وحذّرها أن تنقل ذلك إلى أحد لكى لا يشيع بين الناس أنّ الرسول قد حرّم على نفسه طعاماً حلالًا فيقتدون بالرسول ويحرّمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زينب وينكسر قلبها وتتألّم لذلك. لكنّها أفشت السر فتبين أخيراً أنّ القصة كانت مدروسة ومعدّة فتألم الرسول صلى الله عليه و آله لذلك كثيراً، فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضّح الأمر وتنهى من أن يتكرر ذلك مرّة اخرى فى بيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «(١).

---

(١) صحيح البخارى ۶/ ۱۶۷، والتوضيحات التى ذكرت فى تستفاد من كتب اخرى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۰۹

التّفسير

التوبيخ لبعض زوجات الرسول: مما لا شك فيه أنّ رجلًا عظيماً كالرسول صلى الله عليه و آله لا يمكن أن يهمّه أمره وحده دون غيره، بل أمره يهمّ المجتمع الإسلامى والبشرية جمعاء، ولهذا يكون التعامل مع أيّة دسيسة حتى لو كانت بسيطة تعاملًا حازماً وقاطعاً لا يسمح بتكرّرها، لكى لا تتعرض حيثية الرسول واعتباره إلى أى نوع من التصدّع والخدش والآيات محل البحث تعتبر تحذيراً من ارتكاب مثل هذه الأعمال حفاظاً على اعتبار الرسول صلى الله عليه و آله. البداية كانت خطاباً إلى الرسول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ».

إنّ هذا التحريم ليس تحريماً شرعياً، بل هو- كما يستفاد من الآيات اللاحقة- قسم من قبل الرسول الكريم، ومن المعروف أنّ القسم على ترك بعض المباحات ليس ذنباً. وبناءً على هذا فإنّ جملة «لِمَ تُحَرِّمُ» لم تأت كتوبيخ وعتاب، وإنّما هى نوع من الإشفاق والعطف.

ثم يضيف فى آخر الآية: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». وهذا العفو والرحمة إنّما هو لمن تاب من زوجات الرسول اللاتى رتّبن ذلك العمل وأعددنه.

ويضيف فى الآية اللاحقة أنّ اللَّه قد أوضح طريق التخلّص من مثل هذا القسم: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ». أى: أعط كفارة القسم وتحرّر منه.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ مَوْلَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام ووضع لكم طريق التخلّص منها طبقاً لعلمه وحكمته.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ النبى صلى الله عليه و آله أعتق رقبة بعد هذا القسم وحلّل ما كان قد حرّمه بالقسم.

وفى الآية اللاحقة يتعرض لهذا الحادث بشكل أوسع: «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ

بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ».

إنّ هذا السر يتكوّن من أمرين:

الأوّل: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

والثانى: تحريم العسل على نفسه فى المستقبل.

أمّا الزوجة التى أذاعت السر ولم تحافظ عليه فهى «حفصة» حيث أنّها نقلت ذلك

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۰

الحديث الذى سمعت به إلى عائشة.

وعلى كل حال فإنّه: «فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ».

ويتّضح من مجموع هذه الآيات أنّ بعض زوجات الرسول لم يكتفين بإيذاء النبى صلى الله عليه و آله بكلامهن، بل لا يحفظن سرّه، وحفظ السر من أهمّ صفات الزوجة الصالحة الوفيّة لزوجها. ثم يتحدث القرآن مع زوجتى الرسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله: «إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا».

وقد اتّفق المفسرون الشيعة والسنة على أنّ تلك الزوجتين هما «حفصة بنت عمر» و «عائشة بنت أبى بكر».

ثم يضيف تعالى: «وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ».

ويتّضح من هذا كم تركت هذه الحادثة من أثر مؤلم فى قلب الرسول صلى الله عليه و آله وروحه العظيمة، ورغم قدرة الرسول المتكاملة نشاهد أنّ اللّه يدافع عنه إذ يعلن حماية جبرائيل والمؤمنين له.

مما لا- شك فيه أنّ صالح المؤمنين، لها معانٍ واسعة تشمل جميع المؤمنين الصالحين الأتقياء الذين كمل إيمانهم، ولكن ما هو المصداق الأكمل والأتم لهذا المصطلح؟

يستفاد من روايات عديدة أنّ المقصود هو الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام.

فى آخر آية من هذه الآيات يخاطب اللّه تعالى جميع نساء النبى بلهجة لا تخلو من التهديد:

«عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا».

يضع القرآن الكريم عدّة صفات للمرأة الصالحة التى يمكنها أن تكون نموذجاً يقتدى به فى انتخاب الزوجة اللائقة.

الأوّل «الإسلام» ثم «الإيمان» أى الإعتقاد الذى ينفذ ويترسّخ فى أعماق قلب الإنسان، ثم حالة «القنوت» أى التواضع وطاعة الزوج، بعد ذلك «التوبة» ويقصد أنّ الزوجة إذا ما ارتكبت ذنباً بحق زوجها فإنّها سرعان ما تتوب وتعتذر عن ذلك، وتأتى بعد ذلك «العبادة» التى جعلها اللّه سبحانه ليطهّر بها قلب الإنسان وروحه ويصنعها من جديد، ثم «إطاعة أوامر اللّه» والورع عن محارمه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۱

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (۶) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۸) قوا أنفسكم وأهليكم النار: تخاطب الآيات السابقة جميع المؤمنين، وترسم لهم المنهج الصالح لتربية الزوجات والأولاد والاسرة بشكل عام، فهى تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

وذلك بحفظ النفس من الذنوب وعدم الاستسلام للشهوات والأهواء، وحفظ العائلة من الانحراف بالتعليم والتربية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتهيئة الأجواء الصالحة والمحيط الطاهر من كل رذيلة ونقص.

وينبغى مراعاة هـذا البرنامـج الإلهى منـذ اللحظات الاولى لبناء العائلـة، أى منـذ أوّل مقـدمات الزواج، ثم مع أوّل لحظة لولادة الأولاد، ويراعى ويلاحظ بدقة حتى النهاية.

ويضيف القرآن قائلًا: «عَلَيْهَا مَلِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّايَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

وبهذا لا يبقى طريق للخلاص والهروب، ولن يؤثّر البكاء والإلتماس والجزع والفزع.

فى الآيـة اللاحقـة يخاطب الكفار ويصف وضـعهم فى ذلك اليوم العصـيب بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

قـد جـاءت هـذه الآيـة بعـد الآيـة السابقـة التى خاطب بها المؤمنين، ليكون واضـحاً أنّ عـدم الالتزام بأوامر اللّه وعـدم الإهتمام بالنساء والأولاد والأهل قد تكون نتيجته وعاقبته كعاقبة الكفار يوم القيامة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۲

ومما يجـدر ذكره أنّ عـدم قبول الإعتـذار ناتج عن كونه نوعاً من التوبة، والتوبة لا تقبل فى غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

ويلقى القرآن الضوء فى الآية اللاحقة على طريق النجاة من النار حيث يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا».

«نصوح»: من مادة «نصـح»، بمعنى طلب الخير بإخلاص، ولـذلك يقال للعسل الخالص بأنّه (ناصح) وبما أنّ من يريد الخير واقعاً يجب أن يكون عمله توأمـاً للإتقان جاءت كلمـة «نصـح» أحياناً بهـذا المعنى، ولـذا يقال للبناء المتين بأنّه «نصاح»- على وزن كتاب- ويقال للخيّاط «ناصح»، وكلا المعنيين- أى الخلوص والمتانة- يجب توفّرهما فى التوبة النصوح.

فى تفسـير مجمع البيـان عن ابن عبـاس قـال: قال معاذ بن جبل: يا رسول اللّه! ما التوبـة النصوح؟ قال: «أن يتوب التائب ثم لا يرجع فى ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

وبهـذا التعبير اللطيف يتّضـح أنّ التوبـة يجب أن تحـدث إنقلاباً فى داخل النفس الإنسانيـة، وتسـدّ عليها أى طريق للعودة إلى الـذنب، وتجعل من الرجوع أمراً مستحيلًا كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع والثدى.

ثم يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبـة الصادقـة النصوح بقوله: «عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيَاتِكُمْ». «وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». «يَوْمَ لَايُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ». «نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». ويضـىء لهم طريقهم فى المحشر ويوصلهم إلى الجنة.

وهنا يتوجّهون إلى اللّه بطلب العفو: «يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۳

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۹) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (۱۰) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۱) وَ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتُبِهِ وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (۱۲) نمـاذج من النساء المؤمنـات والكـافرات: بمـا أنّ المنافقين يفرحون لإفشاء أسـرار الرسول وإذاعـة الأخبار الداخليـة عن بيته، ويرحبون ببروز المشاجرات والاختلافـات بين زوجـاته- التى مضت الإشـارة إليهـا فى الآيـات السابقـة- بل إنّهم كانوا يساهمون فى إشاعـة تلك الأخبار وإذاعتها بشـكل أوسع، نظراً لكـل ذلك فقـد خاطب القرآن الكريم الرسول بأن يشـدّد على المنافقين والكافرين ويغلظ عليهم، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الجهاد ضـد الكفار قد يكون مسـلّحاً أو غير مسـلّح، أمّا الجهاد ضد المنافقين فإنّه بدون شك جهاد غير مسـلّح، لأنّ التاريخ لم يحدّثنا

أبداً عن أنّ الرسول خاض مرّة معركة مسلّحة ضدّ المنافقين.

إنّ المراد من الجهاد ضدّ المنافقين إنّما هو توبيخهم وإنذارهم وتحذيرهم، بل وتهديدهم وفضحهم، أو تأليف قلوبهم فى بعض الأحيان.

وذلك بعد حياة الرسول صلى الله عليه و آله حدث فى خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام حيث خاض ضدّهم معركة مسلّحة.

ومن أجل أن يعطى اللَّه تعالى درساً عملياً حيّاً إلى زوجات الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله عاد مرّة اخرى يذكر بالعاقبة السيّئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبيين عظيمين من أنبياء

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۴

اللَّه، وكذلك يذكر بالعاقبة الحسنة والمصير الرائع لامرأتين مؤمنتين مضحيّتين كانتا فى بيتين من بيوت الجبابرة، حيث يقول أوّلًا: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ».

وبناءً على هذا فإنّ القرآن يحذّر زوجتى الرسول اللتين اشتركتا فى إذاعة سرّه، بأنّكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرّد كونكما من أزواج النبى كما فعلت زوجتا نوح ولوط فواجهتا العذاب الإلهى.

كما تتضمّن الآيات الشريفة تحذيراً لكل المؤمنين بأنّ القرب من أولياء اللَّه والإنتساب إليهم لا يكفى لمنع نزول عذاب اللَّه ومجازاته.

وعلى أيّة حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبيّين عظيمين من أنبياء اللَّه. والخيانة هنا لا تعنى الانحراف عن جادّة العفّة والنجابة، لأنّهما زوجتا نبيين ولا يمكن أن تخون زوجة نبى بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «ما بغت امرأة نبى قطّ».

ثم يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ».

من المعروف أنّ اسم زوجة فرعون (آسية) واسم أبوها (مزاحم) وقد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السلام أمام السحرة، واستقرّ قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أنّ الإيمان برسالة موسى وحبّ اللَّه ليس شيئاً يسهل كتمانه، وبمجرّد أن اطّلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة وأصرّ عليها أن تتخلّى عن رسالة موسى وربّه، غير أنّ هذه المرأة الصالحة رفضت الاستسلام إطلاقاً.

وأخيراً أمر فرعون أن تُثبت يداها ورجلاها بالمسامير، وتترك تحت أشعة الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. وفى تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: «رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». وقد استجاب لها ربّها وجعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها فى صفّ مريم.

فى الدرّ المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد صلى الله عليه و آله، ومريم بنت عمران، وآسيه بنت مزاحم امرأة فرعون».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۵

ثم يضرب اللَّه تعالى مثلًا آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حيث يقول جلّ من قائل:

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا».

فهى امرأة لا زوج لها أنجبت ولداً صار نبيّاً من أنبياء اللَّه العظام (من اولى العزم).

ويضيف تعالى قائلًا: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ».

كانت فى القمّة من حيث الإيمان، إذ آمنت بجميع الكتب السماوية والتعاليم الإلهية، ثم إنّها كانت قد أخضعت قلبها للَّه، وحملت قلبها على كفّها وهى على أتمّ الإستعداد لتنفيذ أوامر البارى جلّ شأنه.

«نهاية تفسير سورة التحريم»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۷

۶۷. سورة الملك

محتوى السورة: تسمّى سورة الملك أيضاً ب (المنجية)، وكذلك تسمّى ب (الواقية) أو (المانعة) بلحاظ أنّها تحفظ الإنسان الذى يتلوها من العذاب الإلهى أو عذاب القبر، وهى من السور التى لها فضائل عديدة. وقد طرحت فى هذه السورة مسائل قرآنية مختلفة، إلّاأنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثة محاور هى:

۱- أبحاث حول المبدأ، وصفات اللَّه سبحانه، ونظام الخلق العجيب، خصوصاً خلق السماوات والنجوم والأرض وما فيها من كنوز عظيمة ... وكذلك ما يتعلق بخلق الطيور والمياه الجارية والحواس كالاذن والعين، بالإضافة إلى وسائل المعرفة الاخرى.

۲- ثم تتحدث الآيات الكريمة عن المعاد وعذاب الآخرة، والحوار الذى يدور بين ملائكة العذاب الإلهى وأهل جهنم، بالإضافة إلى امور اخرى فى هذا الصدد.

۳- وأخيراً تتحدث عن التهديد والإنذار الإلهى بألوان العذاب الدنيوى والاخروى للكفار والظالمين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: «سورة المُلك هى المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهى مكتوبة فى التوراة سورة الملك، ومن قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطاب ولم يكتب من الغافلين».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۸

ومن الطبيعى أنّ جميع هذه الآثار العظيمة لا تكون إلّامن خلال التدبر فى قراءة آيات هذه السورة والعمل بها، والإستلهام من محتوياتها فى الممارسات الحياتية المختلفة.

تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (۲) الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (۴) وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (۵) تبدأ آيات هذه السورة بمسألة مالكية وحاكمية اللَّه سبحانه، وخلود ذاته المقدسة، وهى فى الواقع مفتاح جميع أبحاث هذه السورة المباركة. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«تبارك»: من مادة «بركة» فى الأصل من «برك» على وزن (ترك) بمعنى (صدر البعير)، واطلقت كذلك على كل نعمة باقية ودائمة.

ثم يشير سبحانه فى الآية اللاحقة إلى الهدف من خلق الإنسان وموته وحياته، وهى من شؤون مالكيته وحاكميته تعالى فيقول: «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

«الموت»: حقيقته الإنتقال من عالم إلى عالم آخر، وهذا الأمر وجودى يمكن أن يكون مخلوقاً، لأنّ الخلقة ترتبط بالامور الوجودية، وهذا هو المقصود من الموت فى الآية الشريفة، أمّا الموت بمعنى الفناء والعدم فليس مخلوقاً، لذا فإنّه غير مقصود.

أمّا الهدف من الإمتحان فهو تربية الإنسان كى يجسّد الاستقامة والتقوى والطهر فى الميدان العملى ليكون لائقاً للقرب من اللَّه سبحانه، وقد بحثنا ذلك مفصّلًا فيما سبق.

ومن هنا نعلم أنّ العالم ميدان الإمتحان الكبير لجميع البشر، ووسيلة هذا الإمتحان هو الموت والحياة، والهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذى مفهومه تكامل المعرفة، وإخلاص النيّة، وإنجاز كل عمل خيّر.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۱۹

وبما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيرة فى مرحلة الإمتحان الكبير الذى يمرّ به، فيجدر به ألّا يكون متشائماً ويائساً من عون اللَّه سبحانه ومغفرته له، وذلك من خلال العزم على معالجة أخطائه ونزواته النفسية وإصلاحها، حيث يقول تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ».

وبعد إستعراض نظام الموت والحياة الذى تناولته الآية السابقة، تتناول الآية اللاحقة النظام الكلى للعالم، وتدعو الإنسان إلى التأمل فى عالم الوجود، والتهيّؤ لمخاض الإمتحان الكبير عن طريق التدبّر فى آيات هذا الكون العظيم. يقول تعالى: «الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَموَاتٍ طِبَاقًا».

ثم يضيف سبحانه: «مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِن تَفَاوُتٍ».

إنّ الآية أعلاه تبيّن لنا أنّ عالم الوجود- بكل ما يحيطه من العظمة- قائم وفق نظام مستحكم، وقوانين منسجمة، ومقادير محسوبة، ودقّة متناهية، ولو وقع أى خلل فى جزء من هذا العالم الفسيح لأدّى إلى دماره وفنائه.

ثم يضيف تعالى مؤكّداً: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ».

«فطور»: من مادة «فطر» على وزن (سطر) بمعنى الشقّ من الطول، كما تأتى بمعنى الكسر (كإفطار الصيام) والخلل والإفساد، وقد جاءت بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

ويقصد بذلك أنّ الإنسان كلّما دقّق وتدبّر فى عالم الخلق والوجود، فإنّه لا يستطيع أن يرى أى خلل أو اضطراب فيه. لذا يضيف سبحانه مؤكّداً هذا المعنى فى الآية اللاحقة حيث يقول: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسًا وَهُوَ حَسِيرٌ».

«كرّتين»: من مادة «كر» على وزن (شرّ) بمعنى التوجّه والرجوع إلى شىء معيّن.

وبناءً على هذا فإنّ القرآن الكريم يأمر الناس فى هذه الآيات أن يتطلّعوا ويتأملوا ويدقّقوا النظر فى عالم الوجود ثلاث مرّات- كحد أدنى- ويتدبّروا أسرار الخلق.

وعندما لا يجد أى خلل أو نقص فى هذا النظام العجيب والمحيّر لخلق الكون، فإنّ ذلك سيؤدّى إلى معرفة خالق هذا الوجود العظيم ومدى علمه وقدرته اللامتناهية، مما يؤدى إلى عمق الإيمان به سبحانه والقرب من حضرته المقدسة.

«خاسىء»: من مادة «خسأ» و «خسوء» على وزن (مدح، وخشوع) وإذا كان مورد إستعمالها العين، فيقصد بهما التعب والعجز، أمّا إذا استعملت للكلب فيقصد منها طرده وإبعاده؛ و «حسير»: من مادة «حسر»، على وزن (قصر) بمعنى جعل الشىء عارياً، وإذا ما

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۰

فقد الإنسان قدرته واستطاعته بسبب التعب، فإنّه يكون عارياً من قواه، لذا فإنّها جاءت بمعنى التعب والعجز. وبناءً على هذا فإنّ كلمتى (خاسىء) و (حسير) اللتين وردتا فى الآية أعلاه، تعطيان معنى واحداً فى التأكيد على عجز العين، وبيان عدم مقدرتها على مشاهدة أى خلل أو نقص فى نظام عالم الوجود. إنّ لهذه الآيات دلالة واضحة على دقّة النظام الكونى، حيث معناها أنّ وجود النظام فى كل شىء دليل على وجود العلم والقدرة على خلق ذلك الشىء.

ثم تتناول الآية التالية صفحة السماء التى يتجسّد فيها الجمال والروعة، حيث النجوم المتلألئة فى جوّ السماء، المشعّة بضوئها الساحر فى جمال ولطافة، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ».

وتؤكّد الآية الكريمة- مرّة اخرى- الحقيقة القائلة بأنّ جميع النجوم التى نشاهدها ما هى إلّا جزء من السماء الاولى، والتى هى أقرب إلينا من أى سماء اخرى من السماوات السبع، لذا اطلق عليها اسم (السماء الدنيا) أى السماء القريبة والتى هى أسفل جميع السماوات الاخرى.

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۶) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَ هِىَ تَفُورُ (۷) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (۸) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَ قُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ (۹) وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ (۱۰) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (۱۱) كان الحديث فى الآيات السابقة عن معالم العظمة والقدرة الإلهية ودلائلها فى عالم الوجود، أمّا فى الآيات مورد البحث فإنّه تعالى يتحدث عن الأشخاص الذين يعرضون ويتنكّبون عن أدلّة الحق، ويكابرون فى تحدّى البراهين الدامغة، ويسلكون طريق الكفر والشرك، ويقذفون أنفسهم

كالشياطين فى اتون العذاب الإلهى. يقول تعالى فى البداية:

«وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ثم يستعرض توضيحاً لهذا اللون من العذاب الرهيب فيقول تعالى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۱

إنّهم عندما يلقون فيها بمنتهى الذلّ والحقارة تقترن حالة إلقائهم بصدور صوت مرعب وشديد من جهنم، حيث يسيطر الرعب والخوف على جميع وجودهم.

ثم يضيف تعالى مستعرضاً شدّة غضب (جهنم) وشدّة هيجانها وإنزعاجها بقوله تعالى:

«تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ» «۱».

إنّها حرارة هائلة جدّاً ونار حارقة مزمجرة كما لو وضعنا إناء كبير على نار محتدمة فإنّه لا يلبث أن يفور ويغلى بشكل يكاد فيه أن يتلاشى ويذوب.

ثم يستمرّ تعالى بقوله: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ».

فلماذا إذن أوقعتم أنفسكم فى هذا المصير البائس، وهذا البلاء العظيم والساعة الرهيبة، إنّ الملائكة (خزنة جهنم) يستغربون ويكادون أن يصعقوا لما أصابكم وما أوقعتم به أنفسكم، فى مثل هذه الداهية مع الوعى الذى حباكم به اللَّه سبحانه وما تفضّل به عليكم من نعمة الرسل الإلهيين والقادة من الأنبياء والمرسلين ... فكيف اخترتم لأنفسكم مقرّاً كهذا؟

«قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَلٍ كَبِيرٍ».

وهكذا يأتى الإعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إلّاأنّنا كذّبناهم ولم نسمع نداءهم المحيى للنفوس بل خالفناهم وعارضناهم واعتبرناهم ضالّين، وأخرجناهم من بين صفوفنا، وأبعدناهم عنّا ..

ثم يذكر القرآن الدليل الأصلى على شقائهم وتعاستهم ولكن على لسانهم فيقول:

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ». أجل هكذا يأتى إعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان: «فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ».

فمن جهة أعطاهم اللَّه تعالى الاذن السامعة والعقل، ومن جهة اخرى بعث إليهم الرسل والأنبياء بالدلائل الواضحة فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجة هى ضمان سعادة الإنسان.

«سحق»: على وزن (قفل) وهى فى الأصل بمعنى طحن الشيء وجعله ناعماً كما تطلق على الملابس القديمة، إلّاأنّها هنا بمعنى البعد عن رحمة اللَّه. وبناءً على هذا فإنّ مفهوم قوله تعالى «فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ» هو: فبعداً لأصحاب النار عن رحمة اللَّه، ولأنّ لعنة وغضب اللَّه تعالى يكون توأماً مع التجسيد الخارجى له، فإنّ هذه الجملة بمثابة الدليل على أنّ هذه المجموعة بعيدة عن رحمة اللَّه بشكل كلى.

---

(۱) «تميّز»: بمعنى التلاشى والتشتّت وكانت فى الأصل (تتميّز).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۲

ملاحظة

المقام السامى للعقل: ليست هذه هى المرّة الاولى التى يشير فيها القرآن الكريم إلى مقام العقل السامى، كما أنّها ليست المرّة الاولى التى يصرّح فيها بأنّ العامل الأساسى لتعاسة الإنسان ودخوله عوالم الخسران والضياع والعاقبة التعيسة، وسقوطه وفى وحل الذنوب وجهنم ... هو عدم الاستفادة من هذه القوة الإلهية العظيمة، وإغفال هذه القدرة الجبارة، وعدم استثمار هذه الجوهرة والنعمة الربانية.

فإنّ الإسلام قد وضع أساس معرفة اللَّه تعالى وسلوك طريق السعادة والنجاة، ضمن مسؤولية العقل.

لذا فإنّ القرآن الكريم يوجّه نداءاته بصورة مستمرّة وفى كل مكان إلى (اولوا الألباب) و (اولوا الأبصار) وأصحاب الفكر من العلماء والمتعمّقين فى شؤون المعرفة.

فى الكافى عن الإمام على عليه السلام قال: «هبط جبرئيل على آدم عليه السلام، فقال: يا آدم! إنّى امرت أن اخيّرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين. فقال آدم: إنّى قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: إنصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرئيل، إنّا امرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج».

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَ لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١۴) بعد ما بيّنا- فى الأبحاث التى تناولتها الآيات السابقة- مصير الكفار يوم القيامة، فإنّ القرآن الكريم يتناول فى الآيات مورد البحث حالة المؤمنين وجزاءهم العظيم عند اللَّه سبحانه .. يقول فى البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

«الغيب» هنا إشارة لمعرفة اللَّه تعالى غير المرئية، أو الإشارة إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمران معاً.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى الخوف من اللَّه تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا وذنوب فى السرّ، ذلك أنّ الإنسان إذا لم يقترف ذنوباً فى السرّ، فإنّه لن يجرأ عليها فى العلانية.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص النيّة فى الإبتعاد عن الذنوب والمعاصى، والالتزام بالأوامر الإلهية، إذ إنّ العمل السرّى يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۳

ثم يضيف للتأكيد: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

قال ابن عباس: نزلت فى المشركين كانوا ينالون من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيخبره جبرائيل بما قالوا فيقول بعضهم (أسرّوا قولكم)، حتى لا يسمع إله محمّد. فأنزل اللَّه هذه الآية «۱» [فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإنّ اللَّه يعلمه وأسرار الأقوال واعلانها مستويان عنده تعالى فى تعلق علمه .

وتأتى الآية اللاحقة دليلًا وتأكيداً على ما ورد فى الآية السابقة، حيث يقول تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

«اللطيف»: مأخوذ فى الأصل من (اللطف) ويعنى كل موضوع دقيق وظريف، وكل حركة سريعة وجسم لطيف، وبناءً على هذا فإنّ وصف اللَّه تعالى ب (اللطيف) إشارة إلى علمه عزّ وجل بالأسرار الدقيقة للخلق.

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (١۵) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١۶) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) بعد الأبحاث التى إستعرضناها فى الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار وأصحاب الجنة، والكافرين والمؤمنين، يشير تعالى فى الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثم إلى أنواع من عذابه، وذلك للترغيب والتشويق بالجنة لأهل الطاعة، والإنذار بالنار لأهل المعصية. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا». «فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

«ذلول»: بمعنى (مطيع) وهو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأنّ هذا المركب السريع السير جدّاً، مع حركته المتعددة، يلاحظ هادئاً إلى حدّ يبدو وكأنّه ساكناً بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إنّ للأرض أربع عشرة حركة مختلفة، ثلاث منها هى:

(۱) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ۸/ ۶۰، والتفسير الكبير ۳۰/ ۶۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۴

الاولى: حركتها حول نفسها.

والثانية: حول الشمس.

والثالثة: مع مجموعة المنظومة الشمسية فى وسط المجرّة.

هذه الحركات التى تكون سرعتها عظيمة، هى من التناسب والانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لولا إقامة البراهين القطعية على حركتها.

ومن جهة اخرى، فإنّ قشرة الأرض ليست قويّة وقاسية إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، ولا ضعيفة ليّنة لا قرار لها ولا هدوء، وبذلك فإنّها مناسبة لحياة البشر تماماً.

ومن جهة ثالثة فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقريب منها إلى حدّ يؤدّى بحرارة الشمس إلى أن تحرق كل شيء على وجهها، ولا هو ببعيد عنها بحيث يتجمّد كل شيء على سطحها.

وكذلك بالنسبة لضغط الهواء على الكرة الأرضية، فإنّه متناسب بما يؤدّى إلى هدوء الإنسان وراحته.

والأمر نفسه يقال فى الجاذبية الأرضية، هى ليست شديدة إلى حدّ تتهشّم فيها عظام الإنسان، ولا بالضعيفة التى يكون فيها معلّقاً لا يستطيع الاستقرار فى مكان.

والخلاصة: إنّ الأرض (ذلول) ومطيعة ومسخّرة لخدمة الإنسان فى جميع المجالات.

كما تحمل فى نفس الوقت إشارة إلى ضرورة السعى فى الأرض فى طلب الرزق والحصول عليه، وإلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين والمتخلفين عن السعى.

ويجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم، إذ إنّ كل ذلك وسائل فى طريق (نشوركم) وبعثكم وحياتكم الأبدية.

وبعد هذا الترغيب والتشويق يستعرض تعالى اسلوب التهديد والإنذار فيقول سبحانه: «ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ».

إنّ البارىء تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئة تكون فى حالة هيجان وطغيان كدابة جموح، تبدأ بالزلازل، وتتشقّق وتدفنكم وبيوتكم ومدنكم تحت ترابها وحجرها، وتبقى راجفة مضطربة مزمجرة بعد أن تقضى عليكم وعلى مساكنكم التى متّعتم فيها برهة من الزمن.

ثم يضيف سبحانه: «أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا». فلا يلزم حتماً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۵

حدوث زلزلة لتدميركم، بل يكفى أن نأمر عاصفة رملية لتدفنكم تحت رمالها ... وحينئذ ستعلمون حقيقة إنذارى وتهديدى: «فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ».

إنّ الآيات أعلاه تؤكّد أنّ عذاب العاصين والمجرمين لا ينحصر فى يوم القيامة فقط، حيث يستطيع البارىء عزّ وجل أن يقضى على حياتهم فى هذه الدنيا بحركة بسيطة للأرض، أو بحركة الرياح، وإنّ أفضل دليل على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الامور فى الامم السابقة.

لذا فإنّ اللّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه الآيات: «وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (۱).

نعم، فلقد عاقبنا قسماً من هؤلاء بالزلازل المدمّرة، وأقواماً آخرين بالصواعق، وبالطوفان، وبالرياح ... وبقيت مدنهم المدمّرة موضع

درس واعتبار لمن كان له قلب واع.

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمْ هذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١) انظروا إلى الطير فوقكم: فى الآيات الاولى لهذه السورة كان البحث عن قدرة اللّه سبحانه ومالكيته، وعن السماوات السبع والنجوم والكواكب ... ويستمرّ هذا اللون من الحديث فى أوّل آية- مورد البحث- وذلك بذكر مفردة اخرى من كائنات هذا الوجود، والتى تبدو فى ظاهرها صغيرة ويقول تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ».

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبية الأرضية تنطلق من الأرض وتحلّق ساعات فى السماء بكل راحة، وأحياناً أيّاماً وأسابيع وشهوراً، وتستمر بحركتها السريعة المرنة وبدون أى مشاكل.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصورة التى جعلها تستطيع السير فى الهواء بكل سهولة وراحة؟

---

(١) «نكير»: بمعنى (الإنكار) وجاءت هنا كناية عن العقوبة، لأنّ إنكار اللّه تعالى مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طريق مجازاتهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۶

لذا يقول فى ختام الآية: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

إنّه اللّه تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل والقوى والإمكانات المختلفة للطيران، وحافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدسة يحفظ الأرض والكائنات الاخرى، وعندما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدرة الطيران ولا للأرض حالة الهدوء والاستقرار.

ثم يشير تعالى فى الآية اللاحقة إلى أنّ الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدرة اللّه عزّ وجل حيث يقول: «أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مّن دُونِ الرَّحْمنِ».

إنّ هؤلاء الذين هم (جند لكم) ليسوا عاجزين عن مساعدتكم ونصرتكم فحسب، بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم ودماركم.

ألا «إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ». فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل والغرور، ولا يعتبرون أو يتّعظون بما حصل للأقوام البائدة السابقة، ولا لما يصيب الآخرين فى حياتنا المعاصرة.

ثم يضيف سبحانه مؤكّداً ما سبق: «أَمَّنْ هذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ».

فإذا أمر اللّه السماء أن تمتنع عن المطر، والأرض عن الإنبات، وأمر الآفات الزراعية بالفتك بالمحاصيل ... فمن القادر غيره أن يطعمكم الطعام؟

وإذا ما قطع اللّه الرزق المعنوى عنكم والوحى السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم وإنقاذكم من براثن الضلال؟ إنّها لحقائق واضحة وأدلة دامغة، إلّاأنّ العناد هو الذى يشكّل حجاباً للإدراك وللشعور الحق: «بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

السائر سويّاً على جادة التوحيد: تعقيباً لما ورد فى الآيات السابقة بالنسبة إلى أ فَمَنْ يَمْشِى مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢۴) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢۵) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢۶) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۷

الكافرين والمؤمنين، فإنّ اللّه تعالى يصوّر لنا- فى أوّل آية من هذه الآيات- حالة هاتين المجموعتين ضمن تصوير رائع ولطيف، حيث يقول تعالى: «أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

فهنا شبه المعاندين والمغرورين كمن يسير فى جادّة متعرّجة غير مستوية كثيرة المنعطفات وقد وقع على وجهه، يحرّك يديه ورجليه

للإهتداء إلى سبيله، لأنّه لا يبصر طريقه جيّداً، وليس بقادر على السيطرة على نفسه، ولا بمطّلع على العقبات والموانع، وليست لديه القوّة للسير سريعاً، وبذلك يتعثّر فى سيره ... يمشى قليلًا ثم يتوقّف حائراً.

كما شبّه المؤمنين برجال منتصبى القامات، يسيرون فى جادّة مستوية ومستقيمة ليس فيها تعرّجات واعوجاج، ويمشون فيها بسرعة ووضوح وقدرة ووعى وعلم وراحة تامّة.

إنّه- حقّاً- لتشبيه لطيف فذّ، حيث إنّ آثار هذين السبيلين واضحة تماماً، وإنعكاساتها جليّة فى حياة هذين الفريقين، وذلك ما نلاحظه بامّ أعيننا.

ثم يوجّه اللَّه تعالى الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه و آله فى الآية اللاحقة فيقول: «قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

إنّ اللَّه تعالى جعل لكم وسيلة للمشاهدة والإبصار (العين) وكذلك وسيلة وقناة للإطّلاع على أفكار الآخرين ومعرفة وجهات نظرهم من خلال الاستماع (الإذن) ثم وسيلة اخرى للتفكر والتدبر فى العلوم والمحسوسات واللامحسوسات (القلب).

وخلاصة الأمر إنّ اللَّه تعالى قد وضع جميع الوسائل اللازمة لكم لتتعرفوا على العلوم العقلية والنقلية، إلّاأنّ القليل من الأشخاص من يدرك هذه النعم العظيمة ويشكر اللَّه المنعم، حيث إنّ شكر النعمة الحقيقى يتجسّد بتوجيه النعمة نحو الهدف الذى خلقت من أجله، تُرى من هو المستفيد من هذه الحواس (العين والاذن والعقل) بصورة صحيحة فى هذا الطريق؟

ثم يخاطب الرسول مرّة اخرى حيث يقول تعالى: «قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ الآيات أعلاه يؤكّد على أنّ السير يجب أن يكون فى الطريق المستقيم، والصراط الواضح المتمثّل بالإسلام والإيمان، وبذل الجهد للاستفادة من جميع وسائل المعرفة بهذا الإتّجاه، والتحرّك نحو الحياة الخالدة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۸

ثم يستعرض سبحانه قول المشركين فى هذا المجال والردّ عليهم، فيقول تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ويجيبهم اللَّه سبحانه على تساؤلهم هذا بقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ولابدّ أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث إنّ تحديد تأريخ يوم القيامة إن كان بعيداً فإنّ الناس سيغرقون بالغفلة، وإن كان قريباً فإنّهم سيعيشون حالة الهلع والاضطراب، وعلى كل حال فإنّ الأهداف التربوية تتعطّل فى الحالتين.

ويضيف فى آخر آية من هذه الآيات بأنّ الكافرين حينما يرون العذاب والوعد الإلهى من قريب تسودّ وجوههم: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا». فسيماهم طافحة بآثار الحزن والندم: «وَقِيلَ هذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ».

«تدّعون»: من مادة «دعاء» يعنى أنّكم كنتم تدعون وتطلبون دائماً أن يجىء يوم القيامة، وها هو قد حان موعده، ولا سبيل للفرار منه.

قُلْ أ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) إنّ الآيات أعلاه، التى هى آخر آيات سورة الملك، تبدأ جميعها بكلمة (قل) مخاطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث أنّها تمثّل استمراراً للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول الكفار، وتعكس هذه الآيات الكريمة جوانب اخرى من البحث.

يخاطب البارىء عزّ وجل- فى البداية- الأشخاص الذين يرتقبون وفاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأصحابه، ويتصوّرون أنّ بوفاته سوف يمحى دين الإسلام وينتهى كل شىء، وهذا الشعور كثيراً ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات القويّة والمؤثّرة. يقول تعالى مخاطباً إيّاهم:

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ».

ورد فى بعض الروايات أنّ كفّار مكة، كانوا دائماً يسبّون الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين، وكانوا يتمنّون موته ظنّاً منهم أنّ

رحيله سينهى دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه ردّاً عليهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۲۹

واستمراراً لهذا البحث، يضيف تعالى: «قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

وهذا يعنى أنّنا إذا آمنّا باللّه، واتّخذناه وليّاً ووكيلًا لنا، فإنّ ذلك دليل واضح على أنّه الربّ الرحمن، شملت رحمته الواسعة كل شىء، وغمر فيض ألطافه ونعمه الجميع (المؤمن والكافر)، أمّا الذين تعبدونهم من دون اللّه فماذا عملوا؟ وماذا صنعوا؟

ويقول تعالى فى آخر آية، عارضاً لمصداق من رحمته الواسعة، والتى غفل عنها الكثير من الناس: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ».

جاء فى الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من الآية الأخيرة من هذه السورة هو ظهور الإمام المهدى عليه السلام وعدله الذى سيعمّ العالم.

وممّا يجدر الإنتباه له أنّ هذه الروايات هى من باب (التطبيق).

وبعبارة اخرى: فإنّ ظاهر الآية مرتبط بالماء الجارى، والذى هو علّة حياة الموجودات الحيّة، أمّا باطن الآية فإنّه يرتبط بوجود الإمام عليه السلام وعلمه وعدالته التى تشمل العالم، والتى هى الاخرى تكون سبباً لحياة وسعادة المجتمع الإنسانى.

«نهاية تفسير سورة الملك»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۱

محتوى السورة: إنّ نسق السورة ومحتوى آياتها ينسجم تماماً مع السور المكية، لأنّ المحور الأساسى فيها يدور حول مسألة نبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه و آله ومواجهة الأعداء الذين كانوا ينعتونه بالجنون وغيره، والتأكيد على الصبر والاستقامة وتحدّى الصعاب، وإنذار وتهديد المخالفين لهذه الدعوة المباركة بالعذاب الأليم.

وبشكل عام يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بسبعة أقسام:

۱- فى البداية تستعرض السورة بعض الصفات الخاصة لرسول الإنسانية محمّد صلى الله عليه و آله وخصوصاً أخلاقه البارّة الرفيعة، ولتأكيد هذا الأمر يقسِم البارىء عزّ وجل فى هذا الصدد.

۲- ثم تتعرض بعض الآيات الواردة فى هذه السورة إلى قسم من الصفات السيئة والأخلاق الذميمة لأعدائه.

۳- كما يبيّن قسم آخر من الآيات الشريفة قصة (أصحاب الجنة) والتى هى بمثابة توجيه إنذار وتهديد للسالكين طريق العناد من المشركين.

۴- ثم ذكرت عدّة امور حول القيامة والعذاب الأليم للكفار فى ذلك اليوم.

۵- كما جاء فى آيات اخرى جملة إنذارات وتهديدات للمشركين.

۶- ونلاحظ فى آيات اخرى من السورة الأمر الإلهى للرسول العظيم محمّد صلى الله عليه و آله بأن يواجه الأعداء بصبر واستقامة وقوّة وصلابة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۲

۷- وأخيراً تختتم السورة موضوعاتها بحديث حول عظمة القرآن الكريم، وطبيعة المؤامرات التى كان يحوكها الأعداء ضدّ الرسول محمّد صلى الله عليه و آله.

إنتخاب (القلم) اسماً لهذه السورة المباركة، كان بلحاظ ما ورد فى أوّل آية منها.

ويستفاد من بعض الروايات التى وردت فى فضيلة هذه السورة أنّ اسمها «ن والقلم».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال النبى صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة ن والقلم أعطاه اللّه ثواب الذين حسن

أخلاقهم».

كما عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة ن والقلم فى فريضة أو نافلة، آمنه اللّه أن يصيبه فى حياته فقر أبداً، وأعاذه إذا مات من ضمّة القبر، إن شاء اللّه».

وهذا الأجر والجزاء يتناسب تناسباً خاصاً مع محتوى السورة، والهدف من التأكيد على هذا النوع من الأجر من تلاوة السورة هو أن تكون التلاوة مقرونة بالوعى والمعرفة ومن ثم العمل بمحتواها.

ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ (۱) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَکَ لَأَجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (۵) بِأَيِّکُمُ الْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۷) هذه السورة هى السورة الوحيدة التى تبدأ بحرف (ن) حيث يقول تعالى: «ن». ثم يقسم تعالى بموضوعين يعتبران من أهمّ المسائل فى حياة الإنسان، فيقول تعالى:

«وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ».

وقد يتصور أنّ القسم هنا يتعلق ظاهراً بمواضيع صغيرة، أى قطعة من القصب- أو شىء يشبه ذلک- وبقليل من مادة سوداء، ثم السطور التى تكتب وتخطّ على صفحة صغيرة من الورق.

إلّا أنّنا حينما نتأمّل قليلًا فيه نجده مصدراً لجميع الحضارات الإنسانية فى العالم أجمع، إنّ تطور وتكامل العلوم والوعى والأفكار وتطور المدارس الدينية والفكرية، وبلورة الكثير من المفاهيم الحياتية ... كان بفضل ما كُتب من العلوم والمعارف الإنسانية فى الحقول المختلفة،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۳

ممّا كان له الأثر الكبير فى يقظة الامم وهداية الإنسان ... وكان ذلک بواسطة (القلم).

لقد قسّمت حياة الإنسان إلى عصرين: (عصر التاريخ) و (عصر ما قبل التاريخ) وعصر تاريخ البشر يبدأ منذ أن إخترع الإنسان الخطّ واستطاع أن يدوّن قصة حياته وأحداثها على الصفحات.

وتتّضح عظمة هذا القسم بصورة أكثر عندما نلاحظ أنّ هذه الآيات المباركة حينما نزلت لم يكن هنالک كتاب ولا أصحاب قلم، وإذا كان هنالک أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فإنّ عددهم فى كل مكة- التى تمثّل المركز العبادى والسياسى والاقتصادى لأرض الحجاز- لم يتجاوز ال (۲۰) شخصاً، ولذا فإنّ القسم ب (القلم) فى مثل ذلک المحيط له عظمة خاصة.

ثم يتطرق سبحانه لذكر الأمر الذى أقسم من أجله فيقول تعالى: «مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ».

إنّ الذين يتّهمون صاحب هذا العقل الجبّار بالجنون هم المجانين فى الحقيقة، إنّ إبتعادهم عن دليل الهداية وموجّه البشرية لهو الحمق بعينه.

ثم يضيف تعالى بعد ذلک: «وَإِنَّ لَکَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ». أى غير منقطع.

«ممنون»: من مادة (منّ) بمعنى (القطع) ويعنى الأجر والجزاء المستمرّ الذى لا ينقطع أبداً.

وتعرض الآية اللاحقة وصفاً آخر لرسول اللّه صلى الله عليه و آله وذلک بقوله تعالى: «وَإِنَّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

تلک الأخلاق التى لا نظير لها، ويحار العقل فى سموّها وعظمتها من صفاء لا يوصف، ولطف منقطع النظير، وصبر واستقامة وتحمّل لا مثيل لها، وتجسيد لمبادىء الخير حيث يبدأ بنفسه أوّلًا فيما يدعو إليه، ثم يطلب من الناس العمل بما دعا إليه والالتزام به.

عندما دعوت- يا رسول اللّه- الناس لعبادة اللّه، فقد كنت أعبد الناس جميعاً، وإذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنّک الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، والإساءة بالصفح، والتضرّع إلى اللّه بهدايتهم، وهم يؤلمون بدنک الطاهر رمياً بالحجارة، واستهزاءاً بالرسالة، وتقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسک الشريف بدعائک لهم بالرشد.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّما بعثت لُاتمّم مكارم الأخلاق».

وجاء فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۴

«خُلق»: من مادة «الخلقة» بمعنى الصفات التى لا تنفكّ عن الإنسان، وهى ملازمة له، كخلقة الإنسان.

فإنّ تأصّل هذا (الخُلق العظيم) فى شخصية الرسول صلى الله عليه و آله هو دليل واضح على رجاحة العقل وغزارة العلم له ونفى جميع التّهم التى تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثم يضيف سبحانه بقوله: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ». «بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ». أى: من منكم هو المجنون.

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنة) بمعنى الإبتلاء، وورد هنا بقصد الإبتلاء بالجنون.

كما أنّ مواقفك وتحرّكاتك المستقبلية المقرونة بالتقدّم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكّد بصورة أعمق أنّك منبع العلم والعقل الكبيرين، وأنّ هؤلاء الأقزام الخفافيش هم المجانين، لأنّهم تصدّوا لمحاربة نور هذه الشمس العظيمة المتمثّلة بالحق الإلهى والرسالة المحمّدية.

ومن الطبيعى فإنّ هذه الحقائق ستتوضّح أمامهم يوم القيامة بصورة دامغة، ويخسر هنالك المبطلون، حيث تتبيّن الامور وتظهر الحقيقة.

وللتأكيد على المفهوم المتقدم يقول سبحانه مرّة اخرى: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

وبلحاظ معرفة البارىء عزّ وجل بسبيل الحق وبمن سلكه ومن جانبه وتخلّف أو إنحرف عنه، فإنّه يطمئن رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بأنّه والمؤمنون فى طريق الهداية والرشد، أمّا أعداؤه فهم فى متاه الضلالة والغواية.

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (۸) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (۹) وَ لَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (۱۰) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (۱۱) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (۱۳) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ (۱۴) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۵) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (۱۶) اجتنب أصحاب هذه الصفات: بعد أن تعرّضت الآيات السابقة إلى الأخلاق السامية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله، تلتها الآيات أعلاه مستعرضة أخلاق أعدائه ليتّضح لنا الفرق بين الأخلاقيتين، وذلك من خلال المقارنة بينهما. يقول تعالى فى البداية: «فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۵

ثم يشير تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل فى إقناع الرسول صلى الله عليه و آله بمصالحتهم والإعراض عن آلهتهم وضلالهم فيقول: «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ».

«يدهنون»: من مادة «مداهنة» مأخوذة فى الأصل من (الدهن) وتستعمل الكلمة فى مثل هذه الموارد بمعنى إظهار اللين والمرونة، وفى الغالب يستعمل هذا التعبير فى مجال إظهار اللين والميل المذموم كما فى حالة النفاق.

ثم ينهى سبحانه مرّة اخرى عن اتّباعهم وطاعتهم، حيث يسرد الصفات الذميمة لهم، والتى كل واحدة منها يمكن أن تكون وحدها سبباً للإبتعاد عنهم والصدود عن الإستجابة لهم. يقول تعالى: «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ».

تقال كلمة «حلّاف» على الشخص الكثير الحلف، والذى يحلف على كل صغيرة وكبيرة.

«مهين»: من «المهانة» بمعنى الحقارة والضّعة.

ثم يضيف عزّ وجل: «هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ».

«همّاز»: من مادة «همز»، (على وزن رمز) ويعنى: الغيبة وإستقصاء عيوب الآخرين.

«مشّاء بنميم» تطلق على الشخص الذى يمشى بين الناس بإيجاد الإفساد والفرقة، وإيجاد الخصومة والعداء فيما بينهم.

ثم يسرد تعالى أوصافاً اخرى لهم، حيث يقول فى خامس وسادس وسابع صفة ذميمة لأخلاقهم: «مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

ومن صفاتهم أيضاً أنّهم ليسوا فقط مجانبين لعمل الخير، ولا يسعون فى سبيله، ولا يساهمون فى إشاعته والعون عليه ... بل إنّهم يقفون

سدّاً أمام أي ممارسة تدعو إليه، ويمنعون كل جهد في الخير للآخرين، وبالإضافة إلى ذلك فإنّهم متجاوزون لكل السنن والحقوق التي منحها اللَّه عزّ وجل لكل إنسان ممّا تلطف به من خيرات وبركات عليه.

وفوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحيث أصبح الذنب والإثم جزءاً من شخصياتهم وطباعهم التي هي منّاعة للخير، معتدية وآثمة.

وأخيراً يشير إلى ثامن وتاسع صفة لهم حيث يقول تعالى: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ».

«عتل»: تطلق على الشخص الذي يأكل كثيراً ويحاول أن يستحوذ على كل شيء، ويمنع الآخرين منه.

وفسّر البعض الآخر كلمة (عتلّ) بمعنى الإنسان السيء الطبع والخُلق، الذي تتمثّل فيه الخشونة والحقد، أو الإنسان سيء الخُلق عديم الحياء.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۶

«زنيم»: تطلق على الشخص المجهول النسب، والذي ينتسب لقوم لا نسبة له معهم.

والتعبير بشكل عام إشارة إلى أنّ هاتين الصفتين هما أشدّ قبحاً وضعة من الصفات السابقة.

وبهذه الصورة يوضّح لنا أنّ الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام والقرآن، وعارضوا الرسول الكريم صلى الله عليه و آله كانوا من أخسّ الناس وأكثرهم كذباً وإنحطاطاً وخسّة، فهم يتتبعون عيوب الآخرين، نمّامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل ونسب.

ويحذّر سبحانه في الآية اللاحقة من الإستجابة لهم والتعامل معهم بسبب كثرة أموالهم وأولادهم، بقوله: «أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ».

وممّا لا شك فيه أنّ الرسول صلى الله عليه و آله لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبداً، وهذه الآيات ما هي إلّا تأكيد على هذا المعنى، كي يكون خطّه الرسالي وطريقته العملية واضحة للجميع، ولن تنفع جميع الاغراءات الماديّة في عدوله عن مهمّته الرسالية.

وتوضّح الآية اللاحقة ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوي الصفات الأخلاقية المريضة إزاء الآيات الإلهية، حيث يقول تعالى: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

وبهذا المنطق السقيم والحجج الواهية يعرض عن آيات اللَّه عزّ وجل.

وتوضّح لنا آخر آية- من هذه الآيات- مفردة من مفردات الجزاء الذي سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ».

وهذا التعبير كاشف ومعبّر عن سوء النهاية المذلّة لهؤلاء، إذ جاء التعبير أوّلًا بالخرطوم الذي يستعمل للفيل وللخنزير فقط، وهو دلالة واضحة في تحقيرهم.

وثانياً: أنّ الأنف في لغة العرب غالباً ما يستعمل كناية عن العزّة والعظمة، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرّغوا أنفه بالتراب، كناية عن زوال عزّته.

وثالثاً: أنّ وضع العلامة تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتى بالنسبة إلى الحيوانات فإنّها لا تعلّم في وجوهها- خصوصاً انوفها- أضف إلى ذلك أنّ الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

ومع كل ما تقدّم تأتي الآية الكريمة ببيان معبّر وافٍ وواضح أنّ اللَّه تعالى سيذلّ هؤلاء الطغاة الذين امتلؤا عجباً بذواتهم، المتمادين في عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتجاوزهم على الرسول والرسالة ... سيذلّهم بتلك الصورة التي تحدثت عنها الآية ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبرة للجميع.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۷

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (۱۷) وَ لَا يَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (۲۱) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَافَتُونَ (۲۳) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (۲۵) قصة (أصحاب الجنة): في الآيات أعلاه يستعرض لنا القرآن

الكريم- بما يتناسب مع البحث الـذى ورد فى الآيات السابقـة- قصـة أصـحاب الجنـة ... فالآيات الكريمـة تـذكر لنا قصة مجموعة من الأغنياء كانت لهم جنّة (بستان مثمر) إلّاأنّهم فقدوها فجأة. يقول تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ».

وموضوع القصـة هو: أنّ شـيخاً مؤمنـاً طاعنـاً فى السنّ كـان له بسـتان عـامر، يأخـذ من ثمره كفـايته ويوزّع مـا فضـل من ثمرته للفقراء والمعوزين، وقد ورثه أولاده بعد وفاته، وقالوا:

نحن أحق بحصاد ثمار هذا البسـتان، لأنّ لنا عيالًا وأولاداً كثيرين، ولا طاقة لنا بإتّباع نفس الاسـلوب الذى كان أبونا عليه ... ولهذا فقد صمّموا على أن يسـتأثروا بثمار البسـتان جميعاً، ويحرموا المحتاجين من أى عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما تحدّثنا الآيات الكريمة عنه ..

يقول تعالى: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ».

«يصرمن» من مادة «صرم» بمعنى حصد الفاكهة، وبمعنى القطع المطلق.

«وَلَا يَسْتَثْنُونَ». أى: لا يتركون منها شيئاً للمحتاجين.

إنّ تصـميمهم هذا ناشـىء عن البخل وضـعف الإيمان، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه يستطيع أن يترك للفقراء شيئاً ممّا أعطاه اللّه.

ثم يضيف تعالى استمراراً لهذا الحديث: «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مّن رَّبّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ».

لقـد سـلّط اللّه عليها ناراً حارقـة، وصاعقـة مهلكـة، بحيث أنّ جنّتهم صارت متفحّمة سوداء: «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ». ولم يبق منها شـىء سوى الرماد.

«طائف»: من مادة «طواف» وهى فى الأصل بمعنى الشخص الذى يدور حول شىء معيّن، كما تستعمل أحياناً كناية عن البلاء والمصيبة التى تحلّ فى الليل، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۸

«صـريم»: من مادة «صرم» بمعنى (القطع) وهنا بمعنى (الليل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود). والمقصود بذلك هو: البلاء السماوى الذى تمثّل بصاعقة عظيمة- فيما يبدو- أحالت البستان إلى فحم ورماد أسود.

فإنّ أصحاب البستان بقوا على تصوّرهم لأشجار جنّتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف:

«فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ».

وقالوا: «أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ».

«أغدوا»: من مادة «غدوة» بمعنى بداية اليوم.

وعلى ضوء المقدّمات السابقة: «فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ». «أَن لَّايَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مّسْكِينٌ».

ويرتقب الفقراء يوم الحصـاد بفـارغ الصبر فى مثل هـذه الأيّام، لأنّهم تعوّدوا فى كل سـنة أن ينالهم شـىء من الفاكهـة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلّاأنّ تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، والسريّة التى غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحداً يتوقّع أنّ وقت الحصاد قد حان ... حيث يطّلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه، وبهذا تكون النتيجة:

«وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ».

«حرد»: على وزن «فرد» بمعنى الممانعة التى تكون توأماً مع الشدّة والغضب.

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ (۲۸) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (۳۰) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (۳۱) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (۳۲) كَذلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۳۳) الآيات الشريفة- أعلاه- استمرار لقصّة أصحاب الجنة. يقول القرآن

الكريم: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ».

ثم أضافوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ». أى أردنا أن نحرم الفقراء والمحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرمنا أكثر من الجميع، حرمنا من الرزق المادى، ومن البركات المعنوية التى تحصل عن

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۳۹

طريق الإنفاق فى سبيل اللَّه للفقراء والمحتاجين.

«قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ».

ويستفاد مما تقدم أنّ أحدهم كان شخصاً مؤمناً ينهاهم عن البخل والحرص، إلّاأنّهم كانوا لا يسمعون كلامه.

وتستيقظ ضمائرهم فى تلك اللحظة ويعترفون بخطئهم وذنوبهم و «قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلّا أنّ المسألة لم تنته إلى هذا الحد، حيث يقول تعالى: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ».

والملاحظ من منطوق الآية أنّ كل واحد منهم فى الوقت الذى يعترف بذنبه، فإنّه يلقى بأصل الذنب على عاتق الآخر، ويوبّخه بشدّة.

نعم، هكذا تكون عاقبة كل الظالمين عندما يصبحون فى قبضة العذاب الإلهى، ومع الإقرار بالذنب فإنّ كلًا منهم يحاول التنصّل ممّا لحق بهم، ويسعى جاهداً لتحويل مسؤولية البؤس والدمار على الآخرين.

ثم يضيف تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ».

لقد اعترفوا فى المرحلة السابقة بالظلم، وهنا اعترفوا بالطغيان، والطغيان مرحلة أعلى من الظلم.

وأخيراً- بعد عودة الوعى إلى ضمائرهم وشعورهم، بل وإعترافهم بالذنب والإنابة إلى اللَّه- توجّهوا إلى البارىء عزّ وجل داعين، وقالوا: «عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ». فقد توجّهنا إليه ونريد منه انقاذنا ممّا تورّطنا فيه ..

ويقول تعالى فى آخر آية من هذه الآيات، بلحاظ الإستفادة من هذا الدرس والإعتبار به: «كَذلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

وهكذا توجّه الآية خطابها إلى كل المغرورين، الذين سحرهم المال وأبطرتهم الثروة والإمكانات المادية، وغلب عليهم الحرص والاستئثار بكل شىء دون المحتاجين ... بأنّه لن يكون لكم مصير أفضل من ذلك.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۰

مختصر الامثل ج۵ ۲۸۰

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيم (۳۴) أ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (۳۸) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُم لَمَا تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (۴۱) إنّ طريقة القرآن الكريم فى الكشف عن الحقائق، واستخلاص المواقف، تكون من خلال عملية مقارنة يعرضها اللَّه سبحانه فى الآيات الكريمة، وهذا الاسلوب مؤثّر جدّاً من الناحية التربوية ... فمثلًا تستعرض الآيات الشريفة حياة الصالحين وخصائصهم وميزاتهم ومعاييرهم ... ثم كذلك بالنسبة إلى الطالحين والظالمين، ويجعل كلّاً منهما فى ميزان، ويسلّط الأضواء عليهما من خلال عملية مقارنة، للوصول إلى الحقيقة.

وتماشياً مع هذا المنهج وبعد استعراض النهاية المؤلمة ل (أصحاب الجنة) فى الآيات السابقة، يستعرض البارىء عزّ وجل حالة المتقين فيقول: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيم».

«جنّات»: من «الجنة» حيث كل نعمة متصوّرة على أفضل صورة لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التى لم تخطر على البال.

ولأنّ قسماً من المشركين والمترفين كانوا يدّعون علوّ المقام وسموّه فى يوم القيامة كما هو عليه فى الدنيا، لذا فإنّ اللَّه يوبّخهم على هذا الإدّعاء بشدّة فى الآية اللاحقة، بل يحاكمهم فيقول: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

ثم يضيف تعالى أنّه لو لم يحكم العقل بما تدّعون، فهل لديكم دليل نقلى ورد فى كتبكم يؤيّد ما تزعمون: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ». أى: ما اخترتم من الرأى ... إنّ توقّعكم فى أن تكون العناصر المجرمة من أمثالكم مع صفوف المسلمين وعلى مستواهم ...، حديث هراء لا يدعمه العقل، ولم يأت فى كتاب يعتدّ به ولا هو موضع اعتبار.

ثم تضيف الآية اللاحقة أنّه لو لم يكن لديكم دليل من العقل أو النقل، فهل أخذتم عهداً من اللّه أنّه سيكون معكم إلى الأبد: «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۱

وتتساءل الآية الكريمة عن هؤلاء مستفسرة عمّن يستطيع الإدّعاء منهم بأنّه قد أخذ عهداً من اللّه سبحانه فى الإستجابة لميوله وأهوائه.

ويضيف سبحانه- استمراراً لهذه التساؤلات- كى يسدّ عليهم جميع الطرق ومن كل الجهات، فيقول: «سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذلِكَ زَعِيمٌ». فمن منهم يضمن أنّ المسلمين والمجرمين سواء، أو يضمن أنّ اللّه تعالى سيؤتيه كل ما يريد؟! وفى آخر مرحلة من هذا الإستجواب العجيب يقول تعالى: أم لهم شركاء فلياتوا بشركائهم إن كَانُوا صَادِقِينَ».

فالآية تطلب من المشركين تقديم الدليل الذى يثبت أنّ هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة، والتى لا قيمة لها ولا شعور، تكون شريكة اللّه تعالى وتشفع لهم عنده.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ (۴۳) فَذَرْنِى وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (۴۵) العجز عن السجود: تعقيباً للآيات السابقة التى استجوب اللّه تعالى فيها المشركين والمجرمين استجواباً موضوعياً، تكشف لنا هذه الآيات جانباً من المصير البائس فى يوم القيامة لهذه الثلّة المغرمة فى حبّها لذاتها، والمكثرة للادّعاءات، هذا المصير المقترن بالحقارة والذلّة والهوان.

يقول تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ».

وفى ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للبارىء عزّ وجل، فيسجد المؤمنون، ويعجز المجرمون عن السجود.

وتعكس الآية اللاحقة صورة جديدة لحالتهم، حيث يقول سبحانه: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ».

هذه الآية الكريمة تصف لنا حقيقة المجرمين عندما يدانون فى إجرامهم ويحكم عليهم، حيث نلاحظ الذلّة والهوان تحيط بهم، وتكون رؤوسهم مطأطئة تعبيراً عن هذه الحالة المهينة.

ثم يضيف تعالى: «وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ». إنّهم لن يسجدوا أبداً، لقد صحبوا روح التغطرس والعتوّ والكبر معهم فى يوم القيامة فكيف سيسجدون؟

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۲

ثم يوجّه البارىء عزّ وجل الخطاب لنبيّه الكريم ويقول: «فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ». وهذه اللهجة تمثّل تهديداً شديداً من الواحد القهار لهؤلاء المكذبين المتمردين، حيث يخاطب الرسول صلى الله عليه و آله بقوله: لا تتدخّل، واتركنى مع هؤلاء، لُاعاملهم بما يستحقّونه.

ثم يضيف سبحانه: «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أحدث العبد ذنباً، جدّد له نعمة فيدع الاستغفار فهو الإستدراج».

إذا أذنب عبد فإنّه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إمّا أن ينتبه ويرجع عن خطئه ويتوب إلى ربّه.

أو أن ينزل اللّه عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنّه غير أهل للتوبة ولا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه اللّه نعمة بدل البلاء وهذا هو: (عذاب الإستدراج). لذا يجب على الإنسان

المؤمن أن يكون يقظاً عند إقبال النعم الإلهية عليه، وليحذر من أن يكون ما يمنحه اللَّه من نعم ظاهرية يمثّل فى حقيقته (عذاب الإستدراج). ولذلك فإنّ المسلمين الواعين يفكّرون فى مثل هذه الامور ويحاسبون أنفسهم باستمرار، ويعيدون تقييم أعمالهم دائماً، كى يكونوا قريبين من طاعة اللَّه، ويؤدّون حق الألطاف والنعم التى وهبها اللَّه لهم.

فى الكافى عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: إنّى سألت اللَّه عزّ وجل أن يرزقنى مالًا فرزقنى، وإنّى سألت اللَّه أن يرزقنى ولداً فرزقنى، وسألته أن يرزقنى داراً فرزقنى، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً، فقال: «أما- واللَّه- مع الحمد فلا».

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸) لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۵۰) استمراراً للاستجواب الذى تمّ فى الآيات السابقة للمشركين والمجرمين، يضيف البارىء عزّ وجل سؤالين آخرين، حيث يقول فى البداية: «أَمْ تَسَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ».

أى: إذا كانت حجّتهم أنَّ الاستجابة لدعوتك تستوجب أجراً مادياً كبيراً، وأنّهم غير

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۳

قادرين على الوفاء به، فإنّه كذب، حيث أنّك لم تطالبهم بأجر، كما لم يطلب أى من رسل اللَّه أجراً.

ثم يضيف واستمراراً للحوار بقوله تعالى: «أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ».

ولأنّ العناد واللامنطقية التى كان عليها أعداء الإسلام تؤلم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وتدفعه إلى أن يدعو اللَّه عليهم، لذا فإنّه تعالى أراد أن يخفّف شيئاً من آلام رسوله الكريم، فطلب منه الصبر وذلك قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ». أى انتظر حتى يهيء اللَّه لك ولأعوانك أسباب النصر، ويكسر شوكة أعدائك، واعلم بأنّ اللَّه ممهلهم وغير مهملهم، وما المهلة المعطاة لهم إلّانوع من عذاب الإستدراج.

ثم يضيف تعالى: «وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ».

والمقصود من هذا النداء هو ما ورد فى قوله تعالى: «فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لَاإِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

وبذلك فقد إعترف النبى يونس عليه السلام بترك الأولى وطلب العفو والمغفرة من اللَّه تعالى.

ويضيف سبحانه فى الآية اللاحقة: «لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مّن رَّبّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ».

إنّ المقصود من (النعمة) فى الآية أعلاه هو توفيق التوبة وشمول الرحمة الإلهية لحاله عليه السلام حسب الظاهر. لذا يقول البارىء عزّ وجل فى الآية اللاحقة: «فَاجْتَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبذلك فقد حمّله اللَّه مسؤولية هداية قومه مرّة اخرى، وعاد إليه يبلّغهم رسالة ربّه، مما كانت نتيجته أن آمن قومه جميعاً.

وَ إِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۵۲) يريدون قتلك ... لكنّهم عاجزون: هاتان الآيتان تشكّلان نهاية سورة القلم، وتتضمّنان تعقيباً على ما ورد فى بداية السورة من نسبة الجنون إليه صلى الله عليه و آله من قبل الأعداء.

يقول تعالى: «وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ». «ليزلقونك»: من مادة «زلق» بمعنى التزحلق والسقوط على الأرض، وهى كناية عن الهلاك والموت.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۴

إنّهم يعجبون ويتأثّرون كثيراً عند سماعهم الآيات القرآنية بحيث يكادون أن يصيبوك بالعين (لأنّ الإصابة بالعين تكون غالباً فى الامور التى تثير الإعجاب كثيراً) إلّاأنّهم فى نفس الوقت يتّهمونك بالجنون، وهذا يمثّل التناقض حقّاً، إذ أين الجنون ولغو الكلام وأين هذه الآيات المثيرة للإعجاب والنافذة فى القلوب؟

وفى آخر آية يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

حيث إنّ معارف القرآن الكريم واضحة، وإنذاراته موقظة، وأمثاله هادفة، وترغيباته وبشائره مربّية، وبالتالى فهو عامل وسبب ليقظة النائمين وتذكرة للغافلين، ومع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟

بحث

هل أنّ إصابة العين لها حقيقة: يعتقد الكثير من الناس أنّ لبعض العيون آثاراً خاصة عندما تنظر لشىء بإعجاب، إذ ربّما يترتّب على ذلك الكسر أو التلف، وإذا كان المنظور إنساناً فقد يمرض أو يجنّ ..

إنّ هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، كما جاء فى بعض الروايات الإسلامية- أيضاً- ما يؤيّد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية.

فى الكافى عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: رقى النبى صلى الله عليه و آله حسناً وحسيناً فقال": اعيذكما بكلمات اللّه التامات وأسمائه الحسنى كلها عامة، من شرّ السامّة والهامّة، ومن شرّ كل عين لامّة، ومن شرّ حاسد إذا حسد "ثم التفت النبى صلى الله عليه و آله إلينا فقال: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق».

«نهاية تفسير سورة القلم»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۵

۶۹. سورة الحاقّة

محتوى السورة: تدور موضوعات سورة الحاقّة حول ثلاثة محاور:

الأوّل: وهو أهمّ محاور هذه السورة، يرتبط بمسائل يوم القيامة وبيان خصوصياتها، وقد وردت فيه ثلاثة أسماء من أسماء يوم القيامة وهى: (الحاقّة) و (القارعة) و (الواقعة).

أمّا المحور الثانى: فتدور أبحاثه حول مصير الأقوام الكافرين، خصوصاً قوم عاد وثمود وفرعون، وتشتمل على إنذارات شديدة لجميع الكّفار ومنكرى يوم البعث والنشور.

والمحور الثالث تتحدث حول عظمة القرآن الكريم، ومقام الرسول صلى الله عليه و آله وجزاء المكذّبين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الحاقّة حاسبه اللّه حساباً يسيراً».

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ (۴) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (۵) وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (۶) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۶

تبدأ هذه السورة بعنوان جديد ليوم القيامة. يقول تعالى: «الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْحَاقَّةُ». والمراد من الحاقّة هو اليوم الذى سيتحقق حتماً.

ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ (الحاقّة) اسم من أسماء يوم القيامة، باعتباره قطعى الوقوع، كما هو بالنسبة ل (الواقعة) فى سورة (الواقعة).

«ما الحاقّة»: تعبير لبيان عظمة ذلك اليوم؛ والتعبير ب «ما أدريك ما الحاقّة» للتأكيد مرّة اخرى على عظمة الأحداث فى ذلك اليوم العظيم حتى أنّ البارىء عزّ وجل يخاطب رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بأنّك لا تعلم ما هو ذلك اليوم.

ثم تستعرض الآيات الكريمة اللاحقة مصير الأقوام الذين أنكروا يوم القيامة، وكذلك نزول العذاب الإلهى فى الدنيا، حيث يضيف

تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ* فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ».

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز والشام، فبعث اللّه النبى صالح عليه السلام إليهم، ودعاهم إلى الإيمان باللّه ... إلّاأنّهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه وتحدّوه فى إنزال العذاب الذى أوعدهم به إن كان صادقاً، وفى هذه الحالة من التمرد الذى هم عليه، سلّط اللّه عليهم (صاعقة مدمّرة) أنهت كل وجودهم فى لحظات، فخربت بيوتهم وقصورهم المحكمة، وتهاوت أجسادهم على الأرض.

ثم تتطرق الآية اللاحقة لتحدثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون فى أرض الأحقاف الواقعة (فى شبه جزيرة العرب أو اليمن) وكانوا ذوى قامات طويلة، وأجساد قوية، ومدن عامرة، وأراض خضراء خصبة، وحدائق نضرة وكان نبيّهم (هود) عليه السلام يدعوهم إلى الهدى والإيمان باللّه ... إلّاأنّهم أصرّوا على كفرهم وتمادوا فى طغيانهم وتمرّدوا على الحق، فانتقم اللّه منهم شرّ إنتقام، وأقبرهم تحت الأرض بعد أن سلّط عليهم عذاباً شديداً مؤلماً، سنوضّح شرحه فى الآيات التالية. يقول تعالى: «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ».

«صرصر»: تقال للرياح الباردة، أو المقترنة بصوت وضوضاء، أو المسمومة، وقد ذكر المفسرون هذه المعانى الثلاث فى تفسيرها، والجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضاً.

«عاتية»: من مادة «عتو» بمعنى التمرّد على القانون الطبيعى للرياح وليست على أمر اللّه.

ثم تبيّن الآية التالية وصفاً آخر لهذه الرياح المدمّرة، حيث يقول تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۷

«حسوماً»: من مادة «حسم» بمعنى إزالة آثار شيء ما، ويقال: (حسم) أحياناً لوضع الشيء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس.

لقد حطّمت وأفنت هذه الريح المدمّرة فى الليالى السبع والأيّام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، والتى كانت تتميّز بالابّهة والجمال، واستأصلتهم من الجذور.

ويصوّر لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ».

إنّه لتشبيه رائع يصوّر لنا ضخامة قامتهم التى إقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث إنّ العذاب الإلهى جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى اخرى.

«خاوية»: من مادة «خواء» فى الأصل بمعنى كون الشيء خالياً، ويطلق هذا التعبير أيضاً على البطون الجائعة، وتطلق كذلك على الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

ويضيف فى الآية التالية: «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ».

نعم، لم يبق اليوم أى أثر لقوم عاد، بل حتى مدنهم العامرة، وعماراتهم الشامخة ومزارعهم النضرة لم يبق منها شيء يذكر أبداً.

وَ جِاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (۹) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (۱۰) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ (۱۱) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (۱۲) أين الآذان الواعية: بعد ما استعرضت الآيات الكريمة السابقة الأحداث التى مرّت بقومى عاد وثمود، وتستمرّ هذه الآيات فى التحدّث عن الأقوام الاخرى كقوم (نوح) وقوم (لوط) لتكون درساً وعبرة لمن وعى وكان له قلب سليم ... يقول تعالى: «وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ».

ال «خاطئة»: بمعنى الخطأ و (لكليهما معنى مصدرى) والمراد من الخطأ هنا هو الشرك والكفر والظلم والفساد وأنواع الذنوب.

«المؤتفكات»: جمع (مؤتفكة) من مادة (ائتفاك) بمعنى الإنقلاب، وهى هنا إشارة إلى ما حصل فى مدن قوم لوط، حيث إنقلبت بزلزلة عظيمة.

والمقصود ب «وَمِن قَبْلِهِ» هم الأقوام الذين كانوا قبل قوم فرعون، كقوم شعيب، وقوم نمرود الذين تطاولوا على رسولهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۸

ثم يضيف تعالى: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً».

لقد خالف الفراعنة (موسى وهارون) عليهما السلام وواجهوهما بمنتهى العنف والتشكيك والملاحقة ... وكذلك كان موقف أهل مدينة (سدوم) من لوط عليه السلام الذى بعث لهدايتهم وإنقاذهم من ضلالهم ... وهكذا كان- أيضاً- موقف أقوام آخرين من رسلهم حيث التطاول، والتشكيك والإعراض والتحدّى ..

إنّ كل مجموعة من هؤلاء الأقوام المتمرّدين قد إبتلاهم اللَّه بنوع من العذاب، وأنزل عليه رجزاً من السماء بما يستحقّون، فالفراعنة أغرقهم اللَّه سبحانه فى وسط النيل الذى كان مصدراً لخيراتهم وبركة بلدهم وإعمار أراضيهم وديارهم، وقوم لوط سلّط اللَّه عليهم (الزلزال) الشديد ثم (مطر من الحجارة) ممّا أدّى إلى موتهم وفنائهم من الوجود.

وأخيراً تعرّض بإشارة موجزة إلى مصير قوم نوح والعذاب الأليم الذى حلّ بهم. قال تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ».

إنّ طغيان الماء كان بصورة غطّى فيها السحاب، ومن هنا جاء تعبير (طغى) حيث هطل مطر غزير جدّاً وكأنّه السيل ينحدر من السماء، وفاضت عيون الأرض، والتقت مياههما بحيث أصبح كل شىء تحت الماء (القوم وبيوتهم وقصور أكابرهم ومزارعهم وبساتينهم ...) ولم تنج إلّامجموعة المؤمنين التى كانت مع نوح عليه السلام فى سفينته.

جملة (حملناكم) كناية عن حمل وإنقاذ أسلافنا وأجدادنا من الغرق، وإلّا فنحن لم نكن فى عالم الوجود حينذاك.

ثم يبيّن اللَّه سبحانه الغاية والهدف من هذا العقاب، حيث يقول تعالى: «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ».

إنّنا لم نرد الإنتقام منكم أبداً، بل الهداية والخير والسعادة، كنّا نروم أن تكونوا فى طريق الكمال والنضج التربوى والوصول إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المكرم.

«تعيها»: من مادة «وعى» فى الأصل بمعنى الإحتفاظ بشىء معيّن فى القلب، وقد ذكرت هذه الصفة (الوعى) للآذان فى الآيات مورد البحث، وذلك بلحاظ أنّها تسمع الحقائق وتحتفظ بها.

تعقيب

فضيلة اخرى من فضائل الإمام على عليه السلام جاء فى كثير من الكتب الإسلامية المعروفة أنّ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۴۹

النبى صلى الله عليه و آله قال عند نزول هذه الآية «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»: «سألت ربّى أن يجعلها اذن على».

فكان على عليه السلام يقول: «ما سمعت من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شيئاً قطّ فنسيته، إلّاوحفظته» «۱».

وهذه فضيلة عظيمة لقائد الإسلام العظيم الإمام على عليه السلام حيث يكون موضع أسرار الرسول صلى الله عليه و آله، ووارث علمه، ولهذا السبب فإنّ الجميع كانوا يرجعون إليه- الموافق له والمخالف- بعد النبى صلى الله عليه و آله وذلك عندما يواجهون المشاكل الاجتماعية والعلمية المختلفة، ويطلبون منه التدخّل فى حلّها، كما تحدّثنا بذلك كتب التواريخ بشكل تفصيلى.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (۱۴) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (۱۵) وَ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (۱۶) وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (۱۷) الصيحة العظيمة: استمراراً لما تعرّضت له الآيات الاولى من هذه السورة، والتى كانت تتعلق بمسألة الحشر والقيامة، تعرض لنا هذه الآيات صورة عن الحوادث العظيمة فى ذلك اليوم الرهيب باسلوب محرّك ومؤثّر فى النفوس كى تحيط الإنسان علماً بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب. يقول تعالى فى البداية: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ».

لقد بيّنا فيما سبق أنّ مما يستفاد من القرآن الكريم أنّ نهاية عالم الدنيا وبداية عالم الآخرة تكون بصوت مفاجىء عظيم، وذلك ما عبّر عنه ب (نفخة الصور).

نفخة الصور فهى نفختان: (نفخة الموت)، و (نفخة الحياة الجديدة)، لكن المقصود فى هذه الآية الكريمة هو (النفخة الاولى) التى تحصل فيها نهاية عالم الدنيا.

ثم يضيف تعالى: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً».

«دكّ»: بمعنى (الأرض المستوية) ولأنّ الأرض غير المستوية تحتاج إلى الدك حتى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح فى الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد».

والمقصود فى الآية مورد البحث هو الدقّ الشديد للجبال والأراضى اللامستوية بعضها ببعض بحيث تستوى وتتلاشى فيها جميع التعرجات.

---

(۱) تفسير القرطبى ۱۸/ ۲۶۴، وتفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۰۷.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۰

ثم يضيف تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ».

فى ذلك اليوم العظيم لا- تتلا- شى فيه الأرض والجبال فحسب، بل يقع حدث عظيم آخر، وذلك قوله تعالى: «وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ». وذلك بيان لما تتعرّض له الأجرام السماوية العظيمة من إنفلاقات وتناثر وتلاشى.

«وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا». «أرجاء»: جمع «رجا» بمعنى جوانب وأطراف شيء معيّن.

ثم يقول تعالى: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ».

المقصود ب (العرش) هو (مجموعة عالم الوجود) حيث أنّه عرش حكومة اللّه سبحانه، ويدبّر حكومته تعالى من خلاله بواسطة الملائكة الذين هم جاهزون لتنفيذ أمره سبحانه.

وفى تفسير على بن إبراهيم أنّ حملة العرش ثمانية؛ أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين، فأمّا الأربعة من الأوّلين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، والأربعة من الآخرين:

محمّد وعلى والحسن والحسين عليهم السلام.

وهذا الحديث من الممكن أن يكون إشارة إلى مقام شفاعتهم للأوّلين والآخرين، والشفاعة- عادةً- تكون لمن هم أهل لها، وممّن لهم لياقة لنيلها، ومع ذلك فإنّه يوضّح المفهوم الواسع للعرش.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (۱۸) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (۱۹) إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (۲۰) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (۲۱) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (۲۲) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (۲۳) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (۲۴) يا أهل المحشر: اقرؤا صحيفة أعمالى: قلنا فى تفسير الآيات السابقة أنّ (نفخ الصور) يحدث مرّتين، وكما ذكرنا فإنّ بداية الآيات تخبرنا عن النفخة الاولى ولم تستعرض تفاصيل النفخة الثانية، واستمراراً للحديث فى هذا الصدد، وخصوصيات العالم الجديد الذى سيكون عند النفخة الثانية، تحدّثنا هذه الآيات عن شيء من ذلك حيث يقول تعالى:

«يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَاتَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ».

«تعرضون»: من مادة «عرض» بمعنى عرض شيء معيّن، بضاعة أو غيرها.

وممّا لا شك فيه أنّ جميع ما فى الوجود- بشراً وغيره- هو بين يدى اللّه سبحانه، سواء فى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۱

هذه الدنيا أو فى عالم الآخرة، إلّاأنّ هذا الأمر يظهر ويتّضح بصورة أشد فى يوم القيامة.

فى ذلك اليوم لن يقتصر الوضوح والظهور على أعمال البشر الخفية فحسب، بل على صفات وروحيات وأخلاقيات ونيّات الجميع

فإنّها هى الاخرى تبرز وتظهر، وهذا أمر عظيم جدّاً، بل إنّه أعظم من إنفجار الأجرام السماوية وتلاشى الجبال- كما يقول البعض- حيث الفضيحة الكبرى للطالحين، والعزّة والرفعة للمؤمنين بشكل لا نظير له.

لذا يقول سبحانه بعد ذلك: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ».

ثم يعلن بافتخار عظيم فيقول: «إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَقٍ حِسَابِيَهْ».

«ظن»: فى مثل هذه الموارد تكون بمعنى (اليقين) إنّه يريد أن يقول: إنّ ما تفضّل به اللَّه تعالى علىّ كان بسبب إيمانى بهذا اليوم، والحقيقة أنّ الإيمان بالحساب والكتاب يمنح الإنسان روح التقوى، والتعهّد والإحساس بالمسؤولية، وهذا من أهمّ عوامل تربية الإنسان.

ثم يبيّن اللَّه تعالى فى الآيات اللاحقة جانباً من جزاء وأجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ».

وبالرغم من أنّ الجملة أعلاه تجسّد كل ما يستحقّ أن يقال فى هذا الموضوع، إلّاأنّه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

إنّ الجنة تكون عالية ورفيعة بشكل لم ير أحد مثلها قطّ، ولم يسمع بها، ولم يتصور مثلها.

«قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» «۱». حيث لا جهد مكلّف ولا مشقة فى قطف الثمار، ولا عائق يحول من الإقتراب للأشجار المحمّلة بالثمار، وجميع هذه النعم فى متناول الأيدى بدون إستثناء.

وفى آخر آية- مورد البحث- يوجّه البارىء عزّ وجل خطابه المملوء بالحبّ والمودّة والإعتزاز إلى أهل الجنة بقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ».

وهكذا كانت هذه النعمة العظيمة التى منحها اللَّه لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحة وإنّ الأعمال الخيّرة والمحدودة هى التى أثمرت هذه الثمار الكبيرة حيث ظل الرحمة الإلهية واللطف الربانى.

والسؤال المطروح هو: هل أنّ دعوة المؤمنين لأهل المحشر لقراءة كتاب حسابهم وصحيفة أعمالهم- طبقاً لما جاء فى الآية الكريمة: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ»- تعنى أنّ صحيفة أعمالهم خالية من أى ذنب؟

---

(۱) «قطوف»: جمع «قطف» بمعنى أن الثمر قد اقتطف، و تأتى أحياناً بمعنى الثمار المهيئة للإقتطاف أيضاً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۲

وفى مقام الجواب يمكن أن نستفيد من بعض الأحاديث منها حديث عن النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول: «يدنى اللَّه العبد يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلّها، حتى إذا رآى أنّه قد هلك. قال اللَّه تعالى: إنّى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه» «۱».

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (۲۶) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (۲۷) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (۲۸) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (۲۹) كان الحديث فى الآيات السابقة عن (أصحاب اليمين) حيث صحائف أعمالهم بأيديهم اليمنى، ويوجّهون نداءهم إلى أهل المحشر بكلّ فخر للإطّلاع على صحيفة أعمالهم وقراءتها، ثم يدخلون جنّات الخلد حيث تكون مستقرّهم الأبدى. أمّا هذه الآيات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب اليمين وهم (أصحاب الشمال) وتقدم مقارنة بين المجموعتين، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ». «وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ».

نعم، فى ذلك اليوم العظيم، وعندما يواجهها يبدأ يجأر ويصرخ ويطلق الزفرات الساخنة المتلاحقة من الأعماق على المصير السىء الذى أوصل نفسه إليه، والشرّ الذى جلبه عليها، ويتمنّى أن يقطع علاقته بماضيه الأسود تماماً، ويتمنّى أن يموت ويفنى ويتخلّص من هذه الفضيحة الكبيرة المهلكة، ويعبّر عن هذا الشعور قوله تعالى: «وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا» «۲».

ثم يضيف تعالى مستعرضاً إعتراف المجرمين بذنوبهم فيقول: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ».

فالأموال التی کنت أجمعها فی الدنیا لم تنقذنی الآن ولم تغنّی ولم تدفع عنّی الأهوال أو تحلّ مشاکلی.

«هَلَکَ عَنِّی سُلْطَانِیَهْ» فلیست أموالی لم تسعفنی فی هذه الشدة فحسب، بل إنّ قدرتی ومقامی وسلطتی هی الاخری هلکت وزالت عنّی.

القصة المثیرة: نقلت فی هذا المجال قصص کثیرة تؤکّد علی المفاهیم العامة التی احتوتها الآیات الکریمة أعلاه، کموضع شاهد وعبرة وتأیید لما ذهبت إلیه الآیات المبارکات،

---

(۱) فی ظلال القرآن ۸/ ۲۵۶.

(۲) سورة النبأ/ ۴۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۳

لتکون درساً لُاولئک الذین جعلوا (المال والسلطان) همّهم الأوّل، وانغمسوا حتی الأذقان فی الغفلة والغرور والذنوب من أجلهما، ومن جملتها ما یلی:

فی سفینة البحار عن کتاب النصائح لابن ظفر أنّه لمّا اشتدّ مرض الرشید بطوس، احضر طبیباً طوسیاً فارسیّاً وأمر أن یعرض علیه مائه مع میاه کثیرة لمرضی وأصحاء فجعل یستعرض القواریر حتی رآی قارورة الرشید فقال: قولوا لصاحب هذه الماء یوصی فإنّه قد انحلّت قواه وتداعت بنیته فاقیم وأمر بالذّهاب فذهب ویئس الرشید من نفسه وتمثّل قائلًا:

إنّ الطبیب بطبّه ودوائهلا یستطیع دفاع نَحب قد أتی

ما للطبیب یموت بالدّاء الذیقد کان یُبرئ مثله فیما مضی

وبلغه أنّ الناس أرجفوا بموته فاستدعی بحمار وأمر فحمل علیه فاسترخت فخذاه فقال:

انزلونی صدق المرجفون ثم استدعی بأکفان فتخیر منها ما أعجبه وأمر فشقّ له قبر أمام فراشه ثم اطّلع فیه فقال: «مَا أَغْنَی عَنِّی مَالِیَهْ هَلَکَ عَنِّی سُلْطَانِیَهْ» فتوفی فی یومه.

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِی سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُکُوهُ (۳۲) إِنَّهُ کَانَ لَا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِیمِ (۳۳) وَ لَا یَحُضُّ عَلَی طَعَامِ الْمِسْکِینِ (۳۴) فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هَاهُنَا حَمِیمٌ (۳۵) وَ لَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِینٍ (۳۶) لَا یَأْکُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (۳۷) خذوه فغلّوه: استمراراً للآیات السابقة التی کانت تتحدث عن (أصحاب الشمال) الذین یستلمون صحائف أعمالهم بأیدیهم الیسری، فتنطلق الآهات والأنّات، ویتمنّی أحدهم الموت، یشیر تعالی فی الآیات أعلاه إلی قسم من العذاب الذی یلاقونه یوم القیامة فیقول:

«خُذُوهُ فَغُلُّوهُ». «غلّوه»: من مادة (غلّ)، والمراد هو السلسلة التی کانوا یربطون بها أیدی وأرجل المجرمین إلی أعناقهم مقترن بالکثیر من المشقة والألم.

«ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِی سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُکُوهُ».

«السلسلة»: فی الأصل مأخوذة من مادة «تسلسل» بمعنی الإهتزاز والإرتعاش، لأنّ حلقات السلسلة الحدیدیة تهتزّ وتتحرک.

إنّ هذه السلاسل الطویلة لیست لشخص واحد، بل لمجامیع یربط کل منها بسلسلة.

«ذراع»: بمعنی الفاصلة بین الساعد ونهایة الأصابع، (وقیاسها بحدود نصف متر) وکانت وحدة الطول المستعملة عند العرب، وهی قیاس طبیعی.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (۳۸) وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۴۰) وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِیلًا مَا تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لَا بِقَوْلِ کَاهِنٍ قَلِیلًا مَا تَذَکَّرُونَ (۴۲) تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۴۳)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۴

وقال البعض: إنّ (الـذراع) الوارد فى الآية الكريمة هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث إنّ كل وحدة منه تمثّل فواصل عظيمة، ويربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنم.

وتتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسى لهذا العذاب العسير، فيقول تعالى: «إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ».

وكلّما كان الأنبياء والأولياء ورسل اللَّه تعالى يدعونه للتوجه إلى (الواحد الأحد) لم يكن ليقبل، ولذا فإنّ إرتباطه بالخالق كان مقطوعاً بصورة تامة.

«وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ».

وبهذا الشكل فإنّ هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضاً.

ويستفاد من التعبير السابق- بصورة واضحة- أنّه يمكن تلخيص أهمّ الطاعات والعبادات وأوامر الشرع بهـذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام المسكين) وهذا يمثّل إشارة إلى الأهمية البالغة لهذا العمل الإنسانى العظيم.

ثم يضيف تعالى: «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ ههُنَا حَمِيمٌ». أى: صديق مخلص وحميم.

«وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ». أى: القيح والدم.

والجدير بالملاحظة هنا هو أنّ (الجزاء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماماً، فبسبب قطع علاقتهم باللَّه، فليس لهم هنالك من صديق ولا حميم، كما أنّ سبب إمتناعهم عن إطعام المحتاجين فإنّ طعامهم فى ذلك اليوم لن يكون إلّاالقيح والدم، لأنّهم حرموا المساكين من الإطعام وتركوهم نهباً للجوع والألم فى الوقت الذى كانوا يتمتّعون لسنين طويلة بألذّ وأطيب الأطعمة.

ويضيف سبحانه فى آخر آية مورد البحث فى قوله تعالى للتأكيد: «لَايَأْكُلُهُ إِلَّا الخَاطُونَ».

إنّ (خاطىء) تقال للشخص الذى يرتكب خطأً عمداً. وبناءً على ما تقدم فإنّ طعام أهل جهنم خاصّ للأشخاص الذين سلكوا درب الشرك والكفر والبخل والطغيان تمردّاً وعصياناً وعمداً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۵

القرآن كلام اللَّه قطعاً: بعد الأبحاث التى مرّت بنا فى الآيات السابقة حول القيامة وما أعدّه اللَّه سبحانه للمؤمنين والكفار، يبيّن البارىء عزّ وجل فى هذه الآيات بحثاً وافياً حول القرآن والنبوّة، ليكون البحثان (النبوّة) و (المعاد) كلّاً منهما مكمّلًا للآخر. يقول تعالى فى البداية: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَاتُبْصِرُونَ». وهذه الجملة لها معنىً واسع، حيث تشمل كل ما يراه البشر وما لا يراه. وبعبارة اخرى: تشمل كل عالم (الشهود) و (الغيب).

ثم تستعرض الآية اللاحقة جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

والمقصود من الرسول هنا- بدون شك- هو الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وليس جبرائيل.

والآية ذكرت كلمة «رسول» وهذا يعنى أنّ كل ما يقوله الرسول فهو قول مرسله.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

تنفى هاتان الآيتان ما نسبه المشركون والمخالفون من تهم باطلة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ كانوا يقولون أحياناً: إنّه (شاعر) وإنّ هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحياناً: إنّه (كاهن) وإنّ الذى يقوله هو (كهانة).

الشعر فى الغالب وليد الخيال، ومعبّر عن الأحاسيس الجياشة فى النفوس، ولهذا فإنّه يجسّد حالة عدم الإستقرار وعدم التوازن صعوداً ونزولًا، شدّة وإنخفاضاً، فى الوقت الذى نلاحظ أنّ القرآن الكريم، وهو يمثّل قمّة الروعة والجاذبية، فإنّه كتاب استدلالى ومنطقى فى عرضه للمفاهيم، وعقلانى فى محتواه، وما فيه من التنبّؤ المستقبلى لا يشكّل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعاً بخلاف ما عليه تنبّؤ الكهنة.

ويقول سبحانه فى آخر آية- مورد البحث- كتأكيد على هويّة القرآن الربانية: «تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ». وبناءً على هذا فإنّ القرآن

الکریم لیس بشعر ولا- کهانة، ولیس هو إنتاج فکر الرسول، ولا قول جبرائیل ... بل إنّه کلام اللّه سبحانه، حیث نزل بواسطة الوحی على القلب الطاهر لرسول اللّه صلی الله علیه و آله.

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (۴۶) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۴۸) وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۵۲)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۶

استمراراً للأبحاث المتعلقة بالقرآن الکریم، تستعرض الآیات التالیة دلیلًا واضحاً یؤکّد یقینیة کون القرآن من اللّه سبحانه، حیث یقول: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ویذکّر سبحانه مرّة اخرى فی الآیة اللاحقة مؤکّداً ما سبق عرضه فی الآیات السابقة «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لّلْمُتَّقِينَ». إنّ کتاب اللّه هذا أنزله للأشخاص الذین یریدون أن یطهّروا أنفسهم من الذنوب، ویسیروا فی طریق الحق، ویبحثوا عن الحقیقة، ویسعوا للوصول إلیها، أمّا من لم یصل إلى هذا الحد من صفاء النظرة وتقوى النفس، فمن المسلّم أنّه لن یستطیع أن یستلهم تعالیم القرآن الکریم ویتذوّق حلاوة معرفة الحق المبین.

إنّ التأثیر العمیق الفذّ للقرآن الکریم الذی یحدثه فی نفوس سامعیه وقارئیه، هو بحدّ ذاته علامة على إعجازه وحقانیته.

ثم یضیف تعالى: «وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذّبِينَ».

إنّ وجود المکذبین المعاندین لم یکن مانعاً أبداً من الدلیل على عدم حقانیتهم.

إنّ المتقین وطلّاب الحق یتّعظون به، ویرون فیه سمات الحق، وإنّه عون لهم فی الوصول إلى طریق اللّه سبحانه.

ویضیف فی الآیة اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ».

إنّ هؤلاء الکفرة الذین یتحدّون القرآن الکریم الیوم ویکذّبونه، فإنّهم غداً حیث (یوم الظهور) و (یوم البروز) وهو فی نفس الوقت (یوم الحسرة) یدرکون مدى عظمة النعمة التی فرّطوا بها بسبب لجاجتهم وعنادهم، وما جلبوه لأنفسهم من ألیم العذاب.

ولکی لا یتصور أحد أنّ التکذیب والتشکیک کان بلحاظ غموض وإبهام مفاهیم القرآن الکریم، فیضیف فی الآیة اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ».

یعنی أنّ القرآن الکریم هو (یقین خالص). أو بتعبیر آخر: أنّ للیقین مراحل مختلفة، حیث یحصل أحیاناً بالدلیل العقلی کما فی حصول الیقین بوجود النار من خلال مشاهدة دخّان من بعید، لذا یقال لمثل هذا الأمر (علم الیقین).

وحینما نقترب أکثر ونرى إشتعال النار بام أعیننا، فعند ذلک یصبح الیقین أقوى ویسمّى عندئذ ب (عین الیقین).

وعندما یکون اقترابنا أکثر فأکثر ونصبح فی محاذاة النار أو فی داخلها ونلمس حرارتها

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۷

بأیدینا، فإنّ من المسلّم أنّ هذه أعلى مرحلة من مراحل الیقین، وتسمّى ب (حق الیقین).

والآیة أعلاه تقول: إنّ القرآن الکریم فی مثل هذه المرحلة من الیقین، ومع هذا فإنّ عدیمی البصیرة ینکرونه ویشکّکون فیه.

وأخیراً یقول سبحانه فی آخر آیة من سورة الحاقّة: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبّكَ الْعَظِيمِ».

والجدیر بالملاحظة- هنا- أنّ مضمون هذه الآیة والآیة السابقة قد جاء بتفاوت یسیر مع ما ورد فی سورة الواقعة، وهذا التفاوت هو أنّ الآیة وصفت القرآن الکریم هنا بأنّه (حق الیقین) أمّا فی نهایة سورة (الواقعة) فکان الحدیث عن المجامیع المتباینة للصالحین والطالحین فی یوم القیامة.

«نهایة تفسیر سورة الحاقّة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۵۹

۷۰. سورة المعارج

محتوى السورة: المعروف بين المفسرين هو أنّ سورة المعارج من السور المكّية، ولكن بعض آياتها مدنية؛ وهناك روايات تدلّ على أنّ الآيات الاولى من هذه السورة هى آيات مدنية. فإنّ لهذه السورة أربعة أقسام:

۱- يتحدث عن العذاب السريع الذى حلّ بأحد الأشخاص ممن أنكر أقوال النبى صلى الله عليه و آله وقال: لو كان هذا القول حقّاً فلينزل علىّ العذاب. فنزل الآيات (۱- ۳).

۲- ذكر الكثير من خصوصيات يوم القيامة ومقدماتها وحالات الكفار فى ذلك اليوم.

۳- توضّح هذه السورة بعض الصفات الإنسانية الحسنة والسيّئة والتى تعيّن هذا الشخص من أهل الجنان أم من أهل النار.

۴- يشمل إنذارات تخصّ المشركين والمنكرين وتبيان مسألة المعاد وينهى السورة بذلك.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سأل سائل أعطاه اللَّه ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون».

من البديهى أنّ الإنسان يحصل على مثل هذا الثواب العظيم إذا كانت قراءته بإيمان وعقيدة، وثم يقترن ذلك بالعمل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۰

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (۱) لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (۲) مِنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ (۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الحاكم أبوالقاسم الحسكانى عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «لما نصّب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عليّاً عليه السلام يوم غدير خم وقال ":من كنت مولاه فعلىّ مولاه. "طار ذلك فى البلاد، فقدم على النبى صلى الله عليه و آله النعمان بن الحرث الفهرى فقال: أمرتنا عن اللَّه أن نشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّك رسول اللَّه، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها. ثم لم ترض حتى نصّبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شىء منك أو أمر من عند اللَّه؟ فقال ":واللَّه، الّذى لا إله إلّاهو إنّ هذا من اللَّه. "فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء! فرماه اللَّه بحجر على رأسه فقتله، وأنزل اللَّه تعالى: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ»».

التّفسير

العذاب العاجل: من هنا تبدأ سورة المعارج حيث تقول: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

هذا السائل كما قلنا فى سبب النزول هو النعمان بن الحارث أو النضر بن الحارث.

ثم يضيف بأنّ هذا العذاب خاص بالكفار ولا يستطيع أحد دفعه عنهم: «لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ».

وتصف الآية الاخرى من ينزل العذاب منه، وهو اللَّه ذى المعارج فتقول الآية: «مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ». أى صاحب السماء التى يعرج إليها الملائكة.

«المعارج»: جمع «معرج» بمعنى المصعد أو المكان الذى منه يصعدون، إذ إنّ اللَّه جعل للملائكة مقامات مختلفة يتوجهون بها إلى قربه بالتدريج، وقد وصف اللَّه تعالى بذى المعارج.

نعم، الملائكة المأمورون بتعذيب الكفار والمجرمين، والذين هبطوا على إبراهيم عليه السلام، وأخبروه بأنّهم قد امروا بإبادة قوم لوط.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَرَاهُ قَرِيباً (۷)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۱

يوم مقداره خمسين ألف سنة: بعد إيراد قصة العذاب الدنيوى الذى أصاب من طلب العذاب، تبحث الآيات أمر المعاد والعذاب الاخروى للمجرمين فى ذلك اليوم. فى البداية يقول تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ [أى إلى اللّه فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

المشهور أنّ المراد من عروج الملائكة هو العروج الروحى، وليس العروج الجسمى، يعنى أنّهم يسرعون فى التقرب إلى المقام الإلهى وهم مهيّئون لإستلام الأوامر فى ذلك اليوم الذى يراد به يوم القيامة.

والمراد بالروح هو (الروح الأمين) وهو أكبر الملائكة، وهذا ما اشير إليه أيضاً فى سورة القدر، حيث يقول تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ».

وأمّا المراد بكون (خمسين ألف سنة) هو ذلك اليوم الذى بحيث لو وقع فى الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة من سنى الدنيا، وهذا لاـ ينافى ما جاء فى الآية (۵) من سورة السجدة من أنّ ذلك يوم مقداره ألف سنة، ولأجل ذلك ذكر فى الروايات أنّ فى القيامة خمسين موقفاً، وكل موقف مثل ألف سنة مما تعدون «۱».

فقد كان هذا ما يخصّ المجرمين والظلمة والكفار. روى أبوسعيد الخدرى قال: قيل يا رسول اللّه! ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذى نفس محمّد بيده! إنّه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا» «۲».

ثم يخاطب اللّه تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه و آله فى الآية الاخرى ويقول: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا».

المراد ب (الصبر الجميل) هو ما ليس فيه شائبة الجزع والتأوه والشكوى، وفى غير هذا الحال لا يكون جميلًا.

ثم يضيف: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا* وَنَرَيهُ قَرِيبًا». إنّهم لاـ يصدقون بوجود مثل ذلك اليوم الذى يحاسب فيه جميع الخلائق حتى أصغر حديث وعمل لهم، وذلك فى يوم مقداره خمسون ألف سنة، ولكنّهم فى الواقع ما عرفوا اللّه وفى قلوبهم ريب بقدرة اللّه.

---

(۱) أمالى الطوسى/ ۳۶.

(۲) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۲۰؛ تفسير القرطبى ۱۳/ ۲۳.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۲

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (۹) وَ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (۱۶) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (۱۸) تضيف هذا الآيات على البحوث السابقة حول القيامة إيضاحات أكثر، حيث يقول اللّه تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ».

«المهل»: على وزن (قفل) وهو المذاب من المعدن كالنحاس والذهب وغيرهما.

«العهن»: مطلق الصوف المصبوغ ألواناً.

فى مثل ذلك اليوم تتلاشى السماوات وتذوب، تتدكدك الجبال ثم تتناثر فى الهواء كالصوف فى مهب الريح، وبما أنّ الجبال ذات ألوان مختلفة فإنّها شبهت بالصوف المصبوغ بالألوان، ثم يتحقق عالم جديد وحياة جديدة للبشرية بعد كل هذا الخراب.

وعندما يحلّ يوم القيامة فى ذلك العالم الجديد فسيكون فيه الحساب عسيراً ومرعباً بحيث ينشغل كل بنفسه، ولا يفكر بالآخر حتى لو كان من خلّص اصدقائه وأحبائه: «وَلَا يَسَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا» «۱».

ولا يعنى ذلك أنّ الأصدقاء والأقرباء ينكر بعضهم بعضاً، بل إنّهم يعرفونهم ويقول تعالى: «يُبَصَّرُونَهُمْ». غاية الأمر هو أنّ هول الموقف ووحشته لايدعه يفكّر بغيره.

وإكمالًا للحديث وتوضيحاً لذلك الموقف الموحش، يضيف تعالى: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ». وليس ببنيه

فحسب بل، يودّ أن يفتدى العذاب بزوجته وأخيه أيضاً «وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ». «وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ». أى عشيرته وأقرباءه الذين كان يأوى إليهم فى الدنيا: «وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ».

«يودّ»: من (الود) على وزن (حبّ) أى يحب ويتمنى

---

(۱) «الحميم»: فى الأصل يعنى الماء المغلى والمحرق، ثم اطلق كذلك على الأصدقاء المخلصين والحقيقيين.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۳

«يفتدى»: من (الفداء) أى حفظ النفس من المصائب والمشاكل بوسيلة تسديد أو دفع شيء ما.

«الفصيلة»: هى العشيرة والعائلة التى انفصل وتولّد منها الإنسان.

«تؤيه»: من «الإيواء» من الشدائد واللجوء إليها ويأوى إليها فى النسب.

ولكنّه يجيب على كل هذه الأمانى والآمال فى قوله: «كَلَّا». أى لا تقبل الفدية والإفتداء.

«إِنَّهَا لَظَى نار ملتهبة تحرق كل من بجانبها وفى مسيرها.

«نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تقلع اليد والقدم وجلد الوجه.

«لظى : تعنى لهيب النار الخالص، وهى اسم من أسماء جهنم أيضاً.

«نزاعة»: أى أنّها تقتلع وتفصل بالتوالى

و «شوى : الأطراف كاليد والرجل، وتأتى أحياناً بمعنى الشواء، ولكن المراد هنا هو المعنى الأوّل.

ثم يشير إلى من يكون فريسة لمثل هذه النار، فيقول: «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى .

وبهذا فإنّ هذه النار المحرقة تدعو اولئك المجرمين إلى نفسها سواء بلسان حالها وجاذبيتها الخاصة المودعة فيها تجاه المجرمين، أو بلسان مقالها الذى أعطاها اللّه إيّاها، إنّها تدعو اولئك المتصفين بهاتين الصفتين: الإعراض عن الإيمان وعدم طاعة اللّه ورسوله.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (۲۲) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (۲۳) وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۵) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۲۶) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸) أوصاف المؤمنين: بعد ذكر أوصاف الطالحين وجوانب من أنواع العذاب فى يوم القيامة، يأتى هنا وصف المؤمنين للتعرف عن سبب انقسام الناس إلى صنفين، المعذبون والناجون. يقول أوّلًا: «إِنَّ الْإِنسَنَ خُلِقَ هَلُوعًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۴

«إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا».

ثم تذكر الآيات الكريمة صفات الأشخاص الجيدين على شكل استثناء، وتبيّن لهم تسع صفات ايجابية بارزة، فيقول تعالى: «إِلَّا الْمُصَلِّينَ». «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ».

هذه هى الخصوصية الاولى لهم وأنّهم مرتبطين باللّه بشكل دائم، وهذه الرابطة تتوثق بالصلاة، الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصلاة التى تربى روح الإنسان وتذكره دائماً باللّه تعالى، والسير بهذا الإتجاه سوف يمنعه من الغفلة والغرور، والغرق فى بحر الشهوات، والوقوع فى قبضة الشيطان وهوى النفس.

والمراد من الإدامة على الصلاة هو المحافظة على أوقات الصلاة المعينة.

بعد توضيح أهميّة الصلاة وأنّها من أهم الأعمال ومن أهم أوصاف المؤمنين تنتقل الآيات إلى ذكر الصفة الثانية فيضيف تعالى: «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

وبهذا سوف يحافظون على إرتباطهم بالخالق من جهة، وعلاقتهم بخلق اللّه من جهة اخرى.

والمراد من الحق المعلوم هو شيء غير الزّكاة والذى يجب على الإنسان منحه للمحتاجين.

والفرق بين «السائل» و «المحروم» هو أنّ السائل يفصح عن حاجته ويسأل، والمحروم هو الذى لا يسأل لتعففه وحيائه.

الآية الاخرى أشارت إلى الخصوصية الثالثة لهم فيضيف: «وَالَّذِينَ يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدّينِ».

والخصوصية الرابعة هى: «وَالَّذِينَ هُم مّنْ عَذَابِ رَبّهِم مُّشْفِقُونَ». «إِنَّ عَذَابَ رَبّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ».

وصحيح البخارى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يقول: «لن يدخل أحداً عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: «ولا أنا، إلّاأن يتغمدنى اللَّه برحمته».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۵

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (۲۹) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۳۰) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العَادُونَ (۳۱) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ (۳۲) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (۳۳) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (۳۴) أُولئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵) فى الآيات السابقة ذكرت أربعة أوصاف من الأوصاف الخاصة بالمؤمنين الصادقين من أهل الجنان، وفى الوصف الخامسة يقول اللَّه عزّ وجل: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» «۱».

لا شك فى أنّ الغريزة الجنسية من غرائز الإنسان الشديدة والطاغية، والكثير من الجرائم الكبيرة سببها هى هذه الغريزة، ولذا كانت السيطرة على هذه الغريزة وحفظ حدودها من العلامات المهمّة للتقوى وبهذا ذكرت أهمية السيطرة على هذه الغريزة بعد تبيان أهمية الصلاة وإعانة المحتاجين والإيمان بيوم القيامة والإشفاق من عذاب اللَّه.

وفى الآية الاخرى يؤكّد بشكل أكثر على نفس الموضوع فيضيف: «فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

وبهذه الطريقة فإنّ الإسلام يخطط لمجتمع يحافظ على غرائزه الفطرية، ولا يؤدى به إلى الغرق بالفحشاء والفساد الجنسى والمضارّ الناتجة منه.

عندئذ يشير إلى الصفات السادسة والسابعة، فيقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

من الطبيعى أنّ للأمانة معنىً واسعاً وليست هى الأمانات المادية المتنوعة للناس فحسب، بل إنّها تشمل الأمانات الإلهية وأمانات الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

إنّ كل نعمة من النعم الإلهية هى من أماناته تعالى، منها المقامات الاجتماعية وبالخصوص المسؤولون فى الدولة فإنّها تعتبر من أهم الأمانات.

والأهم من ذلك كلّه هو الدين والشريعة الإلهية وكتاب اللَّه، وهو من الأمانات الكبيرة التى يجب الحفاظ عليها بالسعى.

---

(۱) «فروج»: جمع «فرج» وهو كناية عن الآلة التناسلية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۶

«العهد»: وله مفهوم واسع أيضاً، يشمل العهود الإنسانية وكذلك العهود الإلهية.

ويضيف فى الوصف الثامن: «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ». لأنّ القيام بالشهادة العادلة وترك كتمانها من أهم بنود إقامة العدل فى المجتمع البشرى.

وفى الوصف الأخير، وهو الوصف التاسع من هذه المجموعة، يعود مرّة اخرى إلى موضوع الصلاة، كما كان البدء بالصلاة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

والصلاة هى المدرسة العالية للتربية، وأهم وسيلة لتهذيب النفوس.

ومن الطبيعى أنّ الوصف الأوّل كان إشارة إلى المداومة، ولكن الخطاب هنا حول حفظ آداب وشروط الصلاة وخصائصها، والآداب التى تكمن فى ظاهر الصلاة والتى تنهى عن الفحشاء والمنكر من جهة، وتقوى روح الصلاة بحضور القلب من جهة اخرى وتمحو الأخلاق الرذيلة التى تكون كحجر عثرة أمام قبولها، ولهذا لا يعتبر ذكرها مرّة اخرى من قبيل التكرار.

وفى النهاية تبيّن الآية الأخيرة عاقبة المتصفين بهذه الأوصاف، كما بيّنت فى الآيات السابقة المسير النهائى للمجرمين، فيقول تعالى: «أُولئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ».

لماذا لا يكونوا مكرمين! وهم ضيوف اللَّه، وقد وفرّ اللَّه القادر الرحمن لهم جميع وسائل الضيافة.

فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (۳۶) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (۳۷) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (۳۸) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (۳۹) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (۴۰) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴۱)

الطمع الواهى فى الجنة: جاء البحث فى الآيات السابقة من هذه السورة حول علامات المؤمنين والكفار، ومصير كل من المجموعتين، فى الآيات يعود ليوضح أحوال الكفار واستهزاءهم بالمقدسات.

قال البعض: إنّ هذه الآيات نزلت فى جماعة من المشركين فعندما كان الرسول صلى الله عليه و آله يتلو على المسلمين آيات المعاد، كان هؤلاء الكفار يقدمون من كل صوب وحدب ويقولون: إذا كان هناك معاد فإنّ حالنا فى الآخرة أحسن من حال من آمن بك، كما أنّ حالنا فى هذه الدنيا أحسن منهم!

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۷

يقول القرآن الكريم فى جوابهم: «فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ». أى: يقبلون نحوك من كل جانب مسرعين.

«عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ». أى جماعات متفرقين.

«أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ». بأى إيمان وبأى عمل يستحقون ذلك؟!

«مهطعين»: جمع مهطع، وتعنى الذى يمدّ عنقه مقبلًا على شىء بسرعة للبحث عنه، وأحياناً تأتى- فقط- بمعنى مدّ العنق لاستطلاع الأمر.

«عزين»: جمع عزة، على وزن «هبة» وتعنى جماعات متفرقين.

وهنا يجيبهم القرآن المجيد فيقول: «كَلَّا». ليس الأمر كذلك وليس لهم حق الدخول إلى الجنة: «إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ».

فى الحقيقة أنّ اللَّه يريد بهذه الجملة أن يحطم غرورهم، لأنّه يقول: إنّكم تعلمون جيداً مم خلقناكم؟ من نطفة قذرة، من ماء آسن مهين.

ويجيب ثانياً على المستهزئين بالمعاد فيقول: إذا كنتم فى شك من المعاد فتمعنوا فى حال هذه النطفة، وانظروا كيف خلقنا موجوداً بديعاً من قطرة ماء قذرة يتطور فيها الجنين كل يوم يتّخذ شكلًا جديداً، ألا يقدر خالق الإنسان من هذه النطفة أن يعيد إليه الحياة بعد دفنه؟

ثم يقول تعالى مؤكّداً ذلك: «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

لعل هذه الجملة إشارة إلى أنّنا لسنا قادرين على أن نعيد لهم الحياة بعد الموت فحسب، بل إنّنا نستطيع أن نبدله إلى أكمل الموجودات وأفضلها، ولا يمنعنا من ذلك شىء.

أو هو إشارة إلى أنّنا نهلككم جزاءً لأعمالكم ولا يمنعنا من ذلك شىء، ونستبدل بكم مؤمنين واعين، ليكونوا أنصاراً للنبى صلى الله عليه و آله ولا يضرّنا ذلك شيئاً.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۴۲) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (۴۳) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (۴۴) هذه الآيات وهى آخر آيات سورة المعارج جاءت لتنذر وتهدد

الكفار المعاندين

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۸

والمستهزئين. يقول سبحانه: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ» «۱».

لا يلزم الإستدلال والموعظة أكثر من هذا، فإنّهم لا يتعضون وليس لهم الإستعداد للإستيقاظ، دعهم يخوضوا فى أباطيلهم وأراجيفهم كمايلعب الأطفال حتى يحين يومهم الموعود، يوم البعث ويرون كل شىء بأعينهم.

ثم تبيّن الآية التالية اليوم الموعود، وتذكر بعض علامات ذلك اليوم المرعب فيقول تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ».

إنّ هذا التعبير فى الحقيقة استهزاء بعقائدهم التافهة التى كانوا يعتقدون بها فى الدنيا.

«الأجداث»: جمع جدث- على وزن (عبث)- وتعنى القبر.

«سراع»: جمع سريع، تعنى الحركة السريعة للشيء أو الإنسان.

«نصب»: جمع نصيب، والمراد منه هو ما ينصب كعلامة، وتطلق على الأصنام الحجرية إذ كانوا ينصبونها فى مكان ما ليعبدوها ويُقدّم لها القرابين ثم يلطخون دماءها عليها.

«يوفضون»: من «إفاضة» وتعنى الحركة السريعة المشابهة لحركة الماء المنحدر من العين.

ثم تذكر الآيات حالات اخرى لهؤلاء فتضيف: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» «۲».

من شدة الهول والوحشة وقد غرقوا فى ذلة مهينة.

وفى آخر الآية يتابع قوله: «ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ».

«نهاية تفسير سورة المعارج»

---

(۱) «يخوضوا»: من أصل خوض- على وزن حوض- وتعنى فى الأصل الحركة فى الماء، ثم جاءت بصيغة الكناية فى موارد يغطس فيه الإنسان فى الباطل.

(۲) «ترهقهم»: من أصل «رهق» على وزن (سقف) ويراد به غشيان الشىء بقهر.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۶۹

۷۱. سورة نوح

محتوى السورة: هذه السورة، كما هو واضح من اسمها، تشير إلى قصة نوح عليه السلام، واشير إلى قصة هذا النبى العظيم كذلك فى سور متعددة فى القرآن المجيد، منها: سورة الشعراء، والمؤمنون، والأعراف، والأنبياء، وبشكل أوسع فى سورة هود.

وما جاء فى سورة نوح عن قصته عليه السلام هو مقطع خاص من حياته، وهو أقل مما ذكر فى بقية السور، وهذا القسم يرتبط بدعوته المستمرة والمتتابعة إلى التوحيد، وترتبط بكيفيتها وعناصرها.

بلحاظ أنّ هذه السورة نزلت فى مكة، وأنّ النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين القلائل فى ذلك الزمان كانوا يعيشون ظروفاً مشابهة لظروف عصر نوح عليه السلام وأعوانه، فإنّها تعلمهم اموراً كثيرة، وكانت هذه واحدة من أهداف إيراد هذه القصة، ومنها:

۱- أنّها تذكرهم كيف يبلغون الرسالة للمشركين عن طريق الإستدلال المنطقى المقترن بالمحبة والمودة، واستخدام كل طريقة تكون مفيدة ومؤثرة فى الدعوة.

۲- أنّها تعلّمهم الثبات والنشاط فى طريق الدعوة إلى اللّه وعدم التكاسل مهما طالت الأعوام، ومهما وضع الأعداء العوائق.

۳- أنّها تعلّمهم كيف يرغبونهم ويشجعونهم تارةً، وتكون لديهم عوامل الإنذار

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۰

والرهبة تارةً اخرى والإستفادة من كلا الطريقين فى الدعوة إلى اللَّه جلّ وعلا.

۴- الآيات الأخيرة من هذه السورة هى تحذير للمشركين المعاندين، بأنّ عاقبتهم وخيمة إذا لم يستسلموا للحق، وتخلّفوا عن أمر اللَّه.

فإنّ هذه السورة ترسم أبعاد الكفاح الدائم بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، ترسم منهج أصحاب الحق الذى يجب عليهم إتّباعه.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح».

ولا يخفى أنّ الهدف من قراءة السورة هو الإقتباس من منهج وسلوك هذا النبى العظيم، من صبره واستقامته فى طريق الدعوة إلى اللَّه تعالى ليدركوا دعوة النبى.

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴) قلنا: إنّ هذه السورة تبيّن من أحوال نوح عليه السلام وما يرتبط بأمر دعوته، وتبدأ أوّلًا بذكره فى بعثته عليه السلام فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

من الممكن أن يكون هذا العذاب الأليم هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، والأنسب أن يكون الإثنان معاً، وإن كانت القرائن فى آخر آيات هذه السورة تشير إلى أنّ هذا العذاب هو عذاب الدنيا.

نوح عليه السلام الذى كان هو من اولى العزم، وصاحب أوّل شريعة إلهيّة، وله دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: «قَالَ يَا قَوْمِ إِنّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

الهدف هو أن تعبدوا اللَّه الذى لا إله إلّاهو، وتتركوا من دونه، وتتقوا وتطيعوا أمرى الذى هو أمر اللَّه: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ».

ثم ذكر النتائج المهمّة المترتبة على استجابتهم الدعوة فى جملتين لترغيبهم فقال: «يَغْفِرْ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۱

لَكُم مّن ذُنُوبِكُمْ».

ثم يضيف: «وَيُؤَخّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَايُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

يستفاد جيداً من هذه الآية أنّ «الأجل» وموعد عمر الإنسان قسمان، هما: الأجل المسمّى والأجل النهائى. أو بعبارة اخرى: الأجل المعلق، والأجل الحتمى. القسم الأوّل للأجل قابل للتغير والتبديل، فقد يتدنى ويقل عمر الفرد كثيراً بسبب الذنوب والأعمال السيئة وهذا نوع من أنواع العذاب الإلهى، وبالعكس فإنّ التقوى وحسن العمل والتدبير يمكن أن تكون سبباً لتأخير الأجل، ولكن الأجل النهائى لا يتغير بأى حال من الأحوال.

وفى الروايات الإسلامية أيضاً تأكيد على هذا المعنى، منها ما ورد- فى الأمالى الشيخ الطوسى- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار».

قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَ نَهَاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَاراً (۶) وَ إِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (۷) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (۸) ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (۹) استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، ولكن: تتحدث هذا الآيات عن استمرار مهمّة نوح فى دعوته قومه ولكن هذه المرّة جاء الحديث على لسانه مخاطباً ربّه وشاكياً إليه أمره معهم بعبارة مؤثّرة بليغة. خطاب نوح عليه السلام فى هذا الإطار يمكن أن يعبّد الطريق لكل

المبلغين الرساليين: «قَالَ رَبّ إِنّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا».

وإنّنى لم أتوانى لحظة واحدة فى إرشادهم وإبلاغ الرسالة لهم، ثم يقول: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِى إِلَّا فِرَارًا».

ومن العجيب أن تكون الدعوة سبباً لفرارهم، ولكن بما أنّ كل دعوة تحتاج إلى نوع من الإستعداد وصفاء القلب والتجاذب المتبادل فليس عجيباً أن يكون هنا أثر معاكس فى القلوب الخاملة.

ثم إنّ نوحاً عليه السلام يضيف: «وَإِنّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۲

ولكى لا يسمعوا صوت الحق كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم، ويلفون ثيابهم حول أنفسهم أو يضعونها على رؤوسهم لئلا تصل أمواج الصوت إلى أدمغتهم! وربّما كانوا يتقنعون لئلاـ تقع أعينهم على الهيئة الملكوتية لهذا النبى العظيم، وكانوا يصرون على أن تتوقف الآذان عن السماع والعيون عن النظر.

هذه الآية يشير إلى أحد الأسباب المهمة لتعاستهم وهو الغرور والتكبر، فكان هذا الغرور والكبر أحد الموانع المهمة والدائمة فى طريق الحق، ونحن نشاهد النتائج المشؤومة لذلك على طول التاريخ فى حياة اناس لا إيمان لهم.

واستمر نوح عليه السلام فى حديثه عند المقام الإلهى، فيقول: «ثُمَّ إِنّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا».

ثم لم أكتفى بهذا: «ثُمَّ إِنّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا».

كان صبره عجيباً، والأعجب ما فيه رأفته، وكانت همته واستقامته الفريدة رأس ماله فى السير فى طريق الدعوة إلى دين الحق.

والأعجب من ذلك هو أنّ طيلة دعوته التى دامت (۹۵۰) عاماً لم يؤمن به إلّاثمانون شخصاً.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً (۱۱) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (۱۲) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (۱۴) ثمرة الإيمان فى الدنيا: يستمر نوح عليه السلام فى تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، ويعتمد هذه المرّة على عامل الترغيب والتشجيع، ويوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك والخطايا، فيقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا».

ولا يطهركم من الذنوب فحسب بل: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» (۱).

ثم يضيف: «وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا». وبهذا فإنّه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، وبخمس نعم اخرى مادية كبيرة، والنعمة المعنوية الكبيرة هى

---

(۱) «مدراراً»: من أصل «درّ» وتعنى فى الأصل انسكاب الحليب من ثديى الام ويعطى معنى هطول الأمطار.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۳

غفران الذنوب والتطهير من درن الكفر والعصيان، وأمّا النعم المادية فهى هطول الأمطار المفيدة والمباركة فى حينها، كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحدائق المباركة والأنهار الجارية.

نعم، إنّ الإيمان والتقوى يبعثان على عمران الدنيا والآخرة بشهادة القرآن المجيد.

ويعود نوح عليه السلام مرّة اخرى لينذرهم، فيقول: «مَّا لَكُمْ لَاتَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» (۱). ولا تخافون عقابه وقد خلقكم فى مراحل مختلفة.

ويقول أيضاً: «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا».

كنتم فى البداية نطفة لا قيمة لها، ثم صوركم علقة ثم مضغة، ثم وهبكم الشكل الإنسانى، ثم ألبسكم لباس الحياة، فوهب لكم الروح والحواس والحركة.

وليست أجسامكم هى المتغيرة فقط بل إنّ الروح هى أيضاً فى تغيّر مستمر، لكل منكم استعداده الخاص. وعلى هذا فإنّه معكم فى كل مكان هو يهديكم فى كل خطوة ويشملكم بلطفه وعنايته، فلم كل هذا الكفران والإستهانة.

أ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (۱۵) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (۱۶) وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (۱۷) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (۱۸) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (۱۹) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً (۲۰) كان نوح عليه السلام يبيّن للمشركين المعاندين حقائق عميقة ومستدلة، إذ كان يأخذ بهم إلى أعماق وجودهم ليشاهدوا حقائق هذه الآيات (كما مرّ فى الآيات السابقة) ودعاهم إلى ما خلق اللّه من علامات فى هذا العالم الكبير، فكان يسير بهم إلى تلك الآفاق.

يبدأ أوّلًا بالسماء فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَموَاتٍ طِبَاقًا».

«طباقاً»: مصدر من باب (مفاعلة) بمعنى «مطابقة»، وأحياناً تأتى بمعنى وضع الشىء فوق شىء آخر، وتأتى أحياناً اخرى بمعنى مطابقة ومماثلة شيئين أحدهما مع الآخر، والمعنيان يصدقان هنا.

---

(۱) «الوقار»: الثقل والعظمة؛ و «ترجون»: من أصل رجاء بمعنى الأمل وهو ملازم للخوف، ومعنى الآية لماذا لاتخضعون لعظمة اللّه تعالى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۴

وعلى الإحتمال الثانى فإنّ القرآن يشير إلى مطابقة وتناسق السماوات السبع فى النظم والعظمة والجمال. ثم يضيف: «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا».

التعبير بالسراج للشمس وبالنور للقمر هو أنّ نور الشمس ينشأ من ذاتها كالسراج، وأمّا نور القمر فإنّه ليس من باطنه بل انعكاس لنور الشمس.

ثم يعود ذلك إلى الإنسان فيقول: «وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا».

التعبير ب «الإنبات»، فى شأن الإنسان لأسباب؛ أوّلًا: خلق الإنسان الأوّل من التراب.

ثانياً: إنّ المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان وبها ينمو ويحيى، هى من الأرض، فهو إمّا يتناول الخضار والحبوب الغذائية أو الفواكه مباشرة، أو بطريق غير مباشر كلحوم الحيوانات.

ثالثاً: هناك تشابه كثير بين الإنسان والنبات، وهناك كثير من القوانين التى يسرى حكمها على نمو وتغذية النباتات هى سارية أيضاً على الإنسان.

ثم يمضى إلى مسألة المعاد والتى كانت من المسائل المعقدة عند المشركين فيقول: «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا».

كنتم فى البدء تراباً، ثم تعودون إلى التراب ثانية، ومن كانت له القدرة على أن يخلقكم من التراب هو قادر على أن يحييكم بعد الموت.

ثم يعود مرّة اخرى إلى آيات الآفاق وعلامات التوحيد فى هذا العالم الكبير، ويتحدث عن نعم وجود الأرض فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا».

ليست هى بتلك الخشونة بحيث لا يمكنكم الإنتقال والاستراحة عليها، وليست بتلك النعومة بحيث تغطسون فيها، وتفقدون القدرة على الحركة، مضافاً إلى ذلك فهى كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية.

وليست الأراضى المسطحة كالبساط الواسع فحسب، بل بما فيها من الجبال والوديان والشقوق المتداخلة بعضها فوق بعض والتى يمكن العبور من خلالها.

«لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا». «فجاج»: على وزن (مزاج)، وهو جمع فج، وبمعنى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۵

الوادى الفسيح بين الجبلين، وقيل الطريق الواسعة.

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (۲۱) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (۲۲) وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَ لَا سُوَاعاً وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (۲۴) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (۲۵) لطف اللّه معك: عندما رأى نوح عليه السلام عناد قومه وقد بذل فى سبيل هدايتهم منتهى مساعيه التى طالت مئات السنين، وما كانوا يزدادون فيها إلّافساداً وضلالًا، يئس منهم وتوجّه إلى ربّه ليناجيه ويطلب منه أن يعاقب قومه، كما نقرأ فى هذه الآيات محل البحث:

«قَالَ نُوحٌ رَّبّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا».

تشير هذه الآية إلى أنّ رؤساء هؤلاء القوم يمتازون بكثرة الأموال والأولاد، ولكنّها لا تستخدم لخدمة الناس بل للفساد والعدوان، ولا يخضعون للّه‌تعالى، وهذه الإمتيازات الكثيرة سببت فى طغيانهم وغيهم.

ثم يضيف فى قوله تعالى: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا».

إنّهم كانوا يضعون خططاً شيطانية واسعة لتضليل الناس، ورفض دعوة نوح عليه السلام، ومن المحتمل أن يكون عبادة الأصنام واحدة من هذه الخطط والأساليب، وذلك طبقاً للروايات التى تشير إلى عدم وجود عبادة الأصنام قبل عصر نوح عليه السلام وأن قوم نوح هم الذين أوجدوها.

وتدل الآية الاخرى على هذا الأمر، إذ أنّها تضيف بعد الإشارة إلى خفاء هذا المكر فى قوله تعالى: «وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ».

ولا- تقبلوا دعوة نوح إلى اللّه الواحد، وغير المحسوس، وأكدوا بالخصوص على خمسة أصنام، وقالوا: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا».

ويستفاد من القرائن أنّ هذه الأصنام الخمسة لقيت عناية بالغة من القوم الظالمين، ولهذا كان رؤسائهم المستغلون لهم يعتمدون على عبادتهم لها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۶

ثم يضيف عن لسان نوح عليه السلام: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَلًا».

المراد من زيادة الضلال للظالمين هو الدعاء بسلب التوفيق الإلهى منهم ليكون سبباً فى تعاستهم، أو أنّه دعاء منه أن يجازيهم اللّه بكفرهم وظلمهم ويسلبهم نور الإيمان، ولتحلّ محله ظلمة الكفر. وبالتالى فإنّ الآية الأخيرة فى البحث، يقول اللّه تعالى فيها: «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا».

تشير الآية إلى ورودهم النار بعد الطوفان، وممّا يثير العجب هو دخولهم النار بعد الدخول فى الماء! وهذه النار هى نار البرزخ، لأنّ بعض الناس يعاقبون بعد الموت، وذلك فى عالم البرزخ كما هو ظاهر فى سياق بعض الآيات القرآنية، وكذا ذكرت الروايات أنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (۲۷) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (۲۸) على الفاسدين والمفسدين أن يرحلوا: هذه الآيات تشير إلى استمرار نوح عليه السلام فى حديثه ودعائه عليهم فيقول تبارك وتعالى: «وَقَالَ نُوحٌ رَّبّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا».

دعا نوح عليه السلام بهذا الدعاء عندما يئس من هدايتهم بعد المشقّة والعناء فى دعوته إيّاهم، فلم يؤمن إلّاقليل منهم.

والتّعبير ب «على الأرض» يشير إلى أنّ دعوة نوح عليه السلام كانت تشمل العالم، وكذا مجىء الطوفان والعذاب بعده.

ثم یستدل نوح علیه السلام للعنه القوم فیقول: «إِنَّکَ إِن تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبَادَکَ وَلَا یَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا کَفَّارًا». وهذا یشیر إلی أنّ دعاء الأنبیاء ومن بینهم نوح علیه السلام لم یکن ناتجاً عن الغضب والإنتقام والحقد، بل إنّه علی أساس منطقی.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۷

«الفاجر»: یراد به من یرتکب ذنباً قبیحاً وشنیعاً.

«کفّار»: المبالغ فی الکفر.

والإختلاف بین هذین اللفظین هو أن أحدهما یتعلق بالجوانب العملیة، والآخر بالجوانب العقائدیة.

ثم یدعو نوح علیه السلام، لنفسه ولمن آمن به فیقول: «رَّبِّ اغْفِرْ لِی وَلِوَالِدَیَّ وَلِمَن دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِینَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا تَبَارًا».

طلب المغفرة هذا من نوح علیه السلام کأنّه یرید أن یقول إنّنی وإن دعوت قومی مئات السنین ولقیت ما لقیت من العذاب والإهانة، ولکن یمکن أن یکون قد صدر منّی الترک الأولی، فلذا أطلب العفو والمغفرة لا ابریء نفسی أمام اللَّه تعالی.

«نهایة تفسیر سورة نوح»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۷۹

۷۲. سورة سورة الجن

محتوی السورة: تتحدث هذه السورة حول نوع من الخلائق المستورین عن حواسنا وهم الجن، کما سمّیت السورة باسمهم، وأنّهم یؤمنون بنبیّنا الأکرم صلی الله علیه و آله، وعن خضوعهم للقرآن وإیمانهم بالمعاد، وأنّ فیهم المؤمن والکافر وغیر ذلک، وفی هذا القسم من السورة (۱۹) آیة من (۲۸) آیة تصحح ما حُرّف من معتقدات حول الجن.

وهناک قسم آخر من السورة یشیر إلی التوحید والمعاد، والقسم الأخیر یتحدث عن العلم الذی لا یعلمه إلّامن شاء للَّه.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «من أکثر قراءة «قُلْ أُوحِیَ» لم یصبه فی الحیاة الدنیا شیء من أعین الجن، ولا من نفثهم، ولا من سحرهم، ولا من کیدهم، وکان مع محمّد صلی الله علیه و آله فیقول: یا ربّ، لا ارید بهم بدلًا، ولا أرید بدرجتی حولًا».

وطبعاً التلاوة مقدمة وتمهید لمعرفة محتوی السورة والتدبّر بها، ثم العمل بما فیها.

قُلْ أُوحِیَ إِلَیَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (۱) یَهْدِی إِلَی الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنَا أَحَداً (۲) وَ أَنَّهُ تَعَالَی جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَ لَا وَلَداً (۳) وَ أَنَّهُ کَانَ یَقُولُ سَفِیهُنَا عَلَی اللَّهِ شَطَطاً (۴) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی اللَّهِ کَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ کَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (۶)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۰

سبب النّزول

ما جاء فی سبب نزول سورة الأحقاف فی تفسیر الآیات (۲۹- ۳۲) مطابق لسبب نزول هذه السورة، ویدل علی أنّ السورتین یتعلقان بحادثة واحدة، ونوضح سبب النزول باختصار کما یلی:

۱- إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خرج من مکة إلی سوق عکاظ ومعه زید بن حارثة یدعو الناس إلی الإسلام، فلم یجبه ولم یجد من یقبله، ثم رجع إلی مکة فلما بلغ موضعاً یقال له وادی مجنة تهجد بالقرآن فی جوف اللیل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ... فأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله شرائع الإسلام «۱».

۲- عن ابن عباس قال: انطلق رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی طائفة من أصحابه عامدین إلی سوق عکاظ. وقد حیل بین الشیاطین

وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء، فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها، فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القران استمعوا له، فقالوا: هذا واللّه الذى حال بينكم وبين خبر السماء.

فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا* يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» «۲».

ولكن جاء فى سبب نزول هذه السورة ما يخالف هذا المعنى، وهو أنّ علقمة بن قيس قال: قلت لعبداللّه بن المسعود: من كان منكم مع النبى صلى الله عليه و آله ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله أو استطير. فانطلقنا نطلبه من الشعاب، فلقيناه مقبلًا من نحو حراء، فقلنا: يا رسول اللّه! اين كنت لقد أشفقنا عليك؟ وقلنا له: بتنا الليلة بشرّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك! فقال لنا: «إنّه أتانى داعى الجن فذهبت أقرئهم القرآن» «۳».

---

(۱) تفسير على بن ابراهيم ۲/ ۲۹۹ و ۳۸۸.

(۲) فى ظلال القرآن ۷/ ۴۲۹.

(۳) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۴۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۱

مختصر الامثل ج۵ ۲۹۹

التّفسير

القرآن العجيب: يقول اللّه تعالى: «قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا».

يعلم من مفهوم الآية أنّ للجن عقلًا وشعوراً وفهماً وإدراكاً، وأنّهم مكلّفون ومسؤولون، ولهم المعرفة باللغات ويفرقون بين الكلام الخارق للعادة بين الكلام العادى، وبين المعجز وغير والمعجز، ويجدون أنفسهم مكلّفين بإيصال الدعوة إلى قومهم، وأنّهم هم المخاطبون فى القرآن المجيد.

إنّ لهم الحق فى أن يحسبوا هذا القرآن عجباً، لِلَحنِه العجيب، ولجاذبية محتواه، ولتأثيره العجيب، ولمن جاء به والذى لم يكن قد درس شيئاً وقد ظهر من بين الاميين.

لقد تحدثوا لقومهم بحديث آخر تبيّنه السورة فى (۱۲) آية، وكل منها تبدأ ب (أن) وهى دلالة على التأكيد.

فيقول أوّلًا بأنّهم قالوا: «يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا».

وبعد إظهار الإيمان ونفى الشرك باللّه تعالى ينتقل كلامهم إلى تبيان صفات اللّه تعالى:

«وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا».

«جد»: لها معانٍ كثيرة فى اللغة، منها: العظمة، والشدّة، والجد، والقسمة، والنصيب. وأمّا المعنى الحقيقى فهو «القطع»، وتأتى بمعنى «العظمة» إذا كان هناك كائن عظيم منفصل بذاته عن بقية الكائنات.

ثم قالوا: «وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا». أى أنّ سفهاءنا قالوا: إنّ للّهزوجة وأطفالًا، واتّخذ لنفسه شريكاً وشبيهاً، وإنّه قد انحرف عن الطريق، وكان يقول شططاً.

واحتمل بعض المفسرين أنّ «السفيه» هنا له معنى انفرادى، والمقصود به هو «ابليس» الذى نسب إلى اللّه نسب ركيكة، وذلك بعد مخالفته لأمر اللّه.

ولمّا كان ابليس من الجن، وكان قد بدا منه ذلك، اشمأز منه المؤمنون من الجن واعتبروا ذلك منه شططاً، وإن كان عالماً وعابداً.

«شطط»: على وزن وسط، وتعنى الخروج والإبتعاد عن قول الحق.

ثم قالوا: «وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۲

لعلّ هذا الكلام اشارة إلى التقليد الأعمى للغير، حيث كانوا يشركون باللّه وينسبون إليه الزوجة والأولاد، فهم يقولون: لقد كنّا نصدقهم بحسن ظنّنا بهم ونقول بمقالتهم الخاطئة، وما كنّا نظنهم يتجرؤون على اللّه بهذه الأكاذيب، ولكنّنا الآن نخطّىء هذا التقليد المزيف لما عرفنا من الحق والإيمان بالقرآن، ونقرّ بما التبس علينا، بانحراف المشركين من الجن. ثم ذكروا إحدى الإنحرافات للجن والإنس وقالوا: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

«رهق»: على وزن (شفق) ويعنى غشيان الشيء بالقهر والغلبة، وفُسّر بالضلال والذنب والطغيان والخوف الذى يسيطر على روح الإنسان وقلبه ويغشيه.

فإنّ للآية مفهوماً واسعاً، يشمل جميع أنواع الإلتجاء إلى الجن، والخرافة المذكورة هى مصداق من مصاديقها، وكان فى أوساط العرب كهنة كثيرون يعتقدون أنّ الجن باستطاعتهم حلّ الكثير من المشاكل وإخبارهم بالمستقبل.

يشير سياق الآية إلى استمرار حديث المؤمنين من الجن، وتبيان الدعوة لقومهم، وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (۷) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (۹) وَ أَنَّا لَا نَدْرِى أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (۱۰) ودعوتهم إلى الإسلام بالطرق المختلفة، فيقولون: «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا».

لذا تبادروا لإنكار القرآن وتكذيب نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنّنا عند سماعنا لآيات القرآن أدركنا الحقائق، فلا تكونوا كالإنس وتتخذوا طريق الكفر فتبتلوا بما ابتلوا به.

وهذا تحذير للمشركين ليفيقوا عند سماعهم لكلام الجن وتحكيمهم وليتمسكوا بالقرآن وبالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

ثم يشيرون إلى علامة صدق قولهم وهو ما يدركه الجن فى عالم الطبيعة، فيقولون: «وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا» «۱».

---

(۱) «لمسنا»: من لمس، وتعنى هنا الطلب والبحث؛ و «حرس»: على وزن قفص، جمع حارس، وقيل اسم جمع لحارس، وتعنى الشديد الحفاظ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۳

وكنّا فى السابق نسترق السمع من السماء ونحصل على أخبار الغيب ونوصلها إلى أصدقائنا من الإنس ولكنّنا منعنا من ذلك الآن: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا». أليس هذا الوضع الجديد دليل على حقيقة التغيير العظيم الحاصل فى العالم عند ظهور الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وكتاب اللّه السماوى، لماذا كانت لكم القدرة على استراق السمع والآن سلبت منكم هذه القدرة؟ أليس معنى هذا انتهاء عصر الشيطنة والكهانة والخداع، وانتهاء ظلمة الجهل بشروق شمس الوحى والنبوّة.

ثم قالوا: «وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الْأَرْضِ أَم أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا». أى: مع كل هذا فإنّنا لا ندرى أكان هذا المنع من استراق السمع دليل على مكيدة تراد بأهل الأرض، أم أراد اللّه بذلك المنع أن يهديهم، وبعبارة اخرى أنّنا لا ندرى هل هذا هو مقدمة لنزول البلاء والعذاب من اللّه، أم مقدمة لهدايتهم، ولكن لا يخفى على مؤمنى الجن أنّ المنع من استراق السمع الذى تزامن مع ظهور نبيّنا الأكرم صلى الله عليه و آله هو مقدمة لهداية البشرية، وانحلال جهاز الكهانة والخرافات الاخرى، وليس هذا إلّاانتهاءً لعصر الظلام، وابتداء عصر النور.

ومع هذا، فإنّ الجن ولعلاقتهم الخاصة بمسألة استراق السمع لم يكونوا يصدقون بما فى ذلك المنع من خير وبركة، وإلّا فمن الواضح أنّ الكهنة فى العصر الجاهلى كانوا يستغلون هذا العمل فى تضليل الناس.

وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِکَ کُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَی آمَنَّا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا یَخَافُ بَخْساً وَ لَا رَهَقاً (١٣) وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١۴) وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَکَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١۵) فى هذه الآيات يستمر مؤمنو الجن فى حديثهم وهم يبلغون قومهم الضالين فيقولون:

«وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِکَ کُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا».

ويحتمل أن يكون المراد من قولهم هذا هو أنّ وجود إبليس فيما بينهم قد أوجد شبهة لبعضهم، بأنّ الجن متطبّع على الشرّ والفساد والشيطنة، ومحال أن يشرق نور الهداية فى قلوبهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ٢٨۴

ولكن مؤمنى الجن يوضحون فى قولهم هذا أنّهم يملكون الإختيار والحرية، وفيهم الصالح والطالح، وهذا يوفرّ لهم الأرضية للهداية.

ولهذه الآية تأثير فى إصلاح ما اشتبه علينا نحن البشر فى عقائدنا حول الجن، لأنّ كثير من الناس يتصورون أنّ لفظة الجن تعنى الشيطنة والفساد والضلال والإنحراف، وسياق هذه الآية يشير إلى أنّ الجن فصائل مختلفة، صالحون وطالحون.

وفى إدامة حديثهم يحذرون الآخرين فيقولون: «وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا». وإذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون الفرار من الجزاء وتلتجئون إلى زاوية من زوايا الأرض أو نقطة من نقاط السماوات فإنّكم فى غاية الخطأ.

وأضاف مؤمنو الجن فى حديثهم قائلين: «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَی ءَامَنَّا بِهِ». وإذ ندعوكم لهدى القرآن فإنّنا ممّن عمل بذلك أوّلًا، ولذا نحن لا ندعو الآخرين إلى أمر لم نكن فاعليه.

ثم بيّنوا عاقبة الإيمان فقالوا: «فَمَن یُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا یَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا».

إنّ المؤمنين مهما يعملوا من عمل كبيراً كان أو صغيراً فإنّهم يستوفون اجور ذلك بلا نقص أو قلّة.

وفى الآية الاخرى توضيح أكثر حول عاقبة المؤمنين والكافرين فيقولون: «وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَدًا» «١».

«وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَکَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

والتعبير ب «تَحَرَّوْا رَشَدًا» يشير إلى أنّ المؤمنين إنّما يتوجهون إلى الهدى بالتحقيق والتوجه الصادق، وجزاءهم الأوفى هو نيلهم الحقائق التى بظلها ينالون النعم الإلهية.

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذَاباً صَعَداً (١٧) وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ یَدْعُوهُ کَادُوا یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً (١٩) الفتنة باغداق النعمة: إنّ سياق الآيات السابقة يشير إلى ثواب المؤمنين فى يوم القيامة،

---

(١) «القاسط»: من أصل «قسط» وتعنى التقسيم العادل؛ فإن أتت على وزن (أفعال)، (أقساط) فإنّها تعنى إجراء العدالة، وإذا استعملت بصورة الثّلاثى المجرّد كما فى هذه الآية فإنّها تعطى معنى الظلم والانحراف عن سبيل الحق؛ و «تحروا»: من أصل «تحرى وتعنى توخّاه وقصده.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ٢٨۵

وفى هذه الآيات يتحدث عن ثوابهم الدّنيوى فيقول: «وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا».

ننزل عليهم مطر رحمتنا، ونذلل لهم منابع وعيون الماء الذى يهب الحياة وبوجود الماء يوجد كل شىء وعلى هذا فإنّنا نشلمهم بأنواع

النعم.

القرآن المجيد أكّد ولعدّة مرات على أنّ الإيمان والتقوى ليست فقط منبعاً للبركات المعنوية، بل تودّى إلى زيادة الأرزاق والنعم والعمران، أى (البركة المادية).

الملاحظ حسب هذا البيان أنّ سبب زيادة النعمة هو الإستقامة على الإيمان، وليس أصل الإيمان، لأنّ الإيمان المؤقت لا يستطيع أن يظهر هذه البركات.

والآية الاخرى إشارة إلى حقيقة اخرى بنفس الشأن، فيضيف: «لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ».

ومن هنا يتّضح أنّ وفور النعمة من إحدى الأسباب المهمة فى الإمتحان الإلهى، وما يُتفق عليه هو أنّ الإختبار بالنعمة أكثر صعوبة وتعقيداً من الإختبار بالعذاب، لأنّ طبيعة ازدياد النعم هو الإنحلال والكسل والغفلة، والغرق فى الملذات والشهوات، وهذا ما يُبعد الإنسان عن اللّه تعالى ويُهيىء الأجواء لمكائد الشيطان، والذين يستطيعون أن يتخلصوا من شراك النعم الوافرة هم الذاكرون للّهعلى كل حال، غير الناسين له تعالى.

ولذا يضيف تعقيباً على ذلك: «وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا».

«صعد»: على وزن (سفر) وتعنى الصعود إلى الأعلى، وأحياناً الشِعب المتعرجة فى الجبل، وبما أنّ الصعود من الشعاب المتعرجة عمل شاق، فإنّ هذه اللفظة تستعمل بمعنى الامور الشّاقة.

ولكن، مع أنّ التعبير أعلاه يبيّن كون هذا العذاب شاقّاً شديداً فإنّه يحتمل أن يشير إلى اليوم الطويل، وعلى هذا الأساس فإنّه يبيّن فى الآيات أعلاه رابطة الإيمان والتقوى بكثرة النعم من جهة، ورابطة كثرة النعم بالاختبارات الإلهية من جهة اخرى ورابطة الإعراض عن ذكر اللّه تعالى بالعذاب الشاق الطويل من جهة ثالثة.

وقال مؤمنو الجن فى الآية الاخرى وهم يدعون إلى التوحيد: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

المراد بالمساجد هى المواطن التى يُسجد فيها للّهتعالى كالمسجد الحرام وبقية المساجد، وبشكل أعم هى الأرض التى يصلّى فيها ويسجد عليها، وهو مصداق قول الرسول

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۶

الأكرم صلى الله عليه و آله: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» «۱». وهذا ردّ لمن اتّخذ الأصنام والأوثان للعبادة فأشرك باللّه، ومن اتّخذ الكعبة معبداً للأصنام، أو انصرف إلى إحياء الطقوس المسيحية حيث (التثليث) أو عبد الأرباب الثلاثة فى الكنائس واللّه تعالى يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

ويضيف فى إدامة الآية بياناً عن التأثير غير العادى للقرآن المجيد وقيام الرسول للدّعاء فيقول: «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا». أى: عندما كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقوم للصلاة، فإنّ طائفة من الجن كانوا يجتمعون عليه بشكل متراحم.

«لبد»: على وزن (فِعَل) وتعنى الأشياء المجتمعة المتراكمة، وهذا التعبير بيان لتعجب الجن ممّا يشاهدونه من عبادته وقراءته صلى الله عليه و آله قرآناً لم يسمعوا كلاماً يماثله.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (۲۰) قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَ لَا رَشَداً (۲۱) قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۲) إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (۲۳) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (۲۴) فى هذه الآيات يأمر اللّه تعالى نبيّه أن يقول: «قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا».

وذلك لتقوية قواعد التوحيد، ونفى كل أنواع الشرك، كما مرّ فى الآيات السابقة.

ثم يأمره أن: «قُلْ إِنّی لَاأَمْلِکَ لَکَمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا».

ثم يضيف: قل لهم بأنّى لو خالفت أمر اللَّه تعالى فسوف يحيق بى العذاب أيضاً ولن يستطيع أحد أن ينصرنى أو يدفع عنّى عذابه: «قُلْ إِنّی لَن يُجِيرَنِی مِّنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا».

وعلى هـذا الأساس لا يستطيع أحد أن يجيرنى منه تعالى ولا شـىء يمكنه أن يكون لى ملجأ وهذا الخطاب يشير من جهة إلى الإقرار الكامل بالعبوديـة للّه‌تعالى، وإلى نفى كل أنواع الغلو فى شأن النبى صـلى الله عليه و آله من جهـة اخرى، ويشـير من جهة ثالثة إلى أنّ الأصنام ليس

(١) وسائل الشيعة ٢/ ٩٧٠/ ٣.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۷

فقـط لاـ تنفع ولاـ تحمى، بـل إنّ نفس الرسول أيضـاً مع مـا له من العظمـة لا يمكنه أن يكون له ملجأ من عـذاب اللَّه، وينهى من جهة الـذرائع والآمال للمعانـدين الـذين كانوا يطلبون من النبى صـلى الله عليه و آله أن يريهم المعاجز الإلهيـة، ويثبت أنّ التوسل والشـفاعة أيضاً لا يتحققان إلّاباذنه تعالى.

ويضيف فى الآية الاخرى: «إِلَّا بَلَغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ».

وقـد مرّ ما يشابه هذا التعبير مراراً فى آيات القرآن الكريم، كما فى الآية (٩٢) من سورة المائدة: «أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ». وكذا فى الآية (١٨٨) من سورة الأعراف: «قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِی نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ويحذر فى نهاية الآية فيقول: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

الواضح أنّ المراد فيها ليس كل العصاة، بل المشركون والكافرون لأنّ مطلق العصاة لا يخلدون فى النار.

ثم يضيف: «حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا».

إنّ سـياق هذه الآية يشـير إلى أنّ أعداء الإسـلام كانوا يتبجّحون بقدرات جيوشهم وكثرة جنودهم أمام المسلمين ويستضعفونهم، لهذا كان القرآن يواسيهم- المسلمين- ويبشرهم بأنّ العاقبة ستكون بانتصارهم وخسران عدوهم.

قُلْ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨) اللَّه عالم الغيب: لقـد تبيّن فى الآيات السابقـة حقيقـة أنّ العصاة يبقون على عنادهم واسـتهزائهم حتى يأتى وعـد اللَّه بالعـذاب، وهنا يطرح السؤال، وهو: متى يتحقق وعد اللَّه؟

وقد أجاب القرآن على ذلك فقال: «قُلْ إِن أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبّى أَمَدًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۸

هـذا العلم يخص ذاته المقدسـة تعالى شأنه، وأراد أن يبقى مكتوماً حتى عن عباده المؤمنين، ليتحقق الإختبار الإلهى للبشـرية، وإلّا فلن يؤثر الإختبار.

فإنّنـا كثيراً ما نواجه مثل هـذه المعانى فى آيات القرآن، وعنـدما يسأل الرسول صـلى الله عليه و آله عن يوم القيامـة يجيب بأنّه ليس له علم بـذلك، وأنّ علمه عنـد اللَّه. ولما تبـدى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال: يا محمّد أخبرنى عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهْوَرىّ فقال: يا محمّـد، متى الساعـة؟ قال: «ويحك، إنّها كائنة فما أعددت لها»؟ قال: أمّا إنّى لم اعدّ لها كثير صـلاة ولا صيام، ولكنى احبّ اللَّه ورسوله، قال صلى الله عليه و آله: «فأنت مع من أحببت».

قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث «۱».

ثم يبيّن فى هذا الحديث قاعدة كلية بشأن علم الغيب فيقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا».

ثم يضيف مستثنياً: «إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ». أى يبلغه ما يشاء عن طريق الوحى الإلهى: «فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَينِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا».

«رصد»: فى الأصل مصدر، ويراد به الإستعداد للمراقبة من شيء؛ ويراد به هنا الملائكة الذين يبعثهم اللّه مع الوحى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليحيطوه من كل جانب، ويحفظوا الوحى من شرّ شياطين الجن والإنس ووساوسهم ومن كل شيء يخدش أصالة الوحى، ليوصلوا الرسالات إلى العباد، وهذا هو دليل من الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السلام المحفوظين من الزّلات والخطايا بالإمداد الإلهى والقوّة الغيبية، والملائكة.

فى بحثنا للآية الأخيرة التى تنهى السورة تبيان لدليل وجود الحراس والمراقبين فيقول:

«لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا».

المراد من العلم هنا هو العلم الفعلى، وبعبارة اخرى ليس معنى الآية أنّ اللّه ما كان يعلم عن أنبيائه شيئاً ثم علم، لأنّ العلم الإلهى أزلى وأبدى وغير منتاه، بل إنّ المراد هو تحقق العلم الإلهى فى الخارج، ويتخذ لنفسه صورة عينية واضحة، أى ليتحقق إبلاغ الأنبياء ورسالات ربّهم ويتمموا الحجة بذلك.

---

(۱) تفسير المراغى ۲۹/ ۱۰۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۸۹

بحثان

۱- تحقيق موسّع حول علم الغيب: من خلال التمعن فى الآيات المختلفة للقرآن الكريم يتّضح لنا أنّ الآيات المتعلقة بعلم الغيب قسمان:

القسم الأوّل: ما يتعلق بذاته جلّ شأنه ولا يعلمه إلّاهو، كما فى الآية (۵۹) من سورة الأنعام: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

والآية (۵۰) من سورة الأنعام: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

القسم الثانى: يطرح بوضوح إطّلاع أولياء اللّه على الغيب، كما فى الآية (۱۷۹) من سورة آل عمران: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ».

ونقرأ فى معاجز المسيح عليه السلام كما فى الآية (۴۹) من سورة آل عمران: «وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ».

والآية السابقة مورد البحث أيضاً تشير إلى أنّ اللّه تعالى يهب العلم لمن يرتضيه من رسله، ومن جهة اخرى فإنّ الآيات التى تشمل الأخبار الغيبية ليست بقليلة. كالآيات (۲- ۴) من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ».

ومن المعروف أنّ الوحى السماوى الذى يهبط على الرسل هو نوع من الغيب الذى أطلعهم اللّه عليه، فكيف يمكن أن ننفى إطّلاعهم بالغيب فى الوقت الذى يهبط عليهم الوحى.

بالإضافة إلى ذلك كله فإنّ هناك روايات كثيرة تدل على أنّ النبى صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام مطّلعون على الغيب، ويخبرون به أحياناً.

وكذلك إخباره صلى الله عليه و آله بحوادث معركة مؤتة، واستشهاد جعفر الطيار رضى الله عنه وبعض القادة المسلمين، فى الوقت الذى كان الرسول صلى الله عليه و آله يطلع الناس على ذلك فى المدينة «۱». والأمثلة على ذلك ليست قليلة فى حياة النبى صلى الله عليه و آله.

وورد فى نهج البلاغة أيضاً أخبار كثيرة سابقة لأوانها تشير إلى حوادث مستقبلية، أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام، ممّا يدل على اطّلاعه بأسرار الغيب، كما جاء فى الخطبة (۱۳) فى

(۱) الكامل فى التاريخ ۲/ ۱۱۲ (ذكر غزوة مؤتة).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۰

ذمّه أهل البصرة حيث يقول: «كأنّى بمسجدكم كجؤجؤ لسفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من فى ضمنها».

وما قاله كميل بن زياد للحجاج أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبرنى بأنّك قاتلى «۱».

أمّا كيف نجمع بين هذه الآيات والروايات التى ينفى بعضها علم الغيب لغير اللّه وإثبات البعض الآخر لغيره تعالى؟ هناك طرق مختلفة للجمع بينها:

۱- أشهر طرق الجمع هو أنّ المراد من اختصاص علم الغيب باللّه تعالى هو العلم الذاتى والإستقلالى، ولهذا لا يعلم الغيب إلّاهو، وما يعلمونه فهو من اللّه، وذلك بلطفه وعنايته.

۲- أسرار الغيب قسمان: قسم خاص باللّه عزّ وجل لا يعلمه إلّاهو كقيام الساعة، وغيرها ممّا يشابه ذلك، والقسم الآخر علّمه الأنبياء والأولياء، كما جاء فى الخطبة (۱۲۸) نهج البلاغة حيث يقول على عليه السلام: «وإنّما علم الغيب علم الساعة، وما عدّده اللّه سبحانه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ»» الآية. ثم أضاف الإمام عليه السلام فى شرح هذا المعنى:

«فيعلم اللّه سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخىّ أو بخيل، وشقىّ أو سعيد، ومن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنّبيّين مرافقاً فهذا علم الغيب الّذى لا يعلمه أحد إلّااللّه وما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه فعلّمنيه».

يمكن لبعض الناس أن يعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر ومثل ذلك علماً إجمالياً، وأمّا العلم التفصيلى والتعرف على هذه الامور فهو خاص بذات اللّه تعالى المقدسة وإنّ علمنا بشأن يوم القيامة هو علم إجمالى ونجهل جزئيات وخصوصيات يوم القيامة.

وإذا كان النبى صلى الله عليه و آله أو الأئمة المعصومون عليهم السلام قد أخبروا البعض فى أحاديثهم عمّن يولد أو عمن ينقضى عمره، فذلك يتعلق بالعلم الإجمالى.

۳- والطريق الآخر هو أنّ اللّه تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، وأمّا الأنبياء والأولياء فإنّهم لا يعلمونها كلّها، ولكنّهم إذا ما شاءوا ذلك أعلمهم اللّه تعالى بها، وبالطبع هذه الإرادة لا تتمّ إلّابإذن اللّه تعالى.

ومحصلة ذلك أنّ الآيات والروايات التى تقول إنّهم لا يعلمون بالغيب هى إشارة إلى

(۱) الإصابة لابن حجر ۵/ ۴۸۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۱

عدم المعرفة الفعلية، والتى تقول إنّهم يعلمون تشير إلى إمكان معرفتهم لها.

۲- تحقيق حول خلق الجن: الجن كما جاء فى المفهوم اللغوى هو نوع من الخلق المستور، وقد ذكرت له مواصفات كثيرة فى القرآن؛ منها:

۱- إنّهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان المخلوق من التراب؛ كما نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة الرحمن: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَارِجٍ مِّن نَّارٍ».

۲- إنّهم يمتلكون الإدراك والعلم والتمييز بين الحق والباطل والقدرة على المنطق والإستدلال؛ كما هو واضح من آيات سورة

(الجن).

۳- إنّهم مكلّفون ومسؤولون؛ كما فى آيات سورة الجن والرحمن.

۴- وفيهم المؤمنون والصالحون والطالحون؛ كما نقرأ فى الآية (۱۱) من سورة الجن: «وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ».

۵- إنّهم يحشرون وينشرون؛ كما نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة الجن: «وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

۶- لهم القدرة على النفوذ فى السماوات وأخذ الأخبار واستراق السمع، ولكنّهم منعوا من ذلك فيما بعد؛ كما نقرأ فى الآية (۹) من سورة الجن: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا».

۷- كانوا يوجدون ارتباطاً مع بعض الناس لإغوائهم بما لديهم من العلوم المحدودة التابعة إلى بعض الأسرار الروحية؛ كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة الجن: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

۸- ويوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة، كما هو موجود فى أوساط الإنس؛ كما نقرأ فى الآية (۳۹) من سورة النمل: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ».

۹- لهم القدرة على قضاء بعض الحوائج التى يحتاجها الإنسان؛ كما نقرأ فى الآيتان (۱۲ و ۱۳) من سورة سبأ: «وَمِنَ الْجِنّ مَن يَعْمَلُ بَينَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبّهِ يَعْمَلُونَ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ».

۱۰- إنّ خلقهم كان قبل خلق الإنسان؛ كما نقرأ فى الآية (۲۷) من سورة الحجر:

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَهُ مِن قَبْلُ». ولهم خصائص اخرى.

إلى هنا كان الحديث عن امور تستفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المستور والخالية

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۲

من كل الخرافات والمسائل غير العلمية، ولكنّنا نعلم أنّ السذج والجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافى مع العقل والمنطق، منها ما نسب إليهم الأشكال الغريبة والعجيبة والمرعبة، وأنّهم موجودات سامة وذوات أذناب مؤذية، ومبغضة، سيئة التصرف والسلوك، وأوهام اخرى من هذا القبيل، فى حين أنّ أصل الموضوع إذا تمّ تطهيره من هذه الخرافات يكون قابلًا للقبول.

ومن جهة اخرى، ليس هناك دليل عقلى على عدم وجود الجن، ولهذا لابدّ من الإعتقاد بهم، وتجنب الأقوال التى لا تليق بهم كما فى خرافات العوام.

ومما يلاحظ أيضاً أنّ لفظ الجن يطلق أحياناً على مفهوم أوسع يشمل أنواعاً من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل والإدراك والفاقدة لهما، وحتى مجاميع الحيوانات التى ترى بالعين والمختفية فى الأوكار أيضاً، والدليل على ذلك روايات وردت عن النبى صلى الله عليه و آله حيث قال: «خلق اللَّه الجن خمسة أصناف: صنف كالريح فى الهواء، وصنف حيات، وصنف عقارب، وصنف حشرات الأرض، وصنف كبنى آدم عليهم الحساب والعقاب» «۱».

«نهاية تفسير سورة الجن»

---

(۱) بحار الأنوار ۶۰/ ۲۶۷.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۳

۷۳. سورة المزمل

محتوى السورة: يمكن أن نقسم مباحث السورة فى خمسة أقسام:

۱- الآيات الاولى للسورة والتى تأمر النبى صلى الله عليه و آله بقيام الليل والصلاة فيه، ليستعد بذلك لنقل ما سيلقى عليه من القول

الثقيل.

۲- يأمره صلى الله عليه و آله بالصبر والمقاومة ومداراة المخالفين.

۳- بحوث حول المعاد، وإرسال موسى بن عمران إلى فرعون وذكر عذابه الأليم.

۴- فيه تخفيف لما ورد فى الآيات الاولى من الأوامر الشديدة عن قيام الليل، وذلك بسبب محنة المسلمين والشدائد المحيطة بهم.

۵- والقسم الأخير من السورة يعود ليدعو إلى تلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإنفاق فى سبيل اللَّه والإستغفار.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة المزمل رفع عنه العسر فى الدنيا والأخرة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة المزّمل فى العشاء الآخرة، أو فى آخر الليل كان له الليل والنهار شاهدين مع السورة، وأحياه اللَّه حياة طيبة وأماته ميتة طيبة».

ومن الطبيعى أنّ هذه الفضائل لابدّ أن تكون ملازمة مع قيام الليل وقراءة القرآن والصبر والإستقامة والإيثار والإنفاق العملى، وليس بالتلاوة الخالية من العمل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۴

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (۳) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (۴) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (۵)

يشير سياق الآيات كما بيّنا إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله للإستقامة والإستعداد لقبول مهمة كبيرة وثقيلة، وهذا لا يتمّ إلّابالبناء المسبق للذات، فيقول: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا* نّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا» «۱». إنّ هذا ليس زمان التزمل والإنزواء، بل زمان القيام والبناء الذاتى والإستعداد لأداء الرسالة العظيمة.

واختيار الليل لهذا العمل أوّلًا: لأنّ أعين الأعداء نائمة؛ وثانياً: تتعطل الأعمال والمكاسب، ولهذا فإنّ الإنسان يستعد للتفكر ولتربية النفس.

وكذلك اختيار القرآن لأن يكون المادة الاولى فى البرنامج العبادى فى الليل إنّما هو لإقتباس الدروس اللازمة فى هذا الباب، وهو يعدّ من أفضل الوسائل لتقوية الإيمان والإستقامة والتقوى وتربية النفوس.

والتعبير بالترتيل الذى يراد به التنظيم والترتيب الموزون هنا هو القراءة بالتأني والإنتظام اللازم، والأداء الصحيح للحروف، وتبيين الحروف، والتأمل فى مفاهيم الآيات، والتفكر فى نتائجها. والروايات التى وردت فى تفسير الترتيل كلّها تشير إلى ضرورة التمعن فى كلمات القرآن، والتدبّر فيها وتذكر بأنّ القرآن هو خطاب اللَّه تعالى للإنسان.

ولكن وللأسف إنّ الكثير من المسلمين ابتعدوا عن هذا الواقع، واكتفوا بالتلفظ وغدا همّهم ختمه، من دون الإهتمام بمعرفة سبب نزوله ومحتواه! صحيح أنّ ألفاظ القرآن عظيمة ولقراءتها فضيلة، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنّ هذه الألفاظ وتلاوتها هى مقدمة لبيان المحتوى.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل اللَّه عزّ وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ باللَّه من النار».

ثم يبيّن الهدف النهائى لهذا الأمر المهم والشاق فيقول: «إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

---

(۱) «مزّمل»: أصلها متزمل، وهى من التزمل، وتعنى لف الثوب على نفسه، ولهذا جاء لفظ الزميل، أىالمصاحب والرفيق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۵

إنّ ثقل القول يراد به القرآن المجيد بأبعاده المختلفة ... ثقيل بلحاظ المحتوى ومفاهيم الآيات.

ثقيل بلحاظ حمل القلوب له لما يقوله القرآن: «لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدّعًا مّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» «۱».

ثقيل بلحاظ التبليغ ومشاكل طريق الدعوة.

وثقيل فى ميزان العمل وفى عرصة القيامة.

ولكن الرسول صلى الله عليه و آله وأصحابه القلائل استطاعوا أن يتغلبوا على كل تلك هذه المشاكل باستمدادهم من تربية القرآن، والإستعانة بصلاة الليل، وبالاستفادة من قربهم من ذات اللَّه المقدسة، واستطاعوا بذلك حمل هذا القول الثقيل والوصول إلى مرادهم.

بحث

فضيلة صلاة الليل: هذه الآيات تبيّن أهمّية إحياء الليل بالعبادة وقراءة القرآن عندما يكون الغافلون نياماً، فإنّ العبادة فى الليل وبالخصوص عند السحر لها الأثر البالغ فى تصفية الروح وتهذيب النفوس والتربية المعنوية للإنسان وطهارة القلب وإيقاظه، وكذا فى تقوية الإيمان والإرادة، وتوكيد أركان التقوى فى الروح والقلب، ويمكن لمس ذلك بمجرّد الاختبار مرّة واحدة، وقد أكّدت الروايات على ذلك بالإضافة إلى ما ذكرته الآيات القرآنية. منها ورد- فى أمالى الطوسى- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ من روح اللَّه تعالى ثلاثة: التهجد بالليل، وإفطار الصائم، ولقاء الإخوان».

تأثير الدعاء والمناجاة فى أعماق الليل: تستمر هذه الآيات فى البحث حول عبادة الليل والتعاليم المعنوية الموجودة قراءة القرآن فى الليل، وهى بمنزلة بيان الدليل على ما جاء فى الآيات السالفة، فيقول تعالى: «إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطًا وَأَقْوَمُ قِيلًا».

---

(۱) سورة الحشر/ ۲۱. مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۶

«الناشئة»: من مادة «نشأ» وتعنى الحادثة، وقد ذكر هنا ثلاثة تفاسير لما يراد منها.

الأوّل: المراد به ساعات الليل الحادثة بالتوالى.

والثانى: إنّ المراد هو إحياء الليل بالصلاة والعبادة وقراءة القرآن.

والثالث: الحالات المعنوية والروحية والنشاط والجذوة الملكوتية التى تحصل فى القلب الإنسان وروحه فى هذه الساعات الخاصّة بالليل، والتى تكون آثارها فى روح الإنسان أعمق واستمرارها أكثر، والتّفسيران الثانى والثالث متلازمان، ويمكن جمعها فى ما يراد بمعنى الآية.

والتعبير ب «أَشَدُّ وَطًا»: التأثيرات الثابتة والراسخة الحاصلة من شعاع هذه العبادات فى روح الإنسان.

«أقوم»: من القيام، ويراد بكونها أثبت للقول وأصوب لحضور القلب.

«قيلًا»: تعنى القول، وتشير هنا إلى ذكر اللَّه وقراءة القرآن.

إنّ هذه الآية من الآيات التى تحتوى على أبلغ الأحاديث حول العبادة الليلية، ورمز إظهار المحبة مع المحبوب فى ساعات يختلى فيها الحبيب بحبيبه وأكثر من غيرها.

ويضيف فى الآية الاخرى: «إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا».

أى إنّك مشغول بهداية الخلق وإبلاغ الرسالة وحلّ المشاكل المتنوعة، ولا مجال لك بالتوجه التام إلى ربّك والإنقطاع إليه بالذكر، فعليك بالليل والعبادة فيه.

وهناك معنى أدق وتفسير يناسب الآيات السابقة أيضاً هو: أنّك تتحمل فى النهار مشاغل ثقيلة ومساعى كثيرة، فعليك بعبادة الليل لتقوى بها روحك وتستعد للفعاليات والنشاطات الكثيرة فى النهار.

وبعد الإشارة إلى العبادة الليلية، والإشارة الإجمالية إلى الآثارها العميقة يذكّر القرآن بخمسة أوامر اخرى مكملة لتلك فيقول: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبّكَ».

والطبيعى أنّ المراد ليس ذكر الإسم فحسب، بل التوجه إلى المعنى، لأنّ الـذكر اللفظى مقدمة للذكر القلبى، والذكر القلبى يبعث على صفاء القلب والروح ويروى منهل المعرفة والتقوى فى القلب.

ويقول فى الأمر الثانى: «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا».

«التبتل»: من «البتل» على وزن (حتم)، وتعنى فى الأصل الإنقطاع، ولهذا سمّيت «مريم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۷

العـذارء عليهـا السـلام» بالبتول، لأنّها لم تتخـذ لنفسـها زوجاً وسـمّيت الزهراء عليها السـلام بالبتول لأنّها كانت أفضل نساء عصـرها فى السيرة والسلوك، وكانت بالغة درجة الإنقطاع إلى اللَّه تعالى.

فالتبتل هو التوجه القلبى التام إلى اللَّه تعالى، والإنقطاع عن غيره إليه تعالى، والإتيان بالأعمال الخالصة للَّه، وكذا الخلوص له تعالى.

ثم ينتهى إلى الأمر الثالث فيقول: «رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا».

وهنا تأتى مسألـة إيـداع الامور إلى اللَّه، وذلك بعد مرحلة ذكر اللَّه والإخلاص، إيداع الامور للربّ الذى بيده الحاكمية والربوبية على المشـرق والمغرب والمعبود الوحيـد المسـتحق للعبادة، وهذا التعبير فى الحقيقة هو بمنزلة الدليل على موضوع التوكل على اللَّه، فكيف لا يتوكل الإنسان عليه، ولا يودعه أعماله، وليس فى العالم الواسع من حاكم وآمر ومنعم ومولى ومعبود غيره؟

وبالتالى يقول فى الأمر الرابع والخامس: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا».

ويأتى هنا مقام الصبر والهجران، لكثرة إتهامات الأعداء وإيذاءهم له فى طريق الدعوة إلى اللَّه، فالفلاح إذا أراد قطف الورود، عليه أن يصبر ويتحمـل أذى الأـشواك، مضافاً إلى ذلـك يلزم الإبتعـاد عنهم وهجرانهم أحياناً، وليبقى فى مأمن من شـرّهم، ويعطيهم بـذلك درساً بالغاً، ولا يعنى ذلك قطع سبل التربية والتبليغ والدعوة إلى اللَّه.

يقول الطبرسـى رحمه الله فى تفسـير مجمع البيان فى ذيل الآيـة مورد البحث: وفى هـذا دلالة على وجوب الصبر على الأذى لمن يدعو إلى الدين والمعاشرة بأحسن الأخلاق، واستعمال الرفق ليكونوا أقرب إلى الإجابة.

وَ ذَرْنِى وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (۱۱) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَ جَحِيماً (۱۲) وَ طَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَاباً أَلِيماً (۱۳) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلًا (۱۴) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (۱۵) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلًا (۱۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (۱۷) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (۱۸) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۱۹)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۸

أشارت الآية الأخيرة من الآيات السابقة إلى أقوال المشـركين البذيئة، وعدائهم وإيذائهم للنبى صلى الله عليه و آله، أمّا فى هذه الآيات فـإنّ اللَّه تعـالى يهـددهم بالعـذاب الأـليم، ويـدعوهم إلى ترك مـا هم عليه، ويواسـى المـؤمنين الأوائـل، فيقول تعـالى شـأنه: «وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا». أى دعنى وايّاهم، واترك عقابهم لى ومهلهم قليلًا. لتتمّ الحجة عليهم ولتظهر ماهيتهم الحقيقية، ويُثقلوا ظهورهم بالخطايا فعندها يحلّ عليهم غضبى.

ولم يمض كثير حتى ازدادت شوكـة المسـلمين، ووجهوا ضـرباتهم القويـة لأعـداء الرسالة، وذلك فى معارك بدر وحنين والأحزاب، وبالتالى كان العذاب الإلهى ينتظرهم فى البرزخ، حتى يخلدوا بعد ذلك فى النار فى يوم القيامة.

ثم يقول مصرّحاً: «إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا».

«الأنكال»: جمع (نكل)، على وزن (فكر) وهى السـلاسل الثقال، وأصلها من نكول الضعف والعجز، أى أنّ الإنسان يفقد الحركة بتقييد أعضائه بالسلاسل.

نعم، لقد تنعموا فى الدنيا وأخذوا حريتهم المطلقة، ولهذا لابدّ لهم من القيود والنار.

وكذا يضيف: «وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا».

هذا مصير من كان يتلذذ بالطعام بعكس ما كان طعامهم فى الدنيا الحرام، حيث العذاب الأليم، ولما تمتع به المغرورون والمستكبرون من الراحة غير المشروعة فى هذه الدنيا، والطعام الموصوف بالغصّة هو بحد ذاته عذاب أليم، ثم يتبع ذلك بذكر العذاب الأليم على إنفراد، وهذا يشير إلى أنّ أبعاد العذاب الاخروى لا يعلم شدّته وعظمته إلّااللّه تعالى، ولهذا ورد فى حديث أنّ النبى صلى الله عليه و آله سمع قارئاً يقرأ هذه فصعق «۱».

ثم يشرح ما يجرى فى ذلك اليوم الذى يظهر فيه هذا العذاب فيقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا».

«الكثيب»: يراد به الرمل المتراكم؛ و «المهيل»: من هيل- على وزن كيل- هو صبّ شىء ناعم كالرمل على شىء، ويراد بالمعنى هنا الرمل الناعم وما لا يستقر، والمعنى أنّ الجبال تتلاشى بحيث تظهر بهيئة الرمل الناعم، وإذا ما ديست بالأقدام فإنّها تطمس فيها.

ثم يقارن بين بعثة النبى صلى الله عليه و آله ومخالفة الأشداء العرب، وبين نهوض موسى بن عمران بوجه الفراعنة فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا».

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۶۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۲۹۹

إنّ هدف النبى صلى الله عليه و آله هدايتكم والإشراف على أعمالكم كما كان هدف موسى عليه السلام هداية فرعون وأتباعه والإشراف على أعمالهم.

لم يكن جيش فرعون مانعاً من العذاب الإلهى، ولم تكن سعة مملكتهم وأموالهم وثراؤهم سبباً لرفع هذا العذاب، ففى النهاية اغرقوا فى أمواج النيل المتلاطمة إذ أنّهم كانوا يتباهون بالنيل، فبماذا تفكرون لأنفسكم وأنتم أقل عدّة وعدداً من فرعون وأتباعه وأضعف؟ وكيف تغترون بأموالكم وأعدادكم القليلة؟!

«الوبيل»: من «الوبل» ويراد به المطر الشديد والثقيل، وكذا يطلق على كل ما هو شديد وثقيل بالخصوص فى العقوبات، والآية تشير إلى شدّة العذاب النازل كالمطر.

ثم وجه الحديث إلى كفار عصر نبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويحذرهم بقوله: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا».

فى الآية الاخرى يبيّن وصفاً أدقّ لذلك اليوم المهول فيضيف: «السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا».

فما حيلة الإنسان الضعيف العاجز عندما يرى تفطر السماوات بعظمتها لشدّة ذلك اليوم؟!

وفى النهاية يشير القرآن إلى جميع التحذيرات والإنذارات السابقة فيقول تعالى: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ». إنّكم مخيرون فى اختيار السبيل «فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا». ولا فضيلة فى اتّخاذ الطريق إلى اللّه بالإجبار والإكراه، بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه وبمحض إرادته.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۰

مختصر الامثل ج۵ ۳۳۲

فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن: هذه الآية هى من أطول آيات هذه السورة وتشتمل على مسائل كثيرة، وهى مكملة لمحتوى الآيات

السابقة، فيقول تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثِيَ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

الآية تشير إلى نفس الحكم الذى أمر به الرسول صلى الله عليه و آله فى صدر السورة من قيام الليل والصلاة فيه، وما اضيف فى هذه الآية هو اشتراك المؤمنين فى العبادة مع النبى صلى الله عليه و آله (بصيغة حكم استحبابى أو باحتمال حكم وجوبى)، لأنّ ظروف صدر الإسلام كانت تتجاوب مع بناء ذواتهم والإستعداد للتبليغ والدفاع عنه بالدروس العقائدية المقتبسة من القرآن المجيد، وكذا بالعمل والأخلاق وقيام الليل، ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ المؤمنين كانوا قد وقعوا فى إشكالات ضبط الوقت للمدة المذكورة (الثلث والنصف والثلثين) ولذا كانوا يحتاطون فى ذلك، وكان ذلك يستدعى إستيقاظهم طول الليل والقيام حتى تتورم أقدامهم، ولذا بُنى هذا الحكم على التخفيف، فقال: «عَلِمَ أن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ».

ثم يبيّن دليلًا آخراً للتخفيف فيضيف تعالى: «عَلِمَ أن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

وهذا تخفيف آخر كما قلنا فى الحكم، ولذا يكرر قوله: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

والواضح أنّ المرض والأسفار والجهاد فى سبيل اللَّه ذكرت بعنوان ثلاثة أمثلة للأعذار الموجهة ولا تعنى الحصر، والمعنى هو أنّ اللَّه يعلم أنّكم سوف تلاقون كثيراً من المحن والمشاكل الحياتية، وبالتالى تؤدّى إلى قطع المنهج الذى امرتم به، فلذا خفف عليكم الحكم.

إنّ وجوب القراءة فى صدر الإسلام لوجود الظروف الخاصة لذلك، واعطى التخفيف بالنسبة للمقدار والحكم، وظهر الإستحباب بالنسبة للمقدار الميسر.

يستفاد من الروايات الإسلامية إنّ فضائل قراءة القرآن فى حسن القراءة والتدبر والتفكر فيها. وفى تفسير مجمع البيان: روى عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن جده صلى الله عليه و آله قال:

«ما تيسّر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر».

ثم يشير إلى أربعة أحكام اخرى، وبهذه الطريقة يكمل البناء الروحى للإنسان فيقول:

«وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۱

والمراد من «الصلاة» هنا الصلوات الخمس المفروضة، والمراد من «الزكاة» الزكاة المفروضة، ومن إقراض اللَّه تعالى هو إقراض الناس، وهذه من أعظم العبارات المتصورة فى هذا الباب، فإنّ مالك الملك يستقرض بمن لا يملك لنفسه شيئاً، ليرغبهم بهذه الطريقة للإنفاق والإيثار واكتساب الفضائل منها وليتربى ويتكامل بهذه الطريقة.

وذكر «الإستغفار» فى آخر هذه الأوامر يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى: وإيّاكم والغرور إذا ما أنجزتم هذه الطاعات، وبأن تتصوروا بأنّ لكم حقّاً على اللَّه، بل اعتبروا أنفسكم مقصرين على الدوام واعتذروا للَّه.

«نهاية تفسير سورة المزّمل»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۳

۷۴. سورة المدثر

محتوى السورة: إنّ سورة العلق هى أوّل سورة نزلت فى صدر البعثة، والمدّثر هى السورة الاولى التى نزلت بعد الدعوة العلنية.

فإنّ سياق السور المكية التى تشير إلى الدعوة وإلى المبدأ والمعاد ومقارعة الشرك وتهديد المخالفين وإنذارهم بالعذاب الإلهى

واضح الوضوح فی هذه السورة.

یدور البحث فی هذه السورة حول سبعة محاور، وهی:

۱- یأمر اللّه تعالی رسوله صلی الله علیه و آله بإعلان الدعوة العلنیة، ویأمر أن ینذر المشرکین، والتمسک بالصبر والإستقامة فی هذا الطریق والإستعداد الکامل لخوض هذا الطریق.

۲- تشیر إلی المعاد وأوصاف أهل النار الذین واجهوا القرآن بالتکذیب والإعراض عنه.

۳- الإشارة إلی بعض خصوصیات النار مع إنذار الکافرین.

۴- التأکید علی المعاد بالأقسام المکررة.

۵- إرتباط عاقبة الإنسان بعمله، ونفی کل أنواع التفکر غیر المنطقی فی هذا الإطار.

۶- الإشارة إلی قسم من خصوصیات أهل النار وأهل الجنة وعواقبهما.

۷- کیفیة فرار الجهلة والمغرورین من الحق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۴

فضیلة تلاوة السورة: فی المجمع عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «من قرأ فی الفریضة سورة المدّثر کان حقّاً علی اللّه أن یجعله مع محمّد صلی الله علیه و آله فی درجته، ولایدرکه فی حیاة الدنیا شقاء أبداً».

وبدیهی أنّ هذه النتائج العظیمة لا تتحقق بمجرد قراءة الألفاظ فحسب، بل لابدّ من التمعن فی معانیها وتطبیقها حرفیاً.

یَا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ (۳) وَ ثِیَابَکَ فَطَهِّرْ (۴) وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لَا تَمْنُنْ تَسْتَکْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ (۷) فَإِذَا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ (۸) فَذلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ (۹) عَلَی الْکَافِرِینَ غَیْرُ یَسِیرٍ (۱۰)

سبب النّزول

إنّ النفر الذین آذوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفیان والولید بن المغیرة والنضر بن الحرث وامیة بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا: إنّ وفود العرب یجتمعون فی أیّام الحج ویسألوننا عن أمر محمّد، فکل واحد منّا یجیب بجواب آخر، فواحد یقول مجنون، وآخر یقول کاهن، وآخر یقول شاعر، فالعرب یستدلون باختلاف الأجوبة علی کون هذه الأجوبة باطلة، فتعالوا نجتمع علی تسمیة محمّد باسم واحد، فقال واحد إنّه شاعر، فقال الولید: سمعت کلام عبید بن الأبرص وکلام امیة بن أبی الصلت، وکلامه ما یشبه کلامهما، وقال آخر کاهن، قال الولید ومن الکاهن؟ قالوا الّذی یصدق تارة ویکذب اخری، قال الولید ما کذب محمّد قط، فقال آخر إنّه مجنون، قال الولید ومن یکون المجنون؟

قالوا مخیف الناس، فقال الولید ما أخیف بمحمّد أحد قط، ثم قام الولید وانصرف إلی بیته، فقال الناس صبأ الولید بن المغیرة، فدخل علیه أبو جهل، وقال ما لک یا أبا عبد الشمس؟

هذه قریش تجمع لک شیئاً، زعموا أنّک احتججت وصبأت، فقال الولید: ما لی إلیه حاجة ولکنی فکرت فی محمّد، فقلت إنّه ساحر، لأنّ الساحر هو الّذی یفرق بین الأب وابنه وبین الأخوین، وبین المرأة وزوجها، ثم إنّهم اجتمعوا علی تلقیب محمّد صلی الله علیه و آله بهذا اللقب، ثم إنّهم خرجوا فصرخوا بمکة والناس مجتمعون، فقالوا: إنّ محمّداً لساحر، فوقعت الضجة فی الناس أنّ محمّداً ساحر، فلما سمع رسول اللّه صلی الله علیه و آله ذلک اشتد علیه، ورجع إلی بیته محزوناً فتدثر بثوبه،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۵

فأنزل اللّه تعالی «یَا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ» «۱».

التّفسیر

قم وانذر الناس: لا شک من أنّ المخاطب فی هذه الآیات هو النبی صلی الله علیه و آله وإن لم یصرح باسمه، ولکن القرائن تشیر إلی

ذلک، فيقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ». فلقد ولى زمن النوم والإستراحة، وحان زمن النهوض والتبليغ.

ثم يعطى للنبى صلى الله عليه و آله خمسة أوامر مهمة بعد الدعوة إلى القيام والإنذار، تعتبر منهاجاً يحتذى به الآخرون، والأمر الأوّل هو فى التوحيد، فيقول: «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ».

ذكر كلمة (ربّ) وتقديمها على (كبّر) الذى هو يدل على الحصر، فليس المراد من جملة «فكبّر» هو (اللَّه أكبر) فقط، مع أنّ هذا القول هو من مصاديق التكبير كما ورد فى الروايات، بل المراد منه أنسب ربّك إلى الكبرياء والعظمة اعتقاداً وعملًا، قولًا فعلًا وهو تنزيهه تعالى من كل نقص وعيب، ووصفه بأوصاف الجمال، بل هو أكبر من أن يوصف، ولذا ورد فى الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فى معنى اللَّه أكبر: «اللَّه أكبر من أن يوصف».

ثم صدر الأمر الثانى بعد مسألة التوحيد، ويدور حول الطهارة من الدنس فيضيف:

«وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ». التعبير بالثوب قد يكون كناية عن عمل الإنسان، لأنّ عمل الإنسان بمنزلة لباسه، وظاهره مبين لباطنه.

ويمكن أن يكون المعنى هو اللباس الظاهر، لأنّ نظافة اللباس دليل على حسن التربية والثقافة، خصوصاً فى عصر الجاهلية حيث كان الإجتناب من النجاسة قليلًا وإنّ ملابسهم وسخة غالباً، وكان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس بحيث كان يُسحل على الأرض، وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى معنى أنّه: «ثيابك فقصر» «۲»، ناظر إلى هذا المعنى.

والحقيقة أنّ الآية تشير إلى أنّ القادة الإلهيين يمكنهم إبلاغ الرسالة عند طهارة جوانبهم من الأدران وسلامة تقواهم، ولذا يستتبع أمر إبلاغ الرسالة والقيام بها أمر آخر، هو النقاء والطهارة.

ويبيّن تعالى الأمر الثالث بقوله: «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ».

---

(۱) التفسير الكبير ۳۰/ ۱۸۹.

(۲) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۱۷۵. مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۶

والأصل أنّ معنى «الرجز» يطلق على الإضطراب والتزلزل، وفى القرآن الكريم غالباً ما استعمل لفظ «الرجز» بمعنى العذاب.

فإنّ للآية مفهوماً جامعاً، وهو الإنحراف والعمل السيء، وتشمل الأعمال التى لا ترضى اللَّه عزّ وجل، والباعثة على سخط اللَّه فى الدنيا والآخرة، ومن المؤكّد أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد هجر واتقى ذلک حتى قبل البعثة، وقد جاء هذا الأمر هنا ليكون العنوان الأساس فى مسير الدعوة إلى اللَّه، وليكون للناس اسوة حسنة.

ويقول تعالى فى الأمر الرابع: «وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ».

هنا المتعلق محذوف أيضاً، ويدل على سعة المفهوم وكلّيته، ويشمل المنّة على اللَّه والخلائق، أى فلا تمنن على اللَّه بسعيک واجتهادک.

وبعبارة اخرى: لا تمنن على اللَّه بقيامک بالإنذار ودعوتک إلى التوحيد وتعظيمک للَّه وتطهيرک ثيابک وهجرک الرجز، ولا تستعظم كل ذلک، بل أعلم أنّه لو قدمت خدمة للناس سواءاً فى الجوانب المعنوية كالإرشاد والهداية، أم فى الجوانب المادية كالإنفاق والعطاء فلا ينبغى أن تقدمها مقابل منّة، أو توقع عوض أكبر ممّا أعطيت، لأنّ المنّة تحبط الأعمال الصالحة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى «۱»».

ويشير فى الآية الاخرى إلى الأمر الأخير فى هذا المجال فيقول: «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ».

أى: اصبر فى طريق أداء الرسالة، واصبر على أذى المشركين الجهلاء، واستقم فى طريق عبودية اللَّه وطاعته، واصبر فى جهاد النفس وميدان الحرب مع الأعداء.

والمعروف أنّ الصبر هو الثروة الحقيقية لطريق الإبلاغ والهداية.

ثـم إنّ الآيـات الشـريفة وفى تعقيـب لأـمر ورد فى‌الآيـات السابقـة فى إطـار القيـام وإنـذار المشـركين، تؤكّـد مرّة اخرى على الإنـذار والتحذير، فيقول تعالى: «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ».

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِينَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (۱۴) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (۱۵) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷)

---

(۱) سورة البقرة/ ۲۶۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۷

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآيات فى الوليد بن المغيرة المخزومى، وذلك أنّ قريشاً اجتمعت فى دارالندوة، فقال لهم الوليد: إنّكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإنّ العرب يأتونكم فينطلون من عندكم، على أمر مختلف. فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون فى هذا الرجل؟ قالوا: نقول إنّه شاعر. فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر.

فقالوا: نقول إنّه كاهن. قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة. قالوا: نقول إنّه لمجنون. فقال: إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً. قالوا: نقول إنّه ساحر. قال: وما الساحر؟ فقالوا:

بشر يحببون بين المتباغضين ويبغضون بين المتحابين. قال: فهو ساحر، فخرجوا. فكان لا يلقى أحد منهم النبى صلى الله عليه و آله إلّاقال: يا ساحر، يا ساحر. واشتدّ عليه ذلك فأنزل اللّه تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» إلى قوله «إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».

التّفسير

الوليد بن المغيرة ... الثرى المغرور: تواصل هذه الآيات انذار الكفار والمشركين كما فى الآيات السابقة مع فارق، وهو أنّ الآيات السابقة كانت تنذر الكافرين بشكل عام، وهذه تنذر أفراداً معينين بتعابير قوية وبليغة بأشدّ الإنذارات، فيقول تعالى: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا». والآيات الآتية نزلت فى الوليد بن المغيرة كما قلنا.

ثم يضيف تعالى: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا».

وقيل: إنّ أمواله بلغت حدّاً من الكثرة بحيث ملك الإبل والخيول والأراضى الشاسعة ما بين مكة والطائف، وقيل إنّه يملك ضياع ومزارع دائمة الحصاد، وله مائة ألف دينار ذهب، وكل هذه المعانى تجتمع فى كلمة «الممدود».

ثم أشار تعالى إلى قوّته فى قوله: «وَبَنِينَ شُهُودًا».

إذ كانوا يعينونه على حياته، وحضورهم انس وراحة له، إذ كان له عشرة بنين، كما فى الروايات.

ثم يستطرد بذكر النعم التى وهبها له. يقول تعالى: «وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا».

ولم يهبه ما ينفع من المال والأولاد فحسب، بل أغدق عليه ما يريد من جاه وقوّة.

«التمهيد»: من «المهد» وهو ما يستخدم لنوم الطفل، ويطلق على ما يتهيأ من وسائل الراحة والمقام وانتظام الامور.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۸

ولكنّه كفر بما أنعم اللّه عليه وهو بذلك يريد المزيد: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ». وليس هذا منحصراً بالوليد، بل إنّ عبيد الدنيا على هذه الشاكلة أيضاً، فلن يروى عطشهم مطلقاً، ولو أعطوا الأقاليم السبعة لما اكتفوا بذلك.

والآية الاخرى تردع الوليد بشدّة، يقول تعالى: «كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيَاتِنَا عَنِيدًا».

ومع أنّه كان يعلم أنّ هذا القرآن ليس من كلام الجن أو الإنس، بل متجذر فى الفطرة، وله جاذبية خاصة وأغصان مثمرة، فكان يعاند ويعتبر ذلك سحراً ومظهره ساحراً.

«العنيـد»: من «العناد» وقيل هو المخالفـة والعناد مع المعرفـة، أى أنّه يعلم بأحقّيـة الشـيء ثم يخالفه عناداً، والوليـد مصـداق واضح لهذا المعنى.

وأشار فى آخر آية إلى مصيره المؤلم، فيقول تعالى: «سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا».

«سارهقه»: من «الإرهاق» وهو غشيان الشيء بالعنف، وتعنى أيضاً فرض العقوبات الصعبة، جاء بمعنى الإبتلاء بأنواع العذاب، والصعود، إشارة إلى ما سيناله من سوء العذاب، ويستعمل فى العمل الشاق.

ويحتمل أن يراد به العذاب الدنيوى للوليد بن المغيرة. قال مقاتل: ما زال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولد حتى هلك «۱».

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (۲۳) فَقَالَ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (۲۵) «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»: فى هذه الآيات توضيحات كثيرة عمّن أعطاه اللَّه المال والبنين وخالف بذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. أى الوليد بن المغيرة. يقول تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ».

«قدّر»: من التقدير، وهو التهيؤ لنظم أمر فى الذهن والتصميم على تطبيقه.

ثم يضيف فى مذمته: «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ».

بعدئـذ يؤكّـد ذلك فيضـيف: «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ». وهذا إشارة لما قيل فى سبب النّزول حيث كان يرى توحيد الأقوال فيما يقذف به الرسول صلى الله عليه و آله.

فإنّ تكرار المعنى فى الآيتين دليل على دهاء الوليد فى تفكره الشيطانى، ولذا كانت شدّة تفكره سبباً للتعجب.

---

(۱) تفسير المراغى ۲۹/ ۱۳۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۰۹

بعدئذ يضيف اللَّه تعالى: «ثُمَّ نَظَرَ». أى نظر بعد التفكر والتقدير نظرة من يريد أن يقضى فى أمر مهمّ ليطمئن من استحكامه وانسجامه: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».

بهذه الأقوال يظهر عداءه للقرآن المجيد، وذلك بعد تفكره الشيطانى، وبقوله هذا صار يمدح القرآن من حيث لا يدرى، إذ أشار إلى جاذبية القرآن الخارقة وتسخيره للقلوب.

على كـل حـال هو إقرار ضـمنى بإعجـاز القرآن. وليس للقرآن أى علاقـة وتشـبيه بأعمـال السـحرة، فهو كلاـم رصـين عميق المعـانى وجذاب لا نظير له كما يقول الوليد، فإنّه ليس من كلام البشر، وإن كان كذلك لكانوا قد أتوا بمثله، وهذا ما دعا إليه القرآن كراراً.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (۲۶) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (۲۷) لَا تُبْقِي وَ لَا تَذَرُ (۲۸) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (۳۰) المصير المشؤوم: فى هذه الآيات بيان للعقوبات المؤلمـة لمن أنكر القرآن والرسالـة، وكذب النبى صـلى الله عليه و آله وهو ما أشارت إليه الآيات السابقة فيقول اللَّه تعالى: «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ».

«سقر»: فى الأصل من «سقر» على وزن فقر، بمعنى التغير والذوبان من أثر حرارة الشـمس، هو من أحد أسـماء جهنم، كثير ما ذكر فى القرآن.

ثم يبيّن عظمـة وشـدّة عـذاب النـار فيقول: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا سَقَرُ». أى إنّ العـذاب يكون شديـداً إلى حـدّ يخرج عن دائرة التصور، ولا يخطر على بال أحدٍ، كما هو الحال فى عدم إدراك عظمة النعم الإلهية فى الجنان.

«لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ». قـد تكون هـذه الآية إشارة إلى أنّ نار جهنم بخلاف نار الدنيا التى ربّما تركت بعض ما ألقى فيها ولم تحرقه، وإذا نالت إنساناً مثلًا نالت جسـمه وصفاته الجسمية وتبقى روحه وصفاته الروحية فى أمان منها، وأمّا «سقر» فلا تدع أحداً ممن ألقى فيها إلّا نالته واحتوئه بجميع وجوده، فهى نار شاملة تستوعب جميع من القى فيها.

ثم ينتقل إلى بيان وصف آخر للنار المحرقة فيضيف: «لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ».

إنّها تجعل الوجه مظلماً أسود أشد سواداً من الليل.

«بشر»: جمع بشرة، وتعنى الجلد الظاهر للجسد.

«لوّاحة»: من مادة «لوح» وتعنى أحياناً الظاهر، وأحياناً بمعنى التغيير، ويكون المعنى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۰

بمقتضى التّفسير الأوّل: (أنّ جهنم ظاهرة للعيان). كما جاء فى الآية (۳۶) من سورة النازعات: «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى . وبمقتضى التفسير الثانى يكون المعنى: أنّها تغير لون الجلود.

وفى آخر آية من آيات مورد البحث يقول تعالى: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ».

إنّهم ليسوا مأمورين بالرحمة والشفقة، بل إنّهم مأمورين بالعذاب والغلظة، وأمّا الآية الاخرى التى تليها فإنّها تشير إلى أنّ هذا العدد هم ملائكة العذاب.

ومن هنا يتّضح ضعف وعجز أفكار اناس من قبيل أبى جهل. فى تفسير مجمع البيان:

قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال أبوجهل لقريش: ثكلتكم امهاتكم أتسمعون ابن أبى كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدّهم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال أبو الأسد الجمحى: أنا أكفيكم سبعة عشر: عشرة على ظهرى وسبعة على بطنى فاكفونى أنتم اثنين.

وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَ لَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (۳۱) لِمَ هذا العدد من أصحاب النار: ذكر اللَّه سبحانه وتعالى كما قرأنا فى الآيات السابقة عدد خزنة جهنم ومأموريها وهم تسعة عشر نفراً (أو مجموعة)، وكذا قرأنا أنّ ذكر هذا العدد صار سبباً للحديث بين أوساط المشركين والكفار، واتّخذ بعضهم ذلك سخرية، وظنّ القليل منهم أنّ الغلبة على اولئك ليس أمراً صعباً، الآية أعلاه والتى هى أطول آيات هذه السورة تجيب عليهم وتوضح حقائق كثيرة فى هذا الصدد. فيقول تعالى أوّلًا: «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَكَةً» «۱». ملائكة أقوياء مقتدرون وكما يعبّر القرآن غلاظ، شداد، قساة، فى مقابل المذنبين بجمعهم الغفير وهم ضعفاء عاجزون.

---

(۱) أصحاب النار: ذكرت هذه العبارة فى كثير من آيات القرآن وكلّها تعنى الجهنميين، إلّافى هذا الموضع فإنّهابمعنى خزنة جهنم، وذكر هذه العبارة يشير إلى أنّ كلمة «سقر» فى الآيات السابقة تعنى جهنم بكاملها وليس قسماً خاصّاً منها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۱

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهذا الإختبار من وجهين:

الأوّل: لأنّهم كانوا يستهزئون بالعدد تسعة عشر، ويتساءلون عن سبب اختيار هذا العدد، فى حين لو وضع عدد آخر لكانوا قد سألوا السؤال نفسه.

والوجه الثانى: أنّهم كانوا يستقلون هذا العدد ويسخرون من ذلك بقولهم: لكل واحد منهم عشرة منّا، لتكسر شوكتهم.

فى حين أنّ ملائكة اللَّه وصفوا فى القرآن بأنّ نفراً منهم يؤمرون بإهلاك قوم لوط عليه السلام ويقلبون عليهم مدينتهم.

ثم يضيف تعالى أيضاً: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ».

وسكوت هؤلاء اليهود وعدم اعتراضهم على هذا الجواب يدلّ على أنّه موافق لما هو مذكور فى كتبهم، وهذا مدعاة لإزدياد يقينهم بنبوّة النبى صلى الله عليه و آله، وصار قبولهم هذا سبباً فى تمسك المؤمنين بإيمانهم وعقائدهم. لذا تضيف الآية فى الفقرة الاخرى: «وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا».

ثم تعود مباشرة بعد ذكر هذه الآية إلى التأكيد على تلك الأهداف الثلاثة، إذ يعتمد مجدداً على إيمان أهل الكتاب، ثم المؤمنين، ثم على اختبار الكفار والمشركين، فيقول: «وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذَا مَثَلًا».

عبارة: «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» اطلقت على جميع الكفار والمعاندين والمحاربين لآيات الحق.

ثم يضيف حول كيفية استفادة المؤمنين والكفار والذين فى قلوبهم مرض من كلام اللّه تعالى؛ فيقول تعالى: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ».

إنّ الجمل السابقة تشير بوضوح إلى أنّ المشيئة والإرادة الإلهية لهداية البعض واضلال البعض الأخر ليس اعتباطاً، فإنّ المعاندين والذين فى قلوبهم مرض لا يستحقون إلّا الضلال، والمؤمنون والمسلّمون لأمر اللّه هم المستحقون للهدى

ويقول فى نهاية الآية: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ».

فالحديث عن التسعة عشر من خزنة النار، ليس لتحديد ملائكة اللّه تعالى، بل إنّهم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۲

كثيرون جدّاً أنّ الروايات تصفهم أنّهم يملؤون السماوات والأرض. أوّل خطبة فى نهج البلاغة للإمام على عليه السلام حول هذا الموضوع حيث يقول: «ثم فتق ما بين السماوات العلاء فملأهنّ أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان، ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة، وأستار القدرة، لا يتوهمون ربّهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر».

كَلَّا وَ الْقَمَرِ (۳۲) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (۳۳) وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (۳۴) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (۳۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (۳۶) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (۳۷) استمراراً للبحث مع المنكرين لنبوّة الرسول صلى الله عليه و آله واليوم الآخر تؤكّد الآيات التالية فى أقسام عديدة على مسألة القيامة والجحيم وعذابها، فيقول تعالى: «كَلَّا وَالْقَمَرِ».

وأقسم بالقمر لأنّه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، لما فيه من الخلقة والدوران المعظم والنور والجمال والتغييرات التدريجية الحاصلة فيه لتعيين الأيام باعتباره تقويماً حيّاً كذلك.

ثم يضيف: «وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ». «وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ» «۱».

والليل وإن كان باعثاً على الهدوء والظلام وعنده سرّ عشاق الليل، ولكن الليل المظلم يكون جميلًا عندما يدبر ويتجه العالم نحو الصبح المضىء وآخر السحر، وطلوع الصبح المنهى للّيل المظلم أصفى وأجمل من كل شىء حيث يثير فى الإنسان النشاط ويجعله غارقاً فى النور والصفاء.

هذه الأقسام الثلاثة تتناسب ضمنياً مع نور الهداية (القرآن) واستدبار الظلمات

---

(۱) «أسفر»: من مادة «سفر» على وزن (قفر) ويعنى انجلاء الملابس وانكشاف الحجاب، ولذا يقال للنساء المتبرجات (سافرات) وهذا

التعبير يشمل تشبيهاً جميلًا لطلوع الشمس.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۳

الصباح (التوحيد)، ثم ينتهى إلى تبيان ما أقسم من أجله فيقول تعالى: «إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ».

ثم يضيف تعالى: «نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ». لينذر الجميع ويحذرهم من العذاب الموحش الذى ينتظر الكفار والمذنبين وأعداء الحق.

وفى النهاية يؤكّد مضيفاً أنّ هذا العذاب لا يخص جماعة دون جماعة، بل: «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ». فهنيئاً لمن يتقدم، وتعساً وترحاً لمن يتأخر.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (۳۸) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (۳۹) فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (۴۰) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (۴۱) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (۴۲) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (۴۳) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (۴۵) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (۴۶) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (۴۷) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (۴۸) لم صرتم من أصحاب الجحيم: إكمالًا للبحث الذى ورد حول النار وأهلها فى الآيات السابقة، يضيف تعالى فى هذه الآيات: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ».

«رهينة»: من مادة «رهن» وهى وثيقة تعطى عادة مقابل القرض، وكأن نفس الإنسان محبوسة حتى تؤدّى وظائفها وتكاليفها، فإن أدت ما عليها فكت وأطلقت، وإلّا فهى باقية رهينة ومحبوسة دائماً. لذا يضيف مباشرة: «إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ».

إنّهم حطموا أغلال وسلاسل الحبس بشعاع الإيمان والعمل الصالح ويدخلون الجنة بدون حساب.

وأصحاب اليمين هم الذين يحملون كتبهم بيمينهم، فهم ذوو إيمان وعمل صالح، وإذا كانت لهم ذنوب صغيرة فإنّها تمحى بالحسنات وذلک بحكم: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» «۱».

فحينئذ تغطّى حسناتهم سيئاتهم أو يدخلون الجنة بلا حساب، وإذا وقفوا للحساب فسيخفف عليهم ذلک ويسهل، كما جاء فى الآية (۷ و ۸) من سورة الإنشقاق: «فَأَمَّا مَنْ

---

(۱) سورة هود/ ۱۱۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۴

أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا».

فى تفسير القرطبى: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون». ثم يضيف مبيّناً جانباً من أصحاب اليمين والجماعة المقابلة لهم: «فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ».

يستفاد من هذه الآيات أنّ الرابطة غير منقطعة بين أهل الجنان وأهل النار، فيمكنهم مشاهدة أحوال أهل النار والتحدث معهم، ولكن ماذا سيجيب المجرومون عن سؤال أصحاب اليمين؟ إنّهم يعترفون بأربع خطايا كبيرة كانوا قد ارتكبوها:

الاولى: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ». لو كنّا مصلّين لذكّرتنا الصلاة باللّه تعالى، ونهتنا عن الفحشاء والمنكر ودعتنا إلى صراط اللّه المستقيم.

والثانية: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ». وهذه الجملة وإن كانت تعطى معنى إطعام المحتاجين، ولكن الظاهر أنّه يراد بها المساعدة والإعانة الضرورية للمحتاجين عموماً بما ترتفع بها حوائجهم كالمأكل والملبس والمسكن وغير ذلک.

وصرّح المفسرون أنّ المراد بها الزكاة المفروضة، لأنّ ترک الإنفاق المستحب لا يكون سبباً فى دخول النار.

والثالثة: «وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ». «نخوض»: من مادة «خوض» على وزن (حوض)، وتعنى فى الأصل الغور والحركة فى الماء، ويطلق على الدخول والتلوث بالامور، والقرآن غالباً ما يستعمل هذه اللفظة فى الإشتغال بالباطل والغور فيه.

(الخوض فى الباطل) له معان واسعة فهو يشمل الدخول فى المجالس التى تتعرض فيها آيات اللّه للإستهزاء أو ما تروج فيها البدع، أو

المزاح الوقح، أو التحدث عن المحارم المرتكبة بعنوان الإفتخار والتلذذ بذكرها، وكذلك المشاركة فى مجالس الغيبة والإتهام واللهو واللعب وأمثال ذلك، ولكن المعنى الذى انصرفت إليه الآية هو الخوض فى مجالس الإستهزاء بالدين والمقدسات وتضعيفها وترويج الكفر والشرك.

وأخيراً يضيف: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَنَا الْيَقِينُ».

من الواضح أنّ إنكار المعاد ويوم الحساب والجزاء يزلزل جميع القيم الإلهية والأخلاقية، ويشجع الإنسان على ارتكاب المحارم. على كل حال فإنّ ما يستفاد من هذه الآيات أنّ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۵

الكفار هم مكلّفون بفروع الدين، كما هم مكلّفون بالاصول، وكذلك تشير إلى أنّ الأركان الأربعة، أى الصلاة والزكاة وترك مجالس أهل الباطل، والإيمان بالقيامة لها الأثر البالغ فى تربية وهداية الإنسان، وبهذا لا يمكن أن يكون الجحيم مكاناً للمصلين الواقعيين، والمؤتين الزكاة، والتاركين الباطل والمؤمنين بالقيامة.

وفى الآية الأخيرة محل البحث إشارة إلى العاقبة السيئة لهذه الجماعة فيقول تعالى: «فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ». فلا تنفعهم شفاعة الأنبياء ورسل اللّه والائمة، ولا الملائكة والصديقين والشهداء والصالحين، ولأنّها تحتاج إلى عوامل مساعدة وهؤلاء أبادوا كل هذه العوامل، فالشفاعة كالماء الزلال الذى تسقى به النبتة الفتية، وبديهى إذا ماتت النبتة الفتية، لا يمكن للماء الزلال أن يحييها.

وهذه الآية تؤكّد مرّةً اخرى مسألة الشفاعة وتنوع وتعدد الشفعاء عند اللّه، وهى جواب قاطع لمن ينكر الشفاعة، وكذلك تؤكّد على أنّ للشفاعة شروطاً وأنّها لا تعنى اعطاء الضوء الأخضر لإرتكاب الذنوب، بل هى عامل مساعد لتربية الإنسان وايصاله على الأقل إلى مرحلة تكون له القابلية على التشفع، بحيث لا تنقطع وشائج العلاقة بينه وبين اللّه تعالى والأولياء.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (۴۹) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (۵۲) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (۵۳) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (۵۴) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (۵۵) وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (۵۶) يفرّون من الحق كما تفرّ الحمر من الأسد: تتابع هذه الآيات ما ورد فى الآيات السابقة من البحث حول مصير المجرمين وأهل النار، وتعكس أوضح تصوير فى خوف هذه الجماعة المعاندة ورعبها من سماع حديث الحق والحقيقة. فيقول اللّه تعالى أوّلًا: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ». «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ* فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ».

«حمر»: جمع (حمار) والمراد هنا الحمار الوحشى.

«قسورة»: من مادة «قسر» أى القهر والغلبة، وهى أحد أسماء الأسد.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۶

فإنّ هذه الآية تعبير بالغ عن خوف المشركين وفرارهم من الآيات القرآنية المربية للروح، فشبههم بالحمار الوحشى لأنّهم عديمو العقل والشعور، وكذلك لتوحشّهم من كل شىء، فى حين أنّه ليس مقابلهم سوى التذكرة.

«بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً». وذلك لتكبرهم وغرورهم الفارغ بحيث يتوقعون من اللّه تعالى أن ينزل على كل واحد منهم كتاباً.

وهذا نظير ما جاء فى الآية (۹۳) من سورة الإسراء: «وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ».

ولذا يضيف فى الآية الاخرى: «كَلَّا». ليس كما يقولون ويزعمون، فإنّ طلب نزول مثل هذا الكتاب وغيره هى من الحجج الواهية، والحقيقة: «بَل لَّايَخَافُونَ الْأَخِرَةَ».

والحق يقال إنّ الإيمان بعالم البعث والجزاء وعذاب القيامة يهب للإنسان شخصية جديدة يمكنه أن يغير إنساناً متكبراً ومغروراً وظالماً إلى إنسان مؤمن متواضع ومتقٍ عادل.

ثم يؤكّد القرآن على أنّ ما يفكرون به فيما يخصّ القرآن هو تفكّر خاطىء: «كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ* فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ».

وفى الوقت نفسه لا يمكن ذلك إلّابتوفيق من اللّه وبمشيئته تعالى: «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى أنّ الإنسان لا يمكنه الحصول على طريق الهداية إلّابالتوسل باللّه تعالى وطلب الموفقية منه.

وفى النهاية يقول: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ». فهو أهل لأن يخافوا من عقابه وأن يتقوا فى اتّخاذهم شريكاً له تعالى شأنه، وأن يأملوا مغفرته، وفى الحقيقة، أنّ هذه الآية إشارة إلى الخوف والرجاء والعذاب والمغفرة الإلهية، وهى تعليل لما جاء فى الآية السابقة.

وهناك احتمالًا آخر، وهو أن تؤخذ التقوى بمعناها الفاعلى، أى أنّ اللّه أهل للتقوى من كل أنواع الظلم والقبح ومن كل ما يخالف الحكمة، وما عند العباد من التقوى هو قبس ضعيف من ما عند اللّه.

إنّ الآية قد بدأت بالإنذار والتكليف، وانتهت بالدعوة إلى التقوى والوعد بالمغفرة.

«نهاية تفسير سوره المدّثّر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۷

۷۵. سورة القيامة

محتوى السورة: كما هو واضح من اسم السورة فإنّ مباحثها تدور حول مسائل ترتبط بالمعاد ويوم القيامة إلّابعض الآيات التى تتحدث حول القرآن والمكذبين، وأمّا الآيات المرتبطة بيوم القيامة فإنّها تجتمع فى أربعة محاور:

۱- المسائل المرتبطة بأشراط الساعة.

۲- المسائل المتعلقة بأحوال الصالحين والطالحين فى ذلك اليوم.

۳- المسائل المتعلقة باللحظات العسيرة للموت والإنتقال إلى العالم الآخر.

۴- الأبحاث المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان ورابطة ذلك بمسألة المعاد.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة القيامة شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة أنّه كان مؤمناً بيوم القيامة، وجاء ووجهه مسفر على وجوه الخلائق يوم القيامة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة لا اقسم وكان يعمل بها، بعثها اللّه يوم القيامة معه فى قبره، فى أحسن صورة تبشر وتضحك فى وجهه حتى يجوز الصراط والميزان».

والجدير بالملاحظة أنّ ما كنّا نستوحيه من الروايات الواردة فى فضائل تلاوة السور القرآنية قد صرّح بها الإمام هنا فى هذه الرواية حيث يقول: «من أدمن قراءة لا اقسم وكان يعمل بها»، ولذا فإنّ كل ذلك هو مقدمة لتطبيق المضمون.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۸

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (۱) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (۲) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (۳) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (۵) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (۶) قسماً بيوم القيامة والنفس اللوامة: تبدأ هذه السورة بقسمين غزيرين بالمعانى، فيقول تعالى: «لَاأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيمَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

وفى العلاقة والرابطة الموجودة بين القسمين؛ الحقيقة أنّ أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة فى أعماق الإنسان، والتى تنشط وتسر عند الإقدام لإنجاز عمل صالح، وبهذه الطريقة تثيب صاحبها وتكافئه، وعند إرتكاب الأعمال السيئة والرذيلة فإنّها سوف تقوم بتقريع صاحبها وتأنّبه وتعذبه إلى حدّ أنّه قد يقدم على الإنتحار للتخلص ممّا يمرّ فيه من عذاب الضمير.

عندما يكون (العالم الصغير) أى وجود الإنسان محكمة فى قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى

فمن هنا نفهم وجود البعث والقيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقى، ومن هنا تتّضح الرابطة الظريفة بين القسمين. وبعبارة اخرى: فإنّ

القسم الثانى هو دليل على القسم الأوّل.

ثم يستفهم تعالى فى الآية الاخرى للتوبيخ فيضيف: «أَيَحْسَبُ الْإِنسنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أن نُّسَوّىَ بَنَانَهُ».

ويمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة فى أطراف الأصابع والتى نادراً ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين.

وفى الآية الاخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقة لإنكار المعاد فيقول: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنسنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». إنّهم يريدون أن يكذبوا بالبعث وينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم وارتكاب المحارم والتنصل عن المسؤولية أمام الخلق.

ثم يضيف بعد ذلك: «يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيمَةِ».

أجل، إنّه يستفهم مستنكراً عن وقوع يوم القيامة ويهرب ممّا كُلّف به لكى يفسح لنفسه طريق الفجور أمامه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۱۹

بحث

محكمة الضمير أو القيامة الصغرى نستفيد من آيات القرآن المجيد أنّ للنفس الإنسانية ثلاث مراحل:

۱- النفس الأمارة: وهى النفس العاصية التى تدعو الإنسان إلى الرذائل والقبائح باستمرار، وتزيّن له الشهوات.

۲- النفس اللوامة: وهى ما اشير إليها فى الآيات التى ورد البحث فيها، وهى نفس يقظة وواعية نسبياً، فهى تزل أحياناً لعدم حصولها على حصانة كافية مقابل الذنوب، وتقع فى شبك الآثام إلّاأنها تستيقظ بعد فترة لتتوب وترجع إلى مسير السعادة.

وهذا هو ما يذكرونه تحت عنوان (الضمير الأخلاقى) ويكون هذا قوياً جدّاً عند بعض الأفراد، وضعيفاً وعاجزاً عند آخرين، ولكن النفس اللوامة لا تموت بكثرة الذنوب عند أى إنسان.

۳- النفس المطمئنة: وهى النفس المتكاملة المنتهية إلى مرحلة الإطمئنان والطاعة والمنتهية إلى مقام التقوى والإحساس بالمسؤولية وليس من السهل انحرافها.

إنّ النفس اللوامة هى كالقيامة الصغرى فى داخل الروح والتى تقوم بمحاسبة الإنسان، ولذا تحس أحياناً بالهدوء والإستقرار بعد القيام بالأعمال الصالحة وتمتلىء بالسرور والفرح والنشاط.

هذه المحكمة الداخلية العجيبة لها شبه عجيب بمحكمة القيامة.

أ) إنّ القاضى والشاهد والمنفذ للأحكام واحد، كما فى يوم القيامة: «عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ» «۱».

ب) إنّ هذه المحكمة ترفض كل توصية ورشوة وواسطة، كما هو الحال فى محكمة يوم القيامة، فيقول تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» «۲».

ج) إنّ محكمة الضمير تحقق وتدقق فى الملفات المهمّة بأقصر مدّة وتصدر الحكم بأسرع وقت، وهذا هو ما نقرأهُ أيضاً فى محكمة البعث: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» «۳».

---

(۱) سورة الزمر/ ۴۶.

(۲) سورة البقرة/ ۴۸.

(۳) سورة الرعد/ ۴۱. مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۰

د) مجازاتها وعقوباتها ليست كعقوبات المحاكم الرسمية العالمية، فإنّ شرر النيران تتقد فى الوهلة الاولى فى أعماق القلب والروح، ثم تسرى إلى الخارج، فتعذب روح الإنسان أوّلًا، ثم تظهر آثارها فى الجسم وملامح الوجه وطبيعة النوم والأكل، فيعبّر تعالى عن ذلك فى قوله:

«نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» «۱».

ه) عدم إحتياج هذه المحكمة إلى شهود، بل إنّ المعلومات التى يعطيها الإنسان المتهم بنفسه والذى يكون شاهداً على نفسه هى التى تقبل منه، نافعة كانت له أم ضارة؛ كما تشهد ذرات وجود الإنسان حتى يداه وجلده على أعماله فى محكمة البعث، فيقول تعالى: «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم» «۲».

وهذا التشبيه العجيب بين المحكمتين دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد، لأنّه كيف يمكن أن يكون فى الإنسان الذى يعتبر قطرة صغيرة فى محيط الوجود العظيم هكذا حساب ومحاكم مليئة بالرموز والأسرار فى حين لا يوجد حساب ومحاكم فى هذا العالم الكبير؟ فهذا ما لا يصدق.

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) كَلَّا لَا وَزَرَ (۱۱) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (۱۵) أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وجهه المنكرون للبعث يوم القيامة، وهو يوم القيامة متى يأتى ذلك اليوم؟ وهذه الآيات هى التى تجيب عن هذه السؤال.

فتشير أوّلًا إلى الحوادث السابقة للبعث، أى إلى التحول العظيم وإنعدام القوانين فى الأنظمة الكونية فيقول تعالى: «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ». بمعنى اضطراب العين ودورانها من شدّة الخوف والرعب: «وَخَسَفَ الْقَمَرُ* وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ».

وفى ما يراد بالجمع بين الشمس والقمر، فيحتمل أن ينجذب القمر تدريجياً بواسطة الشمس باتجاهها ثم اجتماعهما معاً بعد ذلك، وينتهى بالتالى ضياؤهما.

---

(۱) سورة الهمزة/ ۶ و ۷.

(۲) سورة فصّلت/ ۲۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۱

فيقول تعالى فى سورة التكوير: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». أى إذا أظلمت الشمس، ونعلم أنّ ضوء القمر من الشمس، وعندما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، وبالتالى تدخل الكرة الأرضية فى ظلام دامس وعتمة مرعبة.

وبهذه الطريقة والتحول العظيم ينتهى العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية والتى تعتبر نفخة الحياة)، فيقول الإنسان فى ذلك اليوم: «يَقُولُ الْإِنسنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ».

أجل، الكفرة والمذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ فى ذلك اليوم لشدّة خجلهم، ويطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم وخوفهم من العذاب.

ولكن سرعان ما يقال لهم: «كَلَّا لَاوَزَرَ» «۱».

فلا ملجأ إلّاإلى اللّه تعالى: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ».

عندئذٍ يضيف فى إدامة هذا الحديث: «يُنَبَّؤُا الْإِنسنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ».

والمراد من هاتين العبارتين هو ما قدم من الأعمال فى حياته، أو الآثار الباقية منه بعد موته، ممّا ترك بين الناس من السنن الصالحة والسيئة والتى يعملون ويسيرون بها ووصول حسناتها وسيئاتها إليه، أو الكتب والمؤلفات والأبنية القائمة على الخير والشرّ، والأولاد الصالحين والطالحين التى تصل آثارهم إليه.

فى تفسير على بن إبراهيم: فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى قوله «يُنَبَّؤُا الْإِنسنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» قال: «بما قدم من خير وشرّ وما أخر مما سن من سنّة ليستنّ بها من بعده فإن كان شرّاً كان عليه مثل وزرهم، ولا ينقص من وزرهم شىء، وإن كان خيراً كان له مثل اجورهم، ولا ينقص من اجورهم شىء».

ثم يضيف فى الآيـة الاخـرى ويقول: إنّ اللَّه وملائكته يطلعون العباد على أعمالهم، وإن كان لا يحتاج إلى ذلك، لأنّ نفسه وأعضاءه هم الشهود عليه فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: «بَلِ الْإِنسنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيَرةٌ* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ».

سياق هذه الآيات هو نفس سياق الآيات التى تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كالآية (۲۰) من سورة فصّلت، حيث يقول اللَّه تعالى: «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

---

(۱) «وزر»: تعنى فى الأصل الملاجىء الجبلية وأمثالها، وتعنى فى هذه الآية كل نوع من الملجأ والمخبأ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۲

وعلى هـذا فـإنّ أفضـل شاهـد على الإنسـان فى تلـك المحكمـة الإلهيـة للقيامـة هو نفسه، لأنّـه أعرف بنفسه من غيره. «معاذير»: جمع (معذرة) وتعنى فى الأصل البحث عمّا تمحى به آثار الذنوب، وقد تكون أحياناً أعذاراً واقعية، واخرى صورية وظاهرية.

إنّ الآيات مفهومها واسع، ولـذا فإنّها تشـمل عالم الـدنيا، وتعلم الناس بأحوال أنفسـهم وإنّه كان فيهم من يكتم ويغطى وجهه الحقيقى بالكذب والإحتيال والتظاهر والمراء.

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (۱۹) إنّ علينا جمعه وقرآنه: هـذه الآيـات بمثابـة الجملـة الإعتراضـية التى تتـداخل أحياناً فى كلام المتحـدث، حيث يترك اللَّه تعالى الحـديث عن القيامة وأحوال المؤمنين والكفرة مؤقتاً، ليعطى تذكرة مختصرة للنبى صلى الله عليه و آله حول القرآن فيقول: «لَاتُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ».

فى تفسـير هذه الآية نقل عن ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان إذا نزل عليه الوحى ليقرأ عليه القرآن، تعجّل بقراءته ليحفظه وذلك لحبّه الشديد للقرآن، فنهاه اللَّه عن ذلك وقال: «إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

ثم يضيف: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ».

وبالتالى لا تقلق على جمع القرآن، نحن نجمعه ونتلوه عليك بواسطة الوحى.

ثم يقول تعالى: «فَإِذَا قَرَأْنهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ». ثم يضيف: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

فيكون جمع القرآن وقراءته لك وتبيينه وتفصيل معانيه بعهدتنا، فلا تقلق على شىء، فالذى أنزل الوحى هو الذى يحفظه.

وهذه الآيات تبيّن ضمنياً أصالة القرآن، وحفظه من أى تغيير وتحريف، لأنّ اللَّه تعالى تعهد بجمعه وقراءته وتبيينه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (۲۲) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (۲۵) ترجع هذه الآيات مرّة اخرى لتكمل البحوث المتعلقة بالمعاد، وخصوصيات اخرى من

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۳

القيامـة، وكـذلك تبيّن علل إنكار المعاد فيقول تعالى: «كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَـةَ». فليس الأمر كما يتصور من أنّ دلائل المعاد خفيّة ولا يمكنكم الاطّلاع عليها، بل إنّكم عشقتم الدنيا. ولهذا السبب تركتم الآخرة: «وَتَذَرُونَ الْأَخِرَةَ».

إنّ الشك فى قـدرة اللَّه تعالى وجمع العظام وهى رميم ليس هو الـدافع لإنكار المعاد، بل إنّ حبّكم الشديد للدنيا والشـهوات والميول المغريـة هى التى تـدفعكم إلى رفع الموانع عن طريق ملـذاتكم، وبما أنّ المعاد والشـريعة الإلهيـة توجد موانع وحدوداً كثيرة على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، وتتركون الآخرة بتمامها.

وهاتان الآيتان تؤكّدان ما ورد فى الآيات السابقة والتى قال فيها تعالى شأنه: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنسنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». وقال أيضاً: «يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيمَةِ».

ثم ينتهى إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين والكفار المسيئين فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ».

«ناضـرة»: من مادة «نضـرة» وتعنى البهجـة الخاصـة التى يحصل عليها الإنسان عند وفور النعمة والرفاه، ووفورها يلازم السـرور والجمال

والنورانية.

هذا من ناحية العطايا المادية، وأمّا عن العطايا الروحية فيقول تعالى: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». نظرة بعين القلب وعن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة وإلى ذلك الكمال والجمال المطلقين، وتهبهم اللذة الروحانية والحال الذى لا يوصف.

فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إذا دخل أهل الجنة، الجنة قال اللّه تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم عزّ وجل».

وفى النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ».

فعندما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب وصحائف أعمالهم الخالية من الحسنات والمملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم والحسرة والحزن ويعبسون وجوههم لذلك. «تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ».

إنّ هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة والتى تنتظر هذه الجماعة فى جهنم، لكن إنّ الجماعة السابقة منتظرون لرحمة اللّه تعالى ومستعدون للقاء المحبوب. هؤلاء لهم أسوأ العذاب.

وأولئك لهم أسمى النِعم الجسمانية والمواهب واللذات الروحانية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۴

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (۲۸) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (۲۹) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (۳۰)

إتماماً للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر ومصير المؤمنين والكفار يأتى الحديث فى هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة والتى تعتبر باباً إلى العالم الآخر فيقول تعالى: «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ». أى كلّا إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقى.

هو ذلك اليوم الذى تنفتح فيه عينه البرزخية، وتزال عنها الحجب، ويرى فيها علامات العذاب والجزاء، ويوقف على أعماله، ففى تلك اللحظة يقرّ بالإيمان ولكن إيمانه لا ينفعهُ ولا يفيد حاله أبداً.

«تراقى»: جمع «ترقوة»، وهى العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال، وبلوغ الروح إلى التراقى كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.

وفى هذه الفترة يسعى أهله وأصدقائه مستعجلين قلقين لانقاذه. يقول تعالى: «وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ». أى هل هناك من منقذ يأتى لإنقاذ هذا المريض؟

ويقولون هذا الحديث عن وجه العجز واليأس، والحال أنّهم يعلمون أنّه قد فات الآوان ولا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة «رقى» على وزن (نهى) و (رقيه) على وزن (خفيه) وهو الصعود، ولفظة (رقيه) تطلق على الأوراد والأدعية التى تبعث على نجاة المريض.

وفى الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: «وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ».

أى: فى هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة واليقين بالفراق. ثم: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ».

وهذا الإلتفاف إمّا لشدّة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين والرجلين وتعطيل الروح منها.

ثم يقول تعالى فى آخر آية من آيات البحث: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ». أجل، إلى اللّه تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهية، وهكذا ينتهى المطاف إليه، وهذه الآية أيضاً تأكيد على مسألة المعاد والبعث الشامل للعباد، ويمكن أن تكون إشارة إلى الحركة التكاملية للخلائق وهى متجهة نحو الذات المقدسة واللامتناهية.

لحظة الموت المؤلمة: يستفاد من القرآن أنّ لحظة الموت لحظة صعبة ومؤلمة، والمستفاد

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۵

من الروايات أنّ هذه اللحظة سهلة على المؤمنين، وصعبة ومؤلمة على فاقدى الإيمان.

فى عيون أخبار الرضا عليه السلام عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «قيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت. فقال: للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعى ولدغ العقارب أو أشدّ».

فَلَا صَدَّقَ وَ لَا صَلَّى (٣١) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣۴) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣۵) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٣٩) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (۴٠) استمراراً للبحوث المتعلقة (بالموت) الذى يعتبر الخطوة الأولى فى السفر إلى الآخرة يتحدث القرآن فى هذه الآيات عن خواء أيدى الكفار من الزاد لهذا السفر. فيقول أوّلًا:

«فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى . أى إنّ هذا الإنسان المنكر للمعاد لم يؤمن اطلاقاً ولم يصدّق بآيات اللّه ولم يصلّ له.

وقال تعالى: «وَلكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

المراد من جملة «فَلَا صَدَّقَ» عدم التصديق بالقيامة والحساب والجزاء والآيات الإلهية والتوحيد ونبوّة النبى صلى الله عليه و آله.

ويضيف تعالى فى الآية الاخرى: «ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى .

إنّه يظنّ بعدم اهتمامه للنّبى صلى الله عليه و آله وتكذيبه إيّاه وللآيات الإلهية قد حقق نصراً باهراً، إنّه كان ثملًا من خمرة الغرور، واتجه إلى أهله لينقل لهم كالعادة ما كان قد حدث وليفتخر بما صدر منه، وكان سيره وحركته تشيران إلى الكبر والغرور.

«يتمطى : من مادة «مطا» وأصله الظهر، و (تمطى مدّ الظهر عن غرور ولا مبالاة، أو عن كسل، والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

ثم يخاطب القرآن أفراداً كهؤلاء ويهددهم فيقول تعالى: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى .

فى المجمع: وجاء الرواية أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله أخذ بيد أبى جهل ثم قال له: «أولى لك فأولى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۶

ثم أولى لك فأولى . فقال أبو جهل: بأى شىء تهددنى لا تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بى شيئاً، وإنّى أعزّ أهل هذا الوادى، فأنزل اللّه سبحانه كما قال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

ثم ينتهى القرآن فى هذا البحث إلى استدلالين لطيفين حول المعاد وأحدهما عن طريق (الحكمة الإلهية وهدف الخلقة)، والآخر عن طريق بيان قدرة اللّه فى تحول وتكامل نطفة الإنسان فى المراحل المختلفة لعالم الجنين، فيقول تعالى عن المرحلة الاولى: «أَيَحْسَبُ الْإِنسنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى». «سدى : على وزن (هدى وهو المهمل الذى لا هدف له.

والمراد من (الإنسان) فى هذه الآية هو المنكر للمعاد والبعث، فيكون معنى الآية: كيف يخلق اللّه هذا العالم العظيم للإنسان ولا يكون له هدف ما؟ كيف يمكن ذلك والحال أنّ كل عضو من أعضاء الإنسان خلق لهدف خاص. ولكن يحسب أن لا هدف فى خلق كل ذلك.

ثم إنتهى إلى تبيان الدليل الثانى، فيضيف تعالى: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مّن مَّنِىّ يُمْنَى . وبعد هذه المرحلة واستقرار المنى فى الرحم يتحول إلى قطعة متخثرة من الدم، وهى العلقة، ثم إنّ اللّه تعالى يخلقها بشكل جديد ومتناسب وموزون: «ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى .

ولم يتوقف على ذلك: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

أليس من يخلق النطفة الصغيرة القذرة فى ظلمة رحم الام ويجعله خلقاً جديداً كل يوم، ويلبسه من الحياة لباساً جديداً ويهبه شكلًا مستحدثاً ليكون بعد ذلك إنساناً كاملًا ذكراً أو انثى ثم يولد من امّه، بقادر على إعادته: «أَلَيْسَ ذلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى .

وهذا البيان فى الواقع هو لمن ينكر المعاد الجسمانى ويعده محالًا، وينفى العودة إلى الحياة بعد الموت والدفن، ولإثبات ذلك أخذ القرآن بيد الإنسان ليرجعه إلى التفكر ببداية خلقه، والمراحل العجيبة للجنين ليريه تطورات هذه المراحل، وليعلم أنّ اللّه قادر على كل شىء.

«نهاية تفسير سورة القيامة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۷

۷۶. سورة الإنسان

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث السورة إلى خمسة أقسام:

۱- يتحدث عن إيجاد الإنسان وخلقه من نطفة أمشاج (مختلطة)، وكذلك عن هدايته وحرية إرادته.

۲- يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار والصالحين، وسبب النزول الخاص بأهل البيت عليهم السلام.

۳- تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب فى عبارات مؤثرة.

۴- يشير إلى أهمّية القرآن وسبيل إجراء أحكامه ومنهج تربية النفس الشاق.

۵- جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

ولهذه السورة أسماء عديدة؛ أشهرها: (الإنسان) و (الدهر) و (هل أتى ، وهذه الكلمات وردت فى أوائل السورة، وإن كانت الروايات الواردة فى فضيلتها والتى سوف يأتى ذكرها، قد ذكرت اسم (هل أتى لهذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على اللَّه جنّة وحريراً».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة هل أتى فى كل غداة خميس زوّجه اللَّه من الحور العين مائة عذراء وأربعة آلاف ثيب وكان مع محمّد صلى الله عليه و آله».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۸

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (۱) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۲) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (۳) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَ أَغْلَالًا وَ سَعِيراً (۴) تتحدث الآيات الاولى عن خلق الإنسان، بالرغم من أنّ أكثر بحوث هذه السورة هى حول القيامة ونعم الجنان، فتحدثت فى البدء عن خلق الإنسان، لأنّ التوجه والإلتفات إلى هذا الخلق يهيىء الأرضية للتوجه إلى القيامة والبعث كما شرحنا ذلك سابقاً فى تفسير سورة القيامة. فيقول تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسنِ حِينٌ مّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيًا مَّذْكُورًا».

والمراد من الإنسان هنا هو نوع الإنسان، ويشمل بذلك عموم البشر.

ثم يأتى خلق الإنسان بعد هذه المرحلة، واعتبار ذكره، فيقول تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنهُ سَمِيعًا بَصِيرًا».

ولعلّ ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى اختلاط ماء الذكور والإناث، وقد اشير إلى ذلك فى روايات المعصومين عليهم السلام بصورة إجمالية؛ أو أنّها إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة داخل النطفة من ناحية العوامل الوراثية عن طريق الجينات؛ أو أنّها إشارة إلى اختلاط المواد التركيبية المختلفة للنطفة، لأنّها تتركب من عشرات المواد المختلفة، أو اختلاط جميع ذلك مع بعضها البعض، والمعنى الأخير أجمع وأوجه.

«نبتليه»: إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف والتعهد وتحمل المسؤولية والإختبار والإمتحان.

وبما أنّ الإختبار والتكليف لا يتمّ إلّابعد الحصول على المعرفة والعلم فقد أشار فى آخر الآية إلى وسائل المعرفة، العين والاذن التى أودعها سبحانه وتعالى فى الإنسان وسخرها له.

إنّ اختبار الإنسان بحاجة إلى عاملين آخرين، هما: «الهداية» و «الإختبار» بالإضافة إلى المعرفة ووسائلها، فقد أشارت الآية التالية إلى ذلك: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». إنّ للهداية هنا معنى واسعاً، فهى تشمل «الهداية التكوينية» و «الهداية الفطرية»

وكذلك «الهداية التشريعية» وإن كان سياق الآية يؤكّد على الهداية التشريعية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۲۹

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى الذين سلكوا طريق الكفر والكفران فتقول:

«إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلسِلَا وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا».

«سلاسل»: جمع (سلسلة)، وهى القيد الذى يقاد به المجرم؛ و «الأغلال»: جمع (غل)، وهى الحلقة التى توضع حول العنق أو اليدين وبعد ذلك يُقفل بالقيد.

إنّ ذكر الأغلال والسلاسل ولهيب النيران المحرقة تبيان للعقوبات التى يعاقب بها المجرمون، وهو ما اشير إليه فى كثير من آيات القرآن ويشمل ذلك العذاب والذل.

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۷) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (۸) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُوراً (۹) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱)

سبب النزول

البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله: قال ابن عباس: إنّ الحسن والحسين مرضا فعادهما الرسول صلى الله عليه و آله فى ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما كان معهم شىء، فاستقرض على عليه السلام من شمعون الخيبرى اليهودى ثلاث أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل، فقال: السلام عليكم، أهل بيت محمّد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعمونى أطعمكم اللَّه من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّاالماء وأصبحوا صياماً، فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير فى الثالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلك، فلمّا أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، قال: «ما أشدّ ما يسوؤنى ما أرى بكم». وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمد، هنّأك اللَّه فى أهل بيتك فأقرأه السورة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۰

وقيل: إنّ الذى نزل من الآيات يبدأ من: «إِنَّ الْأَبْرَارَ» حتى «كَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا» ومجموعها (۱۸) آية.

ما أوردنا هو نص الحديث الذى جاء فى كتاب «الغدير» بشىء من الإختصار كقدر مشترك وهذا الحديث من بين أحاديث كثيرة نقلت فى هذا الباب، وذكر فى الغدير أنّ الرواية المذكورة قد نقلت عن طريق (۳۴) عالماً من علماء أهل السنّة المشهورين.

وعلى هذا، فإنّ الرواية مشهورة، بل متواترة عند أهل السنة «۱».

واتفق علماء الشيعة على أنّ السورة أو ثمان عشرة آية من السورة قد نزلت فى حق على وفاطمة عليهما السلام، وأوردوا هذه الرواية فى كتبهم العديدة واعتبروها من مفاخر الروايات الحاكية عن فضائل أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

التّفسير

جزاء الأبرار العظيم: أشارت الآيات السابقة إلى العقوبات التى تنتظر الكافرين بعد تقسيمهم إلى جماعتين وهى «الشكور» و «الكفور»، والآيات فى هذا المقطع تتحدث المكافآت التى أنعم اللَّه بها على الأبرار وتذكّر بامور ظريفة فى هذا الباب. فيقول تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يُشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا».

«الأبرار»: جمع (بر) وأصله الإتّساع، واطلق البر على الصحراء لاتساع مساحتها، وتطلق هذه المفردة على الصالحين الذين تكون نتائج

أعمالهم واسعة فى المجتمع.

«كافور»: له معان متعددة فى اللغة، وأحد معانيها المعروفة الرائحة الطيبة كالنبتة الطيبة الرائحة.

فإنّ الآية تشير إلى أنّ هذا الشراب الطهور معطّر جدّاً فيلتذ به الإنسان من حيث الذوق والشم.

ثم يشير إلى العين التى يملؤون منها كؤوسهم من الشراب الطهور فيقول: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا».

هـذه العين من الشـراب الطهور وضـعها اللّه تعالى تحت تصـرفهم، فهى تجرى أينما شاءوا، والظريف هو ما نقل- فى أمالى الصدوق- عن أبى جعفر الباقر عليه السلام إذ قال فى وصفها: «هى

---

(۱) نقلت هـذه الرواية فى كتاب الغدير ۳/ ۱۰۷- ۱۱۱؛ وفى كتـاب إحقاق الحق ۳/ ۱۵۷- ۱۷۱ عن (۳۶) نفر من علماء أهل السنّة مع ذكر المأخذ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۱

عين فى دار النبى تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين».

نعم، فكمـا تتفجر عيون العلم والرحمـة من بيت النبى صـلى الله عليه و آله وتجرى إلى قلوب عبـاد اللّه الصـالحين، كـذلك فى الآخرة حيث التجسّم العظيم لهذا المعنى تتفجر عين الشراب الطهور الإلهى من بيت الوحى، وتنحدر فروعها، إلى بيوت المؤمنين!

ثم تتناول الآيات الاخرى ذكر أعمال «الأبرار» و «عباد اللّه» مع ذكر خمسـة صـفات توضّـح سـبب اسـتحقاقهم لكل هـذه النعم الفريدة فيقول تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا».

جملة (يوفون) و (يخافون) والجمل التى تليها جاءت بصيغة الفعل المضارع وهذا يشير إلى استمرارية وديمومة منهجهم.

وخوفهم من شرّ ذلك اليوم، وآثار هذا الإيمان ظاهرة فى أعمالهم بصورة كاملة.

ثّم يتناول الصفة الثالثة لهم فيقول: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا».

لم يكن مجرد اطعـام، بل اطعام مقرون بالإيثار العظيم عنـد الحاجـة الماسّـة للغـذاء، ومن جهـة اخرى فهو إطعام فى دائرة واسـعة حيث يشمل أصناف المحتاجين من المسكين واليتيم والأسير، ولهذا كانت رحمتهم عامّة وخدمتهم واسعة.

فإنّ ما يسـتفاد من الآية أنّ أفضل الأعمال إطعام المحرومين والمعوزين، ولا يقتصـر على اطعام الفقراء من المسلمين فحسب بل يشمل حتى الأسرى المشركين أيضاً وقد اعتبر إطعامهم من الخصال الحميدة للأبرار.

والخصلة الرابعة للأبرار هى الإخلاص، فيقول: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا».

إنّ هـذا المنهـج ليس منحصـراً بالإطعام، إذ إنّ جميع أعمالهم خالصة لوجه اللّه تعالى، ولا يتوقعون من الناس شـكراً وتقديراً. وأساسـاً فإنّ قيمة العمل فى الإسلام بخلوص النية وإلّا فإنّ العمل إذا كان بدوافع غير الهيئة، فليس لذلك ثمن معنوى وإلهى.

ويقول فى الوصف الأـخير للأـبرار: «إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا». (أى الشديـد) من المحتمل أن يكون هـذا الحـديث لسان حال الأبرار، أو قولهم بألسنتهم.

وجاء التعبير عن يوم القيامة بالعبوس والشديد للإستعارة، إذ أنّها تستعمل فى وصف

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۲

الإنسان الـذى يقبض وجهه وشـكله ليؤكـد على هول ذلك اليوم، أى أنّ حوادث ذلك اليوم تكون شديـدة إلى درجـة أنّ الإنسان لا يكون فيه عبوساً فحسب، بل حتى ذلك اليوم يكون عبوساً أيضاً. وأشارت الآيـة الأخيرة فى هذا البحث إلى النتيجة الإجمالية للأعمال الصالحة والنيّات الطاهرة للأبرار فيقول: «فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا».

«نضـرة»: بمعنى البهجـة وحسن اللون والسـرور الخـاص الـذى يظهر عنـد وفور النعمـة والرفاه على الإنسـان. وبمـا أنّهم كـانوا يحسّون

بالمسؤولية ويخافون من ذلك اليوم الرهيب، فإنّ اللّه تعالى سوف يعوضهم بالسرور وبالبهجة.

وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (۱۲) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَ لَا زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (۱۴) وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (۱۵) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (۱۶) وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (۱۷) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲) مكافئات الجنان العظيمة: بعد الإشارة الإجمالية فى الآيات السابقة إلى نجاة الأبرار من العذاب الأليم يوم القيامة، ووصولهم إلى لقاء المحبوب والغرق بالسرور والبهجة، تتناول هذه الآيات شرح هذه المواهب الإلهية فى الجنان، وعددها فى هذه على الأقل خمسة عشرة نعمة، فتتحدث فى البدء عن المسكن والملبس فتقول: «وَجَزَيهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا».

وليس فقط فى هذه الآية، بل صرح بهذه الحقيقة فى آيات اخرى من القرآن، وهو أنّ مكآفات القيامة إنّما تعطى للإنسان لصبره (صبر فى الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند المصائب). فنجد سلام الملائكة لأهل الجنان فى الآية (۲۴) من سورة الرعد: «سَلمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ».

مختصر الامثل ج۵ ۳۶۹

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۳

ثم يضيف سبحانه فى الآية التالية: «مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَايَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا».

ولا يعنى هذا انعدام الشمس والقمر فى الجنان، بل بسبب ظلال أشجار الجنان لا تكون أشعة الشمس مؤذية.

«زمهرير»: من مادة «زمهر» وهو البرد الشديد، أو شدّة الغضب أو احمرار العين من أثر الغضب، والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

«أرائك»: جمع «أريكة»، وتطلق فى الأصل على الأسرّة التى توضع فى غرفة العروس، والمراد هنا الأسرّة الجميلة والفاخرة.

عن ابن عباس: بينا أهل الجنة فى الجنة إذ رأوا ضوءاً كضوء الشمس، وقد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنة يا رضوان ما هذا؟ وقد قال ربّنا «لَايَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا»، فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس، ولا قمر، ولكن على وفاطمة ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ثغريهما «۱».

وتضيف الآية الاخرى متمّمة لهذه النعم: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِللُهَا وَذُلّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا».

ليست هنا من مشكلة لقطف الثمار، ولا شوكة لتدخل فى اليد، ولا تحتاج ذلك إلى مشقّة أو حركة.

ثم توضح الآية الاخرى كيفية استضافة أصحاب الجنان، وأدوات الضيافة، والمستقبلين لهم، فيقول: «وَيُطَافُ عَلَيْهِم بَانِيَةٍ مّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا* قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا».

تحتوى هذه الآنية على أنواع الأغذية والأشربة المتعددة الأصناف واللذيذة والباعثة على النشاط، بالقدر الذى يشاؤونه ويحبّونه، والولدان المخلدون يطوفون عليهم ليعرضوا عليهم الآنية والأكواب المليئة بما وعدهم اللّه بها.

ثم يضيف تعالى: «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا».

صرح الكثير من المفسرين بأنّ عرب الجاهلية كانوا يتلذذون بالشراب الممزوج بالزنجبيل، لأنّه كان يعطى قوّة خاصة للشراب.

---

(۱) روح المعانى ۲۹/ ۱۵۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۴

ويتحدث القرآن هنا عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبيل، ومن البديهى أنّ الفرق بين هذا الشراب وذلك الشراب كالفرق بين

الدنيا والآخرة.

ثم يضيف تعالى: «عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا».

«سلسبيلا»: هو الشراب الهنيء واللذيذ جدّاً الذى ينحدر بسهولة فى الحلق.

ثم يتحدث عن المستقبلين فى هذا الحفل البهيج المقام بجوار اللّه فى النعيم الأعلى فيقول تعالى: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا».

إنّهم مخلدون فى الجنان، وطراوة شبابهم ونشاطهم خالد أيضاً، وكذا استقبالهم للأبرار، لأنّ عبارة (مخلدون) وعبارة (يطوف عليهم) من جهة اخرى تبيان لهذه الحقيقة.

«لؤلؤاً منثوراً»: يراد به الإشارة إلى جمالهم وصفائهم وإشراق وجوههم وكذلك حضورهم فى كل مكان من المحفل الإلهى والروحانى.

وبما أنّ من المحال وصف النعم والمواهب للعالم الآخر مهما بلغ الكلام من البيان والبلاغة، ولذا يقول تعالى فى الآية الاخرى كلاماً مطلقاً: «وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا».

إلى هنا اشير إلى قسم من نعم الجنان، وحان الآن دور زينة أهل الجنان فيقول تعالى:

«عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ».

«سندس»: ثوب رقيق من الحرير؛ و «الإستبرق»: ثوب غليظ من الحرير.

ثم أضاف تعالى: «وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ».

وهى الفضة الشفافة اللامعة كالبلور وأجمل من الياقوت والدر واللؤلؤ.

«اساور»: جمع «أسورة» وهى بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار)، أو «سوار» على وزن (حوار) وأخذ فى الأصل من الكلمة الفارسية، (دستوار) وعند انتقالها إلى العربية تغيّرت واختصرت وجاءت بصورة (سوار).

ثم يقول تعالى فى نهاية الآية مشيراً إلى آخر نعمة وأهمّها من سلسلة النعم: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يطهرهم عن كل شيء سوى اللّه».

وفى روضة الكافى روى عن النبى صلى الله عليه و آله حول عين مطهرة مزكية المستقرة على باب الجنة، قال: «فيسقون منها شربة فيطهر اللّه بها قلوبهم من الحسد، ويسقط من أبشارهم الشعر وذلك قول اللّه عزّ وجل: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۵

وفى آخر آية من آيات البحث يتحدث حديثاً أخيراً فى هذا الإطار فيقول: إنّه يقال لهم من قبل ربّ العزّة بأنّ هذه النعم العظيمة ما هى إلّاجزاء أعمالكم فى الدنيا: «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا». لئلا يتصور أحد أنّ هذا الجزاء وهذه المواهب العظيمة تعطى من دون مقابل، إنّ كل ذلك جزاء السعى والعمل، وثمرة الرياضات وجهاد النفس وبناء الذات وترك المعاصى.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْکَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (۲۳) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّکَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (۲۴) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّکَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۲۵) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (۲۶) خمسة مبادىء مهمة فى تنفيذ حكم اللّه: شرعت السورة منذ البداية وحتى هذه الآية فى تبيان خلق الإنسان ثم المعاد والبعث، وفى هذه الآيات مورد البحث يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه و آله باصدار أوامر مؤكدة لهداية الناس والصبر والثبات فى هذا الطريق، وفى الواقع إنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ نيل كل تلك النعم والمواهب الاخروية لا يتمّ إلّابالتمسك بالقرآن وإتباع النبى واطاعة أوامره. يقول فى البدء: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا».

ثم يأمر النبى صلى الله عليه و آله بأمور خمسة، أوّلها الدعوة إلى الصبر والإستقامة فيقول: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ». أى لا تخف من المشاكل ومن موانع الطريق وكثرة الأعداء وعنادهم واستقم فى سيرك على الصراط المستقيم.

والأمر الثانى الموجّه للنبى صلى الله عليه و آله هو تحذيره من أى توافق مع المنحرفين، فيقول تعالى:
«وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا».
فى الحقيقة أنّ هذا الحكم هو تأكيد ثان على الحكم الأوّل، لأنّ جموع الأعداء كانوا يسعون بطرق مختلفة للتوافق مع النبى وجرّه إلى طريق الباطل، كما نقل أنّ عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة قالا لرسول اللَّه: إن تركت دعوتك، فإنّنا سنغنيك حتى ترضى، ونزوّجك أجمل بنات العرب، وعروض اخرى من هذا القبيل، فما كان على الرسول صلى الله عليه و آله هنا باعتباره المرشد الحقيقى والعظيم إلّاأن يقف أمام هذه الوساوس الشيطانية والتهديدات التى صدرت منهم بعد ذلك، ولا يستسلم للترغيب أو الترهيب.
ولكن بما أنّ الصبر والإستقامة فى مقابل هذه المشكلات العظيمة ليس بالأمر اليسير،
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۶
كان من الضرورى لسلوك هذا الطريق التزّود بنوعين من الزاد، لذا يضيف القرآن فى الآية الاخرى: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا». أى فى كل صباح ومساء». ويقول تعالى أيضاً: «وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا». لتتوفر لديك فى ظل ذلك الذكر وهذا السجود والتسبيح قوّة كافية وقدرة معنوية لمواجهة مشاكل هذا الطريق.
فإنّ هاتين الآيتين تأكيد لضرورة التوجه الدائم والمستمر لذات اللَّه المقدسة.
ويجب هنا الإلتفات إلى أنّ الأوامر الخمسة المذكورة فى الآيات أعلاه وإن ذكرت بصورة منهج للنّبى صلى الله عليه و آله، فهى فى الحقيقة دستوراً يحتذى به كل من يخطو فى مسير قيادة المجتمع البشرى، إنّهم يجب أن يعلموا بعد الإيمان الكامل بأهدافهم ورسالتهم بضرورة احتراف الصبر والإستقامة، وأن لا يستوحشوا من كثرة مشاكل الطريق، لأنّ هداية المجتمع من المشاكل العظيمة.
وفى المرحلة الاخرى يجب الثبات التام أمام الوساوس الشيطانية والتى تعتبر مصداقاً للآثم والكفور، والثبات أمام سعيهم فى حرف القادة والأئمة بأنواع الحيل والمكائد، وأن لا ينخدعوا بالتطميع ولا يتأثروا بالتهديد، ويذكروا اللَّه تعالى فى كل المراحل لاكتساب القدرة الروحية وقوّة الإرادة والعزم الراسخ، والاستمداد من العبادات الليلية، والمناجات مع اللَّه، فإذا ما روعيت هذه الامور فالنصر حتمى، وحتى لو عرضت مصيبة أو هزيمة فإنّه يمكن إصلاحها من خلال هذه الاصول، ومنهج الرسول صلى الله عليه و آله وسلوكه فى دعوته نموذج مؤثر لجميع السالكين فى هذا الطريق.
إِنَّ هؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا (۲۷) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (۲۸) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۲۹) وَ مَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (۳۰) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۳۱) تحذير مع بيان السبيل: رأينا فى الآيات السابقة تحذيراً للنبى صلى الله عليه و آله لكى لا يقع تحت تأثير كل آثم أو كفور من المجرمين. الآيات اعلاه عرّفت الأعداء بشكل أكثر وقالت: «إِنَّ هؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا».
مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۷
لا تتعدى افق أفكارهم دائرة الطعام والنوم والشهوة، وتمثل هذه اللذائذ المادية الرخيصة أسمى غاية لهم فى الحياة. والعجيب أنّهم قاسوا روح النبى العظيمة بهذا المقياس.
الآية التالية تحذرهم من الاغترار بقوّتهم وقدرتهم، إذ إنّ اللَّه الذى أعطاهم إيّاها قادر على أن يستردها بسرعة متى شاء، فيقول تعالى: «نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا».
هنا يشير القرآن إلى نقطة حساسة، وهى جهاز الأعصاب الصغيرة والكبيرة التى تشدّ العضلات فيما بينها كالحبال الحديدية وتربط بعضها بالبعض الآخر، وحتى المفاصل والعضلات المختلفة وقطع العظام الصغيرة والكبيرة وأعضاء الإنسان بحيث يتكون من مجموع ذلك إنسان كامل الخلقة مهيأ للقيام بأية فعالية، وعلى كل حال فهذه الجملة كناية عن القدرة والقوّة.

وتوضّح هذه الآية ضمناً استغناء ذات اللَّه المقدسة، عنهم، وعن طاعتهم وإيمانهم، ليعلموا أنّ الإصرار على دعوتهم للايمان فى الحقيقة هو من رحمة اللَّه بهم.

ثم أشار تعالى إلى جميع البحوث الواردة فى هذه السورة والتى تشكل بمجموعها برنامجاً متكاملًا للحياة السعيدة، فيقول تعالى: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا».

إنّ علينا إيضاح الطريق، لا اجباركم على اختيار الطريق، وعليكم تمييز الحق من الباطل بما لديكم من العقل والإدراك، واتخاذ القرار بإرادتكم واختياركم، وهذا تأكيداً على ما جاء فى صدر السورة فى قوله: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا».

وقد يتوهّم بعض السذّج من العبارة أعلاه أنّها تعنى التفويض المطلق للعباد، فجاءت الآية التالية لتنفى هذا التصور وتضيف: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وهذا فى الحقيقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بين الأمرين)، إذ يقول من جهة: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ». فعليكم أن تختاروا ما تريدون، ويضيف من جهة اخرى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ». أى ليس لكم الإستقلال الكامل، بل إنّ قدرتكم واستطاعتكم وحريتكم لا تخرج عن دائرة المشيئة الإلهية، وهو قادر على أن يسلب هذه القدرة والحرية متى شاء.

من هذا يتّضح أنّه لا جبر ولا تفويض فى الأوامر، بل إنّها حقيقة دقيقة وظريفة بين

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۸

الأمرين. أو بعبارة اخرى: إنّها نوع من الحرية المرتبطة بالمشيئة الإلهية، إذ يمكن سلبها متى يشاء ليتسنى للعباد تحمل ثقل المسؤولية الذى يعتبر رمزاً للتكامل من جهة، ومن جهة اخرى أن لا يتوهموا استغنائهم عن اللَّه تعالى.

ولعلّ آخر الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». يشير حكمه إلى هذا المعنى، لأنّ حكمة اللَّه تستوجب إعطاء الحرية للعباد فى سلوك طريق التكامل، وإلّا فإنّ التكامل الإجبارى لا يعدّ تكاملًا، بالإضافة إلى أنّ حكمة اللَّه لا تتفق مع فرض الأعمال الخيرة على اناس وفرض الأعمال الشريرة على اناس آخرين، ثم إنّه يثيب الجماعة الاولى ويعاقب الثانية.

ثم تشير الآية الاخرى بعد ذلك إلى مصير الصالحين والطالحين، إذ تقول الآية: «يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

والظريف أنّ صدر الآية يقول: «يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ»، ويقول ذيلها:

«وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»، وهذا يشير إلى أنّ مشيئته تعالى بعقوبة الإنسان تتبع مشيئة الإنسان للظلم والمعاصى، وبقرينة المقابلة يتّضح أنّ مشيئته تعالى فى الرحمة تتبع إرادة الإنسان فى الإيمان والعمل الصالح وإقامة العدل، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر إلّامن حكيم.

«نهاية تفسير سورة الإنسان»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۳۹

۷۷. سورة المرسلات

محتوى السورة: إنّ أكثر محتويات هذه السورة تدور حول المسائل المرتبطة بالقيامة وتهديد وإنذار المشركين والمنكرين، ومن خصائص هذه السورة تكرار الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ» عشر مرّات بعد كل موضوع جديد، وتنبىء السورة بعد ذكر الأقسام عن القيامة والحوادث الصعبة للبعث، ثم تذكر عقب ذلك هذه الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

وتتحدث السورة أوّلًا عن الوقائع المؤسفة للأقوام المذنبين الأوائل.

ثم تتحدث ثانياً عن جانب من خصوصيات خلق الإنسان.

وفى المرحلة الثالثة عن بعض المواهب الإلهية فى الأرض.

وفى الرابعة تشرح السورة جانباً من عذاب المكذبين، وفى كل من هذه المراحل إشارة إلى مواضيع موقظة ومحركة، ثم تأكيد تلك الآية بعد ذكر كل موضوع من هذه المواضيع، وحتى أنّه أشار فى قسم من ذلك إلى نعم الجنان للمتقين ليمزج الإنذار بالبشارة والترهيب بالترغيب.

فإنّ هذا التكرار يذكر بتكرار بعض الآيات فى سورة الرحمن باختلاف أنّ الكلام هناك يدور عن النعم، أمّا فى هذه السورة فغالباً ما تتحدث عن عذاب المكذبين.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۰

اختيار اسم (المرسلات) لهذه السورة، هو لتناسبه مع الآية الاولى لهذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأها عرّف اللَّه بينه وبين محمّد صلى الله عليه و آله».

لا شك أنّ الثواب والفضيلة تكون لمن يقرؤها ويتفكر ويعمل بها.

فى الخصال للصدوق عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول اللَّه! أسرع إليك الشيب؟ قال صلى الله عليه و آله: «شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون».

والملاحظ أنّ جميع هذه السور تعكس أحوال القيامة والمسائل المهولة لتلك المحكمة العظيمة، وهذه هى التى تركت أثراً فى روح النبى المقدسة.

من البديهى أنّ القراءة بدون تدبّر وتصميم على العمل لا يمكن أن تترك مثل هذا الأثر.

وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (۲) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْراً (۳) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (۴) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (۹) وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۵) ذكرت فى صدر السورة ابتداءً خمسة أقسام، وذلك فى خمس آيات. وهناك كلام كثير فى تفسير معانيها. يقول تعالى: «وَالْمُرْسَلتِ عُرْفًا» «۱». أى قسماً بالتى تُرسل تباعاً.

«فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا» التى تُسرع فى حركتها كالعاصفة.

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا» ... التى توسّع وتنشر ما وكّلت به.

«فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا» ... التى تفرق وتفصل.

«فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا» التى تلقى بالآيات الموقظة والمذكرة.

«عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» إمّا لاتمام الحجة أو للانذار.

القسم الأوّل والثانى ناظر إلى الرياح والأعاصير، والقسم الثالث والرابع والخامس

(۱) «عرفاً»: بمعنى متتابعاً، وأصله بمعنى (عرف الفرس) المتساقط بعضها على البعض الآخر، وفُسر أحياناً بالعمل الحسن والمعروف.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۱

يتعلق بنشر آيات الحق بواسطة الملائكة، ثم فصل الحق عن الباطل، وبعد ذلك إلقاء الذكر والأوامر الإلهية على الأنبياء بقصد إتمام الحجّة والإنذار.

والآن لابدّ أن نرى الغرض من هذه الأيمان، الآية التالية ترفع الستار عن هذا المعنى، فتقول: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ».

إنّ البعث والنشور، والثواب والعقاب والحساب والجزاء كلّها حق لا ريب فيه.

ثم ينتهى إلى تبيان علامات ذلك اليوم الموعود، فيقول: إذا تحقق ذلك اليوم الموعود فإنّ النجوم سوف تنطفىء وتمحى «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ». «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ» أى انشقت.

«وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ». أى زالت وانقلعت من مكانها.

«طمست»: من مادة «طمس» وهو محو وزوال آثار الشيء؛ وهنا إشارة إلى محو نور النجوم.

«نسفت»: من مادة «نسف»- على وزن حذف- وفى الأصل، بمعنى وضع حبوب الغذاء فى الغربال وتحريكه لعزل القشور عن الحبوب، ويعنى هنا تفتيت الجبال ثم نسفها فى الريح، ونستوحى من بعض آيات القرآن المجيد أنّ انقراض العالم يلازم وقوع حوادث مهولة بحيث يتلاشى نظام العالم بكامله، وحلول نظام الآخرة الجديد مكان ذلك النظام.

ثم أشار القرآن بعد ذلك إلى ما يجرى فى البعث، فيضيف: وفى ذلك الوقت يتمّ تعيين وقت للأنبياء والرسل ليأتوا إلى ساحة المحشر ويدلوا بشهادتهم: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» «۱».

وهو كقوله: «فَلَنَسَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» «۲».

ثم يضيف تعالى: «لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ». أى لماذا تمّ تأخير هذه الشهادة ولأى وقت؟

ثم يقول: «لِيَوْمِ الْفَصْلِ». يوم فصل الحق عن الباطل، فصل صفوف المؤمنين عن الكافرين، والأبرار عن الأشرار، ويوم حكم اللّه المطلق على الجميع.

ثم يبيّن عظمة ذلك اليوم أيضاً، فيقول تعالى: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ».

إنّ الرسول صلى الله عليه و آله بعلمه الواسع وبنظره الحاد الذى كان يرى من خلاله أسرار الغيب لم يكن مطلعاً بصورة كاملة على أبعاد عظمة ذلك اليوم، فكيف بسائر الناس.

---

(۱) «اقّتت» أصلها «وقّتت» من مادة «وقت»، ويعنى توقيت الوقت لرسل اللّه تعالى.

(۲) سورة الأعراف/ ۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۲

وفى آخر آية من آيات بحثنا هدد اللّه تعالى المكذبين بيوم القيامة تهديداً شديداً وقال:

«وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذّبِينَ».

«ويل»: قيل هو الهلاك، وقيل المراد به العذاب المتنوع، وقيل هو واد فى جهنم مليء بالعذاب؛ وتستخدم هذه الكلمة عادة فيما يخص الحوادث المؤسفة، وهنا تحكى الآية عن مصير المكذبين المؤلم فى ذلك اليوم.

المراد بالمكذّبين هنا هم المكذبون بيوم القيامة.

أ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (۱۷) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۱۸) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۹) أ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (۲۰) فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ (۲۱) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (۲۳) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۲۴) أ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (۲۵) أَحْيَاءً وَ أَمْوَاتاً (۲۶) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وَ أَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً (۲۷) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۲۸) هذه الآيات أيضاً تحذّر وبطرق مختلفة المنكرين للبعث، وتوقظهم ببيانات مختلفة من نوم الغفلة العميق؛ فتأخذ بأيديهم أوّلًا إلى ما مضى من التاريخ لتريهم الأراضى المترامية الأطراف التى كانت ملكاً للأقوام السابقين، فيقول تعالى: «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ».

إنّ آثارهم واضحة على صفحات البسيطة. وليس على صفحات التاريخ فحسب.

«ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْأَخِرِينَ». لأنّها سنّة مستمرة لا تبعيض فيها ولا استثناء، وهل يمكن أن يعاقب جماعة لجرم ما، ويقبل ذلك الجرم من آخرين؟!

ولذا يضيف تعالى فى الآية الاخرى: «كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

هذه الآية هى بمنزلة بيان الدليل على هلاك الامم الاولى ويستتبعه هلاك الامم الاخرى، لأنّ العذاب الإلهى ليس فيه جانب الثأر ولا الإنتقام الشخصى. بل إنّه تابع لأصل الإستحقاق ومقتضى الحكمة.

ثم يضيف مستنتجاً: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

«يومئذ»: إشارة إلى يوم البعث الذى يعاقب فيه المكذبون بالعقوبات الشديدة، والتكرار هو لتأكيد المطلب.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۳

ثم يمسك القرآن بأيديهم ليأخذهم إلى عالم الجنين ويريهم عظمة اللّه وقدرته وكثرة مواهبه فى هذا العالم المليء بالأسرار، ليفهموا قدرة اللّه تعالى على المعاد والبعث من جهة وأنّهم غارقون فى نعمه اللامتناهية من جهة اخرى، فيقول تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ». أى تافه وحقير: «فَجَعَلْنَهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ».

مقرّ فيه ضمان لجميع ظروف الحياة والتربية والنمو والمحافظة على نطفة الإنسان، فهو عجيب وظريف وموزون بحيث يثير إعجاب كل إنسان.

ثم يضيف تعالى: إنّ بقاء النطفة فى ذلك المكان المكين والمحفوظ إنّما هو لمدة معينة: «إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُوم».

مدة لا يعلمها إلّااللّه تعالى، مدة مملوءة بالتغيرات والتحولات الكثيرة بحيث ترتدى النطفة فى كل يوم لباساً جديداً من الحياة يؤدّى به إلى التكامل فى داخل ذلك المخبأ.

ثم يستنتج من قدرته تعالى على خلق الإنسان الكامل والشريف من نطفة حقيرة بأنّ اللّه تعالى نعم القادر: «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ».

وهذا الدليل اعتمده القرآن مرات عديدة لإثبات مسألة المعاد منها قوله تعالى فى أوّل سورة الحج: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يعود فى النهاية ليكرر تلك الآية وهو قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ». الويل لُاولئك الذين يرون آثار قدرة اللّه تعالى ثم ينكرونها.

ثم يقول تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا* أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا».

«كفات»: على وزن (كتاب)، و «كفت» على وزن (كشف) هو جمع وضم الشيء للآخر، ويقال أيضاً لسرعة طيران الطيور «كفات» لجمعه لأجنحته حال الطيران السريع حتى يتمكن من شق الهواء والتقدم أسرع.

والمراد هو أنّ الأرض مقر لجميع البشر، إذ تجمع الأحياء على ظهرها وتهيىء لهم جميع ما يحتاجونه، وتضم أمواتهم فى بطنها، فلو أنّ الأرض لم تكن مهيئة لدفن الأموات لسببت العفونة والأمراض الناتجة منها فاجعة لجميع الأحياء.

ثم يشير تعالى إلى إحدى النعم الإلهية العظيمة فى الأرض، فيضيف: «وَجَعَلْنَا فِيهَا

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۴

رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ» «۱». هذه الجبال التى قاربت بارتفاعها السماء، واتصلت اصولها بالبعض الآخر قد لزمت الأرض كالدرع من جهة لحفظها من الضغط الداخلى والضغوط الناتجة من الجزر والمد الخارجى، ومن جهة اخرى تمنع اصطكاك الرياح مع الأرض حيث تمدّ قبضتها فى الهواء لتحركه حول نفسها وكذلك تنظم حركة الأعاصير والرياح من جهة ثالثة، ولهذا تكون الجبال باعثة على إستقرار أهل الأرض.

وفى آخر الآية إشارة إلى إحدى البركات الاخرى للجبال فيضيف تعالى: «وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا». ماءاً سائغاً وباعثاً للحياة، لكم ولحيواناتكم ولبساتينكم.

فإنّ كثيراً من العيون والقنوات هى من الجبال، ومصدر الأنهار العظيمة هو من الجليد المتراكم على قمم الجبال، حيث تعتبر من

الذخائر المائية المهمّة للإنسان.

ثم يقول فى نهاية هذا القسم: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

اولئك الـذين ينكرون كل هـذه الآيات وعلامات قـدرة اللّه التى يرونها بأعينهم، وكـذلك يشاهـدون النعم الإلهية التى غرقوا فيها، ثم ينكرون البعث ومحكمة القيامة التى هى مظهر العدل والحكمة الإلهية.

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۹) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ (۳۰) لَا ظَلِيلٍ وَ لَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ (۳۱) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (۳۲) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (۳۳) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۳۴) هذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (۳۵) وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (۳۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۳۷) هـذَا يَوْمُ الْفَصْـلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (۳۸) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْـدٌ فَكِيـدُونِ (۳۹) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۰) فى هـذه الآيات تبيان لمصير المكـذبين بيوم القيامـة، والمنكرين لتلك المحكمة الإلهية العادلة، تبيان يدخل الرعب والرهبة فى قلب الإنسان، ويوضح أبعاد الفاجعة. يقول تعالى:

«انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ». انطلقوا إلى جهنم التى طالما كنتم تستهزئون بها، توجهوا

---

(۱) «رواسـى»: جمع راسـية، وهى الثابتات؛ و «شامخات»: جمع شامـخ، أى عال، وتأتى بعض العبارات كالقول (شـمخ بأنفه) كناية عن التكبر (مفردات الراغب).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۵

إلى أنواع العذاب التى هيئتموها بأعمالكم السيئة.

ثم يعمد إلى مزيد من التوضـيح حول هذا العذاب، فيقول سبحانه: «انطَلِقُوا إِلَى ظِلّ ذِى ثَلَثِ شُعَبٍ». توجهوا نحو ظلّ من دخان خانق له ثلاث شـعب: شـعبة من الأعلى، وشـعبة من الجهة اليمنى، وشـعبة من الجهة اليسرى، وعلى هذا الأساس فإنّ دخان النار المميت هذا يحيط بهم من كل جانب ويحاصرهم.

ثم يقول تعالى: «لَّاظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ». فليس فى هذا الظل راحة، ولا يمنع من الإحتراق بالنار لأنّه نابع من النار.

ثم يضـيف وصـفاً آخر لتلك النار المحرقة: «إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ». ليس كشرر نار هذه الدنيا التى لا تكون أحياناً إلّابمقدار رأس الإبرة.

ثم ينتهى فى الآية الاخرى إلى وصف آخر من أوصاف هذه النار المحرقة، فيقول تعالى:

«كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ».

وإذا كان الشرر هكذا، فكيف بالنار المحرقة نفسها، وما جعل من العذاب الأليم فى تلك النار؟!

ويعود مرة اخرى فى آخر قسم من الآيات لينبّه بذلك التنبيه المكرر، فيقول: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

ثم يبدأ فصلًا آخر من علامات ذلك اليوم المهول، فيضيف تعالى: «هذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ».

نعم، إنّ اللّه يختم فى ذلك اليوم على أفواه المجرمين والمذنبين كقوله فى الآية (۶۵) من سورة يس: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ».

ثم يضيف تعالى فى القول: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ». ليس لهم الرخصة فى الكلام، ولا فى الإعتذار والدفاع عن أنفسهم، لأنّ الحقائق واضـحة هناك، وليس لـديهم ما يقولوه، نعم يجب أن يعاقب هذا اللسان الذى أساء الإسـتفادة من الحرية وسـعى فى تكذيب الأنبياء، والإسـتهزاء بالأولياء، وإبطال الحق وإحقاق الباطل .. يجب أن يعاقب على أعماله بالإقفال والختم، لإبطال مفعوله، وهـذا عـذاب شديد وأليم بحدّ ذاته أن لا يتمكن الإنسان هناك من الدفاع عن نفسه أو الإعتذار.

فى روضة الكافى عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبداللّه عليه السلام يقول فى قول اللّه تبارك

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۶

وتعالى «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»: «اللَّه أجل وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر لا يدعه يعتذر به، لكنه فلج فلم يكن له عذر». ثم يكرر تعالى فى نهاية هذا المقطع قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

فى المقطع الآخر يوجه الخطاب إلى المجرمين ليحكى عما يجرى فى ذلك اليوم فيقول تعالى: «هـذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ».

جمعنا فى هذا اليوم جميع البشر من دون استثناء للحساب، وفصل الخصام فى هذه العرصة والمحكمة العظمى.

ويقول: والآن إذا كان لكم قدرة على الفرار من العقاب فاعملوا ما بدا لكم: «فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ».

هل تستطيعون دفع الفدية لتتحرروا؟

أو هل يمكنكم الهرب من دائرة نفوذ حكومتى؟

أو أنّ لكم القدرة على أن تخدعوا الملائكة الموكّلين بكم وبحسابكم؟

اعملوا ما بدا لكم ولكن اعلموا أنّكم لا تستطيعون!

ثم أنّه تعالى أعاد تلك الجملة المهددة والمتبهة مرّة اخرى، وقال: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ (۴۱) وَ فَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۴۲) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۴۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۵) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۷) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (۴۸) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۹) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۵۰) من المعلوم فى منهج القرآن أنه يمزج الإنذار بالبشارة، والتهديد بالترغيب، وكذلك يذكر مصير المؤمنين فى مقابل مصير المجرمين لفهم المسائل بصورة أكثر بقرينة المقابلة، وعلى أساس هذه السنّة المتّبعة فى القرآن، فإنّ هذه الآيات وبعد بيان العقوبات المختلفة للمجرمين فى القيامة، أشارت إلى وضع المتقين فى ذلك اليوم فيقول تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَلٍ وَعُيُونٍ». ثم يضيف: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ».

والظريف أنّهم فى هذا المضيف الإلهى يستضافون بأحسن الوجوه، كما هو الحال فى الآية

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۷

التالية إذ يقول لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

عبارة «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» إشارة إلى أنّ هذه المواهب لا تعطى لأىّ كان من دون عمل، ولا يمكن حصولها بالإدّعاء والتخيل والتصوّر، وإنّما يمكن نيلها والحصول عليها بالأعمال الصالحة فقط.

«هنىء»: على وزن (صبيح) هو كل شىء ليست فيه مشقة ولا يستتبعه قلق.

وهذا إشارة إلى أنّ فواكه الجنة وأغذيتها وأشربتها ليست كأغذية الدنيا وأشربتها التى تترك أحياناً آثاراً سيئة فى البدن، أو تترك أعراضاً غير مُرْضية.

ثم تؤكد الآية الاخرى على مسألة النعم وأنّها لا تمنح اعتباطاً فيضيف: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

وفى نهاية هذا المقطع يعيد تلك الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ». الويل لمن يُحْرَم من كل هذه النعم والألطاف، إذ إنّ عذاب حسرات هذا الحرمان ليس بأقل من نيران الجحيم المحرقة!

وبما أنّ إحدى عوامل إنكار المعاد الإهتمام بلذّات الدنيا الزائلة والميل إلى الحرية المطلقة للإنتفاع بهذه اللذّات، يتوجه بالحديث فى الآية التالية إلى المجرمين بلحن تهديدى فيقول:

كلوا وتمتعوا بالملذات الدنيوية فى هذه الأيّام القلائل، ولكن اعلموا أنّ العذاب الإلهى ينتظركم، لأنّكم مجرمون: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ».

عبارة «إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ» تشير إلى أنّ مصدر العذاب الإلهى هو عمل الإنسان وذنبه، الناشىء من عدم الإيمان أو الأسر فى قبضة الشهوات.

ثم يكرر التهديد بجملة: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ». هم اولئك الذين غُرّروا وخدعوا بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها واشتروا عذاب اللّه.

وأشار فى الآية الاخرى إلى عامل آخر من عوامل الانحراف والتعاسة والتلوث، وقال:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَايَرْكَعُونَ».

إنّهم لم يأبوا الركوع والسجود فحسب، بل إنّ روح الغرور والكِبَر هذه كانت منعكسة على جميع أفكارهم وحياتهم، فما كانوا يسلّمون للّه، ولا لأوامر النبى صلى الله عليه و آله، ولا يقرّون بحقوق الناس، ولا يتواضعون للّه‌تعالى وللناس.

ثم يعيد هذه الآية للمرّة العاشرة والأخيرة إذ يقول: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۸

وفى آخر آية من آيات البحث- وهى آخر آية من السورة- يأتى السياق ممزوجاً بالعتاب ومليئاً بالملائمة، فجاءت الآية بصيغة الاستفهام التعجبى، إذ يقول «فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ». إنّ من لم يؤمن بالقرآن الذى لو انزل على الجبال لتصدعت وارتجفت، فسوف لن يسلم ولن يؤمن بأى كتاب سماوى، ولا يقبل بأى منطق عقلائى، وهذا يدّل على روح العناد والتعصب.

«نهاية تفسير سورة المرسلات»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۴۹

۷۸. سورة النبأ

محتوى السورة: تمتاز أغلب السور القرآنية فى الجزء الأخير من القرآن بأنّها نزلت فى مكة، وتؤكّد فى مواضيعها على مسألة: المبدأ، المعاد، البشارة والإنذار.

ويمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلى:

۱- السؤال عن «النبإ العظيم» وهو يوم القيامة كحدث بالغ الخطورة.

۲- الإستدلال على أمكانية المعاد والقيامة، من خلال الإستدلال بمظاهر القدرة الإلهية فى: السماء، الأرض، الحياة الإنسانية والنعم الربانية.

۳- بيان بعض علامات بدء البعث.

۴- تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.

۵- التشويق للجنة، بوصف أجوائها الفياضة بالنعم.

۶- وتختم السورة بالإنذار الشديد من عذاب قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا.

واشتق اسم السورة من الآية (۲)، ويطلق عليها أيضاً اسم سورة (عمّ) نسبة إلى أوّل كلمة وردت فى السورة بعد البسملة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة عمّ يتسائلون سقاه اللّه برد الشراب يوم القيامة».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۰

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ عمّ يتسائلون لم يخرج سنته إذا كان يدمنها فى كل يوم حتى يزور البيت الحرام».

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۴) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۵) خبر هام: تأتى الآية الاولى لتستفهم بتعجب: «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ». ودون انتظار للجواب، تجيب الآية الثانية ما سُئل عنه فى الآية الاولى: «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ». ذلك الخبر: «الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ».

أورد المفسرون آراءً متباينة في المقصود من «النبإ العظيم»، فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، ومنهم من قال بأنّه إشارة إلى القرآن الكريم، ومنهم من اعتبره إشارة إلى اصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

بنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة وسياق طرحها، وما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها في السماء والأرض، وبعد هذا العرض تؤكّد إحدى الآيات: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا». ثم مخالفة وعدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»، كل ذلك يدعم التّفسير الأوّل القائل: بأنّ النبإ العظيم هو يوم القيامة.

«النبإ العظيم» كمفهوم قرآني- مثل سائر المفاهيم القرآنية- له من السعة ما يشمل كل ما ذكر من معان، وإذا كانت قرائن السورة تدلّ على أنّ المقصود منه «المعاد»، فهذا لا يمنع من أن تكون له مصاديق اخرى.

ولذا نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام وفي بعض روايات أهل السنّة أنّ «النبإ العظيم» بمعنى إمامة أمير المؤمنين على عليه السلام، حيث كانت مثار جدال ونقاش بين جمع من المسلمين، وهناك من فسّر «النبإ العظيم» بالولاية بشكل عام.

ويضيف القرآن قائلًا: «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ». فليس الأمر كما يقولون أو يظنون.

ويجدد التأكيد: «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ».

فسيعلمون في ذلك اليوم الواقع حتماً: «أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۱

جَنبِ اللَّهِ» «۱». يوم ينهال العذاب الإلهي على الكافرين فيقولون بصرخات مستغيثة: «هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ» «۲».

بل وإنّ طلب العودة إلى الحياة لجبران خطيئاتهم سيطرح في اولى لحظات الموت، حين تزال الحجب عن عين الإنسان فيرى بام عينيه حقيقة عالم الآخرة، فيستيقن حياة البرزخ والمعاد، ولا يبقى عنده إلّاأن يقول: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» «۳».

أ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (۱۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (۱۶) كل شيء بأمرك يا ربّ ...: تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكرى المعاد والمختلفين في هذا «النبإ العظيم» لأنّها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون وعالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على قدرة البارى عزّ وجل المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته.

ومن جهة اخرى إشارة إلى أنّ الكون وما فيه من دقّة تنظيم، لا يمكن أن يُخلق لمجرد العبث واللهو، بل لابدّ من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق. في حين أنّه لو كان الموت يعني نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أنّ وجود العالم عبث وخالٍ من أيّة حكمة.

وبهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقين:

۱- برهان القدرة.

۲- برهان الحكمة.

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتى عشر نعمة إلهية، باسلوب ملؤه اللطف والمحبّة، مصحوباً بالاستدلال.

---

(۱) سورة الزمر/ ۵۶.

(۲) سورة الشورى ۴۴.

(۳) سورة المؤمنون/ ۹۹ و ۱۰۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۲

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا».

«المهاد»: المكان الممهّد الموطأ؛ واختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزىً عميق ..

فمن جهة: نجد فى قسم واسع من الأرض الإستواء والسهولة، فتكون مهيئة لبناء المساكن والزراعة.

ومن جهة ثانية: اودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأوّلية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم فى باطنها.

ومن جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التى تودع فيها، وتبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها البارى من قدرة على ذلك.

ومن جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة ولدورانها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة.

وبما أنّ نعمة استواء الأرض وسهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبيّن أهمية الجبال ودورها المهم فى حياة الإنسان: «وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا».

تشكل الجبال آيةً ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدى وظائف كثيرة، منها أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الإنهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض ... وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر فى عملية المد والجزر ...

وتشكل جدران الجبال سداً منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة ...

وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينة فى باطنها ..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود وتعاملًا مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذى يؤثر إيجابياً على الحياة فوق الأرض. وفى هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستوياً كلّه، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوى، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنّ استمرار الإحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوى سيؤدّى بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية مما يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أن بيّن القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم البارى على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية فقال: «وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۳

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر والانثى ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده فى الحياة من خلال عملية التناسل التى تساهم فى استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية ولنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (۲۱) من سورة الروم: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ويشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا».

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثم استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الإستراحة.

وبالرغم من أنّ النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، ولكن الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل ولا زال الإنسان (منذ القديم وحتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ فى مدّة معينة وتغمض العين أجفانها وتسكن جميع أعضاء البدن.

ومع أنّ ذكر النوم فى الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلّاأنّ الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، والإستيقاظ بالبعث.

وبعد الإنتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول:

«وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا».

وتضيف الآية التالية مباشرة: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا».

وشبّهت الآية الليل باللباس والغطاء الذى يُلقى على الأرض ليشمل كل من على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفى على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل والمعاناة خلال النهار، وليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالى لأنّ النوم المريح لا يتيسر للانسان إلّافى أجواء مظلمة.

وبالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعنى زوال نور الشمس وإلّا لانعدمت الحياة واحترقت جميع النباتات والحيوانات فى حال استمرار شروق الشمس.

وخاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بيّنة من آيات خلقه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعى لتفصيل الزمن فى حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۴

وتأتى الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول: «وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا».

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة»، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتى تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا ـ خلل فيه ... ويمكن أن يراد منه العدد، للإشارة إلى أنّ الكواكب وما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الاولى، كما أشارت الآية (۶) من سورة الصّافات إلى ذلك: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ». وثمّة سماوات ستة وعوالم اخرى وراء السماء الاولى «الدنيا» خارجة عن حدود معرفتنا.

وبعد أن أشار القرآن إجمالًا إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول: «وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا».

«الوهّاج»: من الوهج، بمعنى النور والحرارة التى تصدر من النار.

وإطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: (النور) و (الحرارة) ويتفرع عنهما نعم وعطايا كثيرة يزخر بها عالمنا.

ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير فى نمو سائر الكائنات الحيّة.

وإضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس فى: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، وسقى الأراضى اليابسة.

ولأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ فى مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التى تقتل الجراثيم.

وأشعة الشمس فى واقعها: نور صحى مجانى دائمى، يصلنا بكيفية لا هى بالشديدة المحرقة، ولا هى بالقليلة العديمة التأثير.

وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية اخرى لها إرتباط بأشعة الشمس، ويقول: «وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا».

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط .. والكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية وكأنّها تعصر نفسها عصراً لكى ينهمر منها الماء على شكل أمطار.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و «ثجاج» صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۵

وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة فى الجو، مخفض للحرارة ومعدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك .. فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد اخرى له: «لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا». «وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا». «ألفافاً»: أى إلتفّ بعضها ببعض لكثرة الشجر.

والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التى تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسماً مهمّاً من

المواد الغذائية (حبّاً)، والخضر تشكل القسم الآخر (ونباتاً)، وتأتى الفاكهة لتشكل القسم الثالث (وجنّات).

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً (۱۷) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً (۱۹) وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (۲۰) سيأتى اليوم الموعود: الآية الاولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة ... «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا».

والتعبير ب «يوم الفصل» يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث فى ذلك اليوم:

فصل الحق عن الباطل.

فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

فصل الوالدين عن أولادهم، والأخ عن أخيه ...

و «الميقات»: من الوقت، الميعاد من الوعد، بمعنى الوقت المعين والمقرر، وإنّما سمّيت الأماكن التى يحرم منها حجاج بيت اللَّه الحرام ب «المواقيت» لأنّ الاجتماع فيها يكون فى وقت معين.

ويتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم، فيقول: «يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا».

ويستفاد من آيات القرآن أنّ ثمّة نفختان عظيمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور) .. ففى النفخة الاولى سينهار كل عالم الوجود، ويخرّ ميتاً كل من فى السماوات والأرض، وفى النفخة الثانية يتجدّد عالم الوجود وتعود الحياة إلى الأموات مرّة اخرى، ليقوم بعدها يوم القيامة وأمّا ما ورد فى الآية فيختص بنفخة الصور الثانية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۶

وتأتى الآية الاخرى لتقول: «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا». فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة «۱».

وتأتى الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال فى ذلك اليوم الحق: «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا».

بملاحظة ما جاء فى القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أنّ الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» «۲».

ثم تُحمل وتُدك: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً» «۳».

فتكون تلالًا من الرمال المتراكمة: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا» «۴».

فتصبح كأصواف منفوشة: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ» «۵».

فتتحول غباراً متناثراً فى الفضاء: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا» «۶».

ولا يبقى منها أخيراً إلّاالأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (۲۱) لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً (۲۳) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَ لَا شَرَاباً (۲۴) إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (۲۵) جَزَاءً وِفَاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً (۲۷) وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً (۲۸) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً (۳۰) جهنم ... المرصاد الرهيب: بعد أن بيّن القرآن الكريم فى الآيات السابقة بعض أدلة المعاد وتناول قسماً من حوادث يوم القيامة، يذكر فى هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا». وهى: «لِّلطَّاغِينَ مَابًا». وأنّهم: «لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا».

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة؛ و «المآب»: هو محل الرجوع، ويأتى أحياناً بمعنى المنزل والمقر، وهو المقصود فى هذه الآية.

---

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۲۰/ ۱۶۶ ذيل الآية مورد البحث.

(۲) سورة طور/ ۱۰.

(۳) سورة الحاقّة/ ۱۴.

(۴) سورة المزمّل/ ۱۴.

(۵) سورة القارعة/ ۵.

(۶) سورة الواقعة/ ۵ و ۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۷

و «الأحقاب»: جمع (حقب) على وزن (قفل)، بمعنى برهة زمانية غير معينة.

وتشير الآيات- بعد ذلک- إلى جانب صغير من عذاب جهنم الأليم، بالقول: «لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا». «إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا»، إلّاظلّ من الـدخان الغليظ الخانق كما أشارت إلى ذلک الآيـة (۴۳) من سورة الواقعـة: «وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ». «الحميم»: هو الماء الحار جـدّاً؛ و «الغسّاق»:

هو ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد والقيح.

فى حين أنّ أهـل الجنـة يسـقيهم ربّهم جـلّ شـأنه بالأشـربة الطاهرة، كما جاء فى الآيـة (۲۱) من سورة الإنسان: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

ولكن، لِمَ هذا العذاب الأليم؟ فتأتى الآية التالية: إنّما هو: «جَزَاءً وِفَاقًا».

ولِمَ لا يكون كذلک .. وقد أحرقوا فى دنياهم قلوب المظلومين، وتجاوزوا بتسـلطهم وظلمهم وشرّهم على رقاب الناس دون أن يعرفوا للرحمة معنى، فجزائهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

ويذكر القرآن سبب الجزاء فيقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا لَايَرْجُونَ حِسَابًا».

وبعبارة اخرى: إنّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سبباً لذلک الجزاء الأليم.

لأنّهم تناسوا حساب يوم القيامة بالكلية: ولم يفرزوا له مكاناً فى كل حياتهم.

ومباشرة يضيف القرآن القول: «وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا كِذَّابًا».

فقد أحكمت الأهواء النفسانية قبضـتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات اللّه تكذيباً شديداً، وأنكروها إنكاراً قاطعاً ليواصـلوا أمانيهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم النفسانية ونوازعهم الدنيوية.

ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم والعقاب فى العدل الإلهى، فيقول:

«وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنهُ كِتَابًا».

فلا تظنوا أنّ شيئاً من أعمالكم سيبقى بلا حساب أو عقاب، ولا تساوركم الشكوک بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم.

وفى هذا المجال، يقول القرآن: «وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۸

مُّسْتَطَرٌ» «۱» .. وفى موضع آخر يقول: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ» «۲». ولـذلک يصـرخ المجرمون بالقول: «يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «۳».

حينما يسـتلمون كتابهم الحاوى على كل ما فعلوه فى الحياة الـدنيا. وممّا لا شک فيه، أنّ إدراک حقيقـة الآيات الربانيـة بكامل القلب، سوف يـدفع الإنسـان لأن يكون دقيقاً فى جميع أعماله، وسـيكون اعتقاده الجازم بمثابـة السـدّ المنيع بينه وبين ارتكاب الـذنوب، ومن العوامل المهمّة والمؤثرة فى العملية التربوية.

ويتغيّر لحن الخطاب فى الآيـة الأخيرة من الآيات المبحوثـة، فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبـة الحاضـر: ويهدد القرآن بنبرات

غاضبة اولئك المجرمين، ويقول: «فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا».

وهـذا هو جزاء اولئك الـذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعيـة إلى اللَّه والإيمان والتقوى، بقولهم: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ» «۴».

حتى روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «هذه الآيهٔ أشدّ ما فى القرآن على أهل النار» «۵».

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (۳۱) حَدَائِقَ وَ أَعْنَاباً (۳۲) وَ كَوَاعِبَ أَتْرَاباً (۳۳) وَ كَأْساً دِهَاقاً (۳۴) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَ لَا كِذَّاباً (۳۵) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً (۳۶) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً (۳۷) ممّا وعـد اللَّه المتقين: كان الحديث فى الآيـات السابقـهٔ منصبـاً حول خاتمـهٔ المجرمين والطغـاهٔ ومـا يلاقونه من أليم العـذاب وموجباته، وينتقل الحـديث فى الآيات أعلاه لتفصيل

---

(۱) سورهٔ القمر/ ۵۲ و ۵۳.

(۲) سورهٔ يس/ ۱۲.

(۳) سورهٔ الكهف/ ۴۹.

(۴) سورهٔ الشعراء/ ۱۳۶.

(۵) تفسير الكشاف ۴/ ۲۱۰؛ وتفسير الصافى ۵/ ۲۷۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۵۹

بعض ما وعـد اللَّه المؤمنين والمتقين من النعم الخالدهٔ والثواب الجزيل، عسـى أن يرعوى الإنسان ويتبع طريق الحق من خلال مقايسـته لما يعيشه كل من الفريقين، على ضوء تفكيره بمصيره الأبدى. فيقول مبتدءً الحديث: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا».

ومن مفردات الفوز والسعادهٔ: «حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا».

وقد روى عن النبى صلى الله عليه و آله فى خصوص العنب أنّه قال: «خير فواكهكم العنب».

ويتطرق القرآن إلى نعمهٔ اخرى ممّا وعد اللَّه به المتقين فى الجنهٔ، فيقول: «وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا».

«الكواعب»: جمع «كاعب»، وهى البنت حديثهٔ الثدى، للإشارهٔ إلى شـباب زوجات المتقين فى الجنهٔ؛ و «الأتراب»: جمع «ترب»، ويطلق على مجموعـهٔ الأـفراد المتساوين فى العمر. قيل: إنّها من «الترائب» وهى: اضـلاع الصـدر، وذلك لما بينهما من شـبه من حيث التساوى والتماثل.

وتأتى النعمهٔ الرابعهٔ: «وَكَأْسًا دِهَاقًا».

وهو مُذكٍ للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب.

ودفعاً لما يتبادر إلى الأذهان من تبعات شراب الدنيا الشيطانى، يقول القرآن: «لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا».

فالجنـهٔ خاليـهٔ من: الأكـاذيب، الهـذيان، التهم، الإـفتراءات، تبرير الباطـل، بل وكل ما كان يؤذى قلوب المتقين فى الحياهٔ الـدنيا .. إنّها الجنهٔ! وخير تصوير لها ما جاء فى الآيهٔ (۶۲) من سورهٔ مريم: «لَّايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلمًا».

وفى آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمهٔ المعنويهٔ التى تفوق كل النعم علوّاً:

«جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا».

وأيّهٔ بشارهٔ ونعمهٔ أسمى وأجل، من أن أكون وأنا العبد الضعيف، موضع ألطاف وإكرام اللَّه جلّ وعلا.

وفى آخر آيهٔ من الآيات المبحوثهٔ، يضيف: «رَّبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ».

وبما أنّ صـفهٔ «الرحمن» تشـمل رحمـهٔ اللَّه العامّـهٔ لكل خلقه، فيمكن حمل إشارهٔ الآيهٔ إلى أنّ اللَّه تبارك وتعالى يشـمل برحمته أهل

السماوات والأرض فى الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم فى الجنة.

وذيل الآية يقول: «لَايَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۰

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قَالَ صَوَاباً (۳۸) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً (۴۰) رأينا فى الآيات السابقة أنّها تحدثت عن بعض عقوبات الظالمين والطواغيت، وبعض المواهب والنعم المتعلقة بالصالحين فى يوم القيامة، وتتناول الآيات أعلاه بعض صفات وحوادث يوم القيامة، وتشرع بالقول ب «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلِكَةُ صَفًّا لَّايَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقَالَ صَوَابًا».

وبلا شك فإنّ قيام الروح والملائكة صفّاً يوم القيامة، وعدم تكلمهم إلّابإذنه سبحانه، إنّما هو مثولًا للأوامر الإلهية وطاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم بأمره يعملون ولكن فى يوم القيامة سيتجلّى أمتثالهم للّهأكثر وبشكل أوضح.

والمراد من «الروح» فى الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة اللّه العظام، والذى يبدو من بعض الآيات أنّه أعظم من جبرائيل وبدلالة ما روى على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل».

وعلى أيّة حال، فسواء كان «الروح» من الملائكة أو من غيرهم، فإنّه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفّاً بانتظار أوامر الخالق سبحانه، وسيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أيّ من الخلق للتحدث معه.

فى تفسير مجمع البيان: روى معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام قال سئل عن هذه الآية، فقال: «نحن واللّه المأذون لهم يوم القيامة والقائلون».

قال: جعلت فداك ما تقولون؟

قال: «نُمجّد ربّنا، ونصلّى على نبيّنا صلى الله عليه و آله ونشفع لشيعتنا، فلا يردنا ربّنا».

ونستفيد من هذه الرواية: أنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام سيقفون صفّاً يوم القيامة مع الملائكة والروح، وسيكونون من المأذون لهم فى الكلام والشفاعة، وسيكون حديثهم منصباً حول الذكر والثناء والتسبيح للبارى عزّ وجل.

ويشير القرآن واصفاً ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس والملائكة أجمعون يوم الفصل،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۱

يوم عقاب العاصين وثواب المتقين، يشير بقوله: «ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ».

«الحق»: هو الأمر الثابت واقعاً، والذى تحققه قطعى. وهذا المعنى ينطبق تماماً على يوم القيامة، لأنّه سيعطى كل إنسان حقّه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، وتتكشف كل الحقائق التى كانت مخفية على الآخرين .. فإنّه بحق: يوم الحق، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وإذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوى نحو اللّه عزّ وجل للحصول على رضوانه سبحانه بإمتثال أوامره تعالى .. ولهذا يقول القرآن مباشرة: «فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَابًا».

فجميع مستلزمات التوجه والحركة نحو اللّه متوفرة بعد أن بيّن طريق الحق وأشار إلى معالم سبل الشيطان، بلغ اللّه أوامره بواسطة الأنبياء والرسل وبالقدر الكافى، أودع فى الإنسان العقل (النبى الباطن)، رغّب المتقين بالمفاز، أنذر المجرمين عذاباً أليماً، عيّن يوماً لمحكمة العدل الإلهى بيّن اسلوب المحاكمة، ولم يبق للإنسان سوى اختيار ما يتخذه إلى ربّه مآباً، وبمحض إرادته.

ثم يؤكّد القرآن على مسألة عقاب المجرمين الذين يتوهمون أنّه يوم بعيد أو نسيئة، يقول القرآن ... إنّ عقاب المجرمين لواقع، ويوم القيامة لقريب: «إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا».

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة (۱۰۳) نهج البلاغة: «كل آت قريب دان».

ولِمَ لاـ یکـون قریبـاً مـا دام الأسـاس فی العـذاب الإلـهی هـو نفس أعمـال الإنسـان والـتی هی معـه علی الـدوام: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» «۱».

وبعـد أن وجّه الإنـذار للناس، یشیر القرآن إلی حسرهٔ الظالمین والمذنبین فی یوم القیامهٔ، حین لا ینفع ندم ولا حسرهٔ، إلّامن أتی اللَّه بقلب سلیم: «يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا».

وأساساً فإنّ تجسّم الأعمال ومرافقتها للإنسان من أفضل المکافآت للمطیعین وأشدّ عقوبهٔ للعاصین.

نعم، فقـد یصل الأمر بالإنسان، وعلی الرغم من کونه أشـرف المخلوقات، لأنّ یتمنی أن یکون والجمادات بدرجـهٔ واحدهٔ، لما بدر منه من کفر وذنوب.

---

(۱) سورهٔ العنکبوت/ ۵۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۲

وتصور لنـا الآیـات القرآنیـهٔ أحوال الکافرین والمجرمین، وشـدّهٔ تأثرهم وتأسـفهم ونـدمهم علی ما فعلوا فی دنیاهم، یوم الفزع الأکبر، فتقول الآیهٔ (۵۶) من سورهٔ الزمر: «يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ».

وتقول الآیهٔ (۱۲) من سورهٔ السّجدهٔ: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا».

أو ما یقوله کل فرد منهم- کما جاء فی الآیهٔ المبحوثهٔ-: «يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرابًا».

«نهایهٔ تفسیر سورهٔ النبأ»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۳

۷۹. سورهٔ النازعات

محتوی السورهٔ: تتلخص مواضیع هذه السورهٔ بستهٔ أقسام:

۱- التأکید مراراً علی مسألهٔ المعاد وتحققه الحتمی.

۲- الإشارهٔ إلی أهوال یوم القیامهٔ.

۳- عرض سـریع لقصهٔ موسـی علیه السـلام مع الطاغی فرعون، تسـلیهٔ للنبی صـلی الله علیه و آله والمؤمنین، وإنذاراً للمشـرکین الطغاهٔ، وإشارهٔ إلی ما یترتب علی إنکار المعاد من سقوط فی مستنقع الرذیلهٔ.

۴- طرح بعض النماذج والمظاهر لقدرهٔ الباری سبحانه فی السماء والأرض، للاستدلال علی إمکان المعاد والحیاهٔ بعد الموت.

۵- تعود الآیات مرّهٔ اخری، لتعرض بعض حوادث الیوم الرهیب، وما سیصیب الطغاهٔ من عقاب وما سینال الصالحون من ثواب.

۶- وفی النهایهٔ، یأتی علی خفاء تاریخ وقوع یوم القیامهٔ، والتأکید علی حتمیهٔ وقوعه وقربه.

سمیت السورهٔ ب (النازعات) لورود هذه الکلمهٔ فی أوّل آیهٔ منها.

فضیلهٔ تلاوهٔ السورهٔ: فی المجمع: ابی بن کعب عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ومن قرأ سورهٔ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۴

والنازعات لم یکن حبسه وحسابه یوم القیامهٔ إلّاکقدر صلاهٔ مکتوبهٔ حتی یدخل الجنهٔ».

ولیس غریبـاً أن ینال الإنسان بکل ما ذکر جزاءً من عنـد اللَّه، إذا ما أمعن فی محتوی السورهٔ وتـدبّر إشاراتها الموقظـهٔ للنفوس الغافلـهٔ، والمعرّفـهٔ بوظـائف الإنسـان فی حیاته، فمن لم یکتف بتردیـد ألفاظ السورهٔ، وعمل بها بعـد الإمعان والتـدبر فحری أن یجزی بما وعد الحق.

وَ النَّازِعَاتِ غَرْقاً (۱) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطاً (۲) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحاً (۳) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً (۴) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً (۵) القسم بالملائكة: جاء القَسم القرآنى بخمسة أشياء مهمة، لتبيان حقيقة وحتمية تحقق يوم القيامة (المعاد)، فيقول: «وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ...».

«النازعات»: من «النزع»، ونزع الشىء جذبه من مقرّه.

«الغَرق»: هو الرسوب فى الماء، ويأتى كـذلك فيمن غمره البلاء؛ والمقصود فى هـذه الآيـة ليس الغرق فى الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حدّ ممكن.

«النّاشطات»: من «النشط»، هى العُقد التى يسهل حلها، فيكون المعنى عموماً: هو التحرك بسهولة.

«السابحات»: من «السبح»، وهو الحركة السريعة فى الماء أو الهواء.

«السابقات»: من «السبق»، وهو التقدم فى السير.

«المدبرات»: من «التدبير»، وهو التفكير فى عاقبة الامور، وأرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

وبعد هذه التعريفات الموجزة نشرع بالتفسير:

إنّ القسم المـذكور يتعلق بالملائكـة الموكلة بقبض أرواح الكفار والمجرمين، ولكون تلك الأرواح قد رفضت التسـليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدّة.

ويتعلق كذلك، بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق ويُسر، وسرعة فى إتمام الأمر.

والملائكة التى تسرع فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

ثم الملائكة التى تتسابق فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۵

وأخيراً، يتعلق القسم بالملائكة التى تدبّر شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (۸) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (۹) يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (۱۰) أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً (۱۱) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (۱۲) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (۱۳) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (۱۴) صيحة الموت المرعبة: بعد أن أكّد القرآن الكريم على حقيقـة القيامة وحتمية وقوعها فى الآيات السابقة، تتعرض الآيات أعلاه لبعض ما يصاحب يوم القيامة من علامات وأحداث، فتقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ». أى: يوم تحدث الزلزلة العظيمة المهولة.

ثم: «تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ».

«الراجفة»: من «الرجف»، بمعنى الإضطراب والتزلزل.

«الرادفة»: من «الردف»، وهو الشخص أو الشىء الذى يأتى بعد نظيره تتابعاً.

إنّ «الراجفـة» هى الصـيحة ونفخـة الصور الاولى التى تعلن عن موت جميع الخلائق، و «الرادفـة» هى الصـيحة ونفخة الصور الثانية التى يبعث فيها الخلق مرّة اخرى ليعيشوا يوم القيامة.

وتأتى الآية الاخرى لتقول: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ».

فقلوب العاصين شديدة الإضطراب خوفاً من الحساب والجزاء.

ويكون التزلزل الداخلى من الشدّة بحيث يظهر على وجوه كل المذنبين، ولذا يقول القرآن: «أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ».

فيبدو الإضطراب والخوف ظاهراً على أعين المذنبين، وتتوقف حركتها وكأنّها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شديد.

وفى الآية التالية ينتقل الحديث من أخبار يوم القيامة إلى الحياة الدنيا: «يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ».

«الحافرة»: من «الحفر» بمعنى شقّ الأرض، وما ينتج من ذلك يسمى (حفرة).

و «الحافرة»: كناية لمن يُرد من حيث جاء، كما لو سار إنسان على أرض، فيترك فيها حفراً لتحمل آثار قدمه، ثم يعود إلى نفس تلك

الحفر، فالحافرة: تعنی الحالة الاولی.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۶

وتستمر الآیة فی سرد کلامهم: «أءذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً». فهکذا هو حال ودأب منکری المعاد وعلی الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، وبقولهم المعروف: کیف للعظام البالیة النخرة والتی تحولت إلی ذرات تراب أن تعود مرّة اخری جسماً کاملًا، والأکثر من هذا .. أن تسری فیه الحیاة؟ ولکنّهم لم یفقهوا إلی أنّهم خلقوا من ذلک التراب، فکیف أصبحوا بهذه الهیئة الحیّة بعد أن لم یکونوا شیئاً؟

ولا یکتفی منکرو المعاد بحال الإعتراض علی ما وعدهم به الباری سبحانه، بل وتحولوا إلی حال الإستهزاء بأحد اصول دین اللَّه: «قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ».

وفی آخر آیة من الآیات المبحوثة یعود القرآن الکریم إلی مسألة القیامة، وبلسان قاطع، یقوق: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ* فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ».

فالأمر لیس بمستصعب علی الخالق القادر، فما أن یصدر الأمر الإلهی لنفخة الصور الثانیة حتی تعود الحیاة ثانیة إلی جمیع الخلائق، نعم .. فتشرع کل تلک العظام النخرة وما صار منها تراباً للتجمع علی الهیئة الاولی، ولیخرج الناس من قبورهم بعد أن تسری فیهم روح الحیاة.

«الزجرة»: بمعنی صیحة بشدّة وانتهار، ویراد بها: نفخة الصور الثانیة.

«الساهرة»: من «السهر»، وهو الأرق، وقیل: لأرض القیامة «الساهرة» لذهاب النوم عن العیون لما سیصابون به من أهوال مرعبة.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (۱۵) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (۱۶) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (۱۸) وَ أَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (۱۹) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (۲۰) فَكَذَّبَ وَ عَصَى (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (۲۲) فَحَشَرَ فَنَادَى (۲۳) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (۲۴) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى (۲۵) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (۲۶) یشیر القرآن الکریم بهذه المقاطع البیانیة إلی بعض مشاهد قصة موسی علیه السلام وفرعون، والتی تتناول عاقبة الطغاة عبر التاریخ، وما حدی بفرعون من مصیر أسود، لیستذکر مشرکو قریش وطغاتهم تلک الواقعة، ولیعلموا أن من کان أقوی منهم لم یتمکن من مقاومة العذاب الإلهی.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۷

ویشیر البیان القرآنی کذلک، إلی المؤمنین بأن لا یخافوا من قوّة الأعداء الظاهریة، لأنّ دمارهم وهلاکهم علی اللَّه أسهل من أن یتصور .. فهذا البیان القرآنی إذاً، تسلیة لقلوب المؤمنین وترطیباً لخواطرهم.

فیتوجه الحدیث إلی النبی صلی الله علیه و آله بصیغة الإستفهام: «هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ مُوسَى . لیشوق السامع ویهیئه لاستماع القصة ذات العبر.

ثم یقول: «إِذْ نَادَيهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

«طوی»: یمکن أن یکون اسماً لأرض مقدّسة، تقع فی الشام بین (مدین) و (مصر)، وهو الوادی الذی کلّم اللَّه تعالی فیه موسی علیه السلام أوّل مرّة.

ثم أشار القرآن إلی تعلیمات اللَّه عزّ وجل إلی موسی علیه السلام فی الواد المقدس: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى . وبعد التزکیة وتطهیر الذات تصبح لائقاً للقاء اللَّه، وسوف أهدیک إلیه عسی أن تخشع وتترک ما أنت علیه من المنکرات: «وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى .

ولمّا کانت کل دعوة تحتاج إلی دلیل صحتها، یضیف القرآن القول: «فَأَرَيهُ الْأَيَةَ الْكُبْرَى .

ولکن، ما الآیة الکبری؟ هل هی عصا موسی علیه السلام التی تحولت إلی أفعی عظیمة، أو إخراج یده بیضاء، أم کلیهما؟ وعلی أیّة حال، فالمهم فی المسألة إنّ موسی علیه السلام استند فی بدء دعوته علی معجزة «الآیة الکبری».

وتبيّن لنا هذه الملاحظة: إنّ من جملة الأهداف المهمّة فى حركة الأنبياء هى هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

لكن فرعون المتجبّر قابل كل تلك المحبة، اللطف، الدعوة بالحسنى والآية الكبرى، قابل كل ذلك بالتجبّر الأعمى والغرور الأبله: «فَكَذَّبَ وَعَصَى .

وكما يظهر من الآية المباركة فإنّ التكذيب مقدمة العصيان ومرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق والإيمان باعتباره مقدمة للطاعات.

وازداد فرعون عتوّاً: «ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى .

وقد هددت معجزة موسى عليه السلام كل وجود فرعون الطاغوتى، مما دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه وقد أمر أتباعه وجنوده لجمع كل سحرة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۸

البلاد- على كثرتهم فى تلك الحقبة الزمنية- ونودى فى الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، وليظهروا مثلها: «فَحَشَرَ فَنَادَى . ولم يكتف فرعون بكذبه وعصيانه، ومقاومته لدعوة الحق والوقوف أمامها، بل وتعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جدّاً، وافترى على اللّه وعلى نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى لنفسه الربوبية على شعبه وأمرهم بطاعته: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

فادّعاءه بأنّه (الربّ الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده! .. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

وعلى أيّة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر والطغيان، فأخذه جبّار السماوات والأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى .

«النكال»: لغةً: العجز والضعف. ويقال لمن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل).

و (النِكل)- على وزن فكر- القيد الشديد الذى يعجز معه الإنسان على عمل أىّ شىء.

و «نكال»: فى الآية يقال للعذاب الإلهى الذى يؤدّى إلى عجز الإنسان، ويُخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب.

«نكال الآخرة»: عذاب جهنم الذى سينال فرعون وأصحابه ومَن سار على خطوه؛ و «عذاب الاولى»: إشارة إلى إغراق فرعون وأصحابه فى نهر النيل.

وتقديم «نكال الآخرة» على عذاب الدنيا، لأهميته وشدّة بطشه.

وقيل: «الاولى»: تشير إلى كلمة فرعون الاولى فى مسير طغيانه حين ادّعى (الالوهية)، كما جاء فى الآية (۳۸) من سورة القصص.

و «الآخرة»: إشارة إلى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادّعى (الربوبية العليا)، فعذّبه اللّه بالغرق فى الحياة الدنيا نتيجة ادّعائيه الباطلين.

ويوافق هذا المعنى صيغة الفعل الماضى الواردة فى الآية «أخذ» والذى يفهم منه تنفيذ كل العقاب فى الدنيا، وتعضده الآية التالية التى تَعِدّ العذاب عبرةً للآخرين.

ويستخلص القرآن نتيجة القصة: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى .

فتبيّن الآية إنّ وسائط سلك طريق الإعتبار مهيئة لمن سرى فى قلبه الخوف والخشية من اللّه، واعترته مشاعر الإحساس بالمسؤولية، ومَن رأى العبرة بعين معتبرة اعتبر.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۶۹

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (۲۷) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا (۳۰) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا (۳۱) وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (۳۲) مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (۳۳) اللمسات الربانية فى عالم الطبيعة ونظام الكون: ينتقل البيان القرآنى مرّة اخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمحات البلاغية فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون. وابتدأ الخطاب باستفهام توبيخى (لمنكرى المعاد) هل أنّ خلقكم (وإعادتكم إلى الحياة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: «ءَأَنتُم أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا».

والآية فى واقعها جوابٌ لما ذكر من قولهم فى الآيات السابقة: «أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ»- أى هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الاولى- فكل إنسان ومهما بلغت مداركه ومشاعره من مستوى، ليعلم أنّ خلق السماء وما يسبح فيها من نجوم وكواكب ومجرّات، لهو أعقد وأعظم من خلق الإنسان ... وإذاً فمن له القدرة على خلق السماء وما فيها من حقائق، أيعقل أن يكون عاجزاً عن إعادة الحياة مرّة اخرى إلى الناس؟!

ويضيف القرآن فى بيان خلق السماء، فيقول شارحاً بتفصيل: «رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيهَا».

وقيل: إنّ الآية تشير إلى ارتفاع السماء والأجرام السماوية وبعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ، والغلاف الجوى الذى حفّ وأحاط بالكرة الأرضية.

ثم تنتقل بنا الآية التالية إلى إحدى الأنظمة الحاكمة فى هذا العالم الكبير، (نظام النور والظلمة): «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحهَا».

فلكلّ من النور والظلمة دور أساس ومهم جدّاً فى حياة الإنسان وسائر الأحياء من حيوان ونبات، فلا يتمكن الإنسان من الحياة دون النور، لما له من إرتباط وثيق فى حركة وإحساس ورزق وأعمال الإنسان، وكذا لا يتمكن من تكملة مشوار حياته من غير الظلمة، والتى تعتبر رمز الهدوء والسكينة.

«أغطش»: من «الغطش»، بمعنى الظلام.

«الضحى»: إنبساط الشمس وإمتداد النهار.

وتنتقل بنا الآية الاخرى من السماء إلى الأرض، فتقول: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحهَا».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۰

مختصر الامثل ج۵ ۳۹۹

«دحاها»: من «الدحو» بمعنى الإنبساط، وفسّرها بعضهم بتحريك الشىء و نقله من مكانه. وللمعنيين أصل واحد، لوجود التلازم بينهما. ويقصد بدحو الأرض، إنّها كانت فى البداية مغطاة بمياه الأمطار الغزيرة التى انهمرت عليها من مدّة طويلة، ثم استقرت تلك المياه تدريجياً فى منخفضات الأرض، فشكلت البحار والمحيطات، فيما علت اليابسة على أطرافها، وتوسعت تدريجياً، حتى وصلت لما هى عليه الآن من شكل، (وحدث ذلك بعد خلق السماء والأرض).

وبعد دحو الأرض، وإتمام صلاحيتها لسكنى وحياة الإنسان، يأتى الحديث فى الآية التالية عن الماء والنبات معاً: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعهَا».

ويظهر من التعبير القرآنى، إنّ الماء قد نفذ إلى داخل الأرض بادىء ذى بدء، ثم خرج على شكل عيون وأنهار، حتى تشكلت منهما البحيرات والبحار والمحيطات.

«المرعى»: اسم مكان من (الرعى)، وهو حفظ ومراقبة امور الحيوان من حيث التغذية وما شابهها. ولهذا، تستعمل كلمة (المراعاة) بمعنى المحافظة والمراقبة وتدبير الامور.

ثم ينتقل البيان القرآنى إلى «الجبال»، حيث ثمّة عوامل تلعب الدور المؤثر فى استقرار وسكون الأرض، مثل: الفيضانات، العواصف العاتية، المدّ والجزر، والزلازل .. فكل هذه العوامل تعمل على خلخلة استقرار الأرض، فجعل اللّه عزّ وجل «الجبال» تثبيتاً للأرض، ولهذا تقول الآية: «وَالْجِبَالَ أَرْسهَا».

«أرسى»: من «رسو»، بمعنى الثبات، وأرسى: فعل متعد؛ أى، ثبّت الجبال فى مواقعها.

وتلخص الآية التالية ما جاء فى الآيات السابقة: «مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

كل ذلك، ليغرف الإنسان من نِعم اللّه.

وما جاء فى الآيات يبرز قدرته سبحانه على المعاد من جهة، ويدلل من جهة اخرى على وجود اللّه تعالى وعظمة شأنه، ليدفع المخلوق

إلى الإذعان بسلامة سلک طریق معرفة اللّه وتوحیده.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْکُبْرَی (۳۴) یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَی (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَنْ یَرَی (۳۶) فَأَمَّا مَنْ طَغَی (۳۷) وَ آثَرَ الْحَیَاةَ الدُّنْیَا (۳۸) فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوَی (۳۹) وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوَی (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِیَ الْمَأْوَی (۴۱)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۱

التنزّه عن الهوى: وتتجه عدسة آیات القرآن الکریم لتعرض لنا جوانباً من صور عالم القیامة، وتبدأ بتصویر تلک الداهیة المذهلة التی تصیب مَن عبد أهواءه فی الحیاة الدنیا:

«فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْکُبْرَی .

«الطامة»: من «الطم» وهو فی الأصل بمعنى ملء الفراغ والحفر، ویطلق بالطامة على کل شیء بلغ حدّه الأعلى، ولهذا فقد اطلقت على الحوادث المرّة والصعاب الکبار، وهی فی الآیة تشیر إلى یوم القیامة لما فیها من دواهی تغطی بهولها کل هول، واتبعت ب «الکبرى» زیادة فی التأکید على أهمیة وخطورة یوم القیامة.

ویضیف: حال حلول الحدث ... سیستیقظ الجمیع من غفلتهم، ویتذکروا ما زرعوا لحیاتهم: «یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنسنُ مَا سَعَی .

وأنى للتذکر بعد فوات الأوان!

وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنیا لإصلاح ما أفسدوا ویتدارکوا الأمر، فسیقرعون ب «کَلَّا».

وإذا ما اعتذروا تائبین، فلا محیص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبّار الحکیم.

نعم، وقد ازیلت الحجب عن قلبه وروحه، سیرى الحقائق بعینها شاخصة أمامه، ولا ینسى حینها ما اکتسبت یداه من أعمال.

وتتحرک الآیة التالیة لوصف ما سیقع: «وَبُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَن یَرَی .

فالجحیم موجودة، کما تشیر إلى ذلک الآیة (۵۴) من سورة العنکبوت: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکَافِرِینَ». ولکن حجب الدنیا تمنعنا من رؤیتها، وأمّا فی یوم الفصل، یوم البروز، فسیبرز کل شیء ولا یستثنى من ذلک جهنم.

وفی الآیات الثلاثة التالیة، یشیر القرآن إلى حال المجرمین والطغاة یوم القیامة: «فَأَمَّا مَن طَغَی وَءَاثَرَ الْحَیَوةَ الدُّنْیَا* فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوَی .

والآیة الاولى تشیر إلى فساد عقائد الطغاة، لأنّ الطغیان ینشأ من الغرور، والغرور من نتائج عدم معرفة الباری جّل شأنه.

وبمعرفة عظمة وجلال اللّه یتصاغر الإنسان حتى یکاد لا یرى لنفسه أثراً، وعندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودیة الحقة، مادام سلوکه یصب فی رافد معرفة اللّه.

والآیة الثانیة تشیر إلى فسادهم العملی، لأنّ الطغیان یوقع الإنسان فی شراک اللذائذ الوقتیة الفانیة ذروة الطموح ومنتهى الأمل، فینساق واهماً لأن یجعلها فوق کل شیء.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۲

والأمران فی واقعهما کالعلّة والمعلول، فالطغیان وفساد العقیدة مفتاح فساد العمل وحبّ الدنیا المفرط، ولا یجران إلّاإلى سوء عقبى الدار، نار جهنم خالدین فیها أبداً.

ویأتی الدور فی الآیتین التالیتین لوصف أهل الجنة: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوَی فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِیَ الْمَأْوَی .

فالشرط الأوّل للحصول على نعم الجنة والإستقرار بها هو الخوف من اللّه من خلال معرفته (معرفة اللّه والخوف من التمرد والعصیان على أوامره)، والشرط الثانی هو ثمرة ونتیجة الشرط الأوّل أی الخوف والمعرفة ویتمثل فی السیطرة على هوى النفس وکبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون اللّه.

یَسْأَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْسَاهَا (۴۲) فِیمَ أَنْتَ مِنْ ذِکْرَاهَا (۴۳) إِلَی رَبِّکَ مُنْتَهَاهَا (۴۴) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ یَخْشَاهَا (۴۵) کَأَنَّهُمْ یَوْمَ

یَرَوْنَهَا لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا عَشِیَّةً أَوْ ضُحَاهَا (۴۶) تتعرض الآیات أعلاه لإجابة المشرکین ومنکری المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قیام الساعة (یوم القیامة)، فتقول أوّلًا: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْسهَا».

والقرآن فی مقام الجواب یسعی إلی إفهامهم بأنّه لا أحد یعلم بوقت وقوع القیامة، ویوجه الباری خطابه إلی حبیبه الأکرم صلی الله علیه و آله، بأنّک لا تعلم وقت وقوعها، ویقول: «فِیمَ أَنتَ مِن ذِکْرَیهَا».

فما خفی علیک (یا محمّد)، فمن باب أولی أن یَخفی علی الآخرین، والعلم بوقت قیام القیامة من الغیب الذی اختصه اللَّه لنفسه، ولا سبیل لمعرفة ذلک سواه إطلاقاً.

وتقول الآیة التالیة: «إِلَی رَبِّکَ مُنتَهاهَا».

ویؤکّد القرآن هذا المعنی فی الآیة (۳۴) من سورة لقمان: «إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ».

وفی الآیة (۱۸۷) من سورة الأعراف: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّی».

وتسهم الآیة التالیة فی التوضیح: «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن یَخْشهَا».

إنّما تکلیفک هو دعوة الناس إلی الدین الحق، وإنذار من یأبی بعقاب اخروی ألیم، وما علیک تعیین وقت قیام الساعة.

وتأتی آخر آیة من السورة لتبیّن أنّ ما تبقی من الوقت لحلول الوعد الحق لیس بالکثیر:

«کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَهَا لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا عَشِیَّةً أَوْ ضُحهَا».

«نهایة تفسیر سورة النّازعات»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۳

۸۰. سورة عبس

محتوی السورة: یمکن ادراج محتویات السورة فی خمسة مواضیع أساسیة:

۱- عتاب إلهی شدید لمن واجه الأعمی الباحث عن الحق باسلوب غیر لائق.

۲- أهمیة القرآن الکریم.

۳- کفران الإنسان بالنعم والمواهب الإلهیة.

۴- بیان جانب من النعم الإلهیة فی مجال تغذیة الإنسان والحیوان لاثارة حس الشکر فی الإنسان.

۵- الإشارة إلی بعض الحوادث الرهیبة ومصیر المؤمنین والکفار فی ذلک الیوم العظیم.

وتسمیة السورة ب (عبس) لورود هذه الکلمة فی أوّل آیة منها.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ومن قرأ سورة عبس جاء یوم القیامة ووجهه ضاحک مستبشر».

عَبَسَ وَ تَوَلَّی (۱) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَی (۲) وَ مَا یُدْرِیکَ لَعَلَّهُ یَزَّکَّی (۳) أَوْ یَذَّکَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّکْرَی (۴) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَی (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّی (۶) وَ مَا عَلَیْکَ أَنْ یَزَّکَّی (۷) وَ أَمَّا مَنْ جَاءَکَ یَسْعَی (۸) وَ هُوَ یَخْشَی (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّی (۱۰)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۴

سبب النّزول

تبیّن الآیات المبارکة عتاب اللَّه تعالی بشکل إجمالی، لشخص قدّم المال والمکانة الإجتماعیة علی طلب الحق ... أمّا مَن هو المعاتَب؟ فقد اختلف فیه المفسرون، لکن المشهور بین عامّة المفسرین وخاصتهم، ما یلی:

إنّها نزلت فی عبد اللَّه بن ام مکتوم، وذلک أنّه أتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو یناجی عتبة بن ربیعة، وأبا جهل بن هشام،

والعباس بن عبد المطلب، وابيّاً واميّة إبنى خلف، يدعوهم إلى اللَّه، ويرجو إسلامهم. فقال: يا رسول اللَّه! أقرئنى وعلمنى ممّا علمك اللَّه، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدرى أنّه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لقطعه كلامه، وقال فى نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنّما أتباعه العميان والعبيد، فأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد ذلك يكرمه «۱».

والآية لم تدل صراحة على أنّ المخاطب هو شخص النبى الكريم صلى الله عليه و آله، وعلى فرض صحة شأن النزول آنفة الذكر، فإنّ فعل النبى صلى الله عليه و آله والحال هذه لا يخرج من كونه (تركاً للأولى)، وهذا ما لا ينافى العصمة.

التّفسير

عتاب ربّانى: بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، ننتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أوّلًا: «عَبَسَ وَتَوَلَّى .

لماذا؟: «أن جَاءَهُ الْأَعْمَى . «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، ويطلب الإيمان والتقوى والتزكية.

«أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ، فإن لم يحصل على التقوى، فلا أقل من أن يتذكر ويستيقظ من الغفلة، فينفعه ذلك.

ويستمر العتاب ...: «أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، مَن اعتبر نفسه غنياً ولا يحتاج لأحد.

«فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ، تتوجّه إليه، وتسعى فى هدايته، فى حين أنّه مغرور لما أصابه من الثروة، والغرور يولّد الطغيان والتكبر.

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۲۶۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۵

«وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . أى فى حين لو لم يسلك سبيل التقوى والإيمان، فليس عليك شىء.

فوظيفتك البلاغ، سواء آمن السامع أم لم يؤمن، وليس لك أن تهمل الأعمى الذى يطلب الحق، وإن كان هدفك أوسع ويشمل هداية كل اولئك الأغنياء المترفين أيضاً.

ويأتى العتاب مرّة اخرى تأكيداً: «وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ، فى طلب الهداية ...

«وَهُوَ يَخْشَى . فخشيته من اللَّه هى التى دفعته للوصول إليك، كى يستمع إلى الحقائق ليزكّى نفسه فيها، ويعمل على مقتضاها.

«فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى «۱».

فالعتاب سواء كان موجه إلى النبىّ صلى الله عليه و آله أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبى الحق، والمستضعفين منهم بالذات.

وعلى العكس من ذلك حدّة وصرامة موقف الإسلام والقرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أنّ اللَّه لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف لغرض هدايتهم.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (۱۵) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (۱۶) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (۲۳) تأتى هذه الآيات المباركة لتشير إلى أهمية القرآن وطهارته وتأثيره فى النفوس، بعد أن تناولت الآيات التى سبقتها موضوع (الإعراض عن الأعمى الذى جاء لطلب الحق)، فتقول: «كَلَّا». فلا ينبغى لك أن تعيد الكرّة ثانية.

«إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ». إنّما الآيات القرآنية تذكرة للعباد، فلا ينبغى الإعراض عن المستضعفين من ذوى القلوب النقية الصافية والتوجه إلى المستكبرين، اولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

ويحتمل أيضاً، كون الآيات «كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» جواب لجميع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشركين وأعداء الإسلام.

(۱) «التلهى»: من «اللهو» ويأتى هنا بمعنى الغفلة عنه والإستغفال بغيره، ليقف فى قبال «التصّدى».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۶

تقول الآيـة: إنّ الأباطيل والتهم الزائفـة التى افتريتم بها على القرآن من كونه شـعر أو سـحر أو نوع من الكهانـة، لا يمتلك من الصـحة شيئاً، وإنّما الآيات القرآنية آيات تذكرة وإيمان، ودليلها فيها.

وتشير الآية التالية إلى اختيارية الهداية والتذكّر: «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ».

نعم، فلا إجبار ولا إكراه فى تقبل الهـدى الربانى، فالآيات القرآنية مطروحة وأسـمعت كل الآذان، وما على الإنسان إلّاأن يسـتفيد منها أو لا يستفيد.

ثم يضيف: أنّ هذه الكلمات الإلهية الشريفة مكتوبة فى صحف (ألواح وأوراق): «فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ».

إنّ تعبير «الصـحف» يوضّـح لنـا أنّ القرآن قـد كُتب على ألواح من قبل أن يُنزّل على النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله، ووصـلت إليه بطريق ملائكة الوحى، والألواح بطبيعتها جليلة القدر وعظيمة الشأن.

وهـذه الصـحف المكرمـة: «مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ». فهى مرفوعة القدر عند اللّه، وأجلّ من أن تمتد إليها أيدى العابثين وممارسات المحرّفين، ولكونها خالية من قذارة الباطل، فهى أطهر من أن تجد فيها أثراً لأىّ تناقض أو تضاد أو شك أو شبهة.

وهى كذلك: «بِأَيْدِى سَفَرَةٍ»، سفراء من الملائكة.

وهؤلاء السفراء: «كِرَام بَرَرَةٍ».

«سـفرة»: جمع (سَـافِرْ) من (سَـفَر)، ولغـةً: بمعنى كشف الغطـاء عن الشـىء، ولـذا يطلق على الرسول مـا بين الأقوام (السـفير) لأنّه يزيل ويكشف الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم (السافر)، وعلى الكتاب (سِـفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما ... فالسفرة هنا، بمعنى:

الملائكة الموكلين بإيصال الوحى الإلهى إلى النبى، أو الكاتبين لآياته.

فى تفسير مجمع البيان: روى فضيل بن يسار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة».

يجعل الحافظين للقرآن العاملين به فى درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل فى مصافهم، لأنّ جلالة مقام حفظهم وعملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحى الإلهى.

«كرام»: جمع «كريم»، بمعنى العزيز المحترم، وتشير كلمة «كرام» فى الآية إلى عظمة ملائكة الوحى عند اللّه وعلوّ منزلتهم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۷

«بررة»: جمع «بـار»، من «البَرّ»، بمعنى التوسع، ولـذا يطلق على الصـحراء الواسـعة اسم (البَرْ)، كمـا يطلق على الفرد الصالـح اسم (البـار) لوسعة خيره وشمول بركاته على الآخرين.

و «البررة»: فى الآية، بمعنى إطاعة الأمر الإلهى، والطهارة من الذنوب.

وعلى الرغم من توفير مختلف وسائل الهدايـة إلى اللّه، ومنها ما فى الصـحف المكرمـة من تـذكير وتوجيه .. ولكن الإنسان يبقى عنيداً متمرداً: «قُتِلَ الْإِنسَنُ مَا أَكْفَرَهُ».

«الكفر»: فى هـذا الموضع قـد يحتمـل على ثلاثـة معـان ... عـدم الإيمان، الكفران وعـدم الشـكر ... جحود الحق وستره بأىّ غطاء كان وعلى كل المستويات.

«قُتِلَ الْإِنسَنُ»: كناية عن شدّة غضب البارى جلّ وعلا، وزجره لمن يكفر بآياته.

ثم يتعرض البيـان القرآنى إلى غرور الإنسـان الواهى، والـذى غالباً ما يوقع صاحبه فى هاويـة الكفر والجحود السـحيقة: «مِنْ أَىِّ شَىْءٍ

خَلَقَهُ».

لقـد خلقه من نطفـة قـذرة حقیرة، ثم صـنع منه مخلوقاً موزوناً مسـتویاً قـدّر فیه جمیع اموره فی مختلف مراحل حیاته: «مِن نُّطْفَـةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ».

فالنظرة الفاحصـة الممعنـة فی خلق الإنسان من نطفـة قـذرة وتحویله إلی هیئته التامّـة المقـدرة من کافـة الجهات، ومع ما منحه اللَّه من مواهب وإستعدادات ... لأفضل دلیل یقودنا بیسر إلی معرفته جلّ اسمه.

«قدّره»: من «التقدیر»، وهو الحساب فی الشیء.

والتقدیر بمعنی إیجاد القدرة فی هذه النطفة المتناهیة فی الصغر.

فمـا أجلّ الإلـه الـذی جعـل فی موجود ضـعیف کل هـذه القـدرة والإسـتطاعة، فتری النطفـة بعـد أن تتحول إلی الإنسان تسیر وتتحرک بین أقطار السماوات والأرض، وتغوص فی أعماق البحار وقد سخرت لها کل ما یحیط بها من قوی

ویسـتمر القرآن فی مشوار المقـال: «ثُمَّ السَّبِیـلَ یَسَّرَهُ» ... یسّـر له طریق تکامله حینما کان جنیناً فی بطن امّه، یسّـر له سبیل خروجه إلی الحیاة من ذلک العالم المظلم.

ومن عجیب خلق الإنسـان أنّه قبل خروجه من بطن امّه یکون علی الهیئـة التالیـة: رأسه إلی الأعلی ورجلیه إلی الأسـفل، ووجهه متجهاً صوب ظهر امّه، وما أن تحین ساعة الولادة حتی تنقلب هیئته فیصبح رأسه إلی الأسفل کی تسهل وتتیسّر ولادته.

وبعد ولادته یمرّ الإنسان فی مرحلة الطفولة التی تتمیز بنموه الجسمی، ثم مرحلة نمو

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۸

الغرائز، فالرشـد فی مسیر الهدایـة الإیمانیـة والروحیة، ویساهم العقل ودعوة الأنبیاء والأوصـیاء علیهم السـلام فی ترکیز معالم شخصـیة وبناء الإنسان روحیاً وإیمانیاً. وتشیر الآیة التالیة إلی الأمر الحتمی الذی به تطوی آخر صفحات مشوار الحیاة الدنیا:

«ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ».

وحکم دفن الأموات (بعـد الغسل والتکفین والصـلاة)، یبیّن لنا ... أنّه ینبغی علی الإنسان أن یکون طاهراً محترماً فی موته، فکیف به یا تُری وهو حیّ؟!

وینتقل البیان القرآنی إلی یوم القیامة: «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ».

«أنشـره»: من «النشـر»، بمعنی الإنبساط بعد الجمع، فالکلمة تشیر باسلوب بلاغی رائع إلی جمع کل حیاة الإنسان عند الموت لتنشر فی محیط أکبر وأعلی (یوم القیامة).

وتأتی الآیـة الأخیرة من الآیات المبحوثة لتبیّن لنا ما یؤول إلیه الإنسان من ضـیاع فی حال عدم اعتباره بکلّ ما أعطاه اللَّه من المواهب، فبالرغم من حتمیـة تسـلسل حیاة الإنسان من نطفـة حقیرة، مروراً بما یطویه من صـفحات الزمن العابرة، حتی یموت ویقبر، لکنّه .. «کَلَّا لَمَّا یَقْضِ مَا أَمَرَهُ».

فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَی طَعَامِهِ (۲۴) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (۲۶) فَأَنْبَتْنَا فِیهَا حَبّاً (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَیْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدَائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فَاکِهَةً وَ أَبّاً (۳۱) مَتَاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعَامِکُمْ (۳۲) فلینظر الإنسان إلی طعامه: تحـدثت الآیات السابقة حول مسألة المعاد، والآیات القادمة تتناول نفس الموضوع بشکل أوضح، ویبدو أنّ الآیات المبحوثة- وانسیاقاً مع ما قبلها وما بعدها- تتطرق لـذات البحث وتبیّن مفردات قـدرة البـاری جلّ شأنه علی کل شـیء کـدلیل علی إمکان تحقق المعاد، فما یقرّب إمکانیـة القیامـة إلی الأذهان هو إحیاء الأراضی المیتة بإنزال المطر علیها، العملیة تمثل إحیاء بعد موت مختصة بعالم النبات.

ثم إن البیـان القرآنی فی الآیـات أعلاه قـد طرح بعض مفردات الأغذیـة الـتی جعلهـا اللَّه تحت تصـرف الإنسـان والحیوان، لتـثیر عند الإنسان الإحساس بضرورة شکر المنعم الواهب، وهذا الإحساس بدوره سیدفع الإنسان لیتقرب فی معرفة بارئه ومصوّره.

وشرعت الآيات بقولها: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنسنُ إِلَى طَعَامِهِ»، كيف خلقه اللّه تعالى؟!

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۷۹

الغذاء من أقرب الإشياء الخارجية من الإنسان وأحد العوامل الرئيسية فى بناء بدنه، ولولاه لتقطّعت أنفاس الإنسان وأسدلت ستارة نصيبه من الحياة، ولذلك جاء التأكيد القرآنى على الغذاء وبالذات النباتى منه دون بقية العوامل المسخّرة لخدمة هذا المخلوق الصغير فى حجمه.

ومن الجلى أنّ «النظر» المأمور به فى الآية جاء بصيغة المجاز، واريد به التأمل والتفكير فى بناء هذه المواد الغذائية، وما تحويه من تركيبات حياتية، وما لها من تأثيرات مهمّة وفاعلة فى وجود الإنسان، وصولًا إلى حال التأمل فى أمر خالقها جلّ وعلا.

وهكذا النظر إلى كيفية حصوله ... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير مشروع؟ أى ينظر إلى طعامه من جانبيه الأخلاقى والتشريعى.

وقد ذُكر فى بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إنّ المراد ب «الطعام» فى الآية هو (العلم) لأنّه غذاء الروح الإنسانية.

فى الكافى: زيد الشحام عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى قول اللّه عزّ وجل «فَلْيَنْظُرِ الْإِنسنُ إِلَى طَعَامِهِ» قال: قلت ما طعامه؟ قال: «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه».

نعم ... ينبغى على الإنسان أن يكون دقيقاً فى متابعة مصدر ومنبع علمه ليطمئن لغذائه الروحى، وليأمن بالنتيجة من مدلهمات الخطوب التى تؤدّى لمرض الروح أو هلاكها.

ثم يدخل القرآن فى شرح تفصيلى لماهية الغذاء ومصدر تشكيله، فيقول «أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا».

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، وجاء هنا بمعنى هطول المطر. نعم .. فالماء مصدر رئيسى للحياة، وهو على الدوام ينزل من السماء وبغزارة ليجسد لطف اللّه تعالى على خلقه.

كيف لا، وكل العيون والآبار والقنوات والأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

وبعد ذكر نعمة الماء وما له من أثر حيوى ومهم فى نمو النباتات، ينتقل البيان القرآنى إلى الأرض، فيقول: «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا».

إنّ الآية تشير إلى عملية شقّ الأرض بواسطة النباتات التى تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، والعلمية بحدّ ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أن يفتت سطح التربة مع ما لها من صلابة وخشونة، بل ونرى فى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۰

المناطق الجبلية أنّ سويقات نباتاتها قد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة. وثمة تفسير اخرى يقول: إنّ شقّ الأرض فى الآية إشارة إلى تفتت الصخور التى كانت على سطح الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمى للقرآن، لأنّها تناولت موضوع الأمطار وتشقق الأرض لتضحى قابلة للزراعة، بشكل علمى دقيق، والآية لم تتحدث عن شىء قد حدث، بل حدث ولا زال. يبدو أنّ هذا التفسير ينسجم مع ما تطرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات.

وبعد ذكر ركنين أساسيين فى عملية الإنبات- أى الماء والتراب- ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: «فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا».

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان والحيوان معاً، وتتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف- على سبيل المثال- فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط وتنتشر المجاعة فى كل مكان.

ثم يضيف: «وَعِنَبًا وَقَضْبًا».

وقد اختارت الآية العنب دون البقية لما اودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنّه غذاء كامل.

ومع أنّ «العنب» يطلق على الشجرة والثمرة، وبالرغم من ورود كلاـ الإستعمالين فى الآيات القرآنية، لكن المناسب هنا الثمرة دون الشجرة.

«قضباً»: هو الخضراوت التى تؤكل طرية والنباتات الزاحفة وكذا الأرضية.

ثم يضيف: «وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا».

ومن الواضح أنّ ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون والتمر من أهم الأغذية المقوية والصحية والمفيدة للإنسان.

وتأتى المرحلة التالية: «وَحَدَائِقَ غُلْبًا».

«الحدائق»: جمع (حديقة)، وهى الأرض المزروعة والمحاطة بسور يحفظها، وهى فى الأصل بمعنى: قطعة الأرض التى تحتوى على الماء، وسمّيت حديقة تشبيهاً بحدقة العين من حيث الهيئة وحصول الماء فيها.

ويحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أنّ الحدائق غالباً ما تزرع بأشجار الفاكهة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۱

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و (غلباء)، بمعنى غليظ الرقبة، فلآية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثم يضيف: «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا».

«الأبّ»: (بتشديد الباء)، هو المرعى المُهيأ للرعى والحصد، وهو فى الأصل بمعنى «التهيؤ»، اطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيئاً لاستفادة الحيوانات منه.

ويواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، والآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر ال «حدائق» فى الآية السابقة والتى قيل أنّ ظاهرها يشير إلى الفاكهة ... فلِم هذا التكرار؟

الجواب: إنّ تخصيص ذكر العنب والزيتون والتمر (بقرينة ذكر النخل)، إنّما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة.

أمّا لماذا ذكرت الحدائق بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصة بها، ولا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها وعذوبة نسيمها وما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار وجذورها وقشور جذوعها كمواد غذائية (كالشاى والزنجبيل وأمثالها)، أمّا بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموماً ... فالآيات إذن كانت فى صدد الحديث عن غذاء الإنسان والحيوان.

ولذلك ... جاءت الآية التالية لتوضيح هذا المعنى: «مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

و «المتاع»: هو كل ما يستفيد منه الإنسان ويتمتع به.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (۴۱) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲)

صيحة البعث ...: وينتقل الحديث فى هذه الآيات إلى يوم القيامة وتصوير حوادثه، وما سيؤول إليه أحوال المؤمنين الكافرين، كل بما كسبت يداه وقدّم.

فمتاع الحياة الدنيا وإن طال فهو قليل جدّاً فى حساب حقيقة الزمن، وأنّ خالق كل شىء لعظيم فى خلقه وشأنه، وأنّ المعاد حق ولابدّ من حتمية وقوعه.

ويقول القرآن الكريم: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۲

«الصّاخة»: من «صخّ» وهو الصوت الشديد الذى يكاد يأخذ بسمع الإنسان، ويشير فى الآية إلى نفخة الصور الثانية، وهى الصيحة

الرهيبة التی تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم الحشر.

ولذا تأتی الآية التالية، ولتقول مباشرة: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ».

ذلک الأخ الذی ما كان يفارقه وقد ارتبط به بوشائج الاخوة الحقة!

وكذلک: «وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ».

حتی: «وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ».

فوحشة ورهبة يوم القيامة لا تُنسی الأخ والام والأب والزوجة والأولاد فحسب، بل وتتعدی إلى الفرار منهم، وعندما ستتقطع كل روابط وعلاقات الإنسان الفرد مع الآخرين.

ولكن ... لِم الفرار؟ ... «لِكُلِّ امْرِىٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

«يغنيه»: كناية لطيفة عن شدّة انشغال الإنسان بنفسه فی ذلک اليوم، ولما سيری من حادث مذهلة، تأخذه كاملًا، فكراً وقلباً.

عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال له بعض أهله: يا رسول اللَّه! هل يذكر الرجل يوم القيامة حميمه؟ فقال صلى الله عليه و آله: «ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتی ينظر أيثقل ميزانه أم يخفّ، وعند الصراط حتی ينظر أيجوزه أم لا، وعند الصحف حتی ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشماله، فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبه ولا قريبه ولا صديقه، ولا بنيه ولا والديه، وذلک قول اللَّه تعالى: «لِكُلِّ امْرِىٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»» «۱».

وينتقل البيان القرآنی ليصور لنا حال العباد بقسميهم فی ذلک اليوم، فتقول:

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ». أی مشرقة وصبيحة.

«ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ». «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ». «تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ». أی تغطيها ظلمات ودخان.

«أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ».

«مسفرة»: من «الأسفار»، بمعنى الظهور بياض الصبح بعد ظلام الليل.

---

(۱) البرهان فی تفسير القرآن ۵/ ۵۸۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۳

«غبرة»: على وزن (غَلَبَة)، من «الغبار».

«قترة»: من «القتار»، وهو شبه دخان يغشی من الكذب.

«الكفرة»: جمع (كافر)، والوصف يشير إلى فاسدی العقيدة.

«الفجر»: جمع (فاجر)، والوصف يشير إلى فاسدی العمل.

ونستخلص من كل ما تقدّم، أنّ آثار فساد العقيدة لدی الإنسان وأعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

وقد اختير الوجه، لأنّه أكثر أجزاء الإنسان تعبيراً عمّاً يخالجه من حالات الغبطة والسرور أو الحزن والكآبة.

«نهاية تفسير سورة عبس»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۵

۸۱. سورة التكوير

محتوی السورة: هذه السورة تدور حول محورين أساسيين:

الأوّل: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، وما يواجه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.

الثاني: الحديث عن عظمة القرآن ومن جاء به، وأثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين والقسم فى آيات عدّة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة إذا الشّمس كوّرت أعاذه اللَّه تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته».

وروى أبو بكر قال: قلت لرسول اللَّه: يا رسول اللَّه! أسرع إليك الشيب؟ قال: «شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتسائلون وإذا الشّمس كوّرت».

وتلاوة القرآن المقصودة فى الحديث أعلاه، ينبغى أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان والعمل.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (۴) وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۶

يوم تطوى الكائنات فيه: نواجه فى بداية السورة إشارات قصيرة، مثيرة ومرعبة لما سيجرى لنهاية العالم المذهلة، فقد تحدثت هذه الآيات عن ثمانية علائم من ويوم القيامة.

وأوّل مشهد عرضته عدسة العرض القرآنى، هو: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ».

«كوّرت»: من «التكوير» بمعنى الطى والجمع واللّف (مثل لف العمامة على الرأس).

فالمقصود هو: خمود نور الشمس وذهابه، وتغيّر نظام تكوينها.

وكما بات معلوماً ... فالشمس فى وضعها الحالى، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، وتتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل إرتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات.

ولو قُدّر وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنّها تستحيل فوراً إلى رماد وكتلة من الغازات.

ولكن ... عند حلول وقت نهاية العالم، والإقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها ... وهو ما اشير إليه بالتكوير.

وقد أيّد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده وبعد دراسات علمية كثيرة، بأنّ الشمس تسير تدريجياً نحو الظلام والإنطفاء.

ويأتى المشهد الثانى: «وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ».

«انكدرت»: من «الإنكدار»، بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من (الكدورة)، وهى السواد والظلام.

ويمكن جمع المعنيين فى الآية، لأنّ النجوم فى يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط فى هاوية الفناء.

والمشهد الثالث: «وَإِذَا الْجِبَالُ سُيّرَتْ».

وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداءً من السير والحركة وانتهاءً بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية ۲۰ من سورة النبأ).

وثم يأتى دور المشهد الرابع: «وَإِذَا الْعِشَارُ عُطّلَتْ».

«العشار»: جمع (عشراء)، وهى الناقة التى مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعدما امتلأت أثداؤها باللبن.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۷

وهى من أحبّ وأثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت»: تركت لا راعى لها. فهول ووحشة القيامة، سينسى الإنسان أحبّ وأثمن ما يمتلكه.

وينتقل المشهد الخامس إلى الوحوش: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ».

فالحيوانات الوحشية التى تراها فى الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الاخرى خوفاً من الإفتراس والبطش، ستراها وقد جمعت فى

محفل واحد، وكل منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيصاب به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها وفزعها.

ونقول: إذا اضمحلت كل خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟!

وتُصوّر البحار فى المشهد السادس: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

«سجّرت»: من «التسجير»، بمعنى إضرام النار.

وإذا خالج القدماء التعجب والإستغراب لهذا الوصف القرآنى، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصرى الأوكسجين والهيدروجين، القابلات للإشتعال بسرعة، ولا يستبعد أن يوضع الماء- فى إرهاصات يوم القيامة- تحت ضغط شديد ممّا يؤدّى إلى تجزئة وتفكيك عناصره، وعندها سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النار.

ويأتى درو المشهد السابع: «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ».

فتبدأ المآلفة بخلاف حال الدنيا ... فالصالحون مع الصالحين، والمسيؤون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً، أو تزوج الصالح من غير الصالحة فى الحياة الدنيا، فتصنيف يوم لقيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

ونصل إلى المشهد الثامن: «وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ».

«الموءودة»: من «الوأد» على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

وأطلق الأئمة الأطهار عليهم السلام مفهوم الوأد، ليشمل كل قطع رحم وقطع مودّة ... حينما سئل

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۸

الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية، قال: «هو من قتل فى مودّتنا وولايتنا» «۱». ولا شك أنّ التفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية، ولكن المفهوم والملاک قابلان للتوسع والشمول.

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (۱۴) يوم يرى الإنسان ما قدّم: فبعد مرحلة الفناء العام، تأتى مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهى، ومن معالم هذه المرحلة: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ».

فستنشر الصحف التى دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكل سيعرف جزاءه بعد الإطّلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (۱۴) من سورة الإسراء: «اقْرَأْ كِتَابَکَ كَفَى بِنَفْسِکَ الْيَوْمَ عَلَيْکَ حَسِيبًا».

وسيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقرّ عيون المحسنين سروراً، ويقاسى المسيؤون العذاب النفسى.

ثم يضيف: «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ».

«كشطت»: من «الكشط» على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة.

وما يراد من «كشطت» فى الآية، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوى والعلوى، التى تمنع رؤية الناس للملائكه أو الجنة والنار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخصاً أمام ناظريه شخوصاً حقيقياً.

فالآية قد تحدثت عن المرحلة الثانية للقيامة؛ مرحلة ما بعد البعث.

ويتأكد ذلک بوضوح من خلال الآية: «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ».

فجهنّم موجودة فى كل الأوقات، ولكن حجب الدنيا هى المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (۴۹) من سورة التوبة: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». وكما أنّ جهنم

(۱) تفسیر علی بن إبراهیم ۲/ ۴۰۷.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۸۹

موجودة فالجنة کذلک بدلالة آیات قرآنیة کثیرة.

ویبیّن البیان القرآنی بذات السیاق السابق: «وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ».

وهذا المعنی هو تکرار لما جاء فی الآیة (۹۰) من سورة الشعراء: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ».

«ازلفت»: من «زلف» علی وزن (حرف) .. و «زلفی : علی وزن (کُبری ، بمعنی القرب، فیمکن أن یکون المراد هو: القرب المکانی، أو القرب الزمانی، أو القرب من حیث الأسباب والمقدمات، ویمکن أیضاً أن تحمل الکلمة جمیع ما ذکر من معانٍ.

وتأتی الآیة الأخیرة- من الآیات المبحوثة- لتتم ما جاء قبلها من جمل، حیث تمثل جزاء الشرط للجمل السابقة والتی وردت فی (۱۲) آیة: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ».

فستحضر أعمال الإنسان کاملة، ولا من محیص من العلم والإطّلاع بها فی عالم الشهود والمشاهدة.

وقد ذکر القرآن الکریم هذه الحقیقة مرات عدیدة فی آیات مبارکات، منها: الآیة (۴۹) من سورة الکهف: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا»، والآیتان (۷ و ۸) من سورة الزلزلة: «فَمَن یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَیْرًا یَرَهُ وَمَن یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ».

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوَارِ الْکُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّیْلِ إِذَا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۱۹) ذِی قُوَّةٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ (۲۰) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ (۲۱) وَ مَا صَاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ (۲۳) وَ مَا هُوَ عَلَی الْغَیْبِ بِضَنِینٍ (۲۴) وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَیْطَانٍ رَجِیمٍ (۲۵) بعد أن تناولت الآیات السابقة مواضیع: المعاد، مقدمات یوم القیامة، وحوادث یوم القیامة ... تأتی الآیات أعلاه لتتحدث عن أحقیة القرآن وصدق نبوّة محمّد صلی الله علیه و آله، والآیات فی حقیقتها تأکید علی ما جاء فی الآیات السابقة لموضوع «المعاد»، إضافة لذکرها صور بیانیة منبهة علی هذه الحقیقة.

وتشرع الآیات ب: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْکُنَّسِ».

«الخنّس»: جمع (خانس)، من (خنس) وهو الإنقباض والإختفاء، ویقال للشیطان:

«الخنّاس»، لأنّه إذا ذُکر اللّه تعالی یخنس، وکما ورد فی الحدیث الشریف: «الشیطان یوسوس إلی العبد فإذا ذکر اللّه خَنَس».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۰

«الجوار»: جمع (جاریة)، وهی الشئ الذی یتحرک بسرعة.

«الکنّس»: جمع (کانس)، من (کنس)، وهو الإختفاء، و «کناس» الطیر والوحش: بیت یتخذه.

والمقصود بهذا القَسم کما روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام أنّه قال فی تفسیر الآیات المذکورة: «هی خمسة أنجم: زحل، والمشتری، والمریخ، والزهرة، وعطارد» «۱». والتی یمکن رؤیتها بالعین المجردة.

ونقول توضیحاً: لو تأمّلنا السماء عدّة لیال، لرأینا أنّ نجوم السماء أو القبة السماویة تظهر وتغیب بشکل جماعی من دون أن تتغیر الفواصل والمسافات فیما بینها، وکأنّها لئالیء خیطت علی قطعة قماش داکن اللون، وهذه القطعة تتحرک من المشرق إلی المغرب، إلّا خمسة کواکب قد خرجت عن هذه القاعدة، فنراها تتحرک ولیس بینها وبین بقیّة النجوم فواصل ثابتة، وکأنّها لئالیء قد وضعت علی تلک القطعة وضعاً، من دون أن تخیّط بها.

وهذه الکواکب الخمس هی المقصودة فی هذا التفسیر، وما نلاحظه من حرکتها إنّما تکون لقربها منّا ولا نتمکن من تمییز حرکات بقیة النجوم لعظم المسافة فیما بیننا وبینها.

ومن جهة اخری: ینبغی التنویه إلی أنّ علماء الفلک یطلقون علی هذه الکواکب اسم (الکواکب المتحیرة)، لأنّها لا تتحرک علی خط مستقیم ثابت، فنراها تسیر باتجاه معین من الزمن ثم تعود قلیلًا ومن ثم تتابع مسیرها الأوّل وهکذا ... ولهؤلاء العلماء بحوث علمیة

کثیرة فی تحلیل هذه الظاهرة.

وعلیه ... یمکن حمل إشارة الآیات إلی الکواکب السیارة «الجوار»، التی فی سیرها لها رجوع «الخنس»، ثم تختفی عند طلوع الفجر وشروق الشمس ... فهی تشبه غزالًا یتصید طعامه فی اللیل وما أن یحّل النهار حتی یختفی عن أنظار الصیادین والحیوانات المفترسة فیذهب إلی «کناسه»، ولذا وصفت الکواکب ب «الکنّس».

فکأنّ القرآن الکریم یرید بهذا القسم الملیء بالمعانی الممتزجة بنوع من الإبهام، کأنّه یرید إثارة الفکر الإنسانی، وتوجیهه صوب الکواکب السیارة ذات الوضع الخاص علی القبة السماویة، لیتأمل أمرها وقدرة وعظمة خالقها سبحانه وتعالی.

---

(۱) تفسیر مجمع البیان ۱۰/ ۲۸۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۱

ویعرض لنا القرآن لوحة اخری: «وَالَّیْلِ إِذَا عَسْعَسَ».

«عسعس»: من «العسعسة»، وهی رقة الظلام فی طرفی اللیل (أوّله وآخره). وبالرغم من اطلاق هذه المفردة علی معنیین متفاوتین، ولکن المراد منها فی هذه الآیة هو آخر اللیل فقط بقرینة الآیة التالیة لها، وهو ما یشابه القسم الوارد فی الآیة (۳۳) من سورة المدّثّر: «وَالَّیْلِ إِذْ أَدْبَرَ».

ویأتی القَسم الثالث والأخیر من الآیات: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ».

ویأتی هذا الوصف فی سیاق ما ورد فی سورة المدّثّر، فبعد القسم بإدبار اللیل، قال:

«وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ»، فکأنّ اللیل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أن أدبر اللیل حتی رفعت تلک الستارة فبان وجه الصبح مشرقاً، وأسفر للحیاة من جدید.

وتجسّد الآیة التالیة جواب القسم للآیات السابقة: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ».

فالجواب موجّه لمن اتّهم النّبی صلی الله علیه و آله باختلاق القرآن ونسبته إلی الباری جلّ شأنه.

وقد تناولت هذه الآیة وما بعدها خمسة أوصاف لأمین وحی اللَّه جبرائیل علیه السلام، وهی الأوصاف التی ینبغی توفرها فی کل رسول جامع لشرائط الرسالة ...

فالصفة الاولی: إنّه «کریم»: إشارة إلی علوّ مرتبته وجلالة شأنه.

ومن صفاته أیضاً: «ذِی قُوَّةٍ عِندَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ».

«ذی العرش»: ذات اللَّه المقدسة.

مع أنّ اللَّه مالک کل عالم الوجود، فقد وصف «بذی العرش» لما للعرش من أهمیّة بالغة علی غیره (سواء کان العرش بمعنی عالم ما وراء الطبیعة، أو بمعنی مقام العلم المکنون).

أمّا وصفه ب «ذی قوّة» (أی: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظیمة والقوّة الفائقة من دور مهم وفعّال فی عملیة حمل وإبلاغ الرسالة.

«مکین»: صاحب منزلة ومکانة.

والتعبیر ب «عند» هو الحضور المقامی والقرب المعنوی.

وتتناول الآیة التالیة الصفة الرابعة والخامسة: «مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ».

ویستفاد من الروایات: إنّ جبرائیل ینزل أحیاناً وبصحبته جمع کبیر من الملائکة فی حال ابلاغه للآیات القرآنیة المبارکة، وهو ما یوحی بأنّه مطاع بینهم، وهو ما ینبغی أن یکون فی کل امّة تتبع رسولًا، فلابدّ من إطاعتها له.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۲

فى تفسير مجمع البيان: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لجبرائيل عليه السلام: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك! ذى قوّة عند العرش مكين، مطاع ثّم أمين، فما كانت قوّتك وما كانت أمانتك؟ فقال: أمّا قوّتى فإنّى بعثت إلى مدائن لوط، وهى أربع مدائن فى كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى، فحملتهن من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج، ونباح الكلاب، ثم هويت بهنّ فقلبتهن. وأمّا أمانتى، فإنّى لم اؤمر بشىء فعدوته إلى غيره».

وينفى القرآن ما نُسب إلى النبى: «وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ».

«الصاحب»: هو الملازم والرفيق والجليس؛ والوصف هذا مضافاً إلى أنّه يحكى عن تواضع النبى صلى الله عليه و آله مع جميع الناس ... فلم يرغب يوماً فى الإستعلاء على أحد منكم، فإنّه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟!

ويؤكّد القرآن على الإرتباط الوثيق ما بين النبى صلى الله عليه و آله وجبرائيل: «وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ». وهو «الأفق الأعلى» الذى تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول اللَّه جبرائيل.

وتأتى الصفة الخامسة: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ».

«ضنين»: من «ضنّة» على وزن (مِنّة)، أى: البخل بالأشياء الثمينة والنفيسة، فالأنبياء عليهم السلام منزّهون عن ذلك، وإذا ما بخل الآخرون بما صار فى حوزتهم من علم محدود، فالنّبى فوق ذلك وأنزه مع ما له من منبع علم إلهى.

وتقول آخر الآيات المبحوثة: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ».

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذى يأخذوه من الشياطين، ودليلها معها، حيث إنّ حديث الكهنة محشو بالأكاذيب والتناقضات، ويدور حول محور ميولهم ورغباتهم، فى حين لا يشاهد ذلك فى الآيات القرآنية إطلاقاً.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ مَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) إلى أين ... أيّها الغافلون: أكّدت الآيات السابقة ببيان جلى حقيقة كون القرآن كلام اللَّه ... فمحتواه ينطق عن كونه كلاماً رحمانياً وليس شيطانياً، وقد نزل به رسول كريم مقتدر وأمين، وقام بتبليغه النبى الصادق الأمين صلى الله عليه و آله الذى لم يبخل فى البلاغ فى شىء، وما تهاون عن تعليم الناس فيما ارسل به.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۳

فيما توبخ الآيات أعلاه اولئك الذين عادوا القرآن وانحرفوا عن خطّ سير الرسالة الربّانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الإستفهام التوبيخى: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ».

وتأتى الآية الثانية لتقول: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

فالآية تتحدث بلسان الوعظ والتذكير، عسى أن يستيقظ مَن تملّكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية والتربية أن تؤدّى فعلها بوجود المرشد الناجح فقط، بل لابدّ من توفر عنصر الإستعداد وتقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، ولذلك ... فبعد الوعظ والتذكير جاءت الآية التالية لتبيّن هذه الحقيقة: «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ».

فالآية الاولى قد ذكرت عمومية الفيض الإلهى فى القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية عملية الإستفادة من هذا الفيض الجزيل وحددته بشرط الإستقامة.

وهذه القاعدة جارية فى جميع النعم والمواهب الإلهية فى العالم، فإنّها عامة التمكين، خاصة الإستفادة، فمن لا يملك الإرادة والتصميم على ضوء الهدى القرآنى لا يستحق فيض رحمة اللَّه ونعمه.

ولكى لا يتصور بأنّ مشيئة وإرادة الإنسان مطلقة فى سيره على الطريق المستقيم، ولكى يربط الإنسان مشيئته بمشيئة وتوفيق اللَّه عزّ وجل، جاءت الآية التالية لتقول: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

والآيتان السابقتان تبيّنان فلسفة «أمر بين الأمرين» التى أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام؛ فمن جهة، إنّ الإرادة والقرار بيدكم، ومن جهة اخرى، يلزم تلك الإرادة وذلك القرار ما يشاء اللَّه ربّ العالمين ... وإنّ خلقتم أحراراً مختارين، فالحرية والإختيار منه جلّ اسمه، ولولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقاً، ولا هو بمختار بكلّ معنى الإختيار، ولكن ...

كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين». فكل ما للإنسان من: عقل، فهم، قدرة بدنية، وقدرة على اتخاذ القرار، كل ذلك من اللَّه عزّ وجل، فهو من جهة فى حالة الحاجة الدائمة للإتصال به جلّ شأنه، ولو شاء اللَّه لتوقف كل شيء وانتهى، وهو من جهة اخرى مسؤول عن أعماله لما له من حرية واختيار على تنفيذها.

«نهاية تفسير سورة التّكوير»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۵

۸۲. سورة الإنفطار

محتوى السورة: لا- تشذ السورة عن سياق سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، وتدور حول محور المسائل المتعلقة بيوم القيامة. تتضمن مجموع آياتها المواضيع التالية:

۱- أشراط الساعة، وهى الحوادث الهائلة التى سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره وعند قيام الساعة.

۲- التذكير بالنعم الإلهية الداخلة فى كل وجود الإنسان، وكسر حالة غرور الإنسان، وتهيئته للمعاد.

۳- الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.

۴- بيان عاقبة المحسنين والمسيئين فى يوم القيامة.

۵- لمحات سريعة عما سيجرى فى ذلك اليوم العظيم.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ هاتين السورتين: إذا السماء انفطرت؛ وإذا السماء انشقت، وجعلهما نصب عينه فى صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من اللَّه حجاب، ولم يحجزه من اللَّه حاجز، ولم يزل ينظر إلى اللَّه وينظر اللَّه إليه حتى يفرغ من حساب الناس».

ولا- شك أنّ حصول ثواب السورتين إنّما يتمّ لمن وضعهما فى أعماق روحه، وبنى على أساسهما شخصيته وعمله، وليس لمن يلوكهما فى لسانه ولا غير.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۶

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵)

عندما يحلّ الحدث المروع: تقدم لنا الآيات- مرّة اخرى- مشاهداً مروعة من يوم القيامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الكارثة: «إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ».

ثم تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: «وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ».

فسينهدم العالم العلوى، وستحدث الإنفجارات العظيمة المهيبة فى كل النجوم السماوية، وسيتخلخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالاخرى وتتلاشى فينتهى عمر العالم ويتناثر كل شيء ليُبنى على أنقاضه عالم جديد آخر.

«انفطرت»: من «الإنفطار»، بمعنى الإنشقاق.

«انتثرت»: من «النثر» على وزن (نصر)، بمعنى نشر الشيء وتفريقه، و «الإنتثار»: هو الإنتشار والتفرق. وباعتبار أنّ انتشار النجوم يؤدى إلى تفرقها فى السماء (كحبات العقد المنفرط) فقد فسّرها الكثير من المفسرين ب (سقوط النجوم)، وهو من لوازم معنى الإنتثار.

«الكواكب»: جمع (كوكب)، وله معان كثيرة ولكن أنّ المعنى الحقيقى هو (النجم المتلألىء)، وما دون ذلك معان مجازيـة اسـتعملت لعلاقة المشابهة.

إنّ هـذه الامور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، وتـدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، وهو الكائن الضـعيف وسط تلك الحوادث الجسام.

وينتقل البيان القرآنى من السماء إلى الأرض، فيقول: «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». أى اتصلت.

مع أنّ البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكن اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها وتتمزق حدودها وتصير بحراً واحداً لتشمل كل الأرض، بسبب الزلازل المرعبة وتحطم الجبال وسقوطها فى البحار ... هذا أحد تفاسير الآية (۶) من سورة التكوير (الآنفة الذكر): «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

وتتناول الآيـة التاليـة عرضاً لمرحلـة القيامـة الثانيـة، مرحلة تجديد الحياة وإحياء الموتى، فتقول: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» ... واخرج الموتى للحساب.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۷

وبعد ذكر كل تلك العلائم لما قبل البعث ولما بعده، تأتى النتيجة القاطعة: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ».

نعم، فستتجلى حقائق الوجود، وسيصير كل شىء بارز إنّه «يوم البروز» وسيرى الإنسان كل أعماله محضرة بخيرها وشرّها، لأنّه يوم إزالـة الحجب، ورفع مبررات الغرور والغفلـة، وعنـدها ... سيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته، وما ترك بعده من آثار حسـنها وسيئها، مثل: الصدقـة الجاريـة، فعل الخير، عمارة الأبنيـة، الكتب التى ألفها، ما سنّ من السـنن ... فإن كان ما خلّفه خالصاً للّهفسينال حسـناته، وإن كانت نيّتة فى أفعاله غير خالصة للّه، فسيلاقى لتبعات أعماله.

وهذه نماذج من الأعمال التى ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، وهو: المراد من «وأخّرت».

فى الكافى عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّاثلاث خصال: صدقة أجراها فى حياته، فهى تجرى بعد موته، وسنّة هدى سنّها، فهى يعمل بها بعد موته، أوولد صالح يدعو له».

وفى أمالى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ستّ خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته:

ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقليب [بئر] يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنّة حسنة يؤخذ بها بعده».

فتعكس هـذه الآيات والروايات أبعاد مسؤوليـة الإنسان أمام أعماله، وتبيّن عظم المسؤوليـة، فآثار فعل الخيرات أو المنكرات يصل إليه وإن امتدت آلاف السنين بعد موته.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (۶) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (۷) فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (۸) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (۹) وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (۱۰) كِرَاماً كَاتِبِينَ (۱۱) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (۱۲) لا داعى للغرور: تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسـان، ببيـان إيقـاظى عسـى أن ينتبه الإنسـان من غفلـة مـا فى عنقه من حق وما على عاتقه من مسؤوليات جسام أمام خالقه سبحانه وتعالى، فتخاطب الآية الاولى الإنسان باستفهام توبيخى محاط بالحنان والرأفة الربانية: «يَا أَيُّهَا الْإِنسنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۸

فبمقتضـى ربوبيته هو الحامى والمـدبّر لأمر تربيـة وتكامل الإنسان، وبمقتضـى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، ورعاه بما أنعم عليه مادياً ومعنوياً ودون أن يطلب منه أىّ مقابل، بل ويعفو عن كثير من ذنوب الإنسان بفضل كرمه ...

وفى المجمع: أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما تلا هذه الآية قال: «غرّه جهله».

ومن هنا يتقرّب لنا هدف الآية، فهى تدعو الإنسان لكسر حاجز غروره وتجاوز حالة الغفلة، وذلك بالاستناد على مسألة الربوبية والكرم الإلهى.

وتعرض لنا الآية التالية جانباً من كرم اللَّه ولطفه على الإنسان: «الَّذِى خَلَقَکَ فَسَوَّیکَ فَعَدَلَکَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَکَ».

فالآيات المبحوثة، إضافة لآيات اخر كثيرة تهدف وبشكلّ دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قذرة، مروراً بتصويره وتكامله فى رحم امّه، حتى فى أتمّ حالات نموه وتكامله، وتؤكّد على أنّ حياة الإنسان فى حقيقتها مرهونة بنعم اللَّه، وكل حىّ يفعم برحمة اللَّه فى كل لحظات حياته، ولابدّ لكل حى ذى لبّ وبصيرة من أن يترجل من مطية غروره وغفلته، ويضع طوق عبودية المعبود الأحد فى رقبته، وإلّا فالهلاك الحتمى.

وتتناول الآية التالية منشأ الغرور والغفلة: «كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ».

فالكرم الإلهى، ولطف البارى ونعمه ليست بمحفز لغروركم، ولكنّكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية المظلمة.

وتأتى الآيات التالية لتوضح أنّ حركات وسكنات الإنسان كلّها مراقبة ومحسوبة ولابدّ من الإيمان بالمعاد وإزالة عوامل الغفلة والغرور، فتقول: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ».

وهؤلاء الحفظة لهم مقام كريم عند اللَّه تعالى ودائبين على كتابة أعمالكم: «كِرَامًا كَاتِبِينَ». «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

و «الحافظين»: هم الملائكة المكلفون بحفظ وتسجيل أعمال الإنسان من خير أو شرّ، كما سمّتهم الآية (۱۸) من سورة (ق) بالرقيب العتيد: «مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

كما وذكرتهم الآية (۱۷) من نفس السورة: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ».

وفى الإحتجاج للشيخ الطبرسى عن الصادق عليه السلام حديث طويل وفيه يقول السائل: فما

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۳۹۹

علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم واللَّه عالم السر وما هو أخفى؟

قال: «استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة اللَّه مواظبة، وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد يهم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّى يرانى، وحفظتى علىّ بذلك تشهد، وأنّ اللَّه برأفته ولطفه أيضاً وكّلهم بعباده، يذبّون عنهم مردة الشيطان، وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن اللَّه، إلى أن يجىء أمر اللَّه».

ويستفاد من هذه الرواية أنّ للملائكة وظائف اخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث والآفات ووساوس الشيطان.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (۱۴) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (۱۵) وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (۱۶) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (۱۷) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (۱۸) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (۱۹) بعد ذكر الآيات السابقة لتسجيل أعمال الإنسان من قبل الملائكة، تأتى الآيات أعلاه لتتطرق إلى نتائج تلك الرقابة، وما سيصل إليه كل من المحسن والمسىء من عاقبة، فتقول الآية الاولى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ».

والثانية: «وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ».

«الأبرار»: جمع (بار) و «برّ» على وزن (حق)، بمعنى: المحسن؛ و «البرّ» بكسر الباء- كل عمل صالح ... والآية تريد العقائد السليمة، والنيات والأعمال الصالحة.

«نعيم»: وهى مفرد بمعنى النعمة، ويراد به هنا «الجنة».

«الفجّار»: جمع (فاجر) من (فجر)، وهو الشقّ الواسع، و «الفجور»: شقّ ستر الديانة والعفة، والسير فى طريق الذنوب.

«جحيم»: من «الجحمة»، وهى تأجج النار، وتطلق الآيات القرآنية (الجحيم) على جهنم عادة.

ويمكن أن يراد بقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ». الحال الحاضر، أىّ: إنّ الأبرار يعيشون فى نعيم الجنة حاليّاً،

وإنّ الفجّار قابعون فى أودية النار، كما

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۰

مختصر الامثل ج۵ ۴۴۰

يفهم من إشارة الآية (۵۴) من سورة العنكبوت: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

وتدخل الآية التالية فى تفصيل أكثر لمصير الفجّار: «يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدّينِ».

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى أنّ الفجّار هم فى جهنم حالياً، فسيكون إشارة هذه الآية، إلى أنّ دخولهم جهنم سيتعمق، وسيحسون بعذاب نارها، بشكل أشدّ.

«يصلون»: من «صلى» على وزن (سعى)، و «صلى النار»: دخل فيها.

ولزيادة التفصيل، تقول الآية التالية: «وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ».

اعتبر كثير من المفسرين كون الآية دليلًا على خلود الفجّار فى العذاب، وخلصوا إلى أنّ المراد ب «الفجّار» هم «الكفار»، لكون الخلود فى العذاب يختص بهم دون غيرهم.

ف «الفجّار»: إذن: هم الذين يشقون ستر التقوى والعفة بعدم إيمانهم وتكذيبهم بيوم الدين، ولا يقصد بهم- فى هذه الآيات- اولئك الذى يشقّون الستر المذكور بغلبة هوى النفس مع وجود حالة الإيمان عندهم.

وتبيّن الآية أيضاً: إنّ عذاب أهل جهنم عذاب دائم ليس له انقطاع، ولا يغيب عنهم ولو للحظة واحدة.

ولأهمية خطب ذلك اليوم العظيم، تقول الآية التالية: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا يَوْمُ الدّينِ». «ثُمَّ مَا أَدْرَيكَ مَا يَوْمُ الدّينِ».

فإذا كانت وحشة وأهوال ذلك اليوم قد اخفيت عن النبى صلى الله عليه و آله- وهو المخاطب فى الآية- مع كل ما له من علم ب: القيامة، المبدأ، المعاد .. فكيف يا تُرى حال الآخرين.

وينتقل البيان القرآنى للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، وبجملة وجيزة، لكنّها متضمنة لحقائق ومعان كثيرة: «يَوْمَ لَاتَمْلِكُ نَفْسٌ لّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لّلَّهِ».

فستتجلّى حقيقة أنّ كل شىء فى هذا العالم هو بيد اللَّه العزيز القهار، وستبان حقيقة حاكمية اللَّه المطلقة ومالكيته على كل من تنكر لهذه الحقيقة الحقة، وستنعدم تلك التصورات الساذجة التى حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميراً ورئيساً أو حاكماً، وسينهار اولئك البسطاء الذين اعتبروا أنّ قدراتهم مستقلة بعد أن أكل الغرور نفوسهم وتكالب التكبر على تصرفاتهم فى الحياة الدنيا الفانية.

«نهاية تفسير سورة الإنفطار»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۱

۸۳. سورة المطففين

محتوى السورة: بحوث هذه السورة تدور حول محاور خمس، هى:

۱- تحذير وإنذار شديد للمطفّفين.

۲- الإشارة إلى أنّ منشأ الذنوب الكبيرة إنّما يأتى من عدم رسوخ الإيمان بالبعث والمعاد.

۳- عرض لجوانب من عاقبة «الفجّار» فى ذلك اليوم العظيم.

۴- عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين فى الجنة من نعم إلهية وعطاء ربانى جزيل.

۵- الإشارة لآثار استهزاء الكفار بالمؤمنين فى الحياة الدنيا، وانعكاس الحال فى يوم القيامة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب قال: قال النبى صلى الله عليه و آله: «ومن قرأها سقاه اللَّه من الرحيق المختوم».

وفى ثواب الأعمال روى صفوان الجمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى الفريضة ويل للمطفّفين، أعطاه اللَّه الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولا يراها ولم يمر على جسر جهنم ولا يحاسب يوم القيامة».

إنّ كل هذا الفضيلة والبركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۲

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (۳) أَ لَا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۶)

سبب النّزول

قال ابن عباس: لمّا قدم نبى اللَّه المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلًا، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس». قيل يا رسول اللَّه، وما خمس بخمس؟

قال: «ما نقض قوم العهد إلّاسلط اللَّه عليهم عدوّهم، وما حكموا بغير ما أنزل اللَّه إلّافشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّافشا فيهم الموت، ولا طفّفوا الكيل إلّامنعوا النبات واخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّاحبس عنهم المطر» «۱».

التّفسير

ويل للمطففين: بدأ الحديث فى هذه السورة بتهديد شديد للمطففين: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ».

وتمثل الآية فى حقيقة توجيهها، إعلان حرب من اللَّه عزّ وجل على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حق الناس بهذه الطريقة القذرة.

«المطفّفين»: من «التطفيف» وأصله من «الطف»، وهو جوانب الشىء وأطرافه، و «الطفيف»: الشىء النزر، و «التطفيف»: البخس فى الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل»: تأتى بمعانى: حلول الشرّ، الحزن، الهلاك، المشقّة من العذاب، وادٍ مهيب فى نار جهنم، وتستعمل عادة فى اللعن وبيان قبح الشىء، ورغم صغر الكلمة إلّاأنّها تستبطن

---

(۱) التفسير الكبير ۳۱/ ۸۸.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۳

مفاهيم كثيرة.

وفى الكافى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: «ولم يجعل الويل لأحد حتى يسميه كافراً. قال اللَّه عزّ وجل: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ»».

وما نستفيده من هذه الرواية هو: إنّ التطفيف فيه وجه من الكفر.

وتتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الاولى: «الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ».

وتقول الآية الثانية: «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ».

وممّا ينبغى الإلتفات إليه ... أنّ الآيات وإن تحدثت عن التطفيف فى الكيل والوزن، ولكن لا ينبغى حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، وليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدّى من خدمة مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنّه والحال هذه سيكون فى حظيرة «المطففين» المذمومين بشدّة فى الآيات المباركة المذكورة.

ولا تخلوا من مناسبة أن يجعل أىّ تجاوز لحدود اللَّه، وأىّ إنقاص أو اخلال فى الروابط الإجتماعية أو إنحلال فى الضوابط الأخلاقية، إنّما هو مفردات ومصاديق لهذا المفهوم.

ویهدد القرآن الکریم المطففین، باستفهام توبیخی: «أَلَا یَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ». «لِیَوْمٍ عَظِیمٍ».

یوم عظیم فی: عذابه، حسابه وأهواله.

«یَوْمَ یَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ». أی: إنّهم لو کانوا یعتقدون بالبعث والحساب: وأنّ أعمالهم مسجلة وستعرض کاملة فی محکمة العدل الإلهی بخیرها وشرّها، وکبیرها وحقیرها، لو کانوا یعتقدون ذلک، لما ظلموا أحداً، ولأعطوا الناس حقوقهم کاملة.

وفی الکافی عن جابر عن أبی جعفر الباقر علیه السلام قال: «کان أمیر المؤمنین علیه السلام بالکوفة عندکم یغتدی کل یوم بکرة من القصر، فیطوف فی أسواق الکوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدّرة علی عاتقه وکان لها طرفان وکانت تسمی السبیبة فیقف علی أهل کل سوق، فینادی: یا معشر التجّار اتّقوا اللّه عزّ وجل، فإذا سمعوا صوته علیه السلام ألقوا ما بأیدیهم، وأرعوا إلیه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فیقول علیه السلام: قدموا الإستخارة، وتبرکوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعین، وتزیّنوا بالحلم، وتناهوا عن الیمین، وجانبوا الکذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومین، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الکیل والمیزان، ولا تبخسوا الناس أشیاءهم، ولا تعثوا فی الأرض مفسدین، فیطوف علیه السلام

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۴

فی جمیع أسواق الکوفة ثم یرجع فیقعد للناس».

کَلَّا إِنَّ کِتَابَ الفُجَّارِ لَفِی سِجِّینٍ (۷) وَ مَا أَدْرَاکَ مَا سِجِّینٌ (۸) کِتَابٌ مَرْقُومٌ (۹) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۰) وما أدراک ما سجّین: بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن المطففین، وعن إرتباط الذنوب بعدم الإیمان الراسخ بالمعاد ویوم القیامة، تشیر الآیات أعلاه إلی ما ستؤول إلیه عاقبة المسیئین والفجار یوم حلول الیوم المحتوم، فتقول: «کَلَّا» فلیس الأمر کما یظن هؤلاء عن المعاد وأنّه لیس هنا حساب وکتاب، بل «إِنَّ کِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجّینٍ». «وَمَا أَدْرَیکَ مَا سِجّینٌ». «کِتَابٌ مَّرْقُومٌ».

وتوجد نظرتان فی تفسیر الآیة أعلاه:

الاولی: المراد من «کتاب»: هو صحیفة الأعمال، التی لا تغادر صغیرة ولا کبیرة، من أفعال الإنسان إلّاوأحصتها.

والمراد ب «سجّین»: هو الکتاب الجامع لکل صحائف أعمال الإنسان عموماً.

و «سجّین»: من «السجن»، وهو (الحبس). وأطلق علیه هذا الإسم باعتبار أنّ ما فیه یؤدّی إلی حبس أصحابه فی جهنم، أو أنّ هذا الدیوان موجود فی قعر جهنم.

علی عکس کتاب الأبرار فإنّه فی أعلی علّیین .. فی الجنة.

الثانیة: إنّ «سجّین» هی «جهنم» ... وهی سجن کبیر لجمیع المذنبین، أو هی محل شدید من جهنم.

و «کتاب» الفجّار، أی: ما قرر لهم من عاقبة ومصیر.

فیکون التقدیر علی ضوء هذا التّفسیر: إنّ جهنم هی المصیر المقرر للمسیئین.

فلا مانع من الجمع بین التّفسیرین، لأنّ «سجّین» حسب التّفسیر الأوّل بمعنی الدیوان الجامع لکل أعمال المسیئین، وحسب التّفسیر الثانی بمعنی: «جهنم» أو قعرها، فالأمران علی صورة علّة ومعلول، فإذا کانت صحیفة أعمال الإنسان السیئة فی ذلک الدیوان الجامع، فإنّ مقام الدیوان هو قعر جهنم.

وتأتی الآیة التالیة لتقول: «وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لّلْمُکَذّبِینَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۵

التکذیب الذی یوقع الإنسان فی ألوان من الذنوب، ومنها التطفیف والظلم.

الَّذِینَ یُکَذِّبُونَ بِیَوْمِ الدِّینِ (۱۱) وَ مَا یُکَذِّبُ بِهِ إِلَّا کُلُّ مُعْتَدٍ أَثِیمٍ (۱۲) إِذَا تُتْلَی عَلَیْهِ آیَاتُنَا قَالَ أَسَاطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۳) کَلَّا بَلْ رَانَ عَلَی قُلُوبِهِمْ مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ (۱۴) کَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِیمِ (۱۶) ثُمَّ یُقَالُ هذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ

تُكَذِّبُونَ (١٧) بعدما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذّبين، تأتى الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ»، وهو يوم القيامة.

وتقول أيضاً: «وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم والتفكير الصائب والإستدلال العقلى، بل هو نابع من حبّ الإعتداء وارتكاب الذنوب والآثام (الصفة المشبهة «أثيم» تدل على استمرار الشخص فى ارتكاب الذنوب).

وتشير الآية التالية للصفة الثالثة لمنكرى المعاد، فتقول: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

فبالاضافة لكون منكر المعاد معتدٍ وأثيم، فهو من الساخرين والمستهزئين بآيات اللّه، ويصفها بالخرافات البالية، وما ذلك إلّامبرر واهٍ لتغطية تهربه من مسؤولية آيات اللّه عليه.

ولم تختص الآية المذكورة بذكر المبررات الواهية لُاولئك الضالّين المجرمين فراراً من الإستجابة لنداء الدعوة الربانية، بل ثمّة آيات اخرى تناولت ذلك؛ منها الآية (۵) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

ويعرّى القرآن مرّة اخرى جذر طغيانهم وعنادهم، بالقول: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فازيل عنها ما جعل اللّه فيها من نور الفطرة الاولى وذهب صفائها، ولذا .. فلا يمكن لتلك القلوب التعسة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحى الإلهى إلى دواخلها.

«ران»: من «الرين» على وزن (عين)، وهو: الصدأ يعلو الشيء الجليل.

وفى الدر المنثور عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ العبد إذا أذنب ذنباً نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى ذكر اللّه فى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۶

القرآن: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ»». ويستمر البيان القرآنى: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ».

وهو أشدّ ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء باللّه ودرجة القرب منه هى من أعظم نعم الأبرار والصالحين وأكثرها لذةً واستئناساً.

و: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ».

فدخولهم جهنم نتيجة طبيعية لاحتجابهم عن اللّه تعالى وأثر لازم له، ومما لا شك فيه إنّ لهيب الحرمان من لقاء اللّه أشدّ إيلاماً وإحراقاً من نار جهنم.

وتقول الآية التالية: «ثُمَّ يُقَالُ هذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ».

يقال لهم ذلك توبيخاً ولوماً لزيادة تعذيبهم روحياً، وهو ما ينتظر كل من عاند الحق وتخبط فى متاهات الضلال.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢۴) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢۵) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢۶) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) علّيون فى انتظار الأبرار: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجّار وكتابهم وعاقبة أمرهم، ينتقل الحديث فى هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتتحدث عن الأبرار الصالحين وما سيؤلون إليه من حسن مآب، ويبدأ الحديث بالقول: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ».

«علّيين»: جمع (علىّ) على وزن (ملّى)، وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس فى مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكنى قمم الجبال.

فما عرضناه بخصوص تفسير «سجّين» يصدق على «علّيين» أيضاً، بقولين:

الأوّل: أنّ المقصود من «كتاب الأبرار» هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع فى هذا الديوان العام، وهو

ديوان عالى المقام وشريف القدر.

الثانى: أنّ صحيفة أعمال الأبرار تكون فى أشرف مكان، أو فى أعلى مكان فى الجنة،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۷

وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفعة كرامتهم عند اللَّه عزّ وجل.

وذهب قسم من المفسرين إلى أنّ ال «كتاب» هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعى الإلهى) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنة العُلى.

ولا يضرّ من الجمع بين التّفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة فى ديوان عام، ومحل ذلك الديوان فى أعلى نقطة من السماء، ويكون الحكم والقضاء الإلهى كذلك مبنىّ على كونهم فى أعلى درجات الجنة.

ولأهمية وعظمة شأن «عليين» .. تأتى الآية التالية لتقول: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا عِلِّيُّونَ»؛ إنّه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور والخيال والقياس والظن، بل وحتى أنّ النبى صلى الله عليه و آله وعلى ما له من علو شأن ومرتبة مرموقة، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

ويبدأ البيان القرآنى بتقريب أل «علّيين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم».

وهذا على ضوء تفسير «علّيين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أمّا على ضوء التفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنّه المصير الحتمى الذى قرره اللَّه وسجّله لهم، بأن يكون محلهم فى أعلى درجات الجنة.

وكذلك: «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ». أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

والآيات التالية تظهر بوضوح بأنّ المقربين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، وبامكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار والصالحين.

فبين الأبرار والمقربين عموم وخصوص مطلق، حيث كل المقربين أبرار، وليس كل الأبرار مقربين.

وينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ».

وينقلنا البيان القرآنى لجوانب من نعيم الأبرار: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ».

ثم يضيف: «تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ».

إشارة إلى أنّ ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط والسرور والغبطة، إن هو إلّا إنعكاس لسعادتهم الحقّة.

وبعد ذكر نِعَم: «الأرائك»، «النظر»، «الإطمئنان والسعادة» .. تذكر الآية التالية نعمة شراب الجنة، فتقول: «يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۰۸

إنّه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطانى، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصى والجنون، بل هو شراب طاهر يذكى العقول ويدب النشاط والصفاء فى شاربه. و «الرحيق» هو الشراب الخالص الذى لا يشوبه أىّ غش أو تلوث؛ و «مختوم»: إشارة إلى أنّه أصلى ويحمل كل صفاته المميزة عن غيره من الأشربة ولا يجاريه شراب قطّ، وهذا بحدّ ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب وطهارته.

وتقول الآية التالية: «خِتَامُهُ مِسْكٌ».

هو شراب طاهر مختوم، وإذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسك منه.

«وَفِى ذلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ». «التنافس»: تمنّى كل واحد من النفسين مثل الشىء النفيس الذى للنفس الاخرى أن يكون له.

وجاء مضمون الآية فى الآية (۲۱) من سورة الحديد: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ونصل لآخر وصف شراب الأبرار فى الجنة: «وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ». أى: أنّه ممزوج بالتسنيم: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

ومن خلال الآيتين أعلاه، يتّضح لنا بأنّ «التسنيم» هو أشرف شراب فى الجنة، وموجود فى الطبقات العليا من الجنة .. ويجرى فى الهواء

فينصب فى أوانى أهل الجنة و «المقرّبون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجاً بالرحيق المختوم.

وتؤكّد الأحاديث والروايات على أنّ تلك الأشربة خالصة لمن تنزّه عن الولوغ فى خمور الدنيا الخبيثة.

ففى وصية النبى صلى الله عليه و آله لأمير المؤمنين عليه السلام: «ومن ترك الخمر للَّهسقاه اللَّه من الرحيق المختوم» «۱».

وروى عن على بن الحسين عليه السلام قال: «من أطعم مؤمناً من جوع أطعمه اللَّه من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه اللَّه من الرحيق المختوم» «۲».

وجاء فى حديث آخر: «من صام للَّهفى يوم صائف، سقاه اللَّه على الظمأ من الرحيق

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۲۹۷.

(۲) الكافى ۲/ ۲۰۱.

المختوم» «۱».

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (۲۹) وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (۳۱) وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (۳۲) وَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (۳۳) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (۳۴) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶)

سبب النّزول

ذكر المفسرون سببين لنزول هذه الآيات: الأوّل: روى أنّ علياً عليه السلام كرم اللَّه تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت الآية «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» قبل أن يصل على عليه السلام كرم اللَّه تعالى وجهه إلى النبى صلى الله عليه و آله.

الثانى: إنّها حكاية لبعض قبائح مشركى قريش؛ أبى جهل والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأشياعهم، كانوا يستهزئون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من الفقراء «۲».

التّفسير

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين ... أمّا: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التى تنتظر الأبرار والصالحين فى الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب ممّا يعانوه من مصائب ومشاكل فى الحياة الدنيا بسبب إيمانهم وتقواهم ...

فالآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذرة التى كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، وقد صنّفتها فى أربعة أساليب:

الاسلوب الأوّل: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ».

فأصل الطغيان والتكبر والغرور والغفلة الذى زُرع فى نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين والإستهزاء بهم والنظر إليهم بسخرية واحتقار.

والاسلوب الثانى: «وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ». فحينما يمرّ المشركون على مجموعة من

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۱۰/ ۲۹۷.

(۲) روح المعانى ۳۰/ ۷۶.

المؤمنين يغمزون بأعينهم ويشيرون إليهم بالقول:

انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين ... إنّهم أصبحوا مقربين عند اللَّه.

انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراة ... إنّهم يدّعون نزول الوحى الإلهى لهم.

انظروا إليهم ... فإنّهم يعتقدون بأنّ العظام البالية ستعود إلى الحياة مرّة اخرى! وما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصة والموهنة ...

ويبدو أنّ ممارسة الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمرّ المؤمنون من أمامهم وهم متجمعون، فى حين يمارسون الاسلوب الثانى وهو الإشارات الساخرة والغمز واللمز حين مرورهم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلنى أمام جمع المؤمنين.

«يتغامزون»: من «الغمز» وهو الإشارة بالجفن أو اليد مع قصد ما فى الطرف الآخر من عيوب، وعبّرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلى اشتراكهم جميعاً فى ذلك الفعل.

ولكنّهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين فى حضورهم من خلال الضحك والتغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضاً، حيث تنقل لنا الآية التالية، الاسلوب الثالث بقولها: «وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ».

وكأنّهم فى ضحكهم وتغامزهم قد نالوا فتحاً كبيراً! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة والجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، ويبقون على حالة السخرية والإستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم ...

«فكهين»: جمع (فكه)، وهى صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح والضحك، مأخوذة من (الفاكهة)، وكأنّ لذة الخوض فى هكذا حديث وسخرية كلذّة أكل الفاكهة، كما ويطلق على حديث مفرح اسم (فكاهة).

والاسلوب الرابع: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هؤُلَاءِ لَضَالُّونَ».

لماذا؟ لأنّهم تركوا ما كان شائعاً من عبادة الأصنام، والخرافات التى يعتبرونها هداية! واتجهوا نحو الإيمان باللَّه والتوحيد الخالص.

ولأنّهم باعوا لذّة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة ...

وغالباً ما لا يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، ولذلك يُنظر إليهم باحتقار ويهزأ بدينهم وإيمانهم، فى مجتمع يسوده التمايز الطبقى بشكل راسخ وظاهر. فيقول القرآن الكريم فى الآية التالية: «وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۱

فجواب نوح عليه السلام عام يشمل حتى اولئك المغرورين فى صدر الإسلام ... فما شأنكم وهؤلاء؟! وعليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، وإلى النبى الذى جاء بهذا الدين، ولا تنظروا إلى من آمن به واتبعه ...

وتبقى أساليب الذين يعادون الحق محدودة فى إطار الحياة الدنيا، ولكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماماً: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ».

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال وإجراء العدالة الإلهية، والعدالة تقتضى بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحق، والإستهزاء فى ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذى ينتظر اولئك المغرورين والمستكبرين.

فى الدرّ المنثور عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ المستهزئين بالنّاس فى الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنة، فيقال: هلم هلم، فيجىء بكربه وغمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم، فيجىء بكربه وغمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أنّه ليفتح له الباب فيقول: هلم هلم، فلا يأتيه من أياسه». [وهنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه وعلى بقية الكفار من جنّتهم .

وتقول الآية التالية: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ».

ماذا ينظرون؟ إنّهم ينظرون إلى: نعم اللَّه التى لا توصف ولا تنفد فى الجنة، وإلى كل ما فازوا به من الألطاف الإلهية والكرامة، وإلى ما أصاب الكفار والمجرمين من العذاب الأليم خاسئين ...

وفى آخر آية السورة يقول القرآن مستفهماً (بإستفهام تقريرى): «هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فهذا القول سواء صدر من اللّه، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو فى كل الحالات يمثل طعناً واستهزاءاً بأفكار وادعاءات اولئك المغرورون، الذين كانوا يتصورون أنّ اللّه سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، ويأتيهم النداء ردّاً على خطل تفكيرهم.

«نهاية تفسير سورة المطفّفين»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۳

۸۴. سورة الانشقاق

محتوى السورة: لا ـ تخرج السورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة وما سيحدث من أحداث مروعة فى نهاية العالم وبداية يوم القيامة، ثم تتحدث ثانياً عن القيامة والحساب وما ستؤول إليه عاقبة كل من الصالحين والمجرمين، ثم تعطف السورة فى المرحلة الثالثة لتوضيح ماهية الأعمال والعقائد التى تجر الإنسان إلى سخط اللّه وخلوده بالعذاب مهاناً، وفى الرابعة تنتقل السورة لعرض مراحل سير الإنسان فى حياتيه (الدنيا والأخرة)، وفى آخر مطاف السورة يدور الحديث خامساً عن جزاء الأعمال الحسنة والسيئة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة انشقت، أعاذه اللّه أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (۵) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۴

تبدأ السورة فى ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ». (فتلاشت نجومها وأجرامها واختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (۱ و ۲) من سورة الإنفطار التى أعلنت عن نهاية العالم بخرابه وفنائه: «إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ».

وفى الدر المنثور أخرج ابن أبى حاتم عن على عليه السلام قال: «تنشق السماء من المجرّة». فإنّ النجوم التى نراها فى السماء اليوم، ستنفصل عن المجرة، وبها تنشق السماء.

وتحكى الآية التالية حال السماء: «وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ».

فلا يتوهم أنّ السماء بتلك العظمة بامكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر اللّه .. بل ستستجيب لأمر اللّه خاضعة طائعة، لأنّ إرادته سبحانه فى خلقه هى الحاكمة، ولا يحق لأى‌مخلوق أن يعصى أمره جلّ وعلا.

«أذنت»: من «الاذن» على وزن (افق)، وهى آلة السمع وتستعار لمن كثر استماعه، وفى الآية: كناية عن طاعة أمر الآمر والتسليم له.

«حقّت»: من «الحق»، أى: وحق لها أن تنقاد لأمر ربّها.

وكيف لها لا تسلّم لأمره عزّ وجل، وكل وجودها وفى كل لحظة من فيض لطفه، ولو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت.

وفى المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضاً: «وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ».

فالجبال- كما تقول آيات قرآنية اخرى- ستندك وتتلاشى وستستوى الأرض فى كافة بقاعها، لتلمّ جميع العباد فى عرصتها، كما أشارت الآيات (۱۰۵- ۱۰۷) من سورة طه إلى ذلك: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَّاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».

وفى ثالث مرحلة تقول الآية التالية: «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ».

والمعروف بين المفسرين أنّ الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

وقال بعض المفسرين: إنّ المعادن والكنوز المودعة فى الأرض ستخرج مع الأموات أيضاً.

وثمّة احتمال آخر فى تفسير الآية، يقول: إنّ المواد المذابة التى فى باطن الأرض ستخرج

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۵

نتيجة الزلازل الرهيبة التى تقذفها إلى الخارج، فتملأ الحفر والمنخفضات الموجودة على سطح الأرض، وستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و ...: «وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ».

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة امور، فمن جهة:

إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها وسمائها وإنسانها وكل شيء آخر، ومن جهة اخرى:

فالفناء المذكور يمثل انعطافة حادّة فى مسير عالم الخليقة، ومقدمة للدخول فى مرحلة وجود جديدة، ومن جهة ثالثة، فكل ما سيجرى ينبئ بعظمة قدرة الخالق المطلقة، وخصوصاً فى مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بام عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، وسيرى حصيلة أعماله الحسنة والسيئة.

وتبيّن الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: «يَا أَيُّهَا الْإِنسنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبّكَ كَدْحًا فَمُلقِيهِ».

«الكدح»: السعى والعناء الذى يخلق أثراً على الجسم والروح.

والآية تشير إلى أصل أساسى فى الحياة البشرية، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، وإن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف والحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان اللّه ونيل حسن مآب الآخرة؟!

فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة والتعب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

وما ذكر «لقاء اللّه» فى الآية إلّالتبيان أنّ حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقف إلّابانتهاء عجلة الحياة الدنيا، ولا فرق فى توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة والوصول إلى عرصة حاكمية اللّه المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء اللّه من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحقة .. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافى جنان الخلد.

واستعمال كلمة «ربّ» فيه إشارة إلى ثمّة إرتباط ما بين سعى وكدح الإنسان من جهة، وذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق لمخلوقه فى عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة اخرى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۶

وإلى ذلك المطاف، ستنفصل البشرية إلى فريقين: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا* وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا».

فالذين ساروا على هدى المخطط الربانى لحركة الإنسان على الأرض، وكان كل عملهم وسعيهم للّهدائماً، وكدحوا فى السير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم بيمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم وقبول أعمالهم والنجاة من وحشة ذلك اليوم الرهيب، وهو مدعاة للتفاخر والإعتزاز أمام أهل المحشر.

أمّا ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنّه العفو عن السيئات والثواب على الحسنات وعدم المداقة فى كتاب الأعمال.

وفى المجمع: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه اللّه حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته». قالوا: وما هى يا رسول اللّه؟ قال: «تعطى من حرمك،

وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك».

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (۱۱) وَ يَصْلَى سَعِيراً (۱۲) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (۱۴) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (۱۵) الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم: بعد أن عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب اليمين، تأتى الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، وتوصف لنا كيفية إعطاء كتاب كل منهم مشرعة لتقديم المشاهد الاخرى: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» ... فيصرخ وينادى الويل لى لقد هلكت: «فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا». «وَيَصْلَى سَعِيرًا».

وسيأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار ومباهاة فى يدهم اليمنى، وكل منهم يقول:

«هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ» «۱». ولكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى وبسرعة ويضعونها وراء ظهورهم خجلًا وذلًا، ولكى لا يطّلع أحد على ما فيها، ولكن، هيهات ..

فكل شىء حينئذ بارز، كيف لا وهو «يوم البروز» ...

وتبيّن الآية التالية علة تلك العاقبة المخزية: «إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا».

سروراً ممتزجاً بالغرور، وغروراً احتوشته الغفلة والجهل بربّ الأرباب سبحانه

---

(۱) سورة الحاقّة/ ۱۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۷

وتعالى، فالسرور المقصود فى الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدّة بالدنيا والمنسى لذكر الآخرة.

ويتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية: «إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ».

فاعتقاده الفاسد وظنّه الباطل الدائر على نفى المعاد، مصدر سروره وغروره وهو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدى، لأنّه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى بعد أن أوقعته شهواته فى هاوية الإستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأن يستمر فى استهزاءه وسخريته حتى فى حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (۳۱) من سورة المطففين: «وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ».

ولنفى العقائد الضالة، تقول الآية: «بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا».

فكلّ أعمال الإنسان تسجل وتحصى عليه لتعرض يوم الحساب فى صحيفته.

والآية تشارك الآية السابقة: «يَا أَيُّهَا الْإِنسنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلقِيهِ». فى كونها دليلًا على المعاد أيضاً. فتأكيد الآيتين على كلمة «ربّ» يدل على أنّ الإنسان فى سيرة التكاملى صوب ربّه لا ينتهى بالموت، وأنّ الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفاً وغاية لهذا الخلق العظيم وهذا المسار التكاملى ...

وكذلك كون اللَّه «بصيراً» بأعمال الإنسان وتسجيلها لابدّ من اعتباره مقدمةً للحساب والجزاء وإلّا لكان عبثاً، وهذا ما لا يكون.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵) لمزيد من إيضاح ما ورد فى الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه وتعالى .. تأتى الآيات لتقول: «فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ». «وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ». أى: وما جمع.

«وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ». أى: إذا اكتمل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۸

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ».

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس. ف «الشفق» هو وقت الغروب.

فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما فى هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تُعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء وجمال، وكونه وقت صلاة المغرب.

وأمّا القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة وأسرار عظيمة (وقد تناولنا ذلك مفصلًا).

«ما وسق»: إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)، فيكون عندها سكناً عاماً للكائنات الحية، وهو من أسرار وآثار الليل المهمة.

وينبغى الإلتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، والقمر فى حالة البدر) وجميعها موضوعات مترابطة ويكمل بعضها البعض الآخر، وتشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، وتحرّك عند الإنسان التأمل والتفكير فى عظمة ودقّة وقدرة الخالق فى خلقه، ويمكن للإنسان العاقل بتأمّل هذه التحولات السريعة من التوجّه إلى قدرته جلّ شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيّرات فى عالم الوجود.

ثم يأتى جواب القسم الوارد فى الآيات أعلاه: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ».

إشارة إلى المراحل والتحوّلات التى يمرّ بها الإنسان فى حياته؛ منها:

تلك الحالات المختلفة التى يمرّ بها الإنسان فى كدحه وسيره المضنى نحو اللّه جلّ وعلا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثم ينتقل إلى عالم البرزخ ومنه إلى القيامة والآخرة.

ومن كل ما سبق .. يخرج القرآن الكريم بنتيجة: «فَمَا لَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

فمع وضوح أدلة الحق؛ مثل أدلة: التوحيد، معرفة اللّه، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق فى آيات، وكذلك الآيات التى فى‌نفس الإنسان.

وينتقل بنا العرض القرآنى من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول: «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَايَسْجُدُونَ».

القرآن تتلألأـ أنوار الإعجاز من بين جنباته، ويشهد محتواه على أنّه من الوحى الإلهى وكل منصف يدرك جيداً لدى قراءته له أنّه فوق نتاجات عقول البشر ولا يمكن أن يصدر من إنسان مهما كان عالماً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۱۹

وتأتى الآية التالية لتقول: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ».

والتعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين فى الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر واصرارهم ولجاجتهم وليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق.

وببيان جدّى وتهديد جدّى، تقول الآية التالية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ».

فاللّه تعالى أعلم بدافع ونيّة وهدف ذلك التكذيب، ومهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلّابما كسبت أيديهم.

ثم ...: «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

عادةً ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، وجاءت هنا لتنم عن نوع من الطعن والتوبيخ.

والحال، إنّ البشارة الحقّة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، وما للكاذبين إلّاالغرق فى بحر من الحسرة والندم، وما هم إلّافى عذاب جهنم يخلدون.

ويستثنى المؤمنون من تلك البشرى المخزية: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المنّ» وهو القطع والنقصان، (ومنه «المنون» بمعنى الموت).

وإذا ما جمعنا كل هذه المعانى، فستكون النعم الاخروية على عكس الدنيوية الناقصة والمنقطعة والمقترنة بمنّة هذا وذاك، حيث إنّها

لا تنقطع ولا تنقص وليس فيها منّة.

أمّا الإستثناء الذى ورد فى الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنّه «متصل» أو «منقطع»؟

والأقرب لسياق الآيات أن يكون الإستثناء متصلًا، وفى هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة وتشجيعهم على ذلك، لأنّ الآية تقول: إنّ العذاب الأليم المذكور فى الآية السابقة سوف لا يصيب مَن يؤمن منهم ويعمل صالحاً وعلاوة على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

«نهاية تفسير سورة الإنشقاق»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۱

۸۵. سورة البروج

محتوى السورة: بملاحظة كون السورة مكية، فيظهر إنّها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، ولترغيبهم على الصمود أمام الصعاب والثبات على الإيمان وترسيخه فى القلوب.

وتناولت السورة قصة أصحاب الاخدود، الذين حفروا خندقاً وسجّروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم فى تلك النار إن لم يعودوا إلى كفرهم! وأحرقوا مجموعة منهم بالنار وهم أحياء، ومع ذلك لم يرجعوا عن دينهم ..

وتَعِدُ السورة فى بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لُاولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذماً شديداً، فى حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنة والفوز بنعيمها.

وفى جانب آخر من السورة، تُعرض لنا مقتطفات من قصّتى فرعون وثمود وقوميهما الجناة الطغاة، وما آلوا إليه من ذُلّ وهلاك، كل ذلك تذكيراً لكفار مكة الذين هم أضعف قوّة وأقل جنداً من اولئك، فعسى أن يرعووا عمّا هم فيه من جهة، وتسلية لقلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه و آله ومن كان معه من المؤمنين من جهة اخرى.

وتختم السورة فى آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى الأهمية البالغة لهذا الوحى الإلهى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۲

وسمّيت بسورة «البروج» بلحاظ ذكر الكلمة فى أوّل آية من السورة بعد ذكر البسملة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير البرهان: روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأ هذه السورة أعطاه اللّه من الأجر بعدد كل من اجتمع فى جمعة وكل من اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، وقراءتها تنجّى من المخاوف والشدائد».

وبملاحظة أنّ أحد تفاسير «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ»- من آيات السورة- هو يومى الجمعة وعرفة من جهة، وأنّ السورة حكاية مقاومة وبسالة المؤمنين السابقين أمام الشدائد والضغوط من جهة اخرى، وبملاحظة ذلك سيتّضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل لمن يقرءها وبين محتوى السورة، وأنّ الأجر والثواب إنّما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، وعمل على ضوء هديها.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (۱) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (۲) وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (۴) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹) ابتدأت السورة ب: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ».

والأبراج السماوية: إمّا أن يكون المراد منها النجوم الزاهرة والكواكب المنيرة فى السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شىء معروف فى الأرض، وتسمى ب «الصور الفلكية» وهى إثنا عشر برجاً، وفى كل شهر تحاذى الشمس أحد هذه البروج، (طبيعى أنّ الشمس لا تتحرك تلك الحركة، وإنّما الأرض تدور حول الشمس فيبدو لنا تغيّر موضع الشمس بالنسبة إلى الصور الفلكية أو الأبراج).

وتقول الآية الثانية: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ».

اليوم الذى وعد به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والذى تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة.

وفى القسم الثالث والرابع يقول: «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۳

وقد تعرض المفسرون للآية بمعان متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى وأدناه أهم ما ذُكر منها:

۱- إنّ «الشاهد»: محمّد صلى الله عليه و آله؛ و «المشهود»: يوم القيامة.

۲- «الشاهد»: ما سيشهد على أعمال الناس، كأعضاء بدنه؛ و «المشهود»: الناس وأعمالهم.

۳- «الشاهد»: يوم الجمعة؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

۴- «الشاهد»: عيد الأضحى؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

۵- «الشاهد»: الأيام والليالى؛ و «المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على أعمالهم.

۶- «الشاهد»: الملائكة؛ و «المشهود»: القرآن.

۷- «الشاهد»: الحجر الأسود؛ و «المشهود»: الحاج.

۸- «الشاهد»: الخلق؛ و «المشهود»: الحق.

۹- «الشاهد»: هذه الامّة؛ و «المشهود»: سائر الامم.

۱۰- «الشاهد»: الأنبياء عليهم السلام؛ و «المشهود»: محمّد صلى الله عليه و آله.

۱۱- «الشاهد»: النبى صلى الله عليه و آله؛ و «المشهود»: أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذا ما أدخلنا الآية فى سياق الآيات السابقة لها، فسنصل إلى أنّ «الشاهد» هو كل من سيقوم بالشهادة يوم القيامة؛ كشهادة: النبى صلى الله عليه و آله وكل نبيّ على امّته، الملائكة، بالإضافة إلى شهادة: أعضاء بدن الإنسان، الليل والنهار ... إلخ؛ و «المشهود»: الناس أو أعمالهم.

وبهذا يُدغم الكثير من التفاسير المذكورة مع بعضها لتشكل مفهوماً واسعاً للآية المباركة، لأنّ «الشاهد» ينطبق على كل من وما يشهد، وكذا «المشهود» ينطبق على كل من وما يشهد عليه، وما ورودهما بصيغة النكرة إلّالتعظيمهما.

فالسماء وما فيها من بروج تحكى عن نظام وحساب دقيق، و «اليوم الموعود» يوم حساب وكتاب دقيق أيضاً، و «شاهد ومشهود» أيضاً وسيلة للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، وكل ذلك لتذكير الظالمين الذين يعذّبون المؤمنين، عسى أن يكّفوا عن فعلتهم السيئة، ولإعلامهم بأنّ كل ما يفعله الإنسان يسجل عليه وبحساب دقيق جدّاً وسيواجه بها فى اليوم الموعود بين عتبات ساحة العدل الإلهى.

وبعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التالية: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۴

والمقصود هم الظالمين لا من القى فى النار، فالجملة إنشائية والمراد هو اللعن والدعاء عليهم.

والاخدود ملىء بالنار الملتهبة: «النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ».

وكان الظالمون جالسون على حافة الاخدود يشاهدون المعذبين فيها: «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ». «وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ».

«الاخدود»: شقّ فى الأرض مستطيل غائص، والجمع أخاديد، وأصل ذلك من «خدّ» الإنسان، وهو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين والشمال (وعند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثم اطلق مجازاً على الخنادق والحفر فى الأرض، ثم صار معنى حقيقياً لها.

أمّا من هم الذين عذّبوا المؤمنين؟ ومتى؟ إنّهم حفروا خندقاً عظيماً ووجّروه بالنيران، وأوقفوا المؤمنين على حافة الخندق وطلبوا منهم واحداً واحداً بترك إيمانهم والرجوع إلى الكفر، ومن رفض القى بين ألسنة النيران حياً ليذهب إلى ربّه صابراً محتسباً!

«الوقود»: ما يجعل للإشتعال، و «ذات الوقود»: إشارة إلى كثرة ما فيها من الوقود، وشدّة اشتعالها، فالنار لا تخلو من وقود، ولعل ما قيل من أنّ «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور.

والآيتان: «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»، تشيران إلى ذلك الجمع من الناس الذين حضروا الواقعة، وهم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ وبرود وفى منتهى قساوة القلب (ساديّة).

وتقول الآية التالية: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

وذكر «العزيز الحميد» جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، واحتجاج على اولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان باللّه جرم وذنب؟! وهو أيضاً تهديد لهم بأن يأخذهم اللّه العزيز الحميد جزاء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

وتأتى الآية الاخرى لتبيّن صفتين اخرتين للعزيز الحميد: «الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

فالصفات الأربعة المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ وعلا، فالعزيز والحميد .. ذو الكمال المطلق، ومالك السماوات والأرض والشهيد على كل شيء .. أحقّ أن يُعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۵

إضافة إلى كونها بشارة للمؤمنين، بحضور اللّه سبحانه وتعالى ورؤيته لصبرهم وثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية والنشاط والقوة.

ومن جهة اخرى تهديد للكفار، وإفهامهم بأنّ عدم منع إرتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، وإنّما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحاناً لهم، وسيريهم فى عاقبة أمرهم جزاء ما فعلوا، وما للظالمين إلّاالعذاب المهين.

بحث

من هم أصحاب الاخدود؟ إنّ «الاخدود» هو الشق العظيم فى الأرض، أو الخندق .. وهو فى الآية إشارة إلى تلك الخنادق التى ملأها الكفار ناراً ليردعوا فيها المؤمنين بالتنازل عن إيمانهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

وكان سببهم أنّ الّذى هيج الحبشة على غزوة اليمن ذونواس وهو آخر من ملك من حِمير «۱» تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمّى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم اخبر أنّ بنجران [شمال اليمن بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبداللّه بن بريا فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فخد لهم اخدوداً جمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار، فمنهم من احرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومُثّل بهم كل مثلة. فبلغ عدد من قُتل واحرق بالنار عشرين ألفاً «۲».

وأضاف بعض آخر: إنّ رجلًا من نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إنّ أرضكم بعيدة، ولكنّى سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصرانى وأطلب منه مساعدتكم.

ثم كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الإنتقام لدماء المسيحيين التى اريقت فى

---

(۱) حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

(۲) تفسير على بن ابراهيم القمى ۲/ ۴۱۳.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۶

نجران، فلما قرأ الرسالة تأثّر جدّاً، وعقد العزم على الإنتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتائبه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة «۱».

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (۱۶) العذاب الإلهى للمجرمين: بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الاخدود التى ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم وهم أحياء، يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى ما ينتظر اولئك الجناة من عذاب إلهى شديد، ويشير أيضاً إلى ما اعدّ للمؤمنين من ثواب ونعيم جراء صبرهم وثباتهم على إيمانهم باللّه. فتقول الآية الاولى: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ».

«فتنوا»: من مادة «فتن» وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت «الفتنة» بمعنى (الإختبار)، وبمعنى (العذاب والبلاء)، وبمعنى (الضلال والشرك) أيضاً؛ وهى فى الآية بمعنى (العذاب).

«ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا»: تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لُاولئك الجناة المجرمين، وتدلّ أيضاً على مدى لطف البارى جلّ وعلا على الإنسان حتى وإن كان مذنباً، وفى الجملة تنبيه لأهل مكة ليسارعوا فى ترك تعذيب المؤمنين ويتوبوا إلى اللّه توبة نصوح.

وقد ورد فى الآية لونين من العذاب الإلهى: «عَذَابُ جَهَنَّمَ» و «عَذَابُ الْحَرِيقِ»، للإشارة إلى أنّ لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها (عذاب النار)، وتعيين «عذاب الحريق»، للإشارة أيضاً إلى أنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار، سوف يجازون بذات أساليبهم، ولكن أين هذه النار من تلك؟!

---

(۱) قصص القرآن، للبلاغى / ۲۸۸.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۷

وتعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ».

وأىّ فوز أرقى وأسمى من الوصول إلى جوار اللّه، والتمتع فى نعيمه الذى لا يوصف! نعم، فمفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان والعمل الصالح)، وما عداه فروع لهذا الأصل.

ويعود القرآن مرّة اخرى لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ».

ولا تظنوا بأنّ القيامة أمر خيالى، أو إنّ المعاد من الامور التى يشك فى صحة تحققها، بل:

«إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ».

«البطش»: تناول الشىء بصولة وقهر، وباعتباره مقدمة للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب والمجازاة؛ «ربّك»: تسلية للنبىّ صلى الله عليه و آله، وتأكيد دعم اللّه اللامحدود له.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للبارى جلّ شأنه: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ».

الذى يغفر للتائبين ويحب المؤمنين.

«ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ». صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود وذو المجد والعظيمة.

«فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ».

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمّنته الآيات السابقة من تهديد ووعيد، يبيّن أنّ طريق العودة إلى اللّه سالك وأنّ باب التوبة مفتوح لكل من ولغ فى الذنوب، فالبارى جلّت عظمته فى الوقت الذى هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضاً.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ (۱۹) وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ

مَجِيدٌ (۲۱) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲) ألم تر ما حلّ بجيش فرعون وثمود: فيما تعرضت الآيات السابقة لقدرة اللَّه المطلقة وحاكميته، ولتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين .. تتعرض الآيات أعلاه لما يؤكّد هذا التهديد، فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله قائلة: «هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ». تلك الكتائب الجرارة التى وقفت بوجه أنبياء اللَّه بتصورها الساذج بأنّها ستقف أمام قدرة اللَّه عزّ وجل.

وتشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، والآخر فى زمن قريب من صدر دعوة الإسلام: «فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۸

فأحدهما ملك الشرق والغرب، والآخر وصلت مدنيته لأن يحفر الجبال لبناء البيوت والقصور الفخمة، ولهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف بوجههم، ولكن العزيز الجبار أهلكهم بالماء والهواء، مع ما لهاتين المادتين من الوسائل المهمة المستلزمة لأساسيات حياة الإنسان.

وتقول الآية التالية: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ».

فآيات ودلائل الحق ليست بخافية على أحد، ولكن العناد واللجاجة هما اللذان يحجبان عن رؤية طريق الحق والإيمان.

وكأنّ «بل» تشير إلى أنّ عناد وتكذيب أهل مكة أشدّ وأكثر من قوم فرعون وثمود وهم مشغولون دائماً بتكذيب الحق وانكاره ويستخدمون كل وسيلة فى هذا الطريق.

وعليهم أن يعلموا بقدرة اللَّه: «وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ».

فلا يدل الإمهال على الضعف أو العجز، ولا يعنى عدم تعجيل إنزال العقوبة الإلهية بأنّهم قد خرجوا عن قدرته جلّ شأنه.

وتقول الآية التالية: «بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ». ذو مكانة سامية ومقام عظيم.

«فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ». لا تصل إليه يد العبث، والشيطنة، ولا يصيبه أىّ تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان.

فلا تبتئس يا محمّد بما ينسبونه إليك افتراءً، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة والجنون ... فاصولك ثابتة، وطريقك نيّر، والقادر المتعال معك.

«لَوح»: هو الصفحة العريضة التى يكتب عليها، ويراد هنا: الصفحة التى كتب فيها القرآن، لكنّها ليست كالألواح المتعارفة عندنا، بل (وعلى قول ابن عباس): إنّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب.

ويبدو أنّ اللوح المحفوظ، هو «علم اللَّه» الذى يملاء الشرق والغرب، ومصان من أىّ اختلاق أو تحريف.

«نهاية تفسير سورة البروج»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۲۹

۸۶. سورة الطارق

محتوى السورة: تدور مواضيع السورة حول محورين:

۱- المعاد والقيامة.

۲- القرآن الكريم وأهميته القيمة.

تبتدأ السورة بجملة أقسام تبعث على التأمل والتفكير، ثم تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

وتنتقل السورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة إلى كيفية خلق الإنسان من نطفة. فالقادر على خلق الإنسان من نطفة نتنة لقادر على إعادة حياته بعد موته.

وتعرض لنا السورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثم تذكر جملة أقسام اخرى للتأكيد على أهمية القرآن، ومن ثم نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهى.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها أعطاه اللّه بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات».

إنّ التأمل بمحتوى السورة والعمل على ضوئها هو الذى يضمن حصول ثوابها، وحركة اللسان الفارغة عن كل محتوى وتطبيق، لا تغنى عن الحق شيئاً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۰

وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (۴) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (۹) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ (۱۰)

تبتدأ السورة- كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم- بعدّة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهى مقدمة لبيان أمر مهم.

«وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ» .. «وَمَا أَدْرَيكَ مَا الطَّارِقُ» .. «النَّجْمُ الثَّاقِبُ».

«الطارق»: من (الطرق) وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة.

ويفسّر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ». النجم اللامع الذى مع علوّه الشاهق وكأنّه يريد أن يثقب سقف السماء، وكأنّ نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

ولنرى لأىشىء كان هذا القسم: «إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ».

يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

فلا تظنوا بأنّكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كل ما يبدر منكم .. وهذا ما له الأثر البالغ فى عملية إصلاح وتربية الإنسان.

ثم يستدل القرآن الكريم على المعاد فى مقابل من يقول باستحالة المعاد: «فَلْيَنظُرِ الْإِنسنُ مِمَّ خُلِقَ».

وبهذا ... أخذ القرآن الكريم بأيدى الجميع وأرجعهم إلى أوّل خلقهم، مستفهماً عمّا خلق منه الإنسان.

وبدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: «خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ».

وهو ماء الرجل الذى تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق.

ويستمر فى تقريب المراد: «يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ».

«الصلب»: الظهر؛ و «الترائب»: جمع (تريبة)، وهى عظام الصدر العليا وضلوعه.

فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقرينة «ماء دافق»، وهذا لا يصدق إلّاعلى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۱

الرجل، وعليه يعود الضمير فى «يخرج».

و «الصلب والترائب» هما ظهر الرجل وقسمه الأمامى، لأنّ ماء الرجل إنّما يخرج من هاتين المنطقتين.

وهذا التفسير واضح، ينسجم مع ما ورد فى كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما ويمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقة علمية مهمة لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، وربّما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

ونصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ».

فالإنسان تراباً قبل أن يكون نطفة، ثم مرّ بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنساناً كاملًا، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه وصار تراباً، فالذى خلقه من التراب أوّل مرّة قادر على إعادته مرّة اخرى.

وتصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذى سيرجع فيه الإنسان: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ».

«تبلى»: من «البلوى»، بمعنى الإختبار والإمتحان، وهو هنا الظهور والبروز، لأنّ الإمتحان يكشف عن حقيقة الأشياء ويظهرها.

«السرائر»: جمع (سريرة)، وهى صفات ونوايا الإنسان الداخلية.

نعم، فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر فى ذلك اليوم، يوم البروز ويوم الظهور، فسيظهر على الطبيعة كل من: الإيمان، الكفر، النفاق، نيّة الخير، نيّة الشر، الإخلاص، الرياء ...

وسيكون ذلك الظهور مدعاة فخر ومزيد نعمة للمؤمنين، ومدعاة ذلّة ومهانة وحسرة للمجرمين ...

وما أشد ما سيلاقى من قضى وطراً من عمره بين الناس بظاهر حسن ونوايا خبيثة. وما أتعسه حينما تهتك أقنعته المزيفة فيظهر على حقيقته أمام كل الخلائق.

ولكن أشدّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: «فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ».

فلا يملك تلك القوّة التى تخفى أعماله ونيّاته، وليس له ذلك الظهير الذى يعينه عن الخلاص من عذاب اللّه سبحانه وتعالى.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١۴) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١۵) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١۶) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۲

بعد أن تضمّنت الآيات السابقة استدلالًا على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرّة اخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الاخرى عليه فتقول:

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» ... «وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ» ... «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ» ... «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ».

«الرجع»: من «الرجوع» بمعنى العود، ويطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنّها تبدأ من مياه الأرض والبحار، ثم تعود إليها تارة اخرى عن طريق الغيوم.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، وهذا ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما فى قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة «ق»:

«وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذلِكَ الْخُرُوجُ».

وتسلّى الآيات التالية قلب النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين من جهة، وتتوعد أعداء الإسلام من جهة اخرى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا». فالكفار يخططون من جهة، وأنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة اخرى .. «وَأَكِيدُ كَيدًا». «فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا»، حتى يروا عاقبتهم.

نعم، إنّهم دوماً يكيدون فى حربك والحرب ضد دينك.

فتارة بالإستهزاء ...

واخرى بالحصار الإقتصادى ...

ومرّة بتعذيب المؤمنين ...

ويقولون عنك: ساحراً، كاهناً، مجنوناً ...

ويقولون لك: أبعد الفقراء والمستضعفين عنك حتى نتّبعك

ومراد الآية هو كيد الأعداء، وقد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه.

والمقصود بالكيد الإلهى إنّه تلك الألطاف الإلهية التى غمرت النبى صلى الله عليه و آله ومن معه من المؤمنين، وما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم وخيبة مساعيهم.

هذه الآية درس للمسلمين فى الكيفية التى ينبغى العمل بها عند مواجهة أعداءهم، وخصوصاً ماإذا كانوا أعداءً أقوياء، فلابدّ من الصبر

والتأنّى والدقّة فى حساب خطوات المواجهة، وينبغى عدم التسرع فى العمل، وكذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

«نهاية تفسير سورة الطّارق»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۳

۸۷. سورة الأعلى

محتوى السورة: تحتوى السورة على قسمين من المواضيع:

۱- يحوى خطاباً إلى النبى صلى الله عليه و آله، يأمره البارى سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثم ذكر سبعاً من صفات اللَّه عزّ وجل، لها صلة ربط بالأمر الربانى إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

۲- يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التى تؤدى إلى كل من السعادة والشقاء الحق.

وفى آخر السورة، يأتى التأكيد على أنّ ما جاء فى هذه السورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل وتناولته كتب وصحف الأوّلين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان ابى بن كعب قال: قال النبى صلى الله عليه و آله: «من قرأها أعطاه اللَّه من الأجر عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله اللَّه على إبراهيم وموسى ومحمّد عليهم السلام».

وعن أبى بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سبّح اسم ربّك الأعلى فى فريضة أو نافلة قيل له يوم القيامة: ادخل الجنة من أىّ أبواب الجنة شئت».

فيبدو أنّ السورة من الأهمية بحيث روى عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يحب هذه السورة «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۴

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (۱) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (۲) وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (۳) وَ الَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى (۴) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (۵) تسبيح اللَّه: تبدأ السورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح والتقديس أبداً للَّه الواحد الأحد، فتخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالقول: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى».

فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه فى مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كل عيب ونقص، ومن كل صفات المخلوق وعوارض الجسم، أى أن لا يحد.

«الْأَعْلَى»: أى الأعلى من كل: أحد، تصوّر، تخيّل، قياس، ظن، وهم، ومن أى شرك بشقيه الجلى والخفى.

«رَبِّكَ»: إشارة إلى أنّه غير ذلك الرب الذى يعتقد به عبدة الأصنام.

وبعد ذكر هاتين الصفتين (الربّ والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبيّن ربوبية اللَّه العليا ...: «الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى .

فنظام عالم الخليقة، بدءاً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التى أشارت إليها الآية (۴) من سورة القيامة: «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ». وانتهاءً بأكبر منظومة سماوية كلّها شواهد ناطقة على ربوبية اللَّه سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات قاطعة على وجوده عزّ وجل.

وبعد ذكر موضوعى الخلق والتنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: «وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى .

والمراد ب (قدّر)، هو: وضع البرامج، وتقدير مقادير الامور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التى ما خلقت الموجودات إلّالأجلها.

والمراد ب (هدى هنا، هو: الهداية الكونية، على شكل غرائز وسنن طبيعية حاكمة على كل موجود (ولا فرق فى الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلًا، إنّ اللَّه خلق ثـدى المرأة وجعل فيه اللبن لتغذيـة الطفل، وفى ذات الوقت جعل عاطفـة الامومـة شديـدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل فى الطفل ميلًا غريزياً نحو ثدى امّه، فكلّ هذه الإستعدادات والدوافع وشدّة العلاقة الموجودة بين الام والإبن والثدى

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۵

مقدّر بشكل دقيق، كى تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعية وصحيحة.

وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح فى جميع الكائنات.

وقد اختص الإنسان بهداية تشـريعية إضافة للهداية التكوينية يتلقاها عن طريق الوحى وإرسال الأنبياء عليهم السلام لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

وتشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخصّ غذاء الحيوانات منها: «وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى .

ثم: «فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى .

«الغثـاء»: هو مـا يطفـح ويتفرق من النبات اليابس على سـطح الماء الجارى، ويطلق أيضاً على ما يطفـح على سـطح القـدر عنـد الطبـخ، ويستعمل كناية عن: كل ضائع ومفقود، وجاء فى الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.

«أحوى»: من (الحوة)- على زنة قوّة- وهى شدّة الخضرة، أو شدّة السواد.

فللغثاء الأحوى منافع كثيرة .. فهو يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، وكذا غذاء جيد للحيوانات فى الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعى للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود.

سَنُقْرِئُکَ فَلَا تَنْسَى (۶) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى (۷) وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرَى (۸) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (۹) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (۱۰) وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (۱۱) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (۱۲) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (۱۳) فيما كان الحـديث فى الآيات السابقـة عن ربوبيـة اللَّه وتوحيـده جلّ شأنه، والهدايـة العامـة للموجودات، وكذا عن تسبيح الرب الأعلى .. تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن والنّبوّة، وهداية الإنسان، وكذا البيان القرآنى للتسبيح. فتقول الآية الاولى مخاطبة النبى صـلى الله عليه و آله: «سَنُقْرِئُکَ فَلَا تَنسَى . فلا تتعجل نزول القرآن، ولا تخف من نسـيان آياته، فالذى أرسـلك بهذه الآيات لهداية البشـرية كفيل بحفظها، وبخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض ولو حرف واحد منها أبداً.

وتدخل الآية فى سياق الآية (۱۱۴) من سورة طه: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أن

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۶

يُقْضَى إِلَيْکَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا». وكـذا الآيـة (۱۶ و ۱۷) من سورة القيامـة: «لَاتُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ» تدخل فى سياقهما.

ولإثبـات قـدرته سـبحانه وتعالى، وأنّ كل خير منه، تقول الآيـة: «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . ولا يعنى هـذا الإسـتثناء بأنّ النسـيان قد أخذ من النبى صـلى الله عليه و آله وطراً، وإنّما هو لبيان أنّ قدرة حفظ الآيات هى موهبة منه سـبحانه وتعالى، ومشيئته هى الغالبة أبداً، وإلّا لتزعزعت الثقة بقول النبى صلى الله عليه و آله.

فمن معاجز النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، قابليته على حفظ الآيات والسور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السـلام، دون أن ينسى منها شيئاً أبداً.

وتخاطب الآية التالية النبى الكريم صـلى الله عليه و آله مسلية له: «وَنُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرَى . أى: إخبار النبىّ بصعوبة الطريق فى كافة محطاته، من تلقى الوحى وحفظه حتى البلاغ والنشـر والتعليم والعمل به، وتطمئنه بالرعايـة والعناية الربانية، بتذليل صـعابه من خلال تيسيرها له صلى الله عليه و آله.

وبعد أن تبيّن الآيات العناية الربانية للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية:

«فَذَکِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّکْرَی .

قیل: الإشارة هنا إلی أنّ التذکیر بحدّ ذاته نافع، وقلیل اولئک الذین لا ینتفعون به، والحد الأدنی للتذکیر هو إتمام الحجة علی المنکرین، وهذا بنفسه نفع عظیم.

وتقسم الآیات التالیة الناس إلی قسمین، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ والإنذار الذی مارسه النبی صلی الله علیه و آله ...: «سَیَذَّکَّرُ مَن یَخْشَی .

نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشیة» والخوف ممّا ینبغی أن یخاف منه، وإذا لم تکن فیه روحیة طلب الحق- والتی هی من مراتب التقوی- فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهیة، ولا حتی تذکیرات الأنبیاء ستنفعه، علی هذا الأساس کان القرآن «هدًی للمتّقین».

وتذکر الآیة التالیة القسم الثانی، بقولها: «وَیَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی».

ویعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثانی: «الَّذِی یَصْلَی النَّارَ الْکُبْرَی .. «ثُمَّ لَایَمُوتُ فِیهَا وَلَا یَحْیَی . أی، لا یموت لیخلص من العذاب، ولا یعیش حیاةً خالیة من العذاب، فهو أبداً یتقلقل بالعذاب بین الموت والحیاة.

إنّ وصف نار جهنم ب «الکبری» مقابل (النار الصغری) فی الحیاة الدنیا.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۷

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الصادق علیه السلام قال: «إنّ نارکم هذه جزءاً من سبعین جزء من نار جهنم، وقد اطفئت سبعین مرّة بالماء ثم التهبت ولولا ذلک ما استطاع آدمی أن یطفیها».

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی (۱۴) وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّی (۱۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیَاةَ الدُّنْیا (۱۶) وَ الْآخِرَةُ خَیْرٌ وَ أَبْقَی (۱۷) إِنَّ هذَا لَفِی الصُّحُفِ الْأُولَی (۱۸) صُحُفِ إِبْرَاهِیمَ وَ مُوسَی (۱۹) بعد أن عرضت الآیات السابقة صورة العذاب ومعاناة أهله، یأتی الحدیث عن الذین نفعتهم الذکری، ممن استمعوا إلی دعوة الهدی فطهروا أنفسهم من المعاصی والآثام، وخشعت قلوبهم لذکر اللّه .. ویقول القرآن: «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَکَّی . «وَذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّی .

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب والفوز بالنعیم الخالد، یعتمد علی ثلاثة أرکان رئیسیة: «التزکیة»، «ذکر اسم اللّه» و «الصلاة».

إنّ «التزکیة» ذات مدالیل واسعة تشمل: تطهیر الروح من الشرک، تطهیر القلب من الرذائل الأخلاقیة، تطهیر الأعمال من المحرمات والریاء، تطهیر الأموال والأبدان بإعطاء الزکاة والصدقات فی سبیل اللّه: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَکِّیهِم بِهَا».

ویشیر البیان القرآنی إلی العامل الأساس فی عملیة الإنحراف عن جادة الفلاح: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیَوةَ الدُّنْیَا» .. «وَالْأَخِرَةُ خَیْرٌ وَأَبْقَی .

فی عوالی اللئالی عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «حبّ الدنیا رأس کل خطیئة».

وعلیه ... فلا سبیل لقطع جذور المعاصی إلّاباخراج حبّ الدنیا وعشقها من القلب.

ینبغی علینا أن ننظر إلی الدنیا بواقعیة وعقلائیة، فالدنیا لیست أکثر من مرحلة إنتقالیة أو معبر أو مزرعة الآخرة.

وتختم السورة ب: «إِنَّ هذَا لَفِی الصُّحُفِ الْأُولَی .. «صُحُفِ إِبْرهِیمَ وَمُوسَی .

و «الصحف الاولی»: مقابل «الصحف الأخیرة» التی انزلت علی المسیح علیه السلام وعلی النبیالأکرم صلی الله علیه و آله.

ونستدل بالآیة الأخیرة بأنّ لإبراهیم وموسی علیهما السلام کتباً سماویة.

وفی تفسیر مجمع البیان عن أبی ذر أنّه قال: قلت یا رسول اللّه! کم الأنبیاء؟ فقال: «مائة ألف نبی وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: یا رسول اللّه! کم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۸

وثلاثة عشر، وبقیتهم أنبیاء». قلت: کان آدم علیه السلام نبیّاً؟ قال: «نعم، کلّمه اللّه وخلقه بیده. یا أباذر! أربعة من الأنبیاء عرب: هود، وصالح، وشعیب، ونبیّک». قلت: یا رسول اللّه! کم أنزل اللّه من کتاب؟ قال: «مائة واربعة کتب، أنزل اللّه منها علی آدم علیه السلام

عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خط بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

«نهاية تفسير سورة الأعلى»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۳۹

۸۸. سورة الغاشية

محتوى السورة: تدور محتويات السورة على ثلاثة محاور:

۱- بحث «المعاد»، وبيان حال المجرمين بما فيه من شقاء وتعاسة، ووصف حال المؤمنين وهم يرفلون بنعيم لا ينضب.

۲- بحث «التوحيد»، ويتناول موضوع خلق السماء والجبال والأرض، ونظر الإنسان إليها.

۳- بحث «النبوّة»، مع عرض لبعض وظائف النبى صلى الله عليه و آله.

وعموماً، فالسورة تسير على منهج السور المكية فى تقوية اسس الإيمان والإعتقاد.

فضيلة السورة: فى تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها حاسبه اللّٰه حساباً يسيراً».

وأبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة هل أتاك حديث الغاشية فى فرائضه أو نوافله، غشاه اللّٰه برحمته فى الدنيا والآخرة، وأعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار».

وبديهى أنّ الثواب المذكور لا يحصل إلّالمن تلاها بتأمل وعمل.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۰

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (۲) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (۳) تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً (۴) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (۵) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (۶) لَا يُسْمِنُ وَ لَا يُغْنِى مِنْ جُوعٍ (۷) المتعبون ... الأخسرون: تبتدأ السورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة: «هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ». «الغاشية»: من «الغشاوة» وهى التغطية، وسمّيت القيامة بذلك لأنّ حوادثها الرهيبة ستغطى فجاءة كل شيء.

وتصف الآيات التالية، حال المجرمين فى يوم القيامة، فتقول أوّلًا: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ».

لا شك أنّ الوضع النفسى والروحى، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه وقد علتها علائم الخسران والخشوع لما أصابها من ذلّ وخوف ووحشة وهم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم.

وتصف حال تلك الوجوه ثانياً: «عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ».

فكل ما سعوا وكدوا فيه فى الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلّاالتعب والنصب، وذلك:

لأنّ أعمالهم غير مقبولة عند اللّٰه، وما جمعوه من أموال وثروات قد ذهبت لغيرهم، ولا يملكون من ذكر صالح يعقبهم فى الدنيا ولا ولد صالح يدعو ويستغفر اللّٰه لهم.

وخاتمة مطاف تلك الوجوه التعبة الذليلة أن: «تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً».

ولن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنّهم وبسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد وحينئذٍ: «تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ».

«آنية»: مؤنث آنى من «الأنى» وهو التأخير، ويستعمل لما يقرب وقته، وجاء فى الآية بمعنى: الماء الحارق الذى بلغ أقصى درجة حرارته؛ وجاء فى الآية (۲۹) من سورة الكهف:

«وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا».

وتحكى لنا الآية التالية عن طعام المجرمين: «لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ».

جاء فى الحديث النبوى الشريف: «الضريع شيء يكون فى النار يشبه الشوك، أشدّ مرارة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۱

مختصر الامثل ج۵ ۴۹۰

من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سمّاه اللَّه ضريعاً».

وتصف لنا الآية التالية ذلك الطعام: «لَّايُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ».

فالذين شرهوا فى تناول ألذ المأكولات فى دنياهم، على حساب ظلم الناس والتجاوز على حقوقهم، ومنعوا لقمة العيش عن كثير من المحرومين، فليس فى طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (۹) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (۱۰) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (۱۱) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (۱۲) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴) وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶) صور من نعيم الجنة: بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النار، تنتقل عدسة السورة لتنقل لنا مشاهد رائعة لنعيم أهل الجنة .. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهى والرحمة الإلهية، وما بين الوعيد والبشارة.

فتقول الآية الاولى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ». على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة والخوف.

«ناعمة»: من «النعمة» وتشير هنا إلى الوجوه الغارقة فى نعمة اللَّه، وجوه طرية، مسرورة ونورانية كما فى الآية (۲۴) من سورة المطففين: «تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ».

وترى الوجوه: «لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ».

على عكس أهل جهنم، فوجوههم «عاملة ناصبة»، أمّا أهل الجنة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا فى دنياهم، وحصلوا عى أحسن ما يتمنون، فتراهم فى غاية الرضى والسرور.

وما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن اللَّه ولطفه أضعافاً مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، واخرى سبعمائة ضعف، وثالثة يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (۱۰) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ».

ويدخل البيان القرآنى فى التفصيل أكثر: «فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

وكذا ...: «لَّاتَسْمَعُ فِيهَا لغِيَةً».

فهل يوجد مكان أهدأ وأجمل من ذلك؟!

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۲

ولو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنّ الغالب منها ما كان ناشئاً عن سماع هكذا أحاديث، والتى تؤدى إلى عدم الإستقرار النفسى، وإلى تهديم أركان الترابط الاجتماعى فينهار النظام وتشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر واليابس معاً. وبعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنة من نعمة روحية، يبيّن بعض النعم المادية فى الجنة: «فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ».

تلك الأنهار أنّها تجرى حسب رغبة أهل الجنة فلا داعى معها لشقّ أرض أو وضع سد.

وينهل أهل الجنة أشربة طاهرة ومتنوعة، فتلك العيون وعلى ما لها من رونق وروعة، فلكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصة به.

وينتقل الوصف إلى أسرّة الجنة: «فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ». «سرر»: جمع (سرير)، وهو من (السرور)، بمعنى المقاعد التى يجلس عليها فى مجالس الانس والسرور.

وجعلت تلك الأسرّة من الإرتفاع بحيث يتمكن أهل الجنة من رؤية كل ما يحيط بها والتمتع بذلك.

ولمّا كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية: «وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ».

ومتى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم وقد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، وهو القدح، أو الظرف الذى له عروة.

ويستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنة: «وَنَمَارِقُ مَّصْفُوفَةٌ».

«نمارق»: جمع (نمرقة)، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها.

«مصفوفة»: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنّ لأهل الجنة جلسات انس جماعية، التى لا يتخللها أى لغو وباطل، ويدور الحديث فيها حول الألطاف الإلهية ونعمه الخالدة، وعن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخرة.

ثم تكون الإشارة إلى فرش الجنة الفاخرة: «وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ».

«زرابية»: جمع (زرب) أو (زربيّة)، وهى الفرش والبسط الفاخرة ذات المتكأ.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۳

أ فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢۴) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢۶) الإبل ... من آيات خلق اللَّه: بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنة ونعيمها، تأتى هذه الآيات لتوضح معالم الطريق الموصل إلى الجنة ونعيمها.

فمفتاح المعرفة «معرفة اللَّه»، ووصولًا لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية وبديع الخلقة، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغى له أن يصل إليه.

وتشير أيضاً إلى أنّ قدرة اللَّه المطلقة هى مفتاح درك المعاد ..

فتقول الآية الاولى: «أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

إنّ الآيات فى أوّل نزولها كانت تخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شىء فى حياة أهل مكة فى ذلك الزمان، فهى معهم ليل نهار وتنجز لهم ضروب الأعمال وتدر عليهم الفوائد الكثيرة. أضف إلى ذلك أنّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق اللَّه الباهرة.

ولابدّ من التذكير، بأنّ «النظر» الوارد فى الآية، يراد به النظر الذى يصحبه تأمل ودراسة.

وينتقل بنا البيان القرآنى فى الإبل إلى السماء: «وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ».

فكيف أصبحت تلك الكواكب فى مساراتها المحدودة، وما هو سرّ استقرارها فى أماكنها وبكلّ هذه الدقّة، ولِم لَم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها.

مع كل هذا وذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل والتفكير، والخضوع والتسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟!

وينقلنا إلى الجبال: «وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۴

الجبال التى تشمخ بتعمق جذورها فى باطن الأرض، وتحيط بالأرض على شكل حلقات وسلاسل لتقلل من شدّة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية فى باطن الأرض، وكذا ما لها من دور فى حفظ الأرض من عملية المدّ والجزر الناشئة من تأثيرات الشمس والقمر ..

«نصبت»: من «النصب»، وهو التثبيت، وربّما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضاً.

فقد توصل العلم الحديث إلى أنّ تكون الجبال يعتمد على عوامل عديدة وقسمها إلى عدّة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكمات الحاصلة على الأرض.

ومنها: ما تكون من الحمم البركانية.

ومنها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

وكذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة فى أعماق البحار ومن بقايا الحيوانات (كالجبال والجزر والمرجانية).

نعم، فالجبال وبكل ما فيها ولها تعدّ آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها بعين بصيرة ولبّ شغول.

ثم إلى الأرض: «وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ».

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كى تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة اخرى .. ولو كانت كل الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه.

ولابدّ لنا من التأمل والتفكير فى من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟ ..

إنّ هذه الإشياء الأربع (الإبل، السماء، الجبال والأرض) تدخل فى حياة الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور والأمطار والهواء، والأرض مصدر نمو أنواع النباتات

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۵

وما يتغذى به، وكذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات والعلو ففيها مخازن المياه والمواد المعدنية بألوانها المتنوعة، و ما الإبل إلّانموذج بارز متكامل لذلك الحيوان الأهلى الذى يقدّم مختلف الخدمات للإنسان.

وعليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كل مستلزمات «الزراعة» و «الصناعة» و «الثروة الحيوانية»، وحرىّ بالإنسان والحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءة، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه وتعالى، وبلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

وبعد هذا البحث التوحيدى، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ» ... «لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ».

نعم، فخلق السماء والأرض والجبال والحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، وأنّ خلق الإنسان إنّما هو لهدف ...

فذكّرهم بهدفية الخلق، وبيّن لهم طريق السلوك الربّانى، وكن رائدهم وقدوتهم فى مسيرة التكامل البشرى.

وليس باستطاعتك إجبارهم، وإن حصل ذلك فلا فائدة منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإرادة والإختيار، وليس ثمّة من معنى للتكامل الإجبارى.

وفى الآيتين التاليتين يأتى الاستثناء ونتيجته: «إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ» .. «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ».

ويراد ب «الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ» «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينة الآية (۲۶) من سورة الزمر: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ».

وكذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأنّ عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

وبحدّية قاطعة، تقول آخر آيتين فى السورة: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» .. «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۶

والآيتان تتضمّنان التسلية لقلب النبى صلى الله عليه و آله فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا ييتئس من أفعالهم، ويستمر فى دعوته.

وهما أيضاً، تهديد عنيف لكل مَن تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين والمعاندين، فيخبرهم بأنّ حسابهم سيكون بيد جبار شديد.

بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة وختمت به أيضاً، كما تمّت الإشارة فيما بين البدء والختام إلى بحث التوحيد والنبوّة، وهما دعامتا المعاد.

«نهاية تفسير سورة الغاشية»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۷

۸۹. سورة الفجر

محتوى السورة: تقدّم لنا الآيات الاولى أقساماً نادرة فى نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهى.

وتنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا فى الأرض وعاثوا فساداً (قوم عاد، ثمود وفرعون)، وجعلهم عبرة لُاولى الأبصار، ودرساً قاسياً لكل من يرى فى نفسه القوّة والإقتدار من دون اللَّه.

ثم تشير باختصار إلى الإمتحان الربانى للإنسان، وتلومه على تقصيره فى فعل الخيرات ..

وآخر ما تتحدث عنه السورة هو «المعاد» وما سينتظر المؤمنين ذوى النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، وأيضاً ما سينتظر المجرمين والكافرين من عقاب شديد.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها فى ليال عشر، غفر اللَّه له، ومن قرأها سائر الأيّام، كانت له نوراً يوم القيامة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اقرأوا سورة الفجر فى فرائضكم ونوافلكم، فإنّها سورة الحسين بن على عليه السلام، من قرأها كان مع الحسين بن على عليه السلام يوم القيامة فى درجته من الجنة».

يمكن أن يكون وصف السورة بسورة الإمام الحسين عليه السلام بلحاظ أنّه أفضل مصاديق ما

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۸

جاء فى آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير الآية الأخيرة من السورة: إنّ «النفس المطمئنة» هو الحسين بن على عليهما السلام.

وعلى أيّة حال، فثوابها إنّما هو لمن تبصر فى قراءتها وعمل على ضوئها.

وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (۴) هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ (۵) بدأت السورة بخمسة أقسام: الأوّل: «وَالْفَجْرِ» ... والثانى: «وَلَيَالٍ عَشْرٍ».

«الفجر»: بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وقيل: هو كل نور يشع وسط ظلام .. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى صلى الله عليه و آله فى ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدى عليه السلام فى وسط ظلام العالم (كما جاء فى بعض الروايات) «۱».

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين عليه السلام فى كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى اميّة، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقى أمام الناس.

ويكون من مصاديقه، كل ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ.

وحتى انقداح أوّل شرارة يقظة فى قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

وممّا لا شك فيه أنّ المعانى هى توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

والمشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالى أوّل ذى الحجة، التى تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض.

وقيل: ليالى أوّل شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالى آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كل ما ذُكر ممكن جدّاً.

وذكر فى بعض الروايات التى تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو المهدى المنتظر عليه السلام ...

(۱) راجع تفسير البرهان ۴/ ۴۵۷/ ۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۴۹

و «ليال عشر» هم الأئمة العشر قبله عليهم السلام ..؛ و «الشفع»:- فى الآية- هما على وفاطمة عليهما السلام.

ويأتى القَسم الثالث والقسم الرابع: «وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ».

للمفسرين آراء كثيرة فيما اريد ب «الشفع والوتر» حتى ذكر (۳۶) قولًا فى ذلك «۱». أمّا سيكون تفسيران من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآية، وهما:

الأوّل: المراد بهما يومى العيد وعرفة، وهذا ما يناسب ذكر الليالى العشر الاولى من شهر ذى الحجّة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثانى: أنّهما يشيران إلى «الصلاة» (ركعتى الشفع وركعة الوتر فى آخر صلاة الليل)، بقرينة ذكر «الفجر»، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى اللّه عزّ وجل.

وقد ورد هذان التفسيران فى روايات عن أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام.

ونصل هنا إلى القسم الخامس: «وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ».

وكأنّ الوصف يقول: بأنّ الليل موجود حسى، له حس وحركة، وهو يخطو فى ظلمته وصولًا لنور النهار.

اختلف المفسرون فى مراد الآية من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف واللام للتعميم فجميع الليالى، كآية من آيات اللّه ومظهر من مظاهر الحياة المهمّة.

وإن كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت اللّه الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة)- المشعر الحرام- ويقضون ليلهم فى ذلك الوادى المقدس، وعند الصبح يتجهون نحو (منى).

(وقد ورد فى هذا روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام) «۲».

فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية فى عالم الوجود.

فالليل يكيّف حرارة الجو، ويعم على جميع الكائنات الإستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجات مع اللّه جّل وعلا.

---

(۱) نقل ذلك كل من: العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان عن بعض المفسرين فى الجزء ۲۰/ ۲۸۶؛ وفى تفسير روح المعانى عن كتاب التحرير والتحبير ۳۰/ ۱۲۰.

(۲) راجع تفسير نور الثقلين ۵/ ۵۷۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۰

وتتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التى أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيّام ذى الحجة ومراسم الحج العظيمة. وفى غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمّة، والتى تبيّن جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ثم تأتى الآية التالية لتقول: «هَلْ فِى ذلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ». «الحجر»: هنا بمعنى العقل، وفى الأصل بمعنى (المنع). اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة.

أ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (۷) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِى الْبِلادِ (۸) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (۹) وَ فِرْعَوْنَ

ذى الْأَوْتَادِ (۱۰) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ (۱۱) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (۱۲) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (۱۴)

إمهال الظالمين ... والإنتقام: بعد أن تضمّنت الآيات الاولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتى هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض، وتبيّن لنا الآيات المباركة ما حلّ بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين فى كل عصر ومصر على أن يرعووا ويعودوا إلى رشدهم، لأنّهم مهما تمتعوا بقوّة وقدرة فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، وينبغى الإتعاظ بعاقبتهم، وإلّا فالهلاك والعذاب الأبدى ولا غير سواه.

وتبتدأ الآيات ب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ».

المراد «بالرؤية» هنا، العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير وكأنّه يراهم بام عينيه.

«عاد»: هم قوم نبى اللَّه هود عليه السلام، وكانت تعيش فى أرض الأحقاف أو اليمن.

ويضيف القرآن قائلًا: «إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

«عماد»: بمعنى العمود تشير إلى عظمة أبنيتهم وعلوّ قصورهم وما فيها من أعمدة كبيرة.

ولذا تقول الآية التالية: «الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَدِ».

والآية تبيّن أنّ المراد ب «إرم» المدينة.

وتذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: «وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ».

وصنعوا منها البيوت والقصور.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۱

«ثمود»: من أقدم الأقوام، ونبيّهم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون فى (وادى القرى) بين المدينة والشام، وكانوا يعيشون حياة مرفهة، ومدنهم عامرة.

«جابوا»: من «الجوبة»- على زنة توبة- وهى الأرض المقطوعة، ثم استعملت فى قطع كل أرض. فمراد الآية: قطع أجزاء الجبال وبناء البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (۸۲) من سورة الحجر- حول ثمود أنفسهم-: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ».

«واد»: فى الأصل (وادى)، وهو الموضع الذى يجرى فيه النهر، ومنه سمى المفرج بين الجبلين وادياً، لأنّ الماء يسيل فيه.

والمعنى الثانى أكثر مناسبة بقرينة ما ورد فى القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، وما ذكرناه آنفاً يظهر بأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم فى سفوح الجبال.

وتتحرك الآية التالية لتستعرض قوماً آخرين: «وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ».

أى: ألم تر ما فعل ربّك بفرعون الظالم المقتدر؟!

«أوتاد»: جمع (وتد)، وهو ما يثبّت به.

ولِمَ وصف فرعون بذى الأوتاد؟ وثمّة تفاسير مختلفة:

الأوّل: لأنّه كان يملك جنوداً وكتائباً كثيرة، وكانوا يعيشون فى الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثانى: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالباً ما كان يدق على أيديهم وأرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة ويثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد فى أيديهم وأرجلهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا.

وينتقل القرآن لعرض ما كانوا يقومون به من أعمال: «الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَدِ» ..

«فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ».

الفساد الذى يشمل كل أنواع الظلم والإعتداء والإنحراف، والذى هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكل من يطغى سيؤول أمره إلى

الفساد لا محال.

ويذكر عقابهم الأليم وبعبارة موجزة: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ».

«السوط»: هو الجلد المضفور الذى يُضرب به، وأصل السوط: خلط الشىء بعضه ببعض، وهو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذى يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشدّ الإيذاء. أمّا أنسب معانى «السوط» فهو المعروف بين الناس به.

«صبّ عليهم»: تستعمل فى الأصل لانسكاب الماء، وهنا إشارة إلى شدّة واستمرار نزول العذاب.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۲

فعلى إيجاز الآية، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذى أصابهم، فعاد اصيبوا بريح باردة، كما تقول الآية (۶) من سورة الحاقّة: «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ». واهلك قوم ثمود بصيحة سماوية عظيمة، كما جاء فى الآية (۵) من سورة الحاقّة أيضاً: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ». والآية (۵۵) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاك قوم فرعون:

«فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ».

وتحذر الآية التالية كل من سار على خطى اولئك الطواغيت: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ».

«المرصاد»: من «الرصد» وهو الإستعداد للترقب، وهو فى الآية يشير إلى عدم وجود أىّ ملجأ أو مهرب من رقابة اللَّه وقبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب والعذاب.

«ربّك»: إشارة إلى أنّ هذه السنّة الإلهية لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأقوام السالفة، بل هى سارية حتى على الظالمين من امّتك يا محمّد صلى الله عليه و آله .. وفى ذلك تسلية لقلب النبى صلى الله عليه و آله وتطميناً لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهى قد أكّد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهية أبداً أبداً، وفيه تحذير أيضاً لُاولئك الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله ويظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك وإلّا سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة وقوّة، وعندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتتهم ريح عاصفة أو صيحة مرعبة أو سيل جارف يقطع دابرهم.

فى تفسير على بن إبراهيم عن أبى جعفر عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية «وَجِاىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» [الفجر: ۲۳] سئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال: بذلك أخبرنى الروح الأمين أنّ اللَّه لا إله غيره، إذا أبرز الخلائق وجمع الأوّلين والآخرين، أتى بجهنم تقاد بألف زمام، مع كل زمام مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدة وغضب وزفير، وشهيق، وإنّها لتزفر الزفرة، فلولا أنّ اللَّه عزّ وجل أخرهم للحساب لأهلكت الجميع ثم يخرج منها عنق [أى طائفة منها] فيحيط بالخلائق البر منهم والفاجر فما خلق اللَّه عز وجل عبداً من عباد اللَّه ملكاً ولا نبيّاً إلّاينادى نفسى نفسى وأنت يا نبى اللَّه تنادى: امتى امتى ثم يوضع عليها الصراط أدق من حدّ السيف، عليها ثلاث قناطر:

أمّا واحدة فعليها الأمانة والرحم، والثانية فعليها الصلاة، وأمّا الثالثة فعليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره، فيكلّفون الممر عليها، فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجوا منهما حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين عزّ وجل، وهو قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ»».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۳

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (۱۶) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (۱۷) وَ لَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (۱۸) وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمّاً (۱۹) وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً (۲۰) موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، وتحذيرهم وإنذارهم، تأتى هذه الآيات لتبيّن مسألة الإبتلاء والتمحيص وأثرها على الثواب والعقاب الإلهى، وتعتبر مسألة الإبتلاء من المسائل المهمّة فى حياة الإنسان.

وتشرع الآيات ب: «فَأَمَّا الْإِنسنُ إِذَا مَا ابْتَلهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّى أَكْرَمَنِ».

وكأنّه لا يدرى بأنّ الإبتلاء سنّة ربانية تارة يأتى بصورة اليسر والرخاء واخرى بالعسر والضراء.

«وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ».

فيأخـذه اليأس، ويظن إنّ اللّه قد ابتعد عنه، غافلًا عن سـنّة الإبتلاء فى عملية التربية الربانية لبنى آدم، والتى تعتبر رمزاً للتكامل الإنسانى، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للإبتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأمّا النعيم الدائم، وأمّا العقاب الخالد.

وتأتى الآية (۵۱) من سورة فصّلت فى سياق الآيتين: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسنِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ». وكذا الآية (۹) من سورة هود: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُوسٌ كَفُورٌ».

وتوجه الآيتـان التاليتـان نظر إلى الإنسان والأعمال التى تؤدّى بحق للبعـد عن اللّه، وتوجب عقابه: «كَلَّا». فليس الأمر كما تظنون من أنّ أموالكم دليل على قربكم من اللّه، لأنّ أعمالكم تشهد ببعدكم عنه، «بَل لَّاتُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» .. «وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ».

والملاحظ أنّ الآية لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنّ الوضع النفسى والعاطفى لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه.

فلا ينبغى لليتيم أن يعيش حالة الإنكسار والذلة بفقدان أبيه، وينبغى الإعتناء به

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۴

وإكرامه لسدّ الثغرة التى تسـببت برحيل أبيه، وقد أولت الأحاديث الشـريفة والروايات هذا الجانب أهمية خاصة، وأكّدت على ضرورة رعاية وإكرام اليتيم. «تحاضون»: من «الحض» وهو الترغيب، فلا يكفى إطعام المسكين بل يجب على الناس أن يتواصوا ويحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كل المجتمع.

وتعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا».

ممّا لا شك فيه أنّ الإستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، ولذا فيمكن أن يكون المذموم فى الآية أحد الامور التالية:

الأوّل: الجمع بين حق الإنسان وحق الآخرين فى الميراث.

وكـانت عادة العرب فى الجاهليـة أن يحرموا النساء والأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنّه نصـيب المقاتلين (لأنّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب والإغارة).

الثـانى: عـدم الإنفـاق من الإرث على المحرومين والفقراء من الأقرباء وغيرهم، فإن كنتم تبخلون بهـذه الأموال التى وصـلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكدّون فى تحصيله، وهذا عيب كبير فيكم.

الثـالث: هو أكـل إرث اليتـامى والتجاوز على حقوق الصـغار، وذلك من أقبـح الـذنوب، لأنّ فيه اسـتغلال فاحش لحق من لا يسـتطيع الدفاع عن نفسه.

والجمع بين هذه التفاسير الثلاث ممكن.

ثم يأتى الذّم الرابع: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا».

فـأنتم .. عبـدة دنيا، طالبى ثروة، عشاق مال ومتاع .. ومن يكون بهـذه الحال فمن الطبيعى أن لا يعتنى فى جمعه للمال، أكان من حلال أم من حرام، ومن الطبيعى أيضاً أن يتجاوز على الحقوق الشـرعية المترتبة عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها .. ومن الطبيعى كذلك إنّ القلب الذى امتلأ بحبّ المال والدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر اللّه عزّ وجل.

ولذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسألة امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

والملاحظ أنّ الإختبارات المـذكورة إنّما تدور حول محور الأموال، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، ولو تجاوزها الإنسان لسـهلت عليه بقية العقبات فى طريقه نحو التكامل والرقى والسمو.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۵

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً (۲۱) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً (۲۲) وَ جِىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرَى

(۲۳) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (۲۴) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (۲۵) وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (۲۶) يوم لا تنفع الذكرى: بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاة وعبدة الدنيا والغاصبين لحقوق الآخرين، تأتى هذه الآيات لتحذرهم وتهددهم بوجود القيامة والحساب والجزاء.

فتقول أوّلًا: «كَلَّا». فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا- حساب ولا جزاء، وأنّ اللَّه قد أعطاكم المال تكريماً وليس امتحاناً .. «إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا».

«الدك»: الأرض اللينة السهلة، ثم استعملت فى تسوية الأرض من الإرتفاعات والتعرجات.

فالآية تشير إلى الزلازل والحوادث المرعبة التى تعلن عن نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة، حيث تتلاشى الجبال وتستوى الأرض، كما أشارت لذلك الآيات (۱۰۵- ۱۰۷) من سورة طه: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».

وبعد أن تنتهى مرحلة القيامة الاولى (مرحلة الدمار)، تأتى المرحلة الثانية، حيث يعود الناس ثانية للحياة ليحضروا فى ساحة العدل الإلهى: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا».

نعم، فسيقف الجميع فى ذلك المحشر لإجراء الأمر الالهى وتحقيق العدالة الربانية، وقد بيّنت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم، وكيف أنّ الإنسان لا سبيل له حينها إلّاالرضوخ التام بين قبضة العدل الإلهى.

وتقول الآية التالية: «وَجِاىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسنُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى .

وما نستنبطه من الآية، إنّ جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنة للمتقين: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» «۱».

فى تفسير مجمع البيان عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت هذه الآية، تغيّر وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وعُرف فى وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى

---

(۱) سورة الشعراء/ ۹۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۶

على بن أبى طالب عليه السلام فقالوا: يا على! لقد حدث أمر قد رأيناه فى نبى اللَّه صلى الله عليه و آله، فجاء على عليه السلام فاحتضنه من خلفه، وقبّل بين عاتقيه، ثم قال: «يا نبى اللَّه بأبى أنت وامى، ما الّذى حدث اليوم؟ قال: جاء جبرائيل فأقرأنى «وَجِاىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ». قال فقلت: كيف يجاء بها؟ قال:

يجىء بها سبعون ألف ملك، يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم فتقول: ما لى ولك يا محمّد، فقد حرّم اللَّه لحمك علىّ، فلا يبقى أحد إلّا قال: نفسى نفسى، وإنّ محمّداً يقول ربّ امّتى امّتى». نعم، فحينما يرى المذنب كل تلك الحوادث تهتز فرائصه ويتزلزل رعباً، فيستيقظ من غفلته ويعيش حالة الهمّ والغمّ، ويتحسر على كل لحظة مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّمت يداه، ولكن هل للحسرة حينها من فائدة؟!

وعندها ... يصرح بملء كيانه: «يَقُولُ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى».

وتشير الآية التالية إلى شدّة العذاب الإلهى: «فَيَوْمَئِذٍ لَّايُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ».

نعم، فمن استخدم فى دنياه كل قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم والذنوب، فلا يجنى فى آخرته إلّاأشد العذاب ...

فيما سينعم المحسنون والصالحون فى أحسن الثواب، ويخلدون بحال ما لا عين رأت ولا اذن سمعت.

وتكمل الآية التالية تصوير شدّة العذاب: «وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ».

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، وعذابه كذلك، كل ذلك بما كسبت يداه حينما أوثق المظلومين فى الدنيا بأشدّ الوثاق، ومارس معهم التعذيب بكل وحشية، متجرد عن كل ما وهبه اللَّه من إنسانية.

یَا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (۲۷) ارْجِعِی إِلَی رَبِّکِ رَاضِیَةً مَرْضِیَّةً (۲۸) فَادْخُلِی فِی عِبَادِی (۲۹) وَ ادْخُلِی جَنَّتِی (۳۰) الشّرف العظیم: وتنتقل السورة فی آخر مطافها إلی تلک النفوس المطمئنة ثقة باللّه وبهدف الخلق، بالرغم من معایشتها فی خضم صخب الحیاة الدنیا، فتخاطبهم بکل لطف ولین ومحبّة، حیث تقول: «یَا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» .. «ارْجِعِی إِلَی رَبِّکِ رَاضِیَةً مَّرْضِیَّةً» .. «فَادْخُلِی فِی عِبَادِی» .. «وَادْخُلِی جَنَّتِی».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۷

فهل ثمّة أجمل وألطف من هذا التعبیر ... تعبیر یحکی دعوة اللّه سبحانه وتعالی لتلک النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبة والواثقة بوعده جلّ شأنه.

ویراد بالنفس هنا: الروح الإنسانیة.

«المطمئنة»: إشارة إلی الإطمئنان الحاصل من الإیمان، بدلالة الآیة (۲۸) من سورة الرعد: «أَلَا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

ویعود اطمئنان النفس، لإطمئنانها بالوعود الإلهیة من جهة، ولإطمئنانها لما اختارت من طریق ..

وهی مطمئنة فی الدنیا سواء أقبلت علیها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث یوم القیامة الرهیبة أیضاً.

أمّا (الرجوع إلی اللّه)، فهو رجوع إلی جواره وقربه بمعناه الروحی المعنوی، ولیس بمعناه المکانی والجسمانی.

«راضیة»: لما تری من تحقق الوعود الإلهیة بالثواب والنعیم بأکثر مما کانت تتصور.

«مرضیّة»: لرضا اللّه تبارک وتعالی عنها.

فی الکافی عن سدیر الصّیرفی قال: قلت لأبی عبداللّه علیه السلام: جعلت فداک یابن رسول اللّه! هل یکره المؤمن علی قبض روحه؟ قال: «لا ـ واللّه، إنّه إذا أتاه ملک الموت لقبض روحه جزع عند ذلک، فیقول له ملک الموت: یا ولیّ اللّه، لا تجزع، فو الذی بعث محمّداً صلی الله علیه و آله لأنا أبرّ بک وأشفق علیک من والد رحیم لو حضرک، افتح عینک فانظر، قال: ویمثّل له رسول اللّه صلی الله علیه و آله وأمیر المؤمنین وفاطمة والحسن والحسین والأئمة من ذرّیتهم علیهم السلام، فیقال له: هذا رسول اللّه وأمیر المؤمنین وفاطمة والحسن والحسین والأئمة علیهم السلام رفقاؤک، قال: فیفتح عینه فینظر، فینادی روحه مناد من قبل ربّ العزّة فیقول ":یا أیّتها النفس المطمئنة (إلی محمّد وأهل بیته) ارجعی إلی ربّک راضیة (بالولایة) مرضیّة (بالثواب) فادخلی فی عبادی (یعنی محمّداً وأهل بیته) وادخلی جنّتی. "فما شیء أحبّ إلیه من استلال روحه واللحوق بالمنادی».

«نهایة تفسیر سورة الفجر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۵۹

۹۰. سورة البلد

محتوی السورة: هذه السورة المبارکة علی قصرها تحمل حقائق کبری:

۱- فی بدایة هذه السورة، بعد قسم ذی محتوی عمیق، تُقرّر الآیة أنّ حیاة الإنسان فی هذه الدنیا مقرونة بمشاکل وأتعاب؛ وبذلک تُعدّ الإنسان من جهة لیصارع العقبات، ومن جهة اخری تبعده عن طلب الراحة المطلقة فی هذا العالم.

۲- ثم تشیر إلی أهم النعم الإلهیة، ثم ذکر جحود الإنسان بهذه النعم.

۳- وفی آخر هذه السورة تقسیم الناس إلی: «أصحاب المیمنة» و «أصحاب المشئمة».

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان ابی بن کعب قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «من قرأها أعطاه اللّه الأمن من غضبه یوم القیامة».

لَا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِی کَبَدٍ (۴) أ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ

(۵) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَداً (۶) أ يَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (۷)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۰

فى مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة ... بالقسم الذى يؤدى بدوره إلى حركة فى الفكر والعقل .. بالقسم المرتبط إرتباطاً خاصاً بالموضوع المطروح.

وفى هذا الموضع تبدأ الآية بالقسم: قسماً بهذه المدينة المقدسة مكة: «لَاأُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ». لتقرر حقيقة من حقائق حياة الإنسان هى إنّ هذه الحياة مقرونة بالآلام والأسقام.

«وَأَنتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ».

أرض مكة مشرّفة ومعظمة، لأنّ فيها أوّل مركز للتوحيد ولعبادة اللّه سبحانه، وكان هذا المركز مطاف أنبياء اللّه العظام ... ولذلك أقسم اللّه بها ... ولكن السورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامة: «وَأَنتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» ... فالبلد استحق أن يقسم به اللّه لوجودك أنت أيّها النبى الكريم فيه.

«وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ».

إنّ الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح.

ونعلم أنّ إبراهيم وإبنه رفعا القواعد من البيت، وبذلك وضعا حجر أساس البلد الأمين.

والعرب فى الجاهلية كانوا يجلّون إبراهيم وإبنه ويفخرون فى الإنتساب إليهما.

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَنَ فِى كَبَدٍ».

إنّ «كبد» ألم يصيب الكَبِد، ثم اطلق على كل ألم ومشقّة.

هذه طبيعة الحياة، ومن توقّع منها غير ذلك خيّبت ظنّه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدهاصفواً من الأكدار والأقذار

ومكلّف الأيّام ضد طباعهامتطلب فى الماء جذوة نار

وهذه الحالة تشمل كل أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء اللّه وأولياؤه الصالحون.

ثم إذا كان هناك استثناءات مكانية وزمانية محدودة من هذه الحالة العامة فلا ينتقض القانون العام للحياة: «أَيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ».

فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدلّ على ضعف قدرته، هذه الحقيقة تردّ على اولئك الذين يمتطون مركب الغرور، ويخالون أنّهم فى مأمن من العقاب الإلهى.

«يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا».

إشارة إلى قول الذين يُطلب منهم أن ينفقوا أموالهم فى الخيرات، فيأبون ويقولون بغرور:

إننا أنفقنا فى هذا السبيل كثيراً من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئاً، وإنّ أعطوا لأحد شيئاً فللرياء ولتحقيق هدف شخصى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۱

وقيل إنّها نزلت فى نفر أنفقوا الأموال الطائلة فى معاداة الرسول والرسالة، وتباهوا بذلك.

والجمع بين التفاسير المذكورة جائز، وإن كان التفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع سياق الآيات التالية.

والفعل «أهلكت» يوحى إبادة الأموال وعدم الحصول على عائد منها.

و «لبد»: تعنى الشيء المتراكم، وهنا تعنى المال الوفير.

«أَيَحْسَبُ أن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ». إنّه غافل عن هذه الحقيقة ... حقيقة اطّلاع البارى تعالى على كل الامور وعلى ظواهر الأعمال، بل على ما

یختلج فی أعماق النفس والقلب، وما یدور فی الخلد والنیة ... علیم بالطریق غیر المشروع للحصول علی هذه الأموال، وعلیم بأهداف الریاء والذاتیة فی إنفاق هذه الأموال.

أ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَیْنَیْنِ (۸) وَ لِسَاناً وَ شَفَتَیْنِ (۹) وَ هَدَیْنَاهُ النَّجْدَیْنِ (۱۰) نعمة العین واللسان والهدایة: استتباعاً للآیات السابقة وما دار فیها من حدیث عن الغرور والغفلة فی حالات الطاغین، تذکر هذه الآیات الکریمة جانباً من أهم ما أنعم اللَّه به علی الإنسان من نعم مادیة ومعنویة ... کی تکسر فیه روح الغرور، وتدفعه إلی التفکیر فی خالق هذه النعم، وتحرّک روح الشکر فی نفس الکائن البشری ومن ثم تسوقه إلی معرفة الخالق: «أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَیْنَیْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَیْنِ وَهَدَیْنَهُ النَّجْدَیْنِ».

ویکفی أن نذکر فی النعم السابقة أنّ:

«العین»: أهم وسیلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجی، عجائب العین تدفع الإنسان حقّاً إلی الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعین وهی المسماة بالقرنیة، والمشیمیة، والعنبیة، والجلدیة، والزلالیة، والزجاجیة، والشبکیة، لکل منها ترکیب عجیب دقیق مدهش، روعیت فیها القوانین الفزیائیة والکیمیاویة المتعلقة بالنور وانعکاساته علی أدق وجه، حتی إن أعقد أجهزة التصویر تعتبر تافهة مقارنة بهذا العضو.

لو لم یکن فی الکون سوی الإنسان، ولم یکن من وجود الإنسان سوی العین، لکانت مطالعة هذا العضو کافیة وحدها لمعرفة علم اللَّه الواسع وقدرته الجبارة جلّ وعلا.

و «اللسان»: فهو أهم وسائل إرتباط الإنسان بغیره من أبناء جلدته، ونقل المعلومات وتبادلها بین أبناء البشر فی الجیل الواحد وفی الأجیال المتعاقبة، وبدون هذه الوسیلة الهامّة

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۲

من وسائل الإرتباط ما کان بامکان الإنسان اطلاقاً أن یرتقی إلی ما ارتقی إلیه فی العلم والمعرفة. و «الشفتان»: تلعبان أوّلًا دوراً هامّاً فی النطق، إذ أنّ الشفتین مخرج لکثیر من الحروف، والشفتان تقومان بدور أیضاً فی هضم الطعام والمحافظة علی رطوبة الفم، وشرب الماء، تری لو انعدمت الشفتان فماذا کان وضع الإنسان فی أکله وشربه ونطقه والمحافظة علی ماء فمه وحتی جمال وجهه وشکله؟!

وحقّاً ما قاله أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی نهج البلاغة: «اعجبوا لهذا الإنسان ینظر بشحم ویتکلم بلحم، ویسمع بعظم، ویتنفس من خرم!».

عبارة «وَهَدَیْنَاهُ النَّجْدَیْنِ» إضافة لما لها من مدلول علی مسألة الإختیار وحریة الإنسان، تدلّ أیضاً علی ما یتطلبه طریق الخیر من جهد وعناء، لأنّ «النجد» مکان مرتفع وتسلق المکان المرتفع یتطلب کداً وسعیاً وجهداً، غیر أنّ طریق الشرّ له مشاکله ومصاعبه أیضاً، فأولی بالإنسان أن یبذل الجهد والسعی علی طریق الخیر.

مع ذلک، فانتخاب الطریق بید الإنسان ... الإنسان هو الذی یتحکم فی عینه ولسانه فیم یستعملها ... فی الحلال أو الحرام، وهو الذی یختار إحدی الجادتین «الخیر» أو «الشر».

وفی تفسیر مجمع البیان عن أبی حازم أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «إنّ اللَّه تعالی یقول: یابن آدم! إن نازعک لسانک فیما حرمت علیک، فقد أعنتک علیه بطبقتین، فأطبق. وإن نازعک بصرک إلی بعض ما حرمت علیک، فقد أعنتک علیه بطبقتین فأطبق ...».

وهذه الهدایة یحصل علیها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراکات العقلیة والإستدلال، ومن طریق الفطرة والوجدان دون الحاجة إلی الإستدلال، ومن طریق الوحی وتعالیم الأنبیاء والأوصیاء علیهم السلام، وکل ما یحتاجه البشر لیطوی مسیرة تکامله قد بیّنه اللَّه سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو فی کثیر من الحالات بالطرق الثلاثة معاً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۳

العقبة: بعد ذكر النعم الكبيرة فى الآيات السابقة، تنحى هذه الآيات باللائمة على اولئك الذين يكفرون بهذه النعم، ولا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ».

وما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسّرها: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ».

من هنا فالعقبة التى لم يتهيأ الكافرون لاجتيازها هى: فك رقبة عبد وتحريره من الرقّ، أو إطعام فى يوم الضائقة الإقتصادية والمجاعة، يتيماً ذا قربى أو فقيراً قد لصق بالتراب من شدّة فقره، العقبة هى مجموعة أعمال الخير التى تتجه لخدمة الناس والأخذ بيد الضعفاء والمعوزين، كما إنّها أيضاً مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية. نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب الناس من التصاق بالمال والثروة.

۱- «اقتحم»: من «الإقتحام» وهو الدخول فى عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج والعبور بشدّة ومشقّة (تفسير الكشّاف) وهذا يعنى أنّ إجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنّه تأكيد على ما ورد فى أوّل السورة بشأن ما يكابد الإنسان فى حياته: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسنَ فِى كَبَدٍ».

۲- «المسغبة»: من «سغب» على وزن (غضب) وهو الجوع؛ و «يوم ذى مسغبة» أى وقت المجاعة، والجياع موجودون فى المجتمع عادة، والآية إنّما تؤكّد على إطعامهم فى زمان المجاعة لأهمية الموضوع، وإلّا فإنّ اشباع الجياع هو دائماً من أفضل الأعمال.

۳- «المقربة»: بمعنى القرابة والرحم، والتأكيد على الأقرباء من اليتامى فى الآية إنّما هو لمراعاة الاولوية وللتأكيد على تصاعد المسؤولية تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

۴- «المتربة»: مصدر ميمى من «ترب» وساكن التراب من شدّة فقره هو ذو المتربة، والتأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضاً.

وفى الكافى عن معمر بن خلاد قال: كان أبوالحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتى بصفحة فتوضع بقرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شىء شيئاً فيضع فى تلك الصفحة ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ». ثم يقول: «علم اللّه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۴

عزّ وجل أنّه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة».

ثم تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، وسبل اجتيازها فتقول: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ».

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان ومتواصون بالصبر والإستقامة على الطريق، ومتواصون بالرحمة والعطف.

وبهذا السياق القرآنى لبيان طبيعة العقبة نفهم أنّ القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان والخلق الكريم كالتواصى بالصبر والرحمة، وذوو أعمال البرّ والإحسان كتحرير العبيد وإطعام الأيتام والمساكين، إنّهم بعبارة اولئك الذين يلجون ميادين الإيمان والأخلاق والعمل ويخرجون منها ظافرين منتصرين.

وفى خاتمة هذه الأوصاف تذكر السورة مكانة المتحلين بها فتقول: «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

ثم تتعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين فى إجتياز «العقبة» فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ».

و «المشئمة»: من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليُمن». أى إنّ هؤلاء الكافرين مشؤومون لا- يُمن فيهم ولا- بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم ولمجتمعهم ثم إنّ علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلّمه صحيفة أعماله بيده اليسرى، ومن هنا ذهب بعض المفسرين إلى أنّ «المشئمة» هى اليسار مقابل اليمين. أى إنّ الذين كفروا بآيات اللّه الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصة وأنّ مادة «شؤم» جاءت فى اللغة بمعنى اليسار أيضاً.

وفی الآیة الأخیرة من السورة إشارة قصیرة ذات دلالة عمیقة إلی جزاء هذه الفئة الأخیرة: «عَلَیْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ».

و «الإیصاد»: إحکام الغلق، وواضح أنّ الإنسان- حین یکون فی غرفة حارّة الجوّ- یتوق إلی فتح أبوابها، لیهبّ علیه نسیم یلطف الهواء، فما بالک إذا کان فی محرقة جهنم والأبواب کلّها موصدة علیه؟!

«نهایة تفسیر سورة البلد»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۵

۹۱. سورة الشمس

محتوی السورة: هـذه السورة هی فی الواقع سورة تهـذیب النفس، وتطهیر القلوب من الأدران، ومعانیها تـدور حول هـذا الهدف، وفی مقـدمتها قَسم بأحـد عشـر مظهراً من مظاهر الخلیقـة وبـذات الباری سـبحانه، من أجل التأکید علی أنّ فلاح الإنسان یتوقف علی تزکیة نفسه، والسورة فیها من القَسم ما لم یجتمع فی سورة اخری.

وفی المقطع الأخیر من السورة ذکر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجاً من أقوام طغت وتمردت، وانحـدرت- بسـبب ترک تزکیة نفسـها- إلی هاویة الشقاء الأبدی، والعقاب الإلهی الشدید.

فضـیلة تلاـوة السورة: فی المجمع ابی بن کعب عن النبی صـلی الله علیه و آله قـال: «من قرأهـا فکأنّمـا تصـدّق بکلّ شـیء طلعت علیه الشمس والقمر».

ومن المؤکّد أنّ هذه الفضیلة الکبری لا ینالها إلّامن استوعب محتواها بکل وجوده، ووضع مهمّة تهذیب النفس نصب عینیه دائماً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۶

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (۱) وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (۲) وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (۳) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (۴) وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا (۵) وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا (۶) وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (۷) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (۹) وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (۱۰) أکبر عدد من القَسم القرآنی تتضـمّنه هذه السورة، هو فی حساب «أحد عشـر»، وفی حساب آخر «سبعة» أقسام ... ویبیّن أنّ السورة تتعرض لموضوع خطیر هام .. موضوع عظیم کعظمة السماء والأرض والشمس والقمر ... موضوع حیاتی مصیری.

لنبدأ أوّلًا بشرح ما جاء فی السورة من قَسم، لنتعرض بعد ذلک إلی موضوع الآیة الاولی تقول: «وَالشَّمْسِ وَضُحهَا».

ولقد ذکرنا آنفاً أنّ القسم فی القرآن یستهدف مقصدین:

الأوّل: بیان أهمیّة ما جاء القَسم من أجله.

والثانی: أهمیة ما أقسم به القرآن، لأنّ القسم عادة یکون بالمهم من الامور.

«الشـمس»: ذات دور هـام وبنّاء جـدّاً فی الموجودات الحیـة علی ظهر البسـیطة فهی إضافـة إلی کونهـا مصـدراً للنور والحرارة- وهما عاملان أساسـیان فی حیاة الإنسان- تعتبر مصـدراً لغیرهما من المظاهر الحیاتیـة، حرکة الریاح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات، وجریان الأنهار والشلالات، بل حتی نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجری ... کل واحد منها یرتبط- بنظرة دقیقة- بنور الشمس.

ولو قُدر لهذا المصباح الحیاتی أن ینطفیء یوماً لساد الظلام والسکوت والموت فی کل مکان.

«الضـحی : فی الأصل انتشار نور الشـمس، وهـذا ما یحدث حین یرتفع قرص الشـمس عن الافق ویغمر النور کل مکان، ثم یطلق علی تلک البرهة من الیوم اسم «الضحی».

والقسم الثالث بالقمر: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَهَا». وهذا التعبیر إشارة إلی القمر حین یکتمل ویکون بدراً کاملًا فی لیلة الرابع عشـر من کل شـهر، ففی هذه اللیلة یطل القمر من افق المشرق متزامناً مع غروب الشمس. فیسطع بجماله النّیر ویهیمن علی جوّ السماء، ولجماله

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۷

وبهائه فى هذه الليلة أكثر من أيّة ليلة اخرى جاء القسم به فى الآية الكريمة.

والقسم الرابع بالنهار: «وَالنَّهَارِ إِذَا جَلهَا». و «التجلية»: هى الإظهار والإبراز.

والقسم بهذه الظاهرة السماوية الهامة، يبيّن أهميتها الكبرى فى حياة البشر وفى جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركة والحياة، وكل الفعاليات والنشاطات ومساعى الحياة تتمّ عادة فى ضوء النهار.

والقَسم الخامس بالليل: «وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَهَا».

بالليل بكل ما فيه من بركة وعطاء ... إذ هو يخفّف من حرارة شمس النهار، ثم هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية واستقرارها.

وفى القسمين السادس والسابع تحلّق بنا الآية إلى السماوات وخالق السماوات:

«وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنهَا».

أصل خلقة السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليقة.

وبناء كل هذه الكواكب والأجرام السماوية وما يحكمها من أنظمة أعجوبة اخرى ... وأهم من كل ذلك ... خالق هذه السماوات.

القَسم الثامن والتاسع بالأرض وخالق الأرض: «وَالْأَرْضِ وَمَا طَحهَا». بالأرض التى تحتضن حياة الإنسان وجميع الموجودات الحيّة ... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، وبحارها، وسهولها، ووديانها، وغاباتها، وعيونها، وأنهارها، ومناجمها، وذخائرها ... وبكلّ ما فيها من ظواهر يكفى كل واحد منها لأن يكون آية من آيات اللّه ودلالة على عظمته.

وأعظم من الأرض وأسمى منها خالقها الذى «طحاها» و «الطحو» بمعنى البسط والفرش، وبمعنى الذهاب بالشىء وإبعاده أيضاً. وهنا بمعنى «البسط»، لأنّ الأرض كانت مغمورة بالماء، ثم غاض الماء فى منخفضات الأرض، وبرزت اليابسة، وانبسطت، ويعبّر عن ذلك أيضاً بدحو الأرض.

وأخيراً القسم الحادى عشر والقسم الثانى عشر بالنفس الإنسانية وبارئها: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيهَا».

قيل إنّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، وقيل إنّه جسمه وروحه معاً.

ولو كان المراد من النفس الروح فقط، فإنّ «سوّاها» تعنى إذن نظّمها وعدّل قواها ابتداء من الحواس الظاهرة وحتى قوّة الإدراك، والذاكرة، والإنتقال، والتخيل، والإبتكار،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۸

والعشق، والإرادة، والعزم ونظائرها من الظواهر المندرجة فى إطار «علم النفس». ولو كان المراد من النفس الروح والجسم معاً، فالتسوية تشمل أيضاً ما فى البدن من أنظمة وأجهزة يدرسها علم التشريح وعلم الفسلجة.

وفى القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا المعنيين.

والأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملًا للمعنيين لأنّ قدرة اللّه سبحانه تتجلى فى الإثنين معاً.

الآية التالية تتناول أهم ظاهرة فى الخليقة وتقول: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيهَا».

إنّ اللّه سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميّز بين «الفجور» و «التقوى» عن طريق العقل والفطرة.

نعم، حين اكتملت خلقة الإنسان وتحقق وجوده، علّمه اللّه سبحانه الواجبات والمحظورات. وبذلك أصبح كائناً مزيجاً فى خلقته من «الحمأ المسنون» و «نفخة من روح اللّه»، ومزيجاً فى تعليمه من «الفجور» و «التقوى». أصبح بالتالى كائناً يستطيع أن يتسلق سلّم الكمال الإنسانى ليفوق الملائكة، ومن الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام ويبلغ مرحلة «بَلْ هُمْ أَضَلُّ». وهذا يرتبط بالمسير الذى يختاره الإنسان عن إرادة.

«ألهمها»: من الإلهام، وهو فى الأصل بمعنى البلع والشرب، ثم استعمل فى إلقاء الشىء فى روع الإنسان من قِبل اللّه تعالى.

«الفجور»: من مادة «فجر» وتعنى الشق الواسع؛ ولمّا كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنّها سمّيت بالفجور.

المقصود بالفجور فى الآية طبعاً الأسباب والعوامل والطرق المؤدية إلى الذنوب.

و «التقوى»: من «الوقاية» وهى الحفظ، وتعنى أن يصون الإنسان نفسه من القبائح والآثام والسيئات والذنوب.

بعد هذه الأقسام المهمّة المتتالية يخلص السياق القرآنى إلى النتيجة فيقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَهَا».

و «التزكية»: تعنى النمو، و «الزكاة» فى الأصل بمعنى النمو والبركة؛ ثم استعملت الكلمة بمعنى التطهير، وقد يعود ذلك إلى أنّ التطهير من الآثام يؤدّى إلى النمو والبركة، والآية الكريمة تحتمل المعنيين.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۶۹

نعم، الفلاح لمن ربّى نفسه ونمّاها، وطهّرها من التلوّث بالخصائل الشيطانية وبالذنوب والكفر والعصيان.

والمسألة الأساسية فى حياة الإنسان هى هذه «التزكية»، فإن حصلت سعد الإنسان وإلّا شقى وكان من البائسين.

ثم يعرج السياق القرآنى على المجموعة المخالفة فيقول: «وَقَدْ خَابَ مَن دَسهَا».

«خاب»: من الخيبة، وهى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات والحرمان والخسران.

«دسّاها»: من مادة «دس» وهى فى الأصل بمعنى إدخال الشىء قسراً.

وبهذا المعيار يتمّ تمييز الفائزين عن الفاشلين فى ساحة الحياة: «تزكية النفس وتنميتها بروح التقوى وطاعة اللّه» أو «تلوثها بأنواع المعاصى والذنوب».

فى المجمع: وجاءت الرواية عن سعيد بن أبى هلال قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا قرأ هذه الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكهَا» وقف ثم قال: «اللّهمّ آت نفسى تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّها وأنت خير من زكّاها».

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (۱۱) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (۱۲) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَ سُقْيَاهَا (۱۳) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (۱۴) وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (۱۵) عاقبة مرّة للطغاة: عقب التحذير الذى اطلقته الآية السابقة بشأن عاقبة من ألقى بنفسه فى أوحال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقاً تاريخياً واضحاً لهذه السنّة الإلهية، وتحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

«الطغوى و «الطغيان» بمعنى واحد وهو تجاوز الحد، وفى الآية تجاوز الحدود الإلهية والعصيان أمام أوامره.

«قوم ثمود» من أقدم الأقوام التى سكنت منطقة جبلية بين «الحجاز» و «الشام». كانت لهم حياة رغدة مرفهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنّهم لم يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيّهم صالحاً، واستهزأوا بآيات اللّه، فكان عاقبة أمرهم أن أبيدوا بصاعقة سماوية.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۰

ثم تستعرض السورة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: «إِذِ انبَعَثَ أَشْقهَا».

و «أشقى» ثمود، هو الذى عقر الناقة التى ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم.

وفى المجمع: عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لعلى بن أبى طالب عليه السلام:

«من أشقى الأوّلين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت. فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول اللّه. قال: الذى يضربك على هذه- وأشار إلى يافوخه-».

وثمّة تشابه بين قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادى؛ لم يكن الإثنان يحملان عداءً شخصياً، بل كان هدف الإثنين اطفاء نور اللّه والقضاء على معجزة وآية من آيات اللّه.

فى الآية التالية تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيهَا».

المقصود من «رسول اللَّه» نبى قوم ثمود صالح عليه السلام؛ وعبارة «ناقة اللَّه» إشارة إلى أنّ هذه الناقة لم تكن عادية، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوّة صالح، ومن خصائصها- كما فى الرواية المشهورة- أنّها خرجت من قلب صخرة فى جبل لتكون حجة على المنكرين.

الآية التالية تقول: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا». و «العقر»:- على وزن كفر- معناه الأساس والأصل والجذر؛ و «عقر الناقة» قطع أساسها وإهلاكها. ويلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كل طغاة قوم ثمود: «فعقروها»، وهذا يعنى أنّ كل هؤلاء القوم كانوا مشاركين فى الجريمة.

وعقب هذا التكذيب أنزل اللَّه عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّيهَا».

«دمدم»: تعنى أهلك، وتأتى أحياناً بمعنى عذّب وعاقب وأحياناً بمعنى سحق واستأصل، وبمعنى سخط أو أحاط.

و «سوّاها»: من التسوية وهى تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة وصاعقة وزلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعاً فى العقاب والعذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.

ومن الممكن أيضاً الجمع بين هذه المعانى.

وتختتم السورة الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارع لكل الذين يتجهون فى نفس هذه

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۱

المسيرة المنحرفة فتقول: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا».

كثيرون من الحكّام قادرون على انزال العقاب لكنّهم يخشون من تبعات عملهم، ويخافون ردود الفعل التى قد تحدث نتيجة فعلهم، ولذلك يكفّون عن المعاقبة. قدرتهم- إذن- محفوفة بالضعف وعلمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهة التبعات. بينما اللَّه سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكل الامور وعواقبها، وقدرته على مواجهة النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، ولذلك فإنّ مشيئته فى العقاب نافذة حازمة.

«نهاية تفسير سورة الشّمس»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۳

۹۲. سورة الليل

محتوى السورة: بعد القسم بثلاث ظواهر فى بداية السورة يأتى تقسيم الناس إلى منفقين متّقين، وبخلاء منكرين، وتذكر عاقبة كل مجموعة؛ اليسر والسعادة والهناء للمجموعة الاولى، والعسر والضنك والشقاء للمجموعة الثانية.

وفى مقطع آخر من السورة إشارة إلى أنّ الهداية من اللَّه سبحانه لعباده هى انذارهم من النار يوم القيامة.

ثم تذكر السورة فى نهايتها من يدخل هذه النار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها أعطاه اللَّه حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسّر له اليسر».

وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (۱) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (۲) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (۳) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (۴) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى (۶) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى (۸) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى (۹) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (۱۰) وَ مَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (۱۱)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۴

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس أنّ رجلًا كانت له نخلة فرعها فى دار رجل فقير ذى عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربّما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها فى فيّ أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه. فشكا ذلک الرجل إلى النبى صلى الله عليه و آله، وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة. فقال له النبى صلى الله عليه و آله: «إذهب». ولقى رسول اللّه صلى الله عليه و آله صاحب النخلة فقال: «تعطينى نخلتک المائلة التى فرعها فى دار فلان ولک بها نخلة فى الجنة». فقال له الرجل: إنّ لى نخلًا كثيراً، وما فيه نخلة أعجب إلىّ تمرة منها. قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول اللّه صلى الله عليه و آله يا رسول اللّه! أتعطينى ما أعطيت الرجل نخلة فى الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: «نعم». فذهب الرجل ولقى صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أنّ محمّداً أعطانى بها نخلة فى الجنة فقلت له: يعجبنى تمرتها وإنّ لى نخلًا كثيراً فما فيه نخلة أعجب إلىّ تمرة منها. فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلّا أن أعطى ما لا أظنّه اعطى. قال: فما مُناک؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنخلتک المائلة أربعين نخلة؟! ثم سكت عنه. فقال له: أنا أعطيک أربعين نخلة. فقال له:

أشهد إن كنت صادقاً، فمرّ إلى اناس فدعاهم، فأشهد له بأربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللّه! إنّ النخلة قد صارت فى ملكى، فهى لک. فذهب رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى صاحب الدار، فقال له: «النخلة لک ولعيالک». فأنزل اللّه تعالى: «وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى السورة وعن عطاء قال: اسم الرجل (أبو الدحداح).

التّفسير

التقوى والإمداد الإلهى: هذه السورة المباركة أيضاً تبتدىء بثلاثة أقسام تثير التفكير فى المخلوقات وفى الخالق. تقول: «وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى .

فالقَسم الأوّل بالليل حين يغطّى ... يغطّى بظلامه نصف الكرة الأرضية ... أو يغطّى قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهمّية الليل ودوره الفاعل فى حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، ونشره السكينة على كل الموجودات الحية، وتوفير الجوّ لعبادة المتهجدين ومناجاة الصالحين.

ويستمر السياق القرآنى فى القسم بالقول: «وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى .

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۵

والنهار يبدأ من اللحظة التى يطلع فيها الفجر، فيشقّ قلب ظلام الليل، ثم يمتدّ ليملاء كل السماء، ويغمر كل شيء بالنور.

ثم القَسم الأخير فى السورة بالخالق المتعال: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

فوجود الجنسين فى عالم «الإنسان» و «الحيوان» و «النبات» ... والمراحل التى تمرّ بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة ... والخصائص التى يمتاز بها كل جنس متناسبة مع دوره ونشاطه ... والأسرار العميقة المخبوءة فى مفهوم الجنسية ... كلّها من دلالات وآيات عالم الخليقة الكبير ... وبها يمكن الوقوف على عظمة الخالق.

ثم يأتى الهدف النهائى من كل هذه الأقسام بقوله سبحانه: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى .

اتجاهات سعيكم مختلفة، ونتائجها مختلفة أيضاً، هذا يعنى أنّ أفراد البشر لا يستقرون فى حياتهم على حال ... بل هم فى سعى مستمر ... وفى استثمار دائم للطاقة التى أودعها اللّه فى نفوسهم ... فانظر أيّها الإنسان فى أى مسير تبذل هذه الطاقة التى هى رأس مال وجودک ...

فى أيّ اتجاه ... وفى سبيل أيّة غاية؟!

حذار من تبديد كل هذه الطاقات فى سبيل نتيجة تافهة ... وحذار من بيعها بثمن بخس!

«شتى : جمع «شتيت» من مادة «شتّ» أيّ فرّق الجمع، وهنا بمعنى التفرق والتشعب فى المساعى من حيث الكيفية والهدف والنتيجة.

ثم يأتى تقسيم الناس على قسمين، ويبيّن خصائص كل قِسم. يقول سبحانه: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وأساساً أنّ الإيمان بالمعاد وبثواب الآخرة يهون المشاكل والصعاب، ويجعل بذل المال بل النفس ميسوراً، ويخلق الدافع نحو طلب الشهادة فى ميادين الجهاد عن رغبة مقرونة باحساس باللذة والنشوة.

وفى الجهة المقابلة تقف المجموعة الاخرى التى تتحدث عنها الآيات التالية: «وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى .

«من بخل» فى هذه المجموعة مقابل «من أعطى» فى تلك.

«استغنى : أى طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، ووسيلتهم لإكتناز المال.

وهؤلاء البخلاء الخاوون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير وخاصة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الاولى مقرون باللذة والإنشراح.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۶

ثم يأتى التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: «وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال- إذا اصطحبه- أن يقيه من السقوط فى نار جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَ إِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى (١۴) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١۵) الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١۶) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) عقب الآيات الكريمة السابقة التى قسمت الناس على مجموعتين: مؤمنة سخية، وعديمة الإيمان بخيلة، وبيّنت مصير كل منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أنّ على اللّه الهداية لا الإجبار والإلزام، ويبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، وأنّ انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه ولا حاجة للّهسبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . الهدى عن طريق التكوين (الفطرة والعقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب والسنة) ... فقد بيّنا ما يلزم وأدينا الأمر حقّه.

وبعد: «وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى . فلا حاجة بنا لإيمانكم وطاعتكم، ولا طاعتكم تجدينا نفعاً ولا معصيتكم تصيبنا ضرّاً، وكل منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

الإنذار والتحذير من سبل الهداية، ولذلك قال سبحانه: «فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى .

«تلظى : من اللظى، وهو الشعلة المتوهجة الخالصة والشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، وتطلق «لظى» أحياناً على جهنم.

ثم تشير الآية إلى المجموعة التى ترد هذه النار المتلظية الحارقة وتقول: «لَايَصْلهَا إِلَّا الْأَشْقَى».

وفى وصف الأشقى تقول الآية: «الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

معيار الشقاء والسعادة- إذن- هو الكفر والإيمان وما ينبثق عنهما من موقف عملى، إنّه لشقى حقّاً هذا الذى يعرض عن كل معالم الهداية وعن كل الإمكانات المتاحة للإيمان والتقوى ... بل إنّه أشقى الناس.

ثم تتحدث السورة عن مجموعة قد جُنّبت النار وأبعدت عنها، تقول الآية: «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۷

ومن هو هذا الأتقى؟ تقول الآية الكريمة: «الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى .

وعبارة «يتزكى تشير إلى قصد القربة، وخلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحى والمعنوى، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ التزكية جاءت بمعنى «التنمية»، وبمعنى «التطهير».

وللتأكيد على خلوص النيّة فى إنفاقهم تقول الآية: «وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى .

فلا أحد قد أنعم على هذا «الأتقى» ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا اللّه لا غير: «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى .

إنّ إنفاق المؤمنين الأتقياء ليس رياء ولا ردّاً على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا اللَّه لا غير، ومن هنا كان إنفاقهم ذا قيمة كبرى.

وفى خاتمة السورة ذكر بعبارة موجزة لما ينتظر هذه المجموعة من أجر عظيم تقول الآية:

«وَلَسَوْفَ يَرْضَى .

نعم، ولسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا اللَّه، واللَّه سبحانه سوف يرضيه، إرضاءً واسعاً غير محدود ... إرضاءً عميق المعنى يستوعب كل النعم.

«نهاية تفسير سورة الليل»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۷۹

۹۳. سورة الضحى

محتوى السورة: هذه السورة نزلت فى مكة، وحسب بعض الروايات أنّها نزلت حين كان الرسول صلى الله عليه و آله متألماً بسبب تأخر نزول الوحى، وتقوّل الأعداء نتيجة هذا الإنقطاع المؤقت، نزلت السورة كغيث على قلب النبى صلى الله عليه و آله.

هذه السورة تبدأ بقَسمين، ثم تبشر النبى بأنّ اللَّه لا يتركه أبداً.

ثم تبشّره بعطاء ربانى تجعله راضياً.

ثم تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهية التى كانت تشمله دائماً وتحميه وتسنده فى أشدّ اللحظات.

وفى نهاية السورة تتكرر الأوامر الإلهية برعاية اليتيم والسائل، وباظهار النعم الإلهية (شكراً لهذه النعم).

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها كان ممن يرضاه اللَّه، ولمحمّد صلى الله عليه و آله أن يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كل يتيم وسائل».

وفضيلة التلاوة هذه هى طبعاً من نصيب من يقرأ ويعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أنّ الروايات تذكر هذه السورة والسورة التى تليها: (شرح) على أنّها سورة واحدة، ولذلك لابدّ من قرائتهما معاً بعد سورة الحمد فى الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد فى الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۰

وَ الضُّحَى (۱) وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى (۲) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (۴) وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (۵)

سبب النّزول

فى المجمع: قال ابن عباس: احتبس الوحى عنه صلى الله عليه و آله خمسة عشر يوماً، فقال المشركون:

إنّ محمّداً قد ودعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من اللَّه تعالى لتتابع عليه. فنزلت السورة.

وروى أنّه لمّا نزلت السورة قال النبى صلى الله عليه و آله لجبرائيل عليه السلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك»! فقال جبرائيل: وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكنّى عبد مأمور وما نتنزل إلّابأمر ربّك.

التّفسير

فى بداية السورة المباركة قسمان: الأوّل بالنور، والثانى بالظلمة. يقول سبحانه:

«وَالضُّحَى وهو قسم بالنهار- حين تغمر شمسه كل مكان.

«وَالَّيْلِ إِذَا سَجَى . أى إذا عمّت سكينته كل مكان.

«الضحى»: يعنى أوائل النهار، أى حين يرتفع قرص الشمس فى كبد السماء، ويعم نورها الأرض، وهو أفضل ساعات النهار.

«سجى»: من السَّجو أو السُّجو، أى سكن وهدأ.

والمهم فى الليل هـدؤه وسـكينته ممّا يضـفى على روح الإنسان واعصابه هـدوءً وارتياحاً، ويُعـدّه لممارسـة نشاط يوم غد، وهو لذلك نعمة مهمّة استحقت القسم بها.

بين القَسـمين ومحتوى السـورة تشـابه كـبير وإرتبـاط وثيق. النهـار مثـل نزول نور الوحى على قلب النـبى صـلى الله عليه و آله، والليل كانقطاع الوحى المؤقت، وهو أيضاً ضرورى فى بعض المقاطع الزمنية.

وبعد القسمين، يأتى جواب القسم، فيقول سبحانه: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .

«قلى»: من «قلا»- على وزن صدا- وهو شدّة البغض.

فى هـذا التعبير سـكن لقلب النبى صـلى الله عليه و آله وتسلّ له، ليعلم أنّ التـأخير فى نزول الوحى إنّمـا يحـدث لمصـلحة يعلمهـا اللّه تعالى، وليست- كما يقول الأعـداء- لترك اللّه نبيّه أو لسـخطه عليه فهو مشـمول دائماً بلطف اللّه وعنايته الخاصّة، وهو دائماً فى كنف حماية اللّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۱

«وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى .

أنت فى هذه الدنيا مشمول بالطاف اللّه تعالى، وفى الآخرة أكثر وأفضل.

وتأتى البشرى للنبى الكريم لتقول له: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .

وهـذا أعظم أكرام وأسـمى احترام من ربّ العـالمين لعبـده المصـطفى محمّـد صـلى الله عليه و آله. فالعطاء الربانى سـيغدق عليه حتى يرضى ... حتى ينتصر على الأعداء ويعم نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون فى الآخرة أيضاً مشمولًا بأعظم الهبات الإلهية.

النبى الأعظم صـلى الله عليه و آله باعتبـاره خـاتم الأنبياء، وقائـد البشـرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه فى نجاته فحسب، بل إنّه سـيكون راضياً حين تُقبل منه شفاعته فى امته.

عن حرب بن شريح قال: قلت لأبى جعفر محمّد بن على بن الحسين: جعلت فداك! أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها بالعراق أحق هى؟ قال: «شـفاعة ماذا»؟ قلت: شفاعة محمّد صلى الله عليه و آله قال: «حق واللّه، لحدثنى عمى محمّد بن على بن الحنفية عن على بن أبى طالب عليه السـلام أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قال: «أشـفع لُامّتى حتى ينادينى ربّى عزّ وجل أرضيت يا محمّد، فأقول: نعم رضـيت». ثم أقبـل على عليه السـلام فقـال: إنّكم تقولون يـا معشـر العراق إنّ أرجى آيـة فى كتـاب اللّه «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ» الآيـة. قلت إنّا لنقول ذلك، قال: ولكنا أهل البيت نقول إنّ أرجى آيـة فى كتاب اللّه «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى وهى الشفاعة «[۱]».

وفى المجمع عن الصادق عليه السـلام قال: «دخل رسول اللّه صـلى الله عليه و آله على فاطمـة عليها السـلام وعليها كساء من ثلة الإبل وهى تطحن بيـدها وترضع ولـدها، فـدمعت عينا رسول اللّه صـلى الله عليه و آله لما أبصـرها، فقال: يا بنتاه! تعجلى مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل اللّه على «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ».

أ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (۷) وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱) الشكر على كل هذه النعم الإلهية: ذكرنا أنّ هدف هذه السورة المباركة تسلية قلب النبى صلى الله عليه و آله وبيـان الطاف اللّه التى شـملته، وهـذه الآيات المـذكورة أعلاه تجسـد للنبى ثلاث هبات من الهبات الخاصّـة التى أنعم اللّه بها على النبى، ثم تأمره بثلاثة أوامر.

---

(۱) كنز العمال ۱۴/ ۶۳۶؛ المعجم الأوسط، الطبرانى ۲/ ۳۰۷؛ وتفسير مجمع البيان ۱۰/ ۳۸۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۲

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَاوَى .

فقد كنت يا محمّد فى رحم امّك حين توفي والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطلب (سيد مكة).

وكنت فى السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنّنى زدت حبّك فى قلب «عبد المطلب».

وكنت فى الثامنة حين رحل جدّك «عبدالمطلب»، فسخرت لك عمّك «أبا طالب»، وليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيماً فآويتك.

ثم يأتى ذكر النعمة الثانية: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .

نعم، لم تكن أيّها النبى على علم بالنبوّة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانية، وهذا المعنى ورد فى الآية (۵۲) من سورة الشورى أيضاً: «مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلكِن جَعَلْنَهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة فى كلمة «ضالًّا» فى الآية ليس نفى الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النبى، بل بقرينة الآيات التى أشرنا إليها تعنى نفى العلم بأسرار النبوّة وبأحكام الإسلام، وتعنى عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسرين.

لكنّه صلى الله عليه و آله بعد البعثة اهتدى إلى هذه الامور بعون اللّه تعالى.

ثم يأتى ذكر النعمة الثالثة: «وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى «۱».

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كل ثروتها تحت تصرّفك ومن أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة فى الحروب ساعدتك فى تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى.

فى الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة ...

والخطاب، وإن كان متجهاً إلى الرسول صلى الله عليه و آله، فإنّه يشمل أيضاً كل المسلمين.

«فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ».

كأنّ اللّه يخاطب نبيّه قائلًا: لقد كنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن

---

(۱) «العائل»: فى الأصل كثير العيال، وجاءت أيضاً بمعنى الفقير، وهى فى الآية بهذا المعنى.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۳

تهتم بالأيتام كل اهتمام وأن تروى روحهم الظمأى بحبّك وعطفك.

وهذا يدل على أنّ هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهى اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفى. فى المجمع عن عبداللّه بن مسعود قال:

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة».

«وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ».

«نَهَرَ»: بمعنى ردّ بخشونة.

وفى معنى «السائل» عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية والعقائدية والدينية.

والثانى: هوالفقير فى المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد فى هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثـالث: أنّ المعنى يشـمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبيـة احتياجات السائل فى المجالين، وهـذا المعنى يتناسب مع الهـداية الإلهية لنبيّه صلى الله عليه و آله، ومع إيوائه حين كان يتيماً.

«وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ». والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنمّ عن غاية الشـكر والإمتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة فى سبيل اللّه، انفاقاً يبيّن مدى هذه النعمة.

إنّ النعمة فى الآية شاملًا للنعم المادية والمعنوية. فى المجمع: قال الصادق عليه السلام معناه:

«فحدث بما أعطاك اللّه، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك».

«نهاية تفسير سورة الضحى»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۵

۹۴. سورة الشرح

محتوى السورة: المعروف أنّ هـذه السورة نزلت بعد سورة «الضـحى» ومحتواها يؤيد ذلك، لأنّها تسـرد أيضاً قسـماً من الهبات الإلهية للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

فى سورة «الضـحى» عرض لثلاث هبات إلهيـة بعضـها ماديـة وبعضـها معنوية، وفى هذه السورة ذكر لثلاث هبات أيضاً غير أنّ جميعها معنويـة، وتـدور السورة بشـكل عـام حول ثلاثـة محـاور: الأوّل: بيان النعم الثلاث؛ و الثانى: تبشـير النبى بزوال العقبات أمام دعوته؛ و الثالث: الترغيب فى عبادة اللّه الواحد الأحد.

ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدل أنّ هاتين السورتين سورة واحدة ووجب قراءتهما معاً فى الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضـيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صـلى الله عليه و آله قال: «من قرأها اعطى من الأجر كمن لقى محمّـداً صـلى الله عليه و آله مغتماً ففرّج عنه».

أ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (۱) وَ وَضَعْنَا عَنْکَ وِزْرَکَ (۲) الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (۳) وَ رَفَعْنَا لَکَ ذِکْرَکَ (۴) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۶) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلَى رَبِّکَ فَارْغَبْ (۸)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۶

نِعم إلهية: سياق الآيات ممزوج بالحب والحنان وبألطاف ربّ العالمين لنبيّه الكريم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الاولى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ».

«الشرح»: فى الأصل توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق؛ و «شرح الصدر»:

سعته بنور إلهى وبسـكينة واطمئنان من عنـد اللّه، ولهـذه التوسـعة مفهوم واسع، تشـمل السـعة العلميـة للنبى عن طريق الوحى والرسالة، وتشمل أيضاً توسعة قدرة النبى فى تحمله واستقامته أمام تعنت الأعداء والمعارضين.

فى المجمع: روى سـعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله: «لقـد سألت ربّى مسألة وددت أنّى لم أسأله؛ قلت: أى ربّ! إنّه قـد كان أنبياء قبلى منهم من سـخرت له الريـح ومنهم من كان يحيى الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيماً فآويتك. قـال: قلت بلى. قـال: ألم أجـدك ضالًا فهـديتك. قال: قلت بلى أى ربّ. قال: ألم أشـرح لك صـدرك ووضـعت عنك وزرك قال: قلت:

بلى أى ربّ».

وهـذا يعنى أنّ نعمة شـرح الصدر تفوق معاجز الأنبياء. والمتمعّن فى دراسة حياة الرسول صـلى الله عليه و آله، وما فيها من مظاهر تدل

على شرح عظيم لصدره تجاه الصعاب والمشاق يدرك بما لا يقبل الشك أنّ الأمر لم يتأت لرسول اللَّه بشكل عادى، بل إنّه حتماً تأييد إلهى ربّانى.

وبسعة الصدر هذه إجتاز الرسول صلى الله عليه و آله العقبات والحواجز والصعاب على أفضل وجه، وأدّى رسالته خير أداء.

ثم يأتى ذكر الموهبة الثانية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ». أى ألم نضع عنك الحمل الثقيل؟

«الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ».

وأى حمل وضعه اللَّه عن نبيّه؟ القرائن فى الآيات تدل على أنّه مشاكل الرسالة والنبوّة والدعوة إلى التوحيد وتطهير المجتمع من ألوان الفساد، وليس نبيّ الإسلام وحده بل كل الأنبياء فى بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى وتغلبوا عليها بالإمداد الإلهى وحده، مع فارق فى الظروف، فبيئة الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر ومشاكل ...

وفى الموهبة الثالثة يقول سبحانه: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ».

فاسمك مع اسم الإسلام والقرآن قد ملأ الآفاق، وأكثر من ذلك اقترن اسمك باسم اللَّه سبحانه فى الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. والشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد اللَّه فى الإقرار بالإسلام وقبول الدين الحنيف.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۷

وروى عن الرسول صلى الله عليه و آله فى تفسير هذه الآية قال: «قال لى جبرائيل قال اللَّه عزّ وجل: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معى». [وكفى بذلك منزلة].

شاعر النبى «حسان بن ثابت» ضمّن معنى الآية الكريمة فى أبيات جميلة، وقال:

وضمّ الإله اسم النبى إلى اسمهإذ قال فى الخمس المؤذن أشهد

وشقّ له من اسمه ليجلّهفذو العرش «محمود» وهذا «محمّد»

الآية التالية تبشّر النبى صلى الله عليه و آله بأعظم بشرى، وتقول: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

ويأتى التأكيد الآخر: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

لا تغتمّ أيّها النبى، فالمشاكل والعقبات لا تبقى على هذه الحالة، ودسائس الأعداء لن تستمر، وشظف العيش وفقر المسلمين سوف لا يظلّ على هذا المنوال.

إنّ اسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النبى صلى الله عليه و آله وبزمانه، بل بصورة قاعدة عامة مستنبطة مما سبق، وتبشّر كل البشرية المؤمنة المخلصة الكادحة، وتقول لها: كل عسر إلى جانبه يسر.

فى من لا يحضره الفقيه بإسناده إلى النبى صلى الله عليه و آله قال: «واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب وفإنّ مع العسر يسراً، إنّ مع العسر يسراً».

«فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ». أى إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمّة اخرى، فلا مجال للبطالة والعطل. كن دائماً فى سعى مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمّة بداية لمهمّة اخرى.

«وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب». أى فاعتمد على اللَّه فى كل الأحوال.

اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان- حسب ما ذكرناه- لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبدء بمهمّة جديدة بعد الفراغ من كل مهمّة. وبالتوجه نحو اللَّه فى كل المساعى والجهود.

إنّ هذه السورة تبيّن بمجموعها عناية ربّ العالمين الخاصة للنبى الأعظم صلى الله عليه و آله، وتسلية قلبه أمام المشاكل، ووعده بالنصر أمام عقبات الدعوة، وهى فى الوقت ذاته تحيى الأمل والحركة والحياة فى جميع البشرية المهتدية بهدى القرآن.

«نهایة تفسیر سورة الشرح»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۸۹

۹۵. سورة التین

محتوی السورة وفضیلتها: هـذه السورة تـدور آیاتهـا حول حسن خلقـة الإنسـان ومراحـل تكـامله ونموّه وانحطاطه، وتبـدأ بقسم عمیق المعنی، تذكر عوامل انتصار الإنسان ونجاته وتنتهی بالتأكید علی مسألة المعاد وحاكمیة اللَّه المطلقة.

وفی المجمع عن ابی بن كعب عن النبی صـلی الله علیه و آله قـال: «من قرأها أعطاه اللَّه خصـلتین: العافیـة والیقین مادام فی دار الـدنیا، فإذا مات أعطاه اللَّه من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صیام یوم».

وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِینِینَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیم (۴) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِینَ (۵) إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَمَا یُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّینِ (۷) أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِینَ (۸) تبدأ السورة بالقسم أربع مرّات لبیان أمر مهم:

«وَالتّینِ وَالزَّیْتُونِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۰

«وَطُورِ سِینِینَ» «۱».

«وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ».

«التین» و «الزیتون» ثمرتان معروفتان، واختلف المفسرون فی المقصود بالتین وبالزیتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شیء آخر؟ بعضـهم ذهب إلی أنّهمـا الفاكهتـان بمـا لهمـا من خواص غذائیـة وعلاجیـة كبیرة، وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان فی مـدینتی «دمشق» و «بیت المقـدس» لأنّ المكـانین منبَثق كثیر من الرسـل والأنبیاء .. وبـذلك ینسـجم هـذان القَسـمان مع ما یلیهما من قَسمین بأراض مقدسة.

«وَهـذَا الْبَلَـدِ الْـأَمِینِ». والبلـد الأـمین مكـة، الأـرض التی كانت فی عصـر الجاهلیـة أیضاً بلـداً آمناً وحرماً إلهیّاً، ولا یحق لأحـد فیها أن یتعرض لأحد.

إذا حملنـا كلمتی «التین» و «الزیتون» علی معناهمـا الظـاهر الإبتـدائی، فـالقسم بهـا ذو دلالـة عمیقـة أیضاً، لأنّ «التین» فاكهـة ذات مواد غذائیة ثرّة، ولقمة مغذیة ومقویة لمختلف الأعمار، وخالیة من القشر والنواة والزوائد.

وفی الكافی عن الإمام علی بن موسـی الرضا علیه السـلام قال: «التین یـذهب بالبخر ویشـدّ الفم والعظم، وینبت الشـعر، ویذهب بالداء، ولا یحتاج معه إلی دواء».

وقال علیه السلام: «التین أشبه شیء بنبات الجنة».

وحول الزیتون، فإنّ العلماء الـذین قضوا عمرهم فی دراسـة خواص النباتات یعیرون أهمیـة بالغـة للزیتون وزیته. ویعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن یعیش فی سلامة دائمة فلابدّ له أن یستفید من هذا الأكسیر الحیاتی.

زیت الزیتون صدیق حمیم لكبد الإنسان، وله تأثیر فعّال فی معالجة عوارض الكلی، وحصـی الصـفراء، والتشـنجات الكلیویة والكبدیة، وإزالة الإمساك.

وزیت الزیتون مفعم أیضاً بأنواع الفیتامینات وفیه الفوسفور والكبریت والكلسیوم

---

(۱) قیل: إنّ «سـینین» جمع بمعنی شـجرة، واحدته «سـینة»، فكأنّه قیل طور الأشـجار. وقیل: إنّ سینین، اسم للبقعة التی فیها الجبل. وعن

عكرمة بزيادة بلسان أهل الحبشة؛ وعن قتادة أنّه قال: سينين مبارك حسن ذو شجر (روح المعانى ۳۰/ ۱۷۳).

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۱

مختصر الامثل ج۵ ۵۳۳

والحديد والبوتاسيوم والمنغنيز.

وفى المكارم الأخلاق للطبرسى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب بالبلغم، ويصفى اللون، ويشدّ العصب، ويذهب بالوصب [المرض والألم والضعف ويطفىء الغضب».

ثم يأتى جواب القسم: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسنَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ».

«تقويم»: يعنى تسوية الشىء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أنّ اللَّه سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كل الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وأعدّه لتسلق سلّم السموّ، وهو- وإن كان جرماً صغيراً- وضع فيه العالم الأكبر، ومنحه من الكفاءات والطاقات ما جعله لائقاً لوسام: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ» «۱».

وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة اللَّه إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية: «ثُمَّ رَدَدْنهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ».

ولِم لا يكون كذلك وهو الموجود المليء بالكفاءات الثرّة التى إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر وإن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، وينزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

ولكن الآية التالية تقول: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المن» وتعنى هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنّه خال من المنّة، لكن المعنى الأوّل أنسب.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له:

«فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ».

تركيب وجودك من جهة، وبنيان هذا العالم الواسع من جهة اخرى يؤكّدان أنّ هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائى من خلقتك وخلقة هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآنى، هذه «النشأة» الاولى» تنبىء عن «النشأة الاخرى» فلِم لا يتذكر الإنسان! «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» «۲».

---

(۱) سورة الإسراء/ ۷۰.

(۲) راجع أدلة المعاد فى تفسير سورة الواقعة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۲

واتضح أيضاً أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، و الآية التالية تؤيد ذلك: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ».

فى تفسير مجمع البيان: قال قتادة: وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا ختم هذه السورة قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

«نهاية تفسير سورة التين»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۳

۹۶. سورة العلق

محتوى السورة: المشهور بين المفسرين أنّها أوّل ما نزل من القرآن، ومحتواها يؤيد ذلك أيضاً.

هذه السورة تبدأ بأن تأمر النبى صلى الله عليه و آله بالقراءة، ثم تتحدث عن خلقة الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة.

وفى المرحلة التالية تتحدث السورة عن تكامل الإنسان فى ظل لطف اللَّه وكرمه، وعن تعليمه وتمكينه من القلم.

ثم تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كل ما توفرت له من هبات إلهية وإكرام ربانى.

وتشير بعد ذلك إلى ما ينتظر اولئك الصادين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب.

وفى ختام السورة أمر بالسجود والإقتراب من ربّ العالمين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال:

«من قرأ فى يومه أو فى ليلته إقرأ باسم ربّك ثم مات فى يومه أو فى ليلته، مات شهيداً وبعثه اللَّه شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه فى سبيل اللَّه مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله».

هذه السورةالمباركة سمّيت سورة «العلق» و «إقرأ» و «القلم» لمناسبة هذه الكلمات فيها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۴

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ (۳) الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (۵)

سبب النّزول

جاء فى الروايات أنّ محمّداً صلى الله عليه و آله كان فى غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: إقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارىء، فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: إقرأ يا محمّد وتكرر الجواب. ثم أعاد جبرائيل عمله ثانية وسمع نفس الجواب. وفى المرّة الثالثة قال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ» إلى آخر الآيات الخمس الاولى من السورة.

قال ذلك واختفى عن أنظار النبى صلى الله عليه و آله.

رسول اللَّه أحسّ بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحى عليه فذهب إلى خديجة وقال: «زملونى ودثرونى» «۱».

فى تفسير مجمع البيان: أكثر المفسرين على أنّ هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن وأوّل يوم نزل جبرائيل عليه السلام على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو قائم على حراء، علّمه خمس آيات من أوّل هذه السورة. وقيل: أوّل سورة نزلت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاتحة الكتاب.

رواه الحاكم أبوعبداللَّه الحافظ بإسناده عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لخديجة: «إنّى إذا خلوت وحدى سمعت نداء». فقالت: ما يفعل اللَّه بك إلّاخيراً.

فواللَّه إنّك لتؤدّى الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة، فأخبره رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول، ثم ائتنى فأخبرنى. فلمّا خلا ناداه يا محمّد! قل له ذلك. فقال له: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنّك الذى بشّر به ابن مريم، وأنّك على مثل ناموس موسى، وأنّك نبى مرسل، وإنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركنى ذلك لُاجاهدنّ معك. فلمّا توفى ورقة قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بى وصدّقنى». يعنى ورقة.

جدير بالذكر أنّ فى بعض كتب التفسير والتاريخ كلاماً حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله،

---

(۱) تفسير روح الجنان ۱۲/ ۹۶؛ وهذا المعنى أورده كثير من المفسرين بإضافات وزوائد لا يمكن قبول بعضها.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۵

فى هذه البرهة الزمنية لا تتناسب أبداً مع شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وتستند حتماً إلى أحاديث مختلقة أو إلى

اسرائيليات. ويبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الروايات للطعن فى الإسلام وللحط من شخصية النبى صلى الله عليه و آله.

التّفسير

الآية الاولى فيها خطاب للنبى صلى الله عليه و آله تقول له: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ».

ويلاحظ هنا قبل كل شيء التركيز على مسألة الربوبية، ونعلم أنّ «الربّ» يعنى «المالك المصلح»، أى الشخص الذى يملك شيئاً، ويتعهد إصلاحه وتربيته أيضاً.

ولإثبات ربوبية اللَّه جاء ذكر الخلقة ... خلقة الكون، إذ إنّ أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذى يُدبّر العالم هو خالقه.

وهذا ردّ على مشركى العرب الذين قبلوا خالقية اللَّه، وأوكلوا الربوبية والتدبير إلى الأوثان، ثم إنّ ربوبية اللَّه وتدبيره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

ثم اختارت الآية التالية «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخليقة وقالت: «خَلَقَ الْإِنسنَ مِنْ عَلَقٍ».

«العلق»: فى الأصل الإلتصاق بشيء، والنطفة بعد أن تطوى المراحل الجنينية الاولى تتحول إلى قطعة دم متلاصقة هى العلق، وهى مع تفاهتها الظاهرية تعتبر مبدأ خلقة الإنسان، والآية تركز على هذه الظاهرة لتبيّن قدرة الرب العظيمة على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقة التافهة.

وقيل: إنّ العلق فى الآية يعنى الطين الذى خلق منه آدم، وهو أيضاً مادة متلاصقة، وبديهى أنّ الربّ الذى خلق آدم من طين لازب يستحق كل تمجيد وثناء.

وقيل أيضاً: أنّ العلق يعنى «صاحب العلاقة»، وفيه إشارة إلى الروح الإجتماعية للإنسان، والعلاقة الموجودة بين أفراد البشر هى أساس تكامل البشر وتطور الحضارات.

وقال آخرون: إنّ العلق إشارة إلى نطفة الرجل (الحيمن)، وهى تشبه دودة العلق إلى حدّ كبير، وهذا الموجود المجهرى يسبح فى ماء النطفة، ويتجه إلى بويضة المرأة فى الرحم، ويلقحها ويكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

والقرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية اخرى من معاجزه، إذ لم تكن هذه الامور معروفة أبداً فى عصر نزوله.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۶

ومن بين التفاسير الأربعة، يبدو أنّ التفسير الأوّل أوضح، وإن كان الجمع بين التفاسير الأربعة ممكن أيضاً.

وللتأكيد، تقول الآية مرّة اخرى: «اقْرَأْ وَرَبُّکَ الْأَکْرَمُ».

وهذه الآية جواب على قول الرسول صلى الله عليه و آله لجبرائيل: ما أنا بقارىء، وهذه الآية تقول:

إنّك قادر على القراءة بكرم الربّ وفضله ومنّه.

ثم تصف الآيتان التاليتان الربّ الأكرم:

«الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ». «عَلَّمَ الْإِنسنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

وهاتان الآيتان أيضاً تتجهان إلى الجواب على قول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ما أنا بقارىء، أى إنّ اللَّه الذى علم البشر بالقلم وكشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءة والتلاوة.

جملة «الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» تحتمل معنيين.

الأوّل: أنّ اللَّه علم الإنسان الكتابة، وأعطاه هذه القدرة العظيمة التى هى منبثق تاريخ البشر، ومنطلق جميع العلوم والفنون والحضارات.

والثانى: المقصود أنّ اللَّه علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم وبوسيلة الكتابة.

وهو تعبير عميق المعنى فى تلك اللحظات الحساسة من بداية نزول الوحى

إنّ أساس الإسلام أقيم منذ البداية على أساس العلم والقلم ... ولذلك استطاع قوم متخلفون أن يتقدموا فى العلم والمعرفة حتى

تأهّلوا- باعتراف الأعداء والأصدقاء- لتصدير علومهم إلى العالم! إنّ علم المسلمين ومعارفهم هو الذى مزّق ظلام القرون الوسطى فى أوروبا وأدخلها عصر الحضارة. وهذا ما يعترف به علماء أوروبا أنفسهم فيما كتبوه فى حقل تاريخ الحضارة الإسلامية وفى تراث الإسلام.

وما أبشع وأفظع أن تكون أخلاق امّة كتلك تمتلك بين ظهرانيها ديناً كهذا متخلفة فى ميادين العلم والمعرفة ومحتاجة إلى الآخرين بل وتابعة لهم.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (۷) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (۸) أَ رَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى (۹) عَبْداً إِذَا صَلَّى (۱۰) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (۱۱) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (۱۲) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۱۳) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (۱۴)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۷

استتباعاً للآيات السابقة التى تحدثت عن النِعم المادية والمعنوية الإلهية على الإنسان ...

والنِعم التى تستلزم شكر الإنسان وتسليمه أمام اللَّه، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نِعَم اللَّه تحيى روح الشكر فى الإنسان دائماً، بل إنّه يطغى:

«كَلَّا إِنَّ الْإِنسَنَ لَيَطْغَى . ومتى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنياً وغير محتاج.

«أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى . هذه طبيعة أغلب أفراد البشر ... الأفراد الذين لم يتربوا فى مدرسة العقل والوحى، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، وينسلخون من عبودية اللَّه، ويرفضون الإعتراف بأحكامه، ويصمّون أذانهم عن ندائه، ولا يراعون حقّاً ولا عدلًا.

إنّ الهدف من الآية الفات نظر الرسول صلى الله عليه و آله بمنعطفات الطبيعة البشرية كى لا يتوقع قولًا سريعاً من الناس لدعوته، وليعدّ نفسه لإنكار المنكرين ومعارضة الطغاة المستكبرين، وليعلم أنّ الطريق أمامه وعر مليء بالمصاعب.

ثم يأتى التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين وتقول الآية التالية: «إِنَّ إِلَى رَبّكَ الرُّجْعَى .

وهو الذى يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، وكما أنّ رجوع كل شىء إليه، وميراث السماوات والأرض له سبحانه: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» «۱». فكلّ شىء فى البداية منه، ولا مبرّر للإنسان أن يشعر بالإستغناء ويطغى

ثم تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدّهم عباد اللَّه عن السير فى طريق الحق.

«أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . «عَبْدًا إِذَا صَلَّى .

وفى تفسير مجمع البيان: فقد جاء فى الحديث أنّ أبا جهل قال: هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم قالوا: نعم. قال: فبالذى يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلّى، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلّاوهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه. فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إنّ بينى وبينه خندقاً من نار، وهولًا، وأجنحة. وقال نبى اللَّه: «والذى نفسى بيده لو دنا منّى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». فأنزل اللَّه سبحانه:

«أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَى إلى آخر السورة.

---

(۱) سورة آل عمران/ ۱۸۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۸

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

«أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى . «أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أى أرأيت إن كان هذا العبد المصلى على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيه؟ ألا يستحق من ينهاه النار؟

«أَرَءَيْتَ إن كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ولو كذّب هذا الطاغية بالحق وتولى وأعرض عنه فماذا سيكون مصيره؟

«أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ويثبت كل شىء ليوم الجزاء والحساب.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (۱۵) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (۱۶) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (۱۷) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (۱۸) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (۱۹)

بعد الحديث فى الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادين عن سبيل اللّه، توجّه هذه الآيات أشدّ التهديد لهم وتقول: «كَلَّا» لا يكون ما يتصور (لانّه تصور أن يصدّ عن عبادة اللّه بوضعه قدمه على رقبة النبى).

«كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ». نعم، إذا لم ينته من إثمه وطغيانه سنجرّه بالقوّة من شعر مقدمة رأسه (وهى الناصية)، وثم وصف الناصية هذه بأنّها كاذبة خاطئة وهو وصف لصاحبها: «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ».

«لنسفعاً»: من السفع، وله معانى متعددة: الجرّ بالشدّة، الصفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافى الثلاثة التى يوضع عليها القدر تسمى «سفع» لأنّها تسوّد بالدخان)، ووضع العلامة للإذلال.

والأنسب المعنى الأوّل، وإن كانت الآية تحتمل معانى اخرى أيضاً.

روى أنّه لما نزلت سورة الرحمن، علّم القرآن ... قال النبى صلى الله عليه و آله لأصحابه: «من يقرؤها منكم على رؤوساء قريش»؟ فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول اللّه.

فأجلسه صلى الله عليه و آله، ثم قال: «من يقرؤها عليهم»؟ فلم يقم إلّاابن مسعود، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له، وكان صلى الله عليه و آله يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فلطمه فشقّ اذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلما رآه النبى صلى الله عليه و آله رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۴۹۹

يجىء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكى»! فقال: ستعلم.

فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى الجهاد، فقال: خذ رمحك والتمس فى الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنّك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور ... فصعد على صدره، فلما رآه أبو جهل قال: يا رويعى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا- يعلى عليه. فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنّه لم يكن أحد أبغض إلى منه فى حياتى، ولا أحد أبغض إلى منه فى حال مماتى.

فروى أنّه صلى الله عليه و آله لمّا سمع ذلك قال: «فرعونى أشدّ من فرعون موسى فإنّه قال آمنت وهو قد زاد عتواً».

ثم قال [أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسى بسيفى هذا، لأنّه أحدّ وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجرّه على ناصيته إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وبذلك تحقق قوله سبحانه:

«لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» فى هذه الدنيا أيضاً «۱».

«الناصية»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصية) يراد به الإذلال والإرغام، لأنّ أخذ الشخص بناصيته يفقده كل حركة ويجبره على الإستسلام.

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأنّ السورة- عدا المقطع الأوّل منها- قد نزلت فى أبى جهل إذ مرّ برسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو يصلى عند المقام فقال (يا محمّد ألم أنهك عن هذا؟

وتوعده. فاغلظ له رسول اللّه صلى الله عليه و آله وانتهره ...) ولعلّها هى التى أخذ فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله بخناقه وقال له: (أولى لك ثم أولى). فقال: يا محمّد بأى شىء تهددنى؟ أما واللّه إنّى لأكثر هذا الوادى نادياً «۲». وهنا نزلت الآية التالية تقول لأبى جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه وعشيرته وليستنجد بهم: «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ».

ونحن سندع أيضاً زبانية جهنم: «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ». ليعلم هذا الجاهل الغافل أنّه عاجز عن فعل أى شىء وإنّه فى قبضة خزنة جهنم كقشة فى مهبّ الريح.

وفى آخر آية من السورة وهى آية السجدة يقول سبحانه: «كَلَّا». أى ليس الأمر كما

(۱) التفسير الكبير ۳۲/ ۲۳.

(۲) فى ظلال القرآن ۸/ ۶۲۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۰

يتصور بأنّه قادر على أن يمنع سجودک: «لَاتُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب». فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودک أو الوقوف بوجه دينک، فتوکل على اللّه وأعبده واسجد له، وبذلک تقترب منه سبحانه على هذا المسير أکثر فأکثر.

ويستفاد ضمنياً من هذه الآية أنّ «السجود» عامل اقتراب من اللّه، ولذا ورد فى الحديث عن عبداللّه بن مسعود أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «أقرب ما يکون العبد من اللّه إذا کان ساجداً».

وفى روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب وهى فى «السجدة» و «فصّلت» و «النجم» وفى هذه السورة «العلق» وبقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

«نهاية تفسير سورة العلق»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۱

۹۷. سورة القدر

محتوى السورة وفضيلتها: محتوى السورة كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر، وبيان أهمّية هذه الليلة وبركاتها.

فى المجمع: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها اعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».

إنّ هذه الفضائل فى التلاوة لا- تعود على من يقرأها دون أن يدرک حقيقتها، بل إنّها نصيب من يقرأها ويفهمها ويعمل بها ... من يقدر القرآن حق قدره ويطبق آياته فى حياته.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (۱) وَ مَا أَدْرَاکَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (۲) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (۳) تَنَزَّلُ الْمَلَائِکَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (۴) سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (۵) ليلة القدر ليلة نزول القرآن: يستفاد من آيات الذكر الحكيم أنّ القرآن نزل فى شهر رمضان: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ» (۱). وظاهر الآية يدل على أنّ کل القرآن نزل

(۱) سورة البقرة/ ۱۸۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۲

فى هذا الشهر.

والآية الاولى من سورة القدر تقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

عبارة «إِنَّا أَنزَلْنَهُ» فيها إشارة اخرى إلى عظمة هذا الكتاب السماوى، فقد نسب اللّه نزوله إليه، وبصيغة المتكلم مع الغير أيضاً، وهى صيغة لها مفهوم جمعى وتدل على العظمة.

نزول القرآن فى ليلة «القدر» وهى الليلة التى يقدر فيها مصير البشر وتعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمّية المصيرية لهذا الكتاب

السماوی «۱».

لو جمعنا بین هـذه الآیـة وآیة سورة البقرة لاسـتنتجنا أنّ «لیلة القدر» هی إحدی لیالی شـهر رمضان، ولکنّها أیّة لیلة؟ القرآن لا یبیّن لنا ذلک، ولکن المشهور فی الروایات أنّها فی العشر الأخیرة من شهر رمضان، وفی اللیلتین الحادیة والعشرین أو الثالثة والعشرین.

وثمّة روایات متعددة عن أهل البیت علیهم السلام ترکز علی اللیلة الثالثة والعشرین.

فی الکافی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السلام قال: «التقدیر فی لیلة تسع عشرة، والإبرام فی لیلة إحدی وعشرین، والإمضاء فی لیلة ثلاث وعشرین».

فی الآیتین التالیتین یبیّن اللّه تعالی عظمة لیلة القدر ویقول سبحانه:

«وَمَا أَدْرَیکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ». «لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

والتعبیر هذا یوضح أنّ عظمة لیلة القدر کبیرة إلی درجة خفیت علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله أیضاً قبل نزول هذه الآیات، مع ما له من علم واسع.

وفی الـدر المنثور عن مجاهـد أنّ النبی صلی الله علیه و آله ذکر رجلًا من بنی اسرائیل لبس السـلاح فی سبیل اللّه ألف شـهر، فعجب المسلمون من ذلک فأنزل اللّه: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَیکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ* لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التی لبس فیها ذلک الرجل السلاح فی سبیل اللّه ألف شهر.

لماذا کانت خیراً من ألف شهر؟ ... الظاهر لأهمّیة العبادة والإحیاء فیها. وما جاء من

---

(۱) هـذه المسألـة طبعاً لا تتنافی مع حریـة إرادة الإنسان ومسألـة الإختیار، لأنّ التقـدیر الإلهی عن طریق الملائکـة إنّما یتمّ حسب لیاقة الأفراد ومیزان إیمـانهم وتقواهم وطهر نیّتهم وأعمـالهم. أی یقـدر کـل فرد مـا یلیق له. وبعبارة اخری: أرضـیة التقـدیر یوفرها الإنسان نفسه، وهذا لا یتنافی مع الإختیار بل یؤکّده.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۳

روایات بشأن فضـیلة لیلة القدر وفضـیلة العبادة فیها فی کتب الشیعة وأهل السنّة کثیر، ویؤید هذا المعنی. أضف إلی ذلک، فإنّ نزول القرآن فی هذه اللیلة، ونزول البرکات والرحمة الإلهیة فیها یجعلها خیراً من ألف شهر.

ولمزید من وصف هذه اللیلة تقول الآیة التالیة: «تَنَزَّلُ الْمَلَکَةُ وَالرُّوحُ فِیهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مّن کُلّ أَمْرٍ».

و «تنزّل» فعل مضارع یـدل علی الإسـتمرار (والأصل تتنزل) ممّا یدل علی أنّ لیلة القدر لم تکن خاصة بزمن النبی، وبنزول القرآن، بل هی لیلة تتکرر فی کل عام باستمرار.

والمقصود ب «الروح» هو مخلوق عظیم یفوق الملائکة.

وفی الکـافی أنّ الإمـام الصـادق علیه السـلام سـئل عن الروح وهـل هـو جبرائیـل؟ قـال: «الروح هو أعظم من جبرئیـل، إنّ جبرئیـل من الملائکة، وإنّ الروح هو خلق أعظم من الملائکة، ألیس یقول تبارک وتعالی: تنزّل الملائکة والروح».

«مّن کُلّ أَمْرٍ». أی: لکل تقدیر وتعیین للمصائر، ولکل خیر وبرکة، فالهدف من نزول الملائکة فی هذه اللیلة إذن هو لهذه الامور.

«سَلمٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

والآیة الأخیرة هذه تصف اللیلة بأنّها مفعمة بالخیر والسلامة والرحمة حتی الصباح.

القرآن نزل فیهـا، وعبادتها تعادل عبادة ألف شـهر، وفیها تنزل الخیرات والبرکات، وبها یحظی العباد برحمـة خاصـة، کما إنّ الملائکة والروح تتنزل فیها ... فهی إذن لیلـة مفعمـة بالسـلامة من بدایتها حتی مطلع فجرها. والروایات تذکر أنّ الشـیطان یکبل بالسـلاسل هذه اللیلة فهی لیلة سالمة مقرونة بالسلامة.

«نهاية تفسير سورة القدر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۵

۹۸ سورة البينة

محتوى السورة: هذه السورة تناولت رسالة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وما فيها من دلائل بيّنة.

وفى مقطع آخر من السورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام ...

بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البرية.

هذه السورة أطلق عليها لمناسبة الفاظها اسماء متعددة أشهرها: «البيّنة» و «لم يكن» و «القيمة».

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لو يعلم الناس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل والمال وتعلموها». فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول اللّه؟ فقال: «لا يقرأها منافق أبداً ولا عبد فى قلبه شك فى اللّه عزّ وجل. واللّه إنّ الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق اللّه السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد يقرؤها بليل إلّابعث اللّه ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۶

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (۱) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً (۲) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (۳) وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (۴) وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (۵) فى بداية السورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشركى العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدّعون أنّهم غير منفكين عن دينهم إلّابدليل واضح قاطع.

«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيّنَةُ».

و «البيّنة»: التى أرادوها: رسول من اللّه يتلو عليهم كتاباً مطهّراً من ربّ العالمين:

«رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً».

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة: «فِيهَا كُتُبٌ قَيّمَةٌ».

كان هذا ادّعاؤهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغيّر هؤلاء، واختلفوا وتفرقوا، وما تفرقوا إلّابعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبى الصادح بالحق.

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَةُ».

وهذا المعنى يشبه ما جاء فى الآية (۸۹) من سورة البقرة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

نعلم أنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولابدّ أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فى هذا الإنتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحققت آمالهم غيّروا مسيرهم والتحقوا باعداء الدعوة.

«البيّنة»: فى الآية هى الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثانية شخص «رسول اللّه» وهو يتلو عليهم القرآن.

«صحف»: جمع «صحيفة»، وتعنى ما يكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۷

و «مطهرّة»: أى طاهرة من كل ألوان الشرك والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس، كما جاء فى الآية (۴۲) من سورة فصّلت: «لَّايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ».

ثم يتوالى التقريع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنّهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوةَ».

ثم تضيف الآية القول: «وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ».

والمقصود هو: إنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه امور معروفة فلماذا يعرضون عنها.

المقصود ب «الدين» هو مجموع الدين والشريعة، أى إنّهم امروا أن يعبدوا اللّه وأن يخلصوا له الدين والتشريع فى جميع المجالات.

جملة «وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» إشارة إلى أنّ الاصول المذكورة فى الآية وهى: التوحيد الخالص، والصلاة (الإرتباط باللّه) والزكاة (الإرتباط بالنّاس) من الاصول الثابتة الخالدة فى جميع الأديان، بل إنّها قائمة فى أعماق فطرة الإنسان، ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثم إنّ الروح الإجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (۷) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ (۸) خير البريّة وشرّها: الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيّنة تأتيهم من اللّه، لكنّهم تفرقوا من بعدما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين فى موقفهما من الدعوة «كافرة» و «مؤمنة» تذكر الكافرين أوّلًا بالقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۸

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ».

وعبارة «أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» عبارة قارعة مثيرة، تعنى أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضل واسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجّة، وساروا فى طريق الضلال.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآية أيضاً، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى وعلماء ومن صفات صريحة لنبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفظع وأسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

والآية التى بعدها تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند اللّه من مثوبة: «جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ».

عبارة «أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» تبيّن بجلاء أنّ الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء والآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ» «۱».

إنّهم راضون عن اللّه لأنّ اللّه أعطاهم ما أرادوه، واللّه راض عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده منهم، وإن كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه وكرمه، وأيّة لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنّه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، ونعيم روحه رضا اللّه ولقاؤه، لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كل طاعة وتقوى وعمل صالح.

بحث

علی علیه السلام وشیعته خیر البریّة: ثمّة روایات کثیرة بطرق أهل السنّة فی مصادرهم الحدیثیة المعروفة، وهکذا فی المصادر الشیعیة، فسّرت الآیة: «أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ» بأنّهم علی بن أبی طالب علیه السلام وشیعته.

---

(۱) سورة الإسراء/ ۷۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۰۹

فی الدر المنثور عن ابن عباس قال: لما نزلت «إِنَّ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ»، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام: «هو أنت وشیعتک یوم القیامة راضین مرضیین».

وأخرج ابن مردویه عن علی علیه السلام قال: «قال لی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: ألم تسمع قول اللَّه «إِنَّ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ» أنت وشیعتک وموعدی وموعدکم الحوض، إذا جئت الامم للحساب تدعون غرّاً محجلین».

هذا الحدیث من الأحادیث المعروفة المشهورة المقبولة لدی أکثر علماء الإسلام، وفیه بیان لفضیلة کبری من فضائل علی علیه السلام وأتباعه.

وهذه الروایات تدل ضمناً أنّ کلمة «الشیعة» باعتبارها اسماً لأتباع علی علیه السلام کانت قد شاعت منذ عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بین المسلمین علی لسان الرسول نفسه. واولئک الذین یخالون أنّ الکلمة هذه ظهرت فی عصور متأخرة فی خطأ کبیر.

«نهایة تفسیر سورة البیّنة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۱

۹۹. سورة الزلزلة

محتوی السورة: هذه السورة تدور مفاهیمها حول ثلاثة محاور: تتحدث أوّلًا: عن علامات البعث ویوم القیامة؛ و ثانیاً: عن شهادة الأرض علی جمیع أعمال العباد؛ و ثالثاً: تقسم الناس إلی مجموعتین صالحة وطالحة، وتبیّن أنّ کل مجموعة تری ثمار عملها.

فضیلة تلاوة السورة: فی المجمع ابی بن کعب عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأها فکأنّما قرأ البقرة واعطی من الأجر کمن قرأ ربع القرآن».

وفی الکافی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السلام قال: «لا تملوا من قراءة إذا زلزلت الأرض زلزالها فإنّه من کانت قراءته بها فی نوافله لم یصبه اللَّه عزّ وجل بزلزلة أبداً، ولم یمت بها ولا بصاعقة ولا بآفة من آفات الدنیا حتی یموت».

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (۲) وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (۳) یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (۴) بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحَی لَهَا (۵) یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِیُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (۶) فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ (۷) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً یَرَهُ (۸)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۲

هذه السورة تبدأ ببیان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التی ترافق نهایة هذا العالم وبدء البعث والنشور. تقول: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا». «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا».

عبارة «زلزالها» تعنی أنّ الأرض بأجمعها تهتز فی ذلک الیوم (خلافاً للزلازل العادیة الموضعیة عادة) أو أنّها إشارة إلی الزلزلة المعهودة، أی زلزلة یوم القیامة.

و «الأثقال»- جمع ثقل، بمعنی الحمل- ذکر لها المفسرون معانی متعددة. قیل: إنّها البشر الذین یخرجون من أجداثهم علی أثر الزلزال؛ کما جاء فی الآیة (۴) من سورة الإنشقاق:

«وَأَلْقَتْ مَا فِیهَا وَتَخَلَّتْ».

وقيل إنّها الكنوز المخبوءة التى ترتمى إلى الخارج، وتبعث الحسرة فى قلوب عبّاد الدنيا.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة فى باطن الأرض، وهو ما يحدث أثناء البراكين والزلازل، فإنّ الأرض فى نهاية عمرها تدفع ما فى أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم.

ويمكن الجمع بين هذه التفاسير.

فى ذلك الجو الملىء بالرهبة والفزع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول فى ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل وتلقى ما فى باطنها؟ «وَقَالَ الْإِنسنُ مَا لَهَا».

إنّ الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض فى ذلك اليوم لا يختص بالكافرين.

هذا السؤال التعجبى يرتبط بالنفخة الاولى، حيث تحدث الزلزلة الكبرى وينتهى فيها هذا العالم.

وفى هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها وكنوزها والمواد المذابة فيها.

وأهم من ذلك أنّ الأرض: «يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا».

تحدّث بالصالح والطالح، وبأعمال الخير والشر، مما وقع على ظهرها، وهذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان فى ذلك اليوم، وهى إذن رقيبة على ما نفعله عليها.

وفى المجمع: جاء فى الحديث أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا، وكذا وهذا أخبارها».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۳

«بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا».

فما فعلته الأرض إنّما كان بوحى ربّها، وهى لا تتوانى فى تنفيذ أمر الرب.

وعبارة «أوحى» إنّما هى لبيان أنّ حديث الأرض خلاف طبيعتها، ولا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحى الإلهى.

«يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ».

«أشتات»: جمع «شتّ» وهو المتفرق والمبعثر، أى أنّ الناس يردون ساحة المحشر متفرقين مبعثرين، وقد يكون التفرق والتبعثر لورود أهل كل دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كل نقطة من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعة بأشكال جميلة مستبشرة، وجماعة بوجوه عبوسة مكفهرة إلى المحشر.

أو أنّ كل امّة ترد مع إمامها وقائدها؛ كما فى الآية (۷۱) من سورة الإسراء: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ».

أو أن يحشر المؤمنون مع المؤمنين والكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماماً لأنّ مفهوم الآية واسع.

«يصدر»: من الصدور، وهو خروج الإبل من بركة الماء مجتمعة هائجة، وعكسه الورود.

وهى هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور وورودهم على المحشر للحساب.

المقصود من عبارة «لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» هو: «تجسم الأعمال» ورؤية الأعمال نفسها.

وهذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم الأعمال، حيث تتخذ الأعمال فى ذلك اليوم أشكالًا تتناسب مع طبيعتها وتنتصب أمام صاحبها، وتكون رفقتها سروراً وانشراحاً أو عذاباً وبلاءً.

ثم ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة والكافرة، الصالحة والطالحة.

«فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ». «وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

ظاهر الآیـة یـدل أیضاً علی مسألـة «تجسم الأعمال» ومشاهدة العمل نفسه، صالحاً أم طالحاً، یوم القیامة، حتی إذا عمل ما وزنه ذرّة من الذرّات یره مجسماً یوم القیامة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۴

«مثقال»: فی اللغة بمعنی الثقل، وبمعنی المیزان الذی یقاس به الثقل؛ والمعنی الأوّل هوالمقصود فی الآیة.

و «الذرّة»: ذکروا لها معانی متعددة من ذلک، فهو هنا أصغر وزن.

الآیتان المذکورتان وآیات اخری مشابهة تدلّ دلالة واضحة علی الدقّة المتناهیة فی تحرّی الأعمال وفی المحاسبة یوم القیامة، کقوله سبحانه: «یَا بُنَیَّ إِنَّهَا إِن تَکُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَکُن فِی صَخْرَةٍ أَوْ فِی السَّموَاتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ» «۱».

هـذه التعابیر القرآنیـة تـدلّ علی أنّ أصـغر الأعمال یحاسب علیها فی تلک المحاسـبة الکبری، وهـذه الآیات تحذر أیضاً من استصـغار الذنوب الصغیرة، أو التهاون فی أعمال الخیر والصغیرة. فما یحاسب علیه اللَّه سبحانه- مهما کان- لیس بقلیل الأهمیة.

وحقّاً، لو تدبر الإنسان فی محتوی هذه الآیة تکفیه دافعاً إلی طریق الخیر وناهیاً عن طریق الفساد والإنحراف.

«نهایة تفسیر سورة الزلزلة»

---

(۱) سورة لقمان/ ۱۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۵

۱۰۰. سورة العادیات

محتوی السورة وفضیلتها: هذه السورة تبدأ بالقسم بامور محفّزة محرکة، ثم تتناول بعض مظاهر الضعف البشری کالکفر والبخل وحب الدّنیا، ثم تشیر السورة إلی مسألة المعاد وإحاطة اللَّه بعباده.

فی المجمع ابی بن کعب عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأها اعطی من الأجر عشـر حسـنات بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً».

وعن الإمـام الصـادق صـلی الله علیه و آله قـال: «من قرأ والعادیـات وأدمن قراءتهـا بعثه اللَّه مـع أمیر المؤمنین علیه السـلام یوم القیـامة خاصة، وکان فی حجره ورفقائه».

إنّ هذه الفضائل إنمّا هی نصیب من جعل السورة منهاجاً لحیاته وآمن بکلّ محتواها وعمل بها.

وَ الْعَادِیَاتِ ضَبْحاً (۱) فَالْمُورِیَاتِ قَدْحاً (۲) فَالْمُغِیرَاتِ صُبْحاً (۳) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (۴) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (۵) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَکَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلَی ذلِکَ لَشَهِیدٌ (۷) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ (۸) أ فَلَا یَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِی الْقُبُورِ (۹) وَ حُصِّلَ مَا فِی الصُّدُورِ (۱۰) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ یَوْمَئِذٍ لَخَبِیرٌ (۱۱)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۶

سبب النّزول

فی المجمع: قیل: نزلت السورة لما بعث النبی صلی الله علیه و آله علیّاً إلی ذات السلاسل فأوقع بهم. وذلک بعد أن بعث علیهم مراراً غیره من الصحابة فرجع کل منهم إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو المروی عن أبی عبداللَّه علیه السلام فی حدیث طویل قال: وسمیت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنّه أسر منهم، وقتل وسبی وشدّ أسراهم فی الحبال مکتفین کأنّهم فی السلاسل. ولما نزلت السورة خرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی الناس، فصلی بهم الغداة وقرأ «والعادیات» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم

نعرفها؟ فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «نعم إن علياً ظفر بأعداء اللَّه وبشّرنى بذلك جبرائيل عليه السلام فى هذه الليلة». فقدم على عليه السلام بعد أيّام بالغنائم والأسارى.

التّفسير

قَسماً بالمجاهدين الواعين: قلنا إنّ هذه السورة تبدأ بالقَسم بأمور محفّزة متبهة، تقسم أوّلًا بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان الجهاد) وهى تحمحم وتتنفس بشدّة: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا».

ويمكن أن يكون القَسم هذا بإبل الحجاج المتجهة من عرفات إلى المشعر الحرام، ومن المشعر الحرام إلى منى وهى تتنفس بشدّة.

وهذا التّفسير أنسب من عدّة جهات، وورد فى روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً.

«العاديات»: جمع عادية، من «العدو» وهو المغادرة والإبتعاد بالقلب. فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجية فيكون (العدو) وهو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان).

و «العاديات» فى الآية هى الجاريات بسرعة.

«الضبح»: صوت الخيل وهى تتنفس بشدّة عند الجرى.

ثم يأتى القَسم التالى بهذه العاديات التى تورى النيران بحوافرها:

«فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا».

وهى خيل المجاهدين التى تجرى بسرعة فائقة فى ميدان القتال، بحيث تنقدح النار من تحت أرجلها جرّاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هى الإبل التى تجرى بين مواقف الحج، فتتطاير الحصى والحجارة من تحت أرجلها وترتطم بحصى وحجارة اخرى فتنقدح النيران.

«الموريات»: جمع «مورية» والإيراء يعنى أضرام النار.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۷

«القدح»: ضرب الحجارة أو الخشب أو الحديد بما يشبهه لتوليد النار.

والقسم الثالث بالتى تغير صباحاً على الأعداء: «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا».

«المغيرات»: جمع «مغيرة» والإغارة: الهجوم على العدو، وقيل إنّ الكلمة تتضمّن معنى الهجوم بالخيل.

ثم تشير الآية التالية إلى سرعة هذه العاديات فى هجومها، وذلك بإثارتها الغبار فى كل جانب: «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا».

أو أنّ الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

«أثرن»: من الإثارة، وهى نشر الغبار والدخان فى الجو.

وفى آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآية أنّها ظهرت بين الإعداء فى الفجر:

«فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا».

هجومها كان مباغتاً خاطفاً بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف العدّو وتشن حملتها فى قلبه، وتُشتت جمعه. وهذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعة ويقظة وإستعداد وشهامة وشجاعة.

أو إنّها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

من هنا يتّضح أنّ الجهاد له منزلة عظيمة حتى أنّ أنفاس خيل المجاهدين استحقت أن يقسم بها ... وهكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول ... والغبار الذى تثيره فى الجو ...

نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمة وعظمة.

ثم يأتى جواب القسم، ويقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنسَنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ».

نعم، الإنسان البعيد عن التربية الصحيحة ... والذى لم تشرق فى قلبه أنوار المعارف الإلهية وتعاليم الأنبياء ... الإنسان الخاضع لأهوائه وشهواته الجامحة هو حتماً كفور بالنعمة وبخيل ... إنّه لكنود.

و «كنود»: اسم للأرض التى لا تنبت، وتطلق على الإنسان الكفور والبخيل أيضاً.

كلمة (الإنسان) فى مثل هذه الاستعمالات القرآنية تعنى الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحة والطغيان.

«وَإِنَّهُ عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ». فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أن يخفى سريرته فلا يستطيع أن يخفيها عن اللَّه وعن ضميره، اعترف بهذه الحقيقة أم لم يعترف.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۸

«وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ». أى أنّه شديد الحبّ للمال والمتاع.

إطلاق «الخير» على المال فى الآية يعود إلى أنّ المال فى حد ذاته شيء حسن، ويستطيع أن يكون وسيلة لأنواع الخيرات، لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلى، وينفقه فى طريق ذاتياته وأهوائه.

وفى استفهام استنكارى يقول سبحانه: «أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ». «وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ». وانكشف ما فى نفسه من كفر وايمان، ورياء واخلاص وغرور وتواضع وسائر نيات الخير والشر.

«إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ». نعم، فهو عليم بأعمالهم ونياتهم وسيجازيهم وفقها.

«بعثر»: من «البعثرة» وهى البعث والإثارة والإخراج وبعثرة ما فى القبور، بعث الموتى واخراجهم من القبور.

«حُصّل»: من التحصيل، وهو فى الأصل يعنى إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفية المعادن، واستخراج الذهب وأمثاله من الخامات. ثم استعملت لمطلق الإستخراج والفصل.

والكلمة فى الآية تعنى فصل الخير عن الشر فى القلوب ... الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السيئة ... أو النوايا الحسنة عن الخبيثة ... تُفصل فى ذلك اليوم وتظهر، وينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه.

والتعبير بكلمة «يومئذ» يعنى أنّ اللَّه (فى ذلك اليوم) خبير بأعمال العباد وسرائرهم.

ونعلم أنّ اللَّه سبحانه عليم دائماً بذات الصدور. فالتعبير «يومئذ» هو لأنّ ذلك اليوم يوم الجزاء، واللَّه يجازيهم على أعمالهم وعقائدهم.

نعم، اللَّه سبحانه عليم وخبير بأسرارنا وما تنطوى عليه نفوسنا كاملًا، لكن أثر هذا العلم سيكون أظهر وأوضح عند الجزاء، وهذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سداً منيعاً بينهم وبين الذنوب.

«نهاية تفسير سورة العاديات»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۱۹

۱۰۱. سورة القارعة

محتوى السورة وفضيلتها: تتناول هذه السورة بشكل عام، المعاد، ومقدماته، حيث تُصنّف الناس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين: الجماعة التى تكون أعمالها ثقيلة فى ميزان العدل الإلهى، فتحظى جزاءً بذلك، حياة راضية سعيدة فى جوار الرحمة الإلهية، وجماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش فى نار جهنم الحارّة المحرقة.

وقد اشتقّ اسم هذه السورة، أى (القارعة) من الآية الاولى فيها.

فى المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ القارعة أمنه اللَّه من فتنة الدجال أن يؤمن به، ومن قيح جهنم يوم القيامة».

الْقَارِعَةُ (۱) مَا الْقَارِعَةُ (۲) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (۳) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (۴) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (۶) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (۸) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (۹) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (۱۰) نَارٌ حَامِيَةٌ (۱۱)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۰

الحادثة القارعة: هذه الآيات تصف القيامة وتقول: «الْقَارِعَةُ* مَا الْقَارِعَةُ».

«القارعة»: من القرع، وهو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد، وسمّيت كل حادثة هامّة صعبة بالقارعة. (تاء التأنيث قد تكون إشارة للتأكيد).

الآية الثالثة تخاطب حتى النبى صلى الله عليه و آله وتقول له: «وَمَا أَدْرَيكَ مَا الْقَارِعَةُ». وهذا يدل على أنّ عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد.

أكثر المفسرين ذكروا أنّ «القارعة» أحد أسماء القيامة، ولكن لم يوضّحوا هل أنّه اسم لمقدمات القيامة إذ تقرع هذه الدنيا.

أو إنّه اسم للمرحلة التالية .. أى مرحلة احياء الموتى، وظهور عالم جديد، وتسميتها «القارعة»- فى هذه الحالة- لما تبعثه من خوف وذعر فى القلوب ..

ولكن الإحتمال الأوّل أنسب، وإن ذكرت الحادثتان كلاهما فى هذه الآيات متتابعتين.

وفى وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ».

والتشبيه بالفراش قد يكون لأنّ هذه الحشرات تلقى بنفسها بشكل جنونى فى النار، وهذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم فى جهنم.

ثم تذكر الآية التالية وصفاً آخر لذلك اليوم وتقول: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ».

و «العهن»: هو الصوف المصبوغ.

و «المنفوش»: هو المنشور ويتمّ ذلك عادة بآلة الحلج الخاصة.

سبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم فى مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنّها تتحرك أوّلًا، ثم تُدَكّ وتتلاشى وأخيراً تصبح بشكل غبار متطاير فى السماء. وهذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج ... الصوف المتطاير فى مهبّ الريح، لم يبق منه إلّاألوان ... وهذه آخر مراحل انهدام الجبال.

ثم تتطرق الآيات التالية إلى الحشر والنشر وإحياء الموتى وتقسيمهم إلى مجموعتين:

«فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ». أى إنّ ميزان عمله ثقيل. «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَيكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ» «۱».

«موازين»: جمع ميزان، وهو وسيلة للوزن، تستعمل فى وزن الأجسام، ثم استعملت فى المعايير المعنوية.

---

(۱) «ماهيه»: أصلها «ما هى»، والهاء الحقت بها للسكت.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۱

وليس من الضرورى أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كل وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد فى‌الحديث: «إنّ أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» «۱».

وفى احتجاج الطبرسى عن الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «العدل».

وبهذا نفهم أنّ أولياء اللَّه وقوانين العدل الإلهى هى موازين يعرض عليها الناس وأعمالهم ويتمّ قياس الوزن على مقدار الشبه والمطابقة.

واضح أنّ المقصود بثقل الموازين وخفتها هو ثقل الأشياء التى توزن بها وخفة تلك الأشياء.

كلمة «ام» فى قوله: «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» تعنى المأوى والملجأ، لأنّ «الام» هى مأوى ابنائها وملاذهم، ويكون معنى الآية: إنّ هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، وويل لمن كان ملجؤه جهنم.

«نهاية تفسير سورة القارعة»

(۱) تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد/ ۱۱۵.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۳

۱۰۲. سورة التكاثر

محتوى السورة: هذه السورة تتناول فى مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استناداً إلى مسائل موهومة، وتذم ذلك وتلوم عليه، ثم تحذرهم من حساب المعاد وعذاب جهنم وممّا سيسألون يوم ذاك عن النعم التى منّ اللّه بها عليهم.

وقد اشتقّ اسم هذه السورة، أى (التّكاثر) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها لم يحاسبه اللّه بالنعيم الذى أنعم عليه فى دار الدنيا، واعطى من الأجر كأنّما قرأ ألف آية».

إنّ كل هذا الثواب إنّما هو لمن يقرأها ولمن يطبقها فى برنامج حياته ويتفاعل معها روحياً ونفسياً.

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (۱) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (۲) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۴) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (۵) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (۶) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (۷) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (۸)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۴

سبب النّزول

المفسرون يعتقدون أنّ السورة نزلت فى قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال والأنفس حتى أنّها كانت تذهب إلى المقابر وتعدّ موتاها لترفع احصائية أفراد القبيلة.

سبب النزول- مهما كان- فهو لا يحد قطعاً معنى الآية.

التّفسير

بلاء التكاثر والتفاخر: الآيات الاولى توجّه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين وتقول:

«أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ». فى الأنفس والأموال.

حتى إنّكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ».

«ألهاكم»: من «اللهو» وهو الإنشغال بالأعمال الصغيرة والإنصراف عن المهام الكبيرة؛ و «التكاثر»: يعنى التفاخر والمباهاة.

«زرتم»: من الزيارة و «زَور» (على وزن قول) فى الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثم استعمل للقاء والمواجهة؛ «المقابر»: جمع مقبرة، وهى مكان دفن الميت. وزيارة المقابر إمّا أن تكون كناية عن الموت، أو بمعنى الذهاب إلى المقابر وإحصاء الموتى بهدف التكاثر فى الأنفس والتفاخر بالعدد (حسب التفسير المشهور).

والمعنى الثانى أصح، وأحد شواهده كلام لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام- فى الخطبة (۲۲۱) نهج البلاغة- قاله بعد تلاوته: «أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» «يا له مراماً أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أىّ مدّكر وتناوشوهم من مكان بعيد! أفبمصارع آبائهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت. ولأن يكونوا

عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً».

الآيات التالية فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين، تقول: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

فليس الأمر كما ترون، وبه تتفاخرون، بل سوف تعلمون عاجلًا نتيجة هذا التكاثر الموهوم.

لمزيد من التأكيد يقول سبحانه: «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى المجمع عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التّكاثر، إلى قوله: كلّا سوف تعلمون، يريد فى القبر، ثم كلّا سوف تعلمون، بعد البعث».

«كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ». كلّا ليس الأمر كما تظنون أيّها المتفاخرون المتكاثرون.

فلو أنّكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر والمباهاة بهذه المسائل الباطلة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۵

ولمزيد من التأكيد والإنذار تقول لهم الآيات التالية:

«لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ». «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ».

فى ذلك اليوم عليكم أن توضحوا كيف انفقتم تلك النعم الإلهية؛ وهل استخدمتموها فى طاعة اللّه أم فى معصيته، أم أنّكم ضيعتم النعمة ولم تؤدّوا حقّها.

إنّ النعيم له معنى واسع جدّاً يشمل كل المواهب الإلهية المعنوية منها مثل: الدين والإيمان والإسلام والقرآن والولاية، وأنواع النعم المادية الفردية منها والاجتماعية. بيد أنّ النعم التى لها أهمية أكبر مثل: نعمة «الإيمان والولاية» يُسأل عنها أكثر، هل أدّى الإنسان حقّها أم لا؟

بحثان

۱- منبع التفاخر والتكاثر: من آيات السورة يتبيّن أنّ أحد العوامل الأساسية للتفاخر والتكاثر والمباهات، هو الجهل بجزاء الآخرة وعدم الإيمان بالمعاد.

كما أنّ جهل الإنسان بضعفه ومسكنته ... ببدايته ونهايته ... من العوامل الاخرى الباعثة على الكبر والغرور والتفاخر.

ثم عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة الناتجة عن الفشل.

والأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر والمباهات، ولذلك فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من رجل تكبر أو تجبّر إلّالذلة وجدها فى نفسه».

۲- اليقين ومراحله: «اليقين» يقابل «الشك». ويستفاد من الروايات أنّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان، وهى ثلاثة:

أ) علم اليقين: وهو الذى يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أن هناك ناراً.

ب) عين اليقين: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلًا النار.

ج) حق اليقين: وهو كأن يدخل الإنسان النار بنفسه ويحسّ بحرقتها، ويتصف بصفاتها.

وهذه أعلى مراحل اليقين؛ وهو فى الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأنّ خلاف ذلك العلم محال.

«نهاية تفسير سورة التّكاثر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۷

۱۰۳. سورة العصر

محتوى السورة: شمولية هذه السورة تبلغ درجة حدت ببعض المفسرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن وأهدافه.

تبدأ السورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. ثم تتحدث عن خسران كل أبناء البشر خسراناً قائماً فى طبيعة حياتهم التدريجية، ثم تستثنى مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، وهى التى لها منهج ذو أربع مواد:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، وهذه الاصول الأربعة هى فى الواقع المنهج العقائدى والعملى الفردى والإجتماعى للإسلام.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ والعصر فى نوافله بعثه اللّه يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنّه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنة».

إنّ هذه الفضائل وهذه البشرى نصيب من طبّق الاصول الأربعة المذكورة فى حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها.

وَ الْعَصْرِ (۱) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِی خُسْرٍ (۲) إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (۳)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۸

فى بداية هذه السورة نواجه قَسماً قرآنيا جديداً. يقول سبحانه: «وَالْعَصْرِ».

«العصر»: فى الأصل الضغط، وإنّما اطلق على وقت معين من النهار لأنّ الأعمال فيه مضغوطة. ثم اطلقت الكلمة على مطلق الزمان ومراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زمانى معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام.

قيل: إنّه كل الزمان وتاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، والأحداث الجسيمة. وهو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهى.

بعضهم قال: إنّه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدى المنتظر عليه السلام، وهى مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة وعظمة فائقة فى تاريخ البشر.

والقسم فى الآية إنّما هو بتلك الأزمنة الخاصة.

ولكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان وتاريخ البشرية، لأنّ القسم القرآنى- كما ذكرنا مراراً- يتناسب مع الموضوع الذى أقسم اللّه من أجله ومن المؤكّد أنّ خسران الإنسان فى الحياة ناتج عن تصرّم عمره، أو أنّه عصر بعثة الرسول صلى الله عليه و آله، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع فى ذيل هذه السورة نزل فى هذا العصر.

الآية التالية تحمل الموضوع الذى جاء القَسم من أجله. يقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنسنَ لَفِى خُسْرٍ».

الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات والأيّام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

القلب له قدرة معينة على الضربان، وحين تنفد هذه القدرة يتوقف القلب تلقائياً دون علّة من عيب أو مرض، هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض، وهكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، وثروات قدراته المختلفة.

إنّ الدنيا فى المنظور الإسلامى سوق تجارة، كما يقول الإمام على بن محمّد الهادى عليه السلام:

«الدنيا سوق، ربح فيها قوم وخسر آخرون» «۱».

الآية الكريمة التى نحن بصددها تقول: كل الناس فى هذه السوق الكبرى خاسرون إلّا مجموعة تسير على المنهج الذى تبيّنه الآية التالية.

---

(۱) تحف العقول/ ۴۸۳.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۲۹

نعم، هناك طريق واحد لا غير لتفادى هذا الخسران العظيم القهرى الإجبارى، وهو الذى تبيّنه آخر آيات هذه السورة.

«إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

بحث

منهـج السـعادة ذو المواد الأربع: من المهم أن نقف ولو قليلًا عند المنهج الذى وضـعه القرآن الكريـم للنجاة من ذلك الخسـران ... إنّه منهج يتكون من أربعة اصول هى:

الأصـل الأوّل: «الإيمـان» وهو البنـاء التحتى لكـل نشاطـات الإنسـان، لأنّ فعاليات الإنسان العمليـة تنطلق من اسـس فكره واعتقاده، لا كالحيوانات المدفوعة فى حركاتها بدافع غريزى.

بعبارة اخرى: أعمال الإنسان بلورة لعقائـده وأفكاره، ومن هنا فإنّ جميع الأنبياء بدأوا قبل كل شـىء باصـلاح الاسـس الإعتقادية لُلامم والشعوب، وحاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل والشقاوة والتمزق الإجتماعى.

الأصل الثانى: «العمل الصالـح» وهو ثمرة دوحـة الإيمان. تقول الآية: «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» لا العبادات فحسب، ولا الإنفاق فى سبيل اللَّه وحـده، ولا الجهاد فى سبيل اللَّه فقط، ولا الإكتفاء بطلب العلم ... بل كل الصالحات التى من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس وتربية الأخلاق والقرب من اللَّه، وتقدم المجتمع الإنسانى.

ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلّافى ظل حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والإستقامة على طريق النهوض باعباء الرسالة، فإنّ هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما فى الحقيقة ضمان لتنفيذ أصلَى «الإيمان» و «العمل الصالح».

الأصـل الثـالث: «التواصـى بالحق» أى الـدعوة العامـة إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، ويضـعوه نصب أعينهم، ولا ينحرفون عنه فى مسيرتهم الحياتية.

الأصل الرابع: «التواصـى بالصبر» والاسـتقامة، إذ بعـد الإيمان والحركة فى المسـيرة الإيمانية تبرز فى الطريق العوائق والموانع والسـرور. وبدون الاستقامة والصبر لا يمكن المواصلة فى إحقاق الحق والعمل الصالح والثبات على الإيمان.

نعم، إحقاق الحق فى المجتمع لا يمكن من دون حركة عامة وعزم اجتماعى، ومن دون

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۰

الإستقامة والوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنا يحمل مفهوماً واسعاً يشمل الصبر على الطاعة، والصبر على دوافع المعصية، والصبر إزاء المصائب والحوادث المرّة، وفقدان الإمكانات والثروة والثمرات.

والمسـلمون اليوم إذا طبقوا هـذه الاـصول الأربعـة فى حياتهم الفرديـة والاـجتماعيـة لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتـدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصاراً، ولاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

«نهاية تفسير سورة العصر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۱

۱۰۴. سورة الهمزة

محتوى السورة: هـذه السورة تتحـدث عن اناس كرسوا كل همهم لجمع المال، وحصـروا كل قيم الإنسان الوجودية فى هذا الجمع. ثم هم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.

السورة تتحدث فى النهاية عن المصير المؤلم الذى ينتظر هؤلاء، وكيف أنّهم يلقون فى جهنم صاغرين، وأنّ نار جهنم تتجه بلظاها أوّلًا إلى قلوبهم المليئة بالكبر والغرور، وتحرقها بالنار، بنار مستمرة.

فضـيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صـلى الله عليه و آله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشـر حسـنات بعـدد من

استهزأ بمحمّد وأصحابه».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ويل لكل همزة فى فريضة من فرائضه، نفت عنه الفقر وجلبت عليه الرزق وتدفع عنه ميتة السوء».

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (۱) الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ (۲) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (۳) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (۴) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (۵) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (۶) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (۷) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (۸) فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (۹)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۲

سبب النّزول

فى المجمع: قيل: إنّ الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبى صلى الله عليه و آله من ورائه صلى الله عليه و آله ويطعن عليه فى وجهه.

وقيل: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى، وكان يلمز الناس ويغتابهم.

ولكن، إن قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفى ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنّها تستوعب كل الذين يحملون هذه الصفات.

التّفسير

الويل للهمّازين واللمّازين: تبدأ هذه السورة بتهديد قارع وتقول: «وَيْلٌ لِّكُلّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» ... لكل من يستهزىء بالآخرين، ويعيبهم، ويغتابهم، ويطعن بهم، بلسانه وحركاته وبيده، وعينه وحاجبه.

«الهمزة» و «اللمزة»: صيغتا مبالغة. من مجموع آراء اللغويين فى الكلمتين يستفاد أنّهما بمعنى واحد، ولهما مفهوم واسع يشمل كل ألوان إلصاق العيوب بالناس وغيبتهم والطعن والإستهزاء بهم، باللسان والإشارة والنميمة والذم.

أساساً، الإسلام ينظر إلى شخصية الإنسان وكرامته باحترام بالغ، ويعدّ أىّ عمل يؤدى إلى إهانة الآخرين ذنباً كبيراً. وفى أمالى الصدوق عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «أذل الناس من أهان الناس».

وفى عوالى اللئالى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «رأيت ليلة الإسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه، ويقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم. فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟

فقال: هؤلاء الهمازون من امّتك اللمازون».

ثم تذكر الآية التالية منبع ظاهرة اللمز والهمز فى الأفراد، وترى أنّها تنشأ غالباً من كبر وغرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد، وتقول: «الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» بطريق مشروع أو غير مشروع.

فهو انشدّ بالمال انشداداً جعله منشغلًا دائماً بعدّ المال والإلتذاذ ببريق الدرهم والدينار.

تحول الدرهم والدينار عنده إلى وثن ويرى فيه شخصيته وينظر من خلاله أيضاً إلى شخصية الآخرين، ومن الطبيعى أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية والإستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

«عدده»: من (عدّ) بمعنى حَسَب. هذه الآية تقصد الذين يدّخرون الأموال ولا ينظرون

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۳

إليها باعتبارها وسيلة بل هدفاً، ولا يحدّهم قيد أو شرط فى جمعها، حتى ولو كان من طريق الحرام والإعتداء على حقوق الآخرين وارتكاب كل دنيئة ورذيلة، ويعتبرون ذلك دليلًا على عظمتهم وشخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتية، ولذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلّما كثرت أموالهم، وإلّا فإنّ المال فى الحدود المعقولة ومن الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إنّ القرآن الكريم عبّر عنه فى موضع بأنّه «فضل اللَّه»؛ حيث يقول تعالى فى الآية (۱۰) من سورة الجمعة: «وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ».

وفی موضع آخر یسمیه خیراً، کقوله سبحانه فی الآیة (۱۸۰) من سورة البقرة: «کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَکَ خَیْرًا الْوَصِیَّةُ».

مثل هذا المال لیس بالتأکید مبعث طغیان، ولا وسیلة تفاخر، ولا دافع سخریة بالآخرین، لکن المال الذی یصبح معبوداً وهدفاً نهائیاً، ویدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلی الطغیان، هو العار والذلة والمأساة ومبعث البعد عن اللّه والخلود فی النار.

ومثل هذا المال لا یمکن جمعه وعدّه إلّابالسقوط فی أوحال الحرام. فی الخصال عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام قال: «لا یجتمع المال إلّابخصال خمس: ببخل شدید، وأمل طویل، وحرص غالب، وقطیعة الرحم، وایثار الدنیا علی الآخرة».

فی الآیة التالیة یقول سبحانه: «یَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ».

ما أتفه هذا التفکیر! قارون بکل ما کان یملکه من کنوز لا تستطیع العصبة أولو القوّة أن تحمل مفاتحها، لم یستطع أن یستخدم أمواله لتأخیر مصیره الأسود ساعة واحدة:

«فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ» «۱».

الأموال التی کان یمتلکها الفراعنة: «مِن جَنَّاتٍ وَعُیُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ کَرِیمٍ وَنَعْمَةٍ کَانُوا فِیهَا فَاکِهِینَ» «۲»، تحولت فی ساعة إلی غیرهم: «کَذلِکَ وَأَورَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِینَ» «۳».

لذلک فإنّ هؤلاء اللاهین بأموالهم، حین تزول من أمام أعینهم الحجب والأستار یوم القیامة یرفعون عقیرتهم بالقول: «مَا أَغْنَی عَنِّی مَالِیَهْ هَلَکَ عَنِّی سُلْطَانِیَهْ» «۴».

من هنا یتبیّن أنّ الظن بقدرة المال علی الإخلاد، هو الذی یدفع إلی جمع المال، وجمع المال

---

(۱) سورة القصص / ۸۱.

(۲) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۷.

(۳) سورة الدخان/ ۲۸.

(۴) سورة الحاقّة/ ۲۸ و ۲۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۴

مختصر الامثل ج۵ ۵۷۵

أیضاً عامل علی الإستهزاء والسخریة بالآخرین عند هؤلاء الغافلین.

القرآن الکریم یردّ علی هؤلاء ویقول: «کَلَّا لَیُنبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ». کلّا، لیس الأمر کما یتصور، فسرعان ما یقذف باحتقار وذلّة فی نار محطّمة «وَمَا أَدْرَیکَ مَا الْحُطَمَةُ* نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفِدَةِ».

«لینبذنّ»: من نبذ، أی رمی الشیء لتفاهة قیمته.

أی إنّ اللّه سبحانه یرمی هؤلاء المغرورین المتعالین یوم القیامة فی نار جهنم کموجودات تافهة لا قیمة لها، لیروا نتیجة کبرهم وغرورهم.

«الحطمة»: صیغة مبالغة من «حطّم» أی هشّم. وهذا یعنی أنّ نار جهنم تهشّم أعضاء هؤلاء.

عبارة «نار اللّه» دلیل علی عظمة هذه النار؛ و «الموقدة» تعنی استعارها المستمر.

والعجیب أنّ هذه النار لیست مثل نار الدنیا التی تحرق الجلد أوّلًا ثم تنفذ إلی الداخل، بل هی تبعث بلهبها أوّلًا إلی القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أوّلًا بالقلب ثم بما یحیطه، ثم تنفذ إلی الخارج.

لماذا لا تکون کذلک، وقلوب هؤلاء الطاغین مرکز للکفر والکبر والغرور، وبؤرة حبّ الدنیا والثروة والمال؟!

إنّهم فى هذه الدنيا احرقوا قلوب المؤمنين بسخريتهم وهمزهم ولمزهم؟! العدالة الإلهية تقتضى أن يرى هؤلاء جزاء يشبه أعمالهم.

الآيات الأخيرة من السورة تقول: «إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ* فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ».

و «مؤصدة»: من الإيصاد، بمعنى الأحكام فى غلق الباب.

هؤلاء يقبعون فى غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم فى الخزانات المغلقة الموصدة.

جمع من المفسرين قال: إنّها الأوتاد الحديدية العظيمة التى تغلق بها أبواب جهنم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً، وهى بذلك تأكيد على الآية السابقة التى تقول: «إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ».

«نهاية تفسير سورة الهمزة»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۵

۱۰۵. سورة الفيل

محتوى السورة: هذه السورة- كما يظهر من اسمها- تشير إلى الحادثة التاريخية التى اقترنت بولادة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وفيها نجّى اللَّه سبحانه الكعبة من شرّ جيش كافر كبير تجهّز من اليمن ممتطياً الفيل.

التذكير بهذه القصة فيه تحذير للكفار المغرورين المعاندين، كى يفهموا ضعفهم تجاه قدرة اللَّه تعالى الذى أباد جيشاً عظيماً بطير أبابيل تحمل حجارة من سجّيل، وهو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى الفريضة «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدر بأنّه كان من المصلين، وينادى يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له، أو عليه. أدخلوا عبدى الجنة، ولا تحاسبوه فإنّه ممن احبّه واحبّ عمله».

إنّ هذه الفضائل وهذا الثواب لمن كانت قراءته باعثاً على انكسار روح الغرور فى نفسه، وعلى السير فى طريق رضا اللَّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۶

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (۵) قصة أصحاب الفيل: ذكر المفسرون والمؤرخون: إنّ «ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كى يتخلوا عن دينهم (ذكر القرآن قصة هذا الإضطهاد فى موضوع أصحاب الأخدود فى سورة البروج).

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) وتوجه إلى قيصر الروم الذى كان على دين المسيح، وشرح له ما جرى.

ولما كانت المسافة بين الروم واليمن بعيدة، كتب القيصر إلى النجاشى (حاكم الحبشة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، وارسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهّز النجاشى جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) ووجهه إلى اليمن، وكان (أبرهة) أيضاً من قواد ذلك الجيش.

اندحر (ذو نواس) وأصبح (أرياط) حاكماً على اليمن، وبعد مدّة ثار عليه أبرهة وأزاله من الحكم وجلس فى مكانه.

بلغ ذلك النجاشى، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة أعلن استسلامه الكامل للنجاشى ووفاءه له. حين رأى النجاشى منه ذلك عفا عنه وأبقاه فى مكانه.

و (أبرهة) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسة ضخمة جميلة غاية الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، وقرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن يحجّوا إليها بدل (الكعبة)، وينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن.

أرسل أبرهة الوفود والدعاة إلى قبائل العرب فى أرض الحجاز، يدعونهم إلى حج كنيسة اليمن.

تذكر بعض الروايات أنّ مجموعة من العرب جاؤوا خفية وأضرموا النار فى الكنيسة، وقيل إنّهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن

اعتراضهم على فعل أبرهة ويهينوا معبده.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۷

غضب أبرهـة وقرر أن يهدم الكعبة هدماً كاملًا، للإنتقام ولتوجيه أنظار العرب إلى المعبد الجديد، فجهّز جيشاً عظيماً كان بعض أفراده يمتطى الفيل، واتجه نحو مكة.

عند اقترابه من مكة بعث من ينهب أموال أهل مكة، وكان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهة) قاصداً إلى مكة. جاء رسول أبرهة إلى مكة وبحث عن شريفها فدلوه على عبد المطلب، فحدثه بحديث أبرهة، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربكم، وللبيت ربّ يحميه.

وكان عبـد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه [فنزل أبرهـة عن سريره فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قـال لترجمـانه: قـل له: حاجتك فقال له ذلـك الترجمـان فقال: حاجتى أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى فلما قال ذلك قال أبرهـة لترجمانه: قل له: قـد كنت أعجبتنى حين رأيتـك ثم قـد زهـدت فيـك حين كلمتنى أتكلمنى فى مئتى بعير أصـبتها لـك وتترك بيتـاً هو دينـك ودين آبائك قـد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه؟!

قال له عبد المطلب: إنّى أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّ سيمنعه ... فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له.

فلمـا انصـرفوا عنه انصـرف عبـد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكـة، والتحرز فى شـعف الجبال، والشـعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش ثم قام عبـد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون اللَّه ويستنصـرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمّ إنّ العبد يمنع رحله فامنع حلالكلا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن اسـحاق: ثم أرسل عبـد المطلب حلقـة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شـعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

فلمـا أصـبح أبرهـة تهيأ لـدخول مكـة، وهيأ فيله وعبى جيشه وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهـة مجمع لهـدم البيت، ثم الانصـراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب [الخثعمى حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ باذنه فقال: أبرك محمود، أو ارجع راشداً

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۸

من حيث جئت، فإنّك فى بلـد اللَّه الحرام، ثم أرسل اذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشـتد حتى أصـعد فى الجبل، وضـربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضـربوا رأسه بالطبرزين [ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقـام يهرول ووجّهوه إلى الشـام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشـرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكـة فبرك، فأرسل اللَّه عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثـة أحجار يحملها: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلّاهلك.

وقيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه ويخرج من الجانب الآخر.

(أبرهة) اصيب بحجر، وجُرح، فاعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، وهناك فارق الحياة.

وقيل: إنّ مرض الحصبة والجدرى شوهد لأوّل مرّة فى أرض العرب فى تلك السنة.

وفى هذا العام ولد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حسب الرواية المشهورة، وقيل إنّ بين الحادثتين إرتباطاً.

إنّ أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، وأصبح مبدأ تاريخ العرب «۱».

التّفسير

كيد أبرهة: يخاطب اللَّه رسوله صلى الله عليه و آله فى الآية الاولى من السورة ويقول له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ». «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ». لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها وليقيموا بدلها كعبة اليمن، وليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد، لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة وعظمة بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل فى جزيرة العرب، وأصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذى قبل، وأسبَغَ على هذه الديار مزيداً من الأمن.

كيدهم إذن صار فى تضليل، أى فى ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثم تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة: «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ».

---

(۱) سيرة النبى صلى الله عليه و آله لابن هشام الحميرى ۱/ ۲۸؛ وبحار الأنوار ۱۵/ ۷۰ و ۱۳۰؛ ومجمع البيان ۱۰/ ۴۴۲.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۳۹

عبارة «طيراً أبابيل» تعنى طيراً على شكل مجموعات، والمشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر فى اتجاه أصحاب الفيل.

«تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ» «۱».

«فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ».

و «العصف»: هو النبات الجاف المتهشّم، أى هو (التبن) بعبارة اخرى.

وتعبير «مأكول» إشارة إلى أنّ هذا التبن قد سحق مرّة اخرى بأسنان الحيوان، ثم هشّم ثالثة فى معدته، وهذا يعنى أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

وفى هذا السورة تحذير وإنذار لكل الطغاة والمستكبرين فى العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة اللَّه سبحانه.

«نهاية تفسير سورة الفيل»

---

(۱) «سجّيل»: كلمة فارسية مأخوذة من دمج كلمتين هما «سنگ» و «گل»؛ وتعنى الطين المتحجّر.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۱

۱۰۶. سورة قريش

محتوى السورة: هذه السورة مكملة لسورة الفيل، وآياتها تدل على ذلك. تتضمّن هذه السورة بيان نعمة اللَّه على قريش ولطفه لهم ومحبّته له، كى يحرك فيهم دافع الشكر ويحثهم على عبادة ربّ هذا البيت العظيم الذى يستمدون منه كل مفاخرهم وشرفهم.

وكما إنّ سورة «الضّحى» وسورة «الشرح» تعتبران سورة واحدة كذلك سورة «الفيل» وسورة «قريش» هما سورة واحدة، وإرتباط موضوعهما يدل على ذلك أيضاً.

ولذلك وجب قراءتهما معاً فى الصلاة لمن يرى وجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».

هذه الفضيلة دون شك لمن عبد ربّ البيت حق عبادته، وصان حرمة البيت كما يجب، وتشرّبت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدى.

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۲

فى سورة الفيل جاء ذكر إبادة أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة وهذه السورة التى تعتبر امتداداً للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول:

«لِإِيلفِ قُرَيْشٍ». أى لكى تألف قريش فى هذه الأرض المقدسة وتتهيأ بذلك مقدمات ظهور نبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

«إيلاف»: مصدر آلف، و «آلفه» أى جعله يألف، أى جعله يجتمع اجتماعاً مقروناً بالانسجام والانس والإلتيام.

والمقصود إيجاد الالفة بين قريش وهذه الأرض المقدسة وهى مكة والبيت العتيق، لأنّهم وكل أهل مكة إختاروا السكن فى هذه الأرض لمكانتها وأمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون البيت كل سنة، ويقترن حجّهم بنشاط أدبى واقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كل ذلك كان يحدث فى ظل الجو الآمن، ولو أنّ هذا الأمن قد انعدم أو أنّ الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهة وأمثاله لما كان لأحد الفة بهذه الأرض.

«إِيلفِهِمْ رِحْلَةَ الشّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

مكة تقع فى وادٍ غير ذى زرع، والرعى فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكة غالباً من قوافل التجارة، فى فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتدل، وفى فصل الصيف إلى أرض الشام فى الشمال حيث الجوّ لطيف. والشام واليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، ومكة والمدينة حلقتا اتصال بينهما.

هذه هى رحلة الشتاء ... ورحلة الصيف.

والمقصود ب «إيلافهم» فى الآية أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدسة خلال رحلاتهم وينشدّون إليها لما فيها من أمن، كى لا تغريهم أرض اليمن والشام، فيسكنون فيها ويهجرون مكة.

وقد يكون المقصود إيجاد الالفة بينهم وبين سائر القبائل طوال مدّة الرحلتين، لأنّ الناس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام ويعيرونها أهمية خاصة بعد قصة اندحار جيش أبرهة.

قريش لم تكن طبعاً مستحقة لكل هذا اللطف الإلهى لما كانت تقترفه من آثام، لكن اللّه لطف بهم لما كان مقدّراً للإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يظهرا من هذه القبيلة وتلك الأرض المقدسة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۳

الآية الاخيرة تقول: إنّ هذه النعم الإلهية التى أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة ربّ البيت لا الأوثان. «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ». «الَّذِى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مّنْ خَوْفٍ» ... الذى جعل تجارتهم رائجة مريحة ومربحة، ودفع عنهم الخوف والضرر، كل ذلك باندحار جيش أبرهة، وبفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبة. لكنّهم لم يقدّروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان، وذاقوا فى النهاية وبال أمرهم.

«نهاية تفسير سورة قريش»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۵

۱۰۷. سورة الماعون

محتوى السورة: هذه السورة بشكل عام تذكر صفات وأعمال منكرى القيامة فى خمس مراحل، فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون فى سبيل اللّه وعلى طريق مساعدة اليتامى والمساكين، ثم هم يتساهلون فى الصلاة، ويعرضون عن مساعدة المحتاجين.

وفى المجمع: قيل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب كان ينحر فى كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصاه.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الباقر عليه السلام قال: «من قرأ «أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدّينِ» فى فرائضه ونوافله قبل اللَّه صلاته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه فى الحياة الدنيا».

أ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (۱) فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (۲) وَ لَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (۳) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (۴) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (۵) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (۶) وَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (۷)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۶

إنكار المعاد وآثاره المشؤومة: هذه السورة المباركة تبدأ بسؤال موجّه للنّبى صلى الله عليه و آله عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد وتقول: «أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدّينِ».

وتجيب عن السؤال: «فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ».

«الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، وإنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة وانعكاسات على أعمال الإنسان، وفى هذه السورة ذكرت خمسة آثار لهذا الإنكار منها: «طرد اليتيم، وعدم الحثّ على إطعام المسكين»، أى إنّ الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، ولا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

«يدع»: أى يدفع دفعاً شديداً، ويطرد بخشونة.

و «يحضّ»: أى يحرض ويرغب الآخرين على شيء.

ويتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ».

لا يقيمون للصلاة وزناً، ولا يهتمون بأوقاتها، ولا يراعون أركانها وشروطها وآدابها.

الصفة الرابعة والخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ».

المجتمع الذى يتعود على الرياء لا يبتعد عن اللَّه وعن الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة فحسب، بل تصبح كل برامجه الإجتماعية فارغة خالية المحتوى، لا تتعدى مجموعة من المظاهر، وإنّها لمأساة أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل.

من المؤكّد أنّ أحد عوامل التظاهر والرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، وعدم الرغبة بالثواب الإلهى. وإلّا كيف يمكن للإنسان أن يترك مثوبة اللَّه ويتجه إلى الناس ليتزلف إليهم.

«الماعون»: من «المَعن» وهو الشيء القليل. وكثير من المفسرين قالوا: إنّ المقصود من «الماعون» الأشياء البسيطة التى يستعيرها أو يقتنيها الناس وخاصة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، والماء، والنار (الثقاب)، والأوانى وأمثالها.

واضح أنّ الذى يبخل فى إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنيء عديم الإيمان.

أى إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء.

فى أمالى الصدوق عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من منع الماعون جاره منعه اللَّه خيره يوم القيامة، ووكّله إلى نفسه، ومن وكّله إلى نفسه فما أسوأ حاله».

«نهاية تفسير سورةالماعون»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۷

۱۰۸. سورة الكوثر

سبب نزول السورة: فى المجمع قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمى، وذلك أنّه رآى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بنى سهم، وتحدثا، واناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد. فلما دخل العاص قالوا: من الذى كنت

تتحدث معه؟

قال: ذلک الأبتر. وكان قد توفى قبل ذلک عبد اللَّه بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو من خديجة. وكانوا يسمون من ليس له إبن، أبتر. فسمّته قريش عند موت إبنه أبتر وصنبوراً.

[فنزلت السورة تبشر النبى بالنعم الوافرة والكوثر وتصف عدوّه بالأبتر].

ولمزيد من التوضيح نذكر أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان له ولدان من ام المؤمنين خديجة عليها السلام أحدهما «القاسم» والآخر «الطاهر» ويسمى أيضاً عبد اللَّه. وتوفى كلاهما فى مكة، وأصبح النبى صلى الله عليه و آله من دون ولد. هذه المسألة وفرت للأعداء فرصة الطعن بالنبى فسمّوه الأبتر «۱».

والعرب حسب تقاليدها كانت تعير أهمّية بالغة للولد، وتعتبره امتداداً لمهام الأب. بعد وفاة عبد اللَّه خال الأعداء أنّ الرسالة سوف تنتهى بوفاة الرسول صلى الله عليه و آله.

---

(۱) كان للرسول صلى الله عليه و آله إبن آخر من «مارية القبطية» إسمه إبراهيم، ولد فى الثامنة للهجرة بالمدينة، ولكنّه توفى أيضاً قبل بلوغ الثانية من عمره، وحزن عليه الرسول كثيراً.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۸

السورة نزلت لتردّ على هؤلاء الأعداء بشكل إعجازى ولتقول لهم: إنّ عدوّ الرسول هو الأبتر، وأنّ الرسالة سوف تستمر وتتواصل وهذه البشرى بددت من جهة آمال الأعداء وطيبت خاطر النبى صلى الله عليه و آله بعد أن اغتم من لمز الأعداء وتآمرهم.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها سقاه اللَّه من أنهار الجنة، واعطى من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين».

اسم هذه السورة (الكوثر) مأخوذة من أوّل آية فيها.

إِنَّا أَعْطَيْنَاکَ الْكَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شَانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳) أعطيناک الخير العميم: الحديث فى كل هذه السورة موجّه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (مثل سورة الضّحى، وسورة الشرح)، وأحد أهداف هذه السور تسلية قلب النبى إزاء ركام الأحداث المؤلمة وطعون الأعداء. تقول له أوّلًا: «إِنَّا أَعْطَيْنَاکَ الْكَوْثَرَ».

و «الكوثر»: من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، ويسمى الفرد السخى كوثراً. وفى معنى الكوثر: فى المجمع: قال ابن عباس: لما نزلت «إِنَّا أَعْطَيْنَاکَ الْكَوْثَرَ» صعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله المنبر، فقرأها على الناس، فلما نزل قالوا: يا رسول اللَّه! ما هذا الذى أعطاک اللَّه؟ قال: «نهر فى الجنة، أشدّ بياضاً من اللبن، وأشدّ استقامة من القدح، حافتاه قباب الدرّ والياقوت».

وقيل: هو النبوّة والكتاب، وقيل: هو القرآن. وقيل: هو كثرة الأصحاب والأشياع.

وقيل: هو كثرة النسل والذرّية، وقد ظهرت الكثرة فى نسله من ولد فاطمة عليها السلام، حتى لا يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم. وقيل هو الشفاعة. رووه عن الصادق عليه السلام.

ولكن هذه التفاسير تبيّن غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو «الخير الكثير».

إنّ كل الهبات الإلهية لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كل المجالات تدخل فى إطار هذا الخير الكثير، ومن ذلک انتصاراته على الأعداء فى الغزوات، بل حتى علماء امّته الذين يحملون مشعل الإسلام والقرآن فى كل زمان ومكان.

ولا ننسى أنّ كلام اللَّه سبحانه تعالى لنبيّه فى هذه السورة كان قبل ظهور الخير الكثير،

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۴۹

فهو إخبار بالمستقبل القريب والبعيد، إخبار إعجازى يشكل دليلًا آخر على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله.

هذا الخير الكثير يستوجب شكراً عظيماً، وإن كان المخلوق لا يستطيع أداء حق نعمة الخالق أبداً، إذ إنّ توفيق الشكر نعمة اخرى منه سبحانه، ولذا يقول سبحانه لنبيّه: «فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَانْحَرْ».

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلک ليس ثمّة معنى للعبادات إن كانت لغيره.

والأمر بالصلاة والنحر للربّ مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام ونحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من اللَّه. وتعبير (لربّک) دليل واضح على وجوب قصد القربة فى العبادات.

وفى آخر آية يقول اللَّه سبحانه لنبيّه ردّاً على ما وَصَمه به المشركون: «إِنَّ شَانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ». «الشانىء»: هو المعادى من «الشنان»- على وزن ضربان- وهو العداء والحقد.

و «أبتر»: فى الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب. وصدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لإنتهاک الحرمة والإهانة. وكلمة (شانىء) فيها ايحاء بأنّ عدوک لا يراعى أيّة حرمة ولا يلتزم بأى أدب. أى أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة والدناءة. والقرآن يقول لهؤلاء الأعداء فى الواقع: إنّكم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول اللَّه.

بحث

فاطمة عليها السلام والكوثر: قلنا إنّ «الكوثر» له معنى واسع يشمل كل خير وهبه اللَّه لنبيّه صلى الله عليه و آله، ومصاديقه كثيرة، لكن كثيراً من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنّ «فاطمة الزهراء عليها السلام» من أوضح مصاديق الكوثر، لأنّ رواية سبب النزول تقول: إنّ المشركين وصموا النبى بالأبتر، أى بالشخص المعدوم العقب، وجاءت الآية لتقول: «إِنَّا أَعْطَيْنَاکَ الْكَوْثَرَ».

ومن هنا نستنتج أنّ الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنّ نسل الرسول صلى الله عليه و آله انتشر فى العالم بواسطة هذه البنت الكريمة ... وذرّيّة الرسول صلى الله عليه و آله من فاطمة عليها السلام لم يكونوا امتداداً جسمياً للرسول فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام وضحوا من أجل المحافظة عليه وكان منهم أئمّة الدين الإثنى عشر، أو الخلفاء الإثنى عشر بعد النبى كما أخبر عنهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى الأحاديث المتواترة بين السنّة والشيعة.

والفخر الرازى فى استعراضه لتفاسير معنى الكوثر، يقول:

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۰

القول الثالث: «الكوثر» أولاده، قالوا لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه صلى الله عليه و آله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلًا يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يبق من بنى امية فى الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم «۱».

«نهاية تفسير سورة الكوثر»

---

(۱) التفسير الكبير ۳۲/ ۱۲۴.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۱

۱۰۹. سورة الكافرون

محتوى السورة: من لحن السورة نفهم أنّها نزلت فى زمان كان المسلمون فى أقلية والكفار فى أكثرية، والنبى صلى الله عليه و آله يعانى من الضغوط التى تطلب منه أن يهادن المشركين، وأمام هذه الضغوط كان النبى يعلن صموده وإصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

وفى هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام فى مبادىء الدين مهما كانت الظروف، وأن يبعثوا اليأس فى قلوبهم

متی ما بادروا إلی هذه المساومة.

فضیلة تلاوة السورة: فی حدیث ابی عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ومن قرأ یا أیّها الكافرون فكأنّما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشیاطین، وبریء من الشرك ویعافی من الفزع الأكبر».

وشعیب الحداد عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «كان أبی یقول: (قل یا أیّها الكافرون) ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبد اللّه وحده، أعبد اللّه وحده».

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَ لَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (۴) وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۲

سبب النّزول

فی المجمع: نزلت السورة فی نفر من قریش منهم الحارث بن قیس السهمی، والعاص بن أبی وائل، والولید بن المغیرة، والأسود بن عبد یغوث الزهری، والأسود بن المطلب بن الأسد، وأمیة بن خلف قالوا: هلم یا محمّد فاتبع دیننا نتبع دینك، ونشركك فی أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد آلهتك سنة، فإن كان الذی جئت به خیراً مما بأیدینا، كنّا قد شركناك فیه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذی بأیدینا خیراً مما فی یدیك كنت قد شركتنا فی أمرنا، وأخذت بحظك منه.

فقال صلی الله علیه و آله: «معاذ اللّه أن أشرك به غیره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.

فقال: «حتی انظر ما یأتی من عند ربّی».

فنزل «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»- السورة. فعدل رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی المسجد الحرام، وفیه الملأ من قریش، فقام علی رؤوسهم، ثم قرأ علیهم حتی فرغ من السورة. فأیسوا عند ذلك، فآذوه وآذوا أصحابه.

التّفسیر

لا أهادن الكافرین: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ». والخطاب إلی قوم مخصوصین من الكافرین كما ذكر كثیر من المفسرین، والألف واللام للعهد، وإنّما ذهب المفسرون إلی ذلك لأنّ الآیات التالیة تنفی أن یعبد الكافرون ما یعبده المسلمون وهو اللّه سبحانه فی الماضی والحال والمستقبل، والمجموعة المخاطبة بهذه الآیات بقیت بالفعل علی كفرها وشركها حتی آخر عمرها، بینما دخل كثیر من المشركین بعد فتح مكة فی دین اللّه أفواجاً.

«لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». فهذه مسألة مبدئیة لا تقبل المساومة والمهادنة والمداهنة.

«وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». لما تأصّل فیكم من لجاج وعناد وتقلید أعمی لآبائكم، ولما تجدونه فی الدعوة من تهدید لمصالحكم وللأموال التی تدر علیكم من عبدة الأصنام.

ولمزید من التأكید وبث الیأس فی قلوب الكافرین، ولبیان حقیقة الفصل الحاسم بین منهج الإسلام ومنهج الشرك قال سبحانه: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». فعلی هذا لا معنی لإصراركم علی المصالحة والمهادنة معی حول مسألة عبادة الأوثان فإنّه أمر محال «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۳

لحن الآیات یوضّح بجلاء أنّها نوع من التحقیر والتهدید، أی دعكم ودینكم فسترون قریباً وبال أمركم، تماماً مثل ما ورد فی الآیة (۵۵) من سورة القصص: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَانَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ».

«نهایة تفسیر سورة الكافرون»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۵

۱۱۰. سورة النصر

محتوى السورة: هـذه السورة نزلت فى المدينة بعد الهجرة، وفيها بشـرى النصـر العظيم ودخول الناس فى دين اللَّه أفواجاً، وتدعو النبى صلى الله عليه و آله أن يسبح اللَّه ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة.

فى الإسـلام فتوحات كثيرة، ولكن فتحاً بالمواصـفات المذكورة فى السورة ما كان سوى «فتح مكة» «۱»، خاصة وأنّ العرب- كما جاء فى الروايات- كانت تعتقـد أنّ نبى الخاتم صـلى الله عليه و آله لا يسـتطيع أن يفتـح مكة إلّاإذا كان على حق ... ولو لم يكن على حق فربّ البيت يمنعه كما منع جيش أبرهة، ولذلك دخل العرب فى دين اللَّه بعد فتح مكة أفواجاً.

قيل: إنّ هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة، وقبل عامين من فتح مكة.

ومن أسماء هذه السورة «التوديع» لأنّها تتضمّن خبر وفاة النبى صلى الله عليه و آله.

فى المجمع: قال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها صـلى الله عليه و آله على أصـحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى، فقال صلى الله عليه و آله: «ما يبكيك يا عم»؟ فقال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا

---

(۱) فتـح مكة فتح صـفحة جديدة فى تاريخ الإسـلام، ودحر الأعداء بعد عشـرين عاماً من المقاومة، وتطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، والإسلام تأهب لدعوة بقيّة أصقاع العالم.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۶

رسول اللَّه. فقال: «إنّه لكما تقول». فعاش بعدها سنتين ما رؤى فيهما ضاحكاً متبشراً.

فضـيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قال: «من قرأها فكأنّما شـهد مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فتح مكة».

وعن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «من قرأ «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» فى نافلـة أو فريضـة نصـره اللَّه على جميع أعـدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرجه اللَّه من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنم ومن النار، ومن زفير جهنم، يسمعه باذنيه، فلا يمرّ على شيء يوم القيامة إلّا بشّره، وأخبره بكل خير حتى يدخل الجنّة».

إنّ هذه الفضائل لمن قرأ هذه السورة فسلك مسلك رسول اللَّه وعمل بسيرته وسنته.

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (۲) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (۳) عند انبلاج فجر النصر: فى هذه السورة دار الحديث عن نصرة اللَّه، ثم عن «الفتح» والإنتصار، وبعدها عن اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس فى دين اللَّه زرافات ووحداناً.

نعم، لابدّ من إعداد القوّة للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحّد يؤمن أنّ النصـر من عند اللَّه وحده، ولذلك لا يغتّر بالنصـر، بل يتجه إلى شكر اللَّه وحمده.

وبين هذه الثلاثة إرتباط علة ومعلول، فبنصر اللَّه يتحقق الفتح، وبالفتح تزال الموانع من الطريق ويدخل الناس فى دين اللَّه أفواجاً.

بعد هذه المراحل الثلاث- التى يشكل كل منها نعمة كبرى- تحل المرحلة الرابعة وهى مرحلة الشكر والحمد.

من جهة اخرى نصراللَّه والفتح هدفهما النهائى دخول الناس فى دين اللَّه وهداية البشرية.

«التسبيح»: تنزيه اللَّه من كل عيب ونقص.

و «الحمد»: لوصف اللَّه بالصفات الكمالية.

و «الإستغفار»: إزاء تقصير العبد.

هـذا الفتـح العظيم ينبغى أن لاـ يؤدّى بالإنسـان إلى الظن بـأنّ اللَّه يترك أنصاره وحـدهم (ولـذلك جاء أمر التسبيـح لتنزيهه من هـذا النقص) و أن يعلم المؤمنون بأنّ وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، وأن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة اللَّه.

«نهاية تفسير سورة النصر»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۷

۱۱۱. سورة المسد

محتوى السورة: هـذه السورة نزلت فى أوائل الـدعوة العلنيـة. وهى السورة الوحيـدة التى تحمل هجوماً شديـداً بالاسم على أحد أعداء الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله آنذاك وهو أبولهب. ومن السورة يتضح أنّه كان يحمل عداء خاصاً للنّبى ويمارس هو وزوجه كل أنواع الأذى بحقّه.

القرآن يصرّح بأنّهما أهل جهنم، وليس لهما طريق للنجاة، وتحققت هذه النبوءة القرآنية، وكلاهما مات على الكفر.

فضـيلة تلاوة السورة: فى حديث ابى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع اللَّه بينه وبين أبى لهب فى دار واحدة».

إنّ هذه الفضيلة نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبى لهب، لا من يقرأها بلسانه ويعمل عمل أبى لهب فى أفعاله.

تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ (۲) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (۳) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۸

سبب النّزول

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات يوم الصفا فقال: «يا صباحاه»! فأقبلت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العـدوّ مصـبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصـدّقونى». قالوا: بلى. قال: «فإنّى نـذير لكم بين يدى عذاب شديد».

فقال أبولهب: تبّاً لك! ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل اللَّه هذه السورة.

ويروى عن أسـماء بنت أبى بكر قـالت: لمـا نزلت هـذه السورة، أقبلت العوراء ام جميـل بنت حرب، ولهـا ولولـة وفى يـدها فهر، وهى تقول: مذمّماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

والنبى صـلى الله عليه و آله جالس فى المسـجد ومعه أبوبكر. فلما رآها أبوبكر قال: يا رسول اللَّه! قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «إنّها لن ترانى». وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال:

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا» [الإسراء: ۴۵] فوقفت على أبى بكر، ولم تر رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فقـالت: يـا أبابكر! أخبرت أنّ صاحبك هجانى. فقال: لا وربّ البيت ما هجاك. فولّت وهى تقول: قريش تعلم أنّى بنت سيّدها.

التّفسير

هـذه السورة- كما ذكرنا فى سـبب نزولها- ترد على بـذاءات أبى لهب عم النبى صـلى الله عليه و آله وابن عبد المطلب. وكان من ألد أعداء الإسـلام، وحين صدح النبى صـلى الله عليه و آله بدعوته واعلنها على قريش وأنذرهم بالعذاب الإلهى قال: تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟!

والقرآن يرد على هذا الإنسان البذىء ويقول له: «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ».

فى المجمع: قال طارق المحاربى: بينا أنا بسوق ذى المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيّها الناس! قولوا لا إله إلّااللّه تفلحوا». وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها الناس! إنّه كذاب فلا تصدّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمّد، يزعم أنّه نبى، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذاب «۱».

وفى رواية اخرى: وكان من عظيم خطر أبى لهب ضد الدعوة الإسلامية أنّه كلّما جاء وفد إلى النبى صلى الله عليه و آله يسألون عنه عمّه أبالهب- اعتباراً بكبره وقرابته وأهميته- كان يقول لهم:

إنّه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنّا لم نزل

(۱) مجمع البيان ۱۰/ ۵۵۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۵۹

نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً «۱».

من هذه الروايات نفهم بوضوح أنّ أبالهب كان يتتبع النبى صلى الله عليه و آله غالباً كالظلّ، وما كان يرى سبيلًا لإيذائه إلّاسلكه، وكان يقذعه بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشدّ أعداء الرسول والرسالة، ولذلك جاءت هذه السورة لتردّ على أبى لهب وامرأته بصراحة وقوّة.

«مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ»، فليس بامكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الإلهى «سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ».

من الآية الاولى نفهم أنّه كان ثرياً ينفق أمواله فى محاربة النبى صلى الله عليه و آله.

وأبولهب ناره ذات لهب يصلاها يوم القيامة، وقيل: يصلاها فى الدنيا قبل الآخرة.

و «لهب» جاءت بصيغة النكرة لتدل على عظمة لهب تلك النار.

لا أبا لهب ولا أى واحد من الكافرين والمنحرفين تغنيه أمواله ومكانته الإجتماعية من عذاب اللّه، كما يقول سبحانه: «يَوْمَ لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» «۲».

بل لم تغنه فى الدنيا من سوء المصير.

فى تفسير مجمع البيان: قال عكرمة، قال أبو رافع مولى رسول اللّه صلى الله عليه و آله: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت ام الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه، وكان أبولهب عدوّ اللّه قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا لم يتخلف رجل إلّابعث مكانه رجلًا.

فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته اللّه وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوّة وعزّاً، قال: وكنت رجلًا ضعيفاً وكنت أعمل القداح أنحتها فى حجرة زمزم، فواللّه إنّى لجالس فيها أنحت القداح وعندى ام الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبولهب، يجرّ رجليه حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهرى فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان ابن حرث بن عبد المطلب، وقد قدم. فقال أبو لهب، هلم إلىّ يا ابن أخى فعندك الخبر. فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخى!

(۱) تفسير الفرقان ۳۰/ ۵۰۳.

(۲) سورة الشعراء/ ۸۸ و ۸۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۰

أخبرنى كيف كـان أمر النـاس؟ قال: لا شـيء واللَّه إن كان إلّاأن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسـروننا كيف شاؤوا وأيم اللَّه مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالًا بيضاً على خيل بلق، بين السماء والأرض، ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قـال أبورافع: فرفعت طرف الحجرة بيـدى، ثم قلت: تلـك الملائكـة. قـال: فرفع أبولهب يـده وضـرب وجهى ضـربة شديـدة، فثـاورته واحتملنى فضـرب بى الأـرض، ثم برك على يضـربنى وكنت رجلًا ضـعيفاً، فقـامت ام الفضـل إلى عمـود من عمـد الحجرة، فأخـذته فضـربته ضـربة فلقت رأسه شـجة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلًا، فواللَّه ما عاش إلّاسبع ليال حتى رماه اللَّه بالعدسة، فقتله.

ولقـد تركه أبناه ليلتين أو ثلاثاً ما يـدفناه حتى أنتن فى بيته وكانت قريش تتقى العدسـة كما يتقى الناس الطاعون، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تسـتحيان إنّ أباكما قد أنتن فى بيته لا تغيبانه؟ فقالا: إنّا نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا فأنّا معكما، فما غسلوه إلّاقذفاً بالماء عليه من بعيد ما يسمونه، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه بالحجارة، حتى واروه.

«وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ».

الآيتان تتحـدثان عن ام جميل امرأة أبى لهب، وأخت أبى سـفيان، وعمّة معاوية، وتصـفانها بأنّها تحمل الحطب كثيراً، وفى عنقها حبل من ليف.

ولماذا وصفها القرآن بأنّها حمالة الحطب؟

قيل: لأنّها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك وتضعه على طريق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لتدمى قدماه.

«نهاية تفسير سورة المسد»

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۱

۱۱۲. سورة الاخلاص

محتوى السورة: هذه السورة تركز على توحيد اللَّه.

فى الكافى فى نزول السورة عن محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اليهود سألوا رسول اللَّه فقالوا: أنسب لنا ربّك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم. ثم نزلت قل هو اللَّه أحد إلى آخرها».

وفى الإحتجاج عن العسكرى عليه السلام إنّ السائل عبد اللَّه بن صوريا اليهودى. وفى بعض روايات أهل السنة إنّ السائل عبد اللَّه بن سلام سـأله صـلى الله عليه و آله ذلـك بمكـة ثم آمن وكتم إيمـانه. وفى بعضـها أنّ أناسـاً من اليهود سألوه ذلك وفى غير واحـد من رواياتهم أنّ مشركى مكة سألوه ذلك.

فضـيلة تلاوة السورة: وردت فى فضـيلة هـذه السورة نصوص كثيرة تـدل على مكانة هذه السورة بين سور القرآن. فى المجمع عن أبى الـدرداء عن النبى صـلى الله عليه و آله قال: «أيعجز أحـدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلـة»؟ قلت: يا رسول اللَّه! ومن يطيق ذلك؟ قال: «اقرأوا قل هو اللَّه أحد».

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ النبى صـلى الله عليه و آله صـلّى على سعد بن معاذ. فقال: لقد وافى من الملائكة سبعون ألفـاً ملك، وفيهم جبرئيـل عليه السـلام يصـلون عليه فقلت: يا جبرئيل بما يسـتحق صـلاتكم عليه؟ قال: بقراءته قل هواللَّه أحد قائماً، وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۲

وفى الكـافى عن الإمام الصادق عليه السـلام أيضاً قال: «من مضـى به يوم واحـد فصـلّى فيه الخمس صـلوات ولم يقرأ فيها بقل هو اللَّه

أحد، قيل له: يا عبد اللّه لست من المصلين».

وفى المجمع عن سهل بن سعد الساعدى قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه و آله فشكا إليه الفقر، وضيق المعاش. فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إذا دخلت بيتك، فسلم إن كان فيه أحد، وإن كان لم يكن فيه أحد، فسلم واقرأ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» مرة واحدة».

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (۳) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (۴) جواباً عن الأسئلة المكررة التى طرحت من قبل الأفراد والجماعات بشأن أوصاف اللّه سبحانه تقول الآية: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

الضمير (هو) فى الآية للمفرد الغائب ويحكى عن مفهوم مبهم، وهو فى الواقع يرمز إلى أنّ ذاته المقدسة فى نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان المحدودة وإن كانت آثاره أظهر من أى شىء آخر، كما ورد فى الآية (۵۳) من سورة فصّلت: «سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

ثم بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة وتقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ».

عن أبى جعفر الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «رأيت الخضر عليه السلام فى المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمنى شيئاً أنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إلّاهو. فلمّا أصبحت قصصتها على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال لى: يا على عُلمت الإسم الأعظم، فكان على لسانى يوم بدر».

«... كان على عليه السلام يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمّار بن ياسر: يا أميرالمؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم اللّه الأعظم وعماد التوحيد للّهلا إله إلّا هو ...» «۱».

«اللّه» اسم علم للبارى سبحانه وتعالى. ومفهوم كلام الإمام على عليه السلام أنّ جميع صفات الجلال والجمال الإلهية اشير إليها بهذه الكلمة، ومن هنا سميت باسم اللّه الأعظم.

---

(۱) التوحيد للشيخ الصدوق/ ۸۹.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۳

هذا الإسم لا يطلق على غير اللّه، بينما أسماء اللّه الاخرى تشير عادة إلى واحدة من صفات جماله وجلاله مثل: العالم والخالق والرازق، وتطلق غالباً على غيره أيضاً مثل:

(رحيم، وكريم، وعالم، وقادر ...).

هذا الإسم المقدس تكرر أكثر من «ألف مرّة» فى القرآن الكريم، ولم يبلغه أى اسم من الأسماء المقدسة فى مقدار تكراره. وهو اسم ينير القلب، ويبعث فى الإنسان الطاقة والطمأنينة، ويغمر وجوده صفاءً ونوراً.

«أحد»: يعنى اللّه أحد وواحد، لا بمعنى الواحد العددى أو النوعى أو الجنسى، بل بمعنى الوحدة الذاتية. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل والشبيه والنظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كل جهة، ومن المسلم أنّه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كل جهة، إذ لو كان ثمّة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، ولمّا كان لكل واحدة منهما كمالات الاخرى (تأمل بدقّة).

«اللَّهُ الصَّمَدُ». وهو وصف آخر لذاته المقدسة.

وفى جامع الأخبار: سئل ابن الحنفية عن الصمد، فقال: قال على عليه السلام: «تأويل الصمد لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حدّ ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمّة، ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلمانى ولا نورانى، ولا روحانى ولا نفسانى، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر

قلب، ولا على شمّ رائحة، منفى عنه هذه الأشياء».

هذه الرواية توضّح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفى كل صفات المخلوقين عن ساحته المقدسة.

الآية التالية تردّ على معتقدات اليهود والنصارى ومشركى العرب وتقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ».

إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، والربّ الإبن، وروح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن اللَّه، واليهود ذهبت إلى أنّ العزير ابن اللَّه: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۴

كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» «۱».

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللَّه: «وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ» «۲».

ثم تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال فى أوصاف اللَّه تعالى: «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ». أى ليس له شبيه ومثل اطلاقاً.

«الكفو»: هوالكفء فى المقام والمنزلة والقدر، ثم اطلقت الكلمة على كل شبيه ومثيل.

استناداً إلى هذه الآية، اللَّه سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكل نقص ومحدودية، وهذا هو التوحيد الذاتى والصفاتى، مقابل التوحيد العددى.

من هنا فهو تبارك وتعالى لا شبيه له فى ذاته، ولا نظير له فى صفاته، ولا مثيل له فى أفعاله، وهو متفرد لا نظير له من كل الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول فى الخطبة (۱۸۶) نهج البلاغة: «لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً ... ولا كفء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه».

هذا التفسير الرائع يكشف عن أسمى معانى التوحيد وأدقّها.

بحوث

الأوّل: التوحيد: التوحيد يعنى وحدانية ذات اللَّه تعالى ونفى أى شبيه ومثيل له، وإضافة إلى الدليل النقلى المتمثل فى النصوص الدينية ثمّة دلائل عقلية كثيرة أيضاً تثبت ذلك نذكر قسماً منها باختصار:

۱- برهان صرف الوجود: وملخصه أنّ اللَّه سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد ولا شرط، ومثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدوداً لمُنى بالعدم، والذات المقدسة التى ينطلق منها الوجود لا يمكن أن يعترضها العدم والفناء، وليس فى الخارج شىء يفرض عليه العدم، ولذلك لا يحدّه حدّ.

---

(۱) سورة التوبة/ ۳۰.

(۲) سورة الأنعام/ ۱۰۰.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۵

من جهة اخرى لا يمكن تصوّر وجودين غير محدودين فى العالم، إذ لو كان ثمّة وجودان لكان كل واحد منهما فاقداً حتماً لكمالات الآخر، أى لا يملك كمالاته، ومن هنا فكلاهما محدودان، وهذا دليل واضح على وحدانية ذات واجب الوجود (تأمّل بدقّة).

۲- البرهان العلمى: عندما ننظر إلى الكون الذى يحيط بنا، نلاحظ فى البداية موجودات متفرقة ... الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات، وكلّما ازددنا إمعاناً فى النظر الفينا مزيداً من الترابط والإنسجام بين أجزاء هذا العالم وذراته، وظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعاً قوانين واحدة.

هذه الوحدة فى نظام الوجود، والقوانين الحاكمة عليه، والإنسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

۳- برهان التمانع: (الدليل العلمى الفلسفى)، وهو دليل آخر على إثبات وحدانية اللَّه، مستلهم من قوله سبحانه: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» «۱».

۴- دعوة الأنبياء إلى اللَّه الواحد الأحد: وهو دليل آخر على وحدانية اللَّه، إذ لو كان هناك خالقان كل واحد منهما واجب الوجود فى العالم، لاستلزم أن يكون كل واحد منهما منبعاً للفيض، فلا يمكن لوجود ذى كمال مطلق أن يبخل فى الإفاضة لأنّ عدم الفيض نقص بالنسبة للوجود الكامل، وحكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول لإبنه الحسن المجتبى عليه السلام وهو يوصيه: «واعلم يا بنى أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه» «۲».

الثانى: فروع دوحة التوحيد: تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

۱- توحيد الذات: (وهو ما شرحناه أعلاه).

۲- توحيد الصفات: أى إنّ صفات اللَّه ليست زائدة على ذاته، وليست منفصلة عن بعضها، بل هو وجود كلّه علم، وكلّه قدرة، وكلّه أزلية وأبدية.

ولو لم يكن ذلك لإستلزم التركيب، وإن كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء والمحتاج لا يكون واجباً للوجود.

---

(۱) سورة الأنبياء/ ۲۲.

(۲) نهج البلاغة، الرسالة ۳۱.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۶

۳- التوحيد الأفعالى: ويعنى أنّ كل وجود وكل حركة وكل فعل فى العالم يعود إلى ذاته المقدسة، حتى الأفعال التى تصدر منّا هى فى أحد المعانى صادرة عنه، فهو الذى منحنا القدرة والإختيار وحرية الإرادة، ومع أنّنا نفعل الأفعال بأنفسنا، وأنّنا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو اللَّه سبحانه لأنّ كل ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثّر فى الوجود إلّااللَّه).

۴- التوحيد فى العبادة: أى تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره، لأنّ العبادة يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق، ومطلق الكمال، لمن هو غنى عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كل الموجودات وهذه صفات لا تجتمع إلّافى ذات اللَّه سبحانه.

الثالث: التوحيد الأفعالى: توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيرة نشير إلى ستة من أهمها:

۱- توحيد الخالقية: والقرآن الكريم يقول فى الآية (۱۶) من سورة الرعد: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ».

ودليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أنّ واجب الوجود واحد، وكل ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أنّ خالق كل الموجودات واحد أيضاً.

۲- توحيد الربوبية: أى إنّ اللَّه وحده هو مدبّر العالم ومربّيه ومنظّمه؛ كما جاء فى الآية (۱۶۴) من سورة الأنعام: «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَيْءٍ».

دليل ذلك أيضاً وحدة واجب الوجود، وتوحيد الخالق فى عالم الكون.

۳- التوحيد فى التقنين والتشريع: يقول سبحانه فى الآية (۴۴) من سورة المائدة:

«وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

لمّا ثبت أنّه سبحانه هو المدير والمدبّر، فليس لأحد غيره حتماً صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره فى تدبير العالم كى يستطيع أن يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

۴- التوحيد فى المالكية: سواء «الملكية الحقيقية» أى السلطة التكوينية على الشيء، أم «الملكية الحقوقية» وهى السلطة القانونية على الشيء، فهى له سبحانه؛ كما فى الآية (۱۸۹) من سورة آل عمران يقول تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». وفى الآية (۷) من سورة الحديد يقول سبحانه: «وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ».

والدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقية، وحين يكون هو سبحانه خالق كل شيء فهو مالك كل شيء أيضاً، فكلّ ملكية يجب أن تستمد وجودها من مالكيته.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۷

۵- توحيد الحاكمية: لابدّ للمجتمع البشرى من حكومة، لأنّ الحياة الإجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أن تقسم المسؤوليات، وتنظم المشاريع، ويحال دون التعدى والتجاوز.

ومن جهة اخرى، مبدأ الحرية يقرر أن لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلّاإذا سمح بذلك المالك الأصلى والصاحب الحقيقى. من هنا فالإسلام يرفض كل حكومة لا تنتهى إلى الحكومة الإلهية ومن هنا أيضاً نرى شرعية الحكم للنبى صلى الله عليه و آله وللأئمة المعصومين عليهم السلام ثم للفقيه الجامع للشرائط بعدهم.

ومن الممكن أن يجيز الناس أحداً ليحكمهم، ولكن اتفاق الناس بأجمعهم غير ممكن فى مجتمع عادة، ولذلك لا يمكن إقامة مثل هذه الحكومة عملياً «۱».

۶- توحيد الطاعة: اللّه سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» فى هذا الكون، وهو تعالى مصدر مشروعية إطاعة غيره، أى إنّ إطاعة غيره يجب أن تعدّ إطاعة له.

دليل ذلك واضح أيضاً، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، ولذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام ومن ينوب عنهم هى انعكاس عن طاعتنا للّه؛ كما فى الآية (۵۹) من سورة النّساء يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ». وفى الآية (۸۰) من نفس السورة يقول تعالى: «مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ».

«نهاية تفسير سورة الإخلاص»

---

(۱) لذلك إذا تعينت حكومة عن طريق الإنتخابات وبأكثرية الأصوات، فلابدّ من تنفيذ الفقيه الجامع للشرائط كى تكون لها شرعية إلهيّة.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۶۹

۱۱۳. سورة الفلق

محتوى السورة: تتضمن السورة تعاليم للنبى صلى الله عليه و آله خاصة، وللناس عامة تقضى أن يستعيذوا باللّه من شرّ كل الأشرار، وأن يوكلوا أمرهم إليه، ويأمنوا من كل شرّ فى اللجوء إليه.

فضيلة السورة: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «انزلت علىّ آيات لم ينزل مثلهنّ المعوذتان».

وأبوعبيدة الحذاء عن أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين، وقل هو اللّه أحد، قيل له: يا عبد اللّه! أبشر فقد قبل اللّه وترك».

وعن النبى صلى الله عليه و آله قال: «يا عقبة! ألا اعلمك سورتين هما أفضل القرآن، أو من أفضل القرآن»؟ قلت: بلى يا رسول اللّه. فعلّمنى المعوذتين، ثم قرأ بهما فى صلاة الغداة، وقال لى: «إقرأهما كلّما قمت ونمت».

إنّ هذه الفضائل نصيب من جعل روحه وعقيدته وعمله منسجماً مع محتوى السورة.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (۴) وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (۵)

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۰

بربّ الفلق أعوذ: يخاطب اللَّه سبحانه نبيّه باعتباره الاسوة والقدوة، ويقول له: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ الْفَلَقِ مِن شَرّ مَا خَلَقَ».

«الفلق»: من «فَلَق» أى شقّ وفَصَل؛ وسمى طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ ومثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

وقيل: إنّ الفلق يعنى ولادة كل الموجودات الحيّة، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية.

فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبّتها أو بيضتها، والولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء.

وقيل: إنّ الفلق له معنى واسع يشمل كل خلق، لأنّ الخلق، هو شقّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

وكل واحد من هذه المعانى الثلاثة (طلوع الصبح- وولادة الموجودات الحيّة- وخلق كل موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة البارى والخالق والمدبّر، ووصف اللَّه بذلك له مفهوم عميق.

«مِن شَرّ مَا خَلَقَ» ... من كل موجود شرّير من الإنس والجن والحيوان وحوادث الشرّ والنفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يعنى أنّ الخلق الإلهى ينطوى فى ذاته على شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، والإيجاد خير محض. يقول سبحانه: «الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ» «١».

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة، وتنسلخ عن المسير المعين لها، على سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو، فلو أنّ هذا السلاح استخدم فى محله فهو خير، وإن لم يستعمل فى محله كأن صوّب تجاه صديق فهو شرّ.

وجدير بالذكر أنّ كثيراً من الامور نحسبها شرّاً وفى باطنها خير كثير، مثل الحوادث والبلايا التى تنفض عن الإنسان غبار الغفلة وتدفعه إلى التوجه نحو اللَّه هذه ليس من الشرّ حتماً.

«وَمِن شَرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ». «غاسق»: من الغسق، وهو شدّة ظلمة الليل فى منتصفه.

«غاسق»: تعنى إذن فى الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرّير الذى يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه.

«وقب»: من الوَقب، وهو الحفرة، ثم استعمل الفعل «وَقَبَ» للدخول فى الحفرة؛ وكأنّ

---

(١) سورة السّجدة/ ٧.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۱

هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقق مقاصدها الخبيثة، وقد يكون الفعل يعنى: نَفَذَ وتوغّل.

«وَمِن شَرّ النَّفثَاتِ فِى الْعُقَدِ».

«النفاثات»: من «النفث» وهو البصق القليل؛ ولمّا كان البصق مقروناً بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضاً.

كثير من المفسرين قالوا إنّ «النفاثات» هى النساء الساحرات، وهى صيغة جمع للمؤنث ومبالغة من نَفثَ، وهذه النسوة كن يقرأن الأوراد وينفخن فى عقد، وبذلك يعملن السحر، وقيل: إنّها إشارة للنساء اللاتى كن يوسوسن فى اذن الرجال وخاصة الأزواج ليثنوهم عن عزمهم وليوهنوا إرادتهم فى أداء المهام الكبرى.

الفخر الرازى يقول أنّ النساء لأجل كثرة حبّهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة «١».

وهذا المعنى فى عصرنا أظهر من أى وقت آخر، إذ إنّ إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس فى أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللائى ينفثن فى العقد، فتنفتح مغاليق الأسرار فى القلوب ويحصلن على أدقّ الأسرار.

وقيل: إنّ النفاثات هى النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التى تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات والشعوب.

ولا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كل اولئك ويشمل أيضاً النمامين والذين يهدمون بنيان المحبة بين الأفراد.

«وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

هذه الآية تبيّن أنّ الحسد أسوأ الصفات الرذيلة وأحطها، لأنّ القرآن وضعه فى مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة والثعابين اللاسعة والشياطين الماكرة.

«الحسد»: خصلة سيئة شيطانية تظهر فى الإنسان نتيجة عوامل مختلفة؛ مثل: ضعف الإيمان، وضيق النظر، والبخل. وهو يعنى طلب وتمنّى زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع لكثير من الذنوب الكبيرة.

فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

«نهاية تفسير سورة الفلق»

---

(۱) التفسير الكبير ۳۲/ ۱۹۶.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۳

۱۱۴. سورة الناس

محتوى السورة: الإنسان معرض دائماً لوساوس الشيطان، وشياطين الجن والإنس يسعون دائماً للنفوذ فى قلبه وروحه، ومقام الإنسان فى العلم مهما ارتفع، ومكانته فى المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليبعدوه عن جادة الحق. وليبيدوا العالم بفساد العالِم.

هذه السورة تأمر النبى صلى الله عليه و آله باعتباره القدوة والاسوة أن يستعيذ باللَّه من شرّ الموسوسين.

محتوى هذه السورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يدوران حول الإستعاذة باللَّه من الشرور والآفات، مع فارق أنّ سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، وهذه السورة تركز على شرّ (الوسواس الخناس).

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الفضل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقعد جبرائيل عليه السلام عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرائيل بقل أعوذ بربّ الفلق وميكائيل بقل أعوذ بربّ الناس».

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۴

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِكِ النَّاسِ (۲) إِلهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (۴) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶) بربّ الناس أعوذ: فى هذه السورة يتجه الخطاب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باعتباره الاسوة والقدوة: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ».

يلاحظ أنّ الآيات ركزت على ثلاث من صفات اللَّه سبحانه هى (الربوبية والمالكية والالوهية) وترتبط كلّها إرتباطاً مباشراً بتربية الإنسان ونجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الإستعاذة باللَّه ليس طبعاً ترديد الإستعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلّ وعلا فى الفكر والعقيدة والعمل أيضاً، مبتعداً عن الطرق الشيطانية والأفكار المضللة الشيطانية، والمناهج والمسالك الشيطانية والمجالس والمحافل الشيطانية، ومتجهاً على طريق المسيرة الرحمانية، وإلّا فإنّ الإنسان الذى أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءة هذه السورة ولا تكرار الفاظ الإستعاذة باللسان.

على المستعيذ الحقيقى أن يقرن قوله «ربّ الناس» بالإعتراف بربوبية اللَّه تعالى، وبالإنضواء تحت تربيته؛ وأن يقرن قوله «ملك الناس» بالخضوع لمالكيته، وبالطاعة التامة لأوامره؛ وأن يقرن قوله: «إله الناس» بالسير على طريق عبوديته، وتجنب عبادة غيره.

ومن كان مؤمناً بهذه الصفات الثلاث؛ وجعل سلوكه منطلقاً من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون فى مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثة تشكل فى الواقع ثلاثة دروس تربوية هامّة ... ثلاث سبل وقاية ...

وثلاث طرق نجاة من شرّ الموسوسين، إنّها تؤمن على مسيرة الإنسان من الأخطار.

«مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ».

«الوسواس»: أصلها- كما يقول الراغب فى المفردات- صوت الحُلى (اصطكاك حلية بحلية)، ثم اطلق على أى صوت خافت، ثم على ما يخطر فى القلب من أفكار وتصورات سيئة، لأنّها تشبه الصوت الباهت الذى يوسوس فى الاذن.

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۵

«الوسواس»: مصدر، ويأتى بمعنى اسم الفاعل بمعنى الموسوس، وهى فى الآية بهذا المعنى.

«الخنّاس»: صيغة مبالغة من الخنوس وهو التراجع، لأنّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم اللَّه؛ والخنوس له معنى الإختفاء أيضاً، لأن التراجع يعقبه الإختفاء عادة.

فقوله سبحانه: «مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ». أى: أعوذ باللَّه من شرّ الموسوس ذى الصفة الشيطانية الذى يهرب ويختفى من ذكر اسم اللَّه.

عمل الشيطان هو التزيين، واخفاء الباطل تحت طلاء الحق، والكذب فى قشر من الصدق، والذنب فى لباس العبادة، والضلال خلف ستار الهداية.

وبإيجاز، الموسوسون متسترون، وطرقهم خفية، وفى هذا تحذير لكل سالكى طريق اللَّه أن لا يتوقعوا رؤية الشياطين فى صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكهم على شكله المنحرف.

أبداً ... فهم موسوسون خناسون ... وعملهم الحيلة والمكر والخداع والتظاهر والرياء وإخفاء الحقيقة.

جملة «مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» تنبيه على حقيقة هامّة هى إنّ «الوسواس الخناس» لا ينحصر وجوده فى مجموعة معينة، ولا فى فئة خاصة، بل هو موجود فى الجن والإنس ... فى كل جماعة وفى كل ملبس، فلابدّ من الحذر منه أينما كان، والإستعاذة باللَّه منه فى كل أشكاله وصوره.

أصدقاء السوء، والجلساء المنحرفون، وأئمة الظلم والضلال، والولاة الجبابرة الطواغيت، والكتاب والخطباء الفاسدون، والمدارس الإلحادية والإلتقاطية المخادعة، ووسائل الإعلام المزوّرة الملفّقة، كلّها هى وأمثالها تندرج ضمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس وتتطلب من الإنسان أن يستعيذ باللَّه منها.

فى أمالى للشيخ الصدوق عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» [آل عمران: ۱۳۵] صعد إبليس جبلًا بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيّدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس:

أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئه، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم

مختصر الامثل، ج۵، ص: ۵۷۶

الإستغفار، فقال: أنت لها، فوكّله بها إلى يوم القيامة».

«نهاية تفسير سورة الناس»

اللّهمّ! احفظنا من شرّ كل وسواس خناس.

ربّنا! التآمر دقيق، والعدوّ متربّص، والمخططات خفية رهيبة، ولا نجاة منها إلّابلطفك وفضلك.

يا كريم! بفضلك وبمنّك وبنعمتك استطعت بعد ثلاثة عاماً أن ننهى هذا التفسير.

يا غفور ويا رحيم! تعلم أنّنا فى هـذه اللحظات مغمورون بفرحة ممزوجة بالشكر فنبتهل إليك ونتضـرع أن تغفر لنا زلاتنا فإنّك أرحم الراحمين.

وتقبل منّا يا ربّ هذا الجهد المتواضع بكرمك، واجعله لنا ذخراً يوم نلقاك.

وآخر دعوانا أن الحمد للّهربّ العالمين

قم- الحوزة العلميّة

أحمد- علىبابائى

۱۳ رجب ۱۴۲۷

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ-

فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جـهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةَ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شـَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتـُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنـّها لا تـُوافِی الحجمَ المتزاید و المتـّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفـِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.